Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

﴿فهرست الجزء السابع من تفسير الفخر الرازى﴾

صحيفة

٢	﴿سورة سبأ وفيها المسائل الآتية﴾
٣	المسئلة الثالثة فى بيان معنى الحكمة
٧	المسئلة الرابعة فى بيان كيفية تسخير الجبال وتسبيحها مع داود
٨	المسئلة الخامسة فى بيان المراد من قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور
١١	الكلام فى بيان المذاهب المفضية الى الشرك
٣٠	﴿سورة فاطر﴾
٣٩	﴿سورة يس وفيها المسائل الآتية﴾
٣٩	الكلام على حكمة افتتاح بعض السور ببعض حروف التهجى
٤٩	الكلام فى بيان لطائف قوله تعالى ومالى لا أعبد الذى فطرنى الآية
٥٨	الكلام على نبذة من علم الهيئة
٦٠	المسئلة الثالثة فى بيان الخلاف فى أن السماء هل هى مبسوطة أو مستديرة
٦١	المسئلة الرابعة فى بيان نبذة من علم الهيئة
٦٦	المسئلة الثالثة فى بيان مباحث لغوية ومعنوية فى لفظة ماوان
٧٣	المسئلة الرابعة فى بيان المراد من مخالفة الشيطان وعدمها
٧٤	المسئلة الاولى فى بيان سبب حصول العداوة بين الشيطان والانسان
٧٦	الكلام فى بيان لطائف لفظية ومعنوية فى قوله تعالى اليوم نختم على أفواههم
٧٩	الكلام فى بيان لطيفة غريبة فى قوله تعالى فاذا هو خصيم مبين
٨١	الكلام فى بيان استدلال المعتزلة على أن المعدوم شئ والجواب عنه
٨٢	﴿سورة الصافات وفيها المسائل الآتية﴾
٨٣	المسئلة الثانية فى بيان المراد من الاشياء الثلاثة المقسم بها فى هذه السورة
٨٦	المسئلة الثانية فى بيان نبذة من علم الهيئة
٩٧	المسئلة الرابعة فى بيان احتجاج أهل السنة على أن الهدى والضلال من الله تعالى
١٠٥	المسئلة الثانية فى بيان حكاية أقوال الناس فى الذبح
١٠٧	المسئلة السابعة فى بيان حكمة مشاورة ابراهيم مع ولده فى الذبح وفى كيفية الذبح
١١٠	المسئلة الثانية فى بيان قصة يونس عليه السلام
١١٤	المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على انه لا تأثير لاغواء الشيطان
١١٦	﴿سورة ص وفيها المسائل الآتية﴾
١٣٢	المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال على صحة الحشر والنشر
١٣٦	الكلام فى بيان المراد من فتنة سليمان عليه السلام
١٤٧	المسئلة الرابعة فى بيان الرد على من يثبت لله تعالى الجوارح
١٤٩	الكلام فى بيان ان النار أشرف أم الطين
١٥٣	﴿سورة الزمر وفيها المسائل الآتية﴾
١٥٣	المسئلة الثانية فى بيان احتجاج القائلين بحدوث القرآن والجواب عنه
١٩٤	﴿سورة المؤمن وفيها المسائل الآتية﴾
٢٠٣	المسئلة الاولى فى بيان استدلال أكثر العلماء على اثبات عذاب القبر
٢٠٨	المسئلة الثانية فى بيان أصل عظيم من أصول الفقه
٢١٨	المسئلة الرابعة فى بيان حكاية تاريخية

صحيفه

٢١٩ الكلام فى بيان حقارة الدنيا وكمال حال الآخرة
٢٢١ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج أهل السنة على اثبات عذاب القبر
٢٢٨ الكلام فى بيان دلائل وجود الله وقدرته
٢٣٣ ﴿سورة حم السجدة وفيها المسائل الآتية﴾
٢٣٣ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج القائلين بخلق القرآن والجواب عنه
٢٣٣ المسئلة الخامسة فى بيان أقسام فضائل اللغات
٢٤٣ المسئلة الثانية فى استدلال المنجمين على أن بعض الايام يكون نحسا وبعضها سعدا
٢٤٦ المسئلة الثانية فى بيان استدلال أهل السنة على انه تعالى يريد الكفر من الكافر
٢٥٠ المسئلة الثانية فى بيان مراتب الدعوة الى الله تعالى
٢٥٩ ﴿سورة شورى وفيها المسائل الآتية﴾
٢٦١ الكلام فى بيان أقسام الموجودات
٢٦٣ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج نفاة القياس على قولهم والجواب عنه
٢٦٤ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج علماء التوحيد على أن الله ليس جسما مركبا من الاعضاء
٢٨١ المسئلة الثانية فى بيان أصل كبير من أصول الفقه
٢٨٧ المسئلة الرابعة فى بيان اختلافهم فى حقيقة كلام الله تعالى
٢٩٠ ﴿سورة الزخرف﴾
٢٩٨ المسئلة الثانية فى بيان الاستدلال على ابطال القول بالتقليد
٣١٥ ﴿سورة الدخان﴾
٣١٥ المسئلة الخامسة فى بيان اختلافهم فى الليلة المباركة
٣٢٦ ﴿سورة الجاثية﴾
٣٣٧ ﴿سورة الاحقاف﴾
٣٥٧ ﴿سورة القتال﴾
٣٨١ ﴿سورة الفتح﴾
٤٠٠ ﴿سورة الحجرات﴾
٤٢٣ ﴿سورة ق﴾
٤٥٣ ﴿سورة الذاريات﴾
٤٥٣ المسئلة الاولى فى بيان حكمة القسم بالاشياء المقسم بها فى أوائل السور
٤٧٦ الكلام فى بيان فوائد قوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون
٤٨٠ ﴿سورة الطور﴾
٤٨٣ المسئلة الرابعة فى بيان بحث عظيم فى معنى الزمان والمكان
٥٠٤ ﴿سورة النجم﴾
٥٣١ المسئلة الرابعة فى بيان الفرق بين الفواحش والكبائر
٥٤٣ ﴿سورة القمر﴾
٥٥٤ المسئلة الثانية فى بيان الفرق بين الاسماء المشتقة وبين أسماء الاجناس
٥٥٩ الكلام فى بيان لطيفة نحوية تتعلق باسم الفاعل
٥٦٩ المسئلة الاولى فى بيان أن القدرية من هم

﴿تمت﴾

الجزء السابع من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير
الكبير للامام محمد الرازى فخر الدين
ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشتهر بخطيب الرى
نفع الله به المسلمين
آمين

م

(وبهامشه تفسير العلامة أبى السعود)

(الطبعة الاولى)
(بالمطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر المحمية)
(سنة ١٣٠٨ هجرية)

893.1K84
DR14
v.1

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿سورة سبا مكية وقيل فيها آية مدنية وهي ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك الآية وهى أربع وقيل خمس وخمسون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الارض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾ السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها فى النصف الاول وهما الانعام والكهف وسورتان فى الاخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهى فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الاول ومع النصف الاخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على احصائها منحصرة فى قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فان الله تعالى خلقنا أولا برحمته وخلق لنا مانقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالاعادة فانه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا مايدوم فلنا حالتان الابتداء والاعادة وفى كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال فى النصف الاول الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور اشارة الى الشكر على نعمة الايجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه هو الذى خلقكم من طين اشارة الى الايجاد الاول وقال فى السورة الثانية وهى الكهف الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما اشارة الى الشكر على نعمة الابقاء فان الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولوقعت المنازعات فى المشتهيات وأدى الى التقاتل والتفانى ثم قال فى هذه السورة الحمد لله اشارة الى نعمة الايجاد الثانى ويدل عليه قوله تعالى وله الحمد فى الآخرة وقال فى الملائكة الحمد لله اشارة الى نعمة الابقاء ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا والملائكة بأجمعهم لايكونون رسلا الايوم القيامة يرسلهم الله مسلمين على المسلمين كما قال تعالى وتتلقاهم الملائكة وقال تعالى عنهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى الحمد لله رب العالمين اشارة الى النعمة العاجلة وقوله مالك يوم الدين اشارة الى النعمة الآجلة قرئت فى الافتتاح وفى الاختتام ثم فى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) الحمد شكر والشكر على النعمة والله تعالى جعل مافى السموات ومافى الارض لنفسه

بقوله

(انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) استئناف جى به فى أواخر الاحكام السابقة تقريرا لها وتأكيدا لوجوب مراعاتها وتكميلا لها ببيان بعض آخر من جنسها وانما ذكر الايمان بالله ورسوله فى حيز الصلة للموصول الواقع خبرا للمبتدا مع تضمنه له قطعا تقريرا لما قبله وتمهيدا لما بعده وايذانا بانه حقيق بان يجعل قرينا للايمان بهما منتظما فى سلكه فقوله تعالى (واذا كانوا معه على أمر جامع) الخ معطوف على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة أى انما الكاملون فى الايمان الذين آمنوا بالله ورسوله من صميم قلوبهم وأطاعوهما فى جميع الاحكام التى من جملتها مافصل من قبل من الاحكام المتعلقة بعامة أحوالهم المطردة فى الوقوع وأحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق كما اذا كانوا معه عليه الصلاة والسلام على أمر مهم يجب اجتماعهم فى شأنه كالجمعة والاعياد والحروب وغيرها من الامور الداعية الى اجتماع أولى الآراء والتجارب ووصف الامر بالجمع للمبالغة وقرئ أمر جميع (لم يذهبوا) أى من المجمع مع كون ذلك الامر مما لايوجب حضورهم لامحالة كما عند اقامة الجمعة ولقاء العدو بل يسوغ التخلف عنه (حتى يستأذنوه) عليه الصلاة والسلام فى الذهاب لا على أن نفس الاستئذان غاية لعدم الذهاب بل الغاية هى الاذن المنوط برأيه عليه الصلاة والسلام والاقتصار على ذكره لانه الذى يتم من قبلهم وهو المعتبر فى كمال الايمان لا الاذن ولا الذهاب المترتب عليه واعتباره فى ذلك لما أنه

بقوله له مافى السموات ومافى الارض ولم يبين أنه لماذا حتى يجب الشكر نقول جوابا عنه الحمد يفارق الشكر فى معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وان لم ينعم على الحامد أصلا فان الانسان يحسن منه أن يقول فى حق عالم لم يجتمع به أصلا انه عالم عامل بارع كامل فيقال له انه يحمد فلانا ولا يقال انه يشكره الا اذا ذكر نعمه أو ذكره على نعمه فالله تعالى محمود فى الازل لاتصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور لايزال على ما أبدى من الكرم وأسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفى ذكر العظمة وفى كونه مالك مافى السموات ومافى الارض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله له مافى السموات ومافى الارض يوجب شكرا أتم مما يوجبه قوله تعالى خلق لكم مافى الارض وذلك لان مافى السموات والارض اذا كان لله ونحن المنتفعون به لاهو يوجب ذلك شكرا لا يوجبه كون ذلك لنا (المسئلة الثانية) قد ذكرتم أن الحمد ههنا اشارة الى النعمة التى فى الآخرة فلم ذكر الله السموات والارض فنقول نعم الآخرة غير مرئية فذكر الله النعم المرئية وهى مافى السموات ومافى الارض ثم قال وله الحمد فى الآخرة ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال وهو الحكيم الخبير اشارة الى أن خلق هذه الاشياء بالحكمة والخبر والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه ايجاد أمثال هذه مرة أخرى فى الآخرة (المسئلة الثالثة) الحكمة هى العلم الذى يتصل به الفعل فان من يعلم أمرا ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم ومن يأتى بأمر عجيب على سبيل الاتفاق من غير علم لا يقال له حكيم فالفاعل الذى فعله على وفق العلم هو الحكيم والخبير هو الذى يعلم عواقب الامور وبواطنها فقوله حكيم أى فى الابتداء يخلق كما ينبغى وخبير أى بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر الى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم فى الابتداء خبير فى الانتهاء * ثم بين الله تعالى كما أخبره بقوله ﴿يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور﴾ ما يلج فى الارض من الحبة والاموات ويخرج منها من السنابل والاحياء وما ينزل من السماء من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب ومنها الارواح ومنها الاعمال الصالحة لقوله والعمل الصالح يرفعه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قدم ما يلج فى الارض على ما ينزل من السماء لان الحبة تبذر أولا ثم تسقى ثانيا (المسئلة الثانية) قال وما يعرج فيها ولم يقل يعرج اليها اشارة الى قبول الاعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لان كلمة الى للغاية فلو قال وما يعرج اليها لفهم الوقوف عند السموات فقال وما يعرج فيها ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال فى الكلم الطيب اليه يصعد الكلم الطيب لان الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول اليه وأما السماء فهى دنيا وفوقها المنتهى (المسئلة الثالثة) قال وهو الرحيم الغفور رحيم بالانزال حيث ينزل الرزق من السماء غفور عندما تعرج اليه الارواح والاعمال فرحم أولا بالانزال وغفر ثانيا عند العروج * ثم بين ان هذه النعمة التى يستحق الله بها الحمد وهى نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾ ثم رد عليهم وقال ﴿قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم﴾ أخبر باتيانها وأكده باليمين قال الزمخشرى رحمه الله لو قال قائل كيف يصح التأكيد باليمين مع انهم يقولون لا رب وان كانوا يقولون به لكن المسئلة الاصولية لا تثبت باليمين وأجاب عنه بأنه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبيان كونه دليلا هو أن المسىء قد يبقى فى الدنيا مدة مديدة فى اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم فى دار الدنيا فى الآلام الشديدة مدة ويموت فيها فلولا دار تكون الاجزية فيها لكان الامر على خلاف الحكمة والذى أقوله أنا هو أن الدليل المذكور فى قوله عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة أظهر وذلك لانه اذا كان عالما بجميع الاشياء يعلم أجزاء الاحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة وعلى هذا فقوله تعالى فى السموات ولا فى الارض فيه لطيفة وهى ان الانسان له جسم وروح والاجسام أجزاؤها فى الارض والارواح فى السماء فقوله لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات اشارة الى علمه بالارواح وقوله

كالمصداق لصحته والمميز للمخلص فيه عن المنافق فان ديدنه التسلل للفرار ولتعظيم مافى الذهاب بغير اذنه عليه الصلاة والسلام من الجناية وللتنبيه على ذلك عقب بقوله تعالى (ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) فقضى بان المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم فى الاول بان الكاملين فى الايمان هم الجامعون بين الايمان بهما وبين الاستئذان وفى أولئك تفخيم شأن المستأذنين مالا يخفى (فاذا استأذنوك) بيان لما هو وظيفته عليه الصلاة والسلام فى هذا الباب اثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين وأن الاذن عند الاستئذان ليس بأمر محتوم بل هو مفوض الى رأيه عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى بعد ما تحقق أن الكاملين فى الايمان هم المستأذنون فاذا استأذنوك (لبعض شأنهم) أى لبعض أمرهم المهم وخطبهم الملم (فأذن لمن شئت منهم) لما علمت فى ذلك من حكمة ومصلحة (واستغفر لهم الله) فان الاستئذان وان كان لعذر قوى لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة (ان الله غفور) مبالغ فى مغفرة فرطات العباد (رحيم) مبالغ فى افاضة آثار الرحمة عليهم والجملة تعليل للمغفرة الموعودة فى ضمن الامر بالاستغفار لهم (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم) استئناف مقرر لمضمون ما قبله والالتفات لابراز مزيد الاعتناء بشأنه أى لا تجعلوا دعوته عليه الصلاة والسلام اياكم فى الاعتقاد والعمل بها (كدعاء بعضكم بعضا) أى لا تقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام اياكم على دعاء بعضكم

ولا فى الارض اشارة الى علمه بالاجسام واذا علم الارواح والاشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد فى المعاد وقوله ولا أصغر من ذلك اشارة الى أن ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الاصغر منه لا يعزب وعلى هذا فلو قال قائل فأى حاجة الى ذكر الاكبر فان من علم الاصغر من الذرة لابد من ان يعلم الاكبر فنقول لما كان الله تعالى أراد بيان اثبات الامور فى الكتاب فلو اقتصر على الاصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان أما الاكبر فلا ينسى فلا حاجة الى اثباته فقال الاثبات فى الكتاب ليس كذلك فان الاكبر أيضا فيه مكتوب ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر ان جمع ذلك واثباته للجزاء فقال ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ذكر فيهم أمرين الايمان والعمل الصالح وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم فالمغفرة جزاء الايمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله عليه السلام فيما أخبرنا تاج الدين عيسى بن أحمد بن الحاكم البندهى قال أخبرنى والدى عن جدى عن محيي السنة عن عبد الواحد المليحى عن أحمد بن عبد الله النعيمى عن محمد بن يوسف الفربرى عن محمد بن اسمعيل البخارى يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن ذرة من ايمان والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فان من عمل لسيد كريم عملا فعند فراغه من العمل لابد من أن ينعم عليه انعاما ويطعمه طعاما ووصف الرزق بالكريم قد ذكرنا انه بمعنى ذى كرم أو مكرم أو لانه يأتى من غير طلب بخلاف رزق الدنيا فانه ما لم يطلب ويتسبب فيه لا يأتى وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله أولئك لهم مغفرة ورزق كريم يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون لهم ذلك جزاء فيوصله اليهم لقوله ليجزى الذين آمنوا (وثانيهما) ان يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشئ آخر لان قوله أولئك لهم جملة تامة اسمية وقوله تعالى ليجزى الذين آمنوا جملة فعلية مستقلة وهذا أبلغ فى البشارة من قول القائل ليجزى الذين آمنوا رزقا (المسئلة الثانية) اللام فى ليجزى للتعليل معناه الآخرة للجزاء فان قال قائل فاوجه المناسبة فنقول الله تعالى أراد أن لا ينقطع ثوابه فجعل للمكلف دارا باقية ليكون ثوابه واصلا اليه دائما أبدا وجعل قبلها دارا فيها الآلام والاسقام وفيها الموت ليعلم المكلف مقدار ما يكون فيه فى الآخرة اذا نسبه الى ما قبلها واذا نظر اليه فى نفسه (المسئلة الثالثة) ميز الرزق بالوصف بقوله كريم ولم يصف المغفرة لان المغفرة واحدة هى للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقوم والحميم ومنه الفواكه والشراب الطهور فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها ۞ ثم قال تعالى (والذين سعوا فى آياتنا معجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين وقوله والذين سعوا فى آياتنا أى بالابطال ويكون معناه الذين كذبوا بآياتنا وحينئذ يكون هذا فى مقابلة ما تقدم لان قوله تعالى آمنوا معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فان قيل من أين علم كون سعيهم فى الابطال مع ان المذكور مطلق السعى فنقول فهم من قوله تعالى معجزين وذلك لانه حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز وبالسعى فى التقرير والتبليغ لا يكون الساعى معجزا لان القرآن وآيات الله معجزة فى نفسها لا حاجة لها الى أحد وأما المكذب فهو آت باخفاء آيات بينات فيحتاج الى السعى العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به وقيل بأن المراد من قوله معجزين أى ظانين انهم يفوتون الله وعلى هذا يكون كون الساعى ساعيا بالباطل فى غاية الظهور لهم عذاب فى مقابلة لهم رزق (وفى الآية لطائف * الاولى) قال ههنا لهم عذاب ولم يقل يجزيهم الله وقد تقدم القول منا أن قوله تعالى ليجزى الذين آمنوا يحتمل أن يكون الله يجزيهم بشئ آخر وقوله أولئك لهم مغفرة اخبار عن مستحقهم المعد لهم وعلى الجنة فاحتمال الزيادة هناك قائم نظرا الى قوله ليجزى وههنا لم يقل ليجازيهم فلم يوجد ذلك (الثانية) قال هناك لهم مغفرة ثم زادهم فقال ورزق كريم وههنا لم يقل الا لهم عذاب من رجز أليم والجواب تقدم فى مثله (الثالثة) قال هناك لهم مغفرة ورزق كريم ولم يقله بمن التبعيضية فلم يقل لهم نصيب من رزق ولا رزق من جنس كريم وقال ههنا لهم عذاب من رجز أليم بلفظة صالحة للتبعيض وكل ذلك اشارة الى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة اليها والرجز قيل أسوأ العذاب وعلى هذا من لبيان الجنس كقول القائل خاتم من فضة وفى الاليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على أن الاليم وصف العذاب

كانه

بعضا فى حال من الاحوال وأمر من الامور التى من جملتها المساهلة فيه والرجوع عن مجلسه عليه الصلاة والسلام بغير استئذان فان ذلك من المحرمات وقيل لا تجعلوا دعاءه عليه الصلاة والسلام ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده أخرى فان دعاءه مستجاب لا مرد له عند الله عز وجل وتقرير الجملة حينئذ لما قبلها اما من حيث ان استجابته تعالى لدعائه عليه الصلاة والسلام مما يوجب امتثالهم بأوامره عليه الصلاة والسلام ومتابعتهم له فى الورود والصدور أكمل ايجاب واما من حيث انها موجبة للاحتراز عن التعرض لسخطه عليه الصلاة والسلام المؤدى الى ما يوجب هلاكهم من دعائه عليه الصلاة والسلام عليهم وأما ما قيل من ان المعنى لا تجعلوا نداءه عليه الصلاة والسلام كنداء بعضكم بعضا باسمه ورفع الصوت والنداء من وراء الحجرات ولكن بلقبه المعظم مثل يا رسول الله يا نبى الله مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت فلا يناسب المقام فان قوله تعالى (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم) الخ وعيد لمخالفى أمره عليه الصلاة والسلام فيما ذكر من قبل فتوسيط ماذكر بينهما مما لا وجه له والتسلل الخروج من البين على التدريج والخفية وقد للتحقيق كما أن رب تجيء للتكثير حسبما بين فى مطلع سورة الحجر أى يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلا قليلا على خفية (لواذا) أى ملاوذة بان يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج أو بأن يلوذ بمن يخرج بالاذن اراءة أنه من أتباعه وقرئ بفتح اللام وانتصابه على الحالية من

كانه قال عذاب أليم من أسوأ العذاب والجر على انه وصف للرجز والرفع أقرب نظرا الى المعنى والجر نظرا الى اللفظ فان قيل فلم تنحصر الاقسام فى المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعى المعجز لجواز أن يكون أحد مؤمنا ليس له عمل صالح أو كافر متوقف فنقول اذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم ان المؤمن قريب الدرجة ممن تقدم أمره والكافر قريب الدرجة ممن سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم وان لم يكن فى المكرامة مثل رزق الذى عمل صالحا وللكافر الغير المعاند عذاب وان لم يكن من أسوأ الانواع التى للمكذبين المعاندين ﴿ ثم قال تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد) لما بين حال من يسعى فى التكذيب فى الآخرة بين حاله فى الدنيا وهو أن سعيه باطل فان من أوتى علما لا يغتر بتكذيبه ويعلم أن ما أنزل الى محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق وقوله هو الحق يفيد الحصر أى ليس الحق الا ذلك وأما قول المكذب فباطل بخلاف ما اذا تنازع خصمان والنزاع لفظى فيكون قول كل واحد حقا فى المعنى وقوله تعالى ويهدى الى صراط العزيز الحميد يحتمل أن يكون بيانا لكونه هو الحق فانه هاد الى هذا الصراط ويحتمل أن يكون بيانا لفائدة أخرى وهى انه مع كونه حقا هاديا والحق واجب القبول فكيف اذا كان فيه فائدة فى الاستقبال وهى الوصول الى الله وقوله العزيز الحميد يفيد رغبة ورهبة فانه اذا كان عزيزا يكون ذا انتقام ينتقم من الذى يسعى فى التكذيب واذا كان حميدا يشكر سعى من يصدق ويعمل صالحا فان قيل كيف قدم الصفة التى للهيبة على الصفة التى للرحمة مع انك أبدا تسعى فى بيان تقديم جانب الرحمة نقول كونه عزيزا تام الهيبة شديد الانتقام يقوى جانب الرغبة لان رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك فالعزة كما تخوف ترجى أيضا وكما ترغب عن التكذيب ترغب فى التصديق ليحصل القرب من العزيز ﴿ ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد) وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما بين انهم أنكروا الساعة ورد عليهم بقوله قل بلى وربى لتأتينكم وبين ما يكون بعد اتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب على السيآت بين حال المؤمن والكافر بعد قوله قل بلى وربى لتأتينكم فقال المؤمن هو الذى يقول الذى أنزل اليك الحق وهو يهدى وقال الكافر هو الذى يقول هو باطل ومن غاية اعتقادهم وعنادهم فى ابطال ذلك قالوا على سبيل التعجب هل ندلكم على رجل منكم ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد وهذا كقول القائل فى الاستبعاد جاء رجل يقول ان الشمس تطلع من المغرب الى غير ذلك من المحالات ﴿ ثم قال تعالى (أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) هذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تمام قول الذين كفروا أولا أعنى هو من كلام من قال هل ندلكم ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال هل ندلكم كان السامع لما سمع قول القائل هل ندلكم على رجل قال له أهو يفترى على الله كذبا ان كان يعتقد خلافه أم به جنة جنون ان كان لا يعتقد خلافه (وفى هذا لطيفة) وهى ان الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه ولهذا قسم ولم يجزم بأنه مفتر بل قال مفتر أو مجنون احترازا من أن يقول قائل كيف يقول بأنه مفتر مع انه جاز أن يظن أن الحق ذلك فظن الصدق يمنع تسمية القائل مفتريا وكاذبا فى بعض المواضع ألا ترى أن من يقول جاء زيد فاذا تبين انه لم يجئ وقيل له كذبت يقول ما كذبت وانما سمعت من فلان أنه جاء وظننت انه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن فهم احترزوا عن تبين كذبهم فكل عاقل ينبغى أن يحترز عن ظهور كذبه عند الناس ولا يكون العاقل أدنى درجة من الكافر ثم انه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب فى مقابلة قولهم أفترى على الله كذبا وقوله والضلال البعيد فى مقابلة قولهم به جنة وكلاهما مناسب أما العذاب فلان نسبة الكذب الى الصادق مؤذية لانه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه الى الكذب وأما الجنون فلان نسبة الجنون الى العاقل دونه فى الايذاء لانه لا يشهد عليه بأنه يعذب ولكن ينسبه الى عدم الهداية فبين انهم هم الضالون ثم وصف ضلالهم بالبعد لان من يسمى المهتدى ضالا يكون هو الضال فمن يسمى الهادى ضالا يكون أضل والنبى عليه الصلاة والسلام كان هادى كل مهتد ﴿ ثم قال تعالى (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم

ضمير يتسللون أى ملاوذين أو على أنه مصدر مؤكد لفعل مضمر هو الحال فى الحقيقة أى يلوذون لواذا والفاء فى قوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) لترتيب الحذر أو الامر به على ما قبلها من علمه تعالى بأحوالهم فانه مما يوجب الحذر البتة أى يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سمتا خلاف سمته وعن اما لتضمنه معنى الاعراض أو حمله على معنى يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الامر اذا صد عنه دونه وحذف المفعول لما أن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى لانه الآمر حقيقة أو للرسول عليه الصلاة والسلام لانه المقصود بالذكر (أن تصيبهم فتنة) أى محنة فى الدنيا (أو يصيبهم عذاب أليم) أى فى الآخرة وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع واعادة الفعل صريحا للاعتناء بالتهديد والتحذير واستدل به على ان الامر للايجاب فان ترتيب العذابين على مخالفته كما يعرب عنه التحذير عن اصابتهما يوجب وجوب الامتثال به حتما (ألا ان لله ما فى السموات والارض) من الموجودات بأسرها خلقا وملكا وتصرفا ايجادا واعداما بدءا واعادة (قد يعلم ما أنتم عليه) أيها المكلفون من الاحوال والاوضاع التى من جملتها الموافقة والمخالفة والاخلاص والنفاق (ويوم يرجعون اليه) عطف على ما أنتم عليه أى يعلم يوم يرجع المنافقون المخالفون للامر اليه تعالى للجزاء والعقاب وتعليق علمه تعالى بيوم رجوعهم لا برجعهم لزيادة تحقيق علمه تعالى بذلك وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع شئ مستلزم للعلم بوقوعه على

من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازيا على السيآت والحسنات ذكر دليلا آخر وذكر فيه تهديدا أما الدليل فقوله السماء والارض فانهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مرارا وكما قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ويدلان على الحشر لانهما يدلان على كمال قدرته ومنها الاعادة وقد ذكرناه مرارا وقال تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وأما التهديد فبقوله ان نشأ نخسف بهم الارض يعنى نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف ۞ ثم قال تعالى (ان فى ذلك لآية لكل عبد منيب) أى لكل من يرجع الى الله ويترك التعصب * ثم ان الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جملتهم داود كما قال تعالى عنه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب وبين ما آتاه الله على انابته فقال (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى منا اشارة الى بيان فضيلة داود عليه السلام وتقريره هو ان قوله ولقد آتينا داود منا فضلا مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل آتى الملك زيدا خلعة فاذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد انه كان من خاص ما يكون له فكذلك ايتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض ومثل هذا قوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان فان رحمة الله واسعة تصل الى كل أحد فى الدنيا لكن رحمته فى الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال يبشرهم ربهم برحمة منه (المسئلة الثانية) فى قوله يا جبال أوبى معه قال الزمخشرى يا جبال بدل من قوله فضلا معناه آتيناه فضلا قولنا يا جبال أو من آتينا ومعناه قلنا يا جبال (المسئلة الثالثة) قرئ أوبى بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبى من الاوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع وقيل بأن معناه سيرى معه وفى قوله يسبحن قالوا هو من السباحة وهى الحركة المخصوصة (المسئلة الرابعة) قرئ والطير بالنصب حملا على محل المنادى والطير بالرفع حملا على لفظه (المسئلة الخامسة) لم يكن الموافق له فى التأويب منحصرا فى الجبال والطير ولكن ذكر الجبال لان الصخور للجمود والطير للنفور تستبعد منهما الموافقة فاذا وافقه هذه الاشياء فغيرها أولى ثم ان من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التى هى أشد قسوة من الحجارة (المسئلة السادسة) قوله وألنا له الحديد عطف والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر فى قوله يا جبال تقديره قلنا يا جبال أوبى وألنا ويحتمل أن يكون عطفا على آتينا تقديره آتيناه فضلا وألنا له (المسئلة السابعة) ألان الله له الحديد حتى كان فى يده كالشمع وهو فى قدرة الله يسير فانه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذى يكتب به فاى عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله قيل انه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال فألان له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهى الدروع وانما اختار الله له ذلك لانه وقاية للروح التى هى من أمره وسعى فى حفظ الآدمى المكرم عند الله من القتل فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما ۞ ثم قال تعالى (أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا انى بما تعملون بصير) قيل ان أن ههنا للتفسير فهى مفسرة بمعنى أى اعمل سابغات وهو تفسير ألنا وتحقيقه لان يعمل بمعنى ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه ألنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهى الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف وقدر فى السرد قال المفسرون أى لا تغلظ المسامير فتتسع الثقب ولا توسع الثقب فتتقلقل المسامير فيها ويحتمل أن يقال السرد هو عمل الزرد وقوله وقدر فى السرد أى الزرد اشارة الى انه غير مأمور به أمر ايجاب انما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقى الايام والليالى للعبادة فقدر فى ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب ويدل عليه قوله تعالى واعملوا صالحا أى لستم مخلوقين الا للعمل الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه والكسب قدروا فيه ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله انى بما تعملون بصير وقد ذكرنا مرارا ان من يعمل لملك شغلا ويعلم انه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيبا آخر وهو سليمان كما قال تعالى وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ۞ وذكر ما استفاده هو بالانابة فقال (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن

أبلغ وجه وآكده وفيه اشعار بأن علمه تعالى لنفس رجوعهم من الظهور بحيث لا يحتاج الى البيان قطعا ويجوز أن يكون الخطاب أيضا خاصا بالمنافقين على طريقة الالتفات وقرئ يرجعون مبنيا للفاعل (فينبئهم بما عملوا) من الاعمال السيئة التى من جملتها مخالفة الامر فيرتب عليه ما يليق به من التوبيخ والجزاء وقد مر وجه التعبير عن الجزاء بالتنبئة فى قوله تعالى انما بغيكم على أنفسكم الآية (والله بكل شئ عليم) لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النور أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى والله سبحانه وتعالى أعلم

(سورة الفرقان مكية وهى سبع وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(تبارك الذى نزل الفرقان) البركة النماء والزيادة حسية كانت أو معنوية وكثرة الخير ودوامه أيضا ونسبتها الى الله عز وجل على المعنى الاول وهو الاليق بالمقام باعتبار تعاليه عما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله التى من جملتها تنزيل القرآن الكريم المعجز الناطق بعلو شأنه تعالى وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية وصيغة التفاعل للمبالغة فيما ذكر فان ما لا يتصور نسبته اليه سبحانه حقيقة من الصيغ كالتكبر ونحوه لا تنسب اليه تعالى الا باعتبار غاياتها وعلى المعنى الثانى باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته لا سيما على الانسان من فنون الخيرات التى من جملتها تنزيل

من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ ولسليمان الريح بالرفع وبالنصب وجه الرفع ولسليمان الريح مسخرة أوسخرت لسليمان الريح ووجه النصب ولسليمان سخرنا الريح وللرفع وجه آخر وهو أن يقال معناه ولسليمان الريح كما يقال لزيد الدار وذلك لان الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد (المسئلة الثانية) الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفا لجملة اسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز أو لا يحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ماذكرنا لداود ولسليمان الريح وأما على النصب فعلى قولنا وألنا له الحديد كأنه قال وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح (المسئلة الثالثة) المسخر لسليمان كانت ريحا مخصوصة لا هذه الرياح فانها المنافع عامة فى أوقات الحاجات ويدل عليه انه لم يقرأ الا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح (المسئلة الرابعة) قال بعض الناس المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود انها كانت تسبح كما يسبح كل شئ وان من شئ الا يسبح بحمده وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح ومن تسخير الريح انه راض الخيل وهى كالريح وقوله غدوها شهر ورواحها شهر ثلاثون فرسخا لان من يخرج للتفرج فى أكثر الامر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك وقوله فى حق داود وألنا له الحديد وقوله فى حق سليمان وأسلنا له عين القطر انهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أى اناسا أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده وعدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة (المسئلة الخامسة) أقول قوله تعالى وسخرنا مع داود الجبال وقوله ولسليمان الريح عاصفة لو قال قائل ما الحكمة فى ان الله تعالى قال فى الانبياء وسخرنا مع داود الجبال وفى هذه السورة قال ياجبال أوبى معه وقال فى الريح هنالك وههنا ولسليمان نقول الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها الى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب والريح لم يذكر فيها انها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لى وهو ان على قولنا أوبى معه سيرى فالجبل فى السير ليس أصلا بل هو يتحرك معه تبعا والريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها فلم يقل الريح مع سليمان بل سليمان كان مع الريح وأسلنا له عين القطر أى النحاس ومن الجن أى سخرنا له من الجن وهذا ينبئ عن ان جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء فى حق داود وثلاثة فى حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان وذلك لان الثقيل مع ما هو أخف منه اذا تحرك يسبق الخفيف الثقيل ويبقى الثقيل مكانه لكن الجبال كانت أثقل من الآدمى والآدمى أثقل من الريح فقدر الله ان سار الثقيل مع الخفيف أى الجبال مع داود على ما قلنا أوبى أى سيرى وسليمان وجنوده مع الريح الثقيل مع الخفيف أيضا والطير من جنس تسخير الجن لانهما لا يجتمعان مع الانسان الطير لنفوره من الانس والانس لنفوره من الجن فان الانسان يتقى مواضع الجن والجن يطلب أبدا اصطياد الانسان والانسان يطلب اصطياد الطير فقدر الله ان صار الطير لا ينفر من داود بل يستأنس به ويطلبه وسليمان لا ينفر من الجن بل يسخره ويستخدمه وأما القطر والحديد فتجانسهما غير خفى (وههنا لطيفة) وهى ان الآدمى ينبغى أن يتقى الجن ويجتنبه والاجتماع به يفضى الى المفسدة ولهذا قال تعالى أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم فنقول قوله تعالى من يعمل بين يديه باذن ربه اشارة الى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة (ولطيفة أخرى) وهى أن الله تعالى قال ههنا باذن ربه بلفظ الرب وقال ومن يزغ منهم عن أمرنا ولم يقل عن أمر ربه وذلك لان الرب لفظ ينبئ عن الرحمة فعندما كانت الاشارة الى حفظ سليمان عليه السلام قال ربه وعندما كانت الاشارة الى تعذيبهم قال عن أمرنا بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف وقوله تعالى نذقه من عذاب السعير فيه وجهان (أحدهما) ان الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقارع من نار فالاشارة اليه (وثانيهما) ان السعير هى ما يكون فى الآخرة فأوعدهم بما فى الآخرة من العذاب ۞ ثم قال تعالى ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ المحاريب اشارة الى الابنية الرفيعة ولهذا قال تعالى اذ تسوروا المحراب والتماثيل

القرآن المنطوى على جميع الخيرات الدينية والدنيوية والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لافادة نماء تلك الخيرات وتزايدها شيأ فشيأ وآنا فآنا بحسب حدوثها أو حدوث متعلقاتها ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وتحققها بالفعل والاشعار بالتعجب المناسب للانشاء والانباء عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها فى حق غيره تعالى ولا استعمال غيرها من الصيغ فى حقه تعالى والفرقان مصدر فرق بين الشيئين أى فصل بينهما سمى به القرآن لغاية فرقه بين الحق والباطل باحكامه أو بين المحق والمبطل باعجازه أو لكونه مفصولا بعضه من بعض فى نفسه أو فى انزاله (على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم وايراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان لتشريفه والايذان بكونه عليه الصلاة والسلام فى أقصى مراتب العبودية والتنبيه على أن الرسول لا يكون الا عبدا للمرسل ردا على النصارى (ليكون) غاية للتنزيل أى نزله عليه ليكون هو عليه الصلاة والسلام أو الفرقان (للعالمين) من الثقلين (نذيرا) أى منذرا أو انذارا مبالغة أو ليكون تنزيله انذارا وعدم التعرض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة وتقديم اللام على عاملها لمراعاة الفواصل وابراز تنزيل الفرقان فى معرض الصلة التى من حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع مع انكار الكفرة له لاجرائه مجرى المعلوم المسلم تنبيها على كمال قوة دلائله وكونه بحيث لا يكاد يجهله أحد كقوله تعالى لا ريب فيه (الذى له ملك السموات والارض) أى له خاصة دون غيره لا استقلالا ولا

مايكون فيهامن النقوش ثم لماذكر البناء الذى هو المسكن بين مايكون فى المسكن من ماعون الاكل فقال وجفان كالجواب جمع جابية وهى الحوض الكبير الذى يجبى الماء أى يجمعه وقيل كان يجتمع على جفنه واحدة ألف نفس وقدور راسيات ثابتات لاتنقل لكبرها وانما يغرف منها فى تلك الجفان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قدم المحاريب على التماثيل لان النقوش تكون فى الابنية وقدم الجفان فى الذكر على القدور مع ان القدور آلة الطبخ والجفان آلة الاكل والطبخ قبل الاكل فنقول لما بين الابنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذى عدفى تلك الدور وأشار الى الجفان لانها تكون فيه وأما القدور فلا تكون فيه ولا تحضر هناك ولهذا قال راسيات أى غير منقولات ثم لما بين حال الجفان العظيمة كان يقع فى النفس أن الطعام الذى يكون فيها فى أى شئ يطبخ فأشار الى القدور المناسبة للجفان (المسئلة الثانية) ذكر فى حق داود اشتغاله بآلة الحرب وفى حق سليمان بحالة السلم وهى المساكن والمآكل وذلك لان سليمان كان ولد داود وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة واستوى داود على الملك فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده ولان سليمان لم يقدر أحد عليه فى ظنه فتركوا الحرب معه وان حاربه أحد كان زمان الحرب يسيرا لادراكه اياه بالريح فكان فى زمانه العظمة بالاطعام والانعام (المسئلة الثالثة) لما قال عقيب قوله تعالى أن اعمل سابغات اعملوا صالحا قال عقيب ما يعمله الجن اعملوا آل داود شكرا اشارة الى ماذكرنا ان هذه الاشياء حالية لاينبغى أن يجعل الانسان نفسه مستغرقة فيها وانما الواجب الذى ينبغى أن يكثر منه هو العمل الصالح الذى يكون شكرا وفيه اشارة الى عدم الالتفات الى هذه الاشياء وقلة الاشتغال بها كما فى قوله وقدر فى السرد أى اجعله بقدر الحاجة (المسئلة الرابعة) انتصاب شكرا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون مفعولا له كقول القائل جئتك طمعا وعبدت الله رجاء غفرانه (وثانيها) أن يكون مصدرا كقول القائل شكرت الله شكرا و يكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل جلست قعودا وذلك لان العمل شكر فقوله اعملوا يقوم مقام قوله اشكروا (وثالثها) أن يكون مفعولا به كقولك اضرب زيدا كما قال تعالى واعملوا صالحا لان الشكر صالح (المسئلة الخامسة) قوله وقليل من عبادى الشكور اشارة الى ان الله خفف الامر على عباده وذلك لانه لما قال اعملوا آل داود شكرا فهم منه ان الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغى لايمكن لان الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج الى شكر آخر وهو بتوفيق آخر فدائما تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر فقال تعالى ان كنتم لاتقدرون على الشكر التام فليس عليكم فى ذلك حرج فان عبادى قليل منهم الشكور و يقوى قولنا أنه تعالى أدخل الكل فى قوله عبادى مع الاضافة الى نفسه وعبادى بلفظ الاضافة الى نفس المتكلم لم ترد فى القرآن الا فى حق الناجين كقوله تعالى يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وقوله ان عبادى ليس لك عليهم سلطان فان قيل على ماذكرتم شكر الله بتمامه لايمكن وقوله وقليل يدل على ان فى عباده من هو شاكر لانعمه نقول الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله وأما الشكر الذى يناسب نعم الله فلا قدرة عليه ولا يكلف الله نفسا الا وسعها أو نقول الشاكر التام ليس الا من رضى الله عنه وقال له يا عبدى ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك انك شاكر لانعمى بأسرها وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلف شكرها ۞ ثم قال تعالى ﴿فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين﴾ لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين انه لم ينج من الموت وانه قضى عليه الموت تنبيها للخلق على ان الموت لابد منه ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كان سليمان عليه السلام يقف فى عبادة الله ليلة كاملة و يوما تاما وفى بعض الاوقات يزيد عليه وكان له عصا يتكئ عليها واقفا بين يدى ربه ثم فى بعض الاوقات كان واقفا على عادته فى عبادته اذ توفى فظن جنوده انه فى العبادة و بقى كذلك أياما وتمادى شهورا ثم أراد الله اظهار الامر لهم فقدر ان أكلت دابة الارض عصاه فوقع وعلم حاله وقوله تعالى فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب

ولا اشترا كالسلطان القاهر والاستيلاء الباهر عليهما المستلزمان للقدرة التامة والتصرف الكلى فيهما وفيما فيهما ايجادا واعداما واحياء واماتة وأمرا ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ومحله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها أو على أنه نعت للموصول الاول أو بيان له أو بدل منه ومابينهما ليس باجنبى لانه من تمام صلته ومعلومية مضمونه للكفرة مما لاريب فيه لقوله تعالى قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ونظائره أو مدح له تعالى بالرفع أو بالنصب (ولم يتخذ ولدا) كما زعم الذين يقولون فى حق المسيح والملائكة مايقولون فسبحان الله عما يصفون وهو معطوف على ماقبله من الجملة الظرفية ونظمه فى سلك الصلة للايذان بان مضمونه من الوضوح والظهور بحيث لايكاد يجهله جاهل لاسيما بعد تقرير ماقبله (ولم يكن له شريك فى الملك) أى ملك السموات والارض وهو أيضا عطف على الصلة وافراده بالذكر مع أن ماذكر من اختصاص ملكهما به تعالى مستلزم له قطعا للتصريح ببطلان زعم الثنوية القائلين بتعدد الآلهة والرد فى نحورهم وتوسيط نفى اتخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالته والاحتراز عن توهم كونه تتمة للاول (وخلق كل شئ) أى أحدث كل موجود من الموجودات احداثا جاريا على سنن التقدير حسبما اقتضته ارادته المبنية على الحكم البالغة بان خلق كلا منها من مواد مخصوصة على صور معينة ورتب فيه قوى وخواص مختلفة

ما لبثوا فى العذاب المهين كانت الجن تعلم مالا يعلمه الانسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك بل الانسان لم يؤت من العلم الا قليلا فهو أكثر الاشياء الحاضرة لا يعلمه والجن لم تعلم الا الاشياء الظاهرة وان كانت خفية بالنسبة الى الانسان وتبين لهم الامر بأنهم لا يعلمون الغيب اذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا فى الاعمال الشاقة ظانين ان سليمان حى وقوله ما لبثوا فى العذاب المهين دليل على ان المؤمنين من الجن لم يكونوا فى التسخير لان المؤمن لا يكون فى زمان النبى فى العذاب المهين ۞ ثم قال تعالى ﴿لقد كان لسبا فى مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾ لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه بحكاية أهل سبا وفى سبا قراءتان بالفتح على انه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على انه اسم قبيلة وهو الاظهر لان الله جعل الآية لسبا والفاهم هو العاقل لا المكان فلا يحتاج الى اضمار الاهل وقوله آية أى من فضل ربهم ثم بينها بذكر بدله بقوله جنتان عن يمين وشمال قال الزمخشرى أية آية فى جنتين مع ان بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان وأجاب بان المراد ان لكل واحد جنتين أو عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة قوله كلوا من رزق ربكم اشارة الى تكميل النعم عليهم حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض وقوله واشكروا له بيان أيضا لكمال النعمة فان الشكر لا يطلب الا على النعمة المعتبرة ثم لما بين حالهم فى مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم بيان النعمة بان بين ان لا غائلة عليه ولا تبعة فى المآل فى الدنيا فقال بلدة طيبة أى طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم وقال ورب غفور أى لا عقاب عليه ولا عذاب فى الآخرة فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة حالية خالية عن المفاسد المآلية ۞ ثم انه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال ﴿فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط واثل وشئ من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور﴾ فبين كمال ظلمهم بالاعراض بعد ابانة الآية كما قال تعالى ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال انا من المجرمين منتقمون وكيفيته انه تعالى أرسل عليهم سيلا غرق أموالهم وخرب دورهم وفى العرم وجوه (أحدها) انه الجرذ الذى سبب خراب السكر وذلك من حيث ان بلقيس كانت قد عمدت الى جبال بينها شعب فسدت الشعب حتى كانت مياه الامطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها أبوابا ثلاثة مرتبة بعضها فوق بعض وكانت الابواب يفتح بعضها بعد بعض فنقب الجرذ السكر وخرب السكر بسببه وانقلب البحر عليهم (وثانيها) ان العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهى الحجارة (ثالثها) اسم للوادى الذى خرج منه الماء وقوله وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط بين به دوام الخراب وذلك لان البساتين التى فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فاذا تركت سنين تصير كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الاشجار والخمط كل شجرة لها شوك أو كل شجرة ثمرتها مرة أو كل شجرة ثمرتها لا تؤكل والاثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة الا فى بعض الاوقات يكون عليه شئ كالعفص أو أصغر منه فى طعمه وطبعه والسدر معروف وقال فيه قليل لانه كان أحسن أشجارهم فقلله الله ثم بين الله ان ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى أى لا نجازى بذلك الجزاء الا الكفور وقال بعضهم المجازاة تقال فى النقمة والجزاء فى النعمة لكن قوله تعالى ذلك جزيناهم يدل على أن الجزاء يستعمل فى النقمة ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهى فى أكثر الامر تكون بين اثنين يؤخذ من كل واحد جزاء فى حق الآخر وفى النعمة لا تكون مجازاة لان الله تعالى مبتدئ بالنعم ۞ ثم قال تعالى ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أى بينهم وبين الشام فانها هى البقعة المباركة وقرى ظاهرة أى يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الاخرى فان قال قائل هذا من النعم والله تعالى قد شرع فى بيان تبديل نعمهم بقوله وبدلناهم بجنتيهم جنتين فكيف عاد مرة أخرى الى بيان

الآثار والاحكام (فقدره) أى هيأه لما أراد به من الخصائص والافعال اللائقة به (تقديرا) بديعا لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه كتهيئة الانسان للفهم والادراك والنظر والتدبر فى أمور المعاش والمعاد واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الاعمال المختلفة وهكذا أحوال سائر الانواع وقيل أريد بالخلق مطلق الايجاد والاحداث مجازا من غير ملاحظة معنى التقدير وان لم يخل عنه فى نفس الامر فالمعنى أوجد كل شئ فقدره فى ذلك الايجاد تقديرا وأما ما قيل من أنه سمى احداثه تعالى خلقا لانه تعالى لا يحدث شيأ الا على وجه التقدير من غير تفاوت ففيه أن ارتكاب المجاز بحمل الخلق على مطلق الاحداث لتجريده عن معنى التقدير فاعتباره فيه بوجه من الوجوه مخل بالمرام قطعا وقيل المراد بالتقدير الثانى هو التقدير للبقاء الى الاجل المسمى وأيا ما كان فالجملة جارية مجرى التعليل لما قبلها من الجمل المنتظمة مثلها فى سلك الصلة فان خلقه تعالى لجميع الاشياء على ذلك النمط البديع كما يقتضى استقلاله تعالى باتصافه بصفات الالوهية يقتضى انتظام كل ما سواه كائنا ما كان تحت ملكوته القاهرة بحيث لا يشذ عنها شئ من ذلك قطعا وما كان كذلك كيف يتوهم كونه ولدا له سبحانه أو شريكا فى ملكه (واتخذوا من دونه آلهة) بعد ما بين حقيقة الحق فى مطلع السورة الكريمة بذكر تنزيله تعالى للفرقان العظيم على رسوله صلى الله عليه وسلم ووصفه تعالى بصفات الكمال وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل عقب ذلك بحكاية أباطيل المشركين فى حق المنزل سبحانه والمنزل والمنزل عليه على

النعمة بعد النقمة فنقول ذكر حال نفس بلدهم وبين تبديل ذلك بالخمط والاثل ثم ذكر حال خارج بلادهم وذكر عمارتها بكثرة القرى ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادى والبرارى بقوله ربنا باعد بين أسفارنا وقد فعل ذلك ويدل عليه قراءة من قرأ ربنا بعد على المبتدا والخبر وقوله وقدرنا فيها السير الاماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لا تتجاوز فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار وكانوا يغدون الى قرية ويروحون الى أخرى ما أمكن فى العرف تجاوزها فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جادا حتى يقطعها وقوله سيروا فيها ليالى وأياما أى كان بينهم ليال وأيام معلومة وقوله آمنين اشارة الى كثرة العمارة فان خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرفيق لا يكون فى مثل هذه الاماكن وقيل بأن معنى قوله ليالى وأياما تسيرون فيه ان شئتم ليالى وان شئتم أياما لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلا لئلا يعلم العدو بسيرهم وبعضها يسلك نهارا لئلا يقصدهم العدو اذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة وقوله تعالى فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يسألوا بطرا كما طلبت اليهود الثوم والبصل ويحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر كما يقول القائل لغيره اضربنى اشارة الى انه لا يقدر عليه ويمكن أن يقال فقالوا ربنا بعد بلسان الحال أى لما كفروا فقد طلبوا أن يبعد بين أسفارهم ويخرب المعمور من ديارهم وقوله وظلموا أنفسهم يكون بيانا لذلك وقوله فجعلناهم أحاديث أى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا يقال تفرقوا أيدى سبا وقوله ومزقناهم كل ممزق بيان لجعلهم أحاديث وقوله تعالى ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أى فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين ۞ ثم قال تعالى ﴿ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين﴾ أى ظنه انه يغويهم كما قال فبعزتك لأغوينهم وقوله فاتبعوه بيان لذلك أى أغواهم فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وهم الذين قال الله تعالى فى حقهم ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ويمكن أن يقال صدق عليهم ظنه فى انه خير منه كما قال تعالى عنه أنا خير منه ويتحقق ذلك فى قوله فاتبعوه لان المتبوع خير من التابع والا لا يتبعه العاقل والذى يدل على ان ابليس خير من الكافر هو أن ابليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان فى امتناعه ترك عبادة الله عنادا كفر والمشرك يعبد غير الله فهو كفر بأمر أقرب الى التوحيد وهم كفروا بأمر هو الاشراك ويؤيد هذا الذى اخترناه الاستثناء وبيانه هو انه وان لم يظن انه يغوى الكل بدليل انه تعالى قال عنه الا عبادك منهم المخلصين فما ظن انه يغوى المؤمنين فما ظنه صدقه ولا حاجة الى الاستثناء وأما فى قوله أنا خير منه اعتقد الخيرية بالنسبة الى جميع الناس بدليل تعليله بقوله خلقتنى من نار وخلقته من طين وقد كذب فى ظنه فى حق المؤمنين ويمكن الجواب عن هذا فى الوجه الاول وهو انه وان لم يظن اغواء الكل وعلم ان البعض ناج لكن ظن فى كل واحد أنه ليس هو ذلك الناجى الى أن تبين له فظن أنه يغويه فكذب فى ظنه فى حق البعض وصدق فى البعض ۞ ثم قال تعالى ﴿وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شئ حفيظ﴾ قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ان علم الله من الازل الى الابد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو فى كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه فان العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما فى نفس الامر فعلم الله فى الازل ان العالم سيوجد فاذا وجد علمه موجودا بذلك العلم واذا عدم يعلمه معدوما بذلك مثاله ان المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد ان قابلها ثم اذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته والمرآة لم تتغير فى ذاتها ولا تبدلت فى صفاتها انما التغير فى الخارجات فكذلك ههنا قوله الا لنعلم أى ليقع فى العلم صدور الكفر من الكافر والايمان من المؤمن وكان قبله فيه انه سيكفر زيد ويؤمن عمرو وقوله وما كان له عليهم من سلطان اشارة الى انه ليس بملجئ وانما هو آية وعلامة خلقها الله ليتبين ما هو فى علمه السابق وقوله وربك على كل شئ حفيظ يحقق ذلك أى الله تعالى قادر على منع ابليس عنهم عالم بما سيقع فالحفظ يدخل فى مفهومه العلم والقدرة اذ الجاهل بالشئ لا يمكنه حفظه ولا العاجز ۞ ثم قال تعالى ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير

ولا

الترتيب واظهار بطلانها والاضمار من غير جريان ذكرهم للثقة بدلالة ما قبله من نفى الشريك عليهم أى اتخذوا لانفسهم متجاوزين الله تعالى الذى ذكر بعض شؤونه الجليلة من اختصاص ملك السموات والارض به تعالى وانتفاء الولد والشريك عنه وخلق جميع الاشياء وتقديرها أبدع تقدير آلهة (لا يخلقون شيئا) أى لا يقدرون على خلق شئ من الاشياء أصلا (وهم يخلقون) كسائر المخلوقات وقيل لا يقدرون على أن يختلقوا شيئا وهم يختلقون حيث يختلقهم عبدتهم بالنحت والتصوير وقوله تعالى (ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا) لبيان ما لم يدل عليه ما قبله من مراتب عجزهم وضعفهم فان بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دفع الضر وجلب النفع فى الجملة كالحيوان وهؤلاء لا يقدرون على التصرف فى ضر ما يدفعونه عن أنفسهم ولا فى نفع ما حتى يجلبوه اليهم فكيف يملكون شيئا منهما لغيرهم وتقديم ذكر الضر لان دفعه مع كونه أهم فى نفسه أول مراتب النفع وأقدمها والتنصيص على قوله تعالى (ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) أى لا يقدرون على التصرف فى شئ منها باماتة الاحياء واحياء الموتى وبعثهم بعد بيان عجزهم عما هو أهون من هذه الامور من دفع الضر وجلب النفع للتصريح بعجزهم عن كل واحد مما ذكر على التفصيل والتنبيه على أن الاله يجب أن يكون قادرا على جميع ذلك وفيه ايذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم كأنهم غير عارفين بانتفاء ما نفى عن آلهتهم من الامور المذكورة مفتقرون الى التصريح

ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد الى خطابهم وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم ثم بين انهم لا يملكون شيأ بقوله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ✱ واعلم ان المذاهب المفضية الى الشرك أربعة (أحدها) قول من يقول الله تعالى خلق السماء والسماويات وجعل الارض والارضيات في حكمهم ونحن من جملة الارضيات فنعبد الكواكب والملائكة التي في السماء فهم آلهتنا والله الههم فقال الله تعالى في ابطال قولهم انهم لا يملكون في السموات شيأ كما اعترفتم ثم قال ولا في الارض على خلاف مازعمتم (وثانيها) قول من يقول السموات من الله على سبيل الاستبداد والارضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فان الله خلق العناصر والتركيبات التي فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا لغير الله معه شركا في الارض والاولون جعلوا الارض لغيره والسماء له فقال في ابطال قولهم ومالهم فيهما من شرك أي الارض كالسماء لله لا لغيره ولا لغيره فيها نصيب (وثالثها) قول من قال التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى لكن فوض ذلك الى الكواكب وفعل المأذون ينسب الى الآذن ويسلب عن المأذون فيه مثاله اذا قال ملك لمملوكه اضرب فلانا فضربه يقال في العرف الملك ضربه ويصح عرفا قول القائل ماضرب فلان فلانا وانما الملك أمر بضربه فضربه فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى في ابطال قولهم وماله منهم من ظهير مافوض الى شئ شيأ بل هو على كل شئ حفيظ ورقيب (ورابعها) قول من قال انا نعبد الاصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى في ابطال قولهم ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له فلا فائدة لعبادتكم غير الله فان الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله حتى اذا فزع عن قلوبهم أي أزيل الفزع عنهم يقال قرد البعير اذا أخذ منه القراد ويقال لهذا تشديد السلب ✱ وفي قوله تعالى حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وجوه (أحدها) الفزع الذي عند الوحي فان الله عندما يوحي يفزع من في السموات ثم يزيل الله عنهم الفزع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله فيقول قال الحق أي الوحي (وثانيها) الفزع الذي من الساعة وذلك لان الله تعالى لما أوحى الى محمد عليه السلام فزع من في السموات من القيامة لان ارسال محمد عليه السلام من اشراط الساعة فلما زال عنهم ذلك الفزع قالوا ماذا قال الله قال جبريل الحق أي الوحي (وثالثها) هو ان الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل أحد بان ماقال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه ثم يقبض روحه على الايمان المتفق عليه بينه وبين الله تعالى ويضر ذلك القول من سبق منه خلافه فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه وبين الله تعالى اذا علمت هذا فنقول على القولين الاولين قوله تعالى حتى غاية متعلقة بقوله تعالى قل لانه بينه بالوحي لان قول القائل قل لفلان للانذار حتى يسمع المخاطب مايقوله ثم يقول بعد هذا الكلام ما يجب قوله فلما قال قل فزع من في السموات ثم أزيل عنه الفزع وعلى الثالث متعلقة بقوله تعالى زعمتم أي زعمتم الكفر الى غاية التفزيع ثم تركتم مازعمتم وقلتم قال الحق وعلى القولين الاولين فاعل قوله تعالى قالوا ماذا هو الملائكة السائلون من جبريل وعلى الثالث الكفار السائلون من الملائكة والفاعل في قوله الحق على القولين الاولين هم الملائكة وعلى الثالث هم المشركون ✱ واعلم ان الحق هو الموجود ثم ان الله تعالى لما كان وجوده لا يرد عليه عدم كان حقا مطلقا لا يرتفع بالباطل الذي هو العدم والكلام الذي يكون صدقا يسمى حقا لان الكلام له متعلق في الخارج بواسطة انه متعلق بما في الذهن والذي في الذهن متعلق بما في الخارج فاذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما في ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما في الخارج لكن للصدق متعلق يكون في الخارج فيصير له وجود مستمر وللكذب متعلق لا يكون في الخارج وحينئذ اما أن لا يكون له متعلق في الذهن فيكون كالمعدوم من الاول وهو الالفاظ التي تكون صادرة عن معاند كاذب واما أن يكون له متعلق في الذهن على خلاف ما في الخارج فيكون اعتقادا باطلا جهلا أو ظنا لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل وكلام الله لا بطلان له في أول الامر كما يكون كلام

بذلك (وقال الذين كفروا ان هذا الا افك) شروع في حكاية أباطيلهم المتعلقة بالمنزل والمنزل عليه معا وابطالها والموصول اما عبارة عن غلاتهم في الكفر والطغيان وهم النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم وروى عن الكلبي ومقاتل أن القائل هو النضر بن الحرث والجمع لمشايعة الباقين له في ذلك واما عن كلهم ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة والايذان بان ماتفوهوا به كفر عظيم وفي كلمة هذا حط لرتبة المشار اليه أي ما هذا الا كذب مصروف عن وجهه (افتراه) يريدون أنه اختلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه) أي على اختلاقه (قوم آخرون) يعنون اليهود بان يلقوا اليه أخبار الامم الدارجة وهو يعبر عنها بعبارته وقيل هما جبر ويسار كانا يصنعان السيف بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وقيل هو عابس وقد مر تفصيله في سورة النحل (فقد جاؤا ظلما) منصوب بجاؤا فان جاء وأتى يستعملان في معنى فعل فيعديان تعديته أو بنزع الخافض أي بظلم قاله الزجاج والتنوين للتفخيم أي جاؤا بما قالوا ظلما هائلا عظيما لا يقادر قدره حيث جعلوا الحق البحت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه افكا مفترى من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرزه الفائق بحيث لو اجتمعت الانس والجن على مباراته لعجزوا عن الاتيان بمثل آية من آياته ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية والاحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والامور الغيبية بحيث لا يناله عقول البشر

الكاذب المعاند ولا يأتيه الباطل كما يكون كلام الظان وقوله تعالى وهو العلى الكبير قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى ذلك بان الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ان الحق اشارة الى أنه كامل لا نقص فيه فيقبل نسبة العدم وفوق الكاملين لان كل كامل فوقه كامل فقوله وهو العلى الكبير اشارة الى انه فوق الكاملين فى ذاته وصفاته وهذا يبطل القول بكونه جسما وفى حيز لان كل من كان فى حيز فان العقل يحكم بأنه مشار اليه وهو مقطع الاشارة لان الاشارة لولم تقع اليه لما كان المشار اليه هو واذا وقعت الاشارة اليه فقد تناهت الاشارة عنده وفى كل موقع تقف الاشارة يقدر العقل على أن يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين مأخذ الاشارة والمشار اليه أكثر من هذا البعد لكان هذا المشار اليه أعلى فيصير عليا بالاضافة لا مطلقا وهو على مطلقا ولو كان جسما لكان له مقدار وكل مقدار يمكن أن يفرض أكبر منه فيكون كبيرا بالنسبة الى غيره لا مطلقا وهو كبير مطلقا ۞ ثم قال تعالى (قل من يرزقكم من السموات والارض) قد ذكرنا مرارا ان العامة يعبدون الله لكونه الها وانما يطلبون به شيأ وذلك اما دفع ضرر أو جر نفع فنبه الله تعالى العامة بقوله قل ادعوا الذين زعمتم على انه لا يدفع الضر أحد الا هو كما قال تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وقال بعد اتمام بيان ذلك قل من يرزقكم من السموات والارض اشارة الى أن جر النفع ليس الا به ومنه فاذا ان كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضرا أو لم يدفع وسواء نفعكم بخير أو لم ينفع فان لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضر وجر النفع ۞ ثم قال تعالى (قل الله) يعنى ان لم يقولوا هم فقل أنت الله يرزق (وههنا لطيفة) وهى أن الله تعالى عند الضر ذكر انهم يقولون الله و يعترفون بالحق حيث قال قالوا الحق وعند النفع لم يقل انهم يقولون ذلك وذلك لان لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضر هو الله حيث يقعون فى الضر كما قال تعالى واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه وأما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك فلذلك قال قل الله أى هم حالة الراحة غافلون عن الله ۞ ثم قال تعالى (وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا ارشاد من الله لرسوله الى المناظرات الجارية فى العلوم وغيرها وذلك لان أحد المتناظرين اذا قال للآخر هذا الذى تقوله خطأ وأنت فيه مخطئ يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع فى الفهم فيفوت الغرض وأما اذا قال له بأن أحدنا لا يشك فى انه مخطئ والتمادى فى الباطل قبيح والرجوع الى الحق أحسن الاخلاق فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز فانه يجتهد ذلك الخصم فى النظر ويترك التعصب وذلك لا يوجب نقصا فى المنزلة لانه أوهم بانه فى قوله شاك ويدل عليه قول الله تعالى لنبيه وانا أو اياكم مع انه لا يشك فى انه هو الهادى وهو المهتدى وهم الضالون والمضلون (المسئلة الثانية) فى قوله لعلى هدى أو فى ضلال مبين ذكر فى الهدى كلمة على وفى الضلال كلمة فى لان المهتدى كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة التعلى والضال منغمس فى الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة فى (المسئلة الثالثة) وصف الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لان الهدى هو الصراط المستقيم الموصل الى الحق والضلال خلافه لكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال وبعضه أبين من بعض فميز البعض عن البعض بالوصف (المسئلة الرابعة) قدم الهدى على الضلال لانه كان وصف المؤمنين المذكورين بقوله انا وهو مقدم فى الذكر ۞ ثم قال تعالى (قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون) أضاف الاجرام الى النفس وقال فى حقهم ولا نسئل عما تعملون ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الاغضاب المانع من الفهم وقوله لا تسئلون ولا نسئل زيادة حث على النظر وذلك لان كل أحد اذا كان مؤاخذا بجرمه فاذا احترز نجا ولو كان البرىء يؤاخذ بالجرم لما كفى النظر ۞ ثم قال تعالى (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) أكد ما يوجب النظر والتفكر فان مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب فكيف اذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله يفتح قيل معناه يحكم ويمكن أن يقال بأن الفتح ههنا مجاز وذلك لان الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحه على طريق الحقيقة ثم ان الامر اذا كان فيه انغلاق وعدم وصول اليه فاذا بينه أحد يكون قد فتحه وقوله وهو الفتاح العليم اشارة الى أن حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما يتفق له بمجرد هواه ۞ ثم قال تعالى (قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل

ولا يفى بفهمه القوى والقدر (وزورا) أى كذبا كبيرا لا يبلغ غايته حيث نسبوا اليه عليه الصلاة والسلام ما هو برىء منه والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها لكن لا على أنهما أمران متغايران حقيقة يقع أحدهما عقيب الآخر أو يحصل بسببه بل على ان الثانى هو عين الاول حقيقة وانما الترتيب بحسب التغاير الاعتبارى وقد تحقيق ذلك المعنى فان ما جاؤه من الظلم والزور هو عين ما حكى عنهم لكنه لما كان مغايرا له فى المفهوم وأظهر منه بطلانا رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لامره (وقالوا أساطير الاولين) بعد ما جعلوا الحق الذى لا محيد عنه افكا مختلقا باعانة البشر بينوا على زعمهم الفاسد كيفية الاعانة والاساطير جمع اسطار أو اسطورة كاحدوثة وهى ما سطره المتقدمون من الخرافات (اكتتبها) أى كتبها لنفسه على الاسناد المجازى أو استكتبها وقرئ على البناء للمفعول لانه عليه الصلاة والسلام أمى وأصله اكتتبها له كاتب فحذف اللام وأفضى الفعل الى الضمير فصار اكتتبها اياه كاتب ثم حذف الفاعل لعدم تعلق الغرض العلى بخصوصه وبنى الفعل للضمير المنفصل فاستتر فيه (فهى تملى عليه) أى تلقى عليه تلك الاساطير بعد اكتتابها ليحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك المكتتب لكونه أميا لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة أو تملى على الكاتب على أن معنى اكتتبها أراد اكتتابها أو استكتابها ورجع الضمير المجرور اليه عليه الصلاة والسلام لاسناد الكتابة فى ضمن الاكتتاب اليه عليه الصلاة والسلام (بكرة

هو الله العزيز الحكيم﴾ قد ذكرنا ان المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الاشراف الاعزة يعبدونه لانه يستحق العبادة لذاته فلما بين انه لا يعبد غير الله لدفع الضرر اذ لا دافع للضرر غيره بقوله قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله و بين انه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله قل من يرزقكم من السموات والارض بين ههنا انه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم أى هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهى القدرة الكاملة والحكمة وهى العلم التام الذى عمله موافق له ۞ ثم قال تعالى ﴿وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ لما بين مسئلة التوحيد شرع فى الرسالة فقال تعالى وما أرسلناك الا كافة وفيه وجهان (أحدهما) كافة أى ارسالة كافة أى عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها (والثانى) كافة أى أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر والهاء للمبالغة على هذا الوجه بشيرا أى تحثهم بالوعد ونذيرا تزجرهم بالوعيد ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم ۞ ثم قال تعالى ﴿ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين﴾ لما ذكر الرسالة بين الحشر وقال ﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ قد ذكرنا فى سورة الاعراف أن قوله لا تستأخرون يوجب الانذار لان معناه عدم المهلة عن الاجل ولكن الاستقدام ما وجهه وذكرنا هناك وجهه ونذكر ههنا انهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لا استعجال فيه كما لا امهال وهذا يفيد عظم الامر وخطر الخطب وذلك لان الامر الحقير اذا طالبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه على وقت بخلاف الامر الخطير وفى قوله تعالى لكم ميعاد يوم قراآت (احداها) رفعهما مع التنوين وعلى هذا يوم بدل (وثانيها) نصب يوم مع رفع ميعاد والتنوين فيهما ميعاد يوما قال الزمخشرى ووجهه انه منصوب بفعل محذوف كأنه قال ميعادا أعنى يوما وذلك يفيد التعظيم والتهويل ويحتمل أن يقال نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يوما كما يقول القائل انا جائيك يوما وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كأنه يقول لكم ميعاد تعلمونه يوما وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل انه مقتول يوما (الثالثة) الاضافة لكم ميعاد يوم كما فى قول القائل سحق ثوب للتبيين واسناد الفعل اليهم بقوله لا تستأخرون عنه بدلا عن قوله لا يؤخر عنكم زيادة تأكيد لوقوع اليوم ۞ ثم قال تعالى ﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه﴾ لما بين الامور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن وذلك لان القرآن مشتمل على الكل وقوله ولا بالذى بين يديه المشهور انه التوراة والانجيل وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر ويحتمل أن يقال ان المعنى هو أنا لا نؤمن بالقرآن أنه من الله ولا بالذى بين يديه أى ولا بما فيه من الاخبار والمسائل والآيات والدلائل وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم العموم لان أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله ولا بالذى فيه من الرسالة وتفاصيل الحشر فان قيل أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر فنقول اذا لم يصدق واحد ما فى الكتاب من الامور المختصة به يقال فيه انه لم يؤمن بشئ منه وان آمن ببعض ما فيه لكونه فى غيره فيكون ايمانه لا بما فيه مثاله أن من يكذب رجلا فيما يقوله فاذا أخبره بأن النار حارة لا يكذبه فيه ولكن لا يقال انه صدقه لانه انما صدق نفسه فانه كان عالما به من قبل وعلى هذا فقوله بين يديه أى الذى هو مشتمل عليه من حيث انه وارد فيه ۞ وقوله تعالى ﴿ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ لما وقع اليأس من ايمانهم فى هذه الدار بقولهم لن نؤمن فانه لتأبيد النفى وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه يراهم على على أذل حال موقوفين للسؤال يرجع بعضهم الى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة أخطؤا فى أمر يقول بعضهم لبعض كان ذلك بسببك ويرد عليه الآخر مثل ذلك وجواب لو محذوف تقديره ولو ترى اذ الظالمون موقوفون لرأيت عجبا ثم بدأ بالاتباع لان المضل أولى بالتوبيخ فقال يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين اشارة الى ان كفرهم كان لمانع لا لعدم المقتضى لانهم لا يمكنهم ان يقولوا ما جاءنا رسول ولا ان يقولوا قصر الرسول وهذا اشارة الى اتيان الرسول بما عليه لان الرسول

وأصيلا) أى دائما أو خفية قبل انتشار الناس وحين يأوون الى مساكنهم انظر الى هذه الرتبة من الجراءة العظيمة قاتلهم الله أنى يؤفكون (قل) لهم ردا عليهم وتحقيقا للحق (أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض) وصفه تعالى باحاطة علمه بجميع المعلومات الجلية والخفية للايذان بانطواء ما أنزله على أسرار مطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم بجناياتهم المحكية التى هى من جملة معلوماته تعالى أى ليس ذلك مما يفترى ويفتعل باعانة قوم وكتابة آخرين من الاحاديث الملفقة وأساطير الاولين بل هو أمر سماوى أنزله الله الذى لا يعزب عن علمه شئ من الاشياء وأودع فيه فنون الحكم والاسرار على وجه بديع لا يحوم حوله الافهام حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته وأخبركم بمغيبات مستقبلة وأمور مكنونة لا يهتدى اليها ولا يوقف عليها الا بتوفيق العليم الخبير وقد جعلتموه افكا مفترى من قبيل الاساطير واستوجبتم بذلك أن يصب عليكم سوط العذاب صبا فقوله تعالى (انه كان غفورا رحيما) تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة أى انه تعالى ازلا وابدا مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعين للتأخير فلذلك لا يعجل بعقوبتكم على ما تقولون فى حقه مع كمال استيجابه اياها وغاية قدرته تعالى عليها (وقالوا مال هذا الرسول) شروع فى حكاية جناياتهم المتعلقة بخصوصية المنزل عليه وما استفهامية بمعنى انكار الوقوع ونفيه مرفوعة على الابتداء خبرها ما بعدها من الجار والمجرور وفى هذا تصغير لشأنه عليه الصلاة والسلام وتسميته عليه الصلاة

لو أهمل شيأ لما كانوا يؤمنون ولولا المستكبرون لآمنوا ۞ ثم قال تعالى ﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا﴾ ردا لما قالوا ان كفرنا كان لمانع ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ يعنى المانع ينبغى ان يكون راجحا على المقتضى حتى يعمل عمله والذين جاءبه هو الهدى والذى صدر من المستكبرين لم يكن شيأ يوجب الامتناع من قبول ما جاء به فلم يصح تعليلكم بالمانع ثم بين ان كفرهم كان اجراما من حيث ان المعذور لا يكون معذورا الا لعدم المقتضى أو لقيام المانع ولو لم يوجد شئ منهما ۞ ثم قال تعالى ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له أندادا﴾ لما ذكر المستكبرون أنا ما صددناكم وما صدر منا ما يصلح مانعا وصارفا اعترف المستضعفون به وقالوا بل مكر الليل والنهار منعنا ثم قالوا لهم انكم وان كنتم ما أتيتم بالصارف القطعى والمانع القوى ولكن انضم أمركم ايانا بالكفر الى طول الامد وامتداد المدد فكفرنا فكان قولكم جزء السبب ويحتمل وجها آخر وهو ان يكون المراد بل مكركم بالليل والنهار فحذف المضاف اليه وقوله اذ تأمروننا أن نكفر بالله أى ننكره ونجعل له أندادا هذا يبين ان المشرك بالله مع انه فى الصورة مثبت لكنه فى الحقيقة منكر لوجود الله لان من يساويه المخلوق المنحوت لا يكون الها وقوله فى الاول يرجع بعضهم الى بعض القول بقول الذين استضعفوا بلفظ المستقبل وقوله فى الآيتين المتأخرتين قال الذين استكبروا وقال الذين استضعفوا بصيغة الماضى مع ان السؤال والتراجع فى القول لم يقع اشارة الى ان ذلك لابد وان يقع فان الامر الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع ألا ترى الى قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون ۞ ثم قال تعالى ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون﴾ معناه انهم يتراجعون القول فى الاول ثم اذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع الدال على الندامة وقيل معنى الاسرار الاظهار أى أظهروا الندامة ويحتمل ان يقال بأنهم لما تراجعوا فى القول رجعوا الى الله بقولهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا ثم أجيبوا وأخبروا بأن لا مرد لكم فأسروا ذلك القول وقوله وجعلنا الاغلال فى أعناق الذين كفروا اشارة الى كيفية العذاب والى ان مجرد الرؤية ليس كافيا بل لما رأوا العذاب قطعوا بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الاغلال فى أعناقهم وقوله هل يجزون الا ما كانوا يعملون اشارة الى ان ذلك حقهم عدلا ۞ ثم قال تعالى ﴿وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين﴾ تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم وبيانا لان ايذاء الكفار الانبياء الاخيار ليس بدعا بل ذلك عادة جرت من قبل وانما نسب القول الى المترفين مع ان غيرهم أيضا قالوا انا بما أرسلتم به كافرون لان الاغنياء المترفين هم الاصل فى ذلك القول ألا ترى ان الله قال عن الذين استضعفوا انهم قالوا للمستكبرين لولا أنتم لكنا مؤمنين ثم استدلوا على كونهم مصيبين فى ذلك بكثرة الاموال والاولاد فقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا أى بسبب لزومنا لديننا وقوله وما نحن بمعذبين أى فى الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلا خير من حالكم وأما آجلا فلا نعذب اما انكارا منهم للعذاب رأسا أو اعتقادا لحسن حالهم فى الآخرة أيضا قياسا ۞ ثم ان الله تعالى بين خطأهم بقوله ﴿قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ يعنى ان الرزق فى الدنيا لا تدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل فكم من موسر شقى ومعسر تقى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ان قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح ۞ ثم بين فساد استدلالهم بقوله ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون﴾ يعنى قولكم نحن أكثر أموالا فنحن أحسن عند الله حالا ليس استدلالا صحيحا فان المال لا يقرب الى الله ولا اعتبار بالتعزز به وانما المفيد العمل الصالح بعد الايمان والذى يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح اقبال على الله واشتغال بالله ومن توجه الى الله وصل ومن طلب من الله شيأ حصل وقوله فأولئك لهم جزاء الضعف أى الحسنة فان الضعف لا يكون الا فى الحسنة وفى السيئة لا يكون الا المثل ثم زاد وقال وهم فى الغرفات آمنون اشارة الى دوام النعيم وتأبيده فان

من

والسلام رسولا بطريق الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام كما قال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم وقوله تعالى (يأكل الطعام) حال من الرسول والعامل فيها ما عمل فى الجار من معنى الاستقرار أى أى شئ وأى سبب حصل لهذا الذى يدعى الرسالة حال كونه يأكل الطعام كما نأكل (ويمشى فى الاسواق) لابتغاء الارزاق كما نفعله على توجيه الانكار والنفى الى السبب فقط مع تحقق المسبب الذى هو مضمون الجملة الحالية كما فى قوله تعالى فما لهم لا يؤمنون وقوله ما لكم لا ترجون لله وقارا فكما أن كلا من عدم الايمان وعدم الرجاء أمر محقق قد أنكر واستبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب نقيضه كذلك كل من الاكل والمشى أمر محقق قد استبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب عدمه خلا أن استبعاد المسبب وانكار السبب ونفيه فى عدم الايمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق وفى الاكل والمشى بطريق التهكم والاستهزاء فانهم لا يستبعدونهما ولا ينكرون سببهما حقيقة بل هم معترفون بوجودهما وتحقق سببهما وانما الذى يستبعدونه الرسالة المنافية لهما على زعمهم يعنون أنه ان صح ما يدعيه فما باله لم يخالف حاله حالنا وهل هو الا لعمههم وركاكة عقولهم وقصور انظارهم على المحسوسات فان تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية وانما هو بأمور نفسانية كما أشير اليه بقوله تعالى قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد (لولا أنزل اليه ملك) أى على صورته وهيئته (فيكون معه نذيرا) تنزل منهم من اقتراح أن يكون ملكا

من تنقطع عنه النعمة لا يكون آمنا ۞ ثم بين حال المسيء بقوله ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ وقد ذكرنا تفسيره وقوله ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾ اشارة الى الدوام أيضا كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وكما قال تعالى وما هم عنها بغائبين ۞ ثم قال تعالى مرة أخرى ﴿قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين﴾ اشارة الى أن نعيم الآخرة لا ينافي نعمة الدنيا بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم في العقبى بناء على الوعد قطعا لقول من يقول اذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى فقال هذا النقد غير مختص بكم فان كثيرا من الاشقياء مدقعون وكثير من الاتقياء ممتعون وفيه مسائل (الاولى) ذكر هذا المعنى مرتين مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم ومرة لبيان انه غير مختص بهم كأنه قال وجود الترف لا يدل على الشرف ثم ان سلمنا انه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك فان الله يورثهم دياركم وأموالكم والذي يدل عليه هو ان الله تعالى لم يذكر أولا لمن يشاء من عباده بل قال لمن يشاء وثانيا قال لمن يشاء من عباده والعباد المضافة يراد بها المؤمن ثم وعد المؤمن بخلاف ما للكافر فان الكافر دابره مقطوع وماله الى الزوال ومآله الى الوبال وأما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله ومخلف الله خير فان ما في يد الانسان في معرض البوار والتلف وهما لا يتطرقان الى ما عند الله من الخلف ثم أكد ذلك بقوله والله خير الرازقين وخيرية الرازق في أمور (أحدها) أن لا يؤخر عن وقت الحاجة (والثاني) أن لا ينقص عن قدر الحاجة (والثالث) أن لا ينكده بالحساب (والرابع) أن لا يكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك أما الاول فلانه عالم وقادر والثاني فلانه غني واسع والثالث فلانه كريم وقد ذكر ذلك بقوله يرزق من يشاء بغير حساب وما ذكرناه هو المراد أي يرزقه حلالا لا يحاسبه عليه والرابع فلانه علي كبير والثواب يطلبه الادنى من الاعلى الا ترى أن هبة الاعلى من الادنى لا تقتضي ثوابا (المسئلة الثانية) قوله تعالى وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم اعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا وذلك لان الله تعالى ملك ملي وهو غني ملي فاذا قال أنفق وعلي بدله فبحكم الوعد يلزمه كما اذا قال قائل ألق متاعك في البحر وعلي ضمانه فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف ثم ان من العجب ان التاجر اذا علم ان مالا من أمواله في معرض الهلاك يبيعه نسيئة وان كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الاهمال الى الهلاك فان لم يبع حتى يهلك ينسب الى الخطأ ثم ان حصل به كفيل ملي ولا يبيع ينسب الى قلة العقل فان حصل به رهن وكتب به وثيقة ولا يبيعه ينسب الى الجنون ثم ان كل أحد يفعل هذا ولا يعلم ان ذلك قريب من الجنون فان أموالنا كلها في معرض الزوال المحقق والانفاق على الاهل والولد اقراض وقد حصل الضامن الملي وهو الله العلي وقال تعالى وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ثم رهن عند كل واحد اما أرضا أو بستانا أو طاحونة أو حماما أو منفعة فان الانسان لا بد من أن يكون له صنعة أو جهة يحصل له منها مال وكل ذلك ملك الله وفي يد الانسان بحكم العارية فكأنه مرهون بما تكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام ومع هذا لا ينفق ويترك ماله ليتلف لا مأجورا ولا مشكورا (المسئلة الثالثة) قوله خير الرازقين ينبئ عن كثرة في الرازقين ولا رازق الا الله فما الجواب عنه فنقول عنه جوابان (أحدهما) ان يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك في قوله تعالى وهو أحسن الخالقين (وثانيهما) هو ان الصفات منها ما حصل لله وللعبد حقيقة ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة وللعبد بطريق المجاز ومنها ما يقال لله بطريق الحقيقة ولا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة مثال الاول العلم فان الله يعلم انه واحد والعبد يعلم انه واحد بطريق الحقيقة وكذلك العلم بكون النار حارة غاية ما في الباب ان علمه قديم وعلمنا حادث مثال الثاني الرازق والخالق فان العبد اذا أعطى غيره شيأ فان الله هو المعطي ولكن لاجل صورة العطاء منه سمي معطيا كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وانسان مثال الثالث الازلي والله وغيرهما وقد يقال في

مستغنيا عن الاكل والشرب الى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه ويكون ردأ له في الانذار وهو يعبر عنه ويفسر ما يقوله للعامة وقوله تعالى (أو يلقى اليه كنز) تنزل من تلك المرتبة الى اقتراح ان يلقى اليه من السماء كنز يستظهر به ولا يحتاج الى طلب المعاش ويكون دليلا على صدقه وقوله تعالى (أو تكون له جنة يأكل منها) تنزل من ذلك الى اقتراح ما هو أيسر منه وأقرب من الوقوع وقرئ نأكل بنون الحكاية وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم (وقال الظالمون) هم القائلون الاولون وانما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيما قالوه لكونه اضلالا خارجا عن حد الضلال مع ما فيه من نسبته عليه الصلاة والسلام الى المسحورية أي قالوا للمؤمنين (ان تتبعون) أي ما تتبعون (الا رجلا مسحورا) قد سحر فغلب على عقله وقيل ذا سحر وهي الرئة أي بشرا لا ملكا على أن الوصف لزيادة التقرير والاول هو الانسب بحالهم (انظر كيف ضربوا لك الامثال) استعظام للاباطيل التي اجترؤا على التفوه بها وتعجيب منها أي انظر كيف قالوا في حقك تلك الاقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الامثال واخترعوا لك تلك الصفات والاحوال الشاذة البعيدة من الوقوع (فضلوا) أي عن طريق المحاجة حيث لم يأتوا بشيء يمكن صدوره عمن له أدنى عقل وتمييز فبقوا متحيرين (فلا يستطيعون سبيلا) الى القدح في نبوتك بأن يجدوا قولا يستقرون عليه وان كان باطلا في نفسه أو فضلوا عن الحق ضلالا مبينا فلا يجدون طريقا موصلا اليه فان من اعتاد

اشياء فى الاطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازا كالاستواء والنزول والمعية ويد الله وجنب الله ۞ ثم قال تعالى ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾ لما بين ان حال النبى صلى الله عليه وسلم كحال من تقدمه من الانبياء وحال قومه كحال من تقدم من الكفار وبين بطلان استدلالهم بكثرة أموالهم وأولادهم بين ما يكون عاقبة حالهم فقال ويوم نحشرهم جميعا يعنى المكذبين بك وعن تقدمك ثم نقول لمن يدعون انهم يعبدونهم وهم الملائكة فان غاية ما ترتقى اليه منزلتهم انهم يقولون نحن نعبد الملائكة والكواكب فيسأل الملائكة انهم كانوا يعبدونكم اهانة لهم فيقول كل منهم سبحانك ننزهك عن أن يكون غيرك معبودا او أنت معبودنا ومعبود كل خلق وقولهم أنت ولينا من دونهم اشارة الى معنى لطيف وهو ان مذاهب الناس مختلفة بعضهم لا يسكن المواضع المعمورة التى يكون فيها سواد عظيم لانه لا يترأس هناك فيرضى بالضياع والبلاد الصغيرة وبعضهم لا يريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيها بالناس وقلة وصوله فيها الى الاكياس ثم ان الفريقين جميعا اذا عرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الارذال الذين لا التفات اليهم أصلا يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لا يؤبه به ولو أن رجلا سكن جبلا ووضع بين يديه شيأ من القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان وهو يقول هؤلاء أتباعى وأشياعى ولا أدخل المدينة مخافة ان احتاج الى خدمة السلطان العظيم والتردد اليه ينسب الى جنون فكذلك من رضى بأن يترك خدمة الله وعبادته ورضى باستتباع الهمج الذين هم أضل من البهائم وأقل من الهوام يكون مجنونا فقالوا أنت ولينا من دونهم يعنى كونك ولينا بالمعبودية أولى وأحب الينا من كونهم أولياءنا بالعبادة لنا وقالوا بل كانوا يعبدون الجن أى كانوا ينقادون لامر الجن فهم فى الحقيقة كانوا يعبدون الجن ونحن كنا كالقبلة لهم لان العبادة هى الطاعة وقوله تعالى أكثرهم بهم مؤمنون ولو قال قائل جميعهم كانوا تابعين للشياطين فما وجه قوله أكثرهم بهم مؤمنون فانه ينبئ أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الملائكة احترزوا عن دعوى الاحاطة بهم فقالوا أكثرهم لان الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار (الثانى) هو أن العبادة عمل ظاهر والايمان عمل باطل فقالوا بل كانوا يعبدون الجن لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا أكثرهم بهم مؤمنون عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما فى القلوب فان القلب لا اطلاع عليه الا الله كما قال تعالى انه عليم بذات الصدور ۞ ثم بين ان ما كانوا يعبدونه لا ينفعهم فقال ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب بقوله بعضكم مع من نقول يحتمل أن يكون مع الملائكة لسبق قوله تعالى أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وعلى هذا يكون ذلك تنكيلا للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لا ينفع ولا يضر ويصحح هذا قوله تعالى لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله ولا يشفعون الا لمن ارتضى ولانه قال بعده ونقول للذين ظلموا ذوقوا فأفردهم ولو كان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا وعلى هذا يكون الكفار داخلين فى الخطاب حتى يصح معنى قوله بعضكم لبعض أى الملائكة للكفار والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه فى أمر مخاطبا بسببه كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك فى كلام أنتم قلتم على معنى أنت قلت وهم قالوا ويحتمل أن يكون معهم الجن أى لا يملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجن واذا لم تملكوها لانفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب هم الكفار لان ذكر اليوم يدل على حضورهم وعلى هذا فقوله ونقول للذين ظلموا انما ذكره تأكيدا لبيان حالهم فى الظلم وسبب نكالهم من الاثم ولو قال فذوقوا عذاب النار لكان كافيا لكنه لا يحصل ما ذكرنا من الفائدة فانهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا عليه من الظلم والعناد والاثم والفساد يتحسرون ويندمون (المسئلة الثانية) قوله نفعا مفيد للحسرة وأما الضر فما الفائدة فيه مع انهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك فنقول لما كانت العبادة تقع لدفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين انهم ليس فيهم ذلك الوجه الذى يحسن لاجله عبادتهم (المسئلة الثالثة) قال

ههنا

استعمال أمثال هذه الاباطل لا يكاد يهتدى الى استعمال المقدمات الحقة ﴿تبارك الذى﴾ أى تكاثر وتزايد خير الذى ﴿ان شاء جعل لك﴾ فى الدنيا عاجلا شيأ ﴿خيرا لك﴾ ﴿من ذلك﴾ الذى اقترحوه من أن يكون لك جنة تأكل منها بان يجعل لك مثل ما وعدك فى الآخرة وقوله تعالى ﴿جنات تجرى من تحتها الانهار﴾ بدل من خيرا وتحقيق لخيريته مما قالوا لان ذلك كان مطلقا عن قيد التعدد وجريان الانهار ﴿ويجعل لك قصورا﴾ عطف على محل الجزاء الذى هو جعل وقرئ بالرفع عطفا على نفسه لان الشرط اذا كان ماضيا جاز فى جزائه الرفع والجزم كما فى قول القائل

وان أتاه خليل يوم مسئلة
يقول لا غائب مالى ولا حرم

ويجوز أن يكون استئنافا بوعد ما يكون له فى الآخرة وقرئ بالنصب على أنه جواب بالواو وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للايذان بان عدم جعلها بمشيئته المبنية على الحكم والمصالح وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الاولين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية وانما الذى له وجه فى الجملة هو الاقتراح الاخير فانه غير مناف للحكمة بالكلية فان بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوتوا فى الدنيا مع النبوة ملكا عظيما ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ اضراب عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة وانتقال منه الى توبيخهم بحكاية جناياتهم الاخرى للتخلص الى بيان ما لهم فى الآخرة بسببها من فنون العذاب بقوله تعالى ﴿وأعتدنا لمن كذب بالساعة

ههنا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون وقال فى السجدة عذاب النار الذى كنتم به جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل والفائدة فيها أن هنالك لم يكن أول ما رأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون أى العذاب المؤبد الذى أنكرتموه بقولكم لن تمسنا النار الا أياما معدودة أى قلتم ان العذاب ان وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم وههنا أول ما رأوا النار لانه مذكور عقيب الحشر والسؤال فقيل لهم هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴿ ثم قال تعالى ﴿واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين﴾ اظهار الفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا سبحانك أنت ولينا أى لا أهلية لنا الا لعبادتك من دونهم أى لا أهلية لنا لان نكون معبودين لهم ولا لنفع أو ضر كما قال تعالى فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ثم مع هذا كله اذا قال لهم النبى عليه السلام كلاما من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه فان لله فى كل شئ آيات دالة على وحدانيته أنكروها وقالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم يعنى يعارضون البرهان بالتقليد وقالوا ما هذا الا أفك مفترى وهو يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون المراد ان القول بالوحدانية افك مفترى ويدل عليه هو ان الموحد كان يقول فى حق المشرك انه يأفك كما قال تعالى فى حقهم أئفكا آلهة دون الله تريدون وكما قالوا هم للرسول أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا (وثانيها) أن يكون المراد ما هذا الا افك أى القرآن افك وعلى الاول يكون قوله وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين اشارة الى القرآن وعلى الثانى يكون اشارة الى ما أتى به من المعجزات وعلى الوجهين فقوله تعالى وقال الذين كفروا بدلا عن أن يقول وقالوا للحق هو ان انكار التوحيد كان مختصا بالمشركين واما انكار القرآن والمعجزات كان متفقا عليه بين المشركين وأهل الكتاب فقال تعالى وقال الذين كفروا للحق على وجه العموم ﴿ ثم قال تعالى ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير﴾ وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير تأكيد لبيان تقليدهم يعنى يقولون عندما تتلى عليهم الآيات البينات هذا رجل كاذب وقولهم افك مفترى من غير برهان ولا كتاب انزل عليهم ولا رسول أرسل اليهم فالآيات البينات لا تعارض الا بالبراهين العقلية ولم يأتوا بها أو بالنقليات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول ثم بين انهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود وقوله تعالى وما بلغوا معشار ما آتيناهم قال المفسرون معناه وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر ثم ان الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم فكيف حال هؤلاء الضعفاء وعندى يحتمل ذلك وجها آخر وهو ان يقال المراد وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم أى الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان وذلك لان كتاب محمد عليه السلام أكمل من سائر الكتب وأوضح ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح وبرهانه أوفى وبيانه أشفى ثم ان المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل انكر عليهم وكيف لا ينكر عليهم وقد كذبوا بافصح الرسل وأوضح السبل ويؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى وما آتيناهم من كتب يدرسونها يعنى غير القرآن ما آتيناهم كتابا وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير فلما كان المؤتى فى الآية الاولى هو الكتاب فحمل الايتاء فى الآية الثانية على ايتاء الكتاب أولى ﴿ ثم قال تعالى ﴿قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد﴾ ذكر الاصول الثلاثة فى هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل فقوله أن تقوموا لله اشارة الى التوحيد وقوله ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم اشارة الى الرسالة وقوله بين يدى عذاب شديد اشارة الى اليوم الآخر وفى الآية مسائل (الاولى) قوله انما أعظكم بواحدة يقتضى أن لا يكون الا بالتوحيد والايمان لا يتم الا بالاعتراف بالرسالة والحشر فكيف يصح الحصر المذكور بقوله انما أعظكم

سعيرا) الخ أى أعتدنا لهم نارا عظيمة شديدة الاشتعال شأنها كيت وكيت بسبب تكذيبهم بها على ما يشعر به وضع الموصول موضع ضميرهم أو لكل من كذب بها كائنا من كان وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة فى التشنيع ومدار اعتاد السعير لهم وان لم يكن مجرد تكذيبهم بالساعة بل مع تكذيبهم بسائر ما جاء به الشريعة الشريفة لكن الساعة لما كانت هى العلة القريبة لدخولهم السعير أشير الى سببية تكذيبها لدخولها وقيل هو عطف على وقالوا ما لهذا الخ على معنى بل أتوا بأعجب من ذلك حيث كذبوا بالساعة وأنكروها والحال أنا قد أعتدنا لكل من كذب بها سعيرا فان جراءتهم على التكذيب بها وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها من أنواع العذاب أعجب من القول السابق وقيل هو متصل بما قبله من الجواب المبنى على التحقيق المنبئ عن الوعد بالجنات فى الآخرة مسوق لبيان أن ذلك لا يجدى نفعا ولا يحلى بطائل على طريقة قول من قال

عوجوا لنعم فحيوا دمنة الدار
ماذا تحيون من نؤى وأحجار

والمعنى انهم لا يؤمنون بالساعة فكيف يقتنعون بهذا الجواب وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك فى الآخرة وقيل المعنى بل كذبوا بها فقصرت أنظارهم على الحظوظ الدنيوية وظنوا أن الكرامة ليست الا بالمال وجعلوا فقرك ذريعة الى تكذيبك وقوله تعالى (اذا رأتهم) الخ صفة للسعير أى اذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد كقوله عليه الصلاة والسلام لا تتراءى ناراهما أى لا تتقاربان

بواحدة فنقول التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره و يرفع فى الآخرة قدره فالنبى صلى الله عليه وسلم أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيئ لهم أسباب السعادات وجواب آخر وهو ان النبى صلى الله عليه وسلم ما قال انى لا آمركم فى جميع عمرى الا بشئ واحد وانما قال أعظكم أولا بالتوحيد ولا آمركم فى أول الامر بغيره لانه سابق على الكل ويدل عليه قوله تعالى ثم تتفكروا فان التفكر أيضا صار مأمورا به وموعوظا (المسئلة الثانية) قوله بواحدة قال المفسرون أنثها على انها صفة خصلة أى أعظكم بخصلة واحدة و يحتمل أن يقال المراد حسنة واحدة لان التوحيد حسنة واحسان وقد ذكرنا فى قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان ان العدل نفى الالهية عن غير الله والاحسان اثبات الالهية له وقيل فى تفسير قوله تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان أن المراد هل جزاء الايمان الا الجنان وكذلك يدل عليه قوله تعالى ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله (المسئلة الثالثة) قوله مثنى وفرادى اشارة الى جميع الاحوال فان الانسان اما أن يكون مع غيره أو يكون وحده فاذا كان مع غيره دخل فى قوله مثنى واذا كان وحده دخل فى قوله فرادى فكأنه يقول تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد الى معين يعينكم على ذكر الله (المسئلة الرابعة) قوله ثم تتفكروا يعنى اعترفوا بما هو الاصل والتوحيد ولا حاجة فيه الى تفكر ونظر بعد ما بان وظهر ثم تتفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر فانه يحتاج الى تفكر وكلمة ثم تفيد ما ذكرنا فانه قال أن تقوموا لله ثم تتفكروا ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبى عليه السلام فقال ما بصاحبكم من جنة (المسئلة الخامسة) قوله ما بصاحبكم من جنة يفيد كونه رسولا وان كان لا يلزم فى كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولا وذلك لان النبى عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدورا للبشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب اما الجن أو الملك واذا لم يكن الصادر من النبى صلى الله عليه وسلم بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة وعلى التقديرين فهو رسول الله وهذا من أحسن الطرق وهو أن يثبت الصفة التى هى أشرف الصفات فى البشر بنفى أخس الصفات فانه لو قال أولا هو رسول الله كانوا يقولون فيه النزاع فاذا قال ما هو مجنون لم يسعهم انكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله فى قوة لسانه وباله فاذا ساعدوا على ذلك لزمتهم المسئلة ولهذا قال بعده ان هو الا نذير يعنى اما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين انه ليس به جنة فهو نذير (المسئلة السادسة) قوله بين يدى عذاب شديد اشارة الى قرب العذاب كأنه قال ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب بين يدى العذاب أى سوف يأتى العذاب بعده ۞ ثم قال تعالى ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله وهو على كل شئ شهيد﴾ لما ذكر أنه ما به جنة ليلزم منه كونه نبيا ذكر وجها آخر يلزم منه انه نبى اذا لم يكن مجنونا لان من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل اذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروى يكون مجنونا فالنبى عليه السلام بدعواه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلا فان كل أحد يقصده و يعاديه ولا يطلب أجرا فى الدنيا فهو يفعله للآخرة والكاذب فى الآخرة معذب لا مثاب فلو كان كاذبا لكان مجنونا لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب فهو نبى صادق وقوله وهو على كل شئ شهيد تقرير آخر للرسالة وذلك لان الرسالة لا تثبت الا بالدعوى والبينة بان يدعى شخص النبوة و يظهر الله له المعجزة فهى بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول فى افادة العلم بدليل أن من قال لقوم انى مرسل من هذا الملك اليكم ألزمكم قبول قولى والملك حاضر ناظر ثم قال للملك أيها الملك ان كنت انا رسولك اليهم فقل لهم انى رسولك فاذا قال انه رسولى اليكم لا يبقى فيه شك كذلك اذا قال يا أيها الملك ان كنت أنا رسولك اليهم فألبسنى قباءك فلو ألبسه قباءه فى عقب كلامه يجزم الناس بانه رسوله كذلك حال الرسل اذا قال الانبياء لقومهم نحن رسل الله ثم قالوا يا الهنا ان كنا رسلك فانطق هذه الحجارة أو انشر هذا الميت ففعله حصل الجزم بانه صدقه ۞ ثم قال تعالى ﴿قل ان ربى يقذف بالحق علام الغيوب﴾ وفيه وجهان (احدهما) يقذف بالحق فى قلوب المحقين وعلى هذا الوجه للآية بما قبلها تعلق وذلك من حيث ان الله تعالى لما بين رسالة النبى صلى الله عليه وسلم بقوله ان هو الا نذير لكم وأكده بقوله قل ما سألتكم من أجر فهو لكم وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بانزال الذكر عليه كما قال تعالى عنهم أأنزل عليه الذكر

من

بحيث تكون احداهما مرأى من الاخرى على المجاز كان بعضها يرى البعض ونسبة الرؤية اليها لا اليهم للايذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها اياهم حقيقة أو تمثيلا وفى قوله تعالى (من مكان بعيد) اشعار بان بعد ما بينها وبينهم من المسافة حين رأتهم خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة وفيه مزيد تهويل لامرها قال الكلبى والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) أى صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاظ وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه هذا وان الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله تعالى فيها حياة فترى وتتغيظ وتزفر وقيل ان ذلك لزبانيتها فنسب اليها على حذف المضاف (واذا ألقوا منها مكانا) نصب على الظرفية ومنها حال منه لانه فى الاصل صفة له (ضيقا) صفة لمكانا مفيدة لزيادة شدة فان الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة وهو السر فى وصف الجنة بان عرضها السموات والارض وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله تعالى عنهم تضيق جهنم عليهم كما يضيق الزج على الرمح وسئل النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط قال الكلبى الاسفلون يرفعهم اللهب والاعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون فيها وقرئ ضيقا بسكون الياء (مقرنين) حال من مفعول ألقوا أى اذا ألقوا منها مكانا ضيقا حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم الى أعناقهم بالجوامع وقيل مقرنين

من يشاء ذكر ما يصلح جوابا لهم فقال قل ان ربى يقذف بالحق أى فى القلوب اشارة الى أن الامر بيده يفعل ما يريد و يعطى ما يشاء لمن يشاء ثم قال تعالى علام الغيوب اشارة الى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو ان من يفعل شيأ كما يريده من غير اختصاص محل الفعل بشئ لا يوجد فى غيره لا يكون عالما وانما يفعل ذلك اتفاقا كما اذا أصاب السهم موضعا دون غيره مع تسوية المواضع فى المحاذاة فقال يقذف بالحق كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب ما يفعله فهو يفعل ما يريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب اذ هو علام الغيوب (الوجه الثانى) أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما قال فى سورة الانبياء بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضا ظاهر وذلك من حيث ان براهين التوحيد لما ظهرت وشبههم دحضت قال قل ان ربى يقذف بالحق أى على باطلكم وقوله علام الغيوب على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم الا على التوحيد والرسالة وأما الحشر فعلى وقوعه لا برهان غير اخبار الله تعالى عنه وعن أحواله وأهواله ولولا بيان الله بالقول لما بان لاحد بخلاف التوحيد والرسالة فلما قال يقذف بالحق أى على الباطل اشارة الى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال علام الغيوب أى ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لا خلف فيه فان الله علام الغيوب والآية تحتمل تفسيرا آخر وهو أن يقال ربى يقذف بالحق أى ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على الوجهين الاولين متعلق بالمفعول به أى الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء فى قوله وقضى بينهم بالحق وفى قوله فاحكم بين الناس بالحق والمعنى على هذا الوجه هو ان الله تعالى قد قذف ما قذف فى قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم ما فى قلوبهم وما فى قلوبكم ۞ ثم قال تعالى ﴿قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾ لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه (أحدها) انه القرآن (الثانى) انه بيان التوحيد والحشر وكل ما ظهر على لسان النبى صلى الله عليه وسلم (الثالث) المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام و يحتمل أن يكون المراد من جاء الحق ظهر الحق لان كل ما جاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق وقد بينا أن الحق هو الموجود ولما كان ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر كان حقا لا ينتفى ولما كان ما يأتون به من الاشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلا لا يثبت وهذا المعنى يفهم من قوله وما يبدئ الباطل أى الباطل لا يفيد شيأ فى الاولى ولا فى الآخرة فلا امكان لوجوده أصلا والحق المأتى به لا عدم له أصلا وقيل المراد لا يبدئ الشيطان ولا يعيد وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى قل ان ربى يقذف بالحق لما كان فيه معنى قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه كان يقع لمتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق فابطله ودمغه فقال ههنا ليس للباطل تحقق أولا وآخرا وانما المراد من قوله فيدمغه أى فيظهر بطلانه الذى لم يزل كذلك واليه الاشارة بقوله تعالى فى موضع آخر وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا يعنى ليس أمرا متجددا زهوق الباطل فقوله وما يبدئ الباطل أى لا يثبت فى الاول شيأ خلاف الحق ولا يعيد أى لا يعيد فى الآخرة شيأ خلاف الحق ۞ ثم قال تعالى ﴿قل ان ضللت فانما أضل على نفسى وان اهتديت فبما يوحى الى ربى انه سميع قريب﴾ هذا فيه تقرير الرسالة أيضا وذلك لان الله تعالى قال على سبيل العموم من اهتدى فلنفسه وقال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وان اهتديت فبما يوحى الى ربى يعنى ضلالى على نفسى كضلالكم وأما اهتدائى فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم وانما هو بالوحى المبين وقوله انه سميع أى يسمع اذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير ليس كمن يسمع عن بعد ولا يلحق الداعى ۞ ثم قال تعالى ﴿ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب﴾ لما قال سميع قال هو قريب فان لم يعذب عاجلا ولا يعين صاحب الحق فى الحال فيوم الفزع آت لا فوت وانما يستعجل من يخاف الفوت وقوله ولو ترى جوابه محذوف أى ترى عجبا وأخذوا من مكان قريب لا يهربون وانما الاخذ قبل تمكنهم من الهرب ۞ ثم قال تعالى ﴿وقالوا آمنا به﴾ أى بعد ظهور الامر حيث لا ينفع ايمان قالوا آمنا ﴿وأنى لهم التناوش﴾ أى كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون الا فى الدنيا وهم فى الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة فان قيل فكيف قال فى كثير من المواضع ان الآخرة من الدنيا قريبة ولهذا سماها الله

مع الشياطين فى السلاسل كل كافر مع شيطان وفى أرجلهم الاصفاد (دعوا هنالك) أى فى ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة (ثبورا) أى يتمنون هلاكا و ينادونه يا ثبوراه تعال فهذا حينك وأوانك (لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا) على تقدير قول اما منصوب على أنه حال من فاعل دعوا أى دعوه مقولا لهم ذلك حقيقة بأن يخاطبهم الملائكة به لتنبيههم على خلود عذابهم وأنهم لا يجابون الى ما يدعونه ولا ينالون ما يتمنونه من الهلاك المنجى أو تمثيلا وتصويرا لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول ولا خطاب أى دعوه حال كونهم احقاء بان يقال لهم ذلك واما مستأنف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فماذا يكون عند دعائهم المذكور فقيل يقال لهم ذلك اقناطا مما علقوا به أطماعهم من الهلاك وتنبيها على أن عذابهم الملجئ لهم الى استدعاء الهلاك بالمرة أبدى لا خلاص لهم منه أى لا تقتصروا على دعاء ثبور واحد (وادعوا ثبورا كثيرا) أى بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لا بحسب كثرته فى نفسه فان ما يدعونه ثبور واحد فى حد ذاته لكنه كلما تعلق به دعاء من تلك الادعية الكثيرة صار كأنه ثبور مغاير لما تعلق به دعاء آخر منها وتحقيقه لا تدعوه دعاء واحدا وادعوه أدعية كثيرة فان ما أنتم فيه من العذاب لغاية شدته وطول مدته مستوجب لتكرير الدعاء فى كل آن وهذا أدل على فظاعة العذاب وهوله من جعل تعدد الدعاء وتجدده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانه أو لتعدده بتجدد الجلود كما لا يخفى

الساعة وقال لعل الساعة قريب نقول الماضى كالامس الدابر بعدما يكون اذلا وصول اليه والمستقبل وان كان بينه وبين الحاضر سنين فانه آت فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها وفى الدنيا يوم القيامة قريب لاتيانه والتناوش هو التناول عن قرب وقيل عن بعد ۞ ولما جعل الله الفعل مأخوذا كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال ﴿من مكان بعيد﴾ والمراد مامضى من الدنيا ۞ ثم بين الله تعالى أن ايمانهم لا نفع فيه بسبب انهم كفروا به من قبل والاشارة فى قوله آمنا به وقوله ﴿وقد كفروا به من قبل﴾ الى شئ واحد اما محمد عليه الصلاة والسلام واما القرآن واما الحق الذى أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى وقوله ﴿ويقذفون بالغيب﴾ ضد يؤمنون بالغيب لان الغيب ينزل من الله على لسان الرسول فيقذفه الله فى القلوب ويقبله المؤمن وأما الكافر فهو يقذف بالغيب أى يقول مالا يعلمه وقوله ﴿من مكان بعيد﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ان مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من انهم لا يقدرون على أعمال كثيرة الا اذا كانوا أشخاصا كثيرة فكذلك المخلوقات الكثيرة وأخذوا بعد الاعادة من حالهم وعجزهم عن الاحياء فان المريض يداوى فاذا مات لا يمكنهم اعادة الروح اليه وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ ويحتمل أن يقال انهم كانوا يقولون بان الساعة اذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا كقول قائلهم ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى فكانوا يقولون ذلك فان كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن احساس فان مالا يجب عقلا لا يعلم الا بالاحساس أو بقول الصادق فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد فان قيل قد ذكرت ان الآخرة قريب فكيف قال من مكان بعيد نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيدا عنده (الثانى) ان الحكاية يوم القيامة فكأنه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا ويحتمل وجها آخر وهو أنهم فى الآخرة يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا ۞ ثم قال تعالى ﴿وحيل بينهم وبين مايشتهون﴾ من العود الى الدنيا أو بين لذات الدنيا فان قيل كيف يصح قولك مايشتهون من العود مع أنه تعالى قال ﴿كما فعل باشياعهم من قبل انهم كانوا فى شك مريب﴾ وما حيل بينهم وبين العود قلنا لم قلتم انه ما حيل بينهم بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور البأس ولم يقبل وقوله مريب يحتمل وجهين (أحدهما) ذى ريب (والثانى) موقع فى الريب وسنذكره فى موضع آخر ان شاء الله تعالى والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وأزواجه أجمعين

﴿سورة فاطر أربعون وخمس آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا﴾ قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة فى أكثر الامر ونعم الله قسمان عاجلة وآجلة والعاجلة وجود وبقاء والآجلة كذلك ايجاد مرة وابقاء أخرى وقوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور اشارة الى النعمة العاجلة التى هى الايجاد واستدللنا عليه بقوله تعالى هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وقوله فى الكهف الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب اشارة الى النعمة العاجلة التى هى الابقاء فان البقاء والصلاح بالشرع والكتاب ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولا يفصل بينهم فكان يفضى ذلك الى التقاتل والتفانى فانزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل وفى قوله فى سورة سبا الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الارض وله الحمد فى الآخرة اشارة الى نعمة الايجاد الثانى بالحشر واستدللنا عليه بقوله يعلم مايلج فى الارض من الاجسام ومايخرج منها وماينزل من السماء من الارواح ومايعرج فيها منها وقوله عن الكافرين وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى وههنا الحمد اشارة الى نعمة البقاء فى الآخرة ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا أى يجعلهم رسلا يتلقون عباد الله كما قال تعالى وتتلقاهم الملائكة وعلى هذا فقوله تعالى فاطر السموات يحتمل وجهين (الاول) معناه مبدعها كما نقل عن ابن

وأما ماقيل من أن المعنى انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا انما هو ثبور كثير امالان العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أولانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم فلا يلائم المقام كيف لا وهم انما يدعون هلاكا ينهى عذابهم وينجيهم منه فلابد أن يكون الجواب اقناطهم من ذلك ببيان استحالته ودوام مايوجب استدعاءه من العذاب الشديد وتقييد النهى والامر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الايام المعهودة (قل) تقريعا لهم وتهكما بهم وتحسيرا على مافاتهم (أذلك) اشارة الى ماذكر من السعير باعتبار اتصافهما بما فصل من الاحوال الهائلة ومافيه من معنى البعد للاشعار بكونها فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة أى قل لهم أذلك الذى ذكر من السعير التى أعتدت لمن كذب بالساعة وشأنها كيت وكيت وشان أهلها ذيت وذيت (خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون) أى وعدها المتقون واضافة الجنة الى الخلد للمدح وقيل للتمييز عن جنات الدنيا والمراد بالمتقين المتصفون بمطلق التقوى لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة منها فقط (كانت) تلك الجنة (لهم) فى علم الله تعالى أو فى اللوح المحفوظ أولان ماوعده الله تعالى فهو كائن لامحالة فحكى تحققه ووقوعه (جزاء) على أعمالهم حسبما من الوعد الكريم (ومصيرا) ينقلبون اليه (لهم فيها مايشاؤن) أى مايشاؤنه من فنون الملاذ والمشتهيات وأنواع النعيم كما فى قوله تعالى ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولعل كل فريق منهم

عباس (والثانى) فاطر السموات والارض أى شاقهما لنزول الارواح من السماء وخروج الاجساد من الارض ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا فان فى ذلك اليوم تكون الملائكة رسلا وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى لان قوله كما فعل باشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان فى شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمنت كما قال تعالى عنهم وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بارساله الملائكة اليهم مبشرين وبين أنه يفتح لهم أبواب الرحمة ۞ وقوله تعالى (أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أقل ما يكون لذى الجناح أن يكون له جناحان وما بعدهما زيادة وقال قوم فيه ان الجناح اشارة الى الجهة وبيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شئ وكل شئ فهو تحت قدرته ونعمته والملائكة لهم وجه الى الله يأخذون منه نعمه ويعطون من دونهم مما أخذوه باذن الله كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك وقوله علمه شديد القوى وقال تعالى فى حقهم فالمدبرات أمرا فهما جناحان وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة وفيهم من يفعله لا بواسطة فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات ومنهم من له أربع جهات وأكثر والظاهر ما ذكرناه أولا وهو الذى عليه اطباق المفسرين ۞ وقوله تعالى (يزيد فى الخلق ما يشاء) من المفسرين من خصصه وقال المراد الوجه الحسن ومنهم من قال الصوت الحسن ومنهم من قال كل وصف محمود والاولى أن يعمم ويقال الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء وينقص ما يشاء ۞ وقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) يقرر قوله يزيد فى الخلق ما يشاء ۞ ثم قال تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الامر وقال ما يفتح الله للناس يعنى ان رحم فلا مانع له وان لم يرحم فلا باعث له عليها وفى الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه (أحدها) التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة فى الذكر وهو وان كان ضعيفا لكنه وجه من وجوه الفضل (وثانيها) هو أنه أنث الكناية فى الاول فقال ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وجاز من حيث العربية أن يقال له ويكون عائدا الى ما ولكن قال تعالى لها ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهى واصلة الى من رحمه وقال عند الامساك وما يمسك فلا مرسل له بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة بل ذكره بلفظ يحتمل أن يكون الذى لا يرسل هو غير الرحمة فان قوله تعالى وما يمسك عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى ما يفتح الله للناس من رحمة فانه مخصص مبين (وثالثها) قوله من بعده أى من بعد الله فاستثنى ههنا وقال لا مرسل له الا الله فنزل له مرسلا وعند الامساك قال لا ممسك لها ولم يقل غير الله لان الرحمة اذا جاءت لا ترتفع فان من رحمه الله فى الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الايمان ۞ ثم قال تعالى (وهو العزيز) أى كامل القدرة (الحكيم) أى كامل العلم ۞ ثم قال تعالى (يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم) لما بين ان الحمد لله وبين بعض وجوه النعمة التى تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الاجمال فقال اذكروا نعمت الله وهى مع كثرتها منحصرة فى قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال تعالى (هل من خالق غير الله) اشارة الى نعمة الايجاد فى الابتداء وقال تعالى (يرزقكم من السماء والارض) اشارة الى نعمة الابقاء بالرزق الى الانتهاء ثم بين أنه (لا اله الا هو) نظرا الى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شئ قدير نافذ الارادة فى كل شئ ولا مثل لهذا ولا معبود لذاته غير هذا ونظرا الى نعمته حيث لا خالق غيره ولا رازق الا هو ۞ ثم قال تعالى (فأنى تؤفكون) أى كيف تصرفون عن هذا الظاهر فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت * ثم لما بين الاصل الاول وهو التوحيد ذكر الاصل الثانى وهو الرسالة ۞ فقال تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) ثم بين من حيث الاجمال أن المكذب فى العذاب والمكذب له الثواب بقوله تعالى (والى الله ترجع الامور) ثم بين الاصل الثالث وهو الحشر فقال تعالى (يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) أى الشيطان وقد ذكرنا ما فيه من المعنى اللطيف فى تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول المكلف قد يكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأى فيغتر بأدنى شئ وقد يكون فوق ذلك فلا يغتر به ولكن اذا جاءه غار وزين له ذلك الشئ وهون عليه مفاسده وبين له منافع يغتر لما فيها من

يقتنع بما أتيح له من درجات النعيم ولا تمتد أعناق هممهم الى ما فوق ذلك من المراتب العالية فلا يلزم الحرمان ولا تساوى مراتب أهل الجنان (خالدين) حال من الضمير المستكن فى الجار والمجرور لاعتماده على المبتدا وقيل من فاعل يشاؤن (كان) أى ما يشاؤنه وقيل الوعد المدلول عليه بقوله تعالى وعد المتقون (على ربك وعدا مسؤلا) أى موعودا حقيقا بان يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون أو مسؤلا يسأله الناس فى دعائهم بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك أو الملائكة بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم وما فى على من معنى الوجوب لامتناع الخلف فى وعده تعالى ولا يلزم منه الالجاء الى الانجاز فان تعلق الارادة بالموعود متقدم على الوعد الموجب للانجاز وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والاشعار بانه عليه الصلاة والسلام هو الفائز بآثار ذلك الوعد الكريم ما لا يخفى (ويوم يحشرهم) نصب على أنه مفعول لمضمر مقدم معطوف على قوله تعالى قل أذلك الخ أى واذكر لهم بعد التقريع والتحسير يوم يحشرهم الله عز وجل وتعليق التذكير باليوم مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث الهائلة قد مر وجهه غير مرة أو على أنه ظرف لمضمر مؤخر قد حذف للتنبيه على كمال هوله وفظاعة ما فيه والايذان بقصور العبارة عن بيانه أى يوم يحشرهم يكون من الاحوال والاهوال ما لا يفى ببيانه المقال وقرئ بنون العظمة بطريق الالتفات من الغيبة الى التكلم وبكسر

اللذة مع ماينضم اليه من دعاء ذلك الغار اليه وقد يكون قوى الجاش غزير العقل فلا يغتر ولا يغر فقال الله تعالى لا تغرنكم الحياة الدنيا اشارة الى الدرجة الاولى وقال ولا يغرنكم بالله الغرور اشارة الى الثانية ليكون واقعا فى الدرجة الثالثة وهى العليا فلا يغر ولا يغتر ۞ ثم قال تعالى ﴿ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ لما قال تعالى ولا يغرنكم بالله الغرور ذكر ما يمنع العاقل من الاغترار وقال ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ولا تسمعوا قوله وقوله فاتخذوه عدوا أى اعملوا ما يسوءه وهو العمل الصالح ۞ ثم قال تعالى ﴿انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ اشارة الى معنى لطيف وهو أن من يكون له عدو فله فى أمره طريقان (أحدهما) أن يعاديه مجازاة له على معاداته (والثانى) أن يذهب عداوته بارضائه فلما قال الله تعالى ان الشيطان لكم عدو أمرهم بالعداوة وأشار الى أن الطريق ليس الا هذا وأما الطريق الآخر وهو الارضاء فلا فائدة فيه لانكم اذا ارضيتموه واتبعتموه فهو لا يؤديكم الا الى السعير واعلم أن من علم أن له عدوا لا مهرب له منه وجزم بذلك فانه يقف عنده و يصبر على قتاله والصبر معه الظفر فكذلك الشيطان لا يقدر الانسان ان يهرب منه فانه معه ولا يزال يتبعه الا أن يقف له و يهزمه فهزيمة الشيطان بعزيمة الانسان فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة ۞ ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله فقال ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد﴾ فالمعادى للشيطان وان كان فى الحال فى عذاب ظاهر فهو ليس بشديد والانسان اذا كان عاقلا يختار العذاب المنقطع اليسير دفعا للعذاب الشديد المؤبد ألا ترى ان الانسان اذا عرض فى طريقه شوك ونار ولا يكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولا يدخل النار ونسبة النار التى فى الدنيا الى النار التى فى الآخرة دون نسبة الشوك الى النار العاجلة ۞ وقال تعالى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾ قد ذكر تفسيره مرارا و بين فيه ان الايمان فى مقابلته المغفرة فلا يؤبد مؤمن فى النار والعمل الصالح فى مقابلته الاجر الكبير ۞ ثم قال تعالى ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء و يهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون﴾ يعنى ليس من عمل سيأ كالذى عمل صالحا كما قال بعد هذا بآيات وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور وله تعلق بما قبله وذلك من حيث انه تعالى لما بين حال المسىء الكافر والمحسن المؤمن وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيأ الا قليل فكان الكافر يقول الذى له العذاب الشديد هو الذى يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها والذى له الاجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فان المحسن غير ومن زين له العمل السيئ فرآه حسنا غير بل الذين زين لهم السيئ دون من أساء وعلم انه مسىء فان الجاهل الذى يعلم جهله والمسىء الذى يعلم سوء عمله يرجع و يتوب والذى لا يعلم يصر على الذنوب والمسىء العالم له صفة ذم بالاساءة وصفة مدح بالعلم والمسىء الذى يرى الاساءة احسانا له صفتا ذم الاساءة والجهل ثم بين أن الكل بمشيئة الله وقال فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وذلك لان الناس اشخاصهم متساوية فى الحقيقة والاساءة والاحسان والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فاذا عرفها البعض دون البعض لا يكون ذلك باستقلال منهم فلا بد من الاستناد الى ارادة الله ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حزن من اصرارهم بعد اتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال فلا تذهب نفسك عليهم حسرات كما قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم ثم بين أن حزنه ان كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبما يصنعون لو أراد اعانهم واحسانهم لصدهم عن الضلال وردهم عن الاضلال وان كان لما به منهم من الايذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم على ما يصنعون ۞ ثم عاد الى البيان فقال تعالى ﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور﴾ هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لان الهواء قد يسكن وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك الى اليمين وقد يتحرك الى اليسار وفى حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى والله الذى أرسل بلفظ الماضى وقال فتثير سحابا بصيغة المستقبل وذلك لانه لما أسند فعل الارسال الى الله وما يفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى فى العدم لا زمانا ولا جزأ من

الشىء أيضا (وما يعبدون من دون الله) أريد به ما يعم العقلاء وغيرهم اما لان كلمة ما موضوعة للكل كما ينبئ عنه أنك اذا رأيت شبحا من بعيد تقول ما هو أو لانه أريد به الوصف لا الذات كأنه قيل ومعبوديهم أو لتغليب الاصنام على غيرها تنبيها على أنهم مثلها فى السقوط عن رتبة المعبودية أو اعتبار الغلبة عبدتها أو أريد به الملائكة والمسيح وعزير بقرينة السؤال والجواب أو الاصنام ينطقها الله تعالى أو تتكلم بلسان الحال كما قيل فى شهادة الايدى والارجل (فيقول) أى الله عز وجل للمعبودين اثر حشر الكل تقريعا للعبدة وتبكيتا لهم وقرئ بالنون كما عطف عليه وقرئ هذا بالياء والاول بالنون على طريق الالتفات الى الغيبة (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) بان دعوتموهم الى عبادتكم كما فى قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله (أم هم ضلوا السبيل) أى عن السبيل بأنفسهم لاخلالهم بالنظر الصحيح واعراضهم عن المرشد فحذف الجار وأوصل الفعل الى المفعول كقوله تعالى وهو يهدى السبيل والاصل الى السبيل أو للسبيل وتقديم الضميرين على الفعلين لان المقصود بالسؤال هو المتصدى للفعل لا نفسه (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية السؤال كأنه قيل فماذا قالوا فى الجواب فقيل قالوا (سبحانك) تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملائكة معصومون أو جمادات لا قدرة لها على شئ أو اشعارا بانهم الموسومون بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم اضلال عباده أو تنزيها له تعالى عن الانداد

الزمان فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كانه كان وكانه فرغ من كل شئ فهو قدر الارسال في الاوقات المعلومة الى المواضع المعينة والتقدير كالارسال ولما أسند فعل الاثارة الى الريح وهو يؤلف في زمان فقال تثير أي على هيئتها (المسئلة الثانية) قال أرسل اسناد للفعل الى الغائب وقال سقناه باسناد الفعل الى المتكلم وكذلك في قوله فأحيينا وذلك لانه في الاول عرف نفسه بفعل من الافعال وهو الارسال ثم لما عرف قال أنا الذي عرفتني سقت السحاب وأحييت الارض ففي الاول كان تعريفا بالفعل العجيب وفي الثاني كان تذكيرا بالنعمة فان كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والاحياء وقوله سقناه وأحيينا بصيغة الماضي يؤيد ماذكرناه من الفرق بين قوله أرسل وبين قوله تثير (المسئلة الثالثة) ماوجه التشبيه بقوله كذلك النشور نقول فيه وجوه (أحدها) ان الارض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها كذلك الاعضاء تقبل الحياة (وثانيها) كما ان الريح يجمع القطع السحابية كذلك يجمع بين أجزاء الاعضاء وابعاض الاشياء (وثالثها) كما انا نسوق الريح والسحاب الى البلد الميت نسوق الروح والحياة الى البدن الميت (المسئلة الرابعة) ما الحكمة في اختيار هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له في كل شئ آية تدل على انه واحد فنقول لما ذكر الله انه فاطر السموات والارض وذكر من الامور السماوية الارواح وارسالها بقوله جاعل الملائكة رسلا ذكر من الامور الارضية الرياح وارسالها بقوله والله الذي أرسل الرياح ۞ ثم قال تعالى ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ لما بين برهان الايمان اشار الى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التي كانوا يتوهمونها من حيث انهم ما كانوا في طاعة أحد ولم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم فكانوا ينحتون الاصنام وكانوا يقولون ان هذه آلهتنا ثم انهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهي عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له فقال ان كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة في الحقيقة فهي كلها لله ومن يتذلل له فهو العزيز ومن يتعزز عليه فهو الذليل وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال في هذه الآية فلله العزة جميعا وقال في آية أخرى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين فقوله جميعا يدل على أن لا عزة لغيره فنقول قوله فلله العزة أي في الحقيقة وبالذات وقوله ولرسوله أي بواسطة القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول وذلك لان عزة المؤمنين بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم ألا ترى قوله تعالى ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله (المسئلة الثانية) قوله اليه يصعد الكلم الطيب تقرير لبيان العزة وذلك لان الكفار كانوا يقولون نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده لان البعد من الملك ذلة فقال تعالى ان كنتم لا تصلون اليه فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه وصعد اليه فهو عزيز ومن رد كلامه في وجهه فهو ذليل وأما هذه الاصنام لا يتبين عندها الذليل من العزيز اذ لا علم لها فكل أحد عندها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحا رفعه اليه ومن عمل سيأ رده عليه فالعزيز من يرفع الذي عمله لوجهه والذليل من يدفع الذي عمله في وجهه وأما هذه الاصنام فلا تعلم شيأ فلا عزيز عندها ولا ذليل فلا عزة بها بل عليها ذلة وذلك لان ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده ورب والهه حجارة أو خشبا ماذا يكون هو (المسئلة الثالثة) في قوله اليه يصعد الكلم الطيب وجوه (أحدها) كلمة لا اله الا الله هي الطيبة (ثانيها) سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر طيب (ثالثها) هذه الكلمات الاربع وخامسة وهي تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم فهو اليه يصعد (المسئلة الرابعة) قوله تعالى والعمل الصالح يرفعه في الهاء وجهان (أحدهما) هي عائدة الى الكلم الطيب أي العمل الصالح هو الذي يرفعه الكلم الطيب ورد في الخبر لا يقبل الله قولا بلا عمل (وثانيهما) هي عائدة الى العمل الصالح وعلى هذا في الفاعل الرافع وجهان (أحدهما) هو الكلم الطيب أي الكلم الطيب يرفع العمل الصالح وهذا يؤيده قوله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن (وثانيهما) الرافع هو الله تعالى (المسئلة الخامسة) ما وجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثاني حيث يصعد الكلم بنفسه ويرفع العمل بغيره فنقول الكلام شريف فان امتياز الانسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى ولقد كرمنا بني

(ما كان ينبغي لنا) أي ما صح وما استقام لنا (أن نتخذ من دونك) أي متجاوزين اياك (من أولياء) نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له فأني يتصور ان نحمل غيرنا على أن يتخذ وليا غيرك فضلا أن يتخذنا وليا أو أن نتخذ من دونك أولياء أي أتباعا فان الولي كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع كالمولى يطلق على الاعلى والاسفل ومنه أولياء الشياطين أي أتباعه وقرئ على البناء للمفعول من المتعدي الى مفعولين كما في قوله تعالى واتخذ الله ابراهيم خليلا ومفعوله الثاني من أولياء على أن من للتبعيض أي أن نتخذ بعض أولياء وهي على الاول مزيدة وتنكير أولياء من حيث انهم أولياء مخصوصون وهم الجن والاصنام (ولكن متعتهم وآباءهم) استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون بعد بيان تنزههم عن اضلالهم وقد نعي عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسبابا للضلالة أي ما أضللناهم ولكنك متعتهم وآباءهم بانواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا في الشهوات وانهمكوا فيها (حتى نسوا الذكر) أي غفلوا عن ذكرك أو عن التذكر في آلائك والتدبر في آياتك فجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة الى الغواية (وكانوا) أي في قضائك المبني على علمك الازلي المتعلق بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم من الاعمال السيئة (قوما بورا) أي هالكين على أن بورا مصدر وصف به الفاعل مبالغة ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع أو جمع بائر كعوذ في جمع عائذ والجملة اعتراض تذييلي مقرر

آدم أى بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الانسان وغيره والشريف اذا وصل الى باب الملك لايمنع ومن دونه لايجدا لطريق الاعند الطلب ويدل على هذا أن الكافر اذا تكلم بكلمة الشهادة ان كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة وان كان ظاهرا أمن فى نفسه ودمه وأهله وحرمه فى الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات (ووجه آخر) القلب هو الاصل وقد تقدم مايدل عليه وقال النبى صلى الله عليه وسلم ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب ومافى القلب لايظهر الا باللسان ومافى اللسان لايتبين صدقه الا بالفعل فالقول أقرب الى القلب من الفعل ألا ترى أن الانسان لايتكلم بكلمة الاعن قلب وأما الفعل قد يكون لاعن قلب كالعبث باللحية ولان النائم لايخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو فى أكثر الامر لايتكلم فى نومه الا نادرا لما ذكرنا ان الكلام بالقلب ولا كذلك العمل فالقول أشرف (المسئلة السادسة) قال الزمخشرى المكر لايتعدى فبم انتصاب السيآت وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيآت فهو وصف مصدر محذوف ويحتمل أن يقال استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته كما قال الذين يعملون السيآت وفى قوله الذين يعملون السيآت يحتمل ماذكرناه أن يكون السيآت وصفا لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيآت وعلى هذا فيكون هذا فى مقابلة قوله والعمل الصالح يرفعه اشارة الى بقائه وارتقائه ومكر أولئك أى العمل السيئ هو يبور اشارة الى فنائه ۞ ثم قال تعالى ﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب ان ذلك على الله يسير﴾ قد ذكرنا مرارا ان الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها فى عدد محصور منحصرة فى قسمين دلائل الآفاق ودلائل الانفس كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات وما يرسل منها من الملائكة والارض وما يرسل فيها من الرياح شرع فى دلائل الانفس وقد ذكرنا تفسيره مرارا وذكرنا ماقيل من ان قوله من تراب اشارة الى خلق آدم ثم من نطفة اشارة الى خلق أولاده وبينا أن الكلام غير محتاج الى هذا التأويل بل خلقكم خطاب مع الناس وهم أولاد آدم كلهم من تراب ومن نطفة لان كلهم من نطفة والنطفة من غذاء والغذاء بالآخرة ينتهى الى الماء والتراب فهو من تراب صار نطفة وقوله وما تحمل من أنثى ولا تضع اشارة الى كمال العلم فان مافى الارحام قبل الانخلاق بل بعده مادام فى البطن لايعلم حاله أحد كيف والام الحاملة لاتعلم منه شيأ فلما ذكر بقوله خلقكم من تراب كمال قدرته بين بقوله وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه كمال علمه ثم بين نفوذ ارادته بقوله وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب فبين انه هو القادر العالم المريد والاصنام لاقدرة لها ولا علم ولا ارادة فكيف يستحق شئ منها العبادة وقوله ان ذلك على الله يسير أى الخلق من التراب ويحتمل أن يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير ويحتمل أن يكون المراد ان العلم بما تحمله الانثى يسير والكل على الله يسير والاول أشبه فان اليسير استعماله فى الفعل أليق ۞ ثم قال تعالى ﴿وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ قال أكثر المفسرين ان المراد من الآية ضرب المثل فى حق الكفر والايمان أو الكافر والمؤمن فالايمان لايشتبه بالكفر فى الحسن والنفع كما لايشتبه البحران العذب الفرات والملح الاجاج ثم على هذا فقوله ومن كل تأكلون لحما طريا لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والايمان دون حال البحرين لان الاجاج يشارك الفرات فى خير ونفع اذ اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية تؤخذ منهما والفلك تجرى فيهما ولا نفع فى الكفر والكافر وهذا على نسق قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل وقوله كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار والاظهر ان المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث ان البحرين يستويان فى الصورة ويختلفان فى الماء فان أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج ولو كان ذلك بايجاب لما اختلف المتساويان ثم انهما بعد اختلافهما يوجد منهما أمور متشابهة فان اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية تؤخذ منهما ومن يوجد فى المتشابهين اختلافا ومن المختلفين اشتباها لايكون الا قادرا مختارا

لمضمون ماقبله وقوله تعالى (فقد كذبوكم) حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام جوابهم وتوجيهه الى العبدة مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب أى فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذبوكم المعبودون أيها الكفرة (بما تقولون) أى فى قولكم انهم آلهة وقيل فى قولكم هؤلاء أضلونا ويأباه أن تكذيبهم فى هذا القول لاتعلق له بما بعده من عدم استطاعتهم للصرف والنصر أصلا وانما الذى يستتبعه تكذيبهم فى زعمهم أنهم آلهتهم وناصروهم وأياما كان فالباء بمعنى فى أوهى صلة للتكذيب على أن الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير المنصوب وقرئ بالياء أى كذبوكم بقولهم سبحانك الآية (فما تستطيعون) أى ماتملكون (صرفا) أى دفعا للعذاب عنكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير أى بالذات ولا بالواسطة وقيل حيلة من قولهم انه ليتصرف فى أموره أى يحتال فيها وقيل توبة (ولا نصرا) أى فردا من أفراد النصر لامن جهة أنفسكم ولامن جهة غيركم والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ماقبلها من التكذيب لكن لاعلى معنى أنه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل فى زعمهم حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم وفيه ضرب تهكم بهم وقرئ يستطيعون على صيغة الغيبة أى مايستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو يحتالوا لكم ولا أن ينصروكم وترتب مابعد الفاء على ماقبلها كما مر بيانه (ومن يظلم منكم) أيها المكلفون كذب أب

وقوله وما يستوى البحران اشارة الى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ ارادته وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال أهل اللغة لا يقال فى ماء البحر اذا كان فيه ملوحة مالح وانما يقال له ملح وقد يذكر فى بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحا ويؤاخذ قائله به وهو أصح مما يذهب اليه القوم وذلك لان الماء العذب اذا ألقى فيه ملح حتى ملح لا يقال له الامالح وماء ملح يقال للماء الذى صار من أصل خلقته كذلك لان المالح شئ فيه ملح ظاهر فى الذوق والماء الملح ليس ماء وملحا بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر فى الذوق بخلاف ماهو من أصل خلقته كذلك فلما قال الفقيه الملح اجزاء ارضية سبخة يصير بها ماء البحر مالحا راعى فيه الاصل فانه جعله ماء جاوره ملح وأهل اللغة حيث قالوا فى البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك من أصل الخلقة والاجاج المر وقوله ومن كل تأكلون لحما طريا من الطير والسمك وتستخرجون حلية تلبسونها من اللؤلؤ والمرجان وترى الفلك فيه مواخر أى ماخرات تمخر البحر بالجريان أى تشق وقوله ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون يدل على ماذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين ومافيهما على وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته ۞ ثم قال تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى) استدلال آخر باختلاف الازمنة وقد ذكرناه مرارا وذكرنا أن قوله تعالى بعده وسخر الشمس والقمر جواب لسؤال يذكره المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسى الواقعة فوق الارض وتحتها فان فى الصيف تمر الشمس على سمت الرؤس فى بعض البلاد المائلة فى الآفاق وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الارض أقل من نصف دائرة زمان مكثها تحت الارض فيقصر الليل وفى الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله تعالى وسخر الشمس والقمر يعنى سبب الاختلاف وان كان ماذكرتم لكن سير الشمس والقمر بارادة الله وقدرته فهو الذى فعل ذلك ۞ ثم قال تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) أى ذلك الذى فعل هذه الاشياء من فطر السموات والارض وارسال الارواح وارسال الرياح وخلق الانسان من تراب وغيره له الملك كله فلا معبود الا هو لذاته الكامل ولكونه ملكا والملك مخدوم بقدر ملكه فاذا كان له الملك كله فله العبادة كلها ثم بين ما ينافى صفة الالهية وهو قوله والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير (وههنا لطيفة) وهى ان الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من الاوصاف (أحدهما) ان الخلق بالقدرة والارادة (و... واستدل بهما على انه اله معبود كما قال تعالى قل أعوذ برب الناس ملك الناس ... رب والملك ورتب عليهما كونه الها أى معبودا وذكر فى الذين أشركوا به ... من دونه ما يملكون من قطمير ولم يذكر سلب الوصف ... بأن لا خالق لهم الا الله وانما كانوا يقولون بان الله تعالى ... التى الاصنام على صورتها أو طوالعها فقال لا يملكون ولا ملكهم ... من عدم الملك عدم الخلق لانه لو خلق شيأ لملكه فاذا لم يملك قطميرا ... (ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) ابطالا لما كانوا يقولون ان فى عبادة الاصنام عزة ... الحوائج عليها والله لا يرى ولا يصل اليه أحد فقال هؤلاء لا يسمعون ... فيسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة وقال هب انهم يسمعون ... يسمع ويعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا انهم يجيبون لان ذلك ... للمعقول والنزاع وان كان يقع فى المعقول فلا يمكن وقوعه فى المحسوس ... بشرككم لما بين عدم النفع فيهم فى الدنيا بين عدم النفع منهم فى الآخرة بقوله ويوم القيامة يكفرون بشرككم أى باشراككم ... أى الاشراك وقوله ولا ينبئك مثل خبير يحتمل وجهين (أحدهما ... عليه وسلم ووجهه هو ان الله تعالى لما أخبران الخشب والحجر ...

هؤلاء حيث ركبوا متن المكابرة والعناد واستمروا على ماهم عليه من الفساد وتجاوزوا فى اللجاج كل حد معناد (نذقه) فى الآخرة (عذابا كبيرا) لا يقادر قدره وهو عذاب النار وقرئ يذقه على أن الضمير لله سبحانه وتعالى وقيل لمصدر الفعل الواقع شرطا وتعميم الظلم لا يستلزم اشتراك الفاسق للكافر فى اذاقة العذاب الكبير فان الشرط فى اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقا وهو التوبة والاحباط بالطاعة اجماعا وبالعفو عندنا (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق) جواب عن قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق والجملة الواقعة بعد الا صفة لموصوف قد حذف ثقة بدلالة الجار والمجرور عليه وأقيمت هى مقامه كما فى قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم والمعنى ما أرسلنا أحدا قبلك من المرسلين الا آكلين وماشين وقيل هى حال ... الا انهم ليأكلون الخ ... البناء للمفعول

لايعلم بالعقل المجرد لولا اخبار الله تعالى عنه انهم يكفرون بهم يوم القيامة وهذا القول مع كون المخبر عنه أمراعجيبا هو كما قال لان المخبر عنه خبير (وثانيهما) هو أن يكون ذلك خطابا غير مختص باحد أى هذا الذى ذكره هو كما قال ولا ينبئك أيها السامع كائنا من كنت مثل خبير ۞ ثم قال تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد) لما كثر الدعاء من النبى صلى الله عليه وسلم والاصرار من الكفار قالوا ان الله لعله يحتاج الى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمرا بالغا ويهددنا على تركها مبالغا فقال تعالى أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه اليكم وانما هو لاشفاقه عليكم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) التعريف فى الخبر قليل والاكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لان المخبر لايخبر فى الاكثر الا بأمر لايكون عند المخبر به علم أو فى ظن المتكلم ان السامع لاعلم له به ثم ان المبتدأ لابد من أن يكون معلوما عند السامع حتى يقول له أيها السامع الامر الذى تعرفه أنت فيه المعنى الفلانى كقول القائل زيد قائم أو قام أى زيد الذى تعرفه ثبت له قيام لاعلم عندك به فان كان الخبر معلوما عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيها لاتفهيما يحسن تعريف الخبر غاية الحسن كقول القائل الله ربنا ومحمد نبينا حيث عرف كون الله ربا وكون محمد نبيا وههنا لما كان كون الناس فقراء أمرا ظاهرا لايخفى على أحد قال أنتم الفقراء (المسئلة الثانية) قوله الى الله اعلام بأنه لا افتقار الا اليه ولا اتكال الا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرا اليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار الى غيره ثم قال والله هو الغنى أى هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وأنتم مع احتياجكم لاتجيبونه ولاتدعونه فيجيبكم (المسئلة الثالثة) فى قوله الحميد لما زاد فى الخبر الاول وهو قوله أنتم الفقراء زيادة وهو قوله الى الله اشارة لوجوب حصر العبادة فى عبادته زاد وصفه بالغنى زيادة وهو كونه حميدا اشارة الى كونكم فقراء وفى مقابلته الله غنى وفقركم اليه فى مقابلة نعمه عليكم لكونه حميدا واجب الشكر فلستم أنتم فقراء والله مثلكم فى الفقر بل هو غنى على الاطلاق ولستم أنتم لما افتقرتم اليه تركتكم غير مقضى الحاجات بل قضى فى الدنيا حوائجكم وان آمنتم يقض فى الآخرة حوائجكم فهو حميد ۞ ثم قال تعالى (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد … انا لعناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها انه تعالى
قال ان يشأ يذهبكم أى ليس اذهابكم موقوفا الا على مشيئته … ف الشئ المحتاج اليه فان المحتاج لايقول
فيه ان يشأ فلان … داره وأعدم عقاره وانما يقول لولا … سكنى الى الدار لبعتها أو لولا الافتقار الى
العقار لتركتها … بيان الاستغنا … قوله ويأت … جديد يعنى ان كان يتوهم متوهم ان هذا
الملك له كمال وعظ… ملكه … مه فهو قادر بان يخلق خلقا جديدا أحسن من هذا وأجمل
… زيز) أى الاذهاب والاتيان وههنا مسئلة وهى ان لفظ
… ث قال فى حق نفسه وكان الله قويا عزيزا وقال فى هذه
… م بغيره حيث قال وما ذلك على الله بعزيز وقال عزيز عليه
… ن العزيز هو الغالب فى اللغة يقال من عز بز أى من غلب سلب
… فه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة الى ذلك الفعل فقوله وما
… عل بل هو هين على الله وقوله عزيز عليه ما عنتم أى يحزنه
… ر وازرة وزر أخرى وان تدع مثقلة الى حملها لايحمل منه شئ
… يث انه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة
… ازرة وزر أخرى أى لاتحمل نفس ذنب نفس فالنبى صلى الله
… يا وهو معتقد بأن ذنبه لاتحملونه أنتم فهو يتوقى ويحترز والله
… وا انكم ان ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول
… لآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله وازرة أى نفس وازرة ولم
… صوف والصفة فلم يقل ولا تزر نفس وازرة وزر أخرى لفائدة
… رى لما علم ان كل نفس وازرة مفهومة بهم وزرها مقصورة فى
… ن ولا تزر نفس وزر أخرى قد يجتمع معها ان لاتزر وزرا أصلا

مبهم من الآخرين ضرورة أن مجموع الرسل من حيث هو مجموع غير مفتون بمجموع الامم ولا كل فرد منهم بكل فرد من الامم ولا بعض مبهم من الاولين ببعض مبهم من الآخرين بل على معنى جعلنا كل بعض معين من الامم فتنة لبعض معين من الرسل كانه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة من الامم الكافرة فتنة لرسولها المعين المبعوث اليها وانما لم يصرح بذلك تعويلا على شهادة الحال هذا وأما تعميم الخطاب لجميع المكلفين وابقاء البعضين على العموم والابهام على معنى وجعلنا بعضكم أيها الناس فتنة لبعض آخر منكم فيأباه قوله تعالى (أتصبرون) فانه غاية للجعل المذكور ومن البين أن ليس ابتلاء كل أحد من آحاد الناس مغيا بالصبر بل بما يناسب حاله على ان الاقتصار على ذكره من غير تعرض لما دل له مما يدل على أن اللائق بحال المفتونين والمتوقع صدوره عنهم هو الصبر لاغير فلابد أن يكون المراد بهم الرسل فيحصل به تسليته … الصلاة والسلا…

كالمعصوم

كالمعصوم لا يزر وزر غيره ومع ذلك لا يزر وزرا رأسا فقوله ولا تزر وازرة بين انها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير (واما) ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة ولزومها للموصوف ثم قال تعالى وان تدع مثقلة اشارة الى أن أحدا لا يحمل عن أحد شيأ مبتدئا ولا بعد السؤال فان المحتاج قد يصبر وتقضى حاجته من غير سؤاله فاذا انتهى الافتقار الى حد الكمال يحوجه الى السؤال (المسئلة الثانية) فى قوله مثقلة زيادة بيان لما تقدم من حيث انه قال أولا ولا تزر وازرة وزر أخرى فيظن ان أحدا لا يحمل عن أحد لكون ذلك الواحد قادرا على حمله كما ان القوى اذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لا تحمل عنه واما اذا كان الحمل ثقيلا قد يرحم الحامل فيحمل عنه فقال مثقلة يعنى ليس عدم الوزر لعدم كونه محلا للرحمة بالثقل بل لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شئ (المسئلة الثالثة) زاد فى ذلك بقوله ولو كان ذا قربى أى المدعو لو كان ذا قربى لا يحمله وفى الاول كان يمكن أن يقال لا يحمله لعدم تعلقه به كالعدو الذى يرى عدوه تحت ثقل أو الاجنبى الذى يرى أجنبيا تحت حمل لا يحمل عنه فقال ولو كان ذا قربى أى يحصل جميع المعانى الداعية الى الحمل من كون النفس وازرة قوية تحتمل وكون الاخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس عليها حمل وكونها سائلة داعية فان السؤال مظنة الرحمة ولو كان المسؤل قريبا فاذن لا يكون التخلف الا لمانع وهو كون كل نفس تحت حمل ثقيل ۞ ثم قال تعالى (انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة) اشارة الى أن لا ارشاد فوق ما أتيت به ولم يفدهم فلا تنذر انذارا مفيدا الا الذين تمتلئ قلوبهم خشية وتحلى ظواهرهم بالعبادة كقوله الذين آمنوا اشارة الى عمل القلب وعملوا الصالحات اشارة الى عمل الظواهر فقوله الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلوة فى ذلك المعنى ثم لما بين أن لا تزر وازرة وزر أخرى بين ان الحسنة تنفع المحسنين فقال (ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه) أى فتزكيته لنفسه ۞ ثم قال تعالى (والى الله المصير) أى المتزكى ان لم تظهر فائدته عاجلا فالمصير الى الله يظهر عنده فى يوم اللقاء فى دار البقاء والوازر ان لم تظهر تبعة وزره فى الدنيا فهى تظهر فى الآخرة اذ المصير الى الله ۞ ثم قال تعالى (وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الاحياء ولا الاموات) لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر وهدى الله المؤمن ضرب لهم مثلا بالبصير والاعمى فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى وفى تفسير الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى تكثير الامثلة ههنا حيث ذكر الاعمى والبصير والظلمة والنور والظل والحرور والاحياء والاموات فنقول الاول مثل المؤمن والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى ثم ان البصير وان كان حديد البصر ولكن لا يبصر شيأ ان لم يكن فى ضوء فذكر للايمان والكفر مثلا وقال الايمان نور والمؤمن بصير والبصير لا يخفى عليه النور والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد ثم ذكر لمآلهما ومرجعهما مثلا وهو الظل والحرور فالمؤمن بايمانه فى ظل وراحة والكافر بكفره فى حر وتعب ثم قال تعالى وما يستوى الاحياء ولا الاموات مثلا آخر فى حق المؤمن والكافر كانه قال تعالى حال المؤمن والكافر فوق حال الاعمى والبصير فان الاعمى يشارك البصير فى ادراك ما والكافر غير مدرك ادراكا نافعا فهو كالميت ويدل على ما ذكرنا انه تعالى أعاد الفعل حيث قال أولا وما يستوى الاعمى والبصير وعطف الظلمات والنور والظل والحرور ثم أعاد الفعل وقال وما يستوى الاحياء ولا الاموات كانه جعل هذا مقابلا لذلك (المسئلة الثانية) كرر كلمة النفى بين الظلمات والنور والظل والحرور والاحياء والاموات ولم يكرر بين الاعمى والبصير وذلك لان التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة فالظلمة تنافى النور وتضاده والعمى والبصر كذلك أما الاعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيرا وهو بعينه يصير أعمى فالاعمى والبصير لا منافاة بينهما الا من حيث الوصف والظل والحرور المنافاة بينهما ذاتية لان المراد من الظل عدم الحر والبرد فلما كانت المنافاة هناك أتم أكد بالتكرار وأما الاحياء والاموات وان كانوا كالاعمى والبصير من حيث ان الجسم الواحد يكون حيا محلا للحياة فيصير ميتا محلا للموت ولكن المنافاة بين الحى والميت أتم من المنافاة بين الاعمى والبصير كما بينا ان الاعمى والبصير يشتركان فى ادراك أشياء ولا كذلك الحى والميت كيف والميت يخالف الحى فى الحقيقة لا فى الوصف على ما تبين فى الحكمة

على قوله تعالى وقالوا ما لهذا الرسول الخ ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن ما يحكى عنهم من الشناعة بحيث لا يصدر عمن يعتقد المصير الى الله عز وجل ولقاء الشئ عبارة عن مصادفته من غير أن يمنع مانع من ادراكه بوجه من الوجوه والمراد بلقائه تعالى اما الرجوع اليه تعالى بالبعث والحشر أو لقاء حسابه تعالى كما فى قوله تعالى انى ظننت أنى ملاق حسابيه وبعدم رجائهم اياه عدم توقعهم له أصلا لانكارهم البعث والحساب بالكلية لا عدم أملهم حسن اللقاء ولا عدم خوفهم سوء اللقاء لان عدمهما غير مستلزم لما هم عليه من العتو والاستكبار وانكار البعث والحساب رأسا أى وقال الذين لا يتوقعون الرجوع الينا أو حسابنا المؤدى الى سوء العذاب الذى تستوجبه مقالتهم (لولا أنزل علينا الملائكة) أى هلا أنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد عليه الصلاة والسلام وقيل هلا أنزلوا علينا بطريق الرسالة وهو الانسب لقولهم (أو نرى ربنا) من حيث ان كلا القولين ناشئ عن غاية غلوهم فى المكابرة والعتو حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لقد استكبروا فى أنفسهم) أى فى شأنها حتى اجترؤا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء (وعتوا) أى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان (عتوا كبيرا) بالغا أقصى غاياته حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الالهية من غير توسط الرسول والملك كما قالوا لولا يكلمنا الله ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات القاهرة التى تخر لها صم الجبال فذهبوا فى الاقتراح كل مذهب حتى منتهم أنفسهم الخبيثة أمانى لا تكاد ترنو اليها أحداق

الالهية (المسئلة الثالثة) قدم الاشرف فى مثلين وهو الظل والحى وأخره فى مثلين وهو البصر والنور وفى مثل هذا يقول المفسرون انه لتواخى أواخر الآى وهو ضعيف لان تواخى الاواخر راجع الى السجع ومعجزة القرآن فى المعنى لا فى مجرد اللفظ فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملاله على تغيير المعنى وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلامعنى فنقول الكفار قبل النبى صلى الله عليه وسلم كانوا فى ضلالة فكانوا كالعمى وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبى صلى الله عليه وسلم وبين الحق واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقهم كالنور فقال وما يستوى من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده الى الايمان فلما كان الكفر قبل الايمان فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم والكافر قبل المومن قدم المقدم ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم مايتعلق بالرحمة على مايتعلق بالغضب لقوله فى الالهيات سبقت رحمتى غضبى ثم ان الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الاعمى وشابه الاموات فى عدم ادراك الحق من جميع الوجوه فقال وما يستوى الاحياء أى المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والاموات الذين تليت عليهم الآيات البينات ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد ايمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين وقدم الاعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها (المسئلة الرابعة) فان قلت قابل الاعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الاحياء بالاموات بلفظ الجمع وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع فى أحدهما والواحد فى الآخر فهل تعرف فيه حكمة قلت نعم بفضل الله وهدايته أما فى العمى والبصير والظل والحرور فلانه قابل الجنس بالجنس ولم يذكر الافراد لان فى العميان وأولى الابصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوى فردا من الجنس الآخر كالبصير الغريب فى موضع والاعمى الذى هو تربيه ذلك المكان وقد يقدر الاعمى على الوصول الى مقصد ولا يقدر البصير عليه أو يكون الاعمى عنده من الذكاء مايساوى به البليد البصير فالتفاوت بينهما فى الجنسين مقطوع به فان جنس البصير خير من جنس الاعمى وأما الاحياء والاموات فالتفاوت بينهما أكثر اذ مامن ميت يساوى فى الادراك حيا من الاحياء فذكر ان الاحياء لايساوون الاموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الاشراك على ماينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الاصنام التى هى على صورة الملائكة والى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الافراد وبين هذا الواحد بين فقال الظلمات كلها اذا اعتبرتها لاتجد فيها مايساوى النور وقد ذكرنا فى تفسير قوله وجعل الظلمات والنور السبب فى توحيد النور وجمع الظلمات ومن جملة ذلك أن النور لايكون الا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور والمستنير مثاله الشمس اذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذى يمسك الشعاع فان البيت الذى فيه كوة يدخل منها الشعاع اذا كان فى مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع ويدخل بيتا آخر ويبسط الشعاع على أرضه يرى البيت الثانى مضيئا والاول مظلما وان لم يكن هناك حائل كالبيت الذى لا كوة له فانه لايضىء فاذا حصلت الامور الثلاثة يستنير البيت والا فلا تتحقق الظلمة بفقد أى أمر كان من الامور الثلاثة ۞ ثم قال تعالى (ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور) وفيه احتمال معنيين (الاول) أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة الى سماعهم كلام النبى والوحى النازل عليه دون حال الموتى فان الله يسمع الموتى والنبى لايسمع من مات وقبر فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لايسمعون من النبى (والثانى) أن يكون المراد تسلية النبى صلى الله عليه وسلم فانه لما بين له أنه لاينفعهم ولا يسمعهم قال له هؤلاء لايسمعهم الا الله فانه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء وأما أنت فلا تسمع من فى القبور فما عليك من حسابهم من شىء ۞ ثم قال تعالى (ان أنت الا نذير) بيانا للتسلية ۞ ثم قال تعالى (انا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) لما قال ان أنت الا نذير بين انه ليس نذيرا من تلقاء نفسه انما هو نذير باذن الله وارساله ۞ ثم قال تعالى (وان من أمة الا خلا فيها نذير) تقرير الامرين (أحدهما) التسلية قلبه حيث يعلم ان غيره كان مثله محتملا لتأذى القوم (وثانيهما) الزام القوم قبوله فانه ليس بدعا من الرسل وانما هو مثل

غيره

الامم ولا تمتد اليها أعناق الهمم ولا ينالها الا أولو العزائم الماضية من الانبياء عليهم الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف أى والله لقد استكبروا الآية وفيه من الدلالة على غاية قبح ماهم عليه والاشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم مالايخفى (يوم يرون الملائكة) استئناف مسوق لبيان مايلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه وبيان كونه فى غاية مايكون من الشناعة وانما قيل يوم يرون دون أن يقال يوم ينزل الملائكة ايذانا من أول الامر بان رؤيتهم لهم ليست على طريق الاجابة الى مااقترحوه بل على وجه آخر غير معهود ويوم منصوب على الظرفية بمايدل عليه قوله تعالى (لابشرى يومئذ للمجرمين) فانه فى معنى لايبشر يومئذ المجرمون والعدول الى نفى الجنس للمبالغة فى نفى البشرى وماقيل من انه بمعنى يمنعون البشرى أو يعدمونها تهوين للخطب فى مقام التهويل فان منع البشرى وفقدانها مشعران بأن هناك بشرى يمنعونها أو يفقدونها وأين هذا من نفيها بالكلية وحيث كان نفيها كناية عن اثبات ضدها كما أن نفى المحبة فى مثل قوله تعالى والله لايحب الكافرين كناية عن البغض والمقت دل على ثبوت النذرى لهم على أبلغ وجه وآكده وقيل منصوب بفعل مقدر يؤكده بشرى على أن لا غير نافية للجنس وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم عليه أى اذكر يوم رؤيتهم الملائكة ويومئذ على كل حال تكرير للتأكيد والتهويل مع مافيه من الايذان بأن تقديم الظرف للاهتمام لا للقصر نفى

غيره يدعى ما ادعاه الرسل ويقرره ﴿ قوله تعالى ﴿وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ يعنى أنت جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك أيضا أتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم مافعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بان من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلا الا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمدا صلى الله عليه وسلم ﴿وبالزبر وبالكتاب المنير﴾ والكل آتيناها محمدا فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام أجمعين وهذا يكون تقريرا مع أهل الكتاب واعلم انه تعالى ذكر أمورا ثلاثة (أولها) البينات وذلك لان كل رسول فلا بد له من معجزة وهى أدنى الدرجات ثم قد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وان لم يكن فيه نسخ وأحكام مشروعة شرعا ناسخا ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الالهية ومن يكون كذلك فهو من أولى العزم فقال الرسل تبين رسالتهم بالبينات وان كانوا أعلى مرتبة فبالزبر وان كانوا أعلى فبالكتاب والنبى آتيناه الكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب ﴿ ثم قال تعالى ﴿ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير﴾ أى من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبى عليه السلام وقوله فكيف كان نكير سؤال للتقرير فانهم علموا شدة انكار الله عليهم واتيانه بالامر المنكر من الاستئصال ﴿ ثم قال تعالى ﴿ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها﴾ وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفى تفسيرها مسائل (المسئلة الاولى) ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار وقال ألم تر وذكر الدليل المتقدم على طريقة الاخبار وقال والله الذى أرسل الرياح وفيه وجهات (الاول) ان انزال الماء أقرب الى النفع والمنفعة فيه أظهر فانه لا يخفى على أحد فى الرؤية أن الماء منه حياة الارض فعظم دلالته بالاستفهام لان الاستفهام الذى للتقرير لا يقال الا فى الشئ الظاهر جدا كما أن من أبصر الهلال وهو خفى جدا فقال له غيره أين هو فانه يقول له فى الموضع الفلانى فان لم يره يقول له الحق معك انه خفى وأنت معذور واذا كان بارزا يقول له اما تراه هذا هو ظاهر (والثانى) وهو أنه ذكره بعد ما قرر المسئلة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات فقال له أنت صرت بصيرا بما ذكرناه ولم يبق لك عذر ألا ترى هذه الآية (المسئلة الثانية) المخاطب من هو يحتمل وجهين (أحدهما) النبى صلى الله عليه وسلم وفيه حكمة وهى ان الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت الى غيرهم كما ان السيد اذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الارشاد يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا ويكرر معه ما ذكره مع الاول ويكون فيه اشعار بأن الاول فيه نقيصة لا يستأهل للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة (والآخر) أن لا يخرج الى كلام أجنبى عن الاول بل يأتى بما يقاربه لئلا يسمع الاول كلاما آخر فيترك التفكر فيما كان فيه من النصيحة (المسئلة الثالثة) هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة وفيه لطائف (الاولى) قال أنزل وقال أخرجنا وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول قال الله تعالى ألم تر أن الله أنزل فان كان جاهلا يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له فالاخراج لا يمكنك ان تقول فيه انه بالطبع فهو بارادة الله فلما كان ذلك أظهر أسنده الى المتكلم (ووجه آخر) هو ان الله تعالى لما قال ان الله أنزل علم الله بدليل وقرب المتفكر فيه الى الله تعالى فصار من الحاضرين فقال له أخرجنا لقربه (ووجه ثالث) الاخراج أتم نعمة من الانزال لان الانزال لفائدة الاخراج فأسند الاتم الى نفسه بصيغة المتكلم وما دونه بصيغة الغائب ﴿ (اللطيفة الثانية) قال تعالى ﴿ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك﴾ كان قائلا قال اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع ألا ترى أن بعض النباتات لا تنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره فقال تعالى اختلاف البقاع ليس الا بارادة الله والا فلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض والجدد جمع جدة وهى الخطة أو الطريقة فان قيل الواو فى ومن الجبال ما تقديرها نقول هى تحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الالوان وفى الاشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة رادة على من ينكر الارادة فى اختلاف ألوان الثمار (ثانيهما) أن

البشرى على ذلك الوقت فقط فان ذلك مخل بتفظيع حالهم وللمجرمين تبيين على أنه مظهر وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالاجرام مع ما هم عليه من الكفر وحمله على العموم بحيث يتناول فساق المؤمنين ثم الالتجاء فى اخراجهم عن الحرمان الكلى الى أن نفى البشرى حينئذ لا يستلزم نفيه فى جميع الاوقات فيجوز أن يبشروا بالعفو والشفاعة فى وقت آخر بمعزل عن الحق بعيد (ويقولون) عطف على ما ذكر من الفعل المنفى المنبئ عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر وغاية هول مطلعه ببيان أنهم يقولون عند مشاهدتهم له (حجرا محجورا) وهى كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدو موتور وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقهم فكان المعنى نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وكسر الحاء تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما فى قعدك وعمرك وقد قرئ حجرا بالضم والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام ويقترحونه وهم اذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلول بأس شديد فظيع ومحجورا صفة لحجرا واردة للتأكيد كما قالوا ذيل ذائل وليل أليل وقيل يقولها الملائكة اقناطا للكفرة بمعنى حراما محرما عليكم الغفران أو الجنة أو البشرى أى جعل الله تعالى ذلك حراما عليكم وليس بواضح (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) بيان لحال ما كانوا يعملونه فى الدنيا من صلة رحم واغاثة ملهوف وقرى ضيف ومن على أسير وغير ذلك

تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال قال الزمخشري أراد ذو جدد (واللطيفة الثالثة) ذكر الجبال ولم يذكر الارض كما قال في موضع آخر وفي الارض قطع متجاورات مع ان هذا الدليل مثل ذلك وذلك لان الله تعالى لما ذكر في الاول أخرجنا به ثمرات كان نفس اخراج الثمار دليلا على القدرة ثم زاد عليه بيانا وقال مختلفا كذلك في الجبال في نفسها دليل للقدرة والارادة لان كون الجبل في بعض نواحي الارض دون بعضها والاختلاف الذي في هيئة الجبل فان بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع دليل القدرة والاختيار ثم زاده بيانا وقال جدد بيض أي مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها كما أن اخراج الثمرات في نفسها دلائل واختلاف ألوانها دلائل (المسئلة الرابعة) مختلف ألوانها الظاهر أن الاختلاف راجع الى كل لون أي بيض مختلف ألوانها وحمر مختلف ألوانها لان الابيض قد يكون على لون الجص وقد يكون على لون التراب الابيض دون بياض الجص وكذلك الاحمر ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الالوان لكان مجرد تأكيد والاول أولى وعلى هذا فنقول لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحمر والسود بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب لان الاسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغا غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف (المسئلة الخامسة) قيل بأن الغربيب مؤكد للاسود يقال أسود غربيب والمؤكد لا يجيء الا متأخرا فكيف جاء غرابيب سود نقول قال الزمخشري غرابيب مؤكد لذي لون مقدر في الكلام كأنه تعالى قال سود غرابيب ثم أعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهي زيادة التأكيد لانه تعالى ذكره مضمرا ومظهرا ومنهم من قال هو على التقديم والتأخير ثم قال تعالى ومن الناس والدواب والانعام استدلالا آخر على قدرته وارادته وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق في العالم الذي نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين حيوان وغير حيوان وغير الحيوان اما نبات واما معدن والنبات أشرف وأشار اليه بقوله فأخرجنا به ثمرات ثم ذكر المعدن بقوله ومن الجبال ثم ذكر الحيوان وبدأ بالاشرف منها وهو الانسان فقال ومن الناس ثم ذكر الدواب لان منافعها في حياتها والانعام منفعتها في الاكل منها أو لان الدابة في العرف تطلق على الفرس وهو بعد الانسان أشرف من غيره وقوله مختلف ألوانه القول فيه كما أنها في أنفسها دلائل كذلك في اختلافها دلائل وأما قوله مختلف ألوانه فذكر لكون الانسان من جملة المذكورين وكون التذكير أعلى وأولى ۞ ثم قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور) الخشية بقدر معرفة المخشي والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد لان الله تعالى قال ان أكرمكم عند الله أتقاكم فبين ان الكرامة بقدر التقوى والتقوى بقدر العلم فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل نعم العالم اذا ترك العمل قدح ذلك في علمه فان من يراه يقول لو علم لعمل ثم قال تعالى ان الله عزيز غفور ذكر ما يوجب الخوف والرجاء فكونه عزيزا ذا انتقام يوجب الخوف التام وكونه غفورا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله معناها انما يعظم ويبجل ۞ ثم قال تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه وقوله يتلون كتاب الله اشارة الى الذكر وقوله تعالى (وأقاموا الصلاة) اشارة الى العمل البدني وقوله (وأنفقوا مما رزقناهم) اشارة الى العمل المالي وفي الآيتين حكمة بالغة فقوله انما يخشى الله اشارة الى عمل القلب وقوله ان الذين يتلون اشارة الى عمل اللسان وقوله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم اشارة الى عمل الجوارح ثم ان هذه الاشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه لأنا بينا ان من يعظم ملكا اذا رأى عبدا من عباده في حاجة يلزمه قضاء حاجته وان تهاون فيه يخل بالتعظيم والى هذا أشار بقوله عبدي مرضت فما عدتني فيقول العبد كيف تمرض وأنت رب العالمين فيقول الله مرض عبدي فلان وما زرته ولو زرته لوجدتني عنده يعني التعظيم متعلق بالشفقة بحيث لا شفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله وقوله تعالى (سرا وعلانية) حث على الانفاق كيفما يتهيأ فان تهيأ سرا فذاك ونعم والا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء فان ترك الخير مخافة أن يقال فيه انه مراء عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بقوله سرا أي صدقة وعلانية أي زكاة فان الاعلان بالزكاة كالاعلان بالفرض وهو مستحب وقوله تعالى (يرجون تجارة لن تبور) اشارة الى الاخلاص أي ينفقون لا ليقال انه كريم ولا

من مكارمهم ومحاسنهم التي لو كانوا عملوها مع الايمان لنالوا ثوابها بتمثيل حالهم وحال أعمالهم المذكورة بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه فقدم الى أشيائهم وقصد ما تحت أيديهم فأنحى عليها بالافساد والتحريق ومزقها كل ممزق بحيث لم يدع لها عينا ولا أثرا أي عمدنا اليها وأبطلناها أي أظهرنا بطلانها بالكلية من غير أن يكون هناك قدوم ولا شئ يقصد تشبيهه به والهباء شبه غبار يرى في شعاع الشمس يطلع من الكوة من الهبوة وهي الغبار ومنثورا صفته شبه به أعمالهم المحبطة في الحقارة وعدم الجدوى ثم بالمنثور منه في الانتشار بحيث لا يمكن نظمه أو مفعول ثالث من حيث انه كالخبر بعد الخبر كما في قوله تعالى كونوا قردة خاسئين (أصحاب الجنة) هم المؤمنون المشار اليهم في قوله تعالى قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون الخ (يومئذ) أي يوم اذ يكون ما ذكر من عدم التبشير وقولهم حجرا محجورا وجعل أعمالهم هباء منثورا (خير مستقرا) المستقر المكان الذي يستقر فيه في أكثر الاوقات للتجالس والتحادث (وأحسن مقيلا) المقيل المكان الذي يؤوى اليه للاسترواح الى الازواج والتمتع بمغازلتهن سمي بذلك لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالبا وقيل لانه يفرغ من الحساب في منتصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وفي وصفه بزيادة الحسن مع حصول الخيرية بعطفه على المستقر رمز الى أنه مزين بفنون الزين والزخارف والتفضيل المعتبر فيهما اما لارادة الزيادة على الاطلاق أي هم في أقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيل

لشئ من الاشياء غير وجه الله فان غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة وقوله تعالى ﴿ليوفيهم أجورهم﴾ أى ماينوقعونه ولو كان أمرا بالغ الغاية ﴿ويزيدهم من فضله﴾ أى يعطيهم مالم يخطر ببالهم عند العمل ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر اليه كما جاء فى تفسير الزيادة ﴿انه غفور﴾ عند اعطاء الاجور ﴿شكور﴾ عند اعطاء الزيادة ۞ ثم قال تعالى ﴿والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق﴾ لما بين الاصل الاول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله والله الذى أرسل الرياح وقوله والله خلقكم وقوله ألم تر أن الله أنزل ذكر الاصل الثانى وهو الرسالة فقال والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق وأيضا كانه قد ذكر ان الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق تقريرا لما بين من الاجر والثواب فى تلاوة كتاب الله فانه حق وصدق فتاليه محق ومحقق وفى تفسيرها مسائل (المسئلة الاولى) قوله من الكتاب يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال أرسل الى كتاب من الامير أو الوالى وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعنى الذى أوحينا من اللوح المحفوظ اليك حق ويمكن أن يكون المراد هو القرآن يعنى الارشاد والتبيين الذى أوحينا اليك من القرآن ويحتمل أن يكون للبيان كما يقال أرسل الى فلان من الثياب والقماش جملة (المسئلة الثانية) قوله هو الحق آكد من قول القائل الذى أوحينا اليك حق من وجهين (أحدهما) ان تعريف الخبر يدل على أن الامر فى غاية الظهور لان الخبر فى الاكثر يكون نكرة لان الاخبار فى الغالب يكون اعلاما بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لامر يعرفه السامع كقولنا زيد قام فان السامع ينبغى أن يكون عارفا بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به فاذا كان الخبر أيضا معلوما فيكون الاخبار للتنبيه فيعرفان باللام كقولنا زيد العالم فى هذه المدينة اذا كان علمه مشهورا ۞ (المسئلة الثالثة) قوله ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ حال مؤكدة لكونه حقا لان الحق اذا كان لا خلاف بينه وبين كتب الله يكون خاليا عن احتمال البطلان وفى قوله مصدقا تقرير لكونه وحيا لان النبى صلى الله عليه وسلم لما لم يكن قارئا كاتبا وأتى ببيان مافى كتب الله لا يكون ذلك الا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والانجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال التوراة والانجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه ان كان فى التوراة فهو حق وباق على ما نزل وان لم يكن فيه ويكون فيه خلافه فهو ليس من التوراة فالقرآن مصدق للتوراة (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال ان هذا الوحى مصدق لما تقدم لان الوحى لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام فى انزال التوراة والانجيل فاذا وجد الوحى ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم علم جوازه وصدق به ما تقدم وعلى هذا ففيه لطيفة وهى أنه تعالى جعل القرآن مصدقا لما مضى مع أن ما مضى أيضا مصدق له لان الوحى اذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجعل ما تقدم مصدقا للقرآن لان القرآن كونه معجزة يكفى فى تصديقه بأنه وحى وأما ما تقدم فلا بد معه من معجزة تصدقه ۞ (المسئلة الرابعة) قوله ﴿ان الله بعباده لخبير بصير﴾ فيه وجهان (أحدهما) انه تقرير لكونه هو الحق لانه وحى من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر فلا يكون باطلا فى وحيه لا فى الباطن ولا فى الظاهر (وثانيهما) أن يكون جوابا لما كانوا يقولونه انه لم ينزل على رجل عظيم فيقال ان الله بعباده لخبير يعلم بواطنهم وبصير يرى ظواهرهم فاختار محمدا عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل ۞ ثم قال تعالى ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله﴾ اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى جنات عدن يدخلونها أخبر بدخولهم الجنة وكلمة ثم أورثنا أيضا تدل عليه لان الايراث اذا كان بعد الايحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والايراث المراد منه الاعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى ويحتمل أن يقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما فى قوله تعالى جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير والمعنى على هذا انا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الانبياء ويدل عليه ان لفظ المصطفى على الانبياء اطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم ولان قوله من عبادنا دل على أن العباد أكابر

وأما بالاضافة الى ما للكفرة المتنعمين فى الدنيا أو الى ما لهم فى الآخرة بطريق التهكم بهم كما فى قوله تعالى قل أذلك خير الآية هذا وقد جوز أن يراد بأحدهما المصدر أو الزمان اشارة الى أن مكانهم وزمانهم أطيب ما يتخيل من الامكنة والازمنة (ويوم تشقق السماء) أى تتفتح وأصله تتشقق فحذفت احدى التاءين كما فى تلظى وقرئ بادغام التاء فى الشين (بالغمام) بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام الذى ذكر فى قوله تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة قيل هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن الا لبنى اسرائيل (ونزل الملائكة تنزيلا) أى تنزيلا عجيبا غير معهود قيل تنشق سماء سماء وينزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد وقرئ ونزلت الملائكة وننزل وننزل على صيغة المتكلم من الانزال والتنزيل ونزل الملائكة وأنزل الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون الذى هو فاء الفعل الذى من تنزل (الملك يومئذ الحق للرحمن) أى السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى العام الثابت صورة ومعنى ظاهرا وباطنا بحيث لا زوال له أصلا ثابت للرحمن يومئذ فالملك مبتدأ والحق صفته وللرحمن خبره ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدا وفائدة التقييد أن ثبوت الملك المذكور له تعالى خاصة يومئذ وأما فيما عداه من أيام الدنيا فيكون لغيره أيضا تصرف صورى فى الجملة وقيل الملك مبتدأ والحق خبره وللرحمن متعلق بالحق أو بمحذوف على التبيين أو بمحذوف هو صفة للحق ويومئذ معمول للملك وقيل

مكرمون بالاضافة اليه ثم ان المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق عن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالما مع أن لفظ الظالم أطلقه الله فى كثير من المواضع على الكافر وسمى الشرك ظلما وعلى الوجه الاول التفسير ظاهر بين معناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه وافترقوا فمنهم ظالم وهو المسئ ومقتصد وهو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيأ وسابق بالخيرات وهو الذى أخلص العمل لله وجرده عن السيآت فان قال قائل كيف قال فى حق من ذكر فى حقه انه من عباده وأنه مصطفى انه ظالم مع أن الظالم يطلق على الكافر فى كثير من المواضع فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه فى غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ويصح هذا قول عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ظالمنا مغفور له وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى ربنا ظلمنا أنفسنا وأما الكافر فيضع قلبه الذى به اعتبار الجسد فى غير موضعه فهو ظالم على الاطلاق وأما قلب المؤمن فطمئن بالايمان لا يضعه فى غير التفكر فى آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله وفى المراتب الثلاثة أقوال كثيرة (أحدها) الظالم هو الراجح السيآت والمقتصد هو الذى تساوت سيآته وحسناته والسابق هو الذى ترجحت حسناته (ثانيها) الظالم هو الذى ظاهره خير من باطنه والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه والسابق من باطنه خير (ثالثها) الظالم هو الموحد بلسانه الذى تخالفه جوارحه والمقتصد هو الموحد الذى يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف والسابق هو الموحد الذى ينسيه التوحيد عن التوحيد (رابعها) الظالم صاحب الكبيرة والمقتصد صاحب الصغيرة والسابق المعصوم (خامسها) الظالم التالى للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه والمقتصد التالى العالم والسابق التالى العالم العامل (سادسها) الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم (سابعها) الظالم أصحاب المشأمة والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق السابقون المقربون (ثامنها) الظالم الذى يحاسب فيدخل النار والمقتصد الذى يحاسب فيدخل الجنة والسابق الذى يدخل الجنة من غير حساب (تاسعها) الظالم المصر على المعصية والمقتصد هو النادم والتائب والسابق هو المقبول التوبة (عاشرها) الظالم الذى أخذ القرآن ولم يعمل به والمقتصد الذى عمل به والسابق الذى أخذه وعمل به وبين للناس العمل به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل والمقتصد كامل والظالم ناقص والمختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فانه واضع للشئ فى غير موضعه والمقتصد هو المجتهد فى ترك المخالفة وان لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه اثم فانه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذى لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى (باذن الله) أى اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع فى قلبه فيسبق اليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع فى قلبه فترده النفس والظالم تغلبه النفس ونقول بعبارة أخرى من غلبته النفس الامارة وأمرته فاطاعها ظالم ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقتصد ومن قهر نفسه فهو السابق ۞ وقوله (ذلك هو الفضل الكبير) يحتمل وجوها (أحدها) التوفيق المدلول عليه بقوله باذن الله ذلك هو الفضل الكبير (ثانيها) السبق بالخيرات هو الفضل الكبير (ثالثها) الايراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير أما الوجه الآخر وهو أن يقال ثم أورثنا الكتاب أى جنس الكتاب كما قال تعالى جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير يرد عليه أسئلة (أحدها) ثم للتراخى وايتاء الكتاب بعد الايحاء الى محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فما المراد بكلمة ثم نقول معناه ان الله خبير بصير خبرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه قال تعالى انا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عبادا ثم أورثناهم الكتاب (ثانيها) كيف يكون من الانبياء ظالم لنفسه نقول منهم غير راجع الى الانبياء المصطفين بل المعنى ان الذى أوحينا اليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلا وآتيناهم كتبا ومنهم أى من قومك ظالم كفر بك وبما أنزل اليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحا (وثالثها) قوله جنات عدن يدخلونها الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلا نقول الداخلون هم السابقون وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولا ثم يدخل الجنة والبيان لاول الامر لا لما بعده ويدل عليه قوله يحلون فيها من أساور من ذهب وقوله أذهب عنا الحزن ۞ ثم قال (جنات

الخبر يومئذ والحق نعت للملك وللرحمن على ما ذكروا أيا ما كان فالجملة بمعناها عاملة فى الظرف أى ينفرد الله تعالى بالملك يوم تشقق وقيل الظرف منصوب بما ذكر فالجملة حينئذ استئناف مسوق لبيان أحواله وأهواله وايراده تعالى بعنوان الرحمانية للايذان بان اتصافه تعالى بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة كما فى قوله تعالى يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم والمعنى ان الملك الحقيق يومئذ للرحمن (وكان) ذلك اليوم مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ فى الرحمة لعباده (يوما على الكافرين عسيرا) شديد الهم وتقديم الجار والمجرور لمراعاة الفواصل وأما للمؤمنين فيكون يسيرا بفضل الله تعالى وقد جاء فى الحديث أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها فى الدنيا والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله (ويوم يعض الظالم على يديه) عض اليدين والانامل وأكل البنان وحرق الاسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة لانها من روادفهما والمراد بالظالم اما عقبة بن أبى معيط على ما قيل من انه كان يكثر مجالسة النبى صلى الله عليه وسلم فدعاه عليه الصلاة والسلام يوما الى ضيافته فأبى عليه الصلاة والسلام أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه فقال صبأت فقال لا ولكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له فقال انى لا أرضى منك الا أن تأتيه فتطأ قفاه وتبزق فى وجهه فأتاه فوجده ساجدا فى دار الندوة

عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير﴾ وفى الداخلين وجوه (أحدها) الاقسام الثلاثة وهى على قولنا ان الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين (والثانى) الذين يتلون كتاب الله (والثالث) هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولانه ذكر اكرامهم بقوله يحلون فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه ابحاث (الاول) تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى اذا كان المفعول حقيقيا كقولنا الله خلق السموات وقول القائل زيد بنى الجدار فان الله موجود قبل كل شئ ثم له فعل هو الخلق ثم حصل به المفعول وهو السموات وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه واذا لم يكن المفعول حقيقيا كقولنا دخل الدار وضرب عمرا فان الدار فى الحقيقة ليس مفعولا للداخل وانما فعل من أفعاله تحقق بالنسبة الى الدار وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمى مفعولا لا يحصل هذا الترتيب ولكن الاصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول عمرا ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة اليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم الا لفائدة فما الفائدة فى تقديم الجنات على الفعل الذى هو الدخول واعادة ذكرها بالهاء فى يدخلونها وما الفرق بين هذا وبين قول القائل يدخلون جنات عدن نقول السامع اذا علم ان له مدخلا من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فاذا قيل له أنت تدخل فالى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه فى أى المداخل يكون فاذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولا يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولاسيما الجنة والنار فان بين المدخلين بونا بعيدا (الثانى) قوله يحلون فيها اشارة الى سرعة الدخول فان التحلية لو وقعت خارجا لكان فيه تأخير الدخول فقال يدخلونها وفيها تقع تحليتهم (الثالث) قوله من أساور بجمع الجمع فانه جمع أسورة وهى جمع سوار وقوله ولباسهم فيها حرير ليس كذلك لان الاكثار من اللباس يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والاكثار من الزينة لا يدل الا على الغنى (الرابع) ذكر الاساور من بين سائر الحلى فى كثير من المواضع منها قوله تعالى وحلوا أساور من فضة وذلك لان التحلى بمعنيين (أحدهما) اظهار كون المتحلى غير مبتذل فى الاشغال لان التحلى لا يكون حالة الطبخ والغسل (وثانيهما) اظهار الاستغناء عن الاشياء واظهار القدرة على الاشياء وذلك لان التحلى اما باللآلئ والجواهر واما بالذهب والفضة والتحلى بالجواهر واللآلئ يدل على ان المتحلى لا يعجز عن الوصول الى الاشياء الكثيرة عند الحاجة حيث لم يعجز عن الوصول الى الاشياء القليلة الوجود لا لحاجة والتحلى بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية والا لصرف الذهب والفضة الى دفع الحاجة اذا عرفت هذا فنقول الاساور محلها الايدى وأكثر الاعمال باليد فانها للبطش فاذا حليت بالاساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ اشارة الى النوعين اللذين منهما الحلى ۞ ثم قال تعالى ﴿وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور﴾ فى الحزن أقوال كثيرة والاولى أن يقال المراد اذهاب كل حزن والالف واللام للجنس واستغراقه واذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغى وبقائه دائما فان شيأ منه لو لم يحصل لكان الحزن موجودا بسببه وان حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله وخوف فواته وقوله ان ربنا لغفور شكور ذكر الله عنهم أمورا كلها تفيد الكرامة من الله (الاول) الحمد فان الحامد مثاب (الثانى) قولهم ربنا فان الله لم يناد بهذا اللفظ الا واستجاب لهم اللهم الا أن يكون المنادى قد ضيع الوقت الواجب أو طلب ما لا يجوز كالرد الى الدنيا من الآخرة (الثالث) قولهم غفور (الرابع) قولهم شكور والغفور اشارة الى ما غفر لهم فى الآخرة بما وجد لهم من الحمد فى الدنيا والشكور اشارة الى ما يعطيهم ويزيد لهم بسبب ما وجد لهم فى الآخرة من الحمد ۞ ثم قال تعالى ﴿الذى أحلنا دار المقامة من فضله﴾ أى دار الاقامة لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وادخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها واعلامهم بدوامها حيث قالوا الذى أحلنا دار المقامة أى الاقامة والمفعول ربما يجىء للمصدر من كل باب يقال ماله معقول أى عقل وقال تعالى مدخل صدق وقال تعالى ومزقناهم كل ممزق وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لان المصدر هو المفعول فى الحقيقة فانه هو الذى فعل فجاز اقامة المفعول مقامه وفى قوله دار المقامة اشارة الى أن الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها الى منزلة القبور ومنها الى منزلة العرصة التى فيها الجمع

ففعل ذلك فقال عليه الصلاة والسلام لا ألقاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فأسر يوم بدر فأمر عليا رضى الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت الانصارى وطعن عليه الصلاة والسلام أبيا يوم أحد فى المبارزة فرجع الى مكة ومات واما جنس الظالم وهو داخل فيه دخولا أوليا وقوله تعالى (يقول الخ) حال من فاعل يعض وقوله تعالى (ياليتنى الخ) محكى به ويا اما لمجرد التنبيه من غير قصد الى تعيين المنبه أو المنادى محذوف أى ياهؤلاء ليتنى (اتخذت مع الرسول سبيلا) أى طريقا واحدا منجيا من هذه الورطات وهو طريق الحق ولم تتشعب بى طرق الضلالة أو حصلت فى صحبته عليه الصلاة والسلام طريقا ولم أكن ضالا لا طريق لى قط (ياويلتا) بقلب ياء المتكلم الفا كما فى صحارى ومدارى وقرئ على الاصل ياويلتى أى هلكتى تعالى واحضرى فهذا أوانك (ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) يريد من أضله فى الدنيا فان فلانا كناية عن الاعلام كما أن الهن كناية عن الاجناس وقيل فلان كناية عن علم ذكور من يعقل وفلانة عن علم اناثهم وفل كناية عن نكرة من يعقل من الذكور وفلة عمن يعقل من الاناث والفلان والفلانة من غير العاقل ويختص فل بالنداء الا فى ضرورة كما فى قوله

* فى لجة أمسك فلانا عن فل *

وقوله

* خذا حدثا من عن فل وفلان *

وليس فل مرخما من فلان خلافا للفراء واختلفوا فى لام فل وفلان فقيل واو وقيل ياء هذا فان أريد بالظالم عقبة ففلان كناية عن

ومنها التفريق وقد تكون النار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة وكذلك النار لاهلها وقوله‍م من فضله أى بحكم وعده لا بايجاب من عنده ۞ وقوله تعالى ﴿لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ اللغوب الاعياء والنصب هو السبب للاعياء فان قال قائل اذا بين انه لا يمسهم فيها نصب علم انه لا يمسهم فيها لغوب ولا ينفى المتكلم الحكيم السبب ثم ينفى مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل لا أكلت ولا شبعت أو لا قمت ولا مشيت والعكس كثير فانه يقال لا شبعت ولا أكلت لما ان نفى الشبع لا يلزمه انتفاء الاكل وسياق ما تقرر أن يقال لا يمسنا فيها اعياء ولا مشقة فنقول ما قال الله فى غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجل ووجهه هو أنه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فان الدنيا أماكنها على قسمين (أحدهما) موضع تمس فيه المشاق والمتاعب كالبرارى والصحارى والطرقات والاراضى (والآخر) موضع يظهر فيه الاعياء كالبيوت والمنازل التى فى الاسفار من الخانات فان من يكون فى مباشرة شغل لا يظهر عليه الاعياء الا بعدما يستريح فقال تعالى لا يمسنا فيها نصب أى ليست الجنة كالمواضع التى فى الدنيا مظان المتاعب بل هى أفضل من المواضع التى هى مواضع مرجع العى فقال ولا يمسنا فيها لغوب أى ولا نخرج منها الى مواضع نتعب ونرجع اليها فيمسنا فيها الاعياء وقرئ لغوب بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال لا نتعب ولا يمسنا ما يصلح لذلك وهذا لان القوى السوى اذا قال ما تعبت اليوم لا يفهم من كلامه انه ما عمل شيأ لجواز انه عمل عملا لم يكن بالنسبة اليه متعبا لقوته فاذا قال ما مسنى ما يصلح ان يكون متعبا يفهم انه لم يعمل شيأ لان نفس العمل قد يصلح أن يكون متعبا لضعيف أو متعبا بسبب كثرته واللغوب هو ما يلغب منه وقيل النصب التعب الممرض وعلى هذا فحسن الترتيب ظاهر كأنه قال لا يمسنا مرض ولا دون ذلك وهو الذى يعيا منه مباشره ۞ ثم قال تعالى ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم﴾ عطف على قوله ان الذين يتلون كتاب الله وما بينهما كلام يتعلق بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله جنات عدن يدخلونها قد ذكرنا انه على بعض الاقوال راجع الى الذين يتلون كتاب الله ۞ ثم قال تعالى ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ أى لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم ﴿ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور﴾ أى النار وفيه لطائف (الاولى) ان العذاب فى الدنيا ان دام كثيرا يقتل فان لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجا فاسدا متمكنا لا يحس به المعذب فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا اما أن يفنى واما أن يألفه البدن بل هو فى كل زمان شديد والمعذب فيه دائم (الثانية) راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لان الترتيب أن لا ينقطع العذاب ولا يفتر فقال لا ينقطع ولا بأقوى الاسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولا يجابون كما قال تعالى ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك أى بالموت (الثالثة) فى المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم ولم يقل نزيدهم عذابا وفى المثابين ذكر الزيادة بقوله ويزيدهم من فضله ۞ ثم لما بين ان عذابهم لا يخفف قال تعالى ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أى لا يخفف وان اصطرخوا واضطربوا لا يخفف الله من عنده انعاما الى أن يطلبوه بل يطلبون ولا يجدون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب ۞ وقوله تعالى ﴿ربنا أخرجنا﴾ أى صراخهم بهذا أى يقولون ربنا أخرجنا لان صراخهم كلام وفيه اشارة الى أن ايلامهم تعذيب لا تأديب وذلك لان المؤدب اذا قال للمؤدب لا أرجع الى ما فعلت وبئسما فعلت يتركه وأما المعذب فلا وترتيبه حسن وذلك لانه لما بين انه لا يخفف عنهم بالكلية ولا يعفو عنهم بين انه لا يقبل منهم وعدا وهذا لان المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فاذا طال لبثه تطلب الاخراج من غير قطيعة على نفسه فان لم يفده يقطع على نفسه قطيعة ويقول اخرجنى أفعل كذا وكذا واعلم أن الله تعالى قد بين أن من يكون فى الدنيا ضالا فهو فى الآخرة ضال كما قال تعالى ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى ثم انهم لم يعلموا ان العود الى الدنيا بعيد محال بحكم الاخبار وعلى هذا قالوا ﴿نعمل صالحا﴾ جازمين من غير استعانة بالله ولا مثنوية فيه ولم يقولوا ان الامر بيد الله فقال الله لهم اذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرناكم مقدارا يمكن التذكر فيه والاتيان بالايمان والاقبال على الاعمال ۞ وقولهم ﴿غير الذى كنا نعمل﴾ اشارة الى ظهور فساد عملهم لهم وكان الله تعالى كما لم يهدهم فى الدنيا لم يهدهم فى الآخرة فما قالوا ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لا بعملهم ونحن أحوج الى تخفيف

أى وان أريد به الجنس فهو كناية عن علم كل من يضله كائنا من كان من شياطين الانس والجن وهذا التمنى منه وان كان مسوقا لابراز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل واعتذار بتوريك جنايته الى الغير وقوله تعالى (لقد أضلنى عن الذكر) تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح لتعلله وتصديره باللام القسمية للمبالغة فى بيان خطئه واظهار ندمه وحسرته أى والله لقد أضلنى عن ذكر الله تعالى أو عن القرآن أو عن موعظة الرسول عليه الصلاة والسلام أو كلمة الشهادة (بعد اذ جاءنى) وتمكنت منه وقوله تعالى (وكان الشيطان للانسان خذولا) أى مبالغا فى الخذلان حيث يواليه حتى يؤديه الى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه اعتراض مقرر لمضمون ما قبله اما من جهته تعالى أو من تمام كلام الظالم على أنه سمى خليله شيطانا بعد وصفه بالاضلال الذى هو أخص الاوصاف الشيطانية أو على انه أراد بالشيطان ابليس لانه الذى حمله على مخالة الضالين ومخالفة الرسول الهادى عليه الصلاة والسلام بوسوسته واغوائه لكن وصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يعده فى الدنيا ويمنيه بانه ينفعه فى الآخرة وهو أوفق بحال ابليس (وقال الرسول) عطف على قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه وبيان ما يحيق بهم فى الآخرة من الاهوال والخطوب وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحق والرد على نحورهم حيث كان ما حكى عنهم قدحا فى رسالته عليه الصلاة والسلام أى قالوا كيت وكيت وقال الرسول اثر ما شاهد

العذاب منهم الى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظرا الى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظرا الى عدلك وانظر الى مغفرتك الهاطلة ولا تنظر الى معذرتنا الباطلة وكما هدى الله المؤمن فى الدنيا هداه فى العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء الى الاجابة واثنى عليه بأطيب ثناء عند الانابة فقالوا الحمد لله وقالوا ربنا غفور اعترافا بتقصيرهم شكورا قرارا بوصول مالم يخطر ببالهم اليهم وقالوا أحلنا دار المقامة من فضله أى لا عمل لنا بالنسبة الى نعم الله وهم قالوا أخرجنا نعمل صالحا اغماضا فى حق تعظيمه واعراضا عن الاعتراف بعجزهم عن الاتيان بما يناسب عظمته ۞ ثم انه تعالى بين انه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل فى المحل فان النبى صلى الله عليه وسلم كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادات فقال تعالى ﴿أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾ فان المانع اما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله واما أن يكون فى مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم ۞ ثم قال تعالى ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ وقوله فذوقوا اشارة الى الدوام وهو أمر اهانة فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم فى غير موضعها وأتوا بالمعذرة فى غير وقتها من نصير فى وقت الحاجة ينصرهم قال بعض الحكماء قوله فما للظالمين من نصير وقوله وما للظالمين من أنصار يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلا مركبا وهو الذى يعتقد الباطل حقا فى الدنيا وماله من نصير أى من علم ينفعه فى الآخرة والذى يدل عليه هو أن الله تعالى سمى البرهان سلطانا كما قال تعالى فأتوا بسلطان والسلطان أقوى ناصر اذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم لان الله لا ينصره وليس غيره نصيرا فمالهم من نصير أصلا ويمكن أن يقال ان الله تعالى قال فى آل عمران وما للظالمين من أنصار وقال فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين وقال ههنا فما للظالمين من نصير أى هذا وقت كونهم واقعين فى النار فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق الا توقعهم من الله فقال مالكم من نصير أصلا وهناك كان الامر محكيا فى الدنيا أو فى أوائل الحشر فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم ۞ ثم قال تعالى ﴿ان الله عالم غيب السموات والارض انه عليم بذات الصدور﴾ تقرير الدوامهم فى العذاب وذلك من حيث ان الله تعالى لما قال وجزاء سيئة سيئة مثلها ولا يزاد عليها فلو قال قائل الكافر ما كفر بالله الا أياما معدودة فكان ينبغى أن لا يعذب الا مثل تلك الايام فقال تعالى ان الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما فى الصدور وكان يعلم من الكافر ان فى قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام الى الابد لما أطاع الله ولا عبده ❋ وفى قوله تعالى بذات الصدور مسئلة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى وهى ان لقائل ان يقول الصدور هى ذات اعتقادات وظنون فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور ويقرر السؤال قولهم أرض ذات أشجار وذات جنى اذا كان فيها ذلك فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال الدار ذات زيد ويصح أن يقال زيد ذو دار ومال وان كان هو فيها ۞ ثم قال تعالى ﴿هو الذى جعلكم خلائف فى الارض﴾ تقرير القطع حجتهم فانهم لما قالوا ربنا أخرجنا نعمل صالحا وقال تعالى أولم نعمركم ما يتذكر اشارة الى أن التمكين والامهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله وجاءكم النذير أى آتيناكم عقولا وأرسلنا اليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى هو الذى جعلكم خلائف فى الارض أى نبهكم بمن مضى وحال من انقضى فانكم لو لم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك لكان عنادكم أخفى وفسادكم أخف لكن أمهلتم وعمرتم وامرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف فى الارض أى خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين ﴿فمن كفر﴾ بعد هذا كله ﴿فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا﴾ لان الكافر السابق كان ممقوتا كالعبد الذى لا يخدم سيده واللاحق الذى أنذره الرسول ولم ينتبه امقت كالعبد الذى ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يسعده والتالى لهم الذى رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه أمقت الكل ۞ ثم قال تعالى ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا﴾ أى الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد الا المقت ولا ينفعهم فى أنفسهم حيث لا يفيدهم الا الخسار فان العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح ومن اشترى به سخطه خسر ۞ ثم قال تعالى

منهم غاية العتو ونهاية الطغيان بطريق البث الى ربه عز وجل (يارب ان قومى) يعنى الذين حكى عنهم ما حكى من الشنائع (اتخذوا هذا القرآن) الذى من جملته هذه الآيات الناطقة بما يحيق بهم فى الآخرة من فنون العقاب كما ينبئ عنه كلمة الاشارة (مهجورا) أى متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا اليه رأسا ولم يتأثروا بوعيده وفيه تلويح بان من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم فانه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين عبدك هذا اتخذنى مهجورا اقض بينى وبينه وقيل هو من هجر اذا هذى أى جعلوه مهجورا فيه اما على زعمهم الباطل واما بان هجروا فيه اذا سمعوه كما يحكى عنهم من قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وقد جوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول فالمعنى اتخذوه هجرا وهذيانا وفيه من التحذير والتخويف ما لا يخفى فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام اذا شكوا الى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب ولم ينظروا وقوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الانبياء عليهم الصلاة والسلام أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الاباطيل جعلنا لكل نبى من الانبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة اليها عدوا من مجرمى قومهم فاصبر كما صبروا وقوله تعالى

﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك فى السموات أم
آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا﴾ تقرير للتوحيد وابطال
للاشراك وقوله أرأيتم المراد منه أخبرونى لان الاستفهام يستدعى جوابا يقول القائل أرأيتم ماذا فعل
زيد فيقول السامع باع أو اشترى ولولا تضمنه معنى أخبرنى والا لما كان الجواب الا قوله لا أو نعم وقوله
شركاءكم انما أضاف الشركاء اليهم من حيث ان الاصنام فى الحقيقة لم تكن شركاء لله وانما هم جعلوها
شركاء فقال شركاءكم أى الشركاء بجعلكم ويحتمل أن يقال شركاءكم أى شركاءكم فى النار لقوله انكم وما
تعبدون من دون الله حصب جهنم وهو قريب ويحتمل ان يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الاول
وقوله أرونى بدل عن أرأيتم لان كليهما يفيد معنى أخبرونى ويحتمل أن يقال قوله أرأيتم استفهام حقيقى
وأرونى أمر تعجيز للتبيين فلما قال أرأيتم يعنى أعلمتم هذه التى تدعونها كما هى وعلى ما هى عليه من العجز
أو تتوهمون فيها قدرة فان كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها وان كان وقع لكم ان لها قدرة فأرونى
قدرتها فى أى شئ هى أهى فى الارض كما قال بعضهم ان الله اله السماء وهؤلاء آلهة الارض وهم الذين قالوا
أمور الارض من الكواكب والاصنام صورها أم هى فى السموات كما قال بعضهم ان السماء خلقت باستعانة
الملائكة والملائكة شركاء فى خلق السموات وهذه الاصنام صورها أم قدرتها فى الشفاعة لكم كما قال
بعضهم ان الملائكة ما خلقوا شيأ ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها ليشفعوا لنا فهل معهم كتاب من الله
فيه اذنه لهم بالشفاعة وقوله أم آتيناهم كتابا فى العائد اليه الضمير وجهان (أحدهما) انه عائد الى الشركاء أى
هل آتينا الشركاء كتابا (وثانيهما) انه عائد الى المشركين أى هل آتينا المشركين كتابا وعلى الاول فمعناه
ما ذكرنا أى هل مع ما جعل شريكا كتاب من الله فيه أن له شفاعة عند الله فان أحدا لا يشفع عنده الا باذنه
وعلى الثانى معناه ان عبادة هؤلاء اما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من لم يخلق من الارض جزأ من الاجزاء ولا
فى السماء شيأ من الاشياء واما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتابا فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولو أمرنا
لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم والى جهة الكعبة فهذه العبادة لا عقلية ولا نقلية فوعد بعضهم بعضا ليس
الا غرورا غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الاصنام ۞ ثم لما بين انه لا خلق للاصنام ولا قدرة لها ولا على
جزء من الاجزاء بين ان الله قدير بقوله ﴿ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما
من أحد من بعده انه كان حليما غفورا﴾ ويحتمل ان يقال لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال
السموات والارض كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا
للرحمن ولدا ويدل على هذا قوله تعالى فى آخر الآية انه كان حليما غفورا كان حليما ما ترك تعذيبهم الا حلما
منه والا كانوا يستحقون اسقاط السماء وانطباق الارض عليهم وانما أخر ازالة السموات الى قيام الساعة
حلما وتحتمل الآية وجها ثالثا وهو أن يكون ذلك من باب التسليم واثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضا
كأنه تعالى قال شركاؤكم ما خلقوا من الارض شيأ ولا فى السماء جزأ ولا قدروا على الشفاعة فلا عبادة لهم
وهب انهم فعلوا شيأ من الاشياء فهل يقدرون على امساك السموات والارض ولا يمكنهم القول بانهم
يقدرون لانهم ما كانوا يقولون به كما قال تعالى عنهم ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله
ويؤيد هذا قوله ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده فاذا تبين أن لا معبود الا الله من حيث ان غيره لم
يخلق من الاشياء وان قال الكافر بان غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له انه كان حليما غفورا حليما
حيث لم يعجل فى اهلاكهم بعد اصرارهم على اشراكهم وغفورا يغفر لمن تاب ويرحمه وان استحق العقاب
۞ ثم قال تعالى ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير
ما زادهم الا نفورا استكبارا فى الارض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ الا باهله﴾ لما بين انكارهم
التوحيد ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه حيث انهم كانوا يقسمون على انهم لا يكذبون الرسل اذا
تبين لهم كونهم رسلا وقالوا انما نكذب محمدا صلى الله عليه وسلم لكونه كاذبا ولو تبين لنا كونه رسولا
لآمنا كما قال تعالى عنهم وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وهذا مبالغة منهم فى
التكذيب كان من ينكر دين انسان قد يقول والله لو علمت ان له شيأ على لقضيته وزدت له اظهار الكونه

(وكفى بربك هاديا ونصيرا) وعد
كريم له عليه الصلاة والسلام
بالهداية الى كافة مطالبه والنصر
على أعدائه أى كفاك مالك أمرك
ومبلغك الى الكمال هاديا لك الى
ما يوصلك الى غاية الغايات التى من
جملتها تبليغ الكتاب أجله واجراء
أحكامه فى أكناف الدنيا الى يوم
القيامة ونصيرا لك على جميع من
يعاديك (وقال الذين كفروا) حكاية
لاقتراحهم الخاص بالقرآن
الكريم بعد حكاية اقتراحهم فى
حقه عليه الصلاة والسلام
والقائلون هم القائلون أولا
وايرادهم بعنوان الكفر لذمهم به
والاشعار بعلة الحكم (لولا نزل
عليه القرآن) التنزيل ههنا مجرد
عن معنى التدريج كما فى قوله تعالى
يسئلك أهل الكتاب أن تنزل
عليهم كتابا من السماء ويجوز أن
يراد به الدلالة على كثرة المنزل فى
نفسه أى هلا أنزل كله (جملة
واحدة) كالكتب الثلاثة وبطلان
هذه الكلمة الحمقاء مما لا يكاد
يخفى على أحد فان الكتب
المتقدمة لم يكن شاهد صحتها
ودليل كونها من عند الله تعالى
اعجازها وأما القرآن الكريم
فبينة صحته وآية كونه من عند
الله تعالى نظمه المعجز الباقى على
مر الدهور المتحقق فى كل جزء من
أجزائه المقدرة بمقدار أقصر السور
حسبما وقع به التحدى ولا ريب فى
أن مايدور عليه فلك الاعجاز هو
المطابقة لما تقتضيه الاحوال
ومن ضرورة تغيرها وتجددها تغير
ما يطابقها حتما على أن فيه فوائد
جمة قد أشير الى بعض منها بقوله
تعالى (كذلك لنثبت به فؤادك)
فانه استئناف وارد من جهته تعالى
لرد مقالتهم الباطلة وبيان الحكمة
فى التنزيل التدريجى ومحل الكاف

مطالبا بالباطل فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدى الامم فلما جاءهم نذير أى محمد صلى الله عليه وسلم جاءهم أى صح مجيئه لهم بالبينة ما زادهم الا نفورا فانهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولانهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا بعد الرسالة وقال بعض المفسرين ان أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على انهم كذبوا برسلهم لما جاؤهم وقالوا لو جاءنا رسول لاطعناه واتبعناه وهذا فيه اشكال من حيث ان المشركين كانوا منكرين للرسالة والحشر مطلقا فكيف كانوا يعترفون بالرسل فمن أين عرفوا أن اليهود كذبوا وما جاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون أنهم صدقوا شيأ وكذبوا فى شئ بل المراد ما ذكرنا أنهم كانوا يقولون نحن لو جاءنا رسول لا ننكره وانما ننكر كون محمد رسولا من حيث انه كاذب ولو صح كونه رسولا لآمنا وقوله فلما جاءهم أى فلما صح لهم مجيئه بالمعجزة وفى قوله أهدى وجهان (أحدهما) أن يكون المراد أهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله من احدى الامم للتبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا أى صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى (وثانيهما) أن يكون المراد أن نكون أهدى من احدى الامم كما يقول القائل زيد أولى من عمرو وفى الامم وجهان (أحدهما) أن يكون المراد العموم أى أهدى من أى احدى الامم وفيه تعريض (وثانيهما) أن يكون المراد تعريف العهد أى أمة محمد وموسى وعيسى ومن كان فى زمانهم ثم قال تعالى استكبارا فى الارض ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون حالا أى مستكبرين فى الارض (وثانيها) أن يكون مفعولا له أى للاستكبار (وثالثها) أن يكون بدلا عن النفور وقوله ومكر السيئ اضافة الجنس الى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكراسيأ ثم عرف لظهور مكرهم ثم ترك التعريف باللام وأضيف الى السيئ لكون السوء فيه أبين الامور ويحتمل أن يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا فى قوله تعالى والذين يمكرون السيآت أى يعملون السيآت ومكرهم السيئ وهو جميع ما كان يصدر منهم من القصد الى الايذاء ومنع الناس من الدخول فى الايمان واظهار الانكار ثم قال ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله أى لا يحيط الا بفاعله وفى قوله ولا يحيق وقوله الا بأهله فوائد أما فى قوله يحيق فهى أنها تنبئ عن الاحاطة التى هى فوق اللحوق وفيه من التحذير ما ليس فى قوله ولا يلحق أو ولا يصل واما فى قوله بأهله ففيه ما ليس فى قول القائل ولا يحيق المكر السيئ الا بالماكر كى لا يأمن المسئ فان من أساء ومكره سيئ آخر قد يلحقه جزاء على سيئه وأما اذا لم يكن سيأ فلا يكون أهلا فيأمن المكر السيئ وأما فى النفى والاثبات ففائدته الحصر بخلاف ما يقول القائل المكر السيئ يحيق بأهله فلا ينبئ عن عدم الحيق بغير أهله فان قال قائل كثيرا ما نرى أن الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك فنقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) ان المكر المذكور فى الآية هو المكر الذى مكروه مع النبى صلى الله عليه وسلم من العزم على القتل والاخراج ولم يحق الا بهم حيث قتلوا يوم بدر وغيره (وثانيها) هو ان نقول المكر السيئ عام وهو الاصح فان النبى عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا فان الله يقول ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به يكون أهلا فلا يرد نقضا (وثالثها) أن الامور بعواقبها ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلا فى الظاهر ففى الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم فى الدنيا ويبين هذا المعنى قوله تعالى فهل ينظرون الا سنة الاولين يعنى اذا كان لمكرهم فى الحال رواج فالعاقبة للتقوى والامور بخواتيمها فيهلكون كما هلك الاولون ﴿ وقوله تعالى (فهل ينظرون الا سنة الاولين) أى ليس لهم بعد هذا الا انتظار الاهلاك وهو سنة الاولين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الاهلاك ليس سنة الاولين انما هو سنة الله بالاولين فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان المصدر الذى هو المفعول المطلق يضاف الى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما اذا ضرب زيد عمرا عجبت من ضرب عمرو وكيف ضرب مع ماله من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحكمة فكذلك

النصب على انها صفة لمصدر مؤكد لمضمر معلل بما بعده وذلك اشارة الى ما يفهم من كلامهم أى مثل ذلك التنزيل المفرق الذى قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه لا تنزيلا مغايرا له لنقوى بذلك التنزيل المفرق فؤادك فان فيه تيسيرا لحفظ النظم وفهم المعانى وضبط الاحكام والوقوف على تفاصيل ما روعى فيها من الحكم والمصالح المبنية على المناسبة على أنها منوطة باسبابها الداعية الى شرعها ابتداء أو تبديلا بالنسخ من أحوال المكلفين وكذلك عامة ما ورد فى القرآن المجيد من الاخبار وغيرها متعلقة بامور حادثة من الاقاويل والافاعيل ومن قضية تجددها تجدد ما يتعلق بها كالاقتراحات الواقعة من الكفرة الداعية الى حكايتها وابطالها وبيان ما يؤل اليه حالهم فى الآخرة على أنهم فى هذا الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه حيث أمروا بالاتيان بمثل نوبة من نوب التنزيل فظهر عجزهم عن المعارضة وضاقت عليهم الارض بما رحبت فكيف لو تحدوا بكلمة وقوله تعالى (ورتلناه ترتيلا) عطف على ذلك المضمر وتنكير ترتيلا للتفخيم أى كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا بديعا لا يقادر قدره ومعنى ترتيله تفريقه آية بعد آية قاله النخعى والحسن وقتادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما بيناه بيانا فيه ترتيل وتثبيت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد جعلناه بعضه فى اثر بعض وقيل هو الامر بترتيل قراءته بقوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا وقيل قرأناه عليك بلسان جبريل عليه السلام شيأ فشيأ فى عشرين أو فى ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل (ولا يأتونك بمثل) من الامثال التى

سنة الله بهم أضافها اليهم لانها سنة سنت بهم وأضافها الى نفسه بعدها بقوله ﴿فلن تجد لسنت الله تبديلا﴾ لانها سنة من سنن الله اذا علمت هذا فنقول أضافها فى الاول اليهم حيث قال سنة الاولين لان سنة الله الاهلاك بالاشراك والاكرام على الاسلام فلا يعلم أنهم ينتظرون أيهما فاذا قال سنة الاولين تميزت وفى الثانى أضافها الى الله لانها لما علمت فالاضافة الى الله تعظمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع (وثانيهما) أن المراد من سنة الاولين استمرارهم على الانكار واستكبارهم عن الاقرار وسنة الله استئصالهم باصرارهم فكأنه قال أنتم تريدون الاتيان بسنة الاولين والله يأتى بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها (المسئلة الثانية) التبديل تحويل فما الحكمة فى التكرار نقول بقوله فلن تجد لسنت الله تبديلا حصل العلم بان العذاب لا تبديل له بغيره وبقوله ﴿ولن تجد لسنت الله تحويلا﴾ حصل العلم بأن العذاب مع أنه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه الى غيره فيتم تهديد المسىء (المسئلة الثالثة) المخاطب بقوله فلن تجد يحتمل وجهين وقد تقدم مرارا (أحدهما) ان يكون عاما كأنه قال فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلا (والثانى) أن يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فكأنه قال سنة الله انه لا يهلك ما بقى فى القوم من كتب الله ايمانه فاذا آمن من فى علم الله انه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح انك ان تذرهم أى تمهل الامر وجاء وقت ستلك ۞ ثم قال تعالى ﴿أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة﴾ لما ذكر أن للاولين سنة وهى الاهلاك نبههم بتذكير حال الاولين فانهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم أما الاول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم وأما عملهم فلانهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمدا وأنتم يا أهل مكة كذبتم محمدا ومن تقدمه وقوله تعالى وكانوا أشد منهم قوة قد ذكرناه فى سورة الروم بقى فيه أبحاث (الاول) قال هناك كانوا أشد من غير واو وقال ههنا بالواو فما الفرق نقول قول القائل اما رأيت زيدا كيف أكرمنى وأعظم منك يفيد ان القائل يخبره بان زيدا أعظم واذا قال أما رأيته كيف أكرمنى هو أعظم منك يفيد انه تقرر ان كلا المعنيين حاصل عند السامع كانه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولا شك ان هذه العبارة الاخيرة تفيد كون الامر الثانى فى الظهور مثل الاول بحيث لا يحتاج الى اعلام من المتكلم ولا اخبار اذا علمت هذا فنقول المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير ولعل ذلك كان ظاهرا عندهم فقال بالواو أى نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فانه قال كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها وفى موضع آخر قال أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الارض ولعل علمهم لم يحصل باثارتهم الارض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلوما عندهم فان كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم انهم أقوى منهم ولا نزاع فيه ۞ وقوله تعالى ﴿وما كان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الارض انه كان عليما قديرا﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون بيانا لهم أى ان الاولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لا يعجزوه (والثانى) أن يكون قطعا لاطماع الجهال فان قائلا لو قال هب ان الاولين كانوا أشد قوة وأطول أعمارا لكنا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار فقال تعالى وما كان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الارض انه كان عليما بأفعالهم وأقوالهم قديرا على اهلاكهم واستئصالهم ۞ ثم قال تعالى ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا﴾ لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون عجل لنا عذابنا فقال الله للعذاب أجل والله لا يؤاخذ الناس بنفس الظلم فان الانسان ظلوم جهول وانما يؤاخذ بالاصرار وحصول يأس الناس عن ايمانهم ووجود الايمان ممن كتب الله ايمانه فاذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم اهلاك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون نقول الجواب من وجوه (أحدها) ان خلق الدواب نعمة فاذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لان المفرد أولا ثم المركب

من جملتها ما حكى من اقتراحاتهم القبيحة الخارجة عن دائرة العقول الجارية لذلك مجرى الامثال أى لا يأتونك بكلام عجيب هو مثل فى البطلان يريدون به القدح فى حقك وحق القرآن (الاجئناك) فى مقابلته (بالحق) أى بالجواب الحق الثابت الذى ينحى عليه بالابطال ويحسم مادة القيل والقال كما مر من الاجوبة الحقة القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة الدامغة لها بالكلية وقوله تعالى (وأحسن تفسيرا) عطف على الحق أى جئناك باحسن تفسيرا أو على محل بالحق أى آتيناك الحق وأحسن تفسيرا أى بيانا وتفصيلا على معنى أنه فى غاية ما يكون من الحسن فى حد ذاته لا ان ما يأتون به له حسن فى الجملة وهذا أحسن منه كما مر والاستثناء مفرغ محله النصب على الحالية أى لا يأتونك بمثل الا حال ايتائنا اياك الحق الذى لا محيد عنه وفيه من الدلالة على المسارعة الى ابطال ما أتوا به وتثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الاسئلة وصحة جميع الاجوبة وباشارته منبئ عن بطلان السؤال الاخير وصحة جوابه اذ لولا أن تنزيل القرآن على التدريج لما أمكن ابطال تلك الاقتراحات الشنيعة ولما حصل تثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام من تلك الحيثية هذا وقد يجوز أن يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التى كانوا يقترحون كونه عليه الصلاة والسلام عليها من مقارنة الملك والاستغناء عن الاكل والشرب وحيازة الكنز والجنة ونزول القرآن عليه جملة واحدة على معنى لا يأتونك بحال عجيبة يقترحون

اما أن يكون معدنيا واما ان يكون ناميا والنامى اما ان يكون حيوانا واما ان يكون نباتا والحيوان اما انسان واما غير انسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات فى عالم العناصر للانسان (الثانى) هو ان ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فان بقاء الاشياء بالانسان كما ان بقاء الانسان بالاشياء وذلك لان الانسان يدبر الاشياء ويصلحها فتبقى الاشياء ثم ينتفع بها الانسان فيبقى الانسان فاذا كان الهلاك عاما لا يبقى من الانسان من يعمر فلا تبقى الابنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الاهلية لان بقاءها بحفظ الانسان اياها عن التلف والهلاك بالسقى والعلف (الثالث) هو ان انزال المطر هو انعام من الله فى حق العباد فاذا لم يستحقوا الانعام قطعت الامطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الارض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى ما ترك على ظهرها من دابة يؤيد الوجه الثالث لان بسبب انقطاع الامطار تموت حيوانات البر أما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار (المسئلة الثانية) قوله تعالى على ظهرها كناية عن الارض وهى غير مذكورة فكيف علم نقول مما تقدم ومما تأخر أما ما تقدم فقوله وما كان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الارض فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء اليها * وأما ما تأخر فقوله من دابة لان الدواب على ظهر الارض فان قيل كيف يقال لما عليه الخلق من الارض وجه الارض وظهر الارض مع ان الوجه مقابل الظهر كالمضاد نقول من حيث ان الارض كالدابة الحاملة للاثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الارض ومن حيث ان ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها على ان الظهر فى مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب فوجه الارض ظهر لانه هو الظاهر وغيره منها باطن وبطن (المسئلة الثالثة) فى قوله تعالى ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى وجوه (أحدها) الى يوم القيامة وهو مسمى مذكور فى كثير من المواضع (ثانيها) يوم لا يوجد فى الخلق من يؤمن على ما تقدم (ثالثها) لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد صلى الله عليه وسلم أيام القتل والاسر كيوم بدر وغيره (المسئلة الرابعة) قوله تعالى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا تسلية للمؤمنين وذلك لانه تعالى لما قال ما ترك على ظهرها من دابة وقال لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة قال فاذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير اما أن ينجيهم أو يكون توفيهم تقريبا من الله لا تعذيبا * لا يقال قد ذكرت ان الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم وانما يؤاخذ حين يجتمع الناس على الضلال ونقول بأنه تعالى عند الاهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا * نقول قد ذكرنا ان الاماتة والافناء ان كان للتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب واهلاك وان كان لايصال الثواب فليس باهلاك ولا بمؤاخذة والله لا يؤاخذ الناس الا عند عموم الكفر وقوله بصير لفظ أتم فى التسلية من العليم وغيره لان البصير بالشئ الناظر اليه أولى بالانجاء من العالم بحاله دون أن يراه والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(سورة يس ثمانون وثلاث آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يس والقرآن الحكيم) قد ذكرنا كلاما كليا فى حروف التهجى فى سورة العنكبوت وذكرنا ان فى كل سورة بدأ الله فيها بحرف التهجى كان فى أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن ولنذكر ههنا أبحاثا (البحث الاول) هو أن فى ذكر هذه الحروف فى أوائل السور أمورا تدل على أنها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الانسان لا يصل اليها بعينها فنقول ماهو الكلى من الحكمة فيها أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة فهو ان الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهى أربعة عشر حرفا وهى نصف ثمانية وعشرين حرفا وهى جميع الحروف التى فى لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ثم انه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الالف الى الذال وتسعة أحرف أخر فى آخر الحروف من الفاء الى الياء وعشرة من الوسط من الراء الى الغين وذكر من القسم الاول حرفين هما الالف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة ولم يترك من القسم الاول من حروف الحلق والصدر الا واحدا لم يذكره وهو الخاء ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة الا واحدا لم يتركه وهو الميم والعشر الاواسط ذكر

انصافك بها قائلين هلا كان على هذه الحالة الا أعطيناك نحن من الاحوال الممكنة ما يحق لك فى حكمتنا ومشيئتنا أن نعطاه وما هو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته وهو الذى أنت عليه فى الذات والصفات ويأباه الاستثناء المذكور فان المتبادر منه أن يكون ما أعطاه الله تعالى من الحق مترتبا على ما أتوا به من الاباطيل دامغا لها ولا ريب فى أن ما آتاه الله تعالى من الملكات السنية اللائقة بالرسالة قد أتاه من أول الامر لا بمقابلة ما حكى عنهم من الاقتراحات لاجل دمغها وابطالها (الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم) أى يحشرون كائنين على وجوههم يسحبون عليها ويجرون الى جهنم وقيل مقلوبين وجوههم على قفاهم وأرجلهم الى فوق روى عنه عليه الصلاة والسلام يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم ينسلون نسلا وأما ما قيل متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم اليها فبعيد لان هول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلق بالسفليات أو توجه اليها فى الجملة ومحل الموصول اما النصب أو الرفع على الذم أو الرفع على الابتداء وقوله تعالى (أولئك) بدل منه أو بيان له وقوله تعالى (شر مكانا وأضل سبيلا) خبره أو اسم الاشارة مبتدأ ثان وشر خبره والجملة خبر للموصول ووصف السبيل بالضلال من باب الاسناد المجازى للمبالغة والمفضل عليه الرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند

منها حرفا وترك حرفا فذكر الراء وترك الزاى وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين وليس هذا أمرا يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة واما ان عينها غير معلومة فظاهر وهب ان واحدا يدعى فيه شيأ فماذا يقول فى كون بعض السور مفتتحة بحرف كسورة ن وق وص وبعضها بحرفين كسورة حم ويس وطس وطه وبعضها بثلاثة أحرف كسورة الم وطسم والر وبعضها بأربعة كسورتى المر والمص وبعضها بخمسة أحرف كسورتى حم عسق وكهيعص وهب ان قائلا يقول ان هذا اشارة الى أن الكلام اما حرف واما فعل واما اسم والحرف كثيرا ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الالصاق وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وان للشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كالى وعلى فى الحرف والى وعلا فى الاسم وألا يألو وعلا يعلو فى الفعل والاسم والفعل جاء على أربعة والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفعل وسبحل وجردحل فما جاء فى القرآن اشارة الى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل فى تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر الا الله ومن أعلمه الله به اذا علمت هذا فنقول اعلم ان العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم أما القلبية مع انها أبعد عن الشك والجهل ففيها مالم يعلم دليله عقلا وانما وجب الايمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذى أرق من الشعرة وأحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذى توزن به الاعمال التى لا ثقل لها فى نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فان هذه الاشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلى وانما المعلوم بالعقل امكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول وكذلك فى العبادات الجارحية ما علم معناه ومالم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات وقد ذكرنا الحكمة فيه وهى ان العبد اذا أتى بما أمر به من غير أن يعلم ما فيه من الفائدة لا يكون الا آتيا بمحض العبادة بخلاف مالو علم الفائدة فربما يأتى به للفائدة وان لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه بما فى النقل فنقلها ولو قال انقلها فان تحتها كنزا هو لك ينقلها وان لم يؤمن اذا علم هذا فكذلك فى العبادات اللسانية الذكرية وجب أن يكون منها مالا يفهم معناه حتى اذا تكلم به العبد علم منه انه لا يقصد غير الانقياد لامر المعبود الآمر الناهى فاذا قال حم يس الم طس علم انه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه أو يفهمه فهو يتلفظ به اقامة لما أمر به (البحث الثانى) قيل فى خصوص يس انه كلام هو نداء معناه يا انسان وتقريره هو أن تصغير انسان أنيسين فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال يس أى أنيسين وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قوله تعالى بعده انك لمن المرسلين (البحث الثالث) قرئ يس اما بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف هو قوله هذه كأنه قال هذه يس واما بالضم على نداء المفرد أو على أنه مبنى كحيث وقرئ يس اما بالنصب على معنى اتل يس واما بالفتح كاين وكيف وقرئ يس بالكسر ككير لاسكان الياء وكسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالجر لان اضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر وقوله تعالى والقرآن الحكيم أى ذى الحكمة كعيشة راضية أى ذات رضا أو على أنه ناطق بالحكمة فهو كالحى المتكلم ۞ وقوله تعالى ﴿انك لمن المرسلين﴾ مقسم عليه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الكفار أنكروا كون محمد مرسلا والمطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة فى الاقسام نقول فيه وجوه (الاول) هو ان العرب كانوا يتوقون الايمان الفاجرة وكانوا يقولون ان اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع ثم انهم كانوا يقولون ان النبى صلى الله عليه وسلم يصيبه من آلهتهم عذاب وهى الكواكب فكان النبى صلى الله عليه وسلم يحلف بأمر الله وانزال كلامه عليه وبأشياء مختلفة وما كان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنا وأمنع مكانا فكان ذلك يوجب اعتقادا انه ليس بكاذب (الثانى) هو ان المتناظرين اذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المطلوب انك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير فى نفسك بضعف مقالك وتعلم ان

الله من لعنه الله وغضب عليه كأنه قيل ان حاملهم على هذه الاقتراحات تحقير مكانه عليه الصلاة والسلام بتضليل سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شر مكانا وأضل سبيلا وقيل هو متصل بقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا (ولقد آتينا موسى الكتاب) جملة مستأنفة سيقت لتأكيد ما مر من التسلية والوعد بالهداية والنصر فى قوله تعالى وكفى بربك هاديا ونصيرا بحكاية ما جرى بين من ذكر من الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبين قومهم حكاية اجمالية كافية فيما هو المقصود واللام جواب لقسم محذوف أى وبالله لقد آتينا موسى التوراة أى أنزلناها عليه بالآخرة (وجعلنا معه) الظرف متعلق بجعلنا وقوله تعالى (أخاه) مفعول أول له وقوله تعالى (هرون) بدل من أخاه أو عطف بيان له على عكس ما وقع فى سورة طه وقوله تعالى (وزيرا) مفعول ثان له وقد مر معنى الوزير أى جعلناه فى أول الامر وزيرا له (فقلنا) لهما حينئذ (اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا) هم فرعون وقومه والآيات هى المعجزات التسع المفصلات الظاهرة على يدى موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهما عند ارسالهما اليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن اظهارها المتأخر عن ذهابهما المتأخر عن الامر به بل انما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيانا لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أى فذهبا اليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذبوها تكذيبا مستمرا (فدمرناهم) اثر ذلك

الامر ليس كما تقول وان أقمت عليه صورة دليل وعجزت أنا عن القدح فيه وهذا كثير الوقوع بين المناظرين فعند هذا لا يجوز أن يأتي هو بدليل آخر لان الساكت المنقطع يقول في الدليل الآخر ما قاله في الاول فلا يجد أمرا الا اليمين فيقول والله اني لست مكابرا وان الامر على ما ذكرت ولو علمت خلافه لرجعت اليه فههنا يتعين اليمين فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما أقام البراهين وقالت الكفرة ما هذا الا رجل يريد ان يصدكم وقالوا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين تعين التمسك بالايمان لعدم فائدة الدليل (الثالث) هو ان هذا ليس مجرد الحلف وانما هو دليل خرج في صورة اليمين لان القرآن معجزة ودليل كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك فان قيل فلم يذكر في صورة الدليل وما الحكمة في ذكر الدليل في صورة اليمين قلنا الدليل اذا ذكر لا في صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فاذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع لا سيما من العظيم الاعلى أمر عظيم والامر العظيم تتوفر الدواعي على الاصغاء اليه فلصورة اليمين تشرئب اليه الاجساد ولكونه دليلا شافيا يتشربه الفؤاد فيقع في السمع وينفع في القلب (المسئلة الثانية) كون القرآن حكيما عندهم لكون محمد رسولا فلهم ان يقولوا ان هذا ليس بقسم نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان كون القرآن معجزة بين ان أنكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله (والثاني) ان العاقل لا يثق بيمين غيره الا اذا حلف بما يعتقد عظمته فالكافران حلف بمحمد لا نصدقه كما نصدقه لو حلف بالصليب والصنم ولو حلف بديننا الحق لا يوثق بمثل ما يوثق لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم ان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذي يوجب ثقتهم به ۞ وقوله تعالى (على صراط مستقيم) خبر بعد خبر أي انك على صراط مستقيم والمستقيم أقرب الطرق الموصلة الى المقصد والدين كذلك فانه توجه الى الله تعالى وتولى عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه الى المقصد أقرب اليه من المولى عنه والمتحرف منه ولا يذهب فهم أحد الى ان قوله انك منهم على صراط مستقيم مميزله عن غيره كما يقال ان محمدا من الناس مجتبى لان جميع المرسلين على صراط مستقيم وانما المقصود بيان كون النبي صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم الذي يكون عليه المرسلون وقوله على صراط مستقيم فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباحية الذين يقولون المكلف يصير واصلا الى الحق فلا يبقى عليه تكليف وذلك من حيث ان الله بين ان المرسلين ما داموا في الدنيا فهم سالكون سائحون مهتدون منتهجون الى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز ۞ وقوله تعالى (تنزيل العزيز الرحيم) قرئ بالجر على انه بدل من القرآن كأنه قال والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم انك لمن المرسلين لتنذر وقرئ بالنصب وفيه وجهان (أحدهما) انه مصدر فعله منوى كأنه قال نزل تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن أو الكتاب الحكيم (والثاني) انه مفعول فعل منوى كأنه قال والقرآن الحكيم أعني تنزيل العزيز الرحيم انك لمن المرسلين لتنذر وهذا ما اختاره الزمخشري وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدا منوى كأنه قال هذا تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويحتمل وجها آخر على هذه القراءة وهو أن يكون مبتدأ خبره لتنذر كأنه قال تنزيل العزيز للانذار وقوله العزيز الرحيم اشارة الى أن الملك اذا أرسل رسولا فالمرسل اليهم اما أن يخالفوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم الا اذا كان عزيزا أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ يرحمهم الملك أو نقول المرسل يكون معه في رسالته منع عن أشياء واطلاق لاشياء فالمنع يؤكد العزة والاطلاق يدل على الرحمة ۞ وقوله تعالى (لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) قد تقدم تفسيره في قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك وقيل المراد الاثبات وهو على وجهين (أحدهما) لتنذر قوما ما انذار آباؤهم فتكون ما مصدرية (الثاني) ان تكون موصولة معناه لتنذر قوما الذين أنذر آباؤهم فهم غافلون فعلى قولنا ما نافية تفسيره ظاهر فان من ينذر آباؤه وبعد الانذار عنه فهو يكون غافلا وعلى قولنا هي للاثبات كذلك لان معناه لتنذرهم انذار آبائهم فانهم غافلون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضي أن لا يكون آباؤهم منذرين والآخر يقتضي أن يكونوا منذرين وبينهما تضاد نقول على قولنا ما نافية معناه ما أنذر آباؤهم وانذار آبائهم الاولين لا ينافي أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين

التكذيب المستمر (تدميرا) عجيبا هائلا لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه فاقتصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما هو المقصود وحمل قوله تعالى فدمرناهم على معنى فحكمنا بتدميرهم مع كونه تعسفا ظاهرا مما لا وجه له اذ لا فائدة يعتد بها في حكاية الحكم بتدمير قد وقع وانقضى والتعرض في مطلع القصة لايتاء الكتاب مع أنه كان بعد مهلك القوم ومن لم يكن له مدخل في هلاكهم كسائر الآيات للايذان من أول الامر ببلوغه عليه الصلاة والسلام غاية الكمال ونيله نهاية الآمال التي هي انجاء بني اسرائيل من ملكة فرعون وارشادهم الى طريق الحق بما في التوراة من الاحكام اذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذي مر بيانه وقرئ فدمرتهم فدمراهم وفدمرانهم على التأكيد بالنون الثقيلة (وقوم نوح) منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى فدمرناهم أي ودمرنا قوم نوح وقيل عطف على مفعول فدمرناهم وليس من ضرورة ترتب تدميرهم على ما قبله ترتب تدمير هؤلاء عليه لا سيما وقد بين سببه بقوله تعالى (لما كذبوا الرسل) أي نوحا ومن قبله من الرسل أو نوحا وحده لان تكذيبه تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد والاسلام وقيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (أغرقناهم) وانما يتسنى ذلك على تقدير كون كلمة لما ظرف زمان وأما على تقدير كونها حرف وجود لوجود فلا لانه حينئذ جواب لها وجواب لما لا يفسر ما قبله مع أنه مخل بعطف المنصوبات الآتية على قوم نوح لما أن اهلاكهم ليس بالاغراق فالوجه ما تقدم

والمتأخرون منهم غير منذرين (المسئلة الثانية) قوله لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم يقتضى أن لا يكون النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بانذار اليهود لان آباءهم أنذروا نقول ليس كذلك أما على قولنا ما للاثبات لا للنفى فظاهر وأما على قولنا هى نافية فكذلك وقد بينا ذلك فى قوله تعالى بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك وقلنا ان المراد أن آباءهم قد انذروا بعد ضلالهم و بعد ارسال من تقدم فان الله اذا أرسل رسولا فادام فى القوم من يبين دين ذلك النبى و يأمر به لا يرسل الرسول فى أكثر الامر فاذا لم يبق فيهم من يبين و يضل الكل و يتباعد العهد و يفشو الكفر يبعث رسولا آخر مقرر الدين من كان قبله أو واضع الشرع آخر فعنى قوله تعالى لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم أى ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم واليهود والنصارى دخلوا فيه لانهم لم تنذر آباؤهم الادنون بعد ما ضلوا فهذا دليل على كون النبى صلى الله عليه وسلم مبعوثا بالحق الى الخلق كافة (المسئلة الثالثة) قوله فهم غافلون دليل على أن البعثة لا تكون الا عند الغفلة اما ان حصل لهم العلم بما أنزل الله بان يكون منهم من يبلغهم شريعة و يخالفونه فحق عليهم الهلاك ولا يكون ذلك تعذيبا من قبل أن يبعث الله رسولا وكذلك من خالف الامور التى لا تفتقر الى بيان الرسل يستحق الاهلاك من غير بعثه وليس هذا قولا بمذهب المعتزلة من التحسين والتقبيح العقلى بل معناه ان الله تعالى لو خلق فى قوم علما بوجوب الاشياء وتركوه لا يكونون غافلين فلا يتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل ﴿ ثم قال تعالى ﴿لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ لما بين أن الارسال أو الانزال للانذار أشار الى أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء وانما عليه الانذار وقد لا يؤمن من المنذرين كثير وفى قوله تعالى لقد حق القول وجوه (الاول) وهو المشهور ان المراد من القول هو قوله تعالى حق القول منى لأملأن جهنم منك وممن تبعك (الثانى) هو أن معناه لقد سبق فى علمه ان هذا يؤمن وان هذا لا يؤمن فقال فى حق البعض انه لا يؤمن وقال فى حق غيره انه يؤمن فحق القول أى وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره (الثالث) هو أن يقال المراد منه لقد حق القول الذى قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبان برهانه فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك لان من يتوقف لاستماع الدليل فى مهلة النظر يرجى منه الايمان اذا بان له البرهان فاذا تحقق وأكد بالايمان ولم يؤمن أكثرهم فأكثرهم تبين انهم لا يؤمنون لمضى وقت رجاء الايمان ولانهم لما لم يؤمنوا عند ما حق القول واستمروا فان كانوا يريدون شيأ أوضح من البرهان فهو العيان وعند العيان لا يفيد الايمان وقوله على أكثرهم على هذا الوجه معناه أن من لم تبلغه الدعوة والبرهان قليلون فحق القول على أكثر من لم يوجد منه الايمان وعلى الاول والثانى ظاهر فان أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا (وفيه وجه رابع) وهو أن يقال لقد حقت كلمة العذاب العاجل على أكثرهم فهم لا يؤمنون وهو قريب من الاول ﴿ ثم قال تعالى ﴿انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الاذقان فهم مقمحون﴾ لما بين انهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال انا جعلنا وفيه وجوه (أحدها) أن المراد انا جعلناهم ممسكين لا ينفقون فى سبيل الله كما قال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك (والثانى) أن الآية نزلت فى أبى جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل انه يرضخ رأس محمد فرآه ساجدا فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده و يده بعنقه (والثالث) وهو الاقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو ان ذلك كناية عن منع الله اياهم عن الاهتداء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هل للوجهين الاولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام نقول الوجه الاول له مناسبة وهى ان قوله تعالى فهم لا يؤمنون يدخل فيه انهم لا يصلون كما قال تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم أى صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بينا فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون وأما على الوجه الثانى فمناسبة خفية وهى انه لما قال لقد حق القول على أكثرهم وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من ارسال الحجر وهو يضطر الى الايمان ولم يؤمن علم انه لا يؤمن أصلا والتفسير هو الوجه الثالث (المسئلة الثانية) قوله فهى راجعة الى ماذا نقول فيها وجهان (أحدهما) انها راجعة الى الايدى وان كانت غير مذكورة ولكنها معلومة لان المغلول تكون أيديه مجموعة فى الغل الى عنقه

وقوله تعالى أغرقناهم استئناف مبين لكيفية تدميرهم (وجعلناهم) أى جعلنا اغراقهم أو قصتهم (للناس آية) أى آية عظيمة يعتبر بها كل من شاهدها أو سمعها وهى مفعول ثان لجعلنا وللناس ظرف لغو له أو متعلق بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر عنها لكان صفة لها (وأعتدنا للظالمين) أى لهم والاظهار فى موقع الاضمار للايذان بتجاوزهم الحد فى الكفر والتكذيب (عذابا أليما) هو عذاب الآخرة اذ لا فائدة فى الاخبار باعتبار العذاب الذى قد أخبر بوقوعه من قبل أو لجميع الظالمين الباقين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب فيدخل فى زمرتهم قريش دخولا أوليا و يحتمل العذاب الدنيوى والاخروى (وعادا) عطف على قوم نوح وقيل على المفعول الاول لجعلناهم وقيل على محل الظالمين اذ هو فى معنى وعدنا الظالمين وكلاهما بعيد (وثمود) الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله وقرئ وثمودا على تأويل الحى أو على أنه اسم الاب الاقصى (وأصحاب الرس) هم قوم يعبدون الاصنام فبعث الله تعالى اليهم شعيبا عليه السلام فكذبوه فبينما هم حول الرس وهى البئر التى لم تطو بعد اذ انهارت فخسف بهم و بديارهم وقيل الرس قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث اليهم نبى فقتلوه فهلكوا وقيل هو الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبى عليه السلام ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذى يقال له فتخ أو دمخ فتنقض على صبيانهم فتخطفهم ان

(وثانيهما)

(وثانيهما) وهو ما اختاره الزمخشري انها راجعة الى الاغلال معناه انا جعلنا في أعناقهم أغلالا ثقالا غلاظا بحيث تبلغ الى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه (المسئلة الثالثة) كيف يفهم من الغل في العنق المنع من الايمان حتى يجعل كناية فنقول المغلول الذي بلغ الغل ذقنه وبقي مقمحا رافع الرأس لا يبصر الطريق الذي عند قدمه وذكر بعده ان بين يديه سدا ومن خلفه سدا فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته وقد ذكر من قبل أن المرسل على صراط مستقيم فهذا الذي يهديه النبي الى الصراط المستقيم العقلي جعل ممنوعا كالمغلول الذي يجعل ممنوعا من ابصار الطريق الحسي ويحتمل وجها آخر وهو ان يقال الاغلال في الاعناق عبارة عن عدم الانقياد فان المنقاد يقال فيه انه وضع رأسه على الخط وخضع عنقه والذي في رقبته الغل الثخين الى الذقن لا يطأطئ رأسه ولا يحركه تحريك المصدق ويصدق هذا قوله مقمحون فان المقمح هو الرافع رأسه كالمتأبي يقال بعير قامح اذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والايمان كالماء الزلال الذي به الحياة وكأنه تعالى قال انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهم مقمحون لا يخضعون الرقاب لامر الله وعلى هذا فقوله تعالى ((وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون)) يكون متمما للمعنى جعل الله اياهم مغلولين لان قوله وجعلنا من بين أيديهم سدا اشارة الى انهم لا ينتهجون سبيل الرشاد فكأنه قال لا يبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولا ينقادون لك فيبصرون الحق فينقادون له لمكان الغل والايمان المورث للايقان اما باتباع الرسول أولا فتلوح له الحقائق ثانيا واما بظهور الامور أولا واتباع الرسول ثانيا ولا يتبعون الرسول أولا لانهم مغلولون فلا يظهر لهم الحق من الرسول ثانيا ولا يظهر لهم الحق أولا لانهم واقعون في السد فلا يتبعون الرسول ثانيا (وفيه وجه آخر) وهو ان يقال المانع اما أن يكون في النفس واما أن يكون خارجا عنها ولهم المانعان جميعا من الايمان أما في النفس فالغل وأما من الخارج فالسد ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التي في أنفسهم كما قال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم وذلك لان المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه ولا يقع نظرهم على الآفاق لان من بين السدين لا يبصرون الآفاق فلا تتبين لهم الآيات التي في الآفاق وعلى هذا فقوله انا جعلنا في أعناقهم وجعلنا من بين أيديهم اشارة الى عدم هدايتهم لآيات الله في الانفس والآفاق وفي تفسير قوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا مسائل (المسئلة الاولى) السد من بين الايدي ذكره ظاهر الفائدة فانهم في الدنيا سالكون وينبغي أن يسلكوا الطريقة المستقيمة ومن بين أيديهم سد فلا يقدرون على السلوك وأما السد من خلفهم فما الفائدة فيه فنقول الجواب عنه من وجوه (الاول) هو ان الانسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها وهداية نظرية والكافر ما أدركها فكأنه تعالى يقول جعلنا من بين أيديهم سدا فلا يسلكون طريقة الاهتداء التي هي نظرية وجعلنا من خلفهم سدا فلا يرجعون الى الهداية الجبلية التي هي الفطرية (الثاني) هو ان الانسان مبدؤه من الله ومصيره اليه فعمى الكافر لا يبصر ما بين يديه من المصير الى الله ولا ما خلفه من الدخول في الوجود بخلق الله (الثالث) هو ان السالك اذا لم يكن له بد من سلوك طريق فان انسد الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع واذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذي هو فيه لا يكون موضع اقامة لانه مهلك فقوله وجعلنا من بين أيديهم ومن خلفهم اشارة الى اهلاكهم (المسئلة الثانية) قوله تعالى فأغشيناهم بحرف الفاء يقتضي أن يكون للاغشاء بالسد تعلق ويكون الاغشاء مرتبا على جعل السد فكيف ذلك فنقول ذلك من وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك بيانا لامور مترتبة يكون بعضها سببا للبعض فكأنه تعالى قال انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فلا يبصرون أنفسهم لاقماحهم وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فلا يبصرون ما في الآفاق وحينئذ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله وجعلنا على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون شيأ أصلا (وثانيهما) هو ان ذلك بيان لكون السد قريبا منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم فان من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقا بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيأ اما غير السد فللحجاب واما عين السد فلكون شرط المرئي أن لا يكون قريبا من العين جدا (المسئلة الثالثة) ذكر

أعوزها الصيد ولذلك سميت مغربا فدعا عليها حنظلة عليه السلام فأصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوه عليه السلام فأهلكوا وقيل قوم كذبوا رسولهم فرسوه أي دسوه في بئر (وقرونا) أي أهل قرون قيل القرن أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وقيل مائة وعشرون (بين ذلك) أي بين ذلك المذكور من الطوائف والامم وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على ذلك المذكور وذلك المحسوب (كثيرا) لا يعلم مقدارها الا العليم الخبير ولعل الاكتفاء في شؤن تلك القرون بهذا البيان الاجمالي لما أن كل قرن منها لم يكن في الشهرة وغرابة القصة بمثابة الامم المذكورة (وكلا) منصوب بمضمر يدل عليه ما بعده فان ضرب المثل في معنى التذكير والتحذير والمحذوف الذي عوض عنه التنوين عبارة اما عن الامم التي لم يذكر أسباب اهلاكهم واما عن الكل فان ما حكي عن قوم نوح وقوم فرعون تكذيبهم للآيات والرسل لا عدم التأثر من الامثال المضروبة أي ذكرنا وأنذرنا كل واحد من المذكورين (ضربنا له الامثال) أي بينا له القصص العجيبة الزاجرة عما هم عليه من الكفر والمعاصي بواسطة الرسل (وكلا) أي كل واحد منهم لا بعضهم دون بعض (تبرنا تتبيرا) عجيبا هائلا لما أنهم لم يتأثروا بذلك ولم يرفعوا له رأسا وتمادوا على ما هم عليه من الكفر والعدوان وأصل التتبير التفتيت قال الزجاج كل شئ كسرته وفتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة (ولقد أتوا) جملة مستأنفة

السدين من بين الايدى ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه فنقول اما على قولنا انه اشارة الى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر واما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة لانهم ان قصدوا السلوك الى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين الى شئ ومولين عن شئ فصار ما اليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك فكيفما يتوجه الكافر يجعل الله بين يديه سدا (ووجه آخر) أحسن مما ذكرناه وهو انا لما بينا ان جعل السد صار سببا للاغشاء كان السد ملتزقا به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة عنه ولا يسرة فلا حاجة الى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى فاغشيناهم فهم لا يبصرون يحتمل ماذكرنا انهم لا يبصرون شيأ ويحتمل ان يكون المراد هو ان الكافر مصدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد فيظن انه على الطريقة المستقيمة وغيره ضال ۞ ثم انه تعالى بين ان الانذار لا ينفعهم مع مافعل الله بهم من الغل والسد والاغشاء والاعماء بقوله تعالى ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ أى الانذار وعدمه سيان بالنسبة الى الايمان منهم اذ لا وجود له منهم على التقديرين فان قيل اذا كان الانذار وعدمه سواء فلماذا الانذار نقول قد أجبنا فى غير هذا الموضع انه تعالى قال سواء عليهم وما قال سواء عليك فالانذار بالنسبة الى النبى صلى الله عليه وسلم ليس كعدم الانذار لان أحدهما مخرج له عن العهدة وسبب فى زيادة سيادته عاجلا وسعادته آجلا وأما بالنسبة اليهم على السواء فانذار النبى صلى الله عليه وسلم ليخرج عما عليه وينال ثواب الانذار وان لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار فى دار القرار ۞ ثم قال تعالى ﴿انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾ والترتيب ظاهر وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قال من قبل لتنذر وذلك يقتضى الانذار العام على ما بينا وقال انما تنذر وهو يقتضى التخصيص فكيف الجمع بينهما نقول من وجوه (الاول) هو ان قوله لتنذر أى كيفما كان سواء كان مفيدا أو لم يكن وقوله انما تنذر أى الانذار المفيد لا يكون الا بالنسبة الى من يتبع الذكر ويخشى (الثانى) هو ان الله تعالى لما قال ان الارسال والانزال للانذار وذكر ان الانذار وعدمه سيان بالنسبة الى أهل العناد قال لنبيه ليس انذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم وانما تنذر بذلك الانذار العام من يتبع الذكر كأنه يقول يا محمد انك بانذارك تهدى ولا تدرى من تهدى فأنذر الاسود والاحمر ومقصودك من يتبع انذارك وينتفع بذكراك (الثالث) هو ان نقول قوله لتنذر أى أولا فاذا أنذرت وبالغت وبلغت واستهزأ البعض وتولى واستكبر وولى فأعرض بعد ذلك فانما تنذر الذين اتبعوك (الرابع) وهو قريب من الثالث انك تنذر الكل بالاصول وانما تنذر بالفروع من ترك الصلاة والزكاة من اتبع الذكر وآمن (المسئلة الثانية) قوله من اتبع الذكر يحتمل وجوها (الاول) وهو المشهور من اتبع القرآن (الثانى) من اتبع ما فى القرآن من الآيات ويدل عليه قوله تعالى والقرآن ذى الذكر فما جعل القرآن نفس الذكر (الثالث) من اتبع البرهان فانه ذكر يكمل الفطرة وعلى كل وجه فمعناه انما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وكقوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات فقوله اتبع الذكر أى آمن وقوله وخشى الرحمن أى عمل صالحا وهذا الوجه يتأيد بقوله فبشره بمغفرة وأجر كريم لانا ذكرنا مرارا أن الغفران جزاء الايمان فكل مؤمن مغفور والاجر الكريم جزاء العمل كما قال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم وتفسير الذكر بالقرآن يتأيد بتعريف الذكر بالالف واللام وقد تقدم ذكر القرآن فى قوله تعالى والقرآن الحكيم وقوله وخشى الرحمن فيه لطيفة وهى أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن ورحيم فالعاقل لا ينبغى أن يترك الخشية فان كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر فالخوف منه أتم مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة وتكملة اللطيفة هى ان من أسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن حتى قال بعض الائمة هما علمان اذا عرفت هذا فالله اسم ينبئ عن الهيبة والرحمن ينبئ عن العاطفية فقال فى موضع يرجوا الله وقال ههنا وخشى الرحمن يعنى مع كونه ذا هيبة لا تقطعوا عنه رجاءكم ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه وقوله بالغيب يعنى بالدليل وان لم ينته الى درجة

مسوقة لبيان مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الامم المتبرة وعدم اتعاظهم بها وتصديرها بالقسم لمزيد تقرير مضمونها أى وبالله لقد أتى قريش فى متاجرهم الى الشام (على القرية التى أمطرت) أى أهلكت بالحجارة وهى قرى قوم لوط وكانت خمس قرى ما نجت منها الا واحدة كان أهلها لا يعملون العمل الخبيث وأما البواقى فاهلكها الله تعالى بالحجارة وهى المرادة بقوله تعالى (مطر السوء) وانتصابه اما على أنه مصدر مؤكد بحذف الزوائد كما قيل فى أنبته الله تعالى نباتا حسنا أى امطارا لسوء أو على أنه مفعول ثان اذ المعنى أعطيت أو أوليت مطر السوء (أفلم يكونوا يرونها) توبيخ لهم على تركهم التذكر عند مشاهدة ما يوجبه والهمزة لانكار نفى استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار ما يوجبها من اتيانهم عليها لا لانكار استمرار نفى رؤيتهم وتقرير رؤيتهم لها فى الجملة والفاء لعطف مدخولها على مقدر يقتضيه المقام أى ألم يكونوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها أو أ كانوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها فى مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب فالمنكر فى الاول ترك النظر وعدم الرؤية معا وفى الثانى عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها وقوله تعالى (بل كانوا لا يرجون نشورا) اما اضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ما جرى على أهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب انكارهم لكون ذلك عقوبة لمعاصيهم لا لعدم رؤيتهم لآثارها خلا أنه اكتفى عن التصريح بانكارهم ذلك بذكر ما يستلزمه

المرئى المشاهد فان عند الانتهاء الى تلك الدرجة لا يبقى للخشية فائدة والمشهور ان المراد بالغيب ما غاب عنا وهو أحوال القيامة وقيل ان الوحدانية تدخل فيه وقوله فبشره فيه اشارة الى الامر الثانى من أمرى الرسالة فان النبى صلى الله عليه وسلم بشير ونذير وقد ذكر أنه أرسل لينذر وذكر ان الانذار النافع عند اتباع الذكر فقال بشر كما أنذرت ونفعت وقوله بمغفرة على التنكير أى بمغفرة واسعة تستر من جميع الجوانب حتى لا يرى عليه أثر من آثار النفس ويظهر عليه أنوار الروح الزكية وأجر كريم أى ذى كرم وقد ذكرنا ما فى الكريم فى قوله ورزق كريم وفى قوله ورزقا كريما ۞ قال تعالى ﴿انا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شئ أحصيناه فى امام مبين﴾ فى الترتيب وجوه (أحدها) ان الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الاصول الثلاثة التى يصير بها المكلف مؤمنا مسلما ذكر أصلا آخر وهو الحشر (وثانيها) وهو أن الله تعالى لما ذكر الانذار والبشارة بقوله فبشره بمغفرة ولم يظهر ذلك بكماله فى الدنيا فقال ان لم ير فى الدنيا فالله يحيى الموتى ويجزى المنذرين ويجزى المبشرين (وثالثها) أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو احياء الموتى وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) انا نحن يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مبتدأ وخبرا كقول القائل * أنا أبو النجم وشعرى شعرى * ومثل هذا يقال عند الشهرة العظيمة وذلك لان من لا يعرف يقال له من أنت فيقول أنا ابن فلان فيعرف ومن يكون مشهورا اذا قيل له من أنت يقول أنا أى لا معرف لى أظهر من نفسى فقال انا نحن معروفون باوصاف الكمال واذا عرفنا بأنفسنا فلا تنكر قدرتنا على احياء الموتى (وثانيهما) أن يكون الخبر نحيى كأنه قال انا نحيى الموتى ونحن يكون تأكيدا والاول أولى (المسئلة الثانية) انا نحن فيه اشارة الى التوحيد لان الاشتراك يوجب التمييز بغير النفس فان زيدا اذا شاركه غيره فى الاسم فلو قال أنا زيد لم يحصل التعريف التام لان للسامع أن يقول أيما زيد فيقول ابن عمرو ولو كان هناك زيد آخر أبوه عمرو لا يكفى قوله ابن عمرو فلما قال الله انا نحن أى ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى نقول انا كذا فنمتاز وحينئذ تصير الاصول الثلاثة مذكورة الرسالة والتوحيد والحشر (المسئلة الثالثة) قوله ونكتب ما قدموا فيه وجوه (أحدها) المراد ما قدموا وأخروا فاكتفى بذكر أحدهما كما فى قوله تعالى سرابيل تقيكم الحر والمراد والبرد أيضا (وثانيها) المعنى ما أسلفوا من الاعمال صالحة كانت أو فاسدة وهو كما قال تعالى بما قدمت أيديهم أى بما قدمت فى الوجود على غيره وأوجدته (وثالثها) نكتب نياتهم فانها قبل الاعمال وآثارهم أى أعمالهم على هذا الوجه (المسئلة الرابعة) وآثارهم فيه وجوه (الاول) آثارهم أقدامهم فان جماعة من أصحابه بعدت دورهم عن المساجد فأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه وسلم ان الله يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم (والثانى) هى السنن الحسنة كالكتب المصنفة والقناطر المبنية والحبائس الدارة والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التى وضعها ظالم والكتب المضلة وآلات الملاهى وأدوات المناهى المعمولة الباقية وهو فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجر العامل شئ ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم أفعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها (والثالث) ما ذكرنا ان الآثار الاعمال وما قدموا النيات فان النية قبل العمل (المسئلة الخامسة) الكتابة قبل الاحياء فكيف أخر فى الذكر حيث قال نحيى ونكتب ولم يقل نكتب ما قدموا ونحييهم نقول الكتابة معظمة لامر الاحياء لان الاحياء ان لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة فى نفسها ان لم تكن احياء واعادة لا يبقى لها أثر أصلا فالاحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لامره فلهذا قدم الاحياء ولانه تعالى لما قال انا نحن وذلك يفيد العظمة والجبروت والاحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه فقرن بالتعريف الامر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم وقوله وكل شئ أحصيناه فى امام مبين يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون ذلك بيانا لكون ما قدموا وآثارهم أمرا مكتوبا عليهم لا يبدل فان القلم جف بما هو كائن فلما قال نكتب ما قدموا بين ان قبل ذلك كتابة أخرى فان الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم اذا فعلوه كتب عليهم انهم فعلوه (وثانيها) أن يكون ذلك مؤكدا المعنى قوله ونكتب لان من يكتب شيأ فى أوراق ويرميها قد لا يجدها

من انكارهم للجزاء الاخروى الذى هو الغاية من خلق العالم وقد كنى عن ذلك بعدم رجاء النشور أى عدم توقعه كانه قيل بل كانوا ينكرون النشور المستتبع للجزاء الاخروى ولا يرون لنفس من النفوس نشورا أصلا مع تحققه حتما وشموله للناس عموما واطراده وقوعا فكيف يعترفون بالجزاء الدنيوى فى حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين المعاصى حتى يتذكروا ويتعظوا بما شاهدوه من آثار الهلاك وانما يحملونه على الاتفاق وأما انتقال من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكر الى التوبيخ بما هو أعظم منه من عدم توقع النشور (واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا) أى ما يتخذونك الا مهزوا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه الصلاة والسلام على اتخاذهم اياه عليه الصلاة والسلام هزوا الا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل ما يفعلون بك الا اتخاذك هزوا وقدمر تحقيقه فى قوله تعالى ان اتبع الا ما يوحى الى من سورة الانعام وقوله تعالى (أهذا الذى بعث الله رسولا) محكى بعد قول مضمر هو حال من فاعل يتخذونك أى يستهزؤن بك قائلين أهذا الذى الخ والاشارة للاستحقار وابراز بعث الله رسولا فى معرض التسليم بجعله صلة للموصول الذى هو صفته عليه الصلاة والسلام مع كونهم فى غاية النكير لبعثه عليه الصلاة والسلام بطريق التهكم والاستهزاء والا لقالوا أبعث الله هذا رسولا أو أهذا الذى زعم أنه بعثه الله رسولا (ان كاد) ان مخففة من ان وضمير الشأن محذوف أى انه كاد (ليضلنا عن آلهتنا) أى ليصرفنا

فكأنه لم يكتب فقال نكتب ونحفظ ذلك فى امام مبين وهذا كقوله تعالى علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى (وثالثها) أن يكون ذلك تعميما بعد التخصيص كأنه تعالى يكتب ماقدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه بل كل شئ محصى فى امام مبين وهذا يفيد أن شيأ من الاقوال والافعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته وهذا كقوله تعالى وكل شئ فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر يعنى ليس مافى الزبر منحصرا فيما فعلوه بل كل شئ فعلوه مكتوب وقوله أحصيناه أبلغ من كتبناه لان من كتب شيأ مفرقا يحتاج الى جمع عدده فقال هو محصى فيه وسمى الكتاب اماما لان الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق واحياء واماتة اتبعوه وقيل هو اللوح المحفوظ وامام جاء جمعا فى قوله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم أى بأئمتهم وحينئذ فامام اذا كان فردا فهو ككتاب وحجاب واذا كان جمعا فهو كجبال وحبال والمبين هو المظهر للامور لكونه مظهرا للملائكة مايفعلون وللناس مايفعل بهم وهو الفارق يفرق بين أحوال الخلق فيجعل فريقا فى الجنة وفريقا فى السعير ۞ ثم قال تعالى (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون) وفيه وجهان والترتيب ظاهر على الوجهين (الوجه الاول) هو أن يكون المعنى واضرب لاجلهم مثلا (والثانى) أن يكون المعنى واضرب لاجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلا أى مثلهم عند نفسك بأصحاب القرية وعلى الاول نقول لما قال الله انك لمن المرسلين وقال لتنذر قال قل لهم ما كنت بدعا من الرسل بل قبلى بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الاقامة وعلى الثانى نقول لما قال الله تعالى ان الانذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه انه لا يؤمن قال للنبى عليه الصلاة والسلام فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلا أى مثل لهم عند نفسك مثلا حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والايذاء وأنت جئتهم واحدا وقومك أكثر من قوم الثلاثة فانهم جاؤا قرية وأنت بعثت الى العالم وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) مامعنى قول القائل ضرب مثلا وقوله تعالى واضرب مع أن الضرب فى اللغة اما امساس جسم جسما بعنف واما السير اذا قرن به حرف فى كقوله تعالى اذا ضربتم فى الارض نقول قوله اضرب مثلا معناه مثل مثلا وذلك لان الضرب اسم للنوع يقال هذه الاشياء من ضرب واحد أى اجعل هذا وذاك من ضرب واحد (المسئلة الثانية) أصحاب القرية معناه واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية فترك المثل وأقيم الاصحاب مقامه فى الاعراب كقوله واسأل القرية هذا قول الزمخشرى فى الكشاف ويحتمل أن يقال لا حاجة الى الاضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلا أو مثل أصحاب القرية بهم (المسئلة الثالثة) اذ جاءها المرسلون اذ منصوبة لانها بدل من أصحاب القرية كأنه قال تعالى واضرب لهم وقت مجئ المرسلين ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك وهذا أيضا قول الزمخشرى وعلى قولنا ان هذا المثل مضروب لنفس محمد صلى الله عليه وسلم تسلية فيحتمل أن يقال اذ ظرف منصوب بقوله اضرب أى اجعل الضرب كأنه حين مجيئهم وواقع فيه والقرية انطاكية والمرسلون من قوم عيسى وهم أقرب مرسل أرسل الى قوم الى زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة كما بين الله تعالى وقوله اذ أرسلنا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون اذ أرسلنا بدلا من اذ جاءها كأنه قال اضرب لهم مثلا اذ أرسلنا الى أصحاب القرية اثنين (وثانيهما) وهو الاصح الاوضح أن يكون اذ ظرفا والفعل الواقع فيه جاءها أى جاءها المرسلون حين أرسلناهم اليهم أى لم يكن مجيئهم من تلقاء أنفسهم وانما جاؤهم حيث أمروا وهذا فيه لطيفة وهى ان فى الحكاية ان الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم الى انطاكية فقال تعالى ارسال عيسى عليه السلام هو ارسالنا ورسول رسول الله باذن الله رسول الله فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وأنا رسول الله فان تكذيبهم كتكذيبك فتتم التسلية بقوله اذ أرسلنا وهذا يؤيد مسئلة فقهية وهى أن وكيل الوكيل باذن الموكل وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل اياه وينعزل اذا عزله الموكل الاول وهذا على قولنا واضرب لهم مثلا ضرب المثل لاجل محمد صلى الله عليه وسلم ظاهر ۞ وقوله (اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما) فى بعثه الاثنين حكمة بالغة وهى انهما كانا مبعوثين من جهة عيسى باذن الله فكان عليهما انهاء الامر الى عيسى والاتيان بما أمر الله والله عالم بكل شئ لا يحتاج الى شاهد يشهد عنده وأما

عن عبادتها صرفا كليا بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط والعدول الى الاضلال لغاية ضلالهم بادعاء أن عبادتها طريق سوى (لولا أن صبرنا عليها) ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها ولولا فى أمثال هذا الكلام تجرى مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى كما أشير اليه فى قوله تعالى ولقد همت به الخ وهذا اعتراف منهم بأنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ من الاجتهاد فى الدعوة الى الحق واظهار المعجزات واقامة الحجج والبينات الى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم يروى أنه من قول أبى جهل (وسوف يعلمون) جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم ورد لما ينبئ عنه من نسبته عليه الصلاة والسلام الى الضلال فى ضمن الاضلال أى سوف يعلمون البتة وان تراخى (حين يرون العذاب) الذى يستوجبه كفرهم وعنادهم (من أضل سبيلا) وفيه مالا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم وان أمهلهم (أرأيت من اتخذ الهه هواه) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من شناعة حالهم بعد حكاية قبائحهم من الاقوال والافعال وبيان مالهم من المصير والمآل وتنبيه على ان ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه والهه مفعول ثان لاتخذ قدم على الاول للاعتناء به لانه الذى يدور عليه أمر التعجيب ومن توهم انهما على الترتيب بناء على تساويهما فى التعريف فقد زل منه أن المفعول الثانى فى هذا الباب هو المتلبس بالحالة الحادثة أى أرأيت من جعل هواه الها لنفسه من غير أن يلاحظه

عيسى فهو بشر فأمره الله بارسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى حجة تامة ۞ وقوله ﴿فعززنا بثالث﴾ أى قوينا وقرئ فعززنا بثالث مخففا من عز اذا غلب فكأنه قال فغلبنا نحن وقهرنا بثالث والاول أظهر وأشهر وترك المفعول حيث لم يقل فعززناهما المعنى لطيف وهو أن المقصود من بعثهما نصرة الحق لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) النبى صلى الله عليه وسلم بعث رسله الى الاطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث اثنين نقول النبى بعث لتقرير الفروع وهو دون الاصول فاكتفى بواحد فان خبر الواحد فى الفروع مقبول وأما هما فبعثا بالاصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين والا لما كفى ارسال اثنين أيضا ولا ثلاثة (المسئلة الثانية) قال الله تعالى لموسى عليه السلام سنشد عضدك فذكر المفعول هناك ولم يذكره ههنا مع ان المقصود هناك أيضا نصرة الحق نقول موسى عليه السلام كان أفضل من هرون وهرون بعث معه بطلبه حيث قال فأرسله معى فكان هرون مبعوثا ليصدق موسى فيما يقول ويقوم بما يأمره وأما هما فكل واحد مستقل ناطق بالحق فكان هناك المقصود تقوية موسى وارسال من يؤنس معه وهو هرون وأما ههنا المقصود تقوية الحق فظهر الفرق ۞ ثم بين الله ما جرى منهم وعليهم مثل ما جرى من محمد صلى الله عليه وسلم وعليه ﴿فقالوا انا اليكم مرسلون﴾ كما قال انك لمن المرسلين وبين ما قال القوم بقوله ﴿قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ﴾ جعلوا كونهم بشرا مثلهم دليلا على عدم الارسال وهذا عام من المشركين قالوا فى حق محمد أأنزل عليه الذكر وانما ظنوه دليلا بناء على انهم لم يعتقدوا فى الله الاختيار وانما قالوا فيه انه موجب بالذات وقد استوينا فى البشرية فلا يمكن الرجحان والله تعالى رد عليهم قولهم بقوله الله أعلم حيث يجعل رسالته وبقوله الله يجتبى اليه من يشاء الى غير ذلك وقوله وما أنزل الرحمن من شئ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متمما لما ذكروه فيكون الكل شبهة واحدة ووجهه هو أنهم قالوا أنتم بشر فما نزلتم من عند الله وما أنزل الله اليكم أحدا فكيف صرتم رسل الله (وثانيهما) أن يكون هذا شبهة أخرى مستقلة ووجهه هو أنهم لما قالوا أنتم بشر مثلنا فلا يجوز رجحانكم علينا ذكروا الشبهة من جهة النظر الى المرسلين ثم قالوا شبهة أخرى من جهة المرسل وهو أنه تعالى ليس بمنزل شيأ فى هذا العالم فان تصرفه فى العالم العلوى وللعلويات التصرف فى السفليات على مذهبهم فالله تعالى لم ينزل شيأ من الاشياء فى الدنيا فكيف أنزل اليكم وقوله الرحمن اشارة الى الرد عليهم لان الله لما كان رحمن الدنيا والارسال رحمة فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمن فقال انهم قالوا ما أنزل الرحمن شيأ وكيف لا ينزل الرحمن مع كونه رحمن شيأ هو الرحمة الكاملة ۞ ثم قال تعالى ﴿ان أنتم الا تكذبون﴾ أى ما أنتم الا كاذبين ﴿قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون﴾ اشارة الى انهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين وقالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون وأكدوه باللام لان يعلم الله يجرى مجرى القسم لان من يقول يعلم الله فيما لا يكون فقد نسب الله الى الجهل وهو سبب العقاب كما ان الحنث سببه وفى قوله ربنا يعلم اشارة الى الرد عليهم حيث قالوا أنتم بشر وذلك لان الله اذا كان يعلم انهم لمرسلون يكون كقوله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته يعنى هو عالم بالامور وقادر فاختارنا بعلمه لرسالته ۞ ثم قال ﴿وما علينا الا البلاغ المبين﴾ تسلية لانفسهم أى نحن خرجنا عن عهدة ما علينا وحثا لهم على النظر فانهم لما قالوا ما علينا الا البلاغ كان ذلك يوجب تفكرهم فى أمرهم حيث لم يطلبوا منهم أجرا ولا قصدوا رياسة وانما كان شغلهم التبليغ والذكر وذلك مما يحمل العاقل على النظر والمبين يحتمل أمورا (أحدها) البلاغ المبين للحق عن الباطل أى الفارق بالمعجزة والبرهان (وثانيها) البلاغ المظهر لما أرسلنا للكل أى لا يكفى ان نبلغ الرسالة الى شخص أو شخصين (وثالثها) البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن فاذا تم ذلك ولم يقبلوا يحق هنالك الهلاك ۞ ثم كان جوابهم بعد هذا انهم ﴿قالوا انا تطيرنا بكم﴾ وذلك انه لما ظهر من الرسل المبالغة فى البلاغ ظهر منهم الغلو فى التكذيب فلما قال المرسلون انا اليكم لمرسلون قالوا ان أنتم الا تكذبون ولما أكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا ربنا يعلم أكدوا قولهم بالتطير بهم فكأنهم قالوا فى الاول كنتم كاذبين وفى الثانى صرتم مصرين على الكذب حالفين مقسمين عليه واليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع فتشاءمنا

وبنى عليه أمر دينه معرضا عن استماع الحجة الباهرة والبرهان النير بالكلية على معنى انظر اليه وتعجب منه وقوله تعالى (أفأنت تكون عليه وكيلا) انكار واستبعاد لكونه عليه الصلاة والسلام حفيظا عليه يزجره عما هو عليه من الضلال ويرشده الى الحق طوعا أو كرها والفاء لترتيب الانكار على ما قبله من الحالة الموجبة له كأنه قيل أبعد ما شاهدت غلوه فى طاعة الهوى وعتوه عن اتباع الهدى تقسره على الايمان شاء أو أبى وقوله تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون) اضراب وانتقال عن الانكار المذكور الى انكار حسبانه عليه الصلاة والسلام لهم ممن يسمع أو يعقل حسبما ينبئ عنه جده عليه الصلاة والسلام فى الدعوة واهتمامه بالارشاد والتذكير لكن لا على أنه لا يقع كالاول بل على أنه لا ينبغى أن يقع أى بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات حق السماع أو يعقلون ما فى تضاعيفها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية الى المحاسن فتعتنى بشأنهم وتطمع فى ايمانهم وضمير أكثرهم لمن وجمعه باعتبار معناها كما أن الافراد فى الضمائر الاول باعتبار لفظها وضمير الفعلين لا كثر لا لما أضيف هو اليه وقوله تعالى (ان هم الا كالانعام) الخ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير النكير وتأكيده وحسم مادة الحسبان بالمرة أى ما هم فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات الا كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة وعلم فى الضلالة (بل هم أضل) منها (سبيلا) لما أنها تنقاد لصاحبها

بكم ثانيا وفي الاول كما ذكرتم ففي الثاني لا نترككم لكون الشؤم مدركنا بسببكم فقالوا ﴿لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم﴾ وقوله لنرجمنكم يحتمل وجهين (أحدهما) لنشتمنكم من الرجم بالقول وعلى هذا فقوله وليمسنكم ترقى كأنهم قالوا ولا يكتفى بالشتم بل يؤدى ذلك الى الضرب والايلام الحسى (وثانيهما) أن يكون المراد الرجم بالحجارة وحينئذ فقوله وليمسنكم بيان للرجم يعنى ولا يكون الرجم رجما قليلا نرجمكم بحجر وحجرين بل نديم ذلك عليكم الى الموت وهو عذاب أليم ويكون المراد لنرجمنكم وليمسنكم بسبب الرجم عذاب منا أليم وقد ذكرنا فى الاليم أنه بمعنى المؤلم والفعيل بمعنى مفعل قليل ويحتمل أن يقال هو من باب قوله عيشة راضية أى ذات رضا فالعذاب الاليم هو ذو ألم وحينئذ يكون فعيلا بمعنى فاعل وهو كثير ۝ ثم أجابهم المرسلون بقولهم ﴿قالوا طائركم معكم﴾ أى شؤمكم معكم وهو الكفر ۝ ثم قالوا ﴿أئن ذكرتم﴾ جوابا عن قولهم لنرجمنكم يعنى أتفعلون بنا ذلك وان ذكرتم أى بين لكم الامر بالمعجز والبرهان ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ حيث تجعلون من يتبرك به كمن يتشاءم به وتقصدون ايلام من يجب فى حقه الاكرام أو مسرفون حيث تكفرون ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان فان الكافر مسىء فاذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل وبصر يكون مسرفا والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك فى كثير من الاشياء أما فى التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك فى الايلام والاكرام وأما فى الكفر فلان الواجب اتباع الدليل فان لم يوجد به فلا أقل من أن لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الايمان فان قيل بل للاضراب فما الامر المضرب عنه نقول يحتمل أن يقال قوله أئن ذكرتم وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل الى الكذب بقولهم ان أنتم الا تكذبون فكأنهم قالوا أنحن كاذبون وان جئنا بالبرهان لا بل أنتم قوم مسرفون ويحتمل أن يقال أنحن مشؤمون وان جئنا ببيان صحة ما نحن عليه لا بل أنتم قوم مسرفون ويحتمل أن يقال أنحن مستحقون للرجم والايلام وان بينا صحة ما أتينا به لا بل أنتم قوم مسرفون وأما الحكاية فمشهورة وهى ان عيسى عليه السلام بعث رجلين الى انطاكية فدعيا الى التوحيد وأظهرا المعجزة من ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى فحبسهما الملك فارسل بعدهما شمعون فاتى الملك ولم يدع الرسالة وقرب نفسه الى الملك بحسن التدبير ثم قال له انى أسمع أن فى الحبس رجلين يدعيان أمرا بديعا أفلا يحضران حتى نسمع كلامهما قال الملك بلى فاحضرا وذكرا مقالتهما الحقة فقال لهما شمعون فهل لكما بينة قالا نعم فأبرآ الاكمه والابرص وأحييا الموتى فقال شمعون أيها الملك ان شئت أن تغلبهم فقل للآلهة التى تعبدونها تفعل شيأ من ذلك قال الملك أنت لا يخفى عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم فقال شمعون فاذن ظهر الحق من جانبهم فآمن الملك وقوم وكفر آخرون وكانت الغلبة للمكذبين ۝ ثم قال تعالى ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ وفى فائدته وتعلقه بما قبله وجهان (أحدهما) انه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعى وعلى هذا فقوله من أقصى المدينة فيه بلاغة باهرة وذلك لانه لما جاء من أقصى المدينة رجل وهو قد آمن دل على أن انذارهم واظهارهم بلغ الى أقصى المدينة (وثانيهما) ان ضرب المثل لما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ عن ذكر الرسل سعى المؤمنين فى تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا ووصول الجزاء الاوفى اليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد كما ان ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله وجاء من أقصى المدينة رجل فى تنكير الرجل مع انه كان معروفا معلوما عند الله فائدتان (الاولى) أن يكون تعظيما لشأنه أى رجل كامل فى الرجولية (الثانية) أن يكون مفيدا لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال انهم تواطؤا والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الاصنام وقد آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته (المسئلة الثانية) قوله يسعى تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم وقد ذكرنا فائدة قوله من أقصى المدينة وهى تبليغهم الرسالة بحيث انتهى الى من فى أقصى المدينة والمدينة هى انطاكية وهى كانت كبيرة شاسعة وهى الآن دون ذلك ومع هذا فهى كبيرة وقوله تعالى قال يا قوم اتبعوا المرسلين فيه معان لطيفة (الاول) فى قوله يا قوم

فانه

الذى يعلفها وتتعهدها وتعرف من يحسن اليها ممن يسىء اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وتهتدى لمراعيها ومشاربها وتأوى الى معاطنها وهؤلاء لا ينقادون لربهم وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذى هو أعدى عدوهم ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والمورد العذب الروى ولانها ان لم تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير لم تعتقد باطلا مستوجبا لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وفرعوا عليها أحكام الشرور ولان أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها لا تتعدى الى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية الى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولانها غير معطلة لقوة من القوى المودعة بل صارفة لها الى ما خلقت هى له فلا تقصير من قبلها فى طلب الكمال وأما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الاصلية التى فطر الناس عليها مستحقون بذلك أعظم العقاب وأشد النكال ﴿ألم تر الى ربك﴾ بيان لبعض دلائل التوحيد اثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة للتقرير والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه عليه الصلاة والسلام وللايذان بان ما يعقبه من آثار ربوبيته ورحمته تعالى أى

فانه ينبئ عن اشفاق عليهم وشفقة فان اضافتهم الى نفسه بقوله ياقوم يفيد انه لا يريد بهم الا خيرا وهذا مثل قول مؤمن من آل فرعون ياقوم اتبعون فان قيل قال هذا الرجل اتبعوا المرسلين وقال ذلك اتبعونى فما الفرق نقول هذا الرجل جاءهم وفى أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته فقال اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل واما مؤمن من آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مرارا فقال اتبعونى فى الايمان بموسى وهرون عليهما السلام واعلموا انه لولم يكن خيرا لما اخترته لنفسى وأنتم تعلمون أنى اخترته ولم يكن للرجل الذى جاء من أقصى المدينة أن يقول أنتم تعلمون اتباعى لهم (الثانى) جمع بين اظهار النصيحة واظهار ايمانه فقوله اتبعوا نصيحة وقوله المرسلين اظهار انه آمن (الثالث) قدم اظهار النصيحة على اظهار الايمان لانه كان ساعيا فى النصح وأما الايمان فكان قد آمن من قبل وقوله رجل يسعى يدل على كونه مريدا للنصح وما ذكر فى حكايته انه كان يقتل و يقول اللهم اهد قومى ۞ ثم قال تعالى (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) وهذا فى غاية الحسن وذلك من حيث انه لما قال اتبعوا المرسلين كانهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لاشك ان الخلق فى الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة والطريق اذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه والامتناع من الاتباع لا يحسن الا عند أحد أمرين اما مغالاة الدليل فى طلب الاجرة واما عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة الى الحق فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين أليسوا بمهتدين فاتبعوهم ۞ ثم قال تعالى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) لما قال وهم مهتدون بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد الى عبادة الحى القيوم ومن عبادة مالا ينفع الى عبادة من منه كل نفع (وفيه لطائف) الاولى قوله مالى أى مالى مانع من جانبى اشارة الى أن الامر من جهة المعبود ظاهر لا خفاء فيه فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولا مانع من جانبى فلا جرم عبدته وفى العدول عن مخاطبة القوم الى حال نفسه حكمة أخرى ولطيفة ثانية وهى أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذى فطركم لم يكن فى البيان مثل قوله ومالى لانه لما قال ومالى وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحد انه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لانه أعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع وأما لو قال مالكم جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه فان قيل قال الله مالكم لا ترجون لله وقارا نقول القائل هناك غير مدعو وانما هو داع وههنا الرجل مدعو الى الايمان فقال ومالى لا أعبد وقد طلب منى ذلك (الثانية) قوله الذى فطرنى اشارة الى وجود المقتضى فان قوله ومالى اشارة الى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل مالم يوجد المقتضى فقوله الذى فطرنى ينبئ عن الاقتضاء فان الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك اكرامه وتعظيمه ومنعم بالايجاد والمنعم يجب على المنعم عليه شكر نعمته (الثالثة) قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى مع أن المستحسن تقديم المقتضى حيث وجد المقتضى ولا مانع فيوجد لان المقتضى لظهوره كان مستغنيا عن البيان رأسا فلا أقل من تقديم ماهو أولى بالبيان لوجود الحاجة اليه (الرابعة) اختار من الآيات فطرة نفسه لانه لما قال ومالى لا أعبد باسناد العبادة الى نفسه اختار ماهو أقرب الى ايجاب العبادة على نفسه وبيان ذلك هو ان خالق عمرو يجب على زيد عبادته لان من خلق عمرا لا يكون الا كامل القدرة شامل العلم واجب الوجود وهو مستحق للعبادة بالنسبة الى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر ايجابا واعلم أن المشهور فى قوله فطرنى خلقنى اختراعا وابتداعا والغريب فيه أن يقال فطرنى أى جعلنى على الفطرة كما قال الله تعالى فطرة الله التى فطر الناس عليها وعلى هذا فقوله ومالى لا أعبد أى لم يوجد فىّ مانع فأنا باق على فطرة ربى والفطرة كافية فى الشهادة والعبادة فان قيل فعلى هذا يختلف معنى الفطر فى قوله فاطر السموات فنقول قد قيل بأن فاطر السموات من الفطر الذى هو الشق فالمحذور لازم أو نقول المعنى فيهما واحد كانه قال فطر المكلف على فطرته وفطر السموات على فطرتها والاول من التفسير أظهر ۞ وقوله تعالى (واليه ترجعون) اشارة الى الخوف والرجاء كما قال ادعوه خوفا وطمعا وذلك لان من يكون اليه المرجع يخاف منه ويرجى وفيه أيضا معنى لطيف وهو أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مرارا (فالاول) عابد يعبد

ألم تنظر الى بديع صنعه تعالى (كيف مد الظل) أى كيف أنشأ ظل أى مظل كان من جبل أو بناء أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا لا أنه تعالى مده بعد أن لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار الى غروبها فان ذلك مع خلوه عن التصريح بكون نفسه بانشائه تعالى واحداثه يأباه سياق النظم الكريم وأما ماقيل من أن المراد بالظل مابين طلوع الفجر وطلوع الشمس وانه أطيب الاوقات فان الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ولذلك وصف به الجنة فى قوله تعالى وظل ممدود فغير سديد اذ لا ريب فى أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه فلابد أن يراد بالظل ما يتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها فى موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالفة لما فى جوانبه من مواقع ضح الشمس وماذكر وان كان فى الحقيقة ظلا للافق الشرقى لكنهم لا يعدونه ظلا ولا يصفونه بأوصافه المعهودة ولعل توجيه الرؤية اليه سبحانه وتعالى مع أن المراد تقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام لكيفية مد الظل للتنبيه على أن نظره عليه الصلاة والسلام غير مقصور على مايطالعه من الآثار والصنائع بل مطمح أنظاره معرفة شؤون الصانع المجيد وقوله تعالى (ولو شاء لجعله ساكنا) جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه من أول الامر على أنه لا مدخل فيما ذكر من المد للاسباب العادية وانما المؤثر فيه المشيئة والقدرة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها

الله لكونه الهاما الكاسواء أنعم بعد ذلك أولم ينعم كالعبد الذى يجب عليه خدمة سيده سواء أحسن اليه أو أساء (والثانى) عابد يعبد الله للنعمة الواصلة اليه (والثالث) عابد يعبد الله خوفا مثال الاول من يخدم الجواد ومثال الثانى من يخدم الغاشم فجعل القائل نفسه من القسم الاعلى وقال ومالى لا أعبد الذى فطرنى أى هو مالكى أعبده لا نظرا الى ما يعطينى ولا نظرا الى أن لا يعذبنى وجعلهم دون ذلك فقال واليه ترجعون أى خوفكم منه ورجاؤكم فيه فكيف لا تعبدونه ولهذا لم يقل واليه أرجع كما قال فطرنى لانه صار عابدا من القسم الاول فرجوعه الى الله لا يكون الا للاكرام وليس سبب عبادته ذلك بل غيره ۞ ثم قال تعالى ﴿أأتخذ من دونه آلهة﴾ ليتم التوحيد فان التوحيد بين التعطيل والاشراك فقال ومالى لا أعبد اشارة الى وجود الاله وقال أأتخذ من دونه اشارة الى نفى غيره فيتحقق معنى لا اله الا الله * وفى الآية أيضا لطائف (الاولى) ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الامر وذلك ان من أخبر عن شئ فقال مثلا لا أتخذ يصح من السامع أن يقول له لم لا تتخذ فيسأله عن السبب فاذا قال أأتخذ يكون كلامه انه مستغن عن بيان السبب الذى يطالب به عند الاخبار كانه يقول استشرتك فدلنى والمستشار يتفكر فكأنه يقول تفكر فى الامر تفهم من غير اخبار منى (الثانية) قوله من دونه وهى لطيفة عجيبة وبيانها هو انه لما بين انه يعبد الله بقوله الذى فطرنى بين ان من دونه لا تجوز عبادته فان عبد غير الله وجب عبادة كل شئ مشارك للمعبود الذى اتخذ غير الله لان الكل محتاج مفتقر حادث فلو قال لا اتخذ آلهة لقيل له ذلك يختلف ان اتخذت الها غير الذى فطرك و يلزمك عقلا ان تتخذ آلهة لا حصر لها وان كان الهك ربك وخالقك فلا يجوز أن تتخذ آلهة (الثالثة) قوله أأتخذ اشارة الى أن غيره ليس باله لان المتخذ لا يكون الها ولهذا قال تعالى ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وقال الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا لانه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز وانما النصارى قالوا تبنى الله عيسى وسماه ولدا فقال ولم يتخذ ولدا ولا يقال قال الله تعالى فاتخذه وكيلا فى حق الله تعالى حيث قال رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا نقول ذلك أمر متجدد وذلك لان الانسان فى أول الامر يكون قليل الصبر ضعيف القوة فلا يجوز أن يترك أسباب الدنيا و يقول انى أتوكل فلا يحسن من الواحد منا أن لا يشتغل بأمر أصلا و يترك أطفاله فى ورطة الحاجة ولا يوصل الى أهله نفقتهم و يجلس فى مسجد وقلبه متعلق بعطاء زيد وعمرو فاذا قوى بالعبادة قلبه ونسى نفسه فضلا عن غيره وأقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا وأسبابها وفوض أمره الى الله حينئذ يكون من الابرار الاخيار فقال الله لرسوله أنت علمت ان الامور كلها بيد الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت أن المشرق والمغرب وما فيهما وما يقع بينهما بامر الله ولا اله يطلب لقضاء الحوائج الا هو فاتخذه وكيلا وفوض جميع أمورك اليه فقد ارتقيت عن درجة من يؤمر بالكسب الحلال وكنت من قبل تتجر فى الحلال ومعنى قوله فاتخذه وكيلا أى فى جميع أمورك وقوله تعالى لا تغن عنى يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون كالوصف كأنه قال أأتخذ آلهة غير مغنية عند ارادة الرحمن بى ضرا (وثانيهما) أن يكون كلاما مستأنفا كأنه قال لا أتخذ من دونه آلهة ۞ ثم قال تعالى ﴿ان يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيأ ولا ينقذون﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ان يردن الرحمن بضر ولم يقل ان يرد الرحمن بى ضرا وكذلك قال تعالى ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ولم يقل ان أراد الله بى ضرا نقول الفعل اذا كان متعديا الى مفعول واحد تعدى الى مفعولين بحرف كاللازم يتعدى بحرف فى قولهم ذهب به وخرج به ثم ان المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ما هو أولى بوقوع الفعل عليه و يجعل الآخر مفعولا بحرف فاذا قال القائل مثلا كيف حال فلان يقول اختصه الملك بالكرامة والنعمة فاذا قال كيف كرامة الملك يقول اختصها بزيد فيجعل المسؤل مفعولا بغير حرف لانه هو المقصود اذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء فى البؤس والرخاء وليس الضر بمقصود بيانه كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على ايمانه بحكم وعد الله و يؤيد هذا قوله من قبل الذى فطرنى حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الارادة وذكر الضر وقع تبعا وكذا القول فى قوله تعالى ان

مضمون الجزاء أى ولو شاء سكونه لجعله ساكنا أى ثابتا على حاله من الطول والامتداد وانما عبر عن ذلك بالسكون لما أن مقابله الذى هو تغير حاله حسب تغير الاوضاع بين المظل و بين الشمس يرى رأى العين حركة وانتقالا وحاصله أنه لا يعتريه اختلاف حال بان لا تنسخه الشمس وأما التعليل بان يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فمداره الغفول عما سيق له النظم الكريم ونطق به صريحا من بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بنسبة جميع الامور الحادثة اليه تعالى بالذات واسقاط الاسباب العادية عن رتبة السببية والتأثير بالكلية وقصرها على مجرد الدلالة على وجود المسببات لا بذكر قدرته تعالى على بعض الخوارق كاقامة الشمس فى مقام واحد على أنها أعظم من ابقاء الظل على حاله فى الدلالة على ما ذكر من كمال القدرة والحكمة لكونه من فروعها ومستتبعاتها فهى أولى وأحق بالايراد فى معرض البيان وقوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) عطف على مد داخل فى حكمه أى جعلناها علامة يستدل باحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتأثير قطعا حسبما نطق به الشرطية المعترضة والالتفات الى نون العظمة لما فى الجعل المذكور العارى عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران المطرد المنبئ عن السببية من مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة وهو السر فى ايراد كلمة التراخى وقوله تعالى (ثم قبضناه) عطف على مد داخل فى حكمه وثم للتراخى الزمانى لما أن فى بيان كون القبض والمد

أرادنى الله بضر المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله وليس الضر بخصوصه مقصودا بالذكر ويؤيده ماتقدم حيث قال تعالى أليس الله بكاف عبده يعنى هو تحت ارادته ويتأيد ماذكرناه بالنظر فى قوله تعالى قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر والمفعول بحرف هو المكلف وذلك لان المقصود ذكر الضر للتخفيف وكونهم محلا له وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر مقصودا بالذكر لزجرهم فان قيل فقد ذكر الله الرحمة أيضا حيث قال أو أراد بكم رحمة نقول المقصود ذلك ويدل عليه قوله تعالى من بعده ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا وانما ذكر الرحمة تتمة للامر بالتقسيم الحاصر وكذلك اذا تأملت فى قوله تعالى يقولون بالسنتهم ماليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيأ ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا فان الكلام أيضا مع الكفار وذكر النفع وقع تبعا لحصر الامر بالتقسيم ويدل عليه قوله تعالى بل كان الله بما تعملون خبيرا فانه للتخويف وهذا كقوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين والمقصود انى على هدى وأنتم فى ضلال ولو قال هكذا المنع مانع فقال بالتقسيم كذلك ههنا المقصود الضر واقع بكم ولاجل دفع المانع قال الضر والنفع (المسئلة الثانية) قال ههنا ان يردن الرحمن وقال فى الزمر ان أرادنى الله فما الحكمة فى اختيار صيغة الماضى هنالك واختيار صيغة المضارع ههنا وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هنالك نقول اما الماضى والمستقبل فان ان فى الشرط تصير الماضى مستقبلا وذلك لان المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال فى قوله أأتخذ وقوله ومالى لا أعبد والمذكور هنالك من قبل بصيغة الماضى فى قوله أفرأيتم وكذلك فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر لكون المتقدم عليه مذكورا بصيغة المستقبل وهو قوله من يصرف عنه وقوله انى أخاف ان عصيت والحكمة فيه هو ان الكفار كانوا يخوفون النبى صلى الله عليه وسلم بضر يصيبه من آلهتهم فكأنه قال صدر منكم التخويف وهذا ماسبق منكم وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير والجواب ما كان يمكن صدوره منهم فافترق الامران واما قوله هنالك ان أرادنى الله فنقول قد ذكرنا ان الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن كما قال تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن والله للهيبة والعظمة والرحمن للرأفة والرحمة وهنالك وصف الله بالعزة والانتقام فى قوله أليس الله بعزيز ذى انتقام وذكر مايدل على العظمة بقوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض فذكر الاسم الدال على العظمة وقال ههنا مايدل على الرحمة بقوله الذى فطرنى فانه نعمة هى شرط سائر النعم فقال ان يردن الرحمن بضر ثم قال تعالى لا تغن عنى شفاعتهم شيأ ولا ينقذون على ترتيب مايقع من العقلاء وذلك لان من يريد دفع الضر عن شخص أضر به شخص يدفع بالوجه الاحسن فيشفع أولا فان قبله والا يدفع فقال لا تغن عنى شفاعتهم ولا يقدرون على انقاذى بوجه من الوجوه وفى هذه الآيات حصل بيان ان الله تعالى معبود من كل وجه ان كان نظرا الى جانبه فهو فاطر ورب مالك يستحق العبادة سواء أحسن بعد ذلك أو لم يحسن وان كان نظرا الى احسانه فهو رحمن وان كان نظرا الى الخوف فهو يدفع ضره وحصل بيان أن غيره لا يصلح أن يعبد بوجه من الوجوه فان أدنى مراتبه أن يعد ليوم كريهة وغير الله لا يدفع شيأ الا اذا أراد الله وان يرد فلا حاجة الى دافع ۞ ثم قال تعالى ﴿انى اذا لفى ضلال مبين﴾ يعنى ان فعلت ذلك فأنا ضال ضلالا بينا والمبين مفعل بمعنى فعيل كما جاء عكسه فعيل بمعنى مفعل فى قوله أليم أى مؤلم ويمكن أن يقال ضلال مبين أى مظهور الامر للناظر والاول هو الصحيح ۞ ثم قال تعالى ﴿انى آمنت بربكم فاسمعون﴾ فى المخاطب بقوله بربكم وجوه (أحدها) هم المرسلون قال المفسرون أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال انى آمنت بربكم فاسمعوا قولى واشهدوا لى (وثانيها) هم الكفار كأنه لما نصحهم ومانفعهم قال فأنا آمنت فاسمعون (وثالثها) بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم كما قلنا فى قول الواعظ حيث يقول يامسكين ما أكثر أملك وما أنزر عملك يريد به كل سامع يسمعه وفى قوله فاسمعون فوائد (أحدها) انه كلام مترو متفكر حيث قال فاسمعون فان المتكلم اذا كان يعلم ان لكلامه جماعة سامعين يتفكر (وثانيها) ان ينبه القوم ويقول انى أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك (وثالثها) ان يكون المراد السماع الذى بمعنى

مرتبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيد دلالة على الحكمة الربانية ويجوز أن تكون للتراخى الرتبى أى أزلناه بعدما أنشأناه ممتدا ومحوناه بمحض قدرتنا ومشيئتنا عند ايقاع شعاع الشمس موقعه من غير أن يكون له تأثير فى ذلك أصلا وانما عبر عنه بالقبض المنبئ عن جمع المنبسط وطيه لما انه قد عبر عن احداثه بالمد الذى هو البسط طولا وقوله تعالى (الينا) للتنصيص على كون مرجعه اليه تعالى كما أن حدوثه منه عز وجل (قبضا يسيرا) أى على مهل قليلا قليلا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها وقيل ان الله تعالى حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الارض تحتها ألقت القبة ظلها على الارض لعدم النير وذلك مده تعالى اياه ولو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك الحالة ثم خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أى سلطها عليه ونصبها دليلا متبوعا له كما يتبع الدليل فى الطريق فهو يزيد بها وينقص ويمتد ويقلص ثم نسخه بها فقبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير أو قبضا سهلا عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهى الاجرام التى تلقى الظل فيكون قد ذكر اعدامه باعدام أسبابه كما ذكر انشاؤه بانشائها ووصفه باليسر على طريقة قوله تعالى ذلك حشر علينا يسير وصيغة الماضى للدلالة على تحقيق الوقوع (وهو الذى جعل لكم الليل لباسا) بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان حقه واللام متعلقة بجعل وتقديمها

القبول يقول القائل نصحته فسمع قولى أى قبله فان قلت لم قال من قبل ومالى لا أعبد الذى فطرنى وقال ههنا آمنت بربكم ولم يقل آمنت بربى نقول على قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر لانه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل انه قبل قولهم وآمن بالرب الذى دعوه اليه ولو قال بربى لعلهم كانوا يقولون كل كافر يقول لى رب وأنا مؤمن بربى وأما على قولنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد وذلك لانه لما قال أعبد الذى فطرنى ثم قال آمنت بربكم فهم انه يقول ربى وربكم واحد وهو الذى فطرنى وهو بعينه ربكم بخلاف مالو قال آمنت بربى فيقول الكافر وأنا أيضا آمنت بربى ومثل هذا قوله تعالى الله ربنا وربكم ۞ ثم قال تعالى ﴿قيل ادخل الجنة﴾ فيه وجهان (أحدهما) انه قتل ثم قيل له ادخل الجنة بعد القتل (وثانيهما) قيل ادخل الجنة عقيب قوله آمنت وعلى الاول فقوله تعالى ﴿قال ياليت قومى يعلمون﴾ يكون بعد موته والله أخبر بقوله وعلى الثانى قال ذلك فى حياته وكأنه سمع الرسل انه من الداخلين الجنة وصدقهم وقطع به وعلمه فقال ياليت قومى يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت وفى معنى قوله تعالى قيل وجهان كما ان فى وقت ذلك وجهان (أحدهما) قيل من القول (والثانى) ادخل الجنة وهذا كما فى قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن ليس المراد القول فى وجه بل هو الفعل أى يفعله فى حينه من غير تأخير وتراخ وكذلك فى قوله تعالى وقيل يا أرض ابلعى فى وجه جعل الارض بالعة ماءها ۞ وفى قوله تعالى ﴿بما غفر لى ربى﴾ وجوه (أحدها) ان ما استفهامية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى حتى يشتغلوا به وهو ضعيف والا لكان الاحسن أن تكون ما محذوفة الالف يقال بم وفيم وعم ولم (وثانيها) خبرية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بالذى غفر لى ربى (وثالثها) مصدرية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بمغفرة ربى لى والوجهان الآخران هما المختاران ۞ ثم قال تعالى ﴿وجعلنى من المكرمين﴾ قد ذكرنا أن الايمان والعمل الصالح يوجبان أمرين هما الغفران والاكرام كما فى قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم والرجل كان من المؤمنين الصلحاء والمكرم على ضد المهان والاهانة بالحاجة والاكرام بالاستغناء فيغنى الله الصالح عن كل أحد ويدفع جميع حاجاته بنفسه ۞ ثم انه تعالى لما بين حاله بين حال المخالفين له من قومه بقوله تعالى ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء﴾ اشارة الى هلاكهم بعده سريعا على أسهل وجه فانه لم يحتج الى ارسال جند يهلكهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ههنا وما أنزلنا باسناد الفعل الى النفس وقال فى بيان حال المؤمن قيل ادخل الجنة باسناد القول الى غير مذكور وذلك لان العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم وأما فى ادخل الجنة فقال قيل ليكون هو كالمهنا بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه ادخل الجنة خالدا فيها وكثيرا ما ورد فى القرآن قوله تعالى وقيل ادخلوا اشارة الى أن الدخول يكون دخولا باكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رؤس الاشهاد يهنيه كل أحد (المسئلة الثانية) لم أضاف القوم اليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قوما لهم فان الواحد يكون له قوم هم آله وأصحابه والرسول لكونه مرسلا يكون جميع الخلق وجميع من أرسل اليهم قوما له نقول لوجهين (أحدهما) ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة أكرم أحدهما غاية الاكرام بسبب الايمان وأهين الآخر غاية الاهانة بسبب الكفر وهذا من قوم أولئك فى النسب (وثانيهما) أن العذاب كان مختصا بأقارب ذلك لان غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب (المسئلة الثالثة) خصص عدم الانزال بما بعده والله تعالى لم ينزل عليهم جندا قبله أيضا فما فائدة التخصيص نقول استحقاقهم العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الهلاك أنه لم يكن بجند (المسئلة الرابعة) قال من السماء وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل اليهم جندا من الارض فما فائدة التقييد نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون المراد وما أنزلنا عليهم جندا بأمر من السماء فيكون للعموم (وثانيهما) أن العذاب نزل عليهم من السماء فبين أن النازل لم يكن جندا لهم عظمة وانما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم ۞ (المسئلة الخامسة) ﴿وما كنا منزلين﴾ أية فائدة فيه مع ان قوله وما أنزلنا يستلزم انه لا يكون من المنزلين نقول قوله وما كنا أى ما كان ينبغى لنا أن ننزل لان الامر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين الى انزال أو نقول وما أنزلنا وما كنا منزلين فى مثل تلك الواقعة جندا فى غير تلك الواقعة

فان

على مفعوليه للاعتناء ببيان كون ما يعقبه من منافعهم وفى تعقيب بيان أحوال الظل ببيان أحكام الليل الذى هو ظل الارض من لطف المسلك ما لا يخفى بدعليه أى هو الذى جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس (والنوم سباتا) أى وجعل النوم الذى يقع فى الليل غالبا قاطعا عن الافاعيل المختصة بحال اليقظة عبر عنه بالسبات الذى هو الموت لما بينهما من المشابهة التامة فى انقطاع أحكام الحياة وعليه قوله تعالى وهو الذى يتوفاكم بالليل وقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها (وجعل النهار نشورا) أى زمان بعث من ذلك السبات كبعث الموتى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه أو نفس البعث على طريق المبالغة وفيه اشارة الى أن النوم واليقظة انموذج للموت والنشور وعن لقمان عليه السلام يا بنى كما تنام فتوقظ كذلك تموت وتنشر (وهو الذى أرسل الرياح) وقرئ بالتوحيد على أن المراد هو الجنس (بشرا) تخفيف بشر جمع بشور أى مبشرين وقرئ بشرى وقرئ نشرا بالنون جمع نشور أى ناشرات للسحاب وقرئ بالتخفيف و بفتح النون أيضا على أنه مصدر وصف به مبالغة وقوله تعالى (بين يدى رحمته) استعارة بديعة أى قدام المطر والالتفات الى نون العظمة فى قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) لابراز كمال العناية بالانزال لانه نتيجة ما ذكر من ارسال الرياح أى أنزلنا بعظمتنا بما رتبنا من ارسال الرياح من جهة الفوق ماء بليغا فى الطهارة وما قيل انه ما يكون طاهرا فى نفسه ومطهرا لغيره فهو شرح

فان قيل فكيف أنزل الله جنودا فى يوم بدر وفى غير ذلك حيث قال وأنزل جنودا لم تروها نقول ذلك تعظيما لمحمد صلى الله عليه وسلم والا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافيا فى استئصالهم وما كان رسل عيسى عليه السلام فى درجة محمد صلى الله عليه وسلم ۞ ثم بين الله تعالى ما كان بقوله ﴿ان كانت﴾ الواقعة ﴿الا صيحة﴾ وقال الزمخشرى أصله ان كان شئ الا صيحة فكان الاصل ان يذكر لكنه تعالى أنث لما بعده من المفسر وهو الصيحة ۞ وقوله تعالى ﴿واحدة﴾ تأكيد لكون الامر هينا عند الله ۞ وقوله تعالى ﴿فاذا هم خامدون﴾ فيه اشارة الى سرعة الهلاك فان خمودهم كان مع الصيحة وفى وقتها لم يتأخر ووصفهم بالخمود فى غاية الحسن وذلك لان الحى فيه الحرارة الغريزية وكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم وهم كانوا كذلك اما الغضب فانهم قتلوا مؤمنا كان ينصحهم وأما الشهوة فلانهم احتملوا العذاب الدائم بسبب استيفاء اللذات الحالية فاذن كانوا كالنار الموقدة ولانهم كانوا جبارين مستكبرين كالنار ومن خلق منها فقال فاذا هم خامدون (وفيه وجه آخر) وهو ان العناصر الاربعة يخرج بعضها عن طبيعته التى خلقه الله عليها ويصير العنصر الآخر بارادة الله فالاحجار تصير مياها والمياه تصير أحجارا وكذلك الماء يصير هواء عند الغليان والسخونة والهواء يصير ماء للبرد ولكن ذلك فى العادة بزمان وأما الهواء فيصير نارا والنار تصير هواء بالاشتعال والخمود فى أسرع زمان فقال خامدين بسببها لخمود النار فى السرعة كاطفاء سراج أو شعلة ۞ ثم قال تعالى ﴿يا حسرة على العباد﴾ أى هذا وقت الحسرة فاحضرى يا حسرة والتنكير للتكثير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الالف واللام فى العباد يحتمل وجهين (أحدهما) للمعهود وهم الذين أخذتهم الصيحة فيا حسرة على أولئك (وثانيهما) لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين (المسئلة الثانية) من المتحسر نقول فيه وجوه (الاول) لا متحسر أصلا فى الحقيقة اذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب (وههنا بحث لغوى) وهو أن المفعول قد يرفض رأسا اذا كان الغرض غير متعلق به يقال ان فلانا يعطى ويمنع ولا يكون هناك شئ معطى اذ المقصود أن له المنع والاعطاء ورفض المفعول كثير وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل والوجه فيه ما ذكرنا ان ذكر المتحسر غير مقصود وانما المقصود ان الحسرة متحققة فى ذلك الوقت (الثانى) ان قائل يا حسرة هو الله على الاستعارة تعظيما للامر وتهويلا له وحينئذ يكون كالالفاظ التى وردت فى حق الله كالضحك والنسيان والسخر والتعجب والتمنى أو نقول ليس معنى قولنا يا حسرة ويا ندامة ان القائل متحسر أو نادم بل المعنى انه مخبر عن وقوع الندامة ولا يحتاج الى تجوز فى بيان كونه تعالى قال يا حسرة بل يخبر به على حقيقته الا فى النداء فان النداء مجاز والمراد الاخبار (الثالث) المتلهفون من المسلمين والملائكة ألا ترى الى ما حكى عن حبيب انه حين القتل كان يقول اللهم اهد قومى وبعد ما قتلوه وأدخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم له وعليه (المسئلة الثالثة) قرئ يا حسرة بالتنوين ويا حسرة العباد بالاضافة من غير كلمة على وقرئ يا حسره على بالهاء اجراء للوصل مجرى الوقف (المسئلة الرابعة) من المراد بالعباد نقول فيه وجوه (أحدها) الرسل الثلاثة كأن الكافرين يقولون عند ظهور البأس يا حسرة عليهم ياليتهم كانوا حاضرين شاهدين لنؤمن بهم (وثانيها) هم قوم حبيب (وثالثها) كل من كفر وأصر واستكبر وعلى الاول فاطلاق العباد على المؤمنين كما فى قوله ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وقوله يا عبادى الذين أسرفوا وعلى الثانى فاطلاق العباد على الكفار وفرق بين العبد مطلقا وبين المضاف الى الله تعالى فان الاضافة الى الشريف تكسو المضاف شرفا تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف ما لا يكون فى قولك البيت وعلى هذا فقوله تعالى وعباد الرحمن من قبيل قوله ان عبادى وكذلك عباد الله ۞ ثم بين الله تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى ﴿ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن﴾ وهذا سبب الندامة وذلك لان من جاء ملك فى بادية وعرفه نفسه وطلب منه أمرا هينا فكذبه ولم يجبه الى ما دعاه ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه انه ذلك يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم باعزاز الله اياهم وجعلهم نوابه كما قال ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله وجاؤا وعرفوا أنفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة فى الحس ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس ظهرت

لبلاغته فى الطهارة كما ينبئ عنه قوله تعالى وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فان الطهور فى العربية اما صفة كما تقول ماء طهور أو اسم كما فى قوله عليه الصلاة والسلام التراب طهور المؤمن وقد جاء بمعنى الطهارة كما فى قولك تطهرت طهورا حسنا كقولك وضوأ حسنا ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا صلاة الا بطهور ووصف الماء به اشعار بتمام النعمة فيه وتتميم للنعمة فيما بعده فان الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغى أن يطهروها فبواطنهم أحق بذلك وأولى (لنحيى به) أى بما أنزلنا من الماء الطهور (بلدة ميتا) بانبات النبات والتذكير لان البلدة بمعنى البلد ولانه غير جار على الفعل كسائر أبنية المبالغة فاجرى مجرى الجامد والمراد به القطعة من الارض عامرة كانت أو غامرة (ونسقيه) أى ذلك الماء الطهور عند جريانه فى الاودية أو اجتماعه فى الحياض والمناقع أو الآبار (مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) أى أهل البوادى الذين يعيشون بالحياء ولذلك نكر الانعام والاناسى وتخصيصهم بالذكر لان اهل أهل القرى والامصار يقيمون بقرب الانهار والمنابع فيهم وبما لهم من الانعام غنية عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد فى طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبا مع ان مساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة فهو لتعداد أنواع النعمة والانعام حيث كانت قنية للانسان وعامة منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على سقيهم كما قدم عليها احياء الارض فانه سبب لحياتها

عظمتهم عند الله لهم وكان مايدعون اليه أمراهينا نفعه عائد اليهم من عبادة الله وما كانوا يسألون عليه أجرا فعند ذلك تكون الندامة الشديدة وكيف لا وهم لم يقتنعوا بالاعراض حتى آذوا واستهزؤا واستخفوا واستهانوا وقوله ما يأتيهم الضمير يجوز أن يكون عائدا الى قوم حبيب أى ما يأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة الا كانوا به يستهزؤن على قولنا الحسرة عليهم ويجوز أن يكون عائدا الى الكفار المصرين ۞ ثم ان الله تعالى لما بين حال الاولين قال للحاضرين ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ أى الباقون لا يرون ماجرى على من تقدمهم ويحتمل أن يقال ان الذين قيل فى حقهم ياحسرة هم الذين قال فى حقهم ألم يروا ومعناه ان كل مهلك تقدمه قوم كذبوا وأهلكوا الى قوم نوح وقبله ۞ وقوله ﴿انهم اليهم لا يرجعون﴾ بدل فى المعنى عن قوله كم أهلكنا وذلك لان معنى كم أهلكنا ألم يروا كثرة اهلاكنا وفيه معنى ألم يروا المهلكين الكثيرين أنهم اليهم لا يرجعون وحينئذ يكون كبدل الاشتمال لان قوله أنهم اليهم لا يرجعون حال من أحوال المهلكين أى أهلكوا بحيث لا رجوع لهم اليهم فيصير كقولك ألا ترى زيدا أدبه وعلى هذا فقوله انهم اليهم لا يرجعون فيه وجهان (أحدهما) أهلكوا اهلاكا لا رجوع لهم الى من فى الدنيا (وثانيهما) هو انهم لا يرجعون اليهم أى الباقون لا يرجعون الى المهلكين بنسب ولا ولادة يعنى أهلكناهم وقطعنا نسلهم ولا شك فى أن الاهلاك الذى يكون مع قطع النسل أتم وأعم والوجه الاول أشهر نقلا والثانى أظهر عقلا ۞ ثم قال تعالى ﴿وان كل لما جميع لدينا محضرون﴾ لما بين الاهلاك بين انه ليس من أهلكه الله تركه بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ونعم ما قال القائل

ولو أنا اذا متنا تركنا ✱ لكان الموت راحة كل حى
ولكنا اذا متنا بعثنا ✱ ونسئل بعده عن كل شى

وقوله وان كل لما فى ان وجهان (أحدهما) انها مخففة من الثقيلة واللام فى لما فارقة بينها وبين النافية وما زائدة مؤكدة فى المعنى والقراءة حينئذ بالتخفيف فى لما (وثانيهما) انها نافية ولما بمعنى الا قال سيبويه يقال نشدتك بالله لما فعلت بمعنى الا فعلت والقراءة حينئذ بالتشديد فى لما يؤيد هذا ما روى ان أبيا قرأ وما كل الا جميع وفى قول سيبويه لما بمعنى الا وارد معنى مناسب وهو ان لما كأنها حرفا نفى جمعا وهما لم وما فتأكد النفى ولهذا يقال فى جواب من قال قد فعل لما يفعل وفى جواب من قال فعل لم يفعل والا كأنها حرفا نفى ان ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر قال الزمخشرى فان قال قائل كل وجميع بمعنى واحد فكيف جعل جميعا خبر الكل حيث دخلت اللام عليه اذ التقدير وان كل لجميع نقول معنى جميع مجموع ومعنى كل كل فرد بحيث لا يخرج عن الحكم أحد فصار المعنى كل فرد مجموع مع الآخر مضموم اليه ويمكن أن يقال محضرون يغنى عما ذكره وذلك لانه لو قال وان جميع لجميع محضرون لكان كلاما صحيحا ولم يوجد ما ذكره من الجواب بل الصحيح ان محضرون كالصفة للجميع فكأنه قال جميع جميع محضرون كما يقال الرجل رجل عالم والنبى نبى مرسل والواو فى وان كل لعطف الحكاية على الحكاية كأنه يقول بينت لك ما ذكرت وأبين ان كلا لدينا محضرون وكذلك الواو فى قوله تعالى ۞ ﴿وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون﴾ كأنه يقول وأقول أيضا آية لهم الارض الميتة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه تعلق هذا بما قبله نقول مناسب لما قبله من وجهين (أحدهما) انه لما قال وان كل لما جميع كان ذلك اشارة الى الحشر فذكر ما يدل على امكانه قطعا لانكارهم واستبعادهم واصرارهم وعنادهم فقال وآية لهم الارض الميتة أحييناها كذلك نحيى الموتى (وثانيهما) انه لما ذكر حال المرسلين واهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر ما يدل عليه وبدأ بالارض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم منها عند الحركة والسكون (المسئلة الثانية) الارض آية مطلقا فلم خصصها بهم حيث قال وآية لهم نقول الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشئ بأبلغ الوجوه وأما من عرف الشئ بطريق الرؤية لا يذكر له دليل فان النبى وعباد الله المخلصين عرفوا الله قبل الارض والسماء فليست الارض معرفة لهم وهذا كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى

الآفاق

ونعيشها وقرئ نسقيه وأسقى وسقى لغتان وقيل أسقاه جعل له سقيا وأناسى جمع انسى أو انسان كظرابى فى ظربان على أن أصله أناسين فقلبت نونه ياء وقرئ أناسى بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل كأناعم فى أناعيم (ولقد صرفناه) أى وبالله لقد كررنا هذا القول الذى هو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر لما مر من الغايات الجليلة فى القرآن وغيره من الكتب السماوية (بينهم) أى بين الناس من المتقدمين والمتأخرين (ليذكروا) ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته فى ذلك ويقوموا بشكر نعمته حق قيام وقيل الضمير للمطر وتصريفه بينهم انزاله فى بعض البلاد دون غيرها أو فى بعض الاوقات دون بعض أو جعله تارة وابلا وأخرى طلا وحينا ديمة ووقتا رحمة والاول هو الاظهر (فأبى أكثر الناس) ممن سلف وخلف (الا كفورا) أى لم يفعل الا كفران النعمة وقلة الاكتراث لها أو الاجحود بها بأن يقولوا أمطرنا بنوء كذا ولا يذكروا صنع الله تعالى ورحمته ومن لا يرى الامطار الا من الانواء فهو كافر بخلاف من يرى أن الكل بخلق الله تعالى والانواء أمارات بجعله تعالى (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا) نبيا ينذر أهلها فيخفف عليك أعباء النبوة لكن لم نشأ ذلك فلم نفعله بل قصرنا الامر عليك حسبما ينطق به قوله تعالى ليكون للعالمين نذيرا اجلالا لك وتعظيما وتفضيلا لك على سائر الرسل (فلا تطع الكافرين) أى فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة واظهار الحق والتشدد معهم كأنه نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المداراة

الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق وقال أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد يعنى أنت كفاك ربك معرفا به عرفت كل شئ فهو شهيد لك على كل شئ وأما هؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والانفس وكذلك ههنا آية لهم (المسئلة الثالثة) ان قلنا ان الآية مذكورة للاستدلال على جواز احياء الموتى فيكفى قوله أحييناها ولا حاجة الى قوله وأخرجنا منها حبا وغير ذلك وان قلنا انها للاستدلال على وجود الاله ووحدته فلا فائدة فى قوله الارض الميتة أحييناها لان نفس الارض دليل ظاهر وبرهان باهر ثم هب أنها غير كافية فقوله الميتة أحييناها كاف فى التوحيد فما فائدة قوله وأخرجنا منها حبا نقول مذكورة للاستدلال عليها ولكل ما ذكره الله تعالى فائدة اما قوله وأخرجنا منها حبا فله فائدة بالنسبة الى بيان احياء الموتى وذلك لانه لما أحيا الارض وأخرج منها حبا كان ذلك احياء تاما لان الارض المخضرة التى لا تنبت الزرع ولا تخرج الحب دون ما تنبته فى الحياة فكأنه قال تعالى الذى أحيا الارض احياء كاملا منبتا للزرع يحيي الموتى احياء كاملا بحيث تدرك الامور وأما بالنسبة الى التوحيد فلأن فيه تعديد النعم كأنه يقول آية لهم الارض فانها مكانهم ومهدهم الذى فيه تحريكهم واسكانهم والامر الضرورى الذى عنده وجودهم وامكانهم وسواء كانت ميتة أولم تكن فهى مكان لهم لا بد لهم منها فهى نعمة ثم احياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فانها تصير أحسن وأنزه ثم اخراج الحب منها نعمة ثالثة فان قوتهم يصير فى مكانهم وكان يمكن ان يجعل الله رزقهم فى السماء أوفى الهواء فلا يحصل لهم الوثوق ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لان الارض تنبت الحب فى كل سنة واما الاشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجودا ثم فجرنا فيها العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم انها أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر وبالنسبة الى بيان احياء الموتى كل ذلك مفيد وذلك لان قوله وأخرجنا منها حبا كالاشارة الى الامر الضرورى الذى لا بد منه وقوله وجعلنا فيها جنات كالامر المحتاج اليه الذى ان لم يكن لا يبقى الانسان لكنه يبقى مختل الحال وقوله وفجرنا فيها من العيون اشارة الى الزينة التى ان لم تكن لا تبقى الانسان ولا يبقى فى ورطة الحاجة لكنه لا يكون على أحسن ما ينبغى وكان حال الانسان بالحب كحال الفقير الذى له ما يسد خلته من بعض الوجوه ولا يدفع حاجته من كل الوجوه وبالثمار يعتبر حاله كحال المكتفى بالعيون الجارية التى يعتمد عليها الانسان ويقوى بها قلبه كالمستغنى الغنى المدخر لقوت سنين فيقول الله عز وجل كما فعلنا فى موات الارض كذلك نفعل فى الاموات فى الارض فنحييهم ونعطيهم ما لا بد لهم منه فى بقائهم وتكوينهم من الاعضاء المحتاج اليها وقواها كالعين والقوة الباصرة والاذن والقوة السامعة وغيرهما ونزيد له ما هو زينة كالعقل الكامل والادراك الشامل فيكون كأنه قال نحيي الموتى احياء تاما كما أحيينا الارض احياء تاما (المسئلة الرابعة) قال عند ذكر الحب فمنه يأكلون وفى الاشجار والثمار قال ليأكلوا من ثمره وذلك لان الحب قوت لا بد منه فقال فمنه يأكلون أى هم آكلوه وأما الثمار ليست كذلك فكأنه تعالى قال ان كنا ما أخرجناها كانوا يبقون من غير أكل فأخرجناها ليأكلوها (المسئلة الخامسة) خصص النخيل والاعناب بالذكر من سائر الفواكه لان ألذ المطعوم الحلاوة وهى فيهما أتم ولان التمر والعنب قوت وفاكهة ولا كذلك غيرهما ولانهما أعم نفعا فانها تحمل من البلاد الى الاماكن البعيدة فان قيل فقد ذكر الله الرمان والزيتون فى الانعام والقضب والزيتون والتين فى مواضع نقول فى الانعام وغيرها المقصود ذكر الفواكه والثمار ألا ترى الى قوله تعالى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به والى قوله فلينظر الانسان الى طعامه فاستوفى الانواع بالذكر وههنا المقصود ذكر صفات الارض فاختار منها الالذ الانفع وقد ذكرنا فى سورة الانعام ما يستفاد منه الفوائد ويعلم منه فائدة قوله تعالى فاكهة ونخل ورمان (المسئلة السادسة) فى المواضع التى ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر بلفظ شجرته وهى النخلة ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والاعناب ولم يذكر الكرم وذلك لان العنب شجرته بالنسبة الى ثمرته حقيرة قليلة الفائدة والنخل بالنسبة الى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى فان كثيرا من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولها شبه بالحيوان فاختار منهما ما هو الاعجب منهما وقوله تعالى وفجرنا فيها من العيون آية عظيمة لان الارض أجزاؤها بحكم العادة لا تصعد ونحن نرى منابع الانهار والعيون فى المواضع المرتفعة وذلك دليل القدرة والاختيار

معهم والتلطف فى الدعوة لما أنه عليه الصلاة والسلام كان يود أن يدخلوا فى الاسلام ويجتهد فى ذلك بتأليف قلوبهم أشد الاجتهاد (وجاهدهم به) أى بالقرآن بتلاوة ما فى تضاعيفه من القوارع والزواجر والمواعظ وتذكير أحوال الامم المكذبة (جهادا كبيرا) فان دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كما وكيفا وقيل الضمير المجرور لترك الطاعة المفهوم من النهى عن الطاعة وأنت خبير بان مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة أصلا وليس فيه شائبة الجهاد فضلا عن الجهاد الكبير اللهم الا أن تجعل الباء للملابسة ليكون المعنى وجاهدهم بما ذكر من أحكام القرآن الكريم ملابسا بترك طاعتهم كأنه قيل فجاهدهم بالشدة والعنف لا بالملايمة والمداراة كما فى قوله تعالى يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وقد جعل الضمير لما دل عليه قوله تعالى ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا من كونه عليه الصلاة والسلام نذير كافة القرى لانه لو بعث فى كل قرية نذير لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فكبر من أجل ذلك جهاده وعظم فقيل له عليه الصلاة والسلام وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة وأنت خبير بأن بيان سبب كبر المجاهدة بحسب الكمية ليس فيه مزيد فائدة فانه بين بنفسه وانما اللائق بالمقام بيان سبب كبرها وعظمها فى الكيفية (وهو الذى مرج البحرين) أى خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث

والقائلون بالطبائع قالوا ان الجبال كالقباب المبنية والابخرة ترتفع اليها كما ترتفع الى سقوط الحمامات وتتكون هناك قطرات من الماء ثم تجتمع فان لم تكن قوية تحصل المياه الراكدة كالآبار وتجرى فى القنوات وان كانت قوية تشق الارض وتخرج أنهارا جارية وتجتمع فتحصل الانهار العظيمة وتمدها مياه الامطار والثلوج فنقول اختصاص بعض الجبال بالعيون دليل ظاهر على الاختيار وماذكروه تعسف فالحق هو ان الله تعالى خلق الماء فى المواضع المرتفعة وساقها فى الانهار والسواقى أو صعد الماء من المواضع المتسفلة الى الاماكن المرتفعة بأمر الله وجرى فى الاودية الى البقاع التى أنعم الله على أهلها ثم قال تعالى ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون والترتيب ظاهر ويظهر أيضا فى التفسير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لم أخر التنبيه على الانتفاع بقوله ليأكلوا عن ذكر الثمار حتى قال وفجرنا فيها من العيون وقال فى الحب فمنه يأكلون عقيب ذكر الحب ولم يقل عقيب ذكر النخيل والاعناب ليأكلوا نقول الحب قوت وهو يتم وجوده بمياه الامطار ولهذا نرى أكثر البلاد لا يكون بها شئ من الاشجار والزروع والحراثة لا تبطل هناك اعتمادا على ماء السماء وهذا لطف من الله حيث جعل ما يحتاج اليه الانسان أعم وجودا وأما الثمار فلا تتم الا بالانهار ولا تصير الاشجار حاملة للثمار الا بعد وجود الانهار فلهذا أخر (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله من ثمره عائد الى أى شئ نقول المشهور انه عائد الى الله أى ليأكلوا من ثمر الله (وفيه لطيفة) وهى ان الثمار بعد وجود الاشجار وجريان الانهار لم توجد الا بالله تعالى ولولا خلق الله ذلك لم توجد فالثمر بعد جميع ما يظن الظان انه سبب وجوده ليس الا بالله تعالى وارادته فهى ثمره ويحتمل أن يعود الى النخيل وترك الاعناب لحصول العلم بانها فى حكم النخيل ويحتمل أن يقال هو راجع الى المذكور أى من ثمر ما ذكرنا وهذان الوجهان نقلهما الزمخشرى ويحتمل وجها آخر أغرب وأقرب وهو أن يقال المراد من الثمر الفوائد يقال ثمرة التجارة الربح ويقال ثمرة العبادة الثواب وحينئذ يكون الضمير عائدا الى التفجير المدلول عليه بقوله وفجرنا فيها من العيون تفجيرا ليأكلوا من فوائد ذلك التفجير وفوائده أكثر من الثمار بل يدخل فيه ما قال الله تعالى انا صببنا الماء صبا الى أن قال فأخرجنا به حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا والتفجير أقرب فى الذكر من النخيل ولو كان عائدا الى الله لقال من ثمرنا كما قال وجعلنا وفجرنا (المسئلة الثالثة) ما فى قوله وما عملته من أى الماآت هى نقول فيها وجوه (أحدها) نافية كأنه قال وما عملت التفجير أيديهم بل الله فجر (وثانيها) موصولة بمعنى الذى كأنه قال والذى عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير يأكلون منه أيضا ويأكلون من ثمر الله الذى أخرجها من غير سعى من الناس فعطف الذى عملته الايدى على ما خلقه الله من غير مدخل للانسان فيه (وثالثها) هى مصدرية على قراءة من قرأ وما عملت من غير ضمير عائد معناه ليأكلوا من ثمره وعمل أيديهم يعنى يغرسون والله ينبتها ويخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق الله وهذا الوجه لا يمكن على قراءة من قرأ مع الضمير (المسئلة الرابعة) على قولنا ما موصولة يحتمل أن تكون بمعنى وما عملته أى بالتجارة كأنه ذكر نوعى ما يأكل الانسان بهما وهما الزراعة والتجارة ومن النبات ما يؤكل من غير عمل الايدى كالعنب والتمر وغيرهما ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالاشياء التى لا تؤكل الا مطبوخة أو كالزيتون الذى لا يؤكل الا بعد اصلاح ثم لما عدد النعم أشار الى الشكر بقوله أفلا يشكرون وذكر بصيغة الاستفهام لما بينا من فوائد الاستفهام فيما تقدم ۞ ثم قال تعالى ﴿سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ قد ذكرنا أن لفظة سبحان علم دال على التسبيح وتقديره سبح تسبيح الذى خلق الازواج كلها ومعنى سبح نزه ووجه تعلق الآية بما قبلها هو انه تعالى لما قال أفلا يشكرون وشكر الله بالعبادة وهم تركوها ولم يقتنعوا بالترك بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك فقال سبحان الذى خلق الازواج وغيره لم يخلق شيأ فقال أو نقول لما بين أنهم أنكروا الآيات ولم يشكروا بين ما ينبغى أن يكون عليه العاقل فقال سبحان الذى خلق الازواج كلها أو نقول لما بين الآيات قال سبحان الذى خلق ما ذكره عن أن يكون له شريك أو يكون عاجزا عن احياء الموتى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله كلها يدل على ان أفعال العباد مخلوقة لله لان الزوج هو الصنف وأفعال العباد أصناف ولها أشباه هى واقعة

لا يتمازجان من مرج دابته اذا خلاها (هذا عذب فرات) قامع للعطش لغاية عذوبته (وهذا ملح أجاج) بليغ الملوحة وقرئ ملح فلعله تخفيف مالح كبرد بارد (وجعل بينهما برزخا) حاجزا غير مرئى من قدرته كما فى قوله تعالى بغير عمد ترونها (وحجرا محجورا) وتنافرا مفرطا كأن كلا منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة وقيل حدا محدودا وذلك كدجلة تدخل البحر وتشقه وتجرى فى خلاله فراسخ لا يتغير طعمها وقيل المراد بالبحر العذب النهر العظيم وبالمالح البحر الكبير وبالبرزخ ما بينهما من الارض فيكون أثر القدرة فى الفصل واختلاف الصفة مع أن مقتضى طبيعة كل عنصر التضام والتلاصق والتشابه فى الكيفية (وهو الذى خلق من الماء بشرا) هو الماء الذى خمر به طينة آدم عليه السلام أو جعله جزأ من مادة البشر ليجتمع ويسلس ويستعد لقبول الاشكال والهيآت بسهولة أو هو النطفة (فجعله نسبا وصهرا) أى قسمه قسمين ذوى نسب أى ذكورا ينتسب اليهم وذوات صهر اناثا يصاهر بهن كقوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى (وكان ربك قديرا) مبالغا فى القدرة حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين ذكرا وأنثى (ويعبدون من دون الله) الذى شأنه ما ذكر (ما لا ينفعهم ولا يضرهم) أى ما ليس من شأنه النفع والضر أصلا وهو الاصنام أو كل ما يعبد من دونه تعالى اذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر

تحت أجناس الاعراض فتكون من الكل الذى قال الله فيها انه خلق الازواج كلها الا يقال مما تنبت الارض يخرج الكلام عن العموم لان من قال أعطيت زيدا كل ما كان لى يكون للعموم ان اقتصر عليه فاذا قال بعده من الثياب لا يبقى الكلام على عمومه لانا نقول ذلك اذا كانت من لبيان التخصيص أما اذا كانت لتأكيد العموم فلا بدليل ان من قال أعطيته كل شئ من الدواب والثياب والعبيد والجوارى يفهم منه انه يعدد الاصناف لتأكيد العموم ويؤيد هذا قوله تعالى فى حم الذى خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون من غير تقييد (المسئلة الثانية) ذكر الله تعالى أمورا ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله مما تنبت الارض يدخل فيها ما فى الارض من الامور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله ومن أنفسهم يدخل فيها الدلائل النفسية وقوله ومما لا يعلمون يدخل ما فى أقطار السموات وتخوم الارضين وهذا دليل على انه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل ان الانعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وانما ذكر الاشياء لتأكيد معنى العموم كما ذكرنا فى المثال (المسئلة الثالثة) قوله ومما لا يعلمون فيه معنى لطيف وهو انه تعالى انما ذكر كون الكل مخلوقا لينزه الله عن الشريك فان المخلوق لا يصلح شريكا للخالق لكن التوحيد الحقيقى لا يحصل الا بالاعتراف بان لا اله الا الله فقال تعالى اعلموا أن المانع من الشريك فيما تعلمون وما لا تعلمون لان الخلق عام والمانع من الشركة الخلق فلا تشركوا بالله شيأ مما تعلمون فانكم تعلمون أنه مخلوق ومما لا تعلمون فان عند الله كله مخلوق لكون كله ممكنا ۞ ثم قال تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون) لما استدل الله باحوال الارض وهى المكان الكلى استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلى فان دلالة المكان والزمان مناسبة لان المكان لا تستغنى عنه الجواهر والزمان لا تستغنى عنه الاعراض لان كل عرض فهو فى زمان ومثله مذكور فى قوله تعالى ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ثم قال بعده ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضا لكن المقصود أولا هناك اثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى لا تسجدوا للشمس ثم الحشر بدليل قوله تعالى ان الذى أحياها لمحيى الموتى وههنا المقصود أولا اثبات الحشر لان السورة فيها ذكر الحشر أكثر يدل عليه النظر فى السورة وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى فيه قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين الى غيره وآخر السورتين يبين الامر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المكان يدفع عن أهل السنة شبه الفلاسفة والزمان يدفع عنهم شبه المشبهة (أما بيان الاول) فذلك لان الفلسفى يقول لو كان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل وقبل وبعد لا يتحقق الا بالزمان فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشئ عند عدمه وهو محال فنقول لهم قد وافقتمونا على أن الامكنة متناهية لان الابعاد متناهية بالاتفاق فاذن فوق السطح الاعلى من العالم يكون عدم وهو موصوف بالفوقية وفوق وتحت لا يتحقق الا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشئ عند عدمه فان أجابوا بان فوق السطح الاعلى لا خلا ولا ملا نقول قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود (وأما بيان الثانى) فلان المشبهى يقول لا يمكن وجود موجود الا فى مكان فالله فى مكان فنقول فيلزمكم أن تقولوا الله فى زمان لان الوهم كما لا يمكنه أن يقول هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول هو كان موجودا ولا زمان وكل زمان فهو حادث وقد أجمعنا على ان الله تعالى قديم (المسئلة الثانية) لو قال قائل اذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان فلم اختار الليل حيث قال وآية لهم الليل نقول لما استدل بالمكان الذى هو المظلم وهو الارض وقال وآية لهم الارض استدل بالزمان الذى فيه الظلمة وهو الليل (ووجه آخر) وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدو الاصوات وفيه النوم وهو كالموت ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ فى الصور فيتحرك الناس فذكر الموت كما قال فى الارض وآية لهم الارض الميتة فذكر من الزمانين أشبههما بالموت كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت (المسئلة الثالثة) ما معنى سلخ النهار من الليل نقول معناه نميزه منه يقال انسلخ النهار من الليل اذا أتى آخر النهار ودخل أول الليل وسلخه الله منه فانسلخ هو منه وأما اذا استعمل بغير كلمة من فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت فى آخره فان قيل فالليل فى نفسه آية فأية حاجة الى قوله نسلخ منه النهار نقول الشئ تتبين بضده منافعه

(وكان الكافر على ربه) الذى ذكرت آثار ربوبيته (ظهيرا) يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد بالكافر الجنس أو أبو جهل وقيل هينا مهينا لا اعتداد به عنده تعالى من قولهم ظهرت به اذا نبذته خلف ظهرك فيكون كقوله تعالى ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم (وما أرسلناك الا مبشرا) للمؤمنين (ونذيرا) للكافرين (قل) لهم (ما أسألكم عليه) أى على تبليغ الرسالة الذى ينبئ عنه الارسال (من أجر) من جهتكم (الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا) أى الا فعل من يريد أن يتقرب اليه تعالى ويطلب الزلفى عنده بالايمان والطاعة حسبما أدعوهم اليهما فصور ذلك بصورة الاجر من حيث انه مقصود الاتيان به واستثنى منه قلعا كليا لشائبة الطمع واظهارا لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائدا اليهم عائدا اليه عليه الصلاة والسلام وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل (وتوكل على الحى الذى لا يموت) فى الاستكفاء عن شرورهم والاغناء عن أجورهم فانه الحقيق بان يتوكل عليه دون الاحياء الذين من شأنهم الموت فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم (وسبح بحمده) ونزهه عن صفات النقصان مثنيا عليه بنعوت الكمال طالبا لمزيد الانعام بالشكر على سوابغه (وكفى به بذنوب عباده) ما ظهر منها وما بطن (خبيرا) أى مطلعا عليها بحيث لا يخفى عليه شئ منها فيجزيهم جزاء وافيا (الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) قد سلف تفسيره ومحل الموصول الجر على

ومحاسنه ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية فى موضع من المواضع الا وذكر آية النهار معها وقوله فاذا هم مظلمون أى داخلون فى الظلام واذا للمفاجأة أى ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولا بد لهم من الدخول فيه ۞ وقوله تعالى ﴿والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ يحتمل أن يكون الواو للعطف على الليل تقديره وآية لهم الليل نسلخ والشمس تجرى والقمر قدرناه فهى كلها آية وقوله والشمس تجرى اشارة الى سبب سلخ النهار فانها تجرى لمستقر لها وهو وقت الغروب فينسلخ النهار وفائدة ذكر السبب هو أن الله لما قال نسلخ منه النهار وكان غير بعيد من الجهال أن يقول قائل منهم سلخ النهار ليس من الله انما يسلخ النهار بغروب الشمس فقال تعالى والشمس تجرى لمستقر لها بأمر الله فمغرب الشمس سالخ للنهار فبذكر السبب يتبين صحة الدعوى ويحتمل أن يقال بان قوله والشمس تجرى لمستقر لها اشارة الى نعمة النهار بعد الليل كانه تعالى لما قال وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ذكر أن الشمس تجرى فتطلع عند انقضاء الليل فيعود النهار بمنافعه وقوله لمستقر اللام يحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن ووجه استعمال اللام للوقت هو ان اللام المكسورة فى الاسماء لتحقيق معنى الاضافة لكن اضافة الفعل الى سببه أحسن الاضافات لان الاضافة لتعريف المضاف بالمضاف اليه كما فى قوله دار زيد لكن الفعل يعرف بسببه فيقال اتجر للربح واشترى للاكل واذا علم أن اللام تستعمل للتعليل فنقول وقت الشئ يشبه سبب الشئ لان الوقت يأتى بالامر الكائن فيه والامور متعلقة باوقاتها فيقال خرج لعشر من كذا وأقم الصلاة لدلوك الشمس لان الوقت معرف كالسبب وعلى هذا فمعناه تجرى الشمس وقت استقرارها أى كلما استقرت زمانا أمرت بالجرى فجرت ويحتمل أن تكون بمعنى الى أى الى مستقر لها وتقريره هو أن اللام تذكر للوقت وللوقت طرفان ابتداء وانتهاء يقال سرت من يوم الجمعة الى يوم الخميس فجاز استعمال ما يستعمل فيه فى أحد طرفيه لما بينهما من الاتصال ويؤيد هذا قراءة من قرأ والشمس تجرى الى مستقر لها وعلى هذا فى ذلك المستقر وجوه (الاول) يوم القيامة وعنده تستقر ولا يبقى لها حركة (الثانى) السنة (الثالث) الليل أى تجرى الى الليل (الرابع) ان ذلك المستقر ليس بالنسبة الى الزمان بل هو للمكان وحينئذ ففيه وجوه (الاول) هو غاية ارتفاعها فى الصيف وغاية انخفاضها فى الشتاء أى تجرى الى أن تبلغ ذلك الموضع فترجع (الثانى) هو غاية مشارقها فان فى كل يوم لها مشرقا الى ستة أشهر ثم تعود الى تلك المقنطرات وهذا هو القول الذى تقدم فى الارتفاع فان اختلاف المشارق بسبب اختلاف الارتفاع (الثالث) هو وصولها الى بيتها فى الابتداء (الرابع) هو الدائرة التى عليها حركتها حيث لا تميل عن منطقة البروج على مرور الشمس وسنذكره ويحتمل أن يقال لمستقر لها أى تجرى مجرى مستقرها فان أصحاب الهيئة قالوا الشمس فى فلك والفلك يدور فيدير الشمس فالشمس تجرى مجرى مستقرها وقالت الفلاسفة تجرى لمستقرها أى لامر لو وجدها لاستقر وهو استخراج الاوضاع الممكنة وهو فى غاية السقوط وأجاب الله عنه بقوله ذلك تقدير العزيز العليم أى ليس لارادتها وانما ذلك بارادة الله وتقديره وتدبيره وتسخيره اياها فان قيل عددت الوجوه الكثيرة وما ذكرت المختار فما الوجه المختار عندك نقول المختار هو أن المراد من المستقر المكان أى تجرى لبلوغ مستقرها وهو غاية الارتفاع والانخفاض فان ذلك يشمل المشارق والمغارب والمجرى الذى لا يختلف والزمان وهو السنة والليل فهو أتم فائدة وقوله ذلك يحتمل أن يكون اشارة الى جرى الشمس أى ذلك الجرى تقدير الله ويحتمل أن يكون اشارة الى المستقر أى لمستقر لها وذلك المستقر تقدير الله والعزيز الغالب وهو بكمال القدرة يغلب والعليم كامل العلم أى الذى قدر على أجرائها على الوجه الانفع وعلم الانفع فاجراها على ذلك وبيانه من وجوه (الاول) هو ان الشمس فى ستة أشهر كل يوم تمر على مسامتة شئ لم تمر من أمسها على تلك المسامتة ولو قدر الله مرورها على مسامتة واحدة لاحترقت الارض التى هى مسامتة لممرها وبقى المجموع مستوليا على الاماكن الاخر فقدر الله لها بعد التجمع الرطوبات فى باطن الارض والاشجار فى زمان الشتاء ثم قدر قربها بالتدريج لتخرج النبات والثمار من الارض والشجر وتنضج وتجفف ثم تبعد لئلا يحترق وجه الارض وأغصان الاشجار (الثانى) هو ان الله

أنه صفة أخرى للحى وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالابدية التى هى من الصفات الذاتية والاشارة الى اتصافه بالعلم الشامل لتقرر وجوب التوكل عليه تعالى وتأكيده فان من أنشأ هذه الاجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين فى أوقات معينة مع كمال قدرته على ابداعها دفعة لحكم جليلة وغايات جميلة لا تقف على تفاصيلها العقول أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الامر اليه (الرحمن) مرفوع على المدح أى هو الرحمن وهو فى الحقيقة وصف آخر للحى كما قرئ بالجر مفيد لزيادة تأكيد ما ذكر من وجوب التوكل عليه تعالى وان لم يتبعه فى الاعراب لما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحا وان خرجا عن التبعية لما قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الاعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة ألا يرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدا فى النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ما قبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما وقد مر تمام التحقيق فى تفسير قوله عز وجل الذين يؤمنون بالغيب الآية وقيل الموصول مبتدأ والرحمن خبره وقيل الرحمن بدل من المستكن فى استوى (فاسأل به) أى بتفاصيل ما ذكر اجمالا من الخلق والاستواء لا بنفسهما فقط اذ بعد بيانهما لا يبقى الى السؤال حاجة ولا فى تعديته بالباء فائدة فانها مبنية على تضمينه معنى الاعتناء المستدعى لكون المسؤل أمرا خطيرا مهما بشأنه غير حاصل للسائل وظاهر أن نفس الخلق

قدر لها فى كل يوم طلوعا وفى كل ليلة غروبا لئلا تكل القوى والابصار بالسهر والتعب ولا يخرب العالم بترك العمارة بسبب الظلمة الدائمة (الثالث) جعل سيرها ابطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لانها كاملة النور فلو كانت بطيئة السير لدامت زمانا كثيرا فى مسامتة شئ واحد فتحرقه ولو كانت سريعة السير لما حصل لها لبث بقدر ما ينضج الثمار فى بقعة واحدة ۞ ثم قال تعالى ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ قال الزمخشرى لابد من تقدير لفظ يتم به معنى الكلام لان القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى انا قدرنا سيره منازل وعلى ماذكره يحتمل أن يقال المراد منه والقمر قدرناه ذا منازل لان ذا الشئ قريب من الشئ ولهذا اجاز قول القائل عيشة راضية لان ذا الشئ كالقائم به الشئ فأتوا بلفظ الوصف وقوله حتى عاد كالعرجون القديم أى رجع فى الدقة الى حالته التى كان عليها من قبل والعرجون من الانعراج يقال لعود العذق عرجون والقديم المتقادم الزمان قيل ان ما غبر عليه سنة فهو قديم والصحيح أن هذه بعينها لا تشترط فى جواز اطلاق القديم عليه وانما تعتبر العادة حتى لا يقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين انها بناء قديم أو هى قديمة ويقال لبعض الاشياء انه قديم وان لم يكن له سنة ولهذا جاز أن يقال بيت قديم وبناء قديم ولم يجز أن يقال فى العالم انه قديم لان القدم فى البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد ومرور السنين عليه واطلاق القديم على العالم لا يعتاد الا عند من يعتقد انه لا أول له ولا سابق عليه ۞ ثم قال تعالى ﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾ اشارة الى أن كل شئ من الاشياء المذكورة خلقها على وفق الحكمة فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر والا لكان فى شهر واحد صيف وشتاء فلا تدرك الثمار وقوله ولا الليل سابق النهار قيل فى تفسيره ان سلطان الليل وهو القمر ليس يسبق الشمس وهى سلطان النهار وقيل معناه ولا الليل سابق النهار أى الليل لا يدخل وقت النهار والثانى بعيد لان ذلك يقع ايضاحا للواضح والاول صحيح ان أريد به ما بينته وهو ان معنى قوله تعالى ولا الليل سابق النهار ان القمر اذا كان على أفق المشرق أيام الاستقبال تكون الشمس فى مقابلته على أفق المغرب ثم ان عند غروب الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر كأن لهما حركة واحدة مع ان الشمس تتأخر عن القمر فى ليلة مقدارا ظاهرا فى الحس فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس ولا تدركه الشمس وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولا تدرك القمر لبقى القمر والشمس مدة مديدة فى مكان واحد لان حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى فى جميع الكواكب حركة اخرى غير حركة الشهر والسنة وهى الدورة اليومية وبهذه الدورة لا يسبق كوكب كوكبا أصلا لان كل كوكب من الكواكب اذا طلع غرب مقابله وكلما تقدم كوكب الى الموضع الذى فيه الكوكب الآخر بالنسبة الينا تقدم ذلك الكوكب فبهذه الحركة لا يسبق القمر الشمس فتبين ان سلطان الليل لا يسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس فقوله لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر اشارة الى حركتها البطيئة التى تتم الدورة فى سنة وقوله ولا الليل سابق النهار اشارة الى حركتها اليومية التى بها تعود من المشرق الى المشرق مرة أخرى فى يوم وليلة وعلى هذا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة فى اطلاق الليل وارادة سلطانه وهو القمر وماذا يكون لو قال ولا القمر سابق الشمس نقول لو قال ولا القمر سابق الشمس ما كان يفهم ان الاشارة الى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض فان الشمس اذا كانت لا تدرك القمر والقمر أسرع ظاهرا واذا قال ولا القمر سابق يظن أن القمر لا يسبق فليس بأسرع فقال الليل والنهار ليعلم أن الاشارة الى الحركة التى بها تتم الدورة فى مدة يوم وليلة ويكون لجميع الكواكب أو عليها طلوع وغروب فى الليل والنهار (المسئلة الثانية) ما الفائدة فى قوله تعالى لا الشمس ينبغى لها أن تدرك بصيغة الفعل وقوله ولا الليل سابق النهار بصيغة اسم الفاعل ولم يقل ولا الليل يسبق ولا قال مدركة القمر نقول الحركة الاولية التى للشمس ولا يدرك بها القمر مختصة بالشمس فجعلها كالصادرة منها وذكر بصيغة الفعل لان صيغة الفعل لا تطلق على من لا يصدر منه الفعل فلا يقال هو يخيط ولا يكون يصدر منه الخياطة والحركة الثانية ليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشتركة بسبب حركة فلك ليس ذلك فلكا لكوكب من الكواكب فالحركة

والاستواء بعد الذكر ليس كذلك وما قيل من أن التقدير ان شككت فيه فاسأل به خبيرا على أن الخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد غيره بمعزل من السداد بل التقدير ان شئت تحقيق ماذكر أو تفصيل ماذكر فاسأل معتنيا به (خبيرا) عظيم الشأن محيطا بظواهر الامور وبواطنها وهو الله سبحانه يطلعك على جلية الامر وقيل فاسأل به من وجده فى الكتب المتقدمة ليصدقك فيه فلا حاجة حينئذ الى ماذكرنا وقيل الضمير للرحمن والمعنى ان أنكروا اطلاقه على الله تعالى فاسئل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجئ ما يرادفه فى كتبهم وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وما بعده خبرا وقرئ فسل (واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) قالوه لما أنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى أو لانهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى ولذلك قالوا (أنسجد لما تأمرنا) أى للذى تأمرنا بسجوده أو لامرك ايانا من غير أن نعرف أن المسجود ماذا وقيل لانه كان معربا لم يسمعوه وقرئ يأمرنا بياء الغيبة على أنه قول بعضهم لبعض (وزادهم) أى الامر بسجود الرحمن (نفورا) عن الايمان (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) هى البروج الاثنا عشر سميت به وهى القصور العالية لانها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها واشتقاقه من البرج لظهوره (وجعل فيها سراجا) هى الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا وهى الشمس والكواكب الكبار (وقمرا منيرا) مضيئا بالليل وقرئ قمرا أى ذا قمر وهى جمع قمراء ولما أن الليالى بالقمر تكون قمراء أضيف اليها ثم حذف وأجرى

ليست كالصادرة منه فأطلق اسم الفاعل لانه لا يستلزم صدور الفعل يقال فلان خياط وان لم يكن خياطا فان قيل قوله تعالى يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا يدل على خلاف ماذكرتم لان النهار اذا كان يطلب الليل فالليل سابقه وقلتم ان قوله ولا الليل سابق النهار معناه ماذكرتم فيكون الليل سابقا ولا يكون سابقا نقول قد ذكرنا ان المراد بالليل ههنا سلطان الليل وهو القمر وهو لا يسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة والمراد من الليل هنالك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقيب الآخر فكأنه طالبه فان قيل فلم ذكر ههنا سابق النهار وقد ذكر هنالك يطلبه ولم يقل طالبه نقول ذلك لما بينا من أن المراد في هذه السورة من الليل كواكب الليل وهي في هذه الحركة كأنها لا حركة لها ولا تسبق ولا من شأنها انها سابقة والمراد هنالك نفس الليل والنهار وهما زمانان والزمان لا قرار له فهو يطلب حثيثا لصدور التقضي منه وقوله تعالى وكل في فلك يسبحون يحقق ماذكرنا أي للكل طلوع وغروب في يوم وليلة لا يسبق بعضها بعضا بالنسبة الى هذه الحركة وكل حركة في فلك تخصه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التنوين في قوله وكل عوض عن الاضافة معناه كل واحد واسقاط التنوين للاضافة حتى لا يجتمع التعريف والتنكير في شئ واحد فلما سقط المضاف اليه لفظا رد التنوين عليه لفظا وفي المعنى معرف بالاضافة فان قيل فهل يختلف الامر عند الاضافة لفظا وتركها فنقول نعم وذلك لان قول القائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم الى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه فاذا قال كل كذا يدخل في الفهم عموم أكثر من العموم عند الاضافة وهذا كما في قبل وبعد اذا قلت افعل قبل كذا فاذا حذفت المضاف وقلت افعل قبل أفاد فهم الفعل قبل كل شئ فان قيل فهل بين قولنا كل منهم وبين قولنا كلهم وبين كل فرق نقول نعم عند قولك كلهم تثبت الامر للاقتصار عليهم وعند قولك كل منهم تثبت الامر أولا للعموم ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم وعند قولك كل تثبت الامر على العموم وتتركه عليه (المسئلة الثانية) اذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال يسبحون نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) ما بينا أن قوله كل للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب في السماء سيار (ثانيها) ان لفظ كل يجوز أن يوحد نظرا الى كونه لفظا موحدا غير مثنى ولا مجموع ويجوز أن يجمع لكون معناه جمعا وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلى هذا يحسن أن يقول القائل زيد وعمرو كل جاء أو كل جاؤا ولا يقول كل جا آ بالتثنية (وثالثها) لما قال ولا الليل سابق النهار والمراد ما في الليل من الكواكب قال يسبحون (المسئلة الثالثة) الفلك ماذا نقول الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لان أهل اللغة اتفقوا على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة هي الخشبة المسطحة المستديرة التي توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهي صفحة مستديرة فان قيل فعلى هذا تكون السماء مستديرة وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة لها أطراف على جبال وهي كالسقف المستوي ويدل عليه قوله تعالى والسقف المرفوع نقول ليس في النصوص ما يدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة ودل الدليل الحسي على كونها مستديرة فوجب المصير اليه أما الاول فظاهر لان السقف المقبب لا يخرج عن كونه سقفا وكذلك كونها على جبال وأما الدليل الحسي فوجوه (أحدها) ان من أمعن في السير في جانب الجنوب يظهر له كواكب مثل سهيل وغيره ظهورا أبديا حتى ان من يرصد يراه دائما ويخفى عليه بنات نعش وغيرها خفاء أبديا ولو كان السماء مسطحا مستويا لبان الكل للكل بخلاف ما اذا كان مستديرا فان بعضه حينئذ يستتر باطراف الارض فلا يرى (الثاني) هو ان الشمس اذا كانت مقارنة للحمل مثلا فاذا غربت ظهر لنا كوكب في منطقة البروج من الحمل الى الميزان ثم في كل قليل يستتر الكوكب الذي كان غروبه بعد غروب الشمس ويظهر الكوكب الذي كان طلوعه بعد طلوع الشمس وبالعكس وهو دليل ظاهر وان بحث فيه يصير قطعيا (الثالث) هو ان الشمس قبل طلوعها وبعد غروبها يظهر ضوءها ويستنير الجو بعض الاستنارة ثم يطلع ولولا أن بعض السماء مستتر بالارض وهو محل الشمس فلا يرى جرمها وينتشر نورها لما كان كذا بل كان عند اعادتها الى السماء يظهر لكل أحد جرمها ونورها معا لكون السماء مستوية حينئذ مكشوفة كلها لكل أحد (الرابع) القمر اذا انكسف في ساعة من الليل في جانب الشرق

حكمه على المضاف اليه القائم مقامه كما في قول حسان رضي الله عنه

* بردى يصفق بالرحيق السلسل *

أي ماء بردى ويحتمل أن يكون بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) أي ذوي خلفة يخلف كل منهما الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه أو بأن يعتقبا كقوله تعالى واختلاف الليل والنهار وهي اسم للحالة من خلف كالركبة والجلسة من ركب وجلس (لمن أراد أن يذكر) أي يتذكر آلاء الله عز وجل ويتفكر في بدائع صنعه فيعلم أنه لا بد لها من صانع حكيم واجب الذات رحيم للعباد (أو أراد شكورا) أي أن يشكر الله تعالى على ما فيهما من النعم أو ليكونا وقتين للذاكرين من فاته ورده في أحدهما تداركه في الآخر وقرئ أن يذكر من ذكر بمعنى تذكر (وعباد الرحمن) كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خلص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيوية والاخروية بعد بيان حال النافرين عن عبادته والسجود له والاضافة للتشريف وهو مبتدأ خبره ما بعده من الموصول وما عطف عليه وقيل هو ما في آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم الاشارة وقرئ عباد الرحمن أي عباده المقبولون (الذين يمشون على الارض هونا) أي بسكينة وتواضع وهونا مصدر وصف به ونصبه اما على أنه حال من فاعل يمشون أو على أنه نعت لمصدره أي يمشون هينين لينى الجانب من غير فظاظة أو مشيا هينا وقوله تعالى (واذا خاطبهم الجاهلون) أي السفهاء كما في قول من قال

ثم سئل أهل المغرب عن وقت الكسوف أخبروا عن الخسوف فى ساعة أخرى قبل ثلاث الساعة التى رأى أهل المشرق فيها الخسوف لكن الخسوف فى وقت واحد فى جميع نواحى العالم والليل مختلف فدل على أن الليل فى جانب المشرق قبل الليل فى جانب المغرب فالشمس غربت من عند أهل المشرق وهى بعد فى السماء ظاهرة لاهل المغرب فعلم أن استتارها بالارض ولو كانت مستوية لما كان كذلك (الخامس) لو كانت السماء مبسوطة لكان القمر عندما يكون فوق رؤسنا على المسامتة أقرب الينا وعندما يكون على الافق أبعد منا لان العمود أصغر من القطر والوتر وكذلك فى الشمس والكواكب كان يجب أن يرى أكبر لان القريب يرى أكبر وليس كذلك فان قيل جاز أن يكون وهو على الافق على سطح السماء وعندما يكون على مسامتة رؤسنا فى بحر السماء غائرا فيها لان الخرق جائز على السماء نقول لا نتنازع فى جواز الخرق لكن القمر حينئذ تكون حركته فى دائرة لا على خط مستقيم وهو غرضنا ولانا نقول لو كان كذلك لكان القمر عند أهل المشرق وهو فى منتصف نهارهم أكبر مقدارا لكونه قريبا من رؤسهم ضرورة فرضه على سطح السماء الادنى وعندنا فى بحر السماء وبالجملة الدلائل كثيرة والاكثار منها يليق بكتب الهيئة التى الغرض منها بيان ذلك العلم وليس الغرض فى التفسير بيان ذلك غير أن القدر الذى أوردناه يكفى فى بيان كونه فلكا مستديرا (المسئلة الرابعة) هذا يدل على أن لكل كوكب فلكا فما قولك فيه نقول أما السبعة السيارة فلكل فلك وأما الكواكب الاخر فقيل لكل فلك واحد ولنذكر كلاما مختصرا فى هذا الباب من الهيئة حيث وجب الشروع بسبب تفسير الفلك فنقول قيل ان للقمر فلكا لان حركته أسرع من حركة الستة الباقية وكذلك لكل كوكب فلك لاختلاف سيرها بالسرعة والبطء والممر فان بعضها يمر فى دائرة وبعضها فى دائرة أخرى حتى فى بعض الاوقات يمر بعضها ببعض ولا يكسفه وفى بعض الاوقات يكسفه فلكل كوكب فلك ثم ان أهل الهيئة قالوا فكل فلك هو جسم كرة وذلك غير لازم بل اللازم أن نقول لكل فلك هو كرة أو صفحة أو دائرة يفعلها الكوكب بحركته والله تعالى قادر على أن يخلق الكوكب فى كرة يكون وجوده فيها كوجود مسمار مغرق فى ثخن كرة مجوفة ويدير الكرة فيدور الكوكب بدوران الكرة وعلى مذهب أرباب الهيئة حركة الكواكب السيارة على هذا الوجه وكذلك قادر على أن يخلق حلقة يحيط بها أربع سطوح متوازية بها فانها أربع دوائر متوازية كحجر الرحى اذا قورناه وأخرجنا من وسطه طاحونة من طواحين اليد ويبقى منه حلقة يحيط بها سطوح ودوائر كما ذكرنا وتكون الكواكب فيه وهو فلك فتدور تلك الحلقة وتدير الكوكب والحركة على هذا الوجه وان كانت مقدورة لكن لم يذهب اليه أحد ممن يعتبر وكذلك هو قادر على أن يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة فى الماء على وجهه تنزل من جانب وتصعد الى موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون والظاهر ان حركة الكواكب على هذا الوجه وأرباب الهيئة انكروا ذلك وقالوا لا تجوز الحركة على هذا الوجه لان الكوكب له جرم فاذا شق السماء وتحرك فاما أن يكون موضع دورانه ينشق ويلتئم كالماء تحركه السمكة أو لا ينشق ولا يلتئم بل هناك خلاء يدور الكوكب فيه لكن الخلاء محال والسماء لا تقبل الشق والالتئام هذا ما اعتمدوا عليه ونحن نقول كلاهما جائز أما الخلاء فلا يحتاج اليه ههنا لان قوله تعالى يسبحون يفهم انه بشق والتئام وأما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه وشبهتهم فى المحدد للجهات وهى هناك ضعيفة ثم انهم قالوا على ما بينا تخرج الحركات وبه علمنا الكسوفات ولو كان لها حركات مختلفة لما وجب الكسوف فى الوقت الذى يحكم فيه بالكسوف والخسوف وذلك لانا نقول للشمس فلكان (أحدهما) مركزه مركز العالم (ثانيهما) مركزه فوق مركز العالم وهو مثل بياض البيض بين صفرته وبين القيض والشمس كرة فى الفلك الخارج المركز تدور بدورانه فى السنة دورة فاذا جعلت فى الجانب الاعلى تكون بعيدة عن الارض فيقال انها فى الاوج واذا حصلت فى الجانب الاسفل تكون قريبة من الارض فتكون فى الحضيض وأما القمر فله فلك شامل لجميع أجزائه وأفلاكه وفلك آخر هو بعض من الفلك الاول محيط به كالقشرة الفوقانية من البصلة وفلك ثالث فى الفلك الثانى كما كان فى الفلك الخارج المركز فى فلك الشمس وفى الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفى الكرة القمر مركوز

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(قالوا سلاما) بيان لحالهم فى المعاملة مع غيرهم اثر بيان حالهم فى أنفسهم أى اذا خاطبوهم بالسوء قالوا تسليما منكم ومتاركة لا خير بيننا وبينكم ولا شر وقيل سدادا من القول يسلمون به من الاذية والاثم وليس فيه تعرض لمعاملتهم مع الكفرة حتى يقال نسختها آية القتال كما نقل عن أبى العالية وقوله تعالى (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) بيان لحالهم فى معاملتهم مع ربهم أى يكونون ساجدين لربهم وقائمين أى يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة وقيل من قرأ شيأ من القرآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وتقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل (والذين يقولون) أى فى اعقاب صلواتهم أو فى عامة أوقاتهم (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما) أى شرا دائما وهلاكا لازما وفيه مزيد مدح لهم ببيان انهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق يخافون العذاب ويبتهلون الى الله تعالى فى صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم كقوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون (انها ساءت مستقرا ومقاما) تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حالها فى نفسها اثر تعليله بسوء حال عذابها وقد جوز أن يكون تعليلا للاولى وليس بذاك وساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هى وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم

كمسمار في كرة مغرق فيها ويسمى الفلك الفوقاني الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتاني الذي فيه الفلك الحامل الفلك المائل والكرة التي في الحامل تسمى فلك التدوير وكذلك قالوا في الكواكب الخمسة الباقية من السيارات غير ان الفوقاني الذي سموه فلك الجوزهر لم يثبتوه لها فأثبتوا أربعة وعشرين فلكا الفلك الاعلى وفلك البروج ولزحل ثلاثة أفلاك الممثل والحامل وفلك التدوير وللمشتري ثلاثة كالزحل وللمريخ كذلك ثلاثة وللشمس فلكان الممثل والخارج المركز وللزهرة ثلاثة أفلاك كما للعلويات ولعطارد أربعة أفلاك الثلاثة التي ذكرناها في العلويات وفلك آخر يسمونه المدير وللقمر أربعة أفلاك والرابع يسمونه فلك الجوزهر والمدير ليس كالجوزهر لان المدير غير محيط بافلاك عطارد وفلك الجوزهر محيط ومنهم من زاد في الخمسة في كل فلك فلكين آخرين وجعل تدويراتها مركبة من ثلاثة افلاك وقالوا ان بسبب هذه الاجرام تختلف حركات الكواكب ويكون لها عروض ورجوع واستقامة وبطء وسرعة هذا كلامهم على سبيل الاقتناص والاقتصار ونحن نقول لا يبعد من قدرة الله خلق مثل ذلك وأما على سبيل الوجوب فلا نسلم ورجوعها واستقامتها بارادة الله وكذلك عرضها وطولها وبطؤها وسرعتها وقربها وبعدها هذا تمام الكلام (المسئلة الخامسة) قال المنجمون الكواكب أحياء بدليل انه تعالى قال يسبحون وذلك لا يطلق الا على العاقل نقول ان أردتم القدر الذي يصح به التسبيح فنقول به لانه ما من شئ من هذه الاشياء الا وهو يسبح بحمد الله وان أردتم شيأ آخر فلم يثبت ذلك والاستعمال لا يدل كما في قوله تعالى في حق الاصنام ما لكم لا تنطقون وقوله ألا تنطقون ﴿ ثم قال تعالى ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾ ولها مناسبة مع ما تقدم من وجهين (أحدهما) انه تعالى لما من باحياء الارض وهو مكان الحيوانات بين انه لم يقتصر بل جعل للانسان طريقا يتخذ من البحر خيرا ويتوسطه أو يسير فيه كما يسير في البر وهذا حينئذ كقوله وحملناكم في البر والبحر ويؤيد هذا قوله تعالى وخلقنا لهم من مثله ما يركبون اذا فسرناه بأن المراد الابل فانها كسفن البراري (وثانيهما) هو انه تعالى لما بين سباحة الكواكب في الافلاك وذكر ما هو مثله وهو سباحة الفلك في البحار ولها وجه ثالث وهي ان الامور التي أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والاول للحاجة والثاني للزينة فخلق الارض واحياؤها من القبيل الاول فانها المكان الذي لولاه لما وجد الانسان ولولا احياؤها لما عاش والليل والنهار في قوله وآية لهم الليل أيضا من القبيل الاول لانه الزمان الذي لولاه لما حدث الانسان والشمس والقمر وحركتهما ولو لم تكن لما عاش ثم انه تعالى لما ذكر من القبيل الاول آيتين ذكر من القبيل الثاني وهو الزينة آيتين (أحدهما) الفلك التي تجري في البحر فيستخرج من البحر ما يتزين به كما قال تعالى ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر (وثانيهما) الدواب التي هي في البر كالفلك في البحر في قوله وخلقنا لهم من مثله ما يركبون فان الدواب زينة كما قال تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وقال لكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون فيكون استدلالا عليهم بالضروري والنافع لا يقال بان النافع ذكره في قوله جنات من نخيل وأعناب فانها للزينة لانا نقول ذلك حصل تبعا للضروري لان الله تعالى لما خلق الارض منبتة لدفع الضرورة وأنزل الماء عليها كذلك لزم أن يخرج من الجنة النخيل والاعناب بقدرة الله وأما الفلك فمقصود لا تبع ثم اذا علمت المناسبة ففي الآيات ابحاث لغوية ومعنوية (اما اللغوية) قال المفسرون الذرية هم الآباء أي حملنا آباءكم في الفلك والالف واللام للتعريف أي فلك نوح وهو مذكور في قوله واصنع الفلك ومعلوم عند العرب فقال الفلك هذا قول بعضهم وأما الاكثرون فعلى أن الذرية لا تطلق الا على الولد وعلى هذا فلا بد من بيان المعنى فنقول الفلك اما أن يكون المراد الفلك المعين الذي كان لنوح واما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون وقال تعالى وترى الفلك فيه مواخر وقال تعالى فاذا ركبوا في الفلك الى غير ذلك من استعمال لام التعريف في الفلك لبيان الجنس فان كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه (الاول) أن المراد انا حملنا أولادكم الى يوم القيامة في ذلك الفلك ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل ولا عقب وعلى هذا فقوله حملنا ذريتهم بدل قوله حملناهم اشارة الى كمال النعمة أي لم تكن النعمة مقتصرة عليكم بل متعدية الى اعقابكم الى يوم القيامة هذا ما قاله الزمخشري ويحتمل عندي أن

يقال

ان وجعلها خبرا لها قيل ويجوز أن يكون ساءت بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم ان ومستقرا حال أو تمييز وهو بعيد خال عما في الاول من المبالغة في بيان سوء حالها وكذا جعل التعليلين من جهته تعالى (والذين اذا انفقوا لم يسرفوا) لم يجاوزوا حد الكرم (ولم يقتروا) ولم يضيقوا تضييق الشحيح وقيل الاسراف هو الانفاق في المعاصي والقتر منع الواجبات والقرب وقرئ بكسر التاء مع فتح الياء وبكسرها مخففة ومشددة مع ضم الياء (وكان بين ذلك) أي بين ما ذكر من الاسراف والقتر (قواما) وسطا وعدلا سمي به لاستقامة الطرفين كما سمي به سواء لاستوائهما وقرئ بالكسر وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان أو حال مؤكدة أو هو الخبر وبين ذلك لغو وقد جوز ان يكون اسم كان على انه مبني لاضافته الى غير متمكن ولا يخفى ضعفه فانه بمعنى القوام فيكون كالاخبار بشئ عن نفسه (والذين لا يدعون مع الله الها آخر) شروع في بيان اجتنابهم عن المعاصي بعد بيان اتيانهم بالطاعات وذكر نفي الاسراف والقتر لتحقيق معنى الاقتصاد والتصريح بوصفهم بنفي الاشراك مع ظهور ايمانهم لاظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والاخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما في سلكه وللتعريض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم أي لا يعبدون معه تعالى الها آخر (ولا يقتلون النفس التي حرم الله) أي حرمها بمعنى حرم قتلها فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه مبالغة في التحريم (الا بالحق) أي لا يقتلونها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق

يقال على هذا انه تعالى انما خص الذرية بالذكر لان الموجودين كانوا كفارا لا فائدة فى وجودهم فقال حملنا ذريتهم أى لم يكن الحمل حملا لهم وانما كان حملا لما فى اصلابهم من المؤمنين كمان من حمل صندوقا لا قيمة له وفيه جواهر اذا قيل له لم تحمل هذا الصندوق وتتعب فى حمله وهو لا يشترى بشئ يقول لا أحمل الصندوق وانما أحمل مافيه (الثانى) هو ان المراد بالذرية الجنس معناه حملنا اجناسهم وذلك لان ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرارى أى النساء وذلك لان المرأة وان كانت صنفا غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذرارينا أى أمثالنا فقوله انا حملنا ذريتهم أى أمثالهم وآباؤهم حينئذ تدخل فيهم (الثالث) هو ان الضمير فى قوله وآية لهم عائد الى العباد حيث قال ياحسرة على العباد وقال بعد ذلك وآية لهم الارض وقال وآية لهم الليل وقال وآية لهم انا حملنا ذريتهم اذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد انا حملنا ذريات العباد ولا يلزم أن يكون المراد بالضمير فى الموضعين اشخاصا معينين كما قال تعالى ولا تقتلوا أنفسكم ويريد بعضكم بعضا وكذلك اذا تقاتل قوم ومات الكل فى القتال يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم فهم فى الموضعين يكون عائدا الى القوم ولا يكون المراد اشخاصا معينين بل المراد ان بعضهم قتل بعضا فكذلك قوله تعالى وآية لهم أى آية لكل بعض منهم انا حملنا ذرية كل بعض منهم أو ذرية بعض منهم وأما ان قلنا ان المراد جنس الفلك فهو أظهر لان سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها فاما جنس الفلك فانه ظاهر لكل أحد وقوله تعالى فى سفينة نوح وجعلناها آية للعالمين أى بوجود جنسها ومثلها ويؤيده قوله تعالى ألم تر ان الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور فنقول قوله تعالى حملنا ذريتهم أى ذريات العباد ولم يقل حملناهم لان سكون الارض عام لكل أحد يسكنها فقال وآية لهم الارض الميتة الى أن قال فمنه يأكلون لان الاكل عام وأما الحمل فى السفينة فمن الناس من لا يركبها فى عمره ولا يحمل فيها ولكن ذرية العباد لابد لهم من ذلك فان فيهم من يحتاج اليها فيحمل فيها (المسئلة الثانية) جعل الفلك تارة جمعا حيث قال وترى الفلك فيه مواخر جمع ماخرة وأخرى فردا حيث قال فى الفلك المشحون نقول فيه تدقيق مليح من علم اللغة وهو ان الكلمة قد تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة فى الصورة والحركتان مختلفتان فى المعنى مثالها قولك سجد يسجد سجودا للمصدر وهم قوم سجود فى جمع ساجد تظن انهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك بل السجود عند كونه مصدرا حركته أصلية اذا قلنا ان الفعل مشتق من المصدر وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة من حيث ان الجمع يشتق من الواحد وينبغى أن يلحق المشتق تغيير فى حركة أو حرف أوفى مجموعهما فساجد لما أردنا أن نشتق منه لفظ جمع غيرناه وجئنا بلفظ السجود فاذا السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الالفاظ المشتركة التى وضعت بحركة واحدة لمعنيين اذا عرفت هذا فنقول الفلك عند كونه واحدا مثل قفل وبرد وعند كونه جمعا مثل خشب ومرد وغيرهما فان قلت فاذا جعلته جمعا ماذا يكون واحدها نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل وكذلك القول فى امام مبين وفى قوله ندعوا كل أناس بامامهم أى بأئمتهم عند قوله تعالى امام مبين امام كزمام وكتاب وعند قوله تعالى كل أناس بامامهم امام كسهام وكرام وحجاب وهذا من دقيق التصريف (واما المعنوية) فنذكرها فى مسائل (المسئلة الاولى) قال ههنا حملنا ذريتهم من عليهم بحمل ذريتهم وقال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية من هنالك عليهم بحمل أنفسهم نقول لان من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير بل يكون قد نفعه مثاله من أحسن الى ولد انسان وفرحه فرح بفرحه أبوه واذا دفع واحد الالم عن ولد انسان يكون قد فرح أباه ولا يكون فى الحقيقة قد أزال الالم عن أبيه فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر ولو قال دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بيان دفع الضرر عنهم وههنا أراد بيان المنافع فقال حملنا ذريتهم لان النفع حاصل بنفع الذرية ويدلك على هذا ان ههنا قال فى الفلك المشحون فان امتلاء الفلك من الاموال يحصل بذكره بيان المنفعة وأما دفع المضرة فلا لان الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به ابطأ وهنالك السلامة فاختار هنالك ما يدل

المسرف بل لحرمتها وعصمتها أو لا يقتلون قتلا ما الا قتلا ملتبسا بالحق أو لا يقتلونها فى حال من الاحوال الا حال كونهم ملتبسين بالحق (ولا يزنون) أى الذين لا يفعلون شيأ من هذه العظائم القبيحة التى جمعهن الكفرة حيث كانوا مع اشراكهم به سبحانه مداومين على قتل النفوس المحرمة التى من جملتها الموؤدة مكبين على الزنا لا يرعوون عنه أصلا (ومن يفعل ذلك) أى ماذكر كما هو دأب الكفرة المذكورين (يلق) فى الآخرة وقرئ يلقى وقرئ يلق بالتشديد مجزوما (أثاما) وهو جزاء الاثم كالوبال والنكال وزنا ومعنى وقيل هو الاثم أى يلق جزاء الاثم والتنوين على التقديرين للتفخيم وقرئ أياما أى شدائد يقال يوم ذو أيام لليوم الصعب (يضاعف له العذاب يوم القيامة) بدل من يلق لاتحادهما فى المعنى كقوله

متى تأتنا تلمم بنا فى ديارنا
تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحالية وكذا ما عطف عليه وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب (ويخلد فيه) أى فى ذلك العذاب المضاعف (مهانا) ذليلا مستحقرا جامعا للعذاب الجسمانى والروحانى وقرئ يخلد ويخلد مبنيا للمفعول من الاخلاد والتخليد وقرئ تخلد بالتاء على الالتفات المنبئ عن شدة الغضب ومضاعفة العذاب لانضمام المعاصى الى الكفر يفصح عنه قوله تعالى (الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا) ذكر الموصوف مع جريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته للاعمال السابقة (فاولئك) اشارة الى الموصول

على الخلاص من الضرر وهو الجرى وههنا مايدل على كمال المنفعة وهو الشحن فان قيل قال تعالى وحملناهم فى البر والبحر ولم يقل وحملنا ذريتهم مع أن المقصود فى الموضعين بيان النعمة لادفع النقمة نقول لما قال فى البر والبحر عم الخلق لان مامن أحد الا وحمل فى البر أو البحر وأما الحمل فى البحر فلم يعم فقال ان كنا ماحملناكم بانفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الاولاد والاقارب والاخوان والاصدقاء (المسئلة الثانية) قوله المشحون يفيد فائدة أخرى غير ماذكرنا وهى ان الآدمى يرسب فى الماء ويغرق فحمله فى الفلك واقع بقدرته لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لا يرسب فى الماء لان الخفيف يطلب جهة فوق فقال الفلك المشحون اثقل من الثقال التى ترسب ومع هذا حمل الله الانسان فيه مع ثقله فان قالوا ذلك لامتناع الخلاء نقول قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء فى الكتب العقلية فاذن ليس حفظ الثقيل فوق الماء الا بارادة الله (المسئلة الثالثة) قال تعالى وآية لهم الارض وقال وآية لهم الليل ولم يقل وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم وذلك لان حملهم فى الفلك هو العجب أما نفس الفلك فليس بعجب لانه كبيت مبنى من خشب وأما نفس الارض فعجب ونفس الليل عجب لاقدرة عليهما لاحد الا الله ۞ ثم قال تعالى (وخلقنا لهم من مثله مايركبون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من حيث اللغة والمعنى أما اللغة فقوله لهم يحتمل أن يكون عائدا الى الذرية أى حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين مايركبون ويحتمل أن يكون عائدا الى العباد الذين عاد اليهم قوله وآية لهم وهو الحق لان الظاهر عود الضمائر الى شئ واحد (المسئلة الثانية) من يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون صلة تقديره وخلقنا لهم مثله وهذا على رأى الاخفش وسيبويه يقول من لا يكون صلة الا عند النفى تقول ماجاءنى من أحد كما فى قوله تعالى ومامسنا من لغوب (وثانيهما) هى مبينة كما فى قوله تعالى يغفر لكم من ذنوبكم كأنه لما قال خلقنا لهم والمخلوق كان أشياء قال من مثل الفلك للبيان (المسئلة الثالثة) الضمير فى مثله على قول الاكثرين عائد الى الفلك فيكون هذا كقوله تعالى وآخر من شكله أزواج وعلى هذا فالاظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود فى زمانهم ويؤيد هذا هو أنه تعالى قال وان نشأ نغرقهم ولو كان المراد الابل على ماقاله بعض المفسرين لكان قوله وخلقنا لهم من مثله مايركبون فاصلا بين متصلين ويحتمل أن يقال الضمير عائد الى معلوم غير مذكور تقديره أن يقال وخلقنا لهم من مثل ماذكرنا من المخلوقات فى قوله خلق الازواج كلها مما تنبت الارض وهذا كما قالوا فى قوله تعالى ليأكلوا من ثمره ان الهاء عائد الى ماذكرنا أى من ثمر ماذكرنا وعلى هذا فقوله خلقنا لهم فيه لطيفة وهى ان مامن أحد الا وله ركوب مركوب من الدواب وليس كل أحد يركب الفلك فقال فى الفلك حملنا ذريتهم وان كنا ماحملناهم وأما الخلق فلهم عام ومايركبون فيه وجهان (أحدهما) هو الفلك الذى مثل فلك نوح (وثانيهما) هو الابل التى هى سفن البر فان قيل اذا كان المراد سفينة نوح فما وجه مناسبة الكلام نقول ذكرهم بحال قوم نوح وان المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم ان آمنوا يفوزوا وان كذبوا يهلكوا ۞ ثم قال تعالى (وان نشأ نغرقهم) اشارة الى فائدتين (احداهما) ان فى حال النعمة ينبغى أن لا يأمنوا عذاب الله (وثانيتهما) هو أن ذلك جواب سؤال مقدر وهو ان الطبيعى يقول السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لا يرسب فقال ليس كذلك بل لو شاء الله أغرقهم وليس ذلك بمقتضى الطبع ولو صح كلامه الفاسد لكان لقائل أن يقول ألست توافق ان من السفن ماينقلب وينكسر ومنها ماينقبه ثاقب فيرسب وكل ذلك بمشيئة الله فان شاء الله اغراقهم أغرقهم من غير شئ من هذه الاسباب كما هو مذهب أهل السنة أو بشئ من تلك الاسباب كما تسلم أنت ۞ وقوله تعالى (فلا صريخ لهم) أى لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق (ولاهم ينقذون) اذا أدركهم الغرق وذلك لان الخلاص من العذاب اما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال لا صريخ لهم يدفع ولاهم ينقذون بعد الوقوع فيه وهذا مثل قوله تعالى لا تغن عنى شفاعتهم شيأ ولا ينقذون فقوله لا صريخ لهم ولاهم ينقذون فيه فائدة أخرى غير الحصر وهى أنه تعالى قال لا صريخ لهم ولم يقل ولا منقذ لهم وذلك لان من لا يكون من شأنه أن ينصر لا يشرع فى النصرة مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه وانما ينصر ويغيث من يكون من شأنه ان يغيث فقال لا صريخ لهم وأما من لا يكون من شأنه ان ينقذ اذا رأى من يعز عليه فى ضر

والجمع باعتبار معناه كما أن الافراد فى الافعال الثلاثة باعتبار لفظه أى أولئك الموصوفون بالتوبة والايمان والعمل الصالح (يبدل الله سيآتهم حسنات) بان يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم أو يبدل ملكة المعصية ودواعيها فى النفس ملكة الطاعة بان يزيل الاولى ويأتى بالثانية وقيل بان يوفقه لاضداد ماسلف منه أو بان يثبت له بدل كل عقاب ثوابا وقيل يبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا (وكان الله غفورا رحيما) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله من المحو والاثبات (ومن تاب) أى عن المعاصى بتركها بالكلية والندم عليها (وعمل صالحا) يتلافى به مافرط منه أو خرج عن المعاصى ودخل فى الطاعات (فانه) بما فعل (يتوب الى الله) أى يرجع اليه تعالى (متابا) أى متابا عظيم الشأن مرضيا عنده تعالى ماحيا للعقاب محصلا للثواب أو يتوب متابا الى الله تعالى الذى يحب التوابين ويحسن اليهم أو فانه يرجع اليه تعالى أو الى ثوابه مرجعا حسنا وهذا تعميم بعد تخصيص (والذين لا يشهدون الزور) لا يقيمون الشهادة الكاذبة أو لا يحضرون محاضر الكذب فان مشاهدة الباطل مشاركة فيه (واذا مروا) على طريق الاتفاق (باللغو) أى مايجب أن يلغى ويطرح مما لاخير فيه (مروا كراما) معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم) المنطوية

يشرع فى الانقاذ وان لم يثق بنفسه فى الانقاذ ولا يغلب على ظنه وانما يبذل المجهود فقال ولا هم ينقذون ولم يقل ولا منقذ لهم ثم استثنى فقال ﴿الا رحمة منا ومتاعا الى حين﴾ وهو يفيد أمرين (أحدهما) انقسام الانقاذ الى قسمين الرحمة والمتاع أى فمن علم الله منه انه يؤمن فينقذه الله رحمة وفيمن علم انه لا يؤمن فليتمتع زمانا ويزداد اثما (وثانيهما) انه بيان لكون الانقاذ غير مفيد للدوام بل الزوال فى الدنيا لابد منه فينقذه الله رحمة ويمتعه الى حين ثم يميته فالزوال لازم ان يقع ۞ ثم قال تعالى ﴿واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما عدد الآيات بقوله وآية لهم الارض وآية لهم الليل وآية لهم انا حملنا ذريتهم وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفدهم اليقين قال فلا أقل من أن يحترزوا عن العذاب فان من أخبر بوقوع عذاب يتقيه وان لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطا فقال تعالى اذا ذكرلهم الدليل القاطع لا يعترفون به واذا قيل لهم اتقوا لا يتقون فهم فى غاية الجهل ونهاية الغفلة لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان ولا مثل العامة الذين يبنون الامر على الاحوط ويدل على ما ذكرنا قوله تعالى لعلكم ترحمون بحرف التمنى أى فى ظنكم فان من يخفى عليه وجه البرهان لا يترك طريقة الاحتراز والاحتياط وجواب قوله اذا قيل لهم اتقوا محذوف معناه واذا قيل لهم ذلك لا يتقون أو يعرضون وانما حذف لدلالة ما بعده عليه وهو قوله تعالى وما تأتيهم من آية من آيات ربهم وفى قوله تعالى ما بين أيديكم وما خلفكم وجوه (أحدها) ما بين أيديكم الآخرة فانهم مستقبلون لها وما خلفكم الدنيا فانهم تاركون لها (وثانيها) ما بين أيديكم من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون وما خلفكم من الموت الطالب لكم ان نجوتم من هذه الاشياء فلا نجاة لكم منه يدل عليه قوله تعالى ومتاعا الى حين (وثالثها) ما بين أيديكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم فانه حاضر عندكم وما خلفكم من أمر الحشر فانكم اذا اتقيتم تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالحشر رحمكم الله وقوله تعالى لعلكم ترحمون مع أن الرحمة واجبة فيه وجوه ذكرناها مرارا ونزيد ههنا وجها آخر وهو أنه تعالى لما قال اتقوا بمعنى أنكم ان لم تقطعوا بناء على البراهين فاتقوا احتياطا قال لعلكم ترحمون يعنى أرباب اليقين يرحمون جزما وأرباب الاحتياط يرجى أن يرحموا والحق ما ذكرنا من وجهين (أحدهما) اتقوا راجين الرحمة فان الله لا يجب عليه شئ (وثانيهما) هو ان الاتقاء نظرا اليه أمر يفيد الظن بالرحمة فان كان يقطع به أحد لامر من خارج فذلك لا يمنع الرجاء فان الملك اذا كان فى قلبه أن يعطى من يخدمه أكثر من أجرته أضعافا مضاعفة لكن الخدمة لا تقتضى ذلك يصح منه أن يقول افعل كذا ولا يبعد أن يصل اليك أجرتك أكثر مما تستحق ۞ ثم قال تعالى ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين﴾ وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين يعنى اذا جاءتهم الرسل كذبوهم فاذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا اليها وقوله ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون الى قوله لعلكم ترحمون كلام بين كلامين متصلين ويحتمل أن يقال هو متصل بما قبله من الآية وبيانه هو أنه تعالى لما قال واذا قيل لهم اتقوا وكان فيه تقدير أعرضوا قال ليس اعراضهم مقتصرا على ذلك بل هم عن كل آية معرضون أو يقال اذا قيل لهم اتقوا اقترحوا آيات مثل انزال الملك وغيره فقال وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين وعلى هذا كانوا فى المعنى يكون زائدا معناه الا يعرضون عنها أى لا تنفعهم الآيات ومن كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل ۞ وقوله تعالى ﴿واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ اشارة الى أنهم يخلون بجميع ما على المكلف وذلك لان المكلف عليه التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم اتقوا فلم يتقوا وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم أنفقوا فلم ينفقوا (وفيه لطائف الاولى) خوطبوا بأدنى الدرجات فى التعظيم والشفقة فلم يأتوا بشئ منه وعباد الله المخلصون خوطبوا بالادنى فأتوا بالاعلى انما قلنا ذلك لانهم فى التقوى أمروا بان يتقوا ما بين أيديهم من العذاب أو الآخرة وما خلفهم من الموت أو العذاب وهو أدنى ما يكون من الاتقاء وأما الخاص فيتقى تغيير قلب الملك عليه وان لم يعاقبه ومتقى العذاب لا يكون الا لبعيد

على المواعظ والاحكام (لم يخروا عليها صما وعميانا) أى أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مجتلين لها بعيون راعية وانما عبر عن ذلك بنفى الضد تعريضا بما يفعله الكفرة والمنافقون وقيل الضمير للمعاصى المدلول عليها باللغو (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) بتوفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل فان المؤمن اذا ساعده أهله فى طاعة الله عز وجل وشاركوه فيها يسر بهم قلبه وتقر بهم عينه لما يشاهده من مشايعتهم له فى مناهج الدين وتوقع لحوقهم به فى الجنة حسبما وعد بقوله تعالى ألحقنا بهم ذريتهم ومن ابتدائية أو بيانية وقرئ وذريتنا وتنكير الاعين لارادة تنكير القرة تعظيما وتقليلها لان المراد أعين المتقين وهى قليلة بالنظر الى غيرها (واجعلنا للمتقين اماما) أى اجعلنا بحيث يقتدون بنا فى اقامة مراسم الدين بافاضة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده للدلالة على الجنس وعدم الالتباس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا أو لان المراد واجعل كل واحد منا اماما أو لانهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم كذا قالوا وأنت خبير بأن مدار الكل صدور هذا الدعاء اما عن الكل بطريق المعية وانه محال لاستحالة اجتماعهم فى عصر واحد فما ظنك باجتماعهم فى مجلس واحد واتفاقهم على كلمة واحدة واما عن كل واحد منهم بطريق تشريك غيره فى استدعاء الامامة وانه ليس بثابت جزما بل الظاهر صدوره عنهم بطريق الانفراد وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء واجعلنى للمتقين اماما خلا انه حكيت

فهم لم يتقوا معصية الله ولم يتقوا عذاب الله والمخلصون اتقوا الله واجتنبوا مخالفته سواء كان يعاقبهم عليه أولا يعاقبهم وأما فى الشفقة فقيل لهم انفقوا مما أى بعض ما هو لله فى أيديكم فلم ينفقوا والمخلصون آثروا على أنفسهم وبذلوا كل ما فى أيديهم بل أنفسهم صرفوها الى نفع عباد الله ودفع الضرر عنهم (الثانية) كما ان فى جانب التعظيم ما كان فائدة التعظيم راجعة الا اليهم فان الله مستغن عن تعظيمهم كذلك فى جانب الشفقة ما كان فائدة الشفقة راجعة الا اليهم فان من لا يرزقه المتمول لا يموت الا بأجله ولا بد من وصول رزقه اليه لكن السعيد من قدر الله ايصال الرزق على يده الى غيره (الثالثة) قوله مما رزقكم اشارة الى أمرين (أحدهما) ان البخل به فى غاية القبح فان أبخل البخلاء من يبخل بمال الغير (وثانيهما) أنه لا ينبغى أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فان الله رزقكم فاذا أنفقتم فهو يخلفه لكم ثانيا كما رزقكم أولا ۞ وفيه مسائل أيضا (المسئلة الاولى) عند قوله تعالى واذا قيل لهم أنفقوا حذف الجواب وههنا أجاب وأتى بأكثر من الجواب وذلك لانه تعالى لو قال واذا قيل لهم أنفقوا قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه لكان كافيا فما الفائدة فى قوله تعالى قال الذين كفروا للذين آمنوا نقول الكفار كانوا يقولون بان الاطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به وانما أرادوا بذلك القول ردا على المؤمنين فقالوا نحن نطعم الضيوف معتقدين بان أفعالنا ثناء ولولا اطعامنا لما اندفع حاجة الضيف وأنتم تقولون ان الهكم يرزق من يشاء فلم تقولون لنا أنفقوا فلما كان غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الاطعام قال تعالى عنهم قال الذين كفروا للذين آمنوا اشارة الى الرد وأما فى قولهم اتقوا ما بين أيديكم فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا وأعرض الله عن ذكر اعراضهم لحصول العلم به (المسئلة الثانية) ما الفائدة فى تغيير اللفظ فى جوابهم حيث لم يقولوا انفق على من لو يشاء الله رزقه وذلك لانهم أمروا بالانفاق فى قوله واذا قيل لهم أنفقوا فكان جوابهم بان يقولوا أننفق فلم قالوا أنطعم نقول فيه بيان غاية مخالفتهم وذلك لانهم اذا أمروا بالانفاق والانفاق يدخل فيه الاطعام وغيره لم يأتوا بالانفاق ولا بأقل منه وهو الاطعام وقالوا لا نطعم وهذا كما يقول القائل لغيره أعط زيدا دينارا يقول لا أعطيه درهما مع أن المطابق هو ان يقول لا أعطيه دينارا ولكن المبالغة فى هذا الوجه أتم فكذلك ههنا (المسئلة الثالثة) كان كلامهم حقا فان الله لو شاء أطعمه فلماذا ذكره فى معرض الذم نقول لان مرادهم كان الانكار لقدرة الله أو لعدم جواز الامر بالانفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد بين الله ذلك فى قوله مما رزقكم فانه يدل على قدرته ويصحح أمره بالاعطاء لان من كان له فى يد الغير مال وله فى خزائنه مال فهو مخير ان أراد أعطى مما فى خزائنه وان أراد أمر من عنده المال بالاعطاء ولا يجوز ان يقول من بيده ماله فى خزائنك أكثر مما فى يدى أعطه منه وقوله ان أنتم الا فى ضلال مبين اشارة الى اعتقادهم انهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وان أمرهم بالانفاق مع قولهم بقدرة الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفاسد وفيه مباحث لغوية ومعنوية (أما اللغوية) فنقول ان وردت للنفى بمعنى ما وكان الاصل فى ان أن تكون للشرط والاصل فى ما ان تكون للنفى لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتقارضا واستعمل ما فى الشرط واستعمل ان فى النفى أما الوجه المشترك فهو ان كل واحد منهما حرف مركب من حرفين متقاربين فان الهمزة تقرب من الالف والميم من النون ولا بد من أن يكون المعنى الذى يدخل عليه ما وان لا يكون ثابتا أما فى ما فظاهر وأما فى ان فلانك اذا قلت ان جاءنى زيد أكرمه ينبغى أن لا يكون له فى الحال مجىء فاستعمل ان مكان ما وقيل ان زيد قائم أى ما زيد بقائم واستعمل ما فى الشرط تقول ما تصنع اصنع والذى يدل على ما ذكرنا ان ما النافية تستعمل حيث لا تستعمل ان وذلك لانك تقول ما ان جلس زيد فتجعل ان صلة ولا تقول ان جلس زيد بمعنى النفى وبمعنى الشرط تقول اما ترين فتجعل ان أصلا وما صلة فدلنا هذا على ان ان فى الشرط أصل وما دخيل وما فى النفى بالعكس (البحث الثانى) قد ذكرنا ان قوله ان أنتم الا يفيد ما لا يفيد قوله أنتم فى ضلال لانه يوجب الحصر وانهم ليسوا فى غير الضلال (البحث الثالث) وصف الضلال بالمبين قد ذكرنا معناه انه لظهوره يبين نفسه انه ضلال أى فى ضلال لا يخفى على أحد انه ضلال (البحث الرابع) قد ذكرنا ان قوله فى ضلال يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين وقوله فى مواضع على بينة وعلى هدى اشارة الى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه (وأما

عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير للقصد الى الايجاز على طريقة قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وأبقى اماما على حاله وقيل الامام جمع آم بمعنى قاصد كصيام جمع صائم ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم واعادة الموصول فى المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الاول للايذان بأن كل واحد مما ذكر فى حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شأن خطير حقيق بان يفرد له موصوف مستقل ولا يجعل شئ من ذلك تتمة لغيره وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى كما فى قوله

الى الملك القرم وابن الهمام
وليث الكتائب فى المزدحم

(أولئك) اشارة الى المتصفين بما فصل فى حيز صلة الموصولات الثمانية من حيث اتصافهم به وفيه دلالة على انهم متميزون بذلك أكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة وفيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (يجزون الغرفة) والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبينة لما لهم فى الآخرة من السعادة الابدية اثر بيان ما لهم فى الدنيا من الاعمال السنية والغرفة الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال أى يثابون أعلى منازل الجنة وهى اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى وهم فى الغرفات آمنون وقيل هى اسم من أسماء الجنة (بما صبروا) أى بصبرهم على المشاق من مضض الطاعات ورفض

المعنوية)

المعنوية) فهى انهم انما وصفوا الذين آمنوا بكونهم فى ضلال مبين لكونهم ظانين ان المؤمن كلامه متناقض ومن تناقض كلامه يكون فى غاية الضلال انما قلنا ذلك لانهم قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه اشارة الى ان الله ان شاء أن يطعمهم كان يطعمهم فلا نقدر على اطعامهم لانه يكون تحصيلا للحاصل وان لم يشأ اطعامهم لا يقدر أحد على اطعامهم لامتناع وقوع مالم يشأ الله فلا قدرة لنا على الاطعام فكيف تأمروننا بالاطعام (ووجه آخر) وهو انهم قالوا أراد الله تجويعهم فلو أطعمناهم يكون ذلك سعيا فى ابطال فعل الله وانه لا يجوز وأنتم تقولون اطعموهم فهو ضلال ولم يكن فى الضلال الا هم حيث نظروا الى المراد ولم ينظروا الى الطلب والامر وذلك لان العبد اذا أمره السيد بامر لا ينبغى ان يكشف سبب الامر والاطلاع على المقصود الذى أمر به لاجله مثاله الملك اذا أراد الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال لعبده أحضر المركوب فلو تطلع واستكشف المقصود الذى لاجله الركوب لنسب الى أنه يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره فالادب فى الطاعة وهو اتباع الامر لا تتبع المراد فالله تعالى اذ قال أنفقوا مما رزقكم لا يجوز ان يقولوا لم يطعمهم الله مما فى خزائنه ۞ ثم قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) وهو اشارة الى ما اعتقدوه وهو ان التقوى المامور بها فى قوله واذا قيل لهم اتقوا والانفاق المذكور فى قوله تعالى واذا قيل لهم أنفقوا لا فائدة فيه لان الوعد لا حقيقة له وقوله متى هذا الوعد أى متى يقع الموعود به وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وهى ان ان للشرط وهى تستدعى جزاء ومتى استفهام لا يصلح جزاء فما الجواب نقول هى فى الصورة استفهام وفى المعنى انكار كأنهم قالوا ان كنتم صادقين فى وقوع الحشر فقولوا متى يكون (المسئلة الثانية) الخطاب مع من فى قولهم ان كنتم نقول الظاهر أنه مع الانبياء لانهم لما أنكروا الرسالة قالوا ان كنتم يا أيها المدعون للرسالة صادقين فاخبرونا متى يكون (المسئلة الثالثة) ليس فى هذا الموضع وعد فالاشارة بقوله هذا الوعد الى أى وعد نقول هو ما فى قوله تعالى واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم من قيام الساعة أو نقول هو معلوم وان لم يكن مذكورا لكون الانبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب ۞ ثم قال تعالى (ما ينظرون الا صيحة واحدة) أى لا ينتظرون الا الصيحة المعلومة والتنكير للتكثير فان قيل هم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها فنقول الانتظار فعلى لانهم كانوا يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وقدرته وعلمه فانهم لا يقولون أو نقول لما لم يكن قوله متى استفهاما حقيقيا قال ينتظرون انتظارا غير حقيقى لان القائل متى يفهم منه الانتظار نظرا الى قوله * وقد ذكروا ههنا فى الصيحة أمورا تدل على هولها وعظمها (أحدها) التنكير يقال لفلان مال أى كثير وله قلب أى جرىء (وثانيها) واحدة أى لا يحتاج معها الى ثانية (وثالثها) تأخذهم أى تعمهم بالاخذ وتصل الى من فى مشارق الارض ومغاربها ولا شك ان مثلها لا يكون الا عظيما ۞ وقوله (تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون) مما يعظم به الامر لان الصيحة المعتادة اذا وردت على غافل يرجف فان المقبل على مهم اذا صاح به صائح يرجف فؤاده بخلاف المنتظر للصيحة فاذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذى هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والايجاف أعظم ويحتمل أن يقال يخصمون فى البعث ويقولون لا يكون ذلك أصلا فيكونون غافلين عنه بخلاف من يعتقد انه يكون فيتهيأ له وينتظر وقوعه فانه لا يرتجف وهذا هو المراد بقوله تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء ممن اعتقد وقوعها فاستعد لها وقد مثلنا ذلك فيمن شام برقا وعلم ان سيكون رعد ومن لم يشمه ولم يعلم ثم رعد الرعد ترى الشائم العالم ثابتا والغافل الذاهل مغشيا عليه ثم بين شدة الاخذ وهى بحيث لا تمهلهم الى ان يوصوا * وفيه أمور مبينة للشدة (أحدها) عدم الاستطاعة فان قول القائل فلان فى هذه الحال لا يوصى دون قوله لا يستطيع التوصية لان من لا يوصى قد يستطيعها (الثانى) التوصية وهى بالقول والقول يوجد أسرع مما يوجد الفعل فقال لا يستطيعون كلمة فكيف فعلا يحتاج الى زمان طويل من أداء الواجبات ورد المظالم (الثالث) اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لا قدرة له على أهم الكلمات فان وقت الموت الحاجة الى

الشهوات وتحمل المجاهدات (ويلقون فيها) من جهة الملائكة (تحية وسلاما) أى يحييهم الملائكة ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات أو يعطون التبقية والتخليد مع السلامة من كل آفة وقيل يحيى بعضهم بعضا ويسلم عليه وقرئ يلقون من لقى (خالدين فيها) لا يموتون ولا يخرجون (حسنت مستقرا ومقاما) الكلام فيه كالذى مر فى مقابله (قل) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون انما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلا أى قل لهم كافة مشافها لهم بما صدر عن جنسهم من خير وشر (ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) أى أى عبء يعبأ بكم وأى اعتداد يعتد بكم لولا عبادتكم له تعالى حسبما مر تفصيله فان ما خلق له الانسان معرفته تعالى وطاعته والا فهو وسائر البهائم سواء وقال الزجاج معناه أى وزن يكون لكم عنده وقيل معناه ما يصنع بكم ربى لولا دعاؤه اياكم الى الاسلام وقيل ما يصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ويجوز أن تكون ما نافية وقوله تعالى (فقد كذبتم) بيان لحال الكفرة من المخاطبين كما أن ما قبله بيان لحال المؤمنين منهم أى فقد كذبتم بما أخبرتكم به وخالفتموه أيها الكفرة ولم تعملوا عمل أولئك المذكورين وقيل فقد قصرتم فى العبادة من قولهم كذب القتال اذا لم يبالغ فيه وقرئ فقد كذب الكافرون أى الكافرون منكم لعموم الخطاب الفريقين وفائدته الايذان بان مناط فوز أحدهما وخسران الآخر مع الاتحاد

التوصيه أمس (الرابع) التنكير فى التوصيه للتعميم أى لا يقدر على توصيه ما ولو كانت بكلمة يسيرة ولان التوصيه قد تحصل بالاشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها (الخامس) قوله ولا الى أهلهم يرجعون بيان لشدة الحاجة الى التوصيه لان من يرجو الوصول الى أهله قد يمسك عن الوصيه لعدم الحاجة اليها وأما من يقطع بانه لا وصول له الى أهله فلا بد له من التوصيه فاذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة * وفى قوله ولا الى أهلهم يرجعون وجهان (أحدهما) ماذكرنا انهم يقطعون بانهم لا يمهلون الى أن يجتمعوا بأهاليهم وذلك يوجب الحاجة الى التوصيه (وثانيهما) انهم الى أهلهم لا يرجعون يعنى يموتون ولا رجوع لهم الى الدنيا ومن يسافر سفرا ويعلم أنه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتى بالوصيه ۞ ثم بين ما بعد الصيحة الاولى فقال ﴿ونفخ فى الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون﴾ أى نفخ فيه أخرى كما قال تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى فى موضع آخر ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وقال ههنا فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون والقيام غير النسلان وفى قوله فى الموضعين اذا هم يقتضى أن يكونا معا نقول (الجواب) عنه من وجهين (أحدهما) أن القيام لا ينافى المشى السريع لان الماشى قائم ولا ينافى النظر (وثانيهما) أن لسرعة الامور كان الكل فى زمان واحد كقول القائل * مكر مفر مقبل مدبر معا * (المسئلة الثانيه) كيف صارت النفختان مؤثرتين فى أمرين متضادين الاحياء والاماته نقول لا مؤثر غير الله والنفخ علامة ثم ان الصوت الهائل يزلزل الاجسام فعند الحياة كانت اجزاء الحى مجتمعة فزلزالها تحصل فيها تفريق وحالة الموت كانت الاجزاء متفرقه فزلزالها تحصل فيها اجتماع فالحاصل ان النفختين يؤثران زلزالا وانتقالا للاجرام فعند الاجتماع تتفرق وعند الافتراق تجتمع (المسئلة الثالثه) ما التحقيق فى اذا التى للمفاجأة نقول هى اذا التى للظرف معناه نفخ فى الصور فاذا نفخ فيه هم ينسلون لكن الشئ قد يكون ظرفا للشئ معلوما كونه ظرفا فعند الكلام يعلم كونه ظرفا وعند المشاهدة لا يتجدد علم كقول القائل اذا طلعت الشمس أضاء الجو وغير ذلك فاذا رأى اضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد وأما اذا قلت خرجت فاذا أسد بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الاسد بالباب لكنه لم يكن معلوما فاذا رآه علمه تحصل العلم بكونه ظرفا له مفاجأة عند الاحساس فقيل اذا للمفاجأة (المسئلة الرابعه) أين يكون فى ذلك الوقت اجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال نقول يجمع الله أجزاء كل واحد فى الموضع الذى قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه (المسئلة الخامسة) الموضع موضع ذكر الهيبة وتقدم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على الرحمة فلو قال بدل الرب المضاف اليهم لفظا دالا على الهيبة هل يكون أليق أم لا (قلنا) هذا اللفظ أحسن ما يكون لان من أساء واضطر الى التوجه الى من أحسن اليه يكون ذلك أشد ألما وأكثر ندما من غيره (المسئلة السادسة) المسىء اذا توجه الى المحسن يقدم رجلا ويؤخر أخرى والنسلان هو سرعة المشى فكيف يوجد منهم ذلك نقول ينسلون من غير اختيارهم وقد ذكرنا فى تفسير قوله فاذا هم ينظرون انه أراد أن يبين كمال قدرته ونفوذ ارادته حيث ينفخ فى الصور فيكون فى وقته جمع وتركيب واحياء وقيام وعدو فى زمان واحد فقوله فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون يعنى فى زمان واحد ينتهون الى هذه الدرجة وهى النسلان الذى لا يكون الا بعد مراتب ۞ ثم قال تعالى ﴿قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ يعنى لما بعثوا قالوا ذلك لان قوله ونفخ فى الصور يدل على انهم بعثوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لو قال قائل لو قال الله تعالى فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون يقولون ياويلنا كان أليق نقول معاذ الله وذلك لان قوله فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون على ماذكرنا اشارة الى أنه تعالى فى أسرع زمان يجمع أجزاءهم ويؤلفها ويحييها ويحركها بحيث يقع نسلانهم فى وقت النفخ مع ان ذلك لا بد له من الجمع والتأليف فلو قال يقولون لكان ذلك مثل الحال لينسلون أى ينسلون قائلين ياويلنا وليس كذلك فان قولهم ياويلنا قبل أن ينسلوا وانما ذكر النسلان لما ذكرنا من الفوائد (المسئلة الثانيه) لو قال قائل قد عرفنا معنى النداء فى مثل ياحسرة وياحسرتا وياويلنا ولكن ما الفرق بين قولهم وقول الله حيث قال ياحسرة على العباد من غير اضافه وقالوا ياحسرتا وياحسرتنا

الجنسى المصحح للاشتراك فى الفوز ليس الاختلاف فهما فى الاعمال (فسوف يكون لزاما) أى يكون جزاء التكذيب أو أثره لازما يحيق بكم لا محالة حتى يكبكم فى النار كما تعرب عنه الفاء الدالة على لزوم ما بعدها لما قبلها وانما أضمر من غير ذكر للايذان بغاية ظهوره وتهويل أمره وللتنبيه على أنه مما لا يكتنهه البيان وقيل يكون العذاب لزاما وعن مجاهد رحمه الله هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى وقرئ لزاما بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفرقان لقى الله تعالى وهو مؤمن بان الساعة آتية لا ريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب

*(سورة الشعراء مكية الا قوله والشعراء الى آخرها وهى مائتان وست أو سبع وعشرون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم) بتفخيم الالف وبامالتها واظهار النون وبادغامها فى الميم وهو اما مسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلا محل له من الاعراب واما اسم للسورة كما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف وهو أظهر من الرفع على الابتداء وقد مر وجهه فى مطلع سورة يونس عليه السلام أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر أو اقرأ وتلك فى قوله تعالى (تلك آيات الكتاب المبين) اشارة الى السورة سواء كان طسم مسرودا على نمط التعديد أو اسما للسورة حسبما مر تحقيقه هناك وما فى اسم الاشارة من معنى

وياو يلنا نقول حيث كان القائل هو المكلف لم يكن لاحد علم الا بحاله أو بحال من قرب منه فكان كل واحد مشغولا بنفسه فكان كل واحد يقول ياحسرتناويا و يلنا فقوله قالوا ياو يلنا أى كل واحد قال ياو يلى وأما حيث قال الله قال على سبيل العموم لشمول علمه بحالهم (المسئلة الثالثة) ماوجه تعلق من بعثنا من مرقدنا بقولهم ياو يلنا نقول لما بعثوا تذكروا ما كانوا يسمعون من الرسل فقالوا ياو يلنا من بعثنا أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياما فنبهنا وهذا كما كان انسان موعودا بان يأتيه عدو لا يطيقه ثم يرى رجلا هائلا يقبل عليه فيرتجف فى نفسه و يقول هذا ذلك أم لا ويدل على ماذكرنا قولهم من مرقدنا حيث جعلوا القبور موضع الرقاد اشارة الى انهم شكوا فى انهم كانوا نياما فنبهوا أو كانوا موتى وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الامرين فقالوا من بعثنا اشارة الى ظنهم أنه بعثهم الموعود به وقالوا من مرقدنا اشارة الى توهمهم احتمال الانتباه (المسئلة الرابعة) هذا اشارة الى ماذا نقول فيه وجهان (أحدهما) انه اشارة الى المرقد كانهم قالوا من بعثنا من مرقدنا هذا فيكون صفة للمرقد يقال كلامى هذا صدق (وثانيهما) هذا اشارة الى البعث أى هذا البعث ماوعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون (المسئلة الخامسة) لذا كان هذا صفة للمرقد فكيف يصح قوله تعالى ماوعد الرحمن وصدق المرسلون نقول يكون ماوعد الرحمن مبتدأ خبره محذوف تقديره ماوعد الرحمن حق والمرسلون صدقوا أو يقال ماوعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون حق والاول أظهر لقلة الاضمار أو يقال ماوعد الرحمن خبر مبتدا محذوف تقديره هو ماوعد الرحمن من البعث ليس تنبيها من النوم وصدق المرسلون فيما أخبروكم به (المسئلة السادسة) ان قلنا هذا اشارة الى المرقد أو الى البعث فجواب الاستفهام بقولهم من بعثنا أين يكون نقول لما كان غرضهم من قولهم من بعثنا حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه حصل الجواب بقوله هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيها كما أن الخائف اذا قال لغيره ماذا تقول أيقتلنى فلان فله أن يقول لا تخف و يسكت لعلمه ان غرضه ازالة الرعب عنه وبه يحصل الجواب ۞ ثم قال تعالى ﴿ان كانت الاصيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون﴾ أى ما كانت النفخة الاصيحة واحدة يدل على النفخة قوله تعالى ونفخ فى الصور و يحتمل أن يقال ان كانت الواقعة وقرئت الصيحة مرفوعة على ان كان هى التامة بمعنى ماوقعت الاصيحة وقال الزمخشرى لو كان كذلك لكان الاحسن أن يقال ان كان لان المعنى حينئذ ماوقع شئ الاصيحة لكن التأنيث جائز احالة على الظاهر و يمكن أن يقول الذى قرأ بالرفع ان قوله اذا وقعت الواقعة تأنيث تهويل ومبالغة يدل عليه قوله ليس لوقعتها كاذبة فانها للمبالغة فكذلك ههنا قال ان كانت الاصيحة مؤنثة تأنيث تهويل ولهذا جاءت أسماء يوم الحشر كلها مؤنثة كالقيامة والقارعة والحاقة والطامة والصاخة الى غيرها والزمخشرى يقول كاذبة بمعنى ليس لوقعتها نفس كاذبة وتأنيث أسماء الحشر لكون الحشر مسمى بالقيامة وقوله محضرون دل على أن كونهم ينسلون اجبارى لا اختيارى ۞ ثم بين مايكون فى ذلك اليوم بقوله تعالى ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيأ ولا تجزون الا ما كنتم تعملون﴾ فقوله لا تظلم نفس ليأمن المؤمن ولا تجزون الا ما كنتم تعملون ليبأس المجرم الكافر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى الخطاب عند الاشارة الى يأس المجرم بقوله ولا تجزون وترك الخطاب فى الاشارة الى أمان المؤمن من العذاب بقوله لا تظلم ولم يقل ولا تظلمون أيها المؤمنون نقول لان قوله لا تظلم نفس شيأ يفيد العموم وهو كذلك فانها لا تظلم أبدا ولا تجزون مختص بالكافر فان الله يجزى المؤمن وان لم يفعل فان لله فضلا مختصا بالمؤمن وعدلا عاما وفيه بشارة (المسئلة الثانية) ما المقتضى لذكر فاء التعقيب نقول لما قال محضرون مجموعون والجمع للفصل والحساب فكانه تعالى قال اذا جمعوا لم يجمعوا الا للفصل بالعدل فلا ظلم عند الجمع للعدل فصار عدم الظلم مترتبا على الاحضار للعدل ولهذا يقول القائل للوالى أو القاضى جلست للعدل فلا تظلم أى ذلك يقتضى هذا و يستعقبه (المسئلة الثالثة) لا يجزون عين ما كانوا يعملون بل يجزون بما كانوا أو على ما كانوا وقوله ولا تجزون الا ما كنتم تعملون يدل على أن الجزاء بعين العمل لا يقال جزى يتعدى بنفسه و بالباء يقال جزيته خيرا وجزيته بخير لان ذلك ليس من هذا لانك اذا قلت جزيته بخير لا يكون الخير مفعولك بل تكون الباء للمقابلة والسببية كانك تقول جزيته جزاء بسبب ما فعل فنقول

البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار اليه فى الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره ما بعده وعلى تقدير كون طسم مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الاول والمراد بالكتاب القرآن و بالمبين الظاهر اعجازه على أنه من ابان بمعنى بان أو المبين للاحكام الشرعية وما يتعلق بها أو الفاصل بين الحق والباطل والمعنى هى آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمراد ببيان كونها بعضا منه وصفها بما اشتهر به الكل من النعوت الفاضلة (لعلك باخع نفسك) أى قاتل وأصل البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح وقرئ باخع نفسك على الاضافة ولعل للاشفاق أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على ما فاتك من اسلام قومك (أن لا يكونوا مؤمنين) أى لعدم ايمانهم بذلك الكتاب المبين أو خيفة أن لا يؤمنوا به وقوله تعالى (ان نشأ) الخ استئناف مسوق لتعليل ما يفهم من الكلام من النهى عن التحسر المذكور ببيان أن ايمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتما فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أعنى قوله تعالى (ننزل عليهم من السماء آية) أى ملجئة لهم الى الايمان قاسرة عليه وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر (فظلت أعناقهم لها خاضعين) أى منقادين وأصله فظلوا لها خاضعين فاقحمت الاعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله وقيل لما وصفت الاعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم

الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك اشارة على وجه المبالغة الى عدم الزيادة وذلك لان الشئ لا يزيد على عينه فنقول قوله تعالى يجزون بما كانوا يعملون فى المساواة كانه عين ما عملوا يقال فلان يحاوبنى حرفا بحرف أى لا يترك شيأ وهذا يوجب اليأس العظيم (الثانى) هو ان ما غير راجع الى الخصوص وانما هى للجنس تقديره ولا تجزون الا جنس العمل أى ان كان حسنة فحسنة وان كانت سيئة فسيئة فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة وهذا كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها ۞ ثم بين حال المحسن وقال ﴿ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الارائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾ وقوله فى شغل يحتمل وجوها (أحدها) فى شغل عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب وقوله فاكهون يكون متمما لبيان سلامتهم فالله لو قال فى شغل جاز أن يقال هم فى شغل أعظم من التفكر فى اليوم وأهواله فان من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع فى ماله يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه فقال فاكهون أى شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور (وثانيها) ان يكون ذلك بيانا لحالهم ولا يريد انهم شغلوا عن شئ بل يكون معناه هم فى عمل ثم بين عملهم بانه ليس بشاق بل هو ملذ محبوب (وثالثها) فى شغل عما توقعوه فانهم تصوروا فى الدنيا أمورا وقالوا نحن اذا دخلنا الجنة لا نطلب الا كذا وكذا فرأوا ما لم يخطر ببالهم فاشتغلوا به وفيه وجوه غير هذه ضعيفة (أحدها) قيل افتضاض الابكار وهذا ما ذكرناه فى الوجه الثالث ان الانسان قد يترجح فى نظره الآن مداعبة الكواعب فيقول فى الجنة ألتذ بها ثم ان الله ربما يؤتيه ما يشغله عنها (وثانيها) قيل فى ضرب الاوتار وهو من قبيل ما ذكرناه توهم (وثالثها) فى التزاور (ورابعها) فى ضيافة الله وهو قريب مما قلنا لان ضيافة الله تكون بالذ ما يمكن وحينئذ تشغله تلك عما توهمه فى دنياه وقوله فاكهون خبران وفى شغل بيان ما فيه اشتغالهم فيه يقال زيد على عمله مقبل وفى بيته جالس فلا يكون الجار والمجرور خبرا ولو نصبت جالسا لكان الجار والمجرور خبرا وكذلك لو قال فى شغل فاكهين لكان معناه أصحاب الجنة مشغولون فاكهين على الحال وقرئ بالنصب والفاكهة الملتذ المتنعم به ومنه الفاكهة لانها لا تكون فى السعة الا للذة فلا تؤكل لدفع ألم الجوع وفيه معنى لطيف وهو انه أشار بقوله فى شغل عن عدمهم الالم فلا ألم عندهم ثم بين بقوله فاكهون عن وجدانهم اللذة وعادم الالم قد لا يكون واجد اللذة فبين انهم على أتم حال ثم بين الكمال بقوله هم وأزواجهم وذلك لان من يكون فى لذة قد تتنغص عليه بسبب تفكره فى حال من يهمه أمره فقال هم وأزواجهم أيضا فلا يبقى لهم تعلق قلب وأما من فى النار من أقاربهم واخوانهم فيكونون هم عنهم فى شغل ولا يكون منهم عندهم ألم ولا يشتهون حضورهم والازواج يحتمل وجهين (أحدهما) أشكالهم فى الاحسان وأمثالهم فى الايمان كما قال تعالى من شكله أزواج (وثانيهما) الازواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل كما فى قوله تعالى الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وقوله تعالى ويذرون أزواجا فان المراد ليس هو الاشكال قوله فى ظلال جمع ظل وظلال جمع ظلة والمراد به الوقاية عن مكان الالم فان الجالس تحت كن لا يخشى المطر ولا حر الشمس فيكون به مستعد الدفع الالم فكذلك لهم من ظل الله ما يقيهم الاسواء كما قال تعالى لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب وقال لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا اشارة الى عدم الآلام (وفيه لطيفة) أيضا وهى ان حال المكلف اما ان يكون اختلالها بسبب ما فيه من الشغل وان كان فى مكان عال كالقاعد فى حر الشمس فى البستان المتنزه أو يكون بسبب المكان وان كان الشغل مطلوبا كملاعبة الكواعب فى المكان المكشوف واما ان يكون بسبب المأكل كالمتفرج فى البستان اذا أعوزه الطعام واما بسبب فقد الحبيب والى هذا يشير أهل القلب فى شرائط السماع بقولهم الزمان والمكان والاخوان فقال تعالى فى شغل فاكهون اشارة الى أنهم ليسوا فى تعب وقال هم وأزواجهم اشارة الى عدم الوحدة الموحشة وقال فى ظلال على الارائك متكئون اشارة الى المكان وقال لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون اشارة الى دفع جميع حوائجهم وقوله متكئون اشارة الى أدل وضع على القوة والفراغة فان القائم قد يقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم وأما المتكئ فلا يتكئ الا عند الفراغ والقدرة لان المريض

فى الصيغة أيضا كما فى قوله تعالى رأيتهم لى ساجدين وقيل أريد بها الرؤساء والجماعات من قولهم جاءنا عنق من الناس أى فوج منهم وقرئ خاضعة وقوله تعالى فظلت عطف على ننزل باعتبار محله وقوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين) بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ما ذكر من الآية الملجئة لصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص على اسلامهم وقطع رجائه عنه ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية لابتداء الغاية مجازا متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأيا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وشناعة ما فعلوا به والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم وتهويل جنايتهم فان الاعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الاطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى لمحض منفعتهم أشنع وأقبح أى ما يأتيهم من موعظة من المواعظ القرآنية أو من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم أكمل تذكير وتنبههم عن الغفلة أتم تنبيه كأنها نفس الذكر من جهته تعالى بمقتضى رحمته الواسعة مجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة الا جددوا اعراضا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء واصرارا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال والاستثناء مفرغ من أعم الاحوال محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم باضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور أى ما يأتيهم من ذكر فى حال من الاحوال الا حال كونهم معرضين عنه (فقد كذبوا) أى كذبوا بالذكر

لا يقدر على الاتكاء وانما يكون مضطجعا أو مستلقيا والارائك جمع أريكة وهى السرير الذى عليه الفرش وهو تحت الحجلات فيكون مرئيا هو وما فوقه وقوله لهم فيها فاكهة اشارة الى أن لا جوع هناك وليس الاكل لدفع ألم الجوع وانما أكلهم فاكهة ولو كان لحاطر بالا يقال قوله تعالى ولحم طير مما يشتهون يدل على التغاير وصدق الشهوة وهو الجوع لانا نقول قوله مما يشتهون يؤكد معنى عدم الالم لان أكل الشئ قد يكون للتداوى من غير شهوة فقال مما يشتهون لان لحم الطير فى الدنيا يؤكل فى حالتين (احداهما) حالة التنعم (والثانية) حالة ضعف المعدة وحينئذ لا يأكل لحم طير يشتهيه وانما يأكل ما يوافقه و يأمره به الطبيب وأما انه يدل على التغاير فنقول مسلم ذلك لان الخاص يخالف العام على ان ذلك لا يقدح فى غرضنا لانا نقول انما اختار من أنواع المأكول الفاكهة فى هذا الموضع لانها أدل على التنعم والتلذذ وعدم الجوع والتنكير لبيان الكمال وقد ذكرناه مرارا وقوله لهم فيها فاكهة ولم يقل يأكلون اشارة الى كون زمام الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين وقوله ولهم ما يدعون فيه وجوه (أحدها) لهم فيها ما يدعون لانفسهم أى دعاؤهم مستجاب وحينئذ يكون هذا افتعالا بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحيل وعلى هذا فليس معناه انهم يدعون لانفسهم دعاء فيستجاب دعاؤهم بعد الطلب بل معناه ولهم ما يدعون لانفسهم أى ذلك لهم فلا حاجة لهم الى الدعاء والطلب كما ان الملك اذا طلب منه مملوكه شيأ يقول لك ذلك فيفهم منه تارة ان طلبك مجاب وان هذا أمر هين بان تعطى ما طلبت و يفهم تارة منه الرد وبيان أن ذلك لك حاصل فلم تطلبه فقال تعالى ولهم ما يدعون و يطلبون فلا طلب لهم وتقريره هو أن يكون ما يدعون بمعنى ما يصح أن يطلب ويدعى يعنى كل ما يصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب أو نقول المراد الطلب والاجابة وذلك لان الطلب من الله أيضا فيه لذة فلو قطع الله الاسباب بينهم و بينه لما كان يطيب لهم فابقى أشياء يعطيهم اياها عند الطلب ليكون لهم عند الطلب لذة وعند العطاء فان كون المملوك بحيث يتمكن من أن يخاطب الملك فى حوائجه منصب عظيم والملك الجبار قد يدفع حوائج المماليك باسرها قصد امنه لئلا يخاطب (الثانى) ما يدعون ما يتداعون وحينئذ يكون افتعالا بمعنى التفاعل كالاقتتال بمعنى التقاتل ومعناه ماذكرناه ان كل ما يصح أن يدعو احد صاحبه اليه أو يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم (الثالث) ما يتمنونه (الرابع) بمعنى الدعوى ومعناه حينئذ انهم كانوا يدعون فى الدنيا أن لهم الله وهو مولاهم وان الكافرين لا مولى لهم فقال لهم فى الجنة ما يدعون به فى الدنيا فتكون الحكاية محكية فى الدنيا كانه يقول فى يومنا هذا لكم أيها المؤمنون غدا ما تدعون اليوم لا يقال بان قوله ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال يدل على ان القول يوم القيامة لانا نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان قوله هم مبتدأ وأزواجهم عطف عليهم فيحتمل أن يكون هذا الكلام فى يومنا هذا يخبرنا أن المؤمن وأزواجه فى ظلال غدا وله ما يدعيه (والجواب الثانى) وهو أولى هو أن نقول معناه لهم ما يدعون أى ما كانوا يدعون * لا يقال بانه اضمار حيث لا ضرورة وانه غير جائز لانا نقول على ماذكرنا يبقى الادعاء مستعملا فى معناه المشهور لان الدعاء هو الاتيان بالدعوى وانما قلنا ان هذا أولى لان قوله سلام قولا من رب رحيم هو فى دار الآخرة وهو كالتفسير لقوله ما يدعون ولان قوله ما يدعون مذكور بين جمل كلها فى الآخرة فما يدعون أيضا ينبغى أن يكون فى الآخرة وفى الآخرة لا يبقى دعوى و بينة لظهور الامور والفصل بين أهل الثبور والحبور ۞ وقوله تعالى ﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ هو أكمل الاشياء وهو آخرها الذى لا شئ فوقه ولنبينه فى مسائل (المسئلة الاولى) ما الرافع لقوله سلام نقول يحتمل ذلك وجوها (أحدها) هو بدل مما يدعون كانه تعالى لما قال لهم ما يدعون بينه ببدله فقال لهم سلام فيكون فى المعنى كالمبتدأ الذى خبره جار ومجرور كما يقال فى الدار رجل ولزيد مال وان كان فى النحو ليس كذلك بل هو بدل وبدل النكرة من المعرفة جائز فتكون ما بمعنى الذى معرفة وسلام نكرة ويحتمل على هذا أن يقال ما فى قوله تعالى ما يدعون لا موصوفة ولا موصولة بل هى نكرة تقديره لهم شئ يدعون ثم بين بذكر البدل فقال سلام والاول هو الصحيح (وثانيها) سلام خبر ما ولهم لبيان الجهة تقديره ما يدعون سالم لهم أى خالص والسلام بمعنى السالم الخالص أو السليم يقال عبد سلام أى سليم من العيوب

الذى يأتيهم تكذيبا صريحا مقارنا للاستهزاء به ولم يكتفوا بالاعراض عنه حيث جعلوه تارة سحرا وأخرى أساطير وأخرى شعرا والفاء فى قوله تعالى (فسيأتيهم) لترتيب ما بعدها على ما قبلها والسين لتأكيد مضمون الجملة وتقريره أى فسيأتيهم البتة من غير تخلف أصلا (أنباء ما كانوا به يستهزؤن) عدل عما يقتضيه سائر ما سلف من الاعراض والتكذيب للايذان بانهما كانا مقارنين للاستهزاء كما أشير اليه حسبما وقع فى قوله تعالى وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن وأنباؤه ما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة عبر عنها بذلك اما لكونها مما أنبأ بها القرآن الكريم واما لانهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن كما يقفون على الاحوال الخافية عنهم باستماع الانباء وفيه تهويل له لان النبأ لا يطلق الا على خبر خطير له وقع عظيم أى فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا يستهزؤن به قبل من غير أن يتدبروا فى أحواله ويقفوا عليها (أولم يروا) الهمزة للانكار التوبيخى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أفعلوا ما فعلوا من الاعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا (الى الارض) أى الى عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية الى الاقبال على ما أعرضوا عنه والى الايمان به وقوله تعالى (كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) استئناف مبين لما فى الارض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية الى الايمان وكم خبرية منصوبة بما

كما يقال لزيد الشرف متوفر والجار والمجرور يكون لبيان من له ذلك والشرف هو المبتدأ أو متوفر خبره (وثالثها) قوله تعالى سلام منقطع عما تقدم وسلام مبتدأ وخبره محذوف تقديره سلام عليهم فيكون ذلك اخبارا من الله تعالى فى يومنا هذا كأنه تعالى حكى لنا وقال ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل ثم لما بين كمال حالهم قال سلام عليهم وهذا كما فى قوله تعالى سلام على نوح وسلام على المرسلين فيكون الله تعالى أحسن الى عباده المؤمنين كما أحسن الى عباده المرسلين وهذا وجه مبتكر جيد مايدل عليه منقول أو نقول تقديره سلام عليكم ويكون هذا نوعا من الالتفات حيث قال لهم كذا وكذا ثم قال سلام عليكم (المسئلة الثانية) قولا منصوب بماذا نقول يحتمل وجوها (أحدها) نصب على المصدر تقديره على قولنا المراد لهم سلام هو ان يقال لهم سلام يقوله الله قولا أو تقوله الملائكة قولا وعلى قولنا مايدعون سالم لهم تقديره قال الله ذلك قولا ووعدهم بأن لهم مايدعون سالم وعدا وعلى قولنا سلام عليهم تقديره أقوله قولا وقوله من رب رحيم يكون لبيان ان السلام منه أى سلام عليهم من رب رحيم أقوله قولا ويحتمل ان يقال على هذا انه تمييز لان السلام قد يكون قولا وقد يكون فعلا فان من يدخل على الملك فيطاطئ رأسه يقول سلمت على الملك وهو حينئذ كقول القائل البيع موجود حكما لاحسا وهذا ممنوع عنه قطعا لاظنا (المسئلة الثالثة) قال فى السلام من رب رحيم وقال فى غيره من أنواع الاكرام نزلا من غفور رحيم فهل بينهما فرق نقول نعم أما هناك فلان النزل مايرزق النزيل أولا وذلك وان كان يدل عليه مابعده فان النزيل اذا أكرم أولا يدل على انه مكرم واذا أخل باكرامه فى الاول يدل على انه مهان دائما غير ان ذلك غير مقطوع به لجواز ان يكون الملك واسع الرزق فيرزق نزيله أولا ولا يمنع منه الطعام والشراب ويناقشه فى غيره فقال غفور لماصدر من العبيد ليأمن العبد ولا يقول بان الاطعام قد يوجد ممن يعاقب بعده والسلام يظهر مزية تعظيمه للمسلم عليه لا بمغفرة فقال رب غفور لان رب الشئ مالكه الذى اذا نظر الى علو مرتبته لا يرجى منه الالتفات اليه بالتعظيم فاذا سلم عليه يعجب منه وقيل انظر هو سيده ويسلم عليه ۞ ثم قال تعالى ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ وفيه وجوه منها نبين وجه الترتيب أيضا (الاول) امتازوا فى أنفسكم وتفرقوا كما قال تعالى تكاد تميز من الغيظ أى بعضه من بعض غير أن تميزهم من الحسرة والندامة ووجه الترتيب حينئذ ان المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته ونزول دركته وضعته فيتحسر فيقال لهم امتازوا اليوم اذ لادواء لألمكم ولاشفاء لسقمكم (الثانى) امتازوا عن المؤمنين وذلك لانهم يكونون مشاهدين لما يصل الى المؤمن من الثواب والاكرام ثم يقال لهم تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم أبدا (الثالث) امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ماللمؤمن من الاجتماع بالاخوان الذى أشار اليه بقوله تعالى هم وأزواجهم فأهل النار يكون لهم العذاب الاليم وعذاب الفرقة أيضا ولا عذاب فوق الفرقة بل العقلاء قالوا بان كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال فان من قطعت يده أو احرق جسمه فانما يتألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض لكن التفرق الجسمى دون التفرق العقلى (الرابع) امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم فما لكم اليوم حميم ولا شفيع (الخامس) امتازوا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير والمجرم هو الذى يأتى بالجريمة ويحتمل أن يقال ان المراد منه ان الله تعالى يقول امتازوا فيظهر عليهم سيما يعرفون بها كما قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم وحينئذ يكون قوله تعالى امتازوا أمر تكوين كما أنه يقول كن فيكون كذلك يقول امتازوا فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم أو فى وجوههم سواد ۞ ثم قال تعالى ﴿ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين﴾ لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين كان لقائل أن يقول ان الانسان كان ظلوما جهولا والجهل من الاعذار فقال الله ذلك عند عدم الانذار وقد سبق ايضاح السبل بايضاح الرسل وعهدنا اليكم وتلونا عليكم ماينبغى أن تفعلوه ومالا ينبغى * وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى اللغات التى فى أعهد وهى كثيرة (الاولى) كسر همزة أعهد وحروف الاستقبال كلها تكسر الا الياء فلا يقال يعلم ويعلم (الثانية) كسر الهاء من باب ضرب يضرب (الثالثة) قلب العين حاء ألم أحهد وذلك فى كل عين بعدها هاء (الرابعة) ادغام الهاء فى الحاء بعد القلب فيقال ألم أحد وقد سمع قوم يقولون دحا محا أى دعها معها (المسئلة الثانية) فى معنى

بعدها على المفعولية والجمع بينها وبين كل لافادة الاحاطة والكثرة معا ومن كل زوج أى صنف تمييز والكريم من كل شئ مرضيه ومحموده أى كثيرا من كل صنف مرضى كثير المنافع أنبتنا فيها وتخصيص انباته بالذكر دون ماعداه من الاصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معا ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعها وضارها ويكون وصف الكل بالكرم للتنبيه على انه تعالى ما أنبت شيأ الا وفيه فائدة كما نطق به قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الارض جميعا فان الحكيم لايكاد يفعل فعلا الا وفيه حكمة بالغة وان غفل عنها الغافلون ولم يتوصل الى معرفة كنهها العاقلون (ان فى ذلك) اشارة الى مصدر أنبتنا أو الى كل واحد من تلك الازواج وأيا ما كان فما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الفضل (لآية) أى آية عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وغاية وفور علمه وحكمته ونهاية سعة رحمته موجبة للايمان وازعة عن الكفر (وما كان أكثرهم) أى أكثر قومه عليه الصلاة والسلام (مؤمنين) قيل أى فى علم الله تعالى وقضائه حيث علم أزلا أنهم سيصرفون فيما لايزال اختيارهم الذى عليه يدور أمر التكليف الى جانب الشر ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان صلة والمعنى وما أكثرهم مؤمنين وهو الانسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد مع تعاضد موجبات الايمان من جهته تعالى وأما نسبة كفرهم الى علمه تعالى وقضائه فربما يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب

أعهد وجوه أقربها وأقواها ألم أوص اليكم (المسئلة الثالثة) فى هذا العهد وجوه (الاول) انه هو العهد الذى كان مع أبينا آدم بقوله وعهدنا الى آدم (الثانى) انه هو الذى كان مع ذرية آدم بقوله تعالى ألست بربكم قالوا بلى فان ذلك يقتضى أن لا نعبد غير الله (الثالث) وهو الاقوى ان ذلك كان مع كل قوم على لسان رسول ولذلك اتفق العقلاء على ان الشيطان يأمر بالشر وان اختلفوا فى حقيقته وكيفيته (المسئلة الرابعة) قوله لا تعبدوا الشيطان معناه لا تطيعوا بدليل ان المنهى عنه ليس هو السجود له فحسب بل الانقياد لامره والطاعة له فالطاعة عبادة لا يقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الامراء حيث أمرنا بطاعتهم فى قوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم لانا نقول طاعتهم اذا كانت بأمر الله لا تكون الا عبادة لله وطاعة له وكيف لا ونفس السجود والركوع للغير اذا كان بأمر الله لا يكون الا عبادة لله ألا ترى ان الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك الا عبادة لله وانما عبادة الامراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه فان قيل بماذا تعلم طاعة الشيطان من طاعة الرحمن مع انا لا نسمع من الشيطان خبرا ولا نرى منه أثرا نقول عبادة الشيطان فى مخالفة أمر الله أو الاتيان بما أمر الله لا لانه أمر به ففى بعض الاوقات يكون الشيطان يأمرك وهو فى غيرك وفى بعض الاوقات يأمرك وهو فيك فاذا جاءك شخص يأمرك بشئ فانظر ان كان ذلك موافقا لامر الله أوليس موافقا فان لم يكن موافقا فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به فان أطعته فقد عبدت الشيطان وان دعتك نفسك الى فعل فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع أوليس كذلك فان لم يكن مأذونا فيه فنفسك هى الشيطان أو معها الشيطان يدعوك فان اتبعته فقد عبدته ثم ان الشيطان يأمر أولا بمخالفة الله ظاهرا فمن أطاعه فقد عبده ومن لم يطعه فلا يرجع عنه بل يقول له اعبد الله كى لا تهان وليرتفع عند الناس شأنك وينتفع بك اخوانك واعوانك فان أجاب اليه فقد عبده لكن عبادة الشيطان على تفاوت وذلك لان الاعمال منها ما يقع والعامل موافق فيه جنانه ولسانه وأركانه ومنها ما يقع والجنان واللسان مخالف للجوارح أو للاركان فمن الناس من يرتكب جريمة كارها بقلبه لما يقترف من ذنبه مستغفرا لربه يعترف بسوء ما يقترف فهو عبادة الشيطان بالاعضاء الظاهرة ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب كما انك تجد كثيرا من الناس يفرح بكونه مترددا الى أبواب الظلمة للسعاية ويعد من المحاسن كونه ساريا مع الملوك ويفتخر به بلسانه وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملك بالظلم والملك ينقاد لهم أو يفرحون بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون فرحين بما ورد عليهم من الامر اذا عرفت هذا فالطاعة التى بالاعضاء الظاهرة والبواطن طاهرة مكفرة بالاسقام والآلام كما ورد فى الاخبار ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم الحمى من فيح جهنم وقوله صلى الله عليه وسلم السيف محاء للذنوب أى لمثل هذه الذنوب ويدل عليه ما قال صلى الله عليه وسلم فى الحدود انها كفارات وما يكون بالقلوب فلا خلاص عنه الا بالتوبة والندم واقبال القلب على الرب وما يكون باللسان فهو من قبيل ما يكون بالقلب فى الظاهر والمثال يوضح الحال فنقول اذا كان عند السلطان أمير وله غلمان هم من خواص الامير واتباع بعداء هم من عوام الناس فاذا صدر من الامير مخالفة ومسارة مع عدو السلطان ومصادقة بينهما لا يعفو الملك عن ذلك الا اذا كان فى غاية الصفح أو يكون للامير عنده يد سابقة أو توبة لاحقة فان صدر من خواص الامير مخالفة وهو به عالم ولم يزجره عدت المخالفة موجودة منه وان كان كارها وأظهر الانكار حسنت معاتبته دون معاقبته لان اقدام خواصه على المخالفة دليل على سوء التربية فان كان الصادر من الحواشى الاباعد وبلغ الامير ولم يزجره عوتب الامير وان زجرهم استحق الامير بذلك الزجر الاكرام وحسن من الملك أن يسدى الى المزجور الاحسان والانعام ان علم حصول انزجاره اذا علمت هذا فالقلب أمير واللسان خاصته والاعضاء خدمه فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب فان أقبل على محبة غير الله فهو الويل العظيم والضلال المبين المستعقب للعقاب الاليم والعذاب المهين وما يصدر من اللسان فهو محسوب على القلب ولا يقبل قوله ان لم ينكر فعله وما يصدر من الاعضاء والقلب قد أظهر عليه الانكار وحصل له الانزجار فهو الذنب الذى حكى النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال لو لم تذنبوا لخلقت أقواما يذنبون ويستغفرون فاغفر لهم (وههنا

الظاهر لان ما أشير اليه من التحقيق مما خفى على مهرة العلماء المتقنين كأنه قيل ان فى ذلك لآية باهرة موجبة للايمان وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك لغاية تماديهم فى الكفر والضلالة وانهماكهم فى الغى والجهالة ونسبة عدم الايمان الى أكثرهم لان منهم من سيؤمن (وان ربك لهو العزيز) الغالب على كل ما يريده من الامور التى من جملتها الانتقام من هؤلاء (الرحيم) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترؤا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والعدة الخفية بالانتقام من الكفرة ما لا يخفى (واذ نادى ربك موسى) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من اعراضهم عن كل ما يأتيهم من الآيات التنزيلية وتكذيبهم بها اثر بيان اعراضهم عما يشاهدونه من الآيات التكوينية واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام أى واذكر لاولئك المعرضين المكذبين وقت ندائه تعالى اياه عليه الصلاة والسلام وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم اياه زجرا لهم عما هم عليه من التكذيب وتحذيرا من أن يحيق بهم مثل ما حاق باضرابهم المكذبين الظالمين حتى يتضح لك أنهم لا يؤمنون بما يأتيهم من الآيات لكن لا بقياس حال هؤلاء بحال أولئك فقط بل بمشاهدة اصرارهم على ما هم عليه بعد سماع الوحى الناطق بقصتهم وعدم اتعاظهم بذلك كما يلوح به تكرير قوله تعالى ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين عقيب كل قصة

لطيفة) وهى ان الشيطان قد يرجع عن عبد من عباد الله فرحانا فيظن انه قد حصل مقصوده من الاغواء حيث يرى ذلك العبد ارتكب الذنب ظاهرا و يكون ذلك رافعا لدرجة العبد فان بالذنب ينكسر قلب العبد فيتخلص من الاعجاب بنفسه وعبادته و يصير أقرب من المقربين لان من لم يذنب مقرب عند الله كما قال تعالى لهم درجات عند ربهم والمذنب التائب النادم منكسر القلب والله عنده كما قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه أنا عند المنكسرة قلوبهم وفرق بين من يكون عند الله و بين من يكون عنده الله ولعل ما يحكى من الذنوب الصادرة عن الانبياء من هذا القبيل لتحصل لهم الفضيلة على الملائكة حيث تبجحوا بأنفسهم بقولهم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك وقد يرجع الشيطان عن آخر يكون قد أمره بشئ فلم يفعله والشخص يظن انه غلب الشيطان ورده خائبا فيتبجح فى نفسه وهو لا يعلم ان الشيطان رجع عنه محصل المقصود مقبولا غير مردود ومن هذا يتبين أمر أصولى وهو ان الناس اختلفوا فى ان المذنب هل يخرج من الايمان أم لا وسبب النزاع وقوع نظر الخصمين على أمرين متباينين فالذنب الذى بالجسد لا بالقلب لا يخرج بل قد يزيد فى الايمان والذى بالقلب يخاف منه الخروج عن ربقة الايمان ولذلك اختلفوا فى عصمة الانبياء من الذنوب والاشبه ان الجسدى جائز عليهم والقرآن دليل عليه والقلبى لا يجوز عليهم ثم انه تعالى لما نهى عباده عن عبادة الشيطان ذكر ما يحملهم على قبول ما أمر وابه والانتهاء عما نهوا عنه بقوله انه لكم عدو مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من أين حصلت العداوة بين الشيطان والانسان فنقول ابتداؤها من الشيطان وسببه تكريم الله بنى آدم لما رأى ابليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم فعاداه الله تعالى والاول منه لؤم والثانى من الله كرم أما الاول فلان الملك اذا أكرم شخصا ولم ينقص من الآخر شيأ اذ لا ضيق فى الخزانة فعداوة من يعادى ذلك المكرم لا تكون الا لؤما وأما الثانى فلان الملك اذا علم ان اكرامه ليس الا منه وذلك الضعيف ما كان يقدر ان يصل الى بعض تلك المنزلة لولا اكرام الملك يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك أو ينسب الى خزانته ضيقا وكلاهما يحسن التعذيب عليه فيعاديه اتماما للاكرام وا كمالا للافضال ثم ان كثيرا من الناس على مذهب ابليس اذا رأوا واحدا عند ملك محترما يبغضوه وسعوا فيه اقامة لسنة ابليس فالملك ان لم يكن متخلقا باخلاق الله لا يبعد الساعى و يسمع كلامه و يترك اكرام ذلك الشخص واحترامه (المسئلة الثانية) من أين ابانة عداوة ابليس نقول لما أكرم الله آدم عاداه ابليس وظن أنه يبقى فى منزلته وآدم فى منزلته مثل متباغضين عند الملك والله كان عالما بالضمائر فأبعده وأظهر أمره فأظهر هو من نفسه ما كان يخفيه لزوال ما كان يحمله على الاخفاء فقال لأقعدن لهم صراطك المستقيم وقال لاحتنكن ذريته (المسئلة الثالثة) اذا كان الشيطان للانسان عدوا مبينا فما بال الانسان يميل الى مراضيه من الشرب والزنا و يكره مساخطه من المجاهدة والعبادة نقول سبب ذلك استعانة الشيطان باعوان من عند الانسان وترك استعانة الانسان بالله فيستعين بشهوته التى خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه و بقاء نوعه و يجعلها سببا لفساد حاله و يدعوه بها الى مسالك المهالك وكذلك يستعين بغضبه الذى خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه و يجعله سببا لوباله وفساد أحواله وميل الانسان الى المعاصى كميل المريض الى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد فى مرضه ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء يميل الى الاكل الكثير ولا يشبع بشئ وهو يزيد فى معدته فسادا وصحيح المزاج لا يشتهى الا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبىء لا يستغنى الانسان فيه عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له غير اصلاح الهواء بالروائح الطيبة والاشياء الزكية والرش بالخل والماورد من جملة المصلحات فكذلك الانسان فى الدنيا لا يستغنى عن أمورها وهى المعينات للشيطان وطريقه ترك الهوى وتقليل التأميل وتحريف الهوى بالذكر الطيب والزهد فاذا صح مزاج عقله لا يميل الا الى الحق ولا يبقى عليه فى التكاليف كلفة و يحصل له مع الامور الالهية الفة وهنالك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان ۞ ثم قال تعالى (وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) لما منع من عبادة الشيطان حمل على عبادة الرحمن والشارع طبيب الارواح كما ان الطبيب طبيب الاشباح وكما ان الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا

وهى

وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر سره مرارا (أن ائت) يعنى اى ائت على أن أن مفسرة أو بان ائت على أنها مصدرية حذف منها الجار (القوم الظالمين) أى بالكفر والمعاصى واستعباد بنى اسرائيل وذبح أبنائهم وليس هذا مطلع ما ورد فى حيز النداء وانما هو ما فصل فى سورة طه من قوله تعالى انى أنا ربك الى قوله لنريك من آياتنا الكبرى وايراد ما جرى فى قصة واحدة من المقالات بعبارات شتى وأساليب مختلفة قد مر تحقيقه فى أوائل سورة الاعراف عند قوله تعالى قال أنظرنى (قوم فرعون) بدل من الاول أو عطف بيان له جىء به للايذان بانهم علم فى الظلم كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون والاقتصار على ذكر قومه للايذان بشهرة أن نفسه أول داخل فى الحكم (ألا يتقون) استئناف جىء به اثر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم للانذار تعجيبا من غلوهم فى الظلم وافراطهم فى العدوان وقرئ بتاء الخطاب على طريقة الالتفات المنبئ عن زيادة الغضب عليهم كأن ذكر ظلمهم أدى الى مشافهتهم بذلك وهم وان كانوا حينئذ غيبا لكنهم قد أجروا مجرى الحاضرين فى كلام المرسل اليهم من حيث انه مبلغه اليهم واسماعه مبتدأ اسماعهم مع ما فيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبر وتأمل وقرئ بكسر النون اكتفاء به عن ياء المتكلم وقد جوز أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون نحو أن لا يسجدوا (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية ما مضى كأنه قيل فماذا قال موسى عليه

وهي الحمية التي هي رأس الدواء لئلا يزيد مرضه ثم يقول له تناول الدواء الفلاني تقوية لقوته المقاومة للمرض كذلك الشارع منع من المفسد وهو اتباع الشيطان وحمل على المصلح وهو عبادة الرحمن وفيه مسائل (المسئلة الاولى) عند المنع من عبادة الشيطان قال انه لكم عدو مبين لان العداوة أبلغ الموانع من الاتباع وعند الامر بعبادة الرحمن لم يقل انه لكم حبيب لان المحبة لاتوجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة فيقول انه يحبني فلا حاجة الى تحمل المشقة في تحصيل مراضيه بل ذكر ماهو أبلغ الاشياء في الحمل على العبادة وذلك كونه طريقا مستقيما وذلك لان الانسان في دار الدنيا في منزل قفر مخوف وهو متوجه الى دار اقامة فيها اخوانه والنازل في بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شئ أحب من طريق قريب آمن فلما قال الله تعالى هذا صراط مستقيم كان ذلك سببا حاثا على السلوك وفي ضمن قوله تعالى هذا صراط اشارة الى ان الانسان مجتاز لانه لو كان في دار اقامة فقوله هذا صراط مستقيم لا يكون له معنى لان المقيم يقول وماذا أفعل بالطريق وانا من المقيمين (المسئلة الثانية) ماذا يدل على كونه طريقا مستقيما نقول الانسان مسافر اما مسافرة راجع الى وطنه واما مسافرة تاجر له متاع يتجر فيه وعلى الوجهين فالله هو المقصد وأما الوطن فلانه لا يوطن الا في مأمن ولا أمن الا عند ملك لا يزول ملكه لان عند زوال ملك الملوك لا يبقى الامن والراحة والله سبحانه هو الذي ملكه دائم وكل ماعداه فهو فان وأما التجارة فلان التاجر لا يقصد الا الى موضع يسمع أو يعلم ان لمتاعه هناك رواجا والله تعالى يقول ان العمل الصالح عنده مثاب عليه مقابل باضعاف مايستحق والله هو المقصد وعبادته توجه اليه ولاشك ان القاصد لجهة اذا توجه اليها يكون على الطريق المستقيم (المسئلة الثالثة) العبادة تنبئ عن معنى التذلل فلما قال لا تعبدوا الشيطان لزم أن يتكبر الانسان على ماسوى الله ولما قال وأن اعبدوني ينبغي أن لا يتكبر على الله لكن التكبر على ماسوى الله ليس معناه انه يرى نفسه خيرا من غيره فان نفسه من جملة ماسوى الله فينبغي أن لا يلتفت اليها ولو كانت متجملة بعبادة الله بل معنى التكبر على ماسوى الله ان لا ينقاد لشئ الا باذن الله وفي هذا التكبر غاية التواضع فانه حينئذ لا ينقاد الى نفسه وحظ نفسه في التفوق على غيره فلا يتفوق فيحصل التواضع التام ولا ينقاد لامر الملوك اذا خالفوا أمر الله فيحصل التكبر التام فيرى نفسه بهذا التكبر دون الفقير وفوق الامير ۞ ثم ان الله تعالى ذكر ماينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في الجبل ست لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد وكسرهما مع التخفيف وضمهما معه وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسره (المسئلة الثانية) في معنى الجبل الجيم والباء واللام لا تخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الاجسام الكثيرة وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب وشاة جبلاء اذا كانت مجتمعة اللبن الكثير لا يقال البلجة تقض على ماذكرتم فانها تنبئ عن التفرق فان الابلج خلاف المقرون لانا نقول هي لاجتماع الاماكن الخالية التي تسع الممكنات فان البلجة والبلدة بمعنى والبلد سمي بلدا للاجتماع لا للتفرق فالجبل الجمع العظيم حتى قيل ان دون العشرة آلاف لا يكون جبلا وان لم يكن صحيحا (المسئلة الثالثة) كيف الاضلال نقول على وجهين (أحدهما) ان الاضلال تولية عن المقصد وصد عنه فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله وبعبادة غيره فهو تولية فان لم يقدر يأمره بعبادة الله لامر غير الله من رياسة وجاه وغيرهما فهو صد وهو يفضي الى التولية لان مقصوده لو حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فحصل التولية ۞ ثم بين مآل أهل الضلال بقوله تعالى (هذه جهنم التي كنتم توعدون) وحال الضال كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدوه فوقع في مشقة ولو أقام في وطنه لعل ذلك العدو كان لا يظفر به أو يرحمه كذلك حال من لم يتحرك لطاعة ولا عصيان كالمجانين وحال من استعمل عقله فأخطأ الطريق فان المجنون من أهل النجاة وان لم يكن من أهل الدرجات وقد قيل بأن البلاهة أدنى الى الخلاص من فطانة بتراء وذلك ظاهر في المحسوس فان من لم يعرف الطريق اذا أقام بمكانه لا يبعد عن الطريق كثيرا ومن سار الى خلاف المقصد يبعد عنه كثيرا ۞ ثم بين انهم واصلون اليها حاصلون فيها بقوله تعالى (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) وفي هذا الكلام مايوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من

السلام فقيل قال متضرعا الى الله عز وجل (رب اني أخاف أن يكذبون) من أول الامر (ويضيق صدري ولا ينطلق لساني) معطوفان على أخاف (فارسل) أي جبريل عليه السلام (الى هرون) ليكون معي وأتعاضد به في تبليغ الرسالة رتب عليه الصلاة والسلام استدعاءه ذلك على الامور الثلاثة خوف التكذيب وضيق الصدر وازديادما كان فيه عليه الصلاة والسلام من حبسة اللسان بانقباض الروح الى باطن القلب عند ضيقه بحيث لا ينطلق لانها اذا اجتمعت مست الحاجة الى معين يقوي قلبه وينوب منابه اذا اعتراه حبسة حتى لا تختل دعوته ولا تنقطع حجته وليس هذا من التعلل والتوقف في تلقي الامر في شئ وانما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به وتمهيد عذر فيه وقرئ ويضيق ولا ينطلق بالنصب عطفا على يكذبون فيكونان من جملة مايخاف منه (ولهم علي ذنب) أي تبعة ذنب فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه أو سمي باسمه والمراد به قتل القبطي وتسميته ذنبا بحسب زعمهم كما ينبئ عنه قوله لهم وهذا اشارة الى قصة مبسوطة في غير موضع (فأخاف) أي ان أتيتهم وحدي (أن يقتلون) بمقابلته قبل أداء الرسالة كما ينبغي وليس هذا أيضا تعللا وانما هو استدفاع للبلية المتوقعة قبل وقوعها وقوله تعالى (قال كلا فاذهبا بآياتنا) حكاية لاجابته تعالى الى الطلبتين الدفع المفهوم من الردع عن الخوف وضم أخيه المفهوم من توجيه الخطاب اليهما بطريق التغليب فانه معطوف على مضمر ينبئ عنه

ثلاثة أوجه (أحدها) قوله تعالى اصلوها فانه أمر تنكيل واهانة كقوله ذق انك أنت العزيز الكريم (والثانى) قوله اليوم يعنى العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وأيامها قد انقضت وبقى اليوم العذاب (الثالث) قوله تعالى بما كنتم تكفرون فان الكفر والكفران ينبئ عن نعمة كانت فكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام ولهذا كثيرا ما يقول العبد المجرم افعلوا بى ما يأمر به السيد ولا تحضرونى بين يديه والى هذا المعنى أشار القائل

أليس بكاف لذى نعمة * حياء المسىء من المحسن

﴿﴾ ثم قال تعالى (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) فى الترتيب وجوه (الاول) انهم حين يسمعون قوله تعالى بما كنتم تكفرون يريدون ينكرون كفرهم كما قال تعالى عنهم ما أشركنا وقالوا آمنا به فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الانكار وينطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم (الثانى) لما قال الله تعالى لهم ألم أعهد اليكم لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان وفى الختم على الافواه وجوه (أقواها) ان الله تعالى يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها وينطق جوارحهم فتشهد عليهم وانه فى قدرة الله يسير أما الاسكات فلا خفاء فيه وأما الانطاق فلان اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على الممكنات (والوجه الآخر) انهم لا يتكلمون بشئ لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم فيقفون ناكسى الرؤس وقوف القنوط اليؤس لا يجد عذرا فيعتذر ولا مجال توبة فيستغفر وتكلم الايدى ظهور الامور بحيث لا يسع معه الانكار حتى تنطق به الايدى والابصار كما يقول القائل الحيطان تبكى على صاحب الدار اشارة الى ظهور الحزن والاول الصحيح وفيه لطائف لفظية ومعنوية (اما اللفظية فالاولى منها) هى ان الله تعالى أسند فعل الختم الى نفسه وقال نختم وأسند الكلام والشهادة الى الايدى والارجل لانه لو قال تعالى نختم على أفواههم وننطق أيديهم يكون فيه احتمال ان ذلك منهم كان جبرا وقهرا والاقرار بالاجبار غير مقبول فقال تعالى تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم أى باختيارها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم (الثانية منها) هى ان الله تعالى قال تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم جعل الشهادة للارجل والكلام للايدى لان الافعال تسند الى الايدى قال تعالى وما عملته أيديهم أى ما عملوه وقال ولا تلقوا بأيديكم أى ولا تلقوا بأنفسكم فاذا الايدى كالعاملة والشاهد على العامل ينبغى أن يكون غيره فجعل الارجل والجلود من جملة الشهود لبعد اضافة الافعال اليها (وأما المعنوية فالاولى منها) ان يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة وان كان من الشهود العدول وغير الصديقين من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة فجعل الله الشاهد عليهم منهم لا يقال الايدى والارجل أيضا صدرت الذنوب منها فهى فسقة فينبغى أن لا تقبل شهادتها لانا نقول فى رد شهادتها قبول شهادتها لانها ان كذبت فى مثل ذلك اليوم فقد صدر الذنب منها فى ذلك اليوم والمذنب فى ذلك اليوم مع ظهور الامور لابد من أن يكون مذنبا فى الدنيا وان صدقت فى ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب فى الدنيا وهذا كمن قال لفاسق ان كذبت فى نهار هذا اليوم فعبدى حر فقال الفاسق كذبت فى نهار هذا اليوم عتق العبد لانه ان صدق فى قوله كذبت فى نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووجب الجزاء وان كذب فى قوله كذبت فقد كذب فى نهار ذلك اليوم فوجد الشرط أيضا بخلاف ما لو قال فى اليوم الثانى كذبت فى نهار اليوم الذى علقت عتق عبدك على كذبى فيه (المسئلة الثانية) الختم لازم الكفار فى الدنيا على قلوبهم وفى الآخرة على أفواههم ففى الوقت الذى كان الختم على قلوبهم كان قولهم بافواههم كما قال تعالى ذلك قولهم بأفواههم فلما ختم على أفواههم أيضا لزم أن يكون قولهم بأعضائهم لان الانسان لا يملك غير القلب واللسان والاعضاء فاذا لم يبق القلب والفم تعين الجوارح والاركان ﴿﴾ ثم قال تعالى (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون) قد ذكرنا مرارا أن الصراط المستقيم هو بين الجبر والقدر وهو الطريقة الوسطى والله تعالى فى كل موضع ذكر ما يتمسك به المجبرة ذكر عقيبه ما يتمسك به القدرية وبالعكس وههنا

كذلك

الردع كأنه قيل ارتدع ياموسى عما تظن فاذهب أنت ومن استدعيته وفى قوله بآياتنا رمز الى انها تدفع ما يخافه وقوله تعالى (انا معكم مستمعون) تعليل للردع عن الخوف ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى اننى معكما أسمع وأرى وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون اعتبر ههنا فى المعية وقيل أجريا مجرى الجماعة ويأباه ما قبله وما بعده من ضمير التثنية أى سامعون ما يجرى بينكما وبينه فنظهركما عليه مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم ليمد أولياءه ويظهرهم على أعدائهم مبالغة فى الوعد بالاعانة أو استعير الاستماع الذى هو بمعنى الاصغاء للسمع الذى هو العلم بالحروف والاصوات وهو خبر ثان أو خبر وحده ومعكم ظرف لغو والفاء فى قوله تعالى (فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد الكريم وليس هذا مجرد تأكيد للامر بالذهاب لان معناه الوصول الى المأتى لا مجرد التوجه اليه كالذهاب وافراد الرسول اما باعتبار رسالة كل منهما أو لاتحاد مطلبهما أو لانه مصدر وصف به وأن فى قوله تعالى (أن أرسل معنا بنى اسرائيل) مفسرة لتضمن الارسال المفهوم من الرسول معنى القول ومعنى ارسالهم تخليتهم وشأنهم ليذهبوا معهما الى الشام (قال) أى فرعون لموسى عليه السلام بعدما أتياه وقالا له ما أمرا به روى أنهما انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا انسانا يزعم أنه رسول

كذلك لما قال الله تعالى وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون وقال اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون وكان ذلك متمسك القدرية حيث أسند الله الكفر والكسب اليهم وأحال الخير والشر عليهم ذكر عقيبه ما يدل على أن كفرهم وكسبهم بمشيئة الله وذلك لان الكفر بعمى البصيرة و بضعف القوة العقلية وعمى البصيرة بارادة الله ومشيئته اذا شاء أعمى البصائر كما أنه لو شاء اطمس على أعينهم المبصرة وسلب القوة العقلية باختياره ومشيئته كما ان سلب القوة الجسمية بمشيئته حتى لو شاء لمسخ المكلف على مكانته واقامه بحيث لا يتحرك عنه ولا يسرة ولا يقدر على المضى والرجوع فاعماء البصائر عنده كاعماء الابصار وسلب القوة العقلية كسلب القوة الجسمية فقال ولو نشاء لطمسنا على أعينهم اشارة الى أنه شاء وأراد اعماء بصائرهم فضلوا وأنه لو شاء طمس أعينهم لما اهتدوا الى طريقهم الظاهرة وشاء واختار سلب قوة عقولهم فزلوا وانه لو شاء سلب قوة اجسامهم ومسخهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر وفى الآيتين ابحاث لفظية (البحث الاول) فى قوله فاستبقوا الصراط قال الزمخشرى فيه وجوه (الاول) انه يكون فيه حذف حرف الى واتصال الفعل من غير حرف وأصله فاستبقوا الى الصراط (الثانى) أن يكون المراد من الاستباق الابتدار فاعمله اعمال الابتدار (الثالث) ان يجعل الصراط مستبقا لا مستبقا اليه يقال استبقنا فسبقتهم وحينئذ يكون مبالغة فى الاهتداء الى الطريق كانه يقول الصراط الذى هو معهم ليسوا طالبين له قاصدين اياه واغماهم عليه اذا طمس الله على أعينهم لا يبصرونه فكيف ان لم يكونوا على الصراط (البحث الثانى) قدم الطمس والاعماء على المسخ والاعجاز ليكون الكلام مدرجا كانه قال ان أعماهم لم يروا الطريق الذى هم عليه وحينئذ لا يهتدون اليه فان قال قائل الاعمى قد يهتدى الى الطريق بامارات عقلية أو حسية غير حس البصر كالاصوات والمشى بحس اللمس فارتقى وقال فلو مسخهم وسلب قوتهم بالكلية لا يهتدون الى الصراط بوجه من الوجوه (البحث الثالث) قدم المضى على الرجوع لان الرجوع أهون من المضى لان المضى لا ينبئ عن سلوك الطريق من قبل وأما الرجوع فينبئ عنه ولا شك ان سلوك طريق قد روئى مرة أهون من سلوك طريق لم ير فقال لا يستطيعون مضيا ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذى هو أهون من المضى ۞ ثم قال تعالى ﴿ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون﴾ فقد ذكرنا ان قوله تعالى ألم أعهد اليكم قطع للاعذار بسبق الانذار ثم لما قرر ذلك وأتمه شرع فى قطع عذر آخر وهو أن الكافر يقول لم يكن لبثنا فى الدنيا الا يسيرا ولو عمرتنا لما وجدت منا تقصيرا فقال الله تعالى أفلا تعقلون أنكم كلما دخلتم فى السن ضعفتم وقد عمرناكم مقدار ما تمكنون من البحث والادراك كما قال تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ثم انكم علمتم أن الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم فضيعتم زمان الامكان فلو عمرناكم أكثر من ذلك لكان بعده زمان الازمان ومن لم يأت بالواجب زمان الامكان ما كان يأتى به زمان الازمان ۞ ثم قال تعالى ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو الا ذكر وقرآن مبين﴾ فى الترتيب وجهان فقد ذكرنا أن الله فى كل موضع ذكر أصلين من الاصول الثلاثة وهى الوحدانية والرسالة والحشر ذكر الاصل الثالث منها وههنا ذكر الاصلين الوحدانية والحشر اما الوحدانية ففى قوله تعالى ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان وفى قوله وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم وأما الحشر ففى قوله تعالى اصلوها اليوم وفى قوله اليوم نختم على أفواههم الى غير ذلك فلما ذكرهما وبينهما ذكر الاصل الثالث وهو الرسالة فقال وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو الا ذكر وقرآن مبين وقوله وما علمناه الشعر اشارة الى أنه معلم من عند الله فعلمه ما أراد ولم يعلمه مالم يرد وفى تفسير الآية مباحث (البحث الاول) خص الشعر بنفى التعليم مع أن الكفار كانوا ينسبون الى النبى صلى الله عليه وسلم أشياء من جملتها السحر ولم يقل وما علمناه السحر وكذلك كانوا ينسبونه الى الكهانة ولم يقل وما علمناه الكهانة فنقول أما الكهانة فكانوا ينسبون النبى صلى الله عليه وسلم اليها عندما كان يخبر عن الغيوب ويكون كما يقول وأما السحر فكانوا ينسبونه اليه عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير كشق القمر وتكلم الحصى والجذع وغير ذلك وأما الشعر فكانوا ينسبونه اليه عندما كان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ما كان يتحدى الا بالقرآن كما قال تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله الى غير ذلك ولم يقل ان كنتم فى شك من رسالتى فأنطقوا الجذوع أو أشبعوا الخلق

رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نفضحك فأديا اليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فقال عند ذلك (ألم نربك فينا) فى حجرنا ومنازلنا (وليدا) أى طفلا عبر عنه بذلك لقرب عهده بالولادة (ولبثت فينا من عمرك سنين) قيل لبث فيهم ثلاثين سنة ثم خرج الى مدين وأقام بها عشر سنين ثم عاد اليهم يدعوهم الى الله عز وجل ثلاثين سنة ثم بقى بعد الغرق خمسين سنة وقيل وكز القبطى وهو ابن اثنتى عشرة سنة وفر منهم على اثر ذلك والله أعلم (وفعلت فعلتك التى فعلت) يعنى قتل القبطى بعد ما عدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال وبخه بما جرى عليه من قتل خبازه وعظم ذلك وفظعه وقرئ فعلتك بكسر الفاء لانها كانت نوعا من القتل (وأنت من الكافرين) أى بنعمتى حيث عمدت الى قتل رجل من خواصى أو أنت حينئذ ممن تكفرهم الآن وقد افترى عليه عليه الصلاة والسلام أو جهل أمره عليه الصلاة والسلام حيث كان يعايشهم بالتقية والا فأين هو عليه الصلاة والسلام من مشاركتهم فى الدين فالجملة حينئذ حال من احدى التاءين ويجوز أن يكون حكما مبتدأ عليه بانه من الكافرين بالهيته أو ممن يكفرون فى دينهم حيث كانت لهم آلهة يعبدونها أو من الكافرين بالنعم المعتادين لغمطها ومن اعتاد ذلك لا يكون مثل هذه الجناية بدعا منه (قال) مجيبا له مصدقا له فى القتل ومكذبا فيما نسبه اليه من الكفر (فعلتها اذا وأنا من الضالين) أى من الجاهلين وقد قرئ كذلك لا من الكافرين كما زعمت افتراء أى من الفاعلين فعل الجهلة والسفهاء أو من المخطئين

العظيم أو اخبر وابالغيوب فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه الى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفى التعليم (البحث الثانى) مامعنى قوله وماينبغى له قلنا قال قوم ما كان يتأتى له وآخرون مايتسهل له حتى انه ان تمثل ببيت شعر سمع منه مزاحفا روى أنه كان يقول صلى الله عليه وسلم ويأتيك من لم تزود بالاخبار (وفيه وجه) أحسن من ذلك وهو ان يحمل ماينبغى له على مفهومه الظاهر وهو ان الشعر ما كان يليق به ولا يصلح له وذلك لان الشعر يدعو الى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن فالشارع يكون اللفظ منه تبعا للمعنى والشاعر يكون المعنى منه تبعا اللفظ لانه يقصد لفظا به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج الى التحيل لمعنى يأتى به لاجل ذلك اللفظ وعلى هذا نقول الشعر هو الكلام الموزون الذى قصد الى وزنه قصدا أوليا واما من يقصد المعنى فيصدر موزونا مقفى فلا يكون شاعرا ألا ترى الى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ليس بشعر والشاعر اذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعدد ما فى الآية تقطيعه بفاعلاتن فاعلاتن يكون شعرا لانه قصد الاتيان بألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك والمعنى تبعه والحكيم قصد المعنى فجاء على تلك الالفاظ وعلى هذا يحصل الجواب عن قول من يقول ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر بيت شعر وهو قوله أنا النبى لا كذب * أنا ابن عبد المطلب أو بيتين لانا نقول ذلك ليس بشعر لعدم قصده الى الوزن والقافية وعلى هذا لو صدر من النبى صلى الله عليه وسلم كلام كثير موزون مقفى لا يكون شعرا لعدم قصده اللفظ قصدا أوليا ويؤيد ماذكرنا أنك اذا تتبعت كلام الناس فى الاسواق تجد فيه ما يكون موزونا واقعا فى بحر من بحور الشعر ولا يسمى المتكلم به شاعرا ولا الكلام شعرا لفقد القصد الى اللفظ أولا ثم قوله تعالى ان هو الا ذكر وقرآن مبين يحقق ذلك المعنى أى هو ذكر وموعظة للقصد الى المعنى والشعر لفظ مزخرف بالقافية والوزن (وههنا لطيفة) وهى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان من الشعر لحكمة يعنى قد يقصد الشاعر اللفظ فيوافقه معنى حكمى كما أن الحكيم قد يقصد معنى فيوافقه وزن شعرى لكن الحكيم بسبب ذلك الوزن لا يصير شاعرا والشاعر بسبب ذلك الذكر يصير حكيما حيث سمى النبى صلى الله عليه وسلم شعره حكمة ونفى الله كون النبى شاعرا وذلك لان اللفظ قالب المعنى والمعنى قلب اللفظ وروحه فاذا وجد القلب لا نظر الى القالب فيكون الحكيم الموزون كلامه حكيما ولا يخرجه عن الحكمة وزن كلامه والشاعر الموعظ كلامه حكيما ۞ ثم قال تعالى ﴿لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين﴾ قرئ بالتاء والياء بالتاء خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم وبالياء على وجهين (أحدهما) أن يكون المنذر هو النبى صلى الله عليه وسلم حيث سبق ذكره فى قوله وما علمناه وقوله وما ينبغى له (وثانيهما) أن يكون المراد أن القرآن ينذر والاول أقرب الى المعنى والثانى أقرب الى اللفظ (اما الاول) فلان المنذر صفة للرسل أكثر ورودا من المنذر صفة للكتب (وأما الثانى) فلان القرآن أقرب المذكورين الى قوله لينذر وقوله من كان حيا أى من كان حى القلب ويحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد من كان حيا فى علم الله فينذره به فيؤمن (الثانى) أن يكون المراد لينذر به من كان حيا فى نفس الامر أى من آمن فينذره بما على المعاصى من العقاب وبما على الطاعة من الثواب ويحق القول على الكافرين اما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وقوله تعالى حقت كلمة العذاب وذلك لان الله تعالى قال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فاذا جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب وأما القول المقول فى الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الاصولية الدينية فان القرآن فيه ذكر الدلائل التى بها تثبت المطالب ۞ ثم انه تعالى أعاد الوحدانية ودلائل دالة عليها فقال تعالى ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما﴾ أى من جملة ما عملت أيدينا أى ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وارادتنا ۞ وقوله تعالى ﴿فهم لها مالكون﴾ اشارة الى اتمام الانعام فى خلق الانعام فانه تعالى لو خلقها ولم يملكها الانسان ما كان ينتفع بها ۞ وقوله تعالى ﴿وذللناها لهم﴾ زيادة انعام فان المملوك اذا كان آبيا متمردا لا ينتفع فلو كان الانسان يملك الانعام وهى نادة شاردة لما تم الانعام الذى فى الركوب وان كان يحصل الاكل كما فى الحيوانات الوحشية بل ما كان يكمل نعمة الاكل أيضا الا بالتعب الذى فى

لانه لم يتعمد قتله بل أراد تأديبه أو الذاهبين عما يؤدى اليه الوكز أو الناسين كقوله تعالى أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى (ففررت منكم) الى ربى (لما خفتكم) أن تصيبونى بمضرة وتؤاخذونى بما لا أستحقه بجنايتى من العقاب (فوهب لى ربى حكما) أى حكمة أو نبوة (وجعلنى من المرسلين) رد أولا بذلك ما وبخه به قدحا فى نبوته ثم كر على ما عدده عليه من النعمة ولم يصرح برده حيث كان صدقا غير قادح فى دعواه بل نبه على أن ذلك كان فى الحقيقة نقمة فقال (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل) أى تلك التربية نعمة تمن بها على ظاهرا وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى اسرائيل وقصدك اياهم بذبح أبنائهم فانه السبب فى وقوعى عندك وحصولى فى تربيتك وقيل انه مقدر بهمزة الانكار أى أو تلك نعمة تمنها على وهى أن عبدت بنى اسرائيل ومحل ان عبدت الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أو بدل من نعمة أو الجر باضمار الباء أو النصب بحذفها وقيل تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة وأن عبدت عطف بيان لها والمعنى تعبيدك بنى اسرائيل نعمة تمنها على وتوحيد الخطاب فى تمنها وجمعه فيما قبله لان المنة منه خاصة والخوف والفرار منه ومن ملئه (قال فرعون) لما سمع منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالة المتينة وشاهد تصلبه فى أمره وعدم تأثره بما قدمه من الابراق والارعاد شرع فى الاعتراض على دعواه عليه الصلاة والسلام فبدأ بالاستفسار عن المرسل فقال (وما رب العالمين) حكاية لما وقع فى عبارته عليه الصلاة والسلام أى

الاصطياد ولعل ذلك لايتهيأ للبعض وفى البعض ۞ وقوله تعالى ﴿فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ بيان لمنفعة التذليل اذ لولا التذليل لما وجدت احدى المنفعتين وكانت الاخرى قليلة الوجود ۞ ثم بين تعالى غير الركوب والاكل من الفوائد بقوله تعالى ﴿ولهم فيها منافع ومشارب﴾ وذلك لان من الحيوانات مالا يركب كالغنم فقال منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة ان قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فان من الجلود ما يتخذ أوانى للشرب والادوات من القرب وان قلنا ان المراد المشروب وهو الالبان والاسمان فهى مختصة بالاناث ولكن بسبب الذكور فان ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والاناث ۞ ثم قال تعالى ﴿أفلا يشكرون﴾ هذه النعم التى توجب العبادة شكرا ولو شكرتم لزادكم من فضله ولو كفرتم لسلبها منكم فما قولكم أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها ۞ ثم قال تعالى ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون﴾ اشارة الى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها فانهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكرا لانعمه فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم حرقوه وانصروا آلهتكم وفى الحقيقة لاهى ناصرة ولا منصورة ۞ وقوله تعالى ﴿لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ اشارة الى الحشر بعد تقرير التوحيد وهذا كقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون وقوله احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم وقوله أولئك فى العذاب محضرون وهو يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكون العابدون جندا لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا (الثانى) أن يكون الاصنام جندا للعابدين وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال لا يستطيعون نصرهم أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونوا جندا لهم ومحضرون لنصرتهم فان ذلك دال على عدم الاستطاعة فان من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون فى غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهبا ولم يجمع انصاره ۞ وقوله تعالى ﴿فلا يحزنك قولهم﴾ اشارة الى الرسالة لان الخطاب معه بما يوجب تسلية قلبه دليل اجتبائه واختياره اياه ۞ وقوله تعالى ﴿انا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون ذلك تهديدا للمنافقين والكافرين فقوله ما يسرون من النفاق وما يعلنون من الشرك (والثانى) ما يسرون من العلم بك وما يعلنون من الكفر بك (الثالث) ما يسرون من العقائد الفاسدة وما يعلنون من الافعال القبيحة ۞ ثم انه تعالى لما ذكر دليلا من الآفاق على وجوب عبادته بقوله أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ذكر دليلا من الانفس فقال تعالى ﴿أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة﴾ قيل ان المراد بالانسان أبى بن خلف فان الآية وردت فيه حيث أخذ عظما باليا وأتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال انك تقول ان الهك يحيى هذه العظام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم ويدخلك جهنم وقد ثبت فى أصول الفقه أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ألا ترى ان قوله تعالى قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها نزلت فى واحدة وأراد الكل فى الحكم فكذلك كل انسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه اذا علمت عمومها فنقول فيها لطائف (اللطيفة الاولى) قوله أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة أولم يروا خلق الانعام لهم وعلى هذا فقوله تعالى أولم ير الانسان كلام أعم من قوله أولم يروا لانه مع جنس الانسان وهو مع جمع منهم فنقول سبب ذلك أن دليل الانفس أشمل وأكمل وأتم وألزم فان الانسان قد يغفل عن الانعام وخلقها عند غيبتها ولكن هو مع نفسه متى ما يكون وأينما يكون فقال ان غاب عن الحيوان وخلقه فهو لا يغيب عن نفسه فما باله أولم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة فان سائر النعم بعد وجوده وقوله من نطفة اشارة الى وجه الدلالة وذلك لان خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو وكذلك الحال فى كل عضو ولما كان خلقه من نطفة متشابهة الاجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة والى هذا أشار بقوله تعالى يسقى بماء واحد ۞ وقوله ﴿فاذا هو خصيم مبين﴾ (فيه لطيفة غريبة) وهى انه تعالى قال اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنا لك ما هو أظهر وهو نطقه وفهمه وذلك لان النطفة جسم فهب ان

أى شئ رب العالمين الذى ادعيت أنك رسوله منكرا لان يكون للعالمين رب سواه حسبما يعرب عنه قوله أنا ربكم الاعلى وقوله ما علمت لكم من اله غيرى وينطق به وعيده عند تمام أجوبته عليه الصلاة والسلام (قال) موسى عليه السلام مجيبا له (رب السموات والارض وما بينهما) بتعيين ما أراد بالعالمين وتفصيله لزيادة التحقيق والتقرير وحسم مادة تزوير اللعين وتشكيكه بحمل العالمين على ما تحت مملكته (ان كنتم موقنين) أى ان كنتم موقنين بالاشياء محققين لهم علمتم ذلك أو ان كنتم موقنين بشئ من الاشياء فهذا أولى بالايقان لظهوره وانارة دليله (قال) أى فرعون عند سماع جوابه عليه الصلاة والسلام خوفا من تأثيره فى قلوب قومه واذعانهم له (لمن حوله) من أشراف قومه قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا خمسمائة عليهم الاساور وكانت للملوك خاصة (ألا تستمعون) مرائيا لهم أن ما سمعوه من جوابه عليه الصلاة والسلام مع كونه مما لا يليق بان يعتد به أمر حقيق بان يتعجب منه كأنه قال ألا تستمعون ما يقوله فاستمعوه وتعجبوا منه حيث يدعى خلاف أمر محقق لا اشتباه فيه يريد به ربوبية نفسه (قال) عليه الصلاة والسلام تصريحا بما كان مندرجا تحت جوابيه السابقين (ربكم ورب آبائكم الاولين) وحطا له من ادعاء الربوبية الى مرتبة المربوبية (قال) أى فرعون لما واجهه موسى عليه السلام بما ذكر غاظه ذلك وخاف من تأثر قومه منه فاراهم أن ما قاله عليه الصلاة والسلام مما لا يصدر عن العقلاء صدا لهم عن قبوله فقال

جاهلا يقول انه استحال وتكون جسما آخر لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما
النطفة فابداع النطق والفهم أعجب وأغرب من ابداع الخلق والجسم وهو الى ادراك القدرة والاختيار
منه أقرب فقوله خصيم أى ناطق وانما ذكر الخصيم مكان الناطق لانه أعلى أحوال الناطق فان الناطق
مع نفسه لا يبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره والمتكلم مع غيره اذا لم يكن خصما لا يبين ولا
يجتهد مثل ما يجتهد اذا كان كلامه مع خصمه وقوله مبين اشارة الى قوة عقله واختار الابانة لان العاقل
عند الافهام أعلى درجة منه عند عدمه لان المبين بان عنده الشئ ثم أبانه فقوله تعالى من نطفة اشارة
الى أدنى ما كان عليه وقوله خصيم مبين اشارة الى أعلى ما حصل عليه وهذا مثل قوله تعالى ثم خلقنا
النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الى أن قال تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر فما تقدم من خلق النطفة علقة
وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظاما اشارة الى التغيرات فى الجسم وقوله ثم انشأناه خلقا آخر اشارة
الى ما أشار اليه بقوله فاذا هو خصيم مبين أى ناطق عاقل ۞ ثم قوله تعالى ﴿وضرب لنا مثلا ونسى خلقه﴾
اشارة الى بيان الحشر وفى هذه الآيات الى آخر السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الامكان ان شاء
الله تعالى فنقول المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلا ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة
وهم الاكثرون ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم فى كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال وقالوا أئذا
ضللنا فى الارض أئنا لفى خلق جديد أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أئنك لمن المصدقين أئذا
متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون الى غير ذلك فكذلك ههنا قال ﴿قال من يحيى العظام وهى رميم﴾ على
طريق الاستبعاد فبدأ أولا بابطال استبعادهم بقوله ونسى خلقه أى نسى أنا خلقناه من تراب ومن نطفة
متشابهة الاجزاء ثم جعلنا لهم من النواصى الى الاقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك
حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الاجرام وهو النطق والعقل الذى بهما استحقوا الاكرام فان كانوا
يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلا
ويستبعدون اعادة النطق والعقل الى محل كانا فيه ثم ان استبعادهم كان من جهة ما فى المعاد من
التفتت والتفرق حيث قالوا من يحيى العظام وهى رميم اختاروا العظم للذكر لانه أبعد عن الحياة لعدم
الاحساس فيه ووصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلى والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من
جهة ما فى المعيد من القدرة والعلم فقال وضرب لنا مثلا أى جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب
وبدأه الغريب ومنهم من ذكر شبهة وان كانت فى آخرها تعود الى مجرد الاستبعاد وهى على وجهين
(أحدهما) انه بعد العدم لم يبق شيأ فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود ۞ وأجاب عن هذه الشبهة
بقوله تعالى ﴿قل يحييها الذى أنشأها أول مرة﴾ يعنى كما خلق الانسان ولم يكن شيأ مذكورا كذلك
يعيده وان لم يبق شيأ مذكورا (وثانيهما) أن من تفرق أجزاؤه فى مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه فى
أبدان السباع وبعضه فى جدران الرباع كيف يجمع وأبعد من هذا هو أن انسانا اذا أكل انسانا وصار
أجزاء المأكول فى أجزاء الآكل فان أعيد فأجزاء المأكول اما أن تعاد الى بدن الآكل فلا يبقى
للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه واما أن تعاد الى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء فقال تعالى
فى ابطال هذه الشبهة ﴿وهو بكل خلق عليم﴾ ووجهه هو أن فى الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية وفى
المأكول كذلك فاذا أكل انسان انسانا صار الاصلى من أجزاء المأكول فضليا من أجزاء الآكل
والاجزاء الاصلية للآكل هى ما كان له قبل الاكل والله بكل خلق عليم يعلم الاصلى من الفضلى فيجمع
الاجزاء الاصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الاجزاء الاصلية للمأكول وينفخ فيها روحه وكذلك
يجمع الاجزاء المتفرقة فى البقاع المبددة فى الاصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة ۞ ثم انه تعالى عاد
الى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وابطال انكارهم وعنادهم فقال تعالى ﴿الذى جعل لكم من الشجر
الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون﴾ ووجهه هو ان الانسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه
وهى كحرارة جارية فيه فان استبعد ثم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه فان النار فى الشجر الاخضر
الذى يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون وان استبعد ثم خلق جسمه فخلق

مؤكدا المقالته الشنعاء بحرفى
التأكيد (ان رسولكم الذى
أرسل اليكم لمجنون) ليفتنهم
بذلك ويصرفهم عن قبول الحق
وسماه رسولا بطريق الاستهزاء
وأضافه الى مخاطبيه ترفعا من أن
يكون مرسلا الى نفسه (قال)
عليه الصلاة والسلام (رب المشرق
والمغرب وما بينهما) قاله عليه
الصلاة والسلام تكميلا لجوابه
الاول وتفسيرا له وتنبيها على جهلهم
وعدم فهمهم لمعنى مقالته فان
بيان ربوبيته تعالى للسموات
والارض وما بينهما وان كان متضمنا
لبيان ربوبيته تعالى للخافقين وما
بينهما لكن لما لم يكن فيه تصريح
باستناد حركات السموات وما فيها
وتغيرات أحوالها وأوضاعها
وكون الارض تارة مظلمة وأخرى
منورة الى الله تعالى أرشدهم الى
طريق معرفة ربوبيته تعالى لما ذكر
فان ذكر المشرق والمغرب منبئ
عن شروق الشمس وغروبها
المنوطين بحركات السموات وما
فيها على نمط بديع يترتب عليه
هذه الاوضاع الرصينة وكل ذلك
أمور حادثة مفتقرة الى محدث
قادر عليم حكيم لا كذوات السموات
والارض التى ربما يتوهم جهلة
المتوهمين باستمرارها استغناءها
عن الموجد المتصرف (ان كنتم
تعقلون) أى ان كنتم تعقلون شيأ
من الاشياء أو ان كنتم من أهل
العقل علمتم أن الامر كما قلته وفيه
ايذان بغاية وضوح الامر بحيث
لا يشتبه على من له عقل فى الجملة
وتلويح بانهم بمعزل من دائرة العقل
وانهم المتصفون بما رموه عليه
السلام به من الجنون (قال) لما
سمع اللعين منه عليه الصلاة
والسلام تلك المقالات المبنية على
أساس الحكم البالغة وشاهدشدة

السموات والارض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فان الله خالق السموات والارض فبان لطف قوله تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون ۞ وقوله تعالى ﴿أوليس الله خالق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ قدم ذكر النار فى الشجر على ذكر الخلق الاكبر لان استبعادهم كان بالصريح واقعا على الاحياء حيث قالوا من يحيى العظام ولم يقولوا من يجمعها و يؤلفها والنار فى الشجر تناسب الحياة ۞ وقوله تعالى ﴿بلى وهو الخلاق﴾ اشارة الى انه فى القدرة كامل ۞ وقوله تعالى ﴿العليم﴾ اشارة الى ان علمه شامل ۞ ثم أكد بيانه بقوله تعالى ﴿انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون﴾ وهذا اظهار فساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا لله مثلا وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا قياسا للغائب على الشاهد فقال فى الشاهد الخلق يكون بالآلات البدنية والانتقالات المكانية ولا يقع الا فى الازمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون فكيف تضربون المثل الادنى وله المثل الاعلى من أن يدرك وفى الآية مباحث (البحث الاول) قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن المعدوم شئ لانه يقول لما أراده كن فيكون فهو قبل القول له كن لا يكون وهو فى تلك الحالة شئ حيث قال انما أمره اذا أراد شيأ والجواب ان هذا بيان لعدم تخلف الشئ عن تعلق ارادته به فقوله اذا مفهوم الحين والوقت والآية دالة على أن المراد شئ حين تعلق الارادة به ولا دلالة فيها على أنه شئ قبل ما اذا أراد وحينئذ لا يرد ما ذكروه لان الشئ حين تعلق الارادة به شئ موجود لا يريده فى زمان ويكون فى زمان آخر بل يكون فى زمان تعلق الارادة فاذا الشئ هو الموجود لا المعدوم لا يقال كيف يريد الموجود وهو موجود فيكون ذلك ايجاد الموجود نقول هذا الاشكال من باب المعقولات ونجيب عنه فى موضعه وانما غرضنا ابطال تمسكهم باللفظ وقد ظهر أن المفهوم من هذا الكلام انه يريد ما هو شئ اذا أراد وليس فى الآية أنه اذا أراد ما كان شيأ قبل تعلق الارادة (البحث الثانى) قالت الكرامية لله ارادة محدثة بدليل قوله تعالى اذا أراد ووجه دلالته من أمرين (أحدهما) من حيث انه جعل للارادة زمانا فان اذا ظرف زمان وكل ما هو زمانى فهو حادث (وثانيهما) هو أنه تعالى جعل ارادته متصلة بقوله كن وقوله كن متصل بكون الشئ ووقوعه لانه تعالى قال فيكون بفاء التعقيب لكن الكون حادث وما قبل الحادث متصل به حادث والفلاسفة وافقوهم فى هذا الاشكال من وجه آخر فقالوا ارادته متصلة بأمره وأمره متصل بالكون لكن ارادته قديمة فالكون قديم فكونات الله قديمة وجواب الضالين من التمسك باللفظ هو أن المفهوم من قوله اذا أراد من حيث اللغة اذا تعلقت ارادته بالشئ لان قوله أراد فعل ماض واذا دخلت كلمة اذا على الماضى تجعله فى معنى المستقبل ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد و يريد وعلم ويعلم يجوز أن يدخله الحدوث وانما نقول لله تعالى صفة قديمة هى الارادة وتلك الصفة اذا تعلقت بشئ نقول أراد و يريد وقبل التعلق لا نقول أراد وانما نقول له ارادة وهو بها مريد ولنضرب مثالا للافهام الضعيفة ليزول ما يقع فى الاوهام السخيفة فنقول قولنا فلان خياط يراد به ان له صنعة الخياطة فلو لم يصح منا أن نقول انه خاط ثوب زيد او يخيط ثوب زيد لا يلزم منه نفى صحة قولنا انه خياط بمعنى ان له صنعة بها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان ماض خاط ثوبه وبها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان مستقبل يخيط ثوبه ولله المثل الاعلى فافهم أن الارادة أمر ثابت ان تعلقت بوجود شئ نقول أراد وجوده أى يريد وجوده واذا علمت هذا فهو فى المعنى من كلام أهل السنة تعلق الارادة حادث وخرج بما ذكرنا جواب الفريقين (البحث الثالث) قالت المعتزلة والكرامية كلام الله حرف وصوت وحادث لان قوله كن كلام وكن من حرفين والحرف من الصوت ويلزم من هذا ان كلامه من الحروف والاصوات وأما انه حادث فلما تقدم من الوجهين (أحدهما) انه زمانى (والثانى) أنه متصل بالكون والكون حادث والجواب يعلم مما ذكرنا وذلك لان الكلام صفة اذا تعلقت بشئ نقول قال و يقول فتعلق الخطاب حادث والكلام قديم فقوله تعالى انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فيه تعلق واضافة لان قوله تعالى يقول له باللام للاضافة صريح فى التعلق ونحن نقول ان قوله للشئ الحادث حادث لانه مع التعلق وانما القديم قوله وكلامه لا مع التعلق وكل قديم وحادث اذا نظرت الى مجموعهما لا تجدهما فى الازل وانما تجدهما جميعا فيما لا يزال فله معنى

حزمه وقوة عزمه على تمشية أمره وانه ممن لا يجارى فى حلبة المحاورة ضرب صفحا عن المقاولة بالانصاف ونأى بجانبه الى عدوة الجور والاعتساف فقال مظهرا لما كان يضمره عند السؤال والجواب (لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين) لم يقتنع منه عليه الصلاة والسلام بترك دعوى الرسالة وعدم التعرض له حتى كلفه عليه الصلاة والسلام أن يتخذه الها لغاية عتوه وغلوه فيما فيه من دعوى الالوهية وهذا صريح فى أن تعجبه وتعجيبه من الجواب الاول ونسبته عليه الصلاة والسلام الى الجنون فى الجواب الثانى كان لنسبته عليه الصلاة والسلام الربوبية الى غيره وأما ما قيل من أن سؤاله كان عن حقيقة المرسل وتعجبه من جوابه كان لعدم مطابقته له لكونه بذكر أحواله فلا يساعده النظم الكريم ولا حال فرعون ولا مقاله واللام فى المسجونين للعهد أى لاجعلنك ممن عرفت أحوالهم فى سجونى حيث كان يطرحهم فى هوة عميقة حتى يموتوا ولذلك لم يقل لاسجننك (قال أولو جئتك بشئ مبين) أى أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشئ مبين أى موضح لصدق دعواى يريد به المعجزة فانها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده والتعبير عنها بالشئ للتهويل قالوا الواو فى أولو جئتك للحال دخلت عليها همزة الاستفهام أى جائيا بشئ مبين وقد سلف منا مرارا أنها للعطف وأن كلمة لو ليست لانتفاء الشئ فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف تعويلا على دلالة ما قبلها عليه ملاحظة

الحدوث ولكن الاطلاق موهم فتفكر جدا ولا تقل المجموع حادث من غير بيان مراد لك فان ذلك قد يفهم منه ان الجميع حادث بل حقق الاشارة وجود العبارة وقل أحد طرفي المجموع قديم والآخر حادث ولم يكن الآخر معه في الازل وأما قوله كن من الحروف نقول الكلام يطلق على معنيين (أحدهما) ماعند المتكلم (والثاني) ماعند السامع ثم ان أحدهما يطلق عليه انه هو الآخر ومن هذا يظهر فوائد أما بيان ماذكرناه فلان الانسان اذا قال لغيره عندي كلام أريد أن أقوله لك غدا ثم ان السامع أتاه غدا وسأله عن الكلام الذي كان عنده أمس فيقول له اني أريد أن تحضر عندي اليوم فهذا الكلام أطلق عليه المتكلم انه كان عندك أمس ولم يكن عند السامع ثم حصل عند السامع بحرف وصوت ويطلق عليه أن هذا الذي سمعت هو الذي كان عندي ويعلم كل عاقل أن الصوت لم يكن عند المتكلم أمس ولا الحرف لان الكلام الذي عنده جاز أن يذكره بالعربي فيكون له حروف وجاز أن يذكره بالفارسية فيكون له حروف أخر والكلام الذي عنده ووعد به واحد والحروف مختلفة كثيرة فاذا معنى قوله هذا ما كان عندي هو ان هذا يؤدي اليك ما كان عندي وهذا أيضا مجاز لان الذي عنده ما انتقل اليه وانما علم ذلك وحصل عنده به علم مستفاد من السمع أو البصر في القراءة والكتابة أو الاشارة اذا علمت هذا فالكلام الذي عند الله وصفة له ليس بحرف على ما بان والذي يحصل عند السامع حرف وصوت وأحدهما الآخر لما ذكرنا من المعنى وتوسع الاطلاق فاذا قال تعالى يقول له حصل قائل وسامع فاعتبرها من جانب السامع لكون وجود الفعل من السامع لذلك القول فعبر عنه بالكاف والنون الذي يحدث عند السامع ويحدث به المطلوب ۞ ثم قال تعالى ﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ واليه ترجعون﴾ لما تقررت الوحدانية والاعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة قال تعالى وتنزه عن الشريك الذي بيده ملكوت كل شئ وكل شئ ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكا وقالوا بأن الاعادة لا تكون فقال واليه ترجعون ردا عليهم في الامرين وقد ذكرنا ما يتعلق بالنحو في قوله سبحان أي سبحوا تسبيح الذي أو سبح من في السموات والارض تسبيح الذي فسبحان علم للتسبيح والتسبيح هو التنزيه والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت وهو فعلول أو فعلوت فيه كلام ومن قال هو فعلول جعلوه ملحقا به ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان لكل شئ قلبا وقلب القرآن يس وقال الغزالي فيه ان ذلك لان الايمان صحته بالاعتراف بالحشر والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه فجعله قلب القرآن لذلك واستحسنه فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام ويمكن ان يقال بأن هذه السورة ليس فيها الا تقرير الاصول الثلاثة بأقوى البراهين فابتداؤها بيان الرسالة بقوله انك لمن المرسلين ودليلها ما قدمه عليها بقوله والقرآن الحكيم وما أخره عنها بقوله لتنذر قوما وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ اشارة الى التوحيد وقوله واليه ترجعون اشارة الى الحشر وليس في هذه السورة الا هذه الاصول الثلاثة ودلائله وثوابه ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذي بالجنان وأما وظيفة اللسان التي هي القول فكما في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا وفي قوله تعالى ومن أحسن قولا وقوله تعالى بالقول الثابت وألزمهم كلمة التقوى واليه يصعد الكلم الطيب الى غير هذه مما في غير هذه السورة ووظيفة الاركان وهو العمل كما في قوله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقوله تعالى ولا تقربوا الزنا ولا تقتلوا النفس وقوله واعملوا صالحا أيضا مما في غير هذه السورة فلما لم يكن فيها الا أعمال القلب لا غير سماها قلبا ولهذا ورد في الاخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم ندب الى تلقين يس لمن دنا منه الموت وقراءتها عند رأسه لان في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة والاعضاء الظاهرة ساقطة البنية لكن القلب يكون قد أقبل على الله ورجع عن كل ما سواه فيقرأ عند رأسه ما يزاد به قوة قلبه ويشتد تصديقه بالاصول الثلاثة وهي شفاء له وأسرار كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلمها الا الله ورسوله وما ذكرناه ظن لا نقطع به ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين ۞ تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين

﴿سورة الصافات مائة واثنان وثمانون آية مكية﴾

(بسم

قصدية الا عند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هي لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ما عداه من الاحوال بطريق الاولوية لما أن الشئ متى تحقق مع المنافي القوي فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شئ من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها ليظهر ما ذكر من تحقق الحكم على جميع الاحوال فانك اذا قلت فلان جواد يعطي ولو كان فقيرا تريد بيان تحقق الاعطاء منه على كل حال من أحواله المفروضة فتعلق الحكم بأبعدها منه ليظهر بتحققه معه تحققه مع ما عداه من الاحوال التي لا منافاة بينها وبين الحكم بطريق الاولوية المصححة للاكتفاء بذكر العاطف عن تفصيلها كأنك قلت فلان جواد يعطي لو لم يكن فقيرا ولو كان فقيرا أي يعطي حال كونه غنيا وحال كونه فقيرا فالحال في الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفتين لا المذكورة على أن الواو للحال وتصدير المجيء بما ذكر من كلمة لو دون ان ليس لبيان استبعاده في نفسه بل بالنسبة الى فرعون والمعنى أتفعل بي ذلك حال عدم مجيئي بشئ مبين وحال مجيئي به (قال فأت به ان كنت من الصادقين) أي فيما يدل عليه كلامك من أنك تأتي بشئ مبين موضح لصدق دعواك أو في دعوى الرسالة وجواب الشرط

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ان الهكم لواحد رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق﴾ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو وحمزة والصافات صفا بادغام التاء فيما يليه وكذلك فى قوله فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا والباقون بالاظهار وقال الواحدى رحمه الله ادغام التاء فى الصاد حسن لمقاربة الحرفين ألا ترى انهما من طرف اللسان وأصول الثنايا يسمعان فى الهمس والمدغم فيه يزيد على المدغم بالاطباق والصفير وادغام الانقص فى الازيد حسن ولا يجوز ان يدغم الازيد صوتا فى الانقص وأيضا ادغام التاء فى الزاى فى قوله فالزاجرات زجرا حسن لان التاء مهموسة والزاى مجهورة وفيها زيادة صفير كما كان فى الصاد وأيضا حسن ادغام التاء فى الذال فى قوله فالتاليات ذكرا لاتفاقهما فى انهما من طرف اللسان وأصول الثنايا واما من قرأ بالاظهار وترك الادغام فذلك لاختلاف المخارج والله أعلم (المسئلة الثانية) فى هذه الاشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل أن تكون صفات ثلاثة لموصوف واحد ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة اما على التقدير الاول ففيه وجوه (الاول) انها صفات الملائكة وتقديره ان الملائكة يقفون صفوفا اما فى السموات لاداء العبادات كما أخبر الله عنهم انهم قالوا وانا لنحن الصافون وقيل انهم يصفون أجنحتهم فى الهواء ويقفون منتظرين وصول أمر الله اليهم ويحتمل أيضا أن يقال معنى كونهم صفوفا أن لكل واحد منهم مرتبة معينة ودرجة معينة فى الشرف والفضيلة أو فى الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف وأما قوله فالزاجرات زجرا فقال الليث يقال زجرت البعير فانا أزجره زجرا اذا أحثثته ليمضى وزجرت فلانا عن سوء فانزجر أى نهيته فانتهى فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللانسان كالنهى اذا عرفت هذا فنقول فى وصف الملائكة بالزجر وجوه (الاول) قال ابن عباس يريد الملائكة الذين وكلوا بالسحاب يزجرونها بمعنى انهم يأتون بها من موضع الى موضع (الثانى) المراد منه ان الملائكة لهم تأثيرات فى قلوب بنى آدم على سبيل الالهامات فهم يزجرونهم عن المعاصى زجرا (الثالث) لعل الملائكة أيضا يزجرون الشياطين عن التعرض لبنى آدم بالشر والايذاء وأقول قد ثبت فى العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الاثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الموجودات ومتأثر لا يؤثر وهو عالم الاجسام وهو أخس الموجودات وموجود يؤثر فى شئ ويتأثر عن شئ آخر وهو عالم الارواح وذلك لانها تقبل الاثر عن عالم كبرياء الله ثم انها تؤثر فى عالم الاجسام واعلم أن الجهة التى باعتبارها تقبل الاثر من عالم كبرياء الله غير الجهة التى باعتبارها تستولى على عالم الاجسام وتقدر على التصرف فيها وقوله فالتاليات ذكرا اشارة الى الاشرف من الجهة التى باعتبارها تقوى على التأثير فى عالم الاجسام اذا عرفت هذا فقوله والصافات صفا اشارة الى وقوفها صفا صفا فى مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهى الجهة التى باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الانوار الالهية والكمالات الصمدية وقوله تعالى فالزاجرات زجرا اشارة الى تأثير الجواهر الملكية فى تنوير الارواح القدسية البشرية واخراجها من القوة الى الفعل وذلك لما ثبت أن هذه الارواح النطقية البشرية بالنسبة الى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة الى البحر وكالشعلة بالنسبة الى الشمس وان هذه الارواح البشرية انما تنتقل من القوة الى الفعل فى المعارف الالهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده وقوله نزل به الروح الامين على قلبك وقوله تعالى فالملقيات ذكرا اذا عرفت هذا فنقول فى هذه الآية دقيقة أخرى وهى ان الكمال المطلق للشئ انما يحصل اذا كان تاما وفوق التام والمراد بكونه تاما أن تحصل جميع الكمالات اللائقة به حصولا بالفعل والمراد بكونه فوق التام أن تفيض منه أصناف الكمالات والسعادات على غيره ومن المعلوم ان كونه كاملا فى ذاته مقدم على كونه مكملا لغيره اذا عرفت هذا فقوله والصافات صفا اشارة الى استكمال جواهر الملائكة فى ذواتها وقت وقوفها فى مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة وقوله تعالى فالزاجرات زجرا اشارة الى كيفية تأثيراتها فى ازالة ما لا ينبغى عن جواهر الارواح البشرية وقوله تعالى فالتاليات ذكرا اشارة الى كيفية تأثيراتها فى افاضة

محذوف لدلالة ما قبله عليه (فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين) أى ظاهر ثعبانيته لا أنه شئ يشبهه واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فانثعب أى فجرته فانفجر وقد مر بيان كيفية الحال فى سورة الاعراف وسورة طه (ونزع يده من جيبه (فاذا هى بيضاء للناظرين) قيل لما رأى فرعون الآية الاولى وقال هل لك غيرها فاخرج يده فقال ما هذه قال فرعون يدك فما فيها شئ فادخلها فى ابطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الابصار ويسد الافق (قال للملا حوله) أى مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال (ان هذا لساحر عليم) فائق فى فن السحر (يريد أن يخرجكم) قسرا (من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية الى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه والامتثال بأمرهم أو الى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا فى الرأى والتدبير وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبة الاخراج والارض اليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام (قالوا أرجه وأخاه) أخر أمرهما وقيل احبسهما (وابعث فى المدائن حاشرين) أى شرطا يحشرون السحرة (يأتوك) أى الحاشرون (بكل سحار عليم) فائق فى فن السحر وقرئ بكل ساحر (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) هو ما عينه موسى عليه السلام بقوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) قيل لهم ذلك استبطاء لهم فى الاجتماع وحثا لهم على المبادرة اليه (لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين) أى نتبعهم

الجلايا القدسية والانوار الالهية على الارواح الناطقة البشرية فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الالفاظ الثلاثة قال أبو مسلم الاصفهانى لايجوز حمل هذه الالفاظ على الملائكة لانها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرؤن عن هذه الصفة والجواب من وجهين (الاول) ان الصافات جمع الجمع فانه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات (والثانى) انهم مبرؤن عن التأنيث المعنوى أما التأنيث فى اللفظ فلا وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة فى هذا (الوجه الثانى) ان تحمل هذه الصفات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الارض وبيانه من وجهين (الاول) ان قوله تعالى والصافات صفا المراد الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله فالزاجرات زجرا اشارة الى قراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن القاء الوساوس فى قلوبهم فى أثناء الصلاة وقوله فالتاليات ذكرا اشارة الى قراءة القرآن فى الصلاة وقيل فالزاجرات زجرا اشارة الى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت روى انه صلى الله عليه وسلم طاف على بيوت أصحابه فى الليالى فسمع أبا بكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع فسأل أبا بكر لم تقرأ هكذا فقال المعبود سميع عليم وسأل عمر لم تقرأ هكذا فقال أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان (الوجه الثانى) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاث فى هذه الآية ان المراد من قوله والصافات صفا الصفوف الحاصلة من العلماء المحققين الذين يدعون الى دين الله تعالى والمراد من قوله والزاجرات زجرا اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات والمراد من قوله تعالى فالتاليات ذكرا اشتغالهم بالدعوة الى دين الله والترغيب فى العمل بشرائع الله (الوجه الثالث) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاثة أن نحملها على أحوال الغزاة والمجاهدين فى سبيل الله فقوله والصافات صفا المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا وأما الزاجرات زجرا فالزجرة والصيحة سواء والمراد منه رفع الصوت بزجر الخيل وأما التاليات ذكرا فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهم فى محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله تعالى بالتهليل والتقديس (الوجه الرابع) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاثة ان نجعلها صفات لآيات القرآن فقوله والصافات صفا المراد آيات القرآن فانها أنواع مختلفة بعضها فى دلائل التوحيد وبعضها فى دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها فى دلائل النبوة وبعضها فى دلائل المعاد وبعضها فى بيان التكاليف والاحكام وبعضها فى تعليم الاخلاق الفاضلة وهذه الآيات مرتبة ترتيبا لايتغير ولا يتبدل فهذه الآيات تشبه أشخاصا واقفين فى صفوف معينة وقوله فالزاجرات زجرا المراد منه الآيات الزاجرة عن الافعال المنكرة وقوله فالتاليات ذكرا المراد منه الآيات الدالة على وجوب الاقدام على أعمال البر والخير وصف الآيات بكونها تالية على قانون ما يقال شعر شاعر وكلام قائل قال تعالى ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم وقال يس والقرآن الحكيم قيل الحكيم بمعنى الحاكم فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير ان تجعل هذه الالفاظ الثلاثة صفات لشئ واحد (وأما الاحتمال الثانى) وهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة أشياء متغايرة فقيل المراد بقوله والصافات صفا الطير من قوله تعالى والطير صافات والزاجرات كل ما زجر عن معاصى الله والتاليات كل ما يتلى من كتاب الله وأقول فيه وجه آخر وهو أن مخلوقات الله اما جسمانية واما روحانية أما الجسمانية فانها مرتبة على طبقات ودرجات لاتتغير البتة فالارض وسط العالم وهى محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء والهواء محفوف بالنار ثم هذه الاربعة محفوفة بكرات الافلاك الى آخر العالم الجسمانى فهذه الاجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى وأما الجواهر الروحانية الملكية فهى على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة فى صفتين (أحدهما) التأثير فى عالم الاجسام بالتحريك والتصريف واليه الاشارة بقوله فالزاجرات زجرا فانا بينا أن المراد من هذا الزجر السوق والتحريك (والثانى) الادراك والمعرفة والاستغراق فى معرفة الله تعالى والثناء عليه واليه الاشارة بقوله تعالى فالتاليات ذكرا ولما كان الجسم أدنى منزلة من الارواح المستقلة فالتصرف فى الجسمانيات أدون منزلة من الارواح المستغرقة فى معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال ومن عنده لايستكبرون عن عبادته لاجرم بدأ فى المرتبة

فى دينهم ان كانوا هم الغالبين لا موسى عليه السلام وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة وانما هو أن لا يتبعوا موسى عليه السلام لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية حملا لهم على الاهتمام والجد فى المغالبة (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لاجرا) أى أجرا عظيما (ان كنا نحن الغالبين) لا موسى عليه السلام (قال نعم) لكم ذلك (وانكم) مع ذلك (اذا لمن المقربين) عندى قيل قال لهم تكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج عنى وقرئ نعم بكسر العين وهما لغتان (قال لهم موسى) أى بعدما قال له السحرة اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى (ألقوا ما أنتم ملقون) ولم يرد به الامر بالسحر والتمويه بل الاذن فى تقديم ما هم فاعلوه البتة توسلا به الى اظهار الحق وابطال الباطل (فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا) أى وقد قالوا عند الالقاء (بعزة فرعون انا لنحن الغالبون) قالوا ذلك لفرط اعتقادهم فى أنفسهم واتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر (فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف) أى تبتلع بسرعة وقرئ تلقف بحذف احدى التاءين من تتلقف (ما يأفكون) أى ما يقلبونه من وجهه وصورته بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى أو افكهم تسمية للمأفوك به مبالغة (فألقى السحرة ساجدين) أى اثر ما شاهدوا ذلك من غير تلعثم وتردد غير متمالكين كأن ملقيا ألقاهم لعلمهم بان مثل ذلك خارج عن حدود السحر وانه أمر الهى قد ظهر على يده عليه الصلاة والسلام لتصديقه وفيه دليل على

الاولى بذكر الاجسام فقال والصافات صفا ثم ذكر فى المرتبة الثانية الارواح المدبرة لاجسام هذا العالم ثم ذكر فى هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهى الارواح المقدسة المتوجهة بكليتها الى معرفة جلال الله والاستغراق فى الثناء عليه فهذه احتمالات خطرت بالبال والعالم بأسرار كلام الله تعالى ليس الا الله (المسئلة الثالثة) للناس فى هذا الموضع قولان (الاول) قول من يقول المقسم به ههنا خالق هذه الاشياء لا أعيان هذه الاشياء واحتجوا عليه بوجوه (الاول) انه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله (والثانى) ان الحلف بالشئ فى مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به ومثل هذا التعظيم لا يليق الا بالله (الثالث) أن هذا الذى ذكرناه تأكد بما أنه تعالى صرح به فى بعض السور وهو قوله تعالى والسماء وما بناها والارض وما طحاها ونفس وما سواها (والقول الثانى) قول من يقول ان القسم واقع بأعيان هذه الاشياء واحتجوا عليه بوجوه (الاول) أن القسم وقع بهذه الاشياء بحسب ظاهر اللفظ والعدول عنه خلاف الدليل (والثانى) أنه تعالى قال والسماء وما بناها فعلق لفظ القسم بالسماء ثم عطف عليه القسم بالبانى للسماء فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار فى موضع واحد وانه لا يجوز (الثالث) انه لا يبعد أن تكون الحكمة فى قسم الله تعالى بهذه الاشياء التنبيه على شرف ذواتها وكمال حقائقها اسيما اذا حملنا هذه الالفاظ على الملائكة فانه تكون الحكمة فى القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها والله أعلم فان قيل ذكر الحلف فى هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه (الاول) ان المقصود من هذا القسم اما اثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر والاول باطل لان المؤمن مقر به من غير هذا الحلف والثانى باطل لان الكافر لا يقر به سواء حصل الحلف أو لم يحصل فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات (الثانى) انه تعالى حلف فى أول هذه السورة على ان الاله واحد وحلف فى أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال والذاريات ذروا الى قوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع واثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لا يليق بالعقلاء والجواب من وجوه (الاول) انه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة فى سائر السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيد لما تقدم لاسيما والقرآن انما أنزل بلغة العرب واثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (والوجه الثانى فى الجواب) انه تعالى لما أقسم بهذه الاشياء على صحة قوله تعالى ان الهكم لواحد ذكر عقيبه ما هو كالدليل اليقينى فى كون الاله واحدا وهو قوله تعالى رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق وذلك لانه تعالى بين فى قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ان انتظام أحوال السموات والارض يدل على ان الاله واحد فههنا لما قال ان الهكم لواحد أردفه بقوله رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق كأنه قيل قد بينا ان النظر فى انتظام هذا العالم يدل على كون الاله واحدا فتأملوا فى ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد (الوجه الثالث) فى الجواب ان المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام فى قولهم بانها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ فى السقوط والركاكة الى حيث يكفى فى ابطالها مثل هذه الحجة والله أعلم (المسئلة الرابعة) اما دلالة أحوال السموات والارض على وجود الاله القادر العالم الحكيم وعلى كونه واحدا منزها عن الشريك فقد سبق تقريرها فى هذا الكتاب مرارا وأطوارا وأما قوله تعالى ورب المشارق فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدى المشارق ثلثمائة وستون مشرقا وكذلك المغارب فانه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم فى مغرب ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لان لكل كوكب مشرقا ومغربا فان قيل لم اكتفى بذكر المشارق قلنا لوجهين (الاول) أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله تقيكم الحر (والثانى) أن الشروق أقوى حالا من الغروب وأكثر نفعا من الغروب فذكر الشرق تنبيها على كثرة احسان الله تعالى على عباده ولهذه الدقيقة استدل ابراهيم عليه السلام بالمشرق فقال ان الله يأتى بالشمس من المشرق (المسئلة الخامسة) احتج الاصحاب بقوله تعالى رب السموات والارض وما بينهما على كونه تعالى خالقا لاعمال العباد قالوا لان أعمال العباد موجودة فيما بين السموات والارض وهذه الآية

ان قصارى ما ينتهى اليه همم السحرة هو التمويه والتزوير وتخييل شئ لا حقيقة له (قالوا آمنا برب العالمين) بدل اشتمال من ألقى أو حال باضمار قد وقوله تعالى (رب موسى وهرون) بدل من رب العالمين للتوضيح ودفع توهم ارادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك وللاشعار بان الموجب لايمانهم به تعالى ما أجراه على أيديهما من المعجزة القاهرة (قال) أى فرعون للسحرة (آمنتم له قبل أن آذن لكم) أى بغير أن آذن لكم كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لا أن الاذن منه ممكن أو متوقع (انه لكبيركم الذى علمكم السحر) فتواطأتم على ما فعلتم أو علمكم شيأ دون شئ فلذلك غلبكم أراد بذلك التلبيس على قومه كى لا يعتقدوا انهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق وقرئ أآمنتم بهمزتين (فلسوف تعلمون) أى وبال ما فعلتم وقوله (لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين) بيان لما أوعدهم به (قالوا) أى السحرة (لا ضير) لا ضرر فيه علينا وقوله تعالى (انا الى ربنا منقلبون) تعليل لعدم الضير أى لا ضير فى ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم أولا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل انه لا بد لنا من الانقلاب الى ربنا بسبب من أسباب الموت والقتل أهونها وأرجاها وقوله تعالى (انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا) أى لان كنا (أول المؤمنين) أى من أتباع فرعون أو من أهل المشهد تعليل ثان لنفى الضير أى لا ضير علينا فى قتلك انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا لكوننا أول

دالة على ان كل ما حصل بين السموات والارض فالله ربه ومالكه فهذا يدل على ان فعل العبد حصل بخلق الله وان قالوا الاعراض لا يصح وصفها بانها حصلت بين السموات والارض لان هذا الوصف انما يليق بما يكون حاصلا فى حيز وجهة والاعراض ليست كذلك قلنا انها لما كانت حاصلة فى الاجسام الحاصلة بين السموات والارض فهى أيضا حاصلة بين السماء والارض ﴿ ثم قال تعالى ﴿انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون الى الملا الاعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة وحفص عن عاصم زينة منونة الكواكب بالجر وهو قراءة مسروق بن الاجدع قال الفراء وهو رد معرفة على نكرة كما قال بالناصية ناصية فرد نكرة على معرفة وقال الزجاج الكواكب بدل من الزينة لانها هى كما تقول مررت بأبى عبد الله زيد وقرأ عاصم بالتنوين فى الزينة ونصب الكواكب قال الفراء يريد زينا الكواكب وقال الزجاج يجوز أن تكون الكواكب فى النصب بدلا من قوله بزينة لان بزينة فى موضع نصب وقرأ الباقون بزينة الكواكب بالجر على الاضافة (المسئلة الثانية) بين تعالى انه زين السماء الدنيا وبين انه انما زينها لمنفعتين (احداهما) تحصيل الزينة (والثانية) الحفظ من الشيطان المارد فوجب ان نحقق الكلام فى هذه المطالب الثلاثة (أما الاول) وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب فلقائل أن يقول انه ثبت فى علم الهيئة ان هذه الثوابت مركوزة فى الكرة الثامنة وان السيارات الستة مركوزة فى الكرات الستة المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب والجواب أن الناس الساكنين على سطح كرة الارض اذا نظروا الى السماء فانهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب فصح قوله تعالى انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وعلى انا قد بينا فى علم الهيئة ان الفلاسفة لم يتم لهم دليل فى بيان ان هذه الكواكب مركوزة فى الفلك الثامن ولعلنا شرحنا هذا الكلام فى تفسير سورة تبارك الذى بيده الملك فى تفسير قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح (وأما المطلوب الثانى) وهو كون هذه الكواكب زينة السماء الدنيا ففيه بحثان (البحث الاول) ان الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزان به كالليقة اسم لما تلاق به الدواة قال صاحب الكشاف وقوله بزينة الكواكب يحتملهما فان أردت المصدر فعلى اضافته الى الفاعل أى بأن زينتها الكواكب أو على اضافته الى المفعول اى بأن زان الله الكواكب وحسنها لانها انما زينت السماء بحسنها فى أنفسها وان أردت الاسم فللاضافة وجهان أن تقع الكواكب بيانا للزينة لان الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها وان يراد ما زينت به الكواكب (البحث الثانى) فى بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء وجوه (الاول) أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها فان تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة فى سطح الفلك لا جرم بقى الضوء والنور فى جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس بزينة الكواكب أى بضوء الكواكب (الوجه الثانى) يجوز أن يراد اشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها (الوجه الثالث) يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها (الوجه الرابع) ان الانسان اذا نظر فى الليلة الظلماء الى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الازرق فلا شك أنها أحسن الاشياء وأكملها فى التركيب والجوهر وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة (وأما المطلوب الثالث) وهو قوله وحفظا من كل شيطان مارد ففيه بحثان (البحث الاول) فيما يتعلق باللغة فقوله وحفظا أى وحفظناها قال المبرد اذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لانه قد دل على فعله مثل قولك افعل وكرامة لانه لما قال افعل علم ان الاسماء لا تعطف على الافعال فكان المعنى افعل ذلك وأكرمك كرامة قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب من كل شيطان مارد يريد الذى تمرد على الله قيل انه الذى لا يتمكن منه وأصله من الملاسة ومنه قوله صرح ممرد ومنه الامرد وذكرنا تفسير المارد عند قوله مردوا على النفاق (البحث الثانى) فيما يتعلق بالمباحث العقلية فى هذا الموضع فنقول الاستقصاء فيه مذكور فى قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين قال المفسرون الشياطين كانوا يصعدون الى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب

وكانوا

المؤمنين وقرئ ان كنا على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة أو على طريقة قول المدل بأمره كقول العامل لمستأجر أخر أجرته ان كنت عملت لك فوفنى حقى (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى) وذلك بعد بضع سنين أقام بين أظهرهم يدعوهم الى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا الا عتوا وعنادا حسبما فصل فى سورة الاعراف بقوله تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين الآيات وقرئ بكسر النون ووصل الالف من سرى وقرئ أن سر من السير (انكم متبعون) تعليل للامر بالاسراء أى يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين فأسر بهم حتى لا يدركوكم قبل الوصول الى البحر فيدخلوا مداخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم (فأرسل فرعون حين أخبر بسيرهم (فى المدائن حاشرين) جامعين للعساكر ليتبعوهم (ان هؤلاء) يريد بنى اسرائيل (لشرذمة قليلون) استقلهم وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا بالنسبة الى جنوده اذ روى انه أرسل فى اثرهم ألف ألف وخمسمائة ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج فرعون فى جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما خرج فرعون فى ألف ألف حصان سوى الاناث (وانهم لنا لغائظون) أى فاعلون ما يغيظنا (وانا لجميع حاذرون) يريد أنهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الامور فاذا خرج علينا خارج

وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم انهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود الى قرب السماء بهذه الشهب فانه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها (وبقى ههنا سؤالات السؤال الاول) هذه الشهب هل هى من الكواكب التى زين الله السماء بها أم لا والاول باطل لان هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقة لوجب أن يظهر نقصان كثير فى أعداد كواكب السماء ومعلوم ان هذا المعنى لم يوجد البتة فان أعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير البتة وأيضا فجعلها رجوما للشياطين مما يوجب وقوع النقصان فى زينة السماء فكان الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض وأما القسم الثانى وهو ان يقال ان هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة فى الفلك فهذا أيضا مشكل لانه تعالى قال فى سورة تبارك الذى بيده الملك ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فالضمير فى قوله وجعلناها عائد الى المصابيح فوجب ان تكون تلك المصابيح هى الرجوم بأعيانها من غير تفاوت والجواب ان هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية وأما قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فنقول كل نير يحصل فى الجو العالى فهو مصابيح لاهل الارض الا ان تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ومنها ما لا يكون كذلك وهى هذه الشهب التى يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوما للشياطين وبهذا التقرير فقد زال الاشكال والله أعلم (السؤال الثانى) كيف يجوز أن تذهب الشياطين الى حيث يعلمون بالتجويز ان الشهب تحرقهم ولا يصلون الى مقصودهم البتة وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل فكيف من الشياطين الذين لهم مزية فى معرفة الحيل الدقيقة والجواب ان حصول هذه الحالة ليس له موضع معين والا لم يذهبوا اليه وانما يمنعون من المصير الى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة فربما صاروا الى موضع تصيبهم فيه الشهب وربما صاروا الى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب فلما هلكوا فى بعض الاوقات وسلموا فى بعض الاوقات جاز أن يصيروا الى مواضع يغلب على ظنونهم انه لا تصيبهم الشهب فيها كما يجوز فيمن يسلك البحر ان يسلكه فى موضع يغلب على ظنه حصول النجاة هذا ما ذكره أبو على الجبائى من الجواب عن هذا السؤال فى تفسيره ولقائل ان يقول انهم اذا صعدوا فاما ان يصلوا الى مواضع الملائكة أو الى غير تلك المواضع فان وصلوا الى مواضع الملائكة احترقوا وان وصلوا الى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلا فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل واذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء ان الفوز بالمقصود محال وجب ان يمتنعوا عن هذا العمل وان لا يقدموا عليه أصلا بخلاف حال المسافرين فى البحر فان الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود أما ههنا فالشيطان الذى يسلم من الاحتراق انما يسلم اذا لم يصل الى مواضع الملائكة واذا لم يصل الى تلك المواضع لم يفز بالمقصود فوجب أن لا يعود الى هذا العمل البتة والاقرب فى الجواب أن نقول هذه الواقعة انما تتفق فى الندرة فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين والله أعلم (السؤال الثالث) قالوا دلت التواريخ المتواترة على ان حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم فان الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا فى سبب حدوثه واذا ثبت ان ذلك كان موجودا قبل مجىء النبى صلى الله عليه وسلم امتنع حمله على مجىء النبى صلى الله عليه وسلم أجاب القاضى بأن الاقرب ان هذه الحالة كانت موجودة قبل النبى صلى الله عليه وسلم لكنها كثرت فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم فصارت بسبب الكثرة معجزة (السؤال الرابع) الشيطان مخلوق من النار قال تعالى حكاية عن ابليس خلقتنى من نار وقال والجان خلقناه من قبل من نار السموم ولهذا السبب يقدر على الصعود الى السموات واذا كان كذلك فكيف يعقل احراق النار بالنار والجواب يحتمل ان الشياطين وان كانوا من النيران الا انها نيران ضعيفة فاذا وصلت نيران الشهب اليهم وتلك النيران أقوى حالا منهم لا جرم صار الاقوى مبطلا للاضعف ألا ترى ان السراج الضعيف اذا رجع فى النار القوية فانه ينطفئ فكذلك ههنا (السؤال الخامس) ان مقر الملائكة هو السطح الاعلى من الفلك والشياطين لا يمكنهم الوصول الا الى الاقرب من السطح الاسفل من الفلك فيبقى جرم الفلك مانعا من وصول الشياطين الى القرب من الملائكة ولعل الفلك عظيم المقدار فمع حصول هذا

سارعنا الى اطفاء نائرة فساده وهذه معاذير اعتذر بها الى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه وقرئ حذرون فالاول دال على التجدد والثانى على الثبات وقيل الحاذر المؤدى فى السلاح وقرئ حادرون بالدال المهملة أى أقوياء وأشداء وقيل مدججون فى السلاح قد كسبهم ذلك حدارة فى أجسامهم (فأخرجناهم) بان خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه (من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) كانت لهم جملة ذلك (كذلك) اما مصدر تشبيهى لاخرجنا أى مثل ذلك الاخراج العجيب أخرجناهم أو صفة لمقام كريم أى من مقام كريم كائن كذلك (وأورثناها بنى اسرائيل) أى ملكناهم اياها على طريقة تمليك مال المورث للوارث كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها قبل أن يقبضوها ويتسلموها (فأتبعوهم) أى فلحقوهم وقرئ فاتبعوهم (مشرقين) داخلين فى وقت شروق الشمس أى طلوعها (فلما تراءى الجمعان) تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر وقرئ تراءت الفئتان (قال أصحاب موسى انا لمدركون) جاؤا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرفى التأكيد للدلالة على تحقق الادراك واللحاق وتنجزهما وقرئ لمدركون بتشديد الدال من ادرك الشئ اذا تتابع ففنى أى المتتابعون فى الهلاك على أيديهم (قال كلا) ارتدعوا عن ذلك فانهم لا يدركونكم (ان معى ربى) بالنصرة والهداية (سيهدين) البتة الى طريق النجاة منهم بالكلية روى أن يوشع عليه السلام قال يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون

المانع العظيم كيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة فان قلتم ان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة فنقول فعلى هذا التقدير اذا كان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة وجب ان لا يبقى سمع الشيطان وان كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة فى رميه بالرجوم فالجواب مذهبنا ان أفعال الله تعالى غير معللة فيفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد ولا اعتراض لاحد عليه فى شئ من أفعاله فهذا ما يتعلق بمباحث هذا الباب واذا أضيف ما كتبناه ههنا الى ما كتبناه فى سورة الملك وفى سائر الآيات المشتملة على هذه المسئلة بلغ تمام الكفاية فى هذا الباب والله أعلم * وأما قوله لا يسمعون الى الملا الاعلى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم لا يسمعون بتشديد السين والميم وأصله يتسمعون فادغمت التاء فى السين لاشتراكهما فى الهمس والتسمع تطلب السماع يقال تسمع سمع أو لم يسمع والباقون بتخفيف السين واختار أبو عبيد التشديد فى يسمعون قال لان العرب تقول تسمعت الى فلان ويقولون سمعت فلانا ولا يكادون يقولون سمعت الى فلان وقيل فى تقوية هذه القراءة اذا نفى التسمع فقد نفى سمعه وحجة القراءة الثانية قوله تعالى انهم عن السمع لمعزولون وروى مجاهد عن ابن عباس ان الشياطين يسمعون الى الملا الاعلى ثم يمنعون فلا يسمعون وللاولين ان يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لا يمنع من كونهم معزولين أيضا عن التسمع بدلالة هذه الآية بل هو أقوى فى ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء فان الذى منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعا من السمع أولى (المسئلة الثانية) الفرق بين قولك سمعت حديث فلان وبين قولك سمعت الى حديثه بأن قولك سمعت حديثه يفيد الادراك وسمعت الى حديثه يفيد الاصغاء مع الادراك (المسئلة الثالثة) فى قوله لا يسمعون الى الملا الاعلى قولان (الاول) وهو المشهور ان تقدير الكلام لئلا يسمعوا فلما حذف الناصب عاد الفعل الى الرفع كما قال يبين الله لكم أن تضلوا وكما قال رواسى أن تميد بكم قال صاحب الكشاف حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده أما اجتماعهما فمن المنكرات التى يجب صون القرآن عنها (والقول الثانى) وهو الذى اختاره صاحب الكشاف انه كلام مبتدأ منقطع عما قبله وهو حكاية حال المسترقة للسمع وانهم لا يقدرون أن يسمعوا الى كلام الملائكة ويتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك المقصود (المسئلة الرابعة) الملا الأعلى الملائكة لانهم يسكنون السموات وأما الانس والجن فهم الملا الاسفل لانهم سكان الارض واعلم أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاثة (الاولى) انهم لا يسمعون (الثانية) انهم يقذفون من كل جانب دحورا وفيه أبحاث (الاول) قد ذكرنا معنى الدحور فى سورة الاعراف عند قوله اخرج منها مذؤما مدحورا قال المبرد الدحور أشد الصغار والذل وقال ابن قتيبة دحرته دحرا ودحورا أى دفعته وطردته (البحث الثانى) فى انتصاب قوله دحورا وجوه (الاول) انه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحورا ودل على الفعل قوله تعالى ويقذفون (الثانى) التقدير ويقذفون للدحور ثم حذف اللام (الثالث) قال مجاهد دحورا مطرودين فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور (البحث الثالث) قرأ أبو عبد الرحمن السلمى دحورا بفتح الدال قال الفراء كأنه قال يقذفون بدحور بما يدحر ثم قال ولست أشتهى الفتح لانه لو وجد ذلك على صحة لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة الا انه جائز فى الجملة كما قال الشاعر * تعال اللحم للاضياف نيئا * أى تعال باللحم (الصفة الثالثة) قوله تعالى ولهم عذاب واصب والمعنى انهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام وقد ذكرنا تفسير الواصب فى سورة النحل عند قوله تعالى وله الدين واصبا قالوا كلهم انه الدائم قال الواحدى ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير * ثم قال تعالى الا من خطف الخطفة ذكرنا معنى الخطف فى سورة الحج قال الزجاج وهو أخذ الشئ بسرعة وأصل خطف اختطف قال صاحب الكشاف من فى محل الرفع بدل من الواو فى لا يسمعون أى لا يسمع الشياطين الا الشيطان الذى خطف الخطفة أى اختلس الكلمة على وجه المسارقة فأتبعه يعنى لحقه وأصابه يقال تبعه واتبعه اذا مضى فى أثره وأتبعه اذا لحقه وأصله من قوله تعالى فأتبعه الشيطان وقدمر تفسيره وقوله تعالى شهاب ثاقب قال الحسن ثاقب أى مضىء وأقول سمى

والبحر أمامنا قال عليه السلام ههنا فخاض يوشع عليه السلام الماء وضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر فكان ما كان وروى أن رجلا مؤمنا من آل فرعون كان بين يدى موسى عليه السلام فقال أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال عليه السلام أمرت بالبحر ولعلى أوحى بما أصنع فأمر بما أمر به وذلك قوله تعالى (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر) القلزم أو النيل (فانفلق) الفاء فصيحة أى فضرب فانفلق فصار اثنى عشر فرقا بعدد الاسباط بينهن مسالك (فكان كل فرق) حاصل بالانفلاق (كالطود العظيم) كالجبل المنيف الثابت فى مقره فدخلوا فى شعابها كل سبط فى شعب منها (وأزلفنا) أى قربنا (ثم الآخرين) أى فرعون وقومه حتى دخلوا على اثرهم مداخلهم (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين) بحفظ البحر على تلك الهيئة الى أن عبروا الى البر (ثم أغرقنا الآخرين) باطباقه عليهم (ان فى ذلك) أى فى جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة ومما فعل فرعون وقومه من الاقوال والافعال وما فعل بهم من العذاب والنكال وما فى اسم الاشارة من معنى البعد لتهويل أمر المشار اليه وتفظيعه كتنكير الآية فى قوله تعالى (لآية) أى آية آية أو آية عظيمة لا تكاد توصف موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون ويقيسوا شأن النبى عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويجتنبوا من تعاطى ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصى ومخالفة الرسول

ثاقبا لانه يثقب بنوره الهواء قال ابن عباس فى تفسير قوله والنجم الثاقب قال انه رجل سمى بذلك لانه يثقب بنوره سمك سبع سموات والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا انا خلقناهم من طين لازب﴾ فى الآية مسائل (المسئلة الاولى فى بيان النظم) اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الاقصى من هذا الكتاب الكريم اثبات الاصول الاربعة وهى الالهيات والمعاد والنبوة واثبات القضاء والقدر فنقول انه تعالى افتتح هذه السورة باثبات ما يدل على وجود الصانع و يدل على علمه وقدرته وحكمته ويدل على وحدانيته وهو خلق السموات والارض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب فلما أحكم الكلام فى هذا الباب فرع عليها اثبات القول بالحشر والنشر والقيامة واعلم أن الكلام فى هذه المسئلة يتعلق بطرفين أولهما اثبات الجواز العقلى وثانيهما اثبات الوقوع أما الكلام فى المطلوب الاول فاعلم أن الاستدلال على الشئ يقع على وجهين (أحدهما) أن يقال انه قدر على ما هو أصعب وأشد وأشق منه فوجب أيضا أن يقدر عليه (والثانى) أن يقال انه قدر عليه فى احدى الحالتين والفاعل والقابل باقيين كما كانا فوجب أن تبقى القدرة عليه فى الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقين فى بيان أن القول بالبعث والقيامة أمر جائز ممكن (أما الطريق الاول) فهو المراد من قوله فاستفتهم أهم أشد خلقا والتقدير كأنه تعالى يقول استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم أشد خلقا أمن خلقنا من خلق السموات والارض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك ولا شك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشق وأشد فى العرف من خلق القسم الاول فلما ثبت بالدلائل المذكورة فى اثبات التوحيد كونه تعالى قادرا على هذا القسم الذى هو أشد وأصعب فبأن يكون قادرا على اعادة الحياة فى هذه الاجساد كان أولى ونظير هذه الدلالة قوله تعالى فى آخر يس أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس (وأما الطريق الثانى) فهو المراد من قوله انا خلقناهم من طين لازب والمعنى ان هذه الاجسام قابلة للحياة اذ لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حية فى المرة الاولى والاله قادر على خلق هذه الحياة فى هذه الاجسام ولولا كونه تعالى قادرا على هذا المعنى لما حصلت الحياة فى المرة الاولى ولا شك أن قابلية تلك الاجسام باقية وان قادرية الله تعالى باقية لان هذه القابلية وهذه القادرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت بهذين الطريقين ان القول بالبعث والقيامة أمر ممكن ولما بين تعالى امكان هذا المعنى بهذين الطريقين بين وقوعه بقوله قل نعم وأنتم داخرون وذلك لانه ثبت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لاجل ظهور المعجزات عليه والصادق اذا أخبر عن أمر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو فى غاية الحسن والله أعلم (المسئلة الثانية فى تفسير ألفاظ هذه الآية) أما قوله فاستفتهم يعنى أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة كونه تعالى خالقا للسموات والارض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم أهم أشد خلقا أم هذه الاشياء التى بينا كونه تعالى خالقا لها ولم يحك عنهم أنهم أقروا أن خلق هذه الاشياء أصعب لاجل ان ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة أن يحكى عنهم صحة ان الامر كذلك ثم قال تعالى انا خلقناهم من طين لازب يعنى انا لما قدرنا على خلق الحياة فى ذواتهم أولا وجب ان نبقى قادرين على خلق الحياة فيهم ثانيا لما بينا أن حال القابل وحال الفاعل ممتنع التغير وفيه دقيقة أخرى وهى ان القوم قالوا كيف يعقل تولد الانسان لا من النطفة ولو من الابوين فكأنه قيل لهم انكم لما أقررتم بحدوث العالم واعترفتم بان السموات والارض وما بينهما انما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلا بد وان تعترفوا بان الانسان الاول انما حدث لا من الابوين فاذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم الانسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الابوين وأيضا فقد اشتهر عند الجمهور أن آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة فى الطين اللازب فكيف يعجز عن اعادة الحياة الى هذه الذوات وأما كيفية خلق الانسان من الطين اللازب فهى مذكورة فى السورة المتقدمة واعلم ان هذا الوجه انما يحسن اذا قلنا المراد من قوله تعالى انا خلقناهم من طين لازب هو انا خلقنا أباهم آدم من طين لازب وفيه وجوه أخر وهو أن يكون المراد انا خلقنا كل انسان من طين لازب وتقريره ان الحيوان انما يتولد من المنى ودم الطمث والمنى يتولد من الدم فالحيوان انما

و يؤمنوا بالله تعالى و يطيعوا رسوله كيلا يحل بهم مثل ما حل باولئك أو ان فيما فصل من القصة من حيث حكايته عليه الصلاة والسلام اياها على ما هى عليه من غير أن يسمعها من أحد لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحى الصادق موجبة للايمان بالله تعالى وحده وطاعة رسوله عليه السلام (وما كان أكثرهم) أى أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم منه عليه الصلاة والسلام (مؤمنين) لا بأن يقيسوا شأنه بشأن موسى عليهما السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المكذبين المهلكين ولا بأن يتدبروا فى حكايته عليه الصلاة والسلام لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد مع كون كل من الطريقين مما يؤدى الى الايمان قطعا ومعنى ما كان أكثرهم مؤمنين وما أكثرهم مؤمنين على أن كان زائدة كما هو رأى سيبويه فيكون كقوله تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وهو اخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد ما سمعوا الآيات الناطقة بالقصة تقريرا لما مر من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا الخ وايثارا الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الايمان واستمرارهم عليه ويجوز أن يجعل كان بمعنى صار كما فعل ذلك فى قوله تعالى وكان من الكافرين فالمعنى وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجبة له بما ذكر من الطريقين فيكون الاخبار بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى أتى أمر الله الآية (وان ربك لهو العزيز) الغالب على كل

يتولد من الدم والدم انما يتولد من الغذاء والغذاء اما حيوانى واما نباتى أما تولد الحيوان الذى صار غذاء فالكلام فى كيفية تولده كالكلام فى تولد الانسان فثبت أن الاصل فى الاغذية هو النبات والنبات انما يتولد من امتزاج الارض بالماء وهو الطين اللازب واذا كان الامر كذلك فقد ظهر ان كل الخلق متولدون من الطين اللازب واذا ثبت هذا فنقول ان هذه الاجزاء التى منها تركب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة فى كل الاوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة وأما اللازب فقيل اللاصق وقيل اللزج وقيل الجيد وأكثر أهل اللغة على ان الباء فى لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم ۞ ثم قال تعالى ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ وفيه مسائل

(المسئلة الاولى) تقرير الكلام ان يقال ان هؤلاء المنكرين أقروا بانه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من اعادة الحياة الى هذه الاجساد وقد تقرر فى صرائح العقول ان القادر على الاشق الاشد يكون قادرا على الاسهل الايسر ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقى هؤلاء الاقوام مصرين على انكار البعث والقيامة وهذا فى موضع التعجب الشديد فانه مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الاصرار فيه فانت يا محمد تتعجب من اصرارهم على الانكار وهم فى طرف الانكار وصلوا الى حيث يسخرون منك فى قولك باثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة فهذا هو المراد من قوله بل عجبت ويسخرون

(المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائى عجبت بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدى والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وابراهيم ويحيى بن وثاب والاعمش وقراءة أهل الكوفة واختيار أبى عبيدة أما الذين قرؤا بالفتح فقد احتجوا بوجوه (الاول) ان القراءة بالضم تدل على اسناد العجب الى الله تعالى وذلك محال لان التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشئ ومعلوم ان الجهل على الله محال (والثانى) ان الله تعالى أضاف التعجب الى محمد صلى الله عليه وسلم فى آية أخرى فى هذه المسئلة فقال وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا (والثالث) انه تعالى قال بل عجبت ويسخرون والظاهر انهم انما سخروا لاجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب أن يكون ذلك التعجب صادرا منه وأما الذين قرؤا بضم التاء فقد أجابوا عن الحجة الاولى من وجوه (الاول) ان القراءة بالضم لا نسلم أنها تدل على اسناد التعجب الى الله تعالى وبيانه أنه يكون التقدير قل يا محمد بل عجبت ويسخرون ونظيره قوله تعالى أسمع بهم وأبصر معناه أن هؤلاء ما تقولون فيه أتم هذا النحو من الكلام وكذلك قوله تعالى فما أصبرهم على النار (الثانى) سلمنا أن ذلك يقتضى اضافة التعجب الى الله تعالى فلم قلتم ان ذلك محال وروى ان شريحا كان يختار القراءة بالنصب ويقول العجب لا يليق الا بمن لا يعلم قال الاعمش فذكرت ذلك لابراهيم فقال ان شريحا يعجب بعلمه وكان عبد الله أعلم وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه أن نقول دل القرآن والخبر على جواز اضافة العجب الى الله تعالى أما القرآن فقوله تعالى وان تعجب فعجب قولهم والمعنى وان تعجب يا محمد من قولهم فهو أيضا عجب عندى وأجيب عنه انه لا يمتنع أن يكون المراد وان تعجب فعجب قولهم عندكم وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم عجب ربكم من الكم وقنوطكم وعجب ربكم من شاب ليست له صبوة واذا ثبت هذا فنقول العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين كما قال ويمكرون ويمكر الله وقال سخر الله منهم وقال تعالى وهو خادعهم والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الاحوال من العباد وقد ذكرنا ان القانون فى هذا الباب ان هذه الالفاظ محمولة على نهايات الاعراض لا على بدايات الاعراض وكذلك ههنا من تعجب من شئ فانه يستعظمه فالتعجب فى حق الله تعالى محمول على أنه تعالى يستعظم تلك الحالة ان كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه وان كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه فهذا تمام الكلام فى هذه المناظرة والاقرب ان يقال القراءة بالضم ان ثبتت بالتواتر وجب المصير اليها ويكون التأويل ما ذكرناه وان لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء أولى والله أعلم ۞ ثم قال تعالى ﴿واذا ذكروا لا يذكرون واذا رأوا آية يستسخرون وقالوا ان هذا الا سحر مبين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أوآباؤنا الاولون قل نعم وأنتم داخرون﴾ اعلم أنه تعالى لما قرر الدليل القاطع فى اثبات امكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء أولها أن النبى صلى الله عليه وسلم يتعجب من اصرارهم على الانكار وهم يسخرون منه

ما يريده من الامور التى من جملتها الانتقام من المكذبين (الرحيم) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل عقوبتهم بعدم ايمانهم بعد مشاهدة هذه الآية العظيمة بطريق الوحى مع كمال استحقاقهم لذلك هذا هو الذى يقتضيه جزالة النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة الى آخر القصص السبع بل الى آخر السورة الكريمة اقتضاء بينا لاريب فيه وأما ما قيل من أن ضمير أكثرهم لاهل عصر فرعون من القبط وغيرهم وأن المعنى وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم الا آسية وحزقيل ومريم ابنة ياموشا التى دلت على تابوت يوسف عليه السلام وبنو اسرائيل بعدما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فبمعزل من التحقيق كيف لا ومساق كل قصة من القصص الواردة فى السورة الكريمة سوى قصة ابراهيم عليه السلام انما هو لبيان حال طائفة معينة قد عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله عليهم الصلاة والسلام كما يفصح عنه تصدير القصص بتكذيبهم المرسلين بعدما شاهدوا بايديهم من الآيات العظام ما يوجب عليهم الايمان ويزجرهم عن الكفر والعصيان وأصروا على ما هم عليه من التكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع دابرهم بالكلية فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم ايمان أكثرهم لاسيما بعد الاخبار باهلاكهم وعد المؤمنين من جملتهم أولا واخراجهم منها آخرا مع عدم مشاركتهم لهم فى شئ مما حكى عنهم من الجنايات أصلا مما

فى اصراره على الاثبات وهذا يدل على انه صلى الله عليه وسلم مع أولئك الاقوام كانوا فى غاية التباعد وفى طرف النقيض (وثانيها) قوله واذا ذكروا لا يذكرون (وثالثها) قوله واذا رأوا آية يستسخرون ويجب أن يكون المراد من هذا الثانى والثالث غير الاول لان العطف يوجب التغاير ولان التكرير خلاف الاصل والذى عندى فى هذا الباب أن يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة ويقولون من مات وصار ترابا وتفرقت أجزاؤه فى العالم كيف يعقل عوده بعينه وبلغوا فى هذا الاستبعاد الى حيث كانوا يسخرون ممن يذهب الى هذا المذهب واذا كان كذلك فلا طريق الى ازالة هذا الاستبعاد عنهم الا من وجهين (أحدهما) ان يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل أن يقال لهم هل تعلمون أن خلق السموات والارض أشد وأصعب من اعادة انسان بعد موته وهل تعلمون ان القادر على الاصعب الاشق يجب أن يكون قادرا على الاسهل الايسر فهذا الدليل وان كان جليا قويا الا أن أولئك المنكرين اذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لا يفهمونها ولا يقفون عليها واذا ذكروا لم يذكروها لشدة بلادتهم وجهلهم فلا جرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان (والطريق الثانى) ان يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز كونى رسولا صادقا من عند الله فانا أخبركم بأن البعث والقيامة حق ثم ان أولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضا لانهم اذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحرا وسخروا بها واستهزؤا منها وهذا هو المراد من قوله واذا رأوا آية يستسخرون فظهر بالبيان الذى ذكرناه أن هذه الالفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة واعلم أن أكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق فقالوا انه تعالى قال بل عجبت ويسخرون ثم قال واذا رأوا آية يستسخرون فوجب أن يكون المراد من قوله يستسخرون غير ما تقدم ذكره من قوله ويسخرون فقال هذا القائل المراد من قوله ويسخرون اقدامهم على السخرية والمراد من قوله يستسخرون طلب كل واحد منهم من صاحبه ان يقدم على السخرية وهذا التكليف انما لزمهم لعدم وقوفهم على الفوائد التى ذكرناها والله أعلم (والرابع) من الامور التى حكاها الله تعالى عنهم أنهم قالوا ان هذا الا سحر مبين يعنى أنهم اذا رأوا آية ومعجزة سخروا منها والسبب فى تلك السخرية فى اعتقادهم أنها من باب السحر وقوله مبين معناه ان كونه سحرا أمر بين لا شبهة لاحد فيه ثم بين تعالى ان السبب الذى يحملهم على الاستهزاء بالقول بالبعث وعلى عدم الالتفات الى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع المعجزات هو قولهم ان الذى مات وتفرقت أجزاؤه فى جملة العالم فما فيه من الارضية اختلط بتراب الارض وما فيه من المائية والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه حيا فاهما فهذا الكلام هو الذى يحملهم على تلك الاحوال الثلاثة المتقدمة ثم انه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وانما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لانه ذكر فى الآية المتقدمة بالبرهان اليقينى القطعى انه أمر ممكن واذا ثبت الجواز القطعى فلا سبيل الى القطع بالوقوع الا باخبار المخبر الصادق فلما قامت المعجزات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم كان واجب الصدق فكان مجرد قوله قل نعم دليلا قاطعا على الوقوع ومن تأمل فى هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب وذلك لانه بين الامكان بالدليل العقلى وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعى ومن المعلوم ان الزيادة على هذا البيان كالامر الممتنع * أما قوله أوآباؤنا فالمعنى أو تبعث آباؤنا وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف وقرأ نافع وابن عامر ههنا وفى سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام فى هذا فى سورة الاعراف عند قوله أوأمن أهل القرى * أما قوله تعالى قل نعم فنقول قرأ الكسائى وحده نعم بكسر العين * أما قوله تعالى وأنتم داخرون أى صاغرون قال أبو عبيد الدخور أشد الصغار وذكرنا تفسير هذه اللفظة عند قوله سجدا لله وهم داخرون ۞ قوله تعالى ﴿فانما هى زجرة واحدة فاذا هم ينظرون وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون﴾ اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة ما يدل على امكان البعث والقيامة ثم أردفه بما يدل على وقوع القيامة ذكر فى هذه الآيات بعض تفاصيل أحوال القيامة وانه تعالى ذكر فى هذه الآية أنواعا من تلك الاحوال (فالحالة

يوجب تنزيه التنزيل عن أمثاله فتدبر (واتل عليهم) عطف على المضمر المقدر عاملا لاذ نادى الخ أى واتل على المشركين (نبا ابراهيم) أى خبره العظيم الشأن حسبما أوحى اليك لتقف على ما ذكر من عدم ايمانهم بما يأتيهم من الآيات بأحد الطريقين (اذ قال) منصوب اما على الظرفية للنبا أى نبأه وقت قوله (لابيه وقومه) أو على المفعولية لاتل على أنه بدل من نبا أى واتل عليهم وقت قوله لهم (ما تعبدون) على أن المتلو ما قاله لهم فى ذلك الوقت سألهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك ليبنى على جوابهم أن ما يعبدونه بمعزل من استحقاق العبادة بالكلية (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) لم يقتصروا على الجواب الكافى بان يقولوا أصناما كما فى قوله تعالى ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ماذا أنزل ربكم قالوا الحق ونظائرهما بل اطنبوا فيه باظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم قصدا الى ابراز ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك والمراد بالظلول الدوام وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وصلة العكوف كلمة على وايراد اللام لافادة معنى زائد كأنهم قالوا فنظل لاجلها مقبلين على عبادتها أو مستديرين حولها وهذا أيضا من جملة اطنابهم (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل جوابهم (هل يسمعونكم) أى هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف أو يسمعونكم حين تدعون كقولك سمعت زيدا يقول كيت وكيت فحذف لدلالة قوله تعالى (اذ تدعون) عليه وقرئ هل يسمعونكم من الاسماع أى

الاولى) قوله تعالى فانما هى زجرة واحدة فاذا هم ينظرون وفيه ابحاث (البحث الاول) قوله فانما جواب شرط مقدر والتقدير اذا كان كذلك فما هى الا زجرة واحدة (البحث الثانى) الضمير فى قوله فانما هى ضمير على شريطة التفسير والتقدير فانما البعث زجرة واحدة (البحث الثالث) الزجرة فى اللغة الصيحة التى يزجر بها كالزجرة بالنعم والابل عند الحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وان لم يكن فيها معنى الزجر كما فى هذه الآية وأقول لا يبعد أن يقال ان تلك الصيحة انما سميت زجرة لانها تزجر الموتى عن الرقود فى القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور فى موقف القيامة فاذا عرفت هذا فنقول المراد من هذه الزجرة ما ذكره الله تعالى فى قوله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون فبالنفخة الاولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون * وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى هذه الصيحة فان القوم فى تلك الساعة أموات لان النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت ان هذه الصيحة انما حصلت حال كون الخلق أمواتا فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهى عبث والعبث لا يجوز فى فعل الله (والجواب) أما أصحابنا فيقولون يفعل الله ما يشاء وأما المعتزلة فقال القاضى فيه وجهان (الاول) أن تعتبر بها الملائكة (الثانى) أن تكون الفائدة التخويف والارهاب (السؤال الثانى) هل لتلك الصيحة تأثير فى اعادة الحياة الجواب لا بدليل أن الصيحة الاولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لا أثر لها فى الموت ولا فى الحياة بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال الذى خلق الموت والحياة (السؤال الثالث) تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداء (الجواب) الكل جائز الا انه روى أن الله تعالى يأمر اسرافيل حتى ينادى أيتها العظام النخرة والجلود البالية والاجزاء المتفرقة اجتمعوا باذن الله تعالى (اللفظ الرابع) من الالفاظ المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى فاذا هم ينظرون فيحتمل أن يكون المراد ينتظرون ما يحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم الى بعض وأن يكون المراد ينظرون الى البعث الذى كذبوا به (الحالة الثانية) من وقائع القيامة ما أخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين قال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا هذا يوم الدين أى يوم الجزاء هذا والمقصود أن الله تعالى ذكر فى آيات كثيرة من القرآن انا نرى فى الدنيا محسنا ومسيئا وعاصيا وصديقا وزنديقا ورأينا أنه لم يصل اليهم فى الدنيا ما يليق بهم من الجزاء فوجب القول باثبات القيامة ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى وبالجملة فهذا يدل على أن الجزاء انما يحصل بعد الموت والكفار وان سمعوا هذا الدليل القوى لكنهم أنكروا وتمردوا ثم انه تعالى اذا أحياهم يوم القيامة فاذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون هذا يوم الدين أى يوم الجزاء الذى ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه فى القرآن فكفرنا بها ونظيره ان من خوف بشئ ولم يلتفت اليه ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول هذا يوم الواقعة الفلانية فكذا ههنا وفيه احتمال آخر وهو انه تعالى قال فى سورة الفاتحة مالك يوم الدين فبين أنه لا مالك فى ذلك اليوم الا الله فقولهم هذا يوم الدين اشارة الى أن هذا هو اليوم الذى لا حكم فيه لاحد الا الله وانما ذكروه لما حصل فى قلوبهم من الخوف الشديد أما قوله تعالى هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ففيه بحثان (الاول) اختلفوا فى أن هذا هل هو من بقية كلام الكفار أو يقال تم كلامهم عند قوله تعالى هذا يوم الدين وأما قوله هذا يوم الفصل فهو كلام غيرهم فبعضهم قال بالاول وزعم ان قوله هذا يوم الفصل الآية من كلام بعضهم لبعض والاكثرون على القول الثانى واحتجوا بوجهين (الاول) ان قوله كنتم به تكذبون من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جميع الكفار فقائل هذا القول لا بد وأن يكون غير الكفار (الثانى) أن قوله احشروا الذين ظلموا وأزواجهم منسوق على قوله هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون فلما كان قوله احشروا الذين ظلموا كلام غير الكفار فكذلك قوله هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون يجب أن يكون كلام غير الكفار وعلى هذا التقدير فقوله هذا يوم الدين من كلام الكفار وقوله هذا يوم الفصل من كلام الملائكة جوابا لهم والوجه فى كونه جوابا لهم ان أولئك الكفار انما اعتقدوا فى أنفسهم كونهم محقين فى انكار دعوة الانبياء عليهم السلام وكونهم محقين فى تلك الاديان الفاسدة فقالوا هذا يوم الدين

هل يسمعونكم شيأ من الاشياء أو الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وصيغة المضارع مع اذ على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها كانه قيل لهم استحضروا الاحوال الماضية التى كنتم تدعونها فيها وأجيبوا هل سمعوا أو أسمعوا قط (أو ينفعونكم) بسبب عبادتكم لها (أو يضرون) أى يضرونكم بترككم لعبادتها اذ لا بد للعبادة لا سيما عند كونها على ما وصفتم من المبالغة فيها من جلب نفع أو دفع ضر (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) اعترفوا بانها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة واضطروا الى اظهار أن لا سند لهم سوى التقليد أى ما علمنا أو ما رأينا منهم ما ذكر من الامور بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون أى مثل عبادتنا يعبدون فاقتدينا بهم (قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون) أى أنظرتم فأبصرتم أو تأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه (أنتم وآباؤكم الاقدمون) حق الابصار أو حق العلم وقوله (فانهم عدو لى) بيان لحال ما يعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك أى فاعلموا انهم أعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى لما انهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه أو لان من يغريهم على عبادتهم ويحملهم عليها هو الشيطان الذى هو أعدى عدو الانسان لكنه عليه الصلاة والسلام صور الامر فى نفسه تعريضا بهم فانه انفع فى النصيحة من التصريح واشعارا بانها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون ادعى الى القبول والعدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجمع ومنه قوله

أى هذا هو اليوم الذى يصل فيه الينا جزاء طاعاتنا وخيراتنا فالملائكة يقولون لهم انه لا اعتبار بظواهر الامور فى هذا اليوم فان هذا اليوم يفصل فيه الجزاء الحقيق عن الجزاء الظاهرى ويميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة فبهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جوابا لما ذكره الكفار ﴿ ثم قال تعالى ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم﴾ وفى الآية ابحاث (البحث الاول) اعلم انه لا نزاع فى ان هذا من كلام الملائكة فان قيل مامعنى احشروا مع انهم قد حشروا من قبل وحضروا فى محفل القيامة وقالوا هذا يوم الدين وقالت الملائكة لهم بل هذا يوم الفصل أجاب القاضى عنه فقال المراد احشروهم الى دار الجزاء وهى النار ولذلك قال بعده فاهدوهم الى صراط الجحيم أى خذوهم الى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال كيف يصح ذلك وقد قال بعده وقفوهم انهم مسؤلون ومعلوم أن حشرهم الى الجحيم انما يكون بعد المسئلة وأجاب انه ليس فى العطف بحرف الواو ترتيب فلا يمتنع أن يقال احشروهم وقفوهم مع أنا بعقولنا نعلم أن الوقوف كان قبل الحشر الى النار هذا ما قاله القاضى وعندى فيه وجه آخر وهو أن يقال انهم اذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة لحقتهم بسبب معاينة أهوال القيامة ثم ان الله تعالى يقول للملائكة احشروا الذين ظلموا اهدوهم الى صراط الجحيم أى سوقوهم الى طريق جهنم وقفوهم هناك وتحصل المسئلة هناك ثم من هناك يساقون الى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه (البحث الثانى) الآمر فى قوله تعالى احشروا الذين ظلموا هو الله فهو تعالى أمر الملائكة أن يحشروا الكفار الى موقف السؤال والمراد من الحشر أن الملائكة يسوقونهم الى ذلك الموقف (البحث الثالث) ان الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء الظالمين وأزواجهم والاشياء التى كانوا يعبدونها وفيه فوائد (الفائدة الاولى) انه تعالى قال احشروا الذين ظلموا ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على ان الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على أن كل وعيد ورد فى حق الظالم فهو مصروف الى الكفار ومما يؤكد هذا قوله تعالى والكافرون هم الظالمون (الفائدة الثانيه) اختلفوا فى المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة أقوال (الاول) المراد بأزواجهم أشباههم أى أحزابهم ونظراؤهم من الكفرة فاليهودى مع اليهودى والنصرانى مع النصرانى والذى يدل على جواز أن يكون المراد من الازواج الاشباه وجوه (الاول) قوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة أى أشكالا واشباها (الثانى) انك تقول عندى من هذا أزواج أى أمثال وتقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين فى أكثر أحكام النكاح وكذلك العدد الزوج سمى بهذا الاسم لكون كل واحد من سميه مثالا للقسم الثانى فى العدد الصحيح قال الواحدى فعلى هذا القول يجب أن يكون المراد بالذين ظلموا عاما فى كل من أشرك لم يكن للازواج معنى (القول الثانى فى تفسير الازواج) ان المراد قرناؤهم من الشياطين لقوله تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون (والقول الثالث) أن المراد نساؤهم اللواتى على دينهم أما قوله وما كانوا يعبدون من دون الله ففيه قولان (الاول) المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الاوثان والطواغيت ونظيره قوله فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة قيل المراد بالناس عباد الاوثان والمراد بالحجارة الاصنام التى هى أحجار منحوتة فان قيل ان تلك الاحجار جمادات فما الفائدة فى حشرها الى جهنم أجاب القاضى بانه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيى لتحصل المبالغة فى توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول هب ان الله تعالى يحيى تلك الاصنام الا أنه لم يصدر عنها ذنب فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها والاقرب أن يقال ان الله تعالى لا يحيى تلك الاصنام بل يتركها على الجمادية ثم يلقيها فى جهنم لان ذلك مما يزيد فى تخجيل الكفار (القول الثانى) أن المراد من قوله وما كانوا يعبدون من دون الله الشياطين الذين دعوهم الى عبادة ما عبدوه فلما قبلوا منهم ذلك الدين صاروا كالعابدين لاولئك الشياطين ونأكد هذا بقوله تعالى ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان والقول الاول أولى لان الشياطين عقلاء وكلمة ما لا تليق بالعقلاء والله أعلم ثم قال فاهدوهم الى صراط الجحيم قال ابن عباس دلوهم يقال هديت الرجل اذا دللته وانما استعملت الهداية ههنا لانه جعل بدل الهداية

تعالى وهم لكم عدو شبها بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل (الا رب العالمين) استثناء منقطع أى لكن رب العالمين ليس كذلك بل هو ولى فى الدنيا والآخرة لا يزال يتفضل على بمنافعهما حسبما يعرب عنه ما وصفه تعالى به من أحكام الولاية وقيل متصل وهو قول الزجاج على ان الضمير لكل معبود وكان من آبائهم من عبد الله تعالى وقوله تعالى (الذى خلقنى) صفة لرب العالمين وجعله مبتدأ وما بعده خبرا غير حقيق بجزالة التنزيل وانما وصفه تعالى بذلك وبما عطف عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين تصريحا بالنعم الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتفصيلا لها لكونها أدخل فى اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى وقصر الالتجاء فى جلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع المضار العاجلة والآجلة عليه تعالى (فهو يهدين) أى هو يهدينى وحده الى كل ما يهمنى ويصلحنى من أمور الدين والدنيا هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح متجددة على الاستمرار كما ينبئ عنه الفاء وصيغة المضارع فانه تعالى يهدى كل ما خلقه لما خلق له من أمور المعاش والمعاد هداية متدرجة من مبدا ايجاده الى منتهى أجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره اما طبعا واما اختيارا مبدؤها بالنسبة الى الانسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث ومنتهاها الهداية الى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم (والذى هو يطعمنى ويسقين) عطف على الصفة الاولى وتكرير الموصول فى المواقع الثلاثة مع كفاية عطف ما وقع فى حيز الصلة

الى الجنة كما قال فبشرهم بعذاب أليم فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لاولئك وعن ابن عباس فاهدوهم سوقوهم وقال الاصم قدموهم قال الواحدى وهذا وهم لانه يقال هدى اذا تقدم ومنه الهداية والهوادى والهاديات الوحش قال ولا يقال هدى بمعنى قدم ثم قال ﴿وقفوهم﴾ يقال وقفت الدابة أقفها وقفا فوقفت هى وقوفا والمعنى احبسوهم وفى الآية قولان (أحدهما) على التقديم والتأخير والمعنى قفوهم واهدوهم والاصوب أنه لا حاجة اليه بل كانه قيل فاهدوهم الى صراط الجحيم فاذا انتهوا الى الصراط قيل وقفوهم فان السؤال يقع هناك وقوله ﴿انهم مسؤلون﴾ قيل عن أعمالهم فى الدنيا وأقوالهم وقيل المراد سألتهم الخزنة ألم يأتكم رسل منكم بالبينات قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ويجوز أن يكون هذا السؤال ماذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى مالكم لا تناصرون أى انهم يسئلون توبيخا لهم فيقال مالكم لا تناصرون قال ابن عباس رضى الله عنهما لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم فى الدنيا وذلك ان أبا جهل قال يوم بدر نحن جميع منتصر فقيل لهم يوم القيامة مالكم غير متناصرين وقيل يقال للكفار ما لشركائكم لا يمنعونكم من العذاب ۞ ثم قال تعالى ﴿بل هم اليوم مستسلمون﴾ يقال استسلم للشئ اذا انقاد له وخضع ومعناه فى الاصل طلب السلامة بترك المنازعة والمقصود انهم صاروا منقادين لا حيلة لهم فى دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود ۞ ثم قال تعالى ﴿فاقبل بعضهم على بعض﴾ قيل هم والشياطين وقيل الرؤساء والاتباع ﴿يتساءلون﴾ أى يسأل بعضهم بعضا وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت يقولون غررتمونا ويقول أولئك لم قبلتم منا وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين بل هو تساؤل التوبيخ واللوم والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين فحق علينا قول ربنا انا لذائقون فاغويناكم انا كنا غاوين فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون انا كذلك نفعل بالمجرمين انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين انكم لذائقوا العذاب الاليم وما تجزون الا ما كنتم تعملون الا عباد الله المخلصين﴾ واعلم أن الله تعالى لما حكى عنهم انه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل فقال قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين وهذا قول الاتباع لمن دعاهم الى الضلال وفى تفسير اليمين وجوه (الاول) ان لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات وبيان كيفية هذه الاستعارة ان الجانب الايمن أفضل من الجانب الايسر لوجوه (أحدها) اتفاق الكل على ان أشرف الجانبين هو اليمين (والثانى) لا يباشرون الاعمال الشريفة الا باليمين مثل مصافحة الاخيار والاكل والشرب وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى (الثالث) انهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الايمن ويسمونه بالبارح (الرابع) ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن فى كل شئ (الخامس) ان الشريعة حكمت بأن الجانب الايمن لكاتب الحسنات والايسر لكاتب السيآت (السادس) ان الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسئ أن يؤتى كتابه بيساره فثبت ان الجانب الايمن أفضل من الجانب الايسر واذا كان كذلك لاجرم استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات فقوله انكم كنتم تأتوننا عن اليمين يعنى انكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا ان مقصودكم من الدعوة الى تلك الاديان نصرة الحق وتقوية الصدق (والوجه الثانى فى التأويل) انه يقال فلان يمين فلان اذا كان عنده بالمنزلة الحسنة فقال هؤلاء الكفار لائمتهم الذين أضلوهم وزينوا لهم الكفر انكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا انا عندكم بمنزلة اليمين أى بالمنزلة الحسنة فوثقنا بكم وقبلنا عنكم (الوجه الثالث) ان أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم اليه هو الحق فوثقوا بايمانهم وتمسكوا بعهودهم التى عهدوها لهم فمعنى قوله كنتم تأتوننا عن اليمين أى من ناحية المواثيق والايمان التى قدمتموها لنا (الوجه الرابع) أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر لان اليمين موصوفة بالقهر وبها يقع البطش والمعنى انكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتجبرونا عليه ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء انهم أجابوا الاتباع من وجوه (الاول) انهم قالوا لهم بل لم تكونوا مؤمنين يعنى انكم ما كنتم موصوفين بالايمان حتى يقال انا أزلناكم عنه (الثانى) قولهم

من الجمل الست على صلة الموصول الاول للايذان بان كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى مستقل فى استيجاب الحكم حقيق بان تجرى عليه تعالى بحيالها ولا تجعل من روادف غيرها (واذا مرضت فهو يشفين) عطف على يطعمنى ويسقين نظم معهما فى سلك الصلة لموصول واحد لما أن الصحة والمرض من متفرعات الاكل والشرب غالبا ونسبة المرض الى نفسه والشفاء الى الله تعالى مع أنهما منه تعالى لمراعاة حسن الادب كما قال الخضر عليه السلام فاردت أن أعيبها وقال فاراد ربك أن يبلغا أشدهما وأما الاماتة فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالاحياء بدأ واعادة وقد نيطت أمور الآخرة جميعها بها وبما بعدها من البعث نظمهما فى سمط واحد فى قوله تعالى (والذى يميتنى ثم يحيين) على أن الموت لكونه ذريعة الى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الابدية بمعزل من أن يكون غير مطموع عنده عليه الصلاة والسلام (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وتعليما للامة أن يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافيا لما عسى يندر منه عليه الصلاة والسلام من الصغائر وتنبيها لابيه وقومه على أن يتأملوا فى أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال فى درجة لا يقادر قدرها فان حاله عليه الصلاة والسلام مع كونه فى طاعة الله تعالى وعبادته فى الغاية القاصية حيث كانت بتلك المثابة فما ظنك بحال أولئك المغمورين فى الكفر وفنون المعاصى

وما كان لنا عليكم من سلطان يعني لا قدرة لنا عليكم حتى نقهركم ونجبركم (الثالث) بل كنتم قوما طاغين أي ضالين غالين في معصية الله (الرابع) قولهم فحق علينا قول ربنا انا لذائقون والمعنى ان الله تعالى لما أخبر عن وقوعنا في العذاب فلو لم يحصل وقوعنا في العذاب لما كان خبر الله حقا بل كان باطلا ولما كان خبر الله أمرا واجبا لاجرم كان الوقوع في العذاب الاليم لازما فقال مقاتل قوله تعالى فحق علينا قول ربنا اشارة الى قول الله لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى انا لذائقون يعني لما وجب أن يحق علينا قول ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب (الخامس) قولهم فأغويناكم انا كنا غاوين والمعنى انا انما أقدمنا على اغوائكم لانا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية وفيه دقيقة أخرى كأنهم قالوا ان اعتقدتم ان غوايتكم بسبب اغوائنا فغوايتنا ان كانت بسبب اغواء غاو آخر لزم التسلسل وذلك محال فعلمنا أن حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا بل من قبل غيرنا وذلك الغير هو الذي ذكره فيما قبل وهو قوله فحق علينا قول ربنا ولما حكى الله تعالى كلام الاتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للاتباع قال بعده فانهم يومئذ في العذاب مشتركون يعني فالمتبوع والتابع والمخدوم والخادم مشتركون في الوقوع في العذاب كما كانوا في الدنيا مشتركين في الغواية ثم قال أيضا انا كذلك نفعل بالمجرمين وعنى بالمجرمين ههنا الكفار بدليل انه تعالى قال بعد هذه الكلمة انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون والضمير في قوله انهم عائد الى المذكور السابق وهو قوله بالمجرمين وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مختص في القرآن بالكافر ثم بين تعالى انهم انما وقعوا في ذلك العذاب لانهم كانوا مكذبين بالتوحيد وبالنبوة اما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون يعني يتكبرون ويتعصبون لاثبات الشرك ويستنكفون عن الاقرار بالتوحيد وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ويعنون محمدا ثم انه تعالى كذبهم في ذلك الكلام فقال بل جاء بالحق وصدق المرسلين وتقرير هذا الكلام انه جاء بالدين الحق لانه ثبت بالعقل انه تعالى منزه عن الضد والند والشريك فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بتقرير هذه المعاني كان مجيئه بالدين الحق قرأ ابن كثير أئنا لتاركو آلهتنا بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد وقرأ نافع في رواية قالون وأبو عمرو على هذا التفسير ويمدان والباقون بهمزتين بلا مد وقوله تعالى وصدق المرسلين يعني صدقهم في مجيئهم بالتوحيد ونفي الشرك وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الانبياء ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد وبالنبوة نقل الكلام من الغيبة الى الحضور فقال انكم لذائقو العذاب الاليم كأنه قيل فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالي عن النفع والضر أن يعذب عباده فأجاب عنه بقوله وما تجزون الا ما كنتم تعملون والمعنى ان الحكمة تقتضي الامر بالحسن والطاعة والنهي عن القبيح والمعصية والامر والنهي لا يكمل المقصود منهما الا بالترغيب في الثواب والترهيب بالعقاب واذا وقع الاخبار عنه وجب تحقيقه صونا للكلام عن الكذب فلهذا السبب وقعوا في العذاب ثم قال الا عباد الله المخلصين يعني ولكن عباد الله من الاستثناء المنقطع ۞ قوله تعالى ﴿أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ اعلم انه تعالى لما وصف أحوال المتكبرين عن قبول التوحيد المصرين على انكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين في كيفية الثواب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكرنا في فتح اللام وكسرها من المخلصين قراءتين فالفتح ان الله تعالى أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو انهم أخلصوا الطاعة لله تعالى (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى وصف رزقهم بكونه معلوما ولم يبين ان أي الصفات منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الاقوال فقيل معناه ان ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشية وان لم يكن ثمة لا بكرة ولا عشية قال تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وقيل معناه ان ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصا بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر وقيل معناه انهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذي لا يعلم متى يحصل ومتى ينقطع وقيل معناه انه القدر الذي يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم

والخطايا وجعل الخطيئة على كلماته الثلاث اني سقيم بل فعله كبيرهم وقوله لسارة هي أختي مما لا سبيل اليه لانها مع كونها معاريض لا من قبيل الخطايا المفتقرة الى الاستغفار انما صدرت عنه عليه الصلاة والسلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه أما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه الصلاة والسلام الى الشام وأما الاوليان فلانهما وقعتا مكتنفتين بكسر الاصنام ومن البين ان جريان هذه المقالات فيما بينهم كان في مبادي الامر وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع أنها انما تغفر في الدنيا لان أثرها يومئذ يتبين ولان في ذلك تهويلا له واشارة الى وقوع الجزاء فيه ان لم تغفر (رب هب لي حكما) بعد ما ذكر عليه الصلاة والسلام لهم فنون الالطاف الفائضة عليه من الله عز وجل من مبدا خلقه الى يوم بعثه حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد والحكم الحكمة التي هي الكمال في العلم والعمل بحيث يتمكن به من خلافة الحق ورياسة الخلق (وألحقني بالصالحين) ووفقني من العلوم والاعمال والملكات لما رشحني للانتظام في زمرة الكاملين الراسخين في الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها أو واجمع بيني وبينهم في الجنة ولقد أجابه تعالى حيث قال وانه في الآخرة لمن الصالحين (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) أي جاها وحسن صيت في الدنيا بحيث يبقى أثره الى يوم الدين ولذلك لا ترى أمة من الامم الا وهي محبة له ومثنية عليه أو صادقا من ذريتي يجدد أصل ديني ويدعو الناس الى ما كنت أدعوهم اليه من التوحيد وهو النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه

وقد بين الله تعالى انه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقا بين أن ذلك الرزق ماهو فقال فواكه وفيه قولان (الاول) أن الفاكهة عبارة عما يؤكل لاجل التلذذ لا لاجل الحاجة وأرزاق أهل الجنة كلها فواكه لانهم مستغنون عن حفظ الصحة بالاقوات فانهم أجسام محكمة مخلوقة للابد فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ (والثاني) أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالادنى على الاعلى يعني لما كانت الفاكهة حاضرة أبدا كان الادام أولى بالحضور والقول الاول أقرب الى التحقيق واعلم انه تعالى لما ذكر الاكل بين ان ذلك الاكل حاصل مع الاكرام والتعظيم فقال وهم مكرمون لان الاكل الخالي عن التعظيم يليق بالبهائم ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف تعالى مساكنهم فقال في جنات النعيم على سرر متقابلين ومعناه انه لا كلفة عليهم في التلاقي للانس والتخاطب وفي بعض الاخبار انهم اذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم ولا يجوز أن يكونوا متقابلين الا مع حصول الخواطر والسرائر ولن يكونوا كذلك الا مع الفسحة والسعة ولا يجوز أن يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد الا بأن يقوى الله أبصارهم وأسماعهم وأصواتهم ولما شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال يطاف عليهم بكأس من معين يقال للزجاجة التي فيها الخمر كأس وتسمى الخمرة نفسها كأسا قال

* وكأس شربت على لذة * وعن الاخفش كل كأس في القرآن فهي الخمر وقوله من معين أي من شراب معين أو من نهر معين المعين مأخوذ من عين الماء أي يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمي معينا لظهوره يقال عان الماء اذا ظهر جاريا قاله ثعلب فهو مفعول من العين نحو مبيع ومكيل وقيل سمي معينا لانه يجري ظاهر العين ويجوز أن يكون فعيلا من المعين وهو الماء الشديد الجري ومنه أمعن في المسير اذا اشتد فيه وقوله بيضاء صفة للخمر قال الاخفش خمر الجنة أشد بياضا من اللبن وقوله لذة فيه وجوه (أحدها) انها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم اذا أرادوا المبالغة في وصفه بهاتين الصفتين (وثانيها) قال الزجاج أي ذات لذة فعلى هذا حذف المضاف (وثالثها) قال الليث اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحدا في النعت ويقال شراب لذ ولذيذ قال تعالى بيضاء لذة للشاربين وقال تعالى من خمر لذة للشاربين ولذلك سمي النوم لذا لاستلذاذه وعلى هذا اللذة بمعنى لذيذة والاقرب من هذه الوجوه الاول ثم قال تعالى لا فيها غول وفيه أبحاث (البحث الاول) قال الفراء العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء وقال أبو عبيدة الغول ان تغتال عقولهم وأنشد قول مطيع بن اياس

وما زالت الكأس تغتالهم * وتذهب بالاول الاول

وقال الليث الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما في خمر الدنيا قال الواحدي رحمه الله وحقيقته الاهلاك يقال غاله غولا أي أهلكه والغول والغائل المهلك ثم سمي الصداع غولا لانه يؤدي الى الهلاك ثم قال تعالى ولا هم عنها ينزفون وقرئ بكسر الزاي قال الفراء من كسر الزاي فله معنيان يقال انزف الرجل اذا نفدت خمرته وانزف اذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاي فمعناه لا يذهب عقولهم أي لا يسكرون يقال نزف الرجل فهو منزوف ونزيف والمعنى ليس فيها نوع من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من صداع أو خمار أو عربدة ولا هم يسكرون أيضا وخصه بالذكر لانه أعظم المفاسد في شرب الخمر ولما ذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة أوجه (الاول) قوله وعندهم قاصرات الطرف ومعنى القصر في اللغة الحبس ومنه قوله تعالى حور مقصورات في الخيام والمعنى انهن يحبسن نظرهن ولا ينظرن الى غير أزواجهن (الصفة الثانية) قوله تعالى عين قال الزجاج كبار الاعين حسانها واحدها عيناء (الصفة الثالثة) قوله تعالى كأنهن بيض مكنون المكنون في اللغة المستور يقال كننت الشئ وأكننته ومعنى هذا التشبيه ان ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة فاذا كان مكنونا كان مصونا عن الغبرة والقترة فكان هذا اللون في غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور ولما تمم الله صفات أهل الجنة قال فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فان قيل على أي شئ عطف قوله فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قلنا على قوله يطاف عليهم والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب قال الشاعر

وما

الصلاة والسلام أنا دعوة أبي ابراهيم (واجعلني) في الآخرة (من ورثة جنة النعيم) وقدم معنى الوراثة في سورة مريم (واغفر لابي) بالهداية والتوفيق للايمان كما يلوح به تعليله بقوله (انه كان من الضالين) أي طريق الحق وقدم تحقيق المقام في تفسير سورة التوبة وسورة مريم بما لا مزيد عليه (ولا تخزني) بمعاتبتي على ما فرطت أو بنقص رتبتي عن بعض الوراث أو بتعذيبي لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلا كل ذلك مبني على هضم النفس منه عليه الصلاة والسلام أو بتعذيب والدي أو ببعثه في عداد الضالين بعدم توفيقه للايمان وهو من الخزي بمعنى الهوان أو من الخزاية بمعنى الحياء (يوم يبعثون) أي الناس كافة والاضمار قبل الذكر لما في عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه وتخصيصه بالضالين مما يخل بتهويل اليوم (يوم لا ينفع مال ولا بنون) بدل من يوم يبعثون جيء به تأكيدا للتهويل وتمهيدا لما يعقبه من الاستثناء وهو من أعم المفاعيل أي لا ينفع مال وان كان مصروفا في الدنيا الى وجوه البر والخيرات ولا بنون وان كانوا صلحاء مستأهلين للشفاعة أحدا (الا من أتى الله بقلب سليم) أي عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالايمان وفيه تأييد لكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لابيه طلبا لهدايته الى الايمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرا مع علمه عليه الصلاة والسلام بعدم نفعه لانه من باب الشفاعة وقيل هو استثناء من فاعل ينفع بتقدير المضاف أي الا مال من أو بنو من أتى الله الآية

ومابقيت من اللذات الا * محادثة الكرام على المدام

والمعنى فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا ﴿ قوله تعالى ﴿قال قائل منهم انى كان لى قرين يقولون أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه فى سواء الجحيم قال تالله ان كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين ان هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر فى أهل الجنة انهم يتساءلون عند الاجتماع على شرب خمر الجنة فان محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشرب من الامور اللذيذة وتذكر الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الامور اللذيذة ذكر تعالى فى هذه الآية ان أهل الجنة اذا اجتمعوا على الشرب وأخذوا فى المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات انهم يتذكرون انهم كان قد حصل لهم فى الدنيا ما يوجب لهم الوقوع فى عذاب الله ثم انهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الابدية والمقصود من ذكر هذه الاشياء ان أهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم أما قوله قال قائل منهم انى كان لى قرين أى قال قائل من أهل الجنة انى كان لى قرين فى الدنيا يقول أئنك لمن المصدقين أى كان يوبخنى على التصديق والبعث والقيامة ويقول تعجبا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون أى لمحاسبون ومجازون والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار ثم ان ذلك الرجل الذى هو من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم الى كمال السرور بالاطلاع الى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته هل أنتم مطلعون فاطلع والاقرب انه تكلف أمر الاطلاع معه لانه لو كان مطلعا بلا تكلف لم يكن الى اطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم انه ذهب الى بعض أطراف الجنة فاطلع عندها الى النار فرآه فى سواء الجحيم أى فى وسط الجحيم قال له موبخا تالله ان كدت لتردين أى لتهلكنى بدعائك اياى الى انكار البعث والقيامة ولولا نعمة ربى بالارشاد الى الحق والعصمة عن الباطل لكنت من المحضرين فى النار مثلك ولما تم ذلك الكلام مع الرجل الذى كان فى الدنيا قرينا له وهو الآن من أهل النار عاد الى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال أفما نحن بميتين وفيه قولان (الاول) ان أهل الجنة لا يعلمون فى أول دخولهم فى الجنة انهم لا يموتون فاذا جىء بالموت على صورة كبش أملح وذبح فعند ذلك يعلمون أنهم لا يموتون فلعل هذا الكلام حصل قبل ذبح الموت (والثانى) ان الذى يتكامل خيره وسعادته فاذا عظم تعجبه بها قد يقول أيدوم هذا الى أفيبقى هذا الى وان كان على يقين من دوامه ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون ان هذا لهو الفوز العظيم وأما قوله لمثل هذا فليعمل العاملون فقيل انه من بقية كلامهم وقيل انه ابتداء كلام من الله تعالى أى الطالب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون (المسئلة الثانية) قال بعضهم المراد من هذا القائل ومن قرينه ما ذكره الله تعالى فى سورة الكهف فى قوله واضرب لهم مثلا رجلين الى آخر الآيات وروى أن رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى دارا بألف دينار فأراها صاحبه وقال كيف ترى حسنها فقال ما أحسنها فخرج وقال اللهم ان صاحبى هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وانى أسألك دارا من دور الجنة فتصدق بألف دينار ثم ان صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لاجل ان يزوجه الله من الحور العين ثم ان صاحبه اشترى بساتين بألفى دينار فتصدق هذا بألفى دينار ثم ان الله أعطاه فى الجنة ما طلب فعند هذا قال انه كان لى قرين فاطلع فرآه فى سواء الجحيم (المسئلة الثالثة) قوله أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون اختلفت القراء فى هذه الاستفهامات الثلاثة قرأ نافع الاولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الالف من غير استفهام ووافقه الكسائى الا انه يستفهم الثالثة بهمزتين وقرأ ابن عامر الاولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الالف من غير استفهام وقرأ الباقون بالاستفهام فى جميعها ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعدها ياء ساكنة خفيفة وأبو عمرو مطولة وعاصم وحمزة بهمزتين وأما قوله ان كدت لتردين قرأ نافع برواية ورش لتردينى باثبات الياء فى الوصل والباقون بحذفها (المسئلة الرابعة) احتج

وقيل المضاف المحذوف ليس من جنس المستثنى منه حقيقة بل بضرب من الاعتبار كما فى قوله * تحية بينهم ضرب وجيع * أى الاحال من أتى الله بقلب سليم على أنها عبارة عن سلامة القلب كأنه قيل الا سلامة قلب من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف مادل عليه المال والبنون من الغنى وهو المستثنى منه كأنه قيل يوم لا ينفع غنى الاغنى من أتى الله الآية لان غنى المرء فى دينه بسلامة قلبه وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن سلامة قلبه تنفعه (وأزلفت الجنة للمتقين) عطف على لا ينفع وصيغة الماضى فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه فى سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما ان صيغة المضارع فى المعطوف عليه للدلالة على استمرار انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقام التهويل والتفظيع أى قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بانهم المحشورون اليها (وبرزت الجحيم للغاوين) الضالين عن طريق الحق الذى هو الايمان والتقوى أى جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الاحوال الهائلة ويوقنون بانهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا (وقيل لهم أينما كنتم) فى الدنيا (تعبدون من دون الله) أى أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شفعاؤكم فى هذا الموقف (هل ينصرونكم) بدفع العذاب عنكم (أو ينتصرون) بدفعه عن أنفسهم وهذا سؤال تقريع وتبكيت لا يتوقع له جواب ولذلك قيل (فكبكبوا فيها) أى

أصحابنا على أن الهدى والضلال من الله تعالى بقوله تعالى ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين وقالوا مذهب الخصم ان كل مافعله الله تعالى من وجوه الانعام فى حق المؤمن فقد فعله فى حق الكافر واذا كان ذلك الانعام مشتركا فيه امتنع أن يكون سببا لحصول الهداية للمؤمن وان يكون سببا لخلاصه من الكفر والردى فوجب أن تكون تلك النعمة المخصوصة أمرا زائدا على تلك الانعامات التى حصل الاشتراك فيها وماذلك الا بقوة الداعى الى الايمان وتكميل الصارف عن الكفر (المسئلة الخامسة) احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذى من أهل الجنة أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى فهذا يدل على ان الانسان لا يموت الا مرة واحدة ولو حصلت الحياة فى القبر لكان الموت حاصلا مرتين (والجواب) أن قوله الا موتتنا الاولى المراد منه كل ماوقع فى الدنيا والله أعلم ۞ قوله تعالى (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم انا جعلناها فتنة للظالمين انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالؤن منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ثم ان مرجعهم لالى الجحيم انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الا عباد الله المخلصين) اعلم انه تعالى لما قال بعد ذكر أهل الجنة ووصفها لمثل هذا فليعمل العاملون أتبعه بقوله أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجرا لهم عن الكفر وكما وصف من قبل مأكل أهل الجنة ومشاربهم وصف أيضا فى هذه الآية مأكل أهل النار ومشاربهم * أما قوله أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم فالمعنى ان الرزق المعلوم المذكور لاهل الجنة خير نزلا أى خير حاصلا أم شجرة الزقوم وأصل النزل الفضل الواسع فى الطعام يقال طعام كثير النزل فاستعير للحاصل من الشئ ويقال أرسل الامير الى فلان نزلا وهو الشئ الذى يصلح حال من ينزل بسببه اذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لاهل الجنة اللذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الالم والغم ومعلوم انه لا نسبة لاحدهما الى الآخر فى الخيرية الا انه جاء هذا الكلام اما على سبيل السخرية بهم أولاجل ان المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم الى الرزق الكريم والكافرين اختاروا ما أوصلهم الى العذاب الاليم فقيل لهم ذلك توبيخا لهم على سوء اختيارهم وأما الزقوم فقال الواحدى رحمه الله لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيرا الا الكلبى فانه روى انه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى أكثر الله فى بيوتكم الزقوم فان أهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم فقال أبو جهل لجاريته زقينا فأتته بزبد وتمر وقال تزقموا ثم قال الواحدى ومعلوم ان الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر قال ابن دريد لم يكن للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الافراط من أكل الشئ حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم وظاهر لفظ القرآن يدل على انها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها ثم انه تعالى يكره أهل النار على تناول بعض أجزائها * اما قوله تعالى انا جعلناها فتنة للظالمين ففيه أقوال (الاول) انها انما صارت فتنة للظالمين من حيث ان الكفار لما سمعوا هذه الآية قالوا كيف يعقل أن تنبت الشجرة فى جهنم مع ان النار تحرق الشجرة والجواب عنه ان خالق النار قادر على ان يمنع النار من احراق الشجر ولانه اذا جاز أن يكون فى النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن احراقهم فلم لا يجوز مثله فى هذه الشجرة اذا عرفت هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو انهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة فى قلوبهم وصارت تلك الشبهة سببا لتماديهم فى الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم (والوجه الثانى فى التفسير) أن يكون المراد صيرورة هذه الشجرة فتنة لهم فى النار لانهم اذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم فحينئذ يصير ذلك فتنة فى حقهم (الوجه الثالث) أن يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار فان هذا شئ بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف فاذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه الى الله واذا ورد على الزنديق توسل به الى الطعن فى القرآن والنبوة * ثم انه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات (الصفة الاولى) قوله انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم قيل منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع الى دركاتها (الصفة الثانية) قوله طلعها كأنه رؤس الشياطين قال صاحب الكشاف الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها اما استعارة

لفظية

ألقوا فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى الى أن يستقروا فى قعرها (هم) أى آلهتهم (والغاوون) الذين كانوا يعبدونهم وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز الى أنهم يؤخرون عنها فى الكبكبة ليشاهدوا سوء حالها فيزدادوا غما الى غمهم (وجنود ابليس) أى شياطينه الذين كانوا يغوونهم ويوسوسون اليهم ويسولون لهم ماهم عليه من عبادة الاصنام وسائر فنون الكفر والمعاصى ليجتمعوا فى العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه وقيل متبعوه من عصاة الثقلين والاول هو الوجه (أجمعون) تأكيد للضمير وماعطف عليه وقوله تعالى (قالوا) الخ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل بهم مافعل فقيل قال العبدة (وهم فيها يختصمون) أى قالوا معترفين بخطئهم فى انهماكهم فى الضلالة متحسرين معيرين لانفسهم والحال انهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين مخاطبين لمعبوديهم على ان الله تعالى يجعل الاصنام صالحة للاختصام بان يعطيها القدرة على الفهم والنطق (تالله ان كنا لفى ضلال مبين) ان مخففة من الثقيلة قد حذف اسمها الذى هو ضمير الشان واللام فارقة بينها وبين النافية أى ان الشأن كنا فى ضلال واضح لا خفاء فيه ووصفهم له بالوضوح للاشباع فى اظهار ندمهم وتحسرهم وبيان عظم خطئهم فى رأيهم مع وضوح الحق كما ينبئ عنه تصدير قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب وقوله تعالى (اذ نسويكم برب العالمين) ظرف لكونهم فى ضلال مبين وقيل لما دل عليه الكلام

لفظيـة أو معنوية وقال ابن قتيبة سمى طلعا لطلوعه كل سنة ولذلك قيل طلع النخل لأول ما يخرج من ثمره وأما تشبيه هذا الطلع برؤس الشياطين ففيه سؤال لانه قيل انا ما رأينا رؤس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شئ بها وأجابوا عنه من وجوه (الاول) وهو الصحيح ان الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسيرة واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشويه فى الصورة والسيرة فكما حسن التشبيه بالملك عند ارادة تقرير الكمال والفضيلة فى قوله ان هذا الا ملك كريم فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برؤس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة والحاصل ان هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل كانه قيل ان أقبح الاشياء فى الوهم والخيال هو رؤس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها فى قبح المنظر وتشويه الصورة والذى يؤكد هذا ان العقلاء اذا رأوا شيأ شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة قالوا انه شيطان واذا رأوا شيأ حسن الصورة والسيرة قالوا انه ملك وقال امرؤ القيس

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى * ومسنونة زرق كأنياب أغوال

(والقول الثانى) أن الشياطين حيات لها رؤس واعراف وهى من أقبح الحيات وبها يضرب المثل فى القبح والعرب اذا رأت منظرا قبيحا قالت كانه شيطان الحماطة والحماطة شجرة معينة (والقول الثالث) ان رؤس الشياطين نبت معروف قبيح الرأس والوجه الاول هو الجواب الحق واعلم انه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين أن الكفار لآكلون منها فمالئون منها البطون واعلم ان اقدامهم على ذلك الاكل يحتمل وجهين (الاول) انهم أكلوا منها لشدة الجوع فان قيل وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة طعمها قلنا ان الواقع فى الضرر العظيم ربما استروح منه الى ما يقاربه فى الضرر فاذا جوعهم الله الجوع الشديد فزعوا فى ازالة ذلك الجوع الى تناول هذا الشئ وان كان بالصفة التى ذكرتموها (الوجه الثانى) أن يقال الزبانية يكرهونهم على الاكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم * واعلم انهم اذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون الى الشراب فعند هذا وصف الله شرابهم فقال ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم قال الزجاج الشوب اسم عام فى كل ما خلط بغيره والحميم الماء الحار المتناهى فى الحرارة والمعنى انه اذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم فحينئذ يشوب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما واعلم ان الله وصف شرابهم فى القرآن بأشياء منها كونه غساقا ومنها قوله وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ومنها ما ذكره فى هذه الآية (فان قيل) ما الفائدة فى كلمة ثم فى قوله ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم قلنا فيه وجهان (الاول) أنهم يملؤن بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم ثم انهم لا يسقون الا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب (والثانى) انه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه فكان المقصود من كلمة ثم بيان أن حال المشروب فى البشاعة أعظم من حال المأكول ثم قال تعالى ثم ان مرجعهم لالى الجحيم قال مقاتل أى بعد أكل الزقوم وشرب الحميم وهذا يدل على انهم عند شرب الحميم لم يكونوا فى الجحيم وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم فهم يوردون الحميم لاجل الشرب كما تورد الابل الى الماء ثم يوردون الى الجحيم فهذا قول مقاتل واحتج على صحته بقوله تعالى هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن وذلك يدل على صحة ما ذكرناه ثم انه تعالى لما وصف عذابهم فى أكلهم وشربهم قال انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون قال الفراء الاهراع الاسراع يقال هرع وأهرع اذا استحث والمعنى انهم يتبعون آباءهم اتباعا فى سرعة كأنهم يزعجون الى اتباع آبائهم والمقصود من الآية انه تعالى علل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء فى الدين وترك اتباع الدليل ولو لم يوجد فى القرآن آية غير هذه الآية فى ذم التقليد لكفى * ثم انه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له فى كفرهم وتكذيبهم فقال ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين فبين تعالى ان ارساله للرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف ويجب أن يكون له صلى الله عليه وسلم أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ويستمر على الدعاء الى الله وان تمردوا فليس عليه الا البلاغ * ثم قال تعالى فانظر كيف كان عاقبة المنذرين وهذا وان كان فى الظاهر خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم الا أن المقصود منه خطاب الكفار لانهم سمعوا بالاخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى

أى ضلانا وقيل للضلال المذكور وان كان فيه ضعف صناعى من حيث ان المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف وقيل ظرف لمبين وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية أى تالله لقد كنا فى غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا اياكم أيها الاصنام فى استحقاق العبادة برب العالمين الذى أنتم أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم وقولهم (وما أضلنا الا المجرمون) بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم لكن لا على معنى قصر الاضلال على المجرمين دون من عداهم بل على معنى قصر ضلالهم على كونه بسبب ضلالهم من غير أن يستقلوا فى تحققه أو يكون بسبب اضلال الغير كانه قيل وما صدر عنا ذلك الضلال الفاحش الا بسبب اضلالهم والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم رؤساؤهم وكبراؤهم كما فى قوله تعالى ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا وعن السدى رحمه الله الاولون الذين اقتدوا بهم وأيا ما كان ففيه اوفر نصيب من التعريض للذين قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وعن ابن جريج ابليس وابن آدم القاتل لانه أول من سن القتل وأنواع المعاصى (فما لنا من شافعين) كما للمؤمنين من الملائكة والانبياء عليهم الصلاة والسلام (ولا صديق حميم) كما نرى لهم أصدقاء أو فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء على ان عدمهما كناية عن عدواتهما كما أن عدم المحبة فى مثل قوله تعالى والله لا يحب الفساد كناية عن البغض حسبما ينبئ عنه قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو

عادوثمود وغيرهم فان لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن يكون زاجرا لهم عن كفرهم * وقوله تعالى الا عباد الله المخلصين فيه قولان (أحدهما) انه استثناء من قوله ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين (والثانى) انه استثناء من قوله كيف كان عاقبة المنذرين فانها كانت أقبح العواقب وأفظعها الا عاقبة عباد الله المخلصين فانها كانت مقرونة بالخير والراحة ۞ قوله تعالى ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين ثم اغرقنا الآخرين﴾ اعلم انه تعالى لما قال من قبل ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين وقال فانظر كيف كان عاقبة المنذرين أتبعه بشرح وقائع الانبياء عليهم السلام (فالقصة الاولى) حكاية حال نوح عليه السلام وقوله ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون فيه مباحث (الاول) ان اللام فى قوله فلنعم المجيبون جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف أى فلنعم المجيبون نحن (البحث الثانى) انه تعالى ذكر أن نوحا نادى ولم يذكر أن ذلك النداء فى أى الوقائع كان لاجرم حصل فيه قولان (الاول) وهو المشهور عند الجمهور انه نادى الرب تعالى فى أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة (والقول الثانى) ان نوحا عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه الى الدين الحق بالغوا فى ايذائه وقصدوا قتله ثم انه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفار قومه فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وايذائه واحتج هذا القائل على ضعف القول الاول بأنه عليه السلام انما دعا عليهم لاجل أن ينجيه الله تعالى وأهله وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن فى دعائه وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة * ثم انه تعالى لما حكى عن نوح انه ناداه قال بعده فلنعم المجيبون وهذه اللفظة تدل على أن تلك الاجابة كانت من النعم العظيمة وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال ولقد نادانا نوح والقادر العظيم لا يليق به الا الاحسان العظيم (والثانى) انه أعاد صيغة الجمع فى قوله فلنعم المجيبون وذلك أيضا يدل على تعظيم تلك النعمة لاسيما وقد وصف تلك الاجابة بانها نعمت الاجابة (والثالث) أن الفاء فى قوله فلنعم المجيبون يدل على أن حصول هذه الاجابة مرتب على ذلك النداء والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضى كونه معللا به وهذا يدل على ان النداء بالاخلاص سبب لحصول الاجابة ثم انه تعالى لما بين أنه سبحانه نعم المجيب على سبيل الاجمال بين أن الانعام حصل فى تلك الاجابة من وجوه (الاول) قوله تعالى ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وهو على القول الاول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق وعلى الثانى الكرب الحاصل من أذى قومه (والثانى) قوله وجعلنا ذريته هم الباقين يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا قال ابن عباس ذريته بنوه الثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان ويافث أبو الترك (النعمة الثالثة) قوله تعالى وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين يعنى يذكرون هذه الكلمة فان قيل فما معنى قوله فى العالمين قلنا معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا أى لا يخلو أحد منهم منها كانه قيل أثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم ثم انه تعالى لما شرح تفاصيل انعامه عليه قال انا كذلك نجزى المحسنين والمعنى انا انما خصصنا نوحا عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوأة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن فى ألسنة جميع العالمين لاجل انه كان محسنا ثم علل كونه محسنا بأنه كان عبد الله مؤمنا والمقصود منه بيان ان أعظم الدرجات وأشرف المقامات الايمان بالله والانقياد لطاعته ۞ (القصة الثانية) قصة ابراهيم عليه السلام قوله تعالى ﴿وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فأقبلوا اليه يزفون﴾ فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله من شيعته الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) وهو الاظهر انه عائد الى نوح عليه السلام أى من شيعة نوح أى من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه لابراهيم قالوا وما كان بين نوح وابراهيم الا نبيان هود وصالح وروى صاحب الكشاف انه كان بين نوح وابراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة

الا المتقين أورقعنا فى مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق على أن المراد بعدمهما عدم أثرهما وجمع الشافع لكثرة الشفعاء عادة كما أن افراد الصديق لقلته أو لصحة اطلاقه على الجمع كالعدو تشبيها لهما بالمصادر كالحنين والقبول وكلمة لو فى قوله تعالى (فلو أن لنا كرة) للتمنى كليت لما أن بين معنييهما تلاقيا فى معنى الفرض والتقدير كانه قيل فليت لنا كرة أى رجعة الى الدنيا وقيل هى على أصلها من الشرط وجوابه محذوف كانه قيل فلو أن لنا كرة لفعلنا من الخيرات كيت وكيت ويأباه قوله تعالى (فنكون من المؤمنين) لتحتم كونه جوابا للتمنى مفيد الترتب ايمانهم على وقوع الكرة البتة بلا تخلف كما هو مقتضى حالهم وعطفه على كرة على طريقة

* للبس عباءة وتقر عينى *

كما يستدعيه كون لو على أصلها انما يفيد تحقق مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم وايمانهم معا من غير دلالة على استلزام الكرة للايمان أصلا مع أنه مقصود حتما (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من نبا ابراهيم عليه السلام المشتمل على بيان بطلان ما كان عليه أهل مكة من عبادة الاصنام وتفصيل ما يؤل اليه أمر عبدتها يوم القيامة من اعترافهم بخطئهم الفاحش وندمهم وتحسرهم على ما فاتهم من الايمان وتمنيهم الرجعة الى الدنيا ليكونوا من المؤمنين عند مشاهدتهم لما أزلفت لهم جنات النعيم وبرزت لانفسهم الجحيم وغشيهم ما غشيهم من ألوان العذاب وأنواع العقاب (لآية) أى آية عظيمة لا يقادر قدرها موجبة على عبدة الاصنام كافة لاسيما

(الثانى) قال الكلبى المراد من شيعة محمد لابراهيم يعنى انه كان على دينه ومنهاجه فهو من شيعته وان كان سابقاله والاول أظهر لانه تقدم ذكر نوح عليه السلام ولم يتقدم ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فعود الضمير الى نوح أولى (المسئلة الثانية) العامل فى اذ مادل عليه قوله وان من شيعته من معنى المشايعة يعنى وان ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لابراهيم أما قوله اذ جاء ربه بقلب سليم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله بقلب سليم قولان (الاول) قال مقاتل والكلبى يعنى خالص من الشرك والمعنى انه سلم من الشرك فلم يشرك بالله (والثانى) قال الاصوليون المراد انه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصى فيدخل فيه كونه سليما عن الشرك وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد عن ابن عباس انه كان يحب للناس ما يحب لنفسه وسلم جميع الناس من غشه وظلمه وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحدا واحتج الذاهبون الى القول الاول بانه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة انكاره على قومه الشرك بالله وهو قوله اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون واحتج الذاهبون الى القول الثانى بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة ويتأكد هذا بقوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين مع انه تعالى قال الله أعلم حيث يجعل رسالاته وقال وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فان قيل ما معنى المجىء بقلبه ربه قلنا معناه انه أخلص لله قلبه فكأنه أتحف حضرة الله بذلك القلب ورأيت فى التوراة ان الله قال لموسى أجب الهك بكل قلبك واعلم انه تعالى لما ذكر أن ابراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة ان دعا أباه وقومه الى التوحيد فقال اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون والمقصود من هذا الكلام تهجين تلك الطريقة وتقبيحها ثم قال أئفكا آلهة دون الله تريدون قال صاحب الكشاف أئفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه افكا وانما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لانه كان الاهم عنده أن يقرر عندهم بانهم على افك وباطل فى شركهم ويجوز أن يكون افكا مفعولا به يعنى أتريدون افكا ثم فسر الافك بقوله آلهة دون الله على انها افك فى أنفسها ويجوز أن يكون حالا بمعنى أتريدون آلهة من دون الله آفكين * ثم قال فما ظنكم برب العالمين وفيه وجهان (أحدهما) أتظنون برب العالمين انه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له فى المعبودية (وثانيها) أتظنون برب العالمين انه من جنس هذه الاجسام حتى جعلتموها مساوية له فى المعبودية فنبههم بذلك على انه ليس كمثله شئ ثم قال فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم عن ابن عباس انهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم وذلك انه أراد أن يكايدهم فى أصنامهم ليلزمهم الحجة فى انها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون اليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خاليا فى بيت الاصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان (الاول) ان النظر فى علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه ابراهيم (والثانى) انه عليه السلام ما كان سقيما فلما قال انى سقيم كان ذلك كذبا واعلم أن العلماء ذكروا فى الجواب عنهما وجوها كثيرة (الاول) انه نظر نظرة فى النجوم فى أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى فى بعض ساعات الليل والنهار فنظر فيعرف هل هى فى تلك الساعة وقال انى سقيم فجعله عذرا فى تخلفه عن العيد الذى لهم وكان صادقا فيما قال لان السقم كان يأتيه فى ذلك الوقت وانما تخلف لاجل تكسير أصنامهم (الوجه الثانى فى الجواب) أن قوم ابراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الامور فلذلك نظر ابراهيم فى النجوم أى فى علوم النجوم وفى معانيه لا انه نظر بعينه اليها وهو كما يقال فلان نظر فى الفقه وفى النحو وانما أراد أن يوهمهم انه يعلم ما يعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى اذا قال انى سقيم سكنوا الى قوله وأما قوله انى سقيم فمعناه سأسقم كقوله انك ميت أى ستموت (الوجه الثالث) أن قوله فنظر نظرة فى النجوم هو قوله تعالى فلما جن عليه الليل رأى كوكبا الى آخر الآيات وكان ذلك النظر لاجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هى قديمة أو محدثة وقوله انى سقيم يعنى سقيم القلب غير عارف بربى وكان ذلك قبل البلوغ (الوجه الرابع) قال ابن زيد كان له نجم مخصوص وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض ابراهيم ولاجل هذا الاستقراء لما رآه فى ذلك الوقت طالعا على تلك الصفة المخصوصة قال انى سقيم أى هذا السقم واقع لا محالة

على أهل مكة الذين يدعون أنهم على ملة ابراهيم عليه السلام أن يجتنبوا كل الاجتناب ما كانوا عليه من عبادتها خوفا أن يحيق بهم مثل ما حاق بأولئك من العذاب بحكم الاشتراك فيما يوجبه أوان فى ذكر نبئه وتلاوته عليهم على ما هو عليه من غير أن تسمعه من أحد لآية عظيمة دالة على أن ما تتلوه عليهم وحى صادق نازل من جهة الله تعالى موجبة للايمان به قطعا (وما كان أكثرهم مؤمنين) أى أكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم النبأ مؤمنين بل هم مصرون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال واما ان ضمير أكثرهم لقوم ابراهيم عليه السلام كما توهموا فما لا سبيل اليه أصلا لظهور انهم ما ازدادوا بما سمعوا منه عليه الصلاة والسلام الا طغيانا وكفرا حتى اجترؤا على تلك العظيمة التى فعلوها به عليه الصلاة والسلام فكيف يعبر عنهم بعدم ايمان أكثرهم وانما آمن له لوط فنجاهما الله عز وجل الى الشام وقد مر بقية الكلام فى آخر قصة موسى عليه السلام (وان ربك لهو العزيز الرحيم) أى هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ولكنه يمهلهم بحكم رحمته الواسعة ليؤمن بعض منهم أو من ذرياتهم (كذبت قوم نوح المرسلين) القوم مؤنث ولذلك يصغر على قويمة وقيل القوم بمعنى الامة وتكذيبهم للمرسلين اما باعتبار اجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التى لا تختلف باختلاف الازمنة والاعصار واما لان المراد بالجمع الواحد كما يقال فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله الا دابة وبردة واذ فى قوله تعالى (اذ قال لهم) ظرف للتكذيب على أنه عبارة عن زمان مديد وقع فيه

(الوجه الخامس) أن قوله انى سقيم أى مريض القلب بسبب اطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم لعلك باخع نفسك (الوجه السادس فى الجواب) انا لا نسلم أن النظر فى علم النجوم والاستدلال بها حرام لان من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة و بخاصية لاجلها يظهر منه أثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل وأما الكذب فغير لازم لانه ذكر قوله انى سقيم على سبيل التعريض بمعنى أن الانسان لا ينفك فى أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة اما فى بدنه واما فى قلبه وكل ذلك سقم (الوجه السابع) قال بعضهم ذلك القول عن ابراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما كذب ابراهيم الا ثلاث كذبات قلت لبعضهم هذا الحديث لا ينبغى أن يقبل لان نسبة الكذب الى ابراهيم لا تجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوى و بين نسبته الى الخليل عليه السلام كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته الى الراوى أولى ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد بكونه كذبا خبرا شبيها بالكذب (والوجه الثامن) أن المراد من قوله فنظر نظرة فى النجوم أى نظر فى نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم فان الاشياء التى تحدث قطعة قطعة يقال انها منجمة أى متفرقة ومنه نجوم الكتابة والمعنى انه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها حتى يستخرج منها حيلة يقدر بها على اقامة عذر لنفسه فى التخلف عنهم فلم يجد عذرا أحسن من قوله انى سقيم والمراد انه لا بد من أن أصير سقيما كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر انك مسافر واعلم أن ابراهيم عليه السلام لما قال انى سقيم تولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه فى أن لا يخرج اليوم فكان ذلك مراده فراغ الى آلهتهم يقال راغ اليه اذا مال اليه فى السر على سبيل الخفية ومنه روغان الثعلب وقوله ألا تأكلون يعنى الطعام الذى كان بين أيديهم وانما قال ذلك استهزاء بها وكذا قوله ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا فاقبل عليهم مستخفيا كأنه قال فضربهم ضربا لان راغ عليهم فى معنى ضربهم أو فراغ عليهم ضربا بمعنى ضاربا * وفى قوله باليمين قولان (الاول) معناه بالقوة والشدة لان اليمين أقوى الجارحتين (والثانى) انه أتى بذلك الفعل بسبب الحلف وهو قوله تعالى عنه وتالله لأكيدن أصنامكم ثم قال فأقبلوا اليه يزفون قرأ حمزة يزفون بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف ومن قرأ بالضم فهو من أزف يزف قال الزجاج يزفون يسرعون وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها وقرأ حمزة يزفون أى يحملون غيرهم على الزفيف قال الاصمعى يقال أزففت الابل اذا حملتها على أن تزف قال وهو سرعة الخطوة ومقاربة المشى والمفعول محذوف على قراءته كأنهم حملوا دوابهم على الاسراع فى المشى فان قيل مقتضى هذه الآية أن ابراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا اليه وأخذوه وقال فى سورة أخرى فى عين هذه القصة قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا يقتضى انهم فى أول الامر ما عرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض قلنا لا يبعد أن يقال ان جماعة عرفوه فعدوا اليه مسرعين والاكثرون ما عرفوه فتعرفوا ان ذلك الكاسر من هو والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم﴾ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن القوم لما عاتبوا ابراهيم على كسر الاصنام فهو أيضا ذكر لهم الدليل الدال على فساد المصير الى عبادتها فقال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ووجه الاستدلال ظاهر وهو ان الخشب والحجر قبل النحت والاصلاح ما كان معبودا للانسان البتة فاذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه الا آثار تصرفه فلو صار معبودا عند ذلك لكان معناه ان الشئ الذى ما كان معبودا اذا حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبودا عند ذلك وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل (المسئلة الثانية) احتج جمهور الاصحاب بقوله والله خلقكم وما تعملون على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقالوا النحويون اتفقوا على أن لفظ ما مع ما بعده فى تقدير المصدر فقوله وما تعملون معناه وعملكم وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم فان قيل هذه الآية حجة عليكم من وجوه (الاول) انه

تعالى

ما وقع من الجانبين الى تمام الامر كأن تكذيبهم عبارة عما صدر عنهم من حين ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام الى انتهائها (أخوهم) أى نسيبهم (نوح ألا تتقون) الله حيث تعبدون غيره (انى لكم رسول) من جهته تعالى (أمين) مشهور بالامانة فيما بينكم (فاتقوا الله وأطيعون) فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى (وما أسئلكم عليه) أى على ما أنا متصد له من الدعاء والنصح (من أجر) أصلا (ان أجرى) فيما أتولاه (الا على رب العالمين) والفاء فى قوله تعالى (فاتقوا الله وأطيعون) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزهه عليه الصلاة والسلام عن الطمع كما أن نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على أمانته والتكرير للتأكيد والتنبيه على أن كلا منهما مستقل فى ايجاب التقوى والطاعة فكيف اذا اجتمعا وقرئ ان أجرى بسكون الياء (قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون) أى الاقلون جاها ومالا جمع الارذل على الصحة فانه بالغلبة صار جاريا مجرى الاسم كالاكبر والاكابر وقيل جمع أرذل جمع رذل كأكالب وأكلب وكلب وقرئ وأتباعك وهو جمع تابع كشاهد وأشهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك اذ ليس لهم رزانة عقل ولا اصابة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى كما ذكر فى موضع آخر وهذا من كمال سخافة عقولهم وقصرهم أنظارهم على حطام الدنيا وكون الاشرف عندهم من هو أكثر منها حظا والارذل من حرمها وجهلهم بأنها لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة وان النعيم هو نعيم الآخرة والاشرف

تعالى قال أتعبدون ما تنحتون أضاف العبادة والنحت اليهم اضافة الفعل الى الفاعل ولو كان ذلك واقعا بتخليق الله لاستحال كونه فعلا للعبد (الثانى) انه تعالى انما ذكر هذه الآية توبيخا لهم على عبادة الاصنام لانه تعالى بين انه خلقهم وخالق لتلك الاصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الاصنام لاجرم انه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطا العظيم فقال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ولو لم يكونوا فاعلين لافعالهم لما جاز توبيخهم عليها سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لا نسلم انها حجة لكم قوله لفظة ما مع ما بعدها فى تقدير المصدر قلنا هذا ممنوع وبيانه أن سيبويه والاخفش اختلفا فى أنه هل يجوز أن يقال أعجبنى ما قمت أى قيامك فجوزه سيبويه ومنعه الاخفش وزعم أن هذا لا يجوز الا فى الفعل المتعدى وذلك يدل على أن ما مع ما بعدها فى تقدير المفعول عند الاخفش سلمنا أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر لكنه أيضا قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه (الاول) قوله أتعبدون ما تنحتون والمراد بقوله ما تنحتون المنحوت لا النحت لانهم ما عبدوا النحت وانما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله ما تعملون المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر (والثانى) انه تعالى قال فاذا هى تلقف ما يأفكون وليس المراد انها تلقف نفس الافك بل أراد العصى والحبال التى هى متعلقات ذلك الافك فكذا ههنا (الثالث) أن العرب تسمى محل العمل عملا يقال فى الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة ما مع ما بعدها كما تجىء بمعنى المصدر فقد تجىء أيضا بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول أولى لان المقصود فى هذه الآية تزييف مذهبهم فى عبادة الاصنام لا بيان انهم لا يوجدون افعال أنفسهم لان الذى جرى ذكره فى أول الآية الى هذا الموضع هو مسئلة عبادة الاصنام لا خلق الاعمال واعلم أن هذه السؤالات قوية وفى دلائلنا كثرة فالاولى ترك الاستدلال بهذه الآية والله أعلم واعلم أن ابراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا الى طريق الايذاء فقالوا ابنوا له بنيانا واعلم أن كيفية ذلك البناء لا يدل عليها لفظ القرآن قال ابن عباس بنوا حائطا من حجر طوله فى السماء ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وملؤه نارا فطرحوه فيها وذلك هو قوله تعالى فألقوه فى الجحيم وهى النار العظيمة قال الزجاج كل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم والالف واللام فى الجحيم يدل على النهاية والمعنى فى جحيمه أى فى جحيم ذلك البنيان ثم قال تعالى فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين والمعنى ان فى وقت المحاجة حصلت الغلبة له وعندما ألقوه فى النار صرف الله عنه ضرر النار فصار هو الغالب عليهم واعلم انه لما انقضت هذه الواقعة قال ابراهيم انى ذاهب الى ربى سيهدين ونظير هذه الآية قوله تعالى وقال انى مهاجر الى ربى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت هذه الآية على أن الموضع الذى تكثر فيه الاعداء تجب مهاجرته وذلك لان ابراهيم صلوات الله عليه وسلامه مع ان الله سبحانه خصه باعظم أنواع النصرة لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار فلان يجب ذلك على الغير كان أولى (المسئلة الثانية) فى قوله انى ذاهب الى ربى قولان (الاول) المراد منه مفارقة تلك الديار والمعنى انى ذاهب الى مواضع دين ربى (والقول الثانى) قال الكلبى ذاهب بعبادتى الى ربى فعلى القول الاول المراد بالذهاب الى الرب هو الهجرة من الديار وبه اقتدى موسى حيث قال كلا ان معى ربى سيهدين وعلى القول الثانى المراد رعاية أحوال القلوب وهو أن لا يأتى بشئ من الاعمال الا لله تعالى كما قال وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض قيل ان القول الاول أولى لان المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته الى أرض الشام وأيضا يبعد حمله على الهداية فى الدين لانه كان على الدين فى ذلك الوقت الا أن يحمل ذلك على الثبات عليه أو يحمل ذلك على الاهتداء الى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة فى أمر الدين (المسئلة الثالثة) قوله سيهدين يدل على ان الهداية لا تحصل الا من الله تعالى كما يقول أصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الادلة وازاحة الاعذار لان كل ذلك قد حصل فى الزمان الماضى وقوله سيهدين يدل على اختصاص تلك الهداية بالمستقبل فوجب حمل الهداية فى هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة فى قلبه فان قيل ابراهيم عليه السلام جزم فى هذه الآية بانه تعالى سيهديه وان موسى عليه السلام لم يجزم به بل قال عسى

من فاز به والارذل من حرمه (قال وما علمى بما كانوا يعملون) جواب عما أشير اليه من قولهم انهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة أى وما وظيفتى الا اعتبار الظواهر وبناء الاحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم والشق عن قلوبهم (ان حسابهم) أى ما محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفياتها البارزة والكامنة (الا على ربى) فانه المطلع على السرائر والضمائر (لو تشعرون) أى بشئ من الاشياء أو لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك ولكنكم لستم كذلك فتقولون ما تقولون (وما أنا بطارد المؤمنين) جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق ايمانهم بذلك حيث جعلوا اتباعهم مانعا عنه وقوله (ان أنا الا نذير مبين) كالعلة له أى ما أنا الا رسول مبعوث لانذار المكلفين وزجرهم عن الكفر والمعاصى سواء كانوا من الاعزاء أو الاذلاء فكيف يتسنى لى طرد الفقراء لاستتباع الاغنياء أو ما على الا انذاركم بالبرهان الواضح وقد فعلته وما على استرضاء بعضكم بطرد الآخرين (قالوا لئن لم تنته يا نوح) عما تقول (لتكونن من المرجومين) من المشتومين أو المرميين بالحجارة قالوه قاتلهم الله تعالى فى أواخر الامر ومعنى قوله تعالى (قال رب ان قومى كذبون) تموا على تكذيبى وأصروا على ذلك بعد ما دعوتهم هذه الازمنة المتطاولة ولم يزدهم دعائى الا فرارا كما يعرب عنه دعاؤه بقوله (فافتح بينى وبينهم فتحا) أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا وهذه حكاية اجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح عليه السلام (ونجنى ومن معى من المؤمنين) أى من قصدهم أو من

ربى أن يهدينى سواء السبيل فما الفرق قلنا العبد اذا تجلى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود واذا تجلى له مقامات كونه غنيا عن العالمين فحينئذ يستحقر نفسه فلا يجزم بل لا يظهر الا الرجاء والطمع (المسئلة الرابعة) قوله تعالى انى ذاهب الى ربى يدل على فساد تمسك المشبهة بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب لان كلمة الى موجودة فى قوله انى ذاهب الى ربى مع انه لم يلزم أن يكون الاله موجودا فى ذلك المكان فكذلك ههنا واعلم انه صلوات الله عليه لما هاجر الى الارض المقدسة أراد الولد فقال هب لى من الصالحين أى هب لى بعض الصالحين يريد الولد لان لفظ الهبة غلب فى الولد وان كان قد جاء فى الاخ فى قوله تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا وقال تعالى ووهبنا له اسحق و يعقوب ووهبنا له يحيى وقال على بن أبى طالب لابن عباس رضى الله عنهم حين هنأه بولده على أبى الاملاك شكرت الواهب وبورك لك فى الموهوب ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى وبهبة الوهاب وبموهوب ووهب واعلم أن هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة أشياء على أن الولد غلام ذكر وانه يبلغ الحلم وانه يكون حليما وأى حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه أبوه الذبح قال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ثم استسلم لذلك وأيضا فان ابراهيم عليه السلام كان موصوفا بالحلم قال تعالى ان ابراهيم لاواه حليم ان ابراهيم لحليم أواه منيب فبين ان ولده موصوف بالحلم وانه قائم مقامه فى صفات الشرف والفضيلة واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه فقال رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين وطلبه للولد فقال هب لى من الصالحين وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته فى الدين والدنيا فقال وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد ۞ قوله تعالى ﴿فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن ياابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ اعلم انه سبحانه وتعالى لما قال فبشرناه بغلام حليم أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه فقال فلما بلغ معه السعى ومعناه فلما أدرك وبلغ الحد الذى يقدر فيه على السعى وقوله معه فى موضع الحال والتقدير كائنا معه والفائدة فى اعتبار هذا المعنى أن الاب أرفق الناس بالولد وغيره ربما عنف به فى الاستسعاء فلا يحتمله لانه لم تستحكم قوته قال بعضهم كان فى ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة والمقصود من هذا الكلام ان الله تعالى لما وعده فى الآية الاولى بكون ذلك الغلام حليما بين فى هذه الآية ما يدل على كمال حلمه وذلك لانه كان به من كمال الحلم وفسحة الصدر ما قواه على احتمال تلك البلية العظيمة والاتيان بذلك الجواب الحسن اما قوله انى أرى فى المنام انى أذبحك ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير هذه اللفظة وجهان (الاول) قال السدى كان ابراهيم حين بشر باسحق قبل أن يولد له قال هو اذن لله ذبيح فقيل لابراهيم قد نذرت نذرا فف بنذرك فلما أصبح قال يابنى انى أرى فى المنام انى أذبحك وروى من طريق آخر انه رأى ليلة التروية فى منامه كان قائلا يقول له ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى فى ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثم سمى يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف انه من الله فسمى يوم عرفة ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر فهذا هو قول أهل التفسير وهو يدل على أنه رأى فى المنام ما يوجب أن يذبح ابنه فى اليقظة وعلى هذا فتقدير اللفظ انى أرى فى المنام ما يوجب أن أذبحك (والقول الثانى) انه رأى فى المنام انه يذبحه ورؤيا الانبياء عليهم السلام من باب الوحى وعلى هذا القول فالمرئى فى المنام ليس الا انه يذبح فان قيل اما أن يقال انه ثبت بالدليل عند الانبياء عليهم السلام ان كل ما رآه فى المنام فهو حق وحجة أو لم يثبت ذلك بالدليل عندهم فان كان الاول فلم راجع الولد فى هذه الواقعة بل كان من الواجب عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور وان لا يراجع الولد فيه وان لا يقول له فانظر ماذا ترى وان لا يوقف العمل على أن يقول له الولد افعل ما تؤمر وأيضا فقد قلتم انه بقى فى اليوم الاول متفكرا ولو ثبت عنده بالدليل ان

شؤم أعمالهم (فأنجيناه ومن معه) حسب دعائه (فى الفلك المشحون) أى المملوء بهم وبما لابد لهم منه (ثم أغرقنا بعد) أى بعد انجائهم (الباقين) أى من قومه (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) الكلام فيه كالذى مر خلا ان حمل أكثرهم على أكثر قوم نوح أبعد من السداد وأبعد (كذبت عاد المرسلين) أنث عادا باعتبار القبيلة وهو اسم أبيهم الاقصى (اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون) الكلام فى أن المراد بتكذيبهم وبما وقع فيه من الزمان ماذا كما مر فى صدر قصة نوح عليه السلام أى ألا تتقون الله تعالى فتفعلون ما تفعلون (انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين) الكلام فيه كالذى مر وتصدير القصص به للتنبيه على أن مبنى البعثة هو الدعاء الى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو الى الثواب ويبعده من العقاب وأن الانبياء عليهم الصلاة والسلام مجمعون على ذلك وان اختلفوا فى بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الازمنة والاعصار وأنهم منزهون عن المطامع الدنية والاغراض الدنيوية بالكلية (أتبنون بكل ريع) أى مكان مرتفع ومنه ريع الارض لارتفاعها (آية) علما للمارة (تعبثون) أى ببنائها اذ كانوا يهتدون بالنجوم فى أسفارهم فلا يحتاجون اليها أو بروج الحمام أو بنيانا يجتمعون اليه ليعبثوا بمن مر عليهم أو قصورا عالية يفتخرون بها (وتتخذون مصانع) أى مآخذ الماء وقيل قصورا مشيدة وحصونا (لعلكم تخلدون) أى راجين أن تخلدوا فى الدنيا أى

كل مارآه فى النوم فهو حق لم يكن الى هـذا التروى والتفكر حاجة وان كان الثانى وهو انه لم يثبت بالدليـل عندهم ان مايرونه فى المنام حق فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة (والجواب) لايبعد أن يقال انه كان عند الرؤيا مترددا فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحى الصريح والله أعلم (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان هذا الذبيح من هو فقيل انه اسحق وهذا قول عمر وعلى والعباس ابن عبد المطلب وابن مسـعود وكعب الاحبار وقتادة وسـعيد بن جبـير ومسروق وعكرمة والزهرى والسـدى ومقاتل رضى الله عنهم وقيـل انه اسمعيـل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسـعيد بن المسيب والحسن والشعبى ومجاهد والكلبى واحتج القائلون بأنه اسمعيل بوجوه (الاول) ان رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال أنا ابن الذبيحين وقال له أعرابى يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال ان عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليـذبحن أحد ولده فخرج السـهم على عبد الله فمنعـه أخواله وقالوا له افد ابنك بمائة من الابل ففـداه بمائة من الابل والذبيح الثانى اسمعيل (الحجة الثانية) نقل عن الاصمعى انه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال يا أصمعى أين عقلك ومتى كان اسحق بمكة وانما كان اسمعيل بمكة وهو الذى بنى البيت مع أبيـه والمنحر بمكة (الحجة الثالثة) ان الله تعالى وصف اسمعيل بالصبر دون اسحق فى قوله واسمعيـل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين وهو صـبره على الذبح ووصـفه أيضا بصـدق الوعد فى قوله انه كان صادق الوعد لانه وعد أباه من نفسـه الصبر على الذبح فوفى به (الحجة الرابعة) قوله تعالى فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فنقول لو كان الذبيح اسحق لكان الامر بذبحه اما أن يقع قبـل ظهور يعقوب منه أو بعـد ذلك فالاول باطـل لانه تعالى لما بشرها باسحق وبشرها معـه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الامر بذبحه والا حصل الخلف فى قوله ومن وراء اسحق يعقوب والثانى باطـل لان قوله فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك يدل على ان ذلك الابن لما قدر على السعى ووصـل الى حد القـدرة على الفعل أمر الله تعالى ابراهيم بذبحه وذلك ينافى وقوع هذه القصة فى زمان آخر فثبت انه لايجوز أن يكون الذبيح هو اسحق (الحجة الخامسـة) حكى الله تعالى عنـه انه قال انى ذاهب الى ربى سيهـدين ثم طلب من الله تعالى ولدا يسـتأنس به فى غربتـه فقال رب هب لى من الصالحين وهـذا السـؤال انما يحسن قبل أن يحصل له الولد لانه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد لان طلب الحاصل محال وقوله هب لى من الصالحين لايفيد الا طلب الولد الواحد وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكان قوله من الصالحين لايفيـد الا طلب الولد الواحد فثبت ان هـذا السـؤال لايحسن الا عند عدم كل الاولاد فثبت ان هذا السـؤال وقع حال طلب الولد الاول وأجمع الناس على ان اسمعيل متقدم فى الوجود على اسحق فثبت ان المطلوب بهذا الدعاء هو اسمعيل ثم ان الله تعالى ذكر عقيبـه قصـة الذبيح فوجب ان يكون الذبيح هو اسمعيـل (الحجـة السادسة) الاخبار الكثيرة فى تعليق قرن الكبش بالكعبة فكان الذبح بمكة ولو كان الذبيح اسحق لكان الذبح بالشام واحتج من قال ان ذلك الذبيح هو اسحق بوجهـين (الوجه الاول) ان أول الآية وآخرها يدل على ذلك اما أولها فانه تعالى حكى عن ابراهيم عليـه السـلام قبل هـذه الآية انه قال انى ذاهب الى ربى سـيهدين وأجمعوا على أن المراد منـه مهاجرته الى الشأم ثم قال فبشرناه بغلام حليم فوجب أن يكون هـذا الغلام ليس الا اسحق ثم قال بعده فلما بلغ معـه السعى وذلك يقتضى أن يكون المراد من هذا الغلام الذى بلغ معه السعى هو ذلك الغلام الذى حصل فى الشام فثبت ان مقدمة هذه الآية تدل على ان الذبيح هو اسحق وأما آخر الآية فهو أيضا يدل على ذلك لانه تعالى لما تمم قصـة الذبيح قال بعـده وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين ومعناه انه بشره بكونه نبيا من الصالحين وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصـة يدل على انه تعالى انما بشره بهذه النبوة لاجل انه تحمل هذه الشدائد فى قصة الذبيح فثبت بما ذكرنا ان أول الآية وآخرها يدل على ان الذبيح هو اسحق عليه السـلام (الحجة الثانية) على صحـة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب الى يوسف عليـه السلام من يعقوب اسرائيـل نبى الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليـل الله فهـذا جملة الكلام فى هـذا الباب وكان الزجاج يقول الله أعلم أيهما الذبيح والله أعلم واعلم انه يتفرع على ماذكرنا اختـلافهم فى موضع الذبح

عاملين عمل من يرجو ذلك فلـذلك يحكمون بنيانها (واذا بطشتم) بسوط أو سيف (بطشتم جبارين) متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر فى العاقبة (فاتقوا الله) واتركوا هـذه الافعال (واطيعون) فيما أدعوكم اليه فانه أنفع لكم (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون) مـن أنواع النعـماء وأصناف الآلاء أجملها أولا ثم فصلها بقوله (أمدكم بانعام وبنين) باعادة الفـعل لزيادة التقرير فان التفصيل بعد الاجمال والتفسير اثر الابهام أدخل فى ذلك (وجنات وعيـون انى أخاف عليكم) ان لم تقوموا بشكر هذه النعم (عذاب يوم عظيم) فى الدنيا والآخرة فان كفران النعمة مسـتتبع للعذاب كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشـديد (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظـين) فانا لن نرعوى عما نحن عليه وتغيير الشق الثانى عن مقابله للمبالغـة فى بيان قـلة اعتدادهم بوعظه كأنهم قالوا أم لم تكن من أهل الوعظ ومباشريه أصلا (ان هذا) ماهذا الذى جئتنا به (الا خلق الاولين) أى عادتهـم كانوا يلفقون مثـله ويسـطرونه أو ماهذا الذى نحن عليه من الدين الا خـلق الاولين وعادتهـم ونحن بهم مقتـدون أو ماهذا الذى نحن عليـه من الموت والحياة الا عادة قـديمة لم يزل الناس عليها وقرئ خـلق الاولـين بفتح الخاء أى اختلاق الاولين كما قالوا أساطـير الاولين أو ماخلقنا هـذا الا خلقهـم نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب (وما نحن بمعـذبين) على ما نحن عليـه من الاعمال (فكذبوه) أى أصروا

فالذين قالوا الذبيح هو اسمعيل قالوا كان الذبح بمنى والذين قالوا انه اسحق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس والله أعلم (المسئلة الثالثة) اختلف الناس فى ان ابراهيم عليه السلام كان مأمورا بهذا بما رأى وهذا الاختلاف مفرع على مسئلة من مسائل أصول الفقه وهى انه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال أكثر أصحابنا انه يجوز وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية انه لا يجوز فعلى القول الاول انه سبحانه وتعالى أمره بالذبح ثم انه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته وعلى القول الثانى انه تعالى ما أمره بالذبح وانما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسئلة شريفة من مسائل باب النسخ واحتج أصحابنا على انه يجوز نسخ الامر قبل مجىء مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر ابراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم انه تعالى نسخه عنه قبل اقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب انما قلنا انه تعالى أمره بذبح الولد لوجهين (الاول) انه عليه السلام قال لولده انى أرى فى المنام انى أذبحك فقال الولد افعل ما تؤمر وهذا يدل على انه عليه السلام كان مأمورا بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح ثم انه أتى بمقدمات الذبح وأدخلها فى الوجود فحينئذ يكون قد أمر بشئ وقد أتى به وفى هذا الموضع لا يحتاج الى الفداء لكنه احتاج الى الفداء بدليل قوله تعالى وفديناه بذبح عظيم فدل هذا على انه أتى بالمأمور به وقد ثبت انه أتى بكل مقدمات الذبح وهذا يدل على انه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح واذا ثبت هذا فنقول انه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل اثباته وذلك يدل على المقصود وقالت المعتزلة لا نسلم ان الله أمره بذبح الولد بل نقول انه تعالى أمره بمقدمات الذبح ويدل عليه وجوه (الاول) انه ما أتى بالذبح وانما أتى بمقدمات الذبح ثم ان الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل قوله تعالى وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا وذلك يدل على انه تعالى انما أمره فى المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن اضجاعه ووضع السكين على حلقه والعزم الصحيح على الاتيان بذلك الفعل ان ورد (الامر الثانى) الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل ابراهيم عليه السلام قطع الحلقوم الا انه كلما قطع جزأ أعاد الله التأليف اليه فلهذا السبب لم يحصل الموت (والوجه الثالث) وهو الذى عليه تعويل القوم انه تعالى لو أمر شخصا معينا بايقاع فعل معين فى وقت معين فهذا يدل على أن ايقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت حسن فاذا نهاه عنه فذلك النهى يدل على أن ايقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت قبيح فلو حصل هذا النهى عقيب ذلك الامر لزم أحد أمرين لانه تعالى ان كان عالما بحال ذلك الفعل لزم أن يقال انه أمر بالقبيح أو نهى عن الحسن وان لم يكن عالما به لزم جهل الله تعالى وانه محال فهذا تمام الكلام فى هذا الباب (والجواب عن الاول) انا قد دللنا على انه تعالى انما أمره بالذبح اما قوله تعالى قد صدقت الرؤيا فهذا يدل على انه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على انه أتى بكل ما رآه فى ذلك المنام وأما قوله ثانيا كلما قطع ابراهيم عليه السلام جزأ أعاد الله تعالى التأليف اليه فنقول هذا باطل لان ابراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج الى الفداء وحيث احتاج اليه علمنا انه لم يأت بما أمر به وأما قوله ثالثا انه يلزم اما الامر بالقبيح واما الجهل فنقول هذا بناء على ان الله تعالى لا يأمر الا بما يكون حسنا فى ذاته ولا ينهى الا عما يكون قبيحا فى ذاته وذلك بناء على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل وأيضا فهب أنا نسلم ذلك الا انا نقول لم لا يجوز أن يقال ان الامر بالشئ تارة يحسن لكون المأمور به حسنا وتارة لاجل ان ذلك الامر يفيد صحة مصلحة من المصالح وان لم يكن المأمور به حسنا ألا ترى ان السيد اذا أراد أن يروض عبده فانه يقول له اذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلانى ويكون ذلك الفعل من الافعال الشاقة ويكون مقصود السيد من ذلك الامر ليس أن يأتى ذلك العبد بذلك الفعل بل أن يوطن العبد نفسه على الانقياد والطاعة ثم ان السيد اذا علم منه انه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل عنه ذلك التكليف فكذا ههنا فما لم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه والدليل عليه انه أمر بالذبح وما أراد وقوعه أما انه أمر بالذبح فلما تقدم فى المسئلة الاولى وأما انه ما أراد وقوعه فلان عندنا ان كل ما أراد الله وقوعه فانه يقع وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا انه تعالى ما أراد وقوعه وأما عند المعتزلة فلان الله تعالى نهى عن ذلك الذبح والنهى عن الشئ يدل على ان الناهى لا يريد وقوعه فثبت انه تعالى أمر بالذبح

على ذلك (فأهلكناهم) بسببه بريح صرصر (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون) الله تعالى (انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين) انكار ونفى لان يتركوا فيما هم فيه من النعمة أو تذكير للنعمة فى تخليته تعالى اياهم وأسباب تنعمهم آمنين وقوله تعالى (فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم) تفسير لما قبله من المبهم والهضيم اللطيف اللين للطف الثمر أو لان النخل أنثى وطلع الاناث ألطف وهو ما يطلع منها كنصل السيف فى جوفه شماريخ القنو أو متدل متكسر من كثرة الحمل وافراد النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أو لان المراد بها غيرها من الاشجار (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) بطرين أو حاذقين من الفراهة وهى النشاط فان الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب وقرئ فرهين وهو أبلغ (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين) استعير الطاعة التى هى انقياد الآمر لامتثال الامر وارتسامه أو نسب حكم الآمر الى أمره مجازا (الذين يفسدون فى الارض) وصف موضح لاسرافهم ولذلك عطف (ولا يصلحون) على يفسدون لبيان خلوص افسادهم عن مخالطة الاصلاح (قالوا انما أنت من المسحرين) أى الذين سحروا حتى غلب على عقولهم أو من ذوى السحر أى الرئة أى من الانس فيكون قوله تعالى (ما أنت الا بشر مثلنا) تأكيدا له (فأت بآية ان كنت من الصادقين) أى

وثبت انه تعالى ما أراده وذلك يدل على ان الامر قد يوجد بدون الارادة وتمام الكلام فى ان الله تعالى أمر بالذبح ما تقدم فى المسئلة المتقدمة والله أعلم (المسئلة الخامسة) فى بيان الحكمة فى ورود هذا التكليف فى النوم لا فى اليقظة وبيانه من وجوه (الاول) ان هذا التكليف كان فى نهاية المشقة على الذابح والمذبوح فورد أولا فى النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيأ فشيأ (الثانى) ان الله تعالى جعل رؤيا الانبياء عليهم السلام حقا قال تعالى فى حق محمد صلى الله عليه وسلم لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام وقال عن يوسف عليه السلام انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين وقال فى حق ابراهيم عليه السلام انى أرى فى المنام أنى أذبحك والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين لان الحال اما حال يقظة واما حال منام فاذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك هو النهاية فى بيان كونهم محقين صادقين فى كل الاحوال والله أعلم ثم نقول مقامات الانبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها ما يقع على وفق الرؤية كما فى قوله تعالى فى حق رسولنا صلى الله عليه وسلم لتدخلن المسجد الحرام ثم وقع ذلك الشئ بعينه ومنها ما يقع على الضد كما فى حق ابراهيم عليه السلام فانه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة ومنها ما يقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما فى رؤيا يوسف عليه السلام فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة (المسئلة السادسة) قرأ حمزة والكسائى ترى بضم التاء وكسر الراء أى ماترى من نفسك من الصبر والتسليم وقيل ماتشير والباقون بفتح التاء ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل (المسئلة السابعة) الحكمة فى مشاورة الابن فى هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله فتكون فيه قرة عين لابراهيم حيث يراه قد بلغ فى الحلم الى هذا الحد العظيم وفى الصبر على أشد المكاره الى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة والثناء الحسن فى الدنيا ثم انه تعالى حكى عن ولد ابراهيم عليه السلام انه قال افعل ما تؤمر ومعناه افعل ما تؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت ثم قال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين وانما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن وانه لا حول عن معصية الله الا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ثم قال تعالى فلما أسلما يقال سلم لامر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد وقد قرئ بهن جميعا اذا انقاد له وخضع وأصلها من قولك سلم هذا لفلان اذا خلص له ومعناه سلم من ان ينازع فيه وقولهم سلم لامر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة وحقيقة معناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة فى أسلما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ثم قال تعالى وتله للجبين أى صرعه على شقه فوقع أحد جبينيه على الارض وللوجه جبينان والجبهة بينهما قال ابن الاعرابى التليل والمتلول المصروع والمتل الذى يتل به أى يصرع فالمعنى انه صرعه على جبينه وقال مقاتل كبه على جبهته وهذا خطأ لان الجبين غير الجبهة * ثم قال تعالى وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا وفيه قولان (الاول) ان هذا جواب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة (والقول الثانى) أن عند البصريين لا يجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير فلما فعل ذلك وناداه الله أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب قالوا وحذف الجواب ليس بغريب فى القرآن والفائدة فيه انه اذا كان محذوفا كان أعظم وأفخم قال المفسرون لما أضجعه للذبح نودى من الجبل يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا قال المحققون السبب فى هذا التكليف كمال طاعة ابراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد لا جرم قال قد صدقت الرؤيا يعنى حصل المقصود من تلك الرؤيا وقوله انا كذلك نجزى المحسنين ابتداء اخبار من الله تعالى وليس يتصل بما تقدم من الكلام والمعنى أن ابراهيم وولده كانا محسنين فى هذه الطاعة فكما جزيناهذين المحسنين فكذلك نجزى كل المحسنين * ثم قال تعالى ان هذا لهو البلاء المبين أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم أو المحنة البينة الصعوبة التى لا محنة أصعب منها وفديناه بذبح عظيم الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضا ما يذبح وهو المراد فى هذه

فى دعواك (قال هذه ناقة) أى بعد ما أخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه عليه الصلاة والسلام حسبما مر تفصيله فى سورة الاعراف وسورة هود (لها شرب) أى نصيب من الماء كالسقى والقيت للحظ من السقى والقوت وقرئ بالضم (ولكم شرب يوم معلوم) فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموا على شربها (ولا تمسوها بسوء) كضرب وعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو أبلغ من تعظيم العذاب (فعقروها) أسند العقر الى كلهم لما أن عاقرها عقرها برأيهم ولذلك عمهم العذاب (فأصبحوا نادمين) خوفا من حلول العذاب لا توبة أو عند معاينتهم لمباديه ولذلك لم ينفعهم الندم وان كان بطريق التوبة (فأخذهم العذاب) أى العذاب الموعود (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قيل فى نفى الايمان عن أكثرهم فى هذا المعرض ايماء الى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب وان قريشا انما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم وأنت خبير بان قريشا هم المشهورون بعدم ايمان أكثرهم (كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين) أى أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران لا يشارككم فيه غيركم أو أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم وغلبة النساء فيهم مع كونهن أليق بالاستمتاع فالمراد بالعالمين على الاول كل ما ينكح من الحيوان وعلى الثانى

الآية وههنا مباحث تتعلق بالحكايات (فالاول) حكى فى قصة الذبح ان ابراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال يا بنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا الى الشعب نحتطب فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به فقال يا أبت اشدد رباطى كى لا أضطرب واكفف عنى ثيابك لا ينتضح عليها شئ من دمى فتراه أمى فتحزن واستحد شفرتك وأسرع امرارها على حلقى ليكون أهون فان الموت شديد واقرأ على أمى سلامى وان رأيت ان ترد قميصى على أمى فافعل فانه عسى أن يكون أسهل لها فقال ابراهيم عليه السلام نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال كبنى على وجهى فانك اذا نظرت وجهى رحمتنى وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودى يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا (البحث الثانى) اختلفوا فى ذلك الكبش فقيل انه الكبش الذى تقرب به هابيل بن آدم الى الله تعالى فقبله وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به اسمعيل وقال آخرون أرسل الله كبشا من الجنة قد رعى أربعين خريفا وقال السدى نودى ابراهيم فالتفت فاذا هو بكبش أملح انحط من الجبل فقام عند ابراهيم فأخذه فذبحه وخلى عن ابنه ثم اعتنق ابنه وقال يا بنى اليوم وهبت لى وأما قوله عظيم فقيل سمى عظيما لعظمه وسمنه وقال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيما قد رعى فى الجنة أربعين خريفا وقيل سمى عظيما لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد ابراهيم ثم قال تعالى انه من عبادنا المؤمنين الضمير فى انه عائد الى ابراهيم ثم قال تعالى وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين فقوله نبيا حال مقدرة أى بشرناه بوجود اسحق مقدرة نبوته ولمن يقول ان الذبيح هو اسمعيل أن يحتج بهذه الآية وذلك لان قوله نبيا حال ولا يجوز أن يكون المعنى فبشرناه باسحق حال كون اسحق نبيا لان البشارة به متقدمة على صيرورته نبيا فوجب أن يكون المعنى وبشرناه باسحق حال ماقدرناه نبيا وحال ماحكمنا عليه فصبروا اذا كان الامر كذلك فحينئذ كانت هذه البشارة بشارة بوجود اسحق حاصلة بعد قصة الذبح فوجب أن يكون الذبيح غير اسحق أقصى مافى الباب أن يقال لا يبعد أن يقال هذه الآية وان كانت متأخرة فى التلاوة عن قصة الذبح الا انها كانت متقدمة عليها فى الوقوع والوجود الا أنا نقول الاصل رعاية الترتيب وعدم التغيير فى النظم والله أعلم بالصواب ثم قال تعالى وباركنا عليه وعلى اسحق وفى تفسير هذه البركة وجهان (الاول) انه تعالى أخرج جميع أنبياء بنى اسرائيل من صلب اسحق (والثانى) انه أبقى الثناء الحسن على ابراهيم واسحق الى قيام القيامة لان البركة عبارة عن الدوام والثبات ثم قال تعالى ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين وفى ذلك تنبيه على انه لا يلزم من كثرة فضائل الاب فضيلة الابن لئلا تصير هذه الشبهة سببا لمفاخرة اليهود ودخل تحت قوله محسن الانبياء والمؤمنون وتحت قوله ظالم الكافر والفاسق والله أعلم ۞ قوله تعالى (ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزى المحسنين انهما من عبادنا المؤمنين) اعلم ان هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة واعلم أن وجوه الانعام وان كانت كثيرة الا انها محصورة فى نوعين ايصال المنافع اليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين ههنا فقوله ولقد مننا على موسى وهرون اشارة الى ايصال المنافع اليهما وقوله ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم اشارة الى دفع المضار عنهما (أما القسم الاول) وهو ايصال المنافع فلا شك أن المنافع على قسمين منافع الدنيا ومنافع الدين أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال فى ذات كل واحد منهما وأما منافع الدين فالعلم والطاعة وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة القاهرة ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل فى سائر السور لاجرم اكتفى ههنا بهذا الرمز (وأما القسم الثانى) وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم وفيه قولان قيل انه الغرق أغرق الله فرعون وقومه ونجى الله بنى اسرائيل وقيل المراد انه تعالى نجاهم من ايذاء فرعون حيث كان يذبح ابناءهم ويستحيى نساءهم واعلم انه تعالى لما ذكر انه من على موسى وهرون فصل أقسام تلك المنة والهاء فى قوله ونصرناهم أى نصرنا موسى وهرون

وقومهما

الناس (وتذرون ماخلق لكم ربكم) لاجل استمتاعكم وكلمة من فى قوله تعالى (من أزواجكم) للبيان ان اريد بما جنس الاناث وهو الظاهر وللتبعيض ان أريد بها العضو المباح منهن تعريضا بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضا (بل أنتم قوم عادون) متعدون متجاوزون الحد فى جميع المعاصى وهذا من جملتها وقيل متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات (قالوا لئن لم تنته يالوط) أى عن تقبيح أمرنا أو نهينا عنه أو عن دعوى النبوة التى من جملة أحكامها التعرض لنا (لتكونن من المخرجين) أى من المنفيين من قريتنا وكأنهم كانوا يخرجون من أخرجوه من بينهم على عنف وسوء حال (قال انى لعملكم من القالين) أى من المبغضين غاية البغض كأنه يقلى الفؤاد والكبد لشدته وهو أبلغ من ان يقال انى لعملكم قال لدلالته على انه عليه الصلاة والسلام من زمرة الراسخين فى بغضه المشهورين فى قلاه ولعله عليه الصلاة والسلام أراد اظهار الكراهة فى ماكنتم والرغبة فى الخلاص من سوء جوارهم ولذلك اعرض عن محاورتهم وتوجه الى الله تعالى قائلا (رب نجنى وأهلى مما يعملون) أى من شؤم عملهم وغائلته (فنجيناه وأهله أجمعين) أى أهل بيته ومن اتبعه فى الدين باخراجهم من بينهم عند مشارفة حلول العذاب بهم (الا عجوزا) هى امرأة لوط استثنيت من أهله فلا يضره كونها كافرة لان لها شركة فى الاهلية بحق الزواج (فى الغابرين) أى مقدرا كونها من الباقين فى العذاب لانها كانت

وقومهما وكانوا هم الغالبين فى كل الاحوال بظهور الحجة وفى آخر الامر بالدولة والرفعة (وثانيهما) قوله تعالى وآتيناهما الكتاب المستبين والمراد منه التوراة وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التى يحتاج اليها فى مصالح الدين والدنيا كما قال انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور (وثالثها) قوله تعالى وهديناهما الصراط المستقيم أى دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعا وأمددناهما بالتوفيق والعصمة وتثبيه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح (ورابعها) قوله تعالى وتركنا عليهما فى الآخرين وفيه قولان (الاول) ان المراد وتركنا عليهما فى الآخرين وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قولهم سلام على موسى وهرون (والثانى) ان المراد وتركنا عليهما فى الآخرين وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الثناء الحسن والذكر الجميل وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك سلام على موسى وهرون هو كلام الله تعالى ولما ذكر تعالى هذه الاقسام الاربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال انا كذلك نجزى المحسنين وقد سبق تفسيره ثم قال تعالى انهما من عبادنا المؤمنين والمقصود التنبيه على ان الفضيلة الحاصلة بسبب الايمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهرون بكونهما من المؤمنين والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وان الياس لمن المرسلين اذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الاولين فكذبوه فانهم لمحضرون الا عباد الله المخلصين وتركنا عليه فى الآخرين سلام على آل ياسين انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين﴾ اعلم أن هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وان الياس بغير همزة على وصل الالف والباقون بالهمزة وقطع الالف قال أبو بكر بن مهران من ذكر عند الوصل الالف فقد أخطأ وكان أهل الشام ينكرونه ولا يعرفونه قال الواحدى وله وجهان (أحدهما) انه حذف الهمزة من الياس حذفا كما حذفها ابن كثير من قوله انها لاحدى الكبر وكقول الشاعر * ويلمها فى هواء الجو طالبة * (والآخر) انه جعل الهمزة التى تصحب اللام للتعريف كقوله واليسع (المسئلة الثانية) فى الياس قولان روى عن ابن مسعود انه قرأ وان ادريس وقال ان الياس هو ادريس وهذا قول عكرمة وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على انه نبى من أنبياء بنى اسرائيل وهو الياس بن ياسين من ولد هرون أخى موسى عليهم السلام ثم قال تعالى اذ قال لقومه الا تتقون والتقدير اذكر يا محمد لقومك اذ قال لقومه ألا تتقون أى ألا تخافون الله وقال الكلبى ألا تخافون عبادة غير الله واعلم انه لما خوفهم أولا على سبيل الاجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين وفيه ابحاث (الاول) فى بعل قولان (أحدهما) انه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل وقيل كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا وله أربعة أوجه وفتنوا به وعظموه حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء وكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشام وبه سميت مدينتهم بعلبك واعلم أن قولهم بعل اسم لصنم من أصنامهم لا بأس به وأما قولهم ان الشيطان كان يدخل فى جوف بعلبك ويتكلم بشريعة الضلالة فهذا مشكل لانا ان جوزناه هذا كان ذلك قادحا فى كثير من المعجزات لانه نقل فى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم كلام الذئب معه وكلام الجمل معه وحنين الجذع ولو جوزنا أن يدخل الشيطان فى جوف جسم ويتكلم فحينئذ يكون هذا الاحتمال قائما فى الذئب والجمل والجذع وذلك يقدح فى كون هذه الاشياء معجزات (القول الثانى) أن البعل هو الرب بلغة اليمن يقال من بعل هذه الدار أى من ربها وسمى الزوج بعلا لهذا المعنى قال تعالى وبعولتهن أحق بردهن وقال تعالى وهذا بعلى شيخا فعلى هذا التقدير المعنى أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله (البحث الثانى) المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقا لافعال نفسه فقالوا لو لم يكن غير الله خالقا لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين والكلام فيه قد تقدم فى قوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين (البحث الثالث) كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول لو قيل أتدعون بعلا وتدعون أحسن الخالقين أوهم انه أحسن لانه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التجنيس وجوابه ان فصاحة القرآن ليست لاجل رعاية هذه التكاليف بل لاجل قوة المعانى وجزالة الالفاظ واعلم انه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفى الشركاء فقال الله ربكم ورب

مائلة الى القوم راضية بفعلهم وقد أصابها الحجر فى الطريق فأهلكها كما مر فى سورة الحجر وسورة هود وقيل كانت فيمن بقى فى القرية ولم تخرج مع لوط عليه السلام (ثم دمرنا الآخرين) أهلكناهم أشد اهلاك وأفظعه (وأمطرنا عليهم مطرا) أى مطرا غير معهود قيل أمطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة فأهلكتهم (فساء مطر المنذرين) اللام فيه للجنس وبه يتسنى وقوع المضاف اليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذب أصحاب ليكة المرسلين) الايكة الغيضة التى تنبت ناعم الشجر وهى غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام وكان أجنبيا منهم ولذلك قيل (اذ قال لهم شعيب ألا تتقون) ولم يقل أخوهم وقيل الايكة الشجر الملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل وقرئ بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على أنها ليكة وهى اسم بلدهم وانما كتبت ههنا وفى ص بغير ألف اتباعا للفظ اللافظ (انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أوفوا الكيل) أى أتموه (ولا تكونوا من المخسرين) أى حقوق الناس بالتطفيف (وزنوا) أى الموزونات (بالقسطاس المستقيم) بالميزان السوى وهو ان كان عربيا فان كان من القسط ففعلاس بتكرير العين والا ففعلال وقرئ بضم القاف (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أى لا تنقصوا شيأ من حقوقهم أى حق كان وهذا

آبائكم الاولين وفيه مباحث (الاول) انا ذكرنا فى هذا الكتاب أن حدوث الاشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار وكيف يدل على وحدته وبراءته عن الاضداد والانداد فلا فائدة فى الاعادة (البحث الثانى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم الله ربكم ورب آبائكم كلها بالنصب على البدل من قوله أحسن الخالقين والباقون بالرفع على الاستئناف والاول اختيار أبى حاتم وأبى عبيد ونقل صاحب الكشاف أن حمزة اذا وصل نصب واذا وقف رفع ولما حكى الله عنه انه قرر مع قومه التوحيد قال فكذبوه فانهم لمحضرون أى لمحضرون النار غدا وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله لكنت من المحضرين ثم قال تعالى الا عباد الله المخلصين وذلك لان قومه ما كذبوه بكليتهم بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فلهذا قال تعالى الا عباد الله المخلصين يعنى الذين أتوا بالتوحيد الخالص فانهم لا يحضرون ثم قال وتركنا عليه فى الآخرين سلام على آل ياسين قرأ نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين على اضافة لفظ آل الى لفظ ياسين والباقون بكسر الالف وجزم اللام موصولة بياسين أما القراءة الاولى ففيها وجوه (الاول) وهو الاقرب انا ذكرنا انه الياس بن ياسين فكان الياس آل ياسين (الثانى) آل ياسين آل محمد صلى الله عليه وسلم (والثالث) أن ياسين اسم القرآن كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذى هو ياسين والوجه هو الاول لانه أليق بسياق الكلام وأما القراءة الثانية ففيها وجوه (الاول) قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكالين فكذا ههنا الياس والياسين (والثانى) قال الفراء هو جمع وأراد به الياس وأتباعه من المؤمنين كقولهم المهلبون والسعدون قال * أنا ابن سعد أكرم السعدينا * ثم قال تعالى انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وقد سبق تفسيره والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وان لوطا لمن المرسلين اذ نجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾ هذا هو القصة الخامسة وانه تعالى انما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركو العرب فان الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا وقد تقدم شرح هذه القصة وقد نبههم بقوله تعالى وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل وذلك لان القوم كانوا يسافرون الى الشام والمسافر فى أكثر الامر انما يمشى فى الليل وفى أول النهار فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين ثم قال تعالى أفلا تعقلون يعنى أليس فيكم عقول تعتبرون بها والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين﴾ اعلم ان هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة فى هذه السورة وانما صارت هذه القصة خاتمة للقصص لاجل انه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق الى الفلك وقع فى تلك الشدائد فيصير هذا سببا لتصبر النبى صلى الله عليه وسلم على أذى قومه أما قوله وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرئ يونس بضم النون وكسرها (المسئلة الثانية) دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة انما وقعت ليونس عليه السلام بعد ان صار رسولا لان قوله وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك معناه ان كان من المرسلين حين ما أبق الى الفلك ويمكن أن يقال انه جاء فى كثير من الروايات انه أرسل ملك زمانه الى أولئك القوم ليدعوهم الى الله ثم أبق والتقمه الحوت فعند ذلك أرسله الله تعالى والحاصل أن قوله لمن المرسلين لا يدل على أنه كان فى ذلك الوقت مرسلا من عند الله تعالى ويمكن أن يجاب بأنه سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف فى معرض تعظيمه ولن يفيد هذه الفائدة الا اذا كان المراد من قوله لمن المرسلين انه من المرسلين عند الله تعالى (المسئلة الثالثة) أبق من اباق العبد وهو هربه من سيده ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم انه أبق من الله تعالى وهذا بعيد لان ذلك لا يقال الا فيمن يتعمد مخالفة ربه وذلك لا يجوز على الانبياء واختلفوا فيما لاجله صار مخطئا فقيل لانه أمر بالخروج الى بنى اسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضبا به وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحى أو بلسان نبى آخر وقيل ان ذنبه انه ترك دعاء قومه ولم يصبر عليهم وهذا أيضا بعيد لان الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه والاقرب فيه وجهان (الاول) ان ذنبه كان لان الله

تعميم بعد تخصيص بعض المواد بالذكر لغاية انهماكهم فيها (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) بالقتل والغارة وقطع الطريق (واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين) أى وذوى الجبلة الاولين وهم من تقدمهم من الخلائق وقرئ بضم الجيم والباء وبكسر الجيم وسكون الباء كالخلقة (قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا) ادخال الواو بين الجملتين للدلالة على أن كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة مبالغة فى التكذيب (وان نظنك لمن الكاذبين) أى فيما تدعيه من النبوة (فاسقط علينا كسفا من السماء) أى قطعا وقرئ بسكون السين وهو أيضا جمع كسفة وقيل الكسف والكسفة كالريع والريعة وهى القطعة والمراد بالسماء اما السحاب أو المظلة ولعله جواب لما أشعر به الامر بالتقوى من التهديد (ان كنت من الصادقين) فى دعواك ولم يكن طلبهم ذلك الا لتصميمهم على الجحود والتكذيب والا لما أخطروه ببالهم فضلا أن يطلبوه (قال ربى أعلم بما تعملون) من الكفر والمعاصى وبما تستحقون بسببه من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لا محالة (فكذبوه) أى فتموا على تكذيبه وأصروا عليه (فأخذهم عذاب يوم الظلة) حسبما اقترحوا أما ان أرادوا بالسماء السحاب فظاهر وأما ان أرادوا المظلة فلان نزول العذاب من جهتها وفى اضافة العذاب الى يوم الظلة دون نفسها ايذان بان لهم يومئذ عذابا آخر غير عذاب الظلة وذلك بان سلط الله عليهم الحر سبعة أيام ولياليها فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب

تعالى وعده انزال الاهلاك بقومه الذين كذبوه فظن انه نازل لا محالة فلاجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وان أنزله وهذا هو الاقرب لانه اقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمد اللمعصية وان كان الاولى فى مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد انه أخطأ فى ذلك الظن لاجل انه ظهر الايمان منهم فمعنى قوله اذ أبق الى الفلك ماذكرناه (الوجه الثانى) أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة فذلك هو قوله اذ أبق الى الفلك وتمام الكلام فى مشكلات هذه الآية ذكرناه فى قوله تعالى وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه وقوله الى الفلك المشحون مفسر فى سورة يونس والسفينة اذا كان فيها الحمل الكثير والناس يقال انها مشحونة ثم قال تعالى فساهم المساهمة هى المقارعة يقال أسهم القوم اذا اقترعوا قال المبرد وانما أخذ من السهام التى تجال للقرعة فكان من المدحضين أى المغلوبين يقال أدحض الله حجته فدحضت أى أزالها فزالت وأصل الكلمة من الدحض الذى هو الزلق يقال دحضت رجل البعير اذا زلقت وذكر ابن عباس فى قصة يونس عليه السلام انه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف وكان الله تعالى أوحى الى بنى اسرائيل اذا أسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعونى أستجب لكم فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين الى نبى من أنبيائهم أن اذهب الى ملك هؤلاء الاقوام وقل له حتى يبعث الى بنى اسرائيل نبيا فاختار يونس عليه السلام لقوته وأمانته قال يونس آلله أمرك بهذا قال لا ولكن أمرت أن أبعث قويا أمينا وأنت كذلك فقال يونس وفى بنى اسرائيل من هو أقوى منى فلم لا تبعثه فالح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم ووجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلما دخلت لجة البحر أشرفت على الغرق فقال الملاحون ان فيكم عاصيا والا لم يحصل فى السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر وقال التجار قد جربنا مثل هذا فاذا رأيناه نقترع فمن خرج سهمه نغرقه فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس فقال التجار نحن أولى بالمعصية من نبى الله ثم عادوا ثانيا وثالثا يقرعون فيخرج سهم يونس فقال يا هؤلاء أنا العاصى وتلفف فى كساء ورمى بنفسه فابتلعته السمكة فأوحى الله تعالى الى الحوت لا تكسر منه عظما ولا تقطع له وصلا ثم ان السمكة أخرجته الى نيل مصر ثم الى بحر فارس ثم الى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء وهو كالفرخ المنتوف لا شعر ولا لحم فأنبت الله عليه شجرة من يقطين فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد ثم ان الارضة أكلتها فخرت من أصلها فحزن يونس لذلك حزنا شديدا فقال يارب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت فقيل له يا يونس تحزن على شجرة أنبتت فى ساعة واقتلعت فى ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم انطلق اليهم فانطلق اليهم والله أعلم بحقيقة الواقعة ثم قال تعالى فالتقمه الحوت وهو مليم يقال التقمه والتهمه والكل بمعنى واحد وقوله تعالى وهو مليم يقال ألام اذا أتى بما يلام عليه فالمليم المستحق للوم الآتى بما يلام عليه ثم قال تعالى فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون وفى تفسير كونه من المسبحين قولان (الاول) أن المراد منه ما حكى الله تعالى عنه فى آية أخرى انه كان يقول فى تلك الظلمات لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين (الثانى) انه لولا أنه كان قبل أن التقمه الحوت من المسبحين يعنى المصلين وكان فى أكثر الاوقات مواظبا على ذكر الله وطاعته للبث فى بطن ذلك الحوت وكان بطنه قبرا له الى يوم البعث قال بعضهم اذكروا الله فى الرخاء يذكركم فى الشدة فان يونس عليه السلام كان عبدا صالحا ذاكرا لله تعالى فلما وقع فى بطن الحوت قال الله تعالى فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون وان فرعون كان عبدا طاغيا ناسيا فلما أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل قال الله تعالى آلآن وقد عصيت قبل واختلفوا فى أنه كم لبث فى بطن الحوت ولفظ القرآن لا يدل عليه قال الحسن لم يلبث الا قليلا وأخرج من بطنه بعد الوقت الذى التقمه وعن مقاتل بن حيان ثلاثة أيام وعن عطاء سبعة أيام وعن الضحاك عشرين يوما وقيل شهرا ولا أدرى بأى دليل عينوا هذه المقادير وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سبح يونس فى بطن الحوت

فاضطروا الى أن خرجوا الى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا روى أن شعيبا عليه السلام بعث الى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الايكة فأهلكت مدين بالصيحة والرجفة وأصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة (انه كان عذاب يوم عظيم) أى فى الشدة والهول وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) هذا آخر القصص السبع التى أوحيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن الحرص على اسلام قومه وقطع رجائه عنه ودفع تحسره على فواته تحقيقا لمضمون ما مر فى مطلع السورة الكريمة من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا بالحق الآية فان كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته تعالى بموجب رحمته الواسعة وما كان أكثرهم مؤمنين بعد ما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة لا بأن يتدبروا فيها ويعتبروا بما فى كل واحدة منها من الدواعى الى الايمان والزواجر عن الكفر والطغيان ولا بأن يتأملوا فى شأن الآية الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هى عليه مع علمهم بانه عليه الصلاة والسلام لم يسمع شيأ منها من أحد أصلا واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال كأن لم يسمعوا شيأ يزجرهم عن ذلك قطعا كما حقق فى خاتمة قصة موسى عليه السلام (وانه) أى ما ذكر من الآيات

فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا انا نسمع صوتا ضعيفا بارض غريبة فقال ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر فقالوا العبد الصالح الذي كان يصعد اليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه في الساحل فذلك هو قوله فنبذناه بالعراء وفيه مباحث (الاول) العراء المكان الخالي قال أبو عبيدة انما قيل له العراء لانه لا شجر فيه ولا شئ يغطيه (الثاني) انه تعالى قال فنبذناه بالعراء فأضاف ذلك النبذ الى نفسه والنبذ انما حصل بفعل الحوت وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ثم قال تعالى وهو سقيم قيل المراد انه بلى لحمه وصار ضعيفا كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذي ليس عليه ريش وقال مجاهد سقيم أي سليب ثم قال تعالى وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ظاهر اللفظ يدل على أن الحوت لما نبذه في العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجزة له قال المبرد والزجاج كل شجر لا يقوم على ساق وانما يمتد على وجه الارض فهو يقطين نحو الدبا والحنظل والبطيخ قال الزجاج أحسب اشتقاقها من قطن بالمكان اذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الارض فلذلك قيل له اليقطين روى الفراء انه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطينا كل ورقة اتسعت وسترت فهي يقطين قال الواحدي رحمه الله والآية تقتضي شيئين لم يذكرهما المفسرون (أحدهما) أن هذا اليقطين لم يكن قبل فانبته الله لاجله (والآخر) أن اليقطين كان معروشا ليحصل له ظل لانه لو كان منبسطا على الارض لم يمكن أن يستظل به ثم قال تعالى وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وفيه مباحث (الاول) يحتمل أن يكون المراد وأرسلناه قبل أن يلتقمه الحوت وعلى هذا الارسال وان ذكر بعد الالتقام فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع ويحتمل أن يكون المراد به الارسال بعد الالتقام عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال كانت رسالة يونس عليه السلام بعدما نبذه الحوت وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل الى قوم آخرين سوى القوم الاول ويجوز أن يكون أرسل الى الاولين ثانيا بشريعة فآمنوا بها (البحث الثاني) ظاهر قوله أو يزيدون يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى عذرا أو نذرا وقوله تعالى لعله يتذكر أو يخشى وقوله تعالى لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا وقوله تعالى وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب وقوله تعالى فكان قاب قوسين أو أدنى وأجابوا عنه من وجوه كثيرة والاصح منها وجه واحد وهو أن يكون المعنى أو يزيدون في تقديركم بمعنى انهم اذا رآهم الرائي قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا ثم قال تعالى فآمنوا فمتعناهم الى حين والمعنى ان أولئك الاقوام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله الى حين أي الى الوقت الذي جعله الله أجلا لكل واحد منهم ۞ قوله تعالى ﴿فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر أقاصيص الانبياء عليهم السلام عاد الى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها ومن جملة أقوالهم الباطلة انهم أثبتوا الاولاد لله سبحانه وتعالى ثم زعموا انها من جنس الاناث لا من جنس الذكور فقال فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون وهذا معطوف على قوله في أول السورة فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا وذلك لانه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه انكار البعث أولا ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض الى ان أمره بان يستفتيهم في انهم لم أثبتوا لله سبحانه البنات ولانفسهم البنين ونقل الواحدي عن المفسرين انهم قالوا ان قريشا وأجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح قالوا الملائكة بنات الله واعلم أن هذا الكلام يشتمل على أمرين (أحدهما) اثبات البنات لله وذلك باطل لان العرب كانوا يستنكفون من البنت والشئ الذي يستنكف المخلوق منه كيف يمكن اثباته للخالق (والثاني) اثبات ان الملائكة اناث وهذا أيضا باطل لان طريق العلم اما الحس واما الخبر واما النظر اما الحس ففقود ههنا لانهم ما شاهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله

الكريمة الناطقة بالقصص الحكية أو القرآن الذي هي من جملته (لتنزيل رب العالمين) أي منزل من جهته تعالى سمي به مبالغة ووصفه تعالى بربوبية العالمين للايذان بان تنزيله من أحكام تربيته تعالى ورأفته للكل كقوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (نزل به) أي أنزله (الروح الامين) أي جبريل عليه السلام فانه أمين وحيه تعالى وموصله الى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وقرئ بتشديد الزاي ونصب الروح والامين أي جعل الله تعالى الروح الامين نازلا به (على قلبك) أي روحك وان أريد به العضو فتخصيصه به لان المعاني الروحانية تنزل أولا على الروح ثم تنتقل منه الى القلب لما بينهما من التعلق ثم تتصعد الى الدماغ فينتقش بها اللوح المتخيلة (لتكون من المنذرين) متعلق بنزل به أي أنزله لتنذرهم بما في تضاعيفه من العقوبات الهائلة وايثار ما عليه النظم الكريم للدلالة على انتظامه عليه الصلاة والسلام في سلك أولئك المنذرين المشهورين في حقية الرسالة وتقرر وقوع العذاب المنذر (بلسان عربي مبين) واضح المعنى ظاهر المدلول لئلا يبقى لهم عذر ما وهو أيضا متعلق بنزل به وتأخيره للاعتناء بأمر الانذار وللايماء الى أن مدار كونه من جملة المنذرين المذكورين عليهم السلام مجرد انزاله عليه عليه الصلاة والسلام لا انزاله باللسان العربي وجعله متعلقا بالمنذرين كما جوزه الجمهور يؤدي الى أن غاية الانزال كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط من هود وصالح وشعيب عليهم السلام ولا يخفى فساده كيف لا والطامة الكبرى

أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون وأما الخبر ففقود أيضا لان الخبر انما يفيد العلم اذا علم كونه صدقا قطعا وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة وهو المراد من قوله ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون * وأما النظر ففقود وبيانه من وجهين (الاول) أن دليل العقل يقتضى فساد هذا المذهب لان الله تعالى أكمل الموجودات والاكمل لا يليق به اصطفاء الاخس وهو المراد من قوله أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون يعنى اسناد الافضل الى الافضل أقرب عند العقل من اسناد الاخس الى الافضل فان كان حكم العقل معتبرا فى هذا الباب كان قولكم باطلا (والوجه الثانى) ان نترك الاستدلال على فساد مذهبهم بل نطالبهم باثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم فاذا لم يجدوا ذلك الدليل فعنده يظهر انه لم يوجد ما يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين فثبت بما ذكرنا ان القول الذى ذهبوا اليه لم يدل على صحته لا الحس ولا الخبر ولا النظر فكان المصير اليه باطلا قطعا واعلم انه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل ذلك على ان التقليد باطل وان الدين لا يصح الا بالدليل (المسئلة الثانية) قوله أصطفى البنات على البنين قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من أصطفى ثم بحذف ألف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقريع كقوله تعالى أم اتخذ مما يخلق بنات وقوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وقوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى وكما ان هذه المواضع كلها استفهام فكذلك فى هذه الآية وقرأ نافع فى بعض الروايات لكاذبون اصطفى موصولة بغير استفهام واذا ابتدأ كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات فى زعمهم كقوله ذق انك أنت العزيز الكريم فى زعمه واعتقاده ثم قال تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا واختلفوا فى المراد بالجنة على وجوه (الاول) قال مقاتل أثبتوا نسبا بين الله تعالى وبين الملائكة حين زعموا انهم بنات الله وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جنا لاجتنانهم عن الابصار أو لانهم خزان الجنة وأقول هذا القول عندى مشكل لانه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ثم عطف عليه قوله وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا والعطف يقتضى كون المعطوف مغايرا للمعطوف عليه فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غير ما تقدم (الثانى) قال مجاهد قالت كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق فن أمهاتهم قالوا سروات الجن وهذا أيضا عندى بعيد لان المصاهرة لا تسمى نسبا (والثالث) روينا فى تفسير قوله تعالى وجعلوا لله شركاء الجن ان قوما من الزنادقة يقولون الله وابليس اخوان فالله الخير الكريم وابليس هو الاخ الشرير الخسيس فقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا المراد منه هذا المذهب وعندى ان هذا القول أقرب الاقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن ثم قال تعالى ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون أى قد علمت الجنة ان الذين قالوا هذا القول محضرون النار ويعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة انهم سيحضرون فى العذاب فعلى القول الاول الضمير عائد الى قائل هذا القول وعلى القول الثانى عائد الى الجنة أنفسهم ثم انه تعالى نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين وفى هذا الاستثناء وجوه قيل استثناء من المحضرين يعنى انهم ناجون وقيل هو استثناء من قوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا وقيل هو استثناء منقطع من المحضرين ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله وبفتحها من أخلصه الله بلطفه والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم وما منا الا له مقام معلوم وانا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون وان كانوا ليقولون لو ان عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون﴾ فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار أتبعه بما نبه به على ان هؤلاء الكفار لا يقدرون على حمل أحد على الضلال الا اذا كان قد سبق حكم الله فى حقه بالعذاب والوقوع فى النار وذكر صاحب الكشاف فى قوله فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين قولين (الاول) الضمير فى عليه لله عز وجل معناه فانكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعا بفاتنين على الله الا أصحاب النار الذين سبق فى علم الله كونهم من أهل النار فان قيل كيف يفتنونهم على الله قلنا يفتنونهم عليه باغوائهم من قولك فتن فلان

فى باب الانذار ما أنذره نوح وموسى عليهما السلام وأشد الزواجر تأثيرا فى قلوب المشركين ما أنذره ابراهيم عليه السلام لانتمائهم اليه وادعائهم أنهم على ملته عليه الصلاة والسلام (وانه لفى زبر الاولين) أى وان ذكره أو معناه لفى الكتب المتقدمة فان أحكامه التى لا تحتمل النسخ والتبديل بحسب تبدل الاعصار من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات مسطورة فيها وكذا ما فى تضاعيفه من المواعظ والقصص وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بواضح (أولم يكن لهم آية) الهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل أغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين وأنه فى زبر الاولين على أن لهم متعلق بالكون قدم على اسمه وخبره للاهتمام به أو بمحذوف هو حال من آية قدمت عليها لكونها نكرة وآية خبر للكون قدم على اسمه الذى هو قوله تعالى (أن يعلمه علماء بنى اسرائيل) لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أى أن يعرفوه بنعوته المذكورة فى كتبهم ويعرفوا من أنزل عليه وقرئ تكن بالتأنيث وجعلت آية اسما وأن يعلمه خبرا وفيه ضعف حيث وقع النكرة اسما والمعرفة خبرا وقد قيل فى تكن ضمير القصة وآية أن يعلمه جملة واقعة موقع الخبر ويجوز أن يكون لهم آية هى جملة الشان وأن يعلمه بدلا من آية ويجوز مع نصب آية تأنيث تكن كما فى قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا وقرئ تعلمه بالتاء (ولو نزلناه) كما هو بنظمه الرائق المعجز (على بعض الاعجمين)

على فلان امر أنه كما تقول أفسدها عليه (والوجه الثانى) أن تكون الواو فى قوله وما تعبدون بمعنى مع كما فى قولهم كل رجل وضيعته فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته فكذلك جاز أن يسكت على قوله فانكم وما تعبدون لان قوله وما تعبدون ساد مسد الخبر لان معناه فانكم مع ما تعبدون والمعنى فانكم مع آلهتكم أى فانكم قرناؤهم وأصحابهم لا تبرحون تعبدونها ثم قال تعالى ما أنتم عليه أى على ما تعبدون بفاتنين بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والاضلال الا من هو صال الجحيم مثلكم وقرأ الحسن صال الجحيم بضم اللام ووجهه أن يكون جمعا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين فان قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله من هو قلنا من موحد اللفظ مجموع المعنى فحمل هو على لفظه والصالون على معناه (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه لا تأثير لاغواء الشيطان ووسوسته وانما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره لان قوله تعالى فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين تصريح بأنه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لاحوال معبوديهم فى وقوع الفتنة والضلال وقوله تعالى الا من هو صال الجحيم يعنى الا من كان كذلك فى حكم الله وتقديره وذلك تصريح بأن المقتضى لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية فى اثبات هذا المطلوب قال الجبائى المراد ان الذين عبدوا الملائكة يزعمون انهم بنات الله لا يكفرون أحدا الا من ثبت فى معلوم الله انه سيكفر فدل هذا على أن من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه والا كان يمنع الشيطان فصح بهذا ان كل من يعصى لم يكن ليصلح عنه شئ من الافعال والجواب حاصل هذا الكلام أنه لا تأثير لاغواء شياطين الانس والجن وهذا لا نزاع فيه الا ان وجه الاستدلال انه تعالى بين انه لا تأثير لكلامهم فى وقوع الفتنة ثم استثنى عنه ما فى قوله تعالى الا من هو صال الجحيم فوجب أن يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكوما عليه بانه صال الجحيم وذلك تصريح بان حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذى يؤثر فى حصول الشقاوة والسعادة واعلم أن أصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو انه حج آدم موسى قال القاضى هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد لانه يوجب أن لا يلام أحد على شئ من الذنوب لانه ان كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه فكذلك كل مذنب فان صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام فلماذا قال موسى عليه السلام فى الوكزة هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ولماذا قال فلن أكون ظهيرا للمجرمين ولماذا الام فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم ومن عجيب أمرهم انهم يكفرون القدرية وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدريا فلزمهم أن يكفروه وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين أن يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه وقد كتب عليه ذلك قبل ان يخلقه هذا جملة كلام القاضى فيقال له هب أنك لا تقبل ذلك الخبر فهل ترد هذه الآية أم لا فانا بينا أن صريح هذه الآية يدل على انه لا تأثير للوساوس فى هذا الباب فان الكل يحصل بحكمة الله تعالى والذى يدل عليه وجوه (الاول) ان الكافر ان ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان ان كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال وان انتهى الى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب (الثانى) أن كل أحد يريد ان يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق فحصول ضده يدل على أن ذلك ليس منه (الثالث) أن الافعال موقوفة على الدواعى وحصول الدواعى بخلق الله فيكون الكل من الله تعالى (الرابع) انه تعالى لما اقتضت حكمته شيأ وعلم وقوعه فلو لم يقع ذلك الشئ لزم انقلاب ذلك الحكم كذبا وانقلاب ذلك العلم جهلا وهو محال وأما الآيات التى تمسك بها القاضى فهى معارضة بالآيات الدالة على أن الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من مثل هذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التى ذكرناها سليمة والله أعلم ثم قال تعالى وما منا الا له مقام معلوم فالجمهور على أنهم الملائكة وصفوا أنفسهم بالمبالغة فى العبودية فانهم يصطفون للصلاة والتسبيح والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول انهم أولاد الله وذلك لان مبالغتهم فى العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية واعلم أن هذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة (فاولها) قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لا يتعدى عنها وتلك الدرجات اشارة الى درجاتهم فى التصرف فى أجسام هذا العالم والى

درجاتهم

الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية وهو جمع أعجمى على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة وقرئ الاعجميين وفى لفظ البعض اشارة الى كون ذلك واحدا من عرض تلك الطائفة كائنا من كان (فقرأه عليهم) قراءة صحيحة خارقة للعادات (ما كانوا به مؤمنين) مع انضمام اعجاز القراءة الى اعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم فى المكابرة وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الاعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم وليس بذاك فانه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم فى المكابرة والعناد (كذلك سلكناه) أى مثل ذلك السلك البديع المذكور سلكناه أى أدخلنا القرآن (فى قلوب المجرمين) ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية من حيث النظم المعجز ومن حيث الاخبار عن الغيب وقد انضم اليه اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على تضمنها للبشارة بانزاله وبعثة من أنزل عليه باوصافه فقوله تعالى (لا يؤمنون به) جملة مستأنفة مسوقة لبيان انهم لا يتأثرون بامثال تلك الامور الداعية الى الايمان به بل يستمرون على ما هم عليه (حتى يروا العذاب الاليم) الملجئ الى الايمان به حين لا ينفعهم الايمان (فيأتيهم بغتة) أى فجأة فى الدنيا والآخرة (وهم لا يشعرون) باتيانه (فيقولوا هل نحن منظرون) تحسرا على ما فات من الايمان وتمنيا للامهال لتلافى ما فرطوه وقيل معنى كذلك سلكناه مثل تلك الحالة وتلك الصفة من الكفر به والتكذيب

درجاتهم في معرفة الله تعالى أما درجاتهم في التصرفات والافعال فهي قوله وانا لنحن الصافون والمراد كونهم صافين في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية وأما درجاتهم في المعارف فهي قوله تعالى وانا لنحن المسبحون والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به واعلم ان قوله وانا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون يفيد الحصر ومعناه أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم وأنهم هم المسبحون لا غيرهم وذلك يدل على ان طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة الى طاعات الملائكة والى معارفهم كالعدم حتى يصح هذا الحصر وبالجملة فهذه الالفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات الملائكة فكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال البشر تقرب درجته من الملك فضلا عن أن يقال هل هو أفضل منه أم لا وأما قوله وان كانوا ليقولون لو ان عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين فالمعنى أن مشركي قريش وغيرهم كانوا يقولون لو ان عندنا ذكرا أي كتابا من كتب الاولين الذين نزل عليهم التوراة والانجيل لاخلصنا العبادة لله ولما كذبنا كما كذبوا ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الاذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب وهو القرآن فكفروا به ونظير هذه الآية قوله تعالى فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا ثم قال تعالى فسوف يعلمون أي فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب ﴿قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) اعلم انه تعالى لما هدد الكفار بقوله تعالى فسوف يعلمون عاقبة كفرهم أردفه بما يقوي قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فبين أن وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى كتب الله لاغلبن أنا ورسلي وأيضا ان الخير مقضي بالذات والشر مقضي بالعرض وما بالذات أقوى مما بالعرض واما النصرة والغلبة فقد تكون بقوة الحجة وقد تكون بالدولة والاستيلاء وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وان صار مغلوبا في بعض الاوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب ولا يلزم على هذه الآية أن يقال فقد قتل بعض الانبياء وقد هزم كثير من المؤمنين ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم فتول عنهم حتى حين والمراد ترك مقاتلتهم والثقة بما وعدناهم الى حين يمتعون ثم تحل بهم الحسرة والندامة واختلف المفسرون فقيل المراد الى يوم بدر وقيل الى فتح مكة وقيل الى يوم القيامة ثم قال وأبصرهم فسوف يبصرون والمعنى فأبصرهم وما يقضي عليهم من القتل والاسر في الدنيا والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك مع ماقدر لك من النصرة والتأييد في الدنيا والثواب العظيم في الآخرة والمراد من الامر بابصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على أنها كائنة واقعة لامحالة وان كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك وقوله فسوف يبصرون للتهديد والوعيد ثم قال أفبعذابنا يستعجلون والمعنى أن الرسول عليه السلام كان يهددهم بالعذاب ومارأوا شيأ فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء فبين تعالى أن ذلك الاستعجال جهل لان لكل شئ من أفعال الله تعالى وقتا معينا لا يتقدم ولا يتأخر فكان طلب حدوثه قبل مجئ ذلك الوقت جهلا ثم قال تعالى في صفة العذاب الذي يستعجلونه فاذا نزل بساحتهم أي هذا العذاب فساء صباح المنذرين وانما وقع هذا التعبير عن هذه المعاني لانهم كانوا يقدمون على العادة في وقت الصباح فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العمل ثم أعاد قوله تعالى فتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون فقيل المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا وفي هذه الكلمة أحوال القيامة وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل وقيل ان المراد من التكرير المبالغة في التهديد والتهويل ثم انه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية وذلك لان أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة (فأولها) معرفة الاله العالم بقدر الطاقة البشرية وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع (أحدها) تنزيهه وتقديسه عن كل مايليق بصفات الالهية وهو لفظة سبحان (وثانيها) وصفه بكل ما يليق بصفات الالهية وهو قوله رب العزة فان الربوبية اشارة الى التربية وهي دالة على كمال الحكمة والرحمة والعزة اشارة الى كمال القدرة (وثالثها) كونه منزها في الالهية عن

له وضعناه في قلوبهم وقوله تعالى لايؤمنون به في موقع الايضاح والتلخيص له أو في موقع الحال أي سلكناه فيها غير مؤمن به والاول هو الانسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد أدلة الايمان وتآخذ مبادي الهداية والارشاد وانقطاع أعذارهم بالكلية وقيل ضمير سلكناه للكفر المدلول عليه بما قبله من قوله تعالى ما كانوا به مؤمنين ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد رحمهما الله تعالى أدخلنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين (أفبعذابنا يستعجلون) بقولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقولهم فأتنا بما تعدنا ونحوهما وحالهم عند نزول العذاب كما وصف من طلب الانظار فالفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الاليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافي مالا يخفى على احد أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون الخ وانما قدم الجار والمجرور للايذان بان مصب الانكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى مع ما فيه من رعاية الفواصل (أفرأيت) لما كانت الرؤيا من أقوى أسباب الاخبار بالشئ وأشهرها شاع استعمال أرأيت في معنى أخبرني والخطاب لكل من يصلح له كائنا من كان والفاء لترتيب الاستخبار على قولهم هل نحن منظرون وما بينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت وهي متقدمة في المعنى على الهمزة وتأخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمزة الصدارة كما هو رأي الجمهور أي

الشريك والنظير وقوله رب العزة يدل على انه القادر على جميع الحوادث لان الالف واللام فى قوله العزة تفيد الاستغراق واذا كان الكل ملكاله وملكاله لم يبق لغيره شئ فثبت ان قوله سبحان ربك رب العزة عما يصفون كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات فى معرفة اله العالم (والمهم الثانى) من مهمات العاقل أن يعرف انه كيف ينبغى أن يعامل نفسه ويعامل الخلق فى هذه الحياة الدنيوية واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولابد لهم من مكمل يكملهم ومرشد يرشدهم وهاد يهديهم وماذاك الا الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل فنبه على هذا الحرف بقوله وسلام على المرسلين لان هذا اللفظ يدل على انهم فى الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ولاجرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم (والمهم الثالث) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة فالاعتماد فيها على حرف واحد وهو انه اله العالم غنى رحيم والغنى الرحيم لا يعذب فنبه على هذا الحرف بقوله والحمد لله رب العالمين وذلك لان استحقاق الحمد لا يحصل الا بالانعام العظيم فبين بهذا كونه منعما وظاهر كونه غنيا عن العالمين ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم فكان هذا الحرف منبها على سلامة الحال بعد الموت فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من درارى الكواكب ونسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة والعافية فى الدنيا والآخرة * تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين

((سورة ص ثمانون وثمان آيات مكية))

((بسم الله الرحمن الرحيم))

((ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص)) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الكلام المستقصى فى امثال هذه الفواتح مذكور فى أول سورة البقرة ولا بأس باعادة بعض الوجوه فالاول انه مفتاح أسماء الله تعالى التى أولها صاد كقولنا صادق الوعد صانع المصنوعات صمد (والثانى) معناه صدق محمد فى كل ما أخبر به عن الله (الثالث) معناه صد الكفار عن قبول هذا الدين كما قال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله (الرابع) معناه ان القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن فدل ذلك على أن القرآن معجز (الخامس) أن يكون صاد بكسر الدال من المصاداة وهى المعارضة ومنها الصدى وهو ما يعارض صوتك فى الاماكن الخالية من الاجسام الصلبة ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل باوامره وانته عن نواهيه (السادس) انه اسم السورة والتقدير هذه صاد فان قيل ههنا اشكالان (أحدهما) أن قوله والقرآن ذى الذكر قسم وأين المقسم عليه (والثانى) أن كلمة بل تقتضى رفع حكم ثبت قبلها واثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق فأين هذا المعنى ههنا والجواب عن الاول من وجوه (الاول) أن يكون معنى صاد بمعنى صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيكون صاد هو المقسم عليه وقوله والقرآن ذى الذكر هو القسم (الثانى) أن يكون المقسم عليه محذوفا والتقدير سورة ص والقرآن ذى الذكر انه لكلام معجز لانا بينا أن قوله صاد تنبيه على التحدى (والثالث) أن يكون صادا اسما للسورة ويكون التقدير هذه صاد والقرآن ذى الذكر ولما كان المشهور أن محمدا عليه السلام يدعى فى هذه السورة كونها معجزة كان قوله هذه ص جاريا مجرى قوله هذه هى السورة المعجزة ونظيره قولك هذا حاتم والله أى هذا هو المشهور بالسخاء (والجواب عن السؤال الثانى) أن الحكم المذكور قبل كلمة بل كون محمد صادقا فى تبليغ الرسالة أو كون القرآن أو هذه السورة معجزة والحكم المذكور بعد كلمة بل ههنا هو المنازعة والمشاقة فى كونه كذلك فحصل المطلوب والله أعلم (المسئلة الثانية) قرأ الحسن صاد بكسر الدال لاجل التقاء الساكنين وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد ونون وبحذف حرف القسم وايصال فعله كقولهم الله لافعلن وأكثر القراء على الجزم لان الاسماء

فأخبرنى (ان متعناهم سنين) متطاولة بطول الاعمار وطيب المعايش (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) من العذاب (ما أغنى عنهم) أى شئ أو أى اغناء أغنى عنهم (ما كانوا يمتعون) أى كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد على أن ما مصدرية أو ما كانوا يمتعون به من متاع الحياة الدنيا على أنها موصولة حذف عائدها وأيا ما كان فالاستفهام للانكار والنفى وقيل ما نافية أى لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول فى دفع العذاب وتخفيفه والاول هو الاولى لكونه أوفق لصورة الاستخبار وأدل على انتفاء الاغناء على أبلغ وجه وآكده كأن كل من من شأنه الخطاب قد كلف أن يخبر بان تمتيعهم ماذا أفادهم وأى شئ أغنى عنهم فلم يقدر أحد على أن يخبر بشئ من ذلك أصلا وقرئ يمتعون من الامتاع (وما أهلكنا من قرية) من القرى المهلكة (الا لها منذرون) قد أنذروا أهلها الزاما للحجة (ذكرى) أى تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدر لانها فى معنى الانذار كأنه قيل مذكرون ذكرى أو على أنه مصدر مؤكد لفعل هو صفة لمنذرون أى الا لها منذرون يذكرونهم ذكرى أو الرفع على أنها صفة منذرون باضمار ذوو أو بجعلهم ذكرى لامعانهم فى التذكرة أو خبر مبتدا محذوف والجملة اعتراضية وضمير لها للقرى المدلول عليها بمفردها الواقع فى حيز النفى على معنى أن لكل منذرين أعم من أن يكون لكل قرية منها منذر واحد أو أكثر (وما كنا ظالمين) فنهلك غير الظالمين وقبل الانذار والتعبير عن ذلك بنفى الظالمية مع ان اهلاكهم قبل الانذار ليس بظلم

العاريه عن العوامل تذكر موقوفة الاواخر (المسئلة الثالثة) فى قوله ذى الذكر وجهان (الاول) المراد ذى الشرف قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقال تعالى لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم و مجازه هذا من قولهم لفلان ذكر فى الناس كما يقولون له صيت (الثانى) ذى البيانين أى فيه قصص الاولين والآخرين وفيه بيان العلوم الاصلية والفرعية ومجازه من قوله ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة القرآن ذى الذكر والذكر محدث (بيان الاول) قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وهذا ذكر مبارك والقرآن ذى الذكران هو الاذكر وقرآن مبين (بيان الثانى) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث (والجواب) انا نصرف دليلكم الى الحروف والاصوات وهى محدثة اما قوله بل الذين كفروا فالمراد منه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الاجماع على الحسد والتكبر عن الانقياد الى الحق والعزة ههنا التعظيم وما يعتقده الانسان فى نفسه من الاحوال التى تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم والشقاق هو اظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضيلة عليه وهو مأخوذ من الشق كانه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه فى شق وخصمه فى شق فيريد أن يكون فى شق نفسه ولا يجرى عليه حكم خصمه ومثله المعاداة وهو أن يكون أحدهما فى عدوة والآخر فى عدوة وهى جانب الوادى وكذلك المحاداة أن يكون هذا فى حد غير حد الآخر ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلانا أى صار منه على حرف وفى جانب غير جانبه والله أعلم ثم انه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا والمعنى انهم نادوا عند نزول العذاب فى الدنيا ولم يذكر باى شئ نادوا وفيه وجوه (الاول) وهو الاظهر أنهم نادوا بالاستغاثة لان نداء من نزل به العذاب ليس الا بالاستغاثة (الثانى) نادوا بالايمان والتوبة عند معاينة العذاب (الثالث) نادوا أى رفعوا أصواتهم يقال فلان اندى صوتا من فلان أى ارفع صوتا ثم قال ولات حين مناص يعنى ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا وقال حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة وكقوله آلآن وقد عصيت قبل وقوله فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا بقى ههنا ابحاث (البحث الاول) فى تحقيق الكلام فى لفظ لات زعم الخليل وسيبويه ان لات هى لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة منها انها لا تدخل الا على الاحيان ومنها ان لا يبرز الا أحد جزئيها اما الاسم واما الخبر ويمتنع بروزهما جميعا وقال الاخفش انها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفى الاحيان وحين مناص منصوب بها كانك قلت ولات حين مناص لهم ويرتفع بالابتداء أى ولات حين مناص كائن لهم (البحث الثانى) الجمهور يقفون على التاء من قوله ولات والكسائى يقف عليها بالهاء كما يقف على الاسماء المؤنثة قال صاحب الكشاف واما قول أبى عبيدة التاء داخلة على الحين فلا وجه له واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين فى مصحف عثمان فضعيف فكم وقعت فى المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط (البحث الثالث) المناص المنجا والغوث يقال ناصه ينوصه اذا أغاثه واستناص طلب المناص والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا الشئ عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا الشئ يراد ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق﴾ اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم فى عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وفى قوله منهم وجهان (الاول) انهم قالوا ان محمدا مساو لنا فى الخلقة الظاهرة والاخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالى والدرجات الرفيعة (والثانى) أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال جهالتهم وذلك لانه جاءهم رجل يدعوهم الى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب فى الآخرة والتنفير عن الدنيا ثم ان هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيدا من الكذب والتهمة وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ثم ان هؤلاء الاقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله ونظيره قوله أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون فقال وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ومعناه ان محمدا كان من

أصلا على ما تقرر من قاعدة أهل السنة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من الظلم وقد مر فى سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد (وما تنزلت به الشياطين) رد لما زعمه الكفرة فى حق القرآن الكريم من أنه من قبيل ما يلقيه الشيطان على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الامين (وما ينبغى لهم) أى وما يصح وما يستقيم لهم ذلك (وما يستطيعون) ذلك أصلا (انهم عن السمع) لكلام الملائكة (لمعزولون) لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة فى صفاء الذوات والاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق والانتقاش بصور العلوم الربانية والمعارف النورانية كيف لا ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات غير مستعدة الا لقبول ما لا خير فيه أصلا من فنون الشرور فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم المنطوى على الحقائق الرائقة الغيبية التى لا يمكن تلقيها الا من الملائكة عليهم الصلاة والسلام (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام مع ظهور استحالة صدور المنهى عنه عليه الصلاة والسلام تهييجا وحثا على ازدياد الاخلاص ولطفا لسائر المكلفين ببيان أن الاشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه (وانذر) العذاب الذى يستتبعه الشرك والمعاصى (عشيرتك الاقربين) الاقرب منهم فالاقرب فان الاهتمام بشأنهم أهم روى أنه لما نزلت صعد الصفا

رهطهم وعشيرتهم وكان مساويا لهم فى الاسباب الدنيوية فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن
الانقياد لتكاليفه وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وان يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة
وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب الا الحسد ثم قال تعالى وقال الكافرون هذا ساحر كذاب واعلم يقل
وقالوا بل قال وقال الكافرون اظهارا للتعجب ودلالة على ان هذا القول لا يصدر الا عن الكفر التام فان
الساحر هو الذى يمنع من طاعة الله ويدعو الى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو
الذى يخبر عن الشئ لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر
والنشر وسائر الاشياء التى تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذابا ثم انه تعالى حكى جميع ما عولوا
عليه فى اثبات كونه كاذبا وهى ثلاثة أشياء (أحدها) ما يتعلق بالالهيات (وثانيها) ما يتعلق بالنبوات
(وثالثها) ما يتعلق بالمعاد أما الشبهة المتعلقة بالالهيات فهى قولهم أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا الشئ
عجاب روى انه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحا شديدا وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفسا
من صناديدهم ومشوا الى أبى طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء يعنون
المسلمين فجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن
أخى هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال صلى الله عليه وسلم ماذا يسألوننى
قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك والهك فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم ما سألتم
أتعطوننى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم قالوا نعم قال تقولوا لا اله الا الله فقاموا وقالوا
أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا الشئ عجاب أى بليغ فى التعجب وأقول منشأ التعجب من وجهين (الاول)
هو ان القوم ما كانوا من أصحاب النظر والاستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا فى
الشاهد أن الفاعل الواحد لا تفى قدرته وعلمه بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد فقالوا لابد فى
حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر (والوجه الثانى) ان أسلافهم
لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك فقالوا من العجب العجيب أن يكون أولئك الاقوام على
كثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين وهذا الانسان الواحد يكون محقا صادقا وأقول لعمرى لو سلمنا
اجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحجة لكانت الشبهة الاولى لازمة ولما توافقنا على فسادها
علمنا أن اجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعا واذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل أصل كلام المشبهة
فى الذات وكلام المشبهة فى الافعال اما المشبهة فى الذات فهو أنهم يقولون لما كان كل موجود فى الشاهد
يجب أن يكون جسما ومختصا بحيز وجب فى الغائب أن يكون كذلك واما المشبهة فى الافعال فهم المعتزلة
الذين يقولون ان الامر الفلانى قبيح منا فوجب أن يكون قبيحا من الله فثبت بما ذكرنا انه ان صح كلام
هؤلاء المشبهة فى الذات وفى الافعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين وحيث توافقنا على فسادها علمنا
أن عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد واما الشبهة الثانية فلعمرى لو كان التقليد حقا لكانت
هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا ان التقليد باطل بقى ههنا ابحاث (البحث الاول) أن العجاب هو
العجيب الا انه أبلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للمبالغة
كقوله تعالى ومكروا مكرا كبارا (الثانى) قال صاحب الكشاف قرئ عجاب بالتخفيف والتشديد فقال
والتشديد أبلغ من التخفيف كقوله تعالى مكرا كبارا ثم قال تعالى وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على
آلهتكم قد ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين اذا حضروا فى المجلس فانه تمتلئ القلوب والعيون من
مهابتهم وعظمتهم وقوله منهم أى من قريش انطلقوا عن مجلس أبى طالب بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض أن امشوا واصبروا على آلهتكم وفيه مباحث (البحث
الاول) القراءة المشهورة أن امشوا وقرأ ابن أبى عبلة امشوا بحذف أن قال صاحب الكشاف أن بمعنى
أى لان المنطلقين عن مجلس التقاول لابد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما يجرى فى المجلس المتقدم
فكان انطلاقهم مضمنا معنى القول وعن ابن عباس وانطلق الملأ منهم عقبة (البحث الثانى) معنى أن
امشوا أنه قال بعضهم لبعض امشوا واصبروا فلا حيلة لكم فى دفع أمر محمد ان هذا الشئ يراد وفيه ثلاثة

ونادأهم فخذا فخذا حتى اجتمعوا
اليه فقال لو أخبرتكم أن بسفح
هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقى
قالوا نعم قال فانى نذير لكم بين يدى
عذاب شديد وروى أنه قال يا بنى
عبد المطلب يا بنى هاشم يا بنى عبد
مناف افتدوا أنفسكم من النار
فانى لا أغنى عنكم شيأ ثم قال
يا عائشة بنت أبى بكر ويا حفصة
بنت عمر ويا فاطمة بنت محمد
ويا صفية عمة محمد اشترين
أنفسكن من النار فانى لا أغنى
عنكن شيأ (واخفض جناحك لمن
اتبعك من المؤمنين) أى لين
جانبك لهم مستعار من حال الطائر
فانه اذا أراد أن ينحط خفض
جناحه ومن للتبيين لان من اتبع
أعم ممن اتبع لدين أو غيره
أو للتبعيض على أن المراد
بالمؤمنين المشارفون للايمان
أو المصدقون باللسان فحسب
(فان عصوك) ولم يتبعوك (فقل
انى برئ مما تعملون) أى مما
تعملونه أو من أعمالكم (وتوكل
على العزيز الرحيم) الذى يقدر على
قهر أعدائه ونصر أوليائه يكفك
شر من يعصيك منهم ومن غيرهم
وقرئ فتوكل على انه بدل من
جواب الشرط (الذى يراك حين
تقوم) أى الى التهجد (وتقلبك
فى الساجدين) وترددك فى تصفح
أحوال المتهجدين كما روى أنه
لما نسخ فرض قيام الليل طاف
عليه الصلاة والسلام تلك الليلة
ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون
حرصا على كثرة طاعتهم فوجدها
كبيوت الزنابير لما سمع منها من
دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة
أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام
والركوع والسجود والقعود اذا
أممتهم وانما وصف الله تعالى ذاته
بعلمه بحاله عليه الصلاة والسلام

أوجه (أحدها) ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم ليس له سبب ظاهر فثبت أن تزايد ظهوره ليس الالان الله يريده وما أراد الله كونه فلا دافع له (وثانيها) ان الامر كشئ من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه (وثالثها) ان دينكم لشئ يراد أى يطلب ليؤخذ منكم قال القفال هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف وكأن معناها انه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين وانما غرضه أن يستولى علينا فيحكم فى أموالنا وأولادنا بما يريد ثم قال ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة والملة الآخرة هى ملة النصارى فقالوا ان هذا التوحيد الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ماسمعناه فى دين النصارى أو يكون المراد بالملة الآخرة ملة قريش التى أدركوا آباءهم عليها ثم قالوا ماهذا الا اختلاق افتعال وكذب وحاصل الكلام من هذا الوجه انهم قالوا نحن ماسمعنا عن أسلافنا القول بالتوحيد فوجب أن يكون باطلا ولو كان القول بالتقليد حقا لكان كلام هؤلاء المشركين حقا وحيث كان باطلا علمنا أن القول بالتقليد باطل ۞ قوله تعالى (أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السموات والارض ومابينهما فليرتقوا فى الاسباب جند ماهنالك مهزوم من الاحزاب) اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لاولئك الكفار وهى الشبهة المتعلقة بالنبوات وهى قولهم ان محمدا لما كان مساويا لغيره فى الذات والصفات والخلقة الظاهرة والاخلاق الباطنة فكيف يعقل أن يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة وهو المراد من قولهم أأنزل عليه الذكر من بيننا فانه استفهام على سبيل الانكار وحكى الله تعالى عن قوم صالح انهم قالوا مثل هذا القول فقالوا أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر وحكى الله تعالى عن قوم محمد صلى الله عليه وسلم ايضا انهم قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وتمام الكلام فى تقرير هذه الشبهة ان قالوا النبوة أشرف المراتب فوجب أن لاتحصل الالاشرف الناس ومحمد ليس أشرف الناس فوجب أن لاتحصل له النبوة والمقدمتان الاوليان حقيقتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج هذا التغليط عليهم أنهم ظنوا ان الشرف لايحصل الابالمال والاعوان وذلك باطل فان مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هى النفسانية وأوسطها هى البدنية وأدونها هى الخارجية وهى المال والجاه فالقوم عكسوا القضية وظنوا اباخس المراتب أشرفها فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا ان غيره أشرف منه فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد فى أفكارهم ثم انه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه (الاول) قوله تعالى بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب وفيه وجهان (أحدهما) أن قوله بل هم فى شك من ذكرى أى من الدلائل التى لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لان كل ماذكروه من الشبهات فهى كلمات ضعيفة وأما الدلائل التى تدل بنفسها على صحة نبوته فهى دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل فى الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التى تمسكوا بها فى ابطال النبوة ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة نبوته فحيث لم يعرفوا ذلك كان لاجل أنهم تركوا النظر والاستدلال فاما قوله تعالى بل لما يذوقوا عذاب فوقعه من هذا الكلام انه تعالى يقول هؤلاء انما تركوا النظر والاستدلال لانى لم أذقهم عذابى ولو ذاقوه لم يقع منهم الا الاقبال على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات (وثانيها) أن يكون المراد من قوله بل هم فى شك من ذكرى هو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر ثم انهم أصروا على الكفر ولم ينزل عليهم العذاب فصار ذلك سببا لشكهم فى صدقه وقالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فقال بل هم فى شك من ذكرى معناه ماذكرناه وقوله تعالى بل لما يذوقوا عذاب معناه ان ذلك الشك انما حصل بسبب عدم نزول العذاب (والوجه الثانى) من الوجوه التى ذكرها الله تعالى فى الجواب عن تلك الشبهة قوله تعالى أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب وتقرير هذا الجواب أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزا أى كامل القدرة ووهابا أى عظيم الجود وذلك هو الله سبحانه وتعالى واذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود لم يتوقف كونه واهبا لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنيا أو فقيرا ولم يختلف ذلك أيضا بسبب أن أعداءه يحبونه أو يكرهونه (والوجه الثالث فى الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى أم لهم ملك السموات والارض ومابينهما فليرتقوا فى الاسباب واعلم

التى بها استأهل ولايته بعد ان عبر عنه بما ينبئ عن قهر أعدائه ونصر أوليائه ومن وصفى العزيز الرحيم تحقيقا للتوكل وتوطينا لقلبه عليه (انه هو السميع) لما تقوله (العليم) بما تنويه وتعمله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) أى تتنزل بحذف احدى التاءين وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن ودخول حرف الجر على من الاستفهامية لما أنها ليست موضوعة للاستفهام بل الاصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه كما حذف من هل والاصل أهل وقوله تعالى (تنزل على كل أفاك أثيم) قصر لتنزلهم على كل من اتصف بالافك الكثير والاثم الكثير من الكهنة والمتنبئة وتخصيص لهم بهم بحيث لايتخطاهم الى غيرهم وحيث كانت ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم منزهة عن أن يحوم حولها شائبة شئ من تلك الاوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه عليه الصلاة والسلام (يلقون) أى الافاكون (السمع) الى الشياطين فيتلقون منهم أوهاما وأمارات لنقصان علمهم فيضمون اليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لايطابق أكثرها الواقع وذلك قوله تعالى (وأكثرهم كاذبون) أى فيما قالوه من الاقاويل وقد ورد فى الحديث الكلمة يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة أو يلقون السمع أى المسموع من الشياطين الى الناس وأكثرهم كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم والاظهر أن الاكثرية

أنه يجب أن يكون المراد من هذا الكلام مغايرا للمراد من قوله أم عندهم خزائن رحمة ربك والفرق أن خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال وان من شئ الا عندنا خزائنه ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والارض فلما ذكر الخزائن أولا على عمومها أردفها بذكر ملك السموات والارض وما بينهما يعنى ان هذه الاشياء أحد أنواع خزائن الله فاذا كنتم عاجزين عن هذا القسم فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى فهذا ما أمكننى ذكره فى الفرق بين الكلامين أما قوله تعالى فليرتقوا فى الاسباب فالمعنى انهم ان ادعوا ان لهم ملك السموات والارض فعند هذا يقال لهم ارتقوا فى الاسباب واصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها الى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحى على من يختارون واعلم أن حكماء الاسلام استدلوا بقوله فليرتقوا فى الاسباب على ان الاجرام الفلكية وما أودع الله فيها من القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلى لان الله تعالى سمى الفلكيات أسبابا وذلك يدل على ما قلناه والله أعلم أما قوله تعالى جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب ففيه مقامان من البحث (أحدهما) فى تفسير هذه الالفاظ (والثانى) فى كيفية تعلقها بما قبلها (أما المقام الاول) فقوله جند مبتدأ وما للابهام كقوله جئت لامر ما وعندى طعام ما ومن الاحزاب صفة لجند ومهزوم خبر المبتدا وأما قوله هنالك فيجوز أن يكون صفة لجند أى جند ثابت هنالك ويجوز أن يكون متعلقا بمهزوم معناه ان الجند من الاحزاب مهزوم هنالك أى فى ذلك الموضع الذى كانوا يذكرون فيه هذه الكلمات الطاعنة فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأما المقام الثانى) فهو انه تعالى لما قال ان كانوا يملكون السموات والارض فليرتقوا فى الاسباب ذكر عقيبه انهم جند من الاحزاب منهزمون ضعيفون فكيف يكونون مالكى السموات والارض وما بينهما قال قتادة هنالك اشارة الى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر وقيل يوم الخندق والاصوب عندى حمله على يوم فتح مكة وذلك لان المعنى انهم جند سيصيرون منهزمين فى الموضع الذى ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة فوجب أن يكون المراد انهم سيصيرون منهزمين فى مكة وما ذاك الا يوم الفتح والله أعلم ۞ قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة أولئك الاحزاب ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق) اعلم انه تعالى لما ذكر فى الجواب عن شبهة القوم أنهم انما توانوا وتكاسلوا فى النظر والاستدلال لاجل انهم لم ينزل بهم العذاب بين تعالى فى هذه الآية ان أقوام سائر الانبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول فى اخباره عن نزول العقاب عليهم فذكر الله ستة أصناف منهم (أولهم) قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحا أهلكهم الله بالغرق والطوفان (والثانى) عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح (والثالث) فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق (والرابع) ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة (والخامس) قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف (والسادس) أصحاب الايكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة قالوا وانما وصف الله فرعون بكونه ذا الاوتاد لوجوه (الاول) ان أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب بأوتاده ثم استعير لاثبات العز والملك قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بانعم عيشة * فى ظل ملك ثابت الاوتاد

قال القاضى حمل الكلام على هذا الوجه أولى لانه لما وصف بتكذيب الرسل فيجب فيما وصف به ان يكون تفخيما لامر ملكه ليكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من الهلاك مع قوة أمره أبلغ (والثانى) انه كان ينصب الخشب فى الهواء وكان يمد يدى المعذب ورجليه الى تلك الخشب الاربع ويضرب على كل واحد من هذه الاعضاء وتدا ويتركه معلقا فى الهواء الى أن يموت (والثالث) انه كان يمد المعذب بين أربعة أوتاد فى الارض ويرسل عليه العقارب والحيات (والرابع) قال قتادة كانت أوتادا وارسانا وملاعب يلعب بها عنده (والخامس) ان عساكره كانوا كثيرين وكانوا كثيرى الاهبة عظيمى النعم وكانوا يكثرون من الاوتاد لاجل الخيام فعرف بها (والسادس) ذو الاوتاد والجموع الكثيرة وسميت الجموع أوتادا لانهم يقوون أمره ويشدون مملكته كما يقوى الوتد البناء وأما الايكة فهى الغيضة الملتفة ثم قال تعالى

باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون عن الجنى وأماني أكثره فهم كاذبون وما آله وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب الى أكثرهم كون أقلهم صادقين على الاطلاق وليس معنى الافاك من لا ينطق الا بالافك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكثر الافك فلا ينافيه أن يصدق نادرا فى بعض الاحايين وقيل الضمير للشياطين أى يلقون السمع أى المسموع من الملا الاعلى قبل أن رجموا من بعض المغيبات الى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به اليهم اذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو افهامهم ولا سبيل الى حمل القاء السمع على تسمعهم وانصاتهم الى الملا الاعلى قبل الرجم كما جوزه الجمهور لما أن يلقون كما صرحوا به اما حال من ضمير تنزل مفيدة لمقارنة التنزل للالقاء أو استئناف مبين للغرض من التنزل مبنى على السؤال عنه ولا ريب فى ان القاء السمع الى الملا الاعلى بمعزل من احتمال أن يقارن التنزل أو يكون غرضا منه لتقدمه عليه قطعا وانما المحتمل لهما الالقاء بالمعنى الاول فالمعنى على تقدير كونه حالا تنزل الشياطين على الافاكين ملقين اليهم ما سمعوه من الملا الاعلى وعلى تقدير كونه جوابا عن سؤال من قال لم تنزل عليهم وماذا يفعلون بهم يلقون اليهم ما سمعوه وحمله على استئناف الاخبار كما فعله بعضهم غير سديد لان ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة التنزيل وأما على تقدير كون ضمير يلقون للافاكين فهو

أولئك الاحزاب وفيه أقوال (الاول) ان هؤلاء الذين ذكرناهم من الامم هم الذين تحزبوا على أنبيائهم فأهلكناهم فكذلك نفعل بقومك لانه تعالى بين بقوله جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب ان قوم محمد صلى الله عليه وسلم جند من الاحزاب أى من جنس الاحزاب المتقدمين فلما ذكر انه عامل الاحزاب المتقدمين بالاهلاك كان ذلك تخويفا شديدا لقوم محمد صلى الله عليه وسلم (الثانى) ان معنى قوله أولئك الاحزاب مبالغة لوصفهم بالقوة والكثرة كما يقال فلان هو الرجل والمعنى ان حال أولئك الاحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين واعلم أن هؤلاء الاقوام ان صدقوا بهذه الاخبار فهو تحذير وان لم يصدقوا بها فهو تحذير أيضا لان آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوى فيحذرون ولان ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر أيضا ثم قال ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب أى كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم فى الترغيب والترهيب لا جرم نزل العقاب عليهم وان كان ذلك بعد حين والمقصود منه زجر السامعين ثم بين تعالى ان هؤلاء المكذبين وان تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق وفى تفسير هذه الصيحة قولان (الاول) أن يكون المراد عذابا يفجأهم ويجيئهم دفعة واحدة كما يقال صاح الزمان بهم اذا هلكوا قال الشاعر

صاح الزمان بآل برمك صيحة * خروا لشدتها على الاذقان

ويشبه أن يكون أصل ذلك من الغارة اذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم ونظيره قوله تعالى فهل ينظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم الآية (والقول الثانى) ان هذه الصيحة هى صيحة النفخة الاولى فى الصور كما قال تعالى فى سورة يس ما ينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون والمعنى انهم وان لم يذوقوا عذابى فى الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم كالرجل الذى ينتظر الشئ فهو ماد الطرف اليه يطمع كل ساعة فى حضوره ثم انه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال ما لها من فواق قرأ حمزة والكسائى فواق بضم الفاء والباقون بفتحها قال الكسائى والفراء وأبو عبيدة والاخفش هما لغتان من فواق الناقة وهو ما بين حلبتى الناقة وأصله من الرجوع يقال أفاق من مرضه أى رجع الى الصحة فالزمان الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن الى الضرع يسمى فواقا بالفتح وبالضم كقولك قصاص الشعر وقصاصه قال الواحدى والفواق والفواق اسمان من الافاقة والافاقة معناها الرجوع والسكون كافاقة المريض الا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر والفواق بالضم اسم لذلك الزمان الذى يعود فيه اللبن الى الضرع وروى الواحدى فى البسيط عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى هذه الآية يأمر الله اسرافيل فينفخ نفخة الفزع قال فيمدها ويطولها وهى التى يقول ما لها من فواق ثم قال الواحدى وهذا يحتمل معنيين (أحدهما) ما لها سكون (والثانى) ما لها رجوع والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع الى السكون ويقال لكل من بقى على حالة واحدة انه لا يفيق منه ولا يستفيق والله أعلم ﴿ قوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أواب) اعلم انا ذكرنا فى تفسير قوله وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أن القوم انما تعجبوا لشبهات ثلاثة (أولها) تتعلق بالالهيات وهو قوله أجعل الآلهة الها واحدا (والثانية) تتعلق بالنبوات وهو قوله أأنزل عليه الذكر من بيننا (والثالثة) تتعلق بالمعاد وهو قوله تعالى وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وذلك لان القوم كانوا فى نهاية الانكار للقول بالحشر والنشر فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته والقط القطعة من الشئ لانه قطع منه من قطه اذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد المؤمنين بالجنة قالوا على سبيل الاستهزاء عجل لنا نصيبنا من الجنة أو عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها واعلم أن الكفار لما بالغوا فى السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قالوا انه ساحر كذاب وقالوا له على سبيل الاستهزاء عجل لنا قطنا أمره الله بالصبر على سفاهتهم فقال اصبر على ما يقولون فان قيل أى تعلق بين قوله اصبر على ما يقولون وبين قوله واذكر عبدنا داود قلنا بيان هذا التعلق من وجوه (الاول) كأنه قيل ان كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله

صفة لكل أفاك لانه فى معنى الجمع سواء أريد بالقاء السمع الاصغاء الى الشياطين أو القاء المسموع الى الناس ويجوز أن يكون استئناف اخبار بحالهم على كلا التقديرين لما أن كلا من تلقيهم من الشياطين والقائهم الى الناس يكون بعد التنزيل وأن يكون استئنافا مبنيا على السؤال على التقدير الاول فقط كأنه قيل ما يفعلون عند تنزل الشياطين عليهم فقيل يلقون اليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به اليهم وقوله تعالى وأكثرهم كاذبون على التقدير الاول استئناف فقط وعلى الثانى يحتمل الحالية من ضمير يلقون أى يلقون ما سمعوه من الشياطين الى الناس والحال انهم فى أكثر أقوالهم كاذبون فتدبر (والشعراء يتبعهم الغاوون) استئناف مسوق لابطال ما قالوا فى حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام بعد ابطال ما قالوا انه من قبيل ما يلقى الشياطين على الكهنة من الاباطيل بما مر من بيان أحوالهم المضادة لاحواله عليه الصلاة والسلام والمعنى أن الشعراء يتبعهم أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون لا يستمرون على وتيرة واحدة فى الافعال والاقوال والاحوال لا غيرهم من أهل الرشد المهتدين الى طريق الحق الثابتين عليه وقوله تعالى (ألم تر انهم فى كل واد يهيمون) استشهاد على أن الشعراء انما يتبعهم الغاوون وتقرير له والخطاب لكل من تتأتى

وانكارهم الحشر والنشر فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن يوم الحشر فان بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفا يزداد الضد الآخر نقصانا (والثاني) كأنه قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم لا يضيق صدرك بسبب انكارهم لقولك ودينك فانهم اذا خالفوك فالأكابر من الانبياء وافقوك (والثالث) ان للناس في قصة داود قولين منهم من قال انها تدل على ذنبه ومنهم من قال انها لا تدل عليه فمن قال بالاول كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ان حزنك ليس الا لأن الكفار يكذبونك وأما حزن داود فكان بسبب وقوعه في ذلك الذنب ولا شك أن حزنه أشد فتأمل في قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما أنت فيه من الحزن ومن قال بالثاني قال الخصمان اللذان دخلا على داود كانا من البشر وانما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهما داود ومع ذلك فلم يتعرض لايذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ما سيجيء تقرير هذه الطريقة فلا جرم أمر الله تعالى محمدا عليه السلام بان يقتدى به في حسن الخلق (والخامس) ان قريشا انما كذبوا محمدا عليه السلام واستخفوا به لقولهم في أكثر الامر انه يتيم فقير ثم انه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود ثم بين انه مع ذلك ما سلم من الاحزان والغموم ليعلم أن الخلاص عن الحزن لا سبيل اليه في الدنيا (والسادس) أن قوله تعالى اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الانبياء فكأنه قال فاصبر على ما يقولون واعتبر بحال سائر الانبياء ليعلمه أن كل واحد منهم كان مشغولا بهم خاص وحزن خاص فحينئذ يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والاحزان وان استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل الا بتحمل المشاق والمتاعب في الدنيا وهذه وجوه ذكرناها في هذا المقام وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم وسيجيء ذكره ان شاء الله تعالى عند الانتهاء الى تفسير قوله كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته واعلم انه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الانبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الاجمال (فالقصة الاولى) قصة داود واعلم أن مجامع ما ذكره الله تعالى في هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام (فالاول) تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التي توجب سعادة الآخرة والدنيا (والثاني) شرح تلك الواقعة التي وقعت له من أمر الخصمين (والثالث) استخلاف الله تعالى اياه بعد وقوع تلك الواقعة (أما النوع الاول) وهو شرح الصفات التي آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهي عشرة (الاول) قوله لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود فأمر محمدا صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بان يقتدى في الصبر على طاعة الله بداود وذلك تشريف عظيم واكرام تام لداود حيث أمر الله أفضل الخلق محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقتدى به في مكارم الاخلاق (والثاني) أنه قال في حقه عبدنا داود فوصفه بكونه عبدا له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم وذلك غاية التشريف ألا ترى انه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمدا عليه السلام ليلة المعراج قال سبحان الذي أسرى بعبده فههنا يدل على ذلك التشريف لداود فكان ذلك دليلا على علو درجته أيضا فان وصف الله تعالى الانبياء بعبوديته مشعر بانهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة (والثالث) قوله ذا الايد أي ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي وذلك لانه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة موجبة للمدح والقوة التي توجب المدح العظيم ليست الا القوة على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه والايد المذكور ههنا كالقوة المذكورة في قوله يا يحيى خذ الكتاب بقوة وقوله تعالى وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة أي باجتهاد في أداء الامانة وتشدد في القيام بالدعوة وترك اظهار الوهن والضعف والايد والقوة سواء ومنه قوله تعالى هو الذي أيدك بنصره وقوله تعالى وأيدناه بروح القدس وقال والسماء بنيناها بأيد وعن قتادة أعطى قوة في العبادة وفقها في الدين وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر (الرابع) قوله انه أواب أي ان داود كان رجاعا في أموره كلها الى طاعتي والاواب فعال من آب اذا رجع كما قال تعالى ان الينا ايابهم وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فانه أبلغ من قاتل وضارب (الخامس) قوله تعالى (انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق) ونظير هذه الآية قوله تعالى يا جبال أوبي معه والطير وفيه مباحث

(البحث

منه الرؤية للقصد الى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا تختص برؤية راء دون راء أي ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال يهيمون على وجوههم لا يهتدون الى سبيل معين من السبل بل يتحيرون في فيافي الغواية والسفاهة ويتيهون في تيه المجون والوقاحة ديدنهم تمزيق الاعراض المحمية والقدح في الانساب الطاهرة السنية والنسيب بالحرم والغزل والابتهار والتردد بين طرفي الافراط والتفريط في المدح والهجاء (وانهم يقولون ما لا يفعلون) من الافاعيل غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم ذلك ويلتحق بهم وينتظم في سلكهم من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الامور المذكورة واتصف بمحاسن الصفات الجليلة وتخلق بمكارم الاخلاق الجميلة وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجملة الملكات الانسية مستقرا على المنهاج القويم مستمرا على الصراط المستقيم ناطقا بكل أمر رشيد داعيا الى صراط العزيز الحميد مؤيدا بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف المعارف الزاهرة مستقلة بنظم رائق أعجز كل منطيق ماهر وبكت كل مفلق ساحر هذا وقد قيل في تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن أن يكون من الشعراء أن أتباع الشعراء الغاوون وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك ولا ريب في أن تعليل عدم كونه عليه الصلاة والسلام منهم بكون أتباعه

(البحث الاول) وفيه وجوه (الاول) ان الله سبحانه خلق فى جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ومنطقا وحينئذ صار الجبل مسبحا لله تعالى ونظيره قوله تعالى فلما تجلى ربه للجبل فان معناه انه تعالى خلق فى الجبل عقلا وفهما ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا (الثانى فى التأويل) مارواه القفال فى تفسيره انه يجوز أن يقال ان داود عليه السلام قد أوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له فى الجبال دوى حسن وما يصغى الطير اليه لحسنه فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه واصغاؤها اليه تسبيحا وذكر محمد بن اسحق ان الله تعالى لم يعط أحدا من خلقه مثل صوت داود حتى انه كان اذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يأخذ بأعناقها (الثالث) ان الله سبحانه سخر الجبال حتى انها كانت تسير الى حيث يريده داود وجعل ذلك السير تسبيحا لانه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف يسبحن فى معنى مسبحات فان قالوا هل من فرق بين يسبحن ومسبحات قلنا نعم فان صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد وصيغة الاسم على الدوام على ما بينه عبد القاهر النحوى فى كتاب دلائل الاعجاز اذا ثبت هذا فنقول قوله يسبحن يدل على حدوث التسبيح من الجبال شيأ بعد شئ وحالا بعد حال وكان السامع محاضر تلك الجبال يسمعها تسبح (البحث الثالث) قال الزجاج يقال شرقت الشمس اذا طلعت وأشرقت اذا أضاءت وقيل هما بمعنى والاول أكثر تقول العرب شرقت الشمس والماء يشرق (البحث الرابع) احتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية عن أم هانئ قالت دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال يا أم هانئ هذه صلاة الاشراق وعن طاوس عن ابن عباس قال هل تجدون ذكر صلاة الضحى فى القرآن قالوا لا فقرأ انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق وقال كان يصليها داود عليه السلام وقال لم يزل فى نفسى شئ من صلاة الضحى حتى وجدتها فى قوله يسبحن بالعشى والاشراق (الصفة السادسة) من صفات داود عليه السلام قوله تعالى (والطير محشورة كل له أواب) وفيه مباحث (البحث الاول) قوله والطير معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطير محشورة قال ابن عباس رضى الله عنهما كان داود اذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت اليه الطير فسبحت معه واجتماعها اليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله فان قيل كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع انه لا عقل لها قلنا لا يبعد أن يقال ان الله تعالى كان يخلق لها عقلا حتى تعرف الله فتسبحه حينئذ وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف قوله محشورة فى مقابلة يسبحن الا انه ليس فى الحشر مثل ما كان فى التسبيح من ارادة الدلالة على الحدوث شيأ بعد شئ فلا جرم جئ به اسما لا فعلا وذلك انه لو قيل وسخرنا الطير محشورة يسبحن على تقدير ان الحشر وجد من حاشرها جملة واحدة دل على القدر المذكور والله أعلم (البحث الثالث) قرئ والطير محشورة بالرفع (الصفة السابعة) من صفات داود عليه السلام قوله تعالى كل له أواب ومعناه كل واحد من الجبال والطير أواب أى رجاع أى كلما رجع داود الى التسبيح جاوبته فهذه الاشياء أيضا كانت ترجع الى تسبيحاتها والفرق بين هذه الصفة وبين ماقبلها أن فيما سبق علمنا ان الجبال والطير سبحت مع تسبيح داود عليه السلام وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير فى قوله كل له أواب لله تعالى أى كل من داود والجبال والطير لله أواب أى مسبح مرجع للتسبيح (الصفة الثامنة) قوله تعالى (وشددنا ملكه) أى قويناه وقال تعالى سنشد عضدك بأخيك وقيل شددناه على المبالغة وأما الاسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة وهى اما الاسباب الدنيوية أو الدينية أما الاول فذكروا فيه وجهين (الاول) روى الواحدى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما انه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل فاذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضى عنكم نبى الله وزاد آخرون فذكروا أربعين ألفا قالوا وكان أشد ملوك الارض سلطانا وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا ادعى عند داود على رجل أخذ منه بقرة فأنكر المدعى عليه فقال داود للمدعى أقم البينة فلم يقمها فرأى داود فى منامه ان الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فتثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحى بعد ذلك بان يقتله فاحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله فقال المدعى عليه صدق الله انى كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود فهذه الواقعة شددت ملكه وأما الاسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهى

عليه الصلاة والسلام غير غاوين عما لا يليق بشأنه العالى وقيل الغاوون الراوون وقيل الشياطين وقيل هم شعراء قريش عبد الله ابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب المخزومى ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحى ومن ثقيف أمية ابن أبى الصلت قالوا نحن نقول مثل قول محمد صلى الله عليه وسلم وقرئ والشعراء بالنصب على اضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ يتبعهم على التخفيف ويتبعهم بسكون العين تشبيها لبعه بعضد (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا) استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عز وجل ويكون أكثر أشعارهم فى التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته والحكمة والموعظة والزهد فى الدنيا والترغيب عن الركون اليها والزجر عن الاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها الفانية ولو وقع منهم فى بعض الاوقات هجو وقع ذلك منهم بطريق الانتصار ممن هجاهم وقيل المراد بالمستثنين عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب ابن مالك وكعب بن زهير بن أبى سلمى والذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاة قريش وعن كعب ابن مالك رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فوالذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من النبل وكان يقول لحسان قل وروح القدس معك (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) تهديد شديد ووعيد أكيد لما فى سيعلم من تهويل متعلقه وفى الذين ظلموا من الاطلاق والتعميم وفى أى منقلب

الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل (الصفة التاسعة) قوله ﴿وآتيناه الحكمة﴾ واعلم انه تعالى قال ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية والفضائل النفسانية محصورة فى قسمين العلم والعمل أما العلم فهو ان تصير النفس بالتصورات الحقيقية والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية وأما العمل فهو أن يكون الانسان آتيا بالعمل الاصلح الاصوب بمصالح الدنيا والآخرة فهذا هو الحكمة وانما سمى هذا بالحكمة لان اشتقاق الحكمة من احكام الامور وتقويتها وتبعيدها عن أسباب الرخاوة والضعف والاعتقادات الصائبة الصحيحة لاتقبل النسخ والنقض فكانت فى غاية الاحكام وأما الاعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فانها واجبة الرعاية ولاتقبل النقض والنسخ فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الاعمال بالحكمة (الصفة العاشرة) قوله ﴿وفصل الخطاب﴾ واعلم أن اجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام (أحدها) ماتكون خالية عن الادراك والشعور وهى الجمادات والنباتات (وثانيها) التى يحصل لها ادراك وشعور ولكنها لاتقدر على تعريف غيرها الاحوال التى عرفوها فى الاكثر وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الانسان (وثالثها) الذى يحصل له ادراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الاحوال المعلومة له وذلك هو الانسان وقدرته على تعريف الغير الاحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب ثم ان الناس مختلفون فى مراتب القدرة على التعبير عما فى الضمير فمنهم من يتعذر عليه ايراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه ومنهم من يكون قادرا على ضبط المعنى والتعبير عنه الى أقصى الغايات وكل من كانت هذه القدرة فى حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية فى حقه أكمل وكل من كانت تلك القدرة فى حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف ولما بين الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التى لداود بقوله وآتيناه الحكمة أردفه ببيان كمال حاله فى النطق واللفظ والعبارة فقال وفصل الخطاب وهذا الترتيب فى غاية الجلالة ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال فى كلامه أما بعد وأقول حقا ان الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معانى كلام الله تعالى حرمانا عظيما والله أعلم وقول من قال المراد معرفة الامور التى بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد أيضا لان فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل مايخطر بالبال ويحضر فى الخيال بحيث لايختلط شئ بشئ وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام وهذا معنى عام يتناول جميع الاقسام والله أعلم وههنا آخر الكلام فى الصفات العشرة التى ذكرها الله تعالى فى مدح داود عليه السلام ۞ قوله تعالى ﴿وهل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ اعلم ان الله تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الاحوال الواقعة فى هذه القصة لايبين شئ منها كونه عليه السلام مستحقا للثناء والمدح والتعظيم أما قوله تعالى وهل أتاك نبأ الخصم فهو نظير قوله تعالى هل أتاك حديث موسى وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ليكون داعيا الى الاصغاء لها والاعتبار بها وأقول للناس فى هذه القصة ثلاثة أقوال (أحدها) ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه (وثانيها) دلالتها على الصغيرة (وثالثها) بحيث لاتدل على الكبيرة ولا على الصغيرة فأما القول الاول فحاصل كلامهم فيها ان داود عشق امرأة أوريا فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله اليه ملكين فى صورة المتخاصمين فى واقعة شبيهة بواقعته وعرضا تلك الواقعة عليه فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة والذى أدين به وأذهب اليه ان ذلك باطل ويدل عليه وجوه (الاول) ان هذه الحكاية لو نسبت الى أفسق الناس وأشدهم فجورا لاستنكف منها

والرجل

يتقلبون من الابهام والتهويل وقد قاله أبو بكر لعمر رضى الله عنهما حين عهد اليه وقرئ أى منفلت ينفلتون من الانفلات بمعنى النجاة والمعنى ان الظالمين يطمعون ان ينفلتوا من عذاب الله تعالى وسيعلمون ان ليس لهم وجه من وجوه الانفلات عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الشعراء كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وابراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام

﴿سورة النمل مكية وهى ثلاث أو أربع وتسعون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(طس) بالتفخيم وقرئ بالامالة والكلام فيه كالذى مر فى نظائره من الفواتح الشريفة ومحله على تقدير كونه اسما للسورة وهو الاظهر الاشهر الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هذا طس أى مسمى به والاشارة اليه قبل ذكره قدمر وجهها فى فاتحة سورة يونس وغيرها ورفعه بالابتداء على أن ما بعده خبره ضعيف لما ذكر هنالك (تلك) اشارة الى نفس السورة لانها التى نوهت بذكر اسمها لا الى آياتها لعدم ذكرها صريحا ولان اضافتها اليها تأبى اضافتها الى القرآن كما سيأتى ومافى اسم الاشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره (آيات القرآن) والجملة مستأنفة مقررة لما أفاده التسمية من نباهة شأن المسمى والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل عند نزول

والرجل الحشوى الخبيث الذى يقرر تلك القصة لو نسب الى مثل هذا العمل لبالغ فى تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه اليها واذا كان الامر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم اليه (الثانى) ان حاصل القصة يرجع الى أمرين الى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق والى الطمع فى زوجته (أما الاول) فامر منكر قال صلى الله عليه وسلم من سعى فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله (وأما الثانى) فمنكر عظيم قال صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده وان أوريا لم يسلم من داود لا فى روحه ولا فى منكوحه (والثالث) ان الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة ووصفه أيضا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة وكل هذه الصفات تنافى كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح ولا بأس باعادة هذه الصفات لاجل المبالغة فى البيان فنقول (أما الصفة الاولى) فهى انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقتدى بداود فى المصابرة مع المكابدة ولو قلنا ان داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى فى اراقة دم امرئ مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدا أفضل الرسل بان يقتدى بداود فى الصبر على طاعة الله (وأما الصفة الثانية) فهى أنه وصفه بكونه عبداله وقد بينا ان المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا فى موقف العبودية تاما فى القيام باداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات ولو قلنا ان داود عليه السلام اشتغل بتلك الاعمال الباطلة فحينئذ ما كان داود كاملا فى عبوديته لله تعالى بل كان كاملا فى طاعة الهوى والشهوة (الصفة الثالثة) هو قوله ذا الايد أى ذا القوة ولا شك أن المراد منه القوة فى الدين لان القوة فى غير الدين كانت موجودة فى ملوك الكفار ولا معنى للقوة فى الدين الا القوة الكاملة على أداء الواجبات والاجتناب عن المحظورات وأى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم (الصفة الرابعة) كونه أوابا كثير الرجوع الى الله تعالى وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفا بالقتل والفجور (الصفة الخامسة) قوله تعالى انا سخرنا الجبال معه أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذه وسيلة الى القتل والفجور (الصفة السادسة) قوله والطير محشورة وقيل انه كان محرما عليه صيد شئ من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمنا منه ولا ينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه (الصفة السابعة) قوله تعالى وشددنا ملكه ومحال أن يكون المراد انه تعالى شد ملكه بأسباب الدنيا بل المراد انه تعالى شد ملكه بما يقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة والمراد تشديد ملكه فى الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك (الصفة الثامنة) قوله تعالى وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغى علما وعملا فكيف يجوز أن يقول الله تعالى انا آتيناه الحكمة وفصل الخطاب مع اصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة اخلص أصحابه فى الروح والمنكوح فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الاكاذيب * وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهى عشرة (الاول) قوله وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وذكر هذا الكلام انما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته فى طاعة الله أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه فى القتل والفجور لم يكن قوله وان له عندنا لزلفى لائقا به (الثانى) قوله تعالى ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه (أحدها) ان الملك الكبير اذا حكى عن بعض عبيده انه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح تلك القصة على ملا من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه أيها العبد انى فوضت اليك خلافتى ونيابتى وذلك لان ذكر تلك القبائح والافعال المنكرة يناسب الزجر والحجر فاما جعله نائبا وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق (وثانيها) انه ثبت فى أصول الفقه ان ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ثم قال بعده انا جعلناك خليفة فى الارض أشعر هذا بان الموجب لتفويض هذه الخلافة هو اتيانه بتلك الافعال المنكرة ومعلوم ان هذا فاسد أما لو ذكر تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصى والذنوب وعلى شدة مصابرته على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب أن يذكر عقيبه انا جعلناك خليفة فى الارض فثبت ان هذا الذى نختاره أولى (والثالث)

السورة حسبما ذكر فى فاتحة فاتحة الكتاب أى تلك السورة آيات القرآن المعروف بعلو الشأن أى بعض منه مترجم مستقل باسم خاص (وكتاب) أى كتاب عظيم الشأن (مبين) مظهر لما فى تضاعيفه من الحكم والاحكام وأحوال الآخرة التى من جملتها الثواب والعقاب أو لسبيل الرشد والغى أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام أو ظاهر الاعجاز على أنه من أبان بمعنى بان ولقد فخم شأنه الجليل بما جمع فيه من وصف القرآنية المنبئة عن كونه بديعا فى بابه ممتازا عن غيره بالنظم المعجز كما يعرب عنه قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذى عوج ووصف الكتابية المعربة عن اشتماله على صفات كمال الكتب الالهية فكأنه كلها وقدم الوصف الاول ههنا نظرا الى تقدم حال القرآنية على حال الكتابية وعكس فى سورة الحجر نظرا الى ما ذكر هنالك من الوجه وما قيل من أن الكتاب هو اللوح المحفوظ وابانته أنه خط فيه ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه لا يساعده اضافة الآيات اليه اذ لا عهد باشتماله على الآيات ولا وصفه بالهداية والبشارة اذ هما باعتبار ابانته فلا بد من اعتبارها بالنسبة الى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا الى الناظرين فيه وقرئ وكتاب بالرفع على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه أى وآيات كتاب مبين (هدى وبشرى للمؤمنين) فى حيز النصب على الحالية من الآيات على أنهما مصدران أقيما مقام الفاعل للمبالغة كأنهما نفس الهدى والبشارة والعامل معنى الاشارة

وهو انه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضا دالة على ذلك فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعايب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة عالى المرتبة فى طاعة الله يقتل ويزنى ويسرق وقد جعله خليفة فى أرضه وصوب أحكامه وكما ان هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا ومن المعلوم ان ذكر العشق والسعى فى القتل من أعظم أبواب العيوب (والرابع) وهو ان القائلين بهذا القول ذكروا فى هذه الرواية ان داود عليه السلام تمنى أن يحصل له فى الدين كما حصل للأنبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الالقاء فى النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله اليه انهم انما وجدوا تلك الدرجات لانهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء فأوحى الله اليه انك ستبتلى فى يوم كذا فبالغ فى الاحتراز ثم وقعت الواقعة فنقول أول حكايتهم يدل على ان الله تعالى يبتليه بالبلاء الذى يزيد فى منقبته ويكمل مراتب اخلاصه فالسعى فى قتل النفس بغير الحق والافراط فى العشق كيف يليق بهذه الحالة فثبت ان الحكاية التى ذكروها يناقض أولها آخرها (الخامس) ان داود عليه السلام قال وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا استثنى الذين آمنوا عن البغى فلو قلنا انه كان موصوفا بالبغى لزم أن يقال انه حكم بعدم الايمان على نفسه وذلك باطل (السادس) حضرت فى بعض المجالس وحضر فيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك فقلت له لا شك ان داود عليه السلام كان من أكابر الانبياء والرسل ولقد قال الله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجز لنا أن نبالغ فى الطعن فيه وأيضا فبتقدير انه ما كان نبيا فلا شك انه كان مسلما ولقد قال صلى الله عليه وسلم لا تذكروا موتاكم الا بخير ثم على تقدير انا لا نلتفت الى شئ من هذه الدلائل الا انا نقول ان من المعلوم بالضرورة ان بتقدير أن تكون القصة التى ذكرتموها حقة صحيحة فان روايتها وذكرها لا يوجب شيأ من الثواب لان اشاعة الفاحشة ان لم توجب العقاب فلا أقل من أن لا توجب الثواب وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة فان ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التى هذا شأنها وصفتها فان صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ما ذهبنا اليه وان شرح تلك القصة محرم محظور فلما سمع ذلك الملك هذا الكلام سكت ولم يذكر شيأ (السابع) ان ذكر هذه القصة وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضى اشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرما لقوله تعالى ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا (الثامن) لو سعى داود فى قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله من سعى فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله وأيضا لو فعل ذلك لكان ظالما فكان يدخل تحت قوله ألا لعنة الله على الظالمين (التاسع) عن سعيد بن المسيب أن على بن أبى طالب عليه السلام قال من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الانبياء ومما يقوى هذا انهم لما قالوا ان المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك واما الرابع فانه لم يقل بأنى رأيت ذلك العمل بعينى فان عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لاجل انهم قذفوا واذا كان الحال فى واحد من آحاد الصحابة كذلك فكيف الحال مع داود عليه السلام مع انه من أكابر الانبياء عليهم السلام (العاشر) روى أن بعضهم ذكر هذه القصة على ما فى كتاب الله تعالى فقال لا ينبغى أن يزاد عليها وان كانت الواقعة على ما ذكرت ثم انه تعالى لم يذكرها لاجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام فلا يجوز للعاقل أن يسعى فى هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أو أقل أو أكثر فقال عمر سماعى هذا الكلام أحب الى مما طلعت عليه الشمس فثبت بهذه الوجوه التى ذكرناها ان القصة التى ذكروها فاسدة باطلة فان قال قائل ان كثيرا من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة فكيف الحال فيها فالجواب الحقيقى انه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة وبين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع الى الدلائل القاطعة أولى وأيضا فالاصل براءة الذمة وأيضا فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى وأيضا طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا وأيضا فنحن نعلم بالضرورة ان بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله

أى هادية ومبشرة أو الرفع على أنهما بدلان من الآيات أو خبران آخران لتلك أو لمبتدا محذوف ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنها تزيدهم هدى قال تعالى فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما معنى تبشيرها اياهم فظاهر لانها تبشرهم برحمة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) صفة مادحة لهم وتخصيصهما بالذكر لانهما قرينتا الايمان وقطرا العبادات البدنية والمالية مستتبعان لسائر الاعمال الصالحة وقوله تعالى (وهم بالآخرة هم يوقنون) جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة حق الايقان لا من عداهم لان تحمل مشاق العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب أو هو من تتمة الصلة والواو حالية أو عاطفة له على الصلة الاولى وتغيير نظمه للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم أوحديون فيه (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة) بيان لاحوال الكفرة بعد بيان أحوال المؤمنين أى لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الاعمال الصالحة والعقاب على السيآت حسبما ينطق به القرآن (زينا لهم أعمالهم) القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام حفت النار بالشهوات أو الاعمال الحسنة ببيان حسنها فى أنفسها حالا واستتباعها لفنون المنافع مآلا واضافتها اليهم باعتبار أمرهم بها وايجابها عليهم (فهم يعمهون) يتحيرون ويترددون على التجدد والاستمرار فى الاشتغال بها

لنا يوم القيامة لم تسعوا فى تشهير هذه الواقعة وأما بتقدير كونها باطلة فان علينا فى ذكرها أعظم العقاب وأيضا فقال عليه السلام اذا علمت مثل الشمس فاشهد وههنا لم يحصل العلم ولا الظن فى صحة هذه الحكاية بل الدلائل القاهرة التى ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها وأيضا كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الاكثرون المحققون والمحققون منهم يردونه ويحكمون عليه بالكذب والفساد وأيضا اذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت وبقى الرجوع الى الدلائل التى ذكرناها فهذا تمام الكلام فى هذه القصة (أما الاحتمال الثانى) وهو أن تحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة فنقول فى كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه (الاول) ان هذه المرأة خطبها أوريا فاجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها فكان ذنبه ان خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (الثانى) قالوا انه وقع بصره عليها فمال قلبه اليها وليس له فى هذا ذنب البتة أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضا ذنبا لان هذا الميل ليس فى وسعه فلا يكون مكلفا به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذيا عظيما بسبب قتله لاجل انه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو انه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل (والثالث) انه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم فى هذا المعنى مألوفة معروفة روينا ان الانصار كانوا يواسون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق ان عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهى أم سليمان فقيل له هذا وان كان جائزا فى ظاهر الشريعة الا انه لا يليق بك فان حسنات الابرار سيآت المقربين فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم فى حق داود عليه السلام الا ترك الافضل والاولى (وأما الاحتمال الثالث) وهو أن هذه القصة على وجه لا يلزم الحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام بل يوجب الحاق أعظم أنواع المدح والثناء به وهو أن نقول روى أن جماعة من الاعداء طمعوا فى أن يقتلوا نبى الله داود عليه السلام وكان له يوم يخلو فيه بنفسه ويشتغل بطاعة ربه فانتهزوا الفرصة فى ذلك اليوم وتسوروا المحراب فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواما يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذبا فقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض الى آخر القصة وليس فى لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به فى الحاق الذنب بداود الا ألفاظ أربعة (أحدها) قوله وظن داود انما فتناه (وثانيها) قوله تعالى فاستغفر ربه (وثالثها) قوله وأناب (ورابعها) قوله فغفرنا له ذلك ثم نقول وهذه الالفاظ لا يدل شئ منها على ما ذكروه وتقريره من وجوه (الاول) انهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب الى أن يشتغل بالانتقام منهم الا انه مال الى الصفح والتجاوز عنهم طلبا لمرضاة الله قال وكانت هذه الواقعة هى الفتنة لانها جارية مجرى الابتلاء والامتحان ثم انه استغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم (والثانى) أنه وان غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه الا انه ندم على ذلك الظن وقال لما لم تقم دلالة ولا امارة على أن الامر كذلك فبئسما عملت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الردى فكان هذا هو المراد من قوله وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب منه فغفر الله له ذلك (الثالث) أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام الا انه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله كما قال فى حق محمد صلى الله عليه وسلم واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب أى رجع الى الله تعالى فى طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل وقوله فغفرنا له ذلك أى غفرنا له ذلك الذنب لاجل احترام داود ولتعظيمه كما قال بعض المفسرين فى قوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ان معناه ان الله تعالى يغفر لك ولاجلك ما تقدم من ذنب أمتك (الرابع) هب انه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه لكن لا نسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة فلم لا يجوز أن يقال ان تلك الزلة انما حصلت لانه قضى لاحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثانى فانه لما قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه فحكم عليه بكونه ظالما بمجرد دعوى الخصم بغير بينة لكون هذا الحكم مخالفا للصواب فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة الا أن هذا من باب ترك الافضل والاولى فثبت بهذه البيانات انا اذا حملنا هذه الآيات

والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر أو فى الضلال والاعراض عنها والفاء على الاول لترتيب المسبب على السبب وعلى الثانى لترتيب ضد المسبب على السبب كما فى قولك وعظته فلم يتعظ وفيه ايذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتعكيسهم فى الامور (أولئك) اشارة الى المذكورين وهو مبتدأ خبره الموصول بعده أى أولئك الموصوفون بالكفر والعمه (الذين لهم سوء العذاب) أى فى الدنيا كالقتل والاسر يوم بدر (وهم فى الآخرة هم الاخسرون) أى أشد الناس خسرانا لفوات الثواب واستحقاق العقاب (وانك لتلقى القرآن) كلام مستأنف قد سيق بعد بيان بعض شؤن القرآن الكريم تمهيدا لما يعقبه من الاقاصيص وتصديره بحرفى التأكيد لابراز كمال العناية بمضمونه أى لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين (من لدن حكيم عليم) أى أى حكيم وأى عليم وفى تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن وتنصيص على علو طبقته عليه الصلاة والسلام فى معرفته والاحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق فان من تلقى العلوم والحكم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون علما فى رصانة العلم والحكمة والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل وللاشعار بان ما فى القرآن من العلوم منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والاخبار الغيبية وقوله تعالى (اذ قال موسى لاهله) منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بتلاوة بعض

على هذا الوجه فانه لا يلزم اسناد شئ من الذنوب الى داود عليه السلام بل ذلك يوجب اسناد أعظم الطاعات اليه ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه (الاول) ان الاصل فى حال المسلم البعد عن المناهى لاسيما وهو رجل من أكابر الانبياء والرسل (والثانى) انه أحوط (والثالث) أنه تعالى قال فى أول الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود فان قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا انه ساحر كذاب واستهزؤا به حيث قالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب فقال تعالى فى أول الآية اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود فهذا الذكر انما يحسن اذا كان داود عليه السلام قد صبر على ايذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب وهذا المعنى انما يحصل اذا حملنا الآية على ماذكرناه أما اذا حملناها على ماذكروه صار الكلام متناقضا فاسدا (والرابع) ان تلك الرواية انما تمشى اذا قلنا الخصمان كانا ملكين ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة وما بغى أحدهما على الآخر كان قولهما خصمان بغى بعضنا على بعض كذبا فهذه الرواية لا تتم الا بشيئين (أحدهما) اسناد الكذب الى الملائكة (والثانى) أن يتوسل باسناد الكذب الى الملائكة الى اسناد أفحش القبائح الى رجل كبير من أكابر الانبياء فاما اذا حملنا الآية على ماذكرنا استغنينا عن اسناد الكذب الى الملائكة وعن اسناد القبيح الى الانبياء فكان قولنا أولى فهذا ما عندنا فى هذا الباب والله أعلم باسرار كلامه ونرجع الآن الى تفسير الآيات أما قوله وهل أتاك نبأ الخصم قال الواحدى الخصم مصدر خصمته أخصمه خصما ثم يسمى به الاثنان والجمع ولا يثنى ولا يجمع يقال هما خصم وهم خصم كما يقال هما عدل وهم عدل والمعنى ذوا خصم وذوو خصم وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام وقوله تعالى اذ تسوروا المحراب يقال تسورت السور تسورا اذا علوته ومعنى تسوروا المحراب أى أتوه من سوره وهو أعلاه يقال تسور فلان الدار اذا أتاها من قبل سورها وأما المحراب فالمراد منه البيت الذى كان داود يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه وسمى ذلك البيت بالمحراب لاشتماله على المحراب كما يسمى الشئ باشرف أجزائه وههنا مسئلة من علم أصول الفقه وهى أن أقل الجمع اثنان عند بعض الناس وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية لانه تعالى ذكر صيغة الجمع فى هذه الآيات فى أربعة مواضع (أحدها) قوله تعالى اذ تسوروا المحراب (وثانيها) قوله اذ دخلوا (وثالثها) قوله منهم (ورابعها) قوله قالوا لا تخف فهذه الالفاظ الاربعة كلها صيغ الجمع وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا خصمان قالوا فهذه الآية تدل على ان أقل الجمع اثنان (والجواب) لا يمتنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعا كثيرين لانا بينا ان الخصم اذا جعل اسما فانه لا يثنى ولا يجمع ثم قال تعالى اذ دخلوا على داود والفائدة فيه انهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه فلما قال اذ دخلوا عليه دل على انهم بعد التسور دخلوا عليه قال الفراء وقد يجاء باذ مرتين ويكون معناهما كالواحد كقولك ضربتك اذ دخلت على اذ اجترأت مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحدا ثم قال تعالى ففزع منهم والسبب أن داود عليه السلام لما رآهما قد دخلوا عليه لا من الطريق المعتاد علم أنهم انما دخلوا عليه للشر فلا جرم فزع منهم ثم قال تعالى قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) خصمان خبر مبتدإ محذوف أى نحن خصمان (المسئلة الثانية) ههنا قولان (الاول) انهما كانا ملكين نزلا من السماء وأرادا تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذى أقدم عليه (والثانى) انهما كانا انسانين دخلا عليه للشر والقتل فظنا انهما يجدانه خاليا فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر وأما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بانهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين فى قولهما خصمان فانه ليس بين الملائكة خصومة ولكانا كاذبين فى قولهما بغى بعضنا على بعض ولكانا كاذبين فى قولهما ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة فثبت انهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى لا يسبقونه بالقول ولقوله ويفعلون ما يؤمرون أجاب الذاهبون الى القول الاول عن هذا الكلام بأن قالوا ان الملكين انما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب وأجيب عن هذا الجواب بأن ماذكرتم يقتضى العدول عن ظاهر اللفظ ومعلوم انه على خلاف الاصل أما اذا حملنا

الكلام

من القرآن الذى يلقاه عليه الصلاة والسلام من لدنه عز وجل تقرير لما قبله وتحقيق له أى اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لاهله فى وادى طوى وقد غشيتهم ظلمة الليل وقدح فاصلد زنده فبدا له من جانب الطور نار (انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر) أى عن حال الطريق وقد كانوا ضلوه والسين للدلالة على نوع بعد فى المسافة وتأكيد الوعد والجمع ان صح أنه لم يكن معه عليه الصلاة والسلام الا امرأته لما كنى عنها بالاهل أو للتعظيم مبالغة فى التسلية (أو آتيكم بشهاب قبس) بتنوينهما على أن الثانى بدل من الاول أو صفة له لانه بمعنى مقبوس أى بشعلة نار مقبوسة أى مأخوذة من أصلها وقرئ بالاضافة وعلى التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذى هو القبس الجامع لمنفعتى الضياء والاصطلاء لان من النار ماليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه عليه الصلاة والسلام بطريق الظن كما يفصح عن ذلك ما فى سورة طه من صيغة الترجى والترديد للايذان بأنه ان لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الامر وثقة بسنة الله تعالى فانه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين (لعلكم تصطلون) رجاء أن تستدفئوا بها والصلاء النار العظيمة (فلما جاءها نودى) من جانب الطور (أن بورك) معناه أى بورك على أن أن مفسرة لما فى النداء من معنى القول أو بأن بورك على أنها مصدرية حذف عنها الجار جريا على القاعدة المستمرة وقيل مخففة من الثقيلة ولا ضير فى فقدان التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لما أن الدعاء يخالف غيره فى كثير من الاحكام (من فى النار ومن

الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعا هذا الحديث الباطل فحينئذ لزم اسناد الكذب الى شخصين فاسقين فكان هذا أولى من القول الاول والله أعلم وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه (الاول) اتفاق أكثر المفسرين عليه (والثانى) انه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية فى حال تعبده فيجب أن يكون ذلك من الملائكة (الثالث) أن قوله تعالى قالوا لا تخف كالدلالة على كونهما ملكين لان من هو من رعيته لا يكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته (الرابع) ان قولهما ولا تشطط كالدلالة على كونهما ملكين لان أحدا من رعيته لا يتجاسر أن يقول له لا تظلم ولا تتجاوز عن الحق واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر ولا حاجة الى الجواب والله أعلم (المسئلة الثالثة) بغى بعضنا على بعض أى تعدى وخرج عن الحد يقال بغى الجرح اذا أفرط وجعه وانتهى الى الغاية ويقال بغت المرأة اذا زنت لان الزنا كبيرة منكرة قال تعالى ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ثم قال فاحكم بيننا بالحق معنى الحكم احكام الامر فى امضاء تكليف الله عليهما فى الواقعة ومنه حكمة الدابة لانها تمنع من الجماح ومنه بناء محكم اذا كان قويا وقوله بالحق أى بالحكم الحق وهو الذى حكم الله به ولا تشطط يقال شط الرجل اذا بعد ومنه قوله شطت الدار اذا بعدت قال تعالى لقد قلنا اذا شططا أى قولا بعيدا عن الحق فقوله ولا تشطط أى لا تبعد فى هذا الحكم عن الحق ثم قال واهدنا الى سواء الصراط وسواء الصراط هو وسطه قال تعالى فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ووسط الشئ أفضله وأعدله قال تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا وأقول انهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث عبارات (أولها) قولهم فاحكم بالحق (وثانيها) قولهم ولا تشطط وهى نهى عن الباطل (وثالثها) قولهم واهدنا الى سواء الصراط يعنى يجب أن يكون سعيك فى ايجاد هذا الحق وفى الاحتراز عن هذا الباطل أن تردنا من الطريق الباطل الى الطريق الحق وهذا مبالغة تامة فى تقرير المطلوب واعلم أنهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الاجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل فقال ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أخى بدل من هذا أو خبر لقوله ان والمراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والالفة أو أخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى وان كثيرا من الخلطاء وكل واحدة من هذه الاخوات توجب الامتناع من الظلم والاعتداء (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات نحو نطع ونطع ولقوة ولقوة وهى الانثى من العقبان (المسئلة الثالثة) قال الليث النعجة الانثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية والجمع النعجات والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة (المسئلة الرابعة) قرأ عبد الله تسع وتسعون نعجة أنثى وهذا يكون لاجل التأكيد كقوله تعالى وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد ثم قال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال صاحب الكشاف أكفلنيها حقيقته اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى وعزنى غلبنى يقال عزه يعزه والمعنى جاءنى بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ما أرده به وقرئ وعازنى من المعازة وهى المغالبة واعلم ان الذين قالوا ان هذين الخصمين كانا من الملائكة زعموا ان المقصود من ذكر النعاج التمثيل لان داود كان تحته تسع وتسعون امرأة ولم يكن لاوريا الا امرأة واحدة فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل ثم قال تعالى قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه أى سؤال اضافة نعجتك الى نعاجه وروى انه قال له ان رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا وأشار الى الانف والجبهة فقال يا داود أنت أحق ان تضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت ثم نظر داود فلم ير أحدا فعرف الحال فان قيل كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه قلنا ذكروا فيه وجوها (الاول) قال محمد بن اسحق لما فرغ الخصم الاول من كلامه نظر داود الى الخصم الذى لم يتكلم وقال لئن صدق لقد ظلمته والحاصل ان هذا الحكم كان مشروطا بشرط كونه صادقا فى دعواه (والثانى) قال ابن الانبارى لما ادعى أحد الخصمين اعترف الثانى فحكم داود عليه السلام ولم يذكر الله تعالى ذكر الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه كما تقول أمرتك بالتجارة فكسبت تريد فاتجرت فكسبت وقال تعالى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فضرب فانفلق (والثالث) أن يكون التقدير أن الخصم الذى هذا شأنه يقول قد ظلمك ثم قال وان كثيرا من الخلطاء

حولها) أى من فى مكان النار وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله سبحانه نودى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة ومن حول مكانها وقرئ تباركت الارض ومن حولها والظاهر عمومه لكل من فى ذلك الوادى وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الانبياء عليهم الصلاة والسلام وكفاتهم أحياء وأمواتا ولا سيما تلك البقعة التى كلم الله تعالى فيها موسى وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم دينى تنتشر بركاته فى أقطار الشام وهو تكليمه تعالى اياه عليه الصلاة والسلام واستنباؤه له واظهار المعجزات على يديه عليه الصلاة والسلام (وسبحان الله رب العالمين) تعجيب لموسى عليه الصلاة والسلام من ذلك وايذان بأن ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على أن الكائن من جلائل الامور وعظائم الشؤن ومن أحكام تربيته تعالى للعالمين (يا موسى انه أنا الله) استئناف مسوق لبيان آثار البركة المذكورة والضمير اما للشأن وأنا الله جملة مفسرة له واما راجع الى المتكلم وأنا خبره والله بيان له وقوله تعالى (العزيز الحكيم) صفتان لله تعالى ممهدتان لما أريد اظهاره على يده من المعجزات أى أنا القوى القادر على ما لا تناله الاوهام من الامور العظام التى من جملتها أمر العصا واليد الفاعل كل ما أفعله بحكمة بالغة وتدبير رصين (وألق) عطف على بورك منتظم معه فى سلك تفسير النداء أى نودى أن بورك وأن ألق (عصاك) حسبما نطق به قوله تعالى وأن ألق عصاك بتكرير حرف التفسير كما تقول

ليبغي بعضهم على بعض قال الليث خليط الرجل مخالطه وقال الزجاج الخلطاء الشركاء فان قيل لم خص داود الخلطاء ببغي بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء قد يفعلون ذلك والجواب لاشك أن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة وذلك لانهما اذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل ما يملكه من الاشياء النفيسة اذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه فيفضي ذلك الى زيادة المخاصمة والمنازعة فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغي والعدوان ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لان مخالطة هؤلاء لا تكون الا لاجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية فلا جرم مخالطتهم لاتوجب المنازعة وأما الذين تكون مخالطتهم لاجل حب الدنيا لابد وان تصير مخالطتهم سببا لمزيد البغي والعدوان واعلم أن هذا الاستثناء يدل على ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يبغي بعضهم على بعض فلو كان داود عليه السلام قد بغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لا يكون هو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ومعلوم ان ذلك باطل فثبت ان قول من يقول المراد من واقعة النعجة قصة داود قول باطل ثم قال تعالى وقليل ماهم واعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير في القرآن قال تعالى وقليل من عبادي الشكور وقال داود عليه السلام في هذا الموضع وقليل ماهم وحكى تعالى عن ابليس انه قال ولا تجد أكثرهم شاكرين وسبب القلة ان الدواعي الى الدنيا كثيرة وهي الحواس الباطنة والظاهرة وهي عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع تسعة عشر واقفون على باب جهنم البدن وكلها تدعو الى الخلق والدنيا واللذة الحسية وأما الداعي الى الحق والدين فليس الا العقل واستيلاء القوة الحسية والطبيعية على الخلق أكثر من القوة العقلية فيهم فلهذا السبب وقعت القلة في جانب أهل الخير والكثرة في جانب أهل الشر قال صاحب الكشاف ومافي قوله وقليل ماهم للابهام وفيه تعجب من قلتهم قال واذا أردت ان تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس * وحديث ما على قصره * وانظر هل بقي له معنى قط ثم قال تعالى وظن داود انما فتناه قالوا معناه وعلم داود انما فتناه أي امتحناه قالوا والسبب الذي أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا ان داود عليه السلام لما قضى بينهما نظر أحدهما الى صاحبه فضحك ثم صعدا الى السماء قبل وجهه فعلم داود ان الله ابتلاه بذلك فثبت ان داود علم ذلك وانما جاز حمل لفظ الظن على العلم لان العلم الاستدلالي يشبه الظن مشابهة عظيمة والمشابهة علة لجواز المجاز وأقول هذا الكلام انما يلزم اذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما اذا لم نقل ذلك لا يلزمنا حمل الظن على العلم بل للقائل أن يقول انه لما غلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والانابة أما قوله فاستغفر ربه أي سأل الغفران من ربه ثم ههنا وجهان ان قلنا بأنه قد صدرت زلة منه حملنا هذا الاستغفار عليها وان لم نقل به قلنا فيه وجوه (الاول) ان القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله وانه كان سلطانا شديد القهر عظيم القوة ثم انه مع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول الفزع في قلبه عفا عنهم ولم يقل لهم شيأ قرب الامر من أن يدخل في قلبه شئ من العجب فاستغفر ربه عن تلك الحالة وأناب الى الله واعترف بأن اقدامه على ذلك الخير ما كان الا بتوفيق الله فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر (الثاني) لعله هم بايذاء القوم ثم قال انه لم يدل دليل قاطع على ان هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ثم استغفر عن ذلك الهم (الثالث) لعل القوم تابوا الى الله وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم لاجل أن يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع الى الله فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة والقرآن مملوء من أمثال هذه الوجوه واذا كان اللفظ محتملا لما ذكرناه ولم يقم دليل قطعي ولا ظني على التزام المنكرات التي يذكرونها فما الذي يحملنا على التزامها والقول بها والذي يؤيد أن الذي ذكرناه أقرب وأقوى أن يقال ختم الله هذه القصة بقوله وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ومثل هذه الخاتمة انما تحسن في حق من صدر منه عمل كثير في الخدمة والطاعة وتحمل أنواعا من الشدائد في الموافقة والانقياد أما اذا كان المذكور الثابت هو الاقدام على الجرم والذنب فان مثل هذه الخاتمة لا تليق به قال مالك بن دينار اذا كان يوم القيامة أتى بمنبر رفيع ويوضع في الجنة ويقال ياداود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا والله أعلم بقي ههنا مباحث (فالاول) قرئ فتناه وفتناه على ان

كنت اليه أن حج وأن اعتمر وان شئت أن حج واعتمر والفاء في قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كما في قوله تعالى فلما رأينه أكبرنه بعد قوله تعالى اخرج عليهن كأنه قيل فألقاها فانقلبت حية تسعى فأبصرها فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب وقوله تعالى (كأنها جان) أي حية خفيفة سريعة الحركة جملة حالية امامن مفعول رأى مثل تهتز كما أشير اليه أو ضمير تهتز على طريقة التداخل وقرئ جأن على لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين (ولى مدبرا) من الخوف (ولم يعقب) أي لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وانما اعتراه الرعب لظنه أن ذلك لامر أريد به كما ينبئ عنه قوله تعالى (ياموسى لا تخف) أي من غيري ثقة بي أو مطلقا لقوله تعالى (اني لا يخاف لدي المرسلون) فانه يدل على نفي الخوف عنهم مطلقا لكن لا في جميع الاوقات بل حين يوحى اليهم كوقت الخطاب فانهم حينئذ مستغرقون في مطالعة شؤن الله عز وجل لا يخطر ببالهم خوف من أحد أصلا وأما في سائر الاحيان فهم أخوف الناس منه سبحانه أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه (الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم) استثناء منقطع استدرك به ما عسى يختلج في الخلد من نفي الخوف عن كلهم مع أن منهم من فرطت منه صغيرة مما يجوز صدوره عن الانبياء عليهم الصلاة والسلام فانهم وان صدر عنهم شئ من ذلك فقد فعلوا عقيبه ما يبطله ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة وقد قصد به التعريض

الالف ضمير الملكين (الثانى) المشهور ان الاستغفار انما كان بسبب قصة النعجة والنعاج وقيل أيضا انما
كان بسبب انه حكم لاحد الخصمين قبل ان سمع كلام الثانى وذلك غير جائز (الثالث) قوله خر راكعا وأناب
يدل على حصول الركوع وأما السجود فقد ثبت بالاخبار وكذلك البكاء الشديد فى مدة أربعين يوما ثبت
بالاخبار (الرابع) ان مذهب الشافعى رضى الله عنه ان هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة قال لانه توبة
نبى فلا توجب سجدة التلاوة (الخامس) استشهد أبو حنيفة رضى الله عنه بهذه الآية فى سجود التلاوة
على ان الركوع يقوم مقام السجود ۞ قوله تعالى ﴿ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس
بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم
الحساب وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم
نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار كتاب أنزلناه اليك
مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب﴾ اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام فى شرح القصة أردفها ببيان انه
تعالى فوض الى داود خلافة الارض وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور فى تلك القصة لان
من البعيد جدا أن يوصف الرجل بكونه ساعيا فى سفك دماء المسلمين راغبا فى انتزاع أزواجهم منهم ثم يذكر
عقيبه ان الله تعالى فوض خلافة الارض اليه ثم نقول فى تفسير كونه خليفة وجهان (الاول) جعلناك
تخلف من تقدمك من الانبياء فى الدعاء الى الله تعالى وفى سياسة الناس لان خليفة الرجل من يخلفه وذلك
انما يعقل فى حق من يصح عليه الغيبة وذلك على الله محال (الثانى) انا جعلناك مالكا للناس ونافذ الحكم
فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ومنه يقال خلفاء الله فى أرضه وحاصله ان خليفة الرجل يكون نافذ الحكم
فى رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة فى حق الله فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم فى تلك
الحقيقة وهو نفاذ الحكم ثم قال تعالى فاحكم بين الناس بالحق واعلم أن الانسان خلق مدنيا بالطبع لان
الانسان الواحد لا ينتظم مصالحه الا عند وجود مدينة تامة حتى ان هذا يحرث وذلك يطحن وذلك يخبز
وذلك ينسج وهذا يخيط وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولا بمهم وينتظم من أعمال الجميع مصالح
الجميع فثبت ان الانسان مدنى بالطبع وعند اجتماعهم فى الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات
ومخاصمات ولا بد من انسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ويفصل تلك الحكومات وذلك هو
السلطان الذى ينفذ حكمه على الكل فثبت انه لا ينتظم مصالح الخلق الا بسلطان قاهر سائس ثم ان ذلك
السلطان القاهر السائس ان كان حكمه على وفق هواه ولطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فانه
يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم الى تحصيل مقاصد نفسه وذلك يفضى الى تخريب العالم ووقوع
الهرج والمرج فى الخلق وذلك يفضى بالآخرة الى هلاك ذلك الملك أما اذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة
للشريعة الحقة الالهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه فهذا هو
المراد من قولهم فاحكم بين الناس بالحق يعنى لا بد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال
ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله الآية وتفسيره ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله
والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب فينتج ان متابعة الهوى توجب سوء العذاب (أما المقام
الاول) وهو ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره أن الهوى يدعو الى الاستغراق فى
اللذات الجسمانيات والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التى هى الباقيات
الصالحات لانهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر (أما المقام الثانى) وهو ان
الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب فالامر فيه ظاهر لان الانسان اذا عظم الفه بهذه الجسمانيات
ونسى بالكلية أحوال الروحانيات فاذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق ودخل ديارا ليس له بأهل تلك
الديار الف وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار فكأنه فارق المحبوب ووصل الى المكروه فكان لا محالة
فى أعظم العناء والبلاء فثبت ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله وثبت ان الضلال عن سبيل
الله يوجب العذاب وهذا بيان فى غاية الكمال ثم قال تعالى بما نسوا يوم الحساب يعنى ان السبب الاول
لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب لانه لو كان متذكرا ليوم الحساب لما أعرض عن اعداد

بما وقع من موسى عليه الصلاة والسلام من وكزه القبطى والاستغفار وتسميتها ظلما لقوله عليه الصلاة والسلام رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له (وأدخل يدك فى جيبك) لانه كان مدرعة صوف لا كم لها وقيل الجيب القميص لانه يجاب أى يقطع (تخرج بيضاء من غير سوء) أى آفة كبرص ونحوه (فى تسع آيات) فى جملتها أو معها على أن التسع هى الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم ولمن عد العصا واليد من التسع أن يعد الاخيرين واحدا ولا يعد الفلق منها لانه لم يبعث به الى فرعون أو اذهب فى تسع آيات على أنه استئناف بالارسال فيتعلق به (الى فرعون وقومه) وعلى الاولين يتعلق بنحو مبعوثا أو مرسلا (انهم كانوا قوما فاسقين) تعليل للارسال أى خارجين عن الحدود فى الكفر والعدوان (فلما جاءتهم آياتنا) وظهرت على يد موسى (مبصرة) بينة اسم فاعل أطلق على المفعول اشعارا بانها لفرط وضوحها وانارتها كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر أو ذات تبصر من حيث انها تهدى والعمى لا تهتدى فضلا عن الهداية أو مبصرة كل من ينظر اليها ويتأمل فيها وقرئ مبصرة أى مكانا يكثر فيه التبصر (قالوا هذا سحر مبين) واضح سحريته (وجحدوا بها) أى كذبوا بها (واستيقنتها أنفسهم) الواو للحال أى وقد استيقنتها أى علمتها أنفسهم علما يقينيا (ظلما) أى للآيات كقوله تعالى بما كانوا بآياتنا يظلمون ولقد ظلموا بها أى ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحرا وقيل ظلما لانفسهم

الزاد ليوم المعاد ولما صار مستغرقا فى هذه اللذات الفاسدة * روى عن بعض خلفاء بنى مروان انه قال لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا ان الخليفة لا يجرى عليه القلم ولا يكتب عليه معصية فقال يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الانبياء ثم تلى هذه الآية ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ثم قال تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ونظيره قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار وقوله تعالى ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجبائى بهذه الآية على انه تعالى لا يجوز أن يكون خالقا لاعمال العباد قال لانها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل فلما بين تعالى أنه ما خلق السموات والارض وما بينهما باطلا دل هذا على انه تعالى لم يخلق أعمال العباد ومثله قوله تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وعند الجبرة أنه خلق الكافر لاجل أن يكفر والكفر باطل وقد خلق الباطل ثم أكد تعالى ذلك بأن قال ذلك ظن الذين كفروا أى كل من قال بهذا القول فهو كافر فهذا تصريح بان مذهب الجبرة عين الكفر واحتج أصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقا لاعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقا لكل ما بين السموات والارض وأعمال العباد حاصلة بين السماء والارض فوجب أن يكون الله تعالى خالقها (المسئلة الثانية) هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة وذلك لانه تعالى خلق الخلق فى هذا العالم فاما ان يقال انه خلقهم للاضرار أو للانفاع أو لا للانفاع ولا للاضرار والاول باطل لان ذلك لا يليق بالرحيم الكريم والثالث أيضا باطل لان هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين فلم يبق الا أن يقال انه خلقهم للانفاع فنقول وذلك الانفاع اما أن يكون فى حياة الدنيا أو فى حياة الآخرة والاول باطل لان منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لا يليق بالحكمة ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة واعلم أن هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة وقد لخصناها فى أول سورة يونس بالاستقصاء فلا سبيل الى التكرير فثبت بما ذكرنا انه تعالى ما خلق السماء والارض وما بينهما باطلا واذا لم يكن خلقهما باطلا كان القول بالحشر والنشر لازما وان كل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكا فى حكمة الله فى خلق السماء والارض وهذا هو المراد من قوله ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ولما بين الله تعالى على سبيل الاجمال ان انكار الحشر والنشر يوجب الشك فى حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل فقال أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار وتقريره انا نرى فى الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته فى الفقر والزمانة وأنواع البلاء ونرى الكفرة والفساق فى الراحة والغبطة فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصى وذلك لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم واذا كان ذلك قادحا فى الحكمة ثبت ان انكار الحشر والنشر يوجب انكار حكمة الله ثم قال تعالى كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة دلت الآية على انه تعالى انما أنزل هذا القرآن لاجل الخير والرحمة والهداية وهذا يفيد أمرين (أحدهما) أن أفعال الله معللة برعاية المصالح (والثانى) انه تعالى أراد الايمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول انه أراد الكفر من الكافر (المسئلة الثانية) فى تقرير نظم هذه الآيات فنقول لسائل أن يسأل فيقول انه تعالى حكى فى أول السورة عن المستهزئين من الكفار أنهم بالغوا فى انكار البعث والقيامة وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب بل قال اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ومعلوم انه لا تعلق لذكر داود عليه السلام بان القول بالقيامة حق ثم انه تعالى اطنب فى شرح قصة داود ثم اتبعه بقوله وما خلقنا السماء والارض ومعلوم انه لا تعلق لمسئلة اثبات حكمة الله بقصة داود ثم لما ذكر اثبات حكمة الله وفرع عليه اثبات أن القول بالحشر والنشر حق ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ولا تعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة واذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولا متباينة لا تعلق للبعض منها بالبعض فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتابا شريفا فاضلا هذا تمام السؤال

(والجواب)

وليس بذاك (وعلوا) أى استكبارا عن الايمان بها كقوله تعالى والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها وانتصابهما اما على العلة من جحدوا بها أو على الحالية من فاعله أى جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) من الاغراق على الوجه الهائل الذى هو عبرة للعالمين وانما لم يذكر تنبيها على أنه عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر (ولقد آتينا داود وسليمان علما) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من أنه عليه الصلاة والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فان قصتهما عليهما الصلاة والسلام من جملة القرآن الكريم لقيه عليه الصلاة والسلام من لدنه تعالى كقصة موسى عليه السلام وتصديره بالقسم لاظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه أى آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم لائقة به من علم الشرائع والاحكام وغير ذلك مما يختص بكل منهما كصنعة لبوس ومنطق الطير أو علما سنيا عزيزا (وقالا) أى قال كل واحد منهما شكرا لما أوتيه من العلم (الحمد لله الذى فضلنا) بما آتانا من العلم (على كثير من عباده المؤمنين) على ان عبارة كل منهما فضلنى الا أنه عبر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلم مع الغير ايجازا فان حكاية الاقوال المتعددة سواء كانت صادرة عن المتكلم أو عن غيره بعبارة جامعة للكل مما ليس بعزيز ومن الاول قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وقد مر فى سورة قد أفلح المؤمنون وبهذا ظهر حسن موقع العطف بالواو اذ المتبادر من العطف بالفاء ترتب حمد كل منهما على ايتاء ما أوتى كل

(والجواب) أن نقول ان العقلاء قالوا من ابتلى بخصم جاهل مصر متعصب ورآه قد خاض فى ذلك التعصب والاصرار وجب عليه أن يقطع الكلام معه فى تلك المسئلة لانه كلما كان خوضه فى تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه فى تلك المسئلة وأن يخوض فى كلام آخر أجنبى عن المسئلة الاولى بالكلية و يطنب فى ذلك الكلام الاجنبى بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسئلة الاولى فاذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الاجنبى ونسى المسئلة الاولى فحينئذ يدرج فى اثناء الكلام فى هذا الفصل الاجنبى مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الاول فان ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة فاذا سلمها فحينئذ يتمسك بها فى اثبات المطلوب الاول وحينئذ يصير ذلك الخصم المصر المتعصب منقطعا مفحما اذا عرفت هذا فنقول ان الكفار بلغوا فى انكار الحشر والنشر والقيامة الى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب فقال يا محمد اقطع الكلام معهم فى هذه المسئلة واشرع فى كلام آخر أجنبى بالكلية عن هذه المسئلة وهى قصة داود عليه السلام فان من المعلوم أنه لا تعلق لهذه القصة بمسئلة الحشر والنشر ثم انه تعالى أطنب فى شرح تلك القصة ثم قال فى آخر القصة يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق وكل من سمع هذا قال نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق ثم كأنه تعالى قال وأنا لا آمرك بالحق فقط بل أنا مع أنى رب العالمين لا أفعل الا بالحق ولا أقضى بالباطل فههنا الخصم يقول نعم ما فعل حيث لم يقض الا بالحق فعند هذا يقال لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر لانه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحا على المسلم فى ايصال الخيرات اليه وذلك ضد الحكمة وعين الباطل فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الالزام القاطع على منكرى الحشر والنشر ايرادا لا يمكنهم الخلاص عنه فصار ذلك الخصم الذى بلغ فى انكار المعاد الى حد الاستهزاء مفحما ملزما بهذا الطريق ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة فى الالزام فى القرآن لاجرم وصف القرآن بالكمال والفضل فقال كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الالباب فان من لم يتدبر ولم يتأمل ولم يساعده التوفيق الالهى لم يقف على هذه الاسرار العجيبة المذكورة فى هذا القرآن العظيم حيث يراه فى ظاهر الحال مقرونا بسوء الترتيب وهو فى الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب فهذا ما حضرنا فى تفسير هذه الآيات وبالله التوفيق ۞ قوله تعالى ((ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أوّاب اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق)) واعلم أن هذا هو القصة الثانية وقوله نعم العبد فيه مباحث (الاول) نقول المخصوص بالمدح فى نعم العبد محذوف فقيل هو سليمان وقيل داود والاول أولى لانه أقرب المذكورين ولانه قال بعده انه أوّاب ولا يجوز أن يكون المراد هو داود لانه وصفه بهذا المعنى قد تقدم فى الآية المتقدمة حيث قال واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أوّاب فلو قلنا لفظ الاوّاب ههنا أيضا صفة داود لزم التكرار ولو قلنا انه صفة لسليمان لزم كون الابن شبيها الابيه فى صفات الكمال فى الفضيلة فكان هذا أولى (البحث الثانى) أنه قال أولا نعم العبد ثم قال بعده انه أوّاب وهذه كلمة للتعليل فهذا يدل على انه انما كان نعم العبد لانه كان أوّابا فيلزم ان كل من كان كثير الرجوع الى الله تعالى فى أكثر الاوقات وفى أكثر المهمات كان موصوفا بانه نعم العبد وهذا هو الحق الذى لا شبهة فيه لان كمال الانسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بانه لا يتم شئ من الخيرات الا باعانة الله تعالى ومن كان كذلك كان كثير الرجوع الى الله تعالى فكان أوّابا فثبت أن كل من كان أوّابا وجب أن يكون نعم العبد أما قوله اذ عرض عليه ففيه وجوه (الاول) التقدير نعم العبد هو اذا كان من أعماله انه فعل كذا (الثانى) انه ابتداء كلام والتقدير اذكر يا محمد اذ عرض عليه كذا وكذا والعشى هو من حين العصر الى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر اليها ويقف على كيفية أحوالها والصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين (أولهما) الصافنات قال صاحب الصحاح الصافن الذى يصفن قدميه وفى الحديث كنا اذا صلينا خلفه فرفع رأسه من الركوع قمنا صفونا أى قمنا صافنين أقدامنا أقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس (والصفة الثانية) للخيل فى

منهما الا على ايتاء ما أوتى نفسه فقط وقيل فى العطف بالواو اشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما ايتاء العلم وشئ من مواجبه فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قيل ولقد آتيناهما علما فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الآية فتأمل والكثير المفضل عليه من لم يؤت مثل علمهما وقيل من لم يؤت علما ويأباه تبيين الكثير بالمؤمنين فان خلوهم من العلم بالمرة مما لا يمكن وفى تخصيصهما الاكثر بالذكر رمز الى أن البعض مفضلون عليهما وفيه أوضح دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من الملك الذى لم يؤته غيرهما وتحريض للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله ويتواضعوا ويعتقدوا أنهم وان فضلوا على كثير فقد فضل عليهم كثير وفوق كل ذى علم عليم ونعم ما قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه كل الناس أفقه من عمر ((وورث سليمان داود) أى النبوة والعلم أو الملك بأن قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر (وقال) تشهيرا لنعمة الله تعالى وتنويها بها ودعاء للناس الى التصديق بذكر المعجزات الباهرة التى أوتيها (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ) المنطق فى المتعارف كل لفظ يعبر به عما فى الضمير مفردا كان أو مركبا وقد يطلق على كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد يقال نطقت الحمامة وكل صنف من أصناف الطير يتفاهم أصواته والذى علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه

هذه الآية الجياد قال المبرد والجياد جمع جواد وهو الشديد الجرى كما ان الجواد من الناس هو السريع البذل فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتي وقوفها وحركتها أما حال وقوفها فوصفها بالصفون وأما حال حركتها فوصفها بالجودة يعني أنها اذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها على أحسن الاشكال فاذا جرت كانت سراعا في جريها فاذا طلبت لحقت واذا طلبت لم تلحق ثم قال تعالى فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربي وفي تفسير هذه اللفظة وجوه (الاول) أن يضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن كانه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربي (والثاني) ان أحببت بمعنى ألزمت والمعنى انى ألزمت حب الخيل عن ذكر ربي أي عن كتاب ربي وهو التوراة لان ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح فكذلك في التوراة ممدوح (والثالث) ان الانسان قد يحب شيأ لكنه يحب أن لا يحبه كالمريض الذي يشتهي ما يزيد في مرضه والاب الذي يحب ولده الردي وأما من أحب شيأ وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله أحببت حب الخير بمعنى أحببت حبي لهذه الخيل ثم قال عن ذكر ربي بمعنى ان هذه المحبة الشديدة انما حصلت عن ذكر الله وأمره لا عن الشهوة والهوى وهذا الوجه أظهر الوجوه ثم قال تعالى حتى توارت أقول الضمير في قوله حتى توارت وفي قوله ردوها يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائدا الى الشمس لانه جرى ذكر ما له تعلق بها وهو العشي ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائدا الى الصافنات ويحتمل ان يكون الاول متعلقا بالشمس والثاني بالصافنات ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك فهذه احتمالات أربعة لامزيد عليها (فالاول) أن يعود الضميران معا الى الصافنات كانه قال حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات على (والاحتمال الثاني) أن يكون الضميران معا عائدين الى الشمس كأنه قال حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر فسأل الله أن يرد الشمس فقوله ردوها على اشارة الى طلب رد الشمس وهذا الاحتمال عندي بعيد والذي يدل عليه وجوه (الاول) ان الصافنات مذكورة تصريحا والشمس غير مذكورة وعود الضمير الى المذكور أولى من عوده الى المقدر (الثاني) أنه قال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه السلام كان يقول انى أحببت حب الخير عن ذكر ربي وكان يعيد هذه الكلمات الى أن توارت بالحجاب فلو قلنا المراد حتى توارت الصافنات بالحجاب كان معناه انه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة الى أن غابت عن عينه وذلك مناسب ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه انه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر الى وقت المغرب وهذا في غاية البعد (الثالث) انا لو حكمنا بعود الضمير في قوله حتى توارت الى الشمس وحملنا اللفظ على انه ترك صلاة العصر كان هذا منافيا لقوله أحببت حب الخير عن ذكر ربي فان تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسي الصلاة ولما ترك ذكر الله (الرابع) انه بتقدير انه عليه السلام بقي مشغولا بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر فكان ذلك ذنبا عظيما وجرما قويا فالاليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة في اظهار التوبة فاما أن يقال على سبيل التهور والعظمة لاله العالم ورب العالمين ردوها على بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الادب عقب ذلك الجرم العظيم فهذا لا يصدر عن أبعد الناس عن الخير فكيف يجوز اسناده الى الرسول المطهر المكرم (الخامس) ان القادر على تحريك الافلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها على ولا يقول ردوها على فان قالوا انما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله ردوها لفظ مشعر بأعظم أنواع الاهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم (السادس) ان الشمس لو رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهدا لكل أهل الدنيا ولو كان الامر كذلك لتوفرت الدواعي على نقله واظهاره وحيث لم ينقل أحد ذلك علمنا فساده (السابع) انه تعالى قال اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ثم قال حتى توارت بالحجاب وعود الضمير الى أقرب المذكورين أولى وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد وأما العشي فابعدهما فكان عود ذلك الضمير الى الصافنات أولى فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله حتى توارت بالحجاب على توارى الشمس وأن حمل قوله ردوها على على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام في غاية البعد عن النظم ثم قال تعالى فطفق

ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لاصحابه أتدرون ما يقول قالوا الله ونبيه أعلم قال يقول اذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يا مذنبين وصاح طيطوى فقال يقول كل حي ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيرا تجدوه وصاح قمرى فأخبر أنه يقول سبحان ربي الأعلى وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه وقال الحدأة تقول كل شئ هالك الا الله والقطاة تقول من سكت سلم والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه والديك يقول اذكروا الله يا غافلين والنسر يقول يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت والعقاب تقول في البعد عن الناس أنس والضفدع يقول سبحان ربي القدوس وأراد عليه الصلاة والسلام بقوله علمنا وأوتينا بالنون التي يقال لها نون الواحد المطاع بيان حاله وصفته من كونه ملكا مطاعا لكن لا تجبرا وتكبرا بل تمهيدا لما أراد منهم من حسن الطاعة والانقياد له في أوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة المسير وبقوله من كل شئ كثرة ما أوتيه كما يقال فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شئ ويراد به كثرة قصاده وغزارة علمه ومثل قوله تعالى وأوتيت من كل شئ وقال ابن عباس رضي الله عنهما كل ما يهمه من أمر الدنيا والآخرة وقال مقاتل يعني النبوة والملك وتسخير الجن والانس والشياطين والريح (ان هذا) اشارة الى ما ذكر من التعليم والايتاء (لهو الفضل)

مسحا بالسوق والاعناق أى فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها قال الاكثرون معناه انه مسح السيف بسوقها وأعناقها أى قطعها قالوا انه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر الى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقربا الى الله تعالى وعندى ان هذا أيضا بعيد ويدل عليه وجوه (الاول) أنه لو كان معنى مسح السوق والاعناق قطعها لكان معنى قوله وامسحوا برؤسكم وأرجلكم قطعها وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق أما اذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح (الثانى) القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعا من الافعال المذمومة (فأولها) ترك الصلاة (وثانيها) انه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا الى حيث نسى الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة (وثالثها) انه بعد الاتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والانابة البتة (ورابعها) أنه خاطب رب العالمين بقوله ردوها على وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف الا مع الخادم الخسيس (وخامسها) انه أتبع هذه المعاصى بعقر الخيل فى سوقها وأعناقها وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذبح الحيوان الا لمأكله فهذه أنواع من الكبائر نسبوها الى سليمان عليه السلام مع ان لفظ القرآن لم يدل على شئ منها (وسادسها) ان هذه القصص انما ذكرها الله تعالى عقيب قوله وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وان الكفار لما بلغوا فى السفاهة الى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر يا محمد على سفاهتهم واذكر عبدنا داود فذكر قصة داود ثم ذكر عقيبها قصة سليمان وكان التقدير انه تعالى قال لمحمد عليه السلام اصبر يا محمد على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان وهذا الكلام انما يكون لائقا لو قلنا ان سليمان عليه السلام أتى فى هذه القصة بالاعمال الفاضلة والاخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله وأعرض عن الشهوات واللذات فاما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام فى هذا الموضع انه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الجسيمة لم يكن ذكر هذه القصة لائقا بهذا الموضع فثبت ان كتاب الله تعالى ينادى على هذه الاقوال الفاسدة بالرد والافساد والابطال بل التفسير المطابق للحق لالفاظ القرآن والصواب أن نقول ان رباط الخيل كان مندوبا اليه فى دينهم كما انه كذلك فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ثم ان سليمان عليه السلام احتاج الى الغزو فجلس وأمر باحضار الخيل وأمر باجرائها وذكر انى لا أحبها لاجل الدنيا ونصيب النفس وانما أحبها لامر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربى ثم انه عليه السلام أمر باعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل اليه فلما عادت اليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك المسح أمور (الاول) تشريفا لها وابانة لعزتها لكونها من أعظم الاعوان فى دفع العدو (الثانى) انه أراد ان يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتضع الى حيث يباشر أكثر الامور بنفسه (الثالث) انه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقا مطابقا موافقا ولا يلزمنا نسبة شئ من تلك المنكرات والمحذورات وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع ان العقل والنقل يردها وليس لهم فى اثباتها شبهة فضلا عن حجة فان قيل فالجمهور فسروا الآية بتلك الوجوه فما قولك فيه فنقول لنا ههنا مقامات (المقام الاول) ان ندعى ان لفظ الآية لا يدل على شئ من تلك الوجوه التى يذكرونها وقد ظهر والحمد لله ان الامر كما ذكرناه وظهوره لا يرتاب العاقل فيه (المقام الثانى) أن يقال هب ان لفظ الآية لا يدل عليه الا انه كلام ذكره الناس فما قولك فيه وجوابنا ان الدلالة الكثيرة قامت على عصمة الانبياء عليهم السلام ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت الى أقوالهم والله أعلم

۞ قوله تعالى ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى انك أنت الوهاب فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى

والاحسان من الله تعالى (المبين) الواضح الذى لا يخفى على أحد أو ان هذا الفضل الذى أوتيناه لهو الفضل المبين على أنه عليه الصلاة والسلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر أى أقول هذا القول شكرا لا فخرا ولعله عليه الصلاة والسلام رتب على كلامه ذلك دعوة الناس الى الغزو فان أخبارهم بايتاء كل شئ من الاشياء التى من جملتها آلات الحرب وأسباب الغزو مما ينبئ عن ذلك فمعنى قوله تعالى (وحشر لسليمان جنوده) جمع له عساكره (من الجن والانس والطير) بمباشرة مخاطبيه فانهم كانوا رؤساء مملكته وعظماء دولته من الثقلين وغيرهم بتعميم الناس للكل تغليبا وتقديم الجن على الانس فى البيان للمسارعة الى الايذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الامر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير (فهم يوزعون) أى يحبس أوائلهم على أواخرهم أى يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالى فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد فى العساكر وفيه اشعار بكمال مسارعتهم الى السير وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضا لما أن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع وهذا اذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو روى أن معسكره عليه الصلاة والسلام كان مائة فرسخ فى مائة خمسة

وحسن مآب) اعلم ان هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام واختلفوا في المراد من قوله
ولقد فتنا سليمان ولاهل الحشو والرواية فيه قول ولاهل العلم والتحقيق قول آخر اما قول أهل الحشو
فذكروا فيه حكايات (الاولى) قالوا ان سليمان بلغه خبر مدينة في البحر فخرج اليها بجنوده تحمله الريح
فأخذها وقتل ملكها وأخذ بنتا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجها فاصطفاها لنفسه وأسلمت فاحبها
وكانت تبكي أبدا على أبيها فامر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب
الى تلك الصورة بكرة وعشيا مع جواريها يسجدن لها فاخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب
المرأة ثم خرج وحده الى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائبا الى الله تعالى وكانت له أم ولد يقال لها أمينة
اذا دخل للطهارة أو لاصابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوما فأتاها
الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان وقال يا أمينة خاتمي فتختم به وجلس على كرسي سليمان فأتى
عليه الطير والجن والانس وتغيرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف ان
الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف واذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم أخذ
يخدم السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين يوما عدد ما عبد
الوثن في بيته فانكر آصف وعظماء بني اسرائيل حكم الشيطان وسأل آصف نساء سليمان فقلن ما يدع
امرأة منا في دمها ولا يغتسل من جنابة وقيل بل نفذ حكمه في كل شئ الا فيهن ثم طار الشيطان وقذف
الخاتم في البحر فابتلعته سمكة ووقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فاذا هو بالخاتم فتختم به ووقع ساجدا
لله ورجع اليه ملكه وأخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر (والرواية الثانية للحشوية)
ان تلك المرأة لما أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان وكان يسقط الخاتم من يده ولا يتماسك
فيها فقال له آصف انك لمفتون بذنبك فتب الى الله (والرواية الثالثة لهم) قالوا ان سليمان قال لبعض
الشياطين كيف تفتنون الناس فقال أرني خاتمك أخبرك فلما أعطاه اياه نبذه في البحر فذهب ملكه وقعد
هذا الشيطان على كرسيه ثم ذكر الحكاية الى آخرها اذا عرفت هذه الروايات فهؤلاء قالوا المراد من قوله
ولقد فتنا سليمان ان الله تعالى ابتلاه وقوله وألقينا على كرسيه جسدا هو جلوس ذلك الشيطان على
كرسيه (والرواية الرابعة) انه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه وألقى على
سريره شيطان عقوبة له واعلم أن أهل التحقيق استبعدوا هذا الكلام من وجوه (الاول) ان الشيطان
لو قدر على أن يتشبه بالصورة والخلقة بالانبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شئ من الشرائع فلعل هؤلاء الذين
رآهم الناس في صورة محمد وعيسى وموسى عليهم السلام ما كانوا أولئك بل كانوا شياطين تشبهوا بهم
في الصورة لاجل الاغواء والاضلال ومعلوم ان ذلك يبطل الدين بالكلية (الثاني) ان الشيطان لو قدر على
ان يعامل نبي الله سليمان بمثل هذه المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء والزهاد وحينئذ
وجب أن يقتلهم وأن يمزق تصانيفهم وان يخرب ديارهم ولما بطل ذلك في حق آحاد العلماء فلان يبطل مثله
في حق أكابر الانبياء أولى (الثالث) كيف يليق بحكمة الله واحسانه أن يسلط الشيطان على أزواج سليمان
ولاشك انه قبيح (الرابع) لو قلنا ان سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه وان لم
يأذن فيه البتة فالذنب على تلك المرأة فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه فأما الوجوه التي ذكرها
أهل التحقيق في هذا الباب فأشياء (الاول) ان فتنة سليمان أنه ولد له ابن فقالت الشياطين ان عاش صار
مسلطا علينا مثل أبيه فسبيلنا أن نقتله فعلم سليمان ذلك فكان يربيه في السحاب فبينما هو مشتغل بمهماته
اذ ألقي ذلك الولد ميتا على كرسيه فتنبه على خطيئته في انه لم يتوكل فيه على الله فاستغفر ربه وأناب (الثاني)
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال قال سليمان لاطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي
بفارس يجاهد في سبيل الله ولم يقل ان شاء الله فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل
فجئ به على كرسيه فوضع في حجره فوالذي نفسي بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا كلهم في سبيل الله فرسانا
أجمعون فذلك قوله ولقد فتنا سليمان (الثالث) قوله ولقد فتنا سليمان بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه
وألقينا على كرسيه منه جسدا وذلك لشدة المرض والعرب تقول في الضعيف انه لحم على وضم وجسم بلا

روح

وعشرون للجن وخمسة وعشرون
للانس وخمسة وعشرون للطير
وخمسة وعشرون للوحش
وكان له عليه الصلاة والسلام
ألف بيت من قوارير على الخشب
فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة
سرية وقد نسجت له الجن بساطا
من ذهب وابريسم فرسخا في فرسخ
وكان يوضع منبره في وسطه وهو
من ذهب فيقعد عليه وحوله
ستمائة ألف كرسي من ذهب
وفضة فيقعد الانبياء عليهم الصلاة
والسلام على كراسي الذهب
والعلماء على كراسي الفضة
وحولهم الناس وحول الناس
الجن والشياطين وتظله الطير
باجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس
وترفع ريح الصبا البساط فتسير به
مسيرة شهر وروى أنه كان يأمر
الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء
تسيره فأوحى الله تعالى اليه وهو
يسير بين السماء والارض اني قد
زدت في ملكك لا يتكلم أحد
بشئ الا ألقته الريح في سمعك فيحكى
أنه مر بحراث فقال لقد أوتي آل
داود ملكا عظيما فألقته الريح في
أذنه فنزل ومشى الى الحراث
وقال انما مشيت اليك لئلا تتمنى
ما لا تقدر عليه ثم قال لتسبيحة
واحدة يقبلها الله تعالى خير مما
أوتي آل داود (حتى اذا أتوا على
وادي النمل) حتى هي التي يبتدأ بها
الكلام ومع ذلك هي غاية لما قبلها
كالتي في قوله تعالى حتى اذا جاء أمرنا
وفار التنور قلنا احمل الآية وهي
ههنا غاية لما ينبئ عنه قوله تعالى
فهم يوزعون من السير كأنه قيل
فساروا حتى اذا أتوا الخ ووادي
النمل واد بالشأم كثير النمل على
ما قاله مقاتل رضي الله عنه
وبالطائف على ما قاله كعب رضي
الله عنه وقيل هو واد تسكنه الجن

روح ثم أناب أى رجع الى حال الصحة فاللفظ محتمل لهذه الوجوه ولا حاجة البتة الى حمله على تلك الوجوه الركيكة (الرابع) أقول لا يبعد أيضا أن يقال انه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسى ثم انه أزال الله عنه ذلك الخوف وأعاده الى ما كان عليه من القوة وطيب القلب أما قوله تعالى قال رب اغفر لى فاعلم ان الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية فانه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة ويمكن أن يجاب عنه بان الانسان لا ينفك البتة عن ترك الافضل والاولى وحينئذ يحتاج الى طلب المغفرة لان حسنات الابرار سيآت المقربين ولانهم أبدا فى مقام هضم النفس واظهار الذلة والخضوع كما قال صلى الله عليه وسلم وانى لاستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى والله أعلم ثم قال تعالى وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى دلت هذه الآية على انه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا لان سليمان طلب المغفرة أولا ثم بعده طلب المملكة وأيضا الآية تدل على ان طلب المغفرة من الله تعالى سبب لانفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا لان سليمان طلب المغفرة أولا ثم توسل به الى طلب المملكة ونوح عليه السلام هكذا فعل أيضا لانه تعالى حكى عنه انه قال فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك فان قيل قوله عليه السلام ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى مشعر بالحسد والجواب عنه ان القائلين بان الشيطان استولى على مملكته قالوا معنى قوله لا ينبغى لاحد من بعدى هو أن يعطيه الله ملكا لا تقدر الشياطين أن يقوموا مقامه البتة فاما المنكرون لذلك فقد أجابوا عنه من وجوه (الاول) ان الملك هو القدرة فكان المراد أقدرنى على أشياء لا يقدر عليها غيرى البتة ليصير اقتدارى عليها معجزة تدل على صحة نبوتى ورسالتى والدليل على صحة هذا الكلام انه تعالى قال عقيبه فسخرنا له الريح تجرى بامره رخاء حيث أصاب فكون الريح جاريا بامره قدرة عجيبة وملك عجيب ولا شك انه معجزة دالة على نبوته فكان قوله هب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى هو هذا المعنى لان شرط المعجزة أن لا يقدر غيره على معارضتها فقوله لا ينبغى لاحد من بعدى يعنى لا يقدر أحد على معارضته (والوجه الثانى فى الجواب) انه عليه السلام لما مرض ثم عاد الى الصحة عرف ان خيرات الدنيا صائرة الى الغير بارث أو بسبب آخر فسأل ربه ملكا لا يمكن أن ينتقل منه الى غيره وذلك الذى سأله بقوله ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى أى ملكا لا يمكن أن ينتقل عنى الى غيرى (والوجه الثالث فى الجواب) ان الاحتراز عن طيبات الدنيا مع القدرة عليها أشق من الاحتراز عنها حال عدم القدرة عليها فكأنه قال يا الهى أعطنى مملكة فائقة على ممالك البشر بالكلية حتى احترز عنها مع القدرة عليها ليصير ثوابى أكمل وأفضل (الوجه الرابع) من الناس من يقول ان الاحتراز عن لذات الدنيا عسر صعب لان هذه اللذات حاضرة وسعادات الآخرة نسيئة والنقد يصعب بيعه بالنسيئة فقال سليمان اعطنى يارب مملكة تكون أعظم الممالك الممكنة للبشر حتى انى أبقى مع تلك القدرة الكاملة فى غاية الاحتراز عنها ليظهر للخلق ان حصول الدنيا لا يمنع من خدمة المولى (الوجه الخامس) ان من لم يقدر على الدنيا يبقى ملتفت القلب اليها فيظن ان فيها سعادات عظيمة وخيرات نافعة فقال سليمان يارب العزة أعطنى أعظم الممالك حتى يقف الناس على كمال حالها فحينئذ يظهر للعقل انه ليس فيها فائدة وحينئذ يعرض القلب عنها ولا يلتفت اليها ويشتغل بالعبودية ساكن النفس غير مشغول القلب بعلائق الدنيا ثم قال فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب رخاء أى رخوة لينة وهى من الرخاوة والريح اذا كانت لينة لا تزعزع ولا تمتنع عليه كانت طيبة فان قيل أليس انه تعالى قال فى آية أخرى ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره قلنا الجواب من وجهين (الاول) لا منافاة بين الآيتين فان المراد ان تلك الريح كانت فى قوة الرياح العاصفة الا انها لما جرت بأمره كانت لذيذة طيبة فكانت رخاء (والوجه الثانى من الجواب) أن تلك الريح كانت لينة مرة وعاصفة أخرى ولا منافاة بين الامرين وقوله تعالى حيث أصاب أى قصد وأراد وحكى الاصمعى عن العرب انهم يقولون أصاب الصواب فاخطأ الجواب وعن رؤبة ان رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة فخرج اليهما فقال

والنمل مراكبهم وتعدية الفعل اليه بكلمة على اما لان اتيانهم كان من فوق واما لان المراد بالاتيان عليه قطعه من قولهم أتى على الشئ اذا أنفده وبلغ آخره ولعلهم أرادوا أن ينزلوا عند منتهى الوادى اذ حينئذ يخافهم مافى الارض لا عند سيرهم فى الهواء وقوله تعالى (قالت نملة) جواب اذا كأنها لما رأتهم متوجهين الى الوادى فرت منهم فصاحت صيحة تنبهت بها ما بحضرتها من النمل لمرادها فتبعها فى الفرار فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فاجروا مجراهم حيث جعلت هى قائلة وما عداها من النمل مقولا لهم حيث قيل (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) مع أنه لا يمتنع ان يخلق الله تعالى فيها النطق وفيما عداها العقل والفهم وقرئ نملة يا أيها النمل بضم الميم وهو الاصل كالرجل وتسكين الميم تخفيف منه كالسبع فى السبع وقرئ بضم النون والميم قيل كانت نملة عرجاء تمشى وهى تتكاوس فنادت بما قالت فسمع سليمان عليه السلام كلامها من ثلاثة أميال وقيل كان اسمها طاخية وقرئ مسكنكم وقوله تعالى (لا يحطمنكم سليمان وجنوده) نهى فى الحقيقة للنمل عن التأخر فى دخول مساكنهم وان كان بحسب الظاهر نهيا له عليه الصلاة والسلام ولجنوده عن الحطم كقولهم لا أرينك ههنا فهو استئناف أو بدل من الامر كقول من قال فقلت له ارحل لا تقيمن عندنا لا جواب له فان النون لا تدخله فى السعة وقرئ لا يحطمنكم بالنون الخفيفة وقرئ لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها وأصله لا يحتطمنكم وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) حال من فاعل يحطمنكم مفيدة لتقييد

أين تصيبان فقالا هذا مطلوبنا وبالجملة فالمقصود أنه تعالى جعل الريح مسخرة له حتى صارت تجري بأمره على وفق ارادته ثم قال والشياطين كل بناء وغواص قال صاحب الكشاف الشياطين عطف على الريح وكل بناء بدل من الشياطين وآخرين عطف على قوله كل بناء وهو بدل الكل من الكل كانوا يبنون له ماشاء من الابنية ويغوصون له فيستخرجون اللؤلؤ وقوله مقرنين يقال قرنهم في الجبال والتشديد للكثرة والاصفاد الاغلال واحدها صفد والصفد العطية أيضا قال النابغة * ولم أعرض أبيت اللعن بالصفد * فعلى هذا الصفد القيد فكل من شددته شدا وثيقا فقد صفدته وكل من أعطيته عطاء جزيلا فقد أصفدته وههنا بحث وهو ان هذه الآيات دالة على أن الشياطين لها قوة عظيمة وبسبب تلك القوة قدروا على بناء الابنية القوية التي لا يقدر عليها البشر وقدروا على الغوص في البحار واحتاج سليمان عليه السلام الى قيدهم ولقائل أن يقول ان هذه الشياطين اما أن تكون أجسادهم كثيفة أو لطيفة فان كان الاول وجب أن يراهم من كان صحيح الحاسة اذ لو جاز أن لا نراهم مع كثافة أجسادهم فليجز أن تكون بحضرتنا جبال عالية وأصوات هائلة ولا نراها ولا نسمعها وذلك دخول في السفسطة وان كان الثاني وهو أن أجسادهم ليست كثيفة بل لطيفة رقيقة فمثل هذا يمتنع أن يكون موصوفا بالقوة الشديدة وأيضا لزم أن تتفرق أجسادهم وأن تتمزق بسبب الرياح القوية وأن يموتوا في الحال وذلك يمنع من وصفهم ببناء الابنية القوية وأيضا الجن والشياطين ان كانوا موصوفين بهذه القوة والشدة فلم لا يقتلون العلماء والزهاد في زماننا ولم لا يخربون ديار الناس مع أن المسلمين مبالغون في اظهار لعنهم وعداوتهم وحيث لم يحس شيء من ذلك علمنا أن القول باثبات الجن والشياطين ضعيف واعلم أن أصحابنا يجوزون أن تكون أجسامهم كثيفة مع انا لا نراها وأيضا لا يبعد أن يقال أجسامهم لطيفة بمعنى عدم اللون ولكنها صلبة بمعنى انها لا تقبل التفرق والتمزق وأما الجبائي فقد سلم انها كانت كثيفة الاجسام وزعم ان الناس كانوا يشاهدونهم في زمن سليمان ثم انه لما توفي سليمان عليه السلام أمات الله أولئك الجن والشياطين وخلق نوعا آخر من الجن والشياطين تكون أجسامهم في غاية الرقة ولا يكون لهم شيء من القوة والموجود في زماننا من الجن والشياطين ليس الا من هذا الجنس ثم قال تعالى هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وفيه قولان (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما أعط من شئت وامنع من شئت بغير حساب أي ليس عليك حرج فيما أعطيت وفيما أمسكت (الثاني) ان هذا في أمر الشياطين خاصة والمعنى هؤلاء الشياطين المسخرون عطاؤنا فامنن على من شئت من الشياطين فخل عنه واحبس من شئت منهم في العمل بغير حساب ولما ذكر الله تعالى ما أنعم به على سليمان في الدنيا أردفه بانعامه عليه في الآخرة فقال وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وقد سبق تفسيره ۞ قوله تعالى (واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الالباب وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب) اعلم ان هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة واعلم ان داود وسليمان كانا ممن أفاض الله عليه أصناف الآلاء والنعماء وأيوب كان ممن خصه الله تعالى بانواع البلاء والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار كان الله تعالى قال يا محمد اصبر على سفاهة قومك فانه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من داود وسليمان عليهما السلام وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف ان أحوال الدنيا لا تنتظم لاحد وان العاقل لا بد له من الصبر على المكاره وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أيوب عطف بيان واذ بدل اشتمال منه اني مسني أي بأني مسني حكاية لكلامه الذي ناداه بسببه ولو لم يحك لقال بانه مسه لانه غائب وقرئ بنصب بضم النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها وضمها فالنصب والنصب كالرشد والرشد والعدم والعدم والسقم والسقم والنصب على أصل المصدر والنصب تثقيل نصب والمعنى واحد وهو التعب والمشقة والعذاب والالم واعلم انه كان قد حصل عنده نوعان من المكروه الغم الشديد بسبب زوال الخيرات وحصول المكروهات والالم الشديد في الجسم ولما حصل هذان النوعان لا جرم ذكر الله تعالى لفظين وهما النصب والعذاب (المسئلة الثانية) للناس في هذا الموضع قولان (الاول) ان الآلام

الحطم بحال عدم شعورهم بمكانهم حتى لو شعروا بذلك لم يحطموا وأرادت بذلك الايذان بانها عارفة بشؤن سليمان وسائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام من عصمتهم عن الظلم والايذاء وقيل هو استئناف أي فهم سليمان ما قالته والقوم لا يشعرون بذلك (فتبسم ضاحكا من قولها) تعجبا من حذرها واهتدائها الى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها وسرورا بشهرة حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة فيما بين أصناف المخلوقات التي هي أبعدها من ادراك أمثال هذه الامور وابتهاجا بما خصه الله تعالى به من ادراك همسها وفهم مرادها روي أنها أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء فأمر سليمان عليه السلام الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن (وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك) أي اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وأكفه وارتبطه بحيث لا ينفلت عني حتى لا أنفك عن شكرك أصلا وقرئ بفتح ياء أوزعني (التي أنعمت علي وعلى والدي) أدرج فيه ذكرهما تكثيرا للنعمة فان الانعام عليهما انعام عليه مستوجب للشكر (وأن أعمل صالحا ترضاه) اتماما للشكر واستدامة للنعمة (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) في جملتهم الجنة التي هي دار الصالحين (وتفقد الطير) أي تعرف أحوال الطير فلم ير الهدهد فيما بينها (فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) كانه قال أولا مالي لا أراه لساتر ستره أو لسبب آخر ثم بدا له أنه غائب فأضرب عنه فأخذ يقول أهو غائب (لأعذبنه عذابا شديدا) قيل كان تعذيبه للطير بنتف ريشه وتشميسه وقيل

والاسقام الحاصلة فى جسمه انما حصلت بفعل الشيطان (الثانى) انها انما حصلت بفعل الله والعذاب المضاف فى هذه الآية الى الشيطان هو عذاب الوسوسة والقاء الخواطر الفاسدة (وأما القول الاول) فتقريره ماروى ان ابليس سأل ربه فقال هل فى عبيدك من لو سلطتنى عليه يمتنع منى فقال الله نعم عبدى أيوب فجعل يأتيه بوساوسه وهو يرى ابليس عيانا ولا يلتفت اليه فقال يارب انه قد امتنع على فسلطنى على ماله وكان يجيئه و يقول له هلك من مالك كذا وكذا فيقول الله أعطى والله أخذ ثم يحمد الله فقال يارب ان أيوب لا يبالى بماله فسلطنى على ولده فجاء وزلزل الدار فهلك أولاده بالكلية فجاءه وأخبره به فلم يلتفت اليه فقال يارب لا يبالى بماله وولده فسلطنى على جسده فاذن فيه فنفخ فى جلد أيوب وحدث اسقام عظيمة وآلام شديدة فيه فمكث فى ذلك البلاء سنين حتى صار بحيث استقذره أهل بلده فخرج الى الصحراء وما كان يقرب منه أحد فجاء الشيطان الى امرأته وقال لو أن زوجك استعان بى لخلصته من هذا البلاء فذكرت المرأة ذلك لزوجها فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنها مائة جلدة وعند هذه الواقعة قال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب فأجاب الله دعاءه وأوحى اليه أن اركض برجلك فأظهر الله من تحت رجله عينا باردة طيبة فاغتسل منها فأذهب الله عنه كل داء فى ظاهره وباطنه ورد عليه أهله وماله (والقول الثانى) ان الشيطان لا قدرة له البتة على ايقاع الناس فى الامراض والآلام والدليل عليه وجوه (الاول) انا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان فلعل الواحد منا انما وجد الحياة بفعل الشيطان ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات فقد حصل بفعل الشيطان وحينئذ لا يكون لنا سبيل الى أن نعرف ان معطى الحياة والموت والصحة والسقم هو الله تعالى (الثانى) ان الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى فى قتل الانبياء والاولياء ولم لا يخرب دورهم ولم لا يقتل أولادهم (الثالث) انه تعالى حكى عن الشيطان انه قال ما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فصرح بأنه لا قدرة له فى حق البشر الا على القاء الوساوس والخواطر الفاسدة وذلك يدل على قول من يقول ان الشيطان هو الذى ألقاه فى تلك الامراض والآفات فان قال قائل لم لا يجوز أن يقال ان الفاعل لهذه الاحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان قلنا فاذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والاسقام هو الله تعالى فأى فائدة فى جعل الشيطان واسطة فى ذلك بل الحق ان المراد من قوله انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب انه بسبب القاء الوساوس الفاسدة والخواطر الباطنة كان يلقيه فى أنواع العذاب والعناء ثم القائلون بهذا القول اختلفوا فى أن تلك الوساوس كيف كانت وذكروا فيه وجوها (الاول) ان علته كانت شديدة الالم ثم طالت مدة تلك العلة واستقذره الناس ونفروا عن مجاورته ولم يبق له شئ من الاموال البتة وامرأته كانت تخدم الناس وتحصل له قدر القوت ثم بلغت نفرة الناس عنه الى أن منعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم والشيطان كان يذكره النعم التى كانت والآفات التى حصلت وكان يحتال فى دفع تلك الوساوس فلما قويت تلك الوساوس فى قلبه خاف وتضرع الى الله وقال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب لانه كلما كانت تلك الخواطر أكثر كان ألم قلبه منها أشد (الثانى) انها لما طالت مدة المرض جاءه الشيطان وكان يقنطه من ربه ويزين له أن يجزع فخاف من تأكد خاطر القنوط فى قلبه فتضرع الى الله تعالى وقال انى مسنى الشيطان (الثالث) قيل ان الشيطان لما قال لامرأته لو أطاعنى زوجك أزلت عنه هذه الآفات فذكرت المرأة له ذلك فغلب على ظنه ان الشيطان طمع فى دينه فشق ذلك عليه فتضرع الى الله تعالى وقال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب (الرابع) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه بقى أيوب فى البلاء ثمان عشرة سنة حتى رفضه القريب والبعيد الا رجلين ثم قال أحدهما لصاحبه لقد أذنب أيوب ذنبا ما أتى به أحد من العالمين ولولاه ما وقع فى مثل هذا البلاء فذكروا ذلك لايوب عليه السلام فقال لا أدرى ما تقولان غير أن الله يعلم انى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فارجع الى بيتى فانفر عنهما كراهية ان يذكر الله تعالى الا فى الحق (الخامس) قيل ان امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجىء به الى أيوب فاتفق انهم ما استخدموها البتة وطلب بعض النساء منها قطع

بجعله مع ضده فى قفص وقيل بالتفريق بينه وبين الفه (أو لاذبحنه) ليعتبر به أبناء جنسه (أو ليأتينى بسلطان مبين) بحجة تبين عذره والحلف فى الحقيقة على أحد الاولين على تقدير عدم الثالث وقرئ ليأتيننى بنونين أولاهما مفتوحة مشددة قيل انه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ماشاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير الى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها فنزل ليتغدى ويصلى فلم يجد الماء وكان الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الارض كما يرى الماء فى الزجاجة فيجىء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الاهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك وقد كان حين نزل سليمان عليه السلام حلق الهدهد فرأى هدهدا واقعا فانحط اليه فوصف له ملك سليمان عليه السلام وما سخر له من كل شئ وذكر له صاحبه ملك بلقيس وأن تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع الا بعد العصر وذلك قوله تعالى (فمكث غير بعيد) أى زمانا غير مديد وقرئ بضم الكاف وذكرانه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان عليه السلام فنظر فاذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب على به فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله وقال بحق الله الذى قواك

احدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت ثم فى اليوم الثانى ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة وكان أيوب عليه السلام اذا أراد أن يتحرك على فراشه تعلق بتلك الذؤابة فلما لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية فى قلبه واشتد غمه فعند ذلك قال انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب (السادس) قال فى بعض الايام يارب لقد علمت ما اجتمع على أمران الا آثرت طاعتك ولما أعطيتنى المال كنت للارامل قيما ولابن السبيل معينا ولليتامى أبا فنودى من غمامة ياأيوب ممن كان ذلك التوفيق فأخذ أيوب التراب ووضعه على رأسه وقال منك يارب ثم خاف من الخاطر الاول فقال مسنى الشيطان بنصب وعذاب وقد ذكروا أقوالا أخرى والله أعلم بحقيقة الحال وسمعت بعض اليهود يقول ان لموسى بن عمران عليه السلام كتابا مفردا فى واقعة أيوب وحاصل ذلك الكتاب أن أيوب كان رجلا كثير الطاعة لله تعالى مواظبا على العبادة مبالغا فى التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله ثم انه وقع فى البلاء الشديد والعناء العظيم فهل كان ذلك لحكمة أم لا فان كان ذلك لحكمة فمن المعلوم انه ما أتى بجرم فى الزمان السابق حتى يجعل ذلك العذاب فى مقابلة ذلك الجرم وان كان ذلك لكثرة الثواب فالاله الحكيم الرحيم قادر على ايصال كل خير ومنفعة اليه من غير توسط تلك الآلام الطويلة والاسقام المكريهة وحينئذ لا يبقى فى تلك الامراض والآفات فائدة وهذه كلمات ظاهرة جلية وهى دالة على أن أفعال ذى الجلال منزهة عن التعليل بالمصالح والمفاسد والحق الصريح انه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (المسئلة الثالثة) لفظ الآية يدل على أن ذلك النصب والعذاب انما حصل من الشيطان ثم ذلك العذاب على القول الاول عبارة عما حصل فى بدنه من الامراض وعلى القول الثانى عبارة عن الاحزان الحاصلة فى قلبه بسبب القاء الوساوس وعلى التقديرين فيلزم اثبات الفعل للشيطان وأجاب أصحابنا رحمهم الله بانا لا ننكر اثبات الفعل للشيطان لكنا نقول فعل العبد مخلوق لله تعالى على التفصيل المعلوم أما قوله تعالى اركض برجلك فالمعنى انه لما شكا من الشيطان فكأنه سأل ربه أن يزيل عنه تلك البلية فأجابه الله اليه بأن قال له اركض برجلك والركض هو الدفع القوى بالرجل ومنه ركضك الفرس والتقدير قلنا له اركض برجلك قيل انه ضرب برجله تلك الارض فنبعت عين فقيل هذا مغتسل بارد وشراب أى هذا ماء تغتسل به فيبرأ باطنك وظاهر اللفظ يدل على انه نبعت له عين واحدة من الماء اغتسل فيه وشرب منه والمفسرون قالوا انبعت له عينان فاغتسل من احداهما وشرب من الاخرى فذهب الداء من ظاهره ومن باطنه باذن الله وقيل ضرب برجله اليمنى فنبعت عين حارة فاغتسل منها ثم باليسرى فنبعت عين باردة فشرب منها ثم قال تعالى ووهبنا له أهله فقد قيل فيه هم عين أهله وزيادة مثلهم وقيل غيرهم مثلهم والاول أولى لانه هو الظاهر فلا يجوز العدول عنه من غير ضرورة ثم اختلفوا فقال بعضهم معناه أزلنا عنهم السقم فعادوا أصحاء وقال بعضهم بل حضروا عنده بعد أن غابوا عنه واجتمعوا بعد ان تفرقوا وقال بعضهم بل تمكن منهم وتمكنوا منه فيما يتصل بالعشرة وبالخدمة أما قوله ومثلهم معهم فالاقرب انه تعالى متعه بصحته وبماله وقواه حتى كثر نسله وصار أهله ضعف ما كان وأضعاف ذلك وقال الحسن رحمه الله المراد بهبة الاهل انه تعالى أحياهم بعد ان هلكوا ثم قال رحمة منا أى انما فعلنا كل هذه الافعال على سبيل الفضل والرحمة لا على سبيل اللزوم ثم قال وذكرى لاولى الالباب يعنى سلطنا البلاء عليه أولا فصبر ثم أزلنا عنه البلاء وأوصلناه الى الآلاء والنعماء تنبيها لاولى الالباب على أن من صبر ظفر والمقصود منه التنبيه على ماوقع ابتداء الكلام به وهو قوله لمحمد اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود وقالت المعتزلة قوله تعالى رحمة منا وذكرى لأولى الالباب يعنى انما فعلناه لهذه الاغراض والمقاصد وذلك يدل على أن أفعال الله وأحكامه معللة بالاغراض والمصالح والكلام فى هذا الباب قدمر غير مرة أما قوله تعالى وخذ بيدك ضغثا فهو معطوف على اركض والضغث الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو غير ذلك واعلم أن هذا الكلام يدل على تقدم يمين منه وفى الخبر انه حلف على أهله ثم اختلفوا فى السبب الذى لاجله حلف عليها ويبعد ماقيل انها رغبته فى طاعة الشيطان ويبعد أيضا ماروى انها قطعت الذوائب عن رأسها لان المضطر الى الطعام يباح له ذلك بل الاقرب أنها خالفته فى بعض المهمات وذلك انها ذهبت فى بعض المهمات فابطأت فحلف فى مرضه ليضربنها مائة اذا برئ ولما كانت حسنة

وأدركك على الارحمتنى فتركته وقالت ثكلتك أمك ان نبى الله قد حلف ليعذبنك قال وما استثنى قالت بلى قال أوليأتينى بعذر مبين فلما قرب من سليمان عليه السلام أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الارض تواضعاله فلما دنا منه أخذ عليه السلام برأسه فمده اليه فقال يانبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله تعالى فارتعد سليمان عليه السلام وعفا عنه ثم سأله (فقال احطت بما لم تحط به) أى علما ومعرفة وحفظته من جميع جهاته وقرئ أحطت بادغام الطاء فى التاء باطباق وبغير اطباق ولا خفاء فى أنه لم يرد بما ادعى الاحاطة به ماهو من حقائق العلوم ودقائق المعارف التى تكون معرفتها والاحاطة بها من وظائف أرباب العلم والحكمة لتوقفها على علم رصين وفضل مبين حتى يكون اثباتها لنفسه بين يدى نبى الله سليمان عليه السلام تعديا عن طوره وتجاوزا عن دائرة قدره ونفيها عنه عليه الصلاة والسلام جناية على جنابه فيحتاج الى الاعتذار عنه بأن ذلك كان منه بطريق الالهام فيكافحه عليه الصلاة والسلام بذلك مع ماأوتى عليه الصلاة والسلام من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له عليه الصلاة والسلام فى علمه وتنبيها على أن فى أدنى خلقه تعالى وأضعفهم من أحاط علما بما لم يحط به لتتحاقر اليه نفسه ويتصاغر اليه علمه ويكون لطفا له فى ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء بل أراد به ماهو من الامور المحسوسة التى لا تعد الاحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف ادراكها الا على

الخدمة له لاجرم حلل الله يمينه بأهون شئ عليه وعليها وهذه الرخصة باقية وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه أتى بمجذم خبث بأمة فقال خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه به ضربة ثم قال تعالى انا وجدناه صابرا فان قيل كيف وجده صابرا وقد شكا اليه والجواب من وجوه (الاول) انه شكا من الشيطان اليه وما شكا منه الى أحد (الثانى) ان الالم حين كان على الجسد لم يذكر شيأ فلما عظمت الوساوس خاف على القلب والدين فتضرع (الثالث) ان الشيطان عدو والشكاية من العدو الى الحبيب لا تقدح فى الصبر ثم قال نعم العبد انه أواب وهذا يدل على أن تشريف نعم العبد انما حصل لكونه أوابا وسمعت بعضهم قال لما نزل قوله تعالى نعم العبد فى حق سليمان عليه السلام تارة وفى حق أيوب عليه السلام أخرى عظم الغم فى قلوب أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا ان قوله تعالى نعم العبد فى حق سليمان تشريف عظيم فان احتجنا الى اتفاق مملكة مثل مملكة سليمان حتى نجد هذا التشريف لم نقدر عليه وان احتجنا الى تحمل بلاء مثل أيوب لم نقدر عليه فكيف السبيل الى تحصيله فانزل الله تعالى قوله نعم المولى ونعم النصير والمراد انك ان لم تكن نعم العبد فانا نعم المولى وان كان منك الفضول فمنى الفضل وان كان منك التقصير فمنى الرحمة والتيسير ۞ قوله تعالى (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدى والابصار انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير عبدنا على الواحد وهى قراءة ابن عباس و يقول ان قوله عبدنا تشريف عظيم فوجب أن يكون هذا التشريف مخصوصا بأعظم الناس المذكورين فى هذه الآية وهو ابراهيم وقرأ الباقون عبادنا قالوا لان غير ابراهيم من الانبياء قد اجرى عليه هذا الوصف فجاء فى عيسى ان هو الا عبد أنعمنا عليه وفى أيوب نعم العبد وفى نوح انه كان عبدا شكورا فمن قرأ عبدنا جعل ابراهيم وحده عطف بيان له ثم عطف ذريته على عبدنا وهى اسحق ويعقوب ومن قرأ عبادنا جعل ابراهيم واسحق ويعقوب عطف بيان لعبادنا (المسئلة الثانية) تقدير الآية كانه تعالى قال فاصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود الى أن قال واذكر عبدنا ابراهيم أى واذكر يا محمد صبر ابراهيم حين ألقى فى النار وصبر اسحق للذبح وصبر يعقوب حين فقد ولده وذهب بصره ثم قال أولى الايدى والابصار واعلم أن اليد آلة لاكثر الاعمال والبصر آلة لاقوى الادراكات فحسن التعبير عن العمل باليد وعن الادراك بالبصر اذا عرفت هذا فنقول النفس الناطقة الانسانية لها قوتان عاملة وعالمة أما القوة العاملة فاشرف ما يصدر عنها طاعة الله وأما القوة العالمة فاشرف ما يصدر عنها معرفة الله وما سوى هذين القسمين من الاعمال والمعارف فكالعبث والباطل فقوله أولى الايدى والابصار اشارة الى هاتين الحالتين ثم قال تعالى انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله بخالصة قرئ بالتنوين والاضافة فمن نون كان التقدير أخلصناهم أى جعلناهم خالصين لنا بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها وهى ذكرى الدار ومن قرأ بالاضافة فالمعنى بما خلص من ذكرى الدار يعنى ان ذكرى الدار قد تكون لله وقد تكون لغير الله فالمعنى انا أخلصناهم بسبب ما خلص من هذا الذكر (المسئلة الثانية) فى ذكرى الدار وجوه (الاول) المراد أنهم استغرقوا فى ذكرى الدار الآخرة وبلغوا فى هذا الذكر الى حيث نسوا الدنيا (الثانى) المراد حصول الذكر الجليل الرفيع لهم فى الدار الآخرة (الثالث) المراد أنه تعالى أبقى لهم الذكر الجميل فى الدنيا وقبل دعاءهم فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ثم قال تعالى وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار أى المختارين من أبناء جنسهم والاخيار جمع خير أو خير على التخفيف كاموات فى جمع ميت أو ميت واحتج العلماء بهذه الآية فى اثبات عصمة الانبياء قالوا لانه تعالى حكم عليهم بكونهم أخيارا على الاطلاق وهذا يعم حصول الخيرية فى جميع الافعال والصفات بدليل صحة الاستثناء وبدليل دفع الاجمال ثم قال واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار وهم قوم آخرون من الانبياء تحملوا الشدائد فى دين الله وقد ذكرنا الكلام فى شرح هذه الاسماء وفى صفات هؤلاء الانبياء فى سورة الانبياء وفى سورة الانعام فلا فائدة فى الاعادة وههنا آخر الكلام فى قصص الانبياء فى هذه السورة ۞ قوله تعالى (هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الابواب متكئين فيها يدعون فيها

مجرد احساس يستوى فيه العقلاء وغيرهم وقد علم أنه عليه الصلاة والسلام لم يشاهده ولم يسمع خبره من غيره قطعا فعبر عنه بما ذكر لترويج كلامه عنده عليه الصلاة والسلام وترغيبه فى الاصغاء الى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فان النفس للاعتذار المنبئ عن أمر بديع أقبل والى تلقى ما لا تعلمه أميل ثم أيده بقوله (وجئتك من سبا بنبا يقين) حيث فسر ابهامه نوع تفسير وأراه عليه الصلاة والسلام أنه كان بصدد اقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبا الذى هو الخبر الخطير والشأن الكبير ووصفه بما وصفه والافاذا اصدر عنه عليه الصلاة والسلام مع ما حكى عنه ما حكى من الحمد والشكر واستدعاء الايزاع حتى يليق بالحكمة الالهية تنبيهه عليه الصلاة والسلام على تركه وسبأ منصرف على انه اسم لحى سموا باسم أبيهم الاكبر وهو سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان قالوا اسمه عبد شمس لقب به لكونه أول من سبى وقرئ بفتح الهمزة غير منصرف على انه اسم للقبيلة ثم سميت مدينة مأرب بسبا وبينها و بين صنعاء مسيرة ثلاث وعلى هذه القراءة يجوز أن يراد به القبيلة والمدينة وأما على القراءة الاولى فالمراد هو الحى لا غير وعدم وقوف سليمان عليه السلام على نبئهم قبل انباء الهدهد ليس بأمر بديع لابد له من حكمة داعية اليه البتة وان استحال خلو أفعاله تعالى من الحكم والمصالح لما أن المسافة بين محطه عليه الصلاة والسلام و بين مأرب وان كانت قصيرة لكن مدة ما بين نزوله عليه الصلاة والسلام هناك و بين مجئ

بفاكهة كثيرة وشراب وعندهم قاصرات الطرف اتراب هذا ماتوعدون ليوم الحساب ان هذا لرزقنا ماله من نفاد) اعلم ان فى قوله ذكر وجهين (الاول) انه تعالى انما شرح ذكر أحوال هؤلاء الانبياء عليهم السلام لاجل أن يصبر محمد عليه السلام على تحمل سفاهة قومه فلما تمم بيان هذا الطريق وأراد أن يذكر عقيبه طريقا آخر يوجب الصبر على سفاهة الجهال وأراد أن يميز أحد البابين عن الآخر لاجرم قال هذا ذكر ثم شرع فى تقرير الباب الثانى فقال وان للمتقين كما أن المصنف اذا تمم كلاما قال هذا باب ثم شرع فى باب آخر واذا فرغ الكاتب من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر قال هذا وقد كان كيت وكيت والدليل عليه انه لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يردفه بذكر أهل النار قال هذا وان للطاغين (الوجه الثانى فى التأويل) ان المراد هذا شرف وذكر جميل لهؤلاء الانبياء عليهم السلام يذكرون به أبدا والاول هو الصحيح أما قوله وان للمتقين لحسن مآب فاعلم أنه تعالى لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبى صلى الله عليه وسلم بان وصفوه بأنه ساحر كذاب وقالوا له على سبيل الاستهزاء ربنا عجل لنا قطنا فعند هذا أمر محمدا بالصبر على تلك السفاهة وبين أن ذلك الصبر لازم من وجهين (الاول) انه تعالى لما بين ان الانبياء المتقدمين صبروا على المكاره والشدائد فيجب عليك أن تقتدى بهم فى هذا المعنى (الثانى) انه تعالى بين فى هذه الآية أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا وكل ذلك يوجب الصبر على تكاليف الله تعالى وهذا نظم حسن وترتيب لطيف أما قوله تعالى وان للمتقين لحسن مآب المآب المرجع واحتج القائلون بقدم الارواح بهذه الآية وبكل آية تشتمل على لفظ الرجوع ووجه الاستدلال أن لفظ الرجوع انما يصدق لو كانت هذه الارواح موجودة قبل الاجساد وكانت فى حضرة جلال الله ثم تعلقت بالابدان فعند انفصالها عن الابدان يسمى ذلك رجوعا وجوابه ان هذا ان دل فانما يدل على أن الارواح كانت موجودة قبل الابدان ولا يدل على قدم الارواح ثم قال تعالى جنات عدن وهو بدل من قوله لحسن مآب ثم قال مفتحة لهم الابواب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى تأويل هذا اللفظ وجوها (الاول) قال الفراء معناه مفتحة لهم أبوابها والعرب تجعل الالف واللام خلفا من الاضافة تقول العرب مررت برجل حسن الوجه فالالف واللام فى الوجه بدل من الاضافة (والثانى) قال الزجاج المعنى مفتحة لهم الابواب منها (الثالث) قال صاحب الكشاف الابواب بدل من الضمير وتقديره مفتحة هى الابواب كقولك ضرب زيد اليد والرجل وهو من بدل الاشتمال (المسئلة الثانية) قرئ جنات عدن مفتحة بالرفع على تقدير أن يكون قوله جنات عدن مبتدأ ومفتحة خبره وكلاهما خبر مبتدأ محذوف أى هو جنات عدن مفتحة لهم (المسئلة الثالثة) اعلم انه تعالى وصف من أحوال أهل الجنة فى هذه الآية أشياء (الاول) أحوال مساكنهم فقوله جنات عدن يدل على أمرين (أحدهما) كونها جنات وبساتين (والثانى) كونها دائمة آمنة من الانقضاء وفى قوله مفتحة لهم الابواب وجوه (الاول) أن يكون المعنى ان الملائكة الموكلين بالجنان اذا رأوا صاحب الجنة فتحوا له أبوابها وحيوه بالسلام فيدخل كذلك محفوفا بالملائكة على أعز حال وأجمل هيئة قال تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين (الثانى) أن تلك الابواب كلما أرادوا انفتاحها انفتحت لهم وكلما أرادوا انغلاقها انغلقت لهم (الثالث) المراد من هذا الفتح وصف تلك المساكن بالسعة ومسافرة العيون فيها ومشاهدة الاحوال اللذيذة الطيبة ثم قال تعالى متكئين فيها يدعون فيها وفيه مباحث (الاول) انه تعالى ذكر فى هذه الآية كونهم متكئين فى الجنة وذكر فى سائر الآيات كيفية ذلك الاتكاء فقال فى آية على الارائك متكؤن وقال فى آية أخرى متكئين على رفرف خضر (البحث الثانى) قوله متكئين فيها حال قدمت على العامل فيها وهو قوله يدعون فيها والمعنى يدعون فى الجنات متكئين فيها ثم قال بفاكهة كثيرة وشراب والمعنى بألوان الفاكهة وألوان الشراب والتقدير بفاكهة كثيرة وشراب كثير والسبب فى ذكر هذا المعنى ان ديار العرب حارة قليلة الفواكه والاشربة فرغبهم الله تعالى فيه ولما بين تعالى أمر المسكن وأمر المأكول والمشروب ذكر عقيبه أمر المنكوح فقال وعندهم قاصرات الطرف وقد سبق تفسيره فى سورة والصافات وبالجملة فالمعنى كونهن قاصرات الطرف عن غيرهم

الهدهد بالخبر أيضا قصيرة نعم اختصاص الهدهد بذلك مع كون الجن أقوى منه مبنى على حكم بالغة يستأثر بها علام الغيوب وقوله تعالى (انى وجدت امرأة تملكهم) استئناف لبيان ماجاء به من النبأ وتفصيل له اثر الاجمال وهى بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها وورث الملك من أربعين أبا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك ودانت لها الامة وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس وايثار وجدت على رأيت لما أشير اليه من الايذان بكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه الصلاة والسلام بابراز نفسه فى معرض من يتفقد أحوالها ويتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام وضمير تملكهم لسبا على أنه اسم الحى أو لاهلها المدلول عليهم بذكر مدينتهم على انه اسم لها (وأوتيت من كل شئ) أى من الاشياء التى يحتاج اليها الملوك (ولها عرش عظيم) قيل كان ثلاثين ذراعا فى ثلاثين عرضا وسمكا وقيل ثمانين فى ثمانين من ذهب وفضة مكللا بالجواهر وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرذ وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق واستعظام الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام اما بالنسبة الى حالها أو الى عروش أمثالها من الملوك وقد جوز أن لا يكون لسليمان عليه السلام مثله وأيا ما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه الصلاة والسلام لما مر من ترغيبه عليه الصلاة والسلام فى الاصغاء الى حديثه وتوجيه عزيمته عليه الصلاة والسلام

مقصورات القلب على محبتهم وقوله أتراب أى على سن واحد ويحتمل كون الجوارى أترابا ويحتمل كونهن أترابا للازواج قال القفال والسبب فى اعتبار هذه الصفة انهن لما تشابهن فى الصفة والسن والحلية كان الميل اليهن على السوية وذلك يقتضى عدم الغيرة ثم قال تعالى هذا ما توعدون ليوم الحساب يعنى ان الله تعالى وعد المتقين بالثواب الموصوف بهذه الصفة ثم انه تعالى أخبر عن دوام هذا الثواب فقال ان هذا لرزقنا ماله من نفاد ۞ قوله تعالى ﴿هذا وان للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم انهم صالو النار قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الابصار ان ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ اعلم انه تعالى لما وصف ثواب المتقين وصف بعده عقاب الطاغين ليكون الوعيد مذكورا عقيب الوعد والترهيب عقيب الترغيب واعلم انه تعالى ذكر من أحوال أهل النار أنواعا (فالاول) مرجعهم ومآبهم فقال هذا وان للطاغين لشر مآب وهذا فى مقابلة قوله وان للمتقين لحسن مآب فبين تعالى ان حال الطاغين مضادة لحال المتقين واختلفوا فى المراد بالطاغين فاكثر المفسرين حملوه على الكفار وقال الجبائى انه محمول على أصحاب الكبائر سواء كانوا كفارا أو لم يكونوا كذلك واحتج الاولون بوجوه (الاول) ان قوله لشر مآب يقتضى أن يكون مآبهم شرا من مآب غيرهم وذلك لا يليق الا بالكفار (الثانى) انه تعالى حكى عنهم انهم قالوا أتخذناهم سخريا وذلك لا يليق الا بالكفار لان الفاسق لا يتخذ المؤمن سخريا (الثالث) انه اسم ذم والاسم المطلق محمول على الكامل والكامل فى الطغيان هو الكافر واحتج الجبائى على صحة قوله بقوله تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وهذا يدل على أن الوصف بالطغيان قد يحصل فى حق صاحب الكبيرة ولان كل من تجاوز عن تكاليف الله تعالى وتعداها فقد طغى اذا عرفت هذا فنقول قال ابن عباس رضى الله عنهما المعنى ان الذين طغوا وكذبوا رسلى لهم شر مآب أى شر مرجع ومصير ثم قال جهنم يصلونها والمعنى أنه تعالى لما حكم بان الطاغين لهم شر مآب فسره بقوله جهنم يصلونها ثم قال فبئس المهاد وهو كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش شبه الله ما تحتهم من النار بالمهاد الذى يفترشه النائم ثم قال تعالى هذا فليذوقوه حميم وغساق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه وجهان (الاول) انه على التقديم والتأخير والتقدير هذا حميم وغساق فليذوقوه (الثانى) أن يكون التقدير جهنم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه ثم يبتدئ فيقول حميم وغساق (المسئلة الثانية) الغساق بالتخفيف والتشديد فيه وجوه (الاول) انه الذى يغسق من صديد أهل النار يقال غسقت العين اذا سال دمعها وقال ابن عمر هو القيح الذى يسيل منهم يجتمع فيسقونه (الثانى) قيل الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وذكر الازهرى أن الغساق البارد ولهذا قيل لليل غاسق لانه أبرد من النهار (الثالث) ان الغساق المنتن حكى الزجاج لو قطرت منه قطرة فى المشرق لأنتنت أهل المغرب ولو قطرت منه قطرة فى المغرب لانتنت أهل المشرق (الرابع) قال كعب الغساق عين فى جهنم يسيل اليها سم كل ذات حمة من عقرب وحية (المسئلة الثالثة) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم غساق بتشديد السين حيث كان والباقون بالتخفيف قال أبو على الفارسى الاختيار التخفيف لانه اذا شدد لم يخل من أن يكون اسما أو صفة فان كان اسما فالاسماء لم تجئ على هذا الوزن الا قليلا وان كان صفة فقد أقيم مقام الموصوف والاصل ان لا يجوز ذلك ثم قال تعالى وآخر من شكله أزواج وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو وأخر بضم الالف على جمع أخرى أى أصناف أخر من العذاب وهو قراءة مجاهد والباقون آخر على الواحد أى عذاب آخر أما على القراءة الاولى فقوله وأخر أى ومذوقات أخر من شكل هذا المذوق أى من مثله فى الشدة والفظاعة أزواج أى أجناس وأما على القراءة الثانية فالتقدير وعذاب أو مذوق آخر وأزواج صفة لآخر لانه يجوز أن يكون ضروبا أو صفة للثلاثة وهم حميم وغساق وآخر من شكله قال صاحب الكشاف وقرئ من شكله بالكسر وهى لغة وأما الغنج فبالكسر لا غير واعلم انه تعالى لما وصف مسكن الطاغين ومأكولهم حكى أحوالهم مع الذين كانوا أحباءهم فى الدنيا أولا ثم مع الذين

نحو تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها حيث قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) أى يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى (وزين لهم الشيطان أعمالهم) التى هى عبادة الشمس ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصى (فصدهم) بسبب ذلك (عن السبيل) أى سبيل الحق والصواب فان تزيين أعمالهم لا يتصور بدون تقويم طرق كفرهم وضلالتهم ومن ضرورته نسبة طريق الحق الى العوج (فهم) بسبب ذلك (لا يهتدون) اليه وقوله تعالى (الا يسجدوا لله) مفعول له اما للصد أو للتزيين على حذف اللام منه أى فصدهم لان لا يسجدوا له تعالى أو زين لهم أعمالهم لأن لا يسجدوا أو بدل على حاله من أعمالهم وما بينهما اعتراض أى زين لهم أن لا يسجدوا وقيل هو فى موقع المفعول ليهتدون باسقاط الخافض ولا مزيدة كما فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب والمعنى فهم لا يهتدون الى أن يسجدوا له تعالى وقرئ ألا يا اسجدوا على التنبيه والنداء والمنادى محذوف أى ألا يا قوم اسجدوا كما فى قوله

* ألا يا اسلمى يا دارمى على البلى *

ونظائره وعلى هذا يحتمل أن يكون استئنافا من جهة الله عز وجل أو من سليمان عليه السلام ويوقف على لا يهتدون ويكون أمرا بالسجود وعلى الوجوه المتقدمة ذما على تركه وأياما كان فالسجود واجب وقرئ هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وقرئ هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب (الذى يخرج الخبء فى السموات والارض) أى يظهر ما هو مخبوء

كانوا أعداء لهم فى الدنيا ثانيا (أما الاول) فهو قوله هذا فوج مقتحم معكم واعلم أن هذا حكاية كلام
رؤساء أهل النار بقوله بعضهم لبعض بدليل أن ماحكى بعد هذا من أقوال الاتباع وهو قوله قالوا بل أنتم
لامرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا وقيل ان قوله هذا فوج مقتحم معكم كلام الخزنة لرؤساء الكفرة فى اتباعهم
وقوله لامرحبا بهم انهم صالوا النار كلام الرؤساء وقوله هذا فوج مقتحم معكم أى هذا جمع كثيف قد اقتحم
معكم النار كما كانوا قد اقتحموا معكم فى الجهل والضلال ومعنى اقتحم معكم النار أى دخل النار فى صحبتكم
والاقتحام ركوب الشدة والدخول فيها والقحمة الشدة وقوله تعالى لامرحبا بهم دعاء منهم على أتباعهم
يقول الرجل لمن يدعو له مرحبا أى أتيت رحبا فى البلاد لاضيقا أو رحبت بلادك رحبا ثم يدخل عليه كلمة
لافى دعاء السوء وقوله بهم بيان للمدعو عليهم انهم صالوا النار تعليل لاستيجابهم الدعاء عليهم ونظير هذه
الآية قوله تعالى كلما دخلت أمة لعنت أختها قالوا أى الاتباع بل أنتم لامرحبا بكم يريدون ان الدعاء
الذى دعوتم به علينا أيها الرؤساء أنتم أحق به وعللوا ذلك بقولهم أنتم قدمتموه لنا والضمير للعذاب أو لصليهم
فان قيل مامعنى تقديمهم العذاب لهم قلنا الذى أوجب التقديم هو عمل السوء قال تعالى وذوقوا عذاب
الحريق ذلك بما قدمت أيديكم الا أن الرؤساء لما كانوا هم السبب فيه باغوائهم وكان العذاب جزاءهم
عليه قيل أنتم قدمتموه لنا فجعل الرؤساء هم المقدمين وجعل الجزاء هو المقدم والضمير فى قوله قدمتموه
كناية عن الطغيان الذى دل عليه قوله وان للطاغين لشر مآب وقوله فبئس القرار أى بئس المستقر
والمسكن جهنم ثم قالت الاتباع ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا أى مضاعفا ومعناه ذا ضعف ونظيره
قوله تعالى ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا وكذلك قوله تعالى ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا
السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب فان قيل كل مقدار يفرض من العذاب فان كان بقدر الاستحقاق
لم يكن مضاعفا وان كان زائدا عليه كان ظلما وانه لايجوز قلنا المراد منه قوله عليه السلام ومن سن سنة
سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة والمعنى انه يكون احد القسمين عذاب الضلال والثانى
عذاب الاضلال والله أعلم وههنا آخر شرح أحوال الكفار مع الذين كانوا أحبابا لهم فى الدنيا وأما شرح
أحوالهم مع الذين كانوا أعداء لهم فى الدنيا فهو قوله وقالوا مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار
يعنى ان الكفار اذا نظروا الى جوانب جهنم فحينئذ يقولون مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار
يعنون فقراء المسلمين الذين لايؤبه بهم وسموهم من الاشرار اما بمعنى الاراذل الذين لاخير فيهم ولاجدوى
أو لانهم كانوا على خلاف دينهم فكانوا عندهم أشرارا ثم قالوا أتخذناهم سخريا وفيه مسائل (المسئلة
الاولى) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى من الاشرار اتخذناهم بوصل ألف اتخذناهم والباقون بفتحها
على الاستفهام قال أبو عبيد وبالوصل يقرأ لان الاستفهام متقدم فى قوله مالنا لانرى رجالا ولان
المشركين لايشكون فى اتخاذهم المؤمنين فى الدنيا سخريا لانه تعالى قد أخبر عنهم بذلك فى قوله فاتخذتموهم
سخريا حتى أنسوكم ذكرى فكيف يحسن أن يستفهموا عن شئ علموه أجاب الفراء عنه بان قال هذا
من الاستفهام الذى معناه التعجب والتوبيخ ومثل هذا الاستفهام جائز عن الشئ المعلوم أما وجه قول
من ألحق الهمزة للاستفهام انه لابد من المصير اليه ليعادل قوله اتخذناهم بأم فى قوله أم زاغت عنهم
فان قيل فما الجملة المعادلة لقوله أم زاغت على القراءة الاولى قلنا انها محذوفة والمعنى المقصودون هم أم
زاغت عنهم الابصار (المسئلة الثانية) قرأ نافع سخريا بضم السين والباقون بكسرها وقيل هما بمعنى
واحد وقيل بالكسر هو الهزؤ وبالضم هو التذليل والتسخير (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى نظم الآية
على قولين بناء على القراءتين المذكورتين أما القراءة على سبيل الاخبار فالتقدير مالنا لانراهم حاضرين
لاجل انهم لحقارتهم تركوا أو لاجل انهم زاغت عنهم الابصار ووقع التعبير عن حقارتهم بقولهم اتخذناهم
سخريا وأما القراءة على سبيل الاستفهام فالتقدير لاجل انا قد اتخذناهم سخريا وما كانوا كذلك فلم
يدخلوا النار أم لاجل انه زاغت عنهم الابصار واعلم انه تعالى لما حكى عنهم هذه المناظرة قال ان ذلك الذى
حكيناه عنهم لحق لابد وان يتكلموا به ثم بين أن الذى حكيناه عنهم ماهو فقال تخاصم أهل النار وانما سمى
الله تعالى تلك الكلمات تخاصما لان قول الرؤساء لامرحبا بهم وقول الاتباع بل أنتم لامرحبا بكم من باب

الخصومة

ومخفى فيهما كائنا ما كان
وتخصيص هذا الوصف بالذكر
بصدد بيان تفرده تعالى باستحقاق
السجود له من بين سائر أوصافه
الموجبة لذلك لما أنه أرسخ فى
معرفته والاحاطة بأحكامه
بمشاهدة آثاره التى من جملتها ما
أودعه الله تعالى فى نفسه من القدرة
على معرفة الماء تحت الارض
وأشار بعطف قوله (ويعلم
ماتخفون وماتعلنون) على يخرج
الى أنه تعالى يخرج مافى العالم
الانسانى من الخفايا كما يخرج مافى
العالم الكبير من الخبايا لما أن
المراد اظهر ماتخفونه من الاحوال
فيجازيكم بها وذكر ماتعلنون لتوسيع
دائرة العلم أو للتنبيه على تساويهما
بالنسبة الى العلم الالهى وقرئ
مايخفون ومايعلنون على صيغة
الغيبة بلا التفات واخراج الخبء
يعم اشراق الكواكب واظهارها
من آفاقها بعد استتارها وراءها
وانزال الامطار وانبات النبات بل
الانشاء الذى هو اخراج مافى الشئ
بالقوة الى الفعل والابداع الذى
هو اخراج مافى الامكان والعدم
الى الوجود وغير ذلك من غيوبه
عزوجل وقرئ الخب بتخفيف
الهمزة بالحذف وقرئ الخبا
بتخفيفها بالقلب وقرئ الا تسجدون
لله الذى يخرج الخبء من السماء
والارض ويعلم سركم وماتعلنون
(الله لا اله الا هو رب العرش
العظيم) الذى هو أول الاجرام
وأعظمها وقرئ العظيم بالرفع على
أنه صفة الرب واعلم أن ماحكى من
الهدهد من قوله الذى يخرج
الخبء الى هنا ليس داخلا تحت
قوله أحطت بما لم تحط به وانما هو
من العلوم والمعارف التى اقتبسها
من سليمان عليه السلام أورده
بيانا لما هو عليه واظهارا لتصلبه

الخصومة ﴿فى﴾ قوله تعالى ﴿قل انما أنا منذر وما من اله الا الله الواحد القهار رب السموات والارض وما بينهما العزيز الغفار قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لى من علم بالملا الاعلى اذ يختصمون ان يوحى الى الا انما أنا نذير مبين﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى فى أول السورة أن محمدا صلى الله عليه وسلم لما دعا الناس الى أنه لا اله الا اله واحد والى أنه رسول مبين من عند الله والى أن القول بالقيامة حق فأولئك الكفار أظهروا السفاهة وقالوا انه ساحر كذاب واستهزؤا بقوله ثم انه تعالى ذكر قصص الانبياء لوجهين (الاول) ليصير ذلك حاملا لمحمد صلى الله عليه وسلم على التأسى بالانبياء عليهم السلام فى الصبر على سفاهة القوم (والثانى) ليصير ذلك رادعا للكفار على الاصرار على الكفر والسفاهة وداعيا الى قبول الايمان ولما تمم الله تعالى ذلك الطريق أردفه بطريق آخر وهو شرح نعيم أهل الثواب وشرح عقاب أهل العقاب فلما تمم الله تعالى هذه البيانات عاد الى تقرير المطالب المذكورة فى أول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث فقال قل يا محمد انما أنا منذر ولابد من الاقرار بأنه ما من اله الا الله الواحد القهار فان الترتيب الصحيح ان تذكر شبهات الخصوم أولا ويجاب عنها ثم تذكر عقيبها الدلائل الدالة على صحة المطلوب فكذا ههنا أجاب الله تعالى عن شبههم ونبه على فساد كلماتهم ثم ذكر عقيبه ما يدل على صحة هذه المطالب لان ازالة ما لا ينبغى مقدمة على اثبات ما ينبغى وغسل اللوح من النقوش الفاسدة مقدم على كتب النقوش الصحيحة فيه ومن نظر فى هذا الترتيب اعترف بأن الكلام من أول السورة الى آخرها قد جاء على أحسن وجوه الترتيب والنظم أما قوله قل انما أنا منذر يعنى أبلغ أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوة والمعاد وأحوال ثواب من أقر بها وكما بدأ فى أول السورة بأدلة التوحيد حيث حكى عنهم انهم قالوا أجعل الآلهة الها واحدا فكذلك بدأ ههنا بتقرير التوحيد فقال وما من اله الا الله الواحد القهار وفى هذه الكلمة اشارة الى الدليل الدال على كونه منزها عن الشريك والنظير وبيانه ان الذى يجعل شريكا له فى الالهية اما أن يكون موجودا قادرا على الاطلاق على التصرف فى العالم أو لا يكون كذلك بل يكون جمادا عاجزا والاول باطل لانه لو كان شريكه قادرا على الاطلاق لم يكن هو قادرا قاهرا لان بتقدير أن يريد هو شيأ ويريد شريكه ضد ذلك الشئ لم يكن حصول أحد الامرين أولى من الآخر فيفضى الى اندفاع كل واحد منهما بالآخر وحينئذ لا يكون قادرا قاهرا بل كان عاجزا ضعيفا والعاجز لا يصلح للالهية فقوله الا الله الواحد القهار اشارة الى ان كونه قهارا يدل على كونه واحدا (وأما الثانى) وهو أن يقال ان الذى جعل شريكا له لا يقدر على شئ البتة مثل هذه الاوثان فهذا أيضا فاسد لان صريح العقل يحكم بأن عبادة الاله القادر القاهر أولى من عبادة الجماد الذى لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ فقوله وما من اله الا الله الواحد القهار يدل على هذه الدلائل واعلم ان كونه سبحانه قهارا مشعر بالترهيب والتخويف فلما ذكر ذلك أردفه بما يدل على الرجاء والترغيب فقال رب السموات والارض وما بينهما العزيز الغفار فكونه ربا مشعر بالتربية والاحسان والكرم والجود وكونه غفارا مشعر بالترغيب وهذا الموجود هو الذى تجب عبادته لانه هو الذى يخشى عقابه ويرجى فضله وثوابه ونذكر طريقة أخرى فى تفسير هذه الآيات فنقول انه تعالى ذكر من صفاته فى هذا الموضع خمسة الواحد والقهار والرب والعزيز والغفار أما كونه واحدا فهو الذى وقع الخلاف فيه بين أهل الحق وبين المشركين واستدل تعالى على كونه واحدا بكونه قهارا وقد بينا وجه هذه الدلالة الا ان كونه قهارا وان دل على اثبات الوحدانية الا انه يوجب الخوف الشديد فأردفه تعالى بذكر صفات ثلاثة دالة على الرحمة والفضل والكرم (أولها) كونه ربا للسموات والارض وما بينهما وهذا انما تتم معرفته بالنظر فى آثار حكمة الله تعالى فى خلق السموات والارض والعناصر الاربعة والمواليد الثلاثة وذلك بحر لا ساحل له فاذا تأملت فى آثار حكمته ورحمته فى خلق هذه الاشياء عرفت حينئذ تربيته للكل وذلك يفيد الرجاء العظيم (وثانيها) كونه عزيزا والفائدة فى ذكره ان لقائل أن يقول هب انه رب ومربى وكريم الا انه غير قادر على كل المقدورات فأجاب عنه بأنه عزيز أى قادر على كل الممكنات فهو يغلب الكل ولا يغلبه شئ (وثالثها) كونه غفارا والفائدة فى ذكره أن لقائل ان يقول هب انه رب ومحسن ولكنه يكون كذلك فى حق المطيعين المخلصين فى العبادة فأجاب عنه بأن من بقى على الكفر سبعين سنة ثم

فى الدين وكل ذلك لتوجيه قلبه عليه الصلاة والسلام نحو قبول كلامه وصرف عنان عزيمته عليه السلام الى غزوها وتسخير ولايتها (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية كلام الهدهد كأنه قيل فماذا فعل سليمان عليه السلام عند ذلك فقيل قال (سننظر) أى فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل والسين للتأكيد أى سنتعرف بالتجربة البتة (أصدقت أم كنت من الكاذبين) كان مقتضى الظاهر أم كذبت وايثار ما عليه النظم الكريم للايذان بأن كذبه فى هذه المادة يستلزم انتظامه فى سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فان مساق هذه الاقاويل الملفقة على ترتيب انيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداق أصلا لا سيما بين يدى نبى عظيم الشأن لا يكاد يصدر الا عمن له قدم راسخ فى الكذب والافك وقوله تعالى (اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم) استئناف مبين لكيفية النظر الذى وعده عليه الصلاة والسلام وقد قاله عليه الصلاة والسلام بعدما كتب كتابه فى ذلك المجلس أو بعده وتخصيصه عليه الصلاة والسلام اياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الاقوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة وصحة الفراسة ولئلا يبقى له عذر أصلا (ثم تول عنهم) أى تنح الى مكان قريب تتوارى فيه (فانظر) أى تأمل وتعرف (ماذا يرجعون) أى ماذا يرجع بعضهم الى بعض من القول وجمع الضمائر لما ان مضمون الكتاب الكريم دعوة الكل الى الاسلام (قالت) أى بعدما ذهب

تاب فانى أزيل اسمه عن ديوان المذنبين وأستر عليه بفضلى ورحمتى جميع ذنوبه وأوصله الى درجات الابرار واعلم انه تعالى لما بين ذلك قال قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون وهذا النبأ العظيم يحتمل وجوها فيمكن أن يكون المراد ان القول بان الاله واحد نبأ عظيم ويمكن أن يقال المرد ان القول بالنبوة نبأ عظيم ويمكن ان يقال المراد ان القول باثبات الحشر والنشر والقيامة نبأ عظيم وذلك لان هذه المطالب الثلاثة كانت مذكورة فى أول السورة ولاجلها انجر الكلام الى كل ماسبق ذكره ويمكن أيضا أن يكون المراد كون القرآن معجزا لان هذا أيضا قد تقدم ذكره فى قوله كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وهؤلاء الاقوام أعرضوا عنه على ما قال قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون واعلم أن قوله أنتم عنه معرضون ترغيب فى النظر والاستدلال ومنع من التقليد لان هذه المطالب مطالب شريفة عالية فان بتقدير أن يكون الانسان فيها على الحق يفوز بأعظم أبواب السعادة وبتقدير أن يكون الانسان فيها على الباطل وقع فى أعظم أبواب الشقاوة فكانت هذه المباحث أنباء عظيمة ومطالب عالية بهية وصريح العقل يوجب على الانسان أن يأتى فيها بالاحتياط التام وان لا يكتفى بالمساهلة والمسامحة أما قوله تعالى ما كان لى من علم بالملا الأعلى اذ يختصمون فاعلم انه تعالى رغب المكلفين فى الاحتياط فى هذه المسائل الاربعة وبالغ فى ذلك الترغيب من وجوه (الاول) أن كل واحد منها نبأ عظيم والنبأ العظيم يجب الاحتياط فيه (الثانى) ان الملأ الأعلى اختصموا وأحسن ما قيل فيه انه تعالى لما قال انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون والمعنى انهم قالوا أى فائدة فى خلق البشر مع انهم يشتغلون بقضاء الشهوة وهو المراد من قوله من يفسد فيها وبامضاء الغضب وهو المراد من قوله ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك فقال الله سبحانه وتعالى انى أعلم ما لا تعلمون وتقرير هذا الجواب والله أعلم أن يقال ان المخلوقات بحسب القسمة العقلية على أقسام أربعة (أحدها) الذين حصل لهم العقل والحكمة ولم تحصل لهم النفس والشهوة وهم الملائكة فقط (وثانيها) الذين حصل لهم النفس والشهوة ولم يحصل لهم العلم والحكمة وهى البهائم (وثالثها) الاشياء الخالية عن القسمين وهى الجمادات وبقى فى التقسيم قسم رابع وهو الذى حصل فيه الامران وهو الانسان والمقصود من تخليق الانسان ليس هو الجهل والتقليد والتكبر والتمرد فان كل ذلك صفات البهائم والسباع بل المقصود من تخليقه ظهور العلم والحكمة والطاعة فقوله انى أعلم ما لا تعلمون يعنى ان هذا النوع من المخلوقات وان حصلت فيه الشهوة الداعية الى الفساد والغضب الحامل له على سفك الدماء لكن حصل فيه العقل الذى يدعوه الى المعرفة والمحبة والطاعة والخدمة واذا ثبت أنه تعالى انما أجاب الملائكة بهذا الجواب وجب على الانسان أن يسعى فى تحصيل هذه الصفات وأن يجتهد فى اكتسابها وأن يحترز عن طريقة الجهل والتقليد والاصرار والتكبر واذا كان كذلك فكل من وقف على كيفية هذه الواقعة صار وقوفه عليها داعيا له الى الجد والاجتهاد فى اكتساب المعارف الحقة والاخلاق الفاضلة زاجرا له عن اضدادها ومقابلاتها فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذا الكلام فى هذا المقام فان قيل الملائكة لا يجوز أن يقال انهم اختصموا بسبب قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فان المخاصمة مع الله كفر قلنا لا شك أنه جرى هناك سؤال وجواب وذلك يشابه المخاصمة والمناظرة والمشابهة علة لجواز المجاز فلهذا السبب حسن اطلاق لفظ المخاصمة عليه ولما أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم أن يذكر هذا الكلام على سبيل الرمز أمره أن يقول ان يوحى الى الا انما أنا نذير مبين يعنى أنا ما عرفت هذه المخاصمة الا بالوحى وانما أوحى الله الى هذه القصة لانذركم بها ولتصير هذه القصة حاملة لكم على الاخلاص فى الطاعة والاحتراز عن الجهل والتقليد ۞ قوله تعالى ﴿اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس استكبر وكان من الكافرين قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتى الى يوم الدين قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين

الا

الهدهد بالكتاب فألقاه اليهم وتنحى عنهم حسبما أمر به وانما طوى ذكره ايذانا بكمال مسارعته الى اقامة ما أمر به من الخدمة واشعارا باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره روى أنه عليه الصلاة والسلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه الى الهدهد فوجدها الهدهد راقدة فى قصرها بمأرب وكانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة وقيل أتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع الحميرى كما مر فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت فعند ذلك قالت لاشراف قومها (يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم) وصفته بالكرم لكرم مضمونه أو لكونه من عند ملك كريم أو لكونه مختوما أو لغرابة شأنه ووصوله اليها على منهاج غير معتاد (انه من سليمان) استئناف وقع جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل ممن هو وماذا مضمونه فقالت انه من سليمان (وانه) أى مضمونه أو المكتوب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) وفيه اشارة الى سبب وصفها اياه بالكرم وقرئ أنه وأنه بالفتح على حذف اللام كأنها علات كرمه بكونه من سليمان وبكونه مصدرا باسم الله تعالى وقيل على انه بدل من كتاب وقرئ أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم على أن أن المفسرة (أن لا تعلوا على) أن مفسرة ولا ناهية أى لا تتكبروا كما يفعل جبابرة الملوك وقيل

الاعبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) اعلم أن المقصود من ذكر هذه القصة المنع من الحسد والكبر وذلك لان ابليس انما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر والكفار انما نازعوا محمدا عليه السلام بسبب الحسد والكبر فالله تعالى ذكر هذه القصة ههنا ليصير سماعها زاجرا لهم عن هاتين الخصلتين المذمومتين والحاصل أنه تعالى رغب المكلفين فى النظر والاستدلال ومنعهم من الاصرار والتقليد وذكر فى تقريره أمورا أربعة (أولها) انه نبأ عظيم فيجب الاحتياط فيه (والثانى) ان قصة سؤال الملائكة عن الحكمة فى تخليق البشر يدل على أن الحكمة الاصلية فى تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر (الثالث) ان ابليس انما خاصم آدم عليه السلام لاجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يحترز عنهما فهذا هو وجه النظم فى هذه الآيات واعلم أن هذه القصة قد تقدم شرحها فى سور كثيرة فلا فائدة فى الاعادة الا ما لابد منه وفيها مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله انى خالق بشرا من طين فيه سؤالات (الاول) ان هذا النظم انما يصح لو أمكن خلق البشر لا من الطين كما اذا قيل أنا متخذ سوارا من ذهب فهذا انما يستقيم لو أمكن اتخاذه من الفضة (الثانى) ذكر ههنا أنه خلق البشر من طين وفى سائر الآيات ذكر أنه خلقه من سائر الاشياء كقوله تعالى فى آدم انه خلقه من تراب وكقوله من صلصال من حمأ مسنون وكقوله خلق الانسان من عجل (الثالث) أن هذه الآية تدل على أنه تعالى لما أخبر الملائكة بأنه خلق بشرا من طين لم يقولوا شيأ وفى الآية الاخرى وهى التى قال انى جاعل فى الارض خليفة بين أنهم أوردوا السؤال والجواب فبينهما تناقض والجواب عن الاول أن التقدير كأنه سبحانه وصف لهم أولا أن البشر شخص جامع للقوة البهيمية والسبعية والشيطانية والملكية فلما قال انى خالق بشرا من طين فكأنه قال ذلك الشخص المستجمع لتلك الصفات انما أخلقه من الطين والجواب عن الثانى ان المادة البعيدة هو التراب وأقرب منه الطين وأقرب منه الحمأ المسنون وأقرب منه الصلصال فثبت انه لا منافاة بين الكل والجواب عن الثالث انه فى الآية المذكورة فى سورة البقرة بين لهم أنه يخلق فى الارض خليفة وبالآية المذكورة ههنا بين أن ذلك الخليفة بشر مخلوق من الطين (المسئلة الثانية) قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحى وهذا يدل على أن تخليق البشر لا يتم الا بأمرين التسوية أولا ثم نفخ الروح ثانيا وهذا حق لان الانسان مركب من جسد ونفس أما الجسد فانه انما يتولد من المنى والمنى انما يتولد من دم الطمث وهو انما يتولد من الاخلاط الاربعة وهى انما تتولد من الاركان الاربعة ولا بد فى حصول هذه التسوية من رعاية مقدار مخصوص لكل واحد منها ومن رعاية كيفية امتزاجاتها وتركباتها ومن رعاية المدة التى فى مثلها حصل ذلك المزاج الذى لاجله يحصل الاستعداد لقبول النفس الناطقة وأما النفس فاليها الاشارة بقوله ونفخت فيه من روحى ولما أضاف الروح الى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوى قدسى وذهبت الحلولية الى أن كلمة من تدل على التبعيض وهذا يوهم أن الروح جزء من أجزاء الله تعالى وهذا فى غاية الفساد لان كل ماله جزء وكل فهو مركب وممكن الوجود لذاته ومحدث وأما كيفية نفخ الروح فاعلم أن الاقرب ان جوهر النفس عبارة عن أجسام شفافة نورانية علوية العنصر قدسية الجوهر وهى تسرى فى البدن سريان الضوء فى الهواء وسريان النار فى الفحم فهذا القدر معلوم أما كيفية ذلك النفخ فمما لا يعلمه الا الله تعالى (المسئلة الثالثة) الفاء فى قوله فقعوا له ساجدين تدل على أنه كما تم نفخ الروح فى الجسد توجه أمر الله عليهم بالسجود واما أن المأمور بذلك السجود ملائكة الارض أو دخل فيه ملائكة السموات مثل جبريل وميكائيل والروح الاعظم المذكور فى قوله يوم يقوم الروح والملائكة صفا ففيه مباحث عميقة وقال بعض الصوفية الملائكة الذين أمروا بالسجود لآدم هم القوى النباتية والحيوانية الحسية والحركية فانها فى بدن الانسان خوادم النفس الناطقة وابليس الذى لم يسجد هو القوة الوهمية التى هى المنازعة لجوهر العقل والكلام فيه طويل وأما بقية المسائل وهى كيفية سجود الملائكة لآدم وأن ذلك هل يدل على كونه أفضل من الملائكة أم لا وان ابليس هل كان من الملائكة أم لا وأنه هل كان كافرا أصليا أم لا فكل ذلك تقدم فى سورة البقرة وغيرها (المسئلة الرابعة) احتج من أثبت الاعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى ما منعك أن تسجد

مصدرية ناصبة للفعل ولا نافية محلها الرفع على انها بدل من كتاب أو خبر لمبتدا مضمر يليق بالمقام أى مضمونه أن لا تعلوا أو النصب باسقاط الخافض أى بان لا تعلوا على وقرئ أن لا تغلوا بالغين المعجمة أى لا تجاوزوا حدكم (وائتونى مسلمين) أى مؤمنين وقيل منقادين والاول هو الاليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام على أن الايمان مستتبع للانقياد حتما روى أن نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود الى بلقيس ملكة سبا السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا على وائتونى مسلمين وليس الامر فيه بالاسلام قبل اقامة الحجة على رسالته حتى يتوهم كونه استدعاء للتقليد فان القاء الكتاب اليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالة على رسالة مرسلها دلالة بينة (قالت) كررت حكاية قولها للايذان بغاية اعتنائها بما فى حيزه من قولها (يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى) أى أجيبونى فى أمرى الذى حزبنى وذكرت لكم خلاصته وعبرت عن الجواب بالفتوى التى هى الجواب فى الحوادث المشكلة غالبا تهويلا للامر ورفعا لمحلهم بالاشعار بانهم قادرون على حل المشكلات الملمة وقولها (ما كنت قاطعة أمرا) أى من الامور المتعلقة بالملك (حتى تشهدون) أى الا بمحضركم وبموجب آرائكم استعطاف لهم واستمالة لقلوبهم لئلا يخالفوها فى الرأى والتدبير (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشا من حكاية قولها كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابها فقيل قالوا (نحن أولو قوة) فى الاجساد والآلات والعدد (وأولو بأس شديد) أى نجدة

لما خلقت بيدى فى اثبات يدى الله تعالى بان قالوا ظاهر الآية يدل عليه فوجب المصير اليه والآيات الكثيرة واردة على وفق هذه الآية فوجب القطع به واعلم أن الدلائل الدالة على نفى كونه تعالى جسما مركبا من الاجزاء والاعضاء قد سبقت الا أنا نذكرههنا نكتا جارية مجرى الالزامات الظاهرة (فالاول) ان من قال انه مركب من الاعضاء والاجزاء فاما ان يثبت الاعضاء التى ورد ذكرها فى القرآن ولا يزيد عليها واما أن يزيد عليها فان كان الاول لزمه اثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها فى القبح لانه يلزمه اثبات وجه بحيث لا يوجد منه الا مجرد رقعة الوجه لقوله كل شئ هالك الا وجهه ويلزمه أن يثبت فى تلك الرقعة عيونا كثيرة لقوله تجرى باعيننا وان يثبت جنبا واحدا لقوله تعالى ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وأن يثبت على ذلك الجنب أيدى كثيرة لقوله تعالى مما عملت أيدينا وبتقدير أن يكون له يدان فانه يجب أن يكون كلاهما على جانب واحد لقوله صلى الله عليه وسلم الحجر الاسود يمين الله فى الارض وان يثبت له ساقا واحدا لقوله تعالى يوم يكشف عن ساق فيكون الحاصل من هذه الصورة مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة وجنب واحد ويكون عليه أيد كثيرة وساق واحد ومعلوم أن هذه الصورة أقبح الصور ولو كان هذا عبدا لم يرغب أحد فى شرائه فكيف يقول العاقل ان رب العالمين موصوف بهذه الصورة (وأما القسم الثانى) وهو أن لا يقتصر على الاعضاء المذكورة فى القرآن بل يزيد وينقص على وفق التأويلات فحينئذ يبطل مذهبه فى الحمل على مجرد الظواهر ولا بدله من قبول دلائل العقل (الحجة الثانية) فى ابطال قولهم انهم اذا أثبتوا الاعضاء لله تعالى فان أثبتوا له عضو الرجال فهو رجل وان أثبتوا له عضو النساء فهو أنثى وان نفوهما فهو خصى أو عنين وتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا (الحجة الثالثة) انه فى ذاته سبحانه وتعالى اما أن يكون جسما صلبا لا ينغمز البتة فيكون حجرا صلبا واما أن يكون قابلا للانغماز فيكون لينا قابلا للتفرق والتمزق وتعالى الله عن ذلك (الحجة الرابعة) انه ان كان بحيث لا يمكنه أن يتحرك عن مكانه كان كالزمن المقعد العاجز وان كان بحيث يمكنه أن يتحرك عن مكانه كان محلا للتغيرات فدخل تحت قوله لا أحب الآفلين (الحجة الخامسة) ان كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتحرك كان كالميت وان كان يفعل هذه الاشياء كان انسانا كثير النهمة محتاجا الى الاكل والشرب والوقاع وذلك باطل (الحجة السادسة) انهم يقولون انه ينزل كل ليلة من العرش الى السماء الدنيا فنقول لهم حين نزوله هل يبقى مدبرا للعرش ويبقى مدبرا للسماء الدنيا حين كان على العرش وحينئذ لا يبقى فى النزول فائدة وان لم يبق مدبرا للعرش فعند نزوله يصير معزولا عن الهية العرش والسموات (الحجة السابعة) انهم يقولون انه تعالى أعظم من العرش وأن العرش لا نسبة لعظمته الى عظمة الكرسى وعلى هذا الترتيب حتى ينتهى الى السماء الدنيا فاذا كان كذلك كان السماء الدنيا بالنسبة الى عظمة الله كالذرة بالنسبة الى البحر فاذا نزل فاما أن يقال ان الاله يصير صغيرا بحيث تسعه السماء الدنيا واما أن يقال ان السماء الدنيا تصير أعظم من العرش وكل ذلك باطل (الحجة الثامنة) ثبت أن العالم كرة فان كان فوق بالنسبة الى قوم كان تحت بالنسبة الى قوم آخرين وذلك باطل وان كان فوق بالنسبة الى الكل فحينئذ يكون جسما محيطا بهذا العالم من كل الجوانب فيكون اله العالم على هذا القول فلكا من الافلاك (الحجة التاسعة) لما كانت الارض كرة وكانت السماوات كرات فكل ساعة تفرض من الساعات فانها تكون ثلث الليل فى حق أقوام معينين من سكان كرة العوارض فلو نزل من العرش فى ثلث الليل وجب أن يبقى أبدا نازلا عن العرش وأن لا يرجع الى العرش البتة (الحجة العاشرة) انا اعاذ يقدنا الهية الشمس والقمر لثلاثة أنواع من العيوب (أولها) كونه مؤلفا من الاجزاء والابعاض (وثانيها) كونه محدودا متناهيا (وثالثها) كونه موصوفا بالحركة والسكون والطلوع والغروب فاذا كان اله المشبهة مؤلفا من الاعضاء والاجزاء كان مركبا فاذا كان على العرش كان محدودا متناهيا وان كان ينزل من العرش ويرجع اليه كان موصوفا بالحركة والسكون فهذه الصفات الثلاثة ان كانت منافية للالهية وجب تنزيه الاله عنها باسرها وذلك يبطل قول المشبهة وان لم تكن منافية للالهية فحينئذ لا يقدر أحد على الطعن فى الهية الشمس والقمر (الحجة الحادية عشرة) قوله تعالى قل هو الله أحد ولفظ الاحد مبالغة فى الوحدة وذلك ينافى كونه مركبا من الاجزاء

والابعاض

وشجاعة مفرطة وبلاء فى الحرب (والامر اليك) أى هو موكول اليك (فانظرى ماذا تأمرين) ونحن مطيعون لك فمرينا بامرك نمتثل به ونتبع رأيك أو أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأى والمشورة واليك الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نكن فى الخدمة فلما أحست منهم الميل الى الحراب والعدول عن سنن الصواب شرعت فى تزييف مقالتهم المبنية على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام وذلك قوله تعالى (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية) من القرى على منهاج المقاتلة والحراب (أفسدوها) بتخريب عماراتها واتلاف ما فيها من الاموال (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) بالقتل والاسر والاجلاء وغير ذلك من فنون الاهانة والاذلال (وكذلك يفعلون) تأكيد لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييلى وتقرير له بان ذلك عادتهم المستمرة وقيل تصديق لها من جهة الله تعالى على طريقة قوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا اثر قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى (وانى مرسلة اليهم بهدية) تقرير لرأيها بعد ما زيفت آراءهم وأتت بالجملة الاسمية الدالة على الثبات المصدرة بحرف التحقيق للايذان بانها مزمعة على رأيها لا يلويها عنه صارف ولا يثنيها عاطف أى وانى مرسلة اليهم رسلا بهدية عظيمة (فناظرة بم يرجع المرسلون) حتى أعمل بما يقتضيه الحال روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن الاساور والاطواق والقرطة راكبى خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر

والابعاض (الحجة الثانية عشرة) قوله تعالى والله الغنى وأنتم الفقراء ولو كان مركبا من الاجزاء والابعاض لكان محتاجا اليها وذلك يمنع من كونه غنيا على الاطلاق فثبت بهذه الوجوه أن القول باثبات الاعضاء والاجزاء لله محال ولما ثبت بالدلائل اليقينية وجوب تنزيه الله تعالى عن هذه الاعضاء فنقول ذكر العلماء فى لفظ اليد وجوها (الاول) أن اليد عبارة عن القدرة تقول العرب مالى بهذا الامر من يد أى من قوة وطاقة قال تعالى أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح (الثانى) اليد عبارة عن النعمة يقال أيادى فلان فى حق فلان ظاهرة والمراد النعم والمراد باليدين النعم الظاهرة والباطنة أو نعم الدين والدنيا (الثالث) ان لفظ اليد قد يزاد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان هذا ما كسبت يداك وكقوله تعالى نشرا بين يدى رحمته ولقائل أن يقول حمل اليد على القدرة ههنا غير جائز يدل عليه وجوه (الاول) ان ظاهر الآية يقتضى اثبات اليدين فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لزم اثبات قدرتين لله وهو باطل (والثانى) أن الآية تقتضى أن كون آدم مخلوقا باليدين يوجب فضيلته وكونه مسجودا للملائكة فلو كانت اليد عبارة عن القدرة لكان آدم مخلوقا بالقدرة لكن جميع الاشياء مخلوقة بقدرة الله تعالى فكما أن آدم عليه السلام مخلوق بيد الله تعالى فكذلك ابليس مخلوق بيد الله تعالى وعلى تقدير أن تكون اليد عبارة عن القدرة لم تكن هذه العلة علة لكون آدم مسجودا لابليس أولى من أن يكون ابليس مسجودا لآدم وحينئذ يختل نظم الآية ويبطل (الثالث) انه جاء فى الحديث انه صلى الله عليه وسلم قال كلتا يديه يمين ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق بالقدرة (وأما التأويل الثانى) وهو حمل اليدين على النعمتين فهو أيضا باطل لوجوه (الاول) ان نعم الله تعالى كثيرة كما قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وظاهر الآية يدل على أن اليد لا تزيد على الاثنين (الثانى) لو كانت اليد عبارة عن النعمة فنقول النعمة مخلوقة لله فحينئذ لا يكون آدم مخلوقا لله تعالى بل يكون مخلوقا لبعض المخلوقات وذلك بأن يكون سببا لمزيد النقصان أولى من أن يكون سببا لمزيد الكمال (الثالث) لو كانت اليد عبارة عن النعمة لكان قوله تبارك الذى بيده الملك معناه تبارك الذى بنعمته الملك ولكان قوله بيدك الخير معناه بنعمتك الخير ولكان قوله يداه مبسوطتان معناه نعمتاه مبسوطتان ومعلوم ان كل ذلك فاسد (وأما التأويل الثالث) وهو قوله ان لفظ اليد قد يذكر زيادة لاجل التأكيد فنقول لفظ اليد قد يستعمل فى حق من يكون هذا العضو حاصلا له وفى حق من لا يكون هذا العضو حاصلا فى حقه (أما الاول) فكقولهم فى حق من جنى بلسانه هذا ما كسبت يداك والسبب فى هذا أن محل القدرة هو اليد فاطلق اسم اليد على القدرة وعلى هذا التقدير فيصير المراد من لفظ اليد القدرة وقد تقدم ابطال هذا الوجه (وأما الثانى) فكقوله بين يدى عذاب شديد وقوله بين يدى الساعة الا أنا نقول هذا المجاز بهذا اللفظ مذكور والمجاز لا يقاس عليه ولا يكون مطردا فلا جرم لا يجوز أن يقال ان هذا المعنى انما حصل بيد العذاب وبيد الساعة ونحن نسلم ان قوله لا تقدموا بين يدى الله ورسوله قد يجوز أن يراد به التأكيد والصلة أما المذكور فى هذه الآية ليس هذا اللفظ بل قوله تعالى خلقت بيدى وان كان القياس فى المجازات باطلا فقد سقط كلامكم بالكلية فهذا منتهى البحث فى هذا الباب والذى تلخص عندى فى هذا الباب ان السلطان العظيم لا يقدر على عمل شئ بيده الا اذا كانت غاية عنايته مصروفة الى ذلك العمل فاذا كانت العناية الشديدة من لوازم العمل باليد أمكن جعله مجازا عنه عند قيام الدلائل القاهرة فهذا ما لخصناه فى هذا الباب والله أعلم أما قوله تعالى أستكبرت أم كنت من العالين فالمعنى أستكبرت الآن أم كنت أبدا من المتكبرين العالين فأجاب ابليس بقوله أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فالمعنى انى لو كنت مساويا له فى الشرف لكان يقبح أمرى بسجودى له فكيف وأنا خير منه ثم بين كونه خيرا منه بأن أصله من النار والنار أشرف من الطين فصح أن أصله خير من أصل آدم ومن كان أصله خيرا من أصله فهو خير منه فهذه مقدمات ثلاثة (المقدمة الاولى) ان ابليس مخلوق من النار يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه خلقتنى من نار وخلقته من طين وقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم (المقدمة الثانية) ان النار أفضل من الطين ويدل عليه وجوه (الاول) ان الاجرام الفلكية أشرف من الاجرام العنصرية والنار أقرب العناصر من الفلك والارض

وخمسمائة جارية على رماك فى زى الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت رجلا من أشراف قومها المنذر بن عمرو وآخر ذا رأى وعقل وقالت ان كان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى وثقب الدرة ثقبا مستويا وسلك فى الخرزة خيطا ثم قالت للمنذر ان نظر اليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك وان رأيته بشا لطيفا فهو نبى فأقبل الهدهد فأخبر سليمان عليه السلام بذلك فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطا شرفاته من الذهب والفضة وأمر باحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن وأمر باولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا على اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ والانس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت اليهم نفوسهم ورموا بما معهم ولما وقفوا بين يديه نظر اليهم بوجه طلق وقال ما وراءكم وقال أين الحق وأخبره جبريل عليهما السلام بما فيه فقال لهم ان فيه كذا وكذا ثم أمر بالارضة فأخذت شعرة ونفذت فى الدرة فجعل رزقها فى الشجرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فى الجزعة فجعل رزقها فى الفواكه ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الاخرى ثم تضرب به وجهها

أبعدها عنه فوجب كون النار أفضل من الارض (الثاني) ان النار خليفة الشمس والقمر في اضاءة هذا العالم عند غيبتهما او الشمس والقمر أشرف من الارض فخليفتهما في الاضاءة أفضل من الارض (الثالث) ان الكيفية الفاعلة الاصلية اما الحرارة او البرودة والحرارة أفضل من البرودة لان الحرارة تناسب الحياة والبرودة تناسب الموت (الرابع) الارض كثيفة والنار لطيفة واللطافة أشرف من الكثافة (الخامس) النار مشرقة والارض مظلمة والنور خير من الظلمة (السادس) النار خفيفة تشبه الروح والارض ثقيلة تشبه الجسد والروح أفضل من الجسد فالنار أفضل من الارض ولذلك فان الاطباء أطبقوا على أن العنصرين الثقيلين أعون على تركيب الاجساد وان العنصرين الخفيفين أعون على تولد الارواح (السابع) النار صاعدة والارض هابطة والصاعد أفضل من الهابط (الثامن) ان أول بروج الفلك هو الحمل لانه هو الذي يبدأ من نقطة الاستواء الشمالي ثم ان الحمل على طبيعة النار وأشرف أعضاء الحيوان القلب والروح وهما على طبيعة النار وأخس أعضاء الحيوان هو العظم وهو بارد يابس أرضي (التاسع) ان الاجسام الارضية كلما كانت أشد نورانية ومشابهة بالنار كانت أشرف وكلما كانت أكثر غبرة وكثافة وكدورة ومشابهة بالارض كانت أخس مثاله الاجسام الشبيهة بالنار الذهب والياقوت والاحجار الصافية النورانية ومثاله أيضا من الثياب الابريسم وما يتخذ منه واما ان كل ما كان أكثر أرضية وغبرة فهو أخس فالامر ظاهر (العاشر) ان القوة الباصرة قوة في غاية الشرف والجلالة ولا يتم عملها الا بالشعاع وهو جسم شبيه بالنار (الحادي عشر) ان أشرف أجسام العالم الجسماني هو الشمس ولا شك انه شبيه بالنار في صورته وطبيعته وأثره (الثاني عشر) ان النضج والهضم والحياة لا تتم الا بالحرارة ولولا قوة الحرارة لما تم المزاج وتولد المركبات (الثالث عشر) ان أقوى العناصر الاربعة في قوة الفعل هو النار وأكملها في قوة الانفعال هو الارض والفعل أفضل من الانفعال فالنار أفضل من الارض أما القائلون بتفضيل الارض على النار فذكروا أيضا وجوها (الاول) ان الارض أمين مصلح فاذا أودعتها حبة ردتها اليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كل ما أسلمته اليها (الثاني) ان الحس البصري أثنى على النار فليستمع ما يقوله الحس اللمسي (الثالث) ان الارض مستولية على النار فانها تطفئ النار وأما النار فانها لا تؤثر في الارض الخالصة (وأما المقدمة الثالثة) فهي ان من كان أصله خيرا من أصله فهو خير منه فاعلم ان هذه المقدمة كاذبة جدا وذلك لان أصل الرماد النار وأصل البساتين النزهة والاشجار المثمرة هو الطين ومعلوم بالضرورة أن الاشجار المثمرة خير من الرماد وأيضا فهب ان اعتبار هذه الجهة يوجب الفضيلة الا ان هذا يمكن ان يصير معارضا بجهة أخرى توجب الرجحان مثل انسان نسيب عار عن كل الفضائل فان نسبه يوجب رجحانه الا ان الذي لا يكون نسيبا قد يكون كثير العلم والزهد فيكون هو أفضل من ذلك النسيب بدرجات لا حد لها فالمقدمة الكاذبة في القياس الذي ذكره ابليس هو هذه المقدمة فان قال قائل هب أن ابليس أخطأ في هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة وبيان هذا السؤال من وجوه (الاول) ان قوله اسجدوا أمر والامر لا يقتضي الوجوب بل الندب ومخالفة الندب لا توجب العصيان فضلا عن الكفر وأيضا فالذين يقولون ان الامر للوجوب فهم لا ينكرون كونه محتملا للندب احتمالا ظاهرا ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلا عن الكفر (الثاني) هب انه للوجوب الا ان ابليس ما كان من الملائكة فأمر الملائكة بسجود آدم لا يدخل فيه ابليس (الثالث) هب انه يتناوله الا أن تخصيص العام بالقياس جائز فخصص نفسه عن عموم ذلك الامر بالقياس (الرابع) هب انه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأمورا به الا ان هذا القدر يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه الكفر (والجواب) هب أن صيغة الامر لا تدل على الوجوب ولكن يجوز أن ينضم اليها من القرائن ما يدل على الوجوب وههنا حصلت تلك القرائن وهي قوله تعالى أستكبرت أم كنت من العالين فلما أتى ابليس بقياسه الفاسد دل ذلك على أنه انما ذكر ذلك القياس ليتوسل به الى القدح في أمر الله وتكليفه وذلك يوجب الكفر * اذا عرفت هذا فنقول ان ابليس لما ذكر هذا القياس الفاسد قال تعالى اخرج منها فانك رجيم واعلم انه ثبت في أصول الفقه ان ذكر الحكم عقيب

الوصف

والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وذلك قوله تعالى (فلما جاء سليمان) أي الرسول (قال) أي مخاطبا للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب وقيل للرسول ومن معه ويؤيده انه قرئ فلما جاؤا والاول أولى لما فيه من تشديد الانكار والتوبيخ وتعميمها لبلقيس وقومها ويؤيده الافراد في قوله تعالى ارجع اليهم (أتمدونني بمال) وهو انكار لامدادهم اياه عليه الصلاة والسلام بالمال مع علو شأنه وسعة سلطانه وتوبيخ لهم بذلك وتنكير مال للتحقير وقوله تعالى (فما آتاني الله) أي مما رأيتم آثاره من النبوة والملك الذي لا غاية وراءه (خير مما آتاكم) أي من المال الذي من جملته ما جئتم به فلا حاجة لي الى هديتكم ولا وقع لها عندي تعليل للانكار ولعله عليه الصلاة والسلام انما قال لهم هذه المقالة الى آخرها بعد ما جرى بينه وبينهم ما حكي من قصة الحق وغيرها كما أشير اليه لانه عليه الصلاة والسلام خاطبهم بها أول ما جاؤه كما يفهم من ظاهر قوله تعالى فلما جاء الخ وقرئ أتمدوني بالادغام وبنون واحدة وبنونين وحذف الياء وقوله تعالى (بل أنتم بهديتكم تفرحون) اضراب عما ذكر من انكار الامداد بالمال الى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التي أهدوها اليه عليه الصلاة والسلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها كما ينبئ عنه ما ذكر من حديث الحق والجزعة وتغيير زي الغلمان والجواري وغير ذلك وفائدة الاضراب التنبيه على ان امداده عليه الصلاة والسلام بالمال منكر قبيح وعد ذلك مع انه لا قدر له عنده عليه الصلاة والسلام مما يتنافس فيه المتنافسون أقبح والتوبيخ به

الوصف المناسب يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف وههنا الحكم بكونه رجيما ورد عقيب ماحكى عنه انه خصص النص بالقياس فهذا يدل على أن تخصيص النص بالقياس يوجب هذا الحكم وقوله منها أى من الجنة أو من السموات والرجيم المرجوم وفيه قولان (الاول) انه مجاز عن الطرد لان الظاهر ان من طرد فقد رمى بالحجارة وهو الرجم فلما كان الرجم من لوازم الطرد جعل الرجم كناية عن الطرد فان قالوا الطرد هو اللعن فلو حملنا قوله رجيم على الطرد لكان قوله بعد ذلك وان عليك لعنتى تكرارا والجواب من وجهين (الاول) انا نحمل الرجم على الطرد من الجنة اومن السموات ونحمل اللعن على الطرد من رحمة الله (والثانى) انا نحمل الرجم على الطرد ونحمل قوله وان عليك لعنتى الى يوم الدين على ان ذلك الطرد يمتد الى آخر القيامة فيكون هذا فائدة زائدة ولا يكون تكرارا (والقول الثانى فى تفسير الرجيم) ان نحمله على الحقيقة وهو كون الشياطين مرجومين بالشهب والله أعلم فان قيل كلمة الى لانتهاء الغاية فقوله الى يوم الدين يقتضى انقطاع تلك اللعنة عند مجىء يوم الدين أجاب صاحب الكشاف بأن اللعنة باقية عليه فى الدنيا فاذا جاء يوم القيامة جعل مع اللعنة أنواع من العذاب تصير اللعنة مع حضورها منسية

* واعلم أن ابليس لما صار ملعونا قال فانظرنى الى يوم يبعثون قيل انما طلب الانظار الى يوم يبعثون لاجل ان يتخلص من الموت لانه اذا أنظر الى يوم البعث لم يمت قبل يوم البعث وعند مجىء يوم البعث لايموت أيضا فحينئذ يتخلص من الموت فقال تعالى انك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم ومعناه انك من المنظرين الى يوم يعلمه الله ولا يعلمه أحد سواه فقال ابليس فبعزتك وهو قسم بعزة الله وسلطانه لأغوينهم أجمعين فههنا أضاف الاغواء الى نفسه وهو على مذهب القدر وقال مرة أخرى رب بما أغويتنى فأضاف الاغواء الى الله على ماهو مذهب الجبر وهذا يدل على انه متحير فى هذه المسئلة وأما قوله الا عبادك منهم المخلصين ففيه فوائد (الفائدة الاولى) قيل غرض ابليس من ذكره هذا الاستثناء أن لا يقع فى كلامه الكذب لانه لو لم يذكر هذا الاستثناء وادعى انه يغوى الكل لكان يظهر كذبه حين يعجز عن اغواء عباد الله الصالحين فكأن ابليس قال انما ذكرت هذا الاستثناء لئلا يقع الكذب فى هذا الكلام وعند هذا يقال ان الكذب شئ يستنكف منه ابليس فكيف يليق بالمسلم الاقدام عليه فان قيل كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله وما أرسلنا من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته قلنا ان ابليس لم يقل انى لم أقصد اغواء عباد الله الصالحين بل قال لأغوينهم وهو وان كان يقصد الاغواء الا انه لا يغويهم (الفائدة الثانية) هذه الآية تدل على أن ابليس لا يغوى عباد الله المخلصين وقال تعالى فى صفة يوسف انه من عبادنا المخلصين فتحصل من مجموع هاتين الآيتين ان ابليس ما أغوى يوسف عليه السلام وذلك يدل على كذب الحشوية فيما ينسبون الى يوسف عليه السلام من القبائح واعلم أن ابليس لما ذكر هذا الكلام قال الله تعالى فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة فالحق بالرفع والحق بالنصب والباقون بالنصب فيهما أما الرفع فتقديره فالحق قسمى وأما النصب فعلى القسم أى فبالحق كقولك والله لأفعلن وأما قوله والحق أقول انتصب قوله والحق بقوله أقول (المسئلة الثانية) قوله منك أى من جنسك وهم الشياطين وممن تبعك منهم من ذرية آدم فان قيل قوله أجمعين تأكيد لماذا قلنا يحتمل أن يؤكد به الضمير فى منهم أو الكاف فى منك مع من تبعك ومعناه لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين لا أترك منهم أحدا (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا بهذه الآية فى مسئلة أن الكل بقضاء الله من وجوه (الاول) انه تعالى قال فى حق ابليس اخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتى الى يوم الدين فهذا اخبار من الله تعالى بأنه لا يؤمن فلو آمن لانقلب خبر الله الصدق كذبا وهو محال فكان صدور الايمان منه محالا مع انه أمر به (والثانى) انه قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين فالله تعالى علم منه انه يغويهم وسمع منه هذه الدعوى وكان قادرا على منعه عن ذلك والقادر على المنع اذا لم يمنع كان راضيا به فان قالوا لعل ذلك المنع مفسد قلنا هذا قول فاسد لأن ذلك المنع يخلص ابليس عن الاضلال ويخلص بنى آدم عن الضلال وهذا عين المصلحة (الثالث) انه تعالى أخبر انه يملأ جهنم من الكفرة فلو لم يكفروا لزم الكذب والجهل فى حق الله تعالى (الرابع) انه لو أراد

ادخل وقيل المضاف اليه المهدى اليه والمعنى بل أنتم بما يهدى اليكم تفرحون حبا لزيادة المال لما أنكم لا تعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا (ارجع) أفرد الضمير ههنا بعد جمع الضمائر الخمسة فيما سبق لاختصاص الرجوع بالرسول وعموم الامداد ونحوه للكل أى ارجع أيها الرسول (اليهم) أى الى بلقيس وقومها (فلنأتينهم) أى فوالله لنأتينهم (بجنود لا قبل لهم بها) لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرئ بهم (ولنخرجنهم) عطف على جواب القسم (منها) من سبأ (أذلة) أى حال كونهم أذلة بعد ما كانوا فيه من العز والتمكين وفى جمع القلة تأكيد لذلتهم وقوله تعالى (وهم صاغرون) أى أسارى مهانون حال أخرى مفيدة لكون اخراجهم بطريق الاسر لا بطريق الاجلاء وعدم وقوع جواب القسم لانه كان معلقا بشرط قد حذف عند الحكاية ثقة بدلالة الحال عليه كأنه قيل ارجع اليهم فليأتوا مسلمين والا فلنأتينهم الخ (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها) قاله عليه الصلاة والسلام لما دنا مجىء بلقيس اليه عليه الصلاة والسلام روى أنه لما رجعت رسلها اليها بما حكى من خبر سليمان عليه السلام قالت قد علمت والله ما هذا بملك ولا لنا به من طاقة وبعثت الى سليمان عليه السلام انى قادمة اليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك وما تدعو اليه من دينك ثم آذنت بالرحيل الى سليمان عليه السلام فشخصت اليه فى اثنى عشر ألف قيل تحت كل قيل ألوف وروى انها أمرت فجعل عرشها فى آخر سبعة أبيات بعضها فى بعض فى آخر قصر من قصور سبعة لها وغلقت الابواب

أن لا يكفر الكافر لوجب أن يبقى الانبياء والصالحين وان عيبت ابليس والشياطين وحيث قلب الامر علمنا انه فاسد (الخامس) ان تكليف أولئك الكفار بالايمان يقتضى تكليفهم بالايمان بهذه الآيات التى هى دالة على أنهم لا يؤمنون البتة وحينئذ يلزم أن يصيروا مكلفين بأن يؤمنوا بأنهم لا يؤمنون البتة وذلك تكليف بما لا يطاق والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ان هو الا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ اعلم أن الله تعالى ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة وذلك لانه تعالى ذكر طرقا كثيرة دالة على وجوب الاحتياط فى طلب الدين ثم قال عند الختم هذا الذى أدعو الناس اليه يجب أن ينظر فى حال الداعى وفى حال الدعوة ليظهر انه حق أو باطل أما الداعى وهو أنا فانا لا أسألكم على هذه الدعوة أجرا ومالا ومن الظاهران الكذاب لا ينقطع طمعه عن طلب المال البتة وكان من الظاهر أنه صلى الله عليه وسلم كان بعيدا عن الدنيا عديم الرغبة فيها وأما كيفية الدعوة فقال وما أنا من المتكلفين والمفسرون ذكروا فيه وجوها والذى يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذى ادعوكم اليه دين ليس يحتاج فى معرفة صحته الى التكلفات الكثيرة بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته فانى أدعوكم الى الاقرار بوجود الله أولا ثم أدعوكم ثانيا الى تنزيهه وتقديسه عن كل مالا يليق به يقوى ذلك قوله ليس كمثله شئ وامثاله ثم أدعوكم ثالثا الى الاقرار بكونه موصوفا بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة ثم أدعوكم رابعا الى الاقرار بكونه منزها عن الشركاء والاضداد ثم أدعوكم خامسا الى الامتناع عن عبادة هذه الاوثان التى هى جمادات خسيسة ولا منفعة فى عبادتها ولا مضرة فى الاعراض عنها ثم أدعوكم سادسا الى تعظيم الارواح الطاهرة المقدسة وهم الملائكة والانبياء ثم أدعوكم سابعا الى الاقرار بالبعث والقيامة ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ثم أدعوكم ثامنا الى الاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة فهذه الاصول الثمانية هى الاصول القوية المعتبرة فى دين الله تعالى ودين محمد صلى الله عليه وسلم وبدائه العقول وأوائل الافكار شاهدة بصحة هذه الامور الثمانية فثبت أنى لست من المتكلفين فى الشريعة التى أدعو الخلق اليها بل كل عقل سليم وطبع مستقيم فانه يشهد بصحتها وجلالتها وبعدها عن الباطل والفساد وهو المراد من قوله ان هو الا ذكر للعالمين ولما بين هذه المقدمات قال ولتعلمن نبأه بعد حين والمعنى انكم ان أصررتم على الجهل والتقليد وأبيتم قبول هذه البيانات التى ذكرناها فستعلمون بعد حين انكم كنتم مصيبين فى هذا الاعراض أو مخطئين وذكر مثل هذه الكلمة بعد تلك البيانات المتقدمة مما لا مزيد عليه فى التخويف والترهيب والله أعلم * قال المصنف رحمة الله عليه تم تفسير هذه السورة يوم الخميس فى آخر الثلاثاء الثانى من شهر ذى القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله على آلائه ونعمائه والصلاة على المطهرين من عباده فى أرضه وسمائه والمدح والثناء كما يليق بصفاته وأسمائه والتعظيم التام لانبيائه وأوليائه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

﴿سورة الزمر سبعون وخمس آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الفراء والزجاج فى رفع تنزيل وجهين (أحدهما) أن يكون قوله تنزيل مبتدأ وقوله من الله العزيز الحكيم خبر (والثانى) أن يكون التقدير هذا تنزيل الكتاب فيضمر المبتدا كقوله سورة أنزلناها أى هذه سورة قال بعضهم الوجه الاول أولى لوجوه (الاول) أن الاضمار خلاف الاصل فلا يصار اليه الا لضرورة ولا ضرورة ههنا (الثانى) انا اذا قلنا تنزيل الكتاب من الله جملة تامة من المبتدا والخبر أفاد فائدة شريفة وهى ان تنزيل الكتاب يكون من الله لا من غيره وهذا الحصر معنى معتبر أما اذا أضمرنا المبتدا لم تحصل هذه الفائدة (الثالث) انا اذا أضمرنا المبتدا

ووكلت به حرسا يحفظونه ولعله أوحى الى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد أن يريها بعض ما خصه الله عز سلطانه به من اجراء التعاجيب على يده مع اطلاعها على عظيم قدرته تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم لا وتقييد الاتيان به بقوله تعالى (قبل ان يأتونى مسلمين) لما ان ذلك أبدع وأغرب وأبعد من الوقوع عادة وأدل على عظم قدرة الله تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام وليكون اختبارها واطلاعها على بدائع المعجزات فى أول مجيئها وقيل لانها اذا أتت مسلمة لم يحل له أخذ مالها بغير رضاها (قال عفريت) أى مارد خبيث (من الجن) بيان له اذ يقال للرجل الخبيث المنكر المعفر لاقرانه وكان اسمه ذكوان أو صخرا (انا آتيك به) أى بعرشها (قبل أن تقوم من مقامك) أى من مجلسك للحكومة وكان يجلس الى نصف النهار وآتيك اما صيغة المضارع أو الفاعل وهو الانسب لمقام ادعاء الاتيان به لا محالة وأوفق لما عطف عليه من الجملة الاسمية أى انا آت به فى تلك المدة البتة (وانى عليه) أى على الاتيان به (لقوى) لا يثقل على حمله (أمين) لا اختزل منه شيأ ولا أبدله (قال الذى عنده علم من الكتاب) فصل عما قبله للايذان بما بين القائلين ومقاليهما وكيفيتى قدرتيهما على الاتيان به من كمال التباين أو لاسقاط الاول عن درجة الاعتبار قيل هو آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام وقيل رجل كان عنده اسم الله الاعظم الذى اذا سئل به اجاب وقيل الخضر أو جبريل أو ملك أيده الله

صار التقدير هذا تنزيل الكتاب من الله وحينئذ يلزمنا مجاز آخر لان هذا اشارة الى السورة والسورة ليست نفس التنزيل بل السورة منزلة فحينئذ يحتاج الى أن نقول المراد من المصدر المفعول وهو مجاز تحملناه للضرورة (المسئلة الثانية) القائلون بخلق القرآن احتجوا بأن قالوا انه تعالى وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا وهذا الوصف لا يليق الا بالمحدث المخلوق والجواب انا نحمل هذه اللفظة على الصيغ والحروف (المسئلة الثالثة) الآيات الكثيرة تدل على وصف القرآن بكونه تنزيلا وآيات أخرى تدل على كونه منزلا (أما الاول) فقوله تعالى وانه لتنزيل رب العالمين وقال تنزيل من حكيم حميد وقال حم تنزيل من الرحمن الرحيم (وأما الثاني) فقوله انا نحن نزلنا الذكر وقال وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وأنت تعلم أن كونه منزلا أقرب الى الحقيقة من كونه تنزيلا فكونه منزلا مجازا أيضا لانه ان كان المراد من القرآن الصفة القائمة بذات الله فهو لا يقبل الانفصال والنزول وان كان المراد منه الحروف والاصوات فهي أعراض لا تقبل الانتقال والنزول بل المراد من النزول نزول الملك الذي بلغها الى الرسول صلى الله عليه وسلم (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة العزيز هو القادر الذي لا يغلب فهذا اللفظ يدل على كونه تعالى قادرا على مالا نهاية له والحكيم هو الذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة وهذا انما يتم اذا ثبت انه تعالى عالم بجميع المعلومات وانه غني عن جميع الحاجات اذا ثبت هذا فنقول كونه تعالى عزيزا حكيما يدل على هذه الصفات الثلاثة العلم بجميع المعلومات والقدرة على كل الممكنات والاستغناء عن كل الحاجات فمن كان كذلك امتنع أن يفعل القبيح وأن يحكم بالقبيح واذا كان كذلك فكل ما يفعله يكون حكمة وصوابا اذا ثبت هذا فنقول الانتفاع بالقرآن يتوقف على أصلين (أحدهما) أن نعلم ان القرآن كلام الله والدليل عليه انه ثبت بالمعجز كون الرسول صادقا وثبت بالتواتر انه كان يقول القرآن كلام الله فيحصل من مجموع هاتين المقدمتين ان القرآن كلام الله (والاصل الثاني) ان الله أراد بهذه الالفاظ المعاني التي هي موضوعة لها اما بحسب اللغة أو بحسب القرينة العرفية أو الشرعية لانه لو لم يرد بها ذلك لكان ذلك تلبيسا وذلك لا يليق بالحكيم فثبت بما ذكرنا ان الانتفاع بالقرآن لا يحصل الا بعد تسليم هذين الاصلين وثبت أنه لا سبيل الى اثبات هذين الاصلين الا باثبات كونه تعالى حكيما وثبت أنه لا سبيل الى اثبات كونه حكيما الا بالبناء على كونه تعالى عزيزا فلهذا السبب قال تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم أما قوله تعالى انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ففيه سؤالان (السؤال الاول) لفظ التنزيل يشعر بأنه تعالى أنزله عليه نجما نجما على سبيل التدريج ولفظ الانزال يشعر بأنه تعالى أنزله عليه دفعة واحدة فكيف الجمع بينهما والجواب ان صح الفرق بين التنزيل و بين الانزال من الوجه الذي ذكرتم فطريق الجمع أن يقال المعنى انا حكمنا حكما كليا جزما بأن يوصل اليك هذا الكتاب وهذا هو الانزال ثم أوصلناه نجما نجما اليك على وفق المصالح وهذا هو التنزيل (السؤال الثاني) ما المراد من قوله انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق والجواب فيه وجهان (الاول) المراد أنزلنا الكتاب اليك ملتبسا بالحق والصدق والصواب على معنى كل ما أودعناه فيه من اثبات التوحيد والنبوة والمعاد وأنواع التكاليف فهو حق وصدق يجب العمل به والمصير اليه (الثاني) أن يكون المراد انا أنزلنا اليك الكتاب بناء على دليل حق دل على أن الكتاب نازل من عند الله وذلك الدليل هو ان الفصحاء عجزوا عن معارضته ولو لم يكن معجزا لما عجزوا عن معارضته ثم قال فاعبد الله مخلصا له الدين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما بين في قوله انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق ان هذا الكتاب مشتمل على الحق والصدق والصواب أردف هنا بعض ما فيه من الحق والصدق وهو أن يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى على سبيل الاخلاص ويتبرأ عن عبادة غير الله تعالى بالكلية فأما اشتغاله بعبادة الله تعالى على سبيل الاخلاص فهو المراد من قوله تعالى فاعبد الله مخلصا وأما براءته من عبادة غير الله تعالى فهو المراد بقوله ألا لله الدين الخالص لان قوله ألا لله يفيد الحصر ومعنى الحصر أن يثبت الحكم في المذكور وينتفي عن غير المذكور واعلم أن العبادة مع الاخلاص لا تعرف حقيقة الا اذا عرفنا أن العبادة ما هي وان الاخلاص ما هو وان الوجوه المنافية للاخلاص ما هي فهذه أمور ثلاثة لا بد من البحث عنها (أما العبادة) فهي فعل أو قول أو ترك فعل أو ترك قول يؤتى به لمجرد اعتقاد أن الآمر به عظيم يجب قبوله

عز وجل به عليهم السلام وقيل هو سليمان نفسه عليه السلام وفيه بعد لا يخفى والمراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة أو اللوح وتنكير علم للتفخيم والرمز الى أنه علم غير معهود ومن ابتدائية (انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك) الطرف تحريك الاجفان وفتحها للنظر الى شئ وارتداده انضمامها ولكونه أمرا طبيعيا غير منوط بالقصد أوثر الارتداد على الرد ولما لم يكن بين هذا الوعد وانجازه مدة ما كما في وعد العفريت استغنى عن التأكيد وطوى عند الحكاية ذكر الاتيان به للايذان بأنه أمر محقق غني عن الاخبار به وجيء بالفاء الفصيحة لا داخلة على جملة معطوفة على جملة مقدرة دالة على تحققه فقط كما في قوله عز وجل فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق ونظائره بل داخلة على الشرطية حيث قيل (فلما رآه مستقرا عنده) أي رأى العرش حاضرا لديه كما في قوله عز وجل فلما رأينه أكبرنه للدلالة على كمال ظهور ما ذكر من تحققه واستغنائه عن الاخبار به ببيان ظهور ما يترتب عليه من رؤية سليمان عليه السلام اياه واستغنائه أيضا عن التصريح به اذ التقدير فأتاه به فرآه فلما رآه الخ فحذف ما حذف لما ذكر وللايذان بكمال سرعة الاتيان به كأنه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه الصلاة والسلام اياه شئ ما أصلا وفي تقييد رؤيته باستقراره عنده عليه الصلاة والسلام تأكيد لهذا المعنى لايهامه انه لم يتوسط بينهما ابتداء الاتيان أيضا كأنه لم يزل موجودا عنده مع ما فيه من الدلالة على دوام قراره عنده منتظما في سلك ملكه (قال) أي

(وأما الاخلاص) فهو ان يكون الداعي له الى الاتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والامتثال فان حصل منه داع آخر فاما أن يكون جانب الداعي الى الطاعة راجحا على الجانب الآخر أو معادلا له أو مرجوحا وأجمعوا على ان المعادل والمرجوح ساقط وأما اذا كان الداعي الى طاعة الله راجحا على الجانب الآخر فقد اختلفوا في انه هل يفيد أم لا وقد ذكرنا هذه المسئلة مرارا ولفظ القرآن يدل على وجوب الاتيان به على سبيل الخلوص لان قوله فاعبد الله مخلصا صريح في أنه يجب الاتيان بالعبادة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين (وأما بيان الوجوه المنافية للاخلاص) فهي الوجوه الداعية للشريك وهي اقسام (أحدها) أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل (وثانيها) أن يكون مقصوده من الاتيان بالطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار (وثالثها) أن يأتي بها ويعتقد أن لها تأثيرا في ايجاب الثواب أو دفع العقاب (ورابعها) وهو ان يخلص تلك الطاعات عن الكبائر حتى تصير مقبولة وهذا القول انما يعتبر على قول المعتزلة (المسئلة الثانية) من الناس من قال فاعبد الله مخلصا له الدين المراد منه شهادة أن لا اله الا الله واحتجوا بما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا اله الا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي وهذا قول من يقول لا تضر المعصية مع الايمان كما لا ينفع الطاعة مع الكفر وأما الأكثرون فقالوا الآية متناولة لكل ما كلف الله به من الاوامر والنواهي وهذا هو الاولى لان قوله فاعبد الله عام وروي ان امرأة الفرزدق لما قرب وفاتها أوصت أن يصلي الحسن البصري عليها فلما صلى عليها ودفنت قال للفرزدق يا أبا فراس ما الذي أعددت لهذا الامر قال شهادة أن لا اله الا الله فقال الحسن رضي الله عنه هذا العمود فأين الطنب فبين بهذا اللفظ الوجيز أن عمود الخيمة لا ينتفع به الا مع الطنب حتى يمكن الانتفاع بالخيمة قال القاضي فأما ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وأبي الدرداء وان زنى وان سرق على رغم أنف أبي الدرداء فان صح فانه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبة والا لم يجز قبول هذا الخبر لانه مخالف للقرآن ولانه يوجب أن لا يكون الانسان مزجورا عن الزنا والسرقة وان لا يكون متعديا بفعلهما لانه مع شدة شهوته للقبيح يعلم أنه لا يضره مع تمسكه بالشهادتين فكان ذلك اغراء بالقبيح والكل ينافي حكمة الله تعالى ولا يلزم أن يقال ذلك فالقول بأنه يزول ضرره بالتوبة يوجب أيضا الاغراء بالقبيح لانا نقول ان من اعتقد أن ضرره يزول بالتوبة فقد اعتقد أن فعل القبيح مضرة الا انه يزيل ذلك الضرر بفعل التوبة بخلاف قول من يقول ان فعل القبيح لا يضر مع التمسك بالشهادتين هذا تمام كلام القاضي فيقال له أما قولك ان القول بالمغفرة مخالف للقرآن فليس كذلك بل القرآن يدل عليه قال تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم أي حال ظلمهم كما يقال رأيت الامير على أكله وشربه أي حال كونه آكلا وشاربا وقال يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا وأما قوله ان ذلك يوجب الاغراء بالقبيح فيقال له ان كان الامر كذلك وجب أن يقبح غفرانه عقلا وهذا مذهب البغداديين من المعتزلة وأنت لا تقول به لان مذهب البصريين أن عذاب المذنب جائز عقلا وأيضا فيلزم عليه أن لا يحصل الغفران بالتوبة لانه اذا علم أنه اذا أذنب ثم تاب غفر الله له لم ينزجر وأما الفرق الذي ذكره القاضي فبعيد لانه اذا عزم على أن يتوب عنه في الحال علم انه لا يضره ذلك الذنب البتة ثم نقول مذهبنا انا نقطع بحصول العفو عن الكبائر في الجملة فأما في حق كل واحد من الناس فذلك مشكوك فيه لانه تعالى قال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فقطع بحصول المغفرة في الجملة الا أنه سبحانه وتعالى لم يقطع بحصول هذا الغفران في حق كل أحد بل في حق من شاء واذا كان الامر كذلك كان الخوف حاصلا فلا يكون الاغراء حاصلا والله أعلم (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ الدين بالرفع ثم قال وحق من رفعه أن يقرأ مخلصا بفتح اللام لقوله تعالى وأخلصوا دينهم لله حتى يطابق قوله ألا لله الدين الخالص والخالص والمخلص واحد الا أنه وصف الدين بصفة صاحبه على الاسناد المجازي كقولهم شعر شاعر واعلم انه تعالى لما بين ان رأس العبادات ورئيسها الاخلاص في التوحيد أردفه بذم طريقة المشركين فقال والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وتقدير الكلام والذين اتخذوا من دونه

سليمان عليه السلام تلقيا للنعمة بالشكر جريا على سنن أبناء جنسه من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وخلص عباده (هذا) أي حضور العرش بين يديه في هذه المدة القصيرة أو التمكن من احضاره بالواسطة أو بالذات كما قيل (من فضل ربي) أي تفضله على من غير استحقاق له من قبلي (ليبلوني أأشكر) بان أراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتي ولا قوة وأقوم بحقه (أم أكفر) بأن أجد لنفسي مدخلا في البين أو أقصر في اقامة مواجبه كما هو شأن سائر النعم الفائضة على العباد (ومن شكر فانما يشكر لنفسه) لانه يرتبط به عتيدها ويستجلب به مزيدها ويحط به عن ذمته عبء الواجب ويتخلص عن وصمة الكفران (ومن كفر) أي لم يشكر (فان ربي غني) عن شكره (كريم) بترك تعجيل العقوبة والانعام مع عدم الشكر أيضا (قال) أي سليمان عليه السلام كررت الحكاية مع كون المحكي سابقا ولاحقا من كلامه عليه الصلاة والسلام تنبيها على ما بين السابق واللاحق من المخالفة لما أن الاول من باب الشكر لله تعالى والثاني أمر لخدمه (نكروا لها عرشها) أي غيروا هيئته بوجه من الوجوه (ننظر) بالجزم على انه جواب الامر وقرئ بالرفع على الاستئناف (أتهتدي) الى معرفته أو الى الجواب اللائق بالمقام وقيل الى الايمان بالله تعالى ورسوله عند رؤيتها لتقدم عرشها من مسافة طويلة في مدة قليلة وقد خلفته مغلقة عليه الابواب موكلة عليه الحراس والحجاب ويأباه تعليق النظر المتعلق بالاهتداء بالتنكير فان ذلك مما لا دخل فيه للتنكير (أم تكون) أي بالنسبة

أولياء يقولون ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وعلى هذا التقدير فخبر والذين محذوف وهو قوله يقولون واعلم ان الضمير في قوله ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى عائد على الاشياء التي عبدت من دون الله وهي قسمان العقلاء وغير العقلاء أما العقلاء فهو أن قوما عبدوا المسيح وعزيرا والملائكة وكثير من الناس يعبدون الشمس والقمر والنجوم ويعتقدون فيها انها أحياء عاقلة ناطقة وأما الاشياء التي عبدت مع أنها ليست موصوفة بالحياة والعقل فهي الاصنام اذا عرفت هذا فنقول الكلام الذي ذكره الكفار لائق بالعقلاء أما بغير العقلاء فلا يليق وبيانه من وجهين (الاول) ان الضمير في قوله ما نعبدهم ضمير للعقلاء فلا يليق بالاصنام (الثاني) أنه لا يبعد أن يعتقد أولئك الكفار في المسيح والعزير والملائكة ان يشفعوا لهم عند الله أما يبعد من العاقل أن يعتقد في الاصنام والجمادات أنها تقربه الى الله وعلى هذا التقدير فمرادهم ان عبادتهم لها تقربهم الى الله ويمكن أن يقال ان العاقل لا يعبد الصنم من حيث انه خشب أو حجر وانما يعبدونه لاعتقادهم انها تماثيل الكواكب أو تماثيل الارواح السماوية أو تماثيل الانبياء والصالحين الذين مضوا ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات الى تلك الاشياء التي جعلوا هذه التماثيل صورا لها وحاصل الكلام لعباد الاصنام أن قالوا ان الاله الاعظم أجل من أن يعبده البشر لكن اللائق بالبشر أن يشتغلوا بعبادة الاكابر من عباد الله مثل الكواكب ومثل الارواح السماوية ثم انها تشتغل بعبادة الاله الاكبر فهذا هو المراد من قولهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى واعلم أن الله تعالى لما حكى مذاهبهم أجاب عنها من وجوه (الاول) انه اقتصر في الجواب على مجرد التهديد فقال ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون واعلم أن الرجل المبطل اذا ذكر مذهبا باطلا وكان مصرا عليه فالطريق في علاجه أن يحتال بحيلة توجب زوال ذلك الاصرار عن قلبه فاذا زال الاصرار عن قلبه فبعد ذلك يسمعه الدليل الدال على بطلانه فيكون هذا الطريق أفضى الى المقصود والاطباء يقولون لابد من تقديم المنضج على سقي المسهل فان بتناول المنضج تصير المواد الفاسدة رخوة قابلة للزوال فاذا سقيته المسهل بعد ذلك حصل النقاء التام فكذلك ههنا اسماع التهديد والتخويف أولا يجري مجرى سقي المنضج أولا واسماع الدليل ثانيا يجري مجرى سقي المسهل ثانيا فهذا هو الفائدة في تقديم هذا التهديد ثم قال تعالى ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار والمراد أن من أصر على الكذب والكفر بقي محروما عن الهداية والمراد بهذا الكذب وصفهم لهذه الاصنام انها آلهة مستحقة للعبادة مع علمهم بأنها جمادات خسيسة وهم نحتوها وتصرفوا فيها والعلم الضروري حاصل بأن وصف هذه الاشياء بالالهية كذب محض وأما الكفر فيحتمل أن يكون المراد منه الكفر الراجع الى الاعتقاد والامر ههنا كذلك فان وصفهم لها بالالهية كذب واعتقادهم فيها بالالهية جهل وكفر ويحتمل أن يكون المراد كفران النعمة والسبب فيه أن العبادة نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق الا بمن يصدر عنه غاية الانعام وذلك المنعم هو الله سبحانه وتعالى وهذه الاوثان لا مدخل لها في ذلك الانعام فالاشتغال بعبادة هذه الاوثان يوجب كفران نعمة المنعم الحق ثم قال تعالى لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار والمراد من هذا الكلام اقامة الدلائل القاهرة على كونه منزها عن الولد وبيانه من وجوه (الاول) أنه لو اتخذ ولدا لما رضي الا بأكمل الاولاد وهو الابن فكيف نسبتم اليه البنت (الثاني) أنه سبحانه واحد حقيقي والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد أما أنه واحد حقيقي فلانه لو كان مركبا لاحتاج الى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره فكان يحتاج الى غيره والمحتاج الى الغير ممكن لذاته والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلوجوه (الاول) أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشئ ينفصل عنه ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد وهذا انما يعقل في الشئ الذي ينفصل منه جزء والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه (الثاني) شرط الولد أن يكون مماثلا في تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشئ حقيقة نوعية محمولة على شخصين وذلك محال لان تعيين كل واحد منهما ان كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية الا الشخص الواحد وان لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلوما بسبب منفصل فلا يكون الها واجب الوجود لذاته فثبت أن كونه الها واجب الوجود

الى علمنا (من الذين لا يهتدون) أي الى ما ذكر من معرفة عرشها أو الجواب الصواب فان كونها في نفس الامر منهم وان كان أمرا مستمرا لكن كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمر حادث يظهر بالاختبار (فلما جاءت) شروع في حكاية التجربة التي قصدها سليمان عليه السلام أي فلما جاءت بلقيس سليمان عليه السلام وقد كان العرش بين يديه (قيل) أي من جهة سليمان عليه السلام بالذات أو بالواسطة (أهكذا عرشك) لم يقل أهذا عرشك لئلا يكون تلقينا لها فيفوت ما هو المقصود من الامر بالتنكير من ابراز العرش في معرض الاشكال والاشتباه حتى يتبين حالها وقد ذكرت عنده عليه الصلاة والسلام بسخافة العقل (قالت كأنه هو) فأنبأت عن كمال رجاحة عقلها حيث لم تقل هو هو مع علمها بحقيقة الحال تلويحا بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة في الصفات مع اتحاد الذات ومراعاة لحسن الادب في محاورته عليه الصلاة والسلام (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) من تتمة كلامها كأنها ظنت أنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك اختبار عقلها واظهار معجزة لها فقالت أوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة التي شاهدناها بما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك وكنا مسلمين من ذلك الوقت وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ورصانة فكرها ما لا يخفى وقوله تعالى (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) بيان من جهته تعالى لما كان يمنعها من اظهار ما ادعته من الاسلام الى الآن أي صدها عن ذلك

لذاته يوجب كونه واحدا فى حقيقته وكونه واحدا فى حقيقته يمنع من ثبوت الولد له فثبت أن كونه واحدا يمنع من ثبوت الولد (الثالث) أن الولد لا يحصل الا من الزوج والزوجة والزوجان لابد وأن يكونا من جنس واحد فلو كان له ولد لما كان واحدا بل كانت زوجته من جنسه وأما ان كونه قهارا يمنع من ثبوت الولد له فلان المحتاج الى الولد هو الذى يموت فيحتاج الى ولد يقوم مقامه فالمحتاج الى الولد هو الذى يكون مقهورا بالموت أما الذى يكون قاهرا ولا يقهره غيره كان الولد فى حقه محالا فثبت ان قوله هو الله الواحد القهار الفاظ مشتملة على دلائل قاطعة فى نفى الولد عن الله تعالى ۞ قوله تعالى ﴿خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى ألا هو العزيز الغفار خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فانى تصرفون ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور﴾ اعلم ان الآية المتقدمة دلت على انه تعالى بين كونه منزها عن الولد بكونه الها واحدا وقهارا غالبا أى كامل القدرة فلما بنى تلك المسئلة على هذه الاصول ذكر عقيبها ما يدل على كال القدرة وعلى كال الاستغناء وأيضا فانه تعالى طعن فى الهية الاصنام فذكر عقيبها الصفات التى باعتبارها تحصل الالهية واعلم انا بينا فى مواضع من هذا الكتاب ان الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى اثبات الهيته اما أن تكون فلكية أو عنصرية أما الفلكية فاقسام (أحدها) خلق السموات والارض وهذا المعنى يدل على وجود الاله القادر من وجوه كثيرة شرحناها فى تفسير قوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض (والثانى) اختلاف أحوال الليل والنهار وهو المراد ههنا من قوله يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وذلك لان النور والظلمة عسكران مهيبان عظيمان وفى كل يوم يغلب هذا ذاك تارة وذاك هذا أخرى وذلك يدل على ان كل واحد منهما مغلوب مقهور ولابد من غالب قاهر لهما يكونان تحت تدبيره وقهره وهو الله سبحانه وتعالى والمراد من هذا التكوير انه يزيد فى كل واحد منهما بقدر ما ينقص عن الآخر والمراد من تكوير الليل والنهار ما ورد فى الحديث نعوذ بالله من الحور بعد الكور أى من الادبار بعد الاقبال واعلم انه سبحانه وتعالى عبر عن هذا المعنى بقوله يكور الليل على النهار وبقوله يغشى الليل النهار وبقوله يولج الليل فى النهار وبقوله وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر (والثالث) اعتبار أحوال الكواكب لاسيما الشمس والقمر فان الشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وأكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقوله كل يجرى لاجل مسمى الاجل المسمى يوم القيامة لا يزالان يجريان الى هذا اليوم فاذا كان يوم القيامة ذهبا ونظيره قوله تعالى وجمع الشمس والقمر والمراد من هذا التسخير ان هذه الافلاك تدور كدور المنجنون على حد واحد الى يوم القيامة وعنده تطوى السماء كطى السجل للكتاب ولما ذكر الله هذه الانواع الثلاثة من الدلائل الفلكية قال ألا هو العزيز الغفار والمعنى ان خلق هذه الاجرام العظيمة وان دل على كونه عزيزا أى كامل القدرة الا انه غفار عظيم الرحمة والفضل والاحسان فانه لما كان الاخبار عن كونه عظيم القدرة يوجب الخوف والرهبة فكونه غفارا يوجب كثرة الرحمة وكثرة الرحمة توجب الرجاء والرغبة ثم انه تعالى أتبع ذكر الدلائل الفلكية بذكر الدلائل المأخوذة من هذا العالم الاسفل فبدأ بذكر الانسان فقال خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ودلالة تكون الانسان على الاله المختار قد سبق بيانها مرارا كثيرة فان قيل كيف جاز أن يقول خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها والزوج مخلوق قبل خلقهم أجابوا عنه من وجوه (الاول) ان كلمة ثم كما تجىء لبيان كون احدى الواقعتين متأخرة عن الثانية فكذلك تجىء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر كقول القائل بلغنى ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس أعجب ويقول أيضا قد أعطيتك اليوم شيأ ثم الذى أعطيتك أمس أكثر (الثانى) ان يكون التقدير خلقكم من نفس خلقت وحدها ثم جعل منها زوجها (الثالث) أخرج الله تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء واعلم انه تعالى لما ذكر الاستدلال بخلقة الانسان على وجود الصانع ذكر عقيبه الاستدلال

عبادتها القديمة للشمس وقوله تعالى (انها كانت من قوم كافرين) تعليل لسببية عبادتها المذكورة للصد أى انها كانت من قوم راسخين فى الكفر ولذلك لم تكن قادرة على اظهار اسلامها وهى بين ظهرانيهم الى أن دخلت تحت ملكة سليمان عليه السلام وقرئ أنها بالفتح على البدلية من فاعل صد أو على التعليل بحذف اللام هذا وأما ما قيل من أن قوله تعالى وأوتينا العلم الى قوله تعالى من قوم كافرين من كلام سليمان عليه السلام وملئه كأنهم لما سمعوا قولها كأنه هو تفطنوا لاسلامها فقالوا استحسانا لشأنها أصابت فى الجواب وعلمت قدرة الله تعالى وصحة النبوة بما سمعت من المنذر من الآيات المتقدمة وبما عاينت من هذه الآية الباهرة من أمر عرشها ورزقت الاسلام فعطفوا على ذلك قولهم وأوتينا العلم الخ أى وأوتينا نحن العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها ولم نزل على دين الاسلام شكرا لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم الى العلم بالله تعالى والاسلام قبلها وصدها عن التقدم الى الاسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهرانى الكفرة فمما لا يخفى ما فيه من البعد والتعسف (قيل لها ادخلى الصرح) الصرح القصر وقيل صحن الدار روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ووضع سريره فى صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والانس وانما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لامره وتحققا لنبوته وثباتا على الدين وزعموا أن الجن كرهوا أن

بوجود الحيوان عليه فقال وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج وهى الابل والبقر والضان والمعز وقد بينا كيفية دلالة هذه الحيوانات على وجود الصانع فى قوله والانعام خلقها لكم فيها دفء وفى تفسير قوله تعالى وأنزل لكم وجوه (الاول) ان قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء لاجل انه كتب فى اللوح المحفوظ كل كائن يكون (الثانى) ان شيأ من الحيوان لا يعيش الا بالنبات والنبات لا يقوم الا بالماء والتراب والماء ينزل من السماء فصار التقدير كأنه أنزلها (الثالث) انه تعالى خلقها فى الجنة ثم أنزلها الى الارض وقوله ثمانية أزواج أى ذكرا وأنثى من الابل والبقر والضأن والمعز والزوج اسم لكل واحد معه آخر فاذا انفرد فهو فرد منه قال تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى ثم قال تعالى يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق وفيه ابحاث (الاول) قرأ حمزة بكسر الالف والميم والكسائى بكسر الهمزة وفتح الميم والباقون أمهاتكم بضم الالف وفتح الميم (الثانى) انه تعالى لما ذكر تخليق الناس من شخص واحد وهو آدم عليه السلام أردفه بتخليق الانعام وانما خصها بالذكر لانها أشرف الحيوانات بعد الانسان ثم ذكر عقيب ذكرهما حالة مشتركة بين الانسان وبين الانعام وهى كونها مخلوقة فى بطون أمهاتهم وقوله خلقا من بعد خلق المراد منه ما ذكره الله تعالى فى قوله ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين وقوله فى ظلمات ثلاث قيل الظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل الصلب والرحم والبطن ووجه الاستدلال بهذه الحالات قد ذكرناه فى قوله هو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء واعلم انه تعالى لما شرح هذه الدلائل ووصفها قال ذلكم الله ربكم أى ذلكم الشئ الذى عرفتم عجائب أفعاله هو الله ربكم وفى هذه الآية دلالة على كونه سبحانه وتعالى منزها عن الاجزاء والاعضاء وعلى كونه منزها عن الجسمية والمكانية وذلك أنه تعالى عندما أراد أن يعرف عباده ذاته المخصوصة لم يذكر الا كونه فاعلا لهذه الاشياء ولو كان جسما مركبا من الاعضاء لكان تعريفه بتلك الاجزاء والاعضاء تعريفا للشئ بأجزاء حقيقته وأما تعريفه بأحواله وأفعاله وآثاره فذلك تعريف له بأمور خارجة عن ذاته والتعريف الاول أكمل من الثانى ولو كان ذلك القسم ممكنا لكان الاكتفاء بهذا القسم الثانى تقصيرا ونقصانا وذلك غير جائز فعلمنا ان الاكتفاء بهذا القسم انما حسن لان القسم الاول محال ممتنع الوجود وذلك يدل على كونه سبحانه وتعالى متعاليا عن الجسمية والاعضاء والاجزاء ثم قال تعالى له الملك وهذا يفيد الحصر أى له الملك لا لغيره ولما ثبت انه لا ملك الا له وجب القول بانه لا اله الا هو لانه لو ثبت اله آخر فذلك الاله اما أن يكون له الملك أو لا يكون له الملك فان كان له الملك فحينئذ يكون كل واحد منهما مالكا قادرا ويجرى بينهما التمانع كما ثبت فى قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وذلك محال وان لم يكن للثانى شئ من القدرة والملك فيكون ناقصا ولا يصلح للالهية فثبت أنه لما دل الدليل على انه لا ملك الا الله وجب أن يقال لا اله للعالمين ولا معبود للخلق أجمعين الا الله الاحد الحق الصمد ثم اعلم انه سبحانه لما بين بهذه الدلائل كمال قدرة الله سبحانه وحكمته ورحمته رتب عليه تزييف طريقة المشركين والضالين من وجوه (الاول) قوله فانى تصرفون يحتج به أصحابنا ويحتج به المعتزلة أما أصحابنا فوجه الاستدلال لهم بهذه الآية انها صريحة فى انهم لم ينصرفوا بأنفسهم عن هذه البيانات بل صرفها عنهم غيرهم وما ذاك الغير الا الله وأيضا فدليل العقل يقوى ذلك لان كل واحد يريد لنفسه تحصيل الحق والصواب فلما لم يحصل ذلك وانما حصل الجهل والضلال علمنا انه من غيره لا منه وأما المعتزلة فوجه الاستدلال لهم ان قوله فانى تصرفون تعجب من هذا الانصراف ولو كان الفاعل لذلك الصرف هو الله تعالى لم يبق لهذا التعجب معنى ثم قال تعالى ان تكفروا فان الله غنى عنكم والمعنى أن الله تعالى ما كلف المكلفين ليجر الى نفسه منفعة أو ليدفع عن نفسه مضرة وذلك لانه تعالى غنى على الاطلاق ويمتنع فى حقه جر المنفعة ودفع المضرة وانما قلنا انه غنى لوجوه (الاول) انه واجب الوجود لذاته وواجب الوجود فى جميع صفاته ومن كان كذلك كان غنيا على الاطلاق (الثانى) انه لو كان محتاجا لكانت تلك الحاجة اما قديمة واما حادثة والاول باطل والا لزم أن يخلق فى الازل ما كان محتاجا اليه وذلك محال

يتزوجها فتفضى اليه بأسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا أن يولد له منها ولد يجتمع له فطنة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان عليه السلام الى ملك هو أشد وأفظع فقالوا ان فى عقلها شيأ وهى شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها (فلما رأته) وهو حاضر بين يديها كما يعرب عنه الامر بدخولها وأحاطت بتفاصيل أحواله خبرا (حسبته لجة وكشفت عن ساقيها) وتشمرت لئلا تبتل أذيالها فاذا هى أحسن الناس ساقا وقدما خلا أنها شعراء قيل هى السبب فى اتخاذ النورة أمر بها الشياطين فاتخذوها واستنكحها عليه الصلاة والسلام وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان وكان يزورها فى الشهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام وقيل بل زوجها ذا تبع ملك همدان وسلطه على اليمن وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع وقرئ سأقيها احلالا للمفرد على الجمع فى سؤق وأسوق (قال) عليه الصلاة والسلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب (انه) أى ما توهمته ماء (صرح ممرد) أى مملس (من قوارير) من الزجاج (قالت) حين عاينت تلك المعجزة أيضا (رب انى ظلمت نفسى) بما كنت عليه الى الآن من عبادة الشمس وقيل بظنى بسليمان حيث ظننت أنه يريد اغراقها فى اللجة وهو بعيد (وأسلمت مع سليمان) تابعة له مقتدية به وما فى قوله تعالى (لله رب العالمين) من الالتفات الى الاسم الجليل ووصفه بربوبية العالمين لاظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفرده باستحقاق

لان الخالق والازلى متناقض والثانى باطل لان الحاجة نقصان والحكيم لايدعوه الداعى الى تحصيل النقصان لنفسه (الثالث) هب انه يبقى الشك فى انه هل تصح الشهوة والنفرة والحاجة عليه أم لا امامن المعلوم بالضرورة ان الاله القادر على خلق السموات والارض والشمس والقمر والنجوم والعرش والكرسى والعناصر الاربعة والمواليد الثلاثة يمتنع أن ينتفع بصلاة زيد وصيام عمرو وان يستضر بعدم صلاة هذا وعدم صيام ذاك فثبت بما ذكرنا ان جميع العالمين لو كفروا وأصروا على الجهل فان الله غنى عنهم ثم قال تعالى بعده ولا يرضى لعباده الكفر يعنى انه وان كان لا ينفعه ايمان ولا يضره كفران الا أنه لا يرضى بالكفر واحتج الجبائى بهذه الآية من وجهين (الاول) ان المجبرة يقولون ان الله تعالى خلق كفر العباد وانه من جهة ما خلقه حق وصواب قال ولو كان الامر كذلك لكان قد رضى الكفر من الوجه الذى خلقه وذلك ضد الآية (الثانى) لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب علينا ان نرضى به لان الرضا بقضاء الله تعالى واجب وحيث اجتمعت الامة على ان الرضا بالكفر كفر ثبت انه ليس بقضاء الله وليس أيضا برضا الله تعالى وأجاب الاصحاب عن هذا الاستدلال من وجوه (الاول) أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين قال الله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال عينا يشرب بها عباد الله وقال ان عبادى ليس لك عليهم سلطان فعلى هذا التقدير قوله ولا يرضى لعباده الكفر أى ولا يرضى للمؤمنين الكفر وذلك لا يضرنا (الثانى) انا نقول الكفر بارادة الله تعالى ولا نقول انه برضا الله لان الرضا عبارة عن المدح عليه والثناء بفعله قال الله تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين أى يمدحهم ويثنى عليهم (الثالث) كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمه الله يقول الرضا عبارة عن ترك اللوم والاعتراض وليس عبارة عن الارادة والدليل عليه قول ابن دريد

رضيت قسرا وعلى القسر رضا ❋ من كان ذا سخط على صرف القضا

أثبت الرضا مع القسر وذلك يدل على ما قلناه (والرابع) هب ان الرضا هو الارادة الا ان قوله ولا يرضى لعباده الكفر عام فتخصيصه بالآيات الدالة على انه تعالى يريد الكفر من الكافر كقوله تعالى وما تشاؤن الا أن يشاء الله والله أعلم ثم قال تعالى وان تشكروا يرضه لكم والمراد انه لما بين أنه لا يرضى الكفر بين انه يرضى الشكر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلف القراء فى هاء يرضه على ثلاثة أوجه (أحدها) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الهاء مختلسة غير مشبعة (وثانيها) قرأ أبو عمرو وحمزة فى بعض الروايات يرضه ساكنة الهاء للتخفيف (وثالثها) قرأ نافع فى بعض الروايات وابن كثير وابن عامر والكسائى مضمومة الهاء مشبعة قال الواحدى رحمه الله من القراء من أشبع الهاء حتى ألحق بها واوا لان ما قبل الهاء متحرك فصار بمنزلة ضربه وله فكما ان هذا مشبع عند الجميع كذلك يرضه ومنهم من حرك الهاء ولم يلحق الواو لان الاصل يرضاه والالف المحذوفة للجزم ليس يلزم حذفها فكانت كالباقية ومع بقاء الالف لا يجوز اثبات الواو فكذا ههنا (المسئلة الثانية) الشكر حالة مركبة من قول واعتقاد وعمل (أما القول) فهو الاقرار بحصول النعمة (وأما الاعتقاد) فهو اعتقاد صدور النعمة من ذلك المنعم ثم قال تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى قال الجبائى هذا يدل على انه تعالى لا يعذب أحدا على فعل غيره فلو فعل الله كفرهم لما جاز أن يعذبهم عليه وأيضا لا يجوز أن يعذب الاولاد بذنوب الآباء بخلاف ما يقول القوم واحتج أيضا من أنكر وجوب ضرب الدية على العاقلة بهذه الآية ثم قال تعالى ثم الى ربكم مرجعكم واعلم انا ذكرنا كثيرا ان أهم المطالب للانسان أن يعرف خالقه بقدر الامكان وان يعرف ما يضره وما ينفعه فى هذه الحياة الدنيوية وان يعرف أحواله بعد الموت ففى هذه الآية ذكر الدلائل الكثيرة من العالم الاعلى والعالم الاسفل على كمال قدرة الصانع وعلمه وحكمته ثم أتبعه بان أمره بالشكر ونهاه عن الكفر ثم بين أحواله بعد الموت بقوله ثم الى ربكم مرجعكم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المشبهة تمسكوا بلفظ الى على ان اله العالم فى جهة وقد أجبنا عنه مرارا (المسئلة الثانية) زعم القوم ان هذه الارواح كانت موجودة قبل الاجساد وتمسكوا بلفظ الرجوع الموجود فى هذه الآية وفى سائر الآيات (المسئلة الثالثة) دلت هذه الآية على اثبات البعث والقيامة ثم قال فينبئكم بما كنتم تعملون وهذا تهديد للعاصى وبشارة للمطيع وقوله تعالى انه عليم

العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التى من جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس (ولقد أرسلنا) عطف على قوله تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما مسوق لما سبق هو له من تقرير أنه عليه الصلاة والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فان هذه القصة أيضا من جملة القرآن الكريم الذى لقيه عليه الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف أى وبالله لقد أرسلنا (الى ثمود أخاهم صالحا) وأن فى قوله تعالى (أن اعبدوا الله) مفسرة لما فى الارسال من معنى القول أو مصدرية حذف عنها الباء وقرئ بضم النون اتباعا لها للباء (فاذا هم فريقان يختصمون) ففاجؤا التفرق والاختصام فآمن فريق وكفر فريق والواو لمجموع الفريقين (قال) عليه الصلاة والسلام للفريق الكافر منهم بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة الى أن قالوا له عليه الصلاة والسلام ياصالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين (ياقوم لم تستعجلون بالسيئة) أى بالعقوبة السيئة (قبل الحسنة) أى التوبة فتؤخرونها الى حين نزولها حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون ان وقع ايعاده تبنا حينئذ والا فنحن على ما كنا عليه (لولا تستغفرون الله) هلا تستغفرونه تعالى قبل نزولها (لعلكم ترحمون) بقبولها اذ لا امكان للقبول عند النزول (قالوا اطيرنا) أصله تطيرنا والتطير التشاؤم عبر عنه بذلك لما أنهم كانوا اذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فان مر سانحا تيمنوا وان مر بارحا تشاءموا فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببا لهما

بذات الصدور كالعلة لما سبق يعنى انه انما يمكنه أن ينبئكم بأعمالكم لانه عالم بجميع المعلومات فيعلم ما فى قلوبكم من الدواعى والصوارف وقال صلى الله عليه وسلم ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أقوالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم ۞ قوله تعالى ﴿ واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الالباب ﴾ واعلم ان الله تعالى لما بين فساد القول بالشرك وبين أن الله تعالى هو الذى يجب أن يعبد بين فى هذه الآية ان طريقة هؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام متناقضة وذلك لانهم اذا مسهم نوع من أنواع الضر لم يرجعوا فى طلب دفعه الا الى الله واذا زال ذلك الضر عنهم رجعوا الى عبادة الاصنام ومعلوم أنهم انما رجعوا الى الله تعالى عند حصول الضر لانه هو القادر على ايصال الخير ودفع الضر واذا عرفوا ان الامر كذلك فى بعض الاحوال كان الواجب عليهم أن يعترفوا به فى كل الاحوال فثبت ان طريقتهم فى هذا الباب متناقضة اما قوله تعالى واذا مس الانسان فقيل المراد بالانسان أقوام معينون مثل عتبة بن ربيعة وغيره وقيل المراد به الكافر الذى تقدم ذكره لان الكلام يخرج على معهود تقدم وأما قوله ضر فيدخل فيه جميع المكاره سواء كان فى جسمه أو فى ماله أو أهله أو ولده لان اللفظ مطلق فلا معنى للتقييد ودعا ربه أى استجار بربه وناداه ولم يؤمل فى كشف الضر سواه فلذلك قال منيبا اليه أى راجعا اليه وحده فى ازالة ذلك الضر لان الانابة هى الرجوع ثم اذا خوله نعمة منه أى أعطاه قال صاحب الكشاف وفى حقيقته وجهان (أحدهما) جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال وخال مال اذا كان متعهدا له حسن القيام به ومنه ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يتخول أصحابه بالموعظة (والثانى) جعله يخول من خال يخول اذا اختال وافتخر وفى المعنى قالت العرب

* ان الغنى طويل الذيل مياس *

ثم قال تعالى نسى ما كان يدعو اليه من قبل أى نسى ربه الذى كان يتضرع اليه ويبتهل اليه وما بمعنى من كقوله تعالى وما خلق الذكر والانثى وقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد وقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم من النساء وقيل نسى الضر الذى كان يدعو الله الى كشفه والمراد من قوله نسى أى ترك دعاءه كانه لم يفزع الى ربه ولو أراد به النسيان الحقيقى لما ذمه عليه ويحتمل أن يكون المراد انه نسى أن لا يفزع وأن لا اله سواه فعاد الى اتخاذ الشركاء مع الله ثم قال تعالى وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ليضل بفتح الياء والباقون ليضل بضم الياء على معنى ليضل غيره (المسئلة الثانية) المراد انه تعالى يعجب العقلاء من مناقضتهم عند هاتين الحالتين فعند الضر يعتقدون أنه لا مفزع الى ما سواه وعند النعمة يعودون الى اتخاذ آلهة معه ومعلوم أنه تعالى اذا كان انما يفزع اليه فى حال الضر لاجل انه هو القادر على الخير والشر وهذا المعنى باق فى حال الراحة والفراغ كان فى تقرير حالهم فى هذين الوقتين ما يوجب المناقضة وقلة العقل (المسئلة الثالثة) معنى قوله ليضل عن سبيله انه لا يقتصر فى ذلك على أن يضل نفسه بل يدعو غيره اما بفعله أو قوله الى أن يشاركه فى ذلك فيزداد اثما على اثمه واللام فى قوله ليضل لام العاقبة كقوله فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ولما ذكر الله تعالى عنهم هذا الفعل المتناقض هددهم فقال قل تمتع بكفرك قليلا وليس المراد منه الامر بل الزجر وأن يعرفه قلة تمتعه فى الدنيا ثم يكون مصيره الى النار ولما شرح الله تعالى صفات المشركين والضالين ثم تمسكهم بغير الله تعالى أردفه بشرح أحوال المحقين الذين لا رجوع لهم الا الى الله ولا اعتماد لهم الا على فضل الله فقال أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وحمزة أمن مخففة الميم والباقون بالتشديد أما التخفيف ففيه وجهان (الاول) أن الالف ألف الاستفهام داخلة على من والجواب محذوف على تقدير كمن ليس كذلك وقيل كالذى جعل لله أندادا فاكتفى بما سبق ذكره (والثانى) أن يكون ألف نداء كانه قيل يا من هو قانت أنت من أهل الجنة وأما التشديد فقال الفراء الاصل أم من فادغمت الميم فى الميم وعلى هذا القول هى أم التى فى قولك أزيد أفضل أم عمرو (المسئلة الثانية) القانت القائم بما يجب عليه من الطاعة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أفضل الصلاة

من قدر الله تعالى وقسمته أو من عمل العبد أى تشاءمنا (بك وبمن معك) فى دينك حيث تتابعت علينا الشدائد وقد كانوا قحطوا أو لم نزل فى اختلاف وافتراق مذ اخترعتم دينكم (قال طائركم) أى سببكم الذى منه ينالكم ما ينالكم من الشر (عند الله) وهو قدره أو عملكم المكتوب عنده وقوله تعالى (بل أنتم قوم تفتنون) أى تختبرون بتعاقب السراء والضراء أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم الطيرة اضراب من بيان طائرهم الذى هو مبدأ ما يحيق بهم الى ذكر ما هو الداعى اليه (وكان فى المدينة) وهى الحجر (تسعة رهط) أى أشخاص وبهذا الاعتبار وقع تمييزا للتسعة لا باعتبار لفظه والفرق بينه وبين النفر أنه من الثلاثة أو من السبعة الى العشرة والنفر من الثلاثة الى التسعة وأسماؤهم حسبما نقل عن وهب الهذيل بن عبد رب وغنم بن غنم ورئاب بن مهرج ومصدع بن مهرج وعمير بن كردبة وعاصم بن مخرمة وسبيط بن صدقة وشمعان بن صفى وقدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وكانوا من أبناء أشرافهم (يفسدون فى الارض) لا فى المدينة فقط افسادا بحتا لا يخالطه شئ ما من الاصلاح كما ينطق به قوله تعالى (ولا يصلحون) أى لا يفعلون شيأ من الاصلاح أو لا يصلحون شيأ من الاشياء (قالوا) استئناف لبيان بعض ما فعلوا من الفساد أى قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح عليه الصلاة والسلام وكان ذلك غب ما أنذرهم بالعذاب وقوله تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام الخ (تقاسموا

صلاة القنوت وهو القيام فيها ومنه القنوت في الصبح لانه يدعو قائما عن ابن عمر رضي الله عنه انه قال لا أعلم القنوت الا قراءة القرآن وطول القيام وتلا أمن هو قانت وعن ابن عباس القنوت طاعة الله لقوله كل له قانتون أي مطيعون وعن قتادة آناء الليل ساعات الليل أوله ووسطه وآخره وفي هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل وانه أرجح من قيام النهار ويؤكده وجوه (الاول) ان عبادة الليل استر عن العيون فتكون أبعد عن الرياء (الثاني) ان الظلمة تمنع من الابصار ونوم الخلق يمنع من السماع فاذا صار القلب فارغا عن الاشتغال بالاحوال الخارجية عاد الى المطلوب الاصلي وهو معرفة الله وخدمته (الثالث) ان الليل وقت النوم فتركه يكون أشق فيكون الثواب أكثر (الرابع) قوله تعالى ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا وقوله ساجدا حال وقرئ ساجد وقائم على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين واعلم ان هذه الآية دالة على أسرار عجيبة فأولها انه بدأ فيها بذكر العمل وختم فيها بذكر العلم اما العمل فكونه قانتا ساجدا قائما وأما العلم فقوله هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وهذا يدل على ان كمال الانسان محصور في هذين المقصودين فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هو النهاية (الفائدة الثانية) انه تعالى نبه على ان الانتفاع بالعمل انما يحصل اذا كان الانسان مواظبا عليه فان القنوت عبارة عن كون الرجل قائما بما يجب عليه من الطاعات وذلك يدل على ان العمل انما يفيد اذا واظب عليه الانسان وقوله ساجدا وقائما اشارة الى أصناف الاعمال وقوله يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه اشارة الى ان الانسان عند المواظبة ينكشف له في الاول مقام القهر وهو قوله يحذر الآخرة ثم بعده مقام الرحمة وهو قوله ويرجو رحمة ربه ثم يحصل أنواع المكاشفات وهو المراد بقوله هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون (الفائدة الثالثة) انه قال في مقام الخوف يحذر الآخرة فما أضاف الحذر الى نفسه وفي مقام الرجاء أضافه الى نفسه وهذا يدل على أن جانب الرجاء أكمل وأليق بحضرة الله تعالى (المسئلة الثالثة) قيل المراد من قوله أمن هو قانت آناء الليل عثمان لانه كان يحيي الليل في ركعة واحدة ويقرأ القرآن في ركعة واحدة والصحيح ان المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة فيدخل فيه عثمان وغيره لان الآية غير مقتصرة عليه (المسئلة الرابعة) لا شبهة في أن في الكلام حذفا والتقدير أمن هو قانت كغيره وانما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه لانه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر وذكر بعدها قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وتقدير الآية قل هل يستوي الذين يعلمون وهم الذين صفتهم انهم يقنتون آناء الليل سجدا وقياما والذين لا يعلمون وهم الذين وصفهم عند البلاء والخوف يوحدون وعند الراحة والفراغة يشركون فاذا قدرنا هذا التقدير ظهر المراد وانما وصف الله الكفار بأنهم لا يعلمون لانهم وان آتاهم الله آلة العلم الا أنهم أعرضوا عن تحصيل العلم فلهذا السبب جعلهم كأنهم ليسوا أولي الالباب من حيث انهم لم ينتفعوا بعقولهم وقلوبهم واما قوله تعالى قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم وقد بالغنا في تقرير هذا المعنى في تفسير قوله تعالى وعلم آدم الاسماء كلها قال صاحب الكشاف أراد بالذين يعلمون الذين سبق ذكرهم وهم القانتون وبالذين لا يعلمون الذين لا يأتون بهذا العمل كأنه جعل القانتين هم العلماء وهو تنبيه على أن من لم يعمل فهو غير عالم ثم قال وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقنتون ويفتنون فيها ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة ثم قال تعالى انما يتذكر أولو الالباب يعني هذا التفاوت العظيم الحاصل بين العلماء والجهال لا يعرفه أيضا الا أولو الالباب قيل لبعض العلماء انكم تقولون العلم أفضل من المال ثم نرى العلماء يجتمعون عند أبواب الملوك ولا نرى الملوك مجتمعين عند أبواب العلماء فأجاب العالم بأن هذا أيضا يدل على فضيلة العلم لان العلماء علموا ما في المال من المنافع فطلبوه والجهال لم يعرفوا ما في العلم من المنافع فلا جرم تركوه ۞ قوله تعالى ﴿قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قل اني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لان أكون أول المسلمين قل اني أخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾

بالله) اما أمر مقول لقالوا أو ماض وقع بدلا منه أو حالا من فاعله باضمار قد وقوله تعالى (لنبيتنه وأهله) أي لنباغتن صالحا وأهله ليلا ولنقتلنهم وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض وقرئ بياء الغيبة وضم التاء على أن تقاسموا فعل ماض (ثم لنقولن لوليه) أي لولي صالح وقرئ بالتاء والياء كما قبله (ما شهدنا مهلك أهله) أي ما حضرنا هلاكهم أو وقت هلاكهم أو مكان هلاكهم فضلا ان نتولى اهلاكهم وقرئ مهلك بفتح اللام فيكون مصدرا (وانا لصادقون) من تمام القول أو حال أي نقول ما نقول والحال انا لصادقون في ذلك لان الشاهد للشئ غير المباشر له عرفا أو لانا ما شاهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم جميعا كقولك ما رأيت ثمة رجلا بل رجلين (ومكروا مكرا) بهذه المواضعة (ومكرنا مكرا) أي أهلكناهم اهلاكا غير معهود (وهم لا يشعرون) أو جازيناهم مكرهم من حيث لا يحتسبون (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) شروع في بيان ما ترتب على ما باشروه من المكر وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض أي فتفكر في أنه كيف كان عاقبة مكرهم وقوله تعالى (انا دمرناهم) اما بدل من عاقبة مكرهم على أنه فاعل كان وهي تامة وكيف حال أي فانظر كيف حصل أي على أي وجه حدث تدميرنا اياهم واما خبر لمبتدأ محذوف والجملة مبينة لما في عاقبة مكرهم من الابهام أي هي تدميرنا اياهم (وقومهم) الذين لم يكونوا معهم في مباشرة التبييت (أجمعين) بحيث لم يشذ منهم شاذ واما تعليل لما ينبئ عنه الامر بالنظر في كيفية عاقبة مكرهم من غاية

اعلم انه تعالى لما بين نفى المساواة بين من يعلم و بين من لا يعلم اتبعه بأن أمر رسوله بان يخاطب المؤمنين بأنواع من الكلام (النوع الاول) قوله قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم والمراد ان الله تعالى أمر المؤمنين بأن يضموا الى الايمان التقوى وهذا من أدل الدلائل على ان الايمان يبقى مع المعصية قال القاضى أمرهم بالتقوى لكيلا يحبطوا ايمانهم لان عند الاتقاء من الكبائر يسلم لهم الثواب و بالاقدام عليها يحبط فيقال له هذا بأن يدل على ضد قولك أولى لانه لما أمر المؤمنين بالتقوى دل ذلك على انه يبقى مؤمنا مع عدم التقوى وذلك يدل على أن الفسق لا يزيل الايمان واعلم انه تعالى لما أمر المؤمنين بالاتقاء بين لهم ما فى هذا الاتقاء من الفوائد فقال تعالى للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة فقوله فى هذه الدنيا يحتمل أن يكون صلة لقوله أحسنوا أو لحسنة فعلى التقدير الاول معناه الذين أحسنوا فى هذه الدنيا فلهم حسنة فى الآخرة وهى دخول الجنة والتنكير فى قوله حسنة للتعظيم يعنى حسنة لا يصل العقل الى كنه كمالها وأما على التقدير الثانى فمعناه الذين أحسنوا فلهم فى هذه الدنيا حسنة والقائلون بهذا القول قالوا هذه الحسنة هى الصحة والعافية وأقول الاولى ان تحمل على الثلاثة المذكورة فى قوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفاية ومن الناس من قال القول الاول أولى ويدل عليه وجوه (الاول) ان التنكير فى قوله حسنة يدل على النهاية والجلالة والرفعة وذلك لا يليق بأحوال الدنيا فانها خسيسة ومنقطعة وانما يليق بأحوال الآخرة فانها شريفة وآمنة من الانقضاء والانقراض (والثانى) ان ثواب المحسن بالتوحيد والاعمال الصالحة انما يحصل فى الآخرة قال تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وأيضا فنعمة الدنيا من الصحة والامن والكفاية حاصلة للكفار وأيضا فحصولها للكافر أكثر وأتم من حصولها للمؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وقال تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون (الثالث) ان قوله للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة يفيد الحصر بمعنى انه يفيد أن حسنة هذه الدنيا لا تحصل الا للذين أحسنوا وهذا باطل أما لو حملنا هذه الحسنة على حسنة الآخرة صح هذا الحصر فكان حمله على حسنة الآخرة أولى ثم قال الله تعالى وأرض الله واسعة وفيه قولان (الاول) المراد انه لا عذر البتة للمقصرين فى الاحسان حتى انهم ان اعتلوا بأوطانهم و بلادهم وانهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الاحسان وصرف الهمم اليه قل لهم فان أرض الله واسعة و بلاده كثيرة فتحولوا من هذه البلاد الى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات والعبادات واقتدوا بالانبياء والصالحين فى مهاجرتهم الى غير بلادهم ليزدادوا احسانا الى احسانهم وطاعة الى طاعتهم والمقصود منه الترغيب فى الهجرة من مكة الى المدينة والصبر على مفارقة الوطن ونظيره قوله تعالى قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها (والقول الثانى) قال أبو مسلم لا يمتنع أن يكون المراد من الارض أرض الجنة وذلك لانه تعالى أمر المؤمنين بالتقوى وهى خشية الله ثم بين ان من اتقى فله فى الآخرة الحسنة وهى الخلود فى الجنة ثم بين ان أرض الله أى جنته واسعة لقوله تعالى نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقوله تعالى وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين والقول الاول عندى أولى لان قوله انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب لا يليق الا بالاول وفى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) اما تحقيق الكلام فى ماهية الصبر فقد ذكرناه فى سورة البقرة والمراد ههنا بالصابرين الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم وعلى تجرع الغصص واحتمال البلايا فى طاعة الله تعالى (المسئلة الثانية) تسمية المنافع التى وعد الله بها على الصبر بالاجر توهم ان العمل على الثواب لان الاجر هو المستحق الا انه قامت الدلائل القاهرة على أن العمل ليس عليه الثواب فوجب حمل لفظ الاجر على كونه أجرا بحسب الوعد لا بحسب الاستحقاق (المسئلة الثالثة) انه تعالى وصف ذلك الاجر بانه بغير حساب وفيه وجوه (الاول) قال الجبائى المعنى انهم يعطون ما يستحقون و يزدادون تفضلا فهو بغير حساب ولو لم يعطوا الا المستحق لكان ذلك حسابا قال القاضى هذا ليس بصحيح لان الله تعالى وصف الاجر بأنه بغير حساب ولو لم يعطوا الا الاجر المستحق والاجر غير التفضل (الثانى) ان الثواب له صفات ثلاثة (أحدها) انها تكون دائمة الاجرا لهم وقوله بغير حساب معناه بغير نهاية لان كل شئ دخل تحت الحساب فهو متناه

الهول والقطاعة بحذف الجار أى لانا دمرناهم الخ وقيل كان ناقصة اسمها عاقبة مكرهم خبرها كيف كان فالوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى انا دمرناهم الخ تعليلا لما ذكر وقرئ انا دمرناهم الخ بالكسر على الاستئناف روى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم فى مكانه ونجى صالحا ومن معه وقيل جاؤا بالليل شاهرى سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الحجارة ولا يرون راميا (فتلك بيوتهم) جملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى (خاوية) أى خالية أو ساقطة متهدمة (بما ظلموا) أى بسبب ظلمهم المذكور حال من بيوتهم والعامل معنى الاشارة وقرئ خاوية بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من التدمير العجيب بظلمهم (لآية) لعبرة عظيمة (لقوم يعلمون) أى ما من شأنه ان يعلم من الاشياء أو لقوم يتصفون بالعلم (وأنجينا الذين آمنوا) صالحا ومن معه من المؤمنين (وكانوا يتقون) أى الكفر والمعاصى اتقاء مستمرا فلذلك خصوا بالنجاة (ولوطا) منصوب بمضمر معطوف على أرسلنا فى صدر قصة صالح داخل معه فى حيز القسم أى وأرسلنا لوطا وقوله تعالى (اذ قال لقومه) ظرف

فالانهاية له كان خارجا عن الحساب (وثانيها) انها تكون منافع كاملة فى أنفسها وعقل المطيع ما كان يصل الى كنه ذلك الثواب قال صلى الله عليه وسلم ان فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وكل ما يشاهدونه من أنواع الثواب وجدوه أزيد مما تصوروه وتوقعوه وما لا يتوقعه الانسان فقد يقال انه ليس فى حسابه فقوله بغير حساب محمول على هذا المعنى (والوجه الثالث فى التأويل) ان ثواب أهل البلاء لا يقدر بالميزان والمكيال روى صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ينصب الله الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون بالموازين ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان ويصب عليهم الاجر صبا قال الله تعالى انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا ان أجسادهم تقرض بالمقاريض لما يذهب به أهل البلاء من الفضل (النوع الثانى) من البيانات التى أمر الله رسوله أن يذكرها قوله تعالى قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين قال مقاتل ان كفار قريش قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ما يحملك على هذا الدين الذى أتيتنا به الا تنظر الى ملة أبيك وجدك وسادات قومك يعبدون اللات والعزى فأنزل الله قل يا محمد انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأقول ان التكاليف نوعان (أحدهما) الامر بالاحتراز عما لا ينبغى (والثانى) الامر بتحصيل ما ينبغى والمرتبة الاولى مقدمة على المرتبة الثانية بحسب الرتبة الواجبة اللازمة اذا ثبت هذا فنقول انه تعالى قدم الامر بازالة ما لا ينبغى فقال اتقوا ربكم لان التقوى هى الاحتراز عما لا ينبغى ثم ذكر عقيبه الامر بتحصيل ما ينبغى فقال انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وهذا يشتمل على قيدين (أحدهما) الامر بعبادة الله (والثانى) كون تلك العبادة خالصة عن شوائب الشرك الجلى وشوائب الشرك الخفى وانما خص الله تعالى الرسول بهذا الامر لينبه على أن غيره بذلك أحق فهو كالترغيب للغير وقوله تعالى وأمرت لان أكون أول المسلمين لا شبهة فى أن المراد انى أول من تمسك بالعبادات التى أرسلت بها وفى هذه الآية فائدتان (الفائدة الاولى) كأنه يقول انى لست من الملوك الجبابرة الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك بل كل ما أمرتكم به فأنا أول الناس شروعا فيه وأكثرهم مداومة عليه (الفائدة الثانية) انه قال انى أمرت أن أعبد الله والعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح وعمل القلب أشرف من عمل الجوارح فقدم ذكر الجزء الاشرف وهو قوله مخلصا له الدين ثم ذكر عقيبه الادون وهو عمل الجوارح وهو الاسلام فان النبى صلى الله عليه وسلم فسر الاسلام فى خبر جبريل عليه السلام بالاعمال الظاهرة وهو المراد بقوله فى هذه الآية وأمرت لان أكون أول المسلمين وليس لقائل أن يقول ما الفائدة فى تكرير لفظ أمرت لانا نقول ذكر لفظ أمرت أولا فى عمل القلب وثانيا فى عمل الجوارح ولا يكون هذا تكريرا (الفائدة الثالثة) فى قوله وأمرت لان أكون أول المسلمين التنبيه على كونه رسولا من عند الله واجب الطاعة لان أول المسلمين فى شرائع الله لا يمكن أن يكون الا رسول الله لان أول من يعرف تلك الشرائع والتكاليف هو الرسول المبلغ ولما بين الله تعالى أمره بالاخلاص بالقلب وبالاعمال المخصوصة وكان الامر يحتمل الوجوب ويحتمل الندب بين ان ذلك الامر للوجوب فقال قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم وفيه فوائد (الفائدة الاولى) ان الله أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجرى هذا الكلام على نفسه والمقصود منه المبالغة فى زجر الغير عن المعاصى لانه مع جلالة قدره وشرف نبوته اذا وجب أن يكون خائفا حذرا عن المعاصى فغيره بذلك أولى (الفائدة الثانية) دلت الآية على ان المرتب على المعصية ليس حصول العقاب بل الخوف من العقاب وهذا يطابق قولنا ان الله تعالى قد يعفو عن المذنب والكبيرة فيكون اللازم عند حصول المعصية هو الخوف من العقاب لا نفس حصول العقاب (الفائدة الثالثة) دلت هذه الآية على أن ظاهر الامر للوجوب وذلك لانه قال فى أول الآية انى أمرت أن أعبد الله ثم قال بعده قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم فيكون معنى هذا العصيان ترك الامر الذى تقدم ذكره وذلك يقتضى أن يكون تارك الامر عاصيا والعاصى يترتب عليه الخوف من العقاب ولا معنى للوجوب الا ذلك (النوع الثالث) من الاشياء التى أمر الله رسوله أن يذكرها قوله قل الله أعبد مخلصا له دينى فان قيل ما معنى التكرير فى قوله قل

للارسال على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الارسال وما جرى بينه وبين قومه من الاقوال والاحوال وقيل انتصاب لوطا باضمار اذكر واذ بدل منه وقيل بالعطف على الذين آمنوا أى وأنجينا لوطا وهو بعيد (أتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية فى القبح والسماجة وقوله تعالى (وأنتم تبصرون) جملة حالية من فاعل تأتون مفيدة لتأكيد الانكار وتشديد التوبيخ فان تعاطى القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع وتبصرون من بصر القلب أى تعلمونها والحال انكم تعلمون علما يقينيا بكونها كذلك وقيل يبصرها بعضكم من بعض لما كانوا يعلنون بها (أئنكم لتأتون الرجال شهوة) تثنية للانكار وتكرير للتوبيخ وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح وتحلية الجملة بحرفى التأكيد للايذان بان مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد لكمال بعده من العقول وايراد المفعول بعنوان الرجولية لتربية التقبيح وتحقيق المباينة بينها وبين الشهوة التى علل بها الاتيان (من دون النساء) متجاوزين النساء اللاتى هن محال الشهوة (بل أنتم قوم تجهلون) تفعلون فعل الجاهلين بقبحه أو تجهلون العاقبة أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أى بل أنتم قوم سفهاء ماجنون والتاء فيه مع كونه صفة لقوم لكونهم فى حيز الخطاب (فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون) يتنزهون عن أفعالنا أو عن الاقذار ويعدون فعلنا قذرا وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه استهزاء وقد مر فى سورة الاعراف ان هذا الجواب هو الذى صدر عنهم فى

انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وقوله قل الله أعبد مخلصا له دينى قلنا هذا ليس بتكرير لان الاول اخبار بأنه مأمور من جهة الله بالاتيان بالعبادة والثانى اخبار بأنه أمر بان لا يعبد أحدا غير الله وذلك لان قوله أمرت أن أعبد الله لا يفيد الحصر وقوله تعالى قل الله أعبد يفيد الحصر يعنى الله أعبد ولا أعبد أحدا سواه والدليل عليه انه لما قال بعده قل الله أعبد قال بعده فاعبدوا ما شئتم من دونه ولا شبهة فى أن قوله فاعبدوا ما شئتم من دونه ليس أمرا بل المراد منه الزجر كانه يقول لما بلغ البيان فى وجوب رعاية التوحيد الى الغاية القصوى فبعد ذلك أنتم أعرف بأنفسكم ثم بين تعالى كمال الزجر بقوله قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم لوقوعها فى هلاك لا يعقل هلاك أعظم منه وخسروا أهليهم أيضا لانهم ان كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم وان كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده البتة وقال ابن عباس ان لكل رجل منزلا وأهلا وخدما فى الجنة فان أطاع أعطى ذلك وان كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه وأهله ومنزله وورثه غيره من المسلمين والخاسر المغبون ولما شرح الله خسرانهم وصف ذلك الخسران بغاية الفظاعة فقال ألا ذلك هو الخسران المبين كان التكرير لاجل التأكيد (الثانى) انه تعالى ذكر فى أول هذه الكلمة حرف ألا وهو للتنبيه وذكر التنبيه فى هذا الموضع يدل على التعظيم كانه قيل انه بلغ فى العظمة الى حيث لا تصل عقولكم اليها فتنبهوا لها (الثالث) ان كلمة هو فى قوله هو الخسران المبين تفيد الحصر كانه قيل كل خسران فانه يصير فى مقابلته كلا خسران (الرابع) وصفه بكونه مبينا يدل على التهويل وأقول قد بينا ان لفظ الآية يدل على كونه خسرانا مبينا فلنبين بحسب المباحث العقلية كونه خسرانا مبينا وأقول نفتقر الى بيان أمرين الى بيان كون خسرانا ثم الى بيان كونه مبينا (اما الاول) فتقريره انه تعالى أعطى هذه الحياة وأعطى العقل وأعطى المكنة وكل ذلك رأس المال اما هذه الحياة فالمقصود منها أن يكتسب فيها الحياة الطيبة فى الآخرة وأما العقل فانه عبارة عن العلوم البديهية وهذه العلوم هى رأس المال والنظر والفكر لا معنى له الا ترتيب علوم ليتوصل بذلك الترتيب الى تحصيل علوم كسبية فتلك العلوم البديهية المسماة بالعقل رأس المال وتركيبها على الوجوه المخصوصة يشبه تصرف التاجر فى رأس المال وتركيبها على الوجوه بالبيع والشراء وحصول العلم بالنتيجة يشبه حصول الربح وأيضا حصول القدرة على الاعمال يشبه رأس المال واستعمال تلك القوة فى تحصيل اعمال البر والخير يشبه تصرف التاجر فى رأس المال وحصول أعمال الخير والبر يشبه الربح اذا ثبت هذا فنقول ان من أعطاه الله الحياة والعقل والتمكن ثم انه لم يستفد منها الا معرفة الحق ولا عمل الخير البتة كان محروما عن الربح بالكلية واذا مات فقد ضاع رأس المال بالكلية فكان ذلك خسرانا فهذا بيان كونه خسرانا (واما الثانى) وهو بيان كون ذلك الخسران مبينا فهو أن من لم يربح الزيادة ولكنه مع ذلك سلم من الآفات والمضار فهذا كما لم يحصل له مزيد نفع لم يحصل له أيضا مزيد ضرر أما هؤلاء الكفار فقد استعملوا عقولهم التى هى رأس مالهم فى استخراج وجوه الشبهات وتقوية الجهالات والضلالات واستعملوا قواهم وقدرهم فى أفعال الشر والباطل والفساد فهم قد جمعوا بين أمور فى غاية الرداءة (أولها) انهم أتعبوا أبدانهم وعقولهم طلبا فى تلك العقائد الباطلة والاعمال الفاسدة (وثانيها) انهم عند الموت يضيع عنهم رأس المال من غير فائدة (وثالثها) أن تلك المتاعب الشديدة التى كانت موجودة فى الدنيا فى نصرة تلك الضلالات تصير أسبابا للعقوبة الشديدة والبلاء العظيم بعد الموت وعند الوقوف على هذه المعانى يظهر انه لا يعقل خسران أقوى من خسرانهم ولا حرمان أعظم من حرمانهم ونعوذ بالله منه ولما شرح الله تعالى أحوال حرمانهم عن الربح وبين كيفية خسرانهم بين انهم لم يقتصروا على الحرمان والخسران بل ضموا اليه استحقاق العذاب العظيم والعقاب الشديد فقال لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل والمراد احاطة النار بهم من جميع الجوانب ونظيره فى الاحوال النفسانية احاطة الجهل والحرمان والحرص وسائر الاخلاق الذميمة بالانسان فان قيل الظلل ما على الانسان فكيف سمى ما تحته بالظلل والجواب من وجوه (الاول) انه من باب اطلاق اسم أحد الضدين على الآخر كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها (الثانى) ان الذى يكون تحته يكون ظلة لانسان آخر تحته لان النار

المرة الاخيرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام بالامر والنهى لانه لم يصدر عنهم كلام آخر غيره (فأنجيناه وأهله الا امرأته قدرناها) أى قدرنا أنها (من الغابرين) أى الباقين فى العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) غير معهود (فساء مطر المنذرين) قد مر بيان كيفية ما جرى عليهم من العذاب غير مرة (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) اثر ما قص الله تعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام قصص الانبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وأخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه وبما خصهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالة على جلالة اقدارهم وصحة أخبارهم وبين على ألسنتهم حقية الاسلام والتوحيد وبطلان الكفر والاشراك وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ومن أعرض عنهم فقد تردى فى مهاوى الردى وشرح صدره عليه الصلاة والسلام بما فى تضاعيف تلك القصص من فنون المعارف الربانية ونور قلبه بانوار الملكات السبحانية الفائضة من عالم القدس وقرر بذلك فحوى ما نطق به قوله عز وجل وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم أمره عليه الصلاة والسلام بان يحمده تعالى على ما أفاض عليه من تلك النعم التى لا مطمع وراءها لطامع ولا مطمح من دونها لطامح ويسلم على كافة الانبياء الذين من جملتهم الذين قصت عليه أخبارهم التى هى من جملة المعارف التى أوحيت اليه عليه الصلاة والسلام أداء لحق تقدمهم واجتهادهم فى الدين وقيل هو أمر للوط عليه السلام بان يحمده تعالى على اهلاك كفرة

دركات كما أن الجنة درجات (والثالث) أن الظلة التحتانية اذا كانت مشابهة للظلة الفوقانية فى الحرارة والاحراق والايذاء أطلق اسم أحدهما على الآخر لاجل المماثلة والمشابهة قال الحسن هم بين طبقتين من النار لايدرون مافوقهم أكثر مما تحتهم ونظير هذه الآية قوله تعالى يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقوله تعالى لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ثم قال تعالى ذلك يخوف الله به عباده أى ذلك الذى تقدم ذكره من وصف العذاب فقوله ذلك مبتدأ وقوله يخوف الله به عباده خبر وفى قوله يخوف الله به عباده قولان (الاول) التقدير ذلك العذاب المعد للكفار هو الذى يخوف الله به عباده أى المؤمنين لانا بينا أن لفظ العباد فى القرآن مختص بأهل الايمان وانما كان تخويفا للمؤمنين لاجل انهم اذا سمعوا ان حال الكفار ما تقدم خافوا فأخلصوا فى التوحيد والطاعة (الوجه الثانى) ان هذا الكلام فى تقدير جواب عن سؤال لانه يقال انه تعالى غنى عن العالمين منزه عن الشهوة والانتقام وداعية الايذاء فكيف يليق به أن يعذب هؤلاء المساكين الى هذا الحد العظيم وأجيب عنه بأن المقصود منه تخويف الكفار والضلال عن الكفر والضلال فاذا كان التكليف لايتم الا بالتخويف والتخويف لا يكمل الانتفاع به الا بادخال ذلك الشئ فى الوجود وجب ادخال ذلك النوع من العذاب فى الوجود تحصيلا لذلك المطلوب الذى هو التكليف والوجه الاول عندى أقرب والدليل عليه انه قال بعده ياعباد فاتقون وقوله ياعباد الاظهر منه ان المراد منه المؤمنون فكأنه قيل المقصود من شرح عذاب الكفار للمؤمنين تخويف المؤمنين فيا أيها المؤمنون بالغوا فى الخوف والحذر والتقوى ۞ قوله تعالى (والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وأنابوا الى الله لهم البشرى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الانهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد) اعلم أن الله تعالى لما ذكر وعيد عبدة الاصنام والاوثان ذكر وعد من اجتنب عبادتها واحترز عن الشرك ليكون الوعد مقرونا بالوعيد أبدا فيحصل كمال الترغيب والترهيب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الطاغوت فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت الا أن فيها قلبا بتقديم اللام على العين وفى هذا اللفظ أنواع من المبالغة (أحدها) التسمية بالمصدر كأن عين ذلك الشئ الطغيان (وثانيها) ان البناء بناء المبالغة فان الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط (وثالثها) ماذكرنا من تقديم اللام على العين ومثل هذا انما يصار اليه عند المبالغة (المسئلة الثانية) اختلفوا فى أن المراد من الطاغوت ههنا الشيطان أم الاوثان فقيل انه الشيطان فان قيل انهم ما عبدوا الشيطان وانما عبدوا الصنم قلنا الداعى الى عبادة الصنم لما كان هو الشيطان كان الاقدام على عبادة الصنم عبادة للشيطان وقيل المراد بالطاغوت الصنم وسميت طواغيت على سبيل المجاز لانه لا فعل لها والطغاة هم الذين يعبدونها الا انه لما حصل الطغيان عند مشاهدتها والقرب منها وصفت بهذه الصفة اطلاقا لاسم المسبب على السبب بحسب الظاهر وقيل كل ما يعبد ويطاع من دون الله فهو طاغوت ويقال فى التواريخ ان الاصل فى عبادة الاصنام ان القوم كانوا مشبهة اعتقدوا فى الاله انه نور عظيم وفى الملائكة انها أنوار مختلفة فى الصغر والكبر فوضعوا تماثيل وصورا على وفق تلك الخيالات فكانوا يعبدون تلك التماثيل على اعتقاد انهم يعبدون الله والملائكة وأقول حاصل الكلام فى قوله والذين اجتنبوا الطاغوت أى أعرضوا عن عبودية كل ماسوى الله قوله تعالى وأنابوا الى الله أى رجعوا بالكلية الى الله ورأيت فى السفر الخامس من التوراة ان الله تعالى قال لموسى ياموسى أجب الهك بكل قلبك وأقول مادام يبقى فى القلب التفات الى غير الله فهو ما أجاب الهه بكل قلبه وانما تحصل الاجابة بكل القلب اذا أعرض القلب عن كل ماسوى الله من باب الطاعات فكيف يعرض عنها مع انه بالحس يشاهد الاسباب المفضية الى المسببات فى هذا العالم قلنا ليس المراد من اعراض القلب عنها أن يقضى عليها بالعدم فان ذلك دخول فى السفسطة وهو باطل بل المراد أن يعرف أن واجب الوجود لذاته واحد وان كل ماسواه فانه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكنا لذاته فانه لايوجد الا بتكوين الواجب وايجاده ثم انه سبحانه وتعالى جعل تكوينه

قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة من الهلاك ولا يخفى بعده (آلله خير أم ما يشركون) أى آلله الذى ذكرت شؤنه العظيمة خير أم ما يشركونه به تعالى من الاصنام ومرجع الترديد الى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته تعالى وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم اذ من البين ان ليس فيما اشركوه به تعالى شائبة خير ما حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير الا خيره ولا اله غيره وقرئ تشركون بالتاء الفوقانية بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه الى الكفرة وهو الاليق بما بعده من سياق النظم الكريم المبنى على خطابهم وجعله من جملة القول المأمور به يأباه قوله تعالى فأنبتنا الخ فانه صريح فى أن التبكيت من قبله عز وجل بالذات وحمله على انه حكاية منه عليه الصلاة والسلام لما أمر به بعبارته كما فى قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم تعسف ظاهر من غير داع اليه وأم فى قوله تعالى (أمن خلق السموات والارض) منقطعة وما فيها من كلمة بل على القراءة الاولى للاضراب والانتقال من التبكيت تعريضا الى التصريح به خطابا على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد والتشديد وأما على القراءة الثانية فلتثنية التبكيت وتكرير الالزام كنظائرها الآتية والهمزة لتقريرهم أى حملهم على الاقرار بالحق على وجه الاضطرار فانه لا يتمالك أحد ممن له أدنى تمييز ولا يقدر على ان لا يعترف بخيرية من خلق جميع المخلوقات وأفاض على كل منها ما يليق به من منافعه من أخس تلك المخلوقات وأدناها بل بأن لا خيرية فيه بوجه من

للاشياء على قسمين منها مايكون بغير واسطة وهى عالم السموات والروحانيات ومنها مايكون بواسطة وهو عالم العناصر والعالم الاسفل فاذا عرفت الاشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله ومن الله وبالله وأنه لامدبر الا هو ولا مؤثر غيره وحينئذ ينقطع نظره عن هذه الممكنات ويبقى مشغول القلب بالمؤثر الاول والموجد الاول فانه ان كان قد وضع الاسباب الروحانية والجسمانية بحيث يتأدى الى هذا المطلوب فهذا الشئ يحصل وان كان قد وضع بحيث لا يفضى الى حصول هذا الشئ لم يحصل وبهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولا يبقى فى قلبه التفات الى شئ الا الى الموجود الاول وقد اتفق انى كنت أنصح بعض الصبيان فى حفظ العرض والمال فعارضنى وقال لا يجوز الاعتماد على الجد والجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله وقدره فقلت هذه كلمة حقة سمعتها ولكنك ماعرفت معناها وذلك لانه لاشبهة ان الكل من الله تعالى الا انه سبحانه دبر الاشياء على قسمين منها ماجعل حدوثه وحصوله معلقا بأسباب معلومة ومنها مايحدثه من غير واسطة هذه الاسباب (أما القسم الاول) فهو حوادث هذا العالم الاسفل (وأما القسم الثانى) فهو حوادث هذا العالم الاعلى واذا ثبت هذا فنقول من طلب حوادث هذا العالم الاسفل لا من الاسباب التى عينها الله تعالى لها كان هذا الشخص منازعا لله فى حكمته مخالفا فى تدبيره فان الله تعالى حكم بحدوث هذه الاشياء بناء على تلك الاسباب المعينة المعلومة وأنت تريد تحصيلها لا من تلك الاسباب فهذا هو الكلام فى تحقيق الاعراض عن غير الله والاقبال بالكلية على الله تعالى فقوله تعالى والذين اجتنبوا الطاغوت اشارة الى الاعراض عن غير الله وقوله تعالى وأنابوا الى الله اشارة الى الاقبال بالكلية على عبادة الله ثم انه تعالى وعد هؤلاء بأشياء (أحدها) قوله تعالى لهم البشرى واعلم ان هذه الكلمة تتعلق بجهات (أحدها) ان هذه البشارة متى تحصل فنقول انها تحصل عند القرب من الموت وعند الوضع فى القبر وعند الخروج من القبر وعند الوقوف فى عرصة القيامة وعند مايصير فريق فى الجنة وفريق فى السعير وعند مايدخل المؤمنون الجنة ففى كل موقف من هذه المواقف تحصل البشارة بنوع من الخير والروح والراحة والريحان (وثانيها) ان هذه البشارة فبماذا تحصل فنقول ان هذه البشارة تحصل بزوال المكروهات وبحصول المرادات اما زوال المكروهات فقوله تعالى أن لا تخافوا ولا تحزنوا والخوف انما يكون من المستقبل والحزن انما يكون بسبب الاحوال الماضية فقوله ان لا تخافوا يعنى لا تخافوا فيما تستقبلونه من أحوال القيامة ولا تحزنوا بسبب مافاتكم من خيرات الدنيا ولما أزال الله عنهم هذه المكروهات بشرهم بحصول الخيرات والسعادات فقال وأبشروا بالجنة وقال أيضا فى آية أخرى يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الانهار وقال أيضا وفيها ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون (والثالث) ان المبشر من هو فنقول يحتمل أن يكون هم الملائكة أما عند الموت فقوله الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم وأما بعد دخول الجنة فقوله الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ويحتمل أن يكون هو الله سبحانه كما قال تحيتهم يوم يلقونه سلام واعلم ان قوله لهم البشرى فيه أنواع من التأكيدات (أحدها) انه يفيد الحصر فقوله لهم البشرى أى لهم لا لغيرهم وهذا يفيد انه لا بشارة لاحد الا اذا اجتنب عبادة غير الله تعالى واقبل بالكلية على الله تعالى (وثانيها) ان الالف واللام فى لفظ البشرى مفيد للماهية فيفيد أن هذه الماهية بتمامها لهؤلاء ولم يبق منها نصيب لغيرهم (وثالثها) ان فرق بين الاخبار وبين البشارة فالبشارة هو الخبر الاول بحصول الخيرات اذا عرفت هذا فنقول كل ماسمعوه فى الدنيا من أنواع الثواب والخير اذا سمعوه عند الموت أو فى القبر فذلك لا يكون الا اخبارا فثبت ان هذه البشارة لا تحقق الا اذا حصل الاخبار بحصول أنواع أخر من السعادات فوق ماعرفوها وسمعوها فى الدنيا نسأل الله تعالى الفوز بها قال تعالى فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين (ورابعها) ان المخبر بقوله لهم البشرى هو الله تعالى وهو أعظم العظماء وأكمل الموجودات والشرط المعتبر فى حصول هذه البشارة شرط عظيم وهو الاجتناب عما سوى الله تعالى والاقبال بالكلية على الله والسلطان العظيم اذا ذكر شرطا عظيما ثم قال لمن أتى بذلك الشرط العظيم أبشر فهذه البشارة الصادرة من السلطان العظيم المرتبة على

الوجوه قطعا ومن مبتدأ خبره محذوف مع أم المعادلة للهمزة تعويلا على ماسبق فى الاستفهام الاول خلا ان تشركون ههنا بناء الخطاب على القراءتين معا وهكذا فى المواضع الاربعة الآتية والمعنى بل أمن خلق قطرى العالم الجسمانى ومبدأ منافع ما بينهما (وأنزل لكم) التفات الى خطاب الكفرة على القراءة الاولى لتشديد التبكيت والالزام أى أنزل لاجلكم ومنفعتكم (من السماء ماء) أى نوعا منه هو المطر (فأنبتنا به حدائق) أى بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط (ذات بهجة) أى ذات حسن ورونق يبتهج به النظار (ما كان لكم) أى ماصح وما أمكن لكم (أن تنبتوا شجرها) فضلا عن ثمرها وسائر صفاتها البديعة خير أم ماتشركون وقرئ أمن بالتخفيف على أنه بدل من الله وتقديم صلتى الانزال على مفعوله لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر والالتفات الى التكلم فى قوله تعالى فأنبتنا لتأكيد اختصاص الفعل بذاته تعالى والايذان بان انبات تلك الحدائق المختلفة الاصناف والاوصاف والالوان والطعوم والروائح والاشكال مع مالها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد مما لا يكاد يقدر عليه الا هو وحده حسبما ينبئ عنه تقييدها بقوله تعالى ما كان لكم الخ سواء كانت صفة لها أو حالا وتوحيد وصفها الاول أعنى ذات بهجة لما أن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة على نهج قولهم النساء ذهبت وكذا الحال فى ضمير شجرها (أإله مع الله) أى أإله آخر كائن مع الله الذى ذكر بعض أفعاله التى لا يكاد يقدر عليها غيره حتى

حصول ذلك الشرط العظيم تدل على ان الذى وقعت البشارة به قد بلغ فى الكمال والرفعة الى حيث لا يصل الى شرحها العقول والافكار فثبت ان قوله لهم البشرى يدل على نهاية الكمال والسعادة من هذه الوجوه والله أعلم واعلم انه تعالى لما قال لهم البشرى وكان هذا كالمجمل أردفه بكلام يجرى مجرى التفسير والشرح له فقال تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأراد بعباده الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه الذين اجتنبوا وأنابوا الا غيرهم وهذا يدل على أن رأس السعادات ومركز الخيرات ومعدن الكرامات هو الاعراض عن غير الله تعالى والاقبال بالكلية على طاعة الله والمقصود من هذا اللفظ التنبيه على ان الذين اجتنبوا الطاغوت وأنابوا هم الموصوفون بانهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فوضع الظاهر موضع المضمر تنبيها على هذا الحرف ومنهم من قال انه تعالى لما بين ان الذين اجتنبوا وأنابوا لهم البشرى وكان ذلك درجة عالية لا يصل اليها الا الاولون وقصر السعادة عليهم يقتضى الحرمان للاكثرين وذلك لا يليق بالرحمة التامة لا جرم جعل الحكم أعم فقال كل من اختار الاحسن فى كل باب كان فى زمرة السعداء واعلم ان هذه الآية تدل على فوائد (الفائدة الاولى) وجوب النظر والاستدلال وذلك لانه تعالى بين ان الهداية والفلاح مرتبطان بما اذا سمع الانسان أشياء كثيرة فانه يختار منها ما هو الاحسن الاصوب ومن المعلوم ان تمييز الاحسن الاصوب عما سواه لا يحصل بالسماع لان السماع صار قدرا مشتركا بين الكل لان قوله الذين يستمعون القول يدل على ان السماع قدر مشترك فيه فثبت ان تمييز الاحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع وانما يتأتى بحجة العقل وهذا يدل على ان الموجب لاستحقاق المدح والثناء متابعة حجة العقل وبناء الامر على النظر والاستدلال (الفائدة الثانية) ان الطريق الى تصحيح المذاهب والاديان قسمان (أحدهما) اقامة الحجة والبينة على صحته على سبيل التفصيل وذلك أمر لا يمكن تحصيله الا بالخوض فى كل واحد من المسائل على التفصيل (والثانى) انا قبل البحث عن الدلائل وتقريرها والشبهات وتزييفها نعرض تلك المذاهب واضدادها على عقولنا فكل ما حكم أول العقل بأنه أفضل وأكمل كان أولى بالقبول مثاله ان صريح العقل شاهد بأن الاقرار بأن اله العالم حى عالم قادر حليم حكيم رحيم أولى من انكار ذلك فكان ذلك المذهب أولى والاقرار بأن الله تعالى لا يجرى فى ملكه وسلطانه الا ما كان على وفق مشيئته أولى من القول بأن أكثر ما يجرى فى سلطان الله على خلاف ارادته وأيضا الاقرار بأن الله فرد أحد صمد منزه عن التركيب والاعضاء أولى من القول بكونه متبعضا مؤلفا وأيضا القول باستغنائه عن الزمان والمكان أولى من القول باحتياجه اليهما وأيضا القول بأن الله رحيم كريم قد يعفو عن العقاب أولى من القول بأنه لا يعفو عنه البتة وكل هذه الابواب تدخل تحت قوله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فهذا ما يتعلق باختيار الاحسن فى أبواب الاعتقادات وأما ما يتعلق بأبواب التكاليف فهو على قسمين منها ما يكون من أبواب العبادات ومنها ما يكون من أبواب المعاملات فأما العبادات فمثل قولنا الصلاة التى يذكر فى تحريمها الله أكبر وتكون النية فيها مقارنة للتكبير ويقرأ فيها سورة الفاتحة ويؤتى فيها بالطمأنينة فى المواقف الخمسة ويقرأ فيها التشهد ويخرج منها بقوله السلام عليكم فلا شك انها أحسن من الصلاة التى لا يراعى فيها شئ من هذه الاحوال توجب على العاقل أن يختار هذه الصلاة وان يترك ما سواها وكذلك القول فى جميع أبواب العبادات وأما المعاملات فكذلك مثل انه تعالى شرع القصاص والدية والعفو ولكنه ندب الى العفو فقال وان تعفوا أقرب للتقوى وعن ابن عباس ان المراد منه الرجل يجلس مع القوم ويسمع الحديث فيه محاسن ومساوى فيحدث بأحسن ما سمع ويترك ما سواه واعلم انه تعالى حكم على الذى يستمعون القول فيتبعون أحسنه بان قال أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب وفى ذلك دقيقة عجيبة وهى أن حصول الهداية فى العقل والروح أمر حادث ولا بد له من فاعل وقابل أما الفاعل فهو الله سبحانه وهو المراد من قوله أولئك الذين هداهم الله وأما القابل فاليه الاشارة بقوله وأولئك هم أولوا الالباب فان الانسان ما لم يكن عاقلا كامل الفهم امتنع حصول هذه المعارف الحقية فى قلبه وانما قلنا ان الفاعل لهذه الهداية هو الله وذلك لان جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد

يتوهم جعله شريكا له تعالى فى العبادة وهذا تبكيت لهم بنفى الالوهية عما يشركونه به تعالى فى ضمن النفى الكلى على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفى الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فان أحدا ممن له تمييز فى الجملة كما لا يقدر على انكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدر على انكار انتفاء الالوهية عنه رأسا لا سيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه تعالى وهكذا الحال فى المواقع الاربعة الآتية وقيل المراد نفى أن يكون معه تعالى اله آخر فيما ذكر من الخلق وما عطف عليه لكن لا على أن التبكيت بنفس ذلك النفى فقط كيف لا وهم لا ينكرونه حسبما ينطق به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله بل باشراكهم به تعالى فى العبادة ما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى فيما ذكر من لوازم الالوهية كأنه قيل أاله آخر مع الله فى خواص الالوهية حتى يجعل شريكا له تعالى فى العبادة وقيل المعنى أغيره يقرن به ويجعل له شريكا فى العبادة مع تفرده تعالى بالخلق والتكوين فالانكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقق المنكر دون النفى كما فى الوجهين السابقين والاول هو الاظهر الموافق لقوله تعالى وما كان معه من اله والاوفى بحق المقام لافادته نفى وجود اله آخر معه تعالى رأسا لا نفى معيته فى الخلق وفروعه فقط وقرئ أاله بتوسيط مدة بين الهمزتين وباخراج الثانية بين بين وقرئ أالها باضمار فعل يناسب المقام مثل أتدعون أو أتشركون (بل هم قوم يعدلون) اضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب الى بيان سوء حالهم

الحق والاعتقاد الباطل واذا كان الشئ قابلا للضدين كانت نسبة ذلك القابل اليهما على السوية ومتى كان الامر كذلك امتنع كون ذلك القابل سببا لرجحان أحد الطرفين ألا ترى أن الجسم لما كان قابلا للحركة والسكون على السوية امتنع أن تصير ذات الجسم سببا لرجحان أحد الطرفين على الآخر فان قالوا لا نقول ان ذات النفس والعقل يوجب هذا الرجحان بل نقول انه يريد تحصيل أحد الطرفين فتصير تلك الارادة سببا لذلك الرجحان فنقول هذا باطل لان ذات النفس كما انها قابلة لهذه الارادة فكذلك ذات العقل قابلة لارادة مضادة لتلك الارادة فيمتنع كون جوهر النفس سببا لتلك الارادة فثبت أن حصول الهداية لا بد لها من فاعل ومن قابل (أما الفاعل) فيمتنع أن يكون هو النفس بل الفاعل هو الله تعالى (وأما القابل) فهو جوهر النفس فلهذا السبب قال أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الالباب ثم قال أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى لفظ الآية سؤال وهو انه يقال انه قال أفمن حق عليه كلمة العذاب ولا يصح فى الكلام العربى أن يدخل حرف الاستفهام على الاسم وعلى الخبر معا فلا يقال أزيد أتقتله بل ههنا شئ آخر وهو انه كما دخل حرف الاستفهام على الشرط وعلى الجزاء فكذلك دخل حرف الفاء عليهما معا وهو قوله أفمن حق أفأنت تنقذ ولاجل هذا السؤال اختلف النحويون وذكروا فيه وجوها (الاول) قال الكسائى الآية جملتان والتقدير أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تحميه أفأنت تنقذ من فى النار (الثانى) قال صاحب الكشاف أصل الكلام أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه وهى جملة شرطية دخل عليها همزة الانكار والفاء فاء الجزاء ثم دخلت الفاء التى فى أولها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب والتقدير أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذه والهمزة الثانية هى الاولى كررت لتوكيد معنى الانكار والاستبعاد ووضع من فى النار موضع الضمير والآية على هذا جملة واحدة (الثالث) لا يبعد أن يقال ان حرف الاستفهام انما ورد ههنا لافادة معنى الانكار ولما كان استنكاره هذا المعنى كاملا تاما لا جرم ذكر هذا الحرف فى الشرط وأعاده فى الجزاء تنبيها على المبالغة التامة فى ذلك الانكار (المسئلة الثانية) احتج الاصحاب بهذه الآية فى مسئلة الهدى والضلال وذلك لانه تعالى قال أفمن حق عليه كلمة العذاب فاذا حقت كلمة العذاب عليه امتنع منه فعل الايمان والطاعة والا لزم انقلاب خبر الله الصدق كذبا وانقلاب علمه جهلا وهو محال (والوجه الثانى فى الاستدلال بالآية) انه تعالى حكم بأن حقية كلمة العذاب توجب الاستنكار التام من صدور الايمان والطاعة عنه ولو كان ذلك ممكنا ولم تكن حقية كلمة العذاب مانعة منه لم يبق لهذا الاستنكار والاستبعاد معنى (المسئلة الثالثة) احتج القاضى بهذه الآية على أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يشفع لاهل الكبائر قال لانه حق عليهم العذاب فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى انقاذهم من النار وان الله تعالى حكم عليهم بالانكار والاستبعاد فيقال له لا نسلم ان أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب وكيف يحق العذاب عليهم مع ان الله تعالى قال ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومع قوله ان الله يغفر الذنوب جميعا والله أعلم (النوع الثانى) من الاشياء التى وعدها الله هؤلاء الذين اجتنبوا وأنابوا قوله تعالى لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية وهذا كالمقابل لما ذكر فى وصف الكفار لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل فان قيل ما معنى قوله مبنية قلنا لان المنزل اذا بنى على منزل آخر تحته كان الفوقانى أضعف بناء من التحتانى فقوله مبنية معناه انه وان كان فوق غيره لكنه فى القوة والشدة مساو للمنزل الاسفل والحاصل ان المنزل الفوقانى والتحتانى حصل فى كل واحد منهما فضيلة ومنقصة أما الفوقانى ففضيلته العلو والارتفاع ونقصانه الرخاوة والسخافة وأما التحتانى فبالضد منه اما منازل الجنة فانها تكون مستجمعة لكل الفضائل وهى عالية مرتفعة وتكون فى غاية القوة والشدة وقال حكماء الاسلام هذه الغرف المبنية بعضها فوق البعض مثاله من الاحوال النفسانية العلوم الكسبية فان بعضها يكون مبنيا على البعض والنتائج الآخرة التى هى عبارة عن معرفة ذات الله وصفاته تكون فى غاية القوة بل تكون فى القوة والشدة كالعلوم الاصلية البديهية ثم قال تجرى من تحتها الانهار وذلك معلوم ثم ختم الكلام فقال وعد الله لا يخلف الله الميعاد

وحكايته لغيرهم أى بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن الاستقامة فى كل أمر من الامور فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح الذى هو التوحيد والعكوف على الباطل البين الذى هو الاشراك وقيل يعدلون به تعالى غيره وهو بعيد خال عن الافادة (أمن جعل الارض قرارا) قيل هو بدل من أمن خلق السموات الخ وكذا ما بعده من الجمل الثلاث وحكم الكل واحد والاظهر أن كل واحدة منها اضراب وانتقال من التبكيت بما قبلها الى التبكيت بوجه آخر أدخل فى الالزام بجهة من الجهات أى جعلها بحيث يستقر عليها الانسان والدواب بابداء بعضها من الماء ودحوها وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم (وجعل خلالها) أوساطها (أنهارا) جارية ينتفعون بها (وجعل لها رواسى) أى جبالا ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها ويتكون فيها المعادن وينبع فى حضيضها الينابيع ويتعلق بها من المصالح ما لا يحصى (وجعل بين البحرين) أى العذب والمالح أو خليجى فارس والروم (حاجزا) برزخا مانعا من الممازجة وقد مر فى سورة الفرقان والجعل فى المواقع الثلاثة الاخيرة ابداعى وتأخير مفعوله عن الظرف لما مر مرارا من التشويق (أإله مع الله) فى الوجود أو فى ابداع هذه البدائع على ما مر (بل أكثرهم لا يعلمون) أى شيأ من الاشياء ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره (أمن يجيب المضطر اذا دعاه) وهو الذى أحوجته شدة من الشدائد وألجأته الى اللجا والضراعة الى الله عز وجل

فقوله وعد الله مصدر مؤكد لان قوله لهم غرف فى معنى وعدهم الله ذلك وفى الآية دقيقة شريفة وهى انه تعالى فى كثير من آيات الوعد صرح بأن هذا وعد الله وانه لا يخلف وعده ولم يذكر فى آيات الوعيد البتة مثل هذا التأكيد والتقوية وذلك يدل على أن جانب الوعد أرجح من جانب الوعيد بخلاف ما يقوله المعتزلة فان قالوا أليس انه قال فى جانب الوعيد ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد قلنا قوله ما يبدل القول لدى ليس تصريحا بجانب الوعيد بل هو كلام عام يتناول القسمين أعنى الوعد والوعيد فثبت ان الترجيح الذى ذكرناه حق والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب﴾ اعلم انه تعالى لما وصف الآخرة بصفات توجب الرغبة العظيمة لاولى الالباب فيها وصف الدنيا بصفة توجب اشتداد النفرة عنها وذلك انه تعالى بين انه أنزل من السماء ماء وهو المطر وقيل كل ما كان فى الارض فهو من السماء ثم انه تعالى ينزله الى بعض المواضع ثم يقسمه فيسلكه ينابيع فى الارض أى فيدخله وينظمه ينابيع فى الارض عيونا ومسالك ومجارى كالعروق فى الاجسام ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك أو مختلفا أصنافه من بر وشعير وسمسم ثم يهيج وذلك لانه اذا تم جفافه جاز له أن ينفصل عن منابته وان لم تتفرق أجزاؤه فتلك الاجزاء كأنها هاجت لان تتفرق ثم يصير حطاما يابسا ان فى ذلك لذكرى يعنى ان من شاهد هذه الاحوال فى النبات علم أن أحوال الحيوان والانسان كذلك وانه وان طال عمره فلا بد له من الانتهاء الى أن يصير مصفر اللون متحطم الاعضاء والاجزاء ثم تكون عاقبته الموت فاذا كانت مشاهدة هذه الاحوال فى النبات تذكره حصول مثل هذه الاحوال فى نفسه وفى حياته فحينئذ تعظم نفرته فى الدنيا وطيباتها والحاصل انه تعالى فى الآيات المتقدمة ذكر ما يقوى الرغبة فى الآخرة وذكر فى هذه الآيات ما يقوى النفرة عن الدنيا فشرح صفات القيامة يقوى الرغبة فى طاعة الله وشرح صفات الدنيا يقوى النفرة عن الدنيا وانما قدم الترغيب فى الآخرة على التنفير عن الدنيا لان الترغيب فى الآخرة مقصود بالذات والتنفير عن الدنيا مقصود بالعرض والمقصود بالذات مقدم على المقصود بالعرض فهذا تمام الكلام فى تفسير الآية بقى ههنا ما يتعلق بالبحث عن الالفاظ قال الواحدى والينابيع جمع ينبوع وهو يفعول من نبع ينبع يقال نبع الماء ينبع وينبع وينبع ثلاث لغات ذكرها الكسائى والفراء وقوله ينابيع نصب بحذف الخافض لان التقدير فسلكه فى ينابيع ثم يهيج أى يخضر والحطام ما يجف ويفتت ويكسر من النبت ﴿ قوله تعالى ﴿أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بالغ فى تقرير البيانات الدالة على وجوب الاقبال على طاعة الله تعالى ووجوب الاعراض عن الدنيا بين بعد ذلك أن الانتفاع بهذه البيانات لا يكمل الا اذا شرح الله الصدور ونور القلوب فقال أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه واعلم انا بالغنا فى سورة الانعام فى تفسير قوله فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام فى تفسير شرح الصدور وفى تفسير الهداية ولا بأس باعادة كلام قليل ههنا فنقول انه تعالى خلق جواهر النفوس مختلفة بالماهية فبعضها خيرة نورانية شريفة مائلة الى الالهيات عظيمة الرغبة فى الاتصال بالروحانيات وبعضها نذلة كدرة خسيسة مائلة الى الجسمانيات وهذا التفاوت أمر حاصل فى جواهر النفوس البشرية والاستقراء يدل على ان الامر كذلك اذا عرفت هذا فنقول المراد بشرح الصدور هو ذلك الاستعداد الشديد الموجود فى فطرة النفس واذا كان ذلك الاستعداد الشديد حاصلا كفى خروج تلك الحالة من القوة الى الفعل بأدنى سبب مثل الكبريت الذى يشتعل بأدنى نار أما اذا كانت

اسم مفعول من الاضطرار الذى هو افتعال من الضرورة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو المجهود وعن السدى رحمه الله تعالى من لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفر واللام للجنس لا للاستغراق حتى يلزم اجابة كل مضطر (ويكشف السوء) وهو الذى يعترى الانسان مما يسوءه (ويجعلكم خلفاء الارض) أى خلفاء فيها بان ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم من الامم وقيل المراد بالخلافة الملك والتسلط (أإله مع الله) الذى يفيض على كافة الانام هذه النعم الجسام (قليلا ما تذكرون) أى تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تتذكرون وما مزيدة لتأكيد معنى القلة التى أريد بها العدم أو ما يجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدوى وفى تذييل الكلام بنفى التذكر عنهم ايذان بان مضمونه مركوز فى ذهن كل ذكى وغبى وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف الا على التوجه اليه وتذكره وقرئ تتذكرون على الاصل ويذكرون وتذكرون بالتاء والياء مع الادغام (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر) أى فى ظلمات الليالى فيهما على أن الاضافة للملابسة أو فى مشتبهات الطرق يقال طريقة ظلماء وعمياء للتى لا منار بها (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته) وهى المطر ولئن صح أن السبب الاكثرى فى تكون الريح معاودة الادخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لانكسار حرها وتموجها للهواء فلا ريب فى أن الاسباب الفاعلية والقابلية لذلك كله من خلق الله عز وجل والفاعل للسبب فاعل للمسبب قطعا (أإله مع الله) نفى لان يكون معه إله آخر وقوله تعالى

النفس بعيدة عن قبول هذه الجلايا القدسية والاحوال الروحانية بل كانت مستغرقة فى طلب الجسمانيات قليلة التأثر عن الاحوال المناسبة للالهيات فكانت قاسية كدرة ظلمانية وكلما كان ايراد الدلائل اليقينية والبراهين الباهرة عليها أكثر كانت قسوتها وظلمتها أقل اذا عرفت هذه القاعدة فنقول أما شرح الصدور فهو ما ذكرناه وأما النور فهو عبارة عن الهداية والمعرفة وما لم يحصل شرح الصدور أولا لم يحصل النور ثانيا واذا كان الحاصل هو القوة النفسانية لم يحصل الانتفاع البتة بسماع الدلائل وربما صار سماع الدلائل سببا لزيادة القسوة ولشدة النفرة فهذه أصول يقينية يجب أن تكون معلومة عند الانسان حتى يمكنه الوقوف على معانى هذه الآيات أما استدلال أصحابنا فى مسئلة الجبر والقدر وكلام الخصوم عليه فقد تقدم هنالك والله أعلم (المسئلة الثانية) من محذوف الخبر كما فى قوله أمن هو قانت والتقدير أفمن شرح الله صدره للاسلام فاهتدى كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته والجواب متروك لان الكلام المذكور دل عليه وهو قوله تعالى فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله (المسئلة الثالثة) قوله فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله فيه سؤال وهو ان ذكر الله سبب لحصول النور والهداية وزيادة الاطمئنان كما قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب فكيف جعله فى هذه الآية سببا لحصول قسوة القلب والجواب أن نقول ان النفس اذا كانت خبيثة الجوهر كدرة العنصر بعيدة عن مناسبة الروحانيات شديدة الميل الى الطبائع البهيمية والاخلاق الذميمة فان سماعها لذكر الله يزيدها قسوة وكدورة وتقرير هذا الكلام بالامثلة فان الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسود وجه القصار ويبيض ثوبه وحرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح وقد نرى انسانا واحدا يذكر كلاما واحدا فى مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه غيره وما ذاك الا ما ذكرناه من اختلاف جواهر النفوس ومن اختلاف أحوال تلك النفوس ولما نزل قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وكان قد حضر هناك عمر بن الخطاب وانسان آخر فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر قال كل واحد منهم فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب فهكذا أنزلت فازداد عمر ايمانا على ايمان وازداد ذلك الانسان كفرا على كفر اذا عرفت هذا لم يبعد أيضا ان يكون ذكر الله يوجب النور والهداية والاطمئنان فى النفوس الطاهرة الروحانية ويوجب القسوة والبعد عن الحق فى النفوس الخبيثة الشيطانية اذا عرفت هذا فنقول ان رأس الادوية التى تفيد الصحة الروحانية ورئيسها هو ذكر الله تعالى فاذا اتفق لبعض النفوس ان صار ذكر الله تعالى سببا لازدياد مرضها كان مرض تلك النفس مرضا لا يرجى زواله ولا يتوقع علاجه وكانت فى نهاية الشر والرداءة فلهذا المعنى قال تعالى فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين وهذا كلام كامل محقق ولما بين تعالى ذلك أردفه بما يدل على أن القرآن سبب لحصول النور والشفاء والهداية وزيادة الاطمئنان والمقصود منه بيان ان القرآن لما كان موصوفا بهذه الصفات ثم انه فى حق ذلك الانسان صار سببا لمزيد القسوة دل ذلك على أن جوهر تلك النفس قد بلغ فى الرداءة والخساسة الى أقصى الغايات فنقول انه تعالى وصف القرآن بأنواع من صفات الكمال (الصفة الاولى) قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث وفيه مسائل (المسئلة الاولى) القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الاول) انه تعالى وصفه بكونه حديثا فى هذه الآيات وفى آيات أخرى منها قوله تعالى فليأتوا بحديث مثله ومنها قوله تعالى أفبهذا الحديث أنتم مدهنون والحديث لا بد وان يكون حادثا قالوا بل الحديث أقوى فى الدلالة على الحدوث من الحادث لانه يصح أن يقال هذا حديث وليس بعتيق وهذا عتيق وليس بحديث ولا يصح أن يقال هذا عتيق وليس بحادث فثبت أن الحديث هو الذى يكون قريب العهد بالحدوث وسمى الحديث حديثا لانه مؤلف من الحروف والكلمات وتلك الحروف والكلمات تحدث حالا فحالا وساعة فساعة فهذا تمام تقرير هذا الوجه (أما الوجه الثانى) فى بيان استدلال القوم انهم قالوا انه تعالى وصفه بأنه نزله والمنزل يكون فى محل تصرف الغير وما يكون كذلك فهو محدث وحادث (وأما الوجه الثالث) فى بيان استدلال القوم انهم قالوا ان قوله

(تعالى عما يشركون) تفريد وتحقيق له واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار للاشعار بعلة الحكم أى تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالالوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال المقتضية لكون كل المخلوقات مقهورا تحت قدرته عما يشركون أى عن وجود ما يشركونه به تعالى لا مطلقا فان وجوده مما لا مرد له بل عن وجوده بعنوان كونه الها وشريكا له تعالى أو عن اشراكهم (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده) أى بل أمن يبدأ الخلق ثم يعيده بعد الموت بالبعث (ومن يرزقكم من السماء والارض) أى بأسباب سماوية وأرضية قد رتبها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التى عليها بنى أمر التكوين خير أم ما تشركونه به فى العبادة من جماد لا يتوهم قدرته على شئ ما أصلا (أاله) آخر موجود (مع الله) حتى يجعل شريكا له فى العبادة وقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم) أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم اثر تبكيت أى هاتوا برهانا عقليا أو نقليا يدل على أن معه تعالى الها لا على ان غيره تعالى يقدر على شئ مما ذكر من افعاله تعالى كما قيل فانهم لا يدعونه صريحا ولا يلتزمون كونه من لوازم الالوهية وان كان منها فى الحقيقة فطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له وفى اضافة البرهان الى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من ايهام أن لهم برهانا وأنى لهم ذلك (ان كنتم صادقين) أى فى تلك الدعوى (قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله) بعد ما حقق تفرده تعالى بالالوهية ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامة والرحمة الشاملة العامة

أحسن الحديث يقتضى أن يكون هو من جنس سائر الاحاديث كما ان قوله زيد أفضل الاخوة يقتضى أن يكون زيد مشاركا لاولئك الاقوام فى صفة الاخوة و يكون من جنسهم فثبت أن القرآن من جنس سائر الاحاديث ولما كان سائر الاحاديث حادثة وجب أيضا أن يكون القرآن حادثا (أما الوجه الرابع) فى الاستدلال ان قالوا انه تعالى وصفه بكونه كتابا والكتاب مشتق من الكتبة وهى الاجتماع وهذا يدل على انه مجموع جامع ومحل تصرف متصرف وذلك يدل على كونه محدثا (والجواب) ان نقول نحمل هذا الدليل على الكلام المؤلف من الحروف والاصوات والالفاظ والعبارات وذلك الكلام عندنا محدث مخلوق والله أعلم (المسئلة الثانية) كون القرآن أحسن الحديث اما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه (القسم الاول) أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين (الاول) أن يكون ذلك الحسن لاجل الفصاحة والجزالة (الثانى) أن يكون بحسب النظم فى الاسلوب وذلك لان القرآن ليس من جنس الشعر ولا من جنس الخطب ولا من جنس الرسائل بل هو نوع يخالف الكل مع أن كل ذى طبع سليم يستطيبه و يستلذه (القسم الثانى) أن يكون كونه أحسن الحديث لاجل المعنى وفيه وجوه (الاول) انه كتاب منزه عن التناقض كما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ومثل هذا الكتاب اذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات (الوجه الثانى) اشتماله على الغيوب الكثيرة فى الماضى والمستقبل (الوجه الثالث) ان العلوم الموجودة فيه كثيرة جدا وضبط هذه العلوم ان نقول العلوم النافعة هى ما ذكره الله فى كتابه فى قوله والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير فهذا أحسن ضبط يمكن ذكره للعلوم النافعة (أما القسم الاول) وهو الايمان بالله فاعلم انه يشتمل على خمسة أقسام معرفة الذات والصفات والافعال والاحكام والاسماء أما معرفة الذات فهى ان يعلم وجود الله وقدمه وبقاءه وأما معرفة الصفات فهى نوعان (أحدهما) ما يجب تنزيهه عنه وهو كونه جوهرا ومركبا من الاعضاء والاجزاء وكونه مختصا بحيز وجهة و يجب ان يعلم ان الالفاظ الدالة على التنزيه أربعة ليس ولم وما ولا وهذه الاربعة المذكورة مذكورة فى كتاب الله تعالى لبيان التنزيه أما كلمة ليس فقوله ليس كمثله شىء وأما كلمة لم فقوله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأما كلمة ما فقوله وما كان ربك نسيا ما كان لله أن يتخذ من ولد وأما كلمة لا فقوله تعالى لا تأخذه سنة ولا نوم وهو يطعم ولا يطعم وهو يجير ولا يجار عليه وقوله فى سبعة وثلاثين موضعا من القرآن لا اله الا الله (وأما النوع الثانى) وهى الصفات التى يجب كونه موصوفا بها من القرآن (فاولها) العلم بالله والعلم بكونه محدثا خالقا قال تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض (وثانيها) العلم بكونه قادرا قال تعالى فى أول سورة القيامة بلى قادرين على أن نسوى بنانه وقال فى آخر هذه السورة أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى (وثالثها) العلم بكونه تعالى عالما قال تعالى هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة (ورابعها) العلم بكونه عالما بكل المعلومات قال تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو وقوله تعالى الله يعلم ما تحمل كل أنثى (وخامسها) العلم بكونه حيا قال تعالى هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين (وسادسها) العلم بكونه مريدا قال الله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام (وسابعها) كونه سميعا بصيرا قال تعالى وهو السميع البصير وقال تعالى اننى معكما أسمع وأرى (وثامنها) كونه متكلما قال تعالى ولو ان ما فى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله (وتاسعها) كونه آمرا قال تعالى لله الامر من قبل ومن بعد (وعاشرها) كونه رحمانا رحيما ملكا قال تعالى الرحمن الرحيم ملك يوم الدين فهذا ما يتعلق بمعرفة الصفات التى يجب اتصافه بها (وأما القسم الثالث) وهو الافعال فاعلم ان الافعال اما أرواح واما أجسام أما الارواح فلا سبيل للوقوف عليها الا القليل كما قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وأما الاجسام فهى اما العالم الاعلى واما العالم الاسفل اما العالم الاعلى فالبحث فيه من وجوه (أحدها) البحث عن أحوال السموات (وثانيها) البحث عن أحوال الشمس والقمر كما قال تعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره (وثالثها) البحث عن أحوال

عقبه بذكر ما هو من لوازمه وهو اختصاصه بعلم الغيب تكميلا لما قبله وتمهيدا لما بعده من أمر البعث والاستثناء منقطع ورفع المستثنى على اللغة التميمية للدلالة على استحالة علم الغيب من أهل السموات والارض بتعليقه بكونه سبحانه وتعالى منهم كأنه قيل ان كان الله تعالى ممن فيهما ففيهم من يعلم الغيب أو متصل على أن المراد بمن فى السموات والارض من تعلق علمه بهما واطلع عليهما اطلاع الحاضر فيهما فان ذلك معنى مجازى عام له تعالى ولاولى العلم من خلقه ومن موصولة أو موصوفة (وما يشعرون أيان يبعثون) أى متى ينشرون من القبور مع كونه مما لابد لهم منه ومن أهم الامور عندهم وأيان مركبة من أى وآن وقرئ بكسر الهمزة والضمير للكفرة وان كان عدم الشعور عاما ذكر عاما لئلا يلزم التفكيك بينه وبين ما سيأتى من الضمائر الخاصة بهم قطعا وقيل الكل لمن واسناد خواص الكفرة الى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان فعلوا كذا والفاعل بعض منهم (بل ادارك علمهم فى الآخرة) لما نفى عنهم علم الغيب وأكد ذلك بنفى شعورهم بوقت ما هو مصيرهم لا محالة بولغ فى تأكيده وتقريره بأن أضرب عنه وبين أنهم فى جهل أفحش من جهلهم بوقت بعثهم حيث لا يعلمون أحوال الآخرة مطلقا مع تعاضد أسباب معرفتها على أن معنى ادارك علمهم فى الآخرة تدارك وتتابع علمهم فى شأن الآخرة التى ما ذكر من البعث حال من أحوالها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بشئ مما سيكون فيها قطعا لكن لا على معنى أنه كان لهم علم بذلك على الحقيقة ثم انتفى

الاضواء قال الله تعالى الله نور السموات والارض وقال تعالى هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا (ورابعها) البحث عن أحوال الظلال قال الله تعالى ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا (وخامسها) اختلاف الليل والنهار قال الله تعالى يكور الليل على النهار و يكور النهار على الليل (وسادسها) منافع الكواكب قال تعالى وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر (وسابعها) صفات الجنة قال تعالى وجنة عرضها كعرض السماء والارض (وثامنها) صفات النار قال تعالى لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم (وتاسعها) صفة العرش قال تعالى الذين يحملون العرش ومن حوله (وعاشرها) صفة الكرسى قال تعالى وسع كرسيه السموات والارض (وحادى عشرها) صفة اللوح والقلم أما اللوح فقوله تعالى بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ وأما القلم فقوله تعالى ن والقلم وما يسطرون * وأما شرح أحوال العالم الاسفل (فاولها) الارض وقد وصفها بصفات كثيرة (احداها) كونه مهدا قال تعالى الذى جعل لكم الارض مهدا (وثانيها) كونه مهادا قال تعالى ألم نجعل الارض مهادا (وثالثها) كونه كفاتا قال تعالى كفاتا أحياء وأمواتا (ورابعها) الذلول قال تعالى هو الذى جعل لكم الارض ذلولا (وخامسها) كونه بساطا قال تعالى والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا والكلام فيه طويل (وثانيها) البحر قال تعالى وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا (وثالثها) الهواء والرياح قال تعالى وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وقال تعالى وأرسلنا الرياح لواقح (ورابعها) الآثار العلوية كالرعد والبرق قال تعالى ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وقال تعالى فترى الودق يخرج من خلاله ومن هذا الباب ذكر الصواعق والامطار وتراكم السحاب (وخامسها) أحوال الاشجار والثمار وأنواعها وأصنافها (وسادسها) أحوال الحيوانات قال تعالى وبث فيهما من كل دابة وقال والانعام خلقها لكم (وسابعها) عجائب تكوين الانسان فى أول الخلقة قال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين (وثامنها) العجائب فى سمعه وبصره ولسانه وعقله وفهمه (وتاسعها) تواريخ الانبياء والملوك وأحوال الناس من أول خلق العالم الى آخر قيام القيامة (وعاشرها) ذكر أحوال الناس عند الموت و بعد الموت وكيفية البعث والقيامة وشرح أحوال السعداء والاشقياء فقد أشرنا الى عشرة أنواع من العلوم فى عالم السموات والى عشرة أخرى فى عالم العناصر والقرآن مشتمل على شرح هذه الانواع من العلوم العالية الرفيعة (وأما القسم الرابع) وهو شرح أحكام الله تعالى وتكاليفه فنقول هذه التكاليف اما أن تحصل فى أعمال القلوب أو فى أعمال الجوارح (أما القسم الاول) فهو المسمى بعلم الاخلاق و بيان تمييز الاخلاق الفاضلة والاخلاق الفاسدة والقرآن يشتمل على كل ما لابد منه فى هذا الباب قال الله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وقال خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين (وأما الثانى) فهو التكاليف الحاصلة فى أعمال الجوارح وهو المسمى بعلم الفقه والقرآن مشتمل على جملة أصول هذا العلم على أكمل الوجوه (وأما القسم الخامس) وهو معرفة أسماء الله تعالى فهو مذكور فى قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها فهذا كله يتعلق بمعرفة الله (وأما القسم الثانى) من الاصول المعتبرة فى الايمان الاقرار بالملائكة كما قال تعالى والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته والقرآن يشتمل على شرح صفاتهم تارة على سبيل الاجمال وأخرى على طريق التفصيل اما بالاجمال فقوله وملائكته وأما بالتفصيل فمنها ما يدل على كونهم رسل الله قال تعالى جاعل الملائكة رسلا ومنها انهم مدبرات لهذا العالم قال تعالى فالمقسمات أمرا فالمدبرات أمرا وقال تعالى والصافات صفا ومنها حملة العرش قال ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ومنها الحافون حول العرش قال وترى الملائكة حافين من حول العرش ومنها خزنة النار قال تعالى عليها ملائكة غلاظ شداد ومنها الكرام الكاتبون قال وان عليكم لحافظين كراما كاتبين ومنها المعقبات قال تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه وقد يتصل بأحوال الملائكة أحوال الجن والشياطين (وأما القسم الثالث) من الاصول المعتبرة فى الايمان معرفة الكتب والقرآن يشتمل على شرح أحوال كتاب آدم عليه السلام قال تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات ومنها أحوال صحف ابراهيم عليه السلام قال تعالى واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ومنها أحوال التوراة والانجيل والزبور (وأما القسم الرابع) من

شيأ فشيأ بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية والسمعية منزلة نفسه واجراء تساقطها عن درجة اعتبارهم كلما لاحظوها مجرى تتابعها الى الانقطاع ثم أضرب وانتقل عن بيان عدم علمهم بها الى بيان ما هو أسوأ منه وهو حيرتهم فى ذلك حيث قيل (بل هم فى شك منها) أى فى شك مريب من نفس الآخرة وتحققها كمن تحير فى أمر لايجد عليه دليلا فضلا عن الامور التى ستقع فيها ثم أضرب عن ذلك الى بيان أن ما هم فيه أشد وافظع من الشك حيث قيل (بل هم منها عمون) بحيث لايكادون يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم بالكلية وقرئ بل أدرك علمهم بمعنى انتهى وفنى وقد فسره الحسن البصرى باضمحل علمهم وقيل كلتا الصيغتين على معناهما الظاهر أى تكامل واستحكم أو تم أسباب علمهم بأن القيامة كائنة لامحالة من الآيات القاطعة والحجج الساطعة وتمكنوا من المعرفة فضل تمكن وهم جاهلون فى ذلك وقوله تعالى بل هم فى شك منها اضراب وانتقال من وصفهم بمطلق الجهل الى وصفهم بالشك وقوله تعالى بل هم منها عمون اضراب من وصفهم بالشك الى وصفهم بما هو أشد منه وأقطع من العمى وأنت خبير بأن تنزيل أسباب العلم منزلة العلم سنن مسلوك لكن دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذ ليست بواضحة وقيل المراد بوصفهم باستحكام العلم وتكامله التهكم بهم فيكون وصفا لهم بالجهل مبالغة والاضرابات على ما ذكر وأصل ادارك تدارك وبه قرأ أبى فأبدلت التاء دالا

الاصول المعتبرة فى الايمان معرفة الرسل والله تعالى قد شرح أحوال البعض وابهم أحوال الباقين قال منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك (القسم الخامس) ما يتعلق بأحوال المكلفين وهى على نوعين (الاول) أن يقروا بوجوب هذه التكاليف عليهم وهو المراد من قوله وقالوا سمعنا وأطعنا (والثانى) أن يعترفوا بصدور التقصير عنهم فى تلك الاعمال ثم طلبوا المغفرة وهو المراد من قوله غفرانك ربنا ثم لما كانت مقادير رؤية التقصير فى مواقف العبودية بحسب المكاشفات فى مطالعة عزة الربوبية أكثر كانت المكاشفات فى تقصير العبودية أكثر وكان قوله غفرانك ربنا أكثر (القسم السادس) معرفة المعاد والبعث والقيامة وهو المراد من قوله واليك المصير وهذا هو الاشارة الى معرفة المطالب المهمة فى طلب الدين والقرآن بحر لا نهاية له فى تقرير هذه المطالب وتعريفها وشرحها ولا ترى فى مشارق الارض ومغاربها كتابا يشتمل على جملة هذه العلوم كما يشتمل القرآن عليها ومن تأمل فى هذا التفسير علم انا لم نذكر من بحار فضائل القرآن الا قطرة ولما كان الامر على هذه الجملة لاجرم مدح الله عز وجل القرآن فقال تعالى الله نزل أحسن الحديث والله أعلم (الصفة الثانية) من صفات القرآن قوله تعالى كتابا متشابها أما الكتاب فقد فسرناه فى قوله تعالى ذلك الكتاب لا ريب فيه وأما كونه متشابها فاعلم ان هذه الآية تدل على ان القرآن كله متشابه وقوله هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات يدل على كون البعض متشابها دون البعض وأما كونه كله متشابها كما فى هذه الآية فقال ابن عباس معناه انه يشبه بعضه بعضا وأقول هذا التشابه يحصل فى أمور (أحدها) ان الكاتب البليغ اذا كتب كتابا طويلا فانه يكون بعض كلماته فصيحا ويكون البعض غير فصيح والقرآن يخالف ذلك فانه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه (وثانيها) ان الفصيح اذا كتب كتابا فى واقعة بألفاظ فصيحة فلو كتب كتابا آخر فى غير تلك الواقعة كان الغالب ان كلامه فى الكتاب الثانى غير كلامه فى الكتاب الاول والله تعالى حكى قصة موسى عليه السلام فى مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة فى الفصاحة (وثالثها) ان كل ما فيه من الآيات والبيانات فانه يقوى بعضها بعضا ويؤكد بعضها بعضا (ورابعها) ان هذه الانواع الكثيرة من العلوم التى عددناها متشابهة متشاركة فى ان المقصود منها بأسرها الدعوى الى الدين وتقرير عظمة الله ولذلك فانك لا ترى قصة من القصص الا ويكون محصلها المقصود الذى ذكرناه فهذا هو المراد من كونه متشابها والله الهادى (الصفة الثالثة) من صفات القرآن كونه مثانى وقد بالغنا فى تفسير هذه اللفظة عند قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى وبالجملة فأكثر الاشياء المذكورة وقعت زوجين زوجين مثل الامر والنهى والعام والخاص والمجمل والمفصل وأحوال السموات والارض والجنة والنار والظلمة والضوء واللوح والقلم والملائكة والشياطين والعرش والكرسى والوعد والوعيد والرجاء والخوف والمقصود منه بيان أن كل ماسوى الحق زوج ويدل على ان كل شئ مبتلى بضده ونقيضه وان الفرد الاحد الحق هو الله سبحانه (الصفة الرابعة) من صفات القرآن قوله تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) معنى تقشعر جلودهم تأخذهم قشعريرة وهى تغير يحدث فى جلد الانسان عند الوجل والخوف قال المفسرون والمعنى انهم عند سماع آيات الرحمة والاحسان يحصل لهم الفرح فتلين قلوبهم الى ذكر الله وأقول ان المحققين من العارفين قالوا السائرون فى مبدأ جلال الله ان نظروا الى عالم الجلال طاشوا وان لاح لهم أثر من عالم الجمال عاشوا ويجب علينا ان نذكر فى هذا الباب مزيد شرح وتقرير فنقول الانسان اذا تأمل فى الدلائل الدالة على انه يجب تنزيه الله عن التحيز والجهة فههنا يقشعر جلده لان اثبات موجود لا داخل العالم ولا خارج ولا متصل بالعالم ولا منفصل عن العالم مما يصعب تصوره فههنا تقشعر الجلود أما اذا تأمل فى الدلائل الدالة على انه يجب أن يكون فردا أحدا وثبت أن كل متحيز فهو منقسم فههنا يلين جلده وقلبه الى ذكر الله وأيضا اذا أراد أن يحيط عقله بمعنى الازل فيتقدم فى ذهنه بمقدار ألف ألف سنة ثم يتقدم أيضا بحسب كل لحظة من لحظات تلك المدة ألف ألف سنة ولا يزال يحتال و يتقدم و يتخيل فى الذهن فاذا بالغ وتوغل وظن انه استحضر معنى الازل قال العقل هذا

وسكنت فتعذر الابتداء فاجتلبت همزة الوصل فصار ادارك وقرئ بل ادرك وأصله افتعل وبل أأدرك بهمزتين وبل آأدرك بألف بينهما وبل ادرك بالتخفيف والنقل وبل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام وبلى ادرك وبلى أأدرك وأم تدارك وأم أدرك فهذه ثنتا عشرة قراءة ثم فيه استفهام صريح أو مضمن من ذلك فهو انكار ونفى وما فيه بلى فاثبات لشعورهم وتفسيره بالادراك على وجه التهكم الذى هو أبلغ وجوه النفى والانكار وما بعده اضراب عن التفسير مبالغة فى النفى ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل أنهم منها عمون أو رد وانكار لشعورهم (وقال الذين كفروا) بيان لجهلهم بالآخرة وعمههم منها بحكاية انكارهم للبعث ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز صلته والاشعار بعلة حكمهم الباطل فى قولهم (أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) أى أنخرج من القبور اذا كنا ترابا كما ينبئ عنه مخرجون ولا مساغ لان يكون هو العامل فى اذا لاجتماع موانع لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقييد الاخراج بوقت كونهم ترابا ليس لتخصيص الانكار بالاخراج حينئذ فقط فانهم منكرون للاحياء بعد الموت مطلقا وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار بتوجيهه الى الاخراج فى حالة منافية له وقوله تعالى وآباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل مع الخبر مقام الفصل بالتأكيد وتكرير الهمزة فى أئنا للمبالغة فيه والتشديد فى الانكار وتحلية الجملة بان واللام لتأكيد

ليس بشئ لان كل ما استحضرته فى فهو متناه والازل هو الوجود المتقدم على هذه المدة المتناهية فههنا يتحير العقل ويقشعر الجلد وأما اذا ترك هذا الاعتبار وقال ههنا موجود والموجود اما واجب واما ممكن فان كان واجبا فهو دائما منزه عن الاول والآخر وان كان ممكنا فهو محتاج الى الواجب فيكون أزليا أبديا فاذا اعتبر العقل فهم معنى الازلية فههنا يلين جلده وقلبه الى ذكر الله فثبت ان المقامين المذكورين فى الآية لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب وآية الرحمة بل ذلك أول تلك المراتب وبعده مراتب لاحد لها ولا حصر فى حصول تلك الحالتين المذكورتين (المسئلة الثانية) روى الواحدى فى البسيط عن قتادة انه قال القرآن دل على ان أولياء الله موصوفون بأنهم عند المكاشفات والمشاهدات تارة تقشعر جلودهم وأخرى تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وليس فيه ان عقولهم تزول وأن أعضاءهم تضطرب فدل هذا على ان تلك الاحوال لو حصلت لكانت من الشيطان وأقول ههنا بحث آخر وهو ان الشيخ أبا حامد الغزالى أورد مسئلة فى كتاب احياء علوم الدين وهى انا نرى كثيرا من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الابيات المشتملة على شرح الوصل والهجر وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شئ من هذه الاحوال ثم انه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه كثيرة وأنا أقول انى خلقت محروما عن هذا المعنى فانى كلما تأملت فى أسرار القرآن اقشعر جلدى ووقف على شعرى وحصلت فى قلبى دهشة وروعة وكلما سمعت تلك الاشعار غلب الهزل على وما وجدت البتة فى نفسى منها أثرا وأظن أن المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا وبيانه من وجوه (الاول) ان تلك الاشعار كلمات مشتملة على وصل وهجر وبغض وحب تليق بالخلق واثباته فى حق الله تعالى كفر وأما الانتقال من تلك الاحوال الى معان لائقة بجلال الله فلا يصل اليها الا العلماء الراسخون فى العلم واما المعانى التى يشتمل عليها القرآن فهى أحوال لائقة بجلال الله فمن وقف عليها عظم الوله فى قلبه فان من كان عنده نور الايمان وجب أن يعظم اضطرابه عند سماع قوله وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو الى آخر الآية (والثانى) وهو أنى سمعت بعض المشايخ قال كما ان الكلام له أثر فكذلك صدور ذلك الكلام من القائل المعين له أثر لان قوة نفس القائل تعين على نفاذ الكلام فى الروح والقائل فى القرآن هنا هو الله بواسطة جبريل بتبليغ الرسول المعصوم والقائل هنالك شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور (والثالث) ان مدار القرآن على الدعوة الى الحق قال تعالى وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض وأما الشعر فداره على الباطل قال تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون فهذه الوجوه الثلاثة فروق ظاهرة وأما ما يتعلق بالوجدان من الناس فان كل أحد انما يخبر عما يجده من نفسه والذى وجدته من النفس والعقل ما ذكرته والله أعلم (المسئلة الثالثة) فى بيان ما بقى من المشكلات فى هذه الآية ونذكرها فى معرض السؤال والجواب (السؤال الاول) كيف تركيب لفظ القشعريرة الجواب قال صاحب الكشاف تركيبه من حروف التقشع وهو الاديم اليابس مضموما اليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعيا ودالا على معنى زائد يقال اقشعر جلده من الخوف وقف شعره وذلك مثل فى شدة الخوف (السؤال الثانى) كيف قال تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله وما الوجه فى تعديه بحرف الى والجواب التقدير تلين جلودهم وقلوبهم حال وصولها الى حضرة الله وهو لا يحس بالادراك (السؤال الثالث) لم قال الى ذكر الله ولم يقل الى ذكر رحمة الله والجواب أن من أحب الله لاجل رحمته فهو ما أحب الله وانما أحب شيأ غيره وأما من أحب الله لا لشئ سواه فهذا هو المحب المحق وهو الدرجة العالية فلهذا السبب لم يقل ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر رحمة الله بل قال الى ذكر الله وقد بين الله تعالى هذا المعنى فى قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام وفى قوله ألا بذكر الله تطمئن القلوب وأيضا قال لامة موسى يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وقال أيضا لامة محمد صلى الله عليه وسلم فاذكرونى أذكركم (السؤال الرابع) لم قال فى جانب الخوف قشعريرة الجلود فقط وفى جانب الرجاء لين الجلود والقلوب معا والجواب لان المكاشفة فى مقام الرجاء أكمل منها فى مقام الخوف لان الخير مطلوب بالذات والشر مطلوب بالعرض ومحل المكاشفات هو القلوب والارواح والله أعلم ثم انه تعالى لما وصف

الانكار لا لانكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى قوله تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ اذا كنا بهمزة واحدة مكسورة وقرئ انا لمخرجون على الخبر (لقد وعدنا هذا) أى الاخراج (نحن وآباؤنا من قبل) أى من قبل وعده عليه الصلاة والسلام وتقديم الموعود على نحن لانه المقصود بالذكر وحيث أخر قصد به المبعوث والجملة استئناف مسوق لتقرير الانكار وتصديرها بالقسم لمزيد التأكيد وقوله تعالى (ان هذا الا أساطير الاولين) تقرير اثر تقرير (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) بسبب تكذيبهم للرسل عليهم الصلاة والسلام فيما دعوهم اليه من الايمان بالله عز وجل وحده وباليوم الآخر الذى تنكرونه فان فى مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لاولى الابصار وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم (ولا تحزن عليهم) لاصرارهم على الكفر والتكذيب (ولا تكن فى ضيق) فى حرج صدر (مما يمكرون) من مكرهم فان الله تعالى يعصمك من الناس وقرئ بكسر الضاد وهو أيضا مصدر يجوز أن يكون المفتوح مخففا من ضيق وقد قرئ كذلك أى لا تكن فى أمر ضيق (ويقولون متى هذا الوعد) أى العذاب العاجل الموعود (ان كنتم صادقين) فى اخباركم باتيانه والجمع باعتبار شركة المؤمنين فى الاخبار بذلك (قل عسى أن يكون ردف لكم) أى تبعكم ولحقكم واللام مزيدة للتأكيد كالباء فى

القرآن بهذه الصفات قال ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد فقوله ذلك اشارة الى الكتاب وهو هدى الله يهدى به من يشاء من عباده وهو الذى شرح صدره أولا لقبول هذه الهداية ومن يضلل الله أى من جعل قلبه قاسيا مظلما بليد الفهم منافيا لقبول هذه الهداية فماله من هاد واستدلال أصحابنا بهذه الآية وسؤالات المعتزلة وجوابات أصحابنا عين ما تقدم فى قوله فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام أما قوله تعالى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة فاعلم أنه تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحكم فى الدنيا وبحكم فى الآخرة أما حكمهم فى الدنيا فهو الضلال التام كما قال ومن يضلل الله فماله من هاد وأما حكمهم فى الآخرة فهو العذاب الشديد وهو المراد من قوله أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وتقريره ان أشرف الاعضاء هو الوجه لانه محل الحسن والصباحة وهو أيضا صومعة الحواس وانما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه وأثر السعادة والشقاوة لا يظهر الا فى الوجه قال تعالى وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة ويقال لمقدم القوم يا وجه العرب ويقال للطريق الدال على كنه حال الشئ وجه كذا هو كذا فثبت بما ذكرنا ان أشرف الاعضاء هو الوجه فاذا وقع الانسان فى نوع من أنواع العذاب فانه يجعل يده وقاية لوجهه وفداء له واذا عرفت هذا فنقول اذا كان القادر على الاتقاء يجعل كل ماسوى الوجه فداء للوجه لا جرم حسن جعل الاتقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتقاء ونظيره قول النابغة

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب

أى لا عيب فيهم الا هذا وهو ليس بعيب فلا عيب فيهم اذن بوجه من الوجوه فكذا ههنا لا يقدرون على الاتقاء بوجه من الوجوه الا بالوجه وهذا ليس باتقاء فلا قدرة لهم على الاتقاء البتة ويقال أيضا ان الذى يلقى فى النار يلقى مغلولة يداه الى عنقه ولا يتهيأ له ان يتقى النار الا بوجهه اذا عرفت هذا فنقول جوابه محذوف وتقديره أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف فى نظائره وسوء العذاب شدته ثم قال تعالى وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ولما بين الله تعالى كيفية عذاب القاسية قلوبهم فى الآخرة بين أيضا كيفية وقوعهم فى العذاب فى الدنيا فقال كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون وهذا تنبيه على حال هؤلاء لان الفاء فى قوله فأتاهم العذاب تدل على أنهم انما أتاهم العذاب بسبب التكذيب فاذا كان التكذيب حاصلا ههنا لزم حصول العذاب استدلالا بالعلة على المعلول وقوله من حيث لا يشعرون أى من الجهة التى لا يحسبون ولا يخطر ببالهم ان الشر يأتيهم منها بينما هم آمنون اذ أتاهم العذاب من الجهة التى توقعوا الامن منها ولما بين تعالى انه أتاهم العذاب فى الدنيا بين أيضا انه أتاهم الخزى وهو الذل والصغار والهوان والفائدة فى ذكر هذا القيد أن العذاب التام هو ان يحصل فيه الالم مقرونا بالهوان والذل ثم قال ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون يعنى أن أولئك وان نزل عليهم العذاب والخزى كما تقدم ذكره فالعذاب المدخر لهم فى يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذى وقع والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب فلما ذكر الله تعالى هذه الفوائد المتكاثرة والنفائس المتوافرة فى هذه المطالب بين تعالى انه بلغت هذه البيانات الى حد الكمال والتمام فقال ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون والمقصود ظاهر وقالت المعتزلة دلت الآية على ان افعال الله وأحكامه معللة ودلت أيضا على انه يريد الايمان والمعرفة من الكل لان قوله ولقد ضربنا للناس مشعر بالتعليل وقوله فى آخر الآية لعلهم يتذكرون مشعر بالتعليل أيضا ومشعر بأن المقصود من ضرب هذه الامثال ارادة حصول التذكر والعلم ولما كانت هذه البيانات النافعة والبينات الباهرة موجودة فى القرآن لا جرم وصف القرآن بالمدح والثناء فقال قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج القائلون بحدوث القرآن بهذه الآية من وجوه (الاول) ان قوله ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون يدل على انه تعالى انما ذكر هذه الامثال ليحصل لهم التذكر والشئ الذى يؤتى به لغرض آخر يكون محدثا فان القديم هو الذى يكون موجودا فى الازل وهذا يمتنع أن يقال انه انما أتى به لغرض كذا وكذا (والثانى) انه وصفه

بكونه

قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة أو الفعل مضمن معنى فعل يعدى باللام وقرئ بفتح الدال وهى لغة فيه (بعض الذى تستعجلون) وهو عذاب يوم بدر وعسى ولعل وسوف فى مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وانما يطلقونها اظهارا للوقار واشعارا بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك يجرى وعد الله تعالى ووعيده وايثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال عسى أن يردفكم الخ لكونه أدل على تحقق الوعد (وان ربك لذو فضل على الناس) أى لذو افضال وانعام على كافة الناس ومن جملة انعاماته تأخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصى التى من جملتها استعجال العذاب (ولكن أكثرهم لا يشكرون) لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه كدأب هؤلاء (وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم) أى ما تخفيه وقرئ بفتح التاء من كننت الشئ اذا سترته (وما يعلنون) من الافعال والاقوال التى من جملتها ما حكى عنهم من استعجال العذاب وفيه ايذان بان لهم قبائح غير ما يظهرونه وأنه تعالى يجازيهم على الكل وتقديم السر على العلن قد مر سره فى سورة البقرة عند قوله تعالى أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون (وما من غائبة فى السماء والارض) أى من خافية فيهما وهما من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة كما فى الراوية أو اسمان لما يغيب ويخفى والتاء للنقل الى الاسمية (الا فى كتاب مبين) أى بين أو مبين لما فيه لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ وقيل هو القضاء العدل

بكونه عربيا وانما كان عربيا لان هذه الالفاظ انما صارت دالة على هذه المعانى بوضع العرب
واصطلاحهم وما كان حصوله بسبب أوضاع العرب واصطلاحاتهم كان مخلوقا محدثا (الثالث) انه وصفه
بكونه قرآنا والقرآن عبارة عن القراءة والقراءة مصدر والمصدر هو المفعول المطلق فكان فعلا ومفعولا
والجواب أنا نحمل كل هذه الوجوه على الحروف والاصوات وهى حادثة ومحدثة (المسئلة الثانية) قال
الزجاج قوله عربيا منصوب على الحال والمعنى ضربنا للناس فى هذا القرآن فى حال عربيته وبيانه
ويجوز أن ينتصب على المدح (المسئلة الثالثة) انه تعالى وصفه بصفات ثلاثة (أولها) كونه قرآنا والمراد
كونه متلوا فى المحاريب الى قيام القيامة كما قال انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون (وثانيها) كونه عربيا
والمراد أنه أعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته كما قال قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا
القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (وثالثها) كونه غير ذى عوج والمراد براءته عن
التناقض كما قال ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وأما قوله لعلهم يتقون فالمعتزلة
يتمسكون به فى تعليل أحكام الله تعالى (وفيه بحث آخر) وهو انه تعالى قال فى الآية الاولى لعلهم يتذكرون
وقال فى هذه الآية لعلهم يتقون والسبب فيه أن التذكر متقدم على الاتقاء لانه اذا تذكره وعرفه ووقف
على فحواه وأحاط بمعناه حصل الاتقاء والاحتراز والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء
متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون انك ميت وانهم ميتون
ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه أليس فى جهنم
مثوى للكافرين﴾ اعلم انه تعالى لما بالغ فى شرح وعيد الكفار أردفه بذكر مثل مايدل على فساد مذهبهم
وقبح طريقتهم فقال ضرب الله مثلا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المتشاكسون المختلفون العسرون
يقال شكس يشكس شكوسا وشكسا اذا عسر وهو رجل شكس أى عسر وتشاكس اذا تعاسر قال الليث
التشاكس التنازع والاختلاف ويقال الليل والنهار متشاكسان أى انهما متضادان اذا جاء أحدهما
ذهب الآخر وقوله فيه صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وأبو عمرو سالما
بالالف وكسر اللام يقال سلم فهو سالم والباقون سلما بفتح السين واللام بغير الالف ويقال أيضا بفتح السين
وكسرها مع سكون العين أما من قرأ سالما فهو اسم الفاعل تقديره سلم فهو سالم وأما سائر القراآت فهى
مصادر سلم والمعنى ذا سلامة وقوله لرجل أى ذا خلوص له من الشركة من قولهم سلمت له الضيعة
وقرئ بالرفع على الابتداء أى وهناك رجل سالم لرجل (المسئلة الثالثة) تقدير الكلام اضرب لقومك
مثلا وقل لهم ما يقولون فى رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع كل واحد منهم
يدعى انه عبده فهم يتجاذبونه فى حوائجهم وهو متحير فى أمره فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون واذا
احتاج فى مهم اليهم فكل واحد منهم يرده الى الآخر فهو يبقى متحيرا لا يعرف أيهم أولى بان يطلب رضاه
وأيهم يعينه فى حاجاته فهو بهذا السبب فى عذاب دائم وتعب مقيم ورجل آخر له مخدوم واحد يخدمه على
سبيل الاخلاص وذلك المخدوم يعينه على مهماته فأى هذين العبدين أحسن حالا وأحمد شأنا والمراد
تمثيل حال من يثبت آلهة شتى فان أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة
الا الله لفسدتا وقال ولعلا بعضهم على بعض فيبقى ذلك المشرك متحيرا ضالا لا يدرى أى هؤلاء الآلهة
يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقه فهمه شعاع وقلبه أوزاع أما من لم يثبت
الا الها واحدا فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه وما أسخطه فكان حال هذا أقرب الى الصلاح من حال
الاول وهذا مثل ضرب فى غاية الحسن فى تقبيح الشرك وتحسين التوحيد فان قيل هذا المثل لا ينطبق على
عبادة الاصنام لانها جمادات فليس بينها منازعة ولا مشاكسة قلنا ان عبدة الاصنام مختلفون منهم من
يقول هذه الاصنام تماثيل الكواكب السبعة فهم فى الحقيقة انما يعبدون الكواكب السبعة ثم ان
القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة ألا ترى انهم يقولون زحل هو النحس الاعظم
والمشترى هو السعد الاعظم ومنهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الارواح الفلكية والقائلون بهذا
القول زعموا ان كل نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلق بروح من الارواح السماوية وحينئذ يحصل

بطريق الاستعارة (ان هذا القرآن
يقص على بنى اسرائيل أكثر
الذى هم فيه يختلفون) من جملته
ما اختلفوا فى شأن المسيح وتحزبوا
فيه احزابا وركبوا متن العتو والغلو
فى الافراط والتفريط والتشبيه
والتنزيه ووقع بينهم التناكد فى
أشياء حتى بلغ المشاقة الى حيث
لعن بعضهم بعضا وقد نزل القرآن
الكريم ببيان كنه الامر لو كانوا
فى حيز الانصاف (وانه لهدى
ورحمة للمؤمنين) على الاطلاق
فيدخل فيهم من آمن من بنى
اسرائيل دخولا أوليا (ان ربك
يقضى بينهم) أى بين بنى اسرائيل
(بحكمته) بما يحكم به وهو الحق أو
بحكمته ويؤيده أنه قرئ بحكمه
(وهو العزيز) فلا يرد حكمه وقضاؤه
(العليم) بجميع الاشياء التى من جملتها
ما يقضى به والفاء فى قوله تعالى
(فتوكل على الله) لترتيب الامر
على ما ذكر من شؤنه عز وجل
فانها موجبة للتوكل عليه وداعية
الى الامر به أى فتوكل على الله
الذى هذا شأنه فانه موجب على
كل أحد أن يتوكل عليه ويفوض
جميع أموره اليه وقوله تعالى (انك
على الحق المبين) تعليل صريح
للتوكل عليه تعالى بكونه عليه
الصلاة والسلام على الحق البين
أو الفاصل بينه وبين الباطل أو
بين المحق والمبطل فان كونه عليه
الصلاة والسلام كذلك مما يوجب
الوثوق بحفظه تعالى ونصرته
وتأييده لا محالة وقوله تعالى (انك
لا تسمع الموتى) الخ تعليل آخر للتوكل
الذى هو عبارة عن التبتل الى الله
تعالى وتفويض الامر اليه
والاعراض عن التشبث بما سواه
وقد علل أولا بما يوجبه من جهته
تعالى أعنى قضاءه بالحق وعزته
وعلمه تعالى وثانيا بما يوجبه من

بين تلك الارواح منازعة ومشاكسة وحينئذ يكون المثل مطابقا ومنهم من يقول هذه الاصنام تماثيل الاشخاص من العلماء والزهاد الذين مضوا فهم يعبدون هذه التماثيل لتصير أولئك الاشخاص من العلماء والزهاد شفعاء لهم عند الله والقائلون بهذا القول تزعم كل طائفة منهم أن المحق هو ذلك الرجل الذى هو على دينه وان من سواه مبطل وعلى هذا التقدير أيضا ينطبق المثال فثبت أن هذا المثال مطابق للمقصود أما قوله تعالى هل يستويان مثلا فالتقدير هل يستويان صفة فقوله مثلا نصب على التمييز والمعنى هل تستوى صفتاهما وحالتاهما وانما اقتصر فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ مثلين ثم قال الحمد لله والمعنى انه لما بطل القول باثبات الشركاء والانداد وثبت انه لا اله الا هو الواحد الاحد الحق ثبت ان الحمد له لا لغيره ثم قال بعده بل أكثرهم لا يعلمون أى لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره وان المستحق للعبادة هو الله لا غيره وقيل المراد انه لما سبقت هذه الدلائل الظاهرة والبينات الباهرة قال الحمد لله على حصول هذه البيانات وظهور هذه البينات وان كان أكثر الخلق لم يعرفوها ولم يقفوا عليها ولما تمم الله هذه البيانات قال انك ميت وانهم ميتون والمراد أن هؤلاء الاقوام وان لم يلتفتوا الى هذه الدلائل القاهرة بسبب استيلاء الحرص والحسد عليهم فى الدنيا فلا تبال يا محمد بهذا فانك ستموت وهم أيضا سيموتون ثم تحشرون يوم القيامة وتختصمون عند الله تعالى والعادل الحق يحكم بينكم فيوصل الى كل واحد ما هو حقه وحينئذ يتميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق فهذا هو المقصود من الآية وقوله تعالى انك ميت وانهم ميتون أى انك واياهم وان كنتم أحياء فانك واياهم فى اعداد الموتى لان كل ما هو آت آت ثم بين تعالى نوعا آخر من قبائح أفعالهم وهو أنهم يكذبون ويضمون اليه انهم يكذبون القائل المحق اما انهم يكذبون فهو انهم أثبتوا لله ولدا وشركاء واما انهم مصرون على تكذيب الصادقين فلانهم يكذبون محمدا صلى الله عليه وسلم بعد قيام الدلالة القاطعة على كونه صادقا فى ادعاء النبوة ثم أردفه بالوعيد فقال أليس فى جهنم مثوى للكافرين ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى تكفير المخالف من أهل القبلة وذلك لان المخالف فى المسائل كلها القطعيه يكون كاذبا فى قوله ويكون مكذبا للمذهب الذى هو الحق فوجب دخوله تحت هذا الوعيد ۞ قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام) اعلم انه تعالى لما ذكر وعيد الكاذبين والمكذبين للصادقين ذكر عقيبه وعد الصادقين ووعد المصدقين ليكون الوعد مقرونا بالوعيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله والذى جاء بالصدق وصدق به تقديره والذى جاء بالصدق والذى صدق به وفيه قولان (الاول) ان المراد شخص واحد فالذى جاء بالصدق محمد والذى صدق به هو أبو بكر وهذا القول مروى عن على بن أبى طالب عليه السلام وجماعة من المفسرين رضى الله عنهم (والثانى) ان المراد منه كل من جاء بالصدق فالذى جاء بالصدق الانبياء والذى صدق به الاتباع واحتج القائلون بهذا القول بأن الذى جاء بالصدق جماعة والا لم يجز أن يقال أولئك هم المتقون (المسئلة الثانية) ان الرسالة لا تتم الا بأركان أربعة المرسل والمرسل والرسالة والمرسل اليه والمقصود من الارسال اقدام المرسل اليه على القبول والتصديق فأول شخص أتى بالتصديق هو الذى يتم به الارسال وسمعت بعض القاصين من الذى يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال دعوا أبا بكر فانه من تتمة النبوة واعلم انا سواء قلنا المراد بالذى صدق به شخص معين أو قلنا المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة فان أبا بكر داخل فيه أما على التقدير الاول فدخول أبى بكر فيه ظاهر وذلك لان هذا يتناول أسبق الناس الى التصديق وأجمعوا على أن الاسبق الافضل اما أبو بكر واما على وحمل هذا اللفظ على أبى بكر أولى لان عليا عليه السلام كان وقت البعثة صغيرا فكان كالولد الصغير الذى يكون فى البيت ومعلوم أن اقدامه على التصديق لا يفيد مزيد قوة وشوكة اما أبو بكر فانه كان رجلا كبيرا فى السن كبيرا فى المنصب فاقدامه على التصديق يفيد مزيد قوة وشوكة فى الاسلام فكان حمل هذا اللفظ على أبى بكر أولى (وأما على التقدير الثانى) فهو أن يكون المراد كل من كان موصوفا بهذه

جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين أعنى كونه عليه الصلاة والسلام على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعنى اعانته تعالى وتأييده للمحق ثم علل ثانيا بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة ايجابه للاعراض عن التشبث بما سواه تعالى فان كونهم كالموتى والصم والعمى موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأسا وداع الى تخصيص الاعتضاد به تعالى وهو المعنى بالتوكل عليه تعالى وانما شبهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع واطلاق الاسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشئ من المسموعات ولعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور فان القلب مشعر من المشاعر أشير الى بطلانه بالمرة ثم بين بطلان مشعرى الاذن والعين كما فى قوله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها والا فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمى مزيد مزية (ولا تسمع الصم الدعاء) أى الدعوة الى أمر من الامور وتقييد النفى بقوله تعالى (اذا ولوا مدبرين) لتكميل التشبيه وتأكيد النفى فانهم مع صممهم عن الدعاء الى الحق معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ولا ريب فى أن الاصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعى بمقابلة صماخه قريبا منه فكيف اذا كان خلفه بعيدا منه وقرئ ولا يسمع الصم الدعاء (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) هداية موصلة الى المطلوب كما فى قوله تعالى انك لا تهدى من أحببت فان الاهتداء منوط بالبصر وعن متعلقة بالهداية باعتبار تضمنه

الصفة وعلى هذا التقدير يكون أبو بكر داخلا فيه (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ وصدق بالتخفيف أى صدق به الناس ولم يكذبهم يعنى أداه اليهم كما نزل عليه من غير تحريف وقيل وصار صادقا به أى بسببه لان القرآن معجزة والمعجزة تصديق من الحكيم الذى لا يفعل القبيح فيصير المدعى للرسالة صادقا بسبب تلك المعجزة وقرئ وصدق واعلم انه تعالى أثبت للذى جاء بالصدق وصدق به أحكاما كثيرة (فالحكم الاول) قوله أولئك هم المتقون وتقريره ان التوحيد والشرك ضدان وكلما كان أحد الضدين أشرف وأكمل كان الضد الثانى أخس وأرذل ولما كان التوحيد أشرف الاسماء كان الشرك أخس الاشياء والآتى بأحد الضدين يكون تاركا للضد الثانى فالآتى بالتوحيد الذى هو أفضل الاشياء يكون تاركا للشرك الذى هو أخس الاشياء وأرذلها فلهذا المعنى وصف المصدقين بكونهم متقين (الحكم الثانى للمصدقين) قوله تعالى لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين وهذا الوعد يدخل فيه كل ما يرغب المكلف فيه فان قيل لا شك ان الكمال محبوب لذاته مرغوب فيه لذاته وأهل الجنة لا شك انهم عقلاء فاذا شاهدوا الدرجات العالية التى هى للانبياء وأكابر الاولياء عرفوا انها خيرات عالية ودرجات كاملة والعلم بالشئ من حيث انه كمال وخير يوجب الميل اليه والرغبة فيه واذا كان كذلك فهم يشاؤن حصول تلك الدرجات لانفسهم فوجب حصولها لهم بحكم هذه الآية وأيضا فان لم يحصل لهم ذلك المراد كانوا فى الغصة ووحشة القلب وأجيب عنه بأن الله تعالى يزيل الحقد والحسد عن قلوب أهل الآخرة وذلك يقتضى ان أحوالهم فى الآخرة بخلاف أحوالهم فى الدنيا ومن الناس من تمسك بهذه الآية فى أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة قالوا ان الذين يعتقدون انهم يرون الله تعالى لا شك انهم داخلون تحت قوله تعالى وصدق به لانهم صدقوا الانبياء عليهم السلام ثم ان ذلك الشخص يريد رؤية الله تعالى فوجب أن يحصل له ذلك لقوله تعالى لهم ما يشاؤن عند ربهم فان قالوا لا نسلم ان أهل الجنة يشاؤن ذلك قلنا هذا باطل لان الرؤية أعظم وجوه التجلى وزوال الحجاب ولا شك انها حالة مطلوبة لكل أحد نظرا الى هذا الاعتبار بل لو ثبت بالدليل كون هذا المطلوب ممتنع الوجود لعينه فانه يترك طلبه لا لاجل عدم المقتضى للطلب بل لقيام المانع وهو كونه ممتنعا فى نفسه فثبت ان هذه الشبهة قائمة والنص يقتضى حصول كل ما أرادوه وشاؤه فوجب حصولها واعلم أن قوله عند ربهم لا يفيد العندية بمعنى الجهة والمكان بل بمعنى الصمدية والاخلاص كما فى قوله تعالى عند مليك مقتدر واعلم ان المعتزلة تمسكوا بقوله وذلك جزاء المحسنين على أن هذا الاجر مستحق لهم على احسانهم فى العبادة (الحكم الثالث) قوله تعالى ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون فقوله لهم ما يشاؤن عند ربهم يدل على حصول الثواب على أكمل الوجوه وقوله ليكفر الله عنهم يدل على سقوط العقاب عنهم على أكمل الوجوه فقيل المراد انهم اذا صدقوا الانبياء عليهم السلام فيما أتوا فان الله يكفر عنهم أسوأ أعمالهم وهو الكفر السابق على ذلك الايمان ويوصل اليهم أحسن أنواع الثواب وقال مقاتل يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوى واعلم أن مقاتلا كان شيخ المرجئة وهم الذين يقولون لا يضر شئ من المعاصى مع الايمان كما لا ينفع شئ من الطاعات مع الكفر واحتج بهذه الآية فقال انها تدل على أن من صدق الانبياء والرسل فانه تعالى يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ولا يجوز حمل هذا الاسوأ على الكفر السابق لان الظاهر من الآية يدل على أن التكفير انما حصل فى حال ما وصفهم الله بالتقوى وهو التقوى من الشرك واذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر التى يأتى بها بعد الايمان فتكون هذه الآية تنصيصا على أنه تعالى يكفر عنهم بعد ايمانهم أسوأ ما يأتون به وذلك هو الكبائر (الحكم الرابع) انه جرت العادة ان المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى أليس الله بكاف عبده وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك فى النفوس والامر كذلك لانه ثبت انه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غنى عن كل الحاجات فهو تعالى عالم بحاجات العباد وقادر على دفعها وابدالها بالخيرات والراحات وهو ليس بخيلا ولا محتاجا حتى يمنعه بخله وحاجته عن اعطاء ذلك المراد واذا ثبت هذا كان الظاهر انه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل اليه كل المرادات فلهذا قال أليس الله بكاف عبده ولما

معنى الصرف وقيل بالعمى يقال عمى عن كذا وفيه بعد وايراد الجملة الاسمية للمبالغة فى نفى الهداية وقرئ وما أنت تهدى العمى (ان تسمع) أى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعا (الا من يؤمن بآياتنا) أى من من شأنهم الايمان بها وايراد الاسماع فى النفى والاثبات دون الهداية مع قربها بان يقال ان تهدى الا من يؤمن الخ لما أن طريق الهداية هو اسماع الآيات التنزيلية (فهم مسلمون) تعليل لايمانهم بها كأنه قيل فانهم منقادون للحق وقيل مخلصون لله تعالى من قوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله (واذا وقع القول عليهم) بيان لما أشير اليه بقوله تعالى بعض الذى تستعجلون من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومباديها والمراد بالقول ما نطق من الآيات الكريمة بمجئ الساعة وما فيها من فنون الاهوال التى كانوا يستعجلونها بوقوعه قيامها وحصولها عبر عن ذلك به للايذان بشدة وقعها وتأثيرها واسناده الى القول لما أن المراد بيان وقوعها من حيث انها مصداق للقول الناطق بمجيئها وقد أريد بالوقوع دنوه واقترابه كما فى قوله تعالى أتى أمر الله أى اذا دنا وقوع مدلول القول المذكور الذى لا يكادون يسمعونه ومصداقه (أخرجنا لهم دابة من الارض) وهى الجساسة وفى التعبير عنها باسم الجنس وتأكيد ابهامه بالتنوين التفخيمى من الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى وقد ورد فى الحديث أن طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب وروى أن لها أربع قوائم ولها زغب وريش وجناحان وعن

ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال ويخوفونك بالذين من دونه يعني لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثا وباطلا قرأ أكثر القراء عبده بلفظ الواحد وهو اختيار أبي عبيدة لانه قال له ويخوفونك روي أن قريشا قالت للنبي صلى الله عليه وسلم انا نخاف أن تخبلك آلهتنا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ جماعة عباده بلفظ الجمع قيل المراد بالعباد الانبياء فان نوحا كفاه الغرق وابراهيم النار ويونس بالانجاء مما وقع له فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك وقيل أمم الانبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى وهمت كل أمة برسولهم وكفاهم الله شر من عاداهم واعلم انه تعالى لما أطنب في شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هي الفصل الحق فقال ومن يضلل الله فماله من هاد ومن يهدي الله فماله من مضل يعني هذا الفصل لا ينفع والبينات الا اذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله أليس الله بعزيز ذي انتقام تهديد للكفار واعلم أن أصحابنا يتمسكون في مسئلة خلق الاعمال وارادة الكائنات بقوله ومن يضلل الله فماله من هاد ومن يهدي الله فماله من مضل والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون على صحة مذهبهم في هاتين المسئلتين بقوله أليس الله بعزيز ذي انتقام ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به ۞ قوله تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾ اعلم انه تعالى لما أطنب في وعيد المشركين وفي وعد الموحدين عاد الى اقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الاصنام وبنى هذا التزييف على أصلين (الاصل الاول) هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الاله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله واعلم أن من الناس من قال ان العلم بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فان من تأمل في عجائب أحوال السموات والارض وفي عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفي عجائب بدن الانسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة علم انه لابد من الاعتراف بالاله القادر الحكيم الرحيم (والاصل الثاني) ان هذه الاصنام لا قدرة لها على الخير والشر وهو المراد من قوله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته فثبت انه لابد من الاقرار بوجود الاله القادر الحكيم الرحيم وثبت ان هذه الاصنام لا قدرة لها على الخير والشر واذا كان الامر كذلك كانت عبادة الله كافية وكان الاعتماد عليه كافيا وهو المراد من قوله قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون فاذا ثبت هذا الاصل لم يلتفت العاقل الى تخويف المشركين فكان المقصود من هذه الآية هو التنبيه على الجواب عما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله تعالى ويخوفونك بالذين من دونه وقرئ كاشفات ضره وممسكات رحمته بالتنوين على الاصل وبالاضافة للتخفيف فان قيل كيف قوله كاشفات وممسكات على التأنيث بعد قوله ويخوفونك بالذين من دونه قلنا المقصود التنبيه على كمال ضعفها فان الانوثة مظنة الضعف ولانهم كانوا يصفونها بالتأنيث ويقولون اللات والعزى ومناة ولما أورد الله عليهم هذه الحجة التي لا دافع لها قال بعده على وجه التهديد قل يا قوم اعملوا على مكانتكم أي أنتم تعتقدون في أنفسكم انكم في نهاية القوة والشدة فاجتهدوا في أنواع مكركم وكيدكم فاني عامل أيضا في تقرير ديني فسوف تعلمون ان العذاب والخزي يصيبني أو يصيبكم والمقصود منه التخويف ۞ قوله تعالى ﴿انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيأ ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والارض ثم اليه ترجعون﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعظم عليه اصرارهم على الكفر كما قال فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا

وقال

ابن جريج في وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام وقال وهب وجهها وجه الرجل وباقي خلقها خلق الطير وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال ليس بدابة لها ذنب ولكن لها لحية كأنه يشير الى أنه رجل والمشهور أنها دابة وروي لا تخرج الا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أو يبلغ السحاب وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه فيها كل لون ما بين قرنيها فرسخ للراكب وعن الحسن رضي الله عنه لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة أيام وعن علي رضي الله عنه أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج كل يوم الا ثلثها وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه سئل من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعني المسجد الحرام وروي انها تخرج ثلاث خرجات تخرج بأقصى اليمن ثم تكمن ثم تخرج بالبادية ثم تكمن دهرا طويلا فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة على الله تعالى وأكرمها فما يهولهم الا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة وقيل تخرج من الصفا وروي بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون اذ تضطرب الارض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتضرب المؤمن في مسجده

وقال لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين وقال تعالى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فلما أطنب الله تعالى فى هذه الآية فى فساد مذاهب المشركين تارة بالدلائل والبينات وتارة بضرب الامثال وتارة بذكر الوعد والوعيد أردفه بكلام يزيل ذلك الخوف العظيم عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال انا أنزلنا عليك هذا الكتاب الكامل الشريف لنفع الناس ولاهتدائهم به وجعلنا انزاله مقرونا بالحق وهو المعجز الذى يدل على انه من عند الله فمن اهتدى فنفعه يعود اليه ومن ضل فضرر ضلاله يعود اليه وما أنت عليهم بوكيل والمعنى انك لست مأمورا بان تحملهم على الايمان على سبيل القهر بل القبول وعدمه مفوض اليهم وذلك لتسلية الرسول فى اصرارهم على الكفر ثم بين تعالى أن الهداية والضلال لا يحصلان الامن الله تعالى وذلك لان الهداية تشبه الحياة واليقظة والضلال يشبه الموت والنوم وكما ان الحياة واليقظة وكذلك الموت والنوم لا يحصلان الا بتخليق الله عز وجل وايجاده فكذلك الهداية والضلال لا يحصلان الامن الله تعالى ومن عرف هذه الدقيقة فقد عرف سر الله تعالى فى القدر ومن عرف سر الله فى القدر هانت عليه المصائب فيصير التنبيه على هذه الدقيقة سببا لزوال ذلك الحزن عن قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا وجه النظم فى الآية وقيل نظم الآية أنه تعالى ذكر حجة أخرى فى اثبات انه الاله العالم ليدل على انه بالعبادة أحق من هذه الاصنام (المسئلة الثانية) المقصود من الآية انه تعالى يتوفى الانفس عند الموت وعند النوم الا انه يمسك الانفس التى قضى عليها الموت ويرسل الاخرى وهى النائمة الى أجل مسمى أى الى وقت ضرب لموتها فقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها يعنى انه تعالى يتوفى الانفس التى نامت وماماتت عند منامها وقوله تعالى فيمسك التى قضى عليها الموت يعنى ان النفس التى يتوفاها عند الموت يمسكها ولا يردها الى البدن وقوله ويرسل الاخرى الى أجل مسمى يعنى ان النفس التى يتوفاها عند النوم يردها الى البدن عند اليقظة وتبقى هذه الحالة الى أجل مسمى وذلك الاجل هو وقت الموت فهذا تفسير لفظ الآية وهى مطابقة للحقيقة ولكن لا بد فيه من مزيد بيان فنقول النفس الانسانية عبارة عن جوهر مشرق روحانى اذا تعلق بالبدن حصل ضوءه فى جميع الاعضاء وهو الحياة فنقول انه فى وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت وأما فى وقت النوم فانه ينقطع ضوءه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوءه عن باطن البدن فثبت ان الموت والنوم من جنس واحد الا ان الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه واذا ثبت هذا ظهر ان القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه (أحدها) ان يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك هو اليقظة (وثانيها) أن يرتفع ضوء النفس عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم (وثالثها) أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت فثبت أن الموت والنوم يشتركان فى كون كل واحد منهما توفيا للنفس ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة فى صفات معينة ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره الا عن القادر العليم الحكيم وهو المراد من قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ويحتمل أن يكون المراد بهذا أن الدليل يدل على أن الواجب على العاقل ان يعبد الها موصوفا بهذه القدرة وبهذه الحكمة وان لا يعبد الاوثان التى هى جمادات لا شعور لها ولا ادراك واعلم ان الكفار أوردوا على هذا الكلام سؤالا فقالوا نحن لا نعبد هذه الاصنام لاعتقاد انها آلهة تضر وتنفع وانما نعبدها لاجل انها تماثيل لاشخاص كانوا عند الله من المقربين فنحن نعبدها لاجل أن يصير أولئك الاكابر شفعاء لنا عند الله فأجاب الله تعالى بأن قال أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيأ ولا يعقلون وتقرير الجواب أن هؤلاء الكفار اما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الاصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الاصنام تماثيل لها والاول باطل لان هذه الجمادات وهى الاصنام لا تملك شيأ ولا تعقل شيأ فكيف يعقل صدور الشفاعة عنها والثانى باطل لان فى يوم القيامة لا يملك أحد شيأ ولا يقدر أحد على الشفاعة الا باذن الله فيكون الشفيع فى الحقيقة هو الله الذى يأذن فى تلك الشفاعة فكان الاشتغال بعبادته أولى من الاشتغال بعبادة غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى قل لله الشفاعة

بالعصا فتنكت نكتة بيضاء فتفشو حتى يضىء لها وجهه وتكتب بين عينيه مؤمن وتنكت الكافر بالخاتم فى أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر ثم تقول لهم أنت يافلان من أهل الجنة وأنت يافلان من أهل النار وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال ان الدابة لتسمع قرع عصاى هذه وروى أبو هريرة عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال بئس الشعب شعب أجياد مرتين أوثلاثا قيل ولم ذلك يارسول الله قال تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين فتتكلم بالعربية بلسان ذلق وذلك قوله تعالى (تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) أى تكلمهم بانهم كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجىء الساعة ومباديها أو بجميع آياته التى من جملتها تلك الآيات وقيل بآياته التى من جملتها خروجها بين يدى الساعة والاول هو الحق كما تحيط به علما وقرئ بان الناس الآية واضافة الآيات الى نون العظمة لانها حكاية منه تعالى لمعنى قولها الالعين عبارتها وقيل لانها حكاية منها لقول الله عز وجل وقيل لاختصاصها به تعالى واثرتها عنده كما يقول بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا وانما الخيل والبلاد لمولاه وقيل هناك مضاف محذوف أى بآيات ربنا ووصفهم بعدم الايقان بها مع أنهم كانوا جاحدين بها للايذان بانه كان من حقهم أن يوقنوا بها ويقطعوا بصحتها وقد اتصفوا بنقيضه وقرئ ان الناس بالكسر على اضمار القول أو اجراء الكلام مجراه والكلام

جميعا ثم بين انه لا ملك لاحد غير الله بقوله له ملك السموات والارض ثم اليه ترجعون ومنهم من تمسك فى نفى الشفاعة مطلقا بقوله تعالى قل لله الشفاعة جميعا وهذا ضعيف لانا نسلم انه سبحانه مالم يأذن فى الشفاعة لم يقدر أحد على الشفاعة فان قيل قوله الله يتوفى الانفس حين موتها فيه سؤال لان هذا يدل على ان المتوفى هو الله فقط وتأكد هذا بقوله الذى خلق الموت والحياة وبقوله ربى الذى يحيى ويميت وبقوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم ان الله تعالى قال فى آية أخرى قل يتوفاكم ملك الموت وقال فى آية ثالثة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وجوابه ان المتوفى فى الحقيقة هو الله الا انه تعالى فوض فى عالم الاسباب كل نوع من أنواع الاعمال الى ملك من الملائكة ففوض قبض الارواح الى ملك الموت وهو رئيس وتحته اتباع وخدم فاضيف التوفى فى هذه الآية الى الله تعالى بالاضافة الحقيقية وفى الآية الثانية الى ملك الموت لانه هو الرئيس فى هذا العمل والى سائر الملائكة لانهم هم الاتباع لملك الموت والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ولو أن للذين ظلموا ما فى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ اعلم ان هذا نوع آخر من الاعمال القبيحة للمشركين وهو انك اذا ذكرت الله وحده تقول لا اله الا الله وحده لا شريك له ظهرت آثار النفرة من وجوههم وقلوبهم واذا ذكرت الاصنام والاوثان ظهرت آثار الفرح والبشارة فى قلوبهم وصدورهم وذلك يدل على الجهل والحماقة لان ذكر الله رأس السعادات وعنوان الخيرات وأما ذكر الاصنام التى هى الجمادات الخسيسة فهو رأس الجهالات والحماقات فنفرتهم عن ذكر الله وحده واستبشارهم بذكر هذه الاصنام من أقوى الدلائل على الجهل الغليظ والحمق الشديد قال صاحب الكشاف وقد يقابل الاستبشار والاشمئزاز اذ كل واحد منهما غاية فى بابه لان الاستبشار ان يمتلئ قلبه سرورا حتى يظهر أثر ذلك السرور فى بشرة وجهه ويتهلل والاشمئزاز أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح الى داخل القلب فيبقى فى أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الارضية ولما حكى عنهم هذا الامر العجيب الذى تشهد فطرة العقل بفساده أردفه بأمرين (أحدهما) انه ذكر الدعاء العظيم فوصفه أولا بالقدرة التامة وهى قوله قل اللهم فاطر السموات والارض وثانيا بالعلم الكامل وهو قوله تعالى عالم الغيب والشهادة وانما قدم ذكر القدرة على ذكر العلم لان العلم بكونه تعالى قادرا متقدم على العلم بكونه عالما ولما ذكر هذا الدعاء قال انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون يعنى ان نفرتهم عن التوحيد وفرحهم عند سماع الشرك أمر معلوم الفساد ببديهة العقل ومع ذلك القوم قد أصروا عليه فلا يقدر أحد على ازالتهم عن هذا الاعتقاد الفاسد والمذهب الباطل الا أنت عن أبى سلمة قال سألت عائشة بم كان يفتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته بالليل قالت كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك وانك لتهدى من تشاء الى صراط مستقيم واعلم انه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل ذكر فى وعيدهم أشياء (أولها) ان هؤلاء الكفار لو ملكوا كل ما فى الارض من الاموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكل فدية لانفسهم من ذلك العذاب الشديد (وثانيها) قوله تعالى وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون أى ظهرت لهم أنواع من العقاب لم تكن فى حسابهم وكما انه صلى الله عليه وسلم قال فى صفة الثواب فى الجنة فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فكذلك فى العقاب حصل مثله وهو قوله وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون (وثالثها) قوله تعالى وبدا لهم سيئات ما كسبوا ومعناه ظهرت لهم آثار تلك السيآت التى اكتسبوها أى ظهرت لهم أنواع من العقاب آثار تلك السيآت التى اكتسبوها ثم قال وحاق بهم من كل الجوانب جزاء ما كانوا يستهزؤن به فنبه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم ۞ قوله تعالى ﴿فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى

عنهم

فى الاضافة كالذى سبق وقيل هو استئناف مسوق من جهته تعالى لتعليل اخراجها أو تكليمها ورده الجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فانه صريح فى كونه حكاية لعدم ايقانهم السابق فى الدنيا والمراد بالناس اما الكفرة على الاطلاق أو مشركو مكة وقد روى عن وهب أنها تخبر كل من تراه ان أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون وقرئ تكلمهم من الكلم الذى هو الجرح والمراد به ما نقل من الوسم بالعصا والخاتم وقد جوز كون القراءة المشهورة أيضا منه لمعنى التكثير ولا يخفى بعده (ويوم نحشر من كل امة فوجا) بيان اجمالى لحال المكذبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها ويوم منصوب بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام والمراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلى الشامل لكافة الخلق وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قدمر بيان سره مرارا أى واذكر لهم وقت حشرنا أى جمعنا من كل أمة من أمم الانبياء عليهم الصلاة والسلام أو من أهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة فمن تبعيضية لان كل أمة منقسمة الى مصدق ومكذب وقوله تعالى (ممن يكذب بآياتنا) بيان للفوج أى فوجا مكذبين بها (فهم يوزعون) أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعد اطرافهم مالا يخفى وعن ابن عباس رضى الله عنهما أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة ابن ربيعة يساقون بين يدى

عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اعلم أن هذا حكاية طريقة أخرى من طرائقهم الفاسدة وذلك لانهم عند الوقوع فى الضر الذى هو الفقر والمرض يفزعون الى الله تعالى ويرون أن دفع ذلك لا يكون الا منه ثم انه تعالى اذا خولهم النعمة وهى اما السعة فى المال أو العافية فى النفس زعم أنه انما حصل ذلك بكسبه وبسبب جهده وجده فان كان مالا قال انما حصل بكسبى وان كان صحة قال انما حصل ذلك بسبب العلاج الفلانى وهذا تناقض عظيم لانه كان فى حال العجز والحاجة أضاف الكل الى الله وفى حال السلامة والصحة قطعه عن الله وأسنده الى كسب نفسه وهذا تناقض قبيح فبين تعالى قبح طريقتهم فيما هم عليه عند الشدة والرخاء بلفظة وجيزة فصيحة فقال بل هى فتنة يعنى النعمة التى خولها هذا الكافر فتنة لان عند حصولها يجب الشكر وعند فواتها يجب الصبر ومن هذا حاله يوصف بأنه فتنة من حيث يختبر عنده حال من أوتى النعمة كما يقال فتنت الذهب بالنار اذا عرضته على النار لتعرف خلاصته ثم قال تعالى ولكن أكثرهم لا يعلمون والمعنى ماقدمنا ان هذا التخويل انما كان لاجل الاختبار * وبقى فى الآية أبحاث نذكرها فى معرض السؤال والجواب (السؤال الاول) ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء ههنا وعطف مثلها فى أول السورة بالواو والجواب أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية انهم يشمئزون من سماع التوحيد ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء ثم ذكر بفاء التعقيب انهم اذا وقعوا فى الضر والبلاء والتجؤا الى الله تعالى وحده كان الفعل الاول مناقضا للفعل الثانى فذكر فاء التعقيب ليدل على انهم واقعون فى المناقضة الصريحة فى الحال وانه ليس بين الاول والثانى فاصل مع ان كل واحد منهما مناقض للثانى فهذا هو الفائدة فى ذكر فاء التعقيب ههنا فاما الآية الاولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم فى التناقض فى الحال فلا جرم ذكره الله بحرف الواو لا بحرف الفاء (السؤال الثانى) ما معنى التخويل الجواب التخويل هو التفضل يعنى نحن نتفضل عليه وهو يظن أنه انما وجده بالاستحقاق (السؤال الثالث) ما المراد من قوله قال انما أوتيته على علم الجواب يحتمل أن يكون المراد انما أوتيته على علم الله بكونى مستحقا لذلك ويحتمل أن يكون المراد انما أوتيته على علمى بكونى مستحقا له ويحتمل أن يكون المراد انما أوتيته على علم لاجل ذلك العلم قدرت على اكتسابه مثل أن يكون مريضا فيعالج نفسه فيقول انما وجدت الصحة لعلمى بكيفية العلاج وانما وجدت المال لعلمى بكيفية الكسب (السؤال الرابع) النعمة مؤنثة والضمير فى قوله أوتيته عائد على النعمة فضمير التذكير كيف عاد الى المؤنث بل قال بعده بل هى فتنة فجعل الضمير مؤنثا فما السبب فيه والجواب ان التقدير حتى اذا خولناه شيأ من النعمة فلفظ النعمة مؤنث ومعناه مذكر فلا جرم جاز الامران ثم قال تعالى قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم الضمير فى قالها راجع الى قوله انما أوتيته على علم عندى لانها كلمة أو جملة من القول والذين من قبلهم هم قارون وقومه حيث قال انما أوتيته على علم عندى وقومه راضون به فكانهم قالوها ويجوز أيضا أن يكون فى الامم الخالية قائلون مثلها ثم قال تعالى فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون أى ما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل والقول الفاسد الذى اكتسبوه من عذاب الله شيأ بل أصابهم سيآت ما كسبوا ولما بين فى أولئك المتقدمين انهم أصابهم سيآت ما كسبوا أى عذاب عقائدهم الباطلة وأقوالهم الفاسدة قال وما هم بمعجزين أى لا يعجزوننى فى الدنيا والآخرة ثم قال تعالى أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر يعنى أولم يعلموا أن الله تعالى هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء تارة ويقبض تارة أخرى وقوله ويقدر أى ويقتر ويضيق والدليل عليه انا نرى الناس مختلفين فى سعة الرزق وضيقه ولا بد له من سبب وذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله لانا نرى العاقل القادر فى أشد الضيق ونرى الجاهل المريض الضعيف فى أعظم السعة وليس ذلك أيضا لاجل الطبائع والانجم والافلاك لان فى الساعة التى ولد فيها ذلك الملك الكبير والسلطان القاهر قد ولد فيه أيضا عالم من الناس وعالم من الحيوانات غير الانسان ويولد أيضا فى تلك الساعة عالم من النبات فلما شاهدنا حدوث هذه الاشياء الكثيرة فى تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة فى السعادة

أهل مكة وهكذا يحشر قادة سائر الامم بين أيديهم الى النار (حتى اذا جاؤا) الى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب (قال) أى الله عز وجل موبخا لهم على التكذيب والالتفات لتربية المهابة (أكذبتم بآياتى) الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله تعالى (ولم تحيطوا بها علما) جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ومؤكدة للانكار والتوبيخ أى أكذبتم بها بادئ الرأى غير ناظرين فيها نظرا يؤدى الى العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق حتما وهذا نص فى ان المراد بالآيات فيما سلف فى الموضعين هى الآيات القرآنية لانها هى المنطوية على دلائل الصحة وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علما مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لا نفس الساعة وما فيها وقيل هو معطوف على كذبتم أى أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها (أم ماذا كنتم تعملون) أى أم أى شئ كنتم تعملون بها أو أم أى شئ كنتم تعملون غير ذلك بمعنى انه لم يكن لهم عمل غير ذلك كانهم لم يخلقوا الا للكفر والمعاصى مع أنهم ما خلقوا الا للايمان والطاعة يخاطبون بذلك تبكيتا ثم يكبون فى النار وذلك قوله تعالى (ووقع القول عليهم) أى حل بهم العذاب الذى هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله (بما ظلموا) بسبب ظلمهم الذى هو تكذيبهم بآيات الله (فهم لا ينطقون) لانقطاعهم عن الجواب بالكلية وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الاليم (ألم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) الرؤية قلبية لا بصرية لان نفس الليل والنهار وان كانا من المبصرات لكن جعلهما كما ذكر من قبيل

والشقاوة علمنا انه ليس المؤثر فى السعادة والشقاوة هو الطالع ولما بطلت هذه الاقسام علمنا ان المؤثر فيه هو الله سبحانه وصح بهذا البرهان العقلى القاطع صحة قوله تعالى أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وقال الشاعر

فلا السعد يقضى به المشترى * ولا النحس يقضى علينا زحل
ولكنه حكم رب السما * وقاضى القضاة تعالى وجل

﴿ قوله تعالى (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) اعلم انه تعالى لما أطنب فى الوعيد أردفه بشرح كمال رحمته وفضله واحسانه فى حق العبيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يعفو عن الكبائر فقالوا انا بينا فى هذا الكتاب ان عرف القرآن جار بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين قال تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وقال عينا يشرب بها عباد الله ولان لفظ العباد مذكور فى معرض التعظيم فوجب أن لا يقع الا على المؤمنين اذا ثبت هذا ظهر أن قوله ياعبادى مختص بالمؤمنين ولان المؤمن هو الذى يعترف بكونه عبد الله أما المشركون فانهم يسمون أنفسهم بعبد اللات والعزى وعبد المسيح فثبت ان قوله ياعبادى لايليق الا بالمؤمنين اذا ثبت هذا فنقول انه تعالى قال الذين أسرفوا على أنفسهم وهذا عام فى حق جميع المسرفين ثم قال تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا وهذا يقتضى كونه غافرا لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين وذلك هو المقصود فان قيل هذه الآية لايمكن اجراؤها على ظاهرها والا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعا وأنتم لاتقولون به فما هو مدلول هذه الآية لاتقولون به والذى تقولون به لاتدل عليه هذه الآية فسقط الاستدلال وأيضا انه تعالى قال عقيب هذه الآية وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون الى قوله بغتة وأنتم لاتشعرون ولو كان المراد من أول الآية أنه تعالى غفر جميع الذنوب قطعا لما أمر عقيبه بالتوبة ولما خوفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لايشعرون وأيضا قال أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله ولو كانت الذنوب كلها مغفورة فأى حاجة به الى أن يقول ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وأيضا فلو كان المراد مايدل عليه ظاهر لفظ الآية لكان ذلك اغراء بالمعاصى واطلاقا فى الاقدام عليها وذلك لايليق بحكمة الله واذا ثبت هذا وجب أن يحمل على ان يقال المراد منه التنبيه على أنه لايجوز أن يظن العاصى انه لامخلص له من العذاب البتة فان من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله اذ لا أحد من العصاة المذنبين الا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة فمعنى قوله ان الله يغفر الذنوب جميعا أى بالتوبة والانابة والجواب قوله الآية تقتضى كون كل الذنوب مغفورة قطعا وأنتم لاتقولون به قلنا بل نحن نقول به ونذهب اليه وذلك لان صيغة يغفر صيغة المضارع وهى للاستقبال وعندنا أن الله تعالى يخرج من النار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعا اما قبل الدخول فى نار جهنم واما بعد الدخول فيها فثبت أن مادل عليه ظاهر الآية فهو عين مذهبنا أما قوله لو صارت الذنوب باسرها مغفورة لما أمر بالتوبة فالجواب ان عندنا التوبة واجبة وخوف العقاب قائم فانا لانقطع بازالة العقاب بالكلية بل نقول لعله يعفو مطلقا ولعله يعذب بالنار مدة ثم يعفو بعد ذلك وبهذا الحرف يخرج الجواب عن بقية الاسئلة والله أعلم (المسئلة الثانية) اعلم أن هذه الآية تدل على رجاء الرحمة من وجوه (الاول) انه سمى المذنب بالعبد والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة واللائق بالرحيم الكريم افاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج (الثانى) انه تعالى أضافهم الى نفسه بياء الاضافة فقال ياعبادى الذين أسرفوا وشرف الاضافة اليه يفيد الامن من العذاب (الثالث) انه تعالى قال أسرفوا على أنفسهم ومعناه ان ضرر تلك الذنوب

المعقولات أى ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الاظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار (والنهار مبصرا) أى ليبصروا بما فيه من الاضاءة طرق التقلب فى أمور المعاش فبولغ فيه حيث جعل الابصار الذى هو حال الناس حالا له ووصفا من أوصافه التى جعل عليها بحيث لاينفك عنها ولم يسلك فى الليل هذا المسلك لما أن تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى الابصار (ان فى ذلك) أى فى جعلهما كما وصفا ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للاشعار ببعد درجته فى الفضل (لآيات) أى عظيمة كثيرة (لقوم يؤمنون) دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة كيف لا وان من تأمل فى تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم رائقة تحار فى فهمها العقول ولا يحيط بها الا الله عز وجل وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهى للحياة وعاين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه الذى هو مثل الحياة قضى بان الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور قضاء متقنا وجزم بانه تعالى قد جعل هذا أنموذجا له ودليلا يستدل به على تحققه وأن الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهانا عليه وسائر الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور) اما معطوف على يوم يحشر منصوب بناصبه أو بمضمر معطوف عليه والصور هو القرن الذى ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله

ماعاد اليه بل هو عائد اليهم فيكفيهم من تلك الذنوب عود مضارها اليهم ولا حاجة الى الحاق ضرر آخر بهم (الرابع) انه قال لا تقنطوا من رحمة الله نهاهم عن القنوط فيكون هذا أمرا بالرجاء والكريم اذا أمر بالرجاء فلا يليق به الا الكرم (الخامس) أنه تعالى قال أولا يا عبادى وكان الاليق أن يقول لا تقنطوا من رحمتى لكنه ترك هذا اللفظ وقال لا تقنطوا من رحمة الله لان قولنا الله أعظم أسماء الله وأجلها فالرحمة المضافة اليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة والفضل (السادس) انه لما قال لا تقنطوا من رحمة الله كان الواجب أن يقول انه يغفر الذنوب جميعا ولكنه لم يقل ذلك بل أعاد اسم الله وقرن به لفظة ان المفيدة لاعظم وجوه التاكيد وكل ذلك يدل على المبالغة فى الوعد بالرحمة (السابع) انه لو قال يغفر الذنوب لكان المقصود حاصلا لكنه أردفه باللفظ الدال على التأكيد فقال جميعا وهذا أيضا من المؤكدات (الثامن) انه وصف نفسه بكونه غفورا ولفظ الغفور يفيد المبالغة (والتاسع) انه وصف نفسه بكونه رحيما والرحمة تفيد فائدة زائدة على المغفرة فكان قوله انه هو الغفور اشارة الى ازالة موجبات العقاب وقوله الرحيم اشارة الى تحصيل موجبات الرحمة والثواب (العاشر) أن قوله انه هو الغفور الرحيم يفيد الحصر ومعناه انه لا غفور ولا رحيم الا هو وذلك يفيد الكمال فى وصفه سبحانه بالغفران والرحمة فهذه الوجوه العشرة مجموعة فى هذه الآية وهى باسرها دالة على كمال الرحمة والغفران ونسأل الله تعالى الفوز بها والنجاة من العقاب بفضله ورحمته (المسئلة الثالثة) ذكروا فى سبب النزول وجوها قيل انها نزلت فى أهل مكة فانهم قالوا يزعم محمد أن من عبد الاوثان وقتل النفس لم يغفر له وقد عبدنا وقتلنا فكيف نسلم وقيل نزلت فى وحشى قاتل حمزة لما أراد أن يسلم وخاف أن لا تقبل توبته فلما نزلت الآية أسلم فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه له خاصة أم للمسلمين عامة فقال بل للمسلمين عامة وقيل نزلت فى أناس أصابوا ذنوبا عظاما فى الجاهلية فلما جاء الاسلام أشفقوا أن لا يقبل الله توبتهم وقيل نزلت فى عياش بن أبى ربيعة والوليد بن الوليد ونفر من المسلمين أسلموا ثم فتنوا فافتتنوا وكان المسلمون يقولون فيهم لا يقبل الله منهم توبتهم فنزلت هذه الآيات فكتبها عمر وبعث بها اليهم فاسلموا وهاجروا واعلم ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فنزول هذه الآيات فى هذه الوقائع لا يمنع من عمومها (المسئلة الرابعة) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم يا عبادى بفتح الياء والباقون وعاصم فى بعض الروايات بغير فتح وكلهم يقفون عليه باثبات الياء لانها ثابتة فى المصحف الا فى بعض رواية أبى بكر عن عاصم انه يقف بغير ياء وقرأ أبو عمرو والكسائى تقنطوا بكسر النون والباقون بفتحها وهما لغتان قال صاحب الكشاف وفى قراءة ابن عباس وابن مسعود يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء ثم قال تعالى وأنيبوا الى ربكم قال صاحب الكشاف أى وتوبوا اليه وأسلموا له أى وأخلصوا له العمل وانما ذكر الانابة على اثر المغفرة لئلا يطمع طامع فى حصولها بغير توبة وللدلالة على انها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه وأقول هذا الكلام ضعيف جدا لان عندنا التوبة عن المعاصى واجبة فلم يلزم من ورود الامر بها طعن فى الوعد بالمغفرة فان قالوا لو كان الوعد بالمغفرة حاصلا قطعا لما احتيج الى التوبة لان التوبة انما تراد لاسقاط العقاب فاذا سقط العقاب بعفو الله عنه فلا حاجة الى التوبة فنقول هذا ضعيف لان مذهبنا انه تعالى وان كان يغفر الذنوب قطعا ويعفو عنها قطعا الا ان هذا العفو والغفران يقع على وجهين تارة يقع ابتداء وتارة يعذب مدة فى النار ثم يخرجه من النار ويعفو عنه ففائدة التوبة ازالة هذا العقاب فثبت ان الذى قاله صاحب الكشاف ضعيف ولا فائدة فيه ثم قال واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم واعلم انه تعالى لما وعد بالمغفرة أمر بعد هذا الوعد باشياء (فالاول) أمر بالانابة وهو قوله تعالى وأنيبوا الى ربكم (والثانى) أمر بمتابعة الاحسن وفى المراد بهذا الاحسن وجوه (الاول) انه القرآن ومعناه واتبعوا القرآن والدليل عليه قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا (الثانى) قال الحسن معناه والتزموا طاعة الله واجتنبوا معصيته الله فان الذى أنزل على ثلاثة أوجه ذكر القبيح ليجتنب عنه والادون لئلا يرغب فيه والاحسن ليتقوى به ويتبع (الثالث) المراد بالاحسن الناسخ دون المنسوخ لان الناسخ أحسن من المنسوخ لقوله تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ولان الله تعالى لما نسخ حكما وأثبت حكما آخر كان اعتمادنا على الناسخ أحسن لنا من اعتمادنا على المنسوخ ثم قال من قبل أن يأتيكم العذاب

عليه وسلم قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والارض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص بصره الى العرش متى يؤمر قال قلت يا رسول الله ما الصور قال القرن قال قلت كيف هو قال عظيم والذى نفسى بيده ان عظم دارة فيه كعرض السماء والارض فيؤمر بالنفخ فيه فينفخ نفخة لا يبقى عندها فى الحياة أحد غير من شاء الله تعالى وذلك قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت الا بعث وقام وذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون والذى يستدعيه سباق النظم الكريم وسياقه أن المراد بالنفخ ههنا هى النفخة الثانية وبالفزع فى قوله تعالى (ففزع من فى السموات ومن فى الارض) ما يعترى الكل عند البعث والنشور بمشاهدة الامور الهائلة الخارقة للعادات فى الانفس والآفاق من الرعب والتهيب الضرورى بين الجبليين وايراد صيغة الماضى مع كون المعطوف عليه أعنى ينفخ مضارعا للدلالة على تحقق وقوعه أثر النفخ ولعل تأخير بيان الاحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان ما يقع بعدها من حشر المكذبين من كل أمة لتثنية التهويل بتكرير التذكير ايذانا بان كل واحد منهما طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها ولو روعى الترتيب الوقوعى لربما توهم أن الكل داهية واحدة قد أمر بذكرها كما مر فى قصة البقرة (الا من شاء الله) أى أن لا يفزع قيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل

بغتة وأنتم لا تشعرون والمراد منه التهديد والتخويف والمعنى أنه يفجأ العذاب وأنتم غافلون عنه واعلم انه تعالى لما خوفهم بالعذاب بين تعالى أن بتقدير نزول العذاب عليهم ماذا يقولون فحكى الله تعالى عنهم ثلاثة أنواع من الكلمات (فالاول) قوله تعالى أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ان تقول مفعول له أى كراهة أن تقول يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله واما تنكير لفظ النفس ففيه وجهان (الاول) يجوز أن تراد نفس ممتازة عن سائر النفوس لاجل اختصاصها بمزيد اضرار بما لا ينبغى رغبتها فى المعاصى (والثانى) يجوز أن يراد به الكثرة وذلك لانه ثبت فى علم أصول الفقه ان الحكم المذكور عقيب وصف يناسبه يفيد الظن بان ذلك الحكم معلل بذلك الوصف فقوله يا حسرتا يدل على غاية الاسف ونهاية الحزن وانه مذكور عقيب قوله تعالى على ما فرطت فى جنب الله والتفريط فى طاعة الله تعالى يناسب شدة الحسرة وهذا يقتضى حصول تلك الحسرة عند حصول هذا التفريط وذلك يفيد العموم بهذا الطريق (المسئلة الثانية) القائلون باثبات الاعضاء لله تعالى استدلوا على اثبات الجنب بهذه الآية واعلم ان دلائلنا على نفى الاعضاء قد كثرت فلا فائدة فى الاعادة ونقول بتقدير أن يكون المراد من هذا الجنب عضوا مخصوصا لله تعالى فانه يمتنع وقوع التفريط فيه فثبت انه لابد من المصير الى التأويل وللمفسرين فيه عبارات قال ابن عباس يريد ضيعت من ثواب الله وقال مقاتل ضيعت من ذكر الله وقال مجاهد فى أمر الله وقال الحسن فى طاعة الله وقال سعيد ابن جبير فى حق الله واعلم ان الاكثار من هذه العبارات لا يفيد شرح الصدور وشفاء الغليل فنقول الجنب سمى جنبا لانه جانب من جوانب ذلك الشئ والشئ الذى يكون من لوازم الشئ وتوابعه يكون كانه جند من جنوده وجانب من جوانبه فلما حصلت هذه المشابهة بين الجنب الذى هو العضو وبين ما يكون لازما للشئ وتابعا له لا جرم حسن اطلاق لفظ الجنب على الحق والامر والطاعة قال الشاعر

أما تتقين الله فى جنب وامق * له كبد حرى عليك تقطع

(المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ يا حسرتى على الاصل ويا حسرتاى على الجمع بين العوض والمعوض عنه وأما قوله تعالى وان كنت لمن الساخرين أى انه ما كان مكتفيا بذلك التقصير بل كان من المستهزئين بالدين قال قتادة لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ومحل وان كنت نصب على الحال كانه قال فرطت فى جنب الله وأنا ساخر أى فرطت فى حال سخريتى (النوع الثانى) من الكلمات التى حكاها الله تعالى عن أهل العذاب انهم يذكرونه بعد نزول العذاب عليهم قوله أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين (النوع الثالث) قوله أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين وحاصل الكلام ان هذا المقصر أتى بثلاثة أشياء (أولها) الحسرة على التفريط فى الطاعة (وثانيها) التعلل بفقد الهداية (وثالثها) بتمنى الرجعة ثم أجاب الله تعالى عن كلامهم بأن قال التعلل بفقد الهداية باطل لان الهداية كانت حاضرة والاعذار زائلة وهو المراد بقوله بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج بلى جواب النفى وليس فى الكلام لفظ النفى الا أنه حصل فيه معنى النفى لان معنى قوله لو أن الله هدانى انه ما هدانى فلا جرم حسن ذكر لفظة بلى بعده (المسئلة الثانية) قال الواحدى رحمه الله القراءة المشهورة واقعة على التذكير فى قوله بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين لان النفس تقع على الذكر والانثى فخوطب المذكر وروى الربيع بن أنس عن أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ على التأنيث قال أبو عبيد لو صح هذا عن النبى صلى الله عليه وسلم لكان حجة لا يجوز لاحد تركها ولكنه ليس بمسند لان الربيع لم يدرك أم سلمة وأما وجه التأنيث فهو انه ذكر النفس ولفظ النفس ورد فى القرآن فى أكثر الامر على التأنيث بقوله سولت لى نفسى وان النفس لامارة بالسوء ويا أيتها النفس المطمئنة (المسئلة الثالثة) قال القاضى هذه الآيات دالة على صحة القول بالقدر من وجوه (الاول) انه لا يقال فلان أسرف على نفسه على وجه الذم الا لما يكون من قبله وذلك يدل على أن أفعال العباد تحصل من قبلهم لا من قبل الله تعالى (وثانيها) ان طلب الغفران والرجاء فى ذلك أو اليأس لا يحسن الا اذا كان الفعل فعل العبد (وثالثها)

عليهم السلام وقبل الحور والخزنة وحملة العرش (وكل) أى كل واحد من المبعوثين عند النفخة (أتوه) حضروا الموقف بين يدى رب العزة جل جلاله للسؤال والجواب والمناقشة والحساب وقرئ أتاه باعتبار لفظ الكل كما أن القراءة الاولى باعتبار معناه وقرئ آتوه أى حاضروه (داخرين) أى صاغرين وقرئ دخرين وقوله تعالى (وترى الجبال) عطف على ينفخ داخل فى حكم التذكير وقوله عز وجل (تحسبها جامدة) أى ثابتة فى أماكنها اما بدل منه أو حال من ضمير ترى أو من مفعوله وقوله تعالى (وهى تمر مر السحاب) حال من ضمير الجبال فى تحسبها أو فى جامدة أى تراها رأى العين ساكنة والحال أنها تمر مر السحاب التى تسيرها الرياح سيرا حثيثا وذلك أن الاجرام العظام اذا تحركت نحو سمت لا تكاد تتبين حركتها وعليه قول من قال

بارعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

قد أدمج فى هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب فى تخلخل الاجزاء وانتفاشها كما فى قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش وهذا أيضا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله عز وجل الارض غير الارض ويغير هيآتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة ليشاهدها أهل المحشر وهى وان اندكت وتصدعت عند النفخة الاولى لكن تسييرها وتسوية الارض انما يكونان بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا

اضافة الانابة والاسلام اليه من قبل أن يأتيه العذاب وذلك لا يكون الا مع تمكنه من محاولتهما قبل نزول العذاب ومذهبهم أن الكافر لم يتمكن قط من ذلك (ورابعها) قوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وذلك لا يتم الا بما هو المختار للاتباع (وخامسها) ذمه لهم على انهم لا يشعرون بما يوجب العذاب وذلك لا يصح الا مع التمكن من الفعل (وسادسها) قولهم يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ولا يتحسر المرء على أمر سبق منه الا وكان يصح منه أن يفعله (وسابعها) قوله تعالى على ما فرطت فى جنب الله ومن لا يقدر على الايمان كما يقول القوم ولا يكون الايمان من فعله لا يكون مفرطا (وثامنها) ذمه لهم بانهم من الساخرين وذلك لا يتم الا أن تكون السخرية فعلهم وكان يصح منهم أن لا يفعلوه (وتاسعها) قوله لو أن الله هدانى أى مكننى لكنت من المتقين وعلى قولهم اذا لم يقدر على التقوى فكيف يصح ذلك منه (وعاشرها) قوله لو أن لى كرة فأكون من المحسنين وعلى قولهم لو رده الله أبدا كرة بعد كرة وليس فيه الا قدرة الكفر لم يصح أن يكون محسنا (والحادى عشر) قوله تعالى موبخا لهم بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين فبين تعالى ان الحجة عليهم لله لا أن الحجة لهم على الله ولو أن الامر كما قالوا لكان لهم أن يقولوا قد جاءنا الآيات ولكنك خلقت فينا التكذيب بها ولم تقدرنا على التصديق بها (والثانى عشر) انه تعالى وصفهم بالتكذيب والاستكبار والكفر على جهة الذم ولولم تكن هذه الاشياء أفعالا لهم لما صح هذا الكلام (والجواب عنه) ان هذه الوجوه معارضة بما ان القرآن مملوء من أن الله تعالى هو الذى يضل ويمنع ويصدر منه اللين والقسوة والاستدراج ولما كان هذا التفسير مملوأ منه لم يكن الى الاعادة حاجة ۞ قوله تعالى ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون﴾

اعلم ان هذا نوع آخر من تقرير الوعيد والوعد أما الوعيد فقوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة وفيه بحثان (أحدهما) ان هذا التكذيب كيف هو (والثانى) ان هذا السواد كيف هو أما الاول وهو البحث عن حقيقة هذا التكذيب فنقول المشهور ان الكذب هو الاخبار عن الشئ على خلاف ما هو عليه ومنهم من قال هذا القدر لا يكون كذبا بل الشرط فى كونه كذبا ان يقصد الاتيان بخبر يخالف المخبر عنه اذا عرفت هذا الاصل فنذكر أقوال الناس فى هذه الآية قال الكعبى ويرد الجبريان هذه الآية قد وردت فى المجبرة ثم قال والدليل على ان الامر كذلك ان هذه الآية وردت عقيب قوله لو أن الله هدانى يعنى انه ما هدانى بل أضلنى فلما حكى الله هذا عن الكفار ثم ذكر عقيبه ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة وجب أن يكون هذا عائدا الى ذلك الكلام المتقدم ثم روى عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما بال أقوام يصلون ويقرؤن القرآن يزعمون ان الله كتب الذنوب على العباد وهم كذبة على الله والله مسود وجوههم واعلم ان أصحابنا قالوا آخر الآية يدل على فساد هذا التأويل لانه تعالى قال فى آخر الآية أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين وهذا يدل على ان أولئك الذين صارت وجوههم مسودة أقوام متكبرون والتكبر لا يليق بمن يقول انا لا اقدر على الخلق والاعادة والايجاد وانما القادر عليه هو الله سبحانه وتعالى أما الذين يقولون ان الله يريد شيأ وانا أريد بضده فيحصل مرادى ولا يحصل مراد الله فالتكبر بهذا القائل أليق فثبت أن هذا التأويل الذى ذكروه فاسد ومن الناس من قال ان هذا الوعيد مختص باليهود والنصارى ومنهم من قال انه مختص بمشركى العرب قال القاضى يجب حمل الآية على الكل من المشبهة والمجبرة وكذا كل من وصف الله بما لا يليق به نفيا واثباتا فأضاف اليه ما يجب تنزيهه عنه أو نزهه عما يجب أن يضاف اليه فالكل منهم داخلون تحت هذه الآية لانهم كلهم كذبوا على الله فتخصيص الآية بالمجبرة والمشبهة أو اليهود والنصارى لا يجوز واعلم أنا لو أجريناهذه الآية على عمومها كما ذكره القاضى لزمه تكفير الامة لانك لا ترى فرقة من فرق الامة الا وقد حصل بينهم اختلاف شديد فى صفات الله تعالى ألا ترى أنه حصل الاختلاف بين أبى هاشم وأهل السنة فى مسائل كثيرة من صفات الله تعالى ويلزم على قانون قول القاضى تكفير أحدهما فثبت انه يجب أن يحمل الكذب المذكور فى الآية على ما اذا قصد الاخبار عن الشئ مع أنه يعلم انه كاذب فيما يقول ومثال هذا

صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى وقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار فان اتباع الداعى الذى هو اسرافيل عليه السلام وبروز الخلق لله تعالى لا يكون الا بعد النفخة الثانية وقد قالوا فى تفسير قوله تعالى ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم ان صيغة الماضى فى المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلا للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك هذا وقد قيل ان المراد هى النفخة الاولى والفزع هو الذى يستتبع الموت لغاية شدة الهول كما فى قوله تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الارض الآية فيختص أثرها بمن كان حيا عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الامم وجوزان يراد بالاتيان داخرين رجوعهم الى أمره تعالى وانقيادهم له ولا ريب فى أن ذلك مما ينبغى أن ينزه ساحة التنزيل عن أمثاله وأبعد من هذا ما قيل ان المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التى تكون قبل نفخة الصعق وهى التى أريدت بقوله تعالى ما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق فيسير الله تعالى عندها الجبال فتمر مر السحاب فتكون سرابا وترج الارض بأهلها رجا فتكون كالسفينة الموثقة فى البحر أو كالقنديل المعلق ترجحه الارواح فانه مما لا ارتباط له بالمقام قطعا والحق الذى لا محيد عنه ما قدمناه ومما هو نص فى الباب ما سيأتى من قوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (صنع الله) مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أى صنع الله ذلك صنعا

كفار قريش فانهم كانوا يصفون تلك الاصنام بالالهية مع انهم كانوا يعلمون بالضرورة كونها جمادات وكانوا يقولون ان الله تعالى حرم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام مع انهم كانوا ينكرون القول بان الله حرم كذا وأباح كذا وكان قائله عالما بأنه كذب واذا كان كذلك فالحاق مثل هذا الوعيد بهذا الجاهل الكذاب الضال المضل مناسبا أما من لم يقصد الا الحق والصدق لكنه أخطأ يبعد الحاق هذا الوعيد به (البحث الثاني) الكلام في كيفية السواد الحاصل في وجوههم والاقرب أنه سواد مخالف لسائر أنواع السواد وهو سواد يدل على الجهل بالله والكذب على الله وأقول ان الجهل ظلمة والظلمة تتخيل كأنها سواد فسواد قلوبهم أوجب سواد وجوههم وتحت هذا الكلام أسرار عميقة من مباحث أحوال القيامة فلما ذكر الله هذا الوعيد أردفه بالوعد فقال وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم الآية قال القاضي المراد به من اتقى كل الكبائر اذ لا يوصف بالاتقاء المطلق الا من كان هذا حاله فيقال له أمرك عجيب جدا فانك قلت لما تقدم قوله تعالى لو أن الله هداني لكنت من المتقين وجب أن يحمل قوله ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة على الذين قالوا لو أن الله هداني فعلى هذا القانون لما تقدم قوله ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ثم قال تعالى بعده وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم وجب أن يكون المراد هم الذين اتقوا ذلك الكذب فهذا يقتضي ان كل من لم يتصف بذلك الكذب أن يدخل تحت الوعد المذكور بقوله وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم وان يكون قولك الذين اتقوا المراد منه من اتقى كل الكبائر فاسدا فثبت ان التعصب يحمل الرجل العاقل على الكلمات المتناقضة بل الحق أن نقول المتقي هو الآتي بالاتقاء والآتي بالاتقاء في صورة واحدة آت بمسمى الاتقاء وبهذا الحرف قلنا الامر المطلق لا يفيد التكرار ثم ذلك الاتقاء غير مذكور بعينه في هذه اللفظة فوجب حمله على الاتقاء عن الشئ الذي سبق ذكره وهذا هو الكذب على الله تعالى فثبت ان ظاهر الآية يقتضي ان من اتقى عن تلك الصفة وجب دخوله تحت هذا الوعد الكريم ثم قال تعالى بمفازتهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم بمفازاتهم على الجمع والباقون بمفازتهم على التوحيد وحكى الواحدي عن الفراء انه قال كلاهما صواب اذ يقال في الكلام قد تبين أمر القوم وأمور القوم قال أبو علي الفارسي الافراد للمصدر ووجه الجمع ان المصادر قد تجمع اذا اختلفت أجناسها كقوله تعالى وتظنون بالله الظنونا ولاشك ان لكل متق نوعا آخر من المفازة (المسئلة الثانية) المفازة مفعلة من الفوز وهو السعادة فكان المعنى ان النجاة في القيامة حصلت بسبب فوزهم في الدنيا بالطاعات والخيرات فعبر عن الفوز بأوقاتها ومواضعها ثم قال لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون والمراد انه كالتفسير لتلك النجاة كأنه قيل كيف ينجيهم فقيل لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون وهذه كلمة جامعة لانه اذا علم انه لا يمسه السوء كان فارغ البال بحسب الحال عما وقع في قلبه بسبب فوات الماضي فحينئذ يظهر انه سلم عن كل الآفات ونسأل الله الفوز بهذه الدرجات بمنه وكرمه (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان المؤمنين لا ينالهم الخوف والرعب في القيامة وتأكد هذا بقوله لا يحزنهم الفزع الاكبر ۞ قوله تعالى (الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل له مقاليد السموات والارض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) واعلم انه لما أطال الكلام في شرح الوعد والوعيد عاد الى دلائل الالهية والتوحيد وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا في سورة الانعام ان أصحابنا تمسكوا بقوله تعالى الله خالق كل شئ على ان أعمال العباد مخلوقة لله تعالى وأطنبنا هنالك في الاسئلة والاجوبة فلا فائدة ههنا في الاعادة الا ان الكعبي ذكر ههنا كلمات فنذكرها ونجيب عنها فقال ان الله تعالى مدح نفسه بقوله الله خالق كل شئ وليس من المدح أن يخلق الكفر والقبائح فلا يصح أن يحتج المخالف به وأيضا فلم يكن في صدر هذه الامة خلاف في أعمال العباد بل كان الخلاف بينهم وبين المجوس والزنادقة في خلق الامراض والسباع والهوام فأراد الله تعالى أن يبين انها جميع من خلقه وأيضا فلفظة كل قد لا توجب العموم لقوله تعالى وأوتيت من كل شئ تدمر كل شئ وأيضا لو كانت أعمال العباد من خلق الله لما أضافها

على انه عبارة عما ذكر من النفخ في الصور وما ترتب عليه جميعا قصد به التنبيه على عظم شان تلك الافاعيل وتهويل أمرها والايذان بانها ليست بطريق اخلال نظام العالم وافساد أحوال الكائنات بالكلية من غير أن يدعو اليها داعية أو يكون لها عاقبة بل هي من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على أساس الحكمة المستتبعة للغايات الجليلة التي لاجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادي الابداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله تعالى (الذي أتقن كل شئ) أي أحكم خلقه وسواه على ما تقتضيه الحكمة وقوله تعالى (انه خبير بما تفعلون) تعليل لكون ما ذكر صنعا محكما له تعالى ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يدعو الى اظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وجعل السموات والارض والجبال على وفق ما نطق به التنزيل ليتحققوا بمشاهدة ذلك أن وعد الله حق لا ريب فيه وقرئ خبير بما يفعلون وقوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها) بيان لما أشير اليه باحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها عليها أي من جاء منكم أو من أولئك الذين أتوه تعالى بالحسنة فله من الجزاء ما هو خير منها اما باعتبار أنه أضعافها واما باعتبار دوامه وانقضائها وقيل فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعن ابن عباس رضي الله عنهما الحسنة كلمة الشهادة (وهم) أي الذين جاؤا بالحسنات (من فزع) أي عظيم هائل لا يقادر قدره وهو الفزع الحاصل

اليهم بقوله كفار احداً من عند أنفسهم ولما صح قوله و يقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ولما صح قوله وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا فهذا جملة ما ذكره الكعبي فى تفسيره وقال الجبائى الله خالق كل شئ سوى أفعال خلقه التى صح فيها الامر والنهى واستحقوا بها الثواب والعقاب ولو كانت أفعالهم خلقا لله تعالى ما جاز ذلك فيه كما لا يجوز مثله فى ألوانهم وصورهم وقال أبو مسلم الخلق هو التقدير لا الايجاد فاذا أخبر الله عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلانى فقد قدر ذلك الفعل فيصح أن يقال انه تعالى خلقه وان لم يكن موجداً له واعلم أن الجواب عن هذه الوجوه قد ذكرناه بالاستقصاء فى سورة الانعام فمن أراد الوقوف عليه فليطالع هذا الموضع من هذا الكتاب والله أعلم اما قوله تعالى وهو على كل شئ وكيل فالمعنى ان الاشياء كلها موكولة اليه فهو القائم بحفظها وتدبيرها من غير منازع ولا مشارك وهذا أيضاً يدل على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى لان فعل العبد لو وقع بتخليق العبد لكان ذلك الفعل غير موكول الى الله تعالى فلم يكن الله تعالى وكيلا عليه وذلك ينافى عموم الآية ثم قال تعالى له مقاليد السموات والارض والمعنى انه سبحانه مالك أمرها وحافظها وهو من باب الكناية لان حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذى بيده مقاليدها ومنه قولهم فلان ألقيت مقاليد الملك اليه وهى المفاتيح قال صاحب الكشاف ولا واحد لها من لفظها وقيل مقليد ومقاليد وقيل مقلاد ومقاليد مثل مفتاح ومفاتيح وقيل اقليد وأقاليد قال صاحب الكشاف والكلمة أصلها فارسية الا أن القوم لما عربوها صارت عربية واعلم أن الكلام فى تفسير قوله له مقاليد السموات والارض قريب من الكلام فى قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب وقد سبق الاستقصاء هناك قيل سأل عثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله له مقاليد السموات والارض فقال يا عثمان ما سألنى عنها أحد قبلك تفسيرها لا اله الا الله والله أكبر سبحان الله و بحمده أستغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله هو الاول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير هكذا نقله صاحب الكشاف ثم قال تعالى والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) صريح الآية يقتضى انه لا خاسر الا كافر وهذا يدل على ان كل من لم يكن كافراً فانه لابد وأن يحصل له حظ من رحمة الله (المسئلة الثانية) أورد صاحب الكشاف سؤالا وهو انه بم اتصل قوله والذين كفروا وأجاب عنه بأنه اتصل بقوله تعالى و ينجى الله الذين اتقوا أى ينجى الله المتقين بمفازتهم والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون واعترض ما بينهما انه خالق للاشياء كلها وان له مقاليد السموات والارض وأقول هذا عندى ضعيف من وجهين (الاول) ان وقوع الفاصل الكبير بين المعطوف والمعطوف عليه بعيد (الثانى) ان قوله و ينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم جملة فعلية وقوله والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون جملة اسمية وعطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية لا يجوز بل الاقرب عندى أن يقال انه لما وصف الله تعالى نفسه بالصفات الالهية والجلالية وهو كونه خالقاً للاشياء كلها وكونه مالكا لمقاليد السموات والارض بأسرها قال بعده والذين كفروا بهذه الآيات الظاهرة الباهرة أولئك هم الخاسرون ثم قال تعالى قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر تأمروننى بنونين ساكنة الياء وكذلك هى فى مصاحف الشام قال الواحدى وهو الاصل وقرأ ابن كثير تأمرونى بنون مشددة على اسكان الاولى وادغامها فى الثانية وقرأ نافع تأمرونى بنون واحدة خفيفة على حذف احدى النونين والباقون بنون واحدة مكسورة مشددة (المسئلة الثانية) أفغير الله منصوب بأعبد وتأمرونى اعتراض ومعناه أفغير الله أعبد بأمركم وذلك حين قال له المشركون أسلم ببعض آلهتنا ونؤمن بالهك وأقول نظير هذه الآية قوله تعالى قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والارض وقد ذكرنا فى تلك الآية وجه الحكمة فى تقديم الفعل (المسئلة الثالثة) انما وصفهم بالجهل لانه تقدم وصف الاله بكونه خالقاً للاشياء وبكونه مالكا لمقاليد السموات والارض وظاهر كون هذه الاصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع ومن أعرض عن عبادة الاله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة واشتغل بعبادة هذه الاجسام الخسيسة فقد بلغ فى الجهل مبلغاً لامزيد عليه فلهذا السبب قال أيها الجاهلون ولا شك ان وصفهم بهذا

من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيآت وهو الذى فى قوله تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر وعن الحسن رحمه الله تعالى حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن جريج حين يذبح الموت و ينادى المنادى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت (يومئذ) أى يوم اذ ينفخ فى الصور (آمنون) لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل ولا يلحقهم ضرره أصلا وأما الفزع الذى يعترى كل من فى السموات ومن فى الارض غير من استثناه الله تعالى فانما هو التهيب والرعب الحاصل فى ابتداء النفخة من معاينة فنون الدواهى والاهوال ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة وان كان آمنا من لحوق الضرر والامن يستعمل بالجار وبدونه كما فى قوله تعالى أفأمنوا مكر الله وقرئ من فزع يومئذ بالاضافة مع كسر الميم وفتحها أيضاً والمراد هو الفزع المذكور فى القراءة الاولى لا جميع الافزاع الحاصلة يومئذ ومدار الاضافة كونه أعظم الافزاع وأكبرها كأن ما عداه ليس بفزع بالنسبة اليه (ومن جاء بالسيئة) قيل هو الشرك (فكبت وجوههم فى النار) أى كبوا فيها على وجوههم منكوسين أو كبت فيها أنفسهم على طريقة ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة (هل تجزون الا ما كنتم تعملون) على الالتفات للتشديد أو على اضمار القول أى مقولا لهم ذلك (انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها) أمر عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم ذلك بعد ما بين لهم أحوال المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة تنبيها لهم على أنه قد أتم أمر الدعوة بما

الامر لائق بهذا الموضع ثم قال تعالى ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين واعلم ان الكلام التام مع الدلائل القوية والجواب عن الشبهات فى مسئلة الاحباط قد ذكرناه فى سورة البقرة فلا نعيده قال صاحب الكشاف قرئ ليحبطن عملك على البناء للمفعول وقرئ بالياء والنون أى ليحبطن الله أو الشرك وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) كيف أوحي اليه والى من قبله حال شركه على التعيين والجواب تقدير الآية أوحي اليك لئن أشركت ليحبطن عملك والى الذين من قبلك مثله أو أوحي اليك والى كل واحد منهم لئن أشركت كما تقول كسانا حلة أى كل واحد منا (السؤال الثانى) ما الفرق بين اللامين الجواب الاولى موطئة للقسم المحذوف والثانية لام الجواب (السؤال الثالث) كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى ان رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم والجواب ان قوله لئن أشركت ليحبطن عملك قضية شرطية والقضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزأيها ألا ترى ان قولك لو كانت الخمسة زوجا لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع ان كل واحد من جزأيها غير صادق قال الله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة وبأنهما قد فسدتا (السؤال الرابع) ما معنى قوله ولتكونن من الخاسرين والجواب كما ان طاعات الانبياء والرسل أفضل من طاعات غيرهم فكذلك القبائح التى تصدر عنهم فانها بتقدير الصدور تكون أقبح لقوله تعالى اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات فكان المعنى ضعف الشرك الحاصل منه وبتقدير حصوله منه يكون تأثيره فى جانب غضب الله أقوى وأعظم واعلم انه تعالى لما قدم هذه المقدمات ذكر ما هو المقصود فقال بل الله فاعبد وكن من الشاكرين والمقصود منه رد ما أمروه به من الاسلام ببعض آلهتهم كأنه قال انكم تأمرونني بأن لا أعبد الا غير الله لان قوله قل أفغير الله تأمرونى أعبد يفيد أنهم عينوا عليه عبادة غير الله فقال الله انهم بئسما قالوا ولكن أنت على الضد مما قالوا فلا تعبد الا الله وذلك لان قوله بل الله فاعبد يفيد الحصر ثم قال وكن من الشاكرين على ما هداك الى انه لا يجوز الا عبادة الاله القادر على الاطلاق العليم الحكيم وعلى ما أرشدك الى انه يجب الاعراض عن عبادة كل ما سوى الله ۞ قوله تعالى ﴿وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وأشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ واعلم انه تعالى لما حكى عن المشركين أنهم أمروا الرسول بعبادة الاصنام ثم انه تعالى أقام الدلائل على فساد قولهم وأمر الرسول بأن يعبد الله ولا يعبد شيأ آخر سواه بين انهم لو عرفوا الله حق معرفته لما جعلوا هذه الاشياء الخسيسة مشاركة له فى المعبودية فقال وما قدروا الله حق قدره وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج بعض الناس بهذه الآية على ان الخلق لا يعرفون حقيقة الله قالوا لان قوله وما قدروا الله حق قدره يفيد هذا المعنى الا انا ذكرنا ان هذا صفة حال الكفار فلا يلزم من وصف الكفار بأنهم ما قدروا الله حق قدره وصف المؤمنين بذلك فسقط هذا الكلام (المسئلة الثانية) قوله وما قدروا الله حق قدره أى ما عظموه حق تعظيمه وهذه الآية مذكورة فى سور ثلاثة فى سورة الانعام وفى سورة الحج وفى هذه السورة واعلم انه تعالى لما بين انهم ما عظموه تعظيما لائقا به أردفه بما يدل على كمال عظمته ونهاية جلالته فقال والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه قال القفال وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة كقول القائل وما قدرتنى حق قدرى وأنا الذى فعلت كذا وكذا أى لما عرفت ان حالى وصفتى هذا الذى ذكرت فوجب أن لا تحطنى عن قدرى ومنزلتى ونظيره قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم أى كيف تكفرون بمن هذا وصفه وحال ملكه فكذا ههنا والمعنى وما قدروا الله حق قدره اذ زعموا ان له شركاء وانه لا يقدر على احياء الموتى مع ان الارض والسموات فى قبضته وقدرته قال صاحب الكشاف الغرض من هذا الكلام اذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين الى جهة حقيقة أو جهة مجاز وكذلك ما روى ان يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله عليه

وسلم

لامر بدعليه ولم يبق له عليه الصلاة والسلام بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله عز وجل والاستغراق فى مراقبته غير مبال بهم ضلوا أم رشدوا اصلحوا أو فسدوا ليحملهم ذلك على أن يهتموا بامور أنفسهم ولا يتوهموا من شدة اعتنائه عليه الصلاة والسلام بامر دعوتهم أنه عليه الصلاة والسلام يظهر لهم ما يلجئهم الى الايمان لا محالة ويشتغلوا بتدارك أحوالهم ويتوجهوا نحو التدبر فيما شاهدوه من الآيات الباهرة والبلدة هى مكة المعظمة وتخصيصها بالاضافة لتفخيم شأنها واجلال مكانها والتعرض لتحريمه تعالى اياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم اثر تعظيم مع ما فيه من الاشعار بعلة الامر وموجب الامتثال به كما فى قوله تعالى فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ومن الرمز الى غاية شناعة ما فعلوا فيها ألا يرى انهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها باختلاء خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها وارادة الالحاد فيها بوجه من الوجوه قد استمروا فيها على تعاطى أفجر أفراد الفجور وأشنع آحاد الالحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الاوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله أنى يؤفكون وقرئ حرمها بالتخفيف وقوله تعالى (وله كل شئ) أى خلقا وملكا وتصرفا من غير أن يشاركه شئ فى شئ من ذلك تحقيق للحق وتنبيه على أن افراد مكة بالاضافة لما ذكر من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات (وأمرت أن أكون من المسلمين) أى أثبت على ما كنت عليه من كونى من جملة الثابتين على ملة

وسلم فقال يا أبا القاسم ان الله يمسك السموات يوم القيامة على اصبع والارضين على اصبع والجبال على اصبع والشجر على اصبع والثرى على اصبع وسائر الخلق على اصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبا مما قال قال صاحب الكشاف وانما ضحك أفصح العرب لانه لم يفهم منه الاما يفهمه علماء البيان من غير تصور امساك ولا أصبع ولا هز ولا شئ من ذلك ولكن فهمه وقع أول كل شئ وآخره على الزبدة والخلاصة التى هى الدلالة على القدرة الباهرة وان الافعال العظام التى تتحير فيها الاوهام ولا تكتنهها الاذهان هينة عليه قال ولا نرى بابا فى علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب فيقال له هل تسلم ان الاصل فى الكلام حمله على الحقيقة وانه انما يعدل عن الحقيقة الى المجاز عند قيام الدلالة على ان حمله على حقيقته ممتنع فحينئذ يجب حمله على المجاز فان أنكر هذا الاصل فحينئذ يخرج القرآن بالكلية عن أن يكون حجة فان لكل أحد أن يقول المقصود من الآية الفلانية كذا وكذا فأنا أحمل الآية على ذلك المقصود ولا ألتفت الى الظواهر مثاله من تمسك بالآيات الواردة فى ثواب أهل الجنة وعقاب أهل النار قال المقصود بيان سعادات المطيعين وشقاوة المذنبين وأنا أحمل هذه الآيات على هذا المقصود ولا أثبت الاكل والشرب ولا سائر الاحوال الجسمانية ومن تمسك بالآيات الواردة فى اثبات وجوب الصلاة فقال المقصود منه ايجاب تنوير القلب بذكر الله فأنا أكتفى بهذا القدر ولا أوجب هذه الاعمال المخصوصة واذا عرفت الكلام فى هذين المثالين فقس عليه سائر المسائل الاصولية والفروعية وحينئذ يخرج القرآن عن أن يكون حجة فى المسائل الاصولية والفروعية وذلك باطل قطعا وأما ان سلم ان الاصل فى علم القرآن أن يعتقد أن الاصل فى الكلام حمله على حقيقته فان قام دليل منفصل على انه يتعذر حمله على حقيقته فحينئذ يتعين صرفه الى مجازه فان حصلت هناك مجازات لم يتعين صرفه الى مجاز معين الا اذا كان الدليل يوجب ذلك التعيين فنقول ههنا لفظ القبضة ولفظ اليمين حقيقة فى الجارحة المخصوصة ولا يمكنك ان تصرف ظاهر الكلام عن هذا المعنى الا اذا أقمت الدلالة على ان حمل هذه الالفاظ على ظواهرها ممتنع فحينئذ يجب حملها على المجازات ثم تبين بالدليل ان المعنى الفلانى يصح جعله مجازا عن تلك الحقيقة ثم تبين بالدليل أن هذا المجاز أولى من غيره واذا ثبتت هذه المقدمات وترتيبها على هذا الوجه فهذا هو الطريق الصحيح الذى عليه تعويل أهل التحقيق فأنت ما أتيت فى هذا الباب بطريقة جديدة وكلام غريب بل هو عين ما ذكره أهل التحقيق فثبت أن الفرح الذى أظهره من أنه اهتدى الى الطريق الذى لم يعرفه غيره طريق فاسد دال على قلة وقوفه على المعانى ولنرجع الى الطريق الحقيقى فنقول لاشك ان لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الاعضاء والجوارح الا ان الدلائل العقلية قامت على امتناع ثبوت الاعضاء والجوارح لله تعالى فوجب حمل هذه الاعضاء على وجوه المجاز فنقول انه يقال فلان فى قبضة فلان اذا كان تحت تدبيره وتسخيره قال تعالى الا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم والمراد منه كونه مملوكا له ويقال هذه الدار فى يد فلان وفلان صاحب اليد والمراد من الكل القدرة والفقهاء يقولون فى الشروط وقبض فلان كذا وصار فى قبضته ولا يريدون الا خلوص ملكه واذا ثبت تعذر حمل هذه الالفاظ على حقائقها وجب حملها على مجازاتها صونا لهذه النصوص عن التعطيل فهذا هو الكلام الحقيقى فى هذا الباب ولنا كتاب مفرد فى اثبات تنزيه الله تعالى عن الجسمية والمكان سميناه بتأسيس التقديس من أراد الاطناب فى هذا الباب فليرجع اليه (المسئلة الثالثة) فى تفسير ألفاظ الآية قوله والارض المراد منه الارضون السبع ويدل عليه وجوه (الاول) قوله جميعا فان هذا التأكيد لا يحسن ادخاله الا على الجمع ونظيره قوله كل الطعام وقوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء وقوله تعالى والنخل باسقات وقوله تعالى ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فان هذه الالفاظ الملحقة باللفظ المفرد تدل على أن المراد منه الجمع فكذا ههنا (والثانى) انه قال والسموات مطويات فوجب أن يكون المراد بالارض الارضون (الثالث) أن الموضع موضع تعظيم وتفخيم فهذا مقتضى المبالغة وأما القبضة فهى المرة الواحدة من القبض قال تعالى فقبضت قبضة من أثر الرسول والقبضة بالضم المقدار المقبوض بالكف ويقال أيضا أعطنى قبضة من كذا يريد معنى القبضة

الاسلام والتوحيد أى الذين أسلموا وجوههم لله خالصة من قوله تعالى ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله (وأن أتلو القرآن) أى أواظب على تلاوته لتنكشف لى حقائقه الرائعة المخزونة فى تضاعيفه شيأ فشيأ أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الارشاد فيكون ذلك تنبيها على كفايته فى الهداية والارشاد من غير حاجة الى اظهار معجزة أخرى فمعنى قوله تعالى (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه) حينئذ فمن اهتدى بالايمان به والعمل بما فيه من الشرائع والاحكام وعلى الاول فمن اهتدى باتباعه اياى فيما ذكر من العبادة والاسلام وتلاوة القرآن فانما منافع اهتدائه عائدة اليه لا الى (ومن ضل) بالكفر به والاعراض عن العمل بما فيه أو بمخالفتى فيما ذكر (فقل) فى حقه (انما أنا من المنذرين) وقد خرجت عن عهدة الانذار فليس على من وبال ضلاله شئ وانما هو عليه فقط (وقل الحمد لله) أى على ما أفاض على من نعمائه التى أجلها نعمة النبوة المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقنى لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها الى كافة الورى بالآيات البينة والبراهين النيرة وقوله تعالى (سيريكم آياته) من جملة الكلام المأمور به أى سيريكم البتة فى الدنيا آياته الباهرة التى نطق بها القرآن كخروج الدابة وسائر الاشراط وقد عد منها وقعة بدر ويأباه قوله تعالى (فتعرفونها) أى فتعرفون أنها آيات الله تعالى حين لا تنفعكم المعرفة لانهم لا يعترفون بكون وقعة بدر كذلك وقيل سيريكم فى الآخرة وقوله تعالى (وما ربك بغافل عما تعملون) كلام مسوق من جهته تعالى

تسمية بالمصدر والمعنى والارضون جميعا قبضته أى ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة من قبضاته يعنى أن الارضين مع مالها من العظمة والبسطة لا يبلغن الا قبضة واحدة من قبضاته أما اذا أريد معنى القبضة فظاهر لان المعنى ان الارضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة فان قيل ما وجه قراءة من قرأ قبضته بالنصب قلنا جعل القبضة ظرفا وقوله مطويات من الطى الذى هو ضد النشر كما قال تعالى يوم نطوى السماء كطى السجل وعادة طاوى السجل أن يطويه بيمينه ثم قال صاحب الكشاف وقيل قبضته ملكه ويمينه قدرته وقيل مطويات بيمينه أى مفنيات بقسمه لانه أقسم أن يفنيها ولما ذكر هذه الوجوه عاد الى القول الاول بأنها وجوه ركيكة وان حمل هذا الكلام على محض التمثيل أولى وبالغ فى تقرير هذا الكلام فأطنب وأقول ان حال هذا الرجل فى اقدامه على تحسين طريقته وتقبيح طريقة القدماء عجيب جدا فانه ان كان مذهبه انه يجوز ترك ظاهر اللفظ والمصير الى المجاز من غير دليل فهذا طعن فى القرآن واخراج له عن ان يكون حجة فى شئ وان كان مذهبه أن الاصل فى الكلام الحقيقة وانه لا يجوز العدول عنه الا لدليل منفصل فهذا هو الطريقة التى أطبق عليها جمهور المتقدمين فأين الكلام الذى يزعم انه علمه وأين العلم الذى لم يعرفه غيره مع انه وقع فى التأويلات العسرة والكلمات الركيكة فان قالوا المراد انه لما دل الدليل على انه ليس المراد من لفظ القبضة واليمين هذه الاعضاء وجب علينا أن نكتفى بهذا القدر ولا نشتغل لتعيين المراد بل نفوض علمه الى الله تعالى فنقول هذا هو طريق الموحدين الذين يقولون انا نعلم انه ليس مراد الله من هذه الالفاظ هذه الاعضاء فأما تعيين المراد فانا نفوض ذلك العلم الى الله تعالى وهذا هو طريقة السلف المعرضين عن التأويلات فثبت ان هذه التأويلات التى أتى بها هذا الرجل ليس تحتها شئ من الفائدة أصلا والله أعلم واعلم أنه تعالى لما بين عظمته من الوجه الذى تقدم قال سبحانه وتعالى عما يشركون يعنى ان هذا القادر القاهر العظيم الذى حارت العقول والالباب فى وصف عظمته تنزه وتقدس عن أن تجعل الاصنام شركاء له فى المعبودية فان قيل السؤال على هذا الكلام من وجوه (الاول) ان العرش أعظم من السموات السبع والارضين السبع ثم انه قال فى صفة العرش ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية واذا وصف الملائكة بكونهم حاملين العرش العظيم فكيف يجوز تقدير عظمة الله بكونه حاملا للسموات والارض (السؤال الثانى) ان قوله والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه شرح حالة لا تحصل الا فى يوم القيامة والقوم ما شاهدوا ذلك فان كان هذا الخطاب مع المصدقين للانبياء فهم يكونون معترفين بأنه لا يجوز القول بجعل الاصنام شركاء لله تعالى فلا فائدة فى ايراد هذه الحجة عليهم وان كان هذا الخطاب مع المكذبين بالنبوة وهم ينكرون قوله والارض جميعا قبضته يوم القيامة فكيف يمكن الاستدلال به على ابطال القول بالشرك (السؤال الثالث) حاصل القول فى القبضة واليمين هو القدرة الكاملة الوافية بحفظ هذه الاجسام العظيمة وكما ان حفظها وامساكها يوم القيامة ليس الا بقدرة الله فكذلك الآن فما الفائدة فى تخصيص هذه الاحوال بيوم القيامة (والجواب عن الاول) أن مراتب التعظيم كثيرة فأولها تقرير عظمة الله بكونه قادرا على حفظ هذه الاجسام العظيمة ثم بعده تقرير عظمته بكونه قادرا على امساك أولئك الملائكة الذين يحملون العرش (والجواب عن السؤال الثانى) ان المقصود ان الحق سبحانه هو المتولى لابقاء السموات والارضين على وجوه العمارة فى هذا الوقت وهو المتولى لتخريبها وافنائها فى يوم القيامة فذلك يدل على حصول قدرة تامة على الايجاد والاعدام وتنبيه أيضا على كونه غنيا على الاطلاق فانه يدل على انه اذا حاول تخريب الارض فكأنه يقبض قبضة صغيرة ويريد افناءها وذلك يدل على كمال الاستغناء (والجواب عن السؤال الثالث) انه انما خصص تلك الحالة بيوم القيامة ليدل على أنه كما ظهر كمال قدرته فى الايجاد عند عمارة الدنيا فكذلك ظهر كمال قدرته عند خراب الدنيا والله أعلم واعلم انه تعالى لما قرر كمال عظمته بما سبق ذكره أردفه بذكر طريقة أخرى تدل أيضا على كمال قدرته وعظمته وذلك شرح مقدمات يوم القيامة لان نفخ الصور يكون قبل ذلك اليوم فقال ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون واختلفوا فى الصعقة منهم من قال انها غير الموت بدليل قوله تعالى

بطريق التذييل مقرر لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبئ عنه اضافة الرب الى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام وتخصيص الخطاب أولا به عليه الصلاة والسلام وتعميمه ثانيا للكفرة تغليبا أى وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيآت فيجازى كلا منكم بعمله لا محالة وقرئ عما يعملون على الغيبة فهو وعيد محض والمعنى وما ربك بغافل عن أعمالهم فيعذبهم البتة فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم الموجبة له والله تعالى أعلم * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طس كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بسليمان وهود وصالح وابراهيم وشعيب عليهم الصلاة والسلام ومن كذب بهم ويخرج من قبره وهو ينادى لا اله الا الله

﴿سورة القصص مكية وقيل الا قوله الذين آتيناهم الكتاب الى قوله الجاهلين وهى ثمان وثمانون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(طسم تلك آيات الكتاب المبين) قد مر ما يتعلق به من الكلام بالاجمال والتفصيل فى أشباهه (نتلو عليك) أى نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام ويجوز أن تكون التلاوة مجازا من التنزيل (من نبأ موسى وفرعون) مفعول نتلو أى بعض نبئهما (بالحق) متعلق بمحذوف هو حال من فاعل نتلو أو من مفعوله أو صفة لمصدره أى نتلو عليك بعض نبئهما ملتبسين أو ملتبسا بالحق أو تلاوة ملتبسة بالحق (لقوم يؤمنون)

فى موسى عليه السلام وخر موسى صعقا مع انه لم يمت فهذا هو النفخ الذى يورث الفزع الشديد وعلى هذا التقدير فالمراد من نفخ الصعقة ومن نفخ الفزع واحد وهو المذكور فى سورة النمل فى قوله ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض وعلى هذا القول فنفخ الصور ليس الا مرتين (والقول الثانى) ان الصعقة عبارة عن الموت والقائلون بهذا القول قالوا انهم يموتون من الفزع وشدة الصوت وعلى هذا التقدير فالنفخة تحصل ثلاث مرات (أولها) نفخة الفزع وهى المذكورة فى سورة النمل (والثانية) نفخة الصعق (والثالثة) نفخة القيام وهما مذكورتان فى هذه السورة وأما قوله الا من شاء الله ففيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما عند نفخة الصعق يموت من فى السموات ومن فى الارض الا جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت ثم يميت الله ميكائيل واسرافيل ويبقى جبريل وملك الموت ثم يميت جبريل (والقول الثانى) انهم هم الشهداء لقوله تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش (القول الثالث) قال جابر هذا المستثنى هو موسى عليه السلام لانه صعق مرة فلا يصعق ثانيا (القول الرابع) انهم الحور العين وسكان العرش والكرسى (والقول الخامس) قال قتادة الله أعلم بأنهم من هم وليس فى القرآن والاخبار ما يدل على انهم من هم ثم قال تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وفيه ابحاث (الاول) لفظ القرآن دل على أن هذه النفخة متأخرة عن النفخة الاولى لان لفظ ثم يفيد التراخى قال الحسن رحمه الله القرآن دل على ان هذه النفخة متأخرة عن النفخة الاولى وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن بينهما أربعين ولا أدرى أربعون يوما أو شهرا أو أربعون سنة أو أربعون ألف سنة (البحث الثانى) قوله أخرى تقدير الكلام ونفخ فى الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه نفخة أخرى وانما حسن الحذف لدلالة أخرى عليها ولكونها معلومة (الثالث) قوله فاذا هم قيام يعنى قيامهم من القبور يحصل عقيب هذه النفخة الاخيرة فى الحال من غير تراخ لان الفاء فى قوله فاذا هم تدل على التعقيب (الرابع) قوله ينظرون وفيه وجهان (الاول) ينظرون يقلبون أبصارهم فى الجهات نظر المبهوت اذا فاجأه خطب عظيم (والثانى) ينظرون ماذا يفعل بهم ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود فى مكان لاجل استيلاء الحيرة والدهشة عليهم ولما بين الله تعالى حال هاتين النفختين قال وأشرقت الارض بنور ربها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذه الارض المذكورة ليست هى هذه الارض التى يقعد عليها الآن بدليل قوله يوم تبدل الارض غير الارض وبدليل قوله تعالى وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة بل هى أرض أخرى يخلقها الله تعالى لمحفل يوم القيامة (المسئلة الثانية) قالت المجسمة ان الله تعالى نور محض فاذا حضر الله فى تلك الارض لاجل القضاء بين عباده أشرقت تلك الارض بنور الله وأكدوا هذا بقوله تعالى الله نور السموات والارض واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه (الاول) أنا بينا فى تفسير قوله تعالى الله نور السموات والارض انه لا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نورا بمعنى كونه من جنس هذه الانوار المشاهدة وبينا أنه لما تعذر حمل الكلام على الحقيقة وجب حمل لفظ النور ههنا على العدل فنحتاج ههنا الى بيان أن لفظ النور قد يستعمل فى هذا المعنى ثم الى بيان أن المراد من لفظ النور ههنا ليس الا هذا المعنى أما بيان الاستعمال فهو ان الناس يقولون للملك العادل أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك كما يقولون أظلمت البلاد بجورك وقال صلى الله عليه وسلم الظلم ظلمات يوم القيامة وأما بيان أن المراد من النور ههنا العدل فقط أنه قال وجىء بالنبيين والشهداء ومعلوم أن المجىء بالشهداء ليس الا لاظهار العدل وأيضا قال فى آخر الآية وهم لا يظلمون فدل هذا على أن المراد من ذلك النور ازالة ذلك الظلم فكأنه تعالى فتح هذه الآية باثبات العدل وختمها بنفى الظلم (والوجه الثانى فى الجواب عن الشبهة المذكورة) ان قوله تعالى وأشرقت الارض بنور ربها يدل على انه يحصل هناك نور مضاف الى الله تعالى ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى لانه يكفى فى صدق الاضافة أدنى سبب فلما كان ذلك النور من خلق الله وشرفه بأن أضافه الى نفسه كان ذلك النور نور الله كقوله بيت الله وناقة الله وهذا الجواب أقوى من الاول لان فى هذا الجواب لا يحتاج الى ترك الحقيقة والذهاب الى المجاز (والوجه الثالث) انه قد يقال فلان رب هذه الارض

متعلق بنتلو وتخصيصهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكل لانهم المنتفعون به (ان فرعون علا فى الارض) استئناف جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده أى انه تجبر وطغا فى أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة فى الظلم والعدوان (وجعل أهلها شيعا) أى فرقا يشيعونه فى كل ما يريده من الشر والفساد أو يشيع بعضهم بعضا فى طاعته أو اصنافا فى استخدامه يستعمل كل صنف فى عمل ويسخره فيه من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الاعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم (يستضعف طائفة منهم) وهم بنو اسرائيل والجملة اما حال من فاعل جعل أو صفة لشيعا أو استئناف وقوله تعالى (يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم) بدل منها وكان ذلك لما أن كاهنا قال له يولد فى بنى اسرائيل مولود يذهب ملكك على يده وما ذاك الا لغاية حمقه اذ لو صدق فما فائدة القتل وان كذب فما وجهه (انه كان من المفسدين) أى الراسخين فى الافساد ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة من قتل المعصومين من أولاد الانبياء عليهم الصلاة والسلام (ونريد أن نمن) أى نتفضل (على الذين استضعفوا فى الارض) على الوجه المذكور بانجائهم من بأسه وصيغة المضارع فى نريد حكاية حال ماضية وهو معطوف على أن فرعون علا الخ لتناسبهما فى الوقوع فى حيز التفسير للنبا أو حال من يستضعف بتقدير المبتدا أى يستضعفهم

ورب هذه الدار ورب هذه الجارية ولا يبعد أن يكون رب تلك الارض ملكا من الملوك وعلى هذا التقدير فلا يمتنع كونه نورا (المسئلة الثالثة) انه تعالى ذكر فى هذه الآية من أحوال ذلك اليوم أشياء (أولها) قوله وأشرقت الارض بنور ربها وقد سبق الكلام فيه (وثانيها) قوله ووضع الكتاب وفى المراد بالكتاب وجوه (الاول) انه اللوح المحفوظ الذى يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا الى وقت قيام القيامة (الثانى) المراد كتب الاعمال كما قال تعالى فى سورة سبحان وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا وقال أيضا فى آية أخرى مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها (وثالثها) قوله وجىء بالنبيين والمراد أن يكونوا شهداء على الناس قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم (ورابعها) قوله والشهداء والمراد ما قاله فى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس أو أراد بالشهداء المؤمنين وقال مقاتل يعنى الحفظة ويدل عليه قوله تعالى وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد وقيل أراد بالشهداء المستشهدين فى سبيل الله ولما بين الله تعالى انه يحضر فى محفل القيامة جميع ما يحتاج اليه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات بين تعالى أنه يوصل الى كل أحد حقه وعبر تعالى عن هذا المعنى بأربع عبارات (أولها) قوله تعالى وقضى بينهم بالحق (وثانيها) قوله وهم لا يظلمون (وثالثها) قوله ووفيت كل نفس ما عملت أى وفيت كل نفس جزاء ما عملت (ورابعها) قوله وهو أعلم بما يفعلون يعنى انه تعالى اذا لم يكن عالما بكيفيات أحوالهم فلعله لا يقضى بالحق لاجل عدم العلم أما اذا كان عالما بمقادير أفعالهم وبكيفياتها امتنع دخول الخطا فى ذلك الحكم فثبت أنه تعالى عبر عن هذا المقصود بهذه العبارات المختلفة والمقصود المبالغة فى تقرير أن كل مكلف فانه يصل الى حقه ﴿ قوله تعالى ﴿وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل القيامة على سبيل الاجمال فقال ووفيت كل نفس ما عملت بين بعده كيفية أحوال أهل العقاب ثم كيفية أحوال أهل الثواب وختم السورة أما شرح أحوال أهل العقاب فهو المذكور فى هذه الآية وهو قوله وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا قال ابن زيد ان سوق الذين كفروا الى جهنم يكون بالعنف والدفع والدليل عليه قوله تعالى يوم يدعون الى نار جهنم دعا أى يدفعون دفعا نظيره قوله تعالى فذلك الذى يدع اليتيم أى يدفعه ويدل عليه أيضا قوله تعالى ونسوق المجرمين الى جهنم وردا وأما الزمر فهى الافواج المتفرقة بعض فى اثر بعض فبين الله تعالى انهم يساقون الى جهنم فاذا جاؤها فتحت أبوابها وهذا يدل على أن أبواب جهنم انما تفتح عند وصول أولئك اليها فاذا دخلوا جهنم قال لهم خزنة جهنم ألم يأتكم رسل منكم أى من جنسكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا فان قيل فلم أضيف اليوم اليهم قلنا أراد لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة واستعمال لفظ اليوم والايام فى أوقات الشدة مستفيض فعند هذا تقول الكفار بلى قد أتونا وتلوا علينا ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين وفى هذه الآية مسئلتان (المسئلة الاولى) تقدير الكلام انه حقت علينا كلمة العذاب ومن حقت عليه كلمة العذاب فكيف يمكنه الخلاص من العذاب وهذا صريح فى ان السعيد لا ينقلب شقيا والشقى لا ينقلب سعيدا وكلمات المعتزلة فى دفع هذا الكلام معلومة والجواب عنها أيضا معلومة (المسئلة الثانية) دلت الآية على انه لا وجوب قبل مجىء الشرع لان الملائكة بينوا أنه ما بقى لهم علة ولا عذر بعد مجىء الانبياء عليهم السلام ولو لم يكن مجىء الانبياء شرطا فى استحقاق العذاب لما بقى فى هذا الكلام فائدة ثم ان الملائكة اذا سمعوا منهم هذا الكلام قالوا لهم ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين قالت المعتزلة لو كان دخولهم فى النار لاجل انه حقت عليهم كلمة العذاب لم يبق لقول الملائكة فبئس مثوى المتكبرين فائدة بل هذا الكلام انما يبقى مفيدا اذا قلنا انهم انما دخلوا النار لانهم تكبروا على الانبياء ولم يقبلوا قولهم ولم يلتفتوا الى دلائلهم وذلك يدل على صحة قولنا والله أعلم بالصواب ﴿ قوله تعالى ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها

وقال

فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وليس من ضرورة مقارنة الارادة للاستضعاف مقارنة المراد له لما أن تعلق الارادة للمن تعلق استقبالى على أن منة الله تعالى عليهم بالخلاص لما كانت فى شرف الوقوع جاز اجراؤها مجرى الواقع المقارن له ووضع الموصول موضع الضمير لابانة قدر النعمة فى المنة بذكر حالتهم السابقة المباينة لها (ونجعلهم أئمة) يقتدى بهم فى أمور الدين بعد ان كانوا اتباعا مسخرين لآخرين (ونجعلهم الوارثين) لجميع ما كان منتظما فى سلك ملك فرعون وقومه ووراثة معهودة فيما بينهم كما ينبئ عنه تعريف الوارثين وتأخير ذكر وراثتهم له عن ذكر جعلهم أئمة مع تقدمها عليه زمانا لانحطاط رتبتها عن الامامة ولئلا ينفصل عنه ما بعده مع كونه من روادفه أعنى قوله تعالى (ونمكن لهم فى الارض) الخ أى نسلطهم على مصر والشام يتصرفون فيهما كيفما يشاؤن وأصل التمكين أن تجعل للشئ مكانا يتمكن فيه (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم) أى من أولئك المستضعفين (ما كانوا يحذرون) ويجتهدون فى دفعه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود منهم وقرئ يرى بالياء ورفع ما بعده على الفاعلية (وأوحينا الى أم موسى) بالهام أو رؤيا (أن ارضعيه) ما أمكنك اخفاؤه (فاذا خفت عليه) بان يحس به الجيران عند بكائه وينموا عليه (فألقيه فى اليم) فى البحر وهو النيل (ولا تخافى) عليه ضيعة بالغرق ولا شدة (ولا تحزنى انا رادوه اليك) عن قريب بحيث تأمنين عليه (وجاعلوه من المرسلين) والجملة

وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) اعلم انه تعالى لما شرح أحوال أهل العقاب فى الآية المتقدمة شرح أحوال أهل الثواب فى هذه الآية فقال وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا فان قيل السوق فى أهل النار للعذاب معقول لانهم لما أمروا بالذهاب الى موضع العذاب والشقاوة لابد وأن يساقوا اليه واما أهل الثواب فاذا أمروا بالذهاب الى موضع الكرامة والراحة والسعادة فأى حاجة فيه الى السوق والجواب من وجوه (الاول) ان المحبة والصداقة باقية بين المتقين يوم القيامة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين فاذا قيل لواحد منهم اذهب الى الجنة فيقول لا أدخلها حتى يدخلها أحبابى وأصدقائى فيتأخرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون الى أن يساقوا الى الجنة (والثانى) ان الذين اتقوا ربهم قد عبدوا الله تعالى لا للجنة ولا للنار فتصير شدة استغراقهم فى مشاهدة مواقف الجلال والجمال مانعة لهم عن الرغبة فى الجنة فلا جرم يحتاجون الى أن يساقوا الى الجنة (والثالث) ان النبى صلى الله عليه وسلم قال أكثر أهل الجنة البله وعليون للابرار فلهذا السبب يساقون الى الجنة (والرابع) ان أهل الجنة وأهل النار يساقون الا أن المراد بسوق أهل النار طردهم اليها بالهوان والعنف كما يفعل بالاسير اذا سيق الى الحبس والقيد والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لانه لا يذهب بهم الا راكبين والمراد بذلك السوق اسراعهم الى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على الملوك فشتان ما بين السوقين ثم قال تعالى حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها الآية واعلم أن جملة هذا الكلام شرط واحد مركب من قيود (القيد الاول) هو مجيئهم الى الجنة (والقيد الثانى) قوله تعالى وفتحت أبوابها فان قيل قال فى أهل النار فتحت أبوابها بغير الواو وقال ههنا بالواو فما الفرق قلنا الفرق ان أبواب جهنم لا تفتح الا عند دخول أهلها فيها فاما أبواب الجنة ففتحها يكون متقدما على وصولهم اليها بدليل قوله جنات عدن مفتحة لهم الابواب فلذلك جىء بالواو كانه قيل حتى اذا جاؤها وقد فتحت أبوابها (القيد الثالث) قوله وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين فبين تعالى أن خزنة الجنة يذكرون لاهل الثواب هذه الكلمات الثلاثة (فأولها) قولهم سلام عليكم وهذا يدل على انهم يبشرونهم بالسلامة من كل الآفات (وثانيها) قولهم طبتم والمعنى طبتم من دنس المعاصى وطهرتم من خبث الخطايا (وثالثها) قولهم فادخلوها خالدين والفاء فى قوله فادخلوها يدل على كون ذلك الدخول معللا بالطيب والطهارة قالت المعتزلة هذا يدل على ان أحدا لا يدخلها الا اذا كان طاهرا عن كل المعاصى قلنا هذا ضعيف لانه تعالى يبدل سيآتهم حسنات وحينئذ يصيرون طيبين طاهرين بفضل الله تعالى فان قيل فهذا الذى تقدم ذكره هو الشرط فاين الجواب قلنا فيه وجهان (الاول) ان الجواب محذوف والمقصود من الحذف ان يدل على انه بلغ فى الكمال الى حيث لا يمكن ذكره (الثانى) ان الجواب هو قوله تعالى وقال لهم خزنتها سلام عليكم والواو محذوف والصحيح هو الاول ثم أخبر الله تعالى بأن الملائكة اذا خاطبوا المتقين بهذه الكلمات قال المتقون عند ذلك الحمد لله الذى صدقنا وعده فى قوله أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون وأورثنا الارض والمراد بالارض أرض الجنة وانما عبر عنه بالارث لوجوه (الاول) ان الجنة كانت فى أول الامر لآدم عليه السلام لانه تعالى قال فكلا منها رغدا حيث شئتما فلما عادت الجنة الى أولاد آدم كان ذلك سببا لتسميتها بالارث (الثانى) ان هذا اللفظ مأخوذ من قول القائل هذا أورث كذا وهذا العمل أورث كذا فلما كانت طاعتهم قد أفادتهم الجنة لا جرم قالوا وأورثنا الارض والمعنى ان الله تعالى أورثنا الجنة بأن وفقنا للاتيان بأعمال أورثت الجنة (الثالث) ان الوارث يتصرف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ولا مدافع فكذلك المؤمنون المتقون يتصرفون فى الجنة كيف شاؤا وأرادوا والمشابهة علة حسن المجاز فان قيل ما معنى قوله حيث نشاء وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره قلنا يكون لكل أحد جنة لا يحتاج معها الى جنة غيره قال حكماء الاسلام الجنات نوعان الجنات الجسمانية والجنات الروحانية فالجنات الجسمانية لا تحتمل المشاركة فيها أما الروحانيات

تعليل للنهى عن الخوف والحزن وايثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أى انا فاعلون لرده وجعله من المرسلين لا محالة روى أن بعض القوابل الموكلات من قبل فرعون بحبالى بنى اسرائيل كانت مصافية لام موسى عليه السلام فقالت لها لينفعنى حبك اليوم فعالجتها فلما وقع الى الارض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه فى قلبها ثم قالت ما جئتك الا لاقبل مولودك وأخبر فرعون ولكنى وجدت لابنك فى قلبى محبة ما وجدت مثلها لاحد فاحفظيه فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته فى خرقة فألقته فى تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيأ فخرجوا وهى لا تدرى مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فلما ألح فرعون فى طلب الولدان أوحى الله تعالى اليها ما أوحى وقد روى انها أرضعته ثلاثة أشهر فى تابوت من بردى مطلى بالقار من داخله والفاء فى قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون) فصيحة مفصحة عن عطفه على جملة مترتبة على ما قبلها من الامر بالالقاء قد حذفت تعويلا على دلالة الحال وايذانا بكمال سرعة الامتثال أى فألقته فى اليم بعد ما جعلته فى التابوت حسبما أمرت به فالتقطه آل فرعون أى أخذوه أخذ اعتناء به وصيانة له عن الضياع قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس اليه وكان بها برص شديد عجزت الاطباء عن علاجه فقالوا لا تبرأ الا من قبل البحر يؤخذ

بحصولها الواحد لا يمنع من حصولها للآخرين ولما بين الله تعالى صفة أهل الجنة قال فنعم أجر العاملين قال مقاتل ليس هذا من كلام أهل الجنة بل من كلام الله تعالى لانه لما حكى ما جرى بين الملائكة وبين المتقين من صفة ثواب أهل الجنة قال بعده فنعم أجر العاملين ولما قال تعالى وترى الملائكة حافين من حول العرش ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال كما ان دار ثواب المتقين المؤمنين هي الجنة فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش واطرافه فلهذا قال وترى الملائكة حافين من حول العرش أي محدقين بالعرش قال الليث يقال حف القوم بسيدهم يحفون حفا اذا طافوا به اذا عرفت هذا فنقول بين تعالى ان دار ثوابهم هو جوانب العرش وأطرافه ثم قال يسبحون بحمد ربهم وهذا مشعر بأن ثوابهم هو عين ذلك التحميد والتسبيح وحينئذ رجع حاصل الكلام الى أن أعظم درجات الثواب استغراق قلوب العباد في درجات التنزيه ومنازل التقديس ثم قال وقضي بينهم بالحق والمعنى انهم على درجات مختلفة ومراتب متفاوتة فلكل واحد منهم في درجات المعرفة والطاعة حد محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه وهو المراد من قوله وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين أي الملائكة لما قضي بينهم بالحق قالوا الحمد لله رب العالمين على قضائه بيننا بالحق وههنا دقيقة أعلى مما سبق وهي انه سبحانه لما قضى بينهم بالحق فهم ما حمدوه لاجل ذلك القضاء بل حمدوه بصفته الواجبة وهي كونه ربا للعالمين فان من حمد المنعم لاجل أن انعامه وصل اليه فهو في الحقيقة ما حمد المنعم وانما حمد الانعام وأما من حمد المنعم لا لانه وصل اليه النعمة فههنا قد وصل الى لجة بحر التوحيد هذا اذا قلنا ان قوله وترى الملائكة حافين من حول العرش شرح أحوال الملائكة في الثواب أما اذا قلنا انه من بقية شرح ثواب المؤمنين فتقريره أن يقال ان المتقين لما قالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فقد ظهر منهم انهم في الجنة اشتغلوا بحمد الله وبذكره بالمدح والثناء فبين تعالى انه كما ان حرفة المتقين في الجنة الاشتغال بهذا التحميد والتمجيد فكذلك حرفة الملائكة الذين هم حافون حول العرش الاشتغال بالتحميد والتسبيح ثم ان جوانب العرش ملاصقة لجوانب الجنة وحينئذ يظهر منه أن المؤمنين المتقين وان الملائكة المقربين يصيرون متوافقين على الاستغراق في تحميد الله وتسبيحه فكان ذلك سببا لمزيد التذاذهم بذلك التسبيح والتحميد ثم قال وقضي بينهم بالحق أي بين البشر ثم قال وقيل الحمد لله رب العالمين والمعنى انهم يقدمون التسبيح والمراد منه تنزيه الله عن كل ما لا يليق بالالهية وأما قوله تعالى وقيل الحمد لله رب العالمين فالمراد وصفه بصفات الالهية فالتسبيح عبارة عن الاعتراف بتنزيهه عن كل ما لا يليق به وهو صفات الجلال وقوله وقيل الحمد لله رب العالمين عبارة عن الاقرار بكونه موصوفا بصفات الالهية وهي صفات الاكرام ومجموعهما هو المذكور في قوله تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام وهو الذي كانت الملائكة يذكرونه قبل خلق العالم وهو قولهم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك وفي قوله وقيل الحمد لله رب العالمين دقيقة أخرى وهي انه لم يبين ان ذلك القائل من هو والمقصود من هذا الابهام التنبيه على ان خاتمة كلام العقلاء في الثناء على حضرة ذي الجلال والكبرياء ليس الا ان يقولوا الحمد لله رب العالمين وتأكد هذا بقوله تعالى في صفة أهل الجنة وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين * قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة في ليلة الثلاثاء آخر ذي القعدة من سنة ثلاث وستمائة يقول مصنف هذا الكتاب الملائكة المقربون عجزوا عن احصاء ثنائك فمن أنا والانبياء المرسلون اعترفوا بالعجز والقصور فمن أنا وليس معي الا أن أقول أنت أنت وأنا أنا فمنك الرحمة والفضل والجود والاحسان ومني العجز والذلة والخيبة والخسران يا رحمن يا ديان يا حنان يا منان أفض على سجال الرحمة والغفران برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين وسلم تسليما كثيرا

﴿سورة المؤمن ثمانون وخمس آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا

منه شبه الأنس يوم كذا وساعة كذا من شهر كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون في مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف الصديق عليه السلام وقيل كانت من بني اسرائيل من سبط موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كانت عمته حكاه السهيلي وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على شاطئ النيل فاذا بتابوت في النيل تضربه الامواج فتعلق بشجرة فقال فرعون ائتوني به فابتدروا بالسفن فاحضروه بين يديه فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه وقصدوا كسره فاعياهم فنظرت آسية فرأت نورا في جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته ففتحته فاذا هي بصبي صغير في مهده واذا نور بين عينيه وهو يمص ابهامه لبنا فالقى الله تعالى محبته في قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون الى ريقه فلطخت به برصها فبرأت من ساعتها وقيل لما نظرت الى وجهه برأت فقالت الغواة من قوم فرعون انا نظن أن هذا هو الذي نحذر منه رمي في البحر فرقا منك فاقتله فهم فرعون بقتله فاستوهبته آسية فتركه كما سيأتي واللام في قوله تعالى (ليكون لهم عدوا وحزنا) لام العاقبة ابرز مدخولها في معرض العلة لالتقاطهم تشبيها له في الترتب عليه بالغرض الحامل عليه وقرئ حزنا وهما لغتان كالسقم والسقم جعل عليه الصلاة والسلام نفس الحزن ايذانا بقوة سببيته لحزنهم (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) أي

هو اليه المصير ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا انهم أصحاب النار﴾ اعلم أن فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم فى رواية أبى بكر وحمزة والكسائى حم بكسر الحاء والباقون بفتح الحاء ونافع فى بعض الروايات وابن عامر بين الفتح والكسر وهو أن لا يفتحها فتحا شديدا قال صاحب الكشاف قرئ بفتح الميم وتسكينها ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وايثار أخف الحركات نحو أين وكيف أو النصب باضمار اقرأ ومنع الصرف اما للتأنيث والتعريف من حيث انها اسم للسورة أو للتعريف وانها على زنة أعجمى نحو قابيل وهابيل واما السكون فلانا بينا أن الاسماء المجردة تذكر موقوفة الاواخر (المسئلة الثانية) الكلام المستقصى فى هذه الفواتح مذكور فى أول سورة البقرة والاقرب ههنا أن يقال حم اسم للسورة فقوله حم مبتدأ وقوله تنزيل الكتاب من الله خبره والتقدير ان هذه السورة المسماة بحم تنزيل الكتاب فقوله تنزيل مصدر لكن المراد منه المنزل وأما قوله من الله فاعلم أنه لما ذكر أن حم تنزيل الكتاب وجب بيان أن المنزل من هو فقال من الله ثم بين ان الله تعالى موصوف بصفات الجلال وسمات العظمة ليصير ذلك حاملا على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع وزجره عن التهاون والتوانى فيه فبين أن المنزل هو الله العزيز العليم واعلم ان الناس اختلفوا فى ان العلم بالله ما هو فقال جمع عظيم انه العلم بكونه قادرا وبعده العلم بكونه عالما اذا عرفت هذا فنقول العزيز له تفسيران (أحدهما) الغالب فيكون معناه القادر الذى لا يساويه أحد فى القدرة (والثانى) الذى لا مثل له ولا يجوز أن يكون المراد بالعزيز ههنا القادر لان قوله تعالى الله يدل على كونه قادرا فوجب حمل العزيز على المعنى الثانى وهو الذى لا يوجد له مثل وما كان كذلك وجب أن لا يكون جسما والذى لا يكون جسما يكون منزها عن الشهوة والنفرة والذى يكون كذلك يكون منزها عن الحاجة واما العليم فهو مبالغة فى العلم والمبالغة التامة انما تتحقق عند كونه تعالى عالما بكل المعلومات فقوله من الله العزيز العليم يرجع معناه الى أن هذا الكتاب تنزيل من القادر المطلق الغنى المطلق العالم المطلق ومن كان كذلك كان عالما بوجوه المصالح والمفاسد وكان عالما بكونه غنيا عن جر المصالح ودفع المفاسد ومن كان كذلك كان رحيما جوادا وكانت أفعاله حكمة وصوابا منزهة عن القبيح والباطل فكأنه سبحانه انما ذكر عقيب قوله تنزيل هذه الاسماء الثلاثة لكونها دالة على أن افعاله سبحانه حكمة وصواب ومتى كان الامر كذلك لزم أن يكون هذا التنزيل حقا وصوابا وقيل الفائدة فى ذكر العزيز العليم أمران (أحدهما) انه بقدرته وعلمه أنزل القرآن على هذا الحد الذى يتضمن المصالح والاعجاز ولولا كونه عزيزا عليما لما صح ذلك (والثانى) أنه تكفل بحفظه وبعموم التكليف فيه وظهوره الى حين انقطاع التكليف وذلك لا يتم الا بكونه عزيزا لا يغلب وبكونه عليما لا يخفى عليه شئ ثم وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد والترهيب والترغيب فقال غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير فهذه ستة أنواع من الصفات (الصفة الاولى) قوله غافر الذنب قال الجبائى معناه انه غافر الذنب اذا استحق غفرانه اما بتوبة أو طاعة أعظم منه ومراده منه أن فاعل المعصية اما أن يقال انه كان قد أتى قبل ذلك بطاعة كان ثوابها أعظم من عقاب هذه المعصية أو ما كان الامر كذلك فان كان الاول كانت هذه المعصية صغيرة فيحبط عقابها وان كان الثانى كانت هذه المعصية كبيرة فلا يزول عقابها الا بالتوبة ومذهب أصحابنا ان الله تعالى قد يعفو عن الكبائر بدون التوبة وهذه الآية تدل على ذلك وبيانه من وجوه (الاول) ان غفران الكبيرة بعد التوبة وغفران الصغيرة من الامور الواجبة على العبد وجميع الانبياء والاولياء والصالحين من أوساط الناس مشتركون فى فعل الواجبات فلو حملنا كونه تعالى غافر الذنب على هذا المعنى لم يبق بينه وبين أقل الناس من زمرة المطيعين فرق فى المعنى الموجب لهذا المدح وذلك باطل فثبت انه يجب ان يكون المراد منه كونه غافر الكبائر قبل التوبة وهو المطلوب (الثانى) أن الغفران عبارة عن الستر ومعنى الستر انما يعقل فى الشئ الذى يكون باقيا موجودا فيستر والصغيرة تحبط بسبب كثرة ثواب فاعلها فمعنى الغفر فيها غير معقول ولا يمكن حمل قوله غافر

فى كل ما يأتون وما يذرون فلا غرو فى أن قتلوا لاجله ألوفا ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون روى أنه ذبح فى طلبه عليه الصلاة والسلام تسعون ألف وليد أو كانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بان ربى عدوهم على أيديهم فالجملة اعتراضية لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به وقرئ خاطين على أنه تخفيف خاطئين أو على انه بمعنى متعدين الصواب الى الخطا (وقالت امرأة فرعون) أى لفرعون حين أخرجته من التابوت (قرة عين لى ولك) أى هو قرة عين لنا لما انهما لما رأياه أحباه أو لما ذكر من برء ابنته من البرص بريقه وفى الحديث انه قال لك لا لى ولو قال لى كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها (لا تقتلوه) خاطبته بلفظ الجمع تعظيما ليساعدها فيما تريده (عسى أن ينفعنا) فان فيه مخايل اليمن ودلائل النجابة وذلك لما رأت فيه من العلامات المذكورة (أو نتخذه ولدا) أى نتبناه فانه خليق بذلك (وهم لا يشعرون) حال من آل فرعون والتقدير فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأته كيت وكيت وهم لا يشعرون بانهم على خطا عظيم فيما صنعوا من الالتقاط ورجاء النفع منه والتبنى له وقوله تعالى ان فرعون الآية اعتراض وقع بين المعطوفين لتأكيد خطئهم وقيل حال من أحد ضميرى نتخذه على ان الضمير للناس أى وهم لا يعلمون انه لغيرنا وقد تبنيناه (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا) صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون كقوله تعالى وأفئدتهم هواء أى خلاء لا عقول فيها ويعضده أنه

الذنب على الكبيرة بعد التوبة لان معنى كونه قابلا للتوب ليس الا ذلك فلو كان المراد بكونه غافر الذنب هذا المعنى لزم التكرار وانه باطل فثبت ان كونه غافر الذنب يفيد كونه غافرا للذنوب الكبائر قبل التوبة (الثالث) ان قوله غافر الذنب مذكور فى معرض المدح العظيم فوجب حمله على ما يفيد أعظم أنواع المدح وذلك هو كونه غافرا للكبائر قبل التوبة وهو المطلوب (الصفة الثانية) قوله تعالى قابل التوب وفيه بحثان (الاول) فى لفظ التوب قولان (الاول) انه مصدر وهو قول أبى عبيدة (والثانى) انه جماعة التوبة وهو قول الاخفش قال المبرد يجوز أن يكون مصدرا يقال تاب يتوب توبا وتوبة مثل قال يقول قولا وقولة و يجوز أن يكون جمعا للتوبة فيكون توبة وتوب مثل تمرة وتمر الا أن المصدر أقرب لان على هذا التقدير يكون تأويله انه يقبل هذا الفعل (البحث الثانى) مذهب أصحابنا أن قبول التوبة من المذنب يقع على سبيل التفضل وليس بواجب على الله وقالت المعتزلة انه واجب على الله واحتج أصحابنا بانه تعالى ذكر كونه قابلا للتوب على سبيل المدح والثناء ولو كان ذلك من الواجبات لم يبق فيه من معنى المدح الا القليل وهو القدر الذى يحصل لجميع الصالحين عند اداء الواجبات والاحتراز عن المحظورات (الصفة الثالثة) قوله شديد العقاب وفيه مباحث (البحث الاول) فى هذه الآية سؤال وهو ان قوله شديد العقاب يصلح أن يكون نعتا للنكرة ولا يصلح أن يكون نعتا للمعرفة تقول مررت برجل شديد البطش ولا تقول مررت بعبد الله شديد البطش وقوله الله اسم علم فيكون معرفة فكيف يجوز وصفه بكونه شديد العقاب مع انه لا يصلح الا ان يجعل وصفا للنكرة قالوا وهذا بخلاف قولنا غافر الذنب وقابل التوب لانه ليس المراد منهما حدوث هذين الفعلين وانه يغفر الذنب و يقبل التوبة الآن أو غدا وانما أريد ثبوت ذلك ودوامه فكان حكمهما حكم اله الخلق ورب العرش وأما شديد العقاب فمشكل لانه فى تقدير شديد عقابه فيكون نكرة فلا يصح جعله صفة للمعرفة هذا تقرير السؤال وأجيب عنه بوجوه (الاول) ان هذه الصفة وان كانت نكرة الا انها لما ذكرت مع سائر الصفات التى هى معارف حسن ذكرها كما فى قوله وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد (والثانى) قال الزجاج ان خفض شديد العقاب على البدل لان جعل النكرة بدلا من المعرفة وبالعكس أمر جائز واعترضوا عليه بأن جعله وحده بدلا من الصفات فيه نبوة ظاهرة (الثالث) انه لا نزاع فى ان قوله غافر الذنب وقابل التوب يحسن جعلهما صفة وانما كان كذلك لانهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار فكذلك قوله شديد العقاب يفيد معنى الدوام والاستمرار لان صفات الله تعالى منزهة عن الحدوث والتجدد فكونه شديد العقاب معناه كونه بحيث يشتد عقابه وهذا المعنى حاصل أبدا وغير موصوف بأنه حصل بعد أن لم يكن كذلك فهذا ما قيل فى هذا الباب (البحث الثانى) هذه الآية مشعرة بترجيح جانب الرحمة والفضل لانه تعالى لما أراد أن يصف نفسه بأنه شديد العقاب ذكر قبله أمرين كل واحد منهما يقتضى زوال العقاب وهو كونه غافر الذنب وقابل التوب وذكر بعده ما يدل على حصول الرحمة العظيمة وهو قوله ذى الطول فكونه شديد العقاب لما كان مسبوقا بتينك الصفتين وملحوقا بهذه الصفة دل ذلك على أن جانب الرحمة والكرم أرجح (البحث الثالث) لقائل أن يقول ذكر الواو فى قوله غافر الذنب وقابل التوب ولم يذكرها فى قوله شديد العقاب فما الفرق قلنا انه لو لم يذكر الواو فى قوله غافر الذنب وقابل التوب لاحتمل أن يقع فى خاطر انسان انه لا معنى لكونه غافر الذنب الا كونه قابل التوب أما لما ذكر الواو زال هذا الاحتمال لان عطف الشئ على نفسه محال أما كونه شديد العقاب فمعلوم انه مغاير لكونه غافر الذنب وقابل التوب فاستغنى به عن ذكر الواو (الصفة الرابعة) قوله ذى الطول أى ذى التفضل يقال طال علينا طولا أى تفضل علينا تفضلا ومن كلامهم طل على بفضلك ومنه قوله تعالى أولوا الطول منهم ومضى تفسيره عند قوله ومن لم يستطع منكم طولا واعلم انه لما وصف نفسه بكونه شديد العقاب لابد وأن يكون المراد بكونه تعالى آتيا بالعقاب الشديد الذى لا يقبح منه اتيانه به بل لا يجوز وصفه تعالى بكونه آتيا بالفعل القبيح واذا ثبت هذا فنقول ذكر بعده كونه ذا الطول وهو كونه ذا الفضل فيجب أن يكون معناه كونه ذا الفضل بسبب أن يترك العقاب الذى له أن يفعله لانه ذكر كونه ذا الطول ولم يبين انه ذو الطول فماذا فوجب صرفه الى كونه ذا الطول فى الامر الذى سبق ذكره وهو فعل

العقاب

قرئ فرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أى هدر وقيل فارغا من الهم والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى أو لسماعها ان فرعون عطف عليه وتبناه وقرئ مؤسى بالهمز اجراء للضمة فى جارة الواو مجرى ضمتها فهمزت كما فى وجوه (ان كادت لتبدى به) أى انها كادت لتظهر بموسى أى بامره وقصته من فرط الحيرة والدهشة أو الفرح بتبنيه (لولا أن ربطنا على قلبها) بالصبر والثبات (لتكون من المؤمنين) أى المصدقين بوعد الله تعالى أو من الواثقين بحفظه لا بتبنى فرعون وتعطفه وهو علة الربط وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه (وقالت لاخته) مريم والتعبير عنها باخوته عليه الصلاة والسلام دون ان يقال لبنتها للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالامر (قصيه) أى اتبعى أثره وتتبعى خبره (فبصرت به) أى أبصرته (عن جنب) عن بعد وقرئ بسكون النون وعن جانب والكل بمعنى (وهم لا يشعرون) انها تقصه وتتعرف حاله أو انها أخته (وحرمنا عليه المراضع) أى منعناه أن يرتضع من المرضعات والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع أو مرضع وهو الرضاع أو موضعه أعنى الثدى (من قبل) أى من قبل قصها أثره (فقالت) عندرؤيتها لعدم قبوله الثدى واعتناء فرعون بامره وطلبهم من يقبل ثديها (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) أى لاجلكم (وهم له ناصحون) لا يقصرون فى ارضاعه وتربيته روى ان هامان لما سمعه منها قال انها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت انما أردت وهم للملك ناصحون فامرها فرعون

العقاب الحسن دفعا للاجال وهذا يدل على انه تعالى قد يترك العقاب الذي يحسن منه تعالى فعله وذلك يدل على أن العفو عن أصحاب الكبائر جائز وهو المطلوب (الصفة الخامسة) التوحيد المطلق وهو قوله لا اله الا هو والمعنى انه وصف نفسه بصفات الرحمة والفضل فلو كان معه اله آخر يشاركه و يساويه في صفة الرحمة والفضل لما كانت الحاجة الى عبوديته شديدة أما اذا كان واحدا وليس له شريك ولا شبيه كانت الحاجة الى الاقرار بعبوديته شديدة فكان الترغيب والترهيب الكاملان يحصلان بسبب هذا التوحيد (الصفة السادسة) قوله اليه المصير وهذه الصفة أيضا مما يقوى الرغبة في الاقرار بعبوديته لانه بتقدير أن يكون موصوفا بصفات الفضل والكرم وكان واحدا لا شريك له الا أن القول بالحشر والنشر ان كان باطلا لم يكن الخوف الشديد حاصلا من عصيانه أما لما كان القول بالحشر والقيامة حاصلا كان الخوف أشد والحذر أكمل فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الصفات واحتج أهل التشبيه بلفظة الى قالوا انها تفيد انتهاء الغاية والجواب عنه مذكور في مواضع كثيرة من هذا الكتاب واعلم انه تعالى لما قرر أن القرآن كتاب أنزله ليهتدى به في الدين ذكر أحوال من يجادل لغرض ابطاله واخفاء أمره فقال ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا وفيه مسائل (المسألة الاولى) ان الجدال نوعان جدال في تقرير الحق وجدال في تقرير الباطل أما الجدال في تقرير الحق فهو حرفة الانبياء عليهم السلام قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وجادلهم بالتي هي أحسن وقال حكاية عن الكفار انهم قالوا لنوح عليه السلام يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا وأما الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد بهذه الآية حيث قال ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا وقال ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون وقال وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق وقال صلى الله عليه وسلم ان جدالا في القرآن كفر فقوله ان جدالا على لفظ التنكير يدل على التمييز بين جدال وجدال واعلم ان لفظ الجدال في الشئ مشعر بالجدال الباطل ولفظ الجدال عن الشئ مشعر بالجدال لاجل تقريره والذب عنه قال صلى الله عليه وسلم ان جدالا في القرآن كفر وقال لا تماروا في القرآن فان المراء فيه كفر (المسألة الثانية) الجدال في آيات الله هو أن يقال مرة انه سحر ومرة انه شعر ومرة انه قول الكهنة ومرة أساطير الاولين ومرة انما يعلمه بشر وأشباه هذا مما كانوا يقولونه من الشبهات الباطلة فذكر تعالى انه لا يفعل هذا الا الذين كفروا وأعرضوا عن الحق ثم قال تعالى فلا يغررك تقلبهم في البلاد أي لا ينبغي أن تغتر بأني أمهلهم وأتركهم سالمين في أبدانهم وأموالهم يتقلبون في البلاد أي يتصرفون فيها للتجارات وطلب المعاش فاني وان أمهلتهم فاني سآخذهم وانتقم منهم كما فعلت بأشكالهم من الامم الماضية وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن ولهم الاموال الكثيرة يتجرون فيها ويربحون ثم كشف عن هذا المعنى فقال كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم فذكر من أولئك المكذبين قوم نوح والاحزاب من بعدهم أي الامم المستمرة على الكفر كقوم عاد وثمود وغيرهم كما قال في سورة ص كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة أولئك الاحزاب وقوله وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه أي وعزمت كل أمة من هؤلاء الاحزاب ان يأخذوا رسولهم ليقتلوه ويعذبوه ويحبسوه وجادلوا بالباطل أي هؤلاء جادلوا رسلهم بالباطل أي بايراد الشبهات ليدحضوا به الحق أي ان يزيلوا بسبب ايراد تلك الشبهات الحق والصدق فأخذتهم فكيف كان عقاب أي فأنزلت بهم من الهلاك ما هموا بانزاله بالرسل وأرادوا ان يأخذوهم فأخذتهم أنا فكيف كان عقابي اياهم أليس كان مهلكا مستأصلا مهيبا في الذكر والسماع فأنا أفعل بقومك كما فعلت بهؤلاء ان أصروا على الكفر والجدال في آيات الله ثم كشف عن هذا المعنى فقال وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار أي ومثل الذي حق على أولئك الامم السالفة من العقاب حقت كلمتي أيضا على هؤلاء الذين كفروا من قومك فهم على شرف نزول العقاب بهم قال صاحب الكشاف أنهم أصحاب النار في محل الرفع بدل من قوله كلمة ربك أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار ومعناه كما وجب اهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب اهلاكهم بعذاب النار في الآخرة أو في محل النصب بحذف لام التعليل وايصال الفعل واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن قضاء

بان تأتى بمن يكفله فأتت بامه وموسى على يد فرعون يبكى وهو يعلله فدفعه اليها فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من أنت منه فقد أبى كل ثدى الا ثديك فقالت انى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبى الا قبلنى فقرره في يدها وأجرى عليها فرجعت به الى بيتها من يومها وذلك قوله تعالى (فرددناه الى أمه كى تقر عينها) بوصول ولدها اليها (ولا تحزن) بفراقه (ولتعلم ان وعد الله) أي جميع ما وعده من رده وجعله من المرسلين (حق) لا خلف فيه بمشاهدة بعضه وقياس بعضه عليه (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ان الامر كذلك فيرتابون فيه أو أن الغرض الاصلى من الرد علمها بذلك وما سواه تبع وفيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون (ولما بلغ أشده) أي المبلغ الذي لا يزيد عليه نشؤه وذلك من ثلاثين الى أربعين سنة فان العقل يكمل حينئذ وروى انه لم يبعث نبى الا على رأس الاربعين (واستوى) أي اعتدل قده أو عقله (آتيناه حكما) أي نبوة (وعلما) بالدين أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه وهو أوفق لنظم القصة لانه تعالى استنبأه بعد الهجرة في المراجعة (وكذلك) ومثل ذلك الذي فعلنا بموسى وأمه (نجزى المحسنين) على احسانهم (ودخل المدينة) أي مصر من قصر فرعون وقيل منف أو حابين أو عين شمس من نواحيها (على حين غفلة من أهلها) في وقت لا يعتاد دخولها أو لا يتوقعونه فيه قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشاءين (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته) أي ممن

الله بالسعادة والشقاوة لازم لايمكن تغيره فقالوا انه تعالى أخبر انه حقت كلمة العذاب عليهم وذلك يدل على انهم لاقدرة لهم على الايمان لانهم لو تمكنوا منه لتمكنوا من ابطال هذه الكلمة الحقة ولتمكنوا من ابطال علم الله وحكمه ضرورة ان المتمكن من الشئ يجب كونه متمكنا من كل ماهو من لوازمه ولانهم لو آمنوا لوجب عليهم ان يؤمنوا بهذه الآية فحينئذ كانوا قد آمنوا بانهم لا يؤمنون أبدا وذلك تكليف مالا يطاق وقرأ نافع وابن عامر حقت كلمات ربك على الجمع والباقون على الواحد ﴿قوله تعالى﴾ ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وادخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم انك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾ اعلم انه تعالى لما بين ان الكفار يبالغون فى اظهار العداوة مع المؤمنين بين ان أشرف طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حملة العرش والحافون حول العرش يبالغون فى اظهار المحبة والنصرة للمؤمنين كأنه تعالى يقول ان كان هؤلاء الاراذل يبالغون فى العداوة فلا تبال بهم ولا تلتفت اليهم ولا تقم لهم وزنا فان حملة العرش معك والحافون من حول العرش معك ينصرونك وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى حكى عن نوعين من فرق الملائكة هذه الحكاية (أحدهما) الذين يحملون العرش وقد حكى تعالى أن الذين يحملون العرش يوم القيامة ثمانية فيمكن أن يقال الذين يحملون فى هذا الوقت هم أولئك الثمانية الذين يحملونه يوم القيامة ولاشك ان حملة العرش أشراف الملائكة وأكابرهم روى صاحب الكشاف ان حملة العرش أرجلهم فى الارض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا تتفكروا فى عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله تعالى من الملائكة فان خلقا من الملائكة يقال له اسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله وقدماه فى الارض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وانه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كانه الوصع قيل انه طائر صغير وروى ان الله تعالى أمر جميع الملائكة ان يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلا لهم على سائر الملائكة وقيل خلق الله العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وقيل حول العرش سبعون ألف صف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الايمان على الشمائل مامنهم أحد الا ويسبح بما لا يسبح به الآخر هذه الآثار نقلتها من الكشاف (وأما القسم الثانى) من الملائكة الذين ذكرهم الله تعالى فى هذه الآية فقوله تعالى ومن حوله والاظهر أن المراد منهم ماذكره فى قوله وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وأقول العقل يدل على ان حملة العرش والحافين حول العرش يجب أن يكونوا أفضل الملائكة وذلك لان نسبة الارواح الى الارواح كنسبة الاجساد الى الاجساد فلما كان العرش أشرف الموجودات الجسمانية كانت الارواح المتعلقة بتدبير العرش يجب أن تكون أفضل من الارواح المدبرة للاجساد وأيضا يشبه أن يكون هناك أرواح حاملة لجسم العرش ثم يتولد عن تلك الارواح القاهرة المستعلية المدبرة لجسم العرش أرواح أخر من جنسها وهى متعلقة باطراف العرش واليهم الاشارة بقوله وترى الملائكة حافين من حول العرش وبالجملة فقد ظهر بالبراهين اليقينية وبالمكاشفات الصادقة انه لا نسبة لعالم الاجساد الى عالم الارواح فكل ماشاهدته بعين البصر فى اختلاف مراتب عالم الاجساد فيجب ان تشاهده بعين بصيرتك فى اختلاف مراتب عالم الارواح (المسئلة الثانية) دلت هذه الآية على انه سبحانه منزه عن أن يكون فى العرش وذلك لانه تعالى قال فى هذه الآية الذين يحملون العرش وقال فى آية أخرى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ولاشك ان حامل العرش يكون حاملا لكل من فى العرش فلو كان اله العالم فى العرش لكان هؤلاء الملائكة حاملين لاله العالم فحينئذ يكونون حافظين لاله العالم والحافظ القادر أولى بالالهية والمحمول المحفوظ أولى بالعبودية فحينئذ ينقلب الاله عبدا والعبد الها وذلك فاسد فدل هذا على ان اله

شايعه على دينه وهم بنو اسرائيل (وهذا من عدوه) أى من مخالفيه دينا وهم القبط والاشارة على الحكاية (فاستغاثه الذى من شيعته) أى سأله ان يغيثه بالاعانة كما ينبئ عنه تعديته بعلى وقرئ استعانه (على الذى من عدوه فوكزه موسى) أى ضرب القبطى بجمع كفه وقرئ فلكزه أى فضرب به صدره (فقضى عليه) فقتله وأصله انهى حياته من قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر (قال هذا من عمل الشيطان) لانه لم يكن مأمورا بقتل الكفار أو لانه كان مأمونا فيما بينهم فلم يكن له اغتيالهم ولا يقدح ذلك فى عصمته لكونه خطأ وانما عده من عمل الشيطان وسماه ظلما واستغفر منه جريا على سنن المقربين فى استعظام مافرط منهم ولو كان من محقرات الصغائر (انه عدو مضل مبين) ظاهر العداوة والاضلال (قال) توسيطه بين كلاميه عليه الصلاة والسلام لابانة مابينهما من المخالفة من حيث انه مناجاة ودعاء بخلاف الاول (رب انى ظلمت نفسى) أى بقتله (فاغفر لى) ذنبى (فغفرله) ذلك (انه هو الغفور الرحيم) أى المبالغ فى مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم (قال رب بما أنعمت على) اما قسم محذوف الجواب أى أقسم بانعامك على بالمغفرة لاتوبن (فلن أكون بعد هذا أبدا (ظهيرا للمجرمين) واما استعطاف أى بحق انعامك على اعصمنى فلن أكون معينا لمن تؤدى معاونته الى الجرم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه عليه الصلاة والسلام لم يستثن فابتلى به مرة أخرى وهذا يؤيد الاول وقيل معناه بما أنعمت على من القوة أعين أولياءك فلن

العرش والاجسام متعال عن العرش والاجسام واعلم انه تعالى حكى عن حملة العرش وعن الحافين بالعرش ثلاثة أشياء (أولها) قوله يسبحون بحمد ربهم ونظيره قوله حكاية عن الملائكة ونحن نسبح بحمدك وقوله تعالى وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم فالتسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي والتحميد الاعتراف بانه هو المنعم على الاطلاق فالتسبيح اشارة الى الجلال والتحميد اشارة الى الاكرام فقوله يسبحون بحمد ربهم قريب من قوله تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام (والنوع الثانى) مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة هو قوله تعالى ويؤمنون به فان قيل فاى فائدة فى قوله ويؤمنون فان الاشتغال بالتسبيح والتحميد لا يمكن الا وقد سبق الايمان بالله قلنا الفائدة فيه ماذكره صاحب الكشاف وقد أحسن فيه جدا فقال ان المقصود منه التنبيه على أن الله تعالى لو كان حاضرا بالعرش لكان حملة العرش والحافون حول العرش يشاهدونه ويعاينونه ولما كان ايمانهم بوجود الله موجبا للمدح والثناء لان الاقرار بوجود شئ حاضر مشاهد معاين لا يوجب المدح والثناء ألا ترى أن الاقرار بوجود الشمس وكونها مضيئة لا يوجب المدح والثناء فلما ذكر الله تعالى ايمانهم بالله على سبيل الثناء والمدح والتعظيم علم انهم آمنوا به بدليل انهم ما شاهدوه حاضرا جالسا هناك ورحم الله صاحب الكشاف فلو لم يحصل فى كتابه الا هذه النكتة لكفاه فخرا وشرفا (النوع الثالث) مما حكى الله عن هؤلاء الملائكة قوله تعالى ويستغفرون للذين آمنوا واعلم انه قد ثبت ان كمال السعادة مربوط بامرين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله ويجب أن يكون التعظيم لامر الله مقدما على الشفقة على خلق الله فقوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به مشعر بالتعظيم لامر الله وقوله ويستغفرون للذين آمنوا مشعر بالشفقة على خلق الله ثم فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج كثير من العلماء بهذه الآية فى اثبات ان الملك أفضل من البشر قالوا ان هذه الآية تدل على ان الملائكة لما فرغوا من ذكر الله بالثناء والتقديس اشتغلوا بالاستغفار لغيرهم وهم المؤمنون وهذا يدل على انهم مستغنون عن الاستغفار لانفسهم اذ لو كانوا محتاجين اليه لقدموا الاستغفار لانفسهم على الاستغفار لغيرهم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ابدأ بنفسك وأيضا قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات فامر محمدا أن يذكر أولا الاستغفار لنفسه ثم بعده يذكر الاستغفار لغيره وحكى عن نوح عليه السلام انه قال رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات وهذا يدل على أن كل من كان محتاجا الى الاستغفار فانه يقدم الاستغفار لنفسه على الاستغفار لغيره فالملائكة لو كانوا محتاجين الى الاستغفار لكان اشتغالهم بالاستغفار لانفسهم مقدما على اشتغالهم بالاستغفار لغيرهم ولما لم يذكر الله تعالى عنهم استغفارهم لانفسهم علمنا ان ذلك انما كان لانهم ما كانوا محتاجين الى الاستغفار وأما الانبياء عليهم السلام فقد كانوا محتاجين الى الاستغفار بدليل قوله تعالى لمحمد عليه السلام واستغفر لذنبك واذا ثبت هذا فقد ظهر ان الملك أفضل من البشر والله أعلم (المسئلة الثانية) احتج الكعبى بهذه الآية على أن تأثير الشفاعة فى حصول زيادة الثواب للمؤمنين لا فى اسقاط العقاب عن المذنبين قال وذلك لان الملائكة قالوا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك قال وليس المراد فاغفر للذين تابوا من الكفر سواء كان مصرا على الفسق أو لم يكن كذلك لان من هذا حاله لا يوصف بكونه متبعا سبيل ربه ولا يطلق ذلك فيه وأيضا ان الملائكة يقولون وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم وهذا لا يليق بالفاسقين لان خصومنا لا يقطعون على ان الله تعالى وعدهم الجنة وانما يجوزون ذلك فثبت ان شفاعة الملائكة لا تتناول الا أهل الطاعة فوجب أن تكون شفاعة الانبياء كذلك ضرورة أنه لا قائل بالفرق والجواب أن نقول هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين فنبين هذا ثم نجيب عما ذكره الكعبى أما بيان دلالة هذه الآية على ما قلناه فمن وجوه (الاول) قوله ويستغفرون للذين آمنوا والاستغفار طلب المغفرة والمغفرة لا تذكر الا فى اسقاط العقاب أما طلب النفع الزائد فانه لا يسمى استغفارا (الثانى) قوله تعالى ويستغفرون للذين آمنوا وهذا يدل على انهم يستغفرون لكل أهل الايمان فاذا دللنا على أن صاحب الكبيرة مؤمن وجب دخوله تحت هذه الشفاعة (الثالث) قوله تعالى فاغفر للذين تابوا طلب المغفرة للذين تابوا ولا يجوز أن يكون المراد اسقاط

استعملها فى مظاهرة أعدائك (فاصبح فى المدينة خائفا يترقب) يترصد الاستقادة أو الاجناد (فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه) أى يستغيثه برفع الصوت من الصراخ (قال له موسى انك لغوى مبين) أى بين الغواية تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر (فلما ان أراد) موسى (ان يبطش بالذى هو عدو لهما) أى لموسى وللاسرائيلى اذ لم يكن على دينهما ولان القبط كانوا أعداء لبنى اسرائيل على الاطلاق وقرئ يبطش بضم الطاء (قال) أى الاسرائيلى ظانا انه عليه الصلاة والسلام يبطش به حسبما توهمه تسميته اياه غويا (ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس) قالوا لما سمع القبطى قول الاسرائيلى علم ان موسى هو الذى قتل ذلك الفرعونى فانطلق الى فرعون فأخبره بذلك وأمر فرعون بقتل موسى عليه السلام وقيل قاله القبطى (ان تريد) أى ما تريد (الا أن تكون جبارا فى الارض) وهو الذى يفعل كل ما يريده من الضرب والقتل ولا ينظر فى العواقب وقيل المتعظم الذى لا يتواضع لامر الله تعالى (وما تريد أن تكون من المصلحين) بين الناس بالقول والفعل (وجاء رجل من أقصى المدينة) أى كائن من آخرها أو جاء من آخرها (يسعى) أى يسرع صفة لرجل أو حال منه على أن الجار والمجرور صفة له لا متعلق بجاء فان تخصصه يلحقه بالمعارف قيل هو مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وقيل شمعون وقيل شمعان (قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) أى يتشاورون بسببك فان كلا من المتشاورين يأمر

عقوبة الكبيرة بعد التوبة لان ذلك واجب على الله عند الخصم وما كان فعله واجبا كان طلبه بالدعاء قبيحا ولا يجوز أيضا أن يكون المراد اسقاط عقوبة الصغائر لان ذلك أيضا واجب فلا يحسن طلبه بالدعاء ولا يجوز أن يكون المراد طلب زيادة منفعة على الثواب لان ذلك لا يسمى مغفرة فثبت أنه لا يمكن حمل قوله فاغفر للذين تابوا الا على اسقاط عقاب الكبيرة قبل التوبة واذا ثبت هذا فى حق الملائكة فكذلك فى حق الانبياء لانعقاد الاجماع على انه لا فرق أما الذى يتمسك به الكعبى وهو انهم طلبوا المغفرة للذين تابوا فنقول يجب أن يكون المراد منه الذين تابوا عن الكفر واتبعوا سبيل الايمان وقوله ان التائب عن الكفر المصر على الفسق لا يسمى تائبا ولا متبعا سبيل الله قلنا لا نسلم قوله بل يقال انه تائب عن الكفر وتابع سبيل الله فى الدين والشريعة واذا ثبت أنه تائب عن الكفر ثبت أنه تائب ألا ترى أنه يكفى فى صدق وصفه بكونه ضاربا وضاحكا صدور الضرب والضحك عنه مرة واحدة ولا يتوقف ذلك على صدور كل أنواع الضرب والضحك عنه فكذا ههنا (المسئلة الثالثة) قال أهل التحقيق ان هذه الشفاعة الصادرة عن الملائكة فى حق البشر تجرى مجرى اعتذار عن زلة سبقت وذلك لانهم قالوا فى أول تخليق البشر أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فلما سبق منهم هذا الكلام تداركوا فى آخر الامر بان قالوا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم وهذا كالتنبيه على أن من آذى غيره فالاولى ان يجبر ذلك الايذاء بايصال نفع اليه واعلم انه تعالى لما حكى عن الملائكة انهم يستغفرون للذين تابوا بين كيفية ذلك الاستغفار فحكى عنهم انهم قالوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان الدعاء فى أكثر الامر مذكور بلفظ ربنا ويدل عليه ان الملائكة عند الدعاء قالوا ربنا بدليل هذه الآية وقال آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وقال نوح عليه السلام رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وقال أيضا رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا وقال أيضا رب اغفر لى ولوالدى وقال عن ابراهيم عليه السلام رب أرنى كيف تحيى الموتى وقال رب اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب وقال ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وقال عن يوسف رب قد آتيتنى من الملك وقال عن موسى عليه السلام رب أرنى أنظر اليك وقال فى قصة الوكز رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين وحكى تعالى عن داود أنه استغفر ربه وخر راكعا وأناب وعن سليمان انه قال رب هب لى ملكا وعن زكريا انه نادى ربه نداء خفيا وعن عيسى عليه السلام انه قال ربنا أنزل علينا مائدة من السماء وعن محمد صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى قال له وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وحكى عن المؤمنين انهم قالوا ربنا ما خلقت هذا باطلا وأعادوا هذه اللفظة خمس مرات وحكى أيضا عنهم انهم قالوا غفرانك ربنا واليك المصير الى آخر السورة فثبت بما ذكرنا ان من أرضى الدعاء أن ينادى العبد ربه بقوله يارب وتمام الاشكال فيه أن يقال لفظ الله أعظم من لفظ الرب فلم صار لفظ الرب مختصا بوقت الدعاء والجواب كأن العبد يقول كنت فى كتم العدم المحض والنفى الصرف فأخرجتنى الى الوجود وربيتنى فاجعل تربيتك لى شفيعا اليك فى أن لا تخلينى طرفة عين عن تربيتك واحسانك وفضلك (المسئلة الثانية) السنة فى الدعاء أن يبدأ فيه بالثناء على الله تعالى ثم يذكر الدعاء عقيبه والدليل عليه هذه الآية فان الملائكة لما عزموا على الدعاء والاستغفار للمؤمنين بدؤا بالثناء فقالوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما وأيضا ان الخليل عليه السلام لما أراد أن يذكر الدعاء ذكر الثناء أولا فقال الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين فكل هذا ثناء على الله تعالى ثم بعده ذكر الدعاء فقال رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واعلم ان العقل يدل أيضا على رعاية هذا الترتيب وذلك لان ذكر الله بالثناء والتعظيم بالنسبة الى جوهر الروح كالاكسير الاعظم بالنسبة الى النحاس فكما ان ذرة من الاكسير اذا وقعت على عالم من النحاس انقلب الكل ذهبا ابريزا فكذلك اذا وقعت ذرة من اكسير معرفة جلال الله تعالى على جوهر الروح النطقية انقلب من نحوسة النحاسة الى صفاء القدس وبقاء عالم الطهارة فثبت ان عند اشراق نور معرفة الله تعالى فى جوهر الروح يصير الروح أقوى صفاء وأكمل اشراقا ومتى صار كذلك

كانت

الآخرين وبأمر (فاخرج) أى من المدينة (انى لك من الناصحين) اللام للبيان لما أن معمول الصلة لا يتقدمها (فخرج منها) أى من المدينة (خائفا يترقب) لحوق الطالبين (قال رب نجنى من القوم الظالمين) خلصنى منهم واحفظنى من لحوقهم (ولما توجه تلقاء مدين) أى نحو مدين وهى قرية شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن ابراهيم ولم تكن تحت سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) توكلا على الله تعالى وثقة بحسن توفيقه وكان لا يعرف الطرق فعن له ثلاث طرائق فاخذ فى الوسطى وجاء الطلاب فشرعوا فى الاخريين وقيل خرج حافيا لا يعيش الا بورق الشجر فما وصل حتى سقط خف قدميه وقيل جاء ملك على فرس وبيده عنزة فانطلق به الى مدين (ولما ورد ماء مدين) أى وصل اليه وهو بئر كانوا يسقون منها (وجد عليه) أى فوق شفيرها (أمة) جماعة كثيفة (من الناس يسقون) أى مواشيهم (ووجد من دونهم) أى فى موضع أسفل منهم (امرأتين تذودان) أى تمنعان ما معهما من الاغنام عن التقدم الى البئر كيلا تختلط باغنامهم مع عدم الفائدة فى فى التقدم (قال) عليه السلام لهما حين رآهما على ما هما عليه من التأخر والذود (ما خطبكما) ما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر والذود ولم لا تباشران السقى كدأب هؤلاء (قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء) أى عادتنا أن لا نسقى حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريها عن الماء عجزا عن مساجلتهم وحذرا عن مخالطة الرجال لا أنا

كانت قوته أقوى وتأثيره أكمل فكان حصول الشئ المطلوب بالدعاء أقرب وأكمل وهذا هو السبب فى تقديم الثناء على الله على الدعاء (المسئلة الثالثة) اعلم أن الملائكة وصفوا الله تعالى بثلاثة أنواع من الصفات الربوبية والرحمة والعلم أما الربوبية فهى اشارة الى الايجاد والابداع وفيه لطيفة أخرى وهى ان قولهم ربنا اشارة الى التربية والتربية عبارة عن ابقاء الشئ على أكمل أحواله وأحسن صفاته وهذا يدل على ان هذه الممكنات كما انها محتاجة حال حدوثها الى احداث الحق سبحانه وتعالى وايجاده فكذلك انها محتاجة حال بقائها الى ابقاء الله وأما الرحمة فهى اشارة الى أن جانب الخير والرحمة والاحسان راجح على جانب الضرر وانه تعالى انما خلق الخلق للرحمة والخير لا للاضرار والشر فان قيل قوله ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فيه سؤال لان العلم وسع كل شئ أما الرحمة فما وصلت الى كل شئ لان المضرور حال وقوعه فى الضرر لا يكون ذلك الضرر رحمة وهذا السؤال أيضا مذكور فى قوله ورحمتى وسعت كل شئ قلنا كل موجود فقد نال من رحمة الله تعالى نصيبا وذلك لان الموجود اما واجب واما ممكن أما الواجب فليس الا الله سبحانه وتعالى وأما الممكن فوجوده من الله تعالى وبايجاده وذلك رحمة فثبت انه لا موجود غير الله الا وقد وصل اليه نصيب ونصاب من رحمة الله فلهذا قال ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما وفى الآية دقيقة أخرى وهى ان الملائكة قدموا ذكر الرحمة على ذكر العلم فقالوا وسعت كل شئ رحمة وعلما وذلك لان مطلوبهم ايصال الرحمة وأن يتجاوز عما علمه منهم من أنواع الذنوب فالمطلوب بالذات هو الرحمة والمطلوب بالعرض أن يتجاوز عما علمه منهم والمطلوب بالذات مقدم على المطلوب بالعرض ألا ترى انه لما كان ابقاء الصحة مطلوبا بالذات وازالة المرض مطلوبا بالعرض لا جرم لما ذكر واحد الطب قدموا فيه حفظ الصحة على ازالة المرض فقالوا الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الانسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة فكذا ههنا المطلوب بالذات هو الرحمة وأما التجاوز عما علمه منهم من أنواع الذنوب فهو مطلوب بالعرض لاجل ان حصول الرحمة على سبيل الكمال لا يحصل الا بالتجاوز عن الذنوب فلهذا السبب وقع ذكر الرحمة سابقا على ذكر العلم (المسئلة الرابعة) دلت هذه الآية على ان المقصود بالقصد الاول فى الخلق والتكوين انما هو الرحمة والفضل والجود والكرم ودلت الدلائل اليقينية على ان كل ما دخل فى الوجود من أنواع الخير والشر والسعادة والشقاوة فبقضاء الله وقدره والجمع بين هذين الاصلين فى غاية الصعوبة فعند هذا قالت الحكماء الخير مراد مرضى والشر مراد مكروه والخير مقضى به بالذات والشر مقضى به بالعرض وفيه غور عظيم (المسئلة الخامسة) قوله وسعت كل شئ رحمة وعلما يدل على كونه سبحانه عالما بجميع المعلومات التى لا نهاية لها من الكليات والجزئيات وأيضا فلولا ذلك لم يكن فى الدعاء والتضرع فائدة لانه اذا جاز أن يخرج عن علمه بعض الاشياء فعلى هذا التقدير لا يعرف هذا الداعى ان الله سبحانه يعلمه ويعلم دعاءه وعلى هذا التقدير لا يبقى فى الدعاء فائدة البتة واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم كيفية ثنائهم على الله تعالى حكى عنهم كيفية دعائهم وهو انهم قالوا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم واعلم أن الملائكة طلبوا بالدعاء من الله تعالى أشياء كثيرة للمؤمنين فالمطلوب الاول الغفران وقد سبق تفسيره فى قوله فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك فان قيل لا معنى للغفران الا اسقاط العذاب وعلى هذا التقدير فلا فرق بين قوله فاغفر لهم وبين قوله وقهم عذاب الجحيم قلنا دلالة لفظ المغفرة على اسقاط عذاب الجحيم دلالة حاصلة على سبيل الرمز والاشارة فلما ذكروا هذا الدعاء على سبيل الرمز والاشارة أردفوه بذكره على سبيل التصريح لاجل التأكيد والمبالغة واعلم انهم لما طلبوا من الله ازالة العذاب عنهم أردفوه بأن طلبوا من الله ايصال الثواب اليهم فقالوا ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم فان قيل أنتم زعمتم ان هذه الشفاعة انما حصلت للمذنبين وهذه الآية تبطل ذلك لانه تعالى ما وعد المذنبين بأن يدخلهم فى جنات عدن قلنا لا نسلم انه ما وعدهم بذلك لانا بينا انا الدلائل الكثيرة فى القرآن دلت على انه تعالى لا يخلد أهل لا اله الا الله محمد رسول الله فى النار واذا أخرجهم من النار وجب أن يدخلهم الجنة فكان هذا وعدا من الله تعالى لهم بأن يدخلهم فى جنات عدن اما من غير دخول النار واما بعد أن يدخلهم النار

لا نسقى اليوم الى تلك الغاية وحذف مفعول السقى والذود والاصدار لما أن الغرض هو بيان تلك الافعال أنفسها اذ هى التى دعت موسى عليه السلام الى ما صنع فى حقهما من المعروف فانه عليه الصلاة والسلام انما رحمهما لكونهما على الذياد للعجز والعفة وكونهم على السقى غير مبالين بهما وما رحمهما لكون مذودهما غنما ومسقيهم ابلا مثلا وقرئ لا نسقى من الاسقاء ويصدر من الصدور والرعاء بضم الراء وهو اسم جمع كالرخال وأما الرعاء فجمع قياسى كصيام وقيام وقوله تعالى (وأبونا شيخ كبير) ابلاء منهما للعذر اليه عليه السلام فى توليهما للسقى بأنفسهما كأنهما قالتا انا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر فلا بد لنا من تأخير السقى الى أن يقضى الناس أوطارهم من الماء (فسقى لهما) رحمة عليهما والكلام فى حذف مفعوله كما مر آنفا وروى أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لا يقله الا سبعة رجال وقيل عشرة وقيل أربعون وقيل مائة فأقله وحده مع ما كان به من الوصب والجراحة والجوع ولعله عليه الصلاة والسلام زاحمهم فى السقى لهما فوضعوا الحجر على البئر لتعجيزه عليه الصلاة والسلام عن ذلك فان الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام غب ما شاهد حالهما سارع الى السقى لهما وقد روى أنه دفعهم عن الماء الى أن سقى لهما وقيل كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة وروى أنه عليه الصلاة والسلام سألهم دلوا من ماء فأعطوه دلوهم

قال تعالى ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم يعنى وأدخل معهم فى الجنة هؤلاء الطوائف الثلاثة وهم الصالحون من الآباء والازواج والذريات وذلك لان الرجل اذا حضر معه فى موضع عيشه وسروره أهله وعشيرته كان ابتهاجه أكمل قال الفراء والزجاج من نصب من مكانين فان شئت رددته على الضمير فى قوله وأدخلهم وان شئت فى وعدتهم والمراد من قوله ومن صلح أهل الايمان ثم قالوا انك أنت العزيز الحكيم وانما ذكروا فى دعائهم هذين الوصفين لانه لولم يكن عزيزا بل كان بحيث يغلب ويمنع لما صح وقوع المطلوب منه ولولم يكن حكيما لما حصل هذا المطلوب على وفق الحكمة والمصلحة ثم قالوا بعد ذلك وقهم السيآت قال بعضهم المراد وقهم عذاب السيآت فان قيل فعلى هذا التقدير لافرق بين قوله وقهم السيآت وبين ما تقدم من قوله وقهم عذاب الجحيم وحينئذ يلزم التكرار الخالى عن الفائدة وانه لايجوز قلنا بل التفاوت حاصل من وجهين (الاول) أن يكون قوله وقهم عذاب الجحيم دعاء مذكورا للاصول وقوله وقهم السيآت دعاء مذكورا للفروع (الثانى) أن يكون قوله وقهم عذاب الجحيم مقصورا على ازالة الجحيم وقوله وقهم السيآت يتناول عذاب الجحيم وعذاب موقف القيامة وعذاب الحساب والسؤال (والقول الثانى) فى تفسير قوله وقهم السيآت هو أن الملائكة طلبوا ازالة عذاب النار بقولهم وقهم عذاب الجحيم وطلبوا ايصال ثواب الجنة اليهم بقولهم وأدخلهم جنات عدن ثم طلبوا بعد ذلك أن يصونهم الله تعالى فى الدنيا عن العقائد الفاسدة والاعمال الفاسدة وهو المراد بقولهم وقهم السيآت ثم قالوا ومن تق السيآت يومئذ فقد رحمته يعنى ومن تق السيآت فى الدنيا فقد رحمته فى يوم القيامة ثم قالوا وذلك هو الفوز العظيم حيث وجدوا بأعمال منقطعة نعيما لاينقطع وبأعمال حقيرة ملكا لاتصل العقول الى كنه جلالته ﴿ قوله تعالى ﴿ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل ذلكم بانه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير﴾ اعلم انه تعالى لما عاد الى شرح أحوال الكافرين المجادلين فى آيات الله وهم الذين ذكرهم الله فى قوله مايجادل فى آيات الله الا الذين كفروا بين انهم فى القيامة يعترفون بذنوبهم وباستحقاقهم العذاب الذى ينزل بهم ويسألون الرجوع الى الدنيا ليتلافوا مافرط منهم فقال ان الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى الآية حذف وفيها أيضا تقديم وتأخير أما الحذف فتقديره لمقت الله اياكم وأما التقديم والتأخير فهو أن التقدير أن يقال لمقت الله لكم حال ماتدعون الى الايمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم وفى تفسير مقتهم أنفسهم وجوه (الاول) انهم اذا شاهدوا القيامة والجنة والنار مقتوا أنفسهم على اصرارهم على التكذيب بهذه الاشياء فى الدنيا (الثانى) ان الاتباع يشتد مقتهم للرؤساء الذين دعوهم الى الكفر فى الدنيا والرؤساء أيضا يشتد مقتهم للاتباع فعبر عن مقت بعضهم بعضا بأنهم مقتوا أنفسهم كما انه تعالى قال فاقتلوا أنفسكم والمراد قتل بعضهم بعضا (الثالث) قال محمد بن كعب اذا خطبهم ابليس وهم فى النار بقوله وما كان لى عليكم من سلطان الى قوله ولوموا أنفسكم ففى هذه الحالة مقتوا أنفسهم واعلم أنه لانزاع ان مقتهم أنفسهم انما يحصل فى القيامة أما مقت الله لهم ففيه وجهان (الاول) انه حاصل فى الآخرة والمعنى لمقت الله لكم فى هذا الوقت أشد من مقتكم أنفسكم فى هذا الوقت (والثانى) وعليه الاكثرون ان التقدير لمقت الله لكم فى الدنيا اذ تدعون الى الايمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم الآن فى تفسير الالفاظ المذكورة فى الآية أوجه (الاول) ان الذين ينادونهم ويذكرون لهم هذا الكلام هم خزنة جهنم (الثانى) المقت أشد البغض وذلك فى حق الله تعالى محال فالمراد منه أبلغ الانكار والزجر (الثالث) قال الفراء ينادون لمقت الله معناه انهم ينادون ان مقت الله أكبر يقال ناديت ان زيدا قائم وان زيد القائم (الرابع) قوله اذ تدعون الى الايمان فيه حذف والتقدير لمقت الله لكم اذ تدعون الى الايمان فتأبون بالكفر أكبر من مقتكم الآن أنفسكم ثم انه تعالى بين ان الكفار اذا خوطبوا بهذا الخطاب قالوا ربنا أمتنا اثنتين الى آخر الآية والمعنى انهم لما عرفوا ان الذى كانوا عليه فى الدنيا كان فاسدا باطلا تمنوا الرجوع الى الدنيا لكى يشتغلوا عند الرجوع اليها بالاعمال الصالحة وفى الآية مسائل

المسئلة

وقالوا استقى بها وكان لاينزعها الا أربعون فاستقى بها وصبها فى الحوض ودعا بالبركة وروى غنمهما وأصدرهما (ثم تولى الى الظل) الذى كان هناك (فقال رب انى لما أنزلت الى) أى أى شئ أنزلته الى (من خير) جل أوقل وحمله الاكثرون على الطعام بمعونة المقام (فقير) أى محتاج ولتضمنه معنى السؤال والطلب جئ بلام الدعامة لتقوية العمل وقيل المعنى لما أنزلت الى من خير عظيم هو خير الدارين صرت فقيرا فى الدنيا لانه كان فى سعة من العيش عند فرعون قاله عليه الصلاة والسلام اظهارا للتبجح والشكر على ذلك (فجاءته احداهما) قيل هى كبراهما واسمها صفوراء أو صفراء وقيل صغراهما واسمها صفيراء أى جاءته عقيب مارجعتا الى أبيهما وروى أنهما لما رجعتا الى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحداهما اذهبى فادعيه لى وقوله تعالى (تمشى) حال من فاعل جاءت وقوله تعالى (على استحياء) متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشى أى جاءته تمشى كائنة على استحياء فمعناه انها كانت على استحياء حالتى المشى والمجئ معا لاعند المجئ فقط وتنكير استحياء للتفخيم قيل جاءته متخفرة أى شديدة الحياء وقيل قد استترت بكم درعها (قالت) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مجيئها اياه عليه الصلاة والسلام كانه قيل فماذا قالت له عليه الصلاة والسلام فقيل قالت (ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا) أى جزاء سقيك لنا أسندت الدعوة الى أبيها وعللتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة

(المسئلة الاولى) احتج أكثر العلماء بهذه الآية فى اثبات عذاب القبر وتقرير الدليل انهم أثبتوا لانفسهم موتتين حيث قالوا ربنا أمتنا اثنتين فأحد الموتتين مشاهد فى الدنيا فلابد من اثبات حياة أخرى فى القبر حتى يصير الموت الذى يحصل عقيبها موتا ثانيا وذلك يدل على حصول حياة فى القبر فان قيل قال كثير من المفسرين الموتة الاولى اشارة الى الحالة الحاصلة عند كون الانسان نطفة وعلقة والموتة الثانية اشارة الى ماحصل فى الدنيا فلم لا يجوز أن يكون الامر كذلك والذى يدل على ان الامر ماذكرناه قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم والمراد من قوله وكنتم أمواتا الحالة الحاصلة عند كونه نطفة وعلقة وتحقيق الكلام ان الاماتة تستعمل بمعنيين (أحدهما) ايجاد الشئ ميتا (والثانى) تصيير الشئ ميتا بعد أن كان حيا كقولك وسع الخياط ثوبى يحتمل انه خاطه واسعا ويحتمل أنه صيره واسعا بعد ان كان ضيقا فلم لا يجوز فى هذه الآية ان يكون المراد بالاماتة خلقها ميتة ولا يكون المراد تصييرها ميتة بعد ان كانت حية (السؤال الثانى) ان هذا كلام الكفار فلا يكون حجة (السؤال الثالث) ان هذه الآية تدل على المنع من حصول الحياة فى القبر وبيانه انه لو كان الامر كذلك لكان قد حصلت الحياة ثلاث مرات أولها فى الدنيا وثانيها فى القبر وثالثها فى القيامة والمذكور فى الآية ليس الا حياتين فقط فتكون احداهما الحياة فى الدنيا والحياة الثانية فى القيامة والموت الحاصل بينهما هو الموت المشاهد فى الدنيا (السؤال الرابع) انه ان دلت هذه الآية على حصول الحياة فى القبر فههنا ما يدل على عدمه وذلك بالمنقول والمعقول أما المنقول فمن وجوه (الاول) قوله تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه فلم يذكر فى هذه الآية الا الحذر عن الآخرة ولو حصلت الحياة فى القبر لكان الحذر عنها حاصلا ولو كان الامر كذلك لذكره ولما لم يذكره علمنا أنه غير حاصل (الثانى) انه تعالى حكى فى سورة الصافات عن المؤمنين المحقين أنهم يقولون بعد دخولهم فى الجنة أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى ولا شك ان كلام أهل الجنة حق وصدق ولو حصلت لهم حياة فى القبر لكانوا قد ماتوا موتتين وذلك على خلاف قوله أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى قالوا والاستدلال بهذه الآية أقوى من الاستدلال بالآية التى ذكرتموها لان الآية التى تمسكنا بها حكاية قول المؤمنين الذين دخلوا الجنة والآية التى تمسكتم بها حكاية قول الكافرين الذين دخلوا النار وأما المعقول فمن وجوه (الاول) وهو ان الذى افترسته السباع وأكلته لو أعيد حيا لكان اما أن يعاد حيا بمجموعه أو بآحاد أجزائه والاول باطل لان الحس يدل على أنه لم يحصل له مجموع والثانى باطل لانه لما أكلته السباع فلو جعلت تلك الاجزاء أحياء لحصلت أحياء فى معدة السباع وفى أمعائها وذلك فى غاية الاستبعاد (الثانى) ان الذى مات لو تركناه ظاهرا بحيث يراه كل أحد فانهم يرونه باقيا على موته فلو جوزنا مع هذه الحالة انه يقال انه صار حيا لكان هذا تشكيكا فى المحسوسات وانه دخول فى السفسطة (والجواب) قوله لم لا يجوز أن تكون الموتة الاولى هى الموتة التى كانت حاصلة حال ما كان نطفة وعلقة فنقول هذا لا يجوز وبيانه أن المذكور فى الآية ان الله أماتهم ولفظ الاماتة مشروط بسبق حصول الحياة اذ لو كان الموت حاصلا قبل هذه الحالة امتنع كون هذا اماتة والا لزم تحصيل الحاصل وهو محال وهذا بخلاف قوله كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا لان المذكور فى هذه الآية أنهم كانوا أمواتا وليس فيها ان الله أماتهم بخلاف الآية التى نحن فى تفسيرها لانها تدل على ان الله تعالى أماتهم مرتين وقد بينا ان لفظ الاماتة لا يصدق الا عند سبق الحياة فظهر الفرق أما قوله ان هذا كلام الكفار فلا يكون حجة قلنا لما ذكروا ذلك لم يكذبهم الله تعالى اذ لو كانوا كاذبين لاظهر الله تكذيبهم ألا ترى أنهم لما كذبوا فى قولهم والله ربنا ما كنا مشركين أكذبهم الله فى ذلك فقال انظر كيف كذبوا وأما قوله ظاهر الآية يمنع من اثبات حياة فى القبر اذ لو حصلت هذه الحياة لكان عدد الحياة ثلاث مرات لا مرتين فنقول الجواب عنه من وجوه (الاول) هو ان مقصودهم تعديد أوقات البلاء والمحنة وهى أربعة الموتة الاولى والحياة فى القبر والموتة الثانية والحياة فى القيامة فهذه الاربعة أوقات البلاء والمحنة فاما الحياة فى الدنيا فليست من أقسام أوقات البلاء والمحنة فلهذا السبب لم يذكروها (الثانى) لعلهم ذكروا الحياتين وهى الحياة فى الدنيا والحياة فى القيامة أما الحياة فى القبر فأهملوا ذكرها لقلة وجودها وقصر

وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى روى انه عليه الصلاة والسلام أجابها فانطلقا وهى امامه فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها امشى خلفى وانعتى الى الطريق ففعلت حتى أتيا دار شعيب عليهما السلام (فلما جاءه وقص عليه القصص) أى ما جرى عليه من الخبر المقصوص فانه مصدر سمى به المفعول كالعلل (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) الذى يلوح من ظاهر النظم الكريم أن موسى عليه السلام انما أجاب المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام ويستظهر برأيه لا ليأخذ بمعروفه أجرا حسبما صرحت به ألا ترى الى ماروى أن شعيبا لما قدم اليه طعاما قال انا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الارض ذهبا ولا نأخذ على المعروف ثمنا ولم يتناول حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فتناول بعد ذلك على سبيل التقبل لمعروف مبتدا كيف لا وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوة من أولاد يعقوب عليه السلام ومثله حقيق بأن يضيف ويكرم لا سيما فى دار نبى من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وقيل ليس بمستنكر منه عليه الصلاة والسلام أن يقبل الاجر لاضطرار الفقر والفاقة وقد روى عن عطاء ابن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بدعائه ليسمعها ولذلك قيل له ليجزيك الخ ولعله عليه السلام انما فعله ليكون ذريعة الى استدعائه لا الى استيفاء الاجر (قالت احداهما) وهى التى استدعته الى أبيها وهى التى زوجها من موسى عليهما السلام

مدتها (الثالث) لعلهم لما صاروا أحياء فى القبور لم يموتوا بل بقوا أحياء اما فى السعادة واما فى الشقاوة واتصل بها حياة القيامة فكانوا من جملة من أرادهم الله بالاستثناء فى قوله فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله (الرابع) لو لم تثبت الحياة فى القبر لزم أن لا يحصل الموت الا مرة واحدة فكان اثبات الموت مرتين كذبا وهو على خلاف لفظ القرآن أما لو اثبتنا الحياة فى القبر لزمنا اثبات الحياة ثلاث مرات والمذكور فى القرآن مرتين أما المرة الثالثة فليس فى اللفظ ما يدل على ثبوتها أو عدمها فثبت ان نفى حياة القبر يقتضى ترك ما دل اللفظ عليه فاما اثبات حياة القبر فانه يقتضى اثبات شئ زائد على ما دل عليه اللفظ مع ان اللفظ لا اشعار فيه بثبوته ولا بعدمه فكان هذا أولى وأما ما ذكروه فى المعارضة الاولى فنقول قوله يحذر الآخرة تدخل فيه الحياة الآخرة سواء كانت فى القبر أو فى القيامة وأما المعارضة الثانية فجوابها أنا نرجح قولنا بالاحاديث الصحيحة الواردة فى عذاب القبر وأما الوجهان العقليان فدفوعان لانا اذا قلنا ان الانسان ليس عبارة عن هذا الهيكل بل هو عبارة عن جسم نورانى سار فى هذا البدن كانت الاشكالات التى ذكرتموها غير واردة فى هذا الباب والله أعلم (المسئلة الثانية) اعلم أنا لما اثبتنا حياة القبر فيكون الحاصل فى حق بعضهم أربعة أنواع من الحياة وثلاثة أنواع من الموت والدليل عليه قوله تعالى فى سورة البقرة ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم فهؤلاء أربع مراتب فى الحياة حياتان فى الدنيا وحياة فى القبر وحياة رابعة فى القيامة (المسئلة الثالثة) قوله اثنتين نعت لمصدر محذوف والتقدير اماتتين اثنتين ثم حكى الله عنهم انهم قالوا فاعترفنا بذنوبنا فان قيل الفاء فى قوله فاعترفنا تقتضى أن تكون الاماتة مرتين والاحياء مرتين سببا لهذا الاعتراف فبينوا هذه السببية قلنا لانهم كانوا منكرين للبعث فلما شاهدوا الاحياء بعد الاماتة مرتين لم يبق لهم عذر فى الاقرار بالبعث فلا جرم وقع هذا الاقرار كالمسبب عن تلك الاحياء والاماتة ثم قال فهل الى خروج من سبيل أى هل الى نوع من الخروج سريع أو بطىء من سبيل أم اليأس وقع فلا خروج ولا سبيل اليه وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط واعلم أن الجواب الصريح عنه أن يقال لا أو نعم وهو تعالى لم يفعل ذلك بل ذكر كلاما يدل على انه لا سبيل لهم الى الخروج فقال ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا أى ذلكم الذى أنتم فيه وهو أن لا سبيل لكم الى خروج قط انما وقع بسبب كفركم بتوحيد الله تعالى وايمانكم بالاشراك به فالحكم لله حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدى وقوله العلى الكبير دلالة على الكبرياء والعظمة وعلى أن عقابه لا يكون الا كذلك والمشبهة استدلوا بقوله تعالى العلى على العلو الاعلى فى الجهة وبقوله الكبير على كبر الجثة والذات وكل ذلك باطل لانا دللنا على أن الجسمية والمكان محالان فى حق الله تعالى فوجب أن يكون المراد من العلى الكبير العلو والكبرياء بحسب القدرة والالهية ۞ قوله تعالى (هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر الا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) اعلم انه تعالى لما ذكر ما يوجب التهديد الشديد فى حق المشركين أردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته وحكمته ليصير ذلك دليلا على انه لا يجوز جعل هذه الاحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء لله تعالى فى المعبودية فقال هو الذى يريكم آياته واعلم ان أهم المهمات رعاية مصالح الاديان ومصالح الابدان فهو سبحانه وتعالى راعى مصالح أديان العباد باظهار البينات والآيات وراعى مصالح أبدانهم بانزال الرزق من السماء فموقع الآيات من الاديان كموقع الارزاق من الابدان فالآيات لحياة الاديان والارزاق لحياة الابدان وعند حصولهما يحصل الانعام على أقوى الاعتبارات وأكمل الجهات ثم قال وما يتذكر الا من ينيب والمعنى ان الوقوف على دلائل توحيد الله تعالى كالامر المركوز فى العقل الا أن القول بالشرك والاشتغال بعبادة غير الله يصير كالمانع من تجلى تلك الانوار فاذا أعرض العبد عنها وأناب الى الله تعالى زال الغطاء والوطاء فظهر الفوز التام ولما قرر هذا المعنى صرح بالمطلوب وهو الاعراض عن غير الله والاقبال بالكلية على الله تعالى فقال فادعوا الله مخلصين له الدين من الشرك ومن الالتفات الى غير الله ولو كره الكافرون قرأ ابن كثير ينزل خفيفة والباقون بالتشديد ۞ قوله تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى

(يا أبت استأجره) أى لرعى الغنم والقيام بأمرها (ان خير من استأجرت القوى الامين) تعليل جار مجرى الدليل على انه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فى ذلك جعل خيرا اسما لان وذكر الفعل على صيغة الماضى للدلالة على أنه أمين مجرب روى أن شعيبا عليه السلام قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت ما شاهدت منه عليه السلام من اقلال الحجر ونزع الدلو وانه صوب رأسه حتى بلغته رسالته وأمرها بالمشى خلفه (قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى) أى تكون أجيرا لى أو تثيبنى من أجرت كذا اذا أثبته اياه فقوله تعالى (ثمانى حجج) على الاول ظرف وعلى الثانى مفعول به على تقدير مضاف أى رعية ثمانى حجج ونقل عن المبرد انه يقال أجرت دارى ومملوكى غير ممدود وآجرت ممدودا والاول أكثر فعلى هذا يكون المفعول الثانى محذوفا والمعنى على أن تأجرنى نفسك وقوله تعالى ثمانى حجج ظرف كالوجه الاول (فان أتممت عشرا) فى الخدمة والعمل (فمن عندك) أى فهو من عندك بطريق التفضل لا من عندى بطريق الالزام عليك وهذا من شعيب عرض لرأيه على موسى عليهما السلام واستدعاء منه للعقد لا انشاء وتحقيق له بالفعل (وما أريد أن أشق عليك) بالزام اتمام العشر أو المناقشة فى مراعاة الاوقات واستيفاء الاعمال واشتقاق المشقة من الشق فان ما يصعب عليك يشق عليك اعتقادك فى اطاقته ويوزع رأيك فى مزاولته (ستجدنى ان شاء الله من الصالحين) فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد ومراده عليه الصلاة والسلام

على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب) اعلم انه تعالى لما ذكر من صفات كبريائه واكرامه كونه مظهرا للآيات منزلا للارزاق ذكر في هذه الآية ثلاثة أخرى من صفات الجلال والعظمة وهو قوله رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح قال صاحب الكشاف ثلاثة أخبار لقوله هو مرتبة على قوله الذي يريكم أو أخبار مبتدأ محذوف وهي مختلفة تعريفا وتنكيرا وقرئ رفيع الدرجات بالنصب على المدح وأقول لا بد من تفسير هذه الصفات الثلاثة (فالصفة الاولى) قوله رفيع الدرجات واعلم ان الرفيع يحتمل أن يكون المراد منه الرافع وان يكون المراد منه المرتفع أما اذا حملناه على الاول ففيه وجوه (الوجه الاول) انه تعالى يرفع درجات الانبياء والاولياء في الجنة (والثاني) رافع درجات الخلق في العلوم والاخلاق الفاضلة فهو سبحانه عين لكل أحد من الملائكة درجة معينة كما قال ومامنا الا له مقام معلوم وعين لكل واحد من العلماء درجة معينة فقال يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات وعين لكل جسم درجة معينة فجعل بعضها سفلية عنصرية وبعضها فلكية كوكبية وبعضها من جواهر العرش والكرسي فجعل بعضها درجة أعلى من درجة الثاني وأيضا جعل لكل أحد مرتبة معينة في الخلق والرزق والاجل فقال وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات وجعل لكل أحد من السعداء والاشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة وفي الآخرة لظهور آثار تلك السعادة والشقاوة فاذا حملنا الرفيع على الرافع كان معناه ما ذكرناه وأما اذا حملناه على المرتفع فهو سبحانه أرفع الموجودات في جميع صفات الكمال والجلال أما في أصل الوجود فهو أرفع الموجودات لانه واجب الوجود لذاته وما سواه ممكن ومحتاج اليه وأما في دوام الوجود فهو أرفع الموجودات لانه واجب الوجود لذاته وهو الازلي والابدي والسرمدي الذي هو أول لكل ما سواه وليس له أول وآخر لكل ما سواه وليس له آخر أما في العلم فلانه هو العالم بجميع الذوات والصفات والكليات والجزئيات كما قال وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو وأما في القدرة فهو أعلى القادرين وأرفعهم لانه في وجوده وجميع كمالات وجوده غني عن كل ما سواه وكل ما سواه فانه محتاج في وجوده وفي جميع كمالات وجوده اليه وأما في الوحدانية فهو الواحد الذي يمتنع أن يحصل له ضد وند وشريك ونظير وأقول الحق سبحانه له صفتان (أحدهما) استغناؤه في وجوده وفي جميع صفات وجوده عن كل ما سواه (والثاني) افتقار كل ما سواه اليه في وجوده وفي صفات وجوده فالرفيع ان فسرناه بالمرتفع كان معناه انه أرفع الموجودات وأعلاها في جميع صفات الجلال والاكرام وان فسرناه بالرافع كان معناه ان كل درجة وفضيلة ورحمة ومنقبة حصلت لشيء سواه فانما حصلت بايجاده وتكوينه وفضله ورحمته (الصفة الثانية) قوله ذو العرش ومعناه انه مالك العرش ومدبره وخالقه واحتج بعض الاغمار من المشبهة بقوله رفيع الدرجات ذو العرش وحملوه على أن المراد بالدرجات السموات وبقوله ذو العرش انه موجود في العرش فوق سبع سموات وقد أعظموا الفرية على الله تعالى فانا بينا بالدلائل القاهرة العقلية والنقلية ان كونه تعالى جسما وفي جهة محال وأيضا فظاهر اللفظ لا يدل على ما قالوه لان قوله ذو العرش لا يفيد الا اضافته الى العرش ويكفي فيه اضافته اليه بكونه مالكا له ومخرجا له من العدم الى الوجود فأي ضرورة تدعونا الى الذهاب الى القول الباطل والمذهب الفاسد والفائدة في تخصيص العرش بالذكر هو انه أعظم الاجسام والمقصود بيان كمال الهيبة ونفاذ قدرته فكل ما كان محل التصرف والتدبير أعظم كانت دلالته على كمال القدرة أقوى (الصفة الثالثة) قوله يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده وفيه مباحث (البحث الاول) اختلفوا في المراد بهذا الروح والصحيح أن المراد هو الوحي وقد أطنبنا في بيان انه لم سمي الوحي بالروح في أول سورة النحل في تفسير قوله ينزل الملائكة بالروح من أمره وقال أيضا أومن كان ميتا فأحييناه وحاصل الكلام فيه أن حياة الارواح بالمعارف الالهية والجلايا القدسية فاذا كان الوحي سببا لحصول هذه الارواح سمي بالروح فان الروح سبب لحصول الحياة والوحي سبب لحصول هذه الحياة الروحانية واعلم أن هذه الآية مشتملة على أسرار عجيبة من علوم المكاشفات وذلك لان كمال كبرياء الله تعالى لا تصل اليه العقول والافهام فالطريق الكامل في تعريفه بقدر الطاقة البشرية

بالاستثناء التبرك به وتفويض أمره الى توفيقه تعالى لا تعليق صلاحه بمشيئته تعالى (قال ذلك بيني وبينك) مبتدأ وخبر أي ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم وثابت بيننا جميعا لا يخرج عنه واحد منا لا أنا عما شرطت علي ولا أنت عما شرطت على نفسك وقوله تعالى (أيما الاجلين) أي أكثرهما أو أقصرهما (قضيت) أي وفيتكه بأداء الخدمة فيه (فلا عدوان علي) تصريح بالمراد وتقرير لأمر الخيرة أي لا عدوان علي بطلب الزيادة على ما قضيته من الاجلين وتعميم انتفاء العدوان لكلا الاجلين بصدد المشارطة مع عدم تحقق العدوان في أكثرهما أيضا للقصد الى التسوية بينهما في الانتفاء أي كما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان أو أيما الاجلين قضيت فلا اثم علي يعني كما لا اثم علي في قضاء الاكثر لا اثم علي في قضاء الاقصر فقط وقرئ أي الاجلين ما قضيت فما مزيدة لتأكيد القضاء كما انها في القراءة الاولى مزيدة لتأكيد ابهام أي وشياعها وقرئ أيما بسكون الياء كقول من قال

تنظرت نصرا والسماكين أيهما
علي من الغيث استهلت مواطره

(والله على ما نقول) من الشروط الجارية بيننا (وكيل) شاهد وحفيظ فلا سبيل لاحد منا الى الخروج عنه أصلا وليس ما حكى عنهما عليهما الصلاة والسلام تمام ما جرى بينهما من الكلام في انشاء عقد النكاح وعقد الاجارة وايقاعهما بل هو بيان لما عزما عليه واتفقا على ايقاعه حسبما يتوقف عليه مساق القصة اجمالا من غير تعرض

ان يذكر ذلك الكلام على الوجه الكلى العقلى ثم يذكر عقيبه شئ من المحسوسات المؤكدة لذلك المعنى العقلى ليصير الحصر بهذا الطريق معاضدا للعقل فههنا أيضا كذلك فقوله رفيع الدرجات اما أن يكون بمعنى كونه رافعا للدرجات وهو اشارة الى تأثير قدرة الله تعالى فى ايجاد الممكنات على اختلاف درجاتها وتباين منازلها وصفاتها أو الى كونه تعالى مرتفعا فى صفات الجلال ونعوت العزة عن كل الموجودات فهذا الكلام كلى عقلى برهانى ثم انه سبحانه بين هذا الكلام الكلى بمزيد تقرير وذلك لان ماسوى الله تعالى اما جسمانيات واما روحانيات فبين فى هذه الآية ان كلا القسمين مسخر تحت تسخير الحق سبحانه وتعالى أما الجسمانيات فأعظمها العرش فقوله ذو العرش يدل على استيلائه على كلية عالم الاجسام ولما كان العرش من جنس المحسوسات كان هذا المحسوس مؤكدا لذلك المعقول أعنى قوله رفيع الدرجات وأما الروحانيات فكلها مسخرة للحق سبحانه واليه الاشارة بقوله يلقى الروح من أمره واعلم ان أشرف الاحوال الظاهرة فى روحانيات هذا العالم ظهور آثار الوحى والوحى انما يتم باركان أربعة (فاولها) المرسل وهو الله سبحانه وتعالى فلهذا أضاف القاء الوحى الى نفسه فقال يلقى الروح (والركن الثانى) الارسال والوحى وهو الذى سماه بالروح (والركن الثالث) أن وصول الوحى من الله تعالى الى الانبياء لايمكن أن يكون الا بواسطة الملائكة وهو المشار اليه فى هذه الآية بقوله من أمره فالركن الروحانى يسمى أمرا قال تعالى وأوحى فى كل سماء أمرها وقال ألا له الخلق والامر (والركن الرابع) الانبياء الذين يلقى الله الوحى اليهم وهو المشار اليه بقوله على من يشاء من عباده (والركن الخامس) تعيين الغرض والمقصود الاصلى من القاء هذا الوحى اليهم وذلك هو ان الانبياء عليهم السلام يصرفون الخلق من عالم الدنيا الى عالم الآخرة ويحملونهم على الاعراض عن هذه الجسمانيات والاقبال على الروحانيات واليه الاشارة بقوله لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون فهذا ترتيب عجيب يدل على هذه الاشارات العالية من علوم المكاشفات الالهية وبقى ههنا ان نبين أنه ما السبب فى تسمية يوم القيامة بيوم التلاق وكم الصفات التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة ليوم التلاق أما السبب فى تسمية يوم القيامة بيوم التلاق ففيه وجوه (الاول) ان الارواح كانت متباينة عن الاجساد فاذا جاء يوم القيامة صارت الارواح ملاقية للاجساد فكان ذلك اليوم يوم التلاق (الثانى) ان الخلائق يتلاقون فيه فيقف بعضهم على حال البعض (الثالث) ان أهل السماء ينزلون على أهل الارض فيلتقى فيه أهل السماء وأهل الارض قال تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا (الرابع) ان كل أحد يصل الى جزاء عمله فى ذلك اليوم فكان ذلك من باب التلاق وهو مأخوذ من قولهم فلان لقى عمله (الخامس) يمكن أن يكون ذلك مأخوذا من قوله فمن كان يرجو لقاء ربه ومن قوله تحيتهم يوم يلقونه سلام (السادس) يوم يلتقى فيه العابدون والمعبودون (السابع) يوم يلتقى فيه آدم عليه السلام وآخر ولده (الثامن) قال ميمون بن مهران يوم يلتقى فيه الظالم والمظلوم فربما ظلم الرجل رجلا وانفصل عنه ولو أراد أن يجده لم يقدر عليه ولم يعرفه ففى يوم القيامة يحضران ويلقى بعضهم بعضا قرأ ابن كثير التلاقى والتنادى باثبات الياء فى الوصل والوقف وهادى وواقى بالياء فى الوقف وبالتنوين فى الوصل وأما بيان ان الله تعالى كم عدد من الصفات ووصف بها يوم القيامة فى هذه الآية فنقول (الصفة الاولى) كونه يوم التلاق وقد ذكرنا تفسيره (الصفة الثانية) قوله يوم هم بارزون وفى تفسير هذا البروز وجوه (الاول) انهم برزوا عن بواطن القبور (والثانى) بارزون أى ظاهرون لايسترهم شئ من جبل أو أكمة أو بناء لان الارض بارزة قاع صفصف وليس عليهم أيضا ثياب انما هم عراة مكشوفون كما جاء فى الحديث يحشرون عراة حفاة غرلا (الثالث) أن يجعل كونهم بارزين كناية عن ظهور أعمالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى يوم تبلى السرائر (الرابع) ان هذه النفوس الناطقة البشرية كانها فى الدنيا انغمست فى ظلمات أعمال الابدان فاذا جاء يوم القيامة أعرضت عن الاشتغال بتدبير الجسمانيات وتوجهت بالكلية الى عالم القيامة ومجمع الروحانيات فكأنها برزت بعد أن كانت كامنة فى الجسمانيات مستترة بها (الصفة الثالثة) قوله لايخفى على الله منهم شئ والمراد يوم لايخفى على الله منهم شئ والمقصود منه الوعيد فانه تعالى بين انهم اذا برزوا من قبورهم واجتمعوا وتلاقوا فان الله تعالى يعلم مافعله

كل

ليبان مواجب العقدين فى تلك الشريعة تفصيلا روى أنهما لما أتما العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى وكانت عنده عصى الانبياء عليهم الصلاة والسلام فأخذ عصا هبط بها آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ولم يزل الانبياء يتوارثونها حتى وقعت الى شعيب عليه السلام فمسها وكان مكفوفا فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع فى يده الاهى سبع مرات فعلم ان له شأنا وقيل أخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقى بها موسى عليه السلام ليلا وقيل أودعها شعيبا ملك فى صورة رجل فأمر بنته أن تأتيه بعصا فأتته بها فردها سبع مرات فلم يقع فى يدها غيرها فدفعها اليه ثم ندم لانها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع فأتاهما الملك فقال ألقياها فمن رفعها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى عليه السلام وعن الحسن رضى الله تعالى عنه ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا وعن الكلبى رحمه الله الشجرة التى منها نودى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولما أصبح قال له شعيب صلوات الله وسلامه عليهما اذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فان الكلأ وان كان بها أكثر الا أن فيها تنينا أخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين فلم يقدر على كفها ومشى على اثرها فاذا عشب وريف لم ير مثله فنام فاذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت الى جنب موسى عليه السلام دامية فلما أبصرها دامية

كل واحد منهم فيجازى كلا بحسبه ان خيرا فخير وان شرا فشر فهم وان لم يعلموا تفصيل مافعلوه فالله تعالى عالم بذلك ونظيره قوله يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية وقال يوم تبلى السرائر وقال اذا بعثر مافى القبور وحصل مافى الصدور وقال يومئذ تحدث أخبارها فان قيل الله تعالى لا يخفى عليه منهم شئ فى جميع الايام فما معنى تقييد هذا المعنى بذلك اليوم قلنا انهم كانوا يتوهمون فى الدنيا اذا استتروا بالحيطان والحجب ان الله لا يراهم ويخفى عليه اعمالهم فهم فى ذلك اليوم صائرون من البروز والانكشاف الى حال لا يتوهمون فيها مثل مايتوهمونه فى الدنيا قال تعالى ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وقال يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معنى قوله وبرزوا لله الواحد القهار (الصفة الرابعة) قوله تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار والتقدير يوم ينادى فيه لمن الملك اليوم وهذا النداء فى أى الاوقات يحصل فيه قولان (الاول) قال المفسرون اذا هلك كل من فى السموات ومن فى الارض فيقول الرب تعالى لمن الملك اليوم يعنى يوم القيامة فلا يجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول لله الوحد القهار قال أهل الاصول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى بين ان هذا النداء انما يحصل يوم التلاق ويوم البروز ويوم تجزى كل نفس بما كسبت والناس فى ذلك الوقت أحياء فبطل قولهم ان الله تعالى انما ينادى بهذا النداء حين هلك كل من فى السموات والارض (والثانى) أن الكلام لابد فيه من فائدة لان الكلام اما أن يذكر حال حضور الغير أو حال مالا يحضر الغير والاول باطل ههنا لان القوم قالوا انه تعالى انما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل والثانى أيضا باطل لان الرجل انما يحسن تكلمه حال كونه وحده اما لانه يحفظ به شيأ كالذى يكرر على الدرس وذلك على الله محال أو لاجل انه يحصل له سرور بما يقوله وذلك أيضا على الله محال أو لاجل أن يعبد الله بذلك الذكر وذلك أيضا على الله محال فثبت أن قول من يقول ان الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لا أصل له (والقول الثانى) ان فى يوم التلاق اذا حضر الاولون والآخرون وبرزوا لله نادى مناد لمن الملك اليوم فيقول كل الحاضرين فى محفل القيامة لله الواحد القهار فالمؤمنون يقولونه تلذذا بهذا الكلام حيث نالوا بهذا الذكر المنزلة الرفيعة والكفار يقولونه على الصغار والذلة على وجه التحسر والندامة على ان فاتهم هذا الذكر فى الدنيا وقال القائلون بهذا القول ان صح القول الاول عن ابن عباس وغيره لم يمتنع أن يكون المراد ان هذا النداء يذكر بعد فناء البشر الا انه حضر هنالك ملائكة يسمعون ذلك النداء وأقول أيضا على هذا القول لا يبعد أن يكون السائل والمجيب هو الله تعالى ولا يبعد أيضا أن يكون السائل جمعا من الملائكة والمجيب جمعا آخرين والكل ممكن وليس على التعيين دليل فان قيل وما الفائدة فى تخصيص هذا اليوم بهذا النداء فنقول الناس كانوا مغرورين فى الدنيا بالاسباب الظاهرة وكان الشيخ الامام الوالد عمر رضى الله عنه يقول لولا الاسباب لما ارتاب مرتاب وفى يوم القيامة زالت الاسباب وانعزلت الارباب ولم يبق البتة غير حكم مسبب الاسباب فلهذا اختص النداء بيوم القيامة واعلم انه وان كان ظاهر اللفظ يدل على اختصاص ذلك النداء بذلك اليوم الا ان قوله لله الواحد القهار يفيد أن هذا النداء حاصل من جهة المعنى أبدا وذلك لان قولنا الله اسم لواجب الوجود لذاته وواجب الوجود لذاته واحد وكل ماسواه ممكن لذاته والممكن لذاته لا يوجد الا بايجاد الواجب لذاته ومعنى الايجاد هو ترجيح جانب الوجود على جانب العدم وذلك الترجيح هو قهر للجانب المرجوح فثبت ان الاله القهار واحد أبدا ونداء لمن الملك اليوم انما ظهر من كونه واحدا قهارا فاذا كان كونه قهارا باقيا من الازل الى الابد لا جرم كان نداء لمن الملك اليوم باقيا فى جانب المعنى من الازل الى الابد (الصفة الخامسة) من صفات ذلك اليوم قوله اليوم تجزى كل نفس بما كسبت واعلم انه سبحانه لما شرح صفات القهر فى ذلك اليوم أردفه ببيان صفات العدل والفضل فى ذلك اليوم فقال اليوم تجزى كل نفس بما كسبت وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) هذا الكلام اشتمل على أمور ثلاثة (أولها) اثبات الكسب للانسان (والثانى) ان كسبه يوجب الجزاء (والثالث) ان ذلك الجزاء انما يستوفى فى ذلك اليوم فهذه الكلمة على اختصارها مشتملة على هذه الاصول الثلاثة فى هذا الكتاب وهى أصول عظيمة الموقع فى الدين وقد سبق تقرير هذه الاصول مرارا ولا بأس بذكر بعض النكت فى تقرير هذه الاصول أما الاول فهو اثبات الكسب

والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع الى شعيب عليهما السلام مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى عليه السلام بالشان ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا وقال له انى وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل أدرع ودرعاء فأوحى اليه فى المنام أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما اخطأت واحدة الا وضعت أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه والفاء فى قوله تعالى (فلما قضى موسى الاجل) فصيحة أى فعقد العقدين وباشر موسى ما التزمه فلما أتم الاجل (وسار بأهله) نحو مصر باذن من شعيب عليهما السلام روى أنه عليه الصلاة والسلام قضى أبعد الاجلين ومكث عنده بعد ذلك عشر سنين ثم عزم على العود الى مصر فاستأذنه فى ذلك فأذن له فخرج بأهله (آنس من جانب الطور) أى أبصر من الجهة التى تلى الطور (نارا قال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر) أى بخبر الطريق وقد كانوا اضلوه (أو جذوة) أى عود غليظ سواء كانت فى رأسه نار أولا قال قائلهم

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها
جزل الجذى غير خوار ولا دعر

وقال

وألقى على قبس من النار جذوة
شديدا عليها حرها والتهابها

ولذلك بين بقوله تعالى (من النار) وقرئ بكسر الجيم وبضمها وكلها لغات (لعلكم تصطلون) أى تستدفئون (فلما أتاها) أى النار التى آنسها (نودى من شاطئ الواد الايمن) أى أتاه النداء من الشاطئ الايمن بالنسبة الى موسى عليه السلام (فى البقعة المباركة) متصل بالشاطئ أو صلة

للانسان وهو عبارة عن كون أعضائه سليمة صالحة للفعل والترك فمادام يبقى على هذا الاستواء امتنع صدور الفعل والترك عنه فاذا انضاف اليه الداعى الى الفعل أو الداعى الى الترك وجب صدور ذلك الفعل أو الترك عنه وأما الثانى وهو بيان ترتب الجزاء عليه فاعلم أن الافعال على قسمين منها ما يكون الداعى اليه طلب الخيرات الجسمانية الحاصلة فى عالم الدنيا ومنها ما يكون الداعى اليه طلب الخيرات الروحانية التى لا يظهر كمالها الا فى عالم الآخرة وقد ثبت بالتجربة أن كثرة الافعال سبب لحصول الملكات الراسخة فمن غلب عليه القسم الاول استحكمت رغبته فى الدنيا وفى الجسمانيات فعند الموت يحصل الفراق بينه و بين مطلوبه على أعظم الوجوه و يعظم عليه البلاء ومن غلب عليه القسم الثانى فعند الموت يفارق المبغوض و يتصل بالمحبوب فتعظم الآلاء والنعماء فهذا هو معنى الكسب ومعنى كون ذلك الكسب موجبا للجزاء فظهر بهذا ان كمال الجزاء لا يحصل الا فى يوم القيامة فهذا قانون كلى عقلى والشريعة الحقة أتت بما يقوى هذا القانون الكلى فى تفاصيل الاعمال والاقوال والله أعلم (المسئلة الثانية) هذه الآية أصل عظيم فى أصول الفقه وذلك لانا نقول لو كان شئ من أنواع الضرر مشروعا لكان اما أن يكون مشروعا لكونه جزاء على شئ من الجنايات أولا لكونه جزاء والقسمان باطلان فبطل القول بكونه مشروعا أما بيان انه لا يجوز أن يكون مشروعا لكونه جزاء على شئ من الاعمال فلان هذا النص يقتضى تأخير الاجزية الى يوم القيامة فاثباته فى الدنيا يكون على خلاف هذا النص وأما بيان انه لا يجوز أن يكون مشروعا لا للجزاء فلقوله تعالى يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولقوله تعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرج ولقوله صلى الله عليه وسلم لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام عدلنا عن هذه العمومات فيما اذا كانت المضار أجزية وفيما ورد نص فى الاذن فيه كذبح الحيوانات فوجب أن يبقى على أصل الحرمة فيما عداه فثبت بما ذكرنا ان الاصل فى المضار والآلام التحريم فان وجدنا نصا خاصا يدل على الشرعية قضينا به تقديما للخاص على العام والا فهو باق على أصل التحريم وهذا أصل كلى منتفع به فى الشريعة والله أعلم (الصفة السادسة) من صفات ذلك اليوم قوله لا ظلم اليوم والمقصود انه لما قال اليوم تجزى كل نفس بما كسبت أردفه بما يدل على انه لا يقع فى ذلك اليوم نوع من أنواع الظلم قال المحققون وقوع الظلم فى الجزاء يقع على أربعة أقسام (أحدها) أن يستحق الرجل ثوابا فيمنع منه (وثانيها) أن يعطى بعض حقه ولكنه لا يوصل اليه حقه بالتمام (وثالثها) أن يعذب من لا يستحق العذاب (ورابعها) أن يكون الرجل مستحقا للعذاب فيعذب ويزاد على قدر حقه فقوله تعالى لا ظلم اليوم يفيد نفى هذه الاقسام الاربعة قال القاضى هذه الآية قوية فى ابطال قول المجبرة لان على قولهم لا ظلم غائبا وشاهدا الا من الله ولانه تعالى اذا خلق فيه الكفر ثم عذبه عليه فهذا هو عين الظلم والجواب عنه معلوم ثم قال تعالى ان الله سريع الحساب وذكر هذا الكلام فى هذا الموضع لائق جدا لانه تعالى لما بين انه لا ظلم بين انه سريع الحساب وذلك يدل على انه يصل اليهم ما يستحقونه فى الحال والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وانذرهم يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ ان الله هو السميع البصير أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الارض فاخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله انه قوى شديد العقاب﴾ اعلم ان المقصود من هذه الآية وصف يوم القيامة بأنواع أخرى من الصفات الهائلة المهيبة وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى تفسير يوم الآزفة وجوها (الاول) ان يوم الآزفة هو يوم القيامة والآزفة فاعلة من أزف الامر اذا دنا وحضر لقوله فى صفة يوم القيامة أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة وقال الشاعر

أزف الترحل غير أن ركابنا * لما تزل برحالنا وكأن قد

والمقصود منه التنبيه على أن يوم القيامة قريب ونظيره قوله تعالى اقتربت الساعة قال الزجاج انما قيل لها آزفة لانها قريبة وان استبعد الناس مداها وما هو كائن فهو قريب واعلم ان الآزفة نعت لمحذوف مؤنث على تقدير يوم القيامة الآزفة أو يوم المجازاة الآزفة قال القفال وأسماء القيامة تجرى على

لتودى (من الشجرة) بدل اشتمال من شاطئ لانها كانت نابتة على الشاطئ (أن ياموسى انى أنا الله رب العالمين) وهذا وان خالف لفظا ما فى طه والنمل لكنه موافق له فى المعنى المراد (وأن ألق عصاك) عطف على أن ياموسى وكلاهما مفسر لنودى والفاء فى قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت تعويلا على دلالة الحال عليها واشعارا بغاية سرعة تحقق مدلولاتها أى فالقاها فصارت ثعبانا فاهتزت فلما رآها تهتز (كأنها جان) أى فى سرعة الحركة مع غاية عظم جثتها (ولى مدبرا) أى منهزما من الخوف (ولم يعقب) أى لم يرجع (ياموسى) أى قيل ياموسى (أقبل ولا تخف انك من الآمنين) من المخاوف فانه لا يخاف لدى المرسلون (اسلك يدك فى جيبك) أى أدخلها فيه (تخرج بيضاء من غير سوء) أى عيب (واضمم اليك جناحك) أى يديك المبسوطين لتتقى بهما الحية كالخائف الفزع بادخال اليمنى تحت العضد الايسر واليسرى تحت الايمن أو بادخالهما فى الجيب فيكون تكريرا لغرض آخر هو ان يكون ذلك فى وجه العدو واظهار جراءة ومبدأ لظهور معجزة ويجوز ان يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانا استعارة من حال الطائر فانه اذا خاف نشر جناحيه واذا أمن واطمأن ضمهما اليه (من الرهب) أى من أجل الرهب أى اذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلدا وضبطا لنفسك وقرئ بضم الراء وسكون الهاء وبضمهما والكل لغات (فذانك) اشارة الى العصا واليد وقرئ بتشديد النون والمخفف مثنى ذاك

التأنيث كالطامة والحاقة ونحوها كأنها رجع معناها الى الداهية (والقول الثانى) ان المراد بيوم الآزفة وقت الآزفة وهى مسارعتهم دخول النار فان عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها من شدة الخوف (والقول الثالث) قال أبو مسلم يوم الآزفة يوم المنية وحضور الاجل والذى يدل عليه انه تعالى وصف يوم القيامة بأنه يوم التلاق ويوم هم بارزون ثم قال بعده وأنذرهم يوم الآزفة فوجب ان يكون هذا اليوم غير ذلك اليوم وأيضا هذه الصفة مخصوصة فى سائر الآيات بيوم الموت قال تعالى فلولا اذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون وقال كلا اذا بلغت التراقى وأيضا فوصف يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب وأيضا الصفات المذكورة بعد قوله يوم الآزفة لائقة بيوم حضور الموت لان الرجل عند معاينة ملائكة العذاب يعظم خوفه فكان قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف و يبقوا كاظمين ساكتين عن ذكر مافى قلوبهم من شدة الخوف ولا يكون لهم حميم ولا شفيع يدفع مابهم من أنواع الخوف والقلق (المسئلة الثانية) اختلفوا فى أن المراد من قوله اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين كناية عن شدة الخوف أو هو محمول على ظاهره قيل المراد وصف ذلك اليوم بشدة الخوف والفزع ونظيره قوله تعالى و بلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا وقال فلولا اذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون وقيل بل هو محمول على ظاهره قال الحسن القلوب انتزعت من الصدور بسبب شدة الخوف و بلغت القلوب الحناجر فلا تخرج فيموتوا ولا ترجع الى مواضعها فيتنفسوا و يتروحوا ولكنها مقبوضة كالسجال كما قال فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقوله كاظمين أى مكروبين والكاظم الساكت حال امتلائه غما وغيظا فان قيل بم انتصب كاظمين قلنا هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى لان المراد اذ قلوبهم لدى الحناجر حال كونهم كاظمين ويجوز أيضا أن يكون حالا عن القلوب وان القلوب كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر وانما جمع الكاظمة جمع السلامة لانه وصفها بالكظم الذى هو من أفعال العقلاء كما قال رأيتهم لى ساجدين وقال فظلت أعناقهم لها خاضعين و يعضده قراءة من قرأ كاظمون و بالجملة فالمقصود من الآية تقرير أمرين (أحدهما) الخوف الشديد وهو المراد من قوله اذ القلوب لدى الحناجر (والثانى) العجز عن الكلام وهو المراد من قوله كاظمين فان الملهوف اذا قدر على الكلام حصلت له خفة وسكون اما اذا لم يقدر على الكلام و بث الشكوى عظم قلقه وقوى خوفه (المسئلة الثالثة) احتج أكثر المعتزلة فى نفى الشفاعة عن المذنبين بقوله تعالى ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع قالوا وانتفى حصول شفيع لهم يطاع فوجب ان لا يحصل لهم هذا الشفيع أجاب أصحابنا عنهم من وجوه (الاول) انه تعالى نفى ان يحصل لهم شفيع يطاع وهذا لايدل على نفى الشفيع ألا ترى انك اذا قلت ماعندى كتاب يباع فهذا يقتضى نفى كتاب يباع ولا يقتضى نفى الكتاب وقالت العرب * ولا ترى الضب بها ينجحر * ولفظ الطاعة يقتضى حصول المرتبة فهذا يدل على انه ليس لهم يوم القيامة شفيع يطيعه الله لانه ليس فى الوجود أحد أعلى حالا من الله تعالى حتى يقال ان الله يطيعه (الوجه الثانى فى الجواب) ان المراد من الظالمين ههنا الكفار والدليل عليه ان هذه الآية وردت فى زجر الكفار الذين يجادلون فى آيات الله فوجب أن يكون مختصا بهم وعندنا انه لاشفاعة فى حق الكفار (والثالث) ان لفظ الظالمين اما أن يفيد الاستغراق واما أن لا يفيد فان أفاد الاستغراق كان المراد من الظالمين مجموعهم وجملتهم و يدخل فى مجموع هذا الكلام الكفار وعندنا انه ليس لهذا المجموع شفيع لان بعض هذا المجموع هم الكفار وليس لهم شفيع فحينئذ لايكون لهذا المجموع شفيع وان لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض من كان موصوفا بهذه الصفة وعندنا ان بعض الموصوفين بهذه الصفة ليس لهم شفيع وهم الكافرون أجاب المستدلون عن السؤال الاول فقالوا يجب حمل كلام الله تعالى على محمل مفيد وكل أحد يعلم انه ليس فى الوجود شئ يطيعه الله لان المطيع أدون حالا من المطاع وليس فى الوجود شئ أعلى مرتبة من الله تعالى حتى يقال ان الله يطيعه واذا كان هذا المعنى معلوما بالضرورة كان حمل الآية عليه اخراجا لها عن الفائدة فوجب حمل الطاعة على الاجابة والذى يدل على ورود لفظ الطاعة بمعنى الاجابة قول الشاعر

رب من أنضجت غيظا صدره * قد تمنى لى موتا لم يطع

والمشدد مثنى ذلك (برهانان) حجتان نيرتان و برهان فعلان لقولهم أبره الرجل اذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل اذا ابيض و يقال للمرأة البيضاء برهاء و برهرهة ونظيره تسمية الحجة سلطانا من السليط وهو الزيت لانارتها وقيل هو فعلال لقولهم برهن ومن فى قوله تعالى (من ربك) متعلقة بمحذوف هو صفة لبرهانان أى كائنان منه تعالى (الى فرعون وملئه) واصلان ومنتهيان اليهم (انهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن حدود الظلم والعدوان فكانوا أحقاء بأن نرسلك اليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين (قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) بمقابلتها (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردأ) أى معينا وهو فى الاصل اسم مايعان به كالدفء وقرئ ردا بالتخفيف (يصدقنى) بتلخيص الحق وتقرير الحجة بتوضيحها وتزييف الشبهة (انى أخاف أن يكذبون) ولسانى لايطاوعنى عند المحاجة وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند اليه اسناد الفعل الى السبب وقرئ يصدقنى بالجزم على أنه جواب الامر (قال سنشد عضدك بأخيك) أى سنقويك به فان قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الامور ولذلك يعبر عنه باليد وشدتها بشدة العضد (ونجعل لكما سلطانا) أى تسلطا وغلبة وقيل حجة وليس بذاك (فلا يصلون اليكما) باستيلاء أو محاجة (بآياتنا) متعلق بمحذوف قد صرح به فى مواضع أخر أى اذهبا بآياتنا أو بنجعل أى نسلطكما بآياتنا أو بمعنى لايصلون أى تمتنعون منهم بها وقيل هو قسم وجوابه لايصلون وقيل هو بيان للغالبون فى قوله تعالى

(وأما السؤال الثانى) فقد أجابوا عنه بان لفظ الظالمين صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم أقصى مافى الباب ان هذه الآية وردت لذم الكفار الا ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (وأما السؤال الثالث) فجوابه ان قوله ماللظالمين من حميم يفيد ان كل واحد من الظالمين محكوم عليه بانه ليس له حميم ولا شفيع يطاع فهذا تمام كلام القوم فى تقرير ذلك الاستدلال أجاب أصحابنا عن السؤال الاول فقالوا ان القوم كانوا يقولون فى الاصنام انها شفعاؤنا عند الله وكانوا يقولون انها تشفع لنا عند الله من غير حاجة فيه الى اذن الله ولهذا السبب رد الله تعالى عليهم ذلك بقوله من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه فهذا يدل على ان القوم اعتقدوا انه يجب على الله اجابة الاصنام فى تلك الشفاعة وهذا نوع طاعة فالله تعالى نفى تلك الطاعة بقوله ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع وأجابوا عن الكلام الثانى بأن قالوا الاصل فى حرف التعريف ان ينصرف الى المعهود السابق فاذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق انصرف اليه وقد حصل فى هذه الآية معهود سابق وهم الكفار الذين يجادلون فى آيات الله فوجب أن ينصرف اليه وأجابوا عن الكلام الثالث بأن قالوا قوله ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يحتمل عموم السلب ويحتمل سلب العموم اما الاول فعلى تقدير أن يكون المعنى ان كل واحد من الظالمين محكوم عليه بانه ليس له حميم ولا شفيع وأما الثانى فعلى تقدير أن يكون المعنى ان مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع ولا يلزم من نفى الحكم عن المجموع نفيه عن كل واحد من آحاد ذلك المجموع والذى يؤكد ماذكرناه قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون فقوله ان الذين كفروا لا يؤمنون ان حملناه على ان كل واحد منهم محكوم عليه بانه لا يؤمن لزم وقوع الخلف فى كلام الله لان كثيرا ممن كفر فقد آمن بعد ذلك اما لو حملناه على ان مجموع الذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أو لم يؤمن صدق وتخلص عن الخلف فلا جرم حملنا هذه الآية على سلب العموم ولم نحملها على عموم السلب فكذا قوله ماللظالمين من حميم ولا شفيع يجب حمله على سلب العموم لا على عموم السلب وحينئذ يسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية فهذا غاية الكلام فى هذا الباب (المسئلة الرابعة) فى بيان نظم الآية فنقول انه تعالى ذكر فى هذه الآية جميع الاسباب الموجبة للخوف (فأولها) انه سمى ذلك اليوم يوم الآزفة أى يوم القرب من عذابه لمن ابتلى بالذنب العظيم لانه اذا قرب زمان عقوبته كان فى أقصى غايات الخوف حتى قيل ان تلك الغموم والهموم أعظم فى الايحاش من عين تلك العقوبة (والثانى) قوله اذ القلوب لدى الحناجر والمعنى انه بلغ ذلك الخوف الى أن انقلع القلب من الصدر وارتفع الى الحنجرة والتصق بها وصار مانعا من دخول النفس (والثالثة) قوله كاظمين والمعنى انه لا يمكنهم أن ينطقوا وان يشرحوا ماعندهم من الحزن والخوف وذلك يوجب مزيد القلق والاضطراب (والرابعة) قوله ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع فبين انه ليس لهم قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع فيهم فتقبل شفاعته (والخامسة) قوله يعلم خائنة الاعين وماتخفى الصدور والمعنى انه سبحانه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض والحاكم اذا بلغ فى العلم الى هذا الحد كان خوف المذنب منه شديدا جدا قال صاحب الكشاف الخائنة صفة النظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى المعافاة والمراد استراق النظر الى مالا يحل كما يفعل أهل الريب والمراد بقوله وماتخفى الصدور مضمرات القلوب والحاصل ان الافعال قسمان أفعال الجوارح وأفعال القلوب أما أفعال الجوارح فاخفاها خائنة الاعين والله أعلم بها فكيف الحال فى سائر الاعمال وأما أفعال القلوب فهى معلومة لله تعالى لقوله وماتخفى الصدور فدل هذا على كونه تعالى عالما بجميع أفعالهم (السادسة) قوله تعالى والله يقضى بالحق وهذا أيضا يوجب عظم الخوف لان الحاكم اذا كان عالما بجميع الاحوال وثبت منه انه لا يقضى الا بالحق فى كل مادق وجل كان خوف المذنب منه فى الغاية القصوى (السابعة) ان الكفار انما عولوا فى دفع العقاب عن أنفسهم على شفاعة هذه الاصنام وقد بين الله تعالى انه لافائدة فيها البتة فقال والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ (الثامنة) قوله ان الله هو السميع البصير أى يسمع من الكفار ثناءهم على الاصنام ولا يسمع منهم ثناءهم على الله ويبصر خضوعهم وسجودهم لهم ولا يبصر خضوعهم وتواضعهم لله فهذه الاحوال الثمانية اذا

اجتمعت

(أنتما ومن اتبعكما الغالبون) بمعنى انه صلة لما بينه او صلة له على أن اللام للتعريف لا بمعنى الذى (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) أى واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام منه تعالى والمراد بها العصا واليد اذهما اللتان أظهرهما موسى عليه السلام اذ ذاك والتعبير عنهما بصيغة الجمع قدمر سره فى سورة طه (قالوا ماهذا الا سحر مفترى) أى سحر مختلق لم يفعل قبل هذا مثله أو سحر تعمله ثم تفتريه على الله تعالى أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أصناف السحر (وماسمعنا بهذا) أى السحر أو ادعاء النبوة (فى آبائنا الاولين) أى واقعا فى أيامهم (وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يريد به نفسه وقرئ قال بغير واو لانه جواب عن مقالهم ووجه العطف أن المراد حكاية القولين ليوازن السامع بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد (ومن تكون له عاقبة الدار) أى العاقبة المحمودة فى الدار وهى الدنيا وعاقبتها الاصلية هى الجنة لانها خلقت مجازا الى الآخرة ومزرعة لها والمقصود بالذات منها الثواب وأما العقاب فمن نتائج أعمال العصاة وسيآت الغواة وقرئ يكون بالياء التحتانية (انه لا يفلح الظالمون) أى لا يفوزون بمطلوب ولا ينجون عن محذور (وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من اله غيرى) قاله اللعين بعدما جمع السحرة وتصدى للمعارضة فكان من أمرهم ماكان (فأوقد لى ياهامان على الطين) أى اصنع آجرا (فاجعل لى منه صرحا) أى قصرا رفيعا (لعلى أطلع الى اله موسى) كأنه توهم أنه لو كان لكان جسما فى السماء

اجتمعت فى حق المذنب الذى عظم ذنبه كان بالغا فى التخويف الى الحد الذى لا تعقل الزيادة عليه ثم انه تعالى لما بالغ فى تخويف الكفار بعذاب الآخرة أردفه ببيان تخويفهم بأحوال الدنيا فقال أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم والمعنى ان العاقل من اعتبر بغيره فان الذين مضوا من الكفار كانوا أشد قوة من هؤلاء الحاضرين من الكفار وأقوى آثارا فى الارض منهم والمراد حصونهم وقصورهم وعساكرهم فلما كذبوا رسلهم أهلكهم الله بضروب الهلاك معجلا حتى ان هؤلاء الحاضرين من الكفار يشاهدون تلك الآثار فحذرهم الله تعالى من مثل ذلك بهذا القول وبين بقوله وما كان لهم من الله من واق أنه لما نزل العذاب بهم عند أخذه تعالى اهم لم يجدوا من يعينهم ويخلصهم ثم بين ان ذلك نزل بهم لاجل انهم كفروا وكذبوا الرسل فحذر قوم الرسول من مثله وختم الكلام بانه قوى شديد العقاب مبالغة فى التحذير والتخويف والله أعلم وقرأ ابن عامر وحده كانوا اهم أشد منكم بالكاف والباقون بالهاء أما وجه قراءة ابن عامر فهو انصراف من الغيبة الى الخطاب كقوله اياك نعبد واياك نستعين بعد قوله الحمد لله والوجه فى حسن هذا الخطاب انه فى شأن أهل مكة فجعل الخطاب على لفظ المخاطب الحاضر لحضورهم وهذه الآية فى المعنى كقوله مكناهم فى الارض مالم نمكن لكم وأما قراءة الباقين على لفظ الغيبة فلاجل موافقة ماقبله من ألفاظ الغيبة ۞ قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين الا فى ضلال وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الارض الفساد وقال موسى انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ واعلم انه تعالى لما سلى رسوله بذكر الكفار الذين كذبوا الانبياء قبله وبمشاهدة آثارهم سلاه أيضا بذكر قصة موسى عليه السلام وأنه مع قوة معجزاته بعثه الى فرعون وهامان وقارون فكذبوه وكابروه وقالوا هو ساحر كذاب واعلم أن موسى عليه السلام لما جاءهم بتلك المعجزات الباهرة وبالنبوة وهى المراد بقوله فلما جاءهم بالحق من عندنا حكى الله تعالى عنهم ماصدر عنهم من الجهالات (فالاول) انهم وصفوه بكونه ساحرا كذابا وهذا فى غاية البعد لان تلك المعجزات كانت قد بلغت فى القوة والظهور الى حيث يشهد كل ذى عقل سليم بانه ليس من السحر البتة (الثانى) انهم قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم والصحيح ان هذا القتل غير القتل الذى وقع فى وقت ولادة موسى عليه السلام لان فى ذلك الوقت أخبره المنجمون بولادة عدو له يظهر عليه فأمر بقتل الابناء فى ذلك الوقت وأما فى هذا الوقت فموسى عليه السلام قد جاء وأظهر المعجزات الظاهرة فعند هذا أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه لئلا ينشؤا على دين موسى فيقوى بهم وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات فلهذا السبب أمر بقتل الابناء ثم قال تعالى وما كيد الكافرين الا فى ضلال ومعناه ان جميع مايسعون فيه من مكايدة موسى ومكايدة من آمن معه يبطل لان مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها (النوع الثالث) من قبائح أفعال أولئك الكفار مع موسى عليه السلام ماحكاه الله تعالى وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وهذا الكلام كالدلالة على انهم كانوا يمنعونه من قتله وفيه احتمالان (الاول) انهم منعوه عن قتله لوجوه (الاول) لعله كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقا فيأتى بوجوه الحيل فى منع فرعون من قتله (الثانى) قال الحسن ان أصحابه قالوا له لا تقتله فانما هو ساحر ضعيف ولا يمكنه أن يغلب سحرتنا وان قتلته أدخلت الشبهة على الناس وقالوا انه كان محقا وعجزوا عن جوابه فقتلوه (الثالث) لعلهم كانوا يحتالون فى منعه من قتله لاجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرغ لتأديب أولئك الاقوام فان من شأن الامراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجى حتى يصيروا آمنين من شر ذلك الملك (والاحتمال الثانى) ان أحدا مامنع فرعون من قتل موسى وانه كان يريد أن يقتله الا انه كان خائفا من انه لو حاول قتله لظهرت معجزات قاهرة تمنعه عن قتله فيفتضح الا انه لوقاحته قال ذرونى أقتل موسى وغرضه منه انه يوهم انه انما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه وغرضه منه اخفاء خوفه أما قوله وليدع ربه فانما ذكره على سبيل الاستهزاء يعنى انى أقتله فليقل لربه حتى يخلصه منى وأما قوله انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى

يمكن الرقى اليه ثم قال (وانى لاظنه من الكاذبين) أو أراد أن يبنى له رصدا يترصد منه أوضاع الكواكب فيرى هل فيها مايدل على بعثة رسول وتبدل دولته وقيل المراد بنفى العلم نفى المعلوم كما فى قوله تعالى قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض فان معناه بما ليس فيهن وهذا من خواص العلوم الفعلية فانها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاء معلوماتها ولا كذلك العلوم الانفعالية قيل أول من اتخذ الآجر فرعون ولذلك أمر باتخاذه على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع مافيه من تعظم ولذلك نادى هامان باسمه بيا فى وسط الكلام (واستكبر هو وجنوده فى الارض) أرض مصر (بغير الحق) بغير استحقاق (وظنوا انهم الينا لا يرجعون) بالبعث للجزاء وقرئ بفتح الياء وكسر الجيم من رجع رجوعا والاول من رجع رجعا وهو الانسب بالمقام (فأخذناه وجنوده) عقيب مابلغوا من الكفر والعتو أقصى الغايات (فنبذناهم فى اليم) قد مر تفصيله وفيه من تفخيم شأن الاخذ وتهويله واستحقار المأخوذين المنبوذين مالا يخفى كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم فى كف وطرحهم فى البحر ونظيره قوله تعالى وماقدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وبينها للناس ليعتبروا بها (وجعلناهم) أى صيرناهم فى عهدهم (أئمة يدعون الناس (الى النار) الى مايؤدى اليها من الكفر والمعاصى أى قدوة يقتدى بهم أهل الضلال لما صرفوا اختيارهم الى تحصيل تلك الحالة وقيل سميناهم أئمة دعاة

الارض الفساد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فتح ابن كثير الياء من قوله ذرونى وفتح نافع وابن كثير وأبو عمرو الياء من انى أخاف وأيضا قرأ نافع وأبو عمرو وان يظهر بالواو بحذف أو يعنى انه يجمع بين تبديل الدين و بين اظهار الفساد والذين قرؤا بصيغة أو فمعناه انه لابد من وقوع أحد الامرين وقرئ يظهر بضم الياء وكسر الهاء الفساد بالنصب على التعدية وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم بلفظ أو يظهر بفتح الياء والهاء الفساد بالرفع أما وجه القراءة الاولى فهو انه أسند الفعل الى موسى فى قوله يبدل فكذلك فى يظهر ليكون الكلام على نسق واحد وأما وجه القراءة الثانية فهو انه اذا بدل الدين فقد ظهر الفساد الحاصل بسبب ذلك التبديل (المسئلة الثانية) المقصود من هذا الكلام بيان السبب الموجب لقتله وهو أن وجوده يوجب اما فساد الدين أو فساد الدنيا أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذى كانوا عليه فلما كان موسى ساعيا فى افساده كان فى اعتقادهم انه ساع فى افساد الدين الحق وأما فساد الدنيا فهو انه لابد وان يجتمع عليه قوم ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات واثارة الفتن ولما كان حب الناس لاديانهم فوق حبهم لاموالهم لاجرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال انى أخاف أن يبدل دينكم ثم اتبعه بذكر فساد الدنيا فقال أوأن يظهر فى الارض الفساد واعلم انه تعالى لما حكى عن فرعون هذا الكلام حكى بعده ماذكره موسى عليه السلام فحكى عنه انه قال انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ نافع وأبو بكر وحمزة والكسائى عذت بادغام الذال فى التاء والباقون بالاظهار (المسئلة الثانية) المعنى انه لم يأت فى دفع شره الا بان استعاذ بالله واعتمد على فضل الله فلاجرم صانه الله عن كل بلية وأوصله الى كل أمنية واعلم ان هذه الكلمات التى ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد (الفائدة الاولى) أن لفظة انى تدل على التأكيد فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر فى دفع الشرور والآفات عن النفس الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى (الفائدة الثانية) انه قال انى عذت بربى وربكم فكما ان عند القراءة يقول المسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فالله تعالى يصون دينه واخلاصه عن وساوس شياطين الجن فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الانس اذا قال المسلم أعوذ بالله فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات (الفائدة الثالثة) قوله بربى وربكم والمعنى كان العبد يقول ان الله سبحانه هو الذى ربانى والى درجات الخيرات رقانى ومن الآفات وقانى وأعطانى نعما لاحد لها ولا حصر فلما كان المولى ليس الا الله وجب أن لايرجع العاقل فى دفع كل الآفات الا الى حفظ الله تعالى (الفائدة الرابعة) ان قوله وربكم فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به فى الاستعاذة بالله والمعنى فيه ان الارواح الطاهرة القوية اذا تطابقت على همة واحدة قوى ذلك التأثير جدا وذلك هو السبب الاصلى فى أداء الصلوات فى الجماعات (الفائدة الخامسة) انه لم يذكر فرعون فى هذا الدعاء لانه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه فترك التعيين رعاية لذلك الحق (الفائدة السادسة) ان فرعون وان كان قد أظهر ذلك الفعل الا انه لافائدة فى الدعاء على فرعون بعينه بل الاولى الاستعاذة بالله فى دفع كل من كان موصوفا بتلك الصفة حتى يدخل فيه كل من كان عدوا سواء كان مظهرا لتلك العداوة أو كان مخفيا لها (الفائدة السابعة) ان الموجب للاقدام على ايذاء الناس أمران (أحدهما) كون الانسان متكبرا قاسى القلب (والثانى) كونه منكرا للبعث والقيامة وذلك لان المتكبر القاسى قد يحمله طبعه على ايذاء الناس الا انه اذا كان مقرا بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعا له من الجرى على موجب تكبره فاذا لم يحصل عنده الايمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له الى الايذاء والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلا واذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلا فلاجرم تحصل القسوة والايذاء (الفائدة الثامنة) ان فرعون لما قال ذرونى أقتل موسى قال على سبيل الاستهزاء وليدع ربه فقال موسى ان الذى ذكرته يافرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير وأنا أدعو ربى وأطلب منه أن يدفع شرك عنى وسترى أن ربى كيف يقهرك وكيف يسلطنى عليك واعلم أن من أحاط عقله بهذه الفوائد علم انه لاطريق أصلح ولا أصوب فى دفع كيد الاعداء وابطال مكرهم الا الاستعاذة بالله والرجوع الى حفظ الله والله أعلم

الى النار كما فى قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا فالانسب حينئذ أن يكون الجعل بعدهم فيما بين الامم وتكون الدعوة الى نفس النار وقيل معنى الجعل منع الالطاف الصارفة عن ذلك (ويوم القيامة لاينصرون) بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) طردا وابعادا من الرحمة ولعنا من اللاعنين حيث لايزال يلعنهم الملائكة عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون خلفا عن سلف (ويوم القيامة هم من المقبوحين) من المطرودين المبعدين وقيل من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجه قاله ابن عباس رضى الله عنهما يقال قبحه الله وقبحه اذا جعله قبيحا وقال أبو عبيدة من المقبوحين من المهلكين ويوم القيامة اما متعلق بالمقبوحين على أن اللام للتعريف لا بمعنى الذى أو بمحذوف يفسره ذلك كأنه قيل وقبحوا يوم القيامة نحو لعملكم من القالين (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (من بعدما أهلكنا القرون الاولى) هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام والتعرض لبيان كون ايتائها بعد اهلاكهم للاشعار بمساس الحاجة الداعية اليه تمهيدا لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية الى انزال القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فان اهلاك القرون الاولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤدين الى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الامم المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الاصول الباقية على ممر

قوله تعالى ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب﴾ اعلم انه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد فى دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله بين أنه تعالى قيض انسانا أجنبيا غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه وبالغ فى تسكين تلك الفتنة واجتهد فى ازالة ذلك الشر * يقول مصنف هذا الكتاب رحمه الله ولقد جربت فى أحوال نفسى انه كلما قصدنى شرير بشر ولم أتعرض له وأكتفى بتفويض ذلك الامر الى الله فانه سبحانه يقيض أقواما لا أعرفهم البتة يبالغون فى دفع ذلك الشر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى ذلك الرجل الذى كان من آل فرعون فقيل انه كان ابن عم له وكان جاريا مجرى ولى العهد ومجرى صاحب الشرطة وقيل كان قبطيا من آل فرعون وما كان من أقاربه وقيل انه كان من بنى اسرائيل والقول الاول أقرب لان لفظ الآل يقع على القرابة والعشيرة قال تعالى الا آل لوط نجيناهم بسحر روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الصديقون ثلاثة حبيب النجار مؤمن آل ياسين ومؤمن آل فرعون الذى قال أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله والثالث على بن أبى طالب وهو أفضلهم وعن جعفر بن محمد أنه قال كان أبو بكر خيرا من مؤمن آل فرعون لانه كان يكتم ايمانه وقال أبو بكر جهارا أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله فكان ذلك سرا وهذا كان جهارا (المسئلة الثانية) لفظ من فى قوله من آل فرعون يجوز أن يكون متعلقا بقوله مؤمن أى كان ذلك المؤمن شخصا من آل فرعون ويجوز أن يكون متعلقا بقوله يكتم ايمانه والتقدير رجل مؤمن يكتم ايمانه من آل فرعون وقيل ان هذا الاحتمال غير جائز لانه لا يقال كتمت من فلان كذا انما يقال كتمته كذا قال تعالى ولا يكتمون الله حديثا (المسئلة الثالثة) رجل مؤمن الاكثرون قرؤا بضم الجيم وقرئ رجل بكسر الجيم كما يقال عضد فى عضد (المسئلة الرابعة) قوله تعالى أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله استفهام على سبيل الانكار وقد ذكر فى هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار وذلك لانه ما زاد على ان قال ربى الله وجاء بالبينات وذلك لا يوجب القتل البتة وقوله وقد جاءكم بالبينات من ربكم يحتمل وجهين (الاول) ان قوله ربى الله اشارة الى التوحيد وقوله وقد جاءكم بالبينات اشارة الى تقرير النبوة باظهار المعجزة (الثانى) ان قوله ربى الله اشارة الى التوحيد وقوله وقد جاءكم بالبينات اشارة الى الدلائل الدالة على التوحيد وهو قوله فى سورة طه ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقوله فى سورة الشعراء رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين الى آخر الآيات ثم ذكر ذلك المؤمن حجة ثانية فى أن الاقدام على قتله غير جائز وهى حجة مذكورة على طريقة التقسيم فقال ان كان هذا الرجل كاذبا كان وبال كذبه عائدا عليه فاتركوه وان كان صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم فثبت ان على كلا التقديرين كان الاولى ابقاؤه حيا فان قيل السؤال على هذا الدليل من وجهين (الاول) أن قوله وان يك كاذبا فعليه كذبه معناه ان ضرر كذبه مقصور عليه ولا يتعداه وهذا الكلام فاسد لوجوه (أحدها) انا لا نسلم ان بتقدير كونه كاذبا كان ضرر كذبه مقصورا عليه لانه يدعو الناس الى ذلك الدين الباطل فيغتر به جماعة منهم ويقعون فى المذهب الباطل والاعتقاد الفاسد ثم يقع بينهم وبين غيرهم الخصومات الكثيرة فثبت ان بتقدير كونه كاذبا لم يكن ضرر كذبه مقصورا عليه بل كان متعديا الى الكل ولهذا السبب فان العلماء أجمعوا على ان الزنديق الذى يدعو الناس الى زندقته يجب قتله (وثانيها) أنه ان كان هذا الكلام حجة له فلا كذاب الا ويمكنه أن يتمسك بهذه الطريقة فوجب تمكين جميع الزنادقة والمبطلين من تقرير أديانهم الباطلة (وثالثها) ان الكفار الذين أنكروا نبوة موسى عليه السلام وجب أن لا يجوز الانكار عليهم لانه يقال ان كان ذلك المنكر كاذبا فى ذلك الانكار فعليه كذبه وان يك صادقا انتفعتم بصدقه فثبت أن هذا الطريق يوجب تصويب ضده وما أفضى ثبوته الى عدمه كان باطلا (السؤال الثانى) انه كان من الواجب أن يقال وان يك صادقا يصبكم كل الذى يعدكم لان الذى يصيب فى بعض ما يعد دون البعض هم أصحاب الكهانة والنجوم أما الرسول الصادق الذى لا يتكلم الا بالوحى فانه يجب أن يكون صادقا فى كل ما يقول فكان قوله يصبكم بعض الذى يعدكم غير لائق بهذا المقام (والجواب) عن الاسئلة

الدهور وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير أحوال الامم الخالية الموجبة للاعتبار كأنه قيل ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة الى ايتائها (بصائر للناس) أى أنوارا لقلوبهم تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عمياء عن الفهم والادراك بالكلية فان البصيرة نور القلب الذى به يستبصر كما أن البصر نور العين الذى به تبصر (وهدى) أى هداية الى الشرائع والاحكام التى هى سبل الله تعالى (ورحمة) حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى وانتصاب الكل على الحالية من الكتاب على أنه نفس البصائر والهدى والرحمة أو على حذف المضاف أى ذا بصائر الخ وقيل على العلة أى آتيناه الكتاب للبصائر والهدى والرحمة (لعلهم يتذكرون) ليكونوا على حال يرجى منه التذكر وقد مر تحقيق القول فى ذلك عند قوله تعالى لعلكم تتقون من سورة البقرة وقوله تعالى (وما كنت بجانب الغربى) شروع فى بيان أن انزال القرآن الكريم أيضا واقع فى زمان شدة مساس الحاجة اليه واقتضاء الحكمة له البتة وقد صدر بتحقيق كونه وحيا صادقا من عند الله عز وجل ببيان أن الوقوف على ما فصل من الاحوال لا يتسنى الا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين أنه بوحى من علام الغيوب لا محالة على طريقة قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم الآية أى وما كنت بجانب الجبل الغربى أو المكان الغربى الذى وقع فيه الميقات على حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه أو الجانب الغربى على

الثلاثة بحرف واحد وهو أن تقدير الكلام أن يقال انه لا حاجة بكم فى دفع شره الى قتله بل يكفيكم ان تمنعوه عن اظهار هذه المقالة ثم تتركوا قتله فان كان كاذبا فحينئذ لا يعود ضرره الا اليه وان كان صادقا انتفعتم به والحاصل أن المقصود من ذكر ذلك التقسيم بيان أنه لا حاجة الى قتله بل يكفيكم أن تعرضوا عنه وأن تمنعوه عن اظهار دينه فبهذا الطريق الاسئلة الثلاثة مدفوعة (وأما السؤال الثانى) وهو قوله كان الاولى أن يقال يصبكم كل الذى يعدكم فالجواب عنه من وجوه (الاول) ان مدار هذا الاستدلال على اظهار الانصاف وترك اللجاج لان المقصود منه ان كان كاذبا كان ضرر كذبه مقصورا عليه وان كان صادقا فلا أقل من أن يصل اليكم بعض مايعدكم وان كان المقصود من هذا الكلام ماذكرنا صح ونظيره قوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين (والوجه الثانى) انه عليه السلام كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة فاذا وصل اليهم فى الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذى يعدهم به (الوجه الثالث) حكى عن أبى عبيدة انه قال وورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز واحتج بقول لبيد

تراك أمكنة اذا لم أرضها * أو يرتبط بعض النفوس حمامها

والجمهور على ان هذا القول خطأ قالوا وأراد لبيد ببعض النفوس نفسه والله أعلم ثم حكى تعالى عن هذا المؤمن حكاية ثالثة فى أنه لا يجوز ايذاء موسى عليه السلام فقال ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب وتقرير هذا الدليل أن يقال ان الله تعالى هدى موسى الى الاتيان بهذه المعجزات الباهرة ومن هداه الله الى الاتيان بالمعجزات لا يكون مسرفا كذابا فهذا يدل على ان موسى عليه السلام ليس من الكاذبين فكان قوله ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب اشارة الى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض ويحتمل أيضا ان يكون المراد أن فرعون مسرف فى عزمه على قتل موسى كذاب فى اقدامه على ادعاء الالهية والله لا يهدى من هذا شأنه وصفته بل يبطله ويهدم أمره ۞ قوله تعالى (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا قال فرعون ماأريكم الا ماأرى وماأهديكم الا سبيل الرشاد وقال الذى آمن ياقوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد وياقوم انى أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فماله من هاد) اعلم ان مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على انه لا يجوز الاقدام على قتل موسى خوفهم فى ذلك بعذاب الله فقال ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض يعنى قد علوتم الناس وقهرتموهم فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه فانه لا قبل لكم به وانما قال ينصرنا وجاءنا لانه كان يظهر من نفسه انه منهم وأن الذى ينصحهم به هو مشارك لهم فيه ولما قال ذلك المؤمن هذا الكلام قال فرعون ماأريكم الا ماأرى أى لا أشير اليكم برأى سوى ماذكرته أنه يجب قتله حسما لمادة الفتنة وما أهديكم بهذا الرأى الا سبيل الرشاد والصلاح ثم حكى تعالى ان ذلك المؤمن رد هذا الكلام على فرعون فقال انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب واعلم انه تعالى حكى عن ذلك المؤمن انه كان يكتم ايمانه والذى يكتم كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون ولهذا السبب حصل ههنا قولان (الاول) ان فرعون لما قال ذرونى أقتل موسى لم يصرح ذلك المؤمن بأنه على دين موسى بل أوهم انه مع فرعون وعلى دينه الا انه زعم ان المصلحة تقتضى ترك قتل موسى لانه لم يصدر عنه الا الدعوة الى الله والاتيان بالمعجزات القاهرة وهذا لا يوجب القتل والاقدام على قتله يوجب الوقوع فى ألسنة الناس بأقبح الكلمات بل الاولى ان يؤخر قتله وأن يمنع من اظهار دينه لان على هذا التقدير ان كان كاذبا كان وبال كذبه عائدا اليه وان كان صادقا حصل الانتفاع به من بعض الوجوه ثم أكد ذلك بقوله ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب يعنى انه ان صدق فيما يدعيه من اثبات الاله القادر الحكيم فهو لا يهدى المسرف الكذاب فأوهم فرعون انه أراد بقوله ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب أنه يريد موسى وهو انما كان يقصد به فرعون لان المسرف الكذاب هو فرعون (والقول الثانى) ان مؤمن آل فرعون كان يكتم ايمانه أولا فلما قال فرعون ذرونى أقتل موسى أزال الكتمان وأظهر كونه على دين موسى وشافه فرعون بالحق واعلم انه تعالى حكى عن هذا المؤمن أنواعا من

اضافة الموصوف الى الصفة كمسجد الجامع (اذ قضينا الى موسى الامر) أى عهدنا اليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحى وايتاء التوراة (وما كنت من الشاهدين) أى من جملة الشاهدين للوحى وهم المبعوثون المختارون للميقات حتى تشاهد ماجرى من أمر موسى فى ميقاته وكتبة التوراة له فى الالواح فتخبره للناس (ولكنا أنشأنا قرونا) أى ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونا كثيرة (فتطاول عليهم العمر) وتمادى الامد فتغيرت الشرائع والاحكام وعميت عليهم الانباء لاسيما على آخرهم فاقتضى الحال التشريع الجديد فأوحينا اليك فحذف المستدرك اكتفاء بذكر مايوجبه ويدل عليه وقوله تعالى (وماكنت ثاويا فى أهل مدين) نفى لاحتمال كون معرفته عليه الصلاة والسلام للقصة بالسماع ممن شاهدها أى وماكنت مقيما فى أهل مدين من شعيب والمؤمنين به وقوله تعالى (تتلو عليهم) أى تقرأ على أهل مدين بطريق التعلم منهم (آياتنا) الناطقة بالقصة اماحال من المستكن فى ثاويا أو خبر ثان لكنت (ولكنا كنا مرسلين) اياك وموحين اليك تلك الآيات ونظائرها (وماكنت بجانب الطور اذ نادينا) أى وقت ندائنا موسى انى أنا الله رب العالمين واستنبائنا اياه وارسالنا له الى فرعون (ولكن رحمة من ربك) أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس وقيل علمناك وقيل عرفناك ذلك وليس بذاك كما ستعرفه والالتفات الى اسم الرب للاشعار بعلة الرحمة وتشريفه عليه الصلاة والسلام

الكلمات ذكرها الفرعون (فالاول) قوله يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب والتقدير مثل ايام الاحزاب الا أنه لما أضاف اليوم الى الاحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود فحينئذ ظهر أن كل حزب كان له يوم معين فى البلاء فاقتصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس ثم فسر قوله انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب بقوله مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود ودأب هؤلاء دونهم فى عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصى فيكون ذلك دائبا ودائما لا يفترون عنه ولا بد من حذف مضاف يريد مثل جزاء دأبهم والحاصل أنه خوفهم بهلاك معجل فى الدنيا ثم خوفهم أيضا بهلاك الآخرة وهو قوله ومن يضلل الله فماله من هاد والمقصود منه التنبيه على عذاب الآخرة (النوع الثانى) من كلمات ذلك المؤمن قوله تعالى وما الله يريد ظلما للعباد يعنى أن تدمير أولئك الاحزاب كان عدلا لانهم استوجبوه بسبب تكذيبهم للانبياء فتلك العلة قائمة ههنا فوجب حصول الحكم ههنا قالت المعتزلة قوله وما الله يريد ظلما للعباد يدل على أنه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضا و يدل على أنه لا يريد ظلم أحد من العباد فلو خلق الكفر فيهم ثم يعذبهم على ذلك الكفر لكان ظالما واذا ثبت انه لا يريد الظلم البتة ثبت انه غير خالق لافعال العباد لانه لو خلقها لارادها وثبت أيضا أنه قادر على الظلم اذ لو لم يقدر عليه لما حصل المدح بترك الظلم وهذا الاستدلال قد ذكرناه مرارا فى هذا الكتاب مع الجواب فلا فائدة فى الاعادة (النوع الثالث) من كلمات هذا المؤمن قوله ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التناد تفاعل من النداء يقال تنادى القوم أى نادى بعضهم بعضا والاصل الياء وحذف الياء حسن فى الفواصل وذكرنا ذلك فى يوم التلاق واجمع المفسرون على ان يوم التناد يوم القيامة وفى سبب تسمية ذلك اليوم بذلك الاسم وجوه (الاول) أن أهل النار ينادون أهل الجنة وأهل الجنة ينادون أهل النار كما ذكر الله عنهم فى سورة الاعراف ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار (الثانى) قال الزجاج لا يبعد أن يكون السبب فيه قوله تعالى يوم ندعو كل أناس بامامهم (الثالث) انه ينادى بعض الظالمين بعضا بالويل والثبور فيقولون يا ويلنا (الرابع) ينادون الى المحشر أى يدعون (الخامس) ينادى المؤمن هاؤم اقرؤا كتابيه والكافر ياليتنى لم أوت كتابيه (السادس) ينادى باللعنة على الظالمين (السابع) يجاء بالموت على صورة كبش أملح ثم يذبح وينادى يا أهل القيامة لا موت فيزداد أهل الجنة فرحا على فرحهم وأهل النار حزنا على حزنهم (الثامن) قال أبو على الفارسى التنادى مشتق من التناد من قولهم ند فلان اذا هرب وهو قراءة ابن عباس وفسرها فقال يندون كما تند الابل ويدل على صحة هذه القراءة قوله تعالى يوم يفر المرء من أخيه الآية وقوله تعالى بعد هذه الآية يوم تولون مدبرين لانهم اذا سمعوا زفير النار يندون هاربين فلا يأتون قطرا من الاقطار الا وجدوا ملائكة صفوفا فيرجعون الى المكان الذى كانوا فيه (المسئلة الثانية) انتصب قوله يوم التناد لوجهين (أحدهما) الظرف للخوف كانه خاف عليهم فى ذلك اليوم لما يلحقهم من العذاب ان لم يؤمنوا (والآخر) أن يكون التقدير انى أخاف عليكم عذاب يوم التناد واذا كان كذلك كان انتصاب يوم انتصاب المفعول به لا انتصاب الظرف لان اعرابه اعراب المضاف المحذوف ثم قال يوم تولون مدبرين وهو بدل من قوله يوم التناد عن قتادة منصرفين عن موقف يوم الحساب الى النار وعن مجاهد فارين عن النار غير معجزين ثم أكد التهديد فقال مالكم من الله من عاصم ثم نبه على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم فقال ومن يضلل الله فماله من هاد ۞ قوله تعالى ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ واعلم أن مؤمن آل فرعون لما قال ومن يضلل الله فماله من هاد ذكر لهذا مثلا وهو أن يوسف لما جاءهم بالبينات الباهرة فأصروا على الشك والشبهة ولم ينتفعوا بتلك الدلائل وهذا يدل على ان من أضله الله فماله من هاد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قيل ان يوسف هذا هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام ونقل صاحب الكشاف انه يوسف بن افرايم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نيفا وعشرين سنة وقيل ان فرعون موسى هو فرعون

بالاضافة وقد اكتفى عن ذكر المستدرك ههنا بذكر ما يوجبه من جهته تعالى كما اكتفى عنه فى الاول بذكر ما يوجبه من جهة الناس وصرح به فيما بينهما تنصيصا على ما هو المقصود واشعارا بأنه المراد فيهما أيضا ولله در شأن التنزيل وقوله تعالى (لتنذر قوما) متعلق بالفعل المعلل بالرحمة فهو ما ذكرنا من ارساله عليه الصلاة والسلام بالقرآن حتما لما أنه المعلل بالانذار لا تعليم ما ذكر وقرئ رحمة بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى (ما أتاهم من نذير من قبلك) صفة لقوما أى لم يأتهم نذير لوقوعهم فى فترة بينك وبين عيسى وهى خمسمائة وخمسون سنة أو بينك وبين اسمعيل بناء على أن دعوة موسى وعيسى عليهما السلام كانت مختصة ببنى اسرائيل (لعلهم يتذكرون) أى يتعظون بانذارك وتغيير الترتيب الوقوعى بين قضاء الامر والثواء فى أهل مدين والنداء للتنبيه على ان كلا من ذلك برهان مستقل على أن حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحى الالهى ولو ذكر أولا نفى ثوائه عليه الصلاة والسلام فى أهل مدين ثم نفى حضوره عليه الصلاة والسلام عند النداء ثم نفى حضوره عند قضاء الامر كما هو الموافق للترتيب الوقوعى لربما توهم أن الكل دليل واحد على ما ذكر كما مر فى قصة البقرة (ولولا أن تصيبهم مصيبة) أى عقوبة (بما قدمت أيديهم) أى بما اقترفوه من الكفر والمعاصى (فيقولوا) عطف على تصيبهم داخل فى حيز لولا الامتناعية على أن مدار انتفاء ما يجاب به هو امتناعه لامتناع المعطوف عليه وانما ذكره فى حيزها للايذان بأنه السبب

يوسف بقي حيا الى زمانه وقيل فرعون آخر والمقصود من الكل شئ واحد وهو أن يوسف جاء قومه بالبينات وفي المراد بها قولان (الاول) ان المراد بالبينات قوله أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار (والثاني) المراد بها المعجزات وهذا أولى ثم انهم بقوا في نبوته شاكين مرتابين ولم ينتفعوا البتة بتلك البينات فلما مات قالوا انه لن يبعث الله من بعده رسولا وانما حكموا بهذا الحكم على سبيل التشهي والتمني من غير حجة ولا برهان بل انما ذكروا ذلك ليكون ذلك أساسا لهم في تكذيب الانبياء الذين يأتون بعد ذلك وليس قولهم من يبعث الله من بعده رسولا لاجل تصديق رسالة يوسف وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها وانما هو تكذيب لرسالة من هو بعده مضموما الى تكذيب رسالته ثم قال كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب أي مثل هذا الضلال يضل الله كل مسرف في عصيانه مرتاب في دينه قال الكعبي هذه الآية حجة لاهل القدر لانه تعالى بين كفرهم ثم بين انه تعالى انما أضلهم لكونهم مسرفين مرتابين فثبت ان العبد ما لم يضل عن الدين فان الله تعالى لا يضله ثم بين تعالى ما لاجله بقوا في ذلك الشك والاسراف فقال الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أي بغير حجة بل اما بناء على التقليد المجرد واما بناء على شبهات خسيسة كبر مقتا عند الله والمقت هو أن يبلغ المرء في القوم مبلغا عظيما فيمقته الله ويبغضه ويظهر خزيه وتعسه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في ذمه لهم بانهم يجادلون بغير سلطان دلالة على ان الجدال بالحجة حسن وحق وفيه ابطال للتقليد (المسئلة الثانية) قال القاضي مقت الله اياهم يدل على ان فعلهم ليس بخلق الله لان كونه فاعلا للفعل وماقتا له محال (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه يجوز وصف الله تعالى بانه قد يمقت بعض عباده الا ان ذلك صفة واجبة التأويل في حق الله كالغضب والحياء والتعجب والله أعلم ثم بين ان هذا المقت كما حصل عند الله فكذلك قد حصل عند الذين آمنوا ثم قال كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وأبو عمرو وقتيبة عن الكسائي قلب منونا متكبر صفة للقلب والباقون بغير تنوين على اضافة القلب الى المتكبر قال أبو عبيد الاختيار الاضافة لوجوه (الاول) ان عبد الله قرأ على قلب كل متكبر وهو شاهد لهذه القراءة (والثاني) ان وصف الانسان بالتكبر والجبروت أولى من وصف القلب بهما وأما الذين قرؤا بالتنوين فقالوا ان الكبر قد أضيف الى القلب في قوله ان في صدورهم الا كبر وقال تعالى فانه آثم قلبه وأيضا فيمكن أن يكون ذلك على حذف المضاف أي على كل ذي قلب متكبر وأيضا قال قوم الانسان الحقيقي هو القلب وهذا البحث طويل وقد ذكرناه في تفسير قوله نزل به الروح الامين على قلبك قالوا ومن أضاف فلا بد له من تقدير حذف والتقدير يطبع الله على قلب كل متكبر (المسئلة الثانية) الكلام في الطبع والرين والقسوة والغشاوة قد سبق في هذا بالاستقصاء وأصحابنا يقولون قوله كذلك يطبع الله يدل على أن الكل من الله والمعتزلة يقولون ان قوله كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار يدل على أن هذا الطبع انما حصل من الله لانه كان في نفسه متكبرا جبارا وعند هذا تصير الآية حجة لكل واحد من هذين الفريقين من وجه وعليه من وجه آخر والقول الذي يخرج عليه الوجهان ما ذهبنا اليه وهو انه تعالى يخلق دواعي الكبر والرياسة في القلب فتصير تلك الدواعي مانعة من حصول ما يدعو الى الطاعة والانقياد لامر الله فيكون القول بالقضاء والقدر حقا ويكون تعليل الصد عن الدين بكونه متجبرا متكبرا باقيا فثبت ان هذا المذهب الذي اخترناه في القضاء والقدر هو الذي ينطبق لفظ القرآن من أوله الى آخره عليه (المسئلة الثالثة) لا بد من بيان الفرق بين المتكبر والجبار قال مقاتل متكبر عن قبول التوحيد جبار في غير حق وأقول كمال السعادة في أمرين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فعلى قول مقاتل التكبر كالمضاد للتعظيم لامر الله والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب أسباب السموات فاطلع الى اله موسى واني لاظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا في تباب﴾ اعلم انه تعالى لما وصف فرعون بكونه متكبرا جبارا بين انه بلغ في البلادة والحماقة الى أن قصد الصعود الى السموات وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجمع الكثير من المشبهة بهذه الآية في اثبات ان الله في السموات وقرروا ذلك من وجوه (الاول) ان فرعون كان من المنكرين لوجود الله وكل ما يذكره في صفات

المجئ لهم الى قولهم (ربنا لولا أرسلت الينا رسولا) أي هلا أرسلت الينا رسولا مؤيدا من عندك بآيات (فنتبع آياتك) الظاهرة على يده وهو جواب لولا الثانية (ونكون من المؤمنين) بها وجواب لولا الاولى محذوف ثقة بدلالة الحال عليه والمعنى لولا قولهم هذا عند اصابة عقوبة جناياتهم التي قدموها ما أرسلناك لكن لما كان قولهم ذلك محققا لا محيد عنه أرسلناك قطعا لمعاذيرهم بالكلية (فلما جاءهم) أي أهل مكة (الحق من عندنا) وهو القرآن المنزل عليه عليه الصلاة والسلام (قالوا) تعنتا واقتراحا (لولا أوتي) يعنونه عليه الصلاة والسلام (مثل ما أوتي موسى) من الكتاب المنزل جملة وأما اليد والعصا فلا تعلق لهما بالمقام كسائر معجزاته عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل) رد عليهم واظهار لكون ما قالوه تعنتا محضا لا طلبا لما يرشدهم الى الحق أي ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتي موسى من الكتاب كما كفروا بهذا الحق وقوله تعالى (قالوا) استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الانكار السابق وبيان كيفيته وقوله تعالى (سحران) خبر لمبتدا محذوف أي هما يعنون ما أوتي محمد وما أوتي موسى عليهما السلام سحران (تظاهرا) أي تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر وذلك أنهم بعثوا رهطا منهم الى رؤساء اليهود في عيد لهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام فقالوا انا نجده في التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك وقوله تعالى (وقالوا انا

الله تعالى فذلك انما ذكره لاجل انه سمع ان موسى يصف الله بذلك فهو أيضا ذكره كما سمعه فلولا انه سمع موسى يصف الله بأنه موجود فى السماء والا لما طلبه فى السماء (الوجه الثانى) انه قال وانى لاظنه كاذبا ولم يبين انه كاذب فيماذا والمذكور السابق متعين لصرف الكلام اليه فكان التقدير فأطلع الى الاله الذى يزعم موسى انه موجود فى السماء ثم قال وانى لاظنه كاذبا أى وانى لاظن موسى كاذبا فى ادعائه ان الاله موجود فى السماء وذلك يدل على ان دين موسى هو ان الاله موجود فى السماء (الوجه الثالث) العلم بأنه لو وجد اله لكان موجودا فى السماء علم بديهى متقرر فى كل العقول ولذلك فان الصبيان اذا تضرعوا الى الله رفعوا وجوههم وأيديهم الى السماء وان فرعون مع نهاية كفره لما طلب الاله فقد طلبه فى السماء وهذا يدل على ان العلم بأن الاله موجود فى السماء علم متقرر فى عقل الصديق والزنديق والملحد والموحد والعالم والجاهل فهذا جملة استدلالات المشبهة بهذه الآية والجواب ان هؤلاء الجهال يكفيهم فى كمال الخزى والضلال أن جعلوا قول فرعون اللعين حجة لهم على صحة دينهم وأما موسى عليه السلام فانه لم يزد فى تعريف اله العالم على ذكر صفة الخلاقية فقال فى سورة طه ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقال فى سورة الشعراء ربكم ورب آبائكم الاولين رب المشرق والمغرب وما بينهما فظهر أن تعريف ذات الله بكونه فى السماء دين فرعون وتعريفه بالخلاقية والموجودية دين موسى فمن قال بالاول كان على دين فرعون ومن قال بالثانى كان على دين موسى ثم نقول لا نسلم أن كل ما يقوله فرعون فى صفات الله تعالى فذلك قد سمعه من موسى عليه السلام بل لعله كان على دين المشبهة فكان يعتقد أن الاله لو كان موجودا لكان حاصلا فى السماء فهو انما ذكر هذا الاعتقاد من قبل نفسه لا لاجل انه قد سمعه من موسى عليه السلام وأما قوله وانى لاظنه كاذبا فنقول لعله لما سمع موسى عليه السلام قال رب السموات والارض ظن أنه عنى به انه رب السموات كما يقال للواحد منا انه رب الدار بمعنى كونه ساكنا فيه فلما غلب على ظنه ذلك حكى عنه وهذا ليس بمستبعد فان فرعون كان قد بلغ فى الجهل والحماقة الى حيث لا يبعد نسبة هذا الخيال اليه فان استبعد الخصم نسبة هذا الخيال اليه كان ذلك لائقا بهم لانهم لما كانوا على دين فرعون وجب عليهم تعظيمه وأما قوله ان فطرة فرعون شهدت بان الاله لو كان موجودا لكان فى السماء قلنا نحن لا ننكر أن فطرة أكثر الناس تخيل اليهم صحة ذلك لاسيما من بلغ فى الحماقة الى درجة فرعون فثبت أن هذا الكلام ساقط (المسئلة الثانية) اختلف الناس فى أن فرعون هل قصد بناء الصرح ليصعد منه الى السماء أم لا أما الظاهريون من المفسرين فقد قطعوا بذلك وذكروا حكاية طويلة فى كيفية بناء ذلك الصرح والذى عندى أنه بعيد والدليل عليه أن يقال فرعون لا يخلو اما أن يقال انه كان من المجانين أو كان من العقلاء فان قلنا انه كان من المجانين لم يجز من الله تعالى ارسال الرسول اليه لان العقل شرط فى التكليف ولم يجز من الله أن يذكر حكاية كلام مجنون فى القرآن وأما ان قلنا انه كان من العقلاء فنقول ان كل عاقل يعلم ببديهة عقله انه يتعذر فى قدرة البشر وضع بناء يكون أرفع من الجبل العالى ويعلم أيضا ببديهة عقله أنه لا يتفاوت فى البصر حال السماء بين أن ينظر اليه من أسفل الجبال وبين أن ينظر اليه من أعلى الجبال واذا كان هذان العلمان بديهيين امتنع أن يقصد العاقل وضع بناء يصعد منه الى السماء واذا كان فساد هذا معلوما بالضرورة امتنع اسناده الى فرعون والذى عندى فى تفسير هذه الآية ان فرعون كان من الدهرية وغرضه من ذكر هذا الكلام ايراد شبهة فى نفى الصانع وتقريره انه قال انا لا نرى شيأ نحكم عليه بأنه اله العالم فلم يجز اثبات هذا الاله أما انه لا نراه فلانه لو كان موجودا لكان فى السماء ونحن لا سبيل لنا الى صعود السموات فكيف يمكننا أن نراه ثم انه لاجل المبالغة فى بيان انه لا يمكنه صعود السموات قال يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب والمقصود انه لما عرف كل أحد أن هذا الطريق ممتنع كان الوصول الى معرفة وجود الله بطريق الحس ممتنعا ونظيره قوله تعالى فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية وليس المراد منه أن محمدا صلى الله عليه وسلم طلب نفقا فى الارض أو وضع سلما الى السماء بل المعنى انه لما عرف ان هذا المعنى ممتنع فقد عرف انه لا سبيل لك الى تحصيل ذلك المقصود فكذا ههنا غرض فرعون من قوله يا هامان ابن لى صرحا يعنى أن الاطلاع على اله موسى لما كان

بكل) أى بكل واحد من الكتابين (كافرون) تصريح بكفرهم بهما وتأكيد لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحرا وذلك لغاية عتوهم وتماديهم فى الكفر والطغيان وقرئ ساحران تظاهرا يعنون موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الجليل فتأمل ودع عنك ما قيل وقيل ألا ترى الى قوله تعالى (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) مما أوتيناه من التوراة والقرآن وسميتموهما سحرين فانه نص فيما ذكر وقوله تعالى (اتبعه) جواب للامر أى ان تأتوا به اتبعه ومثل هذا الشرط مما يأتى به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته لان الاتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بين الاستحالة فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والافحام (ان كنتم صادقين) أى فى انهما سحران مختلقان وفى ايراد كلمة ان مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم (فان لم يستجيبوا لك) أى فان لم يفعلوا ما كلفتهم من الاتيان بكتاب أهدى منهما كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه بالاستجابة ايذانا بانه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن أمره عليه الصلاة والسلام لهم بالاتيان بما ذكر دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والاستجابة تتعدى الى الدعاء بنفسه والى الداعى باللام فيحذف الدعاء عند ذلك غالبا ولا يكاد يقال استجاب الله له دعاءه (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) الزائغة من غير أن يكون لهم متمسك ما أصلا اذ لو كان لهم ذلك لاتوا به (ومن أضل ممن اتبع هواه) استفهام انكارى للنفى أى لا أضل ممن اتبع هواه (بغير هدى

لاسبيل اليه الا بهذا الطريق وكان هذا الطريق ممتنعا فحينئذ يظهر منه انه لاسبيل الى معرفة الاله الذى يثبته موسى فنقول هذا ما حصلته فى هذا الباب واعلم أن هذه الشبهة فاسدة لان طرق العلم ثلاثة الحس والخبر والنظر ولا يلزم من انتفاء طريق واحد وهو الحس انتفاء المطلوب وذلك لان موسى عليه السلام كان قد بين لفرعون أن الطريق فى معرفة الله تعالى انما هو الحجة والدليل كما قال ربكم ورب آبائكم الاولين رب المشرق والمغرب الا ان فرعون لخبثه ومكره تغافل عن ذلك الدليل وألقى الى الجهال انه لما كان لاطريق الى الاحساس بهذا الاله وجب نفيه فهذا ما عندى فى هذا الباب وبالله التوفيق والعصمة (المسئلة الثالثة) ذهب قوم الى انه تعالى خلق جواهر الافلاك وحركاتها بحيث تكون هى الاسباب لحدوث الحوادث فى هذا العالم الاسفل واحتجوا بقوله تعالى لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات ومعلوم أنها ليست أسبابا الا لحوادث هذا العالم قالوا ويؤكد هذا بقوله تعالى فى سورة ص فليرتقوا فى الاسباب أما المفسرون فقد ذكروا فى تفسير قوله تعالى لعلى أبلغ الاسباب أسباب السموات أن المراد بأسباب السموات طرقها وأبوابها وما يؤدى اليها وكل ما أداك الى شئ فهو سبب كالرشاء ونحوه (المسئلة الرابعة) قالت اليهود أطبق الباحثون عن تواريخ بنى اسرائيل وفرعون أن هامان ما كان موجودا البتة فى زمان موسى وفرعون وانما جاء بعدهما بزمان مديد ودهر داهر فالقول بان هامان كان موجودا فى زمان فرعون خطأ فى التاريخ وليس لقائل أن يقول ان وجود شخص يسمى بهامان بعد زمان فرعون لا يمنع من وجود شخص آخر يسمى بهذا الاسم فى زمانه قالوا لان هذا الشخص المسمى بهامان الذى كان موجودا فى زمان فرعون ما كان شخصا خسيسا فى حضرة فرعون بل كان كالوزير له ومثل هذا الشخص لا يكون مجهول الوصف والحلية فلو كان موجودا لعرف حاله وحيث أطبق الباحثون عن أحوال فرعون وموسى ان الشخص المسمى بهامان ما كان موجودا فى زمان فرعون وانما جاء بعده بادوار علم أنه غلط وقع فى التواريخ قالوا ونظير هذا أنا نعرف فى دين الاسلام أن أبا حنيفة انما جاء بعد محمد صلى الله عليه وسلم فلو أن قائلا ادعى ان أبا حنيفة كان موجودا فى زمان محمد عليه السلام وزعم أنه شخص آخر سوى الاول وهو أيضا يسمى بابى حنيفة فان أصحاب التواريخ يقطعون بخطئه فكذا ههنا والجواب أن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الاحوال والادوار فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد فى هذا الباب فكان الاخذ بقول الله أولى بخلاف حال رسولنا مع أبى حنيفة فان هذه التواريخ قريبة غير مضطربة بل هى مضبوطة فظهر الفرق بين البابين فهذا جملة ما يتعلق بالمباحث المعنوية فى هذه الآية وبقى ما يتعلق بالمباحث اللفظية قيل الصرح البناء الظاهر الذى لا يخفى على الناظر وان بعد اشتقوه من صرح الشئ اذا ظهر وأسباب السموات طرقها فان قيل ما فائدة هذا التكرير ولو قيل لعلى أبلغ أسباب السموات كان كافيا أجاب صاحب الكشاف عنه فقال اذا أبهم الشئ ثم أوضح كان تفخيما لشأنه فلما أراد تفخيم أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها وقوله فأطلع الى اله موسى قرأ حفص عن عاصم فأطلع بفتح العين والباقون بالرفع قال المبرد من رفع فقد عطفه على قوله أبلغ والتقدير لعلى أبلغ الاسباب ثم اطلع الا أن حرف ثم أشد تراخيا من الفاء ومن نصب جعله جوابا والمعنى لعلى أبلغ الاسباب فمتى بلغتها أطلع والمعنى مختلف لان الاول لعلى أطلع والثانى لعلى أبلغ وأنا ضامن انى متى بلغت فلابد وان اطلع واعلم أنه تعالى لما حكى عن فرعون هذه القصة قال بعدها وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائى وصد بضم الصاد قال أبو عبيدة وبه يقرأ لان ما قبله فعل مبنى للمفعول به فجعل ما عطف عليه مثله والباقون وصد بفتح الصاد على أنه منع الناس عن الايمان قالوا ومن صده قوله لاقطعن أيديكم وأرجلكم ويؤيد هذه القراءة قوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وقوله هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام (المسئلة الثانية) قوله تعالى زين لابد له من المزين فقالت المعتزلة انه الشيطان فقيل لهم ان كان المزين لفرعون هو الشيطان فالمزين للشيطان ان كان شيطانا آخر لزم اثبات التسلسل فى الشياطين أو الدور وهو محال ولما بطل ذلك وجب انتهاء الاسباب والمسببات فى درجات الحاجات الى واجب الوجود وأيضا فقوله زين يدل على أن الشئ ان لم يكن فى اعتقاد الفاعل

من الله) أى هو أضل من كل ضال وان كان ظاهر السبك لنفى الاضل لا لنفى المساوى كما مر فى نظائره مرارا وتقييد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله تعالى لزيادة التقريع والاشباع فى التشنيع والتضليل والافقار نته لهدايته تعالى بينة الاستحالة (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى اتباع الهوى والاعراض عن الآيات الهادية الى الحق المبين (ولقد وصلنا لهم القول) وقرئ بالتخفيف أى أنزلنا القرآن عليهم متواصلا بعضه اثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة أو متتابعا وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا ومواعظ ونصائح (لعلهم يتذكرون) فيؤمنون بما فيه (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) أى من قبل ايتاء القرآن (هم به يؤمنون) وهم مؤمنو أهل الكتاب وقيل أربعون من أهل الانجيل اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشأم (واذا يتلى) أى القرآن (عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا) أى الحق الذى كنا نعرف حقيته وهو استئناف لبيان ما أوجب ايمانهم وقوله تعالى (انا كنا من قبله) أى من قبل نزوله (مسلمين) بيان لكون ايمانهم به أمرا متقادم العهد لما شاهدوا ذكره فى الكتب المتقدمة وأنهم على دين الاسلام قبل نزول القرآن (أولئك) الموصوفون بما ذكر من النعوت (يؤتون أجرهم مرتين) مرة على ايمانهم بكتابهم ومرة على ايمانهم بالقرآن (بما صبروا) بصبرهم وثباتهم على الايمانين أو على الايمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو على أذى من هاجرهم من أهل دينهم ومن

موصوفا بانه خير وزينة وحسن فانه لا يقدم عليه الا أن ذلك الاعتقاد ان كان صوابا فهو العلم وان كان خطأ فهو الجهل ففاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الانسان لان العاقل لا يقصد تحصيل الجهل لنفسه ولانه انما يقصد تحصيل الجهل لنفسه اذا عرف كونه جهلا ومتى عرف كونه جهلا امتنع بقاؤه جاهلا فثبت أن فاعل ذلك الجهل ليس هو ذلك الانسان ولا يجوز أن يكون فاعله هو الشيطان لان البحث الاول بعينه عائد فيه فلم يبق الا أن يكون فاعله هو الله تعالى والله أعلم ويقوى ما قلناه ان صاحب الكشاف نقل أنه قرئ وزين له سوء عمله على البناء للفاعل والفعل لله عز وجل ويدل عليه قوله الى اله موسى ثم قال تعالى وما كيد فرعون الا في تباب والتباب الهلاك والخسران ونظيره قوله تعالى وما زادوهم غير تتبيب وقوله تعالى تبت يدا أبي لهب والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ (وقال الذي آمن يا قوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ويا قوم مالي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار تدعونني لاكفر بالله واشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار لاجرم انما تدعونني اليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا الى الله وان المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد) اعلم ان هذا من بقية كلام الذي آمن من آل فرعون وقد كان يدعوهم الى الايمان بموسى والتمسك بطريقته واعلم انه نادى في قومه ثلاث مرات في المرة الاولى دعاهم الى قبول ذلك الدين على سبيل الاجمال وفي المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل اما الاجمال فهو قوله يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد وليس المراد بقوله اتبعون طريقة التقليد لانه قال بعده أهدكم سبيل الرشاد والهدى هو الدلالة ومن بين الادلة للغير يوصف بانه هداه وسبيل الرشاد هو سبيل الثواب والخير وما يؤدي اليه لان الرشاد نقيض الغي وفيه تصريح بان ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي وأما التفصيل فهو أنه بين حقارة حال الدنيا وكمال حال الآخرة أما حقارة الدنيا فهي قوله يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع والمعنى انه يستمتع بهذه الحياة الدنيا في أيام قليلة ثم تنقطع وتزول وأما الآخرة فهي دار القرار والبقاء والدوام وحاصل الكلام ان الآخرة باقية دائمة والدنيا منقضية منقرضة والدائم خير من المنقضي وقال بعض العارفين لو كانت الدنيا ذهبا فانيا والآخرة خزفا باقيا لكانت الآخرة خيرا من الدنيا فكيف والدنيا خزف فان والآخرة ذهب باق واعلم ان الآخرة كما ان النعيم فيها دائم فكذلك العذاب فيها دائم وان الترغيب في النعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم من أقوى وجوه الترغيب والترهيب ثم بين كيف تحصل المجازاة في الآخرة وأشار فيه الى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب فقال من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها والمراد بالمثل ما يقابلها في الاستحقاق فان قيل كيف يصح هذا الكلام مع أن كفر ساعة يوجب عقاب الابد قلنا ان الكافر يعتقد في كفره كونه طاعة وايمانا فلهذا السبب يكون الكافر على عزم أن يبقى مصرا على ذلك الاعتقاد أبدا فلا جرم كان عقابه مؤبدا بخلاف الفاسق فانه يعتقد فيه كونه خيانة ومعصية فيكون على عزم أن لا يبقى مصرا عليه فلا جرم قلنا ان عقاب الفاسق منقطع أما الذي يقوله المعتزلة من أن عقابه مؤبد فهو باطل لان مدة تلك المعصية منقطعة والعزم على الاتيان بها أيضا ليس دائما بل منقطعا فمقابلته بعقاب دائم يكون على خلاف قوله من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها واعلم أن هذه الآية أصل كبير في علوم الشريعة فيما يتعلق بأحكام الجنايات فانها تقتضي أن يكون المثل مشروعا وأن يكون الزائد على المثل غير مشروع ثم نقول ليس في الآية بيان ان تلك المماثلة معتبرة في أي الامور فلو حملناه على رعاية المماثلة في شيء معين مع ان ذلك المعين غير مذكور في الآية صارت الآية مجملة ولو حملناه على رعاية المماثلة في جميع الامور صارت الآية عاما مخصوصا وقد ثبت في أصول الفقه ان التعارض اذا وقع بين الاجمال وبين التخصيص كان دفع الاجمال أولى فوجب أن تحمل هذه الآية على رعاية المماثلة من كل الوجوه الا في مواضع التخصيص واذا ثبت هذا فالاحكام الكثيرة في باب الجنايات على النفوس وعلى الاعضاء وعلى الاموال يمكن تفريعها على هذه الآية ثم نقول انه تعالى لما بين ان جزاء السيئة مقصور على المثل بين ان جزاء الحسنة غير مقصور على المثل بل هو خارج عن

المشركين (ويدرؤن بالحسنة السيئة) أي يدفعون بالطاعة المعصية لقوله عليه الصلاة والسلام وأتبع السيئة الحسنة تمحها (ومما رزقناهم ينفقون) في سبيل الخير (واذا سمعوا اللغو) من اللاغين (أعرضوا عنه) عن اللغو تكرما كقوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما (وقالوا) لهم (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم) بطريق المتاركة والتوديع (لا نبتغي الجاهلين) لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم (انك لا تهدي) هداية موصلة الى البغية لا محالة (من أحببت) من الناس ولا تقدر على أن تدخله في الاسلام وان بذلت فيه غاية المجهود وجاوزت في السعي كل حد معهود (ولكن الله يهدي من يشاء) أن يهديه فيدخله في الاسلام (وهو أعلم بالمهتدين) بالمستعدين لذلك والجمهور على أنها نزلت في أبي طالب فانه لما احتضر جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج بها لك عند الله قال له يا ابن أخي قد علمت انك لصادق ولكني أكره أن يقال خرج عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة بعدي لقلتها ولا قررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ولكني سوف أموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل ابن عبد مناف حيث أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف ان اتبعناك وخالفنا العرب وانما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا

الحساب فقال ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب واحتج أصحابنا بهذه الآية فقالوا قوله ومن عمل صالحا نكرة فى معرض الشرط فى جانب الاثبات فجرى مجرى أن يقال من ذكر كلمة أو من خطا خطوة فله كذا فانه يدخل فيه كل من أتى بتلك الكلمة أو بتلك الخطوة مرة واحدة فكذلك ههنا وجب أن يقال كل من عمل صالحا واحدا من الصالحات فانه يدخل الجنة ويرزق فيها بغير حساب والآتى بالايمان والمواظب على التوحيد والتقديس مدة ثمانين سنة قد أتى بأعظم الصالحات وبأحسن الطاعات فوجب أن يدخل الجنة والخصم يقول انه يبقى مخلدا فى النار أبد الآباد فكان ذلك على خلاف هذا النص الصريح قالت المعتزلة انه تعالى شرط فيه كونه مؤمنا وصاحب الكبيرة عندنا ليس بمؤمن فلا يدخل فى هذا الوعد والجواب انا بينا فى أول سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى الذين يؤمنون بالغيب أن صاحب الكبيرة مؤمن فسقط هذا الكلام واختلفوا فى تفسير قوله يرزقون فيها بغير حساب فمنهم من قال لما كان لا نهاية لذلك الثواب قيل بغير حساب وقال الآخرون لانه تعالى يعطيهم ثواب أعمالهم ويضم الى ذلك الثواب من أقسام التفضل ما يخرج عن الحساب وقوله بغير حساب واقع فى مقابلة الا مثلها يعنى ان جزاء السيئة له حساب وتقدير لئلا يزيد على الاستحقاق فاما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة وأقول هذا يدل على ان جانب الرحمة والفضل راجح على جانب القهر والعقاب فاذا عارضنا عمومات الوعد بعمومات الوعيد وجب أن يكون الترجيح بجانب عمومات الوعد وذلك يهدم قواعد المعتزلة ثم استأنف ذلك المؤمن ونادى فى المرة الثالثة وقال يا قوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار يعنى أنا أدعوكم الى الايمان الذى يوجب النجاة وتدعوننى الى الكفر الذى يوجب النار فان قيل لم كرر نداء قومه ولم جاء بالواو فى النداء الثالث دون الثانى قلنا أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وايقاظ من سنة الغفلة واظهار أن له بهذا المهم مزيد اهتمام وعلى أولئك الاقوام فرط شفقة وأما المجىء بالواو العاطفة فلان الثانى يقرب من أن يكون عين الاول لان الثانى بيان للاول والبيان عين المبين وأما الثالث فلانه كلام مباين للاول والثانى فحسن ايراد الواو العاطفة فيه ولما ذكر هذا المؤمن انه يدعوهم الى النجاة وهم يدعونه الى النار فسر ذلك بانهم يدعونه الى الكفر بالله والى الشرك به أما الكفر بالله فلان الاكثرين من قوم فرعون كانوا ينكرون وجود الاله ومنهم من كان يقر بوجود الله الا انه كان يثبت عبادة الاصنام وقوله تعالى وأشرك به ما ليس لى به علم المراد بنفى العلم نفى المعلوم كانه قال وأشرك به ما ليس باله وما ليس باله كيف يعقل جعله شريكا للاله ولما بين أنهم يدعونه الى الكفر والشرك بين انه يدعوهم الى الايمان بالعزيز الغفار فقوله العزيز اشارة الى كونه كامل القدرة وفيه تنبيه على أن الاله هو الذى يكون كامل القدرة وأما فرعون فهو فى غاية العجز فكيف يكون الها وأما الاصنام فانها أحجار منحوتة فكيف يعقل القول بكونها آلهة وقوله الغفار اشارة الى أنه لا يجب أن يكونوا آيسين من رحمة الله بسبب اصرارهم على الكفر مدة مديدة فان اله العالم وان كان عزيزا لا يغلب قادرا لا يغالب لكنه غفار يغفر كفر سبعين سنة بايمان ساعة واحدة ثم قال ذلك المؤمن لا جرم الكلام فى تفسير لا جرم مر فى سورة هود فى قوله لا جرم أنهم فى الآخرة هم الاخسرون وقد أعاده صاحب الكشاف ههنا فقال لا جرم مساقه على مذهب البصريين أن يجعل لا ردا لما دعاه اليه قومه وجرم فعل بمعنى حق وانما مع ما فى حيزه فاعله أى حق ووجب بطلان دعوته أو بمعنى كسب من قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا أى كسب ذلك الدعاء اليه بطلان دعوته بمعنى انه ما حصل من ذلك الا ظهور بطلان دعوته ويجوز أن يقال ان لا جرم نظيره لا بد فعل من الجرم وهو القطع كما أن بد فعل من التبديد وهو التفريق وكما أن معنى لا بد انك تفعل كذا انه لا بد لك من فعله فكذلك لا جرم ان لهم النار أى لا قطع لذلك بمعنى انهم أبدا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم ولا قطع لبطلان دعوة الاصنام أى لا تزال باطلة لا ينقطع ذلك فينقلب حقا وروى عن بعض العرب لا جرم انه يفعل بضم الجيم وسكون الراء بزنة بد وفعل وفعل اخوان كرشد ورشد وكعدم وعدم هذا كله ألفاظ صاحب الكشاف ثم قال انما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة والمراد أن الاوثان التى

من أرضنا فرد عليهم بقوله تعالى (أولم نمكن لهم حرما آمنا) أى ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرما ذا أمن لحرمة البيت الحرام الذى تتناحر العرب حوله وهم آمنون (يجبى اليه) وقرئ تجبى أى يجمع ويحمل اليه (ثمرات كل شئ) من كل أوب والجملة صفة أخرى لحرما دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة (رزقا من لدنا) فاذا كان حالهم ما ذكروهم عبدة أصنام فكيف يخافون التخطف اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة التوحيد (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا ذلك وقيل هو متعلق بقوله تعالى من لدنا أى قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله تعالى اذ لو علموا لما خافوا غيره وانتصاب رزقا على أنه مصدر مؤكد لمعنى يجبى أو حال من ثمرات على أنه بمعنى مرزوق لتخصصها بالاضافة ثم بين أن الامر بالعكس وأنهم أحقاء بأن يخافوا بأس الله تعالى بقوله (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أى وكثير من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء فى الامن وخفض العيش والدعة حتى أشروا فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم (فتلك مساكنهم) خاوية بما ظلموا (لم تسكن من بعدهم) من بعد تدميرهم (الا قليلا) أى الا زمانا قليلا اذ لا يسكنها الا المارة يوما أو بعض يوم أو لم يبق من يسكنها الا قليلا من شؤم معاصيهم (وكنا نحن الوارثين) منهم اذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر ذات أيديهم وانتصاب معيشتها بنزع الخافض أو بجعلها ظرفا بنفسها كقولك زيد ظنى مقيم أو

تدعوننى الى عبادتها ليس لها دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وفى تفسير هذه الدعوة احتمالان (الاول) ان المعنى ان ماتدعوننى الى عبادته ليس له دعوة الى نفسه لانها جمادات والجمادات لاتدعو احدا الى عبادة نفسها وقوله فى الآخرة يعنى انه تعالى اذا قلبها حيوانا فى الآخرة فانها تتبرأ من هؤلاء العابدين (والاحتمال الثانى) أن يكون قوله ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة معناه ليس له استجابة دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة فسميت استجابة الدعوة بالدعوة اطلاقا لاسم أحد المتضايفين على الآخر كقوله وجزاء سيئة سيئة مثلها ثم قال وان مردنا الى الله فبين ان هذه الاصنام لافائدة فيها البتة ومع ذلك فان مردنا الى الله العالم بكل المعلومات القادر على كل الممكنات الغنى عن كل الحاجات الذى لايبدل القول لديه وماهو بظلام للعبيد فأى عاقل يجوّز له عقله أن يشتغل بعبادة تلك الاشياء الباطلة وان يعرض عن عبادة هذا الاله الذى لابد وان يكون مردها اليه وقوله وان المسرفين هم أصحاب النار قال قتادة يعنى المشركين وقال مجاهد السفاكين للدماء والصحيح انهم أسرفوا فى معصية الله بالكمية والكيفية أما الكمية فالدوام وأما الكيفية فبالعود والاصرار ولما بالغ مؤمن آل فرعون فى هذه البيانات ختم كلامه بخاتمة لطيفة فقال فستذكرون ما أقول لكم وهذا كلام مبهم يوجب التخويف ويحتمل أن يكون المراد أن هذا الذكر يحصل فى الدنيا وهو وقت الموت وأن يكون فى القيامة وقت مشاهدة الاهوال وبالجملة فهو تحذير شديد ثم قال وأفوض أمرى الى الله وهذا كلام من هدد بأمر يخافه فكأنهم خوفوه بالقتل وهو أيضا خوفهم بقوله فستذكرون ما أقول لكم ثم عول فى دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على فضل الله تعالى فقال وأفوض أمرى الى الله وهو انما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام فان فرعون لما خوفه بالقتل رجع موسى فى دفع ذلك الشر الى الله حيث قال انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب فتح نافع وأبو عمرو الياء من أمرى والباقون بالاسكان ثم قال ان الله بصير بالعباد أى عالم بأحوالهم وبمقادير حاجاتهم وتمسك أصحابنا بقوله تعالى وأفوض أمرى الى الله على ان الكل من الله وقالوا ان المعتزلة الذين قالوا ان الخير والشر يحصل بقدرتهم قد فوضوا أمر أنفسهم اليهم وما فوضوها الى الله والمعتزلة تمسكوا بهذه الآية فقالوا ان قوله أفوض اعتراف بكونه فاعلا مستقلا بالفعل والمباحث المذكورة فى قوله أعوذ بالله عائدة بتمامها فى هذا الموضع والله أعلم وههنا آخر كلام مؤمن آل فرعون والله الهادى ۞ قوله تعالى ﴿فوقاه الله سيئات مامكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال﴾ اعلم انه تعالى لما بين أن ذلك الرجل لم يقصر فى تقرير الدين الحق وفى الذب عنه فالله تعالى رد عنه كيد الكافرين وقصد القاصدين وقوله تعالى فوقاه الله سيئات مامكروا يدل على انه لما صرح بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من أنواع السوء * قال مقاتل لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله فهرب منهم الى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه وقيل المراد بقوله فوقاه الله سيئات مامكروا انهم قصدوا ادخاله فى الكفر وصرفه عن الاسلام فوقاه الله عن ذلك الا ان الاول أولى لان قوله بعد ذلك وحاق بآل فرعون سوء العذاب لايليق الا بالوجه الاول وقوله تعالى وحاق بآل فرعون أى أحاط بهم سوء العذاب أى غرقوا فى البحر وقيل بل المراد منه النار المذكورة فى قوله النار يعرضون عليها قال الزجاج النار بدل من قوله سوء العذاب قال وجائز أيضا أن تكون مرتفعة على اضمار تفسير سوء العذاب كأن قائلا قال ماسوء العذاب فقيل النار يعرضون عليها قرأ حمزة حاق بكسر الحاء وكذلك فى كل القرآن والباقون بالفتح أما قوله النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على اثبات عذاب القبر قالوا الآية تقتضى عرض النار عليهم غدوا وعشيا وليس المراد منه يوم القيامة لانه قال ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وليس المراد منه أيضا الدنيا لان عرض النار

باضمار زمان مضاف اليه أو بجعله مفعولا لبطرت بتضمين معنى كفرت (وما كان ربك مهلك القرى) بيان للعناية الربانية اثر بيان اهلاك القرى المذكورة أى وماصح وما استقام بل استحال فى سنته المبنية على الحكم البالغة أو ما كان فى حكمه الماضى وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الانذار بل كانت عادته أن لايهلكها (حتى يبعث فى أمها) أى فى أصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها لكون أهلها أفطن وأنبل (رسولا يتلو عليهم آياتنا) الناطقة بالحق ويدعوهم اليه بالترغيب والترهيب وذلك لالزام الحجة وقطع المعذرة بان يقولوا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك والالتفات الى نون العظمة لتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى (وما كنا مهلكى القرى) عطف على ما كان ربك وقوله تعالى (الا وأهلها ظالمون) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى وما كنا مهلكين لاهل القرى بعدما بعثنا فى أمها رسولا يدعوهم الى الحق ويرشدهم اليه فى حال من الاحوال الا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا فالبعث غاية لعدم صحة الاهلاك بموجب السنة الالهية لا لعدم وقوعه حتى يلزم تحقق الاهلاك عقيب البعث وقد مر تحقيقه فى سورة بنى اسرائيل (وما أوتيتم من شئ) من أمور الدنيا (فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) أى فهو شئ شأنه أن يتمتع ويتزين به أياما قلائل (وما عند الله) وهو الثواب (خير) فى نفسه من ذلك لانه لذة خالصة عن شوائب الالم وبهجة كاملة عارية عن سمة الهم (وأبقى) لانه أبدى (أفلا

عليهم غدوا وعشيا ما كان حاصلا فى الدنيا فثبت ان هذا العرض انما حصل بعد الموت وقبل يوم القيامة
وذلك يدل على اثبات عذاب القبر فى حق هؤلاء واذا ثبت فى حقهم ثبت فى حق غيرهم لانه لا قائل بالفرق فان
قيل لم لا يجوز أن يكون المراد من عرض النار عليهم غدوا وعشيا عرض النصائح عليهم فى الدنيا لان أهل
الدين اذا ذكروا لهم الترغيب والترهيب وخوفوهم بعذاب الله فقد عرضوا عليهم النار ثم نقول فى الآية
ما يمنع من حمله على عذاب القبر وبيانه من وجهين (الاول) ان ذلك العذاب يجب أن يكون دائما غير
منقطع وقوله يعرضون عليها غدوا وعشيا يقتضى أن لا يحصل ذلك العذاب الا فى هذين الوقتين فثبت
ان هذا لا يمكن حمله على عذاب القبر (الثانى) ان الغدوة والعشية انما يحصلان فى الدنيا أما فى القبر فلا
وجود لهما فثبت بهذين الوجهين انه لا يمكن حمل هذه الآية على عذاب القبر والجواب عن السؤال الاول
أن فى الدنيا عرض عليهم كلمات تذكرهم أمر النار لا أنه يعرض عليهم نفس النار فعلى قولهم يصير معنى
الآية الكلمات المذكرة لامر النار كانت تعرض عليهم وذلك يفضى الى ترك ظاهر اللفظ والعدول
الى المجاز أما قوله الآية تدل على حصول هذا العذاب فى هذين الوقتين وذلك لا يجوز قلنا لم لا يجوز أن
يكتفى فى القبر بايصال العذاب اليه فى هذين الوقتين ثم عند قيام القيامة يلقى فى النار فيدوم عذابه بعد
ذلك وأيضا لا يمتنع أن يكون ذكر الغدوة والعشية كناية عن الدوام كقوله ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا
أما قوله انه ليس فى القبر والقيامة غدوة وعشية قلنا لم لا يجوز ان يقال ان عند حصول هذين الوقتين
لاهل الدنيا يعرض عليهم العذاب والله أعلم (المسئلة الثانية) قرأ نافع وحمزة والكسائى وحفص عن
عاصم أدخلوا آل فرعون أى يقال لخزنة جهنم ادخلوهم فى أشد العذاب والباقون ادخلوا على معنى أنه
يقال لهؤلاء الكفار ادخلوا أشد العذاب والقراءة الاولى اختيار أبى عبيدة واحتج عليها بقوله تعالى
يعرضون فهذا يفعل بهم فكذلك أدخلوا وأما وجه القراءة الثانية فقوله ادخلوا أبواب جهنم وههنا آخر
الكلام فى قصة مؤمن آل فرعون واعلم ان الكلام فى تلك القصة لما انجر الى شرح أحوال النار لا جرم
ذكر الله عقيبها قصة المناظرات التى تجرى بين الرؤساء والاتباع من أهل النار فقال واذ يتحاجون فى النار
والمعنى اذكر يا محمد لقومك اذ يتحاجون أى يحاجج بعضهم بعضا ثم شرح خصومتهم وذلك ان الضعفاء
يقولون للرؤساء انا كنا لكم تبعا فى الدنيا قال صاحب الكشاف تبعا تخدم فى جمع خادم أو ذوى تبع أى
اتباع أو وصفا بالمصدر فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار أى فهل تقدرون على أن تدفعوا أيها الرؤساء
عنا نصيبا من العذاب واعلم ان أولئك الاتباع يعلمون ان أولئك الرؤساء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف
وانما مقصودهم من هذا الكلام المبالغة فى تخجيل أولئك الرؤساء وايلام قلوبهم لانهم هم الذين سعوا
فى ايقاع هؤلاء الاتباع فى أنواع الضلالات فعند هذا يقول الرؤساء انا كل فيها يعنى ان كنا واقعين فى
هذا العذاب فلو قدرت على ازالة العذاب عنك لدفعته عن نفسى ثم يقولون ان الله قد حكم بين العباد
يعنى يوصل الى كل أحد مقدار حقه من النعيم أو من العذاب ثم عند هذا يحصل اليأس للاتباع من
المتبوعين فيرجعون الى خزنة جهنم ويقولون لهم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فان قيل لم لم
يقل وقال الذين فى النار لخزنتها بل قال وقال الذين فى النار لخزنة جهنم قلنا فيه وجهان (الاول) أن يكون
المقصود من ذكر جهنم التهويل والتفظيع (والثانى) أن يكون جهنم اسما لموضع هو أبعد النار قعرا من
قولهم بئر جهنام أى بعيدة القعر وفيها أعظم أقسام الكفار عقوبة وخزنة ذلك الموضع تكون أعظم خزنة
جهنم عند الله درجة فاذا عرف الكفار ان الامر كذلك استغاثوا بهم فأولئك الملائكة يقولون لهم أولم تك
تأتيكم رسلكم بالبينات والمقصود أن قبل ارسال الرسل كان للقوم أن يقولوا انه ما جاءنا من بشير ولا نذير
اما بعد مجىء الرسل فلم يبق عذر ولا علة كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وهذه الآية تدل
على ان الواجب لا يتحقق الا بعد مجىء الشرع ثم ان أولئك الملائكة يقولون للكفار ادعوا أنتم فانا
لا نجترئ على ذلك ولا نشفع الا بشرطين (أحدهما) كون المشفوع له مؤمنا (والثانى) حصول الاذن
فى الشفاعة ولم يوجد واحد من هذين الشرطين فاقدامنا على هذه الشفاعة ممتنع لكن ادعوا أنتم وليس
قولهم فادعوا للرجاء والمنفعة ولكن للدلالة على الخيبة فان الملك المقرب اذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع

عقلون) ألا تتفكرون فلا
تعقلون هذا الامر الواضح
فتستبدلون الذى هو أدنى بالذى
هو خير وقرئ بالياء على الالتفات
المبنى على اقتضاء سوء صنيعهم
الاعراض عن مخاطبتهم (أفمن
وعدناه وعدا حسنا) أى وعدا
بالجنة فان حسن الوعد بحسن
الموعود (فهو لاقيه) أى مدركه
لا محالة لاستحالة الخلف فى وعده
تعالى ولذلك جىء بالجملة الاسمية
المفيدة لتحققه البتة وعطفت
بالفاء المنبئة عن معنى السببية
(كمن متعناه متاع الحياة الدنيا)
الذى هو مشوب بالآلام منغص
بالاكدار مستتبع للتحسر على
الانقطاع ومعنى الفاء الاولى
ترتيب انكار التشابه بين أهل الدنيا
وأهل الآخرة على ما قبلها من
ظهور التفاوت بين متاع الحياة
الدنيا وبين ما عند الله تعالى أى
أبعد هذا التفاوت الظاهر يستوى
بين الفريقين وقوله تعالى (ثم هم
يوم القيامة من المحضرين)
عطف على متعناه داخل معه فى
حيز الصلة مؤكد لانكار التشابه
ومقرر له كأنه قيل كمن متعناه
متاع الحياة الدنيا ثم نحضره أو
أحضرناه يوم القيامة النار أو
العذاب وايثار الجملة الاسمية
للدلالة على التحقق حتما وفى جعله
من جملة المحضرين من التهويل
ما لا يخفى وثم للتراخى فى الزمان أو
فى الرتبة وقرئ ثم هو بسكون الهاء
تشبيها للمنفصل بالمتصل (ويوم
يناديهم) منصوب بالعطف على
يوم القيامة لاختلافهما عنوانا
وان اتحدا ذاتا أو باضمار اذكر
(فيقول) تفسير للنداء (أين
شركائى الذين كنتم تزعمون) أى
الذين كنتم تزعمونهم شركائى فحذف
المفعولان معا ثقة بدلالة الكلام

دعاء الكفار ثم يصرحون لهم بأنه لا أثر لدعائهم فيقولون وما دعاء الكافرين الا فى ضلال فان قيل ان الحاجة على الله محال واذا كان كذلك امتنع أن يقال انه تأذى من هؤلاء المجرمين بسبب جرمهم واذا كان التأذى محالا عليه كانت شهوة الانتقام ممتنعة فى حقه اذا ثبت هذا فنقول ايصال هذه المضار العظيمة الى أولئك الكفار اضرار لا منفعة فيه الى الله تعالى ولا لاحد من العبيد فهو اضرار خال عن جميع الجهات المنتفعة فكيف يليق بالرحيم الكريم أن يبقى على ذلك الايلام أبد الآباد ودهر الداهرين من غير أن يرحم حاجتهم ومن غير أن يسمع دعاءهم ومن غير أن يلتفت الى تضرعهم وانكسارهم ولو أن أقسى الناس قلبا فعل مثل هذا التعذيب ببعض عبيده لدعاه كرمه ورحمته الى العفو عنه مع أن هذا السيد فى محل النفع والضرر والحاجة فأكرم الاكرمين كيف يليق به هذا الاضرار قلنا افعال الله لا تعلل ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فلما جاء الحكم الحق به فى الكتاب الحق وجب الاقرار به والله أعلم بالصواب

❁ قوله تعالى ﴿انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب هدى وذكرى لاولى الالباب فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار﴾ اعلم ان فى كيفية النظم وجوها (الاول) انه تعالى لما ذكر وقاية الله موسى صلوات الله عليه وذلك المؤمن من مكر فرعون بين فى هذه الآية انه ينصر رسله والذين آمنوا معه (الثانى) لما بين من قبل ما يقع بين أهل النار من التخاصم وانهم عند الفزع الى خزنة جهنم يقولون ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات اتبع ذلك بذكر الرسل وانه ينصرهم فى الدنيا والآخرة (والثالث) وهو الاقرب عندى ان الكلام فى أول السورة انما وقع من قوله ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد وامتد الكلام فى الرد على أولئك المجادلين وعلى أن المحقين أبدا كانوا مشغولين بدفع كيد المبطلين وكل ذلك انما ذكره الله تعالى تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتصبيرا له على تحمل أذى قومه ولما بلغ الكلام فى تقرير المطلوب الى الغاية القصوى وعد تعالى رسوله بأن ينصره على أعدائه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فقال انا لننصر رسلنا الآية أما فى الدنيا فهو المراد بقوله فى الحياة الدنيا وأما فى الآخرة فهو المراد بقوله ويوم يقوم الاشهاد فحاصل الكلام انه تعالى وعد بأنه ينصر الانبياء والرسل وينصر الذين ينصرونهم نصرة يظهر أثرها فى الدنيا وفى الآخرة واعلم ان نصرة الله المحقين تحصل بوجوه (أحدها) النصرة بالحجة وقد سمى الله الحجة سلطانا فى غير موضع وهذه النصرة عامة للمحقين أجمع ونعم ما سمى الله هذه النصرة سلطانا لان السلطنة فى الدنيا قد تبطل وقد تتبدل بالفقر والذلة والحاجة والفتور أما السلطنة الحاصلة بالحجة فانها تبقى أبد الآباد ويمتنع تطرق الخلل والفتور اليها (وثانيها) انهم منصورون بالمدح والتعظيم فان الظلمة وان قهروا شخصا من المحقين الا أنهم لا يقدرون على اسقاط مدحه عن ألسنة الناس (وثالثها) انهم منصورون بسبب ان بواطنهم مملوءة من أنوار الحجة وقوة اليقين فانهم انما ينظرون الى الظلمة والجهال كما تنظر ملائكة السموات الى أخس الاشياء (ورابعها) ان المبطلين وان كان يتفق لهم ان يحصل لهم استيلاء على المحقين ففى الغالب ان ذلك لا يدوم بل يكشف للناس ان ذلك كان أمرا وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق (وخامسها) ان المحق ان اتفق له ان وقع فى نوع من أنواع المحذور فذلك يكون سببا لمزيد ثوابه وتعظيم درجاته (وسادسها) ان الظلمة والمبطلين كما يموتون تموت آثارهم ولا يبقى لهم فى الدنيا أثر ولا خبر وأما المحقون فان آثارهم باقية على وجه الدهر والناس بهم يقتدون فى أعمال البر والخير ولهم يتبركون فهذا كله أنواع نصرة الله للمحقين فى الدنيا (وسابعها) انه تعالى قد ينتقم للانبياء والاولياء بعد موتهم كما نصر يحيى بن زكريا فانه لما قتل قتل به سبعون ألفا وأما نصرته تعالى اياهم فى الآخرة فذلك باعلاء درجاتهم فى مراتب الثواب وكونهم مصاحبين لانبياء الله كما قال فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا واعلم أن فى قوله انا لننصر رسلنا الى قوله ويوم يقوم الاشهاد دقيقة معتبرة وهى ان السلطان العظيم اذا خص بعض خواصه بالاكرام العظيم والتشريف الكامل عند حضور الجمع العظيم من أهل المشرق والمغرب كان ذلك ألذ وأبهج فقوله انا

عليهما (قال) استئناف مبنى على حكاية السؤال كأنه قيل فماذا صدر عنهم حينئذ فقيل قال (الذين حق عليهم القول) وهم شركاؤهم من الشياطين أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أربابا من دون الله تعالى بأن أطاعوهم فى كل ما أمروهم به ونهوا عنه ومعنى حق عليهم القول أنه ثبت مقتضاه وتحقق مؤداه وهو قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وغيره من آيات الوعيد وتخصيصهم بهذا الحكم مع شموله للاتباع أيضا لاصالتهم فى الكفر واستحقاق العذاب حسبما يشعر به قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم ومسارعتهم الى الجواب مع كون السؤال للعبدة اما لتفطنهم أن السؤال عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالاضلال وجزمهم بان العبدة سيقولون هؤلاء أضلونا واما لان العبدة قد قالوه اعتذارا وهؤلاء انما قالوا ما قالوا ردا لقولهم الا أنه لم يحك قول العبدة ايجازا لظهوره (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أى هم الذين أغويناهم فحذف الراجع الى الموصول ومرادهم بالاشارة بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم وانهم غير قادرين على انكاره ورده وقوله تعالى (أغويناهم كما غوينا) هو الجواب حقيقة وما قبله تمهيد له أى ما أكرهناهم على الغى وانما أغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل لا بالقسر والالجاء فغووا باختيارهم غيا مثل غينا باختيارنا ويجوز أن يكون الذين صفة لاسم الاشارة وأغويناهم الخبر (تبرأنا اليك) منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى هوى منهم وهو تقرير لما قبله ولذلك لم يعطف عليه

لننصر رسلنا الى يوم يقوم الاشهاد المقصود منه هذه الدقيقة واختلفوا فى المراد بالاشهاد والظاهر ان المراد كل من يشهد باعمال العباد يوم القيامة من ملك ونبى ومؤمن أما الملائكة فهم الكرام الكاتبون يشهدون بما شاهدوا وأما الانبياء فقال تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقال تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا قال المبرد يجوز أن يكون واحد الاشهاد شاهدا كاطيار وطائر وأصحاب وصاحب ويجوز أن يكون واحد الاشهاد شهيدا كاشراف وشريف وايتام ويتيم ثم قال تعالى يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر لا تنفع بالتاء لتأنيث المعذرة والباقون بالياء كأنه أريد الاعتذار واعلم ان المقصود أيضا من هذا شرح تعظيم ثواب أهل الثواب وذلك لانه تعالى بين أنه ينصرهم فى يوم يجتمع فيه الاولون والآخرون فحالهم فى علو الدرجات فى ذلك اليوم ماذكرناه وأما حال اعدائهم فهو انه حصلت لهم أمور ثلاثة (أحدها) انه لا ينفعهم شئ من المعاذير البتة (وثانيها) ان لهم اللعنة وهذا يفيد الحصر يعنى اللعنة مقصورة عليهم وهى الاهانة والاذلال (وثالثها) سوء الدار وهو العقاب الشديد فهذا اليوم اذا كان الاعداء واقعين فى هذه المراتب الثلاثة من الوحشة والبلية ثم انه خص الانبياء والاولياء بأنواع التشريفات الواقعة فى الجمع الاعظم فههنا يظهر أن سرور المؤمن كم يكون وان غموم الكافرين الى أين تبلغ فان قيل قوله يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم يدل على انهم يذكرون الاعذار الا أن تلك الاعذار لا تنفعهم فكيف الجمع بين هذا وبين قوله ولا يؤذن لهم فيعتذرون قلنا قوله لا تنفع الظالمين معذرتهم لا يدل على انهم ذكروا الاعذار بل ليس فيه الا انه ليس عندهم عذر مقبول نافع وهذا القدر لا يدل على انهم ذكروه أم لا وأيضا فقال يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون فى وقت ولا يعتذرون فى وقت آخر ولما بين الله تعالى أنه ينصر الانبياء والمؤمنين فى الدنيا والآخرة ذكر نوعا من أنواع تلك النصرة فى الدنيا فقال ولقد آتينا موسى الهدى ويجوز أن يكون المراد من الهدى ما آتاه الله من العلوم الكثيرة النافعة فى الدنيا والآخرة ويجوز أن يكون المراد تلك الدلائل القاهرة التى أوردها على فرعون وأتباعه وكادهم بها ويجوز أن يكون المراد هو النبوة التى هى أعظم المناصب الانسانية ويجوز أن يكون المراد انزال التوراة عليه ثم قال تعالى وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب هدى وذكرى لاولى الالباب يجوز أن يكون المراد منه انه تعالى لما أنزل التوراة على موسى بقى ذلك العلم فيهم وتوارثوه خلفا عن سلف ويجوز أن يكون المراد سائر الكتب التى أنزلها الله عليهم وهى كتب أنبياء بنى اسرائيل التوراة والزبور والانجيل والفرق بين الهدى والذكرى أن الهدى ما يكون دليلا على الشئ وليس من شرطه أن يذكر شيأ آخر كان معلوما ثم صار منسيا وأما الذكرى فهى الذى يكون كذلك فكتب أنبياء الله مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل فى أنفسها وبعضها مذكرات لما ورد فى الكتب الالهية المتقدمة ولما بين ان الله تعالى ينصر رسله وينصر المؤمنين فى الدنيا والآخرة وضرب المثال فى ذلك بحال موسى وخاطب بعد ذلك محمدا صلى الله عليه وسلم فقال فاصبر ان وعد الله حق فالله ناصرك كما نصرهم ومنجز وعده فى حقك كما كان كذلك فى حقهم ثم أمره بأن يقبل على طاعة الله النافعة فى الدنيا والآخرة فان من كان لله كان الله له واعلم أن مجامع الطاعات محصورة فى قسمين التوبة عما لا ينبغى والاشتغال بما ينبغى والاول مقدم على الثانى بحسب الرتبة الذاتية فوجب أن يكون مقدما عليه فى الذكر أما التوبة عما لا ينبغى فهو قوله واستغفر لذنبك والطاعنون فى عصمة الانبياء عليهم السلام يتمسكون به ونحن نحمله على التوبة عن ترك الاولى والافضل أو على ما كان قد صدر عنهم قبل النبوة وقيل أيضا المقصود منه محض التعبد كما فى قوله ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك فان ايتاء ذلك الشئ واجب ثم انه أمرنا بطلبه وكقوله رب احكم بالحق مع أنا نعلم أنه لا يحكم الا بالحق وقيل اضافة المصدر الى الفاعل والمفعول فقوله واستغفر لذنبك من باب اضافة المصدر الى المفعول أى واستغفر لذنب أمتك فى حقك وأما الاشتغال بما ينبغى فهو قوله وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار والتسبيح عبارة عن تنزيه الله عن كل ما لا يليق به والعشى والابكار قيل صلاة العصر وصلاة الفجر وقيل الابكار عبارة عن أول النهار الى النصف والعشى عبارة عن النصف الى آخر النهار

وكذا قوله تعالى (ما كانوا ايانا يعبدون) أى ما كانوا يعبدوننا وانما كانوا يعبدون أهواءهم وقيل ما مصدرية متصلة بقوله تعالى تبرأنا أى تبرأنا من عبادتهم ايانا (وقيل ادعوا شركاءكم) اما تهكما بهم أو تبكيتا لهم (فدعوهم) لفرط الحيرة (فلم يستجيبوا لهم) ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة (ورأوا العذاب) قد غشيهم (لو أنهم كانوا يهتدون) لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب أو الى الحق لما لقوا ما لقوا وقيل لو للتمنى أى تمنوا أنهم لو كانوا مهتدين (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) عطف على ما قبله سئلوا أولا عن اشراكهم وثانيا عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك (فعميت عليهم الانباء يومئذ) أى صارت كالعمى عنهم لا تهتدى اليهم وأصله فعموا عن الانباء وقد عكس للمبالغة والتنبيه على ان ما يحضر الذهن يفيض عليه ويصل اليه من خارج فاذا أخطأ يكن له حيلة الى استحضاره وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء والاشتباه والمراد بالانباء اما ما طاب منهم مما أجابوا به الرسل أو جميع الانباء وهى داخلة فيه دخولا أوليا واذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يفوضون العلم فى ذلك المقام الهائل الى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسؤل فما ظنك بأولئك الضلال من الامم (فهم لا يتساءلون) لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة أو العلم بأن الكل سواء فى الجهل (فأما من تاب) من الشرك (وآمن وعمل صالحا) أى جمع بين الايمان والعمل الصالح (فعسى أن يكون من المفلحين) أى الفائزين

فيدخل فيه كل الاوقات وقيل المراد طرفى النهار كما قال وأقم الصلاة طرفى النهار وبالجملة فالمراد منه الامر بالمواظبة على ذكر الله وأن لا يفتر اللسان عنه وأن لا يغفل القلب عنه حتى يصير الانسان بهذا السبب داخلا فى زمرة الملائكة كما قال فى وصفهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ان فى صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله انه هو السميع البصير لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون وما يستوى الاعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء قليلا ما يتذكرون ان الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ اعلم انا بينا ان الكلام فى أول هذه السورة انما ابتدئ ردا على الذين يجادلون فى آيات الله واتصل البعض بالبعض وامتد على الترتيب الذى لخصناه والنسق الذى كشفنا عنه الى هذا الموضع ثم انه تعالى نبه فى هذه الآية على الداعية التى تحمل أولئك الكفار على تلك المجادلة فقال ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان انما يحملهم على هذا الجدال الباطل كبر فى صدورهم فذلك الكبر هو الذى يحملهم على هذا الجدال الباطل وذلك الكبر هو أنهم لو سلموا نبوتك لزمهم أن يكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك لان النبوة تحتها كل ملك ورياسة وفى صدورهم كبر لا يرضون أن يكونوا فى خدمتك فهذا هو الذى يحملهم على هذه المجادلات الباطلة والمخاصمات الفاسدة ثم قال تعالى ما هم ببالغيه يعنى انهم يريدون أن لا يكونوا تحت يدك ولا يصلون الى هذا المراد بل لا بد وان يصيروا تحت أمرك ونهيك ثم قال فاستعذ بالله أى فالتجئ اليه من كيد من يجادلك انه هو السميع بما يقولون أو تقول البصير بما تعمل ويعملون فهو يجعلك نافذ الحكم عليهم ويصونك عن مكرهم وكيدهم واعلم انه تعالى لما وصف جدالهم فى آيات الله بأنه بغير سلطان ولا حجة ذكر لهذا مثالا فقال لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس والقادر على الاكبر قادر على الاصغر لا محالة وتقرير هذا الكلام ان الاستدلال بالشئ على غيره على ثلاثة أقسام (أحدها) أن يقال لما قدر على الاضعف وجب أن يقدر على الاقوى وهذا فاسد (وثانيها) أن يقال لما قدر على الشئ قدر على مثله فهذا الاستدلال حق لما ثبت فى العقول ان حكم الشئ حكم مثله (وثالثها) ان يقال لما قدر على الاقوى الاكمل فبأن يقدر على الاقل الارذل كان أولى وهذا الاستدلال فى غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل البتة ثم ان هؤلاء القوم يسلمون أن خالق السموات والارض هو الله سبحانه وتعالى ويعلمون بالضرورة ان خلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وكان من حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السموات والارض يكون قادرا على اعادة الانسان الذى خلقه أولا فهذا برهان جلى فى افادة هذا المطلوب ثم ان هذا البرهان على قوته صار بحيث لا يعرفه أكثر الناس والمراد منهم الذين ينكرون الحشر والنشر فظهر بهذا المثال أن هؤلاء الكفار يجادلون فى آيات الله بغير سلطان ولا حجة بل بمجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب ولما بين الله تعالى أن الجدال مقرون بالكبر والحسد والجهل كيف يكون وان الجدال المقرون بالحجة والبرهان كيف يكون نبه تعالى على الفرق بين البابين بذكر المثال فقال وما يستوى الاعمى والبصير يعنى وما يستوى المستدل والجاهل المقلد ثم قال والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء فالمراد بالاول التفاوت بين العالم والجاهل والمراد بالثانى التفاوت بين الآتى بالاعمال الصالحة وبين الآتى بالاعمال الفاسدة الباطلة ثم قال قليلا ما يتذكرون يعنى انهم وان كانوا يعلمون ان العلم خير من الجهل وان العمل الصالح خير من العمل الفاسد الا انه قليلا ما يتذكرون فى النوع المعين من الاعتقاد أنه علم أو جهل والنوع المعين من العمل انه عمل صالح أو فاسد فان الحسد يعمى قلوبهم فيعتقدون فى الجهل والتقليد أنه محض المعرفة وفى الحسد والحقد والكبر انه محض الطاعة فهذا هو المراد من قوله قليلا ما يتذكرون قرأ عاصم وحمزة والكسائى تتذكرون بالتاء على الخطاب أى قل لهم قليلا ما تتذكرون والباقون بالياء على الغيبة ولما قرر الدليل الدال على امكان وجود يوم القيامة أردفه بأن أخبر عن وقوعها ودخولها فى الوجود فقال ان الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون والمراد بأكثر الناس الكفار الذين ينكرون البعث والقيامة ۞ قوله تعالى ﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين

بالمطلوب عنده تعالى الناجين من المهروب وعسى للتحقيق على عادة الكرام أو للترجى من قبل التائب بمعنى فليتوقع الافلاح (وربك يخلق ما يشاء) أن يخلقه (ويختار) ما يشاء اختياره من غير ايجاب عليه ولا منع له أصلا (ما كان لهم الخيرة) أى التخير كالطيرة بمعنى التطير والمراد نفى الاختيار المؤثر عنهم وذلك مما لا ريب فيه وقيل المراد أنه ليس لاحد من خلقه أن يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف ويؤيده ما روى أنه نزل فى قول الوليد بن المغيرة لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم والمعنى لا يبعث الله تعالى الرسل باختيار المرسل اليهم وقيل معناه ويختار الذى كان لهم فيه الخير والصلاح (سبحان الله) أى تنزه بذاته تنزها خاصا به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار (وتعالى عما يشركون) عن اشراكهم او عن مشاركة ما يشركونه به (وربك يعلم ما تكن صدورهم) كعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقده (وما يعلنون) كالطعن فيه (وهو الله) أى المستحق للعبادة (لا اله الا هو) لا أحد يستحقها الا هو (له الحمد فى الاولى والآخرة) لانه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها على الخلق كافة يحمده المؤمنون فى الآخرة كما حمدوه فى الدنيا بقولهم الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده ابتهاجا بفضله والتذاذا بحمده (وله الحكم) أى القضاء النافذ فى كل شئ من غير مشاركة فيه لغيره (واليه ترجعون) بالبعث لا الى غيره (قل) تقريرا لما ذكر (أرأيتم) أى أخبرونى (ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) دائما

الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا اله الا هو فأنى تؤفكون كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون) اعلم انه تعالى لما بين ان القول بالقيامة حق وصدق وكان من المعلوم بالضرورة ان الانسان لا ينتفع فى يوم القيامة الا بطاعة الله تعالى لا جرم كان الاشتغال بالطاعة من أهم المهمات ولما كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء والتضرع لا جرم أمر الله تعالى به فى هذه الآية فقال وقال ربكم ادعونى أستجب لكم واختلف الناس فى المراد بقوله ادعونى فقيل انه الامر بالدعاء وقيل انه الامر بالعبادة بدليل انه قال بعده ان الذين يستكبرون عن عبادتى ولولا ان الامر بالدعاء أمر بمطلق العبادة لما بقى لقوله ان الذين يستكبرون عن عبادتى معنى وأيضا الدعاء بمعنى العبادة كثير فى القرآن كقوله ان يدعون من دونه الا اناثا وأجيب عنه بأن الدعاء هو اعتراف بالعبودية والذلة والمسكنة فكأنه قيل ان تارك الدعاء انما تركه لاجل أن يستكبر عن اظهار العبودية وأجيب عن قوله ان الدعاء بمعنى العبادة كثير فى القرآن بأن ترك الظاهر لا يصار اليه الا بدليل منفصل فان قيل كيف قال ادعونى أستجب لكم وقد يدعى كثيرا فلا يستجاب أجاب الكعبى عنه بان قال الدعاء انما يصح على شرط ومن دعا كذلك استجيب له وذلك الشرط هو أن يكون المطلوب بالدعاء مصلحة وحكمة ثم سأل نفسه فقال فما هو أصلح يفعله بلا دعاء فما الفائدة فى الدعاء وأجاب عنه من وجهين (الاول) ان فيه الفزع والانقطاع الى الله (والثانى) ان هذا أيضا وارد على الكل لانه ان علم أنه يفعله فلا بد وان يفعله فلا فائدة فى الدعاء وان علم انه لا يفعله فانه البتة لا يفعله فلا فائدة فى الدعاء وكل ما يقولونه ههنا فهو جوابنا هذا تمام ما ذكره وعندى فيه وجه آخر وهو أنه قال ادعونى أستجب لكم فكل من دعا الله وفى قلبه ذرة من الاعتماد على ماله وجاهه وأقاربه واصدقائه وجده واجتهاده فهو فى الحقيقة ما دعا الله الا باللسان أما بالقلب فانه معول فى تحصيل ذلك المطلوب على غير الله فهذا الانسان ما دعا ربه فى وقت أما اذا دعا فى وقت لا يبقى فى القلب التفات الى غير الله فالظاهر أنه تحصل الاستجابة اذا عرفت هذا ففيه بشارة كاملة وهى ان انقطاع القلب بالكلية عما سوى الله لا يحصل الا عند القرب من الموت فان الانسان قاطع فى ذلك الوقت بأنه لا ينفعه شئ سوى فضل الله تعالى فعلى القانون الذى ذكرناه وجب أن يكون الدعاء فى ذلك الوقت مقبولا عند الله ونرجو من فضل الله واحسانه أن يوفقنا للدعاء المقرون بالاخلاص والتضرع فى ذلك الوقت واعلم ان الكلام المستقصى فى الدعاء قد سبق ذكره فى سورة البقرة ثم قال تعالى ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين أى صاغرين وهذا احسان عظيم من الله تعالى حيث ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء فان قيل روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال حكاية عن رب العزة انه قال من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين فهذا الخبر يقتضى أن ترك الدعاء أفضل وهذه الآية تدل على أن ترك الدعاء يوجب الوعيد الشديد فكيف الجمع بينهما قلنا لا شك أن العقل اذا كان مستغرقا فى الثناء كان ذلك أفضل من الدعاء لان الدعاء طلب للحظ والاستغراق فى معرفة جلال الله أفضل من طلب الحظ أما اذا لم يحصل ذلك الاستغراق كان الاشتغال بالدعاء أولى لان الدعاء يشتمل على معرفة عزة الربوبية وذلة العبودية ثم قال تعالى الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه واعلم أن تعلقه بما قبله من وجهين (الاول) كأنه تعالى قال انى أنعمت عليك قبل طلبك لهذه النعم الجليلة العظيمة ومن أنعم قبل السؤال بهذه النعم العالية فكيف لا ينعم بالاشياء القليلة بعد السؤال (والثانى) انه تعالى لما أمر بالدعاء فكأنه قيل الاشتغال بالدعاء لا بد وأن يكون مسبوقا بحصول المعرفة فما الدليل على وجود الاله القادر وقد ذكر الله تعالى هذه الدلائل العشرة على وجوده وقدرته وحكمته واعلم انا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته اما فلكية واما عنصرية أما الفلكيات فاقسام كثيرة (أحدها) تعاقب الليل والنهار وكان أكثر مصالح العالم مربوطا بهما فذكرهما الله تعالى فى هذا المقام وبين أن الحكمة فى خلق الليل حصول الراحة بسبب النوم والسكون والحكمة فى خلق النهار ابصار الاشياء ليحصل مكنة التصرف فيها على الوجه الانفع اما أن السكون فى وقت النوم سبب للراحة فبيانه من وجهين (الاول) ان الحركات توجب الاعياء

من السرد وهو المتابعة والاطراد والميم مزيدة كما فى دلامص من الدلاص يقال درع دلاص أى ملساء لينة (الى يوم القيامة) باسكان الشمس تحت الارض أو تحريكها حول الافق الغائر (من اله غير الله) صفة لاله (يأتيكم بضياء) صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والالزام كما فى قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض وقوله تعالى فمن يأتيكم بماء معين ونظائرهما خلا انه قصد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة ولم يقل هل اله الخ لاراد التبكيت والالزام على زعمهم وقرئ بضئاء بهمزتين (أفلا تسمعون) هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار حتى تذعنوا له وتعملوا بموجبه (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة) باسكانها فى وسط السماء أو بتحريكها على مدار فوق الافق (من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه) استراحة من متاعب الاشغال ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه لكونه مقصودا بذاته ظاهر الاستتباع لما نيط به من المنافع (أفلا تبصرون) هذه المنفعة الظاهرة التى لا تخفى على من له بصر (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أى فى الليل (ولتبتغوا من فضله) فى النهار بأنواع المكاسب (ولعلكم تشكرون) ولكى تشكروا نعمته تعالى فعل ما فعل أو لكى تعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها (ويوم يناديهم) منصوب باذكر (فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) تقريع اثر تقريع للاشعار بأنه لا شئ أجلب لغضب الله عز وجل من الاشراك كما لا شئ أدخل فى

من حيث ان الحركة توجب السخونة والجفاف وذلك يوجب التألم (والثانى) أن الاحساس بالاشياء انما يمكن بايصال الارواح الجسمانية الى ظاهر الحس ثم ان تلك الارواح تتحلل بسبب كثرة الحركات فتضعف الحواس والاحساسات واذا نام الانسان عادت الارواح الحساسة فى باطن البدن وركزت وقويت وتخلصت عن الاعياء وأيضا الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتدارك ما حصل فى النهار من الحر والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات فهذه هى المنافع المعلومة من قوله تعالى الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه وأما قوله والنهار مبصرا فاعلم ان الانسان مدنى بالطبع ومعناه انه مالم يحصل مدينة تامة لم تنتظم مهمات الانسان فى مأكوله ومشروبه وملبسه ومنكحه وتلك المهمات لا تحصل الا بأعمال كثيرة وتلك الاعمال تصرفات فى أمور وهذه التصرفات لا تكمل الا بالضوء والنور حتى يميز الانسان بسبب ذلك النور بين ما يوافقه وبين ما لا يوافقه فهذا هو الحكمة فى قوله والنهار مبصرا فان قيل كان الواجب بحسب رعاية النظم أن يقال هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه أو يجعل لكم الليل ساكنا ولكنه لم يقل كذلك بل قال فى الليل لتسكنوا فيه وقال فى النهار مبصرا فما الفائدة فيه وأيضا فما الحكمة فى تقديم ذكر الليل على ذكر النهار مع أن النهار أشرف من الليل قلنا أما الجواب عن الاول فهو ان الليل والنوم فى الحقيقة طبيعة عدمية فهو غير مقصود بالذات أما اليقظة فأمور وجودية وهى مقصودة بالذات وقد بين الشيخ عبد القاهر النحوى فى دلائل الاعجاز أن دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما فهذا هو السبب فى هذا الفرق والله أعلم وأما الجواب عن الثانى فهو أن الظلمة طبيعة عدمية والنور طبيعة وجودية والعدم فى المحدثات مقدم على الوجود ولهذا السبب قال فى أول سورة الانعام وجعل الظلمات والنور واعلم انه تعالى لما ذكر ما فى الليل والنهار من المصالح والحكم البالغة قال ان الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون والمراد ان فضل الله على الخلق كثير جدا ولكنهم لا يشكرونه واعلم ان ترك الشكر لوجوه (أحدها) أن يعتقد الرجل ان هذه النعم ليست من الله تعالى مثل ان يعتقد أن هذه الافلاك واجبة الوجود لذواتها وواجبة الدوران لذواتها فحينئذ هذا الرجل لا يعتقد ان هذه النعم من الله (وثانيها) أن الرجل وان اعتقد أن كل هذا العالم حصل بتخليق الله وتكوينه الا أن هذه النعم العظيمة أعنى نعمة تعاقب الليل والنهار لما دامت واستمرت نسيها الانسان فاذا ابتلى الانسان بفقدان شئ منها عرف قدرها مثل أن يتفق لبعض الناس والعياذ بالله أن يحبسه بعض الظلمة فى آبار عميقة مظلمة مدة مديدة فحينئذ يعرف ذلك الانسان قدر نعمة الهواء الصافى وقدر نعمة الضوء ورأيت بعض الملوك كان يعذب بعض خدمه بأن أمر أقواما حتى يمنعونه عن الاستناد الى الجدار وعن النوم فعظم وقع هذا التعذيب (وثالثها) أن الرجل وان كان عارفا بمواقع هذه النعم الا أنه يكون حريصا على الدنيا محبا للمال والجاه فاذا فاته المال الكثير والجاه العريض وقع فى كفران هذه النعم العظيمة ولما كان أكثر الخلق هالكين فى أحد هذه الاودية الثلاثة التى ذكرناها لاجرم قال تعالى ولكن أكثر الناس لا يشكرون ونظيره قوله تعالى وقليل من عبادى الشكور وقول ابليس ولا تجد أكثرهم شاكرين ولما بين الله تعالى بتلك الدلائل المذكورة وجود الاله القادر الرحيم الحكيم قال ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا اله الا هو وقال صاحب الكشاف ذلكم المعلوم المميز بالافعال الخاصة التى لا يشاركه فيها أحد هو الله ربكم خالق كل شئ لا اله الا هو أخبار مترادفة أى هو الجامع لهذه الاوصاف من الالهية والربوبية وخلق كل شئ وانه لا ثانى له فأنى تؤفكون والمراد فأنى تصرفون ولم تعدلون عن هذه الدلائل وتكذبون بها ثم قال تعالى كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون يعنى أن كل من جحد بآيات الله ولم يتأملها ولم يكن فيه همة لطلب الحق وخوف العاقبة أفك كما أفكوا ﴿ قوله تعالى ﴿ الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل

مرضاته من توحيده سبحانه وقوله تعالى (ونزعنا) عطف على يناديهم وصيغة الماضى للدلالة على التحقق أو حال من فاعله باضمار قد والالتفات الى نون العظمة لابراز كمال الاعتناء بشأن النزع وتهويله أى أخرجنا (من كل أمة) من الامم (شهيدا) نبيا يشهد عليهم بما كانوا عليه كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد (فقلنا) لكل أمة من تلك الامم (هاتوا برهانكم) على صحة ما كنتم تدينون به (فعلموا) يومئذ (أن الحق لله) فى الالهية لا يشاركه فيها أحد (وضل عنهم) أى غاب عنهم غيبة الضائع (ما كانوا يفترون) فى الدنيا من الباطل (ان قارون كان من قوم موسى) كان ابن عمه يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهث وقيل كان موسى عليه السلام ابن أخيه وكان يسمى المنور لحسن صورته وقيل كان أقرأ بنى اسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى وقال اذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهرون فما لى وروى انه لما جاوز بهم موسى عليه السلام البحر وصارت الرسالة والحبورة والقربان لهرون وجد قارون فى نفسه وحسدهما فقال لموسى الامر لكما ولست على شئ الى متى أصبر قال موسى عليه السلام هذا صنع الله تعالى قال لا أصدقك حتى تأتى بآية فأمر رؤساء بنى اسرائيل أن يجئ كل واحد بعصاه فحزمها وألقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل اليه فيها فكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا فاذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر فقال قارون ما هو بأعجب مما تصنع من السحر وذلك

ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون﴾ اعلم انا بينا أن دلائل وجود الله وقدرته اما أن تكون من باب دلائل الآفاق أو من باب دلائل الانفس أما دلائل الآفاق فالمراد كل ما هو غير الانسان من كل هذا العالم وهي أقسام كثيرة والمذكور منها في هذه الآية أقسام منها أحوال الليل والنهار وقد سبق ذكره (وثانيها) الارض والسماء وهو المراد من قوله الله الذي جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء قال ابن عباس في قوله قرارا أي منزلا في حال الحياة وبعد الموت والسماء بناء كالقبة المضروبة على الارض وقيل مسك الارض بلا عمد حتى أمكن التصرف عليها والسماء بناء أي قائما ثابتا والا لوقعت علينا وأما دلائل الانفس فالمراد منها دلالة أحوال بدن الانسان ودلالة أحوال نفسه على وجود الصانع القادر الحكيم والمذكور منها في هذه الآية قسمان (أحدهما) ما هو حاصل مشاهد حال كمال حاله والثاني ما كان حاصلا في ابتداء خلقته وتكوينه (أما القسم الاول) فأنواع كثيرة والمذكور منها في هذه الآية أنواع ثلاثة (أولها) حدوث صورته وهو المراد من قوله وصوركم (وثانيها) حسن صورته وهو المراد من قوله فأحسن صوركم (وثالثها) انه رزقه من الطيبات وهو المراد من قوله ورزقكم من الطيبات وقد أطنبنا في تفسير هذه الاشياء في هذا الكتاب مرارا لاسيما في تفسير قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم ولما ذكر الله تعالى هذه الدلائل الخمسة اثنين من دلائل الآفاق وثلاثة من دلائل الانفس قال ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين وتفسير تبارك اما الدوام والثبات واما كثرة الخيرات ثم قال هو الحي لا اله الا هو وهذا يفيد الحصر وأن لا حي الا هو فوجب أن يحمل ذلك على الحي الذي يمتنع أن يموت امتناعا ذاتيا وحينئذ لا حي الا هو فكأنه أجرى الشئ الذي يجوز زواله مجرى المعدوم واعلم ان الحي عبارة عن الدراك الفعال والدراك اشارة الى العلم التام والفعال اشارة الى القدرة الكاملة ولما نبه على هاتين الصفتين من صفات الجلال نبه على الصفة الثالثة وهي الوحدانية بقوله لا اله الا هو ولما وصفه بهذه الصفات أمر العباد بشيئين (أحدهما) بالدعاء (والثاني) بالاخلاص فيه فقال فادعوه مخلصين له الدين ثم قال الحمد لله رب العالمين فيجوز أن يكون المراد قول الحمد لله رب العالمين ويجوز أن يكون المراد انه لما كان موصوفا بصفات الجلال والعزة استحق لذاته أن يقال الحمد لله رب العالمين ولما بين صفات الجلال والعظمة قال قل اني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله فأورد ذلك على المشركين بألين قول ليصرفهم عن عبادة الاوثان وبين أن وجه النهي في ذلك ما جاءه من البينات وتلك البينات أن اله العالم قد ثبت كونه موصوفا بصفات الجلال والعظمة على ما تقدم ذكره وصريح العقل يشهد بان العبادة لا تليق الا به وأن جعل الاحجار المنحوتة والخشب المصورة شركاء له في المعبودية مستنكر في بديهة العقل ولما بين انه نهي عن عبادة غير الله بين انه أمر بعبادة الله تعالى فقال وأمرت ان أسلم لرب العالمين وانما ذكر هذه الاحكام في حق نفسه لانهم كانوا يعتقدون فيه انه في غاية العقل وكمال الجوهر ومن المعلوم بالضرورة ان كل أحد فانه لا يريد لنفسه الا الافضل الاكمل فاذا ذكر أن مصلحته لا تتم الا بالاعراض عن غير الله والاقبال بالكلية على طاعة الله ظهر به ان هذا الطريق أكمل من كل ما سواه ثم قال هو الذي خلقكم من تراب واعلم انا قد ذكرنا أن الدلائل على قسمين دلائل الآفاق والانفس أما دلائل الآفاق فكثيرة والمذكور منها في هذه الآية أربعة الليل والنهار والارض والسماء وأما دلائل الانفس فقد ذكرنا أنها على قسمين (أحدهما) الاحوال الحاضرة حال كمال الصحة وهي أقسام كثيرة والمذكور ههنا منها ثلاثة أنواع الصورة وحسن الصورة ورزق الطيبات (وأن القسم الثاني) وهو كيفية تكون هذا البدن من ابتداء كونه نطفة وجنينا الى آخر الشيخوخة والموت فهو المذكور في هذه الآية فقال هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة فقيل المراد آدم وعندي لا حاجة اليه لان كل انسان فهو مخلوق من المني ومن دم الطمث والمني مخلوق من الدم فالانسان مخلوق من الدم والدم انما يتولد من الاغذية والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحال في تكون ذلك الحيوان كالحال في تكون الانسان فالاغذية بأسرها منتهية الى النباتية والنبات انما يكون من التراب والماء فثبت ان كل انسان فهو متكون من التراب ثم ان ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة ثم بعد كونه علقة مراتب كثيرة الى أن ينفصل من بطن الام فالله تعالى ترك ذكرها ههنا لاجل انه تعالى ذكرها في سائر الآيات واعلم انه تعالى رتب عمر الانسان على

قوله تعالى (فبغى عليهم) فطلب الفضل عليهم وان يكونوا تحت أمره أو ظلمهم قيل وذلك حين ملكه فرعون على بني اسرائيل وقيل حسدهم وذلك ما ذكر منه في حق موسى وهرون عليهما السلام (وآتيناه من الكنوز) أي الاموال المدخرة (ما ان مفاتحه) أي مفاتح صناديقه وهو جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به وقيل خزائنه وقياس واحدها المفتح بالفتح (لتنوء بالعصبة أولي القوة) خبر ان والجملة صلة ما وهو ثاني مفعولي آتى وناء به الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة والعصابة الجماعة الكثيرة وقرئ لينوء بالياء على اعطاء المضاف حكم المضاف اليه كما في قوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين (اذ قال له قومه) منصوب بتنوء وقيل ببغى ورد بأن البغي ليس مقيدا بذلك الوقت وقيل بآتيناه ورد بأن الايتاء أيضا غير مقيد به وقيل بمضمر فقيل هو اذكر وقيل هو أظهر الفرح ويجوز أن يكون منصوبا بما بعده من قوله تعالى قال انما أوتيته وتكون الجملة مقررة لبغيه (لا تفرح) أي لا تبطر والفرح في الدنيا مذموم مطلقا لانه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها فان العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقة لا محالة يوجب الترح حتما ولذلك قال تعالى ولا تفرحوا بما آتاكم وعلل النهي ههنا بكونه مانعا من محبته عز وعلا فقيل (ان الله لا يحب الفرحين) أي بزخارف الدنيا (وابتغ) وقرئ واتبع (فيما آتاك الله) من الغنى (الدار الآخرة) أي ثواب الله تعالى فيها بصرفه الى ما يكون وسيلة اليه (ولا تنس) أي لا تترك ترك المنسي (نصيبك من الدنيا) وهو أن

ثلاث مراتب أولها كونه طفلا وثانيها أن يبلغ أشده وثالثها الشيخوخة وهذا ترتيب صحيح مطابق للعقل وذلك لان الانسان فى أول عمره يكون فى التزايد والنشو والنماء وهو المسمى بالطفولية والمرتبة الثانية أن يبلغ الى كمال النشو والى أشد السن من غير أن يكون قد حصل فيه نوع من أنواع الضعف وهذه المرتبة هى المراد من قوله لتبلغوا أشدكم والمرتبة الثالثة أن يتراجع ويظهر فيه أثر من آثار الضعف والنقص وهذه المرتبة هى المراد من قوله ثم لتكونوا شيوخا واذا عرفت هذا التقسيم عرفت ان مراتب العمر بحسب هذا التقسيم لا تزيد على هذه الثلاثة قال صاحب الكشاف قوله لتبلغوا أشدكم متعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا ثم قال ومنكم من يتوفى من قبل أى من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الاحوال اذا خرج سقطا ثم قال ولتبلغوا أجلا مسمى ومعناه يفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى وهو وقت الموت وقيل يوم القيامة ثم قال ولعلكم تعقلون ما فى هذه الاحوال العجيبة من أنواع العبر وأقسام الدلائل ﴿ قوله تعالى ﴿هو الذى يحيى ويميت فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر انتقال الانسان من كونه ترابا الى كونه نطفة ثم الى كونه علقة ثم الى كونه طفلا ثم الى بلوغ الاشد ثم الى الشيخوخة واستدل بهذه التغيرات على وجود الاله القادر قال بعده هو الذى يحيى ويميت يعنى كما أن الانتقال من صفة الى صفة أخرى من الصفات التى تقدم ذكرها يدل على الاله القادر فكذلك الانتقال من الحياة الى الموت وبالعكس يدل على الاله القادر وقوله فاذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون فيه وجوه (الاول) معناه انه لما نقل هذه الاجسام من بعض هذه الصفات الى صفة أخرى لم يتعب فى ذلك التصرف ولم يحتج الى آلة وأداة فعبر عن نفاذ قدرته فى الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع بما اذا قال كن فيكون (الوجه الثانى) انه عبر عن الاحياء والاماتة بقوله كن فيكون فكانه قيل الانتقال من كونه ترابا الى كونه نطفة ثم الى كونه علقة انتقالات تحصل على التدريج قليلا قليلا وأما صيرورة الحياة فهى انما تحصل لتعلق جوهر الروح النطقية به وذلك يحدث دفعة واحدة فلهذا السبب وقع التعبير عنه بقوله كن فيكون (الوجه الثالث) ان من الناس من يقول ان تكون الانسان انما ينعقد من المنى والدم فى الرحم فى مدة معينة وبحسب انتقالات من حالات الى حالات فكانه قيل انه يمتنع أن يكون كل انسان عن انسان آخر لان التسلسل محال ووقوع الحادث فى الازل محال فلا بد من الاعتراف بانسان هو أول الناس فحينئذ يكون حدوث ذلك الانسان لا بواسطة المنى والدم بل بايجاد الله تعالى ابتداء فعبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله كن فيكون ﴿ قوله تعالى ﴿ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيأ كذلك يضل الله الكافرين ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ اعلم انه تعالى عاد الى ذم الذين يجادلون فى آيات الله فقال ألم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون وهذا ذم لهم على أن جادلوا فى انكار آيات الله ودفعها والتكذيب بها فعجب تعالى منهم بقوله أنى يصرفون كما يقول الرجل لمن لا يرى أنى يذهب بك تعجبا من غفلته ثم بين أنهم هم الذين كذبوا بالكتاب أى بالقرآن وبما أرسلنا به رسلنا من سائر الكتب فان قيل سوف للاستقبال واذ للماضى فقوله فسوف يعلمون اذ الاغلال فى أعناقهم مثل قولك سوف أصوم أمس قلنا المراد من قوله اذ هو اذا لان الامور المستقبلة لما كانت فى أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعا بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد والمعنى على الاستقبال هذا لفظ صاحب الكشاف ثم انه تعالى وصف كيفية عقابهم فقال اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم والمعنى أنه يكون فى أعناقهم الاغلال والسلاسل ثم يسحبون بتلك السلاسل فى الحميم أى فى الماء المسخن بنار جهنم ثم فى النار يسجرون والسجر فى اللغة الايقاد فى التنور ومعناه أنهم فى النار فهى محيطة بهم ويقرب منه قوله تعالى نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله فيقولون ضلوا عنا أى غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ثم قالوا بل لم نكن ندعوا من قبل شيأ أى تبين لنا أنهم لم يكونوا شيأ وما كنا نعبد

تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك (وأحسن) أى الى عباد الله تعالى (كما أحسن الله اليك) فيما أنعم به عليك وقيل أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله اليك بالانعام (ولا تبغ الفساد فى الارض) نهى عما كان عليه من الظلم والبغى (ان الله لا يحب المفسدين) لسوء أفعالهم (قال) مجيبا لناصحيه (انما أوتيته على علم عندى) كأنه يريد به الرد على قولهم كما أحسن الله اليك لانبائه عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الاموال والذخائر من غير سبب واستحقاق من قبله أى فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه وعلى علم فى موقع الحال وهو علم التوراة وكان أعلمهم بها وقيل علم الكيمياء وقيل علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب وقيل علم فتح الكنوز والدفائن وعندى صفة له أو متعلق بأوتيته كقولك جاز هذا عندى أو فى ظنى ورأيى (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) توبيخ له من جهة الله تعالى على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك قراءة فى التوراة وتلقيا من موسى عليه السلام وسماعا من حفاظ التواريخ وتعجب منه فالمعنى ألم يقرأ التوراة ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه من أهل القرون السابقة حتى لا يغتر بما اغتروا به أورد لادعائه العلم وتعظمه به بنفى هذا العلم منه فالمعنى أعلم ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) سؤال استعلام بل يعذبون بها بغتة كأن قارون لما هدد بذكر اهلاك من قبله ممن كان أقوى

بعبادتهم شيأ كما تقول حسبت أن فلانا شيء فاذا هو ليس بشيء اذا جربته فلم تجد عنده خيرا ويجوز أيضا أن يقال انهم كذبوا وأنكروا أنهم عبدوا غير الله كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الانعام أنهم قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ثم قال تعالى كذلك يضل الله الكافرين قال القاضي معناه انه يضلهم عن طريق الجنة اذ لا يجوز أن يقال يضلهم عن الحجة اذ قد هداهم في الدنيا اليها وقال صاحب الكشاف كذلك يضل الله الكافرين مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم حتى انهم لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يجد أحدهما الآخر ثم قال ذلكم بما كنتم تفرحون في الارض أي ذلكم الاضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق وهو الشرك وعبادة الاصنام ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم قال الله تعالى لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين والمراد منه ما قال في الآية المتقدمة في صفة هؤلاء المجادلين ان في صدورهم الا كبر ۞ قوله تعالى (فاصبر ان وعد الله حق فاما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فالينا يرجعون ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله فاذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون) اعلم انه تعالى لما تكلم من أول السورة الى هذا الموضع في تزييف طريقة المجادلين في آيات الله أمر في هذه الآية رسوله بأن يصبر على ايذائهم وايحاشهم بتلك المجادلات ثم قال ان وعد الله حق وعنى به ما وعد به الرسول من نصرته ومن انزال العذاب على أعدائه ثم قال فاما نرينك بعض الذي نعدهم يعني أولئك الكفار من أنواع العذاب مثل القتل يوم بدر فذلك هو المطلوب أو نتوفينك قبل انزال العذاب عليهم فالينا يرجعون يوم القيامة فننتقم منهم أشد الانتقام ونظيره قوله تعالى فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون أو نرينك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدرون ثم قال تعالى ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك والمعنى أنه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم أنت كالرسل من قبلك وقد ذكرنا حال بعضهم لك ولم نذكر حال الباقين وليس فيهم أحد أعطاه الله آيات ومعجزات الا وقد جادله قومه فيها وكذبوه فيها وجرى عليهم من الهم ما يقارب ما جرى عليك فصبروا وكانوا أبدا يقترحون على الانبياء اظهار المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل العناد والتعنت ثم ان الله تعالى لما علم أن الصلاح في اظهار ما أظهره والا لم يظهره ولم يكن ذلك قادحا في نبوتهم فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة لما لم يكن اظهارها صلاحا لاجرم ما أظهرناها وهذا هو المراد من قوله وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله ثم قال فاذا جاء أمر الله قضي بالحق وهذا وعيد ورد عقيب اقتراح الآيات وأمر الله القيامة والمبطلون هم المعاندون الذين يجادلون في آيات الله ويقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنت ۞ قوله تعالى (الله الذي جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون) اعلم انه تعالى لما أطنب في تقرير الوعيد عاد الى ذكر ما يدل على وجود الاله الحكيم الرحيم والى ذكر ما يصلح أن يعد انعاما على العباد قال الزجاج الانعام الابل خاصة وقال القاضي هي الازواج الثمانية وفي الآية سؤالات (السؤال الاول) انه لم أدخل لام الغرض على قوله لتركبوا وعلى قوله لتبلغوا ولم يدخل على البواقي فما السبب فيه (الجواب) قال صاحب الكشاف الركوب في الحج والغزو اما ان يكون واجبا أو مندوبا فهذان القسمان اغراض دينية فلاجرم ادخل عليهما حرف التعليل واما الاكل واصابة المنافع فمن جنس المباحات فلاجرم ما ادخل عليها حرف التعليل نظيره قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة فادخل التعليل على الركوب ولم يدخله على الزينة (السؤال الثاني) قوله تعالى وعليها وعلى الفلك تحملون معناه تحملون في البر والبحر اذا عرفت هذا فنقول لم يقل وفي الفلك كما قال قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين والجواب ان كلمة على للاستعلاء فالشيء الذي يوضع في الفلك كما يصح أن يقال وضع فيه يصح أن يقال وضع عليه ولما صح الوجهان كانت لفظة على أولى حتى يتم المراد في قوله وعليها وعلى الفلك تحملون ولما ذكر الله هذه الدلائل الكثيرة قال ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون يعني أن هذه الآيات التي عددناها كلها ظاهرة باهرة

منه وأغنى أكد ذلك بان بين أن ذلك لم يكن مما يخص أولئك المهلكين بل الله تعالى مطلع على ذنوب كافة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالة (فخرج على قومه) عطف على قال وما بينهما اعتراض وقوله تعالى (في زينته) اما متعلق بخرج أو بمحذوف هو حال من فاعله أي فخرج عليهم كائنا في زينته قيل خرج على بغلة شهباء عليه الارجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الاحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج وقيل في تسعين ألفا عليهم المعصفرات وهو أول يوم رئي فيه المعصفر (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا) من المؤمنين جاريا على سنن الجبلة البشرية من الرغبة في السعة واليسار (ياليت لنا مثل ما أوتي قارون) وعن قتادة أنهم تمنوه ليتقربوا به الى الله تعالى وينفقوه في سبيل الخير وقيل كان المتمنون قوما كفارا (انه لذو حظ عظيم) تعليل لتمنيهم وتأكيد له (وقال الذين أوتوا العلم) أي بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغي وانما لم يوصفوا بارادة ثواب الآخرة تنبيها على أن العلم بأحوال النشأتين يقتضي الاعراض عن الاولى والاقبال على الثانية حتما وأن تمني المتمنين ليس الا لعدم علمهم بهما كما ينبغي (ويلكم) دعاء بالهلاك شاع استعماله في الزجر عما لا يرتضى (ثواب الله في الآخرة (خير) مما تتمنونه (لمن آمن وعمل صالحا) فلا يليق بكم أن تتمنوه غير مكتفين بثوابه تعالى (ولا يلقاها) أي هذه الكلمة التي تكلم بها العلماء أو الثواب فانه بمعنى

فقوله فأي آيات الله تنكرون تنبيه على أنه ليس في شيء من الدلائل التي تقدم ذكرها ما يمكن انكاره قال صاحب الكشاف قوله أي آيات الله جاء على اللغة المستفيضة وقولك فأية آيات الله قليل لان التفرقة بين المذكر والمؤنث في الاسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهي في أي أغرب لابهامه والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الارض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون﴾ اعلم أنه تعالى راعى ترتيبا لطيفا في آخر هذه السورة وذلك انه ذكر فصلا في دلائل الالهية وكمال القدرة والرحمة والحكمة ثم أردفه بفصل في التهديد والوعيد وهذا الفصل الذي وقع عليه ختم هذه السورة هو الفصل المشتمل على الوعيد والمقصود أن هؤلاء الكفار الذين يجادلون في آيات الله وحصل الكبر العظيم في صدورهم بهذا والسبب في ذلك كله طلب الرياسة والتقدم على الغير في المال والجاه فمن ترك الانقياد للحق لاجل طلب هذه الاشياء فقد باع الآخرة بالدنيا فبين تعالى أن هذه الطريقة فاسدة لان الدنيا فانية ذاهبة واحتج عليه بقوله تعالى أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم يعني لو ساروا في أطراف الارض لعرفوا أن عاقبة المتكبرين المتمردين ليست الا الهلاك والبوار مع أنهم كانوا أكثر عددا ومالا وجاها من هؤلاء المتأخرين فلما لم يستفيدوا من تلك المكنة العظيمة والدولة القاهرة الا الخيبة والخسار والحسرة والبوار فكيف يكون حال هؤلاء الفقراء المساكين أما بيان انهم كانوا أكثر من هؤلاء عددا فانما يعرف في الاخبار وأما انهم كانوا أشد قوة وآثارا في الارض فلانه قد بقيت آثارهم بعدهم مثل الاهرام الموجودة بمصر ومثل هذه البلاد العظيمة التي بناها الملوك المتقدمون ومثل ما حكى الله عنهم من أنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ثم قال تعالى فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ما في قوله فما أغنى عنهم نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب وما في قوله ما كانوا يكسبون موصولة أو مصدرية ومحلها الرفع يعني أي شيء أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم ثم بين تعالى أن أولئك الكفار لما جاءتهم رسلهم بالبينات والمعجزات فرحوا بما عندهم من العلم واعلم ان الضمير في قوله فرحوا يحتمل أن يكون عائدا الى الكفار وأن يكون عائدا الى الرسل اما اذا قلنا انه عائد الى الكفار فذلك العلم الذي فرحوا به أي علم كان وفيه وجوه (الاول) أن يكون المراد الاشياء التي كانوا يسمونها بالعلم وهي الشبهات التي حكاها الله عنهم في القرآن كقولهم وما يهلكنا الا الدهر وقولهم لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وقولهم من يحيي العظام وهي رميم ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به علوم الانبياء كما قال كل حزب بما لديهم فرحون (الثاني) يجوز أن يكون المراد علوم الفلاسفة فانهم كانوا اذا سمعوا بوحي الله دفعوه وصغروا علم الانبياء الى علومهم وعن سقراط أنه سمع بمجيء بعض الانبياء فقيل له لو هاجرت اليه فقال نحن قوم مهديون فلا حاجة بنا الى من يهدينا (الثالث) يجوز أن يكون المراد علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ذلك مبلغهم من العلم فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات وهي معرفة الله تعالى ومعرفة المعاد وتطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا اليها واستهزؤا بها واعتقدوا أنه لا علم أنفع واجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به أما اذا قلنا الضمير عائد الى الانبياء ففيه وجهان (الاول) أن يجعل الفرح للرسل ومعناه ان الرسل لما رأوا من قومهم جهلا كاملا واعراضا عن الحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واعراضهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم (الثاني) أن يكون المراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به كأنه قال استهزؤا بالبينات وبما جاؤا به من علم الوحي فرحين ويدل عليه قوله تعالى وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ثم قال تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين البأس شدة العذاب ومنه قوله تعالى بعذاب بئيس فان قيل أي فرق بين قوله فلم يك ينفعهم ايمانهم وبين ما لو قيل فلم ينفعهم ايمانهم قلنا هو مثل كان في نحو قوله ما كان

المثوبة أو الجنة أو الايمان والعمل الصالح فانهما في معنى السيرة والطريقة (الا الصابرون) أي على الطاعات وعن الشهوات (فخسفنا به وبداره الارض) روى أنه كان يؤذي موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره فعمد الى أن يفضح موسى عليه السلام بين بني اسرائيل فجعل لبغي من بغايا بني اسرائيل ألف دينار وقيل طشتا من ذهب مملوءة ذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى عليه السلام خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه فقال قارون ولو كنت قال ولو كنت قال ان بني اسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فاحضرت فناشدها عليه السلام أن تصدق فقالت جعل لي قارون جعلا على أن أرميك بنفسي فخر موسى ساجدا لربه يبكي ويقول يارب ان كنت رسولك فاغضب لي فاوحى اليه أن مر الارض بما شئت فانها مطيعة لك فقال يابني اسرائيل ان الله بعثني الى قارون كما بعثني الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل عنه فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال ياأرض خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاعناق وهم يناشدونه عليه الصلاة والسلام بالله تعالى وبالرحم وهو لا يلتفت اليهم لشدة غيظه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فأصبحت بنو اسرائيل يتناجون بينهم انما دعا عليه موسى عليه الصلاة والسلام ليستبد بداره وكنوزه

لله أن يتخذ من ولد والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن ينفعهم ايمانهم فان قيل أذكروا اضطرابا في الوقت الذى لا ينفع الايمان بالايمان فيه قلنا انه الوقت الذى يعاين فيه نزول ملائكة الرحمة والعذاب لان فى ذلك الوقت يصير المرء ملجأ الى الايمان فذلك الايمان لا ينفع انما ينفع مع القدرة على خلافه حتى يكون المرء مختارا أما اذا عاينوا علامات الآخرة فلا ثم قال تعالى سنة الله التى قد خلت فى عباده والمعنى ان عدم قبول الايمان حال اليأس سنة الله مطردة فى كل الامم ثم قال وخسر هنالك الكافرون فقوله هنالك مستعار للزمان أى وخسروا وقت رؤية البأس والله الهادى للصواب * تم تفسير هذه السورة يوم السبت الثانى من ذى الحجة من سنة ثلاث وستمائة من الهجرة فى بلد هراة * يا من لا يبلغ أدنى ما استأثرت به من جلالك وعزتك أقصى نعوت الناعتين يا من تقاصرت عن الاحاطة بمبادى اسرار كبريائه أفهام المتفكرين وأنظار المتأملين لا تجعلنا بفضلك ورحمتك فى زمرة الخاسرين المبطلين ولا تجعلنا يوم القيامة من المحرومين فانك أكرم الاكرمين وأرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين وصلوات الله على سيدنا محمد النبى وآله وصحبه أجمعين

﴿سورة فصلت السجدة خمسون وأربع آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ اعلم أن فى أول هذه السورة احتمالات (أحدها) وهو الاقوى أن يقال حم اسم للسورة وهو فى موضع المبتدا وتنزيل خبره (وثانيها) قال الاخفش تنزيل رفع بالابتداء وكتاب خبره (وثالثها) قال الزجاج تنزيل رفع بالابتداء وخبره كتاب فصلت آياته ووجهه ان قوله تنزيل تخصص بالصفة وهو قوله من الرحمن الرحيم فجاز وقوعه مبتدأ * واعلم انه تعالى حكم على السورة المسماة بحم بأشياء (أولها) كونها تنزيلا والمراد المنزل والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور يقال هذا بناء الامير أى مبنيه وهذا الدرهم ضرب السلطان أى مضروبه والمراد من كونها منزلا ان الله تعالى كتبها فى اللوح المحفوظ وأمر جبريل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على محمد صلى الله عليه وسلم ويبلغها اليه فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل عليه السلام سمى لذلك تنزيلا (وثانيها) كون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم وذلك يدل على كون ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لان الفعل المقرون بالصفة لا بد وأن يكون مناسبا لتلك الصفة فكونه تعالى رحمانا رحيما صفتان دالتان على كمال الرحمة فالتنزيل المضاف الى هاتين الصفتين لا بد وأن يكون دالا على أعظم وجوه النعمة والامر فى نفسه كذلك لان الخلق فى هذا العالم كالمرضى والزمنى المحتاجين والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج اليه المرضى من الادوية وعلى كل ما يحتاج اليه الاصحاء من الاغذية فكان أعظم النعم عند الله تعالى على أهل هذا العالم انزال القرآن عليهم (وثالثها) كونه كتابا وقد بينا أن هذا الاسم مشتق من الجمع وانما سمى كتابا لانه جمع فيه علوم الاولين والآخرين (ورابعها) قوله فصلت آياته والمراد انه فرقت آياته وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة فبعضها فى وصف ذات الله تعالى وشرح صفات التنزيه والتقديس وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته وعجائب أحوال خلقة السموات والارض والكواكب وتعاقب الليل والنهار وعجائب أحوال النبات والحيوان والانسان وبعضها فى أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ونحو الجوارح وبعضها فى الوعد والوعيد والثواب والعقاب ودرجات أهل الجنة ودرجات أهل النار وبعضها فى المواعظ والنصائح وبعضها فى تهذيب الاخلاق ورياضة النفس وبعضها فى قصص الاولين وتواريخ الماضين وبالجملة فمن انصف علم أنه ليس فى يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث

المتباينة

فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله (فما كان له من فئة) جماعة مشفقة (ينصرونه من دون الله) بدفع العذاب عنه (وما كان من المنتصرين) أى الممتنعين منه بوجه من الوجوه يقال نصره من عدوه فانتصر أى منعه فامتنع (وأصبح الذين تمنوا مكانه) منزلته (بالامس) منذ زمان قريب (يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أى يفعل كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته لا لكرامة توجب البسط ولا لهوان يقتضى القبض وويكأن عند البصريين مركب من وى للتعجب وكأن للتشبيه والمعنى ما أشبه الامر أن الله يبسط الخ وعند الكوفيين من ويك بمعنى ويلك وأن وتقديره ويك اعلم أن الله وانما يستعمل عند التنبه على الخطا والتندم والمعنى انهم قد تنبهوا على خطئهم فى تمنيهم وتندموا على ذلك (لولا أن منّ الله علينا) بعدم اعطائه ايانا ما تمنيناه واعطائنا مثل ما أعطاه اياه وقرئ لولا منّ الله علينا (لخسف بنا) كما خسف به وقرئ لخسف بنا على البناء للمفعول وبنا هو القائم مقام الفاعل وقرئ لانخسف بنا كقولك انقطع به وقرئ لتخسف بنا (ويكأنه لا يفلح الكافرون) لنعمة الله تعالى أو المكذبون برسله وبما وعدوا من ثواب الآخرة (تلك الدار الآخرة) اشارة تعظيم وتفخيم كأنه قيل تلك التى سمعت خبرها وبلغك وصفها (نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض) أى غلبة وتسلطا (ولا فسادا) أى ظلما وعدوانا على العباد كدأب فرعون وقارون وفى تعليق الموعد بترك ارادتهما لا بترك أنفسهما

المتباينة مثل ما فى القرآن (وخامسها) قوله قرآنا والوجه فى تسميته قرآنا قد سبق وقوله تعالى قرآنا نصب على الاختصاص والمدح أى أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنا من صفته كيت وكيت وقيل هو نصب على الحال (وسادسها) قوله عربيا والمعنى ان هذا القرآن انما نزل بلغة العرب وتأكد هذا بقوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه (وسابعها) قوله تعالى لقوم يعلمون والمعنى أنا جعلناه عربيا لاجل انا أنزلناه على قوم عرب فجعلناه بلغة العرب ليفهموا منه المراد فان قيل قوله لقوم يعلمون متعلق بماذا قلنا يجوز أن يتعلق بقوله تنزيل أو بقوله فصلت أى تنزيل من الله لأجلهم أو فصلت آياته لأجلهم والاجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده أى قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب لئلا يفرق بين الصلات والصفات (وثامنها وتاسعها) قوله بشيرا ونذيرا يعنى بشيرا للمطيعين بالثواب ونذيرا للمجرمين بالعقاب والحق ان القرآن بشارة ونذارة الا انه أطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملا فى هذه الصفة كما يقال شعر شاعر وكلام قائل (الصفة العاشرة) كونهم معرضين عنه لا يسمعون ولا يلتفتون اليه فهذه هى الصفات العشرة التى وصف الله القرآن بها ويتفرع عليها مسائل (المسئلة الاولى) القائلون بخلق القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الاول) انه وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا والمنزل والتنزيل مشعر بالتصيير من حال الى حال فوجب أن يكون مخلوقا (الثانى) ان التنزيل مصدر والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين (الثالث) المراد بالكتاب اما الكتابة وهو المصدر الذى هو المفعول المطلق أو المكتوب الذى هو المفعول (الرابع) ان قوله فصلت يدل على ان متصرفا يتصرف فيه بالتفصيل والتمييز وذلك لا يليق بالقديم (الخامس) انه انما سمى قرآنا لانه قرن بعض اجزائه بالبعض وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل (السادس) وصفه بكونه عربيا وانما صحت هذه النسبة لاجل ان هذه الالفاظ انما دلت على هذه المعانى بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم وما جعل بجعل جاعل وفعل فاعل فلابد وان يكون محدثا ومخلوقا (والجواب) ان كل هذه الوجوه التى ذكرتموها عائدة الى اللغات والى الحروف والكلمات وهى عندنا محدثة مخلوقة انما الذى ندعى قدمه شئ آخر سوى هذه الالفاظ والله أعلم (المسئلة الثانية) ذهب أكثر المتكلمين الى انه يجب على المكلف تنزيل ألفاظ القرآن على المعانى التى هى موضوعة لها بحسب اللغة العربية فاما حملها على معان أخر لا بهذا الطريق فهذا باطل قطعا وذلك مثل الوجوه التى يذكرها أهل الباطن مثل انهم تارة يحملون الحروف على حساب الجمل وتارة يحملون كل حرف على شئ آخر وللصوفية طرق كثيرة فى هذا الباب ويسمونها علم المكاشفة والذى يدل على فساد تلك الوجوه بأسرها قوله تعالى قرآنا عربيا وانما سماه عربيا لكونه دالا على هذه المعانى المخصوصة بوضع العرب وباصطلاحاتهم وذلك يدل على ان دلالة هذه الالفاظ لم تحصل الا على تلك المعانى المخصوصة وان ما سواه فهو باطل (المسئلة الثالثة) ذهب قوم الى انه حصل فى القرآن من سائر اللغات كقوله استبرق وسجيل فانهما فارسيان وقوله مشكاة فانها من لغة الحبشة وقوله قسطاس فانه من لغة الروم والذى يدل على فساد هذا المذهب قوله قرآنا عربيا وقوله وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة لفظ الايمان والكفر والصلاة والزكاة والصوم والحج ألفاظ شرعية لا لغوية والمعنى ان الشرع نقل هذه الالفاظ عن مسمياتها اللغوية الاصلية الى مسميات أخرى وعندنا ان هذا باطل وليس للشرع تصرف فى هذه الالفاظ عن مسمياتها الا من وجه واحد وهو انه خصص هذه الاسماء بنوع واحد من أنواع مسمياتها مثلا الايمان عبارة عن التصديق فخصصه الشرع بنوع معين من التصديق والصلاة عبارة عن الدعاء فخصصه الشرع بنوع معين من الدعاء وكذا القول فى البواقى ودليلنا على صحة مذهبنا قوله تعالى قرآنا عربيا وقوله وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه (المسئلة الخامسة) انما وصف الله القرآن بكونه عربيا فى معرض المدح والتعظيم وهذا المطلوب لا يتم الا اذا ثبت ان لغة العرب أفضل اللغات واعلم ان هذا المقصود انما يتم اذا ضبطنا أقسام فضائل اللغات بضابط معلوم ثم بينا ان تلك الاقسام حاصلة فيه لا فى غيره فنقول لاشك أن الكلام مركب من الكلمات المفردة وهى مركبة من الحروف فالكلمة لها مادة وهى الحروف ولها صورة وهى تلك الهيئة المعينة الحاصلة عند التركيب فهذه الفضيلة انما

مزيد تحذير منهما وعن على رضى الله عنه ان الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها (والعاقبة) الحميدة (للمتقين) أى الذين يتقون ما لا يرضاه الله تعالى من الافعال والاقوال (من جاء بالحسنة فله) عقابلتها (خير منها) ذاتا ووصفا وقدرا (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات) وضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير اسناد السيئة اليهم (الا ما كانوا يعملون) أى الا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم مقامه ما كانوا يعملون مبالغة فى المماثلة (ان الذى فرض عليك القرآن) أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به (لرادك الى معاد) أى معاد معاد تمتد اليه أعناق الهمم وترنو اليه أحداق الامم وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه وقيل هو مكة المعظمة على أنه تعالى قد وعده وهو بمكة فى أذية وشدة من أهلها أنه يهاجر به منها ثم يعيده اليها بعز ظاهر وسلطان قاهر وقيل نزلت عليه حين بلغ الجحفة فى مهاجره وقد اشتاق الى مولده ومولد آبائه وحرم ابراهيم عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فقال له أتشتاق الى مكة قال نعم فأوحاها اليه (قل ربى أعلم من جاء بالهدى) وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يدل عليه أعلم أى يعلم وقيل بأعلم على أنه بمعنى عالم (ومن هو فى ضلال مبين) وما يستحقه من العذاب والاذلال يعنى بذلك نفسه والمشركين وهو تقرير للوعيد السابق وكذا قوله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب) أى سيردك الى معادك

تحصل اما بحسب مادتها أو بحسب صورتها أما التى بحسب مادتها فهى آحاد الحروف واعلم ان الحروف على قسمين بعضها بينة المخارج ظاهرة المقاطع و بعضها خفية المخارج مشتبهة المقاطع وحروف العرب بأسرها ظاهرة المخارج بينة المقاطع لايشتبه شئ منها بالآخر وأما الحروف المستعملة فى سائر اللغات فليست كذلك بل قد يحصل فيها حروف يشتبه بعضها بالبعض وذلك يخل بكمال الفصاحة وأيضا الحركات المستعملة فى سائر لغة العرب حركات ظاهرة جلية وهى النصب والرفع والجر وكل واحد من هذه الثلاثة فانه يمتاز عن غيره امتيازا ظاهرا جليا وأما الاشمام والروم فيقل حصولهما فى لغات العرب وذلك أيضا من جنس ما يوجب الفصاحة وأما الكلمات الحاصلة بحسب التركيب فهى أنواع (أحدها) ان الحروف على قسمين متقاربة المخرج ومتباعدة المخرج وأيضا الحروف على قسمين منها صلبة ومنها رخوة فيحصل من هذا التقسيم أقسام أربعة الصلبة المتقاربة والرخوة المتقاربة والصلبة المتباعدة والرخوة المتباعدة فاذا توالى فى الكلمة حرفان صلبان متقاربان صعب اللفظ بها لان بسبب تقارب المخرج يصير التلفظ بها جاريا مجرى ما اذا كان الانسان مقيدا ثم يمشى و بسبب صلابة تلك الحروف تتوارد الاعمال الشاقة القوية على الموضع الواحد من المخرج وتوالى الاعمال الشاقة يوجب الضعف والاعياء ومثل هذا التركيب فى اللغة العربية قليل (وثانيها) ان جنس بعض الحروف ألذ وأطيب فى السمع وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها أطيب (وثالثها) الوزن فنقول الكلمة اما ان تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية وأعدلها هو الثلاثى لان الصوت انما يتولد بسبب الحركة والحركة لابد لها من مبدإ ووسط ومنتهى فهذه ثلاث مراتب فالكلمة لابد وأن يحصل فيها هذه المراتب الثلاثة حتى تكون تامة أما الثنائية فهى ناقصة وأما الرباعية فهى زائدة والغالب فى كلام العرب الثلاثيات فثبت بما ذكرنا ضبط فضائل اللغات والاستقراء يدل على ان لغة العرب موصوفة بها وأما سائر اللغات فليست كذلك والله أعلم (المسئلة السادسة) قوله لقوم يعلمون يعنى انما جعلناه عربيا لاجل أن يعلموا المراد منه والقائلون بان أفعال الله معللة بالمصالح والحكم تمسكوا بهذه الآية وقالوا انها تدل على انه انما جعله عربيا لهذه الحكمة فهذا يدل على أن تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه جائز (المسئلة السابعة) قال قوم القرآن كله غير معلوم بل فيه ما يعلم وفيه ما لا يعلم وقال المتكلمون لا يجوز أن يحصل فيه شئ غير معلوم والدليل عليه قوله تعالى قرآنا عربيا لقوم يعلمون يعنى انما جعلناه عربيا ليصير معلوما والقول بانه غير معلوم يقدح فيه (المسئلة الثامنة) قوله تعالى فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون يدل على ان الهادى من هداه الله وان الضال من أضله الله وتقريره ان الصفات التسعة المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته و بالوقوف على معانيه لانا بينا ان كونه نازلا من عند الاله الرحمن الرحيم يدل على اشتماله على أفضل المنافع وأجل المطالب وكونه قرآنا عربيا مفصلا يدل على انه فى غاية الكشف والبيان وكونه بشيرا ونذيرا يدل على ان الاحتياج الى فهم ما فيه من أهم المهمات لان سعى الانسان فى معرفة ما يوصله الى الثواب أو الى العقاب من أهم المهمات وقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة فى تأكيد الرغبة فى فهم القرآن وفى شدة الميل الى الاحاطة به ثم مع ذلك فقد أعرضوا عنه ولم يلتفتوا اليه ونبذوه وراء ظهورهم وذلك يدل على انه لا مهدى الا من هداه الله ولا ضال الا من أضله الله واعلم انه تعالى لما وصف القرآن بانهم أعرضوا عنه ولا يسمعونه بين انهم صرحوا بهذه النفرة والمباعدة وذكروا ثلاثة أشياء (أحدها) انهم قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وأكنة جمع كنان كأغطية جمع غطاء والكنان هو الذى يجعل فيه السهام (وثانيها) قولهم وفى آذاننا وقر أى صمم وثقل يمنع من استماع قولك (وثالثها) قولهم ومن بيننا وبينك حجاب والحجاب هو الذى يمنع من الرؤية والفائدة فى كلمة من فى قوله ومن بيننا انه لو قيل وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى ان حجابا حصل وسط الجهتين وأما بزيادة لفظ من كان المعنى ان الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب وما بقى جزء منها فارغا عن هذا الحجاب فكانت هذه اللفظة دالة على قوة هذا الحجاب هكذا ذكره صاحب الكشاف وهو فى غاية الحسن واعلم أنه انما وقع الاقتصار على هذه الاعضاء الثلاثة وذلك لان القلب محل المعرفة وسلطان البدن والسمع والبصر هما الآلتان المعينتان لتحصيل المعارف فلما

كما ألقى اليك الكتاب وما كنت ترجوه (الارحمة من ربك) ولكن ألقى اليك رحمة منه ويجوز أن يكون استثناء محمولا على المعنى كأنه قيل وما ألقى اليك الكتاب الارحمة أى لاجل الترحم (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) بمداراتهم والتحمل عنهم والاجابة الى طلبتهم (ولا يصدنك) أى الكافرون (عن آيات الله) أى عن قراءتها والعمل بها (بعد اذ أنزلت اليك) وفرضت عليك وقرئ يصدنك من أصد المنقول من صد اللازم (وادع) الناس (الى ربك) الى عبادته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) بمساعدتهم فى الامور (ولا تدع مع الله الها آخر) هذا وما قبله للتهييج والالهاب وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة والسلام لهم واظهار أن المنهى عنه فى القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلا (لا اله الا هو) وحده (كل شئ هالك الا وجهه) الا ذاته فان ما عداه كائنا ما كان ممكن فى حد ذاته عرضة للهلاك والعدم (له الحكم) أى القضاء النافذ فى الخلق (واليه ترجعون) عند البعث للجزاء بالحق والعدل * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ طسم القصص كان له من الاجر بعدد من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك فى السموات والارض الا شهد له يوم القيامة انه كان صادقا

﴿سورة العنكبوت مكية وهى تسع وستون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الم) الكلام فيه كالذى مر مرارا فى نظائره من الفواتح الكريمة خلا أن ما بعده لا يحتمل أن يتعلق

بين ان هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك أقصى ما يمكن فى هذا الباب واعلم انه اذا تأكدت النفرة عن الشئ
صارت تلك النفرة فى القلب فاذا سمع منه كلاما لم يفهم معناه كما ينبغى واذا رآه لم تصر تلك الرؤية سببا
للوقوف على دقائق أحوال ذلك المرئى وذلك لان المدرك والشاعر هو النفس وشدة نفرة النفس عن
الشئ تمنعها من التدبر والوقوف على دقائق ذلك الشئ فاذا كان الامر كذلك كان قولهم قلوبنا فى أكنة
مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب استعارات كاملة فى افادة المعنى المراد فان قيل انه
تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار فى معرض الذم وذكر أيضا ما يقرب منه فى معرض الذم فقال وقالوا قلوبنا
غلف بل لعنهم الله بكفرهم ثم انه تعالى ذكر هذه الاشياء الثلاثة بعينها فى معنى التقرير والاثبات فى سورة
الانعام فقال وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا فكيف الجمع بينهما قلنا انه لم يقل ههنا
انهم كذبوا فى ذلك انما الذى ذمهم عليه انهم قالوا انا اذا كنا كذلك لم يجز تكليفنا وتوجيه الامر والنهى
علينا وهذا الثانى باطل اما الاول فلانه ليس فى الآية ما يدل على انهم كذبوا فيه واعلم انهم لما وصفوا
أنفسهم بهذه الصفات الثلاثة قالوا فاعمل اننا عاملون والمراد فاعمل على دينك اننا عاملون على ديننا
ويجوز أن يكون المراد فاعمل فى ابطال أمرنا اننا عاملون فى ابطال أمرك والحاصل عندنا ان القوم
ما كذبوا فى قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب بل انما أتوا
بالكفر والكلام الباطل فى قولهم فاعمل اننا عاملون ولما حكى الله عنهم هذه الشبهة أمر محمدا صلى الله
عليه وسلم أن يجيب عن هذه الشبهة بقوله قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى وبيان هذا الجواب كأنه يقول
انى لا أقدر على ان أحملكم على الايمان جبرا وقهرا فانى بشر مثلكم ولا امتياز بينى وبينكم الا بمجرد ان
الله عز وجل أوحى الى وما أوحى اليكم فانا أبلغ هذا الوحى اليكم ثم بعد ذلك ان شرفكم الله بالتوحيد
والتوفيق قبلتموه وان خذلكم بالحرمان رددتموه وذلك لا يتعلق بنبوتى ورسالتى ثم بين أن خلاصة ذلك
الوحى ترجع الى أمرين العلم والعمل أما العلم فالرأس والرئيس فيه معرفة التوحيد وذلك لان الحق هو
أن الله واحد وهو المراد من قوله انما الهكم اله واحد واذا كان الحق فى نفس الامر ذلك وجب علينا أن
نعترف به وهو المراد من قوله فاستقيموا اليه ونظيره قوله اهدنا الصراط المستقيم وقوله ان الذين قالوا
ربنا الله ثم استقاموا وقوله تعالى وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه وفى قوله تعالى فاستقيموا اليه وجهان
(الاول) فاستقيموا متوجهين اليه (الثانى) أن يكون قوله فاستقيموا اليه معناه فاستقيموا له لان حروف
الجر يقام بعضها مقام البعض واعلم أن التكليف له ركنان (أحدهما) الاعتقاد والرأس والرئيس فيه
اعتقاد التوحيد فلما أمر بذلك انتقل الى وظيفة العمل والرأس والرئيس فيه الاستغفار فلهذا السبب
قال واستغفروه فان قيل المقصود من الاستغفار والتوبة ازالة ما لا ينبغى وذلك مقدم على فعل ما ينبغى فلم
عكس هذا الترتيب ههنا وقدم فعل ما ينبغى على ازالة ما لا ينبغى قلنا ليس المراد من هذا الاستغفار
الاستغفار عن الكفر بل المراد منه أن يعمل ثم يستغفر بعده لاجل الخوف من وقوع التقصير فى العمل
الذى أتى به كما قال صلى الله عليه وسلم وانه ليغان على قلبى وانى لاستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة ولما
رغب الله تعالى فى الخير والطاعة أمر بالتحذير عما لا ينبغى فقال وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة
وهم بالآخرة هم كافرون وفى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم فى هذه الآية من وجوه
(الاول) أن العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين التعظيم لامر الله والشفقة
على خلق الله وذلك لان الموجودات اما الخالق واما الخلق فاما الخالق فكمال السعادة فى المعاملة معه أن
يقر بكونه موصوفا بصفات الجلال والعظمة ثم يأتى بافعال دالة على كونه فى نهاية العظمة فى اعتقادنا
وهذا هو المراد من التعظيم لامر الله واما الخلق فكمال السعادة فى المعاملة معهم أن يسعى فى دفع الشر عنهم
وفى ايصال الخير اليهم وذلك هو المراد من الشفقة على خلق الله فثبت ان أعظم الطاعات التعظيم لامر الله
وأفضل أبواب التعظيم لامر الله الاقرار بكونه واحدا واذا كان التوحيد أعلى المراتب وأشرفها كان
ضده وهو الشرك أخس المراتب وأرذلها ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو اظهار الشفقة
عليهم كان الامتناع من الزكاة أخس الاعمال لانه ضد الشفقة على خلق الله اذا عرفت هذا فنقول انه

به تعلقا اعرابيا (أحسب الناس)
الحسبان ونظائره لا يتعلق بمعانى
المفردات بل بمضامين الجمل
المفيدة لثبوت شئ لشئ أو انتفاء
شئ عن شئ بحيث يتحصل منها
مفعولاه اما بالفعل كما فى عامة
المواقع واما بنوع تصرف فيها كما فى
الجمل المصدرة بأن والواقعة صلة
للموصول الاسمى أو الحرفى فان
كلا منها صالحة لان يسبك منها
مفعولاه لان قوله تعالى أحسب
الناس (أن يتركوا ان يقولوا
آمنا وهم لا يفتنون) فى قوة أن
يقال أحسبوا أنفسهم متروكين
بلا فتنة بمجرد أن يقولوا آمنا أو
أن يقال أحسبوا تركهم غير
مفتونين بقولهم آمنا حاصلا
متحققا والمعنى انكار الحسبان
المذكور واستبعاده وتحقيق أنه
تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف
كالمهاجرة والمجاهدة ورفض ما تشتهيه
النفس ووظائف الطاعات وفنون
المصائب فى الانفس والاموال
ليتميز المخلص من المنافق والراسخ
فى الدين من المتزلزل فيه ويجازيهم
بحسب مراتب أعمالهم فان مجرد
الايمان وان كان عن خلوص
لا يقتضى غير الخلاص من الخلود
فى النار روى انها نزلت فى ناس من
الصحابة رضوان الله تعالى عليهم
أجمعين جزعوا من أذية المشركين
وقيل فى عمار قد عذب فى الله وقيل
فى مهجع مولى عمر بن الخطاب
رضى الله عنهما رماه عامر بن
الحضرمى بسهم يوم بدر فقتله فجزع
عليه أبواه وامرأته وهو أول من
استشهد يومئذ من المسلمين فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم
سيد الشهداء مهجع وهو أول
من يدعى الى باب الجنة من هذه
الامة (ولقد فتنا الذين من قبلهم)
متصل بقوله تعالى أحسبوا

تعالى أثبت الويل لمن كان موصوفا بصفات ثلاثة (أولها) أن يكون مشركا وهو ضد التوحيد واليه الاشارة بقوله وويل للمشركين (وثانيها) كونه ممتنعا من الزكاة وهو ضد الشفقة على خلق الله واليه الاشارة بقوله الذين لا يؤتون الزكاة (وثالثها) كونه منكرا للقيامة مستغرقا فى طلب الدنيا ولذاتها واليه الاشارة بقوله وهم بالآخرة هم كافرون وتمام الكلام فى انه لا زيادة على هذه المراتب الثلاثة أن الانسان له ثلاثة أيام الامس واليوم والغد اما معرفة انه كيف كانت أحوال الامس فى الازل فهو بمعرفة الله تعالى الازلى الخالق لهذا العالم وأما معرفة انه كيف ينبغى وقوع الاحوال فى اليوم الحاضر فهو بالاحسان الى أهل العالم بقدر الطاقة وأما معرفة الاحوال فى اليوم المستقبل فهو الاقرار بالبعث والقيامة واذا كان الانسان على ضد الحق فى هذه المراتب الثلاثة كان فى نهاية الجهل والضلال فلهذا حكم الله عليه بالويل فقال وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون وهذا ترتيب فى غاية الحسن والله أعلم (الوجه الثانى) فى تقرير كيفية النظم أن يقال المراد بقوله لا يؤتون الزكاة أى لا يزكون أنفسهم من لوث الشرك بقولهم لا اله الا الله وهو مأخوذ من قوله تعالى ونفس وما سواها (الثالث) قال الفراء ان قريشا كانت تطعم الحاج فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا فى اثبات أن الكفار مخاطبون بفروع الاسلام بهذه الآية فقالوا انه تعالى ألحق الوعيد الشديد بناء على أمرين (أحدهما) كونه مشركا (والثانى) انه لا يؤتى الزكاة فوجب أن يكون لكل واحد من هذين الامرين تأثير فى حصول ذلك الوعيد وذلك يدل على أن لعدم ايتاء الزكاة من المشرك تأثيرا عظيما فى زيادة الوعيد وذلك هو المطلوب (المسئلة الثالثة) احتج بعضهم على أن الامتناع من ايتاء الزكاة يوجب الكفر فقال انه تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر وهو قوله فويل للمشركين وذكر أيضا بعدها ما يوجب الكفر وهو قوله وهم بالآخرة هم كافرون فلو لم يكن عدم ايتاء الزكاة كفرا لكان ذكره فيما بين الصفتين الموجبتين للكفر قبيحا لان الكلام انما يكون فصيحا اذا كانت المناسبة مرعية بين أجزائه ثم أكدوا ذلك بأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه حكم بكفر مانعى الزكاة والجواب لما ثبت بالدليل ان الايمان عبارة عن التصديق بالقلب والاقرار باللسان وهما حاصلان عند عدم ايتاء الزكاة فلم يلزم حصول الكفر بسبب عدم ايتاء الزكاة والله أعلم ثم انه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أردفه بوعد المؤمنين فقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون أى غير مقطوع من قولك مننت الحبل أى قطعته ومنه قولهم قد منه السفر أى قطعه وقيل لا يمن عليهم لانه تعالى لما سماه أجرا فاذا الاجر لا يوجب المنة وقيل نزلت فى المرضى والزمنى اذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الاجر كأحسن ما كانوا يعملون ۞ قوله تعالى ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ اعلم انه تعالى لما أمر محمدا صلى الله عليه وسلم فى الآية الاولى ان يقول انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه أردفه بما يدل على انه لا يجوز اثبات الشركة بينه تعالى وبين هذه الاصنام فى الالهية والمعبودية وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته فى خلق السموات والارض فى مدة قليلة فمن هذا صفته كيف يجوز جعل الاصنام الخسيسة شركاء له فى الالهية والمعبودية فهذا تقرير النظم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير أئنكم لتكفرون بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد وأما نافع فى رواية قالون وأبو عمرو فعلى هذه الصورة الا انهما يمدان والباقون بهمزتين بلا مد (المسئلة الثانية) قوله تعالى أئنكم استفهام بمعنى الانكار وقد ذكر عنهم شيئين منكرين (أحدهما) الكفر بالله وهو قوله لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين (وثانيهما) اثبات الشركاء والانداد له ويجب أن يكون الكفر المذكور أولا مغايرا لاثبات الانداد له ضرورة ان عطف أحدهما على الآخر يوجب التغاير والاظهر أن المراد من كفرهم وجوه (الاول) قولهم ان الله تعالى لا يقدر

أو بقوله تعالى لا يفتنون والمعنى ان ذلك سنة قديمة مبنية على الحكم البالغة جارية فيما بين الامم كلها فلا ينبغى أن يتوقع خلافها والمعنى ان الامم الماضية قد أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما هو أشد مما أصاب هؤلاء فصبروا كما يعرب عنه قوله تعالى وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا الآيات وعن النبى عليه الصلاة والسلام قد كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فيفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بامشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه (فليعلمن الله الذين صدقوا) أى فى قولهم آمنا (وليعلمن الكاذبين) فى ذلك والفاء لترتيب ما بعدها على ما يفصح عنه ما قبلها من وقوع الامتحان واللام جواب القسم والالتفات الى الاسم الجليل لادخال الروعة وتربية المهابة وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير أى فوالله ليتعلقن علمه بالامتحان تعلقا حاليا يتميز به الذين صدقوا فى الايمان الذى أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب ويترتب عليه أجزيتهم من الثواب والعقاب ولذلك قيل المعنى ليميزن أو ليجازين وقرئ وليعلمن من الاعلام أى وليعرفنهم الناس أو ليسمنهم بسمة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) أى يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوى أعمالهم وهو ساد مسد مفعولى حسب لاشتماله على مسند ومسند اليه وأم منقطعة وما فيها

على حشر الموتى فلما نازعوا فى ثبوت هذه القدرة فقد كفروا بالله (والثانى) انهم كانوا ينازعون فى صحة التكليف وفى بعثة الانبياء وكل ذلك قدح فى الصفات المعتبرة فى الالهية وهو كفر بالله (والثالث) أنهم كانوا يضيفون اليه الاولاد وذلك أيضا قدح فى الالهية وهو يوجب الكفر بالله فالحاصل انهم كفروا بالله لاجل قولهم بهذه الاشياء وأثبتوا الانداد أيضا لله لاجل قولهم بالهية تلك الاصنام واحتج تعالى على فساد قولهم بالتأثير فقال كيف يجوز الكفر بالله وكيف يجوز جعل هذه الاصنام الخسيسة أندادا لله تعالى مع انه تعالى هو الذى خلق الارض فى يومين وتمم بقية مصالحها فى يومين آخرين وخلق السموات بأسرها فى يومين آخرين فمن قدر على خلق هذه الاشياء العظيمة كيف يعقل الكفر به وانكار قدرته على الحشر والنشر وكيف يعقل انكار قدرته على التكليف وعلى بعثة الانبياء وكيف يعقل جعل هذه الاصنام الخسيسة أندادا له فى المعبودية والالهية فان قيل من استدل بشئ على اثبات شئ فذلك الشئ المستدل به يجب أن يكون مسلما عند الخصم حتى يصح الاستدلال به وكونه تعالى خالقا للارض فى يومين أمر لا يمكن اثباته بالعقل المحض وانما يمكن اثباته بالسمع ووحى الانبياء والكفار كانوا منازعين فى الوحى والنبوة فلا يعقل تقرير هذه المقدمة عليهم واذا امتنع تقرير هذه المقدمة عليهم امتنع الاستدلال بها على فساد مذاهبهم قلنا اثبات كون السموات والارض مخلوقة بطريق العقل ممكن فاذا ثبت ذلك أمكن الاستدلال به على وجود الاله القادر القاهر العظيم وحينئذ يقال للكافرين فكيف يعقل التسوية بين الاله الموصوف بهذه القدرة القاهرة وبين الصنم الذى هو جماد لا يضر ولا ينفع فى المعبودية والالهية بقى أن يقال فحينئذ لا يبقى فى الاستدلال بكونه تعالى خالقا للارض فى يومين أثر فنقول هذا أيضا له أثر فى هذا الباب وذلك لان أول التوراة مشتمل على هذا المعنى فكان ذلك فى غاية الشهرة بين أهل الكتاب فكفار مكة كانوا يعتقدون فى أهل الكتاب أنهم أصحاب العلوم والحقائق والظاهر أنهم كانوا قد سمعوا من أهل الكتاب هذه المعانى واعتقدوا فى كونها حقة واذا كان الامر كذلك فحينئذ يحسن أن يقال لهم ان الاله الموصوف بالقدرة على خلق هذه الاشياء العظيمة فى هذه المدة الصغيرة كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجور والحجر المنحوت شريكا له فى المعبودية والالهية فظهر بما قررنا أن هذا الاستدلال قوى حسن وأما قوله تعالى ذلك رب العالمين أى ذلك الموجود الذى علمت من صفته وقدرته انه خلق الارض فى يومين هو رب العالمين وخالقهم ومبدعهم فكيف أثبتم له اندادا من الخشب والحجر ثم انه تعالى لما أخبر عن كونه خالقا للارض فى يومين أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك (فالاول) قوله وجعل فيها رواسى من فوقها والمراد منها الجبال وقد تقدم تفسير كونها رواسى فى سورة النحل فان قيل ما الفائدة فى قوله من فوقها ولم يقتصر على قوله وجعل فيها رواسى كقوله تعالى وجعلنا فيها رواسى شامخات وجعلنا فى الارض رواسى قلنا لانه تعالى لو جعل فيها رواسى من تحتها لاوهم ذلك ان تلك الاساطين التحتانية هى التى أمسكت هذه الارض الثقيلة عن النزول ولكنه تعالى قال خلقت هذه الجبال الثقال فوق الارض ليرى الانسان بعينه ان الارض والجبال اثقال على أثقال وكلها مفتقرة الى ممسك وحافظ وما ذاك الحافظ المدبر الا الله سبحانه وتعالى (والنوع الثانى) مما أخبر الله تعالى فى هذه الآية قوله وبارك فيها والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الارض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان وقد ذكرناها بالاستقصاء فى سورة البقرة قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد شق الانهار وخلق الجبال وخلق الاشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل ما يحتاج اليه من الخيرات (والنوع الثالث) قوله تعالى وقدر فيها أقواتها وفيه أقوال (الاول) ان المعنى وقدر فيها اقوات أهلها ومعايشهم وما يصلحهم قال محمد بن كعب قدر أقوات الابدان قبل أن يخلق الابدان (والقول الثانى) قال مجاهد وقدر فيها أقواتها من المطر وعلى هذا القول فالاقوات للارض لا للسكان والمعنى ان الله تعالى قدر لكل أرض حظها من المطر (والقول الثالث) أن المراد من اضافة الاقوات الى الارض كونها متولدة من تلك الارض وحادثة فيها لان النحويين قالوا يكفى فى حسن الاضافة أدنى سبب فالشئ قد يضاف الى فاعله تارة والى محله أخرى فقوله وقدر فيها أقواتها أى قدر الاقوات التى يختص حدوثها بها وذلك لانه تعالى جعل كل بلدة معدنا لنوع آخر من الاشياء

من معنى بل للاضراب والانتقال عن التوبيخ بانكار حسبانهم متروكين غير مفتونين الى التوبيخ بانكار ما هو أبطل من الحسبان الاول وهو حسبانهم أن لا يجازوا بسيآتهم وهم وان لم يحسبوا أنهم يفوتونه تعالى ولم يحدثوا انفسهم بذلك لكنهم حيث أصروا على المعاصى ولم يتفكروا فى العاقبة نزلوا منزلة من يطمع فى ذلك كما فى قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده (ساء ما يحكمون) أى بئس الذى يحكمونه حكمهم ذلك أو بئس حكما يحكمونه حكمهم ذلك (من كان يرجو لقاء الله) أى يتوقع ملاقاة جزائه ثوابا أو عقابا أو ملاقاة حكمه يوم القيامة وقيل يرجو لقاء الله عز وجل فى الجنة وقيل يرجو ثوابه وقيل يخاف عقابه وقيل لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول الى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد علم مولاه بجميع ما كان يأتى ويذر فاما ان يلقاه ببشر وكرامة لما رضى من أفعاله أو بضده لما سخطه (فان أجل الله) الاجل عبارة عن غاية زمان ممتد عينت لامر من الامور وقد يطلق على كل ذلك الزمان والاول هو الاشهر فى الاستعمال أى فان الوقت الذى عينه تعالى لذلك (لآت) لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لان اجزاء الزمان على التقضى والتصرم دائما فلابد من اتيان ذلك الجزء أيضا البتة واتيان وقته موجب لاتيان اللقاء حتما والجواب محذوف أى فليختر من الاعمال ما يؤدى الى حسن الثواب وليحذر ما يسوقه الى سوء العذاب كما فى قوله تعالى فمن كان

المطلوبة حتى ان أهل هذه البلدة يحتاجون الى الاشياء المتولدة فى تلك البلدة و بالعكس فصار هذا المعنى سببا لرغبة الناس فى التجارات مع اكتساب الاموال ورأيت من كان يقول صنعة الزراعة والحراثة أكثر الحرف والصنائع بركة لان الله تعالى وضع الارزاق والاقوات فى الارض قال وقدر فيها أقواتها واذا كانت الاقوات موضوعة فى الارض كان طلبها من الارض متعينا ولما ذكر الله سبحانه هذه الانواع الثلاثة من التدبير قال بعده فى أربعة أيام سواء للسائلين وههنا سؤالات (السؤال الاول) انه تعالى ذكر انه خلق الارض فى يومين وذكر انه أصلح هذه الانواع الثلاثة فى أربعة أيام أخر وذكر انه خلق السموات فى يومين فيكون المجموع ثمانية أيام لكنه ذكر فى سائر الآيات انه خلق السموات والارض فى ستة أيام فلزم التناقض واعلم أن العلماء أجابوا عنه بأن قالوا المراد من قوله وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام مع اليومين الاولين وهذا كقول القائل سرت من البصرة الى بغداد فى عشرة أيام وسرت الى الكوفة فى خمسة عشر يوما يريد كلا المسافتين ويقول الرجل للرجل أعطيتك ألفا فى شهر وألوفا فى شهرين فيدخل الالف فى الالوف والشهر فى الشهرين (السؤال الثانى) انه لما ذكر انه خلق الارض فى يومين فلو ذكر انه خلق هذه الانواع الثلاثة الباقية فى يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وأبعد عن الغلط فلم ترك هذا التصريح وذكر ذلك الكلام المجمل والجواب أن قوله فى أربعة أيام سواء للسائلين فيه فائدة زائدة على ما اذا قال خلقت هذه الثلاثة فى يومين وذلك لانه لو قال خلقت هذه الاشياء فى يومين لم يفد هذا الكلام كون هذين اليومين مستغرقين بتلك الاعمال لانه قد يقال عملت هذا العمل فى يومين مع أن اليومين ما كانا مستغرقين بذلك العمل أما لما ذكر خلق الارض وخلق هذه الاشياء ثم قال بعده فى أربعة أيام سواء للسائلين دل ذلك على أن هذه الايام الاربعة صارت مستغرقة فى تلك الاعمال من غير زيادة ولا نقصان (السؤال الثالث) كيف القرآت فى قوله سواء والجواب قال صاحب الكشاف قرئ سواء بالحركات الثلاثة الجر على الوصف والنصب على المصدر استوت سواء أى استواء والرفع على هى سواء (السؤال الرابع) ما المراد من كون تلك الايام الاربعة سواء فنقول ان الايام قد تكون متساوية المقادير كالايام الموجودة فى أماكن خط الاستواء وقد تكون مختلفة كالايام الموجودة فى سائر الاماكن فبين تعالى ان تلك الايام الاربعة كانت متساوية غير مختلفة (السؤال الخامس) بم يتعلق قوله للسائلين الجواب فيه وجهان (الاول) ان الزجاج قال قوله فى أربعة أيام أى فى تتمة أربعة أيام اذا عرفت هذا فالتقدير وقدر فيها أقواتها فى تتمة أربعة أيام لاجل السائلين أى الطالبين للاقوات المحتاجين اليها (والثانى) انه متعلق بمحذوف والتقدير كأنه قيل هذا الحصر والبيان لاجل من سأل فى كم خلقت الارض وما فيها ولما شرح الله تعالى كيفية تخليق الارض وما فيها أتبعه بكيفية تخليق السموات فقال ثم استوى الى السماء وهى دخان وفيه مباحث (البحث الاول) قوله تعالى ثم استوى الى السماء من قولهم استوى الى مكان كذا اذا توجه اليه توجها لا يلتفت معه الى عمل آخر وهو من الاستواء الذى هو ضد الاعوجاج ونظيره قولهم استقام اليه وامتد اليه ومنه قوله تعالى فاستقيموا اليه والمعنى ثم دعاه داعى الحكمة الى خلق السماء بعد خلق الارض وما فيها من غير صارف يصرفه عن ذلك (البحث الثانى) ذكر صاحب الاثر انه كان عرش الله على الماء قبل خلق السموات والارض فأحدث الله فى ذلك الماء سخونة فارتفع زبد ودخان أما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق الله منه اليبوسة وأحدث منه الارض وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله منه السموات واعلم ان هذه القصة غير موجودة فى القرآن فان دل عليه دليل صحيح قبل والا فلا وهذه القصة مذكورة فى أول الكتاب الذى يزعم اليهود انه التوراة وفيه انه تعالى خلق السماء من أجزاء مظلمة وهذا هو المعقول لانا قد دللنا فى المعقولات على ان الظلمة ليست كيفية وجودية بدليل انه لو جلس انسان فى ضوء السراج وانسان آخر فى الظلمة فان الذى جلس فى الضوء لا يرى مكان الجالس فى الظلمة ويرى ذلك الهواء مظلما وأما الذى جلس فى الظلمة فانه يرى ذلك الذى كان جالسا فى الضوء ويرى ذلك الهواء مضيئا ولو كانت الظلمة صفة قائمة بالهواء لما اختلفت الاحوال بحسب اختلاف أحوال الناظرين فثبت أن الظلمة عبارة عن عدم النور فالله سبحانه وتعالى لما خلق الاجزاء التى لا تتجزأ فقبل أن خلق فيها

كيفية

يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى وقيل فليبادر ما يحقق أمله و يصدق رجاءه أو ما يوجب القربة والزلفى (وهو السميع) لاقوال العباد (العليم) باحوالهم من الاعمال الظاهرة والعقائد (ومن جاهد) فى طاعة الله عز وجل (فانما يجاهد لنفسه) لعود منفعتها اليها (ان الله لغنى عن العالمين) فلا حاجة له الى طاعتهم وانما أمرهم بها تعريضا لهم للثواب بموجب رحمته (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) الكفر بالايمان والمعاصى بما يتبعها من الطاعات (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى أحسن جزاء أعمالهم لا جزاء أحسن أعمالهم فقط (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) أى بايتاء والديه وايلائهما فعلا ذا حسن أو ما هو فى حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى وقولوا للناس حسنا ووصى يجرى مجرى أمر معنى وتصرفا غير أنه يستعمل فيما كان فى المأمور به نفع عائد الى المأمور أو غيره وقيل هو بمعنى قال فالمعنى وقلنا أحسن بوالديك حسنا وقيل انتصاب حسنا بمضمر على تقدير قول مفسر للتوصية أى وقلنا أولهما أو افعل بهما حسنا وهو أوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على بوالديه وقرئ حسنا واحسانا (وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم) أى بالاهيته عبر عن نفيها بنفى العلم بها للايذان بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وان لم يعلم بطلانه فكيف بما علم بطلانه (فلا تطعهما) فى ذلك فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا بد من اضمار القول ان لم يضمر

كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمسا وقمرا وأحدث صفة الضوء فيها فحينئذ صارت مستنيرة فثبت ان تلك الاجزاء حين قصد الله تعالى ان يخلق منها السموات والشمس والقمر كانت مظلمة فصح تسميتها بالدخان لانه لا معنى للدخان الا أجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور فهذا ماخطر بالبال في تفسير الدخان والله أعلم بحقيقة الحال (البحث الثالث) قوله ثم استوى الى السماء وهي دخان مشعر بان تخليق السماء حصل بعد تخليق الارض وقوله تعالى والارض بعد ذلك دحاها مشعر بأن تخليق الارض حصل بعد تخليق السماء وذلك يوجب التناقض واختلف العلماء في هذه المسئلة والجواب المشهور أن يقال انه تعالى خلق الارض في يومين أولا ثم خلق بعدها السماء ثم بعد خلق السماء دحا الارض وبهذا الطريق يزول التناقض واعلم ان هذا الجواب مشكل عندي من وجوه (الاول) انه تعالى بين أنه خلق الارض في يومين ثم انه في اليوم الثالث جعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها وهذه الاحوال لا يمكن ادخالها في الوجود الا بعد أن صارت الارض مدحوة لان خلق الجبال فيها لا يمكن الا بعد ان صارت الارض مدحوة منبسطة وقوله تعالى وبارك فيها مفسر بخلق الاشجار والنبات والحيوان فيها وذلك لا يمكن الا بعد صيرورتها منبسطة ثم انه تعالى قال بعد ذلك ثم استوى الى السماء فهذا يقتضي انه تعالى خلق السماء بعد خلق الارض وبعد أن جعلها مدحوة وحينئذ يعود السؤال المذكور (الثاني) انه قد دلت الدلائل الهندسية على أن الارض كرة فهي في أول حدوثها ان قلنا انها كانت كرة والآن بقيت كرة أيضا فهي منذ خلقت كانت مدحوة وان قلنا انها غير كرة ثم جعلت كرة فيلزم أن يقال انها كانت مدحوة قبل ذلك ثم أزيل عنها هذه الصفة وذلك باطل (الثالث) ان الارض جسم في غاية العظم والجسم الذي يكون كذلك فانه من أول دخوله في الوجود يكون مدحوا فيكون القول بأنها ما كانت مدحوة ثم صارت مدحوة قول باطل والذي جاء في كتب التواريخ ان الارض خلقت في موضع الصخرة ببيت المقدس فهو كلام مشكل لانه ان كان المراد أنها على عظمها خلقت في ذلك الموضع فهذا قول بتداخل الاجسام الكثيفة وهو محال وان كان المراد منه انه خلق أولا أجزاء صغيرة في ذلك الموضع ثم خلق بقية أجزائها وأضيفت الى تلك الاجزاء التي خلقت أولا فهذا يكون اعترافا بان تخليق الارض وقع متأخرا عن تخليق السماء (الرابع) انه لما حصل تخليق ذات الارض في يومين وتخليق سائر الاشياء الموجودة في الارض في يومين آخرين وتخليق السموات في يومين آخرين كان مجموع ذلك ستة أيام فاذا حصل دحو الارض من بعد ذلك فقد حصل هذا الدحو في زمان آخر بعد الايام الستة فحينئذ يقع تخليق السموات والارض في أكثر من ستة أيام وذلك باطل (الخامس) انه لا نزاع ان قوله تعالى بعد هذه الآية ثم استوى الى السماء فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها كناية عن ايجاد السماء والارض فلو تقدم ايجاد السماء على ايجاد الارض لكان قوله ائتيا طوعا أو كرها يقتضي ايجاد الموجود وانه محال باطل فهذا تمام البحث عن هذا الجواب المشهور ونقل الواحدي في البسيط عن مقاتل انه قال خلق الله السموات قبل الارض وتأويل قوله ثم استوى الى السماء ثم كان قد استوى الى السماء وهي دخان وقال لها قبل أن يخلق الارض فأضمر فيه كان كما قال تعالى قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل معناه أن يكن سرق وقال تعالى وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا والمعنى فكان قد جاءها هذا ما نقله الواحدي وهو عندي ضعيف لان تقدير الكلام ثم كان قد استوى الى السماء وهذا جمع بين الضدين لان كلمة ثم تقتضي التأخير وكلمة كان تقتضي التقديم والجمع بينهما يفيد التناقض وذلك دليل على أنه لا يمكن اجراؤه على ظاهره وقد بينا أن قوله ائتيا طوعا أو كرها انما حصل قبل وجودهما واذا كان الامر كذلك امتنع حمل قوله ائتيا على الامر والتكليف فوجب حمله على ما ذكرناه بقي على لفظ الآية سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة في قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها (الجواب) المقصود منه اظهار كمال القدرة والتقدير ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما كما يقول الجبار لمن تحت يده لتفعلن هذا شئت أو لم تشأ ولتفعلنه طوعا أو كرها وانتصابهما على الحال بمعنى طائعين أو مكرهين فقالتا أتينا على الطوع لا على الكره وقيل انه تعالى ذكر السماء والارض ثم ذكر الطوع والكره فوجب أن ينصرف الطوع الى السماء والكره الى الارض

فهما قبل وفي تعليق النهي عن طاعتهما بجاهداك تمهما في التكليف اشعار بان موجب النهي فما دونها من التكليف ثابت بطريق الاولوية (الى مرجعكم) أي مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن بر بوالديه ومن عق (فأنبئكم بما كنتم تعملون) بأن أجازي كلا منكم بعمله ان خيرا فخير وان شرا فشر والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه عند اسلامه حيث حلفت أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية أن لا تنتقل من الضح الى الظل ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد فلبثت ثلاثة أيام كذلك وكذا التي في سورة لقمان وسورة الاحقاف وقيل نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل والحرث أخواه لامه اسماء فنزلا بعياش وقالا له ان من دين محمد صلى الله عليه وسلم صلة الارحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتا حتى تراك فاخرج معنا وفتلاه في الذروة والغارب واستشار عمر رضي الله عنه فقال هما يخدعانك ولك علي أن أقسم مالي بيني وبينك فما زالا به حتى أطاعهما وعصى عمر رضي الله عنه فقال له عمر رضي الله عنه أما اذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها فان رابك منهما ريب فارجع فلما انتهوا الى البيداء قال أبو جهل ان ناقتي قد كلت فاحملني معك فنزل ليوطئ لنفسه وله فأخذاه فشداه وثاقا وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به الى أمه فقالت لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين)

وتخصيص السماء بالطوع لوجوه (أحدها) أن السماء في دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف تشبه حيوانا مطيعا لله تعالى بخلاف الارض فانها مختلفة الاحوال تارة تكون في السكون وأخرى في الحركات المضطربة (وثانيها) أن الموجود في السماء ليس الا الطاعة قال تعالى يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون وأما أهل الارض فليس الامر في حقهم كذلك (وثالثها) السماء موصوفة بكمال الحال في جميع الامور قالوا انها أفضل الالوان وهي المستنيرة وأشكالها أفضل الاشكال وهي المستديرة ومكانها أفضل الامكنة وهو الجو العالي واجرامها أفضل الاجرام وهي الكواكب المتلألئة بخلاف الارض فانها مكان الظلمة والكثافة واختلاف الاحوال وتغير الذوات والصفات فلا جرم وقع التعبير عن تكون السماء بالطوع وعن تكون الارض بالكره واذا كان مدار خلق الارض على الكره كان أهلها موصوفين أبدا بما يوجب الكره والكرب والقهر والقسر (السؤال الثاني) ما المراد من قوله ائتيا ومن قوله أتينا الجواب المراد ائتيا الى الوجود والحصول وهو كقوله كن فيكون وقيل المعنى ائتيا على ما ينبغي أن تأتيا عليه من الشكل والوصف أي بارض مدحوة قرارا ومهادا وأي سماء مقببة سقفا لهم ومعنى الاتيان الحصول والوقوع على وفق المراد كما تقول أتى عمله مرضيا وجاء مقبولا ويجوز أيضا أن يكون المعنى لتأتي كل واحدة منكما صاحبتها الاتيان الذي تقتضيه الحكمة والتدبير من كون الارض قرارا للسماء وكون السماء سقفا للارض (السؤال الثالث) هلا قيل طائعين على اللفظ او طائعات على المعنى لانهما سموات وأرضون (الجواب) لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل طائعين في موضع طائعات نحو قوله ساجدين ومنهم من استدل به على كون السموات أحياء وقال الارض في جوف السموات أقل من الذرة الصغيرة في جوف الجبل الكبير فلهذا السبب صارت اللفظة الدالة على العقل والحياة غالبة الا أن هذا القول باطل لاجماع المتكلمين على فساده ثم قال تعالى فقضاهن سبع سموات في يومين وقضاء الشئ انما هو اتمامه والفراغ منه والضمير في قوله فقضاهن يجوز أن يرجع الى السماء على المعنى كما قال طائعين ونحوه أعجاز نخل خاوية ويجوز أن يكون ضميرا مبهما مفسرا بسبع سموات والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال والثاني على التمييز * ذكر أهل الاثر انه تعالى خلق الارض في يوم الاحد والاثنين وخلق سائر ما في الارض في يوم الثلاثا والاربعاء وخلق السموات وما فيها في يوم الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة فان قيل اليوم عبارة عن النهار والليل وذلك انما يحصل بسبب طلوع الشمس وغروبها وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يعقل حصول اليوم قلنا معناه انه مضى من المدة ما لو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدرا بيوم ثم قال تعالى وأوحى في كل سماء أمرها قال مقاتل أمر في كل سماء بما أراد وقال قتادة خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وقال السدي خلق في كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد قال ولله في كل سماء بيت يحج اليه ويطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل الكعبة ولو وقعت منه حصاة ما وقعت الا على الكعبة والاقرب أن يقال قد ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الاضافة أدنى سبب ولله تعالى على أهل كل سماء تكليف خاص فمن الملائكة من هو في القيام من أول خلق العالم الى قيام القيامة ومنهم ركوع لا ينتصبون ومنهم سجود لا يرفعون واذا كان ذلك الامر مختصا باهل ذلك السماء كان ذلك الامر مختصا بتلك السماء وقوله تعالى وأوحى في كل سماء أمرها أي وكان قد خص كل سماء بالامر المضاف اليه كقوله وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا والمعنى فكان قد جاءها هذا ما نقله الواحدي وهو عندي ضعيف لان تقدير الكلام ثم كان قد استوى الى السماء وكان قد أوحى وهذا جمع بين الضدين لان كلمة ثم تقتضي التأخير وكلمة كان تقتضي التقديم فالجمع بينهما يفيد التناقض ونظيره قول القائل ضربت اليوم زيدا ثم ضربت عمرا بالامس فكما ان هذا باطل فكذا ما ذكرتموه وانما يجوز تأويل كلام الله بما لا يؤدي الى وقوع التناقض والركاكة فيه والمختار عندي أن يقال خلق السموات مقدم على خلق الارض بقي أن يقال كيف تأويل هذه الآية فنقول الخلق ليس عبارة عن التكوين والايجاد والدليل عليه قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون فلو كان الخلق عبارة عن الايجاد والتكوين لكان تقدير الآية أوجده

أي في زمرة الراسخين في الصلاح والكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين وغاية مأمول أنبياء الله المرسلين قال الله تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين وقال في حق ابراهيم عليه السلام وانه في الآخرة لمن الصالحين أو في مدخل الصالحين وهو الجنة (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي في الله) أي في شأنه تعالى بأن عذبهم الكفرة على الايمان (جعل فتنة الناس) أي ما يصيبه من أذيتهم (كعذاب الله) في الشدة والهول فيرتد عن الدين مع أنه لا قدر لها عند نفحة من عذابه تعالى أصلا (ولئن جاء نصر من ربك) أي فتح وغنيمة (ليقولن) بضم اللام نظرا الى معنى من كما أن الافراد فيما سبق بالنظر الى لفظها وقرئ بالفتح (انا كنا معكم) أي مشايعين لكم في الدين فاشركونا في المغنم وهم ناس من ضعفة المسلمين كانوا اذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين فرد عليهم ذلك بقوله تعالى (أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) أي بأعلم منهم بما في صدورهم من الاخلاص والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والاخفاء عن المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة وهذا هو الاوفق لما سبق ولما لحق من قوله تعالى (وليعلمن الله الذين آمنوا) أي بالاخلاص (وليعلمن المنافقين) سواء كان كفرهم باذية الكفرة أولا أي ليجزينهم بما لهم من الايمان والنفاق (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان حملهم لهم عليه بالاذية والوعيد

من تراب ثم قال له كن فيكون وهذا محال لانه يلزم انه تعالى قد قال للشئ الذى وجد كن ثم انه يكون وهذا محال فثبت ان الخلق ليس عبارة عن التكوين والايجاد بل هو عبارة عن التقدير والتقدير فى حق الله تعالى هو حكمه بانه سيوجده وقضاؤه بذلك واذا ثبت هذا فنقول قوله خلق الارض فى يومين معناه أنه قضى بحدوثه فى يومين وقضاء الله بانه سيحدث كذا فى مدة كذا لا يقتضى حدوث ذلك الشئ فى الحال فقضاء الله تعالى بحدوث الارض فى يومين قد تقدم على احداث السماء ولا يلزم منه تقدم احداث الارض على احداث السماء وحينئذ يزول السؤال فهذا ما وصلت اليه فى هذا الموضع المشكل ثم قال تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين واعلم أن ظاهر هذا الكلام يقتضى أن الله تعالى أمر السماء والارض بالاتيان فأطاعا وامتثلا وعند هذا حصل فى هذه الآية قولان (الاول) ان نجرى هذه الآية على ظاهرها فنقول ان الله تعالى أمرهما بالاتيان فاطاعاه قال القائلون بهذا القول وهذا غير مستبعد ألا ترى أنه تعالى أمر الجبال أن تنطق مع داود عليه السلام فقال ياجبال أوبى معه والطير والله تعالى تجلى للجبل قال فلما تجلى ربه للجبل والله تعالى أنطق الايدى والارجل قال يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون واذا كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله فى ذات السماء والارض حياة وعقلا وفهما ثم يوجه الامر والتكليف عليهما ويتأكد هذا الاحتمال بوجوه (الاول) ان الاصل حمل اللفظ على ظاهره الا اذا منع منه مانع وههنا لا مانع فوجب اجراؤه على ظاهره (الثانى) انه تعالى أخبر عنهما فقال قالتا أتينا طائعين وهذا الجمع جمع ما يعقل ويعلم (والثالث) قوله تعالى انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وهذا يدل على كونها عارفة بالله مخصوصة بتوجيه تكاليف الله عليها والاشكال عليه أن يقال المراد من قوله ائتيا طوعا أو كرها الاتيان الى الوجود والحدوث والحصول وعلى هذا التقدير فحال توجه هذا الامر كانت السموات والارض معدومة اذ لو كانت موجودة لصار حاصل هذا الامر أن يقال ياموجود كن موجودا وذلك لا يجوز فثبت أنها حال توجه هذا الامر عليها كانت معدومة واذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ولا عارفة للخطاب فلم يجز توجيه الامر عليها فان قال قائل روى مجاهد عن ابن عباس انه قال قال الله سبحانه للسموات اطلعى شمسك وقمرك ونجومك وقال للارض شققى أنهارك وأخرجى ثمارك وكان الله تعالى أودع فيهما هذه الاشياء ثم أمرهما بابرازها واظهارها فنقول فعلى هذا التقدير لا يكون المراد من قوله أتينا طائعين حدوثهما فى ذاتهما بل يصير المراد من هذا الامر أن يظهرا ما كان مودعا فيهما الا ان هذا الكلام باطل لانه تعالى قال فقضاهن سبع سموات فى يومين والفاء للتعقيب وذلك يدل على أن حدوث السموات انما حصل بعد قوله ائتيا طوعا أو كرها فهذا جملة ما يمكن ذكره فى هذا البحث (القول الثانى) أن قوله تعالى قال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها ليس المراد منه توجيه الامر والتكليف على السموات والارض بل المراد منه انه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع اذا ورد عليه أمر الامير المطاع ونظيره قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقنى قال الوتد اسأل من يدقنى فان الحجر الذى ورائى ماخلانى ورائى واعلم ان هذا عدول عن الظاهر وانما جاز العدول عن الظاهر اذا قام دليل على انه لا يمكن اجراؤه على ظاهره وقد بينا ان قوله ائتيا طوعا أو كرها انما حصل قبل وجودهما واذا كان الامر كذلك امتنع حمل قوله ائتيا طوعا أو كرها على الامر والتكليف فوجب حمله على ماذكرنا واعلم ان اثبات الامر والتكليف فيهما مشروط بحصول المأمور فيهما وهذا يدل على انه تعالى أسكن هذه السموات الملائكة وأنه تعالى أمرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء وليس فى الآية ما يدل على انه انما خلق الملائكة مع السموات أو أنه تعالى خلقهم قبل السموات ثم انه تعالى أسكنهم فيها وأيضا ليس فى الآية بيان الشرائع التى أمر الملائكة بها وهذه الاسرار لا تليق بعقول البشر بل هى أعلى من مصاعد أفهامهم ومرامى أوهامهم ثم قال وزينا السماء الدنيا بمصابيح وهى النيران التى خلقها فى السموات وخص كل واحد بضوء معين وسر معين وطبيعة معينة لا يعرفها الا الله ثم قال وحفظا يعنى وحفظناها حفظا يعنى من الشياطين الذين يسترقون السمع فأعد لكل شيطان نجما يرميه به ولا يخطئه فمنها ما يحرق ومنها ما يقتل ومنها ما يجعله مخبلا وعن ابن عباس ان اليهود سألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن

ووصفهم بالكفر ههنا دون ما سبق لما أن مساق الكلام لبيان جناياتهم وفيما سبق لبيان جناية من أضلوه واللام للتبليغ أى قالوا مخاطبين لهم (اتبعوا سبيلنا) أى اسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى الدين عبر عن ذلك بالاتباع الذى هو المشى خلف ماش آخر تنزيلا للمسلك منزلة السالك فيه أو اتبعونا فى طريقتنا (ولنحمل خطاياكم) أى ان كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث كما تقولون وانما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له على أمرهم بالاتباع للمبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الاوزار عنهم ان كان ثمة وزر فرد عليهم بقوله تعالى (وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ) وقرئ من خطيئاتهم أى وماهم بحاملين شيأ من خطاياهم التى التزموا أن يحملوا كلها على أن من الاولى للتبيين والثانية مزيدة للاستغراق والجملة اعتراض أو حال (انهم لكاذبون) حيث أخبروا فى ضمن وعدهم بالحمل بانهم قادرون على انجاز ما وعدوا فان الكذب كما يتطرق الى الكلام باعتبار منطوقه يتطرق اليه باعتبار ما يلزم مدلوله كما فى قوله تعالى أنبؤنى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين (وليحملن أثقالهم) بيان لما يستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لانفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلا والتعبير عن الخطايا بالاثقال للايذان بغاية ثقلها وكونها فادحة واللام جواب قسم مضمر أى وبالله ليحملن أثقال أنفسهم كاملة (وأثقالا) أخر (مع أثقالهم) لما تسببوا بالاضلال والحمل على الكفر والمعاصى من غير أن ينتقص من أثقال من أضلوه

خلق السموات والارض فقال خلق الله تعالى الارض فى يوم الاحد والاثنين وخلق الجبال والشجر فى يومين وخلق فى يوم الخميس السماء وخلق فى يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ثم خلق آدم عليه السلام وأسكنه الجنة ثم قالت اليهود ثم ماذا يا محمد قال ثم استوى على العرش قالوا ثم استراح فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب واعلم انه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل قال ذلك تقدير العزيز العليم والعزيز اشارة الى كمال القدرة والعليم اشارة الى كمال العلم وما أحسن هذه الخاتمة لان تلك الاعمال لا تمكن الا بقدرة كاملة وعلم محيط ۞ قوله تعالى ﴿فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون فأما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ اعلم ان الكلام انما ابتدئ من قوله انما الهكم اله واحد واحتج عليه بقوله قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وحاصله ان الاله الموصوف بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به وكيف يجوز جعل هذه الاجسام الخسيسة شركاء له فى الالهية ولما تمم تلك الحجة قال فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود وبيان ذلك لان وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه فان بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذ علاج فى حقهم الا انزال العذاب عليهم فلهذا السبب قال فان أعرضوا فقل أنذرتكم يعنى ان أعرضوا عن قبول هذه الحجة القاهرة التى ذكرناها وأصروا على الجهل والتقليد فقل أنذرتكم والانذار هو التخويف قال المبرد والصاعقة النازلة المهلكة لاى شئ كان وقرئ صعقة مثل صعقة عاد وثمود قال صاحب الكشاف وهى المرة من الصعق ثم قال اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم وفيه وجهان (الاول) المعنى ان الرسل المبعوثين اليهم أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأتوا بجميع وجوه الحيل فلم يروا منهم الا العتو والاعراض كما حكى الله تعالى عن الشيطان قوله ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم يعنى لآتينهم من كل جهة ولاعملن فيهم كل حيلة ويقول الرجل استدرت بفلان من كل جانب فلم تؤثر حيلتى فيه (السؤال الثانى) المعنى ان الرسل جاءتهم من قبلهم ومن بعدهم فان قيل الرسل الذين جاؤا من قبلهم ومن بعدهم كيف يمكن وصفهم بانهم جاؤهم قلنا قد جاءهم هود وصالح داعيين الى الايمان بهما وبجميع الرسل وبهذا التقدير فكان جميع الرسل قد جاؤهم ثم قال ألا تعبدوا الا الله يعنى ان الرسل الذين جاؤهم من بين أيديهم ومن خلفهم أمروهم بالتوحيد ونفى الشرك قال صاحب الكشاف أن فى قوله أن لا تعبدوا الا الله بمعنى أى أو مخففة من الثقيلة أصله بانه لا تعبدوا أى بان الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا الا الله ثم حكى الله تعالى عن أولئك الكفار انهم قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة يعنى انهم كذبوا أولئك الرسل وقالوا الدليل على كونكم كاذبين انه تعالى لو شاء ارسال الرسل الى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة لان ارسال الملائكة الى الخلق أفضى الى المقصود من البعثة والرسالة ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا فانا بما أرسلتم به كافرون معناه فاذا أنتم بشر ولستم بملائكة فأنتم لستم برسل واذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم وهو المراد من قوله فانا بما أرسلتم به كافرون واعلم انا بالغنا فى الجواب عن هذه الشبهات فى سورة الانعام وقوله أرسلتم به ليس باقرار منهم بكون أولئك الانبياء رسلا وانما ذكروه حكاية لكلام الرسل أو على سبيل الاستهزاء كما قال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون * روى ان أبا جهل قال فى ملأ من قريش التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والسحر والكهانة فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علما وما يخفى على فأتاه فقال يا محمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله لم تشتم آلهتنا وتضللنا فان كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا وان تكن بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن أى بنات من شئت من قريش وان كان المال مرادك جمعنا

شئ منها أصلا (وليسئلن يوم القيامة) سؤال تقريع وتبكيت (عما كانوا يفترون) أى يختلقونه فى الدنيا من الاكاذيب والاباطيل التى من جملتها كذبهم هذا (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) شروع فى بيان افتتان الانبياء عليهم الصلاة والسلام باذية أممهم اثر بيان افتتان المؤمنين باذية الكفار تأكيدا للانكار على الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الايمان بلا ابتلاء وحثا لهم على الصبر فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها فلأن يصبر هؤلاء أولى وأحرى قالوا كان عمر نوح عليه السلام ألفا وخمسين عاما بعث على رأس أربعين سنة ودعا قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وعن وهب أنه عاش ألفا وأربعمائة سنة ولعل ما عليه النظم الكريم للدلالة على كمال العدد فان تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ولما فى ذكر الالف من تخييل طول المدة فان المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من الكفرة واظهار ركاكة رأى الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء واختلاف المميزين لما فى التكرير من نوع بشاعة (فأخذهم الطوفان) أى عقيب تمام المدة المذكورة والطوفان يطلق على كل ما يطوف بالشئ على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام وقد غلب على طوفان الماء (وهم ظالمون) أى والحال أنهم مستمرون على الظلم

لك ما تستغني به ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ قال بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم الى قوله صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فامسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع الى أهله ولم يخرج الى قريش فلما احتبس عنهم قالوا لا نرى عتبة الا قد صبأ فانطلقوا اليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا الا أنك قد صبأت فغضب واقسم لا يكلم محمدا أبدا ثم قال والله لقد كلمته فاجابني بشئ ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم ولقد علمت ان محمدا اذا قال شيأ لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب واعلم انه تعالى لما بين كفر قوم عاد وثمود على الاجمال بين خاصية كل واحدة من هاتين الطائفتين فقال فاما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وهذا الاستكبار فيه وجهان (الاول) اظهار النخوة والكبر وعدم الالتفات الى الغير (والثاني) الاستعلاء على الغير واستخدامهم ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو انهم قالوا من أشد منا قوة وكانوا مخصوصين بكبر الاجسام وشدة القوة ثم انه تعالى ذكر ما يدل على انه لا يجوز لهم ان يغتروا بشدة قوتهم فقال أولم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة يعني انهم وان كانوا أقوى من غيرهم فالله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة فان كانت الزيادة في القوة توجب كون الناقص في طاعة الكامل فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى خاضعين لاوامره ونواهيه واحتج أصحابنا بهذه الآية على اثبات القدرة لله فقالوا القوة ههنا هي القدرة فقوله الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة يدل على اثبات القوة لله تعالى ويتأكد هذا بقوله ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين فان قيل صيغة افعل التفضيل انما تجري بين شيئين لاحدهما مع الآخر نسبة لكن قدرة العبد متناهية وقدرة الله لا نهاية لها والمتناهي لا نسبة له الى غير المتناهي فما معنى قوله ان الله أشد منهم قوة قلنا هذا ورد على قانون قولنا الله أكبر ثم قال وكانوا بآياتنا يجحدون والمعنى انهم كانوا يعرفون انها حق ولكنهم جحدوها كما يجحد المودع الوديعة واعلم ان نظم الكلام أن يقال أما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وكانوا بآياتنا يجحدون وقوله وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا ان الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة اعتراض وقع في البين لتقرير السبب الداعي لهم الى الاستكبار واعلم انا ذكرنا ان مجامع الخصال الحميدة الاحسان الى الخلق والتعظيم للخالق فقوله استكبروا في الارض بغير الحق مضاد للاحسان الى الخلق وقوله وكانوا بآياتنا يجحدون مضاد للتعظيم للخالق واذا كان الامر كذلك فهم قد بلغوا في الصفات المذمومة الموجبة للهلاك والابطال الى الغاية القصوى فلهذا المعنى سلط الله العذاب عليهم فقال فارسلنا عليهم ريحا صرصرا وفي الصرصر قولان (أحدهما) انها العاصفة التي تصرصر أي تصوت في هبوبها وفي علة هذه التسمية وجوه قيل ان الرياح عند اشتداد هبوبها يسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر فسميت هذه الرياح بهذا الاسم وقيل هو من صرير الباب وقيل من الصرة وهي الصيحة ومنه قوله تعالى فاقبلت امرأته في صرة (والقول الثاني) انها الباردة التي تحرق بردها كما تحرق النار بحرها وأصلها من الصر وهو البرد قال تعالى كمثل ريح فيها صر وروى عن رسول الله انه قال الرياح ثمان أربع منها عذاب العاصف والصرصر والعقيم والسموم وأربع منها رحمة الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات وعن ابن عباس ان الله تعالى ما أرسل على عباده من الريح الا قدر خاتمي والمقصود انه مع قلته أهلك الكل وذلك يدل على كمال قدرته وأما قوله في أيام نحسات ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو نحسات بسكون الحاء والباقون بكسر الحاء قال صاحب الكشاف يقال نحس نحسا نقيض سعد سعدا فهو نحس وأما نحس فهو اما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر (المسئلة الثانية) استدل الاحكاميون من المنجمين بهذه الآية على ان بعض الايام قد يكون نحسا وبعضها قد يكون سعدا وقالوا هذه الآية صريحة في هذا المعنى أجاب المتكلمون بأن قالوا أيام نحسات أي ذوات غبار وتراب ثائر لا يكاد يبصر فيه ويتصرف وأيضا قالوا معنى كون هذه الايام نحسات ان الله أهلكهم فيها أجاب المستدل الاول بأن النحسات في وضع اللغة هي المشؤمات لان النحس يقابله السعد والكدر يقابله الصافي وأجاب عن السؤال الثاني ان الله تعالى أخبر عن ايقاع ذلك العذاب في تلك الايام النحسات فوجب أن يكون كون تلك الايام نحسة مغايرا لذلك العذاب

يتأثر وانما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدة المتمادية (فأنجيناه) أي نوحا عليه السلام (وأصحاب السفينة) أي ومن ركب فيها معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة وقيل ثمانية نصفهم ذكور ونصفهم اناث (وجعلناها) أي السفينة أو الحادثة والقصة (آية للعالمين) يتعظون بها (وابراهيم) نصب بالعطف على نوحا وقيل باضمار اذكر وقرئ بالرفع على تقدير ومن المرسلين ابراهيم (اذ قال لقومه) على الاول ظرف للارسال أي أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال الى درجة التكميل حيث تصدى لارشاد الخلق الى طريق الحق وعلى الثاني بدل اشتمال من ابراهيم (اعبدوا الله) أي وحده (واتقوه) أن تشركوا به شيأ (ذلكم) أي ما ذكر من العبادة والتقوى (خير لكم) أي مما أنتم عليه ومعنى التفضيل مع انه لا خيرية فيه قطعا باعتبار زعمهم الباطل (ان كنتم تعلمون) أي الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر أو ان كنتم تعلمون شيأ من الاشياء بوجه من الوجوه فان ذلك كاف في الحكم بخيرية ما ذكر من العبادة والتقوى (انما تعبدون من دون الله أوثانا) بيان لبطلان دينهم وشريته في نفسه بعد بيان شريته بالنسبة الى الدين الحق أي انما تعبدون من دونه تعالى أوثانا هي في نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك (وتخلقون افكا) أي وتكذبون كذبا حيث تسمونها

الذى وقع فيها ثم قال تعالى لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا أى عذاب الهوان والذل والسبب فيه انهم استكبروا فقابل الله ذلك الاستكبار بايصال الخزى والهوان والذل اليهم ثم قال تعالى ولعذاب الآخرة أخزى أى أشد اهانة وخزيا وهم لا ينصرون أى انهم يقعون فى الخزى الشديد ومع ذلك فلا يكون لهم ناصر يدفع ذلك الخزى عنهم ولما ذكر الله تعالى قصة عاد اتبعه بقصة ثمود فقال وأما ثمود قال صاحب الكشاف قرئ ثمود بالرفع والنصب منونا وغير منون والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء وقرئ بضم الثاء فهديناهم أى دللناهم على طريق الخير والشر فاستحبوا العمى على الهدى أى اختاروا الدخول فى الضلالة على الدخول فى الرشد واعلم أن صاحب الكشاف ذكر فى تفسير الهدى فى قوله تعالى هدى للمتقين ان الهدى عبارة عن الدلالة الموصلة الى البغية وهذه الآية تبطل قوله لانها تدل على ان الهدى قد حصل مع ان الافضاء الى البغية لم يحصل فثبت ان قيد كونه مفضيا الى البغية غير معتبر فى اسم الهدى وقد ثبت فى هذه الآية سؤال يشعر بذلك الا انه لم يذكر جوابا شافيا فتركناه قالت المعتزلة هذه الآية دالة على ان الله تعالى قد ينصب الدلائل ويزيح الاعذار والعلل الا أن الايمان انما يحصل من العبد لان قوله وأما ثمود فهديناهم يدل على أنه تعالى قد نصب لهم الدلائل وقوله فاستحبوا العمى على الهدى يدل على انهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى فهذا يدل على ان الكفر والايمان يحصلان من العبد وأقول بل هذه الآية من أدل الدلائل على انهما انما يحصلان من الله لا من العبد وبيانه من وجهين (الاول) انهم انما صدر عنهم ذلك العمى لانهم أحبوا تحصيله فلما وقع فى قلبهم هذه المحبة دون محبة ضده فان حصل ذلك الترجيح لا لمرجح فهو باطل وان كان المرجح هو العبد عاد الطلب وان كان المرجح هو الله فقد حصل المطلوب (الثانى) انه تعالى قال فاستحبوا العمى على الهدى ومن المعلوم بالضرورة ان أحدا لا يحب العمى والجهل مع العلم بكونه عمى وجهلا بل مالم يظن فى ذلك العمى والجهل كونه تبصرة وعلما لا يرغب فيه فاقدامه على اختيار ذلك الجهل لابد وان يكون مسبوقا بجهل آخر فان كان ذلك الجهل الثانى باختياره أيضا لزم التسلسل وهو محال فلا بد من انتهاء تلك الجهالات الى جهل يحصل فيه لا باختياره وهو المطلوب ولما وصف الله كفرهم قال فاخذتهم صاعقة العذاب الهون وصاعقة العذاب أى داهية العذاب والهون الهوان وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه بما كانوا يكسبون يريد من شركهم وتكذيبهم صالحا وعقرهم الناقة وشرع صاحب الكشاف ههنا فى سفاهة عظيمة والاولى ان لا يلتفت اليه لانه وان كان قد سعى سعيا حسنا فيما يتعلق بالالفاظ الا ان المسكين كان بعيدا من المعانى ولما ذكر الله الوعيد أردفه بالوعد فقال ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون يعنى وكانوا يتقون الاعمال التى كان يأتى بها قوم عاد وثمود فان قيل كيف يجوز للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود مع العلم بأن ذلك لا يقع فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقد صرح الله تعالى بذلك فى قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وجاء فى الاحاديث الصحيحة ان الله تعالى رفع عن هذه الامة هذه الانواع من الآفات قلنا انهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود فى استحقاق مثل تلك الصاعقة جوزوا حدوث ما يكون من جنس ذلك وان كان أقل درجة منهم وهذا القدر يكفى فى التخويف ۞ قوله تعالى ﴿ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين﴾ واعلم أنه تعالى لما بين كيفية عقوبة أولئك الكفار فى الدنيا أردفه بكيفية عقوبتهم فى الآخرة ليحصل منه تمام الاعتبار فى الزجر والتحذير وقرأ نافع نحشر بالنون أعداء بالنصب أضاف الحشر الى نفسه والتقدير يحشر الله عز وجل أعداءه الكفار من الاولين والآخرين وحجته انه معطوف على قوله ونجينا فحسن أن يكون على وفقه فى اللفظ ويقويه قوله يوم نحشر المتقين وحشرناهم وأما الباقون فقرؤا على فعل مالم يسم فاعله لان قصة ثمود قد تمت وقوله ويوم يحشر ابتداء كلام آخر وأيضا الحاشرون لهم هم

آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله أو تعملونها وتنحتونها للافك وقرئ تخلقون بالتشديد للتكثير فى الخلق بمعنى الكذب والافتراء وتخلقون بحذف احدى التاءين من تخلق بمعنى تكذب وتخرص وقرئ افكا على انه مصدر كالكذب واللعب أو نعت بمعنى خلقا ذا افك (ان الذين تعبدون من دون الله) بيان لشرية ما يعبدونه من حيث انه لا يكاد يجديهم نفعا (لا يملكون لكم رزقا) أى لا يقدرون على أن يرزقوكم شيأ من الرزق (فابتغوا عند الله الرزق) كله فانه هو الرزاق ذو القوة المتين (واعبدوه) وحده (واشكروا له) على نعمائه متوسلين الى مطالبكم بعبادته مقيدين بالشكر للعتيد ومستجلبين للمزيد (اليه ترجعون) أى بالموت ثم بالبعث لا الى غيره فافعلوا ما أمرتكم به وقرئ ترجعون من رجع رجوعا (وان تكذبوا) أى تكذبونى فيما أخبرتكم به من أنكم اليه ترجعون بالبعث (فقد كذب أمم من قبلكم) تعليل للجواب أى فلا تضرونى بتكذيبكم فان من قبلكم من الامم قد كذبوا من قبلى من الرسل وهم شيث وادريس ونوح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيأ وانما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبهم (وما على الرسول الا البلاغ المبين) أى التبليغ الذى لا يبقى معه شك وما عليه أن يصدقه قومه البتة وقد خرجت عن عهدة التبليغ بما لا مزيد عليه فلا يضرنى تكذيبكم بعد ذلك أصلا (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق) كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى للانكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله والهمزة

المأمورون بقوله احشروا وهم الملائكة وأيضا ان هذه القراءة موافقة لقوله فهم يوزعون وأيضا فتقدير القراءة الاولى ان الله تعالى قال ويوم نحشر أعداء الله الى النار فكان الاولى على هذا التقدير أن يقال ويوم نحشر أعداءنا الى النار واعلم انه تعالى لما ذكر ان أعداء الله يحشرون الى النار قال فهم يوزعون أى يحبس أولهم على آخرهم أى يوقف سوابقهم حتى يصل اليهم تواليهم والمقصود بيان انهم اذا اجتمعوا اسئلوا عن أعمالهم ثم قال حتى اذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التقدير حتى اذا جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وعلى هذا التقدير فكلمة ما صلة وقيل فيها فائدة زائدة وهى تأكيد ان عند مجيئهم لابد وان تحصل هذه الشهادة كقوله أثم اذا ما وقع آمنتم به أى لابد لوقت وقوعه من أن يكون وقت ايمانهم به (المسئلة الثانية) روى ان العبد يقول يوم القيامة يارب العزة ألست قد وعدتنى ان لا تظلمنى فيقول الله تعالى فان لك ذلك فيقول العبد انى لا أقبل على نفسى شاهدا الا من نفسى فيختم الله على فيه وينطق أعضاءه بالاعمال التى صدرت منه فذلك قوله شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم واختلف الناس فى كيفية الشهادة وفيه ثلاثة أقوال (أحدها) انه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على مايعرفه (والثانى) انه تعالى يخلق فى تلك الاعضاء الاصوات والحروف الدالة على تلك المعانى كما خلق الكلام فى الشجرة (والثالث) أن يظهر فى تلك الاعضاء أحوال تدل على صدور تلك الاعمال من ذلك الانسان وتلك الامارات تسمى شهادات كما يقال يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه واعلم ان هذه المسئلة صعبة على المعتزلة أما القول الاول فهو صعب على مذهبهم لان البنية عندهم شرط لحصول العقل والقدرة فاللسان مع كونه لسانا يمتنع أن يكون محلا للعلم والعقل فان غير الله تعالى تلك البنية والصورة خرج عن كونه لسانا وجلدا وظاهر الآية يدل على اضافة تلك الشهادة الى السمع والبصر والجلود فان قلنا ان الله تعالى ما غير بنية هذه الاعضاء فحينئذ يمتنع عليها كونها عاقلة ناطقة فاهمة وأما القول الثانى وهو أن يقال ان الله تعالى خلق هذه الاصوات والحروف فى هذه الاعضاء وهذا أيضا باطل على أصول المعتزلة لان مذهبهم أن المتكلم هو الذى فعل الكلام لا ما كان موصوفا بالكلام فانهم يقولون ان الله تعالى خلق الكلام فى الشجرة وكان المتكلم بذلك الكلام هو الله تعالى لا الشجرة فههنا لو قلنا ان الله خلق الاصوات والحروف فى تلك الاعضاء لزم أن يكون الشاهد هو الله تعالى لا تلك الاعضاء ولزم أن يكون المتكلم بذلك الكلام هو الله لا تلك الاعضاء وظاهر القرآن يدل على أن تلك الشهادة شهادة صدرت من تلك الاعضاء لا من الله تعالى لانه تعالى قال شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وأيضا انهم قالوا لتلك الاعضاء لم شهدتم علينا فقالت الاعضاء أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ وكل هذه الآيات دالة على ان المتكلم بتلك الكلمات هى تلك الاعضاء وان تلك الكلمات ليست كلام الله تعالى فهذا توجيه الاشكال على هذين القولين وأما القول الثالث وهو تفسير هذه الشهادة بظهور أمارات مخصوصة على هذه الاعضاء دالة على صدور تلك الاعمال منهم فهذا عدول عن الحقيقة الى المجاز والاصل عدمه فهذا منتهى الكلام فى هذا البحث أما على مذهب أصحابنا فهذا الاشكال غير لازم لان عندنا البنية ليست شرطا للحياة ولا للعلم ولا للقدرة فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق فى كل جزء من أجزاء هذه الاعضاء وعلى هذا التقدير فالاشكال زائل وهذه الآية يحسن التمسك بها فى بيان أن البنية ليست شرطا للحياة ولا لشئ من الصفات المشروطة بالحياة والله أعلم (المسئلة الثالثة) ما رأيت للمفسرين فى تخصيص هذه الاعضاء الثلاثة بالذكر سببا وفائدة وأقول لاشك ان الحواس خمسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس ولاشك أن آلة اللمس هى الجلد فالله تعالى ذكر ههنا ثلاثة أنواع من الحواس وهى السمع والبصر واللمس وأهمل ذكر نوعين وهما الذوق والشم لان الذوق داخل فى اللمس من بعض الوجوه لان ادراك الذوق انما يتأتى بان تصير جلدة اللسان والحنك مماسة لجرم الطعام فكان هذا داخلا فيه فبقى حس الشم وهو حس ضعيف فى الانسان وليس لله فيه تكليف ولا أمر ولا نهى اذا عرفت هذا فنقول نقل عن ابن عباس أنه قال المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج قال وهذا من باب الكنايات كما قال ولكن لا تواعدوهن سرا وأراد

لانكار عدم رؤيتهم الموجب لتقريرها والواو للعطف على مقدر أى ألم ينظروا ولم يعلموا علما جاريا مجرى الرؤية فى الجلاء والظهور كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة أى قد علموا ذلك وقرئ بصيغة الخطاب لتشديد الانكار وتأكيده وقرئ يبدا وقوله تعالى (ثم يعيده) عطف على أولم يروا لا على يبدئ لعدم وقوع الرؤية عليه فهو اخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياسا على الابتداء وقد جوز العطف على يبدأ بتأويل الاعادة بانشائه تعالى كل سنة مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فان ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب (ان ذلك) أى ما ذكر من الاعادة (على الله يسير) اذ لا يفتقر فعله الى شئ أصلا (قل سيروا فى الارض) أمر لابراهيم عليه السلام أن يقول لهم ذلك أى سيروا فيها (فانظروا كيف بدأ الخلق) أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى فان ترتيب النظر على السير فى الارض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) بعد النشأة الاولى التى شاهدتموها والتعبير عن الاعادة التى هى محل النزاع بالنشأة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شؤن الله تعالى حقيقة واسما من حيث ان كلا منهما اختراع واخراج من العدم الى الوجود ولا فرق بينهما الا بالاولية والآخرية وقرئ النشاءة بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة ومحلها النصب على انها مصدر مؤكد لينشئ بحذف الزوائد والاصل الانشاءة أو بحذف

النكاح وقال أو جاء أحد منكم من الغائط والمراد قضاء الحاجة وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أول ما يتكلم من الآدمي فخذه وكفه وعلى هذا التقدير فتكون هذه الآية وعيدا شديدا في الاتيان بالزنا لان مقدمة الزنا انما تحصل بالكف ونهاية الامر فيها انما تحصل بالفخذ ثم حكى الله تعالى عنهم أنهم يقولون لتلك الاعضاء لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شئ وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون ومعناه ان القادر على خلقكم وانطاقكم في المرة الاولى حالما كنتم في الدنيا ثم على خلقكم وانطاقكم في المرة الثانية وهي حال القيامة والبعث كيف يستبعد منه انطاق الجوارح والاعضاء ثم قال تعالى وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم فالمعنى اثبات أنهم كانوا يستترون عند الاقدام على الاعمال القبيحة الا ان استتارهم ما كان لاجل خوفهم من أن تشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وذلك لانهم كانوا منكرين للبعث والقيامة ولكن ذلك الاستتار لاجل انهم كانوا يظنون أن الله لا يعلم الاعمال التي يقدمون عليها على سبيل الخفية والاستتار * عن ابن مسعود قال كنت مستترا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ثقفيان وقرشي فقال أحدهم أترون الله يسمع ما تقولون فقال الرجلان اذا سمعنا أصواتنا سمع والا لم يسمع فذكرت ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم فنزل وما كنتم تستترون ثم قال تعالى وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين وهذا نص صريح في ان من ظن بالله تعالى انه يخرج شئ من المعلومات عن علمه فانه يكون من الهالكين الخاسرين قال أهل التحقيق الظن قسمان ظن حسن بالله تعالى وظن فاسد أما الظن الحسن فهو أن يظن به الرحمة والفضل قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي وقال صلى الله عليه وسلم لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن الظن بالله والظن القبيح فاسد وهو أن يظن بالله تعالى أنه يعزب عن علمه بعض هذه الاحوال وقال قتادة الظن نوعان ظن منج وظن مرد فالمنجي قوله اني ظننت أني ملاق حسابيه وقوله الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأما الظن المردي فهو قوله وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم قال صاحب الكشاف وذلكم رفع بالابتداء وظنكم وأرداكم خبران ويجوز أن يكون ظنكم بدلا من ذلكم وأرداكم الخبر ثم قال فان يصبروا فالنار مثوى لهم يعني ان أمسكوا عن الاستغاثة لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مثوى لهم أي مقاما لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين أي لم يعطوا العتبى ولم يجابوا اليها ونظيره قوله تعالى أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص وقرئ وان يستعتبوا فما هم من المعتبين أي ان يسئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون أي لا سبيل لهم الى ذلك ۞ قوله تعالى (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الاسفلين) اعلم انه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على كفر أولئك الكفار أردفه بذكر السبب الذي لاجله وقعوا في ذلك الكفر فقال وقيضنا لهم قرناء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الصحاح يقال قايضت الرجل مقايضة أي عاوضته بمتاع وهما قيضان كما يقال بيعان وقيض الله فلانا لفلان أي جاءه به وأتى به له ومنه قوله تعالى وقيضنا لهم قرناء (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى يريد الكفر من الكافر فقالوا انه تعالى ذكر أنه قيض لهم أولئك القرناء وكان عالما بأنه متى قيض لهم أولئك القرناء فانهم يزينون الباطل لهم وكل من فعل فعلا وعلم أن ذلك الفعل يفضي الى أثر لا محالة فان فاعل ذلك الفعل لابد وأن يكون مريدا لذلك الاثر فثبت أنه تعالى لما قيض لهم قرناء فقد أراد منهم ذلك الكفر أجاب الجبائي عنه بأن قال لو أراد المعاصي لكانوا بفعلها مطيعين اذ الفاعل لما أراده منه غيره يجب أن يكون مطيعا له وبأن قوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون يدل على انه لم يرد منهم الا العبادة فثبت بهذا أنه تعالى لم يرد منهم المعاصي وأما هذه الآية فنقول انه تعالى لم يقل وقيضنا لهم قرناء ليزينوا لهم وانما قال فزينوا لهم فهو تعالى قيض القرناء لهم بمعنى انه تعالى أخرج كل أحد الى آخر من جنسه

العامل أي ينشئ فينشئون النشأة الآخرة كما في قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا والجملة معطوفة على جملة سيروا في الارض داخلة معها في حيز القول واظهار الاسم الجليل وايقاعه مبتدأ مع اضماره في بدأ لابراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الاعادة بالاشارة الى علة الحكم وتكرير الاسناد وقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) تعليل لما قبله بطريق التحقيق فان من علم قدرته تعالى على جميع الاشياء التي من جملتها الاعادة لا يتصور أن يتردد في قدرته عليها ولا في وقوعها بعدما أخبر به (يعذب) أي بعد النشأة الآخرة (من يشاء) ان يعذبه وهم المنكرون لها حتما (ويرحم من يشاء) أن يرحمه وهم المصدقون بها والجملة تكملة لما قبلها وتقديم التعذيب لما أن الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب (واليه تقلبون) عند ذلك لا الى غيره فيفعل بكم ما شاء من التعذيب والرحمة (وما أنتم بمعجزين) له تعالى عن اجراء حكمه وقضائه عليكم (في الارض ولا في السماء) أي بالتواري في الارض أو الهبوط في مهاويها ولا بالتحصن في السماء التي هي أفسح منها لو استطعتم الرقي فيها كما في قوله تعالى ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا أو القلاع الذاهبة فيها وقيل في السماء صفة لمحذوف معطوف على أنتم أي ولا من في السماء (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير) يحرسكم مما يصيبكم من بلاء يظهر من الارض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم (والذين كفروا بآيات الله) أي بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله فيدخل فيها

فقيض أحد الزوجين للآخر والغنى للفقير والفقير للغنى ثم بين تعالى ان بعضهم يزين المعاصى للبعض
واعلم ان وجه استدلال أصحابنا بماذكرناه وهو أن من فعل فعلا وعلم قطعا أن ذلك الفعل يفضى الى أثر
فان فاعل ذلك الفعل يكون مريدا لذلك الاثر فههنا الله تعالى قيض أولئك القرناء لهم وعلم أنه متى قيض
أولئك القرناء لهم فانهم يقعون فى ذلك الكفر والضلال وماذكره الجبائى لايدفع ذلك وقوله ولو أراد
الله منهم المعاصى لكانوا بفعلها مطيعين لله قلنا لو كان من فعل ما أراده غيره مطيعاله لوجب أن
يكون الله مطيعا لعباده اذا فعل ماأرادوه ومعلوم أنه باطل وأيضا فهذا الزام لفظى لانه يقال ان أردت
بالطاعة انه فعل ما أراد فهذا الزام للشئ على نفسه وان أردت غيره فلابد من بيانه حتى ينظر فيه انه هل
يصح أم لا (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى المراد بقوله فزينوا لهم مابين أيديهم وماخلفهم وذكر الزجاج
فيه وجهين (الاول) زينوا لهم مابين أيديهم من أمر الآخرة انه لابعث ولاجنة ولانار وما خلفهم
من أمر الدنيا فزينوا ان الدنيا قديمة وانه لافاعل ولاصانع الا الطبائع والافلاك (الثانى) زينوا لهم
أعمالهم التى يعملونها ويشاهدونها وما خلفهم ومايزعمون انهم يعملونه وعبر ابن زيد عنه فقال زينوا
لهم مامضى من أعمالهم الخبيثة ومابقى من أعمالهم الخبيثة ثم قال تعالى وحق عليهم القول فى أمم
قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين فقوله فى أمم فى محل النصب على الحال من الضمير
فى عليهم والتقدير حق عليهم القول حال كونهم كائنين فى جملة امم من المتقدمين انهم كانوا خاسرين
واحتج أصحابنا أيضا بانه تعالى أخبر بان هؤلاء حق عليهم القول فلو لم يكونوا كفارا لانقلب هذا القول الحق
باطلا وهذا العلم جهلا وهذا الخبر الصدق كذبا وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال فثبت ان صدور
الايمان عنهم وعدم صدور الكفر عنهم محال واعلم أن الكلام فى أول السورة ابتدئ من قوله وقالوا
قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه الى قوله فاعمل اننا عاملون فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه من
الاجوبة واتصل الكلام بعضه بالبعض الى هذا الموضع ثم انه تعالى حكى عنهم شبهة أخرى فقال وقال
الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون قال صاحب الكشاف قرئ والغوا فيه
بفتح الغين وضمها يقال لغى يلغى ولغا يلغو واللغو الساقط من الكلام الذى لاطائل تحته واعلم أن القوم
علموا أن القرآن كلام كامل فى المعنى وفى اللفظ وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه وأحاط عقله
بمعانيه وقضى عقله بانه كلام حق واجب القبول فدبروا تدبيرا فى منع الناس عن استماعه فقال بعضهم
لبعض لاتسمعوا لهذا القرآن اذا قرئ وتشاغلوا عند قراءته برفع الاصوات بالخرافات والاشعار الفاسدة
والكلمات الباطلة حتى تخلطوا على القارئ وتشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته كانت قريش يوصى بذلك
بعضهم بعضا والمراد افعلوا عند تلاوة القرآن مايكون لغوا وباطلا لتخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير
مفهومة للناس فبهذا الطريق تغلبون محمدا صلى الله عليه وسلم وهذا جهل منهم لانهم فى الحال أقروا
بانهم مشتغلون باللغو والباطل من العمل والله تعالى ينصر محمدا بفضله ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم
بالعذاب الشديد فقال فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا لان لفظ الذوق انما يذكر فى القدر القليل
الذى يؤتى به لاجل التجربة ثم انه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب شديد فاذا كان القليل منه عذابا
شديدا فكيف يكون حال الكثير منه ثم قال ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون واختلفوا فيه فقال
الاكثرون المراد جزاء سوء أعمالهم وقال الحسن بل المراد أنه لايجازيهم على محاسن أعمالهم لانهم
أحبطوها بالكفر فضاعت تلك الاعمال الحسنة عنهم ولم يبق معهم الا الاعمال القبيحة الباطلة فلاجرم
لم يحصلوا الا على جزاء السيآت ثم قال تعالى ذلك جزاء أعداء الله النار والمعنى انه تعالى لما قال فى الآية
المتقدمة ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون بين أن ذلك الاسوأ الذى جعل جزاء أعداء الله هو النار ثم
قال تعالى لهم فيها دار الخلد أى لهم فى جملة النار دار السيآت معينة وهى دار العذاب المخلد لهم جزاء بما
كانوا بآياتنا يجحدون أى جزاء بما كانوا يلغون فى القراءة وانما سماه جحودا لانهم لما علموا ان القرآن
بالغ الى حد الاعجاز خافوا من انه لو سمعه الناس لآمنوا به فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة وذلك يدل على
انهم علموا كونه معجزا الا انهم جحدوا للحسد واعلم انه تعالى لما بين ان الذى حملهم على الكفر الموجب

النشأة الاولى الدالة على تحقق
البعث والآيات الناطقة به
دخولا أوليا وتخصيصها بدلائل
وحدانيته تعالى لايناسب المقام
(ولقائه) الذى تنطق به تلك
الآيات (أولئك) الموصوفون
بما ذكر من الكفر بآياته تعالى
ولقائه (يئسوا من رحمتى) أى
ييأسون منها يوم القيامة وصيغة
الماضى للدلالة على تحققه أو
يئسوا منها فى الدنيا لانكارهم
البعث والجزاء (وأولئك لهم عذاب
أليم) وفى تكرير اسم الاشارة
وتكرير الاسناد وتنكير العذاب
ووصفه بالاليم من الدلالة على
كمال فظاعة حالهم مالايخفى أى
أولئك الموصوفون بالكفر بآيات
الله تعالى ولقائه وباليأس من
رحمته الممتازون بذلك عن سائر
الكفرة لهم بسبب تلك الاوصاف
القبيحة عذاب لايقادر قدره فى
الشدة والايلام (فما كان جواب
قومه) بالنصب على أنه خبر كان
واسمها قوله تعالى (الا أن قالوا
اقتلوه أو حرقوه) وقرئ بالرفع على
العكس وقد مر مافيه فى نظائره
وليس المراد أنه لم يصدر عنهم
بصدد الجواب عن حجج ابراهيم
عليه السلام الا هذه المقالة
الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر
النظم الكريم بل ان ذلك هو الذى
استقر عليه جوابهم بعد اللتيا
والتى فى المرة الاخيرة والا فقد
صدر عنهم من الخرافات والاباطيل
مالايحصى (فأنجاه الله من النار)
الفاء فصيحة أى فألقوه فى النار
فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها
عليه عليه الصلاة والسلام بردا
وسلاما حسبما بين فى موضع آخر
وقد مر فى سورة الانبياء بيان
كيفية القائه عليه الصلاة
والسلام فيها وانجائه تعالى اياه

للعقاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين ان الكفار عند الوقوع فى العذاب الشديد يقولون ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس والسبب فى ذكر هذين القسمين ان الشيطان على ضربين جنى وانسى قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن وقال الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس وقيل هما ابليس وقابيل لان الكفر سنه ابليس والقتل بغير حق سنه قابيل وقرئ أرنا بسكون الراء لثقل الكثرة كما قالوا فى فخذ فخذ وقيل معناه أعطنا اللذين أضلانا وحكوا عن الخليل انك اذا قلت أرنى ثوبك بالكسر فالمعنى بصرنيه واذا قلته بالسكون فهو استعطاء معناه أعطنى ثوبك ثم قال تعالى نجعلهما تحت أقدامنا قال مقاتل يكونان أسفل منا فى النار ليكونا من الاسفلين قال الزجاج ليكونا فى الدرك الاسفل من النار وكان بعض تلامذتى ممن يميل الى الحكمة يقول المراد باللذين يضلان الشهوة والغضب واليهما الاشارة فى قصة الملائكة بقوله أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ثم قال والمراد بقوله نجعلهما تحت أقدامنا يعنى يا ربنا أعنا حتى نجعل الشهوة والغضب تحت أقدام جوهر النفس القدسية والمراد بكونهما تحت أقدامه كونهما مسخرين للنفس القدسية مطيعين لها وأن لا يكونا مستولين عليها قاهرين لها ۞ قوله تعالى ﴿ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم﴾ اعلم انه تعالى لما أطنب فى الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه وقد ذكرنا مرارا ان الكمالات على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية وأشرف المراتب النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية وذكرنا ان الكمالات النفسانية محصورة فى نوعين العلم اليقينى والعمل الصالح فان أهل التحقيق قالوا كمال الانسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله واليه الاشارة بقوله ان الذين قالوا ربنا الله ورأس الاعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الانسان مستقيما فى الوسط غير مائل الى طرفى الافراط والتفريط كما قال وكذلك جعلناكم أمة وسطا وقال أيضا اهدنا الصراط المستقيم واليه الاشارة فى هذه الآية بقوله ثم استقاموا وسمعت ان القارئ قرأ فى مجلس العبادى هذه الآية فقال العبادى والقيامة فى القيامة بقدر الاستقامة اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ليس المراد منه القول باللسان فقط لان ذلك لا يفيد الاستقامة فلما ذكر عقيب ذلك القول الاستقامة علمنا أن ذلك القول كان مقرونا باليقين التام والمعرفة الحقيقية اذا عرفت هذا فنقول فى الاستقامة قولان (أحدهما) أن المراد منه الاستقامة فى الدين والتوحيد والمعرفة (والثانى) أن المراد منه الاستقامة فى الاعمال الصالحة أما على القول الاول ففيه عبارات قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ثم استقاموا أى لم يلتفتوا الى اله غيره قال ابن عباس فى بعض الروايات هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وذلك ان أبا بكر رضى الله عنه وقع فى أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير البتة عن دينه فكان هو الذى قال ربنا الله وبقى مستقيما عليه لم يتغير بسبب من الاسباب وأقول يمكن فيه وجوه أخرى وذلك ان من أقر بان لهذا العالم الها بقيت له مقامات أخرى (فاولها) أن لا يتوغل فى جانب النفى الى حيث ينتهى الى التعطيل ولا يتوغل فى جانب الاثبات الى حيث ينتهى الى التشبيه بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل وأيضا يجب أن يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين الجبر والقدر وكذا فى الرجاء والقنوط يجب أن يكون على الخط المستقيم فهذا هو المراد من قوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وأما على القول الثانى وهو أن تحمل الاستقامة على الاتيان بالاعمال الصالحة فهذا قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين قالوا وهذا أولى حتى يكون قوله ان الذين قالوا ربنا الله متناولا للقول والاعتقاد ويكون قوله ثم استقاموا متناولا للاعمال الصالحة ثم قال تتنزل عليهم الملائكة قيل عند الموت وقيل فى مواقف ثلاثة عند الموت وفى القبر وعند البعث الى القيامة أن لا تخافوا ان بمعنى أى أو مخففة من الثقيلة وأصله بأنه لا تخافوا والهاء ضمير الشان واعلم ان الغاية القصوى فى رعاية المصالح دفع المضار وجلب المنافع ومعلوم ان دفع المضرة أولى بالرعاية من جلب

المصلحة

تفصيلا قيل لم ينتفع يومئذ بالنار فى موضع أصلا (ان فى ذلك) أى فى انجائه منها (لآيات) بينة عجيبة هى حفظه تعالى اياه من حرها واخمادها فى زمان يسير وانشاء روض فى مكانها (لقوم يؤمنون) وأما من عداهم فهم عن اجتلائها غافلون ومن الفوز بمغانم آثارها محرومون (وقال) أى ابراهيم عليه السلام مخاطبا لهم (انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحيوة الدنيا) أى لتتوادوا بينكم وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها وائتلافكم وثانى مفعولى اتخذتم محذوف أى أوثانا آلهة ويجوز أن يكون مودة هو المفعول بتقدير المضاف أو بتأويلها بالمودودة أو بجعلها نفس المودة مبالغة أى اتخذتم أوثانا سبب المودة بينكم أو مودودة أو نفس المودة وقرئ مودة منونة منصوبة ناصبة الظرف وقرئت بالرفع والاضافة على أنها خبر مبتدا محذوف أى هى مودودة أو نفس المودة أو سبب مودة بينكم والجملة صفة أوثانا أو خبر ان على أن ما مصدرية أو موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الاول وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرئ لقد تقطع بينكم على أحد الوجهين وقرئ انما مودة بينكم والمعنى أن اتخاذكم اياها مودة بينكم ليس الا فى الحياة وقد أجريتم أحكامه حيث فعلتم بى ما فعلتم لاجل مودتكم لها انتصارا منى كما ينبئ عنه قوله تعالى وانصروا آلهتكم (ثم يوم القيامة) تنقلب الامور ويتبدل التواد تباغضا والتلاطف تلاعنا حيث (يكفر بعضكم) وهم العبدة (ببعض) وهم الاوثان (ويلعن بعضكم بعضا) أى يلعن كل فريق منكم ومن

المصلحة والمضرة اما ان تكون حاصلة فى المستقبل أو فى الحال أو فى الماضى وههنا دقيقة عقلية وهى ان المستقبل مقدم على الحاضر والحاضر مقدم على الماضى فان الشئ الذى لم يوجد و يتوقع حدوثه يكون مستقبلا فاذا وجد يصير حاضرا فاذا عدم وفنى بعد ذلك يصير ماضيا وأيضا المستقبل فى كل ساعة يصير أقرب حصولا والماضى فى كل حالة أبعد حصولا ولهذا قال الشاعر

فلا زال ما تهواه أقرب من غد * ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

واذا ثبت هذا فالمضار التى يتوقع حصولها فى المستقبل أولى بالدفع من المضار الماضية وأيضا الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرة فى المستقبل والغم عبارة عن تألم القلب بسبب فوت نفع كان موجودا فى الماضى واذا كان كذلك فدفع الخوف أولى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم اذا عرفت هذا فنقول انه تعالى أخبر عن الملائكة انهم فى أول الامر يخبرون بأنه لا خوف عليكم بسبب ما تستقبلونه من أحوال القيامة ثم يخبرون بانه لا حزن عليكم بسبب ما فاتكم من أحوال الدنيا وعند حصول هذين الامرين فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية ثم بعد الفراغ منه يبشرون بحصول المنافع وهو قوله تعالى وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون فان قيل البشارة عبارة عن الخبر الاول بحصول المنافع فاما اذا أخبر الرجل بحصول منفعة ثم أخبر ثانيا بحصولها كان الاخبار الثانى اخبارا ولا يكون بشارة والمؤمن قد سمع بشارات الخير فاذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا اخبارا ولا يكون بشارة فما السبب فى تسمية هذا الخبر بالبشارة قلنا المؤمن يسمع ان من كان مؤمنا تقيا كان له الجنة اما من لم يسمع البتة انه من أهل الجنة فاذا سمع هذا الكلام من الملائكة كان هذا اخبارا بنفع عظيم مع انه هو الخبر الاول بذلك فكان ذلك بشارة واعلم أن هذا الكلام يدل على أن المؤمن عند الموت وفى القبر وعند البعث لا يكون فازعا من الاهوال ومن الفزع الشديد بل يكون آمن القلب ساكن الصدر لان قوله أن لا تخافوا ولا تحزنوا يفيد نفى الخوف والحزن على الاطلاق ثم انه تعالى أخبر عن الملائكة انهم قالوا للمؤمنين نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة وهذا فى مقابلة ما ذكره فى وعيد الكفار حيث قال وقيضنا لهم قرناء ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين ان للملائكة تأثيرات فى الارواح البشرية بالالهامات والمكاشفات اليقينية والمقامات الحقيقية كما ان للشياطين تأثيرات فى الارواح بالقاء الوساوس فيها وتخييل الاباطيل اليها وبالجملة فكون الملائكة أولياء للارواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لارباب المكاشفات والمشاهدات فهم يقولون كما ان تلك الولاية كانت حاصلة فى الدنيا فهى تكون باقية فى الآخرة فان تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى وذلك لان جوهر النفس من جنس الملائكة وهى كالشعلة بالنسبة الى الشمس والقطرة بالنسبة الى البحر والتعلقات الجسمانية هى التى تحول بينها وبين الملائكة كما قال صلى الله عليه وسلم لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السموات فاذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية فقد زال الغطاء والوطاء فيتصل الاثر بالمؤثر والقطرة بالبحر والشعلة بالشمس فهذا هو المراد من قوله نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم قال ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون قال ابن عباس قوله ولكم فيها ما تدعون أى ما تتمنون كقوله تعالى لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون فان قيل فعلى هذا التفسير لا يبقى فرق بين قوله ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم وبين قوله ولكم فيها ما تدعون قلنا الاقرب عندى ان قوله ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم اشارة الى الجنة الجسمانية وقوله ولكم فيها ما تدعون اشارة الى الجنة الروحانية المذكورة فى قوله دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ثم قال نزلا من غفور رحيم والنزل رزق النزيل وهو الضيف وانتصابه على الحال قال العارفون دلت هذه الآية على ان كل هذه الاشياء المذكورة جارية مجرى النزل والكريم اذا أعطى النزل فلابد وان يبعث الخلع النفيسة بعدها وتلك الخلع النفيسة ليست الا السعادات الحاصلة عند الرؤية والتجلى والكشف التام نسأل الله تعالى أن يجعلنا لها أهلا بفضله وكرمه انه قريب مجيب ۞ قوله تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ولا تستوى الحسنة ولا السيئة

الاوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق الآخر (ومأواكم النار) أى هى منزلكم الذى تأوون اليه ولا ترجعون منه أبدا (ومالكم من ناصرين) يخلصونكم منها كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها وجمع الناصر لوقوعه فى مقابلة الجمع أى ما لاحد منكم من ناصر أصلا (فآمن له لوط) أى صدقه فى جميع مقالاته لا فى نبوته وما دعا اليه من التوحيد فقط فانه كان منزها عن الكفر وما قيل انه آمن له حين رأى النار لم تحرقه ينبغى أن يحمل على ما ذكرنا أو على أن يراد بالايمان الرتبة العالية منها وهى التى لا يرتقى اليها الا هم الافراد الكمل ولوط هو ابن أخيه عليهما السلام (وقال انى مهاجر) أى من قومى (الى ربى) الى حيث أمرنى ربى (انه هو العزيز) الغالب على أمره فيمنعنى من أعدائى (الحكيم) الذى لا يفعل فعلا الا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرنى الا بما فيه صلاحى روى انه هاجر من كوثى سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمه الى حران ثم منها الى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم (ووهبنا له اسحق ويعقوب) ولدا ونافلة حين أيس من عجوز عاقر (وجعلنا فى ذريته النبوة) فكثر منهم الانبياء (والكتاب) أى جنس الكتاب المتناول للكتب الاربعة (وآتيناه أجره) بمقابلة هجرته الينا (فى الدنيا) باعطاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل اليه والثناء والصلاة عليه الى آخر الدهر (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح (ولوطا) منصوب اما بالعطف على نوحا أو على ابراهيم والكلام فى قوله تعالى (اذ قال لقومه) كالذى مر

ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ومايلقاها الا الذين صبروا ومايلقاها الا ذوحظ عظيم واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انا ذكرنا ان الكلام من أول هذه السورة انما ابتدئ حيث قالوا للرسول قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ومرادهم ان لا نقبل قولك ولا نلتفت الى دليلك ثم ذكروا طريقة أخرى فى السفاهة فقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وانه سبحانه ذكر الاجوبة الشافية والبيانات الكافية فى دفع هذه الشبهات وازالة هذه الضلالات ثم انه سبحانه وتعالى بين ان القوم وان أتوا بهذه الكلمات الفاسدة الا انه يجب عليك تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة فان الدعوة الى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات وعبر عن هذا المعنى فقال ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين فهذا وجه شريف حسن فى نظم آيات هذه السورة وفيه وجه آخر وهو أن مراتب السعادات اثنان التام وفوق التام اما التام فهو ان يكتسب من الصفات الفاضلة ما لاجلها يصير كاملا فى ذاته فاذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين وهو فوق التام اذا عرفت هذا فنقول ان قوله ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا اشارة الى المرتبة الاولى وهى اكتساب الاحوال التى تفيد كمال النفس فى جوهرها فاذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال الى المرتبة الثانية وهى الاشتغال بتكميل الناقصين وذلك انما يكون بدعوة الخلق الى الدين الحق وهو المراد من قوله ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله فهذا أيضا وجه حسن فى نظم هذه الآيات واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصيبا وافيا من العلوم الالهية الكشفية عرف انه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن (المسئلة الثانية) من الناس من قال المراد من قوله ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله هو الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهم من قال هم المؤذنون ولكن الحق المقطوع به ان كل من دعا الى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه وللدعوة الى الله مراتب (فالمرتبة الاولى) دعوة الانبياء عليهم السلام ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم من وجوه (أحدها) انهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولا ثم الدعوة بالسيف ثانيا وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين (وثانيها) انهم هم المبتدؤن بهذه الدعوة وأما العلماء فانهم يبنون دعوتهم على دعوة الانبياء والشارع فى احداث الامر الشريف على طريق الابتداء أفضل (وثالثها) ان نفوسهم أقوى قوة وأرواحهم أصفى جوهرا فكانت تأثيراتها فى احياء القلوب الميتة واشراق الارواح الكدرة أكمل فكانت دعوتهم أفضل (ورابعها) ان النفوس على ثلاثة أقسام ناقصة وكاملة لا تقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين (فالقسم الاول) العوام (والقسم الثانى) هم الاولياء (والقسم الثالث) هم الانبياء ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم علماء أمتى كانبياء بنى اسرائيل واذا عرفت هذا فنقول ان نفوس الانبياء حصلت لها مرتبتان الكمال فى الذات والتكميل للغير فكانت قوتهم على الدعوة أقوى وكانت درجاتهم أفضل وأكمل اذا عرفت هذا فنقول الانبياء عليهم السلام لهم صفتان العلم والقدرة اما العلماء فهم نواب الانبياء فى العلم وأما الملوك فهم نواب الانبياء فى القدرة والعلم يوجب الاستيلاء على الارواح والقدرة توجب الاستيلاء على الاجساد فالعلماء خلفاء الانبياء فى عالم الارواح والملوك خلفاء الانبياء فى عالم الاجساد واذا عرفت هذا ظهر أن أكمل الدرجات فى الدعوة الى الله بعد الانبياء درجة العلماء ثم العلماء على ثلاثة أقسام العلماء بالله والعلماء بصفات الله والعلماء باحكام الله اما العلماء بالله فهم الحكماء الذين قال الله تعالى فى حقهم يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وأما العلماء بصفات الله تعالى فهم أصحاب الاصول وأما العلماء باحكام الله فهم الفقهاء ولكل واحد من هذه المقامات ثلاث درجات لا نهاية لها فلهذا السبب كان للدعوة الى الله درجات لا نهاية لها وأما الملوك فهم أيضا يدعون الى دين الله بالسيف وذلك بوجهين اما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار واما بابقائه عند وجوده وذلك مثل قولنا المرتد يقتل وأما المؤذنون فهم يدخلون فى هذا الباب دخولا ضعيفا اما دخولهم فيه فلان ذكر كلمات الاذان دعوة الى الصلاة فكان ذلك داخلا تحت الدعاء الى الله واما كون هذه المرتبة ضعيفة فلان الظاهر من حال المؤذن انه لا يحيط بمعانى تلك الكلمات وبتقدير

ان

فى قصة ابراهيم عليه السلام (انكم لتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية فى القبح وقرئ أئنكم (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) استئناف مقرر لكمال قبحها فان اجماع جميع أفراد العالمين على التحاشى عنها ليس الا لكونها مما تشمئز منه الطباع وتنفر منه النفوس (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وتتعرضون للمارة أى بالفاحشة حيث روى أنهم كانوا كثيرا ما يفعلونها بالغرباء وقيل تقطعون سبيل النساء بالاعراض عن الحرث واتيان ما ليس بحرث وقيل تقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال (وتأتون فى ناديكم) أى تفعلون فى مجلسكم الجامع لاصحابكم (المنكر) كالجماع والضراط وحل الازار وغيرهما مما لا خير فيه من الافاعيل المنكرة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو الحذف بالحصى والرمى بالبنادق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الازار والسباب والفحش فى المزاح وقيل السخرية بمن مر بهم وقيل المجاهرة فى ناديهم بذلك العمل (فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) أى فما كان جوابا من جهتهم شئ من الاشياء الا هذه الكلمة الشنيعة أى لم يصدر عنهم فى هذه المرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام وقد كان أوعدهم فيها بالعذاب وأما ما فى سورة الاعراف من قوله تعالى وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم الآية وما فى سورة النمل من قوله تعالى فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم الآية فهو الذى صدر عنهم بعد هذه المرة

أن يكون محيطا بها الا انه لا يريد بذكرها تلك المعانى الشريفة فهذا هو الكلام فى مراتب الدعوة الى الله (المسئلة الثالثة) قوله ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله يدل على ان الدعوة الى الله أحسن من كل ما سواها اذا عرفت هذا فنقول كل ما كان أحسن الاعمال وجب أن يكون واجبا لان كل ما لا يكون واجبا فالواجب أحسن منه فثبت أن كل ما كان أحسن الاعمال فهو واجب اذا عرفت هذا فنقول الدعوة الى الله أحسن الاعمال بمقتضى هذه الآية وكل ما كان أحسن الاعمال فهو واجب ثم ينتج أن الدعوة الى الله واجبة ثم نقول الاذان دعوة الى الله والدعوة اليه واجبة فينتج الاذان واجب واعلم أن الاكثرين من الفقهاء زعموا أن الاذان غير واجب وزعموا أن الاذان غير داخل فى هذه الآية والدليل القاطع عليه ان الدعوة المرادة بهذه الآية يجب أن تكون أحسن الاقوال وثبت أن الاذان ليس أحسن الاقوال لان الدعوة الى دين الله سبحانه وتعالى بالدلائل اليقينية احسن من الاذان ينتج من الشكل الثانى ان الداخل تحت هذه الآية ليس هو الاذان (المسئلة الرابعة) اختلف الناس فى أن الاولى ان يقول الرجل أنا مسلم أو الاولى أن يقول أنا مسلم ان شاء الله فالقائلون بالقول الاول احتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فان التقدير ومن أحسن قولا ممن قال انى من المسلمين فحكم بأن هذا القول أحسن الاقوال ولو كان قولنا ان شاء الله معتبرا فى كونه أحسن الاقوال لبطل ما دل عليه ظاهر هذه الآية (المسئلة الخامسة) الآية تدل على أن أحسن الاقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة (أولها) الدعوة الى الله (وثانيها) العمل الصالح (وثالثها) ان يكون من المسلمين أما الدعوة الى الله فقد شرحناها وهى عبارة عن الدعوة الى الله باقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية وأما قوله وعمل صالحا فاعلم أن العمل الصالح اما أن يكون عمل القلب وهو المعرفة أو عمل الجوارح وهو سائر الطاعات واما قوله وقال اننى من المسلمين فهو ان ينضم الى عمل القلب وعمل الجوارح الاقرار باللسان فيكون هذا الرجل موصوفا بخصال أربعة (أحدها) الاقرار باللسان (والثانى) الاعمال الصالحة بالجوارح (والثالث) الاعتقاد الحق بالقلب (والرابع) الاشتغال باقامة الحجة على دين الله ولا شك ان الموصوف بهذه الخصال الاربعة أشرف الناس وأفضلهم وكمال الدرجة فى هذه المراتب الاربعة ليس الا لمحمد صلى الله عليه وسلم ثم قال تعالى ولا تستوى الحسنة ولا السيئة واعلم انا بينا أن الكلام من أول السورة ابتدئ من ان الله حكى عنهم انهم قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه فاظهروا من أنفسهم الاصرار الشديد على أديانهم القديمة وعدم التأثر بدلائل محمد صلى الله عليه وسلم ثم انه تعالى أطنب فى الجواب عنه وذكر الوجوه الكثيرة وأردفها بالوعد والوعيد ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وأجاب عنها أيضا بالوجوه الكثيرة ثم انه تعالى بعد الاطناب فى الجواب عن تلك الشبهات رغب محمدا صلى الله عليه وسلم فى أن لا يترك الدعوة الى الله فابتدأ أولا بأن قال ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلهم الثواب العظيم ثم ترقى من تلك الدرجة الى درجة أخرى وهى ان الدعوة الى الله من أعظم الدرجات فصار الكلام من أول السورة الى هذا الموضع واقعا على أحسن وجوه الترتيب ثم كأن سائلا سأل فقال ان الدعوة الى الله وان كانت طاعة عظيمة الا ان الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به فعند هذا ذكر الله ما يصلح لان يكون دافعا لهذا الاشكال فقال ولا تستوى الحسنة ولا السيئة والمراد بالحسنة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الى الدين الحق والصبر على جهالة الكفار وترك الانتقام وترك الالتفات اليهم والمراد بالسيئة ما أظهروه من الجلافة فى قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وما ذكروه فى قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه فكأنه قال يا محمد فعلك حسنة وفعلهم سيئة ولا تستوى الحسنة ولا السيئة بمعنى انك اذا أتيت بهذه الحسنة تكون مستوجبا للتعظيم فى الدنيا والثواب فى الآخرة وهم بالضد من ذلك فلا ينبغى أن يكون اقدامهم على تلك السيئة مانعا لك من الاشتغال بهذه الحسنة ثم قال ادفع بالتى هى أحسن يعنى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذى هو أحسن الطرق فانك اذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا اضرارهم بالايذاء والايحاش استحيوا من تلك الاخلاق المذمومة وتركوا تلك الافعال القبيحة ثم قال فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم يعنى اذا قابلت اساءتهم بالاحسان وافعالهم القبيحة بالافعال الحسنة تركوا افعالهم القبيحة وانقلبوا من

وهى المرة الاخيرة من مرات المقاولات الجارية بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وقد مر تحقيقه فى سورة الاعراف (قال رب انصرنى) أى بانزال العذاب الموعود (على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم والاصرار عليها واستعجال العذاب بطريق الاستهزاء وانما وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب عليهم (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) أى بالبشارة بالولد والنافلة (قالوا) أى لابراهيم عليه السلام فى تضاعيف الكلام حسبما فصل فى سورة هود وسورة الحجر (انا مهلكو أهل هذه القرية) أى قرية سدوم والاضافة لفظية لان المعنى على الاستقبال (ان أهلها كانوا ظالمين) تعليل للاهلاك باصرارهم على الظلم وتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى (قال ان فيها لوطا) فكيف تهلكونها (قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله) أرادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام فيها بل عمن لم يتعرض له ابراهيم عليه السلام من أتباعه المؤمنين وأنهم معتنون بشأنهم أتم اعتناء حسبما ينبئ عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسم أى والله لننجينه وأهله (الا امرأته كانت من الغابرين) أى الباقين فى العذاب أو القرية (ولما أن جاءت رسلنا) المذكورون بعد مفارقتهم لابراهيم عليه السلام (لوطا سئ بهم) اعتراه المساءة بسببهم مخافة أن يتعرض لهم قومه بسوء وكلمة أن صلة لتأكيد ما بين الفعلين من الاتصال (وضاق بهم ذرعا) أى ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أى طاقته كقولهم ضاقت يده وبازائه رحب ذرعه

العداوة الى المحبة ومن البغضة الى المودة ولما أرشد الله تعالى الى هذا الطريق النافع فى الدين والدنيا والآخرة عظمه فقال وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم قال الزجاج أى وما يلقى هذه الفعلة الا الذين صبروا على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام ثم قال وما يلقاها الا ذو حظ عظيم من الفضائل النفسانية والدرجة العالية فى القوة الروحانية فان الاشتغال بالانتقام والدفع لا يحصل الا بعد تأثر النفس وتأثر النفس من الواردات الخارجية لا يحصل الا عند ضعف النفس فاما اذا كانت النفس قوية الجوهر لم تتأثر من الواردات الخارجية واذا لم تتأثر منها لم تضعف ولم تتأذ ولم تشتغل بالانتقام فثبت ان هذه السيرة التى شرحناها لا يلقاها الا ذو حظ عظيم من قوة النفس وصفاء الجوهر وطهارة الذات ويحتمل أن يكون المراد وما يلقاها الا ذو حظ عظيم من ثواب الآخرة فعلى هذا الوجه قوله وما يلقاها الا الذين صبروا مدح له بفعل الصبر وقوله وما يلقاها الا ذو حظ عظيم وعد بأعظم الحظ من الثواب ولما ذكر هذا الطريق الحسن الكامل فى دفع الغضب والانتقام وفى ترك الخصومة ذكر عقيبه طريقا آخر عظيم النفع أيضا فى هذا الباب فقال واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم وهذه الآية مع ما فيها من الفوائد الجليلة مفسرة فى آخر سورة الاعراف على الاستقصاء قال صاحب الكشاف النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس والشيطان ينزغ الانسان كأنه ينخسه يبعثه على ما لا ينبغى وجعل النزغ نازغا كما قيل جد جده أو أريد واما ينزغنك نازغ وصفا للشيطان بالمصدر وبالجملة فالمقصود من الآية وان صرفك الشيطان عما شرعت من الدفع بالتى هى أحسن فاستعذ بالله من شره وامض على شأنك ولا تطعه والله أعلم ۞ قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى أحياها لمحيي الموتى انه على كل شئ قدير) اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة ان أحسن الاعمال والاقوال هو الدعوة الى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته تنبيها على أن الدعوة الى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن وقد عرفت أن الدلائل الدالة على هذه المطالب العالية هى العالم بجميع ما فيه من الاجزاء والابعاض فبدأ ههنا بذكر الفلكيات وهى الليل والنهار وانما قدم ذكر الليل على ذكر النهار تنبيها على أن الظلمة عدم والنور وجود والعدم سابق على الوجود فهذا كالتنبيه على حدوث هذه الاشياء وأما دلالة الشمس والقمر والافلاك وسائر الكواكب على وجود الصانع فقد شرحناها فى هذا الكتاب مرارا لا سيما فى تفسير قوله الحمد لله رب العالمين وفى تفسير قوله الحمد لله الذى خلق السموات والارض ولما بين أن الشمس والقمر محدثان وهما دليلان على وجود الاله القادر قال لا تسجدوا للشمس ولا للقمر يعنى انهما عبدان دليلان على وجود الاله والسجدة عبارة عن نهاية التعظيم فهى لا تليق الا بمن كان أشرف الموجودات فقال لا تسجدوا للشمس ولا للقمر لانهما عبدان مخلوقان واسجدوا لله الخالق القادر الحكيم والضمير فى قوله خلقهن لليل والنهار والشمس والقمر لان حكم جماعة ما لا يعقل حكم الانثى أو الاناث يقال للاقلام بريتها أو بريتهن ولما قال ومن آياته كن فى معنى الاناث فقال خلقهن وانما قال ان كنتم اياه تعبدون لان ناسا كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين فى عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن لا يسجدوا الا لله الذى خلق هذه الاشياء فان قيل اذا كان لا بد فى الصلاة من قبلة معينة فلو جعلنا الشمس قبلة معينة عند السجود كان ذلك أولى قلنا الشمس جوهر مشرق عظيم الرفعة عالى الدرجة فلو أذن الشرع فى جعلها قبلة فى الصلوات فعند اعتياد السجود الى جانب الشمس ربما غلب على الاوهام ان ذلك السجود للشمس لا لله فلاجل الخوف من هذا المحذور نهى الشارع الحكيم عن جعل الشمس قبلة للسجود بخلاف الحجر المعين فانه ليس فيه ما يوهم الالهية فكان المقصود من القبلة حاصلا والمحذور المذكور زائلا فكان هذا أولى واعلم أن مذهب الشافعى رضى الله عنه أن موضع السجود هو

قوله

بكذا اذا كان مطيقا به قادرا عليه وذلك أن طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع (وقالوا) ريثما شاهدوا فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا أنه قد عجز عن مدافعة قومه بعد اللتيا والتى حتى آلت به الحال الى أن قال لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد (لا تخف) أى من قومك علينا (ولا تحزن) أى على شئ وقيل باهلاكنا اياهم (انا منجوك وأهلك) مما يصيبهم من العذاب (الا امرأتك كانت من الغابرين) وقرئ لننجينك ومنجوك من الانجاء وأياما كان فمحل الكاف الجر على المختار ونصب اهلك باضمار فعل أو بالعطف على محلها باعتبار الاصل (انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء) استئناف مسوق لبيان ما أشير اليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم والرجز العذاب الذى يقلق المعذب أى يزعجه من قولهم ارتجز اذا ارتجس واضطرب وقرئ منزلون بالتشديد (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم المستمر (ولقد تركنا منها) أى من القرية (آية بينة) هى قصتها العجيبة وآثار ديارها الخربة وقيل الحجارة الممطورة فانها كانت باقية بعدها وقيل الماء الاسود على وجه الارض (لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم فى الاستبصار والاعتبار وهو متعلق اما بتركنا أو ببينة (والى مدين أخاهم شعيبا) متعلق بمضمر معطوف على أرسلنا فى قصة نوح عليه السلام أى وأرسلنا الى مدين شعيبا (فقال ياقوم اعبدوا الله) وحده (وارجوا اليوم الآخر) أى توقعوه وما سيقع فيه من فنون الاهوال وافعلوا اليوم من الاعمال ما تأمنون غائلته وقيل وارجوا

قوله تعبدون لاجل أن قوله واسجدوا لله متصل به وعند أبى حنيفة هو قوله وهم لا يسأمون لان الكلام انما يتم عنده ثم انه تعالى لما أمر بالسجود قال بعده فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون وفيه سؤالات (السؤال الاول) ان الذين يسجدون للشمس والقمر يقولون نحن أقل وأذل من أن يحصل لنا أهلية عبودية الله تعالى ولكنا عبيد للشمس والقمر وهما عبدان لله واذا كان قول هؤلاء هكذا فكيف يليق أن يقال انهم استكبروا عن السجود لله (والجواب) ليس المراد من لفظ الاستكبار ماذكرتم بل المراد فان استكبروا عن قبول قولك يا محمد فى النهى عن السجود للشمس والقمر (السؤال الثانى) ان المشبهة تمسكوا بقوله فالذين عند ربك فى اثبات المكان والجهة لله تعالى والجواب انه يقال عند الملك من الجند كذا وكذا ولا يراد به قرب المكان فكذا ههنا ويدل عليه قوله أنا عند ظن عبدى بى وأنا عند المنكسرة قلوبهم لاجلى فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ويقال عند الشافعى رضى الله عنه ان المسلم لا يقتل بالذمى (السؤال الثالث) هل تدل هذه الآية على أن الملك أفضل من البشر الجواب نعم لانه انما يستدل بحال الاعلى على حال الادون فيقال هؤلاء الاقوام ان استكبروا عن طاعة فلان فالاكابر يخدمونه ويعترفون بتقدمه فثبت أن هذا النوع من الاستدلال انما يحسن بحال الاعلى على حال الادون (السؤال الرابع) قال ههنا فى صفة الملائكة يسبحون له بالليل والنهار فهذا يدل على أنهم مواظبون على التسبيح لا ينفكون عنه لحظة واحدة واشتغالهم بهذا العمل على سبيل الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الاعمال ككونهم ينزلون الى الارض كما قال نزل به الروح الامين على قلبك وقال ونبئهم عن ضيف ابراهيم وقال تعالى عليها ملائكة غلاظ شداد (والجواب) ان الذين ذكرهم الله تعالى ههنا بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام معينون من الملائكة وهم الاشراف الاكابر منهم لانه تعالى وصفهم بكونهم عنده والمراد من هذه العندية كمال الشرف والمنقبة وهذا لا ينافى كون طائفة أخرى من الملائكة مشتغلين بسائر الاعمال فان قالوا هب ان الامر كذلك الا انهم لابد وان يتنفسوا فاشتغالهم بذلك التنفس يصدهم عن تلك الحالة من التسبيح قلنا كما ان التنفس سبب لصلاح حال الحياة بالنسبة الى البشر فذكر الله تعالى سبب لصلاح حالهم فى حياتهم ولا يجب على العاقل المنصف أن يقيس أحوال الملائكة فى صفاء جواهرها واشراق ذواتها واستغراقها فى معارج معارف الله بأحوال البشر فان بين الحالتين بعد المشرقين ثم قال تعالى ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة واعلم انه تعالى لما ذكر الآيات الاربع الفلكية وهى الليل والنهار والشمس والقمر أتبعها بذكر آية أرضية فقال ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة والخشوع التذلل والتصاغر واستعير هذا اللفظ لحال الارض حال خلوها عن المطر والنبات فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت أى تحركت بالنبات وربت انتفخت لان النبت اذا قرب أن يظهر ارتفعت له الارض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات ثم قال ان الذى أحياها لمحيى الموتى يعنى ان القادر على احياء الارض بعد موتها هو القادر على احياء هذه الاجساد بعد موتها وقد ذكرنا تقرير هذا الدليل مرارا لا حصر لها ثم قال انه على كل شئ قدير وهذا هو الدليل الاصلى وتقريره أن عود التأليف والتركيب الى تلك الاجزاء المتفرقة ممكن لذاته وعود الحياة والعقل والقدرة الى تلك الاجزاء بعد اجتماعها أيضا أمر ممكن لذاته والله تعالى قادر على الممكنات فوجب أن يكون قادرا على اعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم الى تلك الاجزاء وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الاجساد ممكن لا امتناع فيه البتة والله أعلم ﴿ قوله تعالى (ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) اعلم أنه تعالى لما بين ان الدعوة الى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب ثم بين ان الدعوة الى دين الله تعالى انما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة عاد الى تهديد من ينازع فى تلك الآيات ويحاول القاء الشبهات فيها فقال ان الذين يلحدون فى آياتنا يقال ألحد الحافر ولحد اذا مال عن الاستقامة فحفر فى شق فالملحد هو المنحرف ثم بحكم العرف اختص بالمنحرف عن الحق الى الباطل وقوله لا يخفون علينا

ثوابه بطريق اقامة المسبب مقام السبب وقيل الرجاء بمعنى الخوف (ولا تعثوا فى الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أى الزلزلة الشديدة وفى سورة هود وأخذت الذين ظلموا الصيحة أى صيحة جبريل عليه السلام فانها الموجبة للرجفة بسبب تموجيها للهواء وما يجاورها من الارض (فأصبحوا فى دارهم) أى بلدهم أو منازلهم والافراد لامن اللبس (جاثمين) باركين على الركب ميتين (وعادا وثمود) منصوبان باضمار فعل ينبئ عنه ماقبله أى أهلكنا وقرئ ثمودا بتأويل الحى (وقد تبين لكم من مساكنهم) أى وقد ظهر لكم اهلاكنا اياهم من جهة مساكنهم بالنظر اليها عند اجتيازكم بها ذهابا الى الشام وايابا منه (وزين لهم الشيطان أعمالهم) من فنون الكفر والمعاصى (فصدهم عن السبيل) السوى الموصل الى الحق (وكانوا مستبصرين) متمكنين من النظر والاستدلال ولكنهم لم يفعلوا ذلك او متبينين أن العذاب لاحق بهم باخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا مالقوا (وقارون وفرعون وهامان) معطوف على عادا قيل تقديم قارون لشرف نسبه (ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الارض وما كانوا سابقين) مفلتين فائتين من قولهم سبق طالبه اذا فاته ولم يدركه ولقد أدركهم أمر الله عز وجل أى ادراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك (فكلا) تفسير لما ينبئ عنه عدم سبقهم بطريق الابهام أى فكل واحد من المذكورين (أخذنا بذنبه) أى عاقبناه بجنايته لا بعضه دون بعض كما يشعر به تقديم المفعول (فمنهم من أرسلنا عليه

تهديد كما اذا قال الملك المهيب ان الذين ينازعوني في ملكي أعرفهم فانه يكون ذلك تهديدا ثم قال أفمن يلقى في النار خير أمن يأتي آمنا يوم القيامة وهذا استفهام بمعنى التقرير والغرض التنبيه على أن الذين يلحدون في آياتنا يلقون في النار والذين يؤمنون بآياتنا يأتون آمنين يوم القيامة ثم قال اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير وهذا أيضا تهديد ثالث ونظيره ما يقوله الملك المهيب عند الغضب الشديد اذا أخذ يعاتب بعض عبيده ثم يقول لهم اعملوا ما شئتم فان هذا مما يدل على الوعيد الشديد ثم قال تعالى ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وهذا أيضا تهديد وفي جوابه وجهان (أحدهما) انه محذوف كسائر الاجوبة المحذوفة في القرآن على تقدير ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم يجازون بكفرهم أو ما أشبه ذلك (والثاني) أن جوابه قوله أولئك ينادون من مكان بعيد والاول أصوب ولما بالغ في تهديد الذين يلحدون في آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن فقال وانه لكتاب عزيز والعزيز له معنيان (أحدهما) الغالب القاهر (والثاني) الذي لا يوجد نظيره أما كون القرآن عزيزا بمعنى كونه غالبا فالامر كذلك لانه بقوة حجته غلب على كل ما سواه واما كونه عزيزا بمعنى عديم النظر فالامر كذلك لان الاولين والآخرين عجزوا عن معارضته ثم قال لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وفيه وجوه (الاول) لا تكذبه الكتب المتقدمة عليه كالتوراة والانجيل والزبور ولا يجيء كتاب من بعده يكذبه (الثاني) ما حكم القرآن بكونه حقا لا يصير باطلا وما حكم بكونه باطلا لا يصير حقا (الثالث) معناه انه محفوظ من ان ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه والدليل عليه قوله وانا له لحافظون فعلى هذا الباطل هو الزيادة والنقصان (الرابع) يحتمل أن يكون المراد انه لا يوجد في المستقبل كتاب يمكن جعله معارضا له ولم يوجد فيما تقدم كتاب يصلح جعله معارضا له (الخامس) قال صاحب الكشاف هذا تمثيل والمقصود ان الباطل لا يتطرق اليه ولا يجد اليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يتصل اليه واعلم ان لابي مسلم الاصفهاني أن يحتج بهذه الآية على انه لم يوجد النسخ فيه لان النسخ ابطال فلو دخل النسخ فيه لكان قد أتاه الباطل من خلفه وانه على خلاف هذه الآية ثم قال تعالى تنزيل من حكيم حميد أي حكيم في جميع أحواله وأفعاله حميد الى جميع خلقه بسبب كثرة نعمه ولهذا السبب جعل الحمد لله رب العالمين فاتحة كلامه وأخبر أن خاتمة كلام أهل الجنة هو قوله الحمد لله رب العالمين ۞ قوله تعالى ﴿ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وانهم لفي شك منه مريب من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾ واعلم انه تعالى لما هدد الملحدين في آيات الله ثم بين شرف آيات الله وعلو درجة كتاب الله رجع الى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يصبر على أذى قومه وان لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم في أول السورة من انهم قالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه الى قوله فاعمل اننا عاملون فقال ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك وفيه وجهان (الاول) وهو الاقرب ان المراد ما تقول لك كفار قومك الا مثل ما قد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن في الكتب المنزلة ان ربك لذو مغفرة للمحقين وذو عقاب أليم للمبطلين ففوض هذا الامر الى الله واشتغل بما أمرت به وهو التبليغ والدعوة الى الله تعالى (الثاني) أن يكون المراد ما قال الله لك الا مثل ما قال لسائر الرسل وهو انه تعالى أمرك وأمر كل الانبياء بالصبر على سفاهة الاقوام فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته وقد ظهر من كلامنا في تفسير هذه السورة ان المقصود من هذه السورة هو ذكر الاجوبة عن قولهم وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولمن يعرض عنه وامتد الكلام الى هذا الموضع من أول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل ثم انه تعالى ذكر جوابا آخر عن قولهم وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر فقال ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة

والكسائي

عاصبا) تفصيل للاخذ أي ريحا عاصفا فيها حصباء وقيل ملكا رماهم بها وهم قوم لوط (ومنهم من أخذته الصيحة) كمدين وثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) كقارون (ومنهم من أغرقنا) كقوم نوح وفرعون وقومه (وما كان الله ليظلمهم) بما فعل بهم فان ذلك محال من جهته تعالى (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من أنواع الكفر والمعاصي (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) أي فيما اتخذوه معتمدا ومتكلا (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) فيما نسجته في الوهن والخور بل ذلك أوهن من هذا لان له حقيقة وانتفاعا في الجملة أو مثلهم بالاضافة الى الموحد كمثله بالاضافة الى رجل بنى بيتا من حجر وجص والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب في الاستعمال التأنيث وتاؤه كتاء طاغوت ويجمع على عناكب وعنكبوتات وأما العكاب والعكب والاعكب فاسماء الجموع (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت) حيث لا يرى شيء يدانيه في الوهن والوهي (لو كانوا يعلمون) أي شيأ من الاشياء لجزموا أن هذا مثلهم أو ان دينهم أوهى من ذلك ويجوز أن يجعل بيت العنكبوت عبارة عن دينهم تحقيقا للتمثيل فالمعنى وان أوهن ما يعتمد به في الدين دينهم (ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) على اضمار القول أي قل للكفرة ان الله الخ وما استفهامية منصوبة بيدعون معلقة ليعلم ومن للتبيين أو نافية ومن مزيدة وشيء مفعول يدعون أو مصدرية وشيء عبارة عن المصدر أو موصولة مفعول ليعلم ومفعول يدعون

والكسائى وأبو بكر عن عاصم أأعجمى بهمزتين على الاستفهام والباقون بهمزة واحدة ومدة على أصلهم فى أمثاله كقوله تعالى أأنذرتهم ونحوها على الاستفهام وروى عن ابن عباس بهمزة واحدة على الخبر وأما القراءة بهمزتين فالهمزة الاولى همزة انكار والمراد أنكروا وقالوا قرآن أعجمى ورسول عربى أو مرسل اليه عربى وأما القراءة بغير همزة الاستفهام فالمراد الاخبار بان القرآن أعجمى والمرسل اليه عربى (المسئلة الثانية) نقلوا فى سبب نزول هذه الآية ان الكفار لاجل التعنت قالوا لو نزل القرآن بلغة العجم فنزلت هذه الآية وعندى ان أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن لانه يقتضى ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض وانه يوجب أعظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتابا منتظما فضلا عن ادعاء كونه معجزا بل الحق عندى ان هذه السورة من أولها الى آخرها كلام واحد على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر وهذا الكلام أيضا متعلق به وجواب له والتقدير انا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا كيف أرسلت الكلام العجمى الى القوم العرب ويصح لهم أن يقولوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه أى من هذا الكلام وفى آذاننا وقر منه لانا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه اما لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وبالفاظهم وأنتم من أهل هذه اللغة فكيف يمكنكم ادعاء ان قلوبكم فى أكنة منها وفى آذانكم وقر منها فظهر انا اذا جعلنا هذا الكلام جوابا عن ذلك الكلام بقيت السورة من أولها الى آخرها على أحسن وجوه النظم اما على الوجه الذى يذكره الناس فهو عجيب جدا ثم قال تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد واعلم ان هذا متعلق بقولهم وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه الى آخر الآية كانه تعالى يقول ان هذا الكلام أرسلته اليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم فلا يمكنكم أن تقولوا ان قلوبنا فى أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة فبقى أن يقال ان كل من آتاه الله طبعا مائلا الى الحق وقلبا مائلا الى الصدق وهمة تدعوه الى بذل الجهد فى طلب الدين فان هذا القرآن يكون فى حقه هدى وشفاء اما كونه هدى فلانه دليل على الخيرات ويرشد الى كل السعادات واما كونه شفاء فانه اذا أمكنه الاهتداء فقد حصل الهدى فذلك الهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل وأما من كان غرقا فى بحر الخذلان وتائها فى مفاوز الحرمان ومشغوفا بمتابعة الشيطان كان هذا القرآن فى آذانه وقرا كما قال وفى آذاننا وقر وكان القرآن عليهم عمى كما قال ومن بيننا وبينك حجاب فأولئك ينادون من مكان بعيد بسبب ذلك الحجاب الذى حال بين الانتفاع ببيان القرآن وكل من أنصف ولم يتعسف علم انا اذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذى ذكرناه صارت هذه السورة من أولها الى آخرها كلاما واحدا منتظما مسوقا نحو غرض واحد فيكون هذا التفسير أولى مما ذكروه وقرأ الجمهور وهو عليهم عمى على المصدر وقرأ ابن عباس عم على النعت قال أبو عبيد والاول هو الوجه كقوله هدى وشفاء وكذلك عمى هو مصدر مثلهما ولو كان المذكور انه هاد وشاف لكان الكسر فى عمى أجود فيكون نعتا مثلهما وقوله تعالى أولئك ينادون من مكان بعيد قال ابن عباس يريد مثل البهيمة التى لا تفهم الا دعاء ونداء وقيل من دعى من مكان بعيد لم يسمع وان سمع لم يفهم فكذا حال هؤلاء ثم قال تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه وأقول أيضا ان هذا متعلق بما قبله كانه قيل انا لما آتينا موسى الكتاب اختلفوا فيه فقبله بعضهم ورده الآخرون فكذلك آتيناك هذا الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحابك ورده آخرون وهم الذين يقولون قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ثم قال تعالى ولولا كلمة سبقت من ربك يعنى فى تأخير العذاب عنهم الى أجل مسمى وهو يوم القيامة كما قال بل الساعة موعدهم لقضى بينهم يعنى المصدق والمكذب بالعذاب الواقع بمن كذب وانهم لفى شك من صدقك وكتابك مريب فلا ينبغى ان تستعظم استيحاشك من قولهم قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ثم قال من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها يعنى خفف على نفسك اعراضهم فانهم ان آمنوا فنفع ايمانهم يعود عليهم وان كفروا فضرر كفرهم يعود اليهم والله سبحانه يوصل الى كل أحد ما يليق بعمله من الجزاء وما ربك بظلام للعبيد ۞ قوله تعالى (اليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرة من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا

عائده المحذوف وقرئ تدعون بالتاء والكلام على الاولين تجهيل لهم وتأكيد للمثل وعلى الاخيرين وعيد لهم (وهو العزيز الحكيم) تعليل على المعنيين فان اشراك ما لا يعد شيأ بمن هذا شأنه من فرط الغباوة وان الجماد بالنسبة الى القادر القاهر على كل شئ البالغ فى العلم واتقان الفعل الغاية القاصية كالمعدوم البحت وان من هذه صفاته قادر على مجازاتهم (وتلك الامثال) أى هذا المثل وأمثاله (نضربها للناس) تقريبا لما بعد من أفهامهم (وما يعقلها) على ما هى عليه من الحسن واستتباع الفوائد (الا العالمون) الراسخون فى العلم المتدبرون فى الاشياء على ما ينبغى وعنه عليه الصلاة والسلام انه تلا هذه فقال العالم من عقل عن الله تعالى وعمل بطاعته واجتنب سخطه (خلق الله السموات والارض بالحق) أى محقا مراعيا للحكم والمصالح على انه حال من فاعل خلق أو ملتبسة بالحق الذى لا محيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على انه حال من مفعوله فانها مع اشتمالها على جميع ما يتعلق به معاشهم شواهد دالة على شؤنه تعالى المتعلقة بذاته وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى (ان فى ذلك لآية للمؤمنين) دالة لهم على ما ذكر من شؤنه سبحانه وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والارشاد فى خلقهما للكل لانهم المنتفعون بذلك (اتل ما أوحى اليك من الكتاب) تقربا الى الله تعالى بقراءته وتذكرا لما فى تضاعيفه من المعانى وتذكيرا للناس وحملا لهم على العمل بما فيه من الاحكام ومحاسن الآداب ومكارم الاخلاق (وأقم الصلوة) أى داوم على

من شهيد وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا مالهم من محيص لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيؤس قنوط ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد ألا انهم فى مرية من لقاء ربهم ألا انه بكل شئ محيط ﴾

اعلم انه تعالى لما هدد الكفار فى الآية المتقدمة بقوله من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ومعناه ان جزاء كل أحد يصل اليه فى يوم القيامة وكان سائلا قال ومتى يكون ذلك اليوم فقال تعالى انه لا سبيل للخلق الى معرفة ذلك اليوم ولا يعلمه الا الله فقال اليه يرد علم الساعة وهذه الكلمة تفيد الحصر أى لا يعلم وقت الساعة بعينه الا الله وكما ان هذا العلم ليس الا عند الله فكذلك العلم بحدوث الحوادث المستقبلة فى أوقاتها المعينة ليس الا عند الله سبحانه وتعالى ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين (أحدهما) قوله وما تخرج من ثمرة من أكمامها (والثانى) قوله وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه قال أبو عبيدة أكمامها أوعيتها وهى ما كانت فيه الثمرة واحدها كم وكمة قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم من ثمرات بالالف على الجمع والباقون من ثمرة بغير ألف على الواحد واعلم ان نظير هذه الآية قوله ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث الى آخر الآية فان قيل أليس ان المنجمين قد يتعرفون من طالع سنة العالم أحوالا كثيرة من أحوال العالم وكذلك قد يتعرفون من طوالع الناس أشياء من أحوالهم وههنا شئ آخر يسمى علم الرمل وهو كثير الاصابة وأيضا علم التعبير بالاتفاق قد يدل على أحوال المغيبات فكيف الجمع بين هذه العلوم المشاهدة وبين هذه الآية قلنا ان أصحاب هذه العلوم لا يمكنهم القطع والجزم فى شئ من المطالب البتة وانما الغاية القصوى ادعاء ظن ضعيف والمذكور فى هذه الآية ان علمها ليس الا عند الله والعلم هو الجزم واليقين وبهذا الطريق زالت المنافاة والمعاندة والله أعلم ثم انه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشئ من أحوال يوم القيامة وهذا الذى ذكره ههنا شديد التعلق أيضا بما وقع الابتداء به فى أول السورة وذلك لان أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن انما حصلت من أجل ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم الى التوحيد والى البراءة عن الاصنام والاوثان بدليل انه قال فى أول السورة قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما الهكم اله واحد فذكر فى خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والانداد فقال ويوم يناديهم فيقول أين شركائى أى بحسب زعمكم واعتقادكم قالوا آذناك قال ابن عباس أسمعناك كقوله تعالى وأذنت لربها وحقت بمعنى سمعت وقال الكلبى أعلمناك وهذا بعيد لان أهل القيامة يعلمون الله ويعلمون انه يعلم الاشياء علما واجبا فالاعلام فى حقه محال ثم قال ما منا من شهيد وفيه وجوه (الاول) ليس أحد منا يشهد بأن لك شريكا فالمقصود انهم فى ذلك اليوم يتبرؤن من اثبات الشريك لله تعالى (الثانى) ما منا من أحد يشاهدهم لانهم ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها فى ساعة التوبيخ (الثالث) ان قوله ما منا من شهيد كلام الاصنام فان الله يحييها ثم انها تقول ما منا من أحد يشهد بصحة ما أضافوا الينا من الشركة وعلى هذا التقدير فمعنى ضلالهم عنهم أنها لا تنفعهم فكانهم ضلوا عنهم ثم قال وظنوا مالهم من محيص وهذا ابتداء كلام من الله تعالى يقول ان الكفار ظنوا أولا ثم أيقنوا انه لا محيص لهم عن النار والعذاب ومنهم من قال انهم ظنوا أولا انه لا محيص لهم عن النار ثم أيقنوا ذلك بعده وهذا بعيد لان أهل النار يعلمون ان عقابهم دائم ولما بين الله تعالى من حال هؤلاء الكفار انهم بعد ان كانوا مصرين على القول باثبات الشركاء والاضداد لله فى الدنيا تبرؤا عن تلك الشركاء فى الآخرة بين ان الانسان فى جميع الاوقات متبدل الاحوال متغير المنهج فان أحس بخير وقدرة انتفخ وتعظم وان أحس ببلاء ومحنة ذبل كما قيل فى المثل ان هذا كالقرلى ان راى خيرا تدلى وان رأى شرا تولى فقال لا يسأم الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيؤس قنوط يعنى انه فى حال الاقبال ومجئ

اقامتها وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان أمره عليه الصلاة والسلام باقامتها متضمنا لامر الامة بها علل بقوله تعالى (ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر) كأنه قيل وصل بهم ان الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ومعنى نهيها عنهما أنها سبب للانتهاء عنهما لانها مناجاة لله تعالى فلابد أن تكون مع اقبال تام على طاعته واعراض كلى عن معاصيه قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى عنهما فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله تعالى فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى الا بعدا وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وروى أنس رضى الله عنه أن فتى من الانصار كان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا يدع شيأ من الفواحش الا ركبه فوصف له عليه الصلاة والسلام حاله فقال ان صلاته ستنهاه فلم يلبث ان تاب وحسن حاله (ولذكر الله أكبر) أى وللصلاة أكبر من سائر الطاعات وانما عبر عنها به كما فى قوله تعالى فاسعوا الى ذكر الله للايذان بان ما فيها من ذكر الله تعالى هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيآت وقيل ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر فى الزجر عنهما وقيل ولذكر الله اياكم برحمته أكبر من ذكركم اياه بطاعته (والله يعلم ما تصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة (ولا تجادلوا أهل الكتاب) من اليهود والنصارى

المرادات لا ينتهي قط الى درجة الا ويطلب الزيادة عليها ويطمع بالفوز بها وفي حال الادبار والحرمان يصير آيسا قانطا فالانتقال من ذلك الرجاء الذي لا آخر له الى هذا اليأس الكلي يدل على كونه متبدل الصفة متغير الحال وفي قوله يؤس قنوط مبالغة من وجهين (أحدهما) من طريق بناء فعول (والثاني) من طريق التكرير واليأس من صفة القلب والقنوط أن يظهر آثار اليأس في الوجه والاحوال الظاهرة ثم بين تعالى ان هذا الذي صار آيسا قانطا لو عاودته النعمة والدولة وهو المراد من قوله ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته فان هذا الرجل يأتي بثلاثة أنواع من الاقاويل الفاسدة والمذاهب الباطلة الموجبة للكفر والبعد عن الله تعالى (فأولها) انه لابد وأن يقول هذا لي وفيه وجهان (الاول) معناه ان هذا حق وصل الي لاني استوجبته بما حصل عندي من أنواع الفضائل وأعمال البر والقربة من الله ولا يعلم المسكين ان أحدا لا يستحق على الله شيأ وذلك لانه ان كان ذلك الشخص عاريا عن الفضائل فهذا الكلام ظاهر الفساد وان كان موصوفا بشئ من الفضائل والصفات الحميدة فهي بأسرها انما حصلت له بفضل الله واحسانه واذا تفضل الله بشئ على بعض عبيده امتنع ان يصير تفضله عليه بتلك العطية سببا لان يستحق على الله شيأ آخر فثبت بهذا فساد قوله انما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاقي (والوجه الثاني) ان هذا لي أي لا يزول عني ويبقى علي وعلى أولادي وذريتي (والنوع الثاني) من كلماتهم الفاسدة أن يقول وما أظن الساعة قائمة يعني انه يكون شديد الرغبة في الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة فاذا آل الامر الى أحوال الدنيا يقول انها لي واذا آل الامر الى الآخرة يقول وما أظن الساعة قائمة (والنوع الثالث) من كلماتهم الفاسدة أن يقول ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى يعني ان الغالب على الظن ان القول بالبعث والقيامة باطل وبتقدير أن يكون حقا فان لي عنده للحسنى وهذه الكلمة تدل على جزمهم بوصولهم الى الثواب من وجوه (الاول) ان كلمة ان تفيد التأكيد (الثاني) ان تقديم كلمة لي تدل على هذا التأكيد (الثالث) قوله عنده يدل على ان تلك الخيرات حاضرة مهيأة عنده كما تقول لي عند فلان كذا من الدنانير فان هذا يفيد كونها حاضرة عنده فلو قلت ان لي على فلان كذا من الدنانير لا يفيد ذلك (والرابع) اللام في قوله للحسنى تفيد التأكيد (الخامس) للحسنى يفيد الكمال في الحسنى ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الاقوال الثلاثة الفاسدة قال فلننبئن الذين كفروا بما عملوا أي نظهر لهم ان الامر على ضد ما اعتقدوه وعلى عكس ما تصوروه كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ولنذيقنهم من عذاب غليظ في مقابلة قولهم ان لي عنده للحسنى ولما حكى الله تعالى أقوال الذي أنعم عليه بعد وقوعه في الآفات حكى افعاله أيضا فقال واذا أنعمنا على الانسان أعرض عن التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله ونأى بجانبه أي ذهب بنفسه وتكبر وتعظم ثم ان مسه الضر والفقر أقبل على دوام الدعاء وأخذ في الابتهال والتضرع وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفات الاجرام ويستعار له الطول أيضا كما استعير الغلظ لشدة العذاب واعلم انه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك وبين ان المشركين يرجعون عن القول بالشرك في يوم القيامة ويظهرون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء الخوف عليهم وبين ان الانسان جبل على التبدل فان وجد لنفسه قوة بالغ في التكبر والتعظم وان أحس بالفتور والضعف بالغ في اظهار الذلة والمسكنة ذكر عقيبه كلاما آخر يوجب على هؤلاء الكفار أن لا يبالغوا في اظهار النفرة من قبول التوحيد وأن لا يفرطوا في اظهار العداوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم فقال قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد وتقرير هذا الكلام انكم كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه وما تأملتم فيه وبالغتم في النفرة عنه حتى قلتم قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ثم من المعلوم بالضرورة انه ليس العلم بكون القرآن باطلا علما بديهيا وليس العلم بفساد القول بالتوحيد والنبوة علما بديهيا فقبل الدليل يحتمل أن يكون صحيحا وأن يكون فاسدا فبتقدير أن يكون

(الا بالتي هي أحسن) أي بالخصلة التي هي أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح والسورة بالاناة على وجه لا يدل على الضعف ولا يؤدي الى اعطاء الدنية وقيل منسوخ بآية السيف (الا الذين ظلموا منهم) بالافراط في الاعتداء والعناد أو باثبات الولد وقولهم يد الله مغلولة ونحو ذلك فانه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم (وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا) من القرآن (وأنزل اليكم) أي وبالذي أنزل اليكم من التوراة والانجيل وقد مر تحقيق كيفية الايمان بهما في خاتمة سورة البقرة وعن النبي عليه الصلاة والسلام لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وان قالوا حقا لم تكذبوهم (والهنا والهكم واحد) لا شريك له في الالوهية (ونحن له مسلمون) مطيعون خاصة وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله (وكذلك) تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك اشارة الى مصدر الفعل الذي بعده وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه في الفضل أي مثل ذلك الانزال البديع الموافق لانزال سائر الكتب (أنزلنا اليك الكتاب) أي القرآن الذي من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالحسنى (فالذين آتيناهم الكتاب) من الطائفتين (يؤمنون به) أريد بهم عبد الله بن سلام وأضرابه من أهل الكتابين خاصة كأن من عداهم لم يؤتوا الكتاب حيث لم يعملوا بما فيه أو من تقدم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا في كتابيهما وتخصيصهم بايتاء الكتاب للايذان بان من بعدهم من معاصري رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يؤتوه والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ايمانهم به مترتب على انزاله على الوجه المذكور (ومن هؤلاء) أي ومن العرب أو أهل مكة على الاول

صحيحا كان اصراركم على دفعه من أعظم موجبات العقاب فهذا الطريق يوجب عليكم ان تتركوا هذه النفرة وان ترجعوا الى النظر والاستدلال فان دل الدليل على صحته قبلتموه وان دل على فساده تركتموه فاما قبل الدليل فالاصرار على الدفع والاعراض بعيد عن العقل وقوله ممن هو في شقاق بعيد موضوع موضع منكم بيانا لحالهم وصفاتهم ولما ذكر هذه الوجوه الكثيرة في تقرير التوحيد والنبوة وأجاب عن شبهات المشركين وتمويهات الضالين قال سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق قال الواحدي واحد الآفاق أفق وهو الناحية من نواحي الارض وكذلك آفاق السماء نواحيها وأطرافها * وفي تفسير قوله سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم قولان (الاول) ان المراد بآيات الآفاق الآيات الفلكية والكوكبية وآيات الليل والنهار وآيات الاضواء والاظلال والظلمات وآيات عالم العناصر الاربعة وآيات المواليد الثلاثة وقد أكثر الله منها في القرآن وقوله وفي أنفسهم المراد منها الدلائل المأخوذة من كيفية تكون الاجنة في ظلمات الارحام وحدوث الاعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كما قال تعالى وفي أنفسكم أفلا تبصرون يعني نريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى الى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الاله القادر الحكيم العليم المنزه عن المثل والضد فان قيل هذا الوجه ضعيف لان قوله تعالى سنريهم يقتضي أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات الى الآن وسيطلعهم عليها بعد ذلك والآيات الموجودة في العالم الاعلى والاسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك فثبت انه تعذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه قلنا ان القوم وان كانوا قد رأوا هذه الاشياء الا أن العجائب التي أودعها الله تعالى في هذه الاشياء مما لا نهاية لها فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زمانا فزمانا ومثاله كل أحد رأى بعينه بنية الانسان وشاهدها الا أن العجائب التي أبدعها الله في تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لا يعرفونها والذي وقف على شئ منها فكلما ازداد تفكرا ازداد وقوفا على تلك العجائب والغرائب فصح بهذا الطريق قوله سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم (والقول الثاني) ان المراد بآيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة وبآيات أنفسهم فتح مكة والقائلون بهذا القول رجحوه على القول الاول لاجل ان قوله سنريهم يليق بهذا الوجه ولا يليق بالاول الا أنا أجبنا عنه بان قوله سنريهم لا يليق بالوجه الاول كما قررناه فان قيل حمل الآية على هذا الوجه بعيد لان أقصى ما في الباب ان محمدا صلى الله عليه وسلم استولى على بعض البلاد المحيطة بمكة ثم استولى على مكة الا أن الاستيلاء على بعض البلاد لا يدل على كون المستولي محقا فانا نرى ان الكفار قد يحصل لهم استيلاء على بلاد الاسلام وعلى ملوكهم وذلك لا يدل على كونهم محقين قلنا لهذا السبب قلنا ان حمل الآية على الوجه الاول أولى ثم نقول ان أردنا تصحيح هذا الوجه قلنا انا لا نستدل بمجرد استيلاء محمد صلى الله عليه وسلم على تلك البلاد على كونه محقا في ادعاء النبوة بل نستدل به من حيث انه صلى الله عليه وسلم أخبر عن مكة أنه يستولي عليها ويقهر أهلها وتصير أصحابه قاهرين للاعداء فهذا اخبار عن الغيب وقد وقع مخبره مطابقا لخبره فيكون هذا اخبارا صدقا عن الغيب والاخبار عن الغيب معجزة فبهذا الطريق يستدل بحصول هذا الاستيلاء على كون هذا الدين حقا ثم قال أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد وقوله بربك في موضع الرفع على انه فاعل يكف وانه على كل شئ شهيد بدل منه وتقديره أولم يكفهم ان ربك على كل شئ شهيد ومعنى كونه تعالى شهيدا على الاشياء خلق الدلائل عليها وقد استقصينا ذلك في تفسير قوله قل أي شئ أكبر شهادة قل الله والمعنى ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها الله تعالى وقررها في هذه السورة وفي كل سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة والمعاد ثم ختم السورة بقوله ألا انهم في مرية من لقاء ربهم أي ان القوم في شك عظيم وشبهة شديدة من البعث والقيامة وقرئ في مرية بالضم ثم قال ألا انه بكل شئ محيط أي عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم ويجازي كل أحد على فعله

أو ممن في عصره عليه الصلاة والسلام على الثاني (من يؤمن به) أي بالقرآن (وما يجحد بآياتنا) عبر عن الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عند الله تعالى وأضيفت الى نون العظمة لمزيد تفخيمها وغاية تشنيع من يجحد بها (الا الكافرون) المتوغلون في الكفر المصممون عليه فان ذلك يصدهم عن التأمل فيما يؤديهم الى معرفة حقيتها وقيل هم كعب بن الاشرف وأصحابه (وما كنت تتلو من قبله) أي ما كنت قبل انزالنا اليك الكتاب تقدر على أن تتلو شيأ (من كتاب ولا تخطه) أي ولا تقدر على أن تخطه (بيمينك) حسبما هو المعتاد أو ما كانت عادتك أن تتلوه ولا أن تخطه (اذا لارتاب المبطلون) أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما لارتابوا وقالوا لعله التقطه من كتب الاوائل وحيث لم تكن كذلك لم يبق في شأنك منشأ ريب أصلا وتسميتهم مبطلين في ارتيابهم على التقدير المفروض لكونهم مبطلين في اتباعهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك (بل هو) أي القرآن (آيات بينات) واضحات ثابتة راسخة (في صدور الذين أوتوا العلم) من غير أن يلتقط من كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر أحد على تحريفه (وما يجحد بآياتنا) مع كونها كما ذكر (الا الظالمون) المتجاوزون للحدود في الشر والمكابرة والفساد (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام وقرئ آية (قل انما الآيات عند الله) ينزلها حسبما يشاء من غير دخل لاحد في ذلك قطعا (وانما أنا نذير مبين) ليس من شأني الا الانذار بما أوتيت من الآيات (أولم يكفهم) كلام مستأنف وارد من جهته تعالى ردا على اقتراحهم وبيانا لبطلانه والهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أقصر ولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات (انا أنزلنا عليك الكتاب) الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية

بحسب

بحسب مايليق به ان خيرا فخير وان شرا فشر فان قيل قوله ألا انه بكل شئ محيط يقتضى أن تكون علومه متناهية قلنا قوله بكل شئ محيط يقتضى أن يكون علمه محيطا بكل شئ من الاشياء فهذا يقتضى كون كل واحد منها متناهيا لا كون مجموعها متناهيا والله أعلم بالصواب تم تفسير هذه السورة وقت ظهر الرابع من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين وصلاته على خاتم النبيين محمد وآله وصحبه وسلم

(سورة شورى خمسون وثلاث آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

((حم عسق كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم له مافى السموات ومافى الارض وهو العلى العظيم تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الارض ألا ان الله هو الغفور الرحيم والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل)) اعلم أن الكلام فى أمثال هذه الفواتح معلوم الا أن فى هذا الموضع سؤالان زائدان (الاول) أن يقال ان هذه السور السبعة مصدرة بقوله حم فما السبب فى اختصاص هذه السورة بمزيد عسق (الثانى) انهم أجمعوا على أنه لا يفصل بين كهيعص وههنا يفصل بين حم وبين عسق فما السبب فيه واعلم أن الكلام فى أمثال هذه الفواتح يضيق وفتح باب المجازفات مما لا سبيل اليه فالاولى أن يفوض علمها الى الله وقرأ ابن عباس وابن مسعود حم سق أما قوله تعالى كذلك يوحى اليك فالكاف معناه المثل وذا للاشارة الى شئ سبق ذكره فيكون المعنى مثل حم عسق يوحى اليك والى الذين من قبلك وعند هذا حصل قولان (الاول) نقل عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال لا نبى صاحب كتاب الا وقد أوحى اليه حم عسق وهذا عندى بعيد (والثانى) أن يكون المعنى مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحى الله اليك والى الذين من قبلك وهذه المماثلة المراد منها المماثلة فى الدعوة الى التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وتقبيح أحوال الدنيا والترغيب فى التوجه الى الآخرة والذى يؤكد هذا أنا بينا فى تفسير سورة سبح اسم ربك الأعلى ان أولها فى تقرير التوحيد وأوسطها فى تقرير النبوة وآخرها فى تقرير المعاد ولما تم الكلام فى تقرير هذه المطالب الثلاثة قال ان هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى يعنى أن المقصود من انزال جميع الكتب الالهية ليس الا هذه المطالب الثلاثة فكذلك ههنا يعنى مثل الكتاب المسمى بحم عسق يوحى الله اليك والى كل من قبلك من الانبياء والمراد بهذه المماثلة الدعوة الى هذه المطالب العالية والمباحث المقدسة الالهية قال صاحب الكشاف ولم يقل أوحى اليك ولكن قال يوحى اليك على لفظ المضارع ليدل على أن ايحاء مثله عادته وقرأ ابن كثير كذلك يوحى بفتح الحاء على مالم يسم فاعله وهى احدى الروايتين عن أبى عمرو وعن بعضهم نوحى بالنون وقرأ الباقون يوحى اليك والى الذين من قبلك بكسر الحاء فان قيل فعلى القراءة الاولى مارافع اسم الله تعالى قلنا مادل عليه يوحى كأن قائلا قال من الموحى فقيل الله ونظيره قراءة السلمى وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم على البناء للمفعول ورفع شركاؤهم فان قيل فما رافعه فيمن قرأ نوحى بالنون قلنا يرتفع بالابتداء والعزيز وما بعده أخبار أو العزيز الحكيم صفتان والظرف خبره ولما ذكر أن هذا الكتاب حصل بالوحى بين أن الموحى من هو فقال انه هو العزيز الحكيم وقد بينا فى أول سورة حم المؤمن ان كونه عزيزا يدل على كونه قادرا على مالا نهاية له وكونه حكيما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنيا عن جميع الحاجات فيحصل لنا من كونه عزيزا حكيما كونه قادرا على جميع المقدورات عالما بجميع المعلومات غنيا عن جميع الحاجات ومن كان كذلك كانت أفعاله وأقواله حكمة وصوابا وكانت مبرأة عن العيب والعبث قال مصنف الكتاب قلت فى قصيدة

الحمد لله ذى الآلاء والنعم * والفضل والجود والاحسان والكرم

وأنت بمعزل عن مدارستها وممارستها (يتلى عليهم) فى كل زمان ومكان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون فى مكان دون مكان أو يتلى على اليهود بتحقيق مافى أيديهم من نعتك ونعت دينك (ان فى ذلك) الكتاب العظيم الشان الباقى على مر الدهور (لرحمة) أى نعمة عظيمة (وذكرى) أى تذكرة (لقوم يؤمنون) أى لقوم همهم الايمان لا التعنت كاولئك المقترحين وقيل ان ناسا من المؤمنين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتف فيها بعض ما يقوله اليهود فقال كفى بها ضلالة قوم أن رغبوا عما جاء به نبيهم الى ما جاء به غير نبيهم فنزلت (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) بما صدر عنى وعنكم (يعلم مافى السموات والارض) أى من الامور التى من جملتها شأنى وشأنكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيدا (والذين آمنوا بالباطل) وهو ما يعبد من دون الله تعالى (وكفروا بالله) مع تعاضد موجبات الايمان به (أولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان بان ضيعوا الفطرة الاصلية والادلة السمعية الموجبة للايمان والآية من قبيل المجادلة بالتى هى أحسن حيث لم يصرح بنسبة الايمان بالباطل والكفر بالله والخسران اليهم بل ذكر على منهاج الابهام كما فى قوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين (ويستعجلونك بالعذاب) على طريقة الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد وقولهم امطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب ونحو ذلك (ولولا أجل مسمى) قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبينه فى اللوح (لجاءهم العذاب) المعين لهم حسبما استعجلوا به قيل المراد بالاجل يوم القيامة لما روى أنه تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعذب قومه بعذاب الاستئصال وأن يؤخر عذابهم الى يوم القيامة وقيل يوم بدر وقيل وقت فنائهم بآجالهم وفيه بعد ظاهر لما انهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعى ولا كانوا يستعجلون به (وليأتينهم) جملة مستأنفة مبينة لما أشير اليه فى الجملة السابقة من مجئ

منزه الفعل عن عيب وعن عبث * مقدس الملك عن عزل وعن عدم

(والصفة الثالثة) قوله له ما فى السموات وما فى الارض وهذا يدل على مطلوبين فى غاية الجلال (أحدهما) كونه موصوفا بقدرة كاملة نافذة فى جميع أجزاء السموات والارض على عظمتها وسعتها بالايجاد والاعدام والتكوين والابطال (والثانى) انه لما بين بقوله له ما فى السموات وما فى الارض أن كل ما فى السموات وما فى الارض فهو ملكه وملكه وجب أن يكون منزها عن كونه حاصلا فى السموات وفى الارض والالزم كونه ملكا لنفسه واذا ثبت أنه ليس فى شئ من السموات امتنع كونه أيضا فى العرش لان كل ما سمالك فهو سماء فاذا كان العرش موجودا فوق السموات كان فى الحقيقة سماء فوجب أن يكون كل ما كان حاصلا فى العرش ملكا لله وملكا له فوجب أن يكون منزها عن كونه حاصلا فى العرش وان قالوا انه تعالى قال له ما فى السموات وكلمة ما لا تتناول من يعقل قلنا هذا مدفوع من وجهين (الاول) ان لفظة ما واردة فى حق الله تعالى قال تعالى والسماء وما بناها والارض وما طحاها وقال لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد (والثانى) ان صيغة من وردت فى مثل هذه السورة قال تعالى ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا وكلمة من لا شك أنها واردة فى حق الله تعالى فدلت هذه الآية على أن كل من فى السموات والارض فهو عبد لله فلو كان الله موجودا فى السموات والارض وفى العرش لكان هو من جملة من فى السموات فوجب أن يكون عبد الله ولما ثبت بهذه الآية أن كل من كان موجودا فى السموات والعرش فهو عبد لله وجب فيمن تقدست كبرياؤه عن تهمة العبودية أن يكون منزها عن الكون فى المكان والجهة والعرش والكرسى (والصفة الرابعة والخامسة) قوله تعالى وهو العلى العظيم ولا يجوز أن يكون المراد بكونه عليا العلو فى الجهة والمكان لما ثبتت الدلالة على فساده ولا يجوز أن يكون المراد من العظيم العظمة بالجثة وكبر الجسم لان ذلك يقتضى كونه مؤلفا من الاجزاء والابعاض وذلك ضد قوله الله أحد فوجب أن يكون المراد من العلى المتعالى عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات ومن العظيم العظمة بالقدرة والقهر بالاستعلاء وكمال الالهية ثم قال تكاد السموات يتفطرن من فوقهن وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر تكاد بالتاء ينفطرن بالياء والنون وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة تكاد بالتاء يتفطرن بالياء والتاء وقرأ نافع والكسائى يكاد بالياء يتفطرن أيضا بالتاء قال صاحب الكشاف وروى يونس عن أبى عمرو قراءة غريبة تتفطرن بالتاءين مع النون ونظيرها حرف نادر روى فى نوادر ابن الاعرابى الابل تتشمسن (المسئلة الثانية) فى فائدة قوله من فوقهن وجوه (الاول) روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال تكاد السموات يتفطرن من فوقهن قال والمعنى انها تكاد تتفطرن من ثقل الله عليها واعلم أن هذا القول سخيف ويجب القطع ببراءة ابن عباس عنه ويدل على فساده وجوه (الاول) أن قوله من فوقهن لا يفهم منه من فوقهن (وثانيها) هب أنه يحمل على ذلك لكن لم قلتم ان هذه الحالة انما حصلت من ثقل الله عليها ولم لا يجوز أن يقال ان هذه الحالة انما حصلت من ثقل الملائكة عليها كما جاء فى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع شبر الا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد (وثالثها) لم لا يجوز أن يكون المراد تكاد السموات تنشق وتنفطر من هيبة من هو فوقها فوقية بالالهية والقهر والقدرة فثبت بهذه الوجوه ان القول الذى ذكروه فى غاية الفساد والركاكة (والوجه الثانى) فى تأويل الآية ما ذكره صاحب الكشاف وهو أن كلمة الكفر انما جاءت من الذين تحت السموات وكان القياس أن يقال ينفطرن من تحتهن من الجهة التى جاءت منها الكلمة ولكنه بولغ فى ذلك فقلب فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق كأنه قيل يكدن ينفطرن من الجهة التى فوقهن ودع الجهة التى تحتهن ونظيره فى المبالغة قوله تعالى يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود فجعل مؤثرا فى اجزائهم الباطنة (الوجه الثالث) فى تأويل الآية أن يقال من فوقهن أى

العذاب عند محل الاجل أى وبالله ليأتينهم العذاب الذى عين لهم عند حلول الاجل (بغتة) أى فجأة (وهم لا يشعرون) أى باتيانه ولعل المراد باتيانه كذلك أنه لا يأتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والاجابة الى مسؤلهم فان ذلك اتيان برأيهم وشعورهم لا أنه يأتيهم وهم غارون آمنون لا يخطرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الامم بياتا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون لما أن اتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل (يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين) استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رأيهم وفيه دلالة على أن ما استعجلوه عذاب الآخرة أى يستعجلونك بالعذاب والحال أن محل العذاب الذى لا عذاب فوقه محيط بهم كأنه قيل يستعجلونك بالعذاب وان العذاب لمحيط بهم أى سيحيط بهم وانما جىء بالجملة الاسمية دلالة على تحقق الاحاطة واستمرارها أو تنزيلا لحال السبب منزلة حال المسبب فان الكفر والمعاصى الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم وقيل ان الكفر والمعاصى هى النار فى الحقيقة لكنها ظهرت فى هذه النشأة بهذه الصورة وقدم تفصيله فى سورة الاعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ الحق ولام الكافرين اما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمر للاشعار بعلة الحكم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا (يوم يغشاهم العذاب) ظرف لمضمر قد طوى ذكره ايذانا بغاية كثرته وفظاعته كأنه قيل يوم يغشاهم العذاب الذى أشير اليه باحاطة جهنم بهم يكون من الاحوال والاهوال ما لا يفى به المقال وقيل ظرف للاحاطة (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى من جميع جهاتهم (ويقول) أى الله عز وجل ويعضده القراءة بنون العظمة أو بعض ملائكته بامره (ذوقوا ما كنتم تعملون) أى من جزاء ما كنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار من السيئات التى من جملتها الاستعجال بالعذاب (يا عبادى الذين آمنوا) خطاب تشريف لبعض

من فوق الارضين لانه تعالى قال قبل هذه الآية له ما فى السموات وما فى الارض ثم قال تكاد السموات ينفطرن من فوقهن أى من فوق الارضين (والوجه الرابع) فى التأويل أن يقال معنى من فوقهن أى من الجهة التى حصلت هذه السموات فيها وتلك الجهة هى فوق فقوله من فوقهن أى من الجهة الفوقانية التى هن فيها (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى أن هذه الهيئة لم حصلت وفيه قولان (الاول) انه تعالى لما بين ان الموحى لهذا الكتاب هو الله العزيز الحكيم بين وصف جلاله وكبريائه فقال تكاد السموات ينفطرن من فوقهن أى من هيبته وجلالته (والقول الثانى) ان السبب فيه اثباتهم الولد لله لقوله تكاد السموات ينفطرن منه وههنا السبب فيه اثباتهم الشركاء لله لقوله بعد هذه الآية والذين اتخذوا من دونه أولياء والصحيح هو الاول ثم قال والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الارض واعلم أن مخلوقات الله تعالى نوعان عالم الجسمانيات وأعظمها السموات وعالم الروحانيات وأعظمها الملائكة والله تعالى يقرر كمال عظمته لاجل نفاذ قدرته وهيبته فى الجسمانيات ثم يردفه بنفاذ قدرته واستيلاء هيبته على الروحانيات والدليل عليه انه تعالى قال فى سورة عم يتساءلون لما أراد تقرير العظمة والكبرياء بدأ بذكر الجسمانيات فقال رب السموات والارض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا ثم انتقل الى ذكر عالم الروحانيات فقال يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا فكذلك القول فى هذه الآية بين كمال عظمته باستيلاء هيبته على الجسمانيات فقال تكاد السموات ينفطرن من فوقهن ثم انتقل الى ذكر الروحانيات فقال والملائكة يسبحون بحمد ربهم فهذا ترتيب شريف وبيان باهر واعلم أن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الاثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الاقسام ومتأثر لا يؤثر وهو القابل وهو الجسم وهو أخس الاقسام وموجود يقبل الاثر من القسم الاول ويؤثر فى القسم الثانى وهو الجواهر الروحانيات المقدسة وهو المرتبة المتوسطة اذا عرفت هذا فنقول الجواهر الروحانية لها تعلقان تعلق بعالم الجلال والكبرياء وهو تعلق القبول فان الجلايا القدسية والاضواء الصمدية اذا أشرقت على الجواهر الروحانية استضاءت جواهرها وأشرقت ماهياتها ثم ان الجواهر الروحانية اذا استفادت تلك القوى الروحانية قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيات واذا كان كذلك فلها وجهان وجه الى جانب الكبرياء وحضرة الجلال ووجه الى عالم الاجسام والوجه الاول أشرف من الثانى اذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى يسبحون بحمد ربهم اشارة الى الوجه الذى لهم الى عالم الجلال والكبرياء وقوله ويستغفرون لمن فى الارض اشارة الى الوجه الذى لهم الى عالم الاجسام فما أحسن هذه اللطائف وما أشرفها وما أشد تأثيرها فى جذب الارواح من حضيض الخلق الى أوج معرفة الحق اذا عرفت هذا فنقول أما الجهة الاولى وهى الجهة العلوية المقدسة فقد اشتملت على أمرين أحدهما التسبيح وثانيهما التحميد لان قوله يسبحون بحمد ربهم يفيد هذين الامرين والتسبيح مقدم على التحميد لان التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغى والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضا لكل الخيرات وكونه منزها فى ذاته عما لا ينبغى مقدم بالرتبة على كونه فياضا للخيرات والسعادات لان وجود الشئ مقدم على ايجاد غيره وحصوله فى نفسه مقدم على تأثيره فى حصول غيره فلهذا السبب كان التسبيح مقدما على التحميد ولهذا قال يسبحون بحمد ربهم وأما الجهة الثانية وهى الجهة التى لتلك الارواح الى عالم الجسمانيات فالاشارة اليها بقوله ويستغفرون لمن فى الارض والمراد منه تأثيراتها فى نظم أحوال هذا العالم وحصول الطريق الاصوب الاصلح فيها فهذه ملامح من المباحث العالية الالهية مدرجة فى هذه الآيات المقدسة ولنرجع الى ما يليق بعلم التفسير فان قيل كيف يصح أن يستغفروا لمن فى الارض وفيهم الكفار وقد قال تعالى أولئك عليهم لعنة الله والملائكة فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) ان قوله لمن فى الارض لا يفيد العموم لانه يصح أن يقال انهم استغفروا لكل من

المؤمنين الذى لا يتمكنون من اقامة أمور الدين كما ينبغى لممانعة من جهة الكفرة وارشادا لهم الى الطريق الاسلم (ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون) أى اذا لم يتسهل لكم العبادة فى بلد ولم يتيسر لكم اظهار دينكم فهاجروا الى حيث يتسنى لكم ذلك وعنه عليه الصلاة والسلام من فر بدينه من أرض الى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق ابراهيم ومحمد عليهما السلام والفاء جواب شرط محذوف اذ المعنى ان أرضى واسعة ان لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فاخلصوها فى غيرها ثم حذف الشرط وعوض عنه تقديم المفعول مع افادة تقديمه معنى الاختصاص والاخلاص (كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) جملة مستأنفة جىء بها حثا على المسارعة فى الامتثال بالامر أى كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت وكربه فراجعة الى حكمنا وجزائنا بحسب أعمالها فمن كانت هذه عاقبته فليس له بد من التزود والاستعداد لها وقرئ يرجعون (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم) لننزلنهم (من الجنة غرفا) أى علالى وهو مفعول ثان للتبوئة وقرئ لنثوينهم من الثواء بمعنى الاقامة فانتصاب غرفا حينئذ اما باجرائه مجرى لننزلنهم أو بنزع الخافض أو بتشبيه الظرف الموقت بالمبهم كما فى قوله تعالى لأقعدن لهم صراطك المستقيم (تجرى من تحتها الانهار) صفة لغرفا (خالدين فيها) أى فى الغرف أو فى الجنة (نعم أجر العاملين) أى الاعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه وقرئ فنعم (الذين صبروا) اما صفة للعاملين أو نصب على المدح أى صبروا على أذية المشركين وشدائد المهاجرة وغير ذلك من المحن والمشاق (وعلى ربهم يتوكلون) أى ولم يتوكلوا فيما يأتون ويذرون الا على الله تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) روى أن النبى عليه الصلاة والسلام لما أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة الى المدينة قالوا كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت أى وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أو لا تدخره وانما تصبح ولا

معيشة عندها (الله يرزقها واياكم) ثم انها مع ضعفها وتوكلها واياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء فى انه لا يرزقها واياكم الا الله تعالى لان رزق الكل
باسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة (وهو السميع) المبالغ فى السمع فيسمع قولكم هذا (العليم) المبالغ فى العلم فيعلم

فى الارض وأن يقال انهم استغفروا البعض من فى الارض دون البعض ولو كان قوله لمن فى الارض صريحا فى العموم لما صح ذلك التقسيم (الثانى) هب ان هذا النص يفيد العموم الا انه تعالى حكى عن الملائكة فى سورة حم المؤمن فقال ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك (الثالث) يجوز أن يكون المراد من الاستغفار أن لا يعاجلهم بالعقاب كما فى قوله تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا الى أن قال انه كان حليما غفورا (الرابع) يجوز أن يقال انهم يستغفرون لكل من فى الارض أما فى حق الكفار فبواسطة طلب الايمان لهم وأما فى حق المؤمنين فبالتجاوز عن سيآتهم فانا نقول اللهم اهد الكافرين وزين قلوبهم بنور الايمان وأزل عن خواطرهم وحشة الكفر وهذا فى الحقيقة استغفار واعلم أن قوله ويستغفرون لمن فى الارض يدل على انهم لا يستغفرون لانفسهم ولو كانوا مصرين على المعصية لكان استغفارهم لانفسهم قبل استغفارهم لمن فى الارض وحيث لم يذكر الله عنهم استغفارهم لانفسهم علمنا أنهم مبرؤن عن كل الذنوب والانبياء عليهم السلام لهم ذنوب والذى لا ذنب له البتة أفضل ممن له ذنب وأيضا فقوله ويستغفرون لمن فى الارض يدل على انهم يستغفرون للانبياء لان الانبياء من جملة من فى الارض واذا كانوا مستغفرين للانبياء عليهم السلام كان الظاهر انهم أفضل منهم ولما حكى الله تعالى عن الملائكة التسبيح والتحميد والاستغفار قال ألا ان الله هو الغفور الرحيم والمقصود التنبيه على ان الملائكة وان كانوا يستغفرون للبشر الا أن المغفرة المطلقة والرحمة المطلقة للحق سبحانه وتعالى وبيانه من وجوه (الاول) ان اقدام الملائكة على طلب المغفرة للبشر من الله تعالى انما كان لان الله تعالى خلق فى قلوبهم داعية لطلب تلك المغفرة ولولا أن الله تعالى خلق فى قلوبهم تلك الدواعى والا لما أقدموا على ذلك الطلب واذا كان كذلك كان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله سبحانه وتعالى (الثانى) ان الملائكة قالوا فى أول الامر أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ثم فى آخر الامر صاروا يستغفرون لمن فى الارض وأما رحمة الحق واحسانه فقد كان موجودا فى الاول والآخر فثبت ان الغفور المطلق والرحيم المطلق هو الله تعالى (الثالث) انه تعالى حكى عنهم أنهم يستغفرون لمن فى الارض ولم يحك عنهم انهم يطلبون الرحمة لمن فى الارض فقال ألا ان الله هو الغفور الرحيم يعنى انه يعطى المغفرة التى طلبوها ويضم اليها الرحمة الكاملة التامة ثم قال تعالى والذين اتخذوا من دونه أولياء أى جعلوا له شركاء وأندادا الله حفيظ عليهم أى رقيب على أحوالهم وأعمالهم لا يفوته منها شئ وهو محاسبهم عليها لا رقيب عليهم الا هو وحده وما أنت يا محمد بمفوض اليك امرهم ولا قسرهم على الايمان انما أنت منذر فحسب ۞ قوله تعالى ﴿وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو يحيي الموتى وهو على كل شئ قدير وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت واليه انيب فاطر السموات والارض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الانعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير له مقاليد السموات والارض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شئ عليم﴾ اعلم أن كلمة ذلك للاشارة الى شئ سبق ذكره فقوله وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا يقتضى تشبيه وحى الله بالقرآن بشئ ههنا قد سبق ذكره وليس ههنا شئ سبق ذكره يمكن تشبيه وحى القرآن به الا قوله والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل يعنى كما أوحينا اليه أنك لست حفيظا عليهم ولست وكيلا عليهم فكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتكون نذيرا لهم وقوله تعالى لتنذر أم القرى أى لتنذر أهل أم القرى لان البلد لا تعقل وهو كقوله واسئل القرية وأم القرى أصل القرى وهى مكة وسميت بهذا الاسم اجلالا لها لان فيها البيت ومقام ابراهيم والعرب تسمى اصل كل شئ امه حتى يقال هذه القصيدة

ضمائركم (ولئن سألتهم) أى أهل مكة (من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) اذ لا سبيل لهم الى انكاره ولا الى التردد فيه (فانى يؤفكون) انكار واستبعاد من جهته تعالى لتركهم العمل بموجبه أى فكيف يصرفون عن الاقرار بتفرده تعالى فى الالهية مع اقرارهم بتفرده تعالى فيما ذكر من الخلق والتسخير (الله يبسط الرزق لمن يشاء) أى يبسطه له (من عباده ويقدر له) أى يقدر لمن يشاء أن يقدر له منهم كائنا من كان على أن الضمير مبهم حسب ابهام مرجعه أو يقدر لمن يبسطه له على التعاقب (ان الله بكل شئ عليم) فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له فيقدره له أو فيعلم ان كلا من البسط والقدر فى أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما فى وقته (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فاحيى به الارض من بعد موتها ليقولن الله) معترفين بانه الموجد للممكنات بأسرها أصولها وفروعها ثم انهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى لا يكاد يتوهم منه القدرة على شئ ما أصلا (قل الحمد لله) على ان جعل الحق بحيث لا يجترئ المبطلون على جحوده وانه أظهر حجتك عليهم وقيل على ان عصمك من أمثال هذه الضلالات ولا يخفى بعده (بل أكثرهم لا يعقلون) أى شيأ من الاشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته وقيل لا يعقلون ما تريد
بتحميدك عند مقالهم ذلك (وما هذه الحيوة الدنيا) اشارة تحقير وازدراء للدنيا وكيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو
من
كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء (الا لهو ولعب) أى الا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويبتهجون

به ساعة ثم يتفرقون عنه (وان الدار الآخرة لهي الحيوان) أي لهي دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت والفناء عليها أو هي في ذاتها حياة للمبالغة والحيوان مصدر حيي سمي به ذو الحياة وأصله حييان فقلبت الياء الثانية واوا في بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحيوان ولذلك اختير على الحياة في هذا المقام المقتضي للمبالغة (لو كانوا يعلمون) أي لما آثروا عليها الدنيا التي أصلها عدم الحياة ثم ما يحدث فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال (فاذا ركبوا في الفلك) متصل بما دل عليه شرح حالهم والركوب هو الاستعلاء على الشيء المتحرك وهو متعد بنفسه كما في قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها واستعماله ههنا وفي أمثاله بكلمة في للايذان بان المركوب في نفسه من قبيل الامكنة وحركته قسرية غير ارادية كما مر في سورة هود والمعنى انهم على ما وصفوا من الاشراك فاذا ركبوا في البحر ولقوا شدة (دعوا الله مخلصين له الدين) أي كائنين على صورة المخلصين لدينهم من المؤمنين حيث لا يدعون غير الله تعالى لعلمهم بانه لا يكشف الشدائد عنهم الا هو (فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) أي فاجؤا المعاودة الى الشرك (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) أي يفاجؤن الاشراك ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة الانجاء التي حقها أن يشكروها (فسوف يعلمون) أي عاقبة ذلك وغائلته حين يرون العذاب (أولم يروا) أي ألم ينظروا ولم يشاهدوا (أنا جعلنا) أي بلدهم (حرما آمنا) مصونا من النهب والتعدي سالما أهله من كل سوء (ويتخطف الناس من حولهم) أي والحال أنهم يختلسون من حولهم قتلا وسبيا اذ كانت العرب حوله في تغاور وتناهب (أفبالباطل يؤمنون) أي أبعد ظهور الحق الذي لا ريب فيه بالباطل خاصة يؤمنون دون الحق (وبنعمة الله يكفرون) وهي المستوجبة للشكر حيث يشركون به غيره وتقديم الصلة في الموضعين لاظهار كمال شناعة ما فعلوا (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بان

من أمهات قصائد فلان ومن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر والانذار التخويف فان قيل فظاهر اللفظ يقتضي ان الله تعالى انما أوحى اليه لينذر أهل مكة وأهل القرى المحيطة بمكة وهذا يقتضي أن يكون رسولا اليهم فقط وأن لا يكون رسولا الى كل العالمين (والجواب) ان التخصيص بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما سواه فهذه الآية تدل على كونه رسولا الى هؤلاء خاصة وقوله وما أرسلناك الا كافة للناس يدل على كونه رسولا الى كل العالمين وأيضا لما ثبت كونه رسولا الى أهل مكة وجب كونه صادقا ثم انه نقل الينا بالتواتر أنه كان يدعي أنه رسول الى كل العالمين والصادق اذا أخبر عن شيء وجب تصديقه فيه فثبت انه رسول الى كل العالمين ثم قال تعالى وتنذر يوم الجمع الاصل أن يقال أنذرت فلانا بكذا فكان الواجب أن يقال لتنذر أم القرى بيوم الجمع وأيضا فيه اضمار والتقدير لتنذر أهل أم القرى بعذاب يوم الجمع وفي تسميته بيوم الجمع وجوه (الاول) ان الخلائق يجمعون فيه قال تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع فيجتمع فيه أهل السموات مع أهل الارض (الثاني) أنه يجمع بين الارواح والاجساد (الثالث) يجمع بين كل عامل وعمله (الرابع) يجمع بين الظالم والمظلوم وقوله لا ريب فيه صفة ليوم الجمع الى يوم الجمع الذي لا ريب فيه وقوله فريق في الجنة وفريق في السعير تقديره ليوم الجمع الذي من صفته يكون القوم فيه فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير فان قيل قوله يوم الجمع يقتضي كون القوم مجتمعين وقوله فريق في الجنة وفريق في السعير يقتضي كونهم متفرقين والجمع بين الصفتين محال قلنا انهم يجتمعون أولا ثم يصيرون فريقين ثم قال ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة والمراد تقرير قوله والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل أي لا يكن في قدرتك أن تحملهم على الايمان فلو شاء الله ذلك لفعله لانه أقدر منك ولكنه جعل البعض مؤمنا والبعض كافرا فقوله يدخل من يشاء في رحمته يدل على انه تعالى هو الذي أدخلهم في الايمان والطاعة وقوله والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير يعني أنه تعالى ما أدخلهم في رحمته وهذا يدل على ان الاولين انما دخلوا في رحمته لانه كان لهم ولي ونصير أدخلهم في تلك الرحمة وهؤلاء ما كان لهم ولي ولا نصير يدخلهم في رحمته ثم قال تعالى أم اتخذوا من دونه أولياء والمعنى انه تعالى حكى عنهم أولا أنهم اتخذوا من دونه أولياء ثم قال بعده لمحمد صلى الله عليه وسلم لست عليهم رقيبا ولا حافظا ولا يجب عليك أن تحملهم على الايمان شاؤا أم أبوا فان هذا المعنى لو كان واجبا لفعله الله لانه أقدر منك ثم انه تعالى أعاد بعده ذلك الكلام على سبيل الاستنكار فقوله أم اتخذوا من دونه أولياء استفهام على سبيل الانكار ثم قال تعالى فالله هو الولي والفاء في قوله فالله هو الولي جواب شرط مقدر كأنه قال ان أرادوا أولياء بحق فالله هو الولي بالحق لا ولي سواه لانه يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير فهو الحقيق بأن يتخذ وليا دون من لا يقدر على شيء ثم قال وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وجه النظم انه تعالى كما منع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحمل الكفار على الايمان قهرا فكذلك منع المؤمنين أن يشرعوا معهم في الخصومات والمنازعات فقال وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله وهو اثابة المحقين فيه ومعاقبة المبطلين وقيل وما اختلفتم فيه من شيء وتنازعتم فتحاكموا فيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تؤثروا حكومة غيره على حكومته وقيل وما وقع بينكم فيه خلاف من الامور التي لا تتصل بتكليفكم ولا طريق لكم الى علمه كحقيقة الروح فقولوا الله أعلم به قال تعالى ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي (المسئلة الثانية) تقدير الآية كأنه تعالى قال قل يا محمد وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله والدليل عليه قوله تعالى ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه أنيب (المسئلة الثالثة) احتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا قوله تعالى وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله اما أن يكون المراد فحكمه مستفاد من نص الله عليه أو المراد فحكمه مستفاد من القياس على ما نص الله عليه والثاني باطل لانه يقتضي كون كل الاحكام مثبتة بالقياس وانه باطل فتعين الاول فوجب كون كل الاحكام مثبتة بالنص وذلك ينفي العمل بالقياس وللقائل أن يقول لم لا يجوز أن يكون المراد فحكمه

زعم أن له شريكا أى هو أظلم من كل ظالم وان كان سبك النظم دالا على نفى الاظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا (أو كذب بالحق لما جاءه)
أى بالرسول أو بالقرآن وفى لما تسفيه لهم بانهم لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين جاءهم بل سارعوا الى التكذيب آثر ذى أثير (أليس فى جهنم
مثوى للكافرين) تقرير لثوائهم فيها كقول من قال

* ألستم خير من ركب المطايا *

أى ألا يستوجبون الثواء فيها وقد فعلوا ما فعلوا من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بالحق الصريح أو انكار واستبعاد لاجترائهم على ماذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة أى ألم يعلموا أن فى جهنم مثوى للكافرين حتى اجترؤا هذه الجراءة (والذين جاهدوا فينا) أى فى شأننا ولوجهنا خالصا أطلق المجاهدة ليعم جهاد الاعادى الظاهرة والباطنة (لنهدينهم سبلنا) سبل السير الينا والوصول الى جنابنا أو لنزيدنهم هداية الى سبل الخير وتوفيقا لسلوكها كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وفى الحديث من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم (وان الله لمع المحسنين) معية النصر والمعونة * عنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة العنكبوت كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين

* (سورة الروم مكية الاقوله فسبحان الله الآية وهى ستون أو تسع وخمسون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الم) الكلام فيه كالذى مر فى أمثاله من الفواتح الكريمة (غلبت الروم فى أدنى الارض) أى أدنى أرض العرب منهم اذهى الارض المعهودة عندهم وهى أطراف الشام أو فى أدنى أرضهم من العرب على أن اللام عوض عن المضاف اليه قال مجاهد هى أرض الجزيرة وهى
أدنى أرض الروم الى فارس وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما الاردن وفلسطين وقرئ أدانى الارض (وهم) أى
الروم (من بعد غلبهم) أى من بعد مغلوبيتهم وقرئ بسكون اللام وهى لغة كالجلب والجلب (سيغلبون) أى سيغلبون فارس (فى بضع سنين)

يعرف من بيان الله تعالى سواء كان ذلك البيان بالنص أو بالقياس أجيب عنه بأن المقصود من التحاكم الى الله قطع الاختلاف والرجوع الى القياس يقوى حكم الاختلاف ولا يوضحه فوجب أن يكون الواجب هو الرجوع الى نصوص الله تعالى ثم قال تعالى ذلكم الله ربى أى ذلكم الحاكم بينكم هو ربى عليه توكلت فى دفع كيد الاعداء وفى طلب كل خير واليه أنيب أى واليه أرجع فى كل المهمات وقوله عليه توكلت يفيد الحصر أى لا أتوكل الا عليه وهو اشارة الى تزييف طريقة من اتخذ غير الله وليا ثم قال فاطر السموات والارض قرئ بالرفع والجر فالرفع على أنه خبر ذلكم أو خبر مبتدا محذوف والجر على تقدير أن يكون الكلام هكذا وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله فاطر السموات والارض وقوله ذلكم الله ربى اعتراض وقع بين الصفة والموصوف جعل لكم من أنفسكم من جنسكم من الناس أزواجا ومن الانعام أزواجا أى خلق من الانعام أزواجا ومعناه وخلق أيضا للانعام من أنفسها أزواجا يذرؤكم يكثركم يقال ذرأ الله الخلق أى كثرهم وقوله فيه أى فى هذا التدبير وهو التزويج وهو أن جعل الناس والانعام أزواجا حتى كان بين ذكورهم واناثهم التوالد والتناسل والضمير فى يذرؤكم يرجع الى المخاطبين الا انه غلب فيه جانب الناس من وجهين (الاول) انه غلب فيه جانب العقلاء على غير العقلاء (والثانى) انه غلب فيه جانب المخاطبين على الغائبين فان قيل مامعنى يذرؤكم فى هذا التدبير ولم يقل يذرؤكم به قلنا جعل هذا التدبير كالمنبع والمعدن لهذا التكثير ألا ترى انه يقال للحيوان فى خلق الازواج تكثير كما قال تعالى ولكم فى القصاص حياة ثم قال تعالى ليس كمثله شئ وهو السميع البصير وهذه الآية فيها مسائل (المسئلة الاولى) احتج علماء التوحيد قديما وحديثا بهذه الآية فى نفى كونه تعالى جسما مركبا من الاعضاء والاجزاء وحاصلا فى المكان والجهة وقالوا لو كان جسما لكان مثلا لسائر الاجسام فيلزم حصول الامثال والاشباه له وذلك باطل بصريح قوله تعالى ليس كمثله شئ ويمكن ايراد هذه الحجة على وجه آخر فيقال اما أن يكون المراد ليس كمثله شئ فى ماهيات الذات أو أن يكون المراد ليس كمثله فى الصفات شئ والثانى باطل لان العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما ان الله تعالى يوصف بذلك وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين مع ان الله تعالى يوصف بذلك فثبت ان المراد بالمماثلة المساواة فى حقيقة الذات فيكون المعنى ان شيأ من الذوات لا يساوى الله تعالى فى الذاتية فلو كان الله تعالى جسما لكان كونه جسما ذاتا لا صفة فاذا كان سائر الاجسام مساوية له فى الجسمية أعنى فى كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة فحينئذ تكون سائر الاجسام مماثلة لذات الله تعالى فى كونه ذاتا والنص ينفى ذلك فوجب أن لا يكون جسما واعلم أن محمد بن اسحق بن خزيمة اورد استدلال أصحابنا بهذه الآية فى الكتاب الذى سماه بالتوحيد وهو فى الحقيقة كتاب الشرك واعترض عليها وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات لانه كان رجلا مضطرب الكلام قليل الفهم ناقص العقل فقال نحن نثبت لله وجها ونقول ان لوجه ربنا من النور والضياء والبهاء مالو كشف حجابه لاحرقت سبحات وجهه كل شئ أدركه بصره ووجه ربنا منفى عنه الهلاك والفناء ونقول ان لبنى آدم وجوها كتب الله عليها الهلاك والفناء ونفى عنها الجلال والاكرام غير موصوفة بالنور والضياء والبهاء ولو كان مجرد اثبات الوجه لله يقتضى التشبيه لكان من قال ان لبنى آدم وجوها وللخنازير والقردة والكلاب وجوها لكان قد شبه وجوه بنى آدم بوجوه الخنازير والقردة والكلاب ثم قال ولا شك انه اعتقاد الجهمية لانه لو قيل له وجهك يشبه وجه الخنازير والقردة لغضب ولشافهه بالسوء فعلمنا انه لا يلزم من اثبات الوجه واليدين لله اثبات التشبيه بين الله وبين خلقه وذكر فى فصل آخر من هذا الكتاب ان القرآن دل على وقوع التسوية بين ذات الله تعالى وبين خلقه فى صفات كثيرة ولم يلزم منها أن يكون القائل بها مشبها فكذا ههنا ونحن نعد الصور التى ذكرها على الاستقصاء (فالاول) انه تعالى قال فى هذه الآية وهو السميع البصير وقال فى حق الانسان فجعلناه سميعا بصيرا (الثانى) قال وقل اعملوا فسيرى الله عملكم

ورسوله

ورسوله وقال فى حق المخلوقين أولم يروا الى الطير مسخرات فى جو السماء (الثالث) قال واصنع الفلك بأعيننا واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وقال فى حق المخلوقين ترى أعينهم تفيض من الدمع (الرابع) قال لابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى وقال بل يداه مبسوطتان وقال فى حق المخلوقين ذلك بما قدمت أيديكم ذلك بما قدمت يداك ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم (الخامس) قال تعالى الرحمن على العرش استوى وقال فى الذين يركبون الدواب لتستووا على ظهوره وقال فى سفينة نوح واستوت على الجودى (السادس) سمى نفسه عزيزا فقال العزيز الجبار ثم ذكر هذا الاسم فى حق المخلوقين بقوله يا أيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر (السابع) سمى نفسه بالملك وسمى بعض عبيده أيضا بالملك فقال وقال الملك ائتونى به وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال رب العرش العظيم وسمى نفسه بالجبار المتكبر وأوقع هذا الاسم على المخلوق فقال كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ثم طول فى ضرب الامثلة من هذا الجنس وقال ومن وقف على الامثلة التى ذكرناها أمكنه الاكثار منها فهذا ما أورده هذا الرجل فى هذا الكتاب وأقول هذا المسكين الجاهل انما وقع فى أمثال هذه الخرافات لانه لم يعرف حقيقة المثلين وعلماء التوحيد حققوا الكلام فى المثلين ثم فرعوا عليه الاستدلال بهذه الآية فنقول المثلان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر فى حقيقته وماهيته وتحقيق الكلام فيه مسبوق بمقدمة أخرى فنقول المعتبر فى كل شئ اما تمام ماهيته واما جزء من أجزاء ماهيته واما أمر خارج عن ماهيته ولكنه يكون من لوازم تلك الماهية واما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية وهذا التقسيم مبنى على الفرق بين ذات الشئ وبين الصفات القائمة به وذلك معلوم بالبديهة فانا نرى الحبة من الحصرم كانت فى غاية الخضرة والحموضة ثم صارت فى غاية السواد والحلاوة فالذات باقية والصفات مختلفة والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة وأيضا نرى الشعر قد كان فى غاية السواد ثم صار فى غاية البياض فالذات باقية والصفات متبدلة والباقى غير المتبدل فظهر بما ذكرنا ان الذوات مغايرة للصفات اذا عرفت هذا فنقول اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات البتة لانا نرى الجسم الواحد كان ساكنا ثم يصير متحركا ثم يسكن بعد ذلك فالذوات باقية فى الاحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد والصفات متعاقبة متزايلة فثبت بهذا ان اختلاف الصفات والاعراض لا يوجب اختلاف الذوات اذا عرفت هذا فنقول الاجسام التى منها تألف وجه الكلب والقرد مساوية للاجسام التى تألف منها وجه الانسان والفرس وانما حصل الاختلاف بسبب الاعراض القائمة وهى الالوان والاشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصولها فالاختلاف انما وقع بسبب الاختلاف فى الصفات والاعراض فاما ذوات الاجسام فهى متماثلة الا ان العوام لا يعرفون الفرق بين الذوات وبين الصفات فلا جرم يقولون ان وجه الانسان مخالف لوجه الحمار ولقد صدقوا فانه حصلت تلك المخالفة بسبب الشكل واللون وسائر الصفات فاما الاجسام من حيث انها أجسام فهى متماثلة متساوية فثبت ان الكلام الذى أورده انما ذكره لاجل انه كان من العوام وما كان يعرف ان المعتبر فى التماثل والاختلاف حقائق الاشياء وماهياتها لا الاعراض والصفات القائمة بها بقى ههنا ان يقال فما الدليل على ان الاجسام كلها متماثلة فنقول لنا ههنا مقامان (المقام الاول) أن نقول هذه المقدمة اما أن تكون مسلمة أولا تكون مسلمة فان كانت مسلمة فقد حصل المقصود وان كانت ممنوعة فنقول فلم لا يجوز أن يقال اله العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسى ويكون ذلك الجسم مخالفا الماهية سائر الاجسام فكان هو قديما أزليا واجب الوجود وسائر الاجسام محدثة مخلوقة ولو أن الاولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الالزام عن المجسمة لا يقدرون عليه فان قالوا هذا باطل لان القرآن دل على أن الشمس والقمر والافلاك كلها محدثة مخلوقة فيقال هذا من باب الحماقة المفرطة لان

روى أن فارس غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى وقيل بالجزيرة كما مر فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر اخواننا على اخوانكم فلنظهرن عليكم فقال أبو بكر رضى الله عنه لا يقرر الله أعينكم فوالله ليظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين فقال له أبى ابن خلف اللعين كذبت اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه فناحبه على عشر قلائص من كل منهما وجعلا الاجل ثلاث سنين فاخبر به أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البضع ما بين الثلاث الى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الاجل فجعلاها مائة قلوص الى تسع سنين ومات أبى من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وظهرت الروم على فارس عند رأس سبع سنين وذلك يوم الحديبية وقيل كان النصر للفريقين يوم بدر فاخذ أبو بكر الخطر من ذرية أبى فجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به وكان ذلك قبل تحريم القمار وهذه الآيات من البينات الباهرة الشاهدة بصحة النبوة وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبرت عن الغيب الذى لا يعلمه الا العليم الخبير وقرئ غلبت على البناء للفاعل وسيغلبون على البناء للمفعول والمعنى ان الروم غلبت على ريف الشأم وسيغلبهم المسلمون وقد غزاهم المسلمون فى السنة التاسعة من نزولها ففتحوا بعض بلادهم فاضافة الغلب حينئذ الى الفاعل (لله الامر من قبل ومن بعد) أى فى أول الوقتين وفى آخرهما حين غلبوا وحين يغلبون كأنه قيل من قبل كونهم غالبين وهو وقت كونهم مغلوبين ومن بعد كونهم مغلوبين وهو وقت كونهم غالبين والمعنى أن كلا من كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخرا ليس الا بأمر الله تعالى وقضائه وتلك الايام نداولها بين الناس وقرئ من قبل ومن بعد بالجر من غير تقدير مضاف اليه واقتطاعه كأنه قيل قبلا وبعدا بمعنى أولا وآخرا (ويومئذ) أى يوم اذ يغلب الروم على فارس ويحل ما وعده الله تعالى من غلبتهم (يفرح المؤمنون بنصر الله) وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب

له وغيظ من شمت بهم من كفار مكة وكون ذلك من دلائل غلبة المؤمنين على الكفار وقيل نصر الله اظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين
من غلبة الروم على فارس وقيل نصره تعالى انه (٢٦٦) ولى بعض الظالمين بعضا وفرق بين كلمتهم حتى تناقصوا وتفانوا وفل كل منهما شوكة الآخر
وفى ذلك قوة وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه وافق ذلك يوم بدر وفيه من نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك ما لا يخفى والاول هو الانسب لقوله تعالى (ينصر من يشاء) أى من يشاء أن ينصره من عباده على عدوه ويغلبه عليه فانه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لله الامر من قبل ومن بعد (وهو العزيز) المبالغ فى العزة والغلبة فلا يعجزه من يشاء أن ينصر عليه كائنا من كان (الرحيم) المبالغ فى الرحمة فينصر من يشاء أن ينصره أى فريق كان والمراد بالرحمة هى الدنيوية أما على القراءة المشهورة فظاهر لما أن كلا الفريقين لا يستحق الرحمة الاخروية واما على القراءة الاخيرة فلان المسلمين وان كانوا مستحقين لها لكن المراد ههنا نصرهم الذى هو من آثار الرحمة الدنيوية وتقديم وصف العزة لتقدمه فى الاعتبار (وعد الله) مصدر مؤكد لنفسه لان ما قبله فى معنى الوعد كأنه قيل وعد الله وعدا (لا يخلف الله وعده) أى وعد كان مما يتعلق بالدنيا والآخرة لاستحالة الكذب عليه سبحانه واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتعليل الحكم وتفخيمه والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر وقد جوز أن تكون حالا منه فيكون كالمصدر الموصوف كأنه قيل وعد الله وعدا غير مخلف (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى ما سبق من شؤنه تعالى (يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا) وهو ما يشاهدونه من
زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لاهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعكوفهم عليها الا تمتعهم وذلك
بزخارفها وتنعمهم بملاذها كما قيل فانهم ما ليسا بما علموه منها بل من أفعالهم المترتبة على علومهم وتنكير ظاهرا للتحقير والتخسيس دون الوحدة

صحة القرآن وصحة نبوة الانبياء مفرعة على معرفة الاله فاثبات معرفة الاله بالقرآن وقول النبى لا يقوله عاقل يفهم ما يتكلم به (والمقام الثانى) ان علماء الاصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الاجسام فى الذوات والحقيقة واذا ثبت هذا ظهر انه لو كان اله العالم جسما لكانت ذاته مساوية لذوات الاجسام الا ان هذا باطل بالعقل والنقل اما العقل فلان ذاته اذا كانت مساوية لذوات سائر الاجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الاجسام فيلزم كونه محدثا مخلوقا قابلا للعدم والفناء قابلا للتفرق والتمزق واما النقل فقوله تعالى ليس كمثله شئ فهذا تمام الكلام فى تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر انا لا نقول بانه متى حصل الاستواء فى الصفة لزم حصول الاستواء فى تمام الحقيقة الا انا نقول لما ثبت ان الاجسام متماثلة فى تمام الماهية فلو كانت ذاته جسما لكان ذلك الجسم مساويا لسائر الاجسام فى تمام الماهية وحينئذ يلزم أن يكون كل جسم مثلا له لما بينا ان المعتبر فى حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هى هى لا اعتبار الصفات القائمة بها فظهر بالتقرير الذى ذكرناه أن حجة أهل التوحيد فى غاية القوة وان هذه الكلمات التى أوردها هذا الانسان انما أوردها لانه كان بعيدا عن معرفة الحقائق يجرى على منهج كلمات العوام فاغتر بتلك الكلمات التى ذكرها ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة (المسئلة الثانية) فى ظاهر هذه الآية اشكال فانه يقال المقصود منها نفى المثل عن الله تعالى وظاهرها يوجب اثبات المثل لله فانه يقتضى نفى المثل عن مثله لا عنه وذلك يوجب اثبات المثل لله تعالى وأجاب العلماء عنه بان قالوا ان العرب تقول مثلك لا يبخل أى أنت لا تبخل فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عنه ويقول الرجل هذا الكلام لا يقال لمثلى أى لا يقال لى قال الشاعر * ومثلى كمثل جذوع النخيل * والمراد منه المبالغة فانه اذا كان ذلك الحكم منتفيا عمن كان مشابها بسبب كونه مشابها له فلان يكون منتفيا عنه كان ذلك أولى ونظيره قولهم سلام على المجلس العالى والمقصود ان سلام الله اذا كان واقعا على مجلسه وموضعه فلان يكون واقعا عليه كان ذلك أولى فكذا ههنا قوله تعالى ليس كمثله شئ والمعنى ليس كهو شئ على سبيل المبالغة من الوجه الذى ذكرناه وعلى هذا التقدير فلم يكن هذا اللفظ ساقطا عديم الاثر بل كان مفيدا للمبالغة من الوجه الذى ذكرناه وزعم جهم بن صفوان أن المقصود من هذه الآية بيان انه تعالى ليس مسمى باسم الشئ قال لان كل شئ فانه يكون مثلا لمثل نفسه فقوله ليس كمثله شئ معناه ليس مثل مثله شئ وذلك يقتضى أن لا يكون هو مسمى باسم الشئ وعندى فيه طريقة أخرى وهى ان المقصود من ذكر الجمع بين حرفى التشبيه الدليل الدال على كونه منزها عن المثل وتقريره أن يقال لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه وهذا محال فاثبات المثل له محال أما بيان انه لو كان له مثل لكان هو مثل نفسه فالامر فيه ظاهر وأما بيان ان هذا محال فلانه لو كان مثل مثل نفسه لكان مساويا لمثله فى تلك الماهية ومباينا له فى نفسه وما به المشاركة غير ما به المباينة فتكون ذات كل واحد منهما مركبا وكل مركب ممكن فثبت انه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان هو فى نفسه واجب الوجود اذا عرفت هذا فقوله ليس مثل مثله شئ اشارة الى انه لو صدق عليه انه مثل مثل نفسه لما كان هو شيأ بناء على ما بينا انه لو حصل لواجب الوجود مثل لما كان واجب الوجود فهذا ما يحتمله اللفظ (المسئلة الثالثة) هذه الآية دالة على نفى المثل وقوله تعالى وله المثل الاعلى يقتضى اثبات المثل فلا بد من الفرق بينهما فنقول المثل هو الذى يكون مساويا للشئ فى تمام الماهية والمثل هو الذى يكون مساويا له فى بعض الصفات الخارجة عن الماهية وان كان مخالفا فى تمام الماهية (المسئلة الرابعة) قوله وهو السميع البصير يدل على كونه تعالى سامعا للمسموعات مبصرا للمرئيات فان قيل يمتنع اجراء هذا اللفظ على ظاهره وذلك لانه اذا حصل قرع أو قلع انقلب الهواء من بين ذينك الجسمين انقلابا بعنف فيتموج الهواء بسبب ذلك ويتأدى ذلك التموج الى سطح الصماخ فهذا هو السماع واما الابصار فهو عبارة عن تأثر الحدقة بصورة المرئى فثبت أن السمع والبصر عبارة عن تأثر الحاسة

وذلك على الله محال فثبت ان اطلاق السمع والبصر على علمه تعالى بالمسموعات والمبصرات غير جائز (والجواب) الدليل على أن السماع مغاير لتأثر الحاسة انا اذا سمعنا الصوت علمنا انه من أى الجوانب جاء فعلمنا انا أدركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت فى نفسه وهذا يدل على ان ادراك الصوت حالة مغايرة لتأثر الصماخ عن تموج ذلك الهواء وأما الرؤية فالدليل على انها حالة مغايرة لتأثر الحدقة فذلك لان نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه فنقول الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية فى نفس العالم عظيمة وهذا يدل على ان الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع واذا ثبت هذا فنقول لا يلزم من امتناع التأثر فى حق الله امتناع السمع والبصر فى حقه فان قالوا هب ان السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة الا أن حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر فلما كان حصول ذلك التأثر فى حق الله تعالى ممتنعا كان حصول السمع والبصر فى حق الله ممتنعا فنقول ظاهر قوله وهو السميع البصير يدل على كونه سميعا بصيرا فلم يجز لنا أن نعدل عن هذا الظاهر الا اذا قام الدليل على أن الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر والتأثر فى حق الله تعالى ممتنع فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعا وأنتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم الدلالة على حصوله وانا نحن متمسكون بظاهر اللفظ الى أن تذكروا ما يوجب العدول عنه فان قال قائل قوله وهو السميع البصير يفيد الحصر فما معنى هذا الحصر مع أن العباد أيضا موصوفون بكونهم سميعين بصيرين فنقول السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال والكمال فى كل الصفات ليس الا لله فهذا هو المراد من هذا الحصر أما قوله تعالى له مقاليد السموات والارض فاعلم أن المراد من الآية انه تعالى فاطر السموات والارض والاصنام ليست كذلك وأيضا فهو خالق أنفسنا وأزواجنا وخالق أولادنا منا ومن أزواجنا والاصنام ليست كذلك وأيضا فله مقاليد السموات والارض والاصنام ليست كذلك والمقصود من الكل بيان القادر المنعم الكريم الرحيم فكيف يجوز جعل الاصنام التى هى جمادات مساوية له فى المعبودية فقوله له مقاليد السموات والاض يريد مفاتيح الرزق من السموات والارض فمقاليد السموات الامطار ومقاليد الارض النبات وذكرنا تفسير المقاليد فى سورة الزمر عند قوله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لان مفاتيح الارزاق بيده انه بكل شئ من البسط والتقدير عليم ۞ قوله تعالى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا ان الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز﴾ اعلم انه تعالى لما عظم وحيه الى محمد صلى الله عليه وسلم بقوله كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ذكر فى هذه الآية تفصيل ذلك فقال شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والمعنى شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحا ومحمدا وابراهيم وموسى وعيسى هذا هو المقصود من لفظ الآية وانما خص هؤلاء الانبياء الخمسة بالذكر لانهم أكابر الانبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والاتباع الكثيرة الا انه بقى فى لفظ الآية اشكالات (أحدها) انه قال فى أول الآية ما وصى به نوحا وفى آخرها وما وصينا به ابراهيم وفى الوسط والذى أوحينا

كأنهم أى يعلمون ظاهرا حقيرا خسيسا من الدنيا (وهم عن الآخرة) التى هى الغاية القصوى والمطلب الاسنى (هم غافلون) لا يخطرونها بالبال ولا يدركون من الدنيا ما يؤدى الى معرفتها من أحوالها ولا يتفكرون فيها كما سيأتى والجملة معطوفة على يعلمون وايرادها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها وهم الثانية تكرير للاولى أو مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر للاولى وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة تقريرا لجهلهم وتشبيها لهم بالبهائم المقصور ادراكاتها من الدنيا على ظواهرها الخسيسة دون أحوالها التى هى مبادى العلم بأمور الآخرة واشعارا بأن العلم المذكور وعدم العلم رأسا سيان (أولم يتفكروا) انكار واستقباح لقصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (فى أنفسهم) ظرف للتفكر وذكره مع ظهور استحالة كونه فى غيرها لتحقيق أمره وتصوير حال المتفكرين وقوله تعالى (ما خلق الله السموات والارض وما بينهما) الخ متعلق اما بالعلم الذى يؤدى اليه التفكر ويدل عليه أو بالقول الذى يترتب عليه كما فى قوله تعالى ويتفكرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا أى أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر عليه ولم يحدثوا التفكر فى قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ما خلقهما وما بينهما من المخلوقات التى هم من جملتها ملتبسة بشئ من الاشياء (الا) ملتبسة (بالحق) أو يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه اثر ما علموه والمراد بالحق هو الثابت الذى يحق أن يثبت لا محالة لابتنائه على الحكمة البالغة والغرض الصحيح الذى هو استشهاد المكلفين بذواتها وصفاتها وأحوالها المتغيرة على وجود صانعها عز وجل ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته واختصاصه بالمعبودية وصحة أخباره التى من جملتها احياؤهم بعد الفناء بالحياة الابدية ومجازاتهم بحسب أعمالهم غب ما تبين المحسن من المسئ وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين

اليك فما الفائدة في هذا التفاوت (وثانيها) انه ذكر نوحا عليه السلام على سبيل الغيبة فقال ماوصى به نوحا والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال والذى أوحينا اليك وماوصينا به ابراهيم (وثالثها) انه يصير تقدير الآية شرع الله لكم من الدين الذى أوحينا اليك فقوله شرع لكم خطاب الغيبة وقوله والذى أوحينا اليك خطاب الحضور فهذا يقتضى الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور فى الكلام الواحد بالاعتبار الواحد وهو مشكل فهذه المضائق يجب البحث عنها والقوم ماداروا حولها وبالجملة فالمقصود من الآية انه يقال شرع لكم من الدين دينا تطابقت الانبياء على صحته وأقول يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيأ مغايرا للتكاليف والاحكام وذلك لانها مختلفة متفاوتة قال تعالى لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا فيجب أن يكون المراد منه الامور التى لا تختلف باختلاف الشرائع وهى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والايمان يوجب الاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة والسعى فى مكارم الاخلاق والاحتراز عن رذائل الاحوال ويجوز عندى أن يكون المراد من قوله ولا تتفرقوا أى لا تتفرقوا بالآلهة الكثيرة كما قال يوسف عليه السلام أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار وقال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون واحتج بعضهم بقوله شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا على أن النبى صلى الله عليه وسلم فى أول الامر كان مبعوثا بشريعة نوح عليه السلام والجواب ماذكرناه انه عطف عليه سائر الانبياء وذلك يدل على ان المراد هو الاخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل ومحل أن أقيموا الدين اما نصب بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه واما رفع على الاستئناف كأنه قيل ماذاك المشروع فقيل هو اقامة الدين كبر على المشركين عظم عليهم وشق عليهم ماتدعوهم اليه من اقامة دين الله تعالى على سبيل الاتفاق والاجماع بدليل ان الكفار قالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا الشئ عجاب وههنا مسائل (المسئلة الاولى) احتج نفاة القياس بهذه الآية قالوا انه تعالى اخبر أن اكابر الانبياء أطبقوا على انه يجب اقامة الدين بحيث لا يفضى الى الاختلاف والتنازع والله تعالى ذكر فى معرض المنة على عباده انه أرشدهم الى الدين الخالى عن التفرق والمخالفة ومعلوم أن فتح باب القياس يفضى الى أعظم أنواع التفرق والمنازعة فان الحس شاهد بان هؤلاء الذين بنوا دينهم على الاخذ بالقياس تفرقوا تفرقا لا رجاء فى حصول الاتفاق بينهم الى آخر القيامة فوجب أن يكون ذلك محرما ممنوعا عنه (المسئلة الثانية) هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع على قسمين منها ماىمتنع دخول النسخ والتغيير فيه بل يكون واجب البقاء فى جميع الشرائع والاديان كالقول بحسن الصدق والعدل والاحسان والقول بقبح الكذب والظلم والايذاء ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والاديان ودلت هذه الآية على أن سعى الشرع فى تقرير النوع الاول أقوى من سعيه فى تقرير النوع الثانى لان المواظبة على القسم الاول مهمة فى اكتساب الاحوال المفيدة لحصول السعادة فى الدار الآخرة (المسئلة الثالثة) قوله تعالى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب فى الشرع والعقل وبيان منفعته من وجوه (الاول) ان للنفوس تأثيرات واذا تطابقت النفوس وتوافقت على شئ واحد قوى التأثير (الثانى) انها اذا توافقت صار كل واحد منها معينا للآخر فى ذلك المقصود المعين وكثرة الاعوان توجب حصول المقصود أما اذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت فلا يحصل المقصود (الثالث) ان حصول التنازع ضد مصلحة العالم لان ذلك يفضى الى الهرج والمرج والقتل والنهب فلهذا السبب أمر الله تعالى فى هذه الآية باقامة الدين على وجه لا يفضى الى التفرق وقال فى آية أخرى ولا تنازعوا فتفشلوا ثم قال تعالى الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب وفيه وجهان (الاول) انه تعالى لما أرشد أمة محمد صلى الله عليه وسلم الى التمسك بالدين المتفق عليه بين أنه تعالى انما أرشدهم الى هذا الخير لانه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة (الثانى) انه انما كبر

حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب فى المصنوعات من الآيات والدلائل والامارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله وقدم تحقيقه فى أوائل سورة هود عليه السلام وقوله تعالى (وأجل مسمى) عطف على الحق أى وبأجل معين قدره الله تعالى لبقائها لا بد لها من أن تنتهى اليه لا محالة وهو وقت قيام الساعة هذا وقد جوز أن يكون قوله تعالى فى أنفسهم صلة للتفكر على معنى أولم يتفكروا فى أنفسهم التى هى أقرب المخلوقات اليهم وهم أعلم بشؤنها وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ماعداها فيتدبروا ما أودعها الله تعالى ظاهرا وباطنا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الاهمال وأنه لا بد لها من انتهاء الى وقت يجازيها فيه الحكيم الذى دبر أمرها على الاحسان احسانا وعلى الاساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لا بد لها من الانتهاء الى ذلك الوقت وأنت خبير بأن أمر معاد الانسان ومجازاته بما عمل من الاساءة والاحسان هو المقصود بالذات والمحتاج الى الاثبات فجعله ذريعة الى اثبات معاد ماعداه مع كونه بمعزل من الجزاء تعكيس للامر فتدبر وقوله تعالى (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) تذييل مقرر لما قبله ببيان أن أكثرهم غير مقتصرين على ماذكر من الغفلة عن أحوال الآخرة والاعراض عن التفكر فيما يرشدهم الى معرفتها من خلق السموات والارض ومابينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث (أولم يسيروا عليهم

توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم والهمزة لتقرير المنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى

عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبرا وأنفة فبين تعالى انه يخص من يشاء بالرسالة ويلزم الانقياد لهم ولا يعتبر الحسب والنسب والغنى بل الكل سواء في انه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع فمنه جبى الخراج واجتباء وجبى الماء في الحوض فقوله الله يجتبي اليه أي يضمه اليه ويقربه منه تقريب الاكرام والرحمة وقوله من يشاء كقوله تعالى يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ثم قال ويهدي اليه من ينيب وهو كما روي في الخبر من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة أي من أقبل الي بطاعته أقبلت اليه بهدايتي وارشادي بان أشرح له صدره وأسهل أمره واعلم أنه تعالى لما بين انه أمر كل الانبياء والامم بالاخذ بالدين المتفق عليه كان لقائل أن يقول فلماذا نجدهم متفرقين فأجاب الله تعالى عنهم بقوله وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم يعني انهم ما تفرقوا الا من بعد أن علموا أن الفرقة ضلالة ولكنهم فعلوا ذلك للبغي وطلب الرياسة فحملتهم الحمية النفسانية والانفة الطبيعية على ان ذهب كل طائفة الى مذهب ودعا الناس اليه وقبح ما سواه طلبا للذكر والرياسة فصار ذلك سببا لوقوع الاختلاف ثم أخبر تعالى انهم استحقوا العذاب بسبب هذا الفعل الا انه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب لان لكل عذاب عنده أجلا مسمى أي وقتا معلوما اما لمحض المشيئة كما هو قولنا أو لانه علم أن الصلاح تحقيقه به كما عند المعتزلة وهو معنى قوله ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضي بينهم والاجل المسمى قد يكون في الدنيا وقد يكون في القيامة واختلفوا في الذين أريدوا بهذه الصفة من هم فقال الاكثرون هم اليهود والنصارى والدليل عليه قوله تعالى في آل عمران وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم وقال في سورة لم يكن وما تفرق الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة ولان قوله الا من بعد ما جاءهم العلم لائق بأهل الكتاب وقال آخرون انهم هم العرب وهذا باطل للوجوه المذكورة لان قوله تعالى بعد هذه الآية وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لا يليق بالعرب لان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم هم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لفي شك من كتابهم لا يؤمنون به حق الايمان ثم قال تعالى فلذلك فادع واستقم كما أمرت يعني فلاجل ذلك التفرق ولاجل ما حدث من الاختلافات الكثيرة في الدين فادع الى الاتفاق على الملة الحنيفية واستقم عليها وعلى الدعوة اليها كما أمرك الله ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب أي بأي كتاب صح ان الله أنزله يعني الايمان بجميع الكتب المنزلة لان المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ونظيره قوله نؤمن ببعض ونكفر ببعض الى قوله أولئك هم الكافرون ثم قال وأمرت لاعدل بينكم أي في الحكم اذا تخاصمتم فتحاكمتم الي قال القفال معناه ان ربي أمرني أن لا أفرق بين نفسي وأنفسكم بأن آمركم بما لا أعمله أو أخالفكم الى ما نهيتكم عنه لكني أسوي بينكم وبين نفسي وكذلك أسوي بين أكابركم وأصاغركم فيما يتعلق بحكم الله ثم قال الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير والمعنى ان اله الكل واحد وكل واحد مخصوص بعمل نفسه فوجب أن يشتغل كل واحد في الدنيا بنفسه فان الله يجمع بين الكل في يوم القيامة ويجازيه على عمله والمقصود منه المتاركة واشتغال كل أحد بهم نفسه فان قيل كيف يليق بهذه المتاركة ما فعل بهم من القتل وتخريب البيوت وقطع النخيل والاجلاء قلنا هذه المتاركة كانت مشروطة بشرط أن يقبلوا الدين المتفق على صحته بين كل الانبياء ودخل فيه التوحيد وترك عبادة الاصنام والاقرار بنبوة الانبياء وبصحة البعث والقيامة فلما لم يقبلوا هذا الدين فحينئذ فات الشرط فلا جرم فات المشروط واعلم انه ليس المراد من قوله لا حجة بيننا وبينكم تحريم ما يجري مجرى محاجتهم ويدل عليه وجوه (الاول) ان هذا الكلام مذكور في معرض المحاجة فلو كان المقصود من هذه الآية تحريم المحاجة لزم كونها محرمة لنفسها وهو متناقض (والثاني) انه

أقعدوا في أماكنهم ولم يسيروا (في الارض) وقوله تعالى (فينظروا) عطف على يسيروا داخل في حكم التقرير والتوبيخ والمعنى انهم قد ساروا في أقطار الارض وشاهدوا (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الامم المهلكة كعاد وثمود وقوله تعالى (كانوا أشد منهم قوة) الخ بيان لمبدا أحوالهم ومآلها يعني أنهم كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا حيث كانوا أشد منهم قوة (وأثاروا الارض) أي قلبوها للزراعة والحرث وقيل لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك (وعمروها) أي عمرها أولئك بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها مما يعد عمارة لها (أكثر مما عمروها) أي عمارة أكثر كما وكيفا وزمانا من عمارة هؤلاء اياها كيف لا وهم أهل واد غير ذي زرع لا تبسط لهم في غيره وفيه تهكم بهم حيث كانوا مغترين بالدنيا مفتخرين بمتاعها مع ضعف حالهم وضيق عطنهم اذ مدار أمرها على التبسط في البلاد والتسلط على العباد والتقلب في أكناف الارض باصناف التصرفات وهم ضعفة ملجؤن الى واد لا نفع فيه يخافون أن يتخطفهم الناس (وجاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات أو الآيات الواضحات (فما كان الله ليظلمهم) أي فكذبوهم فاهلكهم فما كان الله ليهلكهم من غير جرم يستدعيه من قبلهم والتعبير عن ذلك بالظلم مع أن هلاكه تعالى اياهم بلا جرم ليس من الظلم في شئ على ما تقرر من قاعدة أهل السنة لاظهار كمال نزاهته تعالى عن ذلك بابرازه في معرض ما يستحيل صدوره عنه تعالى وقد مر في سورة الانفال وسورة آل عمران (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بان اجترؤا على اقتراف ما يوجبه من المعاصي العظيمة (ثم كان عاقبة الذين أساؤا) أي عملوا السيئات وضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالاساءة والاشعار بعلة الحكم (السوأى) أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وأفظعها التي هي العقوبة بالنار فانها تأنيث الاسوأ كالحسنى تأنيث الاحسن أو مصدر كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كأنها نفس السوأى وهي

مرفوعة على انها اسم كان وخبرها عاقبة وقرئ على العكس وهو أدخل فى الجزالة وقوله تعالى (أن كذبوا بآيات الله) علة لما أشير اليه من تعذيبهم الدنيوى والاخروى أى لان كذبوا أو بان كذبوا (٢٧٠) بآيات الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام ومعجزاته الظاهرة على أيديهم وقوله تعالى (وكانوا بها يستهزؤن) عطف على كذبوا داخل معه فى حكم العلية وايراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده هذا هو اللائق بجزالة النظم الجليل وقد قيل وقيل (الله يبدؤا الخلق) أى ينشئهم (ثم يعيده) بعد الموت بالبعث (ثم اليه ترجعون) الى موقف الحساب والجزاء والالتفات للمبالغة فى الترهيب وقرئ بالياء (ويوم تقوم الساعة) التى هى وقت اعادة الخلق ورجعهم اليه (يبلس المجرمون) أى يسكتون متحيرين لا ينبسون يقال ناظرته فابلس اذا سكت وأيس من أن يحتج وقرئ بفتح اللام من أبلسه اذا أفحمه وأسكته (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) يجيرونهم من عذاب الله كما كانوا يزعمونه وصيغة الجمع لوقوعها فى مقابلة الجمع أى لم يكن لواحد منهم شفيع أصلا (وكانوا بشركائهم كافرين) أى بالهيتهم وشركتهم لله سبحانه حيث وقفوا على كنه أمرهم وصيغة الماضى للدلالة على تحققه وقيل كانوا فى الدنيا كافرين بسببهم وليس بذاك اذ ليس فى الاخبار به فائدة يعتد بها (ويوم تقوم الساعة) أعيد لتهويله وتفظيع ما يقع فيه وقوله تعالى (يومئذ يتفرقون) تهويل له اثر تهويل وفيه رمز الى أن التفرق يقع فى بعض منه وضمير يتفرقون لجميع الخلق المدلول عليهم بما تقدم من بدئهم واعادتهم ورجعهم لا المجرمون خاصة وليس المراد بتفرقهم افتراق كل فرد منهم عن الآخر بل تفرقهم الى فريق المؤمنين والكافرين كما فى قوله تعالى فريق فى الجنة وفريق فى السعير وذلك بعد تمام الحساب وقوله تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) تفصيل وبيان لاحوال ذينك الفريقين والروضة كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة

لولا الادلة لما توجه التكليف (الثالث) أن الدليل يفيد العلم وذلك لا يمكن تحريمه بل المراد أن القوم عرفوا بالحجة صدق محمد صلى الله عليه وسلم واغا تركوا تصديقه بغيا وعنادا فبين تعالى انه قد حصل الاستغناء عن محاجتهم لانهم عرفوا بالحجة صدقه فلا حاجة معهم الى المحاجة البتة ومما يقوى قولنا انه لا يجوز تحريم المحاجة قوله وجادلهم بالتى هى أحسن وقوله تعالى ادع الى سبيل ربك وقوله ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن وقوله يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا وقوله وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ثم قال تعالى والذين يحاجون فى الله أى يخاصمون فى دينه من بعد ما استجيب له أى من بعد ما استجاب الناس لذلك الدين حجتهم داحضة أى باطلة وتلك المخاصمة هى ان اليهود قالوا ألستم تقولون ان الاخذ بالمتفق أولى من الاخذ بالمختلف فنبوة موسى وحقية التوراة معلومة بالاتفاق ونبوة محمد ليست متفقا عليها فاذا بنيتم كلامكم فى هذه الآية على أن الاخذ بالمتفق أولى وجب أن يكون الاخذ باليهودية أولى فبين تعالى أن هذه الحجة داحضة أى باطلة فاسدة وذلك لان اليهود أطبقوا على انه انما وجب الايمان بموسى عليه السلام لاجل ظهور المعجزات على وفق قوله وههنا ظهرت المعجزات على وفق قول محمد عليه السلام واليهود شاهدوا تلك المعجزات فان كان ظهور المعجزة يدل على الصدق فههنا يجب الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وان كان لا يدل على الصدق وجب فى حق موسى ان لا يقروا بنبوته وأما الاقرار بنبوة موسى والاصرار على انكار نبوة محمد مع استوائهما فى ظهور المعجزة يكون متناقضا ولما قرر الله هذه الدلائل خوف المنكرين بعذاب القيامة فقال الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب والمعنى انه تعالى أنزل الكتاب المشتمل على أنواع الدلائل والبينات وأنزل الميزان وهو الفصل الذى هو القسطاس المستقيم وأنهم لا يعلمون ان القيامة متى تفاجئهم ومتى كان الامر كذلك وجب على العاقل أن يجد ويجتهد فى النظر والاستدلال ويترك طريقة أهل الجهل والتقليد ولما كان الرسول يهددهم بنزول القيامة وأكثر فى ذلك وانهم ما رأوا منه أثرا قالوا على سبيل السخرية فمتى تقوم القيامة وليتها قامت حتى يظهر لنا ان الحق ما نحن عليه أو الذى عليه محمد وأصحابه فلدفع هذه الشبهة قال تعالى يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها والمعنى ظاهر وانما يشفقون ويخافون لعلمهم ان عندها تمتنع التوبة وأما منكر البعث فلا انه لا يحصل له هذا الخوف ثم قال ألا ان الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد والمماراة الملاجة قال الزجاج الذين تدخلهم المرية والشك فى وقوع الساعة فيمارون فيها ويجحدون لفى ضلال بعيد لان استيفاء حق المظلوم من الظالم واجب فى العدل فلو لم تحصل القيامة لزم اسناد الظلم الى الله تعالى وهذا من أمحل المحالات فلا جرم كان انكار القيامة ضلالا بعيدا ثم قال الله لطيف بعباده أى كثير الاحسان بهم وانما حسن ذكر هذا الكلام ههنا لانه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على هذه الدلائل اللطيفة فكان ذلك من لطف الله بعباده وأيضا المتفرقون استوجبوا العذاب الشديد ثم انه تعالى أخر عنهم ذلك العذاب فكان ذلك أيضا من لطف الله تعالى فلما سبق ذكر ايصال أعظم المنافع اليهم ودفع أعظم المضار عنهم لا جرم حسن ذكره ههنا ثم قال يرزق من يشاء يعنى ان أصل الاحسان والانعام فى حق كل العباد وذلك هو الاحسان بالحياة والعقل والفهم واعطاء ما لا بد منه من الرزق ودفع أكثر الآفات والبليات عنهم فأما مراتب العطية والبهجة فتفاوتة مختلفة ثم قال وهو القوى أى القادر على كل ما يشاء العزيز الذى لا يغالب ولا يدافع ۞ قوله تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وان الظالمين لهم عذاب أليم ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا

وتنكيرها للتفخيم والمراد بها الجنة والحبور السرور يقال حبره اذا سره سرورا تهلل له وجهه وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين
واختلفت فيه الاقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن ابن عباس ومجاهد يكرمون وعن (٢٧١) قتادة ينعمون وعن ابن كيسان يحلون وعن

الصالحات قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة فى القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ان الله غفور شكور أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشا الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد) اعلم انه تعالى لما بين كونه لطيفا بعباده كثير الاحسان اليهم بين انه لابد لهم من أن يسعوا فى طلب الخيرات وفى الاحتراز عن القبائح فقال من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه قال صاحب الكشاف انه تعالى سمى ما يعمله العامل مما يطلب به الفائدة حرثا على سبيل المجاز وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى أظهر الفرق فى هذه الآية بين من أراد الآخرة وبين من أراد الدنيا من وجوه (الاول) انه قدم مريد حرث الآخرة فى الذكر على مريد حرث الدنيا وذلك يدل على التفضيل لانه وصفه بكونه آخرة ثم قدمه فى الذكر تنبيها على قوله نحن الآخرون السابقون (الثانى) انه قال فى مريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه وقال فى مريد حرث الدنيا نؤته منها وكلمة من للتبعيض فالمعنى انه يعطيه بعض ما يطلبه ولا يؤتيه كله وقال فى سورة بنى اسرائيل عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد وأقول البرهان العقلى مساعد على الفرق بين الفريقين وذلك لان كل من عمل للآخرة وواظب على ذلك العمل فكثرة الاعمال سبب لحصول الملكات فكل من كانت مواظبته على تلك الاعمال أكثر كان ميل قلبه الى طلب الآخرة أكثر وكلما كان الامر كذلك كان الابتهاج أعظم والسعادات أكثر وذلك هو المراد بقوله نزد له فى حرثه وأما طالب الدنيا فكلما كانت مواظبته على أعمال ذلك الطالب أكثر كانت رغبته فى الفوز بالدنيا أكثر وميله اليها أشد واذا كان الميل أبدا فى التزايد وكان حصول المطلوب باقيا على حالة واحدة كان الحرمان لازما لامحالة (الثالث) أنه تعالى قال فى طالب حرث الآخرة نزد له فى حرثه ولم يذكر أنه تعالى يعطيه الدنيا أم لا بل بقى الكلام ساكتا عنه نفيا واثباتا وأما طالب حرث الدنيا فانه تعالى بين انه لا يعطيه شيأ من نصيب الآخرة على التنصيص وهذا يدل على التفاوت العظيم كانه يقول الآخرة أصل والدنيا تبع فواجد الاصل يكون واجدا للتبع بقدر الحاجة الا انه لم يذكر ذلك تنبيها على أن الدنيا أخس من أن يقرن ذكرها بذكر الآخرة (الرابع) انه تعالى بين ان طالب الآخرة يزاد فى مطلوبه وبين ان طالب الدنيا يعطى بعض مطلوبه من الدنيا وأما فى الآخرة فانه لا يحصل له منها نصيب البتة فبين بالكلام الاول ان طالب الآخرة يكون حاله أبدا فى الترقى والتزايد وبين بالكلام الثانى ان طالب الدنيا يكون حاله فى المقام الاول فى النقصان وفى المقام الثانى فى البطلان التام (الخامس) ان الآخرة نسيئة والدنيا نقد والنسيئة مرجوحة بالنسبة الى النقد لان الناس يقولون النقد خير من النسيئة فبين تعالى ان هذه القضية انعكست بالنسبة الى أحوال الآخرة والدنيا فالآخرة وان كانت نسيئة الا انها متوجهة للزيادة والدوام فكانت أفضل وأكمل والدنيا وان كانت نقدا الا أنها متوجهة الى النقصان ثم الى البطلان فكانت أخس وأرذل فهذا يدل على أن حال الآخرة لا يناسب حال الدنيا البتة وانه ليس فى الدنيا من أحوال الآخرة الا مجرد الاسم كما هو مروى عن ابن عباس (السادس) الآية دالة على ان منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة بل لابد فى البابين من الحرث والحرث لا يتأتى الا بتحمل المشاق فى البذر ثم التسقية والتنمية ثم الحصد ثم التنقية فلما سمى الله كلا القسمين حرثا علمنا ان كل واحد منهما لا يحصل الا بتحمل المتاعب والمشاق ثم بين تعالى ان مصير الآخرة الى الزيادة والكمال وان مصير الدنيا الى النقصان ثم الفناء فكانه قيل اذا كان لابد فى القسمين جميعا من تحمل متاعب الحراثة والتسقية والتنمية والحصد والتنقية فلان تصرف هذه المتاعب الى ما يكون فى التزايد والبقاء أولى من صرفها الى ما يكون فى النقصان والانقضاء والفناء (المسئلة الثانية) فى تفسير قوله نزد له فى حرثه قولان (الاول) المعنى انا نزيد فى توفيقه واعانته وتسهيل سبل الخيرات والطاعات

بكر بن عياش التيجان على رؤسهم وعن وكيع السماع فى الجنة وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الجنة ومافيها من النعيم وفى آخر القوم اعرابى فقال يارسول الله هل فى الجنة من سماع قال عليه الصلاة والسلام يا أعرابى ان فى الجنة لنهرا حافتاه الابكار من كل بيضاء خوصانية يتغنين باصوات لم يسمع الخلائق مثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة قال الراوى فسألت أبا الدرداء رضى الله عنه بم يتغنين قال بالتسبيح وروى ان فى الجنة لاشجارا عليها أجراس من فضة فاذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله تعالى ريحا من تحت العرش فتقع فى تلك الاشجار فتحرك تلك الاجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا) التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل (ولقاء الآخرة) صرح بذلك مع اندراجه فى تكذيب الآيات للاعتناء بامره وقوله تعالى (فاولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للايذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم فى سلك المشاهدات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلتهم فى الشر أى أولئك الموصوفون بما فصل من القبائح (فى العذاب محضرون) على الدوام لا يغيبون عنه أبدا (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والارض وعشيا وحين تظهرون)

اثر ما بين حال فريقى المؤمنين العاملين للصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما لهما من الثواب والعذاب أمر بما ينجى من الثانى ويفضى الى الاول من تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق بشأنه سبحانه ومن حمده تعالى على نعمه العظام وتقديم الاول على الثانى لما أن التخلية متقدمة

على التحليه والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى اذا علمتم ذلك فسبحوا الله تعالى أى نزهوه عما ذكر سبحانه أى تسبيحه اللائق به فى هذه الاوقات واحمدوه فان الاخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السموات والارض فى معنى الامر به على أبلغ وجه وآكده وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه والاشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما كما ينبئ عنه قوله تعالى ونحن نسبح بحمدك وقوله تعالى فسبح بحمد ربك وقوله صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وقوله عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بافضل مما جاء به الا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه وقوله عليه الصلاة والسلام كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وغير ذلك مما لا يحصى من الآيات والاحاديث وتخصيصهما بتلك الاوقات للدلالة على أن ما يحدث فيها من آيات قدرته وأحكام رحمته ونعمته شواهد ناطقة بتنزهه تعالى واستحقاقه الحمد وموجبة لتسبيحه وتحميده حتما وقوله تعالى وعشيا عطف على حين تمسون وتقديمه على حين تظهرون لمراعاة الفواصل وتغيير الاسلوب لما أنه لا يجيء منه الفعل بمعنى الدخول فى العشى كالمساء والصباح والظهيرة ولعل السر فى ذلك أنه ليس من الاوقات التى تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيرا ظاهرا مصححا لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالاوقات المذكورة فان كلا منها وقت تتغير فيه الاحوال تغيرا ظاهرا أما فى المساء والصباح فظاهر وأما فى الظهيرة فلانها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة كما مر فى سورة النور وقيل المراد بالتسبيح والحمد الصلاة لاشتمالها عليهما وقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس تمسون صلاتا المغرب والعشاء وتصبحون صلاة الفجر وعشيا صلاة العصر وتظهرون صلاة الظهر

عليه وقال مقاتل نزد له فى حرثه بتضعيف الثواب قال تعالى ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من أصبح وهمه الدنيا شتت الله تعالى عليه همه وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله همه وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة عن أنفها أو لفظ يقرب من أن يكون هذا معناه (المسئلة الثالثة) ظاهر اللفظ يدل على ان من صلى لاجل طلب الثواب أو لاجل دفع العقاب فانه تصح صلاته وأجمعوا على أنها لا تصح (والجواب) انه تعالى قال من كان يريد حرث الآخرة والحرث لا يتأتى الا بالقاء البذر الصحيح فى الارض والبذر الصحيح لجميع الخيرات والسعادات ليس الا عبودية الله تعالى (المسئلة الرابعة) قال أصحابنا اذا توضأ بغير نية لم يصح قالوا لان هذا الانسان ما أراد حرث الآخرة لان الكلام فيما اذا كان غافلا عن ذكر الله وعن الآخرة فوجب أن لا يحصل له نصيب فيما يتعلق بالآخرة والخروج عن عهدة الصلاة من باب منافع الآخرة فوجب أن لا يحصل فى الوضوء العارى عن النية واعلم ان الله تعالى لما بين القانون الاعظم والقسطاس الاقوم فى أعمال الآخرة والدنيا أردفه بالتنبيه على ما هو الاصل فى باب الضلالة والشقاوة فقال أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ومعنى الهمزة فى أم التقرير والتقريع وشركاؤهم شياطينهم الذين زينوا لهم الشرك وانكار البعث والعمل للدنيا لانهم لا يعلمون غيرها وقيل شركاؤهم أوثانهم وانما أضيفت اليهم لانهم هم الذين اتخذوها شركاء لله ولما كانت سببا لضلالتهم جعلت شارعة لدين الضلالة كما قال ابراهيم صلى الله عليه وسلم رب انهن أضللن كثيرا من الناس وقوله شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله يعنى ان تلك الشرائع باسرها على ضد دين الله ثم قال ولولا كلمة الفصل أى القضاء السابق بتأخير الجزاء أو يقال ولولا الوعد بأن الفصل يكون يوم القيامة لقضى بينهم أى بين الكافرين والمؤمنين أو بين المشركين وشركائهم وان الظالمين لهم عذاب أليم وقرأ بعضهم وان بفتح الهمزة فى أن عطفا له على كلمة الفصل يعنى ولولا كلمة الفصل وتقريره تعذيب الظالمين فى الآخرة لقضى بينهم فى الدنيا ثم انه تعالى ذكر أحوال أهل العقاب وأحوال أهل الثواب (أما الاول) فهو قوله ترى الظالمين مشفقين خائفين خوفا شديدا مما كسبوا من السيآت وهو واقع بهم يريد أن وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقوا (وأما الثانى) فهو أحوال أهل الثواب وهو قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لان روضة الجنة أطيب بقعة فيها وفى الآية تنبيه على ان الفساق من أهل الصلاة كلهم فى الجنة الا انه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بروضات الجنات وهى البقاع الشريفة من الجنة فالبقاع التى دون تلك الروضات لابد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم قال لهم ما يشاؤن عند ربهم وهذا يدل على ان كل الاشياء حاضرة عنده مهيأة ثم قال تعالى فى تعظيم هذه الدرجة ذلك هو الفضل الكبير وأصحابنا استدلوا بهذه الآية على ان الثواب غير واجب على الله وانما يحصل بطريق الفضل من الله تعالى لانه تعالى قال والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند ربهم فهذا يدل على ان روضات الجنات ووجدان كل ما يريدونه انما كان جزاء على الايمان والاعمال الصالحة ثم قال تعالى ذلك هو الفضل الكبير وهذا تصريح بان الجزاء المرتب على العمل انما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق ثم قال ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال صاحب الكشاف قرئ يبشر من بشره ويبشر من أبشره ويبشر من بشره واعلم ان هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه (الاول) ان الله سبحانه رتب على الايمان وعمل الصالحات روضات الجنات والسلطان الذى هو أعظم الموجودات وأكرمهم اذا رتب على أعمال شاقة جزاء دل ذلك على ان ذلك الجزاء قد بلغ الى حيث لا يعلم كنهه الا الله تعالى (الثانى) انه تعالى قال لهم ما يشاؤن عند ربهم وقوله لهم ما يشاؤن يدخل فى باب غير المتناهى لانه لا درجة الا والانسان يريد ما هو أعلى منها (الثالث) انه تعالى قال ذلك هو

الفضل الكبير والذى يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الاطلاق كان فى غاية الكبر (الرابع) انه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال الذى يبشر الله عباده وذلك يدل أيضا على غاية العظمة نسأل الله الفوز بها والوصول اليها واعلم انه تعالى لما أوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب الشريف العالى وأودع فيه ثلاثة أقسام الدلائل وأصناف التكاليف ورتب على الطاعة الثواب وعلى المعصية العقاب بين انى لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعا عاجلا ومطلوبا حاضرا لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد صلى الله عليه وسلم من هذا التبليغ المال والجاه فقال قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة فى القربى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الناس فى هذه الآية ثلاثة أقوال (الاول) قال الشعبى أكثر الناس علينا فى هذه الآية فكتبنا الى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان واسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم الا وقد ولده فقال الله قل لا أسئلكم على ما أدعوكم اليه أجرا الا أن تودونى لقرابتى منكم والمعنى انكم قومى وأحق من أجابنى وأطاعنى فاذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذونى ولا تهيجوا على (والقول الثانى) روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ان النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس فى يده سعة فقال الانصار ان هذا الرجل قد هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم فى بلدكم فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا ثم أتوه فرده عليهم فنزل قوله تعالى قل لا أسئلكم عليه أجرا أى على الايمان الا أن تودوا أقاربى فحثهم على مودة أقاربه (القول الثالث) ما ذكره الحسن فقال الا أن تودوا الى الله فيما يقربكم اليه من التودد اليه بالعمل الصالح فالقربى على القول الاول القرابة التى هى بمعنى الرحم وعلى الثانى القرابة التى هى بمعنى الاقارب وعلى الثالث هى فعلى من القرب والتقرب فان قيل الآية مشكلة وذلك لان طلب الاجرة على تبليغ الوحى لا يجوز ويدل عليه وجوه (الاول) انه تعالى حكى عن أكثر الانبياء عليهم السلام انهم صرحوا بنفى طلب الاجرة فذكر فى قصة نوح عليه السلام وما أسئلكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين وكذا فى قصة هود وصالح وفى قصة لوط وشعيب عليهم السلام ورسولنا أفضل من سائر الانبياء عليهم السلام فكان بان لا يطلب الاجر على النبوة والرسالة أولى (والثانى) انه صلى الله عليه وسلم صرح بنفى طلب الاجر فى سائر الآيات فقال قل ما سألتكم من أجر فهو لكم وقال قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين (والثالث) العقل يدل عليه وذلك لان ذلك التبليغ كان واجبا عليه قال تعالى بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته وطلب الاجر على اداء الواجب لا يليق بأقل الناس فضلا عن أعلم العلماء (الرابع) أن النبوة أفضل من الحكمة وقد قال تعالى فى صفة الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وقال فى صفة الدنيا قل متاع الدنيا قليل فكيف يحسن فى العقل مقابلة أشرف الاشياء بأخس الاشياء (الخامس) ان طلب الاجر كان يوجب التهمة وذلك ينافى القطع بصحة النبوة فثبت بهذه الوجوه انه لا يجوز من النبى صلى الله عليه وسلم أن يطلب أجرا البتة على التبليغ والرسالة وظاهر هذه الآية يقتضى انه طلب أجرا على التبليغ والرسالة وهو المودة فى القربى هذا تقرير السؤال (والجواب عنه) انه لا نزاع فى انه لا يجوز طلب الاجر على التبليغ والرسالة بقى قوله الا المودة فى القربى نقول الجواب عنه من وجهين (الاول) ان هذا من باب قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ✽ بهن فلول من قراع الدارعين

يعنى أنا لا أطلب منكم الا هذا وهذا فى الحقيقة ليس أجرا لان حصول المودة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض وقال صلى الله عليه وسلم المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضا والآيات والاخبار فى هذا الباب كثيرة واذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجبا فحصولها فى حق أشرف المسلمين وأكابرهم أولى وقوله تعالى قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة فى القربى

ولذلك ذهب الحسن الى أنها مدنية اذ كان يقول ان الواجب بمكة ركعتان فى أى وقت اتفقتا وانما فرضت الخمس بالمدينة والجمهور على أنها فرضت بمكة وهو الحق لحديث المعراج وفى آخره هن خمس صلوات كل يوم وليلة ✽ عن النبى صلى (٢٧٣) الله عليه وسلم من سره أن يكال له بالقفيز الاوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الآية وعنه عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى قوله تعالى وكذلك تخرجون أدرك ما فاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك ما فاته فى ليلته وقرئ حينا تمسون وحينا تصبحون أى تمسون فيه وتصبحون فيه (يخرج الحى من الميت) كالانسان من النطفة والطير من البيضة (ويخرج الميت من الحى) النطفة والبيضة من الحيوان (ويحيى الارض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (وكذلك) ومثل ذلك الاخراج (تخرجون) من قبوركم وقرئ تخرجون بفتح التاء وضم الراء وهذا نوع تفصيل لقوله تعالى الله يبدأ الخلق ثم يعيده (ومن آياته) الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح مما سبق فان دلالة بدء خلقهم على اعادتهم أظهر من دلالة اخراج الحى من الميت واخراج الميت من الحى ومن دلالة احياء الارض بعد موتها عليها (أن خلقكم) أى فى ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مرارا من أن خلقه عليه الصلاة والسلام منطو على خلق ذرياته انطواء اجماليا (من تراب) لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم (ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) أى فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون فى الارض وهذا مجمل ما فصل فى قوله تعالى يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية (ومن آياته) الدالة على ما ذكر من البعث وما بعده من الجزاء (أن خلق لكم) أى لاجلكم (من أنفسكم أزواجا) فان خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن لخلقهن من أنفسكم على ما عرفته من

تقديره والمودة فى القربى ليست أجرا فرجع الحاصل الى أنه لا أجر البتة (والوجه الثانى فى الجواب) ان هذا استثناء منقطع وتم الكلام عند قوله قل لا أسألكم عليه أجرا ثم قال الا المودة فى القربى أى لكن أذكركم قرابتى منكم وكأنه فى اللفظ أجر وليس بأجر (المسئلة الثالثة) نقل صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من مات على حب آل محمد مات شهيدا ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الايمان ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ألا ومن مات على حب آل محمد يزف الى الجنة كما تزف العروس الى بيت زوجها ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان الى الجنة ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة هذا هو الذى رواه صاحب الكشاف وأنا أقول آل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يؤول أمرهم اليه فكل من كان أمرهم اليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ولا شك ان فاطمة وعليا والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل وأيضا اختلف الناس فى الآل فقيل هم الاقارب وقيل هم أمته فان حملناه على القرابة فهم الآل وان حملناه على الامة الذين قبلوا دعوته فهم أيضا آل فثبت ان على جميع التقديرات هم الآل وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه وروى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم فقال على وفاطمة وابناهما فثبت ان هؤلاء الاربعة أقارب النبى صلى الله عليه وسلم واذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه (الاول) قوله تعالى الا المودة فى القربى ووجه الاستدلال به ما سبق (الثانى) لاشك ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب فاطمة عليها السلام قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة منى يؤذينى ما يؤذيها وثبت بالنقل المتواتر عن محمد صلى الله عليه وسلم انه كان يحب عليا والحسن والحسين واذا ثبت ذلك وجب على كل الامة مثله لقوله واتبعوه لعلكم تهتدون ولقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره ولقوله قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ولقوله سبحانه لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة (الثالث) ان الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد فى الصلاة وهو قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمدا وآل محمد وهذا التعظيم لم يوجد فى حق غير الآل فكل ذلك يدل على ان حب آل محمد واجب وقال الشافعى رضى الله عنه

يا راكبا قف بالمحصب من منى * واهتف بساكن خيفها والناهض
سحرا اذا فاض الحجيج الى منى * فيضا كما نظم الفرات الفائض
ان كان رفضا حب آل محمد * فليشهد الثقلان انى رافضى

(المسئلة الثالثة) قوله الا المودة فى القربى فيه منصب عظيم للصحابة لانه تعالى قال والسابقون السابقون أولئك المقربون فكل من أطاع الله كان مقربا عند الله تعالى فدخل تحت قوله الا المودة فى القربى والحاصل ان هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب أصحابه وهذا المنصب لا يسلم الا على قول أصحابنا أهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين حب العترة والصحابة وسمعت بعض المذكرين قال انه صلى الله عليه وسلم قال مثل أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا وقال صلى الله عليه وسلم أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ونحن الآن فى بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج الى أمرين (أحدهما) السفينة الخالية عن العيوب والثقب (والثانى) الكواكب

التحقيق أو من جنسكم لا من جنس آخر وهو الأوفق لقوله تعالى (لتسكنوا اليها) أى لتألفوها وتميلوا اليها وتطمئنوا بها فان المجانسة من دواعى التضام والتعارف كما أن المخالفة من أسباب التفرق والتنافر (وجعل بينكم) أى بين الازواج اما على تغليب الرجال على النساء فى الخطاب أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور أى جعل بينكم وبينهن كما فى قوله تعالى لا نفرق بين أحد من رسله وقيل أو بين أفراد الجنس أى بين الرجال والنساء ويأباه قوله تعالى (مودة ورحمة) فان المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قطعا أى جعل بينكم بالزواج الذى شرعه لكم توادا وتراحما من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا رابطة مصححة للتعاطف من قرابة أو رحم قيل المودة والرحمة من قبل الله تعالى والفرك من الشيطان وعن الحسن رحمه الله المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال تعالى ورحمة منا (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم والقاء المودة والرحمة بينهم وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلته (لآيات) عظيمة لا يكتنه كنهها كثيرة لا يقادر قدرها (لقوم يتفكرون) فى تضاعيف تلك الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله مع التنبيه على أن ما ذكر ليس بآية فذة كما ينبئ عنه قوله تعالى ومن آياته بل هى مشتملة على آيات شتى (ومن آياته) الدالة على ما ذكر من أمر البعث وما يتلوه من الجزاء (خلق السموات والارض) اما من حيث ان القادر على خلقهما بما فيهما من المخلوقات بلا مادة مستعدة لها أظهر قدرة على اعادة ما كان حيا قبل ذلك واما من حيث ان خلقهما وما فيهما ليس الا لمعاش البشر ومعاده كما يفصح عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا وقوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا (واختلاف ألسنتكم) أى

الظاهرة

الظاهرة الطالعة النيرة فاذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالبا فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة فرجوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة فى الدنيا والآخرة ولنرجع الى التفسير أورد صاحب الكشاف على نفسه سؤالا فقال هلا قيل الا مودة القربى أو الا مودة للقربى وما معنى قوله الا المودة فى القربى وأجاب عنه بأن قال جعلوا مكانا للمودة ومقرا لها كقولك لى فى آل فلان مودة ولى فيهم هوى وحب شديد تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحله ثم قال تعالى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا قيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه والظاهر العموم فى أى حسنة كانت الا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة فى القربى دل ذلك على ان المقصود التأكيد فى تلك المودة ثم قال تعالى ان الله غفور شكور والشكور فى حق الله تعالى مجاز والمعنى انه تعالى يحسن الى المطيعين فى ايصال الثواب اليهم وفى أن يزيد عليه أنواعا كثيرة من التفضل وقال تعالى أم يقولون افترى على الله كذبا واعلم ان الكلام فى أول هذه السورة انما ابتدئ فى تقرير ان هذا الكتاب انما حصل بوحى الله وهو قوله تعالى كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم واتصل الكلام فى تقرير هذا المعنى وتعلق البعض بالبعض حتى وصل الى ههنا ثم حكى ههنا شبهة القوم وهى قولهم ان هذا ليس وحيا من الله تعالى فقال أم يقولون افترى على الله كذبا قال صاحب الكشاف أم منقطعة ومعنى الهمزة فيه التوبيخ كأنه قيل أيقع فى قلوبهم ويجرى فى ألسنتهم أن ينسبوا مثله الى الافتراء على الله الذى هو أقبح أنواع الفرية وأفحشها ثم أجاب عنه بأن قال فان يشا الله يختم على قلبك وفيه وجوه (الاول) قال مجاهد يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم انه مفتر كذاب (الثانى) يعنى بهذا الكلام انه ان يشا الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى يفترى عليه الكذب فانه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله الا من كان فى مثل هذه الحالة والمقصود من ذكر هذا الكلام المبالغة فى تقرير الاستبعاد ومثاله أن ينسب رجل بعض الامناء الى الخيانة فيقول الامين لعل الله خذلنى لعل الله أعمى قلبى وهو لا يريد اثبات الخذلان وعمى القلب لنفسه وانما يريد استبعاد صدور الخيانة عنه ثم قال تعالى ويمح الله الباطل ويحق الحق أى ومن عادة الله ابطال الباطل وتقرير الحق فلو كان محمد مبطلا كذابا لفضحه الله ولكشف عن باطله ولما أيده بالقوة والنصرة ولما لم يكن الامر كذلك علمنا انه ليس من الكاذبين المفترين على الله ويجوز أن يكون هذا وعدا من الله لرسوله بأنه يمحو الباطل الذى هم عليه من البهت والفرية والتكذيب ويثبت الحق الذى كان محمد صلى الله عليه وسلم عليه ثم قال انه عليم بذات الصدور أى ان الله عليم بما فى صدرك وصدورهم فيجرى الامر على حسب ذلك وعن قتادة يختم على قلبك ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى بمعنى لو افترى على الله الكذب لفعل الله به ذلك واعلم انه تعالى لما قال أم يقولون افترى على الله كذبا ثم برأ رسوله مما اضافوه اليه من هذا وكان من المعلوم انهم قد استحقوا بهذه الفرية عقابا عظيما لا جرم ندبهم الله الى التوبة وعرفهم أنه يقبلها من كل مسىء وان عظمت اساءته فقال وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيآت وفى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف يقال قبلت منه الشئ وقبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه وجعلته مبدأ قبول ومنشأه ومعنى قبلته عنه أخذته عنه وأبنته عنه وقد سبق البحث المستقصى عن حقيقة التوبة فى سورة البقرة وأقل ما لا بد منه الندم على الماضى والترك فى الحال والعزم على أن لا يعود اليه فى المستقبل وروى جابر أن أعرابيا دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انى أستغفرك وأتوب اليك وكبر فلما فرغ من صلاته قال له عليه السلام يا هذا ان سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين فتوبتك تحتاج الى توبة فقال يا أمير المؤمنين وما التوبة فقال اسم يقع على ستة أشياء على الماضى من الذنوب الندامة ولتضييع الفرائض الاعادة ورد المظالم واذابة النفس فى الطاعة كما ربيتها فى

لغاتكم بان علم كل صنف لغته وألهمه وضعها واقدره عليها أو أجناس نطقكم وأشكاله فانك لا تكاد تسمع منطقين متساويين فى الكيفية من كل وجه (وألوانكم) ببياض الجلد وسواده وتوسطه فيما بينهما أو تخطيطات الاعضاء وهيآتها وألوانها وحلاها بحيث وقع بها التمايز بين الاشخاص حتى ان التوأمين مع توافق موادهما وأسبابهما والامور الملاقية لهما فى التخليق يختلفان فى شئ من ذلك لا محالة وان كانا فى غاية التشابه وانما نظم هذا فى سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والارض مع كونه من الآيات الانفسية الحقيقة بالانتظام فى سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للايذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من خلق السموات والارض واختلاف الالسنة والالوان (لآيات) عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها (للعالمين) أى المتصفين بالعلم كما فى قوله تعالى وما يعقلها الا العالمون وقرئ بفتح اللام وفيه دلالة على كمال وضوح الآيات وعدم خفائها على أحد من الخلق كافة (ومن آياته منامكم بالليل والنهار) لاستراحة القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية (وابتغاؤكم من فضله) فيهما فان كلا من المنام وابتغاء الفضل يقع فى الملوين وان كان الاغلب وقوع الاول فى الاول والثانى فى الثانى أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة فى ذلك خلا أنه فصل بين القرينين الاولين بالقرينين الاخيرين لانهما زمان والزمان مع ما وقع فيه كشئ واحد مع اعانة اللف على الاتحاد (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار حيث يتأملون فى تضاعيف هذا البيان ويستدلون بذلك على شؤونه تعالى (ومن آياته يريكم البرق) الفعل اما مقدر بان كما فى قول من قال * ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى * أى أن أحضر أو منزل منزلة المصدر وبه فسر المثل المشهور تسمع بالمعيدى خير من أن تراه أو هو على حاله صفة لمحذوف أى آية يريكم بها البرق كقول من قال

المعصية واذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية والبكاء بدل كل ضحك ضحكته (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة يجب على الله تعالى عقلا قبول التوبة وقال أصحابنا لا يجب على الله شيء وكل ما يفعله فانما يفعله بالكرم والفضل واحتجوا على صحة مذهبهم بهذه الآية فقالوا انه تعالى تمدح بقبول التوبة ولو كان ذلك القبول واجبا لما حصل التمدح العظيم ألا ترى ان من مدح نفسه بأن لا يضرب الناس ظلما ولا يقتلهم غضبا كان ذلك مدحا قليلا أما اذا قال انى أحسن اليهم مع ان ذلك لا يجب على كان ذلك مدحا وثناء (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ويعفو عن السيئات اما أن يكون المراد منه أنه يعفو عن الكبائر بعد الاتيان بالتوبة أو المراد منه انه يعفو عن الصغائر أو المراد منه انه يعفو عن الكبائر قبل التوبة والاول باطل والا لصار قوله ويعفو عن السيئات عين قوله وهو الذى يقبل التوبة والتكرار خلاف الاصل والثانى أيضا باطل لان ذلك واجب وأداء الواجب لا يتمدح به فبقى القسم الثالث فيكون المعنى انه تارة يعفو بواسطة قبول التوبة وتارة يعفو ابتداء من غير توبة ثم قال ويعلم ما تفعلون قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بالتاء على المخاطبة والباقون بالياء على المغايبة والمعنى انه تعالى يعلمه فيثيبه على حسناته ويعاقبه على سيآته ثم قال ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله وفيه قولان (أحدهما) الذين آمنوا وعملوا الصالحات رفع على انه فاعل تقديره ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم اليه (والثانى) محله نصب والفاعل مضمر وهو الله وتقديره ويستجيب الله للمؤمنين الا انه حذف اللام كما حذف فى قوله واذا كالوهم وهذا الثانى أولى لان الخبر فيما قبل وبعد عن الله لان ما قبل الآية قوله تعالى وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وما بعدها قوله ويزيدهم من فضله فيزيد عطف على ويستجيب وعلى الاول ويجيب العبد ويزيد الله من فضله أما من قال ان الفعل للذين آمنوا ففيه وجهان (أحدهما) ويجيب المؤمنون ربهم فيما دعاهم اليه (والثانى) يطيعونه فيما أمرهم به والاستجابة الطاعة وأما من قال ان الفعل لله فقد اختلفوا فقيل يجيب الله دعاء المؤمنين ويزيدهم ما طلبوه من فضله فان قالوا تخصيص المؤمنين باجابة الدعاء هل يدل على انه تعالى لا يجيب دعاء الكفار قلنا قال بعضهم لا يجوز لان اجابة الدعاء تعظيم وذلك لا يليق بالكفار وقيل يجوز على بعض الوجوه وفائدة التخصيص ان اجابة دعاء المؤمنين تكون على سبيل التشريف واجابة دعاء الكافرين تكون على سبيل الاستدراج ثم قال ويزيدهم من فضله أى يزيدهم على ما طلبوه بالدعاء والكافرون لهم عذاب شديد والمقصود التهديد ۞ قوله تعالى ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير وهو الذى ينزل الغيث بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وما أنتم بمعجزين فى الارض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير﴾ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما قال فى الآية الاولى انه يجيب دعاء المؤمنين ورد عليه سؤال وهو ان المؤمن قد يكون فى شدة وبلية وفقر ثم يدعو فلا يشاهد أثر الاجابة فكيف الحال فيه مع ما تقدم من قوله ويستجيب الذين آمنوا فأجاب تعالى عنه بقوله ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الارض ولاقدموا على المعاصى ولما كان ذلك محذورا وجب أن لا يعطيهم ما طلبوه قال الجبائى هذه الآية تدل على بطلان قول المجبرة من وجهين (الاول) ان حاصل الكلام انه تعالى لو بسط الرزق لعباده لبغوا فى الارض والبغى فى الارض غير مراد فارادة بسط الرزق غير حاصلة فهذا الكلام انما يتم اذا قلنا انه تعالى لا يريد البغى فى الارض وذلك يوجب فساد قول المجبرة (الثانى) انه تعالى بين انه اعالم يريد بسط الرزق لانه يفضى الى المفسدة فلما بين تعالى أنه لا يريد ما يفضى الى المفسدة فبأن لا يكون مريدا للمفسدة كان أولى أجاب أصحابنا بان الميل الشديد الى البغى والقسوة والقهر صفة حدثت بعد ان لم تكن فلابد

وما الدهر الا تارتان فمنهما * أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

أى فمنهما تارة أموت فيها وأخرى أبتغى فيها أو ومن آياته شئ أو سحاب يريكم البرق (خوفا) من الصاعقة أو للمسافر (وطمعا) فى الغيث أو للمقيم ونصبهما على العلة لفعل يستلزمه المذكور فان ارائتهم البرق مستلزمة لرؤيتهم اياه وللمذكور نفسه على تقدير مضاف نحو اراءة خوف وطمع أو على تأويل الخوف والطمع بالاخافة والاطماع كقولك فعلته رغما للشيطان أو على الحال نحو كلمته شفاها (وينزل من السماء ماء) وقرئ بالتخفيف (فيحيى به الارض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فانها من الظهور بحيث يكفى فى ادراكها مجرد العقل عند استعماله فى استنباط أسبابها وكيفية تكونها (ومن آياته أن تقوم السماء والارض بامره) أى بارادته تعالى لقيامهما والتعبير عنها بالامر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادى والاسباب وليس المراد باقامتهما انشاؤهما لانه قد بين حاله بقوله تعالى ومن آياته خلق السموات والارض ولا اقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فان ذلك من تتمات انشائهما وان لم يصرح به تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى خلق السموات بغير عمد ترونها الآية بل قيامهما واستمرارهما على ما هما عليه الى أجلهما الذى نطق به قوله تعالى فيما قبل ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات المعدودة متصلة بالبعث فى الوجود أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر أيضا فقيل (ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون) فانه كلام مسوق للاخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء أجل قيامهما مترتب على تعداد آياته الدالة عليه غير منتظم فى سلكها كما قيل لها
كأنه قيل ومن آياته قيام السموات والارض على هيآتهما بامره تعالى الى أجل مسمى قدره الله تعالى لقيامهما ثم اذا دعاكم أى بعد انقضاء الاجل

لها من فاعل وفاعل هذه الاحوال اما العبد أو الله والاول باطل لانه انما يفعل هذه الاشياء لو مال طبعه اليها فيعود السؤال فى أنه من المحدث لذلك الميل الثانى ويلزم التسلسل وأيضا فالميل الشديد الى الظلم والقسوة عيوب ونقصانات والعاقل لا يرضى بتحصيل موجبات النقصان لنفسه ولما بطل هذا ثبت ان محدث هذا الميل والرغبة هو الله تعالى ثم أورد الجبائى فى تفسيره على نفسه سؤالا قال فان قيل أليس قد بسط الله الرزق لبعض عباده مع أنه بغى وأجاب عنه بان الذى عنده الرزق وبغى كان المعلوم من حاله انه يبغى على كل حال سواء أعطى ذلك الرزق أو لم يعط وأقول هذا الجواب فاسد ويدل عليه القرآن والعقل أما القرآن فقوله تعالى ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى حكم مطلقا بأن حصول الغنى سبب لحصول الطغيان وأما العقل فهو ان النفس اذا كانت مائلة الى الشر لكنها كانت فاقدة للآلات والادوات كان الشر أقل واذا كانت واجدة لها كان الشر أكثر فثبت ان وجدان المال يوجب الطغيان (المسئلة الثانية) فى بيان الوجه الذى لاجله كان التوسع موجبا للطغيان ذكروا فيه وجوها (الاول) ان الله تعالى لو سوى فى الرزق بين الكل لامتنع كون البعض خادما للبعض ولو صار الامر كذلك لخرب العالم وتعطلت المصالح (الثانى) ان هذه الآية مختصة بالعرب فانه كلما اتسع رزقهم ووجدوا من ماء المطر ما يرويهم ومن الكلا والعشب ما يشبعهم أقدموا على النهب والغارة (الثالث) ان الانسان متكبر بالطبع فاذا وجد الغنى والقدرة عاد الى مقتضى خلقته الاصلية وهو التكبر واذا وقع فى شدة وبلية ومكروه انكسر فعاد الى الطاعة والتواضع (المسئلة الثالثة) قال خباب بن الارت فينا نزلت هذه الآية وذلك انا نظرنا الى أموال بنى قريظة والنضير وبنى قينقاع فتمنيناها وقيل نزلت فى أهل الصفة تمنوا سعة الرزق والغنى ثم قال تعالى ولكن ينزل بقدر ما يشاء قرأ ابن كثير وأبو عمرو ينزل خفيفة والباقون بالتشديد ثم نقول بقدر بتقدير يقال قدره قدرا وقدرا انه بعباده خبير بصير يعنى انه عالم باحوال الناس وبطباعهم وبعواقب أمورهم فيقدر أرزاقهم على وفق مصالحهم ولما بين تعالى انه لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لاجل انه علم أن تلك الزيادة تضرهم فى دينهم بين انهم اذا احتاجوا الى الرزق فانه لا يمنعهم منه فقال وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا قرأ نافع وابن عامر وعاصم ينزل مشددة والباقون مخففة قال صاحب الكشاف قرئ قنطوا بفتح النون وكسرها وانزال الغيث بعد القنوط أدعى الى الشكر لان الفرج بحصول النعمة بعد البلية أتم فكان اقدام صاحبه على الشكر أكثر وينشر رحمته أى بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب وعن عمر رضى الله عنه انه قيل له اشتد القحط وقنط الناس فقال اذن مطروا أراد هذه الآية ويجوز أن يريد رحمته الواسعة فى كل شئ كأنه قيل ينزل الرحمة التى هى الغيث وينشر سائر أنواع الرحمة وهو الولى الحميد الولى الذى يتولى عباده باحسانه والحميد المحمود على ما يوصل للخلق من أقسام الرحمة ثم ذكر آية أخرى تدل على الهيته فقال ومن آياته خلق السموات والارض وما بث فيهما من دابة فنقول أما دلالة خلق السموات والارض على وجود الاله الحكيم فقد ذكرناها وكذلك دلالة وجود الحيوانات على وجود الاله الحكيم فان قيل كيف يجوز اطلاق لفظ الدابة على الملائكة قلنا فيه وجوه (الاول) انه قد يضاف الفعل الى جماعة وان كان فاعله واحدا منهم يقال بنو فلان فعلوا كذا وانما فعله واحد منهم ومنه قوله تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان (الثانى) ان الدبيب هو الحركة والملائكة لهم حركة (الثالث) لا يبعد أن يقال انه تعالى خلق فى السموات أنواعا من الحيوانات يمشون مشى الاناسى على الارض ثم قال تعالى وهو على جمعهم اذا يشاء قدير قال صاحب الكشاف اذا تدخل على المضارع كما تدخل على الماضى قال تعالى والليل اذا يغشى ومنه اذا يشاء قدير والمقصود انه تعالى خلقها متفرقة لا لعجز ولكن لمصلحة فلهذا قال وهو على جمعهم اذا يشاء قدير يعنى الجمع للحشر والمحاسبة وانما قال على جمعهم ولم يقل على جمعها لاجل أن المقصود من هذا الجمع المحاسبة فكأنه

من الارض وأنتم فى قبوركم دعوة واحدة بان قال أيها الموتى اخرجوا فاجاتم الخروج منها وذلك قوله تعالى يومئذ يتبعون الداعى ومن الارض متعلق بدعاكم اذ يكفى فى ذلك كون المدعو فيها يقال دعوته من أسفل الوادى فطلع الى لا تخرجون لان مابعد اذا لا يعمل فيما قبلها (وله) خاصة (من فى السموات والارض) من الملائكة والثقلين خلقا وملكا وتصرفا ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه من الوجوه (كل له قانتون) أى منقادون لفعله لا يمتنعون عليه فى شأن من شؤنه تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) بعد موتهم وتكريره لزيادة التقرير والتمهيد لما بعده من قوله تعالى (وهو أهون عليه) أى بالاضافة الى قدركم والقياس على أصولكم والا فهما عليه سواء وقيل أهون بمعنى هين وتذكير الضمير مع رجوعه الى الاعادة لما أنها مؤولة بان يعيد وقيل هو راجع الى الخلق وليس بذاك وأما ما قيل من أن الانشاء بطريق التفضل الذى يتخير فيه الفاعل بين الفعل والترك والاعادة من قبيل الواجب الذى لا بد من فعله حتما فكان أقرب الى الحصول من الانشاء المتردد بين الحصول وعدمه فبمعزل من التحصيل اذ ليس المراد باهونية الفعل أقربيته الى الوجود باعتبار كثرة الامور الداعية للفاعل الى ايجاده وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به بل أسهلية تأتيه وصدوره عنه بعد تعلق قدرته بوجوده وكونه واجبا بالغير ولا تفاوت فى ذلك بين أن يكون ذلك التعلق بطريق الايجاب أو بطريق الاختيار (وله المثل الاعلى) أى الوصف الاعلى العجيب الشان من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التى ليس لغيره ما يدانيها فضلا عما يساويها ومن فسره بقول لا اله الا الله أراد به الوصف بالوحدانية (فى السموات والارض) متعلق بمضمون الجملة المتقدمة على معنى أنه تعالى قد وصف به وعرف فيهما على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل وقيل متعلق بالاعلى وقيل بمحذوف هو حال منه أو من المثل أو من ضميره فى الاعلى (وهو العزيز) القادر الذى

تعالى قال وهو على جمع العظام اذا شاء قدير واحتج الجبائي بقوله اذا يشاء قدير على ان مشيئته تعالى محدثة بأن قال ان كلمة اذا تفيد ظرف الزمان وكلمة يشاء صيغة المستقبل فلو كانت مشيئته تعالى قديمة لم يكن لتخصيصها بذلك الوقت المعين من المستقبل فائدة ولما دل قوله اذا يشاء قدير على هذا التخصيص علمنا ان مشيئته تعالى محدثة (والجواب) أن هاتين الكلمتين كما دخلتا على المشيئة أى مشيئة الله فقد دخلتا أيضا على لفظ القدير فلزم على هذا أن يكون كونه قادرا صفة محدثة ولما كان هذا باطلا فكذا القول فيما ذكرتموه والله أعلم ثم قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن عامر بما كسبت بغير فاء وكذلك هي في مصاحف الشام والمدينة والباقون بالفاء وكذلك هي في مصاحفهم وتقدير الاول ان ما مبتدأ بمعنى الذي وبما كسبت خبره والمعنى والذي أصابكم وقع بما كسبت أيديكم وتقدير الثاني تضمين كلمة ما معنى الشرطية (المسئلة الثانية) المراد بهذه المصائب الاحوال المكروهة نحو الآلام والاسقام والقحط والغرق والصواعق وأشباهها واختلفوا في نحو الآلام انها هل هي عقوبات على ذنوب سلفت أم لا منهم من أنكر ذلك لوجوه (الاول) قوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت بين تعالى ان الجزاء انما يحصل في يوم القيامة وقال تعالى في سورة الفاتحة مالك يوم الدين أى يوم الجزاء وأطبقوا على ان المراد منه يوم القيامة (والثاني) أن مصائب الدنيا يشترك فيها الزنديق والصديق وما يكون كذلك امتنع جعله من باب العقوبة على الذنوب بل الاستقراء يدل على أن حصول هذه المصائب للصالحين والمتقين أكثر منه للمذنبين ولهذا قال صلى الله عليه وسلم خص البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل (الثالث) ان الدنيا دار التكليف فلو حصل الجزاء فيها لكانت الدنيا دار التكليف ودار الجزاء معا وهو محال وأما القائلون بأن هذه المصائب قد تكون أجزية على الذنوب المتقدمة فقد تمسكوا أيضا بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا غيره الا بذنب أو لفظ هذا معناه وتمسكوا أيضا بهذه الآية وتمسكوا أيضا بقوله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات وتمسكوا أيضا بقوله تعالى بعد هذه الآية أو يوبقهن بما كسبوا وذلك تصريح بأن ذلك الاهلاك كان بسبب كسبهم وأجاب الاولون عن التمسك بهذه الآية فقالوا ان حصول هذه المصائب يكون من باب الامتحان في التكليف لا من باب العقوبة كما في حق الانبياء والاولياء ويحمل قوله فبما كسبت أيديكم على أن الاصلح عند اتيانكم بذلك الكسب انزال هذه المصائب عليكم وكذا الجواب عن بقية الدلائل والله أعلم (المسئلة الثالثة) احتج أهل التناسخ بهذه الآية وكذلك الذين يقولون ان الاطفال والبهائم لا تتألم فقالوا دلت الآية على أن حصول المصائب لا يكون الا لسابقة الجرم ثم ان أهل التناسخ قالوا لكن هذه المصائب حاصلة للاطفال والبهائم فوجب أن يكون قد حصل لها ذنوب في الزمان السابق وأما القائلون بأن الاطفال والبهائم ليس لها ألم فقالوا قد ثبت ان هذه الاطفال والبهائم ما كانت موجودة في بدن آخر لفساد القول بالتناسخ فوجب القطع بأنها لا تتألم اذ الالم مصيبة (والجواب) ان قوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم خطاب مع من يفهم ويعقل فلا يدخل فيه البهائم والاطفال ولم يقل تعالى ان جميع ما يصيب الحيوان من المكاره فانه بسبب ذنب سابق والله أعلم (المسئلة الرابعة) قوله فبما كسبت أيديكم يقتضي اضافة الكسب الى اليد فقال والكسب لا يكون باليد بل بالقدرة القائمة باليد واذا كان المراد من لفظ اليد ههنا القدرة وكان هذا المجاز مشهورا مستعملا كان لفظ اليد الوارد في حق الله تعالى يجب حمله على القدرة تنزيها لله تعالى عن الاعضاء والاجزاء والله أعلم ثم قال تعالى ويعفو عن كثير ومعناه انه تعالى قد يترك الكثير من هذه التشديدات بفضله ورحمته وعن الحسن قال دخلنا على عمران بن حصين في الوجع الشديد فقيل له انا لنغتم لك من بعض ما نرى فقال لا تفعلوا فوالله ان أحبه الى الله أحبه الى وقرأ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم فهذا بما كسبت يداي وسيأتيني

عفو

لا يعجز عن بدء ممكن واعادته (الحكيم) الذي يجري الافعال على سنن الحكمة والمصلحة (ضرب لكم مثلا) يتبين به بطلان الشرك (من أنفسكم) أى منتزعا من أحوالها التي هي أقرب الامور اليكم وأعرفها عندكم وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الاولوية وقوله تعالى (هل لكم) الخ تصوير للمثل أى هل لكم (مما ملكت أيمانكم) من العبيد والاماء (من شركاء فيما رزقناكم) من الاموال وما يجرى مجراها مما تتصرفون فيها فمن الاولى ابتدائية والثانية تبعيضية والثالثة مزيدة لتأكيد النفي المستفاد من الاستفهام فقوله تعالى (فأنتم فيه سواء) تحقيق لمعنى الشركة وبيان لكونهم وشركائهم متساوين في التصرف فيما ذكر من غير مزية لهم عليها على أن هناك محذوفا معطوفا على أنتم لا أنه عام للفريقين بطريق التغليب أى هل ترضون لانفسكم والحال أن عبيدكم أمثالكم في البشرية وأحكامها أن يشاركوكم فيما رزقناكم وهو مستعار لكم فأنتم وهم فيه سواء شرع يتصرفون فيه كتصرفكم من غير فرق بينكم وبينهم (تخافونهم) خبر آخر لانتم أو حال من ضمير الفاعل في سواء أى تهابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم (كخيفتكم أنفسكم) أى خيفة كائنة مثل خيفتكم من الاحرار المساهمين لكم فيما ذكر والمعنى نفي مضمون ما فصل من الجملة الاستفهامية أى لا ترضون بأن يشارككم فيما هو معار لكم مماليككم وهم أمثالكم في البشرية غير مخلوقين لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه في المعبودية التي هي من خصائصه الذاتية مخلوقه بل مصنوع مخلوقه حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه (كذلك) أى مثل ذلك التفصيل الواضح (نفصل الآيات) أى نبينها ونوضحها لا تفصيلا أدنى منه فان التمثيل تصوير للمعاني المعقولة بصورة المحسوس وابراز لاوابد المدركات على هيئة المأنوس فيكون في غاية الايضاح والبيان (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم في تدبر الامور وتخصيصهم بالذكر مع

عفو ربى وقد روى أبو سخلة عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال ما عفا الله عنه فهو أعز وأكرم من أن يعود اليه فى الآخرة وما عاقب عليه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه فى الآخرة رواه الواحدى فى البسيط وقال اذا كان كذلك فهذه أرجى آية فى كتاب الله لان الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين صنف كفره عنهم بالمصائب فى الدنيا وصنف عفا عنه فى الدنيا وهو كريم لا يرجع فى عفوه وهذه سنة الله مع المؤمنين وأما الكافر فلانه لا يعجل عليه عقوبة ذنبه حتى يوافى به يوم القيامة ثم قال تعالى وما أنتم بمعجزين فى الارض يقول ما أنتم يا معشر المشركين بمعجزين فى الارض أى لا تعجزوننى حيثما كنتم فلا تسبقوننى بسبب هربكم فى الارض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير والمراد بهم من يعبد الاصنام بين أنه لا فائدة فيها البتة والنصير هو الله تعالى فلا جرم هو الذى تحسن عبادته ۞ قوله تعالى (ومن آياته الجوار فى البحر كالاعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص فما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وأبو عمرو الجوارى بياء فى الوصل والوقف فاثبات الياء على الاصل وحذفها للتخفيف (المسئلة الثانية) الجوارى يعنى السفن الجوارى فحذف الموصوف لعدم الالتباس (المسئلة الثالثة) اعلم أنه تعالى ذكر من آياته أيضا هذه السفن العظيمة التى تجرى على وجه البحر عند هبوب الرياح واعلم أن المقصود من ذكره أمران (أحدهما) أن يستدل به على وجود القادر الحكيم (والثانى) أن يعرف ما فيه من النعم العظيمة لله تعالى على العباد (أما الوجه الاول) فقد اتفقوا على ان المراد بالاعلام الجبال قالت الخنساء فى مرثية أخيها

وان صخرا لتأتم الهداة به * كأنه علم فى رأسه نار

ونقل أن النبى صلى الله عليه وسلم استنشد قصيدتها هذه فلما وصل الراوى الى هذا البيت قال قاتلها الله ما رضيت بتشبيهها له بالجبل حتى جعلت على رأسه نارا اذا عرفت هذا فنقول هذه السفن العظيمة التى تكون كالجبال تجرى على وجه البحر عند هبوب الرياح على أسرع الوجوه وعند سكون هذه الرياح تقف وقد بينا بالدليل فى سورة النحل ان محرك الرياح ومسكنها هو الله تعالى اذ لا يقدر أحد على تحريكها من البشر ولا على تسكينها وذلك يدل على وجود الاله القادر وأيضا ان تلك السفينة تكون فى غاية الثقل ثم انها مع ثقلها بقيت على وجه الماء وهو أيضا دلالة أخرى (وأما الوجه الثانى) وهو معرفة ما فيها من المنافع فهو انه تعالى خص كل جانب من جوانب الارض بنوع آخر من الامتعة واذا نقل متاع هذا الجانب الى ذلك الجانب فى السفن وبالعكس حصلت المنافع العظيمة فى التجارة فلهذه الاسباب ذكر الله تعالى حال هذه السفينة ثم قال تعالى ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره قرأ أبو عمرو والجمهور بهمزة ان يشأ لان سكون الهمزة علامة للجزم وعن ورش عن نافع بلا همز وقرأ نافع وحده يسكن الرياح على الجمع والباقون الريح على الواحد قال صاحب الكشاف قرئ فيظللن بفتح اللام وكسرها من ظل يظل ويظل وقوله تعالى رواكد أى ثوابت أى لا تجرى على ظهره أى على ظهر البحر ان فى ذلك لآيات لكل صبار على بلاء الله شكور لنعمائه والمقصود التنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يكون غافلا عن دلائل معرفة الله البتة لانه لابد وأن يكون اما فى البلاء واما فى الآلاء فان كان فى البلاء كان من الصابرين وان كان فى النعماء كان من الشاكرين وعلى هذا التقدير فانه لا يكون البتة من الغافلين ثم قال تعالى أو يوبقهن بما كسبوا يعنى أو يهلكهن يقال أوبقه أى أهلكه ويقال للمجرم أوبقته ذنوبه أى أهلكته والمعنى انه تعالى ان

عموم تفصيل الآيات للكل لانهم المنتفعون بها (بل اتبع الذين ظلموا) اعراض عن مخاطبتهم ومحاولة ارشادهم الى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمال المقدمات الحقة المعقولة وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق كأنه قيل لم يعقلوا شيأ (٢٧٩) من الآيات المفصلة بل اتبعوا (أهواءهم) الزائغة وضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بانهم فى ذلك الاتباع ظالمون واضعون للشئ فى غير موضعه أو ظالمون لانفسهم بتعريضها للعذاب الخالد (بغير علم) أى جاهلين ببطلان ما أتوا مكبين عليه لا يلويهم عنه صارف حسبما يصرف العالم اذا اتبع الباطل علمه ببطلانه (فمن يهدى من أضل الله) أى خلق فيه الضلال بصرف اختياره الى كسبه أى لا يقدر على هدايته أحد (ومالهم) أى لمن أضله الله تعالى والجمع باعتبار المعنى (من ناصرين) يخلصونهم من الضلال ويحفظونهم من تبعاته وآفاته على معنى ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو قاعدة مقابلة الجمع بالجمع (فأقم وجهك للدين) تمثيل لاقباله على الدين واستقامته وثباته عليه واهتمامه بترتيب أسبابه فان من اهتم بشئ محسوس بالبصر عقد عليه طرفه وسدد اليه نظره وقوم له وجهه مقبلا به عليه أى فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت يمينا وشمالا وقوله تعالى (حنيفا) حال من المأمور أو من الدين (فطرت الله) الفطرة الخلقة وانتصابها على الاغراء أى الزموا أو عليكم فطرة الله فان الخطاب للكل كما يفصح عنه قوله تعالى منيبين والافراد فى أقم لما أن الرسول عليه الصلاة والسلام امام الامة فأمره عليه السلام مستتبع لامرهم والمراد بلزومها الجريان على موجبها وعدم الاخلال به باتباع الهوى وتسويل الشياطين وقبول على المصدر أى فطر الله فطرة وقوله تعالى (التى فطر الناس عليها) صفة لفطرة الله مؤكدة لوجوب الامتثال بالامر فان خلق الله الناس على فطرته التى هى عبارة عن قبولهم للحق وتمكنهم من ادراكه أو عن ملة الاسلام من موجبات لزومها والتمسك بها قطعا فانهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى

جم اليها وما اختاروا عليها دينا آخر ومن غوى منهم فباغواء شياطين الانس والجن ومنه قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن رب العزة كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم ان يشركوا بى غيرى وقوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه وينصرانه وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) تعليل للامر بلزوم فطرته تعالى أو لوجوب الامتثال به أى لا صحة ولا استقامة لتبديله بالاخلال بموجبه وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان وقيل لا يقدر أحد على أن يغيره فلا بد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بازالتها رأسا ووضع فطرة أخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من ادراكه ضرورة أن التبديل بالمعنى الاول مقدور بل واقع قطعا فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة فى كل أحد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الاخلال به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان (ذلك) اشارة الى الدين المامور باقامة الوجه له أو الى لزوم فطرة الله المستفاد من الاغراء أو الى الفطرة ان فسرت بالملة والتذكير بتأويل المذكور أو باعتبار الخبر (الدين القيم) المستوى الذى لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيصدون عنه صدودا (منيبين اليه) حال من الضمير فى الناصب المقدر لفطرة الله أو فى أقم لعمومه للامة حسبما أشير اليه وما بينهما اعتراض أى راجعين اليه من أناب اذا رجع مرة بعد أخرى وقوله تعالى (واتقوه) أى من مخالفة أمره عطف على المقدر المذكور وكذا قوله تعالى (وأقيموا الصلوة ولا تكونوا من المشركين) المبدلين لفطرة الله تعالى تبديلا (من الذين فرقوا دينهم) بدل من المشركين باعادة الجار وتفريقهم له بنهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم وفائدة الابدال التحذير عن الانتماء الى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل على الضلال

شاء ابتلى المسافرين فى البحر باحدى بليتين اما أن يسكن الريح فتركد الجوارى على متن البحر وتقف واما أن يرسل الرياح عاصفة فيهلكهن بسبب الاغراق وعلى هذا التقدير فقوله أو يوبقهن معطوف على قوله يسكن لان التقدير ان يشأ يسكن الريح فيركدن أو يعصفها فيغرقن بعصفها وقوله ويعفو عن كثير معناه ان يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم فان قيل فما معنى ادخال العفو فى حكم الايباق حيث جعل مجزوما مثله قلنا معناه ان يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم وأما من قرأ ويعفو فقد استأنف الكلام ثم قال ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص قرأ نافع وابن عامر يعلم بالرفع على الاستئناف وقرأ الباقون بالنصب فالقراءة بالرفع على الاستئناف وأما بالنصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره لينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا والعطف على التعليل المحذوف غير عزيز فى القرآن ومنه قوله تعالى ولنجعله آية للناس وقوله تعالى خلق السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت قال صاحب الكشاف ومن قرأ على جزم ويعلم فكأنه قال أو ان يشأ يجمع بين ثلاثة أمور هلاك قوم ونجاة قوم وتحذير آخرين اذا عرفت هذا فنقول معنى الآية وليعلم الذين يجادلون أى ينازعون على وجه التكذيب ان لا مخلص لهم اذا وقفت السفن واذا عصفت الرياح فيصير ذلك سببا لاعترافهم بأن الاله النافع الضار ليس الا الله واعلم انه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد أردفها بالتنفير عن الدنيا وتحقير شأنها لان الذى يمنع من قبول الدليل انما هو الرغبة فى الدنيا بسبب الرياسة وطلب الجاه فاذا صغرت الدنيا فى عين الرجل لم يلتفت اليها فحينئذ ينتفع بذكر الدلائل فقال فما أوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وسماه متاعا تنبيها على قلته وحقارته ولان الحس شاهد بأن كل ما يتعلق بالدنيا فانه يكون سريع الانقراض والانقضاء ثم قال تعالى وما عند الله خير وأبقى والمعنى ان مطالب الدنيا خسيسة منقرضة ونبه على خساستها بتسميتها بالمتاع ونبه على انقراضها بأن جعلها من الدنيا وأما الآخرة فانها خير وأبقى وصريح العقل يقتضى ترجيح الخير الباقى على الخسيس الفانى ثم بين ان هذه الخيرية انما تحصل لمن كان موصوفا بصفات (الصفة الاولى) أن يكون من المؤمنين بدليل قوله تعالى للذين آمنوا (الصفة الثانية) أن يكون من المتوكلين على فضل الله بدليل قوله تعالى وعلى ربهم يتوكلون فأما من زعم أن الطاعة توجب الثواب فهو متكل على عمل نفسه لا على الله فلا يدخل تحت الآية (الصفة الثالثة) أن يكونوا مجتنبين لكبائر الاثم والفواحش عن ابن عباس كبير الاثم هو الشرك نقله صاحب الكشاف وهو عندى بعيد لان شرط الايمان مذكور أولا وهو يغنى عن عدم الشرك وقيل المراد بكبائر الاثم ما يتعلق بالبدع واستخراج الشبهات وبالفواحش ما يتعلق بالقوة الشهوانية وبقوله واذا ما غضبوا هم يغفرون ما يتعلق بالقوة الغضبية وانما خص الغضب بلفظ الغفران لان الغضب على طبع النار واستيلاؤه شديد ومقاومته صعبة فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ والله أعلم (الصفة الرابعة) قوله تعالى والذين استجابوا لربهم والمراد منه تمام الانقياد فان قالوا أليس انه لما جعل الايمان شرطا فيه فقد دخل فى الايمان اجابة الله قلنا الاقرب عندى أن يحمل هذا على الرضا بقضاء الله من صميم القلب وأن لا يكون فى قلبه منازعة فى أمر من الامور ولما ذكر هذا الشرط قال وأقاموا الصلاة والمراد منه اقامة الصلوات الواجبة لان هذا هو الشرط فى حصول الثواب وأما قوله تعالى وأمرهم شورى بينهم فقيل كان اذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم أى لا ينفردون برأى بل ما لم يجتمعوا عليه لا يقدمون عليه وعن الحسن ما تشاور قوم الا هدوا لأرشد أمرهم والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ومعنى قوله وأمرهم شورى بينهم أى ذو شورى (الصفة الخامسة) قوله تعالى والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون والمعنى أن يقتصروا فى الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدونه وعن النخعى انه كان اذا قرأها قال كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم السفهاء فان قيل هذه الآية مشكلة لوجهين (الاول) انه لما

ذكر

ذكر قبله واذا ماغضبوا هم يغفرون فكيف يليق أن يذكر معه ما يجرى مجرى الضد له وهو قوله والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون (الثانى) وهو أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن قال تعالى وان تعفوا أقرب للتقوى وقال واذا مروا باللغو مروا كراما وقال خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وقال ان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين فهذه الآيات تناقض مدلول هذه الآية (والجواب) ان العفو على قسمين (أحدهما) أن يصير العفو سببا لتسكين الفتنة وجناية الجانى ورجوعه عن جنايته (والثانى) أن يصير العفو سببا لمزيد جراءة الجانى ولقوة غيظه وغضبه والآيات فى العفو محمولة على القسم الاول وهذه الآية محمولة على القسم الثانى وحينئذ يزول التناقض والله أعلم ألا ترى ان العفو عن المصر يكون كالاغراء له ولغيره فلو أن رجلا وجد عبده فجر بجاريته وهو مصر فلو عفا عنه كان مذموما وروى أن زينب أقبلت على عائشة فشتمتها فنهاها النبى صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته فقال النبى صلى الله عليه وسلم دونك فانتصرى وأيضا انه تعالى لم يرغب فى الانتصار بل بين انه مشروع فقط ثم بين بعده أن شرعه مشروط برعاية المماثلة ثم بين أن العفو أولى بقوله فمن عفا وأصلح فأجره على الله فزال السؤال والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ان الظالمين فى عذاب مقيم وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل﴾ اعلم انه تعالى لما قال والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون أردفه بما يدل على ان ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيدا بالمثل فان النقصان حيف والزيادة ظلم والتساوى هو العدل وبه قامت السموات والارض فلهذا السبب قال وجزاء سيئة سيئة مثلها وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول جزاء السيئة مشروع مأذون فيه فكيف سمى بالسيئة أجاب صاحب الكشاف عنه كلتا الفعلتين الاولى وجزاؤها سيئة لانها تسوء من تنزل به قال تعالى وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك يريد ما يسوءهم من المصائب والبلايا وأجاب غيره بأنه لما جعل أحدهما فى مقابلة الآخر أطلق اسم أحدهما على الآخر على سبيل المجاز والحق ما ذكره صاحب الكشاف (المسئلة الثانية) هذه الآية أصل كبير فى علم الفقه فان مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها وذلك لان الاهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان لان فى طبع كل أحد الظلم والبغى والعدوان فاذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم والشرع منزه عنه فلم يبق الا أن يقابل بالمثل ثم تأكد هذا النص بنصوص أخر كقوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وقوله تعالى من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها وقوله عز وجل كتب عليكم القصاص فى القتلى والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة وقوله تعالى والجروح قصاص وقوله تعالى ولكم فى القصاص حياة فهذه النصوص بأسرها تقتضى مقابلة الشئ بمثله ثم ههنا دقيقة وهى أنه اذا لم يمكن استيفاء الحق الا باستيفاء الزيادة فههنا وقع التعارض بين الحاق زيادة الضرر بالجانى وبين منع المجنى عليه من استيفاء حقه فأيهما أولى فههنا محل اجتهاد المجتهدين ويختلف ذلك باختلاف الصور وتفرع على هذا الاصل بعض المسائل تنبيها على الباقى (المثال الاول) احتج الشافعى رضى الله عنه على أن المسلم لا يقتل بالذمى وان الحر لا يقتل بالعبد بان قال المماثلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة فى هاتين المسئلتين فوجب أن لا يجرى القصاص بينهما أما بيان أن المماثلة شرط لجريان القصاص فهى النصوص المذكورة وكيفية الاستدلال بها أن نقول اما أن نحمل المماثلة المذكورة فى هذه النصوص على المماثلة فى كل

المبين وقرئ فارقوا أى تركوا دينهم الذى أمروا به (وكانوا شيعا) أى فرقا تشايع كل منها امامها الذى أضلها (كل حزب بما لديهم) من الدين المعوج المؤسس على الرأى الزائغ والزعم الباطل (فرحون) مسرورون ظنا منهم أنه حق وأنى له ذلك فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من تفريق دينهم وكونهم شيعا وقد جوز أن يكون فرحون صفة لكل على أن الخبر هو الظرف المقدم أعنى من الذين فرقوا ولا يخفى بعده (واذا مس الناس ضر) أى شدة (دعوا ربهم منيبين اليه) راجعين اليه من دعاء غيره (ثم اذا أذاقهم منه رحمة) خلاصا من تلك الشدة (اذا فريق منهم بربهم) الذى كانوا دعوه منيبين اليه (يشركون) أى فاجأ فريق منهم الاشراك وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك كما فى قوله تعالى فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد أى مقيم على الطريق القصد أو متوسط فى الكفر لانزجاره فى الجملة (ليكفروا بما آتيناهم) اللام فيه للعاقبة وقيل للامر التهديدى كقوله تعالى (فتمتعوا) غير أنه التفت فيه للمبالغة وقرئ وليتمتعوا (فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم وقرئ بالياء على أن تمتعوا ماض والالتفات الى الغيبة فى قوله تعالى (أم أنزلنا عليهم) للايذان بالاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة (سلطانا) أى حجة واضحة وقيل ذا سلطان أى ملكا معه برهان (فهو يتكلم) تكلم دلالة كما فى قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق أو تكلم نطق (بما كانوا به يشركون) باشراكهم به تعالى أو بالامر الذى بسببه يشركون (واذا أذقنا الناس رحمة) أى نعمة من صحة وسعة (فرحوا بها) بطرا وأشرا لا حمدا وشكرا (وان تصبهم سيئة) شدة (بما قدمت أيديهم) بشؤم معاصيهم (اذا هم يقنطون) فاجؤا القنوط من رحمته تعالى وقرئ بكسر النون (أولم يروا) أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا (ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فما لهم لم يشكروا ولم يحتسبوا فى السراء والضراء كالمؤمنين (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

الامور الا ماخصه الدليل أو نحملها على المماثلة فى أمر معين والثانى مرجوح لان ذلك الامر المعين غير مذكور فى الآية فلو حملنا الآية عليها لزم الاجمال ولو حملنا النص على القسم الاول لزم تحمل التخصيص ومعلوم ان دفع الاجمال أولى من دفع التخصيص فثبت ان الآية تقتضى رعاية المماثلة فى كل الامور الا ماخصه دليل العقل ودليل نقلى منفصل واذا ثبت هذا فنقول رعاية المماثلة فى قتل المسلم بالذمى وفى قتل الحر بالعبد لاتمكن لان الاسلام اعتبره الشرع فى ايجاب القتل لتحصيله عند عدمه كما فى حق الكافر الاصلى ولابقائه عند وجوده كما فى حق المرتد وأيضا الحرية صفة اعتبرها الشرع فى حق القضاء والامامة والشهادة فثبت ان المماثلة شرط لجريان القصاص وهى مفقودة ههنا فوجب المنع من القصاص (المثال الثانى) احتج الشافعى رضى الله عنه فى أن الايدى تقطع باليد الواحدة فقال لاشك انه اذا صدر كل القطع أو بعضه عن كل أولئك القاطعين أو عن بعضهم فوجب أن يشرع فى حق أولئك القاطعين مثله لهذه النصوص وكل من قال بشرع القطع اما كله أو بعضه فى حق كلهم أو بعضهم قال بايجابه على الكل بقى أن يقال فيلزم منه استيفاء الزيادة من الجانى وهو ممنوع منه الا انا نقول لما وقع التعارض بين جانب الجانى وبين جانب المجنى عليه كان جانب المجنى عليه بالرعاية أولى (المثال الثالث) شريك الاب شرع فى حقه القصاص والدليل عليه انه صدر عنه الجرح فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى والجروح قصاص واذا ثبت هذا ثبت تمام القصاص لانه لاقائل بالفرق (المثال الرابع) قال الشافعى رضى الله تعالى عنه من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه والدليل عليه هذه النصوص الدالة على مقابلة كل شئ بمماثله (المثال الخامس) شهود القصاص اذا رجعوا وقالوا تعمدنا الكذب يلزمهم القصاص لانهم بتلك الشهادة أهدروا دمه فوجب أن يصير دمهم مهدرا لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (المثال السادس) قال الشافعى رضى الله عنه المكره يجب عليه القود لانه صدر عنه القتل ظلما فوجب أن يجب عليه مثله أما انه صدر عنه القتل فالحس يدل عليه وأما أنه قتل ظلما فلان المسلمين أجمعوا على أنه مكلف من قبل الله تعالى بان لا يقتل وأجمعوا على أنه يستحق به الاثم العظيم والعقاب الشديد واذا ثبت هذا فوجب أن يقابل بمثله لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (المثال السابع) قال الشافعى رضى الله عنه القتل بالمثقل يوجب القود والدليل عليه ان الجانى أبطل حياته فوجب أن يتمكن ولى المقتول من ابطال حياة القاتل لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها (المثال الثامن) الحر لا يقتل بالعبد قصاصا ونحن وان ذكرنا هذه المسئلة فى المثال الاول الا انا نذكر ههنا وجها آخر من البيان فنقول ان القاتل أتلف على مالك العبد شيأ يساوى عشرة دنانير مثلا فوجب عليه أداء عشرة دنانير لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها واذا وجب الضمان وجب أن لا يجب القصاص لانه لاقائل بالفرق (المثال التاسع) منافع الغصب مضمونة عند الشافعى رضى الله عنه والدليل عليه ان الغاصب فوت على المالك منافع تقابل فى العرف بدينار فوجب أن يفوت على الغاصب مثله من المال لقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وكل من أوجب تفويت هذا القدر على الغاصب قال بانه يجب أداؤه الى المغصوب منه (المثال العاشر) الحر لا يقتل بالعبد قصاصا لانه لو قتل بالعبد لكان هو مساويا للعبد فى المعانى الموجبة للقصاص لقوله من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ولسائر النصوص التى تلوناها ثم ان عبد غيره يقتل قصاصا بعبد نفسه فوجب أن يكون عبد غيره مساويا لعبد نفسه فى المعانى الموجبة للقصاص لعين هذه النصوص التى ذكرناها فعلى هذا التقدير يكون عبد نفسه مساويا لعبد غيره فى المعانى الموجبة للقصاص فكان عبد نفسه مثلا لمثل نفسه ومثل المثل مثل فوجب كون عبد نفسه مثلا لنفسه فى المعانى الموجبة للقصاص ولو قتل الحر بعبد غيره لقتل بعبد نفسه بالبيان الذى ذكرناه ولا يقتل بعبد نفسه فوجب أن لا يقتل بعبد غيره فقد ذكرنا هذه الامثلة العشرة فى التفريع على هذه الآية ومن أخذت الفطانة بيده سهل عليه تفريع كثير من مسائل الشريعة على هذا الاصل والله أعلم

فيستدلون بها على كمال القدرة والحكمة (فآت ذا القربى حقه) من الصلة والصدقة وسائر المبرات (والمسكين وابن السبيل) ما يستحقانه والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أو لمن (٢٨٢) بسط له كما تؤذن به الفاء (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) ذاته وجهته ويقصدون بمعروفهم اياه تعالى خالصا أو جهة التقرب اليه لاجهة أخرى (وأولئك هم المفلحون) حيث حصلوا بما بسط لهم النعيم المقيم (وما آتيتم من ربا) زيادة خالية عن العوض عند المعاملة وقرئ أتيتم بالقصر أى غشيتموه أو رهقتموه من اعطاء ربا (ليربو فى أموال الناس) ليزيد ويزكو فى أموالهم (فلا يربو عند الله) أى لا يبارك فيه وقرئ لتربوا أى لتزيدوا أو لتصير واذوى ربا (وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله) أى تبتغون به وجهه تعالى خالصا (فأولئك هم المضعفون) أى ذوو الاضعاف من الثواب ونظير المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم بالبركة وقرئ بفتح العين وفى تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة مالا يخفى (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ) أثبت له تعالى لوازم الالوهية وخواصها ونفاها رأسا عما اتخذوه شركاء له تعالى من الاصنام وغيرها مؤكدا بالانكار على مادل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج منه تنزهه عن الشركاء بقوله تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) ويجوز أن يكون الموصوف صفة والخبر هل من شركائكم والرابط قوله تعالى من ذلكم لانه بمعنى من أفعاله ومن الاولى والثانية تفيدان شيوع الحكم فى جنس الشركاء والافعال والثالثة مزيدة لتعميم المنفى وكل منها مستقلة بالتأكيد وقرئ تشركون بصيغة الخطاب (ظهر الفساد فى البر والبحر) كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق واخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة المضار أو الضلالة والظلم وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرئ البحور (بما كسبت أيدى الناس)

ثم

بشؤم معاصيهم أو بكسبهم اياها وقيل ظهر الفساد فى البر بقتل قابيل أخاه هابيل وفى البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصبا (ليذيقهم
بعض الذى عملوا) أى بعض جزائه فان تمامه فى الآخرة واللام للعلة أو للعاقبة وقرئ لنذيقهم بالنون (لعلهم يرجعون) عما كانوا

ثم ههنا بحث وهو ان أبا حنيفة رضى الله عنه قال فى قطع الايدى لا شك انه صدر كل القطع أو بعضه عن كلهم أو عن بعضهم الا انه لا يمكن استيفاء ذلك الحق الا باستيفاء الزيادة لان تفويت عشرة من الايدى أزيد من تفويت يد واحدة فوجب أن يبقى على أصل الحرمة فقال الشافعى رضى الله عنه لو كان تفويت عشرة من الايدى فى مقابلة يد واحدة حراما لكان تفويت عشرة من النفوس فى مقابلة نفس واحدة حراما لان تفويت النفس يشتمل على تفويت اليد فتفويت عشرة من النفوس فى مقابلة النفس الواحدة يوجب تفويت عشرة من الايدى فى مقابلة اليد الواحدة فلو كان تفويت عشرة من الايدى فى مقابلة اليد الواحدة حراما لكان تفويت عشرة من النفوس لاجل النفس الواحدة مشتملا على الحرام والمشتمل على الحرام حرام فكان يجب أن يحرم قتل النفوس العشرة فى مقابلة النفس الواحدة وحيث أجمعنا على انه لا يحرم علمنا ان ماذكرتم من استيفاء الزيادة غير ممنوع منه شرعا والله أعلم (المسئلة الثالثة) قد بينا ان قوله وجزاء سيئة سيئة مثلها يقتضى وجوب رعاية المماثلة مطلقا فى كل الاحوال الا فيما خصه الدليل والفقهاء أدخلوا التخصيص فيه فى صور كثيرة فتارة بناء على نص آخر أخص منه وأخرى بناء على القياس ولا شك ان من ادعى التخصيص فعليه البيان والمكلف يكفيه أن يتمسك بهذا النص فى جميع المطالب قال مجاهد والسدى اذا قال له أخزاه الله فليقل له أخزاه الله أما اذا قذفه قذفا يوجب الحد فليس له ذلك بل الحد الذى أمر الله به ثم قال تعالى فمن عفا وأصلح بينه وبين خصمه بالعفو والاغضاء كما قال تعالى فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم فأجره على الله وهو وعد مبهم لا يقاس أمره فى التعظيم ثم قال تعالى انه لا يحب الظالمين وفيه قولان (الاول) ان المقصود منه التنبيه على ان المجنى عليه لا يجوز له استيفاء الزيادة من الظالم لان الظالم فيما وراء ظلمه معصوم والانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز التسوية والتعدى خصوصا فى حال الحرب والتهاب الحمية فربما صار المظلوم عند الاقدام على استيفاء القصاص ظالما وعن النبى صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة نادى مناد من كان له على الله أجر فليقم قال فيقوم خلق فيقال لهم ما أجركم على الله فيقولون نحن الذين عفونا عمن ظلمنا فيقال لهم ادخلوا الجنة باذن الله تعالى (الثانى) انه تعالى لما حث على العفو عن الظالم أخبر انه مع ذلك لا يحبه تنبيها على انه اذا كان لا يحبه ومع ذلك فانه يندب الى عفوه فالمؤمن الذى هو حبيب الله بسبب ايمانه أولى أن يعفو عنه ثم قال تعالى ولمن انتصر بعد ظلمه أى ظلم ظالم اياه وهذا من باب اضافة المصدر الى المفعول فأولئك يعنى المنتصرين ما عليهم من سبيل كعقوبة ومؤاخذة لانهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار واحتج الشافعى رضى الله تعالى عنه بهذه الآية فى بيان أن سراية القود مهدرة فقال الشرع اما أن يقال انه أذن له فى القطع مطلقا أو بشرط ان لا يحصل منه السريان وهذا الثانى باطل لان الاصل فى القطع الحرمة فاذا كان تجويزه معلقا بشرط عدم السريان وكان هذا الشرط مجهولا وجب أن يبقى ذلك القطع على أصل الحرمة لان الاصل فيها هو الحرمة والحل انما يحصل معلقا على شرط مجهول فوجب أن يبقى ذلك على أصل الحرمة وحيث لم يكن كذلك علمنا ان الشرع أذن له فى القطع كيف كان سواء سرى أو لم يسر واذا كان كذلك وجب أن لا يكون ذلك السريان مضمونا لانه قد انتصر من بعد ظلمه فوجب أن لا يحصل لاحد عليه سبيل ثم قال انما السبيل على الذين يظلمون الناس أى يبدؤن بالظلم ويبغون فى الارض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ثم قال تعالى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور والمعنى ولمن صبر بأن لا يقتص وغفر وتجاوز فان ذلك الصبر والتجاوز من عزم الامور يعنى ان عزمه على ترك الانتصار لمن عزم الامور الجيدة وحذف الراجع لانه مفهوم كما حذف من قولهم السمن منوان بدرهم ويحكى أن رجلا سب رجلا فى مجلس الحسن فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ثم قام وتلا هذه الآية فقال الحسن عقلها والله وفهمها لما ضيعها الجاهلون ثم قال تعالى ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده أى فليس له من ناصر يتولاه من بعد

عليه (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) ليشاهدوا آثارهم (كان أكثرهم مشركين) استئناف للدلالة على أن ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم أو كان الشرك فى أكثرهم وما دونه من المعاصى فى قليل منهم (فأقم وجهك للدين القيم) أى البليغ الاستقامة (من قبل أن يأتى يوم لا مرد له) لا يقدر أحد على رده (من الله) متعلق بيأتى أو بمرد لانه مصدر والمعنى لا يرده الله تعالى لتعلق ارادته القديمة بمجيئه (يومئذ يصدعون) أصله يتصدعون أى يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى السعير (من كفر فعليه كفره) أى وبال كفره وهو النار المؤبدة (ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون) أى يسوون منزلا فى الجنة وتقديم الظرف فى الموضعين للدلالة على الاختصاص (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) متعلق بيصدعون وقيل بيمهدون أى يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين ليجزى كلا منهما بحسب أعمالهم وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصود بالذات أبرز ذلك فى معرض الغاية وعبر عنه بالفضل لما أن الاثابة بطريق التفضل لا الوجوب وأشير الى جزاء الفريق الآخر بقوله تعالى (انه لا يحب الكافرين) فان عدم محبته تعالى كناية عن بغضه الموجب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالة (ومن آياته أن يرسل الرياح) أى الشمال والصبا والجنوب فانها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقرئ الريح على ارادة الجنس (مبشرات) بالمطر (وليذيقكم من رحمته) وهى المنافع التابعة لها وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذى هو مع هبوبها واللام متعلقة بيرسل والجملة معطوفة على مبشرات

خذلانه أى من بعد اضلال الله اياه وهذا صريح فى جواز الاضلال من الله تعالى وفى ان الهداية ليست فى مقدور أحد سوى الله تعالى قال القاضى المراد ومن يضلل الله عن الجنة فماله من ولى من بعده ينصره (والجواب) أن تقييد الاضلال بهذه الصورة المعينة خلاف الدليل وأيضا فالله تعالى ما أضله عن الجنة على قولكم بل هو أضل نفسه عن الجنة ثم قال تعالى وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل والمراد انهم يطلبون الرجوع الى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم فقال وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل أى حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب مالحقهم من الذل ثم قال ينظرون من طرف خفى أى يبتدئ نظرهم من تحريك لاجفانهم ضعيف خفى بمسارقة كما ترى الذى يتيقن أن يقتل فانه ينظر الى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه كما يفعل فى نظره الى المحبوبات فان قيل أليس انه تعالى قال فى صفة الكفار انهم يحشرون عميا فكيف قال ههنا انهم ينظرون من طرف خفى قلنا لعلهم يكونون فى الابتداء هكذا ثم يجعلون عميا أو لعل هذا فى قوم وذلك فى قوم آخرين ولما وصف الله تعالى حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة قال صاحب الكشاف يوم القيامة اما أن يتعلق بخسروا أو يكون قول المؤمنين واقعا فى الدنيا واما أن يتعلق بقال أى يقولون يوم القيامة اذا رأوهم على تلك الصفة ثم قال ألا ان الظالمين فى عذاب مقيم أى دائم قال القاضى وهذا يدل على ان الكافر والفاسق يدوم عذابهما (والجواب) ان لفظ الظالم المطلق فى القرآن مخصوص بالكافر قال تعالى والكافرون هم الظالمون والذى يؤكد هذا انه تعالى قال بعد هذه الآية وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله والمعنى ان الاصنام التى كانوا يعبدونها لاجل أن تشفع لهم عند الله تعالى ما أتوا بتلك الشفاعة ومعلوم أن هذا لا يليق الا بالكفار ثم قال ومن يضلل الله فماله من سبيل وذلك يدل على ان المضل والهادى هو الله تعالى على ما هو قولنا ومذهبنا والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور لله ملك السموات والارض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير﴾ اعلم انه تعالى لما أطنب فى الوعد والوعيد ذكر بعده ما هو المقصود فقال استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله وقوله من الله يجوز أن يكون صلة لقوله لا مرد له يعنى لا يرده الله بعد ما حكم به ويجوز أن يكون صلة لقوله يأتى أى من قبل أن يأتى من الله يوم لا يقدر أحد على رده واختلفوا فى المراد بذلك اليوم فقيل هو يوم ورود الموت وقيل يوم القيامة لانه وصف ذلك اليوم بانه لا مرد له وهذا الوصف موجود فى كلا اليومين ويحتمل أن يكون معنى قوله لا مرد له أنه لا يقبل التقديم والتأخير أو ان يكون معناه أن لا مرد فيه الى حال التكليف حتى يحصل فيه التلافى ثم قال تعالى فى وصف ذلك اليوم مالكم من ملجأ ينفع فى التخلص من العذاب ومالكم من نكير ممن ينكر ذلك حتى يتغير حالكم بسبب ذلك المنكر ويجوز أن يكون المراد من النكير الانكار أى لا تقدرون أن تنكروا شيأ مما اقترفتموه من الاعمال فان أعرضوا أى هؤلاء الذين أمرتهم بالاستجابة ان لم يقبلوا هذا الامر فما أرسلناك عليهم حفيظا بان تحفظ أعمالهم وتحصيها ان عليك الا البلاغ وذلك تسلية من الله تعالى ثم انه تعالى بين السبب فى اصرارهم على مذاهبهم الباطلة وذلك انهم وجدوا فى الدنيا سعادة وكرامة والفوز بمطالب الدنيا يفيد الغرور والفجور والتكبر وعدم الانقياد للحق فقال وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها ونعم الله فى الدنيا وان كانت عظيمة الا انها بالنسبة الى السعادات المعدة فى الآخرة كالقطرة بالنسبة الى البحر فلذلك سماها ذوقا فبين تعالى ان الانسان اذا فاز بهذا القدر الحقير

على المعنى كأنه قيل ليبشركم بها وليذيقكم أو بمحذوف يفهم من ذكر الارسال تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا يرسلها الالام آخر لا تعلق له بمنافعكم (ولتجرى الفلك) بسوقها (بأمره ولتبتغوا من فضله) بتجارة البحر (ولعلكم تشكرون) ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر من الغايات الجليلة (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم) كما أرسلناك الى قومك (فجاؤهم بالبينات) أى جاء كل رسول قومه بما يخصه من البينات كما جئت قومك بيناتك والفاء فى قوله تعالى (فانتقمنا من الذين أجرموا) فصيحة أى فكذبوهم فانتقمنا منهم وانما وضع موضع ضميرهم الموصول للتنبيه على مكان المحذوف والاشعار بكونه علة للانتقام وفى قوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم واشعار بأن الانتقام من الكفرة لاجلهم وقد يوقف على حقا على أنه متعلق بالانتقام ولعل توسيط الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ما سبق وما لحق من أحوال الرياح وأحكامها لانذار الكفرة وتحذيرهم عن الاخلال بمواجب الشكر المطلوب بقوله تعالى لعلكم تشكرون بمقابلة النعم المعدودة المنوطة بارسالها كيلا يحل بهم مثل ما حل باولئك الامم من الانتقام (الله الذى يرسل الرياح) استئناف مسوق لبيان ما أجمل فيما سبق من أحوال الرياح (فتثير سحابا فيبسطه) متصلا تارة (فى السماء) فى جوها (كيف يشاء) سائرا وواقفا مطبقا وغير مطبق من جانب دون جانب الى غير ذلك (ويجعله كسفا) تارة أخرى أى قطعا وقرئ بسكون السين على أنه مخفف جمع كسفة أو مصدر وصف به (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) فى التارتين (فاذا أصاب به من يشاء من عباده) أى بلادهم وأراضيهم (اذا هم يستبشرون) فاجؤا الاستبشار بمجئ الخصب (وان كانوا) ان مخففة من ان وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف أى وان الشان كانوا (من قبل أن ينزل عليهم) أى المطر (من قبله) تكرير للتأكيد

الذى

الذى حصل فى الدنيا فانه يفرح بها و يعظم غروره بسببها و يقع فى العجب والكبر و يظن أنه فاز بكل المنى ووصل الى أقاصى السعادات وهذه طريقة من يضعف اعتقاده فى سعادات الآخرة وهذه الطريقة مخالفة لطريقة المؤمن الذى لا يعد نعم الدنيا الا كالوصلة الى نعم الآخرة ثم بين أنه متى أصابتهم سيئة أى شئ يسوءهم فى الحال كالمرض والفقر وغيرهما فانه يظهر منه الكفر وهو معنى قوله فان الانسان كفور والكفور الذى يكون مبالغا فى الكفران ولم يقل فانه كفور ليبين ان طبيعة الانسان تقتضى هذه الحالة الا اذا أدبها الرجل بالآداب التى أرشد الله اليها ولما ذكر الله اذاقة الانسان الرحمة واصابته بضدها اتبع ذلك بقوله لله ملك السموات والارض والمقصود منه ان لا يغتر الانسان بما ملكه من المال والجاه بل اذا علم ان الكل ملك الله وملكه وانه انما حصل ذلك القدر تحت يده لان الله أنعم عليه به فحينئذ يصير ذلك حاملا له على مزيد الطاعة والخدمة وأما اذا اعتقد أن تلك النعم انما تحصل بسبب عقله وجده واجتهاده بقى مغرورا بنفسه معرضا عن طاعة الله تعالى ثم ذكر من أقسام تصرف الله فى العالم انه يخص البعض بالاولاد الاناث والبعض بالذكور والبعض بهما والبعض بان يجعله محروما من الكل وهو المراد من قوله و يجعل من يشاء عقيما واعلم ان أهل الطبائع يقولون السبب فى حدوث الولد صلاح حال النطفة والرحم وسبب الذكورة استيلاء الحرارة وسبب الانوثة استيلاء البرودة وقد ذكرنا هذا الفصل بالاستقصاء التام فى سورة النحل وابطلناه بالدلائل اليقينية وظهران ذلك من الله تعالى لا انه من الطبائع والانجم والافلاك وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) انه قدم الاناث فى الذكر على الذكور فقال يهب لمن يشاء اناثا و يهب لمن يشاء الذكور ثم فى الآية الثانية قدم الذكور على الاناث فقال أو يزوجهم ذكرانا واناثا فما السبب فى هذا التقديم والتأخير (السؤال الثانى) انه ذكر الاناث على سبيل التنكير فقال يهب لمن يشاء اناثا وذكر الذكور بلفظ التعريف فقال ويهب لمن يشاء الذكور فما السبب فى هذا الفرق (السؤال الثالث) لم قال فى اعطاء الاناث وحدهن وفى اعطاء الذكور وحدهم بلفظ الهبة فقال يهب لمن يشاء اناثا و يهب لمن يشاء الذكور وقال فى اعطاء الصنفين معا أو يزوجهم ذكرانا واناثا (السؤال الرابع) لما كان حصول الولد هبة من الله فيكفى فى عدم حصوله أن لا يهب فأى حاجة فى عدم حصوله الى أن يقول و يجعل من يشاء عقيما (السؤال الخامس) هل المراد من هذا الحكم جمع معينون أو المراد الحكم على الانسان المطلق (والجواب) عن السؤال الاول من وجوه (الاول) أن الكريم يسعى فى أن يقع الختم على الخير والراحة والسرور والبهجة فاذا وهب الولد الانثى أولا ثم أعطاه الذكر بعده فكأنه نقله من الغم الى الفرح وهذا غاية الكرم أما اذا أعطى الولد أولا ثم أعطى الانثى ثانيا فكأنه نقله من الفرح الى الغم فذكر تعالى هبة الولد الانثى أولا وثانيا هبة الولد الذكر حتى يكون قد نقله من الغم الى الفرح فيكون ذلك أليق بالكرم (الوجه الثانى) أنه اذا أعطى الولد الانثى أولا علم أنه لا اعتراض له على الله تعالى فيرضى بذلك فاذا أعطاه الولد الذكر بعد ذلك علم ان هذه الزيادة فضل من الله تعالى واحسان اليه فيزداد شكره وطاعته و يعلم أن ذلك انما حصل بمحض الفضل والكرم (والوجه الثالث) قال بعض المذكرين الانثى ضعيفة ناقصة عاجزة فقدم ذكرها تنبيها على أنه كلما كان العجز والحاجة أتم كانت عناية الله به أكثر (الوجه الرابع) كأنه يقال أيتها المرأة الضعيفة العاجزة ان أباك وأمك يكرهان وجودك فان كانا قد كرها وجودك فانا قدمتك فى الذكر لتعلمى أن المحسن المكرم هو الله تعالى فاذا علمت المرأة ذلك زادت فى الطاعة والخدمة والبعد عن موجبات الطعن والذم فهذه المعانى هى التى لاجلها وقع ذكر الاناث مقدما على ذكر الذكور وانما قدم ذكر الذكور بعد ذلك على ذكر الاناث لان الذكر أكمل وأفضل من الانثى والافضل الاكمل مقدم على الاخس الارذل والحاصل ان النظر الى كونه ذكرا أو أنثى يقتضى تقديم ذكر الذكر على ذكر الانثى أما العوارض الخارجية التى ذكرناها فقد أوجبت تقديم ذكر الانثى على ذكر الذكر فلما حصل

والايذان بطول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم منه وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الارسال وقيل للكسف على القراءة بالسكون وليس بواضح وأقرب من ذلك أن يكون الضمير للاستبشار ومن متعلقة بينزل لتفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس الى الاستبشار بالاشارة الى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل المتصل بالاستبشار بشهادة اذا الفجائية (لمبلسين) خبر كانوا واللام فارقة أى آيسين (فانظر الى آثار رحمة الله) المترتبة على تنزيل المطر من النبات والاشجار وأنواع الثمار والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرئ أثر بالتوحيد وقوله تعالى (كيف يحيى) أى الله تعالى (الارض بعد موتها) فى حيز النصب بنزع الخافض وكيف معلق لانظر أى فانظر الى احيائه البديع للارض بعد موتها وقيل على الحالية بالتأويل وأياما كان فالمراد بالامر بالنظر التنبيه على عظم قدرته تعالى وسعة رحمته مع مافيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث وقرئ تحيى بالتأنيث على الاسناد الى ضمير الرحمة (ان ذلك) العظيم الشان الذى ذكر بعض شؤونه (لمحيى الموتى) لقادر على احيائهم فانه احداث لمثل ما كان فى مواد أبدانهم من القوى الحيوانية كما أن احياء الارض احداث لمثل ما كان فيها من القوى النباتية أو لمحييهم البتة وقوله تعالى (وهو على كل شئ قدير) تذييل مقرر لمضمون ماقبله أى مبالغ فى القدرة على جميع الاشياء التى من جملتها احياؤهم لما أن نسبة قدرته الى الكل سواء (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه) أى الاثر المدلول عليه بالآثار أو النبات المعبر عنه بالآثار فانه اسم جنس يعم القليل والكثير (مصفرا) بعد قدرته وقد جوز أن يكون الضمير للسحاب لانه اذا كان مصفرا لم يمطر ولا يخفى بعده واللام فى لئن موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط والفاء فى فرأوه فصيحة واللام فى قوله تعالى (لظلوا) لام جواب القسم الساد مسد الجوابين أى وبالله لئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة فضرب بزرعهم بالصفار فرأوه مصفرا لظلوا (من بعده يكفرون) من غير تلعثم وفيه من ذمهم بعد تثبتهم وسرعة تزلزلهم بين طرفى الافراط

المقتضى للتقديم والتأخير في البابين لاجرم قدم هذا مرة وقدم ذلك مرة أخرى والله أعلم (وأما السؤال الثاني) وهو قوله لم عبر عن الاناث بلفظ التنكير وعن الذكور بلفظ التعريف فجوابه أن المقصود منه التنبيه على كون الذكر أفضل من الانثى (وأما السؤال الثالث) وهو قوله لم قال تعالى في اعطاء الصنفين أو يزوجهم ذكرانا واناثا فجوابه ان كل شيئين يقرن أحدهما بالآخر فهما زوجان وكل واحد منهما يقال له زوج والكناية في يزوجهم عائدة على الاناث والذكور التي في الآية الاولى والمعنى يقرن الاناث والذكور فيجعلهم أزواجا (وأما السؤال الرابع) فجوابه ان العقيم هو الذي لا يولد له يقال رجل عقيم لا يلد وامرأة عقيم لا تلد وأصل العقم القطع ومنه قيل الملك عقيم لانه يقطع فيه الارحام بالقتل والعقوق (وأما السؤال الخامس) فجوابه قال ابن عباس يهب لمن يشاء اناثا يريد لوطا وشعيبا عليهما السلام لم يكن لهما الا البنات ويهب لمن يشاء الذكور يريد ابراهيم عليه السلام لم يكن له الا الذكور أو يزوجهم ذكرانا واناثا يريد محمدا صلى الله عليه وسلم كان له من البنين أربعة القاسم والطاهر وعبد الله وابراهيم ومن البنات أربعة زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ويجعل من يشاء عقيما يريد عيسى ويحيى وقال الاكثرون من المفسرين هذا الحكم عام في حق كل الناس لان المقصود بيان نفاذ قدرة الله في تكوين الاشياء كيف شاء وأراد فلم يكن للتخصيص معنى والله أعلم ثم ختم الآية بقوله انه عليم قدير قال ابن عباس عليم بما خلق قدير على ما يشاء ان يخلقه والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور﴾ اعلم انه تعالى لما بين كمال قدرته وعلمه وحكمته اتبعه ببيان انه كيف يخص أنبياءه بوحيه وكلامه وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) وما كان لبشر وما صح لاحد من البشر أن يكلمه الله الا على أحد ثلاثة أوجه اما على الوحي وهو الالهام والقذف في القلب أو المنام كما أوحى الله الى أم موسى وابراهيم عليه السلام في ذبح ولده وعن مجاهد أوحى الله تعالى الزبور الى داود عليه السلام في صدره واما على أن يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ وهذا أيضا وحي بدليل أنه تعالى أسمع موسى كلامه من غير واسطة مع أنه سماه وحيا قال تعالى فاستمع لما يوحى واما على أن يرسل اليه رسولا من الملائكة فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحي الى الرسول البشري فطريق الحصر أن يقال وصول الوحي من الله الى البشر اما أن يكون من غير واسطة مبلغ أو يكون بواسطة مبلغ واذا كان الاول وهو أن يصل اليه وحي الله لا بواسطة شخص آخر فههنا اما أن يقال انه لم يسمع عين كلام الله أو يسمعه أما الاول وهو أنه وصل اليه الوحي لا بواسطة شخص آخر وما سمع عين كلام الله فهو المراد بقوله الا وحيا وأما الثاني وهو أنه وصل اليه الوحي لا بواسطة شخص آخر ولكنه سمع عين كلام الله فهو المراد من قوله أو من وراء حجاب وأما الثالث وهو أنه وصل اليه الوحي بواسطة شخص آخر فهو المراد بقوله أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء واعلم ان كل واحد من هذه الاقسام الثلاثة وحي الا انه تعالى خصص القسم الاول باسم الوحي لان ما يقع في القلب على سبيل الالهام فهو يقع دفعة فكان تخصيص لفظ الوحي به أولى فهذا هو الكلام في تمييز هذه الاقسام بعضها عن بعض (المسئلة الثانية) القائلون بأن الله في مكان احتجوا بقوله أو من وراء حجاب وذلك لان التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله الا على أحد ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون الله من وراء حجاب وانما يصح ذلك لو كان مختصا بمكان معين وجهة معينة (والجواب) ان ظاهر اللفظ وان أوهم ما ذكرتم الا انه دلت الدلائل العقلية والنقلية على انه تعالى يمتنع حصوله في المكان والجهة فوجب حمل هذا اللفظ على التأويل والمعنى ان الرجل اذا سمع كلاما مع انه لا يرى ذلك المتكلم كان ذلك شبيها اذا تكلم من وراء حجاب والمشابه سبب لجواز المجاز (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة هذه الآية تدل على انه تعالى لا يرى وذلك

والتفريط ما لا يخفى حيث كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى في كل حال ويلجؤا اليه بالاستغفار اذا احتبس عنهم القطر ولا ييأسوا من روح الله تعالى ويبادروا الى الشكر بالطاعة اذا أصابهم برحمته ولا يفرطوا في الاستبشار وأن يصبروا على بلائه اذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه فعكسوا الامر وأبوا ما يجديهم وأتوا بما يرديهم (فانك لا تسمع الموتى) لما أنهم مثلهم لانسداد مشاعرهم عن الحق (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) تقييد الحكم بما ذكر لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتي السوء نبو أسماعهم عن الحق واعراضهم عن الاصغاء اليه ولو كان فيهم احداهما لكفاهم ذلك فكيف وقد جمعوهما فان الاصم المقبل الى المتكلم ربما يفطن من أوضاعه وحركاته لشئ من كلامه وان لم يسمعه أصلا وأما اذا كان معرضا عنه فلا يكاد يفهم منه شيأ وقرئ بالياء المفتوحة ورفع الصم (وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم) سموا عميا اما لفقدهم المقصود الحقيقي من الابصار أو لعمى قلوبهم وقرئ تهدي العمي (ان تسمع) أي ما تسمع (الا من يؤمن بآياتنا) فان ايمانهم يدعوهم الى التدبر فيها وتلقيها بالقبول أو الا من يشارف الايمان بها ويقبل عليها اقبالا لائقا (فهم مسلمون) منقادون لما تأمرهم به من الحق (الله الذي خلقكم من ضعف) مبتدأ وخبر أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم كقوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا أي خلقكم من أصل ضعيف هو النطفة (ثم جعل من بعد ضعف قوة) وذلك عند بلوغكم الحلم أو تعلق الروح بابدانكم (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) اذا أخذ منكم السن وقرئ بضم الضاد في الكل وهو أقوى لقول ابن عمر رضي الله عنهما قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقرأني من ضعف وهما لغتان كالفقر لانه
والفقر والتنكير مع التكرير لان المتقدم غير المتأخر (يخلق ما يشاء) من الاشياء التي من جملتها ما ذكر من الضعف والقوة والشيبة (وهو العليم

لانه تعالى حصر أقسام وحيه فى هذه الثلاثة ولو صحت رؤية الله تعالى لصح من الله تعالى أنه يتكلم مع العبد حال مايراه العبد فحينئذ يكون ذلك قسما رابعا زائدا على هذه الاقسام الثلاثة والله تعالى نفى القسم الرابع بقوله وما كان لبشر أن يكلمه الله الا على أحد هذه الاوجه الثلاثة (والجواب) نزيد فى اللفظ قيدا فيكون التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الله فى الدنيا الا على أحد هذه الاقسام الثلاثة وحينئذ لا يلزم ماذكرتموه وزيادة هذا القيد وان كانت على خلاف الظاهر لكنه يجب المصير اليها للتوفيق بين هذه الآيات وبين الآيات الدالة على حصول الرؤية فى يوم القيامة والله أعلم (المسئلة الرابعة) أجمعت الامة على ان الله تعالى متكلم ومن سوى الاشعرى واتباعه أطبقوا على ان كلام الله هو هذه الحروف المسموعة والاصوات المؤلفة وأما الاشعرى واتباعه فانهم زعموا ان كلام الله تعالى صفة قديمة يعبر عنها بهذه الحروف والاصوات (أما الفريق الاول) وهم الذين قالوا كلام الله تعالى هو هذه الحروف والكلمات فهم فريقان (أحدهما) الحنابلة الذين قالوا بقدم هذه الحروف وهؤلاء أخس من أن يذكروا فى زمرة العقلاء واتفق انى قلت يوما لبعضهم لو تكلم الله بهذه الحروف اما أن يتكلم بها دفعة واحدة أو على التعاقب والتوالى والاول باطل لان التكلم بجملة هذه الحروف دفعة واحدة لا يفيد هذا النظم المركب على هذا التعاقب والتوالى فوجب أن لا يكون هذا النظم المركب من هذه الحروف المتوالية كلام الله تعالى والثانى باطل لانه تعالى لو تكلم بها على التوالى والتعاقب كانت محدثة ولما سمع ذلك الرجل هذا الكلام قال الواجب علينا ان نقر ونمر يعنى نقر بأن القرآن قديم ونمر على هذا الكلام على وفق ماسمعناه فتعجبت من سلامة قلب ذلك القائل وأما العقلاء من الناس فقد أطبقوا على ان هذه الحروف والاصوات كائنة بعد ان لم تكن حاصلة بعد ان كانت معدومة ثم اختلفت عباراتهم فى انها هل هى مخلوقة أولا يقال ذلك بل يقال انها حادثة أو يعبر عنها بعبارة أخرى واختلفوا أيضا فى ان هذه الحروف هل هى قائمة بذات الله تعالى أو يخلقها فى جسم آخر فالاول هو قول الكرامية والثانى قول المعتزلة وأما الاشعرية الذين زعموا أن كلام الله صفة قديمة تدل عليها هذه الالفاظ والعبارات فقد اتفقوا على ان قوله أو من وراء حجاب هو ان الملك والرسول يسمع ذلك الكلام المنزه عن الحروف والصوت من وراء حجاب قالوا وكما لا يبعد ان ترى ذات الله مع انه ليس بجسم ولا فى حيز فأى بعد فى ان يسمع كلام الله مع أنه لا يكون حرفا ولا صوتا وزعم أبو منصور الماتريدى السمرقندى أن تلك الصفة القائمة يمتنع كونها مسموعة وانما المسموع حروف وأصوات يخلقها الله تعالى فى الشجرة وهذا القول قريب من قول المعتزلة والله أعلم (المسئلة الخامسة) قال القاضى هذه الآية تدل على حدوث كلام الله تعالى من وجوه (الاول) ان قوله تعالى أن يكلمه الله يدل عليه لان كلمة ان مع المضارع تفيد الاستقبال (الثانى) انه وصف الكلام بانه وحى لان لفظ الوحى يفيد أنه وقع على أسرع الوجوه (الثالث) ان قوله أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء يقتضى أن يكون الكلام الذى يبلغه الملك الى الرسول البشرى مثل الكلام الذى سمعه من الله والذى يبلغه الى الرسول البشرى حادث فلما كان الكلام الذى سمعه من الله مماثلا لهذا الذى بلغه الى الرسول البشرى وهذا الذى بلغه الى الرسول البشرى حادث ومثل الحادث حادث وجب أن يقال ان الكلام الذى سمعه من الله حادث (الرابع) ان قوله أو يرسل رسولا فيوحى يقتضى كون الوحى حاصلا بعد الارسال وما كان حصوله متأخرا عن حصول غيره كان حادثا (والجواب) انا نصرف جملة هذه الوجوه التى ذكرتموها الى الحروف والاصوات ونعترف بانها حادثة كائنة بعد ان لم تكن وبديهة العقل شاهدة بان الامر كذلك فاى حاجة الى اثبات هذا المطلوب الذى علمت صحته ببديهة العقل وبظواهر القرآن والله أعلم (المسئلة السادسة) ثبت ان الوحى من الله تعالى اما أن لا يكون بواسطة شخص آخر واما أن يكون بواسطة شخص آخر ويمتنع أن يكون كل وحى حاصلا بواسطة شخص آخر والا لزم اما التسلسل

القدير) المبالغ فى العلم والقدرة فان الترديد فيما ذكر من الاطوار المختلفة من أوضح دلائل العلم والقدرة (ويوم تقوم الساعة) أى القيامة سميت بها لانها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا أولانها تقع بغتة وصارت علما لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة (يقسم المجرمون مالبثوا) أى فى القبور أو فى الدنيا والاول هو الاظهر لان لبثهم مغيى بيوم البعث كما سيأتى وليس لبثهم فى الدنيا كذلك وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم وفى الحديث مابين فناء الدنيا والبعث أربعون وهو محتمل للساعة والايام والاعوام وقيل لا يعلم أهى أربعون سنة أو أربعون ألف سنة (غير ساعة) استقلوا مدة لبثهم نسيانا أو كذبا أو تخمينا (كذلك كانوا يؤفكون) مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق والصدق (وقال الذين أوتوا العلم والايمان) فى الدنيا من الملائكة والانس (لقد لبثتم فى كتاب الله) فى علمه أو قضائه وما كتبه وعينه أو فى اللوح أو القرآن وهو قوله تعالى ومن ورائهم برزخ (الى يوم البعث) ردوا بذلك ماقالوه وأيدوه باليمين كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود الذى كانوا ينكرونه وكانوا يسمعون أنه يكون بعد فناء الخلق كافة ويقدرون لذلك زمانا مديدا وان لم يعتقدوا وتحققه فرد العالمون مقالتهم ونبهوهم على أنهم لبثوا الى غاية بعيدة كانوا يسمعونها وينكرونها ويبكتوهم بالاخبار بوقوعها حيث قالوا (فهذا يوم البعث) الذى كنتم توعدون فى الدنيا (ولكنكم كنتم لا تعلمون) أنه حق فتستعجلون به استهزاء والفاء جواب شرط محذوف كما فى قول من قال

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا
ثم القفول فقد جئنا خراسانا

(فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم) أى عذرهم وقرئ تنفع بالتاء محافظة على ظاهر اللفظ وان توسط بينهما فاصل (ولاهم يستعتبون) لا يدعون الى مايقتضى اعتابهم أى ازالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا اليه فى الدنيا من قولهم استعتبنى فلان فاعتبته أى استرضانى

فارضيته (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى و بالله لقد بينا لهم كل حال ووصفنا لهم كل صفة كأنها فى غرابتها مثل وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين (٢٨٨) يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم و يفعل بهم من رد اعتذارهم (ولئن جئتهم بآية من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك (ليقولن الذين كفروا) لفرط عتوهم وعنادهم وقساوة قلوبهم مخاطبين للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (ان أنتم الا مبطلون) أى مزورون (كذلك) مثل ذلك الطبع الفظيع (يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) لا يطلبون العلم ولا يتحرون الحق بل يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها فان الجهل المركب يمنع ادراك الحق ويوجب تكذيب المحق (فاصبر) على ما تشاهد منهم من الاقوال الباطلة والافعال السيئة (ان وعد الله حق) وقد وعدك بالنصرة واظهار الدين واعلاء كلمة الحق ولا بد من انجازه والوفاء به لا محالة (ولا يستخفنك) لا يحملنك على الخفة والقلق (الذين لا يوقنون) بما تتلو عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم اياها وايذائهم لك بأباطيلهم التى من جملتها قولهم ان أنتم الا مبطلون فانهم شاكون ضالون ولا يستبدع منهم أمثال ذلك وقرئ بالنون الخفيفة وقرئ ولا يستحقنك من الاستحقاق أى لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين وأيا ما كان فظاهر النظم الكريم وان كان نهيا للكفرة عن استخفافه عليه السلام واستحقاقه لكنه فى الحقيقة نهى له عليه السلام عن التأثر من استخفافهم والافتتان بفتنتهم على طريق الكناية كما فى قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الروم كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله تعالى بين السماء والارض وأدرك ما ضيع فى يومه وليلته

* (سورة لقمان مكية وقيل الا الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة فان وجوبهما بالمدينة وهو ضعيف لانه ينافى شرعيتهما

واما الدور وهما محالان فلا بد من الاعتراف بحصول وحى يحصل لا بواسطة شخص آخر ثم ههنا أبحاث (البحث الاول) ان الشخص الاول الذى سمع وحى الله لا بواسطة شخص آخر كيف يعرف ان الكلام الذى سمعه كلام الله فان قلنا انه سمع تلك الصفة القديمة المنزهة عن كونها حروفا وصوتا لم يبعد انه اذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى ولم يبعد أن يقال انه يحتاج بعد ذلك الى دليل زائد أما ان قلنا ان المسموع هو الحرف والصوت امتنع أن يقطع بكونه كلام الله تعالى الا اذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله تعالى (البحث الثانى) ان الرسول اذا سمعه من الملك كيف يعرف ان ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان مضل والحق انه لا يمكنه القطع بذلك الا بناء على معجزة تدل على ان ذلك المبلغ ملك معصوم لا شيطان خبيث وعلى هذا التقدير فالوحى من الله تعالى لا يتم الا بثلاث مراتب فى ظهور المعجزات (المرتبة الاولى) ان الملك اذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى (والمرتبة الثانية) ان ذلك الملك اذا وصل الى الرسول لا بد له أيضا من معجزة (والمرتبة الثالثة) ان ذلك الرسول اذا أوصله الى الامة فلا بد له أيضا من معجزة فثبت ان التكليف لا يتوجه على الخلق الا بعد وقوع ثلاث مرات فى المعجزات (البحث الثالث) انه لا شك ان ملكا من الملائكة قد سمع الوحى من الله تعالى ابتداء فذلك الملك هو جبريل و يقال لعل جبريل سمعه من ملك آخر فالكل محتمل ولو بألف واسطة ولم يوجد ما يدل على القطع بواحد من هذه الوجوه (البحث الرابع) هل فى البشر من سمع وحى الله تعالى من غير واسطة المشهور أن موسى عليه السلام سمع كلام الله من غير واسطة بدليل قوله تعالى فاستمع لما يوحى وقيل ان محمدا صلى الله عليه وسلم سمعه أيضا لقوله تعالى فأوحى الى عبده ما أوحى (البحث الخامس) ان الملائكة يقدرون على أن يظهروا أنفسهم على اشكال مختلفة فبتقدير أن يراه الرسول صلى الله عليه وسلم فى كل مرة وجب أن يحتاج الى المعجزة ليعرف ان هذا الذى رآه فى هذه المرة عين ما رآه فى المرة الاولى وان كان لا يرى شخصه كانت الحاجة الى المعجزة أقوى لاحتمال انه حصل الاشتباه فى الصوت الا ان الاشكال فى أن الحاجة الى اظهار المعجزة فى كل مرة لم يقل به أحد (المسئلة السابعة) دلت المناظرات المذكورة فى القرآن بين الله تعالى و بين ابليس على انه تعالى كان يتكلم مع ابليس من غير واسطة فذلك هل يسمى وحيا من الله تعالى الى ابليس أم لا الاظهر منعه ولا بد فى هذا الموضع من بحث غامض كامل (المسئلة الثامنة) قرأ نافع أو يرسل رسولا برفع اللام فيوحى بسكون الياء ومحله رفع على تقدير او هو يرسل فيوحى والباقون بالنصب على تأويل المصدر كأنه قيل ما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو اسماعا لكلامه من وراء حجاب أو يرسل لكن فيه اشكال لان قوله وحيا أو اسماعا اسم وقوله أو يرسل فعل وعطف الفعل على الاسم قبيح فأجيب عنه بان التقدير وما كان لبشر أن يكلمه الا أن يوحى اليه وحيا أو يسمع اسماعا من وراء حجاب او يرسل رسولا (المسئلة التاسعة) الصحيح عند أهل الحق ان عند ما يبلغ الملك الوحى الى الرسول لا يقدر الشيطان على القاء الباطل فى اثناء ذلك الوحى وقال بعضهم يجوز ذلك لقوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته وقالوا الشيطان ألقى فى أثناء سورة النجم تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى وكان صديقنا الملك سام بن محمد رحمه الله وكان أفضل من لقيته من أرباب السلطنة يقول هذا الكلام بعد الدلائل القوية القاهرة باطل من وجهين آخرين (الاول) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال من رآنى فى المنام فقد رآنى فان الشيطان لا يتمثل بصورتى فاذا لم يقدر الشيطان على أن يتمثل فى المنام بصورة الرسول فكيف قدر على التشبه بجبريل حال اشتغال تبليغ وحى الله تعالى (والثانى) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ما سلك عمر فجا الا وسلك الشيطان فجا آخر فاذا لم يقدر الشيطان أن يحضر مع عمر فى فج واحد فكيف يقدر على أن يحضر مع جبريل فى موقف تبليغ وحى الله تعالى (المسئلة العاشرة) قوله تعالى

فيوحى

بمكة وقيل الا ثلاثا من قوله ولو أن ما فى الارض من شجرة أقلام وهى أربع أو ثلاث وثلاثون آية)* ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الم تلك آيات الكتاب) سلف بيانه فى نظائره (الحكيم) أى ذى الحكمة لاشتماله عليها (٢٨٩) أو هو وصف له بنعته تعالى أو أصله الحكيم منزله

أو قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستكن فى الصفة المشبهة وقيل الحكيم فعيل بمعنى مفعل كما قالوا أعقدت اللبن فهو عقيد أى معقد وهو قليل وقيل بمعنى فاعل (هدى ورحمة) بالنصب على الحالية من الآيات والعامل فيهما معنى الاشارة وقرئا بالرفع على انهما خبران آخران لاسم الاشارة أو لمبتدا محذوف (للمحسنين) أى العاملين للحسنات فان أريد بها مشاهيرها المعهودة فى الدين فقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) بيان لما عملوها من الحسنات على طريقة قوله

الالمعى الذى يظن بك الظن
كأن قد رأى وقد سمعا

وان أريد بها جميع الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر من بين سائر شعبها لاظهار فضلها وانافتها على غيرها وتخصيص الوجه الاول بصورة كون الموصول صفة للمحسنين والوجه الاخير بصورة كونه مبتدأ مما لاوجه له (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب والناجون من كل مهروب لحيازتهم قطرى العلم والعمل وقد مر مافيه من المقال فى مطلع سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن الناس) محله الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه أو بتقدير الموصوف ومن فى قوله تعالى (من يشترى لهو الحديث)

 موصولة أو موصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس أو وبعض من الناس الذى يشترى أو فريق يشترى على أن مناط الافادة والمقصود بالاصالة هو اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين كما مر فى قوله تعالى ومن الناس من

فيوحى باذنه ما يشاء يعنى فيوحى ذلك الملك باذن الله ما يشاء الله وهذا يقتضى ان الحسن لا يحسن لوجه عائد عليه وان القبيح لا يقبح لوجه عائد اليه بل لله أن يأمر بما يشاء من غير تخصيص وان ينهى عما يشاء من غير تخصيص اذ لو لم يكن الامر كذلك لما صح قوله ما يشاء والله أعلم ثم قال تعالى فى آخر الآية انه على حكيم يعنى أنه على عن صفات المخلوقين حكيم يجرى أفعاله على موجب الحكمة فيتكلم تارة بغير واسطة على سبيل الالهام وأخرى باسماع الكلام وثالثا بتوسيط الملائكة الكرام ولما بين الله تعالى كيفية اقسام الوحى الى الانبياء عليهم السلام قال وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا والمراد به القرآن وسماه روحا لانه يفيد الحياة من موت الجهل أو الكفر ثم قال تعالى ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان واختلف العلماء فى هذه الآية مع الاجماع على انه لا يجوز أن يقال الرسل كانوا قبل الوحى على الكفر وذكروا فى الجواب وجوها (الاول) ما كنت تدرى ما الكتاب أى القرآن ولا الايمان أى الصلاة لقوله تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم أى صلاتكم (الثانى) أن يحمل هذا على حذف المضاف أى ما كنت تدرى ما الكتاب ومن أهل الايمان يعنى من الذى يؤمن ومن الذى لا يؤمن (الثالث) ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان حين كنت طفلا فى المهد (الرابع) الايمان عبارة عن الاقرار بجميع ما كلف الله تعالى به وانه قبل النبوة ما كان عارفا بجميع تكاليف الله تعالى بل انه كان عارفا بالله تعالى وذلك لا ينافى ماذكرناه (الخامس) صفات الله تعالى على قسمين منها ما يمكن معرفته بمحض دلائل العقل ومنها ما لا يمكن معرفته الا بالدلائل السمعية فهذا القسم الثانى لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة ثم قال تعالى ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا واختلفوا فى الضمير فى قوله ولكن جعلناه منهم من قال انه راجع الى القرآن دون الايمان لانه هو الذى يعرف به الاحكام فلا جرم شبه بالنور الذى يهتدى به ومنهم من قال انه راجع اليهما معا وحسن ذلك لان معناهما واحد كقوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها ثم قال نهدى به من نشاء من عبادنا وهذا يدل على انه تعالى بعد ان جعل القرآن فى نفسه هدى كما قال هدى للمتقين فانه قد يهدى به البعض دون البعض وهذه الهداية ليست عبارة عن الدعوة وايضاح الادلة لانه تعالى قال فى صفة محمد صلى الله عليه وسلم وانك لتهدى الى صراط مستقيم وهو يفيد العموم بالنسبة الى الكل وقوله نهدى به من نشاء من عبادنا يفيد الخصوص فثبت أن الهداية بمعنى الدعوة عامة والهداية فى قوله نهدى به من نشاء من عبادنا خاصة والهداية الخاصة غير الهداية العامة فوجب أن يكون المراد من قوله نهدى به من نشاء من عبادنا أمرا مغايرا لاظهار الدلائل ولازالة الاعذار ولا يجوز أيضا أن يكون عبارة عن الهداية الى طريق الجنة لانه تعالى قال ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا أى جعلنا القرآن نورا نهدى به من نشاء وهذا لا يليق الا بالهداية التى تحصل فى الدنيا وأيضا فالهداية الى الجنة عندكم فى حق البعض واجب وفى حق الآخرين محظور وعلى التقديرين فلا يبقى لقوله من نشاء من عبادنا فائدة فثبت أن المراد انه تعالى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ولا اعتراض عليه فيه ثم قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وانك لتهدى الى صراط مستقيم فبين تعالى انه كما ان القرآن يهدى فكذلك الرسول يهدى وبين انه يهدى الى صراط مستقيم وبين ان ذلك الصراط هو صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض نبه بذلك على ان الذى تجوز عبادته هو الذى يملك السموات والارض والغرض منه ابطال قول من يعبد غير الله ثم قال ألا الى الله تصير الامور وذلك كالوعيد والزجر فبين ان أمر من لا يقبل هذه التكاليف يرجع الى الله تعالى أى الى حيث لا حاكم سواه فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب (قال رضى الله عنه) تم تفسير هذه السورة آخر يوم الجمعة الثامن من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة * يا مدبر الامور ويا مدهر الدهور ويا معطى كل خير وسرور ويا دافع البلايا والشرور أوصلنا الى منازل النور فى ظلمات القبور بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين

﴿سورة الزخرف وهي تسع وثمانون آية مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿حم والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم أفنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين وكم أرسلنا من نبي في الأولين وما يأتيهم من نبي الا كانوا به يستهزؤن فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين﴾ اعلم ان قوله حم والكتاب المبين يحتمل وجهين (الأول) أن يكون التقدير هذه حم والكتاب المبين فيكون القسم واقعا على أن هذه السورة هي سورة حم ويكون قوله انا جعلناه قرآنا عربيا ابتداء لكلام آخر (والثاني) أن يكون التقدير هذه حم ثم قال والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا فيكون المقسم عليه هو قوله انا جعلناه قرآنا عربيا وفي المراد بالكتاب قولان (أحدهما) ان المراد به القرآن وعلى هذا التقدير فقد أقسم بالقرآن انه جعله عربيا (الثاني) ان المراد بالكتاب الكتابة والخط أقسم بالكتابة لكثرة ما فيها من المنافع فان العلوم انما تكاملت بسبب الخط فان المتقدم اذا استنبط علما وأثبته في كتاب وجاء المتأخر ووقف عليه أمكنه أن يزيد في استنباط الفوائد فبهذا الطريق تكاثرت الفوائد وانتهت الى الغايات العظيمة وفي وصف الكتاب بكونه مبينا وجوه (الأول) أنه المبين للذين أنزل اليهم لأنه بلغتهم ولسانهم (والثاني) المبين هو الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة وأبان كل باب عما سواه وجعلها مفصلة ملخصة واعلم ان وصفه بكونه مبينا مجاز لان المبين هو الله تعالى وسمي القرآن بذلك توسعا من حيث انه حصل البيان عنده أما قوله انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الاول) ان الآية تدل على ان القرآن مجعول والمجعول هو المصنوع المخلوق فان قالوا لم لا يجوز أن يكون المراد أنه سماه عربيا قلنا هذا مدفوع من وجهين (الاول) انه لو كان المراد بالجعل هذا لوجب أن من سماه عجميا أن يصير عجميا وان كان بلغة العرب ومعلوم أنه باطل (الثاني) انه لو صرف الجعل الى التسمية لزم كون التسمية مجعولة والتسمية أيضا كلام الله وذلك يوجب أنه فعل بعض كلامه واذا صح ذلك في البعض صح في الكل (الثاني) انه وصفه بكونه قرآنا وهو انما سمي قرآنا لانه جعل بعضه مقرونا بالبعض وما كان كذلك كان مصنوعا معمولا (الثالث) انه وصفه بكونه عربيا وهو انما كان عربيا لان هذه الالفاظ انما اختصت بمسمياتها بوضع العرب واصطلاحاتهم وذلك يدل على كونه معمولا ومجعولا (الرابع) ان القسم بغير الله لا يجوز على ما هو معلوم فكان التقدير حم ورب الكتاب المبين وتأكد هذا أيضا بما روي انه عليه السلام كان يقول يارب طه ويس ويارب القرآن العظيم (والجواب) ان هذا الذي ذكرتموه حق وذلك لانكم انما استدللتم بهذه الوجوه على كون هذه الحروف المتوالية والكلمات المتعاقبة محدثة مخلوقة وذلك معلوم بالضرورة ومن الذي ينازعكم فيه بل كان كلامكم يرجع حاصله الى اقامة الدليل على ما عرف ثبوته بالضرورة (المسئلة الثانية) كلمة لعل للتمني والترجي وهو لا يليق بمن كان عالما بعواقب الامور فكان المراد منها ههنا كي أي أنزلناه قرآنا عربيا لكي تعقلوا معناه وتحيطوا بفحواه قالت المعتزلة فصار حاصل الكلام انا أنزلناه قرآنا عربيا لاجل أن تحيطوا بمعناه وهذا يفيد أمرين (أحدهما) ان أفعال الله تعالى معللة بالاغراض والدواعي (والثاني) انه تعالى انما أنزل القرآن ليهتدي به الناس وذلك يدل على انه تعالى أراد من الكل الهداية والمعرفة خلاف قول من يقول انه تعالى أراد من البعض الكفر والاعراض واعلم ان هذا النوع من استدلالات المعتزلة مشهور وأجوبتنا عنه مشهورة فلا فائدة في الاعادة والله أعلم (المسئلة الثالثة) قوله لعلكم تعقلون يدل على ان القرآن معلوم وليس فيه شئ مبهم مجهول خلافا لمن يقول القرآن بعضه معلوم وبعضه مجهول ثم قال تعالى وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي أم الكتاب بكسر الالف والباقون بالضم (المسئلة الثانية) الضمير في قوله وانه عائد الى

يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الآيات ولهو الحديث ما يلهي عما يعني من المهمات كالأحاديث التي لا أصل لها والأساطير التي لا اعتداد بها والمضاحك وسائر ما لا خير فيه من فضول الكلام والاضافة بمعنى من التبيينية ان أريد بالحديث المنكر وبمعنى التبعيضية ان أريد به الأعم من ذلك وقيل نزلت الآية في النضر بن الحرث اشترى كتب الأعاجم وكان يحدث بها قريشا ويقول ان كان محمد عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار والأكاسرة وقيل كان يشتري القيان ويحملهن على معاشرة من أراد الاسلام ومنعه عنه (ليضل عن سبيل الله) أي دينه الحق الموصل اليه تعالى أو عن قراءة كتابه الهادي اليه تعالى وقرئ ليضل بفتح الياء أي ليثبت ويستمر على ضلاله أو ليزداد فيه (بغير علم) أي بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل الشر البحت بالخير المحض (ويتخذها) بالنصب عطفا على يضل والضمير للسبيل فانه مما يذكر ويؤنث وهو دين الاسلام أو القرآن أي ويتخذها (هزوا) مهزوا به وقرئ ويتخذها بالرفع عطفا على يشتري وقوله تعالى (أولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد في الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بذكر المشار اليه للايذان ببعد منزلتهم في الشرارة أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الاشتراء للاضلال (لهم عذاب مهين) لما اتصفوا به من اهانتهم الحق بايثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه (واذا تتلى عليه) أي على المشتري أفرد الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الأول باعتبار لفظة من بعد ما جمع فيما بينهما باعتبار معناها (آياتنا) التي هي آيات الكتاب الحكيم وهدى ورحمة للمحسنين (ولى) أعرض عنها غير معتد بها (مستكبرا) مبالغا في التكبر (كأن لم يسمعها) حال من ضمير ولى أو من ضمير مستكبرا والأصل كأنه فحذف ضمير الشأن وخففت المثقلة أي مشبها حاله حال من لم يسمعها وهو

الكتاب الذى تقدم ذكره فى أم الكتاب لدينا واختلفوا فى المراد بأم الكتاب على قولين (فالقول الاول) انه اللوح المحفوظ لقوله بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ واعلم ان على هذا التقدير فالصفات المذكورة ههنا كلها صفات اللوح المحفوظ (فالصفة الاولى) انه أم الكتاب والسبب فيه ان أصل كل شئ أمه والقرآن مثبت عند الله فى اللوح المحفوظ ثم نقل الى سماء الدنيا ثم أنزل حالا بعد حال بحسب المصلحة عن ابن عباس رضى الله عنه ان أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما يريد أن يخلق فالكتاب عنده فان قيل وما الحكمة فى خلق هذا اللوح المحفوظ مع انه تعالى علام الغيوب ويستحيل عليه السهو والنسيان قلنا انه تعالى لما أثبت فى ذلك أحكام حوادث المخلوقات ثم ان الملائكة يشاهدون ان جميع الحوادث انما تحدث على موافقة ذلك المكتوب استدلوا بذلك على كمال حكمة الله وعلمه (الصفة الثانية) من صفات اللوح المحفوظ قوله لدينا هكذا ذكره ابن عباس وانما خصه الله تعالى بهذا التشريف لكونه كتابا جامعا لاحوال جميع المحدثات فكأنه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع فى ملك الله وملكوته فلا جرم حصل له هذا التشريف قال الواحدى ويحتمل أن يكون هذا صفة القرآن والتقدير وانه لدينا فى أم الكتاب (الصفة الثالثة) كونه عليا والمعنى كونه عاليا عن وجوه الفساد والبطلان وقيل المراد كونه عاليا على جميع الكتب بسبب كونه معجزا باقيا على وجه الدهر (الصفة الرابعة) كونه حكيما أى محكما فى أبواب البلاغة والفصاحة وقيل حكيم أى ذو حكمة بالغة وقيل ان هذه الصفات كلها صفات القرآن على ما ذكرناه (والقول الثانى) فى تفسير أم الكتاب انه الآيات المحكمة لقوله تعالى هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ومعناه ان سورة حم واقعة فى الآيات المحكمة التى هى الاصل والام ثم قال تعالى أفنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وحمزة والكسائى ان كنتم بكسر الالف تقديره ان كنتم مسرفين لا نضرب عنكم الذكر صفحا وقيل ان بمعنى اذ كقوله تعالى وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين وبالجملة فالجزاء مقدم على الشرط والباقون بفتح الالف على التعليل أى لان كنتم مسرفين (المسئلة الثانية) قال الفراء والزجاج يقال ضربت عنه وأضربت عنه أى تركته وأمسكت عنه وقوله صفحا أى اعراضا والاصل فيه انك توليت بصفحة عنقك وعلى هذا فقوله أفنضرب عنكم الذكر صفحا تقديره أفنضرب عنكم اضرابا أو تقديره أفنصفح عنكم صفحا واختلفوا فى معنى الذكر فقيل معناه أفنرد عنكم ذكر عذاب الله وقيل أفنرد عنكم النصائح والمواعظ وقيل أفنرد عنكم القرآن وهذا استفهام على سبيل الانكار يعنى انا لا نترك هذا الاعذار والانذار بسبب كونكم مسرفين قال قتادة لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الامة لهلكوا ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم اليه عشرين سنة اذا عرفت هذا فنقول هذا الكلام يحتمل وجهين (الاول) الرحمة يعنى انا لا نترككم مع سوء اختياركم بل نذكركم ونعظكم الى أن ترجعوا الى الطريق الحق (الثانى) المبالغة فى التغليظ يعنى أتظنون أن تتركوا مع ما تريدون كلا بل نلزمكم العمل وندعوكم الى الدين ونؤاخذكم متى أخللتم بالواجب وأقدمتم على القبيح (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف الفاء فى قوله أفنضرب للعطف على محذوف تقديره انهملكم فنضرب عنكم الذكر ثم قال تعالى وكم أرسلنا من نبى فى الاولين وما يأتيهم من نبى الا كانوا به يستهزؤن والمعنى ان عادة الامم مع الانبياء الذين يدعونهم الى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء فلا ينبغى أن تتأذى من قومك بسبب اقدامهم على التكذيب والاستهزاء لان المصيبة اذا عمت خفت ثم قال تعالى فأهلكنا أشد منهم بطشا يعنى ان أولئك المتقدمين الذين أرسل الله اليهم الرسل كانوا أشد بطشا من قريش يعنى أكثر عددا وجلدا ثم قال ومضى مثل الاولين والمعنى ان كفار مكة سلكوا فى الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا أن ينزل بهم من الخزى مثل ما نزل بهم فقد ضربنا لهم مثلهم كما قال وكلا ضربنا له الامثال وكقوله وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم الى قوله وضربنا لكم الامثال

سامع وفيه رمز الى أن من سمعها لا يتصور منه التولية والاستكبار لما فيها من الامور الموجبة للاقبال عليها والخضوع لها على طريقة قول من قال * كأنك لم تجزع على ابن طريف * (كأن فى اذنيه وقرا) حال من ضمير لم يسمعها أى مشبها حاله حال من فى أذنيه ثقل مانع من السماع ويجوزان يكونا استئنافين وقرئ فى أذنيه بسكون الذال (فبشره بعذاب أليم) أى فاعلمه بان العذاب المفرط فى الايلام لاحق به لا محالة وذكر البشارة للتهكم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى اثر بيان حال الكافرين بها أى الذين آمنوا بآياته تعالى وعملوا بموجبها (لهم) بمقابلة ما ذكر من ايمانهم وأعمالهم (جنات النعيم) أى نعيم جنات فعكس للمبالغة والجملة خبران والاحسن ان يجعل لهم هو الخبر لان وجنات النعيم مرتفعا به على الفاعلية وقوله تعالى (خالدين فيها) حال من الضمير فى لهم أو من جنات النعيم لاشتماله على ضميريهما والعامل ما تعلق به اللام (وعد الله حقا) مصدران مؤكدان الاول لنفسه والثانى لغيره لان قوله تعالى لهم جنات النعيم فى معنى وعدهم الله جنات النعيم فأكد معنى الوعد بالوعد وأما حقا فدل على معنى الثبات أكد به معنى الوعد ومؤكدهما جميعا لهم جنات النعيم (وهو العزيز) الذى لا يغلبه شئ ليمنعه من انجاز وعده أو تحقيق وعيده (الحكيم) الذى لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة (خلق السموات بغير عمد) الخ استئناف سوق للاستشهاد بما فصل فيه على عزته تعالى التى هى كمال القدرة وحكمته التى هى كمال العلم وتمهيد قاعدة التوحيد وتقريره وابطال أمر الاشراك وتبكيت أهله والعمد جمع عماد كأهب جمع اهاب وهو ما يعمد به أى يسند يقال عمدت الحائط اذا دعمته أى بغير دعائم على ان الجمع لتعدد السموات وقوله تعالى (ترونها) استئناف جئ به للاستشهاد على ما ذكر من خلقه تعالى لها غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك أو صفة لعمد أى خلقها بغير عمد مرئية على أن

والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الارض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون﴾ اعلم انه قد تقدم ذكر المسرفين وهم المشركون وتقدم أيضا ذكر الانبياء فقوله ولئن سألتهم يحتمل أن يرجع الى الانبياء ويحتمل أن يرجع الى الكفار الا أن الاقرب رجوعه الى الكفار فبين تعالى انهم مقرون بأن خالق السموات والارض وما بينهما هو الله العزيز الحكيم والمقصود انهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى يعبدون معه غيره وينكرون قدرته على البعث وقد تقدم الاخبار عنهم ثم انه تعالى ابتدأ دالا على نفسه بذكر مصنوعاته فقال الذي جعل لكم الارض مهدا ولو كان هذا من جملة كلام الكفار لوجب أن يقولوا الذي جعل لنا الارض مهدا ولان قوله في اثناء الكلام فأنشرنا به بلدة ميتا لا يليق الا بكلام الله ونظيره من كلام الناس أن يسمع الرجل رجلا يقول الذي بنى هذا المسجد فلان العالم فيقول السامع لهذا الكلام الزاهد الكريم كأن ذلك السامع يقول أنا أعرفه بصفات حميدة فوق ما تعرفه فأزيد في وصفه فيكون النعتان جميعا من رجلين لرجل واحد اذا عرفت كيفية النظم في الآية فنقول انها دلت على أنواع من صفات الله تعالى (الصفة الاولى) كونه خالقا للسموات والارض والمتكلمون بينوا ان أول العلم بالله العلم بكونه محدثا للعالم فاعلا له فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر كونه خالقا وهذا انما يتم اذا فسرنا الخلق بالاحداث والابداع (الصفة الثانية) العزيز وهو الغالب وما لاجله يحصل المكنة من الغلبة هو القدرة فكان العزيز اشارة الى كمال القدرة (والصفة الثالثة) العليم وهو اشارة الى كمال العلم واعلم ان كمال العلم والقدرة اذا حصل كان الموصوف به قادرا على خلق جميع الممكنات فلهذا المعنى أثبت تعالى كونه موصوفا بهاتين الصفتين ثم فرع عليه سائر التفاصيل (الصفة الرابعة) قوله الذي جعل لكم الارض مهدا وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن كون الارض مهدا انما حصل لاجل كونها واقفة ساكنة ولاجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بها في الزراعة وبناء الابنية وفي كونها ساترة لعيوب الاحياء والاموات ولما كان المهد موضع الراحة للصبي جعل الارض مهدا لكثرة ما فيها من الراحات (الصفة الخامسة) قوله وجعل لكم فيها سبلا والمقصود ان انتفاع الناس انما يكمل اذا قدر كل أحد أن يذهب من بلد الى بلد ومن اقليم الى اقليم ولولا أن الله تعالى هيأ تلك السبل ووضع عليها علامات مخصوصة والا لما حصل هذا الانتفاع ثم قال تعالى لعلكم تهتدون يعني المقصود من وضع السبل أن يحصل لكم المكنة من الاهتداء (والثاني) المعنى لتهتدوا الى الحق في الدين (الصفة السادسة) قوله تعالى والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا وههنا مباحث (أحدها) ان ظاهر هذه الآية يقتضي ان الماء ينزل من السماء فهل الامر كذلك أو يقال انه ينزل من السحاب وسمي نازلا من السماء لان كل ما سماك فهو سماء وهذا البحث قد مر ذكره بالاستقصاء (وثانيها) قوله بقدر أي انما ينزل الماء من السماء بقدر ما يحتاج اليه أهل تلك البقعة من غير زيادة ولا نقصان لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم بل بقدر حتى يكون معاشا لكم ولانعامكم (وثالثها) قوله فأنشرنا به بلدة ميتا أي خالية من النبات فأحييناها وهو الانشار ثم قال كذلك تخرجون يعني ان هذا الدليل كما يدل على قدرة الله وحكمته فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة ووجه التشبيه انه يجعلهم أحياء بعد الاماتة كهذه الارض التي انشرت بعدما كانت ميتة وقال بعضهم بل وجه التشبيه أن يعيدهم ويخرجهم من الارض بماء كالمني كما تنبت الارض بماء المطر وهذا الوجه ضعيف لانه ليس في ظاهر اللفظ الا اثبات الاعادة فقط دون هذه الزيادة (الصفة السابعة) قوله تعالى والذي خلق الازواج كلها قال ابن عباس الازواج الضروب والانواع كالحلو والحامض

والابيض

التقييد للرمز الى أنه تعالى عمدها بعمد لا ترونها هي عمد القدرة (وألقى في الارض رواسي) بيان لصنعه البديع في قرار الارض إثر بيان صنعه الحكيم في قرار السموات أي ألقى فيها جبالا ثوابت وقد مر ما فيه من الكلام في سورة الرعد (أن تميد بكم) كراهة أن تميل بكم فان بساطة اجزائها تقتضي تبدل أحيازها وأوضاعها لامتناع اختصاص كل منها لذاته أو لشئ من لوازمه بحيز معين ووضع مخصوص (وبث فيها من كل دابة) من كل نوع من أنواعها (وأنزلنا من السماء ماء) هو المطر (فأنبتنا فيها) بسبب ذلك الماء (من كل زوج كريم) من كل صنف كثير المنافع والالتفات الى نون العظمة في الفعلين لابراز مزيد الاعتناء بأمرها (هذا) أي ما ذكر من السموات والارض وما تعلق بهما من الامور المعدودة (خلق الله) أي مخلوقه (فأروني ماذا خلق الذين من دونه) مما اتخذتموهم شركاء له سبحانه في العبادة حتى استحقوا به المعبودية وماذا نصب بخلق أو ما مرتفع بالابتداء وخبره ذا بصلته وأروني متعلق به وقوله تعالى (بل الظالمون في ضلال مبين) اضراب عن تبكيتهم بما ذكر الى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعي للاعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة لاستحالة أن يفهموا منها شيأ فيهتدوا به الى العلم ببطلان ما هم عليه أو يتأثروا من الالزام والتبكيت فينزجروا عنه ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنهم باشراكهم واضعون للشئ في غير موضعه ومتعدون عن الحدود وظالمون لانفسهم بتعريضها للعذاب الخالد (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان الشرك وهو لقمان بن باعوراء من أولاد آزر ابن أخت أيوب عليه السلام أو خالته وعاش حتى أدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم وكان يفتي قبل مبعثه وقيل كان قاضيا في بني اسرائيل والجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن نبيا والحكمة في عرف العلماء استكمال النفس الانسانية باقتباس

والابيض والاسود والذكر والانثى وقال بعض المحققين كل ماسوى الله فهو زوج كالفوق والتحت واليمين واليسار والقدام والخلف والماضى والمستقبل والذوات والصفات والصيف والشتاء والربيع والخريف وكونها أزواجا يدل على كونها ممكنة الوجود فى ذواتها محدثة مسبوقة بالعدم فاما الحق سبحانه فهو الفرد المنزه عن الضد والند والمقابل والمعاضد فلهذا قال سبحانه والذى خلق الازواج كلها أى كل ماهو زوج فهو مخلوق فدل هذا على أن خالقها فرد مطلق منزه عن الزوجية وأقول أيضا العلماء بعلم الحساب بينوا أن الفرد أفضل من الزوج من وجوه (الاول) ان أقل الازواج هو الاثنان وهو لا يوجد الا عند حصول وحدتين فالزوج يحتاج الى الفرد والفرد هو الوحدة غنية عن الزوج والغنى أفضل من المحتاج (الثانى) ان الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين والفرد هو الذى لا يقبل القسمة وقبول القسمة انفعال وتأثر وعدم قبولها قوة وشدة ومقاومة فكان الفرد أفضل من الزوج (الثالث) ان العدد الفرد لابد وان يكون أحد قسميه زوجا والثانى فردا فالعدد الفرد حصل فيه الزوج والفرد معا وأما العدد الزوج فلا بد وأن يكون كل واحد من قسميه زوجا والمشتمل على القسمين أفضل من الذى لا يكون كذلك (الرابع) ان الزوجية عبارة عن كون كل واحد من قسميه معادلا للقسم الآخر فى الذات والصفات والمقدار واذا كان كل ماحصل له من الكمال فمثله حاصل لغيره لم يكن هو كاملا على الاطلاق أما الفرد فالفردية كائنة له خاصة لا لغيره ولا لمثله فكان كماله حاصلا له لا لغيره فكان أفضل (الخامس) ان الزوج لابد وأن يكون كل واحد من قسميه مشاركا للقسم الآخر فى بعض الامور ومغايرا له فى أمور أخرى ومابه المشاركة غير مابه المخالفة فكل زوجين فهما ممكنا الوجود لذاتيهما وكل ممكن فهو محتاج فثبت ان الزوجية منشأ الفقر والحاجة واما الفردانية فهى منشأ الاستغناء والاستقلال لان العدد محتاج الى كل واحد من تلك الوحدات وأما كل واحد من تلك الوحدات فانه غنى عن ذلك العدد فثبت ان الازواج ممكنات ومحدثات ومخلوقات وأن الفرد هو القائم بذاته المستقل بنفسه الغنى عن كل ماسواه فلهذا قال سبحانه والذى خلق الازواج كلها (الصفة الثامنة) قوله وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون وذلك لان السفر اما سفر البحر أو سفر البر أما سفر البحر فالحامل هو السفينة وأما سفر البر فالحامل هو الانعام وههنا سؤالان (الاول) لم لم يقل على ظهورها أجابوا عنه من وجوه (الاول) قال أبو عبيدة التذكير لقوله ما والتقدير ماتركبوه (الثانى) قال الفراء أضاف الظهور الى واحد فيه معنى الجمع بمنزلة الجيش والجند ولذلك ذكر وجمع الظهور (الثالث) ان هذا التأنيث ليس تأنيثا حقيقيا فجاز ان يختلف اللفظ فيه كما يقال عندى من النساء من يوافقك (السؤال الثانى) يقال ركبوا الانعام وركبوا فى الفلك وقد ذكر الجنسين فكيف قال تركبون (والجواب) غلب المتعدى بغير واسطة لقوته على المتعدى بواسطة ثم قال تعالى ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ومعنى ذكر نعمة الله أن يذكروها فى قلوبهم وذلك الذكر هو أن يعرف ان الله تعالى خلق وجه البحر وخلق الرياح وخلق جرم السفينة على وجه يتمكن الانسان من تصريف هذه السفينة الى أى جانب شاء واراد فاذا تذكروا ان خلق البحر وخلق الرياح وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الانسان ولتحريكاته ليس من ذلك الانسان وانما هو من تدبير الحكيم العليم القدير عرف ان ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التى لا نهاية لها ثم قال تعالى وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين واعلم انه تعالى عين ذكرا معينا لركوب السفينة وهو قوله بسم الله مجراها ومرساها وذكرا آخر لركوب الانعام وهو قوله سبحان الذى سخر لنا هذا وذكر عند دخول المنازل ذكرا آخر وهو قوله رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين وتحقيق القول فيه ان الدابة التى يركبها الانسان لابد وان تكون أكثر قوة من الانسان بكثير وليس لها عقل يهديها الى طاعة الانسان ولكنه سبحانه خلق تلك البهيمة على وجوه مخصوصة فى خلقها الظاهر وفى خلقها الباطن يحصل منها هذا الانتفاع اما خلقها الظاهر فلانها تمشى على أربع قوائم فكان ظاهرها

العلوم النظرية والكتاب الملكة التامة على الافعال الفاضلة على قدر طاقتها ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام شهورا وكان يسرد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود عليه السلام بحق ماسميت حكيما وأن داود عليه السلام قال له يوما كيف أصبحت فقال أصبحت فى يدى غيرى فتفكر داود فيه فصعق صعقة وأنه أمره مولاه بان يذبح شاة ويأتى باطيب مضغتين منها فاتى باللسان والقلب ثم بعد أيام أمره بان يأتى باخبث مضغتين منها فاتى بهما أيضا فسأله عن ذلك فقال هما أطيب شئ اذا طابا وأخبث شئ اذا خبثا ومعنى (أن اشكر لله) أى اشكر له تعالى على أن ان مفسرة فان ايتاء الحكمة فى معنى القول وقوله تعالى (ومن يشكر) الخ استئناف مقرر لمضمون ماقبله موجب للامتثال بالامر أى ومن يشكر له تعالى (فانما يشكر لنفسه) لان منفعته التى هى ارتباط العتيد واستجلاب المزيد مقصورة عليها (ومن كفر فان الله غنى) عن كل شئ فلا يحتاج الى الشكر ليتضرر بكفر من كفر (حميد) حقيق بالحمد وان لم يحمده أحد أو محمود بالفعل ينطق بحمده جميع المخلوقات بلسان الحال وعدم التعرض لكونه تعالى مشكورا لما أن الحمد متضمن للشكر بل هو رأسه كما قال عليه الصلاة والسلام الحمد رأس الشكر لم يشكر الله عبد لم يحمده فاثباته له تعالى اثبات للشكر له قطعا (واذ قال لقمان لابنه) أنعم وقيل أشكم وقيل ماثان (وهو يعظه يابنى) تصغير اشفاق وقرئ يابنى باسكان الياء وبكسرها (لا تشرك بالله) قيل كان ابنه كافرا فلم يزل به حتى أسلم ومن وقف على لا تشرك جعل بالله قسما (ان الشرك لظلم عظيم) تعليل للنهى أو للانتهاء عن الشرك (ووصينا الانسان بوالديه) الخ كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد فى أثناء وصية لقمان تأكيدا لما فيها من النهى عن الشرك وقوله تعالى (حملته أمه) الى قوله فى عامين اعتراض بين المفسر والمفسر وقوله تعالى (وهنا) حال من أمه أى ذات وهن أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى

شهن وهنا وقوله تعالى (على وهن) صفة للمصدر أى كائنا على وهن أى تضعف ضعفا فوق ضعف فانها لا تزال يتضاعف ضعفها وقرئ وهنا على
وهن بالتحريك يقال وهن يهن وهنا ووهن يوهن (٢٩٤) وهنا (وفصاله فى عامين) أى فطامه فى تمام عامين وهى مدة الرضاع عند الشافعى وعند أبى
حنيفة رحمهما الله تعالى هى ثلاثون
شهرا وقد بين وجهه فى موضعه وقرئ
وفصله (أن اشكر لى ولوالديك)
تفسير لوصينا وما بينهما اعتراض
مؤكد للوصية فى حقها خاصة ولذلك
قال عليه الصلاة والسلام لمن قال
له من أبر أمك ثم أمك ثم أمك ثم
قال بعد ذلك ثم أباك (الى المصير)
تعليل لوجوب الامتثال أى الى
الرجوع لا الى غيرى فاجازيك على
ماصدر عنك من الشكر والكفر
(وان جاهداك على ان تشرك بى
ماليس لك به) أى بشركته له
تعالى فى استحقاق العبادة (علم فلا
تطعهما) فى ذلك (وصاحبهما فى
الدنيا معروفا) أى صحابا معروفا
يرتضيه الشرع وتقتضيه المروءة
(واتبع سبيل من أناب الى)
بالتوحيد والاخلاص فى الطاعة
(ثم الى مرجعكم) أى مرجعك
ومرجعهما ومرجع من أناب الى
(فانبئكم) عند رجوعكم (بما كنتم
تعملون) بان أجازى كلا منكم
بما صدر عنه من الخير والشر وقوله
تعالى (يابنى) الخ شروع فى حكاية
بقية وصايا لقمان اثر تقرير مافى
مطلعها من النهى عن الشرك
وتأكيده بالاعتراض (انها ان
تك مثقال حبة من خردل) أى
ان الخصلة من الاساءة أو الاحسان
ان تك مثلا فى الصغر كحبة
الخردل وقرئ برفع مثقال على ان
الضمير للقصة وكان تامة والتأنيث
لاضافة المثقال الى الحبة كما فى
قول من قال
• كما شرقت صدر القناة من الدم *
أولان المراد به الحسنة أو السيئة
(فتكن فى صخرة أو فى السموات
أو فى الارض) أى فتكن مع كونها فى أقصى غايات الصغر والقماءة فى أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة أو حيث كانت فى العالم العلوى
أو السفلى (يأت بها الله) أى يحضرها ويحاسب عليها (ان الله لطيف) يصل علمه الى كل خفى (خبير) بكنهه وبعد ما أمره بالتوحيد الذى هو أول مايجب

كالموضع الذى يحسن استقرار الانسان عليه وأما خلقها الباطن فلانها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله
سبحانه بحيث تصير منقادة للانسان ومسخرة له فاذا تأمل الانسان فى هذه العجائب وغاص بعقله فى بحار
هذه الاسرار عظم تعجبه من تلك القدرة القاهرة والحكمة الغير المتناهية فلابد وان يقول سبحان الذى
سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين قال أبو عبيدة فلان مقرن لفلان أى ضابط له قال الواحدى وكان اشتقاقه
من قولك ضرب له قرنا ومعنى انا قرن لفلان أى مثله فى الشدة فكان المعنى انه ليس عندنا من القوة
والطاقة ان نقرن هذه الدابة والفلك وان نضبطها فسبحان من سخرها لنا بعلمه وحكمته وكمال قدرته
روى صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان اذا وضع رجليه فى الركاب قال بسم الله فاذا
استوى على الدابة قال الحمد لله على كل حال سبحان الذى سخر لنا هذا الى قوله لمنقلبون وروى القاضى فى
تفسيره عن أبى مخلد أن الحسن بن على عليهما السلام رأى رجلا ركب دابة فقال سبحان الذى سخر لنا
هذا فقال له ما بهذا أمرت امرت أن تقول الحمد لله الذى هدانا للاسلام الحمد لله الذى من علينا بمحمد
صلى الله عليه وسلم والحمد لله الذى جعلنا من خير أمة أخرجت للناس ثم تقول سبحان الذى سخر لنا هذا
روى أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا سافر وركب راحلته كبر ثلاثا ثم يقول سبحان
الذى سخر لنا هذا ثم قال اللهم انى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى ومن العمل ماترضى اللهم هون
علينا السفر واطو عنا بعد الارض اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة على الاهل اللهم أصحبنا فى
سفرنا واخلفنا فى أهلنا وكان اذا رجع الى أهله يقول آيبون تائبون لربنا حامدون قال صاحب الكشاف
دلت هذه الآية على خلاف قول المجبرة من وجوه (الاول) انه تعالى قال لتستووا على ظهوره ثم تذكروا
نعمة ربكم فذكره بلام كى وهذا يدل على انه تعالى أراد منا هذا الفعل وهذا يدل على بطلان قولهم انه
تعالى أراد الكفر منه وأراد الاصرار على الانكار (الثانى) ان قوله لتستووا يدل على أن فعله معلل
بالاغراض (الثالث) انه تعالى بين ان خلق هذه الحيوانات على هذه الطبائع انما كان لغرض أن يصدر
الشكر عن العبد فلو كان فعل العبد فعلا لله تعالى لكان معنى الآية انى خلقت هذه الحيوانات لاجل
أن أخلق سبحان الله فى لسان العبد وهذا باطل لانه تعالى قادر على أن يخلق هذا اللفظ فى لسانه بدون هذه
الوسائط واعلم ان الكلام على هذه الوجوه معلوم فلا فائدة فى الاعادة ثم قال تعالى وانا الى ربنا لمنقلبون
واعلم ان وجه اتصال هذا الكلام بما قبله ان ركوب الفلك فى خطر الهلاك فانه كثيرا ما تنكسر السفينة
ويهلك الانسان وراكب الدابة أيضا كذلك لان الدابة قد يتفق لها اتفاقات توجب هلاك الراكب واذا
كان كذلك فركوب الفلك والدابة يوجب تعريض النفس للهلاك فوجب على الراكب أن يتذكر أمر
الموت وان يقطع انه هالك لامحالة وانه منقلب الى الله تعالى وغير منقلب من قضائه وقدره حتى لو اتفق له
ذلك المحذور كان وطن نفسه على الموت ۞ قوله تعالى ﴿وجعلوا له من عباده جزأ ان الانسان لكفور مبين
أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو
كظيم أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا
خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون﴾ اعلم انه تعالى لما قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض
ليقولن الله بين انهم مع اقرارهم بذلك جعلوا له من عباده جزأ والمقصود منه التنبيه على قلة عقولهم
وسخافة محصولهم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم فى رواية أبى بكر جزأ بضم الزاى والهمزة
فى كل القرآن وهما لغتان وأما حمزة فاذا وقف عليه قال جزا بفتح الزاى بلا همزة (المسئلة الثانية) فى
المراد من قوله وجعلوا له من عباده جزأ قولان (الاول) وهو المشهور أن المراد انهم أثبتوا له ولدا وتقرير
الكلام ان ولد الرجل جزء منه قال عليه السلام فاطمة بضعة منى ولان المعقول من الوالد أن ينفصل
عنه جزء من أجزائه ثم يتربى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الاصل واذا كان كذلك فولد الرجل
جزء

جزء منه و بعض منه فقوله وجعلوا له من عباده جزأ معنى جعلوا حكموا وأثبتوا وقالوا به والمعنى انهم أثبتوا له جزأ وذلك الجزء هو عبد من عباده واعلم انه لو قال وجعلوا لعباده منه جزأ لافاد ذلك انهم أثبتوا انه حصل جزء من أجزائه فى بعض عباده وذلك هو الولد فكذا قوله وجعلوا له من عباده جزأ معناه وأثبتوا له جزأ وذلك الجزء هو عبد من عباده والحاصل انهم أثبتوا لله ولدا وذكروا فى تقرير هذا القول وجوها أخر فقالوا الجزء هو الانثى فى لغة العرب واحتجوا فى اثبات هذه اللغة ببيتين فالاول قوله

ان أجزأت حرة يوما فلا عجب * قد تجزئ الحرة المذكاة أحيانا

وقوله

زوجتها من بنات الاوس مجزئة * للعوسج اللدن فى أبياتها غزل

وزعم الزجاج والازهرى وصاحب الكشاف ان هذه اللغة فاسدة وان هذه الابيات مصنوعة (والقول الثانى فى تفسير الآية) ان المراد من قوله وجعلوا له من عباده جزأ اثبات الشركاء لله وذلك لانهم لما أثبتوا الشركاء لله تعالى فقد زعموا ان كل العباد ليس لله بل بعضها لله و بعضها لغير الله فهم ما جعلوا لله من عباده كلهم بل جعلوا له منهم بعضا وجزأ منهم قالوا والذى يدل على ان هذا القول أولى من الاول انا اذا حملنا هذه الآية على انكار الشريك لله وحملنا الآية التى بعدها على انكار الولد لله كانت الآية جامعة للرد على جميع المبطلين ثم قال تعالى ام اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين واعلم انه تعالى رتب هذه المناظرة على أحسن الوجوه وذلك لانه تعالى بين ان اثبات الولد لله محال و بتقدير أن يثبت الولد فجعله بنتا أيضا محال أما بيان ان اثبات الولد لله محال فلان الولد لابد وأن يكون جزأ من الوالد وما كان له جزء كان مركبا وكل مركب ممكن وأيضا ما كان كذلك فانه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق وما كان كذلك فهو عبد محدث فلا يكون الها قديما أزليا (وأما المقام الثانى) وهو ان بتقدير ثبوت الولد فانه يمتنع كونه بنتا وذلك لان الابن أفضل من البنت فلو قلنا انه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين عباده لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله وذلك مدفوع فى بديهة العقل يقال أصفيت فلانا بكذا أى آثرته به ايثارا حصل له على سبيل الصفاء من غير أن يكون له فيه مشارك وهو كقوله أفأصفاكم ربكم بالبنين ثم بين نقصان البنات من وجوه (الاول) قوله واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم والمعنى ان الذى بلغ حاله فى النقص الى هذا الحد كيف يجوز للعاقل اثباته لله تعالى وعن بعض العرب ان امرأته وضعت أنثى فهجر البيت الذى فيه المرأة فقالت

مالأبى حمزة لا يأتينا * يظل فى البيت الذى يلينا * غضبان أن لا نلد البنينا

ليس لنا من أمرنا ما شينا * وانما نأخذ ما أعطينا

وقوله ظل أى صار كما يستعمل أكثر الافعال الناقصة قال صاحب الكشاف قرئ مسود ومسواد والتقدير وهو مسود فتقع هذه الجملة موقع الخبر (والثانى) قوله أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين على ما لم يسم فاعله أى يربى والباقون ينشأ بضم الياء وسكون النون وفتح الشين قال صاحب الكشاف وقرئ يناشأ قال ونظير المناشاة بمعنى الانشاء المغالاة بمعنى الاغلاء (المسئلة الثانية) المراد من قوله أو من ينشأ فى الحلية التنبيه على نقصانها وهو ان الذى يربى فى الحلية يكون ناقص الذات لانه لولا نقصان فى ذاتها لما احتاجت أن تزين نفسها بالحلية ثم بين نقصان حالها بطريق آخر وهو قوله وهو فى الخصام غير مبين يعنى انها اذا احتاجت الى المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين وذلك لضعف لسانها وقلة عقلها و بلادة طبعها ويقال قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها الا تكلمت بما كانت حجة عليها فهذه الوجوه دالة على كمال نقصها فكيف يجوز اضافتهن بالولدية اليه (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان التحلى مباح للنساء وانه حرام للرجال لانه تعالى جعل ذلك من المعايب وموجبات النقصان واقدام الرجل

على الانسان فى ضمن النهى عن الشرك ونبهه على كمال علم الله تعالى وقدرته أمره بالصلاة التى هى أكمل العبادات تكميلا له من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد فقال مستميلا له (يا بنى أقم الصلاة) تكميلا لنفسك (وأمر بالمعروف (٢٩٥) وانه عن المنكر) تكميلا لغيرك (واصبر على ما أصابك) من الشدائد والمحن لا سيما فيما أمرت به (ان ذلك) اشارة الى كل ما ذكر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للا[illegible] [illegible]ارا من الاشعار [illegible] منزلته فى الفضل (من عز[illegible]مور) أى م[illegible] عزمه الله تعالى [illegible]ه على عباده من الامور لمزيد[illegible] مصدر أطلق على المفع[illegible] وقد جوز أن يكون بمعنى [illegible]عل من قوله تعالى فاذا عزم [illegible] أى جد والجملة تعليل لو[illegible] الامتثال بما سبق من الا[illegible] والنهى وايذان بأن ما بعدها [illegible] بمثابته (ولا تصعر خدك للناس) أى لا تمله ولا تولهم صفحة وجهك كما هو ديدن المتكبرين من الصعر وهو الصيد وهو داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه وقرئ ولا تصاعر من الافعال والكل بمعنى مثل علاه وعالاه وأعلاه (ولا تمش فى الارض مرحا) أى فرحا مصدر وقع موقع الحال أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى تمرح مرحا أو لاجل المرح والبطر (ان الله لا يحب كل مختال فخور) تعليل للنهى أو موجبه وتأخير الفخور مع كونه بمقابلة المصعر خده عن المختال وهو بمقابلة الماشى مرحا لرعاية الفواصل (واقصد فى مشيك) بعد الاجتناب عن المرح فيه أى توسط بين الدبيب والاسراع وعنه عليه الصلاة والسلام سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن وقول عائشة فى عمر رضى الله عنهما كان اذا مشى أسرع فالمراد به ما فوق دبيب المتماوت وقرئ بقطع الهمزة من أقصد الرامى اذا سدد سهمه نحو الرمية (واغضض من صوتك) وانقص منه واقصر (ان أنكر الاصوات) أى أوحشها (لصوت الحمير) تعليل للامر على أبلغ وجه وآكد مبنى على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق وافراط فى التحذير عن رفع الصوت والتنفير عنه وافراد الصوت مع اضافته الى الجمع لما أن المراد ليس بيان

حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الاجناس وقوله تعالى (ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الارض) رجوع الى سنن ماسلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخ لهم على اصرارهم على ماهم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد المراد بالتسخير اما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له أعم من أن يكون منقادا له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما يريد كعامة ما فى الارض الاشياء المسخرة للانسان المستعملة له من الجماد والحيوان أولا يكون كذلك بل يكون سببا لحصول مراده من غير أن يكون له دخل فى استعماله كجميع مافى السموات من الاشياء التى نيطت بها مصالح العباد معاشا أومعادا واما جعله منقادا للامر مذللا على أن معنى لكم لاجلكم فان جميع مافى السموات والارض من الكائنات مسخرة لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق ومايستعمله الانسان حسبما يشاء وان كان مسخرا له بحسب الظاهر فهو فى الحقيقة مسخر لله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة وقد مر شرح النعمة وتفصيلها فى الفاتحة وقرئ أصبغ بالصاد وهو جار فى كل سين قارنت الغين أو الخاء أو القاف كما تقول فى سلخ صلخ وفى سقر صقر وفى سالغ صالغ وقرئ نعمة (ومن الناس من يجادل فى الله) فى توحيده وصفاته (بغير علم) مستفاد من دليل (ولا هدى) من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام (ولا كتاب منير) أنزله الله سبحانه بل بمجرد التقليد (واذا قيل لهم) أى لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى (اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يريدون به عبادة الاصنام (أولو كان الشيطان يدعوهم) أى آباءهم لا أنفسهم كما قيل فان مدار انكار الاتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون أنفسهم كذلك أى أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك (الى عذاب السعير) فهم متوجهون اليه حسب دعوته والجملة فى حيز النصب على الحالية وقد مر

والوجه

عليه يكون القاء لنفسه فى الذل وذلك حرام لقوله عليه السلام ليس للمؤمن أن يذل نفسه وامتياز بنية الرجل الصبر على طاعة الله والتزين بزينة التقوى قال الشافعى

تدرعت يوما للقنوع حصينة * أصون بها عرضى وأجعلها ذخرا
ولم أحذر الدهر الخؤن وانما * قصاراه ان يرمى بى الموت والفقرا
فاعددت للموت الاله وعفوه * وأعددت للفقر التجلد والصبرا

ثم قال تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد بقوله جعلوا أى حكموا به ثم قال أشهدوا خلقهم وهذا استفهام على سبيل الانكار يعنى انهم لم يشهدوا خلقهم وهذا مما لاسبيل الى معرفته بالدلائل العقلية وأما الدلائل النقلية فكلها مفرعة على اثبات النبوة وهؤلاء الكفار منكرون للنبوة فلا سبيل لهم الى اثبات هذا المطلوب بالدلائل النقلية فثبت انهم ذكروا هذه الدعوى من غير أن عرفوه لا بضرورة ولا بدليل ثم انه تعالى هددهم فقال ستكتب شهادتهم و يسئلون وهذا يدل على أن القول بغير دليل منكر وان التقليد يوجب الذم العظيم والعقاب الشديد قال أهل التحقيق هؤلاء الكفار كفروا فى هذا القول من ثلاثة أوجه (أولها) اثبات الولد لله تعالى (وثانيها) ان ذلك الولد بنت (وثالثها) الحكم على الملائكة بالانوثة (المسئلة الثانية) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر عند الرحمن بالنون وهو اختيار أبى حاتم واحتج عليه بوجوه (الاول) انه يوافق قوله ان الذين عند ربك وقوله ومن عنده (والثانى) ان كل الخلق عباده فلا مدح لهم فيه (والثالث) ان التقدير ان الملائكة يكونون عند الرحمن لا عند هؤلاء الكفار فكيف عرفوا كونهم اناثا وأما الباقون فقرؤا عباد جمع عبد وقيل جمع عابد كقائم وقيام وصائم وصيام ونائم ونيام وهى قراءة ابن عباس واختيار أبى عبيد قال لانه تعالى رد عليهم قولهم انهم بنات الله وأخبر انهم عبيد و يؤيد هذه القراءة قوله بل عباد مكرمون (المسئلة الثالثة) قرأ نافع وحده آ أشهدوا بهمزة ومدة بعدها خفيفة لينة وضمة أى أحضروا خلقهم وعن نافع غير ممدود على مالم يسم فاعله والباقون أشهدوا بفتح الالف من شهدوا أى أحضروا (المسئلة الرابعة) احتج من قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية فقال أما قراءة عند بالنون فهذه العندية لاشك انها عندية الفضل والقرب من الله تعالى بسبب الطاعة ولفظة هم توجب الحصر والمعنى انهم هم الموصوفون بهذه العندية لا غيرهم فوجب كونهم أفضل من غيرهم رعاية للفظ الدال على الحصر وأما من قرأ عباد جمع العبد فقد ذكرنا ان لفظ العباد مخصوص فى القرآن بالمؤمنين فقوله هم عباد الرحمن يفيد حصر العبودية فيهم فاذا كان اللفظ الدال على العبودية دالا على الفضل والشرف كان اللفظ الدال على حصر العبودية دالا على حصر الفضل والمنقبة والشرف فيهم وذلك يوجب كونهم أفضل من غيرهم والله أعلم ۞ قوله تعالى (وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) اعلم انه تعالى حكى نوعا آخر من كفرهم وشبهاتهم وهو انهم قالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة فى أن كفر الكافر يقع بارادة الله من وجهين (الاول) انه تعالى حكى عنهم انهم قالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم وهذا صريح قول المجبرة ثم انه تعالى أبطله بقوله مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون فثبت انه حكى مذهب المجبرة ثم أردفه بالابطال والافساد فثبت ان هذا المذهب باطل ونظيره قوله تعالى فى سورة الانعام سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا الى قوله قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون

تحقيقه في قوله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيأ ولا يهتدون من سورة البقرة بما لامزيد عليه (ومن يسلم وجهه الى الله) بأن فوض اليه مجامع أموره وأقبل عليه بكليته وحيث عدي باللام قصد معنى الاختصاص وقرئ بالتشديد (وهو محسن) (٢٩٧) أي في أعماله آت بها جامعة بين الحسن الذاتي والوصفي وقدمر في آخر سورة النحل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أي تعلق بأوثق ما يتعلق به من الاسباب وهو تمثيل لحال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يترقى الى شاهق جبل فتمسك بأوثق عرى الحبل المتدلي منه (والى الله) لا الى أحد غيره (عاقبة الامور) فيجازيه أحسن الجزاء (ومن كفر فلا يحزنك كفره) فانه لا يضرك في الدنيا ولا في الآخرة وقرئ فلا يحزنك من أحزن المنقول من حزن بكسر الزاي وليس بمستفيض (الينا مرجعهم) لا الى غيرنا (فننبئهم بما عملوا) في الدنيا من الكفر والمعاصي بالعذاب والعقاب والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما أن الافراد في الاول باعتبار لفظها (ان الله عليم بذات الصدور) تعليل للتنبئة المعبر بها عن التعذيب (نمتعهم قليلا) تمتيعا أو زمانا قليلا فان ما يزول وان كان بعد أمد طويل بالنسبة الى ما يدوم قليل (ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) يثقل عليهم ثقل الاجرام الغلاظ أو يضم الى الاحراق الضغط والتضييق (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) لغاية وضوح الامر بحيث اضطروا الى الاعتراف به (قل الحمد لله) على أن جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضا (بل أكثرهم لا يعلمون) شيأ من الاشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى اعترافهم وقيل لا يعلمون أن ذلك يلزمهم (لله ما في السموات والارض) فلا يستحق العبادة فيهما غيره (ان الله هو الغني) عن العالمين (الحميد) (٣٨ - فخر سابع) المستحق للحمد وان لم يحمده أحد أو المحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال (ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام) أي لو أن الاشجار أقلام وتوحيد الشجرة لما أن المراد تفصيل الآحاد (والبحر يمده من بعده) أي من بعد نفاده (سبعة أبحر) أي والحال أن البحر

(والوجه الثاني) انه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنواع كفرهم (فاولها) قوله وجعلوا له من عباده جزأ (وثانيها) قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا (وثالثها) قوله تعالى وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلما حكى هذه الاقاويل الثلاثة بعضها على اثر بعض وثبت ان القولين الاولين كفر محض فكذلك هذا القول الثالث يجب أن يكون كفرا واعلم أن الواحدي أجاب في البسيط عنه من وجهين (الاول) ماذكره الزجاج وهو ان قوله تعالى ما لهم بذلك من علم عائد الى قولهم الملائكة اناث والى قولهم الملائكة بنات الله (والثاني) انهم أرادوا بقولهم لو شاء الرحمن ما عبدناهم انه أمرنا بذلك وانه رضي بذلك وأقرنا عليه فأنكر ذلك عليهم فهذا ما ذكره الواحدي في الجواب وعندي هذان الوجهان ضعيفان (أما الاول) فلانه تعالى حكى عن القوم قولين باطلين وبين وجه بطلانهما ثم حكى بعده مذهبا ثالثا في مسئلة أجنبية عن المسئلتين الاوليين ثم حكم بالبطلان والوعيد فصرف هذا الابطال عن هذا الذي ذكره عقيبه الى كلام متقدم أجنبي عنه في غاية البعد (وأما الوجه الثاني) فهو أيضا ضعيف لان قوله لو شاء الله ما عبدناهم ليس فيه بيان متعلق بتلك المشيئة والاجمال خلاف الدليل فوجب أن يكون التقدير لو شاء الله أن لا نعبدهم ما عبدناهم وكلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فهذا يدل على انه لم توجد مشيئة الله لعدم عبادتهم وهذا عين مذهب المجبرة فالابطال والافساد يرجع الى هذا المعنى ومن الناس من أجاب عن هذا الاستدلال بأن قال انهم انما ذكروا ذلك الكلام على سبيل الاستهزاء والسخرية فلهذا السبب استوجبوا الطعن والذم وأجاب صاحب الكشاف عنه من وجهين (الاول) انه ليس في اللفظ ما يدل على انهم قالوا مستهزئين وادعاء ما لا دليل عليه باطل (الثاني) انه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء وهي انهم جعلوا له من عباده جزأ وانهم جعلوا الملائكة اناثا وانهم قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم فلو قلنا بانه انما جاء الذم على القول الثالث لانهم ذكروه على طريق الهزؤ لا على طريق الجد وجب أن يكون الحال في حكاية القولين الاولين كذلك فلزم انهم لو نطقوا بتلك الاشياء على سبيل الجد ان يكونوا محقين ومعلوم انه كفر واما القول بأن الطعن في القولين الاولين انما توجه على نفس ذلك القول وفي القول الثالث لا على نفسه بل على ايراده على سبيل الاستهزاء فهذا يوجب تشويش النظم وانه لا يجوز في كلام الله واعلم ان الجواب الحق عندي عن هذا الكلام ما ذكرناه في سورة الانعام وهو ان القوم انما ذكروا هذا الكلام لانهم استدلوا بمشيئة الله تعالى للكفر على انه لا يجوز ورود الامر بالايمان فاعتقدوا ان الامر والارادة يجب كونهما متطابقين وعندنا ان هذا باطل فالقوم لم يستحقوا الذم بمجرد قولهم ان الله يريد الكفر من الكافر بل لاجل انهم قالوا لما أراد الكفر من الكافر وجب أن يقبح منه أمر الكافر بالايمان واذا صرفنا الذم والطعن الى هذا المقام سقط استدلال المعتزلة بهذه الآية وتمام التقرير مذكور في سورة الانعام والله أعلم (المسئلة الثانية) انه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل قال ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون وتقريره كأنه قيل ان القوم يقولون لما أراد الله الكفر من الكافر وخلق فيه ما أوجب ذلك الكفر وجب أن يقبح منه ان يأمره بالايمان لان مثل هذا التكليف قبيح في الشاهد فيكون قبيحا في الغائب فقال تعالى ما لهم بذلك من علم أي ما لهم بصحة هذا القياس من علم وذلك لان أفعال الواحد منا وأحكامه مبنية على رعاية المصالح والمفاسد لاجل أن كل ما سوى الله فانه ينتفع بحصول المصالح ويستضر بحصول المفاسد فلا جرم ان صريح طبعه وعقله يحمله على بناء أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح اما الله سبحانه وتعالى فانه لا ينفعه شئ ولا يضره شئ فكيف يمكن القطع بأنه تعالى يبني أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح مع ظهور هذا الفارق العظيم فقوله تعالى ما لهم بذلك من علم أي ما لهم بصحة قياس الغائب على الشاهد في هذا الباب علم ثم قال ان هم الا يخرصون أي كما لم يثبت لهم صحة ذلك القياس فقد ثبت بالبرهان القاطع كونهم كذابين خراصين في ذلك القياس لان قياس المنزه عن النفع والضرمن

كل الوجوه على المحتاج المنتفع المتضرر قياس باطل فى بديهة العقل ثم قال أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون يعنى القول الباطل الذى حكاه الله تعالى عنهم عرفوا صحته بالعقل أو بالنقل اما اثباته بالعقل فهو باطل لقوله مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون واما اثباته بالنقل فهو أيضا باطل لقوله أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون والضمير فى قوله من قبله للقرآن أو للرسول والمعنى انهم وجدوا ذلك الباطل فى كتاب منزل قبل القرآن حتى جاز لهم أن يعولوا عليه وأن يتمسكوا به والمقصود منه ذكره فى معرض الانكار ولما ثبت انه لم يدل عليه لا دليل عقلى ولا دليل نقلى وجب أن يكون القول به باطلا ثم قال تعالى بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون والمقصود انه تعالى لما بين انه لا دليل لهم على صحة ذلك القول البتة بين انه ليس لهم حامل يحملهم عليه الا التقليد المحض ثم بين ان تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلا من قديم الدهر فقال وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرئ على امة بالكسر وكلتاهما من الام وهو القصد فالامة الطريقة التى تؤم أى تقصد كالرحلة للمرحول اليه والامة الحالة التى يكون عليها الآم وهو القاصد (المسئلة الثانية) لو لم يكن فى كتاب الله الا هذه الآيات لكفت فى ابطال القول بالتقليد وذلك لانه تعالى بين ان هؤلاء الكفار لم يتمسكوا فى اثبات ما ذهبوا اليه لا بطريق عقلى ولا بدليل نقلى ثم بين انهم انما ذهبوا اليه بمجرد تقليد الآباء والاسلاف وانما ذكر تعالى هذه المعانى فى معرض الذم والتهجين وذلك يدل على ان القول بالتقليد باطل ومما يدل عليه أيضا من حيث العقل ان التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق وذلك لانه كما حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة فكذلك حصل لاضدادهم أقوام من المقلدة فلو كان التقليد طريقا الى الحق لوجب كون الشئ ونقيضه حقا ومعلوم ان ذلك باطل (المسئلة الثالثة) انه تعالى بين ان الداعى الى القول بالتقليد والحامل عليه انما هو حب التنعم فى طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال لقوله الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة أى أبطرتهم فلا يحبون الا الشهوات والملاهى ويبغضون تحمل المشاق فى طلب الحق واذا عرفت هذا علمت ان رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة فلهذا قال عليه السلام حب الدنيا رأس كل خطيئة ثم قال تعالى لرسوله قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم أى بدين أهدى من دين آبائكم فعند هذا حكى الله عنهم انهم قالوا انا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وان جئتنا بما هو أهدى فانا بما أرسلتم به كافرون وان كان أهدى مما كنا عليه فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة فلهذا قال تعالى فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين والمراد منه تهديد الكفار والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿واذ قال ابراهيم لابيه وقومه انى براء مما تعبدون الا الذى فطرنى فانه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون﴾ اعلم انه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة انه ليس لاولئك الكفار داع يدعوهم الى تلك الاقاويل الباطلة الا تقليد الآباء والاسلاف ثم بين انه طريق باطل ومنهج فاسد وان الرجوع الى الدليل أولى من الاعتماد على التقليد أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد وتقريره من وجهين (الاول) انه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام انه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل فنقول اما أن يكون تقليد الآباء فى الاديان محرما أو جائزا فان كان محرما فقد بطل القول بالتقليد وان كان جائزا فمعلوم ان أشرف آباء العرب هو ابراهيم عليه السلام وذلك لانه ليس لهم فخر ولا شرف الا بانهم من أولاده واذا كان كذلك فتقليد هذا الاب الذى هو أشرف الآباء أولى من تقليد سائر الآباء واذا ثبت ان تقليده أولى من تقليد غيره فنقول انه ترك دين الآباء وحكم بأن

المحيط بسعته عدد الابحر السبعة مدا لا ينقطع أبدا وكتبت بتلك الاقلام وبذلك المداد كلمات الله (مانفدت كلمات الله) ونفدت تلك الاقلام والمداد كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى وقرئ يمده من الامداد بالياء والتاء واسناد المد الى الابحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه أعظم منها وأطم لانها هى المجاورة للجبال ومنابع المياه الجارية واليها تنصب الانهار العظام أولا ومنها ينصب الى البحر المحيط ثانيا وايثار جمع القلة فى الكلمات للايذان بان ما ذكر لا يفى بالقليل منها فكيف بالكثير (ان الله عزيز) لا يعجزه شئ (حكيم) لا يخرج عن علمه وحكمته أمر فلا تنفد كلماته المؤسسة عليهما (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) أى الا كخلقها وبعثها فى سهولة التأتى اذ لا يشغله شأن عن شأن لان مناط وجود الكل تعلق ارادته الواجبة مع قدرته الذاتية حسبما يفصح عنه قوله تعالى انما أمرنا لشئ اذا أردناه أن نقول له كن فيكون (ان الله سميع) يسمع كل مسموع (بصير) يبصر كل مبصر لا يشغله علم بعضها عن علم بعض فكذلك الخلق والبعث (ألم تر) قيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل عام لكل أحد ممن يصلح للخطاب وهو الاوفق لما سبق وما لحق أى ألم تعلم علما قويا جاريا مجرى الرؤية (أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يدخل كل واحد منهما فى الآخر ويضيفه اليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصانا (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج والاختلاف بينهما صيغة لما ان ايلاج أحد الملوين فى الآخر متجدد فى كل حين واما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد وانما التعدد والتجدد فى آثاره وقد أشير الى ذلك حيث قيل (كل يجرى) أى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتخالفة المتعددة حسب تعدد الايام جريا مستمرا (الى أجل مسمى) قدره الله تعالى لجريهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله فانه لا ينقطع جريهما الا حينئذ والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان الواقع بطريق الاستطرا اتباع

اتباع الدليل أولى من متابعة الآباء واذا كان كذلك وجب تقليده فى ترك تقليد الآباء ووجب تقليده فى ترجيح الدليل على التقليد واذا ثبت هذا فنقول فقد ظهر ان القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد وما أفضى ثبوته الى نفيه كان باطلا فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلا فهذا طريق دقيق فى ابطال التقليد وهو المراد من هذه الآية (الوجه الثانى) فى بيان ان ترك التقليد والرجوع الى متابعة الدليل أولى فى الدنيا وفى الدين انه تعالى بين ان ابراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه الى متابعة الدليل لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقيا فى عقبه الى يوم القيامة وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت فثبت ان الرجوع الى متابعة الدليل يبقى محمود الاثر الى قيام الساعة وان التقليد والاصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه فى الدنيا خبر ولا أثر فثبت من هذين الوجهين ان متابعة الدليل وترك التقليد أولى فهذا بيان المقصود الاصلى من هذه الآية ولنرجع الى تفسير ألفاظ الآية أما قوله انى براء مما تعبدون فقال الكسائى والفراء والمبرد والزجاج براء مصدر لا يثنى ولا يجمع مثل عدل ورضا وتقول العرب انا البراء منك والخلاء منك ونحن البراء منك والخلاء ولا يقولون البراآن ولا البراؤن لان المعنى ذو البراء وذوو البراء فان قلت برىء وخلى ثنيت وجمعت ثم استثنى خالقه من البراءة فقال الا الذى فطرنى والمعنى أنا أتبرأ مما تعبدون الا من الله عز وجل ويجوز أن يكون الا بمعنى لكن فيكون المعنى لكن الذى فطرنى فانه سيهدين أى سيرشدنى لدينه ويوفقنى لطاعته واعلم انه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام فى آية أخرى انه قال الذى خلقنى فهو يهدين وحكى عنه ههنا انه قال سيهدين فاجمع بينهما وقدر كأنه قال فهو يهدين وسيهدين فيدلان على استمرار الهداية فى الحال والاستقبال وجعلها أى وجعل ابراهيم كلمة التوحيد التى تكلم بها وهى قوله اننى براء مما تعبدون جاريا مجرى لا اله وقوله الا الذى فطرنى جاريا مجرى قوله الا الله فكان مجموع قوله اننى براء مما تعبدون الا الذى فطرنى جاريا مجرى قوله لا اله الا الله ثم بين تعالى ان ابراهيم جعل هذه الكلمة باقية فى عقبه أى فى ذريته فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو الى توحيده لعلهم يرجعون أى لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم وقيل وجعلها الله وقرئ كلمة على التخفيف وفى عقبه ثم قال تعالى بل متعت هؤلاء يعنى أهل مكة وهم من عقب ابراهيم بالمد فى العمر والنعمة فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد حتى جاءهم الحق وهو القرآن ورسول مبين بين الرسالة وأوضحها بما معه من الآيات والبينات فكذبوا به وسموه ساحرا وما جاء به سحرا وكفروا به ووجه النظم انهم لما عولوا على تقليد الآباء ولم يتفكروا فى الحجة اغتروا بطول الامهال وامتاع الله اياهم بنعيم الدنيا فأعرضوا عن الحق قال صاحب الكشاف ان قيل ما وجه قراءة من قرأ متعت بفتح التاء قلنا كان الله سبحانه اعترض على ذاته فى قوله وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون فقال بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة فى الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد وأراد بذلك المبالغة فى تعييرهم لانه اذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببا فى زيادة الشكر والثبات على التوحيد لا أن يشركوا به ويجعلوا له أندادا فمثاله أن يشكو الرجل اساءة من أحسن اليه ثم يقبل على نفسه فيقول أنت السبب فى ذلك بمعروفك واحسانك اليه وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسىء لا تقبيح فعل نفسه ۞ قوله تعالى ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ اعلم ان هذا هو النوع الرابع من كفرياتهم التى حكاها الله تعالى عنهم فى هذه السورة وهؤلاء المساكين قالوا منصب رسالة الله منصب شريف فلا يليق الا برجل شريف وقد صدقوا فى ذلك الا انهم ضموا اليه مقدمة فاسدة وهى ان الرجل الشريف هو الذى يكون كثير المال والجاه ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به وانما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال فى احدى القريتين وهى مكة

وعلى تقدير اختصاصه به عليه الصلاة والسلام يجوز أن يكون حالا من الشمس والقمر فان جريانهما الى يوم القيامة من جملة ما فى حيز رؤيته عليه الصلاة والسلام هذا وقد جعل جريانهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما فى فلكهما والاجل المسمى (٢٩٩) عن منتهى دورتهما وجعل مدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهرا فالجملة حينئذ بيان لحكم تسخيرهما وتنبيه على كيفية ايلاج أحد الملوين فى الآخر وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس على مداراتها اليومية فكلما كان جريانها متوجها الى سمت الرأس تزداد القوس التى هى فوق الارض كبرا فيزداد النهار طولا بانضمام بعض أجزاء الليل اليه الى أن يبلغ المدار الذى هو أقرب المدارات الى سمت الرأس وذلك عند بلوغها الى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة الى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القسى التى هى فوق الارض تزداد صغرا فيزداد النهار قصرا بانضمام بعض أجزائه الى الليل الى أن يبلغ المدار الذى هو أبعد المدارات اليومية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها رج الجدى وقوله تعالى (وأن الله بما تعملون خبير) عطف على أن الله يولج الخ داخل معه فى حيز الرؤية على تقديرى خصوص الخطاب وعمومه فان من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير الفائق لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بجلائل أعماله ودقائقها (ذلك) اشارة الى ما تلى من الآيات الكريمة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بأن الله هو الحق) أى بسبب بيان أنه تعالى هو الحق الهيته فقط ولاجله لكونها ناطقة بحقية التوحيد (وأن ما يدعون من دونه الباطل) أى ولاجل بيان بطلان الهية ما يدعونه من دونه تعالى لكونها بذلك شهادة بينة لا ريب فيها وقرئ بالتاء شاهدة والتصريح بذلك مع أن الدلالة على اختصاص حقية الالهية به تعالى مستتبعة للدلالة على بطلان الهية ما عداه لابراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد وللايذان بان الدلالة على بطلان ما ذكر ليست بطريق الاستتباع فقط

بل بطريق الاستقلال أيضا (وأن الله هو العلي الكبير) أي وبيان أنه تعالى المترفع عن كل شئ المتسلط عليه فان ما في تضاعيف الآيات الكريمة مبين لاختصاص العلو والكبرياء به تعالى أي (٣٠٠) بيان هذا وقيل ذلك أي ماذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص البارى تعالى به بسبب أنه الثابت في ذاته الواجب من جميع جهاته أو الثابت الهيته وأنت خبير بان حقيته تعالى وعلوه وكبرياءه وان كانت صالحة لمناطية ماذكر من الاحكام المعدودة لكن بطلان الهية الاصنام لادخل له في المناطية قطعا فلا مساغ لنظمه في سلك الاسباب بل هو تعكيس للامر ضرورة أن الاحكام المذكورة هى المقتضية لبطلانها لا ان بطلانها يقتضيها (ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله) باحسانه في تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على باهر قدرته وغاية حكمته وشمول انعامه والباء اما متعلقة بتجرى أو بمقدر هو حال من فاعله أى ملتبسة بنعمته تعالى وقرئ الفلك بضم اللام وبنعمات الله وعين فعلات يجوز فيه الكسر والفتح والسكون (ليريكم من آياته) أي بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته وقوله تعالى (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) تعليل لما قبله أى ان فيما ذكر لآيات عظيمة في ذاتها كثيرة في عددها لكل من يبالغ في الصبر على المشاق فيتعب نفسه في التفكر في الانفس والآفاق ويبالغ في الشكر على نعمائه وهما صفتا المؤمن فكأنه قيل لكل مؤمن (واذا غشيهم) أى علاهم وأحاط بهم (موج كالظلل) كما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما وقرئ كالظلال جمع ظلة كقلة وقلال (دعوا الله مخلصين له الدين) لزوال ماينازع الفطرة من الهوى والتقليد بما دهاهم من الدواهى والشدائد (فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد) أى مقيم على القصد السوى الذى هو التوحيد أو متوسط في الكفر لانزجاره في الجملة (وما يجحد بآياتنا الا كل ختار) غدار فانه نقض للعهد الفطرى أو رفض لما كان في البحر والختر أشد الغدر وأقبحه (كفور) بالغ في

والطائف قال المفسرون والذى بمكة هو الوليد بن المغيرة والذى بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفى ثم أبطل الله تعالى هذه الشبهة من وجهين (الاول) قوله أهم يقسمون رحمة ربك وتقرير هذا الجواب من وجوه (أحدها) انا أوقعنا التفاوت في مناصب الدنيا ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره فالتفاوت الذى أوقعناه في مناصب الدين والنبوة بأن لايقدروا على التصرف فيه كان أولى (وثانيها) أن يكون المراد ان اختصاص ذلك الغنى بذلك المال الكثير انما كان لاجل حكمنا وفضلنا واحساننا اليه فكيف يليق بالعقل أن نجعل احساننا اليه بكثرة المال حجة علينا في أن نحسن اليه أيضا بالنبوة (وثالثها) انا لما أوقعنا التفاوت في الاحسان بمناصب الدنيا لا لسبب سابق فلم لا يجوز أيضا أن نوقع التفاوت في الاحسان بمناصب الدين والنبوة لا لسبب سابق فهذا تقرير الجواب ونرجع الى تفسير الالفاظ فنقول الهمزة في قوله أهم يقسمون رحمة ربك للانكار الدال على التجهيل والتعجيب من اعراضهم وتحكمهم وان يكونوا هم المدبرين لامر النبوة ثم ضرب لهذا مثالا فقال نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انا أوقعنا هذا التفاوت بين العباد في القوة والضعف والعلم والجهل والحذاقة والبلاهة والشهرة والخمول وانما فعلنا ذلك لانا لو سوينا بينهم في كل هذه الاحوال لم يخدم أحد أحدا ولم يصر أحد منهم مسخرا لغيره وحينئذ يفضى ذلك الى خراب العالم وفساد نظام الدنيا ثم ان أحدا من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا فاذا عجزوا عن الاعراض عن حكمنا في أحوال الدنيا مع قلتها ودناءتها فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا في تخصيص بعض العباد بمنصب النبوة والرسالة (المسئلة الثانية) قوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا يقتضى أن تكون كل أقسام معايشهم انما تحصل بحكم الله وتقديره وهذا يقتضى أن يكون الرزق الحرام والحلال كله من الله تعالى (والوجه الثانى في الجواب) ماهو المراد من قوله ورحمة ربك خير مما يجمعون وتقريره ان الله تعالى اذا خص بعض عبيده بنوع من أنواع فضله ورحمته في الدين فهذه الرحمة خير من الاموال التى يجمعها لان الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآباد ۞ قوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكؤن وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى اذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى أجاب عن الشبهة التى ذكروها بناء على تفضيل الغنى على الفقير بوجه ثالث وهو انه تعالى بين ان منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله وبين حقارتها بقوله ولولا أن يكون الناس أمة واحدة والمعنى لولا أن يرغب الناس في الكفر اذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لأعطيتهم أكثر الاسباب المفيدة للتنعم (أحدها) أن يكون سقفهم من فضة (وثانيها) معارج أيضا من فضة عليها يظهرون (وثالثها) أن نجعل لبيوتهم أبوابا من فضة وسررا أيضا من فضة عليها يتكؤن ثم قال وزخرفا وله تفسيران (أحدهما) أنه الذهب (والثانى) أنه الزينة بدليل قوله تعالى حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت فعلى التقدير الاول يكون المعنى ونجعل لهم مع ذلك ذهبا كثيرا وعلى الثانى انا نعطيهم زينة عظيمة في كل باب ثم بين تعالى ان كل ذلك متاع الحياة الدنيا وانما سماه متاعا لان الانسان يستمتع به قليلا ثم ينقضى في الحال وأما الآخرة فهى باقية دائمة وهى عند الله تعالى وفي حكمه للمتقين عن حب الدنيا المقبلين على حب المولى وحاصل الجواب ان أولئك الجهال ظنوا ان الرجل الغنى أولى بمنصب الرسالة من محمد بسبب فقره فبين تعالى ان المال والجاه حقيران عند الله وانهما على شرف الزوال

كفران نعم الله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده) أى لا يقضى عنه وقرئ لا يجزئ من أجزأ اذا أغنى والعائد الى الموصوف محذوف أى لا يجزى فيه (ولا مولود) عطف على والد أو هو مبتدأ خبره (هو جاز عن والده شيأ) وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزى وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر فى الآخرة (ان وعد الله) بالثواب والعقاب (حق) لا يمكن اخلافه أصلا (فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) أى الشيطان المبالغ فى الغرور بأن يحملكم على المعاصى تزيينها لكم ويرجيكم التوبة والمغفرة (ان الله عنده علم الساعة) علم وقت قيامها لما روى ان الحرث ابن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى الساعة وانى قد ألقيت حباتى فى الارض فتى السماء تمطر وحمل امرأتى ذكر أم أنثى وما أعمل غدا وأين أموت فنزلت وعنه عليه الصلاة والسلام مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية (وينزل الغيث) فى ابانه الذى قدره والى محله الذى عينه فى علمه وقرئ ينزل من الانزال (ويعلم ما فى الارحام) من ذكر أو أنثى تام أو ناقص (وما تدرى نفس) من النفوس (ماذا تكسب غدا) من خير أو شر وربما تعزم على شئ منهما فتفعل خلافه (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) كما لا تدرى فى أى وقت تموت روى أن ملك الموت مر على سليمان عليهما السلام فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت فقال كأنه يريدنى فمر الريح ان تحملنى وتلقينى ببلاد الهند ففعل ثم قال الملك لسليمان عليهما السلام كان دوام نظرى اليه تعجبا منه حيث كنت أمرت بأن أقبض روحه بالهند وهو عندك ونسبة العلم الى الله تعالى والدراية الى العبد للايذان بأنه ان أعمل حيله وبذل فى التعرف وسعه لم يعرف ما هو لاحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم ينصب له دليل عليه وقرئ بأية أرض وشبه سيبويه تأنيثها بتأنيث كل فى كلتهن (ان الله عليم) مبالغ فى العلم فلا يعزب

خصوا به الا يفيد حصول الشرف والله أعلم (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وأبو عمرو سقفا بفتح السين وسكون القاف على لفظ الواحد لارادة الجنس كما فى قوله فخر عليهم السقف من فوقهم والباقون سقفا على الجمع واختلفوا فقيل هو جمع سقف كرهن ورهن قال أبو عبيد ولا ثالث لهما وقيل السقف جمع سقوف كرهن ورهون وزبور وزبر فهو جمع الجمع (المسئلة الثالثة) قوله لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم فقوله لبيوتهم بدل اشتمال من قوله لمن يكفر قال صاحب الكشاف قرئ معارج ومعاريج والمعارج جمع معرج أو اسم جمع لمعراج وهى المصاعد الى المساكن العالية كالدرج والسلالم عليها يظهرون أى على تلك المعارج يظهرون وفى نصب قوله وزخرفا قولان قيل لجعلنا لبيوتهم سقفا من فضة ولجعلنا لهم زخرفا وقيل من فضة وزخرف فلما حذف الخافض انتصب وأما قوله وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا قرأ عاصم وحمزة لما بتشديد الميم والباقون بالتخفيف أما قراءة حمزة بالتشديد فانه جعل لما فى معنى الا وحكى سيبويه نشدتك بالله لما فعلت بمعنى الا فعلت ويقوى هذه القراءة ان فى حرف أبى وما ذلك الا متاع الحياة الدنيا وهذا يدل على ان لما بمعنى الا وأما القراءة بالتخفيف فقال الواحدى لفظة ما لغو والتقدير لمتاع الحياة الدنيا قال أبو الحسن الوجه التخفيف لان لما بمعنى الا لا تعرف وحكى عن الكسائى أنه قال لا أعرف وجه التثقيل (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة دلت الآية على انه تعالى انما لم يعط الناس نعم الدنيا لاجل انه لو فعل بهم ذلك لدعاهم ذلك الى الكفر فهو تعالى لم يفعل بهم ذلك لاجل أن لا يدعوهم الى الكفر وهذا يدل على أحكام (أحدها) انه اذا لم يفعل بهم ما يدعوهم الى الكفر فلأن لا يخلق فيهم الكفر أولى (وثانيها) أنه ثبت ان فعل اللطف قائم مقام ازاحة العذر والعلة فلما بين تعالى انه لم يفعل ذلك ازاحة للعذر والعلة عنهم دل ذلك على أنه يجب أن يفعل بهم كل ما كان لطفا داعيا لهم الى الايمان فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على أنه يجب على الله تعالى فعل اللطف (وثالثها) انه ثبت بهذه الآية ان الله تعالى انما يفعل ما يفعله ويترك ما يتركه لاجل حكمة ومصلحة وذلك يدل على تعليل أحكام الله تعالى وأفعاله بالمصالح والعلل فان قيل لما بين تعالى أنه لو فتح على الكافر أبواب النعم لصار ذلك سببا لاجتماع الناس على الكفر فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سببا لاجتماع الناس على الاسلام قلنا لان الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الاسلام لطلب الدنيا وهذا الايمان ايمان المنافقين فكان الاصوب أن يضيق الامر على المسلمين حتى ان كل من دخل الاسلام فانما يدخل فيه لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى فحينئذ يعظم ثوابه لهذا السبب ثم قال تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا وذلك ان من فاز بالمال والجاه صار كالاعشى عن ذكر الله ومن صار كذلك صار من جلساء الشياطين الضالين المضلين فهذا وجه تعلق هذا الكلام بما قبله قال صاحب الكشاف قرئ ومن يعش بضم الشين وفتحها والفرق بينهما انه اذا حصلت الآفة فى بصره قيل عشى واذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشى ونظيره عرج لمن به الآفة وعرج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج قال الحطيئة * متى تأته تعشو الى ضوء ناره * أى تنظر اليها نظر العشى لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء وقرئ يعشو على ان من موصولة غير مضمنة معنى الشرط وحق هذا القارئ ان يرفع نقيض ومعنى القراءة بالفتح ومن يعم عن ذكر الرحمن وهو القرآن لقوله صم بكم عمى وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره أى يعرف انه الحق وهو يتجاهل ويتعامى كقوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم نقيض له شيطانا قال مقاتل نضم اليه شيطانا فهو له قرين ثم قال وانهم ليصدونهم عن السبيل يعنى وان الشياطين ليصدونهم عن سبيل الهدى والحق وذكر الكناية عن الانسان والشياطين بلفظ الجمع لان قوله ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا يفيد الجمع وان كان اللفظ على الواحد ويحسبون أنهم مهتدون يعنى

الشياطين يصدون الكفار عن السبيل والكفار يحسبون أنهم مهتدون ثم عاد الى لفظ الواحد فقال حتى اذا جاءنا يعني الكافر وقرئ جاآنا يعني الكافر وشيطانه روى ان الكافر اذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده فلم يفارقه حتى يصيرهما الله الى النار فذلك حيث يقول ياليت بيني وبينك بعد المشرقين والمراد ياليت حصل بيني وبينك بعد على أعظم الوجوه واختلفوا في تفسير قوله بعد المشرقين وذكروا فيه وجوها (الاول) قال الاكثرون المراد بعد المشرق والمغرب ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما قال الفرزدق * لنا قمراها والنجوم الطوالع * يريد الشمس والقمر ويقولون للكوفة والبصرة البصرتان وللغداة والعصر العصران ولابي بكر وعمر العمران وللماء والتمر الاسودان (الثاني) ان أهل النجوم يقولون الحركة التي تكون من المشرق الى المغرب هي حركة الفلك الاعظم والحركة التي من المغرب الى المشرق هي حركة الكواكب الثابتة وحركة الافلاك الممثلة التي للسيارات سوى القمر واذا كان كذلك فالمشرق والمغرب كل واحد منهما مشرق بالنسبة الى شيء آخر فثبت ان اطلاق لفظ المشرق على كل واحد من الجهتين حقيقة (الثالث) قالوا يحمل ذلك على مشرق الصيف ومشرق الشتاء وبينهما بعد عظيم وهذا بعيد عندي لان المقصود من قوله ياليت بيني وبينك بعد المشرقين المبالغة في حصول البعد وهذه المبالغة انما تحصل عند ذكر بعد لا يمكن وجود بعد آخر أزيد منه والبعد بين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ليس كذلك فيبعد حمل اللفظ عليه (الرابع) وهو ان الحس يدل على ان الحركة اليومية انما تحصل بطلوع الشمس من المشرق الى المغرب وأما القمر فانه يظهر في أول الشهر في جانب المغرب ثم لا يزال يتقدم الى جانب المشرق وذلك يدل على أن مشرق حركة القمر هو المغرب واذا ثبت هذا فالجانب المسمى بالمشرق هو مشرق الشمس ولكنه مغرب القمر وأما الجانب المسمى بالمغرب فانه مشرق القمر ولكنه مغرب الشمس وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين ولعل هذا الوجه أقرب الى مطابقة اللفظ ورعاية المقصود من سائر الوجوه والله أعلم ثم قال تعالى فبئس القرين أي الكافر يقول لذلك الشيطان ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين أنت فهذا ما يتعلق بتفسير الالفاظ والمقصود من هذا الكلام تحقير الدنيا وبيان ما في المال والجاه من المضار العظيمة وذلك لان كثرة المال والجاه تجعل الانسان كالاعشى عن مطالعة ذكر الله تعالى ومن صار كذلك صار جليسا للشيطان ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق وبقي جليس الشيطان في الدنيا وفي القيامة ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد في القيامة بحيث يقول الكافر ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين أنت فثبت بما ذكرنا ان كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان في الدين والدنيا واذا ظهر هذا فقد ظهر ان الذين قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قالوا كلاما فاسدا وشبهة باطلة ثم قال تعالى ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون فقوله انكم في محل الرفع على الفاعلية يعني ولن ينفعكم اليوم كونكم مشتركين في العذاب والسبب فيه ان الناس يقولون المصيبة اذا عمت طابت وقالت الخنساء في هذا المعنى

ولولا كثرة الباكين حولي * على اخوانهم لقتلت نفسي
ولا يبكون مثل أخي ولكن * أعزي النفس عنه بالتأسي

فبين تعالى ان حصول الشركة في ذلك العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيده في الدنيا والسبب فيه وجوه (الاول) ان ذلك العذاب شديد واشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر فلا جرم الشركة لا تفيد الخفة (الثاني) ان قوما اذا اشتركوا في العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه فيحصل بسببه بعض التخفيف وهذا المعنى متعذر في القيامة (الثالث) ان جلوس الانسان مع قرينه يفيده أنواعا كثيرة من السلوة فبين تعالى ان الشيطان وان كان قرينا له الا ان مجالسته في القيامة لا توجب السلوة

عن علمه شيء من الاشياء التي من جملتها ما ذكر (خبير) يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطي من الحسنات عشرا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر

* (سورة السجدة مكية وهي ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الم) اما اسم للسورة فمحله الرفع على انه خبر لمبتدا محذوف أي هذا مسمى بالم والاشارة اليها قبل جريان ذكرها قد عرفت سرها واما مسرود على نمط التعديد فلا محل له من الاعراب وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) على الاول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثاني خبر لمبتدا محذوف أي المؤلف من جنس ما ذكر تنزيل الكتاب وقيل خبر لالم أي المسمى به تنزيل الكتاب وقد مر مرارا أن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوم الانتساب اليه واذ لا عهد بالتسمية قبل فحقها الاخبار بها وقوله تعالى (لا ريب فيه) خبر ثالث على الوجه الاول وثان على الاخيرين وقيل خبر لتنزيل الكتاب فقوله تعالى (من رب العالمين) متعلق بمضمر هو حال من الضمير المجرور أي كائنا منه تعالى لا بتنزيل لان المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر والاوجه حينئذ أنه الخبر ولا ريب فيه حال من الكتاب أو اعتراض والضمير في فيه راجع الى مضمون الجملة كأنه قيل لا ريب في ذلك أي في كونه منزلا من رب العالمين ويؤيده قوله تعالى (أم يقولون افتراه) فان قولهم هذا انكار منهم لكونه من رب العالمين فلابد أن يكون مورده حكما مقصود الافادة لا قيدا للحكم بنفي الريب عنه وقد رد عليهم ذلك وأبطل حيث جيء بأم المنقطعة انكارا له وتعجيبا منه لغاية ظهور بطلانه واستحالة كونه مفترى ثم أضرب عنه الى بيان حقية ما أنكروه حيث قيل (بل هو الحق من ربك) باضافة اسم الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام بعد اضافته فيما سبق الى العالمين تشريفا له عليه الصلاة والسلام ثم أيد ذلك وتخفيف

وخفة العقوبة وفى كتاب ابن مجاهد عن ابن عامر قرأ اذ ظلمتم انكم بكسر الالف والباقون انكم بفتح الالف والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون أو نرينك الذى وعدناهم فانا عليهم مقتدرون فاستمسك بالذى أوحى اليك انك على صراط مستقيم وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ اعلم انه تعالى لما وصفهم فى الآية المتقدمة بالعشى وصفهم فى هذه الآية بالصمم والعمى وما أحسن هذا الترتيب وذلك لان الانسان فى أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف ثم كلما كان اشتغاله بتلك الاعمال أكثر كان ميله الى الجسمانيات أشد واعراضه عن الروحانيات أكمل لما ثبت فى علوم العقل ان كثرة الافعال توجب حصول الملكات الراسخة فينتقل الانسان من الرمد الى أن يصير أعشى فاذا واظب على تلك الحالة أياما أخرى انتقل من كونه أعشى الى كونه أعمى فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فى دعاء قومه وهم لا يزيدون الا تصميما على الكفر وتماديا فى الغى فقال تعالى أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى يعنى انهم بلغوا فى النفرة عنك وعن دينك الى حيث اذا أسمعتهم القرآن كانوا كالاصم واذا أريتهم المعجزات كانوا كالاعمى ثم بين تعالى ان صممهم وعماهم انما كان بسبب كونهم فى ضلال مبين ولما بين تعالى ان دعوته لا تؤثر فى قلوبهم قال فاما نذهبن بك يريد حصول الموت قبل نزول النقمة بهم فانا منهم منتقمون بعدك أو نرينك فى حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل فانا مقتدرون على ذلك واعلم ان هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول عليه السلام لانه تعالى بين أنهم لا تؤثر فيهم دعوته واليأس احدى الراحتين ثم بين انه لابد وأن ينتقم لاجله منهم اما حال حياته أو بعد وفاته وذلك أيضا يوجب التسلية فبعد هذا أمره أن يتمسك بما أمره الله تعالى به فقال فاستمسك بالذى أوحى اليك بأن تعتقد أنه حق وبأن تعمل بموجبه فانه الصراط المستقيم الذى لا يميل عنه الا ضال فى الدين ولما بين تأثير التمسك بهذا الدين فى منافع الدين بين أيضا تأثيره فى منافع الدنيا فقال وانه لذكر لك ولقومك أى انه يوجب الشرف العظيم لك ولقومك حيث يقال ان هذا الكتاب العظيم أنزله الله على رجل من قوم هؤلاء واعلم ان هذه الآية تدل على ان الانسان لابد وأن يكون عظيم الرغبة فى الثناء الحسن والذكر الجميل ولو لم يكن الذكر الجميل أمرا مرغوبا فيه لما من الله به على محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال وانه لذكر لك ولقومك ولما طلبه ابراهيم عليه السلام حيث قال واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ولان الذكر الجميل قائم مقام الحياة الشريفة بل الذكر أفضل من الحياة لان أثر الحياة لا يحصل الا فى مسكن ذلك الحى أما أثر الذكر الجميل فانه يحصل فى كل مكان وفى كل زمان ثم قال تعالى وسوف تسئلون وفيه وجوه (الاول) قال الكلبى تسئلون هل أديتم شكر انعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل (الثانى) قال مقاتل المراد أن من كذب به يسئل لم كذبه فيسئل سؤال توبيخ (الثالث) تسئلون هل عملتم بما دل القرآن عليه من التكاليف واعلم أن السبب الاقوى فى انكار الكفار لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولبغضهم له أنه كان ينكر عبادة الاصنام فبين تعالى ان انكار عبادة الاصنام ليس من خواص دين محمد صلى الله عليه وسلم بل كل الانبياء والرسل كانوا مطبقين على انكاره فقال واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون وفيه أقوال (الاول) معناه واسأل مؤمنى أهل الكتاب أى أهل التوراة والانجيل فانهم سيخبرونك انه لم يرد فى دين أحد من الانبياء عبادة الاصنام واذا كان هذا الامر متفقا عليه بين كل الانبياء والرسل وجب أن لا يجعلوه سببا لبغض محمد صلى الله عليه وسلم (والقول الثانى) قال عطاء عن ابن عباس لما أسرى به صلى الله عليه وسلم الى المسجد الاقصى بعث الله له آدم وجميع المرسلين من ولده فأذن جبريل ثم أقام فقال يا محمد تقدم فصل بهم فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة قال له جبريل عليه

بيان غايته حيث قيل (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) فان بيان غاية الشئ وحكمته لاسيما عند كونها غاية جيدة مستتبعة لمنافع جليلة فى وقت شدة الحاجة اليها مما يقرر وجود الشئ ويؤكده لا محالة ولقد كانت قريش (٣٠٣) أضل الناس وأحوجهم الى الهداية بارسال الرسول وتنزيل الكتاب حيث لم يبعث اليهم من رسول قبله عليه الصلاة والسلام أى ما أتاهم من نذير من قبل انذارك أو من قبل زمانك والترجى معتبر من جهته عليه الصلاة والسلام أى لتنذرهم راجيا لاهتدائهم أو لرجاء اهتدائهم واعلم أن ما ذكر من التأييد انما يتسنى على ما ذكر من كون تنزيل الكتاب مبتدأ وأما على سائر الوجوه فلا تأييد أصلا لان قوله تعالى من رب العالمين خبر رابع على الوجه الاول وخبر ثالث على الوجهين الاخيرين وأياما كان فكونه من رب العالمين حكم مقصود الافادة لا قيد لحكم آخر فتدبر (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) مر بيانه فيما سلف (ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع) أى ما لكم اذا جاوزتم رضاه تعالى أحد ينصركم ويشفع لكم ويجيركم من بأسه أى ما لكم سواه ولى ولا شفيع بل هو الذى يتولى مصالحكم وينصركم فى مواطن النصر على أن الشفيع عبارة عن الناصر مجازا فاذا خذلكم لم يبق لكم ولى ولا نصير (أفلا تتذكرون) أى ألا تسمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها أو أتسمعونها فلا تتذكرون بها فالانكار على الاول متوجه الى عدم السماع وعدم التذكر معا وعلى الثانى على عدم التذكر مع تحقق ما يوجبه من السماع (يدبر الامر من السماء الى الارض) قيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة آثارها وأحكامها الى الارض (ثم يعرج اليه) أى يثبت فى علمه موجودا بالفعل (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أى فى برهة من الزمان متطاولة والمراد بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل يدبر أمر الحوادث اليومية باثباتها

فى اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة ثم تعرج اليه فى زمان هو كالف سنة مما تعدون فان مابين السماء والارض مسيرة خمسمائة عام وقيل يقضى
قضاء ألف سنة فينزل به الملك ثم يعرج بعد الالف لالف آخر وقيل يدبر أمر الدنيا جميعا الى قيام الساعة ثم يعرج

السلام واسأل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا الآية فقال صلى الله عليه وسلم لا أسأل لانى لست شاكا فيه (والقول الثالث) ان ذكر السؤال فى موضع لا يمكن السؤال فيه يكون المراد منه النظر والاستدلال كقول من قال سل الارض من شق انهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك فانها ان لم تجبك جوابا اجابتك اعتبارا فههنا سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عن الانبياء الذين كانوا قبله ممتنع فكان المراد منه انظر فى هذه المسئلة بعقلك وتدبر فيها بفهمك والله أعلم * قوله تعالى (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه فقال انى رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا اذاهم منها يضحكون وما نريهم من آية الاهى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب اذاهم ينكثون ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن المقصود من اعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون فى هذا المقام تقرير الكلام الذى تقدم وذلك لان كفار قريش طعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كونه فقيرا عديم المال والجاه فبين الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد ان أورد المعجزات القاهرة الباهرة التى لا يشك فى صحتها عاقل أورد فرعون عليه هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال انى غنى كثير المال والجاه ألا ترون انه حصل لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى وأما موسى فانه فقير مهين وليس له بيان ولسان والرجل الفقير كيف يكون رسولا من عند الله الى الملك الكبير الغنى فثبت ان هذه الشبهة التى ذكرها كفار مكة وهى قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قد أوردها بعينها فرعون على موسى ثم انا انتقمنا منهم فأغرقناهم والمقصود من ايراد هذه القصة تقرير أمرين (أحدهما) ان الكفار والجهال أبدا يحتجون على الانبياء بهذه الشبهة الركيكة فلا يبالى بها ولا يلتفت اليها (والثانى) ان فرعون على غاية كمال حاله فى الدنيا صار مقهورا باطلا فيكون الامر فى حق أعدائك هكذا فثبت انه ليس المقصود من اعادة هذه القصة عين هذه القصة بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة وعلى هذا فلا يكون هذا تقريرا للقصة البتة وهذا من نفائس الابحاث والله أعلم (المسئلة الثانية) فى تفسير الالفاظ ذكر تعالى انه أرسل موسى بآياته وهى المعجزات التى كانت مع موسى عليه السلام الى فرعون وملئه أى قومه فقال موسى انى رسول رب العالمين فلما جاءهم بتلك الآيات اذاهم منها يضحكون قيل انه لما ألقى عصاه صار ثعبانا ثم أخذه فعاد عصا كما كان ضحكوا ولما عرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت ضحكوا فان قيل كيف جاز ان يجاب عن لما باذا الذى يفيد المفاجأة قلنا لان فعل المفاجأة معها مقدر كأنه قيل فلما جاءهم بآياتنا فاجأوا وقت ضحكهم ثم قال وما نريهم من آية الاهى أكبر من أختها فان قيل ظاهر هذا اللفظ يقتضى كون كل واحد منها أفضل من الثانى وذلك محال قلنا اذا أريد المبالغة فى كون كل واحد من تلك الاشياء بالغا الى أقصى الدرجات فى الفضيلة فقد يذكر هذا الكلام بمعنى انه لا يبعد فى أناس ينظرون اليها أن يقول هذا ان هذا أفضل من الثانى وأن يقول الثانى لا بل الثانى أفضل وان يقول الثالث لا بل الثالث أفضل وحينئذ يصير كل واحد من تلك الاشياء مقولا فيه انه أفضل من غيره ثم قال تعالى وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون أى عن الكفر الى الايمان قالت المعتزلة هذا يدل على انه تعالى يريد الايمان من الكل وانه انما أظهر تلك المعجزات القاهرة لارادة ان يرجعوا من الكفر الى الايمان قال المفسرون ومعنى قوله وأخذناهم بالعذاب أى بالاشياء التى سلطها عليهم كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس ثم قال تعالى وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك

اليه الامر كله عند قيامها وقيل يدبر المأمور به من الطاعات منزلا من السماء الى الارض بالوحى ثم لا يعرج اليه خالصا الا فى مدة متطاولة لقلة المخلصين والاعمال الخلص وأنت خبير بأن قلة الاعمال الخالصة لا تقتضى بطء عروجها الى السماء بل قلته وقرئ يعدون بالياء (ذلك) اشارة الى الله عزوجل باعتبار اتصافه بما ذكر من خلق السموات والارض والاستواء على العرش وانحصار الولاية والنصرة فيه وتدبير أمر الكائنات على ماذكر من الوجه البديع وهو مبتدأ خبره ما بعده أى ذلك العظيم الشأن (عالم الغيب والشهادة) فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة (العزيز) الغالب على أمره (الرحيم) على عباده وهما خبران آخران وفيه ايماء الى أنه تعالى متفضل فى جميع ماذكر فاعل بالاحسان (الذى أحسن كل شئ خلقه) خبر آخر أو نصب على المدح أى حسن كل مخلوق خلقه اذ ما من مخلوق خلقه الا وهو مرتب على ما تقتضيه الحكمة وأوجبته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وان تفاوتت الى حسن وأحسن كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء ما يحسن أى يحسن معرفته أى يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وايقان وقرئ خلقه على أنه بدل اشتمال من كل شئ والضمير للمبدل منه أى حسن خلق كل شئ وقيل بدل الكل على أن الضمير لله تعالى والخلق بمعنى المخلوق أى حسن كل مخلوقاته وقيل هو مفعول ثان لاحسن على تضمينه معنى أعطى أى أعطى كل شئ خلقه اللائق به بطريق الاحسان والتفضل وقيل هو مفعوله الاول وكل شئ مفعوله الثانى والخلق بمعنى المخلوق وضميره لله سبحانه على تضمين الاحسان

اننا

معنى الالهام والتعريف والمعنى ألهم خلقه كل شئ مما يحتاجون اليه وقال أبو البقاء عرف مخلوقاته كل شئ يحتاجون اليه فيؤول الى معنى قوله تعالى الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى (وبدأ خلق الانسان) من بين جميع المخلوقات (من طين) على وجه بديع تحار العقول فى فهمه حيث برأ آدم عليه السلام على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لخروج كل فرد منها من القوة الى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة قربا وبعدا كما ينبئ عنه قوله تعالى (ثم جعل نسله) الخ أى ذريته سميت بذلك لانها تنسل وتنفصل منه (من سلالة من ماء مهين) هو المنى الممتهن (ثم سواه) أى عدله بتكميل أعضائه فى الرحم وتصويرها على ما ينبغى (ونفخ فيه من روحه) أضافه اليه تعالى تشريفا له وايذانا بأنه خلق عجيب وصنع بديع وأن له شأنا له مناسبة الى حضرة الربوبية وأن أقصى ما تنتهى اليه العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذى يعبر عنه تارة بالاضافة اليه تعالى وأخرى بالنسبة الى أمره تعالى كما فى قوله تعالى قل الروح من أمر ربى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) الجعل ابداعى واللام متعلقة به والتقديم على المفعول الصريح لما مر مرات من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم أى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا أنها مع كونها فى أنفسها نعما جليلة لا يقادر قدرها وسائل الى التمتع بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروها بان تصرفوا كلا منها الى ما خلق هو له فتدركوا بسمعكم الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بأفئدتكم على حقيتهما وقوله تعالى (قليلا ما تشكرون) بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلي على أن القلة بمعنى النفى كما ينبئ عنه ما بعده أى شكرا قليلا أو زمانا قليلا تشكرون وفى حكاية

اننا لمهتدون فان قيل كيف سموه بالساحر مع قولهم اننا لمهتدون قلنا فيه وجوه (الاول) انهم كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لانهم كانوا يستعظمون السحر وكما يقال فى زماننا فى العامل العجيب الكامل انه أتى بالسحر (الثانى) يا أيها الساحر فى زعم الناس ومتعارف قوم فرعون كقوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون أى نزل عليه الذكر فى اعتقاده وزعمه (الثالث) ان قولهم اننا لمهتدون وقد كانوا عازمين على خلافه ألا ترى الى قوله فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون فتسميتهم اياه بالساحر لا ينافى قولهم اننا لمهتدون ثم بين تعالى انه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ذلك العهد ولما حكى الله تعالى معاملة قوم فرعون مع موسى حكى أيضا معاملة فرعون معه فقال ونادى فرعون فى قومه والمعنى انه أظهر هذا القول فقال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى يعنى الانهار التى فصلوها من النيل ومعظمها أربعة نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس قيل كانت تجرى تحت قصره وحاصل الامر انه احتج بكثرة أمواله وقوة جاهه على فضيلة نفسه ثم قال أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين وعنى بكونه مهينا كونه فقيرا ضعيف الحال وبقوله ولا يكاد يبين حبسة كانت فى لسانه واختلفوا فى معنى أم ههنا فقال أبو عبيدة مجازها بل أنا خير وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله أفلا تبصرون ثم ابتدأ فقال أم أنا خير بمعنى بل أنا خير وقال الباقون أم هذه متصلة لان المعنى أفلا تبصرون أم تبصرون الا انه وضع قوله أنا خير موضع تبصرون لانهم اذا قالوا له أنت خير فهم عنده بصراء وقال آخرون ان تمام الكلام عند قوله أم وقوله أنا خير ابتداء الكلام والتقدير أفلا تبصرون أم تبصرون لكنه اكتفى فيه بذكر أم كما تقول لغيرك أتأكل أم أى أتأكل أم لا تأكل تقتصر على ذكر كلمة أم ايثارا للاختصار فكذا ههنا فان قيل أليس أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى أن يزيل الرتة عن لسانه بقوله واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى فأعطاه الله تعالى ذلك بقوله قد أوتيت سؤلك يا موسى فكيف عابه فرعون بتلك الرتة (والجواب) عنه من وجهين (الاول) ان فرعون أراد بقوله ولا يكاد يبين حجته التى تدل على صدقه فيما يدعى ولم يرد انه لا قدرة له على الكلام (والثانى) انه عابه بما كان عليه أولا وذلك أن موسى كان عند فرعون زمانا طويلا وفى لسانه حبسة فنسبه فرعون الى ما عهده عليه من الرتة لانه لم يعلم ان الله تعالى أزال ذلك العيب عنه ثم قال فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب والمراد ان عادة القوم جرت بانهم اذا جعلوا واحدا منهم رئيسا لهم سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب فطالب فرعون من موسى مثل هذه الحالة واختلف القراء فى اسورة فبعضهم قرأ اسورة وآخرون أساورة فاسورة جمع سوار لادنى العدد كقولك حمار وأحمرة وغراب وأغربة ومن قرأ أساورة فذلك لان أساور جمع اسوار وهو السوار فاساورة تكون الهاء عوضا عن الياء نحو بطريق وبطارقة وزنديق وزنادقة وفرزين وفرازنة فتكون أساورة جمع اسوار وحاصل الكلام يرجع الى حرف واحد وهو ان فرعون كان يقول أنا أكثر مالا وجاها فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع كونه رسولا من الله لان منصب النبوة يقتضى المخدومية والاخس لا يكون مخدوما للاشرف ثم المقدمة الفاسدة هى قوله من كان أكثر مالا وجاها فهو أفضل وهى عين المقدمة التى تمسك بها كفار قريش فى قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ثم قال أو جاء معه الملائكة مقترنين يجوز أن يكون المراد مقرنين به من قولك قرنته به فاقترن وان يكون من قولهم اقترنوا بمعنى تقارنوا قال الزجاج معناه يمشون معه فيدلون على صحة نبوته ثم قال تعالى فاستخف قومه فاطاعوه أى طلب منهم الخفة فى الاتيان بما كان يأمرهم به فاطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين حيث أطاعوا ذلك الجاهل الفاسق فلما آسفونا أغضبونا حكى أن ابن جريج غضب فى شئ فقيل له أتغضب يا أبا خالد فقال قد غضب الذى خلق الاحلام ان الله يقول فلما آسفونا أى أغضبونا ثم قال تعالى انتقمنا منهم واعلم ان ذكر لفظ الاسف فى حق الله تعالى محال وذكر لفظ الانتقام وكل واحد منهما من المتشابهات التى يجب أن يصار فيها

أحوال الانسان من مبدا فطرته الى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكاية أحواله بعد ذلك بطريق الخطاب المنبئ عن استعداده للفهم وصلاحيته له من الجزالة ما لاغاية وراءه (وقالوا) كلام مستأنف (٣٠٦) مسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات ايذانا بان ما ذكر من عدم شكرهم بتلك النعم موجب للاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة (أئذا ضللنا في الارض) أي صرنا ترابا مخلوطا بترابها بحيث لا نتميز منه أو غبنا فيها بالدفن وقرئ ضللنا بكسر اللام من باب علم وصللنا بالصاد المهملة من صل اللحم اذا أنتن وقيل من الصلة وهي الارض أي صرنا من جنس الصلة قيل القائل أبي بن خلف ولرضاهم بقوله أسند القول الى الكل والعامل في اذا مايدل عليه قوله تعالى (ائنا لفي خلق جديد) وهو نبعث أو يجدد خلقنا والهمزة لتذكير الانكار السابق وتأكيده وقرئ انا على الخبر وأيا ما كان فالمعنى على تأكيد الانكار لا انكار التأكيد كما هو المتبادر من تقدم الهمزة على ان فانها مؤخرة عنها في الاعتبار وانما تقدمها عليها لاقتضائها الصدارة (بل هم بلقاء ربهم كافرون) اضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث الى بيان ما هو أبلغ وأشنع منه وهو كفرهم بالوصول الى العاقبة وما يلقونه فيها من الاحوال والاهوال جميعا (قل) بيانا للحق وردا على زعمهم الباطل (يتوفاكم ملك الموت) لا كما تزعمون أن الموت من الاحوال الطبيعية العارضة للحيوان بموجب الجبلة أي يقبض أرواحكم بحيث لا يدع فيكم شيأ أو لا يترك منكم أحدا على أشد ما يكون من الوجوه وأقطعها من ضرب وجوهكم وأدباركم (الذي وكل بكم) أي بقبض أرواحكم واحصاء آجالكم (ثم الى ربكم ترجعون) بالبعث للحساب والجزاء (ولو ترى اذ المجرمون) وهم القائلون أئذا ضللنا في الارض الآية أو جنس المجرمين وهم من جملتهم (ناكسو رؤسهم عند ربهم) بل من الحياء والخزي عند ظهور قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا (ربنا) أي يقولون ربنا (أبصرنا وسمعنا) أي صرنا ممن يبصر ويسمع وحصل لنا

الى التأويل ومعنى الغضب في حق الله ارادة العقاب ومعنى الانتقام ارادة العقاب لجرم سابق ثم قال تعالى فجعلناهم سلفا ومثلا السلف كل شئ قدمته من عمل صالح أو قرض فهو سلف والسلف أيضا من تقدم من آبائك وأقاربك واحدهم سالف ومنه قول طفيل يرثي قومه

مضوا سلفا قصد السبيل عليهم * وصرف المنايا بالرجال تقلب

فعلى هذا قال الفراء والزجاج يقول جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون أي جعلناهم سلفا لكفار أمة محمد عليه السلام وأكثر القراء قرؤا بالفتح وهو جمع سالف كما ذكرناه وقرأ حمزة والكسائي سلفا بالضم وهو جمع سلف قال الليث يقال سلف بضم اللام يسلف سلوفا فهو سلف أي متقدم وقوله ومثلا للآخرين يريد عظة لمن بقي بعدهم وآية وعبرة قال أبو علي الفارسي المثل واحد يراد به الجمع ومن ثم عطف على سلف والدليل على وقوعه على أكثر من واحد قوله تعالى ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شئ ومن رزقناه فادخل تحت المثل شيئين والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ان هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني اسرائيل ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى ذكر أنواعا كثيرة من كفرياتهم في هذه السورة وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة (فأولها) قوله تعالى وجعلوا له من عباده جزأ (وثانيها) قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا (وثالثها) قوله وقالوا لو شاء الرحمن ماعبدناهم (ورابعها) قوله وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (وخامسها) هذه الآية التي نحن الآن في تفسيرها ولفظ الآية لا يدل الا على انه لما ضرب ابن مريم مثلا أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم فاما ان ذلك المثل كيف كان وفي أي شئ كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوها كلها محتملة (فالاول) ان الكفار لما سمعوا ان النصارى يعبدون عيسى قالوا اذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى وانما قالوا ذلك لانهم كانوا يعبدون الملائكة (الثاني) روى انه لما نزل قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم قال عبد الله بن الزبعرى هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الامم فقال صلى الله عليه وسلم بل لجميع الامم فقال خصمتك ورب الكعبة ألست تزعم ان عيسى بن مريم نبي وتثني عليه خيرا وعلى أمه وقد علمت ان النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيرا والملائكة يعبدون فاذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم فسكت النبي صلى الله عليه وسلم وفرح القوم وضحكوا وضجوا فأنزل الله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ونزلت هذه الآية أيضا والمعنى ولما ضرب عبد الله ابن الزبعرى عيسى بن مريم مثلا وجادل رسول الله بعبادة النصارى اياه اذا قومك قريش منه أي من هذا المثل يصدون أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحا وجدلا وضحكا بسبب ما رأوا من اسكات رسول الله فانه قد جرت العادة بان أحد الخصمين اذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج وقالوا أآلهتنا خير أم هو يعنون أن آلهتنا عندك ليست خيرا من عيسى فاذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون (الوجه الثالث في التأويل) وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه الها لانفسهم قال كفار مكة ان محمدا يريد أن يجعل لنا الها كما جعل النصارى المسيح الها لانفسهم ثم عند هذا قالوا أآلهتنا خير أم هو يعني أآلهتنا خير أم محمد وذكروا ذلك لاجل انهم قالوا ان محمدا يدعونا الى عبادة نفسه وآباؤنا زعموا انه يجب عبادة هذه الاصنام واذا كان لابد من أحد هذين الامرين فعبادة هذه الاصنام أولى لان آباءنا واسلافنا كانوا متطابقين عليه وأما محمد فانه متهم في أمرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الاصنام أولى ثم انه تعالى بين انا لم نقل ان الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن

الاستعداد لادراك الآيات المبصرة والآيات المسموعة وكنا من قبل عميا وصما لا ندرك شيأ (فارجعنا) الى الدنيا (نعمل) عملا (صالحا) حسبما تقتضيه تلك الآيات وقوله تعالى (انا موقنون) ادعاء منهم لصحة الافئدة والاقتدار على فهم (٣٠٧) معانى الآيات والعمل بموجبها كما أن ماقبله

بل هو كلام باطل فان عيسى ليس الا عبدا أنعمنا عليه فاذا كان الامر كذلك فقد زالت شبهتهم فى قولهم ان محمدا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية (المسئلة الثانية) قرأ نافع وابن عامر والكسائى وأبو بكر عن عاصم يصدون بضم الصاد وهو قراءة على بن أبى طالب عليه السلام والباقون بكسر الصاد وهى قراءة ابن عباس واختلفوا فقال الكسائى هما بمعنى نحو يعرشون ويعرشون ويعكفون ويعكفون ومنهم من فرق أما القراءة بالضم فمن الصدود أى من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه وأما بالكسر فمعناه يضجون (المسئلة الثالثة) قرأ عاصم وحمزة والكسائى أآلهتنا استفهاما بهمزتين الثانية مطولة والباقون استفهاما بهمزة ومدة ثم قال تعالى ماضربوه لك الا جدلا أى ماضربوا لك هذا المثل الا لاجل الجدل والغلبة فى القول لا لطلب الفرق بين الحق والباطل بل هم قوم خصمون مبالغون فى الخصومة وذلك لان قوله انكم وما تعبدون من دون الله لا يتناول الملائكة وعيسى وبيانه من وجوه (الاول) ان كلمة ما لا تتناول العقلاء البتة (والثانى) أن كلمة ما ليست صريحة فى الاستغراق بدليل انه يصح ادخال لفظتى الكل والبعض عليه فيقال انكم وكل ما تعبدون من دون الله انكم وبعض ما تعبدون من دون الله (الثالث) ان قوله انكم وكل ما تعبدون من دون الله أو وبعض ما تعبدون خطاب مشافهة فلعله ما كان فيهم أحد يعبد المسيح والملائكة (الرابع) أن قوله انكم وما تعبدون من دون الله هب انه عام الا ان النصوص الدالة على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه والخاص مقدم على العام (المسئلة الرابعة) القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية الا انا قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا ان الآيات الكثيرة دالة على ان الجدل موجب للمدح والثناء وطريق التوفيق ان تصرف تلك الآيات الى الجدل الذى يفيد تقرير الحق وان تصرف هذه الآية الى الجدل الذى يوجب تقرير الباطل ثم قال تعالى ان هو الا عبد أنعمنا عليه يعنى ما عيسى الا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه حيث جعلناه آية بان خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر ولو نشاء لجعلنا منكم لولدنا منكم يارجال ملائكة يخلفونكم فى الارض كما يخلفكم أولادكم كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ولتعرفوا أن دخول التوليد والتولد فى الملائكة أمر ممكن وذات الله متعالية عن ذلك وان عيسى لعلم للساعة أى شرط من أشراطها تعلم به فسمى الشرط الدال على الشئ علما لحصول العلم به وقرأ ابن عباس لعلم وهو العلامة وقرئ للعلم وقرأ أبى لذكر وفى الحديث ان عيسى ينزل على ثنية فى الارض المقدسة يقال لها أفيق وبيده حربة وبها يقتل الدجال فيأتى بيت المقدس والناس فى صلاة الصبح والامام يؤم بهم فيتأخر الامام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ويخرب البيع والكنائس ويقتل النصارى الا من آمن به فلا تمترن بها من المرية وهو الشك واتبعون واتبعوا هداى وشرعى هذا صراط مستقيم أى هذا الذى أدعوكم اليه صراط مستقيم ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين قد بانت عداوته لكم لاجل انه هو الذى أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور ۞ قوله تعالى (ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ان الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم هل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) اعلم انه تعالى ذكر انه لما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات قال قد جئتكم بالحكمة وهى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه يعنى ان قوم موسى كانوا قد اختلفوا فى أشياء من أحكام التكاليف واتفقوا على أشياء فجاء عيسى ليبين لهم الحق فى تلك المسائل الخلافية وبالجملة فالحكمة معناها أصول الدين وبعض الذى يختلفون فيه معناه

ادعاء لصحة مشعرى البصر والسمع كانهم قالوا أيقنا وكنا من قبل لا نعقل شيأ أصلا وانما عدلوا فى الجملة الاسمية المؤكدة اظهارا لثباتهم على الايقان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك للجد فى الاستدعاء طمعا فى الاجابة الى ماسألوه من الرجعة وأبى لهم ذلك ويجوز ان يقدر لكل من الفعلين مفعول مناسب له مما يبصرونه ويسمعونه فانهم حينئذ يشاهدون الكفر والمعاصى على صورة منكرة هائلة ويخبرهم الملائكة بأن مصيرهم الى النار لا محالة فالمعنى أبصرنا قبح أعمالنا وكنا نراها فى الدنيا حسنة وسمعنا ان مردنا الى النار وهو الانسب لما بعده من الوعد بالعمل الصالح هذا وقد قيل المعنى وسمعنا منك تصديق رسلك وأنت خبير بأن تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون باظهار مدلول ما أخبروا به من الوعد والوعيد لا بالاخبار بانهم صادقون حتى يسمعوه وقيل وسمعنا قول الرسل أى سمعناه سمع طاعة واذعان ولا يقدر لترى مفعول اذ المعنى لو تكون منك رؤية فى ذلك الوقت أو يقدر ما ينبئ عنه صلة اذ والمضى فيها وفى لو باعتبار أن الثابت فى علم الله تعالى بمنزلة الواقع وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا فظيعا لا يقادر قدره والخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائنا من كان اذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة الى حيث لا يختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الامور البديعة والدواهى الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها هذا ومن علل عموم الخطاب بالقصد الى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهور الى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا تختص رؤية راء دون راء بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل فى هذا الخطاب فقد نأى عن تحقيق

الحق لان المقصود بيان كمال فظاعة حالهم كما يفصح عنه الجواب المحذوف لا بيان كمال ظهورها فانه مسوق مساق المسلمات فتدبر (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) مقدر بقول معطوف (٣٠٨) على ما قدر قبل قوله تعالى ربنا أبصرنا الخ أى ونقول لو شئنا أى لو تعلقت مشيئتنا تعلقا فعليا بان نعطى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما تهتدى به الى الايمان والعمل الصالح لاعطيناها اياه فى الدنيا التى هى دار الكسب وما أخرناه الى دار الجزاء (ولكن حق القول منى) أى سبقت كلمتى حيث قلت لابليس عند قوله لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وهو المعنى بقوله تعالى (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فبموجب ذلك القول لم نشأ اعطاء الهدى على العموم بل منعناه من اتباع ابليس الذين أنتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم الى الغى باغوائه ومشيئتنا لافعال العباد منوطة باختيارهم اياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلالة لم نشأ اعطاءه لكم وانما أعطيناه الذين اختاروه من النفوس البرة وهم المعنيون بما سيأتى من قوله تعالى انما يؤمن بآياتنا الآية فيكون مناط عدم مشيئة اعطاء الهدى فى الحقيقة سوء اختيارهم لا تحقق القول وانما قيدنا المشيئة بما مر من التعلق الفعلى بافعال العباد عند حدوثها لان المشيئة الازلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم اجمالا متقدمة على تحقق كلمة العذاب فلا يكون عدمها منوطا بتحققها وانما مناطه علمه تعالى ازلا بصرف اختيارهم فيما سيأتى الى الغى وايثارهم له على الهدى فلو أريدت هى من تلك الحيثية لاستدرك بعدمها ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم فمن توهم أن المعنى ولو شئنا لاعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذى لو كان منهم اختياره لاهتدوا ولكن لم نعطهم لما علمنا منهم اختيار الكفر وايثاره فقد اشتبه عليه الشؤون والفاء فى قوله تعالى (فذوقوا)

فروع الدين فان قيل لم لم يبين لهم كل الذى يختلفون فيه قلنا لان الناس قد يختلفون فى أشياء لا حاجة بهم الى معرفتها فلا يجب على الرسول بيانها ولما بين الاصول والفروع قال فاتقوا الله بالكفر به والاعراض عن دينه وأطيعون فيما أبلغه اليكم من التكاليف ان الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم والمعنى ظاهر فاختلف الاحزاب أى الفرق المتحزبة بعد عيسى وهم الملكانية واليعقوبية والنسطورية وقيل اليهود والنصارى فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم وهو وعيد بيوم الاحزاب فان قيل قوله من بينهم الضمير فيه الى من يرجع قلنا الى الذين خاطبهم عيسى فى قوله قد جئتكم بالحكمة وهم قومه ثم قال هل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقوله أن تأتيهم بدل من الساعة والمعنى هل ينظرون الا اتيان الساعة فان قالوا قوله بغتة يفيد عين ما يفيده قوله وهم لا يشعرون فما الفائدة فيه قلنا يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب انهم يشاهدونه ۞ قوله تعالى (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون) اعلم انه تعالى لما قال هل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة ذكر عقيبه بعض ما يتعلق بأحوال القيامة (فأولها) قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين والمعنى الاخلاء فى الدنيا يومئذ يعنى فى الآخرة بعضهم لبعض عدو يعنى ان الخلة اذا كانت على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة الا المتقين يعنى الموحدين الذين يخالل بعضهم بعضا على الايمان والتقوى فان خلتهم لا تصير عداوة وللحكماء فى تفسير هذه الآية طريق حسن قالوا ان المحبة أمر لا يحصل الا عند اعتقاد حصول خير أو دفع ضرر فمتى حصل هذا الاعتقاد حصلت المحبة لا محالة ومتى حصل اعتقاد انه يوجب ضررا حصل البغض والنفرة اذا عرفت هذا فنقول تلك الخيرات التى كان اعتقاد حصولها يوجب حصول المحبة اما أن تكون قابلة للتغير والتبدل أو لا تكون كذلك فان كان الواقع هو القسم الاول وجب أن تتبدل تلك المحبة بالنفرة لان تلك المحبة انما حصلت لاعتقاد حصول الخير والراحة فاذا زال ذلك الاعتقاد وحصل عقيبه اعتقاد أن الحاصل هو الضرر والالم وجب أن تتبدل تلك المحبة بالبغضة لان تبدل العلة يوجب تبدل المعلول أما اذا كانت الخيرات الموجبة للمحبة خيرات باقية أبدية غير قابلة للتبدل والتغير كانت تلك المحبة أيضا محبة باقية آمنة من التغير اذا عرفت هذا الاصل فنقول الذين حصلت بينهم محبة ومودة فى الدنيا ان كانت تلك المحبة لاجل طلب الدنيا وطيباتها ولذاتها فهذه المطالب لا تبقى فى القيامة بل يصير طلب الدنيا سببا لحصول الآلام والآفات فى يوم القيامة فلا جرم تنقلب هذه المحبة الدنيوية بغضة ونفرة فى القيامة أما ان كان الموجب لحصول المحبة فى الدنيا الاشتراك فى محبة الله وفى خدمته وطاعته فهذا السبب غير قابل للنسخ والتغير فلا جرم كانت هذه المحبة باقية فى القيامة بل كأنها تصير أقوى وأصفى وأكمل وأفضل مما كانت فى الدنيا فهذا هو التفسير المطابق لقوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين (الحكم الثانى) من أحكام يوم القيامة قوله تعالى يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون وقد ذكرنا مرارا ان عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين فقوله يا عبادى كلام الله تعالى فكان الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح (أولها) ان الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة (وثانيها) انه تعالى وصفهم بالعبودية وهذا تشريف عظيم بدليل انه لما أراد أن يشرف محمدا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج قال سبحان الذى أسرى بعبده (وثالثها) قوله لا خوف عليكم اليوم فازال عنهم الخوف فى يوم القيامة بالكلية وهذا من أعظم النعم (ورابعها) قوله ولا أنتم تحزنون فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية ثم قال تعالى الذين

آمنوا

آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين قيل الذين آمنوا مبتدأ وخبره مضمر والتقدير يقال لهم ادخلوا الجنة ويحتمل أن يكون المعنى أعنى الذين آمنوا قال مقاتل اذا وقع الخوف يوم القيامة نادى مناديا عبادى لاخوف عليكم اليوم فاذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤسهم فيقال الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فتنكس أهل الاديان الباطلة رؤسهم (الحكم الثالث) من وقائع القيامة انه تعالى اذا أمن المؤمنين من الخوف والحزن وجب ان يمر حسابهم على أسهل الوجوه وعلى أحسنها ثم يقال لهم ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون والحبرة المبالغة فى الاكرام فيما وصف بالجميل يعنى يكرمون اكراما على سبيل المبالغة وهذا مما سبق تفسيره فى سورة الروم ثم قال يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب قال الفراء الكوب المستدير الرأس الذى لا اذن له فقوله يطاف عليهم بصحاف من ذهب اشارة الى المطعوم وقوله وأكواب اشارة الى المشروب ثم انه تعالى ترك التفصيل وذكر بيانا كليا فقال وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وأنتم فيها خالدون ثم قال وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون وقد ذكرنا فى وراثة الجنة وجهين فى تفسير قوله أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ولما ذكر الطعام والشراب فيما تقدم ذكر ههنا حال الفاكهة فقال لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون واعلم انه تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى العرب أولا ثم الى العالمين ثانيا والعرب كانوا فى ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة فلهذا السبب تفضل الله تعالى عليهم بهذه المعانى مرة بعد أخرى تكميلا لرغباتهم وتقوية لدواعيهم ۞ قوله تعالى (ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون أم أبرموا أمرا فانا مبرمون أم يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون) اعلم انه تعالى لما ذكر الوعد أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر فى القرآن وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج القاضى على القطع بوعيد الفساق بقوله ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ولفظ المجرم يتناول الكافر والفاسق فوجب كون الكل فى عذاب جهنم وقوله خالدون يدل على الخلود وقوله أيضا لا يفتر عنهم يدل على الخلود والدوام أيضا (والجواب) ان ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على ان المراد من لفظ المجرمين ههنا الكفار أما ما قبل هذه الآية فلانه قال يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين فهذا يدل على أن كل من آمن بآيات الله وكانوا مسلمين فانهم يدخلون تحت قوله يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين والفاسق من أهل الصلاة آمن بالله تعالى وبآياته وأسلم فوجب أن يكون داخلا تحت ذلك الوعد ووجب أن يكون خارجا عن هذا الوعيد وأما ما بعد هذه الآية فهو قوله لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون والمراد بالحق ههنا اما الاسلام واما القرآن والرجل المسلم لا يكره الاسلام ولا القرآن فثبت ان ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على أن المراد من المجرمين الكفار والله أعلم (المسئلة الثانية) انه تعالى وصف عذاب جهنم فى حق المجرمين بصفات ثلاثة (أحدها) الخلود وقد ذكرنا فى مواضع كثيرة انه عبارة عن طول المكث ولا يفيد الدوام (وثانيها) قوله لا يفتر عنهم أى لا يخفف ولا ينقص من قولهم فترت عنه الحمى اذا سكنت ونقص حرها (وثالثها) قوله وهم فيه مبلسون والمبلس اليائس الساكت سكوت يائس من فرج عن الضحاك يجعل المجرم فى تابوت من نار ثم يقفل عليه فيبقى فيه خالدا لا يرى ولا يرى قال صاحب الكشاف وقرئ وهم فيها أى وهم فى النار (المسئلة الثالثة) احتج القاضى بقوله تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين فقال ان كان خلق فيهم الكفر ليدخلهم النار فما الذى نفاه بقوله وما ظلمناهم وما الذى نسبه اليهم مما نفاه عن نفسه أوليس لو أثبتناه ظلما لهم كان لا يزيد على ما يقوله القوم فان قالوا ان ذلك الفعل لم يقع بقدرة الله عز وجل فقط بل انما وقع بقدرة الله مع قدرة العبد معا

لترتيب الامر بالذوق على ما يعرب عنه ما قبله من نفى الرجع الى الدنيا أو على الوعيد المحكى والباء فى قوله تعالى (بما نسيتم لقاء يومكم هذا) للايذان بان تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد به فقط بل هو وسبق الوعيد أيضا بسبب موجب له من قبلهم كأنه قيل لا رجع لكم الى الدنيا أو حق وعيدى فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وترككم التفكر فيه والاستعداد له بالكلية (انا نسيناكم) أى تركناكم فى العذاب ترك المنسى بالمرة وقوله تعالى (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) تكرير للتأكيد والتشديد وتعيين المفعول المطوى للذوق والاشعار بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا وعدم نظم الكل فى سلك واحد للتنبيه على استقلال كل منها فى استيجاب العذاب وفى ابهام المذوق أولا وبيانه ثانيا بتكرير الامر وتوسيط الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما من الدلالة على غاية التشديد فى الانتقام منهم ما لا يخفى وقوله تعالى (انما يؤمن بآياتنا) استئناف مسوق لتقرير عدم استحقاقهم لايتاء الهدى والاشعار بعدم ايمانهم لو أوتوه بتعيين من يستحقه بطريق القصر كأنه قيل انكم لا تؤمنون بآياتنا ولا تعملون بموجبها عملا صالحا ولو رجعناكم الى الدنيا كما تدعون حسبما ينطق به قوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانما يؤمن بها (الذين اذا ذكروا بها) أى وعظوا (خروا سجدا) أثر ذى أثير من غير تردد ولا تلعثم فضلا عن التسويف الى معاينة ما نطقت به من الوعد والوعيد أى سقطوا على وجوههم (وسبحوا بحمد ربهم) أى ونزهوه عند ذلك عن كل ما لا يليق به من الامور التى من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التى أجلها الهداية بايتاء الآيات والتوفيق للاهتداء بها والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الاضافة الى ضميرهم للاشعار بعلة التسبيح والتحميد وبانهم يفعلونهما بملاحظة ربوبيته تعالى لهم (وهم لا يستكبرون) أى

فلم يكن ذلك ظلما من الله قلنا عندكم ان القدرة على الظلم موجبة للظلم وخالق تلك القدرة هو الله تعالى فكأنه تعالى لما فعل مع خلق الكفر قدرة على الكفر خرج عن أن يكون ظالما لهم وذلك محال لان من يكون ظالما فى فعل فاذا فعل معه ما يوجب ذلك الفعل يكون بذلك أحق فيقال للقاضى قدرة العبد هل هى صالحة للطرفين أو هى متعينة لاحد الطرفين فان كانت صالحة لكلا الطرفين فالترجيح ان وقع لا لمرجح لزم نفى الصانع وان افتقر الى مرجح عاد التقسيم الاول فيه ولا بد وأن ينتهى الى داعية مرجحة يخلقها الله فى العبد وان كانت متعينة لاحد الطرفين فحينئذ يلزمك ما أوردته علينا واعلم انه ليس الرجل من يرى وجه الاستدلال فيذكره انما الرجل الذى ينظر فيما قبل الكلام وفيما بعده فان رآه واردا على مذهبه بعينه لم يذكره والله أعلم (المسئلة الرابعة) قرأ ابن مسعود يامال بحذف الكاف للترخيم فقيل لابن عباس ان ابن مسعود قرأ ونادوا يامال فقال ما أشغل أهل النار عن هذا الترخيم وأجيب عنه بانه انما حسن هذا الترخيم لانه يدل على انهم بلغوا فى الضعف والنحافة الى حيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة الا بعضها (المسئلة الخامسة) اختلفوا فى ان قولهم يامالك ليقض علينا ربك على أى وجه طلبوه فقال بعضهم على التمنى وقال آخرون على وجه الاستغاثة والا فهم عالمون بانه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب وقيل لا يبعد أن يقال انهم لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا تلك المسئلة فذكروه على وجه الطلب ثم انه تعالى بين ان مالكا يقول لهم انكم ماكثون وليس فى القرآن متى أجابهم هل أجابهم فى الحال أو بعد ذلك بمدة وان كان بعد ذلك فهل حصل ذلك الجواب بعد ذلك السؤال بمدة قليلة أو بمدة طويلة فلا يمتنع أن تؤخر الاجابة استخفافا بهم وزيادة فى غمهم فعن عبد الله بن عمرو بعد أربعين سنة وعن غيره بعد مائة سنة وعن ابن عباس بعد ألف سنة والله أعلم بذلك المقدار ثم بين تعالى ان مالكا لما أجابهم بقوله انكم ماكثون ذكر بعده ما هو كالعلة لذلك الجواب فقال لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن وشدة بغضهم لقبول الدين الحق فان قيل كيف قال ونادوا يامالك بعد ما وصفهم بالابلاس قلنا تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف بهم الاحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم ويستغيثون أوقاتا لشدة ما بهم روى انه يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيقولون ادعوا مالكا فيدعون يامالك ليقض علينا ربك ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم فى الآخرة ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم فى الدنيا فقال أم أبرموا أمرا فانا مبرمون والمعنى أم أبرموا مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم برسول الله فانا مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم كقوله تعالى أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون قال مقاتل نزلت فى تدبيرهم فى المكر به فى دار الندوة وهو ما ذكره الله تعالى فى قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا وقد ذكرنا القصة ثم قال أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره فى مكان خال والنجوى ما تكلموا به فيما بينهم بلى نسمعها ونطلع عليها ورسلنا يريد الحفظة يكتبون عليهم تلك الاحوال وعن يحيى بن معاذ من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذى لا يخفى عليه شئ فى السموات فقد جعله أهون الناظرين اليه وهو من علامات النفاق ﴿قوله تعالى ﴿قل ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين سبحان رب السموات والارض رب العرش عما يصفون فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله وهو الحكيم العليم وتبارك الذى له ملك السموات والارض وما بينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون وقيله يارب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى ولد بضم الواو وإسكان اللام والباقون بفتحهما فانا أول العابدين قرأ نافع فانا بفتحة طويلة على النون والباقون بلا تطويل (المسئلة الثانية) اعلم ان الناس ظنوا ان قوله قل ان كان للرحمن ولد

والحال أنهم خاضعون له تعالى لا يستكبرون عما فعلوا من الخرور والتسبيح والتحميد (تتجافى جنوبهم) أى تتبو وتتنحى (عن المضاجع) أى الفرش ومواضع المنام والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم وهم المتهجدون بالليل قال أنس رضى الله عنه نزلت فينا معاشر الانصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع الى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى عليه الصلاة والسلام وعن أنس أيضا رضى الله عنه انه قال نزلت فى أناس من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام كانوا يصلون من صلاة المغرب الى صلاة العشاء وهى صلاة الاوابين وهو قول أبى حازم ومحمد بن المنكدر وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال عطاء هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة والمشهور أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والاوزاعى وجماعة لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل وعن النبى عليه الصلاة والسلام فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعنه عليه الصلاة والسلام اذا جمع الله الاولين والآخرين جاء مناد ينادى بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعا الى الجنة ثم يحاسب سائر الناس وقوله تعالى (يدعون ربهم) حال من ضمير جنوبهم أى داعين له تعالى على الاستمرار (خوفا) من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته (وطمعا) فى رحمته (ومما رزقناهم) من المال (ينفقون) فى وجوه البر والحسنات (فلا تعلم نفس) من النفوس لا ملك مقرب ولا نبى مرسل فضلا عمن عداهم فانا (ما أخفى لهم) أى لاولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة (من قرة أعين) مما تقر به أعينهم وعنه عليه الصلاة والسلام يقول الله عز وجل أعددت

فانا أول العابدين لو أجريناه على ظاهره فانه يقتضى وقوع الشك فى اثبات ولد لله تعالى وذلك محال فلاجرم افتقروا الى تأويل الآية وعندى انه ليس الامر كذلك وليس فى ظاهر اللفظ ما يوجب العدول عن الظاهر وتقريره ان قوله ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين قضية شرطية والقضية الشرطية مركبة من قضيتين خبريتين أدخل على احداهما حرف الشرط وعلى الاخرى حرف الجزاء فحصل بمجموعهما قضية واحدة ومثاله هذه الآية فان قوله ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين قضية مركبة من قضيتين (احداهما) قوله ان كان للرحمن ولد (والثانية) قوله فأنا أول العابدين ثم أدخل حرف الشرط وهو لفظة ان على القضية الاولى وحرف الجزاء وهو الفاء على القضية الثانية فحصل من مجموعهما قضية واحدة وهى القضية الشرطية اذا عرفت هذا فنقول القضية الشرطية لا تفيد الا كون الشرط مستلزما للجزاء وليس فيه اشعار بكون الشرط حقا أو باطلا أو بكون الجزاء حقا أو باطلا بل نقول القضية الشرطية الحقة قد تكون مركبة من قضيتين حقيتين أو من قضيتين باطلتين أو من شرط باطل وجزاء حق أو من شرط حق وجزاء باطل (فاما القسم الرابع) وهو أن تكون القضية الشرطية الحقة مركبة من شرط حق وجزاء باطل فهذا محال ولنبين أمثلة هذه الاقسام الاربعة فاذا قلنا ان كان الانسان حيوانا فالانسان جسم فهذه شرطية حقة وهى مركبة من قضيتين حقيتين (احداهما) قولنا الانسان حيوان (والثانية) قولنا الانسان جسم واذا قلنا ان كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين فهذه شرطية حقة لكنها مركبة من قولنا الخمسة زوج ومن قولنا الخمسة منقسمة بمتساويين وهما باطلان وكونهما باطلين لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقا وقد ذكرنا ان القضية الشرطية لا تفيد الا مجرد الاستلزام واذا قلنا ان كان الانسان حجرا فهو جسم فهذا أيضا حق لكنها مركبة من شرط باطل وهو قولنا الانسان حجر ومن جزاء حق وهو قولنا الانسان جسم وانما جاز هذا لان الباطل قد يكون بحيث يلزم من فرض وقوعه وقوع حق فانا لو فرضنا كون الانسان حجرا وجب كونه جسما فهذا شرط باطل يستلزم جزاء حقا (وأما القسم الرابع) وهو تركيب قضية شرطية حقة من شرط حق وجزاء باطل فهذا محال لان هذا التركيب يلزم منه كون الحق مستلزما للباطل وذلك محال بخلاف القسم الثالث فانه يلزم منه كون الباطل مستلزما للحق وذلك ليس بمحال اذا عرفت هذا الاصل فلنرجع الى الآية فنقول قوله ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل لان قولنا كان للرحمن ولد باطل وقولنا أنا أول العابدين لذلك الولد باطل أيضا الا انا بينا ان كون كل واحد منهما باطلا لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقا كما ضربنا من المثال فى قولنا ان كانت الخمسة زوجا كانت منقسمة بمتساويين فثبت ان هذا الكلام لا امتناع فى اجرائه على ظاهره ويكون المراد منه انه ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد فان السلطان اذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده وقد بينا ان هذا التركيب لا يدل على الاعتراف باثبات ولد أم لا ومما يقرب من هذا الباب قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فهذا الكلام قضية شرطية والشرط هو قولنا فيهما آلهة والجزاء هو قولنا فسدتا فالشرط فى نفسه باطل والجزاء أيضا باطل لان الحق انه ليس فيهما آلهة وكلمة لو تفيد انتفاء الشئ بانتفاء غيره لانهما ما فسدتا ثم مع كون الشرط باطلا وكون الجزاء باطلا كان استلزام ذلك الشرط لهذا الجزاء حقا فكذا ههنا فان قالوا الفرق ان ههنا ذكر الله تعالى هذه الشرطية بصيغة لو فقال لو كان فيهما آلهة وكلمة لو تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره وأما فى الآية التى نحن فى تفسيرها فذكر الله تعالى كلمة ان وهذه الكلمة لا تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره بل هذه الكلمة تفيد الشك فى انه هل حصل الشرط أم لا وحصول هذا الشك للرسول غير ممكن قلنا الفرق الذى ذكرتم صحيح الا أن مقصودنا بيان انه لا يلزم من كون الشرطية صادقة كون جزأيها صادقتين أو كاذبتين على ما قررناه اما قوله ان لفظة ان تفيد حصول

لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما اطلعتم عليه اقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين وقرئ ما أخفى لهم وما تخفى لهم وما أخفيت لهم على صيغة المتكلم وما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وقرى قرات أعين لاختلاف أنواعها والعلم بمعنى المعرفة وما موصولة أو استفهامية علق عنها الفعل (جزاء بما كانوا يعملون) أى جزوا جزاء أو أخفى لهم للجزاء بما كانوا يعملونه فى الدنيا من الاعمال الصالحة قيل هؤلاء القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله تعالى ثوابهم (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) أى أبعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذى حكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذى ذكرت أحواله (لا يستوون) التصريح به مع افادة الانكار لنفى المشابهة بالمرة على أبلغ وجه وآكده لبناء التفصيل الآتى عليه والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد فيما سبق باعتبار لفظها وقوله تعالى (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) تفصيل لمراتب الفريقين فى الآخرة بعد ذكر أحوالهما فى الدنيا وأضيفت الجنة الى المأوى لانها المأوى الحقيقى وانما الدنيا منزل مرتحل عنه لامحالة وقيل المأوى جنة من الجنات وأياما كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز الى ما ذكر من تجافيهم من مضاجعهم التى هى مأواهم فى الدنيا (نزلا) أى ثوابا وهو فى الاصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب وانتصابه على الحالية (بما كانوا يعملون) فى الدنيا من الاعمال الصالحة أو بأعمالهم (وأما الذين فسقوا) أى خرجوا عن الطاعة (فمأواهم) أى ملجؤهم ومنزلهم (النار) مكان جنات المأوى للمؤمنين (كلما أرادوا ان يخرجوا منها أعيدوا فيها) استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم روى انه يضربهم لهب النار فيرتفعون الى طبقاتها حتى اذا قربوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون الى قعرها وهكذا يفعل بهم أبدا وكلمة فى للدلالة على أنهم مستقرون فيها وانما الاعادة من

الشك فى ان الشرط هل حصل أم لا قلنا هذا ممنوع فان حرف ان حرف الشرط وحرف الشرط لا يفيد الا كون الشرط مستلزما للجزاء وأما بيان ان ذلك الشرط معلوم الوقوع أو مشكوك الوقوع فاللفظ لا دلالة فيه عليه البتة فظهر من المباحث التى لخصناها ان الكلام ههنا ممكن الاجراء على ظاهره من جميع الوجوه وانه لا حاجة فيه البتة الى التأويل والمعنى انه تعالى قال قل يا محمد ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين لذلك الولد وانا أول الخادمين له والمقصود من هذا الكلام بيان انى لا أنكر ولده لاجل العناد والمنازعة فان بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنت مقرا به معترفا بوجوب خدمته الا انه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته البتة فكيف أقول به بل الدليل القاطع قائم على عدمه فكيف أقول به وكيف اعترف بوجوده وهذا الكلام ظاهر كامل لا حاجة به البتة الى التأويل والعدول عن الظاهر فهذا ما عندى فى هذا الموضع ونقل عن السدى من المفسرين انه كان يقول حمل هذه الآية على ظاهرها ممكن ولا حاجة الى التأويل والتقرير الذى ذكرناه يدل على أن الذى قاله هو الحق أما القائلون بانه لا بد من التأويل فقد ذكروا فيه وجوها (الاول) قال الواحدى كثرت الوجوه فى تفسير هذه الآية والاقوى أن يقال المعنى ان كان للرحمن ولد فى زعمكم فانا أول العابدين أى الموحدين لله المكذبين لقولكم باضافة الولد اليه ولقائل أن يقول اما أن يكون تقدير الكلام ان يثبت للرحمن ولد فى نفس الامر فانا أول المنكرين له أو يكون التقدير ان يثبت لكم ادعاء ان للرحمن ولدا فانا أول المنكرين له والاول باطل لان ثبوت الشئ فى نفسه لا يقتضى كون الرسول منكرا له لان قوله ان كان الشئ ثابتا فى نفسه فانا أول المنكرين يقتضى اصراره على الكذب والجهل وذلك لا يليق بالرسول والثانى أيضا باطل لانهم سواء أثبتوا لله ولدا أو لم يثبتوه له فالرسول منكر لذلك الولد فلم يكن لزعمهم تأثير فى كون الرسول منكرا لذلك الولد فلم يصلح جعل زعمهم اثبات الولد مؤثرا فى كون الرسول منكرا للولد (والوجه الثانى) قالوا معناه ان كان للرحمن ولد فانا أول العابدين الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد اذا اشتدت أنفته فهو عبد وعابد وقرأ بعضهم عبدين واعلم ان السؤال المذكور قائم ههنا لانه ان كان المراد ان كان للرحمن ولد فى نفس الامر فانا أول الآنفين من الاقرار به فهذا يقتضى الاصرار على الجهل والكذب وان كان المراد ان كان للرحمن ولد فى زعمكم واعتقادكم فانا أول الآنفين فهذا التعليق فاسد لان هذه الانفة حاصلة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصل واذا كان الامر كذلك لم يكن هذا التعليق جائزا (والوجه الثالث) قال بعضهم ان كلمة ان ههنا هى النافية والتقدير ما كان للرحمن ولد فانا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له واعلم أن التزام هذه الوجوه البعيدة انما يكون للضرورة وقد بينا أنه لا ضرورة البتة فلم يجز المصير اليها والله أعلم ثم قال سبحانه وتعالى سبحان رب السموات والارض رب العرش عما يصفون والمعنى ان اله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته وكل ما كان كذلك فهو فرد مطلق لا يقبل التجزى بوجه من الوجوه والولد عبارة عن ان ينفصل عن الشئ جزء من أجزائه فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله وهذا انما يعقل فيما تكون ذاته قابلة للتجزى والتبعض واذا كان ذلك محالا فى حق اله العالم امتنع اثبات الولد له ولما قرر هذا البرهان القاطع قال فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون والمقصود منه التهديد يعنى قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا وهم لم يلتفتوا اليها لاجل كونهم مستغرقين فى طلب المال والجاه والرياسة فاتركهم فى ذلك الباطل واللعب حتى يصلوا الى ذلك اليوم الذى وعدوا فيه بما وعدوا والمقصود منه التهديد ثم قال تعالى وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله وفيه أبحاث (البحث الاول) قال أبو على نظرت فيما يرتفع به اله فوجدت ارتفاعه يصح بان يكون خبر مبتدأ محذوف والتقدير وهو الذى فى السماء هو اله (والبحث الثانى) هذه الآية من أدل الدلائل على انه تعالى غير مستقر فى السماء لانه تعالى بين بهذه الآية ان نسبته الى السماء بالالهية كنسبته الى الارض فلما كان الها للارض مع انه غير مستقر فيها

بعض طبقاتها الى بعض (وقيل لهم) تشديدا عليهم وزيادة فى غيظهم (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به) أى بعذاب النار (تكذبون) على الاستمرار فى الدنيا (ولنذيقنهم من العذاب الادنى) أى عذاب الدنيا وهو ما محنوا به من السنة سبع سنين والقتل والاسر (دون العذاب الاكبر) الذى هو عذاب الآخرة (لعلهم) لعل الذين يشاهدونه وهم فى الحياة (يرجعون) يتوبون عن الكفر روى أن الوليد بن عقبة فاخر عليا رضى الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) بيان اجمالى لحال من قابل آيات الله تعالى بالاعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد وكلمة ثم لاستبعاد الاعراض عنها عقلا مع غاية وضوحها وارشادها الى سعادة الدارين كافى بيت الحماسة

ولا يكشف الغماء الا ابن حرة
يرى غمرات الموت ثم يزورها

أى هو أظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب على نفى الاظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا (انا من المجرمين) أى من كل من اتصف بالاجرام وان هانت جريمته (منتقمون) فكيف بمن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرما من كل مجرم (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة عبر عنها باسم الجنس لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان والتنبيه على أن ايتاءه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كايتائها لموسى عليه السلام (فلا تكن فى مرية من لقائه) من لقاء الكتاب الذى هو الفرقان كقوله وانك لتلقى القرآن والمعنى انا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه من الوحى مثل ما لقيناك من الوحى فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ونظيره وقيل من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى وعنه عليه الصلاة والسلام رأيت ليلة أسرى بى موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة فكذلك (وجعلناه) أى الكتاب الذى آتيناه موسى (هدى لبنى اسرائيل) قيل لم يتعبد بما فى التوراة ولد اسمعيل (وجعلنا منهم أئمة يهدون

فكذلك يجب أن يكون الها للسماء مع انه لا يكون مستقرا فيها فان قيل وأي تعلق لهذا الكلام بنفي الولد عن الله تعالى قلنا تعلقه به انه تعالى خلق عيسى بمحض كن فيكون من غير واسطة النطفة والاب فكأنه قيل ان هذا القدر لا يوجب كون عيسى ولد الله سبحانه لان هذا المعنى حاصل في تخليق السموات والارض وما بينهما مع انتفاء حصول الولدية هناك ثم قال تعالى وهو الحكيم العليم وقد ذكرنا في سورة الانعام ان كونه تعالى حكيما عليما ينافي حصول الولد له ثم قال وتبارك الذي له ملك السموات والارض وما بينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون واعلم ان قوله تبارك اما أن يكون مشتقا من الثبات والبقاء واما أن يكون مشتقا من كثرة الخير وعلى التقديرين فكل واحد من هذين الوجهين ينافي كون عيسى عليه السلام ولد الله تعالى لانه ان كان المراد منه الثبات والبقاء فعيسى عليه السلام لم يكن واجب البقاء والدوام لانه حدث بعد أن لم يكن ثم عند النصارى انه قتل ومات ومن كان كذلك لم يكن بينه وبين الباقي الدائم الازلي مجانسة ومشابهة فامتنع كونه ولدا له وان كان المراد بالبركة كثرة الخيرات مثل كونه خالقا للسموات والارض وما بينهما فعيسى لم يكن كذلك بل كان محتاجا الى الطعام وعند النصارى انه كان خائفا من اليهود وبالآخرة أخذوه وقتلوه فالذي هذا صفته كيف يكون ولدا لمن كان خالقا للسموات والارض وما بينهما وأما قوله وعنده علم الساعة فالمقصود منه أنه لما شرح كمال قدرته فكذلك شرح كمال علمه والمقصود التنبيه على أن من كان كاملا في الذات والعلم والقدرة على الحد الذي شرحناه امتنع أن يكون ولده في العجز وعدم الوقوف على أحوال العالم بالحد الذي وصفه النصارى ولما أطنب الله تعالى في نفي الولد أردفه ببيان نفي الشركاء فقال ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون ذكر المفسرون في هذه الآية قولين (أحدهما) ان الذين يدعون من دونه الملائكة وعيسى وعزير والمعنى ان الملائكة وعيسى وعزيرا لا يشفعون الا لمن شهد بالحق روى أن النضر بن الحرث ونفرا معه قالوا ان كان ما يقول محمد حقا فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد فأنزل الله هذه الآية يقول لا يقدر هؤلاء ان يشفعوا لاحد ثم استثنى فقال الا من شهد بالحق والمعنى على هذا القول هؤلاء لا يشفعون الا لمن شهد بالحق فأضمر اللام أو يقال التقدير الا شفاعة من شهد بالحق فحذف المضاف وهذا على لغة من يعدي الشفاعة بغير لام فيقول شفعت فلانا بمعنى شفعت له كما تقول كلمته وكلمت له ونصحته ونصحت له (والقول الثاني) ان الذين يدعون من دونه كل معبود من دون الله وقوله الا من شهد بالحق الملائكة وعيسى وعزير والمعنى ان الاشياء التي عبدها هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة الا من شهد بالحق وهم الملائكة وعيسى وعزير فان لهم شفاعة عند الله ومنزلة ومعنى من شهد بالحق من شهد انه لا اله الا الله ثم قال تعالى وهم يعلمون وهذا القيد يدل على ان الشهادة باللسان فقط لا تفيد البتة واحتج القائلون بان ايمان المقلد لا ينفع البتة بهذه الآية فقالوا بين الله تعالى ان الشهادة لا تنفع الا اذا حصل معها العلم والعلم عبارة عن اليقين الذي لو شككه صاحبه فيه لم يتشكك وهذا لم يحصل الا عند الدليل فثبت ان ايمان المقلد لا ينفع البتة ثم قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ظن قوم ان هذه الآية وأمثالها في القرآن تدل على ان القوم مضطرون الى الاعتراف بوجود الاله للعالم قال الجبائي وهذا لا يصح لان قوم فرعون قالوا لا اله لهم غيره وقوم ابراهيم قالوا وانا لفي شك مما تدعوننا اليه فيقال لهم لا نسلم ان قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الاله والدليل على قولنا قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وقال موسى لفرعون لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر في القراءة بفتح التاء في علمت تدل على ان فرعون كان عارفا بالله وأما قوم ابراهيم حيث قالوا وانا لفي شك مما تدعوننا اليه فهو مصروف الى اثبات القيامة واثبات التكاليف واثبات النبوة (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى ذكر هذا الكلام في أول هذه السورة وفي آخرها والمقصود التنبيه على انهم لما اعتقدوا ان

بقيتهم بما في تضاعيف الكتاب من الحكم والاحكام الى طريق الحق أو يهدونهم الى ما فيه من دين الله وشرائعه (بأمرنا) اياهم بذلك أو بتوفيقنا له (لما صبروا) هي لما التي فيها معنى الجزاء نحو أحسنت اليك لما جئتني والضمير للائمة تقديره لما صبروا جعلناهم أئمة أو هي ظرف بمعنى الحين أي جعلناهم أئمة حين صبروا والمراد صبرهم على مشاق الطاعات ومقاساة الشدائد في نصرة الدين أو صبرهم عن الدنيا وقرئ لما صبروا أي لصبرهم (وكانوا بآياتنا) التي في تضاعيف الكتاب (يوقنون) لامعانهم فيها النظر والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناك هدى لامتك ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية (ان ربك هو يفصل) أي يقضي (بينهم) قيل بين الانبياء وأممهم وقيل بين المؤمنين والمشركين (يوم القيامة) فيميز بين المحق والمبطل (فيما كانوا فيه يختلفون) من أمور الدين (أولم يهد لهم) الهمزة للانكار والواو للعطف على منوي يقتضيه المقام وفعل الهداية اما من قبيل فلان يعطي في أن المراد ايقاع نفس الفعل بلا ملاحظة المفعول واما بمعنى التبيين والمفعول محذوف والفاعل ما دل عليه قوله تعالى (كم أهلكنا) أي أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم أو ولم يبين لهم مآل أمرهم كثرة اهلاكنا (من قبلهم من القرون) مثل عاد وثمود وقوم لوط وقرئ نهد لهم بنون العظمة وقد جوز أن يكون الفاعل على القراءة الاولى أيضا ضميره تعالى فيكون قوله تعالى كم أهلكنا الخ استئنافا مبينا لكيفية هدايته تعالى (يمشون في مساكنهم) أي يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم ويشاهدون آثار هلاكهم والجملة حال من ضمير لهم وقرئ يمشون للتكثير (ان في ذلك) أي فيما ذكر من كثرة اهلاكنا للامم الخالية العاتية أو في مساكنهم (لآيات) عظيمة في أنفسها كثيرة في عددها (أفلا يسمعون) هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ (أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز) أي التي جرز نباتها أي قطع وأزيل بالمرة وقيل هو اسم موضع

خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام خبيثة لا تضر ولا تنفع هي جمادات محضة وأما قوله فأنى تؤفكون معناه لم تكذبون على الله فتقولون ان الله أمرنا بعبادة الاصنام وقد احتج بعض أصحابنا به على ان افكهم ليس منهم بل من غيرهم بقوله فأنى تؤفكون وأجاب القاضي بان من يضل في فهم الكلام أو في الطريق يقال له أين يذهب بك والمراد أين تذهب وأجاب الاصحاب بان قول القائل أين يذهب بك ظاهره يدل على ان ذاهبا آخر ذهب به فصرف الكلام عن حقيقته خلاف الاصل الظاهر وأيضا فان الذي ذهب به هو الذي خلق تلك الداعية في قلبه وقد ثبت بالبرهان الباهر ان خالق تلك الداعية هو الله تعالى ثم قال تعالى وقيله يارب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون وفيه مباحث (الاول) قرأ الاكثرون وقيله بفتح اللام وقرأ عاصم وحمزة بكسر اللام قال الواحدي وقرأ ناس من غير السبعة بالرفع أما الذين قرؤا بالنصب فذكر الاخفش والفراء فيه قولين (أحدهما) انه نصب على المصدر بتقدير وقال قيله وشكا شكواه الى ربه يعني النبي صلى الله عليه وسلم فانتصب قيله باضمار قال (والثاني) انه عطف على ما تقدم من قوله انا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله وذكر الزجاج فيه وجها ثالثا فقال انه نصب على موضع الساعة لان قوله وعنده علم الساعة معناه انه علم الساعة والتقدير علم الساعة وقيله ونظيره قولك عجبت من ضرب زيد وعمرا وأما القراءة بالجر فقال الاخفش والفراء والزجاج انه معطوف على الساعة أي عنده علم الساعة وعلم قيله يارب قال المبرد العطف على المنصوب حسن وان تباعد المعطوف من المعطوف عليه لانه يجوز أن يفصل بين المنصوب وعامله والمجرور يجوز ذلك فيه على قبح وأما القراءة بالرفع ففيها وجهان (الاول) أن يكون وقيله مبتدأ وخبره ما بعده (والثاني) أن يكون معطوفا على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه وعنده علم الساعة وعلم قيله قال صاحب الكشاف هذه الوجوه ليست قوية في المعنى لاسيما وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضا ثم ذكر وجها آخر وزعم انه أقوى مما سبق وهو أن يكون النصب والجر على اضمار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم أيمن الله وأمانة الله ويمين الله ويكون قوله ان هؤلاء قوم لا يؤمنون جواب القسم كأنه قيل واقسم بقيله يارب أو وقيله يارب قسمي وأقول هذا الذي ذكره صاحب الكشاف متكلف أيضا وههنا اضمار امتلأ القرآن منه وهو اضمار اذكر والتقدير واذكر قيله يارب واما القراءة بالجر فالتقدير واذكر وقت قيله يارب واذا وجب التزام الاضمار فلان يضمر شيأ جرت العادة في القرآن بالتزام اضماره أولى من غيره وعن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله وقيله يارب المراد وقيل يارب والهاء زيادة (البحث الثاني) القيل مصدر كالقول ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قيل وقال قال الليث تقول العرب كثر فيه القيل والقال وروى شمر عن أبي زيد يقال ما أحسن قيلك وقولك ومقالك وقالك ومقالتك خمسة أوجه (البحث الثالث) الضمير في قيله لرسول الله صلى الله عليه وسلم (البحث الرابع) ان النبي صلى الله عليه وسلم لما ضجر منهم وعرف اصرارهم أخبر عنهم أنهم قوم لا يؤمنون وهو قريب مما حكى الله عن نوح أنه قال رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ثم انه تعالى قال له فاصفح عنهم فامره بان يصفح عنهم وفي ضمنه منعه من أن يدعو عليهم بالعذاب والصفح هو الاعراض ثم قال وقل سلام قال سيبويه انما معناه المتاركة ونظيره قول ابراهيم لابيه سلام عليك سأستغفر لك ربي وكقوله سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين فسوف يعلمون المقصود منه التهديد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن عامر تعلمون بالتاء على الخطاب والباقون بالياء كناية عن قوم لا يؤمنون (المسئلة الثانية) احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر وأقول ان صح هذا الاستدلال فهذا يوجب الاقتصار على مجرد قوله سلام وأن يقال للمؤمن سلام عليكم والمقصود التنبيه على التحية التي تذكر للمسلم والكافر (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس قوله تعالى فاصفح عنهم وقل سلام

بالبين (فنخرج به) من تلك الارض (زرعا تأكل منه) أي من ذلك الزرع (أنعامهم) كالتبن والقصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها وقرئ يأكل بالياء (وأنفسهم) كالحبوب التي يقتاتها الانسان والثمار (أفلا يبصرون) أي ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله (ويقولون) كان المسلمون يقولون ان الله سيفتح لنا على المشركين أو يفصل بيننا وبينهم وكان أهل مكة اذا سمعوه يقولون بطريق الاستعجال تكذيبا واستهزاء (متى هذا الفتح) أي النصر أو الفصل بالحكومة (ان كنتم صادقين) في أن الله تعالى ينصركم أو يفصل بيننا وبينكم (قل) تبكيتا لهم وتحقيقا للحق (يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون) يوم الفتح يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن يوم فتح مكة والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن يسئل عنه لكونه أمرا بينا غنيا عن الاخبار به وكذا ايمانهم واستنظارهم يومئذ وانما المحتاج الى البيان عدم نفع ذلك الايمان وعدم الانظار كأنه قيل لا تستعجلوا فكأني بكم قد آمنتم فلم ينفعكم واستنظرتم فلم تنظروا وهذا على الوجه الاول ظاهر واما على الاخيرين فالموصول عبارة عن المقتولين يومئذ لا عن كافة الكفرة كما في الوجه الاول كيف لا وقد نفع الايمان الطلقاء يوم الفتح وناسا آمنوا يوم بدر (فاعرض عنهم) ولا تبال بتكذيبهم (وانتظر) النصرة عليهم وهلاكهم (انهم منتظرون) قيل أي الغلبة عليكم كقوله تعالى فتربصوا انا معكم متربصون والاظهر ان يقال انهم منتظرون هلاكهم كما في قوله تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام الآية ويقرب منه ما قيل وانتظر عذابنا انهم منتظروه فان استعجالهم المذكور وعكوفهم على ما هم عليه من الكفر والمعاصي في حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لا محالة وقرئ على صيغة المفعول

منسوخ

منسوخ بآية السيف وعندي التزام النسخ في أمثال هذه المواضع مشكل لان الامر لا يفيد الفعل الا مرة واحدة فاذا أتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ فأي حاجة فيه الى التزام النسخ وأيضا فتله عين الفور مشهورة عند الفقهاء وهي دالة على أن اللفظ المطلق قد يتقيد بحسب قرينة العرف واذا كان الامر كذلك فلا حاجة فيه الى التزام النسخ والله أعلم بالصواب قال مولانا المؤلف عليه سحائب الرحمة والرضوان تم تفسير هذه السورة يوم الاحد الحادي عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله أولا وآخرا وباطنا وظاهرا والصلاة على ملائكته المقربين والانبياء والمرسلين خصوصا على محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه أجمعين أبد الآبدين ودهر الداهرين

﴿سورة الدخان خمسون وتسع آيات مكية الا قوله انا كاشفو العذاب﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿حم والكتاب المبين انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين لا اله الا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الاولين بل هم في شك يلعبون﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) في قوله حم والكتاب المبين وجوه من الاحتمالات (أولها) أن يكون التقدير هذه حم والكتاب المبين كقولك هذا زيد والله (وثانيها) أن يكون الكلام قد تم عند قوله حم ثم يقال والكتاب المبين انا أنزلناه (وثالثها) أن يكون التقدير وحم والكتاب المبين انا أنزلناه فيكون ذلك في التقدير قسمين على شئ واحد (المسئلة الثانية) قالوا هذا يدل على حدوث القرآن لوجوه (الاول) ان قوله حم تقديره هذه حم يعني هذا شئ مؤلف من هذه الحروف والمؤلف من الحروف المتعاقبة محدث (الثاني) انه ثبت ان الحلف لا يصح بهذه الاشياء بل بالله هذه الاشياء فيكون التقدير ورب حم ورب الكتاب المبين وكل من كان مربوبا فهو محدث (الثالث) أنه وصفه بكونه كتابا والكتاب مشتق من الجمع فمعناه أنه مجموع والمجموع محل تصرف الغير وما كان كذلك فهو محدث (الرابع) قوله انا أنزلناه والمنزل محل تصرف الغير وما كان كذلك فهو محدث وقد ذكرنا مرارا أن جميع هذه الدلائل تدل على ان الشئ المركب من الحروف المتعاقبة والاصوات المتوالية محدث والعلم بذلك ضروري بديهي لا ينازع فيه الا من كان عديم العقل وكان غير عارف بمعنى القديم والمحدث واذا كان كذلك فكيف ينازع في صحة هذه الدلائل انما الذي ثبت قدمه شئ آخر سوى ما تركب من هذه الحروف والاصوات (المسئلة الثالثة) يجوز أن يكون المراد بالكتاب ههنا الكتب المتقدمة التي أنزلها الله على أنبيائه كما قال تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ويجوز أن يكون المراد اللوح المحفوظ كما قال يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال وانه في أم الكتاب لدينا ويجوز أن يكون المراد به القرآن وبهذا التقدير فقد أقسم بالقرآن على انه أنزل القرآن في ليلة مباركة وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن فقد يقول الرجل اذا أراد تعظيم رجل له حاجة اليه أستشفع بك اليك وأقسم بحقك عليك (المسئلة الرابعة) المبين هو المشتمل على بيان ما بالناس حاجة اليه في دينهم ودنياهم فوصفه بكونه مبينا وان كانت حقيقة الابانة لله تعالى لاجل ان الابانة حصلت به كما قال تعالى ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل وقال في آية أخرى نحن نقص عليك أحسن القصص وقال أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون فوصفه بالتكلم اذ كان غاية في الابانة فكأنه ذو لسان ينطق والمعنى فيه المبالغة في وصفه بهذا المعنى (المسئلة الخامسة) اختلفوا في هذه الليلة المباركة فقال الاكثرون انها ليلة القدر وقال عكرمة وطائفة آخرون انها ليلة البراءة وهي ليلة النصف من شعبان (أما الاولون) فقد احتجوا على صحة قولهم بوجوه (أولها) انه تعالى قال انا أنزلناه في ليلة القدر وههنا قال انا أنزلناه في ليلة مباركة فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة هي تلك المسماة بليلة القدر لئلا

على معنى أنهم أحقاء بان ينتظر هلاكهم أو ان الملائكة ينتظرونه * عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل وتبارك الذي بيده الملك أعطى من الاجر كأنما أحيا ليلة القدر وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل في بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام

(سورة الاحزاب مدنية وهي ثلاث وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها النبي اتق الله) في ندائه عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة تنويه بشأنه وتنبيه على سمو مكانه والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه فان له بابا واسعا وعرضا عريضا لا ينال مداه (ولا تطع الكافرين) أي المجاهرين بالكفر (والمنافقين) المضمرين له أي فيما يعود بوهن في الدين واعطاء دنية فيما بين المسلمين روي أن أبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الاعور السلمي قدموا عليه عليه الصلاة والسلام في الموادعة التي كانت بينه عليه السلام وبينهم وقام معهم عبد الله ابن أبي ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارفض ذكر آلهتنا وقل انها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت أي اتق الله في نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تساعد الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا اليك (ان الله كان عليما حكيما) مبالغا في العلم والحكمة فيعلم جميع الاشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك الا بما فيه مصلحة ولا ينهاك الا عما فيه مفسدة ولا يحكم الا بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجملة تعليل للامر والنهي مؤكد لوجوب الامتثال بهما (واتبع) أي في كل ما تأتي وتذر من أمور الدين (ما يوحى اليك من ربك) من الآيات التي من جملتها هذه الآية الآمرة بتقوى الله الناهية عن مساعدة الكفرة والمنافقين والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب الامتثال بالامر (ان الله كان بما تعملون خبيرا) قيل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقيل له

يلزم التناقض (وثانيها) انه تعالى قال شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن فبين ان انزال القرآن انما وقع فى شهر رمضان وقال ههنا انا أنزلناه فى ليلة مباركة فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة واقعة فى شهر رمضان وكل من قال ان هذه الليلة المباركة واقعة فى شهر رمضان قال انها ليلة القدر فثبت انها ليلة القدر (وثالثها) انه تعالى قال فى صفة ليلة القدر تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر سلام هى وقال أيضا ههنا فيها يفرق كل أمر حكيم وهذا مناسب لقوله تنزل الملائكة والروح فيها وههنا قال أمرا من عندنا وقال فى تلك الآية باذن ربهم من كل أمر وقال ههنا رحمة من ربك وقال فى تلك الآية سلام هى واذا تقاربت الاوصاف وجب القول بأن احدى الليلتين هى الاخرى (ورابعها) نقل محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن قتادة أنه قال نزلت صحف ابراهيم فى أول ليلة من رمضان والتوراة لست ليال منه والزبور لثنتى عشرة مضت منه والانجيل لثمان عشرة مضت منه والقرآن لاربع وعشرين مضت من رمضان والليلة المباركة هى ليلة القدر (وخامسها) ان ليلة القدر انما سميت بهذا الاسم لان قدرها وشرفها عند الله عظيم ومعلوم انه ليس قدرها وشرفها لسبب نفس ذلك الزمان لان الزمان شئ واحد فى الذات والصفات فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته فثبت ان شرفه وقدره بسبب انه حصل فيه أمور شريفة عالية لها قدر عظيم ومرتبة رفيعة ومعلوم ان منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا وأعلى الاشياء وأشرفها منصبا فى الدين هو القرآن لاجل ان به ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل فى سائر كتب الله المنزلة كما قال فى صفته ومهيمنا عليه وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ودركات أرباب الشقاوات فعلى هذا لاشئ الا والقرآن أعظم قدرا وأعلى ذكرا وأعظم منصبا منه فلو كان نزوله انما وقع فى ليلة أخرى سوى ليلة القدر لكانت ليلة القدر هى هذه الثانية لا الاولى وحيث أطبقوا على ان ليلة القدر هى التى وقعت فى رمضان علمنا أن القرآن انما انزل فى تلك الليلة وأما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة فى هذه الآية هى ليلة النصف من شعبان فما رأيت لهم فيه دليلا يعول عليه وانما قنعوا فيه بأن نقلوه عن بعض الناس فان صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه كلام فلا مزيد عليه والا فالحق هو الاول ثم ان هؤلاء القائلين بهذا القول زعموا ان ليلة النصف من شعبان لها أربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصك وليلة الرحمة وقيل انما سميت بليلة البراءة وليلة الصك لان البندار اذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة كذلك الله عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة فى هذه الليلة وقيل هذه الليلة مختصة بخمس خصال (الاولى) تفريق كل أمر حكيم فيها قال تعالى فيها يفرق كل أمر حكيم (والثانية) فضيلة العبادة فيها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى فى هذه الليلة مائة ركعة أرسل الله اليه مائة ملك ثلاثون يبشرونه بالجنة وثلاثون يؤمنونه من عذاب النار وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان (الخصلة الثالثة) نزول الرحمة قال عليه السلام ان الله يرحم أمتى فى هذه الليلة بعدد شعر أغنام بنى كلب (والخصلة الرابعة) حصول المغفرة قال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يغفر لجميع المسلمين فى تلك الليلة الا لكاهن أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للوالدين أو مصر على الزنا (والخصلة الخامسة) انه تعالى أعطى رسوله فى هذه الليلة تمام الشفاعة وذلك انه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان فى أمته فاعطى الثلث منها ثم سأل ليلة الرابع عشر فاعطى الثلثين ثم سأل ليلة الخامس عشر فاعطى الجميع الا من شرد على الله شراد البعير هذا الفصل نقلته من الكشاف فان قيل لاشك ان الزمان عبارة عن المدة الممتدة التى تقدر بها حركات الافلاك والكواكب وانه فى ذاته أمر متشابه الاجزاء فيمتنع كون بعضها أفضل من بعض والمكان أيضا عبارة عن الفضاء الممتد والخلاء الخالى فيمتنع كون بعض أجزائه أشرف من البعض واذا كان كذلك كان تخصيص بعض أجزائه بمزيد الشرف دون الباقى ترجيحا لاحد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح

عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين وقيل للغائبين بطريق الالتفات ولا يخفى بعده نعم يجوز أن يكون للكل على ضرب من التغليب وأياما كان فالجملة تعليل للامر وتأكيد لموجبه أما على الوجهين الاولين فبطريق الترغيب والترهيب كانه قيل ان الله خبير بما تعملونه من الامتثال وتركه فيرتب على كل منهما جزاءه ثوابا وعقابا وأما على الوجه الاخير فبطريق الترغيب فقط كأنه قيل ان الله خبير بما يعمله كلا الفريقين فيرشدك الى ما فيه صلاح حالك وانتظام أمرك ويطلعك على ما يعملونه من المكايد والمفاسد ويأمرك بما ينبغى لك أن تعمله فى دفعها وردها فلابد من اتباع الوحى والعمل بمقتضاه حتما (وتوكل على الله) أى فوض جميع أمورك اليه (وكفى بالله وكيلا) حافظا موكولا اليه كل الامور (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) شروع فى القاء الوحى الذى أمر عليه الصلاة والسلام باتباعه وهذا مثل ضربه الله تعالى تمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى (وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم) وتنبيها على أن كون المظاهر منها أما وكون الدعى ابنا أى بمنزلة الام والابن فى الآثار والاحكام المعهودة فيما بينهم فى الاستحالة بمنزلة اجتماع قلبين فى جوف واحد وقيل هو رد لما كانت العرب تزعم من أن اللبيب الاريب له قلبان ولذلك قيل لابى معمر أو جميل بن أسيد الفهرى ذو القلبين أى ما جمع الله تعالى قلبين فى رجل وذكر الجوف لزيادة التقرير كما فى قوله تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ولا زوجية ولا امومة فى امرأة ولا دعوة وبنوة فى شخص لكن لا بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية والامومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة والبنوة كما فى القلب ولا بمعنى نفى الجمع بين أحكام الزوجية وأحكام الامومة ونفى الجمع بين أحكام الدعوة وأحكام البنوة على الاطلاق بل بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية وأحكام الامومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة وأحكام البنوة لابطال ما كانوا عليه من اجراء أحكام الامومة على المظاهر منها واجراء أحكام

وانه

وانه محال قلنا القول باثبات حدوث العالم واثبات أن فاعله فاعل مختار بناء على هذا الحرف وهو انه لا يبعد من الفاعل المختار تخصيص وقت معين باحداث العالم فيه دون ما قبله وما بعده فان بطل هذا الاصل فقد بطل حدوث العالم وبطل الفاعل المختار وحينئذ لا يكون للخوض فى تفسير القرآن فائدة وان صح هذا الاصل فقد زال ماذكرتم من السؤال فهذا هو الجواب المعتمد والناس قالوا لا يبعد ان يخص الله تعالى بعض الاوقات بمزيد تشريف حتى يصير ذلك داعيا للمكلف الى الاقدام على الطاعات فى ذلك الوقت ولهذا السبب بين انه تعالى أخفاه فى الاوقات وما عينه لانه اذا لم يكن معينا جوز المكلف فى كل وقت معين أن يكون هو ذلك الوقت الشريف فيصير ذلك حاملا له على المواظبة على الطاعات فى كل الاوقات واذا وقفت على هذا الحرف ظهر عندك ان الزمان والمكان انما فازا بالتشريفات الزائدة تبعا لشرف الانسان فهو الاصل وكل ماسواه فهو تبع له والله أعلم (المسئلة السادسة) روى أن عطية الحرورى سأل ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله انا أنزلناه فى ليلة القدر وقوله انا أنزلناه فى ليلة مباركة كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن فى جميع الشهور فقال ابن عباس رضى الله عنهما يا ابن الاسود لو هلكت أنا ووقع هذا فى نفسك ولم تجد جوابه لهلكت نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ الى البيت المعمور وهو فى السماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك فى أنواع الوقائع حالا فحالا والله أعلم (المسئلة السابعة) فى بيان نظم هذه الآيات اعلم أن المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه (أحدها) بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته (الثانى) بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الذى نزل فيه (الثالث) بيان تعظيمه بحسب شرف منزله أما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه (أحدها) انه تعالى أقسم به وذلك يدل على شرفه (وثانيها) انه تعالى أقسم به على كونه نازلا فى ليلة مباركة وقد ذكرنا أن القسم بالشئ على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه فى غاية الشرف (وثالثها) انه تعالى وصفه بكونه مبينا وذلك يدل أيضا على شرفه فى ذاته (وأما النوع الثانى) وهو بيان شرفه لاجل شرف الوقت الذى أنزل فيه فهو قوله انا أنزلناه فى ليلة مباركة وهذا تنبيه على ان نزوله فى ليلة مباركة يقتضى شرفه وجلالته ثم نقول ان قوله انا أنزلناه فى ليلة مباركة يقتضى أمرين (أحدهما) انه تعالى أنزله (والثانى) كون تلك الليلة مباركة فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجرى مجرى البيان لكل واحد منهما أما بيان انه تعالى لم أنزله فهو قوله انا كنا منذرين يعنى الحكمة فى انزال هذه السورة ان انذار الخلق لا يتم الا به وأما بيان ان هذه الليلة ليلة مباركة فهو أمران (أحدهما) انه تعالى يفرق فيها كل أمر حكيم (والثانى) ان ذلك الامر الحكيم يكون مخصوصا بشرف انه انما يظهر من عنده واليه الاشارة بقوله أمرا من عندنا (وأما النوع الثالث) فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله وذلك هو قوله انا كنا مرسلين فبين ان ذلك الانذار والارسال انما حصل من الله تعالى ثم بين ان ذلك الارسال انما كان لاجل تكميل الرحمة وهو قوله رحمة من ربك وكان الواجب أن يقال رحمة منا الا انه وضع الظاهر موضع المضمر ايذانا بان الربوبية تقتضى الرحمة على المربوبين ثم بين أن تلك الرحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين لانه تعالى يسمع تضرعاتهم ويعلم أنواع حاجاتهم فلهذا قال انه هو السميع العليم فهذا ما خطر بالبال فى كيفية تعلق بعض هذه الآيات ببعض (المسئلة الثامنة) فى تفسير مفردات هذه الالفاظ أما قوله تعالى انا أنزلناه فى ليلة مباركة فقد قيل فيه انه تعالى أنزل كلية القرآن من اللوح المحفوظ الى سماء الدنيا فى هذه الليلة ثم أنزل فى كل وقت ما يحتاج اليه المكلف وقيل يبدأ فى استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ فى ليلة البراءة ويقع الفراغ فى ليلة القدر فتدفع نسخة الارزاق الى ميكائيل ونسخة الحروب الى جبرائيل وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ونسخة الاعمال الى اسمعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب الى ملك الموت أما قوله تعالى فيها يفرق أى فى تلك الليلة المباركة يفرق أى يفصل ويبين من قولهم فرقت الشئ أفرقه فرقا وفرقانا قال صاحب الكشاف وقرئ يفرق بالتشديد

البنوة على الدعى ومعنى الظهار أن يقول لزوجته أنت على كظهر أمى مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لانه كان طلاقا فى الجاهلية وهو فى الاسلام يقتضى الطلاق أو الحرمة الى أداء الكفارة كما عدى آلى بها وهو بمعنى حلف وذكر الظهار للكناية عن البطن الذى هو عموده فان ذكره قريب من ذكر الفرج أو للتغليظ فى التحريم فانهم كانوا يحرمون اتيان الزوجة وظهرها الى السماء وقرئ اللاى وقرئ اللاء وقرئ تظاهرون بحذف احدى التاءين من تتظاهرون وتظاهرون بادغام التاء الثانية فى الظاء وتظهرون من أظهر بمعنى تظهر وتظهرون من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد وتظهرون من ظهر ظهورا وأدعياء جمع دعى وهو الذى يدعى ولدا على الشذوذ لاختصاص أفعلاء بفعيل بمعنى فاعل كتقى وأتقياء كانه شبه به فى اللفظ فجمع جمعه كقتلاء واسراء (ذلكم) اشارة الى ما يفهم مما ذكر من الظهار والدعاء أو الى الاخير الذى هو المقصود من مساق الكلام أى دعاؤكم بقولكم هذا ابنى (قولكم بأفواهكم) فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة فى الاعيان فاذن هو بمعزل من استتباع أحكام النبوة كما زعمتم (والله يقول الحق) المطابق للواقع (وهو يهدى السبيل) أى سبيل الحق لا غير فدعوا أقوالكم وخذوا بقوله عز وجل (ادعوهم لآبائهم) أى انسبوهم اليهم وخصوهم بهم وقوله تعالى (هو أقسط عند الله) تعليل له والضمير لمصدر ادعوا كما فى قوله تعالى اعدلوا هو أقرب للتقوى وأقسط أفعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقا من القسط بمعنى العدل أى الدعاء لآبائهم بالغ فى العدل والصدق فى حكم الله تعالى وقضائه (فان لم تعلموا آباءهم) فتنسبوهم اليهم (فاخوانكم) فهم اخوانكم (فى الدين ومواليكم) وأولياؤكم فيه أى فادعوهم بالاخوة الدينية والمولوية (وليس عليكم جناح) أى اثم (فيما أخطأتم به) أى فيما فعلتموه من ذلك مخطئين بالسهو أو النسيان أو سبق اللسان (ولكن ما تعمدت قلوبكم) أى ولكن الجناح فيما تعمدت.

فلو بكم بعد النهى أو ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح (وكان الله غفورا رحيما) لعفوه عن المخطئ وحكم التبنى بقوله هو ابنى اذا كان عبدا للقائل العتق
على كل حال ولا يثبت نسبه منه الا اذا كان مجهول النسب وكان بحيث يولد مثله لمثل المتبنى ولم يقر قبله بنسبه من غيره (النبى أولى
بالمؤمنين من أنفسهم) أى فى كل
أمر من أمور الدين والدنيا كما
يشهد به الاطلاق فيجب عليهم أن
يكون عليه الصلاة والسلام أحب
اليهم من أنفسهم وحكمه أنفذ
عليهم من حكمها وحقه آثر لديهم من
حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من
شفقتهم عليها روى أنه عليه الصلاة
والسلام أراد غزوة تبوك فأمر
الناس بالخروج فقال اناس نستأذن
آباءنا وأمهاتنا فنزلت وقرئ وهو
أب لهم أى فى الدين فان كل نبى أب
لامته من حيث انه أصل فيما به الحياة
الابدية ولذلك صار المؤمنون اخوة
(وأزواجه أمهاتهم) أى منزلات
منزلة الامهات فى التحريم واستحقاق
التعظيم وأما فيما عدا ذلك فهن
كالاجنبيات ولذلك قالت عائشة
رضى الله عنها لسنا أمهات النساء
(وأولوا الارحام) أى ذووا القرابات
(بعضهم أولى ببعض) فى التوارث
وهو نسخ لما كان فى صدر الاسلام
من التوارث بالهجرة والموالاة فى
الدين (فى كتاب الله) فى اللوح أو
فيما أنزله وهو هذه الآية أو آية
المواريث أو فيما فرض الله تعالى
(من المؤمنين والمهاجرين) بيان
لاولى الارحام أو صلة لاولى أى أولو
الارحام بحق القرابة أولى بالميراث
من المؤمنين بحق الدين ومن
المهاجرين بحق الهجرة (الا أن
تفعلوا الى أوليائكم معروفا)
استثناء من أعم ما تقدر الاولوية
فيه من النفع والمراد بفعل
المعروف التوصية أو منقطع
(كان ذلك فى الكتاب مسطورا)
أى كان ما ذكر من الآيتين ثابتا
فى اللوح أو القرآن وقيل فى التوراة (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) أى اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة وذكر
والدعاء الى الدين الحق (ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) وتخصيصهم بالذكر مع اندراجهم فى النبيين اندراجا بيّنا للايذان

ويفرق على اسناد الفعل الى الفاعل ونصب كل والفارق هو الله عز وجل وقرأ زيد بن على نفرق بالنون
أما قوله كل أمر حكيم فالحكيم معناه ذو الحكمة وذلك لان تخصيص الله تعالى كل أحد بحالة معينة من
العمر والرزق والاجل والسعادة والشقاوة يدل على حكمة بالغة لله تعالى فلما كانت تلك الافعال
والاقضية دالة على حكمة فاعلها وصفت بكونها حكيمة وهذا من الاسناد المجازى لان الحكيم صفة
صاحب الامر على الحقيقة ووصف الامر به مجاز ثم قال أمرا من عندنا وفى انتصاب قوله أمرا وجهان
(الاول) انه نصب على الاختصاص وذلك لانه تعالى بين شرف تلك الاقضية والاحكام بسبب ان وصفها
بكونها حكيمة ثم زاد فى بيان شرفها بأن قال أعنى بهذا الامر أمرا حاصلا من عندنا كائنا من لدنا وكما
اقتضاه علمنا وتدبيرنا (والثانى) انه نصب على الحال وفيه ثلاثة أوجه (الاول) أن يكون حالا من أحد
الضميرين فى أنزلناه اما من ضمير الفاعل أى انا أنزلناه آمرين أمرا أو من ضمير المفعول أى انا أنزلناه فى
حال كونه أمرا من عندنا بما يجب أن يفعل (والثالث) ما حكاه أبو على الفارسى عن أبى الحسن رحمهما
الله انه حمل قوله أمرا على الحال وذو الحال قوله كل أمر حكيم وهو نكرة ثم قال انا كنا مرسلين يعنى انا انما
فعلنا ذلك الانذار لاجل انا كنا مرسلين يعنى الانبياء ثم قال رحمة من ربك أى للرحمة فهى نصب على أن
يكون مفعولا له ثم قال انه هو السميع العليم يعنى أن تلك الرحمة كانت رحمة فى الحقيقة لان المحتاجين
اما أن يذكروا بألسنتهم حاجاتهم واما أن لا يذكروها فان ذكروها فهو تعالى يسمع كلامهم فيعرف حاجاتهم
وان لم يذكروها فهو تعالى عالم بها فثبت أن كونه سميعا عليما يقتضى أن ينزل رحمته عليهم ثم قال رب
السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائى
بكسر الباء من رب عطفا على قوله رحمة من ربك والباقون بالرفع عطفا على قوله هو السميع العليم (المسئلة
الثانية) المقصود من هذه الآية ان المنزل اذا كان موصوفا بهذه الجلالة والكبرياء كان المنزل الذى هو
القرآن فى غاية الشرف والرفعة (المسئلة الثالثة) الفائدة فى قوله ان كنتم موقنين من وجوه (الاول) قال
أبو مسلم معناه ان كنتم تطلبون اليقين وتريدونه فاعرفوا ان الامر كما قلنا كقولهم فلان منجد متهم أى
يريد نجدا أو تهامة (الثانى) قال صاحب الكشاف كانوا يقرون بان للسموات والارض ربا وخالقا فقيل لهم
ان ارسال الرسل وانزال الكتب رحمة من الرب سبحانه وتعالى ثم قيل ان هذا الرب هو السميع العليم الذى
أنتم مقرون به ومعترفون بانه رب السموات والارض وما بينهما ان كان اقراركم عن علم ويقين كما تقول هذا
انعام زيد الذى تسامع الناس بكرمه ان بلغك حديثه وسمعت قصته ثم انه تعالى رد أن يكونوا موقنين
بقوله بل هم فى شك يلعبون وان اقرارهم غير صادر عن علم ويقين ولا عن جد وحقيقة بل قول مخلوط بهزؤ
والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف
عنا العذاب انا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون انا كاشفو
العذاب قليلا انكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون﴾ اعلم ان المراد بقوله فارتقب
انتظر ويقال ذلك فى المكروه والمعنى انتظر يا محمد عذابهم فحذف مفعول الارتقاب لدلالة ما ذكر بعده
عليه وهو قوله هذا عذاب أليم ويجوز أيضا أن يكون يوم تأتى السماء مفعول الارتقاب وقوله بدخان فيه
قولان (الاول) ان النبى صلى الله عليه وسلم دعا على قومه بمكة لما كذبوه فقال اللهم اجعل سنيهم كسنى
يوسف فارتفع المطر وأجدبت الارض وأصابت قريشا شدة المجاعة حتى أكلوا العظام والكلاب
والجيف فكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان وهذا قول ابن عباس رضى
الله عنهما فى بعض الروايات ومقاتل ومجاهد واختيار الفراء والزجاج وهو قول ابن مسعود رضى الله
عنه وكان ينكر أن يكون الدخان الا هذا الذى أصابهم من شدة الجوع كالظلمة فى أبصارهم حتى
كانوا كأنهم يرون دخانا فالحاصل أن هذا الدخان هو الظلمة التى فى أبصارهم من شدة الجوع

وذكر ابن قتيبة فى تفسير الدخان بهذه الحالة وجهين (الاول) ان فى سنة القحط يعظم يبس الارض بسبب انقطاع المطر ويرتفع الغبار الكثير ويظلم الهواء وذلك يشبه الدخان ولهذا يقال لسنة المجاعة الغبراء (الثانى) ان العرب يسمون الشر الغالب بالدخان فيقولون كان بيننا أمر ارتفع له دخان والسبب فيه ان الانسان اذا اشتد خوفه أوضعفه أظلمت عيناه فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان (والقول الثانى فى الدخان) انه دخان يظهر فى العالم وهو احدى علامات القيامة قالوا فاذا حصلت هذه الحالة حصل لاهل الايمان منه حالة تشبه الزكام وحصل لاهل الكفر حالة يصير لاجلها رأسه كرأس الحنيذ وهذا القول هو المنقول عن على بن أبى طالب عليه السلام وهو قول مشهور لابن عباس واحتج القائلون بهذا القول بوجوه (الاول) ان قوله يوم تأتى السماء بدخان يقتضى وجود دخان تأتى به السماء وماذكرتموه من الظلمة الحاصلة فى العين بسبب شدة الجوع فذاك ليس بدخان أتت به السماء فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه عدولا عن الظاهر لا لدليل منفصل وانه لا يجوز (الثانى) انه وصف ذلك الدخان بكونه مبينا والحالة التى ذكرتموها ليست كذلك لانها عارضة تعرض لبعض الناس فى أدمغتهم ومثل هذا لا يوصف بكونها دخانا مبينا (والثالث) انه وصف ذلك الدخان بأنه يغشى الناس وهذا انما يصدق اذا وصل ذلك الدخان اليهم واتصل بهم والحالة التى ذكرتموها لا توصف بأنها تغشى الناس الا على سبيل المجاز وقد ذكرنا ان العدول من الحقيقة الى المجاز لا يجوز الا لدليل منفصل (الرابع) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال أول الآيات الدخان ونزول عيسى بن مريم عليهما السلام ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس الى المحشر قال حذيفة يارسول الله وما الدخان فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية وقال دخان يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوما وليلة اما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره رواه صاحب الكشاف وروى القاضى عن الحسن عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال باكروا بالاعمال ستا وذكر منها طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان والدابة أما القائلون بالقول الاول فلا شك ان ذلك يقتضى صرف اللفظ عن حقيقته الى المجاز وذلك لا يجوز الا عند قيام دليل يدل على ان حمله على حقيقته ممتنع والقوم لم يذكروا ذلك الدليل فكان المصير الى ماذكروه مشكلا جدا فان قالوا الدليل على أن المراد ماذكرناه انه تعالى حكى عنهم انهم يقولون ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون وهذا اذا حملناه على القحط الذى وقع بمكة استقام فانه نقل ان القحط لما اشتد بمكة مشى اليه أبو سفيان وناشده بالله والرحم وأوعده انه ان دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية ان يؤمنوا به فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا الى شركهم أما اذا حملناه على ان المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك لان عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون ولم يصح أيضا أن يقال لهم انا كاشفوا العذاب قليلا انكم عائدون (والجواب) لم لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريا مجرى ظهور سائر علامات القيامة فى أنه لا يوجب انقطاع التكليف فتحدث هذه الحالة ثم ان الناس يخافون جدا فيتضرعون فاذا زالت تلك الواقعة عادوا الى الكفر والفسق واذا كان هذا محتملا فقد سقط ماقالوه والله أعلم ولترجع الى التفسير فنقول قوله تعالى يوم تأتى السماء بدخان مبين أى ظاهر الحال لا يشك أحد فى أنه دخان يغشى الناس أى يشملهم وهو فى محل الجر صفة لقوله بدخان وفى قوله هذا عذاب أليم قولان (الاول) انه منصوب المحل بفعل مضمر وهو يقولون ويقولون منصوب على الحال أى قائلين ذلك (الثانى) قال الجرجانى صاحب النظم هذا اشارة اليه واخبار عن دنوه واقترابه كما يقال هذا العدو فاستقبله والغرض منه التنبيه على القرب ثم قال ربنا اكشف عنا العذاب فان قلنا التقدير يقولون هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب فالمعنى ظاهر وان لم يضمر القول هنالك أضمرناه ههنا والعذاب على القول الاول هو القحط الشديد وعلى القول الثانى الدخان المهلك انا مؤمنون أى

بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم من الرسل وتقديم نبينا عليهم عليهم الصلاة والسلام لابانة خطره الجليل (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) أى عهدا عظيم الشأن أو مؤكدا باليمين وهذا هو الميثاق الاول بعينه وأخذه هو أخذه والعطف مبنى على تنزيل التغاير العنوانى منزلة التغاير الذاتى تفخيما لشأنه كما فى قوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ اثر قوله تعالى فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا وقوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) متعلق بمضمر مستأنف مسوق لبيان ماهو داع الى ماذكر من أخذ الميثاق وغاية له لا بأخذنا فان المقصود تذكير نفس الميثاق ثم بيان الغرض منه بيانا قصديا كما ينبئ عنه تغيير الاسلوب بالالتفات الى الغيبة أى فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الانبياء ووضع الصادقين موضع ضميرهم للايذان من أول الامر بانهم صادقون فيما سئلوا عنه وانما السؤال لحكمة تقتضيه أى ليسأل الانبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوه لقومهم أو عن تصديقهم اياهم تبكيتا لهم كما فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم أو المصدقين لهم عن تصديقهم فان مصدق الصادق صادق وتصديقه صدق واما ماقيل من أن المعنى ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم فيأباه مقام تذكير ميثاق النبيين وقوله تعالى (وأعد للكافرين عذابا أليما) عطف على ماذكر من المضمر لا على أخذنا كما قيل والتوجيه بان بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لاثابة المؤمنين أو بان المعنى أن الله تعالى أكد على الانبياء الدعوة الى دينه لاجل اثابة المؤمنين تعسف ظاهر مع أنه مفض الى كون بيان اعداد العذاب الاليم للكافرين غير مقصود بالذات نعم يجوز عطفه على مادل عليه قوله تعالى ليسأل الصادقين كأنه قيل فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين الآية (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) ان جعل النعمة مصدرا فالجار متعلق بها والا فهو متعلق

بمحمد و بالقرآن والمراد منه الوعد بالايمان ان كشف عنهم العذاب ثم قال تعالى أنى لهم الذكرى يعنى كيف يتذكرون وكيف يتعظون بهذه الحالة وقد جاءهم ماهو أعظم وأدخل فى وجوب الطاعة وهو ماظهر على رسول الله من المعجزات القاهرة والبينات الباهرة ثم تولوا عنه ولم يلتفتوا اليه وقالوا معلم مجنون وذلك لان كفار مكة كان لهم فى ظهور القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام قولان منهم من كان يقول ان محمدا يتعلم هذه الكلمات من بعض الناس لقوله انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وكقوله تعالى وأعانه عليه قوم آخرون ومنهم من كان يقول انه مجنون والجن يلقون عليه هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشى ثم قال تعالى انا كاشفو العذاب قليلا انكم عائدون أى كما يكشف العذاب عنكم تعودون فى الحال الى ما كنتم عليه من الشرك والمقصود التنبيه على انهم لا يوفون بعهدهم وأنهم فى حال العجز يتضرعون الى الله تعالى فاذا زال الخوف عادوا الى الكفر والتقليد لمذاهب الاسلاف ثم قال تعالى يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون قال صاحب الكشاف وقرئ نبطش بضم الطاء وقرأ الحسن نبطش بضم النون كأنه تعالى يأمر الملائكة بأن يبطشوا بهم والبطش الاخذ بشدة وأكثر ما يكون بوقع الضرب المتتابع ثم صار بحيث يستعمل فى ايصال الآلام المتتابعة وفى المراد بهذا اليوم قولان (الاول) انه يوم بدر وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومقاتل وأبى العالية رضى الله تعالى عنهم قالوا ان كفار مكة لما أزال الله تعالى عنهم القحط والجوع عادوا الى التكذيب فانتقم الله منهم يوم بدر (والقول الثانى) انه يوم القيامة روى عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال قال ابن مسعود البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هى يوم القيامة وهذا القول أصح لان يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذى يوصف بهذا الوصف العظيم ولان الانتقام التام انما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ولان هذه البطشة لما وصفت بكونها كبرى على الاطلاق وجب أن تكون أعظم أنواع البطش وذلك ليس الا فى القيامة ولفظ الانتقام فى حق الله تعالى من المتشابهات كالغضب والحياء والتعجب والمعنى معلوم والله أعلم ۞ قوله تعالى (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ان أدوا الى عباد الله انى لكم رسول أمين وأن لا تعلوا على الله انى آتيكم بسلطان مبين وانى عذت بربى وربكم ان ترجمون وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون فدعا ربه ان هؤلاء قوم مجرمون فأسر بعبادى ليلا انكم متبعون واترك البحر رهوا انهم جند مغرقون كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين) اعلم انه تعالى لما بين ان كفار مكة مصرون على كفرهم بين أن كثيرا من المتقدمين أيضا كانوا كذلك فبين حصول هذه الصفة فى أكثر قوم فرعون قال صاحب الكشاف قرئ ولقد فتنا بالتشديد للتأكيد قال ابن عباس ابتلينا قال الزجاج بلونا والمعنى عاملناهم معاملة المختبر ببعث الرسول اليهم وجاءهم رسول كريم وهو موسى واختلفوا فى معنى الكريم ههنا فقال الكلبى كريم على ربه يعنى انه استحق على ربه أنواعا كثيرة من الاكرام وقال مقاتل حسن الخلق وقال الفراء يقال فلان كريم قومه لانه قلما بعث رسول الا من أشراف قومه وكرامهم ثم قال أن أدوا الى عباد الله وفى أن قولان (الاول) أنها المفسرة وذلك لان مجئ الرسول الى من بعث اليهم متضمن لمعنى القول لانه لا يجيئهم الا مبشرا ونذيرا وداعيا الى الله (الثانى) انها المخففة من الثقيلة ومعناه وجاءهم بان الشأن والحديث أدوا وعباد الله مفعول به وهم بنو اسرائيل يقول أدوهم الى وأرسلوهم معى وهو كقوله فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم ويجوز أيضا أن يكون نداء لهم والتقدير أدوا الى يا عباد الله ماهو واجب عليكم من الايمان وقبول دعوتى واتباع سبيلى وعلل ذلك بانه رسول أمين قد ائتمنه الله تعالى على وحيه ورسالته وأن لا تعلوا أن هذه مثل الاولى فى وجهيها أى لا تتكبروا على الله باهانة وحيه ورسوله انى آتيكم بسلطان مبين بحجة بينة يعترف بصحتها كل عاقل وانى عذت بربى وربكم أن ترجمون قبل

محذوف هو حال منها أى كائنة عليكم (اذ جاءتكم جنود) ظرف لنفس النعمة أو لثبوتها لهم وقيل منصوب باذكروا على أنه بدل اشتمال من نعمة الله والمراد بالجنود الاحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثنى عشر ألفا فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باقبالهم ضرب الخندق على المدينة باشارة سلمان الفارسى ثم خرج فى ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره والخندق بينه و بين القوم وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا فى الآطام واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق فى المنافقين حتى قال معتب بن قشير كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب الى الغائط ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم الا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وعكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب ونوفل بن عبد الله وضرار ابن الخطاب ومرداس أخو بنى محارب قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا مضيقا فضربوا خيولهم فاقتحموا الخالات بهم فى السبخة بين الخندق وسلع فخرج على بن أبى طالب رضى الله عنه فى نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التى اقتحموا منها فأقبلت الفرسان نحوهم وكان عمرو معلما ليرى مكانه فقال له على رضى الله عنه يا عمرو انى أدعوك الى الله ورسوله والاسلام قال لا حاجة لى اليه قال فانى أدعوك الى النزال قال يا ابن أخى والله لا أحب أن أقتلك قال على لكنى والله أحب أن أقتلك فحمى عمرو عند ذلك وكان غيورا مشهورا بالشجاعة واقتحم عن فرسه فعقره أوضرب وجهه ثم أقبل على على فتنازلا وتجاولا فضربه على رضى الله عنه ضربة ذهبت فيها نفسه فلما قتله انهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبد الدار ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى قتله أيضا على رضى الله عنه وقيل لم يكن بينهم الا الترامى بالنبل والحجارة حتى أنزل الله تعالى النصر وذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم ريحا) عطف على جاءتكم مسوق لبيان النعمة

المراد

اجالاوسياتى بقيتها فى آخر القصة (وجنودالم تروها) وهم الملائكة عليهم السلام وكانوا الفا بعث الله عليهم صبا باردة فى ليلة شاتية فأخصرتهم
وسفت التراب فى وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الاوتاد وقطعت الاطناب وأطفأت النيران واكفأت القدور وماجت الخيل بعضها
فى بعض وقذف فى قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة فى جوانب عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الاسدى اما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء فانهزموا من غير قتال (وكان الله بما تعملون) من حفر الخندق وترتيب مبادى الحرب وقيل من التجائكم اليه ورجائكم من فضله وقرئ بالياء أى بما يعمله الكفار أى من التحزب والمحاربة أو من الكفر والمعاصى (بصيرا) ولذلك فعل مافعل من نصركم عليهم والجملة اعتراض مقرر لماقبله (اذجاؤكم) بدل من اذجاءتكم (من فوقكم) من أعلى الوادى من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تابعهم من أهل نجد قائدهم عيينة بن حصن وعامر ابن الطفيل فى هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير (ومن أسفل منكم) أى من أسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش ومن شايعهم من الاحابيش وبنى كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وكانوا عشرة آلاف (واذ زاغت الابصار) عطف على ماقبله داخل معه فى حكم التذكير أى حين مالت عن سننها وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا وقيل عدلت عن كل شئ فلم تلتفت الا الى عدوها لشدة الروع (وبلغت القلوب الحناجر) لان الرئة تنتفخ من شدة الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها الى رأس الحنجرة وهى منتهى الحلقوم وقيل هو مثل فى اضطراب القلوب ووجيبها وان لم تبلغ الحناجر حقيقة والخطاب
فى قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) لمن يظهر الايمان على الاطلاق أى تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة حيث
ظن المخلصون الثبت القلوب أن الله تعالى ينجز وعده فى اعلاء دينه كما يعرب عنه ماسيحكى عنهم من قولهم هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله

المراد ان تقتلون وقيل أن ترجمون بالقول فتقولوا انه ساحر كذاب وان لم تؤمنوا لى أى ان لم تصدقونى ولم تؤمنوا بالله لاجل ما آتيتكم به من الحجة فاللام فى لى لام الاجل فاعتزلون أى خلوا سبيلى لا لى ولا على قال مصنف الكتاب رحمه الله تعالى ان المعتزلة يتصلفون ويقولون ان لفظ الاعتزال أينما جاء فى القرآن كان المراد منه الاعتزال عن الباطل لا عن الحق فاتفق حضورى معهم فى بعض المحافل وذكر بعضهم هذا الكلام فاوردت عليه هذه الآية وقلت المراد من الاعتزال فى هذه الآية الاعتزال عن دين موسى عليه السلام وطريقته وذلك لاشك انه اعتزال عن الحق فانقطع الرجل ثم قال تعالى فدعا ربه الفاء فى فدعا تدل على انه متصل بمحذوف قبله والتأويل انهم كفروا ولم يؤمنوا فدعا موسى ربه بان هؤلاء قوم مجرمون فان قالوا الكفر أعظم حالا من الجرم فما السبب فى أن جعل صفة الكفار كونهم مجرمين حال ما أراد المبالغة فى ذمهم قلت لان الكافر قد يكون عدلا فى دينه وقد يكون مجرما فى دينه وقد يكون فاسقا فى دينه فيكون أخس الناس قال صاحب الكشاف قرئ ان هؤلاء بالكسر على اضمار القول أى فدعا ربه فقال ان هؤلاء فأسر بعبادى ليلا قرأ ابن كثير ونافع فاسر موصولة الالف والباقون مقطوعة الالف سرى وأسرى لغتان اى أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى ليلا انكم متبعون أى يتبعكم فرعون وقومه ويصير ذلك سببا لهلاكهم واترك البحر رهوا وفى الرهو قولان (أحدهما) انه الساكن يقال عيش راه اذا كان خافضا وادعا وافعل ذلك سهوا رهوا أى ساكنا بغير تشدد أراد موسى عليه السلام لما جاوز البحر ان يضربه بعصاه فينطبق كما كان فأمره الله تعالى بان يتركه ساكنا على هيئته قارا على حاله فى انفلاق الماء وبقاء الطريق يبسا حتى يدخله القبط فاذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم (والثانى) ان الرهو هو الفرجة الواسعة والمعنى ذا رهو أى ذا فرجة يعنى الطريق الذى أظهره الله فيما بين البحر انهم جند مغرقون يعنى اترك الطريق كما كان حتى يدخلوا فيغرقوا وانما أخبره الله تعالى بذلك حتى يبقى فارغ القلب عن شرهم وايذائهم ثم قال تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم دلت هذه الآية على انه تعالى أغرقهم ثم قال بعد غرقهم هذا الكلام وبين تعالى انهم تركوا هذه الاشياء الخمسة وهى الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة وقيل المنابر التى كانوا يمدحون فرعون عليها ونعمة كانوا فيها فاكهين قال علماء اللغة نعمة العيش بفتح النون حسنه ونضارته ونعمة الله احسانه وعطاؤه قال صاحب الكشاف النعمة بالفتح من التنعم وبالكسر من الانعام وقرئ فاكهين وفكهين كذلك الكاف منصوبة على معنى مثل ذلك الاخراج أخرجناهم منها وأورثناها أو فى موضع الرفع على تقدير ان الامر كذلك وأورثناها قوما آخرين ليسوا منهم فى شئ من قرابة ولا دين ولا ولاء وهم بنو اسرائيل كانوا مستعبدين فى أيديهم فأهلكهم الله على أيديهم وأورثهم ملكهم وديارهم ثم قال تعالى فما بكت عليهم السماء والارض وفيه وجوه (الاول) قال الواحدى فى البسيط روى أنس بن مالك ان النبى صلى الله عليه وسلم قال مامن عبد الا وله فى السماء بابان باب يخرج منه رزقه وباب يدخل فيه عمله فاذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية قال وذلك لانهم لم يكونوا يعملون على الارض عملا صالحا فتبكى عليهم ولم يصعد لهم الى السماء كلام طيب ولا عمل صالح فتبكى عليهم وهذا قول أكثر المفسرين (القول الثانى) التقدير فما بكت عليهم أهل السماء وأهل الارض فحذف المضاف والمعنى مابكت عليهم الملائكة ولا المؤمنون بل كانوا بهلاكهم مسرورين (والقول الثالث) ان عادة الناس جرت بان يقولوا فى هلاك الرجل العظيم الشان انه أظلمت له الدنيا وكسفت الشمس والقمر لاجله وبكت الريح والسماء والارض ويريدون المبالغة فى تعظيم تلك المصيبة لا نفس هذا الكذب ونقل صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مامن مؤمن مات فى غربة غابت فيها بواكيه الابكت عليه السماء والارض وقال جرير

الشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

وفيه ما يشبه السخرية بهم يعني انهم كانوا يستعظمون أنفسهم وكانوا يعتقدون في أنفسهم انهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والارض فما كانوا في هذا الحد بل كانوا دون ذلك وهذا انما يذكر على سبيل التهكم ثم قال وما كانوا منظرين أي لما جاء وقت هلاكهم لم ينظروا الى وقت آخر لتوبة وتدارك تقصير ۞ قوله تعالى ﴿ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب المهين من فرعون انه كان عاليا من المسرفين ولقد اخترناهم على علم على العالمين وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ان هؤلاء ليقولون ان هي الا موتتنا الاولى وما نحن بمنشرين فأتوا بآبائنا ان كنتم صادقين أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم انهم كانوا مجرمين وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ اعلم انه تعالى لما بين كيفية اهلاك فرعون وقومه بين كيفية احسانه الى موسى وقومه واعلم ان دفع الضرر مقدم على ايصال النفع فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم فقال ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب المهين يعني قتل الابناء واستخدام النساء والاتعاب في الاعمال الشاقة ثم قال من فرعون وفيه وجهان (الاول) ان يكون التقدير من العذاب المهين الصادر من فرعون (الثاني) ان يكون فرعون بدلا من العذاب المهين كأنه في نفسه كان عذابا مهينا لافراطه في تعذيبهم واهانتهم قال صاحب الكشاف وقرئ من عذاب المهين وعلى هذه القراءة فالمهين هو فرعون لانه كان عظيم السعي في اهانة المحقين وفي قراءة ابن عباس من فرعون وهو بمعنى الاستفهام وقوله انه كان عاليا من المسرفين جوابه كان التقدير أن يقال هل تعرفونه من هو في عتوه وشيطنته ثم عرف حاله بقوله انه كان عاليا من المسرفين أي كان عالي الدرجة في طبقة المسرفين ويجوز أن يكون المراد انه كان عاليا لقوله ان فرعون علا في الارض وكان أيضا مسرفا ومن اسرافه انه على حقارته وخسته ادعى الالهية ولما بين الله تعالى انه كيف دفع الضرر عن بني اسرائيل بين انه كيف أوصل اليهم الخيرات فقال ولقد اخترناهم على علم على العالمين وفيه بحثان (البحث الاول) أن قوله على علم في موضع الحال ثم فيه وجهان (أحدهما) أي عالمين بكونهم مستحقين لان يختاروا ويرجحوا على غيرهم (والثاني) أن يكون المعنى مع علمنا بأنهم قد يزيغون ويصدر عنهم الفرطات في بعض الاحوال (البحث الثاني) ظاهر قوله ولقد اخترناهم على علم على العالمين يقتضي كونهم أفضل من كل العالمين فقيل المراد على عالمي زمانهم وقيل هذا عام دخله التخصيص كقوله كنتم خير أمة أخرجت للناس ثم قال تعالى وآتيناهم من الآيات مثل فلق البحر وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى وغيرها من الآيات القاهرة التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم بلاء مبين أي نعمة ظاهرة لانه تعالى لما كان يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضا بالنعمة اختبارا لظاهر التمييز الصديق عن الزنديق وههنا آخر الكلام في قصة موسى عليه السلام ثم رجع الى ذكر كفار مكة وذلك لان الكلام فيهم حيث قال بل هم في شك يلعبون أي بل هم في شك من البعث والقيامة ثم بين كيفية اصرارهم على كفرهم ثم بين أن قوم فرعون كانوا في الاصرار على الكفر على هذه القصة ثم بين انه كيف أهلكهم وكيف أنعم على بني اسرائيل ثم رجع الى الحديث الاول وهو كون كفار مكة منكرين للبعث فقال ان هؤلاء ليقولون ان هي الا موتتنا الاولى وما نحن بمنشرين فان قيل القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية فكان من حقهم أن يقولوا ان هي الا حياتنا الاولى وما نحن بمنشرين قلنا انه قيل لهم انكم تموتون موتة تعقبها حياة كما انكم حال كونكم نطفا كنتم أمواتا وقد تعقبها حياة وذلك قوله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم فقالوا ان هي الا موتتنا الاولى يريدون ما الموتة التي من شأنها أن تعقبها حياة الا الموتة الاولى دون الموتة الثانية وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقيب الحياة لها الا الموتة الاولى خاصة فلا فرق اذا بين هذا الكلام وبين قوله ان هي الا حياتنا الدنيا هذا ما ذكره صاحب الكشاف ويمكن أن يذكر فيه وجه آخر فيقال قوله ان هي الا موتتنا الاولى يعني انه

ورسوله الآية أو بعضهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال والضعاف القلوب والمنافقون ما حكى عنهم مما الاخير فيه والجملة معطوفة على زاغت وصيغة المضارع لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار وقرئ الظنون بغير ألف وهو القياس وزيادتها لمراعاة الفواصل كما تزاد في القوافي (هنالك) ظرف زمان أو ظرف مكان لما بعده أي في ذلك الزمان الهائل أو المكان الدحض (ابتلي المؤمنون) أي عوملوا معاملة من يختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل (وزلزلوا زلزالا شديدا) من الهول والفزع وقرئ بفتح الزاي (واذ يقول المنافقون) عطف على اذ زاغت وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته (والذين في قلوبهم مرض) أي ضعف اعتقاد (ما وعدنا الله ورسوله) من اعلاء الدين والظفر (الا غرورا) أي وعد غرور وقيل قولا باطلا والقائل معتب بن قشير وأضرابه راضون به قال يعدنا محمد بفتح كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا ما هذا الا وعد غرور (واذ قالت طائفة منهم) هم أوس ابن قيظي وأتباعه وقيل عبد الله ابن أبي وأشياعه (يا أهل يثرب) هو اسم المدينة المطهرة وقيل اسم بقعة وقعت المدينة في ناحية منها وقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام أن تسمى بها كراهة لها وقال هي طيبة أو طابة كأنهم ذكروها بذلك الاسم مخالفة له عليه الصلاة والسلام ونداؤهم اياهم بعنوان اهليتهم لها ترشيح لما بعده من الامر بالرجوع اليها (لا مقام لكم) لا موضع اقامة لكم أو لا اقامة لكم ههنا يريدون المعسكر وقرئ بفتح الميم أي لا قيام أو لا موضع قيام لكم (فارجعوا) أي الى منازلكم بالمدينة مرادهم الامر بالفرار لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويجا لمقالهم وايذانا بانه ليس من قبيل الفرار المذموم وقيل المعنى لا قيام لكم في دين محمد عليه الصلاة والسلام لا يأتينا فارجعوا الى ما كنتم عليه من الشرك أو فارجعوا عما بايعتموه عليه وأسلموه الى أعدائه أو لا مقام لكم في يثرب فارجعوا كفارا ليتسنى لكم المقام بها

لا يأتيناشئ من الاحوال الا الموتة الاولى وهـذا الكلام يدل على أنهم لا تأتيهـم الحياة الثانية البتـة ثم صرحوا بهـذا المرموز فقالوا وما نحـن بمنشرين فلا حاجـة الى التكلف الذى ذكره صاحب الكشاف ثم قال تعالى وما نحن بمنشرين يقـال نشر الله الموتى وأنشرهم اذا بعثهم ثم ان الكفار احتجوا على نفى الحشر والنشر بأن قالوا ان كان البعث والنشور ممكنا معـقولا فعجلوا لنا احياء من مات من آبائنا بأن تسألوا ربكم ذلك حتى يصير ذلك دليلا عنـدنا على صدق دعواكم فى النبوة والبعث فى القيامة قيـل طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله حتى ينشر قصى بن كلاب ليشاوروه فى صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفى صحة البعث ولما حكى الله عنهـم ذلك قال أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهـم أهلكناهم انهـم كانوا مجرمين والمعنى ان كفار مكة لم يذكروا فى نفى الحشر والنشر شـبهة حتى يحتاج الى الجواب عنها ولكنهـم أصروا على الجهـل والتقليـد فى ذلك الانكار فلهـذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيـد فقال ان سائر الكفار كانوا أقوى من هؤلاء ثم ان الله تعالى أهلكهم فكذلك يهلك هؤلاء فقوله تعالى أهم خير أم قوم تبع اسـتفهام على سبيل الانكار قال أبو عبيـدة ملوك اليمن كان كل واحـد منهم يسمى تبعا لان أهل الدنيا كانوا يتبعونه وموضع تبع فى الجاهليـة موضع الخليفـة فى الاسـلام وهم الاعاظم من ملوك العرب قالت عائشـة كان تبع رجلا صالحا وقال كعب ذم الله قومه ولم يذمه قال الكلبى هو أبو كرب أسعد وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا تسـبوا تبعا فانه كان قد أسلم ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير نبى فان قيـل ما معنى قوله أهم خير أم قوم تبـع مع انه لا خير فى الفريقين قلنا معناه أهم خير فى القوة والشوكة كقوله أكفاركم خـير من أولئكم بعـد ذكر آل فرعون ثم انه تعالى ذكر الدليل القاطع على صحة القول بالبعث والقيامة فقال وما خلقنا السموات والارض وما بينهـما لاعبين ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعبا وعبثا وقد مر تقرير هذه الطريقـة بالاسـتقصاء فى أول سورة يونس وفى آخر سورة قد أفلح المؤمنون حيث قال أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وفى سورة ص حيث قال وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ثم قال ما خلقناهـما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون والمراد أهل مكة وأما اسـتدلال المعتزلة بهـذه الآية على أنه تعالى لا يخلق الكفر والفسق ولا يريدهما فهو مع جوابه معلوم والله أعـلم ۞ قوله تعالى ﴿ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يغنى مولى عن مولى شيأ ولا هم ينصرون الا من رحم الله انه هو العزيز الرحيم ان شجرت الزقوم طعام الاثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق انك أنت العزيز الكريم ان هـذا ما كنتم به تمترون﴾ اعـلم ان المقصود من قوله وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين اثبات القول بالبعث والقيامة فلا جرم ذكر عقيبه قوله ان يوم الفصل ميقاتهم أجمعين وفى تسمية يوم القيامة بيوم الفصل وجوه (الاول) قال الحسن يفصـل الله فيه بين أهل الجنـة وأهل النار (الثانى) يفصـل فى الحكم والقضاء بين عباده (الثالث) أنه فى حق المؤمنين يوم الفصـل بمعنى انه يفصل بينه و بين كل ما يكرهه وفى حق الكفار بمعنى انه يفصل بينه و بين كل ما يريده (الرابع) انه يظهر حال كل أحد كما هو فلا يبقى فى حاله ريبـة ولا شبهة فتنفصل الخيالات والشـبهات وتبقى الحقائق والبينات قال ابن عباس رضى الله عنهـما المعنى ان يوم يفصـل الرحمن بين عباده ميقاتهم أجمعـين البر والفاجر ثم وصـف ذلك اليوم فقال يوم لا يغنى مولى عن مولى شيأ يريد قريب عن قريب ولا هـم ينصرون أى ليس لهم ناصر والمعنى ان الذى يتوقع منه النصرة اما القريب فى الدين أو فى النسب أو المعتق وكل هؤلاء يسمون بالمولى فلما لم تحصل النصرة منهم فبأن لا تحصل ممن سواهم أولى وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيأ الى قوله ولا هم ينصرون قال الواحدى والمراد بقوله مولى عن مولى الكفار ألا ترى انه ذكـر المؤمن فقال الا من رحم الله قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد المؤمن فانه تشفع له الانبياء والملائكة واعـلم انه تعالى لما أقام الدلالة على أن القول بالقيامة حق ثم أردفه بوصف ذلك اليوم

والاول هو الانسب لما بعده فان قوله تعالى (و يستأذن فريق منهم النبى) معطوف على قالت وصيغة المضارع لما مر من استحضار الصورة وهم بنو حارثة و بنو سلمة استأذنوه عليه الصـلاة والسـلام فى الرجوع ممتثلين بامر هم وقوله تعالى (٣٢٣) (يقولون) بدل من يستأذن أو حال من فاعله أو استئناف مبنى على السؤال عن كيفيـة الاسـتئـذان (ان بيوتنا عورة) أى غير حصينة معرضـة للعـدو والسراق فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع الى العسكر والعورة فى الاصل الخلل أطلقت على المختل مبالغة وقد جوز أن تكون تخفيف عورة من عورت الدار اذا اختلت وقد قرئ بها والاول هو الانسب بمقام الاعتذار كما يفصح عنه تصدير مقالهم بحرف التحقيـق (وما هى بعورة) والحال انها ليست كذلك (ان يريدون) ما يريدون بالاستئذان (الا فرارا) من القتال (ولو دخلت عليهم) أسند الدخول الى بيوتهم وأوقع عليهـم لما أن المراد فرض دخولها وهم فيها لا فرض دخولها مطلقا كما هـو المفهـوم لو لم يذكر الجار والمجرور ولا فرض الدخول عليهم مطلقا كما هو المفهوم لو أسند الى الجار والمجرور (من أقطارها) أى من جميع جوانبها الا من بعضها دون بعض فالمعنى لو كانت بيوتهم مختـلة بالكلية ودخلها كل من أراد مـن أهـل الدعارة والفساد (ثم سئلوا) من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة والرجفـة الهائلة (الفتنة) أى الردة والرجعـة الى الكفر مكان ما سئلوا الآن من الايمان والطاعـة (لآتوها) لاعطوها غير مبالين بما دهاهم من الداهية الدهياء والغارة الشعواء وقرئ لاتوها بالقصر أى لفعلوها وجاؤها (وما تلبثوا بها) بالفتنة أى ما ألبثوها وما أخروها (الا يسيرا) ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان فضلا عن التعلل باختلال البيوت مع سلامتها كما فعلوا الآن وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد الارتداد الا يسيرا والاول هو اللائق بالمقام هـذا وأما تخصيص فرض الدخول بتلك العساكر المتحزبة فمع منافاته للعموم المستفاد من تجريد الدخول عن الفاعل ففيـه ضرب من فساد الوضع لما عرفت من أن مساق النظم الكريم

لبيان أنهم اذا دعوا الى الحق تعللوا بشئ يسير وان دعوا الى الباطل سارعوا اليه آثر ذى أثير من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ففرض الدخول
عليهم من جهة العساكر المذكورة واسناد سؤال الفتنة والدعوة الى الكفر الى طائفة أخرى مع أن العساكر هم المعروفون بعداوة

ذكر عقيبه وعيد الكفار ثم بعده وعد الابرار أما وعيد الكفار فهو قوله ان شجرت الزقوم طعام الاثيم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرئ ان شجرت الزقوم بكسر الشين ثم قال وفيها ثلاث لغات شجرة بفتح الشين وكسرها وشيرة بالياء وشبرة بالباء (المسئلة الثانية) البحث عن اشتقاق لفظ الزقوم قد تقدم فى سورة والصافات فلا فائدة فى الاعادة (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة الآية تدل على حصول هذا الوعيد الشديد للاثيم والاثيم هو الذى صدر عنه الاثم فيكون هذا الوعيد حاصلا للفساق (والجواب) انا بينا فى أصول الفقه ان اللفظ المفرد الذى دخل عليه حرف التعريف الاصل فيه أن ينصرف الى المذكور السابق ولا يفيد العموم وههنا المذكور السابق هو الكافر فينصرف اليه (المسئلة الرابعة) مذهب أبى حنيفة ان قراءة القرآن بالمعنى جائز واحتج عليه بانه نقل ان ابن مسعود كان يقرئ رجلا هذه الآية فكان يقول طعام اللثيم فقال قل طعام الفاجر وهذا الدليل فى غاية الضعف على مابيناه فى أصول الفقه ثم قال كالمهل قرئ بضم الميم وفتحها وسبق تفسيره فى سورة الكهف وقد شبه الله تعالى هذا الطعام بالمهل وهو دردى الزيت وعكر القطران ومذاب النحاس وسائر الفلزات وتم الكلام ههنا ثم أخبر عن غليانه فى بطون الكفار فقال يغلى فى البطون وقرئ بالتاء فمن قرأ بالتاء فلتأنيث الشجرة ومن قرأ بالياء حمله على الطعام فى قوله طعام الاثيم لان الطعام هو الشجرة فى المعنى واختار أبو عبيد الياء لان الاسم المذكور يعنى المهل هو الذى يلى الفصل فصار التذكير به أولى واعلم انه لايجوز أن يحمل الغلى على المهل لان المهل مشبه به وانما يغلى ما يشبه بالمهل كغلى الحميم والماء اذا اشتد غليانه فهو حميم ثم قال خذوه أى خذوا الاثيم فاعتلوه قرئ بكسر التاء قال الليث العتل أن تأخذ بمنكب الرجل فتعتله أى تجره اليك وتذهب به الى حبس أو محنة وأخذ فلان بزمام الناقة يعتلها وذلك اذا قبض على أصل الزمام عند الرأس وقادها قودا عنيفا وقال ابن السكيت عتلته الى السجن وأعتلته اذا دفعته دفعا عنيفا هذا قول جميع أهل اللغة فى العتل وذكروا فى اللغتين ضم التاء وكسرها وهما صحيحان مثل يعكفون ويعكفون ويعرشون ويعرشون قوله تعالى الى سواء الجحيم أى الى وسط الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم وكان الاصل أن يقال ثم صبوا من فوق رأسه الحميم يصب من فوق رؤسهم الحميم الا ان هذه الاستعارة أكمل فى المبالغة كانه يقول صبوا عليه عذاب ذلك الحميم ونظيره قوله تعالى ربنا أفرغ علينا صبرا ذق انك أنت العزيز الكريم وذكروا فيه وجوها (الاول) انه يخاطب بذلك على سبيل الاستهزاء والمراد انك أنت بالضد منه (والثانى) ان أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم مابين جبليها أعز ولا أكرم منى فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيأ (والثالث) انك كنت تعتز لا بالله فانظر ما وقعت فيه وقرئ أنك بمعنى لانك ثم قال ان هذا ما كنتم به تمترون أى ان هذا العذاب ما كنتم به تمترون أى تشكون والمراد منه ماذكره فى أول السورة حيث قال بل هم فى شك يلعبون ۞ قوله تعالى ﴿ان المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب انهم مرتقبون﴾ اعلم انه تعالى لما ذكر الوعيد فى الآيات المتقدمة ذكر الوعد فى هذه الآيات فقال ان المتقين قال أصحابنا كل من اتقى الشرك فقد صدق عليه اسم المتقى فوجب أن يدخل الفاسق فى هذا الوعد واعلم انه تعالى ذكر من أسباب تنعمهم أربعة أشياء (أولها) مساكنهم فقال فى مقام أمين واعلم ان المسكن انما يطيب بشرطين (أحدهما) أن يكون آمنا عن جميع ما يخاف ويحذر وهو المراد من قوله فى مقام أمين قرأ الجمهور فى مقام بفتح الميم وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم قال صاحب الكشاف المقام بفتح الميم هو موضع القيام والمراد المكان وهو من الخاص الذى جعل مستعملا فى المعنى العام وبالضم هو موضع الاقامة والامين من قولك أمن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن فوصف به المكان استعارة لان المكان

الدين المباشرون لقتال المؤمنين المصرون على الاعراض عن الحق المجدون فى الدعاء الى الكفر والضلال بمعزل من التقريب (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الادبار) فان بنى حارثة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين فشلوا أن لا يعودوا لمثله وقيل هم قوم غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن (وكان عهد الله مسؤلا) مطلوبا مقتضى حتى يوفى به وقيل مسؤلا عن الوفاء به ومجازى عليه (قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل) فانه لابد لكل شخص من حتف أنف أو قتل سيف فى وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم (واذن لا تمتعون الا قليلا) أى وان نفعكم الفرار مثلا فتمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتيع الا تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا (قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة) أى أو يصيبكم بسوء ان أراد بكم رحمة فاختصر الكلام أو حمل الثانى على الاول لما فى العصمة من معنى المنع (ولا يجدون لهم من دون الله وليا) ينفعهم (ولا نصيرا) يدفع عنهم الضرر (قد يعلم الله المعوقين منكم) أى المثبطين للناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون (والقائلين لاخوانهم) من منافقى المدينة (هلم الينا) وهو صوت سمى به فعل متعد نحو احضر أو قرب ويستوى فيه الواحد والجماعة على لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم فيقولون هلم يا رجل وهلموا يا رجال أى قربوا أنفسكم الينا وهذا يدل على أنهم عند هذا القول خارجون من المعسكر متوجهون نحو المدينة (ولا يأتون البأس) أى الحرب والقتال (الا قليلا) أى اتيانا أو زمانا أو بأسا قليلا فانهم يعتذرون ويثبطون

المخيف

المخيف كأنه يخون صاحبه (والشرط الثانى) اطيب المكان أن يكون قد حصل فيه أسباب النزهة وهى الجنات والعيون فلما ذكر تعالى هذين الشرطين فى مساكن أهل الجنة فقد وصفها بما لا يقبل الزيادة (والقسم الثانى) من تنعماتهم الملبوسات فقال يلبسون من سندس واستبرق قيل السندس مارق من الديباج والاستبرق ما غلظ منه وهو تعريب استبرك فان قالوا كيف جاز ورود الاعجمى فى القرآن قلنا لما عرب فقد صار عربيا (والقسم الثالث) فهو جلوسهم على صفة التقابل والغرض منه استئناس البعض بالبعض فان قالوا الجلوس على هذا الوجه موحش لانه يكون كل واحد منهم مطلعا على ما يفعله الآخر وأيضا فالذى يقل ثوابه اذا اطلع على حال من يكثر ثوابه يتنغص عيشه قلنا أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا (والقسم الرابع) أزواجهم فقال كذلك وزوجناهم بحور عين الكاف فيه وجهان أن تكون مرفوعة والتقدير الامر كذلك أو منصوبة والتقدير آتيناهم مثل ذلك قال أبو عبيدة جعلناهم أزواجا كما يزوج البعل بالبعل أى جعلناهم اثنين اثنين واختلفوا فى أن هذا اللفظ هل يدل على حصول عقد التزويج أم لا قال يونس قوله وزوجناهم بحور عين أى قرناهم بهن فليس من عقد التزويج والعرب لا تقول تزوجت بها وانما تقول تزوجتها قال الواحدى رحمه الله والتنزيل يدل على ما قال يونس وذلك قوله فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ولو كان المراد تزوجت بها لقال زوجناك بها وأيضا فقول القائل زوجته به معناه انه كان فردا فزوجته بآخر كما يقال شفعته بآخر وأما الحور فقال الواحدى أصل الحور البياض والتحوير التبييض وقد ذكرنا ذلك فى تفسير الحواريين وعين حوراء اذا اشتد بياض بياضها واشتد سواد سوادها ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون حور عينيها بياضا فى لون الجسد والدليل على أن المراد بالحور فى هذه الآية البيض قراءة ابن مسعود بعيس عين والعيس البيض وأما العين فجمع عيناء وهى التى تكون عظيمة العينين من النساء قال الجبائى رجل أعين اذا كان ضخم العين واسعها والانثى عيناء والجمع عين ثم اختلفوا فى هؤلاء الحور العين فقال الحسن هن عجائزكم الدرد ينشئهن الله خلقا آخر وقال أبو هريرة انهن ليسوا من نساء الدنيا (والنوع الخامس) من تنعمات أهل الجنة المأكول فقال يدعون فيها بكل فاكهة آمنين قالوا انهم يأكلون جميع أنواع الفاكهة لاجل انهم آمنون من التخم والامراض ولما وصف الله تعالى أنواع ما هم فيه من الخيرات والراحات بين ان حياتهم دائمة فقال لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وفيه سؤالان (السؤال الاول) انهم ما ذاقوا الموتة الاولى فى الجنة فكيف حسن هذا الاستثناء وأجيب عنه من وجوه (الاول) قال صاحب الكشاف أريد أن يقال لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع قوله الا الموتة الاولى موضع ذلك لان الموتة الماضية محال فى المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنه قيل ان كانت الموتة الاولى يمكن ذوقها فى المستقبل فانهم يذوقونها (الثانى) أن الا بمعنى لكن والتقدير لا يذوقون فيها الموت لكن الموتة الاولى قد ذاقوها (والثالث) أن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله تعالى وبطاعته ومحبته واذا كان الامر كذلك فان الانسان الذى فاز بهذه السعادة فهو فى الدنيا فى الجنة وفى الآخرة أيضا فى الجنة واذا كان الامر كذلك فقد وقعت الموتة الاولى حين كان الانسان فى الجنة الحقيقية التى هى جنة المعرفة بالله والمحبة فذكر هذا الاستثناء كالتنبيه على قولنا ان الجنة الحقيقية هى حصول هذه الحالة لا الدار التى هى دار الاكل والشرب ولهذا السبب قال عليه السلام أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار الى دار (والرابع) ان من جرب شيأ ووقف عليه صح أن يقال انه ذاقه واذا صح أن يسمى ذلك العلم بالذوق صح أن يسمى تذكره أيضا بالذوق فقوله لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى يعنى الا الذوق الحاصل بسبب تذكر الموتة الاولى (السؤال الثانى) أليس أن أهل النار أيضا لا يموتون فلم بشر أهل الجنة بهذا مع ان أهل النار يشاركونهم فيه (والجواب) ان البشارة ما وقعت بدوام الحياة بل بدوام الحياة مع سابقة حصول تلك الخيرات والسعادات فظهر الفرق ثم قال

ما أمكن لهم ويخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ولا تراهم يبارزون ويقاتلون الا شيأ قليلا اذا اضطروا اليه كقوله تعالى ما قاتلوا الا قليلا وقيل انه من تتمة كلامهم معناه ولا يأتى أصحاب محمد حرب الاحزاب ولا يقاومونهم الا قليلا (أشحة عليكم) أى بخلاء عليكم بالمعاونة أو النفقة فى سبيل الله أو الظفر والغنيمة جمع شحيح ونصبه على الحالية من فاعل يأتون أو من المعوقين أو على الذم (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم) فى أحداقهم (كالذى يغشى عليه من الموت) صفة لمصدر ينظرون أو حال من فاعله أو لمصدر تدور أو حال من أعينهم أى ينظرون نظرا كائنا كنظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخورا ولواذا بك أو ينظرون كائنين كالذى الخ أو تدور أعينهم دورانا كائنا كدوران عينه أو تدور أعينهم كائنة كعينه (فاذا ذهب الخوف) وحيزت الغنائم (سلقوكم) ضربوكم (بألسنة حداد) وقالوا وفروا قسمتنا فانا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم وبمكاننا غلبتم عدوكم وبنا نصرتم عليه والسلق البسط بقهر باليد أو باللسان وقرئ صلقوكم (أشحة على الخير) نصب على الحالية أو الذم ويؤيده القراءة بالرفع (أولئك) الموصوفون بما ذكر من صفات السوء (لم يؤمنوا) بالاخلاص (فأحبط الله أعمالهم) أى أظهر بطلانها اذ لم يثبت لهم أعمال فتبطل أو أبطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعا لمنفعة دنيوية أصلا (وكان ذلك) الاحباط (على الله يسيرا) هينا وتخصيص يسره بالذكر مع أن كل شئ عليه تعالى يسير لبيان أن أعمالهم حقيقة بأن يظهر حبوطها لكمال تعاضد الدواعى وعدم الصوارف بالكلية (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا) أى هؤلاء لجبنهم يظنون أن الاحزاب لم ينهزموا ففروا الى داخل المدينة (وان يأت الاحزاب) كرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون فى الاعراب) تمنوا أنهم خارجون الى البدو حاصلون بين الاعراب وقرئ بدى جمع باد كغاز وغزى (يسألون) كل قادم من جانب

تعالى ووقاهم عذاب الجحيم قرئ ووقاهم بالتشديد فان قالوا مقتضى الدليل أن يكون ذكر الوقاية عن عذاب الجحيم متقدما على ذكر الفوز بالجنة لان الذى وقى عن عذاب الجحيم قد يفوز وقد لا يفوز فاذا ذكر بعده انه فاز بالجنة حصلت الفائدة أما الذى فاز بخيرات الجنة فقد تخلص عن عقاب الله لا محالة فلم يكن ذكر الفوز عن عذاب جهنم بعد ذكر الفوز بثواب الجنة مفيدا قلنا التقدير كأنه تعالى قال ووقاهم فى أول الامر عن عذاب الجحيم ثم قال فضلا من ربك يعنى كل ما وصل اليه المتقون من الخلاص عن النار والفوز بالجنة فانما يحصل بفضل الله واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان الثواب يحصل تفضلا من الله تعالى لا بطريق الاستحقاق لانه تعالى لما عدد أقسام ثواب المتقين بين انها بأسرها انما حصلت على سبيل الفضل والاحسان من الله تعالى قال القاضى أكثر هذه الاشياء وان كانوا قد استحقوه بعملهم فهو بفضل الله لانه تعالى تفضل بالتكليف وغرضه منه أن يصيرهم الى هذه المنزلة فهو كمن أعطى غيره مالا ليصل به الى ملك ضيعة فانه يقال فى تلك الضيعة انها من فضله قلنا مذهبك ان هذا الثواب حق لازم على الله وانه تعالى لو أخل به لصار سفيها ولخرج به عن الالهية فكيف يمكن وصف مثل هذا الشئ بأنه فضل من الله تعالى ثم قال تعالى ذلك هو الفوز العظيم واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان التفضل أعلى درجة من الثواب المستحق فانه تعالى وصفه بكونه فضلا من الله ثم وصف الفضل من الله بكونه فوزا عظيما ويدل عليه أيضا ان الملك العظيم اذا أعطى الاجير أجرته ثم خلع على انسان آخر فان تلك الخلعة أعلى حالا من اعطاء تلك الاجرة ولما بين الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون والمعنى انه تعالى وصف القرآن فى أول هذه السورة بكونه كتابا مبينا أى كثير البيان والفائدة وذكر فى خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال ان ذلك الكتاب المبين الكثير الفائدة انما يسرناه بلسانك أى انما أنزلناه عربيا بلغتك لعلهم يتذكرون قال القاضى وهذا يدل على انه تعالى أراد من الكل الايمان والمعرفة وانه ما أراد من أحد الكفر وأجاب أصحابنا ان الضمير فى قوله لعلهم يتذكرون عائد الى أقوام مخصوصين فنحن نحمل ذلك على المؤمنين ثم قال فارتقب أى فانتظر ما يحل بهم انهم مرتقبون ما يحل بك متربصون بك الدوائر والله أعلم ٭قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء فى نصف الليل الثانى عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة ياداثم المعروف ياقديم الاحسان شهد لك اشراق العرش وضوء الكرسى ومعارج السموات وأنوار الثوابت والسيارات على منابرها المتوغلة فى العلو الاعلى ومعارجها المقدسة عن غبار عالم الكون والفساد بان الاول الحق الازلى لا يناسبه شئ من علائق العقول وشوائب الخواطر ومناسبات المحدثات فالقمر بسبب محوه مقر بالنقصان والشمس بشهادة المعارج بتغيراتها معترفة بالحاجة الى تدبير الرحمن والطبائع مقهورة تحت القدرة القاهرة فالله فى غيبيات المعارج العالية والمتغيرات شاهدة بعدم تغيره والمتعاقبات ناطقة بدوام سرمديته وكل ما توجه عليه انه مضى وسيأتى فهو خالقه وأعلى منه فجوده الوجود والايجاب وباعدامه الفناء والفساد وكل ما سواه فهو تائه فى جبروته نائر عند طلوع نور ملكوته وليس عند عقول الخلق الا انه بخلاف كل الخلق له العز والجلال والقدرة والكمال والجود والافضال ربنا ورب مبادينا اياك نروم ولك نصلى ونصوم وعليك المعول وأنت المبدأ الاول سبحانك

﴿سورة الجاثية ثلاثون وسبع آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيى به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله

المدينة وقرئ يساءلون أى يتساءلون ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغك أو يتساءلون الاعراب كما يقال رأيت الهلال وتراءيناه فان صيغة التفاعل قد تجرد عن معنى كون ما أسندت اليه فاعلا من وجه ومفعولا من وجه ويكتفى بتعدد الفاعل كما فى المثال المذكور ونظائره (عن أنبائكم) عما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) هذه الكرة ولم يرجعوا الى المدينة وكان قتال (ما قاتلوا الا قليلا) رياء وخوفا من التعيير (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة) خصلة حسنة حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد أو هو فى نفسه قدوة يحق التأسى به كقولك فى البيضة عشرون منا حديدا أى هى فى نفسها هذا القدر من الحديد وقرئ بكسر الهمز وهى لغة فيها (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) أى ثواب الله أو لقاءه أو ايام الله واليوم الآخر خصوصا وقيل هو مثل قولك أرجو زيدا وفضله فان اليوم الآخر من أيام الله تعالى ولمن كان صلة لحسنة أو صفة لها وقيل بدل من لكم والاكثرون على أن ضمير المخاطب لا يبدل منه (وذكر الله) أى وقرن بالرجاء ذكر الله (كثيرا) أى ذكرا كثيرا أو زمانا كثيرا فان المثابرة على ذكره تعالى تؤدى الى ملازمة الطاعة وبها يتحقق الائتساء برسول الله صلى الله عليه وسلم (ولما رأى المؤمنون الاحزاب) بيان لما صدر عن خلص المؤمنين عند اشتباه الشؤن واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم أى لما شاهدوهم حسبما وصفوا لهم (قالوا هذا) مشيرين الى ما شاهدوه من حيث هو من غير ان يخطر ببالهم لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فانهما من أحكام اللفظ كما مر فى قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى وجعله اشارة الى الخطب أو البلاء من نتائج النظر الجليل فتدبر نعم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذى هو (ما وعدنا الله ورسوله) فان ذلك العنوان أول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى وآياته

وآياته يؤمنون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان فى قوله حم تنزيل الكتاب وجوها (الاول) ان يكون حم مبتدأ وتنزيل الكتاب خبره وعلى هذا التقدير فلابد من حذف مضاف والتقدير تنزيل حم تنزيل الكتاب ومن الله صلة للتنزيل (الثانى) أن يكون قوله حم فى تقدير هذه حم ثم نقول تنزيل الكتاب واقع من الله العزيز الحكيم (الثالث) أن يكون حم قسما وتنزيل الكتاب نعتا له وجواب القسم ان فى السموات والتقدير وحم الذى هو تنزيل الكتاب ان الامر كذا وكذا (المسئلة الثانية) قوله العزيز الحكيم يجوز جعلهما صفة الكتاب ويجوز جعلهما صفة لله تعالى الا ان هذا الثانى أولى ويدل عليه وجوه (الاول) انا اذا جعلناهما صفة لله تعالى كان ذلك حقيقة واذا جعلناهما صفة الكتاب كان ذلك مجازا والحقيقة أولى من المجاز (الثانى) ان زيادة القرب توجب الرجحان (الثالث) انا اذا جعلنا العزيز الحكيم صفة لله كان ذلك اشارة الى الدليل الدال على ان القرآن حق لان كونه عزيزا يدل على كونه قادرا على كل الممكنات وكونه حكيما يدل على كونه عالما بجميع المعلومات غنيا عن كل الحاجات ويحصل لنا من مجموع كونه تعالى عزيزا حكيما كونه قادرا على جميع الممكنات عالما بجميع المعلومات غنيا عن كل الحاجات وكل ما كان كذلك امتنع منه صدور العبث والباطل واذا كان كذلك كان ظهور المعجز دليلا على الصدق فثبت انا اذا جعلنا كونه عزيزا حكيما صفتين لله تعالى يحصل منه هذه الفائدة وأما اذا جعلناهما صفتين للكتاب لم يحصل منه هذه الفائدة فكان الاول أولى والله أعلم ثم قال تعالى ان فى السموات والارض لآيات للمؤمنين وفيه مباحث (الاول) ان قوله ان فى السموات والارض لآيات يجوز اجراؤه على ظاهره لانه حصل فى ذوات السموات والارض أحوال دالة على وجود الله تعالى مثل مقاديرها وكيفياتها وحركاتها وأيضا الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار موجودة فى السموات والارض وهى آيات ويجوز أن يكون المعنى ان فى خلق السموات والارض كما صرح به فى سورة البقرة فى قوله ان فى خلق السموات والارض وهو يدل على وجود القادر المختار فى تفسير قوله الحمد لله الذى خلق السموات والارض (البحث الثانى) قد ذكرنا الوجوه الكثيرة فى دلالة السموات والارض على وجود الاله القادر المختار فى تفسير قوله الحمد لله الذى خلق السموات والارض ولا بأس باعادة بعضها فنقول انها تدل على وجود الاله من وجوه (الاول) انها أجسام لا تخلو عن الحوادث وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث فهذه الاجسام حادثة وكل حادث فله محدث (الثانى) انها مركبة من الاجزاء وتلك الاجزاء متماثلة لما بينا ان الاجسام متماثلة وتلك الاجزاء وقع بعضها فى العمق دون السطح وبعضها فى السطح دون العمق فيكون وقوع كل جزء فى الموضع الذى وقع فيه من الجائزات وكل جائز فلابد له من مرجح ومخصص (الثالث) ان الافلاك والعناصر مع تماثلها فى تمام الماهية الجسمية اختص كل واحد منها بصفة معينة كالحرارة والبرودة واللطافة والكثافة الفلكية والعنصرية فيكون ذلك أمرا جائزا ولابد لها من مرجح (الرابع) ان اجرام الكواكب مختلفة فى الالوان مثل كمودة زحل وبياض المشترى وحمرة المريخ والضوء الباهر للشمس ودرية الزهرة وصفرة عطارد ومحو القمر وأيضا فبعضها سعدة وبعضها نحسة وبعضها نهارى ذكر وبعضها ليلى أنثى وقد بينا ان الاجسام فى ذواتها متماثلة فوجب أن يكون اختلاف الصفات لاجل ان الاله القادر المختار خصص كل واحد منها بصفته المعينة (الخامس) ان كل فلك فانه مختص بالحركة الى جهة معينة ومختص بمقدار واحد من السرعة والبطء وكل ذلك أيضا من الجائزات فلابد من الفاعل المختار (السادس) ان كل فلك مختص بشئ معين وكل ذلك أيضا من الجائزات فلابد من الفاعل المختار وتمام الوجوه مذكور فى تفسير تلك الآيات (البحث الثالث) قوله لآيات للمؤمنين يقتضى كون هذه الآيات مختصة بالمؤمنين وقالت المعتزلة انها آيات للمؤمن والكافر الا انه لما انتفع بها المؤمن دون الكافر أضيف كونها آيات الى المؤمنين ونظيره قوله تعالى هدى للمتقين فانه هدى لكل الناس كما قال تعالى هدى للناس الا انه لما انتفع بها المؤمن خاصة

أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء الى قوله تعالى ألا ان نصر الله قريب وقوله عليه الصلاة والسلام سيشتد الامر باجتماع الاحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم وقوله عليه الصلاة والسلام ان الاحزاب سائرون اليكم بعد تسع ليال أو عشر وقرئ بكسر الراء وفتح الهمزة (وصدق الله ورسوله) أى ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله أو صدقا فى النصرة والثواب كما صدقا فى البلاء واظهار الاسم للتعظيم (وما زادهم) أى ما رأوه (الا ايمانا) بالله تعالى وبمواعيده (وتسليما) لاوامره ومقاديره (من المؤمنين) أى المؤمنين بالاخلاص مطلقا الا الذين حكيت محاسنهم خاصة (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) من الثبات مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمقاتلة لاعداء الدين وهم رجال من الصحابة رضى الله عنهم نذروا أنهم اذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومعنى صدقوا أتوا بالصدق من صدقنى اذا قال لك الصدق ومحل ما عاهدوا النصب اما بطرح الخافض عنه وايصال الفعل اليه كما فى قولهم صدقنى سن بكره أى فى سنه واما بجعل المعاهد عليه مصدوقا على المجاز كأنهم خاطبوه خطاب من قال لكوماته

* نخرتنى الاعداء ان لم تصرى *

وقالوا له سنى بلك وحيث وفوا به فقد صدقوه ولو كانوا نكثوه لكذبوه ولكان مكذوبا (فمنهم من قضى نحبه) تفصيل لحال الصادقين وتقسيم لهم الى قسمين والنحب النذر وهو أن يلتزم الانسان شيأ من أعماله ويوجبه على نفسه وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به ومحل الجار والمجرور الرفع على الابتداء على أحد الوجهين المذكورين فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية أى فبعضهم أ‌و فبعض منهم من خرج عن العهدة كحمزة ومصعب

ابن عمير وأنس بن النضر عم أنس بن مالك وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فانهم قد قضوا نذورهم سواء كان النذر على حقيقته بأن يكون ما نذروه أفعالهم الاختيارية التي هي المقاتلة المغياة بما ليس منها ولا يدخل تحت النذر وهو الموت شهيدا أو كان مستعارا لالتزامه على ما سيأتي (ومنهم) أى وبعضهم أو وبعض منهم (من ينتظر) أى قضاء نحبه لكونه مؤقتا كعثمان وطلحة وغيرهما ممن استشهد بعد ذلك رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فانهم مستمرون على نذورهم قد قضوا بعضها وهو الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقتال الى حين نزول الآية الكريمة ومنتظرون لقضاء بعضها الباقي وهو القتال الى الموت شهيدا هذا ويجوز أن يكون النحب مستعارا لالتزام الموت شهيدا اما بتنزيل التزام أسبابه التي هي أفعال اختيارية للناذر منزلة التزام نفسه واما بتنزيل نفسه منزلة أسبابه وايراد الالتزام عليه وهو الانسب بمقام المدح وأياما كان ففي وصفهم بالانتظار المنبئ عن الرغبة في المنتظر شهادة حقة بكمال اشتياقهم الى الشهادة وأما ماقيل من أن النحب استعير للموت لانه كنذر لازم في رقبة كل حيوان فمسخ للاستعارة وذهاب برونقها واخراج للنظم الكريم من مقتضى المقام بالكلية (وما بدلوا) عطف على صدقوا وفاعله فاعله أى وما بدلوا عهدهم وما غيروه (تبديلا) أى تبديلا ما لا أصلا ولا وصفا بل ثبتوا عليه راغبين فيه مراعين لحقوقه على أحسن مايكون أما الذين قضوا فظاهر وأما الباقون فيشهد به انتظارهم أصدق شهادة وتعميم عدم التبديل للفريق الاول مع ظهور حالهم للايذان بمساواة الفريق الثاني لهم في الحكم ويجوز أن يكون ضمير بدلوا للمنتظرين خاصة بناء على أن المحتاج الى البيان حالهم وقد روى أن طلحة رضى الله عنه ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده فقال عليه الصلاة والسلام أوجب طلحة الجنة وفي رواية أوجب طلحة وعنه عليه الصلاة

لا جرم قيل هدى للمتقين فكذا ههنا وقال الاصحاب الدليل والآية هو الذي يترتب على معرفته حصول العلم وذلك العلم انما يحصل بخلق الله تعالى لا بايجاب ذلك الدليل والله تعالى انما خلق ذلك العلم للمؤمن لا للكافر فكان ذلك آية دليلا في حق المؤمن لا في حق الكافر والله أعلم ثم قال تعالى وفي خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون وفيه مباحث (البحث الاول) قال صاحب الكشاف قوله ومايبث عطف على الخلق المضاف لا على الضمير المضاف اليه لان المضاف ضمير متصل مجرور والعطف عليه مستقبح فلا يقال مررت بك وزيد ولهذا طعنوا في قراءة حمزة تساءلون به والارحام بالجر في قوله والارحام وكذلك ان الذين استقبحوا هذا العطف فلا يقولون مررت بك أنت وزيد (البحث الثاني) قرأ حمزة والكسائي آيات بكسر التاء وكذلك الذي بعده وتصريف الرياح آيات والباقون بالرفع فيهما أما الرفع فمن وجهين ذكرهما المبرد والزجاج وأبو علي (أحدهما) العطف على موضع ان وما عملت فيه لان موضعهما رفع بالابتداء فيحمل الرفع فيه على الموضع كما تقول ان زيدا منطلق وعمرو وان الله برىء من المشركين ورسوله لان معنى قوله ان الله برىء أن يقول الله برىء من المشركين ورسوله (والوجه الثاني) أن يكون قوله وفي خلقكم مستأنفا ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة أخرى كما تقول ان زيدا منطلق وعمرو كاتب جعلت قولك وعمرو كاتب كلاما آخر كما تقول زيد في الدار واخرج غدا الى بلد كذا فانما حدثت بحديثين ووصلت أحدهما بالآخر بالواو وهذا الوجه هو اختيار أبي الحسن والفراء وأما وجه القراءة بالنصب فهو بالعطف على قوله ان في السموات على معنى وان في خلقكم لآيات ويقولون هذه القراءة انما في قراءة أبي وعبد الله لآيات ودخول اللام يدل على ان الكلام محمول على ان (البحث الثالث) قوله وفي خلقكم معناه خلق الانسان وقوله ومايبث من دابة اشارة الى خلق سائر الحيوانات ووجه دلالتها على وجود الاله القادر المختار ان الاجسام متساوية فاختصاص كل واحد من الاعضاء بكونه المعين وصفته المعينة وشكله المعين لابد وأن يكون بتخصيص القادر المختار ويدخل في هذا الباب انتقاله من سن الى سن آخر ومن حال الى حال آخر والاستقصاء في هذا الباب قد تقدم ثم قال تعالى واختلاف الليل والنهار وهذا الاختلاف يقع على وجوه (أحدها) تبدل النهار بالليل وبالضد منه (وثانيها) انه تارة يزداد طول النهار على طول الليل وتارة بالعكس وبمقدار مايزداد في النهار الصيفي يزداد في الليل الشتوي (وثالثها) اختلاف مطالع الشمس في أيام السنة ثم قال تعالى وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيي به الارض بعد موتها وهو يدل على القول بالفاعل المختار من وجوه (أحدها) انشاء السحاب وانزال المطر منه (وثانيها) تولد النبات من تلك الحبة الواقعة في الارض (وثالثها) تولد الانواع المختلفة وهي ساق الشجرة وأغصانها وأوراقها وأثمارها ثم تلك الثمرة منها مايكون القشر محيطا باللب كالجوز واللوز ومنها مايكون اللب محيطا بالقشر كالمشمش والخوخ ومنها مايكون خاليا عن القشر كالتين فتولد أقسام النبات على كثرة أصنافها وتباين أقسامها يدل على صحة القول بالفاعل المختار الحكيم الرحيم ثم قال وتصريف الرياح وهي تنقسم الى أقسام كثيرة بحسب تقسيمات مختلفة فمنها المشرقية والمغربية والشمالية والجنوبية ومنها الحارة والباردة ومنها الرياح النافعة والرياح الضارة ولما ذكر الله تعالى هذه الانواع الكثيرة من الدلائل قال انها آيات لقوم يعقلون واعلم ان الله تعالى جمع هذه الدلائل في سورة البقرة فقال ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيي به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون فذكر الله تعالى هذه الاقسام الثمانية من الدلائل والتفاوت بين الموضعين من وجوه (الاول) انه تعالى قال في سورة البقرة ان في خلق السموات والارض وقال ههنا ان في السموات والارض والصحيح عند أصحابنا ان الخلق عين المخلوق وقد ذكر لفظ الخلق في سورة البقرة ولم يذكره في هذه السورة تنبيها على انه لا تفاوت بين أن يقال

السموات و بين أن يقال خلق السموات فيكون هذا دليلا على ان الخلق عين المخلوق (الثانى) أنه ذكر هناك ثمانية أنواع من الدلائل وذكرههنا ستة أنواع واهمل منها الفلك والسحاب والسبب أن مدار حركة الفلك والسحاب على الرياح المختلفة فذكر الرياح الذى هو كالسبب يغنى عن ذكرهما (والتفاوت الثالث) انه جمع الكل وذكر لها مقطعا واحدا وههنا رتبها على ثلاثة مقاطع والغرض التنبيه على انه لابد من افراد كل واحد منها بنظر تام شاف (والتفاوت الرابع) انه تعالى ذكر فى هذا الموضع ثلاثة مقاطع (أولها) يؤمنون (وثانيها) يوقنون (وثالثها) يعقلون وأظن ان سبب هذا الترتيب انه قيل ان كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل وان كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل وان كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل من أن تكونوا من زمرة العاقلين فاجتهدوا فى معرفة هذه الدلائل واعلم ان كثيرا من الفقهاء يقولون انه ليس فى القرآن العلوم التى يبحث عنها المتكلمون بل ليس فيه الا ما يتعلق بالاحكام والفقه وذلك غفلة عظيمة لانه ليس فى القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الاحكام وفيه سور كثيرة خصوصا المكيات ليس فيها الا ذكر دلائل التوحيد والنبوة والبعث والقيامة وكل ذلك من علوم الاصوليين ومن تأمل علم انه ليس فى يد علماء الاصول الا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الاجمال ثم قال تعالى تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق والمراد من قوله بالحق هو ان صحتها معلومة بالدلائل العقلية وذلك لان العلم بانها حقة صحيحة اما أن يكون مستفادا من النقل أو العقل والاول باطل لان صحة الدلائل النقلية موقوفة على سبق العلم باثبات الاله العالم القادر الحكيم وباثبات النبوة وكيفية دلالة المعجزات على صحتها فلو أثبتنا هذه الاصول بالدلائل النقلية لزم الدور وهو باطل ولما بطل هذا ثبت ان العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله الا بمحض العقل واذا كان كذلك كان قوله تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق من أعظم الدلائل على الترغيب فى علم الاصول وتقرير المباحث العقلية ثم قال تعالى فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون يعنى ان من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شئ بعده يجوز أن ينتفع به وأبطل بهذا قول من يزعم ان التقليد كاف وبين أنه يجب على المكلف التأمل فى دلائل دين الله وقوله يؤمنون قرئ بالياء والتاء واختار أبو عبيد الياء لان قبله غيبة وهو قوله لقوم يؤمنون ولقوم يعقلون فان قيل ان فى أول الكلام خطابا وهو قوله وفى خلقكم قلنا الغيبة التى ذكرنا أقرب الى الحرف المختلف فيه والاقرب أولى ووجه قول من قرأ على الخطاب ان قل فيه مقدر أى قل لهم فبأى حديث بعد ذلك تؤمنون ۞ قوله تعالى ﴿ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم واذا علم من آياتنا شيأ اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيأ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم﴾ اعلم أنه تعالى لما بين الآيات للكفار وبين انهم بأى حديث بعده يؤمنون اذا لم يؤمنوا بها مع ظهورها اتبعه بوعيد عظيم لهم فقال ويل لكل أفاك أثيم الافاك الكذاب والاثيم المبالغ فى اقتراف الآثام واعلم ان هذا الاثيم له مقامان (الاول) ان يبقى مصرا على الانكار والاستكبار فقال تعالى يسمع آيات الله ثم يصر أى يقيم على كفره اقامة بقوة وشدة مستكبرا عن الايمان بالآيات معجبا بما عنده قيل نزلت فى النضر بن الحرث وما كان يشترى من أحاديث الاعاجم ويشغل بها الناس عن استماع القرآن والآيات عامة فى كل من كان موصوفا بالصفة المذكورة فان قالوا ما معنى ثم فى قوله ثم يصر مستكبرا قلنا نظيره قوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض الى قوله ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ومعناه انه تعالى لما كان خالقا للسموات والارض كان من المستبعد جعل هذه الاصنام مساوية له فى المعبودية كذا ههنا اسماع آيات الله على قوتها وظهورها من المستبعد أن يقابل بالانكار والاعراض ثم قال تعالى كأن لم يسمعها الاصل كأنه لم يسمعها والضمير ضمير الشأن

والسلام فى رواية جابر رضى الله عنه من سره أن ينظر الى شهيد يمشى على الارض فلينظر الى طلحة بن عبيد الله وفى رواية عائشة رضى الله عنها من سره ان ينظر الى شهيد يمشى على الارض وقد قضى نحبه فلينظر الى طلحة وهذا يشير الى أنه من الاولين حكما (ليجزى الله الصادقين بصدقهم) متعلق بمضمر مستأنف مسوق بطريق الفذلكة لبيان ما هو داع الى وقوع ما حكى من الاحوال والاقوال على التفصيل وغاية له كما فى قوله تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم كانه قيل وقع جميع ما وقع ليجزى الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولا وفعلا (ويعذب المنافقين) بما صدر عنهم من الاعمال والاقوال المحكية (ان شاء) تعذيبهم (أو يتوب عليهم) ان تابوا وقيل متعلق بما قبله من نفى التبديل المنطوق واثباته المعرض به كان المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى وقيل تعليل لصدقوا وقيل لما يفهم من قوله تعالى وما زادهم الا ايمانا وتسليما وقيل لما يستفاد من قوله تعالى ولما رأى المؤمنون الاحزاب كانه قيل ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب ليجزى الآية فتأمل وبالله التوفيق (ان الله كان غفورا رحيما) أى لمن تاب وهو اعتراض فيه بعث الى التوبة وقوله تعالى (ورد الله الذين كفروا) رجوع الى حكاية بقية القصة وتفصيل تتمة النعمة المشار اليها اجمالا بقوله تعالى فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها معطوف اما على المضمر المقدر قبل قوله تعالى ليجزى الله كأنه قيل اثر حكاية الامور المذكورة وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الخ واما على أرسلنا وقد وسط بينهما بيان كون ما نزل بهم واقعة طامة تحيرت بها العقول والافهام وداهية تامة تحاكت منها الركب وزلت الاقدام

وتفصيل ما صدر عن فريقى أهل الايمان وأهل الكفر والنفاق من الاحوال والاقوال لاظهار عظم النعمة وابانة خطرها الجليل ببيان وصولها اليهم عند غاية احتياجهم اليها أى فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ورددنا بذلك الذين كفروا والالتفات الى الاسم الجليل

ومحل الجملة النصب على الحال أى يصير مثل غير السامع (المقام الثانى) ان ينتقل من مقام الاصرار والاستكبار الى مقام الاستهزاء فقال واذا علم من آياتنا شيأ اتخذها هزوا وكان من حق الكلام أن يقال اتخذه هزوا أى اتخذ ذلك الشئ هزوا الا انه تعالى قال اتخذها للاشعار بان هذا الرجل اذا أحس بشئ من الكلام أنه من جملة الآيات التى أنزلها الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم خاض فى الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر على الاستهزاء بذلك الواحد ثم قال تعالى أولئك لهم عذاب مهين أولئك اشارة الى كل أفاك أثيم لشموله جميع الافاكين ثم وصف كيفية ذلك العذاب المهين فقال من ورائهم جهنم أى من قدامهم جهنم قال صاحب الكشاف الوراء اسم للجهة التى توارى بها الشخص من خلف أو قدام ثم بين ان ماملكوه فى الدنيا لا ينفعهم فقال ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيأ ثم بين ان أصنامهم لا تنفعهم فقال ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ثم قال ولهم عذاب عظيم فان قالوا انه قال قبل هذه الآية لهم عذاب مهين فا الفائدة فى قوله بعده ولهم عذاب عظيم قلنا كون العذاب مهينا يدل على حصول الاهانة مع العذاب وكونه عظيما يدل على كونه بالغا الى أقصى الغايات فى كونه ضررا ثم قال هذا هدى أى كامل فى كونه هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم والرجز أشد العذاب بدلالة قوله تعالى فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء وقوله لئن كشفت عنا الرجز وقرئ أليم بالجر والرفع أما الجر فتقديره لهم عذاب من عذاب أليم واذا كان عذابهم من عذاب أليم كان عذابهم أليما ومن رفع كان المعنى لهم عذاب أليم ويكون المراد من الرجز الرجس الذى هو النجاسة ومعنى النجاسة فيه قوله ويسقى من ماء صديد وكان المعنى لهم عذاب من تجرع رجس أو شرب رجس فتكون من تبيينا للعذاب ۞ قوله تعالى (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وسخر لكم مافى السموات وما فى الارض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوما بما كانوا يكسبون من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون) اعلم انه تعالى ذكر الاستدلال بكيفية جريان الفلك على وجه البحر وذلك لا يحصل الا بسبب تسخير ثلاثة أشياء (أحدها) الرياح التى تجرى على وفق المراد (وثانيها) خلق وجه الماء على الملاسة التى تجرى عليها الفلك (وثالثها) خلق الخشبة على وجه تبقى طافية على وجه الماء ولا تغوص فيه وهذه الاحوال الثلاثة لا يقدر عليها واحد من البشر فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله سبحانه وتعالى وقوله ولتبتغوا من فضله معناه اما بسبب التجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان أو لاجل استخراج اللحم الطرى ثم قال تعالى وسخر لكم مافى السموات ومافى الارض جميعا منه والمعنى لولا أن الله تعالى أوقف أجرام السموات والارض فى مقارها واحيازها لما حصل الانتفاع لان بتقدير كون الارض هابطة أو صاعدة لم يحصل الانتفاع بها وبتقدير كون الارض من الذهب أو الفضة أو الحديد لم يحصل الانتفاع وكل ذلك قد بيناه فان قيل مامعنى منه فى قوله جميعا منه قلنا معناه انها واقعة موقع الحال والمعنى انه سخر هذه الاشياء كائنة منه وحاصلة من عنده يعنى انه تعالى مكونها وموجدها بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقه قال صاحب الكشاف قرأ سلمة بن محارب منه على ان يكون منه فاعل سخر على الاسناد المجازى أو على انه خبر مبتدا محذوف أى ذلك منه أو هو منه واعلم انه تعالى لما علم عباده دلائل التوحيد والقدرة والحكمة اتبع ذلك بتعليم الاخلاق الفاضلة والافعال الحميدة بقوله قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله والمراد بالذين لا يرجون أيام الله الكفار واختلفوا فى سبب نزول الآية قال ابن عباس قل للذين آمنوا يعنى عمر يغفروا للذين لا يرجون أيام الله يعنى عبد الله بن أبى وذلك انهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع فارسل عبد الله غلامه ليستقى الماء فابطأ عليه فلما أتاه قال له ماحبسك قال غلام عمر قعد على طرف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبى صلى الله عليه وسلم وقرب أبى بكر وملأ لمولاه فقال عبد الله

لتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى (بغيظهم) حال من الموصول أى ملتبسين به وكذا قوله تعالى (لم ينالوا خيرا) بتداخل أو تعاقب أى غير ظافرين بخير أو الثانية بيان للاولى أو استئناف (وكفى الله المؤمنين القتال) بما ذكر من ارسال الريح والجنود (وكان الله قويا) على احداث كل ما يريد (عزيزا) غالبا على كل شئ (وأنزل الذين ظاهروهم) أى عاونوا الاحزاب المردودة (من أهل الكتاب) وهم بنو قريظة (من صياصيهم) من حصونهم جمع صيصية وهى ما يتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبى وشوكة الديك (وقذف فى قلوبهم الرعب) الخوف الشديد بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادهم للاسر حسبما ينطق به قوله تعالى (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) من غير أن يكون من جهتهم حراك فضلا عن المخالفة والاستعصاء روى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التى انهزم فيها الاحزاب ورجع المسلمون الى المدينة ووضعوا السلاح فقال أتنزع لأمتك والملائكة ما وضعوا السلاح ان الله يأمرك أن تسير الى بنى قريظة وانا عامد اليهم فاذن فى الناس أن لا يصلوا العصر الا ببنى قريظة فحاصر وهم احدى وعشرين أو خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم تنزلون على حكمى فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونسائهم فكبر النبى عليه الصلاة والسلام وقال لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة فقتل منهم ستمائة مقاتل وقيل من ثمانمائة الى تسعمائة وأسر سبعمائة وقرئ تأسرون بضم السين كما قرئ الرعب بضم العين ولعل تأخير المفعول فى الجملة الثانية مع أن مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه كما فى قوله تعالى ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون وقوله تعالى فريقا كذبوا وفريقا يقتلون لمراعاة الفواصل (وأورثكم أرضهم وديارهم) أى حصونهم (وأموالهم) نقودهم وأثاثهم ومواشيهم روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل

مامثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل سمن كلبك يأكلك فبلغ قوله عمر فاشتمل بسيفه يريد التوجه اليه فأنزل الله هذه الآية وقال مقاتل شتم رجل من كفار قريش عمر بمكة فهم أن يبطش به فأمر الله بالعفو والتجاوز وأنزل هذه الآية وروى ميمون بن مهران أن فنحاص اليهودى لما نزل قوله من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا قال احتاج رب محمد فسمع بذلك عمر فاشتمل على سيفه وخرج فى طلبه فبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى طلبه حتى رده وقوله للذين لا يرجون أيام الله قال ابن عباس لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه ولا يخشون مثل عقاب الامم الخالية وذكرنا تفسير أيام الله عند قوله وذكرهم بايام الله وأكثر المفسرين يقولون انه منسوخ وانما قالوا ذلك لانه يدخل تحت الغفران أن لا يقتلوا ولا يقاتلوا فلما أمر الله بهذه المقاتلة كان نسخا والاقرب ان يقال انه محمول على ترك المنازعة فى المحقرات وعلى التجاوز عما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية والافعال الموحشة ثم قال تعالى ليجزى قوما بما كانوا يكسبون أى لكى يجازى بالمغفرة قوما يعملون الخير فان قيل ما الفائدة فى التنكير فى قوله ليجزى قوما مع ان المراد بهم هم المؤمنون المذكورون فى قوله قل للذين آمنوا قلنا التنكير يدل على تعظيم شأنهم كانه قيل ليجزى قوما وأى قوم من شأنهم الصفح عن السيآت والتجاوز عن المؤذيات وتحمل الوحشة وتجرع المكروه وقال آخرون معنى الآية قل للمؤمنين يتجاوزوا عن الكفار ليجزى الله الكفار بما كانوا يكسبون من الاثم كانه قيل لهم لا تكافئوهم أنتم حتى نكافئهم نحن ثم ذكر الحكم العام فقال من عمل صالحا فلنفسه وهو مثل ضربه الله للذين يغفرون ومن أساء فعليها مثل ضربه للكفار الذين كانوا يقدمون على ايذاء الرسول والمؤمنين وعلى ما لا يحل فبين تعالى ان العمل الصالح يعود بالنفع العظيم على فاعله والعمل الردىء يعود بالضرر على فاعله وانه تعالى أمر بهذا ونهى عن ذلك لحظ العبد لا لنفع يرجع اليه وهذا ترغيب منه فى العمل الصالح وزجر عن العمل الباطل ۞ قوله تعالى ﴿ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون انهم لن يغنوا عنك من الله شيأ وان الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون أم حسب الذين اجترحوا السيآت أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾ اعلم انه تعالى بين انه أنعم بنعم كثيرة على بنى اسرائيل مع انه حصل بينهم الاختلاف على سبيل البغى والحسد والمقصود ان يبين ان طريقة قومه كطريقة من تقدم واعلم أن النعم على قسمين نعم الدين ونعم الدنيا ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا فلهذا بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين فقال ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة والاقرب ان كل واحد من هذه الثلاثة يجب أن يكون مغايرا لصاحبه اما الكتاب فهو التوراة وأما الحكم ففيه وجوه يجوز أن يكون المراد العلم والحكمة ويجوز أن يكون المراد العلم بفصل الحكومات ويجوز أن يكون المراد معرفة أحكام الله تعالى وهو علم الفقه واما النبوة فمعلومة واما نعم الدنيا فهى المراد من قوله تعالى ورزقناهم من الطيبات وذلك لانه تعالى وسع عليهم فى الدنيا فاورثهم أموال قوم فرعون وديارهم ثم أنزل عليهم المن والسلوى ولما بين تعالى انه أعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيبا وافرا قال وفضلناهم على العالمين يعنى انهم كانوا أكبر درجة وأرفع منقبة ممن سواهم فى وقتهم فلهذا المعنى قال المفسرون المراد وفضلناهم على عالمى زمانهم ثم قال تعالى وآتيناهم بينات من الامر وفيه وجوه (الاول) انه آتاهم بينات من الامر أى أدلة على أمور الدنيا (الثانى) قال ابن عباس يعنى بين لهم من أمر النبى صلى الله عليه وسلم انه يهاجر من تهامة الى يثرب ويكون أنصاره أهل يثرب (الثالث) المراد وآتيناهم بينات أى معجزات قاهرة على صحة نبوتهم والمراد معجزات موسى عليه السلام ثم قال تعالى فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم

عقارهم للمهاجرين دون الانصار فقالت الانصار فى ذلك فقال عليه الصلاة والسلام انكم فى منازلكم فقال عمر رضى الله عنه أما تخمس كما خمست يوم بدر فقال عليه الصلاة والسلام لا انما جعلت هذه لى طعمة دون الناس قالوا رضينا بما صنع الله ورسوله (وأرضا لم تطؤها) أى أورثكم فى علمه وتقديره أرضا لم تقبضوها بعد كفارس والروم وقيل كل أرض تفتح الى يوم القيامة وقيل خيبر (وكان الله على كل شئ قديرا) فقد شاهدتم بعض مقدوراته من ايراث الاراضى التى تسلمتموها فقيسوا عليها ما عداها (يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا) أى السعة والتنعم فيها (وزينتها) وزخارفها (فتعالين) أى اقبلن بارادتكن واختياركن لاحدى الخصلتين كما يقال أقبل يخاصمنى وذهب يكلمنى وقام يهددنى (أمتعكن) بالجزم جوابا للامر وكذا (وأسرحكن) أى أعطكن المتعة وأطلقكن (سراحا جميلا) طلاقا من غير ضرار وقرئ بالرفع على الاستئناف روى أنهن سألنه عليه الصلاة والسلام ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة فخيرها فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله ذلك فنزل لا يحل لك النساء من بعد واختلف فى أن هذا التخيير هل كان تفويض الطلاق اليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار أولا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم الى انه لم يكن تفويض الطلاق وانما كان تخييرا لهن بين الارادتين على أنهن ان أردن الدنيا فارقهن عليه الصلاة والسلام كما ينبئ عنه قوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن وذهب آخرون الى أنه كان تفويضا للطلاق اليهن حتى لو أنهن اخترن أنفسهن كان ذلك طلاقا وكذا اختلف فى حكم التخيير فقال ابن عمر وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم اذا خير رجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شئ أصلا ولو اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا ورجعية عند الشافعى وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان وروى عن زيد بن ثابت أنها

العلم بغيا بينهم وهذا مفسر فى سورة حم عسق والمقصود من ذكر هذا الكلام التعجب من هذه الحالة لان حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف وههنا صار مجئ العلم سببا لحصول الاختلاف وذلك لانهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم وانما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم ثم ههنا احتمالات يريد انهم علموا ثم عاندوا ويجوز أن يريد بالعلم الدلالة التى توصل الى العلم والمعنى انه تعالى وضع الدلائل والبينات التى لو تأملوا فيها لعرفوا الحق لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا وأظهروا النزاع ثم قال تعالى ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون والمراد انه لا ينبغى أن يغتر المبطل بنعم الدنيا فانها وان ساوت نعم المحق أو زادت عليها فانه سيرى فى الآخرة ما يسوءه وذلك كالزجر لهم ولما بين تعالى انهم أعرضوا عن الحق لاجل البغى والحسد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بان يعدل عن تلك الطريقة وان يتمسك بالحق وان لا يكون له غرض سوى اظهار الحق وتقرير الصدق فقال تعالى ثم جعلناك على شريعة من الامر أى على طريقة ومنهاج من أمر الدين فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والبينات ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال وأديانهم المبنية على الاهواء والجهل قال الكلبى ان رؤساء قريش قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ارجع الى ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك وأسن فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم قال تعالى انهم لن يغنوا عنك من الله شيأ أى لو ملت الى أديانهم الباطلة فصرت مستحقا للعذاب فهم لا يقدرون على دفع عذاب الله عنك ثم بين تعالى ان الظالمين يتولى بعضهم بعضا فى الدنيا وفى الآخرة لا ولى لهم ينفعهم فى ايصال الثواب وازالة العقاب واما المتقون المهتدون فالله وليهم وناصرهم وهم مواليه وما أبين الفرق بين الولايتين ولما بين الله تعالى هذه البينات الباقية النافعة قال هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون وقد فسرناه فى آخر سورة الاعراف والمعنى هذا القرآن بصائر للناس جعل ما فيه من البيانات الشافية والبينات الكافية بمنزلة البصائر فى القلوب كما جعل فى سائر الآيات روحا وحياة وهو هدى من الضلالة ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن ولما بين الله تعالى الفرق بين الظالمين وبين المتقين من الوجه الذى تقدم بين الفرق بينهما من وجه آخر فقال أم حسب الذين اجترحوا السيآت ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات وفيه مباحث (البحث الاول) أم كلمة وضعت للاستفهام عن شئ حال كونه معطوفا على شئ آخر سواء كان ذلك المعطوف مذكورا أو مضمرا والتقدير ههنا أفيعلم المشركون هذا أم يحسبون انا نتولاهم كما نتولى المتقين (البحث الثانى) الاجتراح الاكتساب ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله أى كاسبهم ثم قال تعالى ويعلم ما جرحتم بالنهار (البحث الثالث) قال الكلبى نزلت هذه الآية فى على وحمزة وأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم وفى ثلاثة من المشركين عتبة وشيبة والوليد بن عتبة قالوا للمؤمنين والله ما أنتم على شئ ولو كان ما تقولون حقا لكان حالنا أفضل من حالكم فى الآخرة كما أنا أفضل حالا منكم فى الدنيا فانكر الله عليهم هذا الكلام وبين انه لا يمكن أن يكون حال المؤمن المطيع مساويا لحال الكافر العاصى فى درجات الثواب ومنازل السعادات واعلم ان لفظ حسب يستدعى مفعولين أحدهما الضمير المذكور فى قوله ان نجعلهم والثانى الكاف فى قوله كالذين آمنوا والمعنى أحسب هؤلاء المجترحين ان نجعلهم أمثال الذين آمنوا ونظيره قوله تعالى أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون وقوله انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار وقوله تعالى أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون وقوله أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار ثم قال تعالى سواء محياهم ومماتهم وفيه مسائل (المسألة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم سواء بالنصب والباقون بالرفع واختيار أبى عبيد النصب أما وجه القراءة بالرفع فهو ان قوله سواء محياهم ومماتهم مبتدأ والجملة فى حكم المفرد فى محل النصب على البدل من المفعول الثانى لقوله أم نجعل وهو الكاف فى قوله

ان اختارت زوجها يقع طلقة واحدة وان اختارت نفسها يقع ثلاث طلقات وهو قول الحسن ورواية عن مالك وروى عن على رضى الله عنه انها ان اختارت زوجها فواحدة رجعية وان اختارت (٣٣٢) نفسها فواحدة بائنة وروى عنه أيضا انها ان اختارت زوجها لا يقع شئ أصلا وعليه اجماع فقهاء الامصار وقد روى عن عائشة رضى الله عنها خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه ولم يعده طلاقا وتقديم التمتيع على التسريح من باب الكرم وفيه قطع لمعاذيرهن من أول الامر والمتعة فى المطلقة التى لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق عند العقد واجبة عندنا وفيما عداهن مستحبة وهى درع وخمار وملحفة بحسب السعة والاقتار الا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك فحينئذ يجب لها الاقل منهما ولا ينقص عن خمسة دراهم (وان كنتن تردن الله ورسوله) أى تردن رسوله وذكر الله عز وجل للايذان بجلالة محله عليه الصلاة والسلام عنده تعالى (والدار الآخرة) أى نعيمها الذى لا قدر عنده للدنيا وما فيها جميعا (فان الله أعد للمحسنات منكن) بمقابلة احسانهن (أجرا عظيما) لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ومن للتبيين لان كلهن محسنات وتجريد الشرطية الاولى عن الوعيد للمبالغة فى تحقيق معنى التخيير والاحتراز عن شائبة الاكراه وهو السر فيما ذكر من تقديم التمتيع على التسريح وفى وصف السراح بالجميل (يا نساء النبى) تلوين للخطاب وتوجيه له اليهن لاظهار الاعتناء بنصحهن ونداؤهن ههنا وفيما بعده بالاضافة اليه عليه الصلاة والسلام لانها التى يدور عليها ما يرد عليهن من الاحكام (من يأت منكن بفاحشة) بكبيرة (مبينة) ظاهرة القبح من بين بمعنى تبين وقرى بفتح الياء والمراد بها كل ما اقترفن من الكبائر وقيل هى عصيانهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن وطلبهن منه ما يشق عليه أو ما يضيق به ذرعه ويغتم لاجله وقرى تأت بالفوقانية (يضاعف لها العذاب ضعفين) أى يعذبن ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه لان الذنب منهن أقبح فان زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب

كالذين

كالذين آمنوا ونظيره قوله ظننت زيدا أبوه منطلق وأما وجه القراءة بالنصب فقال صاحب الكشاف أجرى سواء مجرى مستويا فارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية وكان مفردا غير جملة ومن قرأ ومماتهم بالنصب جعل محياهم ومماتهم ظرفين كمقدم الحاج وخفوق النجم أى سواء فى محياهم وفى مماتهم قال أبو على من نصب سواء جعل المحيا والممات بدلا من الضمير المنصوب فى نجعلهم فيصير التقدير أن نجعل محياهم ومماتهم سواء قال ويجوز أن نجعله حالا ويكون المفعول الثانى هو الكاف فى قوله كالذين (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بقوله محياهم ومماتهم قال مجاهد عن ابن عباس يعنى أحسبوا ان حياتهم ومماتهم كحياة المؤمنين وموتهم كلا فانهم يعيشون كافرين ويموتون كافرين والمؤمنون يعيشون مؤمنين ويموتون مؤمنين وذلك لان المؤمن مادام يكون فى الدنيا فانه يكون وليه هو الله وأنصاره المؤمنون وحجة الله معه والكافر بالضد منه كما ذكره فى قوله وان الظالمين بعضهم أولياء بعض وعند القرب الى الموت فان حال المؤمن ما ذكره فى قوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة وحال الكافر ما ذكره فى قوله الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم وأما فى القيامة فقال تعالى وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة فهذا هو الاشارة الى بيان وقوع التفاوت بين الحالتين (والوجه الثانى فى تأويل الآية) أن يكون المعنى انكار أن يستووا فى الممات كما استووا فى الحياة وذلك لان المؤمن والكافر قد يستوى محياهم فى الصحة والرزق والكفاية بل قد يكون الكافر أرجح حالا من المؤمن وانما يظهر الفرق بينهما فى الممات (والوجه الثالث فى التأويل) ان قوله سواء محياهم ومماتهم مستأنف على معنى ان محيا المسيئين ومماتهم سواء فكذلك محيا المحسنين ومماتهم أى كل يموت على حسب ما عاش عليه ثم انه تعالى صرح بانكار تلك التسوية فقال ساء ما يحكمون وهو ظاهر ﴿ قوله تعالى (وخلق الله السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون) اعلم انه تعالى لما أفتى بان المؤمن لا يساوى الكافر فى درجات السعادات أتبعه بالدلالة الظاهرة على صحة هذه الفتوى فقال وخلق الله السموات والارض بالحق ولو لم يوجد البعث لما كان ذلك بالحق بل كان بالباطل لانه تعالى لما خلق الظالم وسلطه على المظلوم الضعيف ثم لا ينتقم للمظلوم من الظالم كان ظالما ولو كان ظالما لبطل انه خلق السموات والارض بالحق وتمام تقرير هذه الدلائل مذكور فى أول سورة يونس قال القاضى هذه الآية تدل على أن فى مقدور الله ما لو حصل لكان ظلما وذلك لا يصح الا على مذهب المجبرة الذين يقولون لو فعل كل شئ أراده لم يكن ظلما وعلى قول من يقول انه لا يوصف بالقدرة على الظلم وأجاب الاصحاب عنه بان المراد فعل ما لو فعله غيره لكان ظلما كما أن المراد من الابتداء والاختبار فعل ما لو فعله غيره لكان ابتلاء واختبارا وقوله تعالى ولتجزى فيه وجهان (الاول) انه معطوف على قوله بالحق فيكون التقدير وخلق الله السموات والارض لاجل اظهار الحق ولتجزى كل نفس (الثانى) أن يكون العطف على محذوف والتقدير خلق الله السموات والارض بالحق ليدل بها على قدرته ولتجزى كل نفس والمعنى ان المقصود من خلق هذا العالم اظهار العدل والرحمة وذلك لا يتم الا اذا حصل البعث والقيامة وحصل التفاوت فى الدرجات والدركات بين المحقين وبين المبطلين ثم عاد تعالى الى شرح أحوال الكفار وقبائح طرائقهم فقال أفرأيت من اتخذ الهه هواه يعنى تركوا متابعة الهدى وأقبلوا على متابعة الهوى فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل الهه وقرئ آلهته هواه لانه كلما مال طبعه الى شئ اتبعه وذهب خلفه فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد

والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق وعوتب الانبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا يعاتب به الامم وقرئ يضعف على البناء للمفعول ويضاعف ونضعف بنون العظمة على البناء للفاعل ونصب العذاب (وكان ذلك على الله (٣٣٣) يسيرا) لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبى عليه الصلاة والسلام بل يدعوه اليه لمراعاة حقه (ومن يقنت منكن) وقرئ بالتاء أى ومن يدم على الطاعة (لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) مرة على الطاعة والتقوى وأخرى على طلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقناعة وحسن المعاشرة وقرئ يعمل بالياء حملا على لفظ من ويؤتها على ان فيه ضمير اسم الله تعالى (وأعتدنا لها) فى الجنة زيادة على أجرها المضاعف (رزقا كريما) مرضيا (يا نساء النبى لستن كاحد من النساء) أصل أحد وحد بمعنى الواحد ثم وضع فى النفى مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء فى الفضل والشرف (ان اتقيتن) مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله أو ان اتصفتن بالتقوى كما هو اللائق بحالكن (فلا تخضعن بالقول) عند مخاطبة الناس أى لا تجبن بقولكن خاضعا لينا على سنن قول المريبات والمومسات (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فجور وريبة وقرئ بالجزم عطفا على محل فعل النهى على أنه نهى لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الاطماع بالقول الخاضع كانه قيل فلا تخضعن بالقول فلا يطمع مريض القلب (وقلن قولا معروفا) بعيدا عن الريبة والاطماع بجد وخشونة من غير تخنيث أو قولا حسنا مع كونه خشنا (وقرن فى بيوتكن) أمر من قر يقر من باب علم وأصله اقررن حذفت الراء الاولى وألقيت فتحتها على ما قبلها كما فى قولك ظلن أو من قار يقار اذا اجتمع وقرئ بكسر القاف من وقر يقر وقارا اذا ثبت واستقر وأصله اوقرن ففعل به ما فعل بعدن من وعد أو من قر يقر حذفت احدى راءى اقررن ونقلت كسرتها الى القاف كما تقول ظلن (ولا تبرجن) أى لا تتبخترن

في مشيكن (تبرج الجاهلية الاولى) أى تبرجا مثل تبرج النساء في الجاهلية القديمة وهي ما بين آدم ونوح وقيل ما بين ادريس ونوح عليهما السلام وقيل الزمان الذى ولد فيه ابراهيم عليه السلام كانت المرأة تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل زمن داود وسليمان عليهما السلام والجاهلية الاخرى ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقيل الجاهلية الاولى جاهلية الكفر والجاهلية الاخرى الفسوق في الاسلام ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام لابى الدرداء ان فيك جاهلية قال جاهلية كفر أو جاهلية اسلام قال بل جاهلية كفر (وأقمن الصلوة وآتين الزكوة) أمرهن بهما لاناقتهما على غيرهما وكونهما أصلي الطاعات البدنية والمالية (وأطعن الله ورسوله) أى في كل ما تأتين وما تذرن لاسيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) أى الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لامرهن ونهيهن على الاستئناف ولذلك عمم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهن وصرح بالمقصود حيث قيل بطريق النداء أو المدح (أهل البيت) مرادا بهم من حواهم بيت النبوة (ويطهركم) من أوضار الاوزار والمعاصى (تطهيرا) بليغا واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير لمزيد التنفير عنها وهذه كما ترى آية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبي عليه الصلاة والسلام من أهل بيته قاضية ببطلان رأى الشيعة في تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعلى وابنيهما رضوان الله عليهم وأما ما تمسكوا به من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات غدوة وعليه مرط مرحل من شعر أسود وجلس فأتت فاطمة فادخلها فيه ثم جاء على فادخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فادخلهما فيه ثم قال انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت فانما يدل على كونهم من أهل البيت لا على أن من عداهم ليسوا كذلك ولو فرضت دلالته على ذلك لما اعتد بها لكونها في مقابلة النص (واذكرن ما يتلى في بيوتكن) أى اذكرن للناس بطريق

كل وقت واحدا منها ثم قال تعالى وأضله الله على علم يعنى على علم بان جوهر روحه لا يقبل الصلاح ونظيره في جانب التعظيم قوله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته وتحقيق الكلام فيه ان جواهر الارواح البشرية مختلفة فمنها مشرقة نورانية علوية الهية ومنها كدرة ظلمانية سفلية عظيمة الميل الى الشهوات الجسمانية فهو تعالى يقابل كلا منهم بحسب ما يليق بجوهره وماهيته وهو المراد من قوله وأضله الله على علم في حق المردودين وبقوله الله أعلم حيث يجعل رسالاته في حق المقبولين ثم قال وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فقوله وأضله الله على علم هو المذكور في قوله ان الذين كفروا الى قوله لا يؤمنون وقوله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة هو المراد من قوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة وكل ذلك قد مر تفسيره في سورة البقرة بالاستقصاء والتفاوت بين الآيتين انه في هذه الآية قدم ذكر السمع على القلب وفي سورة البقرة قدم القلب على السمع والفرق ان الانسان قد يسمع كلاما فيقع في قلبه منه أثر مثل ان جماعة من الكفار كانوا يلقون الى الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم شاعر وكاهن وأنه يطلب الملك والرياسة فالسامعون اذا سمعوا ذلك أبغضوه ونفرت قلوبهم عنه وأما كفار مكة فهم كانوا يبغضونه بقلوبهم بسبب الحسد الشديد فكانوا يستمعون اليه ولو سمعوا كلامه ما فهموا منه شيأ نافعا ففي الصورة الاولى كان الاثر يصعد من البدن الى جوهر النفس وفي الصورة الثانية كان الاثر ينزل من جوهر النفس الى قرار البدن فلما اختلف القسمان لا جرم أرشد الله تعالى الى كلا هذين القسمين بهذين الترتيبين اللذين نبهنا عليهما ولما ذكر الله تعالى هذا الكلام قال فمن يهديه من بعد الله أى من بعد ان أضله الله أفلا تذكرون أيها الناس قال الواحدى وليس يبقى للقدرية مع هذه الآية عذر ولا حيلة لان الله تعالى صرح بمنعه اياهم عن الهدى حين أخبر انه ختم على سمع هذا الكافر وقلبه وبصره وأقول هذه المناظرة قد سبقت بالاستقصاء في أول سورة البقرة واعلم أنه تعالى حكى عنهم بعد ذلك شبهتهم في انكار القيامة وفي انكار الاله القادر اما شبهتهم في انكار القيامة فهى قوله تعالى وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى فان قالوا الحياة مقدمة على الموت في الدنيا فمنكرو القيامة كان يجب أن يقولوا نحيا ونموت فما السبب في تقديم ذكر الموت على الحياة قلنا فيه وجوه (الاول) المراد بقوله نموت حال كونهم نطفا في أصلاب الآباء وأرحام الامهات وبقوله نحيا ما حصل بعد ذلك في الدنيا (الثانى) نموت نحن ونحيا بسبب بقاء أولادنا (الثالث) يموت بعض ويحيا بعض (الرابع) وهو الذى خطر بالبال عند كتبة هذا الموضع انه تعالى قدم ذكر الحياة فقال ما هى الا حياتنا الدنيا ثم قال بعده نموت ونحيى يعنى ان تلك الحياة منها ما يطرأ عليها الموت وذلك في حق الذين ماتوا ومنها ما لم يطرأ الموت عليها وذلك في حق الاحياء الذين لم يموتوا بعد وأما شبهتهم في انكار الاله الفاعل المختار فهو قولهم وما يهلكنا الا الدهر يعنى تولد الاشخاص انما كان بسبب حركات الافلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع واذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة واذا وقعت على وجه آخر حصل الموت فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الافلاك ولا حاجة في هذا الباب الى اثبات الفاعل المختار فهذه الطائفة جمعوا بين انكار الاله وبين انكار البعث والقيامة ثم قال تعالى وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون والمعنى ان قبل النظر ومعرفة الدليل الاحتمالات باسرها قائمة فالذى قالوه يحتمل وضده أيضا يحتمل وذلك هو أن يكون القول بالبعث والقيامة حقا وأن يكون القول بوجود الاله الحكيم حقا فانهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية في أن هذا الاحتمال الثانى باطل ولكنه خطر ببالهم ذلك الاحتمال الاول فجزموا به وأصروا عليه من غير حجة ولا بينة فثبت أنه ليس لهم علم ولا جزم ولا يقين في صحة القول الذى اختاروه بسبب الظن والحسبان وميل القلب اليه من غير موجب وهذه الآية من أقوى الدلائل على ان القول بغير حجة وبينة قول باطل فاسد وان متابعة الظن والحسبان منكر عند الله تعالى ثم قال تعالى واذا تتلى عليهم

آياتنا

آباءنا بينات ما كان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ حجتهم بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخيره (المسئلة الثانية) سمى قولهم حجة لوجوه (الاول) انه فى زعمهم حجة (الثانى) أن يكون المراد من كان حجتهم هذا فليس لهم البتة حجة كقوله * تحية بينهم ضرب وجيع * (الثالث) انهم ذكروها فى معرض الاحتجاج بها (المسئلة الثالثة) ان حجتهم على انكار البعث أن قالوا لو صح ذلك فائتوا بآبائنا الذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحة البعث واعلم ان هذه الشبهة ضعيفة جدا لانه ليس كل ما لا يحصل فى الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول فان حصول كل واحد منا كان معدوما من الازل الى الوقت الذى حصلنا فيه ولو كان عدم الحصول فى وقت معين يدل على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك وذلك باطل بالاتفاق ثم قال تعالى قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة فان قيل هذا الكلام مذكور لاجل جواب من يقول ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا الا الدهر فهذا القائل كان منكر الوجود الاله ولوجود يوم القيامة فكيف يجوز ابطال كلامه بقوله قل الله يحييكم ثم يميتكم وهل هذا الا اثبات للشئ بنفسه وهو باطل قلنا انه تعالى ذكر الاستدلال بحدوث الحيوان والانسان على وجود الفاعل الحكيم فى القرآن مرارا وأطوارا فقوله ههنا قل الله يحييكم اشارة الى تلك الدلائل التى بينها وأوضحها مرارا وليس المقصود من ذكر هذا الكلام اثبات الاله بقول الاله بل المقصود منه التنبيه على ما هو الدليل الحق القاطع فى نفس الامر ولما ثبت ان الاحياء من الله تعالى وثبت ان الاعادة مثل الاحياء الاول وثبت ان القادر على الشئ قادر على مثله ثبت انه تعالى قادر على الاعادة وثبت ان الاعادة ممكنة فى نفسها وثبت ان القادر الحكيم أخبر عن وقت وقوعها فوجب القطع بكونها حقة وأما قوله تعالى ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه فهو اشارة الى ما تقدم ذكره فى الآية المتقدمة وهو ان كونه تعالى عادلا خالقا بالحق منزها عن الجور والظلم يقتضى صحة البعث والقيامة ثم قال تعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون أى لكن أكثر الناس لا يعلمون دلالة حدوث الانسان والحيوان والنبات على وجود الاله القادر الحكيم ولا يعلمون أيضا أنه تعالى لما كان قادرا على الايجاد ابتداء وجب أن يكون قادرا على الاعادة ثانيا ۞ قوله تعالى ﴿ولله ملك السموات والارض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين﴾ واعلم أنه تعالى لما احتج بكونه قادرا على الاحياء فى المرة الاولى وعلى كونه قادرا على الاحياء فى المرة الثانية فى الآيات المتقدمة عمم الدليل فقال ولله ملك السموات والارض أى لله القدرة على جميع الممكنات سواء كانت من السموات أو من الارض واذا ثبت كونه تعالى قادرا على كل الممكنات وثبت ان حصول الحياة فى هذه الذات ممكن اذ لو لم يكن ممكنا لما حصل فى المرة الاولى فيلزم من هاتين المقدمتين كونه تعالى قادرا على الاحياء فى المرة الثانية ولما بين تعالى امكان القول بالحشر والنشر بهذين الطريقين ذكر تفاصيل أحوال القيامة (فأولها) قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وفيه ابحاث (البحث الاول) عامل النصب فى يوم تقوم يخسر ويومئذ بدل من يوم تقوم (البحث الثانى) قد ذكرنا فى مواضع من هذا الكتاب ان الحياة والعقل والصحة كأنها رأس المال والتصرف فيها لطلب سعادة الآخرة يجرى مجرى تصرف التاجر فى رأس المال لطلب الربح والكفار قد أتعبوا أنفسهم فى هذه التصرفات وما وجدوا منها الا الحرمان والخذلان فكان ذلك فى الحقيقة نهاية الخسران (وثانيها) قوله تعالى وترى كل أمة جاثية قال الليث الجثو الجلوس على الركب كما يجثى بين يدى الحاكم قال الزجاج ومثله جذا يجذو قال صاحب الكشاف وقرئ جاذية قال أهل اللغة والجذو أشد استيفازا

العظة والتسديد كثيرا ما يتلى فى بيوتكن (من آيات الله والحكمة) من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع وهو تذكير بما أنعم عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحى وما شاهدن من برحاء الوحى مما يوجب قوة الايمان والحرص على الطاعة حثا على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه والتعرض للتلاوة فى البيوت دون النزول فيها مع أنه الانسب لكونها مهبط الوحى لعمومها لجميع الآيات ووقوعها فى كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول وعدم تعيين التالى لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبى عليهما الصلاة والسلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما (ان الله كان لطيفا خبيرا) يعلم ويدبر ما يصلح فى الدين ولذلك فعل ما فعل من الامر والنهى أو يعلم من يصلح للنبوة ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته (ان المسلمين والمسلمات) أى الداخلين فى السلم المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والاناث (والمؤمنين والمؤمنات) المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين (والقانتين والقانتات) المداومين على الطاعات القائمين بها (والصادقين والصادقات) فى القول والعمل (والصابرين والصابرات) على الطاعات وعن المعاصى (والخاشعين والخاشعات) المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم (والمتصدقين والمتصدقات) بما وجب فى مالهم (والصائمين والصائمات) الصوم المفروض (والحافظين فروجهم والحافظات) عن الحرام (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) بقلوبهم وألسنتهم (أعد الله لهم) بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة (مغفرة) لما اقترفوا من الصغائر لانهن مكفرات بما عملوا من الاعمال الصالحة (وأجرا عظيما) على ما صدر عنهم من الطاعات والآية وعد لهن ولامثالهن على الطاعة والتدرع بهذه الخصال الحميدة روى أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهن قلن يا رسول الله ذكر الله الرجال فى

من الجثولان الجاذى هو الذى يجلس على أطراف أصابعه وعن ابن عباس جاثية مجتمعة مرتقبة لما يعمل بها ثم قال تعالى كل أمة تدعى الى كتابها على الابتداء وكل أمة على الابدال من كل أمة وقوله الى كتابها أى الى صحائف أعمالها فاكتفى باسم الجنس كقوله تعالى ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه والظاهر أنه يدخل فيه المؤمنون والكافرون لقوله تعالى بعد ذلك فأما الذين آمنوا ثم قال تعالى وأما الذين كفروا فان قيل الجثو على الركبة انما يليق بالخائف والمؤمنون لا خوف عليهم يوم القيامة قلنا ان المحق الآمن قد يشارك المبطل فى مثل هذه الحالة الى أن يظهر كونه محقا ثم قال تعالى اليوم تجزون والتقدير يقال لهم اليوم تجزون فان قيل كيف أضيف الكتاب اليهم والى الله تعالى قلنا لا منافاة بين الامرين لانه كتابهم بمعنى انه الكتاب المشتمل على أعمالهم وكتاب الله بمعنى انه هو الذى أمر الملائكة بكتبه ينطق عليكم أى يشهد عليكم بما عملتم من غير زيادة ولا نقصان انا كنا نستنسخ الملائكة ما كنتم تعملون أى نستكتبهم أعمالكم ثم بين أحوال المطيعين فقال فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر بعد وصفهم بالايمان كونهم عاملين للصالحات فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايرا للايمان زائدا عليه (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة علق الدخول فى رحمة الله على كونه آتيا بالايمان والاعمال الصالحة والمعلق على مجموع أمرين يكون عدما عند عدم أحدهما فعند عدم الاعمال الصالحة وجب ان لا يحصل الفوز بالجنة (وجوابنا) ان تعليق الحكم على الوصف لا يدل على عدم الحكم عند عدم الوصف (المسئلة الثالثة) سمى الثواب رحمة والرحمة انما تصح تسميتها بهذا الاسم اذا لم تكن واجبة فوجب أن لا يكون الثواب واجبا على الله تعالى ثم قال تعالى وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الله المؤمنين والكافرين ولم يذكر قسما ثالثا وهذا يدل على ان مذهب المعتزلة فى اثبات المنزلة بين المنزلتين باطل (المسئلة الثانية) انه تعالى علل استحقاق العقوبة بان آياته تليت عليهم فاستكبروا عن قبولها وهذا يدل على ان استحقاق العقوبة لا يحصل الا بعد مجىء الشرع وذلك يدل على أن الواجبات لا تجب الا بالشرع خلافا لما يقوله المعتزلة من أن بعض الواجبات قد يجب بالعقل (المسئلة الثالثة) جواب أما محذوف والتقدير وأما الذين كفروا فيقال لهم افلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم عن قبول الحق وكنتم قوما مجرمين فان قالوا كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرما فى معرض الطعن فيه والذم له قلنا معناه انهم مع كونهم كفارا ما كانوا عدولا فى أديان أنفسهم بل كانوا فساقا فى ذلك الدين والله أعلم ۞ قوله تعالى (واذا قيل لهم ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندرى ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين وبدا لهم سيآت ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون فلله الحمد رب السموات ورب الارض رب العالمين وله الكبرياء فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ والساعة رفعا ونصبا قال الزجاج من نصب عطف على الوعد ومن رفع فعلى معنى وقيل الساعة لا ريب فيها قال الاخفش الرفع أجود فى المعنى وأكثر فى كلام العرب اذا جاء بعد خبر ان لانه كلام مستقل بنفسه بعد مجىء الكلام الاول بتمامه (المسئلة الثانية) حكى الله تعالى عن الكفار أنهم اذا قيل ان وعد الله بالثواب والعقاب حق وان الساعة آتية لا ريب فيها قالوا ما ندرى ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين أقول الاغلب على الظن أن القوم كانوا فى هذه المسئلة على قولين منهم من كان قاطعا بنفى البعث والقيامة وهم الذين ذكرهم الله فى الآية المتقدمة بقوله وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا ومنهم من كان شاكا متحيرا فيه لانهم لكثرة ما سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم ولكثرة ما سمعوه من دلائل القول بصحته صاروا

القرآن بخير فما فينا خير نذكر به انا نخاف أن لا تقبل منا طاعة فنزلت وقيل السائلة أم سلمة وروى أنه لما نزل فى نساء النبى عليه الصلاة والسلام ما نزل قال نساء المؤمنين فما نزل فينا شئ فنزلت وعطف الاناث على الذكور لاختلاف الجنسين وهو ضرورى واما عطف الزوجين على الزوجين فلتغاير الوصفين فلا يكون ضروريا ولذلك ترك فى قوله تعالى مسلمات مؤمنات وفائدته الدلالة على أن مدار اعداد ما أعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجميلة (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) أى ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات (اذا قضى الله ورسوله أمرا) أى اذا قضى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيم أمره عليه الصلاة والسلام أو للاشعار بان قضاءه عليه الصلاة والسلام قضاء الله عز وجل لانه نزل فى زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة فأبت هى وأخوها عبد الله وقيل فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وهبت نفسها للنبى عليه الصلاة والسلام فزوجها من زيد فسخطت هى وأخوها وقالا انما أردنا رسول الله فزوجنا عبده (أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أن يختاروا من أمرهم ما شاؤا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه عليه الصلاة والسلام واختيارهم تلوا لاختياره وجمع الضميرين لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما فى سياق النفى وقيل الضمير الثانى للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقرئ تكون بالتاء (ومن يعص الله ورسوله) فى أمر من الامور ويعمل فيه برأيه (فقد ضل) طريق الحق (ضلالا مبينا) أى بين الانحراف عن سنن الصواب (واذ تقول) أى واذكر وقت قولك (للذى أنعم الله عليه) بتوفيقه للاسلام وتوفيقك لحسن تربيته ومراعاته (وأنعمت عليه) بالعمل بما وفقك الله له من فنون الاحسان التى من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة وايراده بالعنوان المذكور لبيان منافاة حاله لما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من اظهار خلاف ما فى

شاكين فيه وهم الذين أرادهم الله بهذه الآية والذي يدل عليه انه تعالى حكى مذهب أولئك القاطعين ثم اتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الاول ثم قال تعالى وبدا لهم أي في الآخرة سيآت ما عملوا وقد كانوا من قبل يعدونها حسنات فصار ذلك أول خسرانهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن وهذا كالدليل على ان هذه الفرقة لما قالوا ان نظن الا ظنا انما ذكروه على سبيل الاستهزاء والسخرية وعلى هذا الوجه فهذا الفريق شر من الفريق الاول لان الاولين كانوا منكرين وما كانوا مستهزئين وهذا الفريق ضموا الى الاصرار على الانكار الاستهزاء ثم قال تعالى وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وفي تفسير هذا النسيان وجهان (الاول) نترككم في العذاب كما تركتم الطاعة التي هي الزاد ليوم المعاد (الثاني) نجعلكم بمنزلة الشيء المنسي غير المبالى به كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تلتفتوا اليه بل جعلتموه كالشيء الذي يطرح نسيا منسيا فجمع الله تعالى عليهم من وجوه العذاب الشديد ثلاثة أشياء (فأولها) قطع رحمة الله تعالى عنهم بالكلية (وثانيها) انه يصير مأواهم النار (وثالثها) أن لا يحصل لهم أجر من الاعوان والانصار ثم بين تعالى انه يقال لهم انكم انما صرتم مستحقين لهذه الوجوه الثلاثة من العذاب الشديد لاجل انكم أتيتم بثلاثة أنواع من الاعمال القبيحة (فأولها) الاصرار على انكار الدين الحق (وثانيها) الاستهزاء به والسخرية منه وهذان الوجهان داخلان تحت قوله تعالى ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا (وثالثها) الاستغراق في حب الدنيا والاعراض بالكلية عن الآخرة وهو المراد من قوله تعالى وغرتكم الحياة الدنيا ثم قال تعالى فاليوم لا يخرجون منها قرأ حمزة والكسائي يخرجون بفتح الياء والباقون بضمها ولاهم يستعتبون أي ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أي يرضوه ولما تم الكلام في هذه المباحث الشريفة الروحانية ختم السورة بتحميد الله تعالى فقال فلله الحمد رب السموات ورب الارض رب العالمين أي فاحمدوا الله الذي هو خالق السموات والارض بل خالق كل العالمين من الاجسام والارواح والذوات والصفات فان هذه الربوبية توجب الحمد والثناء على كل أحد من المخلوقين والمربوبين ثم قال تعالى وله الكبرياء في السموات والارض وهذا مشعر بأمرين (أحدهما) ان التكبير لا بد وأن يكون بعد التحميد والاشارة الى أن الحامدين اذا حمدوه وجب أن يعرفوا انه أعلى وأكبر من ان يكون الحمد الذي ذكروه لائقا بانعامه بل هو أكبر من حمد الحامدين وأياديه أعلى وأجل من شكر الشاكرين (والثاني) ان هذا الكبرياء له لا لغيره لان واجب الوجود لذاته ليس الا هو ثم قال تعالى وهو العزيز الحكيم يعني انه لكمال قدرته يقدر على خلق أي شيء أراد ولكمال حكمته يخص كل نوع من مخلوقاته بآثار الحكمة والرحمة والفضل والكرم وقوله وهو العزيز الحكيم يفيد الحصر فهذا يفيد ان الكامل في القدرة وفي الحكمة وفي الرحمة ليس الا هو وذلك يدل على انه لا إله للخلق الا هو ولا محسن ولا متفضل الا هو قال مولانا رضي الله عنه تم تفسير هذه السورة يوم الجمعة بعد الصلاة الخامس عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله حمدا دائما طيبا مباركا مخلدا مؤبدا كما يليق بعلو شانه وباهر برهانه وعظيم احسانه والصلاة على الارواح الطاهرة المقدسة من ساكني أعالي السموات وتخوم الارضين من الملائكة والانبياء والاولياء والموحدين خصوصا على سيدنا ونبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

(سورة الاحقاف وهي ثلاثون وخمس آيات مكية وقيل أربع وثلاثون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

((حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين)) اعلم ان نظم أول هذه

صميره اذ هو انما يقع عند الاستحياء أو الاحتشام وكلاهما مما لا يتصور في حق زيد (أمسك عليك زوجك) أي زينب وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أبصرها بعد ما أنكحها اياه فوقعت في نفسه حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فقال سبحان الله مقلب القلوب وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن لذلك ووقع في نفسه كراهة صحبتها فأتى النبي عليه الصلاة والسلام وقال أريد أن أفارق صاحبتي فقال مالك أرابك منها شيء قال لا والله ما رأيت منها الا خيرا ولكنها لشرفها تتعظم علي فقال له أمسك عليك زوجك (واتق الله) في أمرها فلا تطلقها اضرارا وتعللا بتكبرها (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) وهو نكاحها ان طلقها أو ارادة طلاقها (وتخشى الناس) تعييرهم اياك به (والله أحق أن تخشاه) ان كان فيه ما يخشى والواو للحال وليست المعاتبة على الاخفاء وحده بل على الاخفاء مخافة قالة الناس واظهار ما ينافي اضماره فان الاولى في امثال ذلك أن يصمت أو يفوض الامر الى ربه (فلما قضى زيد منها وطرا) بحيث لم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها وقيل قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لي فيك (زوجناكها) وقرئ زوجتكها والمراد الامر بتزويجها منه عليه الصلاة والسلام وقيل جعلها زوجته بلا واسطة عقد ويؤيده انها كانت تقول لسائر نساء النبي عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى تولى نكاحي وأنتن زوجكن أولياؤكن وقيل كان زيد السفير في خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد عدل بقوة ايمانه (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) ضيق ومشقة (في أزواج أدعيائهم) أي في حق تزوجهن (اذا قضوا منهن وطرا) فان لهم في رسول الله أسوة حسنة وفيه دلالة على أن حكمه عليه الصلاة والسلام وحكم الامة سواء الا ما خصه الدليل (وكان أمر الله) أي ما يريد تكوينه من الامور أو أموره الحاصلة بكن (مفعولا) مكونا لا محالة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله (ما كان على النبي من حرج) أي ما صح وما استقام في الحكمة أن يكون له ضيق (فيما

فرض الله له) أى قسم له وقدر من قولهم فرض له فى الديوان كذا ومنه فروض العساكر لاعطياتهم (سنة الله) اسم موضوع موضع المصدر كقولهم تربا وجندلا مؤكد لما قبله من نفى الحرج أى سن (٣٣٨) الله ذلك سنة (فى الذين خلوا) مضوا (من قبل) من الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وسع عليهم فى باب النكاح وغيره ولقد كانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية وقوله تعالى (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أى قضاء مقضيا وحكما مبتوتا اعتراض وسط بين الموصولين الجاريين مجرى الواحد للمسارعة الى تقرير نفى الحرج وتحقيقه (الذين يبلغون رسالات الله) صفة للذين خلوا أومدح لهم بالنصب أو بالرفع وقرئ رسالة الله (ويخشونه) فى كل ما يأتون ويذرون لاسيما فى أمر تبليغ الرسالة حيث لا يخرمون منها حرفا ولا تأخذهم فى ذلك لومة لائم (ولا يخشون أحدا الا الله) فى وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الاحتراز عن لائمة الخلق بعد التصريح فى قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (وكفى بالله حسيبا) كافيا للمخاوف فينبغى أن لا يخشى غيره أو محاسبا على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يكون حق الخشية منه تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) أى على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها ولا ينتقض عمومه بكونه عليه الصلاة والسلام أبا للطاهر والقاسم وابراهيم لانهم لم يبلغوا الحلم ولو بلغوا لكانوا رجالا له عليه الصلاة والسلام لا لهم (ولكن رسول الله) أى كان رسولا لله وكل رسول أبو أمته لكن لاحقيقة بل بمعنى أنه شفيق ناصح لهم وسبب لحياتهم الابدية وما زيد الا واحد من رجالكم الذين لا ولاد بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام او فحكمه حكمهم وليس للتبنى والادعاء حكم سوى التقريب والاختصاص (وخاتم النبيين) أى كان آخرهم الذى ختموا به وقرئ بكسر التاء أى كان

السورة كنظم أول سورة الجاثية وقد ذكرنا ما فيه وأما قوله ما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق فهذا يدل على اثبات الاله بهذا العالم ويدل على أن ذلك الاله يجب أن يكون عادلا رحيما بعباده ناظرا لهم محسنا اليهم ويدل على ان القيامة حق (أما المطلوب الاول) وهو اثبات الاله بهذا العالم وذلك لان الخلق عبارة عن التقدير وآثار التقدير ظاهرة فى السموات والارض من الوجوه العشرة المذكورة فى سورة الانعام وقد بينا ان جملة تلك الوجوه تدل على وجود الاله القادر المختار (وأما المطلوب الثانى) وهو اثبات ان اله العالم عادل رحيم فيدل عليه قوله تعالى الا بالحق لان قوله الا بالحق معناه الا لاجل الفضل والرحمة والاحسان وان الاله يجب أن يكون فضله زائدا وان يكون احسانه راجحا وان يكون وصول المنافع منه الى المحتاجين أكثر من وصول المضار اليهم قال الجبائى هذا يدل على ان كل ما بين السموات والارض من القبائح فهو ليس من خلقه بل هو من أفعال عباده والا لزم أن يكون خالقا لكل باطل وذلك ينافى قوله ما خلقناهما الا بالحق أجاب أصحابنا وقالوا خلق الباطل غير والخلق بالباطل غير فنحن نقول انه هو الذى خلق الباطل الا انه خلق ذلك الباطل بالحق لان ذلك تصرف من الله تعالى فى ملك نفسه وتصرف المالك فى ملك نفسه يكون بالحق لا بالباطل قالوا والذى يقرر ما ذكرناه ان قوله تعالى ما خلقنا السموات والارض وما بينهما يدل على كونه تعالى خالقا لكل أعمال العباد لان أعمال العباد من جملة ما بين السموات والارض فوجب كونها مخلوقة لله تعالى ووقوع التعارض فى الآية الواحدة محال فلم يبق الا أن يكون المراد ما ذكرناه فان قالوا أفعال العباد أعراض والاعراض لا توصف بأنها حاصلة بين السموات والارض فنقول فعلى هذا التقدير سقط ما ذكرتموه من الاستدلال والله أعلم (وأما المطلوب الثالث) فهو دلالة الآية على صحة القول بالبعث والقيامة وتقريره انه لو لم توجد القيامة لتعطل استيفاء حقوق المظلومين من الظالمين ولتعطل توفية الثواب على المطيعين وتوفية العقاب على الكافرين وذلك يمنع من القول بأنه تعالى خلق السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأما قوله تعالى وأجل مسمى فالمراد انه ما خلق هذه الاشياء الا بالحق والا لاجل مسمى وهذا يدل على ان اله العالم ما خلق هذا العالم ليبقى مخلدا سرمدا بل انما خلقه ليكون دارا للعمل ثم انه سبحانه يفنيه ثم يعيده فيقع الجزاء فى الدار الآخرة فعلى هذا الاجل المسمى هو الوقت الذى عينه الله تعالى لافناء الدنيا ثم قال تعالى والذين كفروا عما أنذروا معرضون والمراد ان مع نصب الله تعالى هذه الدلائل ومع ارسال الرسل وانزال الكتب ومع مواظبة الرسل على الترغيب والترهيب والاعذار والانذار بقى هؤلاء الكفار معرضين عن هذه الدلائل غير ملتفتين اليها وهذا يدل على وجوب النظر والاستدلال وعلى أن الاعراض عن الدليل مذموم فى الدين والدنيا واعلم انه تعالى لما قرر هذا الاصل الدال على اثبات الاله وعلى اثبات كونه عادلا رحيما وعلى اثبات البعث والقيامة بنى عليه التفاريع (فالفرع الاول) الرد على عبدة الاصنام فقال قل أرأيتم ما تدعون من دون الله وهى الاصنام أرونى أى أخبرونى ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك فى السموات والمراد ان هذه الاصنام هل يعقل أن يضاف اليها خلق جزء من أجزاء هذا العالم فان لم يصح ذلك فهل يجوز أن يقال انها أعانت اله العالم فى خلق جزء من أجزاء هذا العالم ولما كان صريح العقل حاكما بأنه لا يجوز اسناد خلق جزء من أجزاء هذا العالم اليها وان كان ذلك الجزء أقل الاجزاء ولا يجوز أيضا اسناد الاعانة اليها فى أقل الافعال وأذلها فحينئذ صح ان الخالق الحقيقى لهذا العالم هو الله سبحانه وان المنعم الحقيقى بجميع أقسام النعم هو الله سبحانه والعبادة عبارة عن الاتيان بأكمل وجوه التعظيم وذلك لا يليق الا بمن صدر عنه أكمل وجوه الانعام فلما كان الخالق الحق والمنعم الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى وجب أن لا يجوز الاتيان بالعبادة والعبودية الا له ولاجله بقى أن يقال انا لا نعبدها لانها تستحق هذه العبادة بل انما نعبدها لاجل ان الاله الخالق المنعم أمرنا بعبادتها فعند هذا ذكر الله تعالى ما يجرى مجرى الجواب من هذا السؤال فقال ائتونى بكتاب من قبل هذا

أو أثارة من علم وتقرير هذا الجواب ان ورود هذا الامر لاسبيل الى معرفته الا بالوحى والرسالة فنقول هذا الوحى الدال على الامر بعبادة هذه الاوثان اما أن يكون على محمد او فى سائر الكتب الالهية المنزلة على سائر الانبياء وان لم يوجد ذلك فى الكتب الالهية لكنه من تقابل العلوم المنقولة عنهم والكل باطل اما اثبات ذلك بالوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم فهو معلوم البطلان واما اثباته بسبب اشتمال الكتب الالهية المنزلة على الانبياء المتقدمين عليه فهو أيضا باطل لانه علم بالتواتر الضرورى اطباق جميع الكتب الالهية على المنع من عبادة الاصنام وهذا هو المراد من قوله تعالى ائتونى بكتاب من قبل هذا واما اثبات ذلك بالعلوم المنقولة عن الانبياء سوى ماجاء فى الكتب فهذا أيضا باطل لان العلم الضرورى حاصل بان أحدا من الانبياء مادعا الى عبادة الاصنام وهذا هو المراد من قوله أو أثارة من علم ولما بطل الكل ثبت ان الاشتغال بعبادة الاصنام عمل باطل وقول فاسد وبقى فى قوله تعالى أو أثارة من علم نوعان من البحث (النوع الاول) البحث اللغوى قال أبو عبيد والفراء والزجاج أثارة من علم أى بقية وقال المبرد أثارة مايؤثر من علم أى بقية م وقال المبرد أثارة تؤثر من علم كقولك هذا الحديث يؤثر عن فلان ومن هذا المعنى سميت الاخبار بالآثار يقال جاء فى الاثر كذا وكذا قال الواحدى وكلام أهل اللغة فى تفسير هذا الحرف يدور على ثلاثة أقوال (الاول) البقية واشتقاقها من أثرت الشئ أثيره اثارة كانها بقية تستخرج فتثار (والثانى) من الاثر الذى هو الرواية (والثالث) هو الاثر بمعنى العلامة قال صاحب الكشاف وقرئ أثرة أى من شئ أوثرتم به وخصصتم من علم لا احاطة به لغيركم وقرئ أثرة بالحركات الثلاث مع سكون الثاء فالاثرة بالكسر بمعنى الاثر وأما الاثرة فالمرة من مصدر أثر الحديث اذا رواه وأما الاثرة بالضم فاسم مايؤثر كالخطبة اسم لما يخطب به وههنا قول آخر فى تفسير قوله تعالى أو أثارة من علم وهو ماروى عن ابن عباس انه قال أو أثارة من علم هو علم الخط الذى يخط فى الرمل والعرب كانوا يخطونه وهو علم مشهور وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال كان نبى من الانبياء يخط فمن وافق خطه خطه علم علمه وعلى هذا الوجه فمعنى الآية ائتونى بعلم من قبل هذا الخط الذى تخطونه فى الرمل يدل على صحة مذهبكم فى عبادة الاصنام فان صح تفسير الآية بهذا الوجه كان ذلك من باب التهكم بهم وبأقوالهم ودلائلهم والله تعالى أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ام يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لى من الله شيأ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم﴾ اعلم أنه تعالى بين فيما سبق أن القول بعبادة الاصنام قول باطل من حيث انها لاقدرة لها البتة على الخلق والفعل والايجاد والاعدام والنفع والضر فاردفه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب وهى أنها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين ولا تعلم حاجات المحتاجين وبالجملة فالدليل الاول كان اشارة الى نفى العلم من كل الوجوه واذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة ببديهة العقل فقوله ومن أضل ممن يدعو من دون الله استفهام على سبيل الانكار والمعنى انه لاامرأ أبعد عن الحق وأقرب الى الجهل ممن يدعو من دون الله الاصنام فيتخذها آلهة ويعبدها وهى اذا دعيت لاتسمع ولا تصح منها الاجابة لا فى الحال ولا بعد ذلك اليوم الى يوم القيامة وانما جعل ذلك غاية لان يوم القيامة قد قيل انه تعالى يحييها وتقع بينها وبين من يعبدها مخاطبة فلذلك جعله تعالى حدا واذا قامت القيامة وحشر الناس فهذه الاصنام تعادى هؤلاء العابدين واختلفوا فيه فالاكثرون على انه تعالى يحيى هذه الاصنام يوم القيامة وهى تظهر عداوة هؤلاء العابدين وتتبرأ منهم وقال بعضهم بل المراد عبدة الملائكة وعيسى فانهم فى يوم القيامة يظهرون عداوة هؤلاء العابدين فان قيل ما المراد بقوله تعالى وهم عن دعائهم غافلون وكيف يعقل وصف الاصنام وهى جمادات بالغفلة وأيضا كيف جاز وصف

خاتمهم ويؤيده قراءة ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين وأياما كان فلو كان له ابن بالغ لكان نبيا ولم يكن هو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين كما روى أنه قال فى ابراهيم حين توفى لو عاش لكان نبيا ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده عليهما السلام لان معنى كونه خاتم النبيين أنه لاينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل انما ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصليا الى قبلته كانه بعض أمته (وكان الله بكل شئ عليما) ومن جملته هذه الاحكام والحكم التى بينها لكم وكنتم منها فى شك مريب (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله) بما هو أهله من التهليل والتحميد والتمجيد والتقديس (ذكرا كثيرا) يعم الاوقات والاحوال (وسبحوه) ونزهوه عما لا يليق به (بكرة وأصيلا) أى أول النهار وآخره على أن تخصيصهما بالذكر ليس لقصر التسبيح عليهما دون سائر الاوقات بل لابانة فضلهما على سائر الاوقات لكونهما مشهودين كافراد التسبيح من بين الاذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة فيها وقيل كلا الفعلين متوجه اليهما كقولك صم وصل يوم الجمعة وقيل المراد بالتسبيح الصلاة (هو الذى يصلى عليكم) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من الامرين فان صلاته تعالى عليهم مع عدم استحقاقهم لها وغناه عن العالمين مما يوجب عليهم المداومة على ما يستوجبه تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه وقوله تعالى (وملائكته) عطف على المستكن فى يصلى لمكان الفصل المغنى عن التأكيد بالمنفصل لكن لا على أن يراد بالصلاة الرحمة أولا والاستغفار ثانيا فان استعمال اللفظ الواحد فى معنيين متغايرين مما لا مساغ له بل على أن يراد بهما معنى مجازى عام يكون كلا المعنيين فردا حقيقيا له وهو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم فان كلا من الرحمة والاستغفار فرد حقيقى له أو الترحم والانعطاف المعنوى المأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود ولا ريب فى أن استغفار الملائكة ودعاءهم

للمؤمنين برحمته علم وأما أن ذلك سبب للرحمة لكونهم مجابى الدعوة كما قيل فاعتباره ينزع الى الجمع بين المعنيين المتغايرين فتدبر (ليخرجكم من الظلمات الى النور) متعلق بيصلى أى يعتنى بأموركم هو وملائكته ليخرجكم بذلك من ظلمات المعصية الى نور الطاعة وقوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) اعتراض مقرر لمضمون ماقبله أى كان بكافة المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم رحيما ولذلك يفعل بكم مايفعل من الاعتناء باصلاحكم بالذات وبالواسطة ويهديكم الى الايمان والطاعة أو كان بكم رحيما على أن المؤمنين مظهر وضع موضع المضمر مدحا لهم واشعارا بعلة الرحمة وقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) بيان للاحكام الآجلة لرحمة الله تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة التى هى الاعتناء بأمرهم وهدايتهم الى الطاعة أى مايحيون به على أنه مصدر أضيف الى مفعوله يوم لقائه عند الموت أو عند البعث من القبور أو عند دخول الجنة تسليم عليهم من الله عز وجل تعظيما لهم أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة او تكرمة لهم كما فى قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم أو اخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة وقوله تعالى (وأعد لهم أجرا كريما) بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة اليهم قبل ذلك ولعل ايثار الجملة الفعلية على الاسمية المناسبة لماقبلها بأن يقال مثلا وأجرهم أجر كريم أوولهم أجر كريم للمبالغة فى الترغيب والتشويق الى الموعود ببيان أن الاجر الذى هو المقصد الاقصى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل مهيأ لهم مع مافيه من مراعاة الفواصل (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا) على من بعثت اليهم تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم وتحمل منهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ماهم عليه من الهدى والضلال وتؤديها يوم القيامة أداء مقبولا فيما لهم وما عليهم وهو حال مقدرة (ومبشرا ونذيرا) تبشر المؤمنين بالجنة

من

الاصنام بما لا يليق الا بالعقلاء وهى لفظة من وقوله هم غافلون قلنا انهم لما عبدوها ونزلوها منزلة من يضر وينفع صح أن يقال فيها انها بمنزلة الغافل الذى لا يسمع ولا يجيب وهذا هو الجواب أيضا عن قوله ان لفظة من ولفظة هم كيف يليق بها وأيضا يجوز أن يريد كل معبود من دون الله من الملائكة وعيسى وعزير والاصنام الا انه غلب غير الاوثان على الاوثان واعلم انه تعالى لما تكلم فى تقرير التوحيد ونفى الاضداد والانداد تكلم فى النبوة وبين أن محمدا صلى الله عليه وسلم كلما عرض عليهم نوعا من أنواع المعجزات زعموا انه سحر فقال واذا تتلى عليهم الآيات البينة وعرضت عليهم المعجزات الظاهرة سموها بالسحر ولما بين انهم يسمون المعجزات بالسحر بين انهم متى سمعوا القرآن قالوا ان محمدا افتراه واختلقه من عند نفسه ومعنى الهمزة فى أم للانكار والتعجب كأنه قيل دع هذا واسمع القول المنكر العجيب ثم انه تعالى بين بطلان شبهتهم فقال ان افتريته على سبيل الفرض فان الله تعالى يعاجلنى بعقوبة بطلان ذلك الافتراء وأنتم لا تقدرون على دفعه عن معاجلتى بالعقوبة فكيف أقدم على هذه الفرية وأعرض نفسى لعقابه يقال فلان لا يملك نفسه اذا غضب ولا يملك عنانه اذا صمم ومثله فمن يملك من الله شيأ ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيأ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لا أملك لكم من الله شيأ ثم قال تعالى هو أعلم بما تفيضون فيه أى تندفعون فيه من القدح فى وحى الله تعالى والطعن فى آياته وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى كفى به شهيدا بينى وبينكم يشهد لى بالصدق ويشهد عليكم بالكذب والجحود ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد لهم على اقامتهم فى الطعن والشتم ثم قال وهو الغفور الرحيم بمن رجع عن الكفر وتاب واستعان بحكم الله عليهم مع عظم ما ارتكبوه ۞ قوله تعالى ﴿قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولا بكم ان أتبع الا مايوحى الى وما أنا الا نذير مبين قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدى القوم الظالمين وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ اعلم انه تعالى لما حكى عنهم انهم طعنوا فى كون القرآن معجزا بأن قالوا انه يختلقه من عند نفسه ثم ينسبه الى انه كلام الله على سبيل الفرية حكى عنهم نوعا آخر من الشبهات وهو أنهم كانوا يقترحون منه معجزات عجيبة قاهرة ويطالبونه بأن يخبرهم عن المغيبات فأجاب الله تعالى عنه بأن قال قل ما كنت بدعا من الرسل والبدع والبديع من كل شئ المبدأ والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجودا قبله بحكم السنة وفيه وجوه (الاول) ما كنت بدعا من الرسل أى ما كنت أولهم فلا ينبغى أن تنكروا اخبارى بانى رسول الله اليكم ولا تنكروا دعائى لكم الى التوحيد ونهيى عن عبادة الاصنام فان كل الرسل انما بعثوا بهذا الطريق (الوجه الثانى) انهم طلبوا منه معجزات عظيمة وأخبارا عن الغيوب فقال قل ما كنت بدعا من الرسل والمعنى ان الاتيان بهذه المعجزات القاهرة والاخبار عن هذه الغيوب ليس فى وسع البشر وانا من جنس الرسل واحد منهم لم يقدر على ماتريدونه فكيف أقدر عليه (الوجه الثالث) انهم كانوا يعيبونه بانه يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق وبأنه فقير وبأن أتباعه فقراء فقال قل ما كنت بدعا من الرسل وكلهم كانوا على هذه الصفة وبهذه المثابة فهذه الاشياء لا تقدح فى نبوتى كما لا تقدح فى نبوتهم ثم قال وما أدرى مايفعل بى ولا بكم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير الآية وجهان (أحدهما) أن يحمل ذلك على أحوال الدنيا (والثانى) أن يحمل على أحوال الآخرة (أما الاول) ففيه وجوه (الاول) لا أدرى ما يصير اليه أمرى وأمركم ومن الغالب منا والمغلوب (والثانى) قال ابن عباس فى رواية الكلبى لما اشتد البلاء بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بمكة رأى فى المنام أنه يهاجر الى أرض ذات نخل وشجر وماء فقصها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا أن ذلك فرج مما هم فيه من أذى المشركين ثم انهم مكثوا برهة

من الدهر لا يرون أثر ذلك فقالوا يا رسول الله ما رأينا الذى قلت ومتى نهاجر الى الارض التى رأيتها فى المنام فسكت النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم وهو شئ رأيته فى المنام وأنا لا أتبع الا ما أوحاه الله الى (الثالث) قال الضحاك لا أدرى ما تؤمرون به ولا أومر به فى باب التكاليف والشرائع والجهاد ولا فى الابتلاء والامتحان وانما أنذركم بما أعلمنى الله به من أحوال الآخرة فى الثواب والعقاب (والرابع) المراد انه يقول لا أدرى ما يفعل بى فى الدنيا أأموت أم أقتل كما قتل الانبياء قبلى ولا أدرى ما يفعل بكم أيها المكذبون أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم أم يفعل بكم ما فعل بسائر الامم أما الذين حملوا هذه الآية على أحوال الآخرة فروى عن ابن عباس انه قال لما نزلت هذه الآية فرح المشركون والمنافقون واليهود وقالوا كيف تتبع نبيا لا يدرى ما يفعل به وبنا فأنزل الله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك الى قوله وكان ذلك عند الله فوزا عظيما فبين تعالى ما يفعل به وبمن اتبعه ونسخت هذه الآية وأرغم الله أنف المنافقين والمشركين وأكثر المحققين استبعدوا هذا القول واحتجوا عليه بوجوه (الاول) أن النبى صلى الله عليه وسلم لا بد وان يعلم من نفسه كونه نبيا ومتى علم كونه نبيا علم انه لا تصدر عنه الكبائر وانه مغفور له واذا كان كذلك امتنع كونه شاكا فى انه هل هو مغفور له أم لا (الثانى) لا شك أن الانبياء أرفع حالا من الاولياء فلما قال فى هذا ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون فكيف يعقل أن يبقى الرسول الذى هو رئيس الاتقياء وقدوة الانبياء والاولياء شاكا فى أنه هل هو من المغفورين أو من المعذبين (الثالث) انه تعالى قال الله أعلم حيث يجعل رسالته والمراد منه كمال حاله ونهاية قربه من حضرة الله تعالى ومن هذا حاله كيف يليق به أن يبقى شاكا فى أنه من المعذبين أو من المغفورين فثبت أن هذا القول ضعيف (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ ما يفعل بفتح الياء أى يفعل الله عز وجل فان قالوا ما يفعل مثبت وغير منفى وكان وجه الكلام أن يقال ما يفعل بى وبكم قلنا التقدير ما أدرى ما يفعل بى وما أدرى ما يفعل بكم ثم قال تعالى ان أتبع الا ما يوحى الى يعنى انى لا أقول قولا ولا أعمل عملا الا بمقتضى الوحى واحتج نفاة القياس بهذه الآية فقالوا النبى صلى الله عليه وسلم ما قال قولا ولا عمل عملا الا بالنص الذى أوحاه الله اليه فوجب أن يكون حالنا كذلك (بيان الاول) قوله تعالى ان أتبع الا ما يوحى الى (بيان الثانى) قوله تعالى واتبعوه وقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره ثم قال تعالى وما أنا الا نذير مبين كانوا يطالبونه بالمعجزات العجيبة وبالاخبار عن الغيوب فقال قل وما أنا الا نذير مبين والقادر على تلك الاعمال الخارجة عن قدرة البشر والعالم بتلك الغيوب ليس الا الله سبحانه ثم قال تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدى القوم الظالمين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) جواب الشرط محذوف والتقدير ان يقال ان كان هذا الكتاب من عند الله ثم كفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على صحته ثم استكبرتم لكنتم من الخاسرين ثم حذف هذا الجواب ونظيره قولك ان أحسنت اليك وأسأت الى وأقبلت عليك وأعرضت عنى فقد ظلمتنى فكذا ههنا التقدير أخبرونى ان ثبت ان القرآن من عند الله بسبب عجز الخلق عن معارضته ثم كفرتم به وحصل أيضا شهادة أعلم بنى اسرائيل بكونه معجزا من عند الله فلو استكبرتم وكفرتم ألستم أضل الناس وأظلمهم واعلم أن جواب الشرط قد يحذف فى بعض الآيات وقد يذكر اما الحذف فكما فى هذه الآية وكما فى قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى وأما المذكور فكما فى قوله تعالى قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل وقوله قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بقوله تعالى وشهد شاهد من بنى اسرائيل على قولين (الاول) وهو الذى قال به الاكثرون أن هذا الشاهد عبد الله بن سلام روى صاحب الكشاف انه لما قدم رسول

وتنذر الكافرين بالنار (وداعيا الى الله) أى الى الاقرار به وبوحدانيته وبسائر ما يجب الايمان به من صفاته وأفعاله (باذنه) أى بتيسيره أطلق عليه مجازا لما أنه من أسبابه وقيد به الدعوة ايذانا بأنها أمر صعب المنال وخطب فى غاية الاعضال لا يتأتى الا بامداد من جناب قدسه كيف لا وهو صرف للوجوه عن القبل المعبودة وادخال للاعناق فى قلادة غير معهودة (وسراجا منيرا) يستضاء به فى ظلمات الجهل والغواية ويهتدى بانواره الى مناهج الرشد والهداية (وبشر المؤمنين) عطف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين منهم (بان لهم من الله فضلا كبيرا) أى على مؤمنى سائر الامم فى الرتبة والشرف أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والاحسان (ولا تطع الكافرين والمنافقين) نهى عن مداراتهم فى أمر الدعوة واستعمال لين الجانب فى التبليغ والمسامحة فى الانذار كنى عن ذلك بالنهى عن طاعتهم مبالغة فى الزجر والتنفير عن المنهى عنه بنظمه فى سلكها وتصويره بصورتها ومن حمل النهى على التهييج والالهاب فقد أبعد عن التحقيق بمراحل (ودع أذاهم) أى لا تبال بأذيتهم لك بسبب تصلبك فى الدعوة والانذار (وتوكل على الله) فى كل ما تأتى وما تذر من الشؤن التى من جملتها هذا الشأن فانه تعالى يكفيكهم (وكفى بالله وكيلا) موكولا اليه الامور فى كل الاحوال واظهار الاسم الجليل فى موضع الاضمار لتعليل الحكم وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى ولما وصف عليه الصلاة والسلام بنعوت خمسة قوبل كل منها بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر مقابل الشاهد صريحا وهو الامر بالمراقبة ثقة بظهور دلالة مقابل المبشر عليه وهو الامر بالتبشير حسبما ذكر آنفا وقوبل النذير بالنهى عن مداراة الكفار والمنافقين والمسامحة فى انذارهم كما حققته وقوبل الداعى الى الله باذنه بالامر بالتوكل عليه من حيث انه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فان

الله صلى الله عليه وسلم المدينة نظر الى وجهه فعلم أنه ليس بوجه كذاب وتأمله وتحقق انه هو النبي صلى الله عليه وسلم المنتظر فقال له انى سائلك عن ثلاث ما يعلمهن الا نبي ما أول أشراط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة والولد ينزع الى أبيه أو الى أمه فقال صلى الله عليه وسلم أما أول اشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق الى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما الولد فاذا سبق ماء الرجل نزع له وان سبق ماء المرأة نزع لها فقال أشهد انك لرسول الله حقا ثم قال يا رسول الله ان اليهود قوم بهت وان علموا باسلامي قبل ان تسألهم عني بهتوني عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم أي رجل عبد الله فيكم فقالوا اخيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا فقال أرأيتم ان أسلم عبد الله فقالوا أعاذه الله من ذلك فخرج عليهم عبد الله فقال أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فقالوا شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا ما كنت أخاف يا رسول الله فقال سعد بن أبي وقاص ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاحد يمشي على الارض انه من أهل الجنة الا لعبد الله ابن سلام وفيه نزل وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله واعلم أن الشعبي ومسروقا وجماعة آخرين أنكروا أن يكون الشاهد المذكور في هذه الآية هو عبد الله بن سلام قالوا لان اسلامه كان بالمدينة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعامين وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل هذه الآية المكية على واقعة حدثت في آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأجاب الكلبي بأن السورة مكية الا هذه الآية فانها مدنية وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يضعها في سورة كذا فهذه الآية نزلت بالمدينة وان الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بان يضعها في هذه السورة المكية في هذا الموضع المعين ولقائل أن يقول ان الحديث الذي رويتم عن عبد الله بن سلام مشكل وذلك لان ظاهر الحديث يوهم انه لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المسائل الثلاثة وأجاب النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الجوابات آمن عبد الله بن سلام لاجل أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر تلك الجوابات وهذا بعيد جدا لوجهين (الاول) ان الاخبار عن أول اشراط الساعة وعن أول طعام يأكله أهل الجنة اخبار عن وقوع شئ من الممكنات وما هذا سبيله فانه لا يعرف كون ذلك الخبر صدقا الا اذا عرف أولا كون المخبر صادقا فلو انا عرفنا صدق المخبر بكون ذلك الخبر صدقا لزم الدور وانه محال (الثاني) انا نعلم بالضرورة ان الجوابات المذكورة عن هذه المسائل لا يبلغ العلم بها الى حد الاعجاز البتة بل نقول الجوابات القاهرة عن المسائل الصعبة لما لم تبلغ الى حد الاعجاز فامثال هذه الجوابات عن هذه السؤالات كيف يمكن أن يقال انها بلغت الى حد الاعجاز (والجواب) يحتمل انه جاء في بعض كتب الانبياء المتقدمين أن رسول آخر الزمان يسئل عن هذه المسائل وهو يجيب عنها بهذه الجوابات وكان عبد الله بن سلام عالما بهذا المعنى فلما سأل النبي صلى الله عليه وسلم وأجاب بتلك الاجوبة عرف بهذا الطريق كونه رسولا حقا من عند الله وعلى هذا الوجه فلا حاجة بنا الى أن نقول العلم بهذه الجوابات معجز والله أعلم (القول الثاني) في تفسير قوله تعالى وشهد شاهد من بني اسرائيل انه ليس المراد منه شخصا معينا بل المراد منه ان ذكر محمد صلى الله عليه وسلم موجود في التوراة والبشارة بمقدمه حاصلة فيها فتقدير الكلام لو أن رجلا منصفا عارفا بالتوراة أقر بذلك واعترف به ثم انه آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم واستكبرتم ألستم ظالمين لانفسكم ضالين عن الحق فهذا الكلام مقرر سواء كان المراد بذلك الشاهد شخصا معينا أو لم يكن كذلك لان المقصود الاصلي من هذا الكلام انه ثبت بالمعجزات القاهرة ان هذا الكتاب من عند الله وثبت أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم ومع هذين الامرين كيف يليق بالعقل انكار نبوته (المسئلة الثالثة) قوله تعالى على مثله ذكروا فيه وجوها والاقرب ان نقول انه صلى الله عليه وسلم قال لهم أرأيتم ان كان هذا القرآن من عند الله كما أقول وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثل ما قلت فآمن واستكبرتم

من أيده الله تعالى بالقوة القدسية ورشحه للنبوة وجعله برهانا نيرا يهدي الخلق من ظلمات الغي الى نور الرشاد حقيق بان يكتفي به عن كل ما سواه (يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أي تجامعوهن وقرئ تماسوهن بضم التاء (فما لكم عليهن من عدة) بايام يتربصن فيها بانفسهن (تعتدونها) تستوفون عددها من عددت الدراهم فاعتدها وحقيقته عدها لنفسه وكذلك كلته فاكتاله والاسناد الى الرجال للدلالة على أن العدة حق الازواج كما أشعر به قوله تعالى فما لكم وقرئ تعتدونها على ابدال احدى الدالين بالتاء أو على انه من الاعتداء بمعنى تعتدون فيها والخلوة الصحيحة في حكم المس وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن من شأنه أن يتخير لنطفته ولا ينكح الا مؤمنة وفائدة ثم ازاحة ما عسى يتوهم أن تراخي الطلاق ريثما تمكن الاصابة يؤثر في العدة كما يؤثر في النسب (فمتعوهن) أي ان لم يكن مفروضا لها في العقد فان الواجب للمفروض لها نصف المفروض دون المتعة فانها مستحبة عند نا في رواية وفي أخرى غير مستحبة (وسرحوهن) أخرجوهن من منازلكم اذ ليس لكم عليهن عدة (سراحا جميلا) من غير ضرار ولا منع حق ولا مساغ لتفسيره بالطلاق السني لانه انما يتسنى في المدخول بهن (يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) أي مهورهن فانها أجور الابضاع وايتاؤها اما اعطاؤها معجلة أو تسميتها في العقد وأيا ما كان فتقييد الاحلال له عليه الصلاة والسلام به ليس لتوقف الحل عليه ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل أو المتعة على تقديري الدخول وعدمه بل لايثار الافضل والاولى له عليه الصلاة والسلام كتقييد احلال المملوكة بكونها مسبية في قوله تعالى (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) فان المشتراة لا يتحقق بدء أمرها وما جرى عليها وكتقييد القرائب بكونهن مهاجرات معه في قوله تعالى (وبنات عمك

ألستم كنتم ظالمين أنفسكم ثم قال تعالى ان الله لا يهدى القوم الظالمين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تهديد وهو قائم مقام الجواب المحذوف والتقدير قل أرأيتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به فانكم لا تكونون مهتدين بل تكونون ضالين (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة هذه الآية تدل على انه تعالى انما منعهم الهداية بناء على الفعل القبيح الذى صدر منهم أولا فان قوله تعالى ان الله لا يهدى القوم الظالمين صريح فى انه تعالى لا يهديهم لكونهم ظالمين أنفسهم فوجب أن يعتقدوا فى جميع الآيات الواردة فى المنع من الايمان والهداية أن يكون الحال فيها كما ههنا والله أعلم ثم قال تعالى وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذه شبهة أخرى للقوم فى انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفى سبب نزوله وجوه (الاول) ان هذا كلام كفار مكة قالوا ان عامة من يتبع محمدا الفقراء والاراذل مثل عمار وصهيب وابن مسعود ولو كان هذا الدين خيرا ما سبقنا اليه هؤلاء (الثانى) قيل لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع لو كان هذا خيرا ما سبقنا اليه رعاء البهم (الثالث) قيل ان أمة لعمر أسلمت وكان عمر يضربها حتى يفتر ويقول لولا انى فترت لزدتك ضربا فكان كفار قريش يقولون لو كان ما يدعو محمد اليه حقا ما سبقتنا اليه فلانة (الرابع) قيل كان اليهود يقولون هذا الكلام عند اسلام عبد الله بن سلام (المسئلة الثانية) اللام فى قوله تعالى للذين آمنوا ذكروا فيه وجهين (الاول) أن يكون المعنى وقال الذين كفروا للذين آمنوا على وجه الخطاب كما تقول قال زيد لعمرو ثم تترك الخطاب وتنتقل الى الغيبة كقوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم (الثانى) قال صاحب الكشاف للذين آمنوا لاجلهم يعنى ان الكفار قالوا لاجل ايمان الذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه وعندى فيه وجه ثالث وهو ان الكفار لما سمعوا ان جماعة آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خاطبوا جماعة من المؤمنين الحاضرين وقالوا لهم لو كان هذا الدين خيرا لما سبقنا اليه أولئك الغائبون الذين أسلموا واعلم انه تعالى لما حكى عنهم هذا الكلام أجاب عنه بقوله واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم والمعنى انهم لما لم يقفوا على وجه كونه معجزا فلا بد من عامل فى الظرف فى قوله واذ لم يهتدوا به ومن متعلق لقوله فسيقولون وغير مستقيم ان يكون فسيقولون هو العامل فى الظرف لتدافع دلالتى المضى والاستقبال فما وجه هذا الكلام وأجاب عنه بان العامل فى اذ محذوف لدلالة الكلام عليه والتقدير واذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم فسيقولون هذا افك قديم ثم قال تعالى ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة كتاب موسى مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبرا مقدما عليه وقوله اماما نصب على الحال كقولك فى الدار زيد قائما وقرئ ومن قبله كتاب موسى والتقدير وآتينا الذى قبله التوراة ومعنى اماما أى قدوة ورحمة يؤتم به فى دين الله وشرائعه كما يؤتم بالامام ورحمة لمن آمن به وعمل بما فيه ووجه تعلق هذا الكلام بما قبله ان القوم طعنوا فى صحة القرآن وقالوا لو كان خيرا ما سبقنا اليه هؤلاء الصعاليك وكأنه تعالى قال الذى يدل على صحة القرآن انكم لا تنازعون فى ان الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام وجعل هذا الكتاب اماما يقتدى به ثم ان التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فاذا سلمتم كون التوراة اماما يقتدى به فاقبلوا حكمه فى كون محمد صلى الله عليه وسلم حقا من الله ثم قال تعالى وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا أى وهذا القرآن مصدق لكتاب موسى فى أن محمدا رسول حق من عند الله وقوله تعالى لسانا عربيا نصب على الحال ثم قال لينذر الذين ظلموا قال ابن عباس مشركى مكة وفى قوله لتنذر قراءتان التاء لكثرة ما ورد من هذا المعنى بالمخاطبة كقوله تعالى لتنذر به وذكرى للمؤمنين والياء لتقدم ذكر الكتاب فأسند الانذار الى الكتاب كما أسند الى الرسول وقوله تعالى الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب الى قوله لينذر بأسا شديدا من لدنه ثم قال تعالى وبشرى للمحسنين قال الزجاج الاجود أن يكون قوله وبشرى فى موضع رفع والمعنى وهو بشرى للمحسنين قال ويجوز أن يكون فى موضع نصب على معنى لينذر الذين ظلموا

وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) ويحتمل تقييد الحل بذلك فى حقه عليه الصلاة والسلام خاصة ويعضده قول أم هانئ بنت أبى طالب خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت اليه فعذرنى ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لانى لم أهاجر معه كنت من الطلقاء (وامرأة مؤمنة) بالنصب عطفا على مفعول أحللنا اذ ليس معناه انشاء الاحلال الناجز بل اعلام مطلق الاحلال المنتظم لما سبق ولحق وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أى أحللنا هالك أيضا (ان وهبت نفسها للنبى) أى ملكته بضعها بأى عبارة كانت بلا مهر ان اتفق ذلك كما ينبئ عنه تنكيرها لكن لا مطلقا بل عند ارادته عليه الصلاة والسلام استنكاحها كما نطق به قوله عز وجل (ان أراد النبى ان يستنكحها) أى أن يتملك بضعها كذلك أى بلا مهر فان ذلك جار منه عليه الصلاة والسلام مجرى القبول وحيث لم يكن هذا نصا فى كون تمليكها بلفظ الهبة لم يصلح أن يكون مناطا للخلاف فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة ايجابا أو سلبا واختلف فى اتفاق هذا العقد فعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن عنده عليه الصلاة والسلام أحد منهن بالهبة وقيل الموهوبات أربع ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة الانصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم وايراده عليه الصلاة والسلام فى الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات للتكرمة والايذان بانها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه الصلاة والسلام حسب اختصاصها به كما ينطق به قوله تعالى (خالصة لك) أى خلص لك احلالها خالصة أى خلوصا فان الفاعلة فى المصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة أو خلص لك احلال ما أحللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خالصة ومعنى قوله تعالى (من دون المؤمنين) على الاول أن الاحلال المذكور فى المادة المعهودة غير متحقق فى حقهم وانما المتحقق هناك الاحلال بمهر المثل وعلى الثانى أن احلال الجميع على القيود المذكورة غير متحقق فى حقهم بل المتحقق فيه احلال البعض

وبشرى للمحسنين وحاصل الكلام ان المقصود من انزال هذا الكتاب انذار المعرضين وبشارة المطيعين

۞ قوله تعالى ﴿ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيآتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾

اعلم انه تعالى لما قرر دلائل التوحيد والنبوة وذكر شبهات المنكرين وأجاب عنها ذكر بعد ذلك طريقة المحقين والمحققين فقال ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وقد ذكرنا تفسير هذه الكلمة في سورة السجدة والفرق بين الموضعين ان في سورة السجدة ذكر ان الملائكة ينزلون ويقولون ان لا تخافوا ولا تحزنوا وههنا رفع الواسطة من البين وذكر انه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فاذا جمعنا بين الآيتين حصل من مجموعهما ان الملائكة يبلغون اليهم هذه البشارة وان الحق سبحانه يسمعهم هذه البشارة أيضا من غير واسطة واعلم ان هذه الآيات دالة على أن من آمن بالله وعمل صالحا فانهم بعد الحشر لا ينالهم خوف ولا حزن ولهذا قال أهل التحقيق انهم يوم القيامة آمنون من الاهوال وقال بعضهم خوف العقاب زائل عنهم أما خوف الجلال والهيبة فلا يزول البتة عن العبد ألا ترى ان الملائكة مع علو درجاتهم وكمال عصمتهم لا يزول الخوف عنهم فقال تعالى يخافون ربهم من فوقهم وهذه المسئلة سبقت بالاستقصاء في آيات كثيرة منها قوله تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر ثم قال تعالى أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون قالت المعتزلة هذه الآية تدل على مسائل (أولها) قوله تعالى أولئك أصحاب الجنة وهذا يفيد الحصر وهذا يدل على أن أصحاب الجنة ليسوا الا الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وهذا يدل على أن صاحب الكبيرة قبل التوبة لا يدخل الجنة (وثانيها) قوله تعالى جزاء بما كانوا يعملون وهذا يدل على فساد قول من يقول الثواب فضل لا جزاء (وثالثها) ان قوله تعالى بما كانوا يعملون يدل على اثبات العمل للعبد (ورابعها) ان هذا يدل على أنه لا يجوز أن يحصل الاثر في حال المؤثر أو أي أثر كان موجودا قبل ذلك بدليل أن العمل المتقدم أوجب الثواب المتأخر (وخامسها) كون العبد مستحقا على الله تعالى وأعظم أنواع هذا النوع الاحسان الى الوالدين لا جرم أردفه بهذا المعنى فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وقد تقدم الكلام في نظير هذه الآية في سورة العنكبوت وفي سورة لقمان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بوالديه احسانا والباقون حسنا واعلم أن الاحسان خلاف الاساءة والحسن خلاف القبح فمن قرأ احسانا فحجته قوله تعالى في سورة بني اسرائيل وبالوالدين احسانا والمعنى أمرناه بأن يوصل اليهما احسانا وحجة القراءة الثانية قوله تعالى في العنكبوت ووصينا الانسان بوالديه حسنا ولم يختلفوا فيه والمراد أيضا أنا أمرناه بان يوصل اليهما فعلا حسنا الا انه سمى ذلك الفعل الحسن بالحسن على سبيل المبالغة كما يقال هذا الرجل علم وكرم وانتصب حسنا على المصدر لان معنى ووصينا الانسان بوالديه أمرناه أن يحسن اليهما احسانا ثم قال تعالى حملته أمه كرها ووضعته كرها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي كرها بضم الكاف والباقون بفتحها قيل هما لغتان مثل الضعف والضعف والفقر والفقر ومن غير المصادر الدف والدف والشهد والشهد قال الواحدي الكره مصدر من كرهت الشئ أكرهه والكره الاسم كأنه الشئ المكروه قال تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم فهذا بالضم وقال ان ترثوا النساء كرها فهذا في موضع الحال ولم يقرأ الثانية بغير الفتح فما كان مصدرا أو في موضع الحال فالفتح فيه أحسن وما كان اسما نحو ذهبت به على كره كان الضم فيه أحسن (المسئلة الثانية) قال المفسرون حملته أمه على مشقة ووضعته في مشقة وليس يريد ابتداء

المعدود على الوجه المعهود وقرئ خالصة بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أي ذلك خلوص لك وخصوص أو هي أي تلك المرأة أو الهبة خالصة لك لا تتجاوز المؤمنين حيث لا تحل لهم بغير مهر (٣٤٤) ولا تصح الهبة بل يجب مهر المثل وقوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم) أي على المؤمنين (في أزواجهم) أي في حقهن اعتراض مقرر لما قبله من خلوص الاحلال المذكور لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان أنه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه ما لم يفرض عليه عليه الصلاة والسلام تكرمة له وتوسعة عليه أي قد علمنا ما ينبغي أن يفرض عليهم في حق أزواجهم (وما ملكت أيمانهم) وعلى أي حد وأي صفة يحق أن يفرض عليهم ففرضنا ما فرضنا على ذلك الوجه وخصصناك ببعض الخصائص (لكيلا يكون عليك حرج) أي ضيق واللام متعلقة بخالصة باعتبار ما فيها من معنى ثبوت الاحلال وحصوله له عليه الصلاة والسلام لا باعتبار اختصاصه به عليه الصلاة والسلام لان مدار انتفاء الحرج هو الاول لا الثاني الذي هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره (وكان الله غفورا) لما يعسر التحرز عنه (رحيما) ولذلك وسع الامر في مواقع الحرج (ترجي من تشاء منهن) أي تؤخرها وتترك مضاجعتها (وتؤوي اليك من تشاء) وتضم اليك من تشاء منهن وتضاجعها أو تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقرئ ترجئ بالهمزة والمعنى واحد (ومن ابتغيت) أي طلبت (ممن عزلت) طلقت بالرجعة (فلا جناح عليك) في شئ مما ذكر وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لانه اما ان يطلق أو يمسك فاذا أمسك ضاجع أو ترك وقسم أو لم يقسم واذا طلق فاما أن يخلي المعزولة أو يبتغيها وروى أنه أرجى منهن سودة وجويرية وصفية وميمونة وأم حبيبة فكان يقسم لهن ما شاء كما شاء وكانت ممن آوى اليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وأرجى خمسا وآوى أربعا وروى أنه كان يسوي بينهن مع ما أطلق له وخير الا سودة فانها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنهن وقالت لا تطلقني حتى

ابتداء الحمل فان ذلك لا يكون مشقة وقد قال تعالى فلما تغشاها حملت حملا خفيفا يريد ابتداء الحمل فان ذلك لا يكون مشقة فالحمل نطفة وعلقة ومضغة فاذا اثقلت فحينئذ حملته كرها ووضعته كرها يريد شدة الطلق (المسئلة الثالثة) دلت الآية على أن حق الام أعظم لانه تعالى قال أولا ووصينا الانسان بوالديه حسنا فذكرهما معا ثم خص الام بالذكر فقال حملته أمه كرها ووضعته كرها وذلك يدل على أن حقها أعظم وان وصول المشاق اليها بسبب الولد أكثر والاخبار كثيرة مذكورة فى هذا الباب ثم قال تعالى وحمله وفصاله ثلاثون شهرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا من باب حذف المضاف والتقدير ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهرا والفصال الفطام وهو فصله عن اللبن فان قيل المراد بيان مدة الرضاعة لا الفطام فكيف عبر عنه بالفصال قلنا لما كان الرضاع يليه الفصال ويلائمه لانه ينتهى ويتم به سمى فصالا (المسئلة الثانية) دلت الآية على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لانه لما كان مجموع مدة الحمل والرضاع ثلاثون شهرا قال والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين فاذا أسقطت الحولين الكاملين وهى أربعة وعشرون شهرا من الثلاثين بقى أقل مدة الحمل ستة أشهر روى عن عمر ان امرأة رفعت اليه وكانت قد ولدت لستة أشهر فامر برجمها فقال على لا رجم عليها وذكر الطريق الذى ذكرناه وعن عثمان أنه هم بذلك فقرأ ابن عباس عليه ذلك واعلم ان العقل والتجربة يدلان أيضا على ان الامر كذلك قال أصحاب التجارب ان لتكوين الجنين زمانا مقدرا فاذا تضاعف ذلك الزمان تحرك الجنين فاذا انضاف الى ذلك المجموع مثلاه انفصل الجنين عن الام فلنفرض أنه يتم خلقه فى ثلاثين يوما فاذا تضاعف ذلك الزمان حتى صار ستين تحرك الجنين فاذا تضاعف الى هذا المجموع مثلاه وهو مائة وعشرون حتى صار المجموع مائة وثمانين وهو ستة أشهر فحينئذ ينفصل الجنين فلنفرض أنه يتم خلقه فى خمسة وثلاثين يوما فيتحرك فى سبعين يوما فاذا انضاف اليه مثلاه وهو مائة وأربعون يوما صار المجموع مائتين وعشرة أيام وهو سبعة أشهر انفصل الولد ولنفرض أنه يتم خلقه فى أربعين يوما فيتحرك فى ثمانين يوما فينفصل عند مائتين وأربعين يوما وهو ثمانية أشهر ولنفرض انه تمت الخلقة فى خمسة وأربعين يوما فيتحرك فى تسعين يوما فينفصل عند مائتين وسبعين يوما وهو تسعة أشهر فهذا هو الضبط الذى ذكره أصحاب التجارب قال جالينوس انى كنت شديد التفحص عن مقادير أزمنة الحمل فرأيت امرأة ولدت فى المائة والاربع والثمانين ليلة وزعم أبو على بن سينا انه شاهد ذلك فقد صار أقل مدة الحمل بحسب نص القرآن وبحسب التجارب الطبية شيأ واحدا وهو ستة أشهر وأما أكثر مدة الحمل فليس فى القرآن ما يدل عليه قال أبو على بن سينا فى الفصل السادس من المقالة التاسعة من عنوان الشفاء بلغنى من حيث وثقت به كل الثقة ان امرأة وضعت بعد الرابع من سنى الحمل ولدا قد نبتت أسنانه وعاش وحكى عن ارسطاطاليس انه قال أزمنة الولادة وحبل الحيوان مضبوطة سوى الانسان فربما وضعت الحبلى لسبعة أشهر وربما وضعت فى الثامن وقلما يعيش المولود فى الثامن الا فى بلاد معينة مثل مصر والغالب هو الولادة بعد التاسع قال أهل التجارب والذى قلناه من انه اذا تضاعف زمان التكوين تحرك الجنين واذا انضم الى المجموع مثلاه انفصل الجنين انما قلناه بحسب التقريب لا بحسب التحديد فانه ربما زاد أو نقص بحسب الايام لانه لم يقم على هذا الضبط برهان انما هو تقريب ذكروه بحسب التجربة والله أعلم ثم قالوا المدة التى فيها تتم خلقة الجنين تنقسم الى أقسام (فاولها) ان الرحم اذا اشتملت على المنى ولم تقذفه الى الخارج استدار المنى على نفسه منحصرا الى ذاته وصار كالكرة ولما كان من شأن المنى أن يفسده الحركات لا جرم يثخن فى هذا الوقت وبالحرى أن خلق المنى من مادة تجف بالحر اذا كان الغرض منه تكون الحيوان واستحصاف أجزائه ويصير المنى زبدا فى اليوم السادس (وثانيها) ظهور النقط الثلاثة الدموية فيه (احداها) فى الوسط وهو الموضع الذى اذا تمت خلقته كان قلبا (والثانى) فوق وهو الدماغ (والثالث) على اليمين وهو

أحشر فى زمرة نسائك (ذلك) أى ما ذكر من تفويض الامر الى مشيئتك (أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) أى أقرب الى قرة عيونهن ورضاهن جميعا لانه حكم كلهن فيه سواء ثم ان سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وان (٣٤٥) رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن وقرئ تقر بضم التاء ونصب أعينهن وتقر على البناء للمفعول وكلهن تأكيد لنون يرضين وقرئ بالنصب على أنه تأكيد لهن (والله يعلم ما فى قلوبكم) من الضمائر والخواطر فاجتهدوا فى احسانها (وكان الله عليما) مبالغا فى العلم فيعلم كل ما تبدونه وتخفونه (حليما) لا يعاجل بالعقوبة فلا تغتروا بتأخيرها فانه امهال لا اهمال (لا يحل لك النساء) بالياء لان تأنيث الجمع غير حقيقى ولوجود الفصل وقرئ بالتاء (من بعد) أى من بعد التسع وهو فى حقه كالاربع فى حقنا وقال ابن عباس وقتادة من بعد هؤلاء التسع اللاتى خيرتهن فاخترنك وقيل من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما تؤتيهن من الوصل والهجران (ولا أن تبدل) أى تتبدل بحذف احدى التاءين (بهن) أى بهؤلاء التسع (من أزواج) بأن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها أخرى ومن مزيدة لتأكيد الاستغراق أراد الله تعالى لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسوله عليهن وهن التسع اللاتى توفى عليه الصلاة والسلام عنهن وهن عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبى سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبى أمية وصفية بنت حيى الخيبرية وميمونة بنت الحرث الهلالية وزينب بنت جحش الاسدية وجويرية بنت الحرث المصطلقية وقال عكرمة المعنى لا يحل لك النساء من بعد الاجناس الاربعة اللاتى

(٤٤ - فخر سابع) أحللناهن لك بالصفة التى تقدم ذكرها من الاعرابيات والغرائب أو من الكتابيات أو من الاماء بالنكاح ويأباه قوله تعالى ولا أن تبدل بهن فان معنى احلال الاجناس المذكورة احلال نكاحهن فلا بد أن يكون معنى التبدل بهن احلال نكاح غيرهن بدل احلال

الكبد ثم ان تلك النقط تتباعد ويظهر فيما بينها خيوط حمر وذلك يحصل بعد ثلاثة أيام أخرى فيكون المجموع تسعة أيام (وثالثها) أن تنفذ الدموية فى الجميع فيصير علقة وذلك بعد ستة أيام أخرى حتى يصير المجموع خمسة عشر يوما (ورابعها) أن يصير لحما وقد تميزت الاعضاء الثلاثة وامتدت رطوبة النخاع وذلك انما يتم باثنى عشر يوما فيكون المجموع سبعة وعشرين يوما (وخامسها) أن ينفصل الرأس عن المنكبين والاطراف عن الضلوع والبطن يميز الحس فى بعض ويخفى فى بعض وذلك يتم فى تسعة أيام أخرى فيكون المجموع ستة وثلاثين يوما (وسادسها) أن يتم انفصال هذه الاعضاء بعضها عن بعض ويصير بحيث يظهر ذلك الحس ظهورا بينا وذلك يتم فى أربعة أيام أخرى فيكون المجموع أربعين يوما وقد يتأخر الى خمسة وأربعين يوما والاقل هو الثلاثون فصارت هذه التجارب الطبية مطابقة لما أخبر عنه الصادق المصدوق فى قوله صلى الله عليه وسلم يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يوما قال أصحاب التجارب ان السقط بعد الاربعين اذا شق عنه السلالة ووضع فى الماء البارد ظهر شئ صغير متميز الاطراف (المسئلة الثالثة) هذه الآية دلت على أقل مدة الحمل وعلى أكثر مدة الرضاع اما انها دلت على أقل مدة الحمل فقد بيناه واما انها دلت على أكثر مدة الرضاع فلقوله تعالى والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة والفقهاء ربطوا بهذين الضابطين أحكاما كثيرة فى الفقه وأيضا فاذا ثبت ان أقل مدة الحمل هو الاشهر الستة فبتقدير أن تأتى المرأة بالولد فى هذه الاشهر يبقى جانبها مصونا عن تهمة الزنا والفاحشة وبتقدير أن يكون أكثر مدة الرضاع ماذكرناه فاذا حصل الرضاع بعد هذه المدة لايترتب عليها أحكام الرضاع فتبقى المرأة مستورة عن الاجانب وعند هذا يظهر أن المقصود من تقدير أقل الحمل ستة أشهر وتقدير أكثر الرضاع حولين كاملين السعى فى دفع المضار والفواحش وأنواع التهمة عن المرأة فسبحان من له تحت كل كلمة من هذا الكتاب الكريم أسرار عجيبة ونفائس لطيفة تعجز العقول عن الاحاطة بكمالها وروى الواحدى فى البسيط عن عكرمة أنه قال اذا حملت تسعة أشهر أرضعته احدا وعشرين شهرا واذا حملت ستة أشهر أرضعته أربعة وعشرين شهرا والصحيح ماقدمناه ثم قال تعالى حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلف المفسرون فى تفسير الاشد قال ابن عباس فى رواية عطاء يريد ثمانى عشرة سنة والاكثرون من المفسرين على انه ثلاثة وثلاثون سنة واحتج الفراء عليه بأن قال ان الاربعين أقرب فى النسق الى ثلاث وثلاثين منها الى ثمانية عشر ألا ترى انك تقول أخذت عامة المال أو كله فيكون أحسن من قولك أخذت أقل المال أو كله ومثله قوله تعالى ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه فبعض هذه الاقسام قريب من بعض فكذا ههنا وقال الزجاج الاولى حمله على ثلاث وثلاثين سنة لان هذا الوقت الذى يكمل فيه بدن الانسان وأقول تحقيق الكلام فى هذا الباب أن يقال ان مراتب سن الحيوان ثلاثة وذلك لان بدن الحيوان لايتكون الا برطوبة غريزية وحرارة غريزية ولاشك أن الرطوبة الغريزية غالبة فى أول العمر وناقصة فى آخر العمر والانتقال من الزيادة الى النقصان لايعقل حصوله الا اذا حصل الاستواء فى وسط هاتين المدتين فثبت أن مدة العمر منقسمة الى ثلاثة أقسام (أولها) أن تكون الرطوبة الغريزية زائدة على الحرارة الغريزية وحينئذ تكون الاعضاء قابلة للتمدد فى ذواتها وللزيادة بحسب الطول والعرض والعمق وهذا هو سن النشو والنماء (والمرتبة الثانية) وهى المرتبة المتوسطة أن تكون الرطوبة الغريزية وافية بحفظ الحرارة الغريزية من غير زيادة ولانقصان وهذا هو سن الوقوف وهو سن الشباب (والمرتبة الثالثة) وهى المرتبة الاخيرة أن تكون الرطوبة الغريزية ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزية ثم هذا النقصان على قسمين (فالاول) هو النقصان الخفى وهو سن الكهولة (والثانى) هو النقصان الظاهر وهو سن الشيخوخة

نكاحهن وذلك انما يتصور بالنسخ الذى ليس من الوظائف البشرية (ولو أعجبك حسنهن) أى حسن الازواج المستبدلة وهو حال من فاعل تبدل لا من مفعوله وهو من أزواج لتوغله فى التنكير قيل تقديره مفروضا اعجابك بهن وقدمر تحقيقه فى قوله تعالى ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم وقيل هى أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبى طالب أى هى ممن أعجبه عليه الصلاة والسلام حسنهن واختلف فى أن الآية محكمة أو منسوخة قيل بقوله تعالى ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء وقيل بقوله تعالى انا أحللنا لك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف وقيل بالسنة وعن عائشة رضى الله عنها مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء وقال أنس رضى الله عنه مات عليه الصلاة والسلام على التحريم (الا ماملكت يمينك) استثناء من النساء لانه يتناول الازواج والاماء وقيل منقطع (وكان الله على كل شئ رقيبا) حافظا مهيمنا فاحذروا مجاوزة حدوده وتخطى حلاله الى حرامه (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى) شروع فى بيان مايجب مراعاته على الناس من حقوق نساء النبى صلى الله عليه وسلم اثر بيان مايجب مراعاته عليه عليه الصلاة والسلام من الحقوق المتعلقة بهن وقوله تعالى (الا أن يؤذن لكم) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لاتدخلوها فى حال من الاحوال الاحال كونكم مأذونا لكم وقيل من أعم الاوقات أى لاتدخلوها فى وقت من الاوقات الاوقت أن يؤذن لكم ورد عليه بان النحاة نصوا على أن الوقوع موقع الظرف مختص بالمصدر الصريح دون المؤول لايقال آتيك أن يصيح الديك وانما يقال آتيك صياح الديك وقوله تعالى (الى طعام) متعلق بيؤذن بتضمين معنى الدعاء للاشعار بانه لاينبغى أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وان تحقق الاذن كما يشعر به قوله تعالى (غير فهذا ناظرين اناه) أى غير منتظرين وقته أو ادراكه وهو حال من فاعل لاتدخلوا على أن الاستثناء واقع على الوقت والحال معا عند من يجوزه أو من

فهذا ضبط معلوم ثم ههنا مقدمة أخرى وهى ان دور القمر انما يكمل فى مدة ثمانية وعشرين يوما وشئ فاذا قسمنا هذه المدة بأربعة أقسام كان كل قسم منها سبعة فلهذا السبب قدروا الشهر بالاسابيع الاربعة ولهذه الاسابيع تأثيرات عظيمة فى اختلاف أحوال هذا العالم اذا عرفت هذا فنقول ان المحققين من أصحاب التجارب قسموا مدة سن النماء والنشو الى أربعة أسابيع و يحصل للآدمى بحسب انتهاء كل سابوع من هذه السوابيع الاربعة نوع من التغير يؤدى الى كماله اما عند تمام السابوع الاول من العمر فتصلب أعضاؤه بعض الصلابة وتقوى افعاله أيضا بعض القوة وتتبدل أسنانه الضعيفة الواهية باسنان قوية وتكون قوة الشهوة فى هذا السابوع أقوى فى الهضم مما كان قبل ذلك واما فى نهاية السابوع الثانى فتقوى الحرارة وتقل الرطوبات وتتسع المجارى وتقوى قوة الهضم وتقوى الاعضاء وتصلب قوة وصلابة كافية و يتولد فيه مادة الزرع وعند هذا يحكم الشرع عليه بالبلوغ على قول الشافعى رضى الله عنه وهذا هو الحق الذى لا محيد عنه لان هذا الوقت لما قويت الحرارة الغريزية قلت الرطوبات واعتدل الدماغ فتكمل القوى النفسانية التى هى الفكر والذكر فلا جرم يحكم عليه بكمال العقل فلا جرم حكمت الشريعة بالبلوغ وتوجه التكاليف الشرعية فما أحسن قول من ضبط البلوغ الشرعى بخمس عشرة سنة واعلم انه يتفرع على حصول هذه الحالة أحوال فى ظاهر البدن (أحدها) انفراق طرف الارنبة لان الرطوبة الغريزية التى هناك تنتقص فيظهر الانفراق (وثانيها) نتوء الحنجرة وغلظ الصوت لان الحرارة التى تنهض فى ذلك الوقت توسع الحنجرة فتنتؤ و يغلظ الصوت (وثالثها) تغير ريح الابط وهى الفضلة العفينة التى يدفعها القلب الى ذلك الموضع وذلك لان القلب لما قويت حرارته لا جرم قويت على انضاج المادة ودفعها الى اللحم الغددى الرخو الذى فى الابط (ورابعها) نبات الشعر وحصول الاحتلام وكل ذلك لان الحرارة قويت فقدرت على توليد الابخرة المولدة للشعر وعلى توليد مادة الزرع وفى هذا الوقت تتحرك الشهوة فى الصبايا و ينهد ثديهن و ينزل حيضهن وكل ذلك بسبب ان الحرارة الغريزية التى فيهن قويت فى آخر هذا السابوع وأما فى السابوع الثالث فيدخل فى حد الكمال و ينبت للذكر اللحية و يزداد حسنه وكماله وأما فى السابوع الرابع فلا تزال هذه الاحوال فيه متكاملة متزايدة وعند انتهاء السابوع الرابع نهاية أن لا يظهر الازدياد اما مدة سن الشباب وهى مدة الوقوف فسابوع واحد فيكون المجموع خمسة وثلاثين سنة ولما كانت هذه المدة اما قد تزداد واما قد تنقص بحسب الامزجة جعل الغاية فيه مدة أربعين سنة وهذا هو السن الذى يحصل فيه الكمال اللائق بالانسان شرعا وطبا فان فى هذا الوقت تسكن أفعال القوى الطبيعية بعض السكون وتنتهى له أفعال القوة الحيوانية غايتها وتبتدئ أفعال القوة النفسانية بالقوة والكمال واذا عرفت هذه المقدمة ظهر لك ان بلوغ الانسان وقت الاشد شئ و بلوغه الى الاربعين شئ آخر فان بلوغه الى وقت الاشد عبارة عن الوصول الى آخر سن النشو والنماء وأن بلوغه الى الاربعين عبارة عن الوصول الى آخر مدة الشباب ومن ذلك الوقت تأخذ القوى الطبيعية والحيوانية فى الانتقاص وتأخذ القوة العقلية والنطقية فى الاستكمال وهذا أحد ما يدل على أن النفس غير البدن فان البدن عند الاربعين يأخذ فى الانتقاص والنفس من وقت الاربعين تأخذ فى الاستكمال ولو كانت النفس عين البدن لحصل للشئ الواحد فى الوقت الواحد الكمال والنقصان وذلك محال وهذا الكلام الذى ذكرناه ولخصناه مذكور فى صريح لفظ القرآن لانا بينا ان عند الاربعين تنتهى الكمالات الحاصلة بسبب القوى الطبيعية والحيوانية وأما الكمالات الحاصلة بحسب القوى النطقية والعقلية فانها تبتدئ بالاستكمال والدليل عليه قوله تعالى حتى اذا بلغ أشده و بلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى فهذا يدل على ان توجه الانسان الى عالم العبودية والاشتغال بطاعة الله انما يحصل من هذا الوقت وهذا تصريح بان القوة النفسانية العقلية النطقية انما تبتدئ بالاستكمال

المجرور فى لكم وقرئ بالجر صفة لطعام فيكون جاريا على غير من هو له بلا ابراز الضمير ولا مساغ له عند البصريين وقرئ بالامالة لانه مصدر أنى الطعام أى ادرك (ولكن اذا دعيتم فادخلوا) استدراك من النهى عن الدخول بغير اذن وفيه دلالة بينة على أن المراد بالاذن الى الطعام هو الدعوة اليه (فاذا طعمتم فانتشروا) فتفرقوا ولا تلبثوا لانه خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى عليه الصلاة والسلام فيدخلون و يقعدون منتظرين لادراكه مخصوصة بهم و بامثالهم والا لما جاز لاحد أن يدخل بيوته عليه الصلاة والسلام باذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لامر مهم (ولا مستأنسين لحديث) أى لحديث بعضكم بعضا أو لحديث أهل البيت بالتسمع له عطف على ناظرين أو مقدر بفعل أى ولا تدخلوا أو لا تمكثوا مستأنسين الخ (ان ذلكم) أى الاستئناس الذى كنتم تفعلونه من قبل (كان يؤذى النبى) لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وايجابه للاشتغال بما لا يعنيه وصده عن الاشتغال بما يعنيه (فيستحيى منكم) أى من اخراجكم لقوله تعالى (والله لا يستحيى من الحق) فانه يستدعى أن يكون المستحيا منه أمرا حقا متعلقا بهم لا بأنفسهم وما ذاك الا اخراجهم فينبغى أن لا يترك حياء ولذلك لم يتركه تعالى وأمركم بالخروج والتعبير عنه بعدم الاستحياء فى المشاكلة وقرئ لا يستحى بحذف الياء الاولى والقاء حركتها الى ما قبلها (واذا سألتموهن) الضمير لنساء النبى المدلول عليهن بذكر بيوته عليه الصلاة والسلام (متاعا) أى شيأ يتمتع به من الماعون وغيره (فاسألوهن) أى المتاع (من وراء حجاب) أى ستر روى أن عمر رضى الله عنه قال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وقيل انه عليه الصلاة والسلام كان يطعم ومعه بعض أصحابه فاصابت يد رجل منهم يد عائشة رضى الله عنها فكره النبى ذلك فنزلت (ذلكم) أى ما ذكر من عدم الدخول بغير اذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب (أطهر

لقلوبكم وقلوبهن) أي أكثر تطهيرا من الخواطر الشيطانية (وما كان لكم) أي وما صح وما استقام لكم (أن تؤذوا رسول الله) أي ان تفعلوا في حياته فعلا يكرهه و يتأذى به (ولا أن تنكحوا (٣٤٨) أزواجه من بعده أبدا) أي من بعد وفاته أو فراقه (ان ذلكم) اشارة الى ماذكر من ايذائه عليه الصلاة والسلام ونكاح أزواجه من بعده وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته في الشر والفساد (كان عند الله عظيما) أي أمرا عظيما وخطبا هائلا لايقادر قدره وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله صلى الله عليه وسلم وايجاب حرمته حيا وميتا ما لايخفى ولذلك بالغ تعالى في الوعيد حيث قال (ان تبدوا شيأ) مما لاخير فيه كنكاحهن على ألسنتكم (أو تخفوه) في صدوركم (فان الله كان بكل شئ عليما) فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لامحالة وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل وتشديد ومبالغة في الوعيد (لاجناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء اخواتهن) استئناف لبيان من لايجب الاحتجاب عنهم روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب يارسول الله أو نكلمهن أيضا من وراء الحجاب فنزلت وانما لم يذكر العم والخال لانهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمى العم أبا في قوله تعالى واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق أو لانه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الاخوة وأبناء الاخوات فان مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤولة لما انهن عمات لابناء الاخوة وخالات لابناء الاخوات وقيل لانه كره ترك الاحتجاب منهما مخافة أن يصفاهن لابنائهما (ولا نسائهن) أي نساء المؤمنات (ولا ما ملكت أيمانهن) من العبيد والاماء وقيل من الاماء خاصة وقد مر في سورة النور (واتقين الله) الترتيب في كل ما تأتين وما تذرن لاسيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه (ان الله كان على كل شئ شهيدا) لايخفى عليه خافية ولا تتفاوت في علمه الاحوال (ان

من هذا الوقت فسبحان من أودع في هذا الكتاب الكريم هذه الاسرار الشريفة المقدسة قال المفسرون لم يبعث نبي قط الا بعد أربعين سنة وأقول هذا مشكل بعيسى عليه السلام فان الله جعله نبيا من أول عمره الا أنه يجب أن يقال الاغلب أنه ماجاءه الوحي الا بعد الاربعين وهكذا كان الامر في حق رسولنا صلى الله عليه وسلم ويروى ان عمر بن عبد العزيز لما بلغ أربعين سنة كان يقول اللهم أوزعني أن أشكر نعمتك الى تمام الدعاء وروى انه جاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يؤمر الحافظان أن ارفقا بعبدي من حداثة سنه حتى اذا بلغ الاربعين قيل احفظا وحققا فكان راوي هذا الحديث اذا ذكر هذا الحديث بكى حتى تبتل لحيته رواه القاضي في التفسير (المسئلة الثانية) اعلم ان قوله تعالى حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة يدل على أن الانسان كالمحتاج الى مراعاة الوالدين له الى قريب من هذه المدة وذلك لان العقل كالناقص فلا بد له من رعاية الابوين على رعاية المصالح ودفع الآفات وفيه تنبيه على ان نعم الوالدين على الولد بعد دخوله في الوجود تمتد الى هذه المدة الطويلة وذلك يدل على أن نعم الوالدين كأنه يخرج عن وسع الانسان مكافأتها الا بالدعاء والذكر الجميل (المسئلة الثالثة) حكى الواحدي عن ابن عباس وقوم كثير من متأخري المفسرين ومتقدميهم أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه قالوا والدليل عليه ان الله تعالى قد وقت الحمل والفصال ههنا بمقدار يعلم انه قد ينقص وقد يزيد عنه بسبب اختلاف الناس في هذه الاحوال فوجب أن يكون المقصود منه شخصا واحدا حتى يقال ان هذا التقدير اخبار عن حاله فيمكن أن يكون أبو بكر كان حمله وفصاله هذا القدر ثم قال تعالى في صفة ذلك الانسان حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ومعلوم أنه ليس كل انسان يقول هذا القول فوجب أن يكون المراد من هذه الآية انسانا معينا قال هذا القول وأما أبو بكر فقد قال هذا القول في قريب من هذا السن لانه كان أقل سنا من النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين وشئ والنبي صلى الله عليه وسلم بعث عند الاربعين وكان أبو بكر قريبا من الاربعين وهو قد صدق النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به فثبت بما ذكرناه ان هذه الآيات صالحة لان يكون المراد منها أبو بكر واذا ثبت القول بهذه الصلاحية فنقول ندعي انه هو المراد من هذه الآية ويدل عليه انه تعالى قال في آخر هذه الآية أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيآتهم في أصحاب الجنة وهذا يدل على أن المراد من هذه الآية أفضل الخلق لان الذي يتقبل الله عنه أحسن أعماله ويتجاوز عن كل سيآته يجب أن يكون من أفاضل الخلق وأكابرهم وأجمعت الامة على ان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اما أبو بكر واما علي ولا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية علي بن أبي طالب رضي الله عنه لان هذه الآية انما تليق بمن أتى بهذه الكلمة عند بلوغ الاشد وعند القرب من الاربعين وعلي بن أبي طالب ما كان كذلك لانه انما آمن في زمان الصبا أو عند القرب من الصبا فثبت ان المراد من هذه الآية هو أبو بكر والله أعلم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى أوزعني قال ابن عباس معناه ألهمني قال صاحب الصحاح أوزعته بالشئ أغريته به فأوزع به فهو موزع به أي مغرى به واستوزعت الله شكره فأوزعني أي استلهمته فألهمني (المسئلة الخامسة) اعلم انه تعالى حكى عن هذا الداعي انه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء (أحدها) ان يوفقه الله للشكر على نعمه (والثاني) ان يوفقه للاتيان بالطاعة المرضية عند الله (والثالث) أن يصلح له في ذريته وفي ترتيب هذه الاشياء الثلاثة على الوجه المذكور وجهان (الاول) انا بينا ان مراتب السعادات ثلاثة أكملها النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية والسعادات النفسانية هي اشتغال القلب بشكر آلاء الله ونعمائه والسعادات البدنية هي اشتغال البدن بالطاعة والخدمة والسعادات الخارجية هي سعادة الاهل والولد فلما كانت المراتب محصورة في هذه الثلاثة لاجرم رتبها الله تعالى على هذا الوجه (والسبب الثاني) لرعاية هذا

الترتيب أنه تعالى قدم الشكر على العمل لان الشكر من أعمال القلوب والعمل من أعمال الجوارح وعمل القلب أشرف من عمل الجارحة وأيضا المقصود من الاعمال الظاهرة أحوال القلب قال تعالى وأقم الصلاة لذكرى بين ان الصلاة مطلوبة لاجل انها تفيد الذكر فثبت ان أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح والاشرف يجب تقديمه فى الذكر وأيضا الاشتغال بالشكر اشتغال بقضاء حقوق النعم الماضية والاشتغال بالطاعة الظاهرة اشتغال بطلب النعم المستقبلة وقضاء الحقوق الماضية يجرى مجرى قضاء الدين وطلب المنافع المستقبلة طلب للزوائد ومعلوم ان قضاء الدين مقدم على سائر المهمات فلهذا السبب قدم الشكر على سائر الطاعات وأيضا أنه قدم طلب التوفيق على الشكر وطلب التوفيق على الطاعة على طلب أن يصلح له ذريته وذلك لان المطلوبين الاولين اشتغال بالتعظيم لامر الله والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله ومعلوم ان بالتعظيم لامر الله يجب تقديمه على الشفقة على خلق الله (المسئلة السادسة) قال أصحابنا ان العبد طلب من الله تعالى أن يلهمه الشكر على نعم الله وهذا يدل على انه لا يتم شئ من الطاعات والاعمال الا باعانة الله تعالى ولو كان العبد مستقلا بافعاله لكان هذا الطلب عبثا وأيضا المفسرون قالوا المراد من قوله أوزعنى أن اشكر نعمتك التى أنعمت على هو الايمان أو الايمان يكون داخلا فيه والدليل عليه قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم والمراد صراط الذين أنعمت عليهم بنعمة الايمان واذا ثبت هذا فنقول العبد يشكر الله على نعمة الايمان فلو كان الايمان من العبد لا من الله لكان ذلك شكر الله تعالى على فعله لا على فعل غيره وذلك قبيح لقوله تعالى ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فان قيل فهب أن يشكر الله على ما أنعم به عليه فكيف يشكره على النعم التى أنعم بها على والديه وانما يجب على الرجل أن يشكر ربه على ما يصل اليه من النعم قلنا كل نعمة وصلت من الله تعالى الى والديه فقد وصل منها أثر اليه فلذلك وصاه الله تعالى على ان يشكر ربه على الامرين (وأما المطلوب الثانى من المطالب المذكورة فى هذا الدعاء) فهو قوله وأن اعمل صالحا ترضاه واعلم ان الشئ الذى يعتقد الانسان فيه كونه صالحا على قسمين (أحدهما) الذى يكون صالحا عنده ويكون صالحا أيضا عند الله تعالى (والثانى) الذى يظنه صالحا ولكنه لا يكون صالحا عند الله تعالى فلما انقسم الصالح فى ظنه الى هذين القسمين طلب من الله أن يوفقه لان يأتى بعمل صالح يكون صالحا عند الله ويكون مرضيا عند الله (والمطلوب الثالث من المطالب المذكورة فى هذه الآية) قوله تعالى وأصلح لى فى ذريتى لان ذلك من أجل نعم الله على الوالد كما قال ابراهيم عليه السلام واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام فان قيل ما معنى فى فى قوله وأصلح لى فى ذريتى قلنا تقدير الكلام هب لى الصلاح فى ذريتى واوقعه فيهم واعلم انه تعالى لما حكى عن ذلك الداعى أنه طلب هذه الاشياء الثلاثة قال بعد ذلك انى تبت اليك وانى من المسلمين والمراد ان الدعاء لا يصح الا مع التوبة والا مع كونه من المسلمين فتبين أنى انما أقدمت على هذا الدعاء بعد أن تبت اليك من الكفر ومن كل قبيح وبعد أن دخلت فى الاسلام والانقياد لامر الله تعالى ولقضائه واعلم ان الذين قالوا ان هذه الآية نزلت فى أبى بكر قالوا ان أبا بكر أسلم والداه ولم يتفق لاحد من الصحابة والمهاجرين اسلام الابوين الا له فأبوه أبو قحافة عثمان بن عمرو وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو وقوله وأن اعمل صالحا ترضاه قال ابن عباس فاجابه الله اليه فاعتق تسعة من المؤمنين يعذبون فى الله منهم بلال وعامر بن فهيرة ولم يترك شيأ من الخير الا أعانه الله عليه وقوله تعالى وأصلح لى فى ذريتى قال ابن عباس لم يبق لابى بكر ولد من الذكور والاناث الا وقد آمنوا ولم يتفق لاحد من الصحابة أن أسلم أبواه وجميع أولاده الذكور والاناث الا لابى بكر ثم قال تعالى أولئك أى أهل هذا القول الذين نتقبل عنهم قرئ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول وقرئ بالنون المفتوحة وكذلك نتجاوز وكلاهما فى المعنى واحد لان الفعل وان كان مبنيا للمفعول فمعلوم انه لله سبحانه فهو كقوله يغفر لهم ما قد سلف فبين تعالى بقوله أولئك الذين

الله وملائكته) وقرئ وملائكته بالرفع عطفا على محل ان واسمها عند الكوفيين وحملا على حذف الخبر ثقة بدلالة ما بعده عليه على رأى البصريين (يصلون على النبى) قيل الصلاة من الله تعالى الرحمة ومن الملائكة الاستغفار (٣٤٩) وقال ابن عباس رضى الله عنهما أراد أن الله يرحمه والملائكة يدعون له وعنه أيضا يصلون يبركون وقال أبو العالية صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه أيضا عند الملائكة وصلاتهم دعاؤهم له فينبغى أن يراد بها فى يصلون معنى مجازى عام يكون كل واحد من المعانى المذكورة فردا حقيقيا له أى يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره ويهتمون باظهار شرفه وتعظيم شأنه وذلك من الله سبحانه بالرحمة ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) اعتنوا أنتم أيضا بذلك فانكم أولى به (وسلموا تسليما) قائلين اللهم صل على محمد أو نحو ذلك وقيل المراد بالتسليم انقياد أمره والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقا من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه وقيل يجب ذلك كلما جرى ذكره لقوله عليه الصلاة والسلام رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على وقوله عليه الصلاة والسلام من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال وكل الله تعالى بى ملكين فلا اذكر عند مسلم فيصلى على الا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ولا أذكر عند مسلم فلا يصلى على الا قال ذانك الملكان لا غفر الله لك وقال الله تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ومنهم من قال يجب فى كل مجلس مرة وان تكرر ذكره عليه الصلاة والسلام كما قيل فى آية السجدة وتشميت العاطس وكذلك فى كل دعاء فى أوله وآخره ومنهم من قال بالوجوب فى العمر مرة وكذا قال فى اظهار الشهادتين والذى يقتضيه الاحتياط ويستدعيه معرفة علو شأنه عليه الصلاة والسلام أن يصلى عليه كلما جرى ذكره الرفيع وأما الصلاة عليه فى الصلاة بان يقال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما

تتقبل عنهم أحسن ما عملوا أن من تقدم ذكره ممن يدعو بهذا الدعاء ويسلك هذه الطريقة التى تقدم ذكرها نتقبل عنهم والتقبل من الله هو ايجاب الثواب له على عمله فان قيل ولم قال تعالى أحسن ما عملوا والله يتقبل الاحسن ومادونه قلنا الجواب من وجوه (الاول) المراد بالاحسن الحسن كقوله تعالى واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم وكقولهم الناقص والاشج أعدلا بنى مروان أى عادلا بنى مروان (الثانى) ان الحسن من الاعمال هو المباح الذى لا يتعلق به ثواب ولا عقاب والاحسن ما يغاير ذلك وهو كل ما كان مندوبا أو واجبا ثم قال تعالى ونتجاوز عن سيآتهم والمعنى أنه تعالى يتقبل طاعاتهم ويتجاوز عن سيآتهم ثم قال فى أصحاب الجنة قال صاحب الكشاف ومعنى هذا الكلام مثل قولك أكرمنى الامير فى مائتين من أصحابه يريد أكرمنى فى جملة من أكرم منهم وضمنى فى عدادهم ومحله النصب على الحال على معنى كائنين فى أصحاب الجنة ومعدودين منهم وقوله وعد الصدق مصدر مؤكد لان قوله نتقبل ونتجاوز وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز والمقصود بيان أنه تعالى يعامل من صفته ما قدمناه بهذا الجزاء وذلك وعد من الله تعالى فبين انه صدق ولا شك فيه ﴿ قوله تعالى ﴿والذى قال لوالديه أف لكما أتعدانني ان أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا أساطير الاولين أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ اعلم انه تعالى لما وصف الولد البار بوالديه فى الآية المتقدمة وصف الولد العاق لوالديه فى هذه الآية فقال والذى قال لوالديه أف لكما وفى هذه الآية قولان (الاول) انها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر قالوا كان أبواه يدعوانه الى الاسلام فيأبى وهو قوله أف لكما واحتج القائلون بهذا القول على صحته بانه لما كتب معاوية الى مروان بان يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن بن أبى بكر لقد جئتم بها هرقلية أتبايعون لابنائكم فقال مروان يا أيها الناس هو الذى قال الله فيه والذى قال لوالديه أف لكما (والقول الثانى) انه ليس المراد منه شخص معين بل المراد منه كل من كان موصوفا بهذه الصفة وهو كل من دعاه أبواه الى الدين الحق فأباه وأنكره وهذا القول هو الصحيح عندنا ويدل عليه وجوه (الاول) انه تعالى وصف هذا الذى قال لوالديه أف لكما أتعدانني بقوله أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين ولا شك ان عبد الرحمن آمن وحسن اسلامه وكان من سادات المسلمين فبطل حمل الآية عليه فان قالوا روى انه لما دعاه أبواه الى الاسلام وأخبراه بالبعث بعد الموت قال أتعدانني أن أخرج من القبر يعنى أبعث بعد الموت وقد خلت القرون من قبلى يعنى الامم الخالية فلم أر أحدا منهم بعث فاين عبد الله بن جدعان وأين فلان وفلان اذا عرفت هذا فنقول قوله أولئك الذين حق عليهم القول المراد هؤلاء الذين ذكرهم عبد الرحمن من المشركين الذين ماتوا قبله وهم الذين حق عليهم القول وبالجملة فهو عائد الى المشار اليهم بقوله وقد خلت القرون من قبلى لا الى المشار اليه بقوله والذى قال لوالديه أف لكما هذا ما ذكره الكلبى فى دفع ذلك الدليل وهو حسن (والوجه الثانى فى ابطال ذلك القول) ما روى ان مروان لما خاطب عبد الرحمن بن أبى بكر بذلك الكلام سمعت عائشة ذلك فغضبت وقالت والله ما هو به ولكن الله لعن أباك وأنت فى صلبه (الوجه الثالث) وهو الاقوى أن يقال انه تعالى وصف الولد البار بأبويه فى الآية المتقدمة ووصف الولد العاق لابويه فى هذه الآية وذكر من صفات ذلك الولد انه بلغ فى العقوق الى حيث لما دعاه أبواه الى الدين الحق وهو الاقرار بالبعث والقيامة أصر على الانكار وأبى واستكبر وعول فى ذلك الانكار على شبهات خسيسة وكلمات واهية واذا كان كذلك كان المراد كل ولد اتصف بالصفات المذكورة ولا حاجة البتة الى تخصيص اللفظ المطلق بشخص معين قال صاحب الكشاف قرئ

صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد فليست بشرط فى جواز الصلاة عندنا وعن ابراهيم النخعى رحمه الله ان الصحابة كانوا يكتفون عن ذلك بما فى التشهد وهو السلام عليك أيها النبى وأما الشافعى رحمه الله فقد جعلها شرطا وأما الصلاة على غير الانبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعا وتكره استقلالا لانه فى العرف شعار ذكر الرسل ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل مع كونه عزيزا جليلا (ان الذين يؤذون الله ورسوله) أريد بالايذاء اما فعل ما يكرهانه من الكفر والمعاصى مجاز الاستحالة حقيقة التأذى فى حقه تعالى وقيل فى ايذائه تعالى هو قول اليهود والنصارى والمشركين يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والاصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقيل قول الذين يلحدون فى آياته وفى ايذاء الرسول عليه الصلاة والسلام هو قولهم شاعر ساحر كاهن مجنون وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أحد وقيل طعنهم فى نكاح صفية والحق هو العموم فيهما واما ايذاؤه عليه الصلاة والسلام خاصة بطريق الحقيقة وذكر الله عز وجل لتعظيمه والايذان بجلالة مقداره عنده تعالى وأن ايذاءه عليه الصلاة والسلام ايذاء له سبحانه (لعنهم الله) طردهم وأبعدهم من رحمته (فى الدنيا والآخرة) بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيأ منها (وأعد لهم) مع ذلك (عذابا مهينا) يصيبهم فى الآخرة خاصة (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) يفعلون بهم ما يتأذون به من قول أو فعل وتقييده بقوله تعالى (بغير ما اكتسبوا) أى بغير جناية يستحقون بها الاذية بعد اطلاقه فيما قبله للايذان بان أذى الله ورسوله لا يكون الا غير حق وأما أذى هؤلاء ففيه ومنه (فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) أى ظاهرا بينا قيل انها نزلت فى منافقين كانوا يؤذون عليا رضى الله عنه اف ويسمعونه ما لا خير فيه وقيل فى أهل الافك وقال الضحاك والكلبى فى زناة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن وكانوا لا يتعرضون

أف بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين وهو صوت اذا صوت به الانسان علم انه متضجر كما اذا قال حس علم انه متوجع واللام للبيان معناه هذا التأفيف لكما خاصة ولاجلكما دون غير كما وقرئ أتعدانني بنونين وأتعداني باحدهما وأتعداني بالادغام وقرأ بعضهم أتعدانني بفتح النون كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرين والياء ففتح الاولى تحريا للتخفيف كما تحراه من أدغم ومن طرح أحدهما ثم قال أن أخرج أى ان أبعث وأخرج من الارض وقرئ أخرج وقد خلت القرون من قبلى يعنى ولم يبعث منهم أحد ثم قال وهما يستغيثان الله أى الوالدان يستغيثان الله فان قالوا كان الواجب أن يقال يستغيثان بالله قلنا الجواب من وجهين (الاول) ان المعنى انهما يستغيثان بالله من كفره وانكاره فلما حذف الجار وصل الفعل (الثانى) يجوز أن يقال الباء حذف لانه أريد بالاستغاثة ههنا الدعاء على ما قاله المفسرون يدعوان الله فلما أريد بالاستغاثة الدعاء حذف الجار لان الدعاء لا يقتضيه وقوله ويلك أى يقولان له ويلك آمن وصدق بالبعث وهو دعاء عليه بالثبور والمراد به الحث والتحريض على الايمان لا حقيقة الهلاك ثم قال ان وعد الله بالبعث حق فيقول لهما ما هذا الذى تقولان من أمر البعث وتدعواننى اليه الا أساطير الاولين ثم قال تعالى أولئك الذين حق عليهم القول أى حقت عليهم كلمة العذاب ثم ههنا قولان فالذين يقولون المراد بنزول الآية عبد الرحمن بن أبى بكر قالوا المراد بهؤلاء الذين حقت عليهم كلمة العذاب هم القرون الذين خلوا من قبله والذين قالوا المراد به ليس عبد الرحمن بل كل ولد كان موصوفا بالصفة المذكورة قالوا هذا الوعيد مختص بهم وقوله فى أمم نظير لقوله فى أصحاب الجنة وقد ذكرنا أنه نظير لقوله أكرمنى الامير فى أناس من أصحابه يريد أكرمنى فى جملة من أكرم منهم ثم قال انهم كانوا خاسرين وقرئ أن بالفتح على معنى آمن بأن وعد الله حق ثم قال ولكل درجات مما عملوا وفيه قولان (الاول) ان الله تعالى ذكر الولد البار ثم أردفه بذكر الولد العاق فقوله ولكل درجات مما عملوا خاص بالمؤمنين وذلك لان المؤمن البار بوالديه له درجات متفاوتة ومراتب مختلفة فى هذا الباب (والقول الثانى) أن قوله ولكل درجات مما عملوا عائد الى الفريقين والمعنى ولكل واحد من الفريقين درجات فى الايمان والكفر والطاعة والمعصية فان قالوا كيف يجوز ذكر لفظ الدرجات فى أهل النار وقد جاء فى الاثر الجنة درجات والنار دركات قلنا فيه وجوه (الاول) يجوز أن يقال ذلك على جهة التغليب (الثانى) قال ابن زيد درج أهل الجنة يذهب علوا ودرج أهل النار ينزل هبوطا (الثالث) ان المراد بالدرجات المراتب المتزايدة الا أن زيادات أهل الجنة فى الخيرات والطاعات وزيادات أهل النار فى المعاصى والسيآت ثم قال تعالى وليوفيهم وقرئ بالنون وهذا تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه كأنه قيل وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم فجعل الثواب درجات والعقاب دركات ولما بين الله تعالى انه يوصل حق كل أحد اليه بين أحوال أهل العقاب أولا فقال ويوم يعرض الذين كفروا على النار قيل يدخلون النار وقيل تعرض عليهم النار ليروا أهوالها أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا قرأ ابن كثير آذهبتم استفهام بهمزة ومدة وابن عامر استفهام بهمزتين بلا مد والباقون أذهبتم بلفظ الخبر والمعنى ان كل ما قدر لكم من الطيبات والراحات فقد استوفيتموه فى الدنيا وأخذتموه فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شئ منها وعن عمر لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ولكنى أستبقى طيباتى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالادم ما يجدون لها رقاعا فقال أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم فى حلة ويروح فى أخرى ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ويستر بيته كما تستر الكعبة قالوا نحن يومئذ خير قال بل أنتم اليوم خير رواه صاحب الكشاف قال الواحدى ان الصالحين يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم فى الآخرة أكمل الا ان هذه الآية لا تدل على المنع من التنعم لان هذه الآية وردت فى حق الكافر وانما وبخ الله الكافر لانه يتمتع بالدنيا ولم يؤد شكر

الا للاماء ولكن ربما كان يقع منهم التعرض للحرائر أيضا جهلا أو تجاهلا لاتحاد الكل فى الزى واللباس والظاهر عمومه لكل ماذكر ولما سيأتى من أراجيف المرجفين (يا أيها النبى) بعدما بين سوء حال المؤذين زجرا لهم عن الايذاء أمر النبى عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع ايذاءهم فى الجملة من الستر والتميز عن مواقع الايذاء فقيل (قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها وقيل هى الملحفة وكل ما يتستر به أى يغطين بها وجوههن وأبدانهن اذا برزن لداعية من الدواعى ومن للتبعيض لما مر من أن المعهود التلفع ببعضها وارخاء بعضها وعن السدى تغطى احدى عينيها وجبهتها والشق الآخر الا العين (ذلك) أى ماذكر من التغطى (أدنى) أقرب (أن يعرفن) ويميزن عن الاماء والقينات اللاتى هن مواقع تعرضهم وايذائهم (فلا يؤذين) من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن (وكان الله غفورا) لما سلف منهن من التفريط (رحيما) بعباده حيث راعى من مصالحهم أمثال هاتيك الجزئيات (لئن لم ينته المنافقون) عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للايذاء (والذين فى قلوبهم مرض) عما هم عليه من التزلزل وما يستتبعه مما لا خير فيه (والمرجفون فى المدينة) من الفريقين عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الاراجيف الملفقة المستتبعة للاذية وأصل الارجاف التحريك من الرجفة التى هى الزلزلة وصفت به الاخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة (لنغرينك بهم) لنأمرنك بقتالهم واجلائهم أو بما يضطرهم الى الجلاء ولنحرضنك على ذلك (ثم لا يجاورونك) عطف على جواب القسم وثم للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم ما يصيبهم (فيها) أى فى المدينة (الا قليلا) زمانا أو جوارا قليلا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه (ملعونين) نصب على

الشتم أو الحال على أن الاستثناء وارد عليه أيضا على رأى من يجوزه كما فى قوله تعالى غير ناظرين اناه ولا سبيل الى انتصابه عن قوله تعالى (أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) لان ما بعد كلمة الشرط لا يعمل فيما قبلها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى سن الله ذلك فى الامم الماضية سنة وهى أن يقتل الذين نافقوا الانبياء عليهم الصلاة والسلام وسعوا فى توهين أمرهم بالارجاف ونحوه أينما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أصلا لابتنائها على أساس الحكمة التى عليها يدور فلك التشريع (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت قيامها كان المشركون يسألونه عليه الصلاة والسلام عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء واليهود امتحانا لما أن الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وسائر الكتب (قل انما علمها عند الله) لا يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا وقوله تعالى (وما يدريك) خطاب مستقل له عليه الصلاة والسلام غير داخل تحت الامر مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجىء عن قريب أى أى شئ يعلمك بوقت قيامها أى لا يعلمك به شئ أصلا (لعل الساعة تكون قريبا) أى شيأ قريبا أو تكون الساعة فى وقت قريب وانتصابه على الظرفية ويجوز أن يكون التذكير باعتبار أن الساعة فى معنى اليوم أو الوقت وفيه تهديد للمستعجلين وتبكيت للمتعنتين والاظهار فى حيز الاضمار للتهويل وزيادة التقرير وتأكيد استقلال الجملة كما أشير اليه (ان الله لعن الكافرين) على الاطلاق أى طردهم وأبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة (وأعد لهم) مع ذلك (سعيرا) نارا شديدة الاتقاد يقاسونها فى الآخرة (خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا) يحفظهم (ولا نصيرا) يخلصهم منها (يوم تقلب وجوههم فى النار) ظرف لعدم الوجدان وقيل لخالدين وقيل لنصيرا وقيل مفعول لاذكر أى يوم تصرف وجوههم فيها من جهة الى جهة كلحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة الى جهة أو من حال الى حال أو يطرحون

المنعم بطاعته والايمان به وأما المؤمن فانه يؤدى بايمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه والدليل عليه قوله تعالى قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق نعم لا ينكر ان الاحتراز عن التنعم أولى لان النفس اذا اعتادت التنعم صعب عليها الاحتراز والانقباض وحينئذ فربما حملها الميل الى تلك الطيبات على فعل ما لا ينبغى وذلك مما يجر بعضه الى بعض ويقع فى البعد عن الله تعالى بسببه ثم قال تعالى فاليوم تجزون عذاب الهون أى الهوان وقرئ عذاب الهوان بما كنتم تستكبرون فى الارض بغير الحق وبما كنتم تفسقون فلعل ذلك العذاب بأمرين (أولهما) الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب (والثانى) الفسق وهو ذنب الجوارح وقدم الاول على الثانى لان أحوال القلوب أعظم وقعا من أعمال الجوارح ويمكن أن يكون المراد من الاستكبار انهم يتكبرون عن قبول الدين الحق ويستنكفون عن الايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام وأما الفسق فهو المعاصى واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع قالوا لانه تعالى علل عذابهم بأمرين (أولهما) الكفر (وثانيهما) الفسق وهذا الفسق لا بد وأن يكون مغايرا لذلك الكفر لان العطف يوجب المغايرة فثبت ان فسق الكفار يوجب العقاب فى حقهم ولا معنى للفسق الا ترك المأمورات وفعل المنهيات والله أعلم ۞ قوله تعالى (واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ان لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا ترى الا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) اعلم انه تعالى لما أورد أنواع الدلائل فى اثبات التوحيد والنبوة وكان أهل مكة بسبب استغراقهم فى لذات الدنيا واشتغالهم بطلبها أعرضوا عنها ولم يلتفتوا اليها ولهذا السبب قال تعالى فى حقهم ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا فلما كان الامر كذلك بين ان قوم عاد كانوا أكثر أموالا وقوة وجاها منهم ثم ان الله تعالى سلط العذاب عليهم بسبب شؤم كفرهم فذكر هذه القصة ههنا ليعتبر بها أهل مكة فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ويقبلوا على طلب الدين فلهذا المعنى ذكر الله تعالى هذه القصة فى هذا الموضع وهو مناسب لما تقدم لان من أراد تقبيح طريقة عند قوم كان الطريق فيه ضرب الامثال وتقريره ان من واظب على تلك الطريقة نزل به من البلاء كذا وكذا وقوله تعالى واذكر أخا عاد أى واذكر يا محمد لقومك أهل مكة هودا عليه السلام اذ أنذر قومه أى حذرهم عذاب الله ان لم يؤمنوا وقوله بالاحقاف قال أبو عبيدة الحقف الرمل المعوج ومنه قيل للمعوج محقوف وقال الفراء الاحقاف واحدها حقف وهو الكثيب المكسر غير العظيم وفيه اعوجاج قال ابن عباس الاحقاف واد بين عمان ومهرة والنذر جمع نذير بمعنى المنذر من بين يديه من قبله ومن خلفه من بعده والمعنى ان هودا عليه السلام قد أنذرهم وقال لهم ان لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم العذاب واعلم ان الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو انذاره ثم حكى تعالى عن الكفار انهم قالوا أجئتنا لتأفكنا الافك الصرف يقال أفكه عن رأيه أى صرفه وقيل بل المراد لتزيلنا بضرب من الكذب عن آلهتنا وعن عبادتها فأتنا بما تعدنا من معاجلة العذاب على الشرك ان كنت من الصادقين فى وعدك فعند هذا قال هود انما العلم عند الله وانما صلح هذا الكلام جوابا لقولهم فأتنا بما تعدنا لان قولهم فأتنا بما تعدنا استعجال منهم لذلك العذاب فقال لهم هود لا علم عندى بالوقت الذى يحصل فيه ذلك العذاب انما علم ذلك عند الله تعالى وأبلغكم ما أرسلت به وهو التحذير عن العذاب وأما العلم بوقته فما أوحاه الله الى ولكنى

أرا كم قوما تجهلون وهذا يحتمل وجوها (الاول) المراد انكم لا تعلمون ان الرسل لم يبعثوا سائلين عن غير ما أذن لهم فيه وانما بعثوا مبلغين (الثانى) أرا كم قوما تجهلون من حيث انكم بقيتم مصرين على كفركم وجهلكم فيغلب على ظنى انه قرب الوقت الذى ينزل عليكم العذاب بسبب هذا الجهل المفرط والوقاحة التامة (الثالث) انى أرا كم قوما تجهلون حيث تصرون على طلب العذاب وهب انه لم يظهر لكم كونى صادقا ولكن لم يظهر أيضا لكم كونى كاذبا فالاقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم ثم قال تعالى فلما رأوه ذكر المبرد فى الضمير فى رأوه قولين (احدهما) انه عائد الى غير مذكور وبينه قوله عارضا كما قال ما ترك على ظهرها من دابة ولم يذكر الارض لكونها معلومة فكذا ههنا الضمير عائد الى السحاب كأنه قيل فلما رأوا السحاب عارضا وهذا اختيار الزجاج ويكون من باب الاضمار لا على شريطة التفسير (والقول الثانى) أن يكون الضمير عائدا الى ما فى قوله فأتنا بما تعدنا أى فلما رأوا ما يوعدون به عارضا قال أبو زيد العارض السحابة التى ترى فى ناحية السماء ثم تطبق وقوله مستقبل أوديتهم قال المفسرون كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياما فساق الله اليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا والمعنى ممطر ايانا قيل كان هود قاعدا فى قومه فجاء سحاب مكثر فقالوا هذا عارض ممطرنا فقال بل هو ما استعجلتم به من العذاب ثم بين ماهيته فقال ريح فيها عذاب أليم ثم وصف تلك الريح فقال تدمر كل شئ أى تهلك كل شئ من الناس والحيوان والنبات بأمر ربها والمعنى ان هذا ليس من باب تأثيرات الكواكب والقرانات بل هو أمر حدث ابتداء بقدرة الله تعالى لاجل تعذيبكم فأصبحوا يعنى عادا لا ترى الا مساكنهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) روى أن الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها فى الجو حتى يرى كانها جرادة وقيل أول من أبصر العذاب امرأة منهم قالت رأيت ريحا فيها كشهب النار وروى ان أول ما عرفوا به انه عذاب أليم انهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم يطير به الريح بين السماء والارض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الابواب وصرعتهم وأحال الله عليهم الاحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ثم كشفت الريح عنهم فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر وروى ان هودا لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا الى جنب عين تنبع فكانت الريح التى تصيبهم ريحا لينة هادئة طيبة والريح التى تصيب قوم عاد ترفعهم من الارض وتطيرهم الى السماء وتضربهم على الارض وأثر المعجزة انما ظهر فى تلك الريح من هذا الوجه وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما أمر الله خازن الرياح أن يرسل على عاد الا مثل مقدار الخاتم ثم ان ذلك القدر أهلكهم بكليتهم والمقصود من هذا الكلام اظهار كمال قدرة الله تعالى وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان اذا رأى الريح فزع وقال اللهم انى أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها ومن شر ما أرسلت به (المسئلة الثانية) قرأ عاصم وحمزة لا يرى بالياء وضمها مساكنهم بضم النون قال الكسائى معناه لا يرى شئ الا مساكنهم وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائى لا ترى على الخطاب أى لا ترى أنت أيها المخاطب وفى بعض الروايات عن عاصم لا ترى بالتاء مساكنهم بضم النون وهى قراءة الحسن والتأويل لا ترى من بقايا عاد أشياء الا مساكنهم وقال الجمهور هذه القراءة ليست بالقوية ثم قال تعالى كذلك نجزى القوم المجرمين والمقصود منه تخويف كفار مكة فان قيل لما قال الله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم فكيف يبقى التخويف حاصلا قلنا قوله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم انما نزل فى آخر الامر فكان التخويف حاصلا قبل نزوله ثم انه تعالى خوف كفار مكة وذكر فضل عاد بالقوة والجسم عليهم فقال ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه قال المبرد ما فى قوله فيما بمنزلة الذى وان بمنزلة ما والتقدير ولقد مكناهم فى الذى ما مكناكم فيه والمعنى انهم كانوا أقوى منكم قوة وأكثر منكم أموالا وقال ابن قتيبة كلمة ان زائدة والتقدير ولقد مكناهم فيما مكناكم فيه وهذا غلط لوجوه (الاول) ان الحكم بأن

فيها مقبلو بين منكوسين وقرئ تقلب بحذف احدى التاءين من تتقلب وتقلب باسناد الفعل الى نون العظمة ونصب وجوههم وتقلب باسناده الى السعير وتخصيص الوجوه بالذكر لما أنها أكرم الاعضاء ففيه مزيد تفظيع للامر وتهويل للخطب ويجوز أن تكون عبارة عن كل الجسد فقوله تعالى (يقولون) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة كانه قيل فماذا يصنعون عند ذلك فقيل يقولون متحسرين على ما فاتهم (ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فلا نبتلى بهذا العذاب أو حال من ضمير وجوههم أو من نفسها أو هو العامل فى يوم (وقالوا) عطف على يقولون والعدول الى صيغة الماضى للاشعار بان قولهم هذا ليس مستمرا كقولهم السابق بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضربا من التشفى بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم فى تلك الورطة وان علموا عدم قبوله فى حق خلاصهم منها (ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنون قادتهم الذين لقنوهم الكفر وقرئ ساداتنا للدلالة على الكثرة والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار والا فهم فى مقام التحقير والاهانة (فأضلونا السبيلا) بما زينوا لنا من الاباطيل والالف للاطلاق كما فى وأطعنا الرسولا (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) أى مثلى العذاب الذى آتيناه لانهم ضلوا وأضلوا (والعنهم لعنا كبيرا) أى شديدا عظيما وقرئ كثيرا وتصدير الدعاء بالنداء مكرر للمبالغة فى الجؤار واستدعاء الاجابة (ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) قيل نزلت فى شأن زيد وزينب وما سمع فيه من قالة الناس (فبرأه الله مما قالوا) أى فأظهر براءته عليه الصلاة والسلام مما قالوا فى حقه أى من مضمونه ومؤداه الذى هو الامر المعيب وذلك أن قارون أغرى مومسة على قذفه عليه الصلاة والسلام بنفسها بان دفع اليها مالا عظيما فأظهر الله تعالى نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك بان أقرت المومسة بالمصانعة الجارية بينها وبين قارون وفعل بقارون

حرفا من كتاب الله عبث لا يقول به عاقل (والثانى) ان المقصود من هذا الكلام انهم كانوا أقوى منكم قوة ثم انهم مع زيادة القوة مانجوا من عقاب الله فكيف يكون حالكم وهذا المقصود انما يتم لودلت الآية على انهم كانوا أقوى قوة من قوم مكة (والثالث) ان سائر الآيات تفيد هذا المعنى قال تعالى هم أحسن أثاثا ورئيا وقال كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الارض ثم قال تعالى وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة والمعنى انا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعا فما استعملوه فى سماع الدلائل وأعطيناهم أبصارا فما استعملوها فى تأمل العبر وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها فى طلب معرفة الله تعالى بل صرفوا كل هذه القوى الى طلب الدنيا ولذاتها فلا جرم ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله تعالى شيأ ثم بين تعالى انه انما لم يغن عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم لاجل انهم كانوا يجحدون بآيات الله وقوله اذ كانوا يجحدون بمنزلة التعليل ولفظ اذ قد يذكر لافادة التعليل تقول ضربته اذ أساء والمعنى ضربته لانه أساء وفى هذه الآية تخويف لاهل مكة فان قوم عاد لما اغتروا بدنياهم واعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل بهم عذاب الله ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم فاهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله تعالى ويخافوا ثم قال تعالى وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن يعنى انهم كانوا يطلبون نزول العذاب وانما كانوا يطلبونه على سبيل الاستهزاء والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وما كانوا يفترون﴾ اعلم ان المراد ولقد أهلكنا ما حولكم يا كفار مكة من القرى وهى قرى عاد وثمود باليمن والشام وصرفنا الآيات بيناها لهم لعلهم أى لعل أهل القرى يرجعون فالمراد بالتصريف الاحوال الهائلة التى وجدت قبل الاهلاك قال الجبائى قوله لعلهم يرجعون معناه لكى يرجعوا عن كفرهم دل بذلك على انه تعالى أراد رجوعهم ولم يرد اصرارهم (والجواب) انه فعل مالو فعله غيره لكان ذلك لاجل الارادة المذكورة وانما ذهبنا الى هذا التأويل للدلائل الدالة على انه سبحانه مريد لجميع الكائنات ثم قال تعالى فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة القربان ما يتقرب به الى الله تعالى أى اتخذوهم شفعاء متقربا بهم الى الله حيث قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وفى اعراب الآية وجوه (الاول) قال صاحب الكشاف احد مفعولى اتخذ الراجع الى الذين هو محذوف والثانى آلهة وقربانا حال وقيل عليه ان الفعل المتعدى الى مفعولين لا يتم الا بذكرهما لفظا والحال مشعر بتمام الكلام ولا شك ان اتيان الحال بين المفعولين على خلاف الاصل (الثانى) قال بعضهم قربانا مفعول ثان قدم على المفعول الاول وهو آلهة فقيل عليه انه يؤدى الى خلو الكلام عن الراجع الى الذين (والثالث) قال بعض المحققين يضمر أحد مفعولى اتخذوا وهو الراجع الى الذين ويجعل قربانا مفعولا ثانيا وآلهة عطف بيان اذا عرفت الكلام فى الاعراب فنقول المقصود أن يقال ان أولئك الذين أهلكهم الله هلا نصرهم الذين عبدوهم وزعموا انهم متقربون بعبادتهم الى الله ليشفعوا لهم بل ضلوا عنهم أى غابوا عن نصرتهم وذلك اشارة الى ان كون آلهتهم ناصرين لهم أمر ممتنع ثم قال تعالى وذلك افكهم أى وذلك الامتناع أثر افكهم الذى هو اتخاذهم اياها آلهة وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب فى اثبات الشركاء له قال صاحب الكشاف وقرئ افكهم والافك والافك كالحذر والحذر وقرئ وذلك افكهم بفتح الفاء والكاف أى ذلك الاتخاذ الذى هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق وقرئ افكهم على التشديد للمبالغة آفكهم جعلهم آفكين وآفكهم أى قولهم الافك أى ذو الافك كما تقول قول كاذب ثم قال وما كانوا يفترون والتقدير وذلك افكهم وافتراؤهم فى اثبات الشركاء لله تعالى والله أعلم ۞ قوله تعالى ﴿واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا

مافعل كما فصل فى سورة القصص وقيل اتهمه ناس بقتل هرون عند خروجه معه الى الطور فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به حتى رأوه غير مقتول وقيل احياه الله تعالى فاخبرهم ببراءته وقيل قذفوه بعيب فى بدنه من برص أو أدرة لفرط تستره حياء فاطلعهم الله تعالى على براءته بان فر الحجر بثوبه حين وضعه عليه عند اغتساله والقصة مشهورة (وكان عند الله وجيها) ذا قربة ووجاهة وقرئ وكان عبد الله وجيها (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) أى فى كل ما تأتون وما تذرون لاسيما فى ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذى رسوله عليه الصلاة والسلام (وقولوا) فى كل شأن من الشؤن (قولا سديدا) قاصدا الى الحق من سد يسد سدادا يقال سدد السهم نحو الرمية اذا لم يعدل به عن سمتها والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب الجائر عن العدل والقصد (يصلح لكم أعمالكم) يوفقكم للاعمال الصالحة أو يصلحها بالقبول والاثابة عليها (ويغفر لكم ذنوبكم) ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل (ومن يطع الله ورسوله) فى الاوامر والنواهى التى من جملتها هذه التكليفات (فقد فاز) فى الدارين (فوزا عظيما) لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها) لما بين عظم شأن طاعة الله ورسوله ببيان مآل الخارجين عنها من العذاب الاليم ومنال المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شأن ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الايذان بان ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام وعبر عنها بالامانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير اخلال بشئ من حقوقها وعبر عن اعتبارها بالنسبة الى استعداد ما ذكر من السموات وغيرها بالعرض عليهن لاظهار مزيد الاعتناء بامرها والرغبة فى قبولهن لها وعن

مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما بين ان فى الانس من آمن وفيهم من كفر بين أيضا ان الجن فيهم من آمن وفيهم من كفروا أن مؤمنهم معرض للثواب وكافرهم معرض للعقاب وفى كيفية هذه الواقعة قولان (الاول) قال سعيد بن جبير كانت الجن تستمع فلما رجموا قالوا هذا الذى حدث فى السماء انما حدث لشئ فى الارض فذهبوا يطلبون السبب وكان قد اتفق ان النبى صلى الله عليه وسلم لما أيس من أهل مكة أن يجيبوه خرج الى الطائف ليدعوهم الى الاسلام فلما انصرف الى مكة وكان ببطن نخل قام يقرأ القرآن فى صلاة الفجر فمر به نفر من أشراف جن نصيبين لان ابليس بعثهم ليعرفوا السبب الذى أوجب حراسة السماء بالرجم فسمعوا القرآن وعرفوا ان ذلك هو السبب (والقول الثانى) ان الله تعالى أمر رسوله أن ينذر الجن ويدعوهم الى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن فصرف الله اليه نفرا من الجن ليستمعوا منه القرآن وينذروا قومهم ويتفرع على ماذكرناه فروع (الاول) نقل عن القاضى فى تفسيره الجن انه قال انهم كانوا يهودا لان فى الجن مللا كما فى الانس من اليهود والنصارى والمجوس وعبدة الاصنام وأطبق المحققون على ان الجن مكلفون (سئل ابن عباس) هل للجن ثواب فقال نعم لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون فى الجنة ويزدحمون على أبوابها (الفرع الثانى) قال صاحب الكشاف النفر دون العشرة ويجمع على أنفار ثم روى محمد بن جرير الطبرى عن ابن عباس ان أولئك الجن كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رسلا الى قومهم وعن زر بن حبيش كانوا تسعة أحدهم زوبعة وعن قتادة ذكر لنا انهم صرفوا اليه من ساوة (الفرع الثالث) اختلفوا فى انه هل كان عبد الله بن مسعود مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة الجن والروايات فيه مختلفة ومشهورة (الفرع الرابع) روى القاضى فى تفسيره عن أنس قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جبال مكة اذ أقبل شيخ متوكئ على عكازة فقال النبى صلى الله عليه وسلم مشية جنى ونغمته فقال أجل فقال من أى الجن أنت فقال أنا هامة بن هيم بن لاقيس بن ابليس فقال لا أرى بينك وبين ابليس الا أبوين فكم أتى عليك فقال أكلت عمر الدنيا الا أقلها وكنت وقت قتل قابيل هابيل امشى بين الآكام وذكر كثيرا مما مر به وذكر فى جملته ان قال قال لى عيسى بن مريم ان لقيت محمدا فاقرئه منى السلام وقد بلغت سلامه وآمنت بك فقال عليه السلام وعلى عيسى السلام وعليك يا هامة ما حاجتك فقال ان موسى عليه السلام علمنى التوراة وعيسى علمنى الانجيل فعلمنى القرآن فعلمه عشر سور وقبض صلى الله عليه وسلم ولم ينعه قال عمر بن الخطاب ولا أراه الا حيا واعلم ان تمام الكلام فى قصة الجن مذكور فى سورة الجن (المسئلة الثانية) اختلفوا فى تفسير قوله واذ صرفنا اليك نفرا من الجن فقال بعضهم لما لم يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم قراءة القرآن عليهم فهو تعالى ألقى فى قلوبهم ميلا وداعية الى استماع القرآن فلهذا السبب قال واذ صرفنا اليك نفرا من الجن ثم قال تعالى فلما حضروه الضمير للقرآن أو لرسول الله قالوا أى قال بعضهم لبعض أنصتوا أى اسكتوا مستمعين يقال أنصت لكذا واستنصت له فلما فرغ من القراءة ولوا الى قومهم منذرين ينذرونهم وذلك لا يكون الا بعد ايمانهم لانهم لا يدعون غيرهم الى استماع القرآن والتصديق به الا وقد آمنوا فعنده قالوا ياقومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ووصفوه بوصفين (الاول) كونه مصدقا لما بين يديه أى مصدقا لكتب الانبياء والمعنى ان كتب سائر الانبياء كانت مشتملة على الدعوة الى التوحيد والنبوة والمعاد والامر بتطهير الاخلاق فكذلك هذا الكتاب مشتمل على هذه المعانى (الثانى) قوله يهدى الى الحق والى طريق مستقيم واعلم ان الوصف الاول يفيد ان هذا الكتاب يماثل سائر الكتب الالهية فى الدعوة الى هذه المطالب العالية الشريفة والوصف الثانى يفيد ان هذه المطالب التى اشتمل القرآن عليها مطالب حقة

عدم استعدادهن لقبولها بالاباء والاشفاق منها لتهويل أمرها وتربية فخامتها وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الاجسام الثقيلة التى يستعمل فيها القوى الجسمانية التى أشدها وأعظمها ما فيهن من القوة والشدة والمعنى ان تلك الامانة فى عظم الشان بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وادراك لابين قبولها وأشفقن منها ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق روما لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه (وحملها الانسان) أى عند عرضها عليه اما باعتبارها بالاضافة الى استعداده أو بتكليفه اياها يوم الميثاق أى تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة وهو اما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى أو عن اعترافه بقوله بلى وقوله تعالى (انه كان ظلوما جهولا) اعتراض وسط بين الحمل وغايته للايذان من أول الامر بعدم وفائه بما عهده وتحمله أى انه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله تبديلا والى الفريق الاول أشير بقوله عز وجل (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أى حملها الانسان ليعذب الله بعض أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فان التعذيب وان لم يكن غرضا له من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة الى بعض أفراده ترتب الاغراض على الافعال المعللة بها أبرز فى معرض الغرض أى كان عاقبة حمل الانسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من أفراده لخيانتهم الامانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية والى الفريق الثانى أشير بقوله تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله تعالى على هؤلاء من أفراده أى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات قلما

صدق فى أنفسها يعلم كل أحد بصريح عقله كونها كذلك سواء وردت الكتب الالهية قبل ذلك بها أولم ترد فان قالوا كيف قالوا من بعد موسى قلنا قد نقلنا عن الحسن انه قال انهم كانوا على اليهودية وعن ابن عباس ان الجن ما سمعت أمر عيسى فلذلك قالوا من بعد موسى ثم ان الجن لما وصفوا القرآن بهذه الصفات الفاضلة قالوا ياقومنا أجيبوا داعى الله واختلفوا فى انه هل المراد بداعى الله الرسول أو الواسطة التى تبلغ عنه والاقرب انه هو الرسول لانه هو الذى يطلق عليه هذا الوصف واعلم ان قوله أجيبوا داعى الله فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) هذه الآية تدل على انه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الجن كما كان مبعوثا الى الانس قال مقاتل ولم يبعث الله نبيا الى الانس والجن قبله (المسئلة الثانية) قوله أجيبوا داعى الله أمر باجابته فى كل ما أمر به فيدخل فيه الامر بالايمان الا انه أعاد ذكر الايمان على التعيين لاجل انه أهم الاقسام وأشرفها وقد جرت عادة القرآن بانه يذكر اللفظ العام ثم يعطف عليه أشرف أنواعه كقوله وملائكته وجبريل وقوله واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ولما أمر بالايمان به ذكر فائدة ذلك الايمان وهى قوله يغفر لكم من ذنوبكم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال بعضهم كلمة من ههنا زائدة والتقدير يغفر لكم ذنوبكم وقيل بل الفائدة فيه ان كلمة من ههنا لابتداء الغاية فكان المعنى انه يقع ابتداء الغفران بالذنوب ثم ينتهى الى غفران ما صدر عنكم من ترك الاولى والاكمل (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان الجن هل لهم ثواب أم لا فقيل لا ثواب لهم الا النجاة من النار ثم يقال لهم كونوا ترابا مثل البهائم واحتجوا على صحة هذا المذهب بقوله تعالى ويجركم من عذاب أليم وهو قول أبى حنيفة والصحيح انهم فى حكم بنى آدم فيستحقون الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية وهذا القول قول ابن أبى ليلى ومالك وجرت بينه وبين أبى حنيفة فى هذا الباب مناظرة قال الضحاك يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون والدليل على صحة هذا القول ان كل دليل دل على ان البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه قائم فى حق الجن والفرق بين البابين بعيد جدا واعلم ان ذلك الجنى لما أمر قومه باجابة الرسول والايمان به حذرهم من ترك تلك الاجابة فقال ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الارض أى لا ينجى منه مهرب ولا يسبق قضاءه سابق ونظيره قوله تعالى وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الارض ولن نعجزه هربا ولا يجد له أيضا وليا ولا نصيرا ولا دافعا من دون الله ثم بين انهم فى ضلال مبين ۞ قوله تعالى ﴿أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى انه على كل شئ قدير ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى ذكر فى أول السورة ما يدل على وجود الاله القادر الحكيم المختار ثم فرع عليه فرعين (الاول) ابطال قول عبدة الاصنام (والثانى) اثبات النبوة وذكر شبهاتهم فى الطعن فى النبوة وأجاب عنها ولما كان أكثر اعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا واستغراقهم فى استيفاء طيباتها وشهواتها وبسبب انه كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلا وهم قوم عاد فانهم كانوا أكمل فى منافع الدنيا من قوم محمد فلما أصروا على الكفر أبادهم الله وأهلكهم فكان ذلك تخويفا لاهل مكة باصرارهم على انكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ثم لما قرر نبوته على الانس أردفه باثبات نبوته فى الجن والى ههنا قد تم الكلام فى التوحيد وفى النبوة ثم ذكر عقيبهما تقرير مسئلة المعاد ومن تأمل فى هذا البيان الذى ذكرناه علم أن المقصود من كل القرآن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد واما القصص فالمراد من ذكرها ما يجرى مجرى ضرب الامثال فى تقرير هذه الاصول (المسئلة الثانية) المقصود من هذه الآية اقامة الدلالة على كونه تعالى قادرا على البعث والدليل عليه انه تعالى أقام الدلائل فى أول هذه السورة على انه هو الذى خلق السموات والارض ولا شك أن خلقها أعظم وأفخم من اعادة هذا الشخص حيا بعد ان صار ميتا والقادر

بخلوعنها الانسان بحكم جبلته وتداركهم لها بالتوبة والانابة والالتفات الى الاسم الجليل أولا لتهويل الخطب وتربية المهابة والاظهار فى موقع الاضمار ثانيا لابراز مزيد الاعتناء بامر المؤمنين توفية لكل من مقامى الوعيد والوعد حقه والله تعالى أعلم وجعل الامانة التى شأنها أن تكون من جهته تعالى عبارة عن الطاعة التى هى من أفعال المكلفين التابعة للتكليف بمعزل من التقريب وحمل الكلام على تقرير الوعد الكريم الذى ينبئ عنه قوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما بجعل تعظيم شأن الطاعة ذريعة الى ذلك بان من قام بحقوق مثل هذا الامر العظيم الشان وراعاها فهو جدير بان يفوز بخير الدارين بأباه وصفه بالظلم والجهل أولا وتعليل الحمل بتعذيب فريق والتوبة على فريق ثانيا وقيل المراد بالامانة مطلق الانقياد الشامل للطبيعى والاختيارى وبعرضها استدعاؤها الذى يعم طلب الفعل من المختار وارادة صدوره من غيره وبحملها الخيانة فيها والامتناع عن ادائها فيكون الاباء امتناعا عن الخيانة واتيانا بالمراد فالمعنى ان هذه الاجرام مع عظمها وقوتها أبين الخيانة لامانتها واتين بما أمرناهن به كقوله تعالى أتينا طائعين وخانها الانسان حيث لم يأت بما أمرناه به انه كان ظلوما جهولا وقيل انه تعالى لما خلق هذه الاجرام خلق فيها فهما وقال لها انى فرضت فريضة وخلقت جنة لمن أطاعنى فيها ونارا لمن عصانى فقلن نحن مسخرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة ولا نبغى ثوابا ولا عقابا ولما خلق آدم عليه السلام عرض عليه مثل ذلك فحمله وكان ظلوما لنفسه بتحمله ما يشق عليه جهولا بوخامة عاقبته وقيل المراد بالامانة العقل أو التكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة الى استعدادهن وباباؤهن الاباء الطبيعى الذى هو عدم اللياقة والاستعداد لها وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولا لما غلب عليه من القوة الغضبية والشهوية وهذا قريب من التحقيق فتأمل والله الموفق وقرئ ويتوب الله على الاستئناف (وكان الله غفورا رحيما)

على

على الاقوى الاكمل لابد وأن يكون قادرا على الاقل الاضعف ثم ختم الآية بقوله انه على كل شئ قدير والمقصود منه أن تعلق الروح بالجسد أمر ممكن اذ لو لم يكن ممكنا في نفسه لما وقع أولا والله تعالى قادر على كل الممكنات فوجب كونه قادرا على تلك الاعادة وهذه الدلائل يقينية ظاهرة (المسئلة الثالثة) في قوله تعالى بقادر ادخال الباء على خبر ان وانما جاز ذلك لدخول حرف النفي على ان وما يتعلق بها فكانه قيل أليس الله بقادر وقال الزجاج لو قلت ظننت أن زيدا بقائم جاز ولا يجوز ظننت ان زيدا بقائم والله أعلم (المسئلة الرابعة) يقال عييت بالامر اذا لم تعرف وجهه ومنه أفعيينا بالخلق الاول واعلم انه تعالى لما أقام الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر ذكر بعض أحوال الكفار فقال ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون فقوله أليس هذا بالحق التقدير يقال لهم أليس هذا بالحق والمقصود التهكم بهم والتوبيخ على استهزائهم بوعد الله ووعيده وقولهم وما نحن بمعذبين * قوله تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون) واعلم انه تعالى لما قرر المطالب الثلاثة وهي التوحيد والنبوة والمعاد وأجاب عن الشبهات أردفه بما يجري مجرى الوعظ والنصيحة للرسول صلى الله عليه وسلم وذلك لان الكفار كانوا يؤذونه ويوجسون صدره فقال تعالى فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل أي أولوا الجد والصبر والثبات وفي الآية قولان (الاول) أن تكون كلمة من للتبعيض ويراد بأولو العزم بعض الانبياء قيل هم نوح صبر على اذى قومه وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه وابراهيم على النار وذبح الولد واسحق على الذبح ويعقوب على فقدان الولد وذهاب البصر ويوسف على الجب والسجن وأيوب على الضر وموسى قال له قومه انا لمدركون قال كلا ان معي ربي سيهدين وداود بكى على زلته أربعين سنة وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال انها معبرة فاعبروها ولا تعمروها وقال الله تعالى في آدم ولم نجد له عزما وفي يونس ولا تكن كصاحب الحوت (والقول الثاني) ان كل الرسل أولو عزم ولم يبعث الله رسولا الا كان ذا عزم وحزم ورأي وكمال وعقل ولفظة من في قوله من الرسل تبيين لا تبعيض كما يقال كسيته من الخز وكأنه قيل اصبر كما صبر الرسل من قبلك على أذى قومهم ووصفهم بالعزم لصبرهم وثباتهم ثم قال ولا تستعجل لهم ومفعول الاستعجال محذوف والتقدير لا تستعجل لهم بالعذاب قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم ضجر من قومه بعض الضجر وأحب أن ينزل الله العذاب بمن أبى من قومه فأمر بالصبر وترك الاستعجال ثم أخبر أن ذلك العذاب منهم قريب وانه نازل بهم لا محالة وان تأخر وعند نزول ذلك العذاب بهم يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار والمعنى انهم اذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من النهار أو كأن لم يكن لهول ما عاينوا أولان الشئ اذا مضى صار كأنه لم يكن وان كان طويلا كما قال الشاعر

كأن شيأ لم يكن اذا مضى * كأن شيأ لم يزل اذا أتى

واعلم أنه تم الكلام ههنا ثم قال تعالى بلاغ أي هذا بلاغ ونظيره قوله تعالى هذا بلاغ للناس أي هذا الذي وعظتم به فيه كفاية في الموعظة أو هذا تبليغ من الرسول فهل يهلك الا الخارجون عن الاتعاظ به والعمل بموجبه والله أعلم * قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة يوم الاربعاء العشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

(سورة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثون وتسع آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة

مبالغا في المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم * قال عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الاحزاب وعلمها أهله وما ملكت يمينه أعطي الامان من عذاب القبر والله أعلم * (سورة سبأ) مكية وقيل الا ويرى الذين أوتوا العلم الآية وهي أربع وخمسون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض) أي له تعالى خلقا وملكا وتصرفا بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة جميع ما وجد فيهما داخلا في حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما فكأنه قيل له جميع المخلوقات كما مر في آية الكرسي ووصفه تعالى بذلك لتقرير ما أفاده تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراده به تعالى على ما بين في فاتحة الكتاب ببيان تفرده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك وكون كل ما سواه من الموجودات التي من جملتها الانسان تحت ملكوته تعالى ليس لها في حد ذاتها استحقاق الوجود فضلا عما عداه من صفاتها بل كل ذلك نعم فائضة عليها من جهته عز وجل فما هذا شأنه فهو بمعزل من استحقاق الحمد الذي مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار فظهر اختصاص جميع افراده به تعالى وقوله تعالى (وله الحمد في الآخرة) بيان لاختصاص الحمد الاخروي به تعالى اثر بيان اختصاص الدنيوي به على أن الجار متعلق اما بنفس الحمد أو بما تعلق به الخبر من الاستقرار واطلاقه عن ذكر ما يشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه في الآخرة عن التعيين كما اكتفى فيما سبق بذكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذكر كون الحمد أيضا فيها بل ليعم النعم الاخروية كما في قوله تعالى الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة وقوله تعالى الذي أحلنا دار المقامة من فضله الآية وما يكون ذريعة الى نيلها من النعم الدنيوية كما في قوله تعالى الحمد لله الذي هدانا لهذا أي لما جزاؤه هذا من الايمان والعمل الصالح والفرق بين الحمدين مع كون نعمتي الدنيا والآخرة بطريق التفضل أن الاول

على نهج العبادة والثانى على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد فى الخبر أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس (وهو الحكيم) الذى أحكم أمور الدين والدنيا ودبرها حسبما تقتضيه الحكمة (٣٥٨) (الخبير) ببواطن الاشياء ومكنوناتها وقوله تعالى (يعلم مايلج فى الارض) الخ تفصيل لبعض ما يحيط به علمه من الامور التى نيطت بها مصالحهم الدنيوية والدينية أى يعلم مايدخل فيها من الغيث والكنوز والدفائن والاموات ونحوها (ومايخرج منها) كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها (وماينزل من السماء) كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها وقرئ وماننزل بالتشديد ونون العظمة (ومايعرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والابخرة والادخنة (وهو الرحيم) للحامدين على ماذكر من نعمه (الغفور) للمفرطين فى ذلك بلطفه وكرمه (وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة) أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لاأنفسهم أو معاصريهم فقط كما أرادوا بنفى اتيانها نفى وجودها بالكلية لاعدم حضورها مع تحققها فى نفس الامر وانما عبروا عنه بذلك لانهم كانوا يوعدون باتيانها ولان وجود الامور الزمانية المستقبلة لاسيما أجزاء الزمان لايكون الا بالاتيان والحضور وقيل هو استبطاء لاتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد (قل بلى) رد لكلامهم واثبات لما نفوه على معنى ليس الامر الا اتيانها وقوله تعالى (وربى لتأتينكم) تأكيد له على أتم الوجوه وأكملها وقرئ ليأتينكم على تأويل الساعة باليوم أو الوقت وقوله تعالى (عالم الغيب) الخ امداد للتأكيد وتسديد له اثر تسديد وكسر لسورة نكيرهم واستبعادهم فان تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الاطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما أن ذلك فى حكم الاستشهاد على الامر ولا ريب فى أن المستشهد به كلما كان أجل وأعلى كانت الشهادة آكد وأقوى والمستشهد عليه أحق القيام بالثبوت وأولى لاسيما اذا خص بالذكر من النعوت ماله تعلق خاص بالمقسم عليه كما نحن فيه فان وصفه بعلم الغيب الذى أشهر أفراده وأدخلها فى

فان آخرها قوله تعالى فهل يهلك الا القوم الفاسقون فان قال قائل كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كاطعام الطعام وصلة الارحام وغير ذلك مما لايخلو عنه الانسان فى طول عمره فيكون فى اهلاكه اهدار عمله وقد قال تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره وقال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم أى لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الاهلاك وسنبين كيف ابطال الاعمال مع تحقيق القول فيه وتعالى الله عن الظلم وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) من المراد بقوله الذين كفروا قلنا فيه وجوه (الاول) هم الذين كانوا يطعمون الجيش يوم بدر منهم أبو جهل والحرث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم (الثانى) كفار قريش (الثالث) أهل الكتاب (الرابع) هو عام يدخل فيه كل كافر (المسئلة الثانية) فى الصد وجهان (أحدهما) صدوا أنفسهم معناه انهم صدوا أنفسهم عن السبيل ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل (وثانيهما) صدوا غيرهم ومنعوهم كما قال تعالى عن المستضعفين قال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين وعلى هذا فيه بحث وهو ان اضلال الاعمال مرتب على الكفر والصد والمستضعفون لم يصدوا فلا يضل أعمالهم فنقول التخصيص بالذكر لايدل على نفى ماعداه ولا سيما اذا كان المذكور أولى بالذكر من غيره وههنا الكافر الصاد أدخل فى الفساد فصار هو أولى بالذكر أو نقول كل من كفر صار صادا لغيره أما المستكبر فظاهر وأما المستضعف فلانه بمتابعته أثبت للمستكبر ما يمنعه من اتباع الرسول فانه بعدما يكون متبوعا يشق عليه بأن يصير تابعا ولان كل من كفر صار صادا لمن بعده لان عادة الكفار اتباع المتقدم كما قال عنهم انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون أو مقتدون فان قيل فعلى هذا كل كافر صاد فما الفائدة فى ذكر الصد بعد الكفر نقول هو من باب ذكر السبب وعطف المسبب عليه تقول أكلت كثيرا وشبعت والكفر على هذا سبب الصد ثم اذا قلنا بأن المراد منه انهم صدوا أنفسهم ففيه اشارة الى أن ما فى الانفس من الفطرة كان داعيا الى الايمان والامتناع لمانع وهو الصد لنفسه (المسئلة الثالثة) فى المصدود عنه وجوه (الاول) عن الانفاق على محمد عليه السلام وأصحابه (الثانى) عن الجهاد (الثالث) عن الايمان (الرابع) عن كل ما فيه طاعة الله تعالى وهو اتباع محمد عليه السلام وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم هاد اليه وهو صراط الله قال تعالى وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله فمن منع من اتباع محمد عليه السلام فقد صد عن سبيل الله (المسئلة الرابعة) فى الاضلال وجوه (الاول) المراد منه الابطال ووجهه هو ان المراد انه أضله بحيث لايجده فالطالب انما يطلبه فى الوجود وما لايوجد فى الوجود فهو معدوم فان قيل كيف يبطل الله حسنة أوجدها نقول ان الابطال على وجوه (أحدها) يوازن بسيآتهم الحسنات التى صدرت منهم ويسقطها بالموازنة ويبقى لهم سيآت محضة لان الكفر يزيد على غير الايمان من الحسنات والايمان يترجح على غير الكفر من السيآت (وثانيها) أبطلها لفقد شرط ثبوتها واثباتها وهو الايمان لانه شرط قبول العمل قال تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن واذا لم يقبل الله العمل لايكون له وجود لان العمل لابقاء له فى نفسه بل هو يعدم عقيب ما يوجد فى الحقيقة غير ان الله تعالى يكتب عنده بفضله ان فلانا عمل صالحا وعندى جزاؤه فيبقى حكما وهذا البقاء حكما خير من البقاء الذى للاجسام التى هى محل الاعمال حقيقة فان الاجسام وان بقيت غير أن مآلها الى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عند الله أبدا واذا ثبت هذا تبين أن الله بالقبول متفضل وقد أخبر انى لاأقبل الا من مؤمن فمن عمل وتعب من غير سبق الايمان فهو المضيع تعبه لا الله تعالى (وثالثها) لم يعمل الكافر عمله لوجه الله تعالى فلم يأت بخير فلا يرد علينا قوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره وبيانه هو ان العمل لايتميز الا بمن له العمل لا بالعامل ولا بنفس العمل وذلك لان من قام ليقتل شخصا ولم يتفق قتله ثم قام ليكرمه ولم يتفق الاكرام ولا القتل وأخبره عن نفسه انه قام فى اليوم الفلانى لقتله وفى اليوم الآخر لاكرامه يتميز القيامان لا بالنظر الى

القيام فانه واحد ولا بالنظر الى القائم فانه حقيقة واحدة وانما يتميز بما كان لاجله القيام وكذلك من قام وقصد بقيامه اكرام الملك وقام وقصد بقيامه اكرام بعض العوام يتميز أحدهما عن الآخر بمنزلة العمل لكن نسبة الله الكريم الى الاصنام فوق نسبة الملوك الى العوام فالعمل للاصنام ليس بخير ثم ان اتفق ان يقصد واحد بعمله وجه الله تعالى ومع ذلك يعبد الاوثان لا يكون عمله خيرا لان مثل ما أتى به لوجه الله أتى به للصنم المنحوت فلا تعظيم (الوجه الثانى) الاضلال هو جعله مستهلكا وحقيقته هو انه اذا كفر وأتى للاحجار والاخشاب بالركوع والسجود فلم يبق لنفسه حرمة وفعله لا يبقى معتبرا بسبب كفره وهذا كمن يخدم عند الحارس والسايس اذا قام فالسلطان لا يعلم قيامه تعظيما لخسته كذلك الكافر وأما المؤمن فبقدر ما يتكبر على غير الله يظهر تعظيمه لله كالملك الذى لا ينقاد لاحد اذا انقاد فى وقت لملك من الملوك يتبين به عظمته (الوجه الثالث) أضله أى أهمله وتركه كما يقال أضل بعيره اذا تركه مسيبا فضاع ۞ ثم ان الله تعالى لما بين حال الكفار بين حال المؤمنين فقال ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا مرارا ان الله تعالى كلما ذكر الايمان والعمل الصالح رتب عليهما المغفرة والاجر كما قال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم وقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم وقلنا بان المغفرة ثواب الايمان والاجر على العمل الصالح واستوفينا البحث فيه فى سورة العنكبوت فنقول ههنا جزاء ذلك قوله كفر عنهم سيآتهم اشارة الى ما يثيب على الايمان وقوله وأصلح بالهم اشارة الى ما يثيب على العمل الصالح (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة تكفير السيآت مرتب على الايمان والعمل الصالح فمن آمن ولم يفعل الصالحات يبقى فى العذاب خالدا فنقول لو كان كما ذكرتم لكان الاضلال مرتبا على الكفر والصد فمن يكفر لا ينبغى أن تضل أعماله أو نقول قد ذكرنا ان الله تعالى رتب أمرين على أمرين فمن آمن كفر سيئاته ومن عمل صالحا أصلح باله أو نقول أى مؤمن يتصور انه غير آت بالصالحات بحيث لا يصدر عنه صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا اطعام وعلى هذا فقوله وعملوا عطف المسبب على السبب كما قلنا فى قول القائل أكلت كثيرا وشبعت (المسئلة الثالثة) قوله وآمنوا بما نزل على محمد مع ان قوله آمنوا وعملوا الصالحات أفاد هذا المعنى فما الحكمة فيه وكيف وجهه فنقول أما وجهه فبيانه من وجوه (الاول) قوله والذين آمنوا أى بالله ورسوله واليوم الآخر وقوله وآمنوا بما نزل أى بجميع الاشياء الواردة فى كلام الله ورسوله تعميم بعد أمور خاصة وهو حسن تقول خلق الله السموات والارض وكل شئ اما على معنى وكل شئ غير ما ذكرنا واما على العموم بعد ذكر الخصوص (الثانى) أن يكون المعنى آمنوا وآمنوا من قبل بما نزل على محمد وهو الحق المعجز الفارق بين الكاذب والصادق يعنى آمنوا أولا بالمعجز وأيقنوا بان القرآن لا يأتى به غير الله فآمنوا وعملوا الصالحات والواو للجمع المطلق ويجوز أن يكون المتأخر ذكرا متقدما وقوعا وهذا كقول القائل آمن به وكان الايمان به واجبا أو يكون بيانا لايمانهم كأنهم آمنوا وآمنوا بما نزل على محمد أى آمنوا وآمنوا بالحق كما يقول القائل خرجت وخرجت مصيبا أى وكان خروجى جيدا حيث نجوت من كذا وربحت كذا فكذلك لما قال آمنوا بين ان ايمانهم كان بما أمر الله وأنزل الله لا بما كان باطلا من عند غير الله (الثالث) ما قاله أهل المعرفة وهو ان العلم العمل والعمل العلم فالعلم يحصل ليعمل به لما جاء اذا عمل العالم العمل الصالح علم ما لم يكن يعلم فيعلم الانسان مثلا قدرة الله بالدليل وعلمه وأمره فيحمله الامر على الفعل ويحثه عليه علمه فعلمه بحاله وقدرته على ثوابه وعقابه فاذا أتى بالعمل الصالح علم من أنواع مقدورات الله ومعلومات الله تعالى ما لم يعلمه أحد الا باطلاع الله عليه ويكشفه ذلك له فيؤمن وهذا هو المعنى فى قوله هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم فاذا آمن المكلف بمحمد بالبرهان وبالمعجزة وعمل صالحا حمله علمه على ان يؤمن بكل ما قاله محمد ولم يجد فى نفسه شكا وللمؤمن فى المرتبة

الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم وكونه مما لا يحوم حوله شائبة ريب ما وفائدة الامر بهذه المرتبة من اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلا فانهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلا عن اليمين الفاجرة وانما لم يصدقوه مكابرة وقرئ علام الغيب وعالم الغيب وعالم الغيوب بالرفع على المدح (لا يعزب عنه) أى لا يبعد وقرئ بكسر الزاى (مثقال ذرة) مقدار أصغر نملة (فى السموات ولا فى الارض) أى كائنة فيهما (ولا أصغر من ذلك) أى من مثقال ذرة (ولا أكبر) أى منه ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى (الا فى كتاب مبين) هو اللوح المحفوظ والجملة مؤكدة لنفى العزوب وقرئ ولا أصغر ولا أكبر بفتح الراء على نفى الجنس ولا يجوز أن يعطف المرفوع على مثقال ولا المفتوح على ذرة بأنه فتح فى حيز الجر لامتناع الصرف لما أن الاستثناء يمنعه الا أن يجعل الضمير فى عنه للغيب ويجعل المثبت فى اللوح خارجا عنه لبروزه للمطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب شئ الا مسطورا فى اللوح (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) علة لقوله تعالى لتأتينكم وبيان لما يقتضى اتيانها (أولئك) اشارة الى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف أى أولئك الموصوفون بالصفات الجليلة (لهم) بسبب ذلك (مغفرة) لما فرط منهم من بعض فرطات قلما يخلو عنها البشر (ورزق كريم) لا تعب فيه ولا من عليه (والذين سعوا فى آياتنا) بالقدح فيها وصد الناس عن التصديق بها (معاجزين) أى مسابقين كى يفوتونا وقرئ معجزين أى مثبطين عن الايمان من أراده (أولئك لهم عذاب) الكلام فيه كالذى مر آنفا ومن فى قوله تعالى (من رجز) للبيان قال قتادة رضى الله عنه الرجز سوء العذاب وقوله تعالى (أليم) بالرفع صفة عذاب أى أولئك الساعون لهم عذاب من جنس سوء العذاب شديد الايلام وقرئ أليم بالجر صفة لرجز (ويرى الذين أوتوا العلم) أى يعلم أولوا العلم من

الاولى أحوال وفى المرتبة الاخيرة أحوال أما فى الايمان بالله ففى الاول يجعل الله معبودا وقد يقصد غيره فى حوائجه فيطلب الرزق من زيد وعمرو ويجعل أمر اسبابا لامر وفى الاخيرة يجعل الله مقصودا ولا يقصد غيره ولا يرى الا منه سره وجهره فلا ينيب الى شئ فى شئ فهذا هو الايمان الآخر بالله وذلك الايمان الاول واما فى النبى صلى الله عليه وسلم فيقول أولا هو صادق فيما ينطق ويقول آخرا لا نطق له الا بالله ولا كلام يسمع منه الا وهو من الله فهو فى الاول يقول بالصدق ووقوعه منه وفى الثانى يقول بعدم امكان الكذب منه لان حاكى كلام الغير لا ينسب اليه الكذب ولا يمكن الا فى نفس الحكاية وقد علم هو انه حاك عنه كما قاله واما فى المرتبة الاولى فيجعل الحشر مستقبلا والحياة العاجلة حالا وفى المرتبة الاخيرة يجعل الحشر حالا والحياة الدنيا ماضيا فيقسم حياة نفسه فى كل لحظة ويجعل الدنيا كلها عدما لا يلتفت اليها ولا يقبل عليها (المسئلة الرابعة) قوله وآمنوا بما نزل على محمد هو فى مقابلة قوله فى حق الكافر وصدوا لا نا بينا فى وجه ان المراد بهم صدوا عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وهذا حث على اتباع محمد صلى الله عليه وسلم فهم صدوا أنفسهم عن سبيل الله وهو محمد عليه السلام وما أنزل عليه وهؤلاء حثوا أنفسهم على اتباع سبيله لا جرم حصل لهؤلاء ضد ما حصل لاولئك فاضل الله حسنات أولئك وستر على سيآت هؤلاء (المسئلة الخامسة) قوله تعالى وهو الحق من ربهم هل يمكن أن يكون من ربهم وصفا فارقا كما يقال رأيت رجلا من بغداد فيصير وصفا للرجل فارقا بينه وبين من يكون من الموصل وغيره نقول لا لان كل ما كان من الله فهو الحق فليس هذا هو الحق من ربهم بل قوله من ربهم خبر بعد خبر كانه قال وهو الحق وهو من ربهم أو ان كان وصفا فارقا فهو على معنى انه الحق النازل من ربهم لان الحق قد يكون مشاهدا فان كون الشمس مضيئة حق وهو ليس نازلا من الرب بل هو علم حاصل بطريق يسره الله تعالى لنا ۞ ثم قال تعالى (كفر عنهم سيآتهم وأصلح بالهم) أى سترها وفيه اشارة الى بشارة ما كانت تحصل بقوله أعدمها ومحاها لان محو الشئ لا ينبئ عن اثبات أمر آخر مكانه وأما الستر فينبئ عنه وذلك لان من يريد ستر ثوب بال أو وسخ لا يستره بمثله وانما يستره بثوب نفيس نظيف ولا سيما الملك الجواد اذا ستر على عبد من عبيده ثوبه البالى أمر باحضار ثوب من الجنس العالى لا يحصل الا بالثمن الغالى فيلبس هذا هو الستر بينه وبين المحبوبين وكذلك المغفرة فان المغفرة والتكفير من باب واحد فى المعنى وهذا هو المذكور فى قوله تعالى فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وقوله وأصلح بالهم اشارة الى ما ذكرنا من انه يبدلها حسنة فان قيل كيف تبدل السيئة حسنة نقول معناه انه يجزيه بعد سيآته ما يجزى المحسن على احسانه فان قال الاشكال باق وباد وما زال بل زاد فان الله تعالى لو أثاب على السيئة كما يثيب على الحسنة لكان ذلك حثا على السيئة نقول ما قلنا انه يثيب على السيئة وانما قلنا انه يثيب بعد السيئة بما يثيب على الحسنة وذلك حيث يأتى المؤمن بسيئة ثم يتنبه ويندم ويقف بين يدى ربه معترفا بذنبه مستحقرا لنفسه فيصير أقرب الى الرحمة من الذى لم يذنب ودخل على ربه مفتخرا فى نفسه فصار الذنب شرطا للندم والثواب ليس على السيئة وانما هو على الندم وكان الله تعالى قال عبدى أذنب ورجع الى ففعله سيئ لكن ظنه بى حسن حيث لم يجد ملجأ غيرى فاتكل على فضلى والظن عمل القلب والفعل عمل البدن واعتبار عمل القلب أولى ألا ترى ان النائم والمغمى عليه لا يلتفت الى عمل بدنه والمفلوج الذى لا حركة له يعتبر قصد قلبه ومثال الروح والبدن راكب دابة يركض فرسه بين يدى ملك يدفع عنه العدو بسيفه وسنانه والفرس يلطخ ثوب الملك بركضه فى استنانه فهل يلتفت الى فعل الدابة مع فعل الفارس بل لو كان الراكب فارغا والفرس يؤذى بالتلويث يخاطب الفارس به فكذلك الروح راكب والبدن مركوب فان كانت الروح مشغولة بعبادة الله وذكره ويصدر من البدن شئ لا يلتفت اليه بل يستحسن منه ذلك ويزاد فى تربية الفرس الراكض ويهجر الفرس الواقف وان كان غير مشغول فهو مؤاخذ بافعال البدن ۞ ثم قال تعالى (ذلك

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شايعهم من علماء الامة أو من آمن من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما رضى الله عنهم (الذى أنزل اليك من ربك) أى القرآن هو (الحق) بالنصب على أنه مفعول ثان ليرى والمفعول الاول هو الموصول الثانى وهو ضمير الفصل وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر والجملة هو المفعول الثانى ليرى وقوله تعالى ويرى الخ مستأنف مسوق للاستشهاد باولى العلم على الجهلة الساعين فى الآيات وقيل منصوب عطفا على يجزى أى وليعلم أولو العلم عند مجئ الساعة معاينة انه الحق حسبما علموه الآن برهانا ويحتجوا به على المكذبين وقد جوز ان يراد بأولى العلم من لم يؤمن من الاحبار أى ليعلموا يومئذ انه هو الحق فيزدادوا حسرة وغما (ويهدى) عطف على الحق عطف الفعل على الاسم لانه فى تأويله كما فى قوله تعالى صافات ويقبضن أى وقابضات كانه قيل ويرى الذين أوتوا العلم الذى انزل اليك الحق وهاديا (الى صراط العزيز الحميد) الذى هو التوحيد والتدرع بلباس التقوى وقيل مستأنف وقيل حال من الذى انزل على اضمار مبتدا أى وهو يهدى كما فى قول من قال ✱ نجوت وأرهنهم مالكا (وقال الذين كفروا) هم كفار قريش قالوا مخاطبا بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل) يعنون به النبى عليه الصلاة والسلام وانما قصدوا بالتنكير الطنز والسخرية قاتلهم الله تعالى (ينبئكم) أى يحدثكم بعجب عجاب وقرئ ينبئكم من الانباء (اذا مزقتم كل ممزق) أى اذا متم ومزقت أجسادكم كل ممزق وفرقت كل تفريق بحيث صرتم ترابا ورفاتا (انكم لفى خلق جديد) أى مستقرون فيه عدل اليه عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون أو تخلقون خلقا جديدا للاشباع فى الاستبعاد والتعجيب وكذلك تقديم الظرف والعامل فيه ما دل عليه المذكور لا نفسه لما أن ما بعد ان لا يعمل فيما قبلها وجديد فعيل بمعنى فاعل من جد فهو جديد وقل فهو قليل وقيل بمعنى مفعول من جد النساج الثوب اذا قطعه ثم

بان

بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم﴾ أى ذلك الاضلال والابطال بسبب اتباعهم الباطل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الباطل وجوه (الاول) مالا يجوز وجوده وذلك لانهم اتبعوا الها غير الله واله غير الله محال الوجود وهو الباطل وغاية الباطل لان الباطل هو المعدوم يقال بطل كذا أى عدم والمعدوم الذى لا يجوز وجوده ولا يمكن أن يوجد ولا يجوز أن يصير حقا موجودا فهو فى غاية البطلان فعلى هذا فالحق هو الذى لا يمكن عدمه وهو الله تعالى وذلك لان الحق هو الموجود يقال تحقق الامر أى وجد وثبت والموجود الذى لا يجوز عدمه هو فى غاية الثبوت (الثانى) الباطل الشيطان بدليل قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين فبين ان الشيطان متبوع وأتباعه هم الكفار والفجار وعلى هذا فالحق هو الله لانه تعالى جعل فى مقابلة حزب الشيطان حزب الله (الثالث) الباطل هو قول كبرائهم ودين آبائهم كما قال تعالى عنهم انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ومقتدون فعلى هذا الحق ما قاله النبى عليه السلام عن الله (الرابع) الباطل كل ماسوى الله تعالى لان الباطل والهالك بمعنى واحد وكل شئ هالك الا وجهه وعلى هذا فالحق هو الله تعالى أيضا (المسئلة الثانية) لو قال قائل من ربهم لا يلائم الاوجها واحدا من أربعة أوجه وهو قولنا المراد من الحق هو ما أنزل الله وما قال النبى عليه السلام من الله فأما على قولنا الحق هو الله فكيف يصح قوله اتبعوا الحق من ربهم نقول على هذا من ربهم لا يكون متعلقا بالحق وانما يكون تعلقه بقوله تعالى اتبعوا أى اتبعوا أمر ربهم أى من فضل الله أو هداية ربهم اتبعوا الحق وهو الله سبحانه (المسئلة الثالثة) اذا كان الباطل هو المعدوم الذى لا يجوز وجوده فكيف يمكن اتباعه نقول لما كانوا يقولون انما يفعلون للاصنام وهى آلهة وهى توجرهم بذلك كانوا متبعين فى زعمهم ولا متبع هناك (المسئلة الرابعة) قال فى حق المؤمنين اتبعوا الحق من ربهم وقال فى حق الكفار اتبعوا الباطل من آلهتهم أو الشيطان نقول أما آلهتهم فلانهم لا كلام لهم ولا عقل وحيث ينطقهم الله ينكرون فعلهم كما قال تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم وقال تعالى وكانوا بعبادتهم كافرين والله تعالى رضى بفعلهم ونبههم عليه ويحتمل أن يقال قوله من ربهم عائد الى الامرين جميعا أى من ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق أى من حكم ربهم ومن عند ربهم ۞ ثم قال تعالى ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ وفيه أيضا مسائل (المسئلة الاولى) أى مثل ضربه الله تعالى حتى يقول كذلك يضرب الله للناس أمثالهم نقول فيه وجهان (أحدهما) اضلال أعمال الكفار وتكفير سيآت الابرار (الثانى) كون الكافر متبعا للباطل وكون المؤمن متبعا للحق ويحتمل وجهين آخرين (أحدهما) على قولنا من ربهم من أى عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق نقول هذا مثل يضرب عليه جميع الامثال فان الكل من عند الله الاضلال وغيره والاتباع وغيره (وثانيهما) هو ان الله تعالى لما بين ان الكافر يضل الله عمله والمؤمن يكفر الله سيآته وكان بين الكفر والايمان مباينة ظاهرة فانهما ضدان نبه على أن السبب كذا أى ليس الاضلال والتكفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل واذا علم السبب فالفعلان قد يتحدان صورة وحقيقة وأحدهما يورث ابطال الاعمال والآخر يورث تكفير السيآت بسبب ان أحدهما يكون فيه اتباع الحق والآخر اتباع الباطل فان من يؤمن ظاهرا وقلبه مملوء من الكفر ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الايمان اتحد فعلاهما فى الظاهر وهما مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل لا بدع من ذلك فان من يؤمن ظاهرا وهو يسر الكفر ومن يكفر ظاهرا بالاكراه وقلبه مطمئن بالايمان اختلف الفعلان فى الظاهر وابطال الاعمال لمن أظهر الايمان بسبب ان اتباع الباطل من جانبه فكأنه تعالى قال الكفر والايمان مثلان يثبت فيهما حكمان وعلم سببه وهو اتباع الحق والباطل فكذلك اعلموا ان كل شئ اتبع فيه الحق كان مقبولا مثابا عليه وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردودا معاقبا عليه فصار هذا عاما فى الامثال على انا نقول قوله كذلك لا يستدعى أن

شاع (افترى على الله كذبا) فيما قاله (أم به جنة) أى جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه والاستدلال بهذا الترديد على ان بين الصدق والكذب واسطة هو مالا يكون من الاخبار عن بصيرة بين الفساد لظهور كون الافتراء أخص من الكذب (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) جواب من جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على طريقة الاستفهام بالاضراب عن شقيه وابطالهما واثبات قسم ثالث كاشف عن حقيقة الحال ناع عليهم سوء حالهم وابتلائهم بما قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل ليس الامر كما زعموا بل هم فى كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والادراك الذى هو الجنون حقيقة وفيما يؤدى اليه ذلك من العذاب ولذلك يقولون ما يقولون وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبعه للمسارعة الى بيان ما يسوءهم ويفت فى أعضادهم والاشعار بغاية سرعة ترتبه عليه كأنه يسابقه فيسبقه ووصف الضلال بالبعد الذى هو وصف الضال للمبالغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن علة ما ارتكبوه واجترؤا عليه من الشناعة الفظيعة كفرهم بالآخرة وما فيها من فنون العقاب ولولاه لما فعلوا ذلك خوفا من غائلته وقوله تعالى (أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض) استئناف مسوق لتهويل ما اجترؤا عليه من تكذيب آيات الله تعالى واستعظام ما قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام وأنه من العظائم الموجبة لنزول أشد العقاب وحلول أفظع العذاب من غير ريث وتأخير والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (ان نشأ) الخ بيان لما ينبئ عنه ذكر احاطتهما بهم من المحذور المتوقع من جهتهما وفيه تنبيه على أنه لم يبق من أسباب وقوعه الا تعلق المشيئة به أى أفعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة فلم ينظروا الى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم بحيث لا مفر لهم عنه ولا محيص ان نشأ جريا على موجب جناياتهم (نخسف بهم الارض) كما

يكون هنالك مثل مضروب بل معناه انه تعالى لما بين حال الكافر واضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيآته وبين السبب فيهما كان ذلك غاية الايضاح فقال كذلك أى مثل هذا البيان يضرب الله للناس أمثالهم ويبين لهم أحوالهم (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله أمثالهم عائد الى من فيه وجهان (أحدهما) الى الناس كافة قال تعالى يضرب الله للناس أمثالهم على أنفسهم (وثانيهما) الى الفريقين السابقين فى الذكر معناه يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابقين ۞ ثم قال تعالى ﴿فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفاء فى قوله فاذا لقيتم يستدعى متعلقا يتعلق به ويترتب عليه فما وجه التعلق بما قبله نقول هو من وجوه (الاول) لما بين ان الذين كفروا أضل الله أعمالهم واعتبار الانسان بالعمل ومن لم يكن له عمل فهو همج فان صار مع ذلك يؤذى حسن اعدامه فاذا لقيتم بعد ظهور ان لا حرمة لهم وبعد ابطال أعمالهم فاضربوا أعناقهم (الثانى) اذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين وان أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال عند التحزب فاذا لقيتموهم فاقتلوهم (الثالث) ان من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره ايلام الحيوان من الظلم والطغيان ولاسيما القتل الذى هو تخريب بنيان فيقال ردا عليهم لما كان اعتبار الاعمال باتباع الحق والباطل فمن يقتل فى سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الاجر ما للمصلى والصائم فاذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فان ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل (المسئلة الثانية) فضرب منصوب على المصدر أى فاضربوا ضرب الرقاب (المسئلة الثالثة) ما الحكمة فى اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الاعضاء نقول فيه لما بين أن المؤمن ليس بدافع انما هو دافع وذلك ان من يدفع الصائل لا ينبغى ان يقصد أولا مقتله بل يتدرج ويضرب على غير المقتل فان اندفع فذاك ولا يترقى الى درجة الاهلاك فقال تعالى ليس المقصود الا دفعهم عن وجه الارض وتطهير الارض منهم وكيف لا والارض لكم مسجد والمشركون نجس والمسجد يطهر عن النجاسة فاذن ينبغى أن يكون قصدكم أولا الى قتلهم بخلاف دفع الصائل والرقبة أظهر المقاتل لان قطع الحلقوم والاوداج مستلزم للموت لكن فى الحرب لا يتهيأ ذلك والرقبة ظاهرة فى الحرب ففى ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت بخلاف سائر المواضع ولاسيما فى الحرب وفى قوله لقيتم ما ينبئ عن مخالفتهم الصائل لان قوله لقيتم يدل على ان القصد من جانبهم بخلاف قولنا لقيكم ولذلك قال فى غير هذا الموضع فاقتلوهم حيث ثقفتموهم (المسئلة الرابعة) قال ههنا ضرب الرقاب باظهار المصدر وترك الفعل وقال فى الانفال فاضربوا فوق الاعناق باظهار الفعل وترك المصدر فهل فيه فائدة نقول نعم ولنبينها بتقديم مقدمة وهى أن المقصود أولا فى بعض السور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر ضمنا اذ لا يمكن ان يفعل فاعل الا ويقع منه المصدر فى الوجود وقد يكون المقصود أولا المصدر ولكنه لا يوجد الا من فاعل فيطلب منه ان يفعل مثاله من قال انى حلفت أن أخرج من المدينة فيقال له فاخرج صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج فى نفسه غير مقصود الانتفاء ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه الا أن يخرج لكن من ضرورات الخروج أن يخرج فاذا قال قائل ضاق بى المكان بسبب الاعداء فيقال له مثلا الخروج يعنى الخروج فاخرج فان الخروج هو المطلوب حتى لو أمكن الخروج من غير فاعل لحصل الغرض لكنه محال فيتبعه الفعل اذا عرفت هذا فنقول فى الانفال الحكاية عن الحرب الكائنة وهم كانوا فيها والملائكة أنزلوا لنصرة من حضر فى صف القتال فصدور الفعل منه مطلوب وههنا الامر وارد وليس فى وقت القتال بدليل قوله تعالى فاذا لقيتم والمقصود بيان كون المصدر مطلوبا بالتقدم المأمور على الفعل قال فضرب الرقاب وفيما ذكرنا تبيين فائدة أخرى وهى ان الله تعالى قال هنالك واضربوا منهم كل بنان وذلك لان الوقت وقت القتال فأرشدهم الى المقتل وغيره ان لم يصيبوا المقتل

خسفناها بقارون (أو نسقط عليهم كسفا) أى قطعا (من السماء) كما أسقطناها على أصحاب الأيكة لاستيجابهم ذلك بما ارتكبوه من الجرائم وقيل هو تذكير بما يعاينونه مما يدل على كمال قدرته وما يحتمل فيه ازاحة لاستحالتهم البعث حتى جعلوه افتراء وهزؤا وتهديد عليها والمعنى أعموا فلم ينظروا الى ما أحاط بجوانبهم من السماء والارض ولم يتفكروا أهم أشد خلقا أم هى وان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات فتأمل وكن على الحق المبين وقرئ يخسف ويسقط بالياء لقوله تعالى أفترى على الله وكسفا بسكون السين (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من السماء والارض من حيث احاطتهما بالناظر من جميع الجوانب أو فيما تلى من الوحى الناطق بما ذكر (لآية) واضحة (لكل عبد منيب) شأنه الانابة الى ربه فانه اذا تأمل فيهما أو فى الوحى المذكور ينزجر عن تعاطى القبائح وينيب اليه تعالى وفيه حث بليغ على التوبة والانابة وقد أكد ذلك بقوله تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا) أى آتيناه لحسن انابته وصحة توبته فضلا على سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام أى نوعا من الفضل وهو ما ذكر بعد فانه معجزة خاصة به عليه الصلاة والسلام أو على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن فتنكيره للتفخيم ومنا لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الاضافية كما فى قوله تعالى وآتيناه من لدنا علما وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة له فاذا وردها تمكن عندها فضل تمكن (يا جبال أوبى معه) من التأويب أى رجعى معه التسبيح أو النوحة على الذنب وذلك اما بأن يخلق الله تعالى فيها صوتا مثل صوته كما خلق الكلام فى الشجرة أو بأن يتمثل له ذلك وقرئ أوبى من الاوب أى ارجعى معه فى التسبيح كلما رجع فيه وكان كلما سبح عليه الصلاة والسلام يسمع من الجبال ما يسمع من المسبح معجزة له عليه الصلاة والسلام

وههنا

وههنا ليس وقت القتال فبين ان المقصود القتل وغرض المسلم ذلك (المسئلة الخامسة) حتى لبيان غاية الامر لا لبيان غاية القتل أى حتى اذا أثخنتموهم لا يبقى الامر بالقتل ويبقى الجواز ولو كان لبيان القتل لما جاز القتل والقتل جائز اذا التحق المثخن بالشيخ الهرم والمراد كما اذا قطعت يداه ورجلاه فنهى عن قتله ۞ ثم قال تعالى ﴿فشدوا الوثاق﴾ أمر ارشاد ۞ ثم قال تعالى ﴿فاما منا بعد واما فداء﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اما وإما للحصر وحالهم بعد الاسر غير منحصر فى الامرين بل يجوز القتل والاسترقاق والمن والفداء نقول هذا ارشاد فذكر الامر العام الجائز فى سائر الاجناس والاسترقاق غير جائز فى أسر العرب فان النبى صلى الله عليه وسلم كان معهم فلم يذكر الاسترقاق وأما القتل فلان الظاهر فى المثخن الازمان ولان القتل ذكره بقوله فضرب الرقاب فلم يبق الا الامران (المسئلة الثانية) منا وفداء منصوبان لكونهما مصدرين تقديره فاما تمنون منا واما تفدون فداء وتقديم المن على الفداء اشارة الى ترجيح حرمة النفس على طلب المال والفداء يجوز أن يكون مالا وأن يكون غيره من الاسرى أو شرطا يشرط عليهم أو عليه وحده (المسئلة الثالثة) اذا قدرنا الفعل وهو تمنون أو تفدون على تقدير المفعول حتى نقول اما تمنون عليهم منا أو تفدونهم فداء نقول لا لان المقصود المن والفداء لا عليهم وبهم كما يقول القائل فلان يعطى ويمنع ولا يقال يعطى زيدا و يمنع عمرا لان غرضه ذكر كونه فاعلا لا بيان المفعول وكذلك ههنا المقصود ارشاد المؤمنين الى الفضل ۞ ثم قال تعالى ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ وفى تعلق حتى وجهان (أحدهما) تعلقها بالقتل أى اقتلوهم حتى تضع (وثانيهما) بالمن والفداء ويحتمل أن يقال متعلقة بشدوا الوثاق وتعلقها بالقتل أظهر وان كان ذكره أبعد وفى الاوزار وجهان (أحدهما) السلاح (والثانى) الآثام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان كان المراد الاثم فكيف تضع الحرب الاثم والاثم على المحارب وكذلك السؤال فى السلاح لكنه على الاول أشد توجها فنقول تضع الحرب الاوزار لا من نفسها بل تضع الاوزار التى على المحاربين والسلاح الذى عليهم (المسئلة الثانية) هل هذا كقوله تعالى واسئل القرية حتى يكون كأنه قال حتى تضع أمة الحرب أو فرقة الحرب أوزارها نقول ذلك محتمل فى النظر الاول لكن اذا أمعنت فى المعنى تجد بينهما فرقا وذلك لان المقصود من قوله حتى تضع الحرب أوزارها انقراض الحرب بالكلية بحيث لا يبقى فى الدنيا حزب من أحزاب الكفر يحارب حزبا من أحزاب الاسلام ولو قلنا حتى تضع أمة الحرب جاز أن يضعوا الاسلحة ويتركوا الحرب وهى باقية بعادتها كما تقول خصومتى ما انفصلت ولكنى تركتها فى هذه الايام واذا أسندنا الوضع الى الحرب يكون معناه ان الحرب لم يبق (المسئلة الثالثة) لو قال حتى لا يبقى حرب أو ينفر من الحرب هل يحصل معنى قوله حتى تضع الحرب أوزارها نقول لا والتفاوت بين العبارتين مع قطع النظر عن النظم بل النظر الى نفس المعنى كالتفاوت بين قولك انقرضت دولة بنى أمية وقولك لم يبق من دولتهم أثر ولا شك ان الثانى ابلغ فكذلك ههنا قوله تعالى أوزارها معناه آثارها فان أوزار الحرب من آثارها (المسئلة الرابعة) وقت وضع أوزار الحرب متى هو نقول فيه أقوال حاصلها راجع الى أن ذلك الوقت هو الوقت الذى لا يبقى فيه حزب من أحزاب الاسلام وحزب من أحزاب الكفر وقيل ذلك عند قتال الدجال ونزول عيسى عليه السلام ۞ ثم قال تعالى ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾ فى معنى ذلك وجهان أحدهما الامر ذلك والمبتدأ محذوف ويحتمل أن يقال ذلك واجب أو مقدم كما يقول القائل ان فعلت فذاك أى فذاك مقصود ومطلوب ثم بين ان قتالهم ليس طريقا متعينا بل الله لو أراد أهلكهم من غير جند ۞ قوله تعالى ﴿ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ أى ولكن ليكلفكم به فيحصل لكم شرف باختياره اياكم لهذا الامر فان قيل ما التحقيق فى قولنا التكليف ابتلاء وامتحان والله يعلم السر وأخفى وماذا يفهم من قوله ولكن ليبلو بعضكم ببعض نقول فيه وجوه (الاول) ان المراد منه يفعل ذلك فعل المبتلين أى كما يفعل المبتلى المختبر ومنها ان الله تعالى يبلو ليظهر

وقيل كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تساعده على نوحه بأصدائها والطير بأصواتها وهو بدل من آتينا بإضمار قلنا أو من فضلا بإضمار قولنا (والطير) بالنصب عطفا على فضلا بمعنى وسخرنا له الطير لان ايتاءها اياه عليه الصلاة والسلام تسخيرها له فلا حاجة الى اضماره كما نقل عن الكسائى ولا الى تقدير مضاف أى تسبيح الطير كما نقل عنه فى رواية وقيل عطفا على محل الجبال وفيه من التكلف لفظا ومعنى ما لا يخفى وقرئ بالرفع عطفا على لفظها تشبيها للحركة البنائية العارضة بالحركة الاعرابية وقد جوزا انتصابه على أنه مفعول معه والاول هو الوجه وفى تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المطيعين لامره تعالى المذعنين لحكمه المشعر بانه ما من حيوان وجماد وصامت وناطق الا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على ارادته من الفخامة المعربة عن غاية عظمة شأنه تعالى وكمال كبرياء سلطانه ما لا يخفى على أولى الالباب (وألنا له الحديد) أى جعلناه لينا فى نفسه كالشمع يصرفه فى يده كيف يشاء من غير احماء بنار ولا ضرب بمطرقة أو جعلناه بالنسبة الى قوته التى آتيناها اياه لينا كالشمع بالنسبة الى سائر القوى البشرية (ان اعمل) أمرناه ان اعمل على أن أن مصدرية حذف عنها الباء وفى حملها على المفسرة تكلف لا يخفى (سابغات) واسعات وقرئ صابغات وهى الدروع الواسعة الضافية وهو عليه الصلاة والسلام اول من اتخذها وكانت قبل صفائح قالوا كان عليه الصلاة والسلام حين ملك على بنى اسرائيل يخرج متنكرا فيسأل الناس ما تقولون فى داود فيثنون عليه فقيض الله تعالى له ملكا فى صورة آدمى فسأله على عادته فقال نعم الرجل لولا خصلة فيه فريع داود فسأله عنها فقال لولا انه يطعم عياله من بيت المال فعند ذلك سأل ربه ان يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال فعلمه تعالى صنعة الدروع وقيل كان يبيع الدرع بأربعة آلاف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء (وقدر فى السرد) السرد نسج الدروع أى اقتصد فى نسجها بحيث تتناسب حلقها وقيل قدر فى مساميرها

الامر لغيره اما للملائكة واما للناس والتحقيق هو ان الابتلاء والامتحان والاختبار فعل يظهر بسببه أمر غير متعين عند العقلاء بالنظر اليه قصد الى ظهوره وقولنا فعل يظهر بسببه أمر ظاهر الدخول فى مفهوم الابتداء لان مالا يظهر بسببه شئ أصلا لا يسمى ابتلاء وأما قولنا أمر غير متعين عند العقلاء وذلك لان من يضرب بسيفه على القثاء والخيار لا يقال انه يمتحن لان الامر الذى يظهر منه متعين وهو القطع والقد بقسمين فاذا ضرب بسيفه سبعا يقال يمتحن سيفه لان الامر فيه غير متعين وقد يقده وقد لا يقده وأما قولنا ليظهر منه ذلك فلان من يضرب سبعا بسيفه ليدفعه عن نفسه لا يقال انه يمتحن لان ضربه ليس لظهور أمر متعين اذا علم هذا فنقول الله تعالى اذا أمرنا بفعل يظهر بسببه أمر غير متعين وهو اما الطاعة أو المعصية فى العقول ليظهر ذلك يكون ممتحنا وان كان عالما به لكون عدم العلم مقارنا فينا الابتلاء ثنا فاذا ابتلينا وعدم العلم فينا مستمر أمرنا وليس من ضرورات الابتلاء فان قيل الابتلاء فائدته حصول العلم عند المبتلى فاذا كان الله تعالى عالما فأية فائدة فيه نقول ليس هذا سؤالا يختص بالابتلاء فان قول القائل لم ابتلى كقول القائل لم عاقب الكافر وهو مستغن ولم خلق النار محرقة وهو قادر على ان يخلقها بحيث تنفع ولا تضر (وجوابه) لا يسئل عما يفعل ونقول حينئذ ما قاله المتقدمون انه لظهور الامر المتعين لا له وبعد هذا فنقول المبتلى لا حاجة له الى الامر الذى يظهر من الابتلاء فان الممتحن للسيف فيما ذكرنا من الصورة لا حاجة له الى قطع ما يجرب السيف فيه حتى انه لو كان محتاجا كما ضربنا من مثال دفع السبع بالسيف لا يقال انه يمتحن وقوله ليبلو بعضكم ببعض اشارة الى عدم الحاجة تقريرا لقوله تعالى ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ۞ ثم قال تعالى ((والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم)) قرئ قتلوا وقاتلوا والكل مناسب لما تقدم اما من قرأ قتلوا فلانه لما قال فضرب الرقاب ومعناه فاقتلوهم بين ما للقاتل بقوله والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ردا على من زعم أن القتل فساد محرم اذ هو افناء من هو مكرم فقال عملهم ليس كحسنة الكافر يبطل بل هو فوق حسنات الكافر أضل الله أعمال الكفار ولن يضل القاتلين فكيف يكون القتل سيئة واما من قرأ قاتلوا فهو أكثر فائدة وأعم تناولا لانه يدخل فيه من سعى فى القتل سواء قتل أو لم يقتل واما من قرأ والذين قتلوا على البناء للمفعول فنقول هى مناسبة لما تقدم من وجوه (أحدها) هو انه تعالى لما قال فضرب الرقاب أى اقتلوا والقتل لا يتأتى الا بالاقدام وخوف ان يقتل المقدم يمنعه من الاقدام فقال لا تخافوا القتل فان من يقتل فى سبيل الله له من الاجر والثواب ما لا يمنع المقاتل من القتال بل يحثه عليه (وثانيها) هو انه تعالى لما قال ليبلو بعضكم ببعض والمبتلى بالشئ له على كل وجه من وجوه الاثر الظاهر بالابتلاء حال من الاحوال فان السيف الممتحن تزيد قيمته على تقدير أن يقطع وتنقص على تقدير أن لا يقطع فحال المبتلين ماذا فقال ان قتل فله ان لا يضل عمله ويهدى ويكرم ويدخل الجنة وأما ان قتل فلا يخفى أمره عاجلا وآجلا وترك بيانه على تقدير كونه قاتلا لظهوره وبين حاله على تقدير كونه مقتولا (وثالثها) هو انه تعالى لما قال ليبلوكم ولا يبتلى الشئ النفيس بما يخاف منه هلاكه فان السيف المهند العضب الكبير القيمة لا يجرب بالشئ الصلب الذى يخاف عليه منه الانكسار ولكن الآدمى مكرم كرمه الله وشرفه وعظمه فلماذا ابتلاه بالقتال وهو يفضى الى القتل والهلاك افضاء غير نادر فكيف يحسن هذا الابتلاء فنقول القتل ليس باهلاك بالنسبة الى المؤمن فانه يورث الحياة الابدية فاذا ابتلاه بالقتال فهو على تقدير أن يقتل مكرم وعلى تقدير أن لا يقتل مكرم هذا ان قاتل وان لم يقاتل فالموت لابد منه وقد فوت على نفسه الاجر الكبير واما قوله تعالى فلن يضل اعمالهم قد علم معنى الاضلال بقى الفرق بين العبارتين فى حق الكافر والضال قال أضل وقال فى حق المؤمن الداعى لن يضل لان المقاتل داع الى الايمان لان قوله حتى تضع الحرب أوزارها قد ذكر أن معناه حتى لم يبق اثم بسبب حرب وذلك حيث يسلم الكافر فالمقاتل يقول اما ان تسلم واما ان تقتل فهو داع والكافر صاد وبينهما تباين وتضاد فقال فى حق الكافر أضل بصيغة الماضى

فلا تعملها دقاقا ولا غلاظا وردبان دروعه عليه الصلاة السلام لم تكن مسمرة كما ينبئ عنه الانة الحديد وقيل معنى قدر فى السرد لا تصرف جميع أوقاتك اليه بل مقدار ما يحصل به القوت وأما الباقى فاصرفه الى العبادة وهو الانسب بقوله تعالى (واعملوا صالحا) عمم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه الصلاة والسلام ولاهله (انى بما تعملون بصير) تعليل للامر او لوجوب الامتثال به (ولسليمان الريح) أى وسخرنا له الريح وقرئ برفع الريح أى ولسليمان الريح مسخرة وقرئ الرياح (غدوها شهر ورواحها شهر) أى جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشى كذلك والجملة اما مستأنفة أو حال من الريح وقرئ غدوتها وروحتها وعن الحسن رحمه الله كان يغدو أى من دمشق فيقيل باصطخر ثم يروح فيكون رواحه بكابل وقيل كان يتغدى بالرى ويتعشى بسمرقند ويحكى أن بعضهم رأى مكتوبا فى منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان عليه السلام نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من اصطخر فقلناه ونحن رائحون منه فبائتون بالشأم ان شاء الله تعالى (وأسلنا له عين القطر) أى النحاس المذاب أساله من معدنه كما ألان الحديد لداود عليهما السلام فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سمى عينا وكان ذلك باليمن وقيل كان يسيل فى الشهر ثلاثة أيام وقوله تعالى (ومن الجن من يعمل بين يديه) اما جملة من مبتدا وخبر أو من يعمل عطف على الريح ومن الجن حال متقدمة (باذن ربه) بامره تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى (ومن يزغ منهم عن أمرنا) أى ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان وقرئ يزغ على البناء للمفعول من ازاغه (نذقه من عذاب السعير) أى عذاب النار فى الآخرة روى عن السدى رحمه الله كان معه ملك بيده سوط من نار كل من استعصى عليه ضربه من حيث لا يراه الجنى ولم

(يعملون له ما يشاء) تفصيل لما ذكر من عملهم وقوله تعالى (من محاريب) الخ بيان لما يشاء أى من قصور حصينة ومساكن شريفة سميت بذلك

لانها يذب عنها ويحارب عليها وقيل هى المساجد (وتماثيل) وصور الملائكة والانبياء عليهم الصلاة والسلام على ما اعتادوه فانها كانت تعمل حينئذ فى المساجد ليراها الناس ويعبدوا مثل عبادتهم وحرمة التصاوير شرع جديد وروى أنهم (٣٦٥) عملوا أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه فاذا أراد أن يصعد بسط الاسدان ذراعيهما واذا قعد أظله النسران بأجنحتهما (وجفان) جمع جفنة وهى الصحفة (كالجواب) كالحياض الكبار جمع جابية من الجباية لاجتماع الماء فيها وهى من الصفات الغالبة كالدابة وقرئ باثبات الياء قيل كان يقعد على الجفنة ألف رجل (وقدور راسيات) ثابتات على الاثافى لا تنزل عنها لعظمها (اعملوا آل داود شكرا) حكاية لما قيل لهم وشكرا نصب على انه مفعول له أو مصدر لاعملوا لان العمل للمنعم شكر له أو لفعله المحذوف أى اشكروا واشكروا شكرا أو حال أى شاكرين أو مفعول به أى اعملوا شكرا (وقليل من عبادى الشكور) أى المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لا يوفى حقه لان التوفيق للشكر نعمة تستدعى شكرا آخر لا الى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر وروى أنه عليه الصلاة والسلام جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتى ساعة من الساعات الا وانسان من آل داود قائم يصلى (فلما قضينا عليه الموت) أى على سليمان عليه السلام (مادلهم) أى الجن أو آله (على موته الا دابة الارض) أى الارضة أضيفت الى فعلها وقرئ بفتح الراء وهو تأثر الخشبة من فعلها يقال أرضت الارضة الخشبة أرضا فأرضت أرضا مثل أكلت القوادح أسنانه أكلا فأكلت أكلا (تأكل منسأته) أى عصاه من نسأت البعير اذا طردته لانها يطرد بها ما يطرد وقرئ منساته بألف ساكنة بدلا من الهمزة وبهمزة ساكنة وباخراجها بين بين عند الوقف ومنساءته على مفعالة كميضاءة فى ميضأة ومن سأته أى من طرف عصاه من سئة القوس وفيه لغتان كما فى قحة بالكسر والفتح وقرئ أكلت منساته (فلما خر تبينت

ولم يقل يضل اشارة الى أن عمله حيث وجد عدم وكانه لم يوجد من أصله وقال فى حق المؤمن فلن يضل ولم يقل ما أضل اشارة الى ان عمله كما ثبت عليه أثبت له فلن يضل للتأبيد وبينهما غاية الخلاف كما أن بين الداعى والصادّ غاية التباين والتضاد فان قيل ما معنى الفاء فى قوله فلن يضل جوابه لان فى قوله تعالى والذين قتلوا معنى الشرط ۝ وقوله تعالى (سيهديهم) ان قرئ قتلوا أو قاتلوا فالهداية محمولة على الآجلة والعاجلة وان قرئ قتلوا فهو فى الآخرة سيهديهم طريق الجنة من غير وقفة من قبورهم الى موضع حبورهم ۝ وقوله (ويصلح بالهم) قد تقدم تفسيره فى قوله تعالى أصلح بالهم والماضى والمستقبل راجع الى ان هنالك وعدهم ما وعدهم بسبب الايمان والعمل الصالح وذلك كان واقعا منهم فاخبر عن الجزاء بصيغة تدل عن الوقوع وههنا وعدهم بسبب القتال والقتل فكان فى اللفظ ما يدل على الاستقبال لان قوله تعالى فاذا لقيتم يدل على الاستقبال فقال ويصلح بالهم ۝ ثم قال تعالى (ويدخلهم الجنة) وكان الله تعالى عند حشرهم يهديهم الى طريق الجنة ويلبسهم فى الطريق خلع الكرامة وهو اصلاح البال ويدخلهم الجنة فهو على ترتيب الوقوع ۝ واما قوله (عرفها لهم) ففيه وجوه (أحدها) هو ان كل أحد يعرف منزلته ومأواه حتى ان أهل الجنة يكونون أعرف بمنازلهم فيها من أهل الجمعة ينتشرون فى الارض كل أحد يأوى الى منزله ومنهم من قال الملك الموكل باعماله يهديه (الوجه الثانى) عرفها لهم أى طيبها يقال طعام معرف (الوجه الثالث) قال الزمخشرى يحتمل أن يقال عرفها لهم حددها من عرف الدار وأرفها أى حددها وتحديدها فى قوله وجنة عرضها السموات والارض ويحتمل أن يقال المراد هو قوله تعالى وتلك الجنة التى أورثتموها مشيرا اليها معرفا لهم بانها هى تلك وفيه وجه آخر وهو أن يقال معناه عرفها لهم قبل القتل فان الشهيد قبل وفاته تعرض عليه منزلته فى الجنة فيشتاق اليه (ووجه ثان) معناه يدخلهم الجنة ولا حاجة الى وصفها فانه تعالى عرفها لهم مرارا ووصفها (ووجه ثالث) وهو من باب تعريف الضالة فان الله تعالى لما قال ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة فكأنه تعالى قال من يأخذ الجنة ويطلبها بماله أو بنفسه فالذى قتل سمع التعريف وبذل ما طلب منه عليها فادخلها ۝ ثم انه تعالى لما بين ما على القتال من الثواب والاجر وعدهم بالنصر فى الدنيا زيادة فى الحث ليزداد منهم الاقدام فقال (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وفى نصر الله تعالى وجوه (الاول) ان تنصروا دين الله وطريقه (والثانى) ان تنصروا حزب الله وفريقه (والثالث) المراد نصرة الله حقيقة فنقول النصرة تحقيق مطلوب أحد المتعادين عند الاجتهاد والاخذ فى تحقيق علامته فالشيطان عدو الله يجتهد فى تحقيق الكفر وغلبة أهل الايمان والله يطلب قمع الكفر واهلاك أهله وافناء من اختار الاشراك بجهله فمن حقق نصرة الله حيث حقق مطلوبه لا تقول حقق مراده فان مراد الله لا يحققه غيره ومطلوبه عند أهل السنة غير مراده فانه طلب الايمان من الكافر ولم يرده والا لوقع ثم قال ينصركم فان قيل فعلام قلت اذا نصر المؤمن الله تعالى فقد حقق ما طلبه فكيف يحقق ما طلبه العبد وهو شئ واحد فنقول المؤمن ينصر الله بخروجه الى القتال واقدامه والله ينصره بتقويته وتثبيت اقدامه وارساله الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه ۝ ثم قال تعالى (والذين كفروا فتعسا لهم) هذا زيادة فى تقوية قلوبهم لانه تعالى لما قال ويثبت أقدامكم جاز أن يتوهم أن الكافر أيضا يصبر ويثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطعان والضراب وفيه المشقة العظيمة فقال تعالى لكم الثبات ولهم الزوال والتغير والهلاك فلا يكون الثبات وسببه ظاهر لان آلهتهم جمادات لا قدرة لها ولا ثبات عند من له قدرة فهى غير صالحة لدفع ما قدره الله تعالى عليهم من الدمار وعند هذا لا بد من زوال القدم والعثار وقال فى حق المؤمنين ويثبت بصيغة الوعد لان الله تعالى لا يجب عليه شئ وقال فى حقهم بصيغة الدعاء وهى أبلغ من صيغة الاخبار من الله لان عثارهم واجب لان عدم النصرة من آلهتهم واجب الوقوع اذ لا قدرة لها والتثبيت من الله ليس بواجب الوقوع لانه قادر

مختار يفعل مايشاء ۞ وقوله ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ اشارة الى بيان مخالفة موتاهم لقتلى المسلمين حيث قال فى حق قتلاهم فلن يضل أعمالهم وقال فى موتى الكافرين أضل أعمالهم ۞ ثم بين الله تعالى سبب مااختلفوا فيه فقال ﴿ ذلك بانهم كرهوا ما أنزل الله فاحبط أعمالهم ﴾ وفيه وجوه (الاول) المراد القرآن ووجهه هو ان كيفية العمل الصالح لا تعلم بالعقل وانما تدرك بالشرع والشرع بالقرآن فلما أعرضوا لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الاتيان به فأتوا بالباطل فأحبط أعمالهم (الثانى) كرهوا ما أنزل الله من بيان التوحيد كما قال الله تعالى عنهم أئنا لتاركوا آلهتنا وقال تعالى اجعل الآلهة الها واحدا الى أن قال ان هذا الا اختلاق وقال تعالى واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ووجهه ان الشرك محبط للعمل قال الله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وكيف لا والعمل من المشرك لا يقع لوجه الله فلا بقاء له فى نفسه ولا بقاء له ببقاء من له العمل لان كل ماسوى وجه الله تعالى هالك محبط (الثالث) كرهوا ما أنزل الله من بيان أمر الآخرة فلم يعملوا لها والدنيا ومافيها وما لها باطل فأحبط الله أعمالهم ۞ وقوله ﴿ أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ فيه مناسبة للوجه الثالث يعنى فينظروا الى حالهم ويعلموا ان الدنيا فانية ۞ وقوله ﴿ دمر الله عليهم ﴾ أى أهلك عليهم متاع الدنيا من الاموال والاولاد والارواح والاجساد ۞ وقوله تعالى ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد لهم أمثالها فى الدنيا وحينئذ يكون المراد من الكافرين هم الكافرون بمحمد عليه الصلاة والسلام (وثانيهما) أن يكون المراد لهم أمثالها فى الآخرة فيكون المراد من تقدم كأنه يقول دمر الله عليهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة أمثالها وفى العائد اليه ضمير المؤنث فى قوله أمثالها وجهان (أحدهما) هو المذكور وهو العاقبة (وثانيهما) هو المفهوم وهو العقوبة لان التدمير كان عقوبة لهم فان قيل على قولنا المراد للكافرين بمحمد عليه السلام أمثال ما كان لمن تقدمهم من العاقبة يرد سؤال وهو ان الاولين أهلكوا بوقائع شديدة كالزلازل والنيران وغيرهما من الرياح والطوفان ولا كذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم نقول جاز أن يكون عذابهم أشد من عذاب الاولين لكون دين محمد أظهر بسبب تقدم الانبياء عليهم السلام عليه واخبارهم عنه وانذارهم به على انهم قتلوا وأسروا بأيدى من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم والقتل بيد المثل آلم من الهلاك بسبب عام (وسؤال آخر) اذا كان الضمير عائدا الى العاقبة فكيف يكون لها أمثال قلنا يجوز أن يقال المراد العذاب الذى هو مدلول العاقبة أو الالم الذى كانت العاقبة عليه ۞ ثم قال تعالى ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم ﴾ ذلك يحتمل أن يكون اشارة الى النصر وهو اختيار جماعة ذكره الواحدى ويحتمل وجها آخر أغرب من حيث النقل وأقرب من حيث العقل وهو انا لما بينا ان قوله تعالى وللكافرين أمثالها اشارة الى أن قوم محمد عليه الصلاة والسلام أهلكوا بأيدى أمثالهم الذين كانوا لا يرضون بمجالستهم وهو آلم من الهلاك بالسبب العام قال تعالى ذلك أى الاهلاك والهوان بسبب ان الله تعالى ناصر المؤمنين والكافرون اتخذوا آلهة لا تنفع ولا تضر وتركوا الله فلا ناصر لهم ولا شك ان من ينصره الله تعالى يقدر على القتل والاسر وان كان له ألف ناصر فضلا عن أن يكون لا ناصر لهم فان قيل كيف الجمع بين قوله تعالى لا مولى لهم وبين قوله مولاهم الحق نقول المولى ورد بمعنى السيد والرب والناصر فحيث قال لا مولى لهم أراد لا ناصر لهم وحيث قال مولاهم الحق أى ربهم ومالكهم كما قال تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم وقال ربكم ورب آبائكم الاولين وفى الكلام تباين عظيم بين الكافر والمؤمن لان المؤمن ينصره الله وهو خير الناصرين والكافر لا مولى له بصيغة نافية للجنس فليس له ناصر وانه شر الناصرين ۞ ثم قال تعالى ﴿ ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم ﴾ لما بين الله تعالى حال المؤمنين والكافرين فى الدنيا بين حالهم وفى الآخرة وقال انه يدخل المؤمن الجنة

والكافر

الجن) من تبينت الشئ اذا علمته بعد التباسه عليك اى علمت الجن علما يقينا بعد التباس الامر عليهم (أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) أى أنهم لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته عليه الصلاة والسلام حينما وقع فلم يلبثوا بعده حولا فى تسخيره الى أن خر أو من تبين الشئ اذا ظهر وتجلى أى ظهرت الجن وأن مع مافى حيزها بدل اشتمال من الجن أى ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وقرئ تبينت الجن على البناء للمفعول على أن المتبين فى الحقيقة هو أن مع مافى حيزها لانه بدل وقرئ تبينت الانس والضمير فى كانوا للجن فى قوله تعالى ومن الجن من يعمل وفى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه تبينت الانس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب * روى أن داود عليه السلام أسس بنيان بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى فتوفى قبل تمامه فوصى به الى سليمان عليهما السلام فاستعمل فيه الجن والشياطين فباشروه حتى اذا حان أجله وعلم به سأل ربه أن يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب فدعاهم فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى متكئا على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها فبقى كذلك وهم فيما أمروا به من الاعمال حتى أكلت الارضة عصاه فخر ميتا وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى عليه الصلاة والسلام فلم يكن ينظر اليه شيطان فى صلاته الا احترق فمر به يوما شيطان فنظر فاذا سليمان عليه السلام قد خر ميتا ففتحوا عنه فاذا عصاه قد أكلتها الارضة فارادوا أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الارضة على العصا فاكلت منها فى يوم وليلة مقدارا فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة وكان عمره ثلاثا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقى فى ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس لاربع مضين من ملكه (لقد كان لسبا) بيان لاخبار بعض الكافرين بنعم الله تعالى اثر بيان أحوال الشاكرين لها أى لاولاد سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان وقرئ بمنع الصرف على انه اسم القبيلة وقرئ بقلب الهمزة

والكافر النار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كثيرا ما يقتصر الله على ذكر الانهار فى وصف الجنة لان الانهار يتبعها الاشجار والاشجار تتبعها الثمار ولانه سبب حياة العالم والنار سبب الاعدام وللمؤمنين الماء ينظر اليه وينتفع به وللكافر النار يتقلب فيها ويتضرر بها (المسئلة الثانية) ذكرنا مرارا ان من فى قوله من تحتها الانهار يحتمل أن يكون صلة معناه تجرى تحتها الانهار ويحتمل أن يكون المراد ان ماءها منها لا يجرى اليها من موضع آخر فيقال هذا النهر منبعه من أين يقال من عين كذا من تحت جبل كذا (المسئلة الثالثة) قال والذين كفروا يتمتعون خصهم بالذكر مع ان المؤمن أيضاله التمتع بالدنيا وطيباتها نقول من يكون له ملك عظيم ويملك شيأ يسيرا أيضا لا يذكر الا بالملك العظيم لا يقال فى حق الملك العظيم صاحب الضيعة الفلانية ومن لا يملك الا شيأ يسيرا فلا يذكر الا به فالمؤمن له ملك الجنة فمتاع الدنيا لا يلتفت اليه فى حقه والكافر ليس له الا الدنيا ووجه آخر الدنيا للمؤمن سجن كيف كان ومن يأكل فى السجن لا يقال انه يتمتع فان قيل كيف تكون الدنيا سجنا مع ما فيها من الطيبات نقول للمؤمن فى الآخرة طيبات معدة واخوان مكرمون نسبتها ونسبتهم الى الدنيا ومن فيها تبين بمثال وهو ان من يكون له بستان فيه من كل الثمرات الطيبة فى غاية اللذة وأنهار جارية فى غاية الصفاء ودور وغرف فى غاية الرفعة وأولاده فيها وهو قد غاب عنهم سنين ثم توجه اليهم وهم فيها فلما قرب منهم عوق فى أجمة فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة وفيها سباع وحشرات كثيرة فهل يكون حاله فيها كحال مسجون فى بئر مظلمة وفى بيت خراب أم لا وهل يجوز أن يقال له اترك ما هو لك وتعلل بهذه الثمار وهذه الانهار أم لا كذلك حال المؤمن وأما الكافر فحاله كحال من يقدم الى القتل فيصبر عليه أياما فى مثل تلك الاجمة التى ذكرناها يكون فى جنة ونسبة الدنيا الى الجنة والنار دون ما ذكرنا من المثال لكنه ينبئ ذا البال عن حقيقة الحال وقوله تعالى كما تأكل الانعام يحتمل وجوها (أحدها) ان الانعام يهمها الاكل لا غير والكافر كذلك والمؤمن يأكل ليعمل صالحا ويقوى عليه (وثانيها) الانعام لا تستدل بالمأكول على خالقها والكافر كذلك (وثالثها) الانعام تعلف لتسمن وهى غافلة عن الامر لا تعلم انها كلما كانت أسمن كانت أقرب الى الذبح والهلاك وكذلك الكافر ويناسب ذلك قوله تعالى والنار مثوى لهم (المسئلة الرابعة) قال فى حق المؤمن ان الله يدخل بصيغة الوعد وقال فى حق الكافر والنار مثوى لهم بصيغة تنبئ عن الاستحقاق لما ذكرنا ان الاحسان لا يستدعى أن يكون عن استحقاق فالمحسن الى من لم يوجد منه ما يوجب الاحسان كريم والمعذب من غير استحقاق ظالم ۞ قوله تعالى ﴿وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ لما ضرب الله تعالى لهم مثلا بقوله أفلم يسيروا فى الارض ولم ينفعهم مع ما تقدم من الدلائل ضرب للنبى عليه السلام مثلا تسلية له فقال وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم وكانوا أشد من أهل مكة كذلك نفعل بهم فاصبر كما صبر رسلهم وقوله فلا ناصر لهم قال الزمخشرى كيف قوله فلا ناصر لهم مع ان الاهلاك ماض وقوله فلا ناصر لهم للحال والاستقبال والجواب انه محمول على الحكاية والحكاية كالحال الحاضر ويحتمل ان يقال أهلكناهم فى الدنيا فلا ناصر لهم ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذى هم فيه ويحتمل أن يقال قوله فلا ناصر لهم عائد الى أهل قرية محمد عليه السلام كانه قال أهلكنا من تقدم أهل قريتك ولا ناصر لاهل قريتك ينصرهم ويخلصهم مما جرى على الاولين ۞ ثم قال تعالى ﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم﴾ اعلم ان هذا اشارة الى الفرق بين النبى عليه السلام والكفار ليعلم ان اهلاك الكفار ونصرة النبى عليه السلام فى الدنيا محقق وان الحال يناسب تعذيب الكفار واثابة المؤمن وقوله على بينة فرق فارق وقوله من ربه مكمل له وذلك ان البينة اذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولا لا دليل عليه فاذا كانت البينة منزلة من الله تعالى تكون أقوى وأظهر فتكون أعلى وأبهر ويحتمل أن يقال قوله

الفا ولعله اخراج لها بين بين (فى مسكنهم) وقرئ بكسر الكاف كالمسجد وقرئ بلفظ الجمع أى مواضع سكناهم وهى باليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال (آية) دالة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كل ما يشاء من الامور البديعة المجازى للمحسن والمسئ معاضدة للبرهان السابق كما فى قصتى داود وسليمان عليهما السلام (جنتان) بدل من آية أو خبر لمبتدا محذوف أى هى جنتان وفيه معنى المدح ويؤيده قراءة النصب على المدح والمراد بهما جماعتان من البساتين (عن يمين وشمال) جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل واحدة من تينك الجماعتين فى تقاربهما وتضامهما كأنهما جنة واحدة أو بستانا كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم تكميلا للنعمة وتذكيرا لحقوقها أو لما نطق به لسان الحال أو بيان لكونهم أحقاء بان يقال لهم ذلك (بلدة طيبة ورب غفور) استئناف مبين لما يوجب الشكر المأمور به أى بلدتكم بلدة طيبة وربكم الذى رزقكم ما فيها من الطيبات وطلب منكم الشكر رب غفور لفرطات من يشكره وقرئ الكل بالنصب على المدح قيل كان أطيب البلاد هواء وأخصبها وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير فيما بين الاشجار فيمتلئ المكتل مما يتساقط فيه من الثمار ولم يكن فيه من مؤذيات الهوام شئ (فأعرضوا) عن الشكر بعد ابانة الآيات الداعية لهم اليه قيل أرسل الله اليهم ثلاثة عشر نبيا فدعوهم الى الله تعالى وذكروهم بنعمه وأنذروهم عقابه فكذبوهم (فأرسلنا عليهم سيل العرم) أى سيل الامر العرم أى الصعب من عرم الرجل فهو عارم وعرم اذا شرس خلقه وصعب أو المطر الشديد وقيل العرم جمع عرمة وهى الحجارة المركومة وقيل هو السكر الذى يحبس الماء وقيل هو اسم للبناء الذى يجعل سدا وقيل هو البناء الرصين الذى بنته الملكة بلقيس بين الجبلين بالصخر والقار وحقنت به ماء العيون والامطار وتركت فيه خروقا على

ما يحتاجون اليه في سقيهم وقيل العرم الجرذ الذي نقب عليهم ذلك السد وهو الفار الاعمى الذي يقال له الخلد سلطه الله تعالى على سدهم فنقبه
فغرق بلادهم وقيل العرم اسم الوادي وقرئ العرم بسكون الراء قالوا كان ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى والنبي عليهما الصلاة
والسلام (وبدلناهم بجنتيهم) أي
أذهبنا جنتيهم وآتيناهم بدلهما
(جنتين ذواتي أكل خمط) أي ثمر
بشع فان الخمط كل نبت أخذ طعما
من مرارة حتى لا يمكن أكله وقيل
هو الحامض والمر من كل شئ وقيل
هو ثمرة شجرة يقال لها فسوة
الضبع على صورة الخشخاش
لا ينتفع بها وقيل هو الاراك أو كل
شجر ذي شوك والتقدير أكل أكل
خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف
اليه مقامه وقرئ أكل خمط
بالاضافة وبتخفيف أكل (وأثل
وشئ من سدر قليل) معطوفان
على أكل لا على خمط فان الاثل هو
الطرفاء وقيل شجر يشبهه أعظم
منه ولا ثمر له وقرئ وأثلا وشيأ
عطفا على جنتين قيل وصف
السدر بالقلة لما أن جناه وهو
النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس
في البساتين والصحيح أن السدر
صنفان صنف يؤكل من ثمره
وينتفع بورقه لغسل اليد وصنف
له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلا ولا
ينتفع بورقه وهو الضال والمراد
ههنا هو الثاني حتما وقال قتادة كان
شجرهم خير الشجر فصيره الله تعالى
من شر الشجر باعمالهم وتسمية
البدل جنتين للمشاكلة والتهكم
(ذلك) اشارة الى مصدر قوله تعالى
(جزيناهم) أو الى ما ذكر من
التبديل وما فيه من معنى البعد
للايذان ببعد رتبته في الفظاعة
ومحله على الاول النصب على
أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور
وعلى الثاني النصب على أنه مفعول
ثان له أي ذلك الجزاء الفظيع
جزيناهم لا جزاء آخر أو ذلك
التبديل جزيناهم لا غيره (بما كفروا) بسبب كفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضدها أو بسبب
كفرهم بالرسل (وهل نجازي الا الكفور) أي وما نجازي هذا الجزاء الا المبالغ في الكفران أو الكفر وقرئ يجازي على البناء للفاعل وهو الله

فهو

من ربه ليس المراد انزالها منه بل المراد كونها من الرب بمعنى قوله يهدي من يشاء وقولنا الهداية من الله وكذلك قوله تعالى كمن زين له سوء عمله فرق فارق وقوله واتبعوا أهواءهم تكملة وذلك ان من زين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه في مقابلة من يتبين له البرهان وقبله لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر في الامر ويرجع الى الحق فيكون أقرب الى من هو على البرهان وقد يتبع هواه ولا يتدبر في البرهان ولا يتفكر في البيان فيكون في غاية البعد فاذن حصل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمن مع الكافر في طرفي التضاد وغاية التباعد حتى مدهم بالبينة والكافر له الشبهة وهو مع الله وأولئك مع الهوى وعلى قولنا من ربه معناه الاضافة الى الله كقولنا الهداية من الله فقوله اتبعوا أهواءهم مع ذلك القول يفيد معنى قوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وقوله كمن زين له سوء عمله بصيغة التوحيد محمول على لفظة من وقوله واتبعوا أهواءهم محمول على معناه فانها للجمع والعموم وذلك لان التزيين للكل على حد واحد فحمل على اللفظ لقربه منه في الحس والذكر وعند اتباع الهوى كل أحد يتبع هوى نفسه فظهر التعدد فحمل على المعنى ۞ قوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون) لما بين الفرق بين الفريقين في الاهتداء والضلال بين الفرق بينهما في مرجعهما ومآلهما وكما قدم من على البينة في الذكر على من اتبع هواه قدم حاله في مآله على حال من هو بخلاف حاله وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى مثل الجنة يستدعي أمرا يمثل به فما هو نقول فيه وجوه (الاول) قول سيبويه حيث قال المثل هو الوصف معناه وصف الجنة وذلك لا يقتضي ممثلا به وعلى هذا ففيه احتمالان (أحدهما) ان يكون الخبر محذوفا ويكون مثل الجنة مبتدأ تقديره فيما قصصناه مثل الجنة ثم يستأنف ويقول فيها أنهار وكذلك القول في سورة الرعد يكون قوله تعالى تجري من تحتها الانهار ابتداء بيان (والاحتمال الثاني) ان يكون فيها أنهار وقوله تجري من تحتها خبرا كما يقال صف زيدا فيقول لي القائل زيد أحمر قصير والقول الثاني ان المثل زيادة والتقدير الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار (الوجه الثاني) ههنا الممثل به محذوف غير مذكور وهو يحتمل قولين (أحدهما) قول الزجاج حيث قال مثل الجنة جنة تجري فيها أنهار كما يقال مثل زيد رجل طويل أسمر فيذكر عين صفات زيد في رجل منكر لا يكون هو في الحقيقة الا زيدا (الثاني من القولين) هو أن يقال معناه مثل الجنة التي وعد المتقون مثل عجيب أو شئ عظيم او مثل ذلك وعلى هذا يكون قوله فيها أنهار كلاما مستأنفا محققا لقولنا مثل عجيب (الوجه الثالث) الممثل به مذكور وهو قول الزمخشري حيث قال كمن هو خالد في النار مشبه به على طريقة الانكار وحينئذ فهذا كقول القائل حركات زيد أو اخلاقه كعمرو على أحد التأويلين اما على تأويل كحركات عمرو أو على تأويل زيد في حركاته كعمرو وكذلك ههنا كانه تعالى قال مثل الجنة كمن هو خالد في النار وهذا اقصى ما يمكن ان يقرر به قول الزمخشري وعلى هذا فقوله تعالى فيها أنهار وما بعدها جمل اعتراضية وقعت بين المبتدا والخبر كما يقال نظير زيد فيه مروءة وعنده علم وله أصل عمرو ۞ ثم قال تعالى (فيها أنهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى) اختار الانهار من الاجناس الاربعة وذلك لان المشروب اما ان يشرب لطعمه واما ان يشرب لامر غير عائد الى الطعم فان كان للطعم فالطعوم تسعة المر والمالح والحريف والحامض والعفص والقابض والتفه والحلو والدسم أشدها الحلو والدسم لكن احلى الاشياء العسل فذكره وأما أدسم الاشياء فالدهن لكن الدسومة اذا تمحضت لا تطيب للاكل ولا للشرب فان الدهن لا يؤكل ولا يشرب كما هو في الغالب وأما اللبن فيه الدسم الكائن في غيره وهو طيب للاكل وبه تغذية الحيوان أولا فذكره الله تعالى واما ما يشرب لا لامر عائد الى الطعم فالماء والخمر فان الخمر فيها أمر يشربها الشارب لاجله وهي كريهة الطعم باتفاق من يشربها وحصول التواتر به ثم عرى كل واحد من الاشياء الاربعة عن صفات النقص التي هي فيها وتتغير بها في الدنيا فالماء يتغير يقال أسن الماء يأسن على وزن أمن يأمن

فهو آسن وآسن اللبن اذا بقى زمانا يتغير طعمه والخمر يكرهه الشارب عند الشرب والعسل يشوبه اجزاء من الشمع ومن النحل يموت فيه كثيرا ثم ان الله تعالى خلط الجنسين فذكر الماء الذى يشرب لا للطعم وهو عام الشرب وقرن به اللبن الذى يشرب لطعمه وهو عام الشرب اذ ما من أحد الا وكان شربه اللبن ثم ذكر الخمر الذى يشرب لا للطعم وهو قليل الشرب وقرن به العسل الذى يشرب للطعم وهو قليل الشرب فان قيل العسل لا يشرب نقول شراب الجلاب لم يكن الا من العسل والسكر قريب الزمان الا ترى ان السكنجبين من سركه وانكبين وهو الخل والعسل بالفارسية كما أن استخراجه كان أولا من الخل والعسل ولم يعرف السكر الا فى زمان متأخر ولان العسل اسم يطلق على غير عسل النحل حتى يقال عسل النحل للتمييز والله أعلم (المسئلة الثانية) قال فى الخمر لذة للشاربين ولم يقل فى اللبن لم يتغير طعمه للطاعمين ولا قال فى العسل مصفى للناظرين لان اللذة تختلف باختلاف الاشخاص فرب طعام يلتذ به شخص ويعافه الآخر فقال لذة للشاربين باسرهم ولان الخمر كريهة الطعم فقال لذة أى لا يكون فى خمر الآخرة كراهة الطعم وأما الطعم واللون فلا يختلفان باختلاف الناس فان الحلو والحامض وغيرهما يدركه كل أحد كذلك لكنه قد يعافه بعض الناس ويلتذ به البعض مع اتفاقهم على ان له طعما واحدا وكذلك اللون فلم يكن الى التصريح بالتعميم حاجة وقوله لذة يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون تأنيث لذ يقال طعام لذ ولذيذ واطعمة لذة ولذيذة (وثانيها) أن يكون ذلك وصفا بنفس المعنى لا بالمشتق منه كما يقال للحليم هو حلم كله وللعاقل عقل كله ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾ بعد ذكر المشروب أشار الى المأكول ولما كان فى الجنة الاكل للذة لا للحاجة ذكر الثمار فانها تؤكل للذة بخلاف الخبز واللحم وهذا كقوله تعالى فى سورة الرعد مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الانهار أكلها دائم وظلها حيث أشار الى المأكول والمشروب وههنا لطيفة وهى انه تعالى قال فيها وظلها ولم يقل ههنا ذلك نقول قال ههنا ومغفرة والظل فيه معنى الستر والمغفرة كذلك ولان المغفور تحت نظر من رحمة الغافر يقال نحن تحت ظل الامير وظلها هو رحمة الله ومغفرته حيث لا يمسهم حر ولا برد (المسئلة الثالثة) المتقى لا يدخل الجنة الا بعد المغفرة فكيف يكون لهم فيها مغفرة فنقول (الجواب) عنه من وجهين (الاول) ليس بلازم أن يكون المعنى لهم مغفرة من ربهم فيها بل يكون عطفا على قوله لهم كانه تعالى قال لهم الثمرات فيها ولهم المغفرة قبل دخولها (والثانى) هو ان يكون المعنى لهم فيها مغفرة أى رفع التكليف عنهم فيأكلون من غير حساب بخلاف الدنيا فان الثمار فيها عليها حساب أو عقاب ووجه آخر وهو ان الاكل فى الدنيا لا يخلو عن استتباع قبيح أو مكروه كمرض أو حاجة الى تبرز فقال لهم فيها من كل الثمرات ومغفرة لا قبيح على الاكل بل هو مستور القبائح مغفور وهذا استفدته من المعلمين فى بلادنا فانهم يعودون الصبيان بان يقولوا وقت حاجتهم الى اراقة البول وغيره يا معلم غفر الله لك فيفهم المعلم انهم يطلبون الاذن فى الخروج لقضاء الحاجة فيأذن لهم فقلت فى نفسى معناه هو ان الله تعالى فى الجنة غفر لمن أكل وأما فى الدنيا فلان للأكل توابع ولوازم لا بد منها فيفهم من قولهم حاجتهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم﴾ وفيه أيضا مسائل (المسئلة الاولى) على قول من قال مثل الجنة معناه وصف الجنة فقوله كمن هو بماذا يتعلق نقول قوله لهم فيها من كل الثمرات يتضمن كونهم فيها فكانه قال هو فيها كمن هو خالد فى النار فالمشبه يكون محذوفا مدلولا عليه بما سبق ويحتمل أن يقال ما قيل فى تقرير قول الزمخشرى ان المراد هذه الجنة التى مثلها ماذكرنا كمقام من هو خالد فى النار (المسئلة الثانية) قال الزجاج قوله تعالى كمن هو خالد فى النار راجع الى ما تقدم كانه تعالى قال أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله وهو خالد فى النار فهل هو صحيح أم لا نقول لنا نظر الى اللفظ فيمكن تصحيحه بتعسف ونظر الى المعنى لا يصح الا بان يعود الى ماذكرناه اما التصحيح فبحذف كمن فى المرة الثانية أو جعله بدلا عن المتقدم أو باضمار عاطف يعطف كمن هو خالد على كمن زين

عز وجل وهل يجازى على البناء للمفعول ورفع الكفور وهل يجزى على البناء للمفعول أيضا وهذا بيان ما أوتوا من النعم الحاضرة فى مساكنهم وما فعلوا بها من الكفران وما فعل بهم من الجزاء وقوله تعالى (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها) حكاية لما أوتوا من النعم البادية فى مسايرهم ومتاجرهم وما فعلوا بها من الكفران وما حاق بهم بسبب ذلك تكملة لقصتهم وبيانا لعاقبتهم واغا لم يذكر الكل معا لما فى التثنية والتكرير من زيادة تنبيه وتذكير وهو عطف على كان لسبا لا على ما بعده من الجمل الناطقة بأفعالهم أو بأجزيتها أى وجعلنا مع ما آتيناهم فى مساكنهم من فنون النعم بينهم أى بين بلادهم وبين القرى الشامية التى باركنا فيها للعالمين (قرى ظاهرة) متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهى ظاهرة لأعين أهلها أو راكبة متن الطريق ظاهرة للسابلة غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم (وقدرنا فيها السير) اى جعلناها فى نسبة بعضها الى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل قيل كان الغادى من قرية يقيل فى أخرى والرائح منها يبيت فى أخرى الى أن يبلغ الشام كل ذلك كان تكميلا لما أوتوا من أنواع النعماء وتوفيرا لها فى الحضر والسفر (سيروا فيها) على ارادة القول أى وقلنا لهم سيروا فى تلك القرى (ليالى وأياما) أى متى شئتم من الليالى والايام (آمنين) من كل ما تكرهونه لا يختلف الامن فيها باختلاف الاوقات أو سيروا فيها آمنين وان تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالى وأياما كثيرة أو سيروا فيها ليالى أعماركم وأيامها لا تلقون فيها الا الأمن لكن لا على الحقيقة بل على تنزيل تمكينهم من السير المذكور وتسوية مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلة أمرهم بذلك (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) وقرئ بارنا بطروا النعمة وسئموا أطيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو اسرائيل الثوم والبصل مكان المن والسلوى وقالوا

له سوء عمله أو كمن هو خالد فى النار وأما التعسف فبين نظر الى الحذف والى الاضمار مع الفاصل الطويل بين المشبه والمشبه به وأما طريقة البدل ففاسدة والا لكان الاعتماد على الثانى فيكون كأنه قال أفمن كان على بينة كمن هو خالد وهو سمج فى التشبيه تعالى كلام الله عن ذلك والقول فى اضمار العاطف كذلك لان المعطوف أيضا يصير مستقلا فى التشبيه اللهم الا أن يقال يقابل المجموع بالمجموع كأنه يقول أفمن كان على بينة من ربه وهو فى الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار كمن زين له سوء عمله وهو خالد فى النار وهل هذا تقع المقابلة بين من هو على بينة من ربه وبين من زين له سوء عمله وبين من فى الجنة وبين من هو خالد فى النار وقد ذكرناه فلا حاجة الى خلط الآية بالآية وكيف وعلى ماقاله تقع المقابلة بين من هو فى النار وسقوا ماء حميما وبين من هو على بينة من ربه وأية مناسبة بينهما بخلاف ماذكرناه من الوجوه الاخر فان المقابلة فيها بين الجنة التى فيها الانهار وبين النار التى فيها الماء الحميم وذلك تشبيه انكار مناسب (المسئلة الثالثة) قال كمن هو خالد حملا على اللفظ الواحد وقال وسقوا ماء حميما على المعنى وهو جمع وكذلك قال من قبل كمن زين له سوء عمله على التوحيد والافراد واتبعوا أهواءهم على الجمع فما الوجه فيه نقول المسند الى من اذا كان متصلا فرعاية اللفظ أولى لانه هو المسموع واذا كان مع انفصال فالعود الى المعنى أولى لان اللفظ لا يبقى فى السمع والمعنى يبقى فى ذهن السامع فالحمل فى الثانى على المعنى أولى وحمل الاول على اللفظ أولى فان قيل كيف قال فى سائر المواضع من آمن وعمل صالحا ومن تاب وأصلح نقول اذا كان المعطوف مفردا أو شبيها بالمعطوف عليه فى المعنى فالاولى ان يختلفا كما ذكرت فانه عطف مفرد على مفرد وكذلك لو قال كمن هو خالد فى النار ومعذب فيها لان المشابهة تنافى المخالفة واما اذا لم يكن كذلك كما فى هذا الموضع فان قوله سقوا ماء جملة غير مشابهة لقوله هو خالد وقوله تعالى وسقوا ماء حميما بيان لمخالفتهم فى سائر أحوال أهل الجنة فلهم أنهار من ماء غير آسن ولهم ماء حميم فان قيل المشابهة الانكارية بالمخالفة على ماثبت وقد ذكرت البعض وقلت بأن قوله على بينة فى مقابلة زين له سوء عمله ومن ربه فى مقابلة قوله واتبعوا أهواءهم والجنة فى مقابلة النار فى قوله خالد فى النار والماء الحميم فى مقابلة الانهار فأين مايقابل قوله ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة فنقول تقطع الامعاء فى مقابلة مغفرة لا نابينا على أحد الوجوه أن المغفرة التى فى الجنة هى تعريه أكل الثمرات عما يلزمه من قضاء الحاجة والامراض وغيرها كأنه قال للمؤمن أكل وشرب مطهر طاهر لا يجتمع فى جوفهم فيؤذيهم ويحوجهم الى قضاء حاجة وللكافر ماء حميم فى أول مايصل الى جوفهم يقطع امعاءهم ويشتهون خروجه من جوفهم واما الثمار فلم يذكر مقابلها لان فى الجنة زيادة مذكورة فحققها بذكر أمر زائد (المسئلة الرابعة) الماء الحار يقطع أمعاءهم لامر آخر غير الحرارة وهى الحدة التى تكون فى السموم المدونة والا فمجرد الحرارة لا يقطع فان قيل قوله تعالى فقطع بالفاء يقتضى أن يكون القطع بماذكر نقول نعم لكنه لا يقتضى أن يقال يقطع لانه ماء حميم فحسب بل ماء حميم مخصوص يقطع ۞ ثم قال تعالى ((ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا)) لما بين الله تعالى حال الكافر ذكر حال المنافق بأنه من الكفار وقوله ومنهم يحتمل أن يكون الضمير عائدا الى الناس كما قال تعالى فى البقرة ومن الناس من يقول آمنا بالله بعد ذكر الكفار ويحتمل أن يكون راجعا الى أهل مكة لان ذكرهم سبق فى قوله تعالى هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم ويحتمل أن يكون راجعا الى معنى قوله هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما يعنى ومن الخالدين فى النار قوم يستمعون اليك وقوله حتى اذا خرجوا من عندك على ماذكرنا حمل على المعنى الذى هو الجمع ويستمع حمل على اللفظ وقد سبق التحقيق فيه وقوله حتى للعطف فى قول المفسرين وعلى هذا فالعطف بحتى لا يحسن الا اذا كان المعطوف جزأ من المعطوف عليه اما أعلاه أو دونه كقول القائل أكرمنى الناس حتى الملك وجاء الحاج حتى المشاة وفى الجملة ينبغى أن يكون المعطوف عليه من حيث المعنى ولا يشترط فى العطف

بالواو

لو كان جنى جنا تنا ابعد لكان اجدر أن نشتهيه وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوز وقفارا ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الازواد ويتطاولوا فيها على الفقراء فعجل الله تعالى لهم الاجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا مجيب وقرئ بعد وربنا بعد بين أسفارنا وبعد بين أسفارنا على النداء واسناد الفعل الى بين ورفعه به كما يقال سير فرسخان وبوعد بين أسفارنا وقرئ ربنا باعد بين أسفارنا وبين سفرنا وبعد برفع ربنا على الابتداء والمعنى على خلاف الاول وهو استبعاد مسايرهم مع قصرها أو دنوها وسهولة سلوكها لفرط تنعمهم وغاية ترفههم وعدم اعتدادهم بنعم الله تعالى كأنهم يتشاجون على الله تعالى ويتحازنون عليه (وظلموا أنفسهم) حيث عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا النعمة أو غمطوها (فجعلناهم أحاديث) أى جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم (ومزقناهم كل ممزق) أى فرقناهم كل تفريق على أن الممزق مصدر أو كل مطرح ومكان تفريق على أنه اسم مكان وفى عبارة التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الامر والدلالة على شدة التأثير والايلام مالا يخفى أى مزقناهم تمزيقا لا غاية وراءه بحيث يضرب به الامثال فى كل فرقة ليس بعدها وصال حتى لحق غسان بالشام وأنمار بيثرب وجذام بتهامة والازد بعمان وأصل قصتهم على مارواه الكلبى عن أبى صالح أن عمرو بن عامر من أولاد سبا وبينهما اثنا عشر أبا وهو الذى يقال له مزيقيا بن ماء السماء أخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب وتغريق سيل العرم الجنتين وعن أبى زيد الانصارى ان عمرا رأى جرذا يحفر السد فعلم أنه لا بقاء له بعد وقيل انه كان كاهنا وقد علمه بكهانته فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف من بلد الى بلد حتى انتهى الى مكة المعظمة وأهلها جرهم وكانوا قهروا الناس وحازوا ولاية البيت على بنى اسمعيل عليه السلام وغيرهم فارسل اليهم ثعلبة بن عمرو

بالواو وذلك فيجوز أن تقول فى الواو جاء الحاج وما علمت ولا يجوز مثل ذلك فى حتى اذا علمت هذا فوجه التعلق ههنا هو ان قوله حتى اذا خرجوا من عندك يفيد معنى زائدا فى الاستماع كانه يقول يستمعون استماعا بالغا جيدا لانهم يستمعون واذا خرجوا يستعيدون من العلماء كما يفعله المجتهد فى التعلم الطالب للتفهم فان قلت فعلى هذا يكون هذا صفة مدح لهم وهو ذكرهم فى معرض الذم نقول يتميز بما بعده وهو أحد أمرين اما كونهم بذلك مستهزئين كالذى يقول للبليد أعد كلامك حتى أفهمه ويرى فى نفسه انه مستمع اليه غاية الاستماع وكل أحد يعلم انه مستهزئ غير مستفيد ولا مستعيد واما كونهم لا يفهمون مع انهم يستمعون ويستعيدون ويناسب هذا الثانى قوله تعالى كذلك يطبع الله على قلوب المجرمين والاول يؤكده قوله تعالى واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن (والثانى) يؤكده قوله تعالى قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم وقوله آنفا قال بعض المفسرين معناه الساعة ومنه الاستئناف وهو الابتداء فعلى هذا فالاولى أن يقال يقولون ماذا قال آنفا بمعنى انهم يستعيدون كلامه من الابتداء كما يقول المستعيد للمعيد أعد كلامك من الابتداء حتى لا يفوتنى شئ منه ۞ ثم قال تعالى (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) أى تركوا اتباع الحق اما بسبب عدم الفهم أو بسبب عدم الاستماع للاستفادة واتبعوا ضده ۞ ثم قال تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) لما بين الله تعالى أن المنافق يستمع ولا ينتفع ويستعيد ولا يستفيد بين ان حال المؤمن المهتدى بخلافه فانه يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم والمنافق يستعيد والمهتدى يفسر ويعيد وفيه فائدتان (احداهما) ماذكرنا من بيان التباين بين الفريقين (وثانيهما) قطع عذر المنافق وايضاح كونه مذموم الطريقة فانه لو قال ما فهمته لغموضه وكونه معمى يرد عليه ويقول ليس كذلك فان المهتدى فهم واستنبط لوازمه وتوابعه فذلك لعماء القلوب لا لخفاء المطلوب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفاعل للزيادة فى قوله زادهم نقول فيه وجوه (الاول) المسموع من النبى عليه الصلاة والسلام من كلام الله وكلام الرسول يدل عليه قوله ومنهم من يستمع اليك فانه يدل على مسموع والمقصود بيان التباين بين الفريقين فكانه قال هم لم يفهموه وهؤلاء فهموه (والثانى) ان الله تعالى زادهم ويدل عليه قوله تعالى أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وكانه تعالى طبع على قلوبهم فزادهم عمى والمهتدى زاده هدى (والثالث) استهزاء المنافق زاد المهتدى هدى ووجهه هو انه تعالى لما قال واتبعوا أهواءهم قال والذين اهتدوا زادهم اتباعهم الهدى هدى فانهم استقبحوا فعلهم فاجتنبوه (المسئلة الثانية) ما معنى قوله وآتاهم تقواهم نقول فيه وجوه منقولة ومستنبطة اما المنقولة فنقول قيل فيه ان المراد آتاهم ثواب تقواهم وقيل آتاهم نفس تقواهم من غير اضمار يعنى بين لهم التقوى وقيل آتاهم توفيق العمل بما علموا وأما المستنبط فنقول يحتمل أن يكون المراد به بيان حال المستمعين للقرآن الفاهمين لمعانيه المفسرين له بيانا لغاية الخلاف بين المنافق فانه استمع ولم يفهمه واستعاد ولم يعلمه والمهتدى فانه علمه وبينه لغيره ويدل عليه قوله تعالى زادهم هدى ولم يقل اهتداء والهدى مصدر من هدى قال الله تعالى فبهداهم اقتده أى خذ بما هدوا واهد كما هدوا وعلى هذا فقوله تعالى وآتاهم تقواهم معناه جنبهم عن القول فى القرآن بغير برهان وحملهم على الاتقاء من التفسير بالرأى وعلى هذا فقوله زادهم هدى معناه كانوا مهتدين فزادهم على الاهتداء هدى حتى ارتقوا من درجة المهتدين الى درجة الهادين ويحتمل أن يقال قوله زادهم هدى اشارة الى العلم وآتاهم تقواهم اشارة الى الاخذ بالاحتياط فيما لم يعلموه وهو مستنبط من قوله تعالى فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وقوله تعالى والراسخون فى العلم يقولون آمنا به (المعنى الثالث) يحتمل أن يكون المراد بيان ان الخاص على خطر فهو أخشى من غيره وتحقيقه هو انه لما قال زادهم هدى أفاد انهم ازداد علمهم وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فقال آتاهم خشيتهم التى يفيدها العلم (والمعنى الرابع)

ابن عامر يسألهم المقام معهم الى أن يرجع اليه رواده الذين أرسلهم الى أصقاع البلاد يطلبون له موضعا يسعه ومن معه من قومه فابوا فاقتتلوا ثلاثة أيام فانهزمت جرهم ولم يفلت منهم الا الشريد وأقام ثعلبة بمكة وما حولها في قومه وعساكره حولا فاصابتهم الحمى فاضطروا الى الخروج وقد رجع اليه رواده فافترقوا فرقتين فرقة توجهت نحو عمان وهم الازد وكندة وحمير ومن يتلوهم وسار ثعلبة نحو الشام فنزل الاوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة وهم الانصار ومضت غسان فنزلوا بالشام وانخزعت خزاعة بمكة فاقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لحى فولى أمر مكة وحجابة البيت ثم جاءهم أولاد اسمعيل عليه السلام فسألوهم السكنى معهم وحولهم فاذنوا لهم فى ذلك وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن فروة بن مسيك الغطيفى سأل النبى عليه الصلاة والسلام عن سبا فقال عليه الصلاة والسلام هو رجل كان له عشرة أولاد ستة منهم سكنوا اليمن وهم مذحج وكندة والازد والاشعريون وحمير وأنمار منهم بجيلة وخثعم وأربعة منهم سكنوا الشام وهم لخم وجذام وعاملة وغسان لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرقوا أيدى سبا شذر مذر فنزلت طوائف منهم بالحجاز فمنهم خزاعة نزلوا بظاهر مكة ونزلت الاوس والخزرج بيثرب فكانوا أول من سكنها ثم نزل عندهم ثلاث قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة والنضير فحالفوا الاوس والخزرج وأقاموا عندهم ونزلت طوائف أخر منهم بالشام وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسبا تجمع هذه القبائل كلها والجمهور على أن جميع العرب قسمان قحطانية وعدنانية والقحطانية شعبان سبا وحضرموت والعدنانية شعبان ربيعة ومضر وأما قضاعة فمختلف فيها فبعضهم ينسبونها الى قحطان وبعضهم الى عدنان والله تعالى أعلم (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من قصتهم (لآيات) عظيمة (لكل صبار شكور) أى شأنه الصبر عن الشهوات ودواعى

الهوى وعلى مشاق الطاعات والشكر على النعم وتخصيص هؤلاء بذلك لانهم المنتفعون بها (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه) أى حقق عليهم ظنه أو وجده صادقا وقرئ بالتخفيف أى صدق في ظنه أو صدق بظن ظنه و يجوز تعدية الفعل اليه بنفسه لانه نوع من القول وقرئ بنصب ابليس ورفع الظن مع التشديد بمعنى وجده ظنه صادقا ومع التخفيف بمعنى قال له الصدق حين خيل له اغواءهم وبرفعهما والتخفيف على الابدال وذلك اما ظنه بسبا حين رأى انهما كهم في الشهوات أو بنى آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى الى وسوسته قال ان ذريته أضعف منه عزما وقيل ظن ذلك عند اخبار الله تعالى الملائكة أنه يجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وقال لاضلنهم ولاغوينهم (فاتبعوه) أى أهل سبا أو الناس (الا فريقا من المؤمنين) الا فريقا هم المؤمنون لم يتبعوه على أن من بيانية وتقليلهم بالاضافة الى الكفار أو الا فريقا من فرق المؤمنين لم يتبعوه وهم المخلصون (وما كان له عليهم من سلطان) أى تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء وقوله تعالى (الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) استثناء مفرغ من أعم العلل ومن موصولة أى وما كان تسلطه عليهم الا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزا ممن هو في شك منها تعلقا حاليا يترتب عليه الجزاء أو الا ليتميز المؤمن من الشاك أو الا ليؤمن من قدر ايمانه ويشك من قدر ضلاله والمراد من حصول العلم حصول متعلقه مبالغة (وربك على كل شئ حفيظ) أى محافظ عليه فان فعيلا ومفاعلا صيغتان متآخيتان (قل) أى للمشركين اظهارا لبطلان ما هم عليه وتبكيتا لهم (ادعوا الذين زعمتم) أى زعمتموهم آلهة وهما مفعولا زعم ثم حذف الاول تخفيفا لطول الموصول بصلته والثاني لقيام صفته أعنى قوله تعالى (من دون الله) مقامه ولا سبيل الى جعله مفعولا ثانيا لانه لا يلتئم مع الضمير كلاما وكذا لا يملكون لانهم لا يزعمونه والمعنى ادعوهم فيما

تقواهم من يوم القيامة كما قال تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ويدل عليه قوله تعالى فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة كان ذكر الساعة عقيب التقوى يدل عليه (المعنى الخامس) آتاهم تقواهم التقوى التي تليق بالمؤمن وهي التقوى التي لا يخاف معها لومة لائم قال تعالى الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله وكذلك قوله تعالى يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وهذا الوجه مناسب لان الآية لبيان تباين الفريقين وهذا يحقق ذلك من حيث ان المنافق كان يخشى الناس وهم الفريقان المؤمنون والكافرون فكان يتردد بينهما ويرضى الفريقين ويسخط الله فقال الله تعالى المؤمن المهتدى بخلاف المنافق حيث علم ذلك ولم يعلم ذلك واتقى الله لا غيره واتقى ذلك غير الله ۞ ثم قال تعالى (فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها) يعني الكافرون والمنافقون لا ينظرون الا الساعة وذلك لان البراهين قد صحت والامور قد اتضحت وهم لم يؤمنوا فلا يتوقع منهم الايمان الا عند قيام الساعة وهو من قبيل بدل الاشتمال على تقدير لا ينظرون الا الساعة اتيانها بغتة وقرئ فهل ينظرون الا الساعة ان تأتيهم على الشرط وجزاؤه لا ينفعهم ذكراهم يدل عليه قوله تعالى فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم وقد ذكرنا ان القيامة سميت بالساعة لسرعة الامور الواقعة فيها من البعث والحشر والحساب وقوله فقد جاء أشراطها يحتمل وجهين (أحدهما) لبيان غاية عنادهم وتحقيقه هو ان الدلائل لما ظهرت ولم يؤمنوا لم يبق الا الايمان اليأس وهو عند قيام الساعة لكن اشراطها بانت فكان ينبغى أن يؤمنوا ولم يؤمنوا فهم في لجة الفساد وغاية العناد (ثانيهما) أن يكون لتسلية قلوب المؤمنين كأنه تعالى لما قال فهل ينظرون فهم منه تعذيبهم والساعة عند العوام مستبطأة فكأن قائلا قال متى تكون الساعة فقد جاء أشراطها كقوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر والاشراط العلامات قال المفسرون هي مثل انشقاق القمر ورسالة محمد عليه السلام ويحتمل أن يقال معنى الاشراط البينات الموضحة لجواز الحشر مثل خلق الانسان ابتداء وخلق السموات والارض كما قال تعالى أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم والاول هو التفسير ۞ ثم قال تعالى (فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم) يعني لا تنفعهم الذكرى اذ لا تقبل التوبة ولا يحسب الايمان والمراد فكيف لهم الحال اذا جاءتهم ذكراهم ومعنى ذلك يحتمل أن يكون هو قوله تعالى هذا يومكم الذي كنتم توعدون هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون فيذكرون به للتحسر وكذلك قوله تعالى ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ۞ ثم قال تعالى (فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم) ولبيان المناسبة وجوه (الاول) هو انه تعالى لما قال فقد جاء أشراطها قال فاعلم أنه لا اله الا الله يأتى بالساعة كما قال تعالى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة (وثانيها) فقد جاء أشراطها وهي آتية فكأن قائلا قال متى هذا فقال فاعلم أنه لا اله الا الله فلا تشتغل به واشتغل بما عليك من الاستغفار وكن في أى وقت مستعدا للقائه ويناسبه قوله تعالى واستغفر لذنبك (الثالث) فاعلم أنه لا اله الا الله ينفعك فان قيل النبى عليه الصلاة والسلام كان عالما بذلك فما معنى الامر نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) فاثبت على ما أنت عليه من العلم كقول القائل لجالس يريد القيام اجلس أى لا تقم (ثانيهما) الخطاب مع النبى عليه الصلاة والسلام والمراد قومه والضمير في انه للشأن وتقديره هذا هو انه عليه الصلاة والسلام لما دعا القوم الى الايمان ولم يؤمنوا ولم يبق شئ يحملهم على الايمان الا ظهور الامر بالبعث والنشور وكان ذلك مما يحزن النبى عليه الصلاة والسلام فسلى قلبه وقال أنت كامل في نفسك مكمل لغيرك فان لم يكمل بك قوم لم يرد الله تعالى بهم خيرا فانت في نفسك عامل بعلمك وعلمك حيث تعلم ان الله واحد وتستغفر وأنت بحمد الله مكمل تكمل المؤمنين والمؤمنات وأنت تستغفر لهم فقد حصل لك الوصفان فاثبت على ما أنت عليه ولا يحزنك كفرهم وقوله تعالى واستغفر لذنبك يحتمل وجهين

(احدهما)

بهمكم من جلب نفع أو دفع ضر لعلهم يستجيبون لكم ان صح دعواكم ثم أجاب عنهم اشعارا بتعين الجواب وانه لا يقبل المكابرة فقال (لا يملكون مثقال ذرة) من خير وشر ونفع وضر (فى السموات ولا فى الارض) أى

فى أمر ما من الامور وذكرهما للتعميم عرفا أو لان آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالاصنام أو لان الاسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم (ومالهم) أى لآلهتهم (فيهما من شرك) أى شركة لا خلقا ولا ملكا ولا تصرفا (وماله) أى لله تعالى (منهم) من آلهتهم (من ظهير) يعينه فى تدبير أمرهما (ولا تنفع الشفاعة عنده) أى لا توجد رأسا كما فى قوله

* ولا ترى الضب بها ينجحر *

لقوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه وانما علق النفى بنفعها لا بوقوعها تصريحا بنفى ما هو غرضهم من وقوعها وقوله تعالى (الا لمن أذن له) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لا تنفع الشفاعة فى حال من الاحوال الا كائنة لمن أذن له فى الشفاعة من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة فتبين حرمان الكفرة منها بالكلية أما من جهة أصنامهم فلظهور انتفاء الاذن لها ضرورة استحالة الاذن فى الشفاعة لجماد لا يعقل ولا ينطق وأما من جهة من يعبدونه من الملائكة فلان أذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقين لها لقوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا ومن البين أن الشفاعة للكفرة بمعزل من الصواب أو لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها فى حال من الاحوال الا كائنة لمن أذن له أى لاجله وفى شأنه من المستحقين للشفاعة وأما من عداهم من غير المستحقين لها فلا تنفعهم أصلا وان فرض وقوعها وصدورها عن الشفعاء اذ لم يؤذن لهم فى شفاعتهم بل فى شفاعة غيرهم فعلى هذا يثبت حرمانهم من شفاعة هؤلاء بعبارة النص ومن شفاعة الاصنام بدلالته اذ حيث حرموها من جهة القادرين على شفاعة

(أحدهما) أن يكون الخطاب معه والمراد المؤمنون وهو بعيد لافراد المؤمنين والمؤمنات بالذكر وقال بعض الناس لذنبك أى لذنب أهل بيتك وللمؤمنين والمؤمنات أى الذين ليسوا منك باهل بيت (ثانيهما) المراد هو النبى والذنب هو ترك الافضل الذى هو بالنسبة اليه ذنب وحاشاه من ذلك (وثالثها) وجه حسن مستنبط وهو ان المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيء ووجهه ان الاستغفار طلب الغفران والغفران هو الستر على القبيح ومن عصم فقد ستر عليه قبائح الهوى ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه كما كان للنبى صلى الله عليه وسلم وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو فى حق المؤمنين والمؤمنات وفى هذه الآية لطيفة وهى ان النبى صلى الله عليه وسلم له أحوال ثلاثة حال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره فاما مع الله فوحده وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك واطلب العصمة من الله وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم واطلب الغفران لهم من الله والله يعلم متقلبكم ومثواكم يعنى حالكم فى الدنيا وفى الآخرة وحالكم فى الليل والنهار ۞ ثم قال تعالى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم) لما بين الله حال المنافق والكافر والمهتدى المؤمن عند استماع الآيات العلمية من التوحيد والحشر وغيرهما بقوله ومنهم من يستمع اليك وقوله والذين اهتدوا زادهم هدى بين حالهم فى الآيات العملية فان المؤمن كان ينتظر ورودها ويطلب تنزيلها واذا تأخر عنه التكليف كان يقول هلا أمرت بشيء من العبادة خوفا من أن لا يؤهل لها والمنافق اذا نزلت السورة أو الآية وفيها تكليف شق عليه ليعلم تباين الفريقين فى العلم والعمل حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العمل والمؤمن يعلم ويحب العمل وقولهم لولا نزلت سورة المراد منه سورة فيها تكليف يمحن المؤمن والمنافق ثم انه تعالى أنزل سورة فيها القتال فانه أشق تكليف وقوله سورة محكمة فيها وجوه (أحدها) سورة لم تنسخ (ثانيها) سورة فيها ألفاظ أريدت حقائقها بخلاف قوله الرحمن على العرش استوى وقوله فى جنب الله فان قوله تعالى فضرب الرقاب أراد القتل وهو أبلغ من قوله اقتلوهم وقوله واقتلوهم حيث ثقفتموهم صريح وكذلك غير هذا من آيات القتال وعلى الوجهين فقوله محكمة فيها فائدة زائدة من حيث انهم لا يمكنهم ان يقولوا المراد غير ما ظهر منه أو يقولوا هذه آية وقد نسخت فلا نقاتل وقوله رأيت الذين فى قلوبهم مرض أى المنافقين ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت لان عند التكليف بالقتال لا يبقى لنفاقهم فائدة فانهم قبل القتال كانوا يترددون الى القبيلتين وعند الامر بالقتال لم يبق لهم امكان ذلك فأولى لهم دعاء كقول القائل فويل لهم ويحتمل أن يكون هو خبر المبتدأ المحذوف سبق ذكره وهو الموت كأن الله تعالى لما قال نظر المغشى عليه من الموت قال فالموت أولى لهم لان الحياة التى لا فى طاعة الله ورسوله الموت خير منها وقال الواحدى يجوز أن يكون المعنى فأولى لهم طاعة أى الطاعة أولى لهم ۞ ثم قال تعالى (طاعة وقول معروف) كلام مستأنف محذوف الخبر تقديره خير لهم أى أحسن وأمثل لا يقال طاعة نكرة لا تصلح للابتداء لانا نقول هى موصوفة يدل عليه قوله وقول معروف فانه موصوف فكأنه تعالى قال طاعة مخلصة وقول معروف خير وقيل معناه قالوا طاعة وقول معروف أى قولهم أمرنا طاعة وقول معروف ويدل عليه قراءة أبى يقولون طاعة وقول معروف ۞ وقوله تعالى (فاذا عزم الامر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) جوابه محذوف تقديره فاذا عزم الامر خالفوا وتخلفوا وهو مناسب لمعنى قراءة أبى كأنه يقول فى أول الامر قالوا سمعا وطاعة وعند آخر الامر خالفوا وأخلفوا موعدهم ونسب العزم الى الامر والعزم لصاحب الامر معناه فاذا عزم صاحب الامر هذا قول الزمخشرى ويحتمل أن يقال هو مجاز كقولنا جاء الامر وولى فان الامر فى الاول يتوقع أن لا يقع وعند اظلاله وعجز الكاره عن ابطاله فهو واقع فقال عزم والوجهان متقاربان وقوله تعالى فلو صدقوا فيه

وجهان على قولنا المراد من قوله طاعة انهم قالوا طاعة فمعناه لو صدقوا فى ذلك القول وأطاعوا لكان خيرا لهم وعلى قولنا طاعة وقول معروف خير لهم وأحسن فمعناه لو صدقوا فى ايمانهم واتباعهم الرسول لكان خيرا لهم ﴿ ثم قال تعالى ((فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم)) وهذه الآية فيها اشارة الى فساد قول قالوه وهو انهم كانوا يقولون كيف نقاتل والقتل افساد والعرب من ذوى أرحامنا وقبائلنا فقال تعالى ان توليتم لا يقع منكم الا الفساد فى الارض فانكم تقتلون من تقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع بينكم أليس قتلكم البنات افسادا وقطعا للرحم فلا يصح تعللكم بذلك مع انه خلاف ما أمر الله وهذا طاعة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى استعمال عسى ثلاثة مذاهب (أحدها) الاتيان بها على صورة فعل ماض معه فاعل تقول عسى زيد وعسينا وعسوا وعسيت وعسيتما وعسيتم وعست وعستا (والثانى) أن يؤتى بها على صورة فعل معه مفعول تقول عساه وعساهما وعساك وعساكم وعساى وعسانا (والثالث) الاتيان بها من غير ان يقرن بها شئ تقول عسى زيد يخرج وعسى أنت تخرج وعسى أنا أخرج والكل له وجه وما عليه كلام الله أوجه وذلك لان عسى من الافعال الجامدة واقتران الفاعل بالفعل أولى من اقتران المفعول لان الفاعل كالجزء من الفعل ولهذا لم يجز فيه أربع متحركات فى مثل قول القائل نصرت وجوز فى مثل قولهم نصرك ولان كل فعل له فاعل سواء كان لازما أو متعديا ولا كذلك المفعول به فعسيت وعساك كعصيت وعصاك فى اقتران الفاعل بالفعل والمفعول به وأما قول من قال عسى أنت تقوم وعسى أنا أقوم فدون ما ذكرنا للتطويل الذى فيه (المسئلة الثانية) الاستفهام للتقرير المؤكد فانه لو قال على سبيل الاخبار عسيتم ان توليتم لكان للمخاطب أن ينكره فاذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر أن تجيب الا بلا أو نعم فهو مقرر عندك وعندى (المسئلة الثالثة) عسى للتوقع والله تعالى عالم بكل شئ فنقول فيه ما قلنا فى لعل وفى قوله لعلهم وهو ان بعض الناس قال يفعل بكم فعل المترجى والمبتلى والمتوقع وقال آخرون كل من ينظر اليهم يتوقع منهم ذلك ونحن قلنا هو محمول على الحقيقة وذلك لان الفعل اذا كان ممكنا فى نفسه فالنظر اليه غير مستلزم لامر وانما الامر يجوز أن يحصل منه تارة ولا يحصل منه أخرى فيكون الفعل لذلك الامر المطلوب على سبيل الترجى سواء كان الفاعل يعلم حصول الامر منه وسواء أن لم يكن يعلم مثاله من نصب شبكة لاصطياد الصيد يقال هو متوقع لذلك فان حصل له العلم بوقوعه فيه باخبار صادق أنه سيقع فيه أو بطريق أخرى لا يخرج عن التوقع غاية ما فى الباب ان فى الشاهد لم يحصل لنا العلم فيما نتوقعه فيظن ان عدم العلم لازم للمتوقع وليس كذلك بل المتوقع هو المنتظر لامر ليس بواجب الوقوع نظرا الى ذلك الامر فحسب سواء كان له به علم أو لم يكن وقوله ان توليتم فيه وجهان (أحدهما) انه من الولاية يعنى ان أخذتم الولاية وصار الناس بأمركم أفسدتم وقطعتم الارحام (وثانيهما) هو من التولى الذى هو الاعراض وهذا مناسب لما ذكرنا أى ان كنتم تتركون القتال وتقولون فيه الافساد وقطع الارحام لكون الكفار أقاربنا فلا يقع منكم الا ذلك حيث تقاتلون على أدنى شئ كما كان عادة العرب الاول يؤكده قراءة من قرأ وليتم وقراءة على عليه السلام توليتم أى ان تولاكم ولاة ظلمة جفاة غشمة ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بافسادهم معهم وقطعتم أرحامكم والنبى عليه السلام لا يأمركم الا بالاصلاح وصلة الارحام فلم تتقاعدون عن القتال وتتباعدون فى الضلال ﴿ ثم قال تعالى ((أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم)) اشارة لمن سبق ذكرهم من المنافقين أبعدهم الله عنه أو عن الخير فأصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين وأعماهم فلا يتبعون الصراط المستقيم وفيه ترتيب حسن وذلك من حيث انهم استمعوا الكلام العلمى ولم يفهموه فهم بالنسبة اليه صم أصمهم الله وعند الامر بالعمل تركوه وعللوا بكونه افسادا وقطعا للرحم وهم كانوا يتعاطونه عند النهى عنه فلم يروا حالهم وما هم عليه وتركوا اتباع النبى الذى يأمرهم بالاصلاح وصلة الارحام ولو دعاهم من يأمر بالافساد وقطيعة الرحم

لاتبعوه

بعض المحتاجين اليها فلا يحرموها من جهة العجزة عنها أولى وقرئ أذن له مبنيا للمفعول (حتى اذا فزع عن قلوبهم) أى قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المؤمنين وأما الكفرة فهم من موقف الاستشفاع بمعزل وعن التفزيع عن قلوبهم بألف منزل والتفزيع ازالة الفزع ثم ترك ذكر الفزع وأسند الفعل الى الجار والمجرور وحتى غاية لما ينبئ عنه ما قبلها من الاشعار بوقوع الاذن لمن أذن له فانه مسبوق بالاستئذان المستدعى للترقب والانتظار للجواب كأنه سئل كيف يؤذن لهم فقيل يتربصون فى موقف الاستئذان والاستدعاء ويتوقفون على وجل وفزع مليا حتى اذا أزيل الفزع عن قلوبهم بعد التيا والتى وظهرت لهم تباشير الاجابة (قالوا) أى المشفوع لهم اذهم المحتاجون الى الاذن والمهتمون بأمره (ماذا قال ربكم) أى فى شأن الاذن (قالوا) أى الشفعاء لانهم المباشرون للاستئذان بالذات المتوسطون بينهم وبينه عز وجل بالشفاعة (الحق) أى قال ربنا القول الحق وهو الاذن فى الشفاعة للمستحقين لها وقرئ الحق مرفوعا أى ما قاله الحق (وهو العلى الكبير) من تمام كلام الشفعاء قالوه اعترافا بغاية عظمة جناب العزة عز وجل وقصور شأن كل من سواه أى هو المتفرد بالعلو والكبرياء ليس لاحد من أشراف الخلائق أن يتكلم الا باذنه وقرئ فزع مخففا بمعنى فزع وقرئ فزع على البناء للفاعل وهو الله وحده وقرئ فرغ بالراء المهملة والغين المعجمة أى نفى الوجل عنها وأفنى من فرغ الزاد اذا لم يبق منه شئ وهو من الاسناد المجازى لان الفراغ وهو الخلو حال ظرفه عند نفاده فأسند اليه على عكس قولهم جرى النهر وعن الحسن تخفيف الراء وأصله فرغ الوجل عنها أى انتفى عنها وفنى ثم حذف الفاعل وأسند الى الجار والمجرور وبه يعرف حال التفريغ وقرئ ارتفع عن قلوبهم بمعنى انكشف عنها (قل من يرزقكم من السموات والارض) أمر عليه الصلاة والسلام بتبكيت المشركين بحملهم على الاقرار بأن آلهتهم لا يملكون

لا تبعوه فهم عمى أعماهم الله وفيه لطيفة وهى ان الله تعالى قال أصمهم ولم يقل أصم آذانهم وقال أعمى أبصارهم ولم يقل أعماهم وذلك لان العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الابصار والاذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام لان الاذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذى كما يؤذى الصوت القوى فقال أصمهم من غير ذكر الاذن وقال أعمى أبصارهم مع ذكر العين لان البصر ههنا بمعنى العين ولهذا جمعه بالابصار ولو كان مصدر الما جمع فلم يذكر الاذن اذ لا مدخل لها فى الاصمام والعين لها مدخل فى الرؤية بل هى الكل ويدل عليه ان الآفة فى غير هذه المواضع لما أضافها الى الاذن سماها وقرا كما قال تعالى وفى آذاننا وقر وقال كان فى أذنيه وقرا والوقر دون الصمم وكذلك الطرش ۞ ثم قال تعالى ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ ولنذكر تفسيرها فى مسائل (المسئلة الاولى) لما قال الله تعالى فأصمهم وأعمى أبصارهم كيف يمكنهم التدبر فى القرآن قال تعالى أفلا يتدبرون وهو كقول القائل للاعمى أبصر وللاصم اسمع فنقول (الجواب) عنه من ثلاثة أوجه مترتبة بعضها أحسن من البعض (الاول) تكليف ما لا يطاق جائز والله أمر من علم انه لا يؤمن بأن يؤمن فكذلك جاز أن يعميهم ويذمهم على ترك التدبر (الثانى) ان قوله أفلا يتدبرون المراد منه الناس (الثالث) ان نقول هذه الآية وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة فانه تعالى قال أولئك الذين لعنهم الله أى أبعدهم عنه أو عن الصدق أو عن الخير أو غير ذلك من الامور الحسنة فأصمهم لا يسمعون حقيقة الكلام وأعماهم لا يتبعون طريق الاسلام فاذن هم بين أمرين اما لا يتدبرون القرآن فيبعدون منه لان الله تعالى لعنهم وأبعدهم عن الخير والصدق والقرآن منهما الصنف الاعلى بل النوع الاشرف واما يتدبرون لكن لا تدخل معانيه فى قلوبهم لكونها مقفلة تقديره أفلا يتدبرون القرآن لكونهم ملعونين مبعودين أم على قلوب اقفال فيتدبرون ولا يفهمون وعلى هذا لا نحتاج ان نقول أم بمعنى بل بل هى على حقيقتها للاستفهام واقعة فى وسط الكلام والهمزة أخذت مكانها وهو الصدر وأم دخلت على القلوب التى فى وسط الكلام (المسئلة الثانية) قوله على قلوب على التنكير ما الفائدة فيه نقول قال الزمخشرى يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون للتنبيه على كونه موصوفا لان النكرة بالوصف أولى من المعرفة فكأنه قال أم على قلوب قاسية أو مظلمة (الثانى) أن يكون للتبعيض كأنه قال أم على بعض القلوب لان النكرة لا تعم تقول جاءنى رجال فيفهم البعض وجاءنى الرجال فيفهم الكل ونحن نقول التنكير للقلوب للتنبيه على الانكار الذى فى القلوب وذلك لان القلب اذا كان عارفا كان معروفا لان القلب خلق للمعرفة فاذا لم تكن فيه المعرفة فكأنه لا يعرف وهذا كما يقول القائل فى الانسان المؤذى هذا ليس بانسان هذا سبع ولذلك يقال هذا ليس بقلب هذا حجر اذا علم هذا فالتعريف اما بالالف واللام واما بالاضافة واللام لتعريف الجنس أو للعهد ولم يمكن ارادة الجنس اذ ليس على كل قلب قفل ولا تعريف العهد لان ذلك القلب ليس ينبغى أن يقال له قلب واما بالاضافة بان نقول على قلوب أقفالها وهى لعدم عود فائدة اليهم كأنها ليست لهم فان قيل فقد قال ختم الله على قلوبهم وقال فويل للقاسية قلوبهم فنقول الاقفال أبلغ من الختم فترك الاضافة لعدم انتفاعهم رأسا (المسئلة الثالثة) فى قوله أقفالها بالاضافة ولم يقل اقفال كما قال قلوب لان الاقفال كانت من شأنها فأضافها اليها كأنها ليست الا لها وفى الجملة لم يضف القلوب اليهم لعدم نفعها اياهم وأضاف الاقفال اليها لكونها مناسبة لها أو نقول أراد به اقفالا مخصوصة هى اقفال الكفر والعناد ۞ ثم قال تعالى ﴿ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم﴾ اشارة الى أهل الكتاب الذين تبين لهم الحق فى التوراة بنعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه وارتدوا أو الى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن وهم جماعة منعهم حب الرياسة عن اتباع محمد عليه السلام وكانوا يعلمون انه الحق الشيطان سول لهم سهل لهم وأملى لهم يعنى قالوا نعيش أياما ثم نؤمن به وقرئ

مثقال ذرة فيهما وأن الرازق هو الله تعالى فانهم لا ينكرونه كما ينطق به قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله وحيث كانوا لتلعثمون احيانا فى الجواب مخافة الالزام قيل له عليه الصلاة والسلام (قل الله) اذ لا جواب سواه عندهم أيضا (وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) أى وان أحد الفريقين من الذين يوحدون والمتوحد بالرزق والقدرة الذاتية ويخصونه بالعبادة والذين يشركون به فى العبادة الجماد النازل فى أدنى المراتب الامكانية لعلى أحد الامرين من الهدى والضلال المبين وهذا بعد ما سبق من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ومن هو فى الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجريانه على سنن الانصاف المسكت للخصم الالد وقرئ وانا أو اياكم اما على هدى أو فى ضلال مبين واختلاف الجارين للايذان بان الهادى كمن استعلى منارا ينظر الاشياء ويتطلع عليها والضال كانه منغمس فى ظلام لا يرى شيأ أو محبوس فى مطمورة لا يستطيع الخروج منها (قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون) وهذا أبلغ فى الانصاف وأبعد من الجدل والاعتساف حيث أسند فيه الاجرام وان أريد به الزلة وترك الاولى الى أنفسهم ومطلق العمل الى المخاطبين مع أن أعمالهم أكبر الكبائر (قل يجمع بيننا ربنا) يوم القيامة عند الحشر والحساب (ثم يفتح بيننا بالحق) أى يحكم بيننا ويفصل بعد ظهور حال كل منا ومنكم بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار (وهو الفتاح) الحاكم الفيصل فى القضايا المنغلقة (العليم) بما ينبغى أن يقضى به (قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء) أى ألحقتموهم (به شركاء) أريد بأمرهم باراءة الاصنام مع كونها بمرأى منه عليه الصلاة والسلام اظهار خطئهم العظيم واطلاعهم على بطلان رأيهم أى أرونيها لانظر بأى صفة ألحقتموها بالله الذى ليس كمثله شئ فى استحقاق العبادة وفيه مزيد تبكيت لهم بعد الزام الحجة عليهم (كلا)

ردع لهم عن المشاركة بعد ابطال المقايسة (بل هو الله العزيز الحكيم) أى الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة فاين شركاؤكم التى هى أخس الاشياء وأذلها من هذه الرتبة العالية والضمير اما لله عز وعلا أو للشان كما فى قل هو الله أحد (وما أرسلناك الا كافة للناس) أى الا ارسالة عامة لهم فانها اذا عمتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم أو الا جامعا لهم فى الابلاغ فهى حال من الكاف والتاء للمبالغة ولا سبيل الى جعلها حالا من الناس لاستحالة تقدم الحال على صاحبها المجرور (بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيحملهم جهلهم على ماهم عليه من الغى والضلال (ويقولون) من فرط جهلهم وغاية غيهم (متى هذا الوعد) بطريق الاستهزاء يعنون به المبشر به والمنذر عنه أو الموعود بقوله تعالى يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا (ان كنتم صادقين) مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به (قل لكم ميعاد يوم) أى وعد يوم أو زمان وعد والاضافة للتبيين وقرئ ميعاد يوم منونين على البدل ويوما باضمار أعنى للتعظيم (لا تستأخرون عنه) عند مفاجأته (ساعة ولا تستقدمون) صفة لميعاد وفى هذا الجواب من المبالغة فى التهديد مالا يخفى حيث جعل الاستئخار فى الاستحالة كالاستقدام الممتنع عقلا وقد مر بيانه مرارا ويجوز أن يكون نفى الاستئخار والاستقدام غير مقيد بالمفاجأة فيكون وصف الميعاد بذلك لتحقيقه وتقريره (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) أى من الكتب القديمة الدالة على البعث وقيل ان كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروهم انهم يجدون نعته فى كتبهم فغضبوا فقالوا ذلك وقيل الذى بين يديه القيامة (ولو ترى اذ الظالمون) المنكرون للبعث (موقوفون عند ربهم) أى فى موقف المحاسبة (يرجع بعضهم الى بعض القول) أى يتحاورون و يتراجعون القول (يقول الذين استضعفوا) بدل من يرجع الخ أى يقول الاتباع

اليه

وأملى لهم فان قيل الاملاء والامهال وحد الآجال لا يكون الا من الله فكيف يصح قراءة من قرأ وأملى لهم فان المملى حينئذ يكون هو الشيطان نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) جاز أن يكون المراد وأملى لهم الله فيقف على سول لهم (وثانيهما) هو ان المسول أيضا ليس هو الشيطان وانما أسند اليه من حيث ان الله قدر على يده ولسانه ذلك فذلك الشيطان عليهم و يقول لهم فى آجالكم فسحة فتمتعوا برياستكم ثم فى آخر الامر تؤمنون وقرئ وأملى لهم بفتح الياء وضم الهمزة على البناء للمفعول ۞ ثم قال تعالى (ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الامر والله يعلم أسرارهم) قال بعض المفسرين ذلك اشارة الى الاملاء أى ذلك الاملاء بسبب انهم قالوا للذين كرهوا وهو اختيار الواحدى وقال بعضهم ذلك اشارة الى التسويل و يحتمل ان يقال ذلك الارتداد بسبب انهم قالوا سنطيعكم وذلك لانا نبين ان قوله سنطيعكم فى بعض الامر هو انهم قالوا نوافقكم على ان محمدا ليس بمرسل وانما هو كاذب ولكن لا نوافقكم فى انكار الرسالة والحشر والاشراك بالله مع الاصنام ومن لم يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام فهو كافر وان آمن بغيره لا بل من لم يؤمن بمحمد عليه السلام لا يؤمن بالله ولا برسله ولا بالحشر لان الله كما أخبر عن الحشر وهو جائز اخبر عن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وهى جائزة فاذا لم يصدق الله فى شئ لا ينفى الكذب بقول الله فى غيره فلا يكون مصدقا موقنا بالحشر ولا برسالة أحد من الانبياء لان طريق معرفتهم واحد والمراد من الذين كرهوا ما نزل الله هم المشركون والمنافقون وقيل المراد اليهود فان أهل مكة قالوا لهم نوافقكم فى اخراج محمد وقتله وقتال أصحابه والاول أصح لان قوله كرهوا ما نزل الله لو كان مسندا الى أهل الكتاب لكان مخصوصا ببعض ما أنزل الله وان قلنا بانه مسند الى المشركين يكون عاما لانهم كرهوا ما نزل الله وكذبوا الرسل باسرهم وانكروا الرسالة رأسا وقوله سنطيعكم فى بعض الامر يعنى فيما يتعلق بمحمد من الايمان به فلا نؤمن والتكذيب به فنكذبه كما تكذبونه والقتال معه وأما الاشراك بالله واتخاذ الانداد له من الاصنام وانكار الحشر والنبوة فلا وقوله والله يعلم أسرارهم قال أكثرهم المراد منه هو انهم قالوا ذلك سرا فأفشاه الله وأظهره لنبيه عليه السلام والاظهر أن يقال والله يعلم أسرارهم وهو ما فى قلوبهم من العلم بصدق محمد عليه السلام فانهم كانوا مكابرين معاندين وكانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم وقرئ اسرارهم بكسر الهمزة على المصدر وما ذكرنا من المعنى ظاهر على هذه القراءة فانهم كانوا يسرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وعلى قولنا المراد من الذين ارتدوا من المنافقين فكانوا يقولون للمعاهدين من الكفار سنطيعكم فى بعض الامر وكانوا يسرون أنهم ان غلبوا انقلبوا كما قال الله تعالى ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم وقال تعالى فاذا جاء الخوف سلقوكم بألسنة حداد ۞ ثم قال تعالى (فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) اعلم انه لما قال الله تعالى والله يعلم أسرارهم قال فهب انهم يسرون والله لا يظهره اليوم فكيف يبقى مخفيا وقت وفاتهم أو نقول كانه تعالى قال والله يعلم أسرارهم وهب انهم يختارون القتال لما فيه من الضراب والطعان مع انه مفيد على الوجهين جميعا ان غلبوا فالمال فى الحال والثواب فى المآل وان غلبوا فالشهادة والسعادة فكيف حالهم اذا ضرب وجوههم وأدبارهم وعلى هذا فيه لطيفة وهى ان القتال فى الحال ان أقدم المبارز فربما يهزم الخصم و يسلم وجهه وقفاه وان لم يهزمه فالضرب على وجهه ان صبر وثبت وان لم يثبت وانهزم فان فات القرن فقد سلم وجهه وقفاه وان لم يفته فالضرب على قفاه لا غير ويوم الوفاة لا نصرة له ولا مفر فوجهه وظهره مضروب مطعون فكيف يحترز عن الاذى و يختار العذاب الاكبر ۞ قوله تعالى (ذلك بانهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) وفيه لطيفة وهى ان الله تعالى ذكر أمرين ضرب الوجه وضرب الادبار وذكر بعدهما أمرين آخرين اتباع ما أسخط الله وكراهة رضوانه فكأنه تعالى قابل الامرين فقال يضربون وجوههم حيث أقبلوا على سخط الله فان المتبع للشئ متوجه

(للذين استكبروا) فى الدنيا واستتبعوهم فى الغى والضلال (لولا أنتم) أى لولا اضلالكم وصدكم لنا عن الايمان (لكنا مؤمنين) باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا) استئناف مبنى على السؤال كانه قيل فماذا قال الذين استكبروا فى الجواب فقيل قالوا (أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين) منكرين لكونهم هم الصادين لهم عن الايمان مثبتين أنهم هم الصادون بأنفسهم بسبب كونهم راسخين فى الاجرام (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) اضرابا عن اضرابهم وابطالا له (بل مكر الليل والنهار) أى بل صدنا مكركم بنا بالليل والنهار فحذف المضاف اليه وأقيم مقامه الظرف اتساعا أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الاسناد المجازى وقرئ بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين أى بل صدنا مكركم فى الليل والنهار على أن التنوين عوض عن المضاف اليه أو مكر عظيم على أنه للتفخيم وقرئ بل مكرّ الليل والنهار بالرفع والنصب أى تكرّون الاغواء مكرّا دائبا لاتفترون عنه فالرفع على الفاعلية أى بل صدنا مكركم الاغواء فى الليل والنهار على ماسبق من الاتساع فى الظرف باقامته مقام المضاف اليه والنصب على المصدرية أى بل تكرون الاغواء مكر الليل والنهار أى مكرا دائما وقوله تعالى (اذ تأمروننا) ظرف للمكر أى بل مكركم الدائم وقت أمركم لنا (أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) على أن المراد بمكرهم اما نفس أمرهم بما ذكر كما فى قوله تعالى ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا فان الجعلين المذكورين نعمة من الله تعالى وأى نعمة واما امور أخر مقارنة لامرهم داعية الى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغير ذلك (واسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى أضمر الفريقان الندامة على ما فعلا من الضلال والاضلال وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعيير أو أظهروها فانه من الاضداد وهو المناسب لحالهم (وجعلنا الاغلال

اليه ويضربون أدبارهم لانهم تولوا عما فيه رضا الله فان الكاره للشئ يتولى عنه وما أسخط الله يحتمل وجوها (الاول) انكار الرسول عليه الصلاة والسلام ورضوانه الاقرار به والاسلام (الثانى) الكفر هو ما أسخط الله والايمان يرضيه يدل عليه قوله تعالى ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم وقال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية الى ان قال رضى الله عنهم ورضوا عنه (الثالث) ما أسخط الله تسويل الشيطان ورضوان الله التعويل على البرهان والقرآن فان قيل هم ما كانوا يكرهون رضوان الله بل كانوا يقولون ان ما نحن عليه فيه رضوان الله ولا نطلب الا رضا الله وكيف لا والمشركون باشراكهم كانوا يقولون انا نطلب رضا الله كما قالوا ليقربونا الى الله زلفى وقالوا ليشفعوا لنا فنقول معناه كرهوا ما فيه رضا الله تعالى (وفيه لطيفة) وهى ان الله تعالى قال ما أسخط الله ولم يقل ما أرضى الله وذلك لان رحمة الله سابقة فله رحمة ثابتة وهى منشأ الرضوان وغضب الله متأخر فهو يكون على ذنب فقال رضوانه لانه وصف ثابت لله سابق ولم يقل سخط الله بل ما أسخط الله اشارة الى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان ولهذا المعنى قال فى اللعان فى حق المرأة والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين فقال غضب الله مضافا لان لعانه قد سبق مظهر الزنا بقوله وأيمانه وقبله لم يكن لله غضب ورضوان الله أمر يكون منه الفعل وغضب الله أمر يكون من فعله ولنضرب له مثالا الكريم الذى رسخ الكرم فى نفسه يحمله الكرم على الافعال الحسنة فاذا كثر من المسئ الاساءة فغضبه لا لامر يعود اليه بل غضبه عليه يكون لاصلاح حاله وزجر الامثاله عن مثل فعاله فيقال هو كان الكريم فكرمه لما فيه من الغريزة الحسنة لكن فلان أغضبه وظهر منه الغضب فيجعل الغضب ظاهرا من الفعل والفعل الحسن ظاهرا من الكرم فالغضب فى الكريم بعد فعل والفعل منه بعد كرم ومن هذا يعرف لطف قوله ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ۞ ثم قال تعالى (فأحبط أعمالهم) حيث لم يطلبوا رضا الله وانما طلبوا رضا الشيطان والاصنام ۞ قوله تعالى (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) هذا اشارة الى المنافقين وأم تستدعى جملة أخرى استفهامية اذا كانت للاستفهام لان كلمة أم اذا كانت متصلة استفهامية تستدعى سبق جملة أخرى استفهامية يقال أزيد فى الدار أم عمرو واذا كانت منقطعة لا تستدعى ذلك يقال ان هذا لزيد أم عمرو كما يقال بل عمرو والمفسرون على انها منقطعة ويحتمل ان يقال انها استفهامية والسابق مفهوم من قوله تعالى والله يعلم أسرارهم فكأنه تعالى قال أحسب الذين كفروا أن ان يعلم الله أسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها والكل قاصر وانما يعلمها ويظهرها ويؤيد هذا ان المنقطعة لا تكاد تقع فى صدر الكلام فلا يقال ابتداء بل جاء زيد ولا أم جاء عمرو والاخراج بمعنى الاظهار فانه ابراز والاضغان هى الحقود والامراض واحدها ضغن ۞ ثم قال تعالى (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم) لما كان مفهوم قوله أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ان الله يظهر ضمائرهم ويبرز سرائرهم كان قائلا قال فلم لم يظهر فقال أخرناه لمحض المشيئة لا لخوف منهم كما لا تفشى أسرارا الا كابر خوفا منهم ولو نشاء لأريناكهم أى لا مانع لنا والاراءة بمعنى التعريف وقوله فلعرفتهم لزيادة فائدة وهى ان التعريف قد يطلق ولا يلزمه المعرفة يقال عرفته ولم يعرف وفهمته ولم يفهم فقال ههنا فلعرفتهم يعنى عرفناهم تعريفا تعرفهم به اشارة الى قوة التعريف واللام فى قوله فلعرفتهم هى التى تقع فى جزاء لو كما فى قوله لأريناكهم أدخلت على المعرفة اشارة الى أن المعرفة كالمرتبة على المشيئة كأنه قال ولو نشاء لعرفتهم ليفهم أن المعرفة غير متأخرة عن التعريف فتفيد تأكيد التعريف أى لو نشاء لعرفناك تعريفا معه المعرفة لا بعده واما اللام فى قوله تعالى ولتعرفنهم جواب لقسم محذوف كانه قال ولتعرفنهم والله وقوله فى لحن القول فيه وجوه (أحدها) فى معنى القول وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد من القول قولهم أى لتعرفنهم فى معنى قولهم

فى أعناق الذين كفروا) أى فى أعناقهم والاظهار فى موضع الاضمار للتنويه بذمهم والتنبيه على موجب اغلالهم (هل يجزون الا ما كانوا يعملون) أى لايجزون الاجزاء ما كانوا يعملون أو الا بما كانوا يعملونه على نزع الجار (وما أرسلنا فى قرية) من القرى (من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به والمنافسة بكثرة الاموال والاولاد والمفاخرة بحظوظ الدنيا وزخارفها والتكبر بذلك على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا بانه لم يرسل قط الى أهل قرية من نذير الا قال مترفوهم مثل ما قال مترفو أهل مكة فى حقه عليه الصلاة والسلام وكادوا به نحو ما كادوا به عليه الصلاة والسلام وقاسوا أمور الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمور الدنيا وزعموا أنهم لولم يكرموا على الله تعالى لما رزقهم طيبات الدنيا ولولا أن المؤمنين هانوا عليه تعالى لما حرمهموها وعلى ذلك الرأى الركيك بنوا أحكامهم (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) اما بناء على انتفاء العذاب الاخروى رأسا أو على اعتقاد أنه تعالى أكرمهم فى الدنيا فلايهينهم فى الآخرة على تقدير وقوعها (قل) ردا عليهم وحسما لمادة طمعهم الفارغ وتحقيقا للحق الذى عليه يدور أمر التكوين (ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه له (ويقدر) على من يشاء أن يقدره عليه من غير أن يكون لاحد من الفريقين داع الى ما فعل به من البسط والقدر فربما يوسع على العاصى ويضيق على المطيع وربما يعكس الامر وربما يوسع عليهما معا وقد يضيق عليهما وقد يوسع على شخص تارة ويضيق عليه أخرى يفعل كلا من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب اللذين مناطهما الطاعة وعدمها وقرئ ويقدر بالتشديد (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك فيزعمون أن مدار البسط هو

حيث يقولون ما معناه النفاق كقولهم حين مجىء النصر انا كنا معكم وقولهم لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن وقولهم ان بيوتنا عورة وغير ذلك ويحتمل أن يكون المراد قول الله عز وجل أى لتعرفنهم فى معنى قول الله تعالى حيث قال ما تعلم منه حال المنافقين كقوله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا وقوله انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الى غير ذلك (وثانيها) فى ميل القول عن الصواب حيث قالوا ما لم يعتقدوا فأمالوا كلامهم حيث قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وقالوا ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الادبار الى غير ذلك (وثالثها) فى لحن القول أى فى الوجه الخفى من القول الذى يفهمه النبى عليه السلام ولا يفهمه غيره وهذا يحتمل أمرين أيضا والنبى عليه السلام كان يعرف المنافق ولم يكن يظهر أمره الى ان أذن الله تعالى له فى اظهار أمرهم ومنع من الصلاة على جنائزهم والقيام على قبورهم واما قوله بسيماهم فالظاهر ان المراد ان الله تعالى لوشاء لجعل على وجوههم علامة أو يمسخهم كما قال تعالى ولو نشاء لمسخناهم وروى ان جماعة منهم أصبحوا وعلى جباههم مكتوب هذا منافق وقوله تعالى والله يعلم أعمالكم وعد للمؤمنين وبيان لكون حالهم على خلاف حال المنافق فان المنافق له قول بلا عمل والمؤمن كان له عمل ولا يقول به وانما قوله التسبيح ويدل عليه قوله تعالى ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا وقوله ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وكانوا يعملون الصالحات ويتكلمون فى السيآت مستغفرين مشفقين والمنافق كان يتكلم فى الصالحات كقوله انا معكم قالت الاعراب آمنا ومن الناس من يقول آمنا ويعمل السيئ فقال تعالى الله يسمع أقوالهم الفارغة ويعلم أعمالكم الصالحة فلا يضيع ۞ ثم قال تعالى ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾ أى لنأمرنكم بما لا يكون متعينا للوقوع بل بما يحتمل الوقوع ويحتمل عدم الوقوع كما يفعل المختبر وقوله تعالى حتى نعلم المجاهدين أى نعلم المجاهدين من غير المجاهدين ويدخل فى علم الشهادة فانه تعالى قد علمه علم الغيب وقد ذكرنا ما هو التحقيق فى الابتلاء وفى قوله حتى نعلم وقوله المجاهدين أى المقدمين على الجهاد والصابرين أى الثابتين الذين لايولون الادبار وقوله ونبلوا أخباركم يحتمل وجوها (أحدها) قوله آمنا لان المنافق وجد منه هذا الخبر والمؤمن وجد منه ذلك أيضا وبالجهاد يعلم الصادق من الكاذب كما قال تعالى أولئك هم الصادقون (وثانيها) اخبارهم من عدم التولية فى قوله ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الادبار الى غير ذلك فالمؤمن وفى بعهده وقاتل مع أصحابه فى سبيل الله كأنهم بنيان مرصوص والمنافق كان كالهباء ينزعج بأدنى صيحة (وثالثها) المؤمن كان له أخبار صادقة مسموعة من النبى عليه السلام كقوله تعالى لتدخلن المسجد الحرام لاغلبن أنا ورسلى وان جندنا لهم الغالبون وللمنافق اخبار هى أراجيف كما قال تعالى فى حقهم والمرجفون فى المدينة فعند تحقق الايجاف يتبين الصدق من الارجاف ۞ ثم قال تعالى ﴿ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيأ وسيحبط أعمالهم﴾ وفيه وجهان (أحدهما) هم أهل الكتاب قريظة والنضير (والثانى) كفار قريش يدل على الاول قوله تعالى من بعد ما تبين لهم الهدى قبل أهل الكتاب تبين لهم صدق محمد عليه السلام وقوله لن يضروا الله شيأ تهديد معناه هم يظنون ان ذلك الشقاق مع الرسول وهم به يشاقونه وليس كذلك بل الشقاق مع الله فان محمدا رسول الله ما عليه الا البلاغ فان ضروا يضروا المرسل لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق وقوله وسيحبط أعمالهم قد علم معناه فان قيل قد تقدم فى أول السورة ان الله تعالى أحبط أعمالهم فكيف يحبط فى المستقبل فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان المراد من قوله الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله فى أول السورة المشركون ومن أول الامر كانوا مبطلين وأعمالهم كانت على غير شريعة والمراد من الذين كفروا ههنا

أهل الكتاب وكانت لهم أعمال قبل الرسول فاحبطها الله تعالى بسبب تكذيبهم الرسول ولا ينفعهم ايمانهم بالحشر والرسل والتوحيد والكافر المشرك أحبط عمله حيث لم يكن على شرع أصلا ولا كان معترفا بالحشر (الثانى) هو ان المراد بالاعمال ههنا مكايدهم فى القتال وذلك قد تحقق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين والمراد بالاعمال فى أول السورة هو ما ظنوه حسنة ۞ ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) العطف ههنا من باب عطف المسبب على السبب يقال اجلس واسترح وقم وامش لان طاعة الله تحمل على طاعة الرسول وهذا اشارة الى العمل بعد حصول العلم كانه تعالى قال يا أيها الذين آمنوا علمتم الحق فافعلوا الخير وقوله ولا تبطلوا أعمالكم يحتمل وجوها (أحدها) دوموا على ما أنتم عليه ولا تشركوا فتبطل أعمالكم قال تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك (الوجه الثانى) لا تبطل أعمالكم بترك طاعة الرسول كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول وعصيانه ويؤيده قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم الى أن قال أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون (الثالث) لا تبطلوا أعمالكم بالمن والاذى كما قال تعالى يمنون عليك ان أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم وذلك ان من يمن بالطاعة على الرسول كأنه يقول هذا فعلته لاجل قلبك ولولا رضاك به لما فعلت وهو مناف للاخلاص والله لا يقبل الا العمل الخالص ۞ ثم قال تعالى (ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) بين أن الله لا يغفر الشرك وما دون ذلك يغفره ان شاء حتى لا يظن ظان ان أعمالهم وان بطلت لكن فضل الله باق يغفر لهم بفضله وان لم يغفر لهم بعملهم ۞ ثم قال تعالى (فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الاعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) لما بين ان عمل الكافر الذى له صورة الحسنات محبط وذنبه الذى هو أقبح السيآت غير مغفور بين ان لا حرمة له فى الدنيا ولا فى الآخرة وقد أمر الله تعالى بطاعة الرسول بقوله وأطيعوا الرسول وأمر بالقتال بقوله فلا تهنوا أى لا تضعفوا بعد ما وجد السبب فى الجد فى الامر والاجتهاد فى الجهاد فقال فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وفى الآيات ترتيب فى غاية الحسن وذلك لان قوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول يقتضى السعى فى القتال لان أمر الله وأمر الرسول ورد بالجهاد وقد أمروا بالطاعة فذلك يقتضى أن لا يضعف المكلف ولا يكسل ولا يجبن ولا يتهاون ثم ان بعد المقتضى قد يتحقق مانع ولا يتحقق المسبب والمانع من القتال اما أخروى وأما دنيوى فذكر الاخروى وهو ان الكافر لا حرمة له فى الدنيا والآخرة لانه لا عمل له فى الدنيا ولا مغفرة له فى الآخرة فاذا وجد السبب ولم يوجد المانع ينبغى أن يتحقق المسبب ولم يقدم المانع الدنيوى على قوله فلا تهنوا اشارة الى أن الامور الدنيوية لا ينبغى أن تكون مانعة من الاتيان فلا تهنوا فان لكم النصر أو عليكم بالعزيمة على تقدير الاعتزام للهزيمة ثم قال تعالى بعد ذلك المانع الدنيوى مع انه لا ينبغى أن يكون مانعا ليس بموجود أيضا حيث أنتم الاعلون والاعلون والمصطفون فى الجمع حالة الرفع معلوم الاصل ومعلوم ان الامر كيف آل الى هذه الصيغة فى التصريف وذلك لان أصله فى الجمع الموافق أعليون ومصطفيون فكانت الياء لكونها حرف علة فتحرك ما قبلها والواو كانت ساكنة فالتقى ساكنان ولم يكن بد من حذف أحدهما أو تحريكه والتحريك كان يوقع فى المحذور الذى اجتنب منه فوجب الحذف والواو كانت فيه لمعنى لا يستفاد الا منها وهو الجمع فأسقطت الياء وبقى أعلون وبهذا الدليل صار فى الجر أعلين ومصطفين وقوله تعالى والله معكم هداية وارشاد يمنع المكلف من الاعجاب بنفسه وذلك لانه تعالى لما قال أنتم الاعلون كان ذلك سبب الافتخار فقال والله معكم يعنى ليس ذلك من أنفسكم بل من الله أو نقول لما قال وأنتم الاعلون فكان المؤمنون يرون ضعف أنفسهم وقلتهم مع كثرة الكفار وشوكتهم وكان يقع فى نفس بعضهم انهم كيف يكون لهم الغلبة فقال ان الله معكم لا يبقى لكم شك ولا ارتياب فى أن الغلبة لكم وهذا كقوله تعالى لاغلبن أنا ورسلى وقوله وان جندنا لهم لغالبون وقوله ولن يتركم أعمالكم وعد آخر وذلك لان الله لما قال ان الله

الشرف والكرامة ومدار القدر هو الهوان ولا يدرون أن الاول كثيرا ما يكون بطريق الاستدراج والثانى بطريق الابتلاء ورفع الدرجات (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) كلام مستأنف من جهته عز وعلا خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة فى تحقيق الحق وتقرير ما سبق أى وما جماعة أموالكم وأولادكم بالجماعة التى تقربكم عندنا قربة فان الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث أو بالخصلة التى تقربكم وقرئ بالذى أو بالشئ الذى (الا من آمن وعمل صالحا) استثناء من مفعول تقربكم أى وما الاموال والاولاد تقرب أحدا الا المؤمن الصالح الذى أنفق أمواله فى سبيل الله تعالى وعلم أولاده الخير ورباهم على الصلاح ورشحهم للطاعة وقيل من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف أى الا أموال من الخ (فأولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى فأولئك المنعوتون بالايمان والعمل الصالح (لهم جزاء الضعف) أى ثابت لهم ذلك على أن الجار والمجرور خبر لما بعده والجملة خبر لأولئك وفيه تأكيد لتكرر الاسناد أو يثبت لهم ذلك على أن الجار والمجرور خبر لاولئك وما بعده مرتفع على الفاعلية واضافة الجزاء الى الضعف من اضافة المصدر الى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف ومعناه أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرا فما فوقها وقرئ جزاء الضعف على فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على أن يجازوا الضعف وجزاء الضعف بالرفع على ان الضعف بدل من جزاء (بما عملوا) من الصالحات (وهم فى الغرفات) أى غرفات الجنة (آمنون) من جميع المكاره وقرئ بفتح الراء وسكونها وقرئ فى الغرفة على ارادة الجنس (والذين يسعون فى آياتنا) بالرد والطعن فيها (معاجزين) سابقين لانبيائنا

معكم كان فيه ان النصرة بالله لا بكم فكان القائل يقول لم يصدر مني عمل له اعتبار فلا استحق تعظيما فقال هو ينصركم ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيأ و يجعل كان النصرة جعلت بكم ومنكم فكانكم مستقلون في ذلك ويعطيكم أجر المستبد والترة النقص ومنه الموتور كانه نقص منه ما يشفعه و يقول عند القتال ان قتل من الكافرين أحد فقد وتروا في أهلهم وعملهم حيث نقص عددهم وضاع عملهم والمؤمن ان قتل فانما ينقص من عدده ولم ينقص من عمله وكيف ولم ينقص من عدده أيضا فانه حي مرزوق فرح بما هو اليه مسوق ۞ ثم قال تعالى (انما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسئلكم أموالكم) زيادة في التسلية يعني كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد وهي لا تفوتك لكونك منصورا غالبا وان فاتتك فعملك غير موتر فكيف وما يفوتك فان فات فائت ولم يعوض لا ينبغي لك ان تلتفت اليها لكونها لعبا ولهوا وقد ذكرنا في اللعب واللهو مرارا ان اللعب ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل ثم ان استعمله الانسان ولم يشغله عن غيره ولم ينسه عن اشغاله المهمة فهو لعب وان شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو ولهذا يقال ملاهي لآلات الملاهي لانها مشغلة عن الغير ويقال لما دونه لعب كاللعب بالشطرنج والحمام وقد ذكرنا ذلك غير مرة وقوله وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم اعاده للوعد والاضافة للتعريف أي الاجر الذي وعدكم بقوله أجر كريم وأجر كبير وأجر عظيم وقوله ولا يسئلكم أموالكم يحتمل وجوها (أحدها) ان الجهاد لا بد له من انفاق فلو قال قائل أنا لا أنفق مالي فيقال له الله لا يسألكم مالكم في الجهات المعينة من الزكاة والغنيمة وأموال المصالح فيما تحتاجون اليه من المال لا تزعون باخراجه (وثانيها) الاموال لله وهي في أيديكم عارية وقد طلب منكم أو أجاز لكم في صرفها في جهة الجهاد فلا معنى لبخلكم عاليه والى هذا أشار بقوله تعالى ومالكم أن لا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والارض أي الكل لله (وثالثها) لا يسئلكم أموالكم كلها وانما يسئلكم شيأ يسيرا منها وهو ربع العشر وهو قليل جدا لان العشر هو الجزء الاول اذ ليس دونه جزء آخر وليس اسما مفردا وأما الجزء من أحد عشر ومن اثني عشر ومن مائة جزء لما لم يكن ملتفتا اليه لم يوضع له اسم مفرد ثم ان الله تعالى لم يوجب ذلك في رأس المال بل أوجب ذلك في الربح الذي هو من فضل الله وعطائه وان كان رأس المال أيضا كذلك لكن هذا المعنى في الربح أظهر ولما كان المال منه ما ينفق للتجارة فيه ومنه ما لا ينفق وما أنفق منه للتجارة أحد قسميه وهو يحتمل أن تكون التجارة فيه رابحة ويحتمل أن لا تكون رابحة فصار القسم الواحد قسمين فصار في التقدير كان الربح في ربعه فأوجب عشر الذي فيه الربح وهو عشر فهو ربع العشر وهو الواجب فعلم ان الله لا يسألكم أموالكم ولا الكثير منه ۞ ثم قال تعالى (ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) الفاء في قوله فيحفكم للاشارة الى أن الاحفاء يتبع السؤال بيانا لشح الانفس وذلك لان العطف بالواو قد يكون للمثلين وبالفاء لا يكون الا للمتعاقبين أو متعلقين أحدهما بالآخر فكأنه تعالى بين ان الاحفاء يقع عقيب السؤال لان الانسان بمجرد السؤال لا يعطي شيأ وقوله تبخلوا ويخرج أضغانكم يعني ما طلبها ولو طلبها وألح عليكم في الطلب لبخلتم كيف وأنتم تبخلون باليسير فكيف لا تبخلون بالكثير وقوله ويخرج أضغانكم يعني بسببه فان الطالب وهو النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يطلبونكم وأنتم لمحبة المال وشح الانفس تمتنعون فيفضي الى القتال وتظهر به الضغائن ۞ ثم قال تعالى بيانا لما قاله (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء) قد طلبت منكم اليسير فبخلتم فكيف لو طلبت منكم الكل وقوله هؤلاء يحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون موصولة كأنه قال أنتم هؤلاء الذين تدعون لتنفقوا في سبيل الله (وثانيهما) هؤلاء وحدها خبر أنتم كما يقال أنت هذا تحقيقا للشهرة والظهور أي ظهر أمركم بحيث لا حاجة الى الاخبار عنكم بأمر مغاير ثم يبتدئ تدعون وقوله تدعون أي الى الانفاق اما في سبيل الله تعالى بالجهاد واما في صرفه الى المستحقين من اخوانكم

أوزاعمين أنهم يفوتوننا (أولئك في العذاب محضرون) لا يجديهم ما عولوا عليه نفعا (قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) أي يوسعه عليه تارة (ويقدر له) أي يضيقه عليه تارة أخرى فلا تخشوا الفقر وأنفقوا في سبيل الله وتعرضوا لنفحاته تعالى (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) عوضا اما عاجلا واما آجلا (وهو خير الرازقين) فان غيره واسطة في ايصال رزقه لا حقيقة لرازقيته (ويوم يحشرهم جميعا) أي المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله ويوم ظرف لمضمر متأخر سيأتي تقديره أو مفعول لمضمر مقدم نحو اذكر (ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون) تقريعا للمشركين وتبكيتا لهم على نهج قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الخ واقناطا لهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة من شفاعتهم وتخصيص الملائكة لانهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم ولان عبادتهم مبدأ الشرك فبظهور قصورهم عن رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الاولوية وقرئ الفعلان بالنون (قالوا) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا يقول الملائكة حينئذ فقيل يقولون متنزهين عن ذلك (سبحانك أنت ولينا من دونهم) والعدول الى صيغة الماضي للدلالة على التحقق أي أنت الذي نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم (بل كانوا يعبدون الجن) أي الشياطين حيث أطاعوهم في عبادة غير الله سبحانه وتعالى وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم وقيل يدخلون أجواف الاصنام اذا عبدت فيعبدون بعبادتهم (أكثرهم بهم مؤمنون) الضمير الاول للانس أو للمشركين والاكثر بمعنى الكل والثاني للجن (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزه والتبرؤ عما نسب اليهم الكفرة

وبالجملة

وبالجملة ففي الجهتين تخزيل الاعداء ونصرة الاولياء فمنكم من يبخل ثم بين ان ذلك البخل ضرره عائد اليه فلا تظنوا انهم لا ينفقونه على غيرهم بل لا ينفقونه على أنفسهم فان من يبخل باجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض فلا يبخل الا على نفسه ثم حقق ذلك بقوله والله الغني غير محتاج الى مالكم وأتمه بقوله وأنتم الفقراء حتى لا تقولوا انا أيضا أغنياء عن القتال ودفع حاجة الفقراء فانهم لا غنى لهم عن ذلك في الدنيا والآخرة اما في الدنيا فلانه لولا القتال لقتلوا فان الكافر ان لم يغز يغزو والمحتاج ان لم يدفع حاجته يقصده لا سيما اباح الشارع للمضطر ذلك وأما في الآخرة فظاهر فكيف لا يكون فقيرا وهو موقوف مسؤل يوم لا ينفع مال ولا بنون ۞ ثم قال تعالى ﴿وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ بيان الترتيب من وجهين (أحدهما) انه ذكره بيانا للاستغناء كما قال تعالى ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وقد ذكر ان هذا تقرير بعد التسليم كأنه تعالى يقول الله غني عن العالم باسره فلا حاجة له اليكم فان كان ذاهب يذهب الى أن ملكه بالعالم وجبروته يظهر به وعظمته بعباده فنقول هب ان هذا الباطل حق لكنكم غير متعينين له بل الله قادر على أن يخلق خلقا غيركم يفتخرون بعبادته وعالم غير هذا يشهد بعظمته وكبريائه (وثانيهما) انه تعالى لما بين الامور وأقام عليها البراهين وأوضحها بالامثلة قال ان أطعتم فلكم أجوركم وزيادة وان تتولوا لم يبق لكم الا الاهلاك فان ما من نبي أنذر قومه وأصروا على تكذيبه الا وقد حق عليهم القول بالاهلاك وطهر الله الارض منهم وأتى بقوم آخرين طاهرين وقوله ثم لا يكونوا أمثالكم فيه مسئلة نحوية يتبين منها فوائد عزيزة وهي ان النحاة قالوا يجوز في المعطوف على جواب الشرط بالواو والفاء وثم الجزم والرفع جميعا قال الله تعالى ههنا وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم بالجزم وقال في موضع آخر وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون بالرفع باثبات النون وهو مع الجواز ففيه تدقيق وهو ان ههنا لا يكون متعلقا بالتولي لانهم ان لم يتولوا يكونون ممن يأتي بهم الله على الطاعة وان تولوا لا يكونون مثلهم لكونهم عاصين وكون من يأتي بهم مطيعين وأما هنالك سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون فلم يكن للتعليق هنالك وجه فرفع بالابتداء وههنا جزم للتعليق وقوله ثم لا يكونوا أمثالكم يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد لا يكونوا أمثالكم في الوصف ولا في الجنس وهو لائق (الوجه الثاني) وفيه وجوه (أحدها) قوم من العجم (وثانيها) قوم من فارس روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عمن يستبدل بهم ان تولوا وسلمان الى جنبه فقال هذا وقومه ثم قال لو كان الايمان منوطا بالثريا لناله رجال من فارس (وثالثها) قوم من الانصار والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وعترته وأهل بيته أجمعين وسلم تسليما كثيرا آمين

﴿سورة الفتح عشرون وتسع آيات مدنية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في الفتح وجوه (أحدها) فتح مكة وهو ظاهر (وثانيها) فتح الروم وغيرها (وثالثها) المراد من الفتح صلح الحديبية (ورابعها) فتح الاسلام بالحجة والبرهان والسيف والسنان (وخامسها) المراد منه الحكم كقوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وقوله ثم يفتح بيننا بالحق والمختار من الكل وجوه أحدها فتح مكة والآخر فتح الحديبية والثالث فتح الاسلام بالآية والبيان والحجة والبرهان والاول مناسب لآخر ما قبلها من وجوه (أحدها) انه تعالى لما قال ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله الى أن قال ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه بين تعالى انه فتح لهم مكة وغنموا ديارهم وحصل لهم اضعاف ما أنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم

يخاطبون بذلك على رؤس الاشهاد اظهارا لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم وتنصيصا على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية والفاء ليست لترتيب مابعدها من الحكم على جواب الملائكة فانه محقق أجابوا بذلك أم لا بل لترتيب الاخبار به عليه ونسبة عدم النفع والضر الى البعض المبهم للمبالغة فيما هو المقصود الذي هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه في سلك عدم نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم والتعرض لعدم الضر مع أنه لا بحث عنه أصلا اما لتعميم العجز أو لحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضر على تقدير تركها أولان المراد دفع الضر على حذف المضاف وتقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الاطلاق لانعقاد رجائهم على تحقق النفع يومئذ وقوله عز وجل (ونقول للذين ظلموا) عطف على نقول للملائكة لا على لا يملك كما قيل فانه مما يقال يوم القيامة خطابا للملائكة مترتبا على جوابهم المحكي وهذا حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما سيقال للعبدة يومئذ اثر حكاية ما سيقال للملائكة أي يوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة كذا وكذا ويقولون كذا وكذا ونقول للمشركين (ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) يكون من الاهوال والاحوال ما لا يحيط به نطاق المقال وقوله تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) بيان لبعض آخر من كفرانهم أي اذا تتلى عليهم بلسان الرسول عليه الصلاة والسلام آياتنا الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك (قالوا ما هذا) يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم (الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) فيستتبعكم بما يستبدعه من غير أن يكون هناك دين الهي واضافة الآباء الى المخاطبين لا الى أنفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة في تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد (وقالوا ما هذا) يعنون القرآن الكريم (الا افك) أي كلام مصروف عن وجهه لا مصداق له في الواقع (مفترى) باسناده الى

الله تعالى (وقال الذين كفروا للحق) أى لأمر النبوة أو الاسلام أو القرآن على أن العطف لاختلاف العنوان بان يراد بالاول معناه وبالثانى نظمه المعجز (لما جاءهم) من غير تدبر ولا تأمل فيه (٣٨٢) (ان هذا الا سحر مبين) ظاهر سحريته وفى تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما فى اللامين من الاشارة الى القائلين والمقول فيه وما فى لما من المسارعة الى البت بهذا القول الباطل انكار عظيم له وتعجيب بليغ منه (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) فيها دليل على صحة الاشراك كما فى قوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون وقوله تعالى أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون وقرئ يدرسونها ويدّرسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس (وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير) يدعوهم اليه وينذرهم بالعقاب ان لم يشركوا وقد بان من قبل أن لا وجه له بوجه من الوجوه فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ وهذا غاية تجهيل لهم وتسفيه لرأيهم ثم هددهم بقوله تعالى (وكذب الذين من قبلهم) من الامم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أى ما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى (فكذبوا رسلى) عطف على كذب الذين الخ بطريق التفصيل والتفسير كقوله تعالى كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا الخ (فكيف كان نكير) أى انكارى لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك (قل انما أعظكم بواحدة) أى ما أرشدكم وأنصح لكم الا بخصلة واحدة هى ما دل عليه قوله تعالى (أن تقوموا لله) على أنه بدل منها أو بيان لها أو خبر مبتدأ محذوف أى هى أن تقوموا من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنتصبوا للامر خالصا لوجه الله تعالى معرضا عن المماراة والتقليد (مثنى وفرادى) أى متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا فان الازدحام يشوش الافهام ويخلط الافكار بالاوهام وفى تقديم مثنى ايذان بأنه أوثق وأقرب الى الاطمئنان (ثم تتفكروا)

الاعلى أنفسهم (ثانيها) لما قال والله معكم وقال وأنتم الاعلون بين برهانه بفتح مكة فانهم كانوا هم الاعلون (ثالثها) لما قال تعالى فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وكان معناه لا تسألوا الصلح من عندكم بل اصبروا فانهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية وهو المراد بالفتح فى أحد الوجوه وكما كان فتح مكة حيث أتى صناديد قريش مستأمنين ومؤمنين ومسلمين فان قيل ان كان المراد فتح مكة فمكة لم تكن قد فتحت فكيف قال تعالى فتحنا لك فتحا مبينا بلفظ الماضى نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) فتحنا فى حكمنا وتقديرنا (ثانيهما) ما قدره الله تعالى فهو كائن فاخبر بصيغة الماضى اشارة الى أنه أمر لا دافع له واقع لا رافع له (المسئلة الثانية) قوله ليغفر لك الله ينبئ عن كون الفتح سببا للمغفرة والفتح لا يصلح سببا للمغفرة فما الجواب عنه نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ما قيل ان الفتح لم يجعله سببا للمغفرة وحدها بل هو سبب لاجتماع الامور المذكورة وهى المغفرة واتمام النعمة والهداية والنصرة كأنه تعالى قال ليغفر لك الله ويتم نعمته ويهديك وينصرك ولا شك ان الاجتماع لم يثبت الا بالفتح فان النعمة به تمت والنصرة بعده قد عمت (الثانى) هو ان فتح مكة كان سببا لتطهير بيت الله تعالى من رجس الاوثان وتطهير بيته صار سببا لتطهير عبده (الثالث) هو ان بالفتح يحصل الحج ثم بالحج تحصل المغفرة ألا ترى الى دعاء النبى عليه الصلاة والسلام حيث قال فى الحج اللهم اجعله حجا مبرورا وسعيا مشكورا وذنبا مغفورا (الرابع) المراد منه التعريف تقديره انا فتحنا لك ليعرف انك مغفور معصوم فان الناس كانوا علموا بعد عام الفيل ان مكة لا يأخذها عدو الله المسخوط عليه وانما يدخلها ويأخذها حبيب الله المغفور له (المسئلة الثالثة) لم يكن للنبى صلى الله عليه وسلم ذنب فماذا يغفر له قلنا الجواب عنه قد تقدم مرارا من وجوه (أحدها) المراد ذنب المؤمنين (ثانيها) المراد ترك الافضل (ثالثها) الصغائر فانها جائزة على الانبياء بالسهو والعمد وهو يصونهم عن العجب (رابعها) المراد العصمة وقد بيناه وجهه فى سورة القتال (المسئلة الرابعة) ما معنى قوله وما تأخر نقول فيه وجوه (أحدها) انه وعد النبى عليه السلام بأنه لا يذنب بعد النبوة (ثانيها) ما تقدم على الفتح وما تأخر عن الفتح (ثالثها) العموم يقال اضرب من لقيت ومن لا تلقاه مع ان من لا يلقى لا يمكن ضربه اشارة الى العموم (رابعها) من قبل النبوة ومن بعدها وعلى هذا فما قبل النبوة بالعفو وما بعدها بالعصمة وفيه وجوه أخر ساقطة منها قول بعضهم ما تقدم من أمر مارية وما تأخر من أمر زينب وهو أبعد الوجوه وأسقطها لعدم التئام الكلام وقوله تعالى ويتم نعمته عليك يحتمل وجوها (أحدها) هو ان التكاليف عند الفتح تمت حيث وجب الحج وهو آخر التكاليف والتكاليف نعم (ثانيها) يتم نعمته عليك باخلاء الارض لك عن معانديك فان يوم الفتح لم يبق للنبى عليه الصلاة والسلام عدو ذوا عتبار فان بعضهم كانوا أهلكوا يوم بدر والباقون آمنوا واستأمنوا يوم الفتح (ثالثها) ويتم نعمته عليك فى الدنيا باستجابة دعائك فى طلب الفتح وفى الآخرة بقبول شفاعتك فى الذنوب ولو كانت فى غاية القبح وقوله تعالى ويهديك صراطا مستقيما يحتمل وجوها (أظهرها) يديمك على الصراط المستقيم حتى لا يبقى من يلتفت الى قوله من المضلين أو ممن يقدر على الاكراه على الكفر وهذا يوافق قوله تعالى ورضيت لكم الاسلام دينا حيث أهلكت المجادلين فيه وحملتهم على الايمان (وثانيها) ان يقال جعل الفتح سببا للهداية الى الصراط المستقيم لانه سهل على المؤمنين الجهاد لعلمهم بالفوائد العاجلة بالفتح والآجلة بالوعد والجهاد سلوك سبيل الله ولهذا يقال للغازى فى سبيل الله مجاهد (وثالثها) ما ذكرنا أن المراد التعريف أى ليعرف انك على صراط مستقيم من حيث ان الفتح لا يكون الا على يد من يكون على صراط الله بدليل حكاية الفيل وقوله وينصرك الله نصرا عزيزا ظاهر لان بالفتح ظهر النصر واشتهر الامر وفيه مسئلتان أحدهما لفظية والاخرى معنوية اما اللفظية فهى ان الله وصف النصر بكونه عزيزا والعزيز من له النصر والجواب من وجهين (أحدهما) ما قاله الزمخشرى انه يحتمل وجوها ثلاثة (الاول) معناه نصرا ذا عز

عز كقوله فى عيشة راضية أى ذات رضا (الثانى) وصف النصر بما يوصف به المنصور اسناد المجاز يا يقال له كلام صادق كما يقال له متكلم صادق (الثالث) المراد نصرا عزيزا صاحبه (الوجه الثانى من الجواب) أن نقول انما يلزمنا ما ذكره الزمخشرى من التقديرات اذا قلنا العزة من الغلبة والعزيز الغالب وأما اذا قلنا العزيز هو النفيس القليل النظير أو المحتاج اليه القليل الوجود يقال عز الشئ اذا قل وجوده مع انه محتاج اليه فالنصر كان محتاجا اليه ومثله لم يوجد وهو أخذ بيت الله من الكفار المتمكنين فيه من غير عدد (أما المسئلة المعنوية) وهى ان الله تعالى لما قال ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ابرز الفاعل وهو الله ثم عطف عليه بقوله ويتم وبقوله ويهديك ولم يذكر لفظ الله على الوجه الحسن فى الكلام وهو ان الافعال الكثيرة اذا صدرت من فاعل يظهر اسمه فى الفعل الاول ولا يظهر فيما بعده تقول جاء زيد وتكلم وقام وراح ولا تقول جاء زيد وقعد زيد اختصارا للكلام بالاقتصار على الاول وههنا لم يقل وينصرك نصرا بل أعاد لفظ الله فنقول هذا ارشاد الى طريق النصر ولهذا قلما ذكر الله النصر من غير اضافة فقال تعالى بنصر الله ينصر ولم يقل بالنصر ينصر وقال هو الذى أيدك بنصره ولم يقل أيدك بالنصر وقال اذا جاء نصر الله والفتح وقال نصر من الله وفتح قريب ولم يقل نصر وفتح وقال وما النصر الا من عند الله وهذا أدل الآيات على مطلوبنا وتحقيقه هو ان النصر بالصبر والصبر بالله قال تعالى واصبر وما صبرك الا بالله وذلك لان الصبر سكون القلب واطمئنانه وذلك بذكر الله كما قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب فلما قال ههنا وينصرك الله أظهر لفظ الله ذكرا للتعليم ان بذكر الله يحصل اطمئنان القلوب وبه يحصل الصبر وبه يتحقق النصر وههنا مسئلة أخرى وهو ان الله تعالى قال انا فتحنا ثم قال ليغفر لك الله ولم يقل انا فتحنا لنغفر لك تعظيما لامر الفتح وذلك لان المغفرة وان كانت عظيمة لكنها عامة لقوله تعالى ان الله يغفر الذنوب جميعا وقال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ولئن قلنا بأن المراد من المغفرة فى حق النبى عليه السلام العصمة فذلك لم يختص بنبينا بل غيره من الرسل كان معصوما واتمام النعمة كذلك قال الله تعالى اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى وقال يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وكذلك الهداية قال الله تعالى يهدى اليه من يشاء فعمم وكذلك النصر قال الله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وأما الفتح فلم يكن لاحد غير النبى صلى الله عليه وسلم فعظمه بقوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا وفيه التعظيم من وجهين أحدهما انا وثانيهما لك أى لاجلك على وجه المنة ۞ ثم قال تعالى ﴿هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله جنود السموات والارض وكان الله عليما حكيما﴾ لما قال تعالى وينصرك الله بين وجه النصر وذلك لان الله تعالى قد ينصر رسله بصيحة يهلك بها أعداءهم أو رجفة تحكم عليهم بالفناء أو جند يرسله من السماء أو نصر وقوة وثبات قلب يرزق المؤمنين به ليكون لهم بذلك الثواب الجزيل فقال هو الذى أنزل السكينة أى تحقيقا للنصر وفى السكينة وجوه (أحدها) هو السكون (الثانى) الوقار لله ولرسول الله وهو من السكون (الثالث) اليقين والكل من السكون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) السكينة هنا غير السكينة فى قوله تعالى ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم فى قول أكثر المفسرين ويحتمل هى تلك لان المقصود منها على جميع الوجوه اليقين وثبات القلب (المسئلة الثانية) السكينة المنزلة عليهم هى سبب ذكرهم الله كما قال تعالى ألا بذكر الله تطمئن القلوب (المسئلة الثالثة) قال الله تعالى فى حق الكافرين وقذف فى قلوبهم بلفظ القذف المزعج وقال فى حق المؤمنين وأنزل السكينة بلفظ الانزال المثبت وفيه معنى حكمى وهو ان من علم شيأ من قبل وتذكره واستدام تذكره فاذا وقع لا يتغير ومن كان غافلا عن شئ فيقع دفعة يرجف فؤاده الا ترى ان من أخبر بوقوع صيحة وقيل له لا تنزعج منها فوقعت الصيحة لا يرجف ومن لم يخبر به أو أخبر وغفل عنه يرتجف اذا وقعت فكذلك الكافر أتاه الله من حيث لا يحتسب وقذف فى قلبه فارتجف والمؤمن أتاه من حيث كان يذكره فسكن وقوله تعالى

فى أمره عليه الصلاة والسلام وما جاء به لتعلموا حقيقته وحقيته وقوله تعالى (ما بصاحبكم من جنة) استئناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل هذا الامر العظيم الذى تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدى لادعائه الا مجنون لا يبالى بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه أو مؤيد من عند الله مرشح للنبوة واثق بحجته وبرهانه واذ قد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام أرجح العالمين عقلا وأصدقهم قولا وأزكاهم نفسا وأفضلهم علما وأحسنهم عملا وأجمعهم للكمالات البشرية وجب أن تصدقوه فى دعواه فكيف وقد انضم الى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال ويجوز أن يتعلق بما قبله على معنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز أن تكون ما استفهامية على معنى ثم تتفكروا أى شئ به من آثار الجنون (ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) هو عذاب الآخرة فانه عليه الصلاة والسلام مبعوث فى نسم الساعة (قل ما سألتكم من أجر) أى أى شئ سألتكم من أجر على الرسالة (فهو لكم) والمراد نفى السؤال رأسا كقول من قال لمن لم يعطه شيأ ان أعطيتنى شيأ فخذه وقيل ما موصولة أريد بها ما سألهم بقوله تعالى ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا وقوله تعالى لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى واتخاذ السبيل اليه تعالى منفعتهم الكبرى وقرباه عليه الصلاة والسلام قرباهم (ان أجرى الا على الله وهو على كل شئ شهيد) مطلع يعلم صدقى وخلوص نيتى وقرئ ان أجرى بسكون الياء (قل ان ربى يقذف بالحق) أى يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده أو يرمى به الباطل فيدمغه أو يرمى به فى أقطار الآفاق فيكون وعدا باظهار الاسلام واعلاء كلمة الحق (علام الغيوب) صفة محمولة على محل ان واسمها أو بدل من المستكن فى يقذف أو خبر ثان لان أو خبر مبتدأ محذوف وقرئ بالنصب صفة لربى أو مقدرا بأعنى وقرئ بكسر الغين وبالفتح كصبور مبالغة غائب (قل جاء الحق) أى الاسلام

ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم فيه وجوه (أحدها) أمرهم بتكاليف شيأ بعد شئ فآمنوا بكل واحد منها مثلا أمروا بالتوحيد فآمنوا وأطاعوا ثم أمروا بالقتال والحج فآمنوا وأطاعوا فازدادوا ايمانا مع ايمانهم (ثانيها) أنزل السكينة عليهم فصبروا فرأوا عين اليقين بما علموا من النصر علم اليقين ايمانا بالغيب فازدادوا ايمانا مستفادا من الشهادة مع ايمانهم المستفاد من الغيب (ثالثها) ازدادوا بالفروع مع ايمانهم بالاصول فانهم آمنوا بأن محمدا رسول الله وان الله واحد والحشر كائن وآمنوا بان كل مايقول النبي صلى الله عليه وسلم صدق وكل ما يأمر الله تعالى به واجب (رابعها) ازدادوا ايمانا استدلاليا مع ايمانهم الفطري وعلى هذا الوجه نبين لطيفة وهي ان الله تعالى قال في حق الكافرين انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولم يقل مع كفرهم لان كفرهم عنادي وليس في الوجود كفر فطري لينضم اليه الكفر العنادي بل الكفر ليس الا عناديا وكذلك الكفر بالفروع لا يقال انضم الى الكفر بالاصول لان من ضرورة الكفر بالاصول الكفر بالفروع وليس من ضرورة الايمان بالاصول الايمان بالفروع بمعنى الطاعة والانقياد فقال ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم وقوله ولله جنود السموات والارض فكان قادرا على اهلاك عدوه بجنوده بل بصيحة ولم يفعل بل أنزل السكينة على المؤمنين ليكون اهلاك أعدائهم بايديهم فيكون لهم الثواب وفي جنود السموات والارض وجوه (أحدها) ملائكة السموات والارض (ثانيها) من في السموات من الملائكة ومن في الارض من الحيوانات والجن (وثالثها) الاسباب السماوية والارضية حتى يكون سقوط كسف من السماء والخسف من جنوده وقوله تعالى وكان الله عليما حكيما لما قال ولله جنود السموات والارض وعددهم غير محصور أثبت العلم اشارة الى أنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض وأيضا لما ذكر أمر القلوب بقوله هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين والايمان من عمل القلوب ذكر العلم اشارة الى أنه يعلم السر وأخفى وقوله حكيما بعد قوله عليما اشارة الى أنه يفعل على وفق العلم فان الحكيم من يعمل شيأ متقنا ويعلمه فان من يقع منه صنع عجيب اتفاقا لا يقال له حكيم ومن يعلم ويعمل على خلاف العلم لا يقال له حكيم ﴿ وقوله تعالى ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيآتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما﴾ يستدعي فعلا سابقا ليدخل فان من قال ابتداء لتكرمني لا يصح مالم يقل قبله جئتك أو ما يقوم مقامه وفي ذلك الفعل وجوه وضبط الاحوال فيه بأن نقول ذلك الفعل اما أن يكون مذكورا بصريحه أولا يكون وحينئذ ينبغي ان يكون مفهوما فاما أن يكون مفهوما من لفظ يدل عليه أولا من لفظ يدل عليه بل فهم بقرينة حالية فان كان مذكورا فهو يحتمل وجوها (أحدها) قوله ليزدادوا ايمانا كأنه تعالى أنزل السكينة ليزدادوا ايمانا بسبب الانزال ليدخلهم بسبب الايمان جنات فان قيل فقوله يعذب عطف على قوله ليدخل وازديادا ايمانهم لا يصلح سببا لتعذيبهم نقول بلى وذلك من وجهين (أحدهما) ان التعذيب مذكور لكونه مقصودا للمؤمنين كانه تعالى يقول بسبب ازديادكم في الايمان يدخلكم في الآخرة جنات ويعذب بايديكم في الدنيا الكفار والمنافقين (الثاني) تقديره ويعذب بسبب مالكم من الازدياد يقال فعلته لأجرب به العدو والصديق أي لاعرف بوجوده الصديق وبعدمه العدو فكذلك ليزداد المؤمن ايمانا فيدخله الجنة ويزداد الكافر كفرا فيعذبه به (ووجه آخر ثالث) وهو ان سبب زيادة ايمان المؤمنين بكثرة صبرهم وثباتهم فيعيي المنافق والكافر معه ويتعذب وهو قريب مما ذكرنا (الثاني) قوله وينصرك الله كأنه تعالى قال ينصرك الله بالمؤمنين ليدخل المؤمنين جنات (الثالث) قوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك على قولنا المراد ذنب المؤمن كانه تعالى قال ليغفر لك ذنب المؤمنين ليدخل المؤمنين جنات واما ان قلنا هو مفهوم من لفظ غير صريح فيحتمل وجوها أيضا (أحدها) قوله حكيما يدل على ذلك كانه تعالى قال الله حكيم فعل ما فعل ليدخل المؤمنين جنات (وثانيها) قوله تعالى ويتم نعمته عليك في الدنيا والآخرة فيستجيب دعاءك في الدنيا ويقبل شفاعتك في

والتوحيد (ومايبدئ الباطل ومايعيد) أي زهق الشرك بحيث لم يبق أثره أصلا مأخوذ من هلاك الحي فانه اذا هلك لم يبق له ابداء ولا اعادة فجعل مثلا في الهلاك بالمرة ومنه قول عبيد أقفر من أهله عبيد * فليس يبدي ولا يعيد وقيل الباطل ابليس أو الصنم والمعنى لا ينشئ خلقا ولا يعيد أو لا يبدئ خيرا لاهله ولا يعيد وقيل ما استفهامية منصوبة بما بعدها (قل ان ضللت) عن الطريق الحق (فانما أضل على نفسي) فان وبال ضلالي عليها لانه بسببها اذ هي الجاهلة بالذات والامارة بالسوء وبهذا الاعتبار قوبل الشرطية بقوله تعالى (وان اهتديت فبما يوحي الى ربي) لان الاهتداء بهدايته وتوفيقه وقرئ ربي بفتح الباء (انه سميع قريب) يعلم قول كل من المهتدي والضال وفعله وان بالغ في اخفائهما (ولو ترى اذ فزعوا) عند الموت أو البعث أو يوم بدر وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان ثمانين ألفا يغزون الكعبة ليخربوها فاذا دخلوا البيداء خسف بهم وجواب لو محذوف أي لرأيت أمرا هائلا (فلا فوت) فلا يفوتون الله عز وجل بهرب أو تحصن (وأخذوا من مكان قريب) من ظهر الارض أو من الموقف الى النار أو من صحراء بدر الى قليبها أو من تحت أقدامهم اذا خسف بهم والجملة معطوفة على فزعوا وقيل على لا فوت على معنى اذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا ويؤيده أنه قرئ وأخذ بالعطف على محله أي فلا فوت هناك وهنالك أخذ (وقالوا آمنا به) أي بمحمد عليه الصلاة والسلام وقد مر ذكره في قوله تعالى ما بصاحبكم (وأنى لهم التناوش) التناوش التناول السهل أي ومن أين لهم أن يتناولوا الايمان تناولا سهلا (من مكان بعيد) فانه في حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد وهو تمثيل حالهم في الاستخلاص بالايمان بعدما فات عنهم وبعد بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة تناوله من ذراع في الاستحالة وقرئ بالهمز على قلب الواو لضمها وهو من نأشت الشيء اذا طلبته وعن أبي عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد من

العقبى ليدخل المؤمنين جنات (ثالثها) قوله انا فتحنا لك ووجهه هو انه روى ان المؤمنين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم هنيئا لك ان الله غفر لك فماذا لنا فنزلت هذه الآية كانه تعالى قال انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك وفتحنا للمؤمنين ليدخلهم جنات واما ان قلنا ان ذلك مفهوم من غير مقال بل من قرينة الحال فنقول هو الامر بالقتال لان من ذكر الفتح والنصر علم ان الحال حال القتال فكانه تعالى قال ان الله تعالى أمر بالقتال ليدخل المؤمنين أو نقول عرف من قرينة الحال ان الله اختار المؤمنين فكانه تعالى قال اختار المؤمنين ليدخلهم جنات (المسئلة الرابعة) قال ههنا وفى بعض المواضع المؤمنين والمؤمنات وفى بعض المواضع اكتفى بذكر المؤمنين ودخلت المؤمنات فيهم كما فى قوله تعالى وبشر المؤمنين وقوله تعالى قد أفلح المؤمنون فما الحكمة فيه نقول فى المواضع التى فيها ما يوهم اختصاص المؤمنين بالجزاء الموعود به مع كون المؤمنات يشتركن معهم ذكرهن الله صريحا وفى المواضع التى ليس فيها ما يوهم ذلك اكتفى بدخولهم فى المؤمنين فقوله وبشر المؤمنين مع انه علم من قوله تعالى وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا العموم لا يوهم خروج المؤمنات عن البشارة وأما ههنا فلما كان قوله تعالى ليدخل المؤمنين لفعل سابق وهو اما الامر بالقتال أو الصبر فيه أو النصرة للمؤمنين أو الفتح بايديهم على ما كان يتوهم لان ادخال المؤمنين كان للقتال والمرأة لا تقاتل فلا تدخل الجنة الموعود بها صرح الله بذكرهن وكذلك فى المنافقات والمشركات والمنافقة والمشركة لم تقاتل فلا تعذب فصرح الله تعالى بذكرهن وكذلك فى قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات لان الموضع موضع ذكر النساء وأحوالهن لقوله ولا تبرجن وأقمن وآتين وأطعن وقوله واذكرن ما يتلى فى بيوتكن فكان ذكر النساء هناك أصلا لكن الرجال لما كان لهم ما للنساء من الاجر العظيم ذكرهم وذكرهن بلفظ مفرد من غير تبعية لما بينا ان الاصل ذكرهن فى ذلك الموضع (المسئلة الخامسة) قال الله تعالى ويكفر عنهم سيآتهم بعد ذكر الادخال مع أن تكفير السيآت قبل الادخال نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) الواو لا تقتضى الترتيب (الثانى) تكفير السيآت والمغفرة وغيرهما من توابع كون المكلف من أهل الجنة فقدم الادخال فى الذكر بمعنى انه من أهل الجنة (الثالث) وهو ان التكفير يكون بالباس خلع الكرامة وهى فى الجنة وكان الانسان فى الجنة تزال عنه قبائح البشرية الجرمية كالفضلات والمعنوية كالغضب والشهوة وهو التكفير وتثبت فيه الصفات الملكية وهى أشرف أنواع الخلع وقوله تعالى وكان ذلك عند الله فوزا عظيما فيه وجهان (أحدهما) مشهور وهو ان الادخال والتكفير فى علم الله فوز عظيم يقال عندى هذا الامر على هذا الوجه أى فى اعتقادى (وثانيهما) أغرب منه وأقرب منه عقلا وهو ان يجعل عند الله كالوصف لذلك كانه تعالى يقول ذلك عند الله أى بشرط أن يكون عند الله تعالى وبوصف أن يكون عند الله فوز عظيم حتى ان دخول الجنة لو لم يكن فيه قرب من الله بالعندية لما كان فوزا ثم قال تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيزا حكيما) اعلم انه قدم المنافقين على المشركين فى الذكر فى كثير من المواضع لامور (أحدها) انهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لان المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بايمانه وهو كان يفشى اسراره والى هذا أشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك والمنافق على صورة الشيطان فانه لا يأتى الانسان على انى عدوك وانما يأتيه على انى صديقك والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه ولان المنافق كان يظن أن يتخلص للمخادعة والكافر لا يقطع بأن المؤمن ان غلب يفديه فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق وقوله الظانين بالله ظن السوء هذا الظن يحتمل وجوها (أحدها) هو الظن الذى ذكره الله فى هذه السورة بقوله بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول (ثانيها) ظن المشركين بالله

قولهم ناشت اذا أبطأت وتأخرت ومنه قول من قال تمنى نئيشا أن يكون أطاعنى * وقد حدثت بعد الامور أمور (وقد كفروا به) أى بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بالعذاب الشديد الذى أنذرهم اياه (من قبل) أى من قبل ذلك (٣٨٥) فى أوان التكليف (ويقذفون بالغيب) ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم فى حق الرسول عليه الصلاة والسلام من المطاعن أو فى العذاب المذكور من بت القول بنفيه (من مكان بعيد) من جهة بعيدة من حاله عليه الصلاة والسلام حيث ينسبونه صلى الله عليه وسلم الى الشعر والسحر والكذب وان أبعد شىء مما جاء به الشعر والسحر وأبعد شىء من عادته المعروفة فيما بين الدانى والقاصى الكذب ولعله تمثيل لحالهم فى ذلك بحال من يرمى شيأ لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم فى لحوقه وقرئ ويقذفون على أن الشيطان يلقى اليهم ويلقنهم ذلك وهو معطوف على قد كفروا به على حكاية الحال الماضية أو على قالوا فيكون تمثيلا لحالهم بحال القاذف فى تحصيل ما ضيعوه من الايمان فى الدنيا (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) من نفع الايمان والنجاة من النار وقرئ باشمام الضم للحاء (كما فعل باشياعهم من قبل) أى باشباههم من كفرة الامم الدارجة (انهم كانوا فى شك مريب) أى موقع فى الريبة أوذى ريبة والاول منقول ممن يصح أن يكون مريبا من الاعيان الى المعنى والثانى من صاحب الشك الى الشك كما يقال شعر شاعر والله أعلم * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة سبا لم يبق رسول ولا نبى الا كان له يوم القيامة رفيقا ومصافحا

﴿سورة الملائكة مكية وهى خمس وأربعون آية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله فاطر السموات والارض) مبدعهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه من الفطر وهو الشق وقيل الشق طولا كأنه شق العدم باخراجهما منه واضافته محضة لانه بمعنى الماضى فهو نعت للاسم الجليل ومن جعلها غير محضة جعله

فى الاشراك كما قال تعالى ان هى الا أسماء سميتموها أنتم الى أن قال ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيأ (ثالثها) ظنهم ان الله لا يرى ولا يعلم كما قال ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون والاول أصح أو نقول المراد جميع ظنونهم حتى يدخل فيه ظنهم الذى ظنوا ان الله لا يحيي الموتى وان العالم خلقه باطل كما قال تعالى ذلك ظن الذين كفروا ويؤيد هذا الوجه الالف واللام الذى فى السوء وسنذكره فى قوله ظن السوء وفيه وجوه (أحدها) ما اختاره المحققون من الادباء وهو ان السوء صار عبارة عن الفساد والصدق عبارة عن الصلاح يقال مررت برجل سوء أى فاسد وسئلت عن رجل صدق أى صالح فاذا كان مجموع قولنا رجل سوء يؤدى معنى قولنا فاسد فالسوء وحده يكون بمعنى الفساد وهذا ما اتفق عليه الخليل والزجاج واختاره الزمخشرى وتحقيق هذا ان السوء فى المعانى كالفساد فى الاجساد يقال ساء مزاجه وساء خلقه وساء ظنه كما يقال فسد اللحم وفسد الهواء بل كل ما ساء فقد فسد وكل ما فسد فقد ساء غير أن أحدهما كثير الاستعمال فى المعانى والآخر فى الاجرام قال الله تعالى ظهر الفساد فى البر والبحر وقال ساء ما كانوا يعملون هذا ما ظهر لى من تحقيق كلامهم ثم قال تعالى عليهم دائرة السوء أى دائرة الفساد وحاق بهم الفساد بحيث لا خروج لهم منه ثم قال تعالى وغضب الله عليهم زيادة فى الافادة لان من كان به بلاء فقد يكون مبتلى به على وجه الامتحان فيكون مصابا لكى يصير مثابا وقد يكون مصابا على وجه التعذيب فقوله وغضب الله عليهم اشارة الى ان الذى حاق بهم على وجه التعذيب وقوله ولعنهم زيادة افادة لان المغضوب عليه قد يكون بحيث يقنع الغاضب بالعتب والشتم أو الضرب ولا يفضى غضبه الى ابعاد المغضوب عليه من جنابه وطرده من بابه وقد يكون بحيث يفضى الى الطرد والابعاد فقال ولعنهم لكون الغضب شديدا ثم لما بين حالهم فى الدنيا بين مآلهم فى العقبى قال وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا وقوله ساءت اشارة لمكان التأنيث فى جهنم يقال هذه الدار نعم المكان وقوله تعالى ولله جنود السموات والارض قد تقدم تفسيره وبقى فيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى الاعادة نقول لله جنود الرحمة وجنود العذاب أو جنود الله انزالهم قد يكون للرحمة وقد يكون للعذاب فذكرهم أولا لبيان الرحمة بالمؤمنين قال تعالى وكان بالمؤمنين رحيما وثانيا لبيان انزال العذاب على الكافرين (المسئلة الثانية) قال هنالك وكان الله عليما حكيما وهنا وكان الله عزيزا حكيما لان قوله ولله جنود السموات والارض قد بينا ان المقصود من ذكرهم الاشارة الى شدة العذاب فذكر العزة كما قال تعالى أليس الله بعزيز ذى انتقام وقال تعالى فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر وقال تعالى العزيز الجبار (المسئلة الثالثة) ذكر جنود السموات والارض قبل ادخال المؤمنين الجنة وذكرهم ههنا بعد ذكر تعذيب الكفار واعداد جهنم نقول فيه ترتيب حسن لان الله تعالى ينزل جنود الرحمة فيدخل المؤمنين مكرمين معظمين الجنة ثم يلبسهم خلع الكرامة بقوله ويكفر عنهم سيآتهم كما بينا ثم تكون لهم القربة والزلفى بقوله وكان ذلك عند الله فوزا عظيما وبعد حصول القرب والعندية لا تبقى واسطة الجنود فالجنود فى الرحمة أولا ينزلون ويقربون آخرا وأما فى الكافر فيغضب عليه أولا فيبعد ويطرد الى البلاد النائية عن ناحية الرحمة وهى جهنم ويسلط عليهم ملائكة العذاب وهم جنود الله كما قال تعالى عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ولذلك ذكر جنود الرحمة أولا والقربة بقوله عند الله آخرا وقال ههنا غضب الله عليهم ولعنهم وهو الابعاد أولا وجنود السموات والارض آخرا ۞ ثم قال تعالى ((انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا)) قال المفسرون شاهدا على أمتك بما يفعلون كما قال تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا والاولى أن يقال ان الله تعالى قال انا أرسلناك شاهدا وعليه يشهد أنه لا اله الا الله كما قال تعالى شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم وهم الانبياء عليهم السلام الذين آتاهم الله علما من عنده وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ولذلك قال تعالى فاعلم أنه لا اله الا الله أى فاشهد وقوله مبشرا لمن قبل شهادته وعمل بها ويوافقه فيها ونذيرا لمن رد

بدلا منه وهو قليل فى المشتق (جاعل الملائكة) الكلام فى اضافته وكونه نعتا أو بدلا كما قبله وقوله تعالى (رسلا) منصوب به على الوجه الثانى من الاضافة بالاتفاق وأما على الوجه الاول فكذلك (٣٨٦) عند الكسائى وأما عند البصريين فبمضمر يدل هو عليه لان اسم الفاعل اذا كان بمعنى الماضى لا يعمل عندهم الا معرفا باللام وقال أبو سعيد السيرافى اسم الفاعل المتعدى الى اثنين يعمل فى الثانى لان باضافته الى الاول تعذرت اضافته الى الثانى فتعين نصبه له وعلل بعضهم ذلك بانه بالاضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله وقرئ جاعل بالرفع على المدح وقرئ الذى فطر السموات والارض وجعل الملائكة أى جاعلهم وسايط بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون اليهم رسالاته بالوحى والالهام والرؤيا الصادقة أو بينه تعالى وبين خلقه أيضا حيث يوصلون اليهم آثار قدرته وصنعه هذا على تقدير كون الجعل تصييرا وأما على تقدير كونه ابداعيا فرسلا نصب على الحالية وقرئ رسلا بسكون السين (أولى أجنحة) صفة لرسلا وأولو اسم جمع لذو كما ان أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما فى الاسماء المتمكنة المخاض والخلفة وقوله تعالى (مثنى وثلاث ورباع) صفات لاجنحة أى ذوى أجنحة متعددة متفاوتة فى العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها والمعنى ان من الملائكة خلقا لكل واحد منهم جناحان وخلقا أجنحة كل منهم ثلاثة وخلقا آخر لكل منهم أربعة أجنحة وروى أن صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة بجناحين منها يلفون أجسادهم وبآخرين منها يطيرون فيما أمروا به من جهته تعالى وجناحان منها مرخيان على وجوههم حياء من الله عز وجل وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح وروى أنه سأله عليهما السلام أن يتراءى له فى صورة فقال انك لن تطيق ذلك قال انى أحب أن تفعل فخرج عليه الصلاة والسلام فى ليلة مقمرة فأتاه

شهادته

شهادته ويخالفه فيها ثم بين فائدة الارسال على الوجه الذى ذكره فقال لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا وهذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون الامور الاربعة المذكورة مرتبة على الامور المذكورة من قبل فقوله لتؤمنوا بالله ورسوله مرتب على قوله انا أرسلناك لان كونه مرسلا من الله يقتضى أن يؤمن المكلف بالله المرسل وبالمرسل وقوله شاهدا يقتضى أن يعزر الله ويقوى دينه لان قوله شاهدا على ما بينا معناه انه يشهد أنه لا اله الا هو فدينه هو الحق وأحق أن يتبع وقوله مبشرا يقتضى أن يوقر الله لان تعظيم الله عنده على شبه تعظيم الله اياه وقوله نذيرا يقتضى أن ينزه عن السوء والفحشاء مخافة عذابه الاليم وعقابه الشديد وأصل الارسال مرتب على أصل الايمان ووصف الرسول يترتب عليه وصف المؤمن (وثانيهما) أن يكون كل واحد مقتضيا للامور الاربعة فكونه مرسلا يقتضى أن يؤمن المكلف بالله ورسوله ويعزره ويوقره ويسبحه وكذلك كونه شاهدا بالوحدانية يقتضى الامور المذكورة وكذلك كونه مبشرا ونذيرا لا يقال ان اقتران اللام بالفعل يستدعى فعلا مقدما يتعلق به ولا يتعلق بالوصف وقوله لتؤمنوا يستدعى فعلا وهو قوله انا أرسلناك فكيف تترتب الامور على كونه شاهدا ومبشرا الا نا نقول يجوز الترتيب عليه معنى لا لفظا كما أن القائل اذا قال بعثت اليك عالما لتكرمه فاللفظ ينبئ عن كون البعث سبب الاكرام وفى المعنى كونه عالما هو السبب للاكرام ولهذا لو قال بعثت اليك جاهلا لتكرمه كان حسنا واذا أردنا الجمع بين اللفظ والمعنى نقول الارسال الذى هو ارسال حال كونه شاهدا سبب كما تقول بعث العالم سبب جعله سببا لا مجرد البعث ولا مجرد العالم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال فى الاحزاب انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وههنا اقتصر على الثلاثة من الخمسة فما الحكمة فيه نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان ذلك المقام كان مقام ذكره لان أكثر السورة فى ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وما تقدمه من المبايعة والوعد والدخول ففصل هنالك ولم يفصل ههنا (ثانيهما) أن نقول الكلام مذكور ههنا لان قوله شاهدا لما لم يقتض أن يكون داعيا لجواز أن يقول مع نفسه أشهد أن لا اله الا الله ولا يدعو الناس قال هنالك وداعيا لذلك وههنا لما لم يكن كونه شاهدا منبئا عن كونه داعيا قال لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه وقوله تعالى وتعزروه وتوقروه وتسبحوه دليل على كونه سراجا لانه أتى بما يجب من التعظيم والاجتناب عما يحرم من السوء والفحشاء بالتنزيه وهو التسبيح (المسئلة الثانيه) قد ذكرنا مرارا ان اختيار البكرة والاصيل يحتمل أن يكون اشارة الى المداومة ويحتمل أن يكون أمرا بخلاف ما كان المشركون يعملونه فانهم كانوا يجتمعون على عبادة الاصنام فى الكعبة بكرة وعشية فأمروا بالتسبيح فى أوقات كانوا يذكرون فيها الفحشاء والمنكر (المسئلة الثالثة) الكنايات المذكورة فى قوله تعالى وتعزروه وتوقروه وتسبحوه راجعة الى الله تعالى أو الى الرسول عليه الصلاة والسلام والاصح هو الاول ۞ ثم قال تعالى ﴿ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما﴾ لما بين انه مرسل ذكر ان من بايعه فقد بايع الله وقوله تعالى يد الله فوق أيديهم يحتمل وجوها وذلك ان اليد فى الموضعين اما أن تكون بمعنى واحد واما أن تكون بمعنيين فان قلنا انها بمعنى واحد ففيه وجهان (أحدهما) يد الله بمعنى نعمة الله عليهم فوق احسانهم الى الله كما قال تعالى بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان (وثانيهما) يد الله فوق أيديهم أى نصرته اياهم أقوى وأعلى من نصرتهم اياه يقال اليد لفلان أى الغلبة والنصرة والقهر وأما ان قلنا انها بمعنيين فنقول فى حق الله تعالى بمعنى الحفظ وفى حق المبايعين بمعنى الجارحة واليد كناية عن الحفظ مأخوذ من حال المتبايعين اذا مد كل واحد منهما يده الى صاحبه فى البيع والشراء وبينهما ثالث متوسط لا يريد أن يتفاسخا العقد من غير اتمام البيع فيضع يده على يديهما ويحفظ أيديهما الى أن يتم العقد ولا يترك أحدهما يترك يد الآخر فوضع

جبريل عليهما السلام فى صورته فغشى عليه عليه الصلاة والسلام ثم أفاق وجبريل مسنده واحدى يديه على صدره والاخرى بين كتفيه فقال سبحان الله ما كنت أرى أن شيأ من الخلق هكذا فقال جبريل عليه السلام فكيف لو رأيت اسرافيل له اثنا عشر جناحا جناح منها بالمشرق وجناح منها بالمغرب وان العرش على كاهله وانه ليتضاءل الاحايين لعظمة الله عز وجل حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير (يزيد فى الخلق ما يشاء) استئناف مقرر لما قبله من تفاوت أحوال الملائكة فى عدد الاجنحة ومؤذن بان ذلك من أحكام مشيئته تعالى لا لامر راجع الى ذواتهم ببيان حكم كلى ناطق بانه تعالى يزيد فى أى خلق كان كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الامور التى لا يحيط بها الوصف وما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام من تخصيص بعض المعانى بالذكر من الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن فبيان لبعض المواد المعهودة بطريق التمثيل لا بطريق الحصر فيها وقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) تعليل بطريق التحقيق للحكم المذكور فان شمول قدرته تعالى لجميع الاشياء مما يوجب قدرته تعالى على أن يزيد كل ما يشاؤه ايجابا بينا (ما يفتح الله للناس من رحمة) عبر عن ارسالها بالفتح ايذانا بانها أنفس الخزائن التى يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالا وتنكيرها للاشاعة والابهام أى أى شئ يفتح الله من خزائن رحمته أية رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة الى غير ذلك مما لا يحاط به (فلا ممسك لها) أى لا أحد يقدر على امساكها (وما يمسك) أى أى شئ يمسك (فلا مرسل له) أى لا أحد يقدر على ارساله واختلاف الضميرين لما أن مرجع الاول مفسر بالرحمة ومرجع الثانى مطلق يتناولها وغيرها كائنا ما كان وفيه اشعار بان رحمته سبقت غضبه (من بعده) أى من بعد امساكه (وهو العزيز) الغالب على كل ما يشاء من الامور التى من جملتها الفتح والامساك (الحكيم) الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تذييل مقرر لما

قبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والامساك بموجب الحكمة التى عليها يدور أمر التكوين وبعدما بين سبحانه أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما بالقبض والبسط من غير أن يكون (٣٨٨) لاحد فى ذلك دخل ما بوجه من الوجوه أمر الناس قاطبة أو أهل مكة خاصة بشكر نعمه فقال (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم) أى انعامه عليكم ان جعلت النعمة مصدرا أو كائنة عليكم ان جعلت اسما أى راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة فى نعمة الايجاد ونعمة الابقاء نفى أن يكون فى الوجود شئ غيره تعالى يصدر عنه احدى النعمتين بطريق الاستفهام الانكارى المنادى باستحالة أن يجاب عنه بنعم فقال (هل من خالق غير الله) أى هل خالق مغاير له تعالى موجود على أن خالق مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه كلمة من لتأكيد العموم وغير الله نعت له باعتبار محله كما أنه نعت له فى قراءة الجر باعتبار لفظه وقرئ بالنصب على الاستثناء وقوله تعالى (يرزقكم من السماء والارض) أى بالمطر والنبات كلام مبتدأ على التقادير لا محل له من الاعراب داخل فى حيز النفى والانكار ولا مساغ لما قيل من أنه صفة أخرى لخالق مرفوعة المحل أو مجرورته لان معناه نفى وجود خالق موصوف بوصفى المغايرة والرازقية معا من غير تعرض لنفى وجود ما اتصف بالمغايرة فقط ولا لما قيل من انه الخبر للمبتدا ولا لما قيل من أنه مفسر لمضمر ارتفع به قوله تعالى من خالق على الفاعلية أى هل يرزقكم من خالق الخ لما أن معناهما نفى رازقية خالق مغاير له تعالى من غير تعرض لنفى وجوده رأسا مع أنه المراد حتما ألا يرى الى قوله تعالى (لا اله الا هو) فانه استئناف مسوق لتقرير النفى المستفاد منه قصدا وجار مجرى الجواب عما يوهمه الاستفهام صورة فحيث كان هذا ناطقا بنفى الوجود تعين أن يكون ذلك أيضا كذلك قطعا والفاء فى قوله تعالى (فأنى تؤفكون) لترتيب انكار عدولهم عن التوحيد الى الاشراك

اليد فوق الايدى صار سببا للحفظ على البيعة فقال تعالى يد الله فوق أيديهم يحفظهم على البيعة كما يحفظ ذلك المتوسط أيدى المتبايعين وقوله تعالى فمن نكث فانما ينكث على نفسه أما على قولنا المراد من اليد النعمة أو الغلبة والقوة فلان من نكث فوت على نفسه الاحسان الجزيل فى مقابلة العمل القليل فقد خسر ونكثه على نفسه وأما على قولنا المراد الحفظ فهو عائد الى قوله انما يبايعون الله يعنى من يبايعك أيها النبى اذا نكث لا يكون نكثه عائدا اليك لان البيعة مع الله ولا الى الله لانه لا يتضرر بشئ فضرره لا يعود الا اليه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما وقد ذكرنا ان العظم فى الاجرام لا يقال الا اذا اجتمع فيه الطول البالغ والعرض الواسع والسمك الغليظ فيقال للجبل الذى هو مرتفع ولا اتساع لعرضه جبل عال أو مرتفع أو شاهق فاذا انضم اليه الاتساع فى الجوانب يقال عظيم والاجر كذلك لان مأكل الجنة تكون من أرفع الاجناس وتكون فى غاية الكثرة وتكون ممتدة الى الابد لا انقطاع لها فحصل فيه ما يناسب أن يقال له عظيم والعظيم فى حق الله تعالى اشارة الى كماله فى صفاته كما أنه فى الجسم اشارة الى كماله فى جهاته ثم قال تعالى (سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيأ ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا) لما بين حال المنافقين ذكر المخلفين فان قوما من الاعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لظنهم انه يهزم فانهم قالوا أهل مكة يقاتلون عن باب المدينة فكيف يكون حالهم اذا دخلوا بلادهم وأحاط بهم العدو فاعتذروا وقولهم شغلتنا أموالنا وأهلونا فيه أمران يفيدان وضوح العذر (أحدهما) أموالنا ولم يقولوا اشغلتنا الاموال وذلك لان جمع المال لا يصلح عذرا لانه لا نهاية له واما حفظ ما جمع من الشتات ومنع الحاصل من الفوات يصلح عذرا فقالوا أموالنا أى ما صار مالا لنا لا مطلق الاموال (وثانيهما) قوله تعالى وأهلونا وذلك لو أن قائلا قال لهم المال لا ينبغى أن يبلغ الى درجة يمنعكم حفظه من متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لكان لهم أن يقولوا فالاهل يمنع الاشتغال بهم وحفظهم عن أهم الامور ثم انهم مع العذر تضرعوا وقالوا فاستغفر لنا يعنى فنحن مع اقامة العذر معترفون بالاساءة فاستغفر لنا واعف عنا فى أمر الخروج فكذبهم الله تعالى وقال يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم وهذا يحتمل أمرين (أحدهما) أن يكون التكذيب راجعا الى قولهم فاستغفر لنا وتحقيقه هو انهم أظهروا انهم يعتقدون انهم مسيؤن بالتخلف حتى استغفروا ولم يكن فى اعتقادهم ذلك بل كانوا يعتقدون انهم بالتخلف محسنون (ثانيهما) قالوا شغلتنا اشارة الى أن امتناعنا لهذا لا غير ولم يكن ذلك فى اعتقادهم بل كانوا يعتقدون امتناعهم لاعتقاد أن النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يقهرون ويغلبون كما قال بعده بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وقوله قل فمن يملك لكم من الله شيأ ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا معناه انكم تحترزون عن الضرر وتتركون أمر الله ورسوله وتقعدون طلبا للسلامة ولو أراد بكم الضرر لا ينفعكم قعودكم من الله شيأ أو معناه انكم تحترزون عن ضرر القتال والمقاتلين وتعتقدون أن أهليكم وبلادكم تحفظكم من العدو فهب انكم حفظتم أنفسكم عن ذلك فمن يدفع عنكم عذاب الله فى الآخرة مع أن ذلك أولى بالاحتراز وقد ذكرنا فى سورة يس فى قوله تعالى ان يردن الرحمن بضر انه فى صورة كون الكلام مع المؤمن أدخل الباء على الضر فقال ان أرادنى الله بضر وقال وان يمسسك الله بضر وفى صورة كون الكلام مع الكافر أدخل الباء على الكافر فقال ههنا ان أراد بكم ضرا وقال من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ وقد ذكرنا الفرق الفائق هناك ولا نعيده ليكون هذا باعثا على مطالعة تفسير سورة يس فانها درج الدرر اليتيمة بل كان الله بما تعملون خبيرا أى بما تعملون من اظهار الحرب واضمار غيره ثم قال تعالى (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا) يعنى لم يكن

تخلفكم

على ماقبلها كانه قيل واذا تبين تفرده تعالى بالالوهية والخالقية والرازقية فمن أى وجه تصرفون عن التوحيد الى الشرك وقوله تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) تلوين للخطاب وتوجيه له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٨٩) بين خطابى الناس مسارعة الى تسليته
عليه الصلاة والسلام بعموم البلية أولا والاشارة الى الوعد والوعيد ثانيا أى وان استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت اليهم من الحق المبين بعدما أقمت عليهم الحجة والقمتهم الحجر فتأس بأولئك الرسل فى المصابرة على ما أصابهم من قبل قومهم فوضع موضعه ماذكر اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب وتنكير الرسل للتفخيم الموجب لمزيد التسلية والتوجه الى المصابرة أى رسل أولو شأن خطير وذوو عدد كثير (والى الله ترجع الامور) لا الى غيره فيجازى كلا منك ومنهم بما أنتم عليه من الاحوال التى من جملتها اصبرك وتكذيبهم وفى الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع ابهام الجزاء ثوابا وعقابا من المبالغة فى الوعد والوعيد ما لا يخفى وقرئ ترجع بفتح التاء من الرجوع والاول أدخل فى التهويل (يا أيها الناس) رجوع الى خطابهم وتكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير (ان وعد الله) المشار اليه برجع الامور اليه تعالى من البعث والجزاء (حق) ثابت لا محالة من غير خلف (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) بأن يذهلكم التمتع بمتاعها ويلهيكم التلهى بزخارفها عن تدارك ما يهمكم يوم حلول الميعاد والمراد نهيهم عن الاغترار بها وان توجه النهى صورة اليها كما فى قوله تعالى لا يجرمنكم شقاقى (ولا يغرنكم بالله) وعفوه وكرمه تعالى (الغرور) أى المبالغ فى الغرور وهو الشيطان بان يمنيكم المغفرة مع الاصرار على المعاصى قائلا اعملوا ما شئتم ان الله غفور يغفر الذنوب جميعا فان ذلك وان أمكن لكن تعاطى الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول السم تعويلا على دفع الطبيعة وتكرير فعل النهى للمبالغة فيه ولاختلاف الغرورين فى الكيفية وقرئ الغرور بالضم على أنه مصدر أو جمع غار كقعود جمع

تخلفكم لماذكرتم بل ظننتم أن لن ينقلب وأن مخففة من الثقيلة أى ظننتم انهم لا ينقلبون ولا يرجعون وقوله وزين ذلك فى قلوبكم يعنى ظننتم أولا فزين الشيطان ظنكم عندكم حتى قطعتم به وذلك لان الشبهة قد يزينها الشيطان ويضم اليها مخايلة يقطع بها الغافل وان كان لا يشك فيها العاقل وقوله تعالى وظننتم ظن السوء يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون هذا العطف عطفا يفيد المغايرة فقوله وظننتم ظن السوء غير الذى فى قوله بل ظننتم وحينئذ يحتمل أن يكون الظن الثانى معناه وظننتم ان الله يخلف وعده أو ظننتم ان الرسول كاذب فى قوله (وثانيهما) أن يكون قوله وظننتم ظن السوء هو ما تقدم من ظن أن لا ينقلبوا ويكون على حد قول القائل علمت هذه المسئلة وعلمت كذا أى هذه المسئلة لا غيرها وذلك كأنه قال بل ظننتم ظن أن لن ينقلب وظنكم ذلك فاسد وقد بينا التحقيق فى ظن السوء وقوله تعالى وكنتم قوما بورا يحتمل وجهين (أحدهما) وصرتم بذلك الظن بائرين هالكين (وثانيهما) أنتم فى الاصل بائرون وظننتم ذلك الظن الفاسد ۞ ثم قال تعالى (ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا أعتدنا للكافرين سعيرا) على قولنا قوله وظننتم ظن السوء ظن آخر غير ما فى قوله بل ظننتم ظاهر لانا بينا ان ذلك ظنهم بأن الله يخلف وعده أو ظنهم بأن الرسول كاذب فقال ومن لم يؤمن بالله ورسوله ويظن به خلفا وبرسوله كذبا فانا أعتدنا له سعيرا وفى قوله للكافرين بدلا عن أن يقول فانا أعتدنا له فائدة وهى التعميم كأنه تعالى قال ومن لم يؤمن بالله فهو من الكافرين وانا أعتدنا للكافرين سعيرا ۞ ثم قال تعالى (ولله ملك السموات والارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما) بعدما ذكر من له أجر عظيم من المبايعين ومن له عذاب أليم من الظانين الضالين أشار الى أنه يغفر للاولين بمشيئته ويعذب الآخرين بمشيئته وغفرانه ورحمته أعم وأشمل وأتم وأكمل وقوله تعالى ولله ملك السموات والارض يفيد عظمة الامرين جميعا لان من عظم ملكه يكون أجره وهبته فى غاية العظم وعذابه وعقوبته كذلك فى غاية النكال والالم ۞ ثم قال تعالى (سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم) أوضح الله كذبهم بهذا حيث كانوا عندما يكون السير الى مغانم يتوقعونها يقولون من تلقاء أنفسهم ذرونا نتبعكم فاذا كان أموالهم وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم اياهم الى أهل مكة فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم أخذ الغنيمة والمراد من المغانم مغانم أهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم الا من كان معه فى المدينة وفى قوله سيقول المخلفون وعد المبايعين الموافقين بالغنيمة والمتخلفين المخالفين بالحرمان ۞ وقوله تعالى (يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) يحتمل وجوها (أحدها) هو ما قال الله ان غنيمة خيبر لمن شاهد الحديبية وعاهد بها لا غير وهو الاشهر عند المفسرين والاظهر نظرا الى قوله تعالى كذلكم قال الله من قبل (ثانيها) يريدون أن يبدلوا كلام الله وهو قوله وغضب الله عليهم وذلك لانهم لو اتبعوكم لكانوا فى حكم بيعة أهل الرضوان الموعودين بالغنيمة فيكونون من الذين رضى الله عنهم كما قال تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فلا يكونون من الذين غضب الله عليهم فيلزم تبديل كلام الله (ثالثها) هو ان النبى صلى الله عليه وسلم لما تخلف القوم أطلعه الله على باطنهم وأظهر له نفاقهم وانه يريد أن يعاقبهم وقال للنبى صلى الله عليه وسلم فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا فأرادوا أن يبدلوا ذلك الكلام بالخروج معه لا يقال فالآية التى ذكرتم واردة فى غزوة تبوك لا فى هذه الواقعة لانا نقول قد وجد ههنا بقوله لن تتبعونا على صيغة النفى بدلا عن قوله لا تتبعونا على صيغة النهى معنى لطيف وهو ان النبى صلى الله عليه وسلم بنى على اخبار الله تعالى عنهم النفى لوثوقه وقطعه بصدقه فجزم وقال لن تتبعونا يعنى لو أذنتكم ولو أمرتكم أو لو أردتم واخترتم لا يتم لكم ذلك لما أخبر الله تعالى ۞ ثم قال تعالى (فسيقولون بل تحسدوننا) ردا على قوله تعالى كذلكم قال الله من قبل كأنهم قالوا ما قال الله كذلك من قبل بل تحسدوننا وبل للاضراب والمضروب عنه محذوف فى الموضعين اما ههنا فهو بتقدير ما قال الله كذلك فان

قيل بماذا كان الحسد في اعتقادهم نقول كأنهم قالوا نحن كنا مصيبين في عدم الخروج حيث رجعوا من الحديبية من غير حاصل ونحن استرحنا فان خرجنا معهم ويكون فيه غنيمة يقولون هم غنموا معنا ولم يتعبوا معنا ﴿ ثم قال تعالى ردا عليهم كما ردوا عليه ﴿بل كانوا لا يفقهون الا قليلا﴾ أي لم يفقهوا من قولك لا تخرجوا الا ظاهر النهي ولم يفهموا من حكمه الا قليلا فحملوه على ما أرادوه وعللوه بالحسد ﴿ ثم قال تعالى ﴿قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما﴾ لما قال النبي صلى الله عليه وسلم قل لن تتبعونا وقال فقل لن تخرجوا معي أبدا فكان المخلفون جمعا كثيرا من قبائل متشعبة دعت الحاجة الى بيان قبول توبتهم فانهم لم يبقوا على ذلك ولم يكونوا من الذين مردوا على النفاق بل منهم من حسن حاله وصلح باله فجعل لقبول توبتهم علامة وهو انهم يدعون الى قتال قوم أولي بأس شديد و يطيعون بخلاف حال ثعلبة حيث امتنع من أداء الزكاة ثم أتى بها ولم يقبل منه النبي صلى الله عليه وسلم واستمر عليه الحال ولم يقبل منه أحد من الصحابة كذلك كان يستمر حال هؤلاء لولا انه تعالى بين انهم يدعون فان كانوا يطيعون يؤتون الاجر الحسن وما كان أحد من الصحابة يتركهم يتبعونه والفرق بين حال ثعلبة وبين حال هؤلاء من وجهين (أحدهما) ان ثعلبة جاز أن يقال حاله لم يكن يتغير في علم الله فلم يبين لتوبته علامة وحال الاعراب تغيرت فان بعد النبي صلى الله عليه وسلم لم يبق من المنافقين على النفاق أحد على مذهب أهل السنة (وثانيهما) ان الحاجة الى بيان حال الجمع الكثير والجم الغفير أمس لانه لولا البيان لكان يفضي الامر الى قيام الفتنة بين فرق المسلمين وفي قوله تعالى ستدعون الى قوم أولي بأس شديد وجوه أشهرها وأظهرها انهم بنو حنيفة حيث تابعوا مسيلمة وغزاهم أبو بكر (وثانيها) هم فارس والروم غزاهم عمر (ثالثها) هم هوازن وثقيف غزاهم النبي صلى الله عليه وسلم وأقوى الوجوه هو ان الدعاء كان من النبي صلى الله عليه وسلم وان كان الاظهر غيره اما الدليل على قوة هذا الوجه هو أن أهل السنة اتفقوا على ان أمر العرب في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ظهر ولم يبق الا كافر مجاهر أو مؤمن تقي طاهر وامتنع النبي صلى الله عليه وسلم من الصلاة على موتى المنافقين وترك المؤمنون مخالطتهم حتى ان عبادة ابن كعب مع كونه بين المؤمنين لم يكلمه المؤمنون مدة وما ذكره الله علامة لظهور حال من كان منافقا فان كان ظهر حالهم بغير هذا فلا معنى لجعل هذا علامة وان ظهر بهذا فالظهور كان في زمان النبي صلى الله عليه وسلم لان النبي عليه الصلاة والسلام لو امتنع من قبولهم لاتباعه لامتنع أبو بكر وعمر لقوله تعالى واتبعوه وقوله فاتبعوني فان قيل هذا ضعيف لوجهين (أحدهما) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لن تتبعونا وقال لن تخرجوا معي أبدا فكيف كانوا يتبعونه مع النفي (الثاني) قوله تعالى أولي بأس شديد ولم يبق بعد ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام حرب مع قوم أولي بأس شديد فان الرعب استولى على قلوب الناس ولم يبق للكفار بعده شدة وبأس واتفاق الجمهور يدل على القوة والظهور نقول اما الجواب عن الاول فمن وجهين (أحدهما) ان يكون ذلك مقيدا تقديره لن تخرجوا معي أبدا وأنتم على ما أنتم عليه ويجب هذا التقييد لانا أجمعنا على أن منهم من أسلم وحسن اسلامه بل الاكثر ذلك وما كان يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم ان يقول لهم لستم مسلمين لقوله تعالى ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا ومع القول باسلامهم ما كان يجوز أن يمنعهم من الجهاد في سبيل الله مع وجوبه عليهم وكان ذلك مقيدا وقد تبين حسن حالهم فان النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم الى جهاد فأطاعه قوم وامتنع آخرون وظهر أمرهم وعلم من استمر على الكفر ممن استقر قلبه على الايمان (الثاني) المراد من قوله ان تتبعونا في هذا القتال فحسب وقوله لن تخرجوا معي كان في غير هذا وهم المنافقون الذين تخلفوا في غزوة تبوك واما اتفاق الجمهور فنقول لا مخالفة بيننا وبينهم لانا نقول النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم أولا وأبو بكر رضي الله عنه أيضا دعاهم بعد معرفته

فاعل (ان الشيطان لكم عدو) عداوة قديمة لا تكاد تزول وتقديم لكم للاهتمام به (فاتخذوه عدوا) بمخالفتكم له في عقائدكم وأفعالكم وكونكم على حذر منه في مجامع أحوالكم وقوله تعالى (انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على أن غرضه في دعوة شيعته الى اتباع الهوى والركون الى ملاذ الدنيا ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيوية كما هو مقصد المتحابين في الدنيا عند سعي بعضهم في حاجة بعض بل هو توريطهم والقاؤهم في العذاب الخالد من حيث لا يحتسبون (الذين كفروا لهم) بسبب كفرهم واجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته (عذاب شديد) لا يقادر قدره مديد لا يبلغ مداه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم) بسبب ما ذكر من الايمان والعمل الصالح الذي من جملته عداوة الشيطان (مغفرة) عظيمة (وأجر كبير) لا غاية لهما (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) اما تقرير لما سبق من التباين البين بين عاقبتي الفريقين ببيان تباين حاليهما المؤديين الى تينك العاقبتين والفاء لانكار ترتيب ما بعدها على ما قبلها أي أبعد كون حاليهما كما ذكر يكون من زين له الكفر من جهة الشيطان فانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الايمان والعمل الصالح حتى لا تكون عاقبتاهما كما ذكر فحذف ما حذف لدلالة ما سبق عليه وقوله تعالى (فان الله يضل) الخ تقرير له وتحقيق للحق ببيان أن الكل بمشيئته تعالى أي فانه تعالى يضل (من يشاء) أن يضله لاستحسانه واستحبابه الضلال وصرف اختياره اليه فيرده أسفل سافلين (ويهدي من يشاء) أن يهديه بصرف اختياره الى الهدى فيرفعه الى أعلى عليين واما تمهيد لما يعقبه من نهيه عليه الصلاة والسلام عن التحسر والتحزن عليهم لعدم اسلامهم ببيان أنهم ليسوا بأهل لذلك بل لان يضرب عنهم صفحا ولا يبالى بهم قطعا أي أبعد كون حالهم كما ذكر تتحسر عليهم فحذف لما دل عليه قوله تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) دلالة بينة واما تمهيد لصرفه عليه الصلاة

جواز ذلك من فعل النبى صلى الله عليه وسلم اغا نحن نثبت ان النبى صلى الله عليه وسلم دعاهم فان قالوا أبو بكر رضى الله عنه دعاهم لا يمكن بين القولين تناف وان قالوا لم يدعهم النبى صلى الله عليه وسلم فالنفى والجزم به فى غاية البعد لجواز أن يكون ذلك قد وقع وكيف لا والنبى عليه الصلاة والسلام قال من كلام الله ان كنتم تحبون الله فاتبعونى وقال واتبعونى هذا صراط مستقيم ومنهم من أحب الله واختار اتباع النبى محمد صلى الله عليه وسلم لان بقاء جمعهم على النفاق والكفر بعدما اتسعت دائرة الاسلام واجتمعت العرب على الايمان بعيد ويوم قوله صلى الله عليه وسلم لن تتبعونا كان أكثر العرب على الكفر والنفاق لانه كان قبل فتح مكة وقبل أخذ حصون كثيرة واما قوله لم يبق للنبى صلى الله عليه وسلم حرب مع أولى بأس شديد قلنا لا نسلم ذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم عام الحديبية دعاهم الى الحرب لانه خرج محرما ومعه الهدى ليعلم قريش انه لا يطلب القتال وامتنعوا فقال ستدعون الى الحرب ولا شك أن من يكون خصمه مسلحا محاربا أكثر بأسا ممن يكون على خلاف ذلك فكان قد علم من حال مكة انهم لا يوقرون حاجا ولا معتمرا فقوله أولى بأس شديد يعنى أولى سلاح من آلة الحديد فان الحديد فيه بأس شديد ومن قال بان الداعى أبو بكر وعمر تمسك بالآية على خلافتهما ودلالتها ظاهرة وحينئذ تقاتلونهم أو يسلمون اشارة الى ان أحدهما يقع وقرئ أو يسلموا بالنصب باضمار أن على معنى تقاتلونهم الى ان يسلموا والتحقيق فيه هو ان أو لا تجيء الا بين المتغايرين وتنبئ عن الحصر فيقال العدد زوج أو فرد ولهذا لا يصح أن يقال هو زيد أو عمرو ولهذا يقال العدد زوج أو خمسة أو غيرهما اذا علم هذا فقول القائل لالزمنك أو تقضينى حقى يفهم منه ان الزمان انحصر فى قسمين قسم يكون فيه الملازمة وقسم يكون فيه قضاء الحق فلا يكون بين الملازمة وقضاء الحق زمان لا يوجد فيه الملازمة ولا قضاء الحق فيكون فى قوله لالزمنك أو تقضينى كما حكى فى قول القائل لالزمنك الى أن تقضى لامتداد زمان الملازمة الى القضاء وهذا مما يضعف قول القائل الداعى هو عمرو والقوم فارس والروم لان الفريقين يقران بالجزية فالقتال معهم لا يمتد الى الاسلام لجواز أن يؤدوا الجزية وقوله تعالى فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل فيه فائدة لان التولى اذا كان بعذر كما قال تعالى ليس على الاعمى حرج لا يكون للمتولى عذاب أليم فقال وان تتولوا كما توليتم يعنى ان كان توليكم بناء على الظن الفاسد والاعتقاد الباطل كما كان حيث قلتم بالسنتكم لا بقلوبكم شغلتنا أموالنا فالله يعذبكم عذابا أليما ۞ ثم ان الله تعالى قال (ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج) بين من يجوز له التخلف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكر والفر وبين ذلك ببيان ثلاثة أصناف (الاول) الاعمى فانه لا يمكنه الاقدام على العدو والطلب ولا يمكنه الاحتراز والهرب والاعرج كذلك والمريض كذلك وفى معنى الاعرج الاقطع والمقعد بل ذلك أولى بأن يعذر ومن به عرج لا يمنعه من الكر والفر لا يعذر وكذلك المرض القليل الذى لا يمنع من الكر والفر كالطحال والسعال اذ به يضعف وبعض أوجاع المفاصل لا يكون عذرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان هذه اعذار تكون فى نفس المجاهد ولنا أعذار خارجة كالفقر الذى لا يتمكن صاحبه من استصحاب ما يحتاج اليه والاشتغال عن لولاه لضاع كطفل أو مريض والاعذار نعلم من الفقه ونحن نبحث فيما يتعلق بالتفسير فى بيان مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا الاعذار التى فى السفر لان غيرها ممكن الازالة بخلاف العرج والعمى (المسئلة الثانية) اقتصر منها على الاصناف الثلاثة لان العذر اما أن يكون باخلال فى عضو أو باختلال فى القوة والذى بسبب اختلال العضو فاما أن يكون بسبب اختلال فى العضو الذى به الوصول الى العدو والانتقال فى مواضع القتال أو فى العضو الذى تتم به فائدة الحصول فى المعركة والوصول والاول هو الرجل والثانى هو العين لان بالرجل يحصل الانتقال وبالعين يحصل الانتفاع فى الطلب والهرب وأما الاذن والانف واللسان وغيرها من الاعضاء فلا مدخل لها فى شئ من الامرين بقيت اليد فان المقطوع اليدين لا يقدر

والسلام عما كان عليه من الحرص الشديد على اسلامهم والمبالغة فى دعوتهم اليه ببيان استحالة تحولهم عن الكفر لكونه فى غاية الحسن عندهم أى أبعدما ذكر من زين له الكفر من قبل الشيطان فرآه حسنا فانهمك فيه يقبل الهداية حتى تطمع فى اسلامه وتتعب نفسك فى دعوته فحذف ما حذف لدلالة ما مر من قوله تعالى فان الله يضل من يشاء الخ على أنه ممن شاء الله تعالى أن يضله فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين وقرئ فلا تذهب نفسك وقوله تعالى حسرات اما مفعول له أى فلا تهلك نفسك للحسرات والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام على أحوالهم أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر وعليهم صلة تذهب كما يقال هلك عليه حبا ومات عليه حزنا أو هو بيان للمتحسر عليه ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لان المصدر لا تتقدم عليه صلته واما حال كان كلها صارت حسرات وقوله تعالى (ان الله عليم بما يصنعون) أى من القبائح تعليل لما قبله على الوجوه الثلاثة مع ما فيه من الوعيد ✱ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى أبى جهل ومشركى مكة (والله الذى أرسل الرياح) مبتدأ وخبر وقرئ الريح وصيغة المضارع فى قوله تعالى (فتثير سحابا) لحكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة ولان المراد بيان احداثها لتلك الخاصية ولذلك أسند اليها أو للدلالة على استمرار الاثارة (فسقناه الى بلد ميت) وقرئ بالتخفيف (فأحيينا به الارض) أى بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب فان بينهما تلازما فى الذهن كما فى الخارج أو بالسحاب فانه سبب السبب (بعد موتها) أى يبسها وايراد الفعلين على صيغة الماضى للدلالة على التحقق واسنادهما الى نون العظمة المنبئ عن اختصاصهما به تعالى لما فيهما من مزيد الصنع ولتكميل المماثلة بين احياء الارض وبين البعث الذى شبه به بقوله تعالى (كذلك النشور) فى كمال الاختصاص بالقدرة الربانية والكاف فى حيز الرفع على الخبرية أى مثل

ذلك الاحياء الذى تشاهدونه احياء الاموات فى صحة المقدورية وسهولة التأتى من غير تفاوت بينهما أصلا سوى الالف فى الاول دون الثانى وقيل فى كيفية الاحياء يرسل الله تعالى من تحت (٣٩٢) العرش ماء فينبت منه أجساد الخلق (من كان يريد العزة) هم المشركون الذين كانوا يتعززون بعبادة الاصنام كقوله تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا والذين كانوا يتعززون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم كما فى قوله تعالى الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة والجمع بين كان ويريد للدلالة على دوام الارادة واستمرارها (فلله العزة جميعا) أى له تعالى وحده لا لغيره عزة الدنيا وعزة الآخرة أى فليطلبها منه لا من غيره فاستغنى عن ذكره بذكر دليله ايذانا بأن اختصاص العزة به تعالى موجب لتخصيص طلبها به تعالى وقوله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) بيان لما يطلب به العزة وهو التوحيد والعمل الصالح وصعودهما اليه مجاز عن قبوله تعالى اياهما أو صعود الكتبة بصحيفتهما وتقديم الجار والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به كقوله تعالى وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات أى اليه يصل الكلم الطيب الذى به يطلب العزة لا الى الملائكة الموكلين باعمال العباد فقط وهو يعز صاحبه ويعطى طلبته بالذات والمستكن فى يرفعه للكلم فان مدار قبول العمل هو التوحيد ويؤيده القراءة بنصب العمل أو للعمل فانه يحقق الايمان ويقويه ولا ينال الدرجات العالية الا به وقرئ يصعد من الاصعاد على البناءين والمصعد هو الله سبحانه أو المتكلم به أو الملك وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن وعنه عليه الصلاة والسلام أنه سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر اذا قالها العبد عرج بها الى السماء فحيا بها وجه الرحمن فاذا لم يكن عمل صالح لم تقبل وعن ابن مسعود رضى الله عنه مامن عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله وانما

على شئ وهو عذر واضح ولم يذكره نقول لان فائدة الرجل وهى الانتقال تبطل بالخلل فى احداهما وفائدة اليد وهى الضراب والبطش لا تبطل الا ببطلان اليدين جميعا ومقطوع اليدين لا يوجد الا نادرا ولعل فى جماعة النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن أحد مقطوع اليدين فلم يذكره أو لان المقطوع ينتفع به فى الجهاد فانه ينظر ولولاه لاستقل به مقاتل فيمكن أن يقاتل وهو غير معذور فى التخلف لان المجاهدين ينتفعون به بخلاف الاعمى فان قيل كما ان المقطوع اليد الواحدة لا تبطل منفعة بطشه كذلك الاعور لا تبطل منفعة رؤيته وقد ذكر الاعمى وما ذكر الاشل وأقطع اليدين قلنا لما بينا ان مقطوع اليدين نادر الوجود والآفة النازلة باحدى اليدين لا تعمهما والآفة النازلة بالعين الواحدة تعم العينين لان منبع النور واحد وهما متجاذبان والوجود يفرق بينهما فان الاعمى كثير الوجود ومقطوع اليدين نادر (المسئلة الثالثة) قدم الآفة فى الآلة على الآفة فى القوة لان الآفة فى القوة تزول وتطرأ والآفة فى الآلة اذا طرأت لا تزول فان الاعمى لا يعود بصيرا فالعذر فى محل الآلة أتم (المسئلة الرابعة) قدم الاعمى على الاعرج لان عذر الاعمى يستمر ولو حضر القتال والاعرج ان حضر راكبا أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمى وغيره قوله تعالى ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما﴾ اعلم ان طاعة كل واحد منهما طاعة للآخر فجمع بينهما بيانا لطاعة الله فان الله تعالى لو قال ومن يطع الله كان لبعض الناس أن يقول نحن لا نرى الله ولا نسمع كلامه فمن أين نعلم أمره حتى نطيعه فقال طاعته فى طاعة رسوله وكلامه يسمع من رسوله ثم قال ومن يتول أى بقلبه ثم لما بين حال المخلفين بعد قوله ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله عاد الى بيان حالهم وقال لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم من الصدق كما علم مافى قلوب المنافقين من المرض فأنزل السكينة عليهم حتى بايعوا على الموت وفيه معنى لطيف وهو ان الله تعالى قال قبل هذه الآية ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات فجعل طاعة الله والرسول علامة لادخال الله الجنة فى تلك الآية وفى هذه الآية بين ان طاعة الله والرسول وجدت من أهل بيعة الرضوان أما طاعة الله فالاشارة اليها بقوله لقد رضى الله عن المؤمنين وأما طاعة الرسول فبقوله اذ يبايعونك تحت الشجرة بقى الموعود به وهو ادخال الجنة أشار اليه بقوله تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين لان الرضا يكون معه ادخال الجنة كما قال تعالى ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها رضى الله عنهم ثم قال تعالى فعلم مافى قلوبهم والفاء للتعقيب وعلم الله قبل الرضا لانه علم مافى قلوبهم من الصدق فرضى عنهم فكيف يفهم التعقيب فى العلم نقول قوله فعلم مافى قلوبهم متعلق بقوله اذ يبايعونك تحت الشجرة كما يقول القائل فرحت أمس اذ كلمت زيدا فقام الى أو اذ دخلت عليه فاكرمنى فيكون الفرح بعد الاكرام ترتيبا كذلك ههنا قال تعالى لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم مافى قلوبهم من الصدق اشارة الى ان الرضا لم يكن عند المبايعة فحسب بل عند المبايعة التى كان معها علم الله بصدقهم والفاء فى قوله فأنزل السكينة عليهم للتعقيب الذى ذكرته فانه تعالى رضى عنهم فأنزل السكينة عليهم وفى علم بيان وصف المبايعة بكونها معقبة بالعلم بالصدق الذى فى قلوبهم وهذا توفيق لا يتأتى الا لمن هداه الله تعالى الى معانى كتابه الكريم وقوله تعالى وأثابهم فتحا قريبا هو فتح خيبر ومغانم كثيرة يأخذونها مغانمها وقيل مغانم هجر وكان الله عزيزا كامل القدرة غنيا عن اعانتكم اياه حكيما حيث جعل هلاك أعدائه على أيديكم ليثيبكم عليه أو لان فى ذلك اعزاز قوم واذلال آخرين فانه يذل من يشاء بعزته ويعز من يشاء بحكمته ۞ ثم قال تعالى ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما﴾ اشارة الى ان ما آتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب بل الجزاء قدامهم

واغاهى لعاجلة عجل بها وفى المغانم الموعود بها أقوال أصحها انه وعد مغانم كثيرة من غير تعيين وكل ماغنموه كان منها والله كان عالما بها وهذا كما يقول الملك الجواد لمن يخدمه يكون لك منى على ما فعلته الجزاء ان شاء الله ولا يريد شيأ بعينه ثم كل ما يأتى به ويؤتيه يكون داخلا تحت ذلك الوعد غير ان الملك لا يعلم تفاصيل ما يصل اليه وقت الوعد والله عالم بها وقوله تعالى وكف أيدى الناس عنكم لاتمام المنة كانه قال رزقكم غنيمة باردة من غير مس حر القتال ولو تعبتم فيه لقلتم هذا جزاء تعبنا وقوله تعالى ولتكون آية للمؤمنين عطف على مفهوم لانه لما قال الله تعالى فعجل لكم هذه واللام ينبئ عن النفع كما ان على ينبئ عن الضر القائل لا على ولا لى يعنى لا ما اتضرر به ولا ما انتفع به ولا أضر به ولا أنفع فكذلك قوله فعجل لكم هذه لتنفعكم ولتكون آية للمؤمنين وفيه معنى لطيف وهو أن المغانم الموعود بها كل ما يأخذه المسلمون فقوله ولتكون آية للمؤمنين يعنى لينفعكم بها وليجعلها لمن بعدكم آية تدلهم على ان ما وعدهم الله يصل اليهم كما وصل اليكم أو نقول معناه لتنفعكم فى الظاهر وتنفعكم فى الباطن حيث يزداد يقينكم اذا رأيتم صدق الرسول فى اخباره عن الغيوب فتجمل اخباركم ويكمل اعتقادكم وقوله ويهديكم صراطا مستقيما وهو التوكل عليه والتفويض اليه والاعتزاز به ۞ قوله تعالى (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شئ قديرا) قيل غنيمة هوازن وقيل غنائم فارس والروم وذكر الزمخشرى فى أخرى ثلاثة أوجه أن تكون منصوبة بفعل مضمر يفسره قد أحاط ولم تقدروا عليها صفة لاخرى كانه يقول وغنيمة أخرى غير مقدورة قد أحاط الله بها (ثانيها) ان تكون مرفوعة وخبرها قد أحاط الله بها وحسن جعلها مبتدأ مع كونها نكرة لكونها موصوفة بلم تقدروا (وثالثها) الجر باضمار رب ويحتمل أن يقال منصوبة بالعطف على منصوب وفيه وجهان (أحدهما) كانه تعالى قال فعجل لكم هذه وأخرى ما قدرتم عليها وهذا ضعيف لان أخرى لم يعجل بها (وثانيهما) على مغانم كثيرة تأخذونها وأخرى أى وعدكم الله أخرى وحينئذ كانه قال وعدكم الله مغانم تأخذونها ومغانم لا تأخذونها أنتم ولا تقدرون عليها وانما يأخذها من يجئ بعدكم من المؤمنين وعلى هذا تبين لقول الفراء حسن وذلك لانه فسر قوله تعالى قد أحاط الله بها أى حفظها للمؤمنين لا يجرى عليها هلاك الى ان يأخذها المسلمون كاحاطة الحراس بالخزائن ۞ ثم قال تعالى (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار) وهو يصلح جوابا لمن يقول كف الايدى عنهم كان أمرا اتفاقيا ولو اجتمع عليهم العرب كما عزموا المنعوهم من فتح خيبر واغتنام غنائمها فقال ليس كذلك بل سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا لا ينصرون والغلبة واقعة للمسلمين فليس أمرهم أمرا اتفاقيا بل هو أمر الهى محكوم به محتوم ۞ وقوله تعالى (ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا) قد ذكرنا مرارا ان دفع الضرر عن الشخص اما أن يكون بولى ينفع باللطف أو بنصير يدفع بالعنف وليس للذين كفروا شئ من ذلك وفى قوله تعالى ثم لطيفة وهى ان من يولى دبره يطلب الخلاص من القتل بالالتحاق بما يحميه فقال وليس اذا ولوا الادبار يتخلصون بل بعد التولى الهلاك لاحق بهم ۞ وقوله تعالى (سنة الله التى قد خلت من قبل) جواب عن سؤال آخر يقوم مقام الجهاد وهو ان الطوالع لها تأثيرات والاتصالات لها تغييرات فقال ليس كذلك سنة الله نصرة رسوله واهلاك عدوه ۞ وقوله تعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا) بشارة ودفع وهم يقع بسبب وهم وهو انه اذا قال الله تعالى ليس هذا بالتأثيرات فلا يجب وقوعه بل الله فاعل مختار ولو أراد ان يهلك العباد لهلكهم بخلاف قول المنجم بان الغلب لمن له طالع وشواهد تقتضى غلبته قطعا فقال الله تعالى ولن تجد لسنة الله تبديلا يعنى ان الله فاعل مختار يفعل ما يشاء ويقدر على اهلاك أصدقائه ولكن لا يبدل سنته ولا يغير عادته ۞ ثم قال تعالى (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم) تبيينا لما تقدم من قوله ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار أى هو بتقدير الله لانه كف أيديهم عنكم بالفرار وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم وتركهم وقوله تعالى ببطن مكة اشارة الى أمر كان هناك يقتضى عدم الكف ومع ذلك وجد كف الايدى

ولا اله الا الله والله أكبر وتبارك الله الا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فما يمر بهن على جمع من الملائكة الا استغفروا لقائلهن حتى يحيى بهن وجه رب العالمين ومصداقه قوله عز وجل اليه يصعد الكلم الطيب الخ (والذين يمكرون السيئات) بيان لحال الكلم الخبيث والعمل السيئ وأهلهما بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح وانتصاب السيآت على أنها صفة للمصدر المحذوف أى يمكرون المكرات السيآت وهى مكرات قريش بالنبى عليه الصلاة والسلام فى دار الندوة وتداورهم الرأى فى احدى الثلاث التى هى الاثبات والقتل والاخراج (لهم) بسبب مكراتهم (عذاب شديد) لا يقادر قدره ولا يؤبه عنده لما يمكرون (ومكر أولئك) وضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للايذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك وما فيه من معنى البعد للتنبيه على ترامى أمرهم فى الطغيان وبعد منزلتهم فى العدوان أى ومكر أولئك المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا به عليه الصلاة والسلام (هو يبور) أى هو يهلك ويفسد خاصة لا من مكروا به ولقد أبارهم الله تعالى بعد ابارة مكراتهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم فى قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم الثلاثة التى اكتفوا فى حقه عليه الصلاة والسلام بواحدة منهن (والله خلقكم من تراب) دليل آخر على صحة البعث والنشور أى خلقكم ابتداء منه فى ضمن خلق آدم عليه السلام خلقا اجماليا كما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) أى ثم خلقكم منها خلقا تفصيليا (ثم جعلكم أزواجا) أى أصنافا أو ذكرانا واناثا وعن قتادة جعل بعضكم زوجا لبعض (وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه) الا ملتبسة بعلمه تابعة لمشيئته (وما يعمر من معمر) أى من أحد وانما سمى معمرا باعتبار مصيره أى وما يمد فى عمر أحد (ولا ينقص من عمره) أى من عمر أحد على طريقة قولهم لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه الا بحق لكن لا على معنى لا ينقص عمره بعد كونه زائدا بل على معنى

لا يجعل من الابتداء ناقصا وقيل الزيادة والنقص في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح مثل أن يكتب فيه ان حج فلان فعمره ستون والا فاربعون واليه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الاعمار وقيل المراد بالنقص

وذلك الامر هو دخول المسلمين ببطن مكة فان ذلك يقتضي أن يصير المكفوف على القتال لكون العدو دخل دارهم طالبين ثارهم وذلك مما يوجب اجتهاد البليد في الذب عن الحريم ويقتضي ان يبالغ المسلمون في الاجتهاد في الجهاد لكونهم لو قصروا لكسروا وأسروا لبعدهم منهم فقوله ببطن مكة اشارة الى بعد الكف ومع ذلك وجد بمشيئة الله تعالى وقوله تعالى من بعد ان أظفركم عليهم صالح لامرين (أحدهما) ان يكون منة على المؤمنين بان الظفر كان لكم مع ان الظاهر كان يستدعي كون الظفر لهم لكون البلاد لهم ولكثرة عددهم (والثاني) أن يكون ذكرا لامرين مانعين من الامرين الاولين مع أن الله حققهما مع المنافقين اما كف أيدي الكفار فكان بعيدا لكونهم في بلادهم ذابين عن أهليهم وأولادهم واليه أشار بقوله ببطن مكة وأما كف أيدي المسلمين فلانه كان بعد ان ظفروا بهم ومتى ظفر الانسان بعدوه الذي لو ظفر هو به لاستأصله يبعد انكفافه عنه مع ان الله كف اليدين ۞ وقوله تعالى (وكان الله بما تعملون بصيرا) يعني كان الله يرى فيه من المصلحة وان كنتم لا ترون ذلك وبينه بقوله تعالى هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا الى ان قال ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يعني كان الكف محافظة على ما في مكة من المسلمين ليخرجوا منها ويدخلوها على وجه لا يكون فيه ايذاء من فيها من المؤمنين والمؤمنات واختلف المفسرون في ذلك الكف منهم من قال المراد ما كان عام الفتح ومنهم من قال ما كان عام الحديبية فان المسلمين هزموا جيش الكفار حتى أدخلوهم بيوتهم وقيل ان الحرب كان بالحجارة ۞ وقوله تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله) اشارة الى ان الكف لم يكن لامر فيهم لانهم كفروا وصدوا واحصروا وكل ذلك يقتضي قتالهم فلا يقع لاحد ان الفريقين اتفقوا ولم يبق بينهما خلاف واصطلحوا ولم يبق بينهما نزاع بل الاختلاف باق والنزاع مستمر لانهم هم الذين كفروا وصدوكم ومنعوا فازدادوا كفرا وعداوة واغاظ ذلك الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات وقوله والهدى منصوب على العطف على كم في صدوكم ويجوز الجر عطفا على المسجد أي وعن الهدى ومعكوفا حال وان يبلغ تقديره عن ان يبلغ ويحتمل أن يقال أن يبلغ محله رفع تقديره معكوفا بلوغه محله كما يقال رأيت زيدا شديدا بأسه ومعكوفا أي ممنوعا ولا يحتاج الى تقدير عن على هذا الوجه ۞ وقوله تعالى (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم) وصف الرجال والنساء يعني لولا رجال ونساء يؤمنون غير معلومين وقوله تعالى ان تطؤهم بدل اشتمال كانه قال رجال غير معلومي الوطء فتصيبكم منهم معرة عيب أو اثم وذلك لانكم ربما تقتلونهم فيلزمكم الكفارة وهي دليل الاثم أو يعيبكم الكفار بانهم فعلوا باخوانهم ما فعلوا باعدائهم وقوله تعالى بغير علم قال الزمخشري وهو متعلق بقوله ان تطؤهم يعني تطؤهم بغير علم وجاز أن يكون بدلا عن الضمير المنصوب في قوله لم تعلموهم ولقائل أن يقول يكون هذا تكرارا لان على قولنا هو بدل من الضمير يكون التقدير لم تعلموا ان تطؤهم بغير علم فيلزم تكرار بغير علم لحصوله بقوله لم تعلموهم فالاولى أن يقال بغير علم هو في موضعه تقديره لم تعلموا ان تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم من الذي يعركم ويعيب عليكم يعني ان وطئتموهم غير عالمين يصبكم مسبة الكفار بغير علم أي بجهل لا يعلمون انكم معذورون فيه أو نقول تقديره لم تعلموا أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم أي فتقتلوهم بغير علم أو تؤذوهم بغير علم فيكون الوطء سبب القتل والوطء غير معلوم لكم والقتل الذي هو سبب المعرة وهو الوطء الذي يحصل بغير علم أو نقول المعرة قسمان (أحدهما) ما يحصل من القتل العمد ممن هو غير العالم بحال المحل (والثاني) ما يحصل من القتل خطأ وهو غير عدم العلم فقال تصيبكم منهم معرة غير معلومة لا التي تكون عن العلم وجواب لولا محذوف تقديره لولا ذلك لما كف أيديكم عنهم هذا ما قاله الزمخشري وهو حسن ويحتمل ان يقال جوابه ما يدل عليه قوله تعالى هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام يعني قد استحقوا ان لا يمهلوا ولولا رجال مؤمنون لوقع

ما يمر من عمره وينقص فانه يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب تحت ذلك ذهب يوم ذهب يومان وهكذا حتى يأتي على آخره وقرئ ولا ينقص على البناء للفاعل ومن عمره بسكون الميم (الا في كتاب) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه اللوح وقيل علم الله عز وجل وقيل صحيفة كل انسان (ان ذلك) أن ما ذكر من الخلق وما بعده مع كونه محار العقول والافهام (على الله يسير) لاستغنائه عن الاسباب فكذلك البعث (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) مثل ضرب للمؤمن والكافر والفرات الذي يكسر العطش والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته والاجاج الذي يحرق بملوحته وقرئ سيغ كسيد وسيغ بالتخفيف وملح ككتف وقوله تعالى (ومن كل) أي من كل واحد منهما (تأكلون لحما طريا وتستخرجون) أي من المالح خاصة (حلية تلبسونها) اما استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع واما تكملة للتمثيل والمعنى كأنهما وان اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث انهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء لما خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته لا يساوي الكافر المؤمن وان شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الاصلية وحيازته لكماله اللائق دون الآخر أو تفضيل للاجاج على الكافر من حيث انه يشارك العذب في منافع كثيرة والكافر خلو من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط

ما استحقوه

ما استحقوه كما يقول القائل هو سارق ولولا فلان لقطعت يده وذلك لان لولا لا تستعمل الا لامتناع الشئ لوجود غيره وامتناع الشئ لا يكون الا اذا وجد المقتضى له فمنعه الغير فذكر الله تعالى أولا المقتضى التام البالغ وهو الكفر والصد والمنع وذكر ما امتنع لاجله مقتضاه وهو وجود الرجال المؤمنين ۞ وقوله تعالى ﴿ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما﴾ فيه ابحاث (الاول) فى الفعل الذى يستدعى اللام الذى بسببه يكون الادخال وفيه وجوه (أحدها) أن يقال هو قوله كف أيديكم عنهم ليدخل لا يقال بانك ذكرت ان المانع وجود رجال مؤمنين فيكون كانه قال كف أيديكم لئلا تطؤا فكيف يكون لشئ آخر نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن نقول كف أيديكم لئلا تطؤا لتدخلوا كما يقال أطعمته ليشبع ليغفر الله لى أى الاطعام للشبع كان ليغفر (الثانى) هو انا بينا ان لولا جوابه ما دل عليه قوله هم الذين كفروا فيكون كانه قال هم الذين كفروا واستحقوا التعجل فى اهلاكهم ولولا رجال لعجل بهم ولكن كف أيديكم ليدخل (ثانيها) أن يقال فعل ما فعل ليدخل لان هناك افعالا من الالطاف والهداية وغيرهما وقوله ليدخل الله فى رحمته من يشاء ليؤمن منهم من علم الله تعالى انه يؤمن فى تلك السنة أو ليخرج من مكة ويهاجر فيدخلهم فى رحمته وقوله تعالى لو تزيلوا أى لو تميزوا والضمير يحتمل أن يقال هو ضمير الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات فان قيل كيف يصح هذا وقد قلتم بان جواب لولا محذوف وهو قوله لما كف أو لعجل ولو كان لو تزيلوا راجعا الى الرجال لكان لعذبنا جواب لولا نقول وقد قال به الزمخشرى فقال لو تزيلوا يتضمن ذكر لولا فيحتمل أن يكون لعذبنا جواب لولا ويحتمل أن يقال هو ضمير من يشاء كأنه قال ليدخل من يشاء فى رحمته لو تزيلوا هم وتميزوا وآمنوا لعذبنا الذين كتب الله عليهم انهم لا يؤمنون وفيه ابحاث (البحث الاول) وهو على تقدير نفرضه فالكلام يفيد أن العذاب الاليم اندفع عنهم اما بسبب عدم التزييل أو بسبب وجود الرجال وعلى تقدير وجود الرجال والعذاب الاليم لا يندفع عن الكافر نقول المراد عذابا عاجلا بأيديكم يتعدى بالجنس اذ كانوا غير مقرين ولا منقلبين اليهم فيظهرون ويقتدرون يكون أليما (البحث الثانى) ما الحكمة فى ذكر المؤمنين والمؤمنات مع ان المؤنث يدخل فى ذكر المذكر عند الاجتماع قلنا الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ما تقدم يعنى ان الموضع موضع وهم اختصاص الرجال بالحكم لان قوله تطؤهم فتصيبكم معناه تهلكوهم والمرأة لا تقاتل ولا تقتل فكان المانع هو وجود الرجال المؤمنين فقال والنساء المؤمنات أيضا لان تخريب بيوتهن ويتم أولادهن بسبب قتل رجالهن وطأة شديدة (وثانيهما) ان فى محل الشفقة تعد المواضع لترقيق القلب يقال لمن يعذب شخصا لا تعذبه وارحم ذله وفقره وضعفه ويقال أولاده وصغاره وأهله الضعفاء العاجزين فكذلك ههنا قال لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لترقيق قلوب المؤمنين ورضاهم بما جرى من الكف بعد الظفر ۞ ثم قال تعالى ﴿اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليما﴾ اذ يحتمل أن يكون ظرفا فلا بد من فعل يقع فيه ويكون عاملا له ويحتمل أن يكون مفعولا به فان قلنا انه ظرف فالفعل الواقع فيه يحتمل أن يقال هو مذكور ويحتمل أن يقال هو مفهوم غير مذكور فان قلنا هو مذكور ففيه وجهان (أحدهما) هو قوله تعالى وصدوكم أى وصدوكم حين جعلوا فى قلوبهم الحمية (وثانيهما) قوله تعالى لعذبنا الذين كفروا منهم أى لعذبناهم حين جعلوا فى قلوبهم الحمية (والثانى) أقرب لقربه لفظا وشدة مناسبته معنى لانهم اذا جعلوا فى قلوبهم الحمية لا يرجعون الى الاستسلام والانقياد والمؤمنون لما أنزل الله عليهم السكينة لا يتركون الاجتهاد فى الجهاد والله مع المؤمنين فيعذبونهم عذابا أليما أو غير المؤمنين واما ان قلنا ان ذلك مفهوم غير مذكور ففيه وجهان (أحدهما) حفظ الله المؤمنين عن أن يطؤهم وهم الذين كفروا الذين جعل فى قلوبهم الحمية (وثانيهما) أحسن الله اليكم اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية وعلى هذا فقوله تعالى

من خشية الله والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان (وترى الفلك فيه) أى فى كل منهما وافراد ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق وما لحق لان الخطاب لكل أحد تتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط (مواخر) شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة (لتبتغوا من فضله) من فضل الله تعالى بالنقلة فيها واللام متعلقة بمواخر وقد جوز تعلقها بما يدل عليه الافعال المذكورة أى فعل ذلك لتبتغوا من فضله (ولعلكم تشكرون) أى ولتشكروا على ذلك وحرف الترجى للايذان بكونه مرضيا عند الله تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) بزيادة أحدهما ونقص الآخر باضافة بعض أجزاء كل منهما الى الآخر (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج واختلافهما صيغة لما أن ايلاج أحد الملوين فى الآخر متجدد حينا فحينا وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه وانما المتعدد والمتجدد آثاره وقد أشير اليه بقوله تعالى (كل يجرى) أى بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتعددة حسب تعدد أيام السنة جريانا مستمرا (لاجل مسمى) قدره الله تعالى لجريانهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله وقيل جريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما فى فلكيهما والاجل المسمى هو منتهى دورتيهما ومدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهر وقد مر تفصيله فى سورة لقمان (ذلكم) اشارة الى فاعل الافاعيل المذكورة وما فيه من معنى البعد للايذان بغاية العظمة وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة أى ذلكم العظيم الشان الذى أبدع هذه الصنائع البديعة (الله ربكم له الملك) وفيه من الدلالة على ان ابداعه تعالى لتلك البدائع مما يوجب ثبوت تلك الاخبار له ما لا يخفى ويجوز أن يكون الاخير كلاما مبتدأ فى مقابلة قوله تعالى (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) للدلالة على تفرده تعالى بالالوهية والربوبية وقرئ يدعون بالياء التحتانية والقطمير لفافة النواة وهو مثل فى القلة والحقارة (ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم)

استئناف مقرر لمضمون ما قبله كاشف عن جلية حال ما يدعونه بأنه جماد ليس من شأنه السماع (ولو سمعوا) على الفرض والتقدير (ما استجابوا لكم) لعجزهم عن الافعال بالمرة لا لما قيل من أنهم متبرؤن منكم ومما تدعون لهم فان ذلك مما لا يتصور منهم فى الدنيا (ويوم القيامة

فأنزل الله سكينته تفسير لذلك الاحسان واما ان قلنا انه مفعول به فالعامل مقدر تقديره اذكر أى اذكر ذلك الوقت كما تقول اذكر اذ قام زيد أى اذكر وقت قيامه كما تقول اذكر زيدا وعلى هذا يكون الظرف للفعل المضاف اليه عاملا فيه وفيه لطائف معنوية ولفظية (الاولى) هو ان الله تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن فاشار الى ثلاثة أشياء (أحدها) جعل ما للكافرين بجعلهم فقال اذ جعل الذين كفروا وجعل ما للمؤمنين بجعل الله فقال فأنزل الله وبين الفاعلين ما لا يخفى (ثانيها) جعل للكافرين الحمية وللمؤمنين السكينة وبين المفعولين تفاوت على ما سنذكره (ثالثها) أضاف الحمية الى الجاهلية وأضاف السكينة الى نفسه حيث قال حمية الجاهلية وقال سكينته وبين الاضافتين ما لا يذكر (الثانية) زاد المؤمنين خيرا بعد حصول مقابلة شئ بشئ فعلهم بفعل الله والحمية بالسكينة والاضافة الى الجاهلية بالاضافة الى الله تعالى وألزمهم كلمة التقوى وسنذكر معناه واما اللفظية فثلاث لطائف (الاولى) قال فى حق الكافر جعل وقال فى حق المؤمن أنزل ولم يقل خلق ولا جعل سكينته اشارة الى ان الحمية كانت مجعولة فى الحال فى العرض الذى لا يبقى واما السكينة فكانت كالمحفوظة فى خزانة الرحمة معدة لعباده فأنزلها (الثانية) قال الحمية ثم أضافها بقوله حمية الجاهلية لان الحمية فى نفسها صفة مذمومة وبالاضافة الى الجاهلية تزداد قبحا وللحمية فى القبح درجة لا يعتبر معها قبح القبائح كالمضاف الى الجاهلية واما السكينة فى نفسها وان كانت حسنة لكن الاضافة الى الله فيها من الحسن ما لا يبقى معه لحسن اعتبار فقال سكينته اكتفاء بحسن الاضافة (الثالثة) قوله فأنزل بالفاء لا بالواو اشارة الى ان ذلك كالمقابلة تقول أكرمنى فأكرمته للمجازاة والمقابلة ولو قلت أكرمنى وأكرمته لا ينبئ عن ذلك وحينئذ يكون فيه لطيفة وهى ان عند اشتداد غضب أحد العدوين فالعدو الآخر اما أن يكون ضعيفا أو قويا فان كان ضعيفا ينهزم وينقهر وان كان قويا فيورث غضبه فيه غضبا وهذا سبب قيام الفتن والقتال فقال فى نفس الحركة عند حركتهم ما أقدمنا وما انهزمنا وقوله تعالى فأنزل الله بالفاء يدل تعلق الانزال بالفاء على ترتيبه على شئ نقول فيه وجهان (أحدهما) ما ذكرنا من ان اذ ظرف كأنه قال أحسن الله اذ جعل الذين كفروا وقوله فأنزل تفسير لذلك الاحسان كما يقال أكرمنى فاعطانى لتفسير الاكرام (وثانيهما) أن تكون الفاء للدلالة على ان تعلق انزال السكينة بجعلهم الحمية فى قلوبهم على معنى المقابلة تقول أكرمنى فاثنيت عليه ويجوز أن يكونا فعلين واقعين من غير مقابلة كما تقول جاءنى زيد وخرج عمرو وهو هنا كذلك لانهم لما جعلوا فى قلوبهم الحمية فالمسلمون على مجرى العادة لو نظرت اليهم لزم ان يوجد منهم أحد الامرين اما اقدام واما انهزام لان أحد العدوين اذا اشتد غضبه فالعدو الآخر ان كان مثله فى القوة يغضب أيضا وهذا يثير الفتن وان كان أضعف منه ينهزم أو ينقاد له فالله تعالى أنزل فى مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم ينهزموا بل يصبروا وهو بعيد فى العادة فهو من فضل الله تعالى قوله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين فانه هو الذى أجاب الكافرين الى الصلح وكان فى نفس المؤمنين ان لا يرجعوا الا بأحد الثلاثة بالنحر فى المنحر وأبوا ان لا يكتبوا محمد رسول الله وبسم الله فلما سكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكن المؤمنون وقوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى فيه وجوه أظهرها انه قول لا اله الا الله فان بها يقع الاتقاء عن الشرك وقيل هو بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله فان الكافرين أبوا ذلك والمؤمنون التزموه وقيل هى الوفاء بالعهد الى غير ذلك ونحن نوضح فيه ما يترجح بالدليل فنقول وألزمهم يحتمل أن يكون عائدا الى النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين جميعا يعنى ألزم النبى والمؤمنين كلمة التقوى ويحتمل أن يكون عائدا الى المؤمنين فحسب فان قلنا انه عائد اليهما جميعا نقول هو الامر بالتقوى فان الله تعالى قال للنبى صلى الله عليه وسلم يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين وقال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته والامر بتقوى الله حتى تذهله تقواه عن الالتفات الى ما سوى الله كما قال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم اتق الله ولا تطع الكافرين

يكفرون بشرككم) أى يجحدون باشراككم لهم وعبادتكم اياهم بقولهم ما كنتم ايانا تعبدون (ولا ينبئك مثل خبير) أى لا يخبرك بالامر مخبر مثل خبير أخبرك به وهو الحق سبحانه فانه الخبير بكنه الامور دون سائر المخبرين والمراد تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ونفى ما يدعون لهم من الالهية (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله) فى أنفسكم وفيما يعن لكم من أمر مبهم أو خطب ملم وتعريف الفقراء للمبالغة فى فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وان افتقار سائر الخلائق بالنسبة الى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى وخلق الانسان ضعيفا (والله هو الغنى الحميد) أى المستغنى على الاطلاق المنعم على سائر الموجودات المستوجب للحمد (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) ليسوا على صفتكم بل مستمرون على الطاعة أو بعالم آخر غير ما تعرفونه (وما ذلك) أى ما ذكر من الاذهاب بهم والاتيان بآخرين (على الله بعزيز) بمتعذر ولا متعسر (ولا تزر وازرة) أى لا تحمل نفس آثمة (وزر أخرى) اثم نفس أخرى بل انما تحمل كل منهما وزرها وأما ما فى قوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم من حمل المضلين أثقالا غير أثقالهم فهو حمل أثقال اضلالهم مع أثقال ضلالهم وكلاهما أوزارهم ليس فيهما من أوزار غيرهم شئ (وان تدع مثقلة) أى نفس أثقلها الاوزار (الى حملها) لحمل بعض أوزارها (لا يحمل منه شئ) لم تجب بحمل شئ منه (ولو كان) أى المدعو المفهوم من الدعوة (ذا قربى) ذا قرابة من الداعى وقرئ ذو قربى وهذا نفى للحمل اختيارا والاول نفى له اجبارا (انما تنذر) استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أى انما

وقال

وقال تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ثم بين له حال من صدقه بقوله الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله وأما فى حق المؤمنين فقال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وقال فلا تخشوهم واخشونى وان قلنا بانه راجع الى المؤمنين فهو قوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ألا ترى الى قوله واتقوا الله وهو قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله وفى معنى قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى على هذا معنى لطيف وهو انه تعالى اذا قال اتقوا يكون الامر واردا ثم ان من الناس من يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لا يلتزمه ومن التزمه فقد التزمه بالزام الله اياه فكانه قال تعالى ألزمهم كلمة التقوى وفى هذا المعنى رجحان من حيث ان التقوى وان كان كاملا ولكنه أقرب الى الكلمة وعلى هذا فقوله وكانوا أحق بها وأهلها معناه انهم كانوا عند الله أكرم الناس فالزموا تقواه وذلك لان قوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون معناه ان من يكون تقواه أكثر يكرمه الله أكثر (والثانى) أن يكون معناه ان من سيكون أكرم عند الله وأقرب اليه كان اتقى كما فى قوله والمخلصون على خطر عظيم وقوله تعالى وهم من خشية ربهم مشفقون وعلى الوجه الثانى يكون معنى قوله وكانوا أحق بها لانهم كانوا اعلم بالله لقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقوله وأهلها يحتمل وجهين (أحدهما) انه يفهم من معنى الاحق انه يثبت رجحانا على الكافرين ان لم يثبت الاهلية كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فقال فى الاقرب الى الاستحقاق اذا كان ولا بد فهذا أحق كما يقال الحبس أهون من القتل مع انه لاهين هناك فقال وأهلها دفعا لذلك (والثانى) وهو أقوى وهو أن يقال قوله تعالى وأهلها فيه وجوه نبينها بعد ما نبين معنى الاحق فنقول هو يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون الاحق بمعنى الحق لا للتفضيل كما فى قوله تعالى خير مقاما وأحسن نديا اذ لا خير فى غيره (والثانى) ان يكون للتفضيل وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون بالنسبة الى غيرهم أى المؤمنون أحق من الكافرين (والثانى) أن يكون بالنسبة الى كلمة التقوى من كلمة أخرى غير تقوى تقول زيد أحق بالاكرام منه بالاهانة كما اذا سأل شخص عن زيد انه بالطب اعلم أو بالفقه تقول هو بالفقه اعلم أى من الطب

۞ وقوله تعالى (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) بيان لفساد ما قاله المنافقون بعد انزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ووقوفهم عند ما أمروا به من عدم الاقبال على القتال وذلك قولهم ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا حيث كان النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أن المؤمنين يدخلون مكة ويتمون الحج ولم يعين له وقتا فقص رؤياه على المؤمنين فقطعوا بان الامر كما رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وظنوا ان الدخول يكون عام الحديبية والله أعلم انه لا يكون الا عام الفتح فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء ما دخلنا ولا حلقنا فقال تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق وتعديه صدق الى مفعولين يحتمل أن يكون بنفسه وكونه من الافعال التى تتعدى الى مفعولين ككلمة جعل وخلق ويحتمل أن يقال عدى الى الرؤيا بحرف تقديره صدق الله رسوله فى الرؤيا وعلى الاول معناه جعلها واقعة بين صدق وعده اذ وقع الموعود به وأتى به وعلى الثانى معناه ما أراه الله لم يكذب فيه وعلى هذا فيحتمل ان يكون رأى فى منامه ان الله تعالى يقول ستدخلون المسجد الحرام فيكون قوله صدق ظاهرا لان استعمال الصدق فى الكلام ظاهر ويحتمل أن يكون عليه الصلاة والسلام رأى أنه يدخل المسجد فيكون قوله صدق الله معناه انه أتى بما يحقق المنام ويدل على كونه صادقا يقال صدقنى سن بكره مثلا فيما اذا حقق الامر الذى ريه من نفسه مأخوذ من الابل اذا قيل له هدع سكن فحقق كونه من صغار الابل فان هدع كلمة يسكن بها صغار الابل وقوله تعالى بالحق قال الزمخشرى هو حال أو قسم أو صفة صدق وعلى كونه حالا تقديره صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق وعلى تقدير كونه صفة تقديره صدقه صدقا

تنذر بهذه الانذارات (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى يخشونه تعالى غائبين عن عذابه أو عن الناس فى خلواتهم أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم (وأقاموا الصلوة) أى راعوها كما ينبغى وجعلوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا أى انما ينفع انذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل التمرد والعناد (ومن تزكى) أى تطهر من أوضار الاوزار والمعاصى بالتأثر من هذه الانذارات (فانما يتزكى لنفسه) لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس بها لا يتدنس الا عليها وقرئ من ازكى فانما يزكى وهو اعتراض مقرر لخشيتهم واقامتهم الصلاة لانها من معظم مبادى التزكى (والى الله المصير) لا الى أحد غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء (وما يستوى الاعمى والبصير) أى الكافر والمؤمن (ولا الظلمات ولا النور) أى ولا الباطل ولا الحق وجمع الظلمات مع افراد النور لتعدد فنون الباطل واتحاد الحق (ولا الظل ولا الحرور) أى ولا الثواب ولا العقاب وادخال لا على المتقابلين لتذكير نفى الاستواء وتوسيطها بينهما للتأكيد والحرور فعول من الحر غلب على السموم وقيل السموم ما يهب نهارا والحرور ما يهب ليلا (وما يستوى الاحياء ولا الاموات) تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الاول ولذلك كرر الفعل وأوثر صيغة الجمع فى الطرفين تحقيقا للتباين بين أفراد الفريقين وقيل تمثيل للعلماء والجهلة (ان الله يسمع من يشاء) أن يسمعه ويوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته (وما أنت بمسمع من فى القبور) ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالاموات واشباع فى اقناطه عليه الصلاة والسلام من ايمانهم (ان أنت الا نذير) ما عليك الا الانذار وأما الاسماع البتة فليس من وظائفك ولا حيلة لك اليه فى المطبوع على قلوبهم (انا أرسلناك بالحق) أى محقين أو محقا أنت أو ارسالا مصحوبا بالحق ويجوز أن يتعلق بقوله (بشيرا ونذيرا) أى بشيرا بالوعد الحق ونذيرا بالوعيد الحق (وان من أمة) أى ما من أمة من الامم الدارجة فى الازمنة الماضية (الا خلا) أى

مضى (فيها نذير) من نبي أو عالم ينذرهم والاكتفاء بذكره للعلم بان النذارة قرينة البشارة لاسيما وقد اقترنا آنفا ولان الانذار هو الانسب بالمقام (وان يكذبوك) أي غوا عن تكذيبك فلا تبال بهم وبتكذيبهم (فقد كذب الذين من قبلهم) من الامم العاتية (جاءتهم رسلهم بالبينات) أي المعجزات الظاهرة الدالة على نبوتهم (وبالزبر) كصحف ابراهيم (وبالكتاب المنير) كالتوراة والانجيل والزبور على ارادة التفصيل دون الجمع ويجوز أن يراد بهما واحد والعطف لتغاير العنوانين (ثم أخذت الذين كفروا) وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة والاشعار بعلة الاخذ (فكيف كان نكير) أي انكاري بالعقوبة وفيه مزيد تشديد وتهويل لها (ألم تر) استئناف مسوق لتقرير ما قبله من اختلاف أحوال الناس ببيان أن الاختلاف والتفاوت أمر مطرد في جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان والرؤية قلبية أي ألم تعلم (أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) بذلك الماء والالتفات لاظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة (ثمرات مختلفا ألوانها) أي أجناسها وأصنافها على أن كلا منها ذو أصناف مختلفة أو هيآتها وأشكالها أو ألوانها من الصفرة والخضرة والحمرة وغيرها وهو الاوفق لما في قوله تعالى (ومن الجبال جدد) أي ذو جدد أي خطط وطرائق ويقال جدة الحمار للخطة السوداء على ظهره وقرئ جدد بالضم جمع جديدة بمعنى الجدة وجدد بفتحتين وهو الطريق الواضح (بيض وحمر مختلف ألوانها) بالشدة والضعف (وغرابيب سود) عطف على بيض أو على جدد كأنه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ما هو على لون واحد غرابيب وهو تأكيد لمضمر يفسره ما بعده فان الغربيب تأكيد للاسود كالفاقع للاصفر والقاني للاحمر ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد ونظيره في الصفة قول النابغة * والمؤمن العائذات الطير يمسحها * وفي مثله مزيد تأكيد لما فيه من التكرار باعتبار الاضمار والاظهار (ومن الناس

ملتبسا بالحق وعلى تقدير كونه قسما اما أن يكون قسما بالله فان الحق من أسمائه واما أن يكون قسما بالحق الذي هو نقيض الباطل هذا ما قاله ويحتمل ان يقال فيه وجهان آخران (أحدهما) أن يقال فيه تقديم وتأخير تقديره صدق الله رسوله بالحق الرؤيا أي الرسول الذي هو رسول بالحق وفيه اشارة الى امتناع الكذب في الرؤيا لانه لما كان رسولا بالحق فلا يرى في منامه الباطل (والثاني) أن يقال بأن قوله لتدخلن المسجد الحرام ان قلنا بأن الحق قسم فأمر اللام ظاهر وان لم يقل به فتقديره لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق والله لتدخلن وقوله والله لتدخلن جاز أن يكون تفسيرا للرؤيا يعني الرؤيا هي والله لتدخلن وعلى هذا تبين أن قوله صدق الله كان في الكلام لان الرؤيا كانت كلاما ويحتمل أن يكون تحقيقا لقوله تعالى صدق الله رسوله يعني والله ليقعن الدخول وليظهرن الصدق فلتدخلن ابتداء كلام وقوله تعالى ان شاء الله فيه وجوه (أحدها) انه ذكره تعليما للعباد الادب وتأكيدا لقوله تعالى ولا تقولن لشئ اني فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله (الثاني) هو ان الدخول لما لم يقع عام الحديبية وكان المؤمنون يريدون الدخول ويأبون الصلح قال لتدخلن ولكن لا بجلادتكم ولا بارادتكم وانما تدخلون بمشيئة الله تعالى (الثالث) هو ان الله تعالى لما قال في الوحي المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم لتدخلن ذكر انه بمشيئة الله تعالى لان ذلك من الله وعد ليس عليه دين ولا حق واجب ومن وعد بشئ لا يحققه الا بمشيئة الله تعالى والا فلا يلزمه به أحد واذا كان هذا حال الموعود به في الوحي المنزل صريحا في اليقظة فما ظنكم بالوحي بالمنام وهو يحتمل التأويل أكثر مما يحتمله الكلام فاذا تأخر الدخول لم تستهزؤن (الرابع) هو ان ذلك تحقيقا للدخول وذلك لان أهل مكة قالوا لا تدخلوها الا بارادتنا ولا نريد دخولكم في هذه السنة ونختار دخولكم في السنة القابلة والمؤمنون أرادوا الدخول في عامهم ولم يقع فكان لقائل أن يقول بقي الامر موقوفا على مشيئة أهل مكة ان أرادوا في السنة الآتية يتركونا ندخلها وان كرهوا لا ندخلها فقال لا تشترط ارادتهم ومشيئتهم بل تمام الشرط بمشيئة الله وقوله محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون اشارة الى انكم تتمون الحج من أوله الى آخره فقوله لتدخلن اشارة الى الاول وقوله محلقين اشارة الى الآخر وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) محلقين حال الداخلين والداخل لا يكون الا محرما والمحرم لا يكون محلقا فقوله آمنين ينبئ عن الدوام فيه الى الحلق فكأنه قال تدخلونها آمنين متمكنين من أن تتموا الحج محلقين (المسئلة الثانية) قوله تعالى لا تخافون أيضا حال معناه غير خائفين وذلك حصل بقوله تعالى آمنين فما الفائدة في اعادته نقول فيه بيان كمال الأمن وذلك لان بعد الحلق يخرج الانسان عن الاحرام فلا يحرم عليه القتال وكان عند أهل مكة يحرم قتال من أحرم ومن دخل الحرم فقال تدخلون آمنين وتحلقون ويبقى أمنكم بعد خروجكم عن الاحرام وقوله تعالى فعلم ما لم تعلموا أي من المصلحة وكون دخولكم في سنتكم سببا لوطء المؤمنين والمؤمنات أو فعلم للتعقيب فعلم وقع عقيب ماذا نقول ان قلنا المراد من فعلم وقت الدخول فهو عقيب صدق وان قلنا المراد فعلم المصلحة فالمعنى علم الوقوع والشهادة لا علم الغيب والتقدير يعني حصلت المصلحة في العام القابل فعلم ما لم تعلموا من المصلحة المتجددة فجعل من دون ذلك فتحا قريبا اما صلح الحديبية واما فتح خيبر وقد ذكرناه وقوله تعالى وكان الله بكل شئ عليما يدفع وهم حدوث علمه من قوله فعلم وذلك لان قوله وكان الله بكل شئ عليما يفيد سبق علمه العام لكل علم محدث ۞ ثم قال تعالى ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا﴾ تأكيد البيان صدق الله في الرؤيا وذلك لانه لما كان مرسلا لرسوله ليهدي لا يريد ما لا يكون مهديا للناس فيظهر خلافه فيقع ذلك سببا للضلال ويحتمل وجوها أقوى من ذلك وهو ان الرؤيا بحيث توافق الواقع تقع لغير الرسل لكن رؤية الاشياء قبل وقوعها في اليقظة لا تقع لكل أحد فقال تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى وحكى له

ماسيكون

والدواب والانعام مختلف ألوانه) أى ومنهم بعض مختلف ألوانه أو وبعضهم مختلف ألوانه على ماهر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وايراد الجملتين اسميتين مع مشاركتهما لما قبلهما من الجملة الفعلية فى الاستشهاد بمضمونهما (٣٩٩) على تباين الناس فى الاحوال الباطنة لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والانعام فيما ذكر من الالوان أمر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار وأما اخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمرا حادثا عبر عنه بما يدل على الحدوث ثم لما كان فيه نوع خفاء علق به الرؤية ثم بطريق الاستفهام التقريرى المنبئ عن الحمل عليها والترغيب فيها بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما فانها مشاهدة غنية عن التأمل فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر وقوله تعالى (كذلك) مصدر تشبيهى لقوله تعالى مختلف أى صفة لمصدره المؤكد تقديره مختلف اختلافا كائنا كذلك أى كاختلاف الثمار والجبال وقرئ ألوانا وقرئ والدواب بالتخفيف مبالغة فى الهرب من التقاء الساكنين وقوله تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) تكملة لقوله تعالى انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم امافى الاوصاف المعنوية فبطريق التمثيل واما فى الاوصاف الصورية فبطريق التصريح توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان أى انما يخشاه تعالى بالغيب العالمون به عز وجل وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لما أن مدار الخشية معرفة المخشى والعلم بشؤنه فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه عز وجل كما قال عليه الصلاة والسلام انا أخشاكم لله وأتقاكم له ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة امتنع انذارهم بالكلية وتقديم المفعول لان المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الامر وقرئ برفع الاسم الجليل ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة للتعظيم فان المعظم يكون مهيبا (ان الله عزيز غفور) تعليل لوجوب الخشية لدلالته

ماسيكون فى اليقظة ولا يبعد من ان يريه فى المنام ما يقع فلا استبعاد فى صدق رؤياه وفيها أيضا بيان وقوع الفتح ودخول مكة بقوله تعالى ليظهره على الدين كله أى من يقويه على الاديان لا يستبعد منه فتح مكة له والهدى يحتمل أن يكون هو القرآن كما قال تعالى أنزل فيه القرآن هدى للناس وعلى هذا دين الحق هو مافيه من الاصول والفروع ويحتمل أن يكون الهدى هو المعجزة أى أرسله بالحق أى مع الحق اشارة الى ماشرع ويحتمل أن يكون الهدى هو الاصول ودين الحق هو الاحكام وذلك لان من الرسل من لم يكن له أحكام بل بين الاصول فحسب والالف واللام فى الهدى يحتمل أن تكون للاستغراق أى كل ماهو هدى ويحتمل أن تكون للعهد وهو قوله تعالى ذلك هدى الله يهدى به من يشاء وهو اما القرآن لقوله تعالى كتابا متشابها مثانى تقشعر الى ان قال ذلك هدى الله يهدى به من يشاء واما ما اتفق عليه كلمة الرسل لقوله تعالى أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده والكل من باب واحد لان مافى القرآن موافق لما اتفق عليه الانبياء وقوله تعالى ودين الحق يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون الحق اسم الله تعالى فيكون كأنه قال بالهدى ودين الله (وثانيها) ان يكون الحق نقيض الباطل فيكون كأنه قال ودين الامر الحق (وثالثها) أن يكون المراد به الانقياد الى الحق والتزامه ليظهره أى أرسله بالهدى وهو المعجز على أحد الوجوه ليظهره على الدين كله أى جنس الدين فينسخ الاديان دون دينه وأكثر المفسرين على ان الهاء فى قوله ليظهره راجعة الى الرسول والاظهر انه راجع الى دين الحق أى أرسل الرسول بالدين الحق ليظهره أى ليظهر الدين الحق على كل الاديان وعلى هذا فيحتمل أن يكون الفاعل للاظهار هو الله ويحتمل أن يكون هو النبى أى ليظهر النبى دين الحق وقوله تعالى وكفى بالله شهيدا أى فى انه رسول الله وهذا مما يسلى قلب المؤمنين فانهم تأذوا من رد الكفار عليهم العهد المكتوب وقالوا لانعلم انه رسول الله فلا تكتبوا محمد رسول الله بل اكتبوا محمد بن عبد الله فقال تعالى كفى بالله شهيدا فى انه رسول الله وفيه معنى لطيف وهو ان قول الله مع انه كاف فى كل شئ لكنه فى الرسالة أظهر كفاية لان الرسول لا يكون الا بقول المرسل فاذا قال ملك هذا رسولى لو أنكر كل من فى الدنيا انه رسول فلا يفيد انكارهم فقال تعالى أى خلل فى رسالته بانكارهم مع تصديقى اياه بانه رسولى وقوله محمد رسول الله فيه وجوه (أحدها) خبر مبتدأ محذوف تقديره هو محمد الذى سبق ذكره بقوله أرسل رسوله ورسول الله عطف بيان (وثانيها) ان محمدا مبتدأ خبره رسول الله وهذا تأكيد لما تقدم لانه لما قال هو الذى أرسل رسوله ولا تتوقف رسالته الا على شهادته وقد شهد له بها محمد رسول الله من غير نكير (وثالثها) وهو مستنبط وهو أن يقال محمد مبتدأ ورسول الله عطف بيان سيق للمدح لا للتمييز والذين معه عطف على محمد وقوله أشداء خبره كأنه قال تعالى والذين معه جميعهم أشداء على الكفار رحماء بينهم لان وصف الشدة والرحمة وجد فى جميعهم أما فى المؤمنين فكما فى قوله تعالى أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين وأما فى حق النبى صلى الله عليه وسلم فكما فى قوله واغلظ عليهم وقال فى حقه بالمؤمنين رؤف رحيم وعلى هذا قوله تراهم لا يكون خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم بل يكون عاما أخرج مخرج الخطاب تقديره تراهم أيها السامع كائنا من كان كما قلنا ان الواعظ يقول انتبه قبل ان يقع الانتباه ولا يريد به واحدا بعينه وقوله تعالى يبتغون فضلا من الله ورضوانا لتمييز ركوعهم وسجودهم عن ركوع الكفار وسجودهم وركوع المرائى وسجوده فانه لا يبتغى به ذلك وفيه اشارة الى معنى لطيف وهو ان الله تعالى قال الراكعون والساجدون لوجهه فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وقال الراكع يبتغى الفضل ولم يذكر الاجر لان الله تعالى اذا قال لكم أجر كان ذلك منه تفضلا واشارة الى أن عملكم جاء على ما طلب الله منكم لان الاجرة لا تستحق الا على العمل الموافق للطلب من المالك والمؤمن اذا قال انا أبتغى فضلك يكون منه اعترافا بالتقصير فقال يبتغون فضلا من الله ولم يقل أجرا ۞ وقوله تعالى (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) فيه وجهان (أحدهما)

ان ذلك يوم القيامة كما قال تعالى يوم تبيض وجوه وقال تعالى نورهم يسعى وعلى هذا فنقول نورهم فى وجوههم بسبب توجههم نحو الحق كما قال ابراهيم عليه السلام انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض ومن يحاذى الشمس يقع شعاعها على وجهه فيتبين على وجهه النور منبسطا مع ان الشمس لها نور عارضى يقبل الزوال والله نور السموات والارض فمن يتوجه الى وجهه يظهر فى وجهه نور يبهر الانوار (وثانيهما) ان ذلك فى الدنيا وفيه وجهان (أحدهما) ان المراد ما يظهر فى الجباه بسبب كثرة السجود (والثانى) ما يظهره الله تعالى فى وجوه الساجدين ليلا من الحسن نهارا وهذا محقق لمن يعقل فان رجلين يسهران بالليل أحدهما قد اشتغل بالشراب واللعب والآخر قد اشتغل بالصلاة والقراءة واستفادة العلم فكل أحد فى اليوم الثانى يفرق بين الساهر فى الشرب واللعب وبين الساهر فى الذكر والشكر ﴿ وقوله تعالى ﴿ذلك مثلهم فى التوراة﴾ فيه ثلاثة أوجه مذكورة (أحدها) أن يكون ذلك مبتدأ ومثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل خبراله وقوله تعالى كزرع أخرج شطأه خبر له مبتدأ محذوف تقديره ومثلهم فى التوراة والانجيل كزرع (وثانيها) أن يكون خبر ذلك هو قوله مثلهم فى التوراة وقوله ومثلهم فى الانجيل مبتدأ وخبره كزرع (وثالثها) ان يكون ذلك اشارة غير معينة أوضحت بقوله تعالى كزرع كقوله ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين وفيه وجه رابع وهو أن يكون ذلك خبراله مبتدأ محذوف تقديره هذا الظاهر فى وجوههم ذلك يقال ظهر فى وجهه أثر الضرب فنقول اى والله ذلك أى هذا ذلك الظاهر أو الظاهر الذى تقوله ذلك ﴿ وقوله تعالى ﴿ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع﴾ أى وصفوا فى الكتابين به ومثلوا بذلك واغا جعلوا كالزرع لانه أول ما يخرج يكون ضعيفا وله نمو الى حد الكمال فكذلك المؤمنون والشطأ الفرخ فآزره ويحتمل أن يكون المراد أخرج الشطأ وآزر الشطأ وهو أقوى وأظهر والكلام يتم عند قوله يعجب الزراع ﴿ وقوله تعالى ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ أى تنمية الله ذلك ليغيظ أو يكون الفعل المعلل هو قوله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أى وعد ليغيظ بهم الكفار يقال رغما لانفك انعم عليه ﴿ وقوله تعالى ﴿منهم مغفرة وأجرا عظيما﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض ويحتمل أن يقال هو للتبعيض ومعناه ليغيظ الكفار والذين آمنوا من الكفار لهم الاجر العظيم والعظيم والمغفرة قد تقدم مرارا والله تعالى أعلم وههنا لطيفة وهو انه تعالى قال فى حق الراكعين الساجدين انهم يبتغون فضلا من الله وقال لهم أجر ولم يقل لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل وذلك لان المؤمن عند العمل لم يلتفت الى عمله ولم يجعل له أجرا يعتد به فقال لا أبتغى الا فضلك فان عملى نزر لا يكون له أجر والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل وسماه أجرا اشارة الى قبول عمله ووقوعه الموقع وعدم كونه عند الله نزرا لا يستحق المؤمن عليه أجرا وقد علم مما ذكرنا مرارا ان قوله وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لبيان ترتب المغفرة على الايمان فان كل مؤمن يغفر له كما قال تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء والاجر العظيم على العمل الصالح والله أعلم قال المصنف رحمه الله تعالى تم تفسير هذه السورة يوم الخميس السابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

﴿سورة الحجرات ثمانى عشرة آية مدنية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ان الله سميع عليم﴾ فى بيان حسن الترتيب وجوه (أحدها) ان فى السورة المتقدمة لما جرى منهم ميل الى الامتناع مما أجاز النبى صلى الله عليه وسلم من الصلح وترك آية التسمية والرسالة وألزمهم كلمة التقوى كأن رسول الله قال لهم على سبيل العموم

على أنه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه (ان الذين يتلون كتاب الله) أى يداومون على قراءته أو متابعة ما فيه حتى صارت سمة لهم وعنوانا والمراد بكتاب الله تعالى القرآن وقيل جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الامم بعد اقتصاص حال المكذبين منهم وليس بذاك فان صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعية تلاوته والعمل بما فيه واستتباعهما لما سيأتى من توفية الاجور وزيادة الفضل وحملها على حكاية الحال الماضية مع كونه تعسفا ظاهرا مما لا سبيل اليه كيف لا والمقصود الترغيب فى دين الاسلام والعمل بالقرآن الناسخ لما بين يديه من الكتب فالتعرض لبيان حقيتها قبل انتساخها والاشباع فى ذكر استتباعها لما ذكر من الفوائد العظيمة مما يورث الرغبة فى تلاوتها والاقبال على العمل بها وتخصيص التلاوة بما لم ينسخ منها باطل قطعا لما أن الباقى مشروعا ليس الا حكمها لكن لا من حيث انه حكمها بل من حيث انه حكم القرآن وأما تلاوتها فبمعزل من المشروعية واستتباع الاجر بالمرة فتدبر (واقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) كيفما اتفق من غير قصد اليهما وقيل السر فى المسنونة والعلانية فى المفروضة (يرجون تجارة) تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر ان وقوله تعالى (لن تبور) أى لن تكسد ولن تهلك بالخسران أصلا صفة لتجارة جىء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران لانه اشتراء باق بفان والاخبار برجائهم من أكرم الاكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم وقوله تعالى (ليوفيهم أجورهم) متعلق بلن تبور على معنى أنه ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم أجور أعمالهم (ويزيدهم من فضله) على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء وقيل بعضهم رد عليه ما عد من أفعالهم المرضية أى فعلوا ذلك ليوفيهم الخ وقيل بيرجون على أن اللام للعاقبة (انه غفور شكور) تعليل لما قبله من التوفية والزيادة أى غفور

لا تقدموا

لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ولا تتجاوزوا ما يأمر الله تعالى ورسوله (الثانى) هو أن الله تعالى لما بين محل النبي عليه الصلاة والسلام وعلو درجته بكونه رسوله الذى يظهر دينه وذكر بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله رحماء قال لا تتركوا من احترامه شيأ لا بالفعل ولا بالقول ولا تغتروا برأفته وانظروا الى رفعة درجته (الثالث) هو أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء ورحماء فيما بينهم راكعين ساجدين نظرا الى جانب الله تعالى وذكر ان لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء فى الكتب المتقدمة بقوله ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل فان الملك العظيم لا يذكر أحدا فى غيبته الا اذا كان عنده محترما ووعدهم بالاجر العظيم فقال فى هذه السورة لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم واحباط حسناتكم ولا تقدموا وقيل فى سبب نزول الآية وجوه قيل نزلت فى صوم يوم الشك وقيل نزلت فى التضحية قبل صلاة العيد وقيل نزلت فى ثلاثة قتلوا اثنين من سليم ظنوهما من بنى عامر وقيل نزلت فى جماعة أكثروا من السؤال وكان قد قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وفود والاصح انه ارشاد عام يشمل الكل ومنع مطلق يدخل فيه كل اثبات وتقدم واستبداد بالامر واقدام على فعل غير ضرورى من غير مشاورة وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى لا تقدموا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون من التقديم الذى هو متعد وعلى هذا ففيه وجهان (أحدهما) ترك مفعوله برأسه كما فى قوله تعالى يحيى ويميت وقول القائل فلان يعطى ويمنع ولا يريد بهما اعطاء شئ معين ولا منع شئ معين واغاير يد بهما ان له منعا واعطاء كذلك ههنا كأنه تعالى يقول لا ينبغى أن يصدر منكم تقديم أصلا (والثانى) أن يكون المفعول الفعل أو الامر كأنه يقول لا تقدموا يعنى فعلا بين يدى الله ورسوله أو لا تقدموا أمرا (الثانى) ان يكون المراد لا تقدموا بمعنى لا تتقدموا وعلى هذا فهو مجاز ليس المراد هو نفس التقديم بل المراد لا تجعلوا لانفسكم تقدما عند النبى صلى الله عليه وسلم يقال فلان تقدم من بين الناس اذا ارتفع أمره وعلا شأنه والسبب فيه ان من ارتفع يكون متقدما فى الدخول فى الامور العظام وفى الذكر عند ذكر الكرام وعلى هذا نقول سواء جعلناه متعديا أو لازما لا يتعدى الى ما يتعدى اليه التقديم فى قولنا قدمت زيدا فالمعنى واحد لان قوله لا تقدموا اذا جعلناه متعديا أو لازما لا يتعدى الى ما يتعدى اليه التقديم فى قولنا قدمت زيدا فتقديره لا تقدموا أنفسكم فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم أى لا تجعلوا لانفسكم تقدما ورأيا عنده ولا نقول بان المراد لا تقدموا أمرا او فعلا وحينئذ تتحد القراءتان فى المعنى وهما قراءة من قرأ بفتح التاء والدال وقراءة من قرأ بضم التاء وكسر الدال وقوله تعالى بين يدى الله ورسوله أى بحضرتهما لان ما بحضرة الانسان فهو بين يديه وهو ناظر اليه وهو نصب عينيه وفى قوله بين يدى الله ورسوله فوائد (أحدها) ان قول القائل فلان بين يدى فلان اشارة الى كون كل واحد منهما حاضرا عند الآخر مع أن لاحدهما علو الشأن وللآخر درجة العبيد والغلمان لان من يجلس بجنب الانسان يكلفه تقليب الحدقة اليه وتحريك الرأس اليه عند الكلام والامر ومن يجلس بين يديه لا يكلفه ذلك ولان اليدين تنبئ عن القدرة يقول القائل هو بين يدى فلان أى يقلبه كيف شاء فى اشغاله كما يفعل الانسان بما يكون موضوعا بين يديه وذلك مما يفيد وجوب الاحتراز من التقدم وتقديم النفس لان من يكون كمتاع يقلبه الانسان بيديه كيف يكون له عنده التقدم (وثانيها) ذكر الله اشارة الى وجوب احترام الرسول عليه الصلاة والسلام والانقياد لاوامره وذلك لان احترام الرسول صلى الله عليه وسلم قد يترك على بعد المرسل وعدم اطلاعه على ما يفعل برسوله فقال بين يدى الله أى أنتم بحضرة من الله تعالى وهو ناظر اليكم وفى مثل هذه الحالة يجب احترام رسوله (وثالثها) هو ان هذه العبارة كما تقرر النهى المتقدم تقرر معنى الامر المتأخر وهو قوله واتقوا لان من يكون بين يدى الغير كالمتاع الموضوع بين يديه يفعل به ما يشاء يكون جديرا بان يتقيه وقوله تعالى واتقوا الله يحتمل أن يكون ذلك عطفا يوجب مغايرة مثل المغايرة التى فى قول

لفرطاتهم شكور لطاعاتهم أى مجازيهم عليها وقيل هو خبران الذين ويرجون حال من واو أنفقوا (والذى أوحينا اليك من الكتاب) وهو القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعيض وقيل اللوح ومن للابتداء (هو الحق مصدقا لما بين يديه) أى أحقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لان حقيته تستلزم موافقته اياه فى العقائد وأصول الاحكام (ان الله بعباده لخبير بصير) محيط ببواطن أمورهم وظواهرها فلو كان فى أحوالك ما ينافى النبوة لم يوح اليك مثل هذا الحق المعجز الذى هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة هى الامور الروحانية (ثم أورثنا الكتاب) أى قضينا بتوريثه منك أو نورثه والتعبير عنه بالماضى لتقرره وتحققه وقيل أورثناه من الامم السالفة أى أخرناه عنهم وأعطيناه (الذين اصطفينا من عبادنا) وهم علماء الامة من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير بسيرتهم أو الامة باسرهم فان الله تعالى اصطفاهم على سائر الامم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء الى أفضل رسله عليهم الصلاة والسلام وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب الآية (فمنهم ظالم لنفسه) بالتقصير فى العمل به وهو المرجأ لامر الله (ومنهم مقتصد) يعمل به فى أغلب الاوقات ولا يخلو من خلط السئ (ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) قيل هم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار وقيل هم المداومون على اقامة مواجبه علما وعملا وتعليما وفى قوله تعالى باذن الله أى بتيسيره وتوفيقه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذى خلط الصالح بالسئ والسابق الذى ترجحت حسناته بحيث صارت سيآته مكفرة وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام أما الذين سبقوا فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب وأما المقتصد فاولئك يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين

القائل لاتنم واشتغل أى فائدة ذلك النهى هو مافى هذا الامر وليس المطلوب به ترك النوم كيف كان بل المطلوب بذلك الاشتغال فكذلك لاتقدموا أنفسكم ولاتتقدموا على وجه التقوى ويحتمل أن يكون بينهما مغايرة أتم من ذلك وهى التى فى قول القائل احترم زيدا واخدمه أى ائت باتم الاحترام فكذلك ههنا معناه لاتتقدموا عنده واذا تركتم التقدم فلا تتكلوا على ذلك فلا تنتفعوا بل مع انكم قائمون بذلك محترمون له اتقوا الله واخشوه والالم تكونوا أتيتم بواجب الاحترام وقوله تعالى ان الله سميع عليم يؤكد ماتقدم لانهم قالوا آمنا لان الخطاب يفهم بقوله يا أيها الذين آمنوا فقد يسمع قولهم ويعلم فعلهم ومافى قلوبهم من التقوى والخيانة فلا ينبغى أن يختلف قولكم وفعلكم وضمير قلبكم بل ينبغى أن يتم مافى سمعه من قولكم آمنا وسمعنا وأطعنا ومافى علمه من فعلكم الظاهر وهو عدم التقدم ومافى قلوبكم من الضمائر وهو التقوى ۞ ثم قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون﴾ لاتقدموا نهى عن فعل ينبئ عن كونهم جاعلين لانفسهم عند الله ورسوله بالنسبة اليهما وزنا ومقدارا ومدخلا فى أمر من أوامرهما ونواهيهما وقوله لاترفعوا نهى عن قول ينبئ عن ذلك الامر لان من يرفع صوته عند غيره يجعل لنفسه اعتبارا زائدا وعظمة وفيه مباحث (البحث الاول) ماالفائدة فى اعادة النداء وماهذا النمط من الكلامين على قول القائل يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله لاترفعوا أصواتكم نقول فى اعادة النداء فوائد خمسة منها أن يكون فى ذلك بيان زيادة الشفقة على المسترشد كما فى قول لقمان لابنه يابنى لاتشرك بالله يابنى انها ان تك مثقال حبة يابنى أقم الصلاة لان النداء لتنبيه المنادى ليقبل على استماع الكلام ويجعل باله منه فاعادته تفيد ذلك ومنها أن لايتوهم متوهم ان المخاطب ثانيا غير المخاطب أولا فان من الجائز أن يقول القائل يازيد افعل كذا وقل كذا ياعمرو فاذا أعاده مرة أخرى وقال يازيد قل كذا يعلم من أول الكلام انه هو المخاطب ثانيا أيضا ومنها أن يعلم ان كل واحد من الكلامين مقصود ليس الثانى تأكيدا للاول كما تقول يازيد لاتنطق ولاتتكلم الا بالحق فانه لايحسن أن يقال يازيد لاتنطق يازيد لاتتكلم كما يحسن عند اختلاف المطلوبين وقوله تعالى لاترفعوا أصواتكم يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون المراد حقيقته وذلك لان رفع الصوت دليل قلة الاحتشام وترك الاحترام وهذا من مسئلة حكمية وهى ان الصوت بالمخارج ومن خشى قلبه ارتجف وتضعف حركته الدافعة فلا يخرج منه الصوت بقوة ومن لم يخف ثبت قلبه وقوى فرفع الهواء دليل عدم الخشية (ثانيها) أن يكون المراد المنع من كثرة الكلام لان من يكثر الكلام يكون متكلما عند سكوت الغير فيكون فى وقت سكوت الغير لصوته ارتفاع وان كان خائفا اذا نظرت الى حال غيره فلا ينبغى أن يكون لاحد عند النبى صلى الله عليه وسلم كلام كثير بالنسبة الى كلام النبى صلى الله عليه وسلم لان النبى عليه الصلاة والسلام مبلغ فالمتكلم عنده ان أراد الاخبار لايجوز وان استخبر النبى عليه السلام عما وجب عليه البيان فهو لايسكت عما يسئل وان لم يسئل وربما يكون فى السؤال حقيدة برد جواب لايسهل على المكلف الاتيان به فيبقى فى ورطة العقاب (ثالثها) أن يكون المراد رفع الكلام بالتعظيم أى لاتجعلوا الكلامكم ارتفاعا على كلام النبى صلى الله عليه وسلم فى الخطاب كما يقول القائل لغيره أمرتك مرارا بكذا عندما يقول له صاحبه مرنى بامر مثله فيكون أحد الكلامين أعلى وأرفع من الآخر والاول أصح والكل يدخل فى حكم المراد لان المنع من رفع الصوت لايكون الا للاحترام واظهار الاحتشام ومن بلغ احترامه الى حيث تنخفض الاصوات عنده من هيبته وعلو مرتبته لايكثر عنده الكلام ولا يرجع المتكلم معه فى الخطاب وقوله تعالى ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض فيه فوائد (احداها) ان بالاول حصل المنع من أن يجعل الانسان كلامه أو صوته أعلى من كلام النبى صلى الله عليه وسلم وصوته ولقائل أن يقول فما منعت من المساواة فقال تعالى ولاتجهروا له كما

تجهرون

ظلموا أنفسهم فاولئك يحبسون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله تعالى برحمته وقد روى أن عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له (ذلك) اشارة الى السبق بالخيرات ومافيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته فى الشرف (هو الفضل الكبير) من الله عز وجل لاينال الا بتوفيقه تعالى (جنات عدن) اما بدل من الفضل الكبير بتنزيل السبب منزلة المسبب أو مبتدأ خبره (يدخلونها) وعلى الاول هو مستأنف وجمع الضمير لان المراد بالسابق الجنس وتخصيص حال السابقين ومآلهم بالذكر والسكوت عن الفريقين الآخرين وان لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقا لكن فيه تحذير لهما من التقصير وتحريضا على السعى فى ادراك شأو السابقين وقرئ جنات عدن وجنة عدن على النصب بفعل يفسره الظاهر وقرئ يدخلونها على البناء للمفعول (يحلون فيها) خبر ثان أو حال مقدرة وقرئ يحلون من حليت المرأة فهى حالية (من أساور) هى جمع أسورة جمع سوار (من ذهب) من الاولى تبعيضية والثانية بيانية أى يحلون بعض أساور من ذهب كأنه أفضل من سائر أفرادها (ولؤلؤا) بالنصب عطفا على محل من أساور وقرئ بالجر عطفا على ذهب أى من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفاء اللؤلؤ (ولباسهم فيها حرير) وتغيير الاسلوب قد مر سره فى سورة الحج (وقالوا) أى يقولون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة وعن ابن عباس رضى الله عنهما حزن الاعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن وسوسة ابليس وقيل هم المعاش وقيل حزن زوال النعم والظاهر أنه الجنس المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا وقرئ الحزن وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس على أهل لااله الا الله وحشة فى قبورهم ولافى محشرهم ولافى مسيرهم وكأنى بأهل لااله الا الله يخرجون

تجهرون لاقرانكم ونظرائكم بل اجعلوا كلمته عليا (والثانية) ان هذا أفاد انه لا ينبغى أن يتكلم المؤمن عند النبى عليه السلام كما يتكلم العبد عند سيده لان العبد داخل تحت قوله كجهر بعضكم لبعض لانه للعموم فلا ينبغى أن يجهر المؤمن للنبى صلى الله عليه وسلم كما يجهر العبد للسيد والا لكان قد جهر له كما يجهر بعضكم لبعض لا يقال المفهوم من هذا النمط أن لا تجعلوه كما يتفق بينكم بل ميزوه بأن لا تجهروا عنده أبدا وفيما بينكم لا تحافظون على الاحترام لانا نقول ماذكرنا أقرب الى الحقيقة وفيه ماذكرتم من المعنى وزيادة ويؤيد ماذكرنا قوله تعالى النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم والسيد ليس أولى عند عبده من نفسه حتى لو كانا فى مخمصة ووجد العبد مالو لم يأكله لمات لا يجب عليه بذله لسيده ويجب البذل للنبى صلى الله عليه وسلم ولو علم العبد ان بموته ينجو سيده لا يلزمه ان يلقى نفسه فى التهلكة لانجاء سيده ويجب لانجاء النبى عليه الصلاة والسلام وقد ذكرنا حقيقته عند تفسير الآية وان الحكمة تقتضى ذلك كما ان العضو الرئيس أولى بالرعاية من غيره لان عند خلل القلب مثلا لا يبقى لليدين والرجلين استقامة فلو حفظ الانسان نفسه وترك النبى عليه الصلاة والسلام لهلك هو أيضا بخلاف العبد والسيد (الفائدة الثالثة) ان قوله تعالى لا ترفعوا أصواتكم لما كان من جنس لا تجهروا لم يستأنف النداء ولما كان هو يخالف التقدم لكون أحدهما فعلا والآخر قولا استأنف كما فى قول لقمان يا بنى لا تشرك وقوله يا بنى أقم الصلاة لكون الاول من عمل القلب والثانى من عمل الجوارح وقوله يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر من غير استئناف النداء لكون الكل من عمل الجوارح واعلم انا ان قلنا المراد من قوله لا ترفعوا أصواتكم أى لا تكثروا الكلام فقوله ولا تجهروا يكون مجازا عن الاتيان بالكلام عند النبى صلى الله عليه وسلم بقدر ما يؤتى به عند غيره أى لا تكثروا وقللوا غاية التقليل وكذلك ان قلنا المراد بالرفع الخطاب فالمراد بقوله لا تجهروا أى لا تخاطبوه كما تخاطبون غيره وقوله تعالى ان تحبط أعمالكم فيه وجهان مشهوران (أحدهما) لئلا تحبط (والثانى) كراهة ان تحبط وقد ذكرنا ذلك فى قوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا وأمثاله ويحتمل ههنا وجها آخر وهو أن يقال معناه واتقوا الله واجتنبوا أن تحبط أعمالكم والدليل على هذا ان الاضمار لما لم يكن منه بد فما دل عليه الكلام الذى هو فيه أولى ان يضمر والامر بالتقوى قد سبق فى قوله تعالى واتقوا وأما المعنى فنقول قوله ان تحبط اشارة الى انكم ان رفعتم أصواتكم وتقدمتم تمكن منكم هذه الرذائل وتؤدى الى الاستحقار وانه يفضى الى الانفراد والارتداد المحبط وقوله تعالى وأنتم لا تشعرون اشارة الى ان الردة تتمكن من النفس بحيث لا يشعر الانسان فان من ارتكب ذنبا لم يرتكبه فى عمره تراه نادما غاية الندامة خائفا غاية الخوف فاذا ارتكبه مرارا يقل الخوف والندامة ويصير عادة من حيث لا يعلم انه لا يتمكن وهذا كان للتمكن فى المرة الاولى أو الثانية أو الثالثة أو غيرها وهذا كما ان من بلغه خبر فانه لا يقطع بقول المخبر فى المرة الاولى فاذا تكرر عليه ذلك وبلغ حد التواتر يحصل له اليقين ويتمكن الاعتقاد ولا يدرى متى كان ذلك وعند أى خبر حصل هذا اليقين فقوله وأنتم لا تشعرون تأكيد للمنع أى لا تقولوا بأن المرة الواحدة تعفى ولا توجب ردة لان الامر غير معلوم فاحسموا الباب وفيه بيان آخر وهو ان المكلف اذا لم يحترم النبى صلى الله عليه وسلم ويجعل نفسه مثله فيما يأتى به بناء على أمره يكون كما يأتى به بناء على أمر نفسه لكن ما تأمر به النفس لا يوجب الثواب وهو محبط حابط كذلك ما يأتى به بغير أمر النبى صلى الله عليه وسلم حينئذ حابط محبط والله أعلم واعلم أن الله تعالى لما أمر المؤمنين باحترام النبى صلى الله عليه وسلم واكرامه وتقديمه على أنفسهم وعلى كل من خلقه الله تعالى أمر نبيه عليه السلام بالرأفة والرحمة وان يكون أرأف بهم من الوالد كما قال واخفض جناحك للمؤمنين وقال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم وقال ولا تكن كصاحب الحوت الى غير ذلك لئلا تكون خدمته خدمة الجبارين الذين يستعبدون الاحرار بالقهر فيكون انقيادهم لوجه الله ۞ ثم قال تعالى (ان

من قبورهم ينفضون التراب من وجوههم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن (ان ربنا لغفور) أى للمذنبين (شكور) للمطيعين (الذى أحلنا دار المقامة) أى دار الاقامة التى لا انتقال عنها أبدا (من فضله) من انعامه وتفضله من غير أن يوجبه شئ من قبلنا (لا يمسنا فيها نصب) تعب (ولا يمسنا فيها لغوب) كلال والفرق بينهما أن النصب نفس المشقة والكلفة واللغوب ما يحدث منه من الفتور والتصريح بنفى الثانى مع استلزام نفى الاول له وتكرير الفعل المنفى للمبالغة فى بيان انتفاء كل منهما (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم) لا يحكم عليهم بموت ثان (فيموتوا) ويستريحوا ونصبه باضمار أن وقرئ فيموتون عطفا على يقضى كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون (ولا يخفف عنهم من عذابها) بل كلما خبت زيد اسعارها (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزى كل كفور) مبالغ فى الكفر أو الكفران لا جزاء أخف وأدنى منه وقرئ يجزى على البناء للمفعول واسناده الى الكل وقرئ يجازى (وهم يصطرخون فيها) يستغيثون والاصطراخ افتعال من الصراخ استعمل فى الاستغاثة لجهد المستغيث صوته (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) باضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور للتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به والاشعار بان استخراجهم لتلافيه وانهم كانوا يحسبونه صالحا والآن تبين خلافه وقوله تعالى (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما نكرة موصوفة أى ألم نمهلكم أولم نؤخركم ولم نعمركم عمرا يتذكر فيه من تذكر أى يتمكن فيه المتذكر من التذكر والتفكر قيل هو أربعون سنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما ستون سنة وروى ذلك عن على رضى الله عنه وهو العمر الذى أعذر الله فيه الى ابن آدم قال عليه الصلاة والسلام أعذر الله الى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة وقوله تعالى (وجاءكم النذير) عطف على

الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) وفيه الحث على ما أرشدهم اليه من وجهين (أحدهما) ظاهر لكل أحد وذلك فى قوله تعالى امتحن الله قلوبهم للتقوى وبيانه هو ان من يقدم نفسه ويرفع صوته يريد اكرام نفسه واحترام شخصه فقال تعالى ترك هذا الاحترام يحصل به حقيقة الاحترام وبالاعراض عن هذا الاكرام يكمل الاكرام لان به تتبين تقواكم وان أكرمكم عند الله أتقاكم ومن القبيح ان يدخل الانسان حماما فيتخير لنفسه فيه منصبا ويفوت بسببه منصبه عند السلطان ويعظم نفسه فى الخلاء والمستراح وبسببه يهون فى الجمع العظيم وقوله تعالى امتحن الله قلوبهم للتقوى فيه وجوه (أحدها) امتحنها ليعلم منها التقوى فان من يعظم واحدا من أبناء جنسه لكونه رسول مرسل يكون تعظيمه للمرسل أعظم وخوفه منه أقوى وهذا كما فى قوله تعالى ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب أى تعظيم أوامر الله من تقوى الله فكذلك تعظيم رسول الله من تقواه (الثانى) امتحن أى علم وعرف لان الامتحان تعرف الشئ فيجوز استعماله فى معناه وعلى هذا فاللام تتعلق بمحذوف تقديره عرف الله قلوبهم صالحة أى كائنة للتقوى كما يقول القائل أنت لكذا أى صالح أو كائن (الثالث) امتحن أى أخلص يقال للذهب ممتحن أى مخلص فى النار وهذه الوجوه كلها مذكورة ويحتمل أن يقال معناه امتحنها للتقوى اللام للتعليل وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تعليلا يجرى مجرى بيان السبب المتقدم كما يقول القائل جئتك لاكرامك لى أمس أى صار ذلك السابق سبب المجئ (وثانيهما) أن يكون تعليلا يجرى مجرى بيان غاية المقصود المتوقع الذى يكون لاحقا لا سابقا كما يقول القائل جئتك لاداء الواجب فان قلنا بالاول فتحقيقه هو ان الله علم ما فى قلوبهم من تقواه وامتحن قلوبهم للتقوى التى كانت فيها ولولا ان قلوبهم كانت مملوءة من التقوى لما أمرهم بتعظيم رسوله وتقديم نبيه على أنفسهم بل كان يقول لهم آمنوا برسولى ولا تؤذوه ولا تكذبوه فان الكافر أول ما يؤمن يؤمن بالاعتراف بكون النبى صلى الله عليه وسلم صادقا وبين من قيل له لا تستهزئ برسول الله ولا تكذبه ولا تؤذيه وبين من قيل له لا ترفع صوتك عنده ولا تجعل لنفسك وزنا بين يديه ولا تجهر بكلامك الصادق بين يديه بون عظيم واعلم ان بقدر تقدمك للنبى عليه الصلاة والسلام على نفسك فى الدنيا يكون تقديم النبى عليه الصلاة والسلام اياك فى العقبى فانه لا يدخل أحد الجنة ما لم يدخل الله أمته المتقين الجنة وان قلنا بالثانى فتحقيقه هو ان الله تعالى امتحن قلوبهم بمعرفته ومعرفة رسوله بالتقوى أى ليرزقهم الله التقوى التى هى حق التقاة وهى التى لا تخشى مع خشية الله أحدا فتراه آمنا من كل مخيف لا يخاف فى الدنيا بخسا ولا يخاف فى الآخرة نحسا والناظر العاقل اذا علم ان بالخوف من السلطان يأمن جور الغلمان ويتجنب الاراذل ينجو من بأس السلطان فيجعل خوف السلطان جنة فكذلك العالم لو امعن النظر لعلم ان بخشية الله النجاة فى الدارين وبالخوف من غيره الهلاك فيهما فيجعل خشية الله جنته التى يحرس بها نفسه فى الدنيا والآخرة ۞ ثم قال تعالى (لهم مغفرة وأجر عظيم) وقد ذكرنا ان المغفرة ازالة السيآت التى هى فى الدنيا لازمة للنفس والاجر العظيم اشارة الى الحياة التى هى بعد مفارقة الدنيا عن النفس فيزيل الله عنه القبائح البهيمية ويلبسه المحاسن الملكية ۞ ثم قال تعالى (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) بيانا لحال من كان فى مقابلة من تقدم فان الاول غض صوته والآخر رفعه وفيه اشارة الى انه ترك لادب الحضور بين يديه وعرض الحاجة عليه وأما قول القائل للملك يا فلان من سوء الادب فان قلت كل أحد يقول يا الله مع ان الله أكبر نقول النداء على قسمين (أحدهما) لتنبيه المنادى (وثانيهما) لاظهار حاجة المنادى (مثال الاول) قول القائل لرفيقه أو غلامه يا فلان (ومثال الثانى) قول القائل فى الندبة يا أمير المؤمنيناه أو يا زيداه ولقائل أن يقول ان كان زيد بالمشرق لا تنبيه فانه محال فكيف يناديه وهو ميت فنقول قولنا يا الله لاظهار حاجة الانفس لا لتنبيه المنادى وانما كان فى

النداء

الجملة الاستفهامية لانها فى معنى قد شرحنا كم كما فى قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك ووضعنا الخ لانه فى معنى قد شرحنا الخ والمراد بالنذير رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما معه من القرآن وقيل العقل وقيل الشيب وقيل موت الاقارب والاقتصار على ذكر النذير لانه الذى يقتضيه المقام والفاء فى قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الامر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجىء النذير وفى قوله تعالى (فما للظالمين من نصير) للتعليل (ان الله عالم غيب السموات والارض) بالاضافة وقرئ بالتنوين ونصب غيب على المفعولية أى لا يخفى عليه خافية فيهما فلا تخفى عليه أحوالهم (انه عليم بذات الصدور) قيل انه تعليل لما قبله لانه اذا علم مضمرات الصدور وهى أخفى ما يكون كان أعلم بغيرها (هو الذى جعلكم خلائف فى الارض) يقال للمستخلف خليفة وخليف والاول يجمع خلائف والثانى خلفاء والمعنى انه تعالى جعلكم خلفاءه فى أرضه وألقى اليكم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها أو جعلكم خلفاء ممن قبلكم من الامم وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة (فمن كفر) منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها (فعليه كفره) أى وبال كفره لا يتعداه الى غيره وقوله تعالى (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) بيان لوبال الكفر وغائلته وهو مقت الله تعالى اياهم أى بغضه الشديد الذى ليس وراءه خزى وصغار وخسار الآخرة الذى ما بعده شر وخسار والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الامرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والاصالة (قل) تبكيتا لهم (أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) أى آلهتكم والاضافة اليهم لانهم جعلوهم شركاء الله تعالى من غير أن يكون له أصل ما أصلا وقيل جعلوهم شركاء لانفسهم فيما يملكونه ويأباه سياق النظم الكريم وسباقه (أرونى ماذا خلقوا من الارض) بدل اشتمال من أرأيتم

كانه قيل أخبرونى عن شركائكم أرونى أى جزء خلقوا من الارض (أم لهم شرك فى السموات) أى أم لهم شركة مع الله سبحانه فى خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة فى الالوهية ذاتية (أم آتيناهم كتابا) ينطق بأنا اتخذناهم شركاء (فهم على بينة منه) أى حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بان لهم شركة جعلية ويجوز أن يكون ضمير آتيناهم للمشركين كما فى قوله تعالى أم أنزلنا عليه سلطانا الخ وقرئ على بينات وفيه ايماء الى أن الشرك امر خطير لابد فى اثباته من تعاضد الدلائل (بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الاغرورا) لما نفى أنواع الحجج فى ذلك اضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تغرير الاسلاف للاخلاف واضلال الرؤساء للاتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقريب اليه (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) استئناف مسوق لبيان غاية قبح الشرك وهوله أى يمسكهما كراهة زوالهما أو يمنعهما ان تزولا لان الامساك منع (ولئن زالتا ان أمسكهما) أى ما أمسكهما (من أحد من بعده) من بعد امساكه تعالى أو من بعد الزوال والجملة سادة مسد الجوابين ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية للابتداء (انه كان حليما غفورا) غير معاجل بالعقوبة التى تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتين بان تهدا هدا حسبما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وقرئ ولو زالتا (واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم) بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من احدى الامم اليهود والنصارى وغيرهم أو من الامة التى يقال لها احدى الامم تفضيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامة (فلما جاءهم نذير) وأى نذير أشرف الرسل عليهم الصلاة والسلام (مازادهم) أى النذير أو مجيئه (الانفورا) تباعدا عن الحق (استكبارا فى الارض) بدل من نفورا أو مفعول

النداء الامر ان جميعا لان المنادى لاينادى الالحاجة فى نفسه يعرضها ولاينادى فى الاكثر الامعرضا أو غافلا فحصل فى النداء الامران ونداؤهم كان للتنبيه وهو سوء أدب وأما قول أحدنا للكبير ياسيدى ويامولاى فهو جار مجرى الوصف والاخبار (الثانى) النداء من وراء الحجرات فان من ينادى غيره ولا حائل بينهما لايكلفه المشى والمجىء بل يجيبه من مكانه ويكلمه ولا يطلب المنادى الا التفات المنادى اليه ومن ينادى غيره من وراء الحائل فكانه يريد منه حضوره كمن ينادى صاحب البستان من خارج البستان (الثالث) قوله الحجرات اشارة الى كون النبى صلى الله عليه وسلم فى خلوته التى لايحسن فى الادب اتيان المحتاج اليه فى حاجته فى ذلك الوقت بل الاحسن التأخير وان كان فى ورطة الحاجة وقوله تعالى أكثرهم لايعقلون فيه بيان المعايب بقدر ما فى سوء أدبهم من القبائح وذلك لان الكلام من خواص الانسان وهو أعلى مرتبة من غيره وليس لمن دونه كلام لكن النداء فى المعنى كالتنبيه وقد يحصل بصوت بضرب شئ على شئ وفى الحيوانات العجم ما يظهر لكل أحد كالنداء فان الشاة تصيح وتطلب ولدها وكذلك غيرها من الحيوانات والسخلة كذلك فكان النداء حصل فى المعنى لغير الآدمى فقال الله تعالى فى حقهم أكثرهم لايعقلون يعنى النداء الصادر منهم لما لم يكن مقرونا بحسن الادب كانوا فيه خارجين عن درجة من يعقل وكان نداؤهم كصياح صدر من بعض الحيوانات وقوله تعالى أكثرهم فيه وجهان (أحدهما) ان العرب تذكر الاكثر وتريد الكل وانما تأتى بالاكثر احترازا عن الكذب واحتياطا فى الكلام لان الكذب مما يحبط به عمل الانسان فى بعض الاشياء فيقول الاكثر وفى اعتقاده الكل ثم ان الله تعالى مع احاطة علمه بالامور أتى بما يناسب كلامهم وفيه اشارة الى لطيفة وهى ان الله تعالى يقول أنا مع احاطة علمى بكل شئ جريت على عادتكم استحسانا لتلك العادة وهى الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها واجعلوا اختيارى ذلك فى كلامى دليلا قاطعا على رضاى بذلك (وثانيهما) أن يكون المراد انهم فى أكثر أحوالهم لايعقلون وتحقيق هذا هو ان الانسان اذا اعتبر مع وصف ثم اعتبر مع وصف آخر يكون المجموع الاول غير المجموع الثانى مثاله الانسان يكون جاهلا وفقيرا فيصير عالما وغنيا فيقال فى العرف زيد ليس هو الذى رأيته من قبل بل الآن على أحسن حال فيجعله كانه ليس ذلك اشارة الى ماذكرنا اذا علم هذا فهم فى بعض الاحوال اذا اعتبرتهم مع تلك الحالة مغايرون لانفسهم اذا اعتبرتهم مع غيرها فقال تعالى أكثرهم اشارة الى ماذكرناه وفيه وجه ثالث وهو أن يقال لعل منهم من رجع عن تلك الاهواء ومنهم من استمر على تلك العادة الرديئة فقال أكثرهم اخراجا لمن ندم منهم عنهم ۞ ثم قال تعالى (ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم) اشارة الى حسن الادب الذى على خلاف ما أتوا به من سوء الادب فانهم لو صبروا لما احتاجوا الى النداء واذا كنت تخرج اليهم فلا يصح اتيانهم فى وقت اختلائك بنفسك أو باهلك أو بربك فان للنفس حقا وللاهل حقا وقوله تعالى لكان خيرا لهم يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد ان ذلك هو الحسن والخير كقوله تعالى خير مستقرا (وثانيهما) أن يكون المراد هو ان بالنداء وعدم الصبر يستفيدون تنجيز الشغل ودفع الحاجة فى الحال وهو مطلوب ولكن المحافظة على حرمة النبى صلى الله عليه وسلم وتعظيمه خير من ذلك لانها تدفع الحاجة الاصلية التى فى الآخرة وحاجات الدنيا فضلية والمرفوع الذى يقتضيه كلمة كان اما الصبر وتقديره لو أنهم صبروا لكان الصبر خيرا أو الخروج من غير نداء وتقديره لو صبروا حتى تخرج اليهم لكان خروجك من غير نداء خيرا لهم وذلك مناسب للحكاية لانهم طلبوا خروجه عليه الصلاة والسلام ليأخذوا ذراريهم فخرج وأعتق نصفهم وأخذوا نصفهم ولو صبروا لكان يعتق كلهم والاول أصح ۞ ثم قال تعالى (والله غفور رحيم) تحقيقا للامرين (أحدهما) لسوء صنيعهم فى التعجيل فان الانسان اذا أتى بقبيح ولا يعاقبه الملك أو السيد يقال ما أحلم سيده لا لبيان حلمه بل لبيان عظيم جناية العبد (وثانيهما) لحسن الصبر يعنى بسبب اتيانهم بما هو خير يغفر الله لهم سيآتهم ويجعل هذه الحسنة

كفارة لكثير من السيئات كما يقال للآبق اذا رجع الى باب سيده أحسنت في رجوعك وسيدك رحيم أي لا يعاقبك على ما تقدم من ذنبك بسبب ما أتيت به من الحسنة ويمكن أن يقال بان ذلك حث للنبي صلى الله عليه وسلم على الصفح وقوله تعالى أكثرهم لا يعقلون كالعذر لهم وقد ذكرنا ان الله تعالى ذكر في بعض المواضع الغفران قبل الرحمة كما في هذه السورة وذكر الرحمة قبل المغفرة في سورة سبأ في قوله وهو الرحيم الغفور حيث قال غفور رحيم أي يغفر سيئاته ثم ينظر اليه فيراه عاريا محتاجا فيرحمه ويلبسه لباس الكرامة وقد يراه مغمورا في السيئات فيغفر سيئاته ثم يرحمه بعد المغفرة فتارة تقع الاشارة الى الرحمة التي بعد المغفرة فيقدم المغفرة وتارة تقع الرحمة قبل المغفرة فيؤخرها ولما كانت الرحمة واسعة توجد قبل المغفرة وبعدها ذكرها قبلها وبعدها ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) هذه السورة فيها ارشاد المؤمنين الى مكارم الاخلاق وهي اما مع الله تعالى أو مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو مع غيرهما من أبناء الجنس وهم على صنفين لانهم اما أن يكونوا على طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجا عنها وهو الفاسق والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم اما أن يكون حاضرا عندهم أو غائبا عنهم فهذه خمسة أقسام (أحدها) يتعلق بجانب الله (وثانيها) بجانب الرسول (وثالثها) بجانب الفساق (ورابعها) بالمؤمن الحاضر (وخامسها) بالمؤمن الغائب فذكر الله تعالى في هذه السورة خمس مرات يا أيها الذين آمنوا وأرشد في كل مرة الى مكرمة مع قسم من الاقسام الخمسة فقال أولا يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله لانها لا تعلم الا بقول رسول الله وقال ثانيا يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي لبيان وجوب احترام النبي صلى الله عليه وسلم وقال ثالثا يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم فانهم يريدون القاء الفتنة بينكم وبين ذلك عند تفسير قوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وقال رابعا يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم وقال ولا تنابزوا لبيان وجوب ترك ايذاء المؤمنين في حضورهم والازدراء بحالهم ومنصبهم وقال خامسا يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم وقال ولا تجسسوا وقال ولا يغتب بعضكم بعضا لبيان وجوب الاحتراز عن اهانة جانب المؤمن حال غيبته وذكر ما لو كان حاضرا لتأذى وهو في غاية الحسن من الترتيب فان قيل لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم بالفاسق نقول قدم الله ما هو الاهم على ما دونه فذكر جانب الله ثم ذكر جانب الرسول ثم ذكر ما يفضي الى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الاصغاء الى كلام الفاسق والاعتماد عليه فانه يذكر كل ما كان أشد نفارا للصدور وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذي المؤمن الى حد يفضي الى القتال ألا ترى ان الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال فقال وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) في سبب نزول هذه الآية هو ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد ابن عقبة وهو أخو عثمان لامه الى بني المصطلق وليا ومصدقا فالتقوه فظنهم مقاتلين فرجع الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال انهم امتنعوا ومنعوا فهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالايقاع بهم فنزلت هذه الآية وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بانهم لم يفعلوا من ذلك شيأ وهذا جيد ان قالوا بان الآية نزلت في ذلك الوقت وأما ان قالوا بأنها نزلت لذلك مقتصرا عليه ومتعديا الى غيره فلا بل نقول هو نزل عاما لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق ويدل على ضعف قول من يقول انها نزلت لكذا ان الله تعالى لم يقل اني أنزلتها لكذا والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينقل عنه انه بين ان الآية وردت لبيان ذلك فحسب غاية ما في الباب انها نزلت في ذلك الوقت وهو مثل التاريخ لنزول الآية ونحن نصدق ذلك ويتأكد ما ذكرنا ان اطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد لانه توهم وظن فأخطأ والمخطئ لا يسمى فاسقا وكيف والفاسق في أكثر

له (ومكر السيء) أصله وأن مكر وا السيء أي المكر السيء ثم ومكرا السيء ثم ومكر السيء وقرئ بسكون الهمزة في الوصل ولعله اختلاس ظن سكونا أو وقفة خفيفة وقرئ مكراسيأ (ولا يحيق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون) أي ما ينتظرون (الا سنة الاولين) أي سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم (فلن تجد لسنت الله تبديلا) بان يضع موضع العذاب غير العذاب (ولن تجد لسنت الله تحويلا) بأن ينقله من المكذبين الى غيرهم والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه ونفي وجدان التبديل والتحويل بل عبارة عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني وتخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) استشهاد على ماقبله من جريان سنته تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه في مسايرهم الى الشام واليمن والعراق من آثار دمار الامم الماضية العاتية والهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام أي أقعدوا في مساكنهم ولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم (وكانوا أشد منهم قوة) وأطول أعمارا فما نفعهم طول المدى وما أغنى عنهم شدة القوى ومحل الجملة النصب على الحالية وقوله تعالى (وما كان الله ليعجزه من شيء) أي ليسبقه ويفوته (في السموات ولا في الارض) اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الامم السالفة وقوله تعالى (انه كان عليما قديرا) أي مبالغا في العلم والقدرة ولذلك علم بجميع أعمالهم السيئة فعاقبهم بموجبها تعليل لذلك (ولو يؤاخذ الله الناس) جميعا (بما كسبوا) من السيئات كما فعل بأولئك (ما ترك على ظهرها) أي على ظهر الارض (من دابة) من نسمة تدب عليها من بني آدم وقيل ومن غيرهم أيضا من شؤم معاصيهم وهو المروي عن ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما ويعضده المواضع الاول قوله تعالى (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) وهو يوم القيامة (فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم

ان خيرا فخير وان شرا فشر ✻ عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أي باب شئت والله تعالى أعلم

✻(سورة يس مكية وعنه عليه الصلاة والسلام تدعى المعمة تعم صاحبها خير الدارين والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضى له كل حاجة وآيها ثلاث وثمانون)✻

✻(بسم الله الرحمن الرحيم)✻

(يس) اما مسرود على نمط التعديد فلا حظ له من الاعراب أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه وعليه الاكثر فمحله الرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أو النصب على أنه مفعول لفعل مضمر وعليهما مدار قراءة يس بالرفع والنصب أى هذه يس أو اقرأ يس ولا مساغ للنصب باضمار فعل القسم لان ما بعده مقسم به وقد أبوا الجمع بين قسمين على شئ واحد قبل انقضاء الاول ولا مجال للعطف لاختلافهما اعرابا وقيل هو مجرور باضمار باء القسم مفتوح لكونه غير منصرف كما سلف فى فاتحة سورة البقرة من أن ما كانت من هذه الفواتح مفردة مثل صاد وقاف ونون أو كانت موازنة لمفرد نحو طس ويس وحم الموازنة لقابيل وهابيل يتأتى فيها الاعراب اللفظى ذكره سيبويه فى باب أسماء السور من كتابه وقيل هما حركتا بناء كما فى حيث وأين حسبما يشهد بذلك قراءة يس بالكسر بكير وقيل الفتح والكسر تحريك للجد فى الهرب من التقاء الساكنين وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن معناه يا انسان فى لغة طيئ قالوا المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره كما قيل من الله فى أيمن الله (والقرآن) بالجر على أنه مقسم به ابتداء وقد جوز أن يكون عطفا على يس على تقدير كونه مجرورا باضمار باء القسم (الحكيم) أى المتضمن للحكمة أو الناطق بها بطريق الاستعارة أو المتصف بها على الاسناد المجازى وقد جوز أن يكون الاصل الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن فى الصفة المشبهة كما مر فى صدر سورة لقمان (انك

المواضع المراد به من خرج عن ربقة الايمان لقوله تعالى ان الله لا يهدى القوم الفاسقين وقوله تعالى ففسق عن أمر ربه وقوله تعالى وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها الى غير ذلك (المسئلة الثانية) قوله تعالى ان جاءكم فاسق بنبأ اشارة الى لطيفة وهى ان المؤمن كان موصوفا بأنه شديد على الكافر غليظ عليه فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره بنبأ فان تمكن منه يكون نادرا فقال ان جاءكم بحرف الشرط الذى لا يذكر مع التوقع اذ لا يحسن أن يقال ان احمر البسر وان طلعت الشمس (المسئلة الثالثة) النكرة فى معرض الشرط تعم اذا كانت فى جانب الثبوت كما أنها تعم فى الاخبار اذا كانت فى جانب النفى وتخص فى معرض الشرط اذا كانت فى جانب النفى كما تخص فى الاخبار اذا كانت فى جانب الثبوت فلنذكر بيانه بالمثال ودليله أما بيانه بالمثال فنقول اذا قال قائل لعبده ان كلمت رجلا فانت حر فيكون كأنه قال لا أكلم رجلا حتى يعتق بتكلم كل رجل واذا قال ان لم أكلم اليوم رجلا فأنت حر يكون كانه قال لا أكلم اليوم رجلا حتى لا يعتق العبد بترك كلام كل رجل كما لا يظهر الحلف فى كلامه بكلام كل رجل اذا ترك الكلام مع رجل واحد وأما الدليل فلان النظر أولا الى جانب الاثبات ألا ترى انه من غير حرف لما ان الوضع للاثبات والنفى بحرف فقول القائل زيد قائم وضع أولا ولم يحتج الى ان يقال مع ذلك حرف يدل على ثبوت القيام لزيد وفى جانب النفى احتجنا الى أن نقول زيد ليس بقائم ولو كان الوضع والتركيب أولا للنفى لما احتجنا الى الحرف الزائد اقتصارا أو اختصارا واذا كان كذلك فقول القائل رأيت رجلا يكفى فيه ما يصحح القول وهو رؤية واحد فاذا قلت ما رأيت رجلا وهو وضع لمقابلة قوله رأيت رجلا وركب لتلك المقابلة والمتقابلان ينبغى أن لا يصدقا فقول القائل ما رأيت رجلا لو كفى فيه انتفاء الرؤية عن غير واحد لصح قولنا رأيت رجلا وما رأيت رجلا فلا يكونان متقابلين فيلزمنا من الاصطلاح الاول الاصطلاح الثانى ولزم منه العموم فى جانب النفى اذا علم هذا فنقول الشرطية وضعت أولا ثم ركبت بعد الجزمية بدليل زيادة الحرف وهو فى مقابلة الجزمية وكان قول القائل اذا لم تكن أنت حرا كلمت رجلا يرجع الى معنى النفى وكما علم عموم القول فى الفاسق علم عمومه فى النبأ فمعناه أى فاسق جاءكم بأى نبأ فالتثبت فيه واجب (المسئلة الرابعة) متمسك أصحابنا فى ان خبر الواحد حجة وشهادة الفاسق لا تقبل أما فى المسئلة الاولى فقالوا علل الامر بالتوقف بكونه فاسقا ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل لما كان للترتيب على الفاسق فائدة وهو من باب التمسك بالمفهوم وأما فى الثانية فلوجهين (أحدهما) أمر بالتبين فلو قبل قوله لما كان الحاكم مأمورا بالتبين فلم يكن قول الفاسق مقبولا ثم ان الله تعالى أمر بالتبين فى الخبر والنبا وباب الشهادة أضيق من باب الخبر (والثانى) هو انه تعالى قال ان تصيبوا قوما بجهالة والجهل فوق الخطا لان المجتهد اذا أخطا لا يسمى جاهلا والذى يبنى الحكم على قول الفاسق ان لم يصب جهل فلا يكون البناء على قوله جائزا (المسئلة الخامسة) ان تصيبوا ذكرنا فيها وجهين (أحدهما) مذهب الكوفيين وهو ان المراد لئلا تصيبوا (وثانيهما) مذهب البصريين وهو ان المراد كراهة ان تصيبوا ويحتمل أن يقال المراد فتبينوا واتقوا وقوله تعالى أن تصيبوا قوما بين ما ذكرنا ان بقول الفاسق تظهر الفتن بين أقوام ولا كذلك بالالفاظ المؤذية فى الوجه والغيبة الصادرة من المؤمنين لان المؤمن يمنعه دينه من الافحاش والمبالغة فى الايحاش وقوله بجهالة فى تقدير حال أى ان تصيبوهم جاهلين وفيه لطيفة وهى ان الاصابة تستعمل فى السيئة والحسنة كما فى قوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله لكن الاكثر انها تستعمل فيما يسوء لكن الظن السوء يذكر معه كما فى قوله تعالى وان تصبهم سيئة ثم حقق ذلك بقوله فتصبحوا على ما فعلتم نادمين بيانا لان الجاهل لابد من أن يكون على فعله نادما وقوله فتصبحوا معناه تصيروا قال النحاة أصبح يستعمل على ثلاثة أوجه (أحدها) بمعنى دخول الرجل فى الصباح كما يقول القائل أصبحنا نقضى عليه (وثانيها) بمعنى كان الامر وقت الصباح كذا وكذا كما يقال أصبح اليوم مريضنا خيرا مما كان غير انه تغير ضحوة

لمن المرسلين) جواب للقسم والجملة لرد انكار الكفرة بقولهم فى حقه عليه الصلاة والسلام لست مرسلا وهذه الشهادة منه عزوجل من جملة ما أشير اليه بقوله تعالى فى جوابهم قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم وفى تخصيص القرآن بالاقسام به أولا وبوصفه بالحكيم ثانيا تنويه بشأنه وتنبيه على أنه كما يشهد برسالته عليه الصلاة والسلام من حيث نظمه المعجز المنطوى على بدائع الحكم يشهد بها من هذه الحيثية أيضا لما أن الاقسام بالشئ استشهاد به على تحقق مضمون الجملة القسمية وتقوية لثبوته فيكون شاهدا به ودليلا عليه قطعا وقوله تعالى (على صراط مستقيم) خبر آخر لان أو حال من المستكن فى الجار والمجرور على أنه عبارة من الشريعة الشريفة بكمالها لا عن التوحيد فقط وفائدته بيان أن شريعته عليه الصلاة والسلام أقوم الشرائع وأعدلها كما يعرب عنه التنكير التفخيمى والوصف اثر بيان أنه عليه الصلاة والسلام من جملة المرسلين بالشرائع (تنزيل العزيز الرحيم) نصب على المدح وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وبالجر على أنه بدل من القرآن وأياما كان فهو مصدر بمعنى المفعول عبر به عن القرآن بيانا لكمال عراقته فى كونه منزلا من عند الله عز وجل كأنه نفس التنزيل واظهار الفخامته الاضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة وفى تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرأفة العامة حث على الايمان به ترهيبا وترغيبا واشعار بأن تنزيله ناشئ عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين وقيل النصب على أنه مصدر مؤكد لفعله المضمر أى نزل تنزيل العزيز الرحيم على أنه استئناف مسوق لبيان ما ذكر من فخامة شأن القرآن وعلى كل تقدير ففيه فضل تأكيد لمضمون الجملة القسمية (لتنذر) متعلق بتنزيل على الوجوه الاول وبعامله المضمر على الوجه الاخير أى لتنذر به كما فى صدر الاعراف وقيل هو متعلق بما يدل عليه لمن المرسلين أى انك مرسل لتنذر قعوده

النهار ويريد كونه فى الصبح على حاله كأنه يقول كان المريض وقت الصبح خيرا وتغير ضحوة النهار (وثالثها) بمعنى صار يقول القائل أصبح زيد غنيا ويريد به صار من غير ارادة وقت دون وقت والمراد ههنا هو المعنى الثالث وكذلك أمسى وأضحى ولكن لهذا تحقيق وهو ان نقول لابد فى اختلاف الالفاظ من اختلاف المعانى واختلاف الفوائد فنقول الصيرورة قد تكون من ابتداء أمر وتدوم وقد تكون فى آخر الامر بمعنى آل الامر اليه وقد تكون متوسطة (مثال الاول) قول القائل صار الطفل فاهما أى أخذ فيه وهو فى الزيادة (مثال الثانى) قول القائل صار الحق بينا واجبا أى انتهى حده وأخذ حقه (مثال الثالث) قول القائل صار زيد عالما وقويا اذا لم يرد أخذه فيه ولا بلوغه نهايته بل كونه متلبسا به متصفا به اذا علمت هذا فاصل استعمال أصبح فيما يصير الشئ آخذا فى وصف ومبتدأ فى أمر وأصل امسى فيما يصير الشئ بالغا فى الوصف نهايته وأصل أضحى التوسط لا يقال أهل الاستعمال لا يفرقون بين الامور ويستعملون الالفاظ الثلاثة بمعنى واحد نقول اذا تقاربت المعانى جاز الاستعمال وجواز الاستعمال لا ينافى الاصل وكثير من الالفاظ أصله مضى واستعمل استعمالا شائعا فيما لا يشاركه اذا علم هذا فنقول قوله تعالى فتصبحوا أى فتصيروا آخذين فى الندم متلبسين به ثم تستديمونه وكذلك فى قوله تعالى فأصبحتم بنعمته اخوانا أى أخذتم فى الاخوة وأنتم فيها زائدون ومستمرون وفى الجملة اختار فى القرآن هذه اللفظة لان الامر المقرون به هذه اللفظة اما فى الثواب أو فى العقاب وكلاهما فى الزيادة ولا نهاية للامور الالهية وقوله تعالى نادمين الندم هم دائم والنون والدال والميم فى تقاليبها لا تنفك عن معنى الدوام كما فى قول القائل أدمن فى الشرب ومدمن أى أقام ومنه المدينة وقوله تعالى فتصبحوا على ما فعلتم نادمين فيه فائدتان (احداهما) تقرير التحذير وتأكيده ووجهه هو انه تعالى لما قال ان تصيبوا قوما بجهالة قال بعده وليس ذلك مما لا يلتفت اليه ولا يجوز للعاقل ان يقول هب انى أصبت قوما فماذا على بل عليكم منه الهم الدائم والحزن المقيم ومثل هذا الشئ واجب الاحتراز منه (والثانية) مدح المؤمنين أى لستم ممن اذا فعلوا سيئة لا يلتفتون اليها بل تصبحون نادمين عليها ۞ ثم قال تعالى ﴿واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ ولنذكر فى تفسير هذه الآية ما قيل وما يجوز ان يقال أما ما قيل فلنختر أحسنه وهو ما اختاره الزمخشرى فانه بحث فى تفسير هذه الآية بحثا طويلا فقال قوله تعالى لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم ليس كلاما مستأنفا لادائه الى تنافر النظم اذ لا تبقى مناسبة بين قوله واعلموا وبين قوله لو يطيعكم ثم وجه التعلق هو ان قوله لو يطيعكم فى تقدير حال من الضمير المرفوع فى قوله فيكم كأن التقدير كائن فيكم أو موجود فيكم على حال تريدون أن يطيعكم أو يفعل باستصوابكم ولا ينبغى أن يكون على تلك الحال لانه لو فعل ذلك لعنتم أو وقعتم فى شدة أو أوثمتم به ثم قال تعالى ولكن الله حبب اليكم الايمان خطابا مع بعض من المؤمنين غير المخاطبين بقوله لو يطيعكم قال الزمخشرى اكتفى بالتغاير فى الصفة واختصر ولم يقل حبب الى بعضكم الايمان وقال أيضا بان قوله تعالى لو يطيعكم دون أطاعكم يدل على انهم كانوا يريدون استمرار تلك الحالة ودوام النبى صلى الله عليه وسلم على العمل باستصوابهم ولكن يكون ما بعدها على خلاف ما قبلها وههنا كذلك وان لم تحصل المخالفة بصريح اللفظ لان اختلاف المخاطبين فى الوصف يدلنا على ذلك لان المخاطبين أولا بقوله لو يطيعكم هم الذين أرادوا أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم يعمل بمرادهم والمخاطبين بقوله حبب اليكم الايمان هم الذين أرادوا عملهم بمراد النبى صلى الله عليه وسلم هذا ما قاله الزمخشرى واختاره وهو حسن والذى يجوز أن يقال وكأنه هو الاقوى أن الله تعالى لما قال ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أى فتثبتوا واكشفوا قال بعده واعلموا ان فيكم رسول الله أى الكشف سهل عليكم بالرجوع الى النبى صلى الله عليه وسلم فانه فيكم مبين مرشد وهذا كما يقول القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ فى مسئلة هذا الشيخ قاعد لا يريد به بيان

قعوده وانما يريد أمرهم بالمراجعة اليه وذلك لان المراد منه انه لا يطيعكم فى كثير من الامر وذلك لان الشيخ فيما ذكرنا من المثال لو كان يعتمد على قول التلاميذ لا تطمئن قلوبهم بالرجوع اليه اما اذا كان لا يذكر الا من النقل الصحيح و يقرره بالدليل القوى يراجعه كل أحد فكذلك ههنا قال استرشدوه فانه يعلم ولا يطيع أحدا فلا يوجد فيه حيف ولا يروج عليه زيف والذى يدل على ان المراد من قوله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم بيان انه لا يطيعكم هو ان الجملة الشرطية فى كثير من المواضع ترد لبيان امتناع الشرط لامتناع الجزاء كما فى قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقوله تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فانه لبيان انه ليس فيهما آلهة وانه ليس من عند غير الله ثم قال تعالى ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم اشارة الى جواب سؤال يرد على قوله فتبينوا وهو ان يقع لواحد أن يقول انه لا حاجة الى المراجعة وعقولنا كافية بها أدركنا الايمان وتركنا العصيان فكذلك نجتهد فى أمورنا فقال ليس ادراك الايمان بالاجتهاد بل الله بين البرهان وزين الايمان حتى حصل اليقين و بعد حصول اليقين لا يجوز التوقف والله انما أمركم بالتوقف عند تقليد قول الفاسق وما أمركم بالعناد بعد ظهور البرهان فكأنه تعالى قال توقفوا فيما يكون مشكوكا فيه لكن الايمان حببه اليكم بالبرهان فلا تتوقفوا فى قبوله وعلى قولنا المخاطب بقوله حبب اليكم هو المخاطب بقوله لو يطيعكم اذا علمت معنى الآية جملة فاسمعه مفصلا ولنفصله فى مسائل (المسئلة الاولى) لو قال قائل اذا كان المراد بقوله واعلموا أن فيكم رسول الله الرجوع اليه والاعتماد على قوله فلم لم يقل بصريح اللفظ فتبينوا وراجعوا النبى صلى الله عليه وسلم وما الفائدة فى العدول الى هذا المجاز نقول الفائدة زيادة التأكيد وذلك لان قول القائل فيما ذكرنا من المثال هذا الشيخ قاعدآكد فى وجوب المراجعة اليه من قوله راجعوا شيخكم وذلك لان القائل يجعل وجوب المراجعة اليه متفقا عليه و يجعل سبب عدم الرجوع عدم علمهم بقعوده فكأنه يقول انكم لا تشكون فى أن الكاشف هو الشيخ وأن الواجب مراجعته فان كنتم لا تعلمون قعوده فهو قاعد فيجعل حسن المراجعة أظهر من أمر القعود كأنه يقول خفى عليكم قعوده فتركتم مراجعته ولا يخفى عليكم حسن مراجعته فيجعل حسن المراجعة أظهر من الامر الحسى بخلاف ما لو قال راجعوه لانه حينئذ يكون قائلا بانكم ما علمتم أن مراجعته هو الطريق و بين الكلامين بون بعيد فكذلك قوله تعالى واعلموا أن فيكم رسول الله يعنى لا يخفى عليكم وجوب مراجعته فان كان خفى عليكم كونه فيكم فاعلموا أنه فيكم فيجعل حسن المراجعة أظهر من كونه فيهم حيث ترك بيانه وأخذ فى بيان كونه فيهم وهذا من المعانى العزيزة التى توجد فى المجازات ولا توجد فى الصرائح (المسئلة الثانية) اذا كان المراد من قوله لو يطيعكم بيان كونه غير مطيع لاحد بل هو متبع للوحى فلم لم يصرح به نقول بيان نفى الشئ مع بيان دليل النفى أتم من بيانه من غير دليل والجملة الشرطية بيان النفى مع بيان دليله فان قوله ليس فيهما آلهة لو قال قائل لم قلت انه ليس فيهما آلهة يجب أن يذكر الدليل فقال لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فكذلك ههنا لو قال لا يطيعكم وقال قائل لم لا يطيع لوجب أن يقال لو أطاعكم لاطاعكم لاجل مصلحتكم لكن لا مصلحة لكم فيه لانكم تعنتون وتأثمون وهو يشق عليه عنتكم كما قال تعالى عزيز عليه ما عنتم فان طاعتكم لا تفيده شيأ فلا يطيعكم فهذا نفى الطاعة بالدليل و بين نفى الشئ بدليل ونفيه بغير دليل فرق عظيم (المسئلة الثالثة) قال فى كثير من الامر ليعلم انه قد يوافقهم و يفعل بمقتضى مصلحتهم تحقيقا لفائدة قوله تعالى وشاورهم فى الامر (المسئلة الرابعة) اذا كان المراد بقوله تعالى حبب اليكم الايمان فلا تتوقفوا فلم لم يصرح به قلنا لما بيناه من الاشارة الى ظهور الامر يعنى أنتم تعلمون أن اليقين لا يتوقف فيه اذ ليس بعده مرتبة حتى يتوقف الى بلوغ تلك المرتبة لان من بلغ الى درجة الظن فانه يتوقف الى أن يبلغ درجة اليقين فلما كان عدم التوقف فى اليقين معلوما متفقا عليه لم يقل فلا تتوقفوا بل قال حبب اليكم الايمان أى بينه و زينه بالبرهان اليقينى (المسئلة الخامسة) ما

(قوما ما أنذر آباؤهم) أى لم ينذر آباؤهم الاقربون لتطاول مدة الفترة على أن ما نافية فتكون صفة مبينة لغاية احتياجهم الى الانذار أو الذى أنذره أو شيأ أنذره آباؤهم الابعدون على أنها موصولة أو موصوفة فتكون مفعولا ثانيا لتنذر أو انذار آبائهم الاقدمين على أنها مصدرية فيكون نعتا لمصدر مؤكد أى لتنذر انذارا كائنا مثل انذارهم (فهم غافلون) على الوجه الاول متعلق بنفى الانذار مترتب عليه والضمير للفريقين أى لم تنذر آباؤهم فهم جميعا لاجله غافلون وعلى الوجوه الباقية متعلق بقوله تعالى لتنذر أو بما يفيده انك لمن المرسلين وارد لتعليل انذاره عليه السلام أو ارساله بغفلتهم المحوجة اليهما على أن الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه أى عما أنذر آباؤهم الاقدمون لامتداد المدة واللام فى قوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) جواب القسم أى والله لقد ثبت وتحقق عليهم البتة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يقتضيه بل بسبب اصرارهم الاختيارى على الكفر والانكار وعدم تأثرهم من التذكير والانذار وغلوهم فى العتو والطغيان وتماديهم فى اتباع خطوات الشيطان بحيث لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف كيف لا والمراد به ما حق من القول قوله تعالى لابليس عند قوله لاغوينهم أجمعين لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وهو المعنى بقوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فانه كما ترى قد أوقع فيه الحكم بادخال جهنم على من تبع ابليس وذلك تعليل له بتبعيته قطعا وثبوت القول على هؤلاء الذين عبر عنهم بأكثرهم انما هو لكونهم من جملة أولئك المصرين على تبعية ابليس أبدا واذ قد تبين أن مناط ثبوت القول وتحققه عليهم اصرارهم على الكفر الى الموت ظهر أن قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) متفرع فى الحقيقة على ذلك لا على ثبوت القول وقوله تعالى (انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا) تقرير لتصميمهم

المعنى فى قوله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم نقول قوله تعالى حبب اليكم أى قربه اليكم وأدخله فى قلوبكم ثم زينه فيها بحيث لا تفارقونه ولا يخرج من قلوبكم وهذا لان من يحب أشياء فقد يمل شيأ منها اذا حصل عنده وطال لبثه والايمان كل يوم يزداد حسنا ولكن من كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل ولهذا قال فى الاول حبب اليكم وقال ثانيا زينه فى قلوبكم كأنه قربه اليهم ثم أقامه فى قلوبهم (المسئلة السادسة) ما الفرق بين الامور الثلاثة وهى الكفر والفسوق والعصيان فنقول هذه أمور ثلاثة فى مقابلة الايمان الكامل لان الايمان الكامل المزين هو أن يجمع التصديق بالجنان والاقرار باللسان والعمل بالاركان (أحدها) قوله تعالى وكره اليكم الكفر وهو التكذيب فى مقابلة التصديق بالجنان والفسوق هو الكذب (وثانيها) هو ماقبل هذه الآية وهو قوله تعالى ان جاءكم فاسق بنبا سمى من كذب فاسقا فيكون الكذب فسوقا (ثالثها) ماذكره بعد هذه الآية وهو قوله تعالى بئس الاسم الفسوق بعد الايمان فانه يدل على أن الفسوق أمر قولى لاقترانه بالاسم وسنبين تفسيره ان شاء الله تعالى (ورابعها) وجه معقول وهو أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة على ماعلم فى قول القائل فسقت الرطبة اذا خرجت وغير ذلك لان الفسوق هو الخروج زيد فى الاستعمال كونه الخروج من الطاعة لكن الخروج لا يكون له ظهور بالامر القلبى اذ لا اطلاع على مافى القلوب لاحد الا الله تعالى ولا يظهر بالافعال لان الامر قد يترك اما بالنسيان أو سهو فلا يعلم حال التارك والمرتكب انه مخطئ أو متعمد وأما الكلام فانه حصول العلم بما عليه حال المتكلم فالدخول فى الايمان والخروج منه يظهر بالكلام فتخصيص الفسوق بالامر القولى أقرب وأما العصيان فترك الامر وهو بالفعل أليق فاذا علم هذا ففيه ترتيب فى غاية الحسن وهو انه تعالى كره اليكم الكفر وهو الامر الاعظم كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم ثم قال تعالى والفسوق يعنى ما يظهر لسانكم أيضا ثم قال والعصيان وهو دون الكل ولم يترك عليكم الامر الادنى وهو العصيان وقال بعض الناس الكفر ظاهر والفسوق هو الكبيرة والعصيان هو الصغيرة وماذكرناه أقوى ﴿ ثم قال تعالى ﴿أولئك هم الراشدون﴾ خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم وفيه معنى لطيف وهو ان الله تعالى فى أول الامر قال واعلموا أن فيكم رسول الله أى هو مرشد لكم خطاب المؤمنين للتنبيه على شفقته بالمؤمنين فقال فى الاول كفى النبى مرشدا لكم ما تسترشدونه فاشفق عليهم وأرشدهم وعلى هذا قوله الراشدون أى الموافقون للرشد يأخذون ما يأتيهم وينتهون عما ينهاهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) نصب فضلا لاجل أمور اما لكونه مفعولا له وفيه وجهان (أحدهما) ان العامل فيه هو الفعل الذى فى قوله الراشدون فان قيل كيف يجوز أن يكون فضل الله الذى هو فعل الله مفعولا له بالنسبة الى الرشد الذى هو فعل العبد نقول لما كان الرشد توفيقا من الله كان كأنه فعل الله فكأنه تعالى أرشدهم فضلا أى يكون متفضلا عليهم منعما فى حقهم (والوجه الثانى) هو ان العامل فيه هو قوله حبب اليكم الايمان وكره اليكم الكفر فضلا وقوله أولئك هم الراشدون جملة اعترضت بين الكلامين أو يكون العامل فعلا مقدرا فكأنه قال تعالى جرى ذلك فضلا من الله واما لكونه مصدرا وفيه وجهان (أحدهما) ان يكون مصدرا من غير اللفظ ولان الرشد فضل فكأنه قال أولئك هم الراشدون رشدا (وثانيهما) هو أن يكون مصدرا لفعل مضمر كأنه قال حبب اليكم الايمان وكره اليكم الكفر فأفضل فضلا وأنعم نعمة والقول بكونه منصوبا على انه مفعول مطلق وهو المصدر أو مفعول له قول الزمخشرى واما أن يكون فضلا مفعولا به والفعل مضمرا دل عليه قوله تعالى أولئك هم الراشدون أى يبتغون فضلا من الله ونعمة (المسئلة الثانية) ما الفرق بين الفضل والنعمة فى الآية نقول فضل الله اشارة الى ما عنده من الخير وهو مستغن عنه والنعمة اشارة الى ما يصل الى العبد وهو محتاج اليه لان الفضل فى الاصل ينبئ عن الزيادة وعنده خزائن من الرحمة لا لحاجة اليها ويرسل منها على

على الكفر وعدم ارعوائهم عنه بتمثيل حالهم بحال الذين غلت أعناقهم (فهى الى الاذقان) أى فالاغلال منتهية الى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون الى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤسهم له (فهم مقمحون) رافعون رؤسهم غاضون أبصارهم بحيث لا يكادون يرون الحق أو ينظرون الى جهته (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون) اما تتمة للتمثيل وتكميل له أى تكميل أى وجعلنا مع ماذكر من أمامهم سدا عظيما ومن ورائهم سدا كذلك فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لا يقدرون على ابصار شئ ما أصلا واما تمثيل مستقل فان ماذكر من جعلهم محصورين بين سدين هائلين قد غطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون شيأ قطعا كاف فى الكشف عن كمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين فى مطمورة الغى والجهالات محرومين عن النظر فى الادلة والآيات وقرئ سدا بالضم وهى لغة فيه وقيل ما كان من عمل الناس فهو بالفتح وما كان من خلق الله فبالضم وقرئ فأعشيناهم من العشا وقيل الآيتان فى بنى مخزوم وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ليرضخن رأسه فأتاه وهو عليه الصلاة والسلام يصلى ومعه حجر ليدمغه فلما رفع يده انثنت يده الى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع الى قومه فأخبرهم بذلك فقال مخزومى آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى الله تعالى بصره (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) بيان لشأنهم بطريق التصريح اثر بيانه بطريق التمثيل أى مستو عندهم انذارك اياهم وعدمه حسبما مر تحقيقه فى سورة البقرة وقوله تعالى (لا يؤمنون) استئناف مؤكد لما قبله مبين لما فيه من اجمال ما فيه الاستواء أو حال مؤكدة له أو بدل منه ولما بين كون الانذار عندهم كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقيل (انما تنذر) أى انذارا مستتبعا للاثر (من اتبع الذكر) أى القرآن

عباده

عباده مالا يبقون معه فى ورطة الحاجة بوجه من الوجوه والنعمة تنبئ عن الرأفة والرحمة وهو من جانب العبد وفيه معنى لطيف وهو تأكيد الاعطاء وذلك لان المحتاج يقول للغنى اعطنى مافضل عنك وعندك وذلك غير ملتفت اليه وأنا به قيامى وبقائى فاذا قوله فضلا من الله اشارة الى ماهو من جانب الله من الغنى والنعمة اشارة الى ماهو من جانب العبد من اندفاع الحاجة وهذا مما يؤكد قولنا فضلا منصوب بفعل مضمر وهو الابتغاء والطلب (المسئلة الثالثة) ختم الآية بقوله والله عليم حكيم فيه مناسبات عدة منها انه تعالى لما ذكر نبأ الفاسق قال ان يشتبه على المؤمن كذب الفاسق فلا تعتمدوا على ترويجه عليكم الزور فان الله عليم ولا تقولوا كما كان عادة المنافق لولا يعذبنا الله بما نقول فان الله حكيم لا يفعل الا على وفق حكمته (وثانيها) لما قال الله تعالى واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم بمعنى لا يطيعكم بل يتبع الوحى قال فان الله من كونه عليما يعلمه ومن كونه حكيما يأمره بما تقتضيه الحكمة فاتبعوه (ثالثها) المناسبة التى بين قوله تعالى عليم حكيم وبين قوله حبب اليكم الايمان أى حبب بعلمه الايمان لاهل الايمان واختار له من يشاء بحكمته (رابعها) وهو الاقرب وهو أنه سبحانه وتعالى قال فضلا من الله ونعمة ولما كان الفضل هو ما عند الله من الخير المستغنى عنه قال تعالى هو عليم بما فى خزائن رحمته من الخير وكانت النعمة هو ما يدفع به حاجة العبد قال هو حكيم ينزل الخير بقدر ما يشاء على وفق الحكمة ۞ ثم قال سبحانه وتعالى ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين﴾ لما حذر الله المؤمنين من النبا الصادر من الفاسق أشار الى ما يلزم منه استدراكا لما يفوت فقال فان اتفق انكم تبنون على قول من يوقع بينكم وآل الامر الى اقتتال طائفتين من المؤمنين فازيلوا ما أثبته ذلك الفاسق وأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى أى الظالم يجب عليكم دفعه عنه ثم ان الظالم ان كان هو الرعية فالواجب على الامير دفعهم وان كان هو الامير فالواجب على المسلمين منعه بالنصيحة فما فوقها وشرطه ان لا يثير فتنة مثل التى فى اقتتال الطائفتين أو أشد منها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى وان اشارة الى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين فان قيل فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهم نقول قوله تعالى وان اشارة الى انه ينبغى ان لا يقع الا نادرا غاية ما فى الباب ان الامر على خلاف ما ينبغى وكذلك ان جاءكم فاسق بنبا اشارة الى أن مجىء الفاسق بالنبا ينبغى ان يقع قليلا مع أن مجىء الفاسق بالنبا كثير وقول الفاسق صار عند أولى الامر أشد قبولا من قول الصادق الصالح (المسئلة الثانية) قال تعالى وان طائفتان ولم يقل وان فرقتان تحقيقا للمعنى الذى ذكرناه وهو التقليل لان الطائفة دون الفرقة ولهذا قال تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة (المسئلة الثالثة) قال تعالى من المؤمنين ولم يقل منكم مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبا تنبيها على قبح ذلك وتبعيدا لهم عنهم كما يقول السيد لعبده ان رأيت أحدا من غلمانى يفعل كذا فامنعه فيصير بذلك مانعا للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن كأنه يقول أنت حاشاك ان تفعل ذلك فان فعل غيرك فامنعه كذلك ههنا قال وان طائفتان من المؤمنين ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبيه مع ان المعنى واحد (المسئلة الرابعة) قال تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ولم يقل وان اقتتل طائفتان من المؤمنين مع ان كلمة ان اتصالها بالفعل أولى وذلك ليكون الابتداء بما يمنع من القتال فيتأكد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة ان وذلك لان كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضى أن لا يقع القتال منهما فان قيل فلم لم يقل يا أيها الذين آمنوا ان فاسق جاءكم أو ان أحد من الفساق جاءكم ليكون الابتداء بما يمنعهم من الاصغاء الى كلامه وهو كونه فاسقا نقول المجىء بالنبا الكاذب يورث كون الانسان فاسقا أو يزداد بسببه فسقه فالمجىء به سبب الفسق فقدمه وأما الاقتتال فلا يقع سببا للايمان أو الزيادة فقال ان جاءكم فاسق أى سواء كان فاسقا أولا أو جاءكم بالنبا فصار فاسقا به ولو قال وان أحد من الفساق جاءكم كان

بالتأمل فيه أو الوعظ ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان (وخشى الرحمن بالغيب) أى خاف عقابه وهو غائب عنه على أنه حال من الفاعل أو المفعول أو خافه فى سريرته ولم يغتر برحمته فانه منتقم قهار كما أنه رحيم غفار كما نطق به قوله تعالى نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم (فبشره بمغفرة) عظيمة (وأجر كريم) لا يقادر قدره والفاء لترتيب البشارة أو الامر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية (انا نحن نحيي الموتى) بيان لشأن عظيم ينطوى على الانذار والتبشير انطواء اجماليا أى نبعثهم بعد مماتهم وعن الحسن احياؤهم اخراجهم من الشرك الى الايمان فهو حينئذ عدة كريمة بتحقيق المبشر به (ونكتب ما قدموا) أى ما أسلفوا من الاعمال الصالحة وغيرها (وآثارهم) التى أبقوها من الحسنات كعلم علموه أو كتاب ألفوه أو حبيس وقفوه أو بناء بنوه من المساجد والرباطات والقناطر وغير ذلك من وجوه البر ومن السيآت كتأسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادى الشر والفساد فيما بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور التى أحدثوها وسنوها لمن بعدهم من المفسدين وقيل هى آثار المشائين الى المساجد ولعل المراد أنها من جملة الآثار وقرئ ويكتب على البناء للمفعول ورفع آثارهم (وكل شئ) من الاشياء كائنا ما كان (أحصيناه فى امام مبين) أصل عظيم الشأن مظهر لجميع الاشياء مما كان وما سيكون وهو اللوح المحفوظ وقرئ كل شئ بالرفع (واضرب لهم مثلا أصحاب القرية) ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط وأخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد الى تطبيقها بنظيرة لها كما فى قوله تعالى وضربنا لكم الامثال على أحد الوجهين أى بينا لكم أحوالا بديعة هى فى الغرابة كالامثال فالمعنى على الاول جعل أصحاب القرية مثلا لهؤلاء فى الغلو فى الكفر والاصرار على تكذيب الرسل أى

لا يتناول الا مشهورا لفسق قبل المجئ اذا جاءهم بالنبأ (المسئلة الخامسة) قال تعالى اقتتلوا ولم يقل يقتتلوا لان صيغة الاستقبال تنبئ عن الدوام والاستمرار فيفهم منه ان طائفتين من المؤمنين ان تمادى الاقتتال بينهما فاصلحوا وهذا لان صيغة المستقبل تنبئ عن ذلك يقال فلان يتهجد ويصوم (المسئلة السادسة) قال اقتتلوا ولم يقل اقتتلا وقال فأصلحوا بينهما ولم يقل بينهم وذلك لان عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة وكل أحد برأسه يكون فاعلا فعلا فقال اقتتلوا وعند العود الى الصلح تتفق كلمة كل طائفة والا لم يكن يتحقق الصلح فقال بينهما لكون الطائفتين حينئذ كنفسين ثم قال تعالى فان بغت احداهما اشارة الى نادرة أخرى وهى البغى لانه غير متوقع فان قيل كيف يصح فى هذا الموضع كلمة ان مع انها تستعمل فى الشرط الذى لا يتوقع وقوعه وبغى أحدهما عند الاقتتال لا بد منه اذ كل واحد منهما لا يكون محسنا فقوله ان تكون من قبيل قول القائل ان طلعت الشمس نقول فيه معنى لطيف وهو ان الله تعالى يقول الاقتتال بين طائفتين لا يكون الا نادر الوقوع وهو كما تظن كل طائفة ان الاخرى فيها الكفر والفساد فالقتال واجب كما سبق فى الليالى المظلمة أو يقع لكل واحد ان القتال جائز بالاجتهاد وهو خطأ فقال تعالى الاقتتال لا يقع الا كذا فان بان لهما أو لاحدهما الخطأ واستمر عليه فهو نادر وعند ذلك يكون قد بغى فقال فان بغت احداهما على الاخرى يعنى بعد استبانة الامر وحينئذ فقوله ان بغت فى غاية الحسن لانه يفيد الندرة وقلة الوقوع وفيه أيضا مباحث (الاول) قال فان بغت ولم يقل فان تبغ لما ذكرنا فى قوله تعالى اقتتلوا ولم يقل يقتتلوا (الثانى) قال حتى تفئ اشارة الى أن القتال ليس جزاء للباغى كحد الشرب الذى يقام وان ترك الشرب بل القتال الى حد الفيئة فان فاءت الفئة الباغية حرم قتالهم (الثالث) هذا القتال لدفع الصائل فيندرج فيه وذلك لانه لما كانت الفيئة من احداهما فان حصلت من الاخرى لا يوجد البغى الذى لاجله حل القتال (الرابع) هذا دليل على أن المؤمن بالكبيرة لا يخرج عن كونه مؤمنا لان الباغى جعله من احدى الطائفتين وسماهما مؤمنين (الخامس) قوله تعالى الى أمر الله يحتمل وجوها (أحدها) الى طاعة الرسول وأولى الامر لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم (ثانيها) الى أمر الله أى الى الصلح فانه مأمور به يدل عليه قوله تعالى فأصلحوا ذات بينكم (ثالثها) الى أمر الله بالتقوى فان من خاف الله حق الخوف لا يبقى له عداوة الا مع الشيطان كما قال تعالى ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا (السادس) لو قال قائل قد ذكرتم ما يدل على كون الشرط غير متوقع الوقوع وقلتم بأن القتال والبغى من المؤمن نادر فاذن تكون الفيئة متوقعة فكيف قال فان فاءت نقول قول القائل لعبده ان مت فانت حر مع ان الموت لا بد من وقوعه لكن لما كان وقوعه بحيث يكون العبد محلا للعتق بان يكون باقيا فى ملكه حيا يعيش بعد وفاته غير معلوم فكذلك ههنا لما كان الواقع فئتهم من تلقاء أنفسهم فلما لم يقع دل على تأكيد الاخذ بينهم فقال تعالى فان فاءت بقتالكم اياهم بعد اشتداد الامر والتحام الحرب فأصلحوا وفيه معنى لطيف وهو انه تعالى أشار الى أن من لم يخف الله وبغى لا يكون رجوعه بقتالكم الاجبرا (السابع) قال ههنا فأصلحوا بينهما بالعدل ولم يذكر العدل فى قوله وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا نقول لان الاصلاح هناك بازالة الاقتتال نفسه وذلك يكون بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب والاصلاح ههنا بازالة آثار القتل بعد اندفاعه من ضمان المتلفات وهو حكم فقال بالعدل فكأنه قال واحكموا بينهما بعد تركهما القتال بالحق وأصلحوا بالعدل مما يكون بينهما لئلا يؤدى الى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى (الثامن) اذا قال فاصلحوا بينهما بالعدل فاية فائدة فى قوله وأقسطوا نقول قوله فاصلحوا بينهما بالعدل كان فيه تخصيص بحال دون حال فعمم الامر بقوله وأقسطوا أى فى كل أمر مفض الى أشرف درجة وأرفع منزلة وهى محبة الله والاقساط ازالة القسط وهو الجور والقاسط هو الجائر والتركيب دال على كون الامر غير مرضى من القسط والقاسط فى القلب وهو أيضا غير مرضى ولا معتد به فكذلك القسط ۞ ثم قال تعالى (انما

المؤمنون

طبق حالهم بحالهم على أن مثلا مفعول ثان لاضرب وأصحاب القرية مفعوله الاول أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه وعلى الثانى اذكر وبين لهم قصة هى فى الغرابة كالمثل وقوله تعالى أصحاب القرية بدل منه بتقدير المضاف أو بيان له والقرية انطاكية (اذ جاءها المرسلون) بدل اشتمال من أصحاب القرية وهم رسل عيسى عليه السلام الى أهلها ونسبة ارسالهم اليه تعالى فى قوله (اذ أرسلنا اليهم اثنين) بناء على أنه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية وهما يحنا وبولس وقيل غيرهما (فكذبوهما) أى فأتياهم فدعواهم الى الحق فكذبوهما فى الرسالة (فعززنا) أى قوينا يقال عزز المطر الارض اذا لبدها وقرئ بالتخفيف من عزه اذا غلبه وقهره وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه ولان المقصد ذكر المعزز به (بثالث) هو شمعون (فقالوا) أى جميعا (انا اليكم مرسلون) مؤكدين كلامهم لسبق الانكار لما ان تكذيبهما تكذيب للثالث لاتحاد كلمتهم وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فارسل اليهم عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسألهما فأخبراه قال أمعكما آية فقالا نشفى المريض ونبرئ الاكمه والابرص وكان له ولد مريض منذ سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب وفشا الخبر وشفى على أيديهما خلق وبلغ حديثهما الى الملك وقال لهما ألنا اله سوى آلهتنا قالا نعم من أوجدك وآلهتك فقال حتى أنظر فى أمركما فتبعهما الناس وقيل ضربوهما وقيل حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون فدخل متنكرا وعاشر حاشية الملك حتى استأنسوا ورفعوا خبره الى الملك فأنس به فقال له يوما بلغنى أنك حبست رجلين فهل سمعت ما يقولانه قال لا حال الغضب بينى وبين ذلك فدعاهما فقال شمعون من أرسلكما قالا الله الذى خلق كل شئ وليس له شريك فقال صفاه وأوجزا قالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال وما آيتكما قالا ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس

المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم) تتميما للارشاد وذلك لانه لما قال وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا كان لظان أن يظن أو لمتوهم أن يتوهم ان ذلك عند اختلاف قوم فاما اذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالاصلاح وكذلك الامر بالاصلاح هناك عند الاقتتال وأما اذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الاصلاح فقال بين أخويكم وان لم تكن الفتنة عامة وان لم يكن الامر عظيما كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى اختلاف فاسعوا فى الاصلاح ۞ وقوله (واتقوا الله لعلكم ترحمون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى انما المؤمنون اخوة قال بعض أهل اللغة الاخوة جمع الاخ من النسب والاخوان جمع الاخ من الصداقة فالله تعالى قال انما المؤمنون اخوة تأكيدا للامر واشارة الى أن ما بينهم ما بين الاخوة من النسب والاسلام كالاب قال قائلهم

أبى الاسلام لا أب لى سواه * اذا افتخروا بقيس أو تميم

(المسئلة الثانية) عند اصلاح الفريقين والطائفتين لم يقل اتقوا وقال ههنا اتقوا مع ان ذلك أهم نقول الفائدة هو ان الاقتتال بين طائفتين يفضى الى ان تعم المفسدة ويلحق كل مؤمن منها شئ وكل يسعى فى الاصلاح لامر نفسه فلم يؤكد بالامر بالتقوى واما عند تخاصم رجلين لا يخاف الناس ذلك وربما يريد بعضهم تأكد الخصام بين الخصوم لغرض فاسد فقال فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله أو نقول قوله فأصلحوا اشارة الى الصلح وقوله واتقوا الله اشارة الى ما يصونهم عن التشاجر لان من اتقى الله شغله تقواه عن الاشتغال بغيره ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم الناس من لسانه لان المسلم يكون منقادا لامر الله مقبلا على عبادة الله فيشغله عيبه عن عيوب الناس ويمنعه ان يرهب الاخ المؤمن واليه أشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله المؤمن من يأمن جاره بوائقه يعنى اتقى الله فلا يتفرغ لغيره (المسئلة الثالثة) انما للحصر أى لا اخوة الا بين المؤمنين وأما بين المؤمن والكافر فلا لان الاسلام هو الجامع ولهذا اذا مات المسلم وله أخ كافر يكون ماله للمسلمين ولا يكون لاخيه الكافر وأما الكافر فكذلك لان فى النسب المعتبر الاب الذى هو أب شرعا حتى ان ولدى الزنا من رجل واحد لا يرث أحدهما الآخر فكذلك الكفر كالجامع الفاسد فهو كالجامع العاجز لا يفيد الاخوة ولهذا من مات من الكفار وله أخ مسلم ولا وارث له من النسب لا يجعل ماله للكفار ولو كان الدين يجمعهم لكان مال الكافر للكفار كما ان مال المسلم للمسلمين عند عدم الوارث فان قيل قد ثبت ان الاخوة للاسلام أقوى من الاخوة النسبية بدليل ان المسلم يرثه المسلمون ولا يرثه الاخ الكافر من النسب فلم لم يقدموا الاخوة الاسلامية على الاخوة النسبية مطلقا حتى يكون مال المسلم للمسلمين لا لاخوته من النسب نقول هذا سؤال فاسد وذلك لان الاخ المسلم اذا كان أخا من النسب فقد اجتمع فيه اخوتان فصار أقوى والعصوبة لمن له القوة ألا ترى ان الاخ من الابوين يرث ولا يرث الاخ من الاب معه فكذلك الاخ المسلم من النسب له اخوتان فيقدم على سائر المسلمين والله أعلم (المسئلة الرابعة) قال النحاة ما فى هذا الموضع كافة تكف ان عن العمل ولولا ذلك لقيل انما المؤمنين اخوة وفى قوله تعالى فبما رحمة من الله وقوله عما قليل ليست كافة والسؤال الاقوى هو ان رب من حروف الجر والباء وعن كذلك وما فى رب كافة وفى عما وبما ليست كافة والتحقيق فيه هو ان الكلام بعد ربما وانما يكون تاما ويمكن جعله مستقلا ولو حذف ربما وانما لما ضر فتقول ربما قام الامير وربما زيد فى الدار ولو حذفت ربما وقلت زيد فى الدار وقام الامير لصح وكذلك فى انما ولكنما وأما عما وبما فليست كذلك لان قوله تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم لو أذهبت بما وقلت رحمة من الله لنت لهم لما كان كلاما فالباء بعد تعلقها بما تحتاج اليها فهى باقية حقيقة ولكنما وانما وربما لما استغنى عنها فكأنها لم يبق حكمها ولا عمل للمعدوم فان قيل اذا لم تكف بما فما بعده كلام تام فوجب أن لا يكون له عمل تقول ان زيدا قائم ولو قلت زيد قائم لكفى وتم نقول ليس كذلك لان ما بعد ان جاز أن

العين بن فدعوا الله تعالى حتى انشق له بصر فاخذ بندقتين فوضعهما فى حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما فقال له شمعون أرأيت لو سألت الهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف قال ليس لى عنك سر ان الهنا لا يبصر (٤١٣) ولا يسمع ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلى ويتضرع وهم يحسبون أنه منهم ثم قال ان قدر الهكما على احياء ميت آمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال انى أدخلت فى سبعة أودية من النار وانى أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا وقال فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك من هم قال شمعون وهذان فتعجب الملك فلما رأى شمعون أن قوله قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن قوم ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام فهلكوا هكذا قالوا ولكن لا يساعده سياق النظم الكريم حيث اقتصر فيه على حكاية تماديهم فى العناد واللجاج وركوبهم متن المكابرة فى الحجاج ولم يذكر فيه ممن يؤمن أحد سوى حبيب ولو أن الملك وقومه من حواشيه آمنوا لكان الظاهر أن يظاهروا الرسل ويساعدوهم قبلوا فى ذلك أو قتلوا كدأب النجار الشهيد ولكان لهم فيه ذكر ما بوجه من الوجوه اللهم الا أن يكون ايمان الملك بطريق الخفية على خوف من عتاة ملئه فيعتزل عنهم معتذرا بعذر من الاعذار (قالوا) أى أهل انطاكية الذين لم يؤمنوا مخاطبين للثلاثة (ما أنتم الا بشر مثلنا) من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه ورفع بشر لانتقاض النفى المقتضى لاعمال ما بالا (وما أنزل الرحمن من شئ) مما تدعونه من الوحى والرسالة (ان أنتم الا تكذبون) فى دعوى رسالته (قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون) استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجرى مجرى القسم مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله تعالى وزادوا اللام المؤكدة لما شاهدوا منهم من شدة الانكار (وما علينا) أى من جهة ربنا (الا البلاغ المبين) أى الا تبليغ رسالته تبليغا ظاهرا بينا بالآيات الشاهدة بالصحة وقد خرجنا عن عهدته فلا

يكون نكرة تقول ان رجلا جاءنى وأخبرنى بكذا أو أخبرنى بعكسه وتقول جاءنى رجل وأخبرنى ولا يحسن انما رجل جاءنى كما لو لم تكن هناك انما وكذلك القول فى بينما وأيما فانك لو حذفتهما واقتصرت على مايكون بعدهما لا يكون تاما فلم يكف والكلام فى لعل قد تقدم مرارا ۞ ثم قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقاب﴾ وقد بينا ان السورة للارشاد بعد ارشاد فبعد الارشاد الى ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبى صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق بين ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن وقد ذكرنا ان المؤمن اما أن يكون حاضرا واما أن يكون غائبا فان كان حاضرا فلا ينبغى أن يسخر منه ولا يلتفت اليه بما ينافى التعظيم وفى الآية اشارة الى أمور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض وهى السخرية واللمز والنبز فالسخرية هى ان لا ينظر الانسان الى أخيه بعين الاجلال ولا يلتفت اليه ويسقطه عن درجته وحينئذ لا يذكر ما فيه من المعايب وهذا كما قال بعض الناس تراهم اذا ذكر عندهم عدوهم يقولون هو دون أن يذكر وأقل من ان يلتفت اليه فقال لا تحقروا اخوانكم ولا تستصغروهم (الثانى) هو اللمز وهو ذكر ما فى الرجل من العيب فى غيبته وهذا دون الاول لان فى الاول لم يلتفت اليه ولم يرض بأن يذكره أحد وانما جعله مثل المسخرة الذى لا يغضب له ولا عليه (والثالث) هو النبز وهو دون الثانى لان فى هذه المرتبة يضيف اليه وصفا ثابتا فيه يوجب بغضه وحط منزلته وأما النبز فهو مجرد التسمية وان لم يكن فيه وذلك لان اللقب الحسن والاسم المستحسن اذا وضع لواحد وعلق عليه لا يكون معناه موجودا فان من يسمى سعدا أو سعيدا قد لا يكون كذلك وكذا من لقب امام الدين وحسام الدين لا يفهم منه انه كذلك وانما هو علامة وزينة وكذلك النبز بالمروان ومروان الحمار لم يكن كذلك وانما كان ذلك سمة ونسبة ولا يكون اللفظ مرادا اذا لم يرد به الوصف كما ان الاعلام كذلك فانك اذا قلت لمن سمى بعبد الله أنت عبد الله فلا تعبد غيره وتريد به وصفه لا تكون قد أتيت باسم علمه الاشارة فقال لا تتكبروا فتستحقروا اخوانكم وتستصغروهم بحيث لا تلتفتوا اليهم أصلا واذا نزلتم عن هذا من النظر اليهم فلا تعيبوا طالبين حط درجتهم والغض عن منزلتهم واذا تركتم النظر فى معايبهم ووصفهم بما يعيبهم فلا تسموهم بما يكرهونه ولا تقولوا هذا ليس بعيب يذكر فيه انما هو اسم يتلفظ به من غير قصد الى بيان صفة وذكر فى الآية مباحث ٣ (الاول) قوله لا يسخر قوم من قوم القوم اسم يقع على جمع من الرجال ولا يقع على النساء ولا على الاطفال لانه جمع قائم كصوم جمع صائم والقائم بالامور هم الرجال فعلى هذا الاقوام الرجال لا النساء (فائدة) وهى ان عدم الالتفات والاستحقار انما يصدر فى أكثر الامر من الرجال بالنسبة الى الرجال لان المرأة فى نفسها ضعيفة فاذا لم يلتفت الرجال اليها لا يكون لها أمر قال النبى صلى الله عليه وسلم النساء لحم على وضم الا ما رددت عنه وأما المرأة فلا يوجد منها استحقار الرجل وعدم التفاتها اليه لاضطرارها فى دفع حوائجها وأما الرجال بالنسبة الى الرجال والنساء بالنسبة الى النساء فيوجد فيهم هذا النوع من القبح وهذا أشهر (المسئلة الثانية) قال فى الدرجة العالية التى هى نهاية المنكر عسى أن يكونوا خيرا منهم كسرا له وبغضا للمنكر وقال فى المرتبة الثانية لا تلمزوا أنفسكم جعلهم كأنفسهم لما نزلوا درجة رفعهم الله درجة وفى الاول جعل المسخور منه خيرا وفى الثانى جعل المسخور منه مثلا وفى قوله عسى أن يكونوا خيرا منهم حكمة وهى انه وجد منهم النكر الذى هو مفض الى الاهمال وجعل نفسه خيرا منهم كما فعل ابليس حيث لم يلتفت الى آدم وقال أنا خير منه فصار هو خيرا ويمكن أن يقال المراد من قوله أن يكونوا يصيروا فان من استحقر انسانا لفقره أو وحدته أو ضعفه لا يأمن أن يفتقر هو ويستغنى الفقير ويضعف هو ويقوى الضعيف (المسئلة الثالثة) قال تعالى قوم من قوم ولم يقل نفس من نفس وذلك لان هذا فيه اشارة الى منع التكبر والمتكبر فى أكثر الامر يرى جبروته على رؤس الاشهاد

مؤاخذة لنا بعد ذلك من جهة ربنا أو ما علينا شئ نطالب به من جهتكم الا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور وقد فعلناه فأى شئ تطلبون منا حتى تصدقونا بذلك (قالوا) لما ضاقت عليهم الحيل (٤١٤) وعيت بهم العلل (انا تطيرنا بكم) تشاءمنا بكم جريا على ديدن الجهلة حيث كانوا يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وان كان مستجلبا لكل شر ووبال ويتشاءمون بما لا يوافقها وان كان مستتبعا لسعادة الدارين أو بناء على أن الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه من اصابة ضر متعلق بأنفسهم وأهليهم وأموالهم ان لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه وقد روى أنه حبس عنهم القطر فقالوه (لئن لم تنتهوا) أى عن مقالتكم هذه (لنرجمنكم) بالحجارة (وليمسنكم منا عذاب أليم) لا يقادر قدره (قالوا طائركم) أى سبب شؤمكم (معكم) لا من قبلنا وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم وقرئ طيركم (أئن ذكرتم) أى وعظتم بما فيه سعادتكم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه أى تطيرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب وقرئ بألف بين الهمزتين وبفتح أن بمعنى أتطيرتم لأن ذكرتم وأن ذكرتم وان ذكرتم بغير استفهام وأين ذكرتم بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو أبلغ (بل أنتم قوم مسرفون) اضراب عما تقتضيه الشرطية من كون التذكير سببا للشؤم أو مصححا للتوعد أى ليس الامر كذلك بل أنتم قوم عادتكم الاسراف فى العصيان فلذلك أتاكم الشؤم أو فى الظلم والعدوان ولذلك توعدتم وتشاءمتم بمن يجب اكرامه والتبرك به (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) هو حبيب النجار وكان ينحت أصنامهم وهو ممن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الاكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ولم يؤمن بنبى غيره عليه الصلاة والسلام أحد قبل مبعثه وقيل كان فى غار يعبد الله تعالى فلما بلغه خبر الرسل عليهم الصلاة والسلام أظهر دينه (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية مجيئه ساعيا كأنه قيل فماذا قال عند مجيئه فقيل قال (يا قوم

واذا

واذا اجتمع في الخلوات مع من لا يلتفت اليه في الجامع يحمل نفسه متواضعا فذكرهم بلفظ القوم منعا لهم عما يفعلونه (المسئلة الرابعة) قوله تعالى ولا تلمزوا أنفسكم فيه وجهان (أحدهما) ان عيب الاخ عائد الى الاخ فاذا عاب عائب نفسا فكأنه عاب نفسه (وثانيهما) هو انه اذا عابه وهو لا يخلو من عيب يحاربه المعيب فيعيبه فيكون هو بعيبه حاملا للغير على عيبه وكأنه هو العائب نفسه وعلى هذا يحمل قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم أي انكم اذا قتلتم نفسا قتلتم فتكونوا كأنكم قتلتم أنفسكم ويحتمل وجها آخر ثالثا وهو ان تقول لا تعيبوا أنفسكم أي كل واحد منكم فانكم ان فعلتم فقد عبتم أنفسكم أي كل واحد عاب كل واحد فصرتم عائبين من وجه معيبين من وجه وهذا الوجه ههنا ظاهر ولا كذلك في قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم (المسئلة الخامسة) ان قيل قد ذكرتم ان هذا ارشاد للمؤمنين الى ما يجب ان يفعله المؤمن عند حضوره بعد الاشارة الى ما يفعله في غيبته لكن قوله تعالى ولا تلمزوا قيل فيه بانه العيب خلف الانسان والهمز هو العيب في وجه الانسان نقول ليس كذلك بل العكس أولى وذلك لانا اذا نظرنا الى قلب الحروف دلان على العكس لان لمز قلبه لزم وهمز قلبه هزم والاول يدل على القرب والثاني على البعد فان قيل اللمز هو الطعن والعيب في الوجه كان أولى مع ان كل واحد قيل بمعنى واحد (المسئلة السادسة) قال تعالى ولا تنابزوا ولم يقل لا تنبزوا وذلك لان اللماز اذا لمز فالملموز قد لا يجد فيه في الحال عيبا يلمزه به وانما يبحث ويتبعه ليطلع منه على عيب فيوجد اللمز من جانب وأما النبز فلا يعجز كل واحد عن الاتيان به فان من نبز غيره بالحمار فهو ينبزه بالثور وغيره فالظاهر ان النبز يفضي في الحال الى التنابز ولا كذلك اللمز ﴿وقوله تعالى ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الايمان﴾ قيل فيه ان المراد بئس أن يقول للمسلم يا يهودي بعد الايمان أي بعدما آمن فبئس تسميته بالكافر ويحتمل وجها أحسن من هذا وهو أن يقال هذا تمام للزجر كأنه تعالى قال يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ولا تلمزوا ولا تنابزوا فانه ان فعل يفسق بعدما آمن والمؤمن يقبح منه أن يأتي بعد ايمانه بفسوق فيكون كقوله تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ويصير التقدير بئس الفسوق بعد الايمان وبئس أن تسموا بالفاسق بسبب هذه الافعال بعدما سميتموهم مؤمنين ﴿قال تعالى ﴿ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ وهذا يحتمل وجهين (أحدهما) ان يقال هذه الاشياء من الصغائر فمن يصر عليه يصير ظالما فاسقا وبالمرة الواحدة لا يتصف بالظلم والفسق فقال ومن لم يترك ذلك ويجعله عادة فهو ظالم (وثانيهما) أن يقال قوله تعالى لا يسخر ولا تلمزوا ولا تنابزوا منع لهم عن ذلك في المستقبل وقوله تعالى ومن لم يتب أمر هم بالتوبة عما مضى واظهار الندم عليها مبالغة في التحذير وتشديدا في الزجر والاصل في قوله تعالى ولا تنابزوا ولا تتنابزوا أسقطت احدى التائين كما أسقط في الاستفهام احدى الهمزتين فقال سواء عليهم أأنذرتهم والحذف ههنا أولى لان تاء الخطاب وتاء التفاعل حرفان من جنس واحد في كلمة وهمزة الاستفهام كلمة برأسها وهمزة أنذرتهم أخرى واحتمال حرفين في كلمتين أسهل من احتمالهما في كلمة ولهذا وجب الادغام في قولنا مد ولم يجب في قولنا امدد وقولنا امر دود وقوله أمر ربنا ﴿ثم قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم﴾ لان الظن هو السبب فيما تقدم وعليه تبنى القبائح ومنه يظهر العدو المكاشح والقائل اذا أوقف أموره على اليقين فقلما يتيقن في أحد عيبا فيلمزه به فان الفعل في الصورة قد يكون قبيحا وفي نفس الامر لا يكون كذلك لجواز أن يكون فاعله ساهيا أو يكون الرائي مخطئا وقوله كثيرا اخراج للظنون التي عليها تبنى الخيرات قال النبي صلى الله عليه وسلم ظنوا بالمؤمن خيرا وبالجملة كل أمر لا يكون بناؤه على اليقين فالظن فيه غير مجتنب مثاله حكم الحاكم على قول الشهود وبراءة الذمة عند عدم الشهود الى غير ذلك فقوله اجتنبوا كثيرا وقوله تعالى ان بعض الظن اثم اشارة الى الاخذ بالاحوط كما ان الطريق المخوفة لا يتفق في كل مرة فيه قاطع

اتبعوا المرسلين) تعرض لعنوان رسالتهم حثا لهم على اتباعهم كما أن خطابهم ياقوم لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته وقوله تعالى (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) تكرير للتأكيد وللتوسل به الى وصفهم بما يرغبهم في اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوي والاهتداء الى خير الدنيا والدين (ومالي لا أعبد الذي فطرني) تلطف في الارشاد بايراده في معرض المناصحة لنفسه وامحاض النصح حيث أراهم انه اختار لهم ما يختار لنفسه والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم الى عبادة غيره كما ينبئ عنه قوله (واليه ترجعون) مبالغة في التهديد ثم عاد الى المساق الاول فقال (أأتخذ من دونه آلهة) انكار ونفي لاتخاذ الآلهة على الاطلاق وقوله (ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيأ) أي لا تنفعني شيأ من النفع (ولا ينقذون) من ذلك الضر بالنصرة والمظاهرة استئناف سيق لتعليل النفي المذكور وجعله صفة لآلهة كما ذهب اليه بعضهم ربما يوهم أن هناك آلهة ليست كذلك وقرئ ان يردن بفتح الياء على معنى ان يوردني ضرا أي يجعلني مورد اللضر (اني اذا) أي اذا اتخذت من دونه آلهة (لفي ضلال مبين) فان اشراك ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر بالخالق المقتدر الذي لا قادر غيره ولا خير الا خيره ضلال بين لا يخفى على أحد ممن له تمييز في الجملة (اني آمنت بربكم) خطاب منه للرسل بطريق التلوين قيل لما نصح قومه بما ذكر هموا برجمه فاسرع نحو الرسل قبل أن يقتلوه فقال ذلك وانما أكده لاظهار صدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط وأضاف الرب الى ضميرهم روما لزيادة التقرير واظهارا للاختصاص والاقتداء بهم كأنه قال بربكم الذي أرسلكم أو الذي تدعوننا الى الايمان به (فاسمعون) أي اسمعوا ايماني واشهدوا لي به عند الله تعالى وقيل الخطاب للكفرة شافههم بذلك اظهارا للتصلب في الدين وعدم المبالاة بالقتل واضافة الرب الى ضميرهم لتحقيق الحق والتنبيه على بطلان ما هم عليه من اتخاذ الاصنام أربابا وقيل للناس جميعا

طريق لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين الا اذا تعين فتسلكه مع رفقة كذلك الظن ينبغي بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ ثم قال تعالى ولا تجسسوا اتماما لما سبق لانه تعالى لما قال اجتنبوا كثيرا من الظن فهم منه ان المعتبر اليقين فيقول القائل انا أكشف فلانا يعني أعلمه يقينا وأطلع على عيبه مشاهدة فأعيب فأكون قد اجتنبت الظن فقال تعالى ولا تتبعوا الظن ولا تجتهدوا في طلب اليقين في معايب الناس ثم قال تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا اشارة الى وجوب حفظ عرض المؤمن في غيبته وفيه معان (أحدها) في قوله تعالى بعضكم بعضا فانه للعموم في الحقيقة كقوله لا تلمزوا أنفسكم وأما من اغتاب فالمغتاب أولا يعلم عيبه فلا يحمل فعله على ان يغتابه فلم يقل ولا تغتابوا أنفسكم لما ان الغيبة ليست حاملة للغائب على غيبة من اغتابه والعيب حامل على العيب (ثانيها) لو قال قائل هذا المعنى كان حاصلا بقوله تعالى لا تغتابوا مع الاقتصار عليه نقول لا وذلك لان الممنوع اغتياب المؤمن فقال بعضكم بعضا وأما الكافر فيعلن ويذكر بما فيه وكيف لا والفاسق يجوز أن يذكر بما فيه عند الحاجة (ثالثها) قوله تعالى أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا دليل على أن الاغتياب الممنوع اغتياب المؤمن لا ذكر الكافر وذلك لانه شبهه بأكل لحم الاخ وقال من قبل انما المؤمنون اخوة فلا اخوة الا بين المؤمنين ولا منع الا من شئ يشبه أكل لحم الاخ ففي هذه الآية نهي عن اغتياب المؤمن دون الكافر (رابعها) ما الحكمة في هذا التشبيه نقول هو اشارة الى أن عرض الانسان كدمه ولحمه وهذا من باب القياس الظاهر وذلك لان عرض المرء أشرف من لحمه فاذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الاولى لان ذلك آلم وقوله لحم أخيه آكد في المنع لان العدو يحمله الغضب على مضغ لحم العدو فقال أصدق الاصدقاء من ولدته أمك فأكل لحمه أقبح ما يكون وقوله تعالى ميتا اشارة الى دفع وهم وهو أن يقال القول في الوجه يؤلم فيحرم وأما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلم فقال أكل لحم الاخ وهو ميت أيضا لا يؤلم ومع هذا هو في غاية القبح لما أنه لو اطلع عليه لتألم كما أن الميت لو أحس بأكل لحمه لآلمه وفيه معنى وهو أن الاغتياب كأكل لحم الآدمي ميتا ولا يحل أكله الا للمضطر بقدر الحاجة والمضطر اذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمي الميت فلا يأكل لحم الآدمي فكذلك المغتاب ان وجد لحاجته مدفعا غير الغيبة فلا يباح له الاغتياب وقوله تعالى ميتا حال عن اللحم أو عن الاخ فان قيل اللحم لا يكون ميتا قلنا بلى قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أبين من حي فهو ميت فسمى الفلقة ميتا فان قيل اذا جعلناه حالا عن الاخ لا يكون هو الفاعل ولا المفعول فلا يجوز جعله حالا كما يقول القائل مررت بأخي زيد قائما ويريد كون زيد قائما قلنا يجوز أن يقال من أكل لحمه فقد أكل فصار الاخ مأكولا مفعولا بخلاف المرور بأخي زيد فيجوز أن تقول ضربت وجهه آثما أي وهو آثم أي صاحب الوجه كأنك اذا ضربت وجهه فقد ضربته ولا يجوز أن تقول مزقت ثوبه آثما فتجعل الآثم حالا من غيرك وقوله تعالى فكرهتموه فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) العائد اليه الضمير يحتمل وجوها (الاول) وهو الظاهر أن يكون هو الاكل لان قوله تعالى أيحب أحدكم أن يأكل معناه أيحب أحدكم الاكل لان أن مع الفعل تكون للمصدر يعني فكرهتم الاكل (الثاني) أن يكون هو اللحم أي فكرهتم اللحم (الثالث) أن يكون هو الميت في قوله ميتا وتقديره أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا متغيرا فكرهتموه فكأنه صفة لقوله ميتا ويكون فيه زيادة مبالغة في التحذير يعني الميتة ان أكلت في الندرة لسبب كان نادرا ولكن اذا أنتن وأروح وتغير لا يؤكل أصلا فكذلك ينبغي أن تكون الغيبة (المسئلة الثانية) الفاء في قوله تعالى فكرهتموه تقتضي وجود تعلق فما ذلك نقول فيه وجوه (أحدها) أن يكون ذلك تقدير جواب كلام كأنه تعالى لما قال أيحب قيل في جوابه ذلك (وثانيها) أن يكون الاستفهام في قوله أيحب للانكار كأنه قال لا يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه اذا ولا يحتاج الى اضمار

(قيل ادخل الجنة) قيل له ذلك لما قتلوه اكراما له بدخولها حينئذ كسائر الشهداء وقيل لما هموا بقتله رفعه الله تعالى الى الجنة قاله الحسن وعن قتادة أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق وقيل معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها وانما لم يقل له لان الغرض بيان المقول لا المقول له لظهوره وللمبالغة في المسارعة الى بيانه والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حاله ومقاله كأنه قيل كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب في دينه والتسخي بروحه لوجهه تعالى فقيل قيل ادخل الجنة وكذلك قوله تعالى (قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين) فانه جواب عن سؤال نشأ من حكاية حاله كأنه قيل فماذا قال عند نيله تلك الكرامة السنية فقيل قال الخ وانما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر والدخول في الايمان والطاعة جريا على سنن الاولياء في كظم الغيظ والترحم على الاعداء أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على الحق وأن عداوتهم لم تكسبه الا سعادة وقرئ من المكرمين وما موصولة أو مصدرية والباء صلة يعلمون أو استفهامية وردت على الاصل والباء متعلقة بغفر أي بأي شئ غفر لي ربي يريد به تفخيم شأن المهاجرة عن ملتهم والمصابرة على أذيتهم (وما أنزلنا على قومه من بعده) من بعد قتله أو رفعه (من جند من السماء) لاهلاكهم والانتقام منهم كما فعلناه يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقار لهم ولاهلاكهم وايماء الى تفخيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم (وما كنا منزلين) وما صح في حكمتنا أن ننزل لاهلاك قومه جندا من السماء لما أنا قدرنا لكل شئ سببا حيث أهلكنا بعض من أهلكنا من الامم بالحاصب وبعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالاغراق وجعلنا انزال الجند من خصائصك في الانتصار من قومك وقيل ما موصولة معطوفة على جند أي وما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح وأمطار شديدة

(وثالثها)

(وثالثها) أن يكون ذلك التعلق هو تعلق المسبب بالسبب وترتبه عليه كما تقول جاء فلان ماشيا فتعب لان المشي يورث التعب فكذا قوله ميتا لان الموت يورث النفرة الى حد لا يشتهي الانسان أن يبيت في بيت فيه ميت فكيف يقربه بحيث يأكل منه ففيه اذا كراهة شديدة فكذلك ينبغي أن يكون حال الغيبة ثم قال تعالى واتقوا الله ان الله تواب رحيم عطف على ما تقدم من الاوامر والنواهي أي اجتنبوا واتقوا وفي الآية لطائف منها ان الله تعالى ذكر في هذه الآية أمورا ثلاثة مرتبة بيانها هو ان الله تعالى قال اجتنبوا كثيرا أي لا تقولوا في حق المؤمنين مالم تعلموه فيهم بناء على الظن ثم اذا سئلتم عن المظنونات فلا تقولوا نحن نكشف أمورهم لنستيقنها قبل ذكرها ثم ان علمتم منها شيأ من غير تجسس فلا تقولوه ولا تفشوه عنهم ولا تعيبوا ففي الاول نهي عما لم يعلم ثم نهي عن طلب ذلك العلم ثم نهي عن ذكر ما علم ومنها ان الله تعالى لم يقل اجتنبوا أن تقولوا أمرا على خلاف ما تعلمونه ولا قال اجتنبوا الشك بل أول ما نهي عنه هو القول بالظن وذلك لان القول على خلاف العلم كذب وافتراء والقول بالشك والرجم بالغيب سفه وهزؤ وهما في غاية القبح فلم ينه عنه اكتفاء بقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لان وصفهم بالايمان يمنعهم من الافتراء والارتياب الذي هو دأب الكافر وانما منعهم عما يكثر وجوده في المسلمين ولذلك قال في الآية لا يسخر ومنها انه ختم الآيتين بذكر التوبة فقال في الاولى ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون وقال في الاخرى ان الله تواب لكن في الآية الاولى لما كان الابتداء بالنهي في قوله لا يسخر قوم من قوم ذكر النفي الذي هو قريب من النهي وفي الآية الثانية لما كان الابتداء بالامر في قوله اجتنبوا ذكر الارتياب الذي هو قريب من الامر ۞ ثم قال تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير) تبيينا لما تقدم وتقريرا له وذلك لان السخرية من الغير والعيب ان كان بسبب التفاوت في الدين والايمان فهو جائز لما بينا ان قوله لا يغتب بعضكم بعضا وقوله ولا تلمزوا أنفسكم منع من عيب المؤمن وغيبته وان لم يكن لذلك السبب فلا يجوز لان الناس بعمومهم كفارا كانوا أو مؤمنين يشتركون فيما يفتخر به المفتخر غير الايمان والكفر والافتخار ان كان بسبب الغنى فالكافر قد يكون غنيا والمؤمن فقيرا وبالعكس وان كان بسبب النسب فالكافر قد يكون نسيبا والمؤمن قد يكون عبدا أسود وبالعكس فالناس فيما ليس من الدين والتقوى متساوون متقاربون وشيء من ذلك لا يؤثر مع عدم التقوى فان كل من يتدين بدين يعرف أن من يوافقه في دينه أشرف ممن يخالفه فيه وان كان أرفع نسبا أو أكثر نشبا فكيف من له الدين الحق وهو فيه راسخ وكيف يرجح عليه من دونه فيه بسبب غيره وقوله تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى فيه وجهان (أحدهما) من آدم وحواء (ثانيهما) كل واحد منكم أيها الموجودون وقت النداء خلقناه من أب وأم فان قلنا ان المراد هو الاول فذلك اشارة الى أن لا يتفاخر البعض على البعض لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة وان قلنا ان المراد هو الثاني فذلك اشارة الى أن الجنس واحد فان كل واحد خلق كما خلق الآخر من أب وأم والتفاوت في الجنس دون التفاوت في الجنسين فان من سنن التفاوت أن لا يكون تقدير التفاوت بين الذباب والذئاب لكن التفاوت الذي بين الناس بالكفر والايمان كالتفاوت الذي بين الجنسين لان الكافر جماد اذ هو كالانعام بل أضل والمؤمن انسان في المعنى الذي ينبغي أن يكون فيه والتفاوت في الانسان تفاوت في الحس لا في الجنس اذ كلهم من ذكر وأنثى فلا يبقى لذلك عند هذا اعتبار وفيه مباحث (البحث الاول) فان قيل هذا مبني على عدم اعتبار النسب وليس كذلك فان للنسب اعتبارا عرفا وشرعا حتى لا يجوز تزويج الشريفة بالنبطي فنقول اذا جاء الامر العظيم لا يبقى الامر الحقير معتبرا وذلك في الحس والشرع والعرف أما الحس فلان الكواكب لا ترى عند طلوع الشمس ولجناح الذباب دوي ولا يسمع عند ما يكون رعد قوي وأما في العرف فلان من جاء مع الملك لا يبقى له اعتبار ولا اليه التفات اذا علمت هذا فيهما في الشرع كذلك اذا جاء الشرف

وغيرها (ان كانت) أي ما كانت الاخذة أو العقوبة (الا صيحة واحدة) صاح بها جبريل عليه السلام وقرئ الا صيحة بالرفع على أن كان تامة وقرئ الا زقية واحدة من زقا الطائر اذا صاح (فاذا هم خامدون) ميتون شبهوا بالنار الخامدة رمزا الى أن الحي كالنار الساطعة في الحركة والالتهاب والميت كالرماد كما قال لبيد

وما المرء الا كالشهاب وضوئه
يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

(يا حسرة على العباد) تعالى فهذه من الاحوال التي حقها أن تحضري فيها وهي ما دل عليه قوله تعالى (ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن) فان المستهزئين بالناصحين الذين نيطت بنصائحهم سعادة الدارين أحقاء بان يتحسروا ويتحسر عليهم المتحسرون أو قد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين وقد جوز أن يكون تحسرا عليهم من جهة الله تعالى بطريق الاستعارة لتعظيم ما جنوه على أنفسهم ويؤيده قراءة يا حسرتا لان المعنى يا حسرتي ونصبها لطولها بما تعلق بها من الجار وقيل باضمار فعلها والمنادى محذوف وقرئ يا حسرة العباد بالاضافة الى الفاعل أو المفعول ويا حسره على العباد باجراء الوصل مجرى الوقف (ألم يروا) أي ألم يعلموا وهو معلق عن العمل في قوله تعالى (كم أهلكنا قبلهم من القرون) لان كم لا يعمل فيها ما قبلها وان كانت خبرية لان أصلها الاستفهام خلا أن معناه نافذ في الجملة كما نفذ في قولك ألم تر ان زيدا لمنطلق وان لم يعمل في لفظه (أنهم اليهم لا يرجعون) بدل من كم أهلكنا على المعنى أي ألم يروا كثرة اهلاكنا من قبلهم من المذكورين آنفا ومن غيرهم كونهم غير راجعين اليهم وقرئ بالكسر على الاستئناف وقرئ ألم يروا من أهلكنا والبدل حينئذ بدل اشتمال (وان كل لما جميع لدينا محضرون) بيان لرجوع الكل الى الحشر بعد بيان عدم الرجوع الى الدنيا وان نافية وتنوين كل عوض عن المضاف اليه ولما بمعنى الا وجميع فعيل بمعنى مفعول ولدينا ظرف له أو لما بعده والمعنى ما كلهم الا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء

الدينى الالهى لا يبقى لامر هنالك اعتبار لا للنسب ولا للنشب ألا ترى ان الكافر وان كان من أعلى الناس نسبا والمؤمن وان كان من أدونهم نسبا لا يقاس أحدهما بالآخر وكذلك ما هو من الدين مع غيره ولهذا يصلح للمناصب الدينية كالقضاء والشهادة كل شريف ووضيع اذا كان دينا عالما صالحا ولا يصلح لشئ منها فاسق وان كان قرشى النسب وقارونى النشب ولكن اذا اجتمع فى اثنين الدين المتين وأحدهما نسيب ترجح بالنسب عند الناس لا عند الله لان الله تعالى يقول وأن ليس للانسان الا ما سعى وشرف النسب ليس مكتسبا ولا يحصل بسعى (البحث الثانى) ما الحكمة فى اختيار النسب من جملة أسباب التفاخر ولم يذكر المال نقول الامور التى يفتخر بها فى الدنيا وان كانت كثيرة لكن النسب أعلاها لان المال قد يحصل للفقير فيبطل افتخار المفتخر به والحسن والسن وغير ذلك غير ثابت دائم والنسب ثابت مستمر غير مقدور التحصيل لمن ليس له ذلك فاختاره الله للذكر وأبطل اعتباره بالنسبة الى التقوى ليعلم منه بطلان غيره بالطريق الاولى (البحث الثالث) اذا كان ورود الآية لبيان عدم جواز الافتخار بغير التقوى فهل لقوله تعالى انا خلقناكم فائدة نقول نعم وذلك لان كل شئ يترجح على غيره فاما أن يترجح بأمر فيه يلحقه ويترتب عليه بعد وجوده واما أن يترجح عليه بأمر هو قبله والذى بعده كالحسن والقوة وغيرهما من الاوصاف المطلوبة من ذلك الشئ والذى قبله فاما راجع الى الاصل الذى منه وجد أو الى الفاعل الذى هو له أوجد كما يقال فى اناءين هذا من النحاس وهذا من الفضة ويقال هذا عمل فلان وهذا عمل فلان فقال تعالى لا ترجيح فيما خلقتم منه لانكم كلكم من ذكر وأنثى ولا بالنظر الى جاعلكم لانكم كلكم خلقكم الله فان كان بينكم تفاوت يكون بأمور تلحقكم وتحصل بعد وجودكم وأشرفها التقوى والقرب من الله تعالى ثم قال تعالى وجعلناكم شعوبا وقبائل وفيه وجهان (أحدهما) جعلناكم شعوبا متفرقة لا يدرى من يجمعكم كالعجم وقبائل يجمعكم واحد معلوم كالعرب وبنى اسرائيل (وثانيهما) جعلناكم شعوبا داخلين فى قبائل فان القبيلة تحتها شعوب وتحت الشعوب البطون وتحت البطون الافخاذ وتحت الافخاذ الفصائل وتحت الفصائل الاقارب وذكر الاعم لانه أذهب للافتخار لان الامر الاعم منها يدخله فقراء وأغنياء كثيرة غير محصورة وضعفاء وأقوياء كثيرة غير معدودة ثم بين فائدة ذلك وهى التعارف وفيه وجهان (أحدهما) ان فائدة ذلك التناصر لا التفاخر (وثانيهما) ان فائدته التعارف لا التناكر واللمز والسخرية والغيبة تفضى الى التناكر لا الى التعارف وفيه معان لطيفة (الاولى) قال تعالى انا خلقناكم وقال وجعلناكم لان الخلق أصل تفرع عليه الجعل شعوبا فان الاول هو الخلق والايجاد ثم الاتصاف بما اتصفوا به لكن الجعل شعوبا للتعارف والخلق للعبادة كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون واعتبار الاصل متقدم على اعتبار الفرع فاعلم ان النسب يعتبر بعد اعتبار العبادة كما ان الجعل شعوبا يتحقق بعدما يتحقق الخلق فان كان فيكم عبادة تعتبر فيكم أنسابكم والا فلا (الثانية) قوله تعالى خلقناكم وجعلناكم اشارة الى عدم جواز الافتخار لان ذلك ليس لسعيكم ولا قدرة لكم على شئ من ذلك فكيف تفتخرون بما لا مدخل لكم فيه فان قيل الهداية والضلال كذلك لقوله تعالى انا هديناه السبيل نهدى من نشاء فنقول أثبت الله لنا فيه كسبا مبنيا على فعل كما قال الله تعالى فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ثم قال تعالى وما تشاؤن الا أن يشاء الله وأما فى النسب فلا (الثالثة) قوله تعالى لتعارفوا اشارة الى قياس خفى وبيانه هو انه تعالى قال انكم جعلتم قبائل لتعارفوا وأنتم اذا كنتم أقرب الى شريف تفتخرون به فخلقكم لتعرفوا ربكم فاذا كنتم أقرب منه وهو أشرف الموجودات كان الاحق بالافتخار هنالك من الكل الافتخار بذلك (الرابعة) فيه ارشاد الى برهان يدل على ان الافتخار ليس بالانساب وذلك لان القبائل للتعارف بسبب الانتساب الى شخص فان كان ذلك الشخص شريفا صح الافتخار فى ظنكم وان لم يكن شريفا لم يصح فشرف ذلك الرجل الذى تفتخرون به هو بانتسابه الى فضيلة أو باكتساب فضيلة فان كان بالانتساب لزم الانتهاء وان كان بالاكتساب

وقيل محضرون معذبون فكل عبارة عن الكفرة وقرئ لما بالتخفيف على أن ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة وما مزيدة للتأكيد والمعنى ان كلهم مجموعون الخ (وآية لهم الارض الميتة) بالتخفيف وقرئ بالتشديد وقوله تعالى آية خبر مقدم للاهتمام به وتنكيرها للتفخيم ولهم اما متعلقة بها لانها بمعنى العلامة أو بمضمر هو صفة لها والارض مبتدأ والميتة صفتها وقوله تعالى (أحييناها) استئناف مبين لكيفية كونها آية وقيل آية مبتدأ ولهم خبر والارض الميتة مبتدأ موصوف وأحييناها خبره والجملة مفسرة لآية وقيل الارض مبتدأ وأحييناها خبره والجملة خبر لآية وقيل الخبر لها هو الارض وأحييناها صفتها لان المراد بها الجنس لا المعينة والاول هو الاولى لان مصب الفائدة هو كون الارض آية لهم لا كون الآية هى الارض (وأخرجنا منها حبا) جنس الحب (فمنه يأكلون) تقديم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب) أى من أنواع النخل والعنب ولذلك جمعا دون الحب فان الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على الانواع وذكر النخيل دون التمور ليطابق الحب والاعناب لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع (وفجرنا فيها) وقرئ بالتخفيف والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى (من العيون) أى بعضا من العيون فحذف الموصول وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ومن مزيدة على رأى الاخفش (ليأكلوا من ثمره) متعلق بجعلنا وتأخيره عن تفجير العيون لانه من مبادى الاثمار أى وجعلنا فيها جنات من نخيل ورتبنا مبادى أثمارها ليأكلوا من ثمر ما ذكر من الجنات والنخيل باجراء الضمير مجرى اسم الاشارة وقيل الضمير لله تعالى بطريق الالتفات الى الغيبة والاضافة لان الثمر بخلقه تعالى وقرئ بضمتين وهى لغة فيه أو جمع ثمار بضمة وسكون (وما عملته أيديهم) عطف على ثمره وهو ما يتخذ منه من العصير والدبس ونحوهما وقيل ما نافية والمعنى أن الثمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم ومحل الجملة النصب على الحالية بالاكتساب

ويؤكد الاول قراءة عملت بلاهاء فان حذف العائد من الصلة أحسن من الحذف من غيرها (أفلا يشكرون) انكار واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيرون هذه النعم أو أيتنعمون (٤١٩) بها فلا يشكرونها (سبحان الذى خلق الازواج كلها) استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره على آلائه المذكورة واستعظام ماذكر فى حيز الصلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة للشكر وتخصيص العبادة به والتعجيب من اخلالهم بذلك والحالة هذه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقادا وقولا أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الارض والماء اذا أبعد فيهما وأمعن ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وانتصابه على المصدر به ولايكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه عما لايليق به عقدا وعملا تنزيها خاصا به حقيقا بشأنه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران أريد به التنزه التام والتباعد الكلى عن السوء ففيه مبالغة من جهة اسناد التنزه الى الذات المقدسة فالمعنى تنزه بذاته عن كل مالايليق به تنزها خاصا به فالجملة على هذا اخبار من الله تعالى بتنزهه وبراءته عن كل مالايليق به مما فعلوه وماتركوه وعلى الاول حكم منه عز وجل بذلك وتلقين للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه ولايخلوا به ولا يغفلوا عنه والمراد بالازواج الاصناف والانواع (مما تنبت الارض) بيان لها والمراد به كل ماينبت فيها من الاشياء المذكورة وغيرها (ومن أنفسهم) أى خلق الازواج من أنفسهم أى الذكر والانثى (ومما لايعلمون) أى والازواج مما لم يطلعهم الله تعالى على خصوصياته لعدم قدرتهم على الاحاطة بها ولما لم يتعلق

بالاكتساب فالدين الفقيه الكريم المحسن صار مثل من يفتخر به المفتخر فكيف يفتخر بالاب وأب الاب على من حصل له من الحظ والخير مافضل به نفسه عن ذلك الاب والجد اللهم الا أن يحوز شرف الانتساب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فان أحدا لايقرب من الرسول فى الفضيلة حتى يقول أنا مثل أبيك ولكن فى هذا النسب أثبت النبى صلى الله عليه وسلم الشرف لمن انتسب اليه بالاكتساب ونفاه لمن أراد الشرف بالانتساب فقال نحن معاشر الانبياء لانورث وقال العلماء ورثة الانبياء أى لانورث بالانساب وانما نورث بالاكتساب سمعت أن بعض الشرفاء فى بلاد خراسان كان فى النسب أقرب الناس الى على عليه السلام غير انه كان فاسقا وكان هناك مولى أسود تقدم بالعلم والعمل ومال الناس الى التبرك به فاتفق انه خرج يوما من بيته يقصد المسجد فاتبعه خلق فلقيه الشريف سكران وكان الناس يطردون الشريف ويبعدونه عن طريقه فغلبهم وتعلق باطراف الشيخ وقال له ياأسود الحوافر والشوافر ياكافر ابن كافر أنا ابن رسول الله أذل وتجل وأذم وتكرم وأهان وتعان فهم الناس بضربه فقال الشيخ لاهذا محتمل منه لجده وضربه معدود لحده ولكن ياأيها الشريف بيضت باطنى وسودت باطنك فيرى الناس بياض قلبى فوق سواد وجهى فحسنت وأخذت سيرة أبيك وأخذت سيرة أبى فرآنى الخلق فى سيرة أبيك ورأوك فى سيرة أبى فظنونى ابن أبيك وظنوك ابن أبى فعملوا معك مايعمل مع أبى وعملوا معى مايعمل مع أبيك ثم قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم وفيه وجهان (أحدهما) أن المراد من يكون أتقى يكون عند الله أكرم أى التقوى تفيد الاكرام (ثانيهما) ان المراد أن من يكون أكرم عند الله يكون أتقى أى الاكرام يورث التقوى كما يقال المخلصون على خطر عظيم والاول أشهر والثانى أظهر لان المذكور ثانيا ينبغى أن يكون محمولا على المذكور أولا فى الظاهر فيقال الاكرام للمتقى لكن ذو العموم فى المشهور هو الاول يقال ألذ الاطعمة أحلاها أى اللذة بقدر الحلاوة لأن الحلاوة بقدر اللذة وهى اثبات لكون التقوى متقدمة على كل فضيلة فان قيل التقوى من الاعمال والعلم أشرف قال النبى صلى الله عليه وسلم لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد نقول التقوى ثمرة العلم قال الله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فلا تقوى الا للعالم فالمتقى العالم أتم علمه والعالم الذى لايتقى كشجرة لاثمرة لها لكن الشجرة المثمرة أشرف من الشجرة التى لاتثمر بل هو حطب وكذلك العالم الذى لايتقى حصب جهنم وأما العابد الذى يفضل الله عليه الفقيه فهو الذى لاعلم له وحينئذ لايكون عنده من خشية الله نصاب كامل ولعله يعبده مخافة الالقاء فى النار فهو كالمكره أو لدخول الجنة فهو يعمل كالفاعل له أجرة ويرجع الى بيته والمتقى هو العالم بالله المواظب لبابه أى المقرب الى جنابه عنده يبيت وفيه مباحث (البحث الاول) الخطاب مع الناس والاكرم يقتضى اشتراك الكل فى الكرامة ولا كرامة للكافر فانه أضل من الانعام وأذل من الهوام نقول ذلك غير لازم مع انه حاصل بدليل قوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم لان كل من خلق فقد اعترف بربه كأنه تعالى قال من استمر عليه وزاد زيد فى كرامته ومن رجع عنه أزيل عنه أثر الكرامة (الثانى) ماحد التقوى ومن الاتقى نقول أدنى مراتب التقوى أن يجتنب العبد المناهى ويأتى بالاوامر ولايقر ولا يأمن الا عندهما فان اتفق ان ارتكب منهيا لايأمن ولايتكل بل يتبعه بحسنة ويظهر عليه ندامة وتوبة ومتى ارتكب منهيا وماتاب فى الحال واتكل على المهلة فى الاجل ومنعه عن التذاكر طول الامل فليس بمتق أما الاتقى فهو الذى يأتى بما أمر به ويترك مانهى عنه وهو مع ذلك خاش ربه لايشتغل بغير الله فينور الله قلبه فان التفت لحظة الى نفسه أو ولده جعل ذلك ذنبه وللاولين النجاة لقوله تعالى ثم ننجى الذين اتقوا وللآخرين السوق الى الجنة لقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم فبين من أعطاه السلطان بستانا وأسكنه فيه وبين من استخلصه لنفسه يستفيد كل يوم بسبب القرب منه بساتين وضياعا بون عظيم ثم قال تعالى ان الله عليم خبير أى عليم بظواهركم يعلم أنسابكم خبير ببواطنكم لاتخفى عليه أسراركم

فاجعلوا التقوى عملكم وزيدوا في التقوى كما زادكم ﴿ ثم قال تعالى ﴿قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيأ ان الله غفور رحيم﴾ لما قال تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم والاتقى لا يكون الا بعد حصول التقوى وأصل الايمان هو الاتقاء من الشرك قالت الاعراب لنا النسب الشريف وانما يكون لنا الشرف قال الله تعالى ليس الايمان بالقول انما هو بالقلب فما آمنتم لانه خبير يعلم ما في الصدور ولكن قولوا أسلمنا أى انقدنا واستسلمنا قيل ان الآية نزلت في بني أسد أظهروا الاسلام في سنة مجدبة طالبين الصدقة ولم يكن قلبهم مطمئنا بالايمان وقد بينا ان ذلك كالتاريخ للنزول لا للاختصاص بهم لان كل من أظهر فعل المتقين وأراد أن يصير له ما للاتقياء من الاكرام لا يحصل له ذلك لان التقوى من عمل القلب وقوله تعالى قل لم تؤمنوا في تفسيره مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا وقال ههنا قل لم تؤمنوا مع انهم ألقوا اليهم السلام نقول اشارة الى أن عمل القلب غير معلوم واجتناب الظن واجب وانما يحكم بالظاهر فلا يقال لمن يفعل فعلا هو مرائي ولا لمن أسلم هو منافق ولكن الله خبير بما في الصدور واذا قال فلان ليس بمؤمن حصل الجزم وقوله تعالى قل لم تؤمنوا فهو الذى جوز لنا ذلك القول وكان معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم حيث أطلعه الله على الغيب وضمير قلوبهم فقال لنا أنتم لا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا لعدم علمكم بما في قلبه (المسئلة الثانية) لم ولما حرفا نفي وما وان ولا كذلك من حروف النفي ولم ولما يجزمان وغيرهما من حروف النفي لا يجزم فما الفرق بينهما نقول لم ولما يفعلان بالفعل ما لا يفعل به غيرهما فانهما يغيران معناه من الاستقبال الى المضي تقول لم يؤمن أمس وآمن اليوم ولا تقول لا يؤمن أمس فلما فعلا بالفعل ما لم يفعل به غيرهما جزم بهما فان قيل مع هذا الجزم بهما غاية ما في الباب ان الفرق حصل ولكن ما الدليل على وجوب الجزم بهما نقول لان الجزم والقطع يحصل في الافعال الماضية فان من قال قام حصل القطع بقيامه ولا يجوز أن يكون ما قام والافعال المستقبلة اما متوقعة الحصول واما ممكنة غير متوقعة ولا يحصل القطع والجزم فيه فاذا كان لم ولما يقلبان اللفظ من الاستقبال الى المضي كانا يفيدان الجزم والقطع في المعنى فجعل لهما تناسبا بالمعنى وهو الجزم لفظا وعلى هذا نقول السبب في الجزم ما ذكرنا وهذا في الامر يجزم كأنه جزم على المأمور انه يفعله ولا يتركه فاى فائدة في ان اللفظ يجزم مع ان الفعل فيه لابد من وقوعه وان في الشرط تغير وذلك لان ان تغير معنى الفعل من المضي الى الاستقبال كما ان لم تغيره من الاستقبال الى المضي تقول ان جئتني جئتك وان أكرمتني أكرمتك فلما كان ان مثل لم في كونه حرفا وفي لزوم الدخول على الافعال وتغييره معنى الفعل صار جازما لشبه لفظي أما الجزاء فجزم لما ذكرنا من المعنى فان الجزاء يجزم بوقوعه عند وجود الشرط فالجزم اذا اما لمعنى أو لشبه لفظي كما ان الجزاء كذلك في الاضافة وفي الجر بحرف (المسئلة الثالثة) قوله تعالى ولكن قولوا يقتضي قولا سابقا مخالفا لما بعده كقولنا لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا وفي ترك التصريح به ارشاد وتأديب كأنه تعالى لم يجز النهي عن قولهم آمنا فلم يقل لا تقولوا آمنا وأرشدهم الى الامتناع عن الكذب فقال لم تؤمنوا فان كنتم تقولون شيأ فقولوا أمرا عاما لا يلزم منه كذبكم وهو كقولهم أسلمنا فان الاسلام بمعنى الانقياد حصل (المسئلة الرابعة) المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة فكيف يفهم ذلك مع هذا نقول بين العام والخاص فرق فالايمان لا يحصل الا بالقلب وقد يحصل باللسان والاسلام أعم لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمرا آخر غيره مثاله الحيوان أعم من الانسان لكن الحيوان في صورة الانسان ليس أمرا ينفك عن الانسان ولا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيوانا ولا يكون انسانا فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود فكذلك المؤمن والمسلم وسنبين ذلك في تفسير قوله تعالى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ان شاء الله تعالى (المسئلة الخامسة)

بذلك شئ من مصالحهم الدينية والدنيوية وانما أطلعهم على ذلك بطريق الاجمال على منهاج قوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون لما نيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعة ملكه وسلطانه (وآية لهم الليل) جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر كما مر وقوله تعالى (نسلخ منه النهار) جملة مبينة لكيفية كونه آية أى نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من السلخ وهو ازالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال والاغلب في الاستعمال تعليقه بالجلد يقال سلخت الاهاب من الشاة وقد يعكس ومنه الشاة المسلوخة (فاذا هم مظلمون) أى داخلون في الظلام مفاجأة وفيه رمز الى أن الاصل هو الظلام والنور عارض (والشمس تجرى لمستقر لها) لحد معين ينتهى اليه دورها فشبه بمستقر المسافر اذا قطع مسيره أو لكبد السماء فان حركتها فيه توجد أبطأ بحيث يظن أن لها هنالك وقفة قال

* والشمس حيرى لها بالجو تدويم *

أو لاستقرار لها على نهج مخصوص أو لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فان لها في دورها ثلثمائة وستين مشرقا ومغربا تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود اليهما الى العام القابل أو لمنقطع جريها عند خراب العالم وقرئ الى مستقر لها وقرئ لا مستقر لها أى لا سكون لها فانها متحركة دائما وقرئ لا مستقر لها على أن لا بمعنى ليس (ذلك) اشارة الى جريها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته أى ذلك الجرى البديع المنطوى على الحكم الرائعة التى تحار في فهمها العقول والافهام (تقدير العزيز) الغالب بقدرته على كل مقدور (العليم) المحيط علمه بكل معلوم (والقمر قدرناه) بالنصب باضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ بالرفع على الابتداء أى قدرنا له (منازل) وقيل قدرنا مسيره منازل وقيل قدرناه ذا منازل وهى ثمانية وعشرون الشرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع النثرة الطرف الجبهة الزبرة الصرفة العواء السماك الغفر الزبانى الاكليل القلب

الخامسة) قوله تعالى ولما يدخل الايمان فى قلوبكم هل فيه معنى غير معنى قوله تعالى قل لم تؤمنوا نقول نعم و بيانه من وجوه (الاول) هو انهم لما قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا قالوا اذا أسلمنا فقد آمنا قيل لا فان الايمان من عمل القلب لا غير والاسلام قد يكون عمل اللسان واذا كان ذلك عمل القلب ولم يدخل فى قلوبكم الايمان لم تؤمنوا (الثانى) لما قالوا آمنا وقيل لهم لم تؤمنوا قالوا جدلا قد آمنا عن صدق نية مؤكدين لما أخبروا فقال ولما يدخل الايمان فى قلوبكم لان لما يفعل يقال فى مقابلة قد فعل و يحتمل أن يقال بان الآية فيها اشارة الى حال المؤلفة اذا أسلموا ويكون ايمانهم بعد ضعيفا قال لهم لم تؤمنوا لان الايمان ايقان وذلك بعد لم يدخل فى قلوبكم وسيدخل باطلاعكم على محاسن الاسلام وان تطيعوا الله ورسوله يكمل لكم الاجر والذى يدل على هذا هو ان لما فيها معنى التوقع والانتظار والايمان اما أن يكون بفعل المؤمن واكتسابه ونظره فى الدلائل واما أن يكون الهاما يقع فى قلب المؤمن فقوله قل لم تؤمنوا أى ما فعلتم ذلك أنتم وقوله تعالى ولما يدخل الايمان فى قلوبكم أى ولا دخل الايمان فى قلبكم الهاما من غير فعلكم فلا ايمان لكم حينئذ ثم انه تعالى عند فعلهم قال لم تؤمنوا بحرف ليس فيه معنى الانتظار لقصور نظرهم وفتور فكرهم وعند فعل الايمان قال لما يدخل بحرف فيه معنى التوقع لظهور قوة الايمان كأنه يكاد يغشى القلوب بأسرها ثم انه تعالى قال وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم أى لا ينقصكم والمراد أنكم اذا أتيتم بما يليق بضعفكم من الحسنة فهو يؤتيكم ما يليق به من الجزاء وهذا لان من حمل الى ملك فاكهة طيبة يكون ثمنها فى السوق درهما وأعطاه الملك درهما أو دينارا ينسب الملك الى قلة العطاء بل البخل فليس معناه أنه يعطى مثل ذلك من غير نقص بل المعنى يعطى ما تتوقعون باعمالكم من غير نقص وفيه تحريض على الايمان الصادق لان من أتى بفعل من غير صدق نية يضيع عمله ولا يعطى عليه أجرا فقال ان تطيعوا وتصدقوا لا ينقص عليكم فلا تضيعوا أعمالكم بعدم الاخلاص وفيه أيضا تسلية لقلوب من تأخر ايمانه كأنه يقول غيرى سبقنى وآمن حين كان النبى وحيدا وآواه حين كان ضعيفا ونحن آمنا عندما عجزنا عن مقاومته وغلبنا بقوته فلا يكون لايماننا وقع ولا لنا عليه أجر فقال تعالى ان أجركم لا ينقص وما تتوقعون تعطون غاية ما فى الباب ان التقدم يزيد فى أجورهم وماذا عليكم اذا أرضاكم الله أن يعطى غيركم من خزائن رحمته رحمة واسعة وما حالكم فى ذلك الا حال ملك أعطى واحدا شيأ وقال لغيره ماذا تتمنى فتمنى عليه بلدة واسعة وأموالا فأعطاه ووفاه ثم زاد ذلك الاول أشياء أخر من خزائنه فان تأذى من ذلك يكون بخلا وحسدا وذلك فى الآخرة لا يكون وفى الدنيا هو من صفة الاراذل وقوله تعالى ان الله غفور رحيم أى يغفر لكم ما قد سلف و يرحمكم بما أتيتم به ۞ ثم قال تعالى ﴿انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ ارشاد للاعراب الذين قالوا آمنا الى حقيقة الايمان فقال ان كنتم تريدون الايمان فالمؤمنون من آمن بالله ورسوله ثم لم يرتابوا يعنى أيقنوا بان الايمان ايقان وثم للتراخى فى الحكاية كانه يقول آمنوا ثم أقول شيأ آخر لم يرتابوا و يحتمل أن يقال هو للتراخى فى الفعل تقديره آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا فيما قال النبى صلى الله عليه وسلم من الحشر والنشر وقوله تعالى وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم يحقق ذلك أى أيقنوا أن بعد هذه الدار دارا فجاهدوا طالبين العقبى وقوله أولئك هم الصادقون فى ايمانهم لا الاعراب الذين قالوا قولا ولم يخلصوا عملا ۞ ثم قال تعالى ﴿قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الارض والله بكل شئ عليم﴾ فانه عالم به لا يخفى عليه شئ وفيه اشارة الى ان الدين ينبغى أن يكون لله وأنتم أظهرتموه لنا لا لله فلا يقبل منكم ذلك ۞ وقوله تعالى ﴿يمنون عليك ان أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين﴾ يقرر ذلك و يبين ان اسلامهم لم يكن لله وفيه لطائف (الاولى) فى قوله تعالى يمنون عليك زيادة بيان لقبح فعلهم وذلك لان الايمان له شرفان (أحدهما) بالنسبة الى الله تعالى وهو

الشولة النعائم البلدة سعد الذابح سعد بلع سعد السعود سعد الاخبية فرغ الدلو المقدم فرغ الدلو المؤخر الرشا وهو بطن الحوت ينزل كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاها ولا يتقاصر عنها فاذا كان فى آخر منازله وهو الذى يكون قبيل الاجتماع دق واستقوس (حتى عاد كالعرجون) كالشمراخ المعوج فعلون من الانعراج وهو الاعوجاج وقرئ كالعرجون وهما لغتان كالبزيون والبزيون (القديم) العتيق وقيل هو ما مر عليه حول فصاعدا (لا الشمس ينبغى لها) أى يصح ويتسهل (أن تدرك القمر) فى سرعة السير فان ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان أو فى الآثار والمنافع أو فى المكان بأن تنزل فى منزله أو فى سلطانه فتطمس نوره وايلاء حرف النفى الشمس للدلالة على انها مسخرة لا يتيسر لها الا ما قدر لها (ولا الليل سابق النهار) أى يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران وبالسبق سبق القمر الى سلطان الشمس فيكون عكسا للاول وايراد السبق مكان الادراك لانه الملائم لسرعة سيره (وكل) أى وكلهم على أن التنوين عوض عن المضاف اليه الذى هو الضمير العائد الى الشمس والقمر والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطالعهما فان اختلاف الاحوال يوجب تعددا ما فى الذات أو الى الكواكب فان ذكرهما مشعر بها (فى فلك يسبحون) يسيرون بانبساط وسهولة (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) أولادهم الذين يبعثونهم الى تجاراتهم أو صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم فان الذرية تطلق عليهن لاستجماع الاختلاط وتخصيصهم بالذكر لما أن استقرارهم فى السفن أشق واستمساكهم فيها أبدع (فى الفلك المشحون) أى المملوء وقيل هو فلك نوح عليه السلام وحمل ذرياتهم فيها حمل آبائهم الاقدمين وفى أصلابهم هؤلاء وذرياتهم وتخصيص أعقابهم بالذكر دونهم لانه أبلغ فى الامتنان وادخل فى التعجب الذى عليه يدور كونه آية (وخلقنا لهم من مثله) مما يماثل الفلك (ما يركبون) من الابل فانها سفائن البر أو مما يماثل ذلك الفلك من السفن والزوارق وجعلها مخلوقة لله

تعالى مع كونها من مصنوعات العباد ليس لمجرد كون صنعهم باقدار الله تعالى والهامه بل لمزيد اختصاص أصلها بقدرته تعالى وحكمته حسبما يعرب عنه قوله عز وجل واصنع الفلك بأعيننا ووحينا والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب لانها باختيارهم كما أن التعبير عن ملابسة ذريتهم بفلك نوح عليه السلام بالحمل لكونها بغير شعور منهم واختيار (وان نشأ نغرقهم) الخ من تمام الآية فانهم معترفون بمضمونه كما ينطق به قوله تعالى واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين وقرئ نغرقهم بالتشديد وفي تعليق الاغراق بمحض المشيئة اشعار بانه قد تكامل ما يوجب اهلاكهم من معاصيهم ولم يبق الا تعلق مشيئته تعالى به أي ان نشأ نغرقهم في اليم مع ما حملناهم فيه من الفلك فحديث خلق الابل حينئذ كلام جيء به في خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الابل والفلك فكأنها نوع منه أو مع ما يركبون من السفن والزوارق (فلا صريخ لهم) أي فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق ويدفعه عنهم قبل وقوعه وقيل فلا استغاثة لهم من قولهم أتاهم الصريخ (ولاهم ينقذون) أي ينجون منه بعد وقوعه وقوله تعالى (الا رحمة منا ومتاعا) استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث المتقدم والغاية المتأخرة أي لا يغاثون ولا ينقذون لشيء من الاشياء الا لرحمة عظيمة من قبلنا داعية الى الاغاثة والانقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما ويجوز أن يراد بالرحمة ما يقارن التمتيع من الرحمة الدنيوية فيكون كلاهما غاية للاغاثة والانقاذ أي لنوع من الرحمة وتمتيع (الى حين) أي الى زمان قدر فيه آجالهم كما قيل

ولم أسلم لكي أبقى ولكن
سلمت من الحمام الى الحمام

(واذا قيل لهم اتقوا) بيان لاعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان اعراضهم عن الآيات الآفاقية التي كانوا يشاهدونها وعدم تأملهم فيها أي اذا قيل لهم بطريق الانذار بما نزل من الآيات أو بغيره اتقوا (ما بين أيديكم وما خلفكم) من الآفات والنوازل فانها محيطة بكم أو ما يصيبكم من المكاره من حيث

تنزيه الله عن الشرك وتوحيده في العظمة (وثانيهما) بالنسبة الى المؤمن فانه ينزه النفس عن الجهل ويزينها بالحق والصدق فهم لا يطلبون باسلامهم جانب الله ولا يطلبون شرف أنفسهم بل منوا ولو علموا أن فيه شرفهم لما منوا به بل شكروا (اللطيفة الثانية) قال قل لا تمنوا على اسلامكم أي الذي عندكم اسلام ولهذا قال تعالى ولكن قولوا أسلمنا ولم يقل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم لئلا يكون تصديقا لهم في الاسلام أيضا كما لم يصدقوا في الايمان فان قيل لم لم يجز أن يصدقوا في اسلامهم والاسلام هو الانقياد وقد وجد منهم قولا وفعلا وان لم يوجد اعتقادا وعلما وذلك القدر كاف في صدقهم نقول التكذيب يقع على وجهين (أحدهما) ان لا يوجد نفس المخبر عنه (وثانيهما) ان لا يوجد كما أخبر في نفسه فقد يقول ما جئتنا بل جاءت بك الحاجة فالله تعالى كذبهم في قولهم آمنا على الوجه الاول أي ما آمنتم أصلا ولم يصدقهم في الاسلام على الوجه الثاني فانهم انقادوا للحاجة وأخذ الصدقة (اللطيفة الثالثة) قال بل الله يمن عليكم يعني لا منة لكم ومع ذلك لا تسلمون رأسا برأس بحيث لا يكون لكم علينا ولا لنا عليكم منة بل المنة عليكم وقوله تعالى بل الله يمن عليكم حسن أدب حيث لم يقل لا تمنوا على بل لي المنة عليكم حيث بينت لكم الطريق المستقيم ثم في مقابلة هذا الادب قال الله تعالى وانك لتهدي الى صراط مستقيم (اللطيفة الرابعة) لم يقل يمن عليكم أن أسلمتم بل قال أن هداكم للايمان لان اسلامهم كان ضلالة حيث كان نفاقا فما من به عليهم فان قيل كيف من عليهم بالهداية الى الايمان مع انه بين انهم لم يؤمنوا نقول الجواب عنه من ثلاثة أوجه (أحدها) انه تعالى لم يقل بل الله يمن عليكم أن رزقكم الايمان بل قال أن هداكم للايمان وارسال الرسل بالآيات البينات هداية (ثانيها) هو انه تعالى يمن عليهم بما زعموا فكأنه قال أنتم قلتم آمنا فذلك نعمة في حقكم حيث تخلصتم من النار فقال هداكم في زعمكم (ثالثها) وهو الاصح هو أن الله تعالى بين بعد ذلك شرطا فقال ان كنتم صادقين ثم قال تعالى (ان الله يعلم غيب السموات والارض والله بصير بما تعملون) اشارة الى انه لا يخفى عليه أسراركم وأعمال قلوبكم الخفية وقال بصير بما تعملون يبصر أعمال جوارحكم الظاهرة وآخر السورة مع التئامه بما قبله فيه تقرير ما في أول السورة وهو قوله تعالى لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله فانه لا يخفى عليه سر فلا تتركوا خوفه في السر ولا يخفى عليه علن فلا تأمنوه في العلانية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

﴿سورة ق أربعون وخمس آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿ق والقرآن المجيد﴾ وقبل التفسير نقول ما يتعلق بالسورة وهي أمور (الاول) أن هذه السورة تقرأ في صلاة العيد لقوله تعالى فيها ذلك يوم الخروج وقوله تعالى كذلك الخروج وقوله تعالى ذلك حشر علينا يسير فان العيد يوم الزينة فينبغي أن لا ينسى الانسان خروجه الى عرصات الحساب ولا يكون في ذلك اليوم فرحا فخورا ولا يرتكب فسقا ولا فجورا ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتذكير بقوله في آخر السورة فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ذكرهم بما يناسب حالهم في يومهم بقوله ق والقرآن (الثاني) هذه السورة وسورة ص يشتركان في افتتاح أولهما بالحرف المعجم والقسم بالقرآن وقوله بل والتعجب ويشتركان في شيء آخر وهو أن أول السورتين وآخرهما متناسبان وذلك لان في ص قال في أولها والقرآن ذي الذكر وقال في آخرها ان هو الا ذكر للعالمين وفي ق قال في أولها والقرآن المجيد وقال في آخرها فذكر بالقرآن من يخاف وعيد فافتتح بما اختتم به (والثالث) وهو أن في تلك السورة صرف العناية الى تقرير الاصل الاول وهو التوحيد بقوله تعالى أجعل الآلهة الها واحدا وقوله تعالى أن امشوا واصبروا على آلهتكم وفي هذه السورة الى تقرير الاصل الآخر وهو الحشر بقوله أئذا متنا وكنا ترابا

يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون أو من الوقائع النازلة على الامم الخالية قبلكم والعذاب المعد لكم فى الآخرة أو من نوازل السماء ونوائب الارض أو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر (لعلكم ترحمون) اما حال من واو اتقوا أو غاية له أى راجين أن ترحموا أو كى ترحموا فتنجوا من ذلك لما عرفتم أن مناط النجاة ليس الا رحمة الله تعالى وجواب اذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) انفهاما بينا أما اذا كان الانذار بالآية الكريمة فبعبارة النص وأما اذا كان بغيرها فبدلالته لانهم حين أعرضوا عن آيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الاولوية كأنه قيل واذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا حسبما اعتادوه وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددى ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية واضافة الآيات الى اسم الرب المضاف الى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤا عليه فى حقها والمراد بها اما الآيات التنزيلية فاتيانها نزولها والمعنى ما ينزل اليهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه الموجبة للاقبال عليها والايمان بها الا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء واما ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات التى من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفا فالمراد باتيانها ما يعم نزول الوحى وظهور تلك الامور لهم والمعنى ما ظهر لهم آية من الآيات التى من جملتها ما ذكر من شؤنه الشاهدة بوحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية الا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدى الى الايمان به تعالى وايثاره على أن يقال الا أعرضوا عنها كما وقع مثله فى قوله تعالى وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر للدلالة على استمرارهم على الاعراض حسب استمرار اتيان الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه

تراباً ذلك رجع بعيد ولما كان افتتاح السورة فى ص فى تقرير المبدأ قال فى آخرها اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين وختمه بحكاية بدء آدم لانه دليل الوحدانية ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر قال فى آخرها يوم تشقق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير * وأما التفسير ففيه مسائل ٣ (المسئلة الاولى) قيل ق اسم جبل محيط بالعالم وقيل معناه حكمة هى قولنا قضى الامر وفى ص صدق الله وقد ذكرنا أن الحروف تنبيهات قدمت على القرآن ليبقى السامع مقبلا على استماع ما يرد عليه فلا يفوته شئ من الكلام الرائق والمعنى الفائق * وذكرنا أيضا أن العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية ظاهرة ووجد فى الجارحية ما عقل معناه ووجد منها ما لم يعقل معناه كأعمال الحج من الرمى والسعى وغيرهما ووجد فى القلبية ما عقل بدليل كعلم التوحيد وامكان الحشر وصفات الله تعالى وصدق الرسل ووجد فيها ما يبعد ها عن كونها معقولة المعنى أمور لا يمكن التصديق والجزم بها لولا السمع كالصراط الممدود الاحد من السيف الارق من الشعر والميزان الذى يوزن به الاعمال فكذلك كان ينبغى أن تكون الاذكار التى هى العبادة اللسانية منها ما يعقل معناه كجميع القرآن الا قليلا منه ومنها ما لا يعقل ولا يفهم كحرف التهجى لكون التلفظ به محض الانقياد للامر لا لما يكون فى الكلام من طيب الحكاية والقصد الى غرض كقولنا ربنا اغفر لنا وارحمنا بل يكون النطق به تعبدا محضا ويؤيد هذا وجه آخر وهو أن هذه الحروف مقسم بها وذلك لان الله تعالى لما أقسم بالتين والزيتون كان تشريفا لهما فاذا أقسم بالحروف التى هى أصل الكلام الشريف الذى هو دليل المعرفة وآلة التعريف كان أولى واذا عرفت هذا فنقول على هذا فيه مباحث (الاول) القسم من الله وقع بأمر واحد كما فى قوله تعالى والعصر وقوله تعالى والنجم وبحرف واحد كما فى قوله تعالى ص ون ووقع بامرين كما فى قوله تعالى والضحى والليل اذا سجى وفى قوله تعالى والسماء والطارق وبحرفين كما فى قوله تعالى طه وطس ويس وحم وبثلاثة أمور كما فى قوله تعالى والصافات فالزاجرات فالتاليات وبثلاثة أحرف كما فى الم وفى طسم والر وبأربعة أمور كما فى والذاريات وفى والسماء ذات البروج وفى والتين وبأربعة أحرف كما فى المص والمر وبخمسة أمور كما فى والطور وفى والمرسلات وفى والنازعات وفى والفجر وبخمسة أحرف كما فى كهيعص وحم عسق ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء الا فى سورة واحدة وهى والشمس وضحاها ولم يقسم بأكثر من خمسة أصول لانه يجمع كلمة الاستثقال ولما استثقل حين ركب لمعنى كان استثقالها حين ركب من غير احاطة العلم بالمعنى أو لا لمعنى كان أشد (البحث الثانى) عند القسم بالاشياء المعهودة ذكر حرف القسم وهى الواو فقال والطور والنجم والشمس وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم فلم يقل وق وحم لان القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسما به فلم يورده فى موضع كونه آلة القسم تسوية بين الحروف * (البحث الثالث) أقسم الله بالاشياء كالتين والطور ولم يقسم بأصولها وهى الجواهر الفردة والماء والتراب وأقسم بالحروف من غير تركيب لان الاشياء عنده بتركيبها على أحسن حالها وأما الحروف ان ركبت بمعنى يقع الحلف بمعناه لا باللفظ كقولنا والسماء والارض وان ركبت لا بمعنى كان المفرد أشرف فاقسم بمفردات الحروف (البحث الرابع) أقسم بالحروف فى أول ثمانية وعشرين سورة وبالاشياء التى عددها عدد الحروف وهى غير والشمس فى أربع عشرة سورة لان القسم بالامور غير الحروف وقع فى أوائل السور وفى أثنائها كقوله تعالى كلا والقمر والليل اذ أدبر وقوله تعالى والليل وما وسق وقوله والليل اذا عسعس والقسم بالحروف لم يوجد ولم يحسن الا فى أوائل السور لان ذكر ما لا يفهم معناه فى أثناء الكلام المنظوم المفهوم يخل بالفهم ولما كان القسم بالاشياء له موضعان والقسم بالحروف له موضع واحد جعل القسم بالاشياء فى أوائل السور على نصف القسم بالحروف فى أوائلها (البحث الخامس) القسم بالحروف وقع فى النصفين جميعا بل فى كل سبع وبالاشياء المعدودة لم يوجد الا فى النصف الاخير بل لم

مراعاة للفواصل والجملة فى حيز النصب على انها حال من مفعول تأتى أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أى ما تأتيهم من آية من آيات (٤٣٤) ربهم فى حال من أحوالهم الاحال اعراضهم عنها أو ما تأتيهم آية منها فى حال من أحوالها الاحال اعراضهم عنها (واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) أى أعطاكم بطريق التفضل والانعام من أنواع الاموال عبر عنها بذلك تحقيقا للحق وترغيبا فى الانفاق على منهاج قوله تعالى وأحسن كما أحسن الله اليك وتنبيها على عظم جنايتهم فى ترك الامتثال بالامر وكذلك من التبعيضية أى اذا قيل لهم بطريق النصيحة انفقوا بعض ما أعطاكم الله تعالى من فضله على المحتاجين فان ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره (قال الذين كفروا) بالصانع عز وجل وهم زنادقة كانوا بمكة (للذين آمنوا) تهكما بهم وبما كانوا عليه من تعليق الامور بمشيئة الله تعالى (أنطعم) حسبما تعظوننا به (من لو يشاء الله أطعمه) أى على زعمكم وعن ابن عباس رضى الله عنهما كان بمكة زنادقة اذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين من أموالهم التى زعموا أنهم جعلوها لله تعالى من الحرث والانعام يوهمون أنه تعالى لما لم يشأ اطعامهم وهو قادر عليه فنحن أحق بذلك وما هو الا لفرط جهالتهم فان الله تعالى يطعم عباده باسباب من جملتها حث الاغنياء على اطعام الفقراء وتوفيقهم لذلك (ان أنتم الا فى ضلال مبين) حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله تعالى وقد جوز أن يكون جوابا لهم من جهته تعالى أو حكاية لجواب المؤمنين لهم (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) أى فيما تعدوننا به من قيام الساعة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما أنهم أيضا كانوا يتلون عليهم آيات الوعيد بقيامها ومعنى القرب فى هذا اما بطريق الاستهزاء واما باعتبار قرب العهد بالوعد (ما ينظرون) جواب من جهته تعالى أى ما ينتظرون (الا صيحة واحدة) هى

يوجد الا فى السبع الاخير غير والصافات وذلك لانا بينا أن القسم بالحروف لم ينفصل عن ذكر القرآن أو الكتاب أو التنزيل بعده الا نادرا فقال تعالى يس والقرآن الحكيم حم تنزيل الكتاب الم ذلك الكتاب ولما كان جميع القرآن معجزة مؤداة بالحروف وجد ذلك عاما فى جميع المواضع ولا كذلك القسم بالاشياء المعدودة وقد ذكرنا شيأ من ذلك فى سورة العنكبوت ولنذكر ما يختص بقاف قيل انه اسم جبل محيط بالارض عليه أطراف السماء وهو ضعيف لوجوه (أحدها) أن القراءة الكثيرة الوقف ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف فى الادراج لان من قال ذلك قال بان الله تعالى أقسم به (وثانيها) انه لو كان كذلك لذكر بحرف القسم كما فى قوله تعالى والطور وذلك لان حرف القسم يحذف حيث يكون المقسم به مستحقا لان يقسم به كقولنا الله لافعلن كذا واستحقاقه لهذا غنى عن الدلالة عليه باللفظ ولا يحسن أن يقال زيد لافعلن (ثالثها) هو أنه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الالف والفاء كما يكتب عين جارية ويكتب أليس الله بكاف عبده وفى جميع المصاحف يكتب حرف ق (رابعها) هو أن الظاهر أن الامر فيه كالامر فى ص ون وحم وهى حروف لا كلمات وكذلك فى ق * فان قيل هو منقول عن ابن عباس نقول المنقول عنه ان ق اسم جبل وأما ان المراد فى هذا الموضع به ذلك فلا وقيل ان معناه قضى الامر وفى ص صدق الله وقيل هو اسم الفاعل من قفا يقفو وص من صاد من المصاداة وهى المعارضة ومعناه هذا قاف جميع الاشياء بالكشف ومعناه حينئذ هو قوله تعالى ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين اذا قلنا ان الكتاب هناك القرآن هذا ما قيل فى ق وأما القراءة فيه فكثيرة وحصرها بيان معناها فنقول ان قلنا هى مبنية على ما بينا فحقها الوقف اذ لا عامل فيها فيشبه بناء الاصوات ويجوز الكسر حذرا من التقاء الساكنين ويجوز الفتح اختيار الاخف فان قيل كيف جاز اختيار الفتح ههنا ولم يجز عند التقاء الساكنين اذا كان أحدهما آخر كلمة والآخر أول أخرى كما فى قوله تعالى لم يكن الذين كفروا ولا تطرد الذين نقول لان هناك انما وجب التحريك وعين الكسر فى الفعل لشبهة تحرك الاعراب لان الفعل محل يرد عليه الرفع والنصب ولا يوجد فيه الجر فاختيرت الكسرة التى لا يخفى على أحد انها ليست بجر لان الفعل لا يجوز فيه الجر ولو فتح لاشتبه بالنصب وأما فى أواخر الاسماء فلا اشتباه لان الاسماء محل ترد عليه الحركات الثلاث فلم يكن يمكن الاحتراز فاختاروا الاخف وأما ان قلنا انها حرف مقسم به فحقها الجر ويجوز النصب بجعله مفعولا باقسم على وجه الاتصال وتقدير الباء كان لم يوجد وان قلنا هى اسم السورة فان قلنا مقسم بها مع ذلك فحقها الفتح لانها لا تنصرف حينئذ ففتح فى موضع الجر كما تقول وابراهيم وأحمد فى القسم بهما وان قلنا انه ليس مقسما بها وقلنا اسم السورة فحقها الرفع ان جعلناها خبرا تقديره هذه ق وان قلنا هو من قفا يقفو فحقه التنوين كقولنا هذا داع وراع وان قلنا اسم جبل فالجر والتنوين ان كان قسما * ولنعد الى التفسير فنقول الوصف قد يكون للتمييز وهو الاكثر كقولنا الكلام القديم ليتميز عن الحادث والرجل الكريم ليمتاز عن اللئيم وقد يكون لمجرد المدح كقولنا الله الكريم اذ ليس فى الوجود اله آخر حتى نميزه عنه بالكريم وفى هذا الموضع يحتمل الوجهين والظاهر أنه لمجرد المدح وأما التمييز فبأن نجعل القرآن اسما للمقروء ويدل عليه قوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال والمجيد العظيم وقيل المجيد هو كثير الكرم وعلى الوجهين القرآن مجيد أما على قولنا المجيد هو العظيم فلأن القرآن عظيم الفائدة ولانه ذكر الله العظيم وذكر العظيم عظيم ولانه لم يقدر عليه أحد من الخلق وهو آية العظمة يقال ملك عظيم اذا لم يكن يغلب ويدل عليه قوله تعالى ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم أى الذى لا يقدر على مثله أحد ليكون معجزة دالة على نبوتك وقوله تعالى بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ أى محفوظ من أن يطلع عليه أحد الا باطلاعه تعالى فلا يبدل ولا يغير ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو غير مقدور عليه فهو عظيم وأما على قولنا المجيد هو كثير الكرم فالقرآن كريم كل من طلب منه مقصوده وجده وأنه مغنى كل من لاذ به واغناء المحتاج

غاية

غاية الكرم ويدل عليه هو ان المجيد مقرون بالحميد فى قولنا انك حميد مجيد فالحميد هو المشكور والشكر على
الانعام والمنعم كريم فالمجيد هو الكريم البالغ فى الكرم وفيه مباحث (الاول) القرآن مقسم به فالمقسم عليه
ماذا نقول فيه وجوه وضبطها بان نقول ذلك اما أن يفهم بقرينة حالية أو قرينة مقالية والمقالية اما أن
تكون متقدمة على المقسم به أو متأخرة فان قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متقدمة فلا متقدم هناك
لفظا الا ق فيكون التقدير هذا ق والقرآن المجيد أو ق أنزلها الله تعالى والقرآن كما يقول هذا حاتم
والله أى هو المشهور بالسخاء أو يقول الهلال رأيته والله وان قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متأخرة
فنقول ذلك أمران أحدهما المنذر والثانى الرجع فيكون التقدير والقرآن المجيد انك المنذر أو والقرآن
المجيد ان الرجع لكائن لان الامرين ورد القسم عليهما ظاهرا أما الاول فيدل عليه قوله تعالى يس
والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين الى ان قال لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم وأما الثانى فدل عليه قوله تعالى
والطور وكتاب مسطور الى ان قال ان عذاب ربك لواقع وهذا الوجه يظهر غاية الظهور على قول من قال ق
اسم جبل فان القسم يكون بالجبل والقرآن وهناك القسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن
* فان قيل أى الوجهين منهما أظهر عندك قلت الاول لان المنذر أقرب من الرجع ولان الحروف
رأيناها مع القرآن والمقسم كونه مرسلا ومنذرا وما رأينا الحروف ذكرت وبعدها الحشر واعتبر ذلك فى
سور منها قوله تعالى الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك
لتنذر ولان القرآن معجزة دالة على كون محمد رسول الله فالقسم به عليه يكون اشارة الى الدليل على
طريقة القسم وليس هو بنفسه دليلا على الحشر بل فيه أمارات مفيدة للجزم بالحشر بعد معرفة صدق
الرسول وأما ان قلنا هو مفهوم بقرينة حالية فهو كون محمد صلى الله عليه وسلم على الحق والكلام صفة
الصدق فان الكفار كانوا ينكرون ذلك والمختار ما ذكرناه (والثانى) بل عجبوا يقتضى ان يكون هناك أمر
مضرب عنه فما ذلك نقول قال الواحدى ووافقه الزمخشرى انه تقدير قوله ما الامر كما يقولون وزيده
وضوحا فنقول على ما اخترناه فان التقدير والله أعلم ق والقرآن المجيد انك لتنذر فكأنه قال بعده وانهم
شكوا فيه فأضرب عنه وقال (بل عجبوا ان جاءهم منذر) يعنى لم يقتنعوا بالشك فى صدق الامر وطرحه
بالترك وبعد الامكان بل جزموا بخلافه حتى جعلوا ذلك من الامور العجيبة فان قيل فما الحكمة فى هذا
الاختصار العظيم فى موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه وأتى بأمر لا يفهم الا بعد الفكر
العظيم ولا يفهم مع الفكر الا بالتوفيق العزيز فنقول انما حذف المقسم عليه لان الترك فى بعض المواضع
يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر وذلك لان من ذكر الملك العظيم فى مجلس وأثنى عليه يكون قد عظمه
فاذا قال له غيره هو لا يذكر فى هذا المجلس يكون بالارشاد الى ترك الذكر دال على عظمته فوق ما يستفيد
صاحبه بذكره فالله تعالى يقول لبيان رسالتك أظهر من أن يذكر وأما حذف المضرب عنه فلان
المضرب عنه اذا ذكر وأضرب عنه بأمر آخر انما يحسن اذا كان بين المذكورين تفاوت ما فاذا عظم
التفاوت لا يحسن ذكرهما مع الاضراب مثاله يحسن أن يقال الوزير يعظم فلانا بل الملك يعظمه ولا
يحسن ان يقال البواب يعظم فلانا بل الملك يعظمه لكون البون بينهما بعيدا اذ الاضراب للتدرج فاذا
ترك المتكلم المضرب عنه صريحا وأتى بحرف الاضراب استفيد منه أمران أحدهما انه يشير الى أمر
آخر قبله وثانيهما أنه يجعل الثانى تفاوتا عظيما مثل ما يكون وهما لا يذكر وههنا كذلك لان الشك بعد
قيام البرهان بعيد لكن القطع بخلافه فى غاية ما يكون من البعد (المبحث الثالث) أن مع الفعل يكون
عنابة ذكر المصدر تقول أمرت بأن أقوم وأمرت بالقيام وتقول ما كان جوابه الا أن قال وما كان جوابه
الا قوله كذا وكذا واذا كان كذلك فلم ينزل عن الاتيان بالمصدر حيث جاز أن يقال أمرت أن أقوم من غير
حرف الالصاق ولا يجوز أن يقال أمرت القيام بل لابد من الباء ولذلك قالوا أى عجبوا من مجيئه نقول أن

النفخة الاولى (تأخذهم) مفاجأة (وهم يخصمون) أى يتخاصمون فى متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شئ من مخايلها كقوله تعالى فأخذتهم
الصاعقة بغتة وهم لا يشعرون فلا يغتروا بعدم ظهور علائمها ولا يزعموا أنها لا تأتيهم وأصل (٤٢٥) يخصمون يختصمون فسكنت التاء وأدغمت
فى الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء
الساكنين وقرئ بكسر الياء
للاتباع وبفتح الخاء على القاء حركة
التاء عليه وقرئ على الاختلاس
وبالاسكان على تجويز الجمع بين
الساكنين اذا كان الثانى مدغما
وان لم يكن الاول حرف مد وقرئ
يخصمون من خصمه اذا جادله
(فلا يستطيعون توصية) فى شئ
من أمورهم ان كانوا فيما بين
أهليهم (ولا الى أهلهم يرجعون)
ان كانوا فى خارج أبوابهم بل تبغتهم
الصيحة فيموتون حيثما كانوا (ونفخ
فى الصور) هى النفخة الثانية بينها
وبين الاولى أربعون سنة أى
ينفخ فيه وصيغة الماضى للدلالة
على تحقق الوقوع (فاذا هم من
الاجداث) أى القبور جمع جدث
وقرئ بالفاء (الى ربهم) مالك أمرهم
على الاطلاق (ينسلون) يسرعون
بطريق الاجبار دون الاختيار لقوله
تعالى لدينا محضرون وقرئ بضم
السين (قالوا) أى فى ابتداء بعثهم
من القبور (ياويلنا) احضر فهذا
أوانك وقرئ ياويلتنا (من بعثنا من
مرقدنا) وقرئ من أهبنا من هب
من نومه اذا انتبه وقرئ من هبنا
بمعنى أهبنا وقيل أصله هب بنا
فحذف الجار وأوصل الفعل الى
الضمير قيل فيه ترشيح ورمز واشعار
بانهم لاختلاط عقولهم يظنون
أنهم كانوا نياما وعن مجاهد ان
للكفار هجعة يجدون فيها طعم
النوم فاذا صيح باهل القبور يقولون
ذلك وعن ابن عباس وأبى بن كعب
وقتادة رحمهم الله تعالى ان الله
تعالى يرفع عنهم العذاب بين
النفختين فيرقدون فاذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا من أهوال القيامة ما شاهدوا دعوا بالويل

وقالوا ذلك وقيل اذا عاينوا جهنم وما فيها من أنواع العذاب يصير عذاب القبر فى جنبها مثل النوم فيقولون ذلك وقرئ من بعثنا ومن هبنا من الجارة

جاءهم وان كان في المعنى فانما مقام المصدر لكنه في الصورة فعل وحرف وحروف التعدية كلها حروف جارة والجار لا يدخل على الفعل فكان الواجب أن لا يدخل فلا أقل من أن يجوز عدم الدخول فجاز أن يقال عجبوا أن جاءهم ولا يجوز عجبوا مجيئهم لعدم المانع من ادخال الحرف عليه ۞ وقوله تعالى (منهم) يصلح أن يكون مذكورا كالمقرر لتعجبهم ويصلح أن يكون مذكورا لابطال تعجبهم أما التقرير فلانهم كانوا يقولون أبشرا منا واحدا نتبعه وقالوا ما أنتم الا بشر مثلنا اشارة الى أنه كيف يجوز اختصاصكم بهذا المنزلة الرفيعة مع اشتراكنا في الحقيقة واللوازم وأما الابطال فلانه اذا كان واحدا منهم ويرى بين أظهرهم وظهر عليه ما عجز عنه كلهم ومن بعدهم كان يجب عليهم أن يقولوا هذا ليس من عنده ولا من عند أحد من جنسنا فهو من عند الله بخلاف ما لو جاءهم واحد من خلاف جنسهم وأتى بما يعجزون عنه فانهم كانوا يقولون نحن لا نقدر لان لكل نوع خاصية فان خاصية النعامة بلع النار والطيور الطير في الهواء وابن آدم لا يقدر عليه فان قيل الابطال جائز لان قولهم كان باطلا ولكن تقرير الباطل كيف يجوز نقول المبين لبطلان الكلام يجب أن يورده على أبلغ ما يمكن ويذكر فيه كل ما يتوهم انه دليل عليه ثم يبطله فلذلك قال عجبتم بسبب انه منكم وهو في الحقيقة سبب لهذا التعجب فان قيل النبي صلى الله عليه وسلم كان بشيرا ونذيرا والله تعالى في جميع المواضع قدم كونه بشيرا على كونه نذيرا فلم لم يذكر عجبوا أن جاءهم بشير منهم نقول هو لما لم يتعين للبشارة موضعا كان في حقهم منذرا لا غير ۞ ثم قال تعالى (فقال الكافرون هذا شئ عجيب) قال الزمخشري هذا تعجب آخر من أمر آخر وهو الحشر الذي أشار اليه بقوله أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد فعجبوا من كونه منذرا ومن وقوع الحشر ويدل عليه النظر في أول سورة ص حيث قال فيه وعجبوا أن جاءهم منذر وقال أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا الشئ عجاب ذكر تعجبهم من أمرين والظاهر أن قولهم هذا شئ عجيب اشارة الى مجئ المنذر لا الى الحشر ويدل عليه وجوه (الاول) هو أن هناك ذكر ان هذا الشئ عجاب بعد الاستفهام الانكاري فقال أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا الشئ عجاب وقال ههنا هذا شئ عجيب ولم يكن ما يقع الاشارة اليه الا مجئ المنذر * ثم قالوا أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد (الثاني) ههنا وجد بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدي معنى التعجب وهو قولهم ذلك رجع بعيد فانه استبعاد وهو كالتعجب فلو كان التعجب أيضا عائدا اليه لكان كالتكرار فان قيل التكرار الصريح يلزم من جعل قولك هذا شئ عجيب عائدا الى مجئ المنذر فان تعجبهم منه علم من قوله عجبوا أن جاءهم فقوله هذا شئ عجيب يكون تكرارا نقول ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير وذلك لانه لما قال بل عجبوا بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الانسان مما لا يكون عجيبا كما قال تعالى أتعجبين من أمر الله ويقال في العرف لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب فكأنهم لما عجبوا قيل لهم لا معنى لتعجبكم فقالوا هذا شئ عجيب فكيف لا نعجب منه ويدل عليه أنه تعالى قال ههنا فقال الكافرون بحرف الفاء وقال في ص وقال الكافرون هذا ساحر كذاب لان قولهم ساحر كذاب كان تعنتا غير مرتب على ما تقدم وهذا شئ عجيب أمر مرتب على ما تقدم أي عجبوا وأنكروا عليه ذلك فقالوا هذا شئ عجيب فكيف لا نعجب منه ويدل عليه أيضا قوله تعالى ذلك رجع بعيد بلفظ الاشارة الى البعد وقوله هذا اشارة الى الحاضر القريب فينبغي أن يكون المشار اليه بذلك غير المشار اليه بهذا وذلك لا يصح الا على قولنا ۞ ثم قال تعالى (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) فانهم لما أظهروا العجب من رسالته أظهروا استبعاد كلامه وهذا كما قال تعالى عنهم قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى * وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله أئذا متنا وكنا ترابا انكار منهم بقول أو بمفهوم دل عليه قوله تعالى جاءهم منذر لان الانذار لما لم يكن الا بالعذاب المقيم والعقاب الاليم كان فيه الاشارة الى الحشر فقالوا أئذا متنا وكنا ترابا (المسئلة الثانية) ذلك اشارة الى ما قاله وهو الانذار وقوله هذا شئ عجيب اشارة

والمصدر والمرقد اما مصدر أي من رقادنا أو اسم مكان أريد به الجنس فينتظم مراقد الكل (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) جملة من مبتدا وخبر وما موصولة محذوفة العائد أو مصدرية وهو جواب من قبل الملائكة أو المؤمنين عدل به عن سنن سؤالهم تذكيرا لكفرهم وتقريعا لهم عليه وتنبيها على أن الذي يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو دون الباعث كأنهم قالوا بعثكم الرحمن الذي وعدكم ذلك في كتبه وأرسل اليكم الرسل فصدقوكم فيه وليس الامر كما تتوهمونه حتى تسألوا عن الباعث وقيل هو من كلام الكافرين حيث يتذكرون ما سمعوه من الرسل عليهم الصلاة والسلام فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضا وقيل هذا صفة لمرقدنا وما وعد الخ خبر مبتدا محذوف أو مبتدا خبره محذوف أي ما وعد الرحمن وصدق المرسلون حق (ان كانت) أي ما كانت النفخة التي حكيت آنفا (الا صيحة واحدة) حصلت من نفخ اسرافيل عليه السلام في الصور (فاذا هم جميع) أي مجموع (لدينا محضرون) من غير لبث ما طرفة عين وفيه من تهوين أمر البعث والحشر والايذان باستغنائهما عن الاسباب ما لا يخفى (فاليوم لا تظلم نفس) من النفوس برة كانت أو فاجرة (شيأ) من الظلم (ولا تجزون الا ما كنتم تعملون) أي الا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الكفر والمعاصي على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كأنهما شئ واحد أو الا بما كنتم تعملونه أي بمقابلته أو بسببه وتعميم الخطاب للمؤمنين يرده أنه تعالى يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافا مضاعفة وهذه حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقا للحق وتقريعا لهم وقوله تعالى (ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) من جملة ما سيقال لهم الى يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فان الاخبار بحسن حال أعدائهم اثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة على مساءة وفي هذه الحكاية مزجرة

الى المجىء على ماقلنا فلما اختلفت الصفتان نقول المجىء والجائى كل واحد حاضر وأما الانذار وان كان حاضرا لكن لكون المنذر به لما كان غير حاضر قالوا فيه ذلك والرجع مصدر رجع يرجع اذا كان متعديا والرجوع مصدره اذا كان لازما وكذلك الرجعى مصدر عند لزومه والرجع أيضا يصح مصدر اللازم فيحتمل أن يكون المراد بقوله ذلك رجع بعيد أى رجوع بعيد ويحتمل أن يكون المراد الرجع المتعدى ويدل على الاول قوله تعالى ان الى ربك الرجعى وعلى الثانى قوله تعالى أئنا لمردودون أى مرجعون فانه من الرجع المتعدى فان قلنا هو من المتعدى فقد أنكروا كونه مقدورا فى نفسه ۞ ثم ان الله تعالى قال ﴿قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ اشارة الى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه وذلك لان الله تعالى عالم بجميع أجزاء كل واحد من الموتى لايشتبه عليه جزء أحد على الآخر وقادر على الجمع والتأليف فليس الرجوع منه ببعيد وهذا كقوله تعالى وهو الخلاق العليم حيث جعل للعلم مدخلا فى الاعادة وقوله قد علمنا ما تنقص الارض يعنى لاتخفى علينا أجزاؤهم بسبب تشتتها فى تخوم الارضين وهذا جواب لما كانوا يقولون أئذا ضللنا فى الارض يعنى ان ذلك اشارة الى أنه تعالى كما يعلم اجزاءهم يعلم أعمالهم من ظلمهم وتعديهم عما كانوا يقولون وعما كانوا يعملون ويحتمل أن يقال معنى قوله تعالى وعندنا كتاب حفيظ هو أنه عالم بتفاصيل الاشياء وذلك لان العلم اجمالى وتفصيلى فالاجمالى كما يكون عند الانسان الذى يحفظ كتابا ويفهمه ويعلم أنه اذا سئل عن أية مسئلة تكون فى الكتاب يحضر عنده الجواب ولكن ذلك لايكون نصب عينيه حرفا بحرف ولا يخطر بباله فى حالة بابا بابا أو فصلا فصلا ولكن عند العرض على الذهن لايحتاج الى تجديد فكر وتجديد نظر والتفصيلى مثل الذى يعبر عن الاشياء والكتاب الذى كتب فيه تلك المسائل وهذا لايوجد عند الانسان الا فى مسئلة ومسئلتين أما بالنسبة الى كتاب فلا يقال وعندنا كتاب حفيظ يعنى العلم عندى كما يكون فى الكتاب أعلم جزأ جزأ وشيأ شيأ والحفيظ يحتمل أن يكون بمعنى المحفوظ أى محفوظ من التغيير والتبديل ويحتمل أن يكون بمعنى الحافظ أى حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لاينسى شيأ منها والثانى هو الاصح لوجهين أحدهما أن الحفيظ بمعنى الحافظ وارد فى القرآن قال تعالى وما أنت عليهم بحفيظ وقال تعالى والله حفيظ عليم ولان الكتاب على ماذكرنا للتمثيل فهو يحفظ الاشياء وهو مستغن عن أن يحفظ ۞ وقوله تعالى ﴿بل كذبوا بالحق﴾ رد عليهم فان قيل ما المضروب عنه نقول فيه وجهان (أحدهما) تقديره لم يكذب المنذر بل كذبوا هم وتقريره هو أنه تعالى لما قال عنهم انهم قالوا هذا شئ عجيب كان فى معنى قولهم ان المنذر كاذب فقال تعالى لم يكذب المنذر بل هم كذبوا فان قيل ما الحق نقول يحتمل وجوها (الاول) البرهان القائم على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (الثانى) الفرقان المنزل وهو قريب من الاول لانه برهان (الثالث) النبوة الثابتة بالمعجزة القاهرة فانها حق (الرابع) الحشر الذى لابد من وقوعه فهو حق فان قيل بين لنا معنى الباء فى قوله تعالى بالحق وأية حاجة اليها يعنى أن التكذيب متعد بنفسه فهل هى للتعدية الى مفعول ثان أو هى زائدة كما فى قوله تعالى فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون نقول فيه بحث وتحقيق وهى فى هذا الموضع لاظهار معنى التعدية وذلك لان التكذيب هو النسبة الى الكذب لكن النسبة تارة توجد فى القائل وأخرى فى القول تقول كذبنى فلان وكنت صادقا وتقول كذب فلان قول فلان ويقال كذبه أى جعله كاذبا وتقول قلت لفلان زيد يجيء غدا فتأخر عمدا حتى كذبنى وكذب قولى والتكذيب فى القائل يستعمل بالباء وبدونها قال تعالى كذبت ثمود المرسلين وقال تعالى كذبت ثمود بالنذر وفى القول كذلك غير أن الاستعمال فى القائل بدون الباء أكثر قال تعالى فكذبوه وقال وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك الى غير ذلك وفى القول الاستعمال بالباء أكثر قال الله تعالى فكذبوا بآياتنا كلها وقال كذبوا بالحق وقال تعالى وكذب بالصدق اذ جاءه والتحقيق فيه هو أن المفعول المطلق هو المصدر لانه هو الذى يصدر من الفاعل فان من ضرب لم يصدر منه غير الضرب غير أن

لهؤلاء الكفرة عماهم عليه ومدعاة الى الاقتداء بسيرة المؤمنين والشغل هو الشأن الذى يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤنه لكونه أهم عنده من الكل اما لايجابه كمال المسرة والبهجة أو كمال المساءة والغم والمراد ههنا هو الاول ومافيه من التنكير والابهام للايذان بارتفاعه عن رتبة البيان والمراد به ماهم فيه من فنون الملاذ التى تلهيهم عما عداهم بالكلية واما ان المراد به افتضاض الابكار أو السماع وضرب الاوتار أو التزاور أو ضيافة الله تعالى أو شغلهم عما فيه أهل النار على الاطلاق أو شغلهم عن أهاليهم فى النار لايهمهم أمرهم ولايبالون بهم كيلا يدخل عليهم تنغيص فى نعيمهم كما روى كل واحد منها عن واحد من أكابر السلف فليس مرادهم بذلك حصر شغلهم فيما ذكروه فقط بل بيان أنه من جملة أشغالهم وتخصيص كل منهم كلا من تلك الامور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان اياه وهو مع جاره خبر لان وفاكهون خبر آخر لها أى انهم مستقرون فى شغل وأى شغل فى شغل عظيم الشأن متنعمون بنعيم مقيم فائزون بملك كبير والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل المترقب المتوقع منزلة الواقع للايذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك وقرئ فى شغل بسكون الغين وفى شغل بفتحتين وبفتحة وسكون والكل لغات وقرئ فكهون للمبالغة وفكهون بضم الكاف وهى لغة كنطس وفاكهين وفكهين على الحال من المستكن فى الظرف وقوله تعالى ﴿هم وأزواجهم فى ظلال على الارائك متكؤن﴾ استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلهما بما يزيدهم بهجة وسرورا من شركة أزواجهم لهم فيما هم فيه من الشغل والفكاهة على أن هم مبتدأ وأزواجهم عطف عليه ومتكؤن خبر والجاران صلتان له قدمتا عليه لمراعاة الفواصل أو هو والجاران بما تعلقا به من الاستقرار أخبار مترتبة وقيل الخبر هو الظرف الاول والثانى مستأنف على أنه متعلق بمتكؤن وهو خبر لمبتدأ محذوف وقيل

له محلا يقع فيه فيسمى مضروبا ثم اذا كان ظاهرا لكونه محلا للفعل يستغنى بظهوره عن الحرف فيعدى من غير حرف يقال ضربت عمرا وشربت خمر اللعلم بأن الضرب لا بد له من محل يقوم به والشرب لا يستغنى عن مشروب يتحقق فيه واذا قلت مررت يحتاج الى الحرف ليظهر معنى التعدية لعدم ظهوره فى نفسه لان من قال مر السحاب يفهم منه مروره ولا يفهم منه من مر به ثم ان الفعل قد يكون فى الظهور دون الضرب والشرب وفى الخفاء دون المرور فيجوز الاتيان فيه بدون الحرف لظهوره الذى فوق ظهور المرور ومع الحرف لكون الظهور دون ظهور الضرب ولهذا لا يجوز أن تقول ضربت بعمرو الا اذا جعلته آلة الضرب أما اذا ضربته بسوط أو غيره فلا يجوز فيه زيادة الباء ولا يجوز مررت زيدا الا مع الاشتراك وتقول مسحته ومسحت به وشكرته وشكرت له لان المسح امرار اليد بالشئ فصار كالمرور والشكر فعل جميل غير أنه يقع بحسن فالاصل فى الشكر الفعل الجميل وكونه واقعا بغيره كالبيع بخلاف الضرب فانه امساس جسم بجسم بعنف فالمضروب داخل فى مفهوم الضرب أولا والمشكور داخل فى مفهوم الشكر ثانيا اذا عرفت هذا فالتكذيب فى القائل ظاهر لانه هو الذى يصدق أو يكذب وفى القول غير ظاهر فكان الاستعمال فيه بالباء أكثر والباء فيه لظهور معنى التعدية ۞ وقوله (لما جاءهم) فى الجائى وجهان (أحدهما) انه هو المكذب تقديره كذبوا بالحق لما جاءهم الحق أى لم يؤخروه الى الفكر والتدبر (ثانيهما) الجائى ههنا هو الجائى فى قوله تعالى بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم تقديره كذبوا بالحق لما جاءهم المنذر والاول لا يصح على قولنا الحق هو الرجع لانهم لا يكذبون به وقت المجئ بل يقولون هذا ما وعد الرحمن ۞ وقوله (فهم فى أمر مريج) أى مختلف مختلط قال الزجاج وغيره لانهم تارة يقولون ساحر وأخرى شاعر وطورا ينسبونه الى الكهانة وأخرى الى الجنون والاصح أن يقال هذا بيان الاختلاف المذكور فى الآيات وذلك لان قوله تعالى بل عجبوا يدل على أمر سابق أضرب عنه وقد ذكرنا أنه الشك وتقديره والقرآن المجيد انك لمنذر وانهم شكوا فيك بل عجبوا بل كذبوا وهذه مراتب ثلاث الاولى الشك وفوقها التعجب لان الشاك يكون الامران عنده سيين والمتعجب يترجح عنده اعتقاد عدم وقوع العجيب لكنه لا يقطع به والمكذب الذى يجزم بخلاف ذلك فكأنهم كانوا شاكين وصاروا ظانين وصاروا جازمين فقال فهم فى أمر مريج ويدل عليه الفاء فى قوله فهم لانه حينئذ يصير كونهم فى أمر مريج مرتبا على ما تقدم وفيما ذكروه لا يكون مرتبا فان قيل المريج المختلط وهذه أمور مرتبة متميزة على مقتضى العقل لان الشاك ينتهى الى درجة الظن والظان ينتهى الى درجة القطع وعند القطع لا يبقى الظن وعند الظن لا يبقى الشك وأما ما ذكروه ففيه يحصل الاختلاط لانهم لم يكن لهم فى ذلك ترتيب بل تارة كانوا يقولون كاهن وأخرى مجنون ثم كانوا يعودون الى نسبته الى الكهانة بعد نسبته الى الجنون وكذا الى الشعر بعد السحر والى السحر بعد الشعر فهذا هو المريج نقول كان الواجب أن ينتقلوا من الشك الى الظن بصدقه لعلمهم بأمانته واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم ومن الظن الى القطع بصدقه لظهور المعجزات القاهرة على يديه ولسانه فلما غيروا الترتيب حصل عليه المرج ووقع الدرك مع المرج وأما ما ذكروه فاللائق به تفسير قوله تعالى انكم لفى قول مختلف لان ما كان يصدر منهم فى حقه كان قولا مختلفا وأما الشك والظن والجزم فامور مختلفة وفيه لطيفة وهى أن اطلاق لفظ المريج على ظنهم وقطعهم ينبئ عن عدم كون ذلك الجزم صحيحا لان الجزم الصحيح لا يتغير وكان ذلك منهم واجب التغير فكان أمرهم مضطربا بخلاف المؤمن الموفق فانه لا يقع فى اعتقاده تردد ولا يوجد فى معتقده تعدد ۞ ثم قال تعالى (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) اشارة الى الدليل الذى يدفع قولهم ذلك رجع بعيد وهذا كما فى قوله تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وقوله تعالى أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على

على أنه خبر مقدم ومتكؤن مبتدأ مؤخر وقرئ متكين بلا همز نصبا على الحال من المستكن فى الظرفين أو أحدهما وقيل هم تأكيد للمستكن فى خبران ومتكؤن خبر آخر لها وعلى الارائك متعلق به وكذا فى ظلال أو هذا بعضهم هو حال من المعطوفين والظلال جمع ظل كشعاب جمع شعب أو جمع ظلة كقباب جمع قبة ويؤيده قراءة فى ظلل والارائك جمع أريكة وهى السرير المزين بالثياب والستور قال ثعلب لا تكون أريكة حتى تكون عليها حجلة وقوله تعالى (لهم فيها فاكهة) الخ بيان لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب ويتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان ما لهم فيها من مجالس الانس ومحافل القدس تكميلا لبيان كيفية ما هم فيه من الشغل والبهجة أى لهم فيها فاكهة كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه وما فى قوله تعالى (ولهم ما يدعون) موصولة أو موصوفة عبر بها عن مدعو عظيم الشأن معين أو مبهم ايذانا بانه الحقيق بالدعاء دون ما عداه ثم صرح به روما لزيادة التقرير بالتحقيق بعد التشويق كما ستعرفه أوهى باقية على عمومها قصد بها التعميم بعد تخصيص بعض المواد المعتادة بالذكر وأيا ما كان فهو مبتدأ ولهم خبره والجملة معطوفة على الجملة السابقة وعدم الاكتفاء بعطف ما يدعون على فاكهة لئلا يتوهم كون ما عبارة عن توابع الفاكهة وتتماتها والمعنى ولهم ما يدعون به لانفسهم من مدعو عظيم الشأن أو كل ما يدعون به كائنا ما كان من أسباب البهجة وموجبات السرور وأيا ما كان ففيه دلالة على أنهم فى أقصى غاية البهجة والغبطة ويدعون يفتعلون من الدعاء كما أشير اليه مثل اشتوى واجتمل اذا شوى وجمل لنفسه وقيل بمعنى يتداعون كالارتماء بمعنى الترامى وقيل بمعنى يتمنون من قولهم ادع على ما شئت بمعنى تمنه على وقال الزجاج ان هو من الدعاء أى ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم فيكون الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحلة ويعضده القراءة بالتخفيف

أن يحيي الموتى بلى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) همزة الاستفهام تارة تدخل على الكلام ولا واو فيه وتارة تدخل عليه وبعدها واو فهل بين الحالتين فرق نقول فرق أدق مما على الفرق وهو أن يقول القائل أزيد فى الدار بعد وقد طلعت الشمس يذكره للانكار فاذا قال أوزيد فى الدار بعد وقد طلعت الشمس يشير بالواو اشارة خفية الى أن قبح فعله صار بمنزلة فعلين قبيحين كانه يقول بعدما سمع ممن صدر عن زيد هو فى الدار أغفل وهو فى الدار بعد لان الواو تنبئ عن ضيف أمر مغاير لما بعدها وان لم يكن هناك سابق لكنه يومئ بالواو اليه زيادة فى الانكار فان قيل قال فى موضع أولم ينظروا وقال ههنا أفلم ينظروا بالفاء فما الفرق نقول ههنا سبق منهم انكار الرجع فقال بحرف التعقيب بمخالفه فان قيل فنى يس سبق ذلك بقوله قال من يحيي العظام نقول هناك الاستدلال بالسموات لما لم يعقب الانكار على عقيب الانكار استدل بدليل آخر وهو قوله تعالى قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ثم ذكر الدليل الآخر وههنا الدليل كان عقيب الانكار فذكر بالفاء وأما قوله ههنا بلفظ النظر وفى الاحقاف بلفظ الرؤية ففيه لطيفة وهى أنهم ههنا لما استبعدوا أمر الرجع بقولهم ذلك رجع بعيد استبعد استبعادهم وقال أفلم ينظروا الى السماء لان النظر دون الرؤية فكان النظر كان فى حصول العلم بانكار الرجع ولا حاجة الى الرؤية ليقع الاستبعاد فى مقابلة الاستبعاد وهناك لم يوجد منهم انكار مذكور فأرشدهم اليه بالرؤية التى هى أتم من النظر ثم انه تعالى كمل ذلك وجمله بقوله الى السماء ولم يقل فى السماء لان النظر فى الشئ ينبئ عن التأمل والمبالغة والنظر الى الشئ لا ينبئ عنه لان الى للغاية فينتهى النظر عنده فى الدخول فى معنى الظرف فاذا انتهى النظر اليه ينبغى أن ينفذ فيه حتى يصح معنى الظرفية وقوله تعالى فوقهم تأكيد آخر أى وهو ظاهر فوق رؤسهم غير غائب عنهم وقوله تعالى كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج اشارة الى وجه الدلالة وأولوية الوقوع وهى للرجع أما وجه الدلالة فان الانسان له أساس هى العظام التى هى كالدعامة وقوى وأنوار كالسمع والبصر فبناء السماء أرفع من أساس البدن وزينة السماء أكمل من زينة الانسان بلحم وشحم وأما الاولوية فان السماء مالها من فروج فتأليفها أشد وللانسان فروج ومسام ولا شك أن التأليف الاشد كالنسج الاصفق والتأليف الاضعف كالنسج الاسخف والاول أصعب عند الناس وأعجب فكيف يستبعدون الادون مع علمهم بوجود الاعلى من الله تعالى قالت الفلاسفة الآية دالة على أن السماء لا تقبل الخرق وكذلك قالوا فى قوله هل ترى من فطور وقوله سبعا شدادا وتعسفوا فيه لان قوله تعالى مالها من فروج صريح فى عدم ذلك والاخبار عن عدم الشئ لا يكون اخبارا عن عدم امكانه فان من قال ماله مال لا يدل على نفى امكانه ثم انه تعالى بين خلاف قولهم بقوله واذا السماء فرجت وقال اذا السماء انفطرت وقال فهى يومئذ واهية فى مقابلة قوله سبعا شدادا وقال فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان الى غير ذلك والكل فى الرد عليهم صريح وماذكروه فى الدلالة ليس بظاهر بل وليس له دلالة خفية أيضا وأما دليلهم المعقول فاضعف وأسخف من تمسكهم بالمنقول ❁ ثم قال تعالى ﴿ والارض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ اشارة الى دليل آخر ووجه دلالة الارض هو أنهم قالوا الانسان اذا مات وفارقته القوة الغاذية والنامية لا تعود اليه تلك القوى فنقول الارض أشد جمودا وأكثر خمودا والله تعالى ينبت فيها أنواع النبات وينمو ويزيد فكذلك الانسان تعود اليه الحياة وذكر فى الارض ثلاثة أمور كما ذكر فى السماء ثلاثة أمور فى الارض المد والقاء الرواسى والانبات فيها وفى السماء البناء والتزيين وسد الفروج وكل واحد فى مقابلة واحد فالمد فى مقابلة البناء لان المد وضع والبناء رفع والرواسى فى الارض ثابتة والكواكب فى السماء مركوزة مزينة لها والانبات فى الارض شقها كما قال تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا وهو على خلاف سد الفروج واعدامها اذا علمت هذا فى الانسان أشياء موضوعة وأشياء مرفوعة وأشياء ثابتة كالانف والاذن وأشياء متحركة كالمقلة واللسان وأشياء مسدودة الفروج

كما ذكره الكواشى وقوله تعالى (سلام) على التقدير الاول بدل من ما يدعون أو خبر لمبتدا محذوف وقوله تعالى (قولا) مصدر مؤكد لفعل هو صفة لسلام وما بعده من الجار متعلق بمضمر هو صفة له كانه قيل ولهم سلام أو ما يدعون سلام يقال لهم قولا كائنا (من) جهة (رب رحيم) أى يسلم عليهم من جهته تعالى بواسطة الملك أو بدونها مبالغة فى تعظيمهم قال ابن عباس رضى الله عنهما والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وأما على التقدير الثانى فقد قيل انه خبر لما يدعون ولهم لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر على أن الشرف مبتدأ ومتوفر خبره والجار والمجرور لبيان من له ذلك أى ما يدعون سالم لهم خالص لا شوب فيه وقولا حينئذ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى عدة من رب رحيم والاوجه أن ينتصب على الاختصاص وقيل هو مبتدأ محذوف الخبر أى لهم سلام أى تسليم قولا من رب رحيم أو سلامة من الآفات فيكون قولا مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة كما سبق وقيل تقديره سلام عليهم فيكون حكاية لما سيقال لهم من جهته تعالى يومئذ وقيل خبره الفعل المقدر ناصبا لقولا وقيل خبره من رب رحيم وقرئ سلاما بالنصب على الحالية أى لهم مرادهم سالما خالصا وقرئ سلم وهو بمعنى السلام فى المعنيين (وامتازوا اليوم) عطف اما على الجملة السابقة المسوقة لبيان أحوال أهل الجنة لا على أن المقصود عطف فعل الامر بخصوصه حتى يتمحل له مشاكل يصح عطفه عليه بل على أنه عطف قصة سوء حال هؤلاء وكيفية عقابهم على قصة حسن حال أولئك ووصف ثوابهم كما فى قوله تعالى وبشر الذين آمنوا الآية وكان تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما واما على مضمر ينساق اليه حكاية حال أهل الجنة كانه قيل اثر بيان كونهم فى شغل عظيم الشأن وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان فليقروا بذلك عينا وامتازوا عنهم (أيها المجرمون) الى مصيركم وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من

كدور الرأس والاغشية المنسوجة نسجا ضعيفا كالصفاق وأشياء لها فروج وشقوق كالمناخر والصماخ والفم وغيرها فالقادر على الاضداد فى هذا المهاد فى السبع الشداد غير عاجز عن خلق نظيرها فى هذه الاجساد * تفسير الرواسى قد ذكرناه فى سورة لقمان والبهيج الحسن ۞ وقوله تعالى ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ يحتمل أن يكون الامران عائدين الى الامرين المذكورين وهما السماء والارض على ان خلق السماء تبصرة وخلق الارض ذكرى ويدل عليه ان السماء زينتها مستمرة غير مستجدة فى كل عام فهى كالشئ المرئى على مرور الزمان وأما الارض فهى كل سنة تأخذ زخرفها فذكر السماء تبصرة والارض تذكرة ويحتمل أن يكون كل واحد من الامرين موجودا فى كل واحد من الامرين فالسماء تبصرة والارض كذلك والفرق بين التبصرة والتذكرة هو ان فيها آيات مستمرة منصوبة فى مقابلة البصائر وآيات متجددة مذكرة عند التناسى وقوله لكل عبد منيب أى راجع الى التفكر والتذكر والنظر فى الدلائل ۞ ثم قال تعالى ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات﴾ اشارة الى دليل آخر وهو ما بين السماء والارض فيكون الاستدلال بالسماء والارض وما بينهما وذلك انزال السماء من فوق واخراج النبات من تحت وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا الاستدلال قد تقدم بقوله تعالى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج فما الفائدة فى اعادته بقوله فأنبتنا به جنات وحب الحصيد نقول قوله فأنبتنا استدلال بنفس النبات أى الاشجار تنمو وتزيد فكذلك بدن الانسان بعد الموت ينمو ويزيد بأن يرجع الله تعالى اليه قوة النشو والنماء كما يعيدها الى الاشجار بواسطة ماء السماء وحب الحصيد فيه حذف تقديره وحب الزرع الحصيد وهو المحصود أى أنشأنا جنات يقطف ثمارها وأصولها باقية وزرعا يحصد كل سنة ويزرع فى كل عام أو عامين ويحتمل ان يقال التقدير ونبت الحب الحصيد والاول هو المختار وقوله تعالى والنخل باسقات اشارة الى المختلط من جنسين لان الجنات تقطف ثمارها وتثمر من غير زراعة فى كل سنة لكن النخل يؤبر ولولا التأبير لم يثمر فهو جنس مختلط من الزرع والشجر فكأنه تعالى خلق ما يقطف كل سنة ويزرع وخلق ما لا يزرع كل سنة ويقطف مع بقاء أصلها وخلق المركب من جنسين فى الاثمار لان بعض الثمار فاكهة ولا قوت فيه وأكثر الزرع قوت والثمر فاكهة وقوت والباسقات الطوال من النخيل وقوله تعالى باسقات يؤكد كمال القدرة والاختيار وذلك من حيث ان الزرع ان قيل فيه انه يمكن ان يقطف منه ثمرته لضعفه وضعف حجمه فكذلك يحتاج الى اعادته كل سنة والجنات لكبرها وقوتها تبقى وتثمر سنة بعد سنة فيقال أليس النخل الباسقات أكبر وأقوى من الكرم الضعيف والنخل محتاجة كل سنة الى عمل عامل والكرم غير محتاج فالله تعالى هو الذى قدر ذلك لذلك لا للكبر والصغر والطول والقصر ۞ قوله تعالى ﴿لها طلع نضيد﴾ أى منضود بعضها فوق بعض فى أكمامها كما فى سنبلة الزرع وهو عجيب فان الاشجار الطوال أثمارها بارزة متميز بعضها من بعض لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد ۞ ثم قال تعالى ﴿رزقا للعباد﴾ وفيه وجهان (أحدهما) نصب على المصدر لان الانبات رزق فكأنه تعالى قال أنبتناها انباتا للعباد (والثانى) نصب على كونه مفعولا له كأنه قال أنبتناها لرزق العباد وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال فى خلق السماء والارض تبصرة وذكرى وفى الثمار قال رزقا والثمار أيضا فيها تبصرة وفى السماء والارض أيضا منفعة غير التبصرة والتذكرة فما الحكمة فى اختيار الامرين نقول فيه وجوه (أحدها) أن نقول الاستدلال وقع لوجود أمرين أحدهما الاعادة والثانى البقاء بعد الاعادة فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعده الثواب الدائم والعقاب الدائم وأنكروا ذلك فاما الاول فالله القادر على خلق السموات والارض قادر على خلق الخلق بعد الفناء وأما الثانى فلان البقاء فى الدنيا بالرزق والقادر على اخراج الارزاق من النجم والشجر قادر على أن يرزق العبد فى الجنة ويبقى فكان الاول تبصرة وتذكرة بالخلق والثانى تذكرة بالبقاء بالرزق ويدل

النار يكون فيه لا يرى ولا يرى وأما ما قيل من أن المضمر فليمتاز وافيعزل من السداد لما أن المحكى عنهم ليس مصيرهم الى ما ذكر من الحال المرضية حتى ينسى ترتيب الامر المذكور عليه بل انما هو استقرارهم عليها بالفعل وكون ذلك بطريق تنزيل المترقب منزلة الواقع لا يجدى نفعا لان مناط الاضمار انسياق الافهام اليه وانصباب نظم الكلام عليه فبعد ما نزلت تلك الحالة منزلة الواقع بالفعل لما اقتضاه المقام من النكتة البارعة والحكمة الرائعة حسبما بيانه واسقط كونها مترقبة عن درجة الاعتبار بالكلية يكون التصدى لاضمار شئ يتعلق به اخراجا للنظم الكريم عن الجزالة بالمرة (ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان) من جملة ما يقال لهم بطريق التقريع والالزام والتبكيت بين الامر بالامتياز وبين الامر بدخول جهنم بقوله تعالى اصلوها اليوم الخ والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة والمراد ههنا ما كلفهم الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام من الاوامر والنواهى التى من جملتها قوله تعالى يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة الآية وقوله تعالى ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين وغيرهما من الآيات الكريمة الواردة فى هذا المعنى وقيل هو الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهور بنى آدم وأشهدوا على أنفسهم وقيل هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته تعالى الزاجرة عن عبادة غيره والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به اليهم يزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادته عز وجل وقرئ اعهد بكسر الهمزة واعهد بكسر الهاء واحهد بالحاء مكان العين واحد بالادغام وهى لغة بنى تميم (انه لكم عدو مبين) أى ظاهر العداوة وهو تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهى عنه وقيل تعليل للنهى (وان اعبدونى) عطف على أن لا تعبدوا على أن أن فيهما مفسرة للعهد الذى فيه معنى القول على

على هذا الفصل بينهما بقوله تبصرة وذكرى حيث ذكر ذلك بعد الآيتين ثم بدأ بذكر الماء وانزاله وانباته النبات (ثانيها) ان منفعة الثمار الظاهرة هى الرزق فذكرها ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمراعائدا الى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم حتى انهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا أن يهلكوا ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا لا يضرنا ذلك مع ان الامر بالعكس أولى لان السماء سبب الارزاق بتقدير الله وفيها غير ذلك من المنافع والثمار ان لم تكن كان العيش كما أنزل الله على قوم المن والسلوى وعلى قوم المائدة من السماء فذكر الاظهر للناس فى هذا الموضع (ثالثها) قوله رزقا اشارة الى كونه منعما لكون تكذيبهم فى غاية القبح فانه يكون اشارة بالمنعم وهو أقبح ما يكون (المسئلة الثانية) قال تبصرة وذكرى لكل عبد منيب فقيد العبد بكونه منيبا وجعل خلقها تبصرة لعباده المخلصين وقال رزقا للعباد مطلقا لان الرزق حصل لكل أحد غيران المنيب يأكل ذاكرا شاكرا للانعام وغيره يأكل كما تأكل الانعام فلم يخصص الرزق بقيد (المسئلة الثالثة) ذكر فى هذه الآية أمورا ثلاثة أيضا وهى انبات الجنات والحب والنخل كما ذكر فى السماء والارض فى كل واحدة أمورا ثلاثة وقد ثبت ان الامور الثلاثة فى الآيتين المتقدمتين متناسبة فهل هى كذلك فى هذه الآية نقول قد بينا ان الامور الثلاثة اشارة الى الاجناس الثلاثة وهى التى يبقى أصلها سنين ولا تحتاج الى عمل عامل والتى لا يبقى أصلها وتحتاج كل سنة الى عمل عامل والتى يجتمع فيها الامران وليس شئ من الثمار والزروع خارجا عنها أصلا كما ان أمور الارض منحصرة فى ثلاثة ابتداء وهو المد ووسط وهو الثبات بالجبال الراسية وثالثها هو غاية الكمال وهو الانبات والتزيين بالزخارف ۞ ثم قال تعالى ﴿وأحيينا به بلدة ميتا﴾ عطفا على أنبتنا به وفيه بحثان (الاول) ان قلنا ان الاستدلال بانبات الزرع وانزال الماء كان لامكان البقاء بالرزق فقوله وأحيينا به اشارة الى انه دليل على الاعادة كما أنه دليل على البقاء ويدل عليه قوله تعالى كذلك الخروج فان قيل كيف يصح قولك استدلالا وانزال الماء كان لبيان البقاء مع أنه تعالى قال بعد ذلك وأحيينا به بلدة ميتا ۞ وقال ﴿كذلك الخروج﴾ فيكون الاستدلال على البقاء قبل الاستدلال على الاحياء والاحياء سابق على الابقاء فينبغى أن يبين أولا أنه يحيى الموتى ثم يبين أنه يبقيهم نقول لما كان الاستدلال بالسموات والارض على الاعادة كافيا بعد ذكر دليل الاحياء ذكر دليل الابقاء ثم عاد واستدرك فقال هذا الدليل الدال على الابقاء دال على الاحياء وهو غير محتاج اليه لسبق دليلين قاطعين فبدأ ببيان البقاء وقال وأنبتنا به جنات ثم ثنى باعادة ذكر الاحياء فقال وأحيينا به وان قلنا ان الاستدلال بانزال الماء وانبات الزرع لا لبيان امكان الحشر فقوله وأحيينا به ينبغى أن يكون مغايرا لقوله فأنبتنا به بخلاف ما لو قلنا بالقول الاول لان الاحياء وان كان غير الانبات لكن الاستدلال لما كان به على أمرين متغايرين جاز العطف تقول خرج للتجارة وخرج للزيارة ولا يجوز أن يقال خرج للتجارة وذهب للتجارة الا اذا كان الذهاب غير الخروج فنقول الاحياء غير انبات الرزق لان بانزال الماء من السماء يخضر وجه الارض ويخرج منها أنواع من الازهار ولا يتغذى به ولا يقتات وانما يكون به زينة وجه الارض وهو أعم من الزرع والشجر لانه يوجد فى كل مكان والزرع والثمر لا يوجدان فى كل مكان فكذلك هذا الاحياء فان قيل فكان ينبغى أن يقدم فى الذكر لان اخضرار وجه الارض يكون قبل حصول الزرع والثمر ولانه يوجد فى كل مكان بخلاف الزرع والثمر نقول لما كان انبات الزرع والثمر أكمل نعمة قدمه فى الذكر (الثانى) فى قوله بلدة ميتا نقول جاز اثبات التاء فى الميت وحذفها عند وصف المؤنث بها لان الميت تخفيف للميت والميت فيعل بمعنى فاعل فيجوز فيه اثبات التاء لان التسوية فى الفعيل بمعنى المفعول كقوله ان رحمة الله قريب من المحسنين فان قيل لم سوى بين المذكر والمؤنث فى الفعيل بمعنى المفعول قلنا لان الحاجة الى التمييز بين الفاعل والمفعول أشد من الحاجة الى التمييز بين المفعول المذكر والمفعول المؤنث نظرا الى المعنى ونظرا الى اللفظ فأما المعنى فظاهر وأما اللفظ فلان المخالفة بين الفاعل والمفعول فى الوزن

بالنهى والامر أو مصدرية حذف عنها الجار أى ألم أعهد اليكم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى وتقديم النهى على الامر لما أن حق التخلية التقدم على التحلية كما فى كلمة التوحيد وليتصل به قوله تعالى (هذا صراط مستقيم) فانه اشارة الى عبادته تعالى التى هى عبارة عن التوحيد والاسلام وهو المشار اليه بقوله تعالى هذا صراط على مستقيم والمقصود بقوله تعالى لاقعدن لهم صراطك المستقيم والتنكير للتفخيم واللام فى قوله تعالى (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا) جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان أن جناياتهم ليست بنقض العهد فقط بل به وبعدم الاتعاظ بما شاهدوا من العقوبات النازلة على الامم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان فالخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار مكة خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم والجبل بكسر الجيم والباء وتشديد اللام الخلق وقرئ بضمتين وتشديد وبضمتين وتخفيف وبضمة وسكون وبكسرتين وتخفيف وبكسرة وسكون والكل لغات وقرئ جبلا جمع جبلة كفطر وخلق فى جمع فطرة وخلقة وقرئ جيلا بالياء وهو الصنف من الناس أى وبالله لقد أضل منكم خلقا كثيرا أو صنفا كثيرا عن ذلك الصراط المستقيم الذى أمرتكم بالثبات عليه فاصابهم لاجل ذلك ما أصابهم من العقوبات الهائلة التى ملأ الآفاق أخبارها وبقى مدى الدهر آثارها والفاء فى قوله تعالى (أفلم تكونوا تعقلون) للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون انها لضلالهم أو فلم تكونوا تعقلون شيأ أصلا حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العقاب وقوله تعالى (هذه جهنم التى كنتم توعدون) استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والالزام والتبكيت عند اشرافهم على شفير جهنم أى كنتم توعدونها على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بمقابلة عبادة الشيطان مثل قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى

والحرف أشد من المخالفة بين المفعول والمفعول له اذا علم هذا فنقول فى الفعيل لم يتميز الفاعل بحرف فان فعيلا جاء بمعنى الفاعل كالنصير والبصير وبمعنى المفعول كالكسير والاسير ولا يتميز بحرف عند المخالفة الا الاقوى فلا يتميز عند المخالفة الادنى والتحقيق فيه ان فعيلا وضع لمعنى لفظى والمفعول وضع لمعنى حقيقى فكان القائل قال استعملوا لفظ المفعول للمعنى الفلانى واستعملوا لفظ الفعيل مكان لفظ المفعول فصار فعيل كالموضوع للمفعول والمفعول كالموضوع للمعنى ولما كان تغير اللفظ تابعا لتغير المعنى تغير المفعول لكونه بازاء المعنى ولم يتغير الفعيل لكونه بازاء اللفظ فى أول الامر فان قيل فما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله وآية لهم الارض الميتة أحييناها حيث أثبت التاء هناك نقول الارض أراد بها الوصف فقال الارض الميتة لان معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الاصل فيها الحياة لان الارض اذا صارت حية صارت آهلة وأقام بها الناس وعمروها فصارت بلدة فأسقط التاء لان معنى الفاعلية ثبت فيها والذى بمعنى الفاعل لا يثبت فيه التاء وتحقيق هذا قوله بلدة طيبة حيث أثبت التاء حيث ظهر بمعنى الفاعل ولم يثبت حيث لم يظهر وهذا بحث عزيز ۞ وقوله تعالى ﴿كذلك الخروج﴾ أى كالاحياء الخروج فان قيل الاحياء يشبه به الاخراج لا الخروج فنقول تقديره أحيينا به بلدة ميتا فتشققت وخرج منها النبات كذلك تشقق ويخرج منها الاموات وهذا يؤكد قولنا الرجع بمعنى الرجوع فى قوله ذلك رجع بعيد لانه تعالى بين لهم ما استبعدوه فلو استبعدوا الرجع الذى هو من المتعدى لناسب أن يقول كذلك الاخراج ولما قال كذلك الخروج فهم انهم أنكروا الرجوع فقال كذلك الخروج نقول فيه معنى لطيف على القول الآخر وذلك لانهم استبعدوا الرجع الذى هو من المتعدى بمعنى الاخراج والله تعالى أثبت الخروج وفيه مبالغة تنبيها على بلاغة القرآن مع انها مستغنية عن البيان ووجهها هو ان الرجع والاخراج كالسبب للرجوع والخروج والسبب اذا انتفى ينتفى المسبب جزما واذا وجد قد يتخلف عنه المسبب لمانع تقول كسرته فلم ينكسر وان كان مجازا والمسبب اذا وجد فقد وجد سببه واذا انتفى لا ينتفى السبب لما تقدم اذا علم هذا فهم أنكروا وجود السبب ونفوه ويتنفى المسبب عند انتفائه جزما فبالغوا وأنكروا الامرين جميعا لان نفى السبب نفى المسبب فأثبت الله الامرين جميعا بالخروج كما نفوا الامرين جميعا بنفى الاخراج ۞ ثم قال تعالى ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون واخوان لوط وأصحاب الايكة وقوم تبع﴾ ذكر المكذبين تذكيرا لهم بحالهم ووبالهم وأنذرهم باهلاكهم واستئصالهم وتفسيره ظاهر وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتنبيه بان حاله كحال من تقدمه من الرسل كذبوا وصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم وأصحاب الرس فيهم وجوه من المفسرين من قال هم قوم شعيب ومنهم من قال هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى وهم قوم عيسى عليه السلام ومنهم من قال هم أصحاب الاخدود والرس موضع نسبوا اليه أو فعل وهو حفر البئر يقال رس اذا حفر بئرا وقد تقدم فى سورة الفرقان ذلك وقال ههنا اخوان لوط وقال قوم نوح لان لوطا كان مرسلا الى طائفة من قوم ابراهيم عليه السلام معارف لوط ونوح كان مرسلا الى خلق عظيم وقال فرعون ولم يقل قوم فرعون وقال قوم تبع لان فرعون كان هو المغتر المستخف بقومه المستبد بأمره وتبع كان معتمدا بقومه فجعل الاعتبار لفرعون ولم يقل الى قوم فرعون ۞ وقوله تعالى ﴿كل كذب الرسل فحق وعيد﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) ان كل واحد كذب رسوله فهم كذبوا الرسل واللام حينئذ لتعريف العهد (وثانيهما) وهو الاصح هو ان كل واحد كذب جميع الرسل واللام حينئذ لتعريف الجنس وهو على وجهين (أحدهما) ان المكذب للرسول مكذب لكل رسول (وثانيهما) وهو الاصح ان المذكورين كانوا منكرين للرسالة والحشر بالكلية وقوله فحق وعيد أى ما وعد الله من نصرة الرسل عليهم واهلاكهم ۞ ثم قال تعالى ﴿أفعيينا بالخلق الاول بل هم فى لبس من خلق جديد﴾ وفيه وجهان (أحدهما) أنه استدلال بدلائل الانفس لانا ذكرنا مرارا ان الدلائل أفقية ونفسية

قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا وقوله تعالى قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين وغير ذلك مما لا يحصى وقوله تعالى (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) أمر تنكيل واهانة كقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الخ أى ادخلوها من فوق وقاسوا فنون عذابها اليوم بكفركم المستمر فى الدنيا وقوله تعالى (اليوم نختم على أفواههم) أى نمنعها عن الكلام التفات الى الغيبة للايذان بان ذكر أحوالهم القبيحة استدعى أن يعرض عنهم ويحكى أحوالهم الفظيعة لغيرهم مع ما فيه من الايماء الى أن ذلك من مقتضيات الختم لان الخطاب لتلقى الجواب وقد انقطع بالكلية وقرئ يختم (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) روى أنهم يجحدون ويخاصمون فيشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفى الحديث يقول العبد يوم القيامة انى لا أجيز على شاهدا الا من نفسى فيختم على فيه ويقال لاركانه انطقى فتنطق باعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل وقيل تكليم الاركان وشهادتها دلالتها على أفعالها وظهور آثار المعاصى عليها وقرئ وتتكلم أيديهم وقرئ ولتكلمنا أيديهم وتشهد بلام كى والنصب على معنى ولذلك نختم على أفواههم وقرئ ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الامر والجزم (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة التى هى وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء أى لو نشاء أن نطمس على أعينهم لفعلناه وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضى لافادة أن عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد استمرار انتفائه بحسب المقام كما فى قوله تعالى ولو يعجل الله للناس

كما

كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ولما قرن الله تعالى دلائل الآفاق عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال والارض مددناها وغير ذلك ذكر الدليل النفسى وعلى هذا فيه لطائف لفظية ومعنوية م (أما اللفظية) فهى أنه تعالى فى الدلائل الآفاقية عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال والارض مددناها وقال وأنزلنا من السماء ماء مباركا ثم فى الدليل النفسى ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها اشارة الى أن تلك الدلائل من جنس وهذا من جنس فلم يجعل هذا تبعا لذلك ومثل هذا مراعى فى أواخر يس حيث قال تعالى أولم ير الانسان أنا خلقناه ثم لم يعطف الدليل الافقى ههنا نقول والله أعلم ههنا وجد منهم الاستبعاد بقوله ذلك رجع بعيد فاستدل بالاكبر وهو خلق السموات ثم نزل كأنه قال لا حاجة الى ذلك الاستدلال بل فى أنفسهم دليل جواز ذلك وفى سورة يس لم يذكر استبعادهم فبدأ بالادنى وارتقى الى الاعلى (والوجه الثانى) يحتمل أن يكون المراد بالخلق الاول هو خلق السموات لانه هو الخلق الاول وكأنه تعالى قال أفلم ينظروا الى السماء ثم قال أفعيينا بهذا الخلق ويدل على هذا قوله تعالى أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن ويؤيد هذا الوجه هو أن الله تعالى قال بعد هذه الآية ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه فهو كالاستدلال بخلق الانسان وهو معطوف بحرف الواو على ما تقدم من الخلق وهو بناء السماء ومد الارض وتنزيل الماء وانبات الجنات وفى تعريف الخلق الاول وتنكير خلق جديد وجهان (أحدهما) ما عليه الامران لان الاول عرفه كل واحد وعلم لنفسه والخلق الجديد لم يعلم لنفسه ولم يعرفه كل أحد ولان الكلام عنهم وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد (والوجه الثانى) ان ذلك لبيان انكارهم للخلق الثانى من كل وجه كأنهم قالوا أيكون لنا خلق ما على وجه الانكار له بالكلية وقوله تعالى بل هم فى لبس تقديره ما عيينا بل هم فى شك من خلق جديد يعنى لا مانع من جهة الفاعل فيكون من جانب المفعول وهو الخلق الجديد لانهم كانوا يقولون ذلك محال وامتناع وقوع المحال بالفاعل لا يوجب عجزا فيه ويقال للمشكوك فيه ملتبس كما يقال لليقين انه ظاهر وواضح ثم ان اللبس يسند الى الامر كما قلنا انه يقال ان هذا أمر ظاهر وهذا أمر ملتبس وههنا أسند الامر اليهم حيث قال هم فى لبس وذلك لان الشئ يكون وراء حجاب والناظر اليه بصير فيختفى الامر من جانب الرائى فقال ههنا بل هم فى لبس ومن فى قوله من خلق جديد يفيد فائدة وهى ابتداء الغاية كأن اللبس كان حاصلا لهم من ذلك ۞ قوله تعالى ﴿ولقد خلقنا الانسان﴾ فيه وجهان (أحدهما) أن يكون ابتداء استدلال بخلق الانسان وهذا على قولنا أفعيينا بالخلق الاول معناه خلق السموات (وثانيهما) أن يكون تتميم بيان خلق الانسان وعلى هذا قولنا الخلق الاول هو خلق الانسان أول مرة ويحتمل أن يقال هو تنبيه على أمر يوجب عودهم عن مقالهم وبيانه أنه تعالى لما قال ولقد خلقنا الانسان ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ كان ذلك اشارة الى أنه لا يخفى عليه خافية ويعلم ذوات صدورهم ۞ وقوله ﴿ونحن أقرب اليه من حبل الوريد﴾ بيان لكمال علمه والوريد العرق الذى هو مجرى الدم يجرى فيه ويصل الى كل جزء من أجزاء البدن والله أقرب من ذلك بعلمه لان العرق تحجبه أجزاء اللحم ويخفى عنه وعلم الله تعالى لا يحجب عنه شئ ويحتمل أن يقال ونحن أقرب اليه من حبل الوريد بتفرد قدرتنا فيه يجرى فيه أمرنا كما يجرى الدم فى عروقه ۞ ثم قال تعالى ﴿اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد﴾ اذ ظرف والعامل فيه ما فى قوله تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وفيه اشارة الى أن المكلف غير متروك سدى وذلك لان الملك اذا أقام كتابا على أمر انكل عليهم فان كان له غفلة عنه فيكون فى ذلك الوقت يتكل عليهم واذا كان عند اقامة الكتاب لا يبعد عن ذلك الامر ولا يغفل عنه فهو عند عدم ذلك أقرب اليه وأشد اقبالا عليه فنقول الله فى وقت أخذ الملكين منه فعله وقوله أقرب اليه من عرقه المخالط له فعند ما يخفى عليهما شئ يكون حفظنا بحاله أكمل وأتم ويحتمل أن يقال التلقى من الاستقبال يقال فلان يتلقى الركب

الشر استعجالهم بالخير (فاستبقوا الصراط) أى فأرادوا أن يستبقوا الى الطريق الذى اعتادوا سلوكه على أن انتصابه بنزع الجار أو هو بتضمين الاستباق معنى الابتدار أو بالظرفية (فأنى يبصرون) الطريق وجهة السلوك (ولو نشاء لمسخناهم) بتغيير صورهم وابطال قواهم (على مكانتهم) أى مكانهم الا أن المكانة أخص كالمقامة والمقام وقرئ على مكاناتهم أى لمسخناهم مسخا يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه باقبال ولا ادبار ولا رجوع وذلك قوله تعالى (فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون) أى ولا رجوعا فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة عن ابن عباس رضى الله عنهما قردة وخنازير وقيل حجارة وعن قتادة لاقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم وقرئ مضيا بكسر الميم وفتحها وليس مساق الشرطيتين لمجرد بيان قدرته تعالى على ماذكر من عقوبة الطمس والمسخ بل لبيان أنهم بما هم عليه من الكفر ونقض العهد وعدم الاتعاظ بما شاهدوا من آثار دمار أمثالهم أحقاء بان يفعل بهم فى الدنيا تلك العقوبة كما فعل بهم فى الآخرة عقوبة الختم وأن المانع من ذلك ليس الا عدم تعلق المشيئة الالهية به كأنه قيل لو نشاء عقوبتهم بما ذكر من الطمس والمسخ جريا على موجب جناياتهم المستدعية لها لفعلناها ولكنا لم نشأها جريا على سنن الرحمة والحكمة الداعيتين الى امهالهم (ومن نعمره) أى نطل عمره (ننكسه فى الخلق) أى نقلبه فيه ونخلقه على عكس ما خلقناه أولا فلا يزال يتزايد ضعفه ويتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود الى حالة شبيهة بحال الصبى فى ضعف الجسد وقلة العقل والخلو عن الفهم والادراك وقرئ ننكسه من الثلاثى المجرد وننكسه من الانكاس (أفلا يعقلون) أى أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ماذكر من الطمس والمسخ وأن عدم ايقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما وقرئ تعقلون بالتاء لجرى الخطاب قبله (وما علمناه

الشعر) ردوابطال لما كانوا يقولونه فى حقه عليه الصلاة والسلام من أنه شاعر وما يقوله شعر أى ما علمناه الشعر بتعليم القرآن على معنى أن القرآن ليس بشعر فان الشعر كلام متكلف (٤٣٤) موضوع ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبنى على خيالات وأوهام واهية فأين ذلك من التنزيل الجليل الخطر المنزه عن مماثلة كلام البشر المشحون بفنون الحكم والاحكام الباهرة الموصلة الى سعادة الدنيا والآخرة ومن أين اشتبه عليهم الشؤن واختلط بهم الظنون قاتلهم الله أنى يؤفكون (وماينبغى له) وما يصح له الشعر ولا يتأتى له لو طلبه أى جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له كما جعلناه أميا لا يهتدى للخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وأما قوله عليه الصلاة والسلام أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب وقوله عليه الصلاة والسلام هل أنت الا اصبع دميت وفى سبيل الله مالقيت فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد اليها وعزم على ترتيبها وقيل الضمير فى له للقرآن أى وما ينبغى للقرآن أن يكون شعرا (ان هو) أى ما القرآن (الا ذكر) أى عظة من الله عز وجل وارشاد للثقلين كما قال تعالى ان هو الا ذكر للعالمين (وقرآن مبين) أى كتاب سماوى بين كونه كذلك أوفارق بين الحق والباطل يقرأ فى المحاريب ويتلى فى المعابد وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين فكم بينه وبين ما قالوا (لينذر) أى القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيده القراءة بالتاء وقرئ لينذر من نذر به أى علمه ولينذر مبنيا للمفعول من الانذار (من كان حيا) أى عاقلا متأملا فان الغافل بمنزلة الميت أو مؤمنا فى علم الله تعالى فان الحياة الابدية بالايمان وتخصيص الانذار به لانه المنتفع به (ويحق القول) أى تجب كلمة العذاب (على الكافرين) المصرين على الكفر وفى ايرادهم بمقابلة من كان حيا اشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة وأحكامها التى هى المعرفة

وعلى هذا الوجه فيكون معناه وقت ما يتلقاه المتلقيان يكون عن يمينه وعن شماله قعيد فالمتلقيان على هذا الوجه هما الملكان اللذان يأخذان روحه من ملك الموت أحدهما يأخذ أرواح الصالحين وينقلها الى السرور والحبور الى يوم النشور والآخر يأخذ أرواح الطالحين وينقلها الى الويل والثبور الى يوم الحشر من القبور فقال تعالى وقت تلقيهما وسؤالهما انه من أى القبيلين يكون عند الرجل قعيد عن اليمين وقعيد عن الشمال يعنى الملكان ينزلان وعنده ملكان آخران كاتبان لاعماله يسألانهما من أى القبيلين كان فان كان من الصالحين يأخذ روحه ملك السرور ويرجع الى الملك الآخر مسرورا حيث لم يكن مسرورا ممن يأخذها هو وان كان من الطالحين يأخذها ملك العذاب ويرجع الى الآخر محزونا حيث لم يكن ممن يأخذها هو ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى سائق وشهيد فالشهيد هو القعيد والسائق هو المتلقى يتلقى أخذ روحه من ملك الموت فيسوقه الى منزله وقت الاعادة وهذا اعرف الوجهين وأقربهما الى الفهم وقول القائل جلست عن يمين فلان فيه انباء عن تنح ما عنه احتراما له واجتنابا منه وفيه لطيفة وهى أن الله تعالى قال نحن أقرب اليه من حبل الوريد المخالط لاجزائه المداخل فى أعضائه والملك متنح عنه فيكون علمنا به أكمل من علم الكاتب لكن من أجلس عنده أحدا ليكتب أفعاله وأقواله ويكون الكاتب ناهضا خبيرا والملك الذى أجلس الرقيب يكون جبارا عظيما فنفسه أقرب اليه من الكاتب بكثير والقعيد هو الجليس كما ان قعد بمعنى جلس ۞ وقوله تعالى ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أى شدته التى تذهب العقول وتذهل الفطن وقوله بالحق يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون المراد منه الموت فانه حق كأن شدة الموت تحضر الموت والباء حينئذ للتعدية يقال جاء فلان بكذا أى أحضره (وثانيها) أن يكون المراد من الحق ما أتى به من الدين لانه حق وهو يظهر عند شدة الموت وما من أحد الا وهو فى تلك الحالة يظهر الايمان لكنه لا يقبل الايمن سبق منه ذلك وآمن بالغيب ومعنى المجىء به هو أنه يظهره كما يقال الدين الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم أى اظهره ولما كانت شدة الموت مظهرة له قيل فيه جاء به والباء حينئذ يحتمل أن يكون المراد منها الملابسة يقال جئتك بأمل فسيح وقلب خاشع وقوله ذلك يحتمل أن يكون اشارة الى الموت ويحتمل أن يكون اشارة الى الحق وحاد عن الطريق أى مال عنه والخطاب قيل مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو منكر وقيل مع الكافرين وهو أقرب والاقوى أن يقال هو خطاب عام مع السامع كأنه يقول ذلك ما كنت منه تحيد أيها السامع ۞ وقوله تعالى ﴿ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد﴾ عطف على قوله وجاءت سكرة الموت والمراد منه اما النفخة الاولى فيكون بيانا لما يكون عند مجىء سكرة الموت أو النفخة الثانية وهو أظهر لان قوله تعالى ذلك يوم الوعيد بالنفخة الثانية أليق ويكون قوله وجاءت سكرة الموت اشارة الى الاماتة وقوله ونفخ فى الصور اشارة الى الاعادة والاحياء وقوله تعالى ذلك ذكر الزمخشرى أنه اشارة الى المصدر الذى من قوله ونفخ أى وقت ذلك النفخ يوم الوعيد وهو ضعيف لان يوم لو كان منصوبا لكان ما ذكرنا ظاهرا وأما رفع يوم فيفيد أن ذلك نفس اليوم والمصدر لا يكون نفس الزمان وانما يكون فى الزمان فالاولى أن يقال ذلك اشارة الى الزمان المفهوم من قوله ونفخ لان الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان فكأنه تعالى قال ذلك الزمان يوم الوعيد والوعيد هو الذى أوعد به من الحشر والابتاء والمجازاة ۞ وقوله تعالى ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ قد بينا من قبل أن السائق هو الذى يسوقه الى الموقف ومنه الى مقعده والشهيد هو الكاتب والسائق لازم للبر والفاجر أما البر فيساق الى الجنة وأما الفاجر فالى النار وقال تعالى وسيق الذين كفروا وسيق الذين اتقوا ربهم ۞ وقوله تعالى ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا﴾ اما على تقدير يقال له أو قيل له لقد كنت كما قال تعالى وقال لهم خزنتها وقال تعالى قيل ادخلوا أبواب جهنم والخطاب عام اما الكافر فعلوم الدخول فى هذا الحكم واما المؤمن فانه يزداد علما ويظهر له ما كان مخفيا عنه ويرى ما علمه يقينا رأى

المعتبر يقينا فيكون بالنسبة الى تلك الاحوال وشدة الاهوال كالغافل وفيه الوجهان اللذان ذكرناهما في قوله تعالى ما كنت منه تحيد والغفلة شئ من الغطاء كاللبس وأكثر منه لان الشاك يلتبس الامر عليه والغافل يكون الامر بالكلية محجوبا قلبه عنه وهو الغلف ۝ وقوله تعالى ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ أى أزلنا عنك غفلتك ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ وكان من قبل كليلا وقرينك حديدا وكان فى الدنيا خليلا واليه الاشارة بقوله تعالى ﴿وقال قرينه هذا مالدى عتيد﴾ وفى القرين وجهان (أحدهما) الشيطان الذى زين الكفر له والعصيان وهو الذى قال تعالى فيه وقيضنا لهم قرناء وقال تعالى نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال تعالى فبئس القرين فالاشارة بهذا الى المسوق المرتكب الفجور والفسوق والعتيد معناه المعد للنار وجملة الآية معناها أن الشيطان يقول هذا العاصى شئ هو عندى معد لجهنم أعددته بالاغواء والاضلال (والوجه الثانى) قال قرينه أى القعيد الشهيد الذى سبق ذكره وهو الملك وهذا اشارة الى كتاب أعماله وذلك لان الشيطان فى ذلك الوقت لا يكون له من المكانة أن يقول ذلك القول (١) ولان قوله هذا مالدى عتيد فيكون عتيد صفته وثانيهما أن تكون موصولة فيكون عتيد محتملا لثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون خبرا بعد خبر والخبر الاول مالدى معناه هذا الذى وهو عتيد (وثانيها) أن يكون عتيد هو الخبر لا غير ومالدى يقع كالوصف المميز للعتيد عن غيره كما تقول هذا الذى عندى زيد وهذا الذى يجيئنى عمرو فيكون الذى عندى والذى يجيئنى لتمييز المشار اليه عن غيره ثم يخبر عنه بما بعده ثم يقال للسائق أو الشهيد ﴿ألقيا فى جهنم﴾ فيكون هو أمر الواحد وفيه وجهان أحدهما أنه ثنى لتكرار الامر كما يقال ألق ألق (وثانيهما) عادة العرب ذلك ۝ وقوله ﴿كل كفار عنيد﴾ الكفار يحتمل أن يكون من الكفران فيكون بمعنى كثير الكفران ويحتمل أن يكون من الكفر فيكون بمعنى شديد الكفر والتشديد فى لفظة فعال يدل على شدة فى المعنى والعنيد فعيل بمعنى فاعل من عند عنودا ومنه العناد فان كان الكفار من الكفران فهو أنكر نعم الله مع كثرتها ۝ وقوله تعالى ﴿مناع للخير﴾ فيه وجهان (أحدهما) كثير المنع للمال الواجب وان كان من الكفر فهو أنكر دلائل وحدانية الله مع قوتها وظهورها فكان شديد الكفر عنيدا حيث أنكر الامر اللائح والحق الواضح وكان كثير الكفران لوجود الكفران منه عند كل نعمة عنيدا ينكرها مع كثرتها عن المستحق الطالب والخير هو المال فيكون كقوله تعالى وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة حيث بدأ ببيان الشرك وثنى بالامتناع من ايتاء الزكاة وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة اذا جعلنا الكفار من الكفران كأنه يقول كفر أنعم الله تعالى ولم يؤد منها شيئا لشكر أنعمه (ثانيهما) شديد المنع من الايمان فهو مناع للخير وهو الايمان الذى هو خير محض من أن يدخل فى قلوب العباد وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة اذا جعلنا الكفار من الكفر كانه يقول كفر بالله ولم يقتنع بكفره حتى منع الخير من الغير ۝ وقوله تعالى ﴿معتد﴾ فيه وجهان (أحدهما) أن يكون قوله معتد مرتبا على مناع بمعنى مناع الزكاة فيكون معناه لم يؤد الواجب وتعدى ذلك حتى أخذ الحرام أيضا بالربا والسرقة كما كان عادة المشركين (وثانيهما) أن يكون قوله معتد مرتبا على مناع بمعنى منع الايمان كأنه يقول منع الايمان ولم يقنع به حتى تعداه وأهان من آمن وآذاه وأعان من كفر وآواه ۝ وقوله تعالى ﴿مريب﴾ فيه وجهان (أحدهما) ذو ريب وهذا على قولنا الكفار كثير الكفران والمناع مانع الزكاة كأنه يقول لا يعطى الزكاة لانه فى ريب من الآخرة والثواب فيقول لا أقرب مالا من غير عوض (وثانيهما) مريب يوقع الغير فى الريب بالقاء الشبهة والارابة جاءت بالمعنيين جميعا وفى الآية ترتيب آخر غير ماذكرناه وهو أن يقال هذا بيان أحوال الكفار بالنسبة الى الله والى رسول الله والى اليوم الآخر فقوله كفار عنيد اشارة الى حاله مع الله يكفر به ويعاند آياته وقوله مناع للخير معتد اشارة الى حاله مع رسول الله فيمنع الناس من اتباعه ومن الانفاق على من عنده ويتعدى بالايذاء وكثرة الهذاء وقوله مريب اشارة الى حاله بالنسبة الى اليوم الآخر يريب فيه ويرتاب ولا يظن

أموات فى الحقيقة (أولم يروا) الهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف أى ألم يتفكروا أولم يلاحظوا ولم يعلموا علما يقينيا متاخما للمعاينة (انا خلقنا لهم) أى لاجلهم وانتفاعهم (مما عملت أيدينا) أى مما توليناه احداثه بالذات وذكر الايدى واسناد العمل اليها استعارة تفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالاحداث والاعتناء به (أنعاما) مفعول خلقنا وتأخيره عن الجارين المتعلقين به مع أن حقه التقدم عليهما لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة له فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن لا سيما عند كون المقدم منبئا عن كون المؤخر أمرا نافعا خطيرا كما فى النظم الكريم فان الجار الاول المعرب عن كون المؤخر من منافعهم والثانى المفصح عن كونه من الامور الخطيرة يزيدان النفس شوقا اليه ورغبة فيه ولان فى تأخيره جمعا بينه وبين أحكامه المتفرعة عليه بقوله تعالى (فهم لها مالكون) الآيات الثلاث أى فملكناها اياهم وايثار الجملة الاسمية على ذلك للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واستمرارها واللام متعلقة بمالكون مقوية لعمله أى فهم مالكون لها بتمليكنا اياها لهم متصرفون فيها بالاستقلال مختصون بالانتفاع بها لا يزاحمهم فى ذلك غيرهم أو قادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها باقدارنا وتمكيننا وتسخيرنا اياها لهم كما فى قول من قال

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير ان نفرا

والاول هو الاظهر ليكون قوله تعالى (وذللناها لهم) تأسيسا للنعمة على حيالها لا تتمة لما قبلها أى صيرناها منقادة لهم بحيث لا تستعصى عليهم فى شئ مما يريدون بها حتى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى (فمنها ركوبهم) الخ فان الفاء فيه لتفريع

(١) قوله ولان قوله الخ يتأمل فى هذه العبارة فان فيها اسقاطا وتحريفا وصوابه وما تحتمل وجهين احدهما أن تكون نكرة موصوفة فيكون الخ

أن الساعة قائمة فان قيل قوله تعالى ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير الى غير ذلك يوجب أن يكون الالقاء خاصا بمن اجتمع فيه هذه الصفات بأسرها والكفر كاف فى ايراث الالقاء فى جهنم والامر به فنقول قوله تعالى كل كفار عنيد ليس المراد منه الوصف المميز كما يقال أعط العالم الزاهد بل المراد الوصف المبين بكون الموصوف موصوفا به اما على سبيل المدح أو على سبيل الذم كما يقال هذا حاتم السخى فقوله كل كفار عنيد يفيد أن الكفار عنيد ومناع فالكفار كافر لان آيات الوحدانية ظاهرة ونعم الله تعالى على عباده وافرة وعنيد ومناع للخير لانه يمدح دينه و يذم دين الحق فهو يمنع ومريب لانه شاك فى الحشر فكل كافر فهو موصوف بهذه الصفات ۞ وقوله تعالى ﴿الذى جعل مع الله الها آخر فألقياه فى العذاب الشديد﴾ فيه ثلاثة أوجه (أحدها) أنه بدل من قوله كل كفار عنيد (ثانيها) أنه عطف على كل كفار عنيد (ثالثها) أن يكون عطفا على قوله ألقيا فى جهنم كأنه قال ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد أى والذى جعل مع الله الها آخر فألقياه بعدما ألقيتموه فى جهنم فى عذاب شديد من عذاب جهنم ۞ ثم قال تعالى ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ وهو جواب لكلام مقدر كان الكافر حين مايلقى فى النار يقول ربنا أطغانى شيطانى فيقول الشيطان ربنا ما أطغيته يدل عليه قوله تعالى بعد هذا قال لا تختصموا لدى لان الاختصام يستدعى كلاما من الجانبين وحينئذ هذا كما قال الله تعالى فى هذه السورة وفى ص قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم وقوله تعالى قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده الى أن قال ان ذلك لحق تخاصم أهل النار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزمخشرى المراد بالقرين فى الآية المتقدمة هو الشيطان لا الملك الذى هو شهيد وقعيد واستدل عليه بهذا وقال غيره المراد الملك لا الشيطان وهذا يصلح دليلا لمن قال ذلك وبيانه هو أنه فى الاول لو كان المراد الشيطان فيكون قوله هذا مالدى عتيد معناه هذا الشخص عندى عتيد معتد للنار اعتدته باغوائى فان الزمخشرى صرح فى تفسير تلك بهذا وعلى هذا فيكون قوله ربنا ما أطغيته مناقضا لقوله اعتدته وللزمخشرى أن يقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يقول ان الشيطان يقول اعتدته بمعنى زينت له الامر وما ألجأته فيصح القولان من الشيطان (وثانيهما) أن تكون الاشارة الى حالين ففى الحالة الاولى اغا فعلت به ذلك اظهارا للانتقام من بنى آدم وتصحيحا لما قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين ثم اذا رأى العذاب وأنه معه مشترك وله على الاغواء عذاب كما قال تعالى فالحق والحق أقول لاملأن جهنم منك وممن تبعك فيقول ربنا ما أطغيته فيرجع عن مقالته عند ظهور العذاب (المسئلة الثانية) قال ههنا قال قرينه من غير واو وقال فى الآية الاولى وقال قرينه بالواو العاطفة وذلك لان فى الاول الاشارة وقعت الى معنيين مجتمعين وان كل نفس فى ذلك الوقت تجىء ومعها سائق و يقول الشهيد ذلك القول وفى الثانى لم يوجد هناك معنيان مجتمعان حتى يذكر بالواو والفاء فى قوله فالقياه فى العذاب لا يناسب قوله تعالى قال قرينه ربنا ما أطغيته مناسبة مقتضية للعطف بالواو (المسئلة الثالثة ٢) القائل ههنا واحد وقال ربنا ولم يقل رب وفى كثير من المواضع مع كون القائل واحدا قال رب كما فى قوله قال رب أرنى أنظر اليك وقول نوح رب اغفر لى وقوله تعالى قال رب السجن أحب الى وقوله قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة الى غير ذلك وقوله تعالى قال رب أنظرنى الى يوم يبعثون نقول فى جميع تلك المواضع القائل طالب ولا يحسن أن يقول الطالب يارب عمرنى واخصصنى وأعطنى كذا وانما يقول أعطنا لان كونه ربا لا يناسب تخصيص الطالب وأما هذا الموضع فموضع الهيبة والعظمة وعرض الحال دون الطلب فقال ربنا ما أطغيته ۞ وقوله تعالى ﴿ولكن كان فى ضلال بعيد﴾ يعنى ان ذلك لم يكن بالقائه وانما كان ضالا لا متغلغلا فى الضلال فطغى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الوجه فى اتصاف الضلال بالبعيد نقول الضال يكون أكثر ضلالا عن الطريق فاذا تمادى فى الضلال و بقى فيه مدة يبعد عن المقصد كثيرا واذا علم الضلال قصر فى الطريق من قريب فلا يبعد عن المقصد كثيرا فقوله ضلال بعيد وصف المصدر

أحكام التذليل عليه وتفصيلها أى فبعض منها ركوبهم أى مركوبهم أى معظم منافعها الركوب وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمات الركوب وقرئ ركوبتهم وهى بمعناه كالحلوب والحلوبة وقيل الركوبة اسم جمع وقرئ ركوبهم أى ذو ركوبهم (ومنها يأكلون) أى وبعض منها يأكلون لحمه (ولهم فيها) أى فى الانعام بكلا قسميها (منافع) أخر غير الركوب والاكل كالجلود والاصواف والاوبار وغيرها وكالحراثة بالثيران (ومشارب) من اللبن جمع مشرب وهذا مجمل ما فصل فى سورة النحل (أفلا يشكرون) أى أيشاهدون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها (واتخذوا من دون الله) أى متجاوزين الله تعالى الذى شاهدوا تفرده بتلك القدرة الباهرة وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة (آلهة) من الاصنام وأشركوها به تعالى فى العبادة (لعلهم ينصرون) رجاء أن ينصروا من جهتهم فيما حزبهم من الامور أو يشفعوا لهم فى الآخرة وقوله تعالى (لا يستطيعون نصرهم) الخ استئناف سيق لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تدبيرهم أى لا تقدر آلهتهم على نصرهم (وهم) أى المشركون (لهم) أى لآلهتهم (جند محضرون) يشيعونهم عند مساقهم الى النار وقيل معدون فى الدنيا لحفظهم وخدمتهم والذب عنهم ولا يساعده مساق النظم الكريم فان الفاء فى قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) لترتيب النهى على ما قبله فلا بد أن يكون عبارة عن خسرانهم وحرمانهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة وانعكاس الامر عليهم بترتب الشر على ما رتبوه لرجاء الخير فان ذلك مما يهون الخطب ويورث السلوة وأما كونهم معدين لخدمتهم وحفظهم فبمعزل من ذلك والنهى وان كان بحسب الظاهر متوجها الى قولهم لكنه فى الحقيقة متوجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى له عليه السلام عن التأثر منه بطريق

٢ قوله المسئلة الثالثة اطراف الكلام فيها غير ملتئمة كما لا يخفى اه

بما يوصف به الفاعل كما يقال كلام صادق وعيشة راضية أى ضلال ذو بعد والضلال اذا بعد مداه وامتد الضال فيه يصير بيناو يظهر الضلال لان من حاد عن الطريق وأبعد عنه تتغير عليه السمات والجهات ولا يرى عين المقصد و يتبين له أنه ضل عن الطريق وربما يقع فى أودية ومفاوز و يظهر له أمارات الضلال بخلاف من حاد قليلا فالضلال وصفه الله تعالى بالوصفين فى كثير من المواضع فقال تارة فى ضلال مبين وأخرى قال فى ضلال بعيد (المسئلة الثانية) قوله تعالى ولكن كان فى ضلال بعيد اشارة الى قوله الا عبادك منهم المخلصين وقوله تعالى ان عبادى ليس لك عليهم سلطان أى لم يكونوا من العباد فجعلهم أهل العناد ولو كان لهم فى سبيلك قدم صدق لما كان لى عليهم من يد والله أعلم (المسئلة الثالثة) كيف قال ما أطغيته مع أنه قال لاغوينهم أجمعين قلنا الجواب عنه من ثلاثة أوجه وجهان قد تقدما فى الاعتذار عما قاله الزمخشرى والثالث هو أن يكون المراد من قوله لاغوينهم أى لاديمنهم على الغواية كما ان الضال اذا قال له شخص أنت على الجادة فلا تتركها يقال انه يضله كذلك ههنا وقوله ما أطغيته أى ما كان ابتداء الاطغاء منى ﴿ ثم قال تعالى ﴿قال لا تختصموا لدى﴾ قد ذكرنا ان هذا دليل على ان هنالك كلاما قبل قوله قال قرينه ربنا ما أطغيته وهو قول الملقى فى النار ربنا أطغانى وقوله لا تختصموا لدى يفيد مفهومه أن الاختصام كان ينبغى أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يدى ﴿ وقوله تعالى ﴿وقد قدمت اليكم بالوعيد﴾ تقرير للمنع من الاختصام و بيان لعدم فائدته كانه يقول قد قلت انكم اذا اتبعتم الشيطان تدخلون النار وقد اتبعتموه فان قيل ما حكم الباء فى قوله تعالى بالوعيد قلنا فيها وجوه (أحدها) أنها مزيدة كما فى قوله تعالى تنبت بالدهن على قول من قال انها هنالك زائدة وقوله وكفى بالله (وثانيها) معدية فقدمت بمعنى تقدمت كما فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله (ثالثها) فى الكلام اضمار تقديره وقد قدمت اليكم مقترنا بالوعيد ما يبدل القول لدى فيكون المقدم هو قوله ما يبدل القول لدى (رابعها) هى للمصاحبة يقول القائل اشتريت الفرس بلجامه وسرجه أى معه فيكون كانه تعالى قال قدمت اليكم ما يجب مع الوعيد على تركه بالانذار ﴿ وقوله تعالى ﴿ما يبدل القول لدى﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون قوله لدى متعلقا بالقول أى ما يبدل القول لدى (وثانيهما) أن يكون ذلك متعلقا بقوله ما يبدل أى لا يقع التبديل عندى وعلى الوجه الاول فى القول الذى لديه وجوه (أحدها) هو أنهم لما قالوا حتى يبدل ما قيل فى حقهم ألقيا يقول الله بعد اعتذارهم لا تلقياه فقال تعالى لا يبدل هذا القول لدى وكذلك قوله وقيل ادخلوا أبواب جهنم لا تبديل له (ثانيها) هو قوله ولكن حق القول منى لاملأن جهنم أى لا تبديل لهذا القول (ثالثها) لا خلف فى ايعاد الله تعالى كما لا اخلاف فى ميعاد الله وهذا رد على المرجئة حيث قالوا ما ورد فى القرآن من الوعيد فهو تخويف لا يحقق الله شيأ منه وقالوا الكريم اذا وعد أنجز ووفى واذا أوعد أخلف وعفا (رابعها) لا يبدل القول السابق ان هذا شقى وهذا سعيد حين خلقت العباد قلت هذا شقى و يعمل عمل الاشقياء وهذا تقى و يعمل عمل الاتقياء وذلك القول عندى لا تبديل له بسعى ساع ولا سعادة الا بتوفيق الله تعالى وأما على الوجه الثانى فنى لا يبدل وجوه أيضا (أحدها) لا يكذب لدى ولا يفترى بين يدى فانى عالم علمت من طغى ومن أطغى ومن كان طاغيا ومن كان أطغى فلا يفيدكم قولكم أطغانى شيطانى ولا قول الشيطان ربنا ما أطغيته (ثانيها) اشارة الى معنى قوله تعالى فارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا كأنه تعالى قال لو اردتم أن لا أقول فألقيا فى العذاب الشديد كنتم بدلتم هذا من قبل بتبديل الكفر بالايمان قبل ان تقفوا بين يدى وأما الآن فما يبدل القول لدى كما قلنا فى قوله تعالى قال لا تختصموا لدى المراد ان اختصامكم كان يجب ان يكون قبل هذا حيث قلت ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا (ثالثها) معناه لا يبدل الكفر بالايمان لدى فان الايمان عند اليأس غير مقبول فقولكم ربنا والهنا لا يفيدكم فمن تكلم بكلمة الكفر لا يفيده قوله ربنا ما أشركنا وقوله

الكناية على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية وقد يوجه النهى الى المسبب ويراد النهى عن السبب كما فى قوله لا أرينك ههنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه والمراد بقولهم ما ينبئ عنه ما ذكر من اتخاذهم الاصنام آلهة فان ذلك مما لا يخلو عن التفوه بقولهم هؤلاء آلهتنا وانهم شركاء لله سبحانه فى المعبودية وغير ذلك مما يورث الحزن وقرئ يحزنك بضم الياء وكسر الزاى من أحزن المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى (انا نعلم ما يسرون وما يعلنون) تعليل صريح للنهى بطريق الاستئناف بعد تعليله بطريق الاشعار فان العلم بما ذكر مستلزم للمجازاة قطعا أى انا نجازيهم بجميع جناياتهم الخافية والبادية التى لا يعزب عن علمنا شئ منها وفيه فضل تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم السر على العلن اما للمبالغة فى بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع استوائهما فى الحقيقة فان علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شئ فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة واما لان مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا وهو أو مباديه مضمر فى القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان انكارهم البعث بعد ما شاهدوا فى أنفسهم أوضح دلائله وأعدل شواهده كما أن ما سبق مسوق لبيان بطلان اشراكهم بالله تعالى بعد ما عاينوا فيما بايديهم ما يوجب التوحيد والاسلام وأما ما قيل من انه تسلية ثانية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهوين ما يقولونه بالنسبة الى انكارهم الحشر فكلا والهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة مقدرة هى مستتبعة للمعطوف كما مر فى الجملة الانكارية

ربنا آمنا وقوله تعالى ما يبدل القول اشارة الى نفى الحال كانه تعالى يقول ما يبدل اليوم لدى القول لان ما ينفى بها الحال اذا دخلت على الفعل المضارع يقول القائل ماذا تفعل غدا يقال ما أفعل شيأ أى فى الحال واذا قال القائل ماذا يفعل غدا يقال لا يفعل شيأ أو ان يفعل شيأ اذا أريد زيادة بيان النفى فان قيل هل فيه بيان معنوى يفيد افتراق ما ولا فى المعنى نقول نعم وذلك لان كلمة لا أدل على النفى لكونها موضوعة للنفى وما فى معناه كالنهى خاصة لا يفيد الاثبات الا بطريق الحذف أو الاضمار وبالجملة فبطريق المجاز كما فى قوله لا أقسم وأما ما فغير متمحضة للنفى لانها واردة لغيره من المعانى حيث تكون اسما والنفى فى الحال لا يفيد النفى المطلق لجواز أن يكون مع النفى فى الحال الاثبات فى الاستقبال كما يقال ما يفعل الآن شيأ وسيفعل ان شاء الله فاختص بما لم يتمحض نفيا حيث لم تكن متمحضة للنفى لا يقال ان لا للنفى فى الاستقبال والاثبات فى الحال فالنفى فى الاستقبال بما لم يتمحض نفيا لانا نقول ليس كذلك اذ لا يجوز أن يقال لا يفعل زيد ويفعل الآن نعم يجوز أن يقال لا يفعل غدا ويفعل الآن لكون قولك غدا يجعل الزمان مميزا فلم يكن قولك لا يفعل للنفى فى الاستقبال بل كان للنفى فى بعض أزمنة الاستقبال وفى مثالنا قلنا ما يفعل وسيفعل وما قلنا سيفعل غدا أو بعد غد بل ههنا نفينا فى الحال وأثبتنا فى الاستقبال من غير تمييز زمان من أزمنة الاستقبال عن زمان ومثاله فى العكس أن يقال لا يفعل زيد وهو يفعل من غير تعيين وتمييز ومعلوم ان ذلك غير جائز ﴿ وقوله تعالى ﴿وما أنا بظلام للعبيد﴾ مناسب لما تقدم على الوجهين جميعا اما اذا قلنا بان المراد من قوله لدى ان قوله فألقياه وقول القائل فى قوله قيل ادخلوا أبواب جهنم لا تبديل له فظاهر لان الله تعالى بين أن قوله ألقيا فى جهنم لا يكون الا للكافر العنيد فلا يكون هو ظلاما للعبيد وأما اذا قلنا بأن المراد لا يبدل القول لدى بل كان الواجب التبديل قبل الوقوف بين يدى فكذلك لانه أنذر من قبل وما عذب الا بعد أن أرسل الرسل وبين السبل (وفيه مباحث لفظية ومعنوية) أما اللفظية فهى فى الباء من قوله ليس بظلام وفى اللام من قوله للعبيد أما الباء فنقول الباء تدخل فى المفعول به حيث لا يكون تعلق الفعل به ظاهرا ولا يجوز ادخالها فيه حيث يكون فى غاية الظهور ويجوز الادخال والترك حيث لا يكون فى غاية الظهور ولا فى غاية الخفاء فلا يقال ضربت بزيد لظهور تعلق الفعل بزيد ولا يقال خرجت وذهبت زيدا بدل قولنا خرجت وذهبت بزيد لخفاء تعلق الفعل بزيد فيهما ويقال شكرته وشكرت له للتوسط فكذلك خبر ما لما كان مشبها بالمفعول وليس فى كونه فعلا غير ظاهر غاية الظهور لان الحاق الضمائر التى تلحق بالافعال الماضية كالتاء والنون فى قولك لست ولستم ولستن ولسنا يصحح كونها فعلا كما فى قولك كنت وكنا لكن فى الاستقبال يبين الفرق حيث تقول يكون وتكون وكن ولا تقول ذلك فى ليس وما يشبه بها فصارتا كالفعل الذى لا يظهر تعلقه بالمفعول غاية الظهور فجاز أن يقال ليس زيد جاهلا وليس زيد بجاهل كما يقال مسحته ومسحت به وغير ذلك مما تعدى بنفسه وبالباء ولم يجز ان يقال كان زيد بخارج وصار عمرو بدارج لان صار وكان فعل ظاهر غاية الظهور بخلاف ليس وما النافية وهذا يؤيد قول من قال ما هذا بشر وهذا ظاهر (البحث الثانى) لو قال قائل كان ينبغى أن لا يجوز اخلاء خبر ما عن الباء كما لا يجوز ادخال الباء فى خبر كان وخبر ليس يجوز فيه الامران وتقرير هذا السؤال هو أن كان لما كان فعلا ظاهرا جعلناه بمنزلة ضرب حيث منعنا دخول الباء فى خبره كما منعناه فى مفعوله وليس لما كان فعلا من وجه نظرا الى قولنا لست ولسنا ولستم ولم يكن فعلا ظاهرا نظرا الى صيغ الاستقبال والامر جعلناه متوسطا وجوزنا ادخال الباء فى خبره وتركه كما قلنا فى مفعول شكرته وشكرت له وما لما لم يكن فعلا بوجه كان ينبغى أن يكون بمنزلة الفعل الذى لا يتعدى الى المفعول الا بالحرف وكان ينبغى أن لا يجىء خبره الا مع الباء كما لا يجىء مفعول ذهب الا مع الباء ويؤيد هذا انا فرقنا بين ما وليس وكان وجعلنا لكل واحدة مرتبة ليست للاخرى فجوزنا تأخير كان فى اللفظ حيث جوزنا

السابقة أى ألم يتفكر الانسان ولم يعلم علما يقينيا انا خلقناه من نطفة الخ أوهى عين الجملة السابقة أعيدت تأكيدا للنكير السابق وتمهيدا لانكار ما هو أحق منه بالانكار والتعجيب لما أن المنكر هناك عدم علمهم بما يتعلق بخلق أسباب معايشهم وههنا عدم علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم ولا ريب فى أن علم الانسان باحوال نفسه أهم واحاطته بها أسهل وأكمل فالانكار والتعجيب من الاخلال بذلك أدخل كانه قيل ألم يعلموا خلقه تعالى لاسباب معايشهم ولم يعلموا خلقه تعالى لانفسهم أيضا مع كون العلم بذلك فى غاية الظهور ونهاية الاهمية على معنى أن المنكر الاول بعيد قبيح والثانى أبعد وأقبح ويجوز أن تكون الواو لعطف الجملة الانكارية الثانية على الاولى على أنها متقدمة فى الاعتبار وان تقدم الهمزة عليها لاقتضائها الصدارة فى الكلام كما هو رأى الجمهور وايراد الانسان مورد الضمير لان مدار الانكار متعلق بأحواله من حيث هو انسان كما فى قوله تعالى أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيأ وقوله تعالى (فاذا هو خصيم مبين) أى شديد الخصومة والجدال بالباطل عطف على الجملة المنفية داخل فى حيز الانكار والتعجيب كانه قيل أولم ير أنا خلقناه من أخس الاشياء وأمهنها ففاجأ خصومتنا فى أمر يشهد بصحته وتحققه مبدأ فطرته شهادة بينة وايراد الجملة الاسمية للدلالة على استقراره فى الخصومة واستمراره عليها روى أن جماعة من كفار قريش منهم أبى بن خلف الجمحى وأبو جهل والعاص ابن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا فى ذلك فقال لهم أبى بن خلف الا ترون الى ما يقول محمد ان الله يبعث الاموات ثم قال واللات والعزى لاصيرن اليه ولاخصمنه وأخذ عظما باليا فجعل يفتّه بيده ويقول يا محمد أترى الله يحيى هذا بعد ما رم قال صلى الله عليه وسلم نعم ويبعثك ويدخلك جهنم ان

فنزلت وقيل معنى قوله تعالى فاذا هو خصيم مبين فاذا هو بعد ما كان ماء مهينا رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما فى نفسه فصيح فهو

حينئذ معطوف على خلقناه غير داخل تحت الانكار والتعجب بل هو من متممات شواهد صحة البعث فقوله تعالى (وضرب لنا مثلا) معطوف
حينئذ على الجملة المنفية داخل فى حيز الانكار والتقبيح وأما على التقدير الاول فهو عطف على الجملة الفجائية والمعنى ففاجأ خصومتنا

أن يقول القائل زيد خارجا كان وما جوزنا زيد خارجا ليس لان كان فعل ظاهر وليس دونه فى الظهور وما جوزنا تأخيرهما عن أحد شطرى الكلام أيضا بخلاف ليس حيث لا يجوز أن يقول القائل زيد ما بظلام الا أن يعيد ما يرجع اليه فيقول زيد ماهو بظلام فصار بينهما ترتيب ما بوجه وليس يؤخر عن أحد الشطرين ولا يؤخر فى الكلام بالكلية وكان يؤخر بالكلية لما ذكرنا من الظهور والخفاء فكذلك القول فى الحاق الباء كان ينبغى ان لا يصح اخلاء خبر ما عن الباء وفى ليس يجوز الامران وفى كان لا يجوز الادخال وهذا هو المعتمد عليه فى لغة بنى تميم حيث قالوا ان ما بعد ما اذا جعل خبرا يجب ادخال الباء عليه فان لم تدخل عليه يكون ذلك معربا على الابتداء أو على وجه آخر ولا يكون خبرا والجواب عن السؤال هو ان نقول الاكثر ادخال الباء فى خبر ما ولا سيما فى القرآن قال الله تعالى وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم وما أنت بمسمع وما هم بخارجين وما أنا بظلام وأما الوجوب فلا لان ما أشبه ليس فى المعنى فى الحقيقة وخالفها فى العوارض وهو لحوق التاء والنون وأما فى المعنى فهما للنفى الحال فالشبه مقتض لجواز الاخلاء والمخالفة مقتضية لوجوب الادخال لكن ذلك المقتضى أقوى لانه راجع الى الامر الحقيقى وهذا راجع الى الامر العارضى وما بالنفس أقوى مما بالعارض وأما التقديم والتأخير فلا يلزم منه وجوب ادخال الباء * وأما الكلام فى اللام فنقول اللام لتحقيق معنى الاضافة يقال غلام زيد وغلام لزيد وهذا فى الاضافات الحقيقية باثبات التنوين فيه وأما فى الاضافات اللفظية كقولنا ضارب زيد وقاتل عمرو فان الاضافة فيه غير معنوية فاذا خرج الضارب عن كونه مضافا باثبات التنوين فقد كان يجب ان يعاد الاصل وينصب ما كان مضافا اليه الفاعل بالمفعول به ولا يؤتى باللام لانه حينئذ لم تبق الاضافة فى اللفظ ولم تكن اضافة فى المعنى غير ان اسم الفاعل منحط الدرجة عن الفعل فصار تعلقه بالمفعول أضعف من تعلق الفعل بالمفعول وصار من باب الافعال الضعيفة التعلق حيث بينا جواز تعديتها الى المفعول بحرف وغير حرف فلذلك جاز أن يقال ضارب زيدا وضارب لزيد كما جاز مسحته ومسحت به وشكرته وشكرت له وذلك اذا تقدم المفعول كما فى قوله تعالى ان كنتم للرؤيا تعبرون للضعف (وأما المعنوية فمباحث) الاول الظلام مبالغة فى الظالم ويلزم من اثباته اثبات أصل الظلم اذا قال القائل هو كذاب يلزم ان يكون كاذبا كثر كذبه ولا يلزم من نفيه نفى أصل الكذب لجواز أن يقال فلان ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحيانا ففى قوله تعالى وما أنا بظلام لا يفهم منه نفى أصل الظلم والله ليس بظالم فما الوجه فيه نقول الجواب عنه من ثلاثة أوجه (أحدها) ان الظلام بمعنى الظالم كالتمار بمعنى التامر وحينئذ يكون اللام فى قوله للعبيد لتحقيق النسبة لان الفعال حينئذ بمعنى ذى ظلم وهذا وجه جيد مستفاد من الامام زين الدين أدام الله فوائده (والثانى) ماذكره الزمخشرى وهو ان ذلك أمر تقديرى كانه تعالى يقول لو ظلمت عبدى الضعيف الذى هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم وما أنا بذلك فيلزم من نفى كونه ظلاما نفى كونه ظالما ويحقق هذا الوجه اظهار لفظ العبيد حيث يقول ما أنا بظلام للعبيد أى فى ذلك اليوم الذى امتلأت جهنم مع سعتها حتى تصيح وتقول لم يبق لى طاقة بهم ولم يبق فى موضع لهم فهل من مزيد استفهام استكثار فذلك اليوم مع انى ألقى فيها عددا لا حصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم وهذا مناسب وذلك لانه تعالى خصص النفى بالزمان حيث قال ما أنا بظلام يوم نقول أى وما أنا بظلام فى جميع الازمان أيضا وخصص بالعبيد حيث قال وما أنا بظلام للعبيد ولم يطلق فكذلك خصص النفى بنوع من أنواع الظلم ولم يطلق فلم يلزم منه أن يكون ظالما فى غير ذلك الوقت وفى حق غير العبيد وان خصص والفائدة فى التخصيص انه أقرب الى التصديق من التعميم (والثالث) هذا يدل على ان التخصيص بالذكر لا يدل على نفى ما عداه لانه نفى كونه ظلاما ولم يلزم منه نفى كونه ظالما ونفى كونه ظلاما للعبيد ولم يلزم منه نفى كونه ظلاما لغيرهم كما قال فى حق الآدمى ومنهم ظالم لنفسه (البحث الثانى) قال ههنا وما أنا بظلام للعبيد من غير اضافة وقال ما أنت بهادى العمى وما أنت

وضرب لنا مثلا أى أورد فى شأننا قصة عجيبة فى نفس الامر هى فى الغرابة والبعد عن العقول كالمثل وهى انكار احيائنا العظام أو قصة عجيبة فى زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل وأنكرها أشد الانكار وهى احياؤنا اياها وجعل لنا مثلا ونظيرا من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ونفى الكل على العموم وقوله تعالى (ونسى خلقه) أى خلقنا اياه على الوجه المذكور الدال على بطلان ما ضرب اما عطف على ضرب داخل فى حيز الانكار والتعجب أو حال من فاعله باضمار قد أو بدونه وقوله تعالى (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية ضربه المثل كأنه قيل أى مثل ضرب أو ماذا قال فقيل (قال من يحيى العظام) منكرا له أشد التنكير مؤكدا له بقوله تعالى (وهى رميم) أى بالية أشد البلى بعيدة من الحياة غاية البعد فالمثل على الاول هو انكار احيائه تعالى للعظام فانه أمر عجيب فى نفس الامر حقيق لغرابته وبعده من العقول بأن يعد مثلا ضرورة جزم العقول ببطلان الانكار ووقوع المنكر لكونه كالانشاء بل أهون منه فى قياس العقل وعلى الثانى هو احياؤه تعالى لها فانه أمر عجيب فى زعمه قد استبعده وعده من قبيل المثل وأنكره أشد الانكار مع انه فى نفس الامر أقرب شئ من الوقوع لما سبق من كونه مثل الانشاء أو أهون منه وأما على الثالث فلا فرق بين أن يكون المثل هو الانكار أو المنكر وعدم تأنيث الرميم مع وقوعه خبر المؤنث لانه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرفات وقد تمسك بظاهر الآية الكريمة من أثبت للعظم حياة وبنى عليه الحكم بنجاسة عظم الميتة وأما أصحابنا فلا يقولون بحياته كالشعر ويقولون المراد باحياء العظام ردها الى ما كانت عليه من

بسمع من فى القبور على وجه الاضافة فما الفرق بينهما نقول الكلام قد يخرج أولا مخرج العموم ثم يخصص لامر تما لا لغرض التخصيص يقول القائل فلان يعطى ويمنع ويكون غرضه التعميم فان سأل سائل يعطى من ويمنع من يقول زيدا وعمرا ويأتى بالمخصص لا لغرض التخصيص وقد يخرج أولا مخرج الخصوص فيقول فلان يعطى زيدا ماله اذا علمت هذا فقوله ما أنا بظلام كلام لو اقتصر عليه لكان للعموم فأتى بلفظ العبيد لا لكون عدم الظلم مختصا بهم بل لكونهم أقرب الى كونهم محل الظلم من نفسه تعالى وأما النبى صلى الله عليه وسلم فكان فى نفسه هاديا وانما أراد نفى ذلك الخاص فقال ما أنت بهادى العمى وما قال ما أنت بهاد وكذلك قوله تعالى أليس الله بكاف عبده (البحث الثالث) العبيد يحتمل أن يكون المراد منه الكفار كما فى قوله تعالى ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول يعنى أعذبهم وما أنا بظلام لهم ويحتمل أن يكون المراد منه المؤمنين ووجهه هو ان الله تعالى يقول لو بدلت القول ورحمت الكافر لكنت فى تكليف العباد ظالما لعبادى المؤمنين لانى منعتهم من الشهوات لاجل هذا اليوم فان كان ينال من لم يأت بما أتى المؤمن ما يناله المؤمن لكان اتيانه بما أتى به من الايمان والعبادة غير مفيد فائدة وهذا معنى قوله تعالى لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ومعنى قوله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقوله تعالى لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ويحتمل أن يكون المراد التعميم ۞ ثم قال تعالى ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ العامل فى يوم ماذا فيه وجوه (الاول) ما أنا بظلام مطلقا (والثانى) الوقت حيث قال ما أنا يوم كذا ولم يقل ما أنا بظلام فى سائر الازمان وقد تقدم بيانه فان قيل فما فائدة التخصيص نقول النفى الخاص أقرب الى التصديق من النفى العام لان المتوهم ذلك فان قاصر النظر يقول يوم يدخل الله عبده الضعيف جهنم يكون ظالما له ولا يقول بانه يوم خلقه يرزقه ويربيه يكون ظالما ويتوهم انه يظلم عبده بادخاله النار ولا يتوهم انه يظلم نفسه أو غير عبيده المذكورين ويتوهم انه من يدخل خلقا كثيرا لا يحوزه حد ولا يدركه عد النار ويتركهم فيها زمانا لا نهاية له كثير الظلم فنفى ما يتوهم دون ما لا يتوهم وقوله هل امتلأت بيان لتصديق قوله تعالى لأملأن جهنم وقوله هل من مزيد فيه وجهان (أحدهما) انه لبيان استكثارها الداخلين كما ان من يضرب غيره ضربا مبرحا أو يشتمه شتما قبيحا فاحشا يقول المضروب هل بقى شئ آخر ويدل عليه قوله تعالى لأملأن لان الامتلاء لابد من أن يحصل فلا يبقى فى جهنم موضع خال حتى تطلب المزيد (والثانى) هو انها تطلب الزيادة وحينئذ لو قال قائل فكيف يفهم مع هذا معنى قوله تعالى لأملأن نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) ان هذا الكلام ربما يقع قبل ادخال الكل وفيه لطيفة وهى ان جهنم تتغيظ على الكفار فتطلبهم ثم يبقى فيها موضع لعصاة المؤمنين فتطلب جهنم امتلاءها لظنها بقاء أحد من الكفار خارجا فيدخل العاصى من المؤمنين فيبرد ايمانه حرارتها ويسكن ايقانه غيظها فتسكن وعلى هذا يحمل ما ورد فى بعض الاخبارات جهنم تطلب الزيادة حتى يضع الجبار قدمه والمؤمن جبار متكبر على ما سوى الله تعالى ذليل متواضع لله (الثانى) أن تكون جهنم تطلب أولا سعة فى نفسها ثم مزيدا فى الداخلين لظنها بقاء أحد من الكفار (الثالث) ان الملء له درجات فان المكيل اذا ملئ من غير كبس صح أن يقال ملئ وامتلأ فاذا كبس يسع غيره ولا ينافى كونه ملآن أولا فكذلك فى جهنم ملأها الله ثم تطلب زيادة تضييقا للمكان عليهم وزيادة فى التعذيب والمزيد جاز أن يكون بمعنى المفعول أى هل بقى أحد تزيده به ۞ ثم قال تعالى ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ بمعنى قريبا أو بمعنى قربت والاول أظهر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه التقريب مع ان الجنة مكان والامكنة يقرب منها وهى لا تقرب نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ان الجنة لا تزال ولا تنقل ولا المؤمن يؤمر فى ذلك اليوم بالانتقال اليها مع بعدها لكن الله تعالى يطوى المسافة التى بين المؤمن والجنة فهو التقريب فان قيل فعلى هذا ليس ازلاف الجنة من

الغضاضة والرطوبة فى بدن حى حساس (قل) تبكيتا له بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال وارشادا له الى طريقة الاستشهاد بها (يحييها الذى أنشأها أول مرة) فان تدبرته كما (٤٤٠) هى لاستحالة التغير فيها او المادة على حالها (وهو بكل خلق عليم) مبالغ فى العلم بتفاصيل كيفيات الخلق والايجاد انشاء واعادة محيط بجميع الاجزاء المفتتة المتبددة لكل شخص من الاشخاص أصولها وفروعها وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلا من ذلك على النمط السابق مع القوى التى كانت قبل والجملة اما اعتراض تذييلى مقرر لمضمون الجواب أو معطوفة على الصلة والعدول الى الجملة الاسمية للتنبيه على أن علمه تعالى بما ذكر أمر مستمر ليس كانشائه للمنشآت وقوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا) بدل من الموصول الاول وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته للتأكيد ولتفاوتهما فى كيفية الدلالة أى خلق لاجلكم ومنفعتكم منه نارا على أن الجعل ابداعى والجاران متعلقان به قدما على مفعوله الصريح مع تأخرهما عنه رتبة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ووصف الشجر بالاخضر نظرا الى اللفظ وقد قرئ الخضراء نظرا الى المعنى وهو المرخ والعفار يقطع الرجل منهما عصيتين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتنقدح النار باذن الله تعالى وذلك قوله تعالى (فاذا أنتم منه توقدون) فمن قدر على احداث النار من الشجر الاخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيته كان أقدر على اعادة الغضاضة الى ما كان غضا تطرأ عليه اليبوسة والبلى وقوله تعالى (أو ليس الذى خلق السموات والارض) الخ استئناف مسوق من جهته عزوجل لتحقيق مضمون الجواب الذى أمر عليه الصلاة والسلام بان يخاطبهم بذلك ويلزمهم الحجة والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أليس الذى أنشأها أول مرة وليس الذى جعل لهم

المؤمن

من الشجر الاخضر نارا اوليس الذى خلق السموات والارض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما (بقادر على أن يخلق مثلهم) فى الصغر والقماءة بالنسبة
اليهما فان بديهة العقل قاضية بأن من قدر على خلقهما فهو على خلق الاناسى أقدر كما قال تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق

المؤمن بأولى من ازلاف المؤمن من الجنة فما الفائدة فى قوله أزلفت الجنة نقول اكراما للمؤمن كأنه تعالى أراد بيان شرف المؤمن المتقى انه ممن يمشى اليه ويدنى منه (الثانى) قربت من الحصول فى الدخول لا بمعنى القرب المكانى يقال يطلب من الملك أمرا خطيرا والملك بعيد عن ذلك ثم اذا رأى منه مخايل انجاز حاجته يقال قرب الملك ومازلت أنهى اليه حالك حتى قربته فكذلك الجنة كانت بعيدة الحصول لانها بما فيها لا قيمة لها ولا قدرة للمكلف على تحصيلها لولا فضل الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم ما من أحد يدخل الجنة الا بفضل الله تعالى فقيل ولا أنت يارسول الله فقال ولا أنا وعلى هذا فقوله غير نصب على الحال تقديره قربت من الحصول ولم تكن بعيدة فى المسافة حتى يقال كيف قربت (الثالث) هو ان الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء الى الارض فيقربها للمؤمن وأما ان قلنا انها قربت فمعناه جمعت محاسنها كما قال تعالى فيها ماتشتهى الانفس (المسألة الثانية) على هذا الوجه وعلى قولنا قربت تقريب حصول ودخول فهو يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون قوله تعالى وأزلفت أى فى ذلك اليوم ولم يكن قبل ذلك وأما فى جمع المحاسن فربما يزيد الله فيها زينة وقت الدخول وأما فى الحصول فلان الدخول قبل ذلك كان مستبعدا اذ لم يقدر الله دخول المؤمنين الجنة فى الدنيا ووعد به فى الآخرة فقربت فى ذلك اليوم (وثانيهما) ان يكون معنى قوله تعالى وأزلفت الجنة أى أزلفت فى الدنيا اما بمعنى جمع المحاسن فلانها مخلوقة وخلق فيها كل شئ واما بمعنى تقريب الحصول فلانها تحصل بكلمة حسنة وأما على تفسير الازلاف بالتقريب المكانى فلا يكون ذلك محمولا الا على ذلك الوقت أى أزلفت فى ذلك اليوم للمتقين (المسألة الثالثة) ان حمل على القرب المكانى فما الفائدة فى الاختصاص بالمتقين مع ان المؤمن والكافر فى عرصة واحدة فنقول قد يكون شخصان فى مكان واحد وهناك مكان آخر هو الى أحدهما فى غاية القرب وعن الآخر فى غاية البعد مثاله مقطوع الرجلين والسليم الشديد العدو اذا اجتمعا فى موضع وبحضرتهما شئ لا تصل اليه اليد بالمد فذلك بعيد عن المقطوع وهو فى غاية القرب من العادى أو نقول اذا اجتمع شخصان فى مكان وأحدهما أحيط به بسد من حديد ووضع بقربه شئ لا تناله يده بالمد والآخر لم يحط به ذلك السد يصح ان يقال هو بعيد عن المسدود وقريب من المحظوظ والمجدود وقوله تعالى غير بعيد يحتمل ان يكون نصبا على الظرف يقال اجلس غير بعيد منى أى مكانا غير بعيد وعلى هذا فقوله غير بعيد يفيد التأكيد وذلك لان القريب قد يكون بعيدا بالنسبة الى شئ فان المكان الذى هو على مسيرة يوم قريب بالنسبة الى البلاد النائية وبعيد بالنسبة الى متنزهات المدينة فاذا قال قائل أيما أقرب المسجد الاقصى أو البلد الذى هو بأقصى المغرب أو المشرق يقال له المسجد الاقصى قريب وان قال أيهما أقرب هو أو البلد يقال له هو بعيد فقوله تعالى أزلفت غير بعيد أى قربت قربا حقيقيا لا نسبيا حيث لا يقال فيها انها بعيدة عنه مقايسة أو مناسبة ويحتمل أن يكون نصبا على الحال تقديره قربت حال كون ذلك غاية التقريب أو نقول على هذا الوجه يكون معنى أزلفت قربت وهى غير بعيد فيحصل المعنيان جميعا الاقراب والاقتراب أو يكون المراد القرب والحصول لا للمكان فيحصل معنيان القرب المكانى بقوله غير بعيد والحصول بقوله أزلفت وقوله غير بعيد مع قوله أزلفت على التأنيث يحتمل وجوها (الاول) اذا قلنا ان غير نصب على المصدر تقديره مكانا غير بعيد (الثانى) التذكير فيه كما فى قوله تعالى ان رحمة الله قريب اجراء لفعيل بمعنى فاعل مجرى فعيل بمعنى مفعول (الثالث) ان يقال غير منصوب نصبا على المصدر على انه صفة مصدر محذوف تقديره أزلفت الجنة ازلافا غير بعيد أى عن قدرتنا فانا قد ذكرنا ان الجنة مكان والمكان لا يقرب وانما يقرب منه فقال الازلاف غير بعيد عن قدرتنا فانا نطوى المسافة بينهما ۞ ثم قال تعالى (هذا ماتوعدون) قال الزمخشرى هى جملة معترضة بين كلامين وذلك لان قوله تعالى لكل أواب بدل عن المتقين كأنه تعالى قال أزلفت الجنة للمتقين لكل أواب كما فى قوله تعالى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم غير ان ذلك بدل

الناس وقرئ يقدر وقوله تعالى (بلى) جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الاستفهام الانكارى من تقرير ما بعد النفى وايذان بتعين الجواب نطقوا به او تلعثموا فيه مخافة الالزام وقوله تعالى (وهو الخلاق العليم) عطف على مايفيده الايجاب أى بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ فى الخلق والعلم كيفا وكما (انما أمره) أى شأنه (اذا اراد شيأ) من الاشياء (أن يقول له كن) أى أن يعلق به قدرته (فيكون) فيحدث من غير توقف على شئ آخر أصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المطاع المأمور المطيع فى سرعة حصول المأمور به من غير توقف على شئ ما وقرئ فيكون بالنصب عطفا على يقول (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ) تنزيه له عز وعلا عما وصفوه تعالى به وتعجيب مما قالوا فى شأنه تعالى وقدم تحقيق معنى سبحان والفاء للاشارة الى أن ما فصل من شؤونه تعالى موجبة لتنزهه وتنزيهه أكمل ايجاب كما أن وصفه تعالى بالمالكية الكلية المطلقة للاشعار بأنها مقتضية لذلك أتم اقتضاء والملكوت مبالغة فى الملك كالرحموت والرهبوت وقرئ ملكة كل شئ ومملكة كل شئ وملك كل شئ (واليه ترجعون) لا الى غيره وقرئ ترجعون بفتح التاء من الرجوع وفيه من الوعد والوعيد مالا يخفى * عن ابن عباس رضى الله عنهما كنت لا أعلم ماروى فى فضائل يس وقراءتها كيف
خصت بذلك فاذا انه لهذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل شئ قلبا وان قلب القرآن
يس من قرأها يريد بها وجه الله تعالى غفر الله له وأعطى من الاجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة وأيما مسلم قرئ عنده اذا نزل به ملك

الاشتمال وهـذا بدل الكل وقال هـذا اشارة الى الثواب أى هـذا الثواب ماتوعـدون أوالى الازلاف المدلول عليه بقوله أزلفت أى هـذا الازلاف ماوعدتم به ويحتمل أن يقال هو كلام مستقل ووجهه ان ذلك محمول على المعنى لاماوعد به يقال للموعود هذا لك وكانه تعالى قال هذا ماقلت انه لكم ۞ ثم قال تعالى ﴿لكل أواب حفيظ﴾ بدلا عن الضمير فى توعدون وكذلك ان قرئ بالياء يكون تقديره هذا لكل أواب بدلا عن الضمير والاواب الرجاع قيل هو الذى يرجع من الذنوب ويستغفر والحفيظ الحافظ الذى يحفظ توبته من النقض ويحتمل أن يقال الاواب هو الرجاع الى الله بفكره والحفيظ الذى يحفظ الله فى ذكره أى رجع اليه بالفكر فيرى كل شئ واقعا به وموجودا منه ثم اذا انتهى اليه حفظه بحيث لاينساه عند الرخاء والنعماء والاواب والحفيظ كلاهما من باب المبالغة أى يكون كثير الاوب شديد الحفظ وفيه وجوه اخر أدق وهو ان الاواب هو الذى رجع عن متابعة هواه فى الاقبال على ماسواه والحفيظ هو الذى اذا أدركه بأشرف قواه لايتركه فيكمل بها تقواه ويكون هـذا تفسيرا للمتقى لان المتقى هو الذى اتقى الشرك والتعطيل ولم ينكره ولم يعترف بغيره والاواب هو الذى لايعترف بغيره ويرجع عن كل شئ غير الله تعالى والحفيظ هو الذى لم يرجع عنه الى شئ مما عداه ۞ ثم قال تعالى ﴿من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ وفى من وجوه (أحدها) وهو أغربها انه منادى كانه تعالى قال يامن خشى الرحمن ادخلوها بسلام وحذف حرف النداء شائع (وثانيها) من بدل عن كل فى قوله تعالى لكل أواب من غير اعادة حرف الجر تقديره أزلفت الجنة لمن خشى الرحمن بالغيب (ثالثها) فى قوله تعالى أواب حفيظ موصوف معلوم غير مذكور كأنه يقول لكل شخص أواب أو عبد أو غير ذلك فقوله تعالى من خشى الرحمن بالغيب بدل عن ذلك الموصوف هـذه وجوه ثلاثة ذكرها الزمخشرى وقال لايجوز أن يكون بدلا عن أواب أو حفيظ لان أواب وحفيظ قد وصف به موصوف معلوم غير مذكور كما بيناه والبدل فى حكم المبدل منه فتكون من موصوفا بها ومن لايوصف بها لايقال الرجل من جاءنى جالسنى كما يقال الرجل الذى جاءنى جالسنى هـذا تمام كلام الزمخشرى فان قال قائل اذا كان من والذى يشتركان فى كونهما من الموصولات فلما ذا لايشتركان فى جواز الوصف بهما نقول الامر معقول نبينه فى ماومنه يتبين الامر فيه فنقول ما اسم مبهم يقع على كل شئ فمفهومه هو شئ لكن الشئ هو أعم الاشياء فان الجوهر شئ والعرض شئ والواجب شئ والممكن شئ والاعم قبل الاخص فى الفهم لانك اذا رأيت من البعد شبحا تقول أولا انه شئ ثم اذا ظهر لك منه مايختص بالناس تقول انسان فاذا بان لك انه ذكر قلت هو رجل فاذا وجدته ذا قوة تقول شجاع الى غير ذلك فالاعم أعرف وهو قبل الاخص فى الفهم فمفهوم ماقبل كل شئ فلا يجوز أن يكون صفة لان الصفة بعد الموصوف هذا من حيث المعقول وأما من حيث النحو فلان الحقائق لايوصف بها فلا يقال جسم رجل جاءنى كما يقال جسم ناطق جاءنى لان الوصف يقوم بالموصوف والحقيقة تقوم بنفسها لابغيرها وكل مايقع وصفا للغير يكون معناه شئ له كذا فقولنا عالم معناه شئ له علم أو عالمية فيدخل فى مفهوم الوصف شئ مع أمر آخر وهو له كذا لكن ما لمجرد شئ فلا يوجد فيه مايتم به الوصف وهو الامر الآخر الذى معناه ذو كذا فلم يجز أن يكون صفة واذا بان القول فن فى العقلاء كما فى غيرهم وفيهم فن معناه انسان أو ملك أو غيرهما من الحقائق العاقلة والحقائق لاتقع صفات وأما الذى يقع على الحقائق والاوصاف ويدخل فى مفهومه تعريف أكثر مما يدخل فى مجاز الوصف بما دون من ✽ وفى الآية لطائف معنوية (الاولى) الخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة لكن بينهما فرق وهو ان الخشية من عظمة المخشى وذلك لان تركيب حروف خ ش ى فى تقاليبها يلزمه معنى الهيبة يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن وهما جميعا مهيبان والخوف خشية من ضعف الخاشى وذلك لان تركيب خ وف فى تقاليبها يدل على الضعف تدل عليه الخيفة والخفية ولولا قرب معناهما لما ورد فى القرآن تضرعا وخيفة وتضرعا وخفية

الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه وايما مسلم قرأ يس وهو فى سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان خازن الجنة بشربة من شراب الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث فى قبره وهو ريان ولايحتاج الى حوض من حياض الانبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان وقال صلى الله عليه وسلم ان فى القرآن سورة تشفع لقارئها وتستغفر لمستمعها ألا وهى سورة يس

✽(سورة والصافات مكية وآيها مائة واحدى أو اثنتان وثمانون آية)✽

✽(بسم الله الرحمن الرحيم)✽

(والصافات صفا) اقسام من الله عزوجل بطوائف الملائكة الفاعلات للصفوف على ان المراد ايقاع نفس الفعل من غير قصد الى المفعول أو الصافات أنفسها أى الناظمات لها فى سلك الصفوف بقيامها فى مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى ومامنا الا له مقام معلوم وعلى هذين المعنيين مدار قوله تعالى وانا لنحن الصافون وقيل الصافات أقدامها فى الصلاة وقيل اجنحتها فى الهواء (فالزاجرات زجرا) أى الفاعلات للزجر أو الزاجرات لما نيط بها زجره من الاجرام العلوية والسفلية وغيرها على وجه يليق بالمزجور ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصى وزجر الشياطين عن الوسوسة والاغواء وعن استراق السمع كما سيأتى وصفا وزجرا مصدران مؤكدان لما قبلهما أى صفا بديعا وزجرا بليغا وأما ذكرا فى قوله تعالى (فالتاليات ذكرا) فمفعول التاليات أى التاليات ذكرا عظيم الشان من آيات الله تعالى وكتبه المنزلة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرها من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد وقيل والمحقق هو أيضا مصدر مؤكد لما قبله فان التلاوة من باب الذكر ثم ان هـذه الصفات ان أجريت على الكل فعطفها بالفاء للدلالة على ترتبها فى الفضل

والمخشي فيه ضعف كالخائف اذا علمت هذا تبين لك اللطيفة وهي ان الله تعالى في كثير من المواضع ذكر لفظ الخشية حيث كان الخوف من عظمة المخشي قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقال لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله فان الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه وانما الله عظيم يخشاه كل قوي وهم من خشية ربهم مشفقون مع ان الملائكة أقوياء وقال تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه أي تخافهم اعظاما لهم اذ لا ضعف فيك بالنسبة اليهم وقال تعالى لا تخف ولا تحزن أي لا تخف ضعفا فانهم لا عظمة لهم وقال يخافون يوما حيث كان عظمة اليوم بالنسبة الى عظمة الله ضعيفة وقال لا تخافوا ولا تحزنوا أي بسبب مكروه يلحقكم من الآخرة فان المكروهات كلها مدفوعة عنكم وقال تعالى خائفا يترقب وقال اني أخاف أن يقتلون لوحدته وضعفه وقال هرون اني خشيت لعظمة موسى في عين هرون لا لضعف فيه وقال فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا حيث لم يكن لضعف فيه وحاصل الكلام انك اذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشي واذا نظرت الى استعمال الخوف وجدته مستعملا لخشية من ضعف الخائف وهذا في الاكثر وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية (الثانية) قال الله تعالى ههنا خشي الرحمن مع ان وصف الرحمة غالبا يقابل الخشية اشارة الى مدح المتقي حيث لم تمنعه الرحمة من الخوف بسبب العظمة وقال تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله اشارة الى ذم الكافر حيث لم تحمله الالوهية التي تنبئ عنها لفظة الله وفيها العظمة على خوفه وقال انما يخشى الله من عباده العلماء لان انما للحصر فكان فيه اشارة الى أن الجاهل لا يخشاه فذكر الله ليبين ان عدم خشيته مع قيام المقتضي وعدم المانع وهو الرحمة وقد ذكرنا ذلك في سورة يس ونزيد ههنا شيأ آخر وهو أن نقول لفظة الرحمن اشارة الى مقتضى الخشية لا الى المانع وذلك لان الرحمن معناه واهب الوجود بالخلق والرحيم واهب البقاء بالرزق وهو في الدنيا رحمن حيث أوجدنا بالرحمة ورحيم حيث أبقى بالرزق ولا يقال لغيره رحيم لان البقاء بالرزق قد يظن ان مثل ذلك يأتي ممن يطعم المضطر فيقال فلان هو الذي أبقى فلانا وهو في الآخرة أيضا رحمن حيث يوجدنا ورحيم حيث يرزقنا وذكرنا ذلك في تفسير الفاتحة حيث قلنا قال بسم الله الرحمن الرحيم اشارة الى كونه رحمانا في الدنيا حيث خلقنا رحيما في الدنيا حيث رزقنا رحمة ثم قال مرة أخرى بعد قوله الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم أي هو رحمن مرة أخرى في الآخرة يخلقنا ثانيا واستدللنا عليه بقوله بعد ذلك مالك يوم الدين أي يخلقنا ثانيا ورحيم يرزقنا ويكون هو المالك في ذلك اليوم اذا علمت هذا فمن يكون منه وجود الانسان لا يكون خوفه خشية من غيره فان القائل يقول لغيره أخاف منك أن تقطع رزقي أو تبدل حياتي فاذا كان الله تعالى رحمانا منه الوجود ينبغي أن يخشى فان من بيده الوجود بيده العدم وقال صلى الله عليه وسلم خشية الله رأس كل حكمة وذلك لان الحكيم اذا تفكر في غير الله وجده محل التغير يجوز عليه العدم في كل طرفة عين وربما يقدر الله عدمه قبل أن يتمكن من الاضرار ولان غير الله ان لم يقدر الله أن يضره لا يقدر على الضرر وان قدر عليه بتقدير الله فيزول الضرر بموت المعذب أو المعذب وأما الله تعالى فلا راد لما أراد ولا آخر لعذابه وقال تعالى بالغيب أي كانت خشيتهم قبل ظهور الامور حيث ترى رأي العين وقوله تعالى وجاء بقلب منيب اشارة الى صفة مدح أخرى وذلك لان الخاشي قد يهرب ويترك القرب من المخشي ولا ينتفع واذا علم المخشي انه تحت حكمه تعالى علم انه لا ينفعه الهرب فيأتي المخشي وهو خاش فقال وجاء ولم يذهب كما يذهب الآبق وقوله تعالى بقلب منيب الباء فيه يحتمل وجوها ذكرناها في قوله تعالى وجاءت سكرة الموت بالحق (أحدها) التعدية أي أحضر قلبا سليما كما يقال ذهب به اذا أذهبه (ثانيها) المصاحبة يقال اشترى فلان الفرس بسرجه أي مع سرجه وجاء فلان بأهله أي مع أهله (ثالثها) وهو أعرفها الباء للسبب يقال ما أخذ فلان الا بقول فلان وجاء بالرجاء له فكانه تعالى قال جاء وما جاء الا بسبب

اما يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة أو على العكس وان أجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة فهو للدلالة على ترتب الموصوفات في مراتب الفضل بمعنى أن طوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلا أو على العكس وقيل المراد بالمذكورات نفوس العلماء العمال الصافات أنفسها في صفوف الجماعات وأقدامها في الصلوات الزاجرات بالمواعظ والنصائح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرائعه وأحكامه وقيل طوائف الغزاة الصافات أنفسهم في مواطن الحروب كأنهم بنيان مرصوص أو طوائف قوادهم الصافات لهم فيها الزاجرات الخيل للجهاد سوقا والعدو في المعارك طردا التاليات آيات الله تعالى وذكره وتسبيحه في تضاعيف ذلك والكلام في العطف ودلالته على ترتب الصفات في الفضل أو ترتب موصوفاتها فيه كالذي سلف واما الدلالة على الترتب في الوجود كما في قوله

يالهف زيابة للحرث

الصابح فالغانم فالآيب

فغير ظاهرة في شئ من الطوائف المذكورة فانه لو سلم تقدم الصف على الزجر في الملائكة والغزاة فتأخر التلاوة عن الزجر غير ظاهر وقيل الصافات الطير من قوله تعالى والطير صافات والزاجرات كل ما يزجر عن المعاصي والتاليات كل من يتلو كتاب الله تعالى وقيل الزاجرات القوارع القرآنية وقرئ بادغام التاء في الصاد والزاي والذال (ان الهكم لواحد) جواب للقسم والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد بما هو المألوف في كلامهم من التأكيد القسمي وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به أعني قوله تعالى (رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) فان وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وأعدل شواهد وحدته كما مر في قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ورب خبر ثان لان أو خبر لمبتدا محذوف أي مالك السموات والارض وما بينهما من الموجودات ومربيها ومبلغها الى كمالاتها والمراد بالمشارق مشارق الشمس واعادة الرب فيها

لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم فانها ثلثمائة وستون مشرقا تشرق كل يوم من مشرق منها وبحسبها تختلف المغارب وتغرب كل يوم فى مغرب منها وأما قوله تعالى رب المشرقين ورب المغربين فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما (انا زينا السماء الدنيا) أى القربى منكم (بزينة) عجيبة بديعة (الكواكب) بالجر بدل من زينة على أن المراد بها الاسم أى ما زان به لا المصدر فان الكواكب بانفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأى زينة وقرئ بالاضافة على أنها بيانية لما أن الزينة مبهمة صادقة على كل ما زان به فتقع الكواكب بيانا لها ويجوز أن يراد بزينة الكواكب ما زينت هى به وهو ضوءها وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما بزينة الكواكب بضوء الكواكب هذا وأما على تقدير كون الزينة مصدرا فالمعنى على تقدير اضافتها الى الفاعل بان زانت الكواكب اياها وأصله بزينة الكواكب وعلى تقدير اضافتها الى المفعول بان زان الله الكواكب وحسنها وأصله بزينة الكواكب والمراد هو التزيين فى رأى العين فان جميع الكواكب من الثوابت والسيارات تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة فى سطح سماء الدنيا بصور بديعة واشكال رائعة ولا يقدح فى ذلك ارتكاز الثوابت فى الفلك الثامن وما عدا القمر فى الستة المتوسطة ان ثبت ذلك (وحفظا) منصوب اما بعطفه على زينة باعتبار المعنى كأنه قيل انا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا (من كل شيطان مارد) أى خارج عن الطاعة برمى الشهب واما باضمار فعله واما بتقدير فعل مؤخر معلل به كأنه قيل وحفظا من كل شيطان مارد زيناها بالكواكب كقوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وقوله تعالى (لا يسمعون الى الملأ الأعلى) كلام مبتدأ مسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفية الحفظ وما يعتريهم فى أثناء ذلك من العذاب ولا سبيل الى جعله صفة لكل شيطان ولا جوابا عن سؤال مقدر

انابة فى قلبه علم انه لا مرجع الا الى الله فجاء بسبب قلبه المنيب والقلب المنيب كالقلب السليم فى قوله تعالى اذ جاء ربه بقلب سليم أى سليم من الشرك ومن سلم من الشرك يترك غير الله ويرجع الى الله فكان منيبا ومن أناب الى الله برئ من الشرك فكان سليما ۞ ثم قال تعالى ((ادخلوها بسلام)) فالضمير عائد الى الجنة التى فى وأزلفت الجنة أى لما تكامل حسنها وقربها وقيل لهم انها منزلكم بقوله هذا ما توعدون اذن لهم فى دخولها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب مع من نقول ان قرئ ما توعدون بالتاء فهو ظاهر لا يخفى ان الخطاب مع الموعودين وان قرئ بالياء فالخطاب مع المتقين أى يقال للمتقين ادخلوها (المسئلة الثانية) هذا يدل على ان ذلك يتوقف على الاذن وفيه من الانتظار ما لا يليق بالاكرام نقول ليس كذلك فان من دعا مكرما الى بستانه يفتح له الباب ويجلس فى موضعه ولا يقف على الباب من يرحبه ويقول اذا بلغت بستانى فادخله وان لم يكن هناك أحد يكون قد أخل باكرامه بخلاف من يقف على بابه قوم يقولون ادخل باسم الله يدل على الاكرام قوله تعالى بسلام كما يقول المضيف ادخل مصاحبا بالسلامة والسعادة والكرامة والباء للمصاحبة فى معنى الحال أى سالمين مقرونين بالسلامة أو معناه ادخلوها مسلما عليكم يسلم الله وملائكته عليكم ويحتمل عندى وجها آخر وهو أن يكون ذلك ارشادا للمؤمنين الى مكارم الاخلاق فى ذلك اليوم كما أرشدوا اليها فى الدنيا حيث قال تعالى لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها فكأنه تعالى قال هذه داركم ومنزلكم ولكن لا تتركوا حسن عادتكم ولا تخلوا بمكارم أخلاقكم فادخلوها بسلام ويصيحون سلاما على من فيها ويسلم من فيها عليهم ويقولون السلام عليكم ويدل عليه قوله تعالى الا قيلا سلاما سلاما أى يسلمون على من فيها ويسلم من فيها عليهم وهذا الوجه ان كان منقولا فنعم وان لم يكن منقولا فهو مناسب معقول أيده دليل منقول ((ذلك يوم الخلود)) حتى لا يدخل فى قلبهم أن ذلك ربما ينقطع عنهم فتبقى فى قلبهم حسرته فان قيل المؤمن قد علم انه اذا دخل الجنة خلد فيها فما الفائدة فى التذكير والجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان قوله ذلك يوم الخلود قول قاله الله فى الدنيا اعلاما واخبارا وليس ذلك قولا يقوله عند قوله ادخلوها فكأنه تعالى أخبرنا فى يومنا أن ذلك اليوم يوم الخلود (ثانيهما) اطمئنان القلب بالقول أكثر قال الزمخشرى فى قوله يوم الخلود اضمار تقديره ذلك يوم تقدير الخلود ويحتمل أن يقال اليوم يذكر ويراد الزمان المطلق سواء كان يوما أو ليلا تقول يوم يولد لفلان ابن يكون السرور العظيم ولو ولد له بالليل لكان السرور حاصلا فتريد به الزمان فكأنه تعالى قال ذلك زمان الاقامة الدائمة ۞ ثم قال تعالى ((لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد)) وفى الآية ترتيب فى غاية الحسن وذلك لانه تعالى بدأ ببيان اكرامهم حيث قال وأزلفت الجنة للمتقين ولم يقل قرب المتقون من الجنة بيانا للاكرام حيث جعلهم ممن تنقل اليهم الجنان بما فيها من الحسان ثم قال لهم هذا لكم بقوله هذا ما توعدون ثم بين انه أجر أعمالهم الصالحة بقوله لكل أواب حفيظ وقوله من خشى الرحمن فان تصرف المالك الذى ملك شيأ بعوض أتم فيه من تصرف من ملك بغير عوض لامكان الرجوع فى التمليك بغير عوض ثم زاد فى الاكرام بقوله ادخلوها كما بينا أن ذلك اكرام لان من فتح بابه للناس ولم يقف ببابه من يرحب الداخلين لا يكون قد أتى بالاكرام التام ثم قال ذلك يوم الخلود أى لا تخافوا ما لحقكم من قبل حيث أخرج أبويكم منها فهذا دخول لا خروج بعده منها * ثم لما بين أنهم فيها خالدون قال لا تخافوا انقطاع أرزاقكم وبقاءكم فى حاجة كما كنتم فى الدنيا من كان يعمر ينكس ويحتاج بل لكم الخلود ولا ينفد ما تتمتعون به فلكم ما تشاؤن فى أى وقت تشاؤن والى الله المنتهى وعند الوصول اليه والمثول بين يديه فلا يوصف ما لديه ولا يطلع أحد عليه وعظمة من عنده تدلك على فضيلة ما عنده هذا هو الترتيب وأما التفسير ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال تعالى ادخلوها بسلام على سبيل المخاطبة ثم قال لهم ولم يقل لكم ما الحكمة فيه الجواب عنه من وجوه (الاول) هو أن قوله تعالى ادخلوها مقدر فيه يقال لهم أى يقال لهم ادخلوها فلا يكون على هذا التفاتا (الثانى) هو انه من باب

الالتفات

الالتفات والحكمة الجمع بين الطريقين كأنه تعالى يقول أكرمهم به فى حضورهم فى حضورهم الحبور وفى غيبتهم الحور والقصور (والثالث) هو ان يقال قوله تعالى لهم جاز أن يكون كلاما مع الملائكة يقول للملائكة توكلوا بخدمتهم واعلموا ان لهم ما يشاؤن فيها فأحضروا بين أيديهم ما يشاؤن وأما أنا فعندى مالا يخطر ببالهم ولا تقدرون أنتم عليه (المسئلة الثانية) قد ذكرنا ان لفظ مزيد يحتمل أن يكون معناه الزيادة فيكون كما فى قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول أى عندنا ما نزيده على ما يرجون ومما يكون مما يشتهون ۞ ثم قال تعالى ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا﴾ لما أنذرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الاليم أنذرهم بما يعجل لهم من العذاب المهلك والاهلاك المدرك وبين لهم حال من تقدمهم وقد تقدم تفسيره فى مواضع والذى يختص بهذا الموضع أمور (أحدها) اذا كان ذلك للجمع بين الانذار بالعذاب العاجل والعقاب الآجل فلم توسطهما قوله تعالى وأزلفت الجنة للمتقين الى قوله ولدينا مزيد نقول ليكون ذلك دعاء بالخوف والطمع فذكر حال الكفور المعاند وحال الشكور العابد فى الآخرة ترهيبا وترغيبا ثم قال تعالى ان كنتم فى شك من العذاب الابدى الدائم فأنتم فى ريب من العذاب العاجل المهلك الذى أهلك أمثالكم فان قيل فلم لم يجمع بين الترهيب والترغيب فى العاجلة كما جمع بينهما فى الآجلة ولم يذكر حال من أسلم من قبل وانعم عليه كما ذكر حال من أشرك به فأهلكه نقول لان النعمة كانت قد وصلت اليهم وكانوا متقلبين فى النعم فلم يذكرهم به وانما كانوا غافلين عن الهلاك فأنذرهم به وأما فى الآخرة فكانوا غافلين عن الامرين جميعا فأخبرهم بهما (الثانى) قوله تعالى ﴿فنقبوا فى البلاد﴾ فى معناه وجوه (أحدها) هو ما قال تعالى فى حق ثمود الذين جابوا الصخر بالواد من قوتهم خرقوا الطرق ونقبوها وقطعوا الصخور وثقبوها (ثانيها) نقبوا أى ساروا فى الاسفار ولم يجدوا ملجأ ومهربا وعلى هذا يحتمل أن يكون المراد أهل مكة أى هم ساروا فى الاسفار ورأوا ما فيها من الآثار (ثالثها) فنقبوا فى البلاد أى صاروا نقباء فى الارض أراد ما أفادهم بطشهم وقوتهم ويدل على هذا الفاء لانها تصير حينئذ مفيدة ترتب الامر على مقتضاه تقول كان زيد أقوى من عمرو فغلبه وكان عمرو مريضا فغلبه زيد كذلك ههنا قال تعالى هم أشد منهم بطشا فصاروا نقباء فى الارض وقرئ فنقبوا بالتشديد وهو أيضا يدل على ما ذكرنا فى الوجه الثالث لان التنقيب البحث وهو من نقب بمعنى صار نقيبا (الثالث) قوله تعالى ﴿هل من محيص﴾ يحتمل وجوها ثلاثة (الاول) على قراءة من قرأ بالتشديد يحتمل ان يقال هو مفعول أى بحثوا عن المحيص هل من محيص (الثانى) على القراآت جميعا استفهام بمعنى الانكار أى لم يكن لهم محيص (الثالث) هو كلام مستأنف كأنه تعالى يقول لقوم محمد صلى الله عليه وسلم هم أهلكوا مع قوة بطشهم فهل من محيص لكم تعتمدون عليه والمحيص كالمحيد غير ان المحيص معدل ومهرب عن الشدة يدلك عليه قولهم وقعوا فى حيص بيص أى فى شدة وضيق والمحيد معدل وان كان لهم بالاختيار يقال حاد عن الطريق نظرا ولا يقال حاص عن الامر نظرا ۞ ثم قال تعالى ﴿ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ الاشارة الى الاهلاك ويحتمل أن يقال هو اشارة الى ما قاله من ازلاف الجنة وملء جهنم وغيرهما والذكرى اسم مصدر هو التذكر والتذكرة وهى فى نفسها مصدر ذكره يذكره ذكرا وذكرى وقوله لمن كان له قلب قيل المراد قلب موصوف بالوعى أى لمن كان له قلب واع يقال لفلان مال أى كثير فالتنكير يدل على معنى فى الكمال والاولى أن يقال هو لبيان وضوح الامر بعد الذكر وأن لا خفاء فيه لمن كان له قلب ما ولو كان غير كامل كما يقال أعطه شيأ ولو كان درهما ونقول الجنة لمن عمل خيرا ولو حسنة فكأنه تعالى قال ان فى ذلك لذكرى لمن يصح أن يقال له قلب وحينئذ فمن لا يتذكر لا قلب له أصلا كما فى قوله تعالى صم بكم عمى حيث لم تكن آذانهم وألسنتهم وأعينهم مفيدة لما يطلب منها كذلك من لا يتذكر كأنه لا قلب له ومنه قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل أى هم كالجماد وقوله تعالى كأنهم خشب مسندة أى لهم صور وليس لهم قلب للذكر ولا لسان للشكر

لعدم استقامة المعنى ولا علة للحفظ على أن يكون الاصل لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت من قولك جئتك أن تكرمنى فبقى أن لا يسمعوا ثم يحذف أن ويهدر عملها كما فى قول من قال * ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى * لما أن كل واحد من ذينك الحذفين غير منكر بانفراده فأما اجتماعهما فمن أنكر المنكرات التى يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن أمثالها وأصل يسمعون يتسمعون والملأ الاعلى الملائكة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الكتبة وعنه أشراف الملائكة عليهم الصلاة والسلام أى لا يتطلبون السماع والاصغاء اليهم وقرئ يسمعون بالتخفيف (ويقذفون) يرمون (من كل جانب) من جميع جوانب السماء اذا قصدوا الصعود اليها (دحورا) علة للقذف أى للدحور وهو الطرد أو حال بمعنى مدحورين أو مصدر مؤكد له لانهما من واد واحد وقرئ دحورا بفتح الدال أى قذفا دحورا مبالغا فى الطرد وقد جوز أن يكون مصدرا كالقبول والولوع (ولهم عذاب واصب) أى ولهم فى الآخرة غير ما فى الدنيا من عذاب الرجم بالشهب عذاب شديد دائم غير منقطع كقوله تعالى وأعتدنا لهم عذاب السعير (الا من خطف الخطفة) استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة وقرئ بكسر الخاء والطاء المشددة وبفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها وأصلهما اختطف (فأتبعه شهاب) أى تبعه ولحقه وقرئ فاتبعه والشهاب ما يرى منقضا من السماء (ثاقب) مضىء فى الغاية كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين اذا صعدوا لاستراق السمع فيقتلهم أو يحرقهم أو يخبلهم قالوا وانما يعود من يسلم منهم حيا طمعا فى السلامة ونيل المراد كراكب السفينة (فاستفتهم) فاستخبر مشركى مكة (أهم أشد خلقا) أى أقوى خلقة وأمتن بنية أو أصعب خلقا وأشق ايجادا (أم من خلقنا) من الملائكة والسماء والارض وما بينهما والمشارق والكواكب

۞ وقوله تعالى (أو ألقى السمع وهو شهيد) أي استمع والقاء السمع كناية فى الاستماع لان من لا يسمع فكأنه حفظ سمعه وأمسكه فاذا أرسله حصل الاستماع فان قيل على قول من قال التنكير فى القلب للتكثير يظهر حسن ترتيب فى قوله أو ألقى السمع وذلك لانه يصير كانه تعالى يقول ان فى ذلك لذكرى لمن كان ذا قلب واع ذكى يستخرج الامور بذكائه أو ألقى السمع و يستمع من المنذر فيتذكر وأما على قولك المراد من صح ان يقال له قلب ولو كان غير واع لا يظهر هذا الحسن نقول على ماذكرنا بما يكون الترتيب أحسن وذلك لان التقدير يصير كانه تعالى قال فيه ذكرى لكل من كان له قلب ذكى يستمع و يتعلم ونحن نقول الترتيب من الادنى الى الاعلى كانه يقول فيه ذكرى لكل واحد كيف كان قلبه لظهور الامر فان كان لا يحصل لكل أحد فلمن يستمع حاصل و يؤيد ماذكرنا قوله تعالى أو ألقى السمع حيث لم يقل أو استمع لان الاستماع ينبئ عن طلب زائد وأما القاء السمع فمعناه ان الذكرى حاصلة لمن لا يمسك سمعه بل يرسله ارسالا وان لم يقصد السماع كالسامع فى الصوت الهائل فانه يحصل عند مجرد فتح الاذن وان لم يقصد السماع والصوت الخفى لا يسمع الا باستماع وتطلب فنقول الذكرى حاصلة لمن كان له قلب كيف كان قلبه لظهورها فان لم تحصل فلمن له اذن غير مسدودة كيف كان حاله سواء استمع باجتهاد أولم يجتهد فى سماعه فان قيل فقوله تعالى وهو شهيد للحال وهو يدل على أن القاء السمع بمجرده غير كاف نقول هذا يصحح ماذكرناه لا نا قلنا بأن الذكرى حاصلة لمن له قلب ما فان لم تحصل له فتحصل له اذا ألقى السمع وهو حاضر باله من القلب وأما على الاول فمعناه من ليس له قلب واع يحصل له الذكر اذا ألقى السمع وهو حاضر بقلبه فيكون عند الحضور بقلبه يكون له قلب واع وقد فرض عدمه هذا اذا قلنا بان قوله وهو شهيد بمعنى الحال واذا لم نقل به فلا يرد ماذكر وهو يحتمل غير ذلك بيانه هو أن يقال ذلك اشارة الى القرآن وتقريره هو ان الله تعالى لما قال فى أول السورة ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم وذكر ما يدفع تعجبهم و بين كونه منذرا صادقا وكون الحشر أمرا واقعا ورغب وأرهب بالثواب والعذاب آجلا وعاجلا وأتم الكلام قال ان فى ذلك أى القرآن الذى سبق ذكره لذكرى لمن له قلب أولمن يستمع ثم قال وهو شهيد أى المنذر الذى تعجبتم منه شهيد كما قال تعالى انا أرسلناك شاهدا وقال تعالى ليكون الرسول عليكم شهيدا ۞ ثم قال تعالى (ولقد خلقنا السموات والارض ومابينهما فى ستة أيام ومامسنا من لغوب) أعاد الدليل مرة أخرى وقد ذكرنا تفسير ذلك فى الم السجدة وقلنا ان الاجسام ثلاثة أجناس أحدها السموات ثم حركها وخصصها بامور ومواضع وكذلك الارض خلقها ثم دحاها وكذلك ما بينهما خلق أعيانها وأصنافها فى ستة أيام اشارة الى ستة أطوار والذى يدل عليه و يقرره هو ان المراد من الايام لا يمكن أن يكون هو المفهوم فى وضع اللغة لان اليوم عبارة فى اللغة عن زمان مكث الشمس فوق الارض من الطلوع الى الغروب وقبل خلق السموات لم يكن شمس ولا قمر لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت يقال يوم يولد للملك ابن يكون سرور عظيم ويوم يموت فلان يكون حزن شديد وان اتفقت الولادة أو الموت ليلا ولا يتعين ذلك ويدخل فى مراد العاقل لانه أراد باليوم مجرد الحين والوقت اذا علمت الحال من اضافة اليوم الى الافعال فافهم ما عند اطلاق اليوم فى قوله ستة أيام وقال بعض المفسرين المراد من الآية الرد على اليهود حيث قالوا بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الاحد وفرغ منه فى ستة أيام آخرها يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على عرشه فقال تعالى ومامسنا من لغوب ردا عليهم والظاهر ان المراد الرد على المشرك والاستدلال بخلق السموات والارض ومابينهما وقوله تعالى ومامسنا من لغوب أى ما تعبنا بالخلق الاول حتى لا نقدر على الاعادة ثانيا والخلق الجديد كما قال تعالى أفعيينا بالخلق الاول وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو اما تحريف منهم أولم يعلموا تأويله وذلك لان الاحد والاثنين أزمنة متميز بعضها عن بعض فلو كان خلق السموات ابتدئ يوم الاحد لكان الزمان متحققا قبل الاجسام والزمان لا ينفك عن الاجسام فيكون قبل خلق الاجسام اجسام أخر فيلزم القول بقدم العالم وهو

والشهب الثواقب ومن لتغليب العقلاء على غيرهم ويدل عليه اطلاقه ومجيئه بعد ذلك لاسيما قراءة من قرأ أم من عددنا وقوله تعالى (انا خلقناهم من طين لازب) فانه الفارق بينهم (٤٤٦) و بينها الا بينهم و بين من قبلهم من الامم كعاد وثمود ولان المراد اثبات المعاد ورد استحالتهم والامر فيه بالاضافة اليهم والى من قبلهم سواء وقرئ لازم ولاتب (بل عجبت) أى من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وانكارهم للبعث (و يسخرون) من تعجبك وتقريرك للبعث وقرئ بضم التاء على معنى انه بلغ كمال قدرتي وكثرة مخلوقاتي الى حيث عجبت منها وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفاعيله و يسخروا ممن يجوزه والعجب من الله تعالى اما على الفرض والتخييل أو على معنى الاستعظام اللازم له فانه روعة تعترى الانسان عند استعظام الشئ وقيل انه مقدر بالقول أى قل يا محمد بل عجبت (واذا ذكروا) أى ودأبهم المستمر أنهم اذا وعظوا بشئ من المواعظ (لا يذكرون) لا يتعظون واذا ذكر لهم ما يدل على صحة البعث لا ينتفعون به لغاية بلادتهم وقصور فكرهم (واذا رأوا آية) أى معجزة تدل على صدق القائل به (يستسخرون) يبالغون فى السخرية و يقولون انه سحر أو يستدعى بعضهم من بعض أن يسخر منها (وقالوا ان هذا) أى ما يرونه من الآيات الباهرة (الا سحر مبين) ظاهر سحريته (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما) أي كان بعض أجزائنا ترابا و بعضها عظاما وتقديم التراب لانه منقلب من الاجزاء البادية والعامل فى اذا ما دل عليه مبعوثون فى قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) أى نبعث لا نفسه لان دونه خطوبا لو تفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقديم الظرف لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه الى حالة منافية له غاية المنافاة وكذا تكرير الهمزة فى أئنا للمبالغة والتشديد فى ذلك وكذا تحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله تعالى أفلا

مذهب

مذهب الفلاسفة ومن العجب ان بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف فان الفلسفى لايثبت لله تعالى صفة أصلا ويقول بان الله تعالى لايقبل صفة بل هو واحد من جميع الوجوه فعلمه وقدرته وحياته هو حقيقته وعينه وذاته والمشبهى يثبت لله صفة الاجسام من الحركة والسكون والاستواء والجلوس والصعود والنزول فبينهما منافاة ثم ان اليهود فى هذا الكلام جمعوا بين المسئلتين فاخذوا بمذهب الفلاسفة فى المسئلة التى هى أخص المسائل بهم وهى القدم حيث أثبتوا قبل خلق الاجسام أياما معدودة وأزمنة محدودة وأخذوا بمذهب المشبهة فى المسئلة التى هى أخص المسائل بهم وهى الاستواء على العرش فأخطؤا وأضلوا فى الزمان والمكان جميعا ۞ ثم قال تعالى (فاصبر على مايقولون) قال من تقدم ذكرهم من المفسرين ان معناه اصبر على مايقولون من حديث التعب بالاستلقاء وعلى ماقلنا معناه اصبر على مايقولون ان هذا الشئ عجيب وسبح بحمد ربك وماذكرناه أقرب لانه مذكور وذكر اليهود وكلامهم لم يجر ۞ وقوله (وسبح بحمد ربك) يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون الله أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة فيكون كقوله تعالى وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ۞ وقوله تعالى (قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) اشارة الى طرفى النهار ۞ وقوله (ومن الليل فسبحه) اشارة الى زلفا من الليل ووجه هذا هو ان النبي صلى الله عليه وسلم له شغلان أحدهما عبادة الله وثانيهما هداية الخلق فاذا هداهم ولم يهتدوا قيل له أقبل على شغلك الآخر وهو عبادة الحق (ثانيها) سبح بحمد ربك أى نزهه عما يقولون ولا تسأم من امتناعهم بل ذكرهم بعظمة الله تعالى ونزهه عن الشرك والعجز عن الممكن الذى هو الحشر قبل الطلوع وقبل الغروب فانهما وقت اجتماعهم ومن الليل فسبحه أى أوائل الليل فانه أيضا وقت اجتماع العرب ووجه هذا أنه لا ينبغى ان تسأم من تكذيبهم فان الرسل من قبلك أوذوا وكذبوا وصبروا على ما كذبوا وأوذوا وعلى هذا فلقوله تعالى (وأدبار السجود) فائدة جليلة وهى الاشارة الى ماذكرنا ان شغل الرسول أمران العبادة والهداية فقوله وأدبار السجود أى عقب ماسجدت وعبدت نزه ربك بالبرهان عند اجتماع القوم ليحصل لك العبادة بالسجود والهداية أدبار السجود (ثالثها) أن يكون المراد قل سبحان الله وذلك لان ألفاظا معدودة جاءت بمعنى التلفظ بكلامهم فقولنا كبر يطلق ويراد به قول القائل الله أكبر وسلم يراد به قوله السلام عليكم وحمدل يقال لمن قال الحمد لله ويقال هلل لمن قال لا اله الا الله وسبح لمن قال سبحان الله ووجه هذا ان هذه أمور تتكرر من الانسان فى الكلام والحاجة تدعو الى الاخبار عنها فلو قال القائل فلان قال لا اله الا الله أو قال الله أكبر طول الكلام فمست الحاجة الى استعمال لفظة واحدة مفيدة لذلك لعدم تكررها فى الاول وأما مناسبة هذا الوجه للكلام الذى هو فيه فهى أن تكذيبهم الرسول وتعجبهم من قوله أو استهزاءهم كان يوجب فى العادة أن يشتغل النبي صلى الله عليه وسلم بلعنهم وسبهم والدعاء عليهم فقال فاصبر على مايقولون واجعل كلامك بدل الدعاء عليهم التسبيح لله والحمدلة ولا تكن كصاحب الحوت أو كنوح عليه السلام حيث قال رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا بل ادع الى ربك فاذا ضجرت عن ذلك بسبب اصرارهم فاشتغل بذكر ربك فى نفسك وفيه مباحث (الاول) استعمل الله التسبيح تارة مع اللام فى قوله تعالى يسبح لله ويسبحون له وأخرى مع الباء فى قوله تعالى فسبح باسم ربك العظيم وسبح بحمد ربك وثالثة من غير حرف فى قوله وسبحه وقوله وسبحوه بكرة وقوله سبح اسم ربك الاعلى فما الفرق بينها نقول أما الباء فهى الاهم وبالتقديم أولى فى هذا الموضع كقوله تعالى وسبح بحمد ربك فنقول اما على قولنا المراد من سبح قل سبحان الله فالباء للمصاحبة أى مقترنا بحمد الله فيكون كانه تعالى قال قل سبحان الله والحمد لله وعلى قولنا المراد التنزيه لذلك أى نزهه واقرنه بحمد أى سبحه واشكره حيث وفقك الله لتسبيحه فان السعادة الابدية لمن سبحه وعلى هذا فيكون المفعول غير مذكور لحصول العلم به من غير ذكر تقديره سبح الله بحمد ربك أى ملتبسا ومقترنا بحمد ربك وعلى قولنا صل نقول يحتمل أن يكون ذلك أمرا بقراءة الفاتحة فى الصلاة

تعقلون على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ بطرح الهمزة الاولى وبطرح الثانية فقط (أوآباؤنا الاولون) رفع على الابتداء وخبره محذوف عند سيبويه أى وآباؤنا الاولون أيضا مبعوثون وقيل عطف على محل ان واسمها وقيل على الضمير فى مبعوثون للفصل بهمزة الانكار الجارية مجرى حرف النفى فى قوله تعالى ما أشركنا ولا آباؤنا وأياما كان فرادهم زيادة الاستبعاد بناء على أنهم أقدم فبعثهم أبعد على زعمهم وقرئ أوآباؤنا (قل) تبكيتا لهم (نعم) والخطاب فى قوله تعالى (وأنتم داخرون) لهم ولآبائهم بطريق التغليب والجملة حال من فاعل مادل عليه نعم أى كلكم مبعوثون والحال أنكم صاغرون أذلاء وقرئ نعم بكسر العين وهى لغة فيه (فانما هى زجرة واحدة) هى اما ضمير مبهم يفسره خبره أو ضمير البعثة والجملة جواب شرط مضمر أو تعليل لنهى مقدر أى اذا كان كذلك فانما هى الخ أو لا تستصعبوه فانما هى الخ والزجرة الصيحة من زجر الراعى غنمه اذا صاح عليها وهى النفخة الثانية (فاذا هم) قائمون من مراقدهم أحياء (ينظرون) يبصرون كما كانوا أو ينتظرون ما يفعل بهم (وقالوا) أى المبعوثون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر (ياويلنا) أى هلاكنا احضر فهذا أوان حضورك وقوله تعالى (هذا يوم الدين) تعليل لدعائهم الويل بطريق الاستئناف أى اليوم الذى نجازى فيه بأعمالنا وانما علموا ذلك لانهم كانوا يسمعون فى الدنيا أنهم يبعثون ويحاسبون ويجزون باعمالهم فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده أيضا وقوله تعالى (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) كلام الملائكة جوابا لهم بطريق التوبيخ والتقريع وقيل هو أيضا من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء أو الفرق بين فرق الهدى والضلال وقوله تعالى (احشروا الذين ظلموا) خطاب من الله عز وجل للملائكة أو من بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم الى الموقف وقيل من الموقف الى الجحيم (وأزواجهم) أى أشباههم ونظراءهم

يقال صلى فلان بسورة كذا أو صلى بقل هو الله أحد فكانه يقول صل بحمد الله أى مقروأ فيها الحمد لله رب العالمين وهو أبعد الوجوه وأما التعدية من غير حرف فنقول هو الاصل لان التسبيح يتعدى بنفسه لان معناه تبعيد من السوء وأما اللام فيحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون كما فى قول القائل نصحته ونصحت له وشكرته وشكرت له (وثانيهما) ان يكون لبيان الاظهر أى يسبحون الله وقلوبهم لوجه الله خالصة (البحث الثانى) قال ههنا سبح بحمد ربك ثم قال تعالى ومن الليل فسبحه من غير باء فما الفرق بين الموضعين نقول الامر فى الموضعين واحد على قولنا التقدير سبح الله مقترنا بحمد ربك وذلك لان سبح الله كقول القائل فسبحه غير أن المفعول لم يذكر أولا لدلالة قوله بحمد ربك عليه وثانيا لدلالة ماسبق عليه لم يذكر بحمد ربك الجواب الثانى على قولنا سبح بمعنى صل يكون الاول أمرا بالصلاة والثانى أمرا بالتنزيه أى وصل بحمد ربك فى الوقت وبالليل نزهه عما لا يليق وحينئذ يكون هذا اشارة الى العمل والذكر والفكر فقوله سبح اشارة الى خير الاعمال وهو الصلاة وقوله بحمد ربك اشارة الى الذكر وقوله ومن الليل فسبحه اشارة الى الفكر حين هدو الاصوات وصفاء الباطن نزهه عن كل سوء بفكرك واعلم انه لا يتصف الا بصفات الكمال ونعوت الجلال وقوله تعالى وأدبار السجود قد تقدم بعض ما يقال فى تفسيره ووجه آخر هو أنه اشارة الى الامر بادامة التسبيح فقوله بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه اشارة الى أوقات الصلاة وقوله وأدبار السجود يعنى بعد ما فرغت من السجود وهو الصلاة فلا تترك تسبيح الله وتنزيهه بل داوم أدبار السجود ليكون جميع أوقاتك فى التسبيح فيفيد فائدة قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت وقوله فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب وقرئ وادبار السجود (البحث الثالث) الفاء فى قوله تعالى فسبحه ما وجهها نقول هى تفيد تأكيد الامر بالتسبيح من الليل وذلك لانه يتضمن الشرط كانه يقول وأما من الليل فسبحه وذلك لان الشرط يفيد ان عند وجوده يجب وجود الجزاء وكانه تعالى يقول النهار محل الاشتغال وكثرة الشواغل فاما الليل فمحل السكون والانقطاع فهو وقت التسبيح أو نقول بالعكس الليل محل النوم والثبات والغفلة فقال اما الليل فلا تجعله للغفلة بل اذكر فيه ربك ونزهه (البحث الرابع) من فى قوله ومن الليل يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون لابتداء الغاية أى من أول الليل فسبحه وعلى هذا فلم يذكر له غاية لاختلاف ذلك بغلبة النوم وعدمها يقال انا من الليل أنتظرك (ثانيهما) أن يكون للتبعيض أى اصرف من الليل طرفا الى التسبيح يقال من مالك متع ومن الليل انتبه أى بعضه (البحث الخامس) قوله وأدبار السجود عطف على ماذا نقول يحتمل أن يكون عطفا على ما قبل الغروب كانه قال تعالى وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وأدبار السجود وذكر بينهما قوله ومن الليل فسبحه وعلى هذا ففيه ماذكرنا من الفائدة وهى الامر بالمداومة كانه قال سبح قبل طلوع الشمس واذا جاء وقت الفراغ من السجود قبل الطلوع فسبح وسبح قبل الغروب وبعد الفراغ من السجود قبل الغروب سبحه فيكون ذلك اشارة الى صرف الليل الى التسبيح ويحتمل أن يكون عطفا على ومن الليل فسبحه وعلى هذا يكون عطفا على الجار والمجرور جميعا تقديره وبعض الليل فسبحه وأدبار السجود ۞ ثم قال تعالى ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب﴾ هذا اشارة الى بيان غاية التسبيح يعنى اشتغل بتنزيه الله وانتظر المنادى كقوله تعالى واعبد ربك حتى يأتيك اليقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الذى يستمعه قلنا يحتمل وجوها ثلاثة (أحدها) أن يترك مفعوله رأسا ويكون المقصود كن مستمعا ولا تكن مثل هؤلاء المعرضين الغافلين يقال هو رجل سميع مطيع ولا يراد مسموع بعينه كما يقال فلان وكاس فلان يعطى ويمنع (ثانيها) استمع لما يوحى اليك (ثالثها) استمع نداء المنادى (المسئلة الثانية) يوم يناد المناد منصوب باى فعل نقول هو مبنى على المسئلة الاولى ان قلنا استمع لا مفعول له فعامله ما يدل عليه قوله تعالى يوم الخروج تقديره يخرجون يوم ينادى المنادى وان قلنا مفعوله لما يوحى فتقديره واستمع لما يوحى يوم ينادى ويحتمل ما ذكرنا وجها آخر

من العصاة عابد الصنم مع عبدته وعابد الكواكب مع عبدته كقوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة وقيل قرناؤهم من الشياطين وقيل نساؤهم اللاتى على دينهم (وما كانوا يعبدون من دون الله) من الاصنام ونحوها زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم قيل هو عام مخصوص بقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية الكريمة وأنت خبير بأن الموصول عبارة عن المشركين خاصة جئ به لتعليل الحكم بما فى حيز صلته فلا عموم ولا تخصيص (فاهدوهم الى صراط الجحيم) أى عرفوهم طريقها ووجهوهم اليها وفيه تهكم بهم (وقفوهم) احبسوهم فى الموقف كان الملائكة سارعوا الى ما أمروا به من حشرهم الى الجحيم فأمروا بذلك وعلل بقوله تعالى (انهم مسؤلون) ايذانا من أول الامر بأن ذلك ليس للعفو عنهم ولا ليستريحوا بتأخير العذاب فى الجملة بل ليسئلوا لكن لا عن عقائدهم وأعمالهم كما قيل فان ذلك قد وقع قبل الامر بهم الى الجحيم بل عما ينطق به قوله تعالى (مالكم لا تناصرون) بطريق التوبيخ والتقريع والتهكم أى لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم تزعمون فى الدنيا وتأخير هذا السؤال الى ذلك الوقت لانه وقت تنجز العذاب وشدة الحاجة الى النصرة وحالة انقطاع الرجاء عنها بالكلية فالتوبيخ والتقريع حينئذ أشد وقعا وتأثيرا وقرئ لا تتناصرون ولا تناصرون بالادغام (بل هم اليوم مستسلمون) منقادون خاضعون لظهور عجزهم وانسداد باب الحيل عليهم أو أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجز فكلهم مستسلم غير منتصر (وأقبل بعضهم على بعض) هم الاتباع والرؤساء أو الكفرة والقرناء (يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية تساؤلهم كانه قيل كيف تساءلوا فقيل قالوا أى الاتباع للرؤساء وهو أو الكل للقرناء (انكم كنتم تأتوننا) فى الدنيا (عن اليمين) عن أقوى الوجوه وأمتنها أو على الدين أو عن الخير كانكم تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم

وهومايوحى أى مايوحى يوم ينادى المنادى اسمعه فان قيل استمع عطف على فاصبر وسبح وهوفى الدنيا والاستماع يكون فى الدنيا ومايوحى يوم ينادى المنادى لا يستمع فى الدنيا نقول ليس بلازم ذلك لجواز أن يقال صل وادخل الجنة أى صل فى الدنيا وادخل الجنة فى العقبى فكذلك ههنا ويحتمل أن يقال بان استمع بمعنى انتظر فيحتمل الجمع فى الدنيا وان قلنا استمع الصيحة وهو نداء المنادى ياعظام انتشرى والسؤال الذى ذكره علم الجواب منه وجواب آخر نقوله حينئذ وهوان الله تعالى قال ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله قلنا ان من شاء الله هم الذين علموا وقوع الصيحة واستيقظوا لها فلم تزعجهم كمن يرى برقاً أومض وعلم ان عقيبه يكون رعد قوى فينظره ويستمع له وآخر غافل فاذا رعد بقوة ربما يغشى على الغافل ولا يتأثر منه المستمع فقال استمع ذلك كى لا تكون ممن يصعق فى ذلك اليوم (المسئلة الثالثة) ما الذى ينادى المنادى نقول فيه وجوه محتملة منقولة معقولة وحصرها بأن نقول المنادى اما أن يكون هو الله تعالى أو الملائكة أو غيرهما وهم المكلفون من الانس والجن فى الظاهر وغيرهم لا ينادى فان قلنا هو الله تعالى فيه وجوه (أحدها) ينادى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم (ثانيها) ينادى ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مع قوله ادخلوها بسلام ومثله قوله تعالى خذوه فغلوه يدل على هذا قوله تعالى يوم يناد المناد من مكان قريب وقال وأخذوا من مكان قريب (ثالثها) غيرهما لقوله تعالى يناديهم أين شركائى وغير ذلك واما على قولنا المنادى غير الله ففيه وجوه أيضا (أحدها) قول اسرافيل أيتها العظام البالية اجتمعوا للوصل واستمعوا للفصل (ثانيها) النداء مع النفس يقال للنفس ارجعى الى ربك لتدخلى مكانك من الجنة أو النار (ثالثها) ينادى مناد هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار كما قال تعالى فريق فى الجنة وفريق فى السعير وعلى قولنا المنادى هو المكلف فيحتمل ان يقال هو ما بين الله تعالى فى قوله ونادوا يامالك أو غير ذلك الا ان الظاهر ان المراد أحد الوجهين الاولين لان قوله المنادى للتعريف وكون الملك فى ذلك اليوم مناديا معروف عرف حاله وان لم يجر ذكره فيقال قال صلى الله عليه وسلم وان لم يكن قد سبق ذكره وأما ان الله تعالى مناد فقد سبق فى هذه السورة فى قوله ألقيا وهذا نداء وقوله يوم نقول لجهنم وهو نداء واما المكلف فليس كذلك وقوله تعالى من مكان قريب اشارة الى أن الصوت لا يخفى على أحد بل يستوى فى استماعه كل أحد وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادى على الله تعالى اذ ليس المراد من المكان القريب نفس المكان بل ظهور النداء وهو من الله تعالى أقرب وهذا كما قال فى هذه السورة ونحن أقرب اليه من حبل الوريد وليس ذلك بالمكان ﴿ ثم قال تعالى ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج﴾ هذا تحقيق ما بينا من الفائدة فى قوله واستمع أى لا تكن من الغافلين حتى لا تصعق يوم الصيحة وبيانه هو انه قال استمع أى كن قبل أن تستمع مستيقظا لوقوعه فان السمع لا بد منه أنت وهم فيه سواء فهم يسمعون لكن من غير استماع فيصعقون وأنت تسمع بعد الاستماع فلا يؤثر فيك الا ما لا بد منه ويوم يحتمل وجوها (أحدها) ما قاله الزمخشرى انه بدل من يوم فى قوله واستمع يوم ينادى المنادى والعامل فيهما الفعل الذى يدل عليه قوله تعالى ذلك يوم الخروج أى يخرجون يوم يسمعون (وثانيها) ان يوم يسمعون العامل فيه ما فى قوله ذلك ويوم ينادى المنادى العامل فيه ما ذكرنا (ثالثها) أن يقال استمع عامل فى يوم ينادى كما ذكرنا وينادى عامل فى يوم يسمعون وذلك لان يوم ينادى وان لم يجز أن يكون منصوبا بالمضاف اليه وهو ينادى لكن غيره يجوز أن يكون منصوبا به يقال اذكر حال زيد ومذلته يوم ضرب عمرو ويوم كان عمرو واليا اذا كان القائل يريد بيان مذلة زيد عندما صار زيد يكرم بسبب من الاسباب فلا يكون يوم كان عمرو واليا منصوبا بقوله اذكر لان غرض القائل التذكير بحال زيد ومذلته وذلك يوم الضرب لكن يوم كان عمرو منصوب بقوله ضرب عمرو يوم كان واليا فكذلك ههنا قال استمع يوم ينادى المنادى لئلا تكون ممن يفزع ويصعق ثم بين هذا النداء بقوله ينادى المنادى يوم يسمعون أى لا يكون نداء خفيا بحيث لا يسمعه بعض الناس بل يكون نداؤه بحيث تكون نسبته الى

فهلكنا مستعار من عين الانسان الذى هو أشرف الجانبين وأقواهما وأنفعهما ولذلك سمى يمينا ويتيمن بالسانح أو عن القوة والقسر فتقسروننا على الغى وهو الاوفق للجواب أو عن الحلف حيث كانوا يحلفون أنهم على الحق (قالوا) استئناف كما سبق أى قال الرؤساء أو القرناء (بل لم تكونوا مؤمنين) أى لم نمنعكم من الايمان بل لم تؤمنوا باختياركم وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه وآثرتم الكفر عليه (وما كان لنا عليكم من سلطان) من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم (بل كنتم قوما طاغين) مختارين للطغيان مصرين عليه (فحق علينا) أى لزمنا وثبت علينا (قول ربنا) وهو قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (انا لذائقون) أى العذاب الذى ورد به الوعيد (فأغويناكم) فدعوناكم الى الغى دعوة غير ملجئة فاستجبتم لنا باختياركم واستحبابكم الغى على الرشد (انا كنا غاوين) فلا عتب علينا فى تعرضنا لاغوائكم بتلك المرتبة من الدعوة لتكونوا امثالنا فى الغواية (فانهم) أى الاتباع والمتبوعين (يومئذ فى العذاب مشتركون) حسبما كانوا مشتركين فى الغواية (انا كذلك) أى مثل ذلك الفعل البديع الذى تقتضيه الحكمة التشريعية (نفعل بالمجرمين) المتناهين فى الاجرام وهم المشركون كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى (انهم كانوا اذا قيل لهم) بطريق الدعوة والتلقين (لا اله الا الله يستكبرون) عن القبول (ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين) رد عليهم وتكذيب لهم ببيان ان ما جاء به من التوحيد هو الحق الذى قام به البرهان وأجمع عليه كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة (انكم لذائقو العذاب الاليم) والالتفات بما فعلتم من الاشراك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والاستكبار لاظهار كمال الغضب عليهم وقرئ بنصب العذاب على تقدير النون كقوله * ولا ذاكر الله الا قليلا * وقرئ لذائقون العذاب على الاصل (وما

تجزون الا ما كنتم تعملون) أى الاجزاء ما كنتم تعملونه من السيئات أو الا بما كنتم تعملونه منها (الا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع من ضمير ذائقوا وما بينهما اعتراض جيء به مسارعة الى تحقيق الحق ببيان أن ذوقهم العذاب ليس الا من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلا وجعله استثناء من ضمير تجزون على معنى أن الكفرة لا يجزون الا بقدر أعمالهم دون عباد الله المخلصين فانهم يجزون أضعافا مضاعفة مما لا وجه له أصلا لاسيما جعله استثناء متصلا بتعميم الخطاب فى تجزون لجميع المكلفين فانه ليس فى حيز الاحتمال فالمعنى انكم لذائقو العذاب الاليم لكن عباد الله المخلصين الموحدين ليسوا كذلك وقوله تعالى (أولئك) اشارة اليهم للايذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من الاخلاص فى عبادة الله تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا منتظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (لهم) اما خبر له وقوله تعالى (رزق) مرتفع على الفاعلية بما فيه من الاستقرار أو مبتدأ ولهم خبر مقدم والجملة خبر لاولئك والجملة الكبرى استئناف مبين لما أفاده الاستثناء اجمالا بيانا تفصيليا وقيل هى خبر للاستثناء المنقطع على أنه متأول بالمبتدا وقوله تعالى (معلوم) أى معلوم الخصائص من حسن المنظر ولذة الطعم وطيب الرائحة ونحوها من نعوت الكمال وقيل معلوم الوقت كقوله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وقوله تعالى (فواكه) اما بدل من رزق أو خبر مبتدا مضمر أى ذلك الرزق فواكه وتخصيصها بالذكر لان أرزاق أهل الجنة كلها فواكه أى ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات لانهم مستغنون عن القوت لكون خلقتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج الى البدل وقيل لان الفواكه من أتباع سائر الاطعمة فذكرها مغن عن ذكرها (وهم مكرمون) عند الله عز وجل لا يلحقهم هوان وذلك أعظم المثوبات وأليقها باولى الهمم وقيل مكرمون

ظاهر

من فى أقصى المغرب كنسبته الى من فى المشرق وكلكم تسمعون ولا شك ان مثل هذا الصوت يجب ان يكون الانسان متهيئا لاستماعه وذلك بشغل النفس بعبادة الله تعالى وذكره والتفكر فيه فظهر فائدة جليلة من قوله فاصبر وسبح واستمع يوم ينادى المنادى ويوم يسمعون واللام فى الصيحة للتعريف وقد عرف حالها وذكرها الله مرارا كما فى قوله تعالى ان كانت الا صيحة واحدة وقوله فانما هى زجرة واحدة وقوله نفخة واحدة وقوله بالحق جاز ان يكون متعلقا بالصيحة أى الصيحة بالحق يسمعونها وعلى هذا ففيه وجوه (الاول) الحق الحشر أى الصيحة بالحشر وهو حق يسمعونها يقال صاح زيد ياقوم اجتمعوا على حد استعمال تكلم بهذا الكلام وتقديره حينئذ يسمعون الصيحة ياعظام اجتمعى وهو المراد بالحق (الثانى) الصيحة بالحق أى باليقين والحق هو اليقين يقال صاح فلان بيقين لا بظن وتخمين أى وجد منه الصياح يقينا لا كالصدى وغيره وهو يجرى مجرى الصفة للصيحة يقال استمع سماعا بطلب وصاح صيحة بقوة أى قوية فكأنه قال الصيحة المحققة (الثالث) ان يكون معناه الصيحة المقترنة بالحق وهو الوجود يقال كن فيتحقق ويكون ويقال اذهب بالسلامة وارجع بالسعادة أى مقرونا ومصحوبا فان قيل زدبيانا فان الباء فى الحقيقة للالصاق فكيف يفهم معنى الالصاق فى هذه المواضع نقول التعدية قد تتحقق بالباء يقال ذهب بزيد على معنى ألصق الذهاب بزيد فوجد قائما به فصار مفعولا فعلى قولنا المراد يسمعون صيحة من صاح ياعظام اجتمعى هو تعدية المصدر بالباء يقال اعجبنى ذهاب زيد بعمرو وكذلك قوله الصيحة بالحق أى ارفع الصوت على الحق وهو الحشر وله موعد نبينه فى موضع آخر ان شاء الله تعالى (الوجه الثانى) أن يكون الحق متعلقا بقوله يسمعون أى يسمعون الصيحة بالحق وفيه وجهان (الاول) هو قول القائل سمعته بيقين (الثانى) الباء فى يسمعون بالحق قسم أى يسمعون الصيحة بالله الحق وهو ضعيف وقوله تعالى ذلك يوم الخروج فيه وجهان (أحدهما) ذلك اشارة الى يوم أى ذلك اليوم يوم الخروج (ثانيهما) ذلك اشارة الى نداء المنادى ۞ ثم قال تعالى ﴿انا نحن نحيى ونميت والينا المصير﴾ فقد ذكرنا فى سورة يس ما يتعلق بقوله انا نحن وأما قوله نحيى ونميت فالمراد من الاحياء الاحياء أولا ونميت اشارة الى الموتة الاولى وقوله والينا بيان للمحشر فقدم انا نحن لتعريف عظمته يقول القائل انا أنا أى مشهور ونحيى ونميت أمور مؤكدة معنى العظمة والينا المصير بيان للمقصود ۞ وقوله تعالى ﴿يوم تشقق الارض عنهم سراعا﴾ العامل فيه هو ما فى قوله يوم الخروج من الفعل أى يخرجون يوم تشقق الارض عنهم سراعا وقوله سراعا حال للخارجين لان قوله تعالى عنهم يفيد كونهم مفعولين بالتشقق فكان التشقق عند الخروج من القبر كما يقال كشف عنه فهو مكشوف عنه فيصير سراعا هيئة المفعول كأنه قال مسرعين والسراع جمع سريع كالكرام جمع كريم ۞ قوله ﴿ذلك حشر﴾ يحتمل أن يكون اشارة الى التشقق عنهم ويحتمل أن يكون اشارة الى الاخراج المدلول عليه بقوله سراعا ويحتمل أن يكون معناه ذلك الحشر حشر يسير لان الحشر علم مما تقدم من الالفاظ ۞ وقوله تعالى ﴿علينا يسير﴾ بتقديم الظرف يدل على الاختصاص أى هو علينا هين لا على غيرنا وهو اعادة جواب قولهم ذلك رجع بعيد والحشر الجمع ويوم القيامة جمع الاجزاء بعضها الى بعض وجمع الارواح مع الاشباح أى يجمع بين كل روح وجسدها وجمع الامم المتفرقة والرمم المتمزقة والكل واحد فى الجمع ۞ ثم قال تعالى ﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ فيه وجوه (أحدها) تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وتحريض لهم على ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم من الصبر والتسبيح أى اشتغل بما قلناه ولا يشغلك الشكوى الينا فانا نعلم أقوالهم ونرى أعمالهم وعلى هذا فقوله وما أنت عليهم بجبار مناسب له أى لا تقل بأنى أرسلت اليهم لاهديهم فكيف أشتغل بما يشغلنى عن الهداية وهو الصلاة والتسبيح فانك ما بعثت مسلطا على دواعيهم وقدرهم وانما أمرت بالتبليغ وقد بلغت فاصبر وسبح وانتظر اليوم الذى يفصل فيه بينكم (ثانيها) هى كلمة تهديد وتخويف لان قوله والينا المصير

ظاهر في التهديد بالعلم بعملكم لان من يعلم ان مرجعه الى الملك ولكنه يعتقد ان الملك لا يعلم ما يفعله لا يمتنع من القبائح اما اذا علم انه يعلمه وعنده غيبه واليه عوده يمتنع فقال تعالى والينا المصير ونحن أعلم وهو ظاهر في التهديد وهذا حينئذ كقوله تعالى ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور (ثالثها) تقرير الحشر وذلك لانه لما بين ان الحشر عليه يسير لكمال قدرته ونفوذ ارادته ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل حتى يميز بين جزء بدنين جزء بدن زيد وجزء بدن عمرو فقال ذلك حشر علينا يسير لكمال قدرتنا ولا يخفى علينا الاجزاء لمكان علمنا وعلى هذا فقوله نحن أعلم بما يقولون معناه نحن نعلم عين ما يقولون في قولهم أئذا متنا وكنا ترابا أئذا ضللنا في الارض فيقولوا نحن نعلم الاجزاء التي يقولون فيها انها ضالة وخفية ولا يكون المراد نحن نعلم قولهم وفي الاول جاز أن تكون ما مصدرية فيكون المراد من قوله ما يقولون أي قولهم وفي الوجه الآخر تكون خبرية وعلى هذا الدليل فلا يصح قوله نحن أعلم اذ لا عالم بتلك الاجزاء سواه حتى يقول نحن أعلم نقول قد علم الجواب عنه مرارا من وجوه (أحدها) أن أفعل لا يقتضي الاشتراك في أصل الفعل كما في قوله تعالى والله أحق أن تخشاه وفي قوله تعالى أحسن نديا وفي قوله وهو أهون عليه (ثانيها) معناه نحن أعلم بما يقولون من كل عالم بما يعلمه والاول أصح وأظهر وأوضح وأشهر وقوله تعالى وما أنت عليهم بجبار فيه وجوه (أحدها) انه للتسلية أيضا وذلك لانه لما أمن عليه بالاقبال على الشغل الاخروي وهو العبادة أخبر بأنه لم يصرف عن الشغل الآخر وهو البعث كما ان الملك اذا أمر بعض عبيده بشغلين فظهر عجزه في أحدهما يقول له أقبل على الشغل الآخر منهما ونحن نبعث من يقدر على الذي عجزت عنه منهما فقال اصبر وسبح وما أنت بجبار أي فما كان امتناعهم بسبب تجبر منك أو تكبر فاشمأزوا من سوء خلقك بل كنت بهم رؤفا وعليهم عطوفا وبالغت وبلغت وامتنعوا فاقبل على الصبر والتسبيح غير مصروف عن الشغل الاول بسبب جبروتك وهذا في معنى قوله تعالى ما أنت بنعمة ربك بمجنون الى أن قال وانك لعلى خلق عظيم (ثانيها) هو بيان ان النبي صلى الله عليه وسلم أتى بما عليه من الهداية وذلك لانه أرسله منذرا وهاديا لا ملجئا ومجبرا وهذا كما في قوله تعالى وما أرسلناك عليهم حفيظا أي تحفظهم من الكفر والنار وقوله وما أنت عليهم في معنى قول القائل اليوم فلان علينا في جواب من يقول من عليكم اليوم أي من الوالي عليكم (ثالثها) هو بيان لعدم وقت نزول العذاب بعد وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم لما أنذر وأعذر وأظهر ولم يؤمنوا كان يقول ان هذا وقت العذاب فقال نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بمسلط فذكر بعذابي ان لم يؤمنوا ومن بقي منهم ممن تعلم أنه يؤمن ثم تسلط عليهم ويؤيد هذا قول المفسرين ان الآية نزلت قبل نزول آية القتال وعلى هذا فقوله فذكر بالقرآن من يخاف وعيد أي من بقي منهم ممن يخاف يوم الوعيد وفيه وجوه أخر (أحدها) انا بينا في أحد الوجوه ان قوله تعالى فاصبر على ما يقولون وسبح معناه أقبل على العبادة ثم قال ولا تترك الهداية بالكلية بل وذكر المؤمنين فان الذكرى تنفع المؤمنين وأعرض عن الجاهلين وقوله بالقرآن فيه وجوه (الاول) فذكر بما في القرآن واتل عليهم القرآن يحصل لهم بسبب ما فيه المنفعة (الثاني) فذكر بالقرآن أي بين به انك رسول لكونه معجزا واذا ثبت كونك رسولا لزمهم قبول قولك في جميع ما تقول به (الثالث) المراد فذكر بمقتضى ما في القرآن من الاوامر الواردة بالتبليغ والتذكير وحينئذ يكون ذكر القرآن لانتفاع النبي صلى الله عليه وسلم به أي اجعل القرآن امامك وذكرهم بما أخبرت فيه بان تذكرهم وعلى الاول معناه اتل عليهم القرآن ليتذكروا بسببه وقوله تعالى من يخاف وعيد من جملة ما يبين كون الخشية دالة على عظمة المخشي أكثر مما يدل عليه الخوف حيث قال يخاف عندما جعل المخوف عذابه ووعيده وقال اخشوني عندما جعل المخوف نفسه العظيم وفي هذه الآية اشارة الى الاصول الثلاثة قوله وذكر اشارة الى أنه مرسل مأمور بالتذكير منزل عليه القرآن حيث قال بالقرآن وقوله وعيد اشارة الى اليوم الآخر وضمير المتكلم في قوله وعيد يدل على الوحدانية فانه لو قال من يخاف وعيد

في نيله حيث يصل اليهم بغير تعب وسؤال كما هو شأن أرزاق الدنيا وقرئ مكرمون بالتشديد (في جنات النعيم) أي في جنات ليس فيها الا النعيم وهو ظرف أو حال من المستكن في مكرمون أو خبر ثان لأولئك وقوله تعالى (على سرر) محتمل للعالية والخبرية فقوله تعالى (متقابلين) حال من المستكن فيه أو في مكرمون وقوله تعالى (يطاف عليهم) اما استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية تكامل مجالس أنسهم أو حال من الضمير في متقابلين أو في أحد الجارين وقد جوز كونه صفة لمكرمون (بكأس) باناء فيه خمر أو بخمر فان الكأس تطلق على نفس الخمر كما في قول من قال

وكأس شربت على لذة
وأخرى تداويت منها بها

(من معين) متعلق بمضمر هو صفة لكأس أي كائنة من شراب معين أو من نهر معين وهو الجاري على وجه الارض الظاهر للعيون أو الخارج من العيون من عان الماء اذا نبع وصف به الخمر وهو للماء لانها تجري في الجنة في أنهار كما يجري الماء قال تعالى وأنهار من خمر (بيضاء لذة للشاربين) صفتان أيضا لكأس ووصفها بلذة اما للمبالغة كأنها نفس اللذة أو لانها تأنيث اللذ بمعنى اللذيذ ووزنه فعل قال

ولذ كطعم الصرخدي تركته
بأرض العدا من خيفة الحدثان

يريد به النوم (لا فيها غول) أي غائلة كما في خمور الدنيا من غاله اذا أفسده وأهلكه ومنه الغول (ولا هم عنها ينزفون) يسكرون من نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف اذا ذهب عقله ويقال للمطعون نزف فمات اذا اخرج دمه كله أفرد هذا بالنفي مع اندراجه فيما قبله من نفي الغول عنها لما أنه من معظم مفاسد الخمر كأنه جنس برأسه والمعنى لا فيها نوع من أنواع الفساد من مغص أو صداع أو خمار أو عربدة أو لغو أو تأثيم ولا هم يسكرون وقرئ ينزفون بكسر الزاي من أنزف الشارب اذا نفد عقله أو شرابه وقرئ ينزفون بضم الزاي من نزف ينزف بضم الزاي فيهما (وعندهم قاصرات الطرف) قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمددن طرفا الى غيرهم (عين) نجل

الله كان يذهب وهم الجاهل الى كل صوب فلذا قال وعيدى والمتكلم أعرف المعارف وأبعد عن الاشراك به وقبول الاشتراك فيه وقد بينا فى أول السورة أن أول السورة وآخرها متقاربان فى المعنى حيث قال فى الاول ق والقرآن المجيد وقال فى آخرها فذكر بالقرآن * وهذا آخر تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين وصلاته على خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد النبى وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين

﴿سورة الذاريات ستون آية مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمرا﴾ أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها وذلك لانه تعالى لما بين الحشر بدلائله وقال ذلك حشر علينا يسير وقال وما أنت عليهم بجبار أى تجبرهم وتلجئهم الى الايمان اشارة الى اصرارهم على الكفر بعد اقامة البرهان وتلاوة القرآن عليهم لم يبق الا اليمين فقال والذاريات ذروا انما توعدون لصادق وأول هذه السورة وآخرها متناسبان حيث قال فى أولها انما توعدون لصادق وقال فى آخرها فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون * وفى تفسير الآيات مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا الحكمة وهى فى القسم من المسائل الشريفة والمطالب العظيمة فى سورة والصافات ونعيدها ههنا وفيها وجوه (الاول) أن الكفار كانوا فى بعض الاوقات يعترفون بكون النبى صلى الله عليه وسلم غالبا فى اقامة الدليل وكانوا ينسبونه الى المجادلة والى أنه عارف فى نفسه بفساد ما يقوله وانه يغلبنا بقوة الجدل لا بصدق المقال كما أن بعض الناس اذا أقام عليه الخصم الدليل ولم يبق له حجة يقول انه غلبنى لعلمه بطريق الجدل وعجزى عن ذلك وهو فى نفسه يعلم أن الحق بيدى فلا يبقى للمتكلم المبرهن طريق غير اليمين فيقول والله ان الامر كما أقول ولا أجادلك بالباطل وذلك لانه لو سلك طريقا آخر من ذكر دليل آخر فاذا تم الدليل الآخر يقول الخصم فيه مثل ما قال فى الاول ان ذلك تقرير بقوة علم الجدل فلا يبقى الا السكوت أو التمسك بالايمان وترك اقامة البرهان (الثانى) هو أن العرب كانت تحترز عن الايمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم أكثر من الايمان بكل شريف ولم يزده ذلك الا رفعة وثباتا وكان يحصل لهم العلم بانه لا يحلف بها كاذبا والا لاصابه شؤم الايمان ولناله المكروه فى بعض الازمان (الثالث) وهو أن الايمان التى حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها فى صورة الايمان مثاله قول القائل لمنعمه وحق نعمك الكثيرة انى لا أزال أشكرك فيذكر النعم وهى سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم كذلك هذه الاشياء كلها دليل على قدرة الله تعالى على الاعادة فان قيل فلم أخرجها مخرج الايمان نقول لان المتكلم اذا شرع فى أول كلامه بحلف يعلم السامع أنه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغى اليه أكثر من أن يصغى اليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف وأدرج الدليل فى صورة اليمين حتى أقبل القوم على سماعه فخرج لهم البرهان المبين والتبيان المتين فى صورة اليمين وقد استوفينا الكلام فى سورة والصافات (المسئلة الثانية) فى جميع السور التى أقسم الله فى ابتدائها بغير الحروف كان القسم لاثبات أحد الاصول الثلاثة وهى الوحدانية والرسالة والحشر وهى التى يتم بها الايمان ثم انه تعالى لم يقسم لاثبات الوحدانية الا فى سورة واحدة من تلك السور وهى والصافات حيث قال فيها ان الهكم لواحد وذلك لانهم وان كانوا يقولون أجعل الآلهة الها واحدا على سبيل الانكار وكانوا يبالغون فى الشرك لكنهم فى تضاعيف أقوالهم وتصاريف أحوالهم كانوا يصرحون بالتوحيد وكانوا يقولون انما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى وقال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فلم يبالغوا فى الحقيقة فى انكار المطلوب الاول فاكتفى بالبرهان ولم يكثر من الايمان وفى سورتين منها أقسم لاثبات صدق محمد صلى الله عليه وسلم وكونه رسولا فى احداهما بأمر

العيون جمع عيناء والنجل سعة العين (كأنهن بيض مكنون) شبهن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه فى الصفاء والبياض المخلوط بادنى صفرة فان ذلك أحسن ألوان الابدان (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) معطوف على يطاف أى يشربون فيتحادثون على الشراب كما هو عادة الشرب قال

وما بقيت من اللذات الا
أحاديث الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الفضائل والمعارف وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا فالتعبير عنه بصيغة الماضى للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتما (قال قائل منهم) فى تضاعيف محاوراتهم (انى كان لى) فى الدنيا (قرين) مصاحب (يقول) لى على طريقة التوبيخ بما كنت عليه من الايمان والتصديق بالبعث (أئنك لمن المصدقين) أى بالبعث وقرئ بتشديد الصاد من التصدق والاول هو الاوفق لقوله تعالى (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) أى لمبعوثون ومجزيون من الدين بمعنى الجزاء أو لمسوسون يقال دانه أى ساسه ومنه الحديث العاقل من دان نفسه وقيل كان رجل تصدق بماله لوجه الله تعالى فاحتاج فاستجدى بعض اخوانه فقال أين مالك قال تصدقت به ليعوضنى الله تعالى فى الآخرة خيرا منه فقال أئنك لمن المصدقين يوم الدين أو من المتصدقين لطلب الثواب والله لا أعطيك شيأ فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم ترابا وعظاما حينئذ لتأكيد انكار الجزاء المبنى على انكار البعث (قال) أى ذلك القائل بعدما حكى لجلسائه مقالة قرينه فى الدنيا (هل أنتم مطلعون) أى الى أهل النار لاريكم ذلك القرين يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه وقيل القائل هو الله تعالى أو بعض الملائكة يقول لهم هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لاريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم قيل ان فى الجنة كوى ينظر منها أهلها الى أهل النار (فاطلع) أى عليهم (فرآه) أى قرينه (فى سواء الجحيم) أى فى وسطها وقرئ فأطلع على لفظ المضارع المنصوب وقرئ مطلعون

واحد وهو قوله تعالى والنجم اذا هوى ماضل صاحبكم وفى الثانية بأمرين وهو قوله تعالى والضحى والليل اذا سجى ماودعك ربك وماقلى وذلك لان القسم على اثبات رسالته قد كثر بالحروف والقرآن كما فى قوله تعالى يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين وقد ذكرنا الحكم فيه أن من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم القرآن فاقسم به ليكون فى القسم الاشارة واقعة الى البرهان وفى باقى السور كان المقسم عليه الحشر والجزاء ومايتعلق به لكون انكارهم فى ذلك خارجا عن الحد وعدم استيفاء ذلك فى صورة القسم بالحروف (المسئلة الثالثة) أقسم الله تعالى بجموع السلامة المؤنثة فى سور خمس ولم يقسم بجموع السلامة المذكرة فى سورة أصلا فلم يقل والصالحين من عبادى ولا المقربين الى غير ذلك مع أن المذكر أشرف وذلك لان جموع السلامة بالواو والنون فى الامر الغالب لمن يعقل وقد ذكرنا أن القسم بهذه الاشياء ليس لبيان التوحيد الا فى صورة ظهور الامر فيه وحصول الاعتراف منهم به ولا للرسالة لحصول ذلك فى صور القسم بالحروف والقرآن * بقى أن يكون المقصود اثبات الحشر والجزاء لكن اثبات الحشر لثواب الصالح وعذاب الطالح ففائدة ذلك راجع الى من يعقل فكان الامر يقتضى أن يكون القسم بغيرهم والله أعلم (المسئلة الرابعة) فى السورة التى أقسم لاثبات الوحدانية أقسم فى أول الامر بالساكنات حيث قال والصافات وفى السور الاربع الباقية أقسم بالمتحركات فقال والذاريات وقال والمرسلات وقال والنازعات ويؤيده قوله تعالى والسابحات فالسابقات وقال والعاديات وذلك لان الحشر فيه جمع وتفريق وذلك بالحركة أليق أوان نقول فى جميع السور الاربع أقسم بالرياح على مابين وهى التى تجمع وتفرق فالقادر على تأليف السحاب المتفرق بالرياح الذارية والمرسلة قادر على تأليف الاجزاء المتفرقة بطريق من الطرق التى يختارها بمشيئته تعالى (المسئلة الخامسة) فى الذاريات أقوال (الاول) هى الرياح تذرو التراب وغيره كما قال تعالى تذروه الرياح (الثانى) هى الكواكب من ذرا يذرو اذا أسرع (الثالث) هى الملائكة (الرابع) رب الذاريات والاول أصح (المسئلة السادسة) الامور الاربعة جاز أن تكون أمورا متباينة وجاز أن تكون أمرا له أربع اعتبارات والاول هو ماروى عن على عليه السلام أن الذاريات هى الرياح والحاملات هى السحاب والجاريات هى السفن والمقسمات هى الملائكة الذين يقسمون الارزاق والثانى وهو الاقرب أن هذه صفات أربع للرياح فالذاريات هى الرياح التى تنشئ السحاب أولا والحاملات هى الرياح التى تحمل السحب التى هى بخار المياه التى اذا سحت جرت السيول العظيمة وهى أوقار أثقل من جبال والجاريات هى الرياح التى تجرى بالسحب بعد حملها والمقسمات هى الرياح التى تفرق الامطار على الاقطار ويحتمل أن يقال هذه أمور أربعة مذكورة فى مقابلة أمور أربعة بها تتم الاعادة وذلك لان الاجزاء التى تفرقت بعضها فى تخوم الارضين وبعضها فى قعور البحور وبعضها فى جو الهواء وهى الاجزاء اللطيفة البخارية التى تنفصل عن الابدان فقوله تعالى والذاريات يعنى الجامع للذاريات من الارض على ان الذارية هى التى تذرو التراب عن وجه الارض وقوله تعالى فالحاملات وقرا هى التى تجمع الاجزاء من الجو وتحمله حملا فان التراب لا ترفعه الرياح حملا بل تنقله من موضع وترميه فى موضع بخلاف السحاب فانه يحمله وينقله فى الجو حملا لا يقع منه شئ وقوله فالجاريات يسرا اشارة الى الجامع من الماء فان من يجرى السفن الثقيلة من تيار البحار الى السواحل يقدر على نقل الاجزاء من البحر الى البر فاذا تبين أن الجمع من الارض وجو الهواء ووسط البحار ممكن واذا اجتمع يبقى نفخ الروح لكن الروح من أمر الله كما قال تعالى ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى فقال فالمقسمات امرا الملائكة التى تنفخ الروح فى الجسد بأمر الله وانما ذكرهم بالمقسمات لان الانسان فى الاجزاء الجسمية غير مخالف تخالفا بينا فان لكل أحد رأسا ورجلا والناس متقاربة فى الاعداد والاقدار لكن التفاوت الكثير فى النفوس فان الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف وتلك القسمة المتفاوتة تنقسم بعقسم مختار ومأمور مختار فقال

فأطلع وفاطلع بالتخفيف على لفظ الماضى والمضارع المنصوب يقال طلع علينا فلان واطلع وأطلع بمعنى واحد والمعنى هل أنتم مطلعون الى القرين فأطلع أنا أيضا أو عرض عليهم الاطلاع فقبلوا ماعرضه فاطلع هو بعد ذلك وان جعل الاطلاع متعديا فالمعنى انه لما شرط فى اطلاعه اطلاعهم كما هو دين الجلساء فكأنهم مطلعوه وقيل الخطاب على هذا للملائكة وقرئ مطلعون بكسر النون أراد مطلعون اياى فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله

هم الفاعلون الخير والآمرونه

أو شبه اسم الفاعل بالمضارع لما بينهما من التآخى (قال) أى القائل مخاطبا لقرينه (تالله ان كدت لتردين) أى لتهلكنى بالاغواء وقرئ لتغوين والتاء فيه معنى التعجب وان هى المخففة من ان وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف واللام فارقة أى تالله ان الشان كدت لتردين (ولولا نعمة ربى) بالهداية والعصمة (لكنت من المحضرين) أى من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأضرابك وقوله تعالى (أفما نحن بميتين) رجوع الى محاورة جلسائه بعد اتمام الكلام مع قرينه تبجحا وابتهاجا بما أتاح الله عز وجل لهم من الفضل العظيم والنعيم المقيم والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام أى أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين أى بمن شأنه الموت وقرئ بمائتين (الا موتتنا الاولى) التى كانت فى الدنيا وهى متناولة لما فى القبر بعد الاحياء للسؤال قاله تصديقا لقوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وقيل ان أهل الجنة أول مادخلوا الجنة لا يعلمون أنهم لا يموتون فاذا جئ بالموت على صورة كبش أملح فذبح ونودى يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت يعلمونه فيقولون ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى واغتباطا بها (وما نحن بمعذبين) كالكفار فان النجاة من العذاب أيضا نعمة جليلة مستوجبة للتحدث بها (ان هذا) أى الامر العظيم الذى نحن فيه (لهو الفوز العظيم) وقيل هو من قول الله

عز وجل تقريرا لقولهم وتصديقا له وقرئ لهو الرزق العظيم وهو ما رزقوه من السعادة العظمى (لمثل هذا فليعمل العاملون) أى لنيل هذا المرام الجليل يجب أن يعمل العاملون لا للحظوظ الدنيوية السريعة الانصرام المشوبة بفنون الآلام وهذا أيضا يحتمل أن يكون من كلام رب العزة (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) أصل النزل الفضل والريع فاستعير للحاصل من الشئ فانتصابه على التمييز أى أذلك الرزق المعلوم الذى حاصله اللذة والسرور خير نزلا أم شجرة الزقوم التى حاصلها الالم والغم ويقال النزل لما يقام ويهيأ من الطعام الحاضر النازل فانتصابه على الحالية والمعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير فى كونه نزلا والزقوم اسم شجرة صغيرة الورق ذفرة مرة كريهة الرائحة تكون فى تهامة سميت به الشجرة الموصوفة (انا جعلناها فتنة للظالمين) محنة وعذابا لهم فى الآخرة وابتلاء فى الدنيا فانهم لما سمعوا أنها فى النار قالوا كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار ويتلذذ بها أقدر على خلق الشجر فى النار وحفظه من الاحراق (انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع الى دركاتها وقرئ نابتة فى أصل الجحيم (طلعها) أى حملها الذى يخرج منها مستعار من طلع النخلة لمشاركته له فى الشكل والطلوع من الشجر قالوا أول الثمر طلع ثم خلال ثم بلح ثم بسر ثم رطب ثم تمر (كأنه رؤس الشياطين) فى تناهى القبح والهول وهو تشبيه بالمخيل كتشبيه الفائق فى الحسن بالملك وقيل الشياطين الحيات الهائلة القبيحة المنظر لها أعراف وقيل ان شجرا يقال له الأستن خشنا منتنا مرا منكر الصورة يسمى ثمره رؤس الشياطين (فانهم لآكلون منها) أى من الشجرة أو من طلعها فالتأنيث مكتسب من المضاف اليه (فمالئون منها البطون) لغلبة الجوع أو للقسر على أكلها وان كرهوها ليكون ذلك بابا من العذاب (ثم ان لهم عليها) على

فالمقسمات أمرا (المسئلة السابعة) ما هذه المنصوبات من حيث النحو فنقول أما ذروا فلا شك فى كونه منصوبا على أنه مصدر وأما وقرا فهو مفعول به كما يقال حمل فلان عدلا ثقيلا ويحتمل أن يكون اسما أقيم مقام المصدر كما يقال ضربه سوطا يؤيده قراءة من قرأ بفتح الواو وأما يسرا فهو أيضا منصوب على أنه صفة مصدر تقديره جريا ذا يسر وأما المقسمات أمرا فهو اما مفعول به كما يقال فلان قسم الرزق أو المال واما حال أتى على صورة المصدر كما يقال قتلته صبرا أى مصبورا كذلك ههنا المقسمات أمرا أى مأمورة فان قيل ان كان وقرا مفعولا به فلم لم يجمع وما قيل والحاملات أوقارا نقول لان الحاملات على ما ذكرنا صفة الرياح وهى تتوارد على وقر واحد فان ريحا تهب وتسوق السحابة فتسبق السحاب فتهب أخرى وتسوقها وربما تحول عنه يمنة ويسرة بسبب اختلاف الرياح وكذلك القول فى المقسمات أمرا اذا قلنا هو مفعول به لان جماعة يكونون مأمورين تنقسم أمرا واحدا أو نقول هو فى تقدير التكرير كأنه قال فالحاملات وقرا وقرا والمقسمات أمرا أمرا (المسئلة الثامنة) ما فائدة الفاء نقول ان قلنا انها صفات الرياح فلبيان ترتيب الامور فى الوجود فان الذاريات تنشئ السحاب فتقسم الامطار على الاقطار وان قلنا انها أمور أربعة فالفاء للترتيب فى القسم لا للترتيب فى المقسم به كأنه يقول أقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحب الحاملات ثم بالسفن الجاريات ثم بالملائكة المقسمات وقوله فالحاملات وقوله فالجاريات اشارة الى بيان ما فى الرياح من الفوائد أما فى البر فانشاء السحب وأما فى البحر فاجراء السفن ثم المقسمات اشارة الى ما يترتب على حمل السحب وجرى السفن من الارزاق والارباح التى تكون بقسمة الله تعالى فتجرى سفن بعض الناس كما يشتهى ولا تربح وبعضهم تربح وهو غافل عنه كما قال تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم ۞ ثم قال تعالى (انما توعدون لصادق) ما يحتمل أن تكون مصدرية معناه الايعاد صادق وان تكون موصولة أى الذى توعدون صادق والصادق معناه ذو صدق كعيشة راضية ووصف المصدر بما يوصف به الفاعل بالمصدر فيه افادة مبالغة فكما أن من قال فلان لطف محض وحلم يجب أن يكون قد بالغ كذلك من قال كلام صادق وبرهان قاهر للخصم أو غير ذلك يكون قد بالغ والوجه فيه هو أنه اذا قال هو لطف بدل قوله لطيف فكأنه قال اللطيف شئ له لطف فى اللطيف لطف وشئ آخر فاراد أن يبين كثرة اللطف فجعله كله لطفا وفى الثانى لما كان الصدق يقوم بالمتكلم بسبب كلامه فكأنه قال هذا الكلام لا يحوج الى شئ آخر حتى يصح اطلاق الصادق عليه بل هو كاف فى اطلاق الصادق لكونه سببا قويا وقوله تعالى توعدون يحتمل أن يكون من وعد ويحتمل أن يكون من أوعد والثانى هو الحق لان اليمين مع المنكر بوعيد لا بوعد ۞ وقوله تعالى (وان الدين لواقع) أى الجزاء كائن وعلى هذا فالايعاد بالحشر فى الموعد هو الحساب والجزاء هو العقاب فكأنه تعالى بين بقوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع أن الحساب يستوفى وان العقاب يوفى ۞ ثم قال تعالى (والسماء ذات الحبك) وفى تفسيره مباحث (الاول) والسماء ذات الحبك قيل الطرائق وعلى هذا فيحتمل أن يكون المراد طرائق الكواكب وممراتها كما يقال فى الحابك ويحتمل أن يكون المراد ما فى السماء من الاشكال بسبب النجوم فان فى سمت كواكبها طريق التنين والعقرب والنسر الذى يقول به أصحاب الصور ومنطقة الجوزاء وغير ذلك كالطرائق وعلى هذا فالمراد به السماء المزينة بزينة الكواكب ومثله قوله تعالى والسماء ذات البروج وقيل حبكها صفاقها يقال فى الثوب الصفيق حسن الحبك وعلى هذا فهو كقوله تعالى والسماء ذات الرجع لشدتها وقوتها هذا ما قيل فيه (البحث الثانى) فى المقسم عليه وهو قوله تعالى (انكم لفى قول مختلف) وفى تفسيره أقوال مختلفة كلها محكمة (الاول) انكم فى قول مختلف فى حق محمد صلى الله عليه وسلم تارة تقولون انه أمين وأخرى انه كاذب وتارة تنسبونه الى الجنون وتارة تقولون انه كاهن وشاعر وساحر وهذا محتمل لكنه ضعيف اذ لا حاجة الى اليمين على هذا لانهم كانوا يقولون ذلك من غير انكار حتى يؤكد بيمين (الثانى) انكم لفى قول

مختلف

مختلف أى غير ثابتين على أمر ومن لا يثبت على قول لا يكون متيقنا فى اعتقاده فيكون كأنه قال تعالى والسماء انكم غير جازمين فى اعتقادكم وانما تظهرون الجزم لشدة عنادكم وعلى هذا القول فيه فائدة وهى انهم لما قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم انك تعلم أنك غير صادق فى قولك وانما تجادل ونحن نعجز عن الجدل قال والذاريات ذروا أى انك صادق ولست معاندا ثم قال تعالى بل أنتم والله جازمون بأنى صادق فعكس الامر عليهم (الثالث) انكم لفى قول مختلف أى متناقض أما فى الحشر فلانكم تقولون لا حشر ولا حياة بعد الموت ثم تقولون انا وجدنا آباءنا على أمة فاذا كان لا حياة بعد الموت ولا شعور للميت فاذا يصيب آباءكم اذا خالفتموهم وانما يصح هذا ممن يقولون بأن بعد الموت عذابا فلو علمنا شيأ يكرهه الميت يبدى فلا معنى لقولكم انا لا ننسب آباءنا بعد موتهم الى الضلال وكيف وأنتم تربطون الركائب على قبور الأكابر وأما فى التوحيد فتقولون خالق السموات والارض هو الله تعالى لا غير ثم تقولون هو اله الآلهة وترجعون الى الشرك وأما فى قول النبى صلى الله عليه وسلم فتقولون انه مجنون ثم تقولون له انك تغلبنا بقوة جدلك والمجنون كيف يقدر على الكلام المنتظم المعجز الى غير ذلك من الامور المتناقضة ۞ ثم قال تعالى ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ وفيه وجوه (أحدها) أنه مدح للمؤمنين أى يؤفك عن القول المختلف ويصرف من صرف عن ذلك القول ويرشد الى القول المستوى (وثانيها) أنه ذم معناه يؤفك عن الرسول (ثالثها) يؤفك عن القول بالحشر (رابعها) يؤفك عن القرآن وقرئ يؤفن عنه من أفن أى يحرم وقرئ يؤفك عنه من أفك أى كذب ۞ ثم قال تعالى ﴿قتل الخراصون﴾ وهذا يدل على ان المراد من قوله لفى قول مختلف أنهم غير ثابتين على أمر وغير جازمين بل هم يظنون ويخرصون ومعناه لعن الخراصون دعاء عليهم بمكروه ۞ ثم وصفهم فقال ﴿الذين هم فى غمرة ساهون﴾ وفيه مسئلتان احداهما لفظية والاخرى معنوية (أما اللفظية) فقوله ساهون يحتمل أن يكون خبرا بعد خبر والمبتدأ هو قوله هم وتقديره هم كائنون فى غمرة ساهون كما يقال زيد جاهل جائر لا على قصد وصف الجاهل بالجائر بل الاخبار بالوصفين عن زيد ويحتمل أن يكون ساهون خبرا وفى غمرة ظرف له كما يقال زيد فى بيته قاعد يكون الخبر هو القاعد لا غير وفى بيته لبيان ظرف القعود كذلك فى غمرة لبيان ظرف السهو الذى يصح وصف المعرفة بالجملة ولولاها لما جاز وصف المعرفة بالجملة (وأما المعنوية) فهى ان وصف الخراص بالسهو والانهماك فى الباطل يحقق كون الخراص صفة ذم وذلك لان ما لا سبيل اليه الا الظن اذا خرص الخارص واطلق عليه الخراص لا يكون ذلك مفيد نقص كما يقال فى خراص الفواكه والعساكر وغير ذلك وأما الخرص فى محل المعرفة واليقين فهو ذم فقال قتل الخراصون الذين هم جاهلون ساهون لا الذين تعين طريقهم فى التخمين والحزر وقوله تعالى ساهون بعد قوله فى غمرة يفيد أنهم وقعوا فى جهل وباطل ونسوا أنفسهم فيه فلم يرجعوا عنه ۞ ثم قال تعالى ﴿يسئلون أيان يوم الدين﴾ فان قيل الزمان يجعل ظرف الافعال ولا يمكن أن يكون الزمان ظرفا لظرف آخر وههنا جعل أيان ظرف اليوم فقال أيان يوم الدين ويقال متى يقدم زيد فيقال يوم الجمعة ولا يقال متى يوم الجمعة فالجواب التقدير متى يكون يوم الجمعة وأيان يكون يوم الدين وأيان من المركبات ركب من أى التى يقع بها الاستفهام وآن التى هى الزمان أو من أى وأوان فكأنه قال أى أوان فلما ركب بنى وهذا منهم جواب لقوله وان الدين لواقع فكأنهم قالوا أيان يقع استهزاء وترك المسؤل فى قوله يسئلون حيث لم يقل يسألون من يدل على أن غرضهم ليس الجواب وانما يسألون استهزاء ۞ وقوله تعالى ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون جوابا عن قولهم أيان يقع وحينئذ كما أنهم لم يسألوا سؤال مستفهم طالب لحصول العلم كذلك لم يجبهم جواب مجيب معلم مبين حيث قال يوم هم على النار يفتنون وجهلهم بالثانى أقوى من جهلهم بالاول ولا يجوز أن يكون الجواب بالاخفى فاذا قال قائل متى يقدم زيد فلو قال المجيب يوم يقدم رفيقه ولا يعلم يوم قدوم الرفيق لا يصح هذا الجواب الا اذا كان الكلام فى صورة

الشجرة التى ملؤا منها بطونهم بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش وطال استسقاؤهم كما ينبئ عنه كلمة ثم ويجوز أن تكون لما فى شرابهم من مزيد الكراهة والبشاعة (لشوبا من حميم) لشرابا من غساق أو صديد مشوبا بماء من حميم يقطع امعاءهم وقرئ بالضم وهو اسم لما يشاب به والاول مصدر سمى به (ثم ان مرجعهم) أى مصيرهم وقد قرئ كذلك (لالى الجحيم) لالى دركاتها أو الى نفسها فان الزقوم والحميم نزل يقدم اليهم قبل دخولها وقيل الحميم خارج عنها لقوله تعالى هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم فى الجحيم الى شجرة الزقوم فيأكلون منها الى أن يتملؤا ثم يسقون من الحميم ثم يردون الى الجحيم ويؤيده أنه قرئ ثم ان منقلبهم (انهم ألفوا آباءهم ضالين) تعليل لاستحقاقهم ما ذكر من فنون العذاب بتقليد الآباء فى الدين من غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شئ يتمسك به أصلا أى وجدوهم ضالين فى نفس الامر ليس لهم ما يصلح شبهة فضلا عن صلاحية الدليل (فهم على آثارهم يهرعون) من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أولا مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل والاهراع الاسراع الشديد كأنهم يزعجون ويحثون حثا على الاسراع على آثارهم وقيل هو اسراع فيه شبه رعدة (ولقد ضل قبلهم) أى قبل قومك قريش (أكثر الاولين) من الامم السالفة وهو جواب قسم محذوف وكذا قوله تعالى (ولقد أرسلنا فيهم منذرين) أى أنبياء أولى عدد كثير وذوى شأن خطير بينوا لهم بطلان ما هم عليه وأنذروهم عاقبته الوخيمة وتكرير القسم لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا الى الانذار ولم يرفعوا له رأسا والخطاب اما لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل احد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم وحيث كان المعنى انهم أهلكوا اهلاكا فظيعا استثنى منهم المخلصون بقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) أى الذين اخلصهم الله تعالى

جواب ولا يكون جوابا كما ان القائل اذا قال كم تعدعداتى وتخلفها الى متى هذا الاخلاف فيغضب ويقول الى أشأم يوم عليك الكلامان فى صورة سؤال وجواب ولا الاول يريد به السؤال ولا الثانى يريد به الجواب فكذلك ههنا قال يوم هم على النار يفتنون مقابلة استهزائهم بالايعاد لا على وجه الاتيان بالبيان (والثانى) ان يكون ذلك ابتداء كلام تمامه فى قوله تعالى ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ فان قيل هذا يفضى الى الاضمار نقول الاضمار لابد منه لان قوله ذوقوا فتنتكم غير متصل بما قبله الا باضمار يقال و يفتنون قيل معناه يحرقون والاولى ان يقال معناه يعرضون على النار عرض المجرب الذهب على النار لان كلمة على تناسب ذلك ولو كان المراد يحرقون لكان بالنار أو فى النار أليق لان الفتنة هى التجربة واما ما يقال من اختبره ومن انه تجربة الحجارة فعنى بذلك المعنى مصدر الفتن وههنا قال ذوقوا فتنتكم والفتنة الامتحان فان قيل فاذا جعلت يوم هم على النار يفتنون مقولا لهم ذوقوا فتنتكم فما قوله ﴿هذا الذى كنتم به تستعجلون﴾ قلنا يحتمل أن يكون المراد كنتم تستعجلون بصريح القول كما فى قوله تعالى حكاية عنهم ربنا عجل لنا قطنا وقوله فأتنا بما تعدنا الى غير ذلك يدل عليه ههنا قوله تعالى يسئلون أيان يوم الدين فانه نوع استعجال و يحتمل أن يكون المراد الاستعجال بالفعل وهو الاصرار على العناد واظهار الفساد فانه يعجل العقوبة ۞ ثم قال تعالى ﴿ان المتقين فى جنات وعيون﴾ بعد بيان حال المغترين المجرمين بين حال المحق المتقى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قد ذكرنا ان المتقى له مقامات أدناها أن يتقى الشرك واعلاها أن يتقى ما سوى الله وأدنى درجات المتقى الجنة فما من مكلف اجتنب الكفر الا ويدخل الجنة فيرزق نعيمها (المسئلة الثانية) الجنة تارة وحدها كما قال تعالى مثل الجنة التى وعد المتقون وأخرى جمعها كما فى هذا المقام قال ان المتقين فى جنات وتارة ثناها فقال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان فما الحكمة فيه نقول أما الجنة عند التوحيد فلانها لاتصال المنازل والاشجار والانهار كجنة واحدة وأما حكمة الجمع فلانها بالنسبة الى الدنيا وبالاضافة الى جنانها جنات لا يحصرها عدد وأما التثنية فسنذكرها فى سورة الرحمن غير انا نقول ههنا الله تعالى عند الوعد وحد الجنة وكذلك عند الشراء حيث قال ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة وعند الاعطاء جمعها اشارة الى أن الزيادة فى الوعد موجودة والخلاف ما لو وعد بجنات ثم كان يقول انه فى جنة لانه دون الموعود (الثالثة) قوله تعالى وعيون يقتضى أن يكون المتقى فيها ولا لذة فى كون الانسان فى ماء أو غير ذلك من المائعات نقول معناه فى خلال العيون وذلك بين الانهار بدليل أن قوله تعالى فى جنات ليس معناه الا بين جنات وفى خلالها لان الجنة هى الاشجار وانما يكون بينها كذلك القول فى العيون والتنكير مع أنها معرفة للتعظيم يقال فلان رجل أى عظيم فى الرجولية ۞ وقوله تعالى ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ فيه مسائل ولطائف (أما المسائل فالاولى) منها ما معنى آخذين نقول فيه وجهان (أحدهما) قابضين ما آتاهم شيأ فشيأ ولا يستوفونه بكماله لامتناع استيفاء ما لا نهاية له (ثانيهما) آخذين قابلين قبول راض كما قال تعالى و يأخذ الصدقات أى يقبلها وهذا ذكره الزمخشرى (وفيه وجه ثالث) وهو أن قوله فى جنات يدل على السكنى فحسب وقوله آخذين يدل على التملك ولذا يقال أخذ بلاد كذا وقلعة كذا اذا دخلها متملكا لها وكذلك يقال لمن اشترى دارا أو بستانا أخذه بثمن قليل أى تملكه وان لم يكن هناك قبض حسا ولا قبول برضا وحينئذ فائدته بيان ان دخولهم فيها ليس دخول مستعير أو ضيف يسترد منه ذلك بل هو ملكه الذى اشتراه بماله ونفسه من الله تعالى وقوله آتاهم يكون لبيان ان أخذهم تلك لم يكن عنوة وفتوحا وانما كان باعطاء الله تعالى وعلى هذا الوجه ما راجعة الى الجنات والعيون ۞ وقوله ﴿انهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ اشارة الى ثمنها أى أخذوها وملكوها بالاحسان كما قال تعالى للذين أحسنوا الحسنى بلام الملك وهى الجنة (المسئلة الثانية) آخذين حال وهو فى معنى قول القائل يأخذون فكيف قال ما آتاهم ولم يقل ما يؤتيهم ليتفق اللفظان ويوافق المعنى لان قوله آتاهم ينبئ عن

بتوفيقهم للايمان والعمل بموجب الانذار وقرئ المخلصين بكسر اللام أى الذين أخلصوا دينهم لله تعالى ﴿ولقد نادانا نوح﴾ نوع تفصيل لما أجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض المنذرين حسبما أشير اليه بقوله تعالى فانظر كيف كان عاقبة المنذرين كقوم نوح وآل فرعون وقوم لوط وقوم الياس ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى ووفقهم للايمان كما أشار اليه الاستثناء كقوم يونس عليه السلام ووجه تقديم قصة نوح على سائر القصص غنى عن البيان واللام جواب قسم محذوف وكذا ما فى قوله تعالى ﴿فلنعم المجيبون﴾ أى وبالله لقد دعانا نوح حين يئس من ايمان قومه بعد ما دعاهم اليه أحقابا ودهورا فلم يزدهم دعاؤه الا فرارا ونفورا فأجبناه أحسن الاجابة فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه والجمع دليل العظمة والكبرياء ﴿ونجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾ أى من الغرق وقيل من أذية قومه ﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾ فحسب حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقد روى انه مات كل من كان معه فى السفينة غير أبنائه وأزواجهم أوهم الذين بقوا متناسلين الى يوم القيامة قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام وكان له ثلاثة أولاد سام وحام ويافث فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان من المشرق الى المغرب و يافث أبو الترك و يأجوج ومأجوج ﴿وتركنا عليه فى الآخرين﴾ من الامم ﴿سلام على نوح﴾ أى هذا الكلام بعينه وهو وارد على الحكاية كقولك قرأت سورة أنزلناها والمعنى يسلمون عليه تسليما و يدعون له على الدوام أمة بعد أمة وقيل ثمة قول مقدر أى فقلنا وقيل ضمن تركنا معنى قلنا وقوله تعالى ﴿فى العالمين﴾ متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبات هذه التحية واستمرارها أبدا فى العالمين من الملائكة والثقلين جميعا وقوله تعالى ﴿انا كذلك نجزى المحسنين﴾ تعليل لما فعل به الانقراض

الانقراض وقوله يؤتيهم تنبيه على الدوام وايتاء الله فى الجنة كل يوم متجدد ولا نهاية له ولاسيما اذا فسرنا الاخذ بالقبول كيف يصح أن يقال فلان يقبل اليوم ما آتاه زيد أمس نقول اما على ماذكرنا من التفسير لا يرد لان معناه يتملكون ما أعطاهم وقد يوجد الاعطاء أمس ويتملك اليوم وأما على ماذكروه فنقول الله تعالى أعطى المؤمن الجنة وهو فى الدنيا غير أنه لم يكن جنى ثمارها فهو يدخلها على هيئة الآخذ وربما يأخذ خيرا مما آتاه ولا ينافى ذلك كونه داخلا على تلك الهيئة يقول القائل جئتك خائفا فاذا أنا آمن وما ذكرتم انما يلزم ان لو كان أخذهم مقتصرا على ما آتاهم من قبل وليس كذلك وانما هم دخلوها على ذلك ولم يخطر ببالهم غيره فيؤتيهم الله مالم يخطر ببالهم فيأخذون ما يؤتيهم الله وان دخلوها ليأخذوا ما آتاهم وقوله تعالى ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل هو أخذهم ما آتاهم وقد ذكرناه فى سورة يس (المسئلة الثالثة) ذلك اشارة الى ماذا نقول يحتمل وجهين (أحدهما) قبل دخولهم لان قوله تعالى فى جنات فيه معنى الدخول يعنى قبل دخولهم الجنة أحسنوا (ثانيهما) قبل ايتاء الله ما آتاهم أحسنوا فآتاهم الحسنى وهى الجنة فأخذوها وفيه وجوه أخر وهو ان ذلك اشارة الى يوم الدين وقد تقدم (وأما اللطائف) فقد سبق بعضها ومنها ان قوله تعالى ان المتقين لما كان اشارة الى التقوى من الشرك كان كأنه قال الذين آمنوا لكن الايمان مع العمل الصالح يفيد سعادتين ولذلك دلالة أتم من قول القائل انهم أحسنوا (اللطيفة الثانية) اما التقوى فلانه لما قال لا اله فقد انتفى الشرك واما الاحسان فلانه لما قال الا الله فقد أتى بالاحسان ولهذا قيل فى معنى كلمة التقوى انها لا اله الا الله وفى الاحسان قال تعالى ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وقيل فى تفسير هل جزاء الاحسان الا الاحسان ان الاحسان هو الاتيان بكلمة لا اله الا الله وهما حينئذ لا ينفصلان بل هما متلازمان ۞ وقوله تعالى ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ﴾ كالتفسير لكونهم محسنين تقول حاتم كان سخيا كان يبذل موجوده ولا يترك مجهوده وفيه مباحث (الاول) قليلا منصوب على الظرف تقديره يهجعون قليلا تقول قام بعض الليل فتنصب بعض على الظرف وخبر كان هو قوله يهجعون وما زائدة هذا هو المشهور وفيه وجه آخر وهو أن يقال كانوا قليلا معناه نفى النوم عنهم وهذا منقول عن الضحاك ومقاتل وأنكر الزمخشرى كون ما نافية وقال لا يجوز أن تكون نافية لان ما بعدما لا يعمل فيما قبلها لا تقول زيدا ما ضربت ويجوز ان يعمل ما بعد لم فيما قبلها تقول زيدا لم أضرب وسبب ذلك هو ان الفعل المتعدى انما يفعل فى النفى حملا له على الاثبات لانك اذا قلت ضرب زيد عمرا ثبت تعلق فعله بعمرو فاذا قلت ما ضرب به لم يوجد منه فعل حتى يتعلق به ويتعدى اليه لكن النفى محمول على الاثبات فاذا ثبت هذا فالنفى بالنسبة الى الاثبات كاسم الفاعل بالنسبة الى الفعل فانه يعمل عمل الفعل لكن اسم الفاعل اذا كان بمعنى الماضى لا يعمل فلا تقول زيد ضارب عمرا أمس وتقول زيد ضارب عمرا غدا واليوم والآن لان الماضى لم يبق موجودا ولا متوقع الوجود فلا يتعلق بالمفعول حقيقة لكن الفعل لقوته يعمل واسم الفاعل لضعفه لم يعمل اذا عرفت هذا فنقول ما ضرب للنفى فى الماضى فاجتمع فيه النفى والمضى فضعف وأما لم أضرب وان كان يقلب المستقبل الى الماضى لكن الصيغة صيغة المستقبل فوجد فيه ما يوجد فى قول القائل زيد ضارب عمرا غدا فأعمل هذا بيان قوله غير أن القائل بذلك القول يقول قليلا ليس منصوبا بقوله يهجعون وانما ذلك خبر كانوا أى كانوا قليلين ثم قال من الليل ما يهجعون أى ما يهجعون أصلا بل يحيون الليل جميعه ومن يكون لبيان الجنس لا للتبعيض وهذا الوجه حينئذ فيه معنى قوله تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وذلك لانا ذكرنا ان قوله ان المتقين فيه معنى الذين آمنوا وقوله محسنين فيه معنى الذين عملوا الصالحات وقوله كانوا قليلا فيه معنى قوله تعالى وقليل ما هم (البحث الثانى) على القول المشهور وهو ان ما زائدة يحتمل أن يكون قليلا صفة مصدر تقديره يهجعون هجوعا قليلا (البحث الثالث) يمكن أن يقال قليلا

عليه الصلاة والسلام من التكرمة السنية من اجابة دعائه أحسن اجابة وابقاء ذريته وتبقية ذكره الجميل وتسليم العالمين عليه الى آخر الدهر بكونه من زمرة المعروفين بالاحسان الراسخين فيه وأن ذلك من قبيل مجازاة الاحسان بالاحسان وذلك اشارة الى ماذكر من الكرامات السنية التى وقعت جزاء له عليه الصلاة والسلام وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل والشرف والكاف متعلقة بما بعدها أى مثل ذلك الجزاء الكامل نجزى الكاملين فى الاحسان لا جزاء أدنى منه وقوله تعالى (انه من عبادنا المؤمنين) تعليل لكونه من المحسنين بخلوص عبوديته وكمال ايمانه وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما ما لا يخفى (ثم أغرقنا الآخرين) أى المغايرين لنوح وأهله وهم كفار قومه أجمعين (وان من شيعته) أى ممن شايعه فى أصول الدين (لابراهيم) وان اختلف فروع شرائعهما ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق كلى أو أكثرى وعن ابن عباس رضى الله عنهما من أهل دينه وعلى سنته أو ممن شايعه على التصلب فى دين الله ومصابرة المكذبين وما كان بينهما الا نبيان هود وصالح عليهم السلام وكان بين نوح وابراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة (اذ جاء ربه) منصوب باذكر أو متعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة (بقلب سليم) أى من آفات القلوب أو من العلائق الشاغلة عن التبتل الى الله عز وجل ومعنى المجىء به ربه اخلاصه له كأنه جاء به متحفا اياه بطريق التمثيل (اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون) بدل من الاولى أو ظرف لجاء أو لسليم أى أى شئ تعبدونه (أئفكا آلهة دون الله تريدون) أى أتريدون آلهة من دون الله افكا أى للافك فقدم المفعول على الفعل للعناية ثم المفعول له على المفعول به لان الاهم مكافحتهم بانهم على افك وباطل فى شركهم ويجوز أن يكون افكا مفعولا به بمعنى أتريدون افكا ثم يفسر الافك بقوله آلهة من دون الله دلالة على انها افك فى نفسها للمبالغة

أو برادبها عبادتها بحذف المضاف ويجوز أن يكون حالا بمعنى آفكين (فما ظنكم برب العالمين) أى بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين حتى تركتم عبادته خاصة وأشركتم به أخس مخلوقاته أو فما ظنكم به أى شئ هو من الاشياء حتى جعلتم الاصنام له أندادا أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم بعد ما فعلتم ما فعلتم من الاشراك به (فنظر نظرة فى النجوم) قيل كانت له عليه الصلاة والسلام حمى لها نوبة معينة فى بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة فاذا هى قد حضرت (فقال انى سقيم) وكان صادقا فى ذلك فجعله عذرا فى تخلفه عن عيدهم وقيل أراد انى سقيم القلب لكفركم وقيل نظر فى علمها أو فى كتبها أو فى أحكامها ولا منع من ذلك حيث كان قصده عليه الصلاة والسلام ايهامهم حين أرادوا أن يخرجوا به عليه الصلاة والسلام الى معبدهم ليتركوه فان القوم كانوا نجامين فأوهمهم انه قد استدل بامارة فى علم النجوم على انه سقيم أى مشارف للسقم وهو الطاعون وكان أغلب الاسقام عليهم وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه الى معبدهم وتركوه فى بيت الاصنام وذلك قوله تعالى (فتولوا عنه مدبرين) أى هاربين مخافة العدوى (فراغ الى آلهتهم) أى ذهب اليها فى خفية وأصله الميل بحيلة (فقال) للاصنام استهزاء (ألا تأكلون) أى من الطعام الذى كانوا يصنعونه عندها لتبرك عليه (مالكم لا تنطقون) أى بجوابى (فراغ عليهم) فمال مستعليا عليهم وقوله تعالى (ضربا باليمين) مصدر مؤكد لراغ عليهم فانه بمعنى ضربهم أو لفعل مضمر هو حال من فاعله أى فراغ عليهم يضربهم ضربا أو هو الحال منه على أنه مصدر بمعنى الفاعل أى فراغ عليهم ضاربا باليمين أى ضربا شديدا قويا وذلك لان اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما وقوة الآلة تقتضى قوة الفعل وشدته وقيل بالقوة والمتانة كما فى قوله

اذا ماراية رفعت لمجد * تلقاها عرابة باليمين

أى بالقوة وعلى ذلك مدار تسمية الحلف باليمين لانه يقوى الكلام ويؤكده وقيل بسبب الحلف

منصوب على انه خبر كان وما مصدرية تقديره كان هجوعهم من الليل قليلا فيكون فاعل كانوا هو الهجوع ويكون ذلك من باب بدل الاشتمال لان هجوعهم متصل بهم فكأنه قال كان هجوعهم قليلا كما يقال كان زيد خلقه حسنا فلا يحتاج الى القول بزيادة واعلم ان النحاة لا يقولون فيه انه بدل فيفرقون بين قول القائل زيد حسن وجهه أو الوجه وبين قوله زيد وجهه حسن فيقولون فى الاول صفة وفى الثانى بدل ونحن حيث قلنا انه من باب بدل الاشتمال أردنا به معنى لا اصطلاحا والا فقليلا عند التقديم ليس فى النحو مثله عند التأخير حتى قولك فلان قليل هجوعه ليس ببدل وفلان هجوعه قليل بدل وعلى هذا يمكن أن تكون ما موصولة معناه كان ما يهجعون فيه قليلا من الليل هذا اما يتعلق باللفظ اما ما يتعلق بالمعنى فنقول تقديم قليلا فى الذكر ليس لمجرد السجع حتى يقع يهجعون ويستغفرون فى أواخر الآيات بل فيه فائدتان (الاولى) هى ان الهجوع راحة لهم وكان المقصود بيان اجتهادهم وتحملهم السهر لله تعالى فلو قال كانوا يهجعون كان المذكور أولا راحتهم ثم يصفه بالقلة وربما يغفل الانسان السامع عما بعد الكلام فيقول احسانهم وكونهم محسنين بسبب انهم يهجعون واذا قدم قوله قليلا يكون السابق الى الفهم قلة الهجوع وهذه الفائدة من يراعيها يقول فلان قليل الهجوع ولا يقول هجوعه قليل لان الغرض بيان قلة الهجوع لا بيان الهجوع بوصف القلة أو الكثرة فان الهجوع لو لم يكن لكان نفى القلة أولى ولا كذلك قلة الهجوع لانها لو لم تكن لكان بدلها الكثرة فى الظاهر (الفائدة الثانية) فى قوله تعالى من الليل وذلك لان النوم القليل بالنهار قد يوجد من كل أحد وأما الليل فهو زمان النوم لا يسهره فى الطاعة الا متعبد مقبل فان قيل الهجوع لا يكون الا بالليل والنوم نهارا لا يقال له الهجوع قلنا ذكر الامر العام وارادة التخصيص حسن فتقول رأيت حيوانا ناطقا فصيحا وذكر الخاص وارادة العام لا يحسن الا فى بعض المواضع فلا تقول رأيت فصيحا ناطقا حيوانا اذا عرفت هذا فنقول فى قوله تعالى كانوا قليلا من الليل ذكر أمرا هو كالعام يحتمل أن يكون بعده كانوا من الليل يسجون ويستغفرون أو يسهرون أو غير ذلك فاذا قال يهجعون فكأنه خصص ذلك الامر العام المحتمل له ولغيره فلا اشكال فيه ۞ ثم قال تعالى (وبالاسحارهم يستغفرون) اشارة الى انهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون من التقصير وهذا سيرة الكريم يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر من التقصير واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره ويمن به وفيه وجه آخر ألطف منه وهو انه تعالى لما بين انهم يهجعون قليلا والهجوع مقتضى الطبع قال يستغفرون أى من ذلك القدر من النوم القليل وفيه لطيفة أخرى تنبيها فى جواب سؤال وهو انه تعالى مدحهم بقلة الهجوع ولم يمدحهم بكثرة السهر وما قال كانوا كثيرا من الليل ما يسهرون فما الحكمة فيه مع ان السهر هو الكلفة والاجتهاد لا الهجوع نقول أشارة الى ان نومهم عبادة حيث مدحهم الله تعالى بكونهم هاجعين قليلا وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى وهو الاستغفار فى وجوه الاسحار ومنعهم من الاعجاب بأنفسهم والاستكبار وفيه مباحث (البحث الاول) فى الباء فانها استعملت للظرف ههنا وهى ليست للظرف نقول قال بعض النحاة ان حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض يقال فى الظرف خرجت لعشر بقين وبالليل وفى شهر رمضان فيستعمل اللام والباء وفى وكذلك فى المكان تقول أقمت بالمدينة كذا وفيها ورأيته ببلدة كذا وفيها فان قيل ما التحقيق فيه نقول الحروف لها معان مختلفة كما أن الاسماء والافعال كذلك غير أن الحروف غير مستقلة بافادة المعنى والاسم والفعل مستقلان لكن بين بعض الحروف وبعضها تناف وتباعد كما فى الاسماء والافعال فان البيت والمسكن مختلفان متفاوتان وكذلك سكن ومكث ولا كذلك كل اسمين يفرض أو كل فعلين يوجد اذا عرفت هذا فنقول بين الباء واللام وفى مشاركة اما الباء فلانها للالصاق والمتمكن فى مكان ملتصق به متصل وكذلك الفعل بالنسبة الى الزمان فاذا قال سار بالنهار معناه ذهب ذهابا متصلا بالنهار وكذا قوله تعالى وبالاسحارهم يستغفرون أى استغفارا متصلا

متصلا بالاسحار مقترنا بها الا ان الكائن فيها مقترن بها فان قيل فهل يكون بينهما فى المعنى تفاوت نقول نعم وذلك لان من قال قمت بالليل واستغفرت بالاسحار أخبر عن الامرين وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من أجزاء الوقت من قوله قمت فى الليل لانه يستدعى احتواش الزمان بالفعل وكذلك قول القائل أقمت ببلد كذا لا يفيد انه كان محاطا بالبلد وقوله أقمت فيها يدل على احاطتها به فاذن قول القائل أقمت بالبلدة ودعوت بالاسحار أعم من قوله قمت فيه لان القائم فيه قائم به والقائم به ليس قائما فيه من كل بد اذا علمت هذا فقوله تعالى وبالاسحار هم يستغفرون اشارة الى انهم لا يخلون وقتا عن العبادة فانهم بالليل لا يهجعون ومع أول جزء من السحر يستغفرون فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب لانهم وقت الانتباه فى الاسحار لم يخلوا الوقت للذنب فان قيل زدنا بيانا فان من الازمان أزمانا لا تجعل ظروفا بالباء فلا يقال خرجت بيوم الجمعة ويقال بلى نقول ان كل فعل جار فى زمان فهو متصل به فالخروج فى يوم الجمعة متصل مقترن بذلك الزمان ولم يستعمل خرجت بيوم الجمعة نقول الفارق بينهما الاطلاق والتقييد بدليل انك ان قلت خرجت بنهار او بليلة الجمعة لم يحسن ولو قلت خرجت بيوم سعد وخرج هو بيوم نحس حسن فالنهار والليل لما لم يكن فيهما خصوص وتقييد جاز استعمال الباء فيهما فاذا قيدتهما وخصصتهما زال ذلك الجواز ويوم الجمعة لما كان فيه خصوص لم يجز استعمال الباء وحيث زال الخصوص بالتنكير وقلت خرجت بيوم كذا عاد الجواز والسر فيه ان مثل يوم الجمعة وهذه الساعة وتلك الليلة وجد فيها أمر غير الزمان وهو خصوصيات وخصوصية الشئ فى الحقيقة أمور كثيرة غير محصورة عند العاقل على وجه التفصيل لكنها محصورة على الاجمال مثاله اذا قلت هذا الرجل فالعام فيه هو الرجل ثم انك لو قلت الرجل الطويل ما كان يصير مخصصا لكنه يقرب من الخصوص ويخرج من القصار فان قلت العالم لم يصر مخصصا لكنه يخرج عن الجهال فاذا قلت الزاهد فكذلك فاذا قلت ابن عمرو خرج عن أبناء زيد وبكر وخالد وغيرهم فاذا قلت هذا يتناول تلك المخصصات التى باجمعها لا تجتمع الا فى ذلك فاذن الزمان المتعين فيه أمور غير الزمان والفعل حدث مقترن بزمان لا بأشئ عن الزمان وأما فى فصحيح لان ما حصل فى العام فهو فى الخاص لان العام أمر داخل فى الخاص وأما فى فيدخل فى الذى فيه الشئ فصح أن يقال فى يوم الجمعة وفى هذه الساعة وأما بحث اللام فنؤخره الى موضعه وقد تقدم بعضه فى تفسير قوله تعالى والشمس تجرى لمستقر لها وقوله هم غير خال عن فائدة قال الزمخشرى فائدته انحصار المستغفرين أى لكمالهم فى الاستغفار كأن غيرهم ليس بمستغفر فهم المستغفرون لا غير يقال فلان هو العالم لكماله فى العلم كأنه تفرد به وهو جيد ولكن فيه فائدة أخرى وهى ان الله تعالى لما عطف وبالاسحار هم يستغفرون على قوله كانوا قليلا من الليل ما يهجعون فلو لم يؤكد معنى الاثبات بكلمة هم لصلح أن يكون معناه وبالاسحار قليلا ما يستغفرون تقول فلان قليلا ما يؤذى والى الناس يحسن قد يفهم انه قليل الايذاء قليل الاحسان فاذا قلت قليلا ما يؤذى وهو يحسن زال ذلك الفهم وظهر فيه معنى قوله قليل الايذاء كثير الاحسان والاستغفار يحتمل وجوها (أحدها) طلب المغفرة بالذكر بقولهم ربنا اغفر لنا (الثانى) طلب المغفرة بالفعل أى بالاسحار يأتون بفعل آخر طلبا للغفران وهو الصلاة أو غيرها من العبادات (الثالث) وهو أغربها الاستغفار من باب استحصد الزرع اذا جاء أوان حصاده فكأنهم بالاسحار يستحقون المغفرة ويأتيهم أوان المغفرة فان قيل فالله لم يؤخر مغفرتهم الى السحر نقول وقت السحر تجتمع ملائكة الليل والنهار وهو الوقت المشهود فيقول الله على ملائهم انى غفرت لعبدى والاول أظهر والثانى عند المفسرين أشهر ۞ ثم قال تعالى (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) وقد ذكرنا مرارا أن الله تعالى بعد ذكر تعظيم نفسه يذكر الشفقة على خلقه ولا شك ان قليل الهجوع المستغفر فى وجوه الاسحار وجد منه التعظيم العظيم فاشار الى الشفقة بقوله وفى أموالهم حق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أضاف المال اليهم

وهو قوله تعالى وتالله لاكيدن أصنامكم (فأقبلوا اليه) أى المأمورون باحضاره عليه الصلاة والسلام بعد ما رجعوا من عيدهم الى بيت الاصنام فوجدوها مكسورة فسألوا عن الفاعل فظنوا أنه عليه الصلاة والسلام فعله فقيل فأتوا به (يزفون) حال من واو أقبلوا أى يسرعون من زفيف النعام وقرئ يزفون من أزف اذا دخل فى الزفيف أو من أزفه أى حمله على الزفيف أى يزف بعضهم بعضا ويزفون على البناء للمفعول أى يحملون على الزفيف ويزفون من وزف يزف اذا أسرع ويزفون من زفاه اذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم اليه عليه الصلاة والسلام (قال) أى بعد ما أتوا به عليه الصلاة والسلام وجرى بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم من المحاورات ما نطق به قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم الى قوله تعالى لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (أتعبدون ما تنحتون) ما تنحتونه من الاصنام وقوله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) حال من فاعل تعبدون مؤكدة للانكار والتوبيخ أى والحال أنه تعالى خلقكم وخلق ما تعملونه فان جواهر أصنامهم ومادتها بخلقه تعالى وشكلها وان كان بفعلهم لكنه باقداره تعالى اياهم عليه وخلقه ما يتوقف عليه فعلهم من الدواعى والعدد والاسباب وما تعملون اما عبارة عن الاصنام فوضعه موضع ضمير ما تنحتون للايذان بان مخلوقيتها لله عز وجل ليس من حيث نحتهم لها فقط بل من حيث سائر أعمالهم أيضا من التصوير والتحلية والتزيين ونحوها واما على عمومه فينتظم الاصنام انتظاما أوليا مع ما فيه من تحقيق الحق ببيان أن جميع ما يعملونه كائنا ما كان مخلوق له سبحانه وقيل ما مصدرية أى عملكم على أنه بمعنى المفعول وقيل بمعناه فان فعلهم اذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم) أى فى النار الشديدة الاتقاد من الجحمة وهى شدة التأجج واللام عوض من المضاف اليه أى جحيم ذلك البنيان وقد ذكر كيفية بنائهم له فى سورة الانبياء (فأرادوا به كيدا) فانه عليه الصلاة

وقال فى مواضع أنفقوا مما رزقكم الله وقال ومما رزقناهم ينفقون نقول سببه ان فى تلك المواضع كان الذكر للحث فذكر معه ما يدفع الحث ويرفع المانع فقال هو رزق الله والله يرزقكم فلا تخافوا الفقر واعطوا وأما ههنا فمدح على ما فعلوه فلم يكن الى الحرص حاجة (المسئلة الثانية) المشهور فى الحق انه هو القدر الذى علم شرعا وهو الزكاة وحينئذ لا يبقى هذا صفة مدح لان كون المسلم فى ماله حق وهو الزكاة ليس صفة مدح لان كل مسلم كذلك بل الكافر اذا قلنا انه مخاطب بفروع الاسلام فى ماله حق معلوم غير انه اذا أسلم سقط عنه وان مات عوقب على تركه وان أدى من غير الاسلام لا يقع الموقع فكيف يفهم كونه مدحا نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) انا نفسر السائل بمن يطلب شرعا والمحروم هو الذى لا مكنة له من الطلب ومنعه الشارع من المطالبة ثم ان المنع قد يكون لكون الطالب غير مستحق وقد يكون لكون المطلوب منه لم يبق عليه حق فلا يطالب فقال تعالى فى ماله حق للطالب وهو الزكاة ولغير الطالب وهو الصدقة المتطوع بها فان ذلك المالك لا يطالب بها ويحرم الطالب منه طلبا على سبيل الجزية والزكاة بل يسأل سؤالا اختياريا فيكون حينئذ كأنه قال فى ماله زكاة وصدقة والصدقة فى المال لا تكون الا بفرضه هو وذلك وتقديره وافرازه للفقراء والمساكين الجواب الثانى هو ان قوله وفى أموالهم حق للسائل أى مالهم ظرف لحقوقهم فان كلمة فى للظرفية لكن الظرف لا يطلب الا للمظروف فكأنه تعالى قال هم لا يطلبون المال ولا يجمعونه الا ويجعلونه ظرفا للحق ولا شك ان المطلوب من الظرف هو المظروف والظرف مالهم فجعل مالهم ظرفا للحقوق ولا يكون فوق هذا مدح فان قيل فلو قيل مالهم للسائل هل كان أبلغ قلنا لا وذلك لان من يكون له أربعون دينارا فتصدق بها لا تكون صدقته دائمة لكن اذا اجتهد واتجر وعاش سنين وأدى الزكاة والصدقة يكون مقدار المؤدى أكثر وهذا كما فى الصلاة والصوم لو أضعف واحد نفسه بهما حتى عجز عنهما لا يكون مثل من اقتصد فيهما واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين متين فاوغل فيه برفق فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى وفى السائل والمحروم وجوه (أحدها) ان السائل هو الناطق وهو الآدمى والمحروم كل ذى روح غيره من الحيوانات المحرمة قال النبى صلى الله عليه وسلم لكل كبد حرى أجر (وثانيها) وهو الاظهر والاشهر أن السائل هو الذى يسأل والمحروم المتعفف الذى يحسبه بعض الناس غنيا فلا يعطيه شيأ والاول كقوله تعالى كلوا وارعوا أنعامكم والثانى كقوله وأطعموا القانع والمعتر فالقانع كالمحروم فان قيل على الوجه الاول الترتيب فى غاية الحسن فان دفع حاجة الناطق مقدم على دفع حاجة البهائم فما وجه الترتيب فى الوجه الثانى نقول فيه وجهان (أحدهما) ان السائل اندفاع حاجته قبل اندفاع حاجة المحروم فى الوجود لانه يعرف حاله بمقاله ويطلب لقلة ماله فيقدم بدفع حاجته والمحروم غير معلوم فلا تندفع حاجته الا بعد الاطلاع عليه فكان الذكر على الترتيب الواقع (وثانيهما) هو ان ذلك اشارة الى كثرة العطاء فيقول يعطى السائل فاذا لم يجدهم يسأل هو عن المحتاجين فيكون سائلا ومسؤلا (الثالث) هو أن المحاسن اللفظية غير مهجورة فى الكلام الحكمى فان قول القائل ان رجوعهم الينا وعلينا حسابهم ليس كقوله تعالى ان الينا ايابهم ثم ان علينا حسابهم والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى وكما أن الانسان الذى نور روحه بالمعرفة ينبغى أن ينور جسمه الظاهر بالنظافة كذلك الكلام ورب كلمة حكمية لا تؤثر فى النفوس لركاكة لفظها اذا عرفت هذا فقوله وبالاسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم أحسن من حيث اللفظ من قولنا وبالاسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للمحروم والسائل فان قيل قدم السائل على المحروم ههنا لما ذكرت من الوجوه ولم قدم المحروم على السائل فى قوله القانع والمعتر لان القانع هو الذى لا يسأل والمعتر السائل نقول قد قيل ان القانع هو السائل والمعتر الذى لا يسأل فلا فرق بين الموضعين وقيل بان القانع والمعتر كلاهما لا يسأل لكن القانع لا يتعرض ولا يخرج من بيته والمعتر يتعرض للاخذ بالسلام والتردد

والسلام لما قهرهم بالحجة وألهمهم الحجر فقصدوا واما قصدوا ولئلا يظهر للعامة عجزهم (فجعلناهم الاسفلين) الاذلين بابطال كيدهم وجعله برهانا نايرا على علو شأنه عليه الصلاة والسلام بجعل النار عليه بردا وسلاما (وقال انى ذاهب الى ربى) أى مهاجر الى حيث أمرنى ربى كما قال انى مهاجر الى ربى وهو الشام أو الى حيث أتجرد فيه لعبادته تعالى (سيهدين) أى الى ما فيه صلاح دينى أو الى مقصدى وبت القول بذلك لسبق الوعد أو لفرط توكله أو للبناء على عادته تعالى معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ولذلك أتى بصيغة التوقع (رب هب لى من الصالحين) أى بعض الصالحين يعيننى على الدعوة والطاعة ويؤنسنى فى الغربة يعنى الولد لان لفظ الهبة على الاطلاق خاص به وان كان قد ورد مقيدا بالاخوة فى قوله تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا ولقوله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) فانه صريح فى أن المبشر به عين ما استوهبه عليه الصلاة والسلام ولقد جمع فيه بشارات ثلاث بشارة أنه غلام وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حليما وأى حلم يعادل حلمه عليه الصلاة والسلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين وقيل ما نعت الله الانبياء عليهم الصلاة والسلام بأقل مما نعتهم بالحلم لعزة وجوده غير ابراهيم وابنه فانه تعالى نعتهما به وحالهما المحكية بعد أعدل بينة بذلك والفاء فى قوله تعالى (فلما بلغ معه السعى) فصيحة معربة عن مقدر قد حذف تعويلا على شهادة الحال وايذانا بعدم الحاجة الى التصريح به لاستحالة التخلف والتأخر بعد البشارة كما فى قوله تعالى فلما رأينه أكبرنه وفى قوله تعالى فلما رآه مستقرا عنده أى فوهبناه له فنشأ فلما بلغ رتبة أن يسعى معه فى أشغاله وحوائجه ومعه متعلق بمحذوف ينبئ عنه السعى لا بنفسه لان صلة المصدر لا تتقدمه ولا ببلغ لان بلوغهما لم يكن معا كأنه لما ذكر السعى قيل مع من فقيل معه وتخصيصه لان الاب أكمل

ولا يسأل وقيل بان القانع لا يسأل والمعتر يسأل فعلى هذا فالحم البدنة يفرق من غير مطالبة ساع أو مستحق مطالبة جزية والزكاة لها طالب وسائل هو الساعى والامام فقوله للسائل اشارة الى الزكاة وقوله والمحروم أى الممنوع اشارة الى الصدقة المتطوع بها واحداهما قبل الاخرى بخلاف اعطاء اللحم ۞ ثم قال تعالى ﴿وفى الارض آيات للموقنين﴾ وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متعلقا بقوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع وفى الارض آيات للموقنين تدلهم على ان الحشر كائن كما قال تعالى ومن آياته انك ترى الارض خاشعة الى ان قال ان الذى أحياها لمحيى الموتى (وثانيهما) أن يكون متعلقا بافعال المتقين فانهم خافوا الله فعظموه وأظهروا الشفقة على عباده وكان لهم آيات فى الارض وفى أنفسهم على اصابتهم الحق فى ذلك فان من يكون له فى الارض الآيات العجيبة يكون له القدرة التامة فيخشى ويتقى ومن له فى أنفس الناس حكم بالغة ونعم سابغة يستحق أن يعبد ويترك الهجوع لعبادته واذا قابل العبد العبادة بالنعمة يجدها دون حد الشكر فيستغفر على التقصير واذا علم أن الرزق من السماء لا يبخل بماله فالآيات الثلاثة المتأخرة فيها تقرير ما تقدم وعلى هذا فقوله تعالى فورب السماء والارض يكون عود الكلام بعد اعتراض الكلام الاول أقوى وأظهر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف خصص الموقنين بكون الآيات لهم مع أن الآيات حاصلة للكل قال تعالى وآية لهم الارض الميتة أحييناها نقول قد ذكرنا ان اليمين آخر ما يأتى به المبرهن وذلك لانه أولا يأتى بالبرهان فان صدق فذلك وان لم يصدق لابد له من أن ينسبه الخصم الى اصراره على الباطل لانه اذا لم يقدر على قدح فيه ولم يصدقه يعترف له بقوة الجدل وينسبه الى المكابرة فيتعين طريقه فى اليمين فاذا آيات الارض لم تفدهم لان اليمين بقوله والذاريات ذروا دلت على سبق اقامة البينات وذكر الآيات ولم يفد فقال فيها وفى الارض آيات للموقنين وان لم يحصل للمصر المعاند منها فائدة وأما فى سورة يس وغيرها من المواضع التى جعل فيها آيات الارض للعامة لم يحصل فيها اليمين وذكر الآيات قبله فجاز أن يقال ان الارض آيات لمن ينظر فيها (الجواب الثانى) وهو الاصح أن هنا الآيات بالفعل والاعتبار للمؤمنين أى حصل ذلك لهم وحيث قال للكل معناه أن فيها آيات لهم ان نظروا وتأملوا (المسئلة الثانية) ههنا قال وفى الارض آيات وقال هناك وآية لهم الارض نقول لما جعل الآية للموقنين ذكر بلفظ الجمع لان الموقن لا يغفل عن الله تعالى فى حال ويرى فى كل شئ آية دالة وأما الغافل فلا يتنبه الا بأمور كثيرة فيكون الكل له كالآية الواحدة ۞ ثم قال تعالى ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ اشارة الى دليل الانفس وهو كقوله تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم وانما اختار من دلائل الآفاق ما فى الارض لظهورها للمن على ظهورها فان أطرافها وأكنافها ما لا يمكن عد أصنافها فدليل الانفس فى قوله وفى أنفسكم عام ويحتمل أن يكون مع المؤمنين وانما أتى بصيغة الخطاب لانها أظهر لكون علم الانسان بما فى نفسه أتم وقوله تعالى وفى أنفسكم يحتمل أن يكون المراد وفيكم يقال الحجارة فى نفسها صلبة ولا يراد بها النفس التى هى منبع الحياة والحس والحركات ويحتمل أن يكون المراد وفى نفوسكم التى بها حياتكم آيات وقوله أفلا تبصرون بالاستفهام اشارة الى ظهورها ۞ وقوله تعالى ﴿وفى السماء رزقكم﴾ فيه وجوه (أحدها) فى السحاب المطر (ثانيها) فى السماء رزقكم مكتوب (ثالثها) تقدير الارزاق كلها من السماء ولولاه لما حصل فى الارض حبة قوت وفى الآيات الثلاث ترتيب حسن وذلك لان الانسان له أمور يحتاج اليها لابد من سبقها حتى يوجد هو فى نفسه وأمور تقارنه فى الوجود وأمور تلحقه وتوجد بعده ليبقى بها فالارض هى المكان واليه يحتاج الانسان ولابد من سبقها فقال وفى الارض آيات ثم فى نفس الانسان أمور من الاجسام والاعراض فقال وفى أنفسكم ثم بقاؤه بالرزق فقال وفى السماء رزقكم ولولا السماء لما كان للناس البقاء ۞ وقوله تعالى ﴿وما توعدون﴾ فيه وجوه (أحدها) الجنة الموعود بها لانها فى السماء (ثانيها) هو من الايعاد لان البناء للمفعول من أوعد يوعد أى وما توعدون اما من الجنة

فى الرفق والاستصلاح فلا يستعجبه قبل أوانه أولانه استوهبه لذلك وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة (قال) أى ابراهيم عليه السلام (يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك) أى أرى هذه الصورة بعينها أو ما هذه عبارته وتأويله وقيل انه رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح روى فى ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثمة سمى يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فمن ثمة سمى يوم عرفة ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر وقيل ان الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال اذن هو ذبيح الله فلما ولد وبلغ حد السعى معه قيل له أوف بنذرك * والاظهر الاشهر أن المخاطب اسمعيل عليه السلام اذ هو الذى وهب اثر المهاجرة ولان البشارة باسحق بعده معطوف على البشارة بهذا الغلام ولقوله عليه الصلاة والسلام أنا ابن الذبيحين فأحدهما جده اسمعيل عليه السلام والآخر أبوه عبد الله فان عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا ان سهل الله تعالى له حفر بئر زمزم أو بلغ بنوه عشرة فلما حصل ذلك وخرج السهم على عبد الله فداه بمائة من الابل ولذلك سنت الدية مائة ولان ذلك كان بمكة وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا فى أيام ابن الزبير ولم يكن اسحق ثمة ولان بشارة اسحق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبه الامر بذبحه مراهقا وما روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل أى النسب أشرف فقال يوسف صديق الله ابن يعقوب اسرائيل الله بن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله فالصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم والزوائد من الراوى وما روى من أن يعقوب كتب الى يوسف مثل ذلك لم يثبت وقرئ انى بفتح الياء فيهما (فانظر ماذا ترى) من الرأى وانما شاوره فيه وهو أمر محتوم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله تعالى فيثبت قدمه ان جزع ويأمن عليه ان سلم وليوطن نفسه عليه فيهون ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد

والنار فى قوله تعالى يوم هم على النار وقوله ان المتقين فى جنات فيكون ايعادا عاما وامامن العذاب وحينئذ يكون الخطاب مع الكفار فيكون كانه تعالى قال وفى الارض آيات للموقنين كافية وأما أنتم أيها الكافرون ففى أنفسكم آيات هى أظهر الآيات وتكفرون بها لحطام الدنيا وحب الرياسة وفى السماء الارزاق فلو نظرتم وتأملتم حق التأمل لما تركتم الحق لاجل الرزق فانه واصل بكل طريق ولا جتنبتم الباطل اتقاء لما توعدون من العذاب النازل ۞ ثم قال تعالى (فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون) وفى المقسم عليه وجوه (أحدها) ما توعدون أى ما توعدون لحق يؤيده قوله تعالى انما توعدون لصادق وعلى هذا يعود كل ما قلناه فى وجوه ما توعدون ان قلنا ان ذلك هو الجنة فالمقسم عليه هو هى (ثانيها) الضمير راجع الى القرآن أى ان القرآن حق وفيما ذكرنا فى قوله تعالى يؤفك عنه دليل هذا وعلى هذا فقوله مثل ما انكم تنطقون معناه تكلم به الملك النازل من عند الله به مثل ما انكم تتكلمون وسنذكره (ثالثها) أنه راجع الى الدين كما فى قوله تعالى وان الدين لواقع (رابعها) أنه راجع الى اليوم المذكور فى قوله أيان يوم الدين يدل عليه وصف الله اليوم بالحق فى قوله تعالى ذلك اليوم الحق (خامسها) أنه راجع الى القول الذى يقال هذا الذى كنتم به تستعجلون * وفى التفسير مباحث (الاول) الفاء تستدعى تعقيب أمر لامر فما الامر المتقدم نقول فيه وجهان (أحدهما) الدليل المتقدم كانه تعالى يقول انما توعدون لحق بالبرهان المبين ثم بالقسم واليمين (ثانيهما) القسم المتقدم كانه تعالى يقول والذاريات ثم ورب السماء والارض * وعلى هذا يكون الفاء حرف عطف أعيد معه حرف القسم كما يعاد الفعل اذ يصح أن يقال ومررت بعمرو * فقوله والذاريات ذروا فالحاملات وقرا عطف من غير اعادة حرف القسم وقوله فورب السماء مع اعادة حرفه والسبب فيه وقوع الفصل بين القسمين ويحتمل ان يقال الامر المتقدم هو بيان الثواب فى قوله يوم هم على النار يفتنون وقوله ان المتقين فى جنات وفيه فائدة وهو أن الفاء تكون تنبيها على أن لا حاجة الى اليمين مع ما تقدم من الكشف المبين فكانه يقول ورب السماء والارض انه لحق كما يقول القائل بعدما يظهر دعواه هذا والله ان الامر كما ذكرت فيؤكد قوله باليمين ويشير الى ثبوته من غير يمين (البحث الثانى) أقسم من قبل بالامور الارضية وهى الرياح وبالسماء فى قوله والسماء ذات الحبك ولم يقسم بربها وههنا أقسم بربها نقول كذلك الترتيب يقسم المتكلم أولا بالادنى فان لم يصدق به يرتقى الى الاعلى ولهذا قال بعض الناس اذا قال قائل وحياتك والله لا يكفر واذا قال والله وحياتك لا شك يكفر وهذا استشهاد وان كان الامر على خلاف ما قاله ذلك القائل لان الكفر اما بالقلب أو باللفظ الظاهر فى أمر القلب أو بالفعل الظاهر وما ذكره ليس بظاهر فى تعظيم جانب غير الله والعجب من ذلك القائل أنه لا يجعل التأخير فى الذكر مفيد الترتيب فى الوضوء وغيره (البحث الثالث) قرئ مثل بالرفع وحينئذ يكون وصفا لقوله لحق ومثل وان أضيف الى المعرفة لا يخرجه عن جواز وصف المنكر به تقول رأيت رجلا مثل عمرو لانه لا يفيده تعريفا لانه فى غاية الابهام وقرئ مثل بالنصب ويحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مفتوحا لاضافته الى ما وهو ضعيف والا جاز أن يقال زيد قاتل من يعرفه أو ضارب من يشتمه (ثانيهما) أن يكون منصوبا على البيان تقديره لحق حقا مثل ويحتمل أن يقال انه منصوب على أنه صفة مصدر معلوم غير مذكور ووجهه انا دللنا أن المراد من الضمير فى قوله انه هو القرآن فكأنه قال ان القرآن لحق نطق به الملك نطقا مثل ما انكم تنطقون وما مجرور لا شك فيه ۞ ثم قال تعالى (هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين) اشارة الى تسلية قلب النبى صلى الله عليه وسلم ببيان أن غيره من الانبياء عليهم السلام كان مثله واختار ابراهيم لكونه شيخ المرسلين وكون النبى عليه الصلاة والسلام على سنته فى بعض الاشياء وانذار لقومه بما جرى من الضيف ومن انزال الحجارة على المذنبين المضلين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا كان المراد ما ذكرت من التسلية والانذار فأى فائدة فى حكاية الضيافة نقول ليكون ذلك اشارة الى الفرج فى حق الانبياء والبلاء على الجهلة والاغبياء

له قبل نزوله وقرئ ماذا ترى بضم التاء وكسر الراء وبفتحها مبنيا للمفعول (قال يا أبت افعل ما تؤمر) أى تؤمر به فحذف الجار أولا على القاعدة
المطردة ثم حذف العائد الى الموصول بعد انقلابه منصوبا بايصاله الى الفعل أو حذفا دفعة أو افعل أمرك على اضافة المصدر الى
المفعول وتسمية المأمور به أمرا
وقرئ ما تؤمر به وصيغة المضارع
للدلالة على أن الامر متعلق به
متوجه اليه مستمر الى حين الامتثال
به (ستجدنى ان شاء الله من
الصابرين) على الذبح أو على قضاء
الله تعالى (فلما أسلما) أى استسلما
لامر الله تعالى وانقادا وخضعا له
يقال سلم لامر الله وأسلم واستسلم
بمعنى واحد وقد قرئ بهن جميعا
وأصلها من قولك سلم هذا لفلان
اذا خلص له ومعناه سلم من أن ينازع
فيه وقولهم سلم لامر الله وأسلم له
منقولان منه ومعناهما أخلص
نفسه لله وجعلها سالمة له وكذلك
معنى استسلم استخلص نفسه له تعالى
وعن قتادة رضى الله عنه فى أسلما
أسلم ابراهيم ابنه واسمعيل نفسه
(وتله للجبين) صرعه على شقه
فوقع جبينه على الارض وهو أحد
جانبى الجبهة وقيل كبه على وجهه
باشارته كيلا يرى منه ما يورث رقة
تحول بينه وبين أمر الله تعالى
وكان ذلك عند الصخرة من منى
وقيل فى الموضع المشرف على مسجد
منى وقيل فى المنحر الذى ينحر اليوم
فيه (وناديناه أن يا ابراهيم قد
صدقت الرؤيا) بالعزم على الاتيان
بالمأمور به وترتيب مقدماته وروى
أنه أمر السكين بقوته على حلقه
مرارا فلم يقطع ثم وضع السكين
على قفاه فانقلب السكين فعند ذلك
وقع النداء وجواب لما محذوف
ايذانا بعدم وفاء التعبير بتفاصيله
فانه قيل كان ما كان مما لا يحيط
به نطاق البيان من استبشارهما
وشكرهما الله تعالى على ما أنعم
بهعليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق أحد لمثله واظهار فضلهما بذلك على العالمين مع احراز الثواب العظيم اذ
الى غير ذلك (انا كذلك نجزى المحسنين) تعليل لتفريج تلك الكربة باحسانهما واحتج به من جوز النسخ قبل وقوع المأمور به فانه عليه الصلاة

والسلام كان مأمورا بالذبح لقوله تعالى افعل ماتؤمر ولم يحصل (ان هذا لهو البلاء المبين) الابتلاء البين الذى يتميز فيه المخلص عن غيره أو المحنة البينة الصعوبة اذ لاشئ أصعب منا (وفديناه بذبح) بما يذبح بدله فيتم به الفعل (عظيم) أى عظيم الجثة سمين أو عظيم القدر

اذجاءهم من حيث لايحتسب * قال الله تعالى فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا فلم يكن عند ابراهيم عليه السلام خبر من انزال العذاب مع ارتفاع مكانته (المسئلة الثانية) كيف سماهم ضيفا ولم يكونوا نقول لما حسبهم ابراهيم عليه السلام ضيفا لم يكذبه الله تعالى فى حسبانه اكراماله يقال فى كلمات المحققين الصادق يكون مايقول والصديق يقول مايكون (المسئلة الثالثة) ضيف لفظ واحد والمكرمين جمع فكيف وصف الواحد بالجمع نقول الضيف يقع على القوم يقال قوم ضيف ولانه مصدر فيكون كلفظ الرزق مصدرا وانما وصفهم بالمكرمين امالكونهم عبادا مكرمين كما قال تعالى بل عباد مكرمون واما لاكرام ابراهيم عليه السلام اياهم فان قيل بماذا أكرمهم قلنا ببشاشة الوجه أولا وبالاجلاس فى أحسن المواضع وألطفها ثانيا وتعجيل القرى ثالثا وبعدم التكليف للضيف بالاكل والجلوس وكانوا عدة من الملائكة فى قول ثلاثة جبريل وميكائيل وثالث وفى قول عشرة وفى آخر اثناعشر (المسئلة الرابعة) هم أرسلوا للعذاب بدليل قولهم انا أرسلنا الى قوم مجرمين وهم لم يكونوا من قوم ابراهيم عليه السلام وانما كانوا من قوم لوط فما الحكمة فى مجيئهم الى ابراهيم عليه السلام نقول فيه حكمة بالغة وبيانها من وجهين (أحدهما) أن ابراهيم عليه السلام شيخ المرسلين وكان لوط من قومه ومن اكرام الملك للذى فى عهدته وتحت طاعته اذا كان يرسل رسولا الى غيره يقول له اعبر على فلان الملك وأخبره برسالتك وخذ فيها رأيه (وثانيهما) هو أن الله تعالى لما قدر أن يهلك قوما كثيرا وجماغفيرا وكان ذلك مما يحزن ابراهيم عليه السلام شفقة منه على عباده قال لهم بشروه بغلام يخرج من صلبه أضعاف مايهلك ويكون من صلبه خروج الانبياء عليهم السلام ثم قال تعالى ﴿اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما العامل فى اذ فيه وجوه (أحدها) مافى المكرمين من الاشارة الى الفعل ان قلنا وصفهم بكونهم مكرمين بناء على أن ابراهيم عليه السلام أكرمهم فيكون كأنه تعالى يقول اكرموا اذ دخلوا وهذا من شأن الكريم أن يكرم ضيفه وقت الدخول (ثانيها) مافى الضيف من الدلالة على الفعل لانا قلنا ان الضيف مصدر فيكون كانه يقول أضافهم اذ دخلوا (وثالثها) يحتمل أن يكون العامل فيه أتاك تقديره ما أتاك حديثهم وقت دخولهم فاسمع الآن ذلك لان هل ليس للاستفهام فى هذا الموضع حقيقة بل للاعلام وهذا أولى لانه فعل مصرح به ويحتمل أن يقال اذكر اذ دخلوا (المسئلة الثانية) لماذا اختلف اعراب السلامين فى القراءة المشهورة نقول نبين أولا وجوه النصب والرفع ثم نبين وجوه الاختلاف فى الاعراب أما النصب فيحتمل وجوها (أحدها) أن يكون المراد من السلام هو التحية وهو المشهور ونصبه حينئذ على المصدر تقديره نسلم سلاما (ثانيها) هو أن يكون السلام نوعا من أنواع الكلام وهو كلام سلم به المتكلم من أن يلغو أو يأثم فكانهم لما دخلوا عليه فقالوا حسنا سلموا من الاثم وحينئذ يكون مفعولا للقول لان مفعول القول هو الكلام يقال قال فلان كلاما ولايكون هذا من باب ضربه سوطا لان المضروب هناك ليس هو السوط وههنا القول هو الكلام فسره قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وقوله تعالى قيلا سلاما سلاما (ثالثها) أن يكون مفعول فعل محذوف تقديره نبلغك سلاما لايقال على هذا ان المراد لو كان ذلك لعلم كونهم رسل الله عند السلام فما كان يقول قوم منكرون ولا كان يقرب اليهم الطعام ولما قال نكرهم وأوجس لانا نقول جاز أن يقال انهم قالوا نبلغك سلاما ولم يقولوا من الله تعالى الى أن سألهم ابراهيم عليه السلام ممن تبلغون الى السلام وذلك لان الحكيم لا يأتى بالامر العظيم الا بالتدريج فلما كانت هيبتهم عظيمة فلو ضموا اليه الامر العظيم الذى هو السلام من الله تعالى لانزعج ابراهيم عليه السلام ثم ان ابراهيم عليه السلام اشتغل باكرامهم عن سؤالهم وأخر السؤال الى حين الفراغ فنكرهم بين السلام والسؤال عمن منه السلام هذا وجه النصب وأما الرفع فنقول يحتمل ان المراد منه السلام الذى هو التحية وهو المشهور أيضا وحينئذ يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره سلام عليكم وكون المبتدا نكرة يحتمل فى قول القائل

لانه يفدى به الله نبيا ابن نبى وأى نبى من نسله سيد المرسلين قيل كان ذلك كبشا من الجنة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه الكبش الذى قربه هابيل فتقبل منه وكان يرعى فى الجنة حتى فدى به اسمعيل عليه السلام وقيل فدى بوعل أهبط عليه من ثبير وروى انه هرب من ابراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقى سنة فى الرمى وروى انه رمى الشيطان حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده وروى أنه لما ذبحه قال جبريل عليه السلام الله أكبر الله أكبر فقال الذبيح لا اله الا الله والله أكبر فقال ابراهيم الله أكبر ولله الحمد فبقى سنة والفادى فى الحقيقة هو ابراهيم وانما قيل وفديناه لانه تعالى هو المعطى له والآمر به على التجوز فى الفداء أو الاسناد (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم) قد سلف بيانه فى خاتمة قصة نوح عليه السلام (كذلك نجزى المحسنين) ذلك اشارة الى ابقاء ذكره الجميل فيما بين الامم لا الى ما أشير اليه فيما سبق فلا تكرار وعدم تصدير الجملة بانا للاكتفاء بما مر آنفا (انه من عبادنا المؤمنين) الراسخين فى الايمان على وجه الايقان والاطمئنان (وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين) أى مقضيا بنبوته مقدرا كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة الى وجود المبشر به وقت البشارة فان وجود ذى الحال ليس بشرط وانما الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار معنى الحال فلا حاجة الى تقدير مضاف يجعل عاملا فيهما مثل وبشرناه بوجود اسحق أى بأن يوجد اسحق نبيا من الصالحين ومع ذلك لايصير نظير قوله تعالى فادخلوها خالدين فان الداخلين كانوا مقدرين خلودهم وقت الدخول واسحق

سلام عليكم وويل له أو خبر مبتدأ محذوف تقديره قال جوابه سلام و يحتمل أن يكون المراد قولا يسلم به أو ينبئ عن السلامة فيكون خبر مبتدأ محذوف تقديره أمرى سلام بمعنى مسالمة لا تعلق بينى و بينكم لانى لا أعرفكم أو يكون المبتدأ أقوالكم تقديره قولكم سلام ينبئ عن السلامة وأنتم قوم منكرون فاخطبكم فان الامر أشكل على وهذا ما يحتمل أن يقال فى النصب والرفع وأما الفرق فنقول اما على التفسير المشهور وهو أن السلام فى الموضعين بمعنى التحية فنقول الفرق بينهما من حيث اللفظ ومن حيث المعنى (أما من حيث اللفظ) فنقول سلام عليك انما جوزوا استحسن لكونه مبتدأ وهو نكرة من حيث انه كالمتروك على أصله لان الاصل أن يكون منصوبا على تقدير أسلم سلاما وعليك يكون لبيان من أريد بالسلام ولا يكون لعليك حظ من المعنى غير ذلك البيان فيكون كالخارج عن الكلام والكلام التام أسلم سلاما كما أنك تقول ضربت زيدا على السطح يكون على السطح خارجا عن الفعل والفاعل والمفعول لبيان مجرد الظرفية فاذا كان الامر كذلك وكان السلام والادعية كثير الوقوع قالوا نعدل عن الجملة الفعلية الى الاسمية ونجعل لعليك حظا فى الكلام فنقول سلام عليك فتصير عليك لفائدة لابد منها وهى الخبرية ويترك السلام نكرة كما كان حال النصب اذا علم هذا فالنصب أصل والرفع مأخوذ منه والاصل مقدم على المأخوذ منه فقال قالوا سلاما قال سلام قدم الاصل على المتفرع منه (وأما المعنى) فذلك لان ابراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالاحسن فأتى بالجملة الاسمية فانها أدل على الدوام والاستمرار فان قولنا جلس زيد لا ينبئ عنه لان الفعل لابد فيه من الانباء عن التجدد والحدوث ولهذا لو قلت الله موجود الآن لا ثبت العقل الدوام اذ لا ينبئ عن التجدد ولو قال قائل وجد الله الآن لكاد ينكره العاقل لما بينا فلما قالوا سلاما قال سلام عليكم مستمر دائم وأما على قولنا المراد القول ذو السلامة فظاهر الفرق فانهم قالوا قولا ذا سلام وقال لهم ابراهيم عليه السلام سلام أى قولكم ذو سلام وأنتم قوم منكرون فالتبس الامر على وان قلنا المراد أمرى مسالمة ومتاركة وهم سلموا عليه تسليما فنقول فيه جمع بين أمرين تعظيم جانب الله ورعاية قلب عباد الله فانه لو قال سلام عليكم وهو لم يعلم كونهم من عباد الله الصالحين كان يجوز ان يكونوا على غير ذلك فيكون الرسول قد أمنهم فان السلام أمان وأمان الرسول أمان المرسل فيكون فاعلا للامر من غير اذن الله نيابة عن الله فقال أنتم سلمتم على وأنا متوقف أمرى متاركة لا تعلق بيننا الى أن يتبين الحال ويدل على هذا هو أن الله تعالى قال واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وقال فى مثل هذا المعنى للنبى صلى الله عليه وسلم فاصفح عنهم وقل سلام ولم يقل قل سلاما وذلك لان الاخيار المذكورين فى القرآن لو سلموا على الجاهلين لا يكون ذلك سببا لحرمة التعرض اليهم وأما النبى صلى الله عليه وسلم لو سلم عليهم لصار ذلك سببا لحرمة التعرض اليهم فقال قل سلام أى أمرى معكم متاركة تركناه الى أن يأتى أمر الله بأمر وأما على قولنا بمعنى نبلغ سلاما فنقول هم لما قالوا نبلغك سلاما ولم يعلم ابراهيم عليه السلام أنه ممن قال سلام أى ان كان من الله فان هذا منه قد ازداد به شرفى والا فقد بلغنى منه سلام و به شرفى ولا أتشرف بسلام غيره هذا ما يمكن أن يقال فيه والله أعلم بمراده والاول والثانى عليهما الاعتماد فانهما أقوى وقد قيل بهما (المسئلة الثالثة) قال فى سورة هود فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم فدل على ان انكارهم كان حاصلا بعد تقريبه العجل منهم وقال ههنا قال سلام قوم منكرون ۝ ثم قال تعالى ﴿فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم قال ألا تأكلون﴾ بفاء التعقيب فدل على أن تقريب الطعام منهم بعد حصول الانكار لهم فما الوجه فيه نقول جاز أن يحصل أولا عنده منهم نكر ثم زاد عند امساكهم والذى يدل على هذا هو أنهم كانوا على شكل وهيئة غير ما يكون عليه الناس وكانوا فى أنفسهم عند كل أحد منكرين واشترك ابراهيم عليه السلام وغيره فيه ولهذا لم يقل أنكرتكم بل قال أنتم منكرون فى أنفسكم عند كل أحد منا ثم ان ابراهيم عليه السلام تفرد بمشاهدة أمر منهم هو الامساك فنكرهم فوق ما كان منهم بالنسبة الى الكل لكن الحالة فى سورة هود محكية على وجه ابسط

عليه السلام لم يكن مقدرا نبوة نفسه وصلاحها حين ما يوجد ومن فسر الغلام باسحق جعل المقصود من البشارة نبوته عليه الصلاة والسلام وفى ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه وايماء الى أنه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الاطلاق (وباركنا عليه) على ابراهيم فى أولاده (وعلى اسحق) بان أخرجنا من صلبه أنبياء بنى اسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب عليهم السلام أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا وقرئ وبركنا (ومن ذريتهما محسن) فى عمله أو لنفسه بالايمان والطاعة (وظالم لنفسه) بالكفر والمعاصى (مبين) ظاهر ظلمه وفيه تنبيه على أن النسب لا تأثير له فى الهداية والضلال وأن الظلم فى أعقابهما لا يعود اليهما بنقيصة ولا عيب (ولقد مننا على موسى وهرون) أى أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية (ونجيناهما وقومهما) وهم بنو اسرائيل (من الكرب العظيم) هو ملكة آل فرعون وتسلطهم عليهم بالوان الغشم والعذاب كما فى قوله تعالى واذ أنجيناكم من آل فرعون وقيل هو الغرق وهو بعيد لانه لم يكن عليهم كربا ومشقة (ونصرناهم) أى اياهما وقومهما على عدوهم (فكانوا) بسبب ذلك (هم الغالبين) عليهم غلبة لا غاية وراءها بعد أن كان قومهما فى أسرهم وقسرهم مقهورين تحت أيديهم العادية يسومونهم سوء العذاب وهذه التنجية وان كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر والغلبة لكنها لما كانت بحسب المفهوم عبارة عن التخليص من المكروه بدئ بها ثم بالنصر الذى يتحقق مدلوله بمحض تنجية المنصور من عدوه ومن غير تغليبه عليه ثم بالغلبة لتوفية مقام الامتنان حقه باظهار أن كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث نعمة جليلة على حيالها (وآتيناهما) بعد ذلك (الكتاب المستبين) أى البليغ فى البيان والتفصيل وهو التوراة (وهديناهما) بذلك (الصراط المستقيم) الموصل الى الحق والصواب بما فيه من تفاصيل الشرائع وتفاريع الاحكام   مما

(وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون) أى أبقينا فيما بين الامم الآخرين هذا الذكر الجميل والثناء الجزيل (انا كذلك) الجزاء الكامل (نجزى المحسنين) الذين هما من جملتهم لاجزاء قاصرا عنه (انهما من

عبادنا المؤمنين) سبق بيانه (وان الياس

مما ذكره ههنا فان ههنا لم يبين المبشر به وهناك ذكر باسمه وهو اسحق ولم يقل ههنا ان القوم قوم من وهناك قال قوم لوط وفى الجملة من يتأمل السورتين يعلم أن الحكاية محكية هناك على وجه الاضافة أبسط فذكر فيها النكتة الزائدة ولم يذكر ههنا ولنعد الى بيان ما أتى به من آداب الاضافة وما أتوا به من آداب الضيافة فالاكرام أولا ممن جاء ضيف قبل أن يجتمع به ويسلم أحدهما على الآخر أنواع من الاكرام وهى اللقاء الحسن والخروج اليه والتهيؤ له ثم السلام من الضيف على الوجه الحسن الذى دل عليه النصب فى قوله سلاما اما لكونه مؤكدا بالمصدر أو لكونه مبلغا ممن هو أعظم منه ثم الرد الحسن الذى دل عليه الرفع والامساك عن الكلام لا يكون فيه وفاء ان قلنا ان ابراهيم عليه السلام لم يقل سلام عليكم بل قال أمرى مسالمة أو قولكم سلام وسلامكم منكر فان ذلك وان كان مخلا بالاكرام لكن الغدر ليس من شيم الكرام ومودة أعداء الله لا تليق بالانبياء عليهم السلام ثم تعجيل القرى الذى دل عليه قوله تعالى فما لبث أن جاء وقوله ههنا فراغ فان الروغان يدل على السرعة والروغ الذى بمعنى النظر الخفى أو الرواح المخفى أيضا كذلك ثم الاخفاء فان المضيف اذا أحضر شيأ ينبغى أن يخفيه عن الضيف كى لا يمنعه من الاحضار بنفسه حيث راغ هو ولم يقل هاتوا وغيبة المضيف لحظة من الضيف مستحسن ليستريح ويأتى بدفع ما يحتاج اليه ويمنعه الحياء منه ثم اختيار الاجود بقوله سمين ثم تقديم الطعام اليهم لا نقلهم الى الطعام بقوله فقربه اليهم لان من قدم الطعام الى قوم يكون كل واحد مستقرا فى مقره لا يختلف عليه المكان فان نقلهم الى مكان الطعام ربما يحصل هناك اختلاف جلوس فيقرب الادنى ويضيق على الاعلى ثم العرض لا الامر حيث قال ألا تأكلون ولم يقل كلوا ثم كون المضيف مسرورا بأكلهم غير مسرور بتركهم الطعام كما يوجد فى بعض البخلاء المتكلفين الذين يحضرون طعاما كثيرا ويكون نظره ونظر أهل بيته فى الطعام متى يمسك الضيف يده عنه يدل عليه قوله تعالى (فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم) ثم أدب الضيف أنه اذا أكل حفظ حق المؤاكلة يدل عليه أنه خافهم حيث لم يأكلوا ثم وجوب اظهار العذر عند الامساك يدل عليه قوله لا تخف ثم تحسين العبارة فى العذر وذلك لان من يكون محتميا وأحضر لديه الطعام فهناك أمران أحدهما أن الطعام لا يصلح له لكونه مضرا به الثانى كونه ضعيف القوة عن هضم ذلك الطعام فينبغى أن لا يقول الضيف هذا طعام غليظ لا يصلح لى بل الحسن أن يأتى بالعبارة الاخرى ويقول لى مانع من أكل الطعام وفى بيتى لا آكل أيضا شيأ يدل عليه قوله وبشروه بغلام حيث فهموه أنهم ليسوا ممن يأكلون ولم يقولوا لا يصلح لنا الطعام والشراب ثم أدب آخر فى البشارة أن لا يخبر الانسان بما يسره دفعة فانه يورث مرضا يدل عليه أنهم جلسوا واستأنس بهم ابراهيم عليه السلام ثم قالوا نبشرك ثم ذكروا أشرف النوعين وهو الذكر ولم يقنعوا به حتى وصفوه بأحسن الاوصاف فان الابن قد يكون دون البنت اذا كانت البنت كاملة الخلقة حسنة الخلق والابن بالضد ثم انهم تركوا سائر الاوصاف من الحسن والجمال والقوة والسلامة واختاروا العلم اشارة الى أن العلم رأس الاوصاف ورئيس النعوت وقد ذكرنا فائدة تقديم البشارة على الاخبار عن اهلاكهم قوم لوط ليعلم أن الله تعالى يهلكهم الى خلف ويأتى بيدلهم خيرا منهم ۞ ثم قال تعالى (فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) أى أقبلت على أهلها وذلك لانها كانت فى خدمتهم فلما تكلموا مع زوجها بولادتها استحيت وأعرضت عنهم فذكر الله تعالى ذلك بلفظ الاقبال على الاهل ولم يقل بلفظ الادبار عن الملائكة وقوله تعالى فى صرة أى صيحة كما جرت عادة النساء حيث يسمعن شيأ من أحوالهن يصحن صيحة معتادة لهن عند الاستحياء أو التعجب ويحتمل أن يقال تلك الصيحة كانت بقولها ياويلتا تدل عليه الآية التى فى سورة هود وصك الوجه أيضا من عادتهن واستبعدت ذلك لوصفين من اجتماعهما أحدهما كبر السن والثانى العقم لانها كانت لا تلد فى صغر سنها وعنفوان شبابها ثم عجزت وأيست فاستبعدت فكأنها قالت ياليتكم

لمن المرسلين) هو الياس بن ياسين من سبط هرون أخى موسى عليهم السلام بعث بعده وقيل ادريس لانه قرئ مكانه ادريس وادراس وقرئ ايليس وقرئ الياس بحذف الهمزة (اذ قال لقومه ألا تتقون) أى عذاب الله تعالى (أتدعون بعلا) أتعبدونه وتطلبون الخير منه وهو اسم صنم كان لاهل بك من الشام وهو البلد المعروف اليوم ببعلبك قيل كان من ذهب طوله عشرون ذراعا وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء فكان الشيطان يدخل جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وقيل البعل الرب بلغة اليمن أى أتعبدون بعض البعول (وتذرون أحسن الخالقين) أى وتتركون عبادته وقد أشير الى المقتضى للانكار المعنى بالهمزة ثم صرح به بقوله تعالى (الله ربكم ورب آبائكم الاولين) بالنصب على البدلية من أحسن الخالقين وقرئ بالرفع على الابتداء والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم لتأكيد انكار تركهم عبادته تعالى والاشعار ببطلان آراء آبائهم أيضا (فكذبوه فانهم) بسبب تكذيبهم ذلك (لمحضرون) أى العذاب والاطلاق للاكتفاء بالقرائن على أن الاحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا (الا عباد الله المخلصين) استثناء من ضمير محضرون (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على الياسين) هو لغة فى الياس كسيناء فى سينين وقيل هو جمع له أريد به هو وأتباعه كالمهلبين والخبيبين وفيه أن العلم اذا جمع يجب تعريفه كالمثالين وقرئ باضافة آل الى ياسين لانهما فى المصحف مفصولان فيكون ياسين أبا الياس (انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين) مر تفسيره (وان لوطا لمن المرسلين اذ نجيناه) أى

دعوتم دعاء قريبا من الاجابة ظنا منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضيف على سبيل الاخبار من الادعية كقول الداعي الله يعطيك مالا ويرزقك ولدا فقالوا هذا منا ليس بدعاء وانما ذلك قول الله تعالى ﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ ثم دفعوا استبعادها بقولهم ﴿انه هو الحكيم العليم﴾ وقد ذكرنا تفسيرهما مرارا فان قيل لم قال ههنا الحكيم العليم وقال في هود حميد مجيد نقول لما بينا أن الحكاية هنالك أبسط فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم أتعجبين من أمر الله ثم لما صدقت أرشدوهم الى القيام بشكر نعم الله وذكروهم بنعمته بقولهم حميد فان الحميد هو الذي يتحقق منه الافعال الحسنة وقولهم مجيد اشارة الى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل وانما يحمده ويسبح له لنفسه وههنا لما لم يقولوا أتعجبين أشاروا الى ما يدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه وفيه لطيفة وهي أن هذا الترتيب مراعى في السورتين فالحميد يتعلق بالفعل والمجيد يتعلق بالقول وكذلك الحكيم هو الذي فعله كما ينبغي لعلمه قاصدا لذلك الوجه بخلاف من يتفق فعله موافقا للمقصود اتفاقا كمن ينقلب على جنبه فيقتل حية وهو نائم فانه لا يقال له حكيم وأما اذا فعل فعلا قاصدا لقتلها بحيث يسلم عن نهشها يقال له حكيم فيه والعليم راجع الى الذات اشارة الى أنه يستحق الحمد بمجده وان لم يفعل فعلا وهو قاصد لعلمه وان لم يفعل على وفق القاصد ۞ ثم قال تعالى ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لما علم حالهم بدليل قوله منكرون لم يقنع بما بشروه لجواز أن يكون نزولهم للبشارة لا غير نقول ابراهيم عليه السلام أتى بما هو من آداب المضيف حيث يقول لضيفه اذا استعجل في الخروج ما هذه العجلة وما شغلك الذي يمنعنا من التشرف بالاجتماع بك ولا يسكت عند خروجهم مخافة أن يكون سكوته يوهم استثقالهم ثم انهم أتوا بما هو من آداب الصديق الذي لا يسر عن الصديق الصدوق لا سيما وكان ذلك باذن الله تعالى لهم في اطلاع ابراهيم عليه السلام على اهلاكهم وجبر قلبه بتقديم البشارة بخير البدل وهو أبو الانبياء اسحق عليه السلام على الصحيح فان قيل فما الذي اقتضى ذكره بالفاء ولو كان كما ذكرتم لقال ما هذا الاستعجال وما خطبكم المعجل لكم نقول لو كان أوجس منهم خيفة وخرجوا من غير بشارة وايناس ما كان يقول شيأ فلما آنسوه قال ما خطبكم أي بعد هذا الانس العظيم ما هذا الايحاش الاليم (المسئلة الثانية) هل في الخطب فائدة لا توجد في غيره من الالفاظ نقول نعم وذلك من حيث ان الالفاظ المفردة التي يقرب منها الشغل والامر والفعل وأمثالها وكل ذلك لا يدل على عظم الامر وأما الخطب فهو الامر العظيم وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضي فقال ما خطبكم أي لعظمتكم لا ترسلون الا في عظيم ولو قال بلفظ مركب بأن يقول ما شغلكم الخطير وأمركم العظيم للزم التطويل فالخطب أفاد التعظيم مع الايجاز (المسئلة الثالثة) من أين عرف كونهم مرسلين فنقول ﴿قالوا﴾ له بدليل قوله تعالى انا أرسلنا الى قوم لوط وانما لم يذكرها ههنا لما بينا ان الحكاية ببسطها مذكورة في سورة هود أو نقول لما قالوا الامر أنه كذلك قال ربك علم كونهم منزلين من عند الله حيث كانوا يحكون قول الله تعالى يدل على هذا ان قولهم ﴿انا أرسلنا الى قوم مجرمين﴾ كان جواب سؤاله منهم (المسئلة الرابعة) هذه الحكاية بعينها هي المحكية في هود وهنالك قالوا انا أرسلنا بعدما زال عنه الروع وبشروه وهنا قالوا انا أرسلنا بعدما سألهم عن الخطب وأيضا قالوا هنالك انا أرسلنا الى قوم لوط وقالوا ههنا انا أرسلنا الى قوم مجرمين والحكاية عن قولهم فان لم يقولوا ذلك ورد السؤال أيضا فنقول اذا قال قائل حاكيا عن زيد قال زيد عمرو خرج ثم يقول مرة أخرى قال زيد ان بكرا خرج فاما ان يكون صدر من زيد قولان واما أن لا يكون حاكيا ما قاله زيد والجواب عن الاول هو انه لما خاف جاز أنهم ما قالوا له لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط فلما قال لهم ماذا تفعلون بهم كان لهم ان يقولوا انا أرسلنا الى قوم لوط لنهلكهم كما يقول القائل خرجت من البيت فيقال لماذا خرجت فيقول خرجت لاتجر لكن ههنا فائدة معنوية وهي انهم انما قالوا في جواب ما خطبكم نهلكهم بأمر الله لتعلم براءتهم عن ايلام البريء واهمال

اذكر وقت تنجيتنا اياه (وأهله أجمعين الا عجوزا في الغابرين) أي الباقين في العذاب أو الماضين الهالكين (ثم دمرنا الآخرين) فان في ذلك شواهد على جلية أمره وكونه من جملة المرسلين (وانكم) يا أهل مكة (لتمرون عليهم) على منازلهم في متاجركم الى الشام وتشاهدون آثار هلاكهم فان سدوم في طريق الشام (مصبحين) داخلين في الصباح (وبالليل) أي ومساء أو نهارا وليلا ولعلها وقعت بقرب منزل يمر بها المرتحل عنه صباحا والقاصد له مساء (أفلا تعقلون) أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم (وان يونس لمن المرسلين) وقرئ بكسر النون (اذ أبق) أي هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير اذن ربه حسن اطلاقه عليه (الى الفلك المشحون) أي المملوء (فساهم) فقارع أهله (فكان من المدحضين) فصار من المغلوبين بالقرعة وأصله المزلق عن مقام الظفر روى أنه عليه الصلاة والسلام لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى به فركب السفينة فوقفت فقالوا فيها عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فقال أنا الآبق ورمى بنفسه في الماء (فالتقمه الحوت) فابتلعه من اللقمة (وهو مليم) داخل في الملامة أو آت بما يلام عليه أو مليم نفسه وقرئ مليم بالفتح مبنيا من ليم كمشيب في مشوب (فلولا أنه كان من المسبحين) الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره أو في بطن الحوت وهو قوله لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين وقيل من المصلين فانه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة في الرخاء (للبث في بطنه الى يوم يبعثون) حيا وقيل ميتا وفيه حث على اكثار الذكر وتعظيم لشأنه ومن أقبل عليه في السراء أخذ بيده عن الضراء (فنبذناه بالعراء) بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالي عما يغطيه من شجر أو نبات وروى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا

الردى.

الردى، فاعادوا لفظ الارسال وأما عن الثاني نقول الحكاية قد تكون حكاية اللفظ كما تقول قال زيد بعمرو مررت فيحكي لفظه المحكي وقد يكون حكاية لكلامه بمعناه تقول زيد قال عمرو خرج ولك ان تبدل مرة أخرى في غير تلك الحكاية بلفظة أخرى فتقول لما قال زيد بكر خرج قلت كيت وكيت كذلك ههنا القرآن لفظ معجز وما صدر ممن تقدم نبينا عليه السلام سواء كان منهم وسواء كان منزلا عليهم لم يكن لفظه معجزا فيلزم ان لا تكون هذه الحكايات بتلك الالفاظ فكأنهم قالوا له انا أرسلنا الى قوم مجرمين وقالوا انا أرسلنا الى قوم لوط وله أن يقول قالوا انا أرسلنا الى قوم من آمن بك لانه لا يحكي لفظهم حتى يكون ذلك واحدا بل يحكي كلامهم بمعناه وله عبارات كثيرة ألا ترى أنه تعالى لما حكى لفظهم في السلام على أحد الوجوه في التفسير قال في الموضعين سلاما وسلام ثم بين مالاجله أرسلوا بقوله (لنرسل عليهم حجارة من طين) وقد فسرنا ذلك في العنكبوت وقلنا ان ذلك دليل على وجوب الرمي بالحجارة على اللائط وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أي حاجة الى قوم من الملائكة وواحد منهم كان يقلب المدائن بريشة من جناحه نقول الملك القادر قد يأمر الحقير باهلاك الرجل الخطير ويأمر الرجل الخطير بخدمة الشخص الحقير اظهارا لنفاذ امره فحيث أهلك الخلق الكثير بالقمل والجراد والبعوض بل بالريح التي بها الحياة كان أظهر في القدرة وحيث أمر آلافا من الملائكة باهلاك أهل بدر مع قلتهم كان أظهر في نفاذ الامر وفيه فائدة أخرى وهي ان من يكون تحت طاعة ملك عظيم ويظهر له عدو ويستعين بالملك فيعينه بأكابر عسكره يكون ذلك تعظيما منه له وكلما كان العدو أكثر والمدد أوفر كان التعظيم أتم لكن الله تعالى أعان لوطا بعشرة ونبينا عليه السلام بخمسة آلاف وبين العددين من التفاوت مالا يخفى وقد ذكرنا بعضا منه في تفسير قوله تعالى وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء (المسئلة الثانية) ما الفائدة في تأكيد الحجارة بكونها من طين نقول لان بعض الناس يسمي البرد حجارة فقوله من طين يدفع ذلك التوهم واعلم ان بعض من يدعي النظر يقول لا ينزل من السماء الا حجارة من طين مدورات على هيئة البرد وهيئة البنادق التي يتخذها الرماة قالوا وسبب ذلك هو ان الاعصار يصعد الغبار من الفلوات العظيمة التي لا عمارة فيها والرياح تسوقها الى بعض البلاد ويتفق وصول ذلك الى هواء ندي فيصير طينا رطبا والرطب اذا نزل وتفرق استدار بدليل أنك اذا رميت الماء الى فوق ثم نظرت اليه رأيته ينزل كرات مدورات كاللآلئ الكبار ثم في النزول اذا اتفق ان تضربه النيران التي في الجو جعلته حجارة كالآجر المطبوخ فينزل فيصيب من قدر الله هلاكه وقد ينزل كثيرا في المواضع التي لا عمارة بها فلا يرى ولا يدرى به ولهذا قال من طين لان مالا يكون من طين كالحجر الذي في الصواعق لا يكون كثيرا بحيث يمطر وهذا تعسف ومن يكون كامل العقل يسند الفكر الى ماقاله ذلك القائل فيقول ذلك الاعصار لما وقع فان وقع بحادث آخر يلزم التسلسل ولا بد من الانتهاء الى محدث ليس بحادث فذلك المحدث لابد وأن يكون فاعلا مختارا والمختار له أن يفعل ماذكروه أن يخلق الحجارة من طين على وجه آخر من غير نار ولا غبار لكن العقل لا طريق له الى الجزم بطريق احداثه ومالا يصل العقل اليه يجب أخذه بالنقل والنص ورد به فأخذنا به ولا نعلم الكيفية وانما المعلوم ان الحجارة التي من طين نزولها من السماء أغرب وأعجب من غيرها لانها في العادة لابد لها من مكث في النار ۞ قوله تعالى (مسومة عند ربك للمسرفين) فيه وجوه (أحدها) مكتوب على كل واحد اسم واحد يقتل به (ثانيها) انها خلقت باسمهم ولتعذيبهم بخلاف سائر الاحجار فانها مخلوقة للانتفاع في الابنية وغيرها (ثالثها) مرسلة للمجرمين لان الارسال يقال في السوائم يقال أرسلها لترعى فيجوز أن يقول سومها بمعنى أرسلها وبهذا يفسر قوله تعالى والخيل المسومة اشارة الى الاستغناء عنها وانها ليست للركوب ليكون أدل على الغنى كما قال والقناطير المقنطرة وقوله تعالى للمسرفين اشارة الى خلاف مايقوله الطبيعيون ان الحجارة اذا أصابت واحدا من الناس فذلك نوع من الاتفاق فانها تنزل بطبعها ثم يتفق شخص لها فتصيبه فقوله مسومة أي في أول ماخلق

الى البر فلفظه سالما لم يتغير منه شيء فاسلموا وروى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل واختلف في مقدار لبثه فقيل أربعون يوما وقيل عشرون وقيل سبعة وقيل ثلاثة وقيل لم يلبث الا قليلا ثم أخرج من بطنه بعيد الوقت الذي التقمه فيه روى عطاء أنه حين ابتلعه أوحى الله تعالى الى الحوت اني جعلت بطنك له سجنا ولم أجعله لك طعاما (وهو سقيم) مما ناله قيل صار بدنه كبدن الطفل حين يولد (وأنبتنا عليه) أي فوقه مظلة عليه (شجرة من يقطين) وهو كل ماينبسط على الارض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعيل من قطن بالمكان اذا أقام به والاكثرون على أنه الدباء غطته باوراقها عن الذباب فانه لا يقع عليه ويدل عليه أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك تحب القرع قال أجل هي شجرة أخي يونس وقيل هي التين وقيل الموز تغطى بورقه واستظل بأغصانه وأفطر على ثماره وقيل كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف اليه فيشرب من لبنها (وأرسلناه الى مائة ألف) هم قومه الذين هرب منهم وهم أهل نينوى والمراد به ارساله السابق أخبر أولا بأنه من المرسلين على الاطلاق ثم أخبر بأنه قد أرسل الى أمة جمة وكان توسيط تذكير وقت هربه الى الفلك ومابعده بينهما لتذكير سببه وهو ماجرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه من انذاره اياهم عذاب الله تعالى وتعيينه لوقت حلوله وتعللهم وتعليقهم لايمانهم بظهور اماراته كما مر تفصيله في سورة يونس ليعلم أن ايمانهم الذي سيحكى بعد لم يكن عقيب الارسال كما هو المتبادر من ترتيب الايمان عليه بالفاء بل بعد اللتيا والتي وقيل هو ارسال آخر اليهم وقيل الى غيرهم وليس بظاهر (أو يزيدون) أي في مرأى الناظر فانه اذا نظر اليهم قال انهم مائة ألف أو يزيدون والمراد هو الوصف بالكثرة وقرئ بالواو (فآمنوا) أي بعد ماشاهدوا علائم حلول العذاب ايمانا خالصا (فمتعناهم) أي بالحياة الدنيا (الى حين) قدره الله سبحانه لهم قيل ولعل عدم ختم هذه القصة وقصة

وأرسل اذا علم هذا فانما كان ذلك على قصد اهلاك المسرفين فان قيل اذا كانت الحجارة مسومة للمسرفين فكيف قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم مع ان المسرف غير المجرم في اللغة نقول المجرم هو الآتي بالذنب العظيم لان الجرم فيه دلالة على العظم ومنه جرم الشئ لعظمة مقداره والمسرف هو الآتي بالكبيرة ومن أسرف ولو في الصغائر يصير مجرما لان الصغير الى الصغير اذا انضم صار كبيرا ومن أجرم فقد أسرف لانه أتى بالكبيرة ولو دفعة واحدة فالوصفان اجتمعا فيهم لكن فيه لطيفة معنوية وهي ان الله تعالى سومها للمسرف المصر الذي لا يترك الجرم والعلم بالامور المستقبلة عند الله تعالى يعلم انهم مسرفون فأمر الملائكة بارسالها عليهم وأما الملائكة فعلمهم تعلق بالحاضر وهم كانوا مجرمين فقالوا انا أرسلنا الى قوم نعلمهم مجرمين لنرسل عليهم حجارة خلقت لمن لا يؤمن ويصر ويسرف ولزم من هذا علمنا بانهم لو عاشوا سنين لتمادوا في الاجرام فان قيل اللام لتعريف الجنس أو لتعريف العهد نقول لتعريف العهد أي مسومة لهؤلاء المسرفين اذ ليس لكل مسرف حجارة مسومة فان قيل ما اسرافهم نقول مادل عليه قوله سبحانه وتعالى ماسبقكم بها من أحد من العالمين أي لم يبلغ مبلغكم أحد ۞ وقوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) فيه فائدتان (احداهما) بيان القدرة والاختيار فان من يقول بالاتفاق يقول يصيب البر والفاجر فلما ميز الله المجرم عن المحسن دل على الاختيار (ثانيتهما) بيان انه ببركة المحسن ينجو المسيء فان القرية مادام فيها المؤمن لم تهلك والضمير عائد الى القرية وهي معلومة وان لم تكن مذكورة ۞ وقوله تعالى (فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) فيه اشارة الى أن الكفر اذا غلب والفسق اذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين بخلاف مالو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون وقيل في مثاله ان العالم كبدن ووجود الصالحين كالاغذية الباردة والحارة والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة ثم ان البدن ان خلا عن المنافع وفيه المضار هلك وان خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشه ونما وان وجد فيه كلاهما فالحكم للغالب فكذلك البلاد والعباد والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة والحق أن المسلم أعم من المؤمن واطلاق العام على الخاص لامانع منه فاذا سمى المؤمن مسلما لا يدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الاعم منهم الا بيتا من المسلمين ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين وهذا كما لو قال قائل لغيره من في البيت من الناس فيقول له مافي البيت من الحيوانات أحد غير زيد فيكون مخبرا له بخلو البيت عن كل انسان غير زيد ۞ ثم قال تعالى (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم) وفي الآية خلاف قيل هو ماء أسود منتن انشقت أرضهم وخرج منها ذلك وقيل حجارة مرمية في ديارهم وهي بين الشام والحجاز وقوله للذين يخافون العذاب الاليم أي المنتفع بها هو الخائف كما قال تعالى لقوم يعقلون في سورة العنكبوت وبينهما في اللفظ فرق قال ههنا آية وقال هناك آية بينة وقال هناك لقوم يعقلون وقال ههنا للذين يخافون فهل في المعنى فرق نقول هناك مذكور بأبلغ وجه يدل عليه قوله تعالى آية بينة حيث وصفها بالظهور وكذلك منها وفيها فان من للتبعيض فكأنه تعالى قال من نفسها لكم آية باقية وكذلك قال لقوم يعقلون فان العاقل أعم من الخائف فكانت الآية هناك أظهر وسببه ماذكرنا أن القصد هناك تخويف القوم وههنا تسلية القلب ألا ترى الى قوله تعالى فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وقال هناك انا منجوك وأهلك من غير بيان وفاء بنجاة المسلمين والمؤمنين بأسرهم ۞ ثم قال تعالى (وفي موسى اذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين) قوله وفي موسى يحتمل أن يكون معطوفا على معلوم ويحتمل أن يكون معطوفا على مذكور أما الاول ففيه وجوه (الاول) أن يكون المراد ذلك في ابراهيم وفي موسى لان من ذكر ابراهيم يعلم ذلك (الثاني) لقومك في لوط وقومه عبرة وفي موسى وفرعون (الثالث) أن يكون هناك معنى قوله تعالى تفكروا في ابراهيم ولوط وقومهما وفي موسى

وفرعون

لوط بما ختم به سائر القصص للتفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع وأولي العزم من الرسل أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة (فاستفتهم) أمر الله عز وجل في صدر السورة الكريمة رسوله صلى الله عليه وسلم بتبكيت قريش وابطال مذهبهم في انكار البعث بطريق الاستفتاء وساق البراهين القاطعة الناطقة بتحققه لا محالة وبين وقوعه وما سيلقونه عنده ذلك من فنون العذاب واستثنى منهم عباده المخلصين وفصل مالهم من النعيم المقيم ثم ذكر انه قد ضل من قبلهم أكثر الاولين وانه تعالى أرسل اليهم منذرين على وجه الاجمال ثم أورد قصص كل واحد منهم على وجه التفصيل مبينا في كل قصة منها أنهم من عباده تعالى واصفا لهم تارة بالاخلاص وأخرى بالايمان ثم أمره عليه الصلاة والسلام ههنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه أمر منكر خارج عن العقول بالكلية وهي القسمة الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح الملائكة بنات الله والفاء لترتيب الامر على ما سبق من كون أولئك الرسل الذين هم أعلام الخلق عليهم الصلاة والسلام عباده تعالى فان ذلك مما يؤكد التبكيت ويظهر بطلان مذهبهم الفاسد ثم تبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة بجعلهم اناثا ثم أبطل أصل كفرهم المنطوي على هذين الكفرين وهو نسبة الولد اليه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ولم ينظمه في سلك التبكيت لمشاركتهم النصارى في ذلك أي فاستخبرهم (ألربك البنات) اللاتي هن أوضع الجنسين (ولهم البنون) الذين هم أرفعهما فان ذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل وقوله تعالى (أم خلقنا الملائكة اناثا) اضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق الى التبكيت بهذا كأنه قيل بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق وأبعدهم من صفات الاجسام ورذائل

وفرعون والكل قريب بعضه من بعض وأما الثاني ففيه أيضا وجوه (أحدها) أنه عطف على قوله وفي الأرض آيات للموقنين وفي موسى وهو بعيد لبعده في الذكر ولعدم المناسبة بينهما (ثانيها) أنه عطف على قوله وتركنا فيها آية للذين يخافون وفي موسى أي وجعلنا في موسى على طريقة قولهم * علفتها تبنا وماء باردا * وتقلدت سيفا ورمحا وهو أقرب ولا يخلو عن تعسف اذا قلنا بما قال به بعض المفسرين ان الضمير في قوله تعالى وتركنا فيها عائدا الى القرية (ثالثها) أن نقول فيها راجع الى الحكاية فيكون التقدير وتركنا في حكايتهم آية أو في قصتهم فيكون وفي قصة موسى آية وهو قريب من الاحتمال الأول وهو العطف على المعلوم (رابعها) أن يكون عطفا على هل أتاك حديث ضيف ابراهيم وتقديره وفي موسى حديث اذ أرسلناه وهو مناسب اذ جمع الله كثيرا من ذكر ابراهيم وموسى عليهما السلام كما قال تعالى أم لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى وقال تعالى صحف ابراهيم وموسى والسلطان القوة بالحجة والبرهان والمبين الفارق وقد ذكرنا أنه يحتمل أن يكون المراد منه ما كان معه من البراهين القاطعة التي حاج بها فرعون ويحتمل أن يكون المراد المعجز الفارق بين سحر الساحر وأمر المرسلين ﴿ قوله تعالى (فتولى بركنه) فيه وجوه (الأول) الباء للمصاحبة والركن اشارة الى القوم كأنه تعالى يقول أعرض مع قومه يقال نزل فلان بعسكره على كذا ويدل على هذا الوجه قوله تعالى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى قال أدبر وهو بمعنى تولى وقوله فحشر فنادى في معنى قوله تعالى بركنه (الثاني) فتولى أي اتخذ وليا والباء للتعدية حينئذ يعني تقوى بجنده (والثالث) تولى أمر موسى بقوته كأنه قال اقتل موسى لئلا يبدل دينكم ولا يظهر في الأرض الفساد فتولى أمره بنفسه وحينئذ يكون المفعول غير مذكور وركنه هو نفسه القوية ويحتمل أن يكون المراد من ركنه هامان فانه كان وزيره وعلى هذا الوجه الثاني أظهر ﴿ (وقال ساحر أو مجنون) أي هذا ساحر أو مجنون وقوله ساحر أي يأتي الجن بسحره أو يقرب منهم والجن يقربون منه ويقصدونه ان كان هو لا يقصدهم فالساحر والمجنون كلاهما أمره مع الجن غير أن الساحر يأتيهم باختياره والمجنون يأتونه من غير اختياره فكأنه أراد صيانة كلامه عن الكذب فقال هو يسحر الجن أو يسحر فان كان ليس عنده منه خبر ولا يقصد ذلك فالجن يأتونه ﴿ ثم قال تعالى (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم) وهو اشارة الى بعض ما أتى به كأنه يقول واتخذ الأولياء فلم ينفعوه وأخذه الله وأخذ أركانه وألقاهم جميعا في اليم وهو البحر والحكاية مشهورة وقوله تعالى وهو مليم نقول فيه بيان شرف موسى عليه السلام وبشارة للمؤمنين أما شرفه فلأنه تعالى قال بأنه أتى بما يلام عليه بمجرد قوله اني أريد هلاك أعدائك يا اله العالمين فلم يكن له سبب إلا هذا وأما فرعون فقال أنا ربكم الأعلى فكان سببه ثلاث وهذا كما قال القائل فلان عيبه أنه سارق أو قاتل أو يعاشر الناس فيؤذيهم وفلان عيبه أنه مشغول بنفسه لا يعاشر فتكون نسبة العيبين بعضهما الى بعض سببا المدح أحدهما وذم الآخر وأما بشارة المؤمنين فهو بسبب أن من التقمه الحوت وهو مليم نجاه الله تعالى بتسبيحه ومن أهلكه الله بتعذيبه لم ينفعه ايمانه حين قال آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل وكلاهما قد أتى بما يلام عليه فذنب المؤمن وقت ظهور البأس مغفور وايمان الكافر غير مقبول ﴿ ثم قال تعالى (وفي عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) وفيه ما ذكرنا من الوجوه التي ذكرناها في عطف موسى عليه السلام وفيه مسائل (المسئلة الأولى) ذكرت أن المقصود ههنا تسلية قلب النبي صلى الله عليه وسلم وتذكيره بحال الأنبياء ولم يذكر في عاد وثمود أنبياءهم كما ذكر ابراهيم وموسى عليهما السلام نقول في ذكر الآيات ست حكايات حكاية ابراهيم عليه السلام وبشارته وحكاية قوم لوط ونجاة من كان فيها من المؤمنين وحكاية موسى عليه السلام وفي هذه الحكايات الثلاث ذكر الرسل والمؤمنين لأن الناجين فيهم كانوا كثيرين أما في حق ابراهيم وموسى عليهما السلام فظاهر وأما في قوم لوط فلأن الناجين وان كانوا أهل بيت واحد ولكن المهلكين كانوا أيضا

الطبائع أناثا والأنوثة من أخس صفات الحيوان وقوله تعالى (وهم شاهدون) استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى أشهدوا خلقهم وقوله تعالى ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم فإن أمثال هذه الأمور لا تعلم إلا بالمشاهدة إذ لا سبيل الى معرفتها بطريق العقل وانتفاء النقل مما لاريب فيه فلا بد أن يكون القائل بأنوثتهم شاهدا عند خلقهم والجملة اما حال من فاعل خلقنا أي بل أخلقناهم اناثا والحال انهم حاضرون حينئذ أو عطف على خلقنا أي بل أهم شاهدون وقوله تعالى (ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله) استئناف من جهته غير داخل تحت الأمر بالاستفتاء مسوق لابطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه ليس إلا الافك الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة قطعا (وانهم لكاذبون) في قولهم ذلك كذبا بينا لاريب فيه وقرئ ولد الله على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الملائكة ولده تعالى عن ذلك علوا كبيرا فان الولد فعل بمعنى مفعول يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث (أصطفى البنات على البنين) اثبات لافكهم وتقرير لكذبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لأمر بين الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على البنين والاصطفاء أخذ صفوة الشئ لنفسه وقرئ بكسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام ثقة بدلالة القرائن عليه وجعله بدلا من ولد الله ضعيف وتقدير القول أي لكاذبون في قولهم اصطفى الخ تعسف بعيد (مالكم كيف تحكمون) بهذا الحكم الذي يقضي ببطلانه بديهة العقل (أفلا تذكرون) بحذف احدى التاءين من تتذكرون وقرئ تذكرون من ذكر والفاء للعطف على مقدر أي ألا تلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه فانه مركوز في عقل كل ذكي وغبي (أم لكم سلطان مبين) اضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر الى تبكيتهم بتكليفهم ما لا يدخل تحت الوجود أصلا أي بل ألكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لا بد له

من سند حسي أو عقلي وحيث انتفى كلاهما فلابد من سند نقلي (فأتوا بكتابكم) الناطق بصحة دعواكم (ان كنتم صادقين) فيها وفي هذه الآيات
من الانباء عن السخط العظيم والانكار الفظيع لاقاويلهم والاستبعاد الشديد لاباطيلهم وتسفيه أحلامهم
وتركيك عقولهم وأفهامهم مع
استهزائهم وتعجيب من جهلهم
مالا يخفى على من تأمل فيها وقوله
تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة
نسبا) التفات الى الغيبة للايذان
بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم
عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم
أن يعرض عنهم وتحكى جناياتهم
لآخرين والمراد بالجنة الملائكة
قالوا الجنس واحد ولكن من خبث
من الجن ومرد وكان شرا كله فهو
شيطان ومن طهر منهم ونسك
وكان خيرا كله فهو ملك وانما عبر
عنهم بذلك الاسم وضعا منهم
وتقصيرا بهم مع عظم شأنهم فيما
بين الخلق أن يبلغوا منزلة المناسبة
التي أضافوها اليهم فجعلهم هذا
عبارة عن قولهم الملائكة بنات
الله وانما أعيد ذكره تمهيدا لما يعقبه
من قوله تعالى (ولقد علمت الجنة
انهم لمحضرون) أي وبالله لقد علمت
الجنة التي عظموها بان جعلوا بينها
وبينه تعالى نسبا وهم الملائكة ان
الكفرة لمحضرون النار معذبون
بها لتكذيبهم وافترائهم في قولهم ذلك
والمراد به المبالغة في التكذيب ببيان
أن الذين يدعي هؤلاء لهم تلك
النسبة ويعلمون انهم أعلم منهم
بحقيقة الحال يكذبونهم في ذلك
ويحكمون بانهم معذبون لاجله
حكما مؤكدا وقيل ان قوما من
الزنادقة يقولون الله تعالى وابليس
أخوان فالله هو الخير الكريم
وابليس هو الشرير اللئيم وهو المراد
بقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة
نسبا قال الامام الرازي وهذا القول
عندي أقرب الاقاويل وهو
مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن وقال مجاهد قالت قريش الملائكة بنات الله فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه هو
فمن أمهاتهم تبكيتا لهم فقالوا سروات الجن وقيل معنى جعلوا بينه وبين الجنة نسبا جعلوا بينهما مناسبة حيث أشركوا به تعالى الجن في استحقاق

أهل بقعة واحدة وأما عاد وثمود وقوم نوح فكان عدد المهلكين بالنسبة الى الناجين اضعاف ما كان عدد المهلكين بالنسبة الى الناجين من قوم لوط عليه السلام فذكر الحكايات الثلاث الاول للتسلية بالنجاة وذكر الثلاث المتأخرة للتسلية باهلاك العدو والكل مذكور للتسلية بدليل قوله تعالى في آخر هذه الآيات كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون الى أن قال فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين وفي هود قال بعد الحكايات ذلك من أنباء القرى نقصه عليك الى أن قال وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد فذكر بعدها ما يؤكد التهديد وذكر بعد الحكايات ههنا ما يفيد التسلي وقوله العقيم أي ليست من اللواقح لانها كانت تكسر وتقلع فكيف كانت تلقح والفعيل لا يلحق به تاء التأنيث اذا كان بمعنى مفعول وكذلك اذا كان بمعنى فاعل في بعض الصور وقد ذكرنا سببه أن فعيل لما جاء للمفعول والفاعل جميعا ولم يتميز المفعول عن الفاعل فأولى أن لا يتميز المؤنث عن المذكر فيه لانه لو تميز لتميز الفاعل عن المفعول قبل تميز المؤنث والمذكر لان الفاعل جزء من الكلام محتاج اليه فاول ما يحصل في الفعل الفاعل ثم التذكير والتأنيث يصير كالصفة للفاعل والمفعول تقول فاعل وفاعلة ومفعول ومفعولة ويدل على ذلك أيضا ان التمييز بين الفاعل والمفعول جعل بحرف ممازج للكلمة فقيل فاعل بألف فاصلة بين الفاء والعين التي هي من أصل الكلمة وقيل مفعول بواو فاصلة بين العين واللام والتأنيث كان بحرف في آخر الكلمة فالمميز فيها غير نظم الكلمة لشدة الحاجة وفي التأنيث لم يؤثر ولان التمييز في الفاعل والمفعول كان بأمرين يختص كل واحد منهما باحدهما فالالف بعد الفاء يختص بالفاعل والميم والواو يختص بالمفعول والتمييز في التذكير والتأنيث بحرف عند وجوده يميز المؤنث وعند عدمه يبقى اللفظ على أصل التذكير فاذا لم يكن فعيل يمتاز فيه الفاعل عن المفعول الا بامر منفصل كذلك المؤنث والمذكر لا يمتاز أحدهما عن الآخر الا بحرف غير متصل به ۞ قوله تعالى (ما تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم) فيه مباحث (الاول) في اعرابه وفيه وجهان (أحدهما) نصب على أنه صفة الريح بعد صفة العقيم ذكر الواحدي أنه وصف فان قيل كيف يكون وصفا والمعرفة لا توصف بالجمل وما تذر جملة ولا يوصف بها الا النكرات نقول الجواب فيه من وجهين (أحدهما) أنه يكون باعادة الريح تقديرا كأنه يقول وأرسلنا عليهم الريح العقيم ريحا ما تذر (ثانيهما) هو أن المعرف نكرة لان تلك الريح منكرة كأنه يقول وأرسلنا الريح التي لم تكن من الرياح التي تقع ولا وقع مثلها فهي لشدتها منكرة ولهذا أكثر ما ذكرها في القرآن ذكرها منكرة ووصفها بالجملة من جملتها قوله تعالى بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم وقوله ريح صرصر عاتية سخرها الى غير ذلك (الوجه الثاني) وهو الاصح أنه نصب على الحال تقول جاءني ما يفهم شيأ فعلمته وفهمته أي حاله كذا فان قيل لم تكن حال الارسال ما تذر والحال ينبغي أن يكون موجودا مع ذي الحال وقت الفعل فلا يجوز أن يقال جاءني زيد امس راكبا غدا والريح بعد ما ارسلت بزمان صارت ما تذر شيأ نقول المراد به البيان بالصلاحية أي أرسلناها وهي على قوة وصلاحية أن لا تذر تقول لمن جاء وأقام عندك أياما ثم سألك شيأ جئتني سائلا أي قبل السؤال بالصلاحية والامكان هذا ان قلنا انه نصب وهو المشهور ويحتمل أنه رفع على انه خبر مبتدا محذوف تقديره هي ما تذر (البحث الثاني) ما تذر للنفي حال التكلم يقال ما يخرج زيد أي الآن واذا أردت المستقبل تقول لا يخرج أو لن يخرج وأما الماضي تقول ما خرج ولم يخرج والريح حالة الكلام مع النبي صلى الله عليه وسلم كانت ما تركت شيأ الا جعلته كالرميم فكيف قال بلفظ الحال ما تذر نقول الحكاية مقدرة على انها محكية حال الوقوع ولهذا قال تعالى وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد مع ان اسم الفاعل الماضي لا يعمل وانما يعمل ما كان منه بمعنى الحال والاستقبال (البحث الثالث) هل في قوله تعالى ما تذر من شيء أتت عليه مبالغة ودخول تخصيص كما في قوله تعالى تدمر كل شيء بأمر ربها نقول

هو كما وقع لان قوله أتت عليه وصف لقوله شئ كانه قال كل شئ أتت عليه أو كل شئ تأتى عليه جعلته كالرميم ولا يدخل فيه السموات لانها ما أتت عليها وانما يدخل فيه الاجسام التى تهب عليها الرياح فان قيل فالجبال والصخور أتت عليها وما جعلتها كالرميم نقول المراد أتت عليه قصدا وهو عاد وأبنيتهم وعروشهم وذلك لانها كانت مأمورة بأمر من عند الله فكأنها كانت قاصدة اياهم فما تركت شيأ من تلك الاشياء الا جعلته كالرميم مع ان الصر الريح الباردة والمكرر لا ينفك عن المعنى الذى فى اللفظ من غير تكرير تقول حث وحثحث وفيه ما فى حث تقول فيه قولان (أحدهما) انها كانت باردة فكانت فى أيام العجوز وهى ثمانية أيام من آخر شباط وأول اذار والريح الباردة من شدة بردها تحرق الاشجار والثمار وغيرهما وتسودهما (والثانى) انها كانت حارة والصر هو الشديد لا البارد وبالشدة فسر قوله تعالى فى صرة أى فى شدة من الحر (البحث الرابع) فى قوله تعالى ما تذر من شئ أتت عليه الا جعلته كالرميم لان فى قوله تعالى ما تذر نفى الترك مع اثبات الاتيان فكأنه تعالى قال تأتى على أشياء وما تتركها غير محرقة وقول القائل ما أتى على شئ الا جعله كذا يكون نفى الاتيان عما لم يجعله كذلك ۞ قوله تعالى ﴿وفى ثمود﴾ والبحث فيه وفى عاد هو ما تقدم فى قوله تعالى وفى موسى ۞ وقوله تعالى ﴿اذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾ قال بعض المفسرين المراد منه هو ما أمهلهم الله ثلاثة أيام بعد قتلهم الناقة وكانت فى تلك الايام تتغير ألوانهم فتصفر وجوههم وتسود وهو ضعيف لان قوله تعالى فعتوا عن أمر ربهم بحرف الفاء دليل على أن العتو كان بعد قوله تمتعوا فان الظاهر أن المراد هو ما قدر الله للناس من الآجال فما من أحد الا وهو ممهل مدة الاجل يقول له تمتع الى آخر أجلك فان احسنت فقد حصل لك التمتع فى الدارين والا فمالك فى الآخرة من نصيب ۞ وقوله ﴿فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ فيه بحث وهو أن عتا يستعمل بعلى قال تعالى أيهم أشد على الرحمن عتيا وههنا استعمل مع كلمة عن فنقول فيه معنى الاستغناء فحيث قال تعالى عن أمر ربهم كان كقوله لا يستكبرون عن عبادته وحيث قال على كان كقول القائل فلان يتكبر علينا والصاعقة فيه وجهان ذكرناهما هنا (أحدهما) انها الواقعة (والثانى) الصوت الشديد وقوله وهم ينظرون اشارة الى أحد معنيين اما بمعنى تسليمهم وعدم قدرتهم على الدفع كما يقول القائل للمضروب يضربك فلان وأنت تنظر اشارة الى أنه لا يدفع واما بمعنى أن العذاب أتاهم لا على غفلة بل أنذروا به من قبل بثلاثة أيام وانتظروه ولو كان على غفلة لكان لمتوهم أن يتوهم أنهم أخذوا على غفلة أخذ العاجل المحتاج كما يقول المبارز الشجاع أخبرتك بقصدى اياك فانتظرنى ۞ وقوله تعالى ﴿فما استطاعوا من قيام﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أنه لبيان عجزهم عن الهرب والفرار على سبيل المبالغة فان من لا يقدر على قيام كيف يمشى فضلا عن أن يهرب وعلى هذا فيه لطائف لفظية (احداها) قوله تعالى فما استطاعوا فان الاستطاعة دون القدرة لان فى الاستطاعة دلالة الطلب وهو ينبئ عن عدم القدرة والاستقلال فمن استطاع شيأ كان دون من يقدر عليه ولهذا يقول المتكلمون الاستطاعة مع الفعل أو قبل الفعل اشارة الى قدرة مطلوبة من الله تعالى مأخوذة منه واليه الاشارة بقوله تعالى هل تستطيع ربك على قراءة من قرأ بالتاء وقوله فما استطاعوا أبلغ من قول القائل ما قدروا على قيام (ثانيها) قوله تعالى من قيام بزيادة من وقد عرفت ما فيه من التأكيد (ثالثها) قوله قيام بدل قوله هرب لما بينا أن العاجز عن القيام أولى أن يعجز عن الهرب (الوجه الثانى) هو أن المراد من قيام القيام بالامر أى ما استطاعوا من قيام به ۞ وقوله تعالى ﴿وما كانوا منتصرين﴾ أى ما استطاعوا الهزيمة والهرب ومن لا يقدر عليه يقاتل وينتصر بكل ما يمكنه لانه يدفع عن الروح وهم مع ذلك ما كانوا منتصرين وقد عرفت ان قول القائل ما هو بمنتصر أبلغ من قوله ما انتصر ولا ينتصر والجواب ترك مع كونه يجب تقديره وقوله ما انتصر أى لشئ من شأنه ذلك كما تقول فلان لا ينصر أو فلان ليس بنصر ۞ ثم قال تعالى ﴿وقوم نوح من

العبادة فعلى هذه الاقاويل يجوز أن يكون الضمير فى انهم لمحضرون للجنة فالمعنى لقد علمت الشياطين أن الله تعالى يحضرهم النار ويعذبهم بها ولو كانوا مناسبين له تعالى أو شركاء فى استحقاق العبادة لما عذبهم والوجه هو الاول فان قوله (سبحان الله عما يصفون) حكاية لتنزيه الملائكة اياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد تكذيبهم لهم فى ذلك بتقدير قول معطوف على علمت وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) شهادة منهم ببراءة المخلصين من أن يصفوه تعالى بذلك متضمنة لتبرئهم منه بحكم اندراجهم فى زمرة المخلصين على أبلغ وجه وآكده على أنه استثناء منقطع من واو يصفون كأنه قيل ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم ذلك وقالوا سبحان الله عما يصفونه به لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم برآء من ذلك الوصف وقوله تعالى (فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين) تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين عما ذكر ببيان عجزهم عن اغوائهم واضلالهم والالتفات الى الخطاب لاظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام وما تعبدون عبارة عن الشياطين الذين أغووهم وفيه ايذان بتبرئهم عنهم وعن عبادتهم كقولهم بل كانوا يعبدون الجن وما نافية وأنتم خطاب لهم ولمعبوديهم تغليبا وعلى متعلقة بفاتنين يقال فتن فلان على فلان امرأته أى أفسدها عليه والمعنى فانكم ومعبوديكم أيها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بافساد عباده واضلالهم (الا من هو صال الجحيم) منهم أى داخلها لعلمه تعالى بأنه يصير على الكفر بسوء اختياره ويصير من أهل النار لا محالة وأما المخلصون منهم فأنتم بمعزل من افسادهم واضلالهم فهم لاجرم برآء من أن يفتنوا بكم ويسلكوا مسلككم فى وصفه تعالى بما وصفتموه به وقرئ صال بضم اللام على أنه جمع محمول على معنى من قد سقط واوه لالتقاء الساكنين وقوله تعالى (وما منا الا له مقام معلوم) تبيين لجلية أمرهم وتعيين لحيزهم فى موقف العبودية بعد ما ذكر من تكذيب الكفرة فيما قالوا وتنزيه الله تعالى

قبل انهم كانوا قوما فاسقين) قرئ قوم بالجر والنصب فما وجههما نقول أما الجر فظاهر عطفا على ما تقدم في قوله تعالى وفي عاد وفي موسى تقول لك في فلان عبرة وفي فلان وفلان وأما النصب فعلى تقدير وأهلكنا قوم نوح من قبل لان ما تقدم دل على الهلاك فهو عطف على المحل وعلى هذا فقوله من قبل معناه ظاهر كأنه يقول وأهلكنا قوم نوح من قبل وأما على الوجه الاول فتقديره وفي قوم نوح لكم عبرة من قبل ثمود وعاد وغيرهم ۞ ثم قال تعالى (والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون) وهو بيان للوحدانية وما تقدم كان بيانا للحشر وأما قوله ههنا والسماء بنيناها بأيد وأنتم تعرفون ان ما تعبدون من دون الله ما خلقوا منها شيأ فلا يصح الاشراك ويمكن أن يقال هذا عود بعد التهديد الى اقامة الدليل وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الاجسام ثانيا كما قال تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) النصب على شريطة التفسير يختار في مواضع اذا كان العطف على جملة فعلية فما تلك الجملة نقول في بعض الوجوه التى ذكرناها في قوله تعالى وفي عاد وثمود تقديره وهل أتاك حديث عاد وهل أتاك حديث ثمود عطفا على قوله هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وعلى هذا يكون ما تقدم جملة فعلية لا خفاء فيه وعلى غير ذلك الوجه فالجار والمجرور الى النصب أقرب منه الى الرفع فكان عطفا على ما بالنصب أولى ولان قوله تعالى فنبذناهم وقوله أرسلنا وقوله تعالى فأخذتهم الصاعقة وفما استطاعوا كلها فعليات فصار النصب مختارا (المسئلة الثانية) كرر ذلك البناء في السموات قال تعالى والسماء وما بناها وقال تعالى أم السماء بناها وقال تعالى جعل الارض قرارا والسماء بناء فما الحكمة فيه نقول فيه وجوه (أحدها) ان البناء باق الى قيام القيامة لم يسقط منه شئ ولم يعدم منه جزء وأما الارض فهى في التبدل والتغير فهى كالفرش الذى يبسط ويطوى وينقل والسماء كالبناء المبنى الثابت واليه الاشارة بقوله تعالى سبعا شدادا وأما الاراضى فكم منها ما صار بحرا وعاد أرضا من وقت حدوثها (ثانيها) أن السماء ترى كالقبة المبنية فوق الرؤس والارض مبسوطة مدحوة والبناء بالمرفوع أليق كما قال تعالى رفع سمكها (ثالثها) قال بعض الحكماء السماء مسكن الارواح والارض موضع الاعمال والمسكن أليق بكونه بناء والله أعلم (المسئلة الثالثة) الاصل تقديم العامل على المعمول والفعل هو العامل فقوله بنينا عامل في السماء فما الحكمة في تقديم المفعول على الفعل ولو قال وبنينا السماء بأيد كان أوجز نقول الصانع قبل الصنع عند الناظر في المعرفة فلما كان المقصود اثبات العلم بالصانع قدم الدليل فقال والسماء المزينة التى لا تشكون فيها بنيناها فاعرفونا بها ان كنتم لا تعرفونا (المسئلة الرابعة) اذا كان المقصود اثبات التوحيد فكيف قال بنيناها ولم يقل بنيتها أو بناها الله نقول قوله بنيناها أدل على عدم الشريك في التصرف والاستبداد وقوله بنيتها يمكن أن يكون فيه تشريك وتمام التقرير هو أن قوله تعالى بنينا لا يورث ايهاما بان الآلهة التى كانوا يعبدونها هى التى يرجع اليها الضمير في قوله بنينا لان تلك اما أصنام منحوتة واما كواكب جعلوا الاصنام على صورها وطباعها فأما الاصنام المنحوتة فلا يشكون انها ما بنت من السماء شيأ وأما الكواكب فهى في السماء محتاجة اليها فلا تكون هى بانيتها وانما يمكن أن يقال انها بنيت لها وجعلت أماكنها فلما لم يتوهم ما قالوا قال بنينا نحن ونحن غير ما يقولون ويدعونه فلا يصلحون لنا شركاء لان كل ما هو غير السماء فهو محتاج الى السماء ودون السماء في المرتبة فلا يكون خالق السماء وبانيها فاذن علم أن المراد جمع التعظيم وأفاد النص عظمته فالعظمة أنفى للشريك فثبت ان قوله بنيناها أدل عن نفى الشريك من بنيتها وبناها الله * فان قيل لم قلت ان الجمع يدل على التعظيم قلنا الجواب من وجهين (الاول) أن الكلام على قدر فهم السامع والسامع هو الانسان والانسان يقيس الشاهد على الغائب فان الكبير عندهم من يفعل الشئ بجنده وخدمه ولا يباشر بنفسه فيقول الملك فعلنا أى فعله عبادنا بأمرنا ويكون في ذلك تعظيم فكذلك في حق الغائب (والوجه الآخر) هو ان القول

عن ذلك وتبرئة المخلصين عنه واظهار لقصور شأنهم وقناعتهم أى ومامنا أحد الا له مقام معلوم في العبادة والانتهاء الى أمر الله تعالى مقصور عليه لا يتجاوزه ولا يستطيع أن يزل عنه خضوعا لعظمته وخشوعا لهيبته وتواضعا لجلاله كما روى فمنهم راكع لا يقيم صلبه وساجد لا يرفع رأسه قال ابن عباس رضى الله عنهما ما في السموات موضع شبر الا وعليه ملك يصلى أو يسبح وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال أطت السماء وحق لها أن تئط والذى نفسى بيده ما فيها موضع أربع أصابع الا وفيه ملك واضع جبهته ساجد لله تعالى وقال السدى الا له مقام معلوم في القربة والمشاهدة (وانا لنحن الصافون) في مواقف الطاعة ومواطن الخدمة (وانا لنحن المسبحون) المقدسون لله سبحانه عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه وتحلية كلامهم بفنون التأكيد لابراز أن صدوره عنهم بكمال الرغبة والنشاط هذا هو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وقد ذكر في تفسير الآيات الكريمة واعرابها وجوه أخر فتأمل والله الموفق (وان كانوا ليقولون) ان هى المخففة من الثقيلة وضمير الشأن محذوف واللام هى الفارقة أى ان الشأن كانت قريش تقول (لو أن عندنا ذكرا من الاولين) أى كتابا من كتب الاولين من التوراة والانجيل (لكنا عباد الله المخلصين) أى لأخلصنا العبادة لله تعالى ولما خالفنا كما خالفوا وهذا كقولهم لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من احدى الامم والفاء في قوله تعالى (فكفروا به) فصيحة كما في قوله تعالى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فجاءهم ذكر وأى ذكر سيد الاذكار وكتاب مهيمن على سائر الكتب والاسفار فكفروا به (فسوف يعلمون) أى عاقبة كفرهم وغائلته (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) استئناف مقرر للوعيد وتصديره بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه أى وبالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة وهو قوله تعالى (انهم لهم المنصورون وان جندنا) وهم أتباع المرسلين (لهم الغالبون)

اذا

اذا وقع من واحد وكان الغير به راضيا يقول القائل فعلنا كلنا كذا واذا اجتمع جمع على فعل لا يقع الا بالبعض كما اذا خرج جم غفير وجمع كثير لقتل سبع وقتلوه يقال قتله أهل بلدة كذا الرضا الكل به وقصد الكل اليه اذا عرفت هذا فالله تعالى كيفما أمر بفعل شئ لا يكون لاحد رده وكان كل واحد منقاداله يقول بدل فعلت فعلنا ولهذا يقول الملك العظيم أجمعنا بحيث لا ينكر أحد ولا يرده نفس وقوله تعالى بأيد أى قوة والايد القوة هذا هو المشهور وبه فسر قوله تعالى ذا الايد انه أواب ويحتمل أن يقال ان المراد جمع اليد ودليله أنه قال تعالى لما خلقت بيدى وقال تعالى مما عملت أيدينا أنعاما وهو راجع فى الحقيقة الى المعنى الاول وعلى هذا فحيث قال خلقت قال بيدى وحيث قال بنينا قال بأيد لمقابلة الجمع بالجمع فان قيل فلم لم يقل بنيناها بأيدينا وقال مما عملت أيدينا نقول لفائدة جليلة وهى أن السماء لا يخطر ببال أحد انها مخلوقة لغير الله والانعام ليست كذلك فقال هنالك مما عملت أيدينا تصريحا بان الحيوان مخلوق لله تعالى من غير واسطة وكذلك خلقت بيدى وفى السماء بأيد من غير اضافة للاستغناء عنها وفيه لطيفة أخرى وهى ان هنالك لما أثبت الاضافة بعد حذف الضمير العائد الى المفعول فلم يقل خلقته بيدى ولا قال عملته أيدينا وقال ههنا بنيناها لان هنالك لم يخطر ببال أحد ان الانسان غير مخلوق وان الحيوان غير معمول فلم يقل خلقته ولا عملته وأما السماء فبعض الجهال يزعم انها غير مجعولة فقال بنيناها بعود الضمير تصريحا بانها مخلوقة وقوله تعالى وانا لموسعون فيه وجوه (أحدها) انه من السعة أى أوسعناها بحيث صارت الارض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة الى السماء وسعتها كحلقة فى فلاة والبناء الواسع الفضاء عجيب فان القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤن لانهم يحتاجون الى اقامة آلة يصح بها استدارتها ويثبت بها تماسك أجزائها الى ان يتصل بعضها ببعض (ثانيها) قوله وانا لموسعون أى لقادرون ومنه قوله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها أى قدرتها والمناسبة حينئذ ظاهرة ويحتمل ان يقال بان ذلك حينئذ اشارة الى المقصود الآخر وهو الحشر كأنه يقول بنينا السماء وانا لقادرون على أن نخلق أمثالها كما فى قوله تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم (ثالثها) انا لموسعون الرزق على الخلق ۞ ثم قال تعالى ﴿والارض فرشناها فنعم الماهدون﴾ استدلالا بالارض وقد علم ما فى قوله والارض فرشناها وفيه دليل على أن دحو الارض بعد خلق السماء لان بناء البيت يكون فى العادة قبل الفرش وقوله تعالى فنعم الماهدون أى نحن أو فنعم الماهدون ماهدوها ۞ ثم قال تعالى ﴿ومن كل شئ خلقنا زوجين﴾ استدلالا بما بينهما والزوجان اما الضدان فان الذكر والانثى كالضدين والزوجان منهما كذلك واما المتشاكلان فان كل شئ له شبيه ونظير وضد وند قال المنطقيون المراد بالشئ الجنس وأقل ما يكون تحت الجنس نوعان فمن كل جنس خلق نوعين من الجوهر مثلا المادى والمجرد ومن المادى والجامد ومن النامى المدرك والنبات ومن المدرك الناطق والصامت وكل ذلك يدل على انه فرد لا كثرة فيه ۞ وقوله تعالى ﴿لعلكم تذكرون﴾ أى لعلكم تذكرون أن خالق الازواج لا يكون له زوج والالكان ممكنا فيكون مخلوقا ولا يكون خالقا أو لعلكم تذكرون أن خالق الازواج لا يعجز عن حشر الاجساد وجمع الازواج ۞ ثم قال تعالى ﴿ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين﴾ أمرا بالتوحيد وفيه لطائف (الاولى) قوله تعالى ففروا ينبئ عن سرعة الاهلاك كأنه يقول الاهلاك والعذاب أسرع وأقرب من ان يحتمل الحال الابطاء فى الرجوع فافزعوا الى الله سريعا وفروا (الثانية) قوله تعالى الى الله بيان المهروب اليه ولم يذكر الذى منه الهرب لاحد وجهين اما لكونه معلوما وهو هول العذاب أو الشيطان الذى قال فيه ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا واما ليكون عاما كأنه يقول كل ما عدا الله عدوكم ففروا اليه من كل ما عداه وبيانه وهو ان كل ما عداه فانه يتلف عليك رأس مالك الذى هو العمر ويفوت عليك ما هو الحق والخير ومتلف رأس المال ومفوت الكمال عدو وأما اذا فررت الى الله وأقبلت على الله فهو يأخذ عمرك ولكن

على أعدائهم فى الدنيا والآخرة ولا يقدح فى ذلك انهزامهم فى بعض المشاهد فان قاعدة أمرهم وأساسه الظفر والنصرة وان وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان لم ينصروا فى الدنيا نصروا فى الآخرة وقرئ على عبادنا بتضمين سبقت معنى حقت وتسميتها كلمة مع انها كلمات لانتظامها فى معنى واحد وقرئ كلماتنا (فتول عنهم) فاعرض عنهم واصبر (حتى حين) الى مدة يسيرة وهى مدة الكف عن القتال وقيل يوم بدر وقيل يوم الفتح (وأبصرهم) على أسوأ حال وأفظع نكال حل بهم من القتل والاسر والمراد بالامر بابصارهم الايذان بغاية قربه كأنه بين يديه (فسوف يبصرون) ما يقع حينئذ من الامور وسوف للوعيد دون التبعيد (أفبعذابنا يستعجلون) روى أنه لما نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا فنزل (فاذا نزل بساحتهم) أى فاذا نزل العذاب الموعود بفنائهم كأنه جيش قد هجمهم فأناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم بالمرة وقيل المراد نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وقرئ نزل بساحتهم على اسناده الى الجار والمجرور وقرئ نزل مبنيا للمفعول من التنزيل أى نزل العذاب (فساء صباح المنذرين) فبئس صباح المنذرين صباحهم واللام للجنس والصباح مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ولما كثرت منهم الغارة فى الصباح سموها صباحا وان وقعت ليلا روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتى خيبر وكانوا خارجين الى مزارعهم ومعهم المساحى قالوا محمد والخميس ورجعوا الى حصنهم فقال عليه الصلاة والسلام الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسلية وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع ما فى اطلاق الفعلين عن المفعول من الايذان بان ما يبصره عليه الصلاة والسلام حينئذ من فنون

المسار وما يبصرونه من أنواع المضار لا يحيط به الوصف والبيان وقيل أريد بالاول عذاب الدنيا وبالثانى عذاب الآخرة (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) تنزيه لله سبحانه عن كل ما يصفه المشركون به مما لا يليق بجناب كبريائه وجبروته مما ذكر فى السورة الكريمة وما لم يذكر من الامور التى من جملتها ترك انجاز الموعود على موجب كلمته السابقة لاسيما فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن التربية والتكميل والمالكية الكلية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام أولا والى العزة ثانيا كانه قيل سبحان من هو مربيك ومكملك ومالك العزة والغلبة على الاطلاق عما يصفه المشركون به من الاشياء التى منها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب وقوله تعالى (وسلام على المرسلين) تشريف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشأنهم وايذان بأنهم سالمون عن كل المكاره فائزون بجميع المآرب وقوله تعالى (والحمد لله رب العالمين) اشارة الى وصفه عز وجل بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه تعالى بجميع صفاته السلبية وايذان باستتباعها للافعال الجميلة التى من جملتها افاضته عليهم من فنون الكرامات السنية والكمالات الدينية والدنيوية واسباغه عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمده تعالى واشعار بان ما وعده عليه الصلاة والسلام من النصرة والغلبة قد تحققت والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه تعالى وتحميده والتسليم على رسله الذين هم وسائط بينهم وبينه عز وعلا فى فيضان الكمالات الدينية والدنيوية عليهم ولعل توسيط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع ما فيه من الاشعار بان توفيقه تعالى للتسليم عليهم من جملة نعمه الموجبة للحمد * عن على رضى الله عنه من أحب أن يكتال بالمكيال الاوفى من الاجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه اذا قام من

لا تتركها

برفع أحدك وتعطيلك بقاء لا فناء معه (والثالثة) الفاء للترتيب معناه اذا ثبت ان خالق الزوجين فرد ففروا اليه واتركوا غيره تركا مؤبدا (الرابعة) فى تنوع الكلام فائدة وبيانها هو أن الله تعالى قال والسماء بنيناها والارض فرشناها ومن كل شئ خلقنا ثم جعل الكلام للنبى عليه السلام وقال ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين ولم يقل ففروا الينا وذلك لان لاختلاف الكلام تأثيرا وكذلك لاختلاف المتكلمين تأثير ولهذا يكثر الانسان من النصائح مع ولده الذى حاد عن الجادة ويجعل الكلام مختلفا نوعا ترغيبا ونوعا ترهيبا وتنبيها بالحكايات ثم يقول لغيره تكلم معه لعل كلامك ينفع لما فى أذهان الناس أن اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاهما مؤثر والله تعالى ذكر أنواعا من الكلام وكثيرا من الاستدلالات والآيات وذكر طرفا صالحا من الحكايات ثم ذكر كلاما من متكلم آخر هو النبى صلى الله عليه وسلم ومن المفسرين من يقول تقديره فقل لهم ففروا وقوله انى لكم منه نذير اشارة الى الرسالة وفيه أيضا لطائف (احداها) ان الله تعالى بين عظمته بقوله والسماء بنيناها والارض فرشناها وهيبته بقوله فنبذناهم فى اليم وقوله تعالى أرسلنا عليهم الريح العقيم وقوله فأخذتهم الصاعقة وفيه اشارة الى أنه تعالى اذا عذب قدر على أن يعذب بما به البقاء والوجود وهو التراب والماء والهواء والنار فحكاية لوط تدل على أن التراب الذى منه الوجود والبقاء اذا أراد الله جعله سبب الفناء والماء كذلك فى قوم فرعون والهواء فى عاد والنار فى ثمود ولعل ترتيب الحكايات الاربع للترتيب الذى فى العناصر الاربعة وقد ذكرنا فى سورة العنكبوت شيأ منه ثم اذا أبان عظمته وهيبته قال لرسوله عرفهم الحال وقل أنا رسول بتقديم الآيات وسرد الحكايات فلا ردافه بذكر الرسول فائدة (ثانيها) فى الرسالة أمور ثلاثة المرسل والرسول والمرسل اليه وههنا ذكر الكل فقوله لكم اشارة الى المرسل اليهم وقوله منه اشارة الى المرسل وقوله نذير بيان للرسول وقدم المرسل اليه فى الذكر لان المرسل اليه أدخل فى أمر الرسالة لان عنده يتم الامر والملك لو لم يكن هناك من يخالفه أو يوافقه فيرسل اليه نذيرا أو بشيرا لا يرسل وان كان ملكا عظيما واذا حصل المخالف أو الموافق يرسل وان كان غير عظيم ثم المرسل لانه متعين وهو الباعث وأما الرسول فباختياره ولولا المرسل المتعين لما تمت الرسالة وأما الرسول فلا يتعين لان للملك اختيار من يشاء من عباده فقال منه ثم قال نذير تأخير للرسول عن المرسل (ثالثها) قوله مبين اشارة الى ما به تعرف الرسالة لان كل حادث له سبب وعلامة فالرسول هو الذى به تتم الرسالة ولا بد له من علامة يعرف بها فقوله مبين اشارة اليها وهى اما البرهان أو المعجزة ۞ ثم قال تعالى (ولا تجعلوا مع الله الها آخر) اتماما للتوحيد وذلك لان التوحيد بين التعطيل والتشريك وطريقة التوحيد هى الطريقة فالمعطل يقول لا اله أصلا والمشرك يقول فى الوجود آلهة والموحد يقول قول الاثنين باطل ونفى الواحد باطل فقوله تعالى ففروا الى الله أثبت وجود الله ولما قال ولا تجعلوا مع الله الها آخر نفى الاكثر من الواحد فصح التوحيد بالآيتين ولهذا قال مرتين (انى لكم منه نذير مبين) أى فى المقامين والموضعين وقد ذكرنا مرارا ان المعطل اذا قال لا واجب يجعل الكل ممكنا فان كل موجود ممكن لكن الله فى الحقيقة موجود فقد جعله فى تضاعيف قوله كالممكنات فقد أشرك وجعل الله كغيره والمشرك لما قال بان غيره اله يلزم من قوله نفى كون الاله الها لما ذكرنا فى تقرير دلالة التمانع من أنه لو كان فيهما آلهة الا الله للزم عجز كل واحد فلا يكون فى الوجود اله أصلا فيكون نافيا للالهية فيكون معطلا فالمعطل مشرك والمشرك معطل وكل واحد من الفريقين معترف بأن خصمه مبطل لكنه هو على مذهب خصمه يقول انه نفسه مبطل وهو لا يعلم والحمد لله الذى هدانا وقوله ولا تجعلوا فيه لطيفة وهى انه اشارة الى ان الآلهة مجعولة لا يقال فالله متخذ لقوله فاتخذه وكيلا قلنا الجواب عنه ظاهر وقد سبق فى قوله تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ۞ ثم قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون) والتفسير معلوم مما سبق وقد ذكرنا أنه يدل على ان ذكر الحكايات للتسلية غير أن فيه لطيفة واحدة

لا نتركها وهي أن هذه الآية دليل على ان كل رسول كذب وحينئذ يرد عليه أسئلة (الاول) هو أن من الانبياء من قرر دين النبي الذي كان قبله وبقي القوم على ما كانوا عليه كانبياء بني اسرائيل مدة وكيف وآدم لما أرسل لم يكذب (الثاني) ما الحكمة في تقدير الله تكذيب الرسل ولم يرسل رسولا مع كثرتهم واختلاف معجزاتهم بحيث يصدقه أهل زمانه (الثالث) قوله ما أتى الا قالوا دليل على انهم كلهم قالوا ساحر وليس كذلك لانه ما من رسول الا وآمن به قوم وهم ما قالوا ذلك (والجواب عن الاول) هو أن نقول أما المقرر فلا نسلم أنه رسول بل هو نبي على دين رسول ومن كذب رسوله فهو مكذبه أيضا ضرورة (وعن الثاني) هو أن الله لا يرسل الا عند حاجة الخلق وذلك عند ظهور الكفر في العالم ولا يظهر الكفر الا عند كثرة الجهل ثم ان الله تعالى لا يرسل رسولا مع كون الايمان به ضروريا والا لكان الايمان به ايمان اليأس فلا يقبل والجاهل اذا لم يكن المبين له في غاية الوضوح لا يقبله فيبقى في ورطة الضلالة فهذا قدر لزم بقضاء الله على الخلق على هذا الوجه وقد ذكرنا مرة أخرى أن بعض الناس يقول كل ما هو قضاء الله فهو خير والشر في القدر فالله قضى بأن النار فيها مصلحة للناس لانها نور ويجعلونها متاعا في الاسفار وغيرها كما ذكر الله والماء فيه مصلحة الشرب لكن النار انما تتم مصلحتها بالحرارة البالغة والماء بالسيلان القوي وكونهما كذلك يلزمهما باجراء الله عادته عليهما أن يحرق ثوب الفقير ويغرق شاة المسكين فالمنفعة في القضاء والمضرة في القدر وهذا الكلام له غور والسنة أن نقول يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد (وعن الثالث) أن ذلك ليس بعام فانه لم يقل الا قال كلهم وانما قال الا قالوا ولما كان كثير منهم بل أكثرهم قائلين به قال الله تعالى الا قالوا فان قيل فلم لم يذكر المصدقين كما ذكر المكذبين وقال الا قال بعضهم صدقت وبعضهم كذبت نقول لان المقصود التسلية وهي على التكذيب فكأنه تعالى قال لا تأس على تكذيب قومك فان أقواما قبلك كذبوا ورسلا كذبوا ۞ ثم قال ﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾ أي بذلك القول وهو قولهم ساحر أو مجنون ومعناه التعجب أي كيف اتفقوا على قول واحد كأنهم تواطؤا عليه وقال بعضهم لبعض لا تقولوا الا هذا ثم قال لم يكن ذلك عن التواطؤ وانما كان لمعنى جامع هو أن الكل أترفوا فاستغنوا فنسوا الله وطغوا فكذبوا رسله كما أن الملك اذا أمهل أهل بقعة ولم يكلفهم بشئ ثم قعد بعد مدة وطلبهم الى بابه يصعب عليهم لاتخاذهم القصور والجنان وتحسين بلادهم من الوجوه الحسان فيحملهم ذلك على العصيان والقول بطاعة ملك آخر ۞ ثم قال تعالى ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾ هذه تسلية أخرى وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم كان من كرم الاخلاق ينسب نفسه الى تقصير ويقول ان عدم ايمانهم لتقصيري في التبليغ فيجتهد في الانذار والتبليغ فقال تعالى قد أتيت بما عليك ولا يضرك التولي عنهم وكفرهم ليس لتقصير منك فلا تحزن فانك لست بملوم بسبب التقصير وانما هم الملومون بالاعراض والعناد ۞ ثم قال تعالى ﴿وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين﴾ يعني ليس التولي مطلقا بل تول وأقبل وأعرض وادع فلا التولي يضرك اذا كان منهم ولا التذكير ينفع الا اذا كان مع المؤمنين وفيه معنى آخر ألطف منه وهو ان الهادي اذا كانت هدايته نافعة يكون ثوابه أكثر فلما قال تعالى فتول كان يقع لمتوهم أن يقول فحينئذ لا يكون للنبي عليه السلام ثواب عظيم فقال بلى وذلك لان في المؤمنين كثرة فاذا ذكرتهم زاد هداهم وزيادة الهدى من قوله كزيادة القوم فان قوما كثيرا اذا صلى كل واحد ركعة أو ركعتين وقوما قليلا اذا صلى كل واحد ألف ركعة تكون العبادة في الكثرة كالعبادة عن زيادة العدد فالهادي له على عبادة كل مهتد أجر ولا ينقص أجر المهتدي قال تعالى ان لك لاجرا أي وان توليت بسبب انتفاع المؤمنين بل وحالة اعراضك عن المعاندين وقوله تعالى فان الذكرى تنفع المؤمنين يحتمل وجوها (أحدها) أن يراد قوة يقينهم كما قال تعالى ليزدادوا ايمانا وقال تعالى فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وقال تعالى زادهم هدى وآتاهم تقواهم (ثانيها) تنفع المؤمنين الذين بعدك فكأنك اذا أكثرت التذكير بالتكرير نقل عنك ذلك بالتواتر

مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين * وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ والصافات أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل جني وشيطان وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنا بالمرسلين

(سورة ص مكية وآيها ست أو ثمان وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ص) بالسكون على الوقف وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن يكون الفتح باضمار حرف القسم في موضع الجر كقولهم الله لافعلن بالجر وأن يكون ذلك نصبا باضمار اذكر أو اقرأ الا فيما كما مر في فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لانها علم للسورة وقد صرفها من قرأ صاد بالتنوين على انه اسم الكتاب أو التنزيل وقيل هو في قراءة الكسر أمر من المصاداة وهي المعارضة والمقابلة ومنها الصدى الذي ينعكس من الاجسام الصلبة بمقابلة الصوت ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه وتخلق بأخلاقه ثم ان جعل اسما للحرف مسرودا على منهاج التحدي أو الرمز الى كلام مثل صدق الله أو صدق محمد كما نقل عن أكابر السلف أو اسما للسورة خبر المبتدا المحذوف أو نصبا على اضمار اذكر أو اقرأ أو أمرا من المصاداة فالواو في قوله تعالى (والقرآن ذي الذكر) للقسم وان جعل مقسما به فهي للعطف عليه فان أريد بالقرآن كله فالمغايرة بينهما حقيقية وان أريد عين السورة فهي اعتبارية كما في قولك مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة وأياما كان ففي التكرير مزيد تأكيد لمضمون الجملة المقسم عليها والذكر الشرف والنباهة كما في قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك أو الذكرى والموعظة أو ذكر ما يحتاج اليه في أمر الدين من الشرائع والاحكام وغيرها من أقاصيص الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار الامم الدارجة والوعد والوعيد وجواب القسم على الوجه الاول والرابع والخامس محذوف هو ما ينبئ عنه التحدي والامر والاقسام به من كون المتحدى

فينتفع به من يجى بعدك من المؤمنين (ثالثها) هو أن الذكرى ان أفاد ايمان كافر فقد نفع مؤمنا لانه صار مؤمنا وان لم يفد يوجد حسنة و يزاد فى حسنة المؤمنين فينتفعوا وهذا هو الذى قيل فى قوله تعالى وتلك الجنة التى أورثتموها ۞ ثم قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) وهذه الآية فيها فوائد كثيرة ولنذكرها على وجه الاستقصاء فنقول أما تعلقها بما قبلها فلوجوه (أحدها) انه تعالى لما قال وذكر يعنى أقصى غاية التذكير وهو ان الخلق ليس الا للعبادة فالمقصود من ايجاد الانسان العبادة فذكرهم به وأعلمهم أن كل ما عداه تضييع للزمان (الثانى) هو انا ذكرنا مرارا ان شغل الانبياء منحصر فى أمرين عبادة الله وهداية الخلق فلما قال تعالى فتول عنهم فما أنت بملوم بين أن الهداية قد تسقط عند اليأس وعدم المهتدى وأما العبادة فهى لازمة والخلق المطلق لها وليس الخلق المطلق للهداية فما أنت بملوم اذا أتيت بالعبادة التى هى أصل اذا تركت الهداية بعد بذل الجهد فيها (الثالث) هو انه لما بين حال من قبله من التكذيب ذكر هذه الآية ليبين سوء صنيعهم حيث تركوا عبادة الله فما كان خلقهم الا للعبادة وأما التفسير ففيه مسائل (الاولى) الملائكة أيضا من أصناف المكلفين ولم يذكرهم الله مع ان المنفعة الكبرى فى ايجاده لهم هى العبادة ولهذا قال بل عباد مكرمون وقال تعالى لا يستكبرون عن عبادته فما الحكمة فيه نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) قد ذكرنا فى بعض الوجوه أن تعلق الآية بما قبلها بيان قبح ما يفعله الكفرة من ترك ما خلقوا له وهذا مختص بالجن والانس لان الكفر فى الجن أكثر والكافر منهم أكثر من المؤمن لما بينا أن المقصود بيان قبحهم وسوء صنيعهم (الثانى) هو أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مبعوثا الى الجن فلما قال وذكرهم ما يذكر به وهو كون الخلق للعبادة خص أمته بالذكر أى ذكر الجن والانس (الثالث) ان عباد الاصنام كانوا يقولون بأن الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله فقال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ولم يذكر الملائكة لان الامر فيهم كان مسلما بين القوم فذكر المتنازع فيه (الرابع) قيل الجن يتناول الملائكة لان الجن أصله من الاستتار وهم مستترون عن الخلق وعلى هذا فتقديم الجن لدخول الملائكة فيهم وكونهم أكثر عبادة وأخلصها (الخامس) قال بعض الناس كلما ذكر الله الخلق كان فيه التقدير فى الجرم والزمان قال تعالى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام وقال تعالى خلق الارض فى يومين وقال خلقت بيدى الى غير ذلك وما لم يكن ذكره بلفظ الامر قال تعالى انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون وقال قل الروح من أمر ربى وقال تعالى ألا له الخلق والامر والملائكة كالارواح من عالم الامر أوجدهم من غير مرور زمان فقوله وما خلقت اشارة الى من هو من عالم الخلق فلا يدخل فيه الملائكة وهو باطل لقوله تعالى خالق كل شئ فالملك من عالم الخلق (المسئلة الثانية) تقديم الجن على الانس لاية حكمة نقول فيه وجوه (الاول) بعضها مر فى المسئلة الاولى (الثانى) هو ان العبادة سرية وجهرية وللسرية فضل على الجهرية لكن عبادة الجن سرية لا يدخلها الرياء العظيم وأما عبادة الانس فيدخلها الرياء فانه قد يعبد الله لابناء جنسه وقد يعبد الله ليستخبر من الجن أو مخافة منهم ولا كذلك الجن (المسئلة الثالثة) فعل الله تعالى ليس لغرض والا لكان بالغرض مستكملا وهو فى نفسه كامل فكيف يفهم لام الله الغرض والعلة تقول المعتزلة تمسكوا به وقالوا افعال الله تعالى لاغراض و بالغوا فى الانكار على منكرى ذلك ونحن نقول فيه وجوه (الاول) ان التعليل لفظى ومعنوى واللفظى ما يطلق الناظر اليه اللفظ عليه وان لم يكن له فى الحقيقة مثاله اذا خرج ملك من بلاده ودخل بلاد العدو وكان فى قلبه أن يتعب عسكر نفسه لا غير ففى المعنى المقصود ذلك وفى اللفظ لا يصح ولو قال هو انا ما سافرت الا ابتغاء أجر أو لاستفيد حسنة يقال هذا ليس بشئ ولا يصح عليه ولو قال قائل فى مثل هذه الصورة خرج ليأخذ بلاد العدو وليرهبه لصدق فالتعليل

به مجازا وكون المأمور به واجبا وكون المقسم به حقيقا بالاعظام أى أقسم بالقرآن أو بصاد و به انه لمعجز أو لواجب العمل به أو لحقيق بالاعظام وأما على الوجهين الباقيين فهو الكلام المرموز اليه ونفس الجملة المذكورة قبل القسم فان التسمية تنويه بشأن المسمى وتنبيه على عظم خطره أى انه لصادق والقرآن ذى الذكر أو هذه السورة عظيمة الشأن والقرآن الخ على طريقة قولهم هذا حاتم والله ولما كان كل واحد من هذه الاجوبة منبئا عن انتفاء الريب عن مضمونه بالكلية انباء بينا كان قوله تعالى (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) اضرابا عن ذلك كأنه قيل لا ريب فيه قطعا وليس عدم اذعان الكفرة له لشائبة ريب ما فيه بل هم فى استكبار وحمية شديدة وشقاق بعيد لله تعالى ولرسوله ولذلك لا يذعنون له وقيل الجواب ما دل عليه الجملة الاضرابية أى ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه بل الذين كفروا الخ وقرئ فى غرة أى فى غفلة عما يجب عليهم التنبه له من مبادى الايمان ودواعيه (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين وكم مفعول أهلكنا ومن قرن تمييز والمعنى وقرنا كثيرا أهلكنا من القرون الخالية (فنادوا) عند نزول بأسنا أو حلول نقمتنا استغاثة وتوبة لينجوا من ذلك وقوله تعالى (ولات حين مناص) حال من ضمير نادوا أى نادوا واستغاثوا طلبا للنجاة والحال أن ليس الحين حين مناص أى فوت ونجاة من ناصه أى فاته لا من ناص بمعنى تأخر ولا هى المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم وخصت بنفى الاحيان ولم يبرز الا أحد معموليها والاكثر حذف اسمها وقيل هى النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفى الاحيان وحين مناص منصوب على انه اسمها أى ولا حين مناص لهم أو بفعل مضمر أى ولا أرى حين مناص وقرئ بالرفع فهو على الاول اسمها والخبر محذوف أى وليس حين مناص حاصلا لهم وعلى الثانى مبتدأ محذوف الخبر أى ولا حين مناص كائن لهم وقرئ بالكسر

اللفظى

اللفظى هو جعل المنفعة المعتبرة علة للفعل الذى فيه المنفعة يقال اتجر للربح وان لم يكن فى الحقيقة له
اذا عرفت هذا فنقول الحقائق غير معلومة عند الناس والمفهوم من النصوص معانيها اللفظية لكن
الشئ اذا كان فيه منفعة يصح التعليل بها لفظا والنزاع فى الحقيقة فى اللفظ (الثانى) هو ان ذلك تقدير
كالتمنى والترجى فى كلام الله تعالى وكأنه يقول العبادة عند الخلق شئ لو كان ذلك من أفعالكم لقلتم
انه لها كما قلنا فى قوله تعالى لعله يتذكر أى بحيث يصير تذكره عندكم مرجوا وقوله عسى ربكم أن يهلك
عدوكم أى يصير اهلاكه عندكم مرجوا تقولون انه قرب (الثالث) هو ان اللام قد تثبت فيما لا يصلح غرضا
كما فى الوقت قال تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن والمراد المقارنة وكذلك
فى جميع الصور وحينئذ يكون معناه قرنت الخلق بالعبادة أى بفرض العبادة أى خلقتهم وفرضت عليهم
العبادة والذى يدل على عدم جواز التعليل الحقيقى هو ان الله تعالى مستغن عن المنافع فلا يكون فعله
لمنفعة راجعة اليه ولا الى غيره لان الله تعالى قادر على ايصال المنفعة الى الغير من غير واسطة العمل
فيكون توسط ذلك لا ليكون علة واذا لزم القول بان الله تعالى يفعل فعلا هو لمتوسط لا لعلة لزمهم المسئلة
وأما النصوص فاكثر من أن تعد وهى على أنواع منها ما يدل على ان الاضلال بفعل الله كقوله تعالى يضل
من يشاء وأمثاله ومنها ما يدل على ان الاشياء كلها بخلق الله كقوله تعالى خالق كل شئ ومنها الصرائح التى
تدل على عدم ذلك كقوله تعالى لا يسئل عما يفعل وقوله تعالى يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد
والاستقصاء مفوض فيه الى المتكلم الاصولى لا الى المفسر (المسئلة الرابعة) قال تعالى يا أيها الناس انا
خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا وقال ليعبدون فهل بينهما اختلاف نقول ليس
كذلك فان الله تعالى علل جعلهم شعوبا بالتعارف وههنا علل خلقهم بالعبادة وقوله هناك ان أكرمكم
عند الله أتقاكم دليل على ما ذكره ههنا وموافق له لانه اذا كان اتقى كان أعبد وأخلص عملا فيكون
المطلوب منه أتم فى الوجود فيكون أكرم وأعز كالشئ الذى منفعته فائدة وبعض افراده يكون أنفع فى
تلك الفائدة مثاله الماء اذا كان مخلوقا للتطهير والشرب فالصافى منه أكثر فائدة فى تلك المنفعة فيكون
أشرف من ماء آخر فكذلك العبد الذى وجد فيه ما هو المطلوب منه على وجه أبلغ (المسئلة الخامسة)
ما العبادة التى خلق الجن والانس لها قلنا التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله فان هذين النوعين لم
يخل شرع منهما وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلة والكثرة والزمان
والمكان والشرائط والاركان ولما كان التعظيم اللائق بذى الجلال والاكرام لا يعلم عقلا لزم اتباع
الشرائع فيها والاخذ بقول الرسل عليهم السلام فقد أنعم الله على عباده بارسال الرسل وايضاح السبل
فى نوعى العبادة وقيل ان معناه ليعرفونى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال عن ربه كنت كنزا
مخفيا فأردت ان أعرف ﴿﴾ ثم قال تعالى ﴿ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾ وفيه جواب سؤال
وهو ان الخلق للغرض ينبئ عن الحاجة فقال ما خلقتهم ليطعمون والنفع فيه لهم لا لى وذلك لان منفعة
العبد فى حق السيد أن يكتسب له اما بتحصيل المال له أو بحفظ المال عليه وذلك لان العبد ان كان
للكسب فغرض التحصيل فيه ظاهر وان كان للشغل فلولا العبد لاحتاج السيد الى استئجار من يفعل الشغل
له فيحتاج الى اخراج مال والعبد يحفظ ماله عليه ويغنيه عن الاخراج فهو نوع كسب فقال تعالى ما أريد
منهم من رزق وما أريد أن يطعمون أى لست كالسادة فى طلب العبادة بل هم الرابحون فى عبادتهم وفيه
وجه آخر وهو ان يقال هذا تقرير لكونهم مخلوقين للعبادة وذلك لان الفعل فى العرف لا بد له من منفعة
لكن العبيد على قسمين قسم منهم يكون للعظمة والجمال كمماليك الملوك يطعمهم الملك ويسقيهم ويعطيهم
الاطراف من البلاد ويؤتيهم الطراف بعد التلاد والمراد منهم التعظيم والمثول بين يديه ووضع اليمين على
الشمال لديه وقسم منهم للانتفاع بهم فى تحصيل الارزاق أولاصلاحها فقال تعالى انى خلقتهم فلا بد فيهم

كافى قوله طلبوا صلحنا ولات أوان * فأجبنا أن لات حين بقاء * اما الان لات تجر الاحيان كما أن لولا تجر الضمائر فى نحو قوله
* لولاك هذا العام لم أحجج * أولان أوان شبه باذ فى قوله نهيتك عن طلابك أم عمرو * بعافية وأنت اذ صحيح
فى أنه زمان قطع منه المضاف
اليه وعوض التنوين لان أصله
أوان صلح ثم حمل عليه حين مناص
تنزيلا لقطع المضاف اليه من مناص
اذ أصله حين مناصهم منزلة قطعه
من حين لما بين المضافين من
الاتحاد ثم بنى الحين لاضافته الى
غير متمكن وقرئ لات بالكسر كجير
ويقف الكوفيون عليها بالهاء
كالاسماء والبصريون بالتاء
كالافعال وما قيل من أن التاء مزيدة
على حين لاتصالها به فى الامام مما
لا وجه له فان خط المصحف خارج
عن القياس (وعجبوا أن جاءهم
منذر منهم) حكاية لاباطيلهم
المتفرعة على ما حكى من
استكبارهم وشقاقهم أى عجبوا
من أن جاءهم رسول من جنسهم
بل أدون منهم فى الرياسة الدنيوية
والمال على معنى أنهم عدوا ذلك
أمرا عجيبا خارجا عن احتمال
الوقوع وأنكروه أشد الانكار
لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا
منه (وقال الكافرون) وضع فيه
الظاهر موضع الضمير غضبا عليهم
وايذانا بانه لا يتجاسر على مثل
ما يقولونه الا المتوغلون فى الكفر
وفى الفسوق (هذا ساحر) فيما يظهره
من الخوارق (كذاب) فيما يسنده
الى الله تعالى من الارسال والانزال
(أجعل الآلهة الها واحدا) بان
نفى الالوهية عنهم وقصرها على
واحد (ان هذا الشئ عجاب) بليغ
فى العجب وذلك لانه خلاف ما ألفوا
عليه آباءهم الذين أجمعوا على
ألوهيتهم وواظبوا على عبادتهم
كابرا عن كابر فان مدار كل ما يأتون
وما يذرون من أمور دينهم هو التقليد والاعتياد فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجيبا بل محالا وأما جعل مدار تعجبهم عدم وفاء علم الواحد وقدرته
بالاشياء الكثيرة فلا وجه له لما أنهم لا يدعون أن لآلهتهم علما وقدرة ومدخلا فى حدوث شئ من الاشياء حتى يلزم من نفى ألوهيتهم بقاء الآثار

بلا مؤثر وقرئ عجاب بالتشديد وهو أبلغ ككرام وكرام روى أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم فأتوا أبا طالب فقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وقد جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال صلى الله عليه وسلم ماذا تسألونني قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك والهك فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم ما سألتم أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم قالوا نعم وعشرا فقال قولوا لا اله الا الله فقاموا وقالوا ذلك (وانطلق الملأ منهم) أي وانطلق الاشراف من قريش عن مجلس أبي طالب بعدما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد وشاهدوا تصلبه عليه الصلاة والسلام في الدين وعزيمته على أن يظهره على الدين كله ويئسوا مما كانوا يرجونه بتوسط أبي طالب من المصالحة على الوجه المذكور (أن امشوا) أي قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا (واصبروا على آلهتكم) أي واثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه في حقها من القدح وأن هي المفسرة لان الانطلاق عن مجلس التقاول لا يخلو عن القول وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع في القول وامشوا من مشت المرأة اذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاؤل أي اجتمعوا وأكثروا وقرئ امشوا بغير أن على اضمار القول وقرئ يمشون أن اصبروا (ان هذا لشئ يراد) تعليل للأمر بالصبر أو لوجوب الامتثال به أي هذا الذي شاهدناه من محمد صلى الله عليه وسلم من أمر التوحيد ونفي آلهتنا وابطال أمرها لشئ يراد أي من جهته عليه الصلاة والسلام امضاؤه وتنفيذه لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لا قول يقال من طرف اللسان أو أمر يرجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله من رأيه بوساطة أبي طالب وشفاعته وحسبكم أن

الحكاية

من منفعة فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق وليسوا كذلك فما أريد منهم من رزق أو هل هم ممن يطلب منهم اصلاح قوت كالطباخ والخواني الذي يقرب الطعام وليسوا كذلك فما أريد أن يطعمون فاذن هم عبيد من القسم الاول فينبغي أن لا يتركوا التعظيم وفيه لطائف نذكرها في مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة في تكرار الارادتين ومن لا يريد من أحد رزقا لا يريد أن يطعمه نقول هو لما ذكرناه من قبل وهو ان السيد قد يطلب من العبد المكتسب له وهو طلب الرزق منه وقد يكون للسيد مال وافر يستغني عن الكسب لكنه يطلب منه قضاء حوائجه بماله من المال واحضار الطعام بين يديه من ماله فالسيد قال لا أريد ذلك ولا هذا (المسئلة الثانية) لم قدم طلب الرزق على طلب الاطعام نقول ذلك من باب الارتقاء كقول القائل لا أطلب منك الاعانة ولا ممن هو أقوى ولا يعكس و يقال فلان يكرمه الامراء بل السلاطين ولا يعكس فقال ههنا لا أطلب منكم رزقا ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم طعام بين يدي السيد فان ذلك أمر كثير الطلب من العباد وان كان الكسب لا يطلب منهم (المسئلة الثالثة) لو قال ما أريد منهم أن يرزقون وما أريد منهم من طعام هل تحصل هذه الفائدة نقول على ما فصل لا وذلك لان بالتكسب يطلب الغنى لا الفعل فان من اشتغل بشغل ولم يحصل له غنى لا يكون كمن حصل له غنى وان لم يشتغل كالعبد المتكسب اذا ترك الشغل لحاجته ووجد مطلبا يرضى منه السيد اذا كان شغله التكسب وأما من يراد منه الفعل لذات الفعل كالجائع اذا بعث عبده لاحضار الطعام فاشتغل باخذ المال من مطلب فربما لا يرضى به السيد فالمقصود من الرزق الغنى فلم يقل بلفظ الفعل والمقصود من الاطعام الفعل نفسه فذكر بلفظ الفعل ولم يقل وما أريد منهم من طعام هذا مع ما في اللفظين من الفصاحة والجزالة للتنويع (المسئلة الرابعة) اذا كان المعنى به ما ذكرت فما فائدة الاطعام وتخصيصه بالذكر مع ان المقصود عدم طلب فعل منهم غير التعظيم نقول لما عمم في المطلب الاول اكتفى بقوله من رزق فانه يفيد العموم وأشار الى التعظيم فذكر الاطعام وذلك لان أدنى درجات الافعال ان يستعين السيد بعبده أو جاريته في تهيئة أمر الطعام ونفي الادنى يستتبعه نفي الاعلى بطريق الاولى فصار كأنه قال تعالى ما أريد منهم من عين ولا عمل (المسئلة الخامسة) على ما ذكرت لا تنحصر المطالب فيما ذكره لان السيد قد يشتري العبد لا لطلب عمل منه ولا لطلب رزق ولا للتعظيم بل يشتريه للتجارة والربح فيه نقول عموم قوله ما أريد منهم من رزق يتناول ذلك فان من اشترى عبدا ليتجر فيه فقد طلب منه رزقا (المسئلة السادسة) ما أريد في العربية يفيد النفي في الحال والتخصيص بالذكر يوهم نفي ما عدا المذكور لكن الله تعالى لا يريد منهم رزقا لا في الحال ولا في الاستقبال فلم يقل لا أريد منهم من رزق ولا أريد نقول ما للنفي في الحال ولا للنفي في الاستقبال فالقائل اذا قال فلان لا يفعل هذا الفعل وهو في الفعل لا يصدق لكنه اذا ترك مع فراغه من قوله يصدق القائل ولو قال ما يفعل لما صدق فيما ذكرنا من الصورة مثاله اذا كان الانسان في الصلاة وقال قائل انه ما يصلي فانظر اليه فاذا كان نظر اليه الناظر وقد قطع صلاة نفسه صح أن يقول أنا قلت انك لا تصلي ولو قال القائل انه ما يصلي في تلك الحالة لما صدق فاذا علمت هذا فكل واحد من اللفظين للنافية فيه خصوص لكن النفي في الحال أولى لان المراد من الحال الدنيا والاستقبال هو في أمر الآخرة فالدنيا وأمورها كلها حالية فقوله ما أريد أي في هذه الحالة الراهنة التي هي ساعة الدنيا ومن المعلوم ان العبد بعد موته لا يصلح ان يطلب منه رزق أو عمل فكان قوله ما أريد مفيد النفي العام ولو قال لا أريد لما أفاد ذلك ۞ ثم قال تعالى (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) تعليلا لما تقدم من الامرين فقوله هو الرزاق تعليل لعدم طلب الرزق وقوله تعالى ذو القوة تعليل لعدم طلب العمل لان من يطلب رزقا يكون فقيرا محتاجا ومن يطلب عملا من غيره يكون عاجزا لا قوة له فصار كأنه يقول ما أريد منهم من رزق فاني أنا الرزاق ولا عمل فاني قوي وفيه مباحث (الاول) قال ما أريد ولم يقل اني رزاق بل قال على

لانمنعوا من عبادة آلهتكم بالكلية فاصبروا عليها وتحملوا ما تسمعونه فى حقها من القدح وسوء المقالة وقيل ان هذا الامر لشئ يريده الله تعالى ويحكم بامضائه وما أراد الله كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه الا الصبر وقيل ان هذا الامر لشئ من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه وقيل ان دينكم لشئ يراد أى يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه وقيل ان هذا الذى يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرياسة والترفع على العرب والعجم لشئ يتمنى ويريده كل أحد فتأمل فى هذه الاقاويل واختر منها ما يساعده النظم الجليل (ما سمعنا بهذا) الذى يقوله (فى الملة الآخرة) أى الملة النصرانية التى هى آخر الملل فانهم مثلثة أو فى الملة التى أدركنا عليها آباءنا ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالا من هذا أى ما سمعنا بهذا من أهل الكتاب ولا الكهان كائنا فى الملة المترقبة ولقد كذبوا فى ذلك أقبح كذب فان حديث البعثة والتوحيد كان أشهر الامور قبل الظهور (ان هذا) أى ما هذا (الا اختلاق) أى كذب اختلقه (أأنزل عليه الذكر) أى القرآن (من بيننا) ونحن رؤساء الناس وأشرافهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ومرادهم انكار كونه ذكرا منزلا من عند الله عز وجل كقولهم لو كان خيرا ما سبقونا اليه وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس الا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوى (بل هم فى شك من ذكرى) أى من القرآن أو الوحى لميلهم الى التقليد واعراضهم عن النظر فى الادلة المؤدية الى العلم بحقيته وليس فى عقيدتهم ما يبتون به فهم مذبذبون بين الاوهام ينسبونه تارة الى السحر وأخرى الى الاختلاق (بل لما يذوقوا عذاب) أى بل لم يذوقوا بعد عذابى فاذا ذاقوه تبين لهم حقيقة الحال وفى لما دلالة على أن ذوقهم على شرف الوقوع والمعنى انهم لا يصدقون به حتى يمسهم العذاب وقيل لم يذوقوا عذابى الموعود فى القرآن ولذلك شكوا فيه (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) بل أعندهم خزائن رحمته تعالى يتصرفون فيها حسبما يشاؤن حتى يصيبوا

الحكاية عن الغائب ان الله فما الحكمة فيه نقول قد روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قرأ انى أنا الرزاق على ماذكرت وأما القراءة المشهورة ففيها وجوه (الاول) ان يكون المعنى قل يا محمد ان الله هو الرزاق (الثانى) ان يكون ذلك من باب الالتفات والرجوع من التكلم عن النفس الى التكلم عن الغائب وفيه ههنا فائدة وهى ان اسم الله يفيد كونه رزاقا وذلك لان الاله بمعنى المعبود كما قلنا مرارا وتمسكنا بقوله تعالى ويذرك وآلهتك أى معبوديك واذا كان الله هو المعبود ورزق العبد استعمله فى غير المكسب اذ رزقه على السيد وههنا لما قال ما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فقد بين انه استخلصهم لنفسه وعبادته وكان عليه رزقهم فقال تعالى ان الله هو الرزاق بلفظ الله الدال على كونه رازقا ولو قال انى أنا الرزاق لحصلت المناسبة التى ذكرت ولكن لا يحصل ماذكرنا (الثالث) ان يكون قل مضمرا عند قوله تعالى ما أريد منهم تقديره قل يا محمد ما أريد منهم من رزق فيكون بمعنى قوله قل ما أسئلكم عليه من أجر ويكون على هذا قوله تعالى ان الله هو الرزاق من قول النبى صلى الله عليه وسلم ولم يقل القوى بل قال ذو القوة وذلك لان المقصود تقرير ما تقدم من عدم ارادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير لكن فى عدم طلب الرزق لا يكفى كون المستغنى بحيث يرزق واحدا فان كثيرا من الناس يرزق ولده وغيره ويسترزق والملك يرزق الجند ويسترزق فاذا كثر منه الرزق قل منه الطلب لان المسترزق ممن يكثر الرزق لا يسترزق من رزقه فلم يكن ذلك المقصود يحصل له الا بالمبالغة فى وصف الرزق فقال الرزاق وأما ما يغنى عن الاستعانة بالغير فدون ذلك وذلك لان القوى اذا كان فى غاية القوة يعين الغير فاذا كان دون ذلك لا يعين غيره ولا يستعين به واذا كان دون ذلك يستعين استعانة ما وتتفاوت بعد ذلك ولما قال وما أريد أن يطعمون كفاه بيان نفس القوة فقال ذو القوة فى افادة معنى القوى دون القوى لان ذا لا يقال فى الوصف اللازم البين فيقال فى الآدمى ذو مال ومتمول وذو جمال وجميل وذو خلق حسن وخليق الى غير ذلك مما لا يلزمه لزوما بينا ولا يقال فى الثلاثة ذات فردية ولا فى الاربعة ذات زوجية ولهذا لم يرد فى الاوصاف الحقيقية التى ليست مأخوذة من الافعال ولذا لم يسمع ذو الوجود ولا ذو الحياة ولا ذو العلم ويقال فى الانسان ذو علم وذو حياة لانها عرض فيه عارض لالازم بين وفى صفات الفعل يقال الله تعالى ذو الفضل كثيرا وذو الخلق قليلا لان ذا كذا بمعنى صاحبه وربه والصحبة لا يفهم منها اللزوم فضلا عن اللزوم البين والذى يؤيد هذا هو انه تعالى قال وفوق كل ذى علم عليم فجعل غيره ذا علم ووصف نفسه بالفعل فبين ذى العلم والعليم فرق وكذلك بين ذى القوة والقوى ويؤيده أيضا انه تعالى قال فأخذهم الله انه قوى شديد العقاب وقال تعالى الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز وقال تعالى لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز لان فى هذه الصور كان المراد بيان القيام بالافعال العظيمة والمراد ههنا عدم الاحتياج ومن لا يحتاج الى الغير يكفيه من القوة قدر ما ومن يقوم مستبدا بالفعل لا بد له من قوة عظيمة لان عدم الحاجة قد يكون بترك الفعل والاستغناء عنه ولو بين هذا البحث فى معرض الجواب عن سؤال سائل عن الفرق بين قوله ذو القوة ههنا وبين قوله قوى فى تلك المواضع لكان أحسن * فان قيل فقد قال تعالى ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز وفيه ماذكرت من المعنى وذلك لان قوله قوى لبيان انه غير محتاج الى النصرة وانما يريد ان يعلم ليثيب الناصر لكن عدم الاحتياج الى النصرة يكفى فيه قوة ما فلم يقل ان الله ذو القوة نقول فيه انه تعالى قال من ينصره ورسله ومعناه انه يغنى رسله عن الحاجة ولا يطلب نصرتهم من خلقه لعجزهم وانما يطلبها لثواب الناصرين لا لاحتياج المستنصرين والا فالله تعالى وعدهم بالنصرة حيث قال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون ولما ذكر الرسل قال قوى ليكون ذلك تقوية لقلوب رسله والمؤمنين وتسلية لصدورهم وصدور المؤمنين (البحث الثانى) قال المتين وذلك لان ذو القوة كما بينا لا يدل الا على ان له قوة ما فزاد فى الوصف بيانا وهو الذى له ثبات لا يتزلزل وهو مع المتين من باب واحد لفظا ومعنى فان متن الشئ هو أصله

الذى عليه ثباته والمتين هو الظهر الذى عليه أساس البدن والمتانة مع القوة كالعزة مع القوة حيث ذكر الله تعالى فى مواضع ذكر القوة العزة فقال قوى عزيز وقال القوى العزيز وفيه لطيفة تؤيد ما ذكرنا من البحث فى القوى وذى القوة وذلك لان المتين هو الثابت الذى لا يتزلزل والعزيز هو الغالب ففى المتين انه لا يغلب ولا يقهر ولا يهزم وفى العزيز انه يغلب و يقهر و يزل الاقدام والعزة أكمل من المتانة كان القوى أبلغ من ذى القوة فقرن الاكمل بالاكمل وما دونه بما دونه ولو نظرت حق النظر وتأملت حق التأمل لرأيت فى كتاب الله تعالى لطائف تنبهك على عناد المنكرين وقبح انكار المعاندين ﴿ ثم قال تعالى ﴿فان للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون﴾ وهو مناسب لما قبله وذلك لانه تعالى بين ان من يضع نفسه فى موضع عبادة غير الله يكون وضع الشئ فى غير موضعه فيكون ظالما فقال اذا ثبت ان الانس مخلوق للعبادة فان الذين ظلموا بعبادة الغير لهم هلاك مثل هلاك من تقدم وذلك لان الشئ اذا خرج عن الانتفاع المطلوب منه لا يحفظ وان كان فى موضع يخلى المكان عنه ألا ترى ان الدابة التى لا يبقى منتفعا بها بالموت أو بعرض يخلى عنها الاصطبل والطعام الذى يتعفن يبدد و يفرغ منه الاناء فكذلك الكافر اذا ظلم ووضع نفسه فى غير موضعه خرج عن الانتفاع فحسن اخلاء المكان عنه وحق نزول الهلاك به ✱ وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) فيما يتعلق به الفاء وقد ذكرناه فى وجه التعلق (المسئلة الثانية) ما مناسبة الذنوب نقول العذاب مصبوب عليهم كأنه قال تعالى نصب من فوق رؤسهم ذنوبا كذنوب صب فوق رؤس أولئك ووجه آخر وهو ان العرب يستقون من الآبار على النوبة ذنوبا فذنوبا وذلك وقت عيشهم الطيب فكأنه تعالى قال فان للذين ظلموا من الدنيا وطيبها ذنوبا أى ملأه ولا يكون لهم فى الآخرة من نصيب كما كان عليه حال أصحابهم استقوا ذنوبا وتركوها وعلى هذا فالذنوب ليس بعذاب ولا هلاك وانما هو رغد العيش وهو أليق بالعربية وقوله تعالى فلا يستعجلون فان الرزق ما لم يفرغ لا يأتى الاجل ثم أعاد ما ذكر فى أول السورة فقال فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

﴿سورة الطور أربعون وتسع آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور﴾ هذه السورة مناسبة للسورة المتقدمة من حيث الافتتاح بالقسم وبيان الحشر فيهما وأول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لان فى آخرها قوله تعالى فويل للذين كفروا وهذه السورة فى أولها فويل يومئذ للمكذبين وفى آخر تلك السورة قال فان للذين ظلموا ذنوبا اشارة الى العذاب وقال ههنا ان عذاب ربك لواقع وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الطور وما الكتاب المسطور نقول فيه وجوه (الاول) الطور هو جبل معروف كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه (الثانى) هو الجبل الذى قال الله تعالى وطور سينين (الثالث) هو اسم الجنس والمراد القسم بالجبل غير ان الطور الجبل العظيم كالطود وأما الكتاب ففيه أيضا وجوه (أحدها) كتاب موسى عليه السلام (ثانيها) الكتاب الذى فى السماء (ثالثها) صحائف أعمال الخلق (رابعها) القرآن وكيفما كان فهى فى رقوق وسنبين فائدة قوله تعالى فى رق منشور وأما البيت المعمور ففيه وجوه (الاول) هو بيت فى السماء العليا عند العرش ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة (الثانى) هو بيت الله الحرام وهو معمور بالحاج الطائفين به العاكفين (الثالث) البيت المعمور اللام فيه لتعريف الجنس كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة والسقف المرفوع السماء والبحر المسجور قيل الموقد نارا يقال سجرت التنور وقيل هو البحر المملوء ماء المتموج وقيل هو

بها من شاؤا و يصرفوها عمن شاؤا و يتحكموا فيها بمقتضى آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم والمعنى أن النبوة عطية من الله عز وجل يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين (٤٨٠) لا مانع له فانه العزيز أى الغالب الذى لا يغالب الوهاب الذى له أن يهب كل ما يشاء لكل من يشاء وفى اضافة اسم الرب المنبئ عن التربية والتبليغ الى الكمال الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه واللطف به ما لا يخفى وقوله تعالى (أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما) ترشيح لما سبق أى بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا فى الامور الربانية و يتحكموا فى التدابير الالهية التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء وقوله تعالى (فليرتقوا فى الاسباب) جواب شرط محذوف أى ان كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا فى المعارج والمناهج التى يتوصل بها الى العرش حتى يستووا عليه و يدبروا أمر العالم و ينزلوا الوحى الى من يختارون و يستصوبون وفيه من التهكم بهم ما لا غاية وراءه والسبب فى الاصل هو الوصلة وقيل المراد بالاسباب السموات لانها أسباب الحوادث السفلية وقيل أبوابها (جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب) أى هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال بما يقولون ولا تكترث بما يهذون وما مزيدة للتقليل والتحقير نحو قولك أكلت شيئا ما وقيل للتعظيم على الهزء وهنالك اشارة الى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم وقوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد) الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العتاة الطغاة الذين هؤلاء جند ما من جنودهم مما فعلوا من التكذيب وفعل بهم من العقاب وذو الاوتاد معناه ذو الملك الثابت أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده فاستعير لثبات الملك ورسوخ السلطنة واستقامة الامر قال الاسود بن يعفر

ولقد غنوا فيها بانعم عيشة ✱ فى ظل ملك ثابت الاوتاد

أو ذوو الجموع الكثيرة سموا بذلك لان بعضهم يشد بعضا كالوتد بحر

بحر معروف فى السماء يسمى بحر الحيوان (المسئلة الثانية) ما الحكمة فى اختيار هذه الاشياء نقول هى تحتمل وجوها (أحدها) ان الاماكن الثلاثة وهى الطور والبيت المعمور والبحر المسجور أماكن كانت لثلاثة أنبياء ينفردون فيها للخلوة بربهم والخلاص من الخلق والخطاب مع الله أما الطور فانتقل اليه موسى عليه السلام والبيت محمد صلى الله عليه وسلم والبحر المسجور يونس عليه السلام والكل خاطبوا الله هناك فقال موسى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء وقال أرنى أنظر اليك وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقال سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وأما يونس فقال لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فصارت الاماكن شريفة بهذه الاسباب فحلف الله تعالى بها وأما ذكر الكتاب فان الانبياء كان لهم فى هذه الاماكن مع الله تعالى كلام والكلام فى الكتاب واقترانه بالطور أدل على ذلك لان موسى عليه السلام كان له مكتوب ينزل عليه وهو بالطور وأما ذكر السقف المرفوع ومعه البيت المعمور ليعلم عظمة شأن محمد صلى الله عليه وسلم (ثانيها) وهو ان القسم لما كان على وقوع العذاب وعلى انه لا دافع له وذلك لانه لا مهرب من عذاب الله لان من يريد دفع العذاب عن نفسه فى بعض الاوقات يتحصن بمثل الجبال الشاهقة التى ليس لها طرف وهى متضايقة بين انه لا ينفع التحصن بها من أمر الله تعالى كما قال ابن نوح عليه السلام سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم حكاية عن نوح عليه السلام (المسئلة الثالثة) ما الحكمة فى تنكير الكتاب وتعريف باقى الاشياء نقول ما يحتمل الخفاء من الامور الملتبسة بأمثالها من الاجناس يعرف باللام فيقال رأيت الامير ودخلت على الوزير فاذا بلغ الامير الشهرة بحيث يؤمن الالتباس مع شهرته ويريد الواصف وصفه بالعظمة يقول اليوم رأيت أميرا ماله نظير جالسا وعليه سيما الملوك وأنت تريد ذلك الامير المعلوم والسبب فيه انك بالتنكير تشير الى أنه خرج عن أن يعلم ويعرف بكنه عظمته فيكون كقوله تعالى الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة فاللام وان كانت معرفة لكن أخرجها عن المعرفة كون شدة هولها غير معروف فكذلك ههنا الطور ليس فى الشهرة بحيث يؤمن اللبس عند التنكير وكذلك البيت المعمور وأما الكتاب الكريم فقد تميز عن سائر الكتب بحيث لا يسبق الى افهام السامعين من النبى صلى الله عليه وسلم لفظ الكتاب الا ذلك فلما أمن اللبس وحصلت فائدة التعريف سواء ذكر باللام أو لم يذكر قصد الفائدة الاخرى وهى فى الذكر بالتنكير وفى تلك الاشياء لما لم تحصل فائدة التعريف الا بآلة التعريف استعملها وهذا يؤيد كون المراد منه القرآن وكذلك اللوح المحفوظ مشهور (المسئلة الرابعة) ما الفائدة فى قوله تعالى فى رق منشور وعظمة الكتاب بلفظه ومعناه لا بخطه ورقه نقول هو اشارة الى الوضوح وذلك لان الكتاب المطوى لا يعلم ما فيه فقال هو فى رق منشور ليس كالكتب المطوية وعلى هذا المراد اللوح المحفوظ فمعناه هو منشور لكم لا يمنعكم أحد من مطالعته وان قلنا بأن المراد كتاب أعمال كل أحد فالتنكير لعدم المعرفة بعينه وفى رق منشور لبيان وصفه كما قال تعالى كتابا يلقاه منشورا وذلك لان غير المعروف اذا وصف كان الى المعرفة أقرب شبها (المسئلة الخامسة) فى بعض السور أقسم بمجموع كما فى قوله تعالى والذاريات وقوله والمرسلات وقوله والنازعات وفى بعضها بافراد كما فى هذه السورة حيث قال والطور ولم يقل والاطوار والبحار ولا سيما اذا قلنا المراد من الطور الجبل العظيم كالطود كما فى قوله تعالى ورفعنا فوقهم الطور أى الجبل فما الحكمة فيه نقول فى الجموع فى أكثرها أقسم بالمتحركات والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حتى يقع القسم بها بل هى متبدلة بافرادها مستمرة بأنواعها والمقصود منها لا يحصل الا بالتبدل والتغير فقال والذاريات اشارة الى النوع المستمر لا الى الفرد المعين المستقر وأما الجبل فهو ثابت قليل التغير والواحد من الجبال دائم زمانا ودهرا فأقسم فى ذلك بالواحد وكذلك قوله والنجم والريح ما علم القسم به وفى الطور علم ۞ ثم قال تعالى (ان

يشد البناء وقيل نصب أربع سوار وكان يمد يدى المعذب ورجليه اليها ويضرب عليها أوتادا ويتركه حتى يموت وقيل كان يمده بين أربعة أوتاد فى الارض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين

يديه (وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة) أصحاب الغيضة من قوم شعيب عليه السلام وقوله تعالى (أولئك الاحزاب) اما بدل من الطوائف المذكورة كما أن ذلك الكتاب بدل من الم على أحد الوجوه وفيه فضل تأكيد وتنبيه على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم وقوله تعالى (ان كل الا كذب الرسل) استئناف جئ به تقرير التكذيبهم وبيانا لكيفيته وتمهيدا لما يعقبه أى ما كل أحد من آحاد أولئك الاحزاب أو ما كل حزب منهم الا كذب الرسل لان تكذيب واحد منهم تكذيب لهم جميعا لاتفاق الكل على الحق وقيل ما كل حزب الا كذب رسوله على نهج مقابلة الجمع بالجمع وأياما كان فالاستثناء مفرغ من أعم العام فى خبر المبتدا أى ما كل أحد منهم محكوما عليه بحكم الا محكوما عليه بأنه كذب الرسل وقيل ما كل واحد منهم مخبرا عنه بخبر الا مخبرا عنه بانه كذب الرسل وفى اسناد التكذيب الى الطوائف المذكورة على وجه الابهام أولا والايذان بأن كلا منهم حزب على حياله تحزب على رسوله ثانيا وتبيين كيفية تكذيبهم بالجملة الاستثنائية ثالثا فنون من المبالغة مسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأفظعه ولذلك رتب عليه قوله تعالى (فحق عقاب) أى ثبت ووقع على كل منهم عقابى الذى كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات المفصلة فى مواقعها واما مبتدأ وقوله تعالى ان كل الا كذب الرسل خبره بحذف العائد أى ان كل منهم الخ والجملة استئناف مقرر لما قبله مؤكد لمضمونه مع ما فيه من بيان كيفية تكذيبهم والتنبيه على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم كما ذكر وقيل هو مبتدأ وخبر والمعنى ان الاحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم الذين وجد منهم التكذيب فتدبر وأما ما قيل من أنه خبر والمبتدأ قوله تعالى وعاد الخ أو قوله وقوم

لوط الخ فيما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله (وما ينظر هؤلاء) شروع في بيان عقاب كفار مكة اثر بيان عقاب أضرابهم من الاحزاب الذين
أخبر فيما سبق بأنهم جند حقير منهم مهزوم عن قريب فان ذلك مما يوجب انتظار السامع وترقبه الى بيانه قطعا وفي الاشارة اليهم

عذاب ربك لواقع ماله من دافع) اشارة الى المقسم عليه وفيه مباحث (الاول) في حرف ان وفيه مقامات (الاول) هي تنصب الاسم وترفع الخبر والسبب فيه هو انها اشبهت بالفعل من حيث اللفظ والمعنى أما اللفظ فلكون الفتح لازما فيها واختصاصها بالدخول على الاسماء والمنصوب منها على وزن ان أنينا وأما المعنى فنقول اعلم ان الجملة الاثباتية قبل الجملة الانتفائية ولهذا استغنوا عن حرف يدل على الاثبات فاذا قال زيد منطلق فهم منه ارادة اثبات الانطلاق لزيد والانتفائية لما كانت بعد المثبتة زيد فيها حرف يغيرها عن الاصل وهو الاثبات فقيل ليس زيد منطلقا فصار ليس زيد منطلقا بعد قول القائل زيد منطلق ثم ان قول القائل ان زيدا منطلق مستنبط من قوله ليس زيد منطلقا كأن الواضع لما وضع أولا زيد منطلق للاثبات وعند النفي يحتاج الى ما يغيره أتى بلفظ مغير وهو فعل من وجه لانك قد تبقى مكانه ما النافية ولهذا قيل لست ولسوا فالحق به ضمير الفاعل ولولا انه فعل لما جاز ذلك ثم أراد أن يضع في مقابلة ليس زيد منطلقا جملة اثباتية فيها لفظ الاثبات كما ان في النافية لفظ النفي فقال ان ولم يقصد أن ان فعل لان ليس يشبه بالفعل لما فيه من معنى الفعل وهو التغيير فانها غيرت الجملة عن أصلها الذي هو الاثبات وأما ان فلم تغير الجملة على ما كانت عليه اثباتية فصارت مشبهة بالمشبهة بالفعل وهي ليس وهذا ما يقوله النحويون في ان وأن وكأن وليت ولعل انها حروف مشبهة بالافعال اذا علمت هذا فنقول كان ليس لها اسم كالفاعل وخبر كالمفعول تقول ليس زيد لئيما بالرفع والنصب كما تقول بات زيد كريما فكذلك ان لها اسم وخبر لكن اسمها يخالف اسم ليس وخبرها خبرها فان اسم ان منصوب وخبرها مرفوع لان ان لما كانت زيادة على خلاف الاصل لانها لا تفيد الا الاثبات الذي كان مستفادا من غير حرف وليس لما كانت زيادة على الاصل لانها تغير الاصل ولولاها لما حصل المقصود جعل المرفوع والمنصوب في ليس على الاصل لان الاصل تقديم الفاعل وفي ان جعل ذلك على خلاف الاصل وقدم المشبه بالمفعول على المشبه بالفاعل تقديما لازما فلا يجوز أن يقال ان منطلق زيدا وهو في ليس منطلقا زيد جائز كما في الفعل لانها فعل (المقام الثاني) هي لم تكسر تارة وتفتح أخرى نقول الاصل فيها الكسرة والفتحة لعارض وان كان هذا في الظاهر يخالف قول النحاة لكن في الحقيقة هي كذلك (المقام الثالث) لم تدخل اللام على خبر ان المكسورة دون المفتوحة قلنا قد خرج مما سبق ان قول القائل زيد منطلق أصل لان المثبتات هي المحتاجة الى الاخبار عنها فان التغير في ذلك وأما العدميات فعلى أصولها مستمرة ولهذا يقال الاصل في الاشياء البقاء ثم ان السامع له قد يحتاج الى الرد عليه فيقول ليس زيد منطلقا فيقول هو ان زيدا منطلق فيقول هو ردا عليه ليس زيد بمنطلق فيقول ردا عليه ان زيدا المنطلق وأن ليست في مقابلة ليس وانما هي متفرعة عن المكسورة (المبحث الثاني) قوله تعالى عذاب ربك فيه لطيفة عزيزة وهي انه تعالى لو قال ان عذاب الله لواقع والله اسم منبئ عن العظمة والهيبة كان يخاف المؤمن بل النبي صلى الله عليه وسلم من ان يلحقه ذلك لكونه تعالى مستغنيا عن العالم بأسره فضلا عن واحد فيه فآمنه بقوله ربك فانه حين يسمع لفظ الرب يأمن (المبحث الثالث) قوله لواقع فيه اشارة الى الشدة فان الواقع والوقوع من باب واحد فالواقع أدل على الشدة من الكائن ثم قال تعالى ماله من دافع والبحث فيه قد تقدم في قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد وقد ذكرنا ان قوله والطور والبيت المعمور والبحر المسجور فيه دلالة على عدم الدافع فان من يدفع عن نفسه عذابا قد يدفع بالتحصن بقلال الجبال ولجج البحار ولا ينفع ذلك بل الوصول الى السقف المرفوع ودخول البيت المعمور لا يدفع ثم قال تعالى (يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الناصب ليوم نقول المشهور ان ذلك هو الفعل الذي يدل عليه واقع أي يقع العذاب يوم تمور السماء مورا والذي أظنه انه هو الفعل المدلول عليه بقوله ماله من دافع وانما قلت ذلك لان العذاب الواقع على هذا ينبغي أن يقع في ذلك اليوم لكن العذاب الذي به التخويف هو الذي

بهؤلاء تحقير لشأنهم وتهوين لامرهم وأما جعله اشارة الى الاحزاب باعتبار حضورهم بحسب الذكر أو حضورهم في علم الله عز وجل فليس في حيز الاحتمال أصلا كيف لا والانتظار سواء كان حقيقة أو استهزاء انما يتصور في حق من لم يترتب على أعماله نتائجها بعد وبعد ما بين عقاب الاحزاب واستئصالهم بالمرة لم يبق مما أريد بيانه من عقوباتهم أمر منتظر وانما الذين في مرصد الانتظار كفار مكة حيث ارتكبوا من عظائم الجرائم وكبائر الجرائر الموجبة لاشد العقوبات مثل ما ارتكب الاحزاب أو أشد منه ولما يلاقوا بعد شيأ من غوائلها أي وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة في الكفر والتكذيب (الاصيحة واحدة) هي النفخة الثانية لا بمعنى أن عقابهم نفسها بما فيها من الشدة والهول فانها داهية يعم هولها جميع الامم برها وفاجرها بل بمعنى أنه ليس بينهم وبين حلول ما أعد لهم من العقاب الفظيع الا هي حيث أخرت عقوبتهم الى الآخرة لما أن تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه والنبي عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم خارج عن السنة الالهية المبنية على الحكم الباهرة كما نطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وأما ما قيل من أنها النفخة الاولى فما لا وجه له أصلا لما أنه لا يشاهد هولها ولا يصعق بها الا من كان حيا عند وقوعها وليس عقابهم الموعود واقعا عقيبها ولا العذاب المطلق مؤخرا اليها بل يحل بهم من حين موتهم (مالها من فواق) أي من توقف مقدار فواق وهو ما بين الحلبتين وقرئ بضم الفاء وهما لغتان وقوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) حكاية لما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم الى

بعد

بعد الحشر ومور السماء قبل الحشر وأما اذا قلنا معناه ليس له دافع يوم تمور فيكون فى معنى قوله فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا كأنه تعالى يقول ماله من دافع فى ذلك اليوم وهو ما اذا صارت السماء تمور فى أعينكم والجبال تسير وتحققون ان الامر لا ينفع شيأ ولا يدفع (المسئلة الثانية) ما مور السماء نقول خروجها عن مكانها تتردد وتموج والذى تقوله الفلاسفة قد علمت ضعفه مرارا وقوله تعالى وتسير الجبال سيرا يدل على خلاف قولهم وذلك لانهم وافقونا على ان خروج الجبل العظيم عن مكانه جائز وكيف لا وهم يقولون بأن زلزلة الارض مع ما فيها من الجبال بخار يجتمع تحت الارض فيحركها واذا كان كذلك فنقول السماء قابلة للحركة باخراجها عن السمتيات والجبل ساكن يقتضى طبعه السكون واذا قبل جسم الحركة مع انها على خلاف طبعه فلان يقبلها جرم آخر مع انها على موافقته أولى وقولهم القابل للحركة المستديرة لا يقبل الحركة المستقيمة فى غاية الضعف وقوله مورا يفيد فائدة جليلة وهى ان قوله تعالى وتسير الجبال يحتمل أن يكون بيانا لكيفية مور السماء وذلك لان الجبال اذا سارت وسيرت معها سكانها ظهر أن السماء كالسيارة الى خلاف تلك الجهة كما يشاهده راكب السفينة فانه يرى الجبل الساكن متحركا فكان لقائل أن يقول السماء تمور فى رأى العين بسبب سير الجبال كما يرى القمر سائرا راكب السفينة والسماء اذا مارت كذلك فلا يبقى مهرب ولا مفزع لا فى السماء ولا فى الارض (المسئلة الثالثة) ما السبب فى مورها وسيرها قلنا قدرة الله تعالى وأما الحكمة فالايذان والاعلام بان لا عود الى الدنيا وذلك لان الارض والجبال والسماء والنجوم كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبنى آدم بها فان لم يتفق لهم عود لم يبق فيها نفع فأعدمها الله تعالى (المسئلة الرابعة) لو قال قائل كنت وعدت ببحث فى الزمان يستفيد العاقل منه فوائد فى اللفظ والمعنى وهذا موضعه فان الفعل لا يضاف اليه شئ غير الزمان فيقال يوم يخرج فلان وحين يدخل فلان وقال الله تعالى يوم ينفع الصادقين وقال يوم تمور السماء وقال يوم خلق السموات والارض وكذلك يضاف الى الجملة فما السبب فى ذلك فنقول الزمان ظرف الافعال كما ان المكان ظرف الاعيان وكما أن جوهرا من الجواهر لا يوجد الا فى مكان فكذلك عرض من الاعراض لا يتجدد الا فى زمان وفيهما تحير خلق عظيم فقالوا ان كان المكان جوهرا فله مكان آخر ويتسلسل الامر وان كان عرضا فالعرض لابد له من جوهر والجوهر لابد له من مكان فيدور الامر أو يتسلسل وان لم يكن جوهرا ولا عرضا فالجوهر يكون حاصلا فيما لا وجود له أو فيما لا اشارة اليه وليس كذلك وقالوا فى الزمان ان كان الزمان غير متجدد فيكون كالامور المستمرة فلا يثبت فيه المضى والاستقبال وان كان متجددا وكل متجدد فهو فى زمان فللزمان زمان آخر فيتسلسل الامر ثم ان الفلاسفة التزموا التسلسل فى الازمنة ووقعوا بسبب هذا فى القول بقدم العالم ولم يلتزموا التسلسل فى الامكنة وفرقوا بينهما من غير فارق وقوم التزموا التسلسل فيهما جميعا وقالوا بالقدم وأزمان لا نهاية لها وبالامتدادات وأبعاد لا نهاية لها وهم وان خالفونا فى المسئلتين جميعا والفلاسفة وافقونا فى احداهما دون الاخرى لكنهم سلكوا جادة الوهم ولم يتركوا على أنفسهم سبيل الالتزام فى الازمان فان قيل فالمتجدد الاول قبله ماذا نقول ليس قبله شئ فان قيل فعدمه قبله أو قبله عدمه نقول قولنا ليس قبله شئ أعم من قولك قبله عدمه لانا اذا قلنا ليس قبل آدم حيوان بألف رأس صدقنا ولا يستلزم ذلك صدق قولنا آدم قبل حيوان بألف رأس أو حيوان بألف رأس بعد آدم لانتفاء ذلك الحيوان أولا وآخرا وعدم دخوله فى الوجود أزلا وأبدا فكذلك ما قلنا فان قيل هذا لا يصح لان الله تعالى شئ موجود وهو قبل العالم نقول قولنا ليس قبل المتجدد الاول شئ معناه ليس قبله شئ بالزمان وأما الله تعالى فليس قبله بالزمان اذ كان الله ولا زمان والزمان وجد مع المتجدد الاول فان قيل فما معنى وجود الله قبل كل شئ غيره نقول معناه كان الله ولم يكن شئ غيره لا يقال ماذكرتم اثبات شئ بشئ ولا يثبت ذلك الشئ الا بما ترومون اثباته فان بداية الزمان غرضكم وهو مبنى على المتجدد الاول والنزاع

الآخرة أى قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية عجل لنا قطنا من العذاب الذى توعدنا به ولا تؤخره الى يوم الحساب الذى مبدؤه الصيحة المذكورة والقط القطعة من الشئ من قطه اذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط لانها قطعة من القرطاس وقد فسر بها أى عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها وقيل ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله تعالى المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزؤ به عجل لنا نصيبنا منها وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للامعان فى الاستهزاء كانهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال (اصبر على مايقولون) من أمثال هذه المقالات الباطلة (واذكر لهم (عبدنا داود) أى قصته تهويلا لامر المعصية فى أعينهم وتنبيها لهم على كمال قبح ما اجترؤا عليه من المعاصى فانه عليه الصلاة والسلام مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والكرامات لما ألم بصغيرة نزل عن منزلته ووبخته الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن فاستغفر ربه وأناب ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائب وغمه الواصب وندمه الدائم فما الظن بهؤلاء الكفرة الاذلين من كل ذليل المرتكبين لاكبر الكبائر المصرين على أعظم المعاصى أو تذكر قصته عليه الصلاة والسلام وصن نفسك أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذيتهم كى لا يلقاك ما لقيه من المعاتبة (ذا الايد) أى ذا القوة يقال فلان ايد وذو ايد وآد بمعنى واياد كل شئ ما يتقوى به (انه أواب) رجاع الى مرضاة الله تعالى وهو تعليل لكونه ذا الايد ودليل على أن المراد به القوة فى الدين فانه عليه الصلاة والسلام كان يصوم يوما ويفطر يوما ويقوم نصف الليل (انا سخرنا الجبال معه) استئناف مسوق لتعليل قوته فى الدين وأوابيته الى مرضاته تعالى ومع متعلقة بالتسخير وايثارها على اللام لما أشير اليه فى سورة الانبياء من أن تسخير الجبال له عليه الصلاة والسلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلى فيها اليه عليه الصلاة والسلام كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام بل بطريق التبعية له عليه الصلاة والسلام والاقتداء به فى

فى المتجدد فان عند الخصم ليس فى الوجود متجدد أول بل قبل كل متجدد متجدد لانا نقول نحن ماذكرنا ذلك دليلا وانما ذكرناه بيانا لعدم الالزام وانه لا يرد علينا شئ اذا قلنا بالحدوث ونهاية الابعاد واللزوم والالزام فيسلم الكلام الاول ثم يلزم ويقول ألست تقول ان لنا متجددا أولا فكذلك قل له عدم فنقول لا بل ليس قبله أمر بالزمان فيكون ذلك نفيا عاما وانما يكون ذلك لانتفاء الزمان كما ذكرنا فى المثال اذا علمت هذا فصار الزمان تارة موجودا مع عرض وأخرى موجودا بعد عرض لان يومنا هذا وغيره من الايام كلها صارت متميزة بالمتجدد الاول والمتجدد الاول له زمان هو معه اذا عرفت ان الزمان والمكان أمرهما مشكل بالنسبة الى بعض الافهام والامر الخفى يعرف بالوصف والاضافة فانك اذا قلت غلام لم يعرف فاذا وصفته أو أضفته وقلت غلام صغير أو كبير أو أبيض أو أسود قرب من الفهم وكذلك اذا قلت غلام زيد قرب ولم يكن بد من معرفة الزمان ولا يعرف الشئ الا بما يختص به فانك اذا قلت فى الانسان حيوان موجود بعدته عن الفهم واذا قلت حيوان طويل القامة قربته منه ففى الزمان كان يجب أن يعرف بما يختص به لان الفعل الماضى والمستقبل والحال يختص بازمنة والمصدر له زمان مطلق فلو قلت زمان الخروج تميز عن زمان الدخول وغيره فاذا قلت يوم خرج أفاد ما أفاد قولك يوم الخروج مع زيادة هو أنه تميز عن يوم يخرج والاضافة الى ما هو أشد تمييزا أولى كما انك اذا قلت غلام رجل ميزته عن غلام امرأة واذا قلت غلام زيد زدت عليه فى الافادة وكان أحسن كذلك قولنا يوم خرج لتعريف ذلك اليوم خير من قولك يوم الخروج فظهر من هذا البحث أن الزمان يضاف الى الفعل وغيره لا يضاف لاختصاص الفعل بالزمان دون غيره الا المكان فى قوله اجلس حيث يجلس فان حيث يضاف الى الجمل لمشابهة ظرف المكان لظرف الزمان وأما الجمل فهى انما يصح بواسطة تضمنها الفعل فلا يقال يوم زيد أخوك ويقال يوم زيد فيه خارج ✽ ومن جملة الفوائد اللفظية ان لات يختص استعمالها بالزمان قال الله تعالى ولات حين مناص ولا يقال لات رجل سوء وذلك لان الزمان تجدد بعد تجدد ولا يبقى بعد الفناء حياة أخرى وبعد كل حركة حركة أخرى وبعد كل زمان زمان واليه الاشارة بقوله تعالى كل يوم هو فى شأن أى قبل الخلق لم يخلق شيأ لكنه بعد ما خلق فهو أبدا انما يخلق شيأ بعد شئ فبعد حياتنا موت وبعد موتنا حياة وبعد حياتنا حساب وبعد الحساب ثواب دائم أو عقاب لازم ولا يترك الله الفعل فلما بعد الزمان عن النفى زيد فى الحروف النافية زيادة فان قيل فالله تعالى أبعد عن الانتفاء فكان ينبغى أن لا تقرن التاء بكلمة لا هناك نقول فى لات حين مناص تأويل وعليه لا يرد ما ذكرتم وهو أن لا هى المشبهة بليس تقديره ليس الحين حين مناص وهو المشهور ولذلك اختص بالحين دون اليوم والليل لان الحين أدوم من الليل والنهار فالليل والنهار قد لا يكون والحين يكون ۞ ثم قال تعالى (فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون) أى اذا علم أن عذاب الله واقع وأنه ليس له دافع فويل اذا للمكذبين فالفاء لاتصال المعنى وهو الايذان بأمان أهل الايمان وذلك لانه لما قال ان عذاب ربك لواقع لم يبين بأن موقعه بمن فلما قال فويل يومئذ للمكذبين علم المخصوص به وهو المكذب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا قلت بان قوله ويل يومئذ للمكذبين بيان لمن يقع به العذاب وينزل عليه فمن لا يكذب لا يعذب فأهل الكبائر لا يعذبون لانهم لا يكذبون نقول ذلك العذاب لا يقع على أهل الكبائر وهذا كما فى قوله تعالى كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا فنقول المؤمن لا يلقى فيها القاء بهوان وانما يدخل فيها ليطهر ادخالا مع نوع اكرام فكذلك الويل للمكذبين والويل ينبئ عن الشدة وتركيب حروف الواو والياء واللام لا ينفك عن نوع شدة منه لوى اذا دفع ولوى يلوى اذا كان قويا والولى فيه القوة على المولى عليه ويدل عليه قوله تعالى يدعون فان المكذب يدع والمصدق لا يدع وقد ذكرنا جواز التنكير فى قوله ويل مع كونه مبتدأ لانه فى تقدير المنصوب لانه دعاء ومضى وجهه فى قوله تعالى قال سلام والخوض نفسه خص فى استعمال القرآن

عبادة الله تعالى وقيل متعلقة بما بعدها وهو أقرب بالنسبة الى ما فى سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام (يسبحن) أى يقدسن الله عز وجل بصوت يتمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلام أو بلسان الحال وقيل يسير معه من السباحة وهو حال من الجبال وضع موضع مسبحات للدلالة على تجدد التسبيح حالا بعد حال أو استئناف مبين لكيفية التسخير (بالعشى والاشراق) أى ووقت الاشراق وهو حين تشرق الشمس أى تضئ ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق وعن أم هانئ رضى الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال هذه صلاة الاشراق وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما عرفت صلاة الضحى الا بهذه الآية (والطير) عطف على الجبال (محشورة) حال من الطير والعامل سخرنا أى وسخرنا الطير حال كونها محشورة عن ابن عباس رضى الله عنهما كان اذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت اليه الطير فسبحت وذلك حشرها وقرئ والطير محشورة بالرفع على الابتداء والخبرية (كل له أواب) استئناف مقرر لمضمون ما قبله مصرح بما فهم منه اجمالا من تسبيح الطير أى كل واحد من الجبال والطير لاجل تسبيحه رجاع الى التسبيح ووضع الاواب موضع المسبح اما لانها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لانه يرجع الى فعله رجوعا بعد رجوع واما لان الاواب هو التواب الكثير الرجوع الى الله تعالى ومن دأبه اكثار الذكر وادامة التسبيح والتقديس وقيل الضمير لله عز وجل أى كل من داود والجبال والطير لله أواب أى مسبح مرجع للتسبيح (وشددنا ملكه) قويناه بالهيبة والنصرة وكثرة الجنود وقرئ بالتشديد للمبالغة قيل كان يبيت حول محرابه أربعون ألف مستلئم وقيل ادعى رجل على آخر بقرة وعجز عن اقامة البينة فأوحى الله بالاندفاع
تعالى اليه فى المنام أن اقتل المدعى عليه فتأخر فأعيد الوحى فى اليقظة فأعلمه الرجل فقال ان الله تعالى لم يأخذنى بهذا الذنب ولكن بأنى قتلت

بالاندفاع فى الاباطيل ولهذا قال تعالى وخضتم كالذى خاضوا وقال تعالى وكنا نخوض مع الخائضين وتنكير الخوض يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون للتكثير أى فى خوض كامل عظيم (ثانيهما) أن يكون التنوين تعويضا عن المضاف اليه كما فى قوله تعالى الا وقوله وان كلا وبعضهم ببعض والاصل فى خوضهم المعروف منهم وقوله الذين هم فى خوض ليس وصفا للمكذبين بما يميزهم وانما هو للذم كما انك تقول الشيطان الرجيم ولا تريد فصله عن الشيطان الذى ليس برجيم بخلاف قولك اكرم الرجل العالم فالوصف بالرجيم للذم به لا للتعريف وتقول فى المدح الله الذى خلق والله العظيم للمدح لا للتمييز ولا للتعريف عن اله لم يخلق أو اله ليس بعظيم فان الله واحد لا غير ۞ ثم قال تعالى ﴿يوم يدعون الى نار جهنم دعا﴾ وفيه مباحث لفظية ومعنوية أما اللفظية ففيها مسائل (الاولى) يوم منصوب بماذا نقول الظاهر انه منصوب بما بعده وهو ما يدل عليه قوله تعالى هذه النار تقديره يوم يدعون يقال لهم هذه النار التى كنتم بها تكذبون ويحتمل غير هذا وهو أن يكون يوم بدلا عن يوم فى يومئذ تقديره فويل يومئذ للمكذبين يوم يدعون أى المكذبون وذلك ان قوله يومئذ معناه يوم يقع العذاب وذلك اليوم هو يوم يدعون فيه الى النار (المسئلة الثانية) قوله يدعون الى نار يدل على هول نار جهنم لان خزنتها لا يقربون منها وانما يدفعون أهلها اليها من بعيد ويلقونهم فيها وهم لا يقربونها (الثالثة) دعا مصدر وقد ذكرت فائدة ذكر المصادر وهى الايذان بأن الدع دع معتبر يقال له دع ولا يقال فيه ليس بدع كما يقول القائل فى الضرب الخفيف مستحقرا له هذا ليس بضرب والعدو المهين هذا ليس بعدو فى غير المصادر والرجل الحقير ليس برجل الاعلى قراءة من قرأ يدعون الى نار جهنم دعا فان دعا حينئذ يكون منصوبا على الحال تقديره يقال لهم هلموا الى النار مدعوعين اليها (أما المعنوية) فنقول قوله تعالى يوم يدعون الى نار جهنم يدل على ان خزنتها يقذفونهم فيها وهم بعداء عنها وقال تعالى يوم يسحبون فى النار نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) أن الملائكة يسحبونهم فى النار ثم اذا قربوا من نار مخصوصة هى نار جهنم يقذفونهم فيها من بعيد فيكون السحب فى النار والدفع فى نار أشد وأقوى ويدل عليه قوله تعالى يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون أى يكون لهم سحب فى حموة النار ثم بعد ذلك يكون لهم ادخال (الثانى) جاز أن يكون فى كل زمان يتولى أمرهم ملائكة فالى النار يدفعهم ملك وفى النار يسحبهم آخر (الثالث) جاز أن يكون السحب بسلاسل يسحبون فى النار والساحب خارج النار (الرابع) يحتمل أن يكون الملائكة يدفعون أهل النار الى النار اهانة واستخفافا بهم ثم يدخلون معهم النار ويسحبونهم فيها ۞ ثم قال تعالى ﴿هذه النار التى كنتم بها تكذبون﴾ على تقدير يقال ۞ ثم قال تعالى ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ تحقيقا للامر وذلك لان من يرى شيأ ولا يكون الامر على ما يراه فذلك الخطأ يكون لاجل أحد أمرين اما لامر عائد الى المرئى واما لامر عائد الى الرائى فقوله أفسحر هذا أى هل فى المرئى شك أم هل فى بصركم خلل استفهام انكار أى لا واحد منهما ثابت فالذى ترونه حق وقد كنتم تقولون انه ليس بحق وانما قال أفسحر وذلك انهم كانوا ينسبون المرئيات الى السحر فكانوا يقولون بأن انشقاق القمر وأمثاله سحر وفى ذلك اليوم لما تعلق بهم مع المبصر الالم المدرك بحس اللمس وبلغ الايلام الغاية لم يمكنهم أن يقولوا هذا سحر والا لما صح منهم طلب الخلاص من النار ۞ ثم قال تعالى ﴿اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أى اذا لم يمكنكم انكارها وتحقق أنه ليس بسحر ولا خلل فى أبصاركم فاصلوها وقوله تعالى فاصبروا أو لا تصبروا فيه فائدتان (احداهما) بيان عدم الخلاص وانتفاء المناص فان من لا يصبر يدفع الشئ عن نفسه اما بأن يدفع المعذب فيمنعه واما بان يغضبه فيقتله ويريحه ولا شئ من ذلك يفيد فى عذاب الآخرة فان من لا يغلب المعذب فيدفعه ولا يتخلص بالاعدام فانه لا يقضى عليه فيموت فاذن الصبر كعدمه لان من يصبر يدوم فيه ومن لا يصبر يدوم فيه (الثانية) بيان ما يتفاوت به عذاب الآخرة عن عذاب الدنيا فان المعذب فى الدنيا ان صبر ربما انتفع بالصبر اما بالجزاء فى الآخرة واما بالحمد

أبا هذا غيلة فقال الناس ان أذنب أحد ذنبا أظهره الله تعالى عليه فقتله فهابوه وعظمت هيبته فى القلوب (وآتيناه الحكمة) النبوة وكمال العلم واتقان العمل وقيل الزبور وعلم الشرائع وقيل كل كلام وافق الحق فهو حكمة (وفصل الخطاب) أى فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل أو الكلام الملخص الذى ينبه المخاطب على المرام من غير التباس لما قد روعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والاظهار والاضمار والحذف والتكرار وانما سمى به أما بعد لانه يفصل المقصود عما سبق تمهيدا له كالحمد والصلاة وقيل هو الخطاب الفصل الذى ليس فيه ايجاز مخل ولا اطناب ممل كما جاء فى نعت كلام النبوة فصل لا نزر ولا هذر (وهل أتاك نبأ الخصم) استفهام معناه التعجب والتشويق الى استماع ما فى حيزه لايذانه بانه من الانباء البديعة التى حقها ان تشيع فيما بين كل حاضر وباد والخصم فى الاصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد وما فوقه كالضيف ومعنى خصمان فريقان (اذ تسوروا المحراب) اذ تصعدوا سوره ونزلوا اليه والسور الحائط المرتفع ونظيره تسنمه اذا علا سنامه وتذراه اذا علا ذروته واذ متعلقة بمحذوف أى نبأ تحاكم الخصم اذ تسوروا أو بالنبأ على أن المراد به الواقع فى عهد داود عليه السلام وأن اسناد الاتيان اليه على حذف مضاف أى قصة نبأ الخصم أو بالخصم لما فيه من معنى الخصومة لا بأتى لان اتيانه الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن حينئذ وقوله تعالى (اذ دخلوا على داود) بدل مما قبله أو ظرف لتسوروا (ففزع منهم) روى أنه تعالى بعث اليه ملكين فى صورة انسانين قيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه فى يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا عليه المحراب بمن معهما من الملائكة فلم يشعر الا وهما بين يديه جالسان ففزع منهم لانهم نزلوا عليه من فوق على خلاف العادة والحرس حوله فى غير يوم الحكومة والقضاء قال ابن عباس رضى الله عنهما ان داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء يوما للعبادة ويوما

فى الدنيا فيقال له ما أشجعه وما أقوى قلبه وان جزع يذم فيقال يجزع كالصبيان والنسوان وأما فى الآخرة لامدح ولا ثواب على الصبر وقوله تعالى سواء عليكم سواء خبر ومبتدؤه مدلول عليه بقوله فاصبروا أولا تصبروا كانه يقول الصبر وعدمه سواء فان قيل يلزم الزيادة فى التعذيب ويلزم التعذيب على المنوى الذى لم يفعله نقول فيه لطيفة وهى أن المؤمن بايمانه استفاد أن الخير الذى ينويه يثاب عليه والشر الذى ينويه ولا يحققه ولا يعاقب عليه والكافر بكفره صار على الضد فالخير الذى ينويه ولا يعمله لا يثاب عليه والشر الذى يقصد لا يقع منه يعاقب عليه ولا ظلم فان الله تعالى أخبره به وهو اختار ذلك ودخل فيه باختياره كأن الله تعالى قال فان من كفر ومات كافرا أعذبه أبدا فاحذروا ومن آمن أثيبه دائما فمن ارتكب الكفر ودام عليه بعد ما سمع ذلك فاذا عاقبه المعاقب دائما تحقيقا لما أوعده به لا يكون ظالما ۞ ثم قال تعالى (ان المتقين فى جنات ونعيم) على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن بعد بيان حال الكافر وذكر الثواب عقيب ذكر العقاب ليتم أمر الترهيب والترغيب وقد ذكرنا تفسير المتقين فى مواضع والجنة وان كانت موضع السرور ولكن الناطور قد يكون فى البستان الذى هو فى غاية الطيبة وهو غير متنعم فقوله ونعيم يفيد أنهم فيها يتنعمون كما يكون المتفرج لا كما يكون الناطور ۞ وقوله (فاكهين) يزيد فى ذلك لان المتنعم قد يكون آثار التنعم على ظاهره وقلبه مشغول فلما قال فاكهين يدل على غاية الطيبة وقوله (بما آتاهم ربهم) يفيد زيادة فى ذلك لان الفكه قد يكون خسيس النفس فيسره أدنى شئ ويفرح بأقل سبب فقال فاكهين لا لدنو هممهم بل لعلو نعمهم حيث هى من عند ربهم ۞ وقوله تعالى (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد انهم فاكهون بأمرين أحدهما بما آتاهم والثانى بانه وقاهم (وثانيهما) أن يكون ذلك جملة أخرى معطوفة على الجملة الاولى كانه بين أنه أدخلهم جنات ونعيما ووقاهم عذاب الجحيم ۞ ثم قال تعالى (كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين) وفيه بيان أسباب التنعيم على الترتيب فأول ما يكون المسكن وهو الجنات ثم الاكل والشرب ثم الفرش والبسط ثم الازواج فهذه أمور أربعة ذكرها الله على الترتيب وذكر فى كل واحد منها ما يدل على كماله فقوله جنات اشارة الى المسكن والمسكن للجسم ضرورى وهو المكان فقال فاكهين لان مكان التنعيم قد يتنغص بأمور وبين سبب الفكاهة وعلو المرتبة بكونه مما آتاهم الله وقد ذكرنا هذا وأما فى الاكل والشرب والاذن المطلق فترك ذكر المأكول والمشروب لتنوعهما وكثرتهما وقوله تعالى هنيئا اشارة الى خلوهما عما يكون فيهما من المفاسد فى الدنيا منها ان الآكل يخاف من المرض فلا يهنأ له الطعام ومنها انه يخاف النفاد فلا يسخو بالاكل والكل منتف فى الجنة فلا مرض ولا انقطاع فان كل أحد عنده ما يفضل عنه ولا اثم ولا تعب فى تحصيله فان الانسان فى الدنيا ربما يترك لذة الاكل لما فيه من تهيئة المأكول بالطبخ والتحصيل من التعب أو المنة أو ما فيه من قضاء الحاجة واستقذار ما فيه فلا يهنأ وكل ذلك فى الجنة منتف وقوله تعالى بما كنتم تعملون اشارة الى أنه تعالى يقول أى مع انى ربكم وخالقكم وأدخلتكم بفضلى الجنة وانما منتى عليكم فى الدنيا اذ هديتكم ووفقتكم للاعمال الصالحة كما قال تعالى بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان وأما اليوم فلا من عليكم لان هذا انجاز الوعد فان قيل قال فى حق الكفار انما تجزون ما كنتم تعملون وقال فى حق المؤمنين بما كنتم تعملون فهل بينهما فرق قلت بينهما بون عظيم من وجوه (الاول) كلمة انما للحصر أى لا تجزون الا ذلك ولم يذكر هذا فى حق المؤمن فانه يجزيه أضعاف ما عمل ويزيده من فضله وحينئذ ان كان يمن الله على عبده فيمن بذلك لا بالاكل والشرب (الثانى) قال هنا بما كنتم وقال هنالك ما كنتم أى تجزون عين أعمالكم اشارة الى المبالغة فى المماثلة كما تقول هذا عين ما عملت وقد تقدم بيان هذا وقال فى حق المؤمن بما كنتم كأن ذلك أمر ثابت مستمر بعملكم هذا (الثالث) ذكر الجزاء هنالك وقال ههنا بما كنتم تعملون لان الجزاء ينبئ عن الانقطاع فان من أحسن الى أحد فأتى

للقضاء ويوما للاشتغال بخاصة نفسه ويوما للوعظ والتذكير (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية فزعه عليه الصلاة والسلام كانه قيل فماذا قالت الملائكة عند مشاهدتهم لفزعه فقيل قالوا ازالة لفزعه (لا تخف خصمان) أى نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصما (بغى بعضنا على بعض) هو على الفرض وقصد التعريض فلا كذب فيه (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط) أى لا تجر فى الحكومة وقرئ ولا تشطط أى لا تبعد عن الحق وقرئ ولا تشطط ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطى الحق (واهدنا الى سواء الصراط) الى وسط طريق الحق بزجر الباغى عما سلكه من طريق الجور وارشاده الى منهاج العدل (ان هذا أخى) استئناف لبيان ما فيه الخصومة أى أخى فى الدين أو فى الصحبة والتعرض لذلك تمهيد لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه (له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) هى الانثى من الضان وقد يكنى بها عن المرأة والكناية والتعريض أبلغ فى المقصود وقرئ تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وقرئ ولى نعجة بسكون الياء (فقال أكفلنيها) أى ملكنيها وحقيقته اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى وقيل اجعلها كفلى أى نصيبى (وعزنى فى الخطاب) أى غلبنى فى مخاطبته اياى محاجة بان جاء بحجاج لم أقدر على رده أو فى مغالبته اياى فى الخطبة يقال خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبنى خطابا أى غالبنى فى الخطبة فغلبنى حيث زوجها دونى وقرئ وعازنى أى غالبنى وعزنى بتخفيف الزاى طلبا للخفة وهو تخفيف غريب كانه قيس على ظلت ومست (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه) جواب قسم محذوف قصد به عليه الصلاة والسلام المبالغة فى انكار فعل صاحبه وتهجين طمعه فى نعجة من ليس له غيرها مع أن له قطيعا منها ولعله عليه الصلاة والسلام قال بجزائه ذلك بعد اعتراف صاحبه عما ادعاه عليه أو بناء على تقدير صدق المدعى والسؤال مصدر مضاف الى مفعوله وتعديته الى مفعول آخر بالى لتضمنه

بجزائه لا يتوقع المحسن منه شيأ آخر * فان قيل فالله تعالى قال فى مواضع جزاء بما كنتم تعملون فى الثواب نقول فى تلك المواضع لما لم يخاطب المجزى لم يقل تجزى وانما أتى بما يفيد العلم بالدوام وعدم الانقطاع * وأما فى السرر (١) فذكر أمورا أيضا (أحدها) الاتكاء فانه هيئة تختص بالمنعم والفارغ الذى لا كلفة عليه ولا تكلف لديه فان من يكون عنده من يتكلف له يجلس له ولا يتكئ عنده ومن يكون فى مهم لا يتفرغ للاتكاء فالهيئة دليل خير ثم الجمع يحتمل أمرين (أحدهما) أن يكون لكل واحد سرر وهو الظاهر لان قوله مصفوفة يدل على انها للواحد لان سرر الكل لا تكون فى موضع واحد مصطفة ولفظ السرير فيه حروف السرور بخلاف التخت وغيره وقوله مصفوفة دليل على انه لمجرد العظم فانها لو كانت متفرقة لقيل فى كل موضع واحد ليتكئ عليه صاحبه اذا حضر فى هذا الموضع وقوله تعالى وزوجناهم اشارة الى النعمة الرابعة وفيها أيضا ما يدل على كمال الحال من وجوه (أحدها) انه تعالى هو المزوج وهو يتولى الطرفين يزوج عباده بامائه ومن يكون كذلك لا يفعل الا ما فيه راحة العباد والاماء (ثانيها) قال وزوجناهم بحور ولم يقل وزوجناهم حورا مع ان لفظ التزويج يتعدى فعله الى مفعولين بغير حرف يقال زوجتكها قال تعالى فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها وذلك اشارة الى ان المنفعة فى التزويج لهم وانما زوجوا للذتهم بالحور لا للذة الحور بهم وذلك لان المفعول بغير حرف يتعلق الفعل به كذلك التزويج تعلق بهم ثم بالحور لان ذلك بمعنى جعلنا ازدواجهم بهذا الطريق وهو الحور (ثالثها) عدم الاقتصار على الزوجات بل وصفهن بالحسن واختار الاحسن من الاحسن فان أحسن ما فى صورة الآدمى وجهه وأحسن ما فى الوجه العين ولأن الحور والعين يدلان على حسن المزاج فى الاعضاء ووفرة المادة فى الارواح أما حسن المزاج فعلامته الحور وأما وفرة الروح فان سعة العين بسبب كثرة الروح المصبوبة اليها فان قيل قوله زوجناهم ذكره بفعل ماض ومتكئين حال ولم يسبق ذكر فعل ماض يعطف عليه ذلك وعطف الماضى على الماضى والمستقبل على المستقبل أحسن نقول الجواب من وجوه اثنان لفظيان ومعنوى (أحدها) ان ذلك حسن فى كثير من المواضع تقول جاء زيد ويجئ عمرو وخرج زيد (ثانيها) ان قوله تعالى ان المتقين فى جنات ونعيم تقديره أدخلناهم فى جنات وذلك لان الكلام على تقدير أن فى اليوم الذى يدع الكافر فى النار فى ذلك الوقت يكون المؤمن قد أدخل مكانه فكأنه تعالى يقول فى يوم يدعون الى نار جهنم ان المتقين كائنون فى جنات (والثالث المعنوى) وهو انه تعالى ذكر مجازاة الحكم فهو فى هذا اليوم زوج عباده حورا عينا وهن منتظرات الزفاف يوم الآزفة ۞ ثم قال تعالى (والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم بايمان ألحقنا بهم ذرياتهم) وفيه لطائف (الاولى) ان شفقة الابوة كما هى فى الدنيا متوفرة كذلك فى الآخرة ولهذا طيب الله تعالى قلوب عباده بانه لا يولههم باولادهم بل يجمع بينهم فان قيل قد ذكرت فى تفسير بعض الآيات ان الله تعالى يسلى الآباء عن الابناء وبالعكس ولا يتذكر الاب الذى هو من أهل الجنة الابن الذى هو من أهل النار نقول الولد الصغير وجد فى والده الابوة الحسنة ولم يوجد لها معارض ولهذا ألحق الله الولد بالوالد فى الاسلام فى دار الدنيا عند الصغر واذا كبر استقل فان كفر ينسب الى غير أبيه وذلك لان الاسلام للمسلمين كالاب ولهذا قال تعالى انما المؤمنون اخوة جمع أخ بمعنى اخوة الولادة والاخوان جمعه بمعنى اخوة الصداقة والمحبة فاذا الكفر من حيث الحس والعرف أب فان خالف دينه دين أبيه صار له من حيث الشرع أب آخر وفيه ارشاد الآباء الى أن لا يشغلهم شئ عن الشفقة على الولد فيكون من القبيح الفاحش أن يشتغل الانسان بالتفرج فى البستان مع الاحبة والاخوان عن تحصيل قوت الولدان وكيف لا يشتغل أهل الجنة بما فى الجنة من الحور العين عن أولادهم حتى ذكروهم فاراح الله قلوبهم بقوله ألحقنا بهم ذرياتهم واذا كان كذلك فما ظنك بالفاسق الذى يبذر ماله فى الحرام ويترك أولاده يتكففون وجوه اللئام والكرام نعوذ بالله منه وهذا يدل على ان من يورث أولاده مالا حلالا يكتب له به صدقة ولهذا لم

معنى الاضافة والضم (وان كثيرا من الخلطاء) أى الشركاء الذين خلطوا أموالهم (ليبغى) ليتعدى وقرئ بفتح الياء على تقدير النون الخفيفة وحذفها وبحذف الياء اكتفاء بالكسرة (بعضهم على بعض) غير مراع لحق الصحبة والشركة (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) منهم فانهم يتحامون عن البغى والعدوان (وقليل ما هم) أى وهم قليل وما مزيدة للابهام والتعجب من قلتهم والجملة اعتراض (وظن داود أنما فتناه) الظن مستعار للعلم الاستدلالى لما بينهما من المشابهة الظاهرة أى علم بما جرى فى مجلس الحكومة وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما الى صاحبه فضحك ثم صعد الى السماء حيال وجهه فعلم عليه الصلاة والسلام انه تعالى ابتلاه وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه الصلاة والسلام دون غيره بتوجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر كما هو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر الى متعلقات الفعل وقيوده باعتبار النفى فيه والاثبات فيها كما فى مثل قولك انما ضربت زيدا وانما ضربته تاديبا بل على تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام بالفتنة بتوجيه القصر الى نفس الفعل بالقياس الى ما يغايره من الافعال لكن لا باعتبار النفى والاثبات معا فى خصوصية الفعل فانه غير ممكن قطعا بل باعتبار النفى فيما فيه من معنى مطلق الفعل واعتبار الاثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فان كل فعل من الافعال المخصوصة ينحل عند التحقيق الى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل والى معنى مخصوص يقارنه ويقيده وهو أثره فى الحقيقة فان معنى نصر مثلا فعل النصر يرشدك الى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الاعطاء والمنع فمورد القصر فى الحقيقة ما يتعلق بالفعل باعتبار النفى فيه والاثبات فيما يتعلق به فالمعنى وعلم داود عليه السلام أنما فعلنا به الفتنة لا غير قبل

(١) قوله فذكر أمورا لم يذكر الا واحدا وكذلك قوله بعد يحتمل أمرين ذكر منهما واحدا فتدبر اه

ابتليناه بامرأة أوريا وقيل امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها لما قصد منها وايثار طريق التمثيل لانه أبلغ فى التوبيخ فان التأمل فيه اذا أداه الى الشعور بما هو الغرض كان أوقع فى نفسه وأعظم تأثيرا فى قلبه وأدعى الى التنبه للخطا مع ما فيه من مراعاة حرمته عليه الصلاة والسلام بترك المجاهرة والاشعار بانه أمر يستحى من التصريح به وتصويره بصورة التحاكم لالجائه عليه الصلاة والسلام الى التصريح بنسبة نفسه الى الظلم وتنبيهه عليه الصلاة والسلام على أن أوريا بصدد الخصام (فاستغفر ربه) اثر ما علم أن ما صدر عنه ذنب (وخر راكعا) أى ساجدا على تسمية السجود ركوعا لانه مبدؤه أو خر للسجود راكعا أى مصليا كأنه أحرم بركعتى الاستغفار (وأناب) أى رجع الى الله تعالى بالتوبة * وأصل القصة أن داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له أوريا فمال قلبه اليها فسأله أن يطلقها فاستحيى أن يرده ففعل فتزوجها وهى أم سليمان عليه السلام وكان ذلك جائزا فى شريعته معتادا فيما بين أمته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها اذا أعجبته وقد كان الانصار فى صدر الاسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير نكير خلا أنه عليه الصلاة والسلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغى له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمته ويسأل رجلا ليس له الا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه أن يغالب هواه ويقهر نفسه ويصبر على ما امتحن به وقيل لم يكن أوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها داود عليه السلام فآثره عليه السلام أهلها فكان ذنبه عليه الصلاة والسلام أن خطب على خطبة أخيه المسلم هذا وأما ما يذكر من أنه عليه الصلاة والسلام دخل ذات يوم محرابه وأغلق ذكرهما بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك اذ جاءه الشيطان فى صورة حمامة من ذهب فمد يده ليأخذه لابن صغير له فطارت فامتد اليها فطارت

يجوز للمريض التصرف فى أكثر من الثلث (اللطيفة الثانية) قوله تعالى وأتبعناهم ذرياتهم فهذا ينبغى أن يكون دليلا على أن فى الآخرة نلحق بهم لان فى دار الدنيا مراعاة الاسباب أكثر ولهذا لم يجر الله عادته على أن يقدم بين يدى الانسان طعاما من السماء فالم يتسبب له بالزراعة والطحن والعجن لا يأكله وفى الآخرة يؤتيه ذلك من غير سعى جزاء له على ما سعى له من قبل فينبغى أن يجعل ذلك دليلا ظاهرا على ان الله تعالى يلحق به ولده وان لم يعمل عملا صالحا كما تبعه وان لم يتشهد ولم يعتقد شيأ (اللطيفة الثالثة) فى قوله تعالى بايمان فان الله تعالى أتبع الولد الوالدين فى الايمان ولم يتبعه أباه فى الكفر بدليل أن من أسلم من الكفار حكم باسلام أولاده ومن ارتد من المسلمين والعياذ بالله لا يحكم بكفر ولده (اللطيفة الرابعة) قال فى الدنيا أتبعناهم وقال فى الآخرة ألحقنابهم وذلك لان فى الدنيا لا يدرك الصغير التبع مساواة المتبوع وانما يكون هو تبعا والاب أصلا لفضل الساعى على غير الساعى وأما فى الآخرة فاذا ألحق الله بفضله ولده به جعل له من الدرجة مثل ما لابيه (اللطيفة الخامسة) فى قوله تعالى وما ألتناهم تطييب لقلبهم وازالة وهم المتوهم أن ثواب عمل الاب يوزع على الوالد والولد بل للوالد أجر عمله بفضل السعى ولاولاده مثل ذلك فضلا من الله ورحمة (اللطيفة السادسة) فى قوله تعالى من عملهم ولم يقل من أجرهم وذلك لان قوله تعالى وما ألتناهم من عملهم دليل على بقاء عملهم كما كان والاجر على العمل مع الزيادة فيكون فيه الاشارة الى بقاء العمل الذى له الاجر الكبير الزائد عليه العظيم العائد اليه ولو قال ما ألتناهم من أجرهم لكان ذلك حاصلا بادنى شئ لان كل ما يعطى الله عبده على عمله فهو أجر كامل ولانه لو قال تعالى ما ألتناهم من أجرهم كان مع ذلك يحتمل أن يقال ان الله تعالى تفضل عليه بالاجر الكامل على العمل الناقص وأعطاه الاجر الجزيل مع أن عمله كان له ولولده جميعا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى والذين آمنوا عطف على ماذا نقول على قوله ان المتقين (المسئلة الثانية) اذا كان كذلك فلم اعاد لفظ الذين آمنوا وكان المقصود يحصل بقوله تعالى وألحقنابهم ذرياتهم بعد قوله وزوجناهم وكان يصير التقدير وزوجناهم وألحقنابهم نقول فيه فائدة وهو أن المتقين هم الذين اتقوا الشرك والمعصية وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقال ههنا الذين آمنوا أى بوجود الايمان يصير ولده من أهل الجنة ثم ان ارتكب الاب كبيرة أو صغيرة على صغيرة لا يعاقب به ولده بل الوالد ربما يدخل الجنة الابن قبل الاب وفيه لطيفة معنوية وهو أنه ورد فى الاخبار أن الولد الصغير يشفع لابيه وذلك اشارة الى الجزاء (المسئلة الثالثة) هل يجوز غير ذلك نقول نعم يجوز أن يكون قوله تعالى والذين آمنوا عطفا على حور عين تقديره زوجناهم بحور عين أى قرناهم بهن وبالذين آمنوا اشارة الى قوله تعالى اخوانا على سرر متقابلين أى جمعنا شملهم بالازواج والاخوان والاولاد بقوله تعالى وأتبعناهم وهذا الوجه ذكره الزمخشرى والاول أحسن وأصح فان قيل كيف يصح على هذا الوجه الاخبار بلفظ الماضى مع انه سبحانه وتعالى بعد ما قرن بينهم قلنا صح فى زوجناهم على ما ذكر الله تعالى من تزويجهن منا من يوم خلقهن وان تأخر زمان الاقتران (المسئلة الرابعة) قرئ ذرياتهم فى الموضعين بالجمع وذريتهم فيهما بالفرد وقرئ فى الاول ذرياتهم وفى الثانى ذريتهم فهل للثالث وجه نقول نعم معنوى لا لفظى وذلك لان المؤمن تتبعه ذرياته فى الايمان وان لم توجد على معنى أنه لو وجد له ألف ولد لكانوا أتباعه فى الايمان حكما وأما الالحاق فلا يكون حكما انما هو حقيقة وذلك فى الموجود فالتابع أكثر من الملحوق فجمع فى الاول وأفرد فى الثانى (المسئلة الخامسة) ما الفائدة فى تنكير الايمان فى قوله وأتبعناهم ذرياتهم بايمان نقول هو اما للتخصيص أو التنكير كأنه يقول أتبعناهم ذرياتهم بايمان مخلص كامل أو يقول أتبعناهم بايمان ما أى شئ منه فان الايمان كاملا لا يوجد فى الولد بدليل أن من آمن وله ولد صغير حكم بايمانه فاذا بلغ وصرح بالكفر وأنكر التبعية قيل بانه لا يكون مرتدا وتبين بقوله انه لم يتبع وقيل بانه يكون مرتدا لانه كفر بعد ما حكم بايمانه كالمسلم الاصلى فاذن بهذا الخلاف تبين أن ايمانه ليس بقوى وهذان الوجهان

ذكرهما الزمخشري ويحتمل أن يكون المراد غير هذا وهو أن يكون التنوين للعوض عن المضاف اليه كما في قوله تعالى بعضهم ببعض وقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى وبيانه هو أن التقدير أتبعناهم ذرياتهم بايمان أي بسبب ايمانهم لان الاتباع ليس بايمان كيف كان وممن كان وانما هو ايمان الآباء لكن الاضافة تنبئ عن تقييد وعدم كون الايمان ايمانا على الاطلاق فان قول القائل ماء الشجر وماء الرمان يصح واطلاق اسم الماء من غير اضافة لا يصح فقوله بايمان يوهم أنه ايمان مضاف اليهم كما قال تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا حيث أثبت الايمان المضاف ولم يكن ايمانا فقطع الاضافة مع ارادتها ليعلم أنه ايمان صحيح وعوض التنوين ليعلم أنه لا يوجب الامان في الدنيا الا ايمان الآباء وهذا وجه حسن ۝ ثم قال تعالى (كل امرئ بما كسب رهين) قال الواحدي هذا عود الى ذكر أهل النار فانهم مرتهنون في النار وأما المؤمن فلا يكون مرتهنا قال تعالى كل نفس بما كسبت رهينة الا أصحاب اليمين وهو قول مجاهد وقال الزمخشري كل امرئ بما كسب رهين عام في كل أحد مرهون عند الله بالكسب فان كسب خيرا فك رقبته والا أربق بالرهن والذي يظهر منه أنه عام في حق كل أحد وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون الرهين فعيلا بمعنى الفاعل فيكون المعنى والله أعلم كل امرئ بما كسب راهن أي دائم ان أحسن ففي الجنة مؤبدا وان أساء ففي النار مخلدا وقد ذكرنا أن في الدنيا دوام الاعمال بدوام الاعيان فان العرض لا يبقى الا في جوهر ولا يوجد الا فيه وفي الآخرة دوام الاعيان بدوام الاعمال فان الله يبقي أعمالهم لكونها عند الله تعالى من الباقيات الصالحات وما عند الله باق والباقي يبقى مع عامله ۝ ثم قال تعالى (وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون) أي زدناهم مأكولا ومشروبا أما المأكول فالفاكهة واللحم وأما المشروب فالكاس الذي يتنازعون فيها وفي تفسيرها لطائف (اللطيفة الاولى) لما قال ألحقنا بهم ذرياتهم بين الزيادة ليكون ذلك جاريا على عادة الملوك في الدنيا اذا زادوا في حق عبد من عبيدهم يزيدون في أقدار أخبازهم وأقطاعهم واختار من المأكول ارفع الانواع وهو الفاكهة واللحم فانهما طعام المتنعمين وجمع أوصافا حسنة في قوله مما يشتهون لانه لو ذكر نوعا فربما يكون ذلك النوع غير مشتهى عند بعض الناس فقال كل أحد يعطى ما يشتهي فان قيل الاشتهاء كالجوع وفيه نوع ألم نقول ليس كذلك بل الاشتهاء به اللذة والله تعالى لا يتركه في الاشتهاء بدون المشتهى حتى يتألم بل المشتهى حاصل مع الشهوة والانسان في الدنيا لا يتألم الا بأحد أمرين اما باشتهاء صادق وعجزه عن الوصول الى المشتهى واما بحصول أنواع الاطعمة والاشربة عنده وسقوط شهوته وكلاهما منتف في الآخرة (اللطيفة الثانية) لما قال وما ألتناهم ونفي النقصان يصدق بحصول المساوي فقال ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوي بل بطريق آخر وهو الزيادة والامداد فان قيل أكثر الله من ذكر الاكل والشرب وبعض العارفين يقولون لخاصة الله بالله شغل شاغل عن الاكل والشرب وكل ما سوى الله نقول هذا على العمل ولهذا قال تعالى جزاء بما كانوا يعملون وقال بما كنتم تعملون وأما على العلم بذلك فذلك ولهذا قال لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم أي للنفوس ما تتفكه به وللارواح ما تتمناه من القربة والزلفى ۝ وقوله تعالى (يتنازعون فيها كأسا) فيكون ذلك على عادة الملوك اذا جلسوا في مجالسهم للشرب يدخل عليهم بفواكه ولحوم وهم على الشرب وقوله تعالى يتنازعون أي يتعاطون ويحتمل أن يقال التنازع التجاذب وحينئذ يكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لا تجاذب منازعة وفيه نوع لذة وهو بيان ما هو عليه حال الشراب في الدنيا فانهم يتفاخرون بكثرة الشرب ولا يتفاخرون بكثرة الاكل ولهذا اذا شرب أحدهم يرى الآخر واجبا أن يشرب مثل ما شرب به حريفه ولا يرى واجبا أن يأكل مثل ما أكل نديمه وجليسه ۝ وقوله تعالى (لا لغو فيها ولا تأثيم) وسواء قلنا فيها عائدة الى الجنة أو الى الكاس فذكرهما لجريان ذكر الشراب وحكايته على ما في الدنيا فقال تعالى ليس في الشرب في الآخرة كل ما فيه في الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ومن

فوقعت في كوة فتبعها فابصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها وهي امرأة أوريا وهو من غزاة البلقاء فكتب الى أيوب بن صوريا وهو صاحب بعث البلقاء أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت وكان من يتقدم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ففتح الله تعالى على يده وسلم فامر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل وأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فافك مبتدع مكروه ومكر مخترع بئس ما مكروه تمجه الاسماع وتنفر عنه الطباع ويل لمن ابتدعه وأشاعه وتبا لمن اخترعه وأذاعه ولذلك قال علي رضي الله عنه من حدث بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وذلك حد الفرية على الانبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم هذا وقد قيل ان قوما قصدوا أن يقتلوه عليه الصلاة والسلام فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواما فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم عليه الصلاة والسلام غرضهم فهم بان ينتقم منهم فظن أن ذلك ابتلاء له من الله عز وجل فاستغفر ربه مما هم به وأناب (فغفرنا له ذلك) أي ما استغفر منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام بقي ساجدا أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه الا لصلاة مكتوبة أو لما لابد منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت منه العشب الى رأسه ولم يشرب ماء الا ثلثاه دمع وجهد نفسه راغبا الى الله تعالى في العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له ايشا على ملكه ودعا الى نفسه فاجتمع اليه أهل الزيغ من بني اسرائيل فلما غفر له حاربه فهزمه (وان له عندنا لزلفى) لقربة وكرامة بعد المغفرة (وحسن مآب) حسن مرجع في الجنة (ياداود انا جعلناك خليفة في الارض) اما حكاية لما خوطب به عليه الصلاة والسلام مبينة لزلفاه عنده عز وجل واما مقول قول مقدر هو معطوف على غفرنا أو حال من فاعله أي وقلنا له أو قائلين له ياداود

الخ أي استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الانبياء القائمين بالحق وفيه دليل بين على ان حاله
عليه الصلاة والسلام بعد التوبة كما كانت قبلها لم تتغير قط (فاحكم بين الناس بالحق) بحكم الله تعالى فان الخلافة بكلا

التأثير الذي بسبب نهوض الشهوة والغضب عند وفور العقل والفهم وفيه وجه ثالث وهو أن يقال لا يعتريه كما يعتري الشارب بالشرب في الدنيا فلا يؤثم أي لا ينسب الى اثم وفيه وجه رابع وهو أن يكون المراد من التأثيم السكر وحينئذ يكون فيه ترتيب حسن وذلك لان من الناس من يسكر ويكون رزين العقل عديم اعتياد العربدة فيسكن وينام ولا يؤذي ولا يتأذى ولا يهذي ولا يسمع الى من هذي ومنهم من يعربد فقال لا لغو فيها ثم قال تعالى (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) أي بالكؤس وقال تعالى يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين وقوله لهم أي ملكهم اعلاما لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالامر والنهي والاستخدام وهذا هو المشهور ويحتمل وجوها أخر وهو انه تعالى لما بين امتياز خمر الآخرة عن خمر الدنيا بين امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا فان الغلمان في الدنيا اذا طافوا على السادة والملوك يطوفون عليهم لحظ أنفسهم اما لتوقع النفع أو لتوفر الصفح وأما في الآخرة فطوفهم عليهم متمحض لهم ولنفعهم ولا حاجة لهم اليهم والغلام الذي هذا شأنه له مزية على غيره وربما يبلغ درجة الاولاد وقوله تعالى كأنهم لؤلؤ أي في الصفاء ومكنون ليفيد زيادة في صفاء ألوانهم أو لبيان أنهم كالمخدرات لا بروز لهم ولا خروج من عندهم فهم في أكنافهم ثم قال تعالى (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا انا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم انا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم) اشارة الى انهم يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا فتزداد لذة المؤمن من حيث يرى نفسه انتقلت من السجن الى الجنة ومن الضيق الى السعة ويزداد الكافر ألما حيث يرى نفسه منتقلة من الشرف الى التلف ومن النعيم الى الجحيم ثم يتذكرون ما كانوا عليه في الدنيا من الخشية والخوف فيقولون انا كنا قبل في أهلنا مشفقين وهو أنهم يكون تساؤلهم عن سبب ما وصلوا اليه فيقولون خشية الله كنا نخاف الله فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم وفيه لطيفة وهو أن يكون اشفاقهم على فوات الدنيا والخروج منها ومفارقة الاخوان ثم لما نزلوا الجنة علموا خطأهم ثم قال تعالى (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فاني معكم من المتربصين) وتعلق الآية بما قبلها ظاهر لانه تعالى بين أن في الوجود قوما يخافون الله ويشفقون في أهليهم والنبي صلى الله عليه وسلم مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى بقوله فذكر بالقرآن من يخاف وعيد فتحقق من يذكره فوجب التذكير وأما الرسول عليه السلام فليس له الا الاتيان بما أمر به وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في الفاء في قوله فذكر قد علم تعلقه بما قبله فحسن ذكره بالفاء (المسئلة الثانية) معنى الفاء في قوله فما أنت أيضا قد علم أي أنك لست بكاهن فلا تتغير ولا تتبع أهواءهم فان ذلك سيرة المزور فذكر فانك لست بمزور وذلك سبب التذكير (المسئلة الثالثة) ما وجه تعلق قوله نتربص به ريب المنون بقوله شاعر نقول فيه وجهان (الاول) أن العرب كانت تحترز عن ايذاء الشعراء وتتقي ألسنتهم فان الشعر كان عندهم يحفظ ويدون وقالوا لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شعره وانما سبيلنا الصبر وتربص موته (الثاني) أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول ان الحق دين الله وان الشرع الذي أتيت به يبقى أبد الدهر وكتابي يتلى الى قيام الساعة فقالوا ليس كذلك انما هو شاعر والذي يذكره في حق آلهتنا شعر ولا ناصر له وسيصيبه من بعض آلهتنا الهلاك فنتربص به ذلك (المسئلة الرابعة) ما معنى ريب المنون نقول قيل هو اسم للموت فعول من المن وهو القطع والموت قطوع ولهذا سمي بمنون وقيل المنون الدهر وريبه حوادثه وعلى هذا قولهم نتربص يحتمل وجها آخر وهو أن يكون المراد انه اذا كان شاعرا فصروف الزمان ربما تضعف ذهنه وتورث وهنه فيتبين لكل فساد أمره وكساد شعره (المسئلة الخامسة) كيف قال تربصوا بلفظ الامر وأمر النبي صلى الله عليه وسلم يوجب المأمور أو يفيد جوازه وتربصهم ذلك كان حراما نقول ذلك ليس بأمر وانما هو

معنييه مقتضية له حتما (ولا تتبع الهوى) أي هوى النفس في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا (فيضلك عن سبيل الله) بالنصب على أنه جواب النهي وقيل هو مجزوم بالعطف على النهي مفتوح لالتقاء الساكنين أي فيكون الهوى أو اتباعه سببا لضلالك عن دلائله التي نصبها على الحق تكوينا وتشريعا وقوله تعالى (ان الذين يضلون عن سبيل الله) تعليل لما قبله ببيان غائلته واظهار سبيل الله في موقع الاضمار لزيادة التقرير والايذان بكمال شناعة الضلال عنه (لهم عذاب شديد) جملة من خبر ومبتدأ وقعت خبرا لان أو الظرف خبر لان وعذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من معنى الاستقرار (بما نسوا) بسبب نسيانهم وقوله تعالى (يوم الحساب) اما مفعول لنسوا فيكون تعليلا صريحا لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الاشعار بعلية ما يستتبعه ويستلزمه أعني الضلال عن سبيل الله تعالى فانه مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرة بل هذا فرد من أفراده أو ظرف لقوله تعالى لهم أي لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم الذي هو عبارة عن ضلالهم ومن ضرورته أن يكون مفعوله سبيل الله فيكون التعليل المصرح به حينئذ عين التعليل المشعر به بالذات غيره بالعنوان ومن لم يتنبه لهذا السر السري قال بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل فان تذكره يقتضي ملازمة الحق ومخالفة الهوى فتدبر (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا) كلام مستأنف مقرر لما قبله من أمر البعث تهديد
والحساب والجزاء أي وما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات على هذا النظام البديع الذي تحار في فهمه العقول خلقا باطلا أي خاليا عن الغاية

تهديد معناه تربصوا ذلك فانا نتربص الهلاك بكم على حد ما يقول السيد الغضبان لعبده افعل ما شئت فانى لست عنك بغافل وهو أمر لتهوين الامر على النفس كما يقول القائل لمن يهدده برجل ويقول أشكوك الى زيد فيقول اشكنى أى لايهمنى ذلك وفيه زيادة فائدة وذلك لانه لو قال لا تشكنى لكان ذلك دليل الخوف وينافيه معناه فاتى بجواب تام من حيث اللفظ والمعنى فان قيل لو كان كذلك لقال تربصوا أولا تربصوا كما قال اصبروا أولا تصبروا نقول ليس كذلك لانه اذا قال القائل فيما ذكرناه من المثال اشكنى أولا تشكنى يكون ذلك مفيدا عدم خوفه منه فاذا قال اشكنى يكون أدل على عدم الخوف فكأنه يقول أنا فارغ عنه وانما أنت تتوهم أنه يفيدك فافعل حتى يبطل اعتقادك (المسئلة السادسة) فى قوله تعالى فانى معكم من المتربصين وهو يحتمل وجوها (أحدها) انى معكم من المتربصين أتربص هلاككم وقد أهلكوا يوم بدر وفى غيره من الايام هذا ما عليه الاكثرون والذى نقوله فى هذا المقام هو أن الكلام يحتمل وجوها وبيانها هو أن قوله تعالى نتربص به ريب المنون ان كان المراد من المنون الموت فقوله انى معكم من المتربصين معناه انى أخاف الموت ولا أتمناه لا لنفسى ولا لاحد لعدم علمى بما قدمت يداه وانما أنا نذير وأنا أقول ما قال ربى أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم فتربصوا موتى وأنا متربصه ولا يسركم ذلك لعدم حصول ما تتوقعون بعدى ويحتمل أن يكون كما قيل تربصوا موتى فانى متربص موتكم بالعذاب وان قلنا المراد من ريب المنون صروف الدهر فمعناه انكار كون صروف الدهر مؤثرة فكأنه يقول أنا من المتربصين حتى ابصر ماذا يأتى به دهركم الذى تجعلونه مهلكا وماذا يصيبنى منه وعلى التقديرين فنقول النبى صلى الله عليه وسلم يتربص ما يتربصون غير أن فى الاول تربصه مع اعتقاد الوقوع وفى الثانى تربصه مع اعتقاد عدم التأثير على طريقة من يقول أنا أيضا انتظر ما ينتظره حتى أرى ماذا يكون منكرا عليه وقوع ما يتوقع وقوعه وانما قلنا هذا لان ترك المفعول فى قوله انى معكم من المتربصين لكونه مذكورا وهو ريب المنون أولى من تركه وارادة غير المذكور وهو العذاب (الثانى) أتربص صروف الدهر ليظهر عدم تأثيرها فهولاء يتربص بهم شيأ على الوجهين وعلى هذا الوجه يتربص بقاءه بعدهم وارتفاع كلمته فلم يتربص بهم شيأ على الوجوه التى اخترناها فقال انى معكم من المتربصين ۞ ثم قال تعالى (أم تأمرهم احلامهم بهذا أم هم قوم طاغون) وأم هذه أيضا على ما ذكرناه متصلة تقديرها أنزل عليهم ذكر أم تأمرهم احلامهم بهذا وذلك لان الاشياء اما ان تثبت بسمع واما أن تثبت بعقل فقال هل ورد أمر سمعى أم عقولهم تأمرهم بما كانوا يقولون أم هم قوم طاغون يغترون ويقولون ما لا دليل عليه سمعا ولا مقتضى له عقلا والطغيان مجاوزة الحد فى العصيان وكذلك كل شئ ظاهره مكروه قال الله تعالى لما طغى الماء وفيه مسائل (الاولى) اذا كان المراد ما ذكرت فلم أسقط ما يصدر به نقول لان كون ما يقولون به مسندا الى نقل معلوم عدمه لا ينقل واما كونه معقولا لهم كانوا يدعون انه معقول واما كونهم طاغين فهو حق فخص الله تعالى بالذكر ما قالوا به وقال الله به فهم قالوا نحن نتبع العقل والله تعالى قال هم طاغون وذكر الامرين اللذين وقع فيهما الخلاف (المسئلة الثانية) قوله تأمرهم احلامهم اشارة الى ان كل ما لا يكون على وفق العقل لا ينبغى أن يقال وانما ينبغى أن يقال ما يجب قوله عقلا فهل صار واجب عقلا مأمورا به (المسئلة الثالثة) ما الاحلام نقول جمع حلم وهو العقل وهما من باب واحد من حيث المعنى لان العقل يضبط المرء فيكون كالبعير المعقول لا يتحرك عن مكانه والحلم من الحلم وهو أيضا سبب وقار المرء وثباته وكذلك يقال للعقول النهى من النهى وهو المنع وفيه معنى لطيف وهو أن الحلم فى أصل اللغة هو ما يراه النائم فينزل ويلزمه الغسل وهو سبب البلوغ وعنده يصير الانسان مكلفا وان الله تعالى من لطف حكمته قرن الشهوة بالعقل وعند ظهور الشهوة يكمل العقل فاشار الى العقل بالاشارة الى ما يقارنه وهو الحلم ليعلم أنه نذير كمال العقل لا العقل الذى به يحترز الانسان تخطى الشوك ودخول النار وعلى هذا ففيه تأكيد لما

الجليلة والحكمة الباهرة بل منطويا على الحق المبين والحكم البالغة حيث خلقنا من بين ما خلقنا نفوسا أودعناها العقل والتمييز بين الحق والباطل والنافع والضار ومكناها من التصرفات العلمية والعملية فى استجلاب منافعها (٤٩١) واستدفاع مضارها ونصبنا للحق دلائل آفاقية وأنفسية ومنحناها القدرة على الاستشهاد بها ثم لم نقتصر على ذلك المقدار من الالطاف بل أرسلنا اليها رسلا وأنزلنا عليها كتبا بينا فيها كل دقيق وجليل وأزحنا عللها بالكلية وعرضناها بالتكليف للمنافع العظيمة وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالها (ذلك) اشارة الى ما نفى من خلق ما ذكر باطلا (ظن الذين كفروا) أى مظنونهم فان جحودهم بامر البعث والجزاء الذى عليه يدور فلك تكوين العالم قول منهم ببطلان خلق ما ذكر وخلوه عن الحكمة سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا (فويل للذين كفروا) مبتدأ وخبر والفاء لافادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم للاشعار بما فى حيز الصلة بعليه كفرهم له ولا تنافى بينهما لان ظنهم من باب كفرهم ومن فى قوله تعالى (من النار) تعليلية كما فى قوله تعالى فويل لهم مما كتبت أيديهم ونظائره مفيدة لعلية النار لثبوت الويل لهم صريحا بعد الاشعار بعلية ما يؤدى اليها من ظنهم وكفرهم أى فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض) أم منقطعة وما فيها من بل للاضراب الانتقالى عن تقرير امر البعث والحساب والجزاء بما مر من نفى خلق العالم خاليا عن الحكم والمصالح الى تقريره وتحقيقه بما فى الهمزة من انكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكده أى بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى أقطار الارض كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين فى التمتع بالحياة الدنيا بل الكفرة أوفر حظا منها من المؤمنين لكن ذلك الجعل محال فتعين

ذكرنا أن الانسان لا ينبغي أن يقول كل معقول بل لا يقول الا ما يأمره به العقل الرزين الذي عنده يصح التكليف (المسئلة الرابعة) هذا اشارة الى ماذا نقول فيه وجوه (الاول) أن يكون هذا اشارة مبهمة أي بهذا الذي يظهر منهم قولا وفعلا حيث يعبدون الاصنام والاوثان ويقولون الهذيان من الكلام (الثاني) هذا اشارة الى قولهم هو كاهن هو شاعر هو مجنون (الثالث) هذا اشارة الى التربص فانهم لما قالوا نتربص قال الله تعالى أعقولهم تأمرهم بتربص هلاكهم فان أحدا لم يتوقع هلاك نبيه الا وهلك (المسئلة الخامسة) هل يصح ان تكون أم في هذا الموضع بمعنى بل نقول نعم تقديره يقولون انه شاعر قولا بل يعتقدونه عقلا ويدخل في عقولهم ذلك أي ليس ذلك قولا منهم من غير عقل بل يعتقدون كونه كاهنا ومجنونا ويدل عليه قراءة من قرأ بل هم قوم طاغون لكن بل ههنا واضح وفي قوله بل تأمرهم أحلامهم خفي ۞ ثم قال تعالى (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون) وهو متصل بقوله تعالى أم يقولون شاعر نتربص به وتقديره على ماذكرنا أتقولون كاهن أم تقولون شاعر أم تقوله ۞ ثم قال لبطلان جميع الاقسام (فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين) أي ان كان هو شاعرا ففيكم الشعراء البلغاء والكهنة الاذكياء ومن يرتجل الخطب والقصائد ويقص القصص ولا يختلف الناقص والزائد فليأتوا بمثل ما أتى به والتقول يراد به الكذب وفيه اشارة الى معنى لطيف وهو ان التفعل للتكلف واراءة الشئ وهو ليس على ما يرى يقال تمرض فلان أي لم يكن مريضا وأرى من نفسه المرض وحينئذ كأنهم كانوا يقولون كذب وليس بقول انما هو تقول صورته صورة القول وليس في الحقيقة به ليعلم أن المكذب هو الصادق وقوله تعالى بل لا يؤمنون بيان هذا انهم كانوا في زمان نزول الوحي وحصول المعجزة كانوا يشاهدونها وكان ذلك يقتضي أن يشهدوا له عند غيرهم ويكونوا كالنجوم للمؤمنين كما كانت الصحابة رضي الله عنهم وهم لم يكونوا كذلك بل أقل من ذلك لم يكونوا أيضا وهو أن يكونوا من آحاد المؤمنين الذين لم يشهدوا تلك الامور ولم يظهر الامر عندهم ذلك الظهور وقوله تعالى فليأتوا الفاء للتعقيب أي اذا كان كذلك فيجب عليهم أن يأتوا بمثل ما أتى به ليصح كلامهم ويبطل كلامه وفيه مباحث (الاول) قال بعض العلماء فليأتوا أمر تعجيز يقوله القائل لمن يدعي أمرا أو فعلا ويكون غرضه اظهار عجزه والظاهر ان الامر ههنا مبقى على حقيقته لانه لم يقل ائتوا مطلقا بل انما قال ائتوا ان كنتم صادقين وعلى هذا التقدير ووجود ذلك الشرط يجب الاتيان به وأمر التعجيز في كلام الله تعالى قوله تعالى ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر وليس هذا بحثا يورث خللا في كلام مهم (الثاني) قالت المعتزلة الحديث محدث والقرآن سماه حديثا فيكون محدثا نقول الحديث اسم مشترك يقال للمحدث والقديم ولهذا يصح أن يقال هذا حديث قديم بمعنى متقادم العهد لا بمعنى سلب الاولية وذلك لا نزاع فيه (الثالث) النحاة يقولون الصفة تتبع الموصوف في التعريف والتنكير لكن الموصوف حديث وهو منكر ومثل مضاف الى القرآن والمضاف الى المعرف معرف فكيف هذا نقول مثل وغير لا يتعرفان بالاضافة وكذلك كل ما هو مثلهما والسبب ان غيرا ومثلا وأمثالهما في غاية التنكير فانك اذا قلت ما رأيت شيئا مثل زيد يتناول كل شئ فان كل شئ مثل زيد في كونه شيئا فالجماد مثله في الجسم والحجم والامكان والنبات مثله في النشوء والنماء والذبول والفناء والحيوان مثله في الحركة والادراك وغيرهما من الاوصاف واما غير فهو عند الاضافة ينكر وعند قطع الاضافة ربما يتعرف فانك اذا قلت غير زيد صار في غاية الابهام فانه يتناول أمورا لا حصر لها واما اذا قطعته عن الاضافة ربما تقول الغير والمغايرة من باب واحد وكذلك التغير فتجعل الغير كأسماء الاجناس أو تجعله مبتدأ أو تريد به معنى معينا (البحث الرابع) ان كانوا صادقين أي في قولهم تقوله وقد ذكرنا أن ذلك راجع الى ما سبق من أنه كاهن وأنه مجنون وأنه شاعر وأنه متقول ولو كانوا صادقين في شئ من ذلك لهان عليهم الاتيان بمثل القرآن ولما امتنع كذبوا في الكل (البحث الخامس) قد ذكرنا أن القرآن معجز ولا شك فيه فان الخلق عجزوا

البعث والجزاء حتما لرفع الاولين الى أعلى عليين ورد الآخرين الى أسفل سافلين وقوله تعالى (أم نجعل المتقين كالفجار) أضراب وانتقال عن اثبات ماذكر بلزوم المحال الذي هو التسوية بين الفريقين المذكورين على الاطلاق الى اثباته بلزوم ما هو أظهر منه استحالة وهو التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الاولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل في انكار التسوية من الوصفين الاولين وقيل قال كفار قريش للمؤمنين انا نعطى في الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت (كتاب) خبر مبتدا محذوف هو عبارة عن القرآن أو السورة وقوله تعالى (أنزلناه اليك) صفته وقوله تعالى (مبارك) خبر ثان للمبتدا أو صفة لكتاب عند من يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح وقرئ مباركا على أنه حال من مفعول أنزلنا ومعنى المبارك الكثير المنافع الدينية والدنيوية وقوله تعالى (ليدبروا آياته) متعلق بأنزلناه أي أنزلناه ليتفكروا في آياته التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من المعاني الفائقة والتأويلات اللائقة وقرئ ليتدبروا على الاصل ولتدبروا على الخطاب أي أنت وعلماء أمتك بحذف احدى التاءين (وليتذكر أولوا الالباب) أي وليتعظ به ذوو العقول السليمة أو ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فان الكتب الالهية مبينة لما لا يعرف الا بالشرع ومرشدة الى ما لا سبيل للعقل اليه (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد) وقرئ نعم العبد أي سليمان كما ينبئ عنه تأخيره عن داود مع كونه مفعولا صريحا

عن

لو هبنا ولان قوله تعالى (انه أواب) أي رجاع الى الله تعالى بالتوبة أو الى التسبيح مرجع له تعليل للمدح وهو من حاله لما أن الضمير المجرور في

عن الاتيان بمثل مايقرب منه مع التحدي فاما أن يكون كونه معجزا الفصاحته وهو مذهب أكثر أهل السنة واما أن يكون معجزا الصرف الله عقول العقلاء عن الاتيان بمثله وعقله ألسنتهم عن النطق بما يقرب منه ومنع القادر من الاتيان بالمقدور كاتيان الواحد بفعل لايقدر عليه غيره فان من قال لغيره أنا أحرك هذا الجبل يستبعد منه وكذا اذا قال انى أفعل فعلا لايقدر الخلق على حمل تفاحة من موضعها يستبعد منه على ان كل واحد فعل معجزا اذا اتصل بالدعوى وهذا مذهب بعض المتكلمين ولافساد فيه وعلى أن يقال هو معجز بهما جميعا ۞ ثم قال تعالى (أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون) ومن ههنا لاخلاف ان أم ليست بمعنى بل لكن اكثر المفسرين على ان المراد مايقع فى صدر الكلام من الاستفهام امابالهمزة فكانه يقول أخلقوا من غير شئ أوهل ويحتمل أن يقال هو على أصل الوضع للاستفهام الذى يقع فى اثناء الكلام وتقديره أماخلقوا أم خلقوا من غير شئ ام هم الخالقون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ماوجه تعلق الآية بماقبلها نقول لما كذبوا النبى صلى الله عليه وسلم ونسبوه الى الكهانة والجنون والشعر وبرأه الله من ذلك ذكر الدليل على صدقه ابطالا لتكذيبهم وبدأ بأنفسهم كانه يقول كيف يكذبونه وفى أنفسهم دليل صدقه لان قوله فى ثلاثة أشياء فى التوحيد والحشر والرسالة ففى أنفسهم مايعلم به صدقه وبيانه هوانهم خلقوا وذلك دليل التوحيد لما بينا ان فى كل شئ له آية تدل على انه واحد وقد بيناوجهه مرارا فلانعيده وأما الحشر فلان الخلق الاول دليل على جواز الخلق الثانى وامكانه ويدل على ماذكرنا ان الله تعالى ختم الاستفهامات بقوله أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون (٢) (المسئلة الثانية) اذا كان الامر على ماذكرت فلم حذف قوله أماخلقوا نقول لظهور انتفاء ذلك ظهورا لايبقى معه للخلاف وجه (٣) فان قيل فلم لم يصدر بقوله أماخلقوا ويقول أم خلقوا من غير شئ نقول ليعلم ان قبل هذا أمرا منفيا ظاهرا وهذا المذكور قريب منه فى ظهور البطلان فان قيل قوله أم خلقوا من غير شئ أيضا ظاهر البطلان لانهم علموا انهم مخلوقون من تراب وماء ونطفة نقول الاول أظهر فى البطلان لان كونهم غير مخلوقين أمر يكون مدعيه منكرا للضرورة فمنكره منكر لامر ضرورى (المسئلة الثالثة) ما المراد من قوله تعالى من غير شئ نقول فيه وجوه المنقول منها انهم خلقوا من غير خالق وقيل انهم خلقوا لالشئ عبثا وقيل انهم خلقوا من غير أب وأم ويحتمل أن يقال أم خلقوا من غير شئ أى ألم يخلقوا من تراب أومن ماء دليله قوله تعالى ألم نخلقكم من ماء مهين ويحتمل أن يقال الاستفهام الثانى ليس بمعنى النفى بل هو بمعنى الاثبات قال الله تعالى أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤن كل ذلك فى الاول منفى وفى الثانى مثبت كذلك ههنا قال الله تعالى أم خلقوا من غير شئ أى الصادق هو هذا الثانى حينئذ وهذا كما فى قوله تعالى هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيأ مذكورا فان قيل كيف يكون ذلك الاثبات والآدمى خلق من تراب نقول والتراب خلق من غير شئ فالانسان اذا نظرت الى خلقه واسندت النظر الى ابتداء أمره وجدته خلق من غير شئ أونقول المراد أم خلقوا من غير شئ مذكور أومعتبر وهو الماء المهين (المسئلة الرابعة) ما الوجه فى ذكر الامور الثلاثة التى فى الآية نقول هى أمور مرتبة كل واحد منها يمنع القول بالوحدانية والحشر فاستفهم بها وقال أماخلقوا أصلا ولذلك ينكرون القول بالتوحيد لانتفاء الايجاد وهو الخلق وينكرون الحشر لانتفاء الخلق الاول أم خلقوا من غير شئ أى أم يقولون بانهم خلقوا لالشئ فلا اعادة كما قال أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وعلى قولنا ان المراد خلقوا لامن تراب ولا من ماء فله وجه ظاهر وهو ان الخلق اذا لم يكن من شئ بل يكون ابداعيا يخفى كونه مخلوقا على بعض الاغبياء ولهذا قال بعضهم السماء رفع اتفاقا ووجد من غير خالق وأما الانسان الذى يكون أولا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما وعظما لايتمكن أحد من انكاره بعد مشاهدة تغير أحواله فقال تعالى أم خلقوا بحيث يخفى عليهم وجه خلقهم بان خلقوا ابتداء من غير سبق حالة عليهم يكونون فيها

قوله تعالى (اذ عرض عليه) راجع اليه عليه الصلاة والسلام قطعا واذ منصوب باذكر أى اذكر ماصدر عنه اذ عرض عليه (بالعشى) هو من الظهر الى آخر النهار (الصافنات) فانه يشهد بأنه أواب وقيل ظرف لاواب وقيل لنعم وتأخير الصافنات عن الظرفين لمامر مرارا من التشويق الى المؤخر والصافن من الخيل الذى يقوم على طرف سنبك يد أو رجل وهو من الصفات المحمودة فى الخيل لايكاد يتفق الا فى العراب الخلص وقيل هو الذى يجمع يديه ويسويهما وأما الذى يقف على سنبكه فهو المتخيم (الجياد) جمع جواد وجود وهو الذى يسرع فى جريه وقيل الذى يجود عند الركض وقيل وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية أى اذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها واذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها وقيل هو جمع جيد روى أنه عليه الصلاة والسلام غزا أهل دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس وقيل أصابها أبوه من العمالقة فورثها منه وقيل خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوما بعد ماصلى الظهر على كرسيه فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد كان له من الذكر وقتئذ وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لمافاته فاستردها فعقرها تقربا الى الله تعالى وبقى مائة فما فى أيدى الناس من الجياد فمن نسلها وقيل لما عقرها أبدله الله خيرا منها وهى الريح تجرى بأمره (فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى) قاله عليه الصلاة والسلام عند غروب الشمس اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندما عليه وتمهيدا لما يعقبه من الامر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار أواخر العرض المستمر دون ابتدائه والتأكيد

(٢) لعله ترك الثالث لظهوره وهو أنه اذا ثبت حقية المبدأ والمعاد ثبت حقية أمر الرسالة الخ ماذكره زاده فراجعه

(٣) قوله فان قيل فلم لم يصدر الخ لايخفى أن هذا عين ماقبله فتأمل

ترابا ولا ماء ولا نطفة ليس كذلك بل هم كانوا شيأ من تلك الاشياء خلقوا منه خلقا فما خلقوا من غير شئ حتى ينكروا الوحدانية ولهذا قال تعالى يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ولهذا أكثر الله من قوله خلقنا الانسان من نطفة وقوله ألم نخلقكم من ماء مهين يتناول الامرين المذكورين فى هذا الموضع لان قوله ألم نخلقكم من ماء يحتمل أن يكون نفى المجموع بنفى الخلق فيكون كانه قال أخلقتم لا من ماء وعلى قول من قال المراد منه أم خلقوا من غير شئ أى من غير خالق ففيه ترتيب حسن أيضا وذلك لان نفى الصانع اما أن يكون بنفى كون العالم مخلوقا فلا يكون ممكنا واما أن يكون ممكنا لكن الممكن لا يكون محتاجا فيقع الممكن من غير مؤثر وكلاهما محال وأما قوله تعالى أم هم الخالقون فمعناه أهم الخالقون للخلق فيعجز الخالق بكثرة العمل فان دأب الانسان انه يعيا بالخلق فما قولهم أما خلقوا فلا يثبت لهم اله البتة أم خلقوا وخفى عليهم وجه الخلق أم جعلوا الخالق مثلهم فنسبوا اليه العجز ومثله قوله تعالى أفعيينا بالخلق الاول هذا بالنسبة الى الحشر وأما بالنسبة الى التوحيد فهو رد عليهم حيث قالوا الامور مختلفة واختلاف الآثار يدل على اختلاف المؤثرات وقالوا أجعل الآلهة الها واحدا فقال تعالى أم هم الخالقون حيث لا يقدر الخباز على الخياطة والخياط على البناء وكل واحد يشغله شأن عن شأن ۝ ثم قال تعالى ﴿أم خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون﴾ وفيه وجوه (أحدها) ما اختاره الزمخشرى وهو أنهم لا يوقنون بانهم خلقوا وهو حينئذ فى معنى قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله أى هم معترفون بانه خلق الله وليس خلق أنفسهم (وثانيها) المراد بل لا يوقنون بان الله واحد وتقديره ليس الامر كذلك أى ما خلقوا وانما لا يوقنون بوحدة الله (وثالثها) لا يوقنون أصلا من غير ذكر مفعول يقال فلان ليس بمؤمن وفلان ليس بكافر لبيان مذهبه وان لم ينو مفعولا وكذلك قول القائل فلان يؤذى و يؤذى لبيان ما فيه لا مع القصد الى ذكر مفعول وحينئذ يكون تقديره انهم ما خلقوا السموات والارض ولا يوقنون بهذه الدلائل بل لا يوقنون أصلا وان جئتهم بكل آية يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم وهذه الآية اشارة الى دليل الآفاق وقوله من قبل أم خلقوا دليل الانفس ۝ ثم قال تعالى ﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون﴾ وفيه وجوه (أحدها) المراد من الخزائن خزائن الرحمة (ثانيها) خزائن الغيب (ثالثها) انه اشارة الى الاسرار الالهية المخفية عن الاعيان (رابعها) خزائن المخلوقات التى لم يرها الانسان ولم يسمع بها وهذه الوجوه الاول والثانى منقول والثالث والرابع مستنبط وقوله تعالى أم هم المسيطرون تتمة للرد عليهم وذلك لانه لما قال أم عندهم خزائن ربك أشار الى أنهم ليسوا بخزنة الله فيعلموا خزائن الله وليس بمجرد انتفاء كونهم خزنة ينتفى العلم لجواز أن يكون مشرفا على الخزانة فان العلم بالخزائن عند الخازن والكاتب فى الخزانة فقال لستم بخزنة ولا بكتبة الخزانة المسلطين عليها ولا يبعد تفسير المسيطرين بكتبة الخزانة لان التركيب يدل على السطر وهو يستعمل فى الكتاب وقيل المسيطر المسلط وقرئ بالصاد وكذلك فى كثير من السينات التى مع الطاء كما فى قوله تعالى بمسيطر ومصيطر ۝ ثم قال تعالى ﴿أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾ وهو أيضا تتميم للدليل فان من لا يكون خازنا ولا كاتبا قد يطلع على الامر بالسماع من الخازن أو الكاتب فقال أنتم لستم بخزنة ولا كتبة ولا اجتمعتم بهم لانهم ملائكة ولا صعود لكم اليهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المقصود نفى الصعود ولا يلزم من نفى السلم لهم نفى الصعود فما الجواب عنه نقول النفى أبلغ من نفى الصعود وهو نفى الاستماع وآخر الآية شامل للكل قال تعالى فليأت مستمعهم بسلطان مبين (المسئلة الثانية) السلم لا يستمع فيه وانما يستمع عليه فما الجواب نقول من وجهين (أحدهما) ما ذكره الزمخشرى ان المراد يستمعون صاعدين فيه (وثانيهما) ما ذكره الواحدى ان فى بمعنى على كما فى قوله تعالى ولاصلبنكم فى جذوع النخل أى على جذوع النخل وكلاهما ضعيف لما فيه من الاضمار والتغيير (المسئلة الثالثة

للدلالة على ان اعترافه وندمه عن صميم القلب لا لتحقيق مضمون الخبر وأصل أحببت أن يعدى بعلى لانه بمعنى آثرت لكن لما أنيب مناب أثبت عدى تعديته وحب الخير مفعوله كأنه قيل أثبت حب الخير عن ذكر ربى ووضعته موضعه والخير المال الكثير والمراد به الخيل التى شغلته عليه الصلاة والسلام ويحتمل أنه سماها خيرا لتعلق الخير بها قال عليه الصلاة والسلام الخير معقود بنواصى الخيل الى يوم القيامة وقرئ انى (حتى توارت بالحجاب) متعلق بقوله أحببت باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض أى أثبت حب الخير عن ذكر ربى واستمر ذلك حتى توارت أى غربت الشمس تشبيها لغروبها فى مغربها بتوارى المخبأة بحجابها واضمارها من غير ذكر لدلالة العشى عليها وقيل الضمير للصافنات أى حتى توارت بحجاب الليل أى بظلامه (ردوها على) من تمام مقالة سليمان عليه السلام ومرمى غرضه من تقديم ما قدمه ومن لم يتنبه له مع ظهوره توهم أنه متصل بمضمر هو جواب لمضمر آخر كأن سائلا قال فماذا قال سليمان عليه السلام فقيل قال ردوها فتأمل والفاء فى قوله تعالى (فطفق مسحا) فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا بغاية سرعة الامتثال بالامر أى فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحا (بالسوق والاعناق) أى بسوقها وأعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته أى ضرب عنقه وقيل جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حبالها وأعجابها وليس بذاك وقرئ بالسؤق على همز الواو لضمتها كما فى أدؤر وقرئ بالسؤوق تنزيلا لضمة السين منزلة ضمة الواو وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لامن الالباس (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) أظهر ما قيل فى فتنته عليه الصلاة والسلام ما روى مرفوعا أنه قال لاطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل ان شاء الله تعالى فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى

لم

لم ترك ذكر مفعول يستمعون وماذا هو نقول فيه وجوه (أحدها) المستمع هو الوحي أي هل لهم سلم يستمعون فيه الوحي (ثانيها) يستمعون ما يقولون من أنه شاعر وأن لله شريكا وأن الحشر لا يكون (ثالثها) ترك المفعول رأسا كأنه يقول هل لهم قوة الاستماع من السماء حتى يعلموا انه ليس برسول وكلامه ليس بمرسل (المسئلة الرابعة) قال فليأت مستمعهم ولم يقل فليأتوا كما قال تعالى فليأتوا بحديث مثله نقول طلب منهم ما يكون أهون على تقدير صدقهم ليكون اجتماعهم عليه أدل على بطلان قولهم فقال هناك فليأتوا أي اجتمعوا عليه وتعاونوا وأتوا بمثله فان ذلك عند الاجتماع أهون وأما الارتقاء في السلم بالاجتماع متعذر لأنه لا يرتقي الا واحد بعد واحد ولا يحصل في الدرجة العليا الا واحد فقال فليأت ذلك الواحد الذي كان أشد رقيا بما سمعه (المسئلة الخامسة) قوله بسلطان مبين ما المراد به نقول هو اشارة الى لطيفة وهي أنه لو طلب منهم ما سمعوه وقيل لهم فليأت مستمعهم بما سمع لكان لواحد أن يقول أنا سمعت كذا وكذا فيفتري كذبا فقال لا بل الواجب ان يأتي بدليل يدل عليه ۞ ثم قال تعالى (أم له البنات ولكم البنون) اشارة الى نفي الشرك وفساد ما يقولون بطريق آخر وهو ان المتصرف انما يحتاج الى الشريك لعجزه والله قادر فلا شريك له فانهم قالوا نحن لا نجعل هذه الاصنام وغيرها شركاء وانما نعظمها لأنها بنات الله فقال تعالى كيف تجعلون لله البنات وخلق البنات والبنين انما كان لجواز الفناء على الشخص ولولا التوالد لانقطع النسل وارتفع الاصل من غير أن يقوم مقامه الفصل فقدر الله التوالد ولهذا لا يكون في الجنة ولادة لأن الدار دار البقاء لا موت فيها للآباء حتى تقام العمارة بحدوث الابناء اذا ثبت هذا فالولد انما يكون في صورة امكان فناء الاب ولهذا قال تعالى في أوائل سورة آل عمران الحي القيوم أي حي لا يموت فيحتاج الى ولد يرثه وهو قيوم لا يتغير ولا يضعف فيفتقر الى ولد ليقوم مقامه لأنه ورد في نصارى نجران ثم ان الله تعالى بين هذا بأبلغ الوجوه وقال انهم يجعلون له بنات ويجعلون لأنفسهم بنين مع ان جعل البنات لهم أولى وذلك لأن كثرة البنات تعين على كثرة الاولاد لأن الاناث الكثيرة يمكن منهن الولادة بأولاد كثيرة من واحد وأما الذكور الكثيرة لا يمكن منهم احبال أنثى واحدة بأولاد ألا ترى ان الغنم لا يذبح منها الا الاناث الا نادرا وذلك لما ثبت ان ابقاء النوع بالانثى أنفع نظرا الى التكثير فقال تعالى أنا القيوم الذي لا فناء لي ولا حاجة لي في بقاء النوع في حدوث الشخص وأنتم معرضون للموت العاجل وبقاء العالم بالاناث أكثر وتتبرؤن منهن والله تعالى مستغن عن ذلك وتجعلون له البنات وعلى هذا فما تقدم كان اشارة الى نفي الشريك نظرا الى انه لا ابتداء لله وهذا اشارة الى نفي الشريك نظرا الى انه لا فناء له فان قيل كيف وقع لهم نسبة البنات الى الله تعالى مع ان هذا أمر في غاية القبح لا يخفى على عاقل والقوم كان لهم العقول التي هي مناط التكليف وذلك القدر كاف في العلم بفساد هذا القول نقول ذلك القول دعاهم اليه اتباع العقل وعدم اعتبار النقل ومذهبهم في ذلك مذهب الفلاسفة حيث يقولون يجب اتباع العقل الصريح ويقولون النقل بمعزل لا يتبع الا اذا وافق العقل واذا وافق فلا اعتبار للنقل لأن العقل هناك كاف ثم قالوا الوالد يسمى والدا لأنه سبب وجود الولد ولهذا يقال اذا ظهر شئ من شئ هذا تولد من ذلك فيقولون الحمى تتولد من عفونة الخلط فقالوا الله تعالى سبب وجود الملائكة سببا واجبا لا اختيار له فسموه بالوالد ولم يلتفتوا الى وجوب تنزيه الله في تسميته بذلك عن التسمية بما يوهم النقص ووجوب الاقتصار في أسمائه على الاسماء الحسنى التي ورد بها الشرع لعدم اعتبارهم النقل فقالوا بجواز اطلاق الاسماء المجازية والحقيقية على الله تعالى وصفاته فسموه عاشقا ومعشوقا وسموه أبا ووالدا ولم يسموه ابنا ولا مولودا باتفاقهم وذلك ضلالة ۞ ثم قال تعالى (أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون) وجه التعلق هو أن المشركين لما اطرحوا الشرع واتبعوا ما ظنوه عقلا وسموا الموجود بعد العدم مولودا ومتولدا والموجد والدا لزمهم الكفر بسببه والاشراك فقال لهم ما الذي يحملكم على اطراح الشرع وترك اتباع الرسول صلى الله عليه

بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون وقيل ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك فكان يغذوه في السحاب فما شعر به الا أن ألقى على كرسيه ميتا فتنبه لخطيئته حيث لم يتوكل على الله عز وعلا وقيل انه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها وأصاب بنتا له تسمى جرادة من أحسن الناس فاصطفاها لنفسه وأسلمت وأحبها وكان لا يرقأ دمعها جزعا على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته وكانت تغدو اليها وتروح مع ولائدها يسجدن لها كعادتهن في ملكه فأخبره آصف بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج وحده الى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبا الى الله تعالى باكيا متضرعا وكانت له أم ولد يقال لها أمينة اذا دخل للطهارة أو لاصابة امرأة يعطيها خاتمه وكان ملكه فيه فأعطاها يوما فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر وأخذ الخاتم فتختم به وجلس على كرسيه فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه في كل شئ الا في نسائه وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف ان الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف واذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد الى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحا عدد ما عبد الوثن في بيته فأنكر آصف وعظماء بني اسرائيل حكم الشيطان ثم طار اللعين وقذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة فوقعت في يد سليمان فبقر بطنها فاذا هو بالخاتم فتختم به وخر ساجدا وعاد اليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه بأخرى ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه في البحر وعلى هذا فالجسد عبارة عن صخر سمي به وهو جسم لا روح فيه لأنه تمثل بما لم يكن كذلك والخطيئة تغافله عليه الصلاة والسلام عن حال أهله لأن اتخاذ التماثيل لم يكن محظورا حينئذ وسجود الصورة بغير علم منه لا يضره (قال) بدل من أناب وتفسير له (رب اغفر لي) أي ما صدر عني من الزلة (وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) لا يتسهل له ولا يكون ليكون معجزة لي

مناسبة لحالى فانه عليه الصلاة والسلام لما نشأ فى بيت الملك والنبوة وورثهما معا استدعى من ربه معجزة جامعة لحكمهما أو لا ينبغى لاحد أن يسلبه منى بعد هذه السلبة أو لا يصح لاحد من بعدى لعظمته كقولك لفلان ما ليس لاحد من الفضل والمال على ارادة وصف الملك بالعظمة لا أن لا يعطى أحد مثله فيكون منافسة وقيل كان ملكا عظيما فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله تعالى وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين جريا على سنن الانبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين وكون ذلك أدخل فى الاجابة وقرئ لى بفتح الياء (انك أنت الوهاب) تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معا لا بالاخيرة فقط فان المغفرة أيضا من أحكام وصف الوهابية قطعا (فسخرنا له الريح) أى فذللناها لطاعته اجابة لدعوته فعاد أمره عليه الصلاة والسلام الى ما كان عليه قبل الفتنة وقرئ الرياح (تجرى بأمره) بيان لتسخيرها له (رخاء) أى لينة من الرخاوة طيبة لا تزعزع وقيل طيعة لا تمتنع عليه كالمأمور المنقاد (حيث أصاب) أى حيث قصد وأراد حكى الاصمعى عن العرب أصاب الصواب فأخطأ الجواب (والشياطين) عطف على الريح (كل بناء وغواص) بدل من الشياطين (وآخرين مقرنين فى الاصفاد) عطف على كل بناء داخل فى حكم البدل كأنه عليه الصلاة والسلام فصل الشياطين الى عملة استعملهم فى الاعمال الشاقة من البناء والغوص ونحو ذلك والى مردة قرن بعضهم مع بعض فى السلاسل لكفهم عن الشر والفساد ولعل أجسامهم شفافة فلا ترى صلبة فيمكن تقييدها ويقدرون على الاعمال الصعبة وقد جوز أن يكون الاقران فى الاصفاد عبارة عن كفهم عن الشرور بطريق التمثيل والصفد القيد وسمى به العطاء لانه يرتبط بالمنعم عليه وفرقوا بين فعليهما فقالوا صفده
هو
قيده وأصفده أعطاه على عكس وعد وأوعد وقوله تعالى (هذا) الخ اما حكاية لما خوطب به سليمان عليه السلام مبينة لعظم شأن ما أوتى من الملك

وسلم هل ذلك لطلبه منكم شيأ فما كان يسعهم ان يقولوا نعم فلم يبق لهم الا أن يقولوا لا فنقول لهم كيف اتبعتم قول الفلسفى الذى يسوغ لكم قول الزور وما يوجب الاستخفاف بجانب الله تعالى لفظا ان لم يكن معنى كما تقولون ولا تتبعون الذى يأمركم بالعدل فى المعنى والاحسان فى اللفظ ويقول لكم اتبعوا المعنى الحق الواضح واستعملوا اللفظ الحسن المؤدب وهذا فى غاية الحسن من التقدير * وأما التفسير ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى سؤال النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال أم تسألهم ولم يقل أم يسألون أجرا كما قال تعالى أم يقولون وقال تعالى أم يريدون كيدا الى غير ذلك نقول فيه فائدتان (احداهما) تسلية قلب النبى صلى الله عليه وسلم وذلك لانهم لما امتنعوا من الاستماع واستنكفوا من الاتباع صعب على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له ربه أنت أتيت بما عليك فلا يضيق صدرك حيث لم يؤمنوا فأنت غير ملوم وانما كنت تلام لو كنت طلبت منهم أجرا فهل طلبت ذلك فأثقلهم لا فلا حرج عليك اذا (ثانيتهما) انه لو قال أم يسألون لزم نفى طلب أجر مطلقا وليس كذلك وذلك لانهم كانوا يشركون ويطالبون بالاجر من رؤسائهم وأما النبى صلى الله عليه وسلم فقال له أنت لا تسألهم أجرا فهم لا يتبعونك وغيرك يسألهم وهم يسألون ويتبعون السائلين وهذا غاية الضلال (المسئلة الثانية) ان قال قائل ألزمت أن تبين أن أم لا تقع الا متوسطة حقيقة أو تقديرا فكيف ذلك ههنا نقول كأنه تعالى يقول أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجرا وترك الاول لعدم وقوع الانكار عليه كما قلنا فى قوله أم له البنات ان المقدر اهو واحد أم له البنات وترك ذكر الاول لعدم وقوع الانكار عليه من الله تعالى وكونهم قائلين بانه لا يريد وجه الله تعالى وانما يريد الرياسة والاجر فى الدنيا (المسئلة الثالثة) هل فى خصوص قوله تعالى أجرا فائدة لا توجد فى غيره لو قال أم تسألهم شيأ أو مالا أو غير ذلك نقول نعم وقد تقدم القول منى ان كل لفظ فى القرآن فيه فائدة وان كنا لا نعلمها والذى يظهر ههنا ان ذلك اشارة الى أن ما يأتى به النبى صلى الله عليه وسلم فيه مصلحتهم وذلك لان الاجر لا يطلب الا عند فعل شئ يفيد المطلوب منه الاجر فقال أنت أتيتهم بما لو طلبت عليه أجرا لعلموا كمال ما فى دعوتك من المنفعة لهم وبهم لاتوك بجميع أموالهم ولفدوك بانفسهم ومع هذا لا تطلب منهم أجرا ولو قال شيأ أو مالا لما حصلت هذه الفائدة والله أعلم (المسئلة الرابعة) هذا يدل على انه لم يطلب منهم اجرا ما وقوله تعالى قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة فى القربى يدل على انه طلب اجرا ما فكيف الجمع بينهما نقول لا تفرقة بينهما بل الكل حق وكلاهما ككلام واحد وبيانه هو ان المراد من قوله الا المودة فى القربى هو انى لا أسئلكم عليه أجرا يعود الى الدنيا وانما أجرى المحبة فى الزلفى الى الله تعالى وان عباد الله الكاملين أقرب الى الله تعالى من عباده الناقصين وعباد الله الذين كملهم الله وكملوه وأرسلهم لتكميل عباده فكملوا أقرب الى الله من الذين لم يرسلهم الله ولم يكملوا وعلى هذا فهو فى معنى قوله ان أجرى الا على الله واليه انتهى وقوله صلى الله عليه وسلم فانى أباهى بكم الامم يوم القيامة وقوله فهم من مغرم مثقلون بين ما ذكرنا ان قوله أم تسألهم أجرا المراد أجرا الدنيا وقوله قل لا أسئلكم عليه أجرا المراد العموم ثم استثنى ولا حاجة الى ما قاله الواحدى ان ذلك منقطع معناه لكن المودة فى القربى وقد ذكرناه هناك فلا يطلب منه (المسئلة الخامسة) قوله تعالى فهم من مغرم مثقلون اشارة الى أنه صلى الله عليه وسلم ما طلب منهم شيأ ولو طالبهم بأجر ما كان لهم أن يتركوا اتباعه بأدنى شئ الههم الا ان أثقلهم التكليف ويأخذ كل مالهم ويغرمهم التخليف فيثقلهم الدين بعد ما لا يبقى لهم العين ۞ ثم قال تعالى (أم عندهم الغيب فهم يكتبون) وهو على الترتيب الذى ذكرناه كأنه تعالى قال لهم بم اطرحتم الشرع ومحاسنه وقلتم ما قلتم بناء على اتباعكم الاوهام الفاسدة التى تسمونها المعقولات والنبى صلى الله عليه وسلم لا يطلب منكم أجرا وأنتم لا تعلمون فلا عذر لكم لان العذر اما فى الغرامة واما فى عدم الحاجة الى ما جاء به ولا غرامة عليكم فيه ولا غنى لكم عنه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف التقدير قلنا الاحاجة الى التقدير بل

هو استفهام متوسط على ماذكرنا كأنه قال أتهديهم لوجه الله تعالى أم تسألهم أجرا فيمتنعون أم لاحاجة لهم الى ما تقول لكونهم عندهم الغيب فلا يتبعون (المسئلة الثانية) الالف واللام في الغيب لتعريف ماذا ألجنس أو لعهد نقول الظاهر ان المراد نوع الغيب كما يقول القائل اشتر اللحم يريد بيان الحقيقة لا كل لحم ولا لحما معينا والمراد في قوله تعالى عالم الغيب والشهادة الجنس واستغراقه لكل غيب (المسئلة الثالثة) على هذا كيف يصح عندهم الغيب وما عند الشخص لا يكون غيبا نقول معناه حضر عندهم ما غاب عن غيرهم وقيل هذا متعلق بقوله نتربص به ريب المنون أى أعندكم الغيب تعلمون أنه يموت قبلكم وهو ضعيف لبعد ذلك ذكرا ولان قوله تعالى قل تربصوا متصل به وذلك يمنع اتصال هذا بذلك (المسئلة الرابعة) ما الفائدة في قوله فهم يكتبون نقول وضوح الامر واشارة الى ان ما عند النبي صلى الله عليه وسلم من علم الغيب علم بالوحي أمورا وأسرارا وأحكاما وأخبارا كثيرة كلها هو جازم بها وليس كما يقول المتفرس الامر كذا وكذا فان قيل اكتب به خطك انه يكون يمتنع ويقول أنا لا أدعي فيه الجزم والقطع ولكن اذكره كذا وكذا على سبيل الظن والاستنباط وان كان قاطعا يقول اكتبوا هذا عني وأثبتوا في الدواوين أن في اليوم الفلاني يقع كذا وكذا فقوله أم عندهم الغيب فهم يكتبون يعني هل صاروا في درجة محمد صلى الله عليه وسلم حتى استغنوا عنه وأعرضوا ونقل عن ابن قتيبة ان المراد من الكتابة الحكم معناه يحكمون وتمسك بقوله صلى الله عليه وسلم اقض بيننا بكتاب الله أى حكم الله وليس المراد ذلك بل هو من باب الاضمار معناه بما في كتاب الله تعالى يقال فلان يقضي بمذهب الشافعي أى بما فيه ويقول الرسول الذي معه كتاب الملك للرعية اعملوا بكتاب الملك ۞ ثم قال تعالى ﴿أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه التعلق والمناسبة بين الكلامين قلنا بين ذلك ببيان المراد من قوله أم يريدون كيدا فبعض المفسرين قال أم يريدون أن يكيدوك فهم المكيدون أى لا يقدرون على الكيد فان الله يصونك بعينه وينصرك بصونه وعلى هذا اذا قلنا بقول من يقول أم عندهم الغيب متصل بقوله تعالى نتربص به ريب المنون فيه ترتيب في غاية الحسن وهو أنهم لما قالوا نتربص به ريب المنون قيل لهم أتعلمون الغيب فتعلمون انه يموت قبلكم أم تريدون كيدا فتقولون نقتله فيموت قبلنا فان كنتم تدعون الغيب فأنتم كاذبون وان كنتم تظنون أنكم تقدرون عليه فأنتم غالطون فان الله يصونه عنكم وينصره عليكم وأما على ما قلنا ان المراد منه أنه صلى الله عليه وسلم لا يسألكم على الهداية مالا وأنتم لا تعلمون ما جاء به لولا هدايته لكونه من الغيوب فنقول فيه وجوه (الاول) ان المراد من قوله تعالى أم يريدون كيدا أى من الشيطان وازاغته فيحصل مرادهم كأنه تعالى قال أنت لا تسألهم أجرا وهم لا يعلمون الغيب فهم محتاجون اليك وأعرضوا فقد اختاروا كيد الشيطان ورضوا بازاغته والارادة بمعنى الاختيار والمحبة كما قال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه وكما قال أئفكا آلهة دون الله تريدون وأظهر من ذلك قوله تعالى اني أريد أن تبوء باثمي واثمك (الوجه الثاني) أن يقال ان المراد والله أعلم أم يريدون كيد الله فهو واصل اليهم وهم عن قريب مكيدون وترتيب الكلام هو انهم لما لم يبق لهم حجة في الاعراض فهم يريدون نزول العذاب بهم والله أرسل اليهم رسولا لا يسألهم أجرا ويهديهم الى ما لا علم لهم ولا كتاب عندهم وهم يعرضون فهم يريدون اذا أن يهلكهم ويكيدهم لان الاستدراج كيد والاملاء لازدياد الاثم كذلك لا يقال هو فاسد لان الكيد والاساءة لا يطلق على فعل الله تعالى الا بطريق المقابلة وكذلك المكر فلا يقال أساء الله الى الكفار ولا اعتدى الله الا اذا ذكر أولا فيهم شئ من ذلك ثم قال بعد ذلك بسببه لفظا في حق الله تعالى كما في قوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وقال فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه وقال ومكروا ومكر الله وقال يكيدون كيدا وأكيد كيدا لانا نقول الكيد ما يسوء من نزل به وان حسن ممن وجد منه ألا ترى ان ابراهيم عليه السلام قال لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين من غير مقابلة (المسئلة الثانية) ما الفائدة في قوله تعالى فالذين

وأنه مفوض اليه تفويضا كليا واما مقول لقول مقدر وهو معطوف على سخرنا أو حال من فاعله كما مر في خاتمة قصة داود عليه السلام أي وقلنا له أو قائلين له هذا الامر الذي أعطيناكه من الملك العظيم والبسطة والتسلط على ما لم يسلط عليه غيرك (عطاؤنا) الخاص بك (فامنن أو أمسك) فاعط من شئت وامنع من شئت (بغير حساب) حال من المستكن في الامر أى غير محاسب على منه وامساكه لتفويض التصرف فيه اليك على الاطلاق أو من العطاء أى هذا عطاؤنا ملتبسا بغير حساب لغاية كثرته أو صلة له وما بينهما اعتراض على التقديرين وقيل الاشارة الى تسخير الشياطين والمراد بالمن والامساك الاطلاق والتقييد (وان له عندنا لزلفى) في الآخرة مع ماله من الملك العظيم في الدنيا (وحسن مآب) هو الجنة قيل فتن سليمان عليه السلام بعد ما ملك عشرين سنة وملك بعد الفتنة عشرين سنة وذكر الفقيه أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري في تاريخه أن سليمان عليه السلام ورث ملك أبيه في عصر كيخسرو بن سياوش وسار من الشام الى العراق فبلغ خبره كيخسرو فهرب الى خراسان فلم يلبث حتى هلك ثم سار سليمان عليه السلام الى مرو ثم الى بلاد الترك فوغل فيها ثم جاز بلاد الصين ثم عطف الى ان وافى بلاد فارس فنزلها أياما ثم عاد الى الشأم ثم أمر ببناء بيت المقدس فلما فرغ منه سار الى تهامة ثم الى صنعاء وكان من حديثه مع صاحبتها ما ذكره الله تعالى وغزا بلاد المغرب الاندلس وطنجة وغيرهما والله تعالى أعلم (واذكر عبدنا أيوب) عطف على اذكر عبدنا داود وعدم تصدير قصة سليمان بهذا العنوان لكمال الاتصال بينه وبين داود عليهما السلام وأيوب هو ابن عيص بن اسحق عليه السلام (اذ نادى ربه) بدل اشتمال من عبدنا وأيوب عطف بيان له (أني) باني (مسني الشيطان) بفتح ياء مسني وقرئ باسكانها واسقاطها (بنصب) أي تعب وقرئ بفتح النون وبفتحتين وبضمتين للتثقيل (وعذاب) أي ألم ووصب يريد مرضه وما كان يقاسيه من فنون

الشدائد وهو المراد بالضر فى قوله انى مسنى الضر وهو حكاية لكلامه الذى ناداه به بعبارته والا لقيل انه مسه الخ والاسناد الى الشيطان امالانه تعالى مسه بذلك لما فعل بوسوسته كما قيل انه أعجب بكثرة ماله أو استغاثه مظلوم فلم يغثه أو كانت مواشيه فى ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه أو لامتحان صبره فيكون اعترافا بالذنب أو مراعاة للادب أو لانه وسوس الى أتباعه حتى رفضوه واخرجوه من ديارهم أو لان المراد بالنصب والعذاب ما كان يوسوس به اليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة والجزع فالتجأ الى الله تعالى فى أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل وليس هذا تمام دعائه عليه الصلاة والسلام بل من جملته قوله وأنت أرحم الراحمين فاكتفى ههنا عن ذكره بما فى سورة الانبياء كما ترك هناك ذكر الشيطان ثقة بما ذكر ههنا وقوله تعالى (اركض برجلك) الخ اما حكاية لما قيل له أو مقول لقول مقدر معطوف على نادى أى فقلنا له اركض برجلك أى اضرب بها الارض وكذا قوله تعالى (هذا مغتسل بارد وشراب) فانه أيضا اما حكاية لما قيل له بعد امتثاله بالامر ونبوع الماء أو مقول لقول مقدر معطوف على مقدر ينساق اليه الكلام كأنه قيل فضربها فنبعت عين فقلنا له هذا مغتسل تغتسل به وتشرب منه فيبرأ ظاهرك وباطنك وقيل نبعت عينان حارة للاغتسال وباردة للشرب ويأباه ظاهر النظم الكريم وقوله تعالى (ووهبنا له أهله) معطوف على مقدر مترتب على مقدر آخر يقتضيه القول المقدر آنفا كأنه قيل فاغتسل وشرب فكشفنا بذلك ما به من ضر كما فى سورة الانبياء ووهبنا له أهله اما باحيائهم بعد هلاكهم وهو المروى عن الحسن أو بجمعهم بعد تفرقهم كما قيل (ومثلهم معهم) عطف على أهله فكان له من الاولاد ضعف ما كان له قبل (رحمة منا) أى لرحمة عظيمة عليه من قبلنا (وذكرى لأولى الالباب) ولتذكيرهم بذلك ليصبروا على الشدائد كما صبر ويلجؤا الى كانوا

كفروا هم المكيدون وما الفرق بين معنى هذا الكلام ومعنى قول القائل أم يريدون كيدا فهم المكيدون نقول الفائدة كون الكافر مكيدا فى مقابلة كفره لا فى مقابلة ارادته الكيد ولو قال أم يريدون كيدا فهم المكيدون كان يفهم منه أنهم ان لم يريدوه لا يكونوا مكيدين وهذا يؤيد ما ذكرنا ان المراد من المكيد كيد الشيطان أو كيد الله بمعنى عذابه اياهم لان قوله فالذين كفروا هم المكيدون عام فى كل كافر كاده الشيطان ويكيده الله أى يعذبه وصار المعنى على ما ذكرناه أتهديهم لوجه الله أم تسألهم أجرا فتثقلهم فيمتنعون عن الاتباع أم عندهم الغيب فلا يحتاجون اليك فيعرضون عنك أم ليس شئ من هذين الامرين الاخيرين فيريدون العذاب والعذاب غير مدفوع عنهم بوجه من الوجوه لكفرهم فالذين كفروا معذبون (المسئلة الثالثة) ما الفائدة فى تنكير الكيد حيث لم يقل أم يريدون كيدك أو الكيد أو غير ذلك ليزول الابهام نقول فيه فائدة وهى الاشارة الى وقوع العذاب من حيث لا يشعرون فكأنه قال يأتيهم بغتة ولا يكون لهم به علم أو يكون اراد العظمته كما ذكرنا مرارا ۞ ثم قال تعالى ﴿أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون﴾ أعاد التوحيد وهو يفيد فائدة قوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وفى سبحان الله بحث شريف وهو أن أهل اللغة قالوا سبحان اسم علم للتسبيح وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وأكثرنا من الفوائد فان قيل يجوز أن نقول سبحان اسم مصدر ونقول سبحان على وزن فعلان فنذكر سبحان فى غير مواضع الايقاع الله كما يقال فى التسبيح نقول ذلك مثل قول القائل من حرف جار وفى كلمة ظرف حيث يخبر عنه مع ان الحرف لا يخبر عنه فيجاب بان من وفى حينئذ جعلا كالاسم ولم يتركا على أصلهما المستعمل فى مثل قولك أخذت من زيد والدرهم فى الكيس فكذلك سبحان فيما ذكر من المواضع لم يترك على مواضع استعماله فانه حينئذ لم يترك علما كما يقال زيد على وزن فعل بخلاف التسبيح فيما ذكرنا (المسئلة الرابعة) ما فى قوله تعالى عما يشركون يحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون مصدرية معناه سبحانه عن اشراكهم (ثانيهما) خبرية معناه عن الذين يشركون وعلى هذا فيحتمل أن يكون عن الولد لانهم كانوا يقولون البنات لله فقال سبحان الله عن البنات والبنين ويحتمل أن يكون عن مثل الآلهة لانهم كانوا يقولون هو مثل ما يعبدونه فقال سبحان الله عن مثل ما يعبدونه ۞ ثم قال تعالى ﴿وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم﴾ وجه الترتيب فيه هو انه تعالى لما بين فساد أقوالهم وسقوطها عن درجة الاعتبار أشار الى انه لم يبق لهم شئ من وجه الاعتذار فان الآيات ظهرت والحجج غيرت ولم يؤمنوا وبعد ذلك ان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب أى ينكرون الآية لكن الآية اذا ظهرت فى أظهر الاشياء كانت أظهر وبيانه هو ان من يأتى بجسم من الاجسام من بيته وادعى فيه انه فعل به كذا فر بما يخطر ببال السامع انه فى بيته ولما يدعه فاذا قال للناس هاتوا جسما تريدون حتى أجعل لكم منه كذا يزول ذلك الوهم لكن أظهر الاشياء عند الانسان الارض التى هى مهده وفرشه والسماء التى هى سقفه وعرشه وكانت العرب على مذهب الفلاسفة فى أصل المذهب ولا يلتفت الى قول الفلسفى نحن ننزه غاية التنزيه حتى لا نجوز رؤيته واتصافه بوصف زائد على ذاته ليكون واحدا فى الحقيقة فكيف يكون مذهبنا مذهب من يشرك بالله صنما منحوتا نقول أنتم لما نسبتم الحوادث الى الكواكب وشرعتم فى دعوة الكواكب أخذ الجهال عنكم ذلك واتخذوه مذهبا واذا ثبت ان العرب فى الجاهلية كانت فى الاصل على مذهب الفلاسفة وهم يقولون بالطبائع فيقولون الارض طبعها التكوين والسماء طبعها يمنع الانفصال والانفكاك فقال الله تعالى ردا عليهم فى مواضع ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ابطالا للطبائع واثباتا للاختيار فى الوقائع فقال ههنا ان أتينا بشئ غريب فى غاية الغرابة فى أظهر الاشياء وهو السماء التى يرونها ابدا ويعلمون ان أحدا لا يصل اليها ليعمل بالادوية وغيرها ما يوجب سقوطها لانكروا ذلك فكيف فيما دون ذلك من الامور والذى يؤيد ما ذكرناه وانهم

كانوا على مذهب الفلاسفة فى أمر السماء انهم قالوا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أى ذلك فى زعمك ممكن فاما عندنا فلا والكسفة القطعة يقال كسفة من ثوب أى قطعة وفيه مباحث (البحث الاول) استعمل فى السماء لفظة الكسف واللغويون ذكروا استعمالها فى الثوب لان الله تعالى شبه السماء بالثوب المنشور ولهذا ذكره فيما مضى فقال والسموات مطويات وقال تعالى يوم نطوى السماء (البحث الثانى) استعمل الكسف فى السماء والخسف فى الارض فقال تعالى نخسف بهم الارض وهو يدل على قول من قال يقال فى القمر خسوف وفى الشمس كسوف ووجهه ان مخرج الخاء دون مخرج الكاف فوقه متصل به فاستعمل وصف الاسفل للاسفل والاعلى للاعلى فقالوا فى الشمس والسماء الكسوف والكسف وفى القمر والارض الخسوف والخسف وهذا من قبيل قولهم فى المائح والماتح ان مانقطه فوق لمن فوق البئر وما نقطه من أسفل عند من يجوز نقطه من أسفل لمن تحت فى أسفل البئر (البحث الثالث) قال فى السحاب وجعله كسفا مع انه تحت القمر وقال فى القمر وخسف القمر وذلك لان القمر عند الخسوف له تظير فوقه وهو الشمس عند الكسوف والسحاب اعتبر فيه نسبته الى أهل الارض حيث ينظرون اليه فلم يقل فى القمر خسف بالنسبة الى السحاب وانما قيل ذلك بالنسبة الى الشمس وفى السحاب قيل بالنسبة الى الارض (المسئلة الثانية) ساقطا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مفعولا ثانيا يقال رأيت زيدا عالما (وثانيهما) أن يكون حالا كما يقال ضربته قائما والثانى أولى لان الرؤية عند التعدى الى مفعولين فى أكثر الامر تكون بمعنى العلم تقول أرى هذا المذهب صحيحا وهذا الوجه ظاهرا وعند التعدى الى واحد تكون بمعنى رأى العين فى الاكثر تقول رأيت زيدا وقال تعالى لما رأوا بأسنا وقال فاما ترين من البشر أحدا والمراد فى الآية رؤية العين (المسئلة الثالثة) فى قوله ساقطا فائدة لا تحصل فى غير السقوط وذلك لان عندهم لا يجوز الانفصال على السموات ولا يمكن نزولها وهبوطها فقال ساقطا ليكون مخالفا لما يعتقدونه من وجهين (أحدهما) الانفصال (والآخر) السقوط ولو قال وان يروا كسفا منفصلا أو معلقا لما حصلت هذه الفائدة (المسئلة الرابعة) فى قوله يقولوا فائدة أخرى وذلك لانه يفيد بيان العناد الذى هو مقصود سرد الآية وذلك لانهم فى ذلك الوقت يستخرجون وجوها حتى لا يلزمهم التسليم فيقولون سحاب قولا من غير عقيدة وعلى هذا يحتمل أن يقال وان يروا المراد العلم ليكون أدخل فى العناد أى اذا علموا وتيقنوا ان السماء ساقطة غيروا وعاندوا وقالوا هذا سحاب مركوم (المسئلة الخامسة) قوله تعالى يقولوا سحاب مركوم اشارة الى انهم حين يعجزون عن التكذيب ولا يمكنهم أن يقولوا لم يقع شئ على الارض يرجعون الى التأويل والتخييل وقوله مركوم أى مركب بعضه على بعض كأنهم يدفعون عن أنفسهم ما يورد عليهم بأن السحاب كالهواء لا يمنع نفوذ الجسم فيه وهذا أقوى مانع فيقولون انه ركام فصار صلبا قويا (المسئلة السادسة) فى اسقاط كلمة الاشارة حيث لم يقل يقولوا هذا اشارة الى وضوح الامر وظهور العناد فلا يستحسنون ان يأتوا بما لا يبقى معه مراء فيقولون سحاب مركوم مع حذف المبتدا ليبقى للقائل فيه مجال فيقولون عند تكذيب الخلق اياهم قلنا سحاب مركوم شبهه ومثله وان يمشى الامر مع عوامهم استمروا وهذا مجال من يخاف من كلام ولا يعلم انه يقبل منه أو لا يقبل فيجعله ذا وجهين فان رأى التنكر على أحدهما فسره بالآخر وان رأى القبول خرج بمراده ۞ ثم قال تعالى ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون﴾ أى اذا تبين انهم لا يرجعون فدعهم حتى يلاقوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فذرهم أمر وكان يجب أن يقال لم يبق للنبى صلى الله عليه وسلم جواز دعائهم الى الاسلام وليس كذلك والجواب عنه من وجوه (أحدها) ان هذه الآيات مثل قوله تعالى فاعرض وتول عنهم الى غير ذلك كلها منسوخة بآية القتال وهو ضعيف (ثانيها) ليس المراد الامر وانما المراد التهديد كما يقول سيد العبد الجانى لمن ينصحه دعه فانه سينال وبال جنايته (ثالثها) ان المراد من يعاند وهو غير معين والنبى صلى الله عليه وسلم كان

الله عز وجل فيما يحيق بهم كما لجأ ليفعل بهم مافعل به من حسن العاقبة (وخذ بيدك ضغثا) معطوف على اركض أو على وهبنا بتقدير قلنا أى وقلنا خذ بيدك الخ والاول أقرب لفظا وهذا أنسب معنى فان الحاجة الى هذا الامر لا تمس الا بعد الصحة فان امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف وقيل ليا بنت يعقوب وقيل ماصر بنت ميشا بن يوسف عليه السلام ذهبت لحاجة فابطأت فحلف ان برئ ليضربنها مائة ضربة فامره الله تعالى باخذ الضغث والضغث الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه وعن ابن عباس رضى الله عنهما قبضة من الشجر وقال (فاضرب به) أى بذلك الضغث (ولا تحنث) فى يمينك فان البر يتحقق به ولقد شرع الله سبحانه هذه الرخصة رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها اياه ورضاه عنها وهى باقية ويجب أن يصيب المضروب كل واحد من المائة اما باطرافها قائمة أو باعراضها مبسوطة على هيئة الضرب (انا وجدناه صابرا) فيما أصابه فى النفس والاهل والمال وليس فى شكواه الى الله تعالى اخلال بذلك فانه لا يسمى جزعا كتمنى العافية وطلب الشفاء على أنه قال ذلك خيفة الفتنة فى الدين حيث كان الشيطان يوسوس الى قومه بانه لو كان نبيا لما ابتلى بمثل ما ابتلى به وارادة القوة على الطاعة فقد بلغ أمره الى ان لم يبق منه الا القلب واللسان ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى مناجاته الهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ولم يتبع قلبى بصرى ولم يهبنى ماملكت يمينى ولم آكل الا ومعى يتيم ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان فكشف الله تعالى عنه (نعم العبد) أى أيوب (انه أواب) تعليل لمدحه أى رجاع الى الله تعالى (واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب) عطف بيان لعبادنا وقرئ عبدنا اما على أن ابراهيم وحده لمزيد شرفه عطف بيان وقيل بدل وقيل نصب باضمار أعنى والباقيان عطف على عبدنا واما على أن عبدنا اسم جنس وضع موضع الجمع (أولى الايدى والابصار) أولى القوة فى الطاعة والبصيرة فى الدين أو أولى الاعمال

الجليلة والعلوم الشريفة فعبر بالايدي عن الاعمال لان أكثرها تباشر بها وبالابصار عن المعارف لانها أقوى مباديها وفيه تعريض بالجهلة البطالين أنهم كالزمنى والعماة وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع تمكنهم منهما وقرئ أولي الايد بطرح الياء والاكتفاء بالكسر وقرئ أولي الايادي على جمع الجمع (انا أخلصناهم بخالصة) تعليل لما وصفوا به من شرف العبودية وعلو الرتبة في العلم والعمل أي جعلناهم خالصين لنا بخصلة خالصة عظيمة الشأن كما ينبئ عنه التنكير التفخيمي وقوله تعالى (ذكرى الدار) بيان للخالصة بعد ابهامها للتفخيم أي تذكر للدار الآخرة دائما فان خلوصهم في الطاعة بسبب تذكرهم لها وذلك لان مطمح انظارهم ومطرح افكارهم في كل ما يأتون وما يذرون جوار الله عز وجل والفوز بلقائه ولا يتسنى ذلك الا في الآخرة وقيل أخلصناهم بتوفيقهم لها واللطف بهم في اختيارها ويعضد الاول قراءة من قرأ بخالصتهم واطلاق الدار للاشعار بانها الدار في الحقيقة وانما الدنيا معبر وقرئ باضافة خالصة الى ذكرى أي بما خلص من ذكرى الدار على معنى أنهم لا يشوبون ذكراها بهم آخر أصلا أو تذكيرهم الآخرة وترغيبهم فيها وتزهيدهم في الدنيا كما هو شأن الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل ذكرى الدار الثناء الجميل في الدنيا ولسان الصدق الذي ليس لغيرهم (وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار) لمن المختارين من أمثالهم المصطفين عليهم في الخير والاخيار جمع خير كشر وأشرار وقيل جمع خير أو خير مخفف منه كأموات في جمع ميت وميت (واذكر اسمعيل) فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه للاشعار بعراقته في الصبر الذي هو المقصود بالتذكير (واليسع) هو ابن أخطوب بن العجوز استخلفه الياس على بني اسرائيل ثم استنبئ واللام فيه حرف تعريف دخل على يسع كما في قول من قال * رأيت الوليد بن اليزيد مباركا * وقرئ والليسع كأن أصله ليسع فيعل من اللسع دخل عليه حرف التعريف وقيل هو على القراءتين علم

يدعو الخلق على سبيل العموم ويجوز أن يكون المراد بالخطاب من لم يظهر عناده لا من ظهر عناده فلم يقل الله في حقه فذرهم ويدل على هذا انه تعالى قال من قبل فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون وقال ههنا فذرهم فمن يذكرهم هم المشفقون الذين قالوا انا كنا قبل في أهلنا مشفقين ومن يذرهم الذين قالوا شاعر نتربص به ريب المنون الى غير ذلك (المسئلة الثانية) حتى للغاية فيكون كأنه تعالى قال ذرهم الى ذلك اليوم ولا تكلمهم ثم ذلك اليوم تجدد الكلام وتقول ألم أقل لكم ان الساعة آتية وان الحساب يقوم والعذاب يدوم فلا تكلمهم الى ذلك اليوم ثم كلمهم لتعلمهم (ثانيها) ان المراد من حتى الغاية التي يستعمل فيها اللام كما يقول القائل لا تطعمه حتى يموت أي ليموت لان اللام التي للغرض عندها ينتهي الفعل الذي للغرض فيوجد فيها معنى الغاية ومعنى التعليل ويجوز استعمال الكلمتين فيهما ولعل المراد من قوله تعالى واعبد ربك حتى يأتيك اليقين هذا أي الى أن يأتيك اليقين فان قيل فمن لا يذره أيضا يلاقي ذلك اليوم نقول المراد من قوله يصعقون يهلكون فالمذكر المشفق لا يهلك ويكون مستثنى منهم كما قال تعالى فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله وقد ذكرنا هنالك أن من اعترف بالحق وعلم ان يوم الحساب كائن فاذا وقعت الصيحة يكون كمن يعلم ان الرعد يرعد ويستعد لسماعه ومن لا يعلم يكون كالغافل فاذا وقعت الصيحة ارتجف الغافل ولم يرتجف العالم وحينئذ لا يكون التوعد بملاقاة يومهم لان كل أحد يلاقي يومه وانما يكون بملاقاة يومهم الذي فيه يصعقون أي اليوم الموصوف بهذه الصفة وهذا كما قال تعالى لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فان المنفي ليس النبذ بالعراء لانه تحقق بدليل قوله تعالى فنبذناه بالعراء وهو سقيم وانما المنفي النبذ الذي يكون هو معه مذموما وهذا لم يوجد (المسئلة الثالثة) حتى ينصب ما بعدها من الفعل المستقبل تارة ويرفع أخرى والفاصل بينهما ان الفعل اذا كان مستقبلا منتظرا لا يقع في الحال ينصب تقول تعلمت الفقه حتى ترفع درجتي فانك تنتظره وان كان حالا يرفع تقول أكرر حتى تسقط قوتي ثم أنام والسبب فيه هو أن حتى في المستقبل للغاية ولام التعليل للغرض والغرض غاية الفعل تقول لم تبنى الدار يقول للسكنى فصار قوله حتى ترفع كقوله لا رفع وفيهما اضمار أن فان قيل ما قلت شيأ وما ذكرت السبب في النصب عند ارادة الاستقبال والرفع عند ارادة الحال نقول الفعل المستقبل اذا كان منتظرا وكان نصب العين ومنصوبا لدى الذهن يرقبه يفعل بلفظه ما كان في معناه ولهذا قالوا في الاضافة ان المضاف لما جر أمر الى أمر في المعنى جره في اللفظ والذي يؤيد ما ذكرنا أن الفعل انما ينصب بان ولن وكي واذن وخلوص الفعل للاستقبال في هذه المواضع لازم والحرف الذي يجعل الفعل للحال يمنع النصب حيث لا يجوز أن تقول ان فلانا ليضرب فان قيل السين وسوف مع انهما يخلصان الفعل للاستقبال لا ينصبان ويمنعان النصب بالناصب كما في قوله تعالى علم أن سيكون منكم مرضى نقول سوف والسين ليسا بمعنى غير اختصاص الفعل بالاستقبال وان ولن بمعنى لا يصح الا في الاستقبال فلم يثبت بالسين الا الاستقبال ولم يثبت به معنى في الاستقبال والمنتظر هو ما في الاستقبال لا نفس الاستقبال مثاله اذا قلت أعبد الله كي يغفر لي أو ليغفر لي أثبت كي غرضا وهو المغفرة وهي في المستقبل من الزمان واذا قلت سأستغفر لك ربي أثبت السين استقبال المغفرة وفرق بين ما يكون المقصود من الكلام بيان الاستقبال لكن الاستقبال لا يوجد الا في معنى فاتى بالمعنى ليبين به الاستقبال وبين ما يكون المقصود منه معنى في المستقبل فتذكر الاستقبال لتبين محل مقصودك ۞ ثم قال تعالى (يوم لا يغني عنهم كيدهم شيأ ولا هم ينصرون) لما قالوا يلاقوا يومهم وكل بر وفاجر يلاقي يومه أعاد صفة يومهم وذكر ما يتميز به يومهم عن يوم المؤمنين فقال يوم لا يغني وهو يخالف يوم المؤمنين فانه تعالى قال فيه هذا يوم ينفع الصادقين وفيه مسائل (الاولى) في يوم لا يغني وجهان (الاول) بدل عن قوله يومهم (ثانيهما) ظرف يلاقوا أي يلاقوا يومهم يوم فان قيل هذا يلزم منه أن يكون اليوم في يوم فيكون اليوم

ظرف

أعجمي دخل عليه اللام وقيل هو يوشع (وذا الكفل) هو ابن عم يسع أو بشر بن أيوب واختلف في نبوته ولقبه فقيل فر اليه مائة نبي من بني
اسرائيل من القتل فآواهم وكفلهم وقيل كفل بعمل رجل صالح كان يصلي كل يوم مائة صلاة (وكل) أي وكلهم (من
الاخيار) المشهورين بالخيرية
(هذا) اشارة الى ماتقدم من
الآيات الناطقة بمحاسنهم (ذكر)
أي شرف لهم وذكر جميل يذكرون
به أبدا أو نوع من الذكر الذي هو
القرآن وباب منه مشتمل على أنباء
الانبياء عليهم السلام وعن ابن
عباس رضي الله عنهما هذا ذكر
من مضى من الانبياء وقوله تعالى
(وان للمتقين لحسن مآب) شروع
في بيان أجرهم الجزيل في الآجل
بعد بيان ذكرهم الجميل في العاجل
وهو باب آخر من أبواب التنزيل
والمراد بالمتقين اما الجنس وهم
داخلون في الحكم دخولا أوليا
واما نفس المذكورين عبر عنهم
بذلك مدحا لهم بالتقوى التي هي
الغاية القاصية من الكمال (جنات
عدن) عطف بيان لحسن مآب
عند من يجوز تخالفهما تعريفا
وتنكيرا فان عدنا معرفة لقوله
تعالى جنات عدن التي وعد الرحمن
عباده أو بدل منه أو نصب على
المدح وقوله تعالى (مفتحة لهم
الابواب) حال من جنات عدن
والعامل فيها ما في للمتقين من معنى
الفعل والابواب مرتفعة باسم
المفعول والرابط بين الحال
وصاحبها اما ضمير مقدر كما هو رأي
البصريين أي الابواب منها أو
الالف واللام القائمة مقامه كما هو
رأي الكوفيين اذ الاصل أبوابها
وقرئتا مرفوعتين على الابتداء
والخبر أو على انهما خبران لمحذوف
أي هي جنات عدن هي مفتحة
(متكئين فيها) حال من ضمير لهم
والعامل فيها مفتحة وقوله تعالى
(يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب) استئناف لبيان حالهم فيها وقيل هو أيضا حال مما ذكر أو من ضمير متكئين والاقتصار على دعاء
الفاكهة للايذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ دون التغذي فانه لتحصيل بدل المتحلل ولا تحلل ثمة (وعندهم قاصرات الطرف) أي على

ظرف اليوم نقول هو على حد قول من يقول يأتي يوم قتل فلان يوم تبين جرائمه ولا مانع منه وقد ذكرنا بحث الزمان وجواز كونه ظرفا في قوله تعالى يومئذ وجواز اضافة اليوم الى الزمان مع انه زمان (المسئلة الثانية) قال تعالى يوم لا يغني عنهم كيدهم ولم يقل يوم لا يغنيهم كيدهم مع ان الاغناء يتعدى بنفسه لفائدة جليلة وهي ان قول القائل أغناني كذا يفهم منه انه نفعني وقوله أغنى عني يفهم منه انه دفع عني الضرر وذلك لان قوله أغناني معناه في الحقيقة أفادني غير مستفيد وقوله أغنى عني أي لم يحوجني الى الحضور فأغنى غيري عن حضوري يقول من يطلب لامر خذوا عني ولدي فانه يغني عني أي يغنيكم عني فيدفع عني أيضا مشقة الحضور فقوله لا يغني عنهم أي لا يدفع عنهم الضرر ولا شك ان قوله لا يدفع عنهم ضررا أبلغ من قوله لا ينفعهم نفعا واغنا في المؤمن لو قال يوم يغني عنهم صدقهم لما فهم منه نفعهم فقال يوم ينفع كأنه قال يوم يغنيهم صدقهم فكأنه استعمل في المؤمن يغنيهم وفي الكافر لا يغني عنهم وهو مما لا يطلع عليه الا من يكون عنده من علم البيان طرف و يتفكر بقريحته وقادة آيات الله ووفقه الله (المسئلة الثالثة) الاصل تقديم الفاعل على المفعول والاصل تقديم المضمر على المظهر أما في الاول فلان الفاعل متصل بالفعل ولهذا قالوا فعلت فاسكنوا اللام لئلا يلزم أربع متحركات في كلمة واحدة وقالوا ضربك ولم يسكنوا لان الكاف ضمير المفعول وهو منفصل وأما تقديم المضمر فلانه يكون أشد اختصارا فانك اذا قلت ضربني زيد يكون أقرب الى الاختصار من قولك ضرب زيد اياي فان لم يكن هناك اختصار كقولك مرّ بي زيد ومرّ زيد بي فالاولى تقديم الفاعل وههنا لو قال يوم لا يغنيهم كيدهم كان الاحسن تقديم المفعول فاذا قال يوم لا يغني عنهم صار كما قلنا في مر زيد بي فلم يقدم الفاعل نقول فيه فائدة مستفادة من علم البيان وهو أن تقديم الاهم أولى فلو قال يوم لا يغني كيدهم كان السامع لهذا الكلام ربما يقول لا يغني كيدهم غيرهم فيرجو الخير في حقهم واذا سمع لا يغني عنهم انقطع رجاؤه وانتظر الامر الذي ليس بمغن (المسئلة الرابعة) قد ذكرنا أن معنى الكيد هو فعل يسوء من نزل به وان حسن ممن صدر منه فما الفائدة في تخصيص العمل الذي يسوء بالذكر ولم يقل يوم لا يغني عنهم أفعالهم على الاطلاق نقول هو قياس بالطريق الاولى لانهم كانوا يأتون بفعل يسيء النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وكانوا يعتقدون انه أحسن أعمالهم فقال ما أغنى أحسن أعمالهم الذي كانوا يعتقدون فيه ليقطع رجاءهم عما دونه وفيه وجه آخر وهو انه تعالى لما قال من قبل أم يريدون كيدا وقد قلنا ان أكثر المفسرين على أن المراد به تدبيرهم في قتل النبي صلى الله عليه وسلم قال هم المكيدون أي لا ينفعهم كيدهم في الدنيا فاذا يفعلون يوم لا ينفعهم ذلك الكيد بل يضرهم وقوله ولا هم ينصرون فيه وجوه (أحدها) أنه متمم بيان وجهه هو ان الداهي أولا يرتب أمور الدفع المكروه بحيث لا يحتاج الى الانتصار بالغير والمنة ثم اذا لم ينفعه ذلك ينتصر بالاغيار فقال لا ينفعهم أفعال أنفسهم ولا ينصرهم غيرهم عند البأس وحصول اليأس عن اقبالهم (ثانيها) أن المراد منه ماهو المراد من قوله تعالى لا تغن عني شفاعتهم شيأ ولا ينقذون فقوله يوم لا يغني عنهم كيدهم شيأ أي عبادتهم الاصنام وقولهم هؤلاء شفعاؤنا وقولهم ما نعبدهم الا ليقربونا وقوله ولا هم ينصرون أي لا نصير لهم كما لا شفيع ودفع العذاب اما بشفاعة شفيع أو بنصر ناصر (ثالثها) أن نقول الاضافة في كيدهم اضافة المصدر الى المفعول لا اضافته الى الفاعل فكأنه قال لا يغني عنهم كيد الشيطان اياهم وبيانه هو انك تقول أعجبني ضرب زيد عمرا وأعجبني ضرب عمرو فاذا اقتصرت على المصدر والمضاف اليه لا يعلم الا بالقرينة والنية فاذا سمعت قول القائل أعجبني ضرب زيد يحتمل أن يكون زيد ضاربا ويحتمل أن يكون مضروبا فاذا سمعت قول القائل أعجبني قطع اللص على سرقة ذات القرينة على انه مضاف الى المفعول فان قيل هذا فاسد من حيث انه ايضاح واضح لان كيد المكيد لا ينفع قطعا ولا يخفى ذلك على أحد فلا يحتاج الى بيان لكن كيد الكائد يظن انه ينفع فقال تعالى

أزواجهن لا ينظرن الى غيرهم (أتراب) لدات لهم فان التحاب بين الاقران أرسخ أو بعضهن لبعض لا عجوز فيهن ولا صبية واشتقاقه من التراب فانه يمسهم فى وقت واحد (هذا ماتوعدون ليوم الحساب) أى لاجله فان الحساب علة للوصول الى الجزاء وقرئ بالياء ليوافق ماقبله والالتفات أليق بمقام الامتنان والتكريم (ان هذا) أى ماذكر من ألوان النعم والكرامات (لرزقنا) أعطيناكموه (ماله من نفاد) انقطاع أبدا (هذا) أى الامر هذا أوهذا كما ذكر أوهذا ذكر وقوله تعالى (وان للطاغين لشرمآب) شروع فى بيان أضداد الفريق السابق (جهنم) اعرابه كما سلف (يصلونها) أى يدخلونها حال من جهنم (فبئس المهاد) وهو المهد والمفرش مستعار من فراش النائم والمخصوص بالذم محذوف وهو جهنم لقوله تعالى لهم من جهنم مهاد (هذا فليذوقوه) أى ليذوقوا هذا فليذوقوه كقوله تعالى واياى فارهبون أو العذاب هذا فليذوقوه أوهذا مبتدأ خبره (حميم وغساق) ومابينهما اعتراض وهو على الاولين خبر مبتدا محذوف أى هو حميم والغساق مايغسق من صديد أهل النار من غسقت العين اذا سال دمعها وقيل الحميم يحرق بحره والغساق يحرق ببرده وقيل لو قطرت منه قطرة فى المشرق لنتنت أهل المغرب ولو قطرت قطرة فى المغرب لنتنت أهل المشرق وقيل الغساق عذاب لا يعلمه الا الله تعالى وقرئ بتخفيف السين (وآخر من شكله) أى ومذوق آخر أوعذاب آخر من مثل هذا المذوق أوالعذاب فى الشدة والفظاعة وقرئ وأخرأى ومذوقات أخر أوأنواع عذاب أخر وتوحيد ضمير شكله بتأويل ماذكر أوالشراب الشامل للحميم والغساق أوهوراجع الى الغساق (أزواج) أى أجناس وهو خبر لآخر لانه يجوز أن يكون ضروبا أو صفة له أو للثلاثة أوم تفع بالجار والخبر محذوف مثل لهم (هذا فوج مقتحم معكم) حكاية مايقال من جهة الخزنة لرؤساء الطاغين اذا دخلوا النار واقتحمها معهم فوج كانوا يتبعونهم فى الكفر والضلالة والاقتحام الدخول فى الشئ

ذلك لاينفع نقول كيد الشيطان اياهم على عبادة الاصنام وهم كانوا يظنون انها تنفع وأما كيدهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانوا يعلمون انه لا ينفع فى الآخرة وانما طلبوا ان ينفعهم فى الدنيا الا فى الآخرة فالاشكال ينقلب على صاحب الوجه الاول ولا اشكال على الوجهين جميعا اذا تفكرت فيما قلناه ۞ ثم قال تعالى ﴿وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لايعلمون﴾ فى اتصال الكلام وجهان (أحدهما) متصل بقوله تعالى فذرهم وذلك لانه يدل على عدم جواز القتال وقيل انه نازل قبل شرع القتال وحينئذ كأنه قال فذرهم ولا تذرهم مطلقا من غير قتال بل اهم قبل يوم القيامة عذاب يوم بدر حيث تؤمر بقتالهم فيكون بيانا ووعدا بنسخ فذرهم بالعذاب يوم بدر (ثانيهما) هو متصل بقوله تعالى لا يغنى وذلك لانه لما بين أن كيدهم لا يغنى عنهم قال ولا يقتصر على عدم الاغناء بل لهم مع ان كيدهم لا يغنى ويل آخر وهو العذاب المعد لهم ولو قال لا يغنى عنهم كيدهم كان يوهم انه لا ينفع ولكن لا يضر ولما قال مع ذلك ان للذين ظلموا عذابا زال ذلك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الذين ظلموا هم أهل مكة ان قلنا العذاب هو عذاب يوم بدر وان قلنا العذاب هو عذاب القبر فالذين ظلموا عام فى كل ظالم (المسئلة الثانية) ما المراد من الظلم ههنا نقول فيه وجوه (الاول) هو كيدهم نبيهم (والثانى) عبادتهم الاوثان (والثالث) كفرهم وهذا مناسب للوجه الثانى (المسئلة الثالثة) دون ذلك على قول أكثر المفسرين معناه قبل ذلك ويؤيده قوله تعالى ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر ويحتمل وجهين آخرين (أحدهما) دون ذلك أى أقل من ذلك فى الدوام والشدة يقال الضرب دون القتل فى الايلام ولا شك ان عذاب الدنيا دون عذاب الآخرة على هذا المعنى وعلى هذا ففيه فائدة التنبيه على عذاب الآخرة العظيم وذلك لانه اذا قال عذابا دون ذلك أى قتلا وعذابا فى القبر فيتفكر المتفكر ويقول مايكون القتل دونه لا يكون الا عظيما فان قيل فهذا المعنى لا يمكن أن يقال فى قوله تعالى ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر قلنا نسلم ذلك ولكن لا مانع من أن يكون المراد ههنا هذا الثانى على طريقة قول القائل تحت لجاجك مفاسد ودون غرضك متاعب وبيانه هو انهم لما عبدوا غير الله ظلموا أنفسهم حيث وضعوها فى غير موضعها الذى خلقت له فقيل لهم ان لكم دون ذلك الظلم عذابا (المسئلة الرابعة) ذلك اشارة الى ماذا نقول الظاهر انه اشارة الى اليوم وفيه وجهان آخران (أحدهما) فى قوله يصعقون وقوله لا يغنى عنهم اشارة الى عذاب واقع فقوله ذلك اشارة اليه ويمكن أن يقال قد تقدم قوله ان عذاب ربك لواقع وقوله دون ذلك أى دون ذلك العذاب (ثانيهما) دون ذلك أى كيدهم فذلك اشارة الى الكيد وقد بينا وجهه فى المثال الذى مثلنا وهو قول القائل تحت لجاجك حرمانك والله أعلم (المسئلة الخامسة) ولكن أكثرهم لايعلمون ذكرنا فيه وجوها (أحدها) انه جرى على عادة العرب حيث تعبر عن الكل بالاكثر كما قال تعالى أكثرهم بهم مؤمنون ثم ان الله تعالى تكلم على تلك العادة ليعلم ان الله استحسنها من المتكلم حيث يكون ذلك بعيدا عن الخلف (ثانيها) منهم من آمن فلم يكن ممن لا يعلم (ثالثها) هم فى أكثر الاحوال لم يعلموا وفى بعض الاحوال علموا وأقله انهم علموا حال الكشف وان لم ينفعهم (المسئلة السادسة) مفعول لا يعلمون جاز أن يكون هو ماتقدم من الامر وهو أن لهم عذابا دون ذلك وجاز أن لا يكون له مفعول أصلا فيكون المراد أكثرهم غافلون جاهلون ۞ ثم قال تعالى ﴿فاصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم﴾ وقد ذكرناه فى تفسير قوله تعالى فاصبر على مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ونشير الى بعضه ههنا فان طول العهد ينسى فنقول لما قال تعالى فذرهم كان فيه الاشارة الى انه لم يبق فى نصحهم نفع ولا سيما وقد تقدم قوله تعالى وان يروا كسفا من السماء وكان ذلك مما يحمل النبى صلى الله عليه وسلم على الدعاء كما قال نوح عليه السلام رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وكما دعا يونس عليه السلام فقال الله تعالى اصبر وبدل اللعن بالتسبيح وسبح بحمد ربك بدل قولك اللهم أهلكهم الا ترى الى قوله تعالى فاصبر لحكم ربك ولا

تكن

تكن كصاحب الحوت وقوله تعالى فانك بأعيننا فيه وجوه (الاول) انه تعالى لما بين أنهم يكيدونه كان ذلك مما يقتضى فى العرف المبادرة الى اهلاكهم لئلا يتم كيدهم فقال اصبر ولا تخف فانك محفوظ بأعيننا (ثانيها) انه تعالى قال فاصبر ولا تدع عليهم فانك بمرأى منا نراك وهذه الحالة تقتضى أن تكون على أفضل مايكون من الاحوال لكن كونك مسبحا لنا أفضل من كونك داعيا على عباد خلقناهم فاختر الافضل فانك بمرأى منا (ثالثها) أن من يشكو حاله عند غيره يكون فيه انباء عن عدم علم المشكو اليه بحال الشاكى فقال تعالى اصبر ولا تشك حالك فانك بأعيننا نراك فلا فائدة فى شكواك وفيه مسائل مختصة بهذا الموضع لاتوجد فى قوله فاصبر على مايقولون (المسئلة الاولى) اللام فى قوله فاصبر لحكم تحتمل وجوها (الاول) هى بمعنى الى أى اصبر الى أن يحكم الله (الثانى) الصبر فيه معنى الثبات فكأنه يقول فاثبت لحكم ربك يقال ثبت فلان لحمل قرنه (الثالث) هى اللام التى تستعمل بمعنى السبب يقال لم خرجت فيقال لحكم فلان على بالخروج فقال فاصبر واجعل سبب الصبر امتثال الامر حيث قال فاصبر أى فاصبر لهذا الحكم عليك لا لشئ آخر (المسئلة الثانية) قال ههنا بأعيننا وقال فى موضع آخر ولتصنع على عينى نقول لما وحد الضمير هناك وهو ياء المتكلم وحده وحد العين ولما ذكر ههنا ضمير الجمع فى قوله بأعيننا وهو النون جمع العين وقال بأعيننا هذا من حيث اللفظ وأما من حيث المعنى فلان الحفظ ههنا أتم لان الصبر مطية الرحمة بالنبى صلى الله عليه وسلم حيث اجتمع له الناس وجمعوا له مكايد وتشاوروا فى أمره وكذلك أمره بالفلك وأمره بالاتخاذ عند عدم الماء وحفظه من الغرق مع كون كل البقاع مغمورة تحت الماء تحتاج الى حفظ عظيم فى نظر الخلق فقال بأعيننا (المسئلة الثالثة) ماوجه تعلق الباء ههنا قلنا قد ظهر من جميع الوجوه أما ان قلنا بأنه للحفظ فتقديره محفوظ بأعيننا وان قلنا للعلم فمعناه بمرأى منا أى بمكان نراك وتقديره فانك بأعيننا مرئى وحينئذ هو كقول القائل رأيته بعينى كما يقال كتب بالقلم الآلة وان كان رؤية الله ليست بآلة فان قيل فما الفرق فى الموضعين حيث قال فى طه على عينى وقال هنا بأعيننا وما الفرق بين على و بين الباء نقول معنى على هناك هو أنه يرى على ما يرضاه الله تعالى كما يقول افعله على عينى أى على رضاى تقديره على وجه يدخل فى عينى وألتفت اليه فان من يفعل شيأ لغيره ولا يرتضيه لا ينظر فيه ولا يقلب عينه اليه والباء فى قوله وسبح بحمد ربك قد ذكرناها وقوله حين تقوم فيه وجوه (الاول) تقوم من موضعك والمراد قبل القيام حين ما تعزم على القيام وحين مجىء القيام وقد ورد فى الخبر أن من قال سبحان الله من قبل أن يقوم من مجلسه يكتب ذلك كفارة لما يكون قد صدر منه من اللغط واللغو فى ذلك المجلس (الثانى) حين تقوم من النوم وقد ورد أيضا فيه خبر يدل على انه صلى الله عليه وسلم كان يسبح بعد الانتباه (الثالث) حين تقوم الى الصلاة وقد ورد فى الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول فى افتتاح الصلاة سبحانك اللهم و بحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا اله غيرك (الرابع) حين تقوم لامر ما ولاسيما اذا قمت منتصبا لمجاهدة قومك ومعاداتهم والدعاء عليهم فسبح بحمد ربك وبدل قيامك للمعاداة وانتصابك للانتقام بقيامك لذكر الله وتسبيحه (الخامس) حين تقوم أى بالنهار فان الليل محل السكون والنهار محل الابتغاء وهو بالقيام أولى وعلى هذا يكون كقوله ومن الليل فسبحه اشارة الى مابقى من الزمان وكذلك ادبار النجوم وهو أول الصبح ۞ وقوله تعالى ﴿ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم﴾ قد تقدم تفسيره وهو كقوله تعالى فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وقد ذكرنا فائدة الاختصاص بهذه الاوقات ومعناه ونختم هذه السورة بفائدة وهى أنه تعالى قال ههنا وادبار النجوم وقال فى ق وادبار السجود ويحتمل أن يقال المعنى واحد والمراد من السجود جمع ساجد والنجوم سجود قال تعالى والنجم والشجر يسجدان وقيل المراد من النجم نجوم السماء وقيل النجم مالا ساق له من النبات قال الله تعالى ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض أو المراد من النجوم الوظائف وكل وظيفة نجم فى اللغة أى اذا

بشدة قال الراغب الاقتحام توسط شدة مخيفة وقوله تعالى (لامرحبا بهم) من اتمام كلام الخزنة بطريق الدعاء على الفوج أو صفة للفوج أو حال منه أى مقول أو مقولا فى حقهم لامرحبا بهم أى لا أتوا مرحبا أو لا رحبت بهم الدار مرحبا (انهم صالوا النار) تعليل من جهة الخزنة لاستحقاقهم الدعاء عليهم أو وصفهم بما ذكر وقيل لامرحبا بهم الى هنا كلام الرؤساء فى حق أتباعهم عند خطاب الخزنة لهم باقتحام الفوج معهم تضجرا من مقارنتهم وتنفرا من مصاحبتهم وقيل كل ذلك كلام الرؤساء بعضهم مع بعض فى حق الاتباع (قالوا) أى الاتباع عند سماعهم ماقيل فى حقهم ووجه خطابهم للرؤساء فى قولهم (بل أنتم لامرحبا بكم) الخ على الوجهين الاخيرين ظاهر واما على الوجه الاول فلعلهم انما خاطبوهم مع أن الظاهر أن يقولوا بطريق الاعتذار الى الخزنة بل هم لامرحبا بهم الخ قصدا منهم الى اظهار صدقهم بالمخاصمة مع الرؤساء والتحاكم الى الخزنة طمعا فى قضائهم بتخفيف عذابهم أو تضعيف عذاب خصمائهم أى بل أنتم أحق بما قيل لنا أو قلتم وقوله تعالى (أنتم قدمتموه لنا) تعليل لأحقيتهم بذلك أى أنتم قدمتم العذاب أو الصلى لنا وأوقعتمونا فيه بتقديم مايؤدى اليه من العقائد الزائغة والاعمال السيئة وتزيينها فى أعيننا واغرائنا عليها لا أنا باشرناها من تلقاء أنفسنا (فبئس القرار) أى فبئس المقر جهنم قصدوا بذمها تغليظ جناية الرؤساء عليهم (قالوا) أى الاتباع أيضا وتوسيطه بين كلاميهم لما بينهما من التباين البين ذاتا وخطابا أى قالوا معرضين عن خصومتهم متضرعين الى الله تعالى (ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار) كقولهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار أى عذابا مضاعفا أى ذا ضعف وذلك بان يزيد عليه مثله ويكون ضعفين كقوله ربنا آتهم ضعفين من العذاب وقيل المراد بالضعف الحيات والافاعى (وقالوا) أى الطاغون (مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار) يعنون فقراء المسلمين الذين كانوا يسترذلونهم

فرغت من وظائف الصلاة فقل سبحان الله وقد ورد في الحديث من قال عقيب الصلاة سبحان الله عشر مرات والحمد لله عشر مرات والله أكبر عشر مرات كتب له ألف حسنة فيكون المعنى في الموضعين واحدا لان السجود من الوظائف والمشهور الظاهر أن المراد من ادبار النجوم وقت الصبح حيث يدبر النجم ويخفى ويذهب ضياؤها بضوء الشمس وحينئذ تبين ماذكرنا من الوجه الخامس في قوله حين تقوم أن المراد منه النهار لانه محل القيام ومن الليل القدر الذي يكون الانسان يقظان فيه وأدبار النجوم وقت الصبح فلا يخرج عن التسبيح الا وقت النوم وهذا آخر تفسير هذه السورة والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

(سورة النجم ستون وآيتان مكية)

((بسم الله الرحمن الرحيم))

((والنجم اذا هوى)) وقبل الشروع في التفسير نقدم مسائل ثم نتفرغ للتفسير وان لم نتمكن منه (الاولى) أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لفظا ومعنى أما اللفظ فلان ختم والطور بالنجم وافتتاح هذه بالنجم مع واو القسم وأما المعنى فنقول الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم بين له أنه جزاه في أجزاء مكايدة النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم وبعده فقال ماضل صاحبكم وماغوى (المسئلة الثانية) السور التي تقدمت وافتتاحها بالقسم بالاسماء دون الحروف هي والصافات والذاريات والطور وهذه السورة بعدها فالاولى فيها القسم لاثبات الوحدانية كما قال تعالى ان الهكم لواحد وفي الثانية لوقوع الحشر والجزاء كما قال تعالى انما توعدون لصادق وان الدين لواقع وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع وفي هذه السورة لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم لتكمل الاصول الثلاثة الوحدانية والحشر والنبوة (المسئلة الثالثة) لم يقسم الله على الوحدانية ولا على النبوة كثيرا أما على الوحدانية فلانه أقسم بأمر واحد في سورة الصافات وأما على النبوة فلانه أقسم بأمر واحد في هذه السورة وبأمرين في سورة الضحى وأكثر من القسم على الحشر ومايتعلق به فان قوله تعالى والليل اذا يغشى وقوله تعالى والشمس وضحاها وقوله تعالى والسماء ذات البروج الى غير ذلك كلها فيها الحشر أو مايتعلق به وذلك لان دلائل الوحدانية كثيرة كلها عقلية كما قيل

وفي كل شئ له آية * تدل على انه واحد

ودلائل النبوة أيضا كثيرة وهي المعجزات المشهورة والمتواترة وأما الحشر فامكانه يثبت بالعقل وأما وقوعه فلا يمكن اثباته الا بالسمع فأكثر القسم ليقطع به المكلف ويعتقده اعتقادا جازما وأما التفسير ففيه مسائل (الاولى) الواو للقسم بالنجم أو برب النجم ففيه خلاف قدمناه والاظهر أنه قسم بالنجم يقال ليس للقسم في الاصل حرف أصلا لكن الباء والواو استعملتا فيه لمعنى عارض وذلك لان الباء في أصل القسم هي الباء التي للالصاق والاستعانة فكما يقول القائل استعنت بالله يقول أقسمت بالله وكما يقول أقوم بعون الله على العدو يقول أقسم بحق الله فالباء فيهما بمعنى كما تقول كتب بالقلم فالباء في الحقيقة ليست للقسم غير أن القسم كثر في الكلام فاستغنى عن ذكره وغيره لم يكثر فلم يستغن عنه فاذا قال القائل بحق زيد فهم منه القسم لان المراد لو كان هو مثل قوله ادخل بحق زيد أو اذهب بحق زيد أو لم يقسم بحق زيد لذكر كما ذكر في هذه الاشياء لعدم الاستغناء فلما لم يذكر شئ علم أن الحذف للشهرة والاستغناء وذلك ليس في غير القسم فعلم أن المحذوف فعل القسم فكأنه قال اقسم بحق زيد فالباء في الاصل ليس للقسم لكن لما عرض ماذكرنا من الكثرة والاشتهار قيل الباء للقسم ثم ان المتكلم نظر فيه فقال هذا لا يخلو عن التباس فاني اذا قلت بالله توقف السامع فان سمع بعده فعلا غير القسم كقوله بالله استعنت وبالله قدرت وبالله مشيت وأخذت لا يحمله على القسم وان لم يسمع حمله على القسم ان لم يتوهم وجود فعل ذكرته ولم يسمعه أما ان توهم أني

ذكرت

ويسخرون منهم (اتخذناهم سخريا) بهمزة استفهام سقطت لاجلها همزة الوصل والجملة استئناف لا محل لها من الاعراب قالوه انكارا على أنفسهم وتأنيبا لها في الاستسخار منهم (أم زاغت عنهم الابصار) متصل باتخذناهم على أن أم متصلة والمعنى أى الامرين فعلنا بهم الاستسخار منهم أم الازدراء بهم وتحقيرهم وان أبصارنا كانت تزيغ عنهم وتقتحمهم على معنى انكار كل واحد من الفعلين على أنفسهم توبيخا لها أو على انها منقطعة والمعنى اتخذناهم سخريا بل أزاغت عنهم أبصارنا كقولك أزيد عندك أم عندك عمرو على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسخار ثم الاضراب والانتقال منه الى التوبيخ على الازدراء والتحقير وقرئ اتخذناهم بغير همزة على أنه صفة أخرى لرجالا فقوله تعالى أم زاغت متصل بقوله مالنا لانرى والمعنى مالنا لانراهم في النار أليسوا فيها فلذلك لانراهم أم زاغت عنهم أبصارنا وهم فيها وقد جوز أن تكون الهمزة مقدرة على هذه القراءة وقرئ سخريا بضم السين (ان ذلك) أى الذي حكى من أحوالهم (لحق) لابد من وقوعه البتة وهو قوله تعالى (تخاصم أهل النار) خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لذلك وفي الابهام أولا والتبيين ثانيا مزيد تقرير له وقيل بدل من محل ذلك وقيل بدل من حق أو عطف بيان له وقرئ بالنصب على أنه بدل من ذلك وماقيل من أنه صفة له فقد قيل عليه ان اسم الاشارة لا يوصف الا بالمعرف باللام يقال بهذا الرجل ولا يقال بهذا غلام الرجل (قل) أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين (انما أنا منذر) من جهته تعالى أنذركم عذابه (ومامن اله) في الوجود (الا الله الواحد) الذي لا يقبل الشركة والكثرة أصلا (القهار) لكل شئ سواه (رب السموات والارض ومابينهما) من المخلوقات فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها (العزيز) الذي لا يغلب في أمر من أموره (الغفار) المبالغ في المغفرة يغفر مايشاء لمن يشاء وفي هذه النعوت من تقرير التوحيد والوعد للموحدين والوعيد للمشركين مالا

ذكرت مع قولى بالله شيأ آخر وما سمعه هو أيضا يتوقف فيه فى الفهم توقف فاذا أراد المتكلم الحكيم اذهاب ذلك مع الاختصار وترك ما استغنى عنه وهو فعل القسم أبدل الباء بالتاء وقال تالله فتكلم بها فى كلمة الله لاشتهار كلمة الله والأمن من الالتباس فان التاء فى أوائل الكلمات قد تكون أصلية وقد تكون للخطاب والتأنيث فلو أقسم بحرف التاء بمن اسمه داعى أو راعى أو هادى أو عادى يقول تداعى أو تراعى أو تهادى أو تعادى فيلتبس وكذلك فيمن اسمه رومان أو توران اذا قلت ترومان أو تتوران على أنك تقسم بالتاء تلتبس بتاء الخطاب والتأنيث فى الاستقبال فأبدلوها واوا لا يقال عليه اشكالان (الاول) مع الواو لم يؤمن الالتباس تقول ولى فتلتبس الواو الاصلية بالتى للقسم لانا نقول ذلك لم يلزم فيما ذهبنا اليه وانما كان ذلك فى الواو حيث يدل و ينبئ عن العطف وان لم يستعمل الواو للقسم كيف وذلك فى الباء التى هى كالاصل متحقق تقول برام فى جمع برمة و بهام فى جمع بهمة و بغال فتلتبس الباء الاصلية التى فى البغال والبرام بالباء التى تلصقها بقولك مال ورأى فتقول بمال وأما التاء لما استعملت للقسم لزم من ذلك الاستعمال الالتباس حيث لم يكن من قبل حرفا من الادوات كالباء والواو (والاشكال الثانى) لم تركت الباء مع الالتباس فيه كقولك تالرحيم وتالعظيم نقول لما كان كلمة الله فى غاية الشهرة والظهور استعملت التاء فيها على خلاف الاصل بمعنى لم يجز أن يقاس عليها الا ما يكون فى شهرتها وأما غيرها فربما يخفى عند البعض فان من لم يسمع الرحيم وسمع فى الندرة ترحيم بمعنى قطع ربما يقول ترحيم فعل وفاعل أو فعل ومفعول وان كان ذلك فى غاية البعد لكن الاستواء فى الشهرة فى المنقول منه والمنقول اليه لازم ولا مشهور مثل كلمة الله على أنا نقول لم قلت ان عند الأمن لا تستعمل ألا ترى انه نقل عن العرب ترب الكعبة والذى يؤيد ما ذكرنا أنك تقول أقسم بالله ولا تقول أقسم تالله لان التاء فيه مخافة الالتباس عند حذف الفعل من القسم وعند الاتيان به لم يخف ذلك فلم يجز (المسئلة الثانية) اللام فى قوله تعالى والنجم لتعريف العهد فى قول ولتعريف الجنس فى قول والاول قول من قال والنجم المراد منه الثريا قال قائلهم

ان بدا النجم عشيا * ابتغى الراعى كسيا

والثانى فيه وجوه (أحدها) النجم هو نجم السماء التى هى ثابتة فيها للاهتداء وقيل لا بل النجوم المنقضة فيها التى هى رجوم للشياطين (ثانيها) نجوم الارض وهى من النبات ما لا ساق له (ثالثها) نجوم القرآن ولنذكر مناسبة كل وجه ونبين فيه المختار منها أما على قولنا المراد الثريا فهو أظهر النجوم عند الرائى لان له علامة لا يلتبس بغيره فى السماء ويظهر لكل واحد والنبى صلى الله عليه وسلم تميز عن الكل بآيات بينات فأقسم به ولان الثريا اذا ظهرت من المشرق بالبكر حان ادراك الثمار واذا ظهرت بالعشاء أواخر الخريف تقل الامراض والنبى صلى الله عليه وسلم لما ظهر قل الشك والامراض القلبية وأدركت الثمار الحكمية والحلمية وعلى قولنا المراد هى النجوم التى فى السماء للاهتداء نقول النجوم بها الاهتداء فى البرارى فأقسم الله بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة على قولنا المراد الرجوم من النجوم فالنجوم تبعد الشياطين عن أهل السماء والانبياء يبعدون الشياطين عن أهل الارض وعلى قولنا المراد القرآن فهو استدلال بمعجزة النبى صلى الله عليه وسلم على صدقه وبراءته فهو كقوله تعالى يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم ما ضللت ولا غويت وعلى قولنا النجم هو النبات فنقول النبات به ثبات القوى الجسمانية وصلاحها والقوة العقلية أولى بالاصلاح وذلك بالرسل وايضاح السبيل ومن هذا ظهر أن المختار هو النجوم التى هى فى السماء لانها أظهر عند السامع وقوله اذا هوى أدل عليه ثم بعد ذلك القرآن أيضا فيه ظهور ثم الثريا (المسئلة الثالثة) القول فى والنجم كالقول فى والطور حيث لم يقل والنجوم ولا والاطوار وقال والذاريات والمرسلات وقد تقدم ذكره (المسئلة الرابعة) ما الفائدة فى تقييد القسم به بوقت هويه نقول النجم اذا كان فى وسط السماء يكون بعيدا عن الارض لا يهتدى به السارى لانه لا يعلم به المشرق من

يخفى وتثنية ما يشعر بالوعيد من وصفى القهر والعزة وتقديمهما على وصف المغفرة لتوفية مقام الانذار حقه (قل) تكرير الامر للايذان بان المقول أمر جليل له شأن خطير لا بد من الاعتناء به أمرا وائتمارا (هو) أى ما أنبأتكم به من أنى منذر من جهته تعالى وانه تعالى واحد لا شريك له وانه متصف بما ذكر من الصفات الجليلة والاظهر أنه القرآن وما ذكر داخل فيه دخولا أوليا كما يشهد به آخر السورة الكريمة وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة (نبأ عظيم) وارد من جهته تعالى وقوله تعالى (أنتم عنه معرضون) استئناف ناع عليهم سوء صنيعهم به ببيان أنهم لا يقدرون قدره الجليل حيث يعرضون عنه مع عظمته وكونه موجبا للاقبال الكلى عليه وتلقيه بحسن القبول وقيل صفة أخرى لنبأ وقوله تعالى (ما كان لى من علم بالملأ الاعلى) الخ استئناف مسوق لتحقيق أنه نبأ عظيم وارد من جهته تعالى بذكر نبأ من أنبائه على التفصيل من غير سابقة معرفة به ولا مباشرة سبب من أسبابها المعتادة فان ذلك حجة بينة دالة على أن ذلك بطريق الوحى من عند الله تعالى وان سائر أنبائه أيضا كذلك والملأ الاعلى هم الملائكة وآدم عليهم السلام وابليس عليه اللعنة وقوله تعالى (اذ يختصمون) متعلق بمحذوف يقتضيه المقام اذ المراد نفى علمه عليه الصلاة والسلام بحالهم لا بذواتهم والتقدير ما كان لى فيما سبق علم ما بوجه من الوجوه بحال الملأ الاعلى وقت اختصامهم وتقدير الكلام كما اختاره الجمهور تحجير للواسع فان علمه عليه الصلاة والسلام غير مقصور على ما جرى بينهم من الاقوال فقط بل عام لها وللافعال أيضا من سجود الملائكة واستكبار ابليس وكفره حسبما ينطق به الوحى فلا بد من اعتبار العموم فى نفيه أيضا لا محالة وقوله تعالى (ان يوحى الى الا انما أنا نذير مبين) اعتراض وسط بين اجمال اختصامهم وتفصيله تقرير الثبوت علمه عليه الصلاة والسلام

وتعيينا لسببه الا أن بيان انتفائه فيما سبق لما كان منبأ عن ثبوته الآن ومن البين عدم ملابسته عليه الصلاة والسلام بشيء من مباديه
المعهودة تعين انه ليس الا بطريق الوحي حتما فجعل ذلك أمراً مسلم الثبوت غنيا عن الاخبار به قصدا وجعل مصب

المغرب ولا الجنوب من الشمال فاذا زال تبين بزواله جانب المغرب من المشرق والجنوب من الشمال كذلك النبي صلى الله عليه وسلم خفض جناحه للمؤمنين وكان على خلق عظيم كما قال تعالى وانك لعلى خلق عظيم وكما قال تعالى فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فان قيل الاهتداء بالنجم اذا كان على أفق المشرق كالاهتداء به اذا كان على أفق المغرب فلم يبق ما ذكرت جوابا عن السؤال نقول الاهتداء بالنجم وهو مائل الى المغرب أكثر لانه يهدي في الطريقين الدنيوي والديني أما الدنيوي فلما ذكرنا وأما الديني فكما قال الخليل لا أحب الآفلين وفيه لطيفة وهي أن الله لما أقسم بالنجم شرفه وعظمه وكان من المشركين من يعبده فقرن بتعظيمه وصفا يدل على أنه لم يبلغ درجة العبادة فانه هاو آفل ۞ ثم قال تعالى (ماضل صاحبكم وما غوى) أكثر المفسرين لم يفرقوا بين الضلال والغي والذي قاله بعضهم عند محاولة الفرق ان الضلال في مقابلة الهدى والغي في مقابلة الرشد قال تعالى وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا وقال تعالى قد تبين الرشد من الغي وتحقيق القول فيه أن الضلال أعم استعمالا في الوضع تقول ضل بعيري ورحلي ولا تقول غوى فالمراد من الضلال أن لا يجد السالك الى مقصده طريقا أصلا والغواية أن لا يكون له طريق الى المقصد مستقيم يدلك على هذا انك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السداد انه سفيه غير رشيد ولا تقول انه ضال والضال كالكافر والغاوي كالفاسق فكأنه تعالى قال ماضل أي ما كفر ولا أقل من ذلك فما فسق ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم أو نقول الضلال كالعدم والغواية كالوجود الفاسد في الدرجة والمرتبة وقوله صاحبكم فيه وجهان (الاول) سيدكم والآخر مصاحبكم يقال صاحب البيت ورب البيت ويحتمل أن يكون المراد من قوله ماضل أي ما جن فان المجنون ضال وعلى هذا فهو كقوله تعالى ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وان لك لاجرا غير ممنون فيكون اشارة الى انه ما غوى بل هو رشيد مرشد دال على الله بارشاد آخر كما قال تعالى قل ما أسألكم عليه من أجر وقال ان أجري الا على الله وقوله تعالى وانك لعلى خلق عظيم اشارة الى قوله ههنا (وما ينطق عن الهوى) فان هذا خلق عظيم ولنبين الترتيب فنقول قال أولا ماضل أي هو على الطريق وما غوى أي طريقه الذي هو عليه مستقيم وما ينطق عن الهوى أي هو راكب متنه آخذ سمت المقصود وذلك لان من يسلك طريقا ليصل الى مقصده فربما يبقى بلا طريق وربما يجد اليه طريقا بعيدا فيه متاعب ومهالك وربما يجد طريقا واسعا آمنا ولكنه يميل عنه ويسرة فيبعد عنه المقصد ويتأخر عليه الوصول فاذا سلك الجادة وركب متنها كان أسرع وصولا ويمكن أن يقال وما ينطق عن الهوى دليل على انه ما ضل وما غوى تقديره كيف يضل أو يغوي وهو لا ينطق عن الهوى وانما يضل من يتبع الهوى ويدل عليه قوله تعالى ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله فان قيل ما ذكرت من الترتيب الاول على صيغة الماضي في قوله ماضل وصيغة المستقبل في قوله وما ينطق في غاية الحسن أي ماضل حين اعتزلكم وما تعبدون في صغره وما غوى حين اختلى بنفسه ورأى في منامه ما رأى وما ينطق عن الهوى الآن حيث أرسل اليكم وجعل رسولا شاهدا عليكم فلم يكن أولا ضالا ولا غاويا وصار الآن منقذا من الضلالة ومرشدا وهاديا وأما على ما ذكرت أن تقديره كيف يضل وهو لا ينطق عن الهوى فلا توافقه الصيغة نقول بلى وبيانه أن الله تعالى يصون من يريد ارساله في صغره عن الكفر والمعايب القبيحة كالسرقة والزنا واعتياد الكذب فقال تعالى ماضل في صغره لانه لا ينطق عن الهوى وأحسن ما يقال في تفسير الهوى أنها المحبة لكن من النفس يقال هويته بمعنى أحببته لكن الحروف التي في هوى تدل على الدنو والنزول والسقوط ومنه الهاوية فالنفس اذا كانت دنيئة وتركت المعالي وتعلقت بالسفاسف فقد هوت فاختص الهوى بالنفس الامارة بالسوء ولو قلت أهواه بقلبي لزال ما فيه من السفالة لكن الاستعمال بعد استبعاد استعمال

الفائدة والمقصود اخبار ما هو داع الى الوحي ومصحح له تحقيقا لقوله تعالى انما أنا منذر في ضمن تحقيق علمه عليه الصلاة والسلام بقصة الملأ الأعلى فالقائم مقام الفاعل ليوحي اما ضمير عائد الى الحال المقدر أو ما يعمه وغيره فالمعنى ما يوحى الى حال الملأ الأعلى أو ما يوحى الى ما يوحى من الامور الغيبية التي من جملتها حالهم الا انما أنا نذير مبين من جهته تعالى فان كونه عليه الصلاة والسلام كذلك من دواعي الوحي اليه ومن موجباته حتما وأما أن القائم مقام الفاعل هو الجار والمجرور أو هو انما أنا نذير مبين بلا تقدير الجار وان المعنى ما يوحى الى الا للانذار أو ما يوحى الى الا أن أنذر وأبلغ ولا أفرط في ذلك كما قيل فمع ما فيه من الاضطرار الى التكلف في توجيه قصر الوحي على كونه للانذار في الاول وقصره على الانذار في الثاني فلا يساعده سباق النظم الكريم وسياقه كيف لا والاعتراض حينئذ يكون أجنبيا عما توسط بينهما من اجمال الاختصام وتفصيله فتأمل والله المرشد وقرئ انما بالكسر على الحكاية وقوله تعالى (اذ قال ربك للملائكة) شروع في تفصيل ما أجمل من الاختصام الذي هو ما جرى بينهم من التقاول وحيث كان تكليمه تعالى اياهم بواسطة الملك صح اسناد الاختصام الى الملائكة واذ بدل من اذ الاولى وليس من ضرورة البدلية
دخولها على نفس الاختصام بل يكفي اشتمال ما في حيزها عليه فان القصة ناطقة بذلك تفصيلا والتعرض لعنوان
الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه والايذان بان وحي هذا النبأ اليه تربية وتأييد له عليه الصلاة والسلام والكاف

القرآن

واردباعتبار حال الآمر لكونه أدل على كونه وحيا منزلا من عنده تعالى كما فى قوله تعالى قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم الخ دون حال
المأمور والاقيل ربى لانه داخل فى حيز الامر (انى خالق) أى فيما سيأتى وفيه ماليس فى صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى
فاعل له البتة من غير صارف يلويه
ولا عاطف يثنيه (بشرا) قيل أى
جسما كثيفا يلاقى ويباشر وقيل
خلقا بادى البشرة بلا صوف ولا
شعر ولعل ماجرى عند وقوع المحكى
ليس هذا الاسم الذى لم يخلق
مسماه حينئذ فضلا عن تسميته به
بل عبارة كاشفة عن حاله وانما
عبر عنه بهذا الاسم عند الحكاية
(من طين) لم يتعرض لاوصافه
من التغير والاسوداد والمسنونية
اكتفاء بما ذكر فى مواقع أخر (فاذا
سويته) أى صورته بالصورة
الانسانية والخلقة البشرية أو
سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه
(ونفخت فيه من روحى) النفخ
اجراء الريح الى تجويف جسم
صالح لامساكها والامتلاء بها
وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو
تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على
المادة القابلة لها أى فاذا كملت
استعداده وأفضت عليه ما يحيا به
من الروح التى هى من أمرى
(فقعوا له) أمر من وقع وفيه دليل
على أن المأمور به ليس مجرد
الانحناء كما قيل أى اسقطوا له
(ساجدين) تحية له وتكريما
(فسجد الملائكة) أى فخلقه
فسواه فنفخ فيه الروح فسجد له
الملائكة (كلهم) بحيث لم يبق منهم
أحد الاسجد (أجمعون) أى بطريق
المعية بحيث لم يتأخر فى ذلك أحد
منهم عن أحد ولا اختصاص لافادة
هذا المعنى بالحالية بل يفيده
التأكيد أيضا وقيل أكد
بتأكيدين مبالغة فى التعميم هذا
وأما أن سجودهم هذا هل ترتب على
ماحكى من الامر التعليقى كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتى فى سورة الحجر فان ظاهرهما يستدعى ترتبه عليه من غير أن يتوسط بينهما شئ غير
ما انفصح عنه الفاء الفصيحة من الخلق والتسوية ونفخ الروح أو على الامر التنجيزى كما يقتضيه ما فى سورة البقرة وما فى سورة الاعراف وما

القرآن حيث لم يستعمل الهوى الا فى الموضع الذى يخالف المحبة فانها مستعملة فى موضع المدح والذى يدل على ما ذكرنا قوله تعالى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا الى قوله ونهى النفس عن الهوى اشارة الى علو مرتبة النفس ﴿ ثم قال تعالى (ان هو الا وحى يوحى) بكلمة البيان وذلك لانه تعالى لما قال وما ينطق عن الهوى كان قائلا قال فبماذا ينطق أعن الدليل أو الاجتهاد فقال لا وانما ينطق عن الله بالوحى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان استعملت مكان ما للنفى كما استعملت ما للشرط مكان ان قال تعالى ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها او المشابهة بينهما من حيث اللفظ والمعنى أما اللفظ فلان ان من الهمزة والنون وما من الميم والالف والالف كالهمزة والنون كالميم أما الاول فبدليل جواز القلب وأما الثانى فبدليل جواز الادغام ووجوبه وأما المعنى فلان ان تدل على النفى من وجه وعلى الاثبات من وجه ولكن دلالتها على النفى أقوى وأبلغ لان الشرط والجزاء فى صورة استعمال لفظة ان يجب أن يكون فى الحال معدوما اذا كان المقصود الحث أو المنع تقول ان تحسن فلك الثواب وان تسئ فلك العذاب وان كان المراد بيان حال القسمين المشكوك فيهما كقولك ان كان هذا الفص زجاجا فقيمته نصف وان كان جوهرا فقيمته ألف فههنا وجود شئ منهما غير معلوم وعدم العلم حاصل وعدم العلم ههنا كعدم الحصول فى الحث والمنع فلابد فى صور استعمال ان من عدم اما فى الامر واما فى العلم واما فى الوجود فذلك عند وجود الشرط فى بيان الحال ولهذا قال النحاة لا يحسن أن يقال ان احمر البسر آتك لان ذلك أمر سيوجد لا محالة وجوزوا استعمال ان فيما لا يوجد أصلا يقال فى قطع الرجاء ان ابيض القار تغلبنى قال الله تعالى فان استقر مكانه فسوف ترانى ولم يوجد الاستقرار ولا الرؤية فعلم أن دلالته على النفى أتم فان مدلوله الى مدلول ما أقرب فاستعمل أحدهما مكان الآخر هذا هو الظاهر وما يقال ان وما حرفان نافيان فى الاصل فلا حاجة الى الترادف (المسئلة الثانية) هو ضمير معلوم أو ضمير مذكور نقول فيه وجهان (أشهرهما) أنه ضمير معلوم وهو القرآن كأنه يقول ما القرآن الا وحى وهذا على قول من قال النجم ليس المراد منه القرآن وأما على قول من يقول هو القرآن فهو عائد الى مذكور (والوجه الثانى) أنه عائد الى مذكور ضمنا وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم وكلامه وذلك لان قوله تعالى وما ينطق عن الهوى فى ضمنه النطق وهو كلام وقول فكأنه تعالى يقول وما كلامه وهو نطقه الا وحى وفيه وجه آخر أبعد وأدق وهو أن يقال قوله تعالى ما ضل صاحبكم قد ذكرنا أن المراد منه فى وجه أنه ماجن وما مسه الجن فليس بكاهن وقوله وما غوى أى ليس بينه وبين الغواية تعلق فليس بشاعر فان الشعراء يتبعهم الغاوون وحينئذ يكون قوله وما ينطق عن الهوى ردا عليهم حيث قالوا قوله قول كاهن وقالوا قوله قول شاعر فقال ما قوله الا وحى وليس بقول كاهن ولا شاعر كما قال تعالى وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون (المسئلة الثالثة) الوحى اسم أو مصدر نقول يحتمل الوجهين فان الوحى اسم معناه الكتاب ومصدر وله معان منها الارسال والالهام والكتابة والكلام والاشارة والافهام فان قلنا هو ضمير القرآن فالوحى اسم معناه الكتاب كأنه يقول ما القرآن الا كتاب ويوحى بمعنى يرسل ويحتمل على هذا أيضا أن يقال هو مصدر أى ما القرآن الا ارسال والهام بمعنى المفعول أى مرسل وان قلنا المراد من قوله ان هو قوله وكلامه فالوحى حينئذ هو الالهام بمعنى ملهم أى كلامه ملهم من الله أو مرسل وفيه مباحث (البحث الاول) الظاهر خلاف ما هو المشهور عند بعض المفسرين وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم ما كان ينطق الا عن وحى ولا حجة لمن توهم هذا فى الآية لان قوله تعالى ان هو الا وحى يوحى ان كان ضمير القرآن فظاهر وان كان ضميرا عائدا الى قوله فالمراد من قوله هو القول الذى كانوا يقولون فيه انه قول شاعر ورد الله عليهم فقال ولا بقول شاعر وذلك القول هو القرآن وان قلنا بما قالوا به فينبغى ان يفسر الوحى بالالهام (البحث الثانى) هذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يجتهد وهو خلاف الظاهر فانه فى الحروب اجتهد وحرم ما قال الله لم تحرم واذن لمن

قال تعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم نقول على ماثبت لاتدل عليه الآية (البحث الثالث) يوحى يحتمل ان يكون من وحى يوحى و يحتمل أن يكون من أوحى يوحى نقول عدم يعدم وأعدم يعدم وكذلك علم يعلم وأعلم يعلم فنقول يوحى من أوحى لا من وحى وان كان وحى وأوحى كلاهما جاء بمعنى ولكن الله فى القرآن عند ذكر المصدر لم يذكر الايحاء الذى هو مصدر أوحى وعند ذكر الفعل لم يذكر وحى الذى مصدره وحى بل قال عند ذكر المصدر الوحى وقال عند ذكر الفعل أوحى وكذلك القول فى احب وحب فان حب وأحب بمعنى واحد والله تعالى عند ذكر المصدر لم يذكر فى القرآن الاحباب وذكر الحب قال أو أشد حبا وعند الفعل لم يقل حبه الله بل قال يحبهم ويحبونه وقال أيحب أحدكم وقال لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون الى غير ذلك وفيه سر من علم الصرف وهو أن المصدر والفعل الماضى الثلاثى فيهما خلاف قال بعض علماء الصرف المصدر مشتق من الفعل الماضى والماضى هو الاصل والدليل عليه وجهان لفظى ومعنوى أما اللفظى فانهم يقولون مصدر فعل يفعل اذا كان متعديا فعل بسكون العين واذا كان لازما فعول فى الاكثر ولا يقولون الفعل الماضى من فعول فعل وهذا دليل ماذكرنا وأما المعنوى فلان مايوجد من الامور لايوجد الا وهو خاص وفى ضمنه العام مثاله الانسان الذى يوجد و يتحقق يكون زيدا أو عمرا أو غيرهما و يكون فى ضمنه أنه هندى أو تركى وفى ضمن ذلك أنه حيوان وناطق ولا يوجد أولا انسان ثم يصير تركيا ثم يصير زيدا أو عمرا اذا علمت هذا فالفعل الذى يتحقق لا ينفك من أن يكون ماضيا أو مستقبلا وفى ضمنه أنه فعل مع قطع النظر عن مضيه واستقباله مثاله الضرب اذا وجد فاما أن يكون قد مضى أو بعد لم يمض والاول ماض والثانى حاضر أو مستقبل ولا يوجد الضرب من حيث انه ضرب خاليا عن المضى والحضور والاستقبال غير أن العاقل يدرك من فعل وهو يفعل الآن وسيفعل غدا أمرا مشتركا فيسميه فعلا وكذلك يدرك فى ضرب وهو يضرب الآن وسيضرب غدا أمرا مشتركا فيسميه ضربا فضرب يوجد أولا ويستخرج منه الضرب والالفاظ وضعت لامور تتحقق فيها فيعبر بها عنها والامور المشتركة لاتتحقق الا فى ضمن أشياء أخر فالوضع اولا لما يوجد منه لايدرك منه قبل الضرب وهذا الايمكن أن يقال لمن يقول الماضى أصل والمصدر مأخوذ منه * وأما الذى يقول المصدر أصل والماضى ماخوذ منه فله دلائل منها أن الاسم أصل والفعل متفرع والمصدر اسم ولأن المصدر معرب والماضى مبنى والاعراب قبل البناء ولان قال وقال وراع وراع اذ أردنا الفرق بينهما رددناهما الى المصدر فنقول قال الالف منقلبة من واو بدليل القول وقال ألفه منقلبة من ياء بدليل القيل وكذلك الروع والريع وأما المعقول فلان الالفاظ وضعت للامور التى فى الاذهان والعام قبل الخاص فى الذهن فان الموجود اذا أدرك معناه يقول المدرك هذا الموجود جوهر أو عرض فاذا أدرك أنه جوهر يقول انه جسم أو غير جسم عند من يجعل الجسم جوهرا وهو الاصح الاظهر ثم اذا أدرك كونه جسما يقول هو نام وكذلك الامر الى أن ينتهى الى أخص الاشياء ان أمكن الانتهاء اليه بالتقسيم فالوضع الاول الفعل وهو المصدر من غير زيادة ثم اذا انضم اليه زمان تقول ضرب أو سيضرب فالمصدر قبل الماضى وهذا هو الاصح اذا علمت هذا فنقول على مذهب من يقول المصدر فى الثلاثى من الماضى فالحب وأحب كلاهما فى درجة واحدة لان كليهما من حب يحب والمصدر من الثلاثى قبل مصدر المنشعبة بمرتبة وعلى مذهب من يقول الماضى فى الثلاثى مأخوذ من المصدر فالمصدر الثلاثى قبل المصدر فى المنشعبة بمرتبتين فاستعمل مصدر الثلاثى لانه قبل مصدر المنشعبة وأما الفعل فى أحب وأوحى فلان الالف فيهما تفيد فائدة لايفيدها الثلاثى المجرد لأن أحب أدخل فى التعدية وأبعد عن توهم اللزوم فاستعمله (المسئلة الرابعة) ان هو الاوحى أبلغ من قول القائل هو وحى وفيه فائدة غير المبالغة وهى أنهم كانوا يقولون هو قول كاهن هو قول شاعر فاراد نفى قولهم وذلك يحصل بصيغة النفى

فى سورة بنى اسرائيل ومافى سورة الكهف ومافى سورة طه من الآيات الكريمة فقدم تحقيقه بتوفيق الله عز وجل فى سورة البقرة وسورة الاعراف (الا ابليس) استثناء متصل لما أنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة موصوفا بصفاتهم فغلبوا عليه ثم استثنى استثناء واحد منهم أولان من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم أو منقطع وقوله تعالى (استكبر) على الاول استئناف مبين لكيفية ترك السجود المفهوم من الاستثناء فان تركه يحتمل أن يكون للتأمل والتروى و به يتحقق أنه للاباء والاستكبار وعلى الثانى يجوز اتصاله بما قبله أى لكن ابليس استكبر (وكان من الكافرين) أى وصار منهم بمخالفته للامر واستكباره عن الطاعة أو كان منهم فى علم الله عز وجل (قال يا ابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أى خلقته بالذات من غير توسط أب وأم والتثنية لابراز كمال الاعتناء بخلقه عليه الصلاة والسلام المستدعى لاجلاله واعظامه قصدا الى تأكيد الانكار وتشديد التوبيخ (أستكبرت) بهمزة الانكار وطرح همزة الوصل أى أتكبرت من غير استحقاق (أم كنت من العالين) المستحقين للتفوق وقيل أستكبرت الآن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين وقرئ بحذف همزة الاستفهام ثقة بدلالة أم عليها وقوله تعالى (قال انا خير منه) ادعاء منه لشئ مستلزم لمنعه من السجود على زعمه واشعار بانه لايليق أن يسجد الفاضل للمفضول كما يعرب عنه قوله لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون وقوله تعالى (خلقتنى من نار وخلقته من طين) تعليل لما ادعاه من فضله عليه الصلاة والسلام ولقد اخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر وزل عنه مامن جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى لما خلقت بيدى ومامن جهة الصورة كما نبه عليه قوله تعالى ونفخت فيه من روحى ومامن جهة الغاية وهو ملاك الامر ولذلك أمر الملائكة بسجوده عليهم السلام حين ظهر لهم فقال

فقال ماهو كما يقولون وزاد فقال بل هو وحى وفيه زيادة فائدة أخرى وهو قوله يوحى وذلك كقوله تعالى ولا طائر يطير بجناحيه وفيه تحقيق الحقيقة فان الفرس الشديد العدو ربما يقال هو طائر فاذا قال يطير بجناحيه يزيل جواز المجاز كذلك يقول بعض من لا يحترز فى الكلام و يبالغ فى المبالغة كلام فلان وحى كما يقول شعره سحر وكما يقول قوله معجز فاذا قال يوحى يزول ذلك المجاز أو يبعد ۞ ثم قال تعالى ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وفيه وجهان أشهرهما عند المفسرين ان الضمير فى علمه عائد الى الوحى أى الوحى علمه شديد القوى والوحى ان كان هو الكتاب فظاهر وان كان الالهام فهو كقوله تعالى نزل به الروح الامين والاولى أن يقال الضمير عائد الى محمد صلى الله عليه وسلم تقديره علم محمدا شديد القوى جبريل وحينئذ يكون عائدا الى صاحبكم تقديره علم صاحبكم وشديد القوى هو جبريل أى قواه العلمية والعملية كلها شديدة فيعلم و يعمل وقوله شديد القوى فيه فوائد (الاولى) ان مدح المعلم مدح المتعلم فلو قال علمه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل للنبى صلى الله عليه وسلم به فضيلة ظاهرة (الثانية) هى ان فيه ردا عليهم حيث قالوا أساطير الاولين سمعها وقت سفره الى الشام فقال لم يعلمه أحد من الناس بل معلمه شديد القوى والانسان خلق ضعيفا وما أوتى من العلم الا قليلا (الثالثة) فيه وثوق بقول جبريل عليه السلام فقوله تعالى شديد القوى جمع مايوجب الوثوق لان قوة الادراك شرط الوثوق بقول القائل لانا ان ظننا بواحد فساد ذهن ثم نقل الينا عن بعض الاكابر مسئلة مشكلة لا نثق بقوله ونقول هو مافهم ماقال وكذلك قوة الحفظ حتى لا نقول أدركها لكن نسيها وكذلك قوة الامانة حتى لا نقول حرفها وغيرها فقال شديد القوى ليجمع هذه الشرائط فيصير كقوله تعالى ذى قوة عند ذى العرش مكين الى أن قال أمين (الرابعة) فيه تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وهى من حيث ان الله تعالى لم يكن مختصا بمكان فنسبته الى جبريل كنسبته الى محمد صلى الله عليه وسلم فاذا علم بواسطته يكون نقصا عن درجته فقال ليس كذلك لانه شديد القوى يثبت لمكالمتنا وأنت بعدما استويت فتكون كموسى حيث خر فكانه تعالى قد علمه بواسطة ثم علمه من غير واسطة كما قال تعالى وعلمك مالم تكن تعلم وقال صلى الله عليه وسلم أدبنى ربى فأحسن تأديبى ۞ ثم قال تعالى ﴿ ذو مرة فاستوى ﴾ وفى قوله تعالى ذو مرة وجوه (أحدها) ذو قوة (ثانيها) ذو كمال فى العقل والدين جميعا (ثالثها) ذو منظر وهيبة عظيمة (رابعها) ذو خلق حسن فان قيل على قولنا المراد ذو قوة قد تقدم بيان كونه ذا قوى فى قوله شديد القوى فكيف نقول قواه شديدة وله قوة نقول ذلك لا يحسن ان جاء وصفا بعد وصف وأما ان جاء بدلا يجوز كانه قال علمه ذو قوة وترك شديد القوى فليس وصفا له وتقديره ذو قوة عظيمة أو كاملة وهو حينئذ كقوله تعالى انه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين فكانه قال علمه ذو قوة فاستوى والوجه الآخر فى الجواب هو أن افراد قوة بالذكر ربما يكون لبيان ان قواه المشهورة شديدة وله قوة أخرى خصه الله بها يقال فلان كثير المال وله مال لا يعرفه أحد أى أمواله الظاهرة كثيرة وله مال باطن على أنا نقول المراد ذو شدة وتقديره علمه من قواه شديدة وفى ذاته أيضا شدة فان الانسان ربما تكون قواه شديدة وفى جسمه صغر وحقارة ورخاوة وفيه لطيفة وهى أنه تعالى أراد بقوله شديد القوى قوته فى العلم * ثم قال تعالى ذو مرة أى شدة فى جسمه فقدم العلمية على الجسمية كما قال تعالى وزاده بسطة فى العلم والجسم وفى قوله فاستوى وجهان المشهور ان المراد جبريل أى فاستوى جبريل فى خلقه ۞ ثم قال تعالى ﴿ وهو بالافق الاعلى ﴾ والمشهور أن هو ضمير جبريل وتقديره استوى كما خلقه الله تعالى بالافق الشرقى فسد المشرق لعظمته والظاهر أن المراد محمد صلى الله عليه وسلم معناه استوى بمكان وهو بالمكان العالى رتبة ومنزلة فى رفعة القدر لا حقيقة فى الحصول فى المكان فان قيل كيف يجوز هذا والله تعالى يقول ولقد رآه بالافق المبين اشارة الى أنه رأى جبريل بالافق المبين نقول وفى ذلك الموضع أيضا نقول كما قلنا ههنا انه صلى الله عليه وسلم رأى جبريل وهو بالافق المبين يقول القائل

أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة فى الارض وأن له خواص ليست لغيره (قال فاخرج منها) الفاء لترتيب الامر على ماظهر من اللعين من المخالفة للامر الجليل وتعليلها بالاباطيل أى فاخرج من الجنة أو من زمرة الملائكة وهو المراد بالامر بالهبوط لا الهبوط من السماء كما قيل فان وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد وقد بين كيفية وسوسته فى سورة البقرة وقيل اخرج من الخلقة التى كنت فيها وانسلخ منها فانه كان يفتخر بخلقته فغير الله خلقته فاسود بعد ما كان أبيض وقبح بعد ما كان حسنا وأظلم بعد ما كان نورانيا وقوله تعالى (فانك رجيم) تعليل للامر بالخروج أى مطرود من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب (وان عليك لعنتى) أى ابعادى عن الرحمة وتقييدها بالاضافة مع اطلاقها فى قوله تعالى وان عليك اللعنة لما أن لعنة اللاعنين من الملائكة والثقلين أيضا من جهته تعالى وأنهم يدعون عليه بلعنة الله تعالى وابعاده من الرحمة (الى يوم الدين) أى يوم الجزاء والعقوبة وفيه ايذان بأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لجنايته بل هى أنموذج لما سيلقاه مستمرا الى ذلك اليوم لكن لا على انها تنقطع يومئذ كما يوهمه ظاهر التوقيت بل على أنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب وأفانين العقاب ماينسى عنده اللعنة وتصير كالزائل ألا يرى الى قوله تعالى فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين وقوله تعالى ويلعن بعضهم بعضا (قال رب فأنظرنى) أى أمهلنى وأخرنى والفاء متعلقة بمحذوف ينسحب عليه الكلام أى اذا جعلتنى رجيما فأمهلنى ولا تمتنى (الى يوم يبعثون) أى آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثأره و ينجو من الموت بالكلية اذ لا موت بعد البعث (قال فانك من المنظرين) وورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ماسأله للآخرين على وجه يشعر بكون السائل تبعا لهم فى ذلك دليل واضح على أنه اخبار بالانظار المقدر لهم ازلا

رأيت الهلال فيقال له أين رأيته فيقول فوق السطح أى أن الرائى فوق السطح لا المرئى والمبين هو الفارق من أبان أى فرق أى هو بالافق الفارق بين درجة الانسان ومنزلة الملك فانه صلى الله عليه وسلم انتهى وبلغ الغاية وصار نبيا كما صار بعض الانبياء نبيا باتيه الوحى فى نومه وعلى هيئته وهو واصل الى الافق الاعلى والافق الفارق بين المنزلتين فان قيل مابعده يدل على خلاف ماذهب اليه فان قوله ثم دنا فتدلى الى غير ذلك وقوله تعالى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى كل ذلك يدل على خلاف ماذكرته نقول سنبين موافقته لما ذكرنا ان شاء الله تعالى فى مواضعه عند ذكر تفسيره فان قيل الاحاديث تدل على خلاف ماذكرته حيث ورد فى الاخبار أن جبريل صلى الله عليه وسلم أرى النبى صلى الله عليه وسلم نفسه على صورته فسد المشرق فنقول نحن ماقلنا انه لم يكن وليس فى الحديث أن الله تعالى أراد بهذه الآية تلك الحكاية حتى يلزم مخالفة الحديث وانما نقول ان جبريل أرى النبى صلى الله عليه وسلم نفسه مرتين وبسط جناحيه وقد ستر الجانب الشرقى وسده لكن الآية لم ترد لبيان ذلك ۞ ثم قال تعالى (ثم دنا فتدلى) وفيه وجوه مشهورة (أحدها) ان جبريل دنا من النبى صلى الله عليه وسلم أى بعد مامد جناحه وهو بالافق عاد الى الصورة التى كان يعتاد النزول عليها وقرب من النبى صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ففى تدلى ثلاثة وجوه (أحدها) فيه تقديم وتأخير تقديره ثم تدلى من الافق الاعلى فدنا من النبى صلى الله عليه وسلم (الثانى) الدنو والتدلى بمعنى واحد كانه قال دنا فقرب (الثالث) دنا أى قصد القرب من محمد صلى الله عليه وسلم وتحرك عن المكان الذى كان فيه فتدلى فنزل الى النبى صلى الله عليه وسلم (الثانى) على ماذكرنا من الوجه الاخير فى قوله وهو بالافق الاعلى ان محمدا صلى الله عليه وسلم دنا من الخلق والامة ولان لهم وصار كواحد منهم فتدلى أى فتدلى اليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق فقال أنا بشر مثلكم يوحى الى وعلى هذا ففى الكلام كمالان كانه تعالى قال الاوحى يوحى جبريل على محمد فاستوى محمد وكمل فدنا من الخلق بعد علوه وتدلى اليهم وبلغ الرسالة (الثالث) وهو ضعيف سخيف وهو أن المراد منه هو ربه تعالى وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان اللهم الا أن يريد القرب بالمنزلة وعلى هذا يكون فيه ما فى قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه تعالى من تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا ومن تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ومن مشى الى أتيته هرولة اشارة الى المعنى المجازى وههنا لما بين ان النبى صلى الله عليه وسلم استوى وعلا فى المنزلة العقلية لافى المكان الحسى قال وقرب الله منه تحقيقا لما فى قوله من تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا ۞ ثم قال تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) أى بين جبرائيل ومحمد عليهما السلام مقدار قوسين أو أقل ورد هذا على استعمال العرب وعادتهم فان الاميرين منهم أو الكبيرين اذا اصطلحا وتعاهدا خرجا بقوسيهما ووتر كل واحد منهما طرف قوسه بطرف قوس صاحبه ومن دونهما من الرعية يكون كفه بكفه فينهيان باعيهما ولذلك تسمى مبايعة وعلى هذا ففيه لطيفة وهى ان قوله قاب قوسين على جعل كونهما كبيرين وقوله أو أدنى لفضل أحدهما على الآخر فان الامير اذا بايعه الرعية لا يكون مع المبايع قوس فيصافحه الامير فكأنه تعالى أخبر انهما كاميرين كبيرين فكان بينهما مقدار قوسين أو كان جبرائيل عليه السلام سفيرا بين الله تعالى ومحمد صلى الله عليه وسلم فكان كالتبع لمحمد صلى الله عليه وسلم فصار كالمبايع الذى يمد الباع لا القوس هذا على قول من يفضل النبى صلى الله عليه وسلم على جبرائيل عليه السلام وهو مذهب أهل السنة الاقليلا منهم اذ كان جبرائيل رسولا من الله واجب التعظيم والاتباع فصار النبى صلى الله عليه وسلم عنده كالتبع له على قول من يفضل جبريل على النبى صلى الله عليه وسلم وفيه وجه آخر على ماذكرنا وهو أن يكون القوس عبارة عن بعد من قاس يقوس وعلى هذا فنقول ذلك البعد هو البعد النوعى الذى كان للنبى صلى الله عليه وسلم فانه على كل حال كان بشرا وجبريل على كل حال كان ملكا فالنبى صلى الله عليه وسلم وان زال عن الصفات التى تخالف صفات الملك

لا انشاء لانظار خاص به قد وقع اجابة لدعائه وأن استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذ به يتحقق كونه منهم لا لتأخير العقوبة كما قيل فان ذلك معلوم من اضافة اليوم الى الدين أى انك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين (الى يوم الوقت المعلوم) الذى قدره الله وعينه لفناء الخلائق وهو وقت النفخة الاولى لا الى وقت البعث الذى هو المسؤل فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل لربط الاخبار المذكور به كما فى قول من قال

* فان ترحم فانت لذاك أهل *

فانه لا امكان لجعل الفاء فيه لربط ماله تعالى من الاهلية القديمة للرحمة بوقوع الرحمة الحادثة بل هى لربط الاخبار بتلك الاهلية للرحمة بوقوعها هذا وقد ترك التوقيت فى سورة الاعراف كما ترك النداء والفاء فى الاستنظار والانظار تعويلا على ماذكر ههنا وفى سورة الحجر وان خطر ببالك أن كل وجه من وجوه النظم الكريم لابد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ماحكى من اللعين انما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الا دفعة فمقام الاستنظار والانظار ان اقتضى أحد الوجوه المحكية فذلك الوجه هو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى رتبة البلاغة ودرجة الاعجاز وأما ماعداه من الوجوه فهو بمعزل من بلوغ طبقة البلاغة فضلا عن العروج الى معارج الاعجاز فقد سلف تحقيقه فى سورة الاعراف بفضل الله تعالى وتوفيقه (قال فبعزتك) الباء للقسم والفاء لترتيب مضمون الجملة على الانظار ولا ينافيه قوله تعالى فبما أغويتنى وقوله رب بما أغويتنى فان اغواءه تعالى اياه أثر من آثار قدرته تعالى وعزته وحكم من أحكام قهره وسلطنته فمآل الاقسام بهما واحد ولعل اللعين أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بأحدهما وأخرى بالآخر أى فأقسم بعزتك

من

(لاغوينهم أجمعين) أى ذرية آدم بتزيين المعاصى لهم (الا عبادك منهم المخلصين) وهم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته وعصمهم من الغواية

من الشهوة والغضب والجهل والهوى لكن بشريته كانت باقية وكذلك جبريل وان ترك الكمال واللطف الذى يمنع الرؤية والاحتجاب لكن لم يخرج عن كونه ملكا فلم يبق بينهما الا اختلاف حقيقتهما وأما سائر الصفات الممكنة الزوال فزالت عنهما فارتفع النبى صلى الله عليه وسلم حتى بلغ الافق الاعلى من البشرية وتدلى جبريل عليه السلام حتى بلغ الافق الادنى من الملكية فتقاربا ولم يبق بينهما الا حقيقتهما وعلى هذا فى فاعل أوحى الاول وجهان (أحدهما) ان الله تعالى أوحى وعلى هذا فى عبده وجهان (أحدهما) انه جبريل عليه السلام ومعناه أوحى الله الى جبريل وعلى هذا فى فاعل أوحى الاخير وجهان (أحدهما) الله تعالى أيضا والمعنى حينئذ أوحى الله تعالى الى جبريل عليه السلام الذى أوحاه اليه تفخيما وتعظيما للموحى (ثانيهما) فاعل أوحى ثانيا جبريل والمعنى أوحى الله الى جبريل ما أوحى جبريل الى كل رسول وفيه بيان ان جبرائيل أمين لم يخن فى شئ مما أوحى اليه وهذا كقوله تعالى نزل به الروح الامين وقوله مطاع ثم أمين (الوجه الثانى) فى عبده على قولنا الموحى هو الله انه محمد صلى الله عليه وسلم معناه أوحى الله الى محمد ما أوحى اليه للتفخيم والتعظيم وهذا على ما ذكرنا من التفسير ورد على ترتيب فى غاية الحسن وذلك لان محمدا صلى الله عليه وسلم فى الاول حصل فى الافق الاعلى من مراتب الانسان وهو النبوة ثم دنا من جبريل وهو فى مرتبة النبوة فصار رسولا فاستوى وتكامل ودنا من الامة باللطف وتدلى اليهم بالقول الرفيق وجعل يتردد مرارا بين أمته وربه فاوحى الله اليه من غير واسطة جبريل ما أوحى (والوجه الثانى) فى فاعل أوحى أولا هو انه جبريل أوحى الى عبده أى الى عبد الله والله معلوم وان لم يكن مذكورا وفى قوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ما يوجب القطع بعدم جواز اطلاق هذا اللفظ على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى هذا ففاعل أوحى ثانيا يحتمل وجهين (أحدهما) انه جبريل أى أوحى جبريل الى عبد الله ما أوحاه جبريل للتفخيم (وثانيهما) أن يكون هو الله تعالى أى أوحى جبريل الى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى الله اليه وفى الذى أوحى وجوه (أولها) الذى أوحى الصلاة (ثانيها) ان أحدا من الانبياء لا يدخل الجنة قبلك وأمة من الامم لا تدخل الجنة قبل أمتك (ثالثها) ان ما للعموم والمراد كل ما جاء به جبريل وهذا على قولنا بان المراد جبريل صحيح والوجهان المتقدمان على قولنا المراد محمد عليه الصلاة والسلام أظهر وفيه وجه غريب من حيث العربية مشهور معناه عند الاصوليين ولنبين ذلك فى معرض الجواب عن سؤال وهو أن يقال بم عرف محمد صلى الله عليه وسلم ان جبريل ملك من عند الله وليس أحدا من الجن والذى يقال ان خديجة كشفت رأسها امتحانا فى غاية الضعف ان ادعى ذلك القائل ان المعرفة حصلت بامثال ذلك وهذا ان أراد القصة والحكاية وان خديجة فعلت هذا لان فعل خديجة غير منكر وانما المنكر دعوى حصول المعرفة بفعلها وأمثالها وذلك لان الشيطان ربما استتر عند كشف رأسها أصلا فكان يشتبه بالملائكة فيحصل اللبس والابهام والجواب الصحيح من وجهين (أحدهما) ان الله أظهر على يد جبريل معجزة عرفه النبى صلى الله عليه وسلم بها كما أظهر على يد محمد معجزات عرفناه بها (وثانيهما) ان الله تعالى خلق فى محمد صلى الله عليه وسلم علما ضروريا بان جبريل من عند الله ملك لا جنى ولا شيطان كما ان الله تعالى خلق فى جبريل علما ضروريا ان المتكلم معه هو الله تعالى وأن المرسل له ربه لا غيره اذا علم الجوابان فنقول قوله تعالى ﴿فاوحى الى عبده ما أوحى﴾ فيه وجهان (أحدهما) أوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحاه الى جبريل أى كلمه الله انه وحى أو خلق فيه علما ضروريا (ثانيهما) أوحى الى جبريل ما أوحى الى محمد دليله الذى به يعرف انه وحى فعلى هذا يمكن أن يقال ما مصدرية تقديره فاوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم الايحاء أى العلم بالايحاء ليفرق بين الملك والجن ۞ ثم قال تعالى ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفؤاد فؤاد من نقول المشهور انه فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم معناه

وقرئ المخلصين على صيغة الفاعل أى الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم لله تعالى (قال) أى الله عز وجل (فالحق والحق أقول) برفع الاول على أنه مبتدا محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدا ونصب الثانى على أنه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر أى لا أقول الا الحق والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى فالحق قسمى (لاملأن جهنم) على أن الحق اما اسمه تعالى أو نقيض الباطل عظمه الله تعالى باقسامه به أو فأنا الحق أو فقولى الحق وقوله تعالى لاملأن جهنم الخ حينئذ جواب لقسم محذوف أى والله لاملأن الخ وقوله تعالى والحق أقول على كل تقدير اعتراض مقرر على الوجهين الاولين لمضمون الجملة القسمية وعلى الوجه الثالث لمضمون الجملة المتقدمة أعنى فقولى الحق وقرئا منصوبين على أن الاول مقسم به كقولك الله لافعلن وجوابه لاملأن وما بينهما اعتراض وقرئا مجرورين على أن الاول مقسم به قد أضمر حرف قسمه كقولك الله لافعلن والحق أقول على حكاية لفظ المقسم به على تقدير كونه نقيض الباطل ومعناه التأكيد والتشديد وقرئ بجر الاول على اضمار حرف القسم ونصب الثانى على المفعولية (منك) أى من جنسك من الشياطين (وممن تبعك) فى الغواية والضلال (منهم) من ذرية آدم (أجمعين) تأكيد للكاف وما عطف عليه أى لاملأنها من المتبوعين والاتباع أجمعين كقوله تعالى لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين وهذا القول هو المراد بقوله تعالى ولكن حق القول منى لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وحيث كان مناط الحكم ههنا اتباع الشيطان اتضح أن مدار عدم المشيئة فى قوله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها اتباع الكفرة للشيطان بسوء اختيارهم لا تحقق القول فليس فى ذلك شائبة الجبر فتدبر (قل ما أسألكم عليه) على القرآن أو على تبليغ ما يوحى الىّ (من أجر) دنيوى (وما أنا من المتكلفين) أى المتصنعين بما ليسوا من أهله حتى أنتحل النبوة وأتقول القرآن (ان هو)

أى ما هو (الا ذكر) من الله عزوجل (للعالمين) أى للثقلين كافة (ولتعلمن نبأه) أى ما أنبأ به من الوعد والوعيد وغيرهما أو صحة خبره وانه الحق
والصدق (بعد حين) بعد الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الاسلام وفشوه وقيل من بقى علم ذلك اذا ظهر أمره وعلا ومن مات
علمه بعد الموت وفيه من التهديد
ما لا يخفى * عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم من قرأ سورة ص
كان له بوزن كل جبل سخره الله
لداود عشر حسنات وعصمه أن
يصر على ذنب صغيرا وكبيرا وقال
أبو أمامة عصمه الله تعالى من كل
ذنب صغير أو كبير والله أعلم

﴿سورة الزمر مكية الا قوله قل لعبادى الآية وآيها خمس وسبعون أو ثنتان وسبعون﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(تنزيل الكتاب) خبر لمبتدا محذوف هو اسم اشارة أشير به الى السورة تنزيلا لها منزلة الحاضر المشار اليه لكونها على شرف الذكر والحضور كما مر مرارا وقد قيل هو ضمير عائد الى الذكر فى قوله تعالى ان هو الا ذكر للعالمين وقوله تعالى (من الله العزيز الحكيم) صلة للتنزيل أو خبر ثان أو حال من التنزيل عاملها معنى الاشارة أو من الكتاب الذى هو مفعول معنى عاملها المضاف وقيل هو خبر لتنزيل الكتاب والوجه الاول أوفى بمقتضى المقام الذى هو بيان أن السورة أو القرآن تنزيل الكتاب من الله تعالى لا بيان أن تنزيل الكتاب منه تعالى لا من غيره كما يفيده الوجه الاخير وقرئ تنزيل الكتاب بالنصب على اضمار فعل نحو أقرأ أو الزم والتعرض لوصفى العزة والحكمة للايذان بظهور أثريهما فى الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة وقوله تعالى (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق) شروع فى بيان شان المنزل اليه وما يجب عليه اثر بيان شأن المنزل وكونه من عند الله تعالى والمراد بالكتاب هو القرآن واظهاره على تقدير كونه هو المراد بالاول أيضا لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه والباء اما متعلقة

انه ما كذب فؤاده واللام لتعريف ما علم حاله لسبق ذكر محمد عليه الصلاة والسلام فى قوله الى عبده وفى قوله وهو بالافق الاعلى وقوله تعالى ما ضل صاحبكم ويحتمل أن يقال ما كذب الفؤاد أى جنس الفؤاد لان المكذب هو الوهم والخيال يقول كيف يرى الله أو كيف يرى جبريل مع انه ألطف من الهواء والهواء لا يرى وكذلك يقول الوهم والخيال ان رأى ربه رآه فى جهة ومكان وعلى هيئة والكل ينافى كون المرئى الها ولو رأى جبريل عليه السلام مع انه صار على صورة دحية أو غيره فقد انقلبت حقيقته ولو جاز ذلك لارتفع الامان عن المرئيات فنقول رؤية الله تعالى ورؤية جبريل عليه السلام على ما رآه محمد عليه الصلاة والسلام جائزة عند من له قلب فالفؤاد لا ينكر ذلك وان كانت النفس المتوهمة والمتخيلة تنكره (المسئلة الثانية) ما معنى ما كذب نقول فيه وجوه (الوجه الاول) ما قاله الزمخشرى وهو ان قلبه لم يكذب وما قال ان ما رآه ببصرك ليس بصحيح ولو قال فؤاده ذلك لكان كاذبا فيما قاله وهو قريب مما قاله المبرد حيث قال معناه صدق الفؤاد فيما رأى أى شيأ فصدق فيه (الثانى) قرئ ما كذب الفؤاد بالتشديد ومعناه ما قال ان المرئى خيال لا حقيقة له (الثالث) هو ان هذا مقرر لما ذكرنا من أن محمدا صلى الله عليه وسلم لما رأى جبريل عليه السلام خلق الله له علما ضروريا بانه ليس بخيال وليس هو على ما ذكرنا قصد الحق وتقديره ما جوز أن يكون كاذبا ونفى الوقوع وارادة نفى الجواز كثير قال الله تعالى لا يخفى على الله منهم شئ وقال لا تدركه الابصار وقال وما ربك بغافل والكل لنفى الجواز بخلاف قوله تعالى لا نضيع أجر المحسنين ولا نضيع أجر من أحسن عملا ولا يغفر أن يشرك به فانه لنفى الوقوع (المسئلة الثالثة) الرائى فى قوله ما رأى هو الفؤاد أو البصر أو غيرهما نقول فيه وجوه (الاول) الفؤاد كانه تعالى قال ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد أى لم يقل انه جنى أو شيطان بل تيقن ان ما رآه بفؤاده صدق صحيح (الثانى) البصر أى ما كذب الفؤاد ما رآه البصر ولم يقل ان ما رآه البصر خيال (الثالث) ما كذب الفؤاد ما رأى محمد عليه الصلاة والسلام وهذا على قولنا الفؤاد للجنس ظاهر أى القلوب تشهد بصحة ما رآه محمد صلى الله عليه وسلم وان كانت الاوهام لا تعرف بها (المسئلة الرابعة) ما المرئى فى قوله ما رأى نقول على الاختلاف السابق والذى يحتمل الكلام وجوه ثلاثة (الاول) الرب تعالى (والثانى) جبريل عليه السلام (والثالث) الآيات العجيبة الالهية فان قيل كيف تمكن رؤية الله تعالى بحيث لا يقدح فيه ولا يلزم منه كونه جسما فى جهة نقول اعلم أن العاقل اذا تأمل وتفكر فى رجل موجود فى مكان وقال هذا مرئى الله تعالى يراه الله وتفكر فى أمر لا يوجد أصلا وقال هذا مرئى الله تعالى يراه الله تعالى يجد بينهما فرقا وعقله يصحح الكلام الاول ويكذب الكلام الثانى فذلك ليس بمعنى كونه معلوما لانه لو قال الموجود معلوم الله والمعدوم معلوم الله لما وجد فى كلامه خللا واستبعادا فالله راء بمعنى كونه عالما ثم ان الله يكون رائيا ولا يصير مقابلا للمرئى ولا يحصل فى جهة ولا يكون مقابلا له وانما يصعب على الوهم ذلك من حيث انه لم ير شيأ الا فى جهة فيقول ان ذلك واجب ومما يصحح هذا انك ترى فى الماء قمرا وفى الحقيقة ما رأيت القمر حالة نظرك الى الماء الا فى مكانه فوق السماء فرأيت القمر فى الماء لان الشعاع الخارج من البصر اتصل به فرد الماء ذلك الشعاع الى السماء لكن وهمك لما رأى أكثر ما رآه فى المقابلة لم يعهد رؤية شئ يكون خلفه الا بالتوجه اليه قال انى أرى القمر ولا رؤية الا اذا كان المرئى فى مقابلة الحدقة ولا مقابل للحدقة الا الماء فحكم اذن بناء على هذا انه يرى القمر فى الماء فالوهم يغلب العقل فى العالم لكون الامور العاجلة أكثرها وهمية حسية وفى الآخرة تزول الاوهام وتجلى الافهام فنرى الاشياء لوجودها لا لتحيزها واعلم أن من ينكر جواز رؤية الله تعالى يلزمه أن ينكر جواز رؤية جبريل عليه السلام وفيه انكار الرسالة وهو كفر وفيه ما يكاد أن يكون كفرا وذلك لان من شك فى رؤية الله تعالى يقول لو كان الله تعالى جائز الرؤية لكان واجب الرؤية لان حواسنا سليمة والله تعالى ليس من وراء حجاب ولا هو فى غاية البعد عنا لعدم كونه فى جهة ولا مكان فلو جاز أن يرى ولا نراه للزم القدح فى المحسوسات

المشاهدات

بالانزال أى بسبب الحق واثباته واظهاره أو بداعية الحق واقتضائه للانزال واما بمحذوف هو حال من نون العظمة أو من الكتاب أى أنزلناه اليك محقين فى ذلك أو أنزلناه ملتبسا بالحق والصواب أى كل مافيه حق لاريب فيه موجب للعمل به حتما والفاء فى قوله تعالى (فاعبد الله مخلصا له الدين) لترتيب الامر بالعبادة على انزال الكتاب اليه عليه الصلاة والسلام بالحق أى فاعبده تعالى ممحضا له الدين من شوائب الشرك والرياء حسبما بين فى تضاعيف ما أنزل اليك وقرئ برفع الدين على أنه مبتدأ خبره الظرف المقدم عليه لتأكيد الاختصاص المستفاد من اللام والجملة استئناف وقع تعليلا للامر باخلاص العبادة وقوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) استئناف مقرر لما قبله من الامر باخلاص الدين له تعالى ووجوب الامتثال به وعلى القراءة الاخيرة مؤكد لاختصاص الدين به تعالى أى ألا هو الذى يجب أن يخص باخلاص الطاعة له لانه المتفرد بصفات الالوهية التى من جملتها الاطلاع على السرائر والضمائر وقوله تعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء) تحقيق لحقية ماذكر من اخلاص الدين الذى هو عبارة عن التوحيد ببيان بطلان الشرك الذى هو عبارة عن ترك اخلاصه والموصول عبارة عن المشركين ومحله الرفع على الابتداء خبره ماسيأتى من الجملة المصدرة بان والاولياء عن الملائكة وعيسى عليهم السلام والاصنام وقوله تعالى (مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) حال بتقدير القول من واو اتخذوا مبينة لكيفية اشراكهم وعدم خلوص دينهم والاستثناء مفرغ من أعم العلل وزلفى مصدر مؤكد على غير لفظ المصدر ملاق له فى المعنى أى والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى بل شابوها بعبادة غيره قائلين مانعبدهم لشئ من الاشياء الا ليقربونا الى الله تعالى تقريبا (ان الله يحكم بينهم) أى وبين خصمائهم الذين هم المخلصون للدين وقد حذف لدلالة الحال عليه كما فى قوله تعالى لانفرق بين أحد من رسله على أحد الوجهين أى بين أحد منهم

المشاهدات اذ يجوز حينئذ أن يكون عند نا جبل ولا نراه فيقال لذلك القائل قد صح ان جبريل عليه السلام كان ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم وعنده غيره وهو يراه ولو وجب مايجوز لرآه كل أحد فان قيل ان هناك حجابا نقول وجب أن يرى هناك حجابا فان الحجاب لا يحجب اذا كان مرئيا على مذهبهم ثم ان النصوص وردت أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه بفؤاده فجعل بصره فى فؤاده أو رآه ببصره فجعل فؤاده فى بصره وكيف لا وعلى مذهب أهل السنة الرؤية بالارادة لا بقدرة العبد فاذا حصل الله تعالى العلم بالشئ من طريق البصر كان رؤية وان حصله من طريق القلب كان معرفة والله قادر على أن يحصل العلم بخلق مدرك للمعلوم فى البصر كما قدر على أن يحصله بخلق مدرك فى القلب والمسئلة مختلف فيها بين الصحابة فى الوقوع واختلاف الوقوع مما ينبئ عن الاتفاق على الجواز والمسئلة مذكورة فى الاصول فلا نطولها ۞ ثم قال تعالى «أفتمارونه على مايرى» أى كيف تجادلونه وتوردون شكوككم عليه مع انه رأى مارأى عين اليقين ولا شك بعد الرؤية فهو جازم متيقن وأنتم تقولون أصابه الجن ويمكن أن يقال هو مؤكد للمعنى الذى تقدم وذلك لان من تيقن شيأ قد يكون بحيث لا يزول عن نفسه تشكيك ۞ وأكده بقوله تعالى «ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى» وذلك لانه صلى الله عليه وسلم لما رآه وهو على بسيط الارض كان يحتمل أن يقال انه من الجن احتمالا فى غاية البعد لما بينا انه صلى الله عليه وسلم حصل له العلم الضرورى بانه ملك مرسل والاحتمال البعيد لا يقدح فى الجزم واليقين ألا ترى انا اذا غمضنا بالليل وانتبهنا بالنهار نجزم بان البحار وقت نومنا مانشفت ولا غارت والجبال ماعدمت ولا سارت مع احتمال ذلك فان الله قادر على ذلك وقت نومنا ويعيدها الى ما كانت عليه فى يومنا فلما رآه عند سدرة المنتهى وهو فوق السماء السادسة لم يحتمل أن يكون هناك جن ولا انس فنفى ذلك الاحتمال أيضا فقال تعالى أفتمارونه على مايرى رأى العين وكيف وهو قد رآه فى السماء فماذا تقدرون أن تقولوا فيه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو يحتمل أن تكون عاطفة ويحتمل أن تكون للحال على ما بينا أى كيف تجادلونه فيما رآه على وجه لا شك فيه ومع ذلك لا يحتمل ايراد الشكوك عليه فان كثيرا مايشك المعتقد لشئ فيه ولكن ترد عليه الشكوك ولا يمكنه الجواب عنها ولا تتريب مع ذلك فى أن الامر كما ذكرنا من المثال لانا لا نشك فى أن البحار ماصارت ذهبا والجبال ماصارت عهنا واذا أورد علينا مورد شكا وقال وقت نومك يحتمل ان الله تعالى قلبها ثم أعادها لا يمكننا الجواب عنه مع انا لا نشك فى استمرارها على ماهى عليه لا يقال اللام تنافى كون الواو للحال فان المستعمل يقال أفتمارونه وقد رأى من غير لام لانا نقول الواو التى للحال تدخل على جملة والجملة تتركب من مبتدا وخبر أو من فعل وفاعل وكلاهما يجوز فيه اللام (المسئلة الثانية) قوله نزلة فعلة من النزول فهى كجلسة من الجلوس فلابد من نزول فذلك النزول لمن كان نقول فيه وجوه وهى مرتبة على أن الضمير فى رآه عائد الى من وفيه قولان (الاول) عائد الى الله تعالى أى رأى الله نزلة أخرى وهذا على قول من قال مارأى فى قوله ما كذب الفؤاد مارأى هو الله تعالى وقد قيل بان النبى صلى الله عليه وسلم رأى ربه بقلبه مرتين وعلى هذا فالنزلة تحتمل وجهين (أحدهما) انها لله وعلى هذا فوجهان (أحدهما) قول من يجوز على الله تعالى الحركة والانتقال وهو باطل (وثانيهما) النزول بالقرب المعنوى لا الحسى فان الله تعالى قد يقرب بالرحمة والفضل من عبده ولا يراه العبد ولهذا قال موسى عليه السلام رب أرنى أى أزل بعض حجب العظمة والجلال وادن من العبد بالرحمة والافضال لاراك (والوجه الثانى) ان محمدا صلى الله عليه وسلم رأى الله نزلة أخرى وحينئذ يحتمل ذلك وجهين (أحدهما) ان النبى صلى الله عليه وسلم نزل على متن الهوى ومركب النفس ولهذا يقال لمن ركب متن هواه انه علا فى الارض واستكبر قال تعالى علا فى الارض (ثانيهما) ان المراد من النزلة ضدها وهى العرجة كأنه قال رآه عرجة أخرى وانما اختار النزلة لان العرجة التى فى الآخرة لا نزلة لها فقال نزلة ليعلم انها من الذى كان فى الدنيا (والقول الثانى) انه عائد الى

جبريل عليه السلام أى رأى جبريل نزلة أخرى والنزلة حينئذ يحتمل أن تكون لمحمد صلى الله عليه وسلم كما ذكرناه لان النبي صلى الله عليه وسلم على ما ورد فى بعض اخبار ليلة المعراج جاوز جبريل عليه السلام وقال له جبريل عليه السلام لو دنوت أنملة لاحترقت ثم عاد اليه فذلك نزلة فان قيل فكيف قال أخرى نقول لان النبي صلى الله عليه وسلم فى أمر الصلاة تردد مرارا فربما كان يجاوز كل مرة وينزل الى جبريل ويحتمل أن تكون لجبريل عليه السلام وكلاهما منقول وعلى هذا الوجه فنزلة أخرى ظاهر لان جبريل كان له نزلات وكان له نزلتان عليه وهو على صورته وقوله تعالى عند سدرة المنتهى المشهور ان السدرة شجرة فى السماء السابعة وعليها مثل النبق وقيل فى السماء السادسة وورد فى الخبر انه صلى الله عليه وسلم قال نبقها كقلال هجر وورقها كآذان الفيلة وقيل سدرة المنتهى هى الحيرة القصوى من السدرة والسدرة كالركبة من الراكب يعنى عندما يحار العقل حيرة لا حيرة فوقها ما حار النبي صلى الله عليه وسلم وما غاب ورأى ما رأى وقوله عند ظرف مكان أو ظرف زمان فى هذا الموضع نقول المشهور انه ظرف مكان تقديره رأى جبريل أو غيره بقرب سدرة المنتهى وقيل ظرف زمان كما يقال صليت عند طلوع الفجر وتقديره رآه عند الحيرة القصوى أى فى الزمان الذى تحار فيه عقول العقلاء والرؤية من أتم العلوم وذلك الوقت من أشد أوقات الجهل والحيرة فهو عليه الصلاة والسلام ما حار وقتا من شأنه أن يحار العاقل فيه والله أعلم (المسئلة الثانية) ان قلنا معناه رأى الله كيف يفهم عند سدرة المنتهى قلنا فيه أقوال (الاول) قول من يجعل الله فى مكان وهو باطل وقد بالغنا فى بيان بطلانه فى سورة السجدة (الثانى) رآه محمد صلى الله عليه وسلم وهو عند سدرة المنتهى لان الظرف قد يكون ظرفا للرائى كما ذكرنا من المثال يقال رأيت الهلال فيقال لقائله أين رأيته فيقول على السطح وربما يقول عند الشجرة الفلانية وأما ان قلنا ان المراد جبريل عليه السلام فالوجهان ظاهران وكون النبي صلى الله عليه وسلم مع جبريل عند سدرة المنتهى أظهر (المسئلة الثالثة) اضافة السدرة الى المنتهى من أى الاضافة نقول يحتمل وجوها (أحدها) اضافة الشئ الى مكانه يقال أشجار بلدة كذا لا تطول من البرد ويقال أشجار الجنة لا تيبس ولا تخلو من الثمار فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه ملك وقيل لا يتعداه روح من الارواح (وثانيها) اضافة المحل الى الحال فيه يقال كتاب الفقه ومحل السواد وعلى هذا فالمنتهى عند السدرة تقديره سدرة عندها منتهى العلوم (ثالثها) اضافة الملك الى مالكه يقال دار زيد وأشجار زيد وحينئذ فالمنتهى اليه محذوف تقديره سدرة المنتهى اليه قال الله تعالى الى ربك المنتهى فالمنتهى اليه هو الله واضافة السدرة اليه حينئذ كاضافة البيت اليه للتشريف والتعظيم ويقال فى التسبيح يا غاية مناه ويا منتهى أملاه ۞ ثم قال تعالى (عندها جنة المأوى) وفى الجنة خلاف قال بعضهم جنة المأوى هى الجنة التى وعدها المتقون وحينئذ الاضافة كما فى قوله تعالى دار المقامة وقيل هى جنة أخرى عندها يكون أرواح الشهداء وقيل هى جنة للملائكة وقرئ جنه بالهاء من جن بمعنى أجن يقال جن الليل وأجن وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الضمير فى قوله عندها عائدا الى النزلة أى عند النزلة جن محمدا المأوى والظاهر انه عائد الى السدرة وهى الاصح وقيل ان عائشة أنكرت هذه القراءة وقيل انها أجازتها ۞ وقوله تعالى (اذ يغشى السدرة ما يغشى) فيه مسائل (المسئلة الاولى) العامل فى اذ ما قبلها أو ما بعدها فيه وجهان فان قلنا ما قبلها ففيه احتمالان أظهرهما رآه أى رآه وقت ما يغشى السدرة الذى يغشى والاحتمال الآخر العامل فيه الفعل الذى فى النزلة تقديره رآه نزلة أخرى تلك النزلة وقت ما يغشى السدرة ما يغشى أى نزوله لم يكن الا بعدما ظهرت العجائب عند السدرة وغشيها ما غشى فحينئذ نزل محمد نزلة اشارة الى انه لم يرجع من غير فائدة وان قلنا ما بعده فالعامل فيه ما زاغ البصر أى ما زاغ بصره وقت غشيان السدرة ما غشيها وسنذكره عند تفسير الآية (المسئلة الثانية) قد ذكرنا ان فى بعض الوجوه سدرة المنتهى هى الحيرة القصوى وقوله يغشى السدرة على ذلك الوجه ينادى

وبين غيره وعليه قول النابغة فما كان بين الخير لو جاء سالما * أبو حجر الا ليال قلائل أى بين الخير وبينى وقيل ضمير بينهم للفريقين جميعا (فيما هم فيه يختلفون) من الدين الذى (٥١٤) اختلفوا فيه بالتوحيد والاشراك وادعى كل فريق منهم صحة ما انتحله وحكمه تعالى فى ذلك ادخال الموحدين الجنة والمشركين النار فالضمير للفريقين هذا هو الذى يستدعيه مساق النظم الكريم وأما تجويز أن يكون الموصول عبارة عن المعبودين على حذف العائد اليه واضمار المشركين من غير ذكر تعويلا على دلالة المساق عليهم ويكون التقدير والذين اتخذهم المشركون أولياء قائلين ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله ان الله يحكم بينهم أى بين العبدة والمعبودين فيما هم فيه يختلفون حيث يرجو العبدة شفاعتهم وهم يلعنونهم فبعد الاغضاء عما فيه من التعسفات بمعزل من السداد كيف لا وليس فيما ذكر من طلب الشفاعة واللعن مادة يختلف فيها الفريقان اختلافا محوجا الى الحكم والفصل وانما ذاك ما بين فريقى الموحدين والمشركين فى الدنيا من الاختلاف فى الدين الباقى الى يوم القيامة وقرئ قالوا ما نعبدهم فهو بدل من الصلة لا خبر للموصول كما قيل اذ ليس فى الاخبار بذلك مزيد مزية وقرئ ما نعبدكم الا لتقربونا حكاية لما خاطبوا به آلهتهم وقرئ نعبدهم اتباعا للباء (ان الله لا يهدى) أى لا يوفق للاهتداء الى الحق الذى هو طريق النجاة عن المكروه والفوز بالمطلوب (من هو كاذب كفار) أى راسخ فى الكذب مبالغ فى الكفر كما يعرب عنه قراءة كذاب وكذوب فانهما فاقدان للبصيرة غير قابلين للاهتداء لتغييرهما الفطرة الاصلية بالتمرن فى الضلالة والتمادى فى الغى والجملة تعليل لما ذكر من حكمه تعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولدا) الخ استئناف مسوق لتحقيق الحق وابطال القول بأن الملائكة بنات الله وعيسى ابنه بالبطلان تعالى عن ذلك علوا كبيرا ببيان استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى على الاطلاق ليندرج فيه استحالة ما قيل اندراجا أوليا أى لو أراد

الله أن يتخذ ولدا (لاصطفى) أى لاتخذ (مما يخلق) أى من جملة ما يخلقه أو من جنس ما يخلقه (ما يشاء) أن يتخذه اذ لا موجود سواه الا وهو مخلوق له تعالى لامتناع تعدد الواجب ووجوب استناد جميع ما عداه اليه ومن البين أن اتخاذ الولد منوط بالمماثلة بين المتخذ والمتخذ وأن المخلوق لا يماثل خالقه حتى يمكن اتخاذه ولدا فما فرضناه من اتخاذ ولد لم يكن اتخاذ ولد بل اصطفاء عبد واليه أشير حيث وضع الاصطفاء موضع الاتخاذ الذى تقتضيه الشرطية تنبيها على استحالة مقدمها لاستلزام فرض وقوعه بل فرض ارادة وقوعه انتفاءه أى لو أراد الله تعالى أن يتخذ ولدا لفعل شيأ ليس هو من اتخاذ الولد فى شئ أصلا بل انما هو اصطفاء عبد ولا ريب فى ان ما يستلزم فرض وقوعه انتفاءه فهو ممتنع قطعا فكأنه قيل لو أراد الله أن يتخذ ولدا لامتنع ولم يصح لكن لا على أن الامتناع منوط بتحقق الارادة بل على أنه متحقق عند عدمها بطريق الاولوية على منوال لو لم يخف الله لم يعصه وقوله تعالى (سبحانه) تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد فى حقه تعالى وتأكيد له ببيان تنزهه تعالى عنه أى تنزه بالذات عن ذلك تنزهه الخاص به على ان السبحان مصدر من سبح اذا بعد أو اسبحه تسبيحا لائقا به على أنه علم للتسبيح مقول على ألسنة العباد أو سبحوه تسبيحا حقيقا بشأنه وقوله تعالى (هو الله الواحد القهار) استئناف مبين لتنزهه تعالى بحسب الصفات اثر بيان تنزهه تعالى عنه بحسب الذات فان صفة الالوهية المستتبعة لسائر صفات الكمال النافية لسمات النقصان والوحدة الذاتية الموجبة لامتناع المماثلة والمشاركة بينه تعالى وبين غيره على الاطلاق مما يقضى بتنزهه تعالى عما قالوا قضاء متقنا وكذا وصف القهارية لما أن اتخاذ الولد شأن من يكون تحت ملكوت الغير عرضة للفناء ليقوم ولده مقامه عند فنائه ومن هو مستحيل الفناء قهار لكل الكائنات كيف يتصور أن يتخذ من الاشياء الفانية ما يقوم مقامه وقوله تعالى (خلق السموات والارض بالحق) تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدالة على تفرده بما

بالبطلان فهل يمكن تصحيحه نقول يمكن أن يقال المراد من الغشيان غشيان حالة على حالة أى ورد على حالة الحيرة حالة الرؤية واليقين ورأى محمد صلى الله عليه وسلم عند ما حار العقل ما رآه وقت ما طرأ على تلك الحالة ما طرأ من فضل الله تعالى ورحمته والاول هو الصحيح فان النقل الذى ذكرنا من ان السدرة نبقها كقلال هجر يدل على انها شجرة (المسئلة الثالثة) ما الذى غشى السدرة نقول فيه وجوه (الاول) فراش أو جراد من ذهب وهو ضعيف لان ذلك لا يثبت الا بدليل سمعى فان صح فيه خبر فلا يبعد من جواز التأويل وان لم يصح فلا وجه له (الثانى) الذى يغشى السدرة ملائكة يغشونها كأنهم طيور وهو قريب لان المكان مكان لا يتعداه الملك فهم يرتقون اليه متشرفين به متبركين زائرين كما يزور الناس الكعبة فيجتمعون عليها (الثالث) أنوار الله تعالى وهو ظاهر لان النبى صلى الله عليه وسلم لما وصل اليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل وظهرت الانوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل الجبل دكا ولم تتحرك الشجرة وخر موسى صعقا ولم يتزلزل محمد (الرابع) هو مبهم للتعظيم يقول القائل رأيت ما رأيت عند الملك يشير الى الاظهار من وجه والى الاخفاء من وجه (المسئلة الرابعة) يغشى يستر ومنه الغواشى أو من معنى الاتيان يقال فلان يغشانى كل وقت أى يأتينى والوجهان محتملان وعلى قول من يقول الله يأتى ويذهب فالاتيان أقرب ﴿﴾ ثم قال تعالى (﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اللام فى البصر يحتمل وجهين (أحدهما) المعروف وهو بصر محمد صلى الله عليه وسلم أى ما زاغ بصر محمد وعلى هذا فعدم الزيغ على وجوه ان قلنا الغاشى للسدرة هو الجراد والفراش فمعناه لم يلتفت اليه ولم يشتغل به ولم يقطع نظره عن المقصود وعلى هذا فغشيان الجراد والفراش يكون ابتلاء وامتحانا لمحمد صلى الله عليه وسلم وان قلنا أنوار الله ففيه وجهان (أحدهما) لم يلتفت يمنة ويسرة واشتغل بمطالعتها (وثانيهما) ما زاغ البصر بصعقة بخلاف موسى عليه السلام فانه قطع النظر وغشى عليه وفى الاول بيان أدب محمد صلى الله عليه وسلم وفى الثانى بيان قوته (الوجه الثانى) فى اللام انه لتعريف الجنس أى ما زاغ بصر أصلا فى ذلك الموضع لعظمة الهيبة فان قيل لو كان كذلك لقال ما زاغ بصر لانه أدل على العموم لان النكرة فى معرض النفى تعم نقول هو كقوله لا تدركه الابصار ولم يقل لا يدركه بصر (المسئلة الثانية) ان كان المراد محمدا فلو قال ما زاغ قلبه كان يحصل به فائدة قوله ما زاغ البصر نقول لا وذلك لان من يحضر عند ملك عظيم يرى من نفسه انه يهابه ويرتجف اظهار العظمته مع ان قلبه قوى فاذا قال ما زاغ البصر يحصل منه فائدة ان الامر كان عظيما ولم يزغ بصره من غير اختيار من صاحب البصر (المسئلة الثالثة) وما طغى عطف جملة مستقلة على جملة أخرى أو عطف جملة مقدرة على جملة مثال المستقلة خرج زيد ودخل عمرو ومثال المقدرة خرج زيد ودخل فنقول الوجهان جائزان (أما الاول) فكأنه تعالى قال عند ظهور النور ما زاغ بصر محمد صلى الله عليه وسلم وما طغى محمد بسبب الالتفات ولو التفت لكان طاغيا (وأما الثانى) فظاهر على الاوجه أما على قولنا غشى السدرة جراد فلم يلتفت اليه وما طغى أى ما التفت الى غير الله فلم يلتفت الى الجراد ولا الى غير الجراد سوى الله وأما على قولنا غشيها نور فقوله ما زاغ أى ما مال عن الانوار وما طغى أى ما طلب شيأ وراءها (وفيه لطيفة) وهى أن الله تعالى قال ما زاغ وما طغى ولم يقل ما مال وما جاوز لان الميل فى ذلك الموضع والمجاوزة مذمومات فاستعمل الزيغ والطغيان فيه وفيه وجه آخر وهو أن يكون ذلك بيانا لوصول محمد صلى الله عليه وسلم الى سدرة اليقين الذى لا يقين فوقه ووجه ذلك ان بصر محمد صلى الله عليه وسلم ما زاغ أى ما مال عن الطريق فلم ير الشئ على خلاف ما هو عليه بخلاف من ينظر الى عين الشمس مثلا ثم ينظر الى شئ أبيض فانه يراه أصفر أو أخضر يزيغ بصره عن جادة الابصار وما طغى ما تخيل المعدوم موجودا فرأى المعدوم مجاوزا الحد ﴿﴾ ثم قال تعالى (﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه دليل على أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى ليلة المعراج آيات الله ولم ير الله وفيه خلاف ووجهه هو أن الله

تعالى ختم قصة المعراج ههنا برؤية الآيات وقال سبحان الذى أسرى بعبده ليلا الى أن قال لنريه من آياتنا ولو كان رأى ربه لكان ذلك أعظم ما يمكن فكانت الآية الرؤية وكان أكبر شئ هو الرؤية الا ترى أن من له مال يقال له سافر لتربح ولا يقال سافر لتتفرج لما أن الربح أعظم من التفرج (المسئلة الثانية) قال بعض المفسرين لقد رأى من آيات ربه الكبرى هى أنه رأى جبريل عليه السلام فى صورته فهل هو على ما قاله نقول الظاهر أن هذه الآيات غير تلك وذلك لان جبريل عليه السلام وان كان عظيما لكن ورد فى الاخبار ان لله ملائكة أعظم منه والكبرى تأنيث الاكبر فكانه تعالى يقول رأى من آيات ربه آيات هى أكبر الآيات فان قيل قال الله تعالى انها لاحدى الكبر مع أن أكبر من سقر عجائب الله فكذلك الآيات الكبرى تكون جبريل وما فيه وان كان لله آيات أكبر منه نقول سقر احدى الكبر اى احدى الدواهى الكبر ولا شك ان فى الدواهى سقر عظيمة كبيرة وأما آيات الله فليس جبريل أكبرها ولان سقر فى نفسها أعظم وأعجب من جبريل عليه السلام فلا يلزم من صفتها بالكبر صفته بالكبرى (المسئلة الثالثة) الكبرى صفة ماذا نقول فيه وجهان (أحدهما) صفة محذوف تقديره لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى (ثانيهما) صفة آيات ربه وعلى هذا يكون مفعول رأى محذوفا تقديره رأى من الآيات الكبرى آية أو شيأ ۞ ثم قال تعالى (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى) لما قرر الرسالة ذكر ما ينبغى أن يبتدئ به الرسول وهو التوحيد ومنع الخلق عن الاشراك فقوله تعالى أفرأيتم اشارة الى ابطال قولهم بنفس القول كما ان ضعيفا اذا ادعى الملك ثم رآه العقلاء فى غاية البعد عما يدعيه يقولون انظروا الى هذا الذى يدعى الملك منكرين عليه غير مستدلين بدليل لظهور أمره فلذلك قال أفرأيتم اللات والعزى أى كما هما فكيف تشركونهما بالله والتاء فى اللات تاء تأنيث كما فى المناة لكنها تكتب مطولة لئلا يوقف عليها فتصير هاء فيشتبه باسم الله تعالى فان الهاء فى الله أصلية ليست تاء تأنيث وقف عليها فانقلبت هاء وهى صنم كانت لثقيف بالطائف قال الزمخشرى هى فعلة من لوى يلوى وذلك لانهم كانوا يلوون عليها او على ما قال فاصله لوية اسكنت الياء وحذفت لالتقاء الساكنين فبقيت لوة قلبت الواو الفا لفتح ما قبلها فصارت لات وقرئ اللات بالتشديد من لت قيل انه مأخوذ من رجل كان يلت بالسمن الطعام ويطعم الناس فعبدوا واتخذ على صورته وثن وسموه باللات وعلى هذا فاللات ذكر وأما العزى فتأنيث الاعز وهى شجرة كانت تعبد فبعث النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضى الله عنه فقطعها وخرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس منشورة الشعر تضرب رأسها وتدعو بالويل والثبور فقتلها خالد وهو يقول

ياعز كفرانك لا سبحانك * انى رأيت الله قد أهانك

ورجع الى النبى صلى الله عليه وسلم واخبره بما رأى وفعل فقال تلك العزى ولن تعبد أبدا وأما مناة فهى فعلة صنم الصفا وهى صخرة كانت لهذيل وخزاعة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الآخر لا يصح ان يقال الا اذا كان الاول مشاركا للثانى فلا يقال رأيت امرأة ورجلا آخر ويقال رأيت رجلا ورجلا آخر لاشتراك الاول والثانى فى كونهما من الرجال وههنا قوله الثالثة الاخرى يقتضى على ما ذكرنا ان تكون العزى ثالثة أولى ومناة ثالثة أخرى وليس كذلك والجواب عنه من وجوه (الاول) الاخرى كما هى تستعمل للذم قال الله تعالى وقالت أولاهم لاخراهم أى لمتأخرتهم وهم الاتباع ويقال لهم الاذناب لتأخرهم فى المراتب فهى صفة ذم كانه تعالى يقول ومناة الثالثة المتأخرة الذليلة ونقول على هذا للاصنام الثلاثة ترتيب وذلك لان الاول كان وثنا على صورة آدمى والعزى صورتها صورة نبات ومناة صورتها صورة صخرة هى جماد فالآدمى أشرف من النبات والنبات أشرف من الجماد فالجماد متأخر والمناة جماد فهى فى الاخريات من المراتب (الجواب الثانى) فيه محذوف تقديره أفرأيتم اللات والعزى المعبودين بالباطل ومناة الثالثة المعبودة الاخرى (والجواب الثالث) هو أن الاصنام كان فيها كثرة واللات والعزى اذا أخذتا متقدمتين فكل صنمة توجد فهى ثالثة فهناك ثوالث فكانه

يقول

ذكر من الصفات الجليلة أى خلقهما وما بينهما من الموجودات ملتبسة بالحق والصواب مشتملة على الحكم والمصالح وقوله تعالى (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) بيان لكيفية تصرفه تعالى فيهما بعد بيان خلقهما فان حدوث الليل والنهار فى الارض منوط بتحريك السموات أى يغشى كل واحد منهما الآخر كانه يلفه عليه لف اللباس على اللابس أو يغيبه به كما يغيب الملفوف باللفافة أو يجعله كارا عليه كرورا متتابعا تتابع اكوار العمامة وصيغة المضارع للدلالة على التجدد (وسخر الشمس والقمر) جعلهما منقادين لامره تعالى وقوله تعالى (كل يجرى لاجل مسمى) بيان لكيفية تسخيرهما أى كل منهما يجرى لمنتهى دورته أو منقطع حركته وقد مر تفصيله غير مرة (ألا هو العزيز) الغالب القادر على كل شئ من الاشياء التى من جملتها عقاب العصاة (الغفار) المبالغ فى المغفرة ولذلك لا يعاجل بالعقوبة وسلب ما فى هذه الصنائع البديعة من آثار الرحمة وتصدير الجملة بحرف التنبيه لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها (خلقكم من نفس واحدة) بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ما ذكر وترك عطفه على خلق السموات للايذان باستقلاله فى الدلالة وتعلقه بالعالم السفلى والبداءة بخلق الانسان لعراقته فى الدلالة لما فيه من تعاجيب آثار القدرة وأسرار الحكمة وأصالته فى المعرفة فان الانسان بحال نفسه أعرف والمراد بالنفس نفس آدم عليه السلام وقوله (ثم جعل منها زوجها) عطف على محذوف هو صفة لنفس أى من نفس خلقها ثم جعل منها زوجها أو على معنى واحدة أى من نفس وحدت ثم جعل منها زوجها فشفعها أو على خلقكم لتفاوت ما بينهما فى الدلالة فانهما وان كانتا آيتين دالتين على ما ذكر لكن الاولى لاستمرارها صارت معتادة وأما الثانية فحيث لم تكن معتادة خارجة عن قياس الاولى كما يشعر به التعبير عنها بالجعل دون الخلق كانت أدخل فى كونها آية وأجلب للتعجب من السامع فعطفت على الاولى بثم دلالة على

مبايتها لها فضلا ومن بعدو تراخيها عنها فيما يرجع الى زيادة كونها آية فهو من التراخى فى الحال والمنزلة وقيل أخرج ذريته آدم من ظهره كالذر ثم خلق منه حواء ففيه ثلاث آيات مترتبة على خلق آدم عليه السلام بلا أب وأم وخلق حواء من قصيراه ثم تشعيب الخلق الفائت للحصر منهما

يقول لهما ثوالث كثيرة وهذه ثالثة أخرى وهذا كقول القائل يوما ويوما (الجواب الرابع) فيه تقديم وتأخير تقديره ومناة الاخرى الثالثة ويحتمل أن يقال الاخرى تستعمل لموهوم أو مفهوم وان لم يكن مشهورا ولا مذكورا يقول من يكثر تأذيه من الناس اذا آذاه انسان الآخر جاء يؤذينا وربما يسكت على قوله أنت الآخر فيفهم غرضه كذلك ههنا (المسألة الثانية) وهى فى الترتيب أولى ما فائدة الفاء فى قوله أفرأيتم اللات والعزى وقد استعمل فى مواضع بغير الفاء قال تعالى أرأيتم ما تدعون من دون الله أرأيتم شركاءكم نقول لما تقدم من عظمة آيات الله فى ملكوته ان رسول الله الى الرسل الذى يسد الآفاق ببعض أجنحته ويهلك المدائن بشدته وقوته لا يمكنه أن يتعدى السدرة فى مقام جلال الله وعزته قال أفرأيتم هذه الاصنام مع ذلتها وحقارتها شركاء الله مع ما تقدم فقال بالفاء أى عقيب ما سمعتم من عظمة آيات الله تعالى الكبرى ونفاذ أمره فى الملا الاعلى وما تحت الثرى فانظروا الى اللات والعزى تعلموا فساد ما ذهبتم اليه وعولتم عليه (المسألة الثالثة) أين تتمة الكلام الذى يفيد فائدة ما نقول قد تقدم بيانه وهو أنه يقول هل رأيتم هذه حق الرؤية فان رأيتموها علمتم انها لا تصلح شركاء نظيره ما ذكرنا فيمن ينكر كون ضعيف يدعى ملكا يقول لصاحبه اما تعرف فلانا مقتصرا عليه مشيرا الى بطلان ما يذهب اليه ۞ ثم قال تعالى ﴿ألكم الذكر وله الانثى﴾ وقد ذكرنا ما يجب ذكره فى سورة والطور فى قوله أم له البنات ولكم البنون ونعيد ههنا بعض ذلك أو ما يقرب منه فنقول لما ذكر اللات والعزى ومناة ولم يذكر شيأ آخر قال ان هذه الاشياء التى رأيتموها وعرفتموها تجعلونها شركاء الله وقد سمعتم جلال الله وعظمته وان الملائكة مع رفعتهم وعلوهم ينتهون الى السدرة ويقفون هناك لا يبقى شك فى كونهم بعيدين عن طريقة المعقول أكثر مما بعدوا عن طريقة المنقول فكأنهم قالوا نحن لا نشك ان شيأ منها ليس مثلا لله تعالى ولا قريبا من أن يماثله وانما صورناها هذه الاشياء على صور الملائكة المعظمين الذين اعترف بهم الانبياء وقالوا انهم يرتقون ويقفون عند سدرة المنتهى ويرد عليهم الامر والنهى وينهون الى الله ما يصدر من عباده فى أرضه وهم بنات الله فاتخذنا صورا على صور الاناث وسميناها اسماء الاناث فاللات تأنيث اللاه وكان أصله ان يقال اللاهة لكن فى التأنيث يوقف عليها فصير اللاهه فاسقط احدى الهاءين وبقيت الكلمة على حرفين أصليين وتاء التأنيث فجعلناها كالاصلية كما فعلنا بذات مال وذا مال والعزى تأنيث الاعز فقال لهم كيف جعلتم لله بنات وقد اعترفتم فى أنفسكم ان البنات ناقصات والبنين كاملون والله كامل العظمة فالمنسوب اليه كيف جعلتموه ناقصا وأنتم فى غاية الحقارة والذلة حيث جعلتم أنفسكم أذل من جماد وعبدتم صخرة وشجرة ثم نسبتم الى أنفسكم الكامل فهذه القسمة جائرة على طريقتكم أيضا حيث اذللتم أنفسكم ونسبتم اليها الاعظم من الثقلين وأبغضتم البنات ونسبتموهن الى الاعظم وهو الله تعالى وكان على عادتكم ان تجعلوا الاعظم للعظيم والانقص للمحقر فاذن أنتم خالفتم الفكر والعقل والعادة التى لكم ۞ وقوله تعالى ﴿تلك اذا قسمة ضيزى﴾ فيه مسائل (المسألة الاولى) تلك اشارة الى ماذا نقول الى محذوف تقديره تلك القسمة قسمة ضيزى أى غير عادلة ويحتمل أن يقال معناه تلك النسبة قسمة وذلك لانهم ما قسموا وما قالوا لنا البنون وله البنات وانما نسبوا الى الله البنات وكانوا يكرهونهن كما قال تعالى ويجعلون لله ما يكرهون فلما نسبوا الى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائرة وهذا الخلاف لا يرهق (المسألة الثانية) اذا جواب ماذا نقول يحتمل وجوها (الاول) نسبتكم البنات الى الله تعالى اذا كان لكم البنون قسمة ضيزى (الثانى) نسبتكم البنات الى الله تعالى مع اعتقادكم انهن ناقصات واختياركم البنين مع اعتقادكم انهم كاملون اذا كنتم فى غاية الحقارة والله تعالى فى نهاية العظمة قسمة ضيزى فان قيل ما أصل اذا قلنا هو اذا التى للظرف قطعت الاضافة عنها فحصل فيها تنوين وبيانه هو انك تقول آتيك اذا طلعت الشمس فكأنك أضفت اذا الطلوع الشمس وقلت آتيك وقت طلوع الشمس فاذا قال قائل آتيك فتقول له اذا أكرمك أى اذا

وقوله تعالى (وأنزل لكم) بيان لبعض آخر من أفعاله الدالة على ما ذكر أى قضى أو قسم لكم فان قضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء حيث تكتب فى اللوح المحفوظ أو أحدث لكم بأسباب نازلة من السماء كالأمطار وأشعة الكواكب (من الانعام ثمانية أزواج) ذكرا وأنثى هى الابل والبقر والضأن والمعز وقيل خلقها فى الجنة ثم أنزلها وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر فان كون الانزال لمنافعهم وكونه من الجهة العالية من الامور المهمة المشوقة الى ما أنزل لا محالة وقوله تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم) استئناف مسوق لبيان كيفية خلقهم وأطواره المختلفة الدالة على القدرة الباهرة وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد وقوله تعالى (خلقا من بعد خلق) مصدر مؤكد أى يخلقكم فيها خلقا كائنا من بعد خلق أى خلقا مدرجا حيوانا سويا من بعد عظام مكسوة لحما من بعد عظام عارية من بعد مضغ مخلقة من بعد مضغ غير مخلقة من بعد علقة من بعد نطفة (فى ظلمات ثلاث) متعلق بيخلقكم وهى ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة أو ظلمة الصلب والبطن والرحم (ذلكم) اشارة اليه تعالى باعتبار أفعاله المذكورة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته تعالى فى العظمة والكبرياء ومحله الرفع على الابتداء أى ذلكم العظيم الشان الذى عددت أفعاله (الله) وقوله تعالى (ربكم) خبر آخر أى مربيكم فيما ذكر من الاطوار وفيما بعدها ومالككم المستحق لتخصيص العبادة به (له الملك) على الاطلاق فى الدنيا والآخرة ليس لغيره شركة فى ذلك بوجه من الوجوه والجملة خبر آخر وكذا قوله تعالى (لا اله الا هو) والفاء فى قوله تعالى (فأنى

أنبئني أكرمك فلما حذفت الاتيان السبق ذكره في قول القائل أتيت بدله بتنوين وقلت اذا كما تقول وكلا
آتيناه (المسئلة الثالثة) ضيزى قرئ بالهمز وبغير همز وعلى الاولى هي فعلى بكسر الفاء كذكرى على انه
مصدر وصف به كرجل عدل أي قسمة ضائزة وعلى القراءة الثانية هي فعلى وكان أصلها ضوزى لكن عين
الكلمة كانت يائية فكسرت الفاء لتسلم العين عن القلب كذلك فعل ببيض فان جمع افعل فعل تقول
أسود وسود وأحمر وحمر وتقول أبيض وبيض وكان الوزن بيض وكان يلزم منه قلب العين فكسرت الباء
وتركت الياء على حالها وعلى هذا ضيزى للمبالغة من ضائزة تقول فاضل وأفضل وفاضلة وفضلى
وكبير وأكبر وكبيرة وكبرى كذلك ضائز وأضوز وضائزة وضوزى وعلى هذا تقول اضوز من ضائز وضيزى
من ضائزة فان قيل قد قلت من قبل ان قوله أم له البنات ولكم البنون ليس بمعنى انكار الامرين بل بمعنى
انكار الاول واظهار النكر بالامر الثاني كما تقول أتجعلون لله أندادا وتعلمون انه خلق كل ما سواه فانه
لا ينكر الثاني وهنا قوله تلك اذا قسمة ضيزى دل على انه أنكر الامرين جميعا نقول قد ذكرنا هناك ان
الامرين محتملان اما انكار الامرين فظاهر في المشهور أما انكار الاول فثابت بوجوه وأما الثاني فلما
ذكرنا انه تعالى قال كيف تجعلون لله البنات وقد صار لكم البنون بقدرته كما قال تعالى يهب لمن يشاء اناثا
ويهب لمن يشاء الذكور وخالق البنين لكم لا يكون له بنات وأما قوله تعالى تلك اذا قسمة ضيزى فنقول قد
بينا ان تلك عائدة الى النسبة أي نسبتكم البنات الى الله تعالى مع ان لكم البنين قسمة ضائزة فالمنكر تلك
النسبة وان كان المنكر القسمة تقول يجوز أن يكون تقديره أيجوز جعل البنات لله تعالى كما ان واحدا
اذا كان بينه وبين شريكه شئ مشترك على السوية فيأخذ نصفه لنفسه ويعطي من النصف الباقي
نصفه لظالمه ونصفه لصاحبه فقال هذه قسمة ضائزة لا لكونه أخذ النصف فذلك حقه بل لكونه لم يوصل
اليه النصف الباقي ۞ ثم قال تعالى (ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان)
وفيه مباحث تدق عن ادراك اللغوي ان لم يكن عنده من العلوم حظ عظيم ولنذكر ما قيل فيه أولا
فنقول قيل معناه ان هي الا أسماء أي كونها اناثا وكونها معبودات أسماء لا مسمى لها فانها ليست باناث
حقيقة ولا معبودات وقيل أسماء أي قلتم بعضها عزى ولا عزة لها وقيل قلتم انها آلهة وليست بآلهة
والذي نقوله هو ان هذا جواب عن كلامهم وذلك على ما بينا انهم قالوا نحن لا نشك في ان الله تعالى لم يلد
كما تلد النساء ولم يولد كما تولد الرجال بالمجامعة والاحبال غير انا رأينا لفظ الولد مستعملا عند العرب
في المسبب تقول بنت الجبل وبنت الشفة لما يظهر منهما ويوجد لكن الملائكة أولاد الله بمعنى انهم
وجدوا بسببه من غير واسطة فقلنا انهم أولاده ثم ان الملائكة فيها تاء التأنيث فقلناهم أولاد مؤنثة
والولد المؤنث بنت فقلنا لهم بنات الله أي لا واسطة بينهم وبين الله تعالى في الايجاد كما تقول الفلاسفة
فقال تعالى هذه الاسماء استنبطتموها أنتم بهوى أنفسكم وأطلقتم على الله ما يوهم النقص وذلك غير
جائز وقوله تعالى يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وقوله بيده الخير أسماء موهمة غير انه تعالى أنزلها وله
ان يسمي نفسه بما اختار وليس لاحد أن يسميه باسم يوهم النقص من غير ورود الشرع به ولنبين
التفسير في مسائل (الاولى) هي ضمير عائد الى ماذا نقول الظاهر انها عائدة الى أمر معلوم وهو الاسماء
كأنه قال ما هذه الاسماء التي وضعتموها أنتم وهو المشهور ويحتمل ان يقال هي عائدة الى الاصنام
بانفسها أي ما هذه الاصنام الا أسماء وعلى هذا فهو على سبيل المبالغة والتجوز يقال لتحقير انسان
ما زيد الا اسم وما الملك الا اسم اذا لم يكن مشتملا على صفة تعتبر في الكلام بين الناس ويؤيد هذا القول
قوله تعالى ما تعبدون من دونه الا أسماء أي ما هذه الاصنام الا أسماء (المسئلة الثانية) ما الفائدة في
قوله سميتموها مع ان جميع الاسماء هم وضعوها أو بعضها هم وضعوها ولم ينكر عليهم نقول المسئلة
مختلف فيها ولا يتم الذم الا بقوله تعالى ما أنزل الله بها من سلطان وبيانه هو ان الاسماء ان أنزلها الله تعالى فلا

كلام

تصرفون) لترتيب ما بعدها على ما ذكر من شؤونه تعالى أي فكيف تصرفون عن عبادته تعالى مع وفور موجباتها ودواعيها وانتفاء الصارف عنها بالكلية الى عبادة غيره من غير داع اليها مع كثرة الصوارف عنها (ان تكفروا) به تعالى بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه ومعرفة شؤونه العظيمة الموجبة للايمان والشكر (فان الله غني عنكم) أي فاعلموا انه تعالى غني عن ايمانكم وشكركم غير متأثر من انتفائهما (ولا يرضى لعباده الكفر) أي عدم رضاه بكفر عباده لاجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة عليهم لا لتضرره تعالى به (وان تشكروا يرضه لكم) أي يرض الشكر لاجلكم ومنفعتكم لانه سبب لفوزكم بسعادة الدارين لا لانتفاعه تعالى به وانما قيل لعباده لا لكم لتعميم الحكم وتعليله بكونهم عباده تعالى وقرئ باسكان الهاء (ولا تزر وازرة وزر أخرى) بيان لعدم سراية كفر الكافر الى غيره أصلا أي لا تحمل نفس حاملة للوزر حمل نفس أخرى (ثم الى ربكم مرجعكم) بالبعث بعد الموت (فينبئكم) عند ذلك (بما كنتم تعملون) أي كنتم تعملونه في الدنيا من أعمال الكفر والايمان أي يجازيكم بذلك ثوابا وعقابا (انه عليم بذات الصدور) أي بمضمرات القلوب فكيف بالاعمال الظاهرة وهو تعليل للتنبئة (واذا مس الانسان ضر) من مرض وغيره (دعا ربه منيبا اليه) راجعا اليه مما كان يدعوه في حالة الرخاء لعلمه بأنه بمعزل من القدرة على كشف ضره وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى ان الانسان لظلوم كفار (ثم اذا خوله نعمة منه) أي أعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى من التخول وهو التعهد أي جعله خائل مال من قولهم فلان خائل مال اذا كان متعهدا له حسن القيام به أو من الخول وهو الافتخار أي جعله يخول أي يختال ويفتخر (نسي ما كان يدعو اليه) أي نسي الضر الذي كان يدعو الله تعالى فيما سبق الى كشفه (من قبل) أي من قبل التخويل أو نسي ربه الذي كان يدعوه ويتضرع اليه اما بناء على أن ما بمعنى من كما في قوله تعالى

كلام فيها وان وضعها الناس للتفاهم فينبغي ان لا يكون في ضمن تلك الفائدة مفسدة أعظم منها لكن ايهام النقص في صفات الله تعالى أعظم منها فالله تعالى ما جوز وضع الاسماء للحقائق الا حيث تسلم عن المحرم فلم يوجد في هذه الاسماء دليل نقلي ولا وجه عقلي لان ارتكاب المفسدة العظيمة لاجل المنفعة القليلة لا يجوزه العاقل فاذا ما أنزل الله بها من سلطان ووضع الاسم لا يجوز الا بدليل نقلي أو عقلي وهو أنه يقع خاليا عن وجوه المضار الراجحة (المسئلة الثالثة) كيف قال سميتموها أنتم مع أن هذه الاسامي لاصنامهم كانت قبلهم نقول فيه لطيفة وهي أنهم لو قالوا ما سميناها وانما هي موضوعة قبلنا قيل لهم كل من يطلق هذه الالفاظ فهو كالمبتدئ الواضع وذلك لان الواضع الاول لهذه الاسماء لما لم يكن واضعا بدليل نقلي ولا واضعا بدليل عقلي لم يجب اتباعه فمن يطلق اللفظ لان فلانا أطلقه لا يصح منه كما لا يصح أن يقول أضلني الاعمى ولو قاله لقيل له بل أنت أضللت نفسك حيث اتبعت من عرفت أنه لا يصلح للاقتداء به (المسئلة الرابعة) الاسماء لا تسمى وانما يسمى بها فكيف قال سميتموها نقول عنه جوابان (أحدهما) لغوي وهو أن التسمية وضع الاسم فكأنه قال أسماء وضعتموها فاستعمل سميتموها استعمال وضعتموها ويقال سميته زيدا وسميته بزيد فسميتموها بمعنى سميتم بها (وثانيهما) معنوي وهو أنه لو قال أسماء سميتم بها لكان هناك غير الاسم شئ يتعلق به الباء في قوله بها لان قول القائل سميت به يستدعي مفعولا آخر تقول سميت بزيد ابني أو عبدي أو غير ذلك فيكون قد جعل للاصنام اعتبارا وراء أسمائها واذا قال ان هي الا أسماء سميتموها أي وضعتموها في أنفسها الاسميات لها لم يكن ذلك فان قيل هذا باطل بقوله تعالى واني سميتها مريم حيث لم يقل واني سميتها بمريم ولم يكن ما ذكرت مقصودا والا لكانت مريم غير ملتفت اليها كما قلت في الاصنام نقول بينهما بون عظيم وذلك لان هناك قال سميتها مريم فذكر المفعولين فاعتبر حقيقة مريم بقوله سميتها واسمها بقوله مريم وأما ههنا فقال ان هي الا أسماء سميتموها أي ما هناك الا الاسماء موضوعة فلم تعتبر الحقيقة ههنا واعتبرت في مريم (المسئلة الخامسة) ما أنزل الله بها من سلطان على أي وجه استعملت الباء في قوله بها من سلطان نقول كما يستعمل القائل ارتحل فلان بأهله ومتاعه أي ارتحل ومعه الاهل والمتاع كذلك ههنا ثم قال تعالى (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وفيه مسائل (الاولى) قرئ ان تتبعون بالتاء على الخطاب وهو ظاهر مناسب لقوله تعالى أنتم وآباؤكم وعلى الغايبة وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون الخطاب معهم لكنه يكون التفاتا كأنه قطع الكلام معهم وقال لنبيه انهم لا يتبعون الا الظن فلا تلتفت الى قولهم (ثانيهما) أن يكون المراد غيرهم وفيه احتمالان (أحدهما) أن يكون المراد آباءهم وتقديره هو أنه لما قال سميتموها أنتم كأنهم قالوا هذه ليست أسماء وضعناها نحن وانما هي كسائر الاسماء تلقيناها ممن قبلنا من آبائنا فقال وسماها آباؤكم وما يتبعون الا الظن فان قيل كان ينبغي أن يكون بصيغة الماضي نقول وبصيغة المستقبل أيضا كأنه يفرض الزمان بعد زمان الكلام كما في قوله تعالى وكلبهم باسط ذراعيه (ثانيهما) أن يكون المراد عامة الكفار كأنه قال ان يتبع الكافرون الا الظن (المسئلة الثانية) ما معنى الظن وكيف ذمهم به وقد وجب علينا اتباعه في الفقه وقال صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي نقول أما الظن فهو خلاف العلم وقد استعمل مجازا مكان العلم والعلم مكانه وأصل العلم الظهور ومنه العلم والعالم وقد بينا في تفسير العالمين أن حروف ع ل م في تقاليبها فيها معنى الظهور ومنها لمع الآل اذا ظهر وميض السراب ولمع الغزال اذا عدا وكذا النعام وفيه الظهور وكذلك علمت والظن اذا كان في مقابلة العلم ففيه الخفاء ومنه بظنون لا يدري أفيهما أم لا ومنه الظنين المتهم لا يدري ما يظن نقول يجوز بناء الامر على الظن الغالب عند العجز عن درك اليقين والاعتقاد ليس كذلك لان اليقين لم يتعذر علينا والى هذا أشار بقوله ولقد جاءهم من ربهم الهدى أي اتبعوا الظن وقد أمكنهم الاخذ باليقين وفي العمل يمتنع ذلك أيضا (المسئلة

وما خلق الذكر والانثى وقوله تعالى ولا أنتم عابدون ما أعبد واما ايذانا بأن نسيانه بلغ الى حيث لا يعرف مدعوه ما هو فضلا عن أن يعرفه من هو كما في قوله تعالى عما أرضعت (وجعل لله أندادا) شركاء في العبادة (ليضل) الناس بذلك (عن سبيله) الذي هو التوحيد وقرئ ليضل بفتح الياء أي يزداد ضلالا أو يثبت عليه والا فاصل الضلال غير متأخر عن الجعل المذكور واللام لام العاقبة كما في قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا خلا أن هذا أقرب الى الحقيقة لان الجاعل ههنا قاصد بجعله المذكور حقيقة الاضلال والضلال وان لم يعرف لجهله أنهما اضلال وضلال وأما آل فرعون فهم غير قاصدين بالتقاطهم العداوة أصلا (قل) تهديدا لذلك الضال المضل وبيانا لحاله ومآله (تمتع بكفرك قليلا) أي تمتعا قليلا أو زمانا قليلا (انك من أصحاب النار) أي من ملازميها والمعذبين فيها على الدوام وهو تعليل لقلة التمتع وفيه من الاقناط من النجاة ما لا يخفى كأنه قيل اذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الايمان والطاعة فمن حقك أن تؤمر بتركه لتذوق عقوبته (أمن هو قانت آناء الليل) الخ من تمام الكلام المأمور به وأم اما متصلة قد حذف معادلها ثقة بدلالة مساق الكلام عليه كأنه قيل له تأكيدا للتهديد وتهكما به أأنت أحسن حالا ومآلا أم من هو قائم بمواجب الطاعات ودائم على أداء وظائف العبادات في ساعات الليل حالتي السراء والضراء لا عند مساس الضر فقط كدأبك حال كونه (ساجدا وقائما) أي جامعا بين الوصفين المحمودين وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة وقرئ كلاهما بالرفع على أنه خبر بعد خبر (يحذر الآخرة) حال أخرى على الترادف أو التداخل أو استئناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية حاله من القنوت والسجود والقيام كأنه قيل ما باله يفعل ذلك فقيل يحذر عذاب الآخرة (ويرجو رحمة ربه) فينجو بذلك مما يحذره ويفوز بما يرجوه كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى

ضمير الراجي لأنه يحذر ضر الدنيا ويرجو خيرها فقط واما منقطعة وما فيها من الاضراب للانتقال من التهديد الى التبكيت بتكليف الجواب الملجئ الى الاعتراف بما بينهما من التباين البين كأنه قيل بل أمن هو قانت الخ أفضل أم من هو كافر مثلك كما هو المعنى على قراءة التخفيف (قل) بيانا للحق وتنبيها على شرف العلم والعمل (هل يستوى الذين يعلمون) حقائق الاحوال فيعملون بموجب علمهم كالقانت المذكور (والذين لا يعلمون) أى ما ذكر أو شيئا فيعملون بمقتضى جهلهم وضلالهم كدأبك والاستفهام للتنبيه على ان كون الاولين فى اعلى معارج الخير وكون الآخرين فى أقصى مدارج الشر من الظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد من منصف ومكابر وقيل هو وارد على سبيل التشبيه أى كما لا يستوى العالمون والجاهلون لا يستوى القانتون والعاصون وقوله تعالى (انما يتذكر أولوا الالباب) كلام مستقل غير داخل فى الكلام المأمور به وارد من جهته تعالى بعد الامر بما ذكر من القوارع الزاجرة عن الكفر والمعاصى لبيان عدم تأثيرها فى قلوب الكفرة لاختلال عقولهم كما فى قول من قال

عوجوا لخيوا النعمى دمنة الدار ... ماذا تحيون من نؤى واحجار

أى انما يتعظ بهذه البيانات الواضحة أصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وهؤلاء بمعزل من ذلك وقرئ انما يذكر بالادغام (قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتذكير المؤمنين وحملهم على التقوى والطاعة اثر تخصيص التذكر بأولى الالباب ايذانا بأنهم هم كما يصرح به أى قل لهم قولى هذا بعينه وفيه تشريف لهم باضافتهم الى ضمير الجلالة ومزيد اعتناء بشأن المأمور به فان نقل عين أمر الله أدخل فى ايجاب الامتثال به وقوله تعالى (للذين أحسنوا) تعليل للامر أو لوجوب الامتثال به وايراد الاحسان فى حيز الصلة دون التقوى للايذان بأنه من باب الاحسان وأنهما متلازمان وكذا الصبر كما مر فى قوله تعالى

يكون

الثالثة) ما فى قوله تعالى وما تهوى الانفس خبرية أو مصدرية نقول فيه وجهان (أحدهما) مصدرية كأنه قال ان يتبعون الا الظن وهوى الانفس فان قيل ما الفائدة فى العدول عن صريح المصدر الى الفعل مع زيادة ما وفيه تطويل نقول فيه فائدة وانها فى أصل الوضع ثم نذكرها هنا فنقول اذا قال القائل أعجبنى صنعك يعلم من الصيغة أن الاعجاب من مصدر قد تحقق وكذلك اذا قال أعجبنى ما تصنع يعلم أن الاعجاب من مصدر هو فيه فلو قال أعجبنى صنعك وله صنع أمس وصنع اليوم لا يعلم أن المعجب أى صنع هو اذا علمت هذا فنقول ههنا قوله وما تهوى الانفس يعلم منه أن المراد انهم يتبعون ما تهوى أنفسهم فى الحال والاستقبال اشارة الى انهم ليسوا ثابتين على ضلال واحد وما هوت أنفسهم فى الماضى شيأ من أنواع العبادة فالتزموا به وداموا عليه بل كل يوم هم يستخرجون عبادة واذا انكسرت أصنامهم اليوم أتوا بغيرها غدا أو يغيرون وضع عبادتهم بمقتضى شهوتهم اليوم (ثانيهما) انها خبرية تقديره والذى تشتهيه أنفسهم والفرق بين المصدرية والخبرية ان المتبع على الاول الهوى وعلى الثانى مقتضى الهوى كما اذا قلت أعجبنى مصنوعك (المسئلة الرابعة) كيف قال وما تهوى الانفس بلفظ الجمع مع انهم لا يتبعون ما تهواه كل نفس فان من النفوس ما لا تهوى ما تهواه غيرها نقول هو من باب مقابلة الجمع بالجمع معناه اتبع كل واحد منهم ما تهواه نفسه يقال خرج الناس باهليهم أى كل واحد بأهله لا كل واحد بأهل الجمع (المسئلة الخامسة) بين لنا معنى الكلام جملة نقول قوله تعالى ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس أمران مذكوران يحتمل أن يكون ذكرهما لامرين تقديريين يتبعون الظن فى الاعتقاد ويتبعون ما تهوى الانفس فى العمل والعبادة وكلاهما فاسد لان الاعتقاد ينبغى أن يكون مبناه على اليقين وكيف يجوز اتباع الظن فى الامر العظيم وكلما كان الامر أشرف وأخطر كان الاحتياط فيه أوجب وأحذر وأما العمل فالعبادة مخالفة للهوى فكيف تبنى على متابعته ويحتمل أن يكون فى أمر واحد على طريقة النزول درجة درجة فقال ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس أى وما دون الظن لان القرونة تهوى ما لا يظن به خير وقوله تعالى ولقد جاءهم من ربهم الهدى اشارة الى أنهم على حال لا يعتد به لان اليقين مقدور عليه وتحقق بمجىء الرسل * والهدى فيه وجوه ثلاثة (الاول) القرآن (الثانى) الرسل (الثالث) المعجزات ۝ ثم قال تعالى ((أم للانسان ما تمنى)) المشهوران أم منقطعة معناه أللانسان ما اختاره واشتهاه وفى ما تمنى وجوه (الاول) الشفاعة تمنوها وليس لهم شفاعة (الثانى) قولهم ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى (الثالث) قول الوليد بن المغيرة لأوتين مالا وولدا (الرابع) تمنى جماعة أن يكونوا أنبياء ولم تحصل لهم تلك الدرجة الرفيعة فان قلت هل يمكن أن تكون أم ههنا متصلة نقول نعم والجملة الاولى حينئذ تحتمل وجهين (أحدهما) انها مذكورة فى قوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى كأنه قال ألكم الذكر وله الانثى على الحقيقة أو تجعلون لانفسكم ما تشتهون وتتمنون وعلى هذا فقوله تلك اذا قسمة ضيزى وغيرها جمل اعترضت بين كلامين متصلين (ثانيهما) انها محذوفة وتقرير ذلك هو انا بينا ان قوله أفرأيتم لبيان فساد قولهم والاشارة الى ظهور ذلك من غير دليل كما اذا قال قائل فلان يصلح للملك فيقول آخر لثالث أما رأيت هذا الذى يقوله فلان ولا يذكر انه لا يصلح للملك ويكون مراده ذلك فيذكره وحده منبها على عدم صلاحه له فههنا قال تعالى أفرأيتم اللات والعزى أى يستحقان العبادة أم للانسان أن يعبد ما يشتهيه طبعه وان لم يكن يستحق العبادة وعلى هذا فقوله أم للانسان أى هل له أن يعبد بالتمنى والاشتهاء ويؤيد هذا قوله تعالى وما تهوى الانفس أى عبدتم بهوى أنفسكم ما لا يستحق العبادة فهل لكم ذلك ۝ ثم قال تعالى ((فلله الآخرة والاولى)) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق الفاء بالكلام وفيه وجوه (الاول) ان تقديره الانسان اذا اختار معبودا فى دنياه على ما تمناه واشتهاه فلله الآخرة والاولى يعاقبه على فعله فى الدنيا وان لم يعاقبه فى الدنيا فيعاقبه فى الآخرة وقوله تعالى وكم من ملك الى قوله تعالى لا تغنى شفاعتهم

ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفى قوله تعالى انه من يتق و يصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين وقوله تعالى (فى هذه الدنيا) متعلق بأحسنوا أى عملوا الاعمال الحسنة فى هذه الدنيا على وجه الاخلاص وهو الذى عبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الاحسان بقوله عليه السلام ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (حسنة) أى حسنة عظيمة لا يكتنه كنهها وهى الجنة وقيل هو متعلق بحسنة على أنه بيان لمكانها أو حال من ضميرها فى الظرف فالمراد بها حينئذ الصحة والعافية (وأرض الله واسعة) فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والاحسان فى وطنه فليهاجر الى حيث يتمكن فيه من ذلك كما هو سنة الانبياء والصالحين فانه لا عذر له فى التفريط أصلا وقوله تعالى (انما يوفى الصابرون) الخ ترغيب فى التقوى المأمور بها وايثار الصابرين على المتقين للايذان بأنهم حائزون لفضيلة الصبر كحيازتهم لفضيلة الاحسان لما أشير اليه من استلزام التقوى لهما مع مافيه من زيادة حث على المصابرة والمجاهدة فى تحمل مشاق المهاجرة ومتاعبها أى انما يوفى الذين صبروا على دينهم وحافظوا على حدوده ولم يفرطوا فى مراعاة حقوقه لما اعتراهم فى ذلك من فنون الآلام والبلايا التى من جملتها مهاجرة الاهل ومفارقة الاوطان (أجرهم) بمقابلة ما كابدوا من الصبر (بغير حساب) أى بحيث لا يحصى ولا يحصر عن ابن عباس رضى الله عنهما لا يهتدى اليه حساب الحساب ولا يعرف وفى الحديث انه تنصب الموازين يوم القيامة لاهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون بها أجورهم ولا تنصب لاهل البلاء بل يصب عليهم الاجر صبا حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل (قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) أى من كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان ما أمر به نفسه من الاخلاص فى عبادة الله الذى هو عبارة عما أمر

يكون مؤكدا لهذا المعنى أى عقابهم يقع ولا يشفع فيهم أحد ولا يغنيهم شفاعة شافع (الثانى) انه تعالى لما بين ان اتخاذ اللات والعزى باتباع الظن وهوى الانفس كأنه قرره وقال ان لم تعلموا هذا فلله الآخرة والاولى وهذه الاصنام ليس لها من الامر شئ فكيف يجوز الاشراك وقوله تعالى وكم من ملك على هذا الوجه جواب كلام كأنهم قالوا لا نشرك بالله شيأ وانما هذه الاصنام شفعاؤنا فانها صور ملائكة مقربين فقال وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيأ (الثالث) هذا تسلية كأنه تعالى قال ذلك لنبيه حيث بين رسالته ووحدانية الله ولم يؤمنوا فقال لا تأس فلله الآخرة والاولى أى لا يعجزون الله (الرابع) هو ترتيب حق على دليله بيانه هو أنه تعالى لما بين رسالة النبى صلى الله عليه وسلم بقوله ان هو الا وحى يوحى الى آخره وبين بعض ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وهو التوحيد قال اذا علمتم صدق محمد ببيان رسالة الله تعالى فلله الآخرة والاولى لانه صلى الله عليه وسلم أخبركم عن الحشر فهو صادق (الخامس) هو ان الكفار كانوا يقولون للمؤمنين أهؤلاء أهدى منا وقالوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه فقال تعالى ان الله اختار لكم الدنيا وأعطاكم الاموال ولم يعط المؤمنين بعض ذلك الامر بل قلتم لو شاء الله لاغناهم وتحققتم هذه القضية فلله الآخرة والاولى فقولوا فى الآخرة ما قلتم فى الدنيا يهدى الله من يشاء كما يغنى الله من يشاء (المسئلة الثانية) الآخرة صفة ماذا نقول صفة الحياة أو صفة الدار وهى اسم فاعل من فعل غير مستعمل تقول أخرته فتأخر وكان من حقه أن تقول فاخر كما تقول غبرته فغبر فتعت منه سماعا ولهذا البحث فائدة ستأتى ان شاء الله تعالى (المسئلة الثالثة) الاولى فعلى للتأنيث فالاول اذن أفعل صفة وفيه مباحث (الاول) لابد من فاعل أخذ منه الافعل والفعلى فان كل فعلى وأفعل للتأنيث والتذكير له أصل فليؤخذ منه كالفضلى والافضل من الفاضلة والفاضل فاذلك نقول ههنا أخذ من أصل غير مستعمل كما قلنا ان الآخر فاعل من فعل غير مستعمل وسبب ذلك هو أن كل فعل مستعمل فله آخر وذلك لان له ماضيا فاذا استعملت ماضيه لزم فراغ الفعل والا لكان الفاعل بعد فى الفعل فلا يكون ماضيا فانك لا تقول لمن هو بعد فى الاكل أكل الا متجوزا عندما يبقى له قليل فيقول أكل اشارة الى أن ما بقى غير معتد به وتقول لمن قرب من الفراغ فرغت فيقول فرغت بمعنى ان ما بقى قليل لا يعتد به فكأنى فرغت وأما الماضى فى الحقيقة لا يصح الا عند تمام الشئ والفراغ عنه فاذا الفعل المستعمل آخر فلو كان لقولنا آخر على وزن فاعل فعل هو آخر يأخر كأمر يأمر لكان معناه صدر مصدره كجلس معناه صدر الجلوس منه بالتمام والكمال فكان ينبغى أن القائل اذا قال فلان آخر كان معناه وجد منه تمام الآخرية وفرغ منها فلا يكون بعده ما يكون آخرا لكن تقدم ان كل فعل فله آخر بعده لا يقال يشكل بقولنا تأخر فان معناه صار آخرا لانا نقول وزن الفعل ينادى على صحة ما ذكرنا فانه من باب التكليف والتكبر اذا استعمل فى غير المتكبر أى يرى انه آخر وليس فى الحقيقة كذلك اذا علمت هذا فنقول الآخر فاعل ليس له فعل ومبالغته بأفعل وهو كقولنا أأخر فنقلت الهمزة الى مكان الالف والالف الى مكان الهمزة فصارت الالف همزة والهمزة ألفا ويدل عليه التأويل فى المعنى فان آخر الشئ جزء منه متصل به والآخر مباين عنه منفصل والمنفصل بعد المتصل والآخر أشد تأخرا عن الشئ من آخره والاول أفعل ليس له فاعل وليس له فعل والاول أبعد عن الفعل من الآخر وذلك لان الفعل الماضى علم له آخر من وصفه بالماضى ولولا ذلك الوصف لما علم له آخر وأما الفعل لتفسير كونه فعلا علم له أول لان الفعل لابد له من فاعل يقوم به أو يوجد منه فاذا الفاعل أول لا ثم الفعل فاذا كان الفاعل أول الفعل كيف يكون الاول له فعل يوجد منه فلا فعل له ولا فاعل فلا يقال آل الشئ بمعنى سبق كما يقال قال من القول أو نال من النيل لا يقال ان قولنا سبق أخذ منه السابق ومن السابق الاسبق مع ان الفاعل يسبق الفعل وكذلك يقال تقدم الشئ مع ان الفاعل متقدم على الفعل الى غير ذلك نقول اما تقدم قد مضى الجواب عنه فى

به المؤمنون من التقوى مبالغة فى حثهم على الاتيان بما كلفوه وتمهيدا لما يعقبه مما خوطب به المشركون (وأمرت لان أكون أول المسلمين) أى وأمرت بذلك لاجل أن أكون مقدمهم (٥٣٣) فى الدنيا والآخرة لان احراز قصب السبق فى الدين بالاخلاص فيه والعطف لمغايرة الثانى الاول بتقييده بالعلة والاشعار بأن العبادة المذكورة كما تقتضى الامر بها لذاتها تقتضيه لما يلزمها من السبق فى الدين ويجوز أن تجعل اللام مزيدة كما فى أردت لان أقوم بدليل قوله تعالى وأمرت أن أكون أول من أسلم فالمعنى وأمرت أن أكون أول من أسلم من أهل زمانى أو من قومى أوا كون أول من دعا غيره الى مادعا اليه نفسه (قل انى أخاف ان عصيت ربى) بترك الاخلاص والميل الى ما أنتم عليه من الشرك (عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة وصف بالعظمة لعظمة مافيه من الدواهى والاهوال (قل الله أعبد) لاغيره لا استقلالا ولا اشتراكا (مخلصا له دينى) من كل شوب أمر عليه الصلاة والسلام أولا ببيان كونه مامورا بعبادة الله تعالى واخلاص الدين له ثم بالاخبار بخوفه من العذاب على تقدير العصيان ثم بالاخبار بامتثاله بالامر على أبلغ وجه وآكده اظهارا لتصلبه فى الدين وحسما لاطماعهم الفارغة وتمهيدا لتهديدهم بقوله تعالى (فاعبدوا ماشئتم) أن تعبدوه (من دونه) تعالى وفيه من الدلالة على شدة الغضب عليهم مالا يخفى كانهم لما لم ينتهوا عما نهوا عنه أمروا به كى يحل بهم العقاب (قل ان الخاسرين) أى الكاملين فى الخسران الذى هو عبارة عن اضاعة مايهمه واتلاف مالابد منه (الذين خسروا أنفسهم وأهليهم) باختيارهم الكفر لهما أى أضاعوهما وأتلفوهما (يوم القيامة) حين يدخلون النار حيث عرضوهما للعذاب السرمدى وأوقعوهما فى هلكة لاهلكة وراءها وقيل خسروا أهليهم لانهم ان كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم وان كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لاا اياب بعده وفيه أن المحذور ذهاب مالو آب لانتفع به الخاسر وذلك فتقول

تأخروأماسبق يقول القائل سابقته فسبقته فنجيب عنه بان ذلك مفتقر الى أمر يصدر من فاعل فالسابق ان استعمل فى الاول فهو بطريق المشابهة لابطريق الحقيقة والفاعل أول الفعل بمعنى قبل الفعل وليس سابق الفعل لان الفاعل والفعل لايتسابقان فالفاعل لايسبقه والذى يوضح ماذكرنا ان الآخر أبعد من الاول عن الفعل بخلاف الآخر ومايقال ان أول بمعنى جعل الآخر أولا لاستخراج معنى من الكلام فبعيد والا لم يكن آخر دونه فى افادة ذلك بل التاويل من آل الشئ اذا رجع أى رجعه الى المعنى المراد وأبعد من اللفظين قبل و بعد فان الآخر فاعل من غير فعل والاول أفعل من غير فاعل ولا فعل وقبل و بعد لافاعل ولا أفعل فلا يفهم من فعل أصلا لان الاول أول لما فيه من معنى قبل وليس قبل قبلا لما فيه من معنى الاول والآخر آخر لما فيه من معنى بعد وليس بعد بعدا لما فيه من معنى الآخر يدلك عليه انك تعلل أحدهما بالآخر ولا تعكسه فتقول هذا آخر من جاء لانه جاء بعد الكل ولا تقول هو جاء بعد الكل لانه آخر من جاء ويؤيده أن الآخر لايتحقق الا ببعدية مخصوصة وهى التى لابعدية بعدها وبعد ليس لايتحقق الا بالآخر فان المتوسط بعد الاول ليس بآخر وهذا البحث من ابحاث الزمان ومنه يعلم معنى قوله صلى الله عليه وسلم لاتسبوا الدهر أى الدهر هو الذى يفهم منه القبلية والبعدية والله تعالى هو الذى يفهم منه ذلك والبعدية والقبلية حقيقة لاثبات الله ولامفهوم للزمان الا مابه القبلية والبعدية فلا تسبوا الدهر فان ماتفهمونه منه لايتحقق الا فى الله وبالله ولولاه لما كان قبل ولا بعد (البحث الثانى) ورد فى كلام العرب الاولة تأنيث الاول وهو ينافيه صحة استعمال الاولى لان الاولى تدل على ان الاول أفعل للتفضيل وأفعل للتفضيل لايلحقه تاء التأنيث فلا يقال زيد أعلم وزينب أعلمة لسبب يطول ذكره وسنذكره فى موضع آخر ان شاء الله تعالى نقول الجواب عنه هو ان أول لما كان أفعل وليس له فاعل شابه الاربع والارنب فجاز الحاق التاء به ولما كان صفة شابه الاكبر والاصغر فقيل أولى (المسئلة الرابعة) أولى تدل على ان أول لاينصرف فكيف يقال أفعله أولا و يقال جاء زيد أولا وعمرو ثانيا فان قيل جاز فيه الامران بناء على أولة وأولى فمن قال بان تأنيث أول أولة فهو كالاربع والاربعة فجاز التنوين ومن قال أولى لايجوز نقول اذا كان كذلك كان الاشهر ترك التنوين لان الاشهر أن تأنيثه أولى وعليه استعمال القرآن فاذن الجواب ان عند التأنيث الاولى أن يقال أولى نظرا الى المعنى وعند العرب أولة لانه هو الاصل ودل عليه دليل وان كان أضعف من الغير وربما يقال بان منع الصرف من أفعل لايكون الا اذا لم يكن تأنيثه الافعلى وأما اذا كان تأنيثه بالتاء أو جاز ذلك فيه لايكون غير منصرف ۞ ثم قال تعالى (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيأ الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقد علم وجه تعلقها بما قبلها فى الوجوه المتقدمة فى قوله تعالى فلله الآخرة ان قلنا ان معناه ان اللات والعزى وغيرهما ليس لهم من الامر شئ فلله الآخرة والاولى فلا يجوز اشراكهم فيقولون نحن لانشرك بالله شيأ وانما نقول هؤلاء شفعاؤنا فقال كيف تشفع هذه ومن فى السموات لايملك الشفاعة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كم كلمة تستعمل فى المقادير اما لاستبانتها فتكون استفهامية كقولك كم ذراعا طوله وكم رجلا جاءك أى كم عدد الجائين تستبين المقدار وهى حينئذ مثل كيف لاستبانة الاحوال وأى لاستبانة الافراد وما لاستبانة الحقائق وأما لبيانها على الاجمال فتكون خبرية كقولك كم رجل أكرمنى أى كثير منهم أكرمونى غير ان عليه أسئلة (الاول) لم لم يجز ادخال من على الاستفهامية وجاز على الخبرية (الثانى) لم نصب مميز الاستفهامية وجر الذى للخبرية (الثالث) هى تستعمل فى الخبرية فى مقابلة رب فلم جعل اسما مع ان رب حرف أما الجواب عن الاول فهو ان من يستعمل فى الموضع المتعين بالاضافة تقول خاتم من فضة كما تقول خاتم فضة ولما لم تضف فى الاستفهامية لم يجز استعمال مايضاهيه وسنبين هذا الجواب ۞ والجواب عن السؤال الثانى هو أن نقول ان الاصل فى المميز الاضافة وعن الثالث هو ان كم يدخل عليه حرف الجر

غير مقصور فى الشق الاخير وقيل خسروهم لانهم لم يدخلوا مدخل الذين لهم أهل فى الجنة وخسروا أهليهم الذين كانوا يتمتعون بهم لو آمنوا وأياما كان فليس المراد مجرد تعريف الكاملين فى الخسران بما ذكر بل بيان أنهم هم اما بجعل (٥٢٣) الموصول عبارة عنهم أو عما هم مندرجون فيه اندراجا أوليا وما فى قوله تعالى (ألا ذلك هو الخسران المبين) من استئناف الجملة وتصديرها بحرف التنبيه والاشارة بذلك الى بعد منزلة المشار اليه فى الشر وتوسيط ضمير الفصل وتعريف الخسران ووصفه بالمبين من الدلالة على كمال هوله وفظاعته وأنه لا خسران وراءه مالا يخفى وقوله تعالى (لهم من فوقهم ظلل من النار) الخ نوع بيان لخسرانهم بعد تهويله بطريق الابهام على أن لهم خبر لظلل ومن فوقهم متعلق بمحذوف قيل هو حال من ظلل والاظهر أنه حال من الضمير فى الظرف المقدم ومن النار صفة لظلل أى لهم كائنة من فوقهم ظلل كثيرة متراكبة بعضها فوق بعض كائنة من النار (ومن تحتهم) أيضا (ظلل) أى أطباق كثيرة بعضها تحت بعض ظلل لآخرين بل لهم أيضا عند ترديهم فى دركاتها (ذلك) العذاب الفظيع هو الذى (يخوف الله به عباده) ويحذرهم اياه بآيات الوعيد ليجتنبوا ما يوقعهم فيه (يا عباد فاتقون) ولا تتعرضوا لما يوجب سخطى وهذه عظة من الله تعالى بالغة منطوية على غاية اللطف والمرحمة وقرئ يا عبادى (والذين اجتنبوا الطاغوت) أى البالغ أقصى غاية الطغيان فعلوت منه بتقديم اللام على العين بنى للمبالغة فى المصدر كالرحموت والعظموت ثم وصف به للمبالغة فى النعت والمراد به هو الشيطان (أن يعبدوها) بدل الاشتمال منه فان عبادة غير الله تعالى عبادة للشيطان اذ هو الآمر بها والمزين لها (وأنابوا الى الله) وأقبلوا اليه معرضين عما سواه اقبالا كليا (لهم البشرى) بالثواب على ألسنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون وبعد ذلك (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) هم الموصوفون بالاجتناب والانابة بأعيانهم لكن وضع موضع ضميرهم الظاهر

فتقول الى كم تصبر وفى كم يوم جئت وبكم رجل مررت ومن حيث المعنى ان كم اذا قرن بها من وجعل مميزه جمعا كما فى قول القائل كم من رجال خدمتهم يكون معناه كثير من الرجال خدمتهم ورب وان كانت للتقليل لكن لا تقوم مقام القليل فلا يمكن أن يقال فى رب انها عبارة عن قليل كما قلنا فى كم انه عبارة عن كثير (المسئلة الثانية) قال شفاعتهم على عود الضمير الى المعنى ولو قال شفاعته لكان العود الى اللفظ فيجوز أن يقال كم من رجل رأيته وكم من رجل رأيتهم فان قلت هل بينهما فرق معنوى قلت نعم وهو انه تعالى لما قال لا تغنى شفاعتهم يعنى شفاعة الكل ولو قال شفاعته لكان معناه كثير من الملائكة كل واحد لا تغنى شفاعته فربما كان يخطر ببال أحد ان شفاعتهم تغنى اذا اجتمعت وعلى هذا فى الكلام أمور كلها تشير الى عظم الامر (أحدها) كم فانه للتكثير (ثانيها) لفظ الملك فانه أشرف أجناس المخلوقات (ثالثها) فى السموات فانها اشارة الى علو منزلتهم ودنو مرتبتهم من مقر السعادة (رابعها) اجتماعهم على الامر فى قوله شفاعتهم وكل ذلك لبيان فساد قولهم ان الاصنام يشفعون أى كيف تشفع مع حقارتها وضعفها ودناءة منزلتها فان الجماد أخس الاجناس والملائكة أشرفها وهم فى أعلى السموات ولا تقبل شهادة الملائكة فكيف تقبل شفاعة الجمادات (المسئلة الثالثة) ما الفائدة فى قوله تعالى كم من ملك بمعنى كثير من الملائكة مع ان كل من فى السموات منهم لا يملك الشفاعة نقول المقصود الرد عليهم فى قولهم هذه الاصنام تشفع وذلك لا يحصل ببيان ان ملكا من الملائكة لا تقبل شفاعته فاكتفى بذكر الكثير ولم يقل ما منهم أحد يملك الشفاعة لانه أقرب الى المنازعة فيه من قوله كثير مع ان المقصود حاصل به * ثم ههنا بحث وهو أن فى بعض الصور تستعمل صيغة العموم والمراد الكثير وفى البعض يستعمل الكثير والمراد الكل وكلاهما على طريقة واحدة وهو استقلال الباقى وعدم الاعتداد فى قوله تعالى تدمر كل شئ كأنه يجعل الخارج عن الحكم غير ملتفت اليه وفى قوله تعالى وكم من ملك وقوله بل أكثرهم لا يعلمون وقوله أكثرهم بهم مؤمنون يجعل المخرج غير ملتفت اليه فيجعل كانما أخرجه كالامر الخارج عن الحكم كأنه ما خرج وذلك يختلف باختلاف المقصود من الكلام فان كان الكلام مذكور الامر فيه يبالغ يستعمل الكل مثاله يقال للملك كل الناس يدعون لك اذا كان الغرض بيان كثرة الدعاء له لا غير وان كان الكلام مذكور الامر خارج عنه لا يبالغ فيه لان المقصود غيره فلا يستعمل الكل مثاله اذا قال الملك لمن قال له اغتنم دعائى كثير من الناس يدعون لى اشارة الى عدم احتياجه الى دعائه لا لبيان كثرة الدعاء له فكذلك ههنا (المسئلة الرابعة) قال لا تغنى شفاعتهم ولم يقل لا يشفعون مع ان دعواهم ان هؤلاء شفعاؤنا لا أن شفاعتهم تنفع أو تغنى وقال تعالى فى مواضع أخر من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه فنفى الشفاعة بدون الاذن وقال ما لهم من ولى ولا شفيع نفى الشفيع وههنا نفى الاغناء نقول هم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم كما قال تعالى ليقربونا الى الله زلفى ثم نقول نفى دعواهم يشتمل على فائدة عظيمة أما نفى دعواهم لانهم قالوا الاصنام تشفع لنا شفاعة مقربة مغنية فقال لا تغنى شفاعتهم بدليل ان شفاعة الملائكة لا تغنى وأما الفائدة فلانه لما استثنى بقوله الا من بعد أن يأذن الله أى فيشفع ولكن لا يكون فيه بيان انها تقبل وتغنى أو لا تقبل فاذا قال لا تغنى شفاعتهم ثم قال الا من بعد أن يأذن الله فيكون معناه تغنى فيحصل البشارة لانه تعالى قال الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا وقال تعالى ويستغفرون لمن فى الارض والاستغفار شفاعة وأما قوله من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه فليس المراد نفى الشفاعة وقبولها كما فى هذه الآية حيث رد عليهم قولهم وانما المراد عظمة الله تعالى وانه لا ينطق فى حضرته أحد ولا يتكلم كما فى قوله تعالى لا يتكلمون الا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء (المسئلة الخامسة) اللام فى قوله لمن يشاء ويرضى تحتمل وجهين (أحدهما) أن تتعلق بالاذن وهو على طريقين

(أحدهما) أن يقال الامن بعد أن يأذن الله لمن يشاء من الملائكة فى الشفاعة لمن يشاء الشفاعة ويرضى (الثانى) أن يكون الاذن فى المشفوع له لان الاذن حاصل للكل فى الشفاعة للمؤمنين لانهم جميعهم يستغفرون لهم فلا معنى للتخصيص ويمكن أن ينازع فيه (وثانيهما) أن تتعلق بالاغناء يعنى الامن بعد أن يأذن الله لهم فى الشفاعة فتغنى شفاعتهم لمن يشاء ويمكن أن يقال بان هذا بعيد لان ذلك يقتضى أن تشفع الملائكة والاغناء لا يحصل الالمن يشاء فيجاب عنه بان فيه التنبيه على معنى عظمة الله تعالى فان الملك اذا شفع فالله تعالى على مشيئته بعد شفاعتهم يغفر لمن يشاء (المسئلة السادسة) ما الفائدة فى قوله تعالى ويرضى نقول فيه فائدة الارشاد وذلك لانه لما قال لمن يشاء كان المكلف مترددا لا يعلم مشيئته فقال ويرضى ليعلم انه العابد الشاكر لا المعاند الكافر فانه تعالى قال ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم فكأنه قال لمن يشاء ثم قال ويرضى بيانا لمن يشاء وجواب آخر على قولنا لا تغنى شفاعتهم شيأ ممن يشاء هو ان فاعل يرضى المدلول عليه لمن يشاء كأنه قال ويرضى هو أى تغنيه الشفاعة شيأ صالحا فيحصل به رضاه كما قال ويرضى هو أى تغنيه الشفاعة وحينئذ يكون يرضى للبيان لانه لما قال لا تغنى شفاعتهم اشارة الى نفى كل قليل وكثير كان اللازم عنده بالاستثناء ان شفاعتهم تغنى شيأ ولو كان قليلا ويرضى المشفوع له ليعلم انها تغنى أكثر من اللازم بالاستثناء ويمكن أن يقال ويرضى لتبيين ان قوله يشاء ليس المراد المشيئة التى هى الرضا فان الله تعالى اذا شاء الضلالة بعبد لم يرض به واذا شاء الهداية رضى فقال لمن يشاء ويرضى ليعلم ان تلك المشيئة ليست هى المشيئة العامة انما هى الخاصة ﴿ثم قال تعالى﴾ (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى) وقد بينا ذلك فى سورة الطور واستدللنا بهذه الآية ونذكر ما يقرب منه ههنا فنقول الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤمنون بالرسل ولا يتبعون الشرع وانما يتبعون ما يدعون انه عقل فيقولون أسماء الله تعالى ليست توقيفية و يقولون الولد هو الموجود من الغير و يستدلون عليه بقول أهل اللغة كذا يتولد منه كذا يقال الزجاج يتولد من الآجر بمعنى يوجد منه وكذا القول فى بنت الكرم و بنت الجبل ثم قالوا الملائكة وجدوا من الله تعالى فهم أولاده بمعنى الايجاد ثم انهم رأوا فى الملائكة تاء التأنيث وصح عندهم أن يقال سجدت الملائكة فقالوا بنات الله فقال ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى أى كما يسمى الاناث بنات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف يصح أن يقال انهم لا يؤمنون بالآخرة مع انهم كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله وكان من عادتهم أن يربطوا مركوبا على قبر من يموت و يعتقدون انه يحشر عليه فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) انهم لما كانوا لا يجزمون به كانوا يقولون لا حشر فان كان فلنا شفعاء يدل عليه قوله تعالى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى (ثانيهما) انهم ما كانوا يعترفون بالآخرة على الوجه وهو ما ورد به الرسل (المسئلة الثانية) قال بعض الناس أنثى فعلى من أفعل يقال فى فعلها آنث و يقال فى فاعلها أنيث يقال حديد ذكر وحديد أنيث والحق أن الانثى يستعمل فى الاكثر على خلاف ذلك بدليل جمعها على اناث (المسئلة الثالثة) كيف قال تسمية الانثى ولم يقل تسمية الاناث نقول عنه جوابان (أحدهما) ظاهر والآخر دقيق أما الظاهر فهو ان المراد بيان الجنس وهذا اللفظ أليق بهذا الموضع لما جاء على وفقه آخر الآيات والدقيق هو انه لو قال يسمونهم تسمية الاناث كان يحتمل وجهين (أحدهما) البنات (وثانيهما) الاعلام المعتادة للاناث كعائشة وحفصة فان تسمية الاناث كذلك تكون فاذا قال تسمية الانثى تعين أن تكون للجنس وهى البنت والبنات ومناسبة هذه الآية لما قبلها هى انهم لما قيل لهم ان الصنم جماد لا يشفع و بين لهم ان أعظم أجناس الخلق لا شفاعة لهم الا بالاذن قالوا نحن لا نعبد الاصنام لانها جمادات وانما نعبد الملائكة بعبادتها فانها على صورها وننصبها بين أيدينا ليذكرنا الشاهد الغائب فنعظم الملك الذى ثبت انه مقرب عظيم الشأن

تشريفالهم بالاضافة ودلالة على أن مدار اتصافهم بالوصفين الجليلين كونهم نقادا فى الدين يميزون الحق من الباطل و يؤثرون الافضل فالافضل (أولئك) اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجليلة وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم و بعد منزلتهم فى الفضل ومحله الرفع على الابتداء خبره ما بعده من الموصول أى أولئك المنعوتون بالمحاسن الجميلة (الذين هداهم الله) للدين الحق (وأولئك هم أولوا الالباب) أى هم أصحاب العقول السليمة عن معارضة الوهم ومنازعة الهوى المستحقون للهداية لا غيرهم وفيه دلالة على ان الهداية تحصل بفعل الله تعالى وقبول النفس لها (أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار) بيان لاحوال أضداد المذكورين على طريقة الاجمال وتسجيل عليهم بحرمان الهداية وهم عبدة الطاغوت ومتبعو خطواتها كما يلوح به التعبير عنهم بمن حق عليه كلمة العذاب فان المراد بها قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين وأصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب فانت تنقذه على أنها شرطية دخل عليها الهمزة لانكار مضمونها ثم الفاء لعطفها على جملة مستتبعة لها مقدرة بعد الهمزة ليتعلق الانكار والنفى بمضمونيهما معا أى أأنت مالك أمر الناس فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه ثم كررت الهمزة فى الجزاء لتأكيد الانكار وتذكيره لما طال الكلام ثم وضع موضع الضمير من فى النار لمزيد تشديد الانكار والاستبعاد والتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب بمنزلة الواقع فى النار وأن اجتهاده عليه الصلاة والسلام فى دعائهم الى الايمان سعى فى انقاذهم من النار ويجوز أن يكون الجزاء محذوفا وقوله تعالى أفأنت الخ جملة مستقلة مسوقة لتقرير مضمون الجملة السابقة وتعيين ما حذف منها وتشديد الانكار بتنزيل من استحق العذاب منزلة من دخل النار وتصوير الاجتهاد فى دعائه الى الايمان بصورة الانقاذ من النار كأنه

رفيع

قبل أولا أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه منه ثم شدد التنكير فقيل أفأنت تنقذ من فى النار وفيه تلويح بأنه تعالى هو الذى يقدر على الانقاذ لا غيره وحيث كان المراد بمن فى النار الذين قيل فى حقهم لهم من فوقهم ظلل من النار (٥٢٥) ومن تحتهم ظلل استدرك منهم بقوله تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف) وهم الذين خوطبوا بقوله تعالى يا عباد فاتقون ووصفوا بما عدد من الصفات الفاضلة وهم المخاطبون أيضا فيما سبق بقوله تعالى يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم الآية وبين أن لها درجات عالية فى جنات النعيم بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة فى الجحيم أى لهم علالى بعضها فوق بعض (مبنية) بناء المنازل المبنية المؤسسة على الارض فى الرصانة والاحكام (تجرى من تحتها) من تحت تلك الغرف (الانهار) من غير تفاوت بين العلو والسفل (وعد الله) مصدر مؤكد لقوله تعالى لهم غرف الخ فانه وعد وأى وعد (لا يخلف الله الميعاد) لاستحالته عليه سبحانه (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) استئناف وارد اما لتمثيل الحياة الدنيا فى سرعة الزوال وقرب الاضمحلال بما ذكر من أحوال الزرع ترغيبا عن زخارفها وزينتها وتحذيرا من الاغترار بزهرتها كما فى نظائر قوله تعالى انما مثل الحياة الدنيا الآية أو للاستشهاد على تحقق الموعود من الانهار الجارية من تحت الغرف بما يشاهد من انزال الماء من السماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى واحكام حكمته ورحمته والمراد بالماء المطر وقيل كل ماء فى الارض فهو من السماء ينزل منها الى الصخرة ثم يقسمه الله تعالى بين البقاع (فسلكه) فأدخله ونظمه (ينابيع فى الارض) أى عيونا ومجارى كالعروق فى الاجساد وقيل مياها نابعة فيها فان الينبوع يطلق على المنبع والنابع فنصبها على الحال وعلى الاول بنزع الجار أى فى ينابيع (ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه) أصنافه من بر وشعير وغيرهما أو كيفياته من الالوان والطعوم وغيرهما وكلمة ثم للتراخى فى الرتبة أو الزمان وصيغة المضارع لاستحضار

رفيع المكان فقال تعالى ردا عليهم كيف تعظمونهم وأنتم تسمونهم تسمية الاناث ثم ذكر فيه مستندهم فى ذلك وهو لفظ الملائكة ولم يقل ان الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى بل قال ليسمون الملائكة فانهم اغتروا بالتاء واغترارهم باطل لان التاء تجىء لمعان غير التأنيث الحقيقى والبنت لا تطلق الا على المؤنث الحقيقى بالاطلاق والتاء فيها لتأكيد معنى الجمع كما فى صياقلة وهى تشبه تلك التاء وذلك لان الملائكة فى المشهور جمع ملك والملك اختصار من الملأك بحذف الهمزة والملأك قلب المألك من الالوكة وهى الرسالة فالملائكة على هذا القول مفاعلة والاصل مفاعل ورد الى ملائكة فى الجمع فهى تشبه فعائل وفعائلة والظاهر ان الملائكة فعائلة جمع مليكى منسوب الى المليك بدليل قوله تعالى عند مليك مقتدر فى وعد المؤمن وقال فى وصف الملائكة فالذين عند ربك وقال أيضا فى الوعد وان له عندنا لزلفى وقال فى وصف الملائكة ولا الملائكة المقربون فهم اذن عباد مكرمون اختصهم الله بمزيد قربه يفعلون ما يؤمرون كما فى الملوك والمستخدمين عند السلاطين الواقفين بأبوابهم منتظرين لورود أمر عليهم فهم منتسبون الى المليك المقتدر فى الحال فهم مليكيون وملائكة والتاء للنسبة فى الجمع كما فى الصيارفة والبياطرة فان قيل هذا باطل من وجوه (الاول) ان أحدا لم يستعمل لواحد منهم مليكى كما استعمل صيرفى (والثانى) ان الانسان عندما يصير عند الله تعالى يجب أن يكون من الملائكة وليس كذلك لان المفهوم من الملائكة جنس غير الآدمى (الثالث) هو ان فعائلة فى جمع فعيلى لم يسمع وانما يقال فعيلة كما يقال جاء بالنميمة والحقيبة (الرابع) لو كان كذلك لما جمع ملك* نقول اما عدم استعمال واحده فلم وهو اسب وهو ان الملك كلما كان أعظم كان حكمه وخدمه وحشمه أكثر فاذا وصف بالعظمة وصف بالجمع فيقال صاحب العسكر الكثير ولا يوصف بواحد وصف تعظيم وأما ذلك الواحد فان نسب الى المليك عين للخبر بان يقال هذا مليكى وذلك عندما تعرف عينه فتجعله مبتدأ وتخبر بالمليكى عنه والملائكة لم يعرفوا بأعيانهم الا قليلا منهم كجبريل وميكائيل وحينئذ لا فائدة فى قولنا جبريل مليكى لان من عرف المبتدأ عرف الخبر ولا يصاغ الحمل الا لبيان ثبوت الخبر للمبتدأ فلا يقال للانسان حيوان أو جسم لانه ايضاح واضح اللهم الا أن يستعمل ذلك فى ضرب مثال أو فى صورة نادرة لغرض واما أن ينسب الى المليك وهو مبتدأ فلا لان العظمة فى أن يقول واحد من الملائكة فنبه على كثرة المقربين اليه كما تقول واحد من أصحاب الملك ولا تقول صاحب الملك فاذا أردت التعظيم البالغ فعند الواحد استعمل اسم الملك غير منسوب بل هو موضوع لشدته وقوته كما قال تعالى ذو مرة وذو قوة فقال شديد القوى و م ل ك تدل على الشدة فى تقاليبها على ما عرف وعند الجمع استعمل الملائكة للتعظيم كما قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وأما الجواب عن الثانى فنقول قد يكون الاسم فى الاول لوصف يختص ببعض من يتصف به وغيره لو صار متصفا بذلك الوصف لا يسمى بذلك الاسم كالدابة فاعلة من دب ولا يقال للمرأة ذات الدب دابة اسما وربما يقال لها صفة عند حالة ما تدب بدب مخصوص غير الدب العام الذى فى الكل كما لو دبت بليل لاخذ شئ أو غيره أو يقال انما سميت الملائكة ملائكة لطول انتسابهم من قبل خلق الآدمى بسنين لا يعلم عددها الا الله فمن لم يصل الى الله ويقوم ببابه لا يحصل له العهد والانتساب فلا يسمى بذلك الاسم وأما عن الثالث فنقول الجموع القياسية لا مانع لها كفعال فى جمع فعل كجمال وثمار وأفعال كأثقال وأشجار وفعلان وغيرها وأما السماع وان لم يرد الا قليلا فاكتفى بما فيه من التعظيم من نسبة الجمع الكثير الى باب الله ويكون من باب المرأة والنساء أما الجواب عن الرابع فالمنع ولعل هذا منه أو نقول حمل فعيلى على فعيل فى الجمع كما حمل فعيل فى الجمع على فعيل فقيل فى جمع جيد جياد ولا يقال فى فعيل أفاعل ويؤيد ما ذكرنا ان ابليس عندما كان واقفا بالباب كان داخلا فى جملة الملائكة فنقول قوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس عندما صرف وأبعد خرج عنهم وصار من الجن وأما ما قاله بعض أهل اللغة من أن الملائكة جمع ملأك

و أصل ملائك مألك من الألوكة وهى الرسالة ففيه تعسفات أكثرمماذكرنا بكثير منها ان الملك لا يكون فعل بل هومفعل وهوخلاف الظاهر ولم يستعمل مالك على أصله كما رب وما ثم وما كل وغيرها مما لا بعد الا بتعسف ومنها ان ملكا لم جعل ملأك ولم يفعل ذلك باخواته التى ذكرناها ومنها ان التاء لم ألحقت بجمعه ولم يقل ملائك كما فى جمع كل مفعل والذى يرد قولهم قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا فهى غير الرسل فلا يصح أن يقال جعلت الملائكة رسلا كما لا يصح جعلت الرسل مرسلين وجعل المقترب قريبا لان الجعل لابد فيه من تغيير ومما يدل على خلاف ماذكروا ان الكل منسوبون اليه موقوفون بين يديه منتظرون أمره لورود الاوامر عليهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ومالهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيأ﴾ وفيما يعود اليه الضمير فيه وجوه (أحدها) ماقاله الزمخشرى وهو انه عائد الى ما كانوا يقولون من غير علم (ثانيها) انه عائد الى ماتقدم فى الآية المتقدمة من علم أى مالهم بالله من علم فيشركون وقرئ مالهم بها وفيه وجوه أيضا (أحدها) مالهم بالآخرة (ثانيها) مالهم بالتسمية (ثالثها) مالهم بالملائكة فان قلنا مالهم بالآخرة فهو جواب لما قلنا انهم وان كانوا يقولون بأن الاصنام شفعاؤنا عند الله وكانوا يربطون الابل على قبور الموتى ليركبوها لكن ما كانوا يقولون به عن علم وان قلنا بالتسمية ففيه اشكال وهو ان العلم بالتسمية حاصل لهم فانهم يعلمون انهم ليسوا فى شك اذ التسمية قد تكون وضعا أوليا وهو لا يكون بالظن بل بالعلم بأنه وضع وقد يكون استعمالا معنويا يتطرق اليه الكذب والصدق والعلم مثال الاول من وضع أولا اسم السماء لموضوعها وقال هذا سماء مثال الثانى اذا قلنا بعد ذلك للماء والحجر هذا سماء فانه كذب ومن يعتقده فهو جاهل وكذلك قولهم فى الملائكة انها بنات الله لم تكن تسمية وضعية وانما أرادوا به انهم موصوفون بأمر يجب استعمال لفظ البنات فيهم وذلك كذب ومعتقده جاهل فهذا هو المراد بما ذكرنا ان الظن يتبع فى الامور المصلحية والافعال العرفية أو الشرعية عند عدم الوصول الى اليقين واما فى الاعتقادات فلا يغنى الظن شيأ من الحق فان قيل أليس الظن قد يصيب فكيف يحكم عليه بانه لا يغنى أصلا نقول المكلف يحتاج الى يقين يميز الحق من الباطل ليعتقد الحق ويميز الخير من الشر ليفعل الخير لكن فى الحق ينبغى أن يكون جازما لاعتقاد مطابقه والظان لا يكون جازما وفى الخير ربما يعتبر الظن فى مواضع ويحتمل أن يقال المراد من الحق هو الله تعالى ومعناه ان الظن لا يفيد شيأ من الله تعالى أى الاوصاف الالهية لا تستخرج بالظنون يدل عليه قوله تعالى ذلك بان الله هو الحق وفيه لطيفة وهى ان الله تعالى فى ثلاثة مواضع منع من الظن وفى جميع تلك المواضع كان المنع عقيب التسمية والدعاء باسم موضعان منها فى هذه السورة (أحدهما) قوله تعالى ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن (والثانى) قوله تعالى ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغنى من الحق شيأ (والثالث) فى الحجرات قال الله تعالى ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن عقيب الدعاء باللقب وكل ذلك دليل على أن حفظ اللسان أولى من حفظ غيره من الاركان وان الكذب أقبح من السيآت الظاهرة من الايدى والارجل وهذه المواضع الثلاثة (أحدها) مدح من لا يستحق المدح كاللات والعزى من العز (وثانيها) ذم من لا يستحق الذم وهم الملائكة الذين هم عباد الرحمن يسمونهم تسمية الانثى (وثالثها) ذم من لم يعلم حاله وأما مدح من حاله لا يعلم فلم يقل فيه لا يتبعون الا الظن بل الظن فيه معتبر والاخذ بظاهر حال العاقل واجب ﴿ ثم قال تعالى ﴿فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا﴾ أى اترك مجادلتهم فقد بلغت وأتيت بما كان عليك وأكثر المفسرين يقولون بان كل ما فى القرآن من قوله تعالى فاعرض منسوخ بآية القتال وهو باطل فان الامر بالاعراض موافق لآية القتال فكيف ينسخ به وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم كان مأمورا بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة فلما عارضوه باباطيلهم قيل له وجادلهم بالتى هى أحسن ثم لما لم ينفع قال

الصورة (ثم يهيج) أى يتم جفافه و يشرف على أن يثور من منابته (فتراه مصفرا) من بعد خضرته ونضرته وقرئ مصفارا (ثم يجعله حطاما) فتاتا متكسرة كان لم يغن بالامس ولكون هذه الحالة من الآثار القوية علقت بجعل الله تعالى كالاخراج (ان فى ذلك) اشارة الى ماذكر تفصيلا وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الغرابة والدلالة على ماقصد بيانه (لذكرى) لتذكيرا عظيما (لاولى الالباب) لاصحاب العقول الخالصة عن شوائب الخلل وتنبيها لهم على حقيقة الحال يتذكرون بذلك أن حال الحياة الدنيا فى سرعة التقضى والانصرام كما يشاهدونه من حال الحطام كل عام فلا يغترون ببهجتها ولا يفتتنون بفتنتها أو يجزمون بأن من قدر على انزال الماء من السماء واجرائه فى ينابيع الارض قادر على اجراء الانهار من تحت الغرف هذا وأما ماقيل ان فى ذلك لتذكيرا وتنبيها على أنه لابد من صانع حكيم وأنه كائن عن تقدير وتدبير لا عن تعطيل واهمال فبمعزل من تفسير الآية الكريمة وانما يليق ذلك بما لو ذكر ماذكر من الآثار الجليلة والافعال الجميلة من غير اسناد لها الى مؤثر ما فحيث ذكرت مسندة الى الله عز وجل تعين أن يكون متعلق التذكير والتنبيه شؤنه تعالى أو شؤن آثاره حسبما بين لا وجوده تعالى وقوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تخصيص الذكرى بأولى الالباب وشرح الصدر للاسلام عبارة عن تكميل الاستعداد له فانه محل للقلب الذى هو منبع للروح التى تتعلق بها النفس القابلة للاسلام فانشراحه مستدع لاتساع القلب واستضاءته بنوره فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال اذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل فما علامة ذلك قال عليه الصلاة والسلام الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار له
الغرور والتأهب للموت قبل نزوله والكلام فى الهمزة والفاء كالذى مر فى قوله تعالى أفمن حق عليه كلمة العذاب وخبره محذوف لدلالة ما بعده

عليه والتقدير أكل الناس سواء فمن شرح الله صدره أى خلقه متسع الصدر مستعدا للاسلام فبقى على الفطرة الاصلية ولم يتغير بالعوارض المكتسبة القادحة فيها (فهو) بموجب ذلك مستقر (على نور) عظيم (من ربه) وهو اللطف الالهى الفائض عليه عند مشاهدة الآيات التكوينية والتنزيلية والتوفيق للاهتداء بها الى الحق كمن قساقلبه وحرج صدره بسبب تبديل فطرة الله بسوء اختياره واستولى عليه ظلمات الغى والضلالة فاعرض عن تلك الآيات بالكلية حتى لايتذكربها ولا يغتنمها (فويل للقاسية قلوبهم من ذكرالله) أى من أجل ذكره الذى حقه أن تنشرح له الصدور وتطمئن به القلوب أى اذاذكرالله تعالى عندهم أو آياته اشمأزوا من أجله وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى فزادتهم رجسا وقرئ عن ذكرالله أى عن قبوله (أولئك) البعداء الموصوفون بماذكر من قساوة القلوب (فى ضلال) بعد عن الحق (مبين) ظاهر كونه ضلالا لكل أحد قيل نزلت الآية فى حمزة وعلى رضى الله عنهما وأبى لهب وولده وقيل فى عماربن ياسر رضى الله عنه وأبى جهل وذويه (الله نزل أحسن الحديث) هو القرآن الكريم روى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوا ملة فقالوا له عليه الصلاة والسلام حدثنا حديثا وعن ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم قالوا لوحدثتنا فنزلت والمعنى ان فيه مندوحة عن سائر الاحاديث وفى ايقاع الاسم الجليل مبتدأ وبناء نزل عليه من تفخيم أحسن الحديث ورفع محله والاستشهاد على حسنه وتأكيد استناده اليه تعالى وأنه من عنده لايمكن صدوره عن غيره والتنبيه على أنه وحى معجز مالا يخفى (كتابا) بدل من أحسن الحديث أوحال منه سواء اكتسب من المضاف اليه تعريفا أولا فان مساغ مجىء الحال من النكرة المضافة اتفاقى ووقوعه حالامع كونه اسما لاصفة امالاتصافه بقوله تعالى (متشابها) أولكونه فى قوة مكتوبا ومعنى كونه متشابها تشابه معانيه فى الصحة والاحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق فى

له ربه فاعرض عنهم ولاتقابلهم بالدليل والبرهان فانهم لايتبعون الا الظن ولا يتبعون الحق وقابلهم بالاعراض عن المناظرة بشرط جواز المقاتلة فكيف يكون منسوخا والاعراض من باب أشكاه والهمزة فيه للسلب كانه قال أزل العرض ولاتعرض عليهم بعد هذا أمرا وقوله تعالى عمن تولى عن ذكرنا لبيان تقديم فائدة العرض والمناظرة لان من لايصغى الى القول كيف يفهم معناه وفى ذكرنا وجوه (الاول) القرآن (الثانى) الدليل والبرهان (الثالث) ذكرالله تعالى فان من لاينظر فى الشئ كيف يعرف صفاته وهم كانوا يقولون نحن لانتفكر فى آلاء الله لعدم تعلقنا بالله وانما أمرنا مع من خلقنا وهم الملائكة أو الدهر على اختلاف أقاويلهم وتباين أباطيلهم وقوله تعالى ولم يرد الا الحياة الدنيا اشارة الى انكارهم الحشر كما قالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وقال تعالى أرضيتم بالحياة الدنيا يعنى لم يثبتوا وراءها شيأ آخر يعملون له فقوله عمن تولى عن ذكرنا اشارة الى انكارهم الحشر لانه اذا ترك النظر فى آلاء الله تعالى لايعرفه فلا يتبع رسوله فلا ينفعه كلامه واذا لم يقل بالحشر والحساب لايخاف فلا يرجع عما هو عليه فلا يبقى اذن فائدة فى الدعاء واعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان طبيب القلوب فاتى على ترتيب الاطباء وترتيبهم ان الحال اذا أمكن اصلاحه بالغذاء لايستعملون الدواء وما أمكن اصلاحه بالدواء الضعيف لايستعملون الدواء القوى ثم اذا عجزوا عن المداواة بالمشروبات وغيرها عدلوا الى الحديد والكى وقيل آخر الدواء الكى فالنبى صلى الله عليه وسلم أولا أمر القلوب بذكرالله فحسب فان بذكرالله تطمئن القلوب كما ان بالغذاء تطمئن النفوس فالذكر غذاء القلب ولهذا قال أولا قولوا لااله الا الله أمر بالذكر لمن انتفع مثل أبى بكر وغيره ممن انتفع ومن لم ينتفع ذكر لهم الدليل وقال أولم يتفكروا قل انظروا أفلا ينظرون الى غير ذلك ثم أتى بالوعيد والتهديد فلما لم ينفعهم قال أعرض عن المعالجة واقطع الفاسد لئلا يفسد الصالح ۞ ثم قال تعالى ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ ذلك فيه وجوه (الاول) أظهرها انه عائد الى الظن أى غاية مايبلغون به انهم يأخذون بالظن (وثانيها) ايثار الحياة الدنيا مبلغهم من العلم أى ذلك الايثار غاية مابلغوه من العلم (ثالثها) فاعرض عمن تولى وذلك الاعراض غاية مابلغوه من العلم والعلم على هذا يكون المراد منه العلم بالمعلوم وتكون الالف واللام للتعريف والعلم بالمعلوم هو مافى القرآن وتقرير هذا أن القرآن لما ورد بعضهم تلقاه بالقبول وانشرح صدره فبلغ الغاية القصوى وبعضهم قبله من حيث انه معجزة واتبع الرسول فبلغ الدرجة الوسطى وبعضهم توقف فيه كابى طالب وذلك أدنى المراتب وبعضهم رده وعابه فالاولون لم يجز الاعراض عنهم والآخرون وجب الاعراض عنهم وكان موضع بلوغه من العلم انه قطع الكلام معه وأعرض عنه وعليه سؤال وهو ان الله تعالى بين ان غايتهم ذلك ولا يكلف الله نفسا الا وسعها والمجنون الذى لاعلم له والصبى لايؤمر بمافوق احتماله فكيف يعاقبهم الله نقول ذكر قبل ذلك أنهم تولوا عن ذكرالله فكان عدم علمهم لعدم قبولهم العلم وانما قدرالله توليهم ليضاف الجهل الى ذلك فيحقق العقاب قال الزمخشرى ذلك مبلغهم من العلم كلام معترض بين كلامين والمتصل قوله تعالى فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وعلى ماذكرنا المقصود لايتم الا به ويكون كانه تعالى قال أعرض عنهم فان ذلك غايتهم ولا يوجد وراء ماظهر منهم شئ وكان قوله عمن تولى اشارة الى قطع عذرهم بسبب الجهل فان الجهل كان بالتولى وايثار العاجل ۞ ثم ابتدأ وقال ﴿ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ وفى المناسبة وجوه (الاول) انه تعالى لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم أعرض وكان النبى صلى الله عليه وسلم شديد الميل الى ايمان قومه كان ربما هجس فى خاطره ان فى الذكرى بعد منفعة وربما يؤمن من الكافرين قوم آخرون من غير قتال فقال له ربك أعلم بمن ضل عن سبيله علم انه لايؤمن بمجرد الدعاء أحد من المكلفين وانما ينفع فيهم أن يقع السيف والقتال فأعرض عن الجدال وأقبل على القتال وعلى هذا فقوله بمن اهتدى أى علم فى الازل من ضل فى تقديره

ومن اهتدى فلا يشتبه عليه الامران ولا بأس في الاعراض ويعد في العرف مصلحة (ثانيها) هو على معنى قوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين وقوله تعالى الله يحكم بيننا ووجهه أنهم كانوا يقولون نحن على الهدى وأنتم مبطلون وأقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة عليهم فلم ينفعهم فقال تعالى أعرض عنهم وأجرك وقع على الله فانه يعلم انكم مهتدون ويعلم أنهم ضالون والمتناظران اذا تناظرا عند ملك قادر مقصودهم ظهور الامر عند الملك فان اعترف الخصم بالحق فذاك والا فغرض المصيب يظهر عند الملك فقال تعالى جادلت وأحسنت والله أعلم بالمحق من المبطل (ثالثها) أنه تعالى لما أمر نبيه بالاعراض وكان قد صدر منهم ايذاء عظيم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتحمله رجاء أن يؤمنوا فنسخ جميع ذلك فلما لم يؤمنوا فكأنه قال سعيي وتحملي لايذائهم وقع هباء فقال الله تعالى ان الله يعلم حال المضلين والمهتدين لله ما في السموات والارض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا من المهتدين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هو يسمى عمادا وفصلا ولو قال ان ربك أعلم لتم الكلام غير ان عند خلو الكلام عن هذا العماد ربما يتوقف السامع على سماع ما بعده ليعلم ان أعلم خبر ربك أو هو مع شئ آخر خبر مثاله لو قال ان زيدا أعلم منه عمرو يكون خبر زيدا الجملة التي بعده فان قال هو أعلم انتفى ذلك التوهم (المسئلة الثانية) اعلم يقتضي مفضلا عليه يقال زيد أعلم من عمرو والله أعلم ممن تقول أفعل يجيء كثيرا بمعنى عالم لا عالم مثله وحينئذ ان كان هناك عالم فذاك مفضل عليه وان لم يكن ففي الحقيقة هو العالم لا غير وفي كثير من المواضع أفعل في صفات الله بذلك المعنى يقال الله أكبر وفي الحقيقة لا كبير مثله ولا أكبر الا هو والذي يناسب هذا انه ورد في الدعوات يا أكرم الاكرمين كأنه قال لا أكرم مثلك وفي الحقيقة لا أكرم الا هو وهذا معنى قول من يقول اعلم بمعنى عالم بالمهتدي والضال ويمكن أن يقال أعلم من كل عالم بفرض عالم غيره (المسئلة الثالثة) علمته وعلمت به مستعملان قال الله تعالى في الانعام هو أعلم من يضل عن سبيله ثم ينبغي أن يكون المراد من المعلوم ان العلم اذا كان تعلقه بالمعلوم أقوى اما لقوة العلم واما لظهور المعلوم وأما لتأكيد وجوب العلم به واما لكون الفعل له قوة اما قوة العلم فكما في قوله تعالى ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وقال ألم يعلم بان الله يرى لما كان علم الله تعالى تاما شاملا علقه بالمفعول الذي هو حال من أحوال عبده الذي هو عمر أي منه من غير حرف ولما كان علم العبد ضعيفا حادثا علقه بالمفعول الذي هو صفة من صفات الله تعالى الذي لا يحيط به علم البشر بالحرف أو لما كان كون الله رائيا لم يكن محسوسا به مشاهدا علق الفعل به بنفسه وبالآخر بالحرف وأما ظهور المعلوم فكما قال تعالى أولم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء وهو معلوم ظاهر وأما تأكيد وجوب العلم به كما في قوله تعالى فاعلم انه لا اله الا الله ويمكن أن يقال هو من قبيل الظاهر وكذلك قوله تعالى واعلموا أنكم غير معجزي الله وأما قوة الفعل فقال تعالى علم ان لن تحصوه وقال تعالى ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى لما كان المستعمل صفة الفعل علقه بالمفعول بغير حرف وقال تعالى ان ربك أعلم بمن لما كان المستعمل اسما دالا على فعل ضعف عمله لتعلقه بالمفعول (المسئلة الرابعة) قدم العلم بمن ضل على العلم بالمهتدي في كثير من المواضع منها في سورة الانعام ومنها في سورة ن ومنها في هذه السورة لان في المواضع كلها المذكور نبيه صلى الله عليه وسلم والمعاندون فذكرهم أولا تهديدا لهم وتسلية لقلب نبيه عليه الصلاة والسلام (المسئلة الخامسة) قال في موضع واحد من المواضع هو أعلم من يضل عن سبيله وفي غيره قال بمن ضل فهل عندك فيه شئ قلت نعم ونبين ذلك ببحث عقلي وآخر نقلي (أما العقلي) فهو ان العلم القديم يتعلق بالمعلوم على ما هو عليه ان وجد أمس علم انه وجد أمس في نهار أمس وليس مثل علمنا حيث يجوز ان يتحقق الشئ أمس ونحن لا نعلمه الا في يومنا هذا بل لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والارض ولا يتأخر الواقع عن علمه طرفة عين (وأما النقلي) فهو أن اسم الفاعل يعمل عمل الفعل اذا كان بمعنى المستقبل ولا يعمل عمله اذا كان ماضيا فلا تقول أنا ضارب زيدا أمس والواجب ان

المعاد والمعاش وتناسب ألفاظه في الفصاحة وتجاوب نظمه في الاعجاز (مثاني) صفة أخرى لكتابا أو حال أخرى منه وهو جمع مثنى بمعنى مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه وقيل لانه يثنى في التلاوة وقيل هو جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والاعادة كما في قوله تعالى فارجع البصر كرتين أي كرة بعد كرة ووقوعه صفة لكتابا باعتبار تفاصيله كما يقال القرآن سور وآيات ويجوز أن ينتصب على التمييز من متشابها كما يقال رأيت رجلا حسنا شمائل أي شمائله والمعنى متشابهة مثانيه (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) قيل صفة لكتابا أو حال منه لتخصصه بالصفة والاظهر أنه استئناف مسوق لبيان آثاره الظاهرة في سامعيه بعد بيان أوصافه في نفسه ولتقرير كونه أحسن الحديث والاقشعرار التقبض يقال اقشعر الجلد اذا تقبض تقبضا شديدا وتركيبه من القشع وهو الاديم اليابس قد ضم اليه الراء ليكون رباعيا ودالا على معنى زائد يقال اقشعر جلده ووقف شعره اذا عرض له خوف شديد من منكر هائل دهمه بغتة والمراد اما بيان افراط خشيتهم بطريق التمثيل والتصوير أو بيان حصول تلك الحالة وعروضها لهم بطريق التحقيق والمعنى أنهم اذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابتهم هيبة وخشية تقشعر منها جلودهم واذا ذكروا رحمة الله تعالى تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى (ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله) أي ساكنة مطمئنة الى ذكر رحمته تعالى وانما لم يصرح بها ايذانا بأنها أول ما يخطر بالبال عند ذكره تعالى (ذلك) أي الكتاب الذي شرح أحواله (هدى الله يهدي به من يشاء) أن يهديه بصرف مقدوره الى الاهتداء بتأمله فيما في تضاعيفه من شواهد الحقية ودلائل كونه من عند الله تعالى (ومن كنت
يضلل الله) أي يخلق فيه الضلالة بصرف قدرته الى مباديها واعراضه عما يرشده الى الحق بالكلية وعدم تأثره بوعيده ووعده أصلا أو ومن يخذل

كنت تنصب أن تقول ضربت زيدا وان كنت تستعمل اسم الفاعل فالواجب الاضافة تقول ضارب زيد أمس انا ويجوز أن يقال انا غدا ضارب زيدا والسبب فيه ان الفعل اذا وجد فلا تجدد له فى الاستقبال ولا تحقق له فى الحال فهو عدم وضعف عن أن يعمل وأما الحال ومايتوقع فله وجود فيمكن اعماله اذا ثبت هذا فنقول لما قال ضل كان الامر ماضيا وعلمه تعلق به وقت وجوده فعلم وقوله أعلم بمعنى عالم فيصير كانه قال عالم بمن ضل فلو ترك الباء لكان أعمالا للفاعل بمعنى الماضى ولما قال يضل كان يعلم الضلال عند الوقوع وان كان قد علم فى الازل انه سيضل لكن للعلم بعد ذلك تعلق آخر سيوجد وهو تعلقه بكون الضلال قد وقع وحصل ولم يكن ذلك فى الازل فانه لا يقال انه تعالى علم أن فلانا ضل فى الازل وانما الصحيح ان يقال علم فى الازل انه سيضل فيكون كانه يعلم انه يضل فيكون اسم الفاعل بمعنى المستقبل وهو يعمل عمل الفعل فلا يقال زيد اعلم مسئلتنا من عمرو وانما الواجب ان يقال زيد اعلم بمسئلتنا من عمرو ولهذا قالت النحاة فى سورة الانعام ان ربك هو أعلم من يضل يعلم من يضل وقالوا أعلم للتفضيل لا يبنى الا من فعل لازم غير متعد فان كان متعديا يرد الى لازم وقولنا اعلم كانه من باب علم بالضم وكذا فى التعجب اذا قلنا ما أعلمه بكذا كانه من فعل لازم وأما انا فقد أجبت عن هذا بأن قوله أعلم من يضل معناه عالم وقد قدمنا ما يجب ان يعتقد فى أوصاف الله فى أكثر الامر ان معناه أنه عالم ولا عالم مثله فيكون اعلم على حقيقته وهو أحسن من ان يقال هو بمعنى عالم لا غير فان قيل فلم قال ههنا بمن ضل وقال هناك يضل قلنا لان ههنا حصل الضلال فى الماضى وتأكد حيث حصل يأس الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر بالاعراض وأما هناك فقال تعالى من قبل وان تطع أكثر من فى الارض يضلوك عن سبيل الله ثم قال تعالى ان ربك هو أعلم من يضل بمعنى ان ضللت يعلمك الله فكان الضلال غير حاصل فيه فلم يستعمل صيغة الماضى (المسئلة السادسة) قال فى الضلال عن سبيله ولم يقل فى الاهتداء الى سبيله لان الضلال عن السبيل هو الضلال وهو كاف فى الضلال لان الضلال لا يكون الا فى السبيل وأما بعد الوصول فلا ضلال أولان من ضل عن سبيله لا يصل الى المقصود سواء سلك سبيلا أولم يسلك وأما من اهتدى الى سبيل فلا وصول له ان لم يسلكه ويصح هذا ان من ضل فى غير سبيله فهو ضال ومن اهتدى اليها لا يكون مهتديا الا اذا اهتدى الى كل مسئلة يضر الجهل بها بالايمان فكان الاهتداء اليقينى هو الاهتداء المطلق فقال بمن اهتدى وقال بالمهتدين ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولله ما فى السموات وما فى الارض ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾ اشارة الى كمال غناه وقدرته ليذكر بعد ذلك ويقول ان ربك هو أعلم من الغنى القادر لان من علم ولم يقدر لا يتحقق منه الجزاء فقال ولله ما فى السموات وما فى الارض وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الزمخشرى ما يدل على انه يعتقد ان اللام فى قوله ليجزى كاللام فى قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وهو جرى فى ذلك على مذهبه فقال ولله ما فى السموات وما فى الارض معناه خلق ما فيهما لغرض الجزاء وهو لا يتحاشى مما ذكره لما عرف من مذهب الاعتزال وقال الواحدى اللام للعاقبة كما فى قوله تعالى ليكون لهم عدوا أى أخذوه وعاقبته انه يكون لهم عدوا والتحقيق فيه هو ان حتى ولام الغرض متقاربان فى المعنى لان الغرض نهاية الفعل وحتى للغاية المطلقة فبينهما مقاربة فيستعمل أحدهما مكان الآخر يقال سرت حتى أدخلها ولكى أدخلها فلام العاقبة هى التى تستعمل فى موضع حتى للغاية ويمكن أن يقال هنا وجه أقرب من الوجهين وان كان أخفى منهما وهو ان يقال ان قوله ليجزى متعلق بقوله ضل واهتدى لا بالعلم ولا بخلق ما فى السموات تقديره كانه قال هو أعلم بمن ضل واهتدى ليجزى أى من ضل واهتدى يجزى الجزاء والله أعلم به فيصير قوله ولله ما فى السموات وما فى الارض كلاما معترضا ويحتمل أن يقال هو متعلق بقوله تعالى فأعرض أى أعرض عنهم ليقع الجزاء كما يقول المريد فعلا لمن يمنعه منه ذرنى لافعله وذلك لان ما دام النبى صلى الله عليه وسلم لم ييأس ما كان العذاب ينزل والاعراض وقت اليأس

(فماله من هاد) يخلصه من ورطة الضلال وقيل ذلك الذى ذكر من الخشية والرجاء أثر هداه تعالى يهدى بذلك الاثر من يشاء من عباده ومن يضلل أى ومن لم يؤثر فيه لطفه لقسوة قلبه واصراره على فجوره فماله من هاد من مؤثر فيه بشئ قط (أفمن يتقى بوجهه) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من تباين حالى المهتدى والضال والكلام فى الهمزة والفاء وحذف الخبر كالذى مر فى نظيريه والتقدير أكل الناس سواء فمن شأنه أنه يتقى نفسه بوجهه الذى هو أشرف أعضائه (سوء العذاب) أى العذاب السيئ الشديد (يوم القيامة) لكون يده التى بها كان يتقى المكاره والمخاوف مغلولة الى عنقه كمن هو آمن لا يعتريه مكروه ولا يحتاج الى الاتقاء بوجه من الوجوه وقيل نزلت فى أبى جهل (وقيل للظالمين) عطف على يتقى أى ويقال لهم من جهة خزنة النار وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر وقيل هو حال من ضمير يتقى باضمار قد ووضع المظهر فى مقام المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والاشعار بعلة الامر فى قوله تعالى (ذوقوا ما كنتم تكسبون) أى وبال ما كنتم تكسبونه فى الدنيا على الدوام من الكفر والمعاصى (كذب الذين من قبلهم) استئناف مسوق لبيان ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى اثر بيان ما يصيب الكل من العذاب الاخروى أى كذب الذين من قبلهم من الامم السالفة (فأتاهم العذاب) المقدر لكل أمة منهم (من حيث لا يشعرون) من الجهة التى لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم اتيان الشر منها (فأذاقهم الله الخزى) أى الذل والصغار (فى الحياة الدنيا) كالمسخ والخسف والقتل والسبى والاجلاء ونحو ذلك من فنون النكال (ولعذاب الآخرة) المعد لهم (أكبر) لشدته وسرمديته (لو كانوا يعلمون) أى لو كان من شأنهم أن يعلموا شيأ لعلموا ذلك واعتبروا به (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) يحتاج اليه الناظر فى أمور

وقوله تعالى ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى حينئذ يكون مذكورا ليعلم ان العذاب الذى عند اعراضه يتحقق ليس مثل الذى قال تعالى فيه واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل هو مختص بالذين ظلموا وغيرهم لهم الحسنى وقوله تعالى فى حق المسىء بما عملوا وفى حق المحسن بالحسنى فيه لطيفة لان جزاء المسىء عذاب فنبه على ما يدفع الظلم فقال لا يعذب الا عن ذنب وأما فى الحسنى فلم يقل بما عملوا لان الثواب ان كان لا على حسنة يكون فى غاية الفضل فلا يخل بالمعنى هذا اذا قلنا الحسنى هى المثوبة بالحسنى وأما اذا قلنا الاعمال الحسنى ففيه لطيفة غير ذلك وهى ان أعمالهم لم يذكر فيها التساوى وقال فى أعمال المحسنين الحسنى اشارة الى الكرم والصفح حيث ذكر أحسن الاسمين والحسنى صفة أقيمت مقام الموصوف كانه تعالى قال بالاعمال الحسنى كقوله تعالى الاسماء الحسنى وحينئذ هو كقوله تعالى لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون أى يأخذ أحسن أعمالهم ويجعل ثواب كل ما وجد منهم لجزاء ذلك الاحسن أو هى صفة المثوبة كأنه قال ويجزى الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى أو بالعاقبة الحسنى أى جزاؤهم حسن العاقبة وهذا جزاء فقط وأما الزيادة التى هى الفضل بعد الفضل فغير داخلة فيه ۞ ثم قال تعالى (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم) الذين يحتمل أن يكون بدلا عن الذين أحسنوا وهو الظاهر وكأنه تعالى قال ليجزى الذين أساؤا ويجزى الذين احسنوا ويتبين به ان المحسن ليس ينفع الله باحسان شيأ وهو الذى لا يسىء ولا يرتكب القبيح الذى هو سيئة فى نفسه عند ربه فالذين أحسنوا هم الذين اجتنبوا ولهم الحسنى وبهذا يتبين المسىء والمحسن لان من لا يجتنب كبائر الاثم يكون مسيئا والذى يجتنبها يكون محسنا وعلى هذا ففيه لطيفة وهو ان المحسن لما كان هو من يجتنب الآثام فالذى يأتى بالنوافل يكون فوق المحسن لكن الله تعالى وعد المحسن بالزيادة فالذى فوقه يكون له زيادات فوقها وهم الذين لهم جزاء الضعف ويحتمل أن يكون ابتداء كلام تقديره الذين يجتنبون كبائر الاثم يغفر الله لهم والذى يدل عليه قوله تعالى ان ربك واسع المغفرة وعلى هذا تكون هذه الآية مع ما قبلها مبينة لحال المسىء والمحسن وحال من لم يحسن ولم يسىء وهم الذين لم يرتكبوا سيئة وان لم تصدر منهم الحسنات وهم كالصبيان الذين لم يوجد فيهم شرائط التكليف ولهم الغفران وهو دون الحسنى ويظهر هذا بقوله تعالى بعده هو أعلم بكم اذ انشأكم من الارض واذ أنتم أجنة أى يعلم الحالة التى لا احسان فيها ولا اساءة كما علم من أساء وضل ومن أحسن واهتدى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا كان بدلا عن الذين أحسنوا فلم خالف ما بعده بالمضى والاستقبال حيث قال تعالى الذين أحسنوا وقال الذين يجتنبون ولم يقل اجتنبوا نقول هو كما يقول القائل الذين سألونى أعطيتهم الذين يترددون الى سائلين أى الذين عادتهم التردد والسؤال سألونى وأعطيتهم فكذلك ههنا قال الذين يجتنبون أى الذين عادتهم ودأبهم الاجتناب لا الذين اجتنبوا مرة وقدموا عليها أخرى فان قيل فى كثير من المواضع قال فى الكبائر والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون وقال فى عباد الطاغوت والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الى الله فما الفرق نقول عبادة الطاغوت راجعة الى الاعتقاد والاعتقاد اذا وجد دام ظاهرا فمن اجتنبها اعتقد بطلانها فيستمر وأما مثل الشرب والزنا أمر يختلف أحوال الناس فيه فيتركه زمانا ويعود اليه ولهذا يستبرأ الفاسق اذا تاب ولا يستبرأ الكافر اذا أسلم فقال فى الآثام الذين يجتنبون دائما ويثابرون على الترك أبدا وقال فى عبادة الاصنام اجتنبوا بصيغة الماضى ليكون أدل على الحصول ولان كبائر الاثم لها عدد وأنواع فينبغى ان يجتنب عن نوع ويجتنب عن آخر ويجتنب عن ثالث ففيه تكرر وتجدد فاستعمل فيه صيغة الاستقبال وعبادة الصنم أمر واحد متحد فترك فيه ذلك الاستعمال وأتى بصيغة الماضى الدالة على وقوع الاجتناب لها دفعة (المسئلة الثانية) الكبائر جمع كبيرة وهى صفة فما الموصوف نقول هى صفة الفعلة كأنه يقول الفعلات الكبائر من

دينه (لعلهم يتذكرون) كى يتذكروا به ويتعظوا (قرآنا عربيا) حال مؤكدة من هذا على أن مدار التأكيد هو الوصف كقولك جاءنى زيد رجلا صالحا أو مدح له (غير ذى عوج) لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه فهو أبلغ من المستقيم وأخص بالمعانى وقيل المراد بالعوج الشك (لعلهم يتقون) علة أخرى مترتبة على الاولى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) اى اذكر لهم مثلا من الامثال القرآنية بعد بيان أن الحكمة فى ضربها هو التذكر والاتعاظ بها وتحصيل التقوى والمراد بضرب المثل ههنا تطبيق حالة عجيبة بأخرى مثلها وجعلها مثلها كما مر فى سورة يس ومثلا مفعول ثان لضرب ورجلا مفعوله الاول أخر عن الثانى للتشويق اليه وليتصل به ما هو من تتمته التى هى العمدة فى التمثيل وفيه ليس بصلة لشركاء كما قيل بل هو خبر له وبيان أنه فى الاصل كذلك مما لا حاجة اليه والجملة فى حيز النصب على أنه وصف لرجلا أو الوصف هو الجار والمجرور وشركاء مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على الموصوف فالمعنى جعل الله تعالى مثلا للمشرك حسبما يقود اليه مذهبه من ادعاء كل من معبوديه عبوديته عبدا يتشارك فيه جماعة يتجاذبونه ويتعاورونه فى مهماتهم المتباينة فى تحيره وتوزع قلبه (ورجلا) أى وجعل للموحد مثلا رجلا (سلما) أى خالصا (لرجل) فرد ليس لغيره عليه سبيل أصلا وقرئ سلما بفتح السين وكسرها مع سكون اللام والكل مصادر من سلم له كذا أى خلص نعت بها مبالغة أو حذف منها ذو وقرئ سالما وسالم أى وهناك رجل سالم وتخصيص الرجل لانه أفطن لما يجرى عليه من الضر والنفع (هل يستويان مثلا) انكار واستبعاد لاستوائهما ونفى له على أبلغ وجه وآكده وايذان بأن ذلك من الجلاء والظهور بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائهما أو يتلعثم فى الحكم بتباينهما ضرورة أن أحدهما فى أعلى عليين والآخر فى أسفل سافلين وهو السر فى ابهام الفاضل والمفضول وانتصاب مثلا على التمييز أى هل يستوى

الاثم

الاثم فان قيل فما بال اختصاص الكبيرة بالذنوب فى الاستعمال ولو قال قائل الفعلة الكبيرة الحسنة لايمنعه مانع نقول الحسنة لاتكون كبيرة لانها اذا قوبلت بما يجب ان يوجد من العبد فى مقابلة نعم الله تعالى تكون فى غاية الصغر ولولا ان الله يقبلها لكانت هباء لكن السيئة من العبد الذى أنعم الله عليه بانواع النعم كبيرة ولولا فضل الله لكان الاشتغال بالاكل والشرب والاعراض عن عبادته سيئة لكن الله غفر بعض السيئات وخفف بعضها (المسئلة الثالثة) اذا ذكر الكبائر فما الفواحش بعدها نقول الكبائر اشارة الى مافيها من مقدار السيئة والفواحش اشارة الى مافيها من وصف القبح كانه قال عظيمة المقادير قبيحة الصور والفاحش فى اللغة مختص بالقبيح الخارج قبحه عن حد الخفاء وتركيب الحروف فى التقاليب يدل عليه فانك اذا قلبتها وقلت حشف كان فيه معنى الرداءة الخارجة عن الحد ويقال فشحت الناقة اذا وقفت على هيئة مخصوصة للبول فالفحش يلازمه القبح ولهذا لم يقل الفواحش من الاثم وقال فى الكبائر كبائر الاثم لان الكبائر ان لم يميزها بالاضافة الى الاثم لما حصل المقصود بخلاف الفواحش (المسئلة الرابعة) كثرت الاقاويل فى الكبائر والفواحش فقيل الكبائر ماوعد الله عليه بالنار صريحا وظاهرا والفواحش ما أوجب عليه حدا فى الدنيا وقيل الكبائر مايكفر مستحله وقيل الكبائر مالا يغفر الله لفاعله الا بعد التوبة وهو على مذهب المعتزلة وكل هذه التعريفات تعريف الشئ بما هو مثله فى الخفاء أو فوقه وقد ذكرنا ان الكبائر هى التى مقدارها عظيم والفواحش هى التى قبحها واضح فالكبيرة صفة عائدة الى المقدار والفاحشة صفة عائدة الى الكيفية كما يقال مثلا فى الابرص علته بياض لطخه كبيرة ظاهرة اللون فالكبيرة لبيان الكمية والظهور لبيان الكيفية وعلى هذا فنقول على ماقلنا ان الاصل فى كل معصية ان تكون كبيرة لان نعم الله كثيرة ومخالفة المنعم سيئة عظيمة غير ان الله تعالى حط عن عباده الخطأ والنسيان لانهما لايدلان على ترك التعظيم اما لعمومه فى العباد أو لكثرة وجوده منهم كالكذبة والغيبة مرة أو مرتين والنظرة والقبائح التى فيها شبهة فان المجتنب عنها قليل فى جميع الاعصار ولهذا قال أصحابنا ان استماع الغناء الذى مع الاوتار يفسق به وان استمعه من أهل بلدة لايعتدون أمر ذلك لايفسق فعادت الصغيرة الى ماذكرنا من ان العقلاء ان لم يعدوه تاركا للتعظيم لا يكون مرتكبا للكبيرة وعلى هذا تختلف الامور باختلاف الاوقات والاشخاص فالعالم المتقى اذا كان يتبع النساء أو يكثر من اللعب يكون مرتكبا للكبيرة والدلال والباعة والمتفرغ الذى لاشغل له لايكون كذلك وكذلك اللعب وقت الصلاة واللعب فى غير ذلك الوقت وعلى هذا كل ذنب كبيرة الا ماعلم المكلف أو ظن خروجه بفضل الله وعفوه عن الكبائر (المسئلة الخامسة) فى اللمم وفيه أقوال (أحدها) مايقصده المؤمن ولا يحققه وهو على هذا القول من لم يلم اذا جمع فكانه جمع عزمه وأجمع عليه (وثانيها) مايأتى به المؤمن ويندم فى الحال وهو من اللمم الذى هو مس من الجنون كانه مسه وفارقه ويؤيد هذا قوله تعالى والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم (ثالثها) اللمم الصغير من الذنب من ألم اذا نزل نزولا من غير لبث طويل ويقال ألم بالطعام اذا قلل من أكله وعلى هذا فقوله الا اللمم يحتمل وجوها (أحدها) ان يكون ذلك استثناء من الفواحش وحينئذ فيه وجهان (أحدهما) استثناء منقطع لان اللمم ليس من الفواحش (وثانيهما) غير منقطع لما بينا ان كل معصية اذا نظرت الى جانب الله تعالى ومايجب ان يكون عليه فهى كبيرة وفاحشة ولهذا قال الله تعالى واذا فعلوا فاحشة غير أن الله تعالى استثنى منها أمورا يقال الفواحش كل معصية الا ما استثناه الله تعالى منها ووعدنا بالعفو عنه (ثانيها) الا بمعنى غير وتقديره والفواحش غير اللمم وهذا الوصف ان كان للتمييز كما يقال الرجال غير أولى الاربة فاللمم عين الفاحشة وان كان لغيره كما يقال الرجال غير النساء جاؤنى لتأكيد وبيان فلا (وثالثها) هو استثناء من الفعل الذى يدل عليه قوله تعالى الذين يجتنبون لان ذلك يدل على انهم لايقربونه فكانه قال لايقربونه الامقاربة من غير

حالاهما وصفتاهما والاقتصار فى التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ مثلين كقوله تعالى أكثر أموالا وأولادا للاشعار باختلاف النوع أو لان المراد هل يستويان فى الوصفين على أن الضمير للمثلين لان التقدير مثل رجل فيه الخ ومثل رجل الخ وقوله تعالى (الحمد لله) تقرير لما قبله من نفى الاستواء بطريق الاعتراض وتنبيه للموحدين على أن مالهم من المزية بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل أن لهم المثل الاعلى وللمشركين مثل السوء صنع جميل ولطف تام منه عز وجل مستوجب لحمده وعبادته وقوله تعالى (بل أكثرهم لايعلمون) اضراب وانتقال من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور الى بيان أن أكثر الناس وهم المشركون لايعلمون ذلك مع كمال ظهوره فيبقون فى ورطة الشرك والضلال وقوله تعالى (انك ميت وانهم ميتون) تمهيد لما يعقبه من الاختصام يوم القيامة وقرئ مائت ومائتون وقيل كانوا يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم موته أى انكم جميعا بصدد الموت (ثم انكم يوم القيامة عند ربكم) أى مالك أموركم (تختصمون) فتحتج أنت عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الاحكام والمواعظ التى من جملتها مافى تضاعيف هذه الآيات واجتهدت فى الدعوة الى الحق حق الاجتهاد وهم قد لجوا فى المكابرة والعناد وقيل المراد به الاختصام العام الجارى فى الدنيا بين الانام والاول هو الاظهر الانسب بقوله تعالى (فمن أظلم ممن كذب على الله) فانه الى آخره مسوق لبيان كل من طرفى الاختصام الجارى فى شأن الكفر والايمان لاغير أى أظلم من كل ظالم من افترى على الله سبحانه وتعالى بان أضاف اليه الشريك والولد (وكذب بالصدق) أى بالامر الذى هو عين الحق ونفس الصدق وهو ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم (اذ جاءه) أى فى أول مجيئه من غير تدبر فيه ولا تأمل (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) أى لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا الى

التكذيب بالصدق من أول الامر والجمع باعتبار معنى من كما أن الافراد فى الضمائر السابقة باعتبار لفظها أو لجنس الكفرة وهم داخلون فى الحكم دخولا أوليا (والذى جاء بالصدق وصدق به) الموصول عبارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه كما أن المراد فى قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون هو عليه الصلاة والسلام وقومه وقيل عن الجنس المتناول للرسل والمؤمنين بهم ويؤيده قراءة ابن مسعود رضى الله عنه والذين جاؤا بالصدق وصدقوا به وقيل هو صفة لموصوف محذوف هو الفوج أو الفريق (أولئك) الموصوفون بما ذكر من المجئ بالصدق والتصديق به (هم المتقون) المنعوتون بالتقوى التى هى أجل الرغائب وقرئ وصدق به بالتخفيف أى صدق به الناس فأداه اليهم كما نزل عليه من غير تغيير وقيل وصار صادقا به أى بسببه لان ما جاء به من القرآن معجزة دالة على صدقه عليه الصلاة والسلام وقرئ صدق به على البناء للمفعول (لهم ما يشاؤن عند ربهم) بيان لما لهم فى الآخرة من حسن المآب بعد بيان ما لهم فى الدنيا من محاسن الاعمال أى لهم كل ما يشاؤنه من جلب المنافع ودفع المضار فى الآخرة لا فى الجنة فقط لما أن بعض ما يشاؤنه من تكفير السيآت والامن من الفزع الاكبر وسائر أهوال القيامة انما يقع قبل دخول الجنة (ذلك) الذى ذكر من حصول كل ما يشاؤنه (جزاء المحسنين) أى الذين أحسنوا أعمالهم وقد مر تفسير الاحسان غير مرة وقوله تعالى (ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا) الخ متعلق بقوله تعالى لهم ما يشاؤن لكن لا باعتبار منطوقه ضرورة أن التكفير المذكور لا يتصور كونه غاية لثبوت ما يشاؤن لهم فى الآخرة كيف لا وهو بعض ما سيثبت لهم فيها بل باعتبار فحواه فانه حيث لم يكن اخبارا بما ثبت لهم فيما مضى بل بما سيثبت لهم فيما سيأتى كان فى معنى الوعد به كما فى قوله تعالى وعد الله فانه مصدر مؤكد لما قبله من قوله تعالى لهم

فقول

مواقعة وهو اللمم ۞ ثم قال تعالى (ان ربك واسع المغفرة) وذلك على قولنا الذين يجتنبون ابتداء الكلام فى غاية الظهور لان المحسن مجزى وذنبه مغفور ومجتنب الكبائر كذلك ذنبه الصغير مغفور والمقدم على الكبائر اذا تاب مغفور الذنب فلم يبق ممن لم تصل اليهم المغفرة الا الذين أساؤا وأصروا عليها فالمغفرة واسعة وفيه معنى آخر لطيف وهو انه تعالى لما أخرج المسئ عن المغفرة بين ان ذلك ليس لضيق فيها بل ذلك بمشيئة الله تعالى ولو أراد الله مغفرة كل من أحسن وأساء لفعل وما كان يضيق عنهم مغفرته والمغفرة من الستر وهو لا يكون الا على قبيح وكل من خالقه الله اذا نظرت فى فعله ونسبته الى نعم الله تجده مقصرا مسيأ فان من جازى المنعم بنعم لا تحصى مع استغنائه الظاهر وعظمته الواضحة بدرهم أو أقل منه يحتاج الى ستر ما فعله ۞ ثم قال تعالى (هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الارض واذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) وفى المناسبة وجوه (أحدها) هو تقرير لما مر من قوله هو أعلم بمن ضل كان العامل من الكفار يقول نحن نعمل أمورا فى جوف الليل المظلم وفى البيت الخالى فكيف يعلمه الله تعالى فقال ليس عملكم أخفى من أحوالكم وأنتم أجنة فى بطون أمهاتكم والله عالم بتلك الاحوال (ثانيها) هو اشارة الى أن الضال والمهتدى حصلا على ما هما عليه بتقدير الله فان الحق علم أحوالهم وهم فى بطون الامهات فكتب على البعض انه ضال والبعض انه مهتد (ثالثها) تأكيد وبيان للجزاء وذلك لانه لما قال ليجزى الذين أساؤا بما عملوا قال الكافرون هذا الجزاء لا يتحقق الا بالحشر وجمع الاجزاء بعد تفرقها واعادة ما كان لزيد من الاجزاء فى بدنه من غير اختلاط غير ممكن فقال تعالى هو أعلم بكم اذ أنشأكم فيجمعها بقدرته على وفق علمه كما أنشأكم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) العامل فى اذ يحتمل أن يكون ما يدل عليه أعلم أى علمكم وقت الانشاء ويحتمل أن يكون اذكروا فيكون تقريرا لكونه عالما ويكون تقديره هو أعلم بكم وقد تم الكلام ثم يقول ان كنتم فى شك من علمه بكم فاذكروا حال انشائكم من التراب (المسئلة الثانية) ذكرنا مرارا ان قوله من الارض من الناس من قال آدم فانه من تراب وقررنا أن كل أحد أصله من التراب فانه يصير غذاء ثم يصير دما ثم يصير نطفة (المسئلة الثالثة) لو قال قائل لا بد من صرف اذ أنشأكم من الارض الى آدم لان واذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم عائد الى غيره فانه لم يكن جنينا ولو قلت بان قوله تعالى اذ أنشأكم عائد الى جميع الناس فينبغى أن يكون جميع الناس أجنة فى بطون الامهات وهو قول الفلاسفة نقول ليس كذلك لانا نقول الخطاب مع الموجودين حالة الخطاب وقوله تعالى هو أعلم بكم خطاب مع كل من بعد الانزال على قول ومع من حضر وقت الانزال على قول ولا شك ان كل هؤلاء من الارض وهم كانوا أجنة (المسئلة الرابعة) الاجنة هم الذين فى بطون الامهات وبعد الخروج لا يسمى الا ولدا أو سقطا فما فائدة قوله تعالى فى بطون أمهاتكم نقول التنبيه على كمال العلم والقدرة فان بطن الام فى غاية الظلمة ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد (المسئلة الخامسة) لقائل أن يقول اذا قلنا ان قوله هو أعلم بكم تقرير لكونه عالما بمن ضل فقوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم تعلقه به ظاهر وأما ان قلنا انه تأكيد وبيان للجزاء فانه يعلم الاجزاء فيعيدها الى أبدان أشخاصها فكيف يتعلق به فلا تزكوا أنفسكم نقول معناه حينئذ فلا تبرئوا أنفسكم من العذاب ولا تقولوا تفرقت الاجزاء فلا يقع العذاب لان العالم بكم عند الانشاء عالم بكم عند الاعادة وعلى هذا قوله أعلم بمن اتقى أى يعلم اجزاءه فيعيدها اليه ويثيبه بما أقدم عليه (المسئلة السادسة) الخطاب مع من فيه ثلاث احتمالات (الاول) مع الكفار وهذا يدل على قولنا انهم قالوا كيف يعلمه الله فرد عليهم قولهم (الثانى) كل من كان زمان الخطاب وبعده من المؤمنين والكفار (الثالث) هو مع المؤمنين وتقريره هو أن الله تعالى لما قال فاعرض عمن تولى عن ذكرنا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قد علم كونك ومن معك على الحق وكون المشركين على الباطل فاعرض عنهم ولا تقولوا نحن على الحق وأنتم على الضلال لانهم يقابلونكم بمثل ذلك وفوض الامر الى الله تعالى فهو أعلم بمن اتقى ومن طغى وعلى هذا

فقول من قال فاعرض منسوخ أظهر وهو كقوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين والله أعلم بجملة الامور و يحتمل أن يقال على هذا الوجه الثالث انه ارشاد للمؤمنين نخاطبهم الله وقال هو أعلم بكم أيها المؤمنون علم مالكم من أول خلقكم الى آخر يومكم فلا تزكوا أنفسكم رياء وخيلاء ولا تقولوا الآخر أنا خير منك وأنا أزكى منك وأتقى فان الامر عند الله ووجه آخر وهو اشارة الى وجوب الخوف من العاقبة أى لا تقطعوا بخلاصكم أيها المؤمنون فان الله يعلم عاقبة من يكون على التقى وهذا يؤيد قول من يقول أنا مؤمن ان شاء الله للصرف الى العاقبة ۞ ثم قال تعالى ﴿أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعض المفسرين نزلت الآية فى الوليد بن المغيرة جلس عند النبى صلى الله عليه وسلم وسمع وعظه وأثرت الحكمة فيه تأثيرا قويا فقال له رجل لم تترك دين آبائك ثم قال له لا تخف وأعطنى كذا وأنا أتحمل عنك أوزارك فأعطاه بعض ما التزمه وتولى عن الوعظ وسماع الكلام من النبى صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم نزلت فى عثمان رضى الله عنه كان يعطى ماله عطاء كثيرا فقال له أخوه من أمه عبد الله بن سعد بن أبى سرح يوشك ان يفنى مالك فامسك فقال عثمان ان لى ذنوبا أرجو أن يغفر الله لى بسبب العطاء فقال له أخوه أنا أتحمل عنك ذنوبك ان تعطنى ناقتك مع كذا فاعطاه ما طلب وأمسك يده عن العطاء فنزلت الآية وهذا قول باطل لا يجوز ذكره لانه لم يتواتر ذلك ولا اشتهر وظاهر حال عثمان رضى الله عنه يأبى ذلك بل الحق ان يقال ان الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم من قبل فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا وكان التولى من جملة أنواعه تولى المستغنى فان العالم بالشئ لا يحضر مجالس ذكر ذلك الشئ و يسعى فى تحصيل غيره فقال أفرأيت الذى تولى عن استغناء اعلم بالغيب (المسئلة الثانية) الفاء تقتضى كلاما يترتب هذا عليه فماذا هو نقول هو ما تقدم من بيان علم الله وقدرته ووعده المسئ والمحسن بالجزاء وتقريره هو أنه تعالى لما بين أن الجزاء لابد من وقوعه على الاساءة والاحسان وان المحسن هو الذى يجتنب كبائر الاثم فلم يكن الانسان مستغنيا عن سماع كلام النبى صلى الله عليه وسلم واتباعه فبعد هذا من تولى لا يكون توليه الا بعد غاية الحاجة ونهاية الافتقار (المسئلة الثالثة) الذى على ما قال بعض المفسرين عائد الى معلوم وهو ذلك الرجل وهو الوليد والظاهر انه عائد الى مذكور فان الله تعالى قال من قبل فأعرض عمن تولى عن ذكرنا وهو المعلوم لان الامر بالاعراض غير مختص بواحد من المعاندين فقال أفرأيت الذى تولى أى الذى سبق ذكره فان قيل كان ينبغى أن يقول الذين تولوا لان من فى قوله عمن تولى للعموم نقول العود الى اللفظ كثير شائع قال تعالى من جاء بالحسنة فله ولم يقل فلهم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى وأعطى قليلا ما المراد منه نقول على ما تقدم هو المقدار الذى أعطاه الوليد وقوله وأكدى هو ما أمسك عنه ولم يعط الكل وعلى هذا لو قال قائل ان الاكداء لا يكون مذموما لان الاعطاء كان بغير حق فالامتناع لا يذم عليه وأيضا فلا يبقى لقوله قليلا فائدة لان الاعطاء حينئذ نفسه يكون مذموما نقول فيه بيان خروجهم عن العقل والعرف أما العقل فلانه منع من الاعطاء لاجل حمل الوزر فانه لا يحصل به وأما العرف فلان عادة الكرام من العرب الوفاء بالعهد وهو لم يف به حيث التزم الاعطاء وامتنع والذى يليق بما ذكرناه أن نقول تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا يعنى اعطاء ما وجب اعطاؤه فى مقابلة ما يجب لاصلاح أمور الآخرة ويقع قوله تعالى أعنده علم الغيب فى مقابلة قوله تعالى ذلك مبلغهم من العلم أى لم يعلم الغيب وما فى الآخرة وقوله تعالى أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى فى مقابلة قوله هو أعلم بمن ضل الى قوله ليجزى الذين أساؤا لان الكلام مبين جميعا لبيان الجزاء و يمكن ان يقال ان الله تعالى لما بين حال المشركين المعاندين العابدين للات والعزى والقائلين بان الملائكة بنات الله شرع فى بيان أهل الكتاب وقال بعد ما رأيت حال المشرك الذى تولى عن ذكرنا أفرأيت حال من تولى وله كتاب وأعطى قليلا من الزمان حقوق

عرف من فوقها غرف فانه فى معنى وعدهم الله غرفا فانتصب به وعد الله كانه قيل وعدهم الله جميع ما يشاؤنه من زوال المضار وحصول المسار ليكفر عنه بموجب ذلك الوعد أسوأ الذى عملوا دفعا لمضارهم (ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) اعطاء لمنافعهم واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لابراز كمال الاعتناء بمضمون الكلام واضافة الاسوا والاحسن الى ما بعدهما ليست من قبيل اضافة المفضل الى المفضل عليه بل من اضافة الشئ الى بعضه للقصد الى التحقيق والتوضيح من غير اعتبار تفضيله عليه وانما المعتبر فيهما مطلق الفضل والزيادة لا على المضاف اليه المعين بخصوصه كما فى قولهم الناقص والاشج اعدلا بنى مروان خلا أن الزيادة المعتبرة فيهما ليست بطريق الحقيقة بل هى فى الاول بالنظر الى ما يليق بحالهم من استعظام سيآتهم وان قلت واستصغار حسناتهم وان جلت والثانى بالنظر الى لطف اكرم الاكرمين من استكثار الحسنة اليسيرة ومقابلتها بالمثوبات الكثيرة وحمل الزيادة على الحقيقة وان أمكن فى الاول بناء على أن تخصيص الاسوا بالذكر لبيان تكفير ما دونه بطريق الاولوية ضرورة استلزام تكفير الاسوا لتكفير السئ لكن لما لم يكن ذلك فى الاحسن كان الاحسن نظمهما فى سلك واحد من الاعتبار والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى صلة الموصول الثانى دون الاول للايذان باستمرارهم على الاعمال الصالحة بخلاف السيئة (أليس الله بكاف عبده) انكار ونفى لعدم كفايته تعالى على أبلغ وجه وآكده كأن الكفاية من التحقق والظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يتفوه بعدمها أو يتلعثم فى الجواب بوجودها والمراد بالعبد اما رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الجنس المنتظم له عليه السلام انتظاما أوليا و يؤيده قراءة من قرأ عباده وفسر بالانبياء عليهم الصلاة والسلام وكذا قراءة من قرأ بكافى عباده على الاضافة و يكافى عباده على صيغة المغالبة اما من الكفاية لافادة المبالغة فيها واما من

المكافاة بمعنى المجازاة وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما قالت له قريش انا نخاف أن تخبلك آلهتنا وتصيبك مضرتها لعيبك اياها
وفى رواية قالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون كما قال قوم هود ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا
بسوء وذلك قوله تعالى (ويخوفونك بالذين من دونه) أى الاوثان التى اتخذوها آلهة من دونه تعالى والجملة استئناف وقيل حال (ومن يضلل الله) حتى غفل عن كفايته تعالى وعصمته له عليه الصلاة والسلام وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلا (فما له من هاد) يهديه الى خير ما (ومن يهد الله فما له من مضل) يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يخل بسلوكه اذ لا راد لفعله ولا معارض لارادته كما ينطق به قوله تعالى (أليس الله بعزيز) غالب لا يغالب منيع لا يمانع ولا ينازع (ذى انتقام) ينتقم من أعدائه لاوليائه واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) لوضوح الدليل وسنوح السبيل (قل) تبكيتا لهم (أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره) أى بعد ما تحققتم أن خالق العالم العلوى والسفلى هو الله عز وجل فاخبرونى أن آلهتكم ان أرادنى الله بضر هل يكشفن عنى ذلك الضر (أو أرادنى برحمة) أى أو أرادنى بنفع (هل هن ممسكات رحمته) فيمنعنها عنى وقرئ كاشفات ضره وممسكات رحمته بالتنوين فيهما ونصب ضره ورحمته وتعليق ارادة الضر والرحمة بنفسه عليه الصلاة والسلام للرد فى نحورهم حيث كانوا خوفوه معرة الاوثان ولما فيه من الايذان بامحاض النصيحة (قل حسبى الله) أى فى جميع أمورى من اصابة الخير ودفع الشر روى أنه عليه الصلاة والسلام لما سألهم سكتوا فنزل ذلك (عليه يتوكل المتوكلون) عليه لا على غيره أصلا لعلمهم بان كل ما سواه تحت ملكوته تعالى (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم) على حالتكم التى أنتم عليها من العداوة التى تمكنتم فيها

الله تعالى ولما بلغ زمان محمد أكدى فهل علم الغيب فقال شيأ لم يرد فى كتبهم ولم ينزل عليهم فى الصحف المتقدمة ووجد فيها بان كل واحد يؤاخذ بفعله ويجازى بعمله وقوله تعالى أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى يخبر أن المتولى المذكور من أهل الكتاب (المسئلة الخامسة) أكدى قيل هو من بلغ الكدية وهى الارض الصلبة لا تحفر وحافر البئر اذا وصل اليها فامتنع عليه الحفر أو تعسر يقال أكدى الحافر والاظهر أنه الرد والمنع يقال أكديته أى رددته وقوله تعالى أعنده علم الغيب فهو يرى قد علم تفسيره جملة ان المراد جهل المتولى وحاجته وبيان قبح التولى مع الحاجة الى الاقبال وعلم الغيب أى العلم بالغيب أى علم ما هو غائب عن الخلق وقوله فهو يرى تتمة بيان وقت جواز التولى وهو حصول الرؤية وهو الوقت الذى لا ينفع الايمان فيه وهناك لا يبقى وجوب متابعة أحد فيما رآه لان الهادى يهدى الى الطريق فاذا رأى المهتدى مقصده بعينه لا ينفعه السماع فقال تعالى هل علم الغيب بحيث رآه فلا يكون علمه علما نظريا بل علما بصريا فسعى فتولى وقوله تعالى فهو يرى يحتمل أن يكون مفعول يرى هو احتمال الواحد وزر الآخر كأنه قال فهو يرى ان وزره محمول ألم يسمع أن وزره غير محمول فهو عالم بالحمل وغافل عن عدم الحمل ليكون معذورا ويحتمل أن لا يكون له مفعول تقديره فهو يرى رأى نظر غير محتاج الى هاد ونذير ۞ وقوله تعالى (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى) حال أخرى مضادة للاولى بعذر فيها المتولى وهو الجهل المطلق فان من علم الشئ علما تاما لا يؤمر بتعلمه والذى جهله جهلا مطلقا وهو الغافل على الاطلاق كالنائم أيضا لا يؤمر فقال هذا المتولى هل علم الكل فجاز له التولى أو لم يسمع شيأ وما بلغه دعوة أصلا فيعذر ولا واحد من الامرين بكائن فهو فى التولى غير معذور وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى بما فى يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد ما فيها لا بصفة كونه فيها فكأنه تعالى يقول أم لم ينبأ بالتوحيد والحشر وغير ذلك وهذه أمور مذكورة فى صحف موسى مثاله يقول القائل لمن توضأ بغير الماء توضأ بما توضأ به النبى صلى الله عليه وسلم لا يريد به نفس الماء الذى توضأ به النبى صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فالكلام مع الكل لان المشرك وأهل الكتاب نبأهم النبى صلى الله عليه وسلم بما فى صحف موسى (ثانيهما) ان يكون المراد بما فى الصحف مع كونه فيها كما يقول القائل فيما ذكرنا من المثال توضأ بما فى القربة لا بما فى الجرة فيريد عين ذلك لا جنسه وعلى هذا فالكلام مع أهل الكتاب لانهم الذين نبؤا به (المسئلة الثانية) صحف موسى وابراهيم هل جمعها لكونهما صحفا كثيرة أو لكونها مضافة الى اثنين كما قال تعالى فقد صغت قلوبكما الظاهر انها كثيرة قال الله تعالى وأخذ الالواح وقال تعالى وألقى الالواح وكل لوح صحيفة (المسئلة الثالثة) ما المراد بالذى فيها نقول قوله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للانسان الا ما سعى وما بعده من الامور المذكورة على قراءة من قرأ أن بالفتح وعلى قراءة من يكسر ويقول وان الى ربك المنتهى ففيه وجوه (أحدها) هو ما ذكره بقوله أن لا تزر وازرة وزر أخرى وهو الظاهر وان احتمل غيره لان صحف موسى وابراهيم ليس فيها هذا فقط وليس هذا معظم المقصود بخلاف قراءة الفتح فان فيها تكون جميع الاصول على ما بين (ثانيها) هو أن الآخرة خير من الاولى يدل عليه قوله تعالى ان هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى (ثالثها) أصول الدين كلها مذكورة فى الكتب بأسرها ولم يخل الله كتابا عنها ولهذا قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فبهداهم اقتده وليس المراد فى الفروع لان فروع دينه مغايرة لفروع دينهم من غير شك (المسئلة الرابعة) قدم موسى ههنا ولم يقل كما قال فى سبح اسم ربك الاعلى فهل فيه فائدة نقول مثل هذا فى كلام الفصحاء لا يطلب له فائدة بل التقديم والتأخير سواء فى كلامهم فيصح أن يقتصر على هذا الجواب ويمكن ان يقال ان الذكر هناك لمجرد الاخبار والانذار وههنا المقصود بيان انتفاء الاعذار فذكر هناك على ترتيب الوجود صحف ابراهيم قبل صحف موسى فى الانزال وأما ههنا فقد قلنا ان الكلام مع أهل الكتاب وهم اليهود فقدم كتابهم وان قلنا الخطاب عام فصحف موسى

فان المكانة تستعار من العين للمعنى كما تستعار هنا وحيث للزمان مع كونهما للمكان وقرئ على مكاناتكم (انى عامل) أى على مكانتى فحذف للاختصار والمبالغة فى الوعيد والاشعار بان حاله لا تزال تزداد قوة بنصر الله عز وجل وتأييده ولذلك توعدهم بكونه منصورا عليهم

عليه السلام كانت كثيرة الوجود فكانه قيل لهم انظروا فيها تعلمون ان الرسالة حق وأرسل من قبل موسى رسل والتوحيد صدق والحشر واقع فلما كانت صحف موسى عند اليهود كثيرة الوجود قدمها وأما صحف ابراهيم فكانت بعيدة وكانت المواعظ التى فيها غير مشهورة فيما بينهم كصحف موسى فأخر ذكرها (المسئلة الخامسة) كثيرا ما ذكر الله موسى فأخر ذكره عليه السلام لانه كان مبتلى فى أكثر الامر بمن حواليه وهم كانوا مشركين ومتهودين والمشركون كانوا يعظمون ابراهيم عليه السلام لكونه أباهم وأما قوله تعالى وفى ففيه وجهان (أحدهما) أنه من الوفاء الذى يذكر فى العهود وعلى هذا فالتشديد للمبالغة يقال وفى ووفى كقطع وقطع وقتل وقتل وهو ظاهر لانه وفى بالنذر واضجع ابنه للذبح وورد فى حقه قد صدقت الرؤيا وقال تعالى ان هذا لهو البلاء المبين (وثانيهما) انه من التوفية التى من الوفاء وهو التمام والتوفية الاتمام يقال وفاه أى أعطاه تاما وعلى هذا فهو من قوله واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن وقيل وفى أى أعطى حقوق الله فى بدنه وعلى هذا فهو على ضد من قال تعالى فيه وأعطى قليلا وأكدى مدح ابراهيم ولم يصف موسى عليه السلام نقول أما بيان توفيته ففيه لطيفة وهى انه لم يعهد عهدا الا وفى به وقال لابيه سأستغفر لك ربى فاستغفر ووفى بالعهد ولم يغفر الله له فعلم أن ليس للانسان الا ما سعى وأن وزره لا تزره نفس أخرى وأما مدح ابراهيم عليه السلام فلانه كان متفقا عليه بين اليهود والمشركين والمسلمين ولم ينكر أحد كونه وفيا وموفيا وربما كان المشركون يتوقفون فى وصف موسى عليه السلام ۞ ثم قال تعالى (أن لا تزر وازرة وزر أخرى) وقد تقدم تفسيره فى سورة الملائكة والذى يحسن بهذا الموضع مسائل (الاولى) أنا بينا ان الظاهر أن المراد من قوله بما فى صحف موسى هو ما بينه بقوله أن لا تزر فيكون هذا بدلا عن ما وتقديره أم لم ينبأ بان لا تزر وذكرنا هنالك وجهين (أحدهما) المراد أن الآخرة خير وأبقى (وثانيهما) الاصول (المسئلة الثانية) أن لا تزر أن خفيفة من الثقيلة كانه قال انه لا تزر وتخفيف الثقيلة لازم وغير لازم جائز وغير جائز فاللازم عند ما يكون بعدها فعل أو حرف داخل على فعل ولزم فيها التخفيف لانها مشبهة بالفعل فى اللفظ والمعنى والفعل لا يمكن ادخاله على فعل فاخرج عن شبه الفعل الى صورة تكون حرفا مختصا بالفعل فتناسب الفعل فتدخل عليه (المسئلة الثالثة) ان قال قائل الآية مذكورة لبيان ان وزر المسىء لا يحمل عنه وبهذا الكلام لا تحصل هذه الفائدة لان الوازرة تكون مثقلة بوزرها فيعلم كل أحد انها لا تحمل شيأ ولو قال لا تحمل فارغة وزر أخرى كان أبلغ نقول ليس كما ظننت وذلك لان المراد من الوازرة هى التى يتوقع منها الوزر والحمل لا التى وزرت وحملت كما يقال شاة حلوب وان لم يكن عليه فى الحال حمل واذا لم تزر تلك النفس التى يتوقع منها ذلك فكيف تحمل وزر غيرها فتكون الفائدة كاملة ۞ قوله تعالى (وان ليس للانسان الا ما سعى) تتمة بيان أحوال المكلف فانه لما بين له ان سيئته لا يتحملها عنه أحد بين له ان حسنة الغير لا تجدى نفعا ومن لم يعمل صالحا لا ينال خيرا فيكمل بها ويظهر أن المسىء لا يجد بسبب حسنة الغير ثوابا ولا يحمل عنه أحد عقابا وفيه أيضا مسائل (الاولى) ليس للانسان فيه وجهان (أحدهما) انه عام وهو الحق وقيل عليه بان فى الاخبار ان ما يأتى به القريب من الصدقة والصوم يصل الى الميت والدعاء أيضا نافع فللانسان شئ لم يسع فيه وأيضا قال الله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وهى فوق ما سعى والجواب عنه أن الانسان ان لم يسع فى أن يكون له صدقة القريب بالايمان لا يكون له صدقته فليس له الا ما سعى وأما الزيادة فنقول الله تعالى لما وعد المحسن بالامثال والعشرة وبالاضعاف المضاعفة فاذا أتى بحسنة راجيا أن يؤتيه الله ما يتفضل به فقد سعى فى الامثال فان قيل أنتم اذن حملتم السعى على المبادرة الى الشئ يقال سعى فى كذا اذا أسرع اليه والسعى فى قوله تعالى الا ما سعى معناه العمل يقال سعى فلان أى عمل ولو كان كما ذكرتم لقال الا ما سعى فيه نقول على الوجهين جميعا لا بد من زيادة فان قوله تعالى ليس للانسان الا ما سعى ليس المراد منه ان له عين ما سعى بل المراد على ما ذكرت ليس له الا ثواب ما سعى أو الا أجر ما سعى

فى الدارين بقوله تعالى (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) فان خزى أعدائه دليل غلبته عليه الصلاة والسلام وقد عذبهم الله تعالى وأخزاهم يوم بدر (ويحل عليه عذاب مقيم) أى دائم هو عذاب النار (انا أنزلنا عليك الكتاب للناس) لاجلهم فانه مناط مصالحهم فى المعاش والمعاد (بالحق) حال من فاعل أنزلنا أو من مفعوله (فمن اهتدى) بان عمل بما فيه (فلنفسه) أى انما نفع به نفسه (ومن ضل) بان لم يعمل بموجبه (فانما يضل عليها) لما أن وبال ضلاله مقصور عليها (وما أنت عليهم بوكيل) لتجبرهم على الهدى وما وظيفتك الا البلاغ وقد بلغت أى بلاغ (الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها) أى يقبضها عن الابدان بان يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها اما ظاهرا وباطنا كما عند الموت أو ظاهرا فقط كما عند النوم (فيمسك التى قضى عليها الموت) ولا يردها الى البدن وقرئ قضى على البناء للمفعول ورفع الموت (ويرسل الاخرى) أى النائمة الى بدنها عند التيقظ (الى أجل مسمى) هو الوقت المضروب لموته وهو غاية لجنس الارسال الواقع بعد الامساك لا لفرد منه فان ذلك مما لا امتداد فيه ولا كمية وما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان فى ابن آدم نفسا وروحا بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس هى التى بها العقل والتمييز والروح هى التى بها النفس والتحرك فتتوفيان عند الموت وتتوفى النفس وحدها عند النوم قريب مما ذكر (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من التوفى على الوجهين والامساك فى أحدهما والارسال فى الآخر (لآيات) عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى وحكمته وشمول رحمته (لقوم يتفكرون) فى كيفية تعلقها بالابدان وتوفيها عنها

أو يقال بأن المراد ان ماسعى محفوظ له مصون عن الاحباط فاذن له فعله يوم القيامة (الوجه الثانى) أن المراد من الانسان الكافر دون المؤمن وهو ضعيف وقيل بان قوله ليس للانسان الا ماسعى كان فى شرع من تقدم ثم ان الله تعالى نسخه فى شرع محمد صلى الله عليه وسلم وجعل للانسان ماسعى ومالم يسع وهو باطل اذ لاحاجة الى هذا التكلف بعدما بان الحق وعلى ماذكر فقوله ماسعى مبق على حقيقته معناه له عين ماسعى محفوظ عند الله تعالى ولا نقصان يدخله ثم يجزى به كما قال تعالى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (المسئلة الثانية) ان ما خبرية أو مصدرية نقول كونها مصدرية أظهر بدليل قوله تعالى وأن سعيه سوف يرى أى سوف يرى المسعى والمصدر للمفعول يجىء كثيرا يقال هذا خلق الله أى مخلوقه (المسئلة الثالثة) المراد من الآية بيان ثواب الاعمال الصالحة أو بيان كل عمل نقول المشهور أنها لكل عمل فالخير مثاب عليه والشر معاقب به والظاهر انه لبيان الخيرات يدل عليه اللام فى قوله تعالى للانسان فان اللام لعود المنافع وعلى لعود المضار تقول هذا له وهذا عليه ويشهد له ويشهد عليه فى المنافع والمضار وللقائل الاول أن يقول بان الامرين اذا اجتمعا غلب الافضل كجموع السلامة تذكر اذا اجتمعت الاناث مع الذكور وأيضا يدل عليه قوله تعالى ثم يجزاه الجزاء الاوفى والاوفى لايكون الا فى مقابلة الحسنة وأما فى السيئة فالمثل أو دونه أو العفو بالكلية (المسئلة الرابعة) الاماسعى بصيغة الماضى دون المستقبل لزيادة الحث على السعى فى العمل الصالح وتقريره هو انه تعالى لو قال ليس للانسان الاما يسعى تقول النفس انى أصلى غدا كذا ركعة وأتصدق بكذا درهما ثم يجعل مثبتا فى صحيفتى الآن لانه أمر يسعى فيه وله ما يسعى فيه فقال ليس له الاما قد سعى وحصل وفرغ منه وأما تسويلات الشيطان وعداته فلا اعتماد عليها ۞ ثم قال تعالى (وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى) أى يعرض عليه ويكشف له من أريته الشئ وفيه بشارة للمؤمنين على ماذكرنا وذلك ان الله يريه أعماله الصالحة ليفرح بها أو يكون يرى ملائكته وسائر خلقه ليفتخر العامل به على ماهو المشهور وهو مذكور لفرح المسلم ولحزن الكافر فان سعيه يرى للخلق ويرى لنفسه ويحتمل أن يقال هو من رأى يرى فيكون كقوله تعالى وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله وفيها وفى الآية التى بعدها مسائل (الاولى) العمل كيف يرى بعد وجوده ومضيه نقول فيه وجهان (أحدهما) يراه على صورة جميلة ان كان العمل صالحا (ثانيهما) هو على مذهبنا غير بعيد فان كل موجود يرى والله قادر على اعادة كل معدوم فبعد الفعل يرى وفيه وجه ثالث وهو ان ذلك مجاز عن الثواب يقال سترى احسانك عند الملك أى جزاءه عليه وهو بعيد لما قال بعده ثم يجزاه الجزاء الاوفى (المسئلة الثانية) الهاء ضمير السعى أى ثم يجزى الانسان سعيه بالجزاء والجزاء يتعدى الى مفعولين قال تعالى وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ويقال جزاك الله خيرا ويتعدى الى ثلاث مفاعيل بحرف يقال جزاه الله على عمله الخير الجنة ويحذف الجار ويوصل الفعل فيقال جزاه الله عمله الخير الجنة هذا وجه وفيه وجه آخر وهو أن الضمير للجزاء وتقديره ثم يجزى جزاء ويكون قوله الجزاء الاوفى تفسيرا أو بدلا مثل قوله تعالى وأسروا النجوى الذين ظلموا فان التقدير والذين ظلموا أسروا النجوى الذين ظلموا والجزاء الاوفى على ماذكرنا يليق بالمؤمنين الصالحين لانه جزاء الصالح وان قال تعالى فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا وعلى ماقيل يجاب أن الاوفى بالنظر اليه فان جهنم ضررها أكثر بكثير من نفع الآثام فهى فى نفسها أوفى (المسئلة الثالثة) ثم لتراخى الجزاء أو لتراخى الكلام أى ثم نقول يجزاه فان كان لتراخى الجزاء فكيف يؤخر الجزاء عن الصالح وقد ثبت أن الظاهر أن المراد منه الصالح نقول الوجهان محتملان وجواب السؤال هو أن الوصف بالاوفى يدفع ماذكرت لان الله تعالى من أول زمان يموت الصالح يجزيه جزاء على خيره ويؤخر له الجزاء الاوفى وهى الجنة أو نقول الاوفى اشارة الى الزيادة فصار كقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وهى الجنة وزيادة وهى الرؤية فكأنه تعالى قال وأن سعيه سوف يرى ثم يرزق الرؤية وهذا الوجه يليق بتفسير اللفظ فان

تارة بالكلية كما عند الموت وامساكها باقية لاتفنى بفنائها وما يعتريها من السعادة والشقاوة وأخرى عن ظواهرها فقط كما عند النوم وارسالها حينا بعد حين الى انقضاء آجالها (أم اتخذوا) أى بل اتخذ قريش (من دون الله) من دون اذنه تعالى (شفعاء) تشفع لهم عنده تعالى (قل أولو كانوا لايملكون شيأ ولا يعقلون) الهمزة لانكار الواقع واستقباحه والتوبيخ عليه أى قل أتتخذونهم شفعاء ولو كانوا لايملكون شيأ من الاشياء ولا يعقلونه فضلا عن أن يملكوا الشفاعة عند الله تعالى أو هى لانكار الوقوع ونفيه على أن المراد بيان أن مافعلوا ليس من اتخاذ الشفعاء فى شئ لانه فرع كون الاوثان شفعاء وذلك أظهر المحالات فالمقدر حينئذ غير ماقدر أولا وعلى أى تقدير كان فالواو للعطف على شرطية قد حذفت لدلالة المذكورة عليها أى أيشفعون لو كانوا يملكون شيأ ولو كانوا لايملكون الخ وجواب لو محذوف لدلالة المذكور عليه وقد مر تحقيقه مرارا (قل) بعد تبكيتهم وتجهيلهم بما ذكر تحقيقا للحق (لله الشفاعة جميعا) أى هو مالكها لا يستطيع أحد شفاعة ما الا أن يكون المشفوع له مرتضى والشفيع مأذونا له وكلاهما مفقود ههنا وقوله تعالى (له ملك السموات والارض) تقرير له وتأكيد أى له ملكهما ومافيهما من المخلوقات لايملك أحد أن يتكلم فى أمر من أموره بدون اذنه ورضاه (ثم اليه ترجعون) يوم القيامة لا الى أحد سواه لا استقلالا ولا اشتراكا فيفعل يومئذ مايريد (واذا ذكر الله وحده) دون آلهتهم (اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة) أى انقبضت ونفرت كما فى قوله تعالى واذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا (واذا ذكر الذين من دونه) فرادى أو مع ذكر الله تعالى (اذا هم يستبشرون) لفرط افتتانهم بها ونسيانهم حق الله تعالى ولقد بولغ فى بيان حاليهم القبيحتين حيث بين الغاية فيهما فان الاستبشار هو أن يمتلئ القلب سرورا حتى ينبسط له بشرة الوجه

الاوفى

الاوفى مطلق غير مبين فلم يقل أوفى من كذا فينبغي أن يكون أوفى من كل واف ولا يتصف به غير رؤية الله تعالى (المسئلة الرابعة) في بيان لطائف في الآيات (الاولى) قال في حق المسيء لا تزر وازرة وزر أخرى وهو لا يدل الا على عدم الحمل عن الوازرة وهذا لا يلزم منه بقاء الوزر عليها من ضرورة اللفظ لجواز أن يسقط عنها ويعفو الله ذلك الوزر فلا يبقى عليها ولا يتحمل عنها غيرها ولو قال لا تزر وازرة الا وزر نفسها كان من ضرورة الاستثناء انها تزر وقال في حق المحسن ليس للانسان الا ما سعى ولم يقل ليس له مالم يسع لان العبارة الثانية ليس فيها ان له ما سعى وفي العبارة الاولى أن له ما سعى نظرا الى الاستثناء وقال في حق المسيء بعبارة لا تقطع رجاءه وفي حق المحسن بعبارة تقطع خوفه كل ذلك اشارة الى سبق الرحمة الغضب ۞ ثم قال تعالى

(وأن الى ربك المنتهى) القراءة المشهورة فتح الهمزة على العطف على ما يعني ان هذا أيضا في الصحف وهو الحق وقرئ بالكسر على الاستئناف وفيه مسائل (الاولى) ما المراد من الآية قلنا فيه وجهان (أحدهما) وهو المشهور بيان المعاد أي للناس بين يدي الله وقوف وعلى هذا فهو يتصل بما تقدم لانه تعالى لما قال ثم يجزاه كان قائلا قال لا نرى الجزاء ومتى يكون فقال ان المرجع الى الله وعند ذلك يجازي الشكور ويجزي الكفور (وثانيهما) المراد التوحيد وقد فسر الحكماء أكثر الآيات التي فيها الانتهاء والرجوع بما سنذكره غير ان في بعضها تفسيرهم غير ظاهر وفي هذا الموضع ظاهر فنقول هو بيان وجود الله تعالى ووحدانيته وذلك لانك اذا نظرت الى الموجودات الممكنة لا تجد لها بدا من موجد ثم ان موجدها ربما يظن انه ممكن آخر كالحرارة التي تكون على وجه يظن انها من اشراق الشمس أو من النار فيقال الشمس والنار ممكنتان فمم وجودهما فان استندتا الى ممكن آخر لم يجد العقل بدا من الانتهاء الى غير ممكن فهو واجب الوجود فاليه ينتهي الامر فالرب هو المنتهى وهذا في هذا الموضع ظاهر معقول موافق للمنقول فان المروي عن أبي بن كعب انه قال عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال وان الى ربك المنتهى لا فكرة في الرب أي انتهى الامر الى واجب الوجود وهو الذي لا يكون وجوده بموجد ومنه كل وجود وقال أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا ذكر الرب فانتهوا وهو محتمل لما ذكرنا وأما بعض الناس فيبالغ ويفسر كل آية فيها الرجعى والمنتهى وغيرهما بهذا التفسير حتى قيل اليه يصعد الكلم الطيب بهذا المعنى * هذا دليل الوجود وأما دليل الوحدانية فمن حيث ان العقل انتهى الى واجب الوجود من حيث انه واجب الوجود لانه لو لم يكن واجب الوجود لما كان منتهى بل يكون له موجد قبله فالمنتهى هو الواجب من حيث انه واجب وهذا المعنى واحد في الحقيقة والعقل لانه لا بد من الانتهاء الى هذا الواجب أو الى ذلك الواجب فلا يثبت للواجب معنى غير انه واجب فبعد اذا وجوبه فلو كان واجبان في الوجود لكان كل واحد قبل المنتهى لان المجموع قبله الواجب فهو المنتهى وهذان دليلان ذكرتهما على وجه الاختصار (المسئلة الثانية) قوله تعالى الى ربك المنتهى في المخاطب وجهان (أحدهما) انه عام تقديره الى ربك أيها السامع أو العاقل (ثانيهما) الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم وفيه بيان صحة دينه فان كل أحد كان يدعي ربا والها لكنه صلى الله عليه وسلم لما قال ربي الذي هو أحد وصمد يحتاج اليه كل ممكن فاذا ربك هو المنتهى وهو رب الارباب ومسبب الاسباب وعلى هذا القول الكاف أحسن موقعا أما على قولنا ان الخطاب عام فهو تهديد بليغ للمسيء وحث شديد للمحسن لان قوله أيها السامع كائنا من كان الى ربك المنتهى يفيد الامرين افادة بالغة حد الكمال وأما على قولنا الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم فهو تسلية لقلبه كأنه يقول لا تحزن فان المنتهى الى الله فيكون كقوله تعالى فلا يحزنك قولهم انا نعلم ما يسرون وما يعلنون الى أن قال تعالى في آخر السورة واليه ترجعون وأمثاله كثيرة في القرآن (المسئلة الثالثة) اللام على الوجه الاول للعهد لان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول أبدا ان مرجعكم الى الله فقال وان الى ربك المنتهى الموعود المذكور في القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الوجه

والاشمئزاز أن يمتلئ غيظا وغما ينقبض منه أديم الوجه والعامل في اذا الاولى اشمأزت وفي الثانية ما هو العامل في اذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دونه فاجؤوا وقت الاستبشار (قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة) أي التجئ اليه تعالى بالدعاء لما تحيرت في أمر الدعوة وضجرت من شدة شكيمتهم في المكابرة والعناد فانه القادر على الاشياء بجملتها والعالم بالاحوال برمتها (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أي حكما يسلمه كل مكابر معاند ويخضع له كل عات مارد وهو العذاب الدنيوي أو الاخروي وقوله تعالى (ولو أن للذين ظلموا ما في الارض جميعا) الخ كلام مستأنف مسوق لبيان آثار الحكم الذي استدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وغاية شدته وفظاعته أي لو أن لهم جميع ما في الدنيا من الاموال والذخائر (ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة) أي لجعلوا كل ذلك فدية لانفسهم من العذاب الشديد وهيهات ولات حين مناص وهذا كما ترى وعيد شديد واقناط كلي لهم من الخلاص (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون) أي ظهر لهم من فنون العقوبات ما لم يكن في حسابهم وهذه غاية من الوعيد لا غاية وراءها ونظيره في الوعد قوله تعالى فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين (وبدا لهم سيئات ما كسبوا) سيئات أعمالهم أو كسبهم حين تعرض عليهم صحائفهم (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) أي أحاط بهم جزاؤه (فاذا مس الانسان ضر دعانا) اخبار عن الجنس بما يفعله غالب أفراده والفاء لترتيب ما بعدها من المناقضة والتعكيس على ما مر من حالتيهم القبيحتين وما بينهما اعتراض مؤكد للانكار عليهم أي انهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى وحده ويستبشرون بذكر الآلهة فاذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا عن ذكره دون من استبشروا بذكره (ثم اذا خولناه نعمة منا) أعطيناه اياها تفضلا فان التخويل مختص به لا يطلق على ما أعطي جزاء (قال انما أوتيته

الثانى للعموم أى الى الرب كل منتهى وهو مبدأ وعلى هذا الوجه نقول منتهى الادراكات المدركات فان الانسان أولا يدرك الاشياء الظاهرة ثم يمعن النظر فينتهى الى الله فيقف عنده ۞ ثم قال تعالى ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ وفيه مسائل (الاولى) على قولنا اليه المنتهى المراد منه اثبات الوحدانية هذه الآيات مثبتات لمسائل يتوقف عليها الاسلام من جملتها قدرة الله تعالى فان من الفلاسفة من يعترف بان الله المنتهى وانه واحد لكن يقول هو موجب لا قادر فقال تعالى هو أوجد ضدين الضحك والبكاء فى محل واحد والموت والحياة والذكورة والانوثة فى مادة واحدة وان ذلك لا يكون الا من قادر واعترف به كل عاقل وعلى قولنا ان قوله تعالى وان الى ربك المنتهى بيان المعاد فهو اشارة الى بيان أمره فهو كما يكون فى بعضها ضاحكا فرحا وفى بعضها باكيا محزونا كذلك يفعل به فى الآخرة (المسئلة الثانية) أضحك وأبكى لا مفعول لهما فى هذا الموضع لانهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور فلا حاجة الى المفعول يقول القائل فلان بيده الاخذ والعطاء يعطى ويمنع ولا يريد ممنوعا ومعطى (المسئلة الثالثة) اختار هذين الوصفين للذكر والانثى لانهما أمران لا يعللان فلا يقدر أحد من الطبيعيين أن يبدى فى اختصاص الانسان بالضحك والبكاء وجها وسببا واذا لم يعلل بأمر ولا بد له من موجد فهو الله تعالى بخلاف الصحة والسقم فانهم يقولون سببهما اختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال ويدلك على هذا انهم اذا ذكروا فى الضحك أمرا الضحك قالوا قوة التعجب وهو فى غاية البطلان لان الانسان ربما يبهت عند رؤية الامور العجيبة ولا يضحك وقيل قوة الفرح وليس كذلك لان الانسان يفرح كثيرا ولا يضحك والحزين الذى عنده غاية الحزن يضحكه المضحك وكذلك الامر فى البكاء وان قيل لا كثرهم علما بالامور التى يدعيها الطبيعيون ان خروج الدمع من العين عند أمور مخصوصة لماذا لا يقدر على تعليل صحيح وعند الخواص كالتى فى المغناطيس وغيرها ينقطع الطبيعى كما ان عند أوضاع الكواكب ينقطع هو والمهندس الذى لا يفوض أمره الى قدرة الله تعالى وارادته ۞ ثم قال تعالى ﴿وأنه هو أمات وأحيى﴾ والبحث فيه كما فى الضحك والبكاء غير أن الله تعالى فى الاول بين خاصة النوع الذى هو أخص من الجنس فانه أظهر وعن التعليل أبعد ثم عطف عليه ما هو أعم منه ودونه فى البعد عن التعليل وهى الاماتة والاحياء وهما صفتان متضادتان أى الموت والحياة كالضحك والبكاء والموت على هذا ليس بمجرد العدم والا لكان الممتنع ميتا وكيفما كان فالاماتة والاحياء أمر وجودى وهما من خواص الحيوان ويقول الطبيعى فى الحياة لاعتدال المزاج والمزاج من أركان متضادة هى النار والهواء والماء والتراب وهى متداعية الى الانفكاك وما لا تركيب فيه من المتضادات لا موت له لان المتضادات كل أحد يطلب مفارقة مجاوره فقال تعالى الذى خلق ومزج العناصر وحفظها مدة قادر على أن يحفظها أكثر من ذلك فاذا أمات فليس عن ضرورة فهو بفعل فاعل مختار وهو الله تعالى فهو الذى أمات وأحيا فان قيل متى أمات وأحيا حتى يعلم ذلك بل مشاهدة الاحياء والاماتة بناء على الحياة والموت نقول فيه وجوه (احدها) انه على التقديم والتأخير كانه قال أحيا وأمات (ثانيها) هو بمعنى المستقبل فان الامر قريب يقال فلان وصل والليل دخل اذا قرب مكانه وزمانه فكذلك الاحياء والاماتة (ثالثها) أمات أى خلق الموت والجمود فى العناصر ثم ركبها وأحيا أى خلق الحس والحركة فيها ۞ ثم قال تعالى ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والانثى﴾ وهو أيضا من جملة المتضادات التى تتوارد على النطفة فبعضها يخلق ذكرا وبعضها أنثى ولا يصل اليه فهم الطبيعى الذى يقول انه من البرد والرطوبة فى الانثى فرب امرأة أيبس مزاجا من الرجل وكيف واذا نظرت فى المميزات بين الصغير والكبير تجدها أمورا عجيبة منها نبات اللحية وأقوى ما قالوا فى نبات اللحية انهم قالوا الشعور مكونة من بخار دخانى يتصعد الى المسام فاذا كانت المسام فى غاية الرطوبة والتحلل كما فى مزاج الصبى والمرأة لا ينبت الشعر لخروج تلك الادخنة من المسام الرطبة بسهولة قبل أن يتكون شعرا واذا كانت فى غاية اليبوسة والتكاثف ينبت الشعر لعسر خروجه من

على علم) أى على علم منى بوجوه كسبه أو بانى سأعطاه لما لى من الاستحقاق أو على علم من الله تعالى بى وباستحقاقى والهاء لما ان جعلت موصولة والا فلنعمة والتذكير لما أن المراد شئ من النعمة (بل هى فتنة) أى محنة وابتلاء له أيشكر أم يكفر وهو رد لما قاله وتغيير السبك للمبالغة فيه والايذان بان ذلك ليس من باب الايتاء المنبئ عن الكرامة وانما هو أمر مباين له بالكلية وتأنيث الضمير باعتبار لفظ النعمة أو باعتبار الخبر وقرئ بالتذكير (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن الامر كذلك وفيه دلالة على أن المراد بالانسان هو الجنس (قد قالها الذين من قبلهم) الهاء لقوله انما أوتيته على علم لانها كلمة أو جملة وقرئ بالتذكير والموصول عبارة عن قارون وقومه حيث قال انما أوتيته على علم عندى وهم راضون به (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) من متاع الدنيا ويجمعون منه (فأصابهم سيئات ما كسبوا) جزاء سيآت أعمالهم أو أجزية ما كسبوا وتسميتها سيآت لانها فى مقابلة سيآتهم وجزاء سيئة سيئة مثلها (والذين ظلموا من هؤلاء) المشركين ومن للبيان أو للتبعيض أى أفرطوا فى الظلم والعتو (سيصيبهم سيآت ما كسبوا) من الكفر والمعاصى كما أصاب أولئك والسين للتأكيد وقد أصابهم أى اصابة حيث قحطوا سبع سنين وقتل صناديدهم يوم بدر (وما هم بمعجزين) أى فائتين (أولم يعلموا) أى أقالوا ذلك ولم يعلموا أو أغفلوا ولم يعلموا (أن الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه له (ويقدر) لمن يشاء أن يقدره له من غير أن يكون لاحد مدخل ما فى ذلك حيث حبس عنهم الرزق سبعا ثم بسطه لهم سبعا (ان فى ذلك) الذى ذكر (لآيات) دالة على أن الحوادث كافة من الله عز وجل (لقوم يؤمنون) اذ هم المستدلون بها على مدلولاتها (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) أى أفرطوا فى الجناية عليها بالاسراف فى المعاصى واضافة العباد تخصصه بالمؤمنين على ما هو عرف القرآن الكريم (لا تقنطوا من رحمة الله) أى لا تيأسوا من

الخرج الضيق ثم ان تلك المواد تنجذب الى مواضع مخصوصة فتندفع أما الى الرأس فتندفع اليه لانه مخلوق كقبة فوق الابخرة والادخنة فتتصاعد اليه تلك المواد فلهذا يكون شعر الرأس أكثر وأطول ولهذا في الرجل مواضع تنجذب اليها الابخرة والادخنة منها الصدر لحرارة القلب والحرارة تجذب الرطوبة كالسراج للزيت ومنها بقرب آلة التناسل لان حرارة الشهوة تجذب أيضا ومنها اللحيان فانها كثيرة الحركة بسبب الاكل والكلام والحركة أيضا جاذبة فاذا قيل لهم فالسبب الموجب لتلازم نبات شعر اللحية وآلة التناسل فانها اذا قطعت لم تنبت اللحية وما الفرق بين سن الصبا وسن الشباب وبين المرأة والرجل فبعضها يبهت وفي بعضها يتكلم بامور واهية ولو فوضها الى حكمة الهية لكان أولى وفيه مسئلتان (الاولى) قال تعالى وانه خلق ولم يقل وانه هو خلق كما قال وانه هو أضحك وأبكى وذلك لان الضحك والبكاء ربما يتوهم متوهم انه بفعل الانسان وفي الاماتة والاحياء وان كان ذلك التوهم بعيدا لكن ربما يقول به جاهل كما قال من حاج ابراهيم الخليل عليه السلام حيث قال أنا أحيي وأميت فأكد ذلك بذكر الفصل وأما خلق الذكر والانثى من النطفة فلا يتوهم أحد انه بفعل أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل ألا ترى الى قوله تعالى وأنه هو أغنى وأقنى حيث كان الاغناء عندهم غير مستند الى الله تعالى وكان في معتقدهم ان ذلك بفعلهم كما قال قارون انما أوتيته على علم عندي ولذلك قال وانه هو رب الشعرى لانهم كانوا يستبعدون أن يكون رب محمد هو رب الشعرى فأكد في مواضع استبعادهم النسبة الى الله تعالى الاسناد ولم يؤكده في غيره (المسئلة الثانية) الذكر والانثى اسمان هما صفة أو اسمان ليسا بصفة المشهور عند أهل اللغة الثاني والظاهر انهما من الاسماء التي هي صفات فالذكر كالحسن والعزب والانثى كالحبلى والكبرى وانما قلنا انها كالحبلى في رأى لانها حيالها أنثت لا كالكبرى وان قلنا انها كالكبرى في رأى وانما قلنا ان الظاهر انهما صفتان لان الصفة ما يطلق على شئ ثبت له أمر كالعالم يطلق على شئ له علم والمتحرك يقال لشئ له حركة بخلاف الشجر والحجر فان الشجر لا يقال لشئ بشرط أن يثبت له أمر بل هو اسم موضوع لشئ معين والذكر اسم يقال لشئ له أمر ولهذا يوصف به ولا يوصف بالشجر يقال جاءني شخص ذكر وانسان ذكر ولا يقال جسم شجر والذي ذهب الى انه اسم غير صفة انما ذهب اليه لانه لم ير له فعلا والصفة في الغالب له فعل كالعالم والجاهل والحسن والعزب والكبرى والحبلى وذلك لا يدل على ما ذهب اليه لان الذكورة والانوثة من الصفات التي لا يتبدل بعضها ببعض فلا يصاغ لها أفعال لان الفعل لما يتوقع له تجدد في صورة الغالب ولهذا لم يوجد للاضافيات أفعال كالابوة والبنوة والاخوة اذ لم تكن من الذي يتبدل ووجد للاضافيات المتبدلة أفعال يقال واخاه وتبناه لما لم يكن متبنا بتكلف فقبل التبدل ۞ وقوله تعالى (من نطفة) أي قطعة من الماء ۞ وقوله تعالى (اذا تمنى) من أمنى المنى اذا أنزل أو من منى يمنى اذا قدر وقوله تعالى من نطفة تنبيه على كمال القدرة لان النطفة جسم متناسب الاجزاء ويخلق الله تعالى منه أعضاء مختلفة وطباعا متباينة وخلق الذكر والانثى منها أعجب ما يكون على ما بينا ولهذا لم يقدر أحد على أن يدعيه كما لم يقدر أحد على أن يدعي خلق السموات ولهذا قال تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله كما قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ۞ ثم قال تعالى (وأن عليه النشأة الاخرى) وهي في قول أكثر المفسرين اشارة الى الحشر والذي ظهر لي بعد طول التفكر والسؤال من فضل الله تعالى الهداية فيه الى الحق انه يحتمل أن يكون المراد نفخ الروح الانسانية فيه وذلك لان النفس الشريفة لا الامارة تخالط الاجسام الكثيفة المظلمة وبها كرم الله بني آدم واليه الاشارة في قوله تعالى فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر غير خلق النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاما وبهذا الخلق الآخر تميز الانسان عن أنواع الحيوانات وشارك الملك في الادراكات فكما قال هنالك أنشأناه خلقا آخر بعد خلق النطفة قال ههنا وأن عليه النشأة الاخرى فجعل نفخ الروح نشأة أخرى كما

مغفرته أولا وتفضله ثانيا (ان الله يغفر الذنوب جميعا) عفوا لمن يشاء ولو بعد حين بتعذيب في الجملة وبغيره حسبما يشاء وتقييده بالتوبة خلاف الظاهر كيف لا وقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ظاهر في الاطلاق فيما عدا الشرك ومما يدل عليه التعليل بقوله تعالى (انه هو الغفور الرحيم) على المبالغة وافادة الحصر والوعد بالرحمة بعد المغفرة وتقديم ما يستدعي عموم المغفرة مما في عبادي من الدلالة على الذلة والاختصاص المقتضيين للترحم وتخصيص ضرر الاسراف بأنفسهم والنهي عن القنوط مطلقا عن الرحمة فضلا عن المغفرة واطلاقها وتعليله بان الله يغفر الذنوب ووضع الاسم الجليل موضع الضمير لدلالته على أنه المستغني والمنعم على الاطلاق والتأكيد بالجميع وما روي من أسباب النزول الدالة على ورود الآية فيمن تاب لا يقتضي اختصاص الحكم بهم ووجوب حمل المطلق على المقيد في كلام واحد مثل أكرم الفضلاء أكرم الكاملين غير مسلم فكيف فيما هو بمنزلة كلام واحد ولا يخل بذلك الامر بالتوبة والاخلاص في قوله تعالى (وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون) اذ ليس المدعى أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد من غير توبة وسبق تعذيب لتغني عن الامر بها وتنافي الوعيد بالعذاب (واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم) أي القرآن أو المأمور به دون المنهي عنه أو العزائم دون الرخص أو الناسخ دون المنسوخ ولعله ما هو أنجى وأسلم كالانابة والمواظبة على الطاعة (من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) بمجيئه لتتداركوا وتتأهبوا له (أن تقول نفس) أي كراهة أن تقول والتنكير للتكثير كما في قوله تعالى علمت نفس ما أحضرت فانه مسلك ربما يسلك عند ارادة التكثير والتعميم وقد مر تحقيقه في مطلع سورة الحجر (يا حسرتا) بالالف بدلا من ياء الاضافة وقرئ يا حسرتاه بهاء السكت وقفا وقرئ يا حسرتاي

بالجمع بين العوضين وقرئ ياحسرتي على الاصل أي احضري فهذا أوان حضورك (على مافرطت) أي على تفريطي وتقصيري (في جنب الله) أي جانبه وفي حقه وطاعته وعليه قول من قال

أما تتقين الله في جنب وامق * له كبد حرى وعين ترقرق

وهو كناية فيها مبالغة وقيل في ذات الله على تقدير مضاف كالطاعة وقيل في قربه من قوله تعالى والصاحب بالجنب وقرئ في ذكر الله (وان كنت لمن الساخرين) أي المستهزئين بدين الله تعالى وأهله ومحل الجملة النصب على الحال أي فرطت وأنا ساخر (أو تقول لو أن الله هداني) بالارشاد الى الحق (لكنت من المتقين) الشرك والمعاصي (أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة) رجعة الى الدنيا (فأكون من المحسنين) في العقيدة والعمل وأو للدلالة على أنها لاتخلو عن هذه الاقوال تحسرا وتحيرا وتعللا بما لاطائل تحته وقوله تعالى (بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) رد من الله تعالى عليه لما تضمنه قوله لو أن الله هداني من معنى النفي وفصله عنه لما أن تقديمه يفرق القرائن وتأخير المردود يخل بالترتيب الوجودي لانه يتحسر بالتفريط ثم يتعلل بفقد الهداية ثم يتمنى الرجعة وهو لايمنع تأثير قدرة الله تعالى في فعل العبد ولا مافيه من اسناد الفعل اليه كما عرفت وتذكير الخطاب باعتبار المعنى وقرئ بالتأنيث (ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله) بأن وصفوه بما لايليق بشأنه كاتخاذ الولد (وجوههم مسودة) بما ينالهم من الشدة أو بما يتخيل عليها من ظلمة الجهل والجملة حال قد اكتفى فيها بالضمير عن الواو على أن الرؤية بصرية أو مفعول ثان لها على أنها عرفانية (أليس في جهنم مثوى) أي مقام (للمتكبرين) عن الايمان والطاعة وهو تقرير لما قبله من رؤيتهم كذلك (وينجي الله الذين اتقوا) الشرك والمعاصي أي من جهنم وقرئ ينجي من الانجاء (بمفازتهم) مصدر ميمي اما من فاز بالمطلوب أي ظفر به والباء

جعله هنالك انشاء آخر والذي أوجب القول بهذا هو ان قوله تعالى وأن الى ربك المنتهى عند الاكثرين لبيان الاعادة وقوله تعالى ثم يجزاه الجزاء الاوفى كذلك فيكون ذكر النشأة الاخرى اعادة ولانه تعالى قال بعد هذا وأنه هو أغنى وأقنى وهذا من أحوال الدنيا وعلى ماذكرنا يكون الترتيب في غاية الحسن فانه يقول تعالى خلق الذكر والانثى ونفخ فيهما الروح الانسانية الشريفة ثم أغناه بلبن الام وبنفقة الاب في صغره ثم أقناه بالكسب بعد كبره فان قيل فقد وردت النشأة الاخرى للحشر في قوله تعالى فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الاخرة نقول الآخرة من الآخر لا من الآخر لان الآخر أفعل وقد تقدم على ان هنالك لما ذكر البدء حمل على الاعادة وههنا ذكر خلقه من نطفة كما في قوله ثم خلقنا النطفة علقة ثم قال أنشأناه خلقا آخر وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) على للوجوب ولا يجب على الله الاعادة فما معنى قوله تعالى وأن عليه قال الزمخشري على ماهو مذهبه عليه عقلا فان من الحكمة الجزاء وذلك لايتم الا بالحشر فيجب عليه عقلا الاعادة ونحن لانقول بهذا القول ونقول فيه وجهان (الاول) عليه بحكم الوعد فانه تعالى قال انا نحن نحيي الموتى فعليه بحكم الوعد لابالعقل ولا بالشرع (الثاني) عليه للتعيين فان من حضر بين جمع وحاولوا أمرا وعجزوا عنه يقال وجب عليك اذن أن تفعله أي تعينت له (المسئلة الثانية) قرئ النشأة على انه مصدر كالضربة على وزن فعلة وهي للمرة تقول ضربته ضربتين أي مرة بعد مرة يعني النشأة مرة أخرى عليه وقرئ النشاءة بالمد على انه مصدر على وزن فعالة كالكفالة وكيفما قرئ فهي من نشأ وهو لازم وكان الواجب أن يقال عليه الانشاء لا النشأة نقول فيه فائدة وهي ان الجزم يحصل من هذا بوجود الخلق مرة أخرى ولو قال عليه الانشاء ربما يقول قائل الانشاء من باب الاجلاس حيث يقال في السعة أجلسته فما جلس وأقمته فما قام فيقال أنشأه وما نشأ أي قصده لينشأ ولم يوجد فاذا قال عليه النشأة أي يوجد النشء ويحققه بحيث يوجد جزما (المسئلة الثالثة) هل بين قول القائل عليه النشأة مرة أخرى وبين قوله عليه النشأة الاخرى فرق نقول نعم اذا قال عليه النشأة مرة أخرى لايكون النشء قد علم أولا واذا قال عليه النشأة الاخرى يكون قد علم حقيقة النشأة الاخرى فنقول ذلك المعلوم عليه ۞ ثم قال تعالى (وأنه هو أغنى وأقنى) وقد ذكرنا تفسيره فنقول أغنى يعني دفع حاجته ولم يتركه محتاجا لان الفقير في مقابلة الغني فمن لم يبق فقيرا بوجه من الوجوه فهو غني مطلقا ومن لم يبق فقيرا من وجه فهو غني من ذلك الوجه قال صلى الله عليه وسلم أغنوهم عن المسئلة في هذا اليوم وحمل ذلك على زكاة الفطر ومعناه اذا آتاه ما احتاج اليه وقوله تعالى أقنى معناه وزاد عليه الاقناء فوق الاغناء والذي عندي ان الحروف متناسبة في المعنى فنقول لما كان مخرج القاف فوق مخرج الغين جعل الاقناء لحالة فوق الاغناء وعلى هذا فالاغناء هو ما آتاه الله من العين واللسان وهداه الى الارتضاع في صباه أو هو ما أعطاه الله تعالى من القوت واللباس المحتاج اليهما وفي الجملة كل مادفع الله به الحاجة فهو اغناء وكل مازاد عليه فهو اقناء ۞ ثم قال تعالى (وأنه هو رب الشعرى) اشارة الى فساد قول قوم آخرين وذلك لان بعض الناس يذهب الى أن الفقر والغنى بكسب الانسان واجتهاده فمن كسب استغنى ومن كسل افتقر وبعضهم يذهب الى ان ذلك بالبخت وذلك بالنجوم فقال هو أغنى وأقنى وان قائل الغنى بالنجوم غالط فنقول هو رب النجوم وهو محركها كما قال تعالى هو رب الشعرى وقوله هو رب الشعرى لانكارهم ذلك أكد بالفصل والشعرى نجم مضيء وفي النجوم شعريان احداهما شامية والاخرى يمانية والظاهر أن المراد اليمانية لانهم كانوا يعبدونها ۞ ثم قال تعالى (وأنه أهلك عادا الاولى) لما ذكر انه أغنى وأقنى وكان ذلك بفضل الله لا بعطاء الشعرى وجب الشكر لمن قد أهلك وكفى لهم دليلا حال عاد وثمود وغيرهم وعادا الاولى قيل بالاولى ميزت عن قوم كانوا بمكة هم عاد الآخرة وقيل الاولى لبيان تقدمهم لا لتمييزهم تقول زيد العالم جاءني فتصفه لا لتميزه ولكن لتبين علمه وفيه قرا آت عادا الاولى بكسر نون التنوين لالتقاء الساكنين وعاد

الاولى

الاولى باسقاط نون التنوين أيضا لالتقاء الساكنين كقراءة عزير ابن الله وقل هو الله أحد الله الصمد وعادا
لولى بادغام النون فى اللام ونقل ضمة الهمزة الى اللام وعاد الؤلى بهمز الواو وقرأ هذا القارئ على سؤقه
ودليله ضعيف وهو يحتمل هذا فى موضع المؤقدة والمؤصدة للضمة والواو فهى فى هذا الموضع تجرى على
الهمزة وكذا فى سؤقه لوجود الهمزة فى الاصل وفى موسى وقوله لايحسن ۞ ثم قال تعالى ﴿وثمود فما أبقى﴾
يعنى وأهلك ثمود وقوله فما أبقى عائد الى عاد وثمود أى فما أبقى عليهم ومن المفسرين من قال فما أبقاهم أى
فما أبقى منهم أحدا ويؤيد هذا قوله تعالى فهل ترى لهم من باقية وعلى هذا يحتج الحجاج على من قال ان ثقيفا من ثمود
بقوله تعالى فما أبقى ۞ ﴿وقوم نوح﴾ أى أهلكهم ﴿من قبل﴾ والمسئلة مشهورة فى قبل وبعد تقطع عن
الاضافة فتصير كالغاية فتبنى على الضمة أما البناء فلتضمنه الاضافة وأما على الضمة فلانها لو بنيت على
الفتحة لكان قد أثبت فيه ما يستحقه بالاعراب من حيث انها ظروف زمان فتستحق النصب والفتح مثله
ولو بنيت على الكسر لكان الامر على ما يقتضيه الاعراب وهو الجر بالجار فبنى على ما يخالف حالتى
اعرابها ۞ وقوله تعالى ﴿انهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ اما الظلم فلانهم هم البادئون به المتقدمون فيه ومن
سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها والبادى أظلم وأما أطغى فلانهم سمعوا المواعظ وطال عليهم
الامد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم نبيهم ولا يدعو نبى على قومه الا بعد الاصرار العظيم والظالم واضع الشئ
فى غير موضعه والطاغى المجاوز الحد فالطاغى أدخل فى الظلم فهو كالمغاير والمخالف فان المخالف مغاير مع
وصف آخر زائد وكذا المغاير والمضاد وكل ضد غير وليس كل غير ضدا وعليه سؤال وهو ان قوله وقوم نوح
المقصود منه تخويف الظالم بالهلاك فاذا قال هم كانوا فى غاية الظلم والطغيان فاهلكوا يقول الظالم هم كانوا
أظلم فاهلكوا لمبالغتهم فى الظلم ونحن ما بالغنا فلا نهلك وأما لو قال أهلكوا لانهم ظلمة لخاف كل ظالم فما
الفائدة فى قوله أظلم نقول المقصود بيان شدتهم وقوة أجسامهم فانهم لم يقدموا على الظلم والطغيان الشديد
الا بتماديهم وطول أعمارهم ومع ذلك ما نجا أحد منهم فما حال من هو دونهم فى العمر والقوة فهو كقوله تعالى
أشد منهم بطشا ۞ وقوله تعالى ﴿والمؤتفكة أهوى﴾ المؤتفكة المنقلبة وفيه مسائل (المسئلة الاولى)
قرئ والمؤتفكات والمشهور فيه انها قرى قوم لوط لكن كانت لهم مواضع ائتفكت فهى مؤتفكات
ويحتمل أن يقال المراد كل من انقلبت مساكنه ودثرت أماكنه ولهذا ختم المهلكين بالمؤتفكات كمن
يقول مات فلان وفلان وكل من كان من أمثالهم وأشكالهم (المسئلة الثانية) أهوى أى أهواها بمعنى
أسقطها فقيل أهواها من الهوى الى الارض من حيث حملها جبريل عليه السلام على جناحه ثم قلبها
وقيل كانت عماراتهم مرتفعة فاهواها بالزلزلة وجعل عاليها سافلها (المسئلة الثالثة) قوله تعالى والمؤتفكة
أهوى على ما قلت كقول القائل والمنقلبة قلبها او قلب المنقلب تحصيل الحاصل نقول ليس معناه المنقلبة
ما انقلبت بنفسها بل الله قلبها فانقلبت (المسئلة الرابعة) ما الحكمة فى اختصاص المؤتفكة باسم الموضع
فى الذكر وقال فى عاد وثمود وقوم نوح اسم القوم نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان ثمود اسم
الموضع فذكر عادا باسم القوم وثمود باسم الموضع وقوم نوح باسم القوم والمؤتفكة باسم الموضع ليعلم أن
القوم لا يعصمهم صون أماكنهم عن عذاب الله تعالى ولا الموضع يحصن القوم عنه فان فى العادة تارة يقوى
الساكن فيذب عن مسكنه وأخرى يقوى المسكن فيرد عن ساكنه وعذاب الله لا يمنعه مانع وهذا المعنى
حصل للمؤمنين فى آيتين (احداهما) قوله تعالى وكف أيدى الناس عنكم وقوله تعالى وظنوا انهم مانعتهم
حصونهم من الله ففى الاول لم يقدر الساكن على حفظ مسكنه وفى الثانى لم يقو الحصن على حفظ الساكن
(والوجه الثانى) هو ان عادا وثمود وقوم نوح كان أمرهم متقدما وأماكنهم كانت قد دثرت ولكن أمرهم
كان مشهورا متواترا وقوم لوط كانت مساكنهم وآثار الانقلاب فيها ظاهرة فذكر الاظهر من الامرين
فى كل قوم ۞ ثم قال تعالى ﴿فغشاها ما غشى﴾ يحتمل أن يكون ما مفعولا وهو الظاهر ويحتمل أن يكون

متعلقة بمحذوف هو حال من الموصول مفيد لمقارنة تنجيتهم من العذاب لنيل الثواب أى ينجيهم الله تعالى من مثوى المتكبرين ملتبسين بفوزهم
بمطلوبهم الذى هو الجنة وقوله تعالى (لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون) اما حال أخرى من الموصول أو من ضمير مفازتهم مفيدة
لكون نجاتهم أو فوزهم بالجنة غير مسبوقة بمساس العذاب والحزن واما من فاز منه أى نجا منه والباء للملابسة وقوله تعالى لا يمسهم الى آخره تفسير وبيان لمفازتهم أى ينجيهم الله تعالى ملتبسين بنجاتهم الخاصة بهم أى بنفى السوء والحزن عنهم أو للسببية اما على حذف المضاف أى ينجيهم بسبب مفازتهم التى هى تقواهم كما يشعر به ايراده فى حيز الصلة واما على اطلاق المفازة على سببها الذى هو التقوى وليس المراد نفى دوام المساس والحزن بل دوام نفيهما كما مر ارا (الله خالق كل شئ) من خير وشر وايمان وكفر لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لاسبابها (وهو على كل شئ وكيل) يتولى التصرف فيه كيفما يشاء (له مقاليد السموات والارض) لا يملك أمرها ولا يتمكن من التصرف فيها غيره وهو عبارة عن قدرته تعالى وحفظه لها وفيها مزيد دلالة على الاستقلال والاستبداد لان الخزائن لا يدخلها ولا يتصرف فيها الا من بيده مفاتيحها وهو جمع مقليد أو مقلاد من قلدته اذا ألزمته وقيل جمع اقليد معرب كليد على الشذوذ كالمذاكير وعن عثمان رضى الله عنه أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن المقاليد فقال عليه الصلاة والسلام تفسيرها لا اله الا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم هو الاول والآخر والظاهر والباطن
بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير والمعنى على هذا ان لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهى مفاتيح خير السموات والارض من تكلم
بها أصابه (والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون) متصل بما قبله والمعنى ان الله تعالى خالق لجميع الاشياء ومتصرف فيها كيفما يشاء

فاعلا يقال ضربه من ضربه وعلى هذا نقول يحتمل أن يكون الذي غشى هو الله تعالى فيكون كقوله تعالى والسماء وما بناها ويحتمل أن يكون ذلك اشارة الى سبب غضب الله عليهم أي غشاها عليهم السبب بمعنى ان الله غضب عليهم بسببه يقال لمن أغضب ملكا بكلام فضربه الملك كلامك الذي ضربك ۞ ثم قال تعالى ((فبأى آلاء ربك تتمارى)) قيل هذا أيضا مما في الصحف وقيل هو ابتداء كلام والخطاب عام كانه يقول بأي النعم أيها السامع تشك أو تجادل وقيل هو خطاب مع الكافر ويحتمل أن يقال مع النبي صلى الله عليه وسلم ولا يقال كيف يجوز أن يقول للنبي صلى الله عليه وسلم تتمارى لانا نقول هو من باب لئن أشركت ليحبطن عملك يعني لم يبق فيه امكان الشك حتى ان فارضا لو فرض النبي صلى الله عليه وسلم ممن يشك أو يجادل في بعض الامور الخفية لما كان يمكنه المراء في نعم الله والعموم هو الصحيح كانه يقول باى آلاء ربك تتمارى أيها الانسان كما قال يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم وقال تعالى وكان الانسان أكثر شيء جدلا فان قيل المذكور من قبل نعم والآلاء نعم فكيف قال آلاء ربك نقول لما عد من قبل النعم وهو الخلق من النطفة ونفخ الروح الشريفة فيه والاغناء والاقناء وذكران الكافر بنعمه أهلك قال فبأي آلاء ربك تتمارى فيصيبك مثل ما أصاب الذين تماروا من قبل أو نقول لما ذكر الاهلاك قال للشاك أنت ما أصابك الذي أصابهم وذلك بحفظ الله اياك فبأي آلاء ربك تتمارى وسنزيده بيانا في قوله تعالى فبأي آلاء ربكما تكذبان في مواضع العذاب ۞ ثم قال تعالى ((هذا نذير من النذر الاولى)) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المشار اليه بهذا ماذا نقول فيه وجوه (أحدها) محمد صلى الله عليه وسلم من جنس النذر الاولى (ثانيها) القرآن (ثالثها) ما ذكره من أخبار المهلكين ومعناه حينئذ هذا بعض الامور التي هي منذرة وعلى قولنا المراد محمد صلى الله عليه وسلم فالنذير هو المنذر ومن لبيان الجنس وعلى قولنا المراد هو القرآن يحتمل ان يكون النذير بمعنى المصدر ويحتمل ان يكون بمعنى الفاعل وكون الاشارة الى القرآن بعيد لفظا ومعنى أما معنى فلان القرآن ليس من جنس الصحف الاولى لانه معجز وتلك لم تكن معجزة وذلك لانه تعالى لما بين الوحدانية وقال فباى آلاء ربك تتمارى قال هذا نذير اشارة الى محمد صلى الله عليه وسلم واثباتا للرسالة وقال بعد ذلك أزفت الآزفة اشارة الى القيامة ليكون في الآيات الثلاث المرتبة اثبات أصول ثلاث مرتبة فان الاصل الاول هو الله ووحدانيته ثم الرسول ورسالته ثم الحشر والقيامة واما لفظا فلان النذير ان كان كاملا فما ذكره من حكاية المهلكين أولى لانه أقرب ويكون على هذا من بقي على حقيقة التبعيض أي هذا الذي ذكرنا بعض ما جرى ونبذ مما وقع أو يكون لابتداء الغاية بمعنى هذا انذار من المنذرين المتقدمين يقال هذا الكتاب وهذا الكلام من فلان وعلى الاقوال كلها ليس ذكر الاولى لبيان الموصوف بالوصف وتمييزه عن النذر الآخرة كما يقال الفرقة الاولى احترازا عن الفرقة الاخيرة وانما هو لبيان الوصف للموصوف كما يقال زيد العالم جاءني فيذكر العالم اما للبيان ان زيدا عالم غير انك لا تذكره بلفظ الخبر فتأتي به على طريقة الوصف واما المدح زيد به واما لامر آخر والاولى على العود الى لفظ الجمع وهو النذر ولو كان لمعنى الجمع لقال من النذر الاولين يقال من الاقوام المتقدمة والمتقدمين على اللفظ والمعنى ۞ ثم قال تعالى ((أزفت الآزفة)) وهو كقوله تعالى وقعت الواقعة ويقال كانت الكائنة وهذا الاستعمال يقع على وجوه منها ما اذا كان الفاعل صار فاعلا لمثل ذلك الفعل من قبل ثم صدر منه مرة أخرى مثل الفعل فيقال فعل الفاعل أي الذي كان فاعلا صار فاعلا مرة أخرى يقال حاكها الحائك أي من شغله ذلك من قبل فعله ومنها ما يصير الفاعل فاعلا بذلك الفعل ومنه يقال اذا مات الميت انقطع عمله واذا غصب العين غاصب ضمنه فقوله أزفت الآزفة يحتمل أن يكون من القبيل الاول أي قربت الساعة التي كل يوم يزداد قربها فهي كائنة قريبة وازدادت في القرب ويحتمل أن يكون كقوله تعالى وقعت الواقعة أي قرب وقوعها وأزفت فاعلها في الحقيقة القيامة أو الساعة فكأنه قال أزفت القيامة الآزفة

بالاحياء والامانة بيده مقاليد العالم العلوي والسفلي والذين كفروا بآياته المشكو بنيه المنصوبة في الآفاق والانفس والتنزيلية التي من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بذلك هم الخاسرون خسرانا لا خسار وراءه هذا وقيل هو متصل بقوله تعالى وينجي الله وما بينهما اعتراض فتدبر (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) أي أبعد مشاهدة هذه الآيات غير الله اعبد وتأمروني اعتراض للدلالة على أنهم أمروه به عقيب ذلك وقالوا استلم بعض آلهتنا نؤمن بالهك لفرط غباوتهم ويجوز أن ينتصب غير بما دل عليه تأمروني أعبد لانه بمعنى تعبدونني وتقولون لي اعبد على أن أصله تأمروني أن أعبد فحذف أن ورفع ما بعدها كما في قوله

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى
وأن اشهد اللذات هل أنت مخلدي

ويؤيده قراءة أعبد بالنصب وقرئ تأمرونني باظهار النونين على الاصل وبحذف الثانية (ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك) أي من الرسل عليهم السلام (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) كلام وارد على طريقة الفرض لتهييج الرسل واقناط الكفرة والايذان بغاية شناعة الاشراك وقبحه وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يمكن أن يباشره فكيف بمن عداه وافراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الاولى موطئة للقسم والاخريان للجواب واطلاق الاحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم عند الاشراك منهم لان الاشراك منهم أشد وأقبح وأن يكون مقيدا بالموت كما صرح به في قوله تعالى ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم وعطف الخسران عليه من عطف المسبب على السبب (بل الله فاعبد) رد لما أمروه به ولولا دلالة التقديم على القصر لم يكن كذلك (وكن من الشاكرين) انعامه عليك وفيه اشارة الى ما يوجب الاختصاص ويقتضيه (وما قدروا الله حق قدره) ما قدروا عظمته تعالى في أنفسهم حق عظمته

او

أو الساعة أو مثلها ۞ وقوله تعالى ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ فيه وجوه (أحدها) لا مظهر لها الا الله فمن يعلمها لا يعلم الا باعلام الله تعالى اياه واظهاره اياها له فهو كقوله تعالى ان الله عنده علم الساعة وقوله تعالى لا يجليها لوقتها الا هو (ثانيها) لا يأتي بها الا الله كقوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من زائدة تقديره ليس لها غير الله كاشفة وهي تدخل على النفي فتؤكد معناه تقول ما جاءني أحد وما جاءني من أحد وعلى هذا يحتمل أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ليس لها من كاشفة دون الله فيكون نفيا عاما بالنسبة الى الكواشف ويحتمل أن يقال ليست بزائدة بل معنى الكلام انه ليس في الوجود نفس تكشفها أي تخبر عنها كما هي ومتى وقتها من غير الله تعالى يعني من يكشفها فانما يكشفها من الله لا من غير الله يقال كشف الامر من زيد ودون يكون بمعنى غير كما في قوله تعالى أئفكا آلهة دون الله تريدون أي غير الله (المسئلة الثانية) كاشفة صفة لمؤنث أي نفس كاشفة وقيل هي للمبالغة كما في العلامة وعلى هذا لا يقال بانه نفي أن يكون لها كاشفة بصيغة المبالغة ولا يلزم من نفي الكاشف الفائق نفي نفس الكاشف لانا نقول لو كشفها أحد لكان كاشفا بالوجه الكامل فلا كاشف لها ولا يكشفها أحد وهو كقوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد من حيث نفي كونه ظالما مبالغا ولا يلزم منه نفي كونه ظالما وقلنا هناك انه لو ظلم عبيده الضعفاء بغير حق لكان في غاية الظلم وليس في غاية الظلم فلا يظلمهم أصلا (المسئلة الثالثة) اذا قلت ان معناه ليس لها نفس كاشفة فقوله من دون الله استثناء على الاشهر من الاقوال فيكون الله تعالى نفسا لها كاشفة نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) لا فساد في ذلك قال الله تعالى ولا أعلم ما في نفسك حكاية عن عيسى عليه السلام والمعنى الحقيقة (الثاني) ليس هو صريح الاستثناء فيجوز فيه ان لا يكون نفسا (الثالث) الاستثناء الكاشف المبالغ ۞ ثم قال تعالى ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون﴾ قيل من القرآن ويحتمل أن يقال هذا اشارة الى حديث أزفت الآزفة فانهم كانوا يتعجبون من حشر الاجساد وجمع العظام بعد الفساد ۞ وقوله تعالى ﴿وتضحكون﴾ يحتمل أن يكون المعنى وتضحكون من هذا الحديث كما قال تعالى فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون في حق موسى عليه السلام وكانوا هم أيضا يضحكون من حديث النبي والقرآن ويحتمل أن يكون انكارا على مطلق الضحك مع سماع حديث القيامة أي أتضحكون وقد سمعتم أن القيامة قربت فكان حقا أن لا تضحكوا حينئذ ۞ وقوله تعالى ﴿ولا تبكون﴾ أي كان حقا لكم ان تبكوا منه فتتركون ذلك وتأتون بضده ۞ وقوله تعالى ﴿وأنتم سامدون﴾ أي غافلون وذكر باسم الفاعل لان الغفلة دائمة وأما الضحك والعجب فهما أمران يتجددان ويعدمان ۞ وقوله تعالى ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ يحتمل أن يكون الامر عاما ويحتمل أن يكون التفاتا فيكون كانه قال أيها المؤمنون اسجدوا شكرا على الهداية واشتغلوا بالعبادة ولم يقل اعبدوا الله اما لكونه معلوما واما لان العبادة في الحقيقة لا تكون الا لله فقال واعبدوا أي ائتوا بالمأمور ولا تعبدوا غير الله لانها ليست بعبادة وهذا يناسب السجدة عند قراءته مناسبة أشد وأتم مما اذا حملناه على العموم والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين

﴿سورة القمر خمسون وخمس آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ أول السورة مناسب لآخر ما قبلها وهو قوله أزفت الآزفة فكأنه أعاد ذلك مع الدليل وقال قلت أزفت الآزفة وهو حق اذ القمر انشق والمفسرون بأسرهم على ان المراد أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ودلت الاخبار على حديث الانشقاق وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة وقالوا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الانشقاق بعينها معجزة فسأل ربه فشقه ومضى

حيث جعلوا له شريكا ووصفوه بما لا يليق بشؤنه الجليلة وقرئ بالتشديد ﴿والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾ تنبيه على غاية عظمته وكمال قدرته وحقارة الافعال العظام التي تتحير فيها الاوهام بالنسبة الى قدرته تعالى ودلالة على أن تخريب العالم أهون شئ عليه على طريقة التمثيل والتخييل من غير اعتبار القبضة واليمين حقيقة ولا مجازا كقولهم شابت لمة الليل والقبضة المرة من القبض أطلقت بمعنى القبضة وهي المقدار المقبوض بالكف تسمية بالمصدر أو بتقدير ذات قبضة وقرئ بالنصب على الظرف تشبيها للموقت بالمبهم وتأكيد الارض بالجميع لان المراد بها الارضون السبع أو جميع أبعاضها البادية والغائرة وقرئ مطويات على أنها حال والسموات معطوفة على الارض منظومة في حكمها ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ ما أبعد وما أعلى من هذه قدرته وعظمته عن اشراكهم أو عما يشركونه من الشركاء ﴿ونفخ في الصور﴾ هي النفخة الاولى ﴿فصعق من في السموات ومن في الارض﴾ أي خروا أمواتا أو مغشيا عليهم ﴿الا من شاء الله﴾ قيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل فانهم لا يموتون بعد وقيل حملة العرش ﴿ثم نفخ فيه أخرى﴾ نفخة أخرى هي النفخة الثانية وأخرى يحتمل النصب والرفع ﴿فاذا هم قيام﴾ قائمون من قبورهم أو متوقفون وقرئ بالنصب على أن الخبر ﴿ينظرون﴾ وهو حال من ضميره والمعنى يقلبون أبصارهم في الجوانب كالمبهوتين أو ينتظرون ما يفعل بهم ﴿وأشرقت الارض بنور ربها﴾ بما أقام فيها من العدل استعير له النور لانه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما يسمى الظلم ظلمة وفي الحديث الظلم ظلمات يوم القيامة ولذلك أضيف الاسم الجليل الى ضمير الارض أو بنور خلقه فيها بلا توسط أجسام مضيئة ولذلك أضيف الى الاسم الجليل ﴿ووضع الكتاب﴾ الحساب والجزاء من وضع المحاسب كتاب المحاسبة بين يديه أو صحائف الاعمال في أيدي العمال واكتفى باسم الجنس عن الجمع وقيل اللوح المحفوظ

وقال بعض المفسرين المراد سينشق وهو بعيد ولا معنى له لان من منع ذلك وهو الفلسفي عنعه في الماضي والمستقبل ومن يجوزه لا حاجة الى التأويل وانما ذهب اليه ذلك الذاهب لان الانشقاق أمر هائل فلو وقع لعم وجه الارض فكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر نقول النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يتحدى بالقرآن وكانوا يقولون انا نأتي بأفصح ما يكون من الكلام وعجزوا عنه فكان القرآن معجزة باقية الى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر وأما المؤرخون تركوه لان التواريخ في أكثر الامر يستعملها المنجم وهو لما وقع الامر قالوا بانه مثل خسوف القمر وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكايته في تواريخهم والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له وامكانه لا يشك فيه وقد أخبر عنه الصادق فيجب اعتقاد وقوعه وحديث امتناع الخرق والالتئام حديث اللئام وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات وذكرناه مرارا فلا نعيده ۞ وقوله تعالى (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) تقديره وبعد هذا ان يروا آية يقولوا سحر فانهم رأوا آيات أرضية وآيات سماوية ولم يؤمنوا ولم يتركوا عنادهم فان يروا ما يرون بعد هذا لا يؤمنون وفيه وجه آخر وهو أن يقال المعنى ان عادتهم انهم ان يروا آية يعرضوا فلما رأوا انشقاق القمر أعرضوا لتلك العادة وفيه مسائل (الاولى) قوله آية ماذا نقول آية اقتراب الساعة فان انشقاق القمر من آياته وقد ردوا وكذبوا فان يروا غيرها أيضا يعرضوا أو آية الانشقاق فانها معجزة أما كونها معجزة ففي غاية الظهور وأما كونها آية الساعة فلان منكر خراب العالم ينكر انشقاق السماء وانفطارها وكذلك قوله في كل جسم سماوي من الكواكب فاذا انشق بعضها ثبت خلاف ما يقول به وبان جواز خراب العالم وقال أكثر المفسرين معناه ان من علامات قيام الساعة انشقاق القمر عن قريب وهذا ضعيف حملهم على هذا القول ضيق المكان وخفاء الامر على الاذهان وبيان ضعفه هو أن الله تعالى لو أخبر في كتابه أن القمر ينشق وهو علامة قيام الساعة لكان ذلك أمرا لا بد من وقوعه مثل خروج دابة الارض وطلوع الشمس من المغرب فلا يكون معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم كما أن هذه الاشياء عجائب وليست بمعجزة للنبي لا يقال الاخبار عنها قبل وقوعها معجزة لانا نقول فحينئذ يكون هذا من قبيل الاخبار عن الغيوب فلا يكون هو معجزة برأسه وذلك فاسد ولا يقال بان ذلك كان معجزة وعلامة فاخبر الله في الصحف والكتب السالفة أن يكون معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم وتكون الساعة قريبة حينئذ وذلك لان بعثة النبي صلى الله عليه وسلم علامة كائنة حيث قال بعثت أنا والساعة كهاتين ولهذا يحكى عن سطيح أنه لما أخبر بوجود النبي صلى الله عليه وسلم قال عن أمور تكون فكان وجوده دليل أمور وأيضا القمر لما انشق كان انشقاقه عند استدلال النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين وهم كانوا غافلين عما في الكتب وأما أصحاب الكتب فلم يفتقروا الى بيان علامة الساعة لانهم كانوا يقولون بها ويقربها فهي اذا آية دالة على جواز تخريب السموات وهو العمدة الكبرى لان السموات اذا طويت وجوز ذلك فالارض ومن عليها لا يستبعد فناؤها اذا ثبت هذا فنقول معنى اقتربت الساعة يحتمل أن يكون في العقول والاذهان يقول من يسمع أمرا لا يقع هذا بعيد مستبعد وهذا وجه حسن وان كان بعض ضعفاء الاذهان ينكره وذلك لان حمله على قرب الوقوع زمانا لا امكانا يمكن الكافر من مجادلة فاسدة فيقول قال الله تعالى في زمان النبي صلى الله عليه وسلم اقتربت ويقولون بأن من قبل أيضا في الكتب كان يقول اقترب الوعد ثم مضى مائة سنة ولم يقع ولا يبعد أن يمضي ألف آخر ولا يقع ولو صح اطلاق لفظ القرب زمانا على مثل هذا لا يبقى وثوق بالاخبارات وأيضا قوله اقتربت لا انتهاز الفرصة والايمان قبل أن لا يصح الايمان فللكافر أن يقول اذا كان القرب بهذا المعنى فلا خوف منها لانها لا تدركني ولا تدرك أولادي ولا أولاد أولادي واذا كان امكانها قريبا في العقول يكون ذلك ردا بالغا على المشركين والفلاسفة والله سبحانه وتعالى أعلم ما كلف الاعتراف

يقابل به الصحائف (وجيء بالنبيين والشهداء) للامم وعليهم من الملائكة والمؤمنين وقيل المستشهدون (وقضي بينهم) بين العباد (بالحق وهم لا يظلمون) بنقص ثواب أو زيادة عقاب على ما جرى به الوعد (ووفيت كل نفس ما عملت) أي جزاءه (وهو أعلم بما يفعلون) فلا يفوته شيء من أفعالهم وقوله تعالى (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا) الخ تفصيل للتوفية وبيان لكيفيتها أي سيقوا اليها بالعنف والاهانة أفواجا متفرقة بعضها في اثر بعض مترتبة حسب ترتب طبقاتهم في الضلالة والشرارة والزمر جمع زمرة واشتقاقها من الزمر وهو الصوت اذ الجماعة لا تخلو عنه (حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها) ليدخلوها وحتى هي التي تحكى بعدها الجملة وقرئ بالتشديد (وقال لهم خزنتها) تقريعا وتوبيخا (ألم يأتكم رسل منكم) من جنسكم وقرئ نذر منكم (يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أي وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع من حيث انهم عللوا توبيخهم باتيان الرسل وتبليغ الكتب (قالوا بلى قد أتونا وأنذرونا (ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) حيث قال الله تعالى لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقد كنا ممن تبعه وكذبنا الرسل وقلنا ما نزل الله من شيء ان أنتم الا تكذبون (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) أي مقدرا خلودكم فيها وابهام القائل لتهويل المقول (فبئس مثوى المتكبرين) اللام للجنس والمخصوص بالذم محذوف ثقة بذكره آنفا أي فبئس مثواهم جهنم ولا يقدح ما فيه من الاشعار بأن كون مثواهم جهنم لتكبرهم عن الحق في أن دخولهم النار لسبق كلمة العذاب عليهم فانها انما حقت عليهم بناء على تكبرهم وكفرهم وقد مر تحقيقه في سورة الم السجدة (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة) مساق اعزاز وتشريف للاسراع بهم الى دار الكرامة وقيل سيق مراكبهم اذ لا يذهب بهم الا راكبين (زمرا) متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل بالوحدانية

بالوحدانية واليوم الآخر وقال اعلموا أن الحشر كائن تخالف المشرك والفلسفي ولم يقنع بمجرد انكار ماورد الشرع ببيانه ولم يقل لا يقع أوليس بكائن بل قال ذلك بعيد ولم يقنع بهذا أيضا بل قال ذلك غير ممكن ولم يقنع به أيضا بل قال فان امتناعه ضروري فان مذهبهم ان اعادة المعدوم واحياء الموتى محال بالضرورة ولهذا قالوا أئذا متنا أئذا كنا عظاما أئذا ضللنا في الارض بلفظ الاستفهام بمعنى الانكار مع ظهور الامر فلما استبعدوا لم يكتف الله ورسوله ببيان وقوعه بل قال ان الساعة آتية لا ريب فيها ولم يقتصر عليه بل قال وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ولم يتركها حتى قال اقتربت الساعة واقترب الوعد الحق اقترب للناس حسابهم اقترابا عقليا لا يجوز أن ينكر ما يقع في زمان طرفة عين لانه على الله يسير كما ان تقليب الحدقة علينا يسير بل هو أقرب منه بكثير والذي يقويه قول العامة ان زمان وجود العالم زمان مديد والباقي بالنسبة الى الماضي شئ يسير فلهذا قال اقتربت الساعة وأما قوله صلى الله عليه وسلم بعثت أنا والساعة كهاتين فمعناه لا نبي بعدي فان زماني يمتد الى قيام الساعة فزماني والساعة متلاصقان كهاتين ولا شك أن الزمان زمان النبي صلى الله عليه وسلم ومادامت أوامره نافذة فالزمان زمانه وان كان ليس هو فيه كما ان المكان الذي تنفذ فيه أوامر الملك مكان الملك يقال له بلاد فلان فان قيل كيف يصح حمله على القرب بالمعقول مع انه مقطوع به قلت كما صح قوله تعالى لعل الساعة تكون قريبا فان لعل للترجي والامر عند الله معلوم وفائدته ان قيام الساعة ممكن لا امكانا بعيدا عن العادات كحمل الآدمي في زماننا حملا في غاية الثقل أو قطعه مسافة بعيدة في زمان يسير فان ذلك ممكن امكانا بعيدا وأما تقليب الحدقة فممكن امكانا في غاية القرب (المسئلة الثانية) الجمع الذين تكون الواو ضميرهم في قوله يروا ويعرضوا غير مذكور فمن هم نقول هم معلومون وهم الكفار تقديره وهؤلاء الكفار ان يروا آية يعرضوا (المسئلة الثالثة) التنكير في الآية للتعظيم أي ان يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا (المسئلة الرابعة) قوله تعالى ويقولوا سحر مستمر ما الفائدة فيه نقول فائدته بيان كون الآية خالية عن شوائب الشبه وان الاعتراف لزمهم لانهم لم يقدروا أن يقولوا نحن نأتي بمثلها وبيان كونهم معرضين لا اعراض معذور فان من يعرض اعراض مشغول بأمر مهم فلم ينظر في الآية لا يستقبح منه الاعراض مثل ما يستقبح لمن ينظر فيها الى آخرها ويعجز عن نسبتها الى أحد ودعوى الاتيان بمثلها ثم يقول هذا ليس بشئ هذا سحر لان ما من آية الا ويمكن المعاند أن يقول فيها هذا القول (المسئلة الخامسة) ما المستمر نقول فيه وجوه (أحدها) دائم فان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يأتي كل زمان بمعجزة قولية أو فعلية أرضية أو سماوية فقالوا هذا سحر مستمر دائم لا يختلف بالنسبة الى النبي عليه السلام بخلاف سحر السحرة فان بعضهم يقدر على أمر وأمرين وثلاثة ويعجز عن غيرها وهو قادر على الكل (ثانيها) مستمر أي قوي من حبل مرير الفتل من المرة وهي الشدة (وثالثها) من المرارة أي سحر مر مستبشع (ورابعها) مستمر أي مار ذاهب فان السحر لا بقاء له ۞ ثم قال تعالى ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم﴾ وهو يحتمل أمرين (أحدهما) وكذبوا محمدا المخبر عن اقتراب الساعة (وثانيهما) كذبوا بالآية وهي انشقاق القمر فان قلنا كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقوله واتبعوا أهواءهم أي تركوا الحجة وأولوا الآيات وقالوا هو مجنون تعينه الجن وكاهن يقول عن النجوم ويختار الاوقات للافعال وساحر فهذه أهواؤهم وان قلنا كذبوا بانشقاق القمر فقوله واتبعوا أهواءهم في انه سحر القمر وانه خسوف والقمر لم يصبه شئ فهذه أهواؤهم وكذلك قولهم في كل آية ۞ وقوله تعالى ﴿وكل أمر مستقر﴾ فيه وجوه (احدها) كل أمر مستقر على سنن الحق يثبت والباطل يزهق وحينئذ يكون تهديدا لهم وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وهو كقوله تعالى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم أي بانها حق (ثانيها) وكل أمر مستقر في علم الله تعالى لا يخفى عليه شئ فهم كذبوا واتبعوا أهواءهم والانبياء صدقوا وبلغوا ما جاءهم كقوله تعالى لا يخفى على الله منهم شئ وكما قال تعالى في هذه السورة وكل شئ فعلوه في الزبر وكل

وعلوا الطبقة (حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها) وقرئ بالتشديد وجواب اذا محذوف للايذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات مالا يحدق به نطاق العبارات كأنه قيل حتى اذا جاؤها وقد فتحت أبوابها (وقال لهم خزنتها سلام عليكم) من جميع المكاره والآلام (طبتم) طهرتم من دنس المعاصي أو طبتم نفسا بما أتيح لكم من النعيم (فادخلوها خالدين) كان ما كان مما يقصر عنه البيان (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده) بالبعث والثواب (وأورثنا الارض) يريدون المكان الذي استقروا فيه على الاستعارة وايراثها تمليكها مخلفة عليهم من أعمالهم أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه (نتبوأ من الجنة حيث نشاء) أي يتبوأ كل واحد منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة على أن فيها مقامات معنوية لا يتمانع واردوها (فنعم أجر العاملين) الجنة (وترى الملائكة حافين) محدقين (من حول العرش) أي حوله ومن مزيدة أو لابتداء الحفوف (يسبحون بحمد ربهم) أي ينزهونه تعالى عما لا يليق به ملتبسين بحمده والجملة حال ثانية أو مقيدة للاولى والمعنى ذاكرين له تعالى بوصفي جلاله واكرامه تلذذا به وفيه اشعار بأن أقصى درجات العليين وأعلى لذائذهم هو الاستغراق في شؤنه عز وجل (وقضى بينهم بالحق) أي بين الخلق بادخال بعضهم النار وبعضهم الجنة أو بين الملائكة باقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم (وقيل الحمد لله رب العالمين) أي على ماقضى بيننا بالحق وأنزل كلا منا منزلته التي هي حقه والقائلون هم المؤمنون ممن قضى بينهم أو الملائكة وطي ذكرهم لتعينهم وتعظيمهم * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله تعالى رجاءه يوم القيامة وأعطاه ثواب الخائفين وعن عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ كل ليلة بني اسرائيل والزمر

* (سورة المؤمن مكية وآيها خمس أوثمان وثمانون آية) ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (حم) بتفخيم الالف وتسكين الميم وقرئ بامالة الالف وباخراجها بين بين وبفتح الميم

صغير وكبير مستطر (ثالثها) هو جواب قولهم سحر مستمر أي ليس أمره بذاهب بل كل أمر من أموره مستقر ۞ ثم قال تعالى (ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر) إشارة إلى أن كل ما هو لطف بالعباد قد وجد فأخبرهم الرسول باقتراب الساعة وأقام الدليل على صدقه وإمكان قيام الساعة عقيب دعواه بانشقاق القمر الذي هو آية لأن من يكذب بها لا يصدق بشيء من الآيات فكذبوا بها واتبعوا الأباطيل الذاهبة وذكروا الأقاويل الكاذبة فذكرهم أنباء المهلكين بالآيتين تخويفا لهم وهذا هو الترتيب الحكمي ولهذا قال بعد الآيات حكمة بالغة أي هذه حكمة بالغة والأنباء هي الأخبار العظام ويدلك على صدقه أن في القرآن لم يرد النبأ والأنباء إلا لما له وقع قال وجئتك من سبإ بنبإ يقين لأنه كان خبرا عظيما وقال إن جاءكم فاسق بنبإ أي محاربة أو مسالمة وما يشبهه من الأمور العرفية وإنما يجب التثبت فيما يتعلق به حكم ويترتب عليه أمر ذو بال وكذلك قال تعالى تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك فكذلك الأنباء ههنا وقال تعالى عن موسى لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة حيث لم يكن يعلم أنه يظهر له شيء عظيم يصلح أن يقال له نبأ ولم يقصده والظاهر أن المراد أنباء المهلكين بسبب التكذيب وقال بعضهم المراد القرآن وتقديره جاءكم فيه الأنباء وقيل قوله جاءكم من الأنباء يتناول جميع ما ورد في القرآن من الزواجر والمواعظ وما ذكرنا أظهر لقوله فيه مزدجر وفي ما وجهان (أحدهما) أنها موصولة أي جاءكم الذي فيه مزدجر (ثانيهما) موصوفة تقديره جاءكم من الأنباء شيء موصوف بأن فيه مزدجر وهذا أظهر والمزدجر فيه وجهان (أحدهما) ازدجار (وثانيهما) موضع ازدجار كالمرتقى ولفظ المفعول بمعنى المصدر كثير لأن المصدر هو المفعول الحقيقي ۞ ثم قال تعالى (حكمة بالغة) وفيه وجوه (الأول) على قول من قال ولقد جاءهم من الأنباء المراد منه القرآن قال حكمة بالغة بدل كأنه قال ولقد جاءهم حكمة بالغة (ثانيها) أن يكون بدلا عن ما في قوله ما فيه مزدجر (الثاني) حكمة بالغة خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه حكمة بالغة والإشارة حينئذ تحتمل وجوها (أحدها) هذا الترتيب الذي في إرسال الرسول وإيضاح الدليل والإنذار بمن مضى من القرون وانقضى حكمة بالغة (ثانيها) إزالة ما فيه الأنباء حكمة بالغة (ثالثها) هذه الساعة المقتربة والآية الدالة عليها حكمة (الثالث) قرئ بالنصب فيكون حالا وذو الحال ما في قوله ما فيه مزدجر أي جاءكم ذلك حكمة فإن قيل إن كان ما موصولة تكون معرفة فيحسن كونه ذا الحال فأما إن كانت بمعنى جاءهم من الأنباء شيء فيه ازدجار يكون منكرا وتنكير ذي الحال قبيح نقول كونه موصوفا يحسن ذلك ۞ وقوله (فما تغني النذر) فيه وجهان (أحدهما) أن ما نافية ومعناه أن النذر لم يبعثوا ليغنوا ويلجئوا قومهم إلى الحق وإنما أرسلوا مبلغين وهو كقوله تعالى فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ويؤيد هذا قوله تعالى فتول عنهم أي ليس عليك ولا على الأنبياء الإغناء والإلجاء فإذا بلغت فقد أتيت بما عليك من الحكمة البالغة التي أمرت بها بقوله تعالى ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وتول إذا لم تقدر (ثانيهما) ما استفهامية ومعنى الآيات حينئذ أنك أتيت بما عليك من الدعوى وإظهار الآية عليها وكذبوا فأنذرتهم بما جرى على المكذبين فلم يفدهم فهذه حكمة بالغة وما الذي تغني النذر غير هذا فلم يبق عليك شيء آخر ۞ قوله تعالى (فتول عنهم) قد ذكرنا أن المفسرين يقولون إن قوله تول منسوخ وليس كذلك بل المراد منه لا تناظرهم بالكلام ۞ ثم قال تعالى (يوم يدع الداع إلى شيء نكر) قد ذكرنا أيضا أن من ينصح شخصا ولا يؤثر فيه النصح يعرض عنه ويقول مع غيره ما فيه نصح المعرض عنه ويكون فيه قصد إرشاده أيضا فقال بعد ما قال فتول عنهم يوم يدع الداع يخرجون من الأجداث للتخويف والعامل في يوم هو ما بعده وهو قوله يخرجون من الأجداث والداعي معرف كالمنادي في قوله يوم يناد المناد لأنه معلوم قد أخبر عنه فقيل إن مناديا ينادي وداعيا يدعو وفي الداعي وجوه (أحدها) أنه إسرافيل (وثانيها) أنه جبريل (وثالثها) أنه ملك موكل بذلك والتعريف حينئذ لا يقطع حد العلمية وإنما يكون ذلك كقولنا جاء رجل فقال الرجل وقوله تعالى إلى شيء نكر

لالتقاء الساكنين أو نصبها بإضمار اقرأ أو نحوه ومنع الصرف للتعريف والتأنيث أو للتعريف وكونها على زنة قابيل وهابيل وبقية الكلام فيه وفي قوله تعالى (تنزيل الكتاب) كالذي سلف في الم السجدة وقوله تعالى (من الله العزيز العليم) كما في مطلع سورة الزمر في الوجوه كلها ووجه التعرض لنعتي العزة والعلم ما ذكر هنالك (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول) إما صفات أخر لتحقيق ما فيها من الترغيب والترهيب والحث على ما هو المقصود والإضافة فيها حقيقية على أنه لم يرد بها زمان مخصوص وأريد بشديد العقاب مشدده أو الشديد عقابه بحذف اللام للازدواج وأمن الالتباس أو إبدال وجعله وحده بدلا كما فعله الزجاج مشوش للنظم وتوسيط الواو بين الأولين لإفادة الجمع بين محو الذنوب وقبول التوبة أو تغاير الوصفين إذ ربما يتوهم الاتحاد أو تغاير موقع الفعلين لأن الغفر هو الستر مع بقاء الذنب وذلك لمن لم يتب فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والتوب مصدر كالتوبة وقيل هو جمعها والطول الفضل بترك العقاب المستحق وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفات الرحمة دليل سبقها ورجحانها (لا إله إلا هو) فيجب الإقبال الكلي على طاعته في أوامره ونواهيه (إليه المصير) فحسب لا إلى غيره لا استقلالا ولا اشتراكا فيجازي كلا من المطيع والعاصي (ما يجادل في آيات الله) أي بالطعن فيها واستعمال المقدمات الباطلة لإدحاض الحق كقوله تعالى وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق (إلا الذين كفروا) بها وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلا عن الطعن فيها وأما الجدال فيها لحل مشكلاتها وكشف معضلاتها واستنباط حقائقها الكلية وتوضيح مناهج الحق في مضايق الأفهام ومزالق الأقدام وإبطال شبه أهل الزيغ والضلال فمن أعظم الطاعات ولذلك قال عليه الصلاة والسلام إن جدالا في القرآن كفر بالتنكير للفرق بين جدال وجدال والفاء في قوله تعالى

أي منكر وهو يحتمل وجوها (أحدها) الى شئ نكر في يومنا هذا لانهم أنكروه أي يوم يدعو الداعي الى الشئ الذي أنكروه يخرجون (ثانيها) نكر أي منكر يقول ذلك القائل كان ينبغي أن لا يكون أي من شأنه أن لا يوجد يقال فلان ينهى عن المنكر وعلى هذا فهو عندهم كان ينبغي أن لا يقع لانه يرديهم في الهاوية فان قيل ما ذلك الشئ النكر نقول الحساب أو الجمع له أو النشر للجمع وهذا أقرب فان قيل النشر لا يكون منكرا فانه احياء ولان الكافر من أين يعرف وقت النشر وما يجري عليه لينكره نقول يعرف ويعلم بدليل قوله تعالى عنهم ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ۞ ثم قال تعالى ﴿خاشعا أبصارهم يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر﴾ وفيه قراآت خاشعا وخاشعة وخشعا فمن قرأ خاشعا على قول القائل يخشع أبصارهم على ترك التأنيث لتقدم الفعل ومن قرأ خاشعة على قوله تخشع أبصارهم ومن قرأ خشعا فله وجوه (أحدها) على قول من يقول يخشعن أبصارهم على طريقة من يقول أكلوني البراغيث (ثانيها) في خشعا ضمير أبصارهم بدل عنه تقديره يخشعون أبصارهم على بدل الاشتمال كقول القائل أعجبوني حسنهم (ثالثها) فيه فعل مضمر يفسره يخرجون تقديره يخرجون خشعا أبصارهم على بدل الاشتمال والصحيح خاشعا روى ان مجاهدا رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه فقال له يانبي الله خشعا أبصارهم أو خاشعا أبصارهم فقال عليه السلام خاشعا ولهذه القراءة وجه آخر أظهر مما قالوه وهو أن يكون خشعا منصوبا على أنه مفعول بقوله يوم يدع الداع خشعا أي يدعو هؤلاء فان قيل هذا فاسد من وجوه (أحدها) ان التخصيص لا فائدة فيه لان الداعي يدعو كل أحد (ثانيها) قوله يخرجون من الاجداث بعد الدعاء فيكونون خشعا قبل الخروج وانه باطل (ثالثها) قراءة خاشعا تبطل هذا نقول اما الجواب عن الاول فهو أن يقال قوله الى شئ نكر يدفع ذلك لان كل أحد لا يدعى الى شئ نكر وعن الثاني المراد من شئ نكر الحساب العسر يعني يوم يدعو الداعي الى الحساب العسر خشعا ولا يكون العامل في يوم يدعو يخرجون بل اذكروا أو فما تغني النذر كما قال تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين ويكون يخرجون ابتداء كلام وعن الثالث أنه لا منافاة بين القراءتين وخاشعا نصب على الحال أو على أنه مفعول يدعو كأنه يقول يدعو الداعي قوما خاشعا أبصارهم والخشوع السكون قال تعالى وخشعت الاصوات وخشوع الابصار سكونها على حال لا تنقلب عنه ولا يسرة كما في قوله تعالى لا يرتد اليهم طرفهم وقوله تعالى يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر مثلهم بالجراد المنتشر في الكثرة والتموج ويحتمل أن يقال المنتشر مطاوع نشره اذا أحياه فكأنهم جراد يتحرك من الارض ويدب اشارة الى كيفية خروجهم من الاجداث وضعفهم ۞ ثم قال تعالى ﴿مهطعين الى الداع﴾ أي مسرعين اليه انقيادا ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ يحتمل أن يكون العامل الناصب ليوم في قوله تعالى يوم يدع الداع أي يوم يدعو الداعي يقول الكافرون هذا يوم عسر وفيه فائدتان (احداهما) تنبيه المؤمن ان ذلك اليوم على الكافر عسير فحسب كما قال تعالى فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير يعني له عسر لا يسر معه (ثانيتهما) هي ان الامرين متفقان مشتركان بين المؤمن والكافر فان الخروج من الاجداث كأنهم جراد والاهطاع الى الداعي يكون للمؤمن فانه يخاف ولا يأمن العذاب الا بايمان الله تعالى اياه فيؤتيه الله الثواب فيبقى الكافر فيقول هذا يوم عسر ۞ ثم انه تعالى أعاد بعض الانباء فقال ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر﴾ فيها تهوين وتسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم فان حاله كحال من تقدمه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الحاق ضمير المؤنث بالفعل قبل ذكر الفاعل جائز بالاتفاق وحسن والحاق ضمير الجمع به قبيح عند الاكثرين فلا يجوزون كذبوا قوم نوح ويجوزون كذبت فما الفرق نقول التأنيث قبل الجمع لان الانوثة والذكورة للفاعل أمر لا يتبدل ولم تحصل الانوثة للفاعل بسبب فعلها الذي هو فاعله فليس اذا قلنا ضربت هذه كانت هذه أنثى لاجل الضرب بخلاف الجمع لان الجمع للفاعلين بسبب فعلهم الذي هم فاعلوه فانا اذا قلنا

(فلا يغررك تقلبهم في البلاد) لترتيب النهي أو وجوب الانتهاء على ما قبلها من التسجيل عليهم بالكفر الذي لا شئ أمقت منه عند الله تعالى ولا أجلب لخسران الدنيا والآخرة فان من تحقق ذلك لا يكاد يغتر بما لهم من حظوظ الدنيا وزخارفها فانهم مأخوذون عما قليل أخذ من قبلهم من الامم حسبما ينطق به قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم) أي الذين تحزبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوح مثل عاد وثمود وأضرابهم (وهمت كل أمة) من تلك الامم العاتية (برسولهم) وقرئ برسولها (ليأخذوه) ليتمكنوا منه فيصيبوا به ما أرادوا من تعذيب أو قتل من الاخذ بمعنى الاسر (وجادلوا بالباطل) الذي لا أصل ولا حقيقة له أصلا (ليدحضوا به الحق) الذي لا محيد عنه كما فعل هؤلاء (فأخذتهم) بسبب ذلك أخذ عزيز مقتدر (فكيف كان عقاب) الذي عاقبتهم به فان آثار دمارهم عبرة للناظرين ولآخذن هؤلاء أيضا لاتحادهم في الطريقة واشتراكهم في الجريرة كما ينبئ عنه قوله تعالى (وكذلك حقت كلمة ربك) أي كما وجب وثبت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الامم المكذبة المتحزبة على رسلهم المجادلة بالباطل لادحاض الحق به وجب أيضا (على الذين كفروا) أي كفروا بك وتحزبوا عليك وهموا بما لم ينالوا كما ينبئ عنه اضافة اسم الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام فان ذلك للاشعار بأن وجوب كلمة العذاب عليهم من أحكام تربيته التي من جملتها نصرته عليه الصلاة والسلام وتعذيب أعدائه وذلك انما يتحقق بكون الموصول عبارة عن كفار قومه لا عن الامم المهلكة وقوله تعالى (انهم أصحاب النار) في حيز النصب بحذف لام التعليل أي لانهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها التي هي عذاب النار وملازموها أبدا لكونهم كفارا معاندين متحزبين على الرسول عليه الصلاة والسلام كدأب من قبلهم من الامم المهلكة فهم لسائر فنون العقوبات أشد استحقاقا وأحق استيجابا وقيل هو في محل

جمع ضربوا وهم ضاربون ليس مجرد اجتماعهم فى الوجود يصح قولنا ضربوا وهم ضاربون لانهم ان اجتمعوا فى مكان فهم جمع ولكن ان لم يضرب الكل لا يصح قولنا ضربوا فصير الجمع من الفعل فاعلون جمعهم بسبب الاجتماع فى الفعل والفاعلية وليس بسبب الفعل فلم يجز أن يقال ضربوا جمع لان الجمع لم يفهم الا بسبب أنهم ضربوا جميعهم فينبغى أن يعلم أولا اجتماعهم فى الفعل فيقول الضاربون ضربوا وأما ضربت هند فصحيح لانه لا يصح أن يقال التأنيث لم يفهم الا بسبب أنها ضربت بل هى كانت أنثى فوجد منها ضرب فصارت ضاربة وليس الجمع كانوا جمعا فضربوا فصاروا ضاربين بل صاروا ضاربين لاجتماعهم فى الفعل ولهذا وردا الجمع على اللفظ بعد ورود التأنيث عليه فقيل ضاربة وضاربات ولم يجمع اللفظ أولا لانثى ولا لذكر ولهذا لم يحسن أن يقال ضرب هند وحسن بالاجماع ضرب قوم والمسلمون (المسئلة الثانية) لما قال تعالى كذبت ما الفائدة فى قوله تعالى فكذبوا عبدنا نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ان قوله كذبت قبلهم قوم نوح أى بآياتنا وآية الانشقاق فكذبوا (الثانى) كذبت قوم نوح الرسل وقالوا لم يبعث الله رسولا وكذبوهم فى التوحيد فكذبوا عبدنا كما كذبوا غيره وذلك لان قوم نوح كانوا مشركين يعبدون الاصنام ومن يعبد الاصنام يكذب كل رسول وينكر الرسالة لانه يقول لا تعلق لله بالعالم السفلى وانما أمره الى الكواكب فكان مذهبهم التكذيب فكذبوا (الثالث) قوله تعالى فكذبوا عبدنا للتصديق والرد عليهم تقديره كذبت قوم نوح وكان تكذيبهم عبدنا أى لم يكن تكذيبا بحق كما يقول القائل كذبنى فكذب صادقا (المسئلة الثالثة) كثيرا ما يخص الله الصالحين بالاضافة الى نفسه كما فى قوله تعالى ان عبادى يا عبادى واذكر عبدنا انه من عبادنا وكل واحد عبده فما السر فيه نقول الجواب عنه من وجوه (الاول) ما قيل فى المشهورات الاضافة اليه تشريف منه فمن خصصه بكونه عبده شرف وهذا كقوله تعالى أن طهرا بيتى وقوله تعالى ناقة الله (الثانى) المراد من عبدنا أى الذى عبدنا فان الكل عباد لانهم مخلوقون للعبادة لقوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ولكن منهم من عبد فحقق المقصود فصار عبده ويؤيد هذا قوله تعالى كونوا عبادا لى أى حققوا المقصود (الثالث) الاضافة تفيد الحصر فمعنى عبدنا هو الذى لم يقل بمعبود سوانا ومن اتبع هواه فقد اتخذ الها فالعبد المضاف هو الذى بكليته فى كل وقت لله فأكله وشربه وجميع أموره لوجه الله تعالى وقليل ما هم (المسئلة الرابعة) ما الفائدة فى اختيار لفظ العبد مع أنه لو قال رسولنا لكان أدل على قبح فعلهم نقول قوله عبدنا أدل على صدقه وقبح تكذيبهم من قوله رسولنا لو قاله لان العبد أقل تحريفا لكلام السيد من الرسول فيكون كقوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين (المسئلة الخامسة) قوله تعالى وقالوا مجنون اشارة الى انه أتى بالآيات الدالة على صدقه حيث رأوا ما عجزوا عنه وقالوا هو مصاب الجن أو هو لزيادة بيان قبح صنعهم حيث لم يقنعوا بقولهم انه كاذب بل قالوا مجنون أى يقول ما لا يقبله عاقل والكاذب العاقل يقول ما يظن به أنه صادق فقالوا مجنون أى يقول ما لم يقل به عاقل فبين مبالغتهم فى التكذيب (المسئلة السادسة) وازدجر اخبار من الله تعالى أو حكاية قولهم نقول فيه خلاف منهم من قال اخبار من الله تعالى وهو عطف على كذبوا وقالوا أى هم كذبوا وهو ازدجر أى أوذى وازدجر وهو كقوله تعالى كذبوا وأوذوا وعلى هذا ان قيل لو قال كذبوا عبدنا وزجروه كان الكلام أكثر مناسبة نقول لا بل هذا أبلغ لان المقصود تقوية قلب النبى صلى الله عليه وسلم بذكر من تقدمه فقال وازدجر أى فعلوا ما يوجب الانزجار من دعائهم حتى ترك دعوتهم وعدل عن الدعاء الى الايمان الى الدعاء عليهم ولو قال زجروه ما كان يفيد أنه تأذى منهم لان فى السعة يقال آذونى ولكن ما تأذيت وأما أوذيت فهو كاللازم لا يقال الا عند حصول الفعل لا قبله ومنهم من قال وازدجر حكاية قولهم أى هم قالوا ازدجر تقديره قالوا مجنون مزدجر ومعناه ازدجره الجن أو كانهم قالوا جن وازدجر والاول أصح ويترتب عليه قوله تعالى ﴿فدعا ربه انى مغلوب فانتصر﴾

الرفع على أنه بدل من كلمة ربك والمعنى مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة المهلكة كونهم من أصحاب النار أى كما وجب اهلاكهم فى الدنيا بعذاب الاستئصال كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار فى الآخرة ومحل الكاف على التقديرين النصب على انه نعت لمصدر محذوف (الذين يحملون العرش ومن حوله) وهم أعلى طبقات الملائكة عليهم السلام وأولهم وجودا وحملهم اياه وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له وكناية عن زلفاهم من ذى العرش جل جلاله ومكانتهم عنده ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره (يسبحون بحمد ربهم) والجملة استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيان أن اشراف الملائكة عليهم السلام مثابرون على ولاية من معه من المؤمنين ونصرتهم واستدعاء ما يسعدهم فى الدارين أى ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بشأنه الجليل ملتبسين بحمده على نعمائه التى لا تتناهى (ويؤمنون به) ايمانا حقيقيا بحالهم والتصريح به مع الغنى عن ذكره رأسا لاظهار فضيلة الايمان وابراز شرف أهله والاشعار بعلة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى (ويستغفرون للذين آمنوا) فان المشاركة فى الايمان أقوى المناسبات وأتمها وأدعى الدواعى الى النصح والشفقة وفى نظم استغفارهم لهم فى سلك وظائفهم المفروضة عليهم من تسبيحهم وتحميدهم وايمانهم ايذان بكمال اعتنائهم به واشعار بوقوعه عند الله تعالى فى موقع القبول روى أن حملة العرش أرجلهم فى الارض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وعن النبى صلى الله عليه وسلم لا تتفكروا فى عظم ربكم ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة فان خلقا من الملائكة يقال له اسرافيل زاوية من زوايا العرش زنبا على كاهله وقدماه فى الارض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وانه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع وفى الحديث ان الله أمر

زتباق غاية الحسن لانهم لما زجروه وازجروه عن دعائهم دعا ربه أنى مغلوب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ انى بكسر الهمزة على انه دعاء فكأنه قال انى مغلوب وبالفتح على معنى بأنى (المسئلة الثانية) ما معنى مغلوب نقول فيه وجوه (الاول) غلبنى الكفار فانتصر لى منهم (الثانى) غلبتنى نفسى وحملتنى على الدعاء عليهم فانتصر لى من نفسى وهذا الوجه نقله ابن عطية وهو ضعيف (الثالث) وجه مركب من الوجهين وهو أحسن منهما وهو أن يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يدعو على قومه ما دام فى نفسه احتمال وحلم واحتمال نفسه يمتد ما دام الايمان منهم محتملا ثم ان يأسه يحصل والاحتمال يفر بعد اليأس بمدة بدليل قوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم لعلك باخع نفسك فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وقال الله تعالى ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون فقال نوح يا الهى ان نفسى غلبتنى وقد أمرتنى بالدعاء عليهم فأهلكهم فيكون معناه مغلوب بحكم البشرية أى غلبت وعيل صبرى فانتصر لى منهم لا من نفسى (المسئلة الثالثة) فانتصر معناه انتصر لى أو لنفسك فانهم كفروا بك وفيه وجوه (أحدها) فانتصر لى مناسب لقوله مغلوب (ثانيها) فانتصر لك ولدينك فانى غلبت وعجزت عن الانتصار لدينك (ثالثها) فانتصر للحق ولا يكون فيه ذكره ولا ذكر به وهذا يقوله قوى النفس يكون الحق معه يقول القائل اللهم أهلك الكاذب منا وانصر الحق منا ﴿ثم قال تعالى﴾ (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) عقيب دعائه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد من الفتح والابواب والسماء حقائقها أو هو مجاز نقول فيه قولان (أحدهما) حقائقها وللسماء أبواب تفتح وتغلق ولا استبعاد فيه (وثانيهما) وهو على طريق الاستعارة فان الظاهر ان الماء كان من السحاب وعلى هذا فهو كما يقول القائل فى المطر الوابل جرت ميازيب السماء وفتح أفواه القرب أى كأنه ذلك فالمطر فى الطوفان كان بحيث يقول القائل فتحت أبواب السماء ولا شك ان المطر من فوق كان فى غاية الهطلان (المسئلة الثانية) قوله تعالى ففتحنا بيان أن الله انتصر منهم وانتقم بماء لا بجند أنزله كما قال تعالى وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ان كانت الا صيحة واحدة بيانا لكمال القدرة ومن العجيب أنهم كانوا يطلبون المطر سنين فأهلكهم بمطلوبهم (المسئلة الثالثة) الباء فى قوله بماء منهمر ما وجهه وكيف موقعه نقول فيه وجهان (أحدهما) كما هى فى قول القائل فتحت الباب بالمفتاح وتقديره هو أن يجعل كأن الماء جاء وفتح الباب وعلى هذا تفسير قول من يقول يفتح الله لك بخير أى يقدر خيرا يأتى ويفتح الباب وعلى هذا ففيه لطيفة وهى من بدائع المعانى وهى أن يجعل المقصود مقدما فى الوجود ويقول كان مقصودك جاء الى باب مغلق ففتحه وجاءك وكذلك قول القائل لعل الله يفتح برزق أى يقدر رزقا يأتى الى الباب الذى كالمغلق فيدفعه ويفتحه فيكون الله قد فتحه بالرزق (ثانيهما) فتحنا أبواب السماء مقرونة بماء منهمر والانهمار الانسكاب والانصباب صبا شديدا والتحقيق فيه ان المطر يخرج من السماء التى هى السحاب خروج مترشح من ظرفه وفى ذلك اليوم كان يخرج خروج مرسل خارج من باب ﴿ثم قال تعالى﴾ (وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر) وفيه من البلاغة ما ليس فى قول القائل وفجرنا عيون الارض وهذا بيان التمييز فى كثير من المواضع اذا قلت ضاق زيد ذرعا أثبت ما لا يثبته قولك ضاق ذرع زيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال وفجرنا الارض عيونا ولم يقل ففتحنا السماء أبوابا لان السماء أعظم من الارض وهى للمبالغة ولهذا قال أبواب السماء ولم يقل أنابيب ولا منافذ ولا مجارى أو غيرها واما قوله تعالى وفجرنا الارض عيونا فهو أبلغ من قوله وفجرنا عيون الارض لانه يكون حقيقة لا مبالغة فيه ويكفى فى صحة ذلك القول أن يجعل فى الارض عيونا ثلاثة ولا يصلح مع هذا فى السماء الا قول القائل فأنزلنا من السماء ماء أو مياها ومثل هذا الذى ذكرناه فى المعنى لا فى المعجز والحكمة قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض حيث لا مبالغة فيه وكلامه لا يماثل كلام الله ولا يقرب منه غير أنى ذكرته مثلا ولله المثل الاعلى (المسئلة الثانية) العيون

مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا أيمانهم على الشمائل ما منهم أحد الا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر (ربنا) على ارادة القول أى يقولون ربنا على انه اما بيان لاستغفارهم أو حال (وسعت كل شئ رحمة وعلما) أى وسعت رحمتك وعلمك فأزيل عن أصله للاغراق فى وصفه تعالى بالرحمة والعلم والمبالغة فى عمومهما وتقديم الرحمة لانها المقصودة بالذات ههنا والفاء فى قوله تعالى (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) أى للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيل الحق لترتيب الدعاء على ما قبلها من سعة الرحمة والعلم (وقهم عذاب الجحيم) واحفظهم عنه وهو تصريح بعد اشعار للتأكيد (ربنا وأدخلهم) عطف على قهم وتوسيط النداء بينهما للمبالغة فى الجؤار (جنات عدن التى وعدتهم) أى وعدتهم اياها وقرئ جنة عدن (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى صلاحا مصححا لدخول الجنة فى الجملة وان كان دون صلاح أصولهم وهو عطف على الضمير الاول أى وأدخلها معهم هؤلاء ليتم سرورهم ويتضاعف ابتهاجهم أو على الثانى لكن لا بناء على الوعد العام للكل كما قيل اذ لا يبقى حينئذ للعطف وجه بل بناء على الوعد الخاص بهم بقوله تعالى ألحقنا بهم ذريتهم بأن يكونوا أعلى درجة من ذريتهم قال سعيد بن جبير يدخل المؤمن الجنة فيقول أين أبى أين ولدى أين زوجى فيقال انهم لم يعملوا مثل عملك فيقول انى كنت أعمل لى ولهم فيقال أدخلوهم الجنة وسبق الوعد بالادخال والالحاق لا يستدعى حصول الموعود بلا توسط شفاعة واستغفار وعليه

في عيون الماء حقيقة أو مجاز نقول المشهور أن لفظ العين مشترك والظاهر أنها حقيقة في العين التي هي آلة الابصار ومجاز في غيرها أما في عيون الماء فلانها تشبه العين الباصرة التي يخرج منها الدمع أولا ن الماء الذي في العين كالنور الذي في العين غير أنه مجاز مشهور وصار غالبا حتى لا يفتقر الى القرينة عند الاستعمال الا للتمييز بين العينين فكما لا يحمل اللفظ على العين الباصرة الا بقرينة كذلك لا يحمل على الفوارة الا بقرينة مثل شربت من العين واغتسلت منها وغير ذلك من الامور التي توجد في الينبوع ويقال عانه يعينه اذا أصابه بالعين وعينه تعيينا حقيقته جعله بحيث تقع عليه العين وعاينه معاينة وعيانا وعين أي صار بحيث تقع عليه العين (المسئلة الثالثة) قوله تعالى فالتقى الماء قرئ فالتقى الماآن أي النوعان منه ماء السماء وماء الارض فتثنى أسماء الاجناس على تأويل صنف وتجمع أيضا يقال عندي تمران وتمور وأتمار على تأويل نوعين وأنواع منه والصحيح المشهور فالتقى الماء وله معنى لطيف وذلك انه تعالى لما قال ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ذكر الماء وذكر الانهمار وهو النزول بقوة فلما قال وفجرنا الارض عيونا كان من الحسن البديع أن يقول ما يفيد أن الماء نبع منها بقوة فقال فالتقى الماء أي من العين فار الماء بقوة حتى ارتفع والتقى بماء السماء ولو جرى جريا ضعيفا لما كان هو يلتقي مع ماء السماء بل كان ماء السماء يرد عليه و يتصل به ولعل المراد من قوله وفار التنور مثل هذا وقوله تعالى على أمر قد قدر فيه وجوه (الاول) على حال قد قدرها الله تعالى كما شاء (الثاني) على حال قدر احد الماءين بقدر الآخر (الثالث) على سائر المقادير وذلك لان الناس اختلفوا فمنهم من قال ماء السماء كان أكثر ومنهم من قال ماء الارض ومنهم من قال كانا متساويين فقال على أي مقدار كان والاول اشارة الى عظمة أمر الطوفان فان تنكير الامر يفيد ذلك يقول القائل جرى على فلان شئ لا يمكن أن يقال اشارة الى عظمته وفيه احتمال آخر وهو أن يقال التقى الماء أي اجتمع على أمر هلاكهم وهو كان مقدورا مقدرا وفيه رد على المنجمين الذين يقولون ان الطوفان كان بسبب اجتماع الكواكب السبعة حول برج مائي والغرق لم يكن مقصودا بالذات وانما ذلك أمر لزم من الطوفان الواجب وقوعه فقال لم يكن ذلك الا لامر قد قدر ويدل عليه أن الله تعالى أوحى الى نوح بانهم من المغرقين ۞ وقوله تعالى (وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا) أي سفينة حذف الموصوف وأقام الصفة مقامه اشارة الى انها كانت من ألواح مركبة موثقة بدسر وكان انفكاكها في غاية السهولة ولم يقع فهو بفضل الله والدسر المسامير وقوله تعالى تجري أي سفينة ذات ألواح جارية وقوله تعالى بأعيننا أي بمرأى منا أو بحفظنا لان العين آلة ذلك فتستعمل فيه ۞ وقوله تعالى (جزاء لمن كان كفر) يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون نصبه بقوله حملناه أي حملناه جزاء أي ليكون ذلك الحمل جزاء الصبر على كفرانهم (وثانيها) أن يكون بقوله تجري بأعيننا لان فيه معنى حفظنا أي ما تركناه عن أعيننا وعوننا جزاء له (ثالثها) أن يكون بفعل حاصل من مجموع ما ذكره كأنه قال فتحنا أبواب السماء وفجرنا الارض عيونا وحملناه وكل ذلك فعلناه جزاء له وانما ذكرنا هذا لان الجزاء ما كان يحصل الا بحفظه وانجائه لهم فوجب أن يكون جزاء منصوبا بكونه مفعولا له بهذه الافعال ولنذكر ما فيه من اللطائف في مسائل (المسئلة الاولى) قال في السماء ففتحنا أبواب السماء لان السماء ذات الرجع وما لها فطور ولم يقل وشققنا السماء وقال في الارض وفجرنا الارض لانها ذات الصدع (الثانية) لما جعل المطر كالماء الخارج من أبواب مفتوحة واسعة ولم يقل في الارض وأجرينا من الارض بحارا وأنهارا بل قال عيونا والخارج من العين دون الخارج من الباب ذكر في الارض انه تعالى فجرها كلها فقال وفجرنا الارض لتقابل كثرة عيون الارض سعة أبواب السماء فيحصل بالكثرة ههنا ما حصل بالسعة (الثالثة) ذكر عند الغضب سبب الاهلاك وهو فتح أبواب السماء وفجر

مبني قول من قال فائدة الاستغفار زيادة الكرامة والثواب والاول هو الاولى لان الدعاء بالادخال فيه صريح وفي الثاني ضمني وقرئ صلح بالضم وذريتهم بالافراد (انك أنت العزيز) أي الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور (الحكيم) أي الذي لا يفعل الا ما تقتضيه الحكمة الباهرة من الامور التي من جملتها انجاز الوعد فالجملة تعليل لما قبلها (وقهم السيئات) أي العقوبات لان جزاء السيئة سيئة مثلها أو جزاء السيئات على حذف المضاف وهو تعميم بعد تخصيص أو مخصوص بالاتباع أو المعاصي في الدنيا فمعنى قوله تعالى (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) ومن تقه المعاصي في الدنيا فقد رحمته في الآخرة كأنهم طلبوا لهم السبب بعدما سألوا المسبب (وذلك) اشارة الى الرحمة المفهومة من رحمته أو اليها والى الوقاية وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الاشعار ببعد درجة المشار اليه (هو الفوز العظيم) الذي لا مطمع وراءه لطامع (ان الذين كفروا) شروع في بيان أحوال الكفرة بعد دخولهم النار بعدما بين فيما سبق أنهم أصحاب النار (ينادون) أي من مكان بعيد وهم في النار وقد مقتوا أنفسهم الامارة بالسوء التي وقعوا فيما وقعوا باتباع هواها أو مقت بعضهم بعضا من الاحباب كقوله تعالى يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا أي أبغضوها أشد البغض وأنكروها أبلغ الانكار وأظهروا ذلك على رؤس الاشهاد فيقال لهم عند ذلك (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم) أي لمقت الله أنفسكم الامارة بالسوء أو مقته اياكم في الدنيا (اذ تدعون) من جهة الانبياء (الى الايمان فتأبون قبوله (فتكفرون) اتباعا لانفسكم الامارة ومسارعة الى هواها أو اقتداء بأخلائكم المضلين واستحبابا لآرائهم أكبر من مقتكم أنفسكم الامارة أو من مقت بعضكم بعضا اليوم فاذا ظرف للمقت الاول وان توسط بينهما الخبر لما في الظروف من الاتساع وقيل لمصدر آخر مقدر أي مقته اياكم اذ تدعون وقيل مفعول لاذكروا

الارض

الارض بالعيون وأشار الى الاهلاك بقوله تعالى على أمر قد قدر أى أمر الاهلاك ولم يصرح وعند الرحمة ذكر الانجاء صريحا بقوله تعالى وحملناه وأشار الى طريق النجاة بقوله ذات ألواح وكذلك قال فى موضع آخر فأخذهم الطوفان ولم يقل فاهلكوا وقال فانجيناه وأصحاب السفينة فصرح بالانجاء ولم يصرح بالاهلاك اشارة الى سعة الرحمة وغاية الكرم أى خلقنا سبب الهلاك ولو رجعوا ما ضرهم ذلك السبب كما قال صلى الله عليه وسلم يا بنى اركب معنا وعند الانجاء أنجاه وجعل للنجاة طريقا وهو اتخاذ السفينة ولو انكسرت لما ضره بل كان ينجيه فالمقصود عند الانجاء هو النجاة فذكر المحل والمقصود عند الاهلاك اظهار البأس فذكر السبب صريحا (الرابعة) قوله تعالى تجرى بأعيننا ابلغ من حفظنا يقول القائل اجعل هذا نصب عينك ولا يقول احفظه طلبا للمبالغة (الخامسة) بأعيننا يحتمل ان يكون المراد بحفظنا ولهذا يقال الرؤية لسان العين (السادسة) قال كان ذلك جزاء على ما كفروا به لا على ايمانه وشكره فما جوزى به كان جزاء صبره على كفرهم وأما جزاء شكره لنا فباق وقرئ جزاء بكسر الجيم أى مجازاة كقتال ومقاتلة وقرئ لمن كان كفر بفتح الكاف وأما كفر ففيه وجهان (أحدهما) أن يكون كفر مثل شكر يعدى بالحرف وبغير حرف يقال شكرته وشكرت له قال تعالى واشكروا لى ولا تكفرون وقال تعالى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله (ثانيهما) أن يكون من الكفر لا من الكفران أى جزاء لمن ستر أمره وأنكر شأنه ويحتمل أن يقال كفر به وترك لظهور المراد ۞ ثم قال تعالى (ولقد تركناها آية) وفى العائد اليه الضمير وجهان (أحدهما) عائد الى مذكور وهو السفينة التى فيها ألواح وعلى هذا ففيه وجهان (أحدهما) ترك الله عينها مدة حتى رؤيت وعلمت وكانت على الجودى بالجزيرة وقيل بارض الهند (وثانيهما) ترك مثلها فى الناس يذكر (وثانى الوجهين الاولين) أنه عائد الى معلوم أى تركنا السفينة آية والاول أظهر وعلى هذا الوجه يحتمل ان يقال تركناها أى جعلناها آية لانها بعد الفراغ منها صارت متروكة ومجعولة يقول القائل تركت فلانا مثلة أى جعلته لما بينا انه من فرغ من أمر تركه وجعله فذكر أحد الفعلين بدلا عن الآخر ۞ وقوله تعالى (فهل من مدكر) اشارة الى ان الامر من جانب الرسل قد تم ولم يبق الا جانب المرسل اليهم بأن كانوا منذرين متفكرين يهتدون بفضل الله فهل من مدكر مهتد وهذا الكلام يصلح حثا ويصلح تخويفا وزجرا وفيه مسائل (الاولى) قال ههنا ولقد تركناها وقال فى العنكبوت وجعلناها آية قلناهما وان كانا فى المعنى واحدا على ما تقدم بيانه لكن لفظ الترك يدل على الجعل والفراغ بالايام فكأنها ههنا مذكورة بالتفصيل حيث بين الامطار من السماء وتفجير الارض وذكر السفينة بقوله ذات ألواح ودسر وذكر جريها فقال تركناها اشارة الى تمام الفعل المقدور وقال هناك وجعلناها اشارة الى بعض ذلك فان قيل ان كان الامر كذلك فكيف قال ههنا وحملناه ولم يقل وأصحابه وقال هناك وأنجيناه وأصحاب السفينة نقول النجاة ههنا مذكورة على وجه أبلغ مما ذكره هناك لانه قال تجرى بأعيننا أى حفظنا وحفظ السفينة حفظ لاصحابه وحفظ لاموالهم ودوابهم والحيوانات التى معهم فقوله وأنجيناه وأصحاب السفينة لا يلزم منه انجاء الاموال الا ببيان آخر والحكاية فى سورة هود أشد تفصيلا وأتم فلهذا قال قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين يعنى المحمول ثم قال تعالى واستوت على الجودى تصريحا بخلاص السفينة واشارة الى خلاص كل من فيها وقوله آية منصوبة على انها مفعول ثان للترك لانه بمعنى الجعل على ما تقدم بيانه وهو الظاهر ويحتمل أن يقال حال فانك تقول تركتها وهى آية وهى ان لم تكن على وزن الفاعل والمفعول فهى فى معناه كانه قال تركناها دالا ويحتمل ان يقال نصبها على التمييز لانها بعض وجوه الترك كقوله ضربته سوطا (المسئلة الثانية) مدكر مفتعل من ذكر يذكر وأصله مذتكر وكان مخرج الدال قريبا من مخرج التاء والحروف المتقاربة المخرج يصعب النطق بها على التوالى ولهذا اذا نظرت الى الدال مع التاء عند النطق تقرب الدال من ان تصير تاء والتاء تقرب من

والاول هو الوجه وقيل كلام المتقين فى الآخرة واذ تدعون تعليل لما بين الظرف والسبب من علاقة اللزوم والمعنى لمقت الله اياكم الآن أكبر من مقتكم أنفسكم لما كنتم تدعون الى الايمان فتكفرون وتخصيص هذا الوجه بصورة كون المراد بأنفسهم أضرابهم مما لا داعى اليه (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) صفتان لمصدرى الفعلين المذكورين أى اماتتين واحياءتين أو موتتين وحياتين على أنهما مصدران لهما أيضا بحذف الزوائد أو لفعلين يدل عليهما المذكوران فان الاماتة والاحياء ينبئان عن الموت والحياة حتما كأنه قيل أمتنا فمتنا موتتين اثنتين واحييتنا فحيينا حياتين اثنتين على طريقة قول من قال

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع
من المال الا مسحت أو مجلف

أى لم تدع فلم يبق الا مسحت الخ قيل أرادوا بالاماتة الاولى خلقهم أمواتا وبالثانية اماتتهم عند انقضاء آجالهم على أن الاماتة جعل الشئ عادم الحياة أعم من أن يكون بانشائه كذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أو بجعله كذلك بعد الحياة وبالاحياءين الاحياء الاول واحياء البعث وقيل أرادوا بالاماتة الاولى ما بعد حياة الدنيا وبالثانية ما بعد حياة القبر وبالاحياءين ما فى القبر وما عند البعث وهو الانسب بحالهم وأما حديث لزوم الزيادة على النص ضرورة تحقق حياة الدنيا فمدفوع لكن لا بما قيل من عدم اعتدادهم بها لزوالها وانقضائها وانقطاع آثارها وأحكامها بل بأن مقصودهم احداث الاعتراف بما كانوا ينكرونه فى الدنيا كما ينطق به قولهم (فاعترفنا بذنوبنا) والتزام العمل بموجب ذلك الاعتراف ليتوسلوا بذلك الى ما علقوا به أطماعهم الفارغة من الرجع الى الدنيا كما قد صرحوا به حيث قالوا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون وهو الذى أرادوه بقولهم (فهل الى خروج من سبيل) مع نوع استبعاد له واستشعار يأس منه لا أنهم قالوه بطريق القنوط البحت كما قيل ولا ريب فى أن الذى كانوا ينكرونه ويفرعون عليه فنون الكفر والمعاصى ليس الا الاحياء بعد

أن تصير دالا فخل التاء دالا ثم أدغمت الدال فيها ومنهم من قرأ على الأصل مذتكر ومنهم من قلب التاء دالا وقرأ مذدكر ومن اللغويين من يقول في مدكر مذكر فيقلب التاء ولا يدغم ولكل وجه والمدكر المعتبر المتفكر وفي قوله مدكر اما اشارة الى ما في قوله ألست بربكم قالوا بلى أي هل من يتذكر تلك الحالة واما الى وضوح الامر كأنه حصل للكل آيات الله ونسوها فهل من مدكر يتذكر شيأ منها ۞ ثم قال تعالى ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ وفيه وجهان (أحدهما) أن يكون ذلك استفهاما من النبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له ووعدا بالعاقبة (وثانيهما) أن يكون عاما تنبيها للخلق ونذر أسقط منه ياء الاضافة كما حذف ياء يسري في قوله تعالى والليل اذا يسر وذلك عند الوقف ومثله كثير كما في قوله تعالى فاياي فاعبدون ولا ينقذون وقوله تعالى يا عبادي فاتقون وقوله تعالى ولا تكفرون وقرئ باثبات الياء عذابي ونذري * وفيه مسائل (الاولى) ما الذي اقتضى الفاء في قوله تعالى فكيف كان نقول أما ان قلنا ان الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه تعالى قال له قد علمت اخبار من كان قبلك فكيف كان أي بعد ما أحاط بهم علمك بنقلها اليك وأما ان قلنا الاستفهام عام فنقول لما قال هل من مدكر فرض وجودهم وقال يا من يتذكر وعلم الحال بالتذكير فكيف كان عذابي ويحتمل أن يقال هو متصل بقوله فهل من مدكر تقديره مدكر كيف كان عذابي (المسئلة الثانية) ما رأوا العذاب ولا النذر فكيف استفهم منهم نقول أما على قولنا الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم فقد علم لما علم واما على قولنا عام فهو على تقدير الادكار وعلى تقدير الادكار يعلم الحال ويحتمل ان يقال انه ليس باستفهام وانما هو اخبار عن عظمة الامر كما في قوله تعالى الحاقة ما الحاقة والقارعة ما القارعة وهذا لان الاستفهام يذكر للاخبار كما ان صيغة الاخبار تذكر للاستفهام فيقال زيد في الدار بمعنى هل زيد في الدار ويقول المنجز وعده هل صدقت فكأنه تعالى قال عذابي وقع وكيف كان أي كان عظيما وحينئذ لا يحتاج الى علم من يستفهم منه (المسئلة الثالثة) قال تعالى من قبل ففتحنا وفجرنا وبأعيننا ولم يقل كيف كان عذابنا نقول لوجهين (أحدهما) لفظي وهو ان ياء المتكلم يمكن حذفها لانها في اللفظ تسقط كثيرا فيما اذا التقى ساكنان تقول غلامي الذي وداري التي وهنا حذفت لتواخي آخر الآيات واما النون والالف في ضمير الجمع فلا تحذف (واما الثاني) وهو المعنوي فنقول ان كان الاستفهام من النبي صلى الله عليه وسلم فتوحيد الضمير للانباء وفي فتحنا وفجرنا الترهيب العصاة ونقول قد ذكرنا ان قوله مدكر فيه اشارة الى قوله ألست بربكم فلما وحد الضمير بقوله ألست بربكم قال فكيف كان (المسئلة الرابعة) النذر جمع نذير فهل هو مصدر كالنسيب والنحيب أو فاعل كالكبير والصغير نقول أكثر المفسرين على انه مصدر ههنا أي كيف كان عاقبة عذابي وعاقبة انذاري والظاهر أن المراد الانباء أي كيف كان عاقبة أعداء الله ورسله هل أصاب العذاب من كذب الرسل أم لا فاذا علمت الحال يا محمد فاصبر فان عاقبة أمرك كعاقبة أولئك النذر ولم يجمع العذاب لانه مصدر ولو جمع لكان في جمعه تقدير وفرض ولا حاجة اليه فان قيل قوله تعالى كذبت ثمود بالنذر أي بالانذارات لان الانذارات جاءتهم وأما الرسل فقد جاءهم واحد نقول كل من تقدم من الامم الذين أشركوا بالله كذبوا بالرسل وقالوا ما أنزل الله من شئ وكان المشركون مكذبين بالكل ما خلا ابراهيم عليه السلام فكانوا يعتقدون فيه الخير لكونه شيخ المرسلين فلا يقال كذبت ثمود بالنذر أي بالانبياء باسرهم كما انكم أيها المشركون تكذبون بهم ۞ ثم قال تعالى ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ وفيه وجوه (الاول) للحفظ فيمكن حفظه ويسهل ولم يكن شئ من كتب الله تعالى يحفظ على ظهر القلب غير القرآن ۞ وقوله تعالى ﴿فهل من مدكر﴾ أي هل من يحفظه ويتلوه (الثاني) سهلناه للاتعاظ حيث أتينا فيه بكل حكمة (الثالث) جعلناه بحيث يعلق بالقلوب ويستلذ سماعه ومن لا يفهم يتفهمه ولا يسأم من سمعه وفهمه ولا يقول قد علمت فلا أسمعه بل كل ساعة يزداد منه لذة وعلما (الرابع) وهو الاظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر بحال نوح عليه السلام وكان له معجزة قيل له ان معجزتك القرآن

الموت وأما الاحياء الاول فلم يكونوا يشكرونه لينظموه في سلك ما اعترفوا به وزعموا أن الاعتراف يجديهم نفعا وانما ذكروا الموتة الاولى مع كونهم معترفين بها في الدنيا لتوقف حياة القبر عليها وكذا حال الموتة في القبر فان مقصدهم الاصلي هو الاعتراف بالاحياءين وانما ذكروا الاماتتين لترتيبهما عليهما ما ذكر حسب ترتبهما عليهما وجودا وتنكير سبيل للابهام أي من سبيل ما كيفما كان وقوله تعالى (ذلكم) الخ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه ببيان ما يوجبها من أعمالهم السيئة أي ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب مطلقا لا مقيدا بالخلود كما قيل (بأنه) أي بسبب أن الشأن (اذا دعى الله) في الدنيا أي عبد (وحده) أي منفردا (كفرتم) أي بتوحيده (وان يشرك به تؤمنوا) أي بالاشراك به وتسارعوا فيه وفي ايراد اذا وصيغة الماضي في الشرطية الاولى وان وصيغة المضارع في الثانية ما لا يخفى من الدلالة على كمال سوء حالهم وحيث كان حالكم كذلك (فالحكم لله) الذي لا يحكم الا بالحق ولا يقضي الا بما تقتضيه الحكمة (العلي الكبير) الذي ليس كمثله شئ في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه وقد حكم بأنه لا مغفرة للمشرك ولا نهاية لعقوبته كما لا نهاية لشناعته فلا سبيل لكم الى الخروج أبدا (هو الذي يريكم آياته) الدالة على شؤونه العظيمة الموجبة لتفرده بالالوهية لتستدلوا بها على ذلك وتعملوا بموجبها فتوحدوه تعالى وتخصوه بالعبادة (وينزل) بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الانزال (لكم من السماء رزقا) أي سبب رزق وهو المطر وافراده بالذكر مع كونه من جملة الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على تجدد الاراءة والتنزيل واستمرارهما وتقديم الجار والمجرور على المفعول لما مر غير مرة (وما يتذكر) بتلك الآيات الباهرة ولا يعمل بمقتضاها

ولقد

ولقد يسرنا القرآن للذكر يتذكره لكل أحد وتحدى به فى العالم و بقى على مرور الدهور ولا يحتاج كل من يحضرك الى دعاء ومسئلة فى اظهار معجزة و بعدك لا ينكر أحد وقوع ما وقع كما ينكر البعض انشقاق القمر وقوله تعالى فهل من مدكر أى متذكر لان الافتعال والتفعل كثيرا ما يجئ بمعنى وعلى هذا فلو قال قائل هذا يقتضى وجود أمر سابق فنسى نقول ما فى الفطرة من الانقياد للحق هو كالمنسى فهل من مدكر يرجع الى ما فطر عليه وقيل فهل من مدكر أى حافظ أو متعظ على ما فسرنا به قوله تعالى يسرنا القرآن للذكر وقوله فهل من مدكر وعلى قولنا المراد منذكر اشارة الى ظهور الامر فكانه لا يحتاج الى فكر بل هو أمر حاصل عنده لا يحتاج الى معاودة ما عند غيره ۞ ثم قال تعالى ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر﴾ وفيه مسائل (الاولى) قال فى قوم نوح كذبت قوم نوح ولم يقل فى عاد كذبت قوم هود وذلك لان التعريف كلما أمكن أن يؤتى به على وجه أبلغ فالاولى أن يؤتى به والتعريف بالاسم العلم أولى من التعريف بالاضافة اليه فانك اذا قلت بيت الله لا يفيد ما يفيد قولك الكعبة فكذلك اذا قلت رسول الله لا يفيد ما يفيد قولك محمد فعاد اسم علم للقوم لا يقال قوم هود أعرف لوجهين (أحدهما) ان الله تعالى وصف عادا بقوم هود حيث قال ألا بعدا لعاد قوم هود ولا يوصف الاظهر بالاخفى والاخص بالاعم (ثانيهما) ان قوم هود واحد وعاد قيل انه لفظ يقع على أقوام ولهذا قال تعالى عادا الاولى لانا نقول اما قوله تعالى لعاد قوم هود فليس ذلك صفة وانما هو بدل ويجوز فى البدل أن يكون دون المبدل بالمعرفة ويجوز أن يبدل عن المعرفة بالنكرة وأما عادا الاولى فقد قدمنا ان ذلك لبيان تقدمهم أى عادا الذين تقدموا وليس ذلك للتمييز والتعريف كما تقول محمد النبى شفيعى والله الكريم ربى ورب الكعبة المشرفة لبيان الشرف لا لبيانها وتعريفها كما تقول دخلت الدار المعمورة من الدارين وخدمت الرجل الزاهد من الرجلين فتبين المقصود بالوصف (المسئلة الثانية) لم يقل كذبوا هودا كما قال فكذبوا عبدنا وذلك لوجهين (أحدهما) ان تكذيب نوح كان أبلغ وأشد حيث دعاهم قريبا من ألف سنة وأصروا على التكذيب ولهذا ذكر الله تعالى تكذيب نوح فى مواضع ولم يذكر تكذيب غير نوح صريحا وان نبه عليه واحد منها فى الاعراف قال فنجيناه والذين معه فى الفلك وقال حكاية عن نوح قال رب ان قومى كذبون وقال انهم عصونى وفى هذه المواضع لم يصرح بتكذيب قوم غيره منهم الا قليلا ولذلك قال تعالى فى مواضع ذكر شعيب فكذبوه وقال الذين كذبوا شعيبا وقال تعالى عن قومه وانا لنظنك من الكاذبين لانه دعا قومه زمانا مديدا (وثانيهما) أن حكاية عاد مذكورة ههنا على سبيل الاختصار فلم يذكر الا تكذيبهم وتعذيبهم فقال كذبت عاد كما قال كذبت قوم نوح ولم يذكر دعاءه عليهم واجابته كما قال فى نوح (المسئلة الثالثة) قال تعالى فكيف كان عذابى قبل ان بين العذاب وفى حكاية نوح بين العذاب ثم قال فكيف كان فما الحكمة فيه نقول الاستفهام الذى ذكره فى حكاية نوح مذكور ههنا وهو قوله تعالى فكيف كان عذابى ونذر كما قال من قبل ومن بعد فى حكاية ثمود غير أنه تعالى حكى فى حكاية عاد فكيف كان مرتين المرة الاولى استفهم ليبين كما يقول المعلم لمن لا يعرف كيفية المسئلة الفلانية ليصير المسؤل سائلا فيقول كيف هى فيقول انها كذا وكذا فكذلك ههنا قال كذبت عاد فكيف كان عذابى فقال السامع بين أنت فانى لا أعلم فقال انا أرسلنا وأما المرة الثانية فاستفهم للتعظيم كما يقول القائل للعارف المشاهد كيف فعلت وصنعت فيقول نعم ما فعلت و يقول أتيت بعجيبة فيحقق عظمة الفعل بالاستفهام وانما ذكرههنا المرة الاولى ولم يذكر فى موضع آخر لان الحكاية ذكرها مختصرة فكان يفوت الاعتبار بسبب الاختصار فقال كيف كان عذابى حثا على التدبر والتفكر وأما الاختصار فى حكايتهم فلان أكثر أمرهم الاستكبار والاعتماد على القوة وعدم الالتفات الى قول النبى صلى الله عليه وسلم ويدل عليه قوله تعالى فاما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة وذكر استكبارهم كثيرا وما كان قوم محمد صلى الله

(الامن ينيب) الى الله تعالى و يتفكر فيما أودعه فى تضاعيف مصنوعاته من شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى ومن ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ (فادعوا الله مخلصين له الدين) أى اذا كان الامر كما ذكر من اختصاص التذكر بمن ينيب فاعبدوه أيها المؤمنون مخلصين له دينكم بموجب انابتكم اليه تعالى وايمانكم به (ولو كره الكافرون) ذلك وغاظهم اخلاصكم (رفيع الدرجات) نحو بديع السموات على أنه صفة مشبهة أضيفت الى فاعلها بعد النقل الى فعل بالضم كما هو المشهور وتفسيره بالرافع ليكون من اضافة اسم الفاعل الى المفعول بعيد فى الاستعمال أى رفيع درجات ملائكته أى معارجهم ومصاعدهم الى العرش (ذو العرش) أى مالكه وهما خبران آخران لقوله تعالى هو أخبر عنه بهما ايذانا بعلو شأنه تعالى وعظم سلطانه الموجبين لتخصيص العبادة به واخلاص الدين له اما بطريق الاستشهاد بهما عليهما فان ارتفاع معارج ملائكته الى العرش وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوى والسفلى تحت ملكوته وقبضة قدرته مما يقضى بكون علو شأنه وعظم سلطانه فى غاية لا غاية وراءها واما بجعلهما عبارة عنهما بطريق المجاز المتفرع على الكناية كالاستواء على العرش وتمهيدا لما يعقبهما من قوله تعالى (يلقى الروح من أمره) فانه خبر آخر لما ذكر منبئ عن انزال الرزق الروحانى الذى هو الوحى بعد بيان انزال الرزق الجسمانى الذى هو المطر أى ينزل الوحى الجارى من القلوب منزلة الروح من الاجساد وقوله تعالى من أمره بيان للروح الذى أريد به الوحى فانه أمر بالخير أو حال منه أى حال كونه ناشئا ومبتدأ من أمره أو صفة له على رأى من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أى الروح الكائن من أمره أو متعلق بيلقى ومن للسببية كالباء مثل ما فى قوله تعالى مما خطيئاتهم أى يلقى الوحى بسبب أمره (على من يشاء من عباده) وهو الذى اصطفاه لرسالته وتبليغ أحكامه اليهم (لينذر) أى الله

عليه وسلم مبالغين في الاستكبار وانما كانت مبالغتهم في التكذيب ونسبته الى الجنون وذكر حالة نوح على التفصيل فان قومه جمعوا بين التكذيب والاستكبار وكذلك حال صالح عليه السلام ذكرها على التفصيل لشدة مناسبتها بحال محمد صلى الله عليه وسلم * ثم قال تعالى (انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى فكيف كان عذابي بتوحيد الضمير هنا ولم يقل عذابنا وقال ههنا انا ولم يقل اني والجواب ماذكرناه في قوله تعالى ففتحنا أبواب السماء (المسئلة الثانية) الصرصر فيها وجوه (أحدها) الريح الشديدة الصوت من الصر والصرة شدة الصياح (ثانيها) دائمة الهبوب من أصر على الشئ اذا دام وثبت وفيه بحث وهو أن الاسماء المشتقة هي التي تصلح لان يوصف بها وأما أسماء الاجناس فلا يوصف بها سواء كانت أجراما أو معاني فلا يقال انسان رجل جاء ولا يقال لون أبيض وانما يقال انسان عالم وجسم أبيض وقولنا أبيض معناه شئ له بياض ولا يكون الجسم مأخوذا فيه ويظهر ذلك في قولنا رجل عالم فان العالم شئ له علم حتى الحداد والخباز ولو أمكن قيام العلم بهما لكان عالما ولا يدخل الحي في المعنى من حيث المفهوم فانا اذا قلنا عالم يفهم أن ذلك حي لان اللفظ ما وضع لحي يعلم بل اللفظ وضع لشئ يعلم ويزيده ظهورا قولنا معلوم فانه شئ يعلم أو أمر يعلم وان لم يكن شيأ ولو دخل الجسم في الابيض لكان قولنا جسم أبيض كقولنا جسم له بياض فيقع الوصف بالجثة اذا علمت هذا فمن المستفاد بالجنس شئ دون شئ فان قولنا الهندي يقع على كل منسوب الى الهند وأما المهند فهو سيف منسوب الى الهند فيصح أن يقال عبد هندي وثمر هندي ولا يصح أن يقال مهند وكذا الابلق ولون آخر في فرس ولا يقال للثوب أبلق كذلك الافطس أنف فيه تقعير اذا قال القائل أنف أفطس فيكون كأنه قال أنف به فطس فيكون وصفه بالجثة وكان ينبغي أن لا يقال فرس أبلق ولا أنف أفطس ولا سيف مهند وهم يقولون فما الجواب وهذا السؤال يرد على الصرصر لانها الريح الباردة فاذا قال ريح صرصر فليس ذلك كقولنا ريح باردة فان الصرصر هي الريح الباردة فحسب فكأنه قال ريح ريح باردة فنقول الالفاظ التي في معانيها أمران فصاعدا كقولنا عالم فانه يدل على شئ له علم ففيه شئ وعلم هي على ثلاثة أقسام (أحدها) ان يكون الحال هو المقصود والمحل تبع كما في العالم والضارب والابيض فان المقاصد في هذه الالفاظ العلم والضرب والبياض بخصوصها وأما المحل فمقصود من حيث انه على عمومه حتى ان البياض لو كان يبدل بلون غيره اختل مقصوده كالاسود واما الجسم الذي هو محل البياض ان أمكن أن يبدل وأمكن قيام البياض بجوهر غير جسم لما اختل الغرض (ثانيها) أن يكون المحل هو المقصود كقولنا الحيوان لانه اسم لجنس ماله الحياة لا كالحي الذي هو اسم لشئ له الحياة فالمقصود هنا المحل وهو الجسم حتى لو وجد حي ليس بجسم لا يحصل مقصود من قال الحيوان ولو حمل اللفظ على الله الحي الذي لا يموت لحصل غرض المتكلم ولو حمل لفظ الحيوان على فرس قائم أو انسان نائم لم تفارقه الحياة لم يبق للسامع نفع ولم يحصل للمتكلم غرض فان القائل اذا قال لانسان قائم وهو ميت هذا حيوان ثم بان موته لا يرجع عما قال بل يقول ما قلت انه حي بل قلت انه حيوان فهو حيوان فارقته الحياة (ثالثها) ما يكون الامران مقصودين كقولنا رجل وامرأة وناقة وجمل فان الرجل اسم موضوع لانسان ذكر والمرأة لانسان أنثى والناقة لبعير أنثى والجمل لبعير ذكر فالناقة ان أطلقت على حيوان فظهر فرسا أو ثورا اختل الغرض وان بان جملا كذلك اذا علمت هذا ففي كل صورة كان المحل مقصودا اما وحده واما مع الحال فلا يوصف به فلا يقال جسم حيوان ولا يقال بعير ناقة وانما يجعل ذلك جملة فيوصف بالجملة فيقال جسم هو حيوان وبعير هو ناقة ثم ان الابلق والافطس شأنه الحيوان من وجه وشأنه العالم من وجه وكذلك المهند لكن دليل ترجح الحال فيه ظاهر لان المهند لا يذكر الا لمدح السيف والافطس لا يقال الا لوصف الانف لا لحقيقته وكذلك الابلق بخلاف الحيوان فانه لا يقال لوصفه وكذلك الناقة اذا علمت هذا فالصرصر يقال لشدة الريح أو لبردها

تعالى أو الملقى عليه أو الروح وقرئ لتنذر على أن الفاعل هو الرسول عليه الصلاة والسلام أو الروح لانها قد تؤنث (يوم التلاق) اما ظرف للمفعول الثاني أي لينذر الناس العذاب يوم التلاق وهو يوم القيامة لانه يتلاقى فيه الارواح والاجسام وأهل السموات والارض أو هو المفعول الثاني اتساعا أو أصالة فانه من شدة هوله وفظاعته حقيق بالانذار أصالة وقرئ لينذر على البناء للمفعول ورفع اليوم (يوم هم بارزون) بدل من يوم التلاق أي خارجون من قبورهم أو ظاهرون لا يسترهم شئ من جبل أو أكمة أو بناء لكون الارض يومئذ قاعا صفصفا ولا عليهم ثياب انما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث يحشرون عراة حفاة غرلا وقيل ظاهرة نفوسهم لا تحجبهم غواشي الابدان أو أعمالهم وسرائرهم (لا يخفى على الله منهم شئ) استئناف لبيان بروزهم وتقرير له وازاحة لما كان يتوهمه المتوهمون في الدنيا من الاستتار توهما باطلا أو خبر ثان وقيل حال من ضمير بارزون أي لا يخفى عليه تعالى شئ ما من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم الجلية والخفية السابقة واللاحقة (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب بتقدير قول معطوف على ما قبله من الجملة المنفية المستأنفة أو مستأنف يقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية بروزهم وظهور أحوالهم كأنه قيل فماذا يكون حينئذ فقيل يقال الخ أي ينادي مناد لمن الملك اليوم فيجيبه أهل المحشر لله الواحد القهار وقيل المجيب هو السائل بعينه لما روى أنه يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد في أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم به أن ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وقيل حكاية لما ينطق به لسان الحال من تقطع أسباب التصرفات المجازية واختصاص جميع الافاعيل بقبضة القدرة الالهية (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت) الخ اما من تتمة الجواب لبيان حكم اختصاص الملك به تعالى ونتيجته التي

فوجب

فوجب أن يعمل به مايعمل بالبارد والشديد لجاز الوصف وهذا بحث عزيز (المسئلة الثالثة) قال تعالى ههنا انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا وقال فى الطور وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم فعرف الريح هنالك ونكرها هنا لان العقم فى الريح أظهر من البرد الذى يضر النبات أو الشدة التى تعصف الاشجار لان الريح العقيم هى التى لاتنشئ سحابا ولاتلقح شجرا وهى كثيرة الوقوع وأما الريح المهلكة الباردة فقلما توجد فقال الريح العقيم أى هذا الجنس المعروف ثم زاده بيانا بقوله ماتذر من شئ أتت عليه الاجعلته كالرميم فتميزت عن الرياح العقم وأما الصرصر فقليلة الوقوع فلا تكون مشهورة فنكرها (المسئلة الرابعة) قال هناك فى يوم نحس مستمر وقال فى السجدة فى أيام نحسات وقال فى الحاقة سبع ليال وثمانية أيام حسوما والمراد من اليوم هنا الوقت والزمان كما فى قوله تعالى يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا وقوله مستمر يفيد مايفيده الايام لان الاستمرار ينبئ عن امرار الزمان كما ينبئ عنه الايام وانما اختلف اللفظ مع اتحاد المعنى لان الحكاية ههنا مذكورة على سبيل الاختصار فذكر الزمان ولم يذكر مقداره ولذلك لم يصفها ثم ان فيه قراءتين احداهما يوم نحس باضافة يوم وتسكين نحس على وزن نفس وثانيتهما يوم نحس بتنوين الميم وكسر الحاء على وصف اليوم بالنحس كما فى قوله تعالى فى أيام نحسات فان قيل أيتهما أقرب قلنا الاضافة أصح وذلك لان من يقرأ يوم نحس مستمر يجعل المستمر صفة ليوم ومن يقرأ يوم نحس مستمر يكون المستمر وصفا للنحس فيحصل منه استمرار النحوسة فالاول أظهر وأليق فان قيل من يقرأ يوم نحس بسكون الحاء فماذا يقول فى النحس نقول يحتمل أن يقول هو تخفيف نحس كفخذ وفخذ فى غير الصفات ونصر ونصر ورعد ورعد وعلى هذا يلزمه أن يقول تقديره يوم كائن نحس كما نقول فى قوله تعالى بجانب الغربى ويحتمل أن يقول نحس ليس بنعت بل هو اسم معنى أو مصدر فيكون كقولهم يوم برد وحر وهو أقرب وأصح (المسئلة الخامسة) مامعنى مستمر نقول فيه وجوه (الاول) ممتد ثابت مدة مديدة من استمر الامر اذا دام وهذا كقوله تعالى فى ايام نحسات لان الجمع يفيد معنى الاستمرار والامتداد وكذلك قوله حسوما (الثانى) شديد من المرة كما قلنا من قبل فى قوله سحر مستمر وهذا كقولهم أيام الشدائد واليه الاشارة بقوله تعالى فى أيام نحسات لنذيقهم بعض الذى فانه يذيقهم المر المضر من العذاب ﴿ ثم قال تعالى ﴿ تنزع الناس كانهم أعجاز نخل منقعر ﴾ فيه مسائل (المسئلة الاولى) تنزع الناس وصف أو حال نقول يحتمل الامرين جميعا اذ يصح أن يقال أرسل ريحا صرصرا نازعة للناس ويصح أن يقال أرسل الريح نازعة فان قيل كيف يمكن جعلها حالا وذو الحال نكرة نقول الامر هنا أهون منه فى قوله تعالى ولقد جاءهم من الانباء مافيه مزدجر فانه نكرة وأجابوا عنه بان ماموصوفة فتخصصت فحسن جعلها ذات الحال فكذلك نقول ههنا الريح موصوفة بالصرصر والتنكير فيه للتعظيم والا فهى ثلاثة فلا يبعد جعلها ذات حال وفيه وجه آخر وهو انه كلام مستأنف على فعل وفاعل كما تقول جاء زيد جذبنى وتقديره جاء فجذبنى كذلك ههنا قال انا أرسلنا عليهم ريحا فاصبحت تنزع الناس ويدل عليه قوله تعالى فترى القوم فيها صرعى فالتاء فى قوله تنزع الناس اشارة الى ما أشار اليه بقوله صرعى وقوله تعالى كانهم أعجاز نخل منقعر فيه وجوه (أحدها) نزعتهم فصرعتهم كانهم أعجاز نخل كما قال صرعى كانهم أعجاز نخل (ثانيها) نزعتهم فهم بعد النزع كانهم أعجاز نخل وهذا أقرب لان الانقعار قبل الوقوع فكان الريح تنزع وتقعر فينقعر فيقع فيكون صريعا فيخلو الموضع عنه فيخوى وقوله فى الحاقة فترى القوم فيها صرعى كانهم أعجاز نخل خاوية اشارة الى حاله بعد الانقعار الذى هو بعد النزع وهذا يفيد أن الحكاية ههنا مختصرة حيث لم يشر الى صرعهم وخلو منازلهم عنهم بالكلية فان حال الانقعار لا يحصل الخلو التام اذ هو مثل الشروع فى الخروج والاخذ فيه (ثالثها) تنزعهم نزعا بعنف كانهم أعجاز نخل تقعرهم فينقعروا اشارة الى قوتهم وثباتهم على الارض وفى المعنى وجوه (أحدها) انه ذكر ذلك اشارة الى عظمة أجسادهم وطول أقدادهم (ثانيها) ذكره اشارة الى ثباتهم فى الارض فكانهم كانوا

هى الحكم السوى والقضاء الحق أوحكاية لما سيقوله تعالى يومئذ عقيب السؤال والجواب أى تجزى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة بما كسبت من خير أوشر (لاظلم اليوم) بنقص ثواب أوزيادة عذاب (ان الله سريع الحساب) أى سريع حسابه غاما اذلا يشغله تعالى شأن عن شأن فيحاسب الخلائق قاطبة فى أقرب زمان كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه تعالى اذا أخذ فى حسابهم لم يقل أهل الجنة الافيها ولا أهل النار الافيها فيكون تعليلا لقوله تعالى اليوم تجزى الخ فان كون ذلك اليوم بعينه يوم التلاقى ويوم البروز ربما يوهم استبعاد وقوع الكل فيه أوسريع مجيئا فيكون تعليلا للانذار (وأنذرهم يوم الآزفة) أى القيامة سميت بها لازوفها وهو القرب غير أن فيه اشعارا بضيق الوقت وقيل الخطة الآزفة وهى مشارفة أهل النار دخولها وقيل وقت حضور الموت كما فى قوله تعالى فلولا اذا بلغت الحلقوم وقوله كلا اذا بلغت التراقى وقوله تعالى (اذ القلوب لدى الحناجر) بدل من يوم الآزفة فانها ترتفع من أماكنها فتلتصق بحلوقهم فلا تعود فيتروحوا ولا تخرج فيستريحوا بالموت (كاظمين) على الغم حال من أصحاب القلوب على المعنى اذ الاصل قلوبهم أومن ضميرها فى الظرف وجمع السلامة باعتبار أن الكظم من أحوال العقلاء كقوله تعالى فظلت أعناقهم لها خاضعين أومن مفعول أنذرهم على انها حال مقدرة أى أنذرهم مقدرا كظمهم أو مشارفين الكظم (ماللظالمين من حميم) أى قريب مشفق (ولا شفيع يطاع) أى لاشفيع مشفع على معنى نفى الشفاعة والطاعة معا على طريقة قوله

* على لاحب لايهتدى بمناره *

والضمائر ان عادت الى الكفار وهو الظاهر فوضع الظالمين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم وتعليل الحكم به (يعلم خائنة الاعين) النظرة الخائنة كالنظرة الثانية الى غير المحرم واستراق النظر اليه أوخيانة الاعين على أنها مصدر كالعافية (وما تخفى الصدور) من الضمائر والاسرار والجملة خبر

يعملون أرجلهم فى الارض و يقصدون المنع به على الريح (وثالثها) ذكره اشارة الى يبسهم وجفافهم بالريح فكانت تقتلهم وتحرقهم ببردها المفرط فيقعون كانهم أخشاب يابسة (المسئلة الثانية) قال ههنا منقعر فذكر النخل وقال فى الحاقة كانهم أعجاز نخل خاوية فانثها قال المفسرون فى تلك السورة كانت أواخر الآيات تقتضى ذلك لقوله مستمر ومنهمر ومنتشر وهو جواب حسن فان الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ ويمكن أن يقال النخل لفظه لفظ الواحد كالبقل والنعل ومعناه معنى الجمع فيجوز أن يقال فيه نخل منقعر ومنقعرة ومنقعرات ونخل خاو وخاوية وخاويات ونخل باسق و باسقة و باسقات فاذا قال قائل منقعر أو خاو أو باسق جرد النظر الى اللفظ ولم يراع جانب المعنى واذا قال منقعرات أو خاويات أو باسقات جرد النظر الى المعنى ولم يراع جانب اللفظ واذا قال منقعرة أو خاوية أو باسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ وربما قال منقعرة على الافراد من حيث اللفظ والحق به تاء التأنيث التى فى الجماعة اذا عرفت هذا فنقول ذكر الله تعالى لفظ النخل فى مواضع ثلاثة ووصفها على الوجوه الثلاثة فقال والنخل باسقات فانها حال منها وهى كالوصف وقال نخل خاوية وقال نخل منقعر فحيث قال منقعر كان المختار ذلك لان المنقعر فى حقيقة الامر كالمفعول لانه الذى ورد عليه القعر فهو مقعور والخاوى والباسق فاعل ومعناه اخلاء ماهو مفعول عن علامة التأنيث أولا كما تقول امرأة كفيل وامرأة كفيلة وامرأة كبير وامرأة كبيرة وأما الباسقات فهى فاعلات حقيقة لان البسوق أمر قام بها وأما الخاوية فهى من باب حسن الوجه لان الخاوى موضعها فكانه قال نخل خاوية المواضع وهذا غاية الاعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للالفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ فكان الدليل يقتضى ذلك بخلاف الشاعر الذى يختار اللفظ على المذهب الضعيف لاجل الوزن والقافية ۞ ثم قال تعالى ﴿فكيف كان عذابى ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وتفسيره قد تقدم والتكرير للتقرير وفى قوله عذابى ونذر لطيفة ماذكرناها وهى تثبت بسؤال وجواب لو قال القائل أكثر المفسرين على ان النذر فى هذا الموضع جمع نذير الذى هو مصدر معناه انذار فما الحكمة فى توحيد العذاب حيث لم يقل فكيف كان أنواع عذابى ووبال انذارى نقول فيه اشارة الى غلبة الرحمة الغضب وذلك لان الانذار اشفاق ورحمة فقال الانذارات التى هى نعم ورحمة تواترت فلما لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة فكانت النعم كثيرة والنقمة واحدة وسنبين هذا زيادة بيان حين نفسر قوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان حيث جمع الآلاء وكثر ذكرها وكررها ثلاثين مرة ۞ ثم بين الله تعالى حال قوم آخرين فقال ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ وقد تقدم تفسيره غير أنه فى قصة عاد قال كذبت ولم يقل بالنذر وفى قصة نوح قال كذبت قوم نوح بالنذر فنقول هذا يؤيد ماذكرنا من ان المراد بقوله كذبت قبلهم قوم نوح ان عادتهم ومذهبهم انكار الرسل وتكذيبهم فكذبوا نوحا بناء على مذهبهم وانما صرح ههنا لان كل قوم يأتون بعد قوم وأتاهما رسولان فالمكذب المتأخر يكذب المرسلين جميعا حقيقة والاولون يكذبون رسولا واحدا حقيقة و يلزمهم تكذيب من بعده بناء على ذلك لانهم لما كذبوا من تقدم فى قوله الله تعالى واحد والحشر كائن ومن أرسل بعده كذلك قوله ومذهبه لزم منه أن يكذبوه و يدل على هذا ان الله تعالى قال فى قوم نوح فكذبوه فأنجيناه وقال فى عاد وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله وأما قوله تعالى كذبت قوم نوح المرسلين فاشارة الى انهم كذبوا وقالوا ما يفضى الى تكذيب جميع المرسلين ولهذا ذكره بلفظ الجمع المعرف للاستغراق ثم انه تعالى قال هناك عن نوح رب ان قومى كذبون ولم يقل كذبوا رسلك اشارة الى ما صدر منهم حقيقة لا الى ما لزمهم لزمه اذا عرفت هذا فلما سبق قصة ثمود ذكر رسولين ورسولهم ثالثهم قال كذبت ثمود بالنذر هذا كله اذا قلنا ان النذر جمع نذير بمعنى منذر واما اذا قلنا انها الانذارات فنقول قوم نوح وعاد لم تستمر المعجزات التى ظهرت فى زمانهم وأما ثمود فانذروا واخرج لهم ناقة من صخرة وكانت تدور بينهم وكذبوا فكان تكذيبهم بانذارات وآيات ظاهرة فصرح بها وقوله فقالوا

آخر مثل يلق الروح للدلالة على أنه مامن خفى الا وهو متعلق العلم والجزاء (والله يقضى بالحق) لانه المالك الحاكم على الاطلاق فلا يقضى بشئ الا وهو حق وعدل (والذين يدعون) يعبدونهم (من دونه) تعالى (لا يقضون بشئ) تهكم بهم لان الجماد لا يقال فى حقه يقضى أولا يقضى وقرئ تدعون على الخطاب التفاتا أو على اضمار قل (ان الله هو السميع البصير) تقرير لعلمه تعالى بخائنة الاعين وقضائه بالحق ووعيد لهم على ما يقولون و يفعلون وتعريض بحال ما يدعون من دونه (أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم) أى مآل حال من قبلهم من الامم المكذبة لرسلهم كعاد وثمود وأضرابهم (كانوا هم أشد منهم قوة) قدرة وتمكنا من التصرفات وانما جىء بضمير الفصل مع أن حقه التوسط بين معرفتين لمضاهاة أفعل من للمعرفة فى امتناع دخول اللام عليه وقرئ أشد منكم بالكاف (وآثارا فى الارض) مثل القلاع الحصينة والمدائن المتينة وقيل المعنى وأكثر آثارا كقوله

* متقلدا سيفا ورمحا *

(فأخذهم الله بذنوبهم) أخذا وبيلا (وما كان لهم من الله من واق) أى من واق يقيهم عذاب الله (ذلك) أى ما ذكر من الاخذ (بأنهم) بسبب أنهم (كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) أى بالمعجزات أو بالاحكام الظاهرة (فكفروا فأخذهم الله انه قوى) متمكن مما يريد غاية التمكن (شديد العقاب) لا يؤبه عند عقابه بعقاب (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) وهى معجزاته (وسلطان مبين) أى وحجة قاهرة وهى اماعين الآيات والعطف لتغاير العنوانين واما بعض مشاهيرها كالعصا أفردت بالذكر مع اندراجها تحت الآيات لانافتها افراد جبريل وميكال بالذكر مع دخولهما فى الملائكة عليهم السلام (الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) أى فيما أظهره من المعجزات وفيما ادعاه من رسالة رب العالمين (فلما جاءهم بالحق من عندنا) وهو ما ظهر على يده من المعجزات القاهرة (قالوا اقتلوا ابشرا

أبشرا منا واحدا نتبعه يؤيد الوجه الاول لان من يقول لا أتبع بشرا مثلي وجميع المرسلين من البشر يكون مكذبا للرسل والباء في قوله بالنذر يؤيد الوجه الثاني لانا بينا ان الله تعالى في تكذيب الرسل عدى التكذيب بغير حرف فقال كذبوه وكذبوا رسلنا وكذبوا عبدنا وكذبوني وقال كذبوا بآيات ربهم وبآياتنا فعدى بحرف لان التكذيب هو النسبة الى الكذب والقائل هو الذي يكون كاذبا حقيقة والكلام والقول يقال فيه كاذب مجازا وتعلق التكذيب بالقائل أظهر فيستغني عن الحرف بخلاف القول وقد ذكرنا ذلك وبيناه بيانا شافيا ۞ وفي قوله تعالى ((فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه)) مسائل (المسئلة الاولى) زيدا ضربته وزيد ضربته كلاهما جائز والنصب مختار في مواضع منها هذا الموضع وهو الذي يكون ما يرد عليه النصب والرفع بعد حرف الاستفهام والسبب في اختيار النصب أمر معقول وهو ان المستفهم يطلب من المسؤل أن يجعل ما ذكره بعد حرف الاستفهام مبدأ الكلام ويخبر عنه فاذا قال أزيد عندك معناه أخبرني عن زيد واذكر لي حاله فاذا انضم الى هذه الحالة فعل مذكور ترجح جانب النصب فيجوز أن يقال أزيدا ضربته وان لم يجب فالاحسن ذلك فان قيل من قرأ أبشر منا واحد نتبعه كيف ترك الاجود نقول نظرا الى قوله تعالى فقالوا اذ ما بعد القول لا يكون الا جملة والاسمية أولى والاولى أقوى وأظهر (المسئلة الثانية) اذا كان بشرا منصوبا بفعل فما الحكمة في تأخر الفعل في الظاهر نقول قد تقدم مرارا ان البليغ يقدم في الكلام ما يكون تعلق غرضه به أكثر وهم كانوا يريدون تبيين كونهم محقين في ترك الاتباع فلو قالوا أنتبع بشرا لامكن أن يقال نعم اتبعوه وماذا يمنعكم من اتباعه فاذا قدموا حاله وقالوا هو من نوعنا بشر ومن صنفنا رجل ليس غريبا نعتقد فيه انه يعلم ما لا نعلم أو يقدر على ما لا نقدر وهو واحد وحيد وليس له جند وحشم وخيل وخدم فكيف نتبعه فيكونون قد قدموا الموجب لجواز الامتناع من الاتباع واعلم أن في الآية اشارات الى ذلك (أحدها) نكروه حيث قالوا أبشرا ولم يقولوا أنتبع صالحا أو الرجل المدعي النبوة أو غير ذلك من المعرفات والتنكير تحقير (ثانيها) قالوا أبشرا ولم يقولوا أرجلا (ثالثها) قالوا منا وهو يحتمل أمرين (أحدهما) من صنفنا ليس غريبا (وثانيهما) منا أي تبعنا يقول القائل لغيره أنت منا فيتأذى السامع ويقول لا بل أنت منا ولست أنا منكم وتحقيقه ان من للتبعيض والبعض يتبع الكل لا الكل يتبع البعض (رابعها) واحدا يحتمل أمرين أيضا (أحدهما) وحيدا اشارة الى ضعفه (وثانيهما) واحدا أي هو من الآحاد لا من الاكابر المشهورين وتحقيق القول في استعمال الآحاد في الاصاغر حيث يقال هو من آحاد الناس هو أن من لا يكون مشهورا بحسب ولا نسب اذا احدث عنه من لا يعرفه فلا يمكن أن يقول عنه قال فلان أو ابن فلان فيقول قال واحد وفعل واحد فيكون ذلك غاية الخمول لان الارذل لا ينضم اليه أحد فيبقى في أكثر أوقاته واحدا فيقال للارذال آحاد ۞ وقوله تعالى عنهم ((انا اذا لفي ضلال وسعر)) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكونوا قد قالوا في جواب من يقول لهم ان لم تتبعوه تكونوا في ضلال فيقولون له لا بل ان اتبعناه نكون في ضلال (ثانيهما) ان يكون ذلك ترتيبا على ما مضى أي حاله ما ذكرنا من الضعف والوحدة فان اتبعناه نكون في ضلال وسعر أي جنون على هذا الوجه فان قلنا ان ذلك قالوه على سبيل الجواب فيكون القائل قال لهم ان لم تتبعوه فانا اذا في الحال في ضلال وفي سعر في العقبى فقالوا لا بل لو اتبعناه فانا اذا في الحال في ضلال وفي سعر من الذل والعبودية مجازا فانهم ما كانوا يعترفون بالسعير (المسئلة الثالثة) السعير في الآخرة واحد فكيف جمع نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) في جهنم دركات يحتمل أن تكون كل واحدة سعيرا أو فيها سعير (ثانيها) لدوام العذاب عليهم فانه كلما نضجت جلودهم بدلهم جلودا كأنهم في كل زمان في سعير آخر وعذاب آخر (ثالثها) لسعة السعير الواحد كأنها سعر يقال للرجل الواحد فلان ليس برجل واحد بل هو رجال ۞ ثم قال تعالى عنهم ((أألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر)) وقد تقدم ان النفي بطريق الاستفهام أبلغ

أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) كما قال فرعون سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه أولا وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث عليه الصلاة والسلام وأحس بأنه قد وقع ما رفع أعاده عليه غيظا وحنقا وزعما منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرته ظنا منهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكهم على يده (وما كيد الكافرين الا في ضلال) أي في ضياع وبطلان لا يغني عنهم شيأ وينفذ عليهم لا محالة القدر المقدور والقضاء المحتوم واللام اما للعهد والاظهار في موقع الاضمار لذمهم بالكفر والاشعار بعلة الحكم أو للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا والجملة اعتراض جيء به في تضاعيف ما حكي عنهم من الاباطيل للمسارعة الى بيان بطلان ما أظهروه من الابراق والارعاد واضمحلاله بالمرة (وقال فرعون ذروني أقتل موسى) كان ملؤه اذا هم بقتله عليه الصلاة والسلام كفوه بقولهم ليس هذا بالذي تخافه فانه أقل من ذلك وأضعف وما هو الا بعض السحرة وبقولهم اذا قتلته أدخلت على الناس شبهة واعتقدوا أنك عجزت عن معارضته بالحجة وعدلت الى المقارعة بالسيف والظاهر من دهاء اللعين ونكارته أنه كان قد استيقن أنه نبي وأن ما جاء به آيات باهرة وما هو بسحر ولكن كان يخاف ان هم بقتله أن يعاجل بالهلاك وكان قوله هذا تمويها على قومه وايهاما أنهم هم الكافون له عن قتله ولولاهم لقتله وما كان الذي يكفه الا ما في نفسه من الفزع الهائل وقوله (وليدع ربه) تجلد منه واظهار لعدم المبالاة بدعائه ولكنه أخوف ما يخافه (اني أخاف) ان لم أقتله (أن يبدل دينكم) أن يغير ما أنتم عليه من الدين الذي هو عبارة عن عبادته وعبادة الاصنام لتقربهم اليه (أو أن يظهر في الارض الفساد) ما يفسد دنياكم من التحارب والتهارج ان لم يقدر على تبديل دينكم بالكلية وقرئ بالواو الجامعة وقرئ بفتح الياء والهاء ورفع الفساد وقرئ يظهر بتشديد الظاء والهاء من تظهر بمعنى تظاهر أي تتابع

لان من قال ما أنزل عليه الذكر عما يعلم أو ظن أو يتوهم ان السامع يكذبه فيه فاذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه ان السامع يجيبنى بقوله ما أنزل فيحصل الامر حينئذ منفيا ظاهر الايخفى على أحد بل كل أحد يقول ما أنزل والذكر الرسالة أو الكتاب ان كان ويحتمل أن يراد به ما يذكره من الله تعالى كما يقال الحق ويراد به ما يحصل من الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قولهم أألقى بدل أأنزل وفيه اشارة الى ما كانوا ينكرونه من طريق المبالغة وذلك لان الالقاء انزال بسرعة والنبى كان يقول جاء فى الوحى مع الملك فى لحظة يسيرة فكانهم قالوا الملك جسم والسماء بعيدة فكيف ينزل فى لحظة فقالوا أألقى وما قالوا أأنزل وقولهم عليه انكار آخر كانهم قالوا ما ألقى ذكر أصلا ثم قالوا ان ألقى فلا يكون عليه من بيننا وفينا من هو فوقه فى الشرف والذكاء وقولهم أألقى بدلا عن قولهم أألقى الله للاشارة الى أن الالقاء من السماء غير ممكن فضلا عن أن يكون من الله تعالى (المسئلة الثانية) عرفوا الذكر ولم يقولوا أألقى عليه ذكر وذلك لان الله تعالى حكى انكارهم لما لا ينبغى أن ينكر فقال أنكروا الذكر الظاهر المبين الذى لا ينبغى أن ينكر فهو كقول القائل أنكروا المعلوم (المسئلة الثالثة) بل يستدعى أمرا مضروبا عنه سابقا فماذا نقول قولهم أألقى للانكار فهم قالوا ما ألقى ثم ان قولهم أألقى عليه الذكر لا يقتضى الا انه ليس بنبى ثم قالوا بل هو ليس بصادق (المسئلة الرابعة) الكذاب فعال من فاعل للمبالغة أو يقال بل من فاعل للنسب كخياط وتمار نقول الاول هو الصحيح الاظهر على ان الثانى من باب الاولى لان المنسوب الى الشئ لابد له من أن يكثر من مزاولة الشئ فان من خاط يوما ثوبه مرة لا يقال له خياط اذا عرفت هذا فنقول المبالغة اما فى الكثرة واما فى الشدة فالكذاب اما شديد الكذب يقول ما لا يقبله العقل أو كثير الكذب ويحتمل أن يكونوا وصفوه به لاعتقادهم الامرين فيه وقولهم أشر اشارة الى انه كذب لا لضرورة وحاجة الى خلاص كما يكذب الضعيف وانما هو استغنى وبطر وطلب الرياسة عليكم وأراد اتباعكم له فكان كل وصف مانعا من الاتباع لان الكاذب لا يلتفت اليه ولا سيما اذا كان كذبه لا لضرورة وقرئ أشر فقال المفسرون هذا على الاصل المرفوض فى الاشر والاخير على وزن أفعل التفضيل وانما رفض الاصل فيه لان أفعل اذا فسر قد يفسر بأفعل أيضا والثانى بأفعل ثالث مثاله اذا قال ما معنى الاعلم يقال هو الاكثر علما فاذا قيل الاكثر ماذا فيقال الازيد عددا أو شئ مثله فلابد من أمر يفسر به الافعل لا من بابه فقالوا أفعل التفضيل والفضيلة أصلها الخير والخير أصل فى باب أفعل فلا يقال فيه أخير ثم ان الشر فى مقابلة الخير يفعل به ما يفعل بالخير فيقال هو شر من كذا وخير من كذا والاشر فى مقابلة الاخير ثم ان خيرا يستعمل فى موضعين (أحدهما) مبالغة الخير بفعل أو أفعل على اختلاف يقال هذا خير وهذا أخير ويستعمل فى مبالغة خير على المشابهة لا على الاصل فمن يقول أشر يكون قد ترك الاصل المستعمل لانه أخذ فى الاصل المرفوض بمعنى هو شر من غيره وكذا معنى الاعلم ان علمه خير من علم غيره أو هو خير من غيره الجهل كذلك القول فى الاضعف وغيره ۞ ثم قال تعالى (سيعلمون غدا من الكذاب الاشر) فان قال قائل سيعلم للاستقبال ووقت انزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كانوا قد علموا الآن بعد الموت تتبين الامور وقد عاينوا ما عاينوا فكيف القول فيه نقول فيه وجهان (أحدهما) أن يكون هذا القول مفروض الوقوع فى وقت قولهم بل هو كذاب أشر فكانه تعالى قال يوم قالوا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا (وثانيهما) ان هذا التهديد بالتعذيب لا بحصول العلم بالعذاب الاليم وهو عذاب جهنم لا عذاب القبر فهم سيعذبون يوم القيامة وهو مستقبل وقوله تعالى غدا لقرب الزمان فى الامكان والاذهان ثم ان قلنا ان ذلك للتهديد بالتعذيب لا للتكذيب فلا حاجة الى تفسيره بل يكون ذلك اعادة لقولهم من غير قصد الى معناه وان قلنا هو للرد والوعد ببيان انكشاف الامر فقوله تعالى سيعلمون غدا معناه سيعلمون غدا انهم الكاذبون الذين كذبوا لا لحاجة وضرورة بل بطروا وأشروا لما استغنوا وقوله تعالى غدا يحتمل أن يكون المراد يوم

ونعاون (وقال موسى) أى لقومه حين سمع بما تقوله اللعين من حديث قتله عليه الصلاة والسلام (انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) صدر عليه الصلاة والسلام كلامه بان تأكيدا له واظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وفرط الرغبة فيه وخص اسم الرب المنبئ عن الحفظ والتربية لانهما الذى يستدعيه وأضافه اليه واليهم حثا لهم على موافقته فى العياذ به تعالى والتوكل عليه فان فى تظاهر النفوس تأثيرا قويا فى استجلاب الاجابة ولم يسم فرعون بل ذكره بوصف يعمه وغيره من الجبابرة لتعميم الاستعاذة والاشعار بعلة القساوة والجراءة على الله تعالى وقرئ عدت بالادغام (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) قيل كان قبطيا ابن عم لفرعون آمن بموسى سرا وقيل كان اسرائيليا أو غريبا موحدا (يكتم ايمانه) أى من فرعون وملئه (أتقتلون رجلا) أتقصدون قتله (أن يقول) لان يقول أو كراهة أن يقول (ربى الله) أى وحده من غير روية وتأمل فى أمره (وقد جاءكم بالبينات) والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التى شاهدتموها وعهدتموها (من ربكم) أضافه اليهم بعد ذكر البينات احتجاجا عليهم واستنزالا لهم عن رتبة المكابرة ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال (وان يك كاذبا فعليه كذبه) لا يتخطاه وبال كذبه فيحتاج فى دفعه الى قتله (وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم) أى ان لم يصبكم كله فلا أقل من اصابة بعضه لا سيما ان تعرضتم له بسوء وهذا كلام صادر عن غاية الانصاف وعدم التعصب ولذلك قدم من شقى الترديد كونه كاذبا أو يصبكم ما يعدكم من عذاب الدنيا وهو بعض ما يعدهم كأنه خوفهم بما هو أظهر احتمالا عندهم وتفسير البعض بالكل مستدلا بقول لبيد

تراك أمكنة اذا لم أرضها * أو يرتبط بعض النفوس حمامها

مردود لما ان مراده بالبعض نفسه (ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب)

القيامة و يحتمل ان يكون المراد يوم العذاب وهذا على الوجه الاول ﴿ ثم قال تعالى ﴿انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله انا مرسلوا الناقة بمعنى الماضى أو بمعنى المستقبل ان كان بمعنى الماضى فكيف يقول فارتقبهم واصطبر وان كان بمعنى المستقبل فما الفرق بين حكاية عاد وحكاية ثمود حيث قال هنالك انا أرسلنا وقال ههنا انا مرسلوا الناقة بمعنى انا نرسل نقول هو بمعنى المستقبل وماقبله وهو قوله سيعلمون غدا يدل عليه فان قوله انا مرسلوا الناقة كالبيان له كانه قال سيعلمون حيث نرسل الناقة ومابعده من قوله فارتقبهم ونبئهم أيضا يقتضى ذلك فان قيل قوله تعالى فنادوا دليل على ان المراد الماضى قلنا سنجيب عنه فى موضعه وأما الفارق فنقول حكاية ثمود مستقصاة فى هذا الموضع حيث ذكر تكذيب القوم بالنذر وقولهم لرسولهم وتصديق الرسل بقوله سيعلمون وذكر المعجزة وهى الناقة وما فعلوه بها والعذاب والهلاك بذكر حكاية على وجه الماضى والمستقبل ليكون وصفه للنبى صلى الله عليه وسلم كانه حاضرها فيقتدى بصالح فى الصبر والدعاء الى الحق و يثق بربه فى النصر على الاعداء بالحق فقال انى مؤيدك بالمعجزة القاطعة واعلم ان الله تعالى ذكر فى هذه السورة خمس قصص وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه لان حال صالح كان أكثر مشابهة بحال محمد صلى الله عليه وسلم لانه أتى بأمر عجيب أرضى كان أعجب مما جاء به الانبياء لان عيسى عليه السلام أحيا الميت لكن الميت كان محلا للحياة فاثبت باذن الله الحياة فى محل كان قابلا لها وموسى عليه السلام انقلبت عصاه ثعبانا فاثبت الله له فى الخشبة الحياة لكن الخشبة نبات كان له قوة فى النماء يشبه الحيوان فى النمو فهو أعجب وصالح عليه السلام كان الظاهر فى يده خروج الناقة من الحجر والحجر جماد لامحل للحياة ولا محل للنمو والنبى صلى الله عليه وسلم أتى باعجب من الكل وهو التصرف فى جرم السماء الذى يقول المشرك لا وصول لاحد الى السماء ولا امكان لشقه وخرقه وأما الارضيات فقالوا انها أجسام مشتركة المواد يقبل كل واحد منها صورة الاخرى والسموات لا تقبل ذلك فلما أتى بما عرفوا فيه انه لا يقدر على مثله آدمى كان أتم وأبلغ من معجزة صالح عليه السلام التى هى أتم معجزة من معجزات من كان من الانبياء غير محمد صلى الله عليه وسلم (وفيه لطيفة) وهو ان اسم الفاعل اذا كان بمعنى الماضى وذكر معه مفعوله فالواجب الاضافة تقول وحشى قاتل عم النبى صلى الله عليه وسلم فان قلنا قاتل عم النبى بالاعمال فلابد من تقدير الحكاية فى الحال كما فى قوله تعالى وكلبهم باسط ذراعيه على انه يحكى القصة فى حال وقوعها تقول خرجت أمس فاذا زيد ضارب عمرا كما تقول يضرب عمرا وان كان الضرب قد مضى واذا كان بمعنى المستقبل فالاحسن الاعمال تقول انى ضارب عمرا غدا فان قلت انى ضارب عمرو غدا حيث كان الامر وقع وكان جاز لكنه غير الاحسن والتحقيق فيه ان قولنا ضارب وسارق وقاتل أسماء فى الحقيقة غير ان لها دلالة على الفعل فاذا كان الفعل تحقق فى الماضى فهو قد عدم حقيقة فلا وجود للفعل فى الحقيقة ولا فى التوقع فيجب الحمل على ما للاسم من الاضافة وترك ما للفعل من الاعمال لغلبة الاسمية وفقدان الفعل بالماضى واذا كان الفعل حاضرا أو متوقعا فى الاستقبال فله وجود حقيقة أو فى التوقع فتجوز الاضافة لصورة الاسم والاعمال لتوقع الفعل أو لوجوده ولكن الاعمال أولى لان فى الاستقبال لن يضرب يفيد لا يكون ضاربا فلا ينبغى أن يضاف أما الاعمال فهو ينبئ عن توقع الفعل أو وجوده لانه اذا قال زيد ضارب عمرا فالسامع اذا سمع يضرب عمرو علم أنه يفعل فاذا لم يره فى الحال يتوقعه فى الاستقبال غير ان الاضافة تفيد تخفيفا حيث سقط بها التنوين والنون فنختار لفظا لامعنى اذا عرفت هذا فنقول مرسلوا الناقة مع مافيه من التخفيف فيه تحقيق الامر وتقديره كأنه وقع وكان بخلاف مالو قيل انا نرسل الناقة (المسئلة الثانية) فتنة مفعول له فتكون الفتنة هى المقصودة من الارسال لكن المقصود منه تصديق النبى صلى الله عليه وسلم وهو صالح عليه السلام لانه معجزة فما التحقيق فى تفسيره نقول فيه وجهان (أحدهما) ان المعجزة فتنة لان بها يتميز حال

احتجاج آخر ذو وجهين أحدهما انه لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله تعالى الى البينات ولما أيده بتلك المعجزات وثانيهما ان كان كذلك خذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم الى قتله ولعله أراهم المعنى الثانى وهو عاكف على المعنى الاول لتلين شكيمتهم وقد عرض به لفرعون بأنه مسرف كذاب لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة (ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين) غالبين عالين على بنى اسرائيل (فى الارض) أى أرض مصر لا يقاومكم أحد فى هذا الوقت (فمن ينصرنا من بأس الله) من أخذه وعذابه (ان جاءنا) أى فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرضوا لبأس الله بقتله فانه ان جاءنا لم يمنعنا منه أحد وانما نسب ما يسرهم من الملك والظهور فى الارض اليهم خاصة ونظم نفسه فى سلكهم فيما يسوءهم من مجئ بأس الله تعالى تطييبا لقلوبهم وايذانا بانه مناصح لهم ساع فى تحصيل ما يجديهم ودفع ما يرديهم سعيه فى حق نفسه ليتأثروا بنصحه (قال فرعون) بعدما سمع نصحه (ما أريكم) أى ما أشير عليكم (الا ما أرى) وأستصوبه من قتله (وما أهديكم) بهذا الرأى (الا سبيل الرشاد) أى الصواب أو لا أعلمكم الا ما أعلم ولا أسر عنكم خلاف ما أظهره ولقد كذب حيث كان مستشعرا للخوف الشديد ولكنه كان يتجلد ولولاه لما استشار أحدا أبدا وقرئ بتشديد الشين للمبالغة من رشد كعلام أو من رشد كعباد لا من أرشد كجبار من أجبر لانه مقصور على السماع أو للنسبة الى الرشد كعواج وبتات غير منظور فيه الى فعل (وقال الذى آمن) مخاطبا لقومه (ياقوم انى أخاف عليكم) فى تكذيبه والتعرض له بالسوء (مثل يوم الاحزاب) مثل أيام الامم الماضية يعنى وقائعهم وجمع الاحزاب مع التفسير أغنى عن جمع اليوم (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود) أى مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر وايذاء الرسل (والذين من بعدهم) كقوم لوط (وما الله يريد ظلما للعباد) فلا يعاقبهم بغير ذنب ولا يخلى الظالم منهم بغير انتقام وهو أبلغ من قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد لما أن المنفى فيه

ارادة ظلم ما فيتنفى الظلم بطريق الاولوية (وياقوم انى أخاف عليكم يوم التناد) خوفهم بالعذاب الاخروى بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوى و يوم التناد يوم القيامة لانه ينادى فيه بعضهم للاستغاثة أو يتصايحون بالويل والثبور أو يتنادى أصحاب الجنة وأصحاب النار حسبما حكى فى سورة الاعراف وقرئ بتشديد الدال وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله تعالى يوم يفر المرء من أخيه وعن الضحاك اذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من الاقطار الا وجدوا ملائكة صفوفا فبيناهم يموج بعضهم فى بعض اذ سمعوا مناديا أقبلوا الى الحساب (يوم تولون مدبرين) بدل من يوم التناد أى منصرفين عن الموقف الى النار أو فارين منها حسبما نقل آنفا (مالكم من الله من عاصم) يعصمكم من عذابه والجملة حال أخرى من ضمير تولون (ومن يضلل الله فماله من هاد) يهديه الى طريق النجاة (ولقد جاءكم يوسف) هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على أن فرعونه فرعون موسى أو على نسبة أحوال الآباء الى الاولاد وقيل سبطه يوسف بن ابراهيم بن يوسف الصديق (من قبل) من قبل موسى (بالبينات) بالمعجزات الواضحة (فما زلتم فى شك مما جاءكم به) من الدين (حتى اذا هلك) بالموت (قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) ضما الى تكذيب رسالته تكذيب رسالة من بعده أو جزما بأن لا يبعث بعده رسول مع الشك فى رسالته وقرئ ألن يبعث الله على أن بعضهم يقرر بعضا بنفى البعث (كذلك) مثل ذلك الاضلال الفظيع (يضل الله من هو مسرف) فى عصيانه (مرتاب) فى دينه شاك فيما تشهد به البينات لغلبة الوهم والانهماك فى التقليد (الذين يجادلون فى آيات الله) بدل من الموصول الاول أو بيان له أو صفة باعتبار معناه كأنه قيل كل مسرف مرتاب أو المسرفين المرتابين (بغير سلطان) متعلق بيجادلون أى بغير حجة صالحة للتمسك بها فى الجملة (أتاهم) صفة سلطان (كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) فيه ضرب من

وكيف

من يثاب ممن يعذب لان الله تعالى بالمعجزة لا يعذب الكفار الا اذا كان نبيهم يصدقه من حيث نبوته فالمعجزة ابتلاء لانها تصديق و بعد التصديق يتميز المصدق عن المكذب (وثانيهما) وهو ادق أن اخراج الناقة من الصخرة كان معجزة وارسالها اليهم ودورانها فيما بينهم وقسمة الماء كان فتنة ولهذا قال انا مرسلوا الناقة فتنة ولم يقل انا مخرجوا الناقة فتنة والتحقيق فى الفتنة والابتلاء والامتحان قد تقدم مرارا واليه اشارة خفية وهى ان الله تعالى يهدى من يشاء وللهداية طرق منها ما يكون على وجه يكون للانسان مدخل فيه بالكسب مثاله يخلق شيأ دالا ويقع تفكر الانسان فيه ونظره اليه على وجه يترجح عنده الحق فيتبعه وتارة يلجئه اليه ابتداء ويصونه عن الخطا من صغره فاظهار المعجز على يد الرسول أمر يهدى به من يشاء اهتداءه مع الكسب وهداية الانبياء من غير كسب منهم بل يخلق فيهم علوما غير كسبية فقوله انا مرسلوا الناقة فتنة اشارة اليهم ولهذا قال لهم ومعناه على وجه يصلح لان يكون فتنة وعلى هذا كل من كانت معجزته أظهر يكون ثواب قومه أقل وقوله تعالى فارتقبهم أى فارتقبهم بالعذاب ولم يقل فارتقب العذاب اشارة الى حسن الادب والاجتناب عن طلب الشر وقوله تعالى واصطبر يؤيد ذلك بمعنى ان كانوا يؤذونك فلا تستعجل لهم العذاب ويحتمل أن يكون ذلك اشارة الى قرب الوقت الى أمرهما والامر بحيث يعجز عن الصبر ۞ ثم قال تعالى (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) أى مقسوم وصف بالمصدر وأراد به المشتق منه كقوله ماء ملح وقول زور وفيه ضرب من المبالغة يقال للكريم كرم كأنه هو عين الكرم ويقال فلان لطف محض ويحتمل أن تكون القسمة وقعت بينهما لان الناقة كانت عظيمة وكانت حيوانات القوم تنفر منها ولا ترد الماء وهى على الماء فصعب عليهم ذلك فجعل الماء بينهما يوما للناقة ويوما للقوم ويحتمل أن تكون لقلة الماء فشربه يوما للناقة ويوما للحيوانات ويحتمل أن يكون الماء كان بينهم قسمة يوم لقوم ويوم لقوم ولما خلق الله الناقة كانت ترد الماء يوما فكان الذين لهم الماء فى غير يوم ورودها يقولون الماء كله لنا فى هذا اليوم ويومكم كان أمس والناقة ما أخرت شيأ فلا نمكنكم من الورود أيضا فى هذا اليوم فيكون النقصان واردا على الكل وكانت الناقة تشرب الماء بأمره وهذا أيضا ظاهر ومنقول والمشهور هنا الوجه الاوسط ونقول ان قوما كانوا يكتفون بلبنها يوم ورودها الماء والكل ممكن ولم يرد فى شئ خبر متواتر والثالث قطع وهو من القسمة لانها مثبتة بكتاب الله تعالى أما كيفية القسمة والسبب فلا وقوله تعالى كل شرب محتضر مما يؤيد الوجه الثالث أى كل شرب محتضر للقوم بأسرهم لانه لو كان ذلك لبيان كون الشرب محتضرا للقوم أو الناقة فهو معلوم لان الماء ما كان يترك من غير حضور وان كان لبيان انه تحضره الناقة يوما والقوم يوما فلا دلالة فى اللفظ عليه وأما اذا كانت العادة قبل الناقة على أن يرد الماء قوم فى يوم وآخرون فى يوم آخر ثم لما خلقت الناقة كانت تنقص شرب البعض وتترك شرب الباقين من غير نقصان فقال كل شرب محتضر كم أيها القوم فردوا كل يوم الماء وكل شرب ناقص تقاسموه وكل شرب كامل تقاسموه ۞ ثم قال تعالى (فنادوا صاحبهم) نداء المستغيث كأنهم قالوا يا لقدار للقوم كما يقول القائل يا لله للمسلمين وصاحبهم قدار وكان أشجع وأهجم على الامور ويحتمل أن يكون رئيسهم ۞ وقوله تعالى (فتعاطى فعقر) يحتمل وجوها (الاول) تعاطى آلة العقر فعقر (الثانى) تعاطى الناقة فعقرها وهو أضعف (الثالث) التعاطى يطلق ويراد به الاقدام على الفعل العظيم والتحقيق هو ان الفعل العظيم يقدم كل أحد فيه صاحبه ويبرئ نفسه منه فمن يقبله ويقدم عليه يقال تعاطاه كأنه كان فيه تدافع فأخذه هو بعد التدافع (الرابع) ان القوم جعلوا له على عمله جعلا فتعاطاه وعقر الناقة ۞ ثم قال تعالى (فكيف كان عذابى ونذر) وقد تقدم بيانه وتفسيره غير ان هذه الآية ذكرها فى ثلاثة مواضع ذكرها فى حكاية نوح بعد بيان العذاب وذكرها هنا قبل بيان العذاب وذكرها فى حكاية عاد قبل بيانه و بعد بيانه فحيث ذكر قبل بيان العذاب ذكرها للبيان كما تقول ضربت فلانا أى ضرب وأيما ضرب وتقول ضربته

وكيف ضربته أي قويا وفي حكاية عاد ذكرها مرتين للبيان والاستفهام وقد ذكرنا السبب فيه ففي حكاية نوح ذكر الذي للتعظيم وفي حكاية ثمود ذكر الذي للبيان لان عذاب قوم نوح كان بأمر عظيم عام وهو الطوفان الذي عم العالم ولا كذلك عذاب قوم هود فانه كان مختصا بهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ سمعوا صيحة فماتوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كان في قوله فكانوا من أي الاقسام نقول قال النحاة تجيء تارة بمعنى صار وتمسكوا بقول القائل

بتيماء قفر والمطى كأنها * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

بمعنى صارت فقال بعض المفسرين في هذا الموضع انها بمعنى صار والتحقيق ان كان لا تخالف غيرها من الافعال الماضية اللازمة التي لا تتعدى والذي يقال ان كان تامة وناقصة وزائدة وبمعنى صار فليس ذلك يوجب اختلاف أحوالها اختلافا يفارق غيرها من الافعال وذلك لان كان بمعنى وجد أو حصل أو تحقق غيران الذي وجد تارة يكون حقيقة الشيء وأخرى صفة من صفاته فاذا قلت كانت الكائنة وكن فيكون جعلت الوجود والحصول للشيء في نفسه فكأنك قلت وجدت الحقيقة الكائنة وكن أي احصل فيوجد في نفسه واذا قلت كان زيد عالما أي وجد علم زيد غير انا نقول في وجد زيد عالما ان عالما حال وفي كان زيد عالما نقول انه خبر كقولنا احصل زيد عالما غيران قولنا وجد زيد عالما ربما يفهم منه ان الوجود والحصول لزيد في تلك الحال كما تقول قام زيد منتصبا حيث يكون القيام لزيد في تلك الحال وقولنا كان زيد عالما ليس معناه كان زيد وفي تلك الحال هو عالم لكن هذا لا يوجب ان كان على خلاف غيره من الافعال اللازمة التي لها بالحال تعلق شديد لان من يفهم من قولنا احصل زيد اليوم على أحسن حال ما يفهمه من قولنا خرج زيد اليوم في أحسن زي لا يمنعه مانع من أن يفهم من قولنا كان زيد على أحسن حال مثل ما فهم هنالك * اذا عرفت هذا فنقول الفعل الماضي يطلق تارة على ما وجد في الزمان المتصل بالحاضر كقولنا قام زيد في صباه ويطلق تارة على ما وجد في الزمان الحاضر كقولنا قام زيد فقم وقم فان زيدا قام وكذلك القول في كان ربما يقال كان زيد قائما عام كذا وربما يقال كان زيد قائما الآن كما في قام زيد فقوله تعالى فكانوا فيه استعمال الماضي فيما اتصل بالحال فهو كقولك أرسل عليهم صيحة فماتوا أي متصلا بتلك الحال نعم لو استعمل في هذا الموضع صار يجوز لكن كان وصار كل واحد بمعنى في نفسه وانما يلزم حمل كان على صار اذا لم يمكن أن يقال هو كذا كما في البيت حيث لا يمكن أن يقال البيوض فراخ وأما هنا يمكن أن يقال هم كهشيم ولولا الكاف لا يمكن أن يقال يجب حمل كان على صار اذا كان المراد انهم انقلبوا هشيما كما يقلب الممسوخ وليس المراد ذلك (المسئلة الثانية) ما الهشيم نقول هو المهشوم أي المكسور وسمي هاشم هاشما لهشمه الثريد في الجفان غيران الهشيم استعمل كثيرا في الحطب المتكسر اليابس فقال المفسرون كانوا كالحشيش الذي يخرج من الحظائر بعد البلى يتفتت واستدلوا عليه بقوله تعالى هشيما تذروه الرياح وهو من باب اقامة الصفة مقام الموصوف كما يقال رأيت جريحا ومثله السعير (المسئلة الثالثة) لماذا شبههم به قلنا يحتمل أن يكون التشبيه بكونهم يابسين كالحشيش بين الموتى الذين ماتوا من زمان وكانه يقول سمعوا الصيحة فكانوا كانهم ماتوا من أيام ويحتمل أن يكون لانهم انضموا بعضهم الى بعض كما ينضم الرفقاء عند الخوف داخلين بعضهم في بعض فاجتمعوا بعضهم فوق بعض كحطب الحاطب الذي يصفه شيأ فوق شيء منتظرا حضور من يشترى منه شيأ فان الحطاب الذي عنده الحطب الكثير يجعل منه كالحظيرة ويحتمل أن يكون ذلك لبيان كونهم في الجحيم أي كانوا كالحطب اليابس الذي للوقيد فهو محقق لقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وقوله تعالى فكانوا لجهنم حطبا وقوله اغرقوا فادخلوا نارا كذلك ماتوا فصاروا كالحطب الذي لا يكون الا للاحراق لان الهشيم لا يصلح للبناء ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ والتكرار للتذكار ﴿ ثم بين حال قوم آخرين وهم قوم لوط فقال ﴿كذبت

التعجب والاستعظام وفي كبر ضمير يعود الى من وتذكيره باعتبار اللفظ وقيل الى الجدال المستفاد من يجادلون (كذلك) أي مثل ذلك الطبع الفظيع (يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) فيصدر عنه أمثال ماذكر من الاسراف والارتياب والمجادلة بالباطل وقرئ بتنوين قلب ووصفه بالتكبر والتجبر لانه منبعهما (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا) أي بناء مكشوفا عاليا من صرح الشيء اذا ظهر (لعلي أبلغ الاسباب) أي الطرق (أسباب السموات) بيان لها وفي ابهامها ثم ايضاحها تفخيم لشأنها وتشويق للسامع الى معرفتها (فاطلع الى اله موسى) بالنصب على جواب الترجي وقرئ بالرفع عطفا على أبلغ ولعله أراد أن يبنى له رصدا في موضع عال ليرصد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماوية تدل على الحوادث الارضية فيرى هل فيها ما يدل على ارسال الله تعالى اياه أو أن يرى فساد قوله عليه الصلاة والسلام بأن اخباره من اله السماء يتوقف على اطلاعه عليه ووصوله اليه وذلك لا يتأتى الا بالصعود الى السماء وهو مما لا يقوى عليه الانسان وما ذلك الا لجهله بالله سبحانه وكيفية استنبائه (واني لاظنه كاذبا) فيما يدعيه من الرسالة (وكذلك) أي ومثل ذلك التزيين البليغ المفرط (زين لفرعون سوء عمله) فانهمك فيه انهماكا لا يرعوي عنه بحال (وصد عن السبيل) أي سبيل الرشاد والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى ويؤيده قراءة زين بالفتح وبالتوسط الشيطان وقرئ وصد على أن فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشبهات ويؤيده قوله تعالى (وما كيد فرعون الا في تباب) أي خسار وهلاك أو على أنه من صد صدودا أي أعرض وقرئ بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليه وقرئ وصد على انه عطف على سوء عمله وقرئ وصدوا أي هو وقومه (وقال الذي آمن) أي مؤمن آل فرعون وقيل موسى عليه السلام (يا قوم اتبعون فيما دللتكم عليه (أهدكم سبيل الرشاد) أي

سبيلا يصل سالكه الى المقصود وفيه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغى والضلال (ياقوم انما هذه الحياة الدنيا متاع) أى تمتع يسير لسرعة زوالها أجمل لهم أولا ثم فسر فافتتح (٥٦٢) بذم الدنيا وتصغير شأنها لان الاخلاد اليها رأس كل شر ومنه تتشعب فنون ما يؤدى الى

سخط الله تعالى ثم ثنى بتعظيم الآخرة فقال (وان الآخرة هى دار القرار) لخلودها ودوام ما فيها (من عمل) فى الدنيا (سيئة فلا يجزى) فى الآخرة (الا مثلها) عدلا من الله سبحانه وفيه دليل على أن الجنايات تغرم بأمثالها (ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك) الذين عملوا ذلك (يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) أى بغير تقدير وموازنة بالعمل بل أضعافا مضاعفة فضلا من الله عز وجل ورحمة وجعل العمل عمدة والايمان حالا للايذان بأنه لا عبرة بالعمل بدونه وأن ثوابه أعلى من ذلك (وياقوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار) كرر نداءهم ايقاظا لهم عن سنة الغفلة واعتناء بالمنادى له ومبالغة فى توبيخهم على ما يقابلون به نصحه ومدار التعجب الذى يلوح به الاستفهام دعوتهم اياه الى النار ودعوته اياهم الى النجاة كأنه قيل أخبرونى كيف هذه الحال أدعوكم الى الخير وتدعوننى الى الشر وقد جعله بعضهم من قبيل مالى أراك حزينا أى مالك تكون حزينا وقوله تعالى (تدعوننى لاكفر بالله) بدل أو بيان وفيه تعليل والدعاء كالهداية فى التعدية بالى واللام (وأشرك به ما ليس لى به) بشركته له تعالى فى المعبودية وقيل بربوبيته (علم) والمراد نفى المعلوم والاشعار بأن الالوهية لابد لها من برهان موجب للعلم بها (وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار)

الجامع لجميع صفات الالوهية من كمال القدرة والغلبة وما يتوقف عليه من العلم والارادة والتمكن من المجازاة والقدرة على التعذيب والغفران (لا جرم) لا رد لما دعوه اليه وجرم فعل ماض بمعنى حق وفاعله قوله تعالى (أن ما تدعوننى اليه ليس له دعوة وحيث

قوم لوط بالنذر) ثم بين عذابهم واهلاكهم فقال (انا أرسلنا عليهم حاصبا الا آل لوط نجيناهم بسحر) وفيه مسائل (الاولى) الحاصب فاعل من حصب اذا رمى الحصباء وهى اسم الحجارة والمرسل عليهم هو نفس الحجارة قال الله تعالى وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل وقال تعالى عن الملائكة لنرسل عليهم حجارة من طين فالمرسل عليهم ليس بحاصب فكيف الجواب عنه نقول الجواب من وجوه (الاول) أرسلنا عليهم ريحا حاصبا بالحجارة التى هى الحصباء وكثر استعمال الحاصب فى الريح الشديدة فاقام الصفة مقام الموصوف (فان قيل) هذا ضعيف من حيث اللفظ والمعنى أما اللفظ فلان الريح مؤنثة قال تعالى ريح صرصر عاتية بريح طيبة وقال تعالى انا سخرنا له الريح تجرى بأمره وقال تعالى غدوها شهر وقال تعالى فى الرياح لواقح وما قال لقاحا ولاقحة وأما المعنى فلان الله تعالى بين أنه أرسل عليهم حجارة من سجيل مسومة عليها علامة كل واحد وهى لا تسمى حصباء وكان ذلك بايدى الملائكة لا بالريح (نقول) تأنيث الريح ليس حقيقة ولها أصناف الغالب فيها التذكير كالاعصار قال تعالى اعصار فيه نار فلما كان حاصب حجارة كان كالذى فيه نار وأما قوله كان الرمى بالسجيل لا بالحصباء وبايدى الملائكة لا بالريح فنقول كل ريح ترمى بحجارة يسمى حاصبا كيف لا والسحاب الذى يأتى بالبرد يسمى حاصبا تشبيها للبرد بالحصباء فكيف لا يقال فى السجيل وأما الملائكة فانهم حركوا الريح وهى حصبت الحجارة عليهم (الجواب الثانى) المراد عذاب حاصب وهذا أقرب لتناوله الملك والسحاب والريح وكل ما يفرض (الجواب الثالث) قوله حاصبا هو أقرب من الكل لان قوله انا أرسلنا يدل على مرسل هو مرسل الحجارة وحاصبها فان قيل كان ينبغى أن يقول حاصبين نقول لما لم يذكر الموصوف رجح جانب اللفظ كأنه قال شيأ حاصبا اذ المقصود بيان جنس العذاب لا بيان من على يده العذاب وهذا وارد على من قال الريح مؤنث لان ترك التأنيث هناك كترك علامة الجمع هنا (المسئلة الثانية) ما رتب الارسال على التكذيب بالفاء فلم يقل كذبت قوم لوط بالنذر فأرسلنا كما قال ففتحنا أبواب السماء لان الحكاية مسوقة على مساق ما تقدم من الحكايات فكأنه قال فكيف كان عذابى ونذر كما قال من قبل ثم قيل لا علم لنا به وانما أنت العليم فأخبرنا فقال انا أرسلنا (المسئلة الثالثة) الحكمة فى ترك العذاب حيث لم يقل فكيف كان عذابى كما قال فى الحكايات الثلاث نقول لان التكرار ثلاث مرات بالغ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم ألا هل بلغت ثلاثا وقال صلى الله عليه وسلم فنكاحها باطل باطل باطل والاذكار تكرر ثلاث مرات فبثلاث مرار حصل التأكيد وقد بينا أنه تعالى ذكر فكيف كان عذابى فى حكاية نوح للتعظيم وفى حكاية ثمود للبيان وفى حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعا واعلم أنه تعالى ذكر فكيف كان عذابى فى ثلاث حكايات أربع مرات فالمرة الواحدة للانذار والمرات الثلاثة للاذكار لان المقصود حصل بالمرة الواحدة وقوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان ذكره مرة للبيان وأعادها ثلاثين مرة غير المرة الاولى كما أعاد فكيف كان عذابى ونذر ثلاث مرات غير المرة الاولى فكان ذكر الآلاء عشرة أمثال ذكر العذاب اشارة الى الرحمة التى قال فى بيانها من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وسنبين ذلك فى سورة الرحمن (المسئلة الرابعة) الا آل لوط استثناء مماذا ان كان من الذين قال فيهم انا أرسلنا عليهم حاصبا فالضمير فى عليهم عائد الى قوم لوط وهم الذين قال فيهم كذبت قوم لوط ثم قال انا أرسلنا عليهم لكن لم يستثن عند قوله كذبت قوم لوط وآله من قومه فيكون آله قد كذبوا ولم يكن كذلك الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الاستثناء ممن عاد اليهم الضمير فى عليهم وهم القوم باسرهم غير ان قوله كذبت قوم لوط لا يوجب كون آله مكذبين لان قول القائل عصى أهل بلدة كذا يصح وان كان فيها شرذمة قليلة يطيعون فكيف اذا كان فيهم واحد او اثنان من المطيعين لا غير فان قيل ما له حاجة الى الاستثناء لان قوله انا أرسلنا عليهم يصح وان نجا منهم طائفة يسيرة نقول الفائدة لما كانت لا تحصل الابيان اهلاك من كذب وانجاء من آمن فكان ذكر الانجاء مقصودا

وحيث يكون اقليل من الجمع الكثير مقصود الا يجوز التعميم والاطلاق من غير بيان حال ذلك المقصود بالاستثناء أو بكلام منفصل مثاله فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس استثنى الواحد لانه كان مقصودا وقال تعالى وأوتيت من كل شئ ولم يستثن اذ المقصود بيان انها أوتيت لابيان انها ما أوتيت وفي حكاية ابليس كان مهما ادليعلم أن من تكبر على آدم عوقب ومن تواضع أثيب كذلك القول ههنا وأما عند التكذيب فكان المقصود ذكر المكذبين فلم يستثن (الجواب الثانى) ان الاستثناء من كلام مدلول عليه كأنه قال انا أرسلنا عليهم حاصبا فما أنجينا من الحاصب الا آل لوط وجاز أن يكون الارسال عليهم والاهلاك يكون عاما كما في قوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة فكان الحاصب أهلك من كان الارسال عليه مقصودا ومن لم يكن كذلك كاطفالهم ودوابهم ومساكنهم فما نجا منهم أحد الا آل لوط فان قيل اذا لم يكن الاستثناء من قوم لوط بل كان من أمر عام فيجب أن يكون لوط أيضا مستثنى نقول هو مستثنى عقلا لان من المعلوم انه لا يجوز تركه وانجاء اتباعه والذى يدل عليه أنه مستثنى قوله تعالى عن الملائكة نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته في جوابهم لابراهيم عليه السلام حيث قال ان فيها لوطا فان قيل قوله في سورة الحجر الا آل لوط انا لمنجوهم استثناء من المجرمين وآل لوط لم يكونوا مجرمين فكيف استثنى منهم والجواب مثل ماذكرنا (فأحد الجوابين) انا أرسلنا الى قوم يصدق عليهم انهم مجرمون وان كان فيهم من لم يجرم (ثانيهما) الى قوم مجرمين باهلاك يعم الكل الا آل لوط وقوله تعالى نجيناهم بسحر كلام مستأنف لبيان وقت الانجاء أو لبيان كيفية الاستثناء لان آل لوط كان يمكن أن يكونوا فيهم ولا يصيبهم الحاصب كما في عاد كانت الريح تقلع الكافر ولا يصيب المؤمن منها مكروه أو يجعل لهم مدفعا كما في قوم نوح فقال نجيناهم بسحر أي أمرناهم بالخروج من القرية في آخر الليل والسحر قبيل الصبح وقيل هو السدس الاخير من الليل ۞ ثم قال تعالى ﴿نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر﴾ أي ذلك الانجاء كان فضلا منا كما ان ذلك الاهلاك كان عدلا ولو أهلكوا لكان ذلك عدلا قال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة قال الحكماء العضو الفاسد يقطع ولا بد أن يقطع معه جزء من الصحيح ليحصل استئصال الفساد غير ان الله تعالى قادر على التمييز التام فهو مختار ان شاء أهلك من آمن وكذب ثم يثبت الذين أهلكم من المصدقين في دار الجزاء وان شاء أهلك من كذب فقال نعمة من عندنا اشارة الى ذلك وفي نصبها وجهان (أحدهما) انه مفعول له كانه قال نجيناهم نعمة منا (ثانيهما) على انه مصدر لان الانجاء منه انعام فكانه تعالى قال أنعمنا عليهم بالانجاء انعاما وقوله تعالى كذلك نجزى من شكر فيه وجهان (أحدهما) ظاهر وعليه أكثر المفسرين وهو انه من آمن كذلك نجيه من عذاب الدنيا ولا نهلكه وعد الامة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين بانه يصونهم عن الاهلاكات العامة والسيآت المطبقة الشاملة (وثانيهما) وهو الاصح ان ذلك وعد لهم وجزاؤهم بالثواب في دار الآخرة كانه قال كما نجيناهم في الدنيا أي كما أنعمنا عليهم ننعم عليهم يوم الحساب والذى يؤيد هذا أن النجاة من الاهلاكات في الدنيا ليس بلازم ومن عذاب الله في الآخرة لازم بحكم الوعيد وكذلك ينجى الله الشاكرين من عذاب النار ويذر الظالمين فيه ويدل عليه قوله تعالى من يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين وقوله تعالى فاثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين والشاكر محسن فعلم أن المراد جزاؤهم في الآخرة ۞ ثم قال تعالى ﴿ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر﴾ وفيه تبرئة لوط عليه السلام وبيان أنه أتى بما عليه فانه تعالى لما رتب التعذيب على التكذيب وكان من الرحمة أن يؤخره ويقدم عليه الانذارات البالغة بين ذلك فقال أهلكناهم وكان قد أنذرهم من قبل وفي قوله بطشتنا وجهان (أحدهما) المراد البطشة التى وقعت وكان يخوفهم بها ويدل عليه قوله تعالى انا أرسلنا عليهم حاصبا فكانه قال انا أرسلنا عليهم ما سبق ذكرها للانذار بها والتخويف

في الدنيا ولا في الآخرة) أي حق ووجب عدم دعوة آلهتكم الى عبادتها أصلا أو عدم دعوة مستجابة أو عدم استجابة دعوة لها وقيل جرم بمعنى كسب وفاعله مستكن فيه أي كسب ذلك الدعاء اليه بطلان دعوته بمعنى ما حصل من ذلك الا ظهور بطلان دعوته وقيل جرم فعل من الجرم وهو القطع كما أن بد من لابد فعل من التبديد أي التفريق والمعنى لاقطع لبطلان الوهية الاصنام أي لا ينقطع في وقت ما فينقلب حقا ويؤيده قولهم لاجرم أنه يفعل بضم الجيم وسكون الراء وفعل وفعل اخوان كرشد ورشد (وأن مردنا الى الله) أي بالموت عطف على أن ما تدعونني داخل في حكمه وكذا قوله تعالى (وأن المسرفين) أي في الضلال والطغيان كالاشراك وسفك الدماء (هم أصحاب النار) أي ملازموها (فستذكرون) وقرئ فستذكرون أي فيذكر بعضكم بعضا عند معاينة العذاب (ما أقول لكم) من النصائح (وأفوض أمرى الى الله) قاله لما أنهم كانوا توعدوه (ان الله بصير بالعباد) فيحرس من يلوذ به من المكاره (فوقاه الله سيئات ما مكروا) شدائد مكرهم وما هموا به من الحاق أنواع العذاب بمن خالفهم قيل نجا مع موسى عليه السلام (وحاق بآل فرعون) أي بفرعون وقومه وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره ضرورة أنه أولى منهم بذلك وقيل بطلبة المؤمن من قومه لما أنه فر الى جبل فاتبعه طائفة ليأخذوه فوجدوه يصلى والوحوش صفوف حوله فرجعوا رعبا فقتلهم (سوء العذاب) الغرق والقتل والنار (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان كيفية سوء العذاب أو النار خبر مبتدا محذوف كأن قائلا قال ما سوء العذاب فقيل هو النار ويعرضون استئناف للبيان أو بدل من سوء العذاب ويعرضون حال منها أو من الآل ولا يشترط في الحيق أن يكون الحائق ذلك السوء بعينه حتى يرد أن آل فرعون لم يهموا بتعذيبه بالنار ليكون ابتلاؤهم بها من قبيل رجوع ما هموا به عليهم بل يكفي في ذلك

(وثانيهما) المراد بها ما في الآخرة كما في قوله تعالى يوم نبطش البطشة الكبرى وذلك لان الرسل كلهم كانوا ينذرون قومهم بعذاب الآخرة كما قال تعالى فانذرتكم نارا تلظى وقال وأنذرهم يوم الآزفة وقال تعالى انا أنذرناكم عذابا قريبا الى غير ذلك وعلى هذا فيه لطيفة وهي ان الله تعالى قال ان بطش ربك لشديد وقال ههنا بطشتنا ولم يقل بطشنا وذلك لان قوله تعالى ان بطش ربك لشديد بيان لجنس بطشه فاذا كان جنسه شديدا فكيف الكبرى منه وأما لوط عليه السلام فذكر لهم البطشة الكبرى لئلا يكون مقصرا في التبليغ وقوله تعالى فتماروا بالنذر يدل على أن النذر هي الانذارات ۞ ثم قال تعالى ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾ والمراودة من الرود ومنه الارادة وهي قريبة من المطالبة غير أن المطالبة تستعمل في العين يقال طالب زيد عمرا بالدراهم والمراودة لا تستعمل الا في العمل يقال راوده عن المساعدة ولهذا تعدى المراودة الى مفعول ثان بعن والمطالبة بالباء وذلك لان الشغل منوط باختيار الفاعل والعين قد توجد من غير اختيار منه وهذا فرق الحال فاذا قلت أخبرني بأمره تعين عليه الخبر بالعين بخلاف ما اذا قيل عن كذا ويزيد هذا ظهورا قول القائل أخبرني زيد عن مجيء فلان وقوله أخبرني بمجيئه فان من قال عن مجيئه ربما يكون الاخبار عن كيفية المجيء لا عن نفسه وأخبرني بمجيئه لا يكون الا عن نفس المجيء، والضيف يقع على الواحد والجماعة وقد ذكرناه في سورة الذاريات وكيفية المراودة مذكورة فيما تقدم وهي انهم كانوا مفسدين وسمعوا بضيف دخلوا على لوط فراودوه عنهم وقوله فطمسنا أعينهم نقول ان جبريل كان فيهم فضرب ببعض جناحه على وجوههم فأعماهم وفي الآية مسائل (الاولى) الضمير في راودوه ان كان عائدا الى قوم لوط فما في قوله أعينهم أيضا عائد اليهم فيكون قد طمس أعين قوم لوط ولم يطمس الا أعين قليل منهم وهم الذين دخلوا دار لوط وان كان عائدا الى الذين دخلوا الدار فلا ذكر لهم فكيف القول فيه نقول المراودة حقيقة حصلت من جمع منهم لكن لما كان الامر من القوم وكان غيرهم ذلك مذهبه أسندها الى الكل ثم بقوله راودوه حصل قوم هم المراودون حقيقة فعاد الضمير في أعينهم اليهم مثاله قول القائل الذين آمنوا صلوا فصحت صلاتهم فيكون هم في صلاتهم عائدا الى الذين صلوا بعدما آمنوا ولا يعود الى مجرد الذين آمنوا لانك لو اقتصرت على الذين آمنوا فصحت صلاتهم لم يكن كلاما منظوما ولو قلت الذين صلوا فصحت صلاتهم صح الكلام فعلم أن الضمير عائد الى ما حصل بعد قوله راودوه والضمير في راودوه عائد الى المنذرين المتمارين بالنذر (المسئلة الثانية) قال ههنا فطمسنا أعينهم وقال في يس ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فما الفرق نقول هذا مما يؤيد قول ابن عباس فانه نقل عنه أنه قال المراد من الطمس الحجب عن الادراك فما جعل على بصرهم شيء غير انهم دخلوا ولم يروا هناك شيأ فكانوا كالمطموسين وفي يس أراد انه لو شاء لجعل على بصرهم غشاوة أي ألزق احدى الجفنين بالآخر فيكون على العين جلدة فيكون قد طمس عليها وقال غيره انهم عموا وصارت عينهم مع وجوههم كالصفحة الواحدة ويؤيده قوله تعالى فذوقوا عذابي لانهم ان بقوا مبصرين ولم يروا شيأ هناك لا يكون ذلك عذابا والطمس بالمعنى الذي قاله غير ابن عباس عذاب فنقول الاولى أن يقال انه تعالى حكى ههنا ما وقع وهو طمس العين واذهاب ضوئها وصورتها بالكلية حتى صارت وجوههم كالصفحة الملساء ولم يمكنهم الانكار لانه أمر وقع وأما هناك فقد خوفهم بالممكن المقدور عليه فاختار ما يصدقه كل أحد ويعرف به وهو الطمس على العين لان اطباق الجفن على العين أمر كثير الوقوع وهو بقدرة الله تعالى وارادته فقال ولو نشاء لطمسنا على أعينهم وما شققنا جفنهم عن عينهم وهو أمر ظاهر الامكان كثير الوقوع والطمس على ما وقع لقوم لوط نادر فقال هناك على أعينهم ليكون أقرب الى القبول (المسئلة الثالثة) قوله تعالى فذوقوا عذابي ونذر خطاب ممن وقع ومع من وقع قلنا فيه وجوه (أحدها) فيه اضمار تقديره فقلت على لسان الملائكة ذوقوا عذابي (ثانيها) هذا خطاب مع كل مكذب تقديره كنتم تكذبون فذوقوا عذابي

أن يكون مما اطلق عليه اسم السوء وقرئت منصوبة على الاختصاص أو باضمار فعل يفسره يعرضون مثل يصلون فان عرضهم على النار باحراقهم بها من قولهم عرض الاسارى على السيف اذا قتلوا به وذلك لارواحهم كما روى ابن مسعود رضي الله عنه أن أرواحهم في اجواف طير سود تعرض على النار بكرة وعشيا الى يوم القيامة وذكر الوقتين اما للتخصيص واما فيما بينهما فالله تعالى أعلم بحالهم واما للتأبيد هذا ما دامت الدنيا (ويوم تقوم الساعة) يقال للملائكة (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أي عذاب جهنم فانه أشد مما كانوا فيه أو أشد عذاب جهنم فان عذابها ألوان بعضها أشد من بعض وقرئ ادخلوا من الدخول أي يقال لهم ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب (واذ يتحاجون في النار) أي واذكر لقومك وقت تخاصمهم فيها (فيقول الضعفاء) منهم (للذين استكبروا) وهم رؤساؤهم (انا كنا لكم تبعا) أتباعا كخدم في جمع خادم أو ذوي تبع أي اتباع على اضمار المضاف أو تبعا على الوصف بالمصدر مبالغة (فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) بالدفع أو بالحمل ونصيبا منصوب بمضمر يدل عليه مغنون أي دافعون عنا نصيبا الخ أو بمغنون على تضمينه معنى الحمل أي مغنون عنا حاملين نصيبا الخ أو نصب على المصدرية كشيأ في قوله تعالى لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيأ فانه في موقع غناء فكذلك نصيبا (قال الذين استكبروا انا كل فيها) أي نحن وأنتم فكيف نغني عنكم ولو قدرنا لاغنينا عن أنفسنا وقرئ كلا على التأكيد لاسم ان بمعنى كلنا وتنوينه عوض عن المضاف اليه ولا مساغ لجعله حالا من المستكن في الظرف فانه لا يعمل في الحال المتقدمة كما يعمل في الظرف المتقدم فانك تقول كل يوم لك ثوب ولا تقول جديدا لك ثوب (ان الله قد حكم بين العباد) وقضى قضاء متقنا لا مرد له ولا معقب لحكمه (وقال الذين في النار) من الضعفاء والمستكبرين جميعا لما ضاقت حيلهم وعيت بهم فانهم

فانهم لما كذبوا اذاقوه (ثالثها) ان هذا الكلام خرج مخرج كلام الناس فان الواحد من الملوك اذا أمر بضرب مجرم وهو شديد الغضب فاذا ضرب ضربا مبرحا وهو يصرخ والملك يسمع صراخه يقول عند سماع صراخه ذق انك مجرم متساهل ويعلم الملك أن المعذب لا يسمع كلامه ويخاطب بكلامه المستغيث الصارخ وهذا كثير فكذلك لما كان كل أحد يرى من الله تعالى يسمع اذا عذب معاندا كان قد سخط الله عليه يقول ذق انك أنت العزيز الكريم ذوقوا اليوم مكم هذا فذوقوا عذابي ولا يكون به مخاطبا لمن يسمع ويجيب وذلك اظهار العدل أى لست بغافل عن تعذيبك فتخلص بالصراخ والضراعة وانما أنا بك عالم وأنت له أهل لما قد صدر منك فان قيل هذا وقع بغير الفاء واما بالفاء فلا نقول وبالفاء فانه ربما يقول كنتم تكذبون فذوقوا (المسئلة الرابعة) النذر كيف يذاق نقول معناه ذق فعلك أى مجازاة فعلك وموجبه ويقال ذق الالم على فعلك وقوله فذوقوا عذابي كقولهم ذق الالم وقوله ونذر كقولهم ذق فعلك أى ذق مالزم من انذاري فان قيل فعلى هذا لا يصح العطف لان قوله فذوقوا عذابي ومالزم من انذاري وهو العذاب يكون كقول القائل ذوقوا عذابي وعذابي نقول قوله تعالى فذوقوا عذابي أى العاجل منه ومالزم من انذاري وهو العذاب الآجل لان الانذار كان به على ما تقدم بيانه فكانه قال ذوقوا عذابي العاجل وعذابي الآجل فان قيل هما لم يكونا فى زمان واحد فكيف يقال ذوقوا نقول العذاب الآجل أوله متصل بآخر العذاب العاجل فهما كالواقع فى زمان واحد وهو كقوله تعالى أغرقوا فادخلوا نارا ۞ ثم قال تعالى (ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) أى العذاب الذى عم القوم بعد الخاص الذى طمس أعين البعض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) صبحهم فيه دلالة على الصبح فما معنى بكرة نقول فائدته تبيين انطرافه فيه فقوله بكرة يحتمل وجهين (أحدهما) انها منصوبة على انها ظرف ومثله نقول فى قوله تعالى أسرى بعبده ليلا وفيه بحث وهو ان الزمخشري قال ما الفائدة فى قوله ليلا وقال جوابا فى التنكير دلالة على انه كان فى بعض الليل وعسك بقراءة من قرأ من الليل وهو غير ظاهر والاظهر فيه ان يقال بان الوقت المبهم يذكر لبيان ان تعيين الوقت ليس بمقصود المتكلم وانه لا يريد بيانه كما يقول خرجنا فى بعض الاوقات مع ان الخروج لابد من ان يكون فى بعض الاوقات فانه لا يريد بيان الوقت المعين ولو قال خرجنا فربما يقول السامع متى خرجتم فاذا قال فى بعض الاوقات أشار الى أن غرضه بيان الخروج لا تعيين وقته فكذلك قوله تعالى صبحهم بكرة أى بكرة من البكر وأسرى بعبده ليلا أى ليلا من الليالى فلا أبينه فان المقصود نفس الاسراء ولو قال أسرى بعبده من المسجد الحرام لكان للسامع أن يقول أى ليلة فاذا قال ليلة من الليالى قطع سؤاله وصار كانه قال لا أبينه وان كان القائل ممن يجوز عليه الجهل فانه يقول لا أعلم الوقت فهذا أقرب فاذا علمت هذا فى أسرى ليلا فاعلم مثله فى صبحهم بكرة ويحتمل ان يقال على هذا الوجه صبحهم بمعنى قال لهم عموا صباحا استهزاء بهم كما قال فبشرهم بعذاب أليم فكانه قال جاءهم العذاب بكرة كالمصبح والاول أصح ويحتمل قوله تعالى صبحهم بكرة على قولنا انها منصوبة على الظرف مالا يحتمله قوله تعالى أسرى بعبده ليلا وهو أن صبحهم معناه أتاهم وقت الصبح لكن التصبيح يطلق على الاتيان فى أزمنة كثيرة من أول الصبح الى ما بعد الاسفار فاذا قال بكرة أفاد انه كان أول جزء منه وما أخر الى الاسفار وهذا أوجه وأليق لان الله تعالى أوعدهم به وقت الصبح بقوله ان موعدهم الصبح وكان من الواجب بحكم الاخبار تحققه بمجىء العذاب فى أول الصبح ومجرد قوله صبحهم ما كان يفيد ذلك وهذا أقوى لانك تقول صبحته أمس بكرة واليوم بكرة فيأتى فيه ما ذكرنا من ان المراد بكرة من البكر (الوجه الثانى) انها منصوبة على المصدر من باب ضربته سوطا ضربا فان المنصوب فى ضربته ضربا على المصدر وقد يكون غير المصدر كما فى ضربته سوطا لا يقال ضربته سوطا بين أحد أنواع الضرب لان الضرب قد يكون بسوط وقد يكون بغيره وأما بكرة فلا يبين ذلك لانا نقول قد بينا ان بكرة بين ذلك لان

عليهم (لخزنة جهنم) أى للقوام بتعذيب أهل النار ووضع جهنم موضع الضمير للتهويل والتفظيع أو لبيان محلهم فيها بان تكون جهنم أبعد دركات النار وفيها أعتى الكفرة وأطغاهم أو لكون الملائكة الموكلين بعذاب أهلها أقدر على (٥٦٥) الشفاعة لمزيد قربهم من الله تعالى (ادعوا ربكم يخفف عنا يوما) أى مقدار يوم أو فى يوم ما من الايام على أنه ظرف لا معيار شيأ (من العذاب) واقتصارهم فى الاستدعاء على ما ذكر من تخفيف قدر يسير من العذاب فى مقدار قصير من الزمان دون رفعه رأسا أو تخفيف قدر كثير منه فى زمان مديد لان ذلك عندهم مما ليس فى حيز الامكان ولا يكاد يدخل تحت امانيهم (قالوا) اى الخزنة (أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات) أى ألم تنبهوا على هذا ولم تك تأتيكم رسلكم فى الدنيا على الاستمرار بالحجج الواضحة الدالة على سوء مغبة ما كنتم عليه من الكفر والمعاصى كما فى قوله تعالى ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا أرادوا بذلك الزامهم وتوبيخهم على اضاعة أوقات الدعاء وتعطيل أسباب الاجابة (قالوا بلى) أى اتونا بها فكذبناهم كما نطق به قوله تعالى بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ ان أنتم الا فى ضلال كبير والفاء فى قوله تعالى (قالوا فادعوا) فصيحة كما فى قول من قال

* فقد جئنا خراسانا *

أى اذا كان الامر كذلك فادعوا انتم فان الدعاء لمن يفعل ذلك مما يستحيل صدوره عنا وتعليل امتناعهم عن الدعاء بعدم الاذن فيه مع عرائه عن بيان أن سببه من قبلهم كما تفصح عنه الفاء ربما يوهم أن الاذن فى حيز الامكان وأنهم لو أذن لهم فيه لفعلوا ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء اطماعهم فى الاجابة بل اقناطهم منها واظهار خيبتهم حسبما صرحوا به فى قولهم (وما دعاء الكافرين الا فى ضلال) أى ضياع وبطلان وقوله تعالى (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا) الخ كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى لبيان أن ما أصاب الكفرة من العذاب المحكى

من فروع حكم كلى تقتضيه الحكمة وهو أن شأننا المستمر أنا ننصر رسلنا وأتباعهم (فى الحيوة الدنيا) بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة بالاستئصال والقتل والسبي وغير ذلك من العقوبات ولا يقدح فى ذلك ما قد يتفق لهم من صورة الغلبة امتحانا اذ العبرة انما هى بالعواقب وغالب الامر (ويوم يقوم الاشهاد) أى يوم القيامة عبر عنه بذلك للاشعار بكيفية النصرة وأنها تكون عند جميع الاولين والآخرين بشهادة الاشهاد للرسل بالتبليغ وعلى الكفرة بالتكذيب (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) بدل من الاول وعدم نفع المعذرة لانها باطلة وقرئ لا تنفع بالتاء (ولهم اللعنة) أى البعد عن الرحمة (ولهم سوء الدار) أى جهنم (ولقد آتينا موسى الهدى) ما يهتدون به من المعجزات والصحف والشرائع (وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب) وتركنا عليهم من بعده التوراة (هدى وذكرى) هداية وتذكرة أو هاديا ومذكرا (لاولى الالباب) لذوى العقول السليمة العاملين بما فى تضاعيفه (فاصبر) على ما نالك من أذية المشركين (ان وعد الله) أى وعده الذى ينطق به قوله تعالى ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون أو وعده الخاص بك أو جميع مواعيده التى من جملتها ذلك (حق) لا يحتمل الاخلاف أصلا واستشهد بحال موسى وفرعون (واستغفر لذنبك) تداركا لما فرط منك من ترك الاولى فى بعض الاحايين فانه تعالى كافيك فى نصرة دينك واظهاره على الدين كله (وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار) أى ودم على التسبيح ملتبسا بحمده تعالى وقيل صل لهذين الوقتين اذ كان الواجب بمكة ركعتين بكرة وركعتين عشيا وقيل صل شكرا لربك بالعشى والابكار وقيل هما صلاة العصر وصلاة الفجر (ان الذين يجادلون فى آيات الله) ويجحدون بها (بغير سلطان أتاهم) فى ذلك من جهته تعالى وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة اتيانه للايذان بأن التكلم فى أمر الدين لا بد من استناده الى سلطان مبين

الصبح قد يكون بالاتيان وقت الاسفار وقد يكون بالاتيان بالابكار فان قيل مثله يمكن ان يقال فى أسرى بعبده ليلا قلنا نعم فان قيل ليس هناك بيان نوع من أنواع الاسراء نقول هو كقول القائل ضربته شيأ فان شيأ لابد منه فى كل ضرب ويصح ذلك على انه نصب على المصدر وفائدته ماذكرنا من بيان عدم تعلق الغرض بانواعه وكان القائل يقول انى لا أبين ما ضربته به ولا احتاج الى بيانه لعدم تعلق المقصود به ليقطع سؤال السائل بماذا ضربه بسوط أو بعصا فكذلك القول فى أسرى بعبده ليلا يقطع سؤال السائل عن الاسراء لان الاسراء هو السير أول الليل والسرى هو السير آخر الليل أو غير ذلك (المسئلة الثانية) مستقر يحتمل وجوها (أحدها) عذاب لا مدفع له أى يستقر عليهم ويثبت ولا يقدر أحد على ازالته ورفعه أو احالته ودفعه (ثانيها) دائم فانهم لما أهلكوا نقلوا الى الجحيم فكان ما أتاهم عذابا لا يندفع بموتهم فان الموت يخلص من الالم الذى يجده المضروب من الضرب والمحبوس من الحبس وموتهم ما خلصهم (ثالثها) عذاب مستقر عليهم لا يتعدى غيرهم أى هو أمر قد قدره الله عليهم وقرره فاستقر وليس كما يقال انه أمر أصابهم اتفاقا كالبرد الذى يضر زرع قوم دون قوم ويظن به انه أمر اتفاقى وليس لو خرجوا من أماكنهم لنجوا كما نجا آل لوط بل كان ذلك يتبعهم لانه كان أمرا قد استقر (المسئلة الثالثة) الضمير فى صبحهم عائد الى الذين عاد اليهم الضمير فى أعينهم فيعود لفظا اليهم للقرب ومعنى الى الذين تماروا بالنذر أو الذين عاد اليهم الضمير فى قوله ولقد أنذرهم بطشتنا ۞ ثم قال تعالى ﴿فذوقوا عذابى ونذر﴾ مرة أخرى لان العذاب كان مرتين أحدهما خاص بالمراودين والآخر عام ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ قد فسرناه مرارا وبينا ما لاجله كرر تكرارا ۞ ثم قال تعالى ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى لفظ آل فرعون بدل قوم فرعون نقول القوم أعم من الآل فالقوم كل من يقوم الرئيس بأمرهم أو يقومون بأمره والآل كل من يؤل الى الرئيس خيرهم وشرهم أو يؤل اليهم خيره وشره فالبعيد الذى لا يعرفه الرئيس ولا يعرف هو عين الرئيس وانما يسمع اسمه فليس هو باله اذا عرفت الفرق نقول قوم الانبياء الذين هم غير موسى عليهم السلام لم يكن فيهم قاهر يقهر الكل ويجمعهم على كلمة واحدة وانما كانوا هم رؤساء واتباعا والرؤساء اذا كثروا لا يبقى لاحد منهم حكم نافذ على أحد أما على من هو مثله فظاهر وأما على الاراذل فلانهم يلجؤن الى واحد منهم ويدفعون به الآخر فيصير كل واحد برأسه فكان الارسال اليهم جميعا وأما فرعون فكان قاهرا يقهر الكل وجعلهم بحيث لا يخالفونه فى قليل ولا كثير فارسل الله اليه الرسول وحده غير انه كان عنده جماعة من التابعين المقربين مثل قارون تقدم عنده لماله العظيم وهامان لدهائه فاعتبرهم الله فى الارسال حيث قال فى مواضع ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون وملائه وقال تعالى بآياتنا الى فرعون وهامان وقارون وقال فى العنكبوت وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى لانهم ان آمنوا آمن الكل بخلاف الاقوام الذين كانوا قبلهم وبعدهم فقال ولقد جاء آل فرعون النذر وقال كثيرا مثل هذا كما فى قوله أدخلوا آل فرعون أشد العذاب وقال تعالى وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه وقال بلفظ الملأ أيضا كثيرا (المسئلة الثانية) قال ولقد جاء ولم يقل فى غيرهم جاء لان موسى عليه السلام ما جاءهم كما جاء المرسلون أقوامهم بل جاءهم حقيقة حيث كان غائبا عن القوم فقدم عليهم ولهذا قال تعالى فلما جاء آل لوط المرسلون وقوله تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم حقيقة أيضا لانه جاءهم من الله من السموات بعد المعراج كما جاء موسى قومه من الطور حقيقة (المسئلة الثالثة) النذر ان كان المراد منها الانذارات وهو الظاهر فالكلام الذى جاءهم على لسان موسى ويده تلك وان كان المراد الرسل فهو لان موسى وهرون عليهما السلام جاآه وكل مرسل تقدمهما جاءه لانهم كلهم قالوا ما قالا من التوحيد وعبادة الله وقوله بعد ذلك كذبوا بآياتنا من غير فاء تقتضى ترتب التكذيب على المجىء فيه وجهان (أحدهما)

ان الكلام تم عند قوله ولقد جاء آل فرعون النذر وقوله كذبوا كلام مستأنف والضمير عائد الى كل من تقدم ذكرهم من قوم نوح الى آل فرعون (ثانيهما) ان الحكاية مسوقة على سياق ما تقدم فكأنه قال فكيف كان عذابي ونذر وقد كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم وعلى الوجه الاول آياتنا كلها ظاهرة وعلى الوجه الثاني المراد آياته التي كانت مع موسى عليه السلام وهي التسع في قول أكثر المفسرين ويحتمل أن يقال المراد انهم كذبوا بآيات الله كلها السمعية والعقلية فان في كل شئ له آية تدل على انه واحد وقوله تعالى فأخذناهم اشارة الى انهم كانوا كالآبقين أو الى انهم عاصون يقال أخذ الامير فلانا اذا حبسه وفي قوله عزيز مقتدر لطيفة وهي ان العزيز المراد منه الغالب لكن العزيز قد يكون يغلب على العدو ويظفر به وفي الاول يكون غير متمكن من أخذه لبعده ان كان هاربا ولمنعته ان كان محاربا فقال أخذ غالب لم يكن عاجزا وانما كان ممهلا ۞ ثم قال تعالى ﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر﴾ تنبيها لهم لئلا يأمنوا العذاب فانهم ليسوا بخير من أولئك الذين أهلكوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب مع أهل مكة فينبغي أن يكون كفارهم بعضهم والا لقال أنتم خير من أولئكم واذا كان كفارهم بعضهم فكيف قال أم لكم براءة ولم يقل أم لهم كما يقول القائل جاءنا الكرماء فاكرمناهم ولا يقول فأكرمناكم نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان المراد منه أكفاركم المستمرون على الكفر الذين لا يرجعون وذلك لان جمعا عظيما ممن كان كافرا من أهل مكة يوم الخطاب آمنوا بوقوع ذلك والعذاب لا يقع الا بعد العلم بانه لم يبق من القوم من يؤمن فقال الذين يصرون منكم على الكفر يا أهل مكة خير أم الذين أصروا من قبل فيصح كون التهديد مع بعضهم واما قوله تعالى أم لكم براءة ففيه وجهان (أحدهما) أم لكم لعمومكم براءة فلا يخاف المصر منكم لكونه في قوم لهم براءة (وثانيهما) أم لكم براءة ان أصررتم فيكون الخطاب عاما والتهديد كذلك فالشرط غير مذكور وهو الاصرار (المسئلة الثانية) ما المراد بقوله خير وقول القائل خير يقتضي اشتراك أمرين في صفة محمودة مع رجحان أحدهما على الآخر ولم يكن فيهم خير ولا صفة محمودة نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) منع اقتضاء الاشتراك الذي يدل عليه قول حسان * فشركما لخيركما الفداء * مع اختصاص الخير بالنبي عليه السلام والشر بمن هجاه وعدم اشتراكهما في شئ منهما (ثانيها) ان ذلك عائد الى ما في زعمهم أي أزعم كفاركم انهم خير من الكفار المتقدمين الذين أهلكوا وهم كانوا يزعمون في أنفسهم الخير وكذا فيمن تقدمهم من عبدة الاوثان ومكذبي الرسل وكانوا يقولون ان الهلاك كان بأسباب سماوية من اجتماع الكواكب على هيئة مذمومة (ثالثها) المراد أكفاركم أشد قوة فكأنه قال كفاركم خير في القوة والقوة محمودة في العرف (رابعها) ان كل موجود ممكن ففيه صفات محمودة وأخرى غير محمودة فاذا نظرت الى المحمودة في الموضعين وقابلت احداهما بالاخرى تستعمل فيه لفظ الخير وكذلك في الصفات المذمومة تستعمل فيها لفظ الشر فاذا نظرت الى كافرين وقلت أحدهما خير من الآخر فلك حينئذ أن تريد أحدهما خير من الآخر في الحسن والجمال واذا نظرت الى مؤمنين يؤذيانك قلت أحدهما شر من الآخر أي في الاذية لا الايمان فكذلك ههنا أكفاركم خير لان النظر وقع على ما يصلح مخلصا لهم من العذاب فهو كما يقال أكفاركم فيهم شئ مما يخلصهم لم يكن في غيرهم فهم خير أم لا شئ فيهم يخلصهم لكن الله بفضله أمنهم لا بخصال فيهم (المسئلة الثالثة) أم لكم براءة اشارة الى سبب آخر من أسباب الخلاص وذلك لان الخلاص اما أن يكون بسبب أمر فيهم أو لا يكون كذلك فان كان بسبب أمر فيهم وذلك السبب لم يكن في غيرهم من الذين تقدموهم فيكونون خيرا منهم وان كان لا بسبب أمر فيهم فيكون بفضل الله ومسامحته اياهم واعفائه اياهم من العذاب فقال لهم أنتم خير منهم فلا تهلكون أم لستم بخير منهم لكن الله آمنكم وأهلكهم وكل واحد منهما منتف فلا تأمنوا وقوله تعالى أم لكم براءة في الزبر اشارة الى لطيفة وهي ان العاقل لا يأمن الا اذا حصل له الجزم بالامن أو صار له

البينة وهذا عام لكل مجادل مبطل وان نزل في مشركي مكة وقوله تعالى (ان في صدورهم الا كبر) خبر لان أي ما في قلوبهم الا تكبر عن الحق وتعظم عن التفكر والتعلم أو الارادة الرياسة والتقدم على الاطلاق أو الارادة أن تكون النبوة لهم دونك حسدا وبغيا حسبما قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وقالوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه ولذلك يجادلون فيه بالا أن فيها موقع جدال ما أو أن لهم شيأ يتوهم أن يصلح مدار المجادلة لهم في الجملة وقوله تعالى (ماهم ببالغيه) صفة لكبر قال مجدهم ماهم ببالغيه صفة لكبر قال مجاهد ماهم ببالغي مقتضى ذلك الكبر وهو ما أرادوه من الرياسة أو النبوة وقيل المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون لست صاحبنا المذكور في التوراة بل هو المسيح بن داود يريدون الدجال يخرج في آخر الزمان ويبلغ سلطانه البر والبحر وتسير معه الانهار وهو آية من آيات الله تعالى فيرجع الينا الملك فسمى الله تعالى تمنيهم ذلك كبرا ونفى أن يبلغوا متمناهم (فاستعذ بالله) أي فالتجئ اليه من كيد من يحسدك ويبغي عليك وفيه رمز الى أنه من همزات الشياطين (انه هو السميع البصير) لاقوالكم وأفعالكم وقوله تعالى (لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس) تحقيق للحق وتبيين لاشهر ما يجادلون فيه من أمر البعث على منهاج قوله تعالى أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لقصورهم في النظر والتأمل لفرط غفلتهم واتباعهم لاهوائهم (وما يستوي الاعمى والبصير) أي الغافل والمستبصر (والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسئ) أي والمحسن والمسئ فلا بد أن تكون لهم حال أخرى يظهر فيها ما بين الفريقين من التفاوت وهي فيما بعد البعث وزيادة لا في المسئ لتأكيد النفي لطول الكلام بالصلة ولان المقصود نفي مساواته للمحسن فيما له من الفضل والكرامة والعاطف الثاني عطف الموصول بما عطف عليه على الاعمى والبصير لتغاير الوصفين في المقصود

أو الدلالة بالصراحة والتمثيل (قليلا ما تتذكرون) على الخطاب بطريق الالتفات أي تذكرا قليلا تتذكرون وقرئ على الغيبة والضمير للناس أو
الكفار (ان الساعة لآتية لاريب فيها) أي في مجيئها لوضوح شواهدها واجماع الرسل على الوعد بوقوعها (ولكن أكثر

الناس لايؤمنون) لايصدقون بها لقصور أنظارهم على ظواهر مايحسون به (وقال ربكم ادعوني) أي اعبدوني (استجب لكم) أي أثبكم لقوله تعالى (ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) أي صاغرين أذلاء وان فسر الدعاء بالسؤال كان الامر الصارف عنه منزلا منزلة الاستكبار عن العبادة للمبالغة أو المراد بالعبادة الدعاء فانه من أفضل أبوابها وقرئ سيدخلون على صيغة المبني للمفعول من الادخال (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) بأن خلقه باردا مظلما ليؤدي الى ضعف المحركات وهدء الحواس لتستريحوا فيه وتقديم الجار والمجرور على المفعول قد مر سره مرارا (والنهار مبصرا) أي مبصرا فيه أو به (ان الله لذو فضل) عظيم لايوازيه ولايدانيه فضل (على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون) لجهلهم بالمنعم واغفالهم مواضع النعم وتكرير الناس لتخصيص الكفران بهم (ذلكم) المتفرد بالافعال المقتضية للالوهية والربوبية (الله ربكم خالق كل شئ لا اله الاهو) أخبار مترادفة تخصص اللاحقة منها السابقة وتقررها وقرئ خالق بالنصب على الاختصاص فيكون لا اله الاهو استئنافا بما هو كالنتيجة للاوصاف المذكورة (فأنى تؤفكون) فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته خاصة الى عبادة غيره (كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون)

أي مثل ذلك الافك العجيب الذي هو لاوجه له ولا مصحح أصلا يؤفك كل من جحد بآياته تعالى أي آية كانت لا افكا آخر له وجه ومصحح الله
في الجملة (الله الذي جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء) بيان لفضله تعالى المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان وقوله تعالى (وصوركم

آيات تقرب الامر من القطع فقال لكم براءة يوثق بها وتكون مسطورة في الكتب فان الحاصل في بعض الكتب ربما يحتمل التأويل أو يكون قد تطرق اليه التحريف والتبديل كما في التوراة والانجيل فقال هل حصل لكم براءة مسطورة في كتب تأمنون بسببها العذاب فان لم يكن كذلك لايجوز الامن لكن البراءة لم تحصل في كتب ولا في كتاب واحد ولا في شبه كتاب فيكون أمنهم من غاية الغفلة وعند هذا تبين فضل المؤمن فانه مع ما في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من الوعد لا يأمن وان بلغ درجة الاولياء والانبياء لما في آيات الوعيد من احتمال التخصيص وكون كل واحد ممن يستثنى من الامة ويخرج عنها فالمؤمن خائف والكافر آمن في الدنيا وفي الآخرة الامر على العكس ﴿ ثم قال تعالى (أم يقولون نحن جميع منتصر) تتميما لبيان أقسام الخلاص وحصره فيها وذلك لان الخلاص اما أن يكون لاستحقاق من يخلص عن العذاب كالملك اذا عذب جماعة ورأى فيهم من أحسن اليه فلا يعذبه واما أن يكون لامر في المخلص كما اذا رأى فيهم من له ولد صغير أو أم ضعيفة فيرحمه وان لم يستحق ويكتب له الخلاص واما أن لايكون فيه ما يستحق الخلاص بسببه ولا في نفس المعذب ما يوجب الرحمة لكنه لايقدر عليه بسبب كثرة أعوانه وتعصب اخوانه كما اذا هرب واحد من الملك والتجأ الى عسكر يمنعون الملك عنه فكما في القسمين الاولين كذلك في القسم الثالث وهو التمنع بالاعوان وتحزب الاخوان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في حسن الترتيب وذلك لان المستحق لذاته أقرب الى الخلاص من المرحوم فان المستحق لم يوجد فيه سبب العذاب والمرحوم وجد فيه ذلك ووجد المانع من العذاب وما لاسبب له لا يتحقق أصلا وماله مانع ربما لايقوى المانع على دفع السبب وما في نفس المعذب من المانع أقوى من الذي بسبب الغير لان الذي من عنده يمنع الداعية ولا يتحقق الفعل عند عدم الداعية والذي من الغير بسبب التمنع لايقطع قصده بل يجتهد فيه وربما يغلب فيكون تعذيبه اضعاف ما كان من قبيل بخلاف من يرق له قلبه ويمنعه الرحمة فانها وان لم تمنعه لكن لا تزيد في حده وحبسه وزيادته في التعذيب عند القدرة فهذا ترتيب في غاية الحسن (المسئلة الثانية) جميع فيه فائدتان احداهما الكثرة والاخرى الاتفاق كانه قال نحن كثير متفقون فلنا الانتصار ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الالفاظ المفردة انما قلنا ان فيه فائدتين لان الجميع يدل على الجماعة بحروفه الاصلية من ج م ع وبوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول على انهم جمعوا جمعيتهم العصبية ويحتمل ان يقال معناه نحن الكل لاخارج عنا اشارة الى أن من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم لا اعتداد به قال تعالى في نوح أنؤمن لك واتبعك الارذلون الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وعلى هذا جميع يكون التنوين فيه لقطع الاضافة كانهم قالوا نحن جميع الناس (المسئلة الثالثة) ما وجه افراد المنتصر مع ان نحن ضمير الجمع نقول على الوجه الاول ظاهر لانه وصف الجزاء الآخر الواقع خبرا فهو كقول القائل أنتم جنس منتصر وهم عسكر غالب والجميع كالجنس لفظه لفظ واحد ومعناه جمع فيه الكثرة وأما على الوجه الثاني فالجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المعنى وان كان جميع الناس لاخارج عنهم الامن لايعتد به لكن لما قطع ونون صار كالمنكر في الاصل فجاز وصفه بالمنكر نظرا الى اللفظ فعاد الى الوجه الاول (وثانيهما) أنه خبر بعد خبر ويجوز أن يكون أحد الخبرين معرفة والآخر نكرة قال تعالى وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد وعلى هذا فقوله نحن جميع منتصر أفرده لمجاورة جميع ويحتمل أن يقال معنى نحن جميع منتصر أن جميعا بمعنى كل واحد كانه قال نحن كل واحد منا منتصر كما تقول هم جميعهم أقوياء بمعنى أن كل واحد منهم قوي وهم كلهم علماء أي كل واحد عالم فترك الجمع واختار الافراد لعود الخبر الى كل واحد فانهم كانوا يقولون كل واحد منا يغلب محمدا صلى الله عليه وسلم كما قال أبي بن خلف الجمحي وهذا فيه معنى لطيف وهو انهم ادعوا أن كل واحد غالب والله رد عليهم باجمعهم بقوله (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وهو انهم ادعوا القوة العامة بحيث يغلب كل واحد منهم محمدا صلى

الله عليه وسلم والله تعالى بين ضعفهم الظاهر الذى يعمهم جميعهم بقوله ويولون الدبر وحينئذ يظهر سؤال وهو انه قال يولون الدبر ولم يقل يولون الادبار وقال فى موضع آخر يولوكم الادبار ثم لا ينصرون وقال ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وقال فى موضع آخر فلا تولوهم الادبار فكيف تصحيح الافراد وما الفرق بين المواضع نقول أما التصحيح فظاهر لان قول القائل فعلوا كقوله فعل هذا وفعل ذاك وفعل الآخر فالواو فى الجمع تنوب مناب الواوات التى فى العطف وقوله يولون بمثابة يولى هذا الدبر ويولى ذاك ويولى الآخر أى كل واحد يولى دبره وأما الفرق فنقول اقتضاء أواخر الآيات حسن الافراد فقوله يولون الدبر افراده اشارة الى انهم فى التولية كنفس واحدة فلا يتخلف أحد عن الجمع ولا يثبت أحد للزحف فهم كانوا فى التولية كدبر واحد وأما فى قوله فلا تولوهم الادبار أى كل واحد يوجد به ينبغى أن يثبت ولا يولى دبره فليس المنهى هناك توليتهم باجمعهم بل المنهى أن يولى واحد منهم دبره فكل أحد منهى عن توليه دبره فجعل كل واحد برأسه فى الخطاب ثم جمع الفعل بقوله فلا تولوهم ولا يتم الا بقوله الادبار وكذلك فى قوله ولقد كانوا عاهدوا الله أى كل واحد قال أنا أثبت ولا أولى دبرى وأما فى قوله ليولن الادبار فان المراد المنافقون الذين وعدوا اليهود وهم متفرقون بدليل قوله تعالى تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى وأما فى هذا الموضع فهم كانوا يدا واحدة على من سواهم ۞ ثم قال تعالى ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ اشارة الى ان الامر غير مقتصر على انهزامهم وادبارهم بل الامر أعظم منه فان الساعة موعدهم فانه ذكر ما يصيبهم فى الدنيا من الدبر ثم بين ما هو منه على طريقة الاضراب هذا قول أكثر المفسرين والظاهر أن الانذار بالساعة عام لكل من تقدم كانه قال أهلكنا الذين كفروا من قبلك وأصروا وقوم محمد عليه السلام ليسوا بخير منهم فيصيبهم ما أصابهم ان أصروا ثم ان عذاب الدنيا ليس لاتمام المجازاة فاتمام المجازاة بالاليم الدائم ﴿وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة فى اختصاص كون الساعة موعدهم مع انها موعد كل أحد نقول الموعد الزمان الذى فيه الوعد والوعيد والمؤمن موعود بالخير ومامور بالصبر فلا يقول هو متى يكون بل يفوض الامر الى الله واما الكافر فغير مصدق فيقول متى يكون العذاب فيقال له اصبر فانه آت يوم القيامة ولهذا كانوا يقولون عجل لنا قطنا وقال ويستعجلونك بالعذاب (المسئلة الثانية) أدهى من أى شئ نقول يحتمل وجهين (أحدهما) مما مضى من أنواع عذاب الدنيا (ثانيهما) أدهى الدواهى فلا داهية مثلها (المسئلة الثالثة) ما المراد من قوله وأمر قلنا فيه وجهان (أحدهما) هو مبالغة من المر وهو مناسب لقوله تعالى فذوقوا عذابى وقوله ذوقوا مس سقر وعلى هذا فادهى أى أشد وأمر أى آلم والفرق بين الشديد والاليم ان الشديد يكون اشارة الى انه لا يطيقه أحد لقوته ولا يدفعه أحد بقوته مثاله ضعيف ألقى فى ماء يغلبه أو نار لا يقدر على الخلاص منها وقوى ألقى فى بحر أو نار عظيمة يستويان فى الالم والعذاب ويتساويان فى الايلام لكن يفترقان فى الشدة فان نجاة الضعيف من الماء الضعيف باعانة معين ممكن ونجاة القوى من البحر العظيم غير ممكن (ثانيهما) أمر مبالغة فى المار اذهى أكثر مرورا بهم اشارة الى الدوام فكانه يقول أشد وأدوم وهذا مختص بعذاب الآخرة فان عذاب الدنيا ان اشتد قتل المعذب وزال فلا يدوم وان دام بحيث لا يقتل فلا يكون شديدا (ثالثها) انه المرير وهو من المرة التى هى الشدة وعلى هذا فاما أن يكون الكلام كما يقول القائل فلان نحيف نحيل وقوى شديد فيأتى بلفظين مترادفين اشارة الى التأكيد وهو ضعيف واما أن يكون ادهى مبالغة من الداهية التى هى اسم الفاعل من دهاه أمر كذا اذا أصابه وهو أمر صعب لان الداهية صارت كالاسم الموضوع للشديد على وزن الباطنة والسائبة التى لا تكون من أسماء الفاعلين وان كانت الداهية أصلها ذلك غير انها استعملت استعمال الاسماء وكتبت فى أبوابها وعلى هذا يكون معناه ألزم وأضيق أى هى بحيث لا تدفع ۞ ثم قال تعالى ﴿ان المجرمين فى ضلال وسعر يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر﴾ وفى الآية مسائل (الاولى) فيمن نزلت الآية فى حقهم أكثر المفسرين اتفقوا على انها نازلة فى القدرية روى الواحدى

فأحسن صوركم) بيان لفضله المتعلق بأنفسهم والفاء فى فأحسن تفسيرية فان الاحسان عين التصوير أى صوركم أحسن تصوير حيث خلقكم منتصبى القامة بادى البشرة متناسبى الاعضاء والتخطيطات متهيئين لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات (ورزقكم من الطيبات) أى اللذائذ (ذلكم) الذى نعت بما ذكر من النعوت الجليلة (الله ربكم) خبران لذلكم (فتبارك الله) أى تعالى بذاته (رب العالمين) أى مالكهم ومربيهم والكل تحت ملكوته مفتقر اليه فى ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعا بحيث لو انقطع فيضه عنه آنا لانعدم بالكلية (هو الحى) المتفرد بالحياة الذاتية الحقيقية (لا اله الا هو) اذ لا موجود يدانيه فى ذاته وصفاته وأفعاله (فادعوه) فاعبدوه خاصة لاختصاص ما يوجبه به تعالى (مخلصين له الدين) أى الطاعة من الشرك الجلى والخفى (الحمد لله رب العالمين) أى قائلين ذلك ﴿عن ابن عباس رضى الله عنهما من قال لا اله الا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين (قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى) من الحجج والآيات أو من الآيات لكونها مؤيدة لادلة العقل منبهة عليها فان الآيات التنزيلية مفسرات للآيات التكوينية الآفاقية والانفسية (وأمرت أن أسلم لرب العالمين) أى بان أنقاد له وأخلص له دينى (هو الذى خلقكم من تراب) أى فى ضمن خلق آدم عليه الصلاة والسلام منه حسبما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) أى ثم خلقكم خلقا تفصيليا من نطفة أى منى (ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا) أى اطفالا والافراد لارادة الجنس أو لارادة كل واحد من أفراده (ثم لتبلغوا أشدكم) علة ليخرجكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كانه قيل ثم يخرجكم طفلا لتكبروا شيأ فشيأ ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل وكذا الكلام فى قوله تعالى (ثم لتكونوا شيوخا) ويجوز عطفه على لتبلغوا وقرئ شيخا كقوله تعالى طفلا (ومنكم من يتوفى من قبل) أى من قبل الشيخوخة

في تفسيره قال سمعت الشيخ رضي الدين المؤيد الطوسي بنيسابور قال سمعت عبد الجبار قال أخبرنا الواحدي قال أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السراج قال أخبرنا أبو محمد عبد الله الكعبي قال حدثنا حمدان بن صالح الأشج حدثنا عبد الله بن عبد العزيز بن أبي داود حدثنا سفيان الثوري عن زياد بن اسمعيل المخزومي عن محمد بن عباد بن جعفر عن أبي هريرة قال جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فأنزل الله تعالى ان المجرمين في ضلال وسعر الى قوله انا كل شيء خلقناه بقدر وكذلك نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ان هذه الآية نزلت في القدرية وروى عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال مجوس هذه الامة القدرية وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى في قوله ان المجرمين في ضلال وسعر وكثرت الاحاديث في القدرية * وفيها مباحث (الاول) في معنى القدرية الذين قال النبي صلى الله عليه وسلم نزلت الآية فيهم فنقول كل فريق في خلق الاعمال يذهب الى ان القدري خصمه فالجبري يقول القدري من يقول الطاعة والمعصية ليستا بخلق الله وقضائه وقدره فهم قدرية لانهم ينكرون القدر والمعتزلي يقول القدري هو الجبري الذي يقول حين يزني ويسرق الله قدرني فهو قدري لاثباته القدر وهما جميعا يقولان لاهل السنة الذي يعترف بخلق الله وليس من العبد انه قدري والحق ان القدري الذي نزل فيه الآية هو الذي ينكر القدر ويقول بان الحوادث كلها حادثة بالكواكب واتصالاتها ويدل عليه قوله جاء مشركو قريش يحاجون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فان مذهبهم ذلك وما كانوا يقولون مثل ما يقول المعتزلة ان الله خلق لي سلامة الاعضاء وقوة الادراك ومكنني من الطاعة والمعصية والله قادر على أن يخلق في الطاعة الجاء والمعصية الجاء وقادر على أن يطعم الفقير الذي أطعمه أنا بفضل الله والمشركون كانوا يقولون أنطعم من لو يشاء الله أطعمه منكرين لقدرة الله تعالى على الاطعام وأما قوله صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الامة هم القدرية فنقول المراد من هذه الامة اما الامة التي كان محمد صلى الله عليه وسلم مرسلا اليهم سواء آمنوا به أو لم يؤمنوا كلفظ القوم واما أمته الذين آمنوا به فان كان المراد الاول فالقدرية في زمانه هم المشركون الذين أنكروا قدرة الله على الحوادث فلا يدخل فيهم المعتزلة وان كان المراد هو الثاني فقوله مجوس هذه الامة يكون معناه الذين نسبتهم الى هذه الامة كنسبة المجوس الى الامة المتقدمة لكن الامة المتقدمة أكثرهم كفرة والمجوس نوع منهم أضعف شبهة وأشد مخالفة للعقل فكذلك القدرية في هذه الامة تكون نوعا منهم أضعف دليلا ولا يقتضي ذلك الجزم بكونهم في النار فالحق أن القدري هو الذي ينكر قدرة الله تعالى ان قلنا ان النسبة للنفي أو الذي يثبت قدرة غير الله تعالى على الحوادث ان قلنا ان النسبة للاثبات وحينئذ يقطع بكونه في ضلال وسعر وانه ذائق مس سقر (البحث الثاني) في بيان من يدخل في القدرية التي في النص ممن هو منتسب الى انه من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ان قلنا القدرية سموا بهذا الاسم لنفيهم قدرة الله تعالى فالذي يقول لاقدرة لله على تحريك العبد بحركة هي الصلاة وحركة هي الزنا مع ان ذلك أمر ممكن لا يبعد دخوله فيهم وأما الذي يقول بان الله قادر غير انه لم يجبره وتركه مع داعية العبد كالوالد الذي يجرب الصبي في حمل شيء تركه معه لا لعجز والدليل للابتلاء والامتحان لا كالمفلوج الذي لا قوة له اذا قال لغيره احمل هذا فلا يدخل فيهم ظاهرا وان كان مخطئا وان قلنا ان القدرية سموا بهذا الاسم لاثباتهم القدرة على الحوادث لغير الله من الكواكب والجبري الذي قال هو الحائط الساقط الذي لا يجوز تكليفه بشيء لصدور الفعل من غيره وهم أهل الاباحة فلا شك في دخوله في القدرية فانه يكفر بنفيه التكليف وأما الذي يقول خلق الله تعالى فينا الافعال وقدرها وكلفنا ولا يسئل عما يفعل فما هو منهم (البحث الثالث) اختلف القائلون في التعصب ان الاسم بالمعتزلة أحق أم بالاشاعرة فقالت المعتزلة الاسم بكم أحق لان النسبة تكون للاثبات لا للنفي يقال للدهري دهري لقوله بالدهر واثباته وللاباحي اباحي لاثباته الاباحة وللثنوية ثنوية لاثباتهم الاثنين وهما

بعد بلوغ الاشد أو قبله أيضا (ولتبلغوا) متعلق بفعل مقدر بعده أي ولتبلغوا (أجلا مسمى) هو وقت الموت أو يوم القيامة يفعل ذلك (ولعلكم تعقلون) ولكي تعقلوا ما في ذلك من فنون الحكم والعبر (هو الذي يحيي) الاموات (ويميت) الاحياء أو الذي يفعل الاحياء والامانة (فاذا قضى أمرا) أي أراد أمرا من الامور (فانما يقول له كن فيكون) من غير توقف على شيء من الاشياء أصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى في المقدورات عند تعلق ارادته بها وتصوير لسرعة ترتب المكونات على تكوينه من غير أن يكون هناك آمر ومأمور والفاء الاولى للدلالة على أن ما بعدها من نتائج ما قبلها من اختصاص الاحياء والامانة به سبحانه (ألم تر الى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون) تعجيب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن وبسائر الكتب والشرائع وترتيب الوعيد على ذلك كما أن ما سبق من قوله تعالى ان الذين يجادلون في آيات الله الخ بيان لابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود هو الامنية الفارغة فلا تكرير فيه أي انظر الى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للايمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعي الى الاقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالكلية وقوله تعالى (الذين كذبوا بالكتاب) أي بكل القرآن أو بجنس الكتب السماوية فان تكذيبه تكذيب لها في محل الجر على انه بدل من الموصول الاول أو في حيز النصب أو الرفع على الذم وانما وصل الموصول الثاني بالتكذيب دون المجادلة لان المعتاد وقوع المجادلة في بعض المواد لا في الكل وصيغة الماضي للدلالة على التحقق كما أن صيغة المضارع في الصلة الاولى للدلالة على تجدد المجادلة وتكررها (وبما النور أرسلنا به رسلنا) من سائر الكتب أو مطلق الوحي والشرائع (فسوف يعلمون) كنه ما فعلوا من الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته (اذ

الاغلال فى أعناقهم) ظرف ليعلمون اذ المعنى على الاستقبال ولفظ الماضى لتيقنه (والسلاسل) عطف على الاغلال والجار فى نية التأخير وقيل
مبتدأ حذف خبره لدلالة خبر الاول عليه وقيل قوله تعالى (يسحبون) بحذف العائد أى (٥٧١) يسحبون بها وهو على الاولين حال من المستكن فى
الظرف وقيل استئناف وقع جوابا
عن سؤال نشأ من حكاية حالهم
كانه قيل فماذا يكون حالهم بعد ذلك
فقيل يسحبون (فى الحميم) وقرئ
والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح
الياء على تقديم المفعول وعطف
الفعلية على الاسمية والسلاسل
بالجر حملا على المعنى لان قوله تعالى
اذ الاغلال فى أعناقهم فى معنى
أعناقهم فى الاغلال أو اضمارا
للباء ويدل عليه القراءة به (ثم فى
النار يسجرون) أى يحرقون من
سجر التنور اذا ملأه بالوقود ومنه
السجير للصديق كانه سجر بالحب
أى ملئ والمراد بيان أنهم يعذبون
بأنواع العذاب وينقلون من
باب الى باب (ثم قيل لهم أين ما كنتم
تشركون من دون الله قالوا ضلوا
عنا) أى يقال لهم ويقولون وصيغة
الماضى للدلالة على التحقق
ومعنى ضلوا عنا غابوا عنا وذلك
قبل أن يقرن بهم آلهتهم أو
ضاعوا عنا فلم نجد ما كنا نتوقع
منهم (بل لم نكن ندعوا من قبل
شيأ) أى بل تبين لنا انا لم نكن نعبد
شيأ بعبادتهم لما ظهر لنا اليوم
أنهم لم يكونوا شيأ يعتد به كقولك
حسبته شيأ فلم يكن (كذلك) أى
مثل ذلك الضلال الفظيع (يضل
الله الكافرين) حيث لا يهتدون
الى شئ ينفعهم فى الآخرة أو كما ضل
عنهم آلهتهم يضلهم عن آلهتهم
حتى لو تطالبوا لم يتصادفوا (ذلكم
الاضلال (بما كنتم تفرحون فى
الارض) أى تبطرون وتتكبرون
(بغير الحق) وهو الشرك والطغيان
(وبما كنتم تمرحون) تتوسعون
فى البطر والاشر والالتفات للمبالغة فى التوبيخ (ادخلوا أبواب جهنم) أى أبوابها السبعة المقسومة لكم (خالدين فيها) مقدرا خلودكم فيها (فبئس
مثوى المتكبرين) أى عن الحق جهنم والتعبير عن مدخلهم بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود (فاصبر) الى أن يلاقوا ما أعد لهم من العذاب

النور والظلمة وكذلك أمثاله وأنتم تثبتون القدر وقالت الاشاعرة النصوص تدل على ان القدرى من ينفى
قدرة الله تعالى ومشركو قريش ما كانوا قدرية الا لاثباتهم قدرة لغير الله قالت المعتزلة انما سمى المشركون
قدرية لانهم قالوا ان كان قادرا على الحوادث كما تقول يا محمد فلو شاء الله لهدانا ولو شاء لاطعم الفقير
فاعتقدوا أن من لوازم قدرة الله تعالى على الحوادث خلقه الهداية فيهم ان شاء وهذا مذهبكم أيها
الاشاعرة والحق الصراح ان كل واحد من المسلمين الذين ذهبوا الى المذهبين خارج عن القدرية ولا يصير
واحد منهم قدريا الا اذا صار النافى نافيا للقدرة والمثبت منكرا للتكليف (المسئلة الثانية) المجرمون هم
المشركون ههنا كما فى قوله تعالى ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم وقوله يود المجرم لو يفتدى وفى قوله
يعرف المجرمون بسيماهم فالآية عامة وان نزلت فى قوم خاص وجرمهم تكذيب الرسل والنذر بالاشراك
وانكار الحشر وانكار قدرة الله تعالى على الاحياء بعد الاماتة وعلى غيره من الحوادث (المسئلة الثالثة) فى
ضلال وسعر يحتمل وجوها ثلاثة (أحدها) الجمع بين الامرين فى الدنيا أى هم فى الدنيا فى ضلال وجنون
لا يعقلون ولا يهتدون وعلى هذا فقوله يسحبون بيان حالهم فى تلك الصورة وهو أقرب (ثانيها) الجمع فى
الآخرة أى هم فى ضلال الآخرة وسعر أيضا أما السعر فكونهم فيها ظاهر وأما الضلال فلا يجدون الى
مقصدهم أو الى ما يصلح مقصدا وهم متحيرون سبيلا فان قيل الصحيح هو الوجه الاخير لا غير لان قوله تعالى
يوم يسحبون ظرف القول أى يوم يسحبون يقال لهم ذوقوا وسنبين ذلك فنقول يوم يسحبون يحتمل أن
يكون منصوبا بعامل مذكور أو مفهوم غير مذكور والاحتمال الاول له وجهان (أحدهما) العامل
سابق وهو معنى كائن ومستقر غير ان ذلك صار نسيا منسيا (ثانيهما) العامل متأخر وهو قوله ذوقوا تقديره
ذوقوا مس سقر يوم يسحب المجرمون والخطاب حينئذ مع من خوطب بقوله أكفاركم خير من أولئكم أم
لكم براءة (والاحتمال الثانى) ان المفهوم هو أن يقال لهم يوم يسحبون ذوقوا وهذا هو المشهور وقوله تعالى
ذوقوا استعارة وفيه حكمة وهو أن الذوق من جملة الادراكات فان المذوق اذا لاقى اللسان يدرك أيضا
حرارته وبرودته وخشونته وملاسته كما يدرك سائر أعضائه الحسية ويدرك أيضا طعمه ولا يدركه غير
اللسان فادراك اللسان أتم فاذا تأذى من نار تأذى بحرارته ومرارته ان كان الحار أو غيره لا يتأذى الا
بحرارته فاذن الذوق ادراك المسمى أتم من غيره فى الملموسات فقال ذوقوا اشارة الى أن ادراككم بالذوق
أتم الادراكات فيجتمع فى العذاب شدته وايلامه بطول مدته ودوامه ويكون المدرك له لا عذر له يشغله
وانما هو على أتم ما يكون من الادراك فيحصل الالم العظيم وقد ذكرنا ان على قول الاكثرين يقال لهم
أو نقول مضمر وقد ذكرنا انه لا حاجة الى الاضمار اذا كان الخطاب مع غير من قيل فى حقهم ان المجرمين
فى ضلال فانه يصير كأنه قال ذوقوا أيها المكذبون بمحمد صلى الله عليه وسلم مس سقر يوم يسحب المجرمون
المتقدمون فى النار ۞ ثم قال تعالى ﴿انا كل شئ خلقناه بقدر﴾ وفيه مسائل (الاولى) المشهور ان قوله
انا كل شئ متعلق بما قبله كأنه قال ذوقوا فانا كل شئ خلقناه بقدر أى هو جزاء لمن أنكر ذلك وهو كقوله
تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم والظاهر انه ابتداء كلام وتم الكلام عند قوله ذوقوا مس سقر ثم ذكر
بيان العذاب لان عطف وما أمرنا الا واحدة يدل على ان قوله انا كل شئ خلقناه بقدر ليس آخر الكلام
ويدل عليه قوله تعالى ألا له الخلق والامر وقد ذكر فى الآية الاولى الخلق بقوله انا كل شئ خلقناه فيكون
من اللائق ان يذكر الامر فقال وما أمرنا الا واحدة وأما ما ذكر من الجدل فنقول النبى صلى الله عليه
وسلم تمسك عليهم بقوله ان المجرمين فى ضلال الى قوله ذوقوا مس سقر وتلا آية أخرى على قصد التلاوة
ولم يقرأ الآية الاخيرة اكتفاء بعلم من علم الآية ثم نقول فى الاستدلالات لانا كلوا أموالكم الآية ولا
تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه الآية واذا انتهت الآية الى غير ذلك (المسئلة الثانية) كل قرئ
بالنصب وهو الاصح المشهور وبالرفع فمن قرأ بالنصب فنصبه بفعل مضمر يفسره الظاهر كقوله والقمر

(ان وعد الله) بتعذيبهم (حق) كائن لا محالة (فاما نرينك) أى فان نرك وما مزيدة لتأكيد الشرطية ولذلك لحقت النون الفعل ولا تلحقه مع ان وحدها (بعض الذى نعدهم) وهو القتل والاسر (أو نتوفينك) قبل ذلك (فالينا يرجعون) يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم وهو جواب نتوفينك وجواب نرينك محذوف مثل فذاك ويجوز أن يكون جوابا لهما بمعنى ان نعذبهم فى حياتك أولم نعذبهم فانا نعذبهم فى الآخرة أشد العذاب وأقطعه كما ينبئ عنه الاقتصار على ذكر الرجوع فى هذا المعرض (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) اذ قيل عدد الانبياء عليهم السلام مائة وأربعة وعشرون ألفا والمذكور قصصهم أفراد معدودة وقيل أربعة آلاف من بنى اسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس (وما كان لرسول) أى وما صح وما استقام لرسول منهم (أن يأتى بآية الا باذن الله) فان المعجزات على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة كسائر القسم ليس لهم اختيار فى ايثار بعضها والاستبداد باتيان المقترح منها (فاذا جاء أمر الله) بالعذاب فى الدنيا والآخرة (قضى بالحق) بانجاء المحق واثابته واهلاك المبطل وتعذيبه (وخسر هنالك) أى وقت مجىء أمر الله اسم مكان استعير للزمان (المبطلون) أى المتمسكون بالباطل على الاطلاق فيدخل فيهم المعاندون المقترحون دخولا أوليا (الله الذى جعل لكم الانعام) قيل هى الابل خاصة أى خلقها لاجلكم ومصلحتكم وقوله تعالى (لتركبوا منها ومنها تأكلون) تفصيل لما دل عليه اللام اجمالا ومن لابتداء الغاية ومعناها ابتداء الركوب والاكل منها أى تعلقهما بها وقيل للتبعيض أى لتركبوا بعضها وتأكلوا بعضها الا على أن كلا من الركوب والاكل مختص المشركين ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن كل بعض منها صالح لكل منهما وتغيير النظم الكريم فى الجملة الثانية لمراعاة

قدرناه وقوله والظالمين أعد لهم وذلك الفعل هو خلقناه وقد فسره قوله خلقناه كأنه قال انا خلقنا كل شئ بقدر وخلقناه على هذا لا يكون صفة لشئ كما فى قوله تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين غير ان هنالك يمنع من ان يكون صفة كونه خاليا عن ضمير عائد الى الموصوف وههنا لم يوجد ذلك المانع وعلى هذا فالآية حجة على المعتزلة لان أفعالنا شئ فتكون داخلة فى كل شئ فتكون مخلوقة لله تعالى ومن قرأ بالرفع لم يمكنه أن يقول كما يقول فى قوله وأما ثمود فهديناهم حيث قرئ بالرفع لان كل شئ نكرة فلا يصح مبتدأ فيلزمه أن يقول كل شئ خلقناه فهو بقدر كقوله تعالى وكل شئ عنده بمقدار فى المعنى وهذان الوجهان ذكرهما ابن عطية فى تفسيره وذكر أن المعتزلى يتمسك بقراءة الرفع ويحتمل أن يقال القراءة الاولى وهو النصب له وجه آخر وهو أن يقال نصبه بفعل معلوم لا بمضمر مفسر وهو قدرنا أو خلقنا كأنه قال انا خلقنا كل شئ خلقناه بقدر أو قدرنا كل شئ خلقناه بقدر وانما قلنا انه معلوم لان قوله ذلكم الله ربكم خالق كل شئ دل عليه وقوله وكل شئ عنده بمقدار دل على انه قدر وحينئذ لا يكون فى الآية دلالة على بطلان قول المعتزلى وانما يدل على بطلان قوله الله خالق كل شئ وأما على القراءة الثانية وهى الرفع فنقول جاز أن يكون كل شئ مبتدأ وخلقناه بقدر خبره وحينئذ تكون الحجة قائمة عليهم بابلغ وجه وقوله كل شئ نكرة فلا يصلح مبتدأ ضعيف لان قوله كل شئ عم الاشياء كلها باسرها فليس فيه المحذور الذى فى قولنا رجل قائم لانه لا يفيد فائدة ظاهرة وقوله كل شئ يفيد ما يفيد زيد خلقناه وعمرو خلقناه مع زيادة فائدة ولهذا أجوز واما أحد خير منك لانه أفاد العموم ولم يحسن قول القائل أحد خير منك حيث لم يفد العموم (المسئلة الثالثة) ما معنى القدر قلنا فيه وجوه (أحدها) المقدار كما قال تعالى وكل شئ عنده بمقدار وعلى هذا فكل شئ مقدر فى ذاته وفى صفاته أما المقدر فى الذات فالجسم وذلك ظاهر فيه وكذلك القائم بالجسم من المحسوسات كالبياض والسواد وأما الجوهر الفرد ما لا مقدار له والقائم بالجوهر ما لا مقدار له بمعنى الامتداد كالعلم والجهل وغيرهما فنقول ههنا مقادير لا بمعنى الامتداد اما الجوهر الفرد فان الاثنين منه أصغر من الثلاثة ولولا أن له حجما يزداد به الامتداد والا لما حصل دون الامتداد فيه وأما القائم بالجوهر فله نهاية وبداية فقدار العلوم الحادثة والقدر المخلوقة متناهية وأما الصفة فلان لكل شئ ابتدئ زمانا فله مقدار فى البقاء لكون كل شئ حادثا فان قيل الله تعالى وصف به ولا مقدار له ولا ابتداء لوجوده نقول المتكلم اذا كان موصوفا بصفة أو مسمى باسم ثم ذكر الاشياء المسماة بذلك الاسم أو الاشياء الموصوفة بتلك الصفة وأسند فعلا من أفعاله اليه يخرج هو عنه كما يقول القائل رأيت جميع من فى هذا البيت فرأيتهم كلهم أكرمنى ويقول ما فى هذا البيت أحد الا وضربنى أو ضربته يخرج هو عنه لا لعدم كونه مقتضى الاسم بل بما فى التركيب من الدليل على خروجه عن الارادة فكذلك قوله خلقناه وخالق كل شئ يخرج عنه لا بطريق التخصيص بل بطريق الحقيقة اذا قلنا ان التركيب وضعى فان هذا التركيب لم يوضع حينئذ الا لغير المتكلم (ثانيها) القدر التقدير قال الله تعالى فقدرنا فنعم القادرون وقال الشاعر * وقد قدر الرحمن ما هو قادر * أى قدر ما هو مقدر وعلى هذا فالمعنى ان الله تعالى لم يخلق شيأ من غير تقدير كما يرمى الرامى السهم فيقع فى موضع لم يكن قد قدره بل خلق الله كما قدر بخلاف قول الفلاسفة انه فاعل لذاته والاختلاف للقوابل فالذى جاء قصيرا أو صغيرا فلاستعداد مادته والذى جاء طويلا أو كبيرا فلاستعداد آخر فقال تعالى كل شئ خلقناه بقدر منا فالصغير جاز أن يكون كبيرا والكبير جاز خلقه صغيرا (ثالثها) بقدر هو ما يقال مع القضاء يقال بقضاء الله وقدره وقالت الفلاسفة فى القدر الذى مع القضاء ان ما يقصد اليه فقضاء وما يلزمه فقدر فيقولون خلق النار حارة بقضاء وهو مقضى به لانها ينبغى أن تكون كذلك لكن من لوازمها انها اذا تعلقت بقطن عجوز أو وقعت فى قصب صعلوك تحرقه فهو بقدر لا بقضاء وهو كلام فاسد بل القضاء ما فى العلم والقدر ما فى الارادة فقوله كل شئ خلقناه بقدر أى بقدره مع ارادته لا على ما يقولون انه موجب ردا على

الفواصل مع الاشعار بأصالة الركوب (ولكم فيها منافع) أخر غير الركوب والاكل كألبانها وأوبارها وجلودها (ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم) بحمل أثقالكم من بلد الى بلد (وعليها وعلى الفلك تحملون) لعل المراد به حمل النساء والولدان عليها بالهودج وهو السر فى فصله عن الركوب والجمع بينها وبين الفلك فى الحمل لما بينهما من المناسبة التامة حتى سميت سفائن البر وقيل هى الازواج الثمانية فعنى الركوب والاكل منها تعلقهما بالكل لكن لا على أن كلا منهما يجوز تعلقه بكل منها ولا على أن كلا منهما مختص ببعض معين منها بحيث لا يجوز تعلقه بما تعلق به الآخر بل على أن بعضها يتعلق به الاكل فقط كالغنم وبعضها يتعلق به كلاهما كالابل والبقر والمنافع تعم الكل وبلوغ الحاجة عليها يعم البقر (ويريكم آياته) دلائله الدالة على كمال قدرته ووفور رحمته (فأى آيات الله) أى فأى آية من تلك الآيات الباهرة (تنكرون) فان كلا منها من الظهور بحيث لا يكاد يجترئ على انكارها من له عقل فى الجملة وهو ناصب لاى واضافة الآيات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل انكارها وتذكير أى هو الشائع المستفيض والتأنيث قليل لان التفرقة بين المذكر والمؤنث فى الاسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب وهى فى أى أغرب لابهامه (أفلم يسيروا) أى أقعدوا فلم يسيروا (فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الامم المهلكة وقوله تعالى (كانوا أكثر منهم وأشد قوة) الخ استئناف مسوق لبيان مبادى أحوالهم وعواقبها (وآثارا فى الارض) باقية بعدهم من الابنية والقصور والمصانع وقيل هى آثار أقدامهم فى الارض لعظم أجرامهم (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) ما الاولى نافية أو استفهامية منصوبة بأغنى والثانية موصولة أو مصدرية مرفوعة أى لم يغن عنهم أو أى شئ أغنى عنهم مكسوبهم أو كسبهم (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات أو بالآيات الواضحة (فرحوا بما عندهم من العلم) أى

المشركين ۞ ثم قال تعالى (وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر) أى الا كلمة واحدة وهو قوله له كن هذا هو المشهور الظاهر وعلى هذا فالله اذا أراد شيأ قال له كن فهنالك شيآن الارادة والقول فالارادة قدر والقول قضاء وقوله واحدة يحتمل أمرين (أحدهما) بيان انه لا حاجة الى تكرير القول اشارة الى نفاذ الامر (ثانيهما) بيان عدم اختلاف الحال فأمره عند خلق العرش العظيم كأمره عند خلق النمل الصغير فأمره عند الكل واحد وقوله كلمح بالبصر تشبيه الكون لا تشبيه الامر فكأنه قال أمرنا واحدة فاذن المأمور كائن كلمح بالبصر لانه لو كان راجعا الى الامر لا يكون ذلك صفة مدح يليق به فان كلمة كن شئ أيضا يوجد كلمح بالبصر هذا هو التفسير الظاهر المشهور وفيه وجه ظاهر ذهب اليه الحكماء وهى ان مقدورات الله تعالى هى الممكنات يوجدها بقدرته وفى عدمها خلاف لا يليق بيانه بهذا الموضع لطوله لا لسبب غيره ثم ان الممكنات التى يوجدها الله تعالى قسمان (أحدهما) أمور لها أجزاء ملتئمة عند التئامها يتم وجودها كالانسان والحيوان والاجسام النباتية والمعدنية وكذلك الاركان الاربعة والسموات وسائر الاجسام وسائر ما يقوم بالاجسام من الاعراض فهى كلها مقدرة له وحوادث فان أجزاءها توجد أولا ثم يوجد فيها التركيب والالتئام بعينها ففيها تقديرات نظرا الى الاجزاء والتركيب والاعراض (وثانيهما) أمور ليس لها أجزاء ومفاصل ومقادير امتدادية وهى الارواح الشريفة المنورة للاجسام وقد أثبتها جميع الفلاسفة الا قليلا منهم ووافقهم جمع من المتكلمين وقطع بها كثير ممن له قلب من أصحاب الرياضات وأرباب المجاهدات فتلك الامور وجودها واحد ليس يوجد أولا اجزاء وثانيا تحقق تلك الاجزاء بخلاف الاجسام والاعراض القائمة بها اذا عرفت هذا قالوا الاجسام خلقية قدرية والارواح ابداعية أمرية وقالوا اليه الاشارة بقوله تعالى ألا له الخلق والامر فالخلق فى الاجسام والامر فى الارواح ثم قالوا لا ينبغى أن يظن بهذا الكلام انه على خلاف الاخبار فانه صلى الله عليه وسلم قال أول ما خلق الله العقل وروى عنه عليه السلام أنه قال خلق الله الارواح قبل الاجسام بالفى عام وقال تعالى الله خالق كل شئ فالخلق أطلق على ايجاد الارواح والعقل لان اطلاق الخلق على ما يطلق عليه الامر جائز وان العالم بالكلية حادث واطلاق الخلق بمعنى الاحداث جائز وان كان فى حقيقة الخلق تقدير فى أصل اللغة ولا كذلك فى الاحداث ولولا الفرق بين العبارتين والا لاستقبح الفلسفى من أن يقول المخلوق قديم كما يستقبح من أن يقول المحدث قديم فاذن قوله صلى الله عليه وسلم خلق الله الارواح بمعنى أحدثها بامره وفى هذا الاطلاق فائدة عظيمة وهى انه صلى الله عليه وسلم لو غير العبارة وقال فى الارواح انها موجودة بالامر والاجسام بالخلق لظن الذى لم يرزقه الله العلم الكثير أن الروح ليست بمخلوقة بمعنى ليست بمحدثة فكان يضل والنبى صلى الله عليه وسلم بعث رحمة وقالوا اذا نظرت الى قوله تعالى ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى والى قوله تعالى خلق السموات والارض فى ستة أيام والى قوله تعالى خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما تجد التفاوت بين الامر والخلق والارواح والاشباح حيث جعل لخلق بعض الاجسام زمانا ممتدا هو ستة أيام وجعل لبعضها تراخيا وترتيبا بقوله ثم خلقنا وبقوله فخلقنا ولم يجعل للروح ذلك ثم قالوا ينبغى أن لا يظن بقولنا هذا ان الاجسام لا بد لها من زمان ممتد وأيام حتى يوجدها الله تعالى فيه بل الله مختار ان أراد خلق السموات والارض والانسان والدواب والشجر والنبات فى أسرع من لمح البصر لخلقها كذلك ولكن مع هذا لا تخرج عن كونها موجودات حصلت لها أجزاء ووجود أجزائها قبل وجود التركيب فيها ووجودها بعد وجود الاجزاء والتركيب فيها فهى ستة ثلاثة فى ثلاثة كما يخلق الله الكسر والانكسار فى زمان واحد ولهما ترتيب عقلى فالجسم اذن كيفما فرضت خلقه ففيه تقدير وموجودات كلها بايجاد الله على الترتيب والروح لها وجود واحد بايجاد الله تعالى هذا قولهم ولنذكر ما فى الخلق والامر من الوجوه المنقولة والمعقولة (احدها) ما ذكرنا أن الامر هو كلمة كن والخلق

أظهروا الفرح بذلك وهو مالهم من العقائد الزائغة والشبه الداحضة وتسميتها علما للتهكم بهم أو علم الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك أو هو علم الانبياء الذى أظهره رسلهم على أن معنى فرحهم به ضحكهم منه واستهزاؤهم به ويؤيده قوله تعالى (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) وقيل الفرح أيضا للرسل فانهم لما شاهدوا تمادى جهلهم وسوء عاقبتهم فرحوا بما أوتوا من العلم المؤدى الى حسن العاقبة وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائهم (فلما رأوا بأسنا) شدة عذابنا ومنه قوله تعالى بعذاب بئيس (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) يعنون الاصنام (فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا) أى عند رؤية عذابنا لامتناع قبوله حينئذ ولذلك قيل فلم يك بمعنى لم يصح ولم يستقم والفاء الاولى بيان عاقبة كثرتهم وشدة قوتهم وما كانوا يكسبون بذلك زعما منهم أن ذلك يغنى عنهم فلم يترتب عليه الا عدم الاغناء فبهذا الاعتبار جرى مجرى النتيجة وان كان عكس الغرض ونقيض المطلوب كما فى قولك وعظته فلم يتعظ والثانية تفسير وتفصيل لما أبهم وأجمل من عدم الاغناء وقد كثر فى الكلام مثل هذه الفاء ومبناها على أن التفسير بعد الابهام والتفصيل بعد الاجمال والثالثة لمجرد التعقيب وجعل ما بعدها تابعا لما قبلها واقعا عقيبه لان مضمون قوله تعالى فلما جاءتهم الخ هو أنهم كفروا فصار مجموع الكلام بمنزلة أن يقال فكفروا ثم لما رأوا بأسنا آمنوا والرابعة للعطف على آمنوا كأنه قيل فآمنوا فلم ينفعهم لان النافع هو الايمان الاختيارى (سنة الله التى قد خلت فى عباده) أى سن الله تعالى ذلك سنة ماضية فى العباد وهو من المصادر المؤكدة (وخسر هنالك الكافرون) أى وقت رؤيتهم البأس على انه اسم مكان قد استعير للزمان كما سلف آنفا * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة المؤمنون لم يبق روح نبى ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن الا صلى عليه واستغفر له

هو ما بالقدرة والارادة (ثانيها) ما ذكروا فى الاجسام ان منها الارواح (ثالثها) هو ان الله له قدرة بها الايجاد وارادة بها التخصيص وذلك لان المحدث له وجود مختص بزمان وله مقدار معين فوجوده بالقدرة واختصاصه بالزمان بالارادة فالذى بقدرته خلق والذى بالارادة أمر حيث يخصصه بأمره بزمان ويدل عليه المنقول والمعقول أما المنقول فقوله تعالى اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون جعل كن لتعلق الارادة واعلم أن المراد من كن ليس هو الحرف والكلمة التى من الكاف والنون لان الحصول أسرع من كلمة كن اذا حملتها على حقيقة اللفظ فان الكاف والنون لا يوجد من متكلم واحد الا على الترتيب ففى كن لفظ زمان والكون بعده بدليل قوله تعالى فيكون بالفاء واذن لو كان المراد بكن حقيقة الحرف والصوت لكان الحصول بعده بزمان وليس كذلك فان قال قائل يمكن أن يوجد الحرفان معا وليس كلام الله تعالى ككلامنا يحتاج الى الزمان قلنا قد جعل له معنى غير ما نفهمه من اللفظ واما المعقول فلان الاختصاص بالزمان ليس لمعنى وعلة وان كان بعض الناس ذهب الى أن الخلق والايجاد لحكمة وقال بان الله خلق الارض لتكون مقر الناس أو مثل هذا من الحكم ولم يمكنه أن يقول خلق الارض فى الزمان المخصوص لتكون مقرا لهم لانه لو خلقها فى غير ذلك لكانت أيضا مقرا لهم فاذن التخصيص ليس لمعنى فهو لمحض الحكمة فهو يشبه أمر الملك الجبار الذى يأمر ولا يقال له لم أمرت ولم فعلت ولا يعلم مقصود الآمر الا منه (رابعها) هو ان الاشياء المخلوقة لا تنفك عن أوصاف ثلاثة أو عن وصفين متقابلين مثاله الجسم لا بد له بعد خلقه أن يكون متحيزا ولا بد له من أن يكون ساكنا أو متحركا فايجاده أولا بخلقه وما هو عليه بأمره ويدل عليه قوله تعالى ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام الى أن قال مسخرات بأمره فجعل ما لها بعد خلقها من الحركة والسكون وغيرهما بأمره ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له ادبر فأدبر جعل الخلق فى الحقيقة والامر فى الوصف وكذلك قوله تعالى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم قال يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره وقد ذكرنا تفسيره (خامسها) مخلوقات الله تعالى على قسمين (أحدهما) خلقه الله تعالى فى أسرع ما يكون كالعقل وغيره (وثانيهما) خلقه بمهلة كالسموات والانسان والحيوان والنبات فالمخلوق سريعا أطلق عليه الامر والمخلوق بمهلة أطلق عليه الخلق وهذا مثل الوجه الثانى (سادسها) ما قاله فخر الدين الرازى فى تفسير قوله تعالى فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها وهو ان الخلق هو التقدير والايجاد بعده بعدية ترتيبية لا زمانية ففى علم الله تعالى ان السموات تكون سبع سموات فى يومين تقديره فهو قدر خلقه كما علم وهو ايجاد فالاول خلق والثانى وهو الايجاد أمر وأخذ هذا من المفهوم اللغوى قال الشاعر * وبعض الناس يخلق ثم لا يفرى * أى يقدر ولا يقطع ولا يفصل كالخياط الذى يقدر أولا ويقطع ثانيا وهو قريب الى اللغة لكنه بعيد الاستعمال فى القرآن لان الله تعالى حيث ذكر الخلق أراد الايجاد منه قال تعالى ولئن سألتهم من خلق ومنه قوله تعالى أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة وليس المراد انا قدرنا انه سيوجد منها الى غير ذلك (سابعها) الخلق هو الايجاد ابتداء والامر هو ما به الاعادة فان الله خلق الخلق أولا بمهلة ثم يوم القيامة يبعثهم فى أسرع من لحظة فيكون قوله وما أمرنا الا واحدة كقوله تعالى فانما هى زجرة واحدة وقوله صيحة واحدة ونفخة واحدة وعلى هذا فقوله انا كل شئ خلقناه بقدر اشارة الى الوحدانية وقوله تعالى وما أمرنا الا واحدة اشارة الى الحشر فكأنه بين الاصل الاول والاصل الآخر بالآيات (ثامنها) الايجاد خلق والاعدام أمر يعنى يقول للملائكة الغلاظ الشداد أهلكوا وافعلوا فلا يعصون الله ما أمرهم ولا يوقفون الامتثال على اعادة الامر مرة أخرى فأمره مرة واحدة يعقبه العدم والهلاك (وفيه لطيفة) وهى ان الله تعالى جعل الايجاد الذى هو من الرحمة بيده والاهلاك يسلط عليه رسله وملائكته وجعل الموت بيد ملك الموت ولم يجعل الحياة بيد ملك وهذا مناسب لهذا الموضع لانه بين

النعمة

النعمة بقوله انا كل شئ خلقناه بقدر وبين قدرته على النقمة فقال وما أمرنا الا واحدة وانا على ذهاب به لقادرون وهو كقوله اذا جاء أمرنا وفار التنور عند العذاب وقوله تعالى فلما جاء أمرنا نجينا صالحا وقوله تعالى فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وكما ذكر في هذه الحكايات العذاب بلفظ الامر وبين الاهلاك به كذلك ههنا ولا سيما اذا نظرت الى ما تقدم من الحكايات ووجدتها عين تلك الحكايات يقوى هذا القول وكذلك قوله تعالى ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر يدل على صحة هذا القول (تاسعها) في معنى اللمح بالبصر وجهان (أحدهما) النظر بالعين يقال لمحته ببصري كما يقال نظرت اليه بعيني والباء حينئذ كما يذكر في الآلات فيقال كتبت بالقلم واختيار هذا المثال لان النظر بالعين أسرع حركة توجد في الانسان لان العين وجد فيها أمور تعين على سرعة الحركة (أحدها) قرب المحرك منها فان المحرك العصبية ومنبتها الدماغ والعين في غاية القرب منه (ثانيها) صغر حجمها فانها لا تعصى على المحرك ولا تثقل عليه بخلاف العظام (ثالثها) استدارة شكلها فان دحرجة الكرة أسهل من دحرجة المربع والمثلث (رابعها) كونها في رطوبة مخلوقة في العضو الذي هو موضعها وهذه الحكمة في أن المرئيات في غاية الكثرة بخلاف المأكولات والمسموعات والمقاصد التي تقصد بالارجل والمذوقات فلولا سرعة حركة الآلة التي بها ادراك المبصرات لما وصل الى الكل الا بعد طول زمان (وثانيهما) اللمح بالبصر معناه البرق يخطف بالبصر ويمر به سريعا والباء حينئذ للالصاق لا للاستعانة كقوله مررت به وذلك في غاية السرعة وقوله بالبصر فيه فائدة وهي غاية السرعة فانه لو قال كلمح البرق حين برق ويبتدى حركته من مكان وينتهي الى مكان آخر في أقل زمان يفرض لصح لكن مع هذا فالقدر الذي مروره يكون بالبصر أقل من الذي يكون من مبتداه الى منتهاه فقال كلمح لا كما قيل من المبدا الى المنتهى بل القدر الذي يمر بالبصر وهو في غاية القلة ونهاية السرعة ۞ ثم قال تعالى (ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر) والاشياع الاشكال وقد ذكرنا ان هذا يدل على ان قوله وما أمرنا الا واحدة تهديد بالاهلاك والثاني ظاهر ۞ وقوله تعالى (وكل شئ فعلوه في الزبر) اشارة الى أن الامر غير مقتصر على اهلاكهم بل الاهلاك هو العاجل والعذاب الآجل الذي هو معد لهم على ما فعلوه مكتوب عليهم والزبر هي كتب الكتبة الذين قال تعالى فيهم كلا بل تكذبون بالدين وان عليكم لحافظين كراما كاتبين وفعلوه صفة شئ والنكرة توصف بالجمل ۞ وقوله تعالى (وكل صغير وكبير مستطر) تعميم للحكم أي ليست الكتابة مقتصرة على ما فعلوه بل ما فعله غيرهم أيضا مسطور فلا يخرج عن الكتب صغيرة ولا كبيرة وقد ذكرنا في قوله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب ان في قوله أكبر فائدة عظيمة وهي ان من يكتب حساب انسان فانما يكتبه في غالب الامر لئلا ينسى فاذا جاءه الجملة العظيمة التي يأمن نسيانها ربما يترك كتابتها ويشتغل بكتبة ما يخاف نسيانه فلما قال ولا أكبر من ذلك أشار الى الامور العظام التي يؤمن من نسيانها انها مكتوبة أي ليست كتابتنا مثل كتابتكم التي يكون المقصود منها الامن من النسيان فكذلك نقول ههنا وفي قوله تعالى ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وفي جميع هذه المواضع قدم الصغيرة لانها أليق بالتثبت عند الكتابة فيبتدئ بها حفظا عن النسيان في عادة الخلق فاجرى الله الذكر على عادتهم وهذا يؤيد ما ذكرنا من قبل ان كلا وان كان نكرة يحسن الابتداء به للعموم وعدم الابهام ۞ ثم قال تعالى (ان المتقين في جنات ونهر) قد ذكرنا تفسير المتقين والجنات في سور منها الطور وأما النهر ففيه قراآت فتح النون والهاء كسحر وهو اسم جنس ويقوم مقام الانهار وهذا هو الظاهر الاصح * وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لا شك ان كمال اللذة بالبستان أن يكون الانسان فيه وليس من اللذة بالنهر أن يكون الانسان فيه بل لذته بان يكون في الجنة عند النهر فما معنى قوله تعالى ونهر نقول قد أجبنا عن هذا في تفسير قوله تعالى ان المتقين في جنات وعيون في سورة الذاريات وقلنا المراد في خلال العيون وفيما بينها

﴿سورة السجدة مكية وآيها ثلاث أو أربع وخمسون آية﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (حم) ان جعل اسما للسورة فهو اما خبر لمبتدأ محذوف وهو الاظهر لما مر سره مرارا أو مبتدأ خبره (تنزيل) وهو على الاول خبر بعد خبر وخبر المبتدأ المحذوف ان جعل مسرودا على نمط التعديد وقوله تعالى (من الرحمن الرحيم) متعلق به مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أو خبر آخر أو تنزيل مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره (كتاب) وهو على الوجوه الاول بدل منه أو خبر آخر أو خبر لمحذوف ونسبة التنزيل الى الرحمن الرحيم للايذان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبئ عنه قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (فصلت آياته) ميزت بحسب النظم والمعنى وجعلت تفاصيل في أساليب مختلفة ومعان متغايرة من أحكام وقصص ومواعظ وأمثال ووعد ووعيد وقرئ فصلت أي فرقت بين الحق والباطل أو فصل بعضها من بعض باختلاف الاساليب والمعاني من قولك فصل من البلد فصولا (قرآنا عربيا) نصب على المدح أو الحالية من كتاب لتخصصه بالصفة أو من آياته (لقوم يعلمون) أي معانيه لكونه على لسانهم وقيل لاهل العلم والنظر لانهم المنتفعون به واللام متعلقة بمحذوف هو صفة أخرى لقرآنا أي كائنا لقوم الخ أو بتنزيل على أن من الرحمن الرحيم ليست بصفة له أو بفصلت (بشيرا ونذيرا) صفتان أخريان لقرآنا أي بشيرا لاهل الطاعة ونذيرا لاهل المعصية أو حالان من كتاب أو من آياته وقرئا بالرفع على الوصفية لكتاب أو الخبرية لمحذوف (فأعرض أكثرهم) عن تدبره مع كونه على لغتهم (فهم لا يسمعون) سماع تفكر وتأمل حتى يفهموا جلالة قدره فيؤمنوا به (وقالوا) أي لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند دعوته اياهم الى الايمان والعمل بما في القرآن (قلوبنا في أكنة) أي أغطية متكاثفة (مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر) أي صمم وأصله الثقل وقرئ

من المكان وكذلك فى جنات لان الجنة هى الاشجار التى تستر شعاع الشمس ولهذا قال تعالى فى ظلال وعيون واذا كانت الجنة هى الاشجار الساترة فالانسان لا يكون فى الاشجار وانما يكون بينها أو فى خلالها فكذلك النهر (ونزيد ههنا وجها آخر) وهو ان المراد فى جنات وعند نهر لكون المجاورة تحسن اطلاق اللفظ الذى لا يحسن اطلاقه عند عدم المجاورة كما قال * علفتها تبنا وماء باردا * وقالوا تقلدت سيفا ورمحا والماء لا يعلف والرمح لا يتقلد ولكن لمجاورة التبن والسيف حسن الاطلاق فكذلك هنا لم يأت فى الثانى بما أتى به فى الاول من كلمة فى (المسئلة الثانية) وحد النهر مع جمع الجنات وجمع الانهار فى كثير من المواضع كما فى قوله تعالى تجرى من تحتها الانهار الى غيره من المواضع فما الحكمة فيه نقول أما على الجواب الاول فنقول لما بين ان معنى فى نهر فى خلال فلم يكن للسامع حاجة الى سماع الانهار لعلمه بان النهر الواحد لا يكون له خلال وأما فى قوله تعالى تجرى من تحتها الانهار فلو لم يجمع الانهار لجاز ان يفهم ان فى الجنات كلها نهرا واحدا كما فى الدنيا فقد يكون نهر واحد ممتد جار فى جنات كثيرة وأما على الثانى فنقول الانسان يكون فى جنات لانا بينا ان الجمع فى جنات اشارة الى سعتها وكثرة اشجارها وتنوعها والتوحيد عند ما قال مثل الجنة وقال ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة لاتصال أشجارها ولعدم وقوع القيعان الخربة بينها واذا علمت هذا فالانسان فى الدنيا اذا كان فى بيت فى دار وتلك الدار فى محلة وتلك المحلة فى مدينة يقال انه فى بلدة كذا وأما القرب فاذا كان الانسان فى الدنيا بين نهرين بحيث يكون قربه منهما على السواء يقال انه جالس عند نهرين فاذا اقرب من أحدهما يقال هو عند أحد النهرين دون الآخر لكن فى دار الدنيا لا يمكن أن يكون عند ثلاثة أنهار وانما يمكن أن يكون عند نهرين والثالث منه أبعد من النهرين فهو فى الحقيقة ليس يكون فى زمان واحد عند أنهار والله تعالى يذكر أمر الآخرة على مانفهمه فى الدنيا فقال عند نهر لما بينا ان قوله ونهر وان كان يقتضى فى نهر لكن ذلك للمجاورة كما فى تقلدت سيفا ورمحا وأما قوله تجرى من تحتها الانهار فحقيقته مفهومة عندنا لان الجنة الواحدة قد يجرى فيها أنهار كثيرة أكثر من ثلاثة وأربعة فهذا مافيه مع ان أواخر الآيات يحسن فيها التوحيد دون الجمع ويحتمل أن يقال ونهر التنكير للتعظيم وفى الجنة نهر وهو أعظم الانهر وأحسنها وهو الذى من الكوثر ومن عين الرضوان وكان الحصول عنده شرفا وغبطة وكل أحد يكون له مقعد عنده وسائر الانهار تجرى فى الجنة ويراها أهلها ولا يرون القاعد عندها فقال فى جنات ونهر أى ذلك النهر الذى عنده مقاعد المؤمنين وفى قوله تعالى ان الله مبتليكم بنهر لكونه غير معلوم لهم وفى هذا وجه حسن أيضا ولا يحتاج على الوجهين أن نقول نهر فى معنى الجمع لكونه اسم جنس (المسئلة الثالثة) قال ههنا فى نهر وقال فى الذاريات وعيون فما الفرق بينهما نقول انا ان قلنا فى نهر معناه فى خلال فالانسان يمكن أن يكون فى الدنيا فى خلال عيون كثيرة تحيط به اذا كان على موضع مرتفع من الارض والعيون تتفجر منه وتجرى فتصير أنهارا عند الامتداد ولا يمكن أن يكون فى خلال أنهار وانما هى نهران فحسب وأما ان قلنا ان المراد عند نهر فكذلك وان قلنا نهر أى عظيم عليه مقاعد فنقول يكون ذلك النهر ممتدا واصلا الى كل واحد وله عند مقعده عيون كثيرة تابعة فالنهر للتشريف والعيون للتفرج والتنزه مع النهر العظيم يجتمع مع العيون الكثيرة فكان النهر مع وحدته يقوم مقام العيون مع كثرتها وهذا كله مع النظر الى أواخر الآيات ههنا وهناك يحسن ذكر لفظ الواحد ههنا والجمع هناك (المسئلة الرابعة) قرئ فى جنات ونهر على انها جمع نهار اذ لا ليل هناك وعلى هذا فكلمة فى حقيقة فيه فقوله فى جنات ظرف مكان وقوله ونهر أى وفى نهر اشارة الى ظرف زمان وقرئ ونهر بسكون الهاء وضم النون على انه جمع نهر كأسد فى جمع أسد نقله الزمخشرى ويحتمل أن يقال نهر بضم الهاء جمع نهر كثمر فى جمع ثمر ۞ ثم قال تعالى (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى مقعد صدق كيف مخرجه نقول يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون على صورة بدل

بالكسر وقرئ بفتح القاف (ومن بيننا وبينك حجاب) غليظ يمنعنا عن التواصل ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ولم يبق ثمة فراغ أصلا وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن ادراك الحق وقبوله ومج أسماعهم له كان بهما صمما وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول عليه الصلاة والسلام (فاعمل) أى على دينك وقيل فى ابطال أمرنا (اننا عاملون) أى على ديننا وقيل فى ابطال أمرك والاول هو الاظهر فان قوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد) تلقين للجواب عنه أى لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بينى وبينكم حجاب وتباين مصحح لتباين الاعمال والاديان كما ينبئ عنه قولكم فاعمل اننا عاملون بل انما أنا بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به حيث أخبرنا جميعا بالتوحيد بخطاب جامع بينى وبينكم فان الخطاب فى الهكم محكى منتظم للكل لانه خطاب منه عليه الصلاة والسلام للكفرة كما فى مثلكم وقيل المعنى لست ملكا ولا جنيا لا يمكنكم التلقى منه ولا أدعوكم الى ماتنبو عنه العقول والاسماع وانما أدعوكم الى التوحيد والاستقامة فى العمل وقد تدل عليهما دلائل العقل وشواهد النقل وقيل المعنى انى لست بملك وانما أنا بشر مثلكم وقد أوحى الى دونكم فصحت بالوحى الى وأنا بشر نبوتى واذا صحت نبوتى وجب عليكم اتباعى فتأمل والفاء فى قوله تعالى (فاستقيموا اليه) لترتيب ما بعدها على ماقبلها من ايحاء الوحدانية فان ذلك موجب لاستقامتهم اليه تعالى بالتوحيد والاخلاص فى الاعمال (واستغفروه) مما كنتم عليه من سوء العقيدة والعمل وقوله تعالى (وويل للمشركين) ترهيب وتنفير لهم عن الشرك اثر ترغيبهم فى التوحيد ووصفهم بقوله تعالى (الذين لا يؤتون الزكوة) لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكاة حيث جعل من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة حيث قيل (وهم بالآخرة هم كافرون) وهو عطف على لا يؤتون داخل

كما

كما يقول القائل فلان فى بلدة كذا فى دار كذا وعلى هذا يكون مقعد من جملة الجنات موضعا مختارا له مزية على ما فى الجنات من المواضع وعلى هذا قوله عند مليك لا ينافى أحد الوجوه ان المراد من قوله فى جنات ونهر فى جنات عند نهر فقال فى مقعد صدق عند مليك مقتدر و يحتمل أن يقال عند مليك صفة مقعد صدق تقول درهم فى ذمة ملىء خير من دينار فى ذمة معسر وقليل عند أمين أفضل من كثير عند خائن فيكون صفة والا لما حسن جعله مبتدأ (ثانيهما) أن يكون فى مقعد صدق كالصفة لجنات ونهر أى فى جنات ونهر موصوفين بانهما فى مقعد صدق تقول وقفة فى سبيل الله أفضل من كذا وعند مليك صفة بعد صفة (المسئلة الثانية) قوله فى مقعد صدق يدل على لبث لا يدل عليه المجلس وذلك لان قعد وجلس ليسا على ما يظن انهما بمعنى واحد لا فرق بينهما بل بينهما فرق ولكن لا يظهر الا للبارع والفرق هو أن القعود جلوس فيه مكث حقيقة واقتضاء ويدل عليه وجوه (الاول) هو أن الزمن يسمى مقعدا ولا يسمى مجلسا لطول المكث حقيقة ومنه سمى قواعد البيت والقواعد من النساء قواعد ولا يقال لهن جوالس لعدم دلالة الجلوس على المكث الطويل فذكر القواعد فى الموضعين لكونه مستقرا بين الدوام والثبات على حالة واحدة و يقال للمركوب من الابل قعود لدوام اقتعاده اقتضاء وان لم يكن حقيقة فهو لصونه عن الحمل واتخاذه للركوب كأنه وجد فيه نوع قعود دائم اقتضى ذلك ولم يرد للاجلاس (الثانى) النظر الى تقاليب الحروف فانك اذا نظرت الى ق ع د وقلبتها تجد معنى المكث فى الكل فاذا قدمت القاف رأيت قعد وقدع بمعنى ومنه تقادع الفراش بمعنى تهافت واذا قدمت العين رأيت عقد وعدق بمعنى المكث فى غاية الظهور وفى عدق خفاء يقال اعدق بيدك الدلو فى البئر اذا أمره بطلبه بعد وقوعه فيها والعودقة خشبة عليها كلاب يخرج معه الدلو الواقع فى البئر واذا قدمت الدال رأيت دقع ودعق والمكث فى الدقع ظاهر والدقعاء هى التراب الملتصق بالارض والفقر المدقع هو الذى يلصق صاحبه بالتراب وفى دعق أيضا اذ الدعق مكان تطؤه الدواب بحوافرها فيكون صلبا أجزاؤه متداخل بعضها ببعض لا يتحرك شئ منها عن موضعه (الوجه الثالث) الاستعمالات فى القعود اذا اعتبرت ظهر ما ذكرنا قال تعالى لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمراد الذى لا يكون بعده اتباع وقال تعالى مقاعد للقتال مع انه تعالى قال ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص فأشار الى الثبات العظيم وقال تعالى اذا لقيتم فئة فاثبتوا فالمقاعد اذن هى المواضع التى يكون فيها المقاتل بثبات ومكث واطلاق مقعدة على العضو الذى عليه القعود أيضا يدل عليه اذا عرفت هذا الفرق بين الجلوس والقعود حصل لك فوائد منها ههنا فانه يدل على دوام المكث وطول اللبث ومنها فى قوله تعالى عن اليمين وعن الشمال قعيد فان القعيد بمعنى الجليس والنديم ثم اذا عرف هذا وقيل للمفسرين الظاهرين فما الفائدة فى اختيار لفظ القعيد بدل لفظ الجليس مع ان الجليس أشهر يكون جوابهم ان آخر الآيات من قوله حبل الوريد ولدى عتيد وقوله جبار عنيد يناسب القعيد ولا يناسب الجليس واعجاز القرآن ليس فى السجع واذا نظرت الى ما ذكرنا تبين لك فائدة جليلة معنوية حكمية فى وضع اللفظ المناسب لان القعيد دل على انهما لا يفارقانه ويداومان الجلوس معه وهذا هو المعجز وذلك لان الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع ويجعل المعنى تبعا للفظ والله تعالى بين الحكمة على ما ينبغى وجاء باللفظ على أحسن ما ينبغى وفائدة اخرى فى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انشزوا فانشزوا فان قوله فافسحوا اشارة الى الحركة وقوله فانشزوا اشارة الى ترك الجلوس فذكر المجلس اشارة الى أن ذلك موضع جلوس فلا يجب ملازمته وليس بمقعد حتى لا يفارقونه (المسئلة الثالثة) فى مقعد صدق وجهان (أحدهما) مقعد صدق أى صالح يقال رجل صدق للصالح ورجل سوء للفاسد وقد ذكرناه فى سورة انا فتحنا فى قوله تعالى وظننتم ظن السوء (وثانيهما) الصدق المراد منه ضد الكذب وعلى هذا فيه وجهان (الاول)

فى حيز الصلة واختلافهما بالفعلية والاسمية لما أن عدم ايتائها متجدد والكفر أمر مستمر ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه فسر لا يؤتون الزكاة بقوله لا يقولون لا اله الا الله فانها زكاة الانفس والمعنى لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وهو مأخوذ من قوله تعالى ونفس وما سواها وقال الضحاك ومقاتل لا ينفقون فى الطاعة ولا يتصدقون وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى لا يمن به عليهم من المن وأصله الثقل أو لا يقطع من مننت الحبل قطعته وقيل نزلت فى المرضى والهرمى اذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الاجر كأصح ما كانوا يعملون (قل أئنكم لتكفرون) انكار وتشنيع لكفرهم وان واللام اما لتأكيد الانكار وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لا لانكار التأكيد واما للاشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج الى التأكيد وانما علق كفرهم بالموصول حيث قيل (بالذى خلق الارض فى يومين) لتفخيم شأنه تعالى واستعظام كفرهم به أى بالعظيم الشأن الذى قدر وجودها أى حكم بأنها ستوجد فى مقدار يومين أو فى نوبتين على أن ما يوجد فى كل نوبة يوجد بأسرع ما يكون والا فاليوم الحقيقى انما يتحقق بعد وجودها وتسوية السموات وابداع نيراتها وترتيب حركاتها (وتجعلون له أندادا) عطف على تكفرون داخل فى حكم الانكار والتوبيخ وجمع الانداد باعتبار ما هو الواقع لا بأن يكون مدار الانكار هو التعدد أى وتجعلون له أندادا والحال أنه لا يمكن أن يكون له ند واحد (ذلك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته فى العظمة وافراد الكاف لما مر مرارا من أن المراد ليس تعيين المخاطبين وهو مبتدأ خبره ما بعده أى ذلك العظيم الشأن الذى فعل ما ذكر (رب العالمين) أى خالق جميع الموجودات ومربيها دون الارض خاصة فكيف يتصور

مقعد صدق من أخبر عنه وهو الله ورسوله (الثاني) مقعد ناله من صدق فقال بأن الله واحد وأن محمدا رسوله ويحتمل أن يقال المراد انه مقعد لا يوجد فيه كذب لان الله تعالى صادق ويستحيل عليه الكذب ومن وصل اليه امتنع عليه الكذب لان مظنة الكذب الجهل والواصل اليه يعلم الاشياء كما هي ويستغني بفضل الله عن أن يكذب ليستفيد بكذبه شيأ فهو مقعد صدق وكلمة عند قد عرفت معناها والمراد منه قرب المنزلة والشأن لاقرب المعنى والمكان وقوله تعالى مليك مقتدر لان القرب من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتدارا كان المتقرب منه أشد التذاذا وفيه اشارة الى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك فان الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا الى عدوه فيغلبونه والله تعالى قال مقتدر لا يقرب أحدا الا بفضله والحمد لله وصلاته على سيدنا محمد خير خلقه وآله وصحبه وسلامه

﴿تم الجزء السابع ويليه الجزء الثامن أوله سورة الرحمن﴾

﴿فهرست تفسير أبي السعود﴾

صحيفه	
٢	﴿سورة الفرقان﴾
٦٨	﴿سورة الشعراء﴾
١٢٤	﴿سورة النمل﴾
١٩٠	﴿سورة القصص﴾
٢٣٤	﴿سورة العنكبوت﴾
٢٦٤	﴿سورة الروم﴾
٢٨٨	﴿سورة لقمان﴾
٣٠٢	﴿سورة السجده﴾
٣١٥	﴿سورة الاحزاب﴾
٣٥٧	﴿سورة سبأ﴾
٣٨٥	﴿سورة فاطر﴾
٤٠٧	﴿سورة يس﴾
٤٤٣	﴿سورة الصافات﴾
٤٧٥	﴿سورة ص﴾
٥١٣	﴿سورة الزمر﴾
٥٤٥	﴿سورة المؤمن﴾
٥٧٥	﴿سورة فصلت﴾

أن يكون أخص مخلوقاته ندا له وقوله تعالى (وجعل فيها رواسي) عطف على خلق داخل في حكم الصلة والجعل ابداعي وحديث لزوم الفصل بينهما بجملتين خارجتين عن حيز الصلة مدفوع بأن الاولى متحدة بقوله تعالى تكفرون فهو بمنزلة الاعادة له والثانية اعتراضية مقررة لمضمون الكلام بمنزلة التأكيد فالفصل بهما كلا فصل على أن فيه فائدة التنبيه على أن مجرد المعطوف عليه كاف في تحقق ربوبيته للعالمين واستحالة أن يجعل له ند فكيف اذا انضم اليه المعطوفات وقيل هو عطف على مقدر أي خلقها وجعل الخ وقيل هو كلام مستأنف وأياما كان فالمراد تقدير الجعل لا الجعل بالفعل وقوله تعالى (من فوقها) متعلق بجعل أو بمضمر هو صفة لرواسي أي كائنة من فوقها مرتفعة عليها لتكون منافعها معرضة لاهلها ويظهر للناظر مافيها من مراصد الاعتبار ومطارح الافكار (وبارك فيها) أي قدر أن يكثر خيرها بان يخلق أنواع الحيوانات التي من جملتها الانسان وأصناف النبات التي منها معايشهم (وقدر فيها أقواتها) أي حكم بالفعل بان يوجد فيما يأتي لاهلها من الانواع المختلفة أقواتها المناسبة لها على مقدار معين تقتضيه الحكمة وقرئ وقسم فيها أقواتها (في أربعة أيام) متعلق بحصول الامور المذكورة لا بتقديرها أي قدر حصولها في يومين وانما قيل في أربعة أيام أي تتمة أربعة تصريحا بالفذلكة (سواء) مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لايام أي استوت سواء أي استواء كما ينبئ عنه القراءة بالجر وقيل هو حال من الضمير في أقواتها أو في فيها وقرئ بالرفع أي هي سواء (للسائلين) متعلق بمحذوف تقديره هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الارض ومافيها أو بقدر أي قدر فيها أقواتها لاجل السائلين أي الطالبين لها المحتاجين اليها من المقتاتين

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0044077483

893.7K84
DR74
v. 7

JAN 22 1962